رفع
المسهم
غفر الله له ولوالديه

شرح

مقامات الحريري

أبي العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

المكتبة العصرية

رفع
المسهم
غفر الله له ولوالديه

شرح

مقامات الحريري

أبي العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

المجلد الأول

المكتبة العصرية

رفع
المسهم
غفر الله له ولوالديه

رفع
المسهم
غفرالله له ولوالديه
2008-12-07

كلية آداب - بنين

شرح مقامات الحريري

لأبي العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

جامعة الكويت
إدارة الكتاب - قسم التزويد العربي
رقم السجل: ١٣٦٧٣١
التاريخ: ٩٨/٦/٢٥

[redacted]

الجزء الأول

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

رفع
المسهم
غفرالله له ولوالديه

٨١٤ و ٥

جميع الحقوق محفوظة

١٤١٣هـ ١٩٩٢م

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية — المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢٠٤٢٧ LE

صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلكس ٢٩١٩٨ LE

رفع المسهم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

مقامات الحريرى

١ ـ لم يبلغ كتاب من كتب الأدب مابلغته هذه المقامات ـ التى أبدع إنشاءها الأستاذ الرئيس أبو محمد القاسم بن علىّ الحريرىّ ـ من نباهة الذكر، وبعد الصيت، واستطارة الشهرة. فإنه لم تكد تصدر منها النسخة الأولى فى بغداد حتى أقبل الوراقون على كتابتها، والعلماء على قراءتها عليه من شتى الجهات؛ ذكروا أن الحريرى وقع بخطه فى شهور سنة أربع عشرة وخمسمائة على سبعمائة نسخة[1]؛ كما أن العلماء فى جميع الأقطار العربية أخذوا يتدارسونها فى المدارس والمعاهد، ويقرءونها فى الأندية والمحافل، بل إن شهرتها امتدت فى حياته إلى الأندلس، فوفد فريق من علمائها على الحريرىّ ببغداد ـ منهم الحسن بن علىّ البطَليوسى، والحجاج بن يوسف القضاعى، وأبو القاسم عيسى ابن جهور ـ وقرءوا عليه بمنزله هذه المقامات، ثم عادوا إلى بلادهم حيث تلقاها عنهم العلماء والأدباء، وتناولوها رواية وحفظاً، ومدارسة وشرحاً..

ولمؤرخى الآداب العربية أقوال مختلفة فى سبب إنشائها..

نقل ياقوت عن عبد الله بن محمد بن محمد بن أحمد النقور البزاز ببغداد، قال: سمعت الرئيس أبا محمد القاسم بن علىّ الحريرى صاحب المقامات. يقول: أبو زيد

---

(١) معجم الأدباء ١٦ : ٢٦٧.

رفع المسهم

السَّرُوجيّ ، كان شيخاً شحاذا بليغاً ، ومكدياً فصيحا ، ورد علينا البصرة ، فوقف يوماً فى مسجد بنى حرام ، فسلّم ثم سأل الناس — وكان بعض الولاة حاضرا ، والمسجد غاص بالفضلاء — فأعجبتهم فصاحته ، وحسن صياغة كلامه وملاحته ، ثم ذكر أسر الروم ولده . . واجتمع عندى عشية ذلك اليوم جماعة من فضلاء البصرة وعلمائها ، فحكيت لهم ماشاهدت من ذلك السائل ، وما سمعت من لطافة عبارته وتحقيق مراده ، وظرافة إشارته فى تسهيل إيراده ؛ فحكى كل واحد من جلسائه أنه شاهد من هذا السائل ومجلسه مثل ماشاهدت ، وأنه سمع منه فى معنى آخر فصلا أحسن مما سمعت ، وكان يغيّر فى كل مسجد زِيَّه وشكله ، ويُظهر فى فنون الحيل فضله ، فتعجبوا من جريانه فى ميدانه ، وتصرفه فى تلوّن إحسانه . فأنشأت المقامة الحرامية ، ثم بنيت عليها سائر المقامات ، وكان أول شىء صنعته . وذكر ابن الجوزى هذه الحكاية فى تاريخه ، وزاد فيها أن الحريرى عرض هذه المقامة الحرامية على أنوشروان بن خالد وزير السلطان ، فاستحسنها ، وأمره أن يضيف إليها ما شاكلها ، فأتمها خمسين مقامة (١).

وفى رواية لابن خلكان ، قال : لما عمل الحريرىّ المقامات أنشأها على أربعين مقامة ، وحملها من البصرة إلى بغداد ، وادعاها ، فلم يصدق ذلك جماعة من أدباء بغداد ، وقالوا: إنها ليست من تصنيفه ، بل هى لرجل مغربىّ من أهل البلاغة مات بالبصرة ، ووقعت أوراقه إليه ، فادّعاها. فاستدعاه الوزير إلى الديوان وسأله عن صناعته ، فقال : أنا رجل منشىء ، فاقترح عليه إنشاء رسالة فى واقعة بعينها ، فانفرد فى ناحية من الديوان ، وأخذ الدواة والورقة ، ومكث زمانا كثيرا ، فلم يفتح الله عليه بشىء من ذلك ، فقام وهو خجلان ، وكان فى جملة

---

(١) معجم الأدباء ١٦ : ٢٦٣ .

رفع المسهم

من أنكر دعواه فى عملها أبو القاسم علىّ بن أفلح الشاعر ، فلما لم يعمل الحريرىّ الرسالة التى اقترحها الوزير أنشأ ابن مفلح :

شيخٌ لنا من ربيعة الفرسِ يَنْتِفُ عُثْنُونَهُ من الهوَس
أنطقه الله بالمشانِ كما رَمَاهُ وَسْطَ الديوان بالخرس

وكان الحريرىّ يزعم أنه من ربيعة الفرس ، وكان مولعاً بنتف لحيته عند الفكرة ، وكان يسكن مشارف البصرة ، فلما رجع إلى بلده عمل عشر مقامات أخَر ، وسيرهنّ إليه ، واعتذر من عِيِّه وحصَره فى الديوان لما لحقَه من المهابة (١) .

وقال ابن خلكان أيضاً : رأيت فى شهور سنة ستّ وخمسين وخمسمائة بالقاهرة المحروسة نسخة مقامات ، وجميعها بخط مصنفها الحريرىّ ، وقد كتب أيضا بخطّه على ظهرها أنه صنفها للوزير جمال الدين عميد الدولة أبى علىّ الحسن ابن أبى العز علىّ بن صدقة وزير المسترشد ... قال : ولاشك أن هذه الرواية أصح لكونها بخط المصنّف (٢) .

٢ـ وقد نسب الحريرىّ رواية هذه المقامات إلى الحارث بن همام ، وعَنَى بهذا الاسم نفسه ، ونظر فى ذلك إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « كلكم حارث وكلُّكم همام » ، فالحارث الكاسب ، والهمام كثير الاهتمام بأموره ، وما من شخص إلا وهو حارث وهمام .

وجعل بطل هذه المقامات أبا زيد السروجىّ ؛ وتختلف الروايات أيضا فى حقيقة أمره ، فمن قائل : إنه اسم خيالىّ وضعه الحريرىّ واستوحاه من صورة الشحاذ الذى لقيه فى مسجد بنى حرام بالبصرة . ومن قائل بأنه كنية اسم حقيقى

---

(١) ابن خلكان ١ : ٤٢٠ . (٢) ابن خلكان ١ : ٤٢٠ .

رفع المسهم

لرجل اسمه المطهر بن سلام ، ذكره القفطى فى إنباه الرواة ضمن تراجم النحاة ، وقال فى حقه : صاحب أبى محمد القاسم بن علىّ الحريرى البصرىّ ، أنشأ المقامات على لسانه ، وكان فيه فضل وأدب ، وله معرفة بالنحو واللغة والعربية ، قرأ على أبى محمد الحريرىّ بالبصرة ، وتخرّج به ، وروى عنه [1] .

وأيًّا كان الخلاف حول سبب إنشاء هذه المقامات وبطلها أبى زيد ، فإنّ هذه المقامات عملٌ فنىّ رائع منقطع القَرين ، حوى من متخيَّر الألفاظ ومنتخل الأساليب وناصع البيان ، مع إحكام السبك وإشراق الديباجة والبعد عن الركاكة والابتذال ـ ماجعلها قمة فى الآداب العربية ترتفع عن مقام المتحدّى والمعارض على السواء . وقد صاغها مجالس متنوعة تختلف موضوعاتها باختلاف البلاد التى تخيل أنّه زارها ، ورحل إليها ، ما بين فرغانة وغانة ، وأفرغها فى قوالب طريفة فى الأدب والنقد والوعظ والفكاهة ، يتخلّلها وصف للمجتمع وأحوال الناس ، وجعلها فى أسلوب السجع الكامل ، بعد أن وشّاها بألوان البديع من الجناس والطباق والمقابلة ، أو كما يقول المؤلف فى صدر كتابه : أنشأت ـ على ما أعانيه من قريحة جامدة ، وفطنة خامدة ـ خمسين مقامة تحتوى على جِدّ القول وهزله ، ورقيق اللفظ وجزله ، وغرر البيان ودرره ، وملح الأدب ونوادره ، إلى ما وشّحتها به من الآيات ، ومحاسن الكنايات ، ورصعته فيها من الأمثال العربية ، واللطائف الأدبية ، والأحاجى النحوية ، والفتاوى اللغوية ، والرسائل المبتكرة ، والخطب المحبَّرة ، والمواعظ المبكية ، والأضاحيك الملهية .

وكان أول لقاء وقع بين الحارث بن همام وأبى زيد السروجىّ فى صنعاء ؛ وكانا فى رُواء الشباب وربيع العمر ، حيث لقى الحارث أبا زيد خطيبا واعظا ، ثم عرفه بعد ذلك مخادعا مخاتلا ، وعليه بنى الحريرىّ المقامة الأولى وأسماها المقامة الصنعانية . ثم

---

(١) إنباه الرواة ٣ : ٢٧٦

رفع المسهم

أخذ الحارث يقطع الأسفار ، ويجوب الفيافى والقفار ؛ ليلقى أبا زيد ؛ مرةً فى ساحة القضاء ، وأخرى فى مجالس الولاة ، وآونة فى أندية الأدباء ؛ واعظا أو شاعرا ، أو شحاذا أو مخاصما؛ ثم يمضى بهما العمر وتتابَعُ الأيام؛ إلى أن يلتقيا فى أخريات عمرهما بالمسجد الجامع بالبصرة بعد أن خلُقت جِدّتهما، وذوى عودهما، ورثَّ بُرْد شبابهما؛ وإذا أبو زيد يقف فى حشد الناس ؛ يعلن توبته ، ويندم على ماقدم من ذنوب وآثام، وينشد:

أستغفر الله من ذنوب أفرطت فيهنّ واعتديتُ
كم خضت بحر الضلال جهلا ورحت فى الغىّ واعتديتُ
وكم تناهيت فى التخطّى إلى الخطايا وما انتهيْت
فليْتَنِى كنت قبل هذا نسيا ولم أجْنِ ما جنيتُ
يارب عفواً ، فأنت أهل للعفو عنى ، وإنْ عصيت

ثم يختفى أبو زيد ويعود إلى بلده سَرُوج ، يلبس الصوف، ويؤُمّ الصفوف ، ويجنح الحارث بعدها إلى الراحة ويكفّ عن الأسفار ؛ ويكون هذا آخر لقاء بينهما ، وبه تنتهى المقامة الخمسون ، آخر المقامات .

٣ـ ولم يكن الحريرى مبتدع فنّ المقامات ولا أبا عُذْرها ، بل سبقه إلى هذا الفن بديع الزمان الهمذَانى ، وإلى ذلك يشير بقوله فى صدر المقامات يتحدّثُ عمّن سبقه : هذا مع اعترافى بأن البديع رحمه الله سبّاقُ غايات ، وصاحب آيات ، وأن المُتَصَدِّىَ بعده لإنشاء مقامة ، ولو أوتىَ بلاغة قدامة ، لايعترف إلا من فُضالته ، ولا يسرى هذا المسرى إلا بدلالته ؛ ولله درّ القائل :

فلا قبل مبكاها بكيت صبابة
بسعدى شفيت النفْس قبل التندّمِ

رفع المسهم

ولـكن بَكَتْ قَبْلِي فهيّج لى البكا بكاها فقلت الفضل للمتقدِّم

ومع ذلك فإن من جاء بعدهما من كتّاب المقامات ؛ إنما قصد محاكاة الحريرىّ والنسج على منواله ،والسّير فى دربه ؛ فمنهم من حاول ولم يوفّق، ومنهم من عمل ولـكنه أخفقَ . . .

فمِمّن حاول ذلك علىّ بن الحسن بن عنتر المعروف بالشميم الحِلّىّ، قال ياقوت: وردتُ آمِد فى سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة وأنا فى عنفوان الشّباب وريْعه ؛ فبلغنى أن بها علىّ بن الحسن بن عنتر المعروف بالشميم الحلىّ — وكان من العلم بمكان مَكين ، واعتلق من حباله بركن ركين ؛ إلا أنه كان لا يقيم لأحد من أهل العلم المتقدمين ولا المتأخرين وزنا ، ولا يعتقد لأحد فضيلة ، ولا يقرّ لأحد بإحسان فى شىء من العلوم ولا حُسْن ،فحضرْتُ عنده ، وسمعت من لفظه إزراءه على أولى الفضل ،وتنديده بالعيب عليهم بالقول والفعل ؛ فلما أبرمنى وأضجر ، وامتدّ فى غيِّه وأصحر ،قلت له : أما كان فيمن تقدّم على كثرتهم وشغَف الناس بهم عندك مجيد قط ! فقال : لا أعلم إلا أن يكون ثلاثة رجال : المتنبى فى مديحه خاصة ، ولو سلـكت طريقه لما برّز علىّ ، ولسقت فضيلته نحوى ونسبتها إلىّ ، والثانى ابن نباته فى خطبه ،وإن كانت خَطَبى أحسن منها وأشهر ، وأظهر عند الناس قاطبة وأشهر . والثالث ابن الحريرىّ فى مقاماته . قلت : فما منعك أن تسلك طريقته ، وتنشد مقاماتٍ تخمد بها جمرته وتملِكُ دولته ؟ فقال : يابنىّ ، الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل ؛ ولقد أنشأتها ثلاث مرات ، ثم أتأملها فأسترذِ لها ، وأعمد إلى البركة فأغسلها ؛ ثم قال: وما أظنُّ الله خلقنى إلا لإظهار فضل الحريرىّ [1] !

ومنهم أبو الطاهر محمد التميمىّ السرقسطىّ الأشتراكوبىّ [2] المتوفى بقرطبة سنة

(١) معجم الأدباء ١٦ : ٢٦٧ ـ ٢٦٩

(٢) منسوب إلى أشتركوى ، من أعمال تطيلة ، من بلاد الأندلس .

رفع المسهم

٥٣٨ ، أنشأ كتاب «الخمسين مقامة اللزومية»[1] عارض بها مقامات الحريرى، ولزم فى نثرها مالا يلزم ، متأثرا بالمعرى فى لزومياته، فأبعد النجعة، وأتعب خاطره، وكدّ ذهنه ، وأسهر جفنه ، وصعّب على نفسه المسالك ، وقيّد كلامه نظما ونثرا. واتخذ راويه المنذر بن همام، وجعل بطله السائب بن تمام ؛ ولكنّ هذه المقامات ذهبت بها عوادى الأيام ، فلم تصل إلينا .

ثم قام جار الله محمود بن عمر الزمخشرىّ المتوفى سنة ٥٣٨ أيضا ، فأنشأ مائة مقامة كالمقالة ، تدور كلها حول الوعظ ؛ ولكن ليس فيها راوٍ ،ولا بطل ؛ بل خاطب فى جميعها نفسه ، وذكّرها بالآخرة ، ورغبها فى الأعمال التى تؤدى بها إلى نعيم الله ورضوانه .. وكأنّ الزمخشرى أحسّ فى هذه المقامات بقصوره عن غاية الحريرى ، وبُعده عن مداه ، فقال :

أقسم بالله وآياته ومشعر الحج وميقاتِهِ
أن الحريرىّ حرىّ بأن نَكتُب بالتبر مقاماتهِ

ثم توالى المقلّدون جيلا بعد جيل ، كابن الجوزى وأبى العلاء أحمد بن أبى بكر الرازىّ وابن ناقيا وابن الصيقل الجزرىّ وابن حبيب الحلبىّ وابن الوردىّ والسيوطىّ وغيرهم ؛ إلى أن انتهى إلى خاتمة المقلدين الشيخ ناصيف اليازجى ، أحد أعيان البيان بلبنان فى القرن التاسع عشر الميلادى؛ فدرس مقامات الحريرى وحفظها ، ثم أخذ يروض قلمه على مقامات تنحو نحوها ؛ وتسلك نهجها ، وما زال يلتمس الوسائل ، ويتطلّب الذرائع ، ويرتاد نواحى الظفر ، ويتوخّى وجوه النُجح،حتى عمل أكثر من ستين مقامة سماها «مجمع البحرين» ، أى النثر والنظم ؛ وجعل راويها سهيل بن عباد ،وبطلها ميمون بن حزام ؛

(١) فهرست ابن خير ٣٨٧

رفع المسهم

وتنفّل بسهيل بن عباد فى البلدان — كما تنقل الحريرىّ بالحارث بن همام — ليلقى ميمون بن حزام ، سالكا مسالك أبى زيد فى المكايد وطرق التنكّر والتعلّق بفصيح الكلام ...

وعلى الرغم من دقة المحاكاة فى بعض هذه المحاولات ، فإن الحريرىّ يبقى منفردا بفنّه ، واحداً فى أسلوبه ؛ لايدانيه أحد منهم فى نثره أو نظمه ، بَذَّ من قبله، وأتعب مَن بعده، وستظلّ مقاماته من أجود ماجادت به القرائح ، وأجمل مانضحت به الأقلام ؛ على مرّ العصور والأيام . .

٤ ـ وإن كان لهذه المقامات منزلة عند القدماء ، عبر عنها ياقوت بقوله : « وافقه من السعد مالم يوافق مثله كتاب ، جمع بين الجودة والبلاغة واتّسعت له الألفاظ ، حتى أخذ بأرقها وملك ربقتها ، وأحسن نسقها ؛ حتى لو ادّعى الإعجاز لما وجد من يدفع صدره ، ولا يردّ قوله ، ولا يأتى بما يقاربها ، فضلا عن أن يأتىَ بمثلها ، ثم رزقت مع ذلك من الشهرة وبعد الصيت والاتفاق على استحسانها من الموافق والمخالف ما استحقت به وأكثر . . . » ، ـ فإنها لم تخل من نَقْدِ بعضهم وتجريحهم له ؛ منهم ابن الأثير فى المثل السائر وابن الطقطقى فى الآداب السلطانية .

ومن أشهر من نال منه أبو محمد عبدالله بن أحمد بن أحمد المعروف بابن الخشاب ، وضع رسالة جمع فيها المآخذ التى وقع عليها فى المقامات؛ قال فى مقدمتها : « وله أشياء فى أثناء مقاماته لورجع فيها لأقرّ مع الإنصاف بالخطأ ساكتاً فسلّم ، أو لنازع مباهتاً . وأنا أسوقها على التوالى موضعا فموضعاً، مع تمهيد عذره ؛ لقلّتها فى جنب صوابه ، وما مر به من المحاسن فى أثناء كتابه ، علماً بأن الكامل من عُدَّت سقطاته ، والفاضل من أحصيت هفواته » .

وقد قام الإمام عبد الله بن برى فألف رسالة انتصر فيها للحريرىّ من

رفع المسهم

مآخذ ابن الخشاب ثم جاء عبد اللطيف بن يوسف البغدادى ، فنصب نفسه حكماً بينهما ، ووضع رسالة أسماها الإنصاف بين ابن برى وابن الخشاب فى كلامهما على المقامات .

٥ـ وبجانب الحركة الفكرية والأدبية التى أحدثتها المقامات فى المشرق ؛ فى العراق والشام ومصر ، فإن مثل هذه الحركة قامت فى الغرب أيضا ؛ فى أسبانيا وإنجلترا وفرنسا وألمانيا ؛ وكان أول ماعمل من ذلك ماقام به المستشرق الهولندى جوليوس سنة ١٦٥٦م ، من ترجمة المقامة الأولى إلى اللغة اللاتينية ، ونشرها فى الطبعة الثانية لكتاب تعليم اللغة العربية أربينيوس فى ليدن . ثم نقل المستشرق الهولندى شولتنس ست مقامات بين سنتى ١٧٣١ ، ١٧٤٠م ونقل بعده ڤانتوردى پارادى منتخبات من سبع عشرة مقامة بين سنتى ١٧٨٦م و١٧٩٥ إلى اللاتينية أيضا .

وفى فرنسا قام المستشرق كوسان دى پرسڤال بنشر المتن العربى الكامل ، وطبع سنة ١٨١٢ م كما قام الأستاذ دى ساسى بجمع مخطوطات المقامات وشروحها ، وعمل منها شرحاً عربيًا ، وطبع المتن والشرح فى باريس سنة ١٨٢٢م ، ثم طبع مرة أخرى فى باريس أيضا بين سنتى ١٨٤٧ ، ١٨٥٣م ، واشتهرت هذه الطبعة فى الشرق والغرب ، وتصدى لها بالنقد الشيخ ناصيف اليازجى .

أما فى ألمانيا ، فقد قام العلامة رُكَرت ، وترجم هذه المقامات سجعا باللغة الألمانية ، وقد اقتضى منه ذلك جهدا فى استعمال كلمات نادرة الاستعمال فى هذه اللغة حتى قال بعض النقاد الألمان : إن رَكَرْت أجبر لغته على الألعاب الرياضية الشاقة ؛ وقد تمتعت هذه الترجمة بشهرة عظيمة فى عالم الاستشراق .

وفى اللغة الإنجليزية قام تشنرى بترجمتها إلى اللغة الإنجليزية فى سنة ١٨٦٧م وتبعه استجاس فترجمها أيضا فى سنة ١٨٩٨م .

رفع المسهم

وفى أسبانيا ترجم الشاعر اليهودى يوراى الحريزى هذه المقامات إلى العبرية، وطبعت هذه الترجمة فى لندن سنة ١٨٧٢ م.

وفى كثرة هذه التراجم والطبعات دلالة على ماناله الحريرى فى الحلقات الاستشراقية من التقدير فى نواحى الغرب[١].

٦ ـ وقد كانت المقامات من أوائل ماطبع من الكتب العربية ؛ وأول طبعة لها كانت هى الطبعة التى ذكرت أنها كانت فى باريس سنة ١٨١٩م بعناية كوسان دى برسفال، ثم توالت طبعاتها بعد ذلك فى باريس ولندن وليدن وكلكته ولكناو ودهلى بالهند وبولاق والقاهرة وتبريز وبيروت[٢].

أما النسخ الخطية من هذه المقامات فلا تكاد تخلو مكتبة من المكتبات العربية فى الشرق والغرب من عدد وافر منها متناً أوشرحا ، وفى دار الكتب المصرية من المقامات أكثر من ثمان وعشرين نسخة ؛ غالبها نفيس، ومنها نسخة برقم ١٠٥ ـ أدب منقولة من خط المؤلف بعد سماعها عليه، وفى أولها إجازة بخطه ، ونسخة برقم ٤٤٧٩ ـ أدب طلعت ، وعليها خط المؤلف أيضا ، ونسخة برقم ٢٥٩ ـ أدب ، عليها سماعات مؤرخة سنة ٦٦٣ ، ونسخة بخط مرتضى الزبيدى كتبت سنة ١١٦٥ ، ونسخة برقم ١٥٢٩ ـ أدب بخط ابن نجدة كتبت سنة ٧٢٩، هذا عدا النسخ الخطية المشروحة[٣].

---

(١) أفدت هذه المعارف الاستشراقية ؛ مما كتب به إلىّ العلامة الدكتور أرنست بانرت أستاذ اللغات الشرقية فى جامعة فينا .

(٢) انظر معجم المطبوعات العربية لسركيس ٧٤٨ ، ٧٤٩

(٣) انظر فهارس دار الكتب .

رفع المسهم

صاحب المقامات

١ ـ ومؤلف المقامات هو الرئيس أبو محمد القاسم بن على بن محمد بن عثمان الحريرىّ منسوبا إلى صناعة الحرير أو بيعه ، ولد سنة ٤٤٦ هـ بالمشان ، وهى قرية قرب البصرة ، ثم رحل إلى البصرة وسكن فى محلة بنى حرام ـ وهم قبيلة من العرب سكنوا بالبصرة ـ وتأدب بها ، وقرأ العربية على أبى الحسن بن فضّال المجاشعىّ شيخ إمام الحرمين ،والفقه على أبى إسحاق الشيرازى . وعُيِّن صاحب الخبر بالبصرة ؛ وهو منصب ظل به إلى أن مات ، فتوارثه أولاده من بعده ، وظلّ فيهم إلى عهد العماد الأصبهانىّ الذى زار البصرة سنة ٥٥٦هـ .

وكان الحريرىّ ـ إلى جانب علمه وأدبه وتمرسه بفنون العربية جميعها ـ من ذوى الجاه واليسار ، كان له بالمشان أكثر من ثمانية عشر ألف نخلة ، يغلها ويتردد عليها ، وكان له منزل بالبصرة يقصده الأدباء والعلماء يقرءون عليه أو يفيدون من علمه ، وخاصّة بعد أن ألف المقامات وذاعَ أمرها بين الناس. وكان مرهف الشعور صادق الحسّ والتخمين ، حكى أنه زاره شخص غريب ليأخذ عنه شيئا ؛ فلما رآه استزرى شكله . ففهم الحريرىّ ذلك منه ، فلما التمس منه أن يُمْلِىَ عليه قال له : اكتب :

ما أنت أول سارٍ غَرَّهُ قَمَرٌ ... ورائد أعجبته خُضرة الدِّمَنِ
فاختر لنفسك غيرى إننى رجل ... مثل المعيدىّ فاسمعْ بى ولا ترنى

فخجل الرجل وانصرف عنه .

٢ ـ وللحريرىّ ديوان رسائل أورد ياقوت شيئا منها ، وله الرسالة السينية التزم فى جميع كلماتها حرف السين ، والرسالة الشينية التزم فى جميع كلماتها حرف الشين ، أوردهما ياقوت أيضا .

وله شعر فى غير المقامات ، ذكر منه ابن خلكان قوله :

قال العواذل ماهذا الغرامُ بِهِ ... أما ترى الشَّعر فى خَدَّيْهِ قد نبَتا

رفع المسهم

فقلت والله لو أن المفنّد لى تأمل الرشد فى عينيه ماثبتا
ومن أقام بأرض وهى مجدِبة فكيف يرحل عنها والربيع أتَى !

وأورد له صاحب الخريدة :

كم ظبـــاء بحاجرٍ فتنت بالمحـــاجر
ونفوسٍ نفائسٍ خُـدرت بالمخـــادرِ
وتَثَنٍّ لخـــاطرٍ هاج وجـــدًا لخاطر
وعِـــــذار لأجله عاذلى عـــاد عاذرى
وشجون تضـافرت عنـد كشف الضفائر

وأورد له ياقوت :

لاتخطونّ إلى خِطّء ولاخطإٍ من بعد ماالشيب فى فوديك قد وَخَطا
وأىّ عذر لمن شابت ذوائبـه إذا سرى فى ميادين الصبا وخطا

وله غير الشعر والرسائل والمقامات مايأتى :

١ — درة الغواص فى أوهام الخواصّ ، بيّن فيه أغلاط الكتاب فيما يستعملونه من الألفاظ بغير معناه فى غير موضعه . طبع فى مصر سنة ١٢٧٢ هـ ، وفى ليبسك سنة ١٨٧١ م ، وطبع مع شرح الخفاجى فى الآستانة سنة ١٢٩٩هـ .

٢ — ملحة الأعراب فى صناعة الإعراب ، وهى أرجوزة ، وأولها :

أقول من بعد افتتاح القول بحمدِ ذى الطول شديد الحول

طبعت فى باريس وبيروت ومصر ، وقد شرحها بحرق الحضرمىّ ، وأسمى الشرح « تحفة الأحباب وطرفة الأصحاب » ، وطبع بمصر مرارا أيضا .

٣ — قصيدة من وزن الخفيف ، منها نسخة مخطوطه فى مكتبة برلين برقم ٧٧٩ ، وأوردها السيوطىّ فى المزهر ١ : ٢٨٦ — ٢٨٨ ، وأولها :

أيُّها السائلى عن الظاء والضّا دِ لكيلا تُضِلّه الألفاظُ

١ ـ وتعتبر مقامات الحريرىّ أكثر الكتب حظًّا فيما وقع لها من شروح ، وما أديرَ حولها من تعاليق ، أحصى صاحب كشف الظنون أكثر من خمسة وثلاثين شارحا ، منهم محمد بن علىّ بن عبد الله الحلىّ ، ومحمد بن علىّ المعروف بابن حميدة ، ومحمد بن محمد المكى الصقلى المعروف بابن ظفر ، وأبو المظفر محمد بن أسعد المعروف بابن حكيم ، وعلىّ بن الحسن المعروف بشميم الحلى ، وسليمان بن عبد الباقى بن سلامه الضرير ، والشهاب الحجازى ، وعبد الله بن الحسين العكبرى ، وقاسم بن قاسم الواسطى ، عبد اللطيف بن يوسف البغدادى ، وأبو الفتح ناصر بن السيد المطرزى ، ومحمد بن عبد الرحمن محمد بن مسعود الفندجيهىّ ، وأحمد بن عبد المؤمن القيسىّ المعروف بالشريشىّ ، وسليمان ابن عبد القوى الحنبلى العروف بنجم الدين الطوفى ، وأحمد بن المظفر الرازى وغيرهم .

وممن قام بشرحها من المتأخرين المستشرق دى ساسى ـ كما ذكرنا ـ عمل شرحا من الشروح التى وقعت له ، وأضاف إليه فوائد من كتب الأدب والنحو والتاريخ . وطبع هـذا الشرح فى باريس مع فهارس للألفاظ والأمثال والأعلام .

ولعل كثرة هذا العدد من الشارحين يرجع إلى مازخرت به المقامات من الكلمات العربية ، والأمثال والأحاجى والألغاز ، والنكات النحوية والبلاغية مما يجعل ميدان الشرح ذا سعة وأودية الاستطراد كثيرة .

٢ ـ وتختلف هذه الشروح إيجازا وإطنابا ، وأسلوبا ومنهجا ، ومن أوسعها مجالا ، وأجمعها لشتيت الفرائد ومنثور الفوائد ، ومتشعب الأغراض ، هذا الشرح الذى

رفع المسهم

وضعه العلامة أحمد بن عبد المؤمن القيسى المعروف بالشريشى . وقد وقعت له نسخة المقامات مما رواه عن أبى القاسم عيسى بن جهور وأبى الحجاج يوسف القضاعى وأبى الطاهر الخشوعى ، وهم ممن ذكرنا أنهم رحلوا إلى المشرق من علماء الأندلس ولقوا أبا محمد الحريرى فى بغداد ، وقرءوا عليه المقامات فى منزله ، وعادوا إلى بلادهم يحملون المقامات ؛ ضِمن الكنوز النادرة التى حملوها من المشرق إلى المغرب عن طريق الرحلة والرواية ...

وقد وقف الشريشى جهده حقبة على هذه المقامات ، يتدارسها مع العلماء ، ويستوعب الكتب والأسفار والدواوين والشروح والتعاليق ، ليتخذ العدة لشرحها ؛ ولهذه الغاية يقول : لم أدعْ كتاباً أُلِّفَ فى شرح ألفاظها ، وإيضاح أغراضها إلا وعيته نظرا ، وتحققته معتبرا ومختبرا ، وترددت فى تفهُّمه وِرداً وصدَرًا ، وعكفت على استيفائه بسيطا كان أو مختصرا ... ولم أترك فى كتاب منها فائدة إلا استخرجتها ، ولا فريدة إلا استدرجتها ، ولا نكتة إلا علّقتها ، ولا غريبة إلا استلحقتها ... فاجتمع من ذلك حفظا وخطًّا أعلاقٌ جمة ، وفوائد لم تهتم بها قبله همة ؛ ثم لم أقنع بتدوين الدواوين ، ولا اقتصرت على توقيف التصانيف ؛ حتى لقيت بها صدور الأمصار ، وعلماء الأعصار » .

وجعل من أهم مقاصده فى هذا الشرح أيضا التعريف بالأمصار المذكورة فى المقامات ـ ماوسعه الجهد ـ ثم شرح الأمثال. وترجم للمشهورين من الآباء والأبناء والشعراء والأدباء والأعيان ، مع العناية بصنوف البديع وبسط أنواع الأدب وفنونه والإكثار من الشعر فى كل مناسباته . . . وخاصة الشعر الأندلسى فإنه حشد فيه مجموعة من مختار هذا الشعر ، وانفرد بنصوص نادرة منه لاتجدها فى غير هذا الكتاب .

رفع المسهم

وبهذه المزايا مجتمعة كان هذا الشرح مرجع الباحث وغُنية المتأدب ،وغاية المطالع والمستفيد .

٣ ـ والشارح هو أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى القيسى الشريشى ، ولد بشريش سنة ٥٧٧ ـ وكانت شريش من أجمل بلاد الأندلس ، وأحفلها بأشجار الكروم والتين والعنب والزيتون ـ عاش فيها صدر شبابه ، وتلقى بها على أبى الحسن بن لبّال وأبى بكر بن الأزهر وأبى عبد الله ابن زرقون وأبى الحسين بن جبير . ورحل إلى المشرق ثم عاد إلى شريش ، وتوفّىَ بها سنة ٦١٩ هـ .

وقدألف من الكتب غير هذا الشرح مختصرا لنوادر أبى على القالى وشرحا لكتاب الإيضاح لأبى على الفارسى وآخر لشرح الجمل للزجاجى ،وجمع مشاهير قصائد العرب ؛ كما وضع رسالة فى العروض . وكان أيضا شاعرا مطبوعاً شائق اللفظ رشيق المعنى .

ومن نموذج شعره تلك الأبيات التى أوردها المقرى فى ترجمته[1] ، وكان قد سافر إلى الشام وشُغِف بها ثم رحل عنها ، فقال يتشوّق إليها :

ياجيرة الشام هل من نحوكم خبرُ	فإن قلبى بنار الشوق يستعر
بعدت عنكم فلا والله بعدكمُ	مالذّ للعين لا نومٌ ولاسهرُ
إذا تذكرت أوقاتا نأت ومضت	بقربكمْ كادت الأحشاء تنفطر
كأننى لم أكن بالنَّير بَيْن[2] ضحى	والغيم يبكى ومنه يضحك الزهر
والورق تنشد ،والأغصان راقصة	والدّوح يطرب بالتصفيق والنهر
والسفحُ ، أين عشياتى التى سلفت	لى منه، فهى لعمرى عندى العُمُر!
سقاك ياسفح ، سفْح الدمع منهملا	وقلّ ذاك له إن أعوز المطر

ومما هو جدير بالذكر أن هذا الشرح واحد من ثلاثة شروح وضعها

(١) نفح الطيب ٢ : ٣١٧ (٢) النيربين ، من قرى دمشق .

رفع المسهم

المؤلف : أولها مختصر ، وثانيها متوسط ، وثالثهاهذا المطول ؛ وهو الذى اشتهر فى الخافقَيْن ذكره ، وأقبل عليه العلماء والمتأدبون دون غيره . . . ومن قصد البحر استقلّ السواقيا .

* * *

٤ ـ وحينما قمت بتحقيق هذا الكتاب تحيّرت النسخ الآتية للرجوع إليها :

(١) نسخة كاملة مخطوطة بدار الكتب برقم ١٧٥ ـ أدب ، مكتوبة بقلم معتاد ؛ إلا أنها تخلو من الضبط ، ، وتقع فى ٤٣٢ ورقة ، وفى كل صفحة ٣٥ سطرا ، وكل سطر يشتمل على ٢٢ كلمة تقريبا كتبت سنة ١١٣٠هـ ، وفى أولها وقفية على خزانة جامع شيخون سنة ١١٩٣ هـ وبعض التمليكات ، وقد رمزت لها بالحرف (ا) .

(٢) نسخة خطية محفوظة بدار الكتب برقم ١٧٨ ـ أدب ، تقع فى ١٢٧ ورقة ، وفى كل صفحة ١٩ سطرا ، كل سطر يشتمل على ١٢ كلمة تقريبا ؛ وهى نسخة جيدة صحيحة فيها بعض الضبط إلا أنها ناقصة تشتمل على شرح ١٧ مقامة فقط ، وبهامشها المقامات ، وقد رمزت لها بالحرف (ب) .

(٣) نسخة خطية محفوظة بدار الكتب برقم ١٨٠ ـ أدب ، وهى نسخة خزائنية كتبت بخط نسخ واضح ، ولكنه خال من الضبط ، وتقع فى ٤٥٢ ورقة ، وفى كل صفحة ١٠ كلمات تقريبا ، وتحتوى على شرح خمس وعشرين مقامة . وقد رمزت لها بالحرف (ج) .

(٤) نسخة طبعت فى بولاق سنة ١٣٠٠ هـ بتصحيح محمد الحسينى ، وقد رمزت لها بالحرف (ط) .

وجميع هذه النسخ كتب على هامشها المقامات .

رفع المسهم

هذا عدا مارجعت إليه من كتب الأدب واللغة والتاريخ ومجموعات الشعر ودواوين الشعراء .

ويطيب لى فى هذا المجال أن أنوه بفضل الصديق العلامة الحجة الدكتور محمود مكى الذى تفضل بقراءة هـذا الجزء بعد طبعه ، وكانت له ملاحظات قيمة أثبتها فيما بعد ، هذا بالإضافة إلى المعارف والمعلومات التى أفدتها منه ، وخاصة فى الأدب الأندلسى وتاريخه .

ويقع هذا الكتاب - إن شاء الله - فى ستة أجزاء ، وسألحق بآخره إن شاء الله الرسالتين السينية والشينية للحريرى ، وحواشى ابن الخشاب وابن برّى وغيرهما على المقامات ؛ فضلا عن الفهارس الفنية العامة .

ومن الله العون والتوفيق .

رمضان سنة ١٣٨٩ هـ

نوفمبر سنة ١٩٦٩ م

محمد أبو الفضل إبراهيم

رفع المسهم

شرح مقامات الحريري

لأبي العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي

رفع
المسهم

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الأستاذ اللغوىّ النحوىّ أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن ابن عيسى بن موسى بن عبد المؤمن القيسى الشَّريشىّ ، تغمده الله برحمته ورضوانه ، وأسكنه فسيح جناته بمنِّه وكرمه آمين :

الحمد لله الذى اختصّ هذه الأمة بأفصح الألسنة وأفسح الأذهان ، وشرَّف علماءها بالافتنان فى أفانين البلاغة والبيان ، وميَّزنا بين سائر الأمم بالنثر المتفق الفِقَر والنظم المعتدل الأوزان .

نحمده على أفئدة هداها ، وألسنة أطال فى شأو البلاغة مداها ، ونصلّى على سيد المرسلين ، وخيرةِ العالمين ، الذى ختمت بنبوّته العامة النبوة ، ونسخت بشرعته التَّامة الكتب المتلوّة ، محمد سيد هذا العالم والمخصوص بعلوّ المكانة ، وعموم الدّيانة فى ولد آدم ، وعلى آله وصحبه الذين عزّروه ووقّروه ، وآووْه إيواء الموفين بالعهود ونصروه ، ونقلوا شرعَه الكريم نقل التواتر وآثروه ، وسلّم تسليما ، وآتاهم من لدنه رحمة وأجراً عظيما .

ورضىَ الله عن الإمام المعصوم ، المهدىِّ المعلوم ، مجدّد معالم الديانة ، والملىء بأداء الأمانة ، والمشهور على تعاقب العصور بالزمان والمكان والمكانة ، وعن خلفائه الراشدين المرشدين أئمّة الهدى ، والتالين له فى شرف ذلك المدى ، والقائمين بأعباء أمره الموعود أنه يبقى أبدا .

ونسأل الله تعالى لسيدنا الخليفة الإمام أمير المؤمنين ابن الخلفاء الأئمة الراشدين ، سعداً يُعلى أعلامه ، ونصراً يصحب قلمه وحسامه ، وتأييداً يُظهر أمره وينصر اعتزامه ، حتى ينتظم شذّان[1] الأمصار فى سلك ملكه ، وتزدحم وفودُ الأمم

(١) الشذان ، بالضم والفتح : المتفرق ، وأصله فى الحصى والإبل .

على غَمْر بِرّه ، وتنطوى ضمائر القلوب ومخبّآتُ الغيوب على إخلاص طاعته والانثناء لأمره .

أما بعد ؛ فإن العلم أربحُ المكاسب ، وأرجحُ المناصب ، وأرفع المراتب ، وأنصع المناقب ، وحرفة أهل الهِمم من الأمم ، ونِحْلة أهل الشرف من السلف ، لم يتقلّد ساكَه إلا جِيدُ ماجد ، ولم يتوشّح بُرْدَه إلا عِطْف جادّ فى طلب الكمال جاهد ، ولم يستحقّ اسمه إلا الواحد النَّدْ بعد الواحد ، وهو وإن تشعّبت أفانينُه ، وتنوّعت دواوينُه ؛ فعلم الأدب علَمُه ، والأسّ الذى يبنى عليه كَلِمُه ، والرّوح الذى يخبّ فى ميدان الطّروس قلمُه ؛ ولذلك كان أوْلى ماتقترحه القرائح ، وأعلى ما تجنح إليه الجوانح ؛ فذوو الأخطار فى سائر الأقطار يتنافسون فى اقتنائه ، ويتصافنون فى عافِى إنائه[1] ، ويرتاحون لأوضاعه وتآليفه ، ويستريحون إلى أعبائه المكدودة وتكاليفه ، فإنه زمام المنظوم والمنثور ، وقِوام[2] نطقِ الألسنة وفكَر الصدور ، ومنشِّط المقال من عِقال الفهاهة ، ومميّز الأقدار بالمهابة والنباهة .

ولم يزل فى كلّ عصر من حَمَلته بدر طالع ، وزهر غصن يانع ، وعلَمٌ ترنو إليه أبصار وتومِىء إليه أصابع ، وصناعة البراعة بينهم تتمكّن وتتأصّل ، وتنويع البديع ينضبط ويتحصّل ، والآخِر يكدّ ذهنه فى تتميم ما غادره الأول ؛ إلى أن اعتدلت كفّتاه ، وامتلأت ضِفّتاه ، وراق مجتلاه ومجتناه ، وتناهَى فى الحسن والإحسان لفظه ومعناه .

وكان آخرَ البلغاء وخاتمة الأدباء ، أولهم بالاستحقاق ، وأولاهم بسِمَة السباق ، والفذّ الذى قد عقمت عن توءمه فتية العراق ، وفارس ميدان البراعة ،

(١) يقال : تصافن القوم الماء ؛ إذا قسموه بالحصص . والعافى : ما فضل فى القدح ، والكلام على الاستعارة .

(٢) قوام الأمر بالكسر : نظامه وعماده .

رفع المسهم

ومالك زمام القرطاس واليراعة ، والملبِّي عند استدعاء دُرَر النِقَر بالسمع والطاعة، أبو محمد القاسم بن عليٍّ الحريريّ ـ سقى الله ثراه صَوْب رحماه ، وكافأ إحسانه في الثناء عليه بحسناه ـ فبسط لسان الإحسان ، ومدّ أفنان الافتنان ، ومهّد جادّة الإجادة ، وقوّى مادّة الإفادة ، ولم يُبق في البلاغة متعقّبا ، ولا للرّيادة مترقّبا ، لاسيّما في المقامات التي ابتدعها ، والحكايات التي نوّعها وفرّعها ، والمُلَح التي وشّحها بدُرَر النِقَر ورصّعها ؛ فإنه برّز فيها سابقًا ، وبزّ البلغاء فائقا ، وأتى بأعنى الدّقيق للّفظ الرّقيق مطابقًا ، وخلّدها تاجًا على هامة الأدب وتِقصارًا[1] في جِيد لغة العرب ، وروضة تحوم أنفاس الهمم عليها ، ولا تصل أيدى المطامع إليها .

ولمّا كانت من البراعة بهذا المحلّ الشهير ، وسارتْ مسير النَّيّرين بين مشاهير الجماهير ؛ جعلتُ الاعتناء بها سهم نهمى ، والعكوفَ عليها حرزَ عزمى ، والدّءوب في حفظ لغاتها وفكّ مخبّآتها أهمّ همّى ، وصيّرت تحفُّظَها فرضَ عينى ، والفكر الذى لا يحول وَسَنِي بينَه وبيني . فبدأت بروايتها عن الشّيوخ والثّقات، وتقييد ألفاظها عن أعلام هذه الجهات ؛ حتى لا أنقل لفظا إلّا عن تحقيق ، ولا أثبت ضبطا إلا من طريق .

فكان أوّل من أخذت عنه روايتها ، وتلقّيت منه درايتها ، ببلدى ، الشيخ الفقيه المقرئ أبو بكر بن أزهر الحجَرِيّ ، حدّثنى بها عن صهره الفقيه المحدّث الراوية أبى القاسم بن عبد ربه القيسى المعروف بابن جهور ، عن منشئها أبى محمد الحريريّ . وحدّثنى بها أيضا ببلدى الشيخ الفقيه الراوية أبو بكر بن مالك الفِهريّ عن ابن جهور المذكور ، وعن الشيخ الفقيه أبى الحجّاج الأُبّذِى القضاعيّ ، كلاهما عن أبى محمد الحريريّ . وحدّثنى بها أيضا إجازةً الشيخ الفقيه المحدّث أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله الحجَرِيّ

(١) التقصار والتقصارة ، بالكسر : القلادة ؛ سميت بذلك لأنها تقصر العنق .

عن القُضاعىّ. وحدثنى بها أيضا الكاتب الزاهد أبو الحسين بن جبير عن الشيخ الجليل بركات بن إبراهيم بن طاهر بن بركات القرشى المعروف بالخشوعىّ عن الحريرىّ. وحدّثنى بها أيضا الشيخ الفقيه الأستاذ أبو ذرّ مُصعب بن محمد بن مسعود الخُشنىّ بسنده، بعد وقوفه رحمه الله على هذا الشرح وأمْرِه لى بتكميله.

وتلقيت بها جماعة من جلّة الأشياخ أكثرَ فى العدد ممن ذكرت؛ لا يعدمنى واحد منهم إفادة ضبطيّة أو لفظيّة، ولا يفقدنى زيادة هزلية أو وعظية، فأخذتُها أخذ متثبّت، عن واع منكّت.

ثم لم أدع كتاباً ألّفَ فى شرح ألفاظها وإيضاح أغراضها، وتبيين الإنصاف بين انفصالها واعتراضها إلا وعيتُه[1] نظراً، وتحقّقتُه معتبِراً ومختبراً، وتردّدت فى تفهّمه وِرْداً وصدَراً، وعكفت على استيفائه بسيطاً كان أو مختصراً؛ حتى أتيت على جميع ما انتهى إليه وسعى ممّن فسرها، واستوعبت عامة فوائده الممكنة بأسرها؛ ولم أترك فى كتاب منها فائدة إلا استخرجتُها، ولا فريدة إلا استدرجتها، ولا نكتة إلا علّقتها، ولا غريبة إلا استاحقتها، ولا غادرت فى موضع منها مستحسناً يشذّ عن جمعى، ولا مستجادا ينبُو عنه بصرى أو سمعى.

فاجتمع من ذلك حفظاً وخطّاً أعلاقُ جمّة، وفوائد لم تهتمّ بها قبلى همّة، ثم لم أقنع بتبيين الدواوين، ولا اقتصرتُ على توقيف التصانيف؛ حتى لقيت بها صدور الأمصار، وعلماء هذه الأعصار، فباحثتُ وناقشت، وتأوّلت وتداولت، وطالبت المتحفّظ بالأداء، والمتيقّظ بالإبداء؛ حتى لم أُبق فى قادحةٍ زَنداً إلا اقتدحته، ولا مُقفَلا إلا افتتحته، فتحصّل لى من ذلك أيضاً عيون صائبة النواظر، وفنون قلّما توجد فى مخبّآت الدفاتر.

وأنا فى خلال ذلك ألتمس مزيداً، ولا أسأم بحثاً وتقييداً، إلى أن عثرتُ على

(١) ط ب: «أوعيته»، وأوعى الشىء: حفظه؛ مثل وعى.

شرح الفَنْجَديهىّ[1] للمقامات ـ والفنجديهىّ هو الشيخ الحافظ أبو سعد محمد ابن عبدالرحمن بن محمد المسعودىّ ، من قرية فنجديهة من عمل خراسان ـ فرأيت فى شرحه الغاية المطلوبة ، والبغية المرغوبة ، والضالّة التى كانت عنّى إلى هذا الأوان مطوية محجوبة ؛ فاستأنفت النّظر ثانياً ، وشمّرت عن ساعد الجدّ لا متكاسلا ولا وانياً ، وعاينت نور المعنى فى نور اللفظ فأصبحت مجتانياً جانياً ، فاستوعبته أيضا أبلغ استيعاب ، وقيّدت من فوائده ما لم أجد قبله فى كتاب ، وأخذت منه أحاديث مسنَدةً أوردها ، وآثاراً مرفوعة قيّدها تليق بالباب الذى أوردت فيه ، وتورَد مصحِّحةً إما لألفاظه وإما لمعانيه ، وحذفت أسانيد ـ وإن كان قد أوردها ـ تخفيفاً عمّن يريد المتن ويبتغيه ؛ فتمّ لى بهذا الغرض استيفاء مقاصده ، واستيعاب فوائده . وتركتُه مستلَب المعانى ، مطروق المغانى ، كالروض ركدتْ ريحه ، والجسم قبض رُوحه ؛ فانضاف من فوائد هذا التأليف البديع ـ إلى الفوائد الملتقَطة من الألسنة والمأخوذة من التصانيف المستحسنة ـ روضٌ كله زهر ، وسلْك كلّه دُرَر ، وأدب إن لم يجمعه التصنيف فهو بعد عين أثَر .

فاستخرت الله تعالى فى ضمّ ما انتشر من فوائدها ، ونظم ما انتثر من فرائدها ، والاعتناء بتأليفٍ فى المقامات يُغنى عن كلّ شرح تقدّم فيها ، ولا يحوج

---

(١) الفنجديهى ؛ منسوب إلى فنجديهة ، قال ياقوت : « فنجديهة ، بالفتح ثم السكون ثم فتح الجيم وكسر الدال وياء ثم هاء خالصة ، وينسب إليها فنجديهة . بلدة فيها خمس قرى ؛ قد اتصلت عمارة بعضها ببعض ، قرب مرو الروذ » . وهو أبو سعد محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مسعود المسعودى ، المتوفى سنة ٥٨٤ ، ذكره صاحب كشف الظنون ، ووصفه العماد فى شذرات الذهب بالرحال الأريب وقال : مات عن اثنتين وثمانين سنة بدمشق ، وسمع من أبى الوقت وطبقته ، وأملى بمصر مجالس ، وعنى بهذا الشأن ، وكتب وسمع ، وجمع فأوعى ، وصنف شرحا طويلا للمقامات ، قال يوسف بن الخليل الحافظ : لم يكن فى نقله بثقة ، وقال ابن النجار : كان من الفضلاء فى كل فن ، فى الفقه والحديث والأدب ، وكان من أظرف المشايخ وأجلهم » .

رفع المسهم

إلى سواه فى لفظ من ألفاظها ولا معنًى من معانيها ، فتمّ من ذلك مجموعٌ جامع ، وموضوع بارع[1] ، أودعتُه من اللغات أصحَّها وأوضحَها ، وأسلسها قياد لفظ وأسمَحها ؛ وأولاها بالصواب فى مظانّ الاختلاف وأرجحَها ؛ ونسبت المشكلَ منها إلى قائله من جهابذة العلماء ، وجمعت بين مشهور اللغات ومشهور الأسماء، وسبكت العبارة عن المعانى سبكًا يدلّ على الإلغاء والإصغاء . وهذا الفصل وإن سبقنى إليه مَنْ تقدّمنى من الشارحين قبلى ، فلى فيه مزيّة إيراد اللفظ البعيد عن الإشكال ، والمطابقة بين الأقوال وأرباب الأقوال .

ثم زدت فى فوائد هذا التأليف التعريفَ بالأمصار المذكورة فى المقامات على أوفَى ما يمكننى ؛ من ذكر مواضعها وأقدارها واختطاطها ، ومَنْ عَقَد صلاحَها ، أو تولّى فتحها ؛ وهذه فوائد لا يخفى مكانها ، ولا ينكَر استحسانُها ، فالحاجة إلى التعريف بالمكان ، تتلو الحاجة إلى غوامض اللسان .

ثم استوعبتُ شرح الأمثال ونسبتها، جمعاً بين القائلين والأقوال، ولم أغفل منها الكثير الدّوْر ولا القليل الاستعمال ،وهذا الفن لم يتبعه أحد على الكمال ، وإن ذكره فإنما يذكره استطراداً بحسب الحال .

ثم استوفيتُ أيضا ذكر مَن وقع فيه من الرجال والنساء أتمّ استيفاء ، وعرّفت المشتهرين من الآباء والأبناء ، وبيّنت أنسابهم وأمكنتهم ، وأخبارهم وحِرْفتهم ، وآثارهم ومدّتهم ، زيادة فى النّهُم[2] والاعتناء . وهذا الفن أيضاً لم يورده الشارحون حقّ إيراده ؛ ولا اعتمدوه بالتبليغ حقّ اعتماده ، وهو مهمٌّ فى الإفادة ، وعلى مغفله فى الوقت وبعدَه الإعادة .

ثم زدت فيه فصلين مفيدين لم أَرَ مَنْ اعتنى بهما ،ولا من قَصَد قصدهما، سوى أبى سعيد النَّمْجَديهىّ فى بعض المواضع ، فإنه ألمح وألمع ، وأورد اليسير فما شفى ولا أقنع :

(١) ا : «فصار ذلك مجموعا جامعا ، وموضوعا بارعا » .
(٢) ط : « التهيم » ، تحريف ، صوابه من ا .

أحدهما: تبيين مأخذ الحريرىّ فى الكلام ، وإخراج الإحالات المودَعة فيه من حيّز الإبهام ،والردّ إلى المنشأ فى آية أو أثرٍ ، أو خطبة أو خبر ، أو حكمة فائقة ، أو لفظة رائقة ، أو بيتٍ نادر ، أو مثلٍ سائر ؛ وهـذا تتميم بيِّن ، وتكميل متعيّن .

والفصل الثانى : التنبيه على صناعة البديع، وتوفية أسمائه ؛ كالتجنيس والتتميم والترصيع ، والإتيان بهذا النوع من التبيين والتنبيه على الجميع ، وبسط أنواع الأدب وافتنانه ، والإكثار من الشعر فى مظانّه من الجدّ والهزل فى المواضع اللائقة باستحسانه ، ومقابلة كل باب بما يزيد فى حسنه وبيانه ، والجرْى مع أبى محمد حسب اتساع خطوه وامتداد ميدانه .

ومن تمام التّصنيف ردّ الفرع إلى أصله ، والجمع فى الترتيب بين الشكل وشكله ، فأتبعتُ المواعظ بما يزيدها أثراً فى القلوب ، وأردفت المسلّيات بما يُعينُها فى إجلاء الكروب ، وسلكتُ هذه المسالك فى سائر الأساليب وأنواع الضروب ؛ فإن وُجِد فى هذا الكتاب لفظ ظاهره الهزل ، أو معنى ينسَب فيه إلى العذْل؛ من وصف نوْر وثمر ، وذكر نديم وخمر ، أو نعت حُسْنٍ وحسن، أو مدح سماع وأذن ، فلأنَّ أبا محمد بدأ بأمر فتمّم ، وخصّ نوعاً فعمّم ، مع أنّ صنعة الأدب مبنية على المُلَح ، وخواطر الأدباء جانحة بما سَنَح . فجاء من هذا الترتيب الغريب ، ما يضرب فى الإجادة بسهم مصيب ، ويثبت لى فى الجدّ والدءوب أوْفرَ نصيب .

ثم رأيت الشارحين لها من أولى البصَر كالفنجديهىّ وابن ظَفر[1]

---

(١) هو محمد بن أبى محمد بن محمد بن ظفر ؛ صاحب التصانيف المتنوعة السائرة ، ذكره القفطى فى الإنباه ٣ : ٧٥ ، وقال : « ورأيت له شرح المقامات ، قد صنفها لأهل المغرب ، وقد نقل ألفاظها من نسخة سقيمة فصحف وخرج التصحيف ؛ وسمعت أنه كان يعتذر من ذلك إذا قيل له ، ويقول : هذا أمر أحدثته العجلة وبعد الدار . وذكر صاحب كشف الظنون هذا الشرح وسماه : « التنقيب على ما فى المقامات من الغريب » .

رفع المسهم

قد جرّدوا من شروحهم مختصرات وجيزة ، اقتصروا فيها على إيراد اللغات ، فحذوتُ حذوَهم فى مختصرٍ أوردتُها فيه على الكمال ، ووفّيتها حقها من رفع الغلط وكشف الإشكال ، ولم أخلّ فى تصريفها واشتقاقها بوجه من الوجوه ولا حال من الأحوال ، فجاء غاية فى هذا الباب ، مغنيا فى اللغات الغريبة عن كل كتاب ؛ فإن فاته هذا الأصل بضروب من الإفادات وأنواع من الزيادات ، فلذلك الفرع شُفوف الاستيعاب فى اللغات ، ومزية الاشتقاق والتصريف والشاهد من الشعر والآيات .

وكلّ ذلك بلطف الله تعالى ، وبسعد مَنْ شرّفت كتابى بخدمته ، وبنيتُ تأليفى على أداء شكر نعمته ، ونصبت نفسى لأقف ببابه الأعلى ، وأتزيّن بلثم تربته فأنا العبد وهو المولى ؛ عماد الأنام ، والظلّ الممدود على المسلمين والإسلام ، ونعمة الله التى هى من أفضل النعم الجسام ؛ منفّق سوق المعارف ، ومفجّر بحور المِنَن والعوارف ، المجير بفضله وعدله من المفاقر الفادحة والمخاوف ، سيّدنا الخليفة الإمام أمير المؤمنين أبو عبد الله ابن إمام الأئمة الراشدين وولّى عهده سيدنا الأمير الأجلّ أبو يعقوب ، أيد الله سلطانهم ، وأيّد بيضتَهم وحزبهم ، وجمع القلوب على الانقياد لهم ، والوجوهَ على التوجّه قِبلهم .

وهذا الكتاب وإن كان المعبِّر عن حسنه ، والغاية الملتمسة فى فنّه ، والجامع لما افترق فى سواه ، والمبرّز بما وشّحه من الزيادات وحلّاه ، فإنه لم يتم جماله ، ولا استوفى احتواءه على الفوائد واشتماله ، إلا ببركة مولانا الخليفة ، واقتران اسمه الكريم باسم ولىّ عهده المستحق للتقديم فى هذه الصحيفة . فالحمد لله على التوفيق لخدمتهم ، والمعونة على شكر نعمتهم ، والتعرّض لخيرى الدنيا والآخرة فى ظلّ حرمتهم .

وقد بذلتُ فى الخدمة جَهْدى ، وأبرزت من فوائد هذا التأليف أنفس ماعندى ، ولم أتعاط قياماً بكل الواجب ، ولا وفاء بجميع الحقّ الراتب ؛ فالقول يقصر عن التحصيل ، وليس إلى مطاولة الطود ومكاثرة اليمّ من سبيل .

رفع المسهم

وقد كنت حين أتممتُ هذا التأليف ، وألقيت عن كاهلى الأعباء التى له والتكليف ،وجلوْته كالحسناء ألقت فى المنصّة النّصِيف ، كثرت خطابه إلىَّ من البلدان ، وتواردت عليه رغبات الاستجادة والاستحسان ، فقلت : حتّى يتشرّف بلثم اليمين العليا ، ويتخصص بقبول إمام الدين والدنيا ، فمن بابه الأسمى يُلتقط درّه المنظوم ، وببركاته يسطع مسكه العَبِق[1] المختوم .

وها أنا أشرع ببركة الله وبركة خليفته المبارك الأهدى ، وبنجله المتقلّد منه صفة وعهداً ، فى شرح الخطبة كلمة كلمة ، وإيضاحها حتى لا أدع لفظة مبهمة ، ثم أشرح المقاماتِ على الوِلاء ، وأسلك الجمعَ بين الإيجاز والاستيفاء ، ولاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وآله وسلم أفضل التسليم .

(١) ط : « العبيق » تصحيف ، صوابه من ا .

رفع المسهم

بسم الله الرحمن الرحيم

الصدر

اللَّهُمَّ إِنَّا نَحْمَدُكَ عَلَى مَا عَلَّمْتَ مِنَ الْبَيَانِ ، وَأَلْهَمْتَ مِنَ التِّبْيَانِ ، كَمَا نَحْمَدُكَ عَلَى مَا أَسْبَغْتَ مِنَ الْعَطَاءِ ، وَأَسْبَلْتَ مِنَ الْغِطَاءِ .

* * *

اللهمّ إنا نحمدك ؛ اللهم اسم خصّصتْه الميم المشددة فى آخره بنداء البارئ سبحانه ، والتُزم معها حذف حرف النداء لوقوع الميم خلفاً عنه ، ولحقّ اللام فى أوله ، لأنه لا يلى حرفَ النداء لامُ التعريف إلا فى قولهم : « يا ألله » ؛ لتكون اللام الزائدة نائبة عن جرف أصلىّ ، وهى همزة « إله » ، فصارت كالأصلىّ ، وفى غير هذا الاسم تتجرد اللام للزيادة فى أول الاسم . و « يا » زائدة فى أوله كذلك ، وهما جميعا لتخصيص الاسم وإزالة شياع التنكير عنه ، فلمّا تقاربا فى المعنى ، وتشابها فى الزيادة ، وطلب كل واحد منهما أن يَلِىَ الاسمَ دون صاحبه ، تُرِك استعمال الجمع بينهما فى أول الاسم إلا فى ضرورة الشاعر لإقامة الوزن. وأما اللام فى قولهم : « يا ألله » فلما كانت نائبة عن حرف أصلىّ خفيت زيادتها ، فلما زادوا الميم فى آخره فضحت اللام وشهرت معنى الزيادة ، فامتنعت « يا » من أوله إلا عند الضرورة كامتناعها فى الرجل والغلام ؛ فلما كانت الميم هى الموجبة لمنع « يا » حُمِّلَ الاسم معها معنى « يا » فصار مختصًّا بالنداء ممتنعا من غيره .

ونحمدك ، معناه نثنى عليك بأتمّ وجوه الثناء كلها ، فيدخل تحته الشكر ،

رفع المسهم

والشكر ثناء يقابَل به معروف ، وفى الحديث : « الحمد رأس الشكر فمن لم يحمد الله لم يشكره»[١] ، والحمد ذكر الرجل بما فيه من صفات جليلة . والشكر ذكره بماله من أفعال جزيلة ، من قولهم : دابّة شكور ، إذا ظهر بها من السِّمَن فوق ما تأكل من العلف . ويقال : أشْكَر من بَرْوَقة[٢] ، وهى شجرة معروفة تخصب بأدنى مطر ؛ ويؤكد الفرق بينهما أن الحمد فى مقابلة الذمّ والشكر فى مقابلة الكفر ، فاختلاف نقيضيهما دليل على اختلافهما فى أنفسهما .

البيان: وضوح المعنى وظهوره ، والتّبيان : تفهّم المعنى وتبيّنه . والبيان منك لغيرك ، والتّبيان منك لنفسك ، مثل التبيين تقول: بيّنت الشىء لغيرى بياناً وتبيّنته أنا تبيانا ؛ وقد يقع التِّبيان بمعنى البيان ؛ حكى أبو منصور الأزهرىّ رحمه الله: بيّنت الشىء تبييناً وتِبياناً ، قال تعالى ﴿تِبْيَاناً لكلِّ شىء﴾[٣] أى يبيِّن لك فيه كل ما تحتاج إليه أنت وأمّتك من أمر الدين ، فهو لفظ عامّ أريد به الخاصّ . وقد يقع البيان لكثرة الكلام ، ويُعَدُّ ذلك من النفاق ؛ قال النبى صلى الله عليه وسلم: « الحياء والعىّ شعبتان من الإيمان ، والبَذاء والبيان شعبتان من النفاق» أخرجه الترمذى[٤] . وقال: «العِىّ قلة الكلام والبَذاء الفحش ، والبيان كثرة الكلام» .

ألهمتَ: نبّهت عليه وفهّمته . وأسبغتَ : أتممت وكثرت . وأسبلت : أطلت . والغِطاء ، أراد به ستر الله على عبده .

* * *

وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شِرَّةِ اللِّسَانِ ، وَفُضُولِ الْهَذَرِ ، كَمَا نَعُوذُ بِكَ مِنْ مَعَرَّةِ اللَّكَنِ ، وَفُضُوحِ الْحَصَرِ . وَنَسْتَكْفِي بِكَ الافْتِتَانَ بِإِطْرَاءِ

(١) الجامع الصغير ١ : ٢٦٠

(٢) الميدانى ١ : ٣٨٨ ، قال فى شرحه : « هى شجرة تخضر من غير مطر ، بل تنبت بالسحاب إذا نشأ ـ فيما يقال» .

(٣) سورة النحل ٨٩ .

(٤) نقله فى الجامع الصغير ١ : ٢٦١ عن الترمذى وأحمد والحاكم .

رفع المسهم

الْمَادِحِ ، وَإِغْضَاءَ الْمُسَامِحِ ؛ كَمَا نَسْتَكْفِي بِكَ الانْتِصَابَ لإِزْرَاءِ الْقَادِحِ ، وَهَتْكِ الْفَاضِحِ .

* * *

نعوذ، أى نستجير . شِرّة: حدة، واللسن: حدة اللسان وإدلاله على الكلام. فضول: زوائد. الهذر : إكثار الكلام بغير فائدة . معرّة: شدة وصعوبة، والمعرّة: العيب والعار . وقيل : هى كل مايؤذيك ، وفلان يَعُرّ قومَه ، أى يُدخل عليهم مكروها يلطّخهم به ؛ وأصله من العَرّة وهى الفَعْلة القبيحة ، أو من العُرّ وهو الجَرب . واللَّكَن: احتباس اللسان عند الكلام. فضوح: شهرة وفضيحة. الحَصَر: العِىّ ، وحَصِر حَصَراً إذا أعيا واستحيا أوضاق صدره. واستعاذ من شرّة اللسن لأنه من اقتدر على الكلام أدّاه إلى المطاولة فى الجدل وتصوير الباطل فى صورة الحق ، وفيه إثم على فاعله، وأصل الشِّرّة القلق والانتشار ، ومنه الشرّ ؛ وقد شرّ يشُرّ ، ومنه شرَر النار . ثم استعاذ من ضدّها وهى المعرّة ، لأن صاحبها لا يتم لفظه فيشين بذلك نفسه ، ويقصر عن مراده من البيان . ثم قرن بها الحصر لأن مَنْ يعتريه يتوالى عليه الوَهَلُ والخجل ؛ فلا يستطيع الكلام، فيفتضح ويشتهر عيبه.

وهذا الفنّ من الكلام يسمَّى فى صنعة البديع المقابلة، وأول من صدَّر به كتابا عمرو بن بحر الجاحظ فى كتاب البيان[1]، فقال: اللهم إنا نعوذبك من فتنة القول، كما نعوذ بك من فتنة العمل ، ونعوذ بك من التكلّف لما لا نحسن، كما نعوذ بك من العُجْب بما نحسن، ونعوذ بك من السَّلاطة والهَذر[2]، كما نعوذبك من العِىّ والحَصَر ؛ وقديما تعوّذوا بالله من شرهما، ورغبوا إليه فى السلامة منهما ؛ وقد قال النَّمِر بن تولب :

(١) البيان والتبيين ١ : ٣ ، مع اختصار وحذف .
(٢) السلاطة : حدة اللسان والصخب : والهذر : كثرة الكلام فى خطأ .

أعذْنى ربِّ من حَصَرٍ وعِىٍّ ومن نفسٍ أعالجها علاجا

وقال محمد بن علقمة[١]:

لقد وَارَى المقابرُ من شريكٍ كثيرَ تحـــلُّمٍ وقليلَ عابِ
صَمُـــوتاً فى المحافل غير عَىٍّ جديراً حين ينطق بالصوابِ

ثم استرسل فى ذكر العىّ والبيان إلى غاية بعيدة ، واستشهد على النوعين بآيتين؛ بقوله تعالى: ﴿سلقوكم بألسنةٍ حِدَادٍ﴾[٢]، وفى الضدّ بقوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فى الحِلْيَةِ وهو فى الخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾[٣]؛ فاحتذى الحريرىّ هذا الحذو، فجاءت تشبيهاته أطبع وأصنع، وزاد عليه بأن ابتدأ بحمد الله على نعمة البيان ، ثم استعاذ مما استعاذ منه الجاحظ ، وبيان المقابلة فى كلامه أنه قابل شرّة بمعرّة واللسن باللكن، والهذَر بالحصَر ؛ فإذا تفهّمتَ مواقعها فى كلامه قسْتَ عليها مايشبهها فى النظم والنثر .

وسئل قدامة الكاتب عن المقابلة ، فقال : هى أن يضع الشاعر ألفاظا يعتمد التوافق بين بعضها وبعض فى المخالفة ، فيأتى فى الموافق بمايوافق ، وفى المخالف بمايخالف ، وأنشد فى ذلك :

فياعجباً كيف اتفقنا فناصحٌ وفىٌّ ومطويٌّ على الغِشِّ غادرُ[٤] !

فجعل بإزاء « ناصح » ، « وفىّ» ، « غاشّا : غادرا » . ومثله :

فتًى تمّ فيـــه مايسُرّ صديقَه على أنَّ فيه مايَسوء الأعاديا[٥]

نستكنى : معناه نسألك ونطلب منك أن تـكفينا الافتتان ؛ وذلك أن تصاب بفتنة الإعجاب ، وأصل الفتنة اختبار الفضّة بالنار، قال تعالى فى الاختبار : ﴿وفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾[٦]، أى اختبرناك. والفتين: النضة المحرقة، والفتين أيضا : الحجارة المحرقة ، وهى الحجارة تُدلَك بها الأقدام فى الحمّام. والإطراء: الاسترسال فى مدح

(١) فى البيان والتبيين : « محرز بن علقمة ».
(٢) الأحزاب ١٩ .
(٣) الزخرف ١٨ .
(٤) تحرير التحبير ١٨١ — قال : أحسبه لـكثير . وانظر العمدة ٢ : ١٤
(٥) للنابغة الجعدى ، ديوانه ١٧٤ .
(٦) سورة طه ٤٠ .

رفع المسهم

الإنسان بمحضره ، وفى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «لاتطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، فإنما أنا عبد الله ورسوله » .

إغضاء: تجاوز ومسامحة ، وأصله أن يبدو لك الشىء فتدنى جفنيك وتقصر نظرك كأنك لم تره . والإغضاء: الإغماض وأغضيت عنه وأغمضت ، إذا تغافلت عنه . المسامح : الموافق لغرضك ، المتجاوز عن عيبك . الانتصاب : الظهور والاعتراض أمام الشىء . إزراء : تقصير وتنقيص . القادح: العائب ، وقدحت الدود فى الأسنان والشجر : أكلتها ، فكأنّ فعل هذا العائب فى أعراض الناس فعل الدود فى الشجر . والقادح أيضا: الذى يضرب الزند بالحجر ليورى . هتك: شقّ ، وهتكت الستر: خرقته . الفاضح: الذى يشهر عيوبك ، وفضحت الشىء: كشفته .

* * *

وَنَسْتَغْفِرُكَ مِنْ سَوْقِ الشَّهَوَاتِ إِلَى سُوقِ الشُّبُهَاتِ ؛ كَمَا نَسْتَغْفِرُكَ مِنْ نَقْلِ الْخُطَوَاتِ إِلَى خِطَطِ الْخَطِيئَاتِ . وَنَسْتَوْهِبُ مِنْكَ تَوْفِيقًا قَائِدًا إِلَى الرُّشْدِ ، وَقَلْبًا مُتَقَلِّبًا مَعَ الْحَقِّ ، وَلِسَانًا مُتَحَلِّيًا بِالصِّدْقِ ، وَنُطْقًا مُؤَيَّدًا بِالْحُجَّةِ ، وَإِصَابَةً ذَائِدَةً عَنِ الزَّيْغِ ، وَعَزِيمَةً قَاهِرَةً هَوَى النَّفْسِ ، وَبَصِيرَةً نُدْرِكُ بِهَا عِرْفَانَ الْقَدْرِ .

* * *

نستغفرك : نسألك المغفرة ، وهى من غفرتُ الشىء سترته . الشبهات: جمع شبهة وهى مايشتبه عليك أمره . والخطوات : جمع خطوة؛ وهى مابين القدمين . الخطط: جمع خطة وهى الطريق يخطّه الرجل فى الأرض يجعله حدًّا للشىء يحوزه ويعتمله . والخطّة، بالضم: المنزلة والمزية . والخطيئات : الذنوب ، وهى من الخطأ ، وجعل ماساقه

فى المقامات كأنه شهوة اشتهى عملها ، ثم اشتبه عليه : هل فى ذلك رضا الله أم سخطه ! فكأنه ساق شهوة إلى سُوقٍ يجهل التَّبايع فيها فلعلَّه فيها خاسر الصفقة ، فلهذا استغفر الله منها. الرُّشد :الهداية رشده الله رشدا وأرشده :هَدَاه . ورَشَدهو رُشْدًا ورشادا :اهتدى . متحلِّيًا : متَّصفا ومتزيّنا . مؤيّدا : مُعانًا . وأصاب فى كلامه إصابة :إذا نطق بالصواب ، ورمى فأصاب لم يخطىء ؛ وقوله تعالى : ﴿ رُخاءً حيثُ أصَابَ[1] ﴾ ، أى حيث أراد ، قال الفرّاء : اختلفتُ أنا وعيسى النحوىّ فى الآية فقلت : ماأحدٌ أعلَمُ بهذامن رؤبة ، قال:فسرنا إليه فلقيناه يتوكأ على اثنين ، فقال : أين تصيبان؟أى أين تريدان؟ ، فقلت لصاحبي: كُفِيتَ السُّؤال[2] .ذائدة : دافعة . الزيغ: الميل ، وزاغ عن الحق:مال عنه إلى الباطل.العزيمة : الجدّ ، وعزم على الشيء :جدَّ فيه . قاهرة : غالبة . وهوى النفس:ماتحبّه وتميل إليه . بصيرةً : يقينا ، والبصيرة للقلب ، والبصر للعين . عِرْفان القدر ، أى معرفة أقدارنا .

* * *

وَأَنْ تُسْعِدَنَا بِالْهِدَايَةِ إِلَى الدِّرَايَةِ ، وَتَعْضُدَنَا بِالإِعَانَةِ ٢
عَلَى الإِبَانَةِ ، وَتَعْصِمَنَا مِنَ الْغَوَايَةِ فِى الرِّوَايَةِ ، وَتَصْرِفَنَا عَنِ السَّفَاهَةِ فِى الْفُكَاهَةِ ؛ حَتَّى نَأْمَنَ حَصَائِدَ الأَلْسِنَةِ ، وَنُكْفَى غَوَائِلَ الزَّخْرَفَةِ ؛ فَلا نَرِدَ مَوْرِدَ مَأْثَمَةٍ ، وَلاَ نَقِفَ مَوْقِفَ مَنْدَمَةٍ ، ولاَ نُرْهَقَ بِتَبِعَةٍ وَلاَ مَعْتَبَةٍ ، وَلاَ نُلْجَأَ إِلَى مَعْذِرَةٍ عَنْ بَادِرَةٍ .

* * *

(١) سورة ص ٣٦ .

(٢) الخبر فى الكشاف ٤ : ٧٤ ، وروايته : « عن رؤية ، أن رجلين من أهل اللغة قصداه ليسألاه عن هذه الكلمة ، فخرج إليهما ، فقال : أين تصيبان ؟ فقالا : هذه طلبتنا ؛ ورجعا » .

الدّراية: مصدر دَرَيْتُ الشيء دِراية ودَرْياً، علمته . تعضُدنا تقوّينا، وعضّده: أعانه وكان له عَضُدا . الإبانة : مصدر أبنت الشيء ، أى بيّنته . تعصمنا من الغَواية ، أى تمنعنا من الضلالة والفساد ، والغَواية : مصدر غَوَى غيًّا وغَواية وغَوِىَ أيضا غَواية ، وهما ضدّ رَشَد رُشْداً . الرواية : نقل الحديث من صاحبه إلى طالبه . تصرفنا: تزيلنا . السفاهة: الجهل ، والفكاهة : المُزاح وماتستريح به النفوس وهى فى الكلام كالفاكهة فى الطعام . حصائد الألسنة : شرّ كلامها وقطعها فى أعراض الناس، وأراد ماجاء فى حديث معاذبن جبل رضى الله عنه ،قال: قلت: يارسول الله ، إنا لَنؤاخذ بما نتكلم؟ فقال: «ثكلتك أمّك يامعاذ! هل يَكُبُّ الناس فى النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم!» فدعا الله أن يتمّ سعده بأن يؤمِنَه عادية الألسنة . والحصائد فى الأصل : جمع حصيدة وهى الحُزْمة من الزرع المحصود فهى فَعيلة بمعنى مفعولة ، والحصيد : الشيء المحصود .

نكفى : نمنع . غوائل : قواتل ومهلكات ، واحدها غائلة ؛ وغالته المنيّة أهلكته. الزخرفة : تزيين الباطل ، وأصلها تزيين الشيء بالزُّخرف وهو الذهب . نَرِد: نقصد . مورد مأثمة : موضع إثم ، والمورد أصله الموضع يُشرب منه الماء . مندمة : ندم . نرهق : تُتّهم ونعاب : والزهق : العيب ، وتبعة : خطيئة يتبعه ضررها بعد الموت . معتبة : سخط ، وهى من العتاب ، وهو تقبيح القول على جهة الإشفاق ، وأصله من عتبتُ الأديمَ ، أى رددته إلى الدبّاغ ليصلح ، ومنه: إنما يعاتَب الأديمُ ذو البَشَرة[1] . ويقال: عتب علىّ فى كذا عتباً فأعتبتُه ،أى رجعت إلى مايريد وأرضيته . وباء « تبعة » وتاء « معتبة » يكسران ويفتحان . نلجأ : نُحْوَج . معذرة : اعتذار . بادرة : سَقْطه وزَلّة ، وقد بدرت الكلمة والفعلة :

(١) الميدانى ١ : ٤٠ قال : « والمعاتبة : المعاودة ، وبشرة الأديم : ظاهره الذى عليه الشعر ، أى أن ما يعاد إلى الدباغ من الأديم ، ما سلمت بشرته » .

خرجت من غير أن يدبّر موقعها ، وفلان تُخشَى بوادره ، أى فلتاته .

* * *

اللَّهُمَّ فَحَقِّقْ لَنَا هَذِهِ الْمُنْيَةَ ، وَأَنِلْنَا هَذِهِ الْبُغْيَةَ ، وَلَا تُضْحِنَا عَنْ ظِلِّكَ السَّابِغِ ، وَلَا تَجْعَلْنَا مُضْغَةً لِلْمَاضِغِ ؛ فَقَدْ مَدَدْنَا إِلَيْكَ يَدَ الْمَسْأَلَةِ ، وَنَحْنَا بِالاسْتِكَانَةِ لَكَ وَالْمَسْكَنَةِ ، وَاسْتَنْزَلْنَا كَرَمَكَ الْجَمَّ ، وَفَضْلَكَ الَّذِى عَمَّ ، بِضَرَاعَةِ الطَّلَبِ ، وَبِضَاعَةِ الْأَمَلِ . ثُمَّ بِالتَّوَسُّلِ بِمُحَمَّدٍ سَيِّدِ الْبَشَرِ ، وَالشَّفِيعِ الْمُشَفَّعِ فِى الْمَحْشَرِ ، الذِى خَتَمْتَ بِهِ النَّبِيِّينَ ، وَأَعْلَيْتَ دَرَجَتَهُ فِى عِلِّيِّينَ . وَوَصَفْتَهُ فِى كِتَابِكَ الْمُبِينِ ، فَقُلْتَ وَأَنْتَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾[1] . اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ الْهَادِينَ ، وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ شَادُوا الدِّينَ ، وَاجْعَلْنَا لِهَدْيِهِ وَهَدْيِهِمْ مُتَّبِعِينَ ، وَانْفَعْنَا بِمَحَبَّتِهِ وَمَحَبَّتِهِمْ أَجْمَعِينَ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ، وَبِالْإِجَابَةِ جَدِيرٌ .

* * *

المُنية : ما يُتمنّى . والبُغية : مايطلب . أَنِلْنا : أعطنا . تُضْحِنَا : تكشِفْنا . ظلّك السابغ : سترك المديد ، وأصلُ الظلّ الستر ، والموضع الذى لاتبلغه الشمس ، وفى الحديث « ضَحَا ظلّه » ، أى عدم فانكشف موضعه للشمس . مضغة : لقمة ، وكلّ مايمضغ لُقْمة ، والماضغ هنا : العائب الآكل أعراضَ الناس ، وجعل العِرْض حين يعيبه مُضغة له ﷺ قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لمَّا عُرِج

(١) التكوير ١٩ ـ ٢١ .

رفع المسهم

بى مررتُ بأقوامٍ لهم أظفار من نحاس يخمشُون وجوههم وصدورهم ، فقلت : مَنْ هؤلاء يا جبريل ؟ فقال : « هؤلاء الذين يأكلون لحومَ الناس ويقعون فى أعراضهم » . المسألة : الحاجة والفقر . بخعْنا : أقررنا ، وبخع له بحقِّه أقرّ به ، وبخع نفسَه : قتلها غيظا ، ومنه : ﴿فلعَلَّكَ بَاخِعٌ نفسَك﴾[1] فالمتعدّية بالباء غيرُ المتعدّية بنفسها . الاستكانة : الخضوع . والمسكنة : الفقر والذلة . استنْزلنا : طلبنا أن تُنْزِل علينا ، والاستنزال السؤال بتلطّف . والجمّ : الكثير . فضالك : إحسانك . عَمَّ : شَمَل . ضراعة : ذلة . البضاعة : المال يُتَّجر به . الأمل : الرجاء ؛ يقول إن تجارتنا التى نحصل بها منك إحسانك ، رجاؤنا توكُّلنا عليك . التوسُّل : التقرب . البشر : الخلْق ، وهو فى الأصل جمع بَشَرة ، وهى ظاهرة الجلد ، وسمُّوا بشرا ، لظهور أبشارهم خلافا لغيرهم من الحيوان . الشفيع : الطالب لغيره . والمشفَّع : الذى أُعْطِىَ الشفاعة ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : «خُيِّرت بين الشفاعة وبين أن يدخل شطر أمتى الجنة فاخترت الشفاعة لأنَّها أعمُّ وأكفى ، أترونها للمؤمنين المُتَّقين ! لا ولكنها للمذنبين المتلوّثين الخطائين »[2] .

المحشر : موضع اجتماع الناس يوم القيامة ، والحشر أيضا : الحشر وهو الأشبه باليوم . ختمت : جعلته خاتمهم ، أى آخرهم . درجته : منزلته . عليّين : أعلى الجنة وكأنه جمع علِّيّة . المُبين : المبيّن . رسول كريم ، قيل : هو جبريل ، وقيل هو محمد صلى الله عليه وسلم . مكين : رفيع المنزلة . ثَمّ : معناه هناك ، قال الزّجاجى : هى إشارة إلى ما كان مترامياً من الأماكن ، والأشهر أن المراد به فى الآية جبريل ؛ ولذا رجع الحريرى آخرا فأزال الآية من كتابه ، واستشهد بما اتفق مشاهير المفسرين على أن المراد به نبينا صلى الله عليه وسلم ، وهو قوله تعالى : ﴿وما أرْسَلْنَاكَ إلَّا رَحْمَةً للعالمين﴾[3] ، وليس رجوعه عن القول

(١) الكهف ٦ .
(٢) نقله فى الجامع الصغير ١ : ١٨ .
(٣) سورة الأنبياء ١٠٧

رفع المسهم

ليعيب ، بل هو حسن ، إذ كان الرجوع عن الخطأ إلى الصواب واجباً ، إلا أن الثابت عند ابن جهور ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ ؛ قال ابن عباس رضى الله عنهما : هو جبريل وهو الرسول لمحمد بالقرآن . ذِى قُوَّة : لأنه قلع بأحد جناحيه أربعَ مدائن لقوم لوط ؛ وهى سَدُوم ودامورا وصابورا وعمُّورا ؛ فى كل مدينة مائة ألف إنسان سوى مافيها من الدوابّ والأنعام . آله ، أى أهله وأصله «أأل» فأبدلت الهمزة ألفاً ،وأكثر ماتضاف إلى الظاهر ، وقد سُمِع إضافتُها إلى المضمر فى الشعر والكلام الفصيح ، خلافاً لأبى جعفر النحاس وأبى بكر الزُّبيدى، فإنهما منعا من إضافتها إلى المضمر ، وأكثرهم على أن همزتها مبدلة من هاء «أهل» وصوابه أنّها أصل فى بابها ،من آل يئول إذا رجع لأنهم يرجعون إليه ويُرجع إليهم . الهادين : المرشدين إلى طريق الخير ، وقد هديته الطريق ، إذا أرشدته . شادوا : رفعوا وبنوا . هديه وهديهم : طريقته وطريقتهم ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم « اللهَ اللهَ فى أصحابى ، لاتتّخذوهم غَرَضاً بعدى ، فمنْ أحبّهم فبحبّى أحبّهم ، ومَنْ أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذانى ، ومن اذانى فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » . جدير : حقيق .

* * *

وَبَعْدُ ، فَإِنَّهُ قَدْ جَرَى بِبَعْضِ أَنْدِيَةِ الْأَدَبِ الَّذِى رَكَدَتْ فِى هَذَا الْعَصْرِ رِيحُهُ ، وَخَبَتْ مَصَابِيحُهُ ، ذِكْرُ الْمَقَامَاتِ الَّتِى ابْتَدَعَهَا بَدِيعُ الزَّمَانِ ، وَعَلَّامَةُ هَمَذَانَ رحمه الله تَعَالَى . وَعَزَا إِلَى أَبِى الْفَتْحِ الإِسْكَنْدَرِىِّ نَشْأَتَهَا ، وَإِلَى عِيسَى بْنِ هِشَامٍ رِوَايَتَهَا ، وَكِلَاهُمَا مَجْهُولٌ لَا يُعْرَفُ ، وَنَكِرَةٌ لَا تَتَعَرَّفُ .

* * *

أندية : مجالس واحدها نديّ ، والنَّديّ والنادى والمنتدى : مجلس القوم

للحديث ، وقيل هو من النَّدَى وهو الكرم ، لأنهم يُقصدون فيه فيُعطون . وقيل : هو من النداء الذى هو الصوت لأنه ينادِى فيه بعضُهم بعضاً ليجتمعوا . وقيل : هو من النَّدَى وهو العَرَق لأن الداخل فيه يحتشم فيعرَق. والأدب: معرفة الأخبار والأشعار، وفلان أديب ، إذا كان متفنِّناً مشاركا. ركدت: سكنت ، والمقامات: المجالس، واحدها مَقامة، والحديث يُجتمع له ويجلس لاستماعه يسمّى مقامة ومجلساً ، لأن المستمعين للمحدّث مابين قائم وجالس ، ولأنّ المحدّث يقوم ببعضه تارةً ، ويجلس ببعضه أخرى ؛ قال الأعلم : المقامة المجلس يقوم فيه الخطيب يحضّ على فعل الخير .

[بديع الزمان الهمذانىّ]

ذكر البديعَ أبو منصور الثعالبى فى يتيمته، فقال : « بديع الزمان هو أبو الفضل أحمد بن الحسين الهَمَذانى ، مفخر هَمَذان ، ونادرة الفَلَك وبِكْر عُطارد ، وفريد الدهر ، وغُرّة العصر ؛ ومَنْ لم يُلْفَ نظيرُه فى ذكاء القريحة وسرعة الخاطر وشرف الطّبع وصفاء الذهن وقوّة النفس، ولم يدرك قرينُه فى ظرف النثر ومُلَحه وغرر النّظم ونكته ، ولم يُرْوَ أنَّ أحداً بلغ مبلغه من لُبِّ الأدبِ وسِرِّه ، أوجاء بمثل إعجازه وسحره ، فإنه كان صاحب عجائب ، وبدائع وغرائب ، فمنها أنه كان يُنشَد القصيدة لم يسمعها قطّ ، وهى أكثر من خمسين بيتاً ، فيحفظها كلَّها ، ويوردها إلى آخرها، لاينخرم حرف منها . وينظر فى الأربع والخمس الأوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ، ثم يعيدها عن ظهر قلبه هذا ويسردها سرداً . وكان يُقترَح عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة فى معنى غريب وباب بديع ، فيفرغ منها فى الوقت والساعة والجواب عمَّا فيها، وكان ربَّما يكتب الكتاب المقترَح عليه فيبتدئ بآخر سطوره ، ثم همَّ جرّا إلى الأوّل ، ويخرجه كأحسن شىء وأملحه ، ويوشّح القصيدة الفريدة من قبله بالرسالة الشريفة من إنشائه ، فيقرأ من النظم النثرَ ، ومن النثر النظم ، ويعطى القوافى الكثيرة ، فيصل

بها الأبيات الرشيقة . ويُقترح عليه كلّ عروض من النظم والنثر فيرتجله في أسرع من الطرف ، على ريق لا يباعه ، و نَفَسٍ لا يقطعه ؛ وكلامه كلّه عفو الساعة وفيض اليد ومسارقة القلم ومجاراة الخاطر. وكان مع هذا مقبول الصورة . خفيف الرّوح ، حسن العشرة ناصع الظَّرْف ، عظيم الخُلُق ، شريف النفس ، كريم العهد ، خالص الودّ ، حلو الصداقة ، مرّ العداوة . فارَقَ همَذان سنة ثمانين وثلثمائة وهو مقتبل الشبيبة ، غضّ الحدَاثة . وقد درس على أبي الحسين بن فارس ، وأخذ عنه جميع عنده واستنفذَ علمه[1] . وورد حضرة الصاحب أبي القاسم بن عبّاد ، فتزوّد من ثمارها ، وحسن آثارها . وورد نيسابور في سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة[2] ، فنشر بها بَزَّه ، وأظهر طرزَه ، وأمْلَى أربعمائة مقامة نحاها أبا الفتح الإسكندريّ في الكُدْيَة وغيرها ، وضمّنها ماتشتهي الأنفس ؛ من لفظٍ أنيق قريب المأخذ بعيد المرام ، وسجْع رشيق المطلع والمقطع كسجع الحمام . وَجِدٍّ يروق فيملك القلوب ، وهزلٍ يشوق فيسحر العقول ... [3] ثم ألقى عصاه بهَرَاة ، فعاش فيها عيشة راضية وحين بلغ أشده ، وأربى على أربعين سنة ؛ ناداه الله فلباه ، وفارق دنياه في سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة ؛ فقامت نوادب الأدب ، وانثلم حدّ القلم ، وبكاه الفضائل مع الأفاضل ، ورثاه الأكارم مع المكارم ؛ على أنه مامات من لم يمت ذكره ، ولقد خلد مَنْ بقَى على الأيام نظمُه ونثره ؛ والله عزّ وجل يتولاه بعفوه وغفرانه ، ويحيّيه بروْحه وريحانه »[4]

---

(١) اليتيمة : « واستنفد علمه ، واستنزف بحره » .

(٢) في ط : « وولى » ، تحريف ، والعبارة في اليتيمة : « ثم قدم جرجان ، وأقام بها مدة على مداخلة الإسماعيلية والتعيش في أكنافهم ، والاقتباس من أنوارهم ، واختص بالدهخذا أبي سعد محمد بن منصور أيده الله تعالى ، ونفقت بضائعه لديه ، وتوفر حظه من عادته المعروفة في إسداء المعروف ، والإفضال على الأفاضل . ولما استقرت عزيمته على قصد نيسابور أعانه على حركته ، وأزاح علله في سفرته فوافاها في سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة . . . » .

(٣) حذف المؤلف هنا من كلام الثعالبي مايزيد عن صفحة .

(٤) يتيمة الدهر ٤ : ٢٤٠ ـ ٢٤٢ .

وذكر الحصرىّ رحمه الله فى كتاب الزهر أن الذى سبّب للبديع رحمه الله تأليف مقاماته ، هو أنه رأى أبا بكر بن الحسين بن دريد قد أغْرَب بأربعين حديثاً ، ذكر أنه استنبطَها من ينابيع صدره ، وانتخبها من معادِن فكره ، على طبع العرب الجاهليّة ، بألفاظ بعيدة حُوشيّة ، فعارضه البديع بأربعمائة مقامة ، لطيفة الأغراض والمقاصد ، بديعة المصادر والموارد[1] . انتهى كلامه .

والذى جاء بها ، فيه قلة الإمتاع للسامع من حديثها ، وفيها مقامات لا تبلغ عشرة أسطار ، فجاءت مقامات الحريرىّ أحفل ، وأجزل وأكمل ؛ فلذلك فضلت البديعيّة. وقد صرح علماء الأدب فى كتبهم بتفضيل البديع على نُظرائه من أهل زمانه ، ولقبه بالبديع يدلّ على قدره الرفيع ، قال :

وَقَلَّمَا أبصرتْ عيناك من رجلٍ إلا ومعناه إنْ فتّشت فى لَقَبِهِ

وسئل بعض علماء الأدب من أهل عصرنا عن الحريرىّ والبديع ، فقال : لم يبلغ الحريرى أن يسمى «بديع يوم» ؛ فكيف يقارِن بديع زمان !

وجرى ذكر مقاماته فى مجلس بعض أشياخنا ، وكان حافظاً أديباً ، فقال : مقامات البديع يحكَى أنها ارتجال ، وأنّ البديع كان يقول لأصحابه فى آخر مجلسه : اقترِحوا غرضاً نبنى عليه مقامةً ، فيقترحون ما شاءوا ، فيملى عليهم المقامة ارتجالا فى الغرض الذى اقترحوه ؛ وهذا أقوى دليل إن صح على فضل البديع .

قوله علّامة : أى كثير العلم ، وهى بِنْيَةٌ للمبالغة .

[ذكر همَذان]

وهمَذان ، بفتح الميم ونقط الذال : بلد بخراسان . وقيل : همَذان من كُور الجبل . وبلَد همذان واسع جليل القَدْر كثير الأقاليم والكُوَر ، افتُتح سنة ثلاث وعشرين ، ويشرب أهلُها من عيون وأودية . وقال اليعقوبىّ : من أراد السَّير من الدِّينَور إلى همَذَان سار متنزّهاً إلى موضع ، يقال له : أسدآباذ مرحلتين —

(١) زهر الآداب ٢٦١ .

رفع المسهم

ومن أسد آباذ إلى مدينة هَمَذَان مرحلتان ـ وهى كثيرة البرد . وقال فيها ابن خالويه ـ وهو هَمَذانىّ ، واستوطن حلَب عند بنى حمدان:

إذا همذانُ اعترَّها البردُ وانقضَى ... برغمك أيلولٌ وأنت مقيمُ
فعيناكَ عَمْشَاوانِ وَأَنْفُكَ سائلٌ ... ووجهك مسودّ البياض بهيمُ
بلادٌ — إذا ما الصيفُ أقبل — جنةٌ ... ولكنَّها عند الشتاء جحيمُ

ولبعضهم :

هَمَذَان متلفة النفوس ببردِها ... والزَّمهرير ، وحَرُّها مأمونُ[1]
غلَب الشتاء مصيفَها وخريفَها ... فكأنَّما تَمُّوزها كَانُونُ

وكل الرواة يروونها « هَمَذان » بفتح الميم ونقط الذال ، إلا ابن اللّبانة فإنى رأيت فى شرحه: هَمْدَان بسكون الميم ودال غير معجمة ، وهى قبيلة يمانية ، قال فيها علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وكرّم وجهه :

ولو كنت بواباً على باب جنّةٍ ... لقلت لِهَمْدان ادخُلوا بسلامِ[2]

والرواية الأولى أثبت . قوله : « عزا » أى نسب يقال : عزيته عَزْياً ، وعزوته عزوًا : نسبتَه ؛ واعتزى إلى بنى فلان : انتسب إليهم ، وأبو الفتح فى البديعيّة بمنزلة أبى زيد فى الحريرية ، وعيسى بمنزلة الحارث . نشأتها : صنعتها. روايتها : إسناد أحاديثها . والنّكرة التى لا تتعرف ، هى فى غير الأسماء .

* * *

فأشار مَنْ إشارَتُهُ حُكْمٌ ، وَطَاعَتُهُ غُنْمٌ ، إِلَى أَنْ أُنْشِئَ مَقَامَاتٍ أَتْلُو فِيهَا تِلْوَ الْبَدِيعِ ، وَإِنْ لَمْ يُدْرِكِ الظَّالِعُ شَأْوَ الضَّلِيعِ ، فَذَاكَرْتُهُ بِمَا قِيلَ فِيمَنْ أَلَّفَ بَيْنَ كَلِمَتَيْنِ ، وَنَظَمَ

(١) معجم البلدان ٨ : ٤٧٦ ، ونسبها إلى كاتب بكر .
(٢) من مقطوعة له ، أوردها ابن رشيق فى العمدة ١ : ٣٤

رفع المسهم

بَيْتاً أَوْ بَيْتَيْنِ ، واسْتَقَلْتُ مِنْ هَذا المَقَامِ الَّذِي فِيهِ يَحَارُ الْفَهْمُ ، وَيَفْرُطُ الْوَهْمُ ، وَيُسْبَرُ غَوْرُ الْعَقْلِ ، وَتَبِينُ قِيمَةُ الْمَرْءِ فِي الْفَضْلِ ، وَيُضْطَرُّ صَاحِبُهُ إِلى أَن يَكُونَ كَحَاطِبِ لَيْلٍ ، أَوْ جَالِبِ رَجْلٍ وَخَيْلٍ ، وَقَلَّماَ سَلِمَ مِكْثَارٌ ، أَوْ أُقِيلَ لَهُ عِثَارٌ .

* * *

[السبب فى إنشاء الحريرىّ للمقامات]

غُنْم : غنيمة . وحكى الفنجديهى فى شرحه للمقامات : أن الذى أشار عليه بها هو شرف الدين أنوشروان بن خالد وزير الخليفة ، أمره بإنشاء المقامات وحكم عليه بها . وقيل : أمره بها صاحب البصرة ووالِيها . وقال : سمعتُ الشيخ الثقة أبا بكر عبد الله بن محمد بن أحمد بن النَّقُور البزَّار ببغداد يقول : سمعت الشيخ الرئيس أبا محمد الحريرى يقول : أبو زيد السَّروجىّ كان شحّاذاً بليغاً ، ومكدياً فصيحاً ، ورد علينا البصرة ، فوقف يوماً فى مسجد بنى حَرام يتكلّم ، ويسأل شيئاً ، وكان بعضُ الولاة حاضراً ، والمسجد غاصٌّ بالفضلاء ، فأعجبهم بفصاحَته ، وحسن صناعته وملاحَته ، وذكر أسر الروم ابنتَه ، كما ذكرنا فى المقامة الحرامية وهى الثامنة والأربعون ، قال : فاجتمع عندى عشيّة ذلك اليوم جماعة من معارف فضلاء البصرة وعلمائها ، فحكيتُ لهم ما شاهدتُ من ذلك السائل ، وسمعت من لطافة عبارته فى تحصيل مُرَادِه ، وطَرافة إشارته فى تسهيل إيراده ؛ فحكى كلّ واحد من جلسائى أنه شاهدَ مِن هذا السائل فى مسجده مثل ما شاهدت ، وأنه سمع منه فى معنى آخر فصلاً أحسن مما سمعت . وكان يغير فى كلّ مسجد زِيَّهُ وشكله ، ويظهر فى فنُون احتياله ، فعجبوا من جريانه فى ميدانه ، وافتتانه فى إحسانه ؛ قال الحريرىّ : فابتدأت فى إنشاء المقامة الحرامية تلك الليلة ، حاذياً حَذْوَهُ ، فلما فرغتُ منها أقرأتُها جماعةً من الأعيان ، فاستحسنوها غاية الاستحسان ،

وأنهوا ذلك إلى وزير السلطان ، واقترحوا علىّ أخواتها ، والله المستعان .

وهذا الذى ذكر الفَنْجديهىّ قد حدّثنى بنحوه مَنْ يوثَق به من الطلبة ، بسندٍ يتصل بأبى محمد الحريرىّ ، وأن الحريرىّ وفد مع أهل البصرة بغداد ، فوجدوا بواسط أبا زيد السَّروجىّ[1] ، فقال: يا أهل البصرة ، أنتم تزعمون أنكم لاتُكادون ولا تُخدعون ، وقد والله مشيت على مساجدكم ومحاضركم ، فما تعذّر علىّ فيها موضع لم أجلب منافعَ أهله بضروب من المكر . فلما بلغوا بغداد أخبروا بالقصة وزير السلطان ، فأمر الحريرىّ بجمع المقامات .

لكن الذى ثبت عندنا ، هو ما حدثنى به الشيخ الفقيه أبو بكر بن أزهر أنّ الفقيه الراوية أبا القاسم بن جَهْور ، حدّثه أن الحريرىّ حدّثه أن قصة المقامه الثامنة والأربعين حق ، وأنّ رجلا قام بمسجد بنى حَرَام ، فأظهر التوبة من ذنبه ، وسأل عن الوجه فى كفّارته ، فقام رجل من بين الناس ، فذكر أسر ابنته ، فنظم الحريرىّ القصة وجعلها مقامة ، وأنها أول مقامة أثبتت فى الكتاب. وكان ابن جَهْور يقول : إنّ الذى أشار إليه بها فى قوله : « فأشار مَنْ إشارته حكم » هو المستظهر بالله العباسى ، وكان لهذا المستظهر رغبة فى الطلب ، وحظّ من الأدب ، وعناية بأهل العلم .

وحدّث ابن جهور أنه دخل بغداد فى أيامه وبها ألف رجل وخمسمائة رجل حامل علم ، وكلهم قد أثبت أسماءهم السلطان فى الديوان ، وأجرَى على كلّ واحد من المال بقدر حظّه من العلم . وكان ابن جهور يحدّث أن الحريرىّ ألّف المقامات كلها على الرِّكاب ، وذلك أن المستظهر بالله لما أمره بصنعتها ، أُخْرِج كالحافظ على العمال ، فكان يُخرج فى الأبردين يتمشّى فى ضِفتى دجلة والفرات ، ويصقل خاطره بنظر الخضرة والمياه ، فلم ينقض فصل العمل إلا وقد اجتمع له

(١) السروجى ، بفتح السين : منسوب إلى سروج : بلدة قريبة من حران واسم أبى زيد السروجى المطهر بن سلار اللغوى ، وأحد من اشتغل بالنحو فى البصرة ، ذكره القفطى فى إنباه الرواة ٣ : ٢٧٦ .

رفع المسهم

مائتا مقامة ، فخلّص منها خمسين وأتلف البواقى ، وصدّر الكتاب ، ورفعه إلى السلطان ، فبلغ عنده أسنى المراتب .

قوله : « فذاكرته بما قيل فيمن ألف بين كلمتين ونظم بيتاً أو بيتين » ، قال أبو عمرو بن العلاء : الإنسان فى فسحة مِنْ عقله ، وفى سلامة من أفواه الناس ، مالم يضع كتاباً أو يقلْ شعراً .

وقال العتابىّ : مَنْ صنع كتابا فقد استشرف للمدح والذم ، فإن أحسن فقد استهدف للحسد والغيبة ، وإن أساء فقد تعرّض للشتم بكل لسان .

غيره : من صنّف فقد جعل عقله على طبَق يعرضه على الناس . وقال حسان :

وإنّما الشِّعْرُ عقلُ المرء يَعْرِضُهُ على البريَّة إن كَيْسًا وإنْ حُمُقا[1]

وإنَّ أحسـن بيتٍ أنت قائلُهُ بيتٌ يقال إذا أنشدْتَه صَـدَقَا

واستقلت : طابت الإقالة . المقام : موضع القدمين وأنت قائم . يحار : يتحيّر : يَفْرُط : يسبق . الوهم : الغلط . يُسْبَر غور العقل ، يختبَر قدره ومنتهاه ، وأصله فى الجراحات يُختبَر غَوْرها ، أى بعد قعرها . والمسبار : الحديدة التى يقاس بها مقدار غَوْر الجراحة ، وسَبَرها : قاسها به ، يفعل ذلك الطبيب للقصاص أو للدواء ، ويقال لحديدته : السِّبار والمِسْبار والمِسْبَر والمكحل والميل والمِرْود والمجراف . تبين : تتبيّن . يضطر : يُلجأ . حاطب ليل : جامع الحطب بالظلام ، وهذا مثل لأكثم بن صيفى حكيم العرب ، ذكره أبو عبيد فى الأمثال[2] ، وقال : إنما شبّهه بحاطب الليل لأنه ربّما نهشته الحيَّة أو لسعته العقرب فى احتطابه ليلا ، فكذلك المهذار ربما أصابه فى إكثاره بعض ما يكره ، قال النرزدق :

كمحتطبٍ ليـــلاً أساودَ هضبةٍ أتاه بها فى ظلمة الليل حاطِبُهْ[3]

وأبيَن من تفسيره أن حاطب الليـــل لا يبصر ما يحتطب ، فهو يؤلّف بين الحطب الكبير والصغير ، والقوىّ والضعيف ، والجيد والردىء ، فكذلك المكثار

(١) ديوانه ٢٩٢ . (٢) فصل المقال ٢٥ ، ولفظ المثل فيه : « المكثار كحاطب الليل » .
(٣) ديوانه ٥١ .

يأتى بالضعيف من الكلام والقوى والجيد والردىء، فشبّهه لذلك بالحاطب، وأراد بـ « عجالب رجل وخيل » ما أراد بحاطب الليل ، لأنّ الراجل ضعيف والفارس قوىّ . والمكثار : الكثير الكلام ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « مَنْ كَثُر كلامه كثر سَقَطُه ، ومن كَثُر سقطه كثرت ذنوبه ، ومَنْ كثرت ذنوبه ، كانت النار أولى به ، ألا ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت »[1] .

أقيل : أقيم ورفع . عِثار : انكباب وسقوط ، وإقالة العاثر أن ترفعه من سَقْطته ، ومنه الإقالة فى البيع ونحوه .

* * *

فلمّا لَمْ يُسْعِفْ بالإقالَةِ ، وَلاَ أَعْفَى مِنَ الْمَقالَةِ ، لَبَّيْتُ دَعْوَتَهُ تَلْبِيَةَ الْمُطِيعِ ، وَبَذَلْتُ فِى مُطَاوَعَتِهِ جُهْدَ الْمُسْتَطِيعِ ، وَأَنْشَأْتُ - عَلَى مَا أعانِيهِ مِنْ قَرِيحَةٍ جَامِدَةٍ ، وَفِطْنَةٍ خَامِدَةٍ ، وَرَوِيَّةٍ نَاضِبَةٍ ، وَهُمُومٍ ناصِبَةٍ - خَمْسِينَ مَقَامَةً ، تَحْتَوِى عَلَى جِدِّ الْقَوْلِ وَهَزْلِهِ ، وَرَقِيقِ اللَّفْظِ وَجَزْلِهِ ، وَغُرَرِ الْبَيَانِ وَدُرَرِهِ ، وَمُلَحِ الْأَدَبِ وَنَوَادِرِهِ ، إِلَى مَا وَشَّحْتُهَا به من الآيات ، وَمَحَاسِنِ الْكِنَايَاتِ ، وَرَصَّعْتُهُ فِيهَا من الْأَمْثَالِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَاللَّطَائِفِ الْأَدَبِيَّةِ ، وَالْأَحَاجِى النَّحْوِيَّةِ ، وَالْفَتَاوَى اللغَوِيَّةِ ، وَالرَّسَائِلِ الْمُبْتَكَرَةِ ، وَالْخُطَبِ الْمُحَبَّرَةِ ، وَالْمَوَاعِظِ الْمُبْكِيَةِ ، وَالْأَضَاحِيكِ الْمُلْهِيَةِ ، مِمَّا أَمْلَيْتُ جَمِيعَه على لِسَانِ أَبِى زَيْدٍ السَّرُوجِىّ ، وَأَسْنَدْتُ رِوَايَتَهُ إِلَى الْحَارِثِ بن هَمَّامٍ الْبَصْرِىّ .

* * *

يُسعف : يؤاتى وينيل الرغبة ، وأسعفت الرجل بمطلبه : ساعدتُه عليه .

(١) الجامع الصغير ٢ : ٣١٤ .

رفع المسهم

والإسعاف المصدر ، وساعفته مساعفة : قضيت إرادته . ولا أعفَى من المقالة ، أى لم يُعفنى من كلامه وإلحاحه ، وأعفيت : الرجل وعافيته : أزلت عنه مايشقّ عليه ، وأصله التَّرك ، ومنه إعفاء اللحية . وهو أن يتركها على حالها ، ومنه : عفا الله عنك . لبيت : أجبت وقلت : لبيك . أنشأت : ابتدأت وأخذت أفعل . أعانيه : أعالجه ، وأصلها من العَناء وهو التعب . قريحة : ذهن ، وأصلها ماء البئر النابع عند حفرها ، ومنه القُرْحة للجراحة ، لأن أصلها مادة وشبّه الذهن بذلك لما يتولّد عنه من المعانى . فطنة : ذكاء ، والفَطِن : الذكىّ . خامدة : ساكنة ، وخمدت النار : سكن لهبها . رويّة تدبّر ، وروّأت الأمر ، تدبّرتَ كيف تصنعه ، وأصل الرويّة الهمز واستعملت بغير همز . ناضبة : جافة ، ونضب الماء : غار فى الأرض . ناصبة : متعبة ، وهمٌّ ناصب على معنى النسب ، أى ذو نَصَب ، ولو جاء على القياس لقيل : منصِب ، لأن فعله أنصبه الهمّ ، وقال بشْر :

تَعَنَّاكَ هَمٌّ من أُمَيمةَ مُنْصِبُ وجاء من الأخبار ما لا يكذَّبُ[1]

ونَصب نَصَبًا : أعيا من التعب . جزلة : غليظه ومتينة . غُرَر : جمع غُرّة وهى خيار الشىء ومنه غُرّة الفرس وهو البياض فى جبهته فجعلها للبيان مجازاً . دُرَرُه : جمع دُرَّة ، وهى الجوهرة العظيمة ، والكلام الحسن يشبّه بالدّرر والجواهر . مُلح : جمع مُلحة ، وهى مليح الكلام . نوادره : غرائبه . وشَحّتها : زيّنتُها . الكنايات : ضرب من الألغاز ، وأصل الكناية أن تذكر الشىء بغير لفظه ، إما لإبهام على جليسك أو لتعظيم أو لتحقير ، فالإبهام أن تذكر لفظاً يُفهم من ظاهره غير مرادك ، مثل قوله تعالى حاكياً عن هود عليه السلام ، حين قال له قومه : ﴿إنا لنَرَاكَ فى سفَاهَةٍ ... قال ياقَوْم لَيْسَ بِى سَفَاهَة﴾[2] ، فليس فى اللفظ زيادة على فى

(١) مطلع قصيدة فى ديوانه ٧ ـ ١٢ ، ورواية الشطر الثانى فيه :

* كَذِى الشَّوْقِ لَمَّا يَسْلُهُ وَيَذْهَبُ *

(٢) سورة الأعراف ٦٦ ، ٦٧ .

السفاهة ، وقد تضمّن الكلام التكذيب لهم والتعظيم ، مثل كناية الرجل بأبى فلان ، تُرك اسمه وعدل إلى كنايته تعظيما له . والتحقير : أن يكون الشيء خسيساً فتأنف من ذكره فتذكره بغير اسمه ، مثل قوله تعالى: ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾[1] فكنى عن الحدَث بالأكل لمَّا كان يتولد عنه . رصّعته : نظمته ، وألصقت بعضه ببعض ، وتاج مرصّع : مزيّن بخرز وجوهر يُنظم فيه . اللَّطائف : الرقائقُ والكلمة اللطيفة ، أى الرقيقة المعنى التى تحلّ فى القلب فتلطّفه . الأحاجى: ضرب من الألغاز واحدها أُحجيَّة، وهى قولك لصاحبك: أخرِحْ مافى يدى ولك كذا، تقول العرب : أحاجيك مافى يدى ؟ وحُجيَّاك مافى يدى؟ وهى من الحِجَى ،وهو العقل .

الفتاوَى اللغوية ، أرادبها المسائل المائة التى فى الثانية والثلاثين،والفُتيا : إظهار الشيء المسئول عنه عند السؤال . المبتكرة : التى لم يُسبَق إليها، وبكَر وابتكَر خرج بُكْرَة ، ومنه الباكور وهو المبكّر من كلّ شيء فى الإدراك ، وبِكْر كلّ شيء : أوّله . المحبَّرة : المزيّنة ، وحبَّرت الشيء تحبيراً زيّنته ، وأصلها من الحِبْر، وهى ثياب تصنع باليمَن فيها رقوم وتزيين . أمليت : ألقيت ، وأمليت على الصَّبىّ : ألقيت عليه ما يُكتب . أسندت : رفعت .

* * *

وَمَا قَصَدْتُ بِالْإِحْمَاضِ فِيهِ ، إلاَّ تَنْشِيط قَارِئِيهِ ، وَتَكْثِيرَ سَوَادِ طَالِبِيهِ . وَلَمْ أُودِعْهُ مِنَ الْأَشْعَارِ الْأَجْنَبِيَّةِ إلاَّ بَيْتَيْنِ فَذَيْنِ ، أَسَّسْتُ عَلَيْهِمَا بِنْيَةَ الْمَقَامَةِ الْحُلْوَانِيَّةِ وَآخَرَيْنِ تَوْأَمَيْنِ ضَمَّنْتُهُمَا الْمَقَامَةَ الْكَرَجِيَّةَ[2] ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَخَاطِرِى أَبُو عُذْرِهِ ، وَمُقْتَضَبٌ حُلْوِهِ وَمُرِّهِ .

(١) سورة المائدة ٧٥ .

(٢) ا ، ط: «خواتم المقامة الكرجية» ،وما أثبتة من ج .

هَذا مَعَ اعْتِرَافِي بِأَنَّ الْبَدِيعَ رَحِمَهُ اللهُ سَبَّاقُ غَايَاتٍ ، وَصَاحِبُ آيَاتٍ ، وَأَنَّ الْمُتَصَدِّيَ بَعْدَهُ لإِنْشَاءِ مَقَامَةٍ ؛ وَلَوْ أُوتِيَ بَلاَغَةَ قُدَامَةَ ، لاَ يَعْتَرِفُ إِلاَّ مِنْ فُضَالَتِهِ ، وَلاَ يَسْرِي ذَلِكَ الْمَسْرَى إِلاَّ بِدَلاَلَتِهِ .

* * *

الإحماض : الانتقال من شيء إلى شيء، وأصله فى الإبل ترعى الحُلَّة ، وهى حُلْو المرعى فتملّه فتنتقل إلى الحِمْض تأكل منه فيُذهب الحمض عن قلوبها استيلاء الحلاوة ، فتنشط بذلك على الرعى فيقال : أحمض الرجل إحماضا ، والعرب تقول : الحُلة خبز الإبل ، والحمض فاكهتها ، فأراد به تنقّله فى المقامات، من حكاية فائقة ، إلى قضية رائقة ، ومن موعظة تُبكى إلى ملهية تُسلّى ، وفى ذلك تنشيط وترغيب فى قراءتها ، وَنَفْيٌ للملَل والكسل عن قارئها . سواد : أشخاص ، ويسمَّى الشخص سواداً ، لأنه يسوّد الأرض بظلّه . أودعه : أضمّنه . الأجنبيَّة : التى ليست من شعره ، والأجنبىّ : من ليس بينك وبينه قرابة، من الجنابة وهى البعد . فَذَّيْن : منفردين . هذا من شعر وهذا من آخر . توءمين : أخوين من شِعْرٍ واحد . أسّست : أصّلت ، والأساس أصل الحائط . الحُلْوانية والكَرَجِيَّة : منسوبتان إلى حُلوان والكَرَج ، وهما بلدان . ماعدا : ماجاوز . خاطرى : ذهنى . أبو عُذره ، أى أوّل صانع له ، يقال للمرأة : فلان أبو عُذْرِها ، أى أول زوج تزوجها فوجدها عذراء فافتضّها وأزال عُذْرَتها ، أى مابها من صعوبة . مقتضِب . مقتطع . حُلْوه ومُرّه : جيّده ورديئه .

غايات : جمع غاية وهى طَلَق[1] الخيل ، والسّباق منها الذى يجىء أبدا سابقاً .

(١) الطلق : الشوط الواحد فى جرى الخيل .

المتصدّى : المتعرّض . بلاغة : فصاحة ، وأصلها أن يبلغ الإنسان من الكلام والحجة ما أراد .

[ذكر قدامة بن جعفر]

قُدامة ، هو أبو الوليد[1] بن جعفر ، كان بليغاً مجيداً عالماً بأسرار صنعة الكتابة ولوازمها ، وله كتاب يعرف بسرّ البلاغة فى الكتابة ، وترجمته تدلّ على متضمَّنه ، وله تحقيق فى صنع البديع يتميّز به عن نظرائه ، وتدقيق فى كلام العرب يُرْبِى فيه على أكفائه ، وتحذيق فى علوم التعليم أضرم فيها شعلة ذكائه ؛ فلذلك سار المثل ببلاغته ، واتّفق المتقدّم والمتأخر على فضل براعته .

الفُضَالة : البقيّة من الماء وغيره ، وهى ما فَضَل عن الحاجة . واغترفها : أخذها بيده يَسْرِى ذلك المسرَى : يقصدذلك المقصد ، وأصل يسرِى، يسير بالليل .دِلالته : تقدّمه وهدايته ، وتفتح دالها وتكسر ، والفتح أكثر . والدليل بالفلاة : الذى يهدى القوم قصدهم .

* * *

وَلِلّٰهِ دَرُّ القائلِ :

فَلَوْ قَبْلَ مَبْكاهَا بَكَيْتُ صَبَابَةً
بِسُعْدَى شَفَيتُ النَّفْسَ قَبْلَ التَّنَدُّمِ
وَلَكِنْ بَكَتْ قَبْلِى فَهَيَّجَ لِى الْبُكَا
بُكَاهَا ، فَقُلْتُ : الْفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ

* * *

(١) كنيته فى معجم الأدباء ١٨ : ١٢ « أبوالفرج » ، واسمه قدامة بن جعفربن قدامة الكاتب . قال : « كان أحد البلغاء الفصحاء والفلاسفة الفضلاء ؛ وممن يشار إليه فى علم المنطق » .

مبكاها : بكاءها . صَبابة : شوقا هيّج : حَرّك ، والبيتان لعدىّ بن الرقاع ، وقبلهما :

وممّا شجانى أننى كنت نائماً أعلَّل من فرط الكرى بالتنشّمِ [1]
إلى أن دعت ورقاء فى غصن أيكةٍ تُردّد مبكاها بحسن الترنّمِ
فلو قبل مبكاها . . .

[عدىّ بن الرّقاع]

وعدىّ هو أبو زيد بن مالك ، ينتمى إلى معاوية بن الحارث ، وينسب إلى الرّقاع وهو جدُّ جَدّه . وكان شاعراً مقدَّماعند بنى أمية، مدّاحاً لهم ، خاصًّا بالوليد بن عبد الملك ، ومنزله بدمشق ، وهومن حاضرة الشعراء لا مِنْ باديتهم ، وكان من أوصف الناس للمطيّة ، وكذا ذكره صاحب الأغانى [2] فى ترجمته .

وقال نوح بن جرير لأبيه : مَنْ أنسب الناس [3] ؟ قال : ابن الرقاع فى قوله :

لولاَ الحياء وأنَّ رأسى قَدْ عَسَا فيه المشيبُ لزرتُ أمّ القاسمِ [4]
وكأنها بين النّساء أعارها عينيه أحورُ من جآذر جاسمِ
وَسْنَانُ أقصده النّعاس فرنّقتْ فى عينه سِنةٌ وليسَ بنائمِ

* * *

أقرّ الحريرىّ هنا للبديع بالفضل ، وجعله سبّاقا للغايات ، وما أحسن هذا الأدب منه ، مع علمه بفضل مقاماته على مقامات البديع ، ومن أدلّ دليل على ذلك أنه منذ ظهرت مقامات الحريرىّ لم تُستعمَل مقامات البديع ، ثم إنه طبّق استعمالها آفاقَ الأرض، إلا أنه أسرّ هنا شيئاً ،لأنه ختم كلامه ، بأنّ البديع فَضَله بالتّقدّم ؛ وهذا منه مذهب مستحسَن ، ألا تراه كيف بدأ بتجريد الفضل للبديع وحدَه ،

(١) الكامل للمبرد ٣ : ١٢٥ ؛ قال أبو الحسن الأخفش : الصحيح أن الشعر لمصيب .
(٢) الأغانى ٩ : ٣١٠ (٣) الأغانى : « الشعراء »
(٤) الأغانى ٩ : ٣١٣ ، وعسى ، أى اشتد وانتشر .

ثم لم ير لنفسه قدراً فى قوله : « وإن لم يدرك الظّالعُ شأوَ الضليع » ؛ فجعل نفسه كالفرس الأعرج الذى جريُهُ إذا اجتهد دون مشى الصحيح ، وجعل البديعَ كالفرس العتيق الكامل القوّة . ثم لمّا بلغ إلى هذا الموضع بعد أسطار صرّح فى الظاهر للسامع بأنّ البديع سبّاق غايات ، وصاحب آيات ، وأوَى لمن فطن ، أنه إنّما فضّله بتقدّم الزمان . ثم خلط الكلام فى الخفاء بين المتقدّمين والمتأخرين ، ثم تناسى ذلك إلى آخر الكتاب فى السابعة والأربعين ، وصرّح هناك بتفضيل المتأخر على المتقدّم وتفضيله نفسَه على البديع ، حيث يقول :

إن يكُنِ الإسكندرىّ قبلِى فالطّلّ قد يبدو أمامَ الوَبْلِ

* والفضلُ للوابل لا للطَّلِّ *

ولو كان غيره من العلماء المنسوبين إلى سوء الأدب، ورأى فضل مقاماته ، لذمّ البديع ونقص كتابه فكان ينعكس الذمّ عليه ؛ وكذا رأينا فى الغالب مَن ادّعى لنفسه فضلاً ، وازدرى غيره، أنه قلّما يكون إلا ممقوتا ، فلما أظهر الحريرىّ مدحَ البديع ، ووفّاه قسطَه من التفضيل والترفيع ، ولم ينظر إلى نفسه إلا بطرف خفىّ قلّ من يتفطّن له ، ستر الله عليه ورفع صيته ، ووضع لكتابه القبول عند الخاصة والعامة .

فشرّقَ حتى لم يجد ذكر مشرقٍ وغرّب حتى لم يجد ذكر مَغْرِبِ[1]

فلا يذمّ كتابه إلا أحد الرجلين فذين ذكرهما؛ إمّا جاهل ، أو حاسد .

* * *

[القديم والحديث فى الأدب]

ومذهب الناس فى تفضيل الحديث على القديم؛ وأكثرهم على تفضيل القديم ، وقد أحسن حبيب حيث يقول :

نقّلْ فؤادك حيث شئت من الهوَى ما الحبّ إلا للحبيب الأوّلِ[2]

(١) ط : « مغرب ... مشرق » ، والوجه ما أثبته من ا ، ب .

(٢) ديوانه ٤٥٧ .

كم منزلٍ فى الأرض يألفه الفتى وحنينُه أبداً لأوّل منزلِ

وقال :

لاَ زِلْتَ مِنْ شكرِىَ فى حُلّةٍ لابسُها ذو سلَبٍ فاخرِ[1]

يقول من تقرع أسماعَه : ما تركَ الأوّل للآخر

وذكر ابن شرف علة ذلك فقال :

أُولع النّاس بامتداح القديمِ وبذمّ الحديثِ غير الذّميمِ

ليس إلا لأنهم حسدوا الحىّ ومالوا إلى العظام الرّميمِ[2]

وللمتأخرين شعر كثير فى تفضيلهم أنفسهم على المتقدّمين ؛ من أحسنه قول المعرّى :

وإنّى وإن كنتُ الأخيرَ زمانُه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائلُ[3]

وقال ابن عمار :

أنا ابنُ عمار لا أخفى على أحدٍ إلا على جاهلٍ بالشمس والقمرِ

إن كان أخّرنى دهرى فلا عجبٌ فوائدالكتبُ يستلحقْن فى الطُّرَرِ

والّذى ذكر أبو العباس فى الكامل هو الحق ، قال : وليس لِقدم العهد يفضَّل القائل ، ولا لحداثة العهد يُهضم المصيب، ولكن يعطَى كلٌّ ما يستحقّ[4]

[القول فى الحمام]

وأمّا بيت عدىّ فى الحمام ، فالحمام قد كثر ذكر العرب لها فى أشعارها ، ونلمّ هنا بفصل منها ؛ يروى عن علىّ رضى الله عنه أنه اشتكى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحشة فقال له : «اتّخذ حمامةً تؤنسك وتصيب من فراخها ، وتوقظك للصلاة بتغريدها » .

(١) ديوانه ١٤٣ .
(٢) ألف باء ١ : ٥٩ ، ٦٠
(٣) سقط الزند ٥٢٥ .
(٤) الكامل ١ : ٢٩ .

رفع المسهم

ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتخذوا الحمام فإنها تلهى الجنَّ عن صبيانكم »[1] .

وروى جابر رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم كان يعجبه النظر إلى الحمام الأحمر وإلى الأترجّ .

وكان إبراهيم بن سيّار يعجَب بالحمام ، وكان إذا ذكرها يقول : إنّ الله جمع فيها حسنَ المنظر ، وكريم المخبر ؛ تكفيك مؤنتها ، وتكثر لديك معونتها ؛ فهى للطارق عُدّة ، وللمستوطن لذّة ، تطعم فى الصحراء ، وتعود عليك بالسَّرّاء ، ويأنس الوحيد بحركاتها ، وتُغْنيه عن الأوتار بنغماتها ؛ وغيرها من الطير يستعجم وهى ناطقة ، وينفر عنك وهى داجنة ، وفى طباعها سكونٌ إلى الناس واستئناس بهم ، وهى طير عفيف ، يبقى الذَّكَر بعد الأنثى مفرداً ، والأنثى مثل ذلك ، مع شدة اتّفاقهما على المحبّة ، إن طارا طارا معاً ، وإن وقعا وقعا معا ، لها سرعة طيران ، لا تكاد تصيدها سباع الطير إلا بحيلة .

ولم تزل العرب تستحسن تسجيع الحمام وتغريد البلبل والوَرشان ، وقد ذكرت العرب من رقّة تسجيعه ما يبعث التذكّر ، ويولّد الشجون ، ويهيج الأسى ، ويجدّد رقّة القلب ؛ حتى يجعل البكاء فرضاً معها ، والتصابى لازماً لأجلها ، وأعراب وادى القرى إذا ظفروا بشراب الطائف ، أتوا حوائط النخل عند استعلاء الظهيرة ، إذا صارت الوراشين والفواخت إلى تلك الظلال ، فيشربون ويأنسون بتغريدهنّ ، ويقيمون ترجيع أصواتهنّ مقام المزامير والأوتار . وأنا أسوق من المنظوم ما يوافق هذا النثر ، كقول أبى صخر الهذلىّ :

ولمّا دعتْ غَوْريّةُ الأيكَ سَجّعَتْ فسجّع دمعِى يستهلُّ ويستشرِى[2]

---

(١) الجامع الصغير ١ : ٩ ، ولفظه : « اتخذوا هذه الحمام المقاصيص » .
(٢) زيادات شرح أشعار الهذليين ١٣٣١ ، عن الشريشى .

يذكّرني شجوى دعاء حمامةٍ ويبعث لوعاتِ الصَّبابة فى صدرى
بكتْ حزناً رزءَ الهَدِيل وشفَّنى فراقُ حبيبٍ ضاق عن فقدِه صبرى

وأنشد الأصمعىّ فقال :

أيّها البلبـــل المغرّد فى النَّخْـــل غريباً عن أهلِه حَيْرانا
أَفِراقا تشكوه أم ظَلْتَ تدعو فوق أفنـان نخلةٍ وَرَشانا !
هاجَ لى صوتُك المغرّد شجواً رُبّ صوتٍ يهيِّج الأحزانا

وقال آخر :

أحنّ إلى حوائط ذات عِرْقٍ لتغريد الفواختِ والحمَامِ (١)
ألمّ بها بكلّ فتًى كريم من الفِتْيان مخلوع الزِّمامِ

وقال آخر :

إذا غَنَّتْ على الأغصان وُرْقٌ أجَبْنَاها بإعمـال المُـدَامِ

وقال آخر :

سيُغنيك عن مزمارِ آل محرّقٍ ومربعهمْ تغريد تلك الحمائمِ
بأيكة أطيار تجاوبْنَ بالضحى عَلَى باسقاتٍ مائلات نواعِمِ

وأنشد أبو علىّ عفا الله تعالى عنه :

ومن بستان إبراهيمَ غَنّتْ حمائمُ بينها فَنَنٌ رطيبُ (٢)
فقلتُ لها وُقيتِ سهام رامٍ ورقط الريش مطعمها الحبوبُ
كما هيّجت ذا حزن مُعَنًّى على أشجانِه فبكى الغريبُ

وقال نصيب :

لقـد هتفتْ فى جُنح ليلٍ حمامةٌ تبـكّى على إلفٍ وإنى لنائمُ (٣)

(١) ذات عرق : مهل أهل العراق . وهو الحد بين نجد وتهامة ـ ياقوت .
(٢) البيت الأول فى معجم البلدان ٢ : ١٧٠ ، وقال : « وأنشد الأبيوردى لبعضهم » وبستان إبراهيم فى بلاد أسد .
(٣) من أبيات أربعة فى ديوان المجنون . وكذا نسبهما صاحب نثار الأزهار ٧٥ .

رفع المسهم

كذبتُ وبيت الله لو كنتُ عاشقاً ... لَمَا سبقتنى بالبكاءِ الحمائمُ

وأنشد أبو العباس لحميد بن ثور :

وما هاجَ هذا الشَّوقَ إلاَّ حمامةٌ ... دعت ساق حرٍّ ترحةً وترنُّما[1]

مُحَلَّأةُ طوقٍ لم يكن من تميمةٍ ... ولا ضربَ صَوّاغٍ بكفّيه درهما

تَغَنَّتْ على غصنٍ عِشاءً فلم تَدَعْ ... لنائحةٍ فى نوحها متلوَّما

إذا حرّكَتْهُ الريح أو مال ميلةً ... تغنَّتْ عليه مائلا ومُقَوَّما

عجبت لها أنَّى يكون غناؤها ... فصيحاً ولم تَفْغَرْ بمنطقها فَما

فلم أرَ مثلِي شاقَه صوتُ مثْلِها ... ولا عَرَبيًّا شاقه صوت أعجما

وقال حبيب :

لتضعضعت عبراتُ عينك أن دعَتْ ... ورقاء حين تضعضع الإظلامُ[2]

لا تشجَيَنَّ لها فإن بكاءها ... ضحك وإنَّ بكاءك استغرامُ

هنّ الحمام ، فإن كسرتَ عِيافةً ... من حائِهنّ فإنّهنَّ حِمامُ

وسمع حبيب بخراسان غناء بالفارسية ، فلم يدر ما هو،غير أنه شوّقه فقال :

حمِدْتُكَ ليلة شَرُفت وطالتْ ... أقام سهادُها ومضَى كَراها[3]

سمعتُ بها غناءً كانَ أولى ... بأن يقتاد نفسِى مِنْ عَنَاها

ومسمعةً يحارُ السمعُ فيها ... ولم تصمِمْه لا يصممْ صَدَاها

---

(١) الكامل ٣ : ١٢٤ ، قال : « أما قول حميد : دعت ساق حر ؛ فإنما حكى صوتها » . وفى شرح الديوان : هو ذكر القمارى . وبعده فى الكامل :

إذا اشتُ غَنَّتْنى بأجزاعِ بيشةٍ ... أو النَّخل من تثليث أو بيلملما

مطوقة خَطْبَاء تَسْجَعُ كُلَّمَا ... دَنَا الصَّيْفُ وانجاب الربيعُ فأنْجَمَا

انجال : أقلع . وانظر ديوان حميد ٢٤ ـ ٢٧ .

(٢) ديوانه ٢٧٩ وروايته « انحدرت » .

(٣) ديوانه ٤٦٧ ، وروايته :

شَكَرْتُكِ ليلةً حسنتْ وطلبتْ ... أقام سرورها ومضَى كراها

ولم أفهم معانيها ولكنْ وَرَتْ كبدى فلم أجهل شَجَاها
وظَلْتُ كأننى أعمَى معنًّى يحبُّ الغانيات ولا يَرَاها

يعنى بهذا الأعمى بشاراً حيث يقول :

ياقوم أذْنى لبعضِ الحىّ عاشقةٌ والأذن تعشق قبل العين أحيانَا[1]
قالوا بمن لاترى تهذِى! فقلت لهم: الأذن كالعَيْنِ تُوفِى القلب ما كانا[2]

* * *

وَأَرْجُو أَلَّا أَكونَ فِى هَذا الْهَذَرِ الَّذِى أَوْرَدْتُهُ ، وَالْمَوْرِدِ الَّذِى تَوَرَّدْتُه ، كَالْباحِثِ عَنْ حَتْفِهِ بِظِلْفِهِ ، وَالْجَادِعِ مَارِنَ أَنْفِهِ بِكَفِّهِ ، فَأَلْحَق بِالْأَخْسَرِينِ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا .

* * *

قوله : « الهذر الذى أوردته » ، أى الإكثار الذى أتيتُ به ، وقد تقدّم المورد[3] . وتورّدته : اقتحمته. الباحث : المفتش ، والظّلف: للبقر والغنم كالحافر للخيل والحمير . وهذا مثل للعرب : وذلك أن ماعزة كانت لقوم ،فأرادوا ذبحها فلم يجدوا شَفْرةً ، فنبشت بظلفها فى الأرض ، فاستخرجت منها شفرة ، فذبحوها بها ، وقالوا : بحثتْ عن حتفها بظلفها ، فسارت مثلا .وقال الشاعر :

وكانتْ كعنز السوء قامت بظلْفها إلى مُدية تحت الثَّرى تستثيرُها[4]

---

(١) الأغانى ٣ : ٢٣٨ .
(٢) توفى ، أى تبلغ.
(٣) صفحة ١٨ من هذا الجزء
(٤) للفرزدق ، ديوانه ٧١ ، وروى أبو عبيد قبله :
وكان يُجير النَّاسَ من سيفِ مالكٍ فأصبح يبغى نفسه مَنْ يجيرُها

وقال أبو الأسود :

فلا تكُ مثل التى استخرجت بأظلافها مُدْيَةً أو بِفِيهَا[1]
فقامَ إليهـا بها ذابحٌ ومَنْ يَدْعُ يوماً شَعوباً يَجِيهَا[2]

ولفظ المثل عند أبى عبيد « كالعنز تبحث عن المدية »[3] والجادع : القاطع الأنف. والمارن : طرَف الأنف ، وأراد به قصيراً مولى جذيمة الأبرش. وقد ذكرنا قصته فى شرح الرابعة والعشرين. ورجا المصنف ألاّ يدركه من الضرر ما أدركا[4] من الضّرر حين جنيا على أنفسهما وانتفع غيرهما . ضلّ سعيهم : خابت أعمالُهم ، وأصل ضلّ ، تحيّر فلم يدر أين يتوجّه ، وأصل السعى المشى بسرعة . سمع أعرابىّ رجلا يقرأ ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴾ ، فقال: أنا أعرفهم ، قيل له : ومن هم ؟ قال : الذين يبرّدون ويأكل غيرهم .

* * *

عَلَى أَنِّى وَإِنْ أَغْمَضَ لِى الْفَطِنُ الْمُتَغَابِى ، وَنَضَحَ عَنِّى الْمُحِبُّ الْمُحَابِى ، لاَ أَكَادُ أَخْلُصُ مِنْ غُمْرِ جَاهِلٍ ، أَوْ ذِى غِمْرٍ مُتَجَاهِلٍ ، يَضَعُ مِنِّى لِهَذَا الْوَضْعِ ، وَيُنَدِّدُ بِأَنَّهُ مِنْ مَنَاهِى الشَّرْعِ .

وَمَنْ نَقَدَ الأَشْيَاءَ بِعَيْنِ الْمَعْقُولِ ، وَأَنْعَمَ النَّظَرَ فِى مَبَانِى الأُصولِ ، نَظَمَ هَذِهِ الْمَقَامَاتِ ، فِى سِلْكِ الإِفَادَاتِ ، وَسَلَكَهَا مَسْلَكَ الْمَوْصُوعَاتِ ، عَنِ الْمَجْمُوعَاتِ وَالْجُمَادَاتِ .

* * *

(١) ديوانه ٢٢ (ضمن مجموعة نفائس المخطوطات) .
(٢) رواية الديوان : « ومن يدع يوما شعوب » ، والشعوب : علم على المنية .
(٣) فصل المقال ٢٨٨ . (٤) كذا فى ا وفى ط: « أدركهما » .

أغمض : سامح وسدّ عينيه عمّا لم يرض. والفطِن : الذكيّ . المتغابى: المتحاهل عن الشيء وهو عارف به ، وهو مما يُحمَد به الرجل ، قال حبيب :

ليس الغبيّ بسيّد فى قومِه لـكنّ سيّد قومه المُتغابِى(١)

ونَضَح بالماء : غسل. المحابى : الذى يفضّلنى على غيرى ، وحبانى: اختصّنى بالعطيّة ، وأصل حاباه أن تعطيَه ويعطيك ، وقد يكون فى معنى «حَبَاه» . الغُمْر : الجاهل ذِى غِمْر: صاحب عداوة . متجاهل : مستعمل للجهل وهو على خلافه ؛ يقول: إن سدّ عينيه عن عيبى فَطِنٌ ذو عقل ،أو تغابى حين يبصر لى خطأ ، أو رأى لى ذلك العيب محبّ ، فجعل يغسله عنّى لمحبته لـكلامى ؛ فلا أخلص مع ذلك ، إمّا من جاهل يعيب مالا يفهم، أو من عارف يُظهر لى عداوة وحسداً، فيردّ حسَنى قبيحاً ، وهو عارف بحسنى ؛ فيشيع فى الناس أنّ المقامات أكاذيب ، وهو عارف بفضلها وماقصِد بها .

[من أقوالهم فى الحقد مدحا وذمًّا]

والغِمْر : الحقد ، وصاحبه مذموم ، ولا أعرف من تعرّض من الفصحاء لمدح حامله سوى مايحكى أن عبد الملك بن صالح جىء به إلى الرشيد فى قيوده ، فقال له ابن خالد ـ وأراد أن يبكّته : بلغنى أنك حقود ، فقال عبدالملك : أيها الوزير ، إن كان الحقد هو بقاء الخير والشر ؛ إنهما لباقيان فى صدرى ـ وفى رواية أخرى : إنما صدرى خِزانة تحفظ ما استودعت من خير أو شرّ ـ فقال الرشيد : والله مارأيت أحدا احتجّ للحقد بمثل ما احتجّ به عبد الملك ، ففتح الباب لابن الرومىّ ، فقال يخاطب بعض من عابه بالحقد:

لئن كنتُ فى حفظى لما أنا مودَعٌ من الخير والشرّ انتحيت على عرقى

(١) ديوانه ، الورقة ١٥٤ مخطوطة دار الكتب رقم ١٢٩ ـ أدب

لَمَا عِبْتَنِي إلاَّ بفضـــل أمانةٍ ورُبّ امرئٍ يُزرِى على خُلُقٍ محضِ[1]

ولولا الحُقود المستكنّات لم يكن

لينقض وترا آخرَ الدَّهْرِ ذو نقضِ

وما الحقدُ إلّا توءم الشُّكْرِ فى الفَتَى

وبعض السجايا ينتسبن إلى بعضِ

فحيثُ ترى حِقْداً على ذى إســاءة

فثَمَّ ترى شُكْراً على حَسَنِ العَوْضِ

ثم رجع إلى الطريقة المثلى، فانتحل المذهب الأعلى، وقال يعيبه، ضاربا بسهم البلاغة فى الوجهين :

يامادح الحقد محتالا له شَبَهـاً لقد سلكت إليه مسلكاً وَعِثَا[2]

يادافنَ الحِقْد فى ضِغْنٍ جوانِحِه ساء الدَّفين الذى أضحتـله جَدَثَا

الحِقْدُ داءٌ دوِىٌّ لادَوَاء له يَرِى الصدور إذا ماجَمْرُه حُرِثَا

فاستشفِيَنْهُ بصفحٍ أو محادثة فإنما يُبْرَأ المصدور ما نَفَثَا

إنّ القبيح إذا أصلحت ظاهِرَه يعود ما لمّ منـــه مَرّةً شَعِثَا

كم زَخرف القولَ ذو زورٍ ولَبَّسَهُ على العقول ولـكن قلّما لبِثا

* * *

قوله: « يضع منّى » أى يحطّ من منزلتى. الوضع: الكتاب. يندّد: يشهر العيب، وندّد به، إذا أسمعه المكروه. نقد الأشياء: فتّش وبحث عليها. المعقول = العقل. أنعم: بالغ. وأصل النّظم جعل حبّات الجوهر فى خيطها وضمّها فيه لغيرها، ثم سُمّى بيتُ الشعر نظما، لأن الكلام فيه ملتصق بعضه ببعض كحبّ الجوهر =

(١) الديوان: « إلا بما ليس عائى . . وكم جاهل يزرى » .
(٢) ديوانه الورقة ٤٥ ، مخطوطة دار الكتب ١٢٩ ـ أدب .

والبيت يضمه كالخيط ، والسلك : خيط الجوهر . والإفادات : الفوائد . سلَك: قصد. الموضوعات: الكتب المؤلفة ، أى أدخلها مدخل هذه الكتب. العجماوات: البهائم ، وسمّيت واحدتها عجماء لأن صوتها لا يُفهم منه معنى . والجمادات : ما عدا الحيوان ، وأراد ما أُلِّفَ من الكتب مما لا حقيقة له فى الظاهر ، وقد ضُمِّنَ الحِكَم الشافية فى الباطن ،مثل كتاب كليلة ودمنة وغيره مما ألف على ألسنة ٨
مالا عقل له ولا روح . وكذلك المقامات ، وإن كان ظاهرها كذبا فالقصد بها تمرين الطالب وتهذيبه وتذكية عقله ، وأن يكتسب تجارب الدّنيا من حكايات السَّروجىّ ، فيكون متنبّهاً لما يطرأ عليه من النَّوازل ، فتؤمن على عقله الغفلة ٩
والخديعة ، إلى ما ينضاف إليه من تعليم صنعة الكتابة والشعر ، فإنّها أعون شىء عليها .

[مما روى من الحكم على ألسنة البهائم وغيرها]

ومما يحكى على ألسنة البهائم ما جاء فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: بينا راع فى غنم إذ عدا عليها الذئب ، فأخذ شاة منها ، فطلبه الراعى منه حتى استنقذها ، فالتفت إليه الذئب وقال : من لها يوم السَّبُع ، يوم ليس لها راع غيرى ! »(١) .

بينما رجل يسوق بقرة له قد حمل عليها ، فالتفتت إليه البقرة فكلّمته فقالت: أنا لم أُخلَق لهذا ، وإنما خلقت للحرث ، فقال الناس: سبحان الله ! تعجبا وفزعاً ؛ أبقرة تتكلم ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فإنى مؤمن بذلك أنا وأبو بكر وعمر »(١) .

السَّبُع ، بسكون الباء : أرض المحشر والسبع : الفزع.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود وحتى يختبىء اليهودىّ وراء الحجر فيقول الحجر :ياعبدَ الله، يا مسلم هذا يهودىٌّ ورائى فاقتله »(٢) .

(١) صحيح مسلم ١٨٥٧ ، ١٨٥٨ (٢) صحيح مسلم ٢٢٣٩

قالوا. خرج أسد وذئب وثعلب يتصيّدون، فاصطادوا حمار وحش وغزالا وأرنبا، فقال الأسد للذئب : اقسم بيننا هذا ، فقال : الحمار للملك ،والغزال لى، والأرنب للثعلب؛فرفع الأسد يده فضربه ضربة ، فإذا هو مجدّل بين يديه .ثم قال للثعلب : اقسمها ،فقال : الحمار يتغدّى به الملك ، والغزال يتعشى به ، والأرنب بين ذلك ، فقال الأسد :ويحك ما أقضاك! مَنْ علّمك هذا القضاء ؟ قال : رأس هذا الذئب .

وحدّث الشعبيّ ، قال : صادرجل قُبّرةً ، فقالت :ماتريدأن تصنع بى ؟ قال: أذبحك وآكلك ، فقالت : والله ما أُشبِع من جوع ، وخير لك من أكلى أن أعلّمك ثلاث خصال : واحدة وأنا فى يدك ، والثانية وأنا على الشجرة ، والثالثة وأنا على الجبل ؛ قال : هاتى: قالت: لاتلهفنّ على مافات، فخلّى سبيلها، فلماصارت على الشجرة قالت : لا تصدّقنّ بما لا يكون أنه سيكون ، فلما صارت على الجبل قالت له : ياشقيّ لو ذبحتنى أخرجت من حوصلتى درّتين ، كلّ واحدة عشرون مثقالاً ، قال : فعضّ الرجل على شفته تاسّفاً ، ثم قال:هاتى : الثالثة ،فقالت : أنت قد نسيت ثنتين فكيف أخبرك بالثالثة ! ألم أقل لك : لا تلهفنّ على ما فات ، ولا تصدّقن بمالا يكون أنه سيكون! أنا ولحمى ودمى وريشى لايكون فىّ عشرون مثقالا، فكيف يكون فى حوصلتى درّتان كلّ واحدة عشرون مثقالا! ثم طارت وذهبت . وأمثال هذه الملَح أكثر من أن تحصى .

* * *

وَلَمْ يُسْمَعْ بِمَنْ نَبَا سَمْعُهُ عَنْ تِلْكَ الْحِكَايَاتِ ، أَوْ أَنَّهُ رَوَاهَا فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ .

ثُمَّ إِذَا كَانَتِ الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَبِهَا انْعِقَادُ الْعُقُودِ الدِّينِيَّاتِ ، فَأَيُّ حَرَجٍ عَلَى مَنْ أَنْشَأَ مُلَحًا لِلتَّنْبِيهِ ، لَا لِلتَّمْوِيهِ ، وَنَحَا بِهَا مَنْحَى التَّهْذِيبِ ، لَا الْأَكَاذِيبِ ! وَهَلْ هُوَ فِي ذَلِكَ إِلَّا بِمَنْزِلَةِ مَنِ

انْتَدَبَ لِتَعْلِيمٍ ، أَوْ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ !

عَلَى أَنَّنِي رَاضٍ بِأَنْ أَحْمِلَ الْهَوَى وَأَخْلُصَ مِنْهُ ، لاَ عَلَيَّ وَلاَ لِيَا

قوله : «نبا سمعُه» أى ارتفع ، وأصله فى السَّيْف إذا ارتفع فلم يمض فى الضربة . أثَّمَ : جعلهم أصحاب إثْم . انعقاد العقود ، أى ارتباط العقائد . حرج : إثم ، وأصل التحريج التضييق . للتنبيه ، أى لينبّه به الغافل الذهنَ فيجعله حاضر الخاطر . نحا منحى : قصد مقصد . التهذيب : التلخيص ، وهذّبت الحالب : أخرجته وخلّصته ، ورجل مهذّب : مخلّص من العيوب . ويروى : ندب وانتدب ، فندب دعا ، وانتدب أجاب . وهدى : أرشد . صراط مستقيم : طريق معتدل ، ومَنْ فعل ما ذُكر مأجور غير آثم ، لكنّه مع هذا رضىَ أن يخلص ممن يتكلم فى كتابه بتعييب ، وأن يخرج من هذا الكتاب كفافاً لا أجر ولا وزر ؛ بل نرجو له الأجر على نيّة الإفادة والتعليم ، إن شاء الله تعالى .

* * *

وَبِاللهِ أَعْتَضِدُ ، فِيمَا أَعْتَمِدُ ، وَأَعْتَصِمُ بِمَا يَعِيمُ . وَأَسْتَرْشِدُ ، إِلَى مَا يُرْشِدُ ؛ فَمَا الْمَفْزَعُ إِلاَّ إِلَيْهِ ، وَلاَ الاِسْتِعَانَةَ إِلاَّ بِهِ ، وَلاَ التَّوْفِيقُ إِلاَّ مِنْهُ ، وَلاَ الْمَوْئِلُ إِلاَّ هُوَ ؛ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ، وَبِهِ نَسْتَعِينُ ، وَهُوَ نِعْمَ الْمُعِينُ !

رفع المسهم

أعتضد : أستعين. أعتمد : اقتصد . أعتصم : أمتنع. يصم ، يعيب . أسترشد: أستهدى . يرشد : يهدى ويدلّ على الخير . والمفزع: الملجأ ، وكذلك الموئل . وتقول: فزعتُ إلى فلان ، إذا لجأتَ إليه واستعنْتَ به ليحميَك ويمنعك، وفزعت منه : خفته ، والمفزع الذى ذكره مصدر بمعنى الفزع . وتقول : وألت من ذلك ، إذا نجوتَ منه ، وأنت موئلى منه ، أى الذى تنجّينى منه . والمفزع : الموئل والحصن ، تفزع إليه فينجيك من طالبك . أنيب : أرجع . والإنابة : الرجوع إلى الله تعالى والتوبة إليه .

المقامة الأولى وهي الصنعانية

حدّث الحارث بن همّام قال : لَمَّا اقْتَعَدْتُ غَارِبَ الاغْتِرَابِ ، وَأَنَأْتنِي الْمَتْرَبَةُ عَنِ الْأَتْرَابِ ، طَوَّحَتْ بِي طَوَائِحُ الزَّمَنِ ، إِلَى صَنْعَاءِ الْيَمَنِ ، فَدَخَلْتُهَا خَاوِيَ الْوِفَاضِ ، بَادِيَ الإِنْفَاضِ ؛ لَا أَمْلِكُ بُلْغَةً ، وَلَا أَجِدُ فِي جِرَابِي مُضْغَةً .

* * *

إن قيل : لأيّ معنى اختار الحريريّ حارثاً وهماماً وأبا زيد، دون غيرهم من الأسماء ؟ فالجواب أنه إنما قصدهم لأنهم أصدق الأسماء، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث المرفوع : « تَسَمَّوْا بأسماء الأنبياء ، وأحبُّ الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن ، وأصدقها حارث وهمام ، وأقبحها حرب ومرّة »[1] . وصدْقهما أنه ليس أحد إلا وهو يحرث ، أى يحاول الكسب أو يهمّ بحاجته .

وأما أبو زيد ، فإن صدَق أنه إنسان بعينه كما تقدّم فى الصدر وقع الاكتفاء به ، وإن لم يصدق فقد حكى أهل اللغة أنه كنية الكبَر ، وأنشد ابن قتيبة :

أعار أبو زيد يميني سلاحَه وحدُّ سلاح الدَّهر للمرء كالمُ[2]

وكنتُ إذا ما الكلب أنكر أهله أفدّى، وحين الكلب جذلان نائمُ

سلاحه : العصا. وإنكار الكلب أهله، إذا لبسوا السلاح. وجذلان نائم، فى الجدب إذا ماتت المواشى فيشبع من لحومها وينام . وقال ابن الأعرابىّ: يقال للشيخ الكبير: أبو زيد وأبو سعيد. والسَّروجىّ فى الغالب إنما يصفة بالكبَر والهرم .

(١) نقله فى الجامع فى الصغير ١ : ٢٢٤

(٢) مايعوّل عليه ، مصورة بمكتبة المجمع اللغوى الورقة ٢٠١ .

رفع المسهم

فوقعت التسمية لغوية، وإنما عنَى بالحارث بن همام نفسه، لأنه يصفه بأشياء لاتليق إلا بالدهر، مثل قوله :

وكل سرحٍ فيـــه ذئبى عائثُ حـــتى كأنى للأنام وارثُ

* سامُهم وحامهم ويافثُ *

ومثل قوله :

ووترت أرْبابَ الأرا ئك والدَّرَانِك والسّجُوفِ

وهى كثيرة ، وفى الحسين له كلام لا يليق إلا بالدّهر، فجعل أخْذَ الحارث من أبى زيد، كناية عن علم الحريرىّ بماجرّب من صروف الدهر .

قوله : «اقتعدت» أى ركبت ، وأصله اتخذت قُعدة أو قَعودًا ، وهما اسمان للبعير يقعد عليه راكبه . والغارب : مقدّم سنام البعير . والاغتراب والغربة : التحوّل فى البلدان والبعد عن الأوطان ، وسيأتى ما أصلهما ، وأراد : لما اتّخذت ظهر الغربة قَعودًا. أنأتنى : أبعدتنى . المتربة : الفقر . الأتراب : الأصحاب على سنن واحد . طوّحت: رمت .

وطوائح : نوائب ؛ تقول : طوّحتُ بالرجل ، إذا رميت به إلى الهلاك ، وقياس الطوائح المطاوح لأنك تقول : طوّحت فهى مطوّحة والجمع مطوّحات ومطاوح . قال أبو عبيد : جاءت الطوائح على حذف الزيادة ، وردّ الفعل إلى أصله ، فإنه من طاحت فهى طائحة ، والجمع طوائح ، قال أبو عمرو الشيبانىّ : جاءت على النَّسب ، مثل لابن وتامر، أى ذو لبن وذو تمر وذات تطويح ، قال الشاعر :

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومةٍ ومختبِطٌ مِمّا تُطيحُ الطَّوائحُ[1]

ومثله ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾[2] : تقديره ملاقح ، لأنك تقول : ألقَحَت الريح السحاب إذا جمعته وألقته . وضارع مرتفع بمضمر تقديره : يبكيه ضارع ، وهو الذليل .

* * *

[مدينة صنعاء]

صنعاء ، بلد باليمن ، وأضافها إلى اليمن ، لأنّ ثَمّ صنعاء أخرى ، وهى قرية بدمشق . وكان اسم صنعاء فى القديم « أزال » ، قال ابن الكلبيّ والشرقى[3] : ولما وافتْها الحبشة قالوا : نعم ، فسمّى جبلها نعم[4] أى انظر ، فلما نظروا إلى مدينتها ورأوْها حصينة مبنية بالحجارة قالوا : هذه صنعاء ، وتفسيرها هنيّة ، فسمّيت صنعاء[5] .

وحكى الهَمَذانىّ قال : وأهل صنعاء يقولون فى الإسلام : إنّها القرية المحفوظة ، وأنهم سمعوا هاتفاً يقول فى بعض أيام مَنْ حاربهم : كلٌّ عليكِ يا أزال ، وأنا أتحنن عليك !

وأقدم قصور اليمن وأنبهها ذكْراً ، وأبعدها صيتاً غُمدان وقصر أزال ، وهى صنعاء .

---

(١) لنهشل بن حرى ؛ فى مرثية له ؛ وهو من شواهد الكتاب على أن الفعل المسند إلى ضارع « حذف جوازا ، أى يبكيه ضارع . خزانة الأدب للبغدادى ١ : ١٤٧ .

(٢) سورة الحجر ١٥ .

(٣) هو الشرقى بن القطامى ، واسمه الوليد والشرقى لقب له.

(٤) فى ياقوت : « نعم ، أحد حصون اليمن » .

(٥) فى ياقوت : « قالوا : هذه صنعة ، ومعناها حصينة » .

رفع المسهم

والذى أسس غُمدان وابتدأ بنيانه،واحتفر بئره الذى هو اليوم سِقاية لمسجد جامع صنعاء،سامُ بن نوح عليه السلام، على مايذكره علماء صنعاء واليمن ، وذلك أنّه لمّا مات نوح اجتوى بعده السكنى فى الأرض الشماليّة ، فأقبل طالعاً فى الجنوب يطلب أطيب البلاد ، حتى صار إلى الإقليم الأوّل ، فوجد اليمن أطيبه مسكناً ، وصنعاءَ أطيبَ اليمن ، فوضع مقراته — وهى الخيط الذى يقدّر به البناء ويبنَى على حدّه — فوضع الأساس فى ناحية فجّ غُمدان فى غربىّ الجبل ، وهو اليوم معروف بصنعاء ، فلمّا ارتفع بعث الله طائراً ، فاختطف المقراة فطار بها ، وتبعه سام ، لينظر أين يقع ؛ فأمّ بها جنوب النَّعم من سفح نعم ، فوقع بها ، فلما اتّبعه طار بها ، وطرحها على حَرّة غمدان ، فلمّا قرّت ،علم سام أنه قد أُمِرَ بالبناء هنالك ؛ فأسس غُمدان،واحتفر بيده بئره المسمّى كرامة ، ويُستقَى منها إلى اليوم لكنها أجاج[1] .

خاوى الوفاض : فارغ المزاود ، ويقال : خوّى الرّجل ، إذا سجد فترك بين جسده وبين الأرض خواء ، وخَوّى البعير : بَرَكَ على هذه الحال . والوِفاض: جمع وَفْضة وهى شِبْه الجراب ، وهى أيضاً كنانة السهام إذا كانت من جلد لا من خشب ، فإن كانت من خشب مجلّد أو غير مجلّد فهى كنانة أو جُعْبة .

ابن سيده فى المحكم: الوفضة خريطة يحْمِل فيها الراعى أداته وزاده. والوَفْضة: جُعْبة السهام . قال أبو منصور الأزهرىّ معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم « أنّه أمر بصدقة [أن] توضع فى الأوفاض » :[2] إنهم أخلاط الناس. قال الفراء : هم أهل الصُّفّة . أبو عبيد: هذا كلّه عندنا واحد ؛ لأنّ أهل الصُّفّة أخلاط من قبائلَ شتّى ، ويمكن أن يكون مع كلّ واحد منهم وَفْضة ، فعلى هذا مَنْ قصر الوَفْضة

(١) معجم البلدان ٤ : ٣٨٦ .

(٢) النهاية لابن الأثير ٥ : ٢١٠ ، قال فى شرحه : « هم الفرق والأخلاط من الناس » .

على الجُعْبة ، وخطَّأ الحريريَّ بأنّ الزاد لا يكون فى الجُعْبة ، فهو المخطئ والجاهل باتساع اللغة . بادى الإنفاض : ظاهر الفقر ، وقد أنفض ، إذا فنى زاده . وأنفضَ الجراب إذا انتفض وسقط ما فيه من بقية الزاد ، ومنه قولهم : النُّفاض يُقطِّر الجلَب[1] ، أى فناء زادهم يجعل إبلَهم قطاراً ، أى مربوطة بعضها خلف بعض ، تساق إلى السوق فتباع ، فيأكلون ثمنها ، قال الهذلىّ :

لَه ظَبْيـــةٌ ولَهُ عُـكَّةٌ إذا أنفضَ القوم لم ينفضِ[2]

ظَبية : جَريب صغير من جلد ظبى . بُلْغة : زاد للمسافر يبلغ به من يومه إلى غده . الجراب : وعاء من جلد يصنع للزاد . مُضْغة : لقمة .

* * *

فَطَفِقْتُ أَجُوبُ طُرُقَاتِهَا مِثْلَ الهَائِمِ ، وَأَجُولُ فِي حَوْمَاتِهَا جَوَلاَنَ الحَائِمِ ، وأَرُودُ فِي مَسَارِحِ لَمَحَاتِي ، وَمَسَايِحِ غَدَوَاتِي وَرَوحَاتِي ، كَرِيمًا أُخْلِقُ لَهُ دِيبَاجَتِي ، وَأَبُوحُ إِلَيْهِ بِحَاجَتِي ، أَوْ أَدِيبًا تُفَرِّجُ رُؤْيَتُهُ غُمَّتِي ، وَتُرْوِى رِوَايَتُهُ غُلَّتِي ؛ حَتَّى أَدَّتْنِي خَاتِمَةُ المَطَافِ . وَهَدَتْنِي فَاتِحَةُ الإِلطَافِ[3] ، إِلَى نَادٍ رَحِيبٍ ، مُحْتَوٍ عَلَى زَحَامٍ وَنَحِيبٍ ، فَوَلَجْتُ غَابَةَ الجَمْعِ ، لِأَسْبُرَ مَجْلَبَةَ الدَّمْعِ ، فَرَأَيْتُ فِي بُهْرَةِ الحَلْقَةِ ، شَخْصًا شَخَتَ الخِلْقَةِ ، عَلَيْهِ

---

(١) مثل ، ذكره صاحب اللسان ، وقال فى شرحه : « يقول : إذا ذهب طعام القوم أو ميرتهم قطروا إبلهم التى كانوا يضنون بها ، فجلبوها للبيع فباعوها واشتروا بثمنها ميرة » .

(٢) لأبى المثلم الخزاعى . شرح ديوان الهذليين ٣٠٥ . العكة : النحى الصغير . وأنفضوا : ذهب ما عندهم .

(٣) متن المقامات : « الألطاف » ، بفتح الهمزة .

أُهْبَةُ السِّيَاحَةِ ، وَلَهُ رَنَّةُ النِّيَاحَةِ ، وهُوَ يَطْبَعُ الأَسْجَاعَ بِجَوَاهِرِ لَفْظِهِ ، وَيَقْرَعُ الأَسْمَاعَ بِزَوَاجِرِ وَعْظِهِ ، وقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ أَخْلاَطُ الزُّمَرِ ، إِحَاطَةَ الهَالَةِ بِالْقَمَرِ ، والأَكْمَامِ بِالثَّمَرِ ، فَدَلَفْتُ إِلَيْهِ لأَقْتَبِسَ مِنْ فَوَائِدِهِ ، وَأَلْتَقِطَ بَعْضَ فَرَائِدِهِ ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ حِينَ خَبَّ فِي مَجَالِهِ ، وهَدَرَتْ شَقَاشِقُ ارْتِجَالِهِ :

* * *

طفقت : أخذت وجعلت ، ومعناها ابتداء الفعل والدّخول فيه . أجوب : أقطع وأخرق ، وجَوْب الأرض : قطعها بالمشى . الهائم : الحيران . أجول : أتصرّف . حوماتها : جهاتها . الحائم : الطائر العاطش يحوّم حول الماء ، أى يدور به . أرود : ألتمس المسارح : مراعى البهائم . لَمَحاتى : نظراتى ، يريد المواضع التى يسرِّح عينيه فيها بالنظر . مسايح : مسالك ، أراد طُرَقَه التى يسير فيها بالمشى بالغدوّ والعشىّ ، والسَّيْح : الماء الجارى على وَجْه الأرض ، وتكون المسايح أيضا جمع مَسِيحة أو مَسْحَة ، وهى الطَّوْفة ، من قولك : مسحت البيت ، أى طفت به ، فيكون على هذا «فعائل» ميمها أصلية ، وعلى الأول «مفاعل» . أُخلِق : أهين . ديباجتى : جلدة وجهى ، يريد أنه يخلق وجهه بالمسألة كما يخلق الثوب ، وهذا من قول النبى صلى الله عليه وسلم : «المسألة كدوح وخدوش فى وجه صاحبها» ، وقوله صلى الله عليه وسلم : «لا تزال المسألة بالرّجل حتى يلقى الله عز وجل ، وما على وجهه مَزْعة لحم» ، أى قطعة . أبوح : أذكر . حاجتى : فقرى . تفرّج : تزيل . غُمَّتى : غمّى ومايضيق نفسى . غُلَّتى : عطشى . أدّتنى : أوصلتنى . خاتمة المطاف : آخر المشى . هدتنى : دلّتنى . والإلطاف : حسن السؤال وفاتحته ، أراد به سؤال مَنْ تَلْقَى فى الطريق إذا دخلت بلداً غريبا ، فإذا سألت بتلطّف أرشِدْت بسرعة ، فسؤالك هو الذى فتح لك الطريق . ويقال:

لطَف سؤال الرّجل ، إذا رقّ لفظه ولم يكن فيه جفاء ، فتقبله القلوب ، وألطف الرجل سؤالَهُ، إذا سألك بحنان وتلطّف، واللطف الرفق ، وألطفتك أيضا: بَرَرْتك وأكرمتك، فالإلطاف مصدر ألطف ، ويروى : «الألطاف» جمع لُطْف وهو الرّفق ، يقال: لطف الله بالعباد لُطْفاً، رَفَق بهم رفقاً ، وهو راجع إلى الأوّل . نادٍ : مجلس . رحيب : واسع . محتو : مشتمل . نحيب : بكاء . ولجت : دخلت . غابة الجمع : وسط الناس، وأصل الغابة الشجر الملتفّ يغيب فيه مَنْ يدخله . لأسبُر : لأفتّش ، وأراد دخلت بين الناس لأجرّب وأعرف ما الذى أبكاهم وجلب دموعهم . ويروى، «مَحْابة» بالحاء ،وهى من الحلْب، يقال: انحلبت عينه ، إذا سالت بالدمع . بُهْرة : وسط . شَخْت : دقيق ورقيق ، والشَّخْت : الحطب الرقيق . أهْبة السياحة : آلة العبادة، وهى مثل العصا وركوة الماء وثياب الصوف وغير ذلك . يطبع الأسجاع، أى يرتبها ويصنعها ، تقول: طبعت الدرهم والسيف إذا صنعتهما ، وطبعت الكتاب إذا ختمته، وكانت الملوك تكتب فى فصوص خواتمها « لا إله إلا الله» و «الملك لله» وتطبع بذلك كتبها، وهذا المعنى أليق بطبع الأسجاع، أى يزينها ويختمها بجواهر كلامه ، ومن روى «لجواهر » باللام فعلى « يصنعها » لا غير ، والتفسير على الروايتين أخذته عن أبى ذرّ . والأسجاع الكلام المقفّر، له قافية كقافية الشعر، وكان من كلام الكهّان، وهذه الموعظة التى فى المقامة من الأسجاع ، وسجعت الحمامة ، إذا غنّت على طريقة واحدة . يقرع : يضرب. الأسماع : الآذان . زواجر : نواهٍ ، وزجره : نهاه وانتهره . أحاطت : حلّقت : أخلاط : أصناف مختلطون. الزُّمَر : الجماعات. الهالة : الدارة حول القمر من نوره، والطّفاوة: الدارة حول الشمس، والساهور : هو غلاف القمر الذى يستتر فيه ما نقص منه. الأكمام : جمع كِمّ ،وهو الغلاف الذى ينشقّ عن الثمر ويحيط به. وسُمِّىَ كِمًّا لأنه يستر ما تحته، والأكمام : جمع قليل ، والكثير كمام . والثمر حمل الأشجار . دلفت : قربت ، ودلف الشيخ فى مشيته، إذا أسرع من ضعف فقارب خطوه. اقتبس من فوائده :

التمس وطلب أخذها واكتسابها . والفرائد : شذور الذهب تفصل مابين الجوهر. خبّ فى مجاله : أخذ فى كلامه ، والخبّ عدوٌ سهل، وهو الذى تسميه العامة السير، وفرس مسيار . والمجال للخيل : موضع تصرّفها وجريها . هدرت : صوّتت . شقاشق : جمع شقشقة، وهى النُّفاخة يخرجها فحلُ الإبل من حلقه عند هياجه ورغائه، ويرجع فيها هديره ؛ شبّه صوت الواعظ حين يرفعه ويزجر به الناس بصوت البعير يهيج ويتابع الهدير ، قال الأخطل :

إذا هَدَرَتْ شقاشقه ونَشْبَتْ لَهُ الأظْفَار تُرْكَ له الهُدَارُ[1]

أراد: نَشِبَتْ وتُرِكَ ، فخفّف .

* * *

أَيُّهَا السَّادِرُ فى غُلَوَائِهِ ، السَّادِلُ ثَوْبَ خُيَلَائِهِ ، الْجَامِحُ فى جَهَالَاتِهِ ، الْجَانِحُ إلى خُزَعْبَلَاتِهِ . . . إلاَمَ تَسْتَمِرُّ عَلَى غَيِّكَ ، وَتَسْتَمْرِئُ مَرْعَى بَغْيِكَ ! وَحَتَّامَ تَتَنَاهَى فى زَهْوِكَ ، وَلاَ تَنْتَهِى عَنْ لَهْوِكَ !

* * *

السَّادر : الراكب هواه ، لا يردّه شىء استطالةً وبغياً ، ويقال للذى يطيل الجلوس فى الشمس حتى يتحيَّر بصره: قد سدَر فهو سادر . فى غلوائه: فى ارتفاعه للشرِّ ولجاجه فيه ، وهو من غَلا يغلو فى الأمر ، إذا جاز الحدّ؛ فيقول: يأيُّها الأعمى الكثير اللَّجاج فى ركوب المعاصى؛ هلَّا نظرتَ بعين البصيرة، ورجعت عمَّا أنت عليه من الضلال ! السَّادل : المرخِى ، خُيَلائه : كبره . الجامح : الجارى إلى غير

---

(١) ملحق ديوانه ٣٥٨ مما نقله عن الشريشى .

رفع المسهم

غاية ، وقد جمح الفرس إذا أكبّ رأسه، وجرى فى غير قصد ، فيريد أنه أكثر الفساد حتى جرى منه فى غير طريق . الجانح : المائل . الخزعبلات : الأباطيل ، وهو ما يتراءى للإنسان فى نومه من الخيال . تستمرّ : تدوم فى زورك . غيّك : ضلالك . تستمرئ : تستطيب من المرىء ، وهو ما يُلتذ به من الطعام . بغيك : ظلمك . تتناهى: تبلغ النهاية ، ونهاية الشىء ، آخره . زَهْوك : كِبْرك وعجبك. اللهو : ما يشغل عن الخير من أنواع الطرب .

[نبذ من أقوال الشعراء فى ذم الكبر]

وقال القاضى أبو جعفر[1] بن عمر فى ذمّ الكِبْر وما يتعلّق به :

وَلَا تُنْسَبْ إلى كِبْرٍ فهذا ... أبوكَ التُّرب يَخْفِضُك انْتِسابَا
ولا تصحبْ أخا كِبْرٍ وقدِّم ... على النَّفس الأعادِىَ والصِّحابَا
ولا تحبب محاباةً بمدحٍ ... كفى بالمرء حُوباً أن يُحابَى
وحاذِرْ أن تُرى فى القوْمِ رأساً ... ولا تنس الذّنوب وكن ذُنابى[2]
ترابًا كن هنا فعساك ألّا ... تَمَنَّى أن تكون غداً تُرابَا

وقال أبو نواس :

حَذِّرْتُك الكِبْرَ لا يغشاكَ مِيسَمُه ... فإنّه مابسٌ نازعتَه اللهَ[2]
يابؤسَ جلْدٍ على جَوْفٍ مُجوَّفُهُ ... يحوِى مقاذِير إن كلمتَه تاهَا[3]
يرى عليك له فضلاً يبين به ... إن نالَ فى العاجل السلطان والجاهَا
إنى لأمقتُ نفسِى عند نخوتها ... فكيف آمنُ مقتَ الله إيّاهَا

(١) ط : « ابو حفص» ، وما أثبتة من ا »
(٢) الدنابى: أذناب الناس .
(٣) رواية الديوان ١٩٧ :
يابؤسَ جلدٍ على عظمٍ مخرَّقُهُ ... فيه الخروق إذا كلّمْته تاهَا

وقال أبو العتاهية :

عجبتُ للإنسان فى فخرِه وهو غداً فى قبره يُقبَرُ[1]
ما بالُ مَنْ أوّلُهُ نُطفةٌ وجِيفةٌ آخره يفخَرُ !
أصبح لا يملك تقديمَ ما يرجو ولا تأخيرَ ما يحذَرُ

* * *

تبارزُ بمعصيتِكَ ، مالكَ ناصيتِكَ ، وتجترئُ بقُبْحِ سيرتِكَ ، على عالمِ سريرتِكَ ، وتتوارى عَنْ قريبِكَ ، وأنتَ بمرأى رَقيبِكَ ، وتستخفى من مملوكِكَ ، وما تخفى خافيةٌ على مليكِكَ .

أتظنُّ أنْ ستنفعُكَ حالُكَ إذا آن ارتحالُكَ ! أوْ ينقذُكَ مالُكَ ، حينَ توبقُكَ أعمالُكَ ! أوْ يُغنى عنك ندمُكَ ، إذا زلّتْ قدمُكَ ! أوْ يعطفُ عليكَ معشرُكَ ، يومَ يضمُّكَ محشرُكَ !

* * *

قوله : « تبارز » ، أى تكاشف وتقابل . والبارز : الظاهر المنكشف . والناصية : شَعْر مقدم الرأس . تجترئ : تقدم وتشجع . والجرىء : الشجاع المِقْدام . سيرتك : عادتك ، وجمعها سِيَر وهى ما يعامل به الناس من خير أو شرّ ، وتقول : سرت سِيرَةً من خير أو شرّ ، إذا أحدثتها فعمِل بها الناس بعدك ، فصارت عادةً لهم ، ولذلك فسرنا السيرة بالعادة حيث وقعت ، وأصل السِّيرة هيئة مِل السَّيْر ، وذلك أنك تقول : جلس فلان جَلْسَةً بالفتح ، وهى المرّة الواحدة من جلوسه ، فإذا

(١) ديوانه ١٠٣ ، ورواية صوره فيه : « ما احمق الإنسان فى فخره » .

كسرت الجيم فهي هيئة جلوسه، ومثله ركبَ رَكبَة، والرِّكبة هيئة ركوبه، وتقول: سار هذا الفعل سِيرة، والسِّيرة بالكسر: هيئة سيره في الناس من حسن أو قبح أو صواب أو خطأ، وسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم: هيئة أفعاله حيث كانت. تتوارى: تستتر. بمرأى من رقيبك، أي بمنظر ربّك أو بحيث يراك، ورقيب الشيء: حافظه وحارسه. مليكك: مالكك، وأراد أنّ الإنسان إذا خلا بريبة، استتر بها عن أخيه وعبده حياء منهما، ولا يستحيي من ربّه الذي يطّلع على معاصيه، ولا يخفى عليه خافية، وأشار إلى قوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ...﴾ الآية، وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه:

إن كنت تعلم أن الله يا عمرُ ... يرى ويسمع ما يأتي وما تذرُ
وأنت في غفلةٍ من ذاك تركبُ ما ... نهاك عنه، فأين الخوف والحذر!
تُجاهر الله إقداماً عليه، ومِنْ ... جُهّالِ النّاسِ تستَحْيي وتعتذرُ

وقال نابغة بني شيبان:

إن من يركب الفواحش سِرًّا ... حين يخلو بسرِّه غير خالِ[1]
كيف يخلو وعنده كاتباه ... شاهداه وربُّه ذو الجلالِ![2]

وقال أبو نواس:

إذا ما خلوتَ الدهر يوماً فلا تقُلْ ... خلوتُ، ولكنْ قل عليَّ رقيبُ[3]
ولا تحسبنَّ الله يغفل ساعةً ... ولا أنَّ ما يخفى عليه يغيبُ
لهونا لعمر الله حتى تراكمتْ[4] ... ذنوبٌ على آثارهنَّ ذنوبُ

(١) ديوانه ٦٤.
(٢) الديوان: «ذو المعال».
(٣) ديوانه ٢٠١.
(٤) رواية الديوان: «لهونا بعمر طال حتى ترادفت».

حالك : عزّتك ومالك . آن : حان وقرب . ارتحالك : انتقالك . توبقك : تهلكك ، يقال : أَوْبَقَتْه الذنوب ، أهلكته فوبَق ، أى هلك ووبقَ أيضاً . وقال أعشى هَمْدان :

أستغفرُ الله أعمالِي الَّتي سلفتْ ... مِنْ عثْرةٍ إن يعاقبْني بها أَبِق

زلَّت : زلقت . معشرك : قومك . محشرك : موضعك الذى تُحشَر إليه .

* * *

هَلاَّ انْتَهَجْتَ مَحَجَّةَ اهْتِدَائِكَ ، وَعَجَّلْتَ مُعَالَجَةَ دَائِكَ ، وَفَلَلْتَ شباة اعْتِدائِكَ ، وَقَدَعْتَ نَفْسَكَ فَهِيَ أَكْبَرُ أَعْدَائِكَ !

أَمَا الحِمامُ مِيعَادُكَ فَمَا إِعْدَادُكَ ! وَبالْمَشِيبِ إِنْذَارُكَ ، فَمَا أَعْذَارُكَ ، وَفِي اللَّحْدِ مَقِيلُكَ ، فَمَا قِيلُكَ ! وَإِلَى الله مَصِيرُكَ فَمَنْ نصيرُكَ ! طَالَمَا أَيْقَظَكَ الدَّهْرُ فتناعَسْتَ ، وَجَذَبَكَ الْوَعْظُ فتقاعَسْتَ ، وَتَجَلَّتْ لَكَ الْعِبَرُ فَتَعَامَيْتَ ، وَحَصْحَصَ لَكَ الحقُّ فَتَمَارَيْتَ ، وَأَذْكَرَكَ الْمَوْتُ فتناسَيتَ ، وَأَمْكَنَكَ أن تُوَاسِيَ فَمَا آسَيْتَ .

* * *

انتهجت : ركبت . والنَّهج المنهَج والمنْهاج : الطريق الواضح . محجَّة : طريق ، من حَجَّه يحُجَّه ، إذا قصده . اهتدائك : استقامتك . معالجة : مداواة . فَلَلْت : كسَرْت . شَباة : حدّ . اعتدائك : جورك وظلمك . قَدَعْت : كففت

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « ليس عدوّك الذى إن قتلتَه كان لك نوراً ، وإن قتلك دخلت الجنّة ، ولكن أعدى عدوّك نفسُك التى بين جنبيك » . قال الأصمعى : كنّا بطريق مكة فى بعض المنازل ، إذ وقفت علينا أعرابيّة فقالت : أطعمونا ممّا أطعمكم الله ، فناولها بعضُ القوم شيئاً فقالت له : كَبَتَ الله لك كل عدوّ لك إلّا نفسَك .

قوله : « أما » : حرف إخبار[1] واستفتاح كألا . الحِمام : الموت ، من حُمّ الأمر ، قضى . الميعاد : الموعد . ما إعدادك : ما استعددت له ، والإعداد مصدر أعدَّ للأمر إذا هيّأ له ما يحتاج إليه من عُدَّة ، يقول : الموت هو الذى وُعِدت به أن يأتيك ولا بدّ ، فاستعدّ له من أفعال البر .

وللفقيه الزاهد أبى عمران موسى بن عمران :

يا صاح فى الموتِ لناحكمةٌ ... بالغةٌ لو أننا ننتفعْ
فاعملْ له قبل مفاجاتِه ... ويَحْصِد الزارعُ ما قد زرعْ
لا حيلةً تُنْجِيك منه ولا ... ذو وزَرٍ عنه به يمتنعْ
كم أُممٍ أفناهُمُ قبلنا ... وشملِ قومٍ شتَّه فانصدعْ

ولحبيب :

فقد أيْقَنَتْ بالموت نفسى لأننّى ... رأيتُ المنايا يَخْتَرِمْنَ حياتيا[2]
فيا ليْتَ أنّى بعد موتِى ومبعَثى ... أكونُ رُفاتاً لا علىّ ولالياَ

المشيب : الشيب ، يقال : شاب رأسُه شيباً أو مشيبا . إنذارك : إعلامك ، أو أنذرك : أعلمك ممّا تحذر وخوّفك منه ، وأراد قوله تعالى : ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾[3] ، وانظر هذا المعنى فى الحادية والأربعين مستوفًى نظماً ونثراً .

---

(١) قوله : « أما : حرف إخبار . . . » الظاهر أن هذا استفهام تقريرى — هامش ط .
(٢) ديوانه ٤٨٤ . (٣) سورة فاطر ٣٧ .

أعذارك: جمع عذر ، والإعذار بكسر الهمزة مصدر أعذر فى طلب الحاجة إذا بالغ فيها .قال ابن السَّبْتيّ وجنّس قوانيه :

الشَّيْبُ فى مفرقَىَّ حَـلاّ وعَقْد عهد المِلاح حُلَّا
وكانَ كالآبنُوسِ رأسِى فاحتـــلّه عاجُه فحَلّا
وحَرّمَتْ وصْلِى الغوانى وقُلْنَ قَتْلُ العميد حَلَّا

اللحد : حفرة فى جانب القبر ، ولحَدَ الميت وألحده: شقّ له فى جانب القبر. وأصل اللفظة الميل .ومقيلك : مقامك ،وأصله النوم فى القائلة . قيلُك : حديثك المَقُول وحجّتك الواضحة ، والقول مصدر كالطحْن والذَّبح ، والقيل : اسم للمَقُول كالطِّحْن بالكسر : اسم للدقيق المطحون، والذِّبْح اسم للمذبوح . يعقوب : القال والقيل اسمان لا مصدران . ابن سيده : القيل فى الأصل مصدر ، وحكى الفارسىّ قاله قولا وقيلا،مثل ذكرَه ذكراً ، والقال يجوز أن يكون مصدراً ، فإنّ سيبويه حكى :ذامَه ذاماً وعابه عاباً،إلا أنه لم ينصّ على القال . مصيرك:رجوعك . نصير : معدول عن ناصر للمبالغة . تناعست ، أى أظهرت أنك ناعس . جَذَبك : قادك بعنف ، ويقال:جذب،وجَبذ وهى أقلّ من الأولى،وصحّفت العامة هذه الثانية وقالوا :«جَبَد» بدال غير منقوطة.تقاعست : تأخّرت وتصعّبت وتشبّهت بالأقعس ؛ وهو الذى دخل ظهره وخرج صدره ، أى قادك الوعظ إلى الخير فلم تنقَدْ له ، والعرب تقول : عزة قَعْساء كأنها تتقعّس عن الذلة . تجلّت : ظهرت . والعِبَر : ما يُتَخوّف ويُتّعظ به عند رؤيته .حصحص : تبيّن ، من الحَصّ وهو ذهاب الشعر فيتبيّن ما تحته ، والحاء الثانية مبدلة من صاد ثالثة ، وإذا اجتمع الأمثال فى مثل هذا ، أبدلت العرب من الحرف الأوسط حرفاً من جنس الحرف السابق ، ومثله حثحثت ورقرقت ،أصلهما حثثت ورقّقت ؛هذا قول الكوفيين، وقال البصريون:

هما لغتان تقاربتا ، إذ لا يبدل الحرف إلا من مثله أو من مقاربه فى المخرج ، وهذه الحروف متباعدة لا يصح إبدالها . ماريت : شككت : تؤاسى : تعطى .

* * *

تُؤْثِرُ فَلْساً تُوعِيهِ ، على ذِكْرٍ تَعِيهِ ، وَتَخْتَارُ قَصْرًا تُعْلِيهِ ، عَلَى بِرٍّ تُولِيهِ ، وَتَرْغَبُ عَنْ هَادٍ تَسْتَهْدِيهِ ، إلى زَادٍ تَسْتَهْدِيهِ ، وَتُغَلِّبُ حُبَّ ثوبٍ تَشْتَهِيهِ ، على ثوابٍ تَشْتَرِيهِ .

يواقيت الصَّلاتِ ، أَعْلَقْ بِقَلْبِكَ مِنْ مَوَاقِيتِ الصَّلاَةِ ، وَمُغَالاة الصَّدُقاتِ ، آثَرُ عِنْدَكَ مِنْ مُوَالاةِ الصَّدَقاتِ ، وَصِحَافُ الألوان ، أشْهَى إِلَيْكَ من صَحَائِفِ الأَذْيانِ ، وَدُعَابَةُ الأَقْرَانِ ، آنَسُ لَكَ مِنْ تِلاَوَةِ الْقُرآنِ .

* * *

تؤثر : تفضّل . توعيه : تجعله فى وعاء . برّ : إحسان . تُوليه : تعطيه وتلصقه بمن تبرّه . هادٍ : مرشد لطريق الخير . ترغب عنه ، أى تتركه . تستهديه ، أى تسترشده وتسأله أن يهديك إلى الخير ، وتستهديه الثانية : تطلب أن يهدى لك هدية . يقول : تترك مَنْ يهديك إلى طريق الخير ، فلا تسأله الهداية ، وتقصد أعراض الدنيا من الأطعمة وغيرها ، وترغب أن تعطى منها هدية ، قال الزّاهد ابن عمران :

توقَّ وحاذِرْ من قَبُولِ هديَّةٍ ... وإن جاءكَ فيها الحديثُ المرغَّبُ
فقد حدثَتْ بعد الرّسولِ حوادثٌ ... تحذِّرنا منها ، وعنها ترغِّبُ
وكانت هديّاتُ الأوائل قبلنا ... تؤلِّف فيما بينهـــم وتحبِّبُ
فعادَتْ بلايا يُسرِعُ المنُّ نحوها ... تفـــرّق فيما بيننـــا وتجنِّبُ

وله فى مثله :

احذَرْ هدَايَا النَّاس تأمن المِـــنّ بها أو قولَ واشٍ يَشِى
فقلّ مَنْ يهـديك إلّا امرُؤٌ من رَغْبةٍ أو رَهْبَـةٍ قَدْ حُشِى
التبس الأمر فـــلا تقدمن وأخشَ مقام الله فيمن خَشِى
كانت هَدَايا ثم عادت رِشًـا وفى الرِّشا الهُلْكُ لِمَنْ يرْتَشِى
حَذَّرنا منهـا نبيّ الهُـــدَى إذْ لَعَنَ الرَّاشِىَ والمُـــرْتَشِى

الثواب : المكافأة على الفعل ، وأراد به مايجازى الله به عباده على إحسانه من الأجر ، وهو من ثاب يثوب إذا رجع ، وأثبْتُ الرجل : أعطيته الثواب ، وهو المكافأة على فعله . قوله « يواقيت » : أى جواهر . الصِّلات : العطايا . أعلق : ألصق . مواقيت : أوقات ، وهى جمع ميقات .

* * *

[من لطائف التجنيس]

ومما يستحسن من تجنيس الصِّلات والصَّلاة ، حكاية أحمد بن المدبّر ـ وكان إذا مدحه شاعر ولم يرض شعره ، قال لغلامه : امض به إلى المسجد فلا تفارقه حتى يصلّى مائة ركعة ، ثم خلِّه ، فتحاماه الشعراء إلا الأفراد المجيدين ـ فجاء الحسين بن عبدالرحمن البصرىّ المعروف بالجَمَل ، فاستأذنه فى النشيد ، فقال : أعرفتَ الشرط ؟ قال : نعم ، وأنشد :

أردْنَا فى أبى حسن مديحـــاً كما بالمدح تُنْتَجَـــعُ الوُلَاة
فقلنا أكرمُ الثقَلين طُـــرّاً ومن كفّاه دِجْـــلَةُ والفُرَاتُ
فقالوا يقبل المدحاتِ لـــكنْ جَـــوائزه على المدحِ الصَّلاةُ
فقلت لهم : وما تغنى صلاتى عِيالى ، إنَّمـــا تُغْنِى الزَّكاةُ !

فأمّا إذ أبى إلاّ صَـــلاتى وعاقتنى الهموم الشّاغِـــلاَتُ
فيأمر لى بكسر الصّاد منها لَعَلّى أن تنشّطَنى الصّـــلاتُ
فيصلحُ لى على هَذِى حيـاتى ويصلـــحُ لى على هَذِى المماتُ

فضحك واستظرفه ،وأمر له بمائة دينار،وقال : من أين أخذت هذا ؟ قال: من قول أبى تمام :

هنَّ الحَمـامُ فإن كَسرْتَ عِيافةً مِنْ حائِهن فإنّهن حِمـامُ[1]

* * *

قوله :«مغالاة الصَّدُقات » ، أى الزيادة فى المهور ، وغاليت : زدت فى ثمن السِّلعة وردتها غالية ، والصَّدُقات واحدتها صَدُقة وهى الصّداق،قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : «من يُمْنِ المرأة تيسير صداقها وخِطبتها »، قال عروة :وأنا أقول : من أول شؤمها أن يكْثُر صداقها . آثر : أفضل وأكثر أَثَرَةً . موالاة:متابعة . صحائف : جمع صحيفة، وهى الورقة يُكتب فيها من الرّق والقرطاس. دُعابة : مزاح، وفى فلان دُعابة،وتداعب الرّجلان :تمازحا، وفى الحديث: «كانت فيه صلى الله عليه وسلم دعابة»، وفى حديث جابر رضى الله عنه:« هلّا بكراً تداعبها وتداعبك! ». الأقران : الأصحاب والأمثال . تلاوة : قراءة ، وتلوته : قرأته ، واختلفوا فى اشتقاق القرآن،فقال أبو عبيدة: سُمِّىَ قرآناً لأنه يجمع السور ويضمّها،قال الله تعالى: ﴿فإذا قَرأْناهُ فاتبَعْ قُرْآنَه﴾[2] أى إذا جمعناك شيئاً فضمّه واعمل به ، وقال قطرب : سُمِّىَ قرآناً لأن القارئ يُظهره ويبينه ويلقيه مِن فيه، من قول العرب: ماقرأت الناقة سلاً قطّ ،أى ما رمت به .وقال النبى صلى الله عليه وسلم :« إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد » ،قالوا : يارسول الله . ما جلاؤها ؟ قال : « قراءة القرآن » .

(١) ديوانه ٢٧٩ .
(٢) نقله فى النهاية لابن الأثير ٢ : ١١٨
(٣) سورة القيامة ١٨ .

تَأْمُرُ بِالْعُرْفِ وَتَنْتَهِكُ حِمَاهُ ، وَتَحْمِي عَنِ النُّكْرِ وَلاَ تَتَحَامَاهُ ، وَتُزَحْزِحُ عَنِ الظُّلْمِ ثُمَّ تغشاهُ ، وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاه . ثُمَّ أَنْشَدَ :

تَبًّا لِطَالِبِ دُنْيَا ... تَنْمِى إِلَيْهَا انْصِبَابَهْ
مَا يَسْتَفِيقُ غَرَامًا ... بِهَا وَفَرْطَ صَبَابَهْ
وَلَوْ دَرَى لَكَفَاهُ ... مِمَّا يَرُومُ صُبَابَهْ

* * *

العرف ، أى المعروف . تنتهك : تبالغ فى تناوله بما لا يجوز . حِماه : ما حُمى منه ومنع ، وأصل الحِمَى موضع العشب يحميه الرجل لإبله . وانتهاكه : استئصال عشبه بالرعى ، ونهكت الجلد وانتهكته ، إذا أخذته بشفرة حتى يرق ويضعف . النُّكر : المنكر . تتحاماه : تتباعد عنه . تُزحزح عن الظلم : تُنحَّى عنه غيرك وتزيله . وتغشاه : تأتيه وتباشره . تخشى : تخاف . وقال ذو الرمّة فى هذا المعنى ، وهو أحسن شعرٍ قاله :

يا ربِّ قد أسرفتْ نفسِى وقد علمتْ ... علماً يقينا لقد أحصيتَ آثارى
يا مخرج الرُّوح من نفسِى إذا احتضرت ... وفارجَ الكرب زحْزِحْنِى عن النَّار (٢)

دعا لنفسه أن يكون من الفائزين ، لقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ (١) .

قوله : « تبًّا » ، أى خسراناً وهلاكاً ، وتبّت يده : خسرت . قال تعالى : ﴿ وما زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ (٣) ، أى غير خسار وهلاك ، قال الشاعر :

(١) ملحق ديوانه ص ٦٦٧ .
(٢) سورة آل عمران ١٨٥ .
(٣) سورة هود ص ١٠١ .

رفع المسهم

عَرادَةُ من بقيَّة قومِ لوطٍ ألا تبًّا لما عملوا تَبَابَا![1]

ثَنَى : عطف وردّ . انصبابه : جريه . يستفيق : يستريح ، وأفاق من المرض : استراح . غراماً : شدّة حبّ لازم له غير مفارق ، ومنه سُمِّيَ الغريم لملازمته التقاضي وإلحاحه فيه ؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾[2] أى مُلِحًّا دائما ، ومنه ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾[3] ، وفلان مغرم بالنساء: يحبّهن ويلازمهنّ ، وقال حاتم :

فما أَكْلَةٌ إن نلتها بغنيمةٍ ولا جوعة إن جعتها بغرام

أى بهلاك وملازمة .

فرط صبابة : شدة شوق ومجاوزة حدّ فى ذلك . يروم : يطلب . صبابة . بقيّة الماء .

* * *

[نبذ من الأشعار فى ذمّ الدنيا]

وهذا الشعر مستحسن القوافى ، ومثله فى ذلك قول الزاهد ابن عمران[4] ، وكثيراً ما كان يستمدّ فى شعره من أدب المقامات :

تبًّا لذِى جهل دعَا لمبرَّةٍ وأجبتُه بِرًّا به فأذاعَهَا
مَنًّا وقد كَافَأْتُه بهباتِهِ وذخرتُها عندى له ، فأضاعهَا
فَاقْلَ اللئامَ من الرجال ولا تجبْ مَهْمَا دَعَوْكَ وجَنِّبَنْ أوْضَاعهَا

وقال آخر :

(١) لجرير ، ٨٣ ؛ وهو عرادة النمرى راوية الراعى ، وقبله :
أتانى عن عرادَة قولُ سوءٍ فلا وأبى عَرادَة ما أصابا
(٢) سورة الفرقان ٦٥ .
(٣) سورة الواقعة ٦٦ .
(٤) هو أبو عمران موسى بن عمران المارتلى الإشبيلى ، ذكره ابن سعيد فى المغرب ١ : ٤٠٦ ، وأورد بعض شعره .

يامن يضيِّع عُمْرَهُ متمادياً فى اللَّهْوِ أمْسِكْ
واعلم بأنَّك لامحا لَةَ ذاهبٌ كذهابِ أمْسِكْ

ولمنصور الفقيه فى الشعر المردف[1] :

إذا كُنْتَ تزعمُ أنَّ الفِرَاقَ فراقُ الحياةِ قريبٌ قريبْ
وأنَّ المقدَّم ما لا يفوت على مايفوت مصيبٌ مصيبْ
وأنتَ على ذاك لا ترعَوِى فأمرُكَ عندِى عجيبٌ عجيبْ

وقال القاضى أبو حفص عمر فى معنى شعر الحريرىِّ فى ذم الدنيا :

بارَا كِضًا فى طلابِ دنْيا ليس لمن تَصْرَعُ انتعاشُ
لم تُخشَ نارٌ هَوَى لَظَاهَا بمن له نحوَها انحياشُ
أعذر منكَ الفرَاش حالاً علمت ما يجهل الفراشُ
نطلبها لا تنـــام عين عنها ولا يستقرُّ جاش
مَنْ لك بالرِّىّ من شرابٍ يشتدّ من شربه العطاشُ
دَعْها فطلَّابُهـــا رِعاعٌ طاشت بألبابهم فطاشُوا
لم يَرِدوها فهم رِواءٌ ووارِدُوها هُمُ العِطَاشُ
فاظمأ لتروَى ، وكن كقومٍ سُقوا بها غِبَّةً فعاشُوا[2]
كأنَّ آمالَنـا ظبـاءٌ ونحن من حَيرةٍ خِدَاشُ
إن لآمالنـــا انبساطاً به لأعمارنا انكماشُ
كأنّ آجالنـا صـــقورٌ ونحن من تحتها خَشَاشُ

ولابن الرومى رحمه الله :

لَعَمْرُك ما الدُّنيا بدار إقامةٍ إذَا زال عن عين اللبيب غطاؤُهَا

(١) الردف فى الشعر : حرف ساكن فى حروف المد . واللين يقع قبل حرف الروى ، ليس بينهما شىء ، فإن كان ألفاً لم يجز معها غيرها ، وإن كان واواً جاز معه الياء . وانظر اللسان.
(٢) ب : « ماتوا بها عفة فعاشوا » .

فكيف بقاء النّاس فيها وإنما يُنال بأسباب الفناء بقاؤُهَا !

وقال آخر :

ومن يحمد الدنيا لعيشٍ يسرُّه فسوف لَعَمْرِى عن قريب يلومُها
إذا أدبرتْ كانتْ على المرء حسرةً وإن أقبلت كانت كثيراً همومها

ولابن سارة رحمه الله تعالى :

بنُو الدُّنيا بجهل عَظَّمُوهَا فجلَّتْ عندهمْ وهى الحقيرَهْ[1]
يُهارش بعضُهم بعضاً عليها مهارشة الكِلاب على العقيرهْ

* * *

ثمَّ إنَّهُ لَبَّدَ عَجَاجَتَهُ، وَغَيَّضَ مُجَاجَتَهُ، واعْتَضَدَ شَكْوَتَهُ. وَتَأَبَّطَ هِرَاوَتَهُ. فَلَمَّا رَنَتِ الْجَمَاعَةُ إلى تحفُّزِهِ، وَرَأَتْ تأهُّبَهُ لِمُزَايَلَةِ مَرْكَزِهِ، أَدْخَلَ كلٌّ مِنْهُمْ يَدَهُ فى جَيْبِهِ، فأَفْعَمَ لَهُ سَجْلاً مِنْ سَيْبِهِ، وقَالَ: اصْرِفْ هَذا فى نَفَقَتِكَ، أَوْ فَرِّقْهُ عَلَى رُفْقَتِكَ. فقبلَهُ مِنْهُمْ مُغْضِياً، وَانْثَنَى عَنْهُمْ مُثْنِياً، وَجَعَلَ يُوَدِّعُ مَنْ يُشَيِّعُهُ، لِيَخْفَى عَلَيْهِ مَهْيَعُهُ، وَيُسَرِّبُ مَنْ يَتْبَعُهُ، لكى يُجْهَلَ مَرْبَعُهُ.

* * *

قوله : «ثم إنه لبّد عجاجته»، أى سكّن غَبْرته المرتفعة حتى لصقت بالأرض. غَيّض: جفف. المُجَاجة : ما يُلْقى مِنْ فيه. وقد مجَّ الرجل ريقه، إذا سال من حمق أو كِبَر. وأراد بلبّد عجاجته، قطع كلامه الذى كان قد استرسل، وأخذه من قول سليمان بن عبد الملك، وقد تكلّم وفد بين يديه، فلم يصنعوا شيئاً،

(١) قلائد العقيان ٣٠١.

وتكلّم بعدهم رجل قبيح المنظر فأبلغ ، فقال سليمان : كأنّ كلامه بعد كلامهم سحابة لبّدت عجاجا .

وأراد بـ « غيّض مُجاجته » ما كان يسيل من عينيه وأنفه عند البكاء . اعْتَضَدَها : جعلها تحت عَضُدِه . والشكوة : ركوة الماء تُصْنَع من جلد الثور أوالخروف. وتأبَّطها: جعلها تحت إبطه. هَراوته : عصاه . رنت: نظرت. تحفّزه : تهيّؤه وعجلته للانصراف ، وتحفَّز وانحفز ، إذا كان جالساً على عقبيه متهيّأ للقيام . تأهّبه : استعداده . مزايله: مفارقه . مركزه : موضعه الذى قام به . أفعم : ملأ ، ونعمت الشيء فعماً : ملأته . سجلا: دلوا . سيبه : عطاؤه ، معناه وهَب له نصيباً من عطائه . رفقتك : أصحابك . مغضيا : مستحييا ، وأصل « أغضى » كفّ بصره وضمّ جفنيه . انثنى : رجع وانعطف عن طريقه . مهيعه : طريقه البيّن. يسرّب: يفرّق ، فكأنه «تفعّل» من السَّرَب وهو الطريق ، كأنه يردّهم عن تشييعه فى طرق مختلفة ، أو يكون من لفظ السَّرَب ، وهو الجحْر ، فكأنه يغيّبهم عنه حيث يقصد تعمية طريقه عليهم ، أو يكون من لفظ السارب وهو الذاهب فى الأرض ، وقد سرب سروباً ، فكأنه يذهبُهم فى كلّ ناحية ليجهل مكانه . مربعه : منزله فى الرّبيع خاصة . والمربع : المنزل فى كل وقت ؛ من ربعت بالمكان ، أقمت به .

* * *

قال الحارث بن هَمَّام : فاتّبعْتُهُ مُوَارِياً عَنْهُ عِيانى ، وَقَفَوْتُ إِثْرَهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَرَانِى ؛ حَتَّى انْتَهَى إلى مَغَارَة ، فَانْسَابَ فِيهَا عَلَى غَرَارَةٍ ، فأَمْهَلْتُهُ رَيْثَمَا خَلَعَ نَعْلَيْهِ ، وَغَسَلَ رِجْلَيْهِ ، ثُمَّ هَجَمْتُ عَلَيْهِ ، فَوَجدْته مُحَاذِياً لِتِلْمِيذٍ ، عَلَى خُبْزٍ سَمِيذٍ ، وَجْدِى حَنِيذٍ ،

وَقُبَالَتَهُمَا خَابِيَةُ نَبِيذٍ ، فَقُلْتُ له : يَا هذا ، أَيَكُونُ ذَاكَ خَبَرَكَ ، وَهَذا مُخْبِرَكَ !

* * *

مواريًا : ساتراً . عيانى : شخصى ، أى تبعتُه مستخفياً بحيث لا يرانى . قفوْته : اتّبعته من جهةقفاه . انساب:دخل ، وأصلُ الانسياب ،جَرْى الحيَّة على وجه الأرض ،أو جَرْى الماء كذلك،ولا يكون الانسياب إلاعلىوجه الأرض ، لا يقال :انساب فى الجُحر ؛ حدّثنى به بعض مَنْ لقيت من أصحابنا ، وكان أضْبَط النّاس للسان العرب ، قال:وقول الحريرى:«انساب فيها»وهممنه، ولوقال: «انشام فيها» لكان أمثل ، يشبّهه بالسيف إذا وُضع فى غمده . غَرارة : غفلة . رَيْث : قدْر . هجمت عليه : دخلت عليه فجأة ، ومنه هجم عليه الحرّ ، وهجمتْ عينه :دخلت فى رأسه . محاذياً : ملاصقاً أو جالساً بحذائه . تلميذ : متعلّم الصنعة. حَنِيذ : مشوىّ ، وحنذَ اللحمَ حَنْذًا : شواه بحجارة محمّاة . نبيذ ، أراد به خمراً . خبرك ، أراد به أمرك الذى أنت عليه . مَخْبرك ، أى باطنك وما يختبَر منك .

[أبو نواس فى مجالس الوعظ]

ومما ينتظم فى هذا النمط حكاية أبى نواس حين رُئِىَ فى مجلس منصور ابن عمّار يبكى ، فظنّ النّاس أنه قد نَسَك ، فجعلوا يهنئونه ، ويقولون: نرجو لك من الله الخير ، فقال : أنا أهون على الله من ذلك ؛وليس كما تظنّون ، ولكن أبكى لبكاء ذلك الغزال ـ وغلام بالمجلس يبكى من وعظ منصور ـ ثم قال :

لم أبكِ فى مجلس منصورِ شوقاً إلى الجنّة والحورِ

لكن بكائى لبكا شادنٍ تقيه نفسى كلَّ محذُورِ
تنتسب الألسن فى وصفِهِ إلى مَدَى عَجْزٍ وتقصيرِ

وحضر أيضاً مجلس بعض القصاص ، فقالوا له : لعلّ الله قد أقبل بك! فقال : إنما حضرت لأجل هذا الغزال ، ثم قال :

خلّيانِي والْمعَاصِى وَدَعَا ذِكْرَ القِصَاصِ
واسقيانِي الخَمْرَ صِرْفاً فى أباريقِ الرَّصَاصِ
وعلى وجه غَزالٍ طائعٍ ليس بعاصِى
بين فتيانٍ كرامٍ قد تواصَوْا بالمعاصِى
وعلى الله ـ وإن أفـ ـرطتُ فى الذّنب ـ خلاصِى

* * *

فزفَرَ زفْرَةَ القَيْظِ ، وَكَادَ يَتَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ؛ وَلَمْ يَزَلْ يُحْمِلُقُ إِلَىَّ ، حَتَّى خِفْتُ أَنْ يَسْطُوَ عَلَىَّ . فَلَمَّا أن خَبَتْ نارُهُ ، وَتَوَارَى أُوَارُه ، أنشد :

لَبِسْتُ الخَمِيصَةَ أَبْغِي الخَبِيصَهْ
وَأَنْشبْتُ شِعْرِىَ فى كلِّ شِيصَهْ
وَصَيَّرْتُ وَعْظِيَ أُحْبُـــولةَ
أُرِيغُ القَنِيصَ بِهـا وَالْقَنِيصَهْ
وَأَلْجَأَنِى الدَّهْرُ حَتَّى وَلَجْـــ
ـتُ بِاللُّطْفِ احْتِيالى على اللَّيْثِ عِيصَهْ

عَلَى أَنَّنِي لَمْ أَهَبْ صرْفَهُ
وَلاَ نَبَضَتْ لِيَ مِنْـهُ فَرِيصَـهْ
وَلاَ شرعَتْ بِي على موردٍ
يُدَنِّسُ عِرْضِيَ نَفْسٌ حَرِيصَهْ
وَلَوْ أَنْصَفَ الدَّهْرُ فى حُـكْمِهِ
لمَـا مَلَّك الْحُـكْمَ أَهْلَ النَّقِيصَهْ

* * *

قوله: « فزفر زفرة القيظ » ،الزفرة :تنفّس المهموم أوالمغتاظ ، والقيظ : شدّة الحرّ ، شبّه ما أبداه من شدّة الغيظ بوهَج الحرّ . يتميّز : يتقطع ويتفرّق. يحملق : يحدّ النظر ، والحملقة: نظر الغضبان، والحِلاق: باطن الجفن. يسطو :يصول ويتناولنى بالمكروه ، يقال : سطا عليه وبه، يسطو سَطْوًا وسطوة ، إذا قهرَه وأذلّه . خبت ناره : سكنت حدّة غيظه . توارى : تغطى واستتر . أُوارُه : لهبه ونار غيظه . والأوار : وَهَج النار . الخميصة : كساء فيه خطوط . وقال يعقوب وأبو عبيد : الخميصة : كساء مربّع أسود له علمان . الخبيصَة: نوع من الحلواء ، وتسميه عامتنا الخبيز، بالزاى ، وكنى به عن لذة العيش . الشِّصّ : حديدة معوجّة يصاد بها الحوت، وتسمّى الصنارة . شيصة : ثمرة رديئة ؛ ومِنْ مُلح قصاص البلدان ، أنّ أبا عبد الله الحوّاص كان يقول فى قصصه :إنّما الناس مثل التمر ، فيهم الشيص والبُرْنِيّ ، يارب اجعلنا بُرنيًّا ولا تجعلنا شِيصاً . وقال قاصٌّ آخر : إن فى الجنة لحم جدى ولحم خروف ،ولحم كلّ شىء بلا عظم مثل الشِّيص فى بلادنا بلا نوى، يريد أنه لا يحتقر شيئاً ؛ فكل ما اتّخذ له أخذه . أُحبولة :آلة يصاد بها . أريغ : أطلب ما يصعب أخذه ، كأنه يروغ من كذا ،وأصل راغ من كذا ،أى عدل عنه ورجع ،وهو يخفى رجوعه. قال الفرّاء :لا يقال للذى يرجع : راغ يروغ ، إلّا أن يكون مخفياً

لرجوعه، قال الله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾[1]، أى رجع إليهم يضربهم مخفياً لرجوعه، ومعنى «بالميمين» أى بيمينه الذى حلف فى قوله تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾[2]، أو يريد باليمين القوة، وقال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ﴾[3]، أى رجع إليهم فى إخفاء منه لرجوعه. القنيص والقنيصة: الذكر والأنثى مما يصاد من الوحش، وهذا مثل، وإنما أراد ما يأخذه من الناس بالحيل. ألجأنى: أحوجنى. ولجت: دخلت. لطْف: رقة وتلطّف. عيصه: بيته، وأصله الشجر الملتفّ. واللّيث: الأسد. أهب: أخَفْ. صرفه: تقلّبه. نبضت: تحركت. فريصة: بَضعة فى آخر الكتف تتحرّك عند الفزع. شرعت: دخلت. وعلى: بمعنى «فى» نحو قولك: كان ذلك على عهد فلان، أى فى عهده. مورد موضع الماء. يدنّس: يوسخ ويعيب. عِرْضِى: ذكْرى. نفس حريصة: كثيرة الرغبة والطمع. النقيصة: الخصلة القبيحة يفعلها الرجل فينقص بها.

وقال بعضهم:

غُضِّى عيونك يا عيونَ النَّرجسِ ... منكِ استحيْتُ بِأَنْ أُقبِّلَ مؤنسِى

نام الحبيبُ تَدَبَّلَتْ أجفـــانُه ... وعيونـكنّ شواخِصٌ لم تنعَسِ

فأجابنى تفاح صفحةِ خده ... بفصاحة من ألسن لم تُخْرَسِ

قَبِّلْ حبيبك ما اشتهيتَ فإنّ من ... عاداتنا كِتمانَ سِرّ المجـــالسِ

يارب إن قدَّرْتَهْ لمقبِّـلٍ ... غيرى فللمِسْوَاكِ أَوْ للأَكْؤُسِ

ولئن قضيتَ لنا بصحبةِ ثالثٍ ... يارَبّ فلْتكُ شمعةٌ فى المجلس

ومن أحسن ما قيل فى الدهر، قول تميم بن المعز:

---

(١) سورة الصافات ٩٣

(٢) سورة الصافات ٩٣

(٣) سورة الأنبياء ٥٧

رفع المسهم

يا دهرُ ما أقساكَ من متلوّنٍ ... في حالتَيْك وما أقلَّك مُنْصِفَا[1]
أترُوح للنِّكس الجهولِ ممهّداً ... وعَلَى اللَّبيبِ الحرّ سيفاً مُرْهَفَا![2]
وإذا صفوتَ كدَرتَ شيمة باخلٍ ... وإذا وفيت نَقَضْتَ أسباب الْوَفَا
لا أرتضيكَ وإن كَرُمْتَ لأنني ... أدرِي بأنَّك لا تَدُوم على الصَّفَا
زمنٌ إذا أعطى استردَّ عطاءه ... وإذا استقام بدا له فتحرَّفَا
ما قام خيرُك يا زمان بشَرِّهِ ... أوْلى بنا ما قلَّ منك وما كَفَى

إدريس بن اليمان [3] :

ماذا أقول لدنيا لو ظفرتُ بها ... أدَّبتُها غَضَباً للعلْم والأدَبِ
شَجًا من أقذية الأيام برّح بى ... بل بالعوالى وبالهندية القضب

* * *

ثم قَالَ لِي : ادْنُ فَكُلْ ، وَإِنْ شِئْتَ فَقُمْ وَقُلْ .

فَالْتَفَتُّ إِلى تِلْمِيذِهِ وَقُلْتُ : عَزَمْتُ عَلَيْكَ بِمَنْ تَسْتَدْفِعُ بِهِ الأَذَى ، لَتُخْبِرَنِّى مَنْ ذا ؟ فقال : هَذا أَبُو زيدٍ السَّرُوجِيّ ، سِرَاجُ الْغُرَباء ، وَتَاجُ الأدباء .

فانصرفتُ مِنْ حيث أتيتُ ، وقضيتُ الْعَجَبَ مِمَّا رأيتُ !

* * *

قوله : «ادن» ، أى اقرب . قل ، أى قل ماشئت. التلميذ: الخادم ، والجمع

(١) ديوانه ٢٧٤
(٢) النكس : الرجل الضعيف القصر عن غاية النجدة والكرم .
(٣) هو أبو على إدريس بن اليمانى العبدرى الأندلسى ، صاحب الأمداح الكثيرة للملوك الطوائف ، ذكره صاحب المغرب فى ١ : ٤٠٠ .

رفع المسهم

التلاميذ ، قال لبيد[١] :

* يَجلو التّلاميذ لؤلؤاً قَشِبَا *

أى يجلو التلاميذُ لؤلؤاً جديداً ، وطلبة العلم : تلاميذ شيخهم . الأذى : الضرر . سراج : مصباح، يريد أنه للغرباء مصباح يفخرون به ويهتدون بحيلته، وللأدباء تاج يتزيَّنُون به ويضعونه فوق رءوسهم . انصرفت : رجعت . قضيت العجب ؛ أى أتممته ، كأنه قال : قضيت حاجتى ممّا رأيت . ويقال : قضى نحبَه من كذا ، أى بلغ مراده ، وقضى عليه القاضى ، أى قطع عليه ، والقاضى : القاطع للأمور المحكم لها ، وقوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَواتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾[٢] ، أى قطعهنّ وأحكم خلقهنّ ، ويكون «قضى» بمعنى «عمل».

(١) ديوانه ٣١ وصدره :

* فالماء يَجْلُو مُتونَهنَّ كَمَا *

(٢) سورة فصلت ١٢ .

رفع المسهم

المقامة الثانية وهي الحلوانية

حكى الحارثُ بن هَمَّام قال : كَلِفْتُ مُذْ ميطَتْ عَنِّى التَّمائِمُ ، وَنِيطَتْ بِيَ العَمائِمُ ، بأنْ أغْشَى مَعَانَ الأدَبِ ، وَأُنْضِيَ إليْهِ رِكَابَ الطَّلَبِ ، لأعْلَقَ مِنْه بِمَا يَكُونُ لِي زِينَةً بَيْنَ الأنَامِ ، وَمُزْنَةً عِنْدَ الأُوَامِ . وَكُنْتُ لِفَرْطِ اللَّهَجِ بِقَبَاسِهِ ، وَالطَّمَعِ فى تَقَمُّصِ لِبَاسِهِ ، أُبَاحِثُ كلَّ مَنْ جَلَّ وَقَلَّ ، وَأَسْتَسْقِى الوَبْلَ وَالطَّلَّ ، وَأَتَعَلَّلُ بِعَسَى وَلَعَلَّ .

* * *

كَلِفْت ، أى اشتدّ حُبّى ، والكَلَف : شدّة الحبّ والمبالغة فيه ، وفلان كَلِفٌ بفلان ، أى مبالغ فى محبّته . ومِيطَتْ وأميطت : أزيلت . التمائم : الأحراز . نيطت : عُلِّقَت ، وإذا بلغ الصبىّ الحلم عند العرب أزلوا الأحراز عن عنقه ، وألبس العمامة والإزار ، وقُلِّد السيف ، فأراد : أحببت مذ بلغتُ الحلم مجالس الأدباء . أغشى : أقصد وأدخل .

المعان : المنزل . أبو عبيد ، يقال : البصرة مَعَانٌ منّا ، أى منزل منا ، قال المعرى :

معانٌ من أحبّتنا مَعَانُ[1]

فالأول اسم موضع معلوم جنّس به ، وجعله منزل أحبابه . وقال بعضهم :

(١) سقط الزند ١٧٢ ، والبيت مطلع قصيدة له ، وبقيته :

* تُجِيبُ الصّاهِلاتِ به القِيانُ *

رفع المسهم

سُمِّى معاناً لمعاينة الناس فيه بعضهم بعضاً ، أو لأنّ فيه أعيانا . أنضِى : أهزِل الركاب : الإبل ، وجَعَل للطلب إبلا مجازا ، وإنما يريد : أتعبت نفسى فرحلت إلى طلبه على الإبل . لأعاق منه : لأحصل منه على فائدة أتعلّق بها . الأنام : الخلق. مُزْنة : سحابة . الأُوام : شدّة العطش ؛ يريد أنه يتعب نفسه فى طلب الأدب ليتزيّن به بين الناس ، ويعيش به إذا احتاج إليه . فَرْط اللهَج : شدّة الحب ، يقال : قد لَهِج بالشىء إذا أكثر الحديث به لحبّه فيه ؛ وحرصه عليه. ولَهِج الفصيل بالرّضاع، إذا لجّ فيه . اقتباسه : اكتسابه . التقمّص : لبس القميص . لباسه : ثيابه، أى أطمع أن ألبس من ثيابه قميصاً . أباحث : أسائل . جلّ : عظم . قلّ : حَقر . أستسقِى الوبْل والطلّ ، أى أطلب منه السقى ، والوبل : أشدّ المطر والطلّ: أضعفه ، ويقال : الركّ أضعف من الطلّ ، ومنه قيل للدنىء : ركيك . أتعلّل : أشغل نفسى وأطمعها . والعُلالة : الشىء اليسير . وعسى ولعلّ : معناهما الرجاء والطمع ؛ يريد أنه يسائل الجليلَ فى العلم والحقير ، ومَنْ كثر علمُه وكان كالوبْل ، أو قلّ وكان كالطّل ، وإذا فقد من يؤخذ عنه العلم رجا نفسه بوجوده وأطمعها . والتعلّل : قطع الزمان بالعيش اليسير ، وقد تعلّل بشرابه ، إذا أخذ منه قليلا قليلا ؛ فمعنى «أتعلّل بعسى ولعلّ» ، أُذهب علّة وَجْدِى بالرجاء والطمع .

* * *

فَلَمَّا حَلَلْتُ حُلْوَانَ ، وَقَدْ بَلَوْتُ الإِخْوَانَ ، وَسَبَرْتُ الأَوْزَانَ ؛ وَخَبَرْتُ مَاشَانَ وَزَانَ ، أَلْفَيْتُ بِهَا أَبَا زَيدٍ السَّرُوجِىَّ يَتَقَلَّبُ فِى قَوَالِبِ الانْتِسَابِ ، وَيَخْبِطُ فِى أَسَالِيبِ الاكْتِسَابِ ؛ فَيَدَّعِى تَارَةً أَنَّهُ مِنْ آلِ سَاسَانَ ، وَيَعْتَزِى مَرَّةً إِلَى أَقْيَالِ غَسَّانَ ، وَيَبْرُزُ طوراً فِى شِعَارِ الشُّعَرَاءِ ، وَيَلْبَسُ حِيناً كِبْرَ الْكِبْرَاءِ .

* * *

[ذكر حلوان]

حللت : نزلت . وحلوان : بلدة بينها و بين مدينة بغداد أربع مراحل ، وهى من كُور الجَبَل ، وسُمِّيت باسم بانيها ، وهُوَ حلوان بن على بن الحافِ بن قُضاعة ، وهى مدينتان بينهما نهر عظيم مقداره فرسخ ، وهى مقابلة لطَبَرِستان. وهى جبليّة سهلية بحرية لها زيتون ونخيل ، وبها قصب السّكر وافتتحت فى زمن عمر .

* * *

بلوت : جرّبت . الإخوان : الأصحاب . سبرت : فتشت . الأوزان : أقدار الناس . خبرت: جرّبت وعَرفت . شان : عاب ، وزان : زُيِّن؛ يريد أنه دخلها وهو مجرِّب عارف بالناس. ألفيت : وجدت . يتقلّب : يتنوّع . قوالب : جمع قالب ، وقالب كلّ شىء : قياسه وما يُصنع عليه . يخبط : يمشى ، والخَبْط : المشى فى الأرض على غير قصد كمشى الأعمى . أساليب: طرُق ، واحدها أسلوب . آل ساسان : ملوك الفرس . يعتزى : ينتسب . أقيال : ملوك . غسان : قبيلة باليمن كان منها ملوك . وغَسَّان : ماء كان شِرْباً لولد مازن بن الأزد بن الغَوْث فسُمُّوا به . يبرز : يظهر . طوراً : حيناً . شعار : ثياب ، والشِّعَار ثَوب يلى الجسد. كِبْر : تكبّر ، يريد أنه لقى أبا زيد بحُلوان يتنوّع بذلك فى أحوال المكدين ، ويجرى بذلك فى طرق اكتساب المعيشة فيدّعى أنه من آل ساسان .

[شعار الكدية]

وأصل هذا أنّ الفرس كان فيهم المُلْك ، وكانت العرب تحت حكم ملوكهم ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم لملكهم بكتابه يدعوهم به إلى الإسلام ، مزّقوه ، فدعا الله عليهم أن يُمزَّقوا كلَّ مُمزَّق ، فأوقع بهم المسلمون فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد حروب شديدة معظمها بالقادسيّة ، فلم يبق لهم فى الملك رسم ، وصاروا فى خلافة عثمان رضى الله عنه تحت حكم المسلمين ، وكانوا أهل دَهاء وجراءة وحروب

ورماية ،فسكن من بقي منهم الأمصار ، واستعربوا وتنقّهوا ،فكان منهم مَنْ نفع الله به المسلمين، وكان منهم أهلُ أهواء وبِدَع،ونشأت منهم هذه الطائفة الخسيسة ، أهل الكُدْية ، فكانوا يطوفون على البلدان ، ويقولون : نحن من بنى ساسان، فينتسبون إلى ملوكهم ، ثم يتذلّلون فى السؤال،ويذكرون تلاعُبَ الدّهر وانقلاب حال الملوك إلى السؤال، فيقع الإشفاق عليهم، والميل بالرزق لهم ، حتى شعر الناس بمكرهم وخديعتهم ، فطُرِدُوا ، وصار النّاس إذا رأوا سائلاً متمسكاً قالوا : ساسانى . وقيل : إنَّ ساسان اسم رجل معيّن ، وهو أوّل من أسس الكُدْية ، فَنسِبوا إليه ، كما أنَّ الطّفيليّ منسوب إلى رجل اسمه طُفيل وهو أوّل من تطفّل .

فأراد أن أبا زيد كان يتنوّع فى أحواله ، فيتمسكن تارة ويدّعى أنه من ساسان ، ويتعاظم أخرى فينتسب إلى غسّان ، ويبرُز مرة فى أحلاس الشعراء المكدين ، ويظهر ثانية فى ثياب فاخرة ، لباس الكبراء المثرين .

* * *

بَيْدَ أَنَّهُ مَعَ تَلَوُّنِ حَالِهِ ، وَتَبَيُّنِ مُحَالِهِ ، يَتَحلَّى بِرُوَاءِ وَرِوَايَةٍ ، وَمُدَارَاةٍ وَدِرَايَةٍ ، وَبَلاَغَةٍ رَائِعَةٍ ، وَبديهَةٍ مُطَاوِعَةٍ ، وَآدابٍ بَارِعَةٍ ، وَقدَمٍ لِأَعْلاَمِ الْعُلُومِ فَارِعَةٍ ، فَكانَ لِمَحَاسِنِ آلاَتِهِ ، يُلْبَسُ عَلَى عِلاَّتِهِ ، وَلِسَعَةِ رِوَايَتِهِ ، يُصْبِيَ إِلَى رُؤْيَتِهِ ، وَلِخَلاَبَةِ عَارِضَتِهِ ، يُرْغَبُ عن مُعَارَضَتِهِ ، وَلِعُذُوبَةِ إِيرَادِهِ ، يُسْعَفُ بِمُرَادِهِ، فَتَعَلَّقْتُ بِأَهْدَابِهِ ، لِخَصَائِصِ آدَابِهِ ، وَنَافَسْتُ فى مُصَافَاتِهِ ، لِنَفَائِسِ صِفَاتِهِ .

فَكُنْتُ بِهِ أَجْلُو هُمُومِي وَأَجْتَلِي
زَمَانِيَ طَلْقَ الْوَجْهِ مُلْتَمِعَ الضِّيَا

أَرَى قُرْبَهُ قُرْبَى وَمَعْنَاهُ غُرْبَةً وَرُؤْيَتَهُ رِيًّا ، وَمَحْيَاهُ لى حَيَا

* * *

قوله : « بَيْدَأنه » ، أى غير . مُحَاله : باطله ، والمُحال مالا يمكن أن يُتصوَّر ، وهو « مفعل » من حالَ الشىء ، إذا تغير ، كأنه زال عن وجهه . يتحلّى : يتزين . رواء : نظافة وحسن منظر . مداراة : حسن سياسة فى صُحْبَته ، وأصلها المخادعة . دراية ودِرْية : مصدر دَرَيت . بلاغة : فصاحة . رائعة : معجِبة ، ومَنْ شاهدها ارتاع وتعجَّب . والبديهة والبداهة : الأخذ فى الكلام من غير فكرة ، وهى الارتجال . مطاوِعة : مُنْقادة . بارعة : فائقة تفضُل غيرها . أعلام : جبال . فارعة : طائلة قد علتها ، واللام فى قوله : « لأعلام » زائدة ، وزيادتها إذا تقدَّمت أحسنُ منها إذا تأخرت ، مثل ضربت زيداً ولزيد ضربت . آلاته : عدده ، وأراد به هذه الأنواع التى قدّمها التى تحلّى بها . يابَس : يصاحب ويخالَط . عِلّاته : عيوبه التى ذكر من أنواع الغربة . سَعَة روايته : كثرة علمه وما يرويه . يُصْبَى : يمال . خلابة : خداع ، وقد خلبه خلباً وخلابة : خدعه . عارضته : قوة كلامه . معارضته : مقابلته ومناقضة كلامه ، وتقول : رغبت عن الشىء تركته وتزهدت فيه ، ورغبت فيه ، إذا أحببتَه ، فيريد أنّه لقوّة كلامه وصلابته لا يتعرّض أحد لجداله ، فهو يخادع به الناس حتى لا يعترَض له فيما يقول ، وقيل : معنى فلان شديد العارضة ، إذا أفحَش وَأسمع المكروه ، ورجل شديد العارضة ، أى لا تُقْرَب ناحيته . إيراده : أخذه فى الكلام . يسعف : يساعد . أهدابه : أطراف ثوبه . وخصائص الشىء : ما يختصّ به ، أى ينفرد . نافست : زايدت وغاليت . مصاناته : مصاحبته . نفائس : جمع نفيس ، وهو الرفيع من كلّ شىء يسمَّى نفيساً ، من النَّفْس وهى العين ، حتى كأنه لرفعته تتعلّق به العين ، وقد قال المعرّى :

فالعينُ يسلَمُ منها ما رَأَتْ فنَبَتْ عنه وتلحقُ ما تَهْوَى من الصُّوَرِ (١)

قوله : « أجلو » ، أى أكشف . أجتلى : أنظر . طلق الوجه : مستبشرا ، والطَّلق

(١) ديوانه ١٠٠

ضدّ العابس . ملتمع : منير بادى اللمعان : قربى : نسباً ، ومغناه : منزله ، من قولهم: غِنِيَ بالمكان يَغْنى غنيانا ، إذا أقام به . غُنْية : غِنًى ، يقال : غنى يغنَى غنًى فهو غنىّ ، إذا استغنى ، والاسم : الغُنْية . رِيًّا : شبعاً من الماء ، ورَوِيت من الماء ضدّ عطشت : محياه : حياته . حيا : مطر عامّ . ويقول : إنه كان بمصاحبته أبا زيد يزول همه ، ويلقاه ببشر منه ، فيرى قربه منه بالودّ كقرابة النسب ، وكان منزله لما يجد فيه من الخصب أو من غزارة العلم يرى أنه غناه ، وإذا رآه زال عطشه للعلم أو للماء برؤيته . وقصد تجنيس الألفاظ يبعد المعنى .

* * *

وَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ بُرْهَةً ، يُنْشِئُ لِي كلَّ يَوْمٍ نُزْهَةً ، وَيَدْرَأُ عَنْ قَلْبِي شُبْهَةً ، إلى أنْ جَدَحَتْ لَهُ يَدُ الإمْلاَقِ كَأْسَ الْفِرَاقِ، وَأَغْرَاهُ عَدَمُ الْعُرَاقِ بِتَطْلِيقِ الْعِرَاقِ ، وَلَفَظَتْهُ مَعَاوِزُ الإرفاقِ إلى مَفَاوِزِ الآفاقِ ، وَنَظَمَهُ فى سِلْكِ الرِّفَاقِ خُفُوقُ رَايَةِ الإخْفَاقِ ، فشَحَذَ لِلرِّحْلَةِ غِرَارَ عَزْمَتِهِ ، وَظَعَنَ يَقْتَادُ الْقَلَبَ بأَزِمَّتِهِ .

فَمَا رَاقَنِي مِنْ لاَقَنِي بَعْدَ بُعدِهِ
وَلاَ شاقَنِي مَنْ سَاقَنِي لِوِصالِهِ
وَلاَ لاَحَ لِي مُذْ نَدَّ نِدٌّ لِفَضْلِهِ
وَلاَ ذُو خِلاَلٍ حَازَ مِثْلَ خِلاَلِهِ

* * *

لبثنا : أقمنا . برهة : مدّة . ينشىء : يصنع ويبتدئ . والنزهة ، أصلها التَّبَاعد عن الرّيب ، ثمّ كثرت حتى صارت الخروج للرياض للتفرّج ، ثم استعملت فى المعانى، فقيل: نَزُهَ فلان فى آدابه ،وكنى بهذا عمّا يستفيده من علمه. يدرأ: يدفع. شبهة : إشكال والتباس . جدَحَتْ: حركت ومزجت . والمِجدَح :

آلة يمزج بها المشروب الصعب الامتزاج . الإملاق: الفقر من الملقة وهى الصخرة الملساء ، فأملق ، كأنه صادف مَلَقة لاتنبت شيئاً ، ولم يصادف خصباً بعد أن كان فى ترفّهٍ وغنًى . أغراه : حرّضه .

والعُراق ، اختلفوا فيه ، فقال صاحب العين : العُراق : العظم بلا لحم ، فإن كان عليه لحم فهو عَرْق .

ابن قتيبة ، يقال للعظم الّذى عليه اللحم عُراق، وللخالى من اللحم عَرْق .

أبو عبيد ، العُراق : القطعة من اللحم . أبو زيد ، قول العامة : تُريده العُراق خطأ ؛ إذْ كان العُراق العِظام ، وأنشد لرجل يطرد الطير عن زَرْعه فى عام جدب :

عَجِبْتُ من نفسِى ومن إشفاقها ومن طرادى الطَّيْر عن أرزاقِها
فى سَنَةٍ قد كشفت عن ساقها حَمْراء تَبْرِى اللَّحمَ عن عُراقها

ابن الأنبارىّ ، قول أبى عبيد هو الصواب ؛ لأن العرب تقول : أكلت العُراق ولا تقول : أكلت العَظْم ، وفى حديث أم إسحاق العَنَزيّة[1] : فجعلت لا آكل العُراق ولا أضعه ، فقولها : « لا آكل » يدلّ على أن العُراق لحم مفرد أو لحم على عظم .

الأصمعى ، قيل لأعرابىّ : أىّ الطعام أطيب ؟ قال : تُريده دَكْناء من الفلفل ، رَقْطاء من الحمض ، ذات حفافين من البَضع ، لها جناحان من العُراق ، قيل : كيف أكلك لها ؟ قال : أصدع بهاتين — يعنى السبابة والوسطى — وأسند بهذين — يعنى الإبهام والخنصر — وأجمع ما شذّ منها بهذه — يعنى البنصر — وأضرب فيها ضرب ولىّ السوء فى مال اليتيم . فهذا يدل على أن العُراق قطع اللحم إذ كانت العرب لا تصف الثريد والأطعمة بكثرة العظام .

والعُراق فى البيت : الأكل ، تقول : عرقت العظم عراقاً ، أكلت ما عليه من اللحم ، والعظم معروق ، وهو بمنزلة سكتّ سكاتاً .

(١) اللسان : « العنوية » .

العِراق : قال صاحب العين : هو شاطىء البحر ، وبه سُمِّيت العِراق ، لأنها على شاطىء دجلة . ابن الأعرابىّ ، سمى عِرَاقاً لأنه سَفُل عن نجد ، ودنا من البحر ، أخِذ من عِراق القربة ، وهو الخرز فى أسفلها . قطرب ، سُمِّى عِراقاً لأنه دنا من البحر ، وبه يُنَاخ وينجد .

ويقال : استعرقت إبلهم ، إذا أتت ذلك الموضع . لَفَظَتْه ، أى رمته . ومعاوز : جمع مَعْوَز ، والمعوز هو العَوز نفسه ، والمِعْوز بالكسر : الثوب الخلَق وجمعه معاوز . الإرفاق ؛ مصدر أرفقته ، إذا أوصلتَ إليه نفعاً يَرْتَفِق به ، ورفقته بمعناه ، فأراد بمعاوز الإرفاق فَقْدَ ما يُرْتَفَقُ به . والمفاوز : جمع مفازة وهى الصحراء ، سمّيت مفازة على التفاؤل ، لأنّ الرجل إذا قطعها فاز ونجا . والآفاق : نواحى الأرض . نظمه : ضمّه وجمعه . سلْك : خيط . الرّفاق : جمع رُفقة ، وعنى بسلْك الرفاق الطريق الذى ينتظمون فيه إذا أخذوا فى السير ، لأنهم يمشون فيه واحداً بعد واحد ، فنظمهم الطريق ، وصار لهم كالسلك . خفوق : اضطراب ، وقد خفق خَفقاً وخُفوقاً ، والإخفاق : الخيبة ، ويقال : غدا فأخفق ، إذا خاب ، ومثله فى الصائد : صاد فأروق . شحذ : حدّ وسنّ ، وشحذ الرجل سيفه ، إذا ألحّ عليه بالتحديد ، ومنه قولهم للملحّ فى المسألة : شحاذ ، والعامة تصحّفه فتقول : شحات ، بالتاء . غِرَار : حدّ . وأراد أنه لما عزم على الارتحال حدّ عزمتَه ، أى عوّل على السفر بجدّ . والعزمة : مصدر عزم إذا جدّ ، وجعل لها حدًّا ، مبالغة فى تعجيل السفر . ظعن : ذهب وارتحل . أزمَّة : جمع زمام ، وهو حبل من جلود يشدّ به فى حلقة مجعولة فى وتد أنف البعير ، فجعل تعلُّق قلوب أصحابه به عند فراقه ، وحَنينَهم إليه ؛ كأنه قد ربطها بأزمَّة وقادها معه ، فمن روى « القلوب » عادت الهاء من « أزمّته » على السروجىّ ، ومن روى « القلب » عادت على القلب أو على السروجىّ ، والقلب لابن همام .

قوله : « راقنى » ، أى أعجبنى ، وقد راق الشىء يَرُوق رَوْقاً فهو رائق ، إذا أعجب . لاقنى : لصق بى وصحبنى .

شاقنى : شوّقنى . ساقنى لوصاله : دعانى لصحبته . لاح : ظهر . ندّ : فرّ وشرد. نِدّ : مثل ، والجمع أنداد . خِلال : جمع خُلّة بالضم ؛ وهى الصداقة ، خِلاله : جمع خُلّة بالضم أيضاً ، وهى الخصلة. وهذا النَّمط فى وصف الصديق وغيبته بارع. ولابن عمران فى ذلك :

يامَرْحباً بصديقٍ لستُ أبصِرُهُ ... إلّا تجدَّد لى أُنسٌ بمرْآهُ
وإن تغيّب عن عينى فلم أرَهُ ... فلى فؤاد بظَهْرِ الغيْبِ يَرعَاهُ

* * *

وَاستسرَّ عَنِّى حِيناً ، لاَ أَعْرِفُ لَهُ عَرِيناً ، وَلا أَجِدُ عَنْهُ مُبِيناً . فَلَمَّا أُبْتُ مِنْ غُرْبَتِى ، إلى مَنْبِتِ شُعْبَتِى ، حَضَرْتُ دَارَ كُتُبِهَا الَّتِى هِىَ مُنْتَدَى الْمُتَأَدِّبِينَ ، وَمُلْتَقَى الْقَاطِنِينَ مِنْهُمْ وَالْمُتَغَرِّبِينَ ، فَدَخَلَ ذُو لِحْيَةٍ كَثَّةٍ ، وَهَيْئَةٍ رَثَّةٍ ، فَسَلَّمَ على الْجُلاَّسِ ، وَجَلَسَ فى أُخْرَيَاتِ النَّاسِ .

* * *

استسرّ : غاب واختفى ، وأصله من سِرار الهلال فى آخر الشهر، وهو يستسرّ ليلة لا يظهر أو ليلتين . والعرين: بيت الأسد ومأواه . مبيناً : معلماً به يبيّن لى أين استقرّ . أُبْت : رجعت . منبت شُعبتى ، أى بلدة قرابتى التى نبتُوا فيها، يريد البصرة. والشُّعبة: القرابة . دار كتبها :مدرسة العلم . منتدى : مجتمع . القاطنين : الساكنين ، وقَطَن بالمكان : أقام فيه . كثّة : كثيرة الأصول من غير طول .

[مما قيل فى اللحى]

ويقال للّحية إذاقصر شعرها وكثر: إنها لكَثَّة،وقد كثَّتْ تكِثّ كَثَاثَة وكُثوثة ، ورجل كث اللحية ، ولحية كُثحُمة ، إذا كثُفت وقصرت وجَعُدت ،

ورجل كُثحُم اللحية . وإذا عظمت وكثر شعرها قيل : إنه لذو عُثْنون ، وإنه لَهِلّوف ، فإذا كانت اللحية قليلة فى الذقن ولم تكن فى العارضين فذلك السَّنُوط والسُّنَاط ، ورجل سُناط : بيّن السَّنَط ، فإذا لم يكن فى وجهه كثير شعر ، فذلك النَّطط ورجل نَطّ ، ورجال نِطاط . والسَّبَلة : مقدّم اللحية ، ورجل مسبل ، وفلان خفيف العِذارين ، وهما ما اتصل من شعر اللحية بالصُّدغ ، وهما العارضان ، وهما ما نبت فى الخدّين من الشَّعر على عوارض الأسنان ، قال رؤبة فى لحية حرب بن قَطَن :

هِلَّوفةٌ كأنها جُوَالِقُ نَكْداء لا بارك فيها الخالِقُ
لها فضولٌ ولها بنائِقُ إذا الرياح العصفُ السَّوابِقُ
طيَّرْنَها طارتْ لها عقائِقُ إن الذى يحملُها لمائِقُ

وأنشد أبو علىّ :

وأنت امرؤ قد كَثَّأتْ لك لحيةٌ كأنك منها قاعد فى جُوَالِقِ

وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : «من سعادة المرء خفة لحيته» . وكانت عائشة رضى الله عنها تقسم فتقول : « لا والذى زيّن الرجال باللحى » ، تقول : إنه قَسَم الملائكة .

قال الأحدب الصوفىّ : سمعت مطيار بن أحمد يقول : رأيت النبىّ صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فقلت : يا رسول الله ، أشتهى لحية كبيرة ، فقال لى : « لحيتك جيدة ، وأنت محتاج إلى عقل تامّ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « اعتبر واعقل الرَّجل فى ثلاث : فى طول لحيته ، ونقش خاتمه ، وكنيته » .

أتى رجلٌ طويلُ اللحية معاوية فقال له : أمَّا اللحية فلا نسأل عنها ، فما نقش خاتمك ؟ فقال : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لاأَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾[1] ، قال : فما كنيتك ؟ فقال : أبو الكوكب الدرّىّ ، قال : كَمَل الرجل .

(١) سورة النمل ٢٠ .

رفع المسهم

وكان صلى الله عليه وسلم يأخذ من لحيته من طولها وعرضها بالسواء .

وكان عبد الله بن عمر يقبض على لحيته ، ويأخذ ما زاد منها على قبضته .

الحسن بن المثنى: إذا رأيت رجلًا له لحية طويلة ، ولم يتخذ لحية بين لحيتين، كان فى عقله شىء .

وكان المأمون جالساً مع ندمائه ببغداد ، مشرفاً على دجلة وهم يتذاكرون أخبارَ الناس ، فقال المأمون : ماطالت لحية إنسان قط إلا ونقص من عقله بمقدار ماطال من لحيته ، وما رأيت عاقلا قطُّ طويلَ اللحية . فقال له بعض جلسائه، ولا يردّ على أمير المؤمنين: قد يكون فى طول اللحى أيضاً عقل؛ فبينما هم يتذاكرون فى هذا ، إذ أقبل رجل كبير اللحية ، حسن الهيئة ، فاخر الثياب ، فقال المأمون : ما تقولون فى هذا الرجل ؟ فقال بعضهم : رجل عاقل ، وقال آخر : يجب أن يكون هذا قاضياً ، فقال المأمون لبعض الخدم : علىَّ بالرجل ، فلم يلبث أن أصْعِد إليه ووقف بين يديه، فسلَّم فأجاد السّلام، فأجلسه المأمون، واستنطقه فأحسن النطق، فقال المأمون : ما اسمُك ؟ فقال : علّوية ، قال : فما الكنية ؟ قال: أبو حمدويه، فضحك المأمون ، وغمز جلساءه ثم قال : ما صنعتُك ؟ قال : فقيهٌ أجيد الشرع فى المسائل ، فقال له : نسألك مسألة ! فقال الرجل : سل عما بدا لك ، فقال له المأمون : ما تقول فى رجل اشترى شاة من رجل ، فلما تسلّمها المشترى ، وقضى الثمن ،ضرَطت ، فخرج من استها بعرة ففقأت عين رجل ؛ على مَنْ تجب دية العين ؟ قال : فنكت بإصبعه فى الأرض طويلًا، ثمّ قال: تجب على البائع دون المشترى ، فقال المأمون : وما العلّة التى أوجبت الدية عليه دون المشترى ؟ قال: إنه لمّا باعها لم يشترط أنّ فى استها مِنجنيقاً، قال : فضحك المأمون حتى استلقَى على قفاه ،وضحك كلّ من حضره مِنَ الندماء . وأنشد المأمون يقول:

ما أحدٌ طالت له لِحْيةٌ فزادت اللِّحيةُ فى حِلْيَتِه

إلا وما ينقص مِنْ عقله أكثر مما زاد فى لحيتِهْ

وقال آخر :

إذا عظمتْ للفتى لِحْيـةٌ فطالت فَصَارَتْ إلى سرَّتِهْ
فنقصان عقل الفتى عندنا بمقدار ما زاد فى لِحْيَتِهْ

وأنشد أبو علىّ :

لا تفخـرنَّ بلحيـةٍ كَثُرَتْ منابتُهَا طويلهْ[1]
يَهوِى تفـرُّقَهَا الرّيا ح كأنهـا ذَنَبُ الحسِيلهْ
قَدْ يدرِكُ الشَّرَفَ الفتى يوماً ، ولحيته قليـلهْ

وقال : الحسيلة العجلة .

وأنشد أبو العباس رحمه الله :

كل امرئٍ ذى لحية عَثْوَلِيَّةٍ يقوم عليها ظَنَّ أنّه له فضلاَ
وماالفضلُ فى طول السِّبال وعَرْضِهِ إذا الله لم يجعل لصاحبه عقْلاَ

عَثْولية : كبيرة .

نظر يزيد بن مزيد الشيبانىّ رحمه الله إلى رجل ذى لحية عظيمة ، وقـد تَلَفَّفَتْ على صدره ، وإذا هو خاضب ، فقال له : إنك من لحيتك فى مئونة ، فقال : أجل ، ولذلك أقول :

لَعَمْرُكَ لو يعطِى الأميرُ على اللّحَى لأصبحتُ قد أيسرتُ منذ زمَانِ[2]
إذاً لشفتنِى لحيتى من عصـابةٍ لهم عنده ألفٌ ولى مائتـانِ
لها درهم للدُّهْنِ فى كلِّ جمعـةٍ وآخـر للحِنَّاء يبتـدرَانِ
ولولا نوالٌ من يزيد بن مَزْيَدٍ لصوّت فى حافاتها الجَلَمَانِ

(١) الأبيات فى اللسان (حسل) من غير نسبة .
(٢) الكامل للمبرد ٢ : ١٢٨

فأمر له بعشرة آلاف درهم . والجلمان : المقصّ ، ويسمى الجالِم .

وقال إسحاق بن خلف يصف رجُلاً بالقِصَرِ وطول اللّحية :

ما سرّنى أنّنِى فى طولِ دَاوُدِ ... وأننّى عَلْم فى البَأْسِ والجود[1]
ماشيتُ داودفاستَضحكتُ من عجَبٍ ... كأننى والدٌ يمشى بمولُودِ
ما طولُ داودَ إلّا طولُ لحيتِه ... يظلُّ داودُ فيها غيرَ موجُودِ
تكنُّه خصْلة منها إذا نفحت ... ريح الشمالِ ، وجفَّ الماء فى العودِ
أجدى وأغنى من الخزّ الصّفيق ومن ... بيض القطائف يوم القرّ والسُّودِ

وأشد إفراطاً منه قول ابن الرومىّ :

ولَحيةٍ يحمِلُهـا مائقٌ ... مثل الشِّراعين إذا أُشرِعَا
تقودُه الرِّيح بها طائعاً ... قَوْداً عنيفا يُتْعِب الأَخْدَعَا
وإن عدا والريح فى وَجْهِهِ ... لم ينبعثْ فى مشيه إصبعَا
لو غاص فى اليمِّ بها غَوْصَةً ... صاد بها حِيتانَهُ أجمَعَا

وأشد إفراطا منه قول الآخر :

يا لحْيَةَ الشَّيْخ الأزَبّ تميم ... أهديت للأقوام عرف الثُّوم
لو أنها دون السماء غمامَةً ... ضاقتْ مسالكُ دعوة المظلُومِ
أو صبَّها فى الماء ثم سَمَا بِها ... قامتْ مقام العارِضِ المرْكُومِ

ولابن سارة :

ولحيةٍ لست أدرى كيف أنعتها ... فضول أشعارها أوْدَتْ بأشعارِى
كأنها ويمينُ الرِّيح تنشرُها ... مِذَبَّةٌ وقعت فى عود بَيْطارِ

(١) الكامل للمبرد ٢ : ١٢٨

وقال آخر :

أبصرتُ شيخا ذاهباً جائيـــاً ذا لحيـــةٍ قدْ كبرُت فى اتِّسَاعْ
عرْضاً وطُولاً وهو من خَلْفِهَا كأنه ناشرُ ثوبٍ يُبـــاعْ

وقال آخر :

لقد كانتْ مجالسُنـــا فِساحًا فضيَّقَهـــا بلحيتِـــهِ رَبَاحُ
مُقَلَّبَة الأسافـــل والأعالِى لها فى كلّ زاوية جَنَـــاحُ

وقال آخر :

يأيّها الناس خذوا حِذْرَكُمْ قدبَرَزَتْ لِحْيَـــةُ بُهْلُولِ
فطـــولُها الفرسخُ فى فرسخٍ وعرضها ميـــلٌ إلى مِيلِ
لو ضمَّ ما يقطر من دُهنهـــا أسرِج منه ألفُ قِنْدِيـــلِ
ولو سَهَا الحجَّـــام عن قَصِّها لحـــالطت ما فى السَّرَاوِيلِ

ذكر هنا أبو محمد لحية السرّوجىّ أنّها كثّة، وكل صفة يصف بها السَّروجىّ فى المقامات ، فتلك كانت صفة الحريرى . وذكر ابن جَهْور أنَّ الحريرىّ كان قليل اللّحية لا خلقةً ، وإنما كان مولعاً بنتفها، كانت يده رحمه الله لا تفارق لحيتَه . وهذا على كثرته قليل فيما قيل فى اللحية .

قوله «رَثَّة» ، أى خَلَقَة بالية . أخريات : أطراف ، وهى جمع أخرى .

* * *

ثُمَّ أَخَذَ يُبْدِى مَا فِى وِطَابِهِ ، وَيُعْجِبُ الْحَاضِرِينَ بِفَصْلِ خِطَابِهِ ، فقالَ لِمَنْ يَلِيهِ : مَا الكِتَابُ الَّذِى تَنْظُرُ فيه ؟ فقال : ديوانُ أَبِى عِبَادَةَ ، الْمَشْهُودِ لَهُ بالإِجَادَةِ .

* * *

أتى طلحة رضى الله عنه مجلس قوم، فجعلوا ينادونه من كلّ جانب: هاهنا

يا صاحبَ رسول الله ! قال: فجلس فى أدْنَى المجلس ، ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنَّ من التواضع لله الرضا بالدُّون من شرف المجلس » .

وطابه : زِقَاق لَبِنِه ، أراد أنه يظهر ما عنده . يعجب : يجعلهم يتعجَّبون . بفصل خطابه : يريد بفصل كلامه وجودة بلاغته ، وقوله تعالى : ﴿ و فَصْلَ الخِطَابِ ﴾[1] هو قول الخطيب : « أما بعد » . يليه : يلصق به .

[البحترىّ وبعض أخباره وشعره]

أبى عبادة . قال البكرىّ : هو الوليد بن عبيد بن يحيى بن عبيد ، من بنى بحتر بن عتود بن عُنين ابن سَلَامان بن ثُعَل بن عمرو بن الغَوْث بن جلهمة ، وهى طيِّىء . شاعر مقدّم لا يُعدَل به أحد ، يفضَّل على حبيب ، والناس فى تفضيلهما على اختلاف .

قال أبو الفرج الأصبهانىُّ : كان البحترىّ شاعراً فصيحاً ، حسن المذهب نَقِىّ الكلام ، خُتِم به الشعراء المحدَثون ، وله تصرّف فى ضروب الشعر ، سوى الهجاء ، فإنّ بضاعته فيه نَزْرة .

قال البحترىّ : وكان أول أمرى أنِّى سرت إلى أبى عامر بحِمْص ، فعرضت عليه شعرى ـ والشعراء يعرضون عليه أشعَارهم ـ فترك مَنْ حضر وأقبل علىّ ، فقال لى حين تفرّقوا : أنت أشعَر مَنْ أنشدنى ، فكيف حالك ؟ فشكوت خَلَّة ، فكتب إلى أهل معرّة النعمان ، وشهد لى بالحذْقِ فى الشعر ، وشفع لى إليهم ، وقال : امتدحهم. فسرت إليهم ، فأكرمونى بكتابه ، ووظَّفُوا لى أربعة آلاف درهم ، فكانت أوّل مالٍ أصبته[2] .

وحدّث أبو الفرج ، قال : حدثنى أبو الغَوْث البحترىّ ، عن أبيه ، قال : أوّل

(١) سورة ص ٢٠ .
(٢) الأغانى ١٨ : ١٦٧ ، ١٦٩ .

أمرِى أنّى دخلت على أبى سعيد محمد بن يوسف الثغرىّ ، فأنشدته قصيدة أولها :

* أأفاق صبٌّ مِنْ هَوًى فأُفِيقَا *

فسُرَّ أبو يوسف بها ، وقال : أحسنت والله يا فتى وأجدت ـ وفى مجلسه رجل رفيع نبيل قريب المجلس منه ، فوق كل مَنْ حضر ، تكاد تمسّ ركبتُه ركبتَه ، فأقبل علىّ ، ثم قال : أما تستَحِى منى ! هذا شعرى تنتحله وتنشده بحضرتى ! فقال له أبو سعيد : أحقًّا ما تقول ؟ قال : نعم ، وإنما عَلِقه مِنّى وسبق به إليك ، وزاد فيه. ثم اندفع فأنشد أكثر القصيدة ، حتى شكَّكنى ـ علم الله ـ فى نفسى ، وبقيت متحيّراً ، فقال لى أبو سعيد: يافتى ، قد كان لك فى قرابتك منّى ما يغنيك عن هذا ! فجعلت أحلف بكل مخرّجةٍ من الأيمان أن الشعر لى ، ماسمعتُه منه ، ولا انتحلتُه. فلم ينفع ذلك شيئاً ، وأطرق أبو سعيد ، وقطع بى حتى تمنَّيت أن يُساخ بى فى الأرض ، فقمت منكسِف[1] البالِ ، أجرّ رجلىّ ، فما بلغت باب الدار حتى ردَّنى الغلام ، فأقبل علىَّ الرجل وقال : الشعر لك يابنىّ ، والله ماقلتُه قطّ ، ولا سمعتُه إلا منك ؛ ولكننى كنت ظننتُ أنَّك تهاونتَ بموضعى ، فأقدمت على الإنشاد بحضرتى ، تريد مضاهاتى ، حتى عرّفنى الأمير نسبك ، ولوددت ألّا تلد طائيّة إلا مثلك ، ودعانى وضمّنى إليه ، وعانقنى ، وأبو سعيد يضحك ، فلزمتهُ بعد ذلك وأخذت عنه ، واحتذيت فنه[2] .

وعن أبى الغوث عن أبيه قال: ، قال لى أبو تمام: بلغنى أن بنى حُميد أعطَوْكَ مالاً جليلاً ، فبِمَ مدحتهم؟ فأنشِدْنى شيئاً منه ، فأنشدته ، فقال لى : كم أعطوك ؟ فقلت : كذا ، فقال لى : ظلموكَ ، والله ماوفَّوْك حقَّك ، فلِمَ استكثرتَ ماأعطوْك ! والله لبَيْتٌ منها خَيْرٌ مما أخذت . ثم أطرق قليلاً وقال : لعمْرِى لقد استكثرتَ ذلك لمّا مات الكرام ، وذهب الناس ، وغاضت المكارم ، وكسدت

(١) الأغانى : « منكسر » .
(٢) الأغانى ١٨ : ١٦٩

أسواق الأدب ، أنت الله يابنيّ أميرُ الشعراء غداً بعدى، فقمت فقبّلت رأسه ويديه ورجليه ، وقلت : والله لهذا القول أسَرُّ لِي مما وصل إليّ منهم .

قال البحتريّ : أنشدت أبا تمام يوماً شيئاً من شـــعرى ، فأنشدنى بيت أَوْسٍ :

وإنْ مُقْرَمٌ منّا ذَرَا حدَّ نابِهِ تمخَّط فينا نابُ آخرَ مُقْرَمِ (١)

ثم قال : يابنيّ ، نَعَيْتَ إليَّ نفسى : فقلت : أعيذك بالله من هذا ! فقال لى : إن عمرى ليس يطول ، وقد نشأ مثلُك لطيٌّ ، أما علمت أن خالد بن صفوان المِنْقرِيّ رأى شبيب بن شبّة ، وهو من رهطه يتكلم، فقال . يابنيّ ، نَعَى نفسى إليّ إحسانُك فى كلامك ؛ لأنّا أهل بيت، ما نشأ فينا قطّ خطيب إلا مات مَنْ قبله.

قال : فمات أبو تمام بعد سنة من قوله هذا ، ومات البحترى سنة ثلاث وثمانين ومائتين .

المبرّد : ذكرت للمتوكل المنازعة الّتِي جَرَتْ بينى وبين أبى الفتح فى تأويلات ،(٢) فبعث إلى عامله بالبصرة أن يحملنى إليه مكرهاً ،فوردتُ سرّ من رأى ، فأُدخِلْتُ على المتوكّل ، وفى المجلس البحتريّ وأبو العنبس الصيمريّ ، فأنشده البحتريّ قصيدة أولها :

عنْ أىّ ثغرٍ تبتسمْ وبأىّ طَرْفٍ تَحْتَكِمْ (٣)
حَسَنٌ يَضَنّ بحُسْنِهِ والحُسْنُ أشبَهُ بالكرَمْ

حتى بلغ :

قلْ للخليفةِ جعفرِ المُتَـــوَكِّلِ بنِ المعتصمْ

(١) وذرا حد نابه : انكسر ؛ كذا فسره صاحب اللسان ، واستشهد بالبيت .
(٢) ج : « تأويلاته » وهى ساقطة من المسعودى وإنباه الرواة .
(٣) ديوانه ١٩٩٨ .

رفع المسهم

المرتضَى ابنِ المجتَبى والمنعم ابن المنتقمْ
أمّا الرعيَّة فهى مِنْ أمَنَاتِ عَدْلك فى حَرَمْ
يابانىَ المجـدِ الذى قد كان قُوِّضَ فانْهدَمْ
اسْـلَمْ لدين محمَّدٍ فإذا سلمتَ فقد سَلِمْ
نِلْنَا الهدى بعد العمَى بلْ والغنى بعد العَدَمْ(١)

ثم مشى القهقرى للانصراف ، فوثب أبو العنبس ، وقال : يا سيّدى ، تأمر بردّه ! فقد والله عارضتُه ، فأخذ ينشد فى ذلك :

فى أىّ سَلْحٍ تنْتظِمْ وبأىِّ كفٍّ تلتقِمْ
أدخلت رأس البحـترىّ أبى عُبادة فى الرَّحِمْ

ووصله بما يشبهه من الشعر . فضحك المتوكّل حتى استلقَى ، وقال : يُدفع إلى أبى العنبس عشرة آلاف درهم ، فقال أبو الفتح : ياأميرالمؤمنين ، والبحترىّ الذى هُجِىَ وأُسْمِع المكروه ينصرف خائباً ؟ قال : ويُدْفَع إلى البحترىّ عشرة آلاف درهم ، قال: يا سيّدى ، وهذا البصرىّ الذى أشخصْنَاه من بلده ، ألا يشركهم فيما حصلوه ؟ قال: ويُدْفع له عشرة آلاف : قال : وانصرفنا كلّنا فى شفاعة الهذلىّ ، ولم ينفع البحترىَّ جِدُّه وحِذقه .(٢)

وأما أبو الفرج ، فقال : حدّثنى جحظة عن أبى العنبس الصيمرىّ ، قال : كنت عند المتوكل والبحترىّ ينشده :

* عن أىِّ ثغرٍ تَبْتَسِمْ *

وكان البحترىّ من أبغض الناس إنشاداً ، يتشادق ويتزاور فى مشيه مرَّة جانباً ، ومرّة القهقرى ، ويهزّ رأسه مرة ومنكبيه أخرى ، ويشير بكفيه ، ويقف عند كل بيت ، ويقول: أحسنتُ والله ! ثم يقبل على المستمعين ، ويقول لهم : مالكم لاتقولون : أحسنت ! هذا والله ما لايحسِن أحدٌ أن يقول مثله ، فضجر

(١) الديوان : « بك والغنى » .
(٢) الخبر برواية المبرد فى مروج الذهب ٢ : ٣٧٢ ، ٣٧٣ وإنباه الرواة ٣ : ٤٤٤ .

المتوكل من ذلك ، وأقبل علىّ فقال : أما تسمع يا صيمرىّ ما يقول ؟ فقلت : بلى ياسيدى ، فمرْ فيه بما أحببتَ ، فقال : بحياتى اهْجُه على هذا الروىّ ، فقلت على البديهة :

أدخلتَ رأسك فى الرَّحِمْ ... وعلمتَ أنكَ تنهزِمْ[1]
يا بحترىّ حذارِ ويْحـ ... ـكمن قضاقِضَةٍ ضُغُمْ
فلقد أسَلْت بواديْـ ... ـك من الهِجَاسَيْلَ العَرِمْ
فبأىّ عِـرْض تعتصِمْ ... وبهتكه جفّ القَلَمْ
واللهِ حِلْفَةَ صادقٍ ... وبقبر أحْمَدَ والحرَمْ
ووحق جعفرٍ الإما ... م بن الإمام المعتصِمْ
لأصيِّرَنّك شُهْرَةً ... بين المسيل إلى العَلَمْ
يا بنَ الثّقيلةْ والثّقيـ ... ـل على قلوب ذوِى النِّعَمْ
وعلى الصَّغير مع الكبـ ... ـيرِ مِنَ الموالى والحَشَمْ

وبعد هذا ما يقبح ذكره ؛ فغضب البحترىّ ، وخرج يعدو ، وجعلت أصيح به :

أدخلْتَ رأسك فى الرَّحِمْ ... وعلمت أنك تنهَزِمْ

والمتوكّل يضحك ، ويصّفق حتى غاب عنه .[1]

ومدح البحترىّ بعض الولاة ، فتوانى فى حقه، فأنشده :

إنّ الأميرَ أطال الله مدّتَهُ ... يُعْطَى من العُرْفِ ما لم يُعْطَهُ أحَدُ[2]
ينسى الّذى كان مِنَ معروفه أبدا ... إلى العباد ، ولا ينسى الذى يَعِدُ

فأعطاه خمسين ألف درهم، وقال : البيتان خير من القصيدة .

وقال الهذلىّ : قيل للبحترىّ: أيما أشعر؟ أنت أو أبو تمام ؟ قال: جيّدُه خيرٌ من جيِّدى ، ورديئى خير من رديئه . وصدق ، أبو تمّام لا يتعلّق به أحـ ... فى .

(١) الأغانى ١٨ : ١٨٣، وأخبار البحترى للصولى ٨٧.
(٢) ملحق ديوانه ٢٥٤٥ .

فى جيّده ، وربما اختلّ لفظه لامعناه، والبحترىّ لا يختلُّ لفظه .

وقيل له : قد عثرتَ باحتذائك أبا تمامٍ فى شعرك! فقال: أيُعاب علىّ أن أتبع أبا تمام ، وما عملت بيتاً قط حتى أُخْطِر شعره ببالى !

وذكروا معنًى تعاوره البحترىّ وأبو تمام، فقال المبرّد للبحترىّ: أنت فى هذا أشعر من أبى تمّام ، فقال : لا والله ، ذلك الرئيس الأستاذ ، والله ما أكلت الخبزَ إلا به .

وقال عبد الله بن الحسن: سألت المبرّد عن أبى تمام والبحترىّ أيهما أشعر ؟ فقال : لأبى تمّام استخراجات لطيفة ، ومعانٍ ظريفة ، وجيِّده أجود من شعر البحترىّ ومَنْ تقدّمه من المحدثين، وشعر البحترىّ أحسن استواء من شعره، لأنّ البحترىّ يقول القصيدة كلّها، فتكون سليمة من طعن طاعن ، وأبو تمام يقول البيت النّادر والبارد ؛ وهذا المعنى كان أعجب إلى الأصمعىّ ، وما أشبّهه إلا بغائص يُخرج الدرّة المَخْشَلبة ـ وهى زجاجة توضع مكان الدّرّة ـ ثم قال : لأبى تمام والبحترىّ من المحاسن ما لو قيس بأكثر شعر الأوائل ما وجدوا فيه مثله ، ثم قال : والبحترىّ ختم الشعر، وله بيتان لو وضعا إلى شعر زُهير لجازا فيه؛ وهما :

فماسَفَهُ السَّفيه وإن تعدّى ... بأنجعَ فيك من حِلْم الحليم (١)

متى أحفظتَ ذَا كرمٍ تخطّى ... إليك ببعض أفعال اللّئيم

وذكر المبرّد فى هذا المجلس شعراً له ، وقدّمه على نظرائه :

وإذا ذكرتُ محاسنَ ابنىْ صاعدٍ ... أدّت إليك مخائلَ ابنى مُخْلِدِ (٢)

كالفَرْقدَيْن إذا تأمّل ناظرٌ ... لم يعلُ موضعُ فرقدٍ عن فرقدِ

وقوله :

مَنْ شاكرٌ عنّى الخليفةَ للّذى ... أولاه من فضلٍ ومن إحسانِ (٣)

(١) ديوانه ٢٠٧٩ (٢) ديوانه ٥٤١

(٣) ديوانه ٢٢٥٥ .

رفع المسهم

حتَّى لقد أفضلتُ من إفضاله ورأيت نَهْجَ الجود حيثُ رآنِي

وبعدهما :

أغنت يداهُ يدى وشرّد جُودُه بُخْلِي ، فأفقرنى كما أغنانِي

وله أيضاً فى الفتح بن خاقان ، وقد نزل إلى الأسد فقتله:

حملت عليه السيف عطفك ما انثنى ، ولا يدُك ارتدَّت ولا حدُّه نَبَا[1]

فأحجم لمّا لم يجد فيك مطمَعًا وصمّم لما لم يجدْ عنك مَهْرَبَا

وله فيه :

وما منع الفتحُ بن خاقان نيْلَه ولكنها الأيام تُعطِى وتَحرِمُ[2]

سحابٌ خطانى جَوْدُه وهو مسبِلٌ وبحرٌ عدَانِى فيضُه وهو مفعَمُ

وبدرٌ أضاءَ الأرضَ شرقاً ومغرباً وموضعُ رجلى منه أسودُ مُظلِمُ

أأشكو نَدَاه بعد أن وَسِعَ الورَى ومَنْ ذا يذمّ الغيث إلا مذمَّمُ !

وله أيضاً فى انتقاض صلح بين عشيرته :

إذا ما الجرحُ رمّ على فَسادٍ تبيَّنَ فيه تفريط الطَّبيبِ[3]

وللسَّهْم السَّديد أشد حُبًّا إلى الرامى من السهم المُصيبِ

ومن جيّد شعره :

ولما التقينا واللِّوَى موعدٌ لنَا تبيَّن رائى الدرّ حسناً ولاقطُهْ[4]

فمن لؤلؤٍ تجلوه عند ابتسامِهَا ومن لؤلؤٍ عند الحديث تساقِطُهْ

والبحترىّ مكثر جدًّا ، وديوان شعره نسخ مختلفاً بالزيادة والنقص ؛ لأنّ شعره لا ينضبط لكثرته .

(١) ديوانه ٢٠٠ ، ٢٠١ .
(٢) ديوانه ١٩٨٠
(٣) ديوانه ١٩٠ .
(٤) ديوانه ١٢٣٠ .

رفع المسهم

[وصيّة أبى تمام للبحترىّ]

قال البحترىّ : كنت أروم الشعر فى حداثتى ، وكنت أرجع فيه إلى الطبع، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه ووجوه اقتضائه ، حتى قصدت أبا تمّام ، وانقطعت فيه إليه ، واتّكلت فى تعريفه عليه ، فكان أوّل ماقال لى: يا أبا عُبادة، تخيَّر الأوقاتَ وأنت قليل الهموم ، صِفْرٌ من الغموم . واعلم أنّ العادة جرت فى الأوقات أن يقصدها الإنسان لتأليف الشىء ، أو حفظه فى وقت السَّحَر ، وذلك أن النفس تكون قد أخذت بحظها فى الراحة ، وقسطها من النوم ، فإن أردت التشبيب، فاجعل اللفظَ رقيقاً ، والمعنى رشيقاً ، وأكثر فيه بيان الصَّبابة ، وتوجُّع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق؛ فإذا أخذتَ فى مدح سيّد [ذى أياد][1] ، فأشهِرْ مناقبَه ، وأظهِرْ مناسبَه ، وأبن معالمه ، وشرّف مقامه ، ونضّد المعانى ، واحذر المحتملَ[2] منها . وإيّاك أن تشين شعرَك بالألفاظ الهجينة[3] ، وكن كأنك خيّاط تقطع الثياب على مقادير الأجسام، وإذا عارضك الضَّجَر فأرح نفسَك، ولا تعمل شعراً إلا وأنت فارغ القلب . واجعل شهوتَك إلى قول الشعر الذَّريعة إلى حسن نظمه ، فإن الشهوة تجمع النفس[4] . وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سبق من شعر الماضين ، فما استحسن العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ؛ ترشد إن شاء الله تعالى .

قال : فأعملت نفسى فيما قال ، فوقفت على السياسة[5] .

* * *

فقالَ : هَلْ عَثَرْتَ لَهُ فِيمَا لَمَحْتَهُ ، عَلَى بَدِيعِ اسْتَمْلَحْتَهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَوْلُهُ :

---

(١) من زهر الآداب (٢) زهر الآداب : « المجهول » .
(٣) زهر الآداب : « الرديئة » . (٤) زهر الآداب : « نعم المعين » .
(٥) زهر الآداب ١١٠ ، ١١١ ، العمدة ٢ : ١١٤ .

كَأَنَّمَا يَبْسِمُ عَنْ لُؤْلُؤٍ مُنَضَّدٍ أَوْ بَرَدٍ أَوْ أَقَاحْ

فإنَّهُ أَبْدَعَ فِي التشْبِيهِ ، الْمُودَعِ فِيهِ .

* * *

قوله : «هل عثرت» ،معناه اطّلعت . لمحته : نظرته . بديع : معنى لم يسبق غيره إليه من تشبيه أو تجنيس وشبههما ممّا ذكر من صنع البديع فى [المقامة] الثالثة والعشرين. والبِدْع: إحداث الشيء قبل أن يكون أولا ،والبدْعَة :ما ابتدع من الدِّين ،والبديع :المحدث العجيب ، وأبدع الرجل :أتى ببديع من قول أو فعل، وأبدع الله الأشياء وابتدعها : خلقها بلا مثال . استملحته : وجدته مليحا . يبسم : يبدى بعضَ أسنانه عند الضحك . لؤلؤ : جوهر شبّه به الأسنان . وهذا البيت من شعره ، وقبله :

باتَ نديماً لىَ حَتَّى الصَّبَاحْ أغْيَدُ مجدولُ مكانِ الوِشَاحْ[1]

فبتّ أفـــديه ولا أرعوِى لنهيِ ناهٍ عنه أو لَحْيِ لاَحْ

أمزُجُ كأسِي بجنَى رِيقِهِ وإنما أمزُجُ راحاً بِرَاحْ

كأنما يبسم . . . . البيت .

وبعده :

سِحْرُ العُيونِ النُّجْلِ مُسْتَهْلِكٌ لُبِّي ، وتوريد الخدُودِ المِلاَحْ

قل لأبى نوحٍ شقيق العـلاَ ومَعدِنِ الجودِ ، وترْبِ السَّمَاحْ[2]

أعوذ بالفضْل الجميـل الَّذى عوّدتنى ، والنائِلِ المُسْتَمَاحْ

منْ أن تَصُدّ الطّرف عنّى وأنْ أخيبَ فى جدواك بعد النَّجَاحْ

أشْمَتَّ حُسَّـادِى وأخرجتنِي عن سَيْبِك المُغْدَى علىّ المرَاحْ

فهل لأُنْسٍ بان من عودةٍ أمْ هل لحالٍ فَسَدَتْ مِنْ صَلاَحْ

(١) ديوانه ٤٣٥ .

(٢) هو أبو نوح عيسى بن موسى الممدوح .

لستُ على سخطك جَلْدَ القوى وَلاَ عَلَى هجرِك شاكِى السِّلاَحْ

قوله : « المودَع » : المضمّن ، وأودع الشيء : صيّره وديعةً .

* * *

فَقَالَ لَهُ : يَا لَلْعَجَب ، ولِضَيْعَةِ الْأَدَبِ !لَقَدِ اسْتَسْمَنْتَ ذَا وَرَمٍ ، وَنَفَخْتَ فى غَيْرِ ضَرَمٍ ! أَيْنَ أَنْتَ مِنَ الْبَيْتِ النَّدْرِ ، الْجَامِعِ مُشَبَّهَاتِ الثَّغْرِ ! وَأَنْشَدَ :

نَفْسِى الْفِدَاءُ لِثَغْرٍ رَقَّ مَبْسَمُهُ
وَزَانَهُ شَنَبٌ نَاهِيكَ مِنْ شَنَبِ
يَفْتَرُّ عَنْ لُؤْلُؤٍ رَطْبٍ وَعَنْ بَرَدٍ
وَعَنْ أَقَاحٍ وَعَنْ طَلْعٍ وَعَنْ حَبَبِ

* * *

استسمنت : حسبتَه سميناً وطلبت السمانة من هزيل . وَرَم : دُمّل ، والمعنى أنه يرميه بسوء الفهم ، وقد بيّن هذا أبو الطيّب المتنبى فقال :

أعيدُها نظراتٍ منكَ صادقةً أنْ تَحْسِبَ الشَّحْمَ فيمن شحمُهُ وَرَمُ[1]
وَمَا انْتِفَاعُ أَخِى الدُّنيَا بناظِرِهِ إذا استوتْ عندَهُ الأنوارُ والظُّلَمُ

ونفخت فى غير ضرم ، مثل لطلب الشيء فى غير موضعه ، ولفظ المثل[2] : « نفخت » أو « تنفخ » ، والضَّرم : النار . النَّدْر ، والنادر : الغريب . الثغر : الأسنان ، مبسمه : موضع ابتسامه ، يعنى الفم .

---

(١) ديوانه ٣ : ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

(٢) لفظ المثل فى جمهرة الأمثال ٢ : ٣٠٣ : « نفخت لوتنفخ فى فحم » ، والفحم : الجمر الطافىء .

الشَّنَب : الماء القليل الجارى على الأسنان . الجرمىّ: سمعت الأصمعى يقول : الشَّنب بَرْد الأسنان والفم ، فقلت : أصحابنا يقولون : حدّتها حين تطلُع ، فيراد بذلك حَدَائتها وطراءتها ، لأنّها إذا أتت عليها السنون تغيّرت ، فقال : ما هو إلا بَرْدها . ابن سيده : قال الأصمعىّ : سألت رؤبة عن الشّنب ماهو ؟ فأخذ حبّة رمان فأومأ إلى بصيصها .

ناهيك : كافيك ، وتقول: ناهيك بفلان ! أى قد انتهى الأمر فيه إلى الغاية ونَهِيَ الرّجل من اللحم وأنْهى ، إذا شبع منه واكتفى ، والنِّهْى : الغدير لأنه ينتهى إليه ماء الوادى . يفترّ : يكشف ويبسم . رطب ، أى طرىّ كما أخرج من أصدافه ، وفى اللؤلؤ إذ ذاك رطوبة وسطوع بياض، فإذا أصابه الهوى ودام عليه صَلُب ، وإذا تداولته الأيدى باللمس وقدم تغيرّ بياضه . الطّلع : أول حَمْل النخلة ، وهو الفرخ فإذا انشق فهو الضحْك ، وبه تشبّه الأسنان فى بياضه ، ثم الإغريض إذا افترق حبّه، وإنمّا شبّه الأسنان بالطَّلْع ، وهو الفرخ ، لأنه إذا شقّ وجد ما فيه من حمل النخلة فى غاية البياض ، ويقال له : الوليع ، قال الشاعر :

وتبسّم عن لؤلؤٍ كالوليـــعِ تشقّق عنه الرّقاة الجفوفا[1]

الجُفوف جمع جُفّ وهو قشر الفرخ ، ويقال له القيقاء والبابلة ، وهو طيّب الريح ، والرّقاة: الراقون إلى أعلى النخل .

والحَبَب: تنضّد الأسنانِ ، وقيل : طرائق تظهر فى الخمر عند مزجها بالماء ، فأمّا الفقاقيع الّتى تعلو الخمر عند المزْج فهى الحَباب، بزيادة الألف ، قال المتلمّس[1]:

عُقارٌ أُعْتِقَتْ فى الدّنّ حَتّى كأنَّ حَبابها حَدَقُ الجَرَادِ[2]

---

(١) اللسان ــ ولع، جفف ، من غير نسبه .

(٢) شعراء النصرانية ٣٤٢ . والعقار : الخمر ؛ سميت عقارا لأنها عاقرت الدن ، والخمر العتيقة : القديمة .

رفع المسهم

وقال آخر :

حَمْراء قانيةٌ إذا ما شعشعَتْ ينزُو إلى وجهِ النَّديم حَبَابُهَا

* * *

فاستَجادَهُ مَنْ حَضَرَ واستَحْلاهُ ، واستَعادَهُ مِنْهُ واستَمْلاهُ ، وَسُئِلَ لِمَنْ هَذَا الْبَيْت ، وَهَلْ حَيٌّ قائِلُهُ أَوْ مَيْتٌ ؟ فقالَ : أيمُ اللهِ ، لَلْحَقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ ، وَلَلصِّدْقُ حَقِيقٌ بِأَنْ يُسْتَمَعَ ؛ إنَّهُ ياقَوْمُ ، لَنَجِيُّكُمْ مُنْذُ الْيَوْمِ . قالَ : فَكَأَنَّ الْجَماعَة ارْتَابَتْ بِعِزْوَتِهِ ، وَأَبَتْ تَصْدِيقَ دِعْوَتِهِ . فتوجَّسَ مَا هَجَسَ فى أَفْكَارِهِمْ ، وَفَطَنَ لِمَا بطَنَ من استنكارِهِمْ ، وَحَاذَرَ أَنْ يَفْرُطَ إِلَيْهِ ذَمٌّ ، أَوْ يَلْحَقَهُ وَهْمٌ ، فقرأ ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ . ثمَّ قال : يَا رُوَاةَ الْقَرِيضِ ، وَأُسَاةَ الْقَوْلِ الْمَرِيضِ ، إِنَّ خُلاصَةَ الْجَوْهَرِ تَظْهرُ بالسَّبْكِ ، وَيَدَ الْحَقِّ تَصْدَعُ رِداءَ الشَّكِّ ، وَقَدْ قِيلَ فِيمَا غَبَرَ مِنَ الزَّمَانِ : عِنْدَ الامْتِحَانِ يُكْرَمُ الْمَرْءُ أَوْ يُهَانُ ، وها أنا قَدْ عَرَّضْت خَبِيَّتِى (١) للاخْتِبَارِ ، وَعَرَضْتُ حَقِيبَتِى على الاعْتِبَار .

* * *

قوله : «استعاده» ، أى قال : أعده علىَّ . استملاه : طلب أن يكتبه . ايم الله : يمين يحلف به . نجيُّكم : محدِّثكم - يعنى نفسه . ارتابت : شكَّت والرّيب : الشكّ . بعزوته : بنسبته ، أى بنسبته إلى نفسه . دعوته : ادعاؤه أنه من قوله . والدِّعوة بكسر الدّال فى النّسب ، وبفتحها فى الطعام . فتوجَّس : أى أحسَّ وسمع . هَجَس : وقع وخطر . فطَن : شعر . فَطَن : خَفِىَ ، يريد أنه فهم منهم أنهم لم

(١) متن المقامات : « جنيتى » .

يصدّقوه فى أنّ الشعر له ، وأنكروا أن يقول مثله . حاذر : خائف . يفرُط : يسبق . القريض : الشعر . أساة : أطبّاء ، واحدهم آسٍ . القول المريض : الضعيف من قِبَل راويه . خُلاصة : ما خلص منه . وجواهر الأرض ، مثل الحديد والنحاس وغيرهما ، فإذ عرِض الجوهر على النّار ، فما كان منه خالصاً زاد صفاء وجوْدة ، ومالم يكن خالصاً فضحتْه النار وأظهرت عيبه . السّبْك : الاختبار بالنار . تصدع : تشق . غبَر : مضى هنا ، ويستعمل كثيرا بمعنى « بَقِيَ » وهو من الأضداد ؛ يقال : غبر الشيء غبوراً إذا بقى ، قال الله تعالى : ﴿إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانت مِنَ الغَابِرِينَ﴾[1] ، أى الباقين . الامتحان : الاختبار والبحث ، وهذا المثل من أمثال الفرس ، ولهذا أبعد مدّته حيث قال : غَبَر من الزمان . خبّيتى : مكتومى ، وما خبأته من علمى ، وأصل « خبّيتى » الهمز ، فقلبت همزته ياء وأدغمت فيها الياء ، كما قلبت فى « خاسية » . وتقول : عرَضت الشيء على البيع وعرّضته للبيع ، إن أتيتَ بعلى خفّفت الراء ، وإن أتيتَ باللام شدّدتها . والحقيبة : وعاء يجعله الراكب خلفه ، والاعتبار والاختبار واحد .

* * *

فابْتَدَرَ أَحَدُ مَنْ حَضَرَ ، وقال : أَعْرِفُ بَيْتاً لَمْ يُنْسَجْ عَلَى مِنْوَالِهِ ، وَلاَ سَمَحَتْ قَرِيحَةٌ بِمِثَالِهِ ، فإِنْ آثَرْتَ اخْتِلاَبَ الْقُلُوبِ ، فانْظِمْ على هَذَا الأُسْلُوب :

فَأَمْطَرَتْ لُؤْلُؤاً مِنْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ
وَرْداً وَعَضَّتْ عَلَى الْعُنَّابِ بِالْبَرَدِ

* * *

(١) سورة الأعراف ٨٣

رفع المسهم

قوله : «ابتدر»، أى سبق بالكلام وبادر به . والمِنْوال : خشبة الحائك ؛ يريد أنّ البيت رفيع الصنعة فى الشّعر لم يُصنع بيت مثله ،لأنّ الثوب أنواع ، وصنعة الشعر تشبه نَسْج الثوب . سمحتْ : جادت . قريحة : ذهن . آثرت : فضّلت . اختلاب القلوب : إمالتها إليك بتصديقك وانخداعك بما تبديه ، وهو من الخِلْب وهو من غشاء القلب . وعن أبى عبيدة وغيره قال ثعلب : الخِلْب : الّذى بين الزيادة والكبد[1] ، يقال: خَلَبنى حبُّ فلان،أى وصل حبّه إلى خِلْبى ، وفلان خِلْب نساء ،أى تخلبه النساء ، وخلاّب : يخلب الناس ، أى يذهب بقلوبهم ، وخِلْب جمعه خلبة ، وكلّه من الخِلْب ، قال أعرابىّ :

مَنْ كانَ لم يدْرِما حُبٌّ جمعت له أو كان فى غفلة أو كان لم يَجِدِ
فالحبُّ أوّله رَوْعٌ وآخره مثل الحرارة بين الخِلْبِ والكَبِدِ

[انظم : قل شعرا منظوما . والأسلوب : الطريقة][2] .

لولؤاً : درًّا . النرجس : نوّار أصفر فى نوْره انكسار وفتور لا يكاد يُرَى ، له ورقة قائمة ، تشبّه به العينان إذا كان فى نظرهما فتور .

[ذكر النرجس وما قاله الشعراء فى تشبيه العيون به]

وقد تمادى إنكار أدباء وقتنا تشبيه العين بهذا النوّار الأصفر المعروف عندنا بالنرجس ،فأكثرهم ينكر أن يكون يقع به تشبيه لأجل صفرته ، وإن ذكرتُه لأحد قال : وأىّ صفرة فى العين إلّا أن يكون بصاحبها علّة اليرقان ! ويستهجن موضع التشبيه جدًّا .

وقد سألت عنه بعض أشياخى فى صغرى،وأنا أقرأ عليه كتاب «الجمل » وكان أديباً شاعراً،فأنكر وقوع التشبيه بهذا النَّوْر الأصفر ، وقال لى : النَّرْجِس عندهم

(١) من ج ٢ .
(٢) فى اللسان : الخلب ، بالكسر : حجاب الكبد ، وقيل :هو حجاب بين القلب والكبد

بالمشرق نَوْر يشبه نُوَّار الفول . وأكثر مَنْ لقيتُه يستبعد التشبيه بهذا الأصفر ، لأجل لونه ، وذلك لقلّة تحصيلهم معرفة كلام العرب وتشبيهاتها ، والعرب توقع تشبيهاتها على الصورة دون المعنى ، وعلى المعنى دون الصورة ، وعليهما جميعاً؛ وهو أكمل وجوه التشبيه . وانظر أقسام التشبيه فى الثالثة والعشرين تقع على علم هذا وغيره بإذن الله تعالى .

وتشبيه العيون بالسيوف والسِّهام ، إنما المراد به المَضَاء والقطع ، ولا يُلتفت فى ذلك إلى اللون ، وكذلك تشبيه العيون بالنَّرْجس الأصفر إذا قصد ما فيه من الفتور واقع متمكِّن فى التشبيه ، ألا ترى ابن المعتزّ التفت إلى الفتور وحده حين قال :

وَسْنَانُ قد خَدَعَ النُّعَاسُ جفونَهُ فحكَى بمقلتِه ذبولَ النَّرْجسِ (١)

والنَّرجس الذى يشبِّه به أهل المشرق العيون ، هو نباتٌ له قضبان خضر فى رءوسها أقماع ، يخرج منها نَوْر ينبسط منه على الأقماع ورق أبيض ، فى وسط البياض دائرة قائمة من ورق صغير . هذه الصفة التى تقع فى أشعارهم إذا ذكروا النّرْجس ، وبذلك وصفه كسرى أنوشروان ، فقال : النَّرْجس ياقوت أصفر ، بين دُرٍّ أبيض على زمرّد أخضر ، أخذه بعضهم فقال فيه :

وياقوتةٍ صفراء فى رأس دُرَّةٍ مركَّبة فى قائم من زَبَرْجَدِ
كأنّ بهيّ الدرّ عِقْد نظامها فريدٌ أنيقٌ قد أطافَ بعَسْجَدِ

وأنشد أبو عَوْن الكاتب فى كتاب التشبيه له ، فقال : من جيّد ما قيل فى النرجس ما أنشده المبرّد رحمه الله تعالى :

(١) ديوانه ١ : ٦٨ .

تَرجِسَةٌ لاحظنِي طرفُهـــا تشبِهُ ديناراً على دِرْهَمِ[١]

وقال عبيد الله بن عبد الله فيه :

ترنو بأبصارها إليك كَمَا تَرْنُو إذا خافِت اليعَافِيرُ[٢]
مثل اليواقيت قد نُظمنَ عَلَى زمرّد فوقهنّ كافـــورُ
كأنّهـا والعيـــون ترمُقها دراهمٌ وَسْطَهَـا دَنَانِيرُ

وقال أبو نواس :

لَدَى نرجِسٍ غضِّ القِطافِ كأنه إذا ما منحناه العيونَ عيونُ[٣]
مخالفـة فى شكلهنّ وصفرةٌ مكانَ سوادٍ والبياض جفُونُ

أجاد التشبيه ، وكشف بذكر المخالفة قناع الشبهة ، وبيّن مواقع التشبيه غاية البيان .

وقال أبو عبد الملك بن فرج فى كتاب الحاسّ والمحسوس، له : وأحسن بيتٍ أنشدنيه أبو جعفر البغداديّ رحمه الله :

مَدَاهِنُ درّ بين أوراق فِضّةٍ على قِيس شبر أخضرٍ كالزّبرْجَدِ

وقال أبو الفرج الببغاء :

ونرجس لم يَعْدُ مُبْيَضُّهُ الْـ ـكَأْسَ ولا أصفره الرَّاحَا[٤]
تخال أحداق لَجَيْنٍ حَوَتْ من أصفرِ العسْجَدِ أقدَاحَا
كأنمـا يُهـــدى المحيّى به لطفاً إلى الأرواح أرْوَاحَا

---

(١) كتابة التشبيه ١٩١ ، نهاية الأرب ١١ : ٢٣٥ .
(٢) كتاب التشبيه ١٩١ ، نهاية الأدب ١١ : ٢٣ ، واليعافير : جمع يعفور ، وهو الظبي بلون التراب
(٣) نهاية الأرب ١١ : ٢٣
(٤) يتيمة الدهر ١ : ٢٢٨

يغنى عن الوَرْد إذا مارنا ويخلف الوَرْد إذا فاحا

وقال ابن المعتزّ :

كأنّ عيونَ النَّرجس الغَضِّ بيننا مَداهنُ درٍّ بينهنّ عقيقُ[1]

إذا بلّهنّ القطر خلت دموعه بكاءَ عيون كحلهنّ خَلُوقُ

وقال النّاشئ :

أخصّ الصفات التى تناولها مَنْ كَتَبْ

عيونٌ بلاَ أوْجُهٍ لها حدَقٌ من ذَهَبْ

وقال ابن الرومىّ :

يانرجسَ الدّنيا ترى أبداً للإفتراج ودائم النّخب

ذهبُ العيون إذا مَثَلْنَ لنا درّ الجفون زَبَرْجَد القصَب

وهذه الصفة التى أثبتها أهل المشرق للنَّرْجس، هى التى يصف بها أهل المغرب البهار ، قال ابنُ أبى عامر فى جارية اسمها بهار :

حَدَقُ الحسان تقرّ لى وتَغارُ وتظلّ فى صفة البهار تَحَارُ

طلعتْ على قضبى عيون كمائمى مثل العيون تحفّها الأشفارُ

وأخصّ شىء بى إذا شبَّهتنى درّ تمنْطَقَ سلكُهُ دينارُ[2]

أهدَى لنا قُضْبَ الزَّبَرْجَد ساقُهُ وحَباهُ أنفسَ عطرِه العَطّارُ

أنا نرجسٌ حقًّا بهرت عقولهمْ ببديع تركيبى فقيل بهارُ

بَيَّن أن البهار عندنا ، هو الذى تسميه أهل المشرق نَرْجسًا .

(١) نهاية الأرب ١١ : ٢٣٤ .

(٢) كذا فى ج ، وفى ط : « سلكه ويسار » .

وقال أبو جعفر بن برد :

تأمّل فقد شقّ البهار مغلّسًا كمائمه عن نوره الخضلِ النّدى[1]
مداهنُ تبرٍ فى أناملِ فِضّـةٍ على أذرع مخروطةٍ من زَبَرْجَد

وقال القسطلىّ[2] :

بهارٌ يروقُ بمسكٍ ذكىٍّ وصنعٍ بديع وخَلْقٍ عَجَبْ
غصون الزَّبَرْجَدِ قد أورقَتْ بها فضة نوَّرَت بالذَّهَبْ

وقال القاضى أبو الحسن بن لبّال :

وبَهارٍ يحكى كئوسَ لُجَيْنٍ حملتْها أناملٌ من زَبَرْجَدْ
سامرتها الكواكب الزُّهر حتى سمّرتْ وسطَها كواكبُ عَسْجَدْ

وأنشدنى بعض أشياخنا :

انظُرْ إلى حُسْنِ البَهارِ وغُنْجِهِ يرنُو إليكَ بمقْلَتَىْ وَسْنَان
فكأنما هى راحةٌ من فِضَّةٍ قد ضُمِّنَتْ كأسا من العِقْيَانِ
وكأنَّ نشْرَ نسيمه غبّ النَّدَى يأتيكَ بالأنفاسِ مِنْ بَغْدَانِ

والّذى تسميه أهل المغرب نرجساً يسمّيه أهل المشرق بهاراً ، ولذلك قال الحريرىّ فى العاشرة : « وورْدتى بالبهار » ، دعا فيها على الغلام بالحمّى ، وأن ينعكس حمرة خدّه صفرة ، وقال حبيب فى ذلك :

إنَّ وجْهَ الحمّى لوجهٌ صفيقٌ حين تسطو به نَهاراً جَهارا[3]
لم تَشِنْ وَرْدَ وَجْنَتَيْه ولكنْ صيَّرتَ وَرْدَ وجنتيه بَهارا[4]

(١) الذخيرة ٢ : ٤٩
(٢) هو ابن دراج ، ديوانه ٣٨ .
(٣) ديوانه ٤٤١
(٤) الديوان : « لم تشن وجهه المليح » .

وبلون النرجس يشبّه أهل الأندلس المريض .

وقال أبو بكر الأبيض :

ياشاكيا صدّنى عن مسّه ألمى ... طال اشتياقى به ليلاً فلم أنَمِ
تضاءل الدَّهرُ إشفاقا على قمرٍ ... رقيبه فى سماء المجدِ والكَرَمِ
لم أرضَ قلبى مكانا إذ حللت به ... حتى خلطتك فى سَوْدَائِه بِدَمِى
أنْتَ النَهَار ولا أدرى متى خَلَعَتْ ... عليك أيْدِى اللَّيالى نَرْجِسَ السَّقَمِ

ولابن الزقّاق :

وغزالٍ ذى اعتدالٍ شَفَّهُ ... بعد ما شقّ هَوَاه الأنفُسَا[1]
جارت الحمّى على وجنتِه ... فاستحال الوردُ منه نَرْجِسَا

فثبت بما قدمناه، أنّ نرجسهم نَهارُنا ، وأن نَهارَهم نرجسنا . وآكدُ مايدلّ على صحته اشتراكُ البيت الذى أنشده أبو الفرج على النَّرجس مع بيت ابن بُرْد فى لفظٍ واحدٍ ، أخذ ابن بردٍ منه صفة النرجس ، فقلبه لاسم النَهَار حين نظمه .

واعْلَمْ أن تشبيه العين بنرجسهم أبْيَن لتعلّقهم بالصورة ، وأن تشبيهها بنرجسنا أدون لتعلّقه بالمعنى، وهو مع ذلك متمكّن فى باب التشبيه ، وأنّ اسم النرجس لابد فيه من صفرة .

وقدقال شاعر من المشرق ،وهو أحمد بن يونس الكاتب فى مناقضة ابن الرومىّ فى تفضيله النرجس على الورد :

---

(١) ديوانه ٢٩٣ .

رفع المسهم

إن كُنْتَ تنكِرُ ماذَ كَرْنَا بعد مَا قامتْ عليه دلائلٌ وشواهدُ[1]
فانظر إلى المصفرّ لوناً منهما وافطِنْ فما يصفرُّ إلا الحاسِدُ

فلولا ما ذكرنا من أشعارهم ، لحكمنا بهذا البيت ، على أن نرجسهم هو نرجسنا ، ومذهب ابن الرومىّ[1] تفضيله على الورد ، وهو القائل :

وأحسن ما فى الوجوهِ العيو نُ وأشبه شىء بها النَّرْجِسُ

والنُّفوس تتشوّق إلى رؤية نَرْجسهم ، لأنّا لم نعلم نرجسنا غير هذا الأصفر ، حتى نعلم بما ذكرناه أنّه هو النوّار المعروف ، وهم أيضا يتشوّقون لمنظر نرجسنا .

ويدلّ على ذلك حكاية القاضى الفقيه أبى الحسن بن **لبّال** ، قال : خرجت عشيّةً لخارج إشبيليّة أيام حداثتى وقراءتى بها ، فجلست فى وسط واديها ، وبيدى كتاب أنظر فيه ، وإذا رجلٌ يُحملق حوالىّ ، فإذا نظرتُ فى الكتاب يأخذ وينشد للأشعار التى بين أيدينا نظائر من بديع الشعر ، فذاكرته فوجدته بحرَ أدبٍ ، فسألته عن محفوظه ، فقال : أحفظ خمسة عشر ألف بيت من الشعر ، فسألته : هل تنظم شيئاً؟ فأنشدَنى فى وصف فرس ، وزعم أنه القائل :

---

(١) أورد النويرى فى نهاية الأرب ١١ : ٢٣٤ من شعر ابن الرومى أبياتا منها :

خجلتْ خدودُ الوردِ مِنْ تفضيلهِ خجلاً تورُّدُها عليهِ شاهِدُ
لم يخجل الوردُ المورّدُ لونه إلا وناحِلهُ الفضيلَةَ عائد
للنّرجسِ الفضلُ المبينُ وإن أبى آبٍ ، وحادَ عن الطريقةِ حائدُ
فصْل القضيةِ أن هذا قائدٌ زَهْرَ الربيع ، وأن هذا طارِدُ
شتان بين اثنين : هذا موعِدٌ بتسلُّبِ الدُّنيا ، وهذا واعِدُ

منع الحوافر أن تَطين به الثَّرَى فكأنه فى جريه متعلِّقُ
وكأنّ أربعة توافق طرفَه فتكاد تسبقه إلى ما يرمقُ

فاستعدت بيته ،وراجعته فى قوله : « تطين» ، فقلت له : إنما هو «تطأن» ،فلم يعرف اللفظ ، وإنما تكلّم بلا همز على لحن عامته ، فجرّبته فى غيره ، فوجدت شعرَه من جهة الطبع وكثرة الحفظ ،لا من جهة العلم ، فسألته عن بلاده ، فقال : أنا من العراق ، فقلت له : فما السبّب الذى جاء بك إلى الأندلس ؟ فقال لى : لأرى النَّرجس الأصفر المذكور فى أشعاركم عياناً . ودعانى إلى الإطالة فى ذكر النّرجس رغبةً أن أرفع عن غيرى حَيْرة الشبهة التى أقمت فيها زماناً طويلا ، لا أجد من يرفعها عنى .

[ذكر الوأواء الدّمشقى وبعض شعره]

والبيت الذى اقتضى النَّظم على أسلوبه هو لأبى الفرج الغسّانى الدّمشقىّ ، المعروف بالوأواء ، ذكره أبو منصور الثعالبى فى يتيمته[1] ، فقال : أبو الفرج من حسان الدهر ، وصاغة الكلام[2] .

ومن عجائب أمره أنه كان منادياً بدار البِطّيخ بدمشق ينادى على النواكه ، وما زال يشعر حتى جاد شعره ، ووقع له مايروق ، ويشوق ويفوق ، حتى تعلّق بالعيّوق[3] .

وقال الفتح بن خاقان : إنى انصرفت البارحة من مجلس أمير المؤمنين ، فلما

---

(١) يتيمة الدهر : ٢٣٦ وما بعدها .
(٢) اليتيمة : « من حسنات الشام ، وصاغة الكلام » .
(٣) اليتيمة : « حتى يعلو العيوق » ، والعيوق : نجم أحمر مضىء وطرف المجرة الأيمن أو الثريا لا يتقدمها .

دخلت مجلسى لقيت خلافة[1] جاريتى ، فلم أتمالك أن ، قبّلتُها ،فوجدت ما بين شفتيها هواء، لو رقد المحموم فيه لأفاق . وهذا مستظرَف من كلام الفتح ، فقال الوأواء ملمًّا به[2] :

سَقَى الله ليلاً طاب إذ زار طيفُه ... فأفنيتُه حتى الصَّبَـــاح عِنَاقَا[3]
بطيب نسيمٍ منه يُستجلب الْكَرَى ... فلو رقد المحـــموم فيه أَفَاقَا[4]

وله أيضاً :

باللهِ ربّكما عُوجاً على سَـــكَنِي ... وعاتباه ، لعلّ العَتْبَ يَعْطِفُـــهُ[5]
وعرّضَا بِي وقولاَ فى حديثكما ... ما بالُ عبدِكَ بالهِجْرانِ تُتْلِفُهُ !
فإن تبسَّم قولاَ فى ملاطفةٍ[6] ... ما ضرّ لو بوصالٍ منكَ تُسْعِفُهُ !
وإن بدا لـكما من سَيّدِى غضبٌ ... فعالطاه ، وقولا : ليس نعرِفُـــهُ

وله فى النحول :

وما أبقَى الهوى والشوقُ منِّى ... سِوَى رُوحٍ تَرَدّدُ فى خَيالِ[7]
خفيتُ عن العواذل أن ترانِي[8] ... كأنّ الرُّوحَ منِّى فى مُحالِ

---

(١) اليتيمة : « استقبلتنى فلانة — يعنى جارية له — فلم أتمالك أن قبلتها » .
(٢) اليتيمة : « فكان هذا مما يستحسن ويستظرف من كلام الفتح » .
(٣) ديوانه ١٦٤
(٤) الديوان : « ولو رقد المخمور » ، وبعده هناك :
تملّكنى لمّا تملّكَ مُهْجَتِي ... وفارقنى لمّا أمِنتُ فِرَاقَا
(٥) ديوانه ١٤٦ ، ١٤٧ .
(٦) الديوان : « فى ملاطفة » .
(٧) ديوانه ١٨٩ .
(٨) الديوان : « عن النوائب » .

رفع المسهم

وله فى الزّرقة :

يامَنْ هُو الماءُ فى تكوين خِلْقَتِهِ ... وَمَنَ هُوَ الخرُّ فى أفعال مُقْلَتِهِ[1]

ومَنَ بزُرْقَةِ سيف اللحظ طَلّ دَمِى ... والسيف ، مافَخْرُهُ إلا بزُرْقَتِهِ

علّمتَ إنسان عينى أن يعوم فَقَدْ ... جادت سِبَاحته فى بحر دمعتِهِ

وله أيضاً :

تملَّكْتَ يامهجَتِى مهجتى ... وأسهرت يا ناظرِى ناظرِى[2]

وما كان ذا أملى يا ملولُ[3] ... ولا هجسَ الهجرُ فى خاطرِى[4]

فجُدْ بالوصالِ فدتْكَ النفوسُ ... فلستُ على الهجرِ بالقادر

وفيك تعلَّمتُ نَظْمَ القَرِيضِ ... فلقَّبَنِي النَاسُ بالشاعِرِ

وله من قصيدة :

يُقِمْنَ لنا بَرْقَ الثُغُور أدِلّةً ... إذا ماضَلِلْنَافى ظلامِ الذَّوائِبِ[5]

قال : ومن بديع تشبيهاته قوله :

فأمْطَرَت لؤلؤاً من نَرْجِسٍ ... البيت[6] .

---

(١) ديوانه ٦٥ ، وبعده :

وَمَنْ خانتُ عِذَارِى فى هوايَ لَهُ ... وَمَنْ تهتَّك سِتْرِى فى مَحَبَّتِهِ

(٢) ديوانه ٩٩ ، مع اختلاف في ترتيب الأبيات .

(٣) الديوان : « يا ظلوم »

(٤) الديوان : « ولا خطر الهجر » .

(٥) من قصيدة مدح بها سيف الدولة ، وأولها :

قِفوا ماعليكم مِنْ وقوفِ الركائِب ... لنبذل مَذْخُور الدُّمُوع السوَاكِبِ

(٦) ديوانه ٨٤ .

ثم قال : هذا البيت ضمّنه خمسة تشبيهات بغير أداة التشبيه ، وذكر المتنبّى منها أربعة فأجاد ، وهى ما ضمّنها قوله رحمه الله :

بَدَتْ قَمَراً ، ومالَتْ خُوطَ بانٍ ، وفاحتْ عنبراً، ورنّت غَزَالاَ(١)

وللفقيه أبى محمد بن حزم خمسة تشبيهات فى بيت واحد ، ولا يقدر أحد على أكثر منه ، إذ لا يحتمل العَروض ولا أبنية الأسماء أكثر من ذلك ، قال :

خلوتُ بها والكأس ثالثةٌ لنا وجُنْحُ ظَلامِ اللَّيلِ قد مدّ واتّلَجْ(٢)
فتاةٌ عدِمْتُ العيشَ إلّا بقربِها وهل فى ابتغاء العيش وَيْحَكَ من حَرَجْ!
كأنّى وهى والكأس والخمر والدُّجَى ثرًى وَحَيًا والدّرّ والتِّبْر والسَّبَجْ

وقبل بيت الوأواء :

إنسيّةٌ لو بدتْ للشمس ما طَلعتْ للنّاظرين ولم تغربْ على أحدِ
قالت وقد فتكتْ فينا لواحظُها : ما إن أرى لقتيل الحبِّ من قَوَدِ(٣)
فأمطرتْ لؤلؤاً من نرجسٍ وسقتْ وردًا وعضّتْ على العُنّابِ بالبرَدِ

ثم استمـــرتْ وقالت وهى ضاحكةٌ :

قومُوا انظُروا كيف فِعْلُ الظَّبْيِ بالأسَدِ ! (٤)

وأول القصيدة :

لمّا وضعتُ على صدرِى يدًا لِيَدِ وصحْتُ فى اللّيلة الظلماء وا كبدِى! (٥)

---

(١) ديوانه ٣ : ٢٢٤ .
(٢) طوق الحمامة ١٥ .
(٣) الديوان : « كم ذا أما » .
(٤) سقط هذا البيت من رواية الديوان ، وموضعه هناك :
كأنما بين غابات الجفونِ لهَا أُسْدُ الحمامِ مقيماتٍ على الرَّصَدِ
(٥) لم يرد هذا البيت فى الديوان .

وقال أيضاً :

أتاني زائراً مَنْ كانَ يُبْدِي ... لِيَ الهجرَ الطَّويل ولا يزورُ[1]
فقالَ النَّاسُ لمَّا أبصروه ... لِيَهْنِكَ زارَكَ القمرُ المنيرُ
فقُلْتُ لهم ودمعُ العين يجري ... على خَدِّي له دُرٌّ نَثِيرُ
ولو نَصَبُوا رحًا بإزاء عيني ... لكانت من مدامعها تدورُ[2]

* * *

فَلَمْ يَكُنْ إلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أوْ هُوَ أقْرَبُ ، حَتَّى أنْشَد فأغْرَب :

سَأَلْتُهَا حِينَ زَارَتْ نَضْوَ بُرْقُعِهَا الْـ
ـقَانِي وإيدَاعَ سَمْعِي أطْيَبَ الْخَبَرِ
فَزَحْزَحَتْ شَفَقاً غَشَّى سَنَا قَمَرٍ
وَسَاقَطَتْ لُؤْلُؤاً مِنْ خَاتَمٍ عَطِرِ

* * *

قوله: «لمح البصر» ، يعنى نظر العين إلى الشيء بسرعة ثم تغيب عنه بسرعة، وأصل البصر الإدراك بالعين . أغرب : أتى بغريب . نَضو : كشف . القانى : الأحمر . إيداع سمعى : إعطاء أذنى، كأنه جعله وديعة عنده. زحزحت : أزالت . الشفق : حمرة الشمس بعد الغروب . غشّى : غطّى. سنا : ضوء . عطِر : فوّاح طيّب التنفس . وبيت الحريرىّ فى صنعة البديع فائق ، وإن لم يأت بعدد تشبيهات بيت أبى النرج ، وبيانه أن أبا الفرج يصف امرأة باكية ، فيقول : إنها نثرت دموعها عَلَى مَنْ قتلت من عشاقها ، فسقطت على خدّها فبلّلته ، وفضّت

(١) ديوانه ١١٠ .
(٢) الديوان : « من تحدره » .

رفع المسهم

على أصابعها المصبوغة بالحِنَّاء بأسنانها، فجعل البيت كُلَّه استعارة ، فقال : « فأمطرت لؤلؤاً »، وهو يريد : بكَتْ دمعاً ، وذكر نرجساً ووروداً ، وهو يريد عيناً وخدًّا ، وذكر عُنَّاباً وبَرَداً ، وهو يريد أنامل وأسنانا ، فضمَّن تحت ألفاظه هذه المعانى، وزاد فائدة التشبيه ؛ وهذا يفعله أهلُ القدرة على الشعر ، فقابل الحريرىّ هذا بقوله : «فزحزحت شفقاً» ، وهو يرى نقاباً أحمر ، وذكر «سنا قمر» وهو يريد ضوء وجهها ، وذكر لؤلؤاً من خاتم ، وهو يريد كلاما من فم . والبيت الثانى فى مقابلة بيت أبى الفرج ، والأول توطئة له ، وهو يصف امرأة زارته متنقّبة فسألها ، أن تكشف عن وجهها وتحدّثه ، فأزالت نقابها ، وأسمعته كلاما حسناً من فم عطر .

[مما ورد من تشبيه الأشياء باللؤلؤ]

واللؤلؤ تشبّه به الأسنان فى مثل قوله :

* كأنما يبسم عن لؤلؤ رطب *

وقوله :

* يفتر عن لؤلؤ رطب وعن بَرَدِ *

ويشبَّه به الكلام فى مثل قول البحترىّ :

* ومن لُؤْلؤٍ عند الحديثِ تساقِطُه[1] *

وقول الحريرىّ :

* وساقطت لؤلؤاً من خاتَمٍ عطِرِ *

ويشبّه به الدمع ، كقول الوأواء : « فأمطرت لؤلؤا » ، وهو كثير .

ومن أحسنه قول الشاعر :

ولمّا وقفنَا للوداعِ ودَمْعُها ... ودَمْعِى يُثِيرَانِ الصَّبابَةَ والوجْدَا

بكت لؤلؤا رطْباً ففاضت مدَامِعِى ... عَقِيقاً ، وصار الكلّ فى نحرها عِقْدَا

وقال ابن عبد ربه :

وكأنما غاص الأسى بجفونها ... حتى أتاك بلؤلؤ منثورِ

(١) ديوانه ١٢٣٠ ، وصدره :

* فمِنْ لُؤْلؤٍ تجْلُوه عِنْد ابْتِسامِهَا *

فأخذه الرمادى فحسّنه فقال :

ولم أرَ أحلَى مِنْ تبسّم أعْيُنٍ غداة اللِّوى عن لؤلؤ كان كامِنَا

قال : فوقعت استعارة التبسّم للعين موقعاً لطيفاً ، وإنما هو للثغر بسبب توسط اللؤلؤ . والحذّاق يتحيّلون فى أخذ المعانى بترك القافية والوزن ، كقول ابن شُهيد :

وَلمّا فشَا من دمعنا بعض سِرِّنا إلى كاشحينا والقلوب كواتمُ
أَمَرْنَا بإمساك الدُّموع جُفُونَنَا ليشجى بما يطوِى عذولٌ ولائمُ
أَبَى دمعُنا يجرى مخافةَ شامتٍ فنظَّمَهُ بين المحاجر ناظِمُ
وراقَ الهوَى منّا عيونٌ كريمة تلمَّحن حتى ما تروق المَباسِمُ

[من قولهم فى الامتحان]

وقال ابن شُهيد فى الامتحان فأحسن :

ونُبِّئْتُ أقواماً تجيشُ صدورهم عَلَىَّ وأنِّىَ منهمْ فارغُ الصَّدْرِ
أصاخُوا إلى قَوْلِى فأسمعتُ صُمَّهم وغاصوا على سِرّى فأعياهُمُ أمْرِى
فقال فريق: ليس ذا الشعرُ شِعْرَهُ وقال فريق لَيْمنُ الله ما نَدْرِى
فَمَنْ شاء فليَخبرْ فإنِّى لحاضرٌ ولاشىء أجْلَى للشّكُوكِ من الخُبْرِ

وينظر فى هذا الامتحان ونسبة شعره فيه إلى الانتحال ، إلى قصة أبى بكر ابن بَقِىّ[1] حين استهدى بعضَ إخوانه أقلاما ، فبعث إليه بثلاث من القصب ، وكتب معها :

خُذْها إليك أبا بكرِ العلاَ قَصَباً كأنّما صاغها الصَّوّاغ من وَرِقِهْ
يُزْهَى بها الطِّرس حسناً ما نثرت به مسكَ المدادِ على الكافور من وَرَقِهْ

(١) هو أبوبكر بن بقى ، ذكره أبو الفتح بن خاقان فى القلائد ٣٢٢ ضمن من ذكرهم من الأدباء .

فأجابه أبو بكر بن بَقّ فقال :

أرسلت نحوى ثلاثاً من قَنَا سلبٍ ... ميّادة تطعن القِرْطاسَ فى وَرَقِهْ
فاللحظُ ينكرها والخطّ يعرفها ... والرقّ يخدمها بالرق فى عُنُقِهْ

فحسده عليها بعض مَنْ سمعها ، ونسبه إلى الانتحال ، فقال أبو بكر يخاطب صاحبه الأوّل :

وجاهلٍ نسبَ الدَّعْوَى إلى كَلِمى ... لمّا رماه بمثل النَّبْلِ فى حَدَقِهْ
فقلت مِنْ حَنَقٍ لمّا تعرّضَ لى : ... مَنْ ذا الّذى أخْرَجَ اليَرْبُوعَ من نَفَقِهْ !
ما ذمّ شعرى وَايْمُ الله لى قسمٌ ... إلا امرؤ ليست الأشعارُ من طُرُقِهْ
الشِّعر يشهد أنّى فى كواكبه ... بل الصّباح الذى ينشقّ فى أُفُقِهْ

[بديهة السّلامىّ]

وخرج السّلامىّ[1] إلى الموصل وهو صبىّ حين راهقَ البلوغ ، فوجد بها أباعثمان الخالدىّ وأبا الفرج البَبّغاء وأبا الحسن التّلّعفرىّ وشيوخ الشعراء ، فلما رأوْه عجبوا منه ، واتّهموه فى شعره ، فقال الخالدىّ : أنا أكفيكم أمرَه . فاتخذ دعوة ، وجمع الشعراء والسّلامىّ معهم ، فلما توسّطوا الشراب ، أخذ فى التفتيش عن قَدْرِ بضاعته ، ثمّ لم يلبثوا أن جاء مطرٌ شديد وثلج وبَرَدٌ عَمّ الأرض كثرة ، فألقى أبو عثمان الخالدىّ نارنجاً بين أيديهمْ على ذلك البَرَد ، وقال : يا أصحابنا ، هل لكم فى أن نصف ذلك ؟ فقال السّلامىّ ارتجالا :

لله درّ الخالدىّ الأوْحد النَّدْبِ الخطيرِ
أهدى لماءِ المُزْنِ عند جمودِه نارَ السَّعيرِ
حتى إذا صَدَرَ العتا ب إليه من حَنَقِ الصُّدُورِ[2]

(١) هو محمد بن عبد الله بن محمد السلامى ، نسبة إلى مدينة السلام ، أشعر أهل العراق فى عصره ، وممن ترجم لهم الثعالبى فى اليتيمة ٤ : ٣٦٤ ـ ٣٩٨ ، والخبر فى ترجمته فى ابن خلكان ١ : ٥٢٤ .

(٢) ابن خلكان : « من حر الصدور » .

بعثتْ إليـــه بعـــذره من خاطرى أوفى السُّرورِ
لا تعـــذُلُوه فإنَّمـــا أهدى الخدود إلى الثُّغُورِ

فأمسكوا عنه عندذلك ، واعترفوا له بالفضل ، إلاّ التّلعفرىّ ، فإنه أقام على قوله فيه ، حتى قال السَّلامىّ فيه:

يا شاعراً بشعوره لم يَشْعُـرِ ما كنتَ أوّلَ طالبٍ لم يَظْفَرِ
لو كنت تعرفُ والدًا تسمُو بهِ لم تنتسبْ صفةً إلى تلّعـفَرِ
تاه ابنُ فائقةِ الفُسوق على الوَرَى بقذال صَفْعَانٍ ونكهةِ أبخَرِ
وبلادةٍ فى الشِّعر تعـــلم أنه تيسٌ ولو نُصِرتْ بطبع البُحترِى

وقال فيه :

سما التلّعفرىّ إلى وصـــالِى ونفس الكلبِ تكبُر عن وصالِهْ
ينافى خُلقـــه خُلقِى وتأبَى فعالى أنْ تضاف إلى فعـــالِهْ
فصنعتىَ اللطيفـــة فى لسانى وصنعتهُ الخسيسة فى قَـــذَالِهْ
فإن أشْعُرْ فما هو مِنْ رجالِى وإنْ يُصْفَعْ فما أنا من رِجالِهْ

[من نوادر صاعد بن الحسن الربعىّ]

وكان المنصور بن أبى عامر قد أثبت عنده الحسَدة ، أنَّ صاعداً[1] اللغوى متَّهم فى كل ما يورده من حديث أو شعر ، فأدخلتْ عليه يوماً باكورَةُ وَرْد لم تتفتح أكمامها ، فقال فيها صاعد ارتجالاً :

أتتـــك أبا عامرٍ وردةٌ يذكِّرُكَ المسكُ أنفاسَهَا
كعَذراء أبصرها مبصرٌ فغطَّتْ بأكمامها رأسَهـــا

فسرّ بذلك المنصور . وكان ابن العريف حاضراً فحسده وقال : إن هذين

(١) هو صاعد بن الحسن بن عيسى الربعى ، وفد على المنصور بن أبى عامر ببغداد ، وله معه أخبار ونوادر مشهورة فى الأدب واللغة ، ابن خلكان ١ : ٢٢٩ .

رفع المسهم

البيتين لغيره ، [وقد أنشدنيهما بعض البغداديين بمصر لنفسه ، وهما عندى على ظهر كتاب بخطه ، فقال له المنصور : أرنيه . فخرج ابن العريف ، وركب وجعل بحث، حتى][1] أتى مجلس ابن برد - وكان أحسن أهل وقته بديهة - فوصف له ما جرى فقال :

عشوتُ إلى قصر عبَّاسةٍ وقد صرّع النّومُ حرَّاسَها[2]

أبياتاً ضمّن فيها البيتين ، فكتبها ابن العريف بخطّ بصرىّ[3]، وصار بها إلى المنصور . فاشتدّ غيظه ، وقال : غداً أمتحنه ، فإن فضحه الامتحان لم يبق فى موضع لى فيه سلطان.[4] ثم أخذ طبقاً فيه ضروب من الأنوار ، وعليه جوارٍ ياسمين[4] على بركة ماء حصباؤها الدّر والجوهر . ودعاه فى مجلس حافل ، وقال له : هذا طبق فيه شىء ما توهمت أنه قدِّم بين يدى مَلِك قبلى ، فصفه فقال على البديهة :

أباعامرٍ هل غيرك جدواك واكفُ وأعجب مايلقاه عندك واصفُ[5]!

---

(١) من الذخيرة .

(٢) بعده كما فى الذخيرة :

فألفيتُها وهى فى خدرها وقد صرّع السّكر أنَاسَها
فقالت : أسارٍ على هَجْعةٍ ؟ فقلت : بَلَى ، فرمَتْ كَاسَها
ومدّتْ يديها إلى وردَةٍ يحاكى لك الطيبُ أنفاسها
كعذراءَ أبْصَرها مبصرٌ فغطّت بأكْمَامها رَاسَها
وقالت : خف الله لا تفضحنّ فى ابنة عَمّكَ عباسها
فولّيتُ عنها على عِفّةٍ وما خفتُ ناسى ولا ناسَها

(٣) الذخيرة . « مصرى » .

(٤-٤) الذخيرة : « وقد أعد طبقاً فيه سقائف من ضروب النواوير، ووضع على السقائف جوارى ياسمين » .

(٥) الذخيره :

* وهل غير مَنْ عَادَاك فى الأرضِ خائفُ *

وبعده :

يسوق إليك الدّهْرُ كلّ عجيبةٍ وأعجب ما يلقاه عندك واصفُ

وشائعُ نَوْرٍ صاغها هامرُ الحيا حُلِيًّا فمنها عَبْقَـرٌ ورفارفُ
ولمّا تناهَى الحسن فيها تقابلَتْ عليها بأنواع الملاهى الوصائفُ
كمثل الظباء المستكنَّة كُنَّسًا تظلّلها بالياسمين السَّقائفُ
فلم ترعينى فى البلاد حديقةً تنقِّلها فى الراحتين المناصِفُ[1]

والحكاية بطولها فى القسم الرابع من الذخيرة .[2]

وخرج معه إلى أرض **الزاهرة**[3]، فمد يده إلى شىء من التّرنجان يعبث به ، ورمى به إلى صاعد معرّضاً بأن يصفه ، فقال :

---

(١) بعده فى الذخيرة :

وأعجب منها أنهنّ نواظِـرٌ إلى بركةٍ ضُمَّتْ إليها الظرائفُ
حصاها اللآلى ، سابحٌ فى عُبابِهَا من الرُّقش مسموم اللعابَيْنِ راجِفُ
ترى ما تشاء العينُ فى جنباتِهـا من الوحش حتّى بَيْنَهُنَّ السلاحِفُ

قال فى الذخيرة بعد هذا البيت :

فاستغربت له يومئذ تلك البديهة ، وكتبها المنصور بخطه ، وكان إلى ناحية سقيفة فيها جارية تجذف بمجذاف ذهب، لم يرها صاعد، فقال له المنصور: أجدت إلا أنك لم تصف هذه الجارية، فقال :

وأعجبُ منهـا غادة فى سفينةٍ مكلّلة تصبو إليهـا المهـايِفُ
إذا راعها موجٌ من الماء تتّقِى بسكّانها ما أنذرته العواصفُ
متى كانت الحسناء ربّان مركبٍ تصرّف فى يمنى يديها المجاذِفُ
فلم تر عينى فى البلاد حـديقةً تنقّلهـا فى الراحتين المناصِفُ

إلى آخر الأبيات .

(٢) الذخيرة ٤ : ٨ — ١١ .

(٣) الذخيرة : « إلى رياض زاهرة » .

لم أدْرِ قبل ترنجان عبثت بهِ ... أنّ الزُّمرّد قضبان وأوراقُ[1]
من طيبه سَرَقَ الأُترجّ نكهَتَهُ ... ياقوم حَتّى منَ الأشْجار سُرّاقُ!
كأنما الحاجب المنصور علّمه ... فعلَ الجميل فطابت منه أخلاقُ
مَنْ ليس يقعده عن سُؤْدد كرمٌ ... ولا يقوم له فى سوءة سَاقُ

وله أيضاً :

بعثت إليك من خيرىّ دارى ... محزّمة كألوان العقيقِ[2]
تُوكّلُ بالعكُوف على التّصابى[3] ... وتصطاد الخليع من الطريقِ

* * *

فحار الحاضرون لِبَدَاهَتِهِ ، واعترفوا بِنَزَاهَتِهِ . فلمَّا آنَسَ استئناسَهُمْ بكلامِه ، وانصبَابَهُمْ إلى شِعْبِ إكْرَامِهِ ، أطْرَقَ كَطَرْفَةِ الْعَيْنِ ، ثم قال : ودُونَكُمْ بيتيْنِ آخَرَيْنِ ، وأنشد :

وأقْبَلَتْ يَوْمَ جَدَّ البَيْنُ فى حُلَلٍ
سُودٍ تَعَضُّ بنانَ النَّادِمِ الحَصِرِ
فَلاَحَ لَيْلٌ عَلَى صُبْحٍ أقَلّهُمَا
غُصْنٌ وضرَّستِ البِلّوْرَ بالدُّرَرِ

فحينئذٍ اسْتَسْنَى الْقَوْمُ قِيمَتَهُ ، واستَفْزَرُوا دِيمَتَهُ ، وأجْمَلُوا عِشْرَتَه ، وجَمَّلُوا قِشْرَتَه .

* * *

(١) الذخيرة ٤ : ١٢ .
(٢) الذخيرة ٤ : ٤٨ .
(٣) الذخيرة : «بالعزوف عن التصابى» .

رفع المسهم

قوله: «لبداهته» ، أى لارتجاله وإنشاده من غير فكرة ، ويقال: بدهه بَدْهاً وبديهة وبَدَاهة ، إذا فجأهُ . وبده فى كلامه : إذا لم يتفكّر فيه ، وفلان حسن البَديهة والبَدَاهة ، أى الارتجال .

[مما قيل فى البديهة الحاضرة]

والقول من غير تفكّر وهو عندهم مما يمدح به ، وإن كانت الإصابة غالباً فى الرويّة وإطالة الفكرة ، كما قال عبدالله بن وهب الراسبىّ للخوارج حين عقدوا له : دَعُوا الرأى حتى يختمِر ، فلا خير فى الرأى الفطير ، والقول القصير .

وقال المنصور لكاتبه : لا تبرم أمراً حتى تفكّر، فإن فكرة العاقل مرآته تريه حسَنه من قبيحه .

وقال أيضاً : الحكمةُ نور الفكرة ، والصواب فرع الرويّة ، والتدبير فرع الهمة .

قال ابن الرومىّ :

نارُ الرويّةِ نارٌ جدّ منضِجةٍ ... والبديهة نارٌ ذاتُ تلويحِ[1]

وقد يفضّلها قوم لعاجلها ... لكنّه عاجل يمضى مع الريحِ

وقال أشجع فى جعفر بن يحيى :

يريدُ الملوك مدى جعفرٍ ... ولا يصنعون كما يصنعُ[2]

وليس بأوسعِهم فى الغنى ... ولكنّ معروفه أوسَعُ

بداهته مثل تفكيره ... متى تلقه فهو مستجقَعُ[3]

وقال فيه :

بديهتُه وفكْرَتُه سواء ... إذا التبسَتْ على النّاسِ الأمُورُ

(١) بدائع البدائه ٦

(٢) من قصيدة له فى الأغانى ١٧ : ٣٧ .

(٣) الأغانى : « بديهته .... متى رمته » .

وقال إبراهيم بن العبّاس الصولىّ فى الفضل بن سهل :

يقضى الأمورَ على بديهته وتريه فكرتَهُ عواقبُهُ
فيظلّ يُورِدها ويُصدِرها فلَنِعْمَ حاضره وغائبُهُ

ودخل المأمون يوماً بعض دواوينه، فرأى غلاماً جميل الصورة، على أذنه قلم، فقال: من أنت يا غلام؟ فقال : أنا يا أمير المؤمنين الناشىء فى دولتك، والمتقلب فى نعمتك ، والمؤمّل بخدمتك ؛ الحسن بن رجاء خادمك . فقال المأمون : أحسنتَ يا غلام ، وبالإحسان فى البديهة تفاضلت العقول. ثم أمر أن تُرفَع مرتبته فى الديوان.

* * *

قوله : «بنزاهته» أى برفعته وبعده من التّهمة بسرقة الشعر . آنس : أبصر . استئناسهم : أُنسهم وتركهم الإنكار . طرفة : نظرة ، قد طَرُف يطرف طَرْفاً ، إذا حرّك جفنيه بعد النظر. دونكم : إغراء ، ومعناه خذوا حذركم واسمعوا . جدّ : تحقّق . البين : الفراق . بنان : أصابع . الحَصِر : المنقطع عن الكلام عِيًّا . ليل : أراد به نقاباً أسود . صبح : وجه . أقلّهما : رفعهما . غصن : قدّ . ضرّست البلّور : الأصابع . الدرر : الأسنان .

[نقد شعر الحريرىّ]

والظاهر من سياق هذين البيتين أنه قصد أن يزيدهم استئناساً بأنه غير مدّع فى الشعر ، ودلّ على هذا ظاهر الكلام قبل البيتين وبعدهما ، وهو قد أفرج معنى زائدا فى البيت ولم يصرح به لما عليه فى ذلك من التقصير عن درجة غيره، وذلك أنه لمّا لم يستوفِ مقابلة بيت أبى الفرج مَرّةً ببيتيه المتقدمين، استوفاها فى هذا البيت الثانى ، لأنه قابل «أمطرت» بساقطت ، واللؤلؤ باللؤلؤ، والنرجس بالخاتم ، وهما العين والفم ، وحمرة الخد بسنا القمر ، وبقى عليه زائد من قول أبى الفرج: «وعضت على العنّاب بالبرد» ، فقابله فى هذا البيت بقوله : «وضرّست

البلور بالدرر ، وجعلها تعضّ على أصابعها وهى بيض ، لانه يصف امرأة شعرت بفراق أحبابها ، فتركت الزينة واستعمال الحِنّاء ،فلمّا حان وقت فراقهم ، لبست ثياب الحزن ، وأقبلت تودّعهم تلهّفاً وتندُّماً على فراقهم ، ووصف الأصابع بالّلين والصبغ ، وذلك مذكور فى العاشرة ، وجعلها لابسة السواد ، لأنّ أهل المشرق يلبسونه لحزنهم ، وأهل الأندلس يلبسون البياض لحزنهم ، قال الشاعر :

ألا يا أهْـلَ أندلسٍ فطنتمْ ... بلطفكم إلى أمرٍ عجيبِ
لبستمْ فى مآتمكم بياضًا ... وجئتم منه فى زِىّ غريبِ
صدقتم فالبياضُ لباسُ حزنٍ ... ولاحزنٌ أشدّ من المشيبِ

وأنشد أبو عثمان الأشناندانىّ فى أبيات المعانى له :

أرعتْ مراتع مدْراها على عجلٍ ... صنوين إن أفردا لم يرعَيا أبَدَا
واستبدلتْ من رياض الحزن مونقةً ... ثَوْبَ الأمير الذى فى مُلْكِه قَعدَا

عنى بمراتع مدراها شَعْرَها ، وبصنوين مقصًّا حلقته به ، وبرياض الحزن ثياباً ملوّنة ، وبثوب الأمير ثوباً أسود ، لأن ملوك بنى العباس لباسهم السواد .

وعارض ابن لبّال[1] الحريرىّ فى أبياته فقال :

ودّعتُها ومـــدامعى ... تنهلّ بالدَّمْع الطَّليقِ
فبكتْ فأذرَتْ أدمعاً ... فى صفحة الخدِّ الأنيقِ
ومضتْ تعضّ بنانَها ... بين التلهّف والشهيقِ
ورأيت مبيضَّ اللّجـ ... ـيْن يَعضّ محمرَّ العقيقِ

وكما عارض بيتَ الحريرى عارض قولَ البحترىّ المتقدم :

---

(١) ابن لبال ، واسمه على ابن أحمد بن على ، من قضاة الأندلس وشعرائها وأدبائها ؛ وله كتاب فى شرح المقامات . المغرب ١ : ٣٠٣

يا بأبى ظبيٌ إذا مارنا أثخن قلبى وفؤادى جراحْ
يفترّ عن طلعٍ وعن جوهرٍ وفضّة أو حَبَبٍ أو أُقاحْ

فزاد عليه بوصفين .

من أقوالهم فى الفراق

ومما يناظر ما تقدّم من البكاء عند الفراق قول محمد بن يوسف :

وكأنّما أثر الدموع بخدّها طلٌّ تساقط فوقَ وَرْدٍ يانِعِ
عَذُبَ الفراقُ لنا قبيلَ وَدَاعِنا ثم اجترعناه كَسُمٍّ ناقِعِ

وقال ابن الرومىّ :

لو كنتَ يومَ الوداع شاهدَنَا وهنَّ يُطفئن غلّة الوجْدِ
لم تَرَ إلّا دموعَ باكيةٍ تسفح من مُقْلةٍ على خَدّ
كأنّ تلك الدموع قطرُ ندًى يقطر من نرجسٍ على وَرْدِ

وقال النّاشى :

بكيتُ الفِراقَ وقد رَاعنِي بكاء الحبيب لبعد الديارْ
كأنَّ الدموع على خَدِّها بقيّة طلٍّ على جُلّنَارْ

وقال أبو نواس :

تقولُ غداة البين إحدى نسائهمْ لِيَ الكبدُ الحرّى فسِرْ وَلكَ الصَّبْرُ(١)
وقد غَلَبَتْها عَبرةٌ فدموعُها على خدِّها جَمْرٌ وفى نحرها صفْرُ

(١) ديوانه ٨ .

يقول: لون خدها أحمر، فتشكلت الدمعة به جمراً، ولون نحرها أصفر عاجيّ كما قال ذو الرمة :

كأنّها فِضّـــةٌ قد مسّها ذهبٌ فصارَ فيها للون الدمع صُفْرَتُهُ

وقيل للعباس بن محمد : ما لونُ الماء ؟ فقال : لون إنائه .

ولمّا ذكر الحريريّ الحلل السود على الجارية ، تذكّرت ما قال أبو عثمان الناجم[1] فى جارية رأى عليها ثوباً أزرق :

ما تعدّت قبولُ حينَ جلتْ زِيًّـــا شبيهاً بوجهها ذِى الضِّيَاءِ
لبست أزرقاً فجاءتْ بوجـــهٍ يشبه البَدْرَ فى أديمِ السَّمَاءِ

ولأبى حفص بن برد فى غلام بدا له فى ثوب لازوردىّ ، فقال :

لمّـا بدا فى لازور دىّ الحرير وقد بَهَرْ[2]
كبَّرت من فرط الجمـا لِ وقلتُ ما هذا بَشَرْ
فأجابنى لا تنكرنْ ثوبَ السماء على القَمَرْ

وقال ابن المعتزّ فى غلام عليه ديباج بنفسجىّ :

وبنفسجىّ الثوب قتـ ـل محبّه مِنْ حَالِهْ[3]
الآن صرت البدرَ إذ أُلْبِسْتَ ثوبَ جَمَالِهْ

قوله : «استسنى»، أى استعظم، وقد سَنُوَ الرجل ، وسنا: شرف وعظم. ديمته : كلامه بالشعر وهو دائم غير منقطع ، أو يريد بها فِطْنته التى تمدُّه بما شاء من

(١) هو سعد بن الحسن بن شداد المعروف بالناجم الشاعر الأديب ، صاحب ابن الرومى وراوية شعره . معجم الأدباء ١١ : ١٩ .

(٢) الذخيرة ٢ : ٣٧

(٣) يرد البيتان فى ديوان المطبوع ، وهما فى الذخيرة ٢ : ٣٧ ، مع رواية مخالفة

الشعر، وأصل الديمة المطر الدائم . واستغزروها : استكثروها ووجدوها غزيرة . أجملوا عشرته، أى أحسنوا صحبته وعاشروه بالجميل. جمّلوا قشرته ، أى حسّنوها ، من لفظ الجمال ، أو يكون معناه: جمّلوا من جمّلت الحساب وأجملته ، أى جمعته، فكأنهم جمعوا له شيئاً وكسوه . وقشرته: ثوبه ، لأنه قدّم أنّ هيئته كانت رثّة ، فاحتاجوا أن يكسوه .

* * *

قال المخبرُ بهذه الحكايةِ : فَلَمَّا رَأَيتُ تَلَهُّبَ جَذْوَتِهِ ، وَتَأَلُّقَ جَلْوَتِهِ ، أَمْعَنْتُ النَّظَرَ فِي تَوَسُّمِهِ ، وَسَرَّحْتُ الطَّرْفَ فِي مِيسَمِهِ ، فإِذَا هُوَ شَيْخُنا السَّرُوجِيّ ، وَقَدْ أَقْمَرَ لَيْلهُ الدَّجُوجِيّ ، فهَنَّأْتُ نَفْسِي بِوُرْدِهِ ، وابتدرتُ اسْتِلامَ يَدِهِ ، وَقُلْتُ لَهُ : ما الَّذِي أَحَالَ صِفَتَكَ، حَتَّى جَهِلْتُ مَعْرِفَتَكَ ، وَأَيُّ شيءٍ شَيَّبَ لِحْيَتَكَ ، حَتَّى أَنْكَرْتُ حِلْيَتَكَ ! فأنشأ يقول :

وَقْعُ الشَّوَائِبِ شَيَّبْ وَالدَّهْرُ بالنَّاسِ قُلَّبْ
إِنْ دَانَ يَوْمًا لِشَخْصٍ فِي غدٍ يَتَغَلَّبْ
فَلا تَثِقْ بِوَمِيضٍ مِنْ بَرْقِهِ فَهْوَ خُلَّبْ
وَاصْبِرْ إِذَا هو أَضْرَى بِكَ الْخُطُوبَ وَأَلَّبْ
فما عَلَى التِّبْرِ عَارٌ فِي النَّارِ حِينَ يُقَلَّبْ

ثم نَهَضَ مُفارقاً مَوْضِعَهُ ، وَمُسْتَصْحِبًا الْقُلُوبَ مَعَهُ .

* * *

تلهّب جذوته : اشتعال جمرته واتقادها ؛ وأراد حدّة ذهنه، والجذوة : النار فى طَرَف العودِ . تألق : لمعان . جَلْوته : ما جلاه وكشفه من وجهه ، وتقول : جلوت العروس جَلْوة، إذا أزلْتَ نقابها ، وأظهرت وجهها ، والجِلْوة بالكسر : هيئة جلوّه حين يجلَى ، وأراد بتألّق جلوته بريقَ وجهه . أمعنت : بالغت وأدمْت النظر ، وأصله من أمعن فى الأرض إذا أبعد الذهاب فيها . توسمه : نظر سماته ، وهى علامته التى يُعرف بها ، ويريد أنه أدام النظر فى نعوته . سرّحت الطّرْف : أرسلتُ العين بالنظر ، وأصل الطرف تحرّك العين عند النَّظَر ، تقول : طرفت العين طرفاً . والعين : الجارحة ، والبَصَر : ما تدركه بنظرها، ثمّ سُمِّيت العين طرفا لذلك . وميسمه : علامته . أقمر : ابيضّ ، فصار مثل لون القمر . الدَّجوجىّ : الشديد السواد ، وأراد نبات شعره الأسود .

قوله: «بموردِه» ؛ أى بقدومه وإتيانه ، تقول : وَرَدَ علينا فلان ، إذا قدم عليك من بلد آخر ، والمورد : مصدر وَرَدَ ، وهو بمعنى الورود ، لأنه قدّم أنه غاب عنه مدّة لا يَعْرف له موضعاً ، ولا يجد عنه مخبراً ؛ حيث قال : « واستتر عَنّى حيناً » ، فلما رآه ببلده بالبصرة فرح بقدومه وهنّأ نفسه على ذلك .

استلام : تقبل اليد . ابن الأنبارىّ : استلم الحجر ، معناه أخذه ومسّه بيده ، واستلم ، افتعل ، من المسالمة . يريد أخذ الحجر وضمّه إليه ، أو يكون استفعل ، من اللأمة وهى السلاح ، يريد أنه حصّن نفسه بمسّ الحجر من العذاب ، لأن السلاح إنما يابس ليُمتنع به ويتحصّن . أحال : غيّر . حلْيتك : صفتك ، ولذلك احتاج أن يمعن النظر لمّا تغيرت صفاته التى كان يعرفه بها من الفتوّة والشبيبة ، فلما رآه قد شاب شعره ، وتغيّرت صفاته لم يعرفه إلاّ بعد طول تأمّل . وقال الحلوانى القيروانىّ :

ولربّ باكيةٍ رأت فى مِلّتى وَخْزَ المشيب تألّقتْ ضَحِكاتُه

قالت : أغصناً قد علاه فلا أرى زهْر الرّياض ونوّرت ورقاتُهْ
فأجبتها: قارعتُ فى جَنْبِ الهوَى صرف الزّمان ،وهذه نكباتُهْ

ولابن الجدّ :

نَكَرَتْ نُحُولى وهو من فَرْط الأسَى لفراقِ إخوان علىّ كرامِ
وتعجَّبتْ للشَّيب لا تتعجَّبي هذا غبار وقائع الأيّامِ

قوله : «فأنشأ يقول » أى ابتدأ ، وأنشدوا :

أنشأت تطلب ما تغيّرَ قد تناشبت الأظافرْ

أى ابتدأت تطلب . الشوائب ، أصله ما يقع فى الماء الصافى من الأقذاء فيكدّره ، فأراد أن أنكاد الدهر شيّبته . وقُلّب : كثير التقلّب ، فيحوّل من حال إلى حال . دان : طاع وانقاد . يتقلّب : يتحوّل عن الطاعة . وميض : لمع خفىّ . خُلّب : خدّاع ، لا ماء فيه ، وأراد : لا تثق بالدّهر ، إذا ما كسبت فيه شيئاً من المال فإنه يحوّل عنك ولا يترك لك منه شيئاً . أضرَى : أغرى وألصقها بك ، وأصل «أضرى» من ضراوة الكلب ، تقول ضَرِىَ الكلب بالصيد ؛ إذا تعلّم الصيد ، وأضريته أنا بمعنى عرّضته للصيد . والخطوب : الأمور الشداد . وألّب : حشد ، أى اصبر للشدائد إذا أضراها الدهر بك وحشدها ، فما عليك فى ذلك عيب ، كما أن الذهب يُسبَك بالنار وهو مع ذلك عزيز القدر . والتّبر : الذهب قبل سبكه ، وانظر هذا المعنى عند قوله فى السابعة والأربعين :

وطَالَمَا أُصْلِىَ الياقوت جمرَ غضًى ثم انطفا الجمرُ والياقوتُ ياقوتُ

رفع المسهم

وزاد الآخر فى المعنى فقال :

إنى أنا الذَّهبُ المُحمَى ومخبرُه يزيد فى السَّبْك للدينارِ دينارا

وأنشدوا :

اصْبرْ على نُوبَ الزَّما ن فهكَذَا مضت الدُّهورْ
فَرَحٌ وحُزْنٌ تارةً لا الحزن دامَ ولا السُّرورْ

رفع المسهم

المقامة الثالثة وهي الدينارية

رَوَى الحارثُ بن هَمَّامٍ قال : نَظَمَنِي وأخدانًا لى نادٍ ، لَمْ يَخِبْ فِيهِ منادٍ ، ولا كَبَا قَدْحُ زنادٍ ، وَلاَ ذَكَتْ نارُ عِنادٍ ؛ فَبَيْنَا نَحْنُ نتجاذَبُ أَطْرَافَ الأناشِيدِ ، ونتوارَدُ طُرَفَ الأسانيدِ ، إذ وقف بنا شَخْصٌ عَلَيْهِ سَمَلٌ ، وفِي مِشْيَتِهِ قَزَلٌ .

* * *

نظَمنى ، أى جمعنى . أخدانا ؛ أى أصحابا . نادٍ : مجلس . منادٍ : متكلّم. كبا : شحّ ولم يبد ناراً . قَدْح : ضرب . زناد : حديدة النار ، وزناد العرب من خشب ، وأكثر ما يكون من المرْخ والعَفار ؛ وإنما هو أن يُؤخذ عود قدر شبر ، فيُثقب فى وسطه ثقب لاينفذ ، ويؤخذ عود آخر قدْر ذراع ،فيحدّ طرفه ، ويُجعل ذلك فى الثّقب ، وقد وضعه رجُلٌ بين رجليه، فيُديره ويفتلُه ، فيبدى النار ، فالأعلى زَنْد والسفلى زَنْدَة،والزّناد جمع زند . قوله :«ذَكَتْ»،أى اشتعلت . عناد : خلاف ، يريد أنّ هؤلاء الأصحاب لحسن أدبهم ومناظرتهم ليس بينهم خلاف، وهم علماء لايسقط من كلامهم شىء ، وليس فيهم جاهل ، فيكون كلامه قليلَ الإصابة . والأناشيد : ما يتناشدونه من الأشعار بينهم ، كأنّ واحدها أنشودة . وتجاذب أطرافها ،يريد المشاركة فى إنشادها ، أى إذا أنشد أحدُهم شعراً ليُغْرب به شاركوه فى إنشاده لحفظهم الأشعار ، فكأنهم تجاذبوه كما يُتجاذب بأطراف الثوب. والأسانيد الأخبار المسندَة إلى أهلها. وأصل التوارد ، مزاحمة الإبل على شرب المـاء ، فجعل مشاركتهم فى ضبط غرائب الأخبار

رفع المسهم

كتوارد الإبل على الماء ، والطُّرَف: الغرائب ، والطُّرفة : الشيء العجيب من كل شيء ، الذى لا يوجد له نظير . سَمَل : ثوب خلَق ، وأكثر ما تقول العرب : ثوب أسْمال وأخْلاَق ، فيوصَف بالجمع لأنه قِطَعٌ متفرِّقة . وسَمَل : قليل ، وفى تبذّل اللباس روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم :« إن الله يحب المتبذّل الذى لا يبالى بما لبس» . قَزَل: عرج .

* * *

فقال: يا أخايرَ الذَّخائرِ ، وبشائرَ العشائرِ ، عِموا صباحاً ، وأنعِمُوا اصْطِباحاً ، وَانظرُوا إلى مَنْ كَانَ ذا ندىً وَنَدَى ، وَجِدَةٍ وَجَدَا ، وَعَقَارٍ وَقُرَى ، وَمَقَارٍ وَقِرَى ، فَمَا زالَ به قُطُوبُ الْخُطُوبِ ، وَحُرُوبُ الكُرُوبِ ، وَشَرَرُ شرِّ الْحُسُودِ ، وانتياب النُّوَبِ السُّودِ ، حتَّى صَفِرَتِ الرَّاحةُ ، وَقَرِعت السَّاحَةُ ، وغارَ المنبعُ ، وَنَبَا الْمَرْبعُ ، وَأَقْوَى الْمَجْمَعُ ، وَأَقْفَرَّ الْمَضْجَعُ ، وَاسْتَحَالَتِ الْحَالُ ، وَأَعْوَلَ الْعِيالُ ، وَخَلَتِ الْمَرَابِطُ ، وَرَحِمَ الْغَابِطُ ، وَأودَى النَاطِقُ وَالصَّامِتُ ، وَرَثَى لَنَا الحَاسدُ وَالشَّامِتُ .

* * *

قوله : «يا أخاير الذخائر» ، الأخاير : جمع أخير ، كما يقال : أكبر وأكابر ، والمستعمل خير وشر ، ولا يقال : أخيرَ ولا أشرّ إلا شاذًّا ، وإن كان هو الأصل ، لكنه رفض استعماله وجاء الجمع على الأصل ، لأنه يردّ الشيء إلى أصله وقال رؤبة :

* بلال خيرُ النَّاسِ وابْنُ الأَخْيَرِ *

فنطق بالمستعمل لشهرته ، وبأصله وهو قليل ، فإذا تعجّبوا من ذلك قالوا : ما أخيرَ فلاناً ،وما أشرّ فلاناً . والذخائر: جمع ذخيرة؛ وهى الشىء النفيس الغالى يصونه الإنسان ويعتدُّه لزمانه . البشائر . جمع بِشارة ، وقد بشرّت الرجل بشارة إذا أدخلت عليه السرور. والعشائر: جمع عشيرة ، وهى قرابة الرجل من قبيلته، يقول: أنتم أرفع الذخائر ، وخيرها ، وأنتم يستبشر من لقيكم برؤيتكم ، ويتيامن بلقائكم ، ويعلم أنكم تَصِلُونه وتكرمونه ؛ ليستعطفهم بهذا الكلام . عموا صباحا : دعاء لهم بالنّعمة فى الصباح ، أى جعلكم الله تنعمون فى صباحكم . وعِمُوا: أمرٌ من وَعَم يَعِم ، وهى فى معنى نَعِم يَنْعَم. وأنعموا اصطباحا، أى طاب شربكم فى الصَّباح وتنعمتم به، والاصطباح : أن يُصبِحوا وهم يشربون . ندىّ : مجلس اجتماع ، أى هو شريف يُقعدويجتمع عنده. ندى : كرم . جدًى : عطيّة . العَقار : المال الذى لا ينتقل كالنخل والدّور والأرَضين . قرًى : جمع قرية . مقار : جفان يُقرَى فيها الأضياف ، أى يطعمون فيها . والقِرى : طعام الضيف. قطُوب . عبُوس . الخطوب : الشدائد . الحروب : القتال . الكروب : الهموم، قال النبى صلى الله عليه وسلم: «مما أعلم أنّه لا يقوله مكروب إلاّ فرّج الله عنه ، كلمة أخى يونس : ﴿ فَنَادَى فى الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلٰهَ إِلاَّ أَنْتَ ... ﴾ الآية » .

ومن كلام ابن المعتز: الحوادث المحضة مكسبة لحظوظ جزيلة ، وثواب مدخر، وتطهير من ذنب،وتنبيه من غَفْلَة، وتعريف بقدْر النعمة ، ومرور على مقارعة الدهر ، وإذا استرجع الله مواهب الدنيا كانت مواهبَ الآخرة .

غيره : لولا حوادث الأيام لم يعرف صبر الكرام ، ولا جزع اللئام .

رفع المسهم

وقال أبو تمّام :

والحادثاتُ وإن أصَابَك بُؤسُها فهو الذى أتْبَاكَ كيفَ نعيمُهَا[1]

الحسود : المتمنّى إهلاك مالك ، وإذا رأى لك خيراً تمنّى إزالته ، يريد أن الحسود اتّبع ماله بالعين حتى أهلكه ، وقلّما يُوجد الذى يرمى بالعين إلا حسودا. انتياب: نزول وقصود . النُّوَب: النوازل. قوله، «صفرت»، أى خلت من الدراهم الراحة : باطن الكف . قرعت : خلت من المال وصارت قرعاء . والساحة : فناء الدار ، والساحة عند العرب: الرّحبة التى تُحلّق بها البيوت ، وأراد أنّها خلت من الإبل والبقر والغنم وغير ذلك . غار المنبع : جفّ الماء النابع ، والمنبع: موضع النَّبْع . المربع: المنزل فى الربيع . ونبا : بأهله : وجد نَبْوة ، أى ارتفاعا غير وطىء فلم تمكن الإقامة فيه . أقوى : خلا . المجمع: موضع الاجتماع . أقضّ : خَشُن وصار فيه القَضَض ، وهى الحجارة . والمضجع : موضع رقاده ، وأخذه من قول أبى ذؤيب :

أمْ ما لجنبكَ لا يلائِمُ مَضْجَعاً إلاّ أقضّ عليهِ ذَاكَ المضجعُ[2]

وكنى بهذه الألفاظ عن تغيّر الأحوال وذهاب المال .

وساق الكلام مساق حكايات الأعراب ؛ منها أنّ أعرابياً وقف بقوم، فقال : أشكو إليكم أيُّها الملأ زماناً أناخ علىّ بكلكله بعد نعمة من البال ، وثروة من المال، وغبطة من الحال ، أصْمَانِى جَديداه بنَبل مصائبه، عن قِسِىّ نوائبه ، فما ترك لى راغية أجتدى ضَرْعَها ، ولا ثاغية أرْتَجِى نفعها ، فهل فيكم من معين على صرفه، أو مُعْذٍ على حتفه !

(١) ديوانه ٣١٠

(٢) ديوان الهذليين ٢ .

وقد ذكرنا منها جملة فى الثالثة والثلاثين . وحكى أبو علىّ فى نوادره حكاية عن أبى زيد اللغوىّ على لسان أعرابىّ يشبه كلام الحريرىّ هنا فى سياقه وكثير من الألفاظ ، فيقول : إنّ المنبع الذى كنا نعيش به نحن وأموالنا قد ذهب ، فهلكنا بذهابه . والمربع :وهو موضع الخِصْب، صار نبوة لاينبت شيئاً ، فلم تجد الإبل ما ترعاه فهلكت ، وإذا هلك المال هلك صاحبه ، والمجالس الّتى كنا نجتمع فيها ،هلك أهلها فخَلَت ، ومضجعنا الذى كان موطّأً بالفُرش أقضّ فامتنع من الإضجاع عليه .

قوله : «استحالت ، تغيّرت» . وحالُ الرجلِ : ماهو عليه من خير أو شرّ أو غِنىً أو فقر ، والحال أيضا: المال . أعول : بكى، وعيال الرّجل:من يفتقر إليه فى مؤنته ونفقته ، واحدهم عيّل. المرابط : المواضع التى تربط فيها الخيل وتُحْبَس . الغابط : الذى يتمنّى مثل مالك ولا ينقص منه شىء . أودى : هلك . الناطق : المال من الحيوان مثل الإبل والبقر والغنم ، وكلّ ما يُتملّك من ذى روح ؛ سميت بذلك لأصواتها ، والناطق كل حيوان له صوت . والصامت : الذهب والفضة والمتاع. رثى : بكى. وأشفق الشامت : الذى يُسرّ بمصيبتك ،ومنه تشميت العاطس ، وهو إدخال السرور عليه بالدعاء ، وقد شمت به شماتاً وشماتة ، فهو شامت إذا سرّ ببلاء ينزل به . والحاسد ، هو الحسود .

***

[فصل فى الحسد وما قيل فيه]

والحسد أوّل ذنب عُصِىَ الله به فى السماء والأرض ، أما فى السماء فحسد إبليس آدم ، وأما فى الأرض فحسد قابيل هابيل .

رفع المسهم

وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى :﴿ربَّنا أَرِنَا اللَّذيْن أضلاَّنا من الجنّ والإنْسِ﴾[1] : إنهما قابيل وإبليس ، فالحسد حمَل إبليس على الكفر ، وحمَل قابيل على قتل أخيه .

وقال علىٌّ رضى الله عنه : لا راحة لحسود ، ولا أخ لملول ، ولا محبّ لِسَيِّىء الخلق.

وقال رجل لخالدبن صفوان : إنى أحبُّك ، قال : وما يمنعُك ، ولستُ لك بجارٍ ولا أخٍ ولا ابن عمٍّ ! يريد أن الحسد موكّل بالأدْنَيْنَ .

الحسن البصرىّ : ما رأيت ظالماً أشبه بمظلومٍ من حاسد بنفَسٍ دائم ، وحزن لازم ، وغَيْرة لا تنفد .

معاوية : كلّ الناس أقدر على أن أرضِيَهم إلاّ حاسد نعمة ، فإنه لا يرضيه إلا زوالها .

المبرّد: حدثنا الزيادىّ ، قال: يقال :ستة لا تخطئهم الكآبة : فقير حديث عهد بِغِنًى ، ومُكْثِرٌ يخاف على ماله التلف ، والحسود ، والحقود ، وطالب مرتبة فوق قدره ، وخليط أهل الأدب وليس منهم .

قال الأصمعىّ: اجتمع ثلاثة حسّاد ، فقال أحدهم لصاحبه : ما بلغ من حسدك ؟ قال: مااشتهيت أن يُفعل بمسلم خيرٌ قطّ ، فقال الثانى: أنت رجل صالح ، ولكنى مااشتهيت أن يُفعل بى خير قطّ ،فقال الثالث : ما فى الأرض خير منكما ، ولكنى ما اشتهيت أن يَفعل أحد بأحد خيراً قطّ .

قال : وأنشد الشاعر :

كلّ العداوةِ قد تُرْجَى مودَّتُها إلاّ عداوة مَنْ عاداك مِنْ حَسَدِ

(١) سورة فصلت ٢٩

وقال حبيب :

وإذا أرادَ الله نشر فَضِيـــلةٍ طُوِيتْ أتاحَ لها لسَانَ حَسُودِ[1]
لولا اشتعالُ النّارِ فيما جاورتْ ما كان يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ

وقال القاضى ابن عمر :

نَهَانِيَ حِلْمِي فمَا أَظْلِمُ وَعَزَّ مَكَانِي فَمَا أُظْلَمُ
ولا بدّ من حاسدٍ قَلْبُهُ بنور مآ ثرِنا مُظلِمُ
رحمت حَسُودى على أنه يعذَّب بى ثم لا يُرْحَمُ
أتانا الحسود ولسنا كما يقول ولكنْ كمَا يعلَمُ

وقال اليمانىّ :

إنِّى لَأَرحم حاسدِىّ لفرْطَ ما ضمَّتْ صدورهمُ من الأوْغَارِ
نَظَرُوا صنيعَ الله بِى فعيونهمْ فى جنَّـــة وقلوبهم فى نارِ
لا ذنب لى قد رُمْتُ كتْمَ فواضِلِى فكأنّما برقعتُهـا بنهَارِ

قوله: «رثى لنا الحاسد والشامت» : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ارْحموا ثلاثاً :غنىّ قوم افتقر ، وعزيز قوم ذلّ ، وفقيهاً يلعب به الجهّال » .

قال الشافعىّ: خمسة مرحومون:عزيز ذل،وغنىّ قلّ ، وحبيب ملّ ، وفصيح كلّ ، وفقيه ضلّ .

وقال الشافعى : ومن حديث واثِلة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لاتُظهر الشماتة بأخيك ،فيعافيه الله ويبتليك» ،وأخذه الحريرىّ من قول الآخر :

لم يبقَ إلاّ نَفَسٌ خافتُ ومُقْـلة إنسانها باهِتُ
ومغرم تُوقَدُ أحشاؤه بالنَّار إلا أنه ساكِتُ
رقّ فما فى جسمه مفصلٌ إلاّ وفيهِ سَقَمٌ ثابِتُ

(١) ديوانه ٨٥ .

يرثِي له الشَّامِتُ مِمَّا بِهِ ياوَيْحَ مَنْ يرثِي له الشامِتُ !

* * *

وآل بنا الدَّهْرُ المُوقِعُ ، وَالْفَقْرُ الْمُدْقِعُ ، إلى أَنِ احْتَذَيْنا الْوَجَى ، وَاغْتَذَيْنا الشَّجَا ، وَاسْتَبْطَنَّا الْجَوَى ، وَطَوَيْنا الْأَحْشاءَ عَلَى الطَّوَى ، وَاكْتَحَلْنا السُّهادَ ، وَاسْتَوْطَنَّا الوِهادَ ، واستوطأْنا الْقَتادَ ، وَتَنَاسَيْنا الأَقْتادَ ، وَاسْتَطَبْنا الْحَيْنَ الْمُجْتاحَ ، وَاسْتَبْطأنا الْيَومَ الْمُتاحَ ، فَهَلْ مِنْ حُرِّ آسٍ ، أَوْ سَمْحٍ مواسٍ ! فوالذى اسْتَخْرَجَنى مِنْ قَيْلَةَ ، لَقَدْ أَمْسَيْتُ أَخَا غَيْلَة ، لا أَمْلِكُ بِيتَ لَيْلَةٍ .

قال الحارث بن هَمَّامٍ : فَأَوَيتُ لِمَفاقِرِهِ ، وَلَوَيتُ إلى استنباطِ فِقَرِه ، فَأَبْرَزْتُ دِينَاراً ، وَقُلْتُ له اختباراً : إن مَدَحْتَهُ نَظْماً ، فَهُوَ لَكَ حَتْماً ، فانبرى يُنْشِدُ فى الحالِ ، مِنْ غَيْرِ انْتِحالِ .

* * *

قوله : « آل بنا » أى رجع بنا ، وقد آل يئيل ويئول ، أى رجع . المُوقع : المُهلك ، من أوقع به ، ويحتمل أن يريد بالموقع الذى يحمله على الوقوع ، ورجل مُوقع إذا اشتكى ألم رجليه . المدقع : الملصَق بالدقعاء ، أى التراب ، أى لم يترك للإنسان شيئاً يبسطه غير التراب . احتذينا : انتعلنا . الوجى : توجّع باطن القدمين من الحفا ، يريد أنه لبس مكان النعال الحفا حتى توجّعت قدماه . الشجى : ما يعرض فى الحلق ، وكنى بهذا عن سوء الحال ، لأن الشجى ليس بغذاء إنما هو مشقة وتعب . ولكن بالغ فى وصف سوء حاله ، فقال : إنه يَنتعل مالا يُنتعل ، ويغتذى ما ليس .

رفع المسهم

بغذاء ، أى ليس ثَمَّ انتعال ولا غذاء . استبطنَّا ، أى جعلناه فى بطوننا . الجوَى : فساد الجوف . والأحشاء : مافى الجوف وماحشى به . الطَّوَى : الجوع ، وقد طوِىَ يَطْوَى ؛ لأن الأحشاء إذا امتلأت من الطعام انتشرت ، وإذ فرغت منه انطوى بعضُها على بعض . والسُّهاد : امتناع النوم ، من قول الشاعر :

ما لعينِي كُحِلَتْ بالسُّهَادِ ولجنبى نابِيًا عَنْ وِسَادِى

استوطنَّا : سكنَّا واتخذناه وطناً . الوِهاد : ما انخفض من الأرض . استوطأنا : وجدناه وطيئاً . القتاد : شجر له شوك شديد يسمّى عندنا حِمْض الأمير . الأقتاد : خشب الرِّحال ، يريد أنهم نسوا ركوب المطايا لبعد عهدهم بها ورجعوا الآن يمشون على الشوك فيجدونه وطيئاً . الحَيْن : الموت . المجتاح : من لفظ الجوائح ، يريد به المستأصل للأموال . استبطأنا : وجدناه بطىء المجىء . المتاح . المقدَّر ، يريد أن يوم موتهم تمنّوه لشدة ما قاسوْا ، وأبطأ عليهم . آسٍ : طبيب يطبّ علة الفقر والجمع الأساة . سمح : كريم . والمواسى : المعين . وذكر عاصم فى شرح قوله : « يواسى فى كريهته أخاه » ، أن معناه ، جعله أسوة نفسه ، فمواسٍ من الأسوة ، كأنه يشاركه فى ماله . ويقال : آسيته ، والأصل الهمز .

المفضّل : معنى فلان يواسى فلانا ، يشاركه ، والمواساة المشاركة ، وآساه : شاركه فيما هو فيه .

مؤرِّج : ما يواسيه ، أى ما يصيبه بخيرٍ أصلا .

غيره : معناه يعوّضه ممن مودّته وقرابته شيئاً ، من الأوس وهو العِوَض ، قال الشاعر :

فلأرْمِيَنَّك مِشْقَصًا أَوْسًا أُوَيْسُ من الهَبَالَهْ[1]

(١) اللسان ـ هبل ، ونسبه إلى أسماء بن خارجة ؛ وفيه أن الهبالة اسم ناقة أسماء بن خارجة ، ورواية اللسان : « لأحشأنك » .

والهبالة: اسم ناقة ، أى أرميك بسهم يكون عِوَضًا عن الناقة . وكأنّ أصله يؤاوسه، فقدموا السين وهى لام الفعل، وأخّروا الواو وهى عينه ، فصار «يؤاسوه» فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ، فهو من المقلوب ، وإن جعلتَه من أسوتُ الجرح ، إذا أصلحته فلا قَلْب فيه .

قوله: «فوالذى استخرجنى من قيلة» ، قيْلة هى أمّ الأوس والخزرج ، وهى بنت الأرقم الغسّانية ، وانتسابه لها كانتسابه قبل إلى أقيال غسّان . أخا عَيْلة: صاحب فقر ، قال تعالى: ﴿وإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾[1] ، أى فقراً ، وقال صلى الله عليه وسلم: «أعوذ بك من القسوة والغفلة والعيْلة والمسكنة» . بِيت ليلة : قوت يبيت عليه ليلة .

أويت : أشفقت وحننت . مفاقره : جمع فقر على غير قياس ـ ومثله مذاكير الرجل جمع ذَكَر : محاسنه ومساويه . لوَيت : انعطفت . استنباط : استخراج . الفِقَر فى النثر: فواصله ، وهى مثل القوافى فى النظم، والفِقَر: ماتقدّم فى المقامة من الكلام المفقَّر . أبرزت : أظهرت . حتماً : واجباً ، يريد أنه قصد إلى أن يحقّق ما تقدّم من الفصاحة فى فقَره إن كانت له أو انتحلها ، فقال ليختبره : امتدح هذا الدينار بشعر . فانبرى ، أى اعترض وتقدّم . انتحال : ادّعاء منه فى شعر غيره ، يقال: انتحل كذا ، أى ألزمه نفسه ، وجعله كالملك ، من النِّحلة ، وهى الهِبَة والعطية .

* * *

أَكْرِمْ بِهِ أَصْفَرَ رَاقَتْ صُفْرَتُهْ ... جَوَّابَ آفَاقٍ تَرَامَتْ سَفْرَتُهْ

مَأْثُورَةً سُمْعَتُهْ وَشُهْرَتُهْ ... قَدْ أُودِعَتْ سِرَّ الْغِنَى أَسِرَّتُهْ

وَفَارَتْ نُجْحَ المساعِى خَطْرَتُهْ ... وَحُبِّبَتْ إِلَى الأَنَامِ غُرَّتُهْ

كَأَنَّما مِنَ الْقُلُوبِ نُقْرَتُهْ ... بِهِ يَصُولُ مَنْ حَوَتْهُ صُرَّتُهْ

(١) سورة التوبة ٢٨ ،

وَإِنْ تفانَتْ أو تَوانَتْ عِتْرَتُهْ يا حَبَّذَا نُضارُه وَنُقْرَتُهْ
وَحَبَّذا مَغْناتُهُ وَنُصْرَتُهْ كَمْ آمرٍ بهِ اسْتتبَّتْ إِمْرَتُهْ
وَمُتْرَفٍ لَوْلاهُ دَامَتْ حَسْرَتُهْ وَجَيْشِ هَمٍّ هَزَمَتْهُ كَرَّتُهْ
وَبَدْرِ تِمٍّ أَنزلتْهُ بَدْرتُهْ وَمُسْتَشِيطٍ تَتَلَظَّى جَمْرتُهْ
أَسَرَّ نَجْوَاهُ فَلانَتْ شِرَّتُهْ وَكَمْ أَسِيرٍ أَسْلَمَتْهُ أُسْرَتُهْ
أَنقَذَه حَتَّى صَفَتْ مَسَرَّتُهْ وَحَقٌّ مولًى أَبْدَعَتْهُ فِطْرَتُهْ
* لَوْلاَ التُّقَى لَقُلْتُ جَلَّتْ قُدْرَتُهْ *

* * *

قوله: « اكْرِم به »، معناه ماأكرمه . راقت . أعجبت . جوّاب آفاق : قطّاع بلاد . ترامت سفرته : بَعُدَت غيبته، وسمّى السّفر سفراً ، لأنه يُسفر عن أخلاق الرجال ، أى يكشفها ويوضّحها ، أخذ من قولهم : سَفَرَت المرأة عن وجهها ، إذا كشفته وأظهرته ، ويقال للمكنسة : مِسْفَرة ،لأنها تُسفِر التراب عن الموضع ، وسفر بيتَه ، كنسه . مأثورة : محدّث بها . سمعته: ذكره المسموع. أودعت : ضُمِّنتْ. أسِرّته : خطوط وجهه ، أراد نقشه ، وأنّ بين أسطاره سرّ الغنى ،فمن ملكه ملك الغنى . قارنت : ساوت : النجح : ضد الخيبة . المساعى : المشى فى طلب الحوائج . الأنام: الخلق. غُرَّتُه : وجهه ؛ قيل لأبى الزناد : مالك تحب الدراهم وهى تدنيك من الدنيا !قال : إنها وإن أدنتْنى من الدنيا ، فقد صانتنى عنها . والنّقرة : القطعة المسبوكة من الذهب والفضة ، قبل أن يطبع منها الدراهم والدنانير ، وأراد : كأنما قطعت نقرته من قلوب الناس لشدّة حبهم فيه . والنّقرة ، إنما تستعمل من الفضة ، واستعملها فى الذهب لقرب ما بينهما، وأخذه من قول البحترىّ :

رفع المسهم

فكلّ قلبٍ إليه منصرفٌ كأنّه من جميعها خُلِقَا (١)

أو من قول ابن الروميّ :

به أمست الأهواء يجمعها هوًى كأنّ نفوسَ النّاس فى حبّه نَفْسُ

أو من قول المتنبى :

فى خَطِّه من كلّ قلبٍ شهوةٌ حتّى كأنّ مداده الأهواء (٢)

يصول : يقهر ويغلب ، وصال الشجاع على قِرْنه ، والفحل على إبله، والحمار على أُتُنه صَوْلاً ، إذا قهر وعلا وصاح بها . الصّرّة: الخرقة تصرُّ فيها الدراهم. حوته: ضمّته، يريد أنّ مَنْ مَلك الدينار صال به على زمانه . تفانت : هلكت. توانت: أبطأت وضعفت عن نصرته . عِترته : قرابته الأدنون. نضاره : ذهبه . نضرته : حسنه . مغناته: منابه ؛ يقال فلان يغنى مغناتك، أى ينوب منابك، ويقوم مقامك، يريد أنه ينوب عن الإنسان فى المضايق وينصره . استتبَّت : تمّت واستقامت ، والمستتبّ : الطريق البين ، قال الشاعر :

* على مستتبّ كالمجرّة تعمل *

إمرته : ولايته. مُترف : منعَّم. حسرته: تفجّعه ،وحزنه . كَرّته : رجعته ، وبدرتِمّ : القمر ليلة الكمال ؛ ويريد به شخصاً يشبه البدر فى حسنه ورفعته، فإذا بعثت فى طلبه الدينار أنزلته عن مرتبته وتملكته ، والبَدْرة: عشرة آلاف درهم. مستشيط : غضبان : تتلظّى : تتلهب. جمرته :شدّة غيظه . أسرّ : أخفى . نجواه: حديثة سراً . شِرّته : حدّته وغضبه ، يقول : كم من غضبان شديد الغيظ ، مثل

(١) فلحق ديوانه ٢٦١٥ .

(٢) ديوانه ١ : ٢٠ ، والأهواء : جمع هوى ، مقصور ، وهو المحبة .

حاكم يصول بصاحب جناية ويهدّده ، فإذا رُشِيَ بالدينار وبُعث إليه سرّا أزال غضبه ، وسكنتْ حِدّته . أسلمته ، تركته . أسرته : قومه . مسرّته : فرحه . أبدعته : أوجدته قبل أن يكون . فطرته : خلقته . التقى : الخوف . جلّت : عظمت .

* * *

ثُمَّ بَسَطَ يَدَهُ ، بَعْدَ مَا أَنْشَدَهُ ، وَقَالَ : أَنْجَزَ حُرٌّ مَا وَعَدَ ، وَسَحَّ خَالٌ إِذا رَعَدَ . فَنَبَذْتُ الدِّينَارَ إِلَيْهِ ، وقُلْتُ : خُذْهُ غَيْرَ مَأْسُوفٍ عَلَيْهِ ، فوَضَعَهُ فِي فِيهِ ، وَقال : بَارِكِ اللَّهُمَّ فِيهِ ، ثم شَمَّرَ لِلانْثِنَاءِ ، بَعْدَ تَوْفِيَةِ الثَّنَاءِ .

* * *

[قصة المثل : أنجز حرٌّ ما وعد]

قوله : «أنجز حرٌّ ما وعد» ، هذا مثل ، قاله الحارث آكل المرار ـ وهو جدّ امرئ القيس ـ لصخر بن نهشل بن دارم ؛ وذلك أن الحارث قال : يا صخر ، هل أدلّك على غنيمةٍ على أنّ لى خمسَها؟ قال نعم ، فدلّه على قوم من العرب ، فأغار عليهم صخر بقومه فظفروا وغنموا ، فحملهم صخر على أن يعطوا الحارث الخمس ، فأبوا ؛ وكان طريقهم على شِجْعات ـ وهى ثنيّة متضايقة ـ فلما دنوا منها صار إليهم صخر حتى قعد على رأسها ، ومنعهم الجواز أو يعطوا الحارث الخمس ، فقال حمزة اليربوعىّ : والله لا نعطيه من غنيمتنا شيئاً ؛ ومضى فى الثنيّة ، فحمل عليه صخر فقتله . فلما رأى ذلك الجيش أعطوه الخمس ، ففى ذلك يقول نهشل بن حرّىّ بن منجز ابن نهشل بن دارم :

ونحن منعنا الجيش أن يتأوّبوا على شجعاتٍ والجياد بنا تجرى
حبسناهُمُ حتَّى أقرّوا لحكْمِنَا وأدّىَ أنفال الخميس إلى صِخْرِ

فمعنى «أنجزحرٌّ ماوعد»[1] أحضر وهيِّأ. وقد نجز الشيء إذا حضر، ولفظه لفظ الخبر، ومعناه الأمر، أراد لينجزْ حُرٌّ ماوعد.

* * *

سحَّ: صبّ وأمطر. خالٌ: سحاب يخيَّل لك أنّ المطر فيه. رَعَد: صوّت؛ يقول لابن همام: إنَّ السحاب إذا سمع الرعد سحَّ بالمطر، وأنت قد أسمعتنى ذكر الدينار، ووعدتَنى به، فأنجِزْ لى وعدى.

نبذتُ: رميتُ. مأسوف: محزون. بارِك: أى ضع البركة فيه، وقولهم: تباركَ الله، أى تقدَّس وتطهّر، وقيل: هو «تفاعل» من البركة، أى البركة تنال بذكر اسمك. الانثناء: الرجوع. توفية الثناء: كمال الشكر والمدح.

[مما قيل فى وصف الدينار]

ومّما قيل فى وصف الدينار ومدحه:

ومُقَسِّم الوجناتِ يبرُق وجهُه بادٍ على وجَنَاتِه عَبَّادُ
جُبِل الأنامُ عَلَى محبَّة حسنِه فكأنَّه ربّ وهُمْ عُبَّادُ

وفى مقامات البديع فى وصفه.

ياحسنَها فاقعةٌ صفراء مشرقة منقوشة قَوْراء[2]
يكادُ أن يقطرَ منها الماء قد أثمرتْها همَّة عَلياء
ياذَا الَّذِى بغيته الثَّناء ما ينقضِى بقدرِكَ الإطراء

* امض عَلَى الله لك الجزاء *

* * *

(١) جمهرة الأمثال ١ : ٣٠، فصل المقال ٧٩، الفاخر ٦١.
(٢) مقامات البديع ٩٢، وفيها: «ممشوقة» بدل «مشرقة».

[فصل فى الوعد ومذاهب الناس فيه]

وإذ قد فرغت من شرح ألفاظه فى إنجاز الوعد فى المثل ، وما اتّصل به ، فلنذكر مذاهبَهم فى ذلك .

فأكثرهم على إنجاز الوعد ، وقد ذكر فيما هو مستقبل :

* وبِع آجلاً منك بالعاجِلِ *

وقال : وإذا خُيِّرتَ بين ذَرّة منقودة ، ودُرّة موعودةَ فَمِلْ إلى النقد .

وقال جرير :

إنِّى لأرجُو منكَ خيراً عاجلاً والنَّفسُ مولَعةٌ بحبِّ العاجلِ (١)

قال آخر :

ولا شكَّ أنَّ الخيرَ منك سجيّةٌ ولكنّ خير الخير عندى المعجَّلُ

وقال آخر :

أتَى زائراً من غير وعدٍ وقال لى: أُجِلُّكَ عن تعذيب قَلْبِكَ بالوعْدِ

وبعضهم يرى أن يكون بين الوعد والإنجاز مهلة ؛ ومنه أنّ منصور بن زياد كلَّم يحيى بن خالد فى حاجة رجل ، فقال له: عدْه عنّى قضاءها ، فقال منصور بن زياد : وما يدعوك إلى العِدةَ مع القدرة ! فقال : هذا قول مَنْ لا يعرف موقع الصنائع من القلوب ، إنّ الحاجة إذا لم يتقدَّمها وعْد يُنتظَر به نجحُها ، لم تتحدّث النفس بسرورها ؛ إنّ الوعد مطعَم والإنجاز طعام ، وليس من فاجأه طعام كمن وجد رائحته وتطعّمه ثم طعِمه ، فدع الحاجة تختمر بالوعد ، ليكون لها عند المصطَنع حسْن موقع ولطف محلّ .

---

(١) ديوانه ٤٩٥ ، من قصيدة له فى مدح عمر بن عبد العزيز .

رفع المسهم

قال ابن الكلبيّ لهشام بن عبد الملك : يا أمير المؤمنين ، لا تصنع إلىّ معروفاً حتى تعدَنى به ، فإنه لم يأتنى منك سيْب على غير وعد إلّا هان علىّ قدره ، وقلّ منّى شكره ، فقال له : لِمَ قلت ذلك ، وقد قال سيّد قومك أبو مسلم الخولانىّ : إنّ أنجح المعروف فى القلوب ، وأبرده على الأكباد معروف غيرُ منتظَر بوعدٍ لا يكدّره مَطْل .

ووعد المهدىّ[1] عيسى بن دأب جارية ثم وهبها له ، فأنشده عبد الله بن مصعب الزّبيرىّ [قول مضرّس الأسدىّ][2] :

ولا تيأسنْ من صالحٍ أنْ تنالَهُ وإن كان قِدْمًا بين أيدٍ تبادرُه

فقال : يُدفع لعبد الله جارية أخرى ، فقال الزّبيرىّ :

وأنجزُ خيرِ الناس مَنْ قبل وعده أراحك من مَطْلٍ ومن طولِ كَدِّهِ

فقال له عيسى بن دأب : ما صنعت شيئاً ! هلّا قلت :

حلاوة الفضل بوعدٍ ينجـــزُ لا خير فى العرف كنهب يُنْهَزُ

فقال المهدىّ :

الوعــدُ أحسنُ ما يكو ن إذا تقدّمـــه ضمانُ

وقال بعض البلغاء : دع الوعد يركض ثلاثاً ، فإن كثير العطاء قبل الوعد قليل ، وجليله حقير .

وقال يحيى بن خالد : من لم يبت مسروراً بوعد ، لم يجد للصنيعة مطعما

وفيه يقول أبو قابوس النّصرانىّ :

رأيتُ يحيى أتمّ الله نعمتَـــه عليه يأتى الذى لم يأتِهِ أحـــدُ

ينْسَى الّذى كان من معروفه أبداً إلى الرجال ولا ينسى الذى يعدُ

(١) ط : « المستهدى » تحريف .
(٢) من معجم الأدباء .
(٣) الخبر فى معجم الأدباء ١٦ : ١٥٤

وقال الحارثىّ :

وما رَوْضَة داريَّةٌ أسـديَّةٌ منمنمةٌ زهراء ذات ثرى صَعْدِ
بأحسنَ من حُرّ تضمّن حاجةً لحرّ ، فأوْفَى بالنّجاح مع الوعْدِ

وقال ابن رشيق :

أحسنتَ فى تأخيرها مِنَّةً لو لم تؤخّرْ لم تكن كامِلَهْ[1]
وكيف لا يحسنُ تأخيرها بعد يقينى أنها حاصِلَهْ!
وجَنَّة الفردوس يدعَى بها آجلة للمرء ، لا عاجلِهْ

وقال رجل لأبى عمرو بن العلاء: وعدتَنى بأمر فلم تنجزه ! فقال أبو عمرو : من أولَى منّا بالعتب ؟ أنا وإلا أنت ! قال : أنا ؛ قال أبو عمرو : لا والله بل أنا ، قال : وكيف ؟ قال : لأنى وعدتك وعداً فأنت تفرح بالوعد ، فبِتّ ليْلتَكَ جذلانَ مسروراً وبتُّ أنا بهمّ الإنجاز ، فبتُّ ليلتى مفكراً مغموماً بما عاق الدّهر من بلوغ الإرادة فيه ، فلقيتَنى مدِلاًّ ولقيتك مستحيياً .

واعتذر بعضُ الرؤساء لأبى علىّ البصرىّ من تأخّر وعد ، فقال : فى شكر ما تقدَّمَ من إحسانك شاغل عن استبطاء ما تأخّر منه .

* * *

فنَشَأَتْ لِي مِنْ فُكاهَتِهِ نَشْوَةُ غَرَامٍ ، سَهَّلَتْ عَلَيَّ ائتناف اغْتِرَامٍ ، فَجَرَّدْتُ دِينَارًا آخَرَ وَقُلْتُ له : هَلْ لَكَ فِي أَن تَذمَّهُ ، ثُمَّ تَضُمَّهُ ؟ فأنشدَ مُرْتجِلاً ، وَشدَا عجِلاً :

* *

(١) العمدة ٢ : ١٢٨ ، ١٢٩ .

رفع المسهم

قوله : «فنشأت»، أى ظهرت وبدت. فكاهة: مزاح. نشوة غرام: سكرة شوق ، والغرام : الحبّ المعذِّب للقلب . ائتناف : استقبال . اغترام : غرْم . ثم ذكر أن يذمه ثم يضمّه ، وقد نظمهما الزاهد بن عمران فى قوله :

إنّ المـــؤونة والحسابَ كلاَهما ... قرنا بهذا الدّرهم المذمـــومِ
كَلِف الأنام بذمّه وبضمِّـــه ... فتعجّبوا لمذمّمٍ مضمـــومِ

وقال ابن شرف فى الدينار والدرهم :

ألاَ رُبَّ شىءٍ فيه من أحرف اسمِه ... نواهٍ لنا عنه وزجـــرٌ وإنذارُ
فُتِنَّا بدينارٍ وهِمْنَـــا بدرهمٍ ... وآخِر ذا هَمٌّ ، وآخِـــر ذا نَارُ

وقال ابن رشيق :

صحّفتُ دالين من دينـ ... ـارٍ يلوح ودرهمْ
فقال لى ذلكم «ذى نار» وذا قال: «ذَرْهم»

وابن رشيق وابن شَرَف أديبا القَيْرَوان ، يَجْمَعهما البلَد والزّمَان ، وكانا مرّة يتصاحبان ، ومرّة يتباغضان .

وقال ابن رشيق فى مدح الدينار والدرهم :

صديقُ المرء كالدينارِ طبعـــاً ... وكيف يفارق المرء الطباعَا !
تراه إذا أقام يقـــيمُ جاهاً ... وإن فارقتَـــه أَجْدى انتفاعَا

أخذه من قول كُشاجم :

ومريدٍ مَن أبـاه ... ومهينٍ من أجَـلّه[1]
فهو كالدّينار لا يُكـ ... ـرِمُ إلا من أذلّه

(١) ديوانه ١٥٣

وقال آخر :

النارُ آخـــر دينارٍ نطقتَ به والهمّ آخر هذا الدِّرهم الجـارِى
والمرء ما لم يفد من غيره ورعًا مقسّم القلب بين الهمِّ والنَّـارِ

قوله : «مرتجلا» ، أى من غير تفكر . شدا : ابتدأ الغناء وطرّب بنشيده

* * *

نَبًّا لَهُ مِنْ خادِعٍ مُماذِقِ أَصْفَرَ ذِى وَجْهَيْنِ كَالمُنَافِقِ
يبدو بِوَصْفَيْنِ لِعَيْنِ الرَّامِقِ زينةِ مَعْشُوقٍ وَلَوْنِ عَاشِقِ
وَحُبُّهُ عِنْدَ ذَوِى الحقائقِ يَدْعُو إِلَى ارْتِكابِ سُخْطِ الخالِقِ
لَوْلاَهُ لَمْ تُقْطَعْ يَمِينُ سارِقِ وَلاَ بَدَتْ مَظْلِمَةٌ مِنْ فاسِقِ
وَلا اشْمأَزَّ باخِلٌ من طارِقِ وَلا شكا المطول مَطْلَ العائقِ
وَلا اسْتُعِيذَ مِن حسودٍ رَاشِقِ وَشَرُّ مَا فِيهِ مِنَ الخَلاَئِقِ
أَنْ لَيْسَ يُغْنِى عَنْكَ فى المَضايِقِ إِلَّا إِذا فَرَّ فِرَارَ الآبِقِ
واهًا لِمَنْ يَقْذِفُهُ من حَالِقِ وَمَنْ إِذَا نَاجَاهُ نَجْوَى الوَامِقِ
قَالَ لَهُ قَوْلَ المحقِّ الصَّادِقِ : لاَ رأى فى وَصلِكَ لِى فَفَارِقِ

* * *

تبًا : أى خسراً . مماذق : لا يصفو ودّه لصاحبه ، وقد مذَقَ وُدّه ، إذا لم يخلصه ، ومذق اللبن : خلطه بالماء ، والمذيق : المخلوط . أصفر ذى وجهين ، قال

أبو هُريرة رضى الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «شرّ النّاسِ ذو الوجهين ،يأتى هؤلاء بوجهٍ ، وهؤلاء بوجهٍ ».

ووقع هذا فى نثر البديع ، قال فى مخاطبة أبى الفتح عيسى[1] : أظعناً تريد ؟ قلت : إى والله ، قال : أخْصَبَ رائدُك، ولاضلّ قائدك ، فمتى عزمت ؟ قلت: غداةٍ غدٍ ، فقال :

صباحُ الله لا صبـــحُ انطلاقِ وطيرُ الوصل لا طير الفـــراقِ
وقال السَّعد لا يعـــدوكَ دأباً يصاحبكم إلى يومِ التَّلاقِ[2]

فأين تريد ؟ قلت : الوطنَ ، قال : بُلِّغْتَ الوطن ، وقضيتَ الوطر ، فمتى العود ؟ قلت : القابِل ، فقال: طويتَ الرَّيط[3]، وثنيت المخيط ، فأين أنت من الكرَم ؟ قلت : بحيثُ أردتَ ، فقال : إذا رجعك الله سالماً من هذا الطريق ؛ فاستصحب لى عدوّا فى ثياب صديق ، من نجار الصُّفْر ، يدعو إلى الكفر ، ويرقص على الظُّفْر ، كدارة العين ، يحطّ ثِقَلَ الدَّيْن، وينافق بوجهين . فعلمت أنه يلتمس ديناراً ، فقلت : ذلك لك نقداً ، ومثله وعداً ، فأنشأ يقول :

رأيك ممّا خطبتُ أعْلَى لا زلتَ للمكرُمات أهلا
صَلُبْتَ عوداً ،ودمت فرداً[4] وطبت فرعاً وطبت أصلا
ياواحدَ الدهـــر والمعالى لا لَقِيَ الدَّهر منك ثُكْلاً

قوله : « عدوًّا فى ثياب صديق » من قول أبى نواس :

إذا امتحنَ الدّنيا لبيبٌ تكشَّفَتْ لَهُ عن عدوٍّ فى ثياب صديقِ[5]

قوله : «الرامق» أى الناظر ،ورمقت الشىء رمقاً أتبعت النظر إليه . وزينة

(١) عيسى بن هشام صاحب البديع الهمذانى فى المقامات ص ٢٢ ، ٢٣
(٢) هذا البيت ساقط من المقامات (٣) الريط : جمع ريطة ، وهى الملاءة
(٤) المقامات : « جودا »
(٥) ديوانه ١٩٢ .

رفع المسهم

المعشوق التى فى الدينار : نقشه وتزيينه ، ولون العاشق: صفرته، فالناظر فى الدينار يرى فى الظاهر زينَته فيهواه ، فيقع على ما وقع عليه باطن العاشق من العذاب والغرام ، ويدلّ على ذلك صفرته الظّاهرة عليه . وقال ابن ظفر : زينة المعشوق غرور مدعاة إلى التهوّر فى الغرام ، ولون العاشق وهو الأصفر دليل على ما أسرّ من شاغف الكلف ، فالغافل ينظر من الدينار مثل زينة المعشوق مجرّدة عن عاقبتها، فيصيده الهوى ، والعاقل ينظر منه إلى لون العاشق ، فيستدلّ على باطن الجوى . ذوى الحقائق ، يعنى أهل الرشد والعلم ، والذين ينظرون إلى ما فى الدنيا بعين الحقيقة .

ثم لولا حبّ الدنيا ما سرق السارق ، فيستوجب قطع يدِه ، أو بعض أعضائه ، واليد يجب قطعها بربع دينار ذهب . ومن مُلَح السّرقة أنّ الجاحظ حكى أن رجلين كان أحدهما أيمنَ ، والآخر أعسر ، فكان الأيمن يفخر على الأعسر ، فأخذا فى سرقة ، فقطِعت أيمانهما ، فكان الأعسر يعمل بيساره أعمالَه كلها ، والأيمن لا يستطيع أن يعمل بيساره شيئاً ، ففخر الأعسرُ عليه بذلك ، فقال له الأيمن : ما علمت أنّ للأعسر فضيلة إلا أن يَسْرِق فيؤخذ فتقطع يمينه .

الفاسق : الخارج عن الطاعة إلى ركوب المعصية أو عن الإيمان إلى الكفر، أُخِذَ من فَسَقت الرطبة ، إذا خرجت من قشرها . وقال قوم : الفاسق الجائر ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ إلا إبليسَ كان من الجِنِّ ففسَقَ عن أمر ربه ﴾[1] ، أى جار ، عنه قال رؤبة :

يَهْوِين فى نجدٍ وغَوْرٍ غائرا فواسقاً عن قَصْدِها جوائرَا[2]

(١) سورة الكهف ٥٠

(٢) الفائق ، اللسان ـ فسق

رفع المسهم

اشمأزّ : انقبض . باخل : شحيح ، وبخيل أكثر من باخل . طارق : قاصد بليل . المَطْل : تأخير الحق الواجب ، وأصله من مَطل القينُ الحديدَ فى النار ، إذا مدَّه وطوّله . العائق : الحابس ، وقدعاقه عن الشيء إذا حبسه . راشق : عائن ، وأصله الرامى ، فجعله للذى يصيب الناس بعينه . واستُعيذ : قرئ عليه المعوّذتان ، وهما : «قل أعوذ برب الفلق» ، و «قل أعوذ برب الناس» . الخلائق : الطبائع ، واحدتها خليقة . الآبق : الهارب ، وأبقَ العبد يأبِق إباقاً : زال عن مولاه . وفى معنى فراق الدينار قول الأخطل :

ومعشـــوق يرقص كلَّ يوم ترى فى وجهه أبداً كلاماً[1]
إذا فارقتَه أجـــداكَ خيراً ولا يجدى عليك إذا أقاماَ

وهذا من قولِ الحسن البصرىّ ، وقد رأى رجلاً يقلّب درهماً ، فقال له : أتحبّ درهمك هذا ؟ قال : نعم ، قال : فإنه ليس لك حتى يخرج من يدك .

واهاً : تعجّب ، معناه ما أعجب مَنْ يقذفه . حالق : جبل أملس مُنيف . ناجاه : حدّثه سرًّا . الوامق : المحبّ ، وقد ومق يَمِقَ مِقَةً . المحقّ : القائل الحق .

* * *

فَقُلْتَ لَهُ : ما أَغْزَرَ وَبْلَكَ ! فَقَالَ : وَالشَّرْطُ أَمْلَكُ ، فَنَفَحْتُه بالدِّينارِ الثَّانِى ، وقُلْتُ لهُ : عَوِّذْهُمَا بالْمَثَانِى ، فَأَلْقَاهُ فِى فمهِ ، وَقَرَنَهُ بِتَوْءَمِهِ ، وَانْكَفَأَ يَحْمَدُ مَغْدَاه ، وَيَمْدَحُ النَّادِىَ وَنَدَاهُ .

* * *

قوله : «ما أغزر وَبْلك» ، أى ما أكثر بلاغتك . وأملَك : ألزم وأحقّ ، يريد أن شرطك الذى شرطت من إعطائى ديناراً آخر إن ذممته ، قد ألزمك

(١) لم أجدهما فى ديوانه .

بذمّى له. والشرط أملَكَ مثل[1] ، وأول من قاله الأفعى الجرهمىّ ، وكان حكيماً للعرب ، فتحاكم إليه خصمان، فاشترط أحدهما وأراد ألّا يلتزمه ، فقال الأفعى : الشرط أملك ، وتقديره الشرط أملك لأمرك منك .

نفحته: رميته . عوّذهما : رقاهما . والمثانى : أمّ القرآن ، سميت بذلك لأنها تثنى فى الصلاة ، واحتصّها لأنه أشار عليه أن يحمد الله على أخذ الدينار ، فكأنه قال : اقرأ الحمد لله رب العالمين ، شكراً لله عليهما وتعويذاً لهما .

وهذا كما قال ابن رشيق فى غلام جميل :

معتدل القامة والقدِّ ... مورّد الوجنة والخدِّ
لو وضع الوردُ على خدّه ... ما عرف الخدّ من الوردِ
قل للّذى يعجب من حُسْنه ... اقرأ عليه سورة الحمدِ

وله فى مثله :

شكوت بالحبّ إلى ظالمى ... فقال لى مستهزئاً : ما هو !
قلت : غرام ثابت ، قال لى: ... اقرأ عليه « قل هو الله »

وقال أبو عبيد : المثانى فى كتاب الله ثلاثة أشياء : القرآن ، سمّاه الله المثانى فى قوله تعالى: ﴿ كتاباً مُتَشَابِهاً مثانى﴾ ، وسمّى الفاتحة «مثانى» فى قوله: ﴿ سَبْعاً من المثانى﴾ وروى عثمان وابن عباس وابن مسعود عنه صلى الله عليه وسلم. « إن المثانىَ من السور ما دون المئين»، كأنها جعلت مبادىء والتى تليها مثانى .

قوله : «بتوءمه» ، أى بأخيه ، يعنى الدّينار الأول . انكفأ : انقلب وولّى ، معناه بكوره وسيره فى الغدوّ . النادى ونداه : المجلس وكرم أهله .

(١) الميدانى ١ : ٣٦٧

[فصل فى مدح الشئ وذمّه]

ونريد أن نأتىَ بفصل فى مدح الشىء وذمّه على حكم ما مدح الحريرىّ الدّينار وذمّه ، ونبيّن مذهب العرب وأهل الأدب فى ذلك ، فقد ألّف ابن رشيق فيه كتاباً جلبت فى هذا الكتاب عيونه .

قال أبو عثمان الجاحظ: العربىّ يعاف الشىء ويهجو به غيره ، فإن ابتلِىَ به فخر به ، ولكنه لا يفخر به لنفسه من جهة ماهجا به غيرَه ، فافهم هذا ؛ فإنّ الناس يغلطون على العرب ، ويزعمون أنّهم يمدحون بالشىء الذى يهجون به ، وهذا باطل ؛ ليس شىء إلا وله وجهان ، فإذا مدحوا ذكروا أحسنَ الوجهين ، وإذا ذمّوا ذكروا أقبح الوجهين .

قال ابن رشيق : وأكثر ما تجرى هذه المادح والمذامّ على جهة المنافقة ، لا على جهة المناصفة ، ومن باب المسامحة لا من باب المشاحة ، وإلاّ فالشىء لا يوافق ضده ، فيكون الحسن قبيحاً فى حالة واحدة ، والمدح ذمًّا لمعنى واحد ، لكن لكلّ شىء - كما ذكر الجاحظ - مساوىء ومحاسن ؛ كما فعل عمرو بن الأهتم بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد استشهده الزِّبرقان بن بدر على ما ادّعاه من الشرف فى قومه ، قال عمرو : أجل يارسول الله ، إنه مانعٌ حوْزته ، مطاع فى أنديته ، شديد العارضة . فقال الزبرقان : أما والله لقد علم أكثر مما قال ؛ ولكن حسدنى شرفى ، فقال عمرو : أما وقد قال ما قال ، فو الله ماعلمتهُ إلا ضيِّق الطَّعن زمِرَ المروءة[1] ، لئيم الخال ، حديث الغنى . فرأى الكراهة فى عين رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا اختلف قوله ، فقال : يا رسولَ الله ، رضيتُ فقلت أحسنَ ماعلمت ، وغضبت فقلت أقبح ما علمت ؛ وما كذبت فى الأولى ، ولقد صدقت فى الثانية ، فقال رسول الله صلى عليه وسلم : إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكمة[2] .

وكتب يزيد بن معاوية فى صدر كتابه إلى عبيد الله بن زياد - وقد ولاّه محاربةَ الحسين بن علىّ رضى الله عنهما - وكان قبل ذلك يسىء الرأى فيه : أمّا

(١) زمر المروءة : قليلها ، وفى ط : «زمن» تحريف. (٢) جمهرة الأمثال ١ : ١٣ .

رفع المسهم

بعد ، فإن المسبوب يوما ممدوح ، وإنّ الممدوح يوما مسبوب .

ويروى أن عيسى عليه الصلاة والسلام لم يَعِبْ شيئاً قط ، فمرّ يوماً بكلب ميّت ، فقال أصحابه : ما أنتنَ ريحه ! فقال عيسى عليه الصلاة والسلام : ما أحسن بياضَ أسنانه !

وقالت للحضين بن منذر امرأة : كيف سدتَ وأنت دميم بخيل ! فقال : لأنى سديد الرأى ، شديد الإقدام .

وقال مسلمة بن عبد الملك لأخيه هشام : كيف تطمع فى الخلافة وأنت بخيل ، وأنت جبان ! فقال : لأنى حليم ، وأنا عفيف ؛ فسلّم لعائبه ما ادّعاه من من مساوئه ، وذكر من محاسنه مالم ينازَعْ فيه .

صعد خالد بن عبد الله القسرىّ منبر مكة يوم الجمعة ، وهو أمير للوليد بن عبد الملك بن مروان ، فأثنَى على الحجّاج خيراً ، فلما كانت الجمعة الثانية وقد مات الوليد ، ورد عليه كتاب سليمان يأمره بشتْم الحجّاج وذكْر عيوبه ، وإظهار البراءة منه ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إنّ إبليس كان يُظهر من طاعة الله عزّ وجلّ ما كانت الملائكة ترى له به عليهم فضلاً ، وكان الله قد علم من غشّه ما خَفِىَ عن الملائكة ، فلما أراد الله فضيحته ابتلاه بالسُّجود لآدم ، فظهر لهم ما كان يخفيه منهم ، فلعنوه . وإنّ الحجّاج كان يظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنّا نرى له به فضلا ، وكان الله قد أطلع أمير المؤمنين من غِلّه وغشّه على ما خفىَ عنّا ؛ فلما أراد فضيحته أجرى ذلك على يد أمير المؤمنين . فالعنوه لعنه الله . ثم نزل .

ومرّ غيلان بن خرَشة الضّبّى مع عبد الله بن عامر بنهر أم عبد الله الذى يشقّ البصرة ، فقال عبد الله : ما أصلحَ هذا النّهر لأهل هذا المصر ! فقال غيلان : أجل والله أيّها الأمير ؛ يتعلّم العَوْمَ فيه صبيانُهم ، ويكون لسقائهم ولسيل مياههم ، ويأتيهم بميرتهم ؛ ثم عاد ابن عامر فسايره زيادا عليه ، فقال زياد : ما أضرّ هذا

النهر لأهل هذا المِصر ! فقال : أجلْ والله أيّها الأمير ، تنزّ منه دورهم ، ويغرق فيه صبيانهم ، ويكثر لأجله بَعوضهم .

ومدح الجاحظ العَروض ، فقال: هو ميزان الشِّعر ومعيارُه، به يعرَفُ الصحيح من السقيم، والعليل من السايم ، وعليه مدار القريض والشعر ، وبه يُسلَمُ من الأوَد والكسر . ثم ذمّه فقال : هو عِلْم مولّد ، وأدب مستبرَد ، ومذهب مرفوض ، تستنكره العقول ، مستفعلن فعول ، من غيره فائدة ولامحصول .

وكان العباس بن علىّ عمّ المنصور يأخذ الكأس بيده ، ثم يقول : أمّا النفس فتسمحين ، وأما الهمّ فتطردين ، أفتراك منّى تُفْلتين ! ثم يشربها .

وشكا أبو العنياء حاله إلى عبد الله بن سليمان ، فقال : أليس قد كتبنا لك إلى إبراهيم بن المدبّر ! قال : كتبتَ إلى رجل قد حَصَر من همّته طول الفقر ، وذلّ الأسر ، ومعاناة مِحَن الدهر ، فأخففت فى طلبتى . قال : أنت اخترته ، قال : وما علمى أعزّ الله الأمير فى ذلك ! قد اختار موسى قومه سبعين رجلاً وما كان منهم رشيد ، واختار رسول صلى الله عليه وسلم ابنَ أبى سرْح كاتباً فرجع إلى المشركين مرتدًّا ، واختار علىّ رضى الله عنه أبا موسى حَكَماً ، فحكم عليه .

* * *

قَالَ الْحَارِثُ بن هَمَّامٍ : فناجانى قَلْبِي بَأَنَّهُ أَبُو زَيْدٍ ، وَأَنَّ تَعَارُجَه لِكَيْدٍ . فاستعدتُه وَقُلْتُ لَهُ : قَدْ عُرِفتَ بِوَشْيِكَ ، فاسْتَقِمْ فِي مَشْيِكَ . فقال: إن كُنْتَ ابنَ هَمَّامٍ ، فحُيِّيتَ بِإِكْرَامٍ ، وَحَيِيتَ بَيْنَ كِرَامٍ . فقلت : أنا الْحَارِث ، فكيفَ حَالُكَ وَالْحَوادِث ؟ فقال : أَتَقَلَّبُ فِي الْحَالَيْنِ : بُؤْسٍ وَرَخَاءٍ ، وَأَنْقَلِبُ مَعَ الرِّيحَيْنِ : زَعْزَعٍ وَرُخَاءٍ . فقلتُ : كَيفَ ادَّعَيْتَ الْقَرِيضَ ، وَمَا مِثْلُكَ مَنْ هَزَلَ ! فاسْتَسَرَّ بِشْرُهُ الَّذِى كَانَ تَجَلَّى ، ثم أَنشدَ حِينَ وَلَّى :

تَعارَجْتُ لاَ رَغْبَةً فِي الْعَرَجْ وَلَـكِنْ لأَقْرَعَ بَابَ الْفَرَجْ
وَأُلْقِيَ حَبْلِي عَلَى غَارِبِي وَأَسْلُكَ مَسْلَكَ مَنْ قَدْ مَرَجْ
فإِنْ لاَ مَنِي الْقَوْمُ قُلتُ اعْذِرُوا فَلَيْسَ عَلَى أَعْرَجٍ مِنْ حَرَجْ

* * *

قوله: «فاستعدته»، أى قلت له أعد علىّ. عرفتَ بوشيك، أى عرفت بحسن كلامك وتزيينه. استقم: استعْدِل وأَزِلْ عوجك. حُيِّيت: طال بقاؤك، والتحية البقاء: حَييت: عشت. والحوادث: مايحدث من الخير والشر. بؤس: شدّة العيش. رخاء: لينه وسعته. زعزع: ريح شديدة تحرّك الشجر وتقلعه. والزعزعة: تحريك الشيء إذا أردت قلعه. رخاء: ريح لَيِّنَة سريعة، من الإرخاء فى السَّير، وهو عَدْوٌ فوق التقريب، وناقة مِرْخاء: سريعة. القزَل: أسوأ العَرَج، وقد قزل قَزَلاً.

وهَزل هَزْلا: ترك الجِدّ فى قول أو فعل، يقول: كيف تحيّلت بالعرَج ومثلك لايهزِل ولا يقع فى هذه النقيصة! فهو يهزأ به، فغضب عند ذلك. استسرّ بشرُه: زال عنه سماحُه وطلاقة وجهه. تجلّى: ظهر. ولّى: ذهب.

قوله: «أقرع»، أى أضرب. الفرج: كشف الهمّ. ألقى حبلى على غاربى: أى أسرح وأمشى حيث أحببت، والعرب تطلق هذا اللفظ، فتقول للمرأة: حبلُك على غاربك، أى أنت مسيَّبة فتوجَّهى حيث شئت لامانع لك ولاحابس، والغارب: ما انحدر من السَّنام، والحبل هو الذى يُعقل به البعير، فإذا سرَّحوه حلّوا عقالَه وألقوْه على غاربه، قال ابنُ الأنبارىّ: أصله أن يلقى على حبل الناقة على غاربها فتفزع، ولا ترعَى إذا لم تره على الأرض.

أسلك مسلك، أى أدخل مدخل، والمسلك: الطريق. مرَج: خلط الجدّ بالهزل. حرج: إثم والله تعالى أعلم

المقامة الرابعة وهي الدمياطية

أَخْبَرَ الحَارِثُ بنُ هَمَّامٍ قال : ظَعَنْتُ إلى دِمْياط ، عَامَ هياطٍ ومِياطٍ ؛ وأنا يَوْمَئِذٍ مَرْمُوقُ الرَّخاء ، مَوْمُوقُ الإخاء ، أَسْحَبُ مطَارِفَ الثَّرَاء ، وَأَجْتَلِي مَعَارِفَ السَّرَّاء . فَرَافَقْتُ صَحْباً قَدْ شَقُوا عَصَا الشِّقَاقِ ، وَارْتَضَعُوا أَفاوِيقَ الْوِفاقِ ؛ حَتَّى لاَحُوا كَأَسْنَانِ الْمُشْطِ فى الاستواء ، وَكَالنَّفْسِ الواحدة فى الْتِئامِ الأَهْوَاءِ . وَكُنَّا مع ذَلِكَ نَسِيرُ النَّجَاء ، وَلاَ نَرْحَلُ إِلَّا كلَّ هَوْجَاء ، وَإِذَا نَزَلْنَا منْزِلاً ، أَوْ وَرَدْنَا منْهلاً ، اخْتَلَسْنَا اللَّبْثَ ، وَلَمْ نُطِلِ الْمُكْثَ . فعَنَّ لَنَا إعمال الرِّكابِ ، فِي لَيْلَةٍ فتيَّةِ الشَّبابِ ، غُدَافيَّةِ الإهابِ . فأَسْرَينا إلَى أَنْ نَضا اللَّيْلُ شبَابَهُ ، وَسَلَتَ الصُّبْحُ خِضابَهُ .

* * *

قوله : « ظعنت » ، أى رحلت ، والظعن ضدّ الإقامة .

دمياط : بلد بينه وبين مصر ثلاثون فرسخاً ، وهى على ساحل البحر الملح ، وإلى دمياط ينتهى ماء النيل ، فيفترق منها فيخرج بعضه إلى بحيرة تنِّيس ، وهى بحيرة تجرى فيها السفن والمراكب العظام ، ويخرج بعضه إلى البحر ، وبها تعمل الشروب ، وقد ذكرنا ذلك عند تِنِّيس .

قوله : «هياط» : صياح ، وتهايط القومُ : اجتمعوا ودبَّروا أمْرَهم . مياط : دفاع ، أى كان عام هَرْج وخِلاف . مرموق : منظور إليه . الرخاء : سعة المال . موموق : محبوب . أسحب : أجرُّ . مطارف : ثياب لها أعلام فى أطرافها .

رفع المسهم

أجتلى : أنظر . معارف: وجوه. السرّاء : الغنى والسرور . رافقت : صحبت فى السفر . والصَّحْب : الأصحاب . الشّقاق: الخلاف، ومعنى شقُّوا عصاه ، أزالوه وطرحوه ، والعرب تقول : شقّ فلان العصا ، إذا ترك الطاعة وخرج مباينًا،قال أبو عبيد : العصا تُضرب مثلا للاجتماع ، وانشقاقها يُضرب مثلا للافتراق الّذى لا اجتماع بعده . أفاويق : جمع أفواق ، وأفْواق جمع فُواق ،وهو ما بين الحلْبتين . والوِفاق : ترك الخلاف ، وقد وافقته موافقةً ووِفاقًا .

قوله :« لاحوا »،أى ظهروا .والعرب تضرب المثل بأسنان المُشط ، وهو يقع على كلّ استواء فى أىّ حال كان ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « الناس كأسنان المُشط ، وإنما يتفاضلون بالعافية » ، فإن أرادوا الاستواء فى الشرّ قالوا : سواسية كأسنان الحمار ، وقال كثيّر يهجو بنى ضمرة :

فسائل بقومى كل أجْرَدَ سابحٍ وسلْ غنما رُبِّى بضمْرة أو سَخلاَ[1]

سواء كأسنان الحمار فلا ترى لذى كِبْرَةٍ منهم على ناشئٍ فَضْلاَ

التئام : اجتماع واتّفاق . الأهواء : جمع هوى ، وهو ما تحبُّه وتميل إليه النفس ، فأراد أنّ أغراضَهم متّفقة . النَّجاء : السير السريع . نرحل : نشدّ عليها الرَّحْل ونشخص بها . هوجاء: ناقة سريعة ، كأنَّ بها هَوَجًا وهو الحمق، لسرعة مشيها . وردنا منهلاً : أتينا ماء نَنزل عليه، والنَّهَل : المشرب الأوّل ، والعَلَل الثانى ؛ وذلك أنّ الإبل تَرِدُ الماء فتشرب منه ، ثم تخرج ترعى ساعة وتستريح ، وتسمّى تلك الاستراحة فى الرِّعى التَّمرئة ، ثم ترد مرَّة أخرى فتشرب الماء ، فالشرب الأولَ نَهَل ، والثانى عَلَل . والمَنْهل : موضع النّهل . والورود: قصد الماء .

اختلسنا : استرقنا . اللبث : الإقامة . ومثله المُكْث ، أى لا يستقرّون بموضع ينزلون فيه إلاقليلاً .والرِّكاب: الإبل؛وإعمالها: استعمالها. فَتِيَّة الشباب: صغيرة السن ، وأراد أنها طويلة سوداء لا قمر فيها ، لأن شعر الشباب أسود ،

(١) ديوانه ٢ : ١٩ ، عن الشريشى : و «رُبِّى» لغة فى: «رُبِّىَ» .

ويريد أنها أول الشهر ، فهى كالفتيّة ، والليلة أوّل الشهر سوداء . غُدافيّة : منسوبة إلى الغُداف ، وهو الغراب لسواده ، والإهاب : الجلد ، وأراد لونها . أسْرينا : مشينا بالليل ، ويقال : سرى وأسرى . نَضَا الليل شبابه ، أى أزال ظلامه ، ونضا ثوبه : جرَّده عنه ، ومثله : سَلَت خضابه ، وأراد أن الصبح بيَّض الظلام بضوئه ، وسلَت الشيء سَلْتاً ؛ أزاله عمَّا علق به ، والمرأة خضابها كذلك ، وسيأتى ذكر الصبح آخر المقامة .

[مما قيل فى سواد الليل]

وينظر فى سراه مع صحبه فى سواد الليل إلى قول ابن شهاب :

وفُتوّ أسرَوْا وقد عكف اللَّيْـــل وأقْعى مُغْـدَوْدِفَ الأطْنابِ
وكأنّ النجـــوم لمّا هدتهُم أشرقتْ كالعيون من أهْدَابِ
يتفرّون جَوْز كلّ فـــلاةٍ جُنْح ليلٍ جَوْزَاؤُه من رِكَابِ
عنّ ذكرى لمدحهم فتناهَوْا من حديثى فى عرض أمرٍ حِجَابِ
همّـــةٌ فى السّماء تسحب ذيلاً من ذيول العُلا وجدّ الرِّكَابِ

ومما جاء فى سُرى الليل قول عبد الصّمد بن المعذّل ، وهو من حسَن الاستعارة :

أقولُ وجُنح الدُّجى مُلْبَدُ وللّيل فى كلّ نَجٍّ يدُ[1]
ونحن ضجيعان فى مسجدٍ فللّه ما ضمّن المسجِدُ !
فيا ليلة الوصل لا تبعَدى[2] كما ليلة الهجر لا تبعـــدُ[3]
ويا غد إن كنت لى راحماً فلا تدنُ من ليلتى يا غَدُ

(١) ديوان المعانى ٤٣ ، ونسبها إلى ابن أبى فنن .
(٢) ديوان المعانى : « لا تنفدى » (٣) ديوان المعانى : « لا تنفد »

وقال ابن المعتزّ :

يا ربّ ليل حالكِ الجلبـــابِ ملتحفٍ خافيتَيْ غرابِ

وما أحسن قول ابن شُهيد فى وصف الليل :

وبتنا نراعى اللَّيل لم نطوِ بُرْدَهُ ولم يجن شيبُ الصبح من فَرْعِهِ وَخْطَا
تراه كَمَلْك الزَّنج من فرطِ كِبْره إذا رام شيئاً فى تأخّره أبطَا
مطلا على الآفاق والبدرُ تاجُه وقد عَلَّق الجوزاءَ فى أذنه قُرْطَا

وقال حبيب :

إليك هتَكنا جُنْحَ ليلٍ كأنَّه قد اكتحلت منه البلاد بإثمدِ[1]

وقال ذو الرّمة :

ودوِّيَّة مثل السماء اعتَسفتُهـا وقد صبغ الليلُ الحَصَى بسوادِ[2]

وقال أيضاً :

وليل كجلباب العَروس ادّرعتُه بأربعةٍ والشخصُ فى العين واحدُ[3]
أحمّ غُدافىٌّ ، وأبيض صارمٌ وأعيسُ مَهرىٌّ ، وأرْوَعُ ماجدُ[4]

---

(١) ديوانه ١٠٣ .

(٢) ديوانه ١٣٩ ، واعتسفتها : سرت فيها على غير هداية .

(٣) ديوانه ١٢٩ ، وروايته : « دليل كأثناء الرويزى جبته » . والرويزى : طيلسان، شبه الليل فى سواده به. وجبته : قطعته .

(٤) هـذا البيت تفسير للأربعة فى البيت السابق : أحمّ : أسود ، ومثله غدافى . وفى الديوان : « علافى » ، منسوب إلى عـلاف ، حى من العرب يعملون الرحال . والأبيض : سيف صارم قاطـع ، والأعيس : الأبيض، يعنى بكثره . وأشعث ، يعنى نفسه . والمهرى من الإبل : منسوب إلى مهرة ، حى من عرب اليمن .

رفع المسهم

وقال البحترىّ :

يا خليلىّ بالهواجر من مَعْـــنِ بن عوفٍ وبُحتر بن عَتُودِ[1]
اطلبَا ثالثـــا سواىَ ، فإنِّى رابعُ العِيس والدُّجى والبِيدِ

وقال السَّلامىّ :

إليكَ طَوَى عَرْضَ البسيطةَ عاجلاً قطارُ المطايا أن يلوح لها القَصْرُ[2]
وكنت وعزمى فى الظَّلام وصارمى ثلاثةَ أشباح كما اجتمع النَّسْرُ
وبشَّرْت آمالى بملْكٍ هو الوَرَى ، ودارٍ هى الدُّنيا ، ويومٍ هو الدَّهْرُ

فالبيت الأوَّل والثانى نحو بيت البحترىّ ، والبيت الثالث نحو بيت ذى الرّمة فى التقسيم ، وبمثل هذا الكلام يمتدَح الملوك وإلَّا فلا . ولمَّا مدح عضدَ الدولة بلَّغه به من المكانة الغاية القصوى ، وفُتِن بشعره ، حتى كان يقول : إذا رأيتُ السَّلامىّ فى مجلسى ، ظننت أنّ عطارداً نزل من السماء . وسنذكر من شعره ما يحسن .

* * *

فحين مَلَلْنَا السُّرَى ، وَمِلْنَا إلى الْكَرَى ، صَادَفْنَا أَرضاً مُخضلَّةَ الرُّبَا ، مُعْتَـلَّةَ الصَّبَـا ، فتخيَّرْناهَا مُنَاخاً للعِيس ، وَمَحَطًّا للتَّعْرِيسِ ، فَلَمَّا حَلَّهَا الْخَلِيطُ ، وَهَدَأَ بِهَا الأَطِيطُ وَالْغَطِيطُ ، سَمِعْتُ صَيِّتاً مِنَ الرِّجَالِ ، يَقُولُ لِسَمِيرِهِ فِى الرِّحَالِ : كَيْفَ حُكْمُ سِيرَتِكَ ، مَعَ جِيلِكَ وَجِيرَتِكَ ؟

* * *

(١) ديوانه ٦٣٣ ، وفيه « يانديمى بالسواجير من ودبن معن » والسواجير : نهر من أعمال منبج بسوريا

(٢) يتيمة الدهر ٢ : ٣٧٠

قوله: «السرى» ، أى السير بالليل . الكرى: النوم . مخضلّة: مبتلّة بالنّدى . الرّبا : الكُدى ، واحدها ربوةٌ . معتلّة الصّبا ، أى ليّنة الريح . مناخاً : منزلاً . العِيس : الإبل يخالط بياضها حمرة . محطًّا : منزلا تحطُّ به الأحمال . التعريس : النزول بالليل فى آخره، وهذا التخيُّر الذى ذكر لهذه الأرض ، منتزَعٌ من حديث ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا كانت أرض مخصبة فتقصّدوا فى السير وأعطُوا الركاب حقّها ، فإن الله رفيق يحبّ الرفق ، وإذا كانت مجدبةً فألحُّوا عليها ، وعليكم بالدّلجة ، فإنّ الأرض تُطوى بالليل ، وإياكم والتّعريس على ظهر الطريق ، فإنه مأوى الحيّات ومدارج السباع ».

الخليط : الأصحاب . هَدَأ : سكن . الأطيط : أصوات الإبل ، والغطيط: أصوات الناس النِّيام . صيِّتاً : جهير الصوت . سميره : رفيقه الذى يسمُر معه بالحديث . الرِّحال : منازل المسافرين ، سمِّيت رحالاً باسم الرِّحال التى توضع فيها، والرَّحْل : اسم لما يحمله البعير من حمله وقَتَبِه ومايوطّأ به تحت الحمل . سيرتك : عادتك . جيلك : أهل عصرك . جيرتك : جيرانك .

* * *

فقال : أَرْعَى الْجَارَ ، وَلَوْ جَارَ ، وَأَبْذُلُ الوِصَالَ ، لِمَنْ صَالَ ، وأحتمِلُ الْخَلِيطَ ، وَلَوْ أَبْدَى التَّخلِيطَ ، وَأَوَدُّ الْحَمِيمَ ، وَلَوْ جَرَّعَنِي الْحَمِيمَ ، وَأُفَضِّلُ الشَّفِيقَ ، عَلَى الشَّقِيقِ ، وأَفِي لِلْعَشِيرِ ، وَإِنْ لَمْ يُكافِئْ بِالْعَشِيرِ ، وَأَسْتَقِلُّ الْجَزِيلَ ، للنَّزِيلِ ، وَأُغْمِرُ الزَّمِيلَ ، بالجميلِ . أُنَزِّلُ سَمِيرِى ، مَنْزِلَةَ أَمِيرِى ، وَأُحِلُّ أَنِيسِى ، مَحَلَّ رَئِيسِى ، وَأُودِعُ مَعَارِفِى ، عَوَارِفِى ، وَأُولِى مُرَافِقِى ، مَرَافِقِى ، وَأُلِينُ مَقَالِى ، لِلْقَالِى ، وَأُدِيمُ تَسْآلِى ، عَنِ السَّالِى ، وَأُرْضَى من الْوَفاءِ ، باللَّفاءِ ، وَأَقْنَعُ

(١) الكدى : جمع كدية ؛ وهى الأرض الغليظة .

رفع المسهم

مِن الجَزاء ، بأقَلِّ الأَجْزاء ، وَلاَ أَتظَلَّمُ ، حِينَ أُظْلَمُ ، وَلاَ أَنْقَمُ ، وَلَوْ لَدَغَنِي الأَرْقَمُ .

* * *

قوله : « أرعى » ، أى أحفظ . جار : تعدَّى ومال عن الحق ، قال صلى الله عليه وسلم : « ما زال جبريل يُوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه » . أبذُل : أعطِى . صال : صاح مخوّفا . الخليط : الصاحب ، ويقع على الواحد والاثنين والجمع بلفظ واحد ، وسُمِّى بذلك لاختلاط الأمر بين الصاحبيْن . الحميم الأوّل : الصديق المخلص ، والثانى : الماء الحارُّ . الشفيق : المحبّ . الشقيق : الأخ من الأب ، كأنه شَقَّ معك ظهر أبيك ومن الأمّ كأنه شقّ معك بطن أمك . أفِى للعشير : أعامل الصاحب بالوفاء . يكافىء بالعشير : يجازِى بالعُشر من فعلى ، والمكافأة المواساة . أستقلّ ، أراد قليلا . الجزيل : الكثير . النزيل : الضيف ، والنُّزُل ما يعدّ للضيف من طعام وغيره . أغمر : أعطى . الزّميل : الرديف . الجميل : الأفعال الجميلة . أميرى : الحاكم علىّ . الأنيس : الذى يؤنس بحديثه ، وفلان رئيس قومه : أفضلهم وأعزّهم . أودع : أعطى وديعة . معارفى : من يعرفنى . عورا فى : هِباتى ؛ واحدها عارفة ، وهى اليد من النعمة . أُولِى مُرافقى : أعطى مصاحبى فى السفر ، ومنه الرفقة لاتفاق بعضهم ببعض ، جمع مَرْفقة وهى المعونة وما يُرْتفق به . القالى : المبغض ، وقليت الرجل قِلًى ، أبغضته . تسآلى : كثرة سؤالِى . السالى : الناسى للمودَّة والتارك لها ، وسلوت عن الشىء أسلو سلوًّا وسلوة ، إذا تركته . اللَّفاء : النقصان . وقال أبو علىّ فى الإيضاح : اللّفاء ما دُون الحق ، قال أبو زيد الطائىّ واسمه حَرْملة رحمه الله :

فما أنا بالضّعيف فتظلمـــوه ولاحظِّى اللَّفاء ولا الخسيس(١)

(١) اللسان ــ لفأ . وروايته : « فما أنا بالضعيف فتزدرينى » .

أقنع : أرضى،والقناعة الرضا باليسير .والجزاء: المكافأة ، وجازيته بما صنع بمثل كافأته ، والأجزاء : الأنصباء تقسّم على جماعة ، واحدها جزء ، وأقلّها أنقصها. أتظلّم : أشتكى من الظلم . لا أنقم : لا أنتقم . تقول : نقمتُ منه نقمة ، أى عاقبته ، فمعناه : لا أعاقب صاحبى ، ولو بلغ فى الإضرار منّى الغاية ، وتقول أيضاً : نقَمتُ الشيءَ وأنقَمه نَقما ونُقومًا : إذا أنكرته ، فمعناه على هذا : لا أنكر على صاحبى ولو بالغ فى الأذى ، ويقال فى الإنكار أيضا ، نقَم ينقِم .

* * *

فَقَالَ لَهُ صاحِبُه : وَيْكَ يَا بُنَيَّ ! إِنَّمَا يُضَنُّ بالضَّنِينِ ، وَيُنَافَسُ فى الثَّمينِ ؛ لَكِنْ أَنَا لاَ آتِى ، غَيْرَ الْمُرُوَاتِى ، وَلاَ أَسِمُ الْعَاتِى ، بِمَرَاعَاتِى ، وَلاَ أُصَافِى ، مَنْ يَأْبَى إِنْصَافِى ، ولاَ أُوَاخِى ، مَنْ يُلْغِى الْأَوَاخِى ، ولاَ أُمَالِى ، مَنْ يُخَيِّبُ آمَالِى ، ولاَ أُبَالِى ، بِمَنْ صَرَمَ حِبَالِى ، ولاَ أُدَارِى ، مَنْ جَهِلَ مِقْدَارِى ، ولاَ أُعْطِى زِمَامِى ، مَنْ يُخْفِرُ ذِمَامِى ، وَلاَ أَبْذُلُ وِدَادِى ، لِأَضْدَادِى ، ولاَ أَدَّعُ إِيعَادِى ، لِلْمُعَادِى ، وَلاَ أُغْرِسُ الْأَيَادِى ، فى أَرْضِ الْأَعَادِى ، وَلاَ أَسْمَحُ بِمُوَاسَاتِى ، لِمَنْ يَفْرَحُ بِمَسَاءَاتِى ، ولاَ أَرَى الْتِفَاتِى ، إِلَى مَنْ يَشْمَتُ بِوَفَاتِى ، ولاَ أَخُصُّ بِحِبَائِى ، إِلاَّ أَحِبَّائِى ، ولاَ أَسْتَطِيبُ لِدَائِى ، غَيْرَ أَوِدَّائِى ، ولاَ أُمَلِّكُ خُلَّتِى ، مَنْ لاَ يَسُدَّ خَلَّتِى ، ولاَ أُصَفِّى نِيَّتِى ، لِمَنْ يَتَمَنَّى مَنِيَّتِى ، ولاَ أُخْلِصُ دُعَائِى ، لِمَنْ لاَ يُفْعِمُ وِعَائِى ، ولاَ أُفْرِغُ ثَنَائِى ، عَلَى مَنْ يُفَرِّغُ إِنَائِى .

* * *

رفع المسهم

قوله :«ويك» معناه التعجّب، كأنه قال: ما أعجبك! أو عجبًا لك . وقيل : أراد«ويلك»، فحذف اللام. إنما يضنّ بالضَّنين[1]، هذا مَثَل؟، أوّل مَن قاله الأغلب العجلىّ ،وفسره أبو عبيد[2] فقال:معناه: تمسَّك بإخاء من تمسَّكْ باخائك ، وبيانه أن الضّنين البخيل، ويضنّ: يبخل ، فيقول : إنما أتمسَّكُ وأتعلَّق بصاحبٍ تمسَّكَ بى وعرف حقّى ، فأنا أبخل به على غيرى أن يشرَكنى فى صحبته كما يبخل بى هو على غيره ، وقيل :الضّنين فى المَثَل هو الشىء المضنون به لنفاسته ، فمعناه إنما يُبخَل بالشىء النفيس الرفيع . المواتى : المساعد الموافق . العاتى المتكبّر الصعب الخَلق . والمراعاة: المحافظة للودّ .أسِم: اجعلها سِمة ، أى علامة . أصافى : أخلص له ودِّى .يأبَى: يمنع . إنصافى ، أى إعطائى الحق من نفسه . أواخى : أصير له أخا وأتخذه صديقاً . يلغى : يترك ويطرح . الأواخى : أسباب الود ، واحدها أَخيَّة، وأصل الأخيَّة عُرْوة من حبل تشدّ فى وتِدٍ أو على حجر تحت الأرض ، وتبقى العروة على الأرض فيربط فيها حبل الدابه فيمسكها . أُمالى : أعاون ، وأصلها الهمزة ، تقول : مالأتُه على الأمر أمالئه، إذا عاونته وساعدته، ومنه :والله ما قتلت عثمان ولا مالأت فى قتله ، فخفف الهمزة ليوافق آمالى ، وهو جمع أمل ، وهو الرجاء . صرم حبالى: قطع أسباب وِصالى،وهم يكنون بالحبل عن الودّ،لأن الودّ يربط القلوب ويؤلّفها كالحبل فيما يربط . قوله :«أدارى» ،أسوس وأحسن صحبته .والزمام : حبل من جلود يربط فى حلقةٍ فى أنف البعير . يخفر ذمامى : ينقض عهدى ،أى لا أنقادلمن لاعهدله. ودادى :حُبِّى، وهو من وادّه وهو الذى لا يكون إلا من اثنين فوضعه موضع ودِّى ، ويقال أيضاً :فى الحُب حُباب مثل وداد ، قال الشاعر :

* أداء عرانى من حُبابك أم سحرُ *

---

(١) جمهرة الأمثال ١ : ٤٩

(٢) اللسان ، ونسبه إلى أبى عطاء وصدره :

* فوالله ماأدْرى وإنّى لصَادِقٌ *

أضدادى : أعدائى المناقضين لأفعالى . إيعادى : تهديدى وتخويفى . الأيادى : النّعم ، وواسيته : مواساةً : جعلته أسوة نفسى فى مالى فقاسمته فيه . مسا آتى : أحزانى وما يسوءنى . التفاتِى : نظرى وانعطافى إلى جهته . يشمت : يسرّ : وفاتى : موتى . أخصّ : أفرد . حِبائى : عطائى . أحبّائى : جمع حبيب . أستطِبّ : أطلب طِبّه . خَلّتى : صداقتى . يسدّ خَلّتى : يصلح فقرى . أخلص : أجعله خالصاً . يُنعم : يملأ . أفرغ ثنائى : أصبّ مدحى وأكسوه ، أو يكون أفرغه ، أبلغ آخره .

* * *

وَمَنْ حَكَمَ بِأَنْ أَبْذُلَ وَتَخزُنَ ، وَأَلِينَ وَتَخْشُنَ ، وَأَذُوبَ وَتَجْمُدَ ، وَأَذْكُوَ وَتَخْمُدَ ! لا وَاللهِ ، بَلْ نَتَوَازَنُ فى المَقَال ، وَزْنَ المِثْقَالِ ، وَنَتَحَاذَى فِى الْفَعَال . حَذْوَ النِّعَالِ ، حَتَّى نَأْمَنَ التَّغَابُنَ ، وَنَكْفَى التَّضَاغُنَ ؛ وَإِلاَّ فَلِمَ أَعُلُّكَ وَتُعِلُّنِى ، وَأُقِلُّكَ وَتَسْتَقِلُّنِى ، وَأَجْتَرِحُ لَكَ وَتَجْرِحُنِى ، وَأَسْرَحُ إِلَيْكَ وَتُسَرِّحُنِى . وَكَيْفَ يُجْتَلَبُ إِنْصَافٌ بِضَيْمٍ ، وَأَنَّى تُشْرِقُ نَفْسٌ مَعَ غَيْمٍ ! وَمَتَى أُصْحِبَ وُدٌّ بِعَسْفٍ ، وَأَىّ حُرٍّ رَضِىَ بِخُطَّةِ خَسْفٍ ! وَلِلهِ أَبُوكَ حَيْثُ يقولُ :

* * *

قوله : « تخزن » ، أى تحبس . أذكو : أضِىء ، يقال : خمدت النار ، إذا سكن لهبها ، وذكت : اتّقدت . والمثقال : الصنجة التى يوزن بها ، سُمّيت بذلك لأنها تثقل ما يوزن بها فى الكفّة الثانية . نتحاذى : نتشابه . والفَعال : بفتح الفاء : اسم للفعل الحسن أو القبيح ، ولا يقال بكسرها إلا فى مصدر فاعَل ، قال ابن الأعرابىّ : الفَعال : فعل الواحد من الخير والشرّ ، والفِعال بالكسر : الفعل بين الاثنين . حذو : متشابهة ، والعرب تقول فى الشيئين يشتبهان : هما حذو النعل

بالنعل، أى كل واحد من النّعلين تُقطع على قالب أختها ، ومنه قول الهذلى:

وتأمّل السِّبْت الذى أحْـذُوكُمُ فانظُرْ بمثل حذائه فاحذونى(١)

التّغابن : الغبن . نكفَى : نمنع . التضاغن : العداوة ، وتضاغن الرجلان : اعتقد كلّ واحد منهما لصاحبه ضِغْناً وهو الحِقْد . أعُلّك : أسقيك عَلَلاً ، أى مرّة بعد أخرى . تعلّنى : تمرضنى . أقِلُّك : أرفعك . تستقلّنى : تحقرنى . أجترح : اكتسب . أسْرَح : أرعى عليك ، وأجلب عليك الرزق بالغداة والعشىّ . تسرّحِنى : تهملنى . ضيم : ذلّ . أنّى : كيف . تشرق : تُضىء ، من أشرقت ، وتشرُق تطلع ، من شرقت . غيم : سحاب . أصحب : أنقاد . بعسف : بجوْر ، وأصل العَسْف ركوب الأمر بغير تدبير . والخطة : المنزلة والمرتبة ، والخسف : الإذلال والنقصان ، ومنه خسف الأرض ، والخاسف : المهزول ، ويقال : باتوا على الخسف ، أى جياعاً ليس لهم شىء يتقوّتون به والخسف للدابة : أن تبيت بغير عَلف .

* * *

جَزَيْتُ مَنْ أَعْلَقَ بى وُدَّهُ جزَاءَ مَنْ يبْنِى عَلَى أُسِّهِ

وَكِلْتُ لِلْخِلّ كَمَا كالَ لِى عَلى وَفَاءِ الْكَيلِ أَوْ بَخْسِهِ

وَلَمْ أُخَسِّرْهُ وَشَرُّ الْوَرَى مَنْ يَوْمُهُ أَخْسَرُ مِنْ أَمْسِهِ

وَكلُّ منْ يَطْلُبُ عِنْدِى جَنًى فَمَا لَهُ إلاَّ جَنَى غَرْسِهِ

لا أَبْتَغِى الْغَبْنَ ، وَلا أَنْثنِى بِصَفْقَةِ الْمَغْبُونِ فى حِسِّهِ

وَلستُ بالْمُوجِبِ حَقًّا لِمَنْ لايُوجِبُ الْحَقَّ عَلى نَفْسِهِ

وَرُبَّ مَذَّاقِ الهوى خالَنِى أَصْدُقُهُ الْوُدَّ عَلى لَبْسِهِ

(١) لبدر بن عامر ، ديوان الهذليين ٣ : ٣٦٠

وَمَا دَرَى مِنْ جَهْلِهِ أَنَّنِي أَقْضِي غَرِيمِي الدَّيْنَ مِنْ جِنْسِهِ
فَاهْجُرْ مَنِ اسْتَغْبَاكَ هَجْرَ الْقِلَى وَهَبْهُ كَالْمَلْحُودِ فِي رَمْسِهِ
وَالْبَسْ لِمَنْ فِي وَصْلِهِ لُبْسَةً لِبَاسَ مَنْ يُرْغَبُ عَنْ أُنْسِهِ
وَلا تُرَجِّ الْوُدَّ مِمَّنْ يَرَى أَنَّكَ مُحْتَاجٌ إِلَى فَلْسِهِ

* * *

قوله: «أعلَق» ، بمعنى علَّق،أى ألصق. أسّه : أصل بنائه؛ يقول: من علّق بقلبى ودّه، جعلت ذلك الودّ أسّا بقلبى ، وبنيتُ عليه ودى، فإن أسس فى قلبى ودّا سلبما بنيت له عليه مثله ، وإن غشّنى فى ودٍّ غششته، والهاء فى «أسّه» ترجع إلى «مَنْ» أى مَنْ نصحنى فى صحبتِه نصحته . والخِلّ : الصاحب . بخسه : نقصه . أخسر : أنقص . الورى : الخلق من الناس . الجَنَى : ما يجنى من الثمرة . أبتغى الغبن : أطلب الخداع : أنثنى : أرجع ، وصفقة المغبون : بيعة المخدوع . حسّه : فهمه ، والحسّ: صوت حركة الحىّ . والصفقة : فى الأصل مصدر ، يقال: صَفَق صفقًا إذا ضرب بإحداهما على الأخرى ، وكانت صفقة البيع عند العرب أن يضرِب المشترى بيده على يد البائع ، فإن رضى البيع قبض على يد المشترى وانعقد البيع ، وإن لم يرض أرسل يده ، ثم صاروا يقولون ، رضى الصفقة ، إذا رضىَ البيع ، ثم سُمِّى عقد البيع صَفْقة . مذّاق : خلّاط غير مخلص . الهوى : الحبّ . وخالَنى : حسبنى . لَبْسه : تخليطه وتلبيسه . غريمى : صاحب دَيْنى . من جنسه : من نوع ما أعطانى . استغباك : استجهلك . القِلى : البغض . هبه : احسبه . الملحود : المدفون . رمسه : قبره ، ويشير إلى بيته قول ابن الرومىّ :

مَنْ تصدّى لأخيه بالغنى فهو أخُوهُ

فإن احتاج إليه راء منه ما يَسُوهُ
يُكرَم المثرى فإن أمْلَقَ أقصاه بَنُوهُ
أنت ما استغنيتَ عن صا حبك الدَّهرَ أَخُوهُ
فإن احتجت إليه ساعةً مجَّكَ فُوهُ

ووُجد على حجر مكتوباً :

كلّ من أحوجك الدهر إليهِ وتعرَّضت له هُنْتَ عَلَيْهِ

وهذان المذهبان اللَّذان ذكرهما الحريريّ مبنيان على آيتين ، من كتاب الله تعالى ؛ قوله تعالى : ﴿وإنْ عاقَبْتُمْ فعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُم بِهِ ولئِنْ صَبرتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ للصَّابرين﴾ ، والثانية قوله تعالى : ﴿وَلَمَنِ انْتَصَر بعد ظلمِه فأولئكَ ما عَلَيْهِم مِنْ سَبِيل﴾ .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : «لاخير فى صحبة مَنْ لايرى لك من الحق ، مثل الذى ترى له » .

[مذاهب الشعراء فى العفو أو الانتصاف]

وللشعراء القدماء والمحدثين فى المذهبين شعر كثير ، قال المقنّع الكندىّ فى المذهب الأول :

وإنَّ الَّذِى بينى وبينَ بنى أبِى وَبَيْنَ بنى عمِّى لمختلِفٌ جدًّا[1]
أراهم إلى نصرى بِطاءً وإن هُمُ دعوْنى إلى نصْرٍ أتيتهمُ شدًّا
وإن أكلُوا لحمِى وفرْتُ لحومَهُمْ وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجدا

(١) حماسة أبى تمام ٣ : ١٧١ ـ بشرح التبريزى

وإن ضَيَّعُوا غَيبى حفظتُ غيوبَهُمْ وإنْ هُمْ هَوُوا غَيّى هويتُ لهمْ رُشْدَا
وإنْ زجَرُوا طَيراً بنحسٍ تمرُّ بى زجرتُ لهمْ طيراً تمُرُّ بهم سَعْدَا
لهمْ جلّ مالى إن تتابع لى غنًى وإن قلّ مالى لم أكلفهمُ رِفْدَا
ولا أحملُ الحِقْدَ القديم عليهمُ وليس يسودُ القومَ من يحمِلُ الحِقْدَا

وقال معن بن أوْسٍ المُزنىّ فى المذهب الثانى :

إذا أنت لم تُنصِفْ أخاك وجدتَه على طرف الهِجران إن كان يعقِلُ[1]
ويركبُ حدّ السيف مِنْ أن تَضيمَهُ إذا لم يكن عن شَفْرة السيف مَزْحَلُ
وكنتُ إذا ماصاحبٌ رامَ ظِنَّتى وبدّل سوءاً بالذى كُنْتُ أفعلُ
قلبت له ظهر المِجَنِّ فلم أدمْ على ذاك إلاّ ريثما أتحـــوّلُ

وقال إبراهيم بن العباس الصولىّ :

أميل مع الذّمام إلى ابن عمّى وآخذ للصديق من الشقيقِ[2]
وإن ألفيتَنِى حُـرًّا مُطاعاً فإنك واجدِى عبْـدَ الصديقِ
أفرّق بين معـــروفِى وبينى وأجمع بين مالِى والحقـــوقِ
وكنت إذا الصديقُ أراد غيظى وأشرقنِى على شَرَقٍ بِرِيـــقِى
غفـرتُ ذنوبه، وصفحت عنه مخافة أن أعيش بلا صديقِ

وكلّف إبراهيم بن العباس بعض إخوانه مقاطعة صديق فقال له :

إنى متى أحمـــل بحقـــدِك لا أُضُرُّ بهِ سِوَاكا[3]

---

(١) حماسة أبى تمام ـ بشرح التبريزى ٣ : ١٣٢
(٢) ديوانه ١٥٤
(٣) ديوانه ١٤٦

رفع المسهم

ومتى أطعتُك فى أخيـك أطعتُ فيك غـداً أخَاكا
حـــتَّى أُرَى مستقسمًا يومى لِذَا ، وغداً لذَاكَا

وقال أبو الفتح البُستىّ فى المذهب الثانى:

فـإن تزرْنى أَزُرْ وإمَّا تَقِفْ ببابى أقف ببـابكْ
والله لا كنتَ فى حسابى إلاَّ إذا كنتُ فى حسابكْ

أين هذا من قول البستىّ أيضاً وقد خالفه فيه خلافاً شديداً ، ولا نازعه أحد فيه ، ولا سبقه إليه إذ يقول :

وإنّى لأختصُّ بعضَ الرجال وإن كان فَدْماً ثقيلاً عَبَامَا[1]
فإنَّ الجُبَيْن على أنه وخيمٌ ثقيلٌ يشهِّى الطَّعَامَا

ولابن شرف :

بِعْ مَنْ جفاك ولا تبخـل بسلعَتِه واطلب به بَدَلاً إن راء تَبْدِيلاَ

وهو كثير ، وبما ذكرت يستدلّ على الباب .

* * *

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فَلَمَّا وَعَيْتُ مَادَارَ بينهما ، تُقْتُ إِلَى أَنْ أَعْرِفَ عينهما ، فَلَمَّا لاحَ ابْنُ ذُكاء ، وَأَلْحَفَ الْجَوَّ الضِّيَاء ، غدَوْتُ قَبْلَ اسْتِقْلاَلِ الرِّكَابِ ، وَلاَ اغْتِدَاءِ الْغُرَابِ ، وَجَعَلْتُ أَسْتَقْرِىءُ صَوْبَ الصَّوْتِ اللَّيْلِىِّ ، وَأَتَوَسَّمُ الْوُجُـوهَ بالنَّظَرِ الجَـلِىِّ ، إِلَى أَنْ

(١) العبام : الغليظ الجافى

لَمَحْتُ أَبَا زَيْدٍ وابْنَهُ يَتَحَادَثَانِ ، وَعَلَيْهِما بُرْدَانِ رَثَّانِ ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُما نَجِيَّا لَيْلَتِي ، وَصَاحِبَا رِوَايَتِي .

* * *

قوله : «وعيت» ، أى حفظت . تقت ، أى اشتقت . عينهما : شخصهما . لاح : ظهر . ابن ذُكاء : هو الصبح ، وذكاء هى الشمس ، ويقال للصبح : ابن ذكاء لأنه من ضوئها . ألحف : غطّى . الجوّ : الهواء بين السماء والأرض ، أراد أن الصبح غطى نواحى السماء بضوئه .

[ما ورد فى الصبح من الشعر]

ومن حسن التشبيه فى ضوء الصبح قول ذى الرمّة :

وقد لاح للسَّارى الذى كَمَّل السّرى ... على أخريات اللَّيل فَتْقٌ مشهَّرُ[1]

كلون الحصان الأبيض البطن قائماً ... تمايل عنه الجُلّ واللون أشقرُ

شبه اختلاط الضوء بالظلمة بالفرس الأشقر الأبيض البطن .

وقال ابن المعتزّ :

وساقٍ يجعل المِنديلَ منْهُ ... مكان حمائل السيف الطّوالِ

غدا والصبحُ تحت الليل بادٍ ... كطِرْفٍ أشقرٍ ملقى الجِلالِ

وقال **يوسف الرمادى** :

وليلة أنس قد غمرْنا ظلامها ... بأوجهِ راحٍ تستنير فترشفُ

إلى أن بدا ضوءُ الصباح كأنَّما ... تحمَّل لثامٌ ، وأقبل يوسفُ

قوله : «غدت» ، أى بكرت . استقلال : ارتفاع وقيام . والركاب : الا،

(١) ديوانه ٢٢٧

واحدتها ، راحلة . ولا اغتداء الغراب ، أى ولا مثل اغتدائه ؛ فحذف « مثل» المنصوبة بلا ، وأقام «اغتداء »مقامها لأن« لا » لا تنصب المعارف ، وأراد أن اغتدائى كان قبل أن يغتدِىَ الغراب ، والغراب أكثر الطير بكوراً ، وهذا وما شابهه فى هذا الكتاب مثل قوله : «ولا كيد فرعون موسى» ، «ولا انهلال السحب » ، «ولا عمرو بن عبيد» ، إذا طابت حقيقة معناه صار المشبّه أقوى من المشبه به ، ولم يأت هذا إلا عن العرب، تقول العرب : «فتى ولا كمالك»، فيريدون مالكاً أفضل من الفتى ، ومثله «مرعًى ولا كالسَّعدان » أى أن المرعى فاضل فى طيبه ، ولكن السعدان أفضل منه ، ومثله : « ماء ولا كصدّاء » ، فصدّاء أفضل من ذلك الماء على طيبه ، فهذا مذهب العرب فى ذكر «لا» بين المشبّهين.

وأما قول الحريرى:«غدوت ولا اغتداء الغراب» ، فيريد أن غدوِّى أبكر من اغتداء الغراب ، وكذلك « ولا انهلال السّحب » ، وهو يريد أنّ جودهم فوق جود السحاب ، لأن كلام العرب : فلان أبْكرُ من الغراب ، وأجود من السحاب ، ولا يقولون السحاب أجود من فلان ، ولا الغراب أبكر من فلان، ولا فائدة فى ذلك، فإذا حققت لفظة «ولا» فى تشبيه الحريرىّ على مايجب لها فى كلام العرب انقلب المعنى ، وإنما اللفظ من كلام عامّة العراق ، فاستعمالها لأنها عندهم متعارفة وليست بعربية ، ومثل هذا قد جوّزه المولدون فى أشعارهم ، وجاء منه فى مقامات البديع كثير . ويستعمل أهل فاس فى مغربنا لفظة « ولا» فى تشبيهاتهم كثيراً جدًّ اعلى حدّ استعمال الحريرّى لها ، ولا يستعملها أهل الأندلس .

وقال الفنجديهىّ : الرفع فى قوله :«ولا اغتداء الغراب » ، أكثر مبالغةً فى التشبيه من النصب .

قوله:«أستقرئ»، أى أتتبع . صوب :جهة وناحية. الليلىّ : الذى سُمِّى بالليل. أتوسّم . أتعرّف وأنظر سمتها . الجلىّ : البيّن. لمحت : رأيت . بُرْدان زُنّان :

رفع المسهم

بوبان خَلَقان . نجيًّا ليلتى ، أى المتحدّثان فيها ، وجعلهما متحدثين مع الليلة مجازاً لما أوقعا الحديث فيها ، كقوله تعالى : ﴿بل مكْرُ الليل والنهار﴾[1] ولا يمكران إنما يُمْكَر فيهما ، فنسب ذلك المكر إليهما. صاحبا روايتى . أى اللذان أروى عنهما هذه القصة .

* * *

فَقَصَدْتُهُمَا قَصْدَ كَلِفٍ بِدَمَاثَتِهِمَا ، رَاثٍ لِرَثَاثَتِهِمَا ، وَأَبْحْتُهُمَا التَّحَوُّلَ إِلَى رَحْلِى ، وَالتَّحَكُّمَ فِى كُثْرِى وَقُلِّى ، وَطَفِقْتُ أُسَيِّرُ بَيْنَ السَّيَّارَةِ فَضْلَهُمَا ، وَأَهُزُّ الأَعْوَادَ الْمُثْمِرَةَ لَهُمَا ، إِلَى أَنْ غُمِرَا بِالنُّحْلَانِ ، وَاتُّخِذَا مِنَ الْخُلاَّنِ . وَكُنَّا بِمُعَرَّسٍ نَتَبَيَّنُ مِنْهُ بُنْيَانَ الْقُرَى ، وَنَتَنَوَّرُ نِيرَانَ الْقِرَى .

فَلَمَّا رَأَى أَبُو زَيْدٍ امْتِلاَءَ كِيسِهِ ، وَانْجِلاَءَ بُوسِهِ ، قال لى : إِنَّ بَدَنِى قَدْ انْسَخَ ، وَدَرَنِى قَدْ رَسَخَ ، أَفَتَأْذَنُ لِى فِى قَصْدِ قَرْيَةٍ لأَسْتَحِمَّ ؛ وَأَقْضِىَ هَذَا المهِمّ ؟ فَقُلْتُ : إِذَا شِئْتَ فالسُّرْعَةَ السُّرْعَةَ ، وَالرَّجْعَةَ الرَّجْعَةَ ، فقَالَ : سَتَجِدُ مَطْلَعِى عَلَيْكَ ، أَسْرَعَ مِنَ ارْتِدَادِ طَرْفِكَ إِلَيك .

* * *

كَلِف : محبّ . دَماثتهما : سهولتهما ، والدّماثة سهولة الأرض ، وكل ما وطئته وسهّلته وأذللته بيدك فهو دَمِث . راثٍ : بالٍ مشفق . ورثاثتهما : سوء

(١) سورة سبأ ٣٣ .

رفع المسهم

حالها . أبحته : جعلته له مباحاً . كُثْرِى وقُلِّى : أى كثير مالى وقليله . طفقت : أخذت . أسيّر : أمشى . السيارة : القوم الذين يسيرون فى الأسفار . أهزّ الأعواد ، استعارة ، وأراد أنه يستعطف لها أصحاب الأموال فيواسونهم ، فكنى عنهم بالأعواد ، وقد كرّر هذا المعنى نظماً حين قال :

قصدته والشيخ يبغى جنَى عُودٍ له ما زال مهزُوزَا[1]

وقال الشاعر فى مثله :

إلاّ يَكُنْ ورقِى غضًّا أراح به للمعتفين فإنى ليِّنُ العـــودِ

أراد إنْ لا أكن كثير المال فإنى كريم . والورِق : المال غير الصامت ، وأراح به : أهتزّ به ، من الأريحيّة . وراح الشجر : أتى بورق فى آخر الصيف لا أصل له ، ويقال لها الخلفة . قوله : « غمَرا » ، أى أعطيا . النّحلان : العطايا . الخِلاّن : الأصحاب . وقوله : « وكنا بمعرّس » ، المعرّس موضع النزول آخر الليل . نتنوَّر : ننظر النيران . القِرى : طعام الضيف . كيسه : وعاء دراهمه ، والكِيس : خريطة تسع خمسمائة درهم والبَدْرة تسع عشرة آلاف درهمٍ ، قال حبيب :

من بعد ما صارتْ هنيدة صِرمةً والبَدْرة النَّجلاء صارت كيسا[2]

قوله : « انجلاء بوسه » ، انكشاف فقره . دَرَنِى : وسخى . ورسخ الشىء فى الأرض رسوخاً : غاب فيها ، ورسخ العالِم فى العلم : دخل فيه . أستحمّ : أدخل الحمام ، واستحمّ الرجلُ : اغتسل بالحميم ؛ وهو الماء الحارّ . أقضى : أقطع وأزيل ، وقضيت الشىء : صنعته . المهمّ : أراد به فَرْض الصّلاة ، قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إنّ أهم أموركم عندى الصّلاة ، فمن ضيّعها فهو لما سواها أضْيَع . وقيل :

---

(١) فى المقامه الأربعين صفحه ٤٤٨ (طبعة الحسينية) .

(٢) ديوانه ١٧٧ ، والهبيندة : اسم الماثة من الإبل . والصرمة : ما بين العشرة إلى بضعة عشر . والنجلاء : الواسعة .

رفع المسهم

المهمّ: الوسخ لأنّ الأمر المهمّ، هو الذى فى القلب منه همّ وشغل، وقد ذكر أن الذى أوجب عليه قصد الحمام هو ما عليه من الوسَخ، فيكون قوله: «وأقْضِى هذا المهمّ» من قوله تعالى: ﴿ثمّ ليَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾[1]، وقد أهمّنى الشىء فهو مهمّ، وهذا القول أوفق بمراده.

[نبذ ممّا قيل فى الحمّام شعرا ونثرا]

وللزاهد بن عمران رحمه الله وقد استبطأ فى دخول الحمّام:

يا صاح عهدىَ بالحمّام قد بَعُدَا ... فلا تلمنِىَ فيه إن طلبتُ مَدَى
قارعتُ فيه العِدا فى معرَكٍ لجِبٍ ... دَحْضٍ تزلّ به الأقدام قد بَعُدا
عِداً أثرن برأسى حين ثُرْن به ... توقّدا وأعادت جلدَه جَلِدَا
فظلْت مستأصِلاً بالقتل أجمعُها ... فلم أدَعْ والداً منها ولا وَلَدَا
ثم انثنيتُ معافًى ناعماً جَذِلاً ... مظفّراً أستزيد الواحد الصَّمَدَا

ورأى نفسه ممتدّاً بين يدى الحكّاك، فقال:

أأغترّ إن مُدّ فى العُمْرِ لى ... وأُرجِى المتابَ إلى قابِلِ
وأغفلُ والموت لِى طالبٌ ... حثيثٌ كذئب الغضَى القاتِلِ
كأنّىَ بى هكذا ميتا[1] ... تَحَكَّمُ فىّ يَدُ الغاسِلِ

وله أيضاً:

شكرت للدهر حسنَ ما صنَعَا ... طريدَ مجدٍ تحيّتى رفعا
يا حُسْنَ حمّامنا وقد غَرُبَتْ ... شمس الضحى فيه بعد ما مَتَعَا
أيقنَ أنّ الهلال راكبُه ... فضاء للحاضرين واتّسعا
فأنعمْ أبا عامر بنعمتِه ... واعجب لأسرين فيه قد جُمِعَا

(١) الحج ٢٩ : ١١٢ (٢) ! : «كأن بى».

نيرانه من زِنادِكُمْ قُدِحت وماؤه من بَنانكم نبعا

ولبعضهم فى حمّام كانت مضاوئه من زجاج أحمر ، وفى سمائه حمرة وبياض:

تحيّرتُ من طيبِ حمّامِنا فَخُيِّل لى أن فيه الفلقْ
فمن حمرةٍ فوقنا وابيضاض لحدّ الحبيب إذا ماعَرَقْ
رأى الدهر ماسدّ من حُسْنِهِ فسدَّ كُوَى سقفِه بالشَّفقْ

ودخل الحمّام أبو جعفر التُّطيلىّ وأبو بكر بن بقىّ رحمهما الله تعالى ، فقال أبو جعفر :

يا حُسْنَ حمّامنا وبهجته مرأًى من السِّحر كلُّه حَسَنُ
ماءٌ ونارٌ جواهما كنفٌ كالقلب فيه السّرور والحزَنُ

ونظر فيه إلى غلام وسيم ، فقال :

هل استمالك ميّال القوَامِ وقَدْ سالت عليه من الحمّامِ أندَاه
كالغصن باشَرَ حرّ النار من كثَب فظلّ يقطر من أعطافه الماء

وقال آخر :

حمّامنا فيه فصل القيظ محتدِمٌ وفيه للبرد سرٌّ غير ذى ضررِ
ضدّان ينعم جسم المرء بينهما كالغصن ينعم بين الشمس والمطرِ

وقال ابن رشيق : ومما قلته على عقب وداع :

ولم أدخلِ الحمام ساعةَ بينهمْ لأجل نعيم ،قد رضيت بِبُؤسِى[1]
ولكن لتجرى عَبْرتى مطمئنةً فأبكى ، ولا يدرى بذاك جليسِى

(١) طراز المجالس ١٢٢ .

وقال آخر :

وحمّامٍ كأنّ النار فيـــه مسعّرةٌ بنيرانِ الجحيمِ
دخلت أنا ومَنْ أهواه فيه فعاد لنا كجنّات النعيمِ

وقال آخر فى ذم حمّام :

وحمّامِ سُوءٍ وَخِيمِ الهوا قليل المياه كثير الزِّحَامْ
فمـا للقيام به من قعودٍ ولا للقعود به من قِيَامْ
حنيّاته عطفـــات القِسىّ وقطراته صائبات السِّهَامْ

وقال آخر فى تعجيل الخروج منه :

خذ من الحمام واخرجْ قبل أن يأخذ مِنْـكَا
حَدِّثَنْ عنه وإلا حدّثَ الحمّام عنْـكَا

وقال ابن رشيق :

ومُرْتَهنٍ لدَى الحمّام أضحى وحالاَه لأصحـــاب السَّعِيرِ
إذا سئموا العذاب أو استغاثوا أغاثُوهم بباب الزّمهـــرِيرِ
كذلك حاله حَـرّاً وبرداً ببيت الحوْض أو بيت الطّهورِ
وطال به انتظارُ مُـــواعدِيه فقـــد زاد الشقىّ على النَّظِيرِ

وله أيضاً :

سأشكر للحمّام بدءاً وعودةً أيادىَ بِيضًا ما لهنّ ثمينُ
جلاك على عينىَّ عُريانَ حاسرا فرحتَ بتطليـقٍ وأنت قمين[1]
وطهّر قلبى من هـــواك ببارِدٍ وسُخْنٍ نقرَّ الجفن وهـــو سَخينُ

(١) ط : « ثمين » . وما أثبته من ا ، ب .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : الحمّام يذكّرُ جهنم ، وينقّى الدَّرَن .

وقال علىّ رضى الله عنه : بئس البيت الحمّامُ ! تُكشَف فيه العورات ، وترتفع فيه الأصوات ، ولا يُقرأ فيه آية من كتاب الله تعالى .

ودخله بعضُ الأمراء مع الرقاشى فقال له : امدحْه ، فقال : يُذْهب القَشافة ، ويعقب النظافة ، ويُفَشّ[1] التُخمة ، ويطيّب النّعمة ، فقال : ذمّه ، فقال : يهتك الأستار ، ويؤلّف الأقذار ، ويذهب بالوقار .

* * *

قوله : « إذا شئت فالسرعة السرعة » ، يقول : إذا شئت أن تقصد الحمّام فالزم السرعة ، وعجل الرجعة ، وكرّرهما تأكيداً ، والفعل الناصب لهما يلزم إضمارهمع التكرير ، فإذا أفردت جاز إظهار الفعل ، ونظيرهما قول العرب : الطريق ، الطريق ، والأسد الأسد وقال الشاعر :

* خلّ الطريق لمن يُبنى المنارُ لَهُ *

فلما سقط التكرير ساغ له إظهار الفعل . مطّلَعى : مصدر بمعنى طلوعى . أهل الحجاز يفتحون لامه فى المصدر وغيرهم يكسرها . ارتداد طرفك ، أى رجوع نظرك .

* * *

ثمَّ اسْتَنَّ اسْتِنَانَ الْجَوَادِ فِي الْمضْمارِ ، وَقَالَ لابْنِهِ : بَدَارِ بَدَارِ ! وَلَمْ نَخَلْ أَنَّهُ غَرَّ ، وَطَلَبَ الْمَفَرَّ . فَلَبِثْنَا نَرْقُبُهُ رِقْبَةَ الأَعْيَادِ ، وَنَسْتَطْلِعُهُ بالطَّلاَئِعِ وَالرُّوَّادِ ، إِلَى أَنْ هَرِمَ النَّهَارُ ، وكَادَ جُرُفُ النَّهَارِ يَنْهَارُ . فَلَمَّا طَالَ أَمَدُ الانْتِظَارِ ، وَلاَحَتِ الشَّمْسُ فِي الأَطْمَارِ ، قُلْتُ لأَصْحَابِي : قَدْ تَنَاهَيْنَا فِي الْمُهْلَةِ ، وَتَمَادَيْنَا فِي

(١) يقال : فش الوطب ، أى أخرج مافيه من الريح

الرِّحْلَةِ ، إِلَى أَنْ أَضْعَنَا الزَّمَانَ ، وَبَانَ أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ مَانَ ، فَتَأَهَّبُوا لِلظَّعَنِ ، وَلاَ تَلْوُوا عَلَى خَضْرَاءِ الدِّمَنِ .

* * *

استنَّ استنان الجواد : جرى كما يجرى الفرس ، وإنما يقال : استنَّ فى كلامه إذا جرى فى غير طريق بتحريف ، ومنه قولهم : استنَّت الفِصال حتى القرعى[1] ، يريدون جرت الفصال وهى تلعب ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « فاستنَّت شرَفاً أو شرَفين » . وقال الشاعر يذكر طعنة خرج دمها فى جهة :

بمستنّةٍ كاستنان الخرو ... فِ وقد قطَع الحبلَ بالمِرْوَد[2]

أراد المهر ، ويقال له : خروف وفلوّ ، وقد فسر «استنّت الفصال» بأن معناه أحسن رعيتها ، حتى كأنه صقَلها . والجواد : الفرس الكريم . المضمار : الطَّلَق تجرى فيه الخيل ، سمّىَ مِضماراً لأن الخيل تضمَّر فيه ، وذلك أنّ العرب كانت تسمّن الخيل نتستخرجها إلى المِضمار ، فتجريها طَلَقاً قدر ما تحتمل ، ثم تزيدها يوماً آخر فى الجرْى على ذلك ، ثم لا تزال تزيدها فى الطَّلق كل يوم ، حتى تجرى بها الأميال ، فيسيل عَرَق الخيل بذلك الجـرْى ، ويشتدّ لحمها بذلك التّضمير قال زهير :

تُضمَّر بالأصائل كلّ يومٍ ... تُسنّ على سنابكها القرونُ[3]

القرون : دُفَع العَرق ، واحدها قَرْن .

وقوله : «بدار بدار» ، أى سبقاً سبْقاً ، وهو معدول عن بدر ، فيقول لابنه :

---

(١) مثل ، يضرب للرجل يفعل ماليس لأهل . جمهرة الأمثال ١ : ١٠٨

(٢) اللسان ـ خرف ، ونسبه إلى رجل من بنى الحارث .

(٣) ديوانه ١٨٧

أبدر بالجرى ، واسبق إلى الحمّام. لم نخل : لم نحسب. غرّ: خدع . نرقبه ، أى ننظر من أين يجىء ويروى : « نرقبه رقبة أهلّة الأعياد » .

وما أحسن قولَ ابن الزقّاق فى هذه الرِّقبة :

وشهرٍ أدرنا لارتقاب هلاله ... جفوناً إلى نحو السماء موائلاَ[1]

إلى أنْ بدا أحْوَى المدامع أحورٌ ... يجرّ لأذيال الشَباب غلائلاَ

فقلت له أهلاً وسهلاً ومرحباً ... بمن قد حوى طيب السَّمولِ شمائلاَ

أتطلبك الأبصار فى الجوّ ناقصاً ... وأنت كذا تمشِى على الأرض كاملا

وله فى معناه :

لله شهرٌ مانظرتُ هلالَهُ ... إلاّ كنونٍ أو كعطفة لامِ[2]

حتى تبدّى لى أغنُّ مهفهفٌ ... بضيائه يَنْجَابُ كلُّ ظلاَمِ

فطفقت أهتِف بالأنام ضللتمُ ... وغلطتمُ فى عدَّة الأيامِ

ما جاءنَا شهرٌ لأول ليلة ... مذ كانت الدنيا ببدر تمام

نستطلعه ، أى نلتمس طلوعه . الطلائع : الباحثون عليه . والروّاد: الطالبون له ، وأصل الطلائع الباحثون عن أخبار العدوّ ، والراصدون فى الطرقات ، الواحد طليعة ، وأصل الروّاد الطالبون للمرعى . هَرِم : شاخ ، ومعناه قارب أن يتمّ . ينهار : ينهدم . والجُرُف : ما يأكله الوادى ، استعاره للنهار. لاحت : ظهرت. والأطمار : الثياب الخلَقة ، أراد أن ثوب الشمس وهو ضوءها قد تغيّر وبلى عند الغروب ، وبعضهم يستعمل هذه الاستعارات فى الشتاء وغروب الشمس .

ومما يستغرب من ذلك قول العلَوىّ الأصبهانىّ :

ومجلسِ شربٍ جئتُه متطرِّباً ... عشيّاً وعينُ الشّمس فى الأفق تنعَسُ

(١) ديوانه ٢٣٨

(٢) ديوانه ٢٥٨ .

وقال ابن الرّومىّ :

كأنّ جنوح الشّمس ثم غروبها ... وقدجعلت فى مجنح الليل تمرض[1]

تخاوصُ عَينٍ بيْنَ أجفانها الكرى ... يرنّق منها النّوم وهى تغمّضُ

وقال أيضاً :

إذا رتعتْ شمسُ الأصيل ونفّضتْ ... على الأفُقِ الغربىّ وَرْساً مُذَعزَعا[2]

وودّعت الدّنيا لتقضىَ نحبَهـا ... وشـوّل باقى عمرهـا فتَشَعْشَعَا[3]

ولا حظت الأنوار وهى مريضةٌ ... وقدوضعت خدّاعلى الأرض أضْرَعَا

كما لاحظت عوّادُه عينَ مدنف ... توجّع من أوصابه ما توجّعا

أخبرنى ابن منصور ، قال :خرجتُ بخارج فاس عشيةمع فتى ورّاق ، فنظر إلى صفرة الشمس واستنشق برد النسيم ، وأنشدنى مرتجلاً :

انظر إلى الشمس فى الأصيلِ ... كأنّهَا وَجْنَتَا عليـــلِ

ورقّ هـــذا النسيمُ حتّى ... كأنمـــا يشتكى نحولى

وقال ابن الزّقاق :

وعشيةٍ لبستْ مِـــلاء شقيق ... تُزهَى بلونٍ للخدود أنيقِ[4]

أبقتْ بها الشّمسُ المنيرةُ مثلَ مَا ... أبقى الحياء بوجنتىْ معشوقِ

لو أستطيع شربتُها كلفـاً بها ... وعدلت فيها عن كئوسِ رحيقِ

وقال ابن سراج :

والشمس تنفض زعفـرانا بالرّبا ... وتبثّ مسكتهـا على الغيطان

(١) ديوان المعانى ٣٦١

(٢) ديوان المعانى ١ : ٣٦١ ، ومذعزعاً : مفرقا .

(٣) شول باقى عمرها ، أى لم يبق منه إلا القليل .

(٤) ديوانه ٣٠٦ وفيه : « لبست رداء شفيق »

وما أحسن قول الرّصافى فى معناه :

وعشىّ أنسٍ للسرور وقد بَدَا ... من دون قُرْص الشّمسِ ما يتوقّع (١)

سقطت ولم تملك يمينُك ردَّها ... فوددت يا موسى لَوَ انّكَ يُوشَعُ

وقال ابن الرومىّ فى طلوع الشمس من خلل السحاب وذكر امرأة :

تريك بياض غُرّتها ووجهاً ... كقرن الشّمس أغسق ثم زَالاَ

أصاب خصاصةً فبدا كليلاً ... كلاَ وانفلّ ســـائره انفلَالا

قوله : « بدا كليلا » إشارة إلى أنه عندما بدا غاب بسرعة ، وأذكر « كَلاَ » فى المقامة التاسعة والثلاثين .

وقال ابنُ المعتزّ فى نحوه :

تظـــلّ الشمسُ ترمقنا بلحظٍ ... مريضٍ مدنَفٍ من خَلْفِ سِتْرِ (٢)

تحاول فتْقَ غيم وهـو يأبَى (٣) ... كعَنّينٍ يريدُ نـكاح بِكْرِ

قوله : «تناهينا» ، أى بلغنا النهاية . والمهلة : التراخى ، يقول : قد تراخينا فى انتظاره حتى بلغنا الغاية فى ذلك . «تمادينا فى الرحلة» ، هذا على حذف مضاف للعلم به ، تقديره : تمادينا فى ترك الرحلة وانتظارها ، ومثل هذا الحذف جائز فى النظم والنثر وأنشد أبو على :

أنا النذيرُ لكمْ منّى مجاهرةً ... كى لا أُلامَ على نهيى وإنذارى

أى على تركى النهى والإنذار ، وقال آخر :

وأهلك مهرَ أبيك الدّوا ... ء ليس له من طعامٍ نصيبِ

(١) ديوانه ١٠٤ ، مع اختلاف فى الرواية .

(٢) ديوان المعانى ١ : ٣٦٠ ، وفيه : « بلحظ خفى » .

(٣) ط : «فتح غيم» ، وما أثبته من ديوان المعانى .

أى فقد الدواء ، وجاء فى القرآن ﴿ واسأل القرية التى كنا فيها ﴾[1] أى أهل القرية ، و﴿ هى أشدّ قوّة من قريتك ﴾[2]، أى من أهل قريتك ، ومثل هذا كثير فى القرآن والكلام الفصيح ، بما لا يتمّ المعنى إلا بتقديره ؛ فالذى غلّط الحريرىّ فقال : لو تمادتْ بهم الرحلة لكانوا فى سير متّصل، قد جهل الكلام الفصيح فأراد : طالتْ بنا هذه السفرة . وتمادى الشىء فهو متمادٍ ، إذا طال فيه المدى ، وهو الغاية البعيدة . يقول : تأخّرنا عن السفر اليوم لتمادينا فى انتظاره ، فطالت علينا السفرة لعطلة السفر ، حتى أضعنا اليوم الذى انتظرناه فيه حيث لم نسافر فيه . والزمان : اليوم . بان : تبيّن . مان : كذب ؛ يقال منه : مان يمين مَيْناً ، وأما مَانَهُ يَمُونه مَوْناً ، فقام بمؤنته . قوله : « فتأهّبوا »، استعدوا . الظعن : الرحيل . ولا تلوُوا : تعرّجوا . خضراء الدمَنِ : عشب المزابل، هى حسنة المنظر سيّئة المخبر ، وإذا يبست لم ينتفع بعُودها لحوره وضعفه ، فشبّه بها أبا زيد لحسن ظاهره فيما أبدى لهم من فصاحته ، وسوء باطنه فى كذبه وإخلاف وعده ، حتى عطّلهم عن سفرهم نهاراً فى انتظاره ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : إياكم وخضراء الدِّمَن ، فقيل له : وما خضراء الدمن ؟ فقال : « الجارية الحسناء فى المنبت السوء » .

* * *

وَنَهَضْتُ لِأَحْدِجَ رَاحِلَتِى ، وَأَتَحَمَّلَ لِرِحْلَتِي ، فَوَجَدْتُ أَبَا زَيْدٍ قَدْ كَتَبَ ، عَلَى الْقَتَبِ :

يَا مَنْ غَدَا لِى سَاعِدًا وَمُسَاعِدًا دُونَ الْبَشَرْ
لَا تَحْسِبَنْ أَنِّى نَأَيْتُ لَكَ عَنْ مَلَالٍ أَوْ أَشَرْ
لَكِنَّنِى مُذْ لَمْ أَزَلْ مِمَّنْ إِذَا طَعِمَ انْتَشَرْ

(١) سورة يوسف ٨٢.
(٢) سورة محمد ١٣

قالَ : فأَقْرَأْتُ الْجماعَةَ الْقَتَبَ ، لِيَعْذِرَهُ مَنْ كانَ عَتَبَ فأُعْجِبُوا بخُرَافَتِهِ ، وَتَعَوَّذوا مِنْ آفَتِهِ .

ثمّ إنا ظَعَنَّا ، وَلَمْ نَدْرِ مَنِ اعْتَاضَ عَنَّا .

* * *

قوله : «أحدج» : أى اجعل عليها الحدَج ، وهو مركب من مراكب النساء ، وأراد أرحل الناقة . وراحلته : ناقته . أتحمَّل لرحلتى ، أو قِرحِمْلى للرحيل ، يقال : تحمَّل القوم ، إذا عبُّوا أحمالهم وارتحلوا . والقَتَب : خشب الرَّحْل . قوله : «ساعدا» ، أى ذراعا يستعين به . مساعدا : موافقا . نأيتك : بعدت عنك . أَشَر : بطر وعدم شكرٍ ، يقال : أَشَر الرّجل يأشِر أَشَراً ، إذا بطر ، قال الأخطل يذكر بنى أمية :

أعطاكمُ اللهُ جَدًّا تُنْصَرونَ بِهِ ... لا جَدّ إلاصغيرٌ بَعْـدُ محتَقَرُ[1]

لم يأشَرُوا فيه إذ كانُوا مَوَالِيَه ... ولو يكون لقومٍ غيرهم أشِرُوا

قوله : «مذ لم أزل» ، أى مذ بنْت ووجدت . انتشر : ذهب . عتب : لام وسخط فعله . خُرافته : حديثه الملهِى .

[حديث خرافة]

وحديث خُرافة[2] مَثَلٌ سائر على ألسنة الناس فى القديم والحديث ، يضرَب لكلّ حديث لا حقيقة له . ووقع فى أمثال المفضّل بسند يصل إلى عائشة رضى الله عنها ، أنها قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : حدّثنى حديث خُرافة ، فقال : رحم الله خرافة ، كان رجلاً صالحًا ، فأخبرنى أنه خرج ذات ليلة فلقى ثلاثة نفر من الجنّ

(١) ديوانه ١٠٤ ، وفيه : « أعطاهم الله » .

(٢) انظر الميدانى ١ : ١٣١ ، الفاخر ١٦٨ ، اللسان ١٠ : ٢١٤ .

فسبّوه ، فقال أحدهم : نعفو عنه ، وقال آخر نقتله ، وقال آخر: نستعبده ، فبينما هم يتشاورون فى أمره ، إذ ورد عليهم رجل، فقال: السلام عليكم . فقالوا : وعليك السلام ، قال : وما أنتم ؟ قالوا : نفر من الجنّ، أسَرْنا هذا فنحن نأتمر فى أمره ، فقال : إن حدّثتكم حديثاً عجيباً ،أتشركونى فيه؟ قالوا : نعم ، قال: إنى كنتُ ذا نعمةٍ فزالت ، ورِكِبَنى دَيْن، فخرجت هارباً ،فأصابنى عطش شديد،فسرت إلى بئر فنزلت لأشرب ، فصاح بى صائح من البئر: مه ! فخرجت منها ولم أشرب ، فغلَبنى العطش ، فعدت ،فصاح بى ، ثم عدت الثالثة فشربت ، ولم ألتفت إليه . فقال : اللهم إن كان رجلا فحوِّله امرأة ، وإن كان امرأة فحوِّلها رجلاً ، فإذا أنا امرأة،فأتيت مدينة فتزوّجنى رجل ، فولدت منه ولديْن ، ثم عدتُ إلى بلدى ، فمررت بالبئر التى شربت منها ، فنزلت فصاح بى كما صاح فى الأول ، فشربت ولم ألتفت له، فدعا كالأول ، فعدتُ رجلاً كما كنت. فأتيت بلدى ، فتزوّجت امرأة ، فولدت منها ولديْن ، فلى ابنان منْ ظهرى وابنان من بطنى. فقالوا: إن هذا لعجيب ، أنت شريكنا ،فبينما هم يتشاورون إذ ورد عليهم ثوْر يطير فلما جاوزهم، إذا رجل بيده خشبة ، وهو يحفزنى إثره ، فوقف عليهم فسلّم ، فردّوا ، وسألهم،فردّوا عليه مثل ردهم على صاحبهم ؛ فقال :إن حدّثتكم بحديث أعجب من هذا أتشركونى فيه ؟ قالوا: نعم ، قال : كان لى عمّ ، وكان موسراً، وكانت له ابنة جميلة ، وكنّا سبعةَ إخوة ، وكان لعمّى عجلٌ يربّيه ، فانفلت ، فقال: أيكم يَردّه فابنتى له؛ فأخذت خشبتى هذه ، واتّزرت ، ثم حفزت فى إثره وأنا غلام ، وقد شبْت ، فلا أنا ألحقه ولاهو يكلّ ؛ فقالوا : إن هذا لعجب ، اقعد فأنت شريكنا.فبينما هم يتشاورون ، إذ ورد عليهم رجل على فرس أنثى . وخلفه غلام على فرس ذكر ،فسلّم كما سلّم صاحباه فردّوا عليه كردّهم على صاحبيه . فسألهم فأخبروه الخبر ، فقال لهم : إن حدّثتكم بحديث أغرب من هذا ،أتشركونى فيه ؟ فقالوا نعم ، قال : كانت لى أمّ خبيثة، ثم قال للفرس الأنثى الذى تحته : أكذلك هو

رفع المسهم

فقالت : برأسها نعم — قال : وكنتُ أتَّهِمُها بهذا العبد — وأشار إلى الفرس ، الذى تحت غلامه: أهكذا ؟ فقال برأسه : نعم — فوجَّهت بغلامى هذا الراكب ذات يوم فى بعض حاجاتى ، فحبسته عندها فأغفى ، فرأى فى منامه كأنها صاحت صيْحة ، فإذا هى بجُرَذٍ قد خرج ، فقالت : اسجد ، فسجد ، ثم قالت : اركب فكرب[1] ، ثم قالت : ادرس فدرس ، ثم دعت برَحًا فطحنت قدَح سَوِيقٍ ، فأتت به الغلام ، فقالت له : ائت به مولاك ، فأتانى به ، فاحتلت عليهما حتى سقيتهما القدح ، فإذا هى فرس أنثى ، وإذا هو فرس ذكر ، قال : أكذلك ؟ قالت الفرس الأنثى برأسها : نعم ، وقال الفرس الذكر برأسه : نعم ، فقالوا إن هذا أعجب شىء سمعناه ، أنت شريكنا . فأجمع رأيهم فأعتقوا خُرافة فأتى النبىَّ صلى الله عليه وسلم فأخبره بهذا الحديث ، فما جاء من الأحاديث المحالَة نُسِب إلى خرافة صاحب الحديث .

* * *

قوله : « آفته » أى ضرره . ظعنًا : رحلنا . اعتاض : استبدل .

(١) الفاخر : « احصد فحصد » .

رفع المسهم

المقامة الخامسة وهي الكوفية

حكى الحارثُ بن همّام قالَ : سَمَرْتُ بالكوفةِ في ليلةٍ أُدِيمُها ذو لَوْنين ، وقَمَرُها كتَعْويذٍ مِنْ لَجَيْن ، مَعَ رُفْقةٍ غُذُوا بلِبانِ البَيانِ ، وسَحَبُوا على سَحْبانَ ذَيلَ النِّسْيانِ ، مَا فِيهِمْ إلاَّ مَنْ يُحفظُ عَنْهُ وَلا يُتَحَفَّظ مِنهُ ، وَيميلُ الرَّفيقُ إليهِ ، وَلا يَميلُ عَنْهُ ، فاسْتَهْوَانَا السَّمَرُ ، إلَى أَنْ غَرَبَ الْقَمَرُ ، وَغَلَبَ السَّهَرُ . فلَمَّا رَوَّق اللَّيْلُ الْبَهِيمُ ، وَلَمْ يَبْقَ إلاَّ النَّهْوِيمُ ، سَمِعْنَا مِنَ الْبَاب تَبأَةَ مُسْتَنْبِحٍ ، ثُمَّ تلَتْهَا صَكَّةُ مُسْتَفْتِحٍ ، فقُلْنَا : مَنِ الْمُلِمُّ ، فِي اللَّيْلِ الْمُدْلَهِمّ ؟ فقال :

* * *

[الكوفة]

سَمَرْت بالكوفة . الكوفة بلد بالعراق مشهور بينه وبين بغداد ثلاثون فرسخاً، وسميَتْ كوفة لاستدارتها ، أخذت من الكوفان ، وهى الرملة الشديدة البياض ، وقيل : سمِّيت كوفة لاجتماع الناس فيها ، من قولهم : تكوَّف الرمل تكوّفاً ، إذا ركب بعضُه بعضاً ، وقيل : سمِّيت كوفة، لأنها قُطعت من البلاد، من قولهم : أعطيت فلاناً كَيْفة ، أى قطعة ، وكفت أكيف كَيْفا : قطعت . والكوفة « فُعلة » منه ، قُلبت الياء واواً للضمّة التى قبلها .

وهى مدينة العراق الكبرى ، والمِصْر الأعظم وقُبّة الإسلام ، ودار هجرة المسلمين ، وأوّل مدينة اختطّها المسلمون بالعراق .

رفع المسهم

وذكر شيخنا أبو الحسن بن جُبير[1] فى رحلته حاجًّا، أنه دخل الكوفة فى أوّل محرَّم سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، فقال : هى مدينة كبير ، قد استولَى الخراب على أكثرها ، فالعامر منها أقلّ من الخراب ، ومن أسباب خرابها قبيلة خفاجة المجاورة لها ، وهى لا تزال تضرّبها ، وكفاك بتعاقب الأيّام والليالى ما حقاً ومنيّاً ! وبناؤها بالآجرّ خاصّة ، ولا سورَ لها . والجامع العتيق آخرها مما يلى شرق البلد ، ولا عمارة تتّصل به من جهة الشرق . وهو جامع كبير، فى الجانب القبلىّ منه خمس أبلطَة ، وفى سائر الجوانب بلاطتان متّسعتان ، وهى على أعمدة من السَّوارِى المصنوعة من صَميم الحجارة المنحوتة قطعة على قطعة ، مُفْرَغة بالرَّصاص ، ولا قسىّ عليها ، وهى فى نهاية من الطول متّصلة بسقف المسجد ، فتحار العيون فى تفاوت ارتفاعها، فما رُئىَ فى الأرض مسجد أعْلَى سقفاً منه ، ولا أطول أعمدة ، ولهذا الجامع آثار كثيرة منها بيت بإزاء المحراب عن يمين مستقبل القبلة ، يقال إنه كان مُصَلَّى الخليل إبراهيم عليه السلام ، وعليه ستر أسود صونَاله ، ومنه يخرج الخطيب لابساً ثياب السواد للخطبة ، والناس يزدحمون على هذا البيت للصلاة فيه ، وبمقربة هذا البيت عن يمين القبلة محراب محلّق عليه بأعواد الساج ، كأنه مسجد صغير مرتفع عن صحن البلاط ، هو محراب علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ،وفيه ضربه الشقىّ عبدالرحمن بن مُلْجَم ، فالناس يصلُّون فيه باكين داعين ، وفى الزّواية من البلاط القبلىّ المتّصل بآخر البلاط الغربىّ شبه مسجد صغير محلّق عليه أيضا بأعواد الساج ، وهو مَفارُ التَّنُّور الذى كان آيَةَ نوح عليه السلام ،ويتصل بالجدار القبلىّ فضاء ، يقال إنه كان منشأ السفينة .

ومع هذا الفضاء دار علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ـ تلقّينا هذه الآثار

---

(١) هو محمد بن أحمد بن جبير الأندلسى البلنسى الرحالة ، قام برحلته الأولى إلى المشرق من غرناطة سنة ٥٧٨ ، وعاد إلى وطنه سنة ٥٨١ ، ووصف مشاهدته فى كتابه المعروف برحلة ابن جبير .

رفع المسهم

من أشياخ البلد وفى الجهة الشرقيّة بيت قبر مَسلمة بن عَقيل ، وفى جوف الجامع سقاية كبيرة فيها ثلاثة أحواض كبار ، وفى غربىّ المدينة على مقدار فرسخ المشهد الشهير المنسوب لعلى بن أبى طالب حيث بركتْ ناقته ، وهو محمول عليها ميِّتاً ، وفيه قبره ، والله تعالى أعلم بصحة ذلك . والفُرات فى الجانب الشرقىّ على قدر نصف فرسخ ، والجانب الشرقى كله حدائق نخل ماتفّة يمتد سوادها امتداد البصر (١) .

* * *

قوله : « سمرت » أى ذهب نومى . الأديم : الجلد ، وأراد أنّ لون الليلة فيه سواد وبياض ، لأن قمرها ناقص ، ولذلك جعله . كتعويذ من لجُينٍ ؛ وهو خرز فضة ، يُستعمل مستديراً استدارة القمر ، وبعض الدائرة ، فارغ فيربط فى الدائرة خيط ، فيعلّق فى أعناق الصبيان .

[مما ورد فى الهلال من الشعر]

وقال فيه السكرادى :

قُمْ سَلِّ هَمِّى بالمدا م ففيه همّ قد أمضّهْ
أَوَ ما ترى قمر السّما ء كأنه تعويذ فِضّهْ
فـإذا ألمَّ به المحا ق تخالُه فى الخدِّ عَضّهْ

وعلى معنى البيت الآخر ، قال إسماعيل القاضى يصف الهلال :

اسقنِى قبل صاحبى واخشَ صَرْفَ النوائبِ
فالهلال الذى يـلو حُ خلال الغَيَاهِبِ

(١) رحلة ابن جبير ١٨٩ ، ١٩٠ .

رفع المسهم

مثل فخ اللجين صيـ ـغ لصيد الكواكبِ

وقال القاضى أبو محمد عبد الوهاب :

لمّا رأيت الهلال مُنطوياً في غرّة الفجر قارن الزُّهَرَهْ
شبَّهتُه والعيانُ يشهد لى بصولجانٍ أوفى لضربِ كُرَهْ

وقال القاضى أبو الحسن بن لبّال :

انظر إلى الهلال إذْ لاح بهىّ المنظرِ
كزورقٍ من فضةٍ وسط لُجَينٍ أخضَرِ

أخذه من قول ابن المعتزّ :

أهلاً بفِطْرٍ قد أنار هلالُهُ فالآن فاغْدُ إلى المُدام وبَكِّرِ (١)
وانظر إليه كزورقٍ من فضّةٍ قد أثقلته حمولة من عنبَرِ

وله أيضاً :

أهلاً وسهلاً بالنّاى والعود وشُربِ كأسٍ بكفٍّ مَقْدُودِ
قد انقضت دولةُ الصيام وقد بشَّر مرأى الهلال بالعيدِ
يتلُو الثريا كفاغرٍ شَرِهٍ يفتح فاه لأكْلِ عنقُودِ

وقد شبَّهه ابنُ المعتزّ بقُلامة الظفر ، فأحسن حيث يقول :

وجاءنى فى قميص اللّيل مستتراً يستعجل الخطوَ من خَوْفٍ ومن حَذَرِ
ولاح ضوء هلالٍ كاد يفضحه مثلُ القُلامةِ قد قُدَّت من الظُّفُرِ

(١) ديوانه ١١٦ . ديوان المعانى ١ : ٣٤٠

وأخذه من قول الأعرابيّ :

كأنَّ ابن مُزنتها جانحًا فَسِيط لدى الأفق من خِنْصَرِ (١)

ابن مزنتها : الهلال . الفسيط : قُلامة الظفر .

قوله: «غذوا» : أى ربُّوا به وجُعل غذاءهم ؛ واللِّبان للآدميات ، واللبن للآدميات وغيرهنّ . سَحبوا: جرّوا. سحبان : فصيح العرب ، وانظره فى السادسة عشرة . ذيل النسان :طرَفه ،يريد أنهم بفصاحتهم أنْسَوْا ذكر سَحبان، فكأنهم جرّوا عليه ثوب النسيان حتى غطّوْه ، فلم يذكره أحدمن هؤلاء ، وأصل ذلك أن يُسحب ذيل الثوب على أثرٍ ليخفى ، كقول امرىء القيس :

* تُعفّى بذيل الدّرع إن جئتُ موئلى *

وكقوله :

خرجْتُ بها تمشى نَجرُّ وراءنَا على أثَرَيْنَا ذيلُ مِرْطٍ مُرحّلِ (٢)

قوله :«يُحفظ عنه» ، أى هم علماء يروون العلم فيحفظ عنهم. يُتحفّظ ، يُتحذّر ، وأخذ هذا من قول سليمان بن عبد الملك : قد أكلتُ الطّيب ، ولبست اللّين ، وركبت الفارِهَ ، وتبطّنت العذراء ، فلم يبق لى من لذتى إلا صديق أطرح فيما بينى وبينه مؤنة التحفّظ. فهذا الذى طلبه سليمان وجده الحريرىّ فى أصحابه، وأصل التحفّظ الاجتهاد فى حفظ الشىء وقلة الغفلة فى الأمور ، كأنه على حذر ، وأنشد ثعلب :

إنّى لأبغض عاشقًا متحفّظًا لم تتهمه أعْينٌ وقلُوبُ

---

(١) اللسان ــ فسط ، ونسبه إلى عمرو بن قميئة وهو أيضا فى ديوان المعانى ١ : ٣٣٩

(٢) ديوانه ١٤

رفع المسهم

قوله: «يميل الرفيق إليه»، تقول: مِلْت إلى فلان، إذا أحببته وتقرّبت منه، ومِلْت عنه، إذا كرهته وبَعُدت عنه. والرفيق: الصاحب يُرتفق به في السفر. قوله: «استهوانا»، هوَى بنا وشغلنا. والسَّمَر: الحديث يُسمر عليه. وذكر الحريريّ أن أصل السَّمَر ظل القمر، والسَّمَر: الحديث، ومنه أخذ السمير، وغالب أحوال السّمّار أنهم يتحدثون في ظل القمر - وذكر هذا في تفسير الرابعة والأربعين - وهو الأصل، ثم اتسع فيه فصار الجلوس بالليل للحديث يسمى سَمَراً، على أيّ حال اتفق. روّق: ضرب رِواقه، والرواق. الثوب يُستظلّ به من الشمس، يريد أنّ الليل ضرب عليهم من ظلامه رواقاً فاحتجب عنهم به القمر. والبهيم: الخالص السواد، والبهيم الخالص من كلّ لون. والتهويم: النوم بالليل، والتغوير: النوم في القائلة، وقد هَوّم الرجل، إذا أسقط النُّعاس رأسَه فانتبه بسقوطه فرفعه، فحقيقته سجود الرأس من النعاس، قال ذو الرُّمّة في ذلك:

وأشعثَ مثل السَّيف قد لاَحَ جسمَه ... وجيفُ المهارَى والهموم الأَباعِدُ[1]
سقاه النُّعاس كأسَ سكر فرأسُه ... لدين الكَرَى في آخر الليل ساجِدُ[2]

ويقال: خفق رأسه فهو خافق، قال ذو الرّمة:

وخافقِ الرأس فوق الرَّحْلِ قلت له ... زُعْ بالزّمام وجوْزُ الليل مَرْكُوم[3]

وقال الرصافيّ[4] فأحسن:

ومجدِّين للسُّرَى قَدْ تعاطَوْا ... غفواتِ الكَرَى بغير كئوسِ
جَنَحُوا وانْحنَوْا على العيسِ حتَّى ... خِلْتُهم يلثمون أيدى العِيسِ
نبذوا الغُمض وهو حلْوٌ إلى أن ... وجدوه سُلاَفَةً في الرءوس

(١) ديوانه ١٣٠.
(٢) الديوان: «سقاه الكرى كأس النعاس وما درى».
(٣) ديوانه ٥٧٩. وزع بالزمام، أى اعطف الناقة بالزمام.
(٤) هو أبو عبدالله محمد بن غالب الرصافى، والأبيات فى ديوانه ١٠٣.

قوله : « نبأة » ، أى صوت . مُستنبح : يحكى نُباح الكلاب ، وكان الرجل إذا تلف بالليل بالصحراء ولم يدر أين يتوجَّه ، حاكى بصوته نُباح الكلب ، فإن كان قريباً من العمران نَبَحتْ لنُباحه كلاب الحىّ ، فسمع أصواتها ، فقصد الحىّ. تتسمَّى العرب مَنْ يفعل هذا المستنبِح . وأنشد أبو علىّ فى نوادره :

ومستنبحٍ بات الصدى يستتيهُهُ ... فتاهَ وجَوْزالليل مضطرب الكِسْرِ (١)
رفعتُ له ناراً ثقوباً زنادُها ... تُليح إلى السارى : هلُمَّ إلى قِدْرِى

وقال حسان بن ماثل :

ومستنبحٍ فى جُنح ليلٍ دعوتُه ... بمشبوبة فى رأس ضَمْدٍ مقابل
فقلت له أقبل ، فإنَّك راشدٌ ... وإنَّ على النار النّدى وابنُ ماثِل

وقد أنشد أبو تمام فى حماسته فى باب الأضياف فى المستنبح ما فيه كفاية ؛ فلينظر هنالك .

قوله : «تلتها» ، أى تبعتها . صكّة : دفعة . مستفتِح : طالب فتح الباب . الملمّ : الزائر : المدلهمّ : الشديد السواد ، من الدّهمة ، ولامه زائدة .

* * *

يا أَهْلَ ذَا الْمَغْنَى وُقِيتُمْ شَرًّا ... ولاَ لَقِيتُمْ مَا بَقِيتُمْ ضُرًّا
قَدْ دَفَعَ اللَّيْلُ الَّذِى ا كْفَهَرَّا ... إِلى ذَرَاكُمْ شَمِثاً مُغْبَرًّا
أَخَا سِفارٍ طالَ وَاسْبَطَرَّا ... حَتَّى انثَنَى مُحْقَوْقِفاً مُصْفَرًّا
مِثْلَ هِلاَلِ الأُفقِ حِينَ افتَرَّا ... وَقَدْ عَرا فِناءَكُمْ مُعْتَرًّا
وَأَمَّكُمْ دُونَ الأَنامِ طُرًّا ... يَبْغِى قِرًى مِنْكُمْ وَمُسْتَقَرًّا

(١) أمالى القالى ١ : ٢١٠ ، ونسب أبو عبيد البكرى فى اللآلى هذا الشعر إلى رجل من بنى الحارث بن كعب . وجوز الليل : وسطه ، وكسر البيت : جانبه .

رفع المسهم

فَدُونَكُمْ صَيْفًا فنُوعًا حُرًّا يَرْضَى بِمَا الْحَلْوَى وَمَا أَمَرَّا
وَيَنْثِنِي عَنْكُمْ يَنُثُّ الْبِرَّا

* * *

المُغْنَى : المنزل . وقُيتم : كفيتم ، وإنما دعا لهم بهذا ، لأن فى حديث أبى سعيد الخُدرىّ رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يوشك قلوبُ الناس أن تملأ شرًّا حتى يجرى الشرّ فضلاً بين الناس فلا يجد قلباً يدخله » .

اكفهرّ : تراكم ظلامه وكثر . ذَرَاكم : منزلكم وكنّكم ، وكلُّ ما استترت به من ريح أو مطر أو شمس فهو ذَرًا . شَعِثًا : متغيّر الشعر ، والشعث : ترك غسل الرأس حتى يتغيّر . مغبرًّا : عليه الغبار ، وفى الحديث عن جابر بن عبدالله رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً وسخت ثيابه ، فقال : « أما وجد هذا ما ينقى به ثيابه ! » . ورأى رجلاً شَعِث الرأس ، فقال : « أما وجد هذا ما يسكّن به شَعره ! » . أخاً سِفار : صاحب أسفار ، أى ملازم لها . اسبطرّ : امتدّ وطال سفره . انثنى : رجع وعاد . محقوقفاً : منحنياً . الأنق : ناحية السماء . افترّ : انفتحت أطرافه ولم يتقارب ، كأنه فرّ هذا من هذا ، ومنه فررت الدابة ، وافترّ : ضحك ، وشبّه انحناؤه من السفر بدائرة القمر الناقص ، وأكثر ما يوقعون هذا التشبيه على الانحناء من الكِبَر ، قال الشاعر :

تقوّس بعد مَرّ العُمر ظهرى وداستنى اللّيالى أىَّ دَوْسِ
فأمشى والعصا تَهْوِى أمامِى كأنّ قوامَها وترٌ لقوسِى

وقال ابن لبّال :

قوّس ظهرى المشيب والكِبَرُ والدّهر ياعمرُو كُلُّهُ عِبَرُ
كأننى والعصا تدبّ معى قوسُها وهى فى يدى وَتَرُ

رفع المسهم

قوله : « عَرَا » : قصد . فناءكم : منزلكم ، وفناء الدار : ما أحاط بها من الأرض فحمته . معترًّا : قاصدًا لطلب معروفكم ، أمّكم : قصدكم . طُرًّا : أجمع . يبغى قِرًى : يطلب طعاماً . احلولى : اشتدّت حلاوته . ينُثّ : يفشى وينشر . البرّ : الإحسان .

* * *

قال الحارثُ بن همَّامٍ : فلما خَلَبَنَا بعُذُوبةِ نُطْقِهِ ، وَعَلِمْنَا مَا وراءَ بَرْقِهِ ، ابْتَدَرْنَا فَتْحَ البابِ ، وَتَلَقَّيْنَاهُ بالتَّرحابِ ، وَقُلْنَا لِلْغُلَامِ : هَيَّا هَيَّا ، وَهَلُمَّ مَا تَهَيَّا .

فقال الضَّيف : وَالَّذِى أَحَلَّنِى دَارَكُمْ ، لاتَلَمَّظْتُ بِقِرَاكُمْ ، أَوْ تَضَمَّنُوا لِى أَلاَّ تَتَّخِذُونِى كَلاًّ ! وَلاَ تَجَشَّمُوا الأَجْلَى أَكْلاً ؛ فَرُبَّ أَكْلَةٍ هَاضَتِ الآكِلَ ، وَحَرَمَتْهُ مَآكِلَ ، وَشَرُّ الأَضْيَافِ مَنْ سَامَ التَّكْلِيفَ ، وَآذَى المُضِيفَ ، خُصُوصاً أَذًى يَعْتَلِقُ بالأَجْسَامِ ، وَيُفْضِى إِلَى الأَسْقَامِ ، وَمَا قِيلَ فِى المَثَلِ الذى سَارَ سَائِرُهُ : « خَيْرُ العَشَاءِ سَوَافِرُهُ » ، إلاَّ لِيُعَجَّلَ التَّعَشِّى ، وَيُجْتَنَبَ أَكْلُ اللَّيْلِ الَّذِى يُعْشِى ، اللَّهُمَّ إِلاَّ أَن تَقِدَ نارُ الجُوعِ ، وَتَحُولَ دُونَ الهُجُوعِ .

* * *

قوله : « خلَبنا » ، أى خدعنا . علمنا ماوراء برقه ، يريد أن ما أبدى لهم من الكلام الفصيح دلّهم على ما عنده من العلم ، كما أن البرق إذا ظهر ولمع عُلِم ماوراءه من المطر . ابتدرنا : استبقنا ، الترحاب : من قولهم . مرحبا مرحباً . هيّاهيّا ، أى سق سق . هلم ما تهيّا ، أى أحضِرْ ماتيسر . لاتلمّظت بقِراكم : لا تذوّقت بطعامكم ،

وأصل التلمّظ تتبع اللسان ما بقى من الطعام فى الفم بعد الأكل . كَلا : ثقيلاً ، وفلان كَلٌّ على أهله ، إذا لم يكفهم مؤنة نفسه ، والكَلّ : الإعياء ، وجمعه كلول ، وعلى فلان كلٌّ كثير ، قال النابغة الجَعْدِىّ :

رأيتم بنى سعدٍ كلولاً كثيرةً شهيدٌ بذاك ابنا حُمادِ بن أحمرا (١).

تجشّموا : تكلفوا . أكلا : طعاما ، والأكلة : الغداء والعشاء ، والأصل فى هذا أنّ الأكل بالفتح ، مصدر أكل ، وبالضمّ ما أكِل ، والأكلة بالفتح : المرّة الواحدة ، وبالضم اللقمة ، وبالكسر هيئة الأكل . هاضت : أضعفت ، وأدخلت عليه هيضةً ، وهى القىء والإسهال ، وأصل المثل : رب أكلة تمنع أكلات ؛ وقال ابن هرمة :

ورُبّتَ أكلةٍ منعت أخاها بلذّة ساعةٍ أكلاتِ دَهْرِ
وكمْ من طالب يُشْفَى بشىء وفيه هلاكه لو كان يَدْرِى

والمآكل : جمع مأكلة أو مأكل ، وهى الأُكُل ، وهى أيضاً مايؤكل . سامَ التكليف ، أى عرّض مضيفه إلى تكلّف مايشقّ عليه . والأذى : الضرر ، والمضيف : صاحب المنزل . يفضِى : يئول . سار سائره : انتشر التحدّث به ومشى فى الناس . خير العشاء سوافره ؛ بواكره ، أى ماأكل منه بضوء النهار ، واحدها سافرة ، والسافرة : المرأة التى سَفَرت نقابها عن وجهها ، أى كشفته ؛ فكأن اللقمة إذا أبصرتها عند أكلها قد سَفَرت الظلام عن نفسها ، وتُجمع على سوافر على هذا المعنى ، حكى أبو بكر بن شعبان النحوىّ ، قال : دخلت على محمد اليزيدىّ وهو يتغدّى ، فقال : يا أبا بكر ، خيْر الغداء بواكره ، فخير العشاء ماذا ؟ فقلت : لا أدرى ، فقال : دخلت على حسين بن الخادم ، وهو يتغدّى فقال :

(١) ديوانه : ٥٦

يا أبا سليمان ، خير الغداء بواكره ، فخير العشاء ماذا ؟ فقلت : لا أدرى ، فقال : كنت بحضرة الرشيد وهو يتغدّى ، فدخل الأصمعىّ ، فقال : يا أصمعىّ ، خير الغداء بواكره ، فخير العشاء ماذا ؟ فقال: بواصرُه ، يعنى مايُبصَر من الطعام قبل الظلام . وحكى أبو يعقوب فى الغداء التأخير. فقال : قال الحكيم ـ وقيل هو لعلىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه ـ من سرّه البقاء ولا بقاء . فليبكر الغداء ، وليباكر العشاء ، وليخفف الرّداء ـ يريد ثقل الدَّين .

التعشّى : أكل العشاء ، وهو ما يؤكل بالعشىّ . يُعشِى : يورث العَشَا ، وهو سواد البصر ليلا ، قال ابن دُرَيد :

وأرى العَشَا فى العين أكثر ما يكون من العَشاء[1]

أراد من تأخير العشاء ، لأن أكل الطعام بالليل يحدث ضعف البصر أكثر من غيره ، وقال كشاجم :

وَنَديمٍ مخالفٍ لا يشاء الّذى أشا[2]
هو فى الصّحْوِ لى أخٌ وعدوّ إذا انْتَشَى
اقترحت العَشَاء يو ماً عليه فأدْهَشَا
ساعةً ثم قالى لى : العَشا يورث العَشَا

كأن هذا التطبّب أخذه كشاجم من قول [ضيف] الصاحب بن عباد ، قال الصاحب : ما أفحمنى أحد كأبى الحسن البديهىّ ، فإنه كان عندى، فقدّمت إليه فاكهة، فأمعن فى المشمش ،فقلت : المشمش يلطّخ المعدة ، فقال : لا يعجبنى المضيف

(١) ديوانه ٣٠ . والعشا المقصور داء فى العين ، والممدود الأكل عشيا .
(٢) ديوانه ١٠٦ .

إذا تطبّب ، فودِدت أنى لم أقلها .

وورد النهى عن ترك العشاء فى حديث أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لاتدَعوا العَشاء ، ولو بكفٍّ من حَشَفٍ[1] ، وإنّ تركه مَهْرَمَةٌ » .

وقوله : «تحول دون الهجوع» ، أى تمنع من النوم ، وجاء فى الحديث النّهى عن التكلف ، قال سفيان : ذهبت أنا وصاحبٌ لى إلى سلمان ، فقال : لولا أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نَهى عن التكلّف لتكلّفت لكم ، ثم جاء بخبز وماح ، فقال صاحبى : لو كان فى ملحنا صَعْتَر ! فبعث سلمان مِطْهرته[2] ، فأرهنها[3] ، فجاء بصعتر ، فلما أكلنا قال صاحبى : الحمد لله الذى أقنعنا بما رزقنا ، فقال سلمان : لو قنعت لم تكن مطهرتى مرهونة ! وجاء فى حديث جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « نعم الإدام الخلّ » ، وكفى بالمرء إثماً أن يسخط ماقُرّب إليه . الهجوع ، أى النوم .

* * *

قال : فكأنّهُ اطّلع على إرادتنا ، فرمى عن قوس عقيدتنا ، لاَ جَرَمَ أنّا آنسْنَاهُ بالْتِزَام الشَّرْطِ ، وأثنينا عَلَى خُلُقِهِ السَّبْطِ . وَلَمَّا أحْضَرَ الْغُلاَمُ مَا رَاجَ ، وَأذْكَى بَيْننا السِّرَاجَ ، تأمَّلْتُهُ فإذا هُوَ أبُو زيدٍ ، فقُلْتُ لِصَحْبِي : لِيَهْنِئْكم الضَّيْفُ الواردُ ، بل الْمَغْنَمُ البارِدُ ! فإن يَكُنْ أفَلَ قَمَرُ الشِّعْرَى فقَدْ طَلَعَ قَمَرُ الشِّعْر ، أو استَسَرَّ بَدْرُ النَّثْرَةِ فقَدْ تَبَلّجَ بَدْرُ النَّثْرِ . فَسَرَتْ حُمَيَّا المسرّة فيهِمْ ، وَطَارَتْ السِّنَة عَنْ مَآقِيهِمْ ، وَرَفَضُوا الدَّعَةَ الَّتِى كَانُوا نَوَوْهَا ،

(١) الحشف : ردىء التمر . (٢) المطهرة : إناء يتطهر به .
(٣) أرهنها : جعلها رهنا .

رفع المسهم

وثابُوا إِلَى نشْرِ الْفُكاهَةِ بَعْد مَا طَوَوْها ؛ وَأبو زيد مُكبٌّ عَلَى إعمالِ يَدَيْهِ ، حَتَّى إِذَا اسْتَرْفَعَ مَا لَدَيْهِ ، قُلْتُ لَه : أطرِفْنَا بغَرِيبَةٍ مِنْ غَرَائِبِ أَسْمَارِكَ ، أَوْ عَجِيبَةٍ مِنْ عَجَائِبِ أَسْفَارِكَ . .

* * *

قوله : «عقيدتنا» ؛أى ما انعقدت عليه نيَّاتنا،ويقال : رميت عن القَوس ، ولا يقال : رميت بها ،إلاَّ أن ترميَها من يدك . لا جرم ، بمعنى حقا .ولا بدّ ولا محالة . السَّبط : السهل . راج : تيسر . أذكى : أوقد . السِّراج : المصباح . تأملتُه : نظرته.ليهنئكم ، أى ليسرّكم . الوارد : القاصد . المغنم البارد : الهنىء الذى يُغنَم دون قتال ولا تعب . أفل : غاب . الشِّعرى : كوكب معروف ، وهما شعريان : العَبور والغُمَيصاء ، سَمَّوْها عَبوراً لأنهم يزعمون أنها عبرت المجرّة ، وسموا الأخرى الغُميصاء لأنها بكت على أختها حتى غمصت عينها . أى خفيت . استسرّ : غاب وخفى . النّثرة : ثلاثة أنجم مجتمعة . تبلّج : ظهر وأضاء . النثر : ضد النظم ، يقول : إن غاب قمر السماء الذى يتحدّث بضوئه ، فهذا أبو زيد قمر الفصاحة قد طلع ، فجدّدوا حديثكم ودعوا النوم .

سَرتْ: مشت. حميّا المسرّة: شدة السرور ،والحميّا : حدّة الخمر وتسمّى الخمر الحميّا . السِّنَة : أخفّ من النوم . مآقيهم : عيونهم ، والمأق: طرَف العين من جهة الأنف . رفضوا : تركوا. الفكاهة:الحديث المظرّف ، وأصلها المزاح ،ومنه قولهم: لا تمازحنّ صبيًّا ولا تفاكهنّ أَمَة ، قال ابن الأنبارىّ : المعنى:لا تمازحنّ ،إلا أنه استسمج إعادة اللفظ فأتى بلفظ فى مثل معناه ، مخالف للفظه .وتفاكهنّ ، مشتق من الفكاهة ،وهى المُزاح ،وقال طرَفة :

وإنّ امرأ لم يَعْفُ يوماً فكاهةً ... لمنْ لم يُرِدْ سوءا بها لَجَهُولُ[1]

(١) ديوانه ١٢٠ .

ووصف أبو العيناء ابن أبي دواد ، فقال: له هزل يؤتم به، وجد يتقدم الجد، وبين ذلك فكاهة تستملح ، ودعابة تستظرف . ومزح ، مصادره ثلاثة : مَزْح ومُزَاح وممازحة. اليزيدي: المِزاح ، بالكسر لا غير. أبو عمرو: ما ذكره اليزيدي مصدر ما زحت مِزاحاً وممازحة .

قوله : «مكبّ» ، أي مائل الرأس . إعمال يديه: استعمالها بالأكل . واسترفع: أمر برفعه ، ويروى «استفرغ» ، أي أتمّ . أطرفنا، أي حدّثنا بطُرفة ، وهي الحديث المستملح، والطرْفة عند العرب : الشيء الحدَث الذي لم يكن عرف ، وجاء فلان بطرْفة وشيء طريف. وهو مشتقّ من الطريف والطارف ، وهما المال المستحدَث الذي جمعه الرجل واكتسبه. والتالد : ما ورثه عن الآباء ، قال الشاعر :

وأصبح مالي من طريفٍ وتالدٍ ... لغيري وكان المال بالأمس ماليا

أسمارك : جمع سمر ، وهو الحديث يُسْمَر عليه .

* * *

فقال : لَقَدْ بَلَوْتُ مِنَ الْعَجَائِبِ مَا لَمْ يَرَهُ الرَّاءونَ ، وَلاَ رَوَاهُ الرَّاوُون ؛ وَإِنَّ مِنْ أَعْجَبِهَا مَا عَايَنْتُهُ اللَّيْلَةَ قُبَيْلَ انْتِيَابِكُمْ ، وَمَصِيرِي إِلَى بَابِكُمْ ؛ فاسْتَخْبَرْنَاهُ عَنْ طُرْفَةِ مَرْآه ، فِي مَسْرَحِ مَسْرَاه ، فقال : إِنَّ مَرَامِيَ الْغُرْبَةِ ، لَفَظَتْنِي إِلَى هَذِهِ التُّرْبَةِ ، وَأَنَا ذُو مَجَاعَةٍ وَبُؤسَى ، وجِرَاب كَفُؤَادِ أُمِّ مُوسَى . فَنَهَضْتُ حِينَ سَجَا الدُّجَى ، عَلَى مَا بِي من الوَجَى ، لأَرْتَادَ مُضِيفاً ، أَو أَقْتَادَ رَغِيفاً ، فَسَاقَنِي حَادِي السَّغَبِ ، وَالقَضَاءُ المَكْنِيُّ أَبَا العَجَبِ ، إِلى أَن وَقَفْتُ على باب دار ، فَقُلْتُ على بدارٍ :

* * *

قوله: «مالم يره الراءون»، أى الناظرون إليه، وقوله: «ولا رَوَاه الراوون» أى حفظه الحافظون. عاينته: شاهدته ورأيته بعينى. انتيابكم: قصدكم. مصيرى: رجوعى. مرآه: رؤيته. مسرح: حيث يسرح ويمشى. مسراه: سيره بالليل. مرامى: قواذف التربة: البلدة. مجاعة: جوع. بؤسى: ضرر. جراب: وعاء الزاد. كفؤاد أم موسى، أى فارغًا لقوله تعالى: ﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغًا﴾(١).

[قصة موسى عليه السلام قبل مبعثه]

وسمِّىَ موسى لأنهم وجدوه بين ماء وشجر، وهو بالقبطية هو الماء، وشا الشجر، فعرّبت فجعلت الشين سيناً. وهو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، ولم تزل بنو إسرائيل من عهد يوسف عليه السلام تحت أيدى الفراعنة، وهم على بقايا من دين إبراهيم عليه السلام المشروع له وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم الصلاة والسلام، حتى كان فرعون الذى بعث موسى عليه السلام إليه، ولم يكن منهم فرعون أعتى على الله منه ولا أطول عمرا. وكان شديد الغِلْظة سيّئ الملكة. واسمه الوليد بن مصعب، وكان اتّخذ بنى إسرائيل خَوَلاً، فصِنْفٌ منهم يبنون، وصِنْفٌ يحرثون، ومن لا عمل له وظّف عليه الجزية، فرأى فى منامه أن ناراً أقبلت من المقدس، فأحرقت القِبْط وتركت بنى إسرائيل، فسأل عن رؤياه، فقيل له: يخرج من هذا البلد الذى جاء بنو إسرائيل منه رجل يكون على يديه هلاك مِصْر، فأمر بقتل كلّ مولود يولد فى بنى إسرائيل. فجمع القوابل وعهد إليهن بذلك، فذبح الوِلْدان وعذّب الحبالى، حتى يطرحن ما فى بطونهن، حتى كاد يفنيهم، فقيل له: إنما هم خَوَلُك، وإنك إن تُفْنِهم ينقطع النسل. فأمر بقتل الغلمان عاماً ويُستحيون عاما، فولد هارون فى السنة التى يستحيون فيها. وولد موسى فى السنة التى يقتلون فيها.

فلما وضعته أمه حَزِنت لشأنه، فأوحى الله إليها: أن أرضعيه، فإذا خفت

(١) سورة القصص ١٠

عليه فألقيه فى اليمّ ـ وهو النيل ـ ولا تخافى ولا تحزنى. فعملت تابوتا وجعلته فيه، وألقته فى اليمّ، وقالت لأخته: قصّيه، أى اقتفى أثره، فحمله الماء حتى أدخله بين أشجار تحت قصر فرعون، فخرج جوارى فرعون يغتسلن، فوجدن التابوت، فأدخلنه إلى آسية امرأة فرعون، وهى بنت مزاحم، إسرائيليّة، فكشفت عنه التابوت، فرأته. فرحمته وأخذته، وأخبرت به فرعون، فأراد أن يذبحه، وخشىَ أن يكون المولودَ الذى حُذِّرَ منه، فلم تزل به آسية حتى تركه لها، وذلك قوله تعالى: ﴿ فالتَقَطَه آلُ فِرْعَوْن لِيَكونَ لهم عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾[1]، فاللام من ﴿ ليكون ﴾ للعاقبة، ولم يكن لفرعون ولد، فاتّخذه له ولدا، فارتادوا له المرضعات، فلم يقبل ثدْىَ واحدة منهن، ولما غاب أمرُه عن أمه، كاد قلبها يطير وَجْداً عليه، فبعثت أخته كأنّها تلتمس رضاعه، فلما رأت أسفهم عليه حيث لا يُقبل على مرضعة ـ وذلك قوله تعالى. ﴿ وحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ﴾ ـ قالت: هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم؟ فقالوا لها: دلّينا على ذلك، فذهبت فجاءت بأمه.

فلما رأته كادت لشدّة حبّها فيه، وفرحها به أن تقول: هو ابنى، وتفتضح، فعصمها الله من ذلك، وذلك قوله تعالى: ﴿ وأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسى فارغا إنْ كادَتْ لتُبْدِى به لولا أن رَبَطْنا على قلبها ﴾، فأعطته ثديها، فأخذ يرضعه. فربّته فى قصر فرعون، فلما تحرّك عرضته آسية على فِرْعون، فلما أخذه مدّ موسى يده إلى لحيته فنتفها، فقال فرعون: علىّ بالذبّاحين، فإنما هو هذا! فقالت آسية: قُرَّة عينٍ لى ولك، لا تقتلوه فإنه صبىّ لا يعقل، ودعت له بجمر وياقوت لتختبره، فطرح جبريل عليه السلام يده فى النار وأخذ قطعة منها، فوضعها موسى عليه السلام فى فمه، فأحرقته. فتركه فرعون، فكبر فى حجره. فلمّا ترعرع تبنّاه، فكان يركب مراكبه ويلبس ملابسه، ويُدعى ابن فرعون.

(١) سورة القصص ٨. (٢) سورة القصص ١٢.
(٣) سورة القصص ١٠.

رفع المسهم

ثم إن موسى عليه السلام أخبر أن فرعون قد ركب ، فركب أثره ، فأدركه ببلد منف ، فدخلها وقد أُخْلِيَتْ لفرعون وليس فى طرقها أحد ، فرأى إسرائيليا مع قبطىّ يقتتلان ، فاستغاثه الإسرائيلىّ ، فوكز القبطىّ فقضى عليه ، فكان من قصته معهما ماقص الله تعالى فى كتابه ، حتى خرج خائفا يترقب إلى مدين .

وأما رجوعه منها إلى فرعون بأنه رسول الله إلى أن غرق فرعون فى البحر وجنوده ، فمذكور فى الثامنة عشرة .

* * *

قوله : « نهضت » ، أى مشيت . سجا الدجى : سكن بالظلام وغطّى كل شىء . الوجى : الحفا . أرتاد : أطلب . مضيفاً : منزلاً ، وأضافه : أنزله . وضافه : نزل به فهو ضيفُه ، أى النازل به . أقتاد : أقود . حادى السَّغب : سائق الجوع .

* * *

حُيِّيتُمُ يا أَهْلَ هَذَا الْمَنْزِلِ ... وَعِشْتُمُ فى خَفْضِ عَيْشٍ خَضِلِ

مَا عِنْدَكُمْ لابْنِ سَبِيلٍ مُرْمِلٍ ... نِضْوِ سُرًى خابطِ لَيْلٍ أَلْيَلِ

جوِى الْحَشَى على الطَّوَى مُشْتَمِلِ ... مَاذَاقَ مُذْ يَوْمَانِ طَعْمَ الْمَأْكَلِ

وَلا لَهُ فى أَرْضِكُمْ مِنْ مَوْئِلِ ... وَقَدْ دَجَا جُنْحُ الظَّلامِ الْمُسْبِلِ

وَهْوَ مِنَ الْحَيْرَةِ فى تَمَلْمُلِ ... فَهَلْ بِهَذَا الرَّبْعِ عَذْبُ الْمَنْهَلِ

يَقولُ لى : أَلْقِ عَصَاكَ وادْخُلِ ... وَأَبْشِرْ بِبُشْرٍ وَقِرَى مُعَجَّلِ !

* * *

حُيِّيتم : طابت حياتُكم ، والتحيّة البقاء . خفض : لين وخفض عيشُه خفضاً ، إذا أخصب . خضل : ناعم ، وخضِل : الشىء يخضل خضلاً : ابتلّ . ابن سبيل : خاطر طريق ، وهو الغريب ، وسُمِّى الغريب ابنَ السَّبيل لأنه إذا ظهر على قوم لايعرفونه لم يُعزف له نسب إلا السبيل الذى جاء منه . ومرمِل : لا زاد له ، وأرمل القوم : فنى زادهم

ومن أبيات اللغز فى ابن السبيل :

ونحنُ ابن مَنْ لا ينكِرُ النَّاس فضلَه ... وليس له فى الناس من طالبٍ وِتْرَا
فإنْ تحفَظوا فينا أبانا فحقَّنا ... رَعَيْتُمْ وإلاّ أُوقِدَتْ نارُكم شَرَّا

أى سبيتم فى كل مكان ، كما قال الآخر :

وأنْت الذى شيَّبتَنِى قبل شِيبَتِى ... وأوقَدْت لى ناراً بكلّ مكانِ

ومنها أيضاً :

وأحيانا يكون كبير سنٍّ ... وأحياناً يكونُ من الشَّبابِ
ومنسوب إلى مَنْ لم يلده ... كذاك الله أنْزَلَ فى الكِتَابِ

قوله:« نضو سُرَى»، أى هزيل مِنْ مشى اللَّيْل فى الأسفار . وابط ليل : الذى يمشى فيه على غير هداية . ألْيَل : شديد السواد . جوى الحشى : فاسد الجوف من الجوع ، وهو الطوى . مشتمل : منضمّ ، أى قد انضمّ جوفه على الجوع ، فسدت أحشاؤه. موئل: ملجأ ، من وألت إلى كذا ، أى لجأت . دجا: ألبس . جنح : سواد : المسبِل. المطبق. تململ : تقلّب وتوجّع . والرّبع :المنزل، والمنهل : موضع الماء .

ويقال: ألقى عَصاه، إذا تَرك السَّير وأقام ، وروى الأصمعىّ عن بعض البصريين أنه قال: سُمِّيت العصاعصاً لأن اليد والأصابع تشتمل عليها ، وهو من قول العرب: عصوتُ القومَ إذا جمعتَهم على خير أو شرّ ، ويقال : عُصِىَ بالسيفُ يُعْصَى إذا ضُرِب به كما يضرب بالعصا . بشر : طلاقة وجه .

* * *

قَالَ : فَبَرَزَ إِلَىَّ جَوْذر ، عَلَيْهِ شوذَر ، وقال :

وَحُرْمَةِ الشَّيْخِ الَّذِى سَنَّ الْقِرَى وأَسَّسَ المحجوجَ فى أُمِّ الْقُرَى
مَا عِنْدَنَا لِطَارِقٍ إِذَا عَرَى سِوَى الْحَدِيثِ والمُنَاخ فِى الذَّرَا
* فَمَا تَرَى فِيمَا ذَكَرْتُ مَا تَرَى *

* * *

برز : خرج . جؤذر : ظبى ، وأصله ولد الغزالة . الشوذر : ثوب قصير .

[إبراهيم عليه السلام]

والشيخ الذى سنَّ القِرى ، هو إبراهيم عليه السلام ، واختصّه بلقب الشيخ لأنه أوّل مَنْ شاب ، ولما رأى الشيب،قال : يارب ، ما هذا ؟ فأوحى الله إليه ، يا إبراهيم ، هذا وقار ، فقال : يارب زدنى وقاراً . وشاب وهوابن مائة وخمسين سنة ، وذلك أنه لمّا ولدَت سارة إسحاق ، قال الكنعانيون : ألا تعجبون لهذا الشيخ والعجوز وجَدَا غلاماً ،فتبنّياه!فصوّر الله إسْحَاق على صورة إبراهيم عليهما السلام ، فلم يفصِلْ بينهما ، فوشم الله إبراهيم بالشيب .

قوله :«سنّ» : ابتدأ ، وجَعله سُنَّة ، وهوأول مَنْ ضَيَّف الضيف، وأطعم المساكين ، وقصَّ شاربه ، وقلَّم أظافره واستحدّ واستاك،وفرَق شعره ،ومضمض واستنثَر ، واستنجى بالماء . وأسَّسَ المحجوج ، أى بنى أساس البيت الحرام .

وأمّ القرى: مكّة. والطارق: الآتى بالليل. والمناخ: موضع البروك . يقْرِى : يُضِيف . الكرى: النوم برى أعظمه ،أى أزال اللحم عنها. انبرى : اعترض .

[مما قيل فى القِرى والأضياف]

وقال حبيب فى أنّ أوّل من قِرِى الضيف إبراهيم عليه السلام :

للجودِ سهمٌ فى المكارم والتّقَى لا ربّه المكدِى ولا المسهومُ[1]

(١) ديوانه ٣٠٠ ، والمكدى : الفقير ، والمسهوم : الضامر .

وبيان ذلك أن أوّل من قرى وحبـــا خليلُ الله إبراهيمُ

وقال أبو بحر صفوان بن إدريس فى فتى اسمه إبراهيم ، وأبدع ما شاء حيث قال :

أسَمِيَّ من سنّ القِرى رفقاً بمن يَفنى عليك صبابة وغَرَامَـــا
أنا ضيف حسنِك فاصْطَنِعْنِي إنه ضيفُ الهوى يستوجب الإكْرَامَا
لمّا نظرت نجوم خِيلانٍ بَدَتْ فى صحن وجْنتِك استفدْت مُقَامَا
أفنيتَ جسم الصبِّ شوقاً مثلَما أفْنَى سميُّـك قبلك الأصْنَامَا
يا زهرةً سكنتْ فؤادى غَضَّـةً إنّى تبـــوّأت اللّهيب كمَامَا
حتى كأنّ الحبّ قال لأضلُعِي : يا نَارُ كُنْ برداً له وسَلَامَا

وقال أبو بكر بن ميمون فيما يتعلق بهذه النار :

أبَا قاسم والهوى جَنّـــة وإنىَ من حرِّها لم أُفِقْ
تقَحَّمْتُ جاحِمَ نارِ الحشَى وخضتُ بحار سوادالحدَقْ
أكُنْتَ الخليل وكنتَ الكليم أمنتُ الجوى وأمنتُ الغَرَقْ!

انظر إلى الأضياف الرابعة والأربعين .

* * *

فَقُلْتُ : مَا أَصْنَعُ بِمَنْزِلِ قَفْرٍ ، وَمَنْزِلِ حِلْفِ فَقْرٍ ! وَلَـكِنْ يَافتى ، ما اسْمُكَ ، فَقَدْ فَتَنَنِي فَهْمُكَ؟فَقَالَ :اسْمِي زيْد ، وَمَنْشِئِي فَيْد ، ووردت هَذِهِ الْمَدَرَةَ أَمْسِ ، مَعَ أَخْوَالِي مِنْ بنِي عَبْسٍ .

* * *

رفع المسهم

قوله :« بمنزل قفر »؛ كأن هذا المنزل هو الذى وصفه الآخر حيث يقول :

ليس إغلاق لبابى أنّ لِي ... فيه ما أخشى عليه السَّرَقَا
إنما أغلقته كى لا يرى ... سُوءَ حالِي من يمرّ الطُّرُقَا
منزلٌ أوطِنهُ الفقرُ فلو ... يدخل السارق فيه سُرِقَا

[نبذ وحكايات فى البؤس والحرمان]

إنما أخذ الحريرى هذا المعنى من قصة يزيد المدنى ، وكان من أهل المَلَح ، فاستضافه أعرابىّ ، فقال : ماعندنا إلا الأسودان ، فقال الأعرابىّ : خير كثير ، فقال : لعلك تظنّهما التمر والماء ! والله ما هما إلا الليل والحرّة ،فلم يكن ليزيد دارٌ إلا الحرّة ـ وهى أرض سوداء فيها حجارة سود ، وهى مقبرة المدينة ـ والقبور المجَصّصة تكون بالليل موحشة ، فما ظنك بقبور سود فى أرض سوداء فى ظلمة الليل ! كيف حال من يكون هذا قِراه !فبهذا البلاء أعرض يزيد عن ضيافة الأعرابىّ .

ونحو هذا من أقوال المازحين قول أبى الشمقمق ـ ويروى عن وهب عابد قرطبة :

برزتُ من المنازل والقِبَاب ... فلم يعسُرْ على أحدٍ حجابِي
فمنزلىَ الفضاء وسقفُ بيتى ... سماء الله أو قِطَعُ السحابِ
وإنّى لم أجد مصراع بيتٍ ... يكون من السّحاب إلى التراب
ولا انشقّ الثرى عن عود نحت ... أؤمّل أن أشدّ به ثيابى
ولا خِفْت الإباقَ على عبيدى ... ولا خفتُ الهلاك على دَوابِى
وفى ذا راحةٌ وفراغ بال ... فدأب الدهر ذا أبداً ودابى

رفع المسهم

وقال آخر :

ولمّا التمستُ الرزق فانجذّ حبلُه ... فلم يَصْفُ لى من بحره العذب مَشْرَب
خطبتُ إلَى الإعدام إحدى بناتِه[1] ... فزوّجَنيها الفقر إذ جئت أخطبُ
فأولدتُها الحُرْف الشقّىّ فمالُه ... على الأرض غيرى والدّحين يُنْسَبُ
فلوّتهت فى البيداء والّليل مسبلٌ ... علىّ جناحيْه لما لاح كوكبُ
ولو خفت شرًّا فاستترت بظلِّه[2] ... لأقبل ضوء الشمس من حيث تغربُ
ولو جادَ إنسانٌ علىّ بدرهم ... لرحت إلى رحْلى وفى الكف عَقْرَبُ
ولو يُمطَر الناسُ الدنانيرَ لم يكنْ ... بشىء سوى الحصباء رأسى تُحْصَبُ
وإن يقترف ذنباً ببرقَة مذنبٌ ... فإنّ برأسى ذلكَ الذنب يُعْصَبُ
وإن أر خيراً فى الأنام فنازحٌ ... وإن أر شرًّا فهو منّى مقرّبُ
أمامى من الحِرْمَانِ جيش عَرَمْرَمٌ ... ومنه ورائى جَحفل حين أركبُ

وقال آخر :

لو ركبتُ البحار صارت أُجاجا ... لا ترى فى مُتونها أمواجا
ولَوَ انّى وضعت ياقوتة حمـ ... ـراء فى راحتى لصارتْ زُجَاجا
ولو أنّى وردت عَذْباً فُراتا ... عَادَ لا شكّ فيه ملحاً أُجَاجا

وقال آخر :

لو وردت البحار أطلب ماء ... جفّ قبل الوُرود ماء البحارِ
أو مَسَسْتُ العود النّضير بكفّى ... لذوَى بعد بهجة واخضرارِ
أو رمى باسمى النجوم الدّرارى ... لانزوَى ضوءها عن الأبصار
ولو أنى بعت القناديل يَوْمًا ... أدغِمَ الّليل فى ضياء النهار

(١) ط «من الإعدام» ، وما أثبته من ا ، ب .
(٢) ط : «بظلمة» .

وقال شواش :

كسدت شَواشينا وقَلَّ معاشُنا فسعودُنا مقرونة بنحـــوسِ
فكأنما قُطِعت رءوس الناس أَوْ خُلِـقوا لشقوتنا بغير رءوسِ

قيل لأبى الشمقمق : أبْشِرْ فإنّا روينا فى الحديث : « العارون فى الدنيا هم الكاسون يوم القيامة » ، فأنشأ يقول :

أنا فى حالٍ تعالى الله ربى أىّ حـــالِ
ليس لى شىء إذا قِـــيلَ لِمَنْ ذا ؟ قلت ذَا لِى
فأراضِى الله فرشِى والسَّمٰوات ظلاَلِى
ولقد أفلستُ حتّى حلّ أكلى لعيالِى
من رأى شيئاً محالا فأنا عين المحَالِ
لو بَقِى فى الناس حُرٌّ لم أكن فى مثل حَالِى

قوله : «منزل» ، أى مضيف . حلف : صاحب . منشئ : موضع الذى نشأت فيه .

[ذكر مدينة فيد]

وفَيْد بلد مشهور ، فى نصف المسافة التى بين مكة وبغداد ، وفيها عين ماء ، وينزلها عمّال طريق مكة وأهلها من طيّىء ، وهم فى سَفْح جبلهم المعروف بسلمى ، وقد ذكرها زهير فى قوله :

ثم استمرُّوا وقالوا إنّ مشرَبَـكُمْ ماء بشرقىّ سلمى فَيْدُ أوركُكُ[1]

قال الزجاجىّ : سمِّيت بفيد بن حام ، وهو أوّل مَنْ نزلها ، قال : ويقول أهل العراق : هى من قولهم : فاد الرجل يفيد فَيْداً إذا مات ، أو من قولهم : استفاد فائدة ، وقلّما يقولون : أفاد فائدة ، والفيد أيضاً نور الزّعفران . قال شيخنا ابن جبير[2]

(١) ديوانه ١٦٧ ، وركك : اسم ماء بعينه ، وفى ط : « ركل » تحريف .
(٢) ط : « جرير » ، تصحيف .

رضى الله عنه : إنه خرج من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم بضحْوة يوم السبت الثامن من المحرم سنة سبع وتسعين مع أمير الحاج ، وصبّحوا فيداً يوم الأحد فى اليوم الرابع عشر من خروجهم . ثم وصفها فقال : هى مِصْرٌ كبير ، منفرج فى بسيط من الأرض ، يمتدّ حوله رَبَضٌ ، يطيف به سور عتيق . وهو معمور بسكان من الأعراب يتعيّشون[1] من الحجّاج فى التّجارات والمبايعات وغير ذلك من المرافق ، وفيها يترك الحجاج بعض أزوادهم إعداداً للإرمال[2] من الزاد عند انصرافهم يتركونها عند معارفهم بها ، فإذا رجعوا أخذوا أزوادهم ، ووهبوا لمن أودعوها عندهم شيئا من ذلك .

وهى نصف الطريق من بغداد إلى مكّة أو أقلّ يسيرًا ، ومنها إلى الكوفة اثنا عشر يوما فى طريق سهلة . ودخلها أمير الحاجّ على تعبية وأهبة إرهابا للمجتمعين بها من الأعراب لئلاّ يداخلهم الطمع فى الحاجّ ، لكنّهم لا يجدون إليهم سبيلا والحمد لله . والمياه كثيرة فى آبارها ، تمدّها عيون تحت الأرض ، وامتلأت أيدى الحجاج القادمين من أغنام العرب بالمبايعة ، فلم يبق خَيْمة ولا ظلالة إلا وإلى جانبها كَبْش أو كبشان ، بحسب الوجد ، فعمّ جميع المحلّة الغنم واللبن والسمن والعسل ، فأكلوا واحتملوا ، وكان ذلك اليوم عيداً للركب .

قال : وبهذه المحلّة العراقية ، وما انضاف إليها من الخُراسانية والموصليّة وسائر جهات الآفاق ينزل من صحبة أمير الحاج جمعٌ لا يحصى عددَهم إلا الله تعالى ، يغصّ بهم البَسيط الأفيح ، ويضيق بهم الملهم الضحضح ، فترى الأرض تميد بهم مَيْداً ، وتموج بجمعهم موجًا ، فتصير بهم بحراً طامِيَ العُباب ، ماؤه السراب ، وسفينه الركاب ، وشراعه الظّلال المرفوعة والقباب ، ويسير سير السحاب ، متداخلا بعضها على بعض ، فتعاين تزاحما فى البراح المنفسح يهولُ ويُروع ، واصطكاكا

(١) رحلة ابن جبير : « يلتعشون » .
(٢) أرمل القوم : نفد زادهم .

لمبيع التجارات فيه ، فبعضها ببعض متروع ؛ فمن لم يشاهد هذا السفر العراق لم يشاهدْ عجباً يتحدّث به ، ويتحف السامع بغرائبه ، والقدرة والقوّة لله وحده . وحسبُك أنَّ النازل فى منزل من هذه المحلّة مَتَى خرج لبعض حاجاته ، ولم يكن له دلالة على موضعه ضلّ وتَلِفَ ، وعاد منشوداً بجملة الضوالّ ، وربما اضطر به الحال إلى الوصول لمضرب الأمير ورفع المسألة إليه ، فيأمر أحد المنشدين بما أعدّ لذلك ، فيردفه خَلْفه على جمل ، ويطوف به المحلّة مناديا باسم جماله وبلده ، إلى أن يؤدّيه إلى رفقته .

وعجائب هذه المحلّة كثيرة ، ولأهلها من اليَسار ما يغنيهم على ماهم بسبيله .(١)

وما ذكرنا أمر هذه المحلّة إلا ليستدلّ على أن فيها بلداً فى غاية القوّة والعمارة، حيث أُمِدّ هذا الجمع الكثير والجم الغفير بما تقدم من أنواع الأرزاق ، وإن قبائل طيىء متوفرة بحيث تطلع إلى الغارة على مثل هذه المحلّة . والملك لله وحده مضى الجميع بعد كمال العدّة .

قوله : «وردت» ، أى أتيت . المَدَرة : البلد . عبْس : قبيلة .

* * *

فَقُلْتُ لَهُ : زِدْنِى إيضاحًا ، عشْتَ وَنُعِشْتَ ، فقالَ : أَخْبَرَتْنِى أُمِّى بَرّةُ ، وَهِىَ كَاسْمِهَا بَرَّة ؛ أَنَّهَا نَكَحَتْ عَامَ الْغَارَة بماوَانَ ، رَجُلاً مِنْ سَرَاةِ سَرُوجَ أَوْغَسَّانَ ، فَلَمَّا آنَسَ مِنْهَا الإِثْقَالَ - وَكَانَ بَاقِعَةً فِيما يُقَالَ - ظَعَنَ عَنْها سِرًّا ، وَهَلُمَّ جَرًّا ، فما يُعْرَفُ : أَحَىٌّ هُوَ فَيُتَوَقَّعُ ، أَمْ أُودِعَ اللَّحْدَ الْبَلْقَعَ .

قال أبو زيد : فَعَلِمْتُ بِصِفَةِ الْعَلاَمَاتِ أَنَّهُ وَلَدِى ، وَصَدَقَنِى

(١) انظر رحلة ابن جبير ١٨٣ ، ١٨٤ .

رفع المسهم

عن التَّعرُّف إليْهِ صَفْرُ يَدِى، ففَصَلْتُ عَنْهُ بكَبِدٍ مَرْضوضةٍ، وَدُمُوعٍ مُفْضُوضةٍ . فَهَلْ سَمِعْتُمْ ياأُولى الْأَلْبَابِ ، بأَعْجَبَ مِنْ هَذَا العُجاب! فَقلْنَا : لاَ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتاب ، فقال : أَثبتوها فى عجائب الاتّفاقِ ، وَخَلِّدُوها بُطُونَ الأوراقِ ، فَمَا سُيِّرَ مِثْلُهَا فى الآفاقِ . فأَحضَرْنَا لدَّوَاةَ وَأَساوِدَهَا ، وَرَقَشْنَا الحكايةَ على ماسَرَدَها .

* * *

إيضاحاً : بياناً . نُعِشت : جُبرت. وبَرّة الأول اسمها والثانى صفتها ، يريد أنها مكرّمة كثيرة البِرّ . نكحت: تزوّجت . عام الغارة ، أى عام أغار عليهم عدوّهم . ماوان : بلدة . سراة : سادة . آنس : أبصر . والإثقال : الامتلاء بالولد . باقعة : داهية ، ويقال : إنه الذى جال بقاع الأرض وعرف خيرَها وشرها .

قال ابن الأنبارىّ رحمه الله : فلان باقعة ، أى داهية حذِر محتال حاذق ، والباقعة عند العرب : الطائر الحذِر المحتال الذى يشرب الماء من المَباقع[1] ، ولا يردُ المشارع والمياه المحصورة خوفاً من أن يُحتال عليه فيُصطاد ، ثم شبّه به كل حِذرٍ محتال . هلم جرًّا ، معناه إلى الآن ، قال ابن الأنبارىّ : هلمّ جرًّا ، سيروا على هَيْنتكم ، أى تثبّتوا على سيركم ، ولا تجهدوا أنفسكم ولا تشقّوا عليها ، أخذ من الجرّ فى السوق ، وهو أن تترك الغنم والبقر ترعى فى السير ، وينتصب «جرًّا» فى قول الكوفيين على المصدر ، لأن فى «هلُمّ» معنى «جَرّ» ، وفى قول البصريين: هو مصدر فى موضع الحال تقديره «هلم جارّين» أى مستتبتين، قياساً على: جاء عبدالله مشيا ، وأقبل ركضا ، وجاء وأقبل عند الكوفيين بمعنى مشى وركض . وقال بعضهم : ينصب على التمييز . يُتوقّع : يُنتظر . أودِع : أدخِل . اللَّحْد اليُلْقع :

(١) المباقع : الأمكنة يستق منها الماء .

اللحد الخالى . صدفنى : أمالنى . التعرّف : أن يعرّفه أنه أبوه . صفر يدى : فراغها من الدراهم . فصلت : زلت . مرضوضة : مدقوقة مكسورة . مفضوضة : مفترقة . أولى الألباب : أهل العقول . العُجاب : مبالغة فى العجَب .

خلدوها ، أى أثبتوها . الآفاق : البلدان وجهات الأرض جميعها . أساودها : أقلامها . رقشنا : كتبنا . على ما سردها ، أى كما حكاها وتكلّم بها .

* * *

ثم اسْتَبْطَنَّاه عَنْ مُرْتآه ، فى استضمام فَتَاهُ ، فقال : إذَا ثَقُلَ رُدْنِى ، خَفَّ عَلَىَّ أن أَكْفُلَ ابْنِى ؛ فقُلنا : إنْ كَانَ يَكْفِيكَ نِصَابٌ مِنَ المالِ ، أَلْفَنَاهُ لكَ فى الحَالِ ؛ فقالَ : وَكَيفَ لاَ يُقْنِعُنِى نِصابٌ ، وَهَلْ يَحْتَقِرُ قَدْرَهُ إلاَّ مُصَابٌ !

قال الراوى : فالتزمَ مِنهُ كلٌّ مِنَّا قِسْطاً ، وَكَتَبَ لهُ به قِطَّاً ، فشكرَ عِند ذَلِكَ الصُّنْعَ ، وَاسْتَنفَدَ فى الثَّنَاءِ الْوُسْعَ ، حَتى إنَّنا اسْتَطَلْنَا الْقَوْلَ ، وَاسْتَقْلَلْنَا الطَّوْلَ . ثمَّ إنَّه نَشَرَ مِنْ وَشْيِ السَّمَرِ ، مَا أَزْرَى بالحِبَرِ ، إلَى أَنْ أَظَلَّ التَّنْوِيرُ ، وَجَشَرَ الصُّبْحُ المُنِيرُ ، فَقَضَّيْنَاهَا لَيْلَةَ غَابَتْ شَوَائِبُها ، إلى أن شابت ذوائبُها ، وَكَمَلَ سُعُودُهَا ، إلَى أَنِ انْفَطَرَ عُودُهَا .

* * *

رفع المسهم

استبطنّاه : سألناه وطلبنا منه معرفة باطنه . مُرْتآه : رأيه وغرضه . رُدْنى : كنّى . أكفل : أضمّ . نصاب : عشرون دينارا . ألّفناه : جمعناه . يقنعنى : يكفينى . مصاب : مجنون . قوله : «قسطا» ، أى نصيبا . قِطًّا : كتابا . الصنع : الفعل الجميل . استنفد : استتمّ . الوسع : الطاقة ، ووُسْع الرجل قدر ما يجد من مال أو كلام أو غير ذلك ، وهو من السعة ، أى أثنى غاية ما يمكنه من الثناء . استطلنا : استكثرنا ووجدناه كثيراً طويلا ، والطّوْل : الإنعام والفضل ، أى رأينا ما أنعمنا به عليه قليلا . والوَشْى : ثياب مرقومة بألوان شتّى من الحرير . والحِبَر : ثياب فيها خطوط ورقوم مختلفة ، والحِبَر تصنع باليمن ، فشبّه حسن حديثه بالوشى ، وخصّ الحِبَر لحسن فنونه . وقال ابن الزقّاق ـ وكأنه وصف الليلة والعجاب الذى سأمرهم به أبو زيد ، وزاد عليه الشجاعة :

لِلّه ليلتُنَا الّتى استجدى بهـا ... فَلَقُ الصّباح لِسُدْفَةِ الإظلامِ (١)
طرأت علىّ مع النجوم بأنجم ... من فتيةٍ بيضِ الوجوه كِرَام
إن حوربوا فزِعوا إلى بيض الظُّبَا ... أو خوطبوا فزِعُوا إلى الأقلامِ
فترى البلاغة إن نظرت إليْهِمُ ... والبأس بين يراعةٍ وحُسَامِ

جتر : طلع . قضيناها : أتممناها . شوائبها : ما ينكدها ويكدرها . الذوائب : الشعر الطويل الأسود ، وأراد به ظلام الليل ، وجعل فيه بياض الصبح بمنزلة الشيب فى سواد الشعر ، قال ابن دريد :

إمّا تَرَىْ رأسِيَ حاكَى لونُه ... طُرّةَ صبحٍ تحت أذيال الدُّجَى (٢)

---

(١) ديوانه ٢٩٨ .

(٢) من المقصورة ص ١١٧

انفطر : انشقّ وطلع . عودها : بياض صبحها ، ويقال : انفطر القضيب ، إذا بدَا نبات ورقه ، وقال امرؤ القيس :

* كخُرعوبة البانة المنفطر[1] *

* * *

وَلَمَّا ذَرَّ قَرْنُ الْغَزَالَةِ ، طَمَرَ طُمورَ الْغَزالَةِ ، وَقالَ : انْهَضْ بِنَا لِنَقْبِضَ الصِّلَاتِ ، وَنَسْتَنِضَّ الإِحَالاتِ ، فَقَدِ اسْتَطارَتْ صُدُوعُ كَبِدِي ، مِنَ الْحَنِينِ إِلَى وَلَدِي . فَوَصَلْتُ جَنَاحَهُ ، حَتَّى سَنَّيْتُ نجَاحَهُ ؛ فَحِينَ أَحْرَزَ الْعَيْنَ فِي صُرَّتِهِ ، بَرَقَتْ أَسارِيرُ مَسَرَّتِهِ ، وَقَالَ لِي : جُزِيتَ خَيْراً عَنْ خُطا قَدَمَيْكَ ، وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَيْكَ ! فَقُلْتُ : أُرِيدُ أَنْ أَتَّبِعَكَ لِأُشَاهِدَ وَلَدَكَ النَّجِيبَ ، وَأُنافِثَهُ لِكَيْ يَجِيبَ .

* ○ *

قرن الغزالة : شعاعها وحاجبها ، والغزالة من أسماء الشمس ، وأسماؤها كثيرة ؛ ذكرها يعقوب وغيره ، وذكر منها عشرة خمسة بالهاء ، وهى : الغزالة ، والجارية ، والجَوْنة ، ومَهاة ، والإلاهة . وخمسة بغير الهاء وهى : الشمس ، والسّراج ، والضِّحّ ، وذُكاء ، وبوح[2] .

طمر : وثب . الغزالة : الظبية . انهض أى قم . الصِّلات : العطايا . نستنضّ : نستحضر . والنَّاضّ : المال الحاضر . والإحالات : الديون التى وعدوه بها . استطارت : توسعت وانتشرت . صُدوع : شقوق . والحنين : الشوق والرحمة . وصلتُ جناحه ، أى مشيت معه ويدى فى يده ، وجناح الرجل : يده . سنّيت :

(١) ديوانه ٥٧ ، وصدره :

* بَرَهْرَهَةٌ رُؤْدَةٌ رَخْصَةٌ *

(٢) مبادئ اللغة العربية ٣ ، وذكر من أسمائها أيضا براح والشرق .

يسّرت . نجاحه : قضاء حاجته . أحرز العين : حصّل المال . وصُرّته : خرقة دراهمه . برقت : لمعت . أسارير : طرق الوجه ، ومنه الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نخرج تبرق أسارير وجهه » ، ويقال لها الأسرّة ؛ ويقال لخطوط الكف : الأسرّة ، وقد جمعهما التّهامى فى لفظ واحد فى قوله :

يُبدى أسِرَّةَ وجهِهِ ويمينِهِ فى ساعة الإعسارِ والإيسارِ

مسرّته : سروره ، أراد : انطلق وجهه سروراً بالمال . خطا : مشى . والنجيب : الجيّد العقل الكريم الأصل . قوله : « أنانئه » ، أى أكلمه .

* * *

فنظرَ إِلَيَّ نظرَةَ الخَادِعِ إِلى المَخْدُوعِ وَضَحِكَ حَتَّى تَغَرْغَرَتْ مُقْلَتَاهُ بالدُّمُوعِ ، وَأَنْشَدَ :

يَا مَنْ تَظَنَّى السَّرَابَ مَاءً لَمَّا رَوَيتُ الَّذِى رَوَيتُ
مَاخِلْتُ أن يَستَسِرَّ مَكْرِى وَأَنْ يُخِيلَ الَّذِى عَنَيْتُ
وَاللهِ مَا بَرَّةٌ بِعُرْسِى وَلاَ لِجَ ابنٌ به اكتنيتُ
وَإِنَّمَا لِى فنونُ سِحْرٍ أَبْدَعْتُ فِيهَا وَمَا اقْتَدَيتُ
لَمْ يَحْكِهَا الأَصْمَعِىّ فيما حَكَى ، وَلاَ حاكها الكميتُ
تَخِذْتُهَا وُصْلَةً إِلى ما تَجْنِيهِ كَفٌّ مَتَى اشْتَهَيْتُ
وَلَوْ تَعَافيتُهَا لَحالتْ حَالِى ، وَلَمْ أَحْوِ مَاحَوَيتُ

فَمَهِّدِ الْعُذْرَ أَوْ فسامِحْ إِنْ كنتُ أَجْرَمْتُ أَوْ جَنَيْتُ
ثمّ إنَّه وَدَّعَنِي وَمَضَى ، وَأَوْدَعَ قلْبِي جَمْرَ الْغَضَى.

* * *

تغرغرت : امتلأت . تظنّى : حسب . حلت : حسبت . يستسرّ : يخفى . مكرى : خداعى . يُخيل : يلبِّس ويشبّه . عُرسى : زوجتى . فنون : أنواع . أبدعت فيها : أحدثتها ولم أقتد بغيرى فيها . يحكها : يحدّث بها . حاكها : نسجها وقال مثلها. الأصمعىّ مذكور فى المقامة الأربعين .

[ذكر الكميت وبعض أخباره وشعره]

وأما الكميت الشاعر ، فهو ابن زيد الأسدىّ ، وهو شاعر مجيد مكثر جدًّا ، وديوان شعره مستعمل مشهور؛ ولمّا قال قصائدَه الهاشميّات قصدَ البصْرَة، فأتى الفرزدقَ فقال : يا أبا فِراس ، أنا ابن أخيك، فقال : ومَنْ أنت ؟ فانتسبَ له، قال : صدقتَ ، وما حاجتك ؟ قال : أنت شيخ مُضر وشاعرُها ، وأحببت أن أعرِض عليك ما قلت ، فإن كان حسناً أمرتَنى بإذاعته ، وإن كان غير ذلك أمرتنى بستره ؛ قال : يابن أخى ، أحسبُ شعرَك على قدر عقلك ، فقل راشداً، فأنشده :

طربتُ وماشوقاً إلى البيضِ أطرَبُ ولا لعباً مِنِّى وذو الشَّيْب يلعبُ!

قال : بلى ، فالعب ، فأنشده :

ولم يُلهِنى دارٌ ولا رسمُ منزلٍ ولم يتطرَّبْنِي بَنَانٌ مُخَضَّبُ

قال : مايتطرّبك إذاً ؟ فقال :

لا أنا ممّن يزجرُ الطير همّهُ أصاح غرابٌ أم تعرّض ثعلبُ

قال : أنت ممّن ؟ ويحك ! وإلى من تسمو ؟ قال :

ولا السانحاتُ البارحاتُ عشيّةً أمرّ صحيح القَرْن أمْ مَرّ أعْضَبُ

قال : أمّا هذا فقد أحسنت فيه ، قال :

ولـكنْ إلى أهلِ الفضائل والنُّهَى وخير بنى حـوّاء والخير يُطلب

قال : فمَنْ هم ويحك ! فقال :

إلى النَّفرِ البيضِ الّذين بحبِّهِمْ إلى الله فيما نابنى أتقرَّبُ

فقال : أرِحْنى ويحك ! مَن هؤلاء ؟ فقال :

بنى هاشمٍ رهطِ النّبىِّ فإنّنى بهمْ ولهمْ أرضَى مراراً وأَغْضَبُ

فقال : لله درّك يا بُنىّ ! فقد أصبتَ وأحسنتَ ، إذ عدَلْتَ عن الزَّعانِفِ والأوباش ، إذًا لا يُصرِد[1] سهمُك ، ولا يثلب قولك . ثم مَرّ فيها ، فقال : أظهر وأشهر ، فأنت أشعر من مضى ، وأشعر مَنْ بقى[2] .

فحينئذ قدم المدينة ، فأتى عبدَالله بن الحسين ، فأنشده ، فقال : يا أبا المستهلّ ، إنّ لى ضيعةً أعطِيتُ فيها أربعة آلاف دينار وهذا كتابُها ، وقد أشهدت لك بها شهوداً ، فقال : بأبى أنت وأمى ! كنت أقول الشعر لغيركم أريد به الدنيا والمال ، ولا والله ما قلتُ فيكم شيئاً إلا لله ، وما كنت لآخذ فى شىء جعلته لله ثمناً . فلما أبى عليه أخذ مئزره ، فدفعه إلى أربعة غلمان ، فجعل يدور به دورَ بنى هاشم ، ويقول : هذا الـكميت ، قال فيـكم الشعر حين صمت الناس عن فضلـكم ، وعرَّض دمه لبنى أمّية ، فأثيبوه بما قدرتُمْ . فاجتمع له من حَلْى النساء ومن الدنانير والدراهم ما قيمته مائة ألف درهم ، فجاء بها إلى الـكميت ، وقال : يا أبا المستهلّ

(١) أصرد السهم : أخطأ . (٢) انظر الاغانى ١٥ : ١٢٠ ، ١٢١

أتيناك بجهد المقلّ ، ونحن فى دولة عدوّنا ، فاستعن بهذا على دهرك ، فقال : بأبى أنت وأمى ، قد أكثرتم وأطنبتم ، وما أردت بمدحى إيّاكم إلا الله ، فارددْه إلى أهله . فجهد به بكل حيلة ، فأبى،فقال : أما إذا أبيت أن تقبل ، فإن رأيت أن تقول شعرًا تغضب به بين النزاريّة واليمنيّة لعل فتنةً تحدث ، فنخرج بين أضغانها ، فقال قصيدته التى أولها :

ألا حُيِّيتِ عَنَّا يا مَدِينا وهل بأسٌ بقولِ مسلّمينا !(١)

فعرّض فيها ، وصاح باليمن فيما كان من أمر الحبشة وغيرهم؛ مثل قوله :

لنا قمر السماء وكلّ نجمٍ تُشيرإليه أيدى المهتدِينا(٢)

وماضربتْ هجانَ بنى نزارٍ هوائجُ من فحول الأعجمينا

وماحملوا الحمير على عتاقٍ مضمّرةٍ فيُلفَوا مُنْلغِينا

ومشت فى العرب ، فافتخرت نزار على اليمن واليمن على نزار ، وثارت العصبية فى البادية والحاضرة ،وتحزّب الناس ، فتعصّب مروان بن محمد لقومه من نزار على اليمن ، فانحرفت عنه إلى الدعوة العباسية وكان الكميت سبب ذلك .

وكان لامتداحه بنى هاشم وتعريضه ببنى أمية ، يطلبه خلفاء بنى أميّة ، فهرب منهم عشرين سنة ، فجدّ هشام بن عبدالملك فى طلبه ولم يجده ، ولم يستقرّ للكميت قرار من خوفه . وكان لمسلمة بن عبد الملك حاجة عند هشام يقضيها له ، لايردّه فيها ، فخرج مَسْلمة لبعض صيوده ، فأتاه الناس يسلّمون عليه ، وأتاه الكميت ـ ومَسْلمة لايعرفه ـ فقال : السّلام عليك ورحمة الله وبركاته ، أما بعد :

قِفْ بالدّيارِ وقوفَ زائرْ وتأَىَّ إنّك غير صاغـــر(٣)

(١) ورد الشطر الثانى محرفاً فى الأصول والصواب ما أثبته من الفاخر ٣

(٢) والخزانة ١ : ٨٦ .

(٣) ط : « وتأن » ، وصوابه من اللسان ـ أبى

حتى انتهى إلى قوله :

يا مسلم بن أبى الوليـــ ـــدِ لميّتٍ إن شئت ناشرْ
عَلِقَتْ حبالى من حبا لِك ذمّة الجارِ المجاورْ
فالآن صرتُ إلى أميّـ ـة والأمور لها مصايرْ
والآن كنتُ به المصيـ ـب كمهتدٍ بالأمس حائرْ

فقال مسلمة: سبحان الله ! مَن هذا الذى أقبل من أخريات الناس[1] ثم بدأنا بالسلام ، ثم قال : أما بعد ثم الشعر ؟ قيل : الكميت ، فأعجب بفصاحته ، فسأله عمّا كان فيه من طول غيبته ، فذكر له سخط هشام عليه ، فضمن له أمانه وتوجّه به حتى أدخله على هشام ، وهشام لا يعرفه ، فقال الكميت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال هشام : نعم الحمد لله ، من هذا ؟ قال الكميت : مبتدىء الحمد ومبتدعه ، الذى خصّ بالحمد نفسَه ، وأمر به ملائكتَه ، وجعله فاتحة كتابه ، ومنتهى شكرِه ، وكلامَ أهل جنّته . أحمدَه حمد من علم يقيناً ، وأبصر مستبيناً ، وأشهد بما شهد به لنفسه ، قائماً بالقسط وحدَه لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده العربىّ ورسوله النبىّ الأمىّ ، الذى أرسله والناس فى هَبَوات[2] حيرة ومُدْلَهِمّات ظلمة ، عند استمرار أَبّهة الضلالة . فبلّغ عن الله ما أمر به ، حتى أتاه اليقين صلى الله عليه وسلم . ثم إنىّ يا أمير المؤمنين تهت فى حَيْرة ، وحِرْت فى سكرة ، أهاب بى داعيها ، فأجابه غاويها ، فاقطوْطيت.[3] فى الضلالة حائداً عن الحق ، قائلا بغير الصدق ، فهذا مقام العائذ بكَ ، ومنطق التائب ، ومبصر الهدى بعد طول العمى . يا أمير المؤمنين ، كم من عاثرٍ أقلتْ عثرتَه ، ومجترم عفوتم عن جرمه ! فقالَ هشام ـ وقد علم أنه الكميت : مَنْ سنّ[4] لك هذه الغواية ، وأهاب بك

(١) فى العقد : « من هذا الهندكى الجلحاب ، الذى أقبل . . » ، والهندكى : الرجل من الهند والجلحاب : الشيخ الكبير .
(٢) الهبوات : الغبرات .
(٣) اقطوطى : قارب فى مشيه إسراعا .
(٤) ب : « من أبن » .

فى العمَاية ؟ قال : الذى أخرج آدم من الجنة فنسىَ ولم يجد له عزماً ، وأنت ياأمير المؤمنين ،أضاء الله بك الظلمة الداجية بعد العموس فيها فبصرت ، وحقن بك دماء قوم أشربَ خوفك قلوبهم؛ فهم يبكون لما يعلمون من حزمك وعزمك وبصيرتك ، وعزٍّ بأسك . وثبات جأشك . وأنت مستغنٍ برأيك عن رأى ذوى الألباب؛ برأى أريب، وحلم مصيب . فأطال الله لأمير المؤمنين البقاء ، وأتمّ عليه النّعماء، ودفع به الأعداء .

فرضى عنه وأمر له بمال كثير[1] .

فهذه منزلة الكميت من الشعر والخطابة خلافاً لمن يقول :القافية جلَبته فى المقامات ؛ وغيرُه من الشعراء كان أولى بموضعه .

* * *

قوله :«حاكها» ، أى نسجها. يريد أن الكميت ممن يصنع الشعر ولا يقوله على طبعه ، فلذلك قال:«حاكها». وسأل بعض الخلفاء جريراً عن النابغة وزهير ، فقال : ينيّران الشعرَ ويُسدّيانه ، والعلماء بالشعر يسمون صنّاع الشعر عبيدَ الشعر، مثل زُهير وابنه كعب والحُطيئة وعديّ بن الرقّاع والكميت .

قوله : «تخذتها» ، أى اتخذتها ،يقال :تخذ يتخذ بمنزلة اتّخذ يتّخذ ، وخُفّف عنه،حذفوا ألف الوصل من اتخذ،والتاء الأولى الساكنة ، التى هى فاء الفعل ، فبقى تخذ ،ومثله تقى يتقى واتّقى يتّقى ، حذفت ألفه وتاؤه الأولى ، وليس يطّرد هذا التخفيف ، وإنما جاء فى اتّخذ واتقى واتجه واتّسع ، فقالوا : تقي وتخذ وتجه وتسع وصلة أى موصّلة. تعافيتها: تكارهتها ،وهى تفاعلت من عفت الشيء أعافه عيافا، أى كرهته. حالت : تغيّرت. أحوِ : أجمع. مهّد :اقبل وسهّل. أجرمت :أذنبت لنفسى ، جنيت : أذنبت لغيرى ، أراد :إن كان عذرى بيّناً فاقبله ، وإن كنت ظالماً فتجاوز واسمح . أودع : ضمّن وجعل فيه . الغضى : شجر جمره يثبت فى النار .

(١) العقد ٢ : ١٨٣ ـ ١٨٥، مع تصرف وحذف

المقامة السادسة وهي المراغية

وتعرف بالخيفاء

روى الحارثُ بن همّامٍ قال : حَضَرْتُ دِيوَانَ النَّظر بالمُرَاغَةِ ، وقَدْ جَرَى بِهِ ذِكْرُ البَلاَغَةِ ؛ فأَجْمَعَ مَنْ حضَرَ منْ فُرْسَانِ اليَرَاعَةِ ، وأَربابِ البَرَاعَةِ ، عَلَى أَنَّهُ لَمْ يبْقَ مَنْ يُنَقِّحُ الإنشاءَ ، وَيتَصَرَّفُ فِيهِ كيف شاءَ ، وَلاَ خلَفَ ، بعد السَّلَفِ ، مَنْ يبْتَدِعُ طَرِيقَةً غَرَّاءَ ، أَوْ يَفْتَرِعُ رِسالَةً عَذْرَاءَ ، وأَنَّ الْمُفْلِقَ مِنْ كُتَّابِ هَذَا الأَوَانِ ، الْمتمكِّنَ مِن أَزِمَّةِ الْبيَانِ ، كالْعِيالِ عَلَى الأوائِلِ ، وَلَوْ ملكَ فَصَاحَةَ سَحْبانِ وَائل .

* * *

ديوان النظر ، أى مجلس المناظرة . المراغة : بلدة من كُور أذربيجان . اليراعة : القلم قبل أن يبرى ويسوّى ، فإذا بُرِىَ وسُوِّىَ قيل له قلم ، وبقى عليه الاسم الأوّل وهو اليراعة ، واليراع : القصب . أرباب البراعة : أصحاب أصالة الرأى . والبارع : الأصيل الجيّد الرأى ، ويقال : بَرَع يبرع بروعاً وبراعة ، إذا فاق فى السؤدد . وينقّح : يحسن ويخلّص . الإنشاء . الكتابة . خلَف : بَقِىَ . السلف : المتقدمون ، وسلفوا : ذهبوا وتقدّموا . يبتدع : يحدث . طريقة : حالة موصوفة ، وطريقة فلان كذا ، أى حالته التى هو عليها . غرّاء : واضحة مشهورة لم يقل أحد مثلها . وغرّة الشىء : أوّله . يفترع : يفتضّ . عذراء : بكر ، سمّيت عذراء لصعوبة جماعها ، وتعذّر الشىء : تصعّب ، وافتراع البِكْر : إدماؤها وإزالة ما تصعّب منها ، وكلّ ما أدميتَه فقد فرعتَه وافترعتَه ، فمعنى يفترع رسالة عذراء

أى يأتى برسالة قد تصعّب طريقها على غيره ، فاقتدر هو على سلوك طريقها والإتيان بها . المفلِق: النصيح المعرب الذى يأتى بالفِلْقِ ؛ وهو الشىء العجيب . الأوان : الوقت . العيال : مَنْ يتّكل فى مؤنته على غيره ولا يقوم بنفسه ، وعال الرجل عِيلةً إذا افتقر ، وعُلْتُه عَوْلاً : قمت بمؤنته ، فيريد أن كتّاب هذا الزمان عيال على من تقدّمهم حيث افتقروا إلى الأخذ من كلامهم .

وقد وعدنا أن نذكر سحبان فيما يأتى إن شاء الله تعالى .

* * *

وكان بالمجلسِ كهلٌ جالسٌ فى الحاشيَةِ ، عِندَ مواقفِ الحاشية ، فكان كلَّمَا شَطَّ القَوم فى شَوْطِهِمْ ، وَنَثَرُوا العَجْوَةَ والنَّجْوةَ مِن نَوْطِهِمْ ، يَنْبِئ نَخَازُرُ طَرْفِه ، وَتَشامُخُ أَنْفِهِ ، أَنَّهُ مُخْرَنبِقٌ لِيَنْبَاعَ ، وَمُجْرَمِزٌّ سَيَمُدّ الْبَاعِ ، ونابضٌ يبرى النبالَ ، وَرَابِضٌ يَبْغِى النِّضَالَ . فلمَّا نُثِلَتِ الكَنائِنُ ، وفَاءَت السَّكائِن ، وَرَكَدَتِ الزَّعازِعُ ، وَكَفَّ المُنازِعُ ، وَسَكَنَتِ الزَّماجر ، وَسَكَتَ المَزْجُورُ والزاجر ، أَقْبَلَ عَلَى الجماعة ، وقال :

* * *

الكهل : التامّ الخلْق ، بين الشابّ والشيخ . الحاشية : طرف المجلس . والحاشية الثانى . الأتباع وخدمة القوم ، وأصلها رُذال المال وصغاره ، قال يعقوب : الحاشية والحواشى والحشو : صغار الإبل ، وأنشد :

* جلّتها والأُخَر الحَواشيا *

لّ : جرى . شوطهم : طَلَقهم . نثروا : ألقوا عليها . العجوة : التمرة

الطيبة . والنجوة : الرديئة ، هكذا كان يفسّرها شيخنا أبو بكر بن أزهر عن ابن جَهْور ، وما وجدت فى كتاب لغة أن النّجوةَ اسم للتّمرة الرديئة ، وقد بحث عنها بعض أصحابنا غاية البحث فى كلّ كتاب فيه ذكر النخل والتّمر ، فأخبرنى أنه ما وجد لها ذكراً ، وأظنها لغة بصرية متعارفة بينهم فى التمر الردىء ، لا أنها لغة عربية ، فاستعملها كما استعمل غيرها من لغة بلده ، لأن البصرة أكثر بلاد الله نخلاً ، فيسمون كل نوع من التمر باسم ، والتمر تكثر أنواعه عندهم . ورأيت أكثر أهل سِجِلْماسة لا يكادون يحصون أنواعه لكثرتها ، ورأيت بها نوعاً من التمر زعموا أنه لا يطيب أبداً ، وإنما حاله أن ينكمش على نواه ، فلا تجد إلا جلداً يابساً على النواة ، فيعلفونه المَعِز ، فيحتمل أن يكون مثل هذا فى نخل البصرة يسمّى نجوة ، ويقابَل بالعجوة التى هى أشرف التمر وأطيبُه . وأما من فسر النّجوة هنا بالمرتفع من الأرض ، فلا معنى له . الفنجديهى : النّجوة ، قيل : إنها لُفاظة التمر إذا سقطت لا يبالَى بها ، فإن صحّت روايتها فكأنها سمّيت بالنجوة التى هى العذِرة . نوطهم : وعاء تمرهم ، قال أبو حنيفة : النّوطة : الجلّة الصغيرة من جلال التمر ، والجلّة : الوعاء الذى يكنز فيه التمر ، وكلّ وعاء له علاقة فهو نوْطة ، والجمع نُوط ، وقد ناطه ينوطه ، إذا علقه ، فأراد : ألقوا الكلمة الجيدة والرديئة من كلامهم . ينبىء : يخبر . تخازُر طرفه : كسر عينيه بالنّظر ، وتخازَر : نظر بمؤخَر عينيه ، وهو نظر المنكر للشىء . تشامخ : ارتفاع ، وهو فعل المستحقر للشىء . مخرنبق : متهيّئ . ليَنْبَاع : لينهض ، وفسره أبو عبيد فى الأمثال . فقال : المخرنبق : المطرق الساكت ، لينباع . ليثِبَ إذا أصاب فرصة ، قال : ومعناه أنه سكت لداهية يريدها ، وقيل : المخرنبق : الساكت على السّوء . لينباع : ليظهر الذى فى ظنه من الشرّ . مجرمّز : منقبض ، وهو كقول النابغة :

وقلت يا قوم إنّ الليث منقبضٌ ... على براثِنِه للوثبة الضارِى[1]

(١) ديوانه ٤٢ والضارى من وصف الليث ، ويروى : « لوثبة الضارى » .

فأخذه ابن الرومى فقال :

سكنَّ سكوناً كان رهناً بوثبة غِماس كذاك الليث للوثب يلبِدُ[1]

نابض : رام ، ويقال : أنبض القوس ، إذا جذب وترَها ثم أطلقه ليختبر شدّتها. ونبَض العرق : تحرّك ، فيكون : «نابض» على النسب ، أو على حذف الزائد . التنجديهىّ : أورد أبو الحسين بن فارس اللغوىّ فى كتابه المجمل أنّ نبض لغة فى أنبض ، وهما بمعنى واحد ، قال الشاعر :

فإن أباها مقسِمٌ بيمينه لئن نبضتْ كفّى فإنى لنابضُ

فصحّ بهذا قوله . رابض : لاطىء بالأرض ، وربضت الشاة : اضطجعت . يبغى النّضال ، أى يطلب المراماة ، وأراد أنه يريد أن يلقَى عليهم المسائل ليجاذبوه . قوله : «نُثِلت» ، أى نفضت وصبّ مافيها . الكنائن : الجعاب ، وهى أوعية السهام . فاءت : رجعت . السكائن : جمع سكينة ، وهى الوقار ، يريد : أتمّ أهل المجلس كلامهم فسكتوا . ركدت : سكنت . الزعازع : الرياح الشديدة المزلزلة ، واحدها زعزع . كفّ المنازع : أمسك المخالف ، يريد انقطع كلامه .

* * *

لَقَدْ جِئْتُمْ شيئاً إدًّا ، وَجُرْتُمْ عن الْقَصْدِ جِدًّا ، وَعَظَّمتُمُ الْعِظام الرُّفاتَ ، وافْتَتُّمْ فِي الْمَيْلِ إِلَى مَن فاتَ ، وَغَمَصْتُمْ جِيلَكُمْ الَّذِين فِيهِمْ لَكُم اللِّدَاتُ ، وَمَعَهُمْ انْعقَدَتِ الْمَوَدَّات ، أَنسِيتُمْ ياجَهابِذَةَ النَّقْدِ ، وَعَوابِذَةَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ ، مَا أَبرَزتْهُ

(١) يلبد ، أى يجثم على الأرض .

طَوَارِفُ الْقَرَائِحِ ، وَبَرَّزَ فِيهِ الْجَذَعُ عَلَى الْقَارِحِ ، مِنَ الْعِبَارَاتِ الْمُهَذَّبَةِ ، وَالاسْتِعَارَاتِ الْمُسْتَعْذَبَةِ ، وَالرسَائِلِ الْمُوَشَّحَةِ ، وَالأَسَاجِيعِ الْمُسْتَمْلَحَةِ ! وهلْ لِلْقُدَمَاءِ إِذَا أَنْعَمَ النَّظَرَ ، مَنْ حَضَرَ ، غيرُ الْمَعَانِى الْمطروقةِ الْمَوَارِدِ ، الْمَعْقُولَةِ الشَّوَارِدِ ، الْمَأْثُورَةِ عَنْهُم لِتَقَادُمِ الْمَوَالِدِ ، لا لتقدُّمِ الصَّادِرِ على الْوَارِد ! وإِنى لأَعْرِفُ الآن من إِذَا أَنشَا ، وَشَّى ، وَإِذَا عَبَّرَ ، حَبَّرَ ، وإِن أَسْهَبَ ، أَذْهَبَ ، وَإِذا أَوْجَزَ ، أَعْجَزَ ، وَإِنْ بَدَهَ ، شَدَه ، وَمتَى اخْترعَ ، خَرَعَ .

* * *

إِدًّا : أمراً فظيعا منكراً . جُرتم عن القصد : خرجتم عن الاستقامة . جدًّا : كثيراً . الرفات : البالية . افتتّم : فعلتم مالا يجب وتجاوزتم فيه ، ويقال : افتتات الرجل « افتعل » من الفَوات ، وفات : ذهب وعدم . غمصتم : حقّرتم وغطيتم . جيلكم : أهل عصركم . اللّدات : جمع لِدَة ، وهو الذى ولد معك . جهابذة : حذّاق ؛ الواحد جِهْبِذ . النقْد : معرفة الكلام ، نقده : ميّزه ، وأصله من ميز الدراهم الجيدة من الرديئة . موابذة : حكام ، والموبذ : الكثير الجاه من الفُرْس ، مثل الوزير والقائد . أبرزته : أظهرته . طوارف ، جديدات وغريبات . القرائح : الأذهان . برز : غلب . الجَذَع من الخيل ابن سنتين . القارح : ابن خمس ، أى غلب فيه الحديث العصرَ القديم . عبارات : جمع عبارة وهى التفسير ، وعبّرت عن فلان : تكلّمت عنه وكنت لسانَه . المهذّبة : المخلّصة من العيب . الاستعارة : أن تعير اللفظ ما يستحقّه غيره ، وهى من العاريّة . الموشّحة : المزيّنة . الأساجيع : جمع أسجوعة ، وهى الكلام المربوط بقافية . أنعم : بالغ . المطروقة :

رفع المسهم

التى نزل عليها . المعقولة : المربوطة . الشوارد : الفارّة، يقول : ليس للقدما. إلا المعانى التى قصدها المتأخّرون ، كما قصدها المتقدّمون ، وقيّدها المتأخرون بالكتاب كما قيّدها المتقدّمون ، فكان تقييدها سبباً لأن مشت فى الأقطار فعرفت وحفظت . المأثورة : المحدّث بها . الصادر : الخارج عن الماء ، والوارد : الداخل إليه ، وذكر هنا أنّ الصادر يتقدّم الوارد ، وذلك أنا إذا فرضنا موضع ماء لا يمكن وروده إلا واحداً بعد واحد ، فالصادر يسبق الوارد على ما ذكره فى المقامة . قال الحريرى فى درة الغواص : إنّ[1] الخواصّ يقولون :هذا أمر يعرفه الصادر والوارد ، ووجه الكلام أن يقال : الوارد والصادر ، لأنه مأخوذ من الوِرْد والصدر ، ولما كان الوِرْد يقدُم الصّدر ، وجب أن يقدّم لفظ «الوارد» على الصادر ، وهذا كما ترى،الورد يقدم الصدر فى حق واحد ، يقال:وَرَد الماء ثم صدر عنه ، وأما فى حق اثنين كما قدّمنا وكما ذكر هو فى هذه المقامة ، فالصادر يتقدّم الوارد . وقول الناس : هذا أمر يعرفه الصادر والوارد فى حق اثنين ،فهم فيه على صواب ، ومحال أن يكون المثل فى حق واحد ، لأنّ الشىء لا يعطَف على نفسه ، ولو كان الوارد على زعمه يتقدّم الصادر لجاز تقديم الصادر عليه ،لأنّ الواو لا تعطى رتبة ،يقول : لا نتحدّث بكلامهم ونظمهم ونثرهم لفضلهم علينا ، لكن لسبقهم لنا .

أنشأ : كتب . وشّى : زيّن ورقّم . عبّر : تكلم أو فسّر . حبّر : حسّن . أوجز : اختصر . أعجز ،أى عجز عن فعله غيره . أسهب:أطال الكلام . أذهب : جاء بالذهب ، وأصل أسهب ، حفر بئرا بعيدة القعر ، وأذهب : صادف معدن الذهب فى حفير . بدَه : ارتجل ولم يتفكّر . شدَه : حيّر من يتعاطى منزلته . اخترع : قال ما لم يُسبق إليه . خرع : شقّق المعانى .

* * *

فَقَالَ لَهُ ناظُورَةُ الدِّيوانِ ، وَعَيْنُ أُولئِكَ الأَعْيَانِ : مَنْ قارِعُ هَذِى الصَّفاةِ ، وَقَرِيعُ هَذِهِ الصِّفاتِ ؟ فقال : إِنَّهُ قِرْنُ

(١) درة الغواص ص ٧١ .

مَجَالِكَ ، وَقَرِينُ جِدَالِكَ ؛ وَإِذَا شِئْتَ ذَاكَ فَرُضْ نجيبًا ، وَادْعُ مُجِيبًا ، لترى عَجِيبًا . فقالَ لَهُ : ياهَذَا ، إِنَّ الْبُغَاثَ بِأَرْضِنَا لا يَسْتَنْسِرُ ، وَالتَّمْيِيزَ بَيْنَ الْفِضَّةِ وَالْقِضَّةِ مُتَيَسِّرٌ ، وَقَلَّ مَنِ اسْتَهْدَفَ لِلنِّضَالِ ، فَخَلَصَ مِنَ الدَّاءِ الْعُضَالِ ، أَو اسْتَثَارَ نَقْعَ الامْتِحَانِ ، فلَمْ يَقذَ بالامْتِهَانِ ، فَلا تُعَرِّضْ عِرْضَكَ لِلْمَفَاضِحِ ، وَلاَ تُعْرِضْ عَنْ نصَاحَةِ النَّاصِحِ . فقَال : كلُّ امْرِىءٍ أَعْرَفُ بِوَسْمِ قِدْحِهِ ، وَسَيَتَفَرَّى اللَّيْلُ عَنْ صُبْحِهِ . فتناجَتِ الجماعةُ فِيما يُسْبَرُ بِهِ قَلِيبُهُ ، وَيُعْمَدُ فِيه تقليبُه ؛ فقال أحدهم : ذروه فى حِصَّتِي ؛ لأَرمِيَهُ بِحَجَرِ قِصَّتِي ، فإنَّهَا عُضْلَةُ العُقَدِ ، وَمَحَكُّ المنتَقِدِ . فقلَّدُوه فى هَذَا الأمر الزَّعَامَةَ ، تقليدَ الْخَوَارِجِ أَبا نَعَامَةَ .

* * *

قوله: «ناظورة» ، أى كبير القوم ومقدّمهم الذى ينظرون إليه . الديوان: دار الكتّاب وموضع اجتماعهم . والديوان ، الزمام يكون فيه أسماء الجند وأرزاقهم، وأصله «دِوّان» ، فقلبت واوه الأولى ياء لانكسار ماقبلها،ودلّ عليه دواوين فى جمعه ، وهو اسم أعجمى عرّب ، والأصل فى تسميته أن كسرى أمر الكتّاب أن يجتمعوا له فى دار ، ويعملوا حساب السواد فى ثلاثة أيام ، وأعجلهم فيه ، فأخذوا فى ذلك ، واطّلع عليهم لينظر مايصنعون ؛ فنظر إليهم يحسبون بأسرع مايمكن ، وينسخون كذلك ، فعجب من كثرة حركتهم، فقال: أرى «ديوان» ومعناه شياطين ، ثم سمّى موضعهم ديوانًا ، ثم استعملته العرب ، وجعل كل محصّل

من كلام أو شعر ديواناً[1]. قارع: ضارب وكاسر. الصّفاة: الصخرة للملساء، استعارها للصعب من الكلام. قريع: سيّد. الصّفات: النعوت التي تقدّم أنه يُعرَف بفعلها. وقِرْن مجالك: صاحب كلامك الذى تجول فيه — يعنى نفسه. قرين جدالك: صاحب مجادلتك، والقِرْن بالكسر: الذى يماثلك فى شدّة أو خصام أو عِلْم، وإن لم يكن بينكما معرفة، وقرينك: صاحبك الذى لا يفارقك كأنه قُرِن معك. والمجال: الموضع الذى تُراض فيه الخيل. رُضْ: سسْ ولَيِّن. النجيب: الفحل الكريم من الإبل، وعنى نفسه. ادع مجيباً، يقول: سِسْنِى ثم ادعنى أستجب لك. ترى عجيباً، فى حسن جوابى. البُغاث: صغار الطير. يستنسر: يصير نسراً، يقول: نحن أهل علم ومعارف، فلا تجوز علينا المخاوف، والعرب تقول فى أمثالها: «إن البغاث فى أرضنا يستنسر»، أى يرجع الضعيف قويا لعزّنا وحمايتنا له ممن يريده، وقيل فى البغاث: إنه ذكر الرَّخَم، وقيل: البُغاث كلّ ما يُصاد من الطير، والجوارح: كلّ ما يصيد، والرّهام: ما لا يصيد ولا يصاد، كالخطّاف وغيره. القِضّة: الحصى البيض الصغار، ويقال: جاء بالقضّ والقضيض بالقاف والضاد، ومعناه جاء بالكبير والصغير. والقضيض: صغار الحصى وما تكسّر منه، وقالوا: جاءوا قضّهم بقضيضهم. أى كلّهم. استهدف: صار هدفاً، وهو الغَرَض للسهم. النّضال: المراماة. العُضَال: الذى لا يُبرأ منه. استثار: حرّك نقع غبار. الامتحان: الاختبار. يَقْذَ: يقع فى عينه القَذَى، وهو ما يسقط فى العين، ويقول: من صار غرضاً للألسنة قلّ أن يسلم، ومن صار طالباً لمناظرة أهل المعارف أهين وأفحم. المفاضح: المخزيات واشتهار العيوب. وَسْم: علامة. قدْحه: سهمه، يريد قداح الميسر، وكان كلّ رجل يعمل فى قدحه علامة يعرف بها، قال دريد بن الصّمة:

وأصفر من قداح النَّبع فرع ... به عَلَمان من عَقَبٍ وضَرْسِ[2]

(١) المعرب للجواليقى ١٥٤، وفى إطفاء الغليل ٩٤ عن المرزوقى فى شرح الفصيح، قال: هو عربى، من دونت الكلمة إذا ضبطتها.

(٢) اللسان — ضرس

الضّرس : العضّ بالضِّرس ، وسنذكر فى الثالثة والأربعين قِداح العرب :

سيتفرّى : سيتكشَّف. قوله: «تناجت» ، أى تحدّثت سرًّا. يُسبَر: يقاس. قَليبه : بئره . يَعْمَد : يَقْصَد . تقليبه: تجريبه . ذرُوه : اتركوه . حِصّتى : نصيبى. قصتى : خبرى ، وجعل لمسألته حجراً يرميه به مجازاً . عُضْلة : صعبة . العقد : جمع عقدة ، يريد أن عقدها صعب الحلّ . محك المنتقَد : وهوحجر يقاس به جيِّد الفضة والذهب من الردىء ؛ أراد أن مسألته نهاية فى الصعوبة ، والعُضْلة : كل مسألة شديدة لايُهتدى لمثلها ، ولا يوقف على جوابها ، من قولهم : داء عضال ومعضل ، إذا كان شديداً لايُهتدى لدوائه ، ولا يوقف على علاجه ، وعضّلت المرأة تعضيلا، نشب ولدها فى بطنها ، وعضّلت الدجاجة بيضتها كذلك ، وفلان عُضْلة من العضل ، أى داهية لا يُهتدى لمكره . قوله : « الزعامة » ، أى الرياسة .

[ذكر قَطَرىّ بن الفجاءة]

وأبو نعامة هو قَطَرِىّ بن الفجاءة التميمىّ الخارجىّ . وكان له فرس يكنَى بها فى الحرب ، ويكنى فى السلم أبا محمد . وقَطَرىّ : منسوب إلى قَطَر ، موضع قريب من عُمَير .

وكان فارساً شجاعاً شاعراً مجيداً ، وكان رئيسَ الخوارج ، وسلّموا عليه بأمير المؤمنين عشرين سنة ،وكان خطيباً فصيحاً . وله خطبة فى ذمّ الدنيا انتهى فيها من البلاغة إلى الغاية . وأوّلها :

أمابعد فإنّى أحذّركم الدنيا فإنها حلوة خضِرة ، حُفّت بالشهوات ، وراقَتْ بالقليل ، وتحبّبت بالعاجل ، وتحلّت بالأمانىّ ، وتزيّنت بالغرور ، لاتدوم زهرتها ، ولا تُؤمن فجعتها ، غرّارة ضرارة ، حائلة زائلة ، نافدة بائدة ،

لا تعدو إذا هى تناهت إلى أمنيّة الرغبة فيها ، والرضا عنها ، أن تكون كما قال تعالى : ﴿ كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كلِّ شىءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ .

ومنها :

كم واثقٍ بها قد فجعته ، وذى طمأنينة إليها قد صرعته ، وذى احتيالٍ فيها قد خدعته . وكم من ذى أُهْبة فيها قدصيَّرته حقيراً ، وذى نَخْوة قد ردَّته ذليلاً ، وذى تاج قد كبَّته لليدين والفم ؛ سلطانها دوَل ، وعيشهارَنْق ، وعذبها أُجاج ، وحلوُها صبِر ، مليكها مسلوب ، وعزيزها مغلوب ، وسليمها منكوب ، وجامعها محروب ؛ مع أنّ وراء ذلك سكرات الموت ، وهول المطلع ، والوقوف بين يدى الحكَم العدل ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ .

ومن جيّد شعره فى وقعة دُولاب :

لعمرك إنى فى الحياة لزاهدٌ ... وفى العيش ما لم ألقَ أمّ حكيمِ (١)

من الخفِرات البيض لم يُرَ مثلُها ... شفاءً لدى بثٍّ ولا لسقيمِ (٢)

لعمرُك إنى يوم ألطِم وجهَها ... على نائبات الدهر جدُّ لَئيمِ

ولو شهدتنى يوم دُولاب أبصرَتْ ... طعان فتًى فى الحرب غير ذَميمِ (٣)

غداة طفَت علْماء بكر بن وائل ... وَعُجْنا صدورَ الخيل نحو تميمِ (٤)

---

(١) الأغانى ٦ : ١٤٨ ، الكامل للمبرد ٣ : ٢٩٨ .

(٢) الأغانى : « لم أرمثلها » .

(٣) دولاب ، قال فى الأغانى : « هى قرية من عمل الأهواز ، بينها وبين الأهواز نحو من أربعة فراسخ ، كانت بها حرب الأزارقة ومسلم بن عبيس بن كريز ، خليفة عبد الله ابن الحارث بن نوفل بن عبد المطلب ، وذلك فى أيام ابن الزبير » .

(٤) علماء ، يريد على الماء ، وبعده فى رواية المبرّد :

وكان لِعَبْدِ القَيْسِ أوّلُ جَدِّها ... وأحلافِها من يَحْصُبٍ وسَلِيمِ

وظلّتْ شيوخ الأزْدِ فى حَوْمَةِ الوغى ... تعومُ وظَلْنَا فى الجلاء نعومُ

وفى البيت الثانى إقواء .

فلم أرَ يوماً كان أكثر مفظعا[1] يُمُجُّ دماً من فائظٍ وكليم[2]
وضاربة خدًّا كريماً على فتًى أغرّ نجيب الأمّهات كريم
أصيب بدُولابٍ ولم تَكُ موطناً له أرض دولابٍ ودِيْر حميم[3]
فلو شهدتْني يوم ذاك وَخَيْلُنَا تبيح من الكفار كلَّ حريم
رَأَتْ فتيةً باعوا الإله نُفُوسهمْ بجنات عدن عنده ونعيم

وأمّ حكيم التى شبّب بها، كانت معه فى عسكر الإباضيّة، وكانت من أشجع الناس، وأجملهمْ وجها، وأحسنهم بدينه متمسّكا. وكان قَطَرِيّ يحبّها ويجلّها، وأخبر من شاهدها فى تلك الحروب أنها كانت ترتجز فتقول:

أحمِلُ رأساً قد سئمتُ حَمْلَهْ وقد مللتُ دَهْنَهُ وَغَسْلَهْ

* ألاَ فتًى يحمل عنّى ثِقْلَه *

والخوارج يفدّونها بالآباء والأمهات، وخطبها جماعة من أشراف الخوارج فردّتهم، وقالت:

ألا إنّ وجها حسَّن الله خلقَهُ لأجدر أن يُلْقَى به الحسن جامعاَ
وأكرِم هذا الجِرْمَ عن أن ينالَهُ تورّكَ فَحْلٍ همّه أن يجامعا

أين هذه من أمّ خارجة، واسمها عمرة بنت سعد، كان يقال: لهاخِطْب فتقول: نِكْح، وضرب بها المثل فقيل: أسرعُ من نكاح أمّ خارجة[4].

---

(١) الأغانى والكامل: «مقصدا»، وهو الطعن بالرماح.
(٢) ط: «فائض». تحريف، صوابه من ا، ب؛ والفائظ، من قولهم: «فاظ الرجل، إذا مات».
(٣) دير حيم: موضع بالأهواز.
(٤) الميدانى ١: ٣٤٨

وأين هى من حفيدة قطرىّ مع صاحبها ، حكى الإصبهانىّ عن إسماعيل بن المهاجر قال : خرجت أنا والسيّد الحميرىّ سكارى ، فلقينا بنت الفُجاءة بن عمرو ابن قَطَرِىّ بن الفجاءة ، وكانت امرأة بَرْزَةً حسناء ، فواقفها السّيّد ، وأنشدها من شعره ، فأعجب كلّ واحد منهما صاحبَه ، ثم خطبها ، فقالت : كيف يكون هذا ونحن على ظَهْر الطريق ! قال : يكون كنكاح أمّ خارجة ، قيل لها : خِطْب ، قالت : نِكْح ، فاستضحكت وقالت : نَنظر فى هذا ، وعلى ذلك فمن أنت ؟ قال :

إن تسأليني بقوْمى تسألى رجلاً ... فى ذِرْوة المجد من أجواد ذِى يَمَنِ (١)
ثمّ الولاَء الذى أَنْجُو النجاةَ به ... من كَبَّة النَّارِ للهادى أبى حسنِ

فقالت : لا شىء أعجب من هذا ! يمانىٌّ وتميمية ، ورافضىّ وإباضيّة ، فكيف يجتمعان ! فقال : بحسن رأيك تسخو نفسك (٢) ، ولا يذكر أحدنا سلفاً ولا مذهباً ، قالت : أفليس التزويج إذا عُلِم ، انكشفتْ معه الستور (٣) ؟ قال : وأنا أعرض عليكِ أخرى ، قالت : وما هى؟ قال : المُتْعة (٤) التى لا يعلم بها أحد ، قالت :

---

(١) بعده فى رواية الأغانى :

حَوْلِى بها ذو كَلاعٍ فى منازِلِهَا ... وذو رُعينٍ وهَمْدَانٌ وذُو يَزَنِ
والأزْدُ أزدُ عُمَانِ الأكرمون إذا ... عُدَّتْ مآثرهمْ فى سالفِ الزَّمَنِ
بانتْ كريمتُهُمْ عنّى فدارُهُمُ ... دارى فى الرحب من أوطانهم وَطنِى
لى منزلانِ : بلحْجٍ منزلٌ وسطٌ ... منها ، ولى منزلٌ للعزّ فى عَدَنِ

(٢) ط : « تحشد نفسك » ، وما أثبته من الأغانى .

(٣) الأغانى : « انكشف معه المستور وظهرت خفيات الأمور » .

(٤) المتعة : أن تتزوج امرأة تتمتع بها أياما ، ثم تخلى سبيلها ؛ وذلك أن الرجل كان يشارط المرأة شرطا على شىء بأجل معلوم ، ويعطيها شيئا ، فيستحلها بذلك ، ثم تخلى سبيلها من غير تزويج ولا طلاق ؛ وقد كانت مباحة فى أول الإسلام ثم حرمت ؛ والجلودى ؛ أحد كبار علماء الشيعة الإمامية كتاب أسماه : « المتعة وماجاء فى تحليلها » .

تلك أخت الزنا ، قال : أعيذك بالله أن تكفرى بعد إيمانك ! قالت : وكيف ؟ قال لها : قال الله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ ، قالت: أستخير الله وأقلدك، إذْ كُنت صاحب قياس وتفتيش . ولما انصرفت معه ، وبات معرسًا بها ؛ وبلغ أهلَها من الخوارج أمرُها توَعّدوها بالقتل ، فجحدت وقالوا : أتزوجتِ بكافر ! فكانت تختلف إليه مدّةً وتواصله[1] .

وقوله: «تقليد الخوارج أبا نعامة» ، لما قُتِل الزّبير بن علىّ السّليطىّ أمير الخوارج، أداروا أمرهم ، فأرادوا تولية عبيدة بن هلال اليشكرىّ ، فقال : ألا أدلّكم على من هو خير منّى لكم ؟ مَنْ يطاعن فى قُبُلٍ ، ويحمى عن دُبُر ؛ عليكم بقطرىّ ابن الفجاءة المازنىّ ، فبايعوه .

* * *

فَأَقْبَلَ عَلَى الْكَهْلِ، وقالَ : اعْلَمْ أَنِّى أُوَالِى ، هَذَا الوَالِى ، وَأُرَقِّحُ حَالِى، بالْبَيَانِ الْحَالِى. وَكُنْتُ أَسْتَعِينُ عَلَى تَقْوِيمِ أَوَدِى ، فى بلدِى، بِسَعَةِ ذَاتِ يدِى، مَعَ قِلَّةِ عَدَدِى . فلمَّا ثَقُلَ حاذِى ، وَنَفِدَ رَذَاذِى ، أَمَمْتُهُ مِنْ أَرْجَائِى ، بِرَجائى، وَدَعَوْتُه لإِعَادَةِ رُوَائى، وَإِروائى ؛ فَهَشَّ لِلوِفادَةِ وَارْتَاحَ ، وَغَدَا بالإِفادَةِ وَرَاحَ . فلمَّا اسْتَأْذَنْته فِى الْمَرَاحِ ، إِلَى الْمُرَاحِ ، عَلَى كَاهِلِ الْمِرَاحِ؛ قال: قَدْ أَزْمَعْتُ أَلاَّ أُزَوِّدَكَ بَتَاتًا ؛ وَلاَ أَجْمَعُ لَكَ شَتَاتًا ، أو تُنْشِئَ لِى أَمَامَ ارْتِحالِكَ ، رِسَالَةَ تُودِعُهَا شَرْحَ حالِكَ ، حُرُوفُ إِحْدَى كَلِمَتِيهَا يَعُمُّهَا النَّقْطُ ، وَحُرُوفُ الأُخْرَى لَمْ يُعْجَمْنَ قَطُّ ، وَقَد اسْتَأْنَيتُ

(١) الأغانى ٧ : ٢٦٤ . مع اختلاف فى الرواية .

بيانى حَوْلا ، فما أَحارَ قَولاً ، وَنبَّهْتُ فكْرِى سَنَةً ، فما ازدَادَ إلاَّ سِنةً . واستعنتُ بقاطبةِ الكتَّاب ، فكلٌّ مِنهمْ قَطَّبَ وَتَاب ، فإن كُنتَ صَدَعْتَ عَنْ وَصْفِكَ باليقينِ ، فأْتِ بآيةٍ إن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِين .

فقال له : لقد اسْتَسْعيْتَ يَعْبُوبًا ، واسْتَسْقَيْتَ أُسْكُوبا ، وأَعْطَيْتَ القَوْس بارِيها ، وَأَسْكَنْتَ الدَّارَ بَانيها . ثم فكَّر رَيْثما استجمَّ قريحتَهُ ، واسْتَدَرَّ لِقحتَهُ ، وقال : أَلقِ دَواتَكَ وَاقْرُبْ[1] ، وَخُذْ أَداتَكَ وَاكْتُبْ :

* * *

قوله : « أوالى » ، أى ألازم وأتخذه وليًّا . أرقّح : أصلح ، يقال رقّح من عيشه ، إذا أصلح منه ، قال الشاعر :

يترك ما رقَّح من عيشِهِ يَعْبَثُ فيه هَمَجٌ هَامِجُ[2]

الهَمَج : البعوض ، ثم قيل لأرذال الناس : همج . الحالى : المزيّن بالحُلِيّ . أَوَدِى : عوَجى . سعة : كثرة . ذات يدى ، أى مالى . عددى : عِيَالى . حاذى : ظهرى ، وفلان خفيف الحاذ ، أى قليل العيال ، وأصل الحاذ مؤخر الفخِذين . نفد رذاذى : فرغ قليل مالى ، والرَّذاذ . المطر الضعيف . أمَّته : قصدته . أرجائى : جهاتى وبلادى . رجائى : أملى . رُوائى : حسن هيئتى وحالى : إروائى : إزالة عطشى . هَشّ : خفّ ، ورجل هشّ بسّام : طليق الوجه . للوفادة : للقدوم عليه . وارتاح : طرب واهتزّ . الإفادة : تكسيب الفوائد . المَرَاح ، بفتح الميم : المشى والانصراف .

(١) ساقطة من مخطوطة المقامات .

(٢) اللسان ـ رقح ، ونسبة إلى الحارث بن حلزة .

والمُراح، بالضم: الموضع الذى تَرُوح إليه الإبل وتروح منه، أو تراح إليه، أى تساق بالعشىّ. والمِراح، بالكسر: النشاط والخِفّة، وقد مرِح مَرَحا، لعب، من الفرح. كاهل: ما بين فروع الكتفين، استعاره للنشاط. أزمعت: عزمت. بتاتاً: زاداً. شتاتاً: مالاً متفرّقا. تنشىء: تصنع وتكتب. أمام ارتحالك: قبل سفرك: تودّعها: تضمّنها وتجعل فيها. يعجمن: ينقطن، وأعجمت الكتاب: أزلت عنه عُجمته.

قطّ: لفظة موضوعة لما مضى من الدهر. وجعل الحريرىّ قول الخواصّ: «لا أكلمه قطّ» من أفحش الخطأ لتناقض الكلام، قال: وذلك أنّ العرب تستعمل لفظة «قطّ» فيما مضى من الزمان، كما تستعمل لفظة «أبداً» فيما يستقبل، فيقولون ما كلّمته أبداً، والمعنى: ما كلّمته فيما انقطع من عمرى، لأنه من قططتُ الشىء، إذا قطعته، ومنه قطّ القَلم، إذا قطع طَرَفه. وفيما يؤثر من شجاعة علىّ رضى الله عنه أنه كان إذا استقبل قدّ، وإذا استدبر قطّ، فالقدّ قطع الشىء طولاً، والقطّ قطعُه عرضاً[1]. يقول: تصنع رسالة تضمنها حالك، يكون تركيبها من كلمة يعمّ حروفها النّقط، وكلمة لا ينقط منها حرف، وبهذا المعنى سُمّيَت المقامة الخيْفاء، لأنّ الأخيفَ من الخيل: الّذى إحدى عينيه زرقاء. والأخرى كحلاء. استأنيت: أمهلت وأخّرت. أحار: ردّ وراجع. نبّهت: أيقظت. سَنَة: حولا. سِنَة: نوما. قاطبة: جماعة. قطّب وجهه، إذا عبّسه. صدَعت: أوضحت وأظهرت، وأصل الصدع الشقّ. باليقين: بالحقّ الواضح. آية: علامة، قال ابنُ الأنبارىّ رحمه الله: فى قولهم آية من القرآن ثلاثة أوجه: قيل إنها علامة لانقطاع الكلام قبلها وبعدها، واحتجّ أبو عبيدة لذلك بقول الشاعر:

* بآيَةِ ما تحبُّونَ الطَّعَامَا *

(١) درة الغواص ٨

رفع المسهم

وبقول النابغة :

توهَّمْتُ آياتٍ لهـا فعرفتُها لستَّةِ أعْوَامٍ وذَا العَامُ سَابِعُ[1]

الثانى: سُمِّيت الآية لأنها جماعة حروف ، قال أبو عمرو: خرج القوم بآيتهم، أى بجماعتهم .

الثالث : سُمِّيت آية لأنها عجب من العجائب ، فالآية العجب .

قوله : «استسعيت» : طلبت سعيه أى جريه . واليَعْبُوب: الفرس السريع . استسقيت : استمطرت وطلبت سُقياه . والأُسكُوب : المطر الكثير . باريها : صانعها ، وكل هذه أمثال ، ويريد : أنا أهْلٌ لكلّ ماطلبت .

[الحطيئة وسعيد بن العاص]

وأوّل من قال: أعط القوس باريها[2] الحطيئة ، وذلك أنه دخل على سعيد ابن العاص وهو يقرِى النّاس ، فأكل أكلاً جافياً ،وخرج الناس ، فأقام ، وأتاه الحاجب ليُخرجه فامتنع ، وقال : أترغب بهم عن مجالستى ! إنّى بنفسى عنهم لأرغب ! فقال له سعيد : دَعْه . ثم تذاكروا الشعر والشعراء ، فقال لهم الحُطيئة: والله ما أصبتم جيّد الشّعر ولا شاعر العرب ، ولو أعطيتم القوس باريها ، وقعتم على ما تريدون ، فقال له سعيد : فمن أشعر العرب ؟ قال : الذى يقول :

لا أُعُدُّ الإقتار عُدْمًا ولـكنْ فَقْدُ مَنْ قَدْ رُزِئْتُه الإعْدَامُ

إلى آخر القصيدة . قال : فمن قائلها ؟ قال : أبو دواد الإيادىّ ، قال : ثم من ؟ قال : والله لحسبك بى رهبة أو رغبة ؛ أنا إذا رفعت إحدى رجلىّ على الأخرى ، وعويت فى إثر القوافى كما يعوى الفصيل الصادى إثْرَ أمّه ؛ قال :

(١) ديوانه ٥٠ .
(٢) الميدانى ٢ : ١٩ ، وجمهرة الأمثال ١ : ٧٦ .

رفع المسهم

[من أنت ؟ قال:][1] الحُطيئة ، قال: حيَّاك الله ياأباماليكة، ألا أعلمْتنا بمكانك ، ولم تحملنا على الجهل بك ، فنضيع حقّك ونبخسك قسطَك ! وأدناه ووصله[2] .

وقال الشاعر :

يا بارئَ القَوْس برْيًا ليس يُحْسِنُه ... لاتظلم القوس واعط القوسَ بارِيها

ريث : مقدار وبطء . استجمّ : استكثر . قريحته : طبيعته ، والقريحة فى الأصل أوّل ماء البئر النابع ، واستجمّها : تركها حتى تكثر . استدرّ : استنزل دَرَّهَا وهو لبنها . واللِّقْحَة : الناقة ذات اللبن ؛ يريد: أقام قليلا يفكّر ويختار ما يقول : ومثل هذه الحالة ذكرُوا أن صديقا لكلثوم العتابىّ أتاه يوما ، فقال له : اصنَعْ لى رسالة ، فاستمدّ مُدَّة ، ثم علّق القلم ، فقال له صاحبه : ماأرى بلاغتك إلاّ شاردةً عنك ، فقال له العَتّابىّ : إنى لمّا تناولتُ القلم تداعت علىّ المعانى من كلّ جهة ، فأحببت أن أترك كلّ معنى حتى يرجع إلى موضعه ، وهذا مثل قول امرىء القيس ـ ويقال إنه قالها وهو ابن عشر سنين :

أذودُ القوافِيَ عنّى ذيادَا ... ذيادَ غلامٍ غويّ جَوادَا[3]

فلمّا كثُرْن وعنّينَه ... تخيّر منها جوادًا جيادَا

فأعزل مَرجانها جانبا ... وآخذ من دُرّها المستجادَا

وقال عريف القوافى[4] :

أبيتُ بأبواب القوافِى كأنّمـا ... أصادى بها سِرْبا من الوحش نزّعًا

عواصِىَ إلا ما جعلت وراءها ... عصا مِرْبَدٍ تغشَى وجوهًا وأذرُعًا

إذا خفت أن تُروَى علىّ رددتُها ... وراء التراقِى خشيـة أن تطلّعا

---

(١) من الأغانى (٢) الأغانى ٢ : ١٦٧ ، مع تصرف واختصار .

(٣) ديوانه : ٢٤٨ .

(٤) كذا ذكر المؤلف، والأبيات فى الشعر والشعراء ٦١٦،٢٣ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٢ والأغانى ١١ : ١٢٣ منسوبة لسويد بن كراع .

أصادِى : أدارى ، وجعل القوافى تقتحم عليه كالإبل ، وهو يضربها بعصاه حتى يختار جيادها .

[فصل فى الدواة والمداد والقلم]

قوله «أَلِقْ» ، أى اجعل فيها لِيقة، تقول: لِقْت الدواة فهى مَليقة ، وألقتُها فهى مُلَاقة ، وجمع اللِّيقة لِيَق. ويقال للصُّوفة قبل أن تُبَلّ بالمداد: البُوهة والموارة ، فإذا بلّت بالمداد سُمِّيت ليقة ، وقد يقال لها : ليقة قبل أن تُبَلّ، سميت بما تئول إليه ، كما قيل للكبش: ذبيح، وللصيد : رميّة ، فإن كانت قطنة فهى العُطْبة والكُرْسفة، وكرسفت الدواة كرسفةً ، والقطن كلّه يقال له : العُطُب والكُرسف .

ويقال للمداد : نِقْس ونَقْس ، والكسر أفصح ، وقيل : الفتح مصدر نَقَسْتها ، جعلت فيها نقْساً ، والحِبْر من المداد بالكسر لا غير ، والحَبْر بالفتح والكسر : العالِم. وقال بعضهم : سمِّىَ المداد حِبراً باسم العالم ، كأنهم أرادوا مداد حِبْر ، فحذفوا ، ولو كان ماقالوه صحيحاً لقالوا للمداد : حَبْر بالفتح ، والأشبه أن يسمَّى حَبْراً لأنه يحسِّن الكتابة ، من قولهم : حبرت الشىء إذا حسَّنته . ويقال للجمَال : حَبْر وسَبْر ، فمداد حَبر ، كقولك مداد زينة وجمال ، أو يكون من الحَبَر والحُبار ، وهو الأثر ، فيسمَّى بذلك لتأثيره فى الكتاب . ويقال : مددت الدواة أمدّها مدًّا ، إذا جعلت فيها مِدَاداً ، فإن كان فيها مداد فزدت عليه قلت : أمددتها ، فإذا أمرته أن يأخذ من المداد بالقلم قلتَ : استمد ، فإن سألْتَهُ أن يعطيَك على القلم مِداداً ، قلت: أمدِدْلى من دواتك ، واستمددته أنا ؛ سألتُه أن يمدّنى . وقال الخليل : مُدّنى وأمدّنى : أعطنى من مداد دواتك ، وكلّ شىء زاد فى شىء فهو مداد له ، وأمهت الدّواة وموّهتها ؛ إذا جعلت فيها ماء ، والأمر من ذلك كلّه أمِهْ وموّهْ دواتك .

واشتقاق الدّواة من الدّواء ، لأنه بها إصلاح أمر الكتّاب ، وبعض الشعراء اشتقّها من دَوِىَ الرجل يَدْوَى دَوِيًّا ، إذا صار فى جوفه الداء ، قال :

أمّا الدواة فأدوَى حملُها جسدى وحرّف الخطّ تحريفٌ من القلم[1]

ووزنها « فَعَلة » تحرّكت الياء وقبلها فتحة ، فقلبت ألفاً ، وتجمع دَوَيات ؛ كقناة وقَنَوات ، ودوًى كقناة وقناً . ويقال : أدويت فأنا مدوٍ : اتّخذت دواة ، ويقال للذى يبيعها : دوّاء كخيّاط ، وإذا أمرت من يتخذها قلت : أدْوِ دواةً ، ويقال لمن يحملها ويمسكها : دوّاء ، ويقال لها : الدواة والرقيم والنون .

ويقال: هو القلم والمِزْبر بالزاى والمِذْبر من زبرت وذبرت، أى كتبت ، ومَنْ فرّق بينهما قال : زبرتُ بالزاى ، أى كتبت ، وذبرت ، أى قرأت . وسمِّىَ قلماً لأنه قلَم ، أى قطع وسوّى ، كما يقلّم الظفر ، وكلّ عود قطع وحُزّ رأسه وأُعلم بعلامة فهو قلم ، قال الله تعالى : ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُم يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾[2] ، وكانت سهاماً فيها أسماؤهم مكتوبة . ويقال للذى يُقلم به : مِقْلم ، وللذى يُبرى به : مبرًى ، ولِمَا سَقَط عن البَرْى والتّقليم : القُلامة والبُراية . وقيل لأعرابىّ : ما القلم ؟ ففكّر ساعة ، وجعل يقلّب أصابعه ، ثم قال : لا أدرى ؛ فقيل له : توهّمْه فى نفسك ، قال : هو عود قُلِّم من جوانبه كتقليم الأظفار . ويقال لعُقَده : الكعوب ، واحدها كَعْب ، ولما بينها الأنابيب ، واحدها أُنبوب ، ويستعملان فى الرّمح ، وفى كلّ عود فيه عُقَد ، والعقدة التى تشينه تسمّى الأُبنةُ وجمعها أُبَن ، فإن كان فى العود أو القصبة تأكُّل ، قيل فيه : قادح ونقَد ، ويقال لباطنه : الشحمة ، ولظاهره اللِّيط ، فإن قشرت منه قشرة قلت : لَيَّطت من القلم لِيطة ، فإن أخذت شحمته بالسِّكين قيل: شحمته أشحمه ، فإن أفرطت فى أخذها ، قلت : بطّنته تبطيناً فهو مبطَّن ، وحفرته فهو محنور ، فإن تركت شحمته ، قلتَ : أشحمته إشحاماً . ويقال لغشائه الذى عليه : الغلاف واللِّحاء والقشر ، فإذا نزعتها عنه قيل : قشرته ولحوْته وقشوته وسحوْته ،

(١) الاقتضاب ٨٢ .
(٢) آل عمران ٤٤ .

رفع المسهم

ويقال فى ثلاثتها بالياء ، ووسّقته ونقّحته ، مشدّدان . ويقال لطرفيه اللّذين يكتب بهما : السِّنّان والشّعيرتان ، واحدهما سنّ وشعيرة ، فإذا قطع طرفه وهيِّىء للكتابة قيل : قطّته أقطّه قطًّا ، وصمته أصمه قصماً ، والمِقَطّ بالكسر : مايقطّ عليه ، وبالفتح الموضع الذى يقط من رأسه ، فإن جعلت إحدى سنّيه أطولَ من الأخرى قلت : قلم محرّف ، وقد حرّفته تحريفاً ، فإن سوّيتهما قلت : قلم مبسوط ، فإن سمع له صوت عند الكتابة ، فذلك الصريف والصرير والرشيق ويقال للقَصَب : اليَرَاع والأَباء ، الواحد يَرَاعة وأَباءة ، وقيل : الأباء أطراف القلم ، أى القصب ، ويقال للقطن الذى يوجد فى بطنها : البَيْلَمْ والقيصف والقيسع ، واحدته بَيْلَمة وقيصفة وقَيْسَعة ، فإن كان فى القصب تأكّل قيل فيه : قادح ونقد ، وكذلك العود والسنّ والقَرْن ، فإن كان فيها عِوَج فذلك الدّرء[1] .

قوله: «خذ أداتك» ، أى قلمك. وقال ابن طاهر لكاتب له :ألِقْ دواتك ، وأطِلِ سنّ قلمك ، وفرّق بين السطور ، وتوسط بين الحروف .

وقال ابن عبد ربه : ينبغى للكاتب أن يصلح آلته التى لا بدّ له منها ، وأداته التى لا تتمّ صناعته إلا بها ، وهى دواته ، فلينعم ربْيها إصلاحَها ، ثم ليختر من أنابيب القصب أملَّها عُقَدًا ، وأكثفها لحماً ، وأصلبها قشراً ، وأعدلها استواء ، ويجعل لقرطاسه سِكيناً حاداً ليكون عوناً له على بَرْى أقلامه ، ويبريها من ناحية نبات القصب .

واعلم أنّ محل القلم من الكاتب محل الرّمح من الفارس ، نظم أحد الشعراء فقال :

يُمْسِك الفارسُ رُمحاً بيدٍ وأنا أمسك فيها قَصَبَهْ
فكلانا فارسٌ فى شأنهِ إنما الأقلامُ رُمْحُ الكَتَبَهْ

(١) نظر المؤلف فى هذا الفصل إلى ما أورده ابن السيد البطليوسى فى كتاب الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب لابن قتيبة ص ٨٢ ـ ٨٧ مع تصرف واختصار .

رفع المسهم

وقال أبو الفتح البُستى :

إن هزّ أقلامه يوماً ليُعمِلَها ... أنساكَ كلّ كَمِيٍّ هزّ عامِلَهُ[1]

وإن أقرّ على رَقّ أناملَه ... أقرّ بالرِّقِّ كتّابُ الأنام لَهُ

رأى جعفر بن يحيى خطًّا فاستحسنه ، فقال : الخطّ خَيْط الحكمة ، يُنظم فيه منثورها ، وتُفصّل فيه شذورها .

ومن كتاب جعفر بن يحيى إلى محمد بن الليث : أما بعد ، فليكنْ قَلَمُك محرَّفاً ، لامتيناً ولا رقيقاً ، ضيّق القلب . فابْرِه بريًا مستوياً كمنقار الحمامة ، أعطِفْ بطنه ، ورقّقْ شفرتيْه ، ولْيكُن قِرْطاسك رقيقاً مستوىَ النَّسْج ، مخرَج السَّحَاءة[2] ، مستوياً من أحد الطرفين إلى آخره ، فليست تستقيم السّطور إلا فيما كان كذلك ، وليكُنْ أكثر مَطّك فى أطراف القرطاس الذى فيه يسارك ، وأقلّه فى الوسط ، ولا تمطّ فى الطرف الآخر ، والمطّ نصف الخطّ ، ولا يقوى عليه إلا العاقل .

قال العتابىّ : سألنى الأصمعىّ فى دارالرشيد : أىّ الأنابيب للكتابة أصْلَح ، وعليها أصْبر ؟ فقلت له : ما نَشِف بالهجير ماؤه ، وستره من تلويحه غِشاؤه ، من الدّرّية الظهور ، النيّرة القشور ، الفِضّيّة الكسور ؛ قال : فأىّ نوع من البرْى أصوب وأكتب ؟ فقلت له : البريّة المستوية القَطّة ، التى عن يمين سنها قُرنة[3] ، تأمن معها المجّة عند المدّة والمطّة ، للهواء فى شِقّها صفيق[4] ، وللرّيح فى جوفها خريق ، والمداد فى خرطومها رقيق . قال العتابىّ : فبقى الأصمعىّ شاخصاً إلىّ لا يحيرُ جواباً[5] .

---

(١) يتيمة الدهر ٤ : ٢٩١

(٢) السحاءة : القشرة .

(٣) القرنة : الطرف المائل من كل شىء

(٤) العقد : « فيتق »

(٥) العقد ٤ : ١٧٣

وقال الحسن بن وهب : يحتاج الكاتب إلى خلال : جودة بَرْى القلم ، وإطالة جَلْفته ، وتحريف قَطّته ، وحسن التأتّى لامتطاء الأنامل ، وإرسال المدّة بعد إشباع الحروف ، واستواء الرسوم ، وحلاوة المقاطع .

وقال بعض الكتّاب : عَطِّرُوا دفاترَكم بجيّد الحبر ، فإنّ الكتب غوانٍ والحبر غوالٍ .

وقال بعض الكتاب أيضاً :

وما رَوْض الربيع وقد زهاه ... ندَى الأسْحارِ يأرَج بالغَدَاةِ
بأضوعَ أو بأسطعَ من نسيمٍ ... تؤدّيه الأفاوِهُ من دَوَاةِ

كأنّ هذا من قول الآخر :

دعىّ فى الكتابه ليس منها ... له فِكرٌ يُعَدّ ولا بديهُ (١)
كأنّ دواته من رِيقِ فيه ... تُلاقُ ، فريحُها أبداً كريهُ

ونظر جعفر بن محمد إلى فتى على ثيابه أثر مداد ، وهو يستره ، فقال له :

لا تجزعنّ من المِداد فإنه ... عِطْر الرجال وحِلْية الكُتّابِ

ولبعضهم يهجو كاتباً :

حمارٌ فى الكتابة يدّعيها ... كدعوَى آل حربٍ فى زيادِ
فدعْ عنك الكتابةَ لستَ منها ... ولو لطّخت نفسك بالمدادِ

وقال كُشاجم لورّاق يدّعى الكتابة :

وزعَمْتَ أنّك فى الكتابة مدركٌ ... شأوِى، فقلت: رماحنا أقلامُ (٢)
هيهاتَ تلك صناعة ممزوجَةٌ ... فيها ضياءٌ واضحٌ وظلامُ

(١) أدب الكتاب للصولى ١٠١
(٢) ديوانه ١٦٠ وفيه : « يريق دماءنا »

هذا الحديد سلاح أبطالِ الوغى وبه يَهُجّ دماءنا الحجّامُ

وقال أبو العيناء : كنتُ عند إبراهيم بن العباس ، وهو يكتب كتاباً ، فنقطت من القلم نقطة مفسدة ، فمسحها بكمّه ؛ فتعجّبت ، فقال : لا تعجَبْ ، المال فرع والقلم أصل ، والأصل أحوج إلى المراعاة من الفرع ، وبهذا السواد جاءت هذه الثياب ، ثم أطرق قليلاً وقال :

إذا ما الفِكْرُ وَلّدَ حسن لفظٍ وأسلَمَه الوجُودُ إلى العِيانِ
ووشّاه فنمنمه جوادٌ فصيحٌ فى المقالِ بلا لِسانِ
ترى حُلل البَيان منشّراتٍ تجلّى بينها صُور المعانِي

وكتب سليمان بن وهب بقلم صلْب ، فاعتمد عليه اعتماداً شديداً ، فصرّ القلم فى يده ، فأنشد :

إذا ما التقينا وانتضينا صوارماً يكاد يُصمّ السامعين صريرُها
تساقط فى القِرْطاس منها بدائعٌ كمثل اللآلى نظمها ونثيرُها
تقودأبيّات البيان بفطنةٍ تكشّف عن وجه البلاغة نورُها
تظلّ المنايا والعطايا شوارعاً تدور بما شئنا وتمضى أمورُها
إذاماخطوب الدهر أرْخَتْ ستورَها تجلّت بنا عما يسرّ ستورُها

وأتى رجل وكيعاً ، فقال : رجل يمتّ إليك بحرمة ! فقال له : وماحُرمتك ؟ قال له : كنتَ تكتبَ بمحبرتى عند الأعمش . فوثب وكيع إلى منزله ، ثم أخرج منه دنانير لنفقته ، وقال له : اعذرنى فما أملك غيرها ، ودنمها إليه .

وقال أبو الحسن بن لبّال فى محبرة آبنوس :

وخديمة للعلْم فى أحشائِها كلَفٌ بجمع حلاله وحرامِه
لبِست رداء اللّيل ثم توشّحت بنجومه وتتوّجَتْ بهلالِهِ

وحدثنى عن شيخى الفقيه أبى عبدالله بن زَرْقون ابنُه الفقيه أبو الحسين ، قال : حدّثنى أبى أنه كان بسَبْتة أيام الشبيبة والطلب ، فى مجلس جمع من طلبة الأدب ، فتعرّض لهم رجل بمِحْبَرة صنعها ، وأراد أن يقصِد بها الوالى على حسنها ، وكانت محبرة آبنوس بحلية صفراء مذهبَة ، فأطرقوا يروّون ، فبادرهم أبو الطالب ابن أبى ركب فقال :

جاءتك من غُرَرِ العلا زِنجيَّـةٌ ... فى حُلَّةٍ من حِلْيةٍ تتبخترُ
سوداء صفراء الحلىّ كأنَّهـا ... ليـــل تُطرِّزه نجوم تزهَرُ

فاستحسنهما من حضر ، ورأوا أنه قد أربى على الغاية فيما عنه صدر ، فكتبا للرجل فى رقعة ، فبعد ما سار بها قليلا ، رجع فأبرز منها قلم صُفْرٍ مذهباً ، ورغب أن يضمّن ذكره فى منظوم يضاف إلى البيتين ، فأطرقوا يروّون فى ذلك ، فبادرهم أبو طالب المذكور فقال :

كمَلَت بأصغرَ من نجارِ حُلِيِّهـا ... تخفيه أحياناً ، وحينا يظهرُ
خرسان إلا حينَ يَرْضع ثديهاَ ... فتراه ينطق ما يشاء ويذكُرُ

وقال آخر يصف دواة وأقلاما :

قَـــدْ بعثنا إليك أمّ العطايا ... والمنايا زِنجيَّـــة الأحْسَـابِ
فى حشاها من غير حَرْبٍ حِرَابٌ ... وهى أمْضَى من نَافِذَاتِ الحِرَابِ

وأحسن ما قيل فى القلم قول حبيب يصف قلم محمد بن عبد الملك الزيّات :

لَكَ القلمُ الأعلى الّذى بسنانِهِ ... تُصاب من المرء الكُلَى والمفَاصِلُ (١)
له الجـــلَوات اللاءِ لولا نجيُّها ... لَمـَا احتفلتْ للمالكِ تلكَ المَحافِلُ
لُعاب الأفاعِى القاتلات لعـابُه ... وأرْيُ الجَنى اشتارتْه أيدٍ عَوَاسِلُ (٢)

(١) ديوانه ٢٥٧ ، وشباة القلم : حده .
(٢) الأرى : العسل .

لهديمةٌ طلٌّ ، ولكنّ وقعها بآثاره فى الشرق والغرب وَابِلُ[1]
فصيحٌ إن استنطقتَه وهْو راكب وأعجمُ إن خاطبتَه وهْو رَاجِلُ
إذا ما امتطى الخمسَ اللّطاف وأفرغت
عليه شِعاب الفكر وهى حَوافِلُ
أطاعتْه أطرافُ القنا وتقوّضَتْ لنجواه تقويضَ الخيامِ الجحافِلُ
إذا استغزر الذّهن الذكىّ وأقبلتْ أعاليه فى القِرْطَاس وهى أسَافِلُ
وقد رفدته الخنصران وسدّدت ثلاث نواحيه الثّلاثُ الأنَامِلُ
رأيتَ جليلاً شأنُه وهومرهَفٌ ضنًى ، وسمينًا خطبُه وهو ناحِلُ

وقال أبو الفتح البستى :

إذا أقسم الأبطالُ يومًا بسيفهمْ وعدّوه مما يكسب المجدَ والكَرَمْ[2]
كفى قلم الكتاب مجداً ورفعةً مدى الدهر أنّ الله أقسم بالقَلَمْ

وقال البحترىّ :

تعنو له وزراء الملك خاضعةً وعادةُ السَّيْفِ أن يستخدِمَ القَلَمَا[3]

وقال أبو العباس التنوخىّ :

إن يخدم القلمُ السّيفَ الّذى خضعت
له الرقابُ ودانت خوفَه الامَمُ
فالموتُ والموت لا شىء يقابِلُهُ ما زال يتبع ما يجرى به القَلَمُ
بذا قضى الله للأقلام مُذْ بُرِيَتْ أنَّ السيوف لها مذ أُرْهِفتْ خَدَمُ

---

(١) الطل : المطر القليل ، والوابل : المطر الكثير .
(٢) الظرائف ٢٢ (٣) ديوانه ٢٠٤٨

وناقضه أبو الطيب المتنبي فقال :

حتى رجعتُ وأقلامى قوائلُ لى : المجد للسيف ليس المجد للقلمِ (١)
اكتب بنا أبداً بعد الكتاب به فإنّما نحن للأسْياف كالخدَمِ

وقال الصولىّ : فاخر صاحب سيف صاحبَ قلم، فقال صاحب القلم : أنا أكتب بلا غَرَر، وأنت تقتل على خَطَر ، فقال صاحب السيفَ : القلم خادم السَّيف إن تَمّ مِدادُه ، وإلا فإلى السيف معادُه .

قال الصولىّ : وقال بعض اليونانيين : الدين والدنيا تحت شيئين : سيف وقلم ، والسيف تحت القلم .

وفى ذلك يقول جرير النّميرىّ :

أتحقِرنى ولستَ لذاك أهلاً وتُدْنى الأصغرين من الخِوَانِ
جهابذةٌ وكتّابٌ وليسوا بفرسان الكتيبة والطِّعَانِ
ستذكرنى وتعرِفُنى إذا ما تلاقَى الحلْقتان من البِطَانِ

وقال كشاجم :

هنيئاً لأصحابِ السيوف بطالةٌ تقضّى بها أيامهم فى التنعُّمِ
وكم فيهمُ من دائم الأمر لم يرعْ بحرْب ولم يَنْهَدْ لقِرْن مصمِّمِ
وكلّ ذوى الأقلام فى كلّ ساعة سيوفهم ليست تجفّ من الدَّمِ

وقال آخر :

قوم إذا أخذوا الأقلام من قصبٍ ثم استمدّوا بها ماء المنيّاتِ
نالوا بها من أعاديهم وإن بعدوا مَالاَ ينالُ بحدّ المشرفيّاتِ

وقال البحترىّ يصف كلام الحسن بن وهب وأقلامه :

(١) ديوانه ٤ : ١٥٩ ، ١٦٠ .

وإذا تألّق فى العيون كلامه الـ مَحْمودُ خِلْتَ لسانه من عضْبِهِ[1]
وإذا دجتْ أقلامه ثم انتحتْ برَقت مصابيح الدُّجَى فى كُتْبِهِ
فاللفظ يقرب فهمه فى بُعـدِه منّا ، ويبعُد نيْلُهُ من قُرْبِهِ
حِكَمٌ ، فسائحها خلال بنانِهِ متدفِّق ، وقليبُها فى قَلْبِهِ
فكأنّها والدّمع معقودٌ لها شخص الحبيب بدا لعين مُحِبِّهِ

وقال علىّ بن الجهم فى رقعة جاءته بخط جارية :

ما رقعـة جاءتْك مثنيّـةً كأنّهـا خَدٌّ على خَدٍّ[2]
نَبْذُ سـوادٍ فى بياضٍ كما[3] ذُرّ فَتيتُ المسْكِ فى الوَرْدِ
ساهمة الأسطر مصروفةٌ عن وجهة الهَزْلِ إلى الجِـدِّ
يا كاتباً أسامنى عَتْـبُه إليه ، حسبى منك ما عِنْدِى

وقال البحترى فى ابن الزيات :

قد تَصَرَّفْتَ فى الكتابة حتّى عطَّلَ الناسُ ذكرَ عَبْدِ الحميدِ[4]
فى نظامٍ من البلاغَةِ ما شَكّ امرؤ أنّه نظامُ فريدِ
وبديع كأنه الزّهر الضا حك فى رَوْنَقِ الرّبيعِ الجديدِ
ما أعيرت منه بطونُ القراطيـ ـس وما حملت ظهورُ البَريدِ
حُزْنَ مستعملَ الكلامِ اختياراً وتجنّبْنَ ظُلمـة التّعْقيـدِ
كالعذارَى غَدَوْنَ فى الْحُلَلِ الصّفْـ ـرِ إذا رُحْن فى الخطوب السُّودِ

قال المأمون لمحمد بن داود : إن شاركناك فى اللفظ نقد تاركناك فى الخطّ ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنّ من أعظم آيات النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه أدّى عن الله تعالى رسالته ، وحفظ وحيَه ، وهو أُمىّ لا يعرف من فنون الخطّ فنًّا ،

(١) ديوانه ١٦٤
(٢) ديوانه ٩٢
(٣) النبذ : الشىء القليل .
(٤) ديوانه ٦٣٦ .

ولا يقرأ من حروفها حرفاً ، وبقى عمود ذلك فى أهله ، فهم يشرفون بالشَّرَف الكريم فى نقص الخطّ ، كما يشرف غيرهم بزيادته ، وإنّ أمير المؤمنين أخصّ الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم ، والوارث لموضعه ، والمتقلّد لنهيه ولأمره ، فتعلّقت به المشابهة الجليلة ، وتناهت إليه الفضيلة . فقال المأمون : يا محمد ، لقد تركتنى لا آسى على الكتابة ولو كنت أميًّا .

قد ذكرنا من آلات الكتابة نثراً ونظماً ما فيه كفاية وفى السادسة والعشرين من النظم فى أوصاف الكتّاب ما يستحسن وينتظم بما أوردنا هنا .

وإنما أخرج الحريرىّ رسالته الخَيْنَاء من هذه الأوصاف المنظومة فى الرسائل التى قدّمناها آنفاً لما ذكره من أنّ جميع الكتّاب قطب لإنشائها وتاب ، لما فيها من لزوم نقط لفظة وترك أخرى ؛ وهى على ما بها من التكلّف ، رائقة المعانى ، أنيقة المبانى ، ولو غيره تعاطاها لأظلمت معانيها ، وتداعت مبانيها ، فلله هو ! لقد كان منقاداً له صعب الكلام بأيْسَر مَرَامٍ ! وما هو فى محاولة البلاغة إلا كما قال حبيب فى سليمان بن وهب :

سُرُحٌ نطقه إذا ما استمرَّتْ عقدة العىّ فى لسان الخطيبِ (١)
ومصيب شواكلَ الأمر فيه مشكلاتٌ مُلَكْنَ لُبَّ اللبيبِ
لا معنًّى بكلِّ شىء ولا كلُّ عجيب فى عينهِ بعجيبِ

* * *

الكرمُ ـ ثبّتَ اللهُ جَيْشَ سُعُودِك ـ يَزِينُ ، واللُّؤْمُ ـ غَضَّ الدَّهْرُ جَفْنَ حَسُودِكَ ـ يَشِين ، وَالأَرْوَعُ يثيبُ ، والمعور يَخيب ، والحُلاَحِلُ يُضيف ، والماحِلُ يُخيف ، والسَّمْحُ يُغْذِى ، والمَحِكُ يُقْذِى ، وَالعَطاءُ يُنجِى ، وَالمِطَالُ يُشجِى ، والدُّعاءُ يقى ، والمدْحُ يُنقِى ، والحُرُّ يَجزِى

(١) ديوانه ٣٧ . وفى فيه : « سرح قوله » .

رفع المسهم

والإلطاطُ يُخزِى، واطِّراحُ ذِى الحُرْمَةِ غَىٌّ، وَمَحْرَمَة بنِى الآمالِ بَغْىٌ، وَمَا ضَنٌّ إلاَّ غبينٌ، وَلاَ غُبِنَ إلاَّ ضنينٌ، ولاَ خَزَن إلاَّ شَقِىٌّ، ولاَ قَبَضَ رَاحَهُ تَقِىٌّ. وَمَا فَتِىءَ وَعْدُكَ يَفِى، وآرَاؤُكَ تَشْفِى، وَهِلالُكَ يُضِى، وحِلْمُكَ يُغْضِى، وآلاؤُكَ تُغْنِى، وأَعْدَاؤُكَ تُثْنِى، وَحُسَامُكَ يُفْنِى، وسُودَدُكَ يَبْنِى، ومُواصِلُكَ يَجْتَنِى، ومَادِحُكَ يَقْتَنِى، وسَمَاحُكَ يُغيث، وسَماؤُكَ تَغيث، وَدَرُّكَ يَفيضُ، ورَدُّكَ يَغيضُ، ومؤمِّلُكَ شيخٌ حكاه فَىْءٌ، ولم يبق لَهُ شَىْء. أمَّكَ بِظَنٍّ حِرْصُهُ يَثِبُ، ومَدَحَكَ بِنُخَبٍ مُهُورُها تَجِب، ومَرَامُهُ يُخِفّ، وأواصِرُه تَشِفّ، وإطراؤه يُجْتَذَب، ومَلامُهُ يُجْتَنب، ووراءه صَفَف، مَسَّهُمْ شَظَف؛ وحَصَّهُمْ جَنَف، وعَمَّهُمْ قَشَف، وَهُوَ فى دَمْعٍ يجيب، وَوَلَهٍ يُذيب؛ وَهَمٍّ تضيّف، وَكَمَدٍ نيّف، لمأمُولٍ خَيَّبَ، وإهْمالٍ شيّبَ، وَعَدُوٍّ نَيَّبَ، وَهُدُوٍّ تغيَّبَ، ولَمْ يزغْ وِدّه فيغضب، ولاَ خَبُث عُودُه فَيُقضَب، ولا نفَث صَدْرُه، فيُنفَض، ولاَ نشزَ وصْلُهُ فيُبْغَض، وَمَا يَقْتَضِى كَرَمُكَ نَبْذَ حُرَمِهِ؛ فبيّضْ أمله، بتخفيف ألمه، ينثُ حَمْدَكَ بَيْنَ عَالِمِه. بقيتَ لإماطةِ شَجَبٍ، وإعطاءِ نَشَبٍ، وَمُدَاوَاةِ شَجَنٍ، ومُرَاعَاةِ يَفَنٍ، موصولاً بخفضٍ، وسُرُورِ غَضّ، مَا غُشِىَ مَعْهَدُ غَنِىّ، أَوْخُشِىَ وَهْمُ غبِىّ، والسلام.

* * *

قوله :«غضّ الدهر جفن حسودك»، يقال : غضّ جفنه، أى سدّ عينيه ، دعاء عليه بالعمَى ، يقول : الكرم يزيّن صاحبه . واللؤم — وهو البخل — يَشينه ويَعيبه ، ثم دعا له بدوام السّعد وثبوته ، وبعمى عين الحسود حتى لا يبصر ماأُعْطِىَ الممدوح من النّعم، فيأخذها بالعين. الأروع: السيد الكريم، وهو الذى قصد، وقيل :الأرْوَع الحديد النفس ، وقيل : الذى يروعُك بجماله . يُثيب : يُجازى قاصده .والمُعْوِر : البادى العَوْرَة ، وهو الفارس يظهر فى طعنه خلل ، وأراد به الناقص الخلق الكثير السفاهة ، ومن جملة عيوبه البخل حتى يخيب قاصده ، لأنه قابَل به الأرْوَع ، وهو التامّ الجسيم ، الجهير الصوت ، قال الشاعر :

يواخِى لئيمُ النَّاس كلَّ ملأمٍ وينطق بالعَوْرَاءِ مَنْ كان مُعْوِرَا

الُحلاحل : السيّد الذى يحُلّ به الناس كثيراً . يُضيف : يُنزل الأضياف ويكرمهم . والمَاحل:البخيل ، شبِّه بالبلد الماحل ، وهو الجدْب ، فكأنّ الماحل الذى لا يوجد عنده خير ، يقال : أمحل البلد ، وبلد ماحل وذو مَحْل ، مثل لابن وتامر ، والماحل النَّمّام ، يقال :مَحَلَ به إلى السلطان إذا وشَى به ، وهو الذى يُخيف على الحقيقة ، والماحل أيضاً : المخاصم، وقد ماحلتُه وماحَلنى . يُغْذِى: يطعم . والمحِكُ : اللّجوج ، وهو مقابل السَّمْح الخلق . يُقذِى : يجعل فى العين قَذًى ، أى يضرّ قاصده ويؤلمه . يُنجِى:يخلّص صاحبَه من الذمّ ،وتقدّم المِطال . يُنْقِى : يغسل العيب . والإلطاط : الامتناع من فعل الخير ، ويقال : لطّ وألطّ، إذا ذهب ، ولطّ الشىء وألطّه ، إذا ستره . يُخزى : يهين . اطّراح : ترك . ذى الحرْمة ، أى صاحبها،والحرمة مالا يحلّ تركه لـ ـن قصدك فقد دخل فى حرمك ، فتركُه ليس من المروءة . غَىّ : فساد وضلال . مَحْرمة : منع . بنى الآمال : أهل الرجل الذين يرجون خيره ويأملونه . بَغْى : ظُلم . ضنّ : بخل . غَبِين : مخدوع فى رأيه . ضنين : بخيل ، يقول : ما يضَنّ بماله من هو سديد.

رفع المسهم

النظر ولا المصيب الرأى إنما يبخل به مَنْ هِ فاسد النظر مغبون فى رأيه .
خَزن: حبس ماله : قبض راحه: ضمّ كفه على مافيها ، وهذه كناية عن المنع والبخل.
والتقىّ : الذى يقى نفسَه من العذاب بعمله الصالح ، من وقيتُ نفسى أقيها ، واختلف فى وزنه فقيل « فعول » وأصلها «وقوى» ، فأبدلوا من الواو تاء لقرب مخرجيهما ، ومن الواو الثانية ياء وأدغموها فى الياء ، وكسروا القاف لتصحّح الياء ، والاختيار أن يكون وزنه « فعيلاً » وأصله « تقّى » ، فأدغموا الياء فى الياء ، ولدليل على صحته جمعهم له على أتقياء ، كولىّ وأولياء ، ومن قال : إنه « فعول » قال : لمّا أشبه « فعيلا » جُمِع جمعه .

قوله : «ما فتىء» ، أى مازال. يقى : يصدق ويكون وفيًّا. آراؤك: جمع رأى. تشفى : تزيل الهمَّ عن قلب وليّك ، وترى مرضَ قاصدِك من فقره ، يصفه بجودة الرأى وحسن النَّظر فيما يُصلح به أحوال أصحابه وقصاده . هلالك يضى : يصفه بطلاقة الوجه وإضاءته عند السؤال ، قال زهير :

تَرَاه إذا ما جئتَه متهلِّلاً كأنّك تعطيه الذى أنت سائلُه(١)

وكما قال أبو بكر فى الطّلاقة :

وإذا نظرتَ إلى أسرّة وجهه برقتْ كبرق العارض المتهلّلِ

خلافاً لسيِّىء الخلُق الذى يقطّب وجهَه عند اللقاء ، واللئيم الذى إذا سئل انزوى وتقبّض .

يغضى : يسمح . آلاؤك : نعمك . أعداؤك تُثنى : يقول لكثرة المادحين لك والناشرين لفضلك ، لم يمكن أعداؤك وحسّادك ذمّك لتكذيب الناس إياهم ، فصاروا يثنون عليك مع من يثنى ؛ ويحكى أنّ أعرابيًّا استضاف حاتمًا ،

(١) ديوانه ١٤٢ .

فلم يُنزله ، فبات جائعاً مقروراً ، فلما كان فى السَّحر ركب راحلته ، وانصرف ، فتقدّمه حاتم ، فلماخرج من بين البيوت لقيه متنكّراً ، فقال له : من كان أبا مثواك البارحة ؟ قال: حاتم ، قال : فكيف كان مبيتك عنده ؟ قال : خيرَ مبيت،نحرَ لى ناقةً فأطعمنى لحما عبيطاً ، وأسقانى الخمر ، وعلف راحلتى ، وسرتُ من عنده بخير حال . فقال له : أنا حاتم ، والله لا تبرحُ حتى ترى ما وصفت ، فردّه وقال له : ما حملك على الكذب ؟ فقال له الأعرابىّ : إنّ الناس كلَّهم يثنون عليك بالجود ، ولو ذكرت شرًّا كنت أكذب ، فرجعت مضطرًّا إلى قولهم ، إبقاء على نفسى لا عليك . وقد تقدّم قول البحترىّ فى هذا المعنى :

أأشكو نداه بعد ما وسع الوَرَى ومَنْ ذا يذمُّ الغَيْثَ إلا مُذَمَّمُ[1] !

وقال حبيب :

فإن أنا لم يحمدك عَنِّىَ صاغراً عدوّك فاعلم أننى غير حامِدِ[2]
بسبَّاقة تنساق من غير سائقٍ وتنقاد فى الآناق من غير قائِدِ
أفادت صديقاً من عدوّ وصيرّت[3] أقاربَ دنيا من رجالٍ أباعِدِ
ومحْلَفة لمّا تَرِدْ أُذنَ سامع فتصدر إلاّ عن يمين وشاهِدِ

وهذه القصيدة من كلامه يمدح بها محمد بن الهيثم ، يقول : يسمع عدوّك إطنابى فى مدحك فيمدحك صاغراً ، فكيف وليّك! فأمدحك بقصيدة تقطع الأرض ، ليست بإبل تُساق ، ولا بخيْل تقاد ، فتردّ العدوّ صديقاً ، والبعيد قريباً ، ولا

(١) ديوانه ١٩٨٠
(٢) ديوانه ١١٩ ، ١٢٠
(٣) ط : « وعاودت »

يسمعها أحد إلا ويحلف أنه لم يسمع مثلها ، فيشهد له بالصدق .

قوله :« وسوددك يَبْنِي »، أى يرفع لك مجداً وشرفاً . حسامك يفنى ، أى سيفك يقطع ويفنى أعداءك . مواصلك يجتنى ، أى مَنْ زارك وواصلَك اجتنى نعمتك ومواهبك . يقتنى ، أى يكتسب . سماؤك تَغيث ، أى تأتى بالغيث وهو المطر فيستغيث الناس به من الجدب . سماحك يُغيث، أى جودك وحسن خلقك يفرّج كُرَب المهموم، وتقول : غوّث الرجل، أى قال : واغوثاه ، وأغثته أغيثه ، إذا فرّجت عنه ما يشتكى منه . درّك يفيض: عطاؤك يشمل ، أى لبنُك يملأ الإناء ويفيض عليه، يريد أن عطاءه يكثر لسائله . وردّك يَغيض ، أى منعك يذهب الرزق ، وغاض الماء: غار فى الأرض ، مؤمّلك: راجيك . والفىء : الظلّ بعد الزوال ، يريد أن عمره قد أدبر ، فشبّه نفسه بالفىء الذاهب . أمَّك بظنّ ، أى قصَدك برجاء . وحرصه يُثب ، أى طمعه يتزايد فيجعله فى غاية من القلق . نُخَب : مختارة . مهورها : حقوقها ، يقول : مدحك بنخب فى ملئه ، فوجَبَتْ حقوقها لحسنها وجودتها . ومما ينظر إلى هذه المعارضة قول الشاعر :

وخذ حمدِى بجودك ، ذَا بهذا ... كلانا اليوم أربحُ صيرفيِّ
لأُصبح من نوالك فى رياشٍ ... وتصبح من مقالى فى حُلىٍّ

وقال آخر :

وحُلَّةٍ كَسَاها ... كالحلىِّ فى التهابهْ
فاستبطنت مديحاً ... كالأرْىِ فى نِصَابِهْ
فراحَ فى ثيابى ... ورُحْتُ فى ثيابِه

وقال ابن شُهيد فى ضيف له :

وما أنفكّ معشوق الثّواء نَمُدُّهُ ... ببشر وترحيب وبَسْط لِسَانِ[1]

إلى أن تشهّى البينَ من ذاتِ نفسِه ... وحنّ إلى الأهلين حنّة حَانِ

فأتبعتُه ما سدّ خَلّة حالِهِ ... وأتبعنى ذكراً بكلّ مكَانِ

قوله : «مرامه يخفّ» ، أى مطلبه يسهل عليك .

أواصره : جمع آصرة وهى صلة الرحم ، والأَصْر : المَوضع الحابس ، من قولهم : أصرت فلاناً على الشىء آصِره أصْراً ، إذا حبسته عليه وعطفته ، ويقال : ماتأصرنى على فلان آصرة ، أى ما تحبسنى عليه حابسة ، ولا تعطفنى عليه عاطفة . ذكره ابن الأنبارىّ .

وذكر الحريرى فى الدرّة ، أن اشتقاق أواصر القرابة والعهد من المأصِر ، بكسر الصاد ، ومعناه الوضع الحابس للمارّ عليه ، فسمّيت أواصر ، لأنها تعطف على مايجب رعايته من المودة والرحم . قال : وحكى عُبَيد الله بن عبد الله ابن طاهر ، قال : اجتمع عندنا أبو نصر أحمد بن حاتم وابن الأعرابىّ فتحاذثا[2] ، فحكى أبو نصر أنّ أبا الأسود دخل على عبيد الله بن زياد ، وعليه ثياب رثّة ، فكساه ثياباً جديدة من غير أن يسأله ، أو استكساه ، فخرج وهو يقول :

كساك ولم تستكسِه فحمِدتَه ... فتًى ماجد يعطى الجزيل وياصِرُ

وإنّ أحقّ الناس إن كنتَ مادحاً ... بمدحك من أعطاك والعِرْض وافرُ

فقال ابنُ الأعرابىّ : « وناصر » بالنون ، فقال له أبو نصر : دعنى يا هذا وياصرى وعليك بناصرك ؛ يريد : « ياصر » يعطف[3] .

(١) الذخيرة لابن بسام ١ : ٢٦٧

(٢) الدرة : « فتجاذبا الحديث » .

(٣) درة الغواص ٧١

رفع المسهم

قوله :«تشفّ» ،أى تزيد وتفضل غيرها ، يقول :إن الأسباب التى توجب عطفك وحنانك علىّ كثيرة منها الشَّيَخ[1] والضعف وكثرة العيال وجودة المدح،والعهود السابقة التى بينى وبينك . إطراؤه يُجتذب ، أى مدحه يتجاذبه الناس ويحرصون على تحصيله لجودته ، وأصل الإطراء المدح فى الوجه ، فهو بمشاهدته كأنه مدْح طرئ ، أو ظهرت عليه طراوة . ملامه يُجتنب : ذمّه يخاف ويبعد منه ، فيرشَى عليه ، يقول : إنّ الذى رجاك شيخ مسنٌّ فقير قصَدك بيقين لأنك من أهل الكرم ، فطمعُه لذلك يزيد لما ارتجى من معروفك، وأهدى إليك من مدائحه عرائس وجبت عليك حقوقها ، ومرامه سهل عليك ، ولديك عُلَق تقوم مقام القرابة ، وتزيد على ذلك ، وله مدح يرغّبُ فيه وذم يرهِب منه .

ووراءه ضَفف ، أى خلفه كثرة عيال ،من ضفّ الطعام ضَفًّا إذا كثر القوم عليه ، وضفّ العيش اشتدّ . والشَّظف :سوء الحال.حصّهم:عرّاهم ونتف ريشَهم . جنَف : ميل الدهر عليهم. قَشَف :بؤس عيش. يجيب :يساعد . وَلَه : همّ وحيرة . يذيب : يُذهب اللحم . تضيّف:نزل به ومال إليه . كمد: حزن قارب الموت. تيف : زاد على المعهود . لمأمول،أى لمقصود مرجوّ. إهمال : تضييع وتسييب . نيّب: عضّ بأسنانه . وهدوّ تغيّب،أى سكون وأمن زال عنه . يزغ : يمل . نفث صدره ، أى تكلم بشرّ،ونفث :بَرَق من داء فى صدره ومنه المثل:لابدّ للمصدور أن ينفُث. ينفض،أى يضرب ويبعد . نَشَز : ارتفع وزال. يقتضى:يتضمّن ويلزم . نبْذ:طرح. حُرَمه : جمع حُرْمة . بيّض أمله ، أى أسعد رجاءه ، ورُدّه أبيض بعطائك الذى يخنف أمله ،ويزيل وجعه . ينثّ:ينشر.عاله : ناسه وأهل زمانه . بَقِيت : عشت وطال بقاؤك . إماطة شجب: إزالة هلاك وتنحيته . نشب: مال . شجن: حزن ، والشَّجن أيضاً الحاجة . مراعاة : حفظ . يَفَن : شيخ كبير . موصولاً ؛ أى

(١) الشيخ ، محركة ، مصدر شاخ يشيخ ، مثل الشيخوخة .

متصلاً . بخفض : عيش هنيء . غضّ : ناعم جديد . غُشِيَ : قُصِد ودخل . معهد : موضع يعهد به جلوسه . وهم غبيّ : غلط جاهل .

* * *

فَلمَّا فرَغ مِنْ إمْلاَءِ رِسَالتِهِ ، وجَلَّى فى هَيْجَاء الْبَلاغةِ عَنْ بَسَالَتِهِ ، أَرْضَتْهُ الجماعَةُ فِعْلاً وقَوْلاً ،وَأَوْسَعَتْهُ حفاوَةً وطَوْلاً . ثُمَّ سُئِلَ مِنْ أىِّ الشُّعُوبِ نِجَارُه ، وفى أىّ الشِّعَابِ وِجارُهُ ، فقَالَ :

غَسَّانُ أَسْرَتِىَ الصَّمِيمَهْ وَسَرُوجُ تُرْبَتِىَ الْقَدِيمَهْ
فالبيتُ مِثْلُ الشَّمْسِ إشْـ ـراقاً ومَنْزِلَةً جَسِيمَهْ
والرَّبْعُ كَالفِرْدوسِ مطـ ـيِّبَةً ومَنْزَهَةً وقِيمَهْ
وَاهاً لِعَيْش كانَ لِى فيهَا ولَذَّاتٍ عَمِيمَهْ
أيَّامَ أَسْحَبُ مُطْرَفِى فى رَوْضِهَا مَاضِى الْعَزِيمَهْ
أخْتَالُ فى بُرْدِ الشَّبَا بِ وأجْتَلِى النِّعَمَ الْوَسِيمَهْ
لا أتَّقِى نُوَبَ الزَّما نِ ولاَ حَوَادِثَهُ المُلِيمَهْ
فَلَوْ أنَّ كرْباً مُتْلِفٌ لَتلِفْتُ مِنْ كُرَبِى المقِيمَهْ
أَوْ يُفْتَدَى عَيشٌ مَضَى لَفَدَتْهُ مُهْجَتِىَ الكَرِيمَهْ
فالموتُ خيرٌ لِلْفَتَى مِنْ عَيْشِهِ عَيْش البَهِيمَهْ
تقتَادُهُ بُرَةُ الصَّغَا ر إلى العظِيمَةِ والْهَضِيمَهْ

ويَرَى السِّباعَ تَنوشُها أيدى الضِّباعِ المستضيمَهْ
والذَّنْبُ للأيام لَوْ لا شؤمُها لم تَغْبُ شِيمَهْ
ولو استقامَتْ كانتِ الـ أحوالُ فيها مُستقيمَهْ

* * *

قوله : «إملاء رسالته» ، أى إلقاؤها عليه ليكتبها. جلّى : كشف. الهيجاء : الحرب ، وهى من الهيج وهو الحركة والاضطراب . بسالته : شجاعته . أوسعته : كثّرت له . حفاوة : إكرام . والطَّوْل : الإنعام . الشّعوب : القبائل ، واحدها شَعْب ، بفتح الشين وهو الأب الكبير . ثعلب ، الشّعب : الأب الأكبر الذى ينتهون إليه والقبيلة دونه . نجاره : أصله . الشِّعاب : الطرق فى الجبال . وِجَاره : جُحره ، أراد بَيْتَه ، لأنهم سألوه من أىّ قبيلة هو ، وعن مسكنه فى أىّ موضع هو .

قوله : «غسان أسرتى» : أى هذه القبيلة أصلى وقرابتى . الصميمة : الصريحة الخالصة . تربتى . بلدتى . إشراقاً : ضياء ونقاء من العيب . جسيمة : عظيمة . الفردوس : الجنّة ، سُمِّيَتْ بذلك لعرائشها ، والفردوس : المعرّش من الكرم . مطيبة ، أى سروج مثل الجنة فى طيب الهواء ، وفى نزهتها وحسنها ، وفى قدرها ، وأراد بالبيت غَسّان ، وبالربع سَروج ، أو يريد بيتَه فى غسان فى الشرف كالشمس ، ومنزله فى سَروج كالجنة فى طيبها ونزهتها ، وقد قال فى أخرى :

مَنْ رآها قال مَرْسَى جنّةِ الدنيا سَرُوجُ

ومثل قوله فى البيت مثل الشمس ، قول أبى الطَّمَحان القينىّ :

وإنّى من القوم الذين هُمُ هُمُ إذا مات منهم سيّد قام صاحبُهْ[1]

---

(١) الأبيات فى الكامل للمبرد ١ : ٩٤

رفع المسهم

نجوم سماء كلّما غار كوكبٌ بدَا كوكب تأوى إليه كواكبُهْ
أضاءتْ لهم أحسابهم ووجوههم دُجى الليل حتّى نظّم الجزع ثاقبه[1]

وقال حسان بن ثابت :

بيض الوجوه مضيئةٌ أحسابهمْ شمّ الأنوف من الطّرازِ الأوّلِ[2]

وزاد عليه فى الإضاءة والإشراق حجيّة بن المضرّب فقال :

أضاءتْ لهم أحسابهمْ فتضاءلَتْ لنورهمُ الشمس المنيرة والبَدْرُ

وزاد عليه أبو الطيب وعلى الناس فى علوّ الهمة وتبعيد منازلها من منازل الكواكب ، حيث يقول :

وعزمةٍ بعثتْها همّةٌ زُحَلٌ مَنْ تحتَها بمكان التّرب من زُحَلِ[3]

وزُحل أرفع من الشمس ومن سائر الكواكب منزلةً ، وهذا من غلوّ المتنبّى الذى يخرج به عن الناس حتى يُعاب ، لأنه لو جعلها مع زُحَل فى منزلة واحدة ، كما جعل الحريرى منزلتَه مع الشمس لكان قد بلَغ النّهاية ، وزاد على غيره ، فلم يكتف بذلك حتى جعلها تعلو على زُحَل ، كما يعلو زُحل على الأرض . ومن هذا الإفراط فى شعره كثير ، وأكثر النقاد يعيبون عليه ؛ وبعد هذا فمعجزاته فى الشعر زاد بها على المتقدّمين والمتأخّرين عند الأكثر فلا يجارى فى كثير منها.

واهًا : تعجُّباً ، كأنه قال : ما أعجب ما كان عيشى بها ! عميمة : كثيرة . أسحب مُطْرَفى : أجرّ ثوبى المعلَم فى طرفه إعجاباً بنفسى. أختال : أمشى الخَيلاء متكبّراً . بُرْد الشباب : ثوب الفتوّة . أجتلى : أنظر . الوسيمة : الحسان . والنّوب والحوادث : النوازل والمصائب ، كلّها بمعنى واحد ، وهى ماينوب الإنسان ، أو يحدث عليه أو ينزل به ، أو يصيبه من البلاء بعد العافية . المليمة:

(١) الجزع ، بالفتح ويكسر : الخرز اليمانى .
(٢) ديوانه ٣٠٨
(٣) لم أجده فى ديوانه ، كما لم أجده فى شعره أبى طالب المتنبى الأندلسى فيما أورده ابن بسام فى الذخيرة وعلى بن سعيد فى المغرب .

التى تأتى بما يُلام عليه . كرَبى المقيمة : همومى الثابتة . مُهجتى : نفسى، وأصلها دم القلب . تقتاده : تسوقه . بُرَة : حَلْقة من صُفْر تجعل فى وترة أنف البعير ، يذلَّل بها . الصَّغَار : الذِّلّة . العظيمة : داهية يُستعظم أمرها . والهضيمة : المحقّرة لشأنه عند الناس ، فيريد بالبهيمة البعير الذى يقاد ويذلَّل بالبُرَة ، وبالعظيمة سؤاله الناس ، وبالهضيمة احتقارهم له إذا سألهم فيردونه خائباً . والسباع هنا : الأسُود . تنوشها : تتناولها وتخدشها .

[الضباع وما قيل فيها]

والضباع : جمع ضَبُع ؛ وهو نوع من سباع الأرض ، وهى مضادّة فى الخِلْقة لسبع الأندلس ، لأنها عظيمة الكَفَل والفخذين رقيقة الصدر ، وهذا السبع أزَلّ[1] عظيم الصدر ، والضبع عظيم البطن ، ولذلك سمى حُضاجر بالجمع ، والحِضجر : عظيم البطن . والحِضْجر : الوطب الكبير من اللبن ، ويشبّه به العظيم البطن ، وهى عرجاء مثل هذا السبع ، ويضرب بحمقها المثل فيقال : أحمق من ضَبُع ، وأحمق من أمّ عامر وهى كنيتها . ومن حمقها أنّ الصائد يدخل وِجارها فيقول لها : خامرى أمّ عامر ، ومعناه الجئى إلى أقصى مغارك واستترى ، فتتقبّض ، فيقول : أم عامر ليست فى وجارها ، ثم يقول : أبشرى أمّ عامر بكَمَر الرجال ، أبشرى أم عامر بشاة هزلى ، وجرادَةٍ عظْلَى ، فتمدّ يديها ورجليها ، فيوثقها ويشدّ عراقيبها بحبال فلا تتحرّك ، ولو شاءت أن تقتله لأمكنها ، ولا يدخل عليها إلا عرياناً ، وإن دخل بثوب قتلته ، ثم يخرج لأصحابه بالحبال ، وهم على فم الوِجار بأسلحتهم ، فيخرجونها بالجرّ من قعر الوِجار ويقتلونها .

ومن حمقها أنّها تترك جِراءها إذا خرجت تلتمس ما تأكل ، فتجد جِراء أخرى قد خرجت أيضاً لذلك ، وتركت جِراءها فترضع أولاد غيرها ، وتترك أولادها ، فربما ضاعت جِراؤها فأكلها الذئب[2] . وقال الشاعر :

(١) الأزل : الخفيف الوركين .

(٢) جمهرة الأمثال ١ : ٤١٦ ، الميدانى ١ : ٢٣٨ .

كَمُرْضِعةٍ أولاد أُخرى وضَيَّعَتْ بنى بطنها ،هذا الضلال عن القَصْدِ

قال أبو زيد : والضباع لا تفترس شيئاً إنما تأكل الجِيَف ، وتنبش القبور عن الموتى ، وربما اجتمعت الجماعة منها على حمار فأكلته ، وليس لها بالنهار كبير عمل ، قال الهذلىّ :

تبيت اللّيل لا يخفى عليها حمارٌ حيث جُرَّ ولا قتيلُ[1]

قوله : « المستضيمة » أى المذلّه .والضيم : الذلّ ؛يضرب المثل لتلاعب الزمان بالناس بالأسود والضباع ، فقال : إنّ الضباع المحتقرة عند الأسود تتناول الأسود بالضرر ، وكذلك الزّمان يرفع الحقير والهجين ويكثر رزقه ، ويضع الرفيع ويقتّر عليه ، ويملّك الهجناء والأراذل الخطط الجسام ، ويجرّع النبلاء والأعيان غُصَصَ المخازى وكئوس الحِمام .

* * *

[نبذ فى أحوال الدهر]

وهذه أحوال مشاهدة تنسب إلى الدهر لوقوعها فيه ، وقدّرها البارى عز وجل اختباراً لعباده ، وليبصّر العقلاء جريان أحكامه فى خلقه، وأنّ الكل تحت قهره ، وأن كلّ إنسان من أهل الحزم والرأى عاجز عن إدراك ما لم يقدّر له؛ وقال محمد ابن الفضل :

هانت الدّنيا على الله فأعطاها اللّئاما
فهُمُ فيها يعيشُو نَ وَيَلْحَوْنَ الكِرَاما

(١) لساعدة بن جؤية الهذلى ، ديوان الهذليين ١ : ٢١٦ .

وقال المعرىّ فى معنى بيت الحريرىّ :

ومَنْ صَحِبَ اللّيالِى علّمْتُهُ خداع الإلْفِ والقِيل المُحَالا[1]
وغيّرت الخطوب عليه حتى تريه الذرّ يحمِلن الجبالا

وقال يزيد المهلبىّ يرثى المتوكل :

علتْك أسياف من لادونه أحدُ وليس فوقَك إلا الواحدُ الصَّمَدُ[2]
وأصبح الناسُ فوضَى يعجبُون به ليثاً صريعاً تندى حوله النَّقَدُ[3]

وأخذ لفظ بيته من قول حبيب :

مَنْ لم يعاين أبا نصرٍ وقاتلَه فما رأى ضبُعاً فى شدقه سَبُعُ[4]
فيم الشماتة إعلاناً بأسْدٍ وغًى أفناهمُ الصَّبرُ إذ أبقاكم الجزَعُ !

هكذا يُنظم حرّ الكلام ، ويُعتذر لموت الكرام ، وتُنفى عنهم شماتة اللئام. وقد أحسن الاعتذار أيضاً لأبى نصر بأغرب من هذا ، وجعله قاتل نفسه ، إذ لا نظير له فى شجاعته فيقتله ، وإنما قتله أمر الله الذى لايغالَب، كما قال أبو الطيب:

ألا إنّما كانتْ وفاة محمدٍ دليلاً على أن ليس لله غالبُ[5]

وكذلك قوله :

فإن ترم عن عمرٍ توانى به المدَى فخانك حتى لم يجد فيك منزعا[6]
فما كنتَ إلاّ السَّيفَ لاقى ضربيةً فقطّعها حتى انثنى فتقطّعا

---

(١) سقط الزند ٨١
(٢) مروج الذهب للمسعودى ٤ : ١٢٤
(٣) النقد : جنس من الغنم.
(٤) ديوانه ٣٧٢
(٥) ديوانه ١ : ١٠٩
(٦) ديوانه ٣٧٤

رفع المسيهما

أى لم يقتل حتى قتل أعداءه ، وأبو نصر هو محمد بن حُميد قتله بابك الخرّمىّ ومما قال فيه حبيب — وهو أشجع بيت قيل — قوله :

ونفسٌ تعاف العار حتى كأنّما هو الكفرُ يوم الرَّوْع أودونه الكفرُ[1]
فأثبت فى مستنقَع الموتِ رِجْلَهُ وقال لها: من تحت إخمَصِك الحشرُ

قوله :«الذنب للأيام »،نسب الذنب إليها لوقوع المكروه فيها كما تقدم . تنبُ : ترتفع ، شيمة : طبيعة،أى لولاشؤم الأيام لم تتغير الطباع ، أى لو استقامت هى لاستقامت أحوال الناس فيها ،فكان كل إنسان يدرك منها على قدر منزلته.

* * *

[نبذ وأقوال وحكايات فى ذم الزمان]

ومما قيل فى ذمّ الزمان مما يوافق هذا المعنى ، أنّ عبد الملك بن مروان سأل مسلمة بن يزيد — وكان من المعمّرين —فقال : أىّ الملوك رأيت أكمل ؟ وأىّ الزمان رأيت أفضل ؟ فقال : أمّا الملوك فلم أر إلا حامداً أوذامًّا ، وأمّا الزمان فيرفع أقواماً ويضع أقواماً ،وكلّهم يذمّ زمانه،لأنه يُبلى جديدَهم ، ويفرِّق عديدهم، ويُهرم صغيرهم ، ويُهلك كبيرهم .

أبو جعفر الشيبانىّ قال : أتانا أبو ميّاس الشاعر ، ونحن فى جماعة ، فقال: ما أنتم فيه ؟ قلنا: نذكر الزمان وفساده ، قال : كلاّ إنّ الزمان وعاء ، وما ألقِىَ فيه من خير أو شر كان على حاله ، ثم أنشأ يقول :

أرى حُلَلاً تُصانُ على رجال وأخلاقا تُذَال ولا تُصَانُ
يقولون الزّمان به فسادٌ وهمْ فسدوا وما فسد الزمَانُ

(١) ديوانه ٣٦٩

وقال آخر :

أيا دهر إنْ كنت عاديْتَنَا ... فها قد صنعْتَ بنا ما كَفَا كَا
جعلت الشِّرارَ علينا خِيـــاراً ... وأوْلَيْتَنا بعد وجـــهٍ قَفَا كَا

وقال أبو العتاهية :

كفاكَ عن الدّنيا الذميمة مُخبِرُا ... غِنَى باخليها وافتقار كِرَامِهَا
وأن رجال النَّفْع تحت مداسِهَـا ... وأنَّ رجال الضرّ فوقَ سَنَامِهَا

وقال ابن لَنْكك :

يا زمانا ألبس الأحـ ... ـــرارَ ذُلاً ومهانَهْ
لست عنـدى بزمانٍ ... إنَّمـــا أنتَ زَمَانَهْ(١)

وقال ابن الرومىَ :

دهرٌ علاَ قدرُ الوضيـــع به ... وغدا الشَّريف يحطُّه شرفُهْ(٢)
كالبحر يرسبُ فيه لؤلـــؤهُ ... سُفْلاً ويطفو فوقَهُ جِيَفُـــهْ

وكرّره فقال :

قالتْ: علا الناس إلا أنت قلت لَهَا: ... كذاك يَسْفُل فى الميزان مارَجَحَا

وقال آخر :

ربّ يومٍ بكيتُ فيه فلمّا ... صرتُ فى غيره بكيتُ عليْهِ(٣)

---

(١) الزمان : العاهة
(٢) التمثيل والمحاضرة ٢٥٩
(٣) التمثيل والمحاضرة ١٠٦ نهاية الأرب ٣ : ٩٨

رفع المسهم

وقال آخر :

لم أبك من زمنٍ نكْدٍ أُساء به ... إلاّ بكيتُ عليه حين أفقدُهْ
ولا جزعتُ على مَيْتٍ فُجِعتُ به ... إلا ظللت بسكنى القبر أحسُدُهْ
ولا ذممتُ زماناً فى تقلّبه ... إلاّ وفى زمنى قَدْ صِرْت أَحمَدُهْ

وقال ابن أبى عيزارة :

عتبتُ على سَلْمٍ فلمّا فقدتُه ... وجَرَّبْتُ أقواماً بكيتُ على سَلْمِ
رجعت إليه بعد تفويتِ غيره ... فكان كبُرْءٍ بعد طول من السَّقْمِ

وأنشد المبرّد :

حياة أبى العباس زيدتْ بقربِهِ ... أخا ثقةٍ قاس الأمور وَجَرَّبَا
ونعتب أحياناً عليه ولو قَضَى ... لكنّا على الباقى من الناس أعتَبَا

قال عروة بن الزبير :الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم . أخذه أبو الطيّب فقال :

وشبه الشىء منجذبٌ إليه ... وأشبهُنا بدنيانا الطَّغَامُ[1]
ولو لم يعلُ إلا ذُو محلٍّ ... تعالى الجيشُ وانحطّ القَتَامُ
ودهرٌ ناسُهُ ناسٌ صغارٌ ... وإن كانت لهم جُثَثٌ عِظَامُ
وما أنا منهمُ بالعيشِ فيهمْ ... ولكن مَعْدِنَ الذّهب الرّغَامُ

الطّغام : السفلة .

* * *

ثُمَّ إِن خَبره نمَا إِلَى الوالى ، فَمَلأَ فاه باللآلى ، وَسَامَهُ أَنْ يَنْضَوِىَ إِلى أَحْشائِهِ ، وَيَلِىَ دِيوانَ إِنْشائِهِ ، فأَحْسَبَهُ الْحِباء ، وَظَلَفَهُ عَنِ الْوِلايَةِ الإِباء .

(١) ديوانه ٤ : ٧١

قال الرَّاوِى : وَكُنتُ عَرَفْتُ عُودَ شجرَتِه ، قَبْلَ إِينَاع ثَمَرَتِه ، وَكِدْتُ أُنبِّهُ عَلَى عُلُوِّ قَدْرِه ، قَبْلَ اسْتِنَارَةِ بدْرِه ، فأَوحى إِلَىَّ بِإِيماض جَفْنِهِ ، أَلاَّ أُجَرِّدَ عَضْبَهُ مِنْ جَفْنِهِ . فلمَّا خَرَجَ بَطِينَ الْخُرْجِ ، وَفَصَلَ فائِزًا بالْفُلْجِ ، شَيَّعْتُهُ قَاضِيًا حَقَّ الرِّعَايَةِ ، وَلاَحِيًا لهُ عَلَى رَفْضِ الْوِلاَيَةِ ، فأَعْرَضَ مُتَبَسِّماً ، وَأَنْشَدَ مُتَرَنِّمًا :

لَجَنُوبُ البلادِ مَعَ الْمَتْرَبَهْ أَحَبُّ إِلَىَّ مِنَ الْمَرْتَبَهْ
لِأَنَّ الْوُلاَةَ لَهُمْ نَبْوَةٌ ومَعْتَبَةٌ يا لهَا مَعْتَبَهْ !
وَمَا فِيهِمُ مَنْ يَرُبُّ الصَّنِيعَ وَلاَ مَنْ يُشَيِّدُ ما رتَّبَهْ
فَلاَ يَخْدَعَنْكَ لُمُوعُ السَّرَابِ وَلاَ تأْتِ أَمْرًا إِذَا ما اشْتَبَهْ
فَكَمْ حَالِمٍ سَرَّهُ حِلْمُه وَأَدْرَكَهُ الرَّوعُ لَمَّا انتَبَهْ

* * *

قوله : « نما » ، أى ارتفع ووصل . اللآلى : الدرر . سامه : كلّفه . ينضوى : ينضمّ . وأحشائه : خاصّته . يلى ديوان إنشائه : يتولّى دار كتابته ، أى يكون هوالذى ينشىء الكتبَ، وينسخها الكتّاب وتنفذ إلى البلاد . أحسَبه : كفاه . الحِباء : العطاء . ظَلَفه : منعه . الإباء : الامتناع ، وقد أبيت من كذا ، أى امتنعت منه ؛ ويكنَى به عن نزاهة النفس . عود شجرته ، يريد أنه كان عرفه قبل أن يتكلّم ، وأن يعرّف نفسه . وإيناع الثمرة : إدراكها ونضج ثمرتها . إيماض جفنه : إشارة عينه . عضْبه : سيفه . جفنه : غمْده ، أى

أشار علىّ أن أسترَه . بطين : مملوء . المُدْرِج : وعاء معلوم ، وهذا كقول الشاعر :

يبيتون بالدَّهْنا خِفَافاً عيابُهُمْ ويخرجْن من دَارِين بُجْرَ الحقائبِ(١)

وقد أخذ هذا اللفظ فى مقامة أخرى فقال : حتى آل ذا عيبة خضراء وحقيبة بجراء ، أى مملوءة . وإلى هذا المعنى أشار ، نُصَيب فى قوله :

أقولُ لركبٍ قافلين رأيتهُمْ قَفاذاتَ أوْشَالٍ ومو لاكَ قارِبُ(٢)
قفوا خبِّرونى عن سليمان إنَّنِى لمعروفه من أهل وَدَّانَ طالبُ(٣)
فعاجُوا فأثنوْا بالذى أنت أهله ولوسكتُوا أثنت عليك الحقائبُ

ثناؤها عليه ، أن بدت للناس مملوءة من معروفه ، فأتى أبو العتاهية فزاد المعنى بياناً بقوله :

إنّ المطايا تشتكيكَ لأنَّهـا قطعتْ إليك سباسباً ورِمَالاَ(٤)
فإذا أتينَ بنا أتيْنَ مخِفَّـةً وإذا رجعن بنـا رَجَعْنَ ثِقَالاَ

قوله:« فصَل» ، أى زال وتنحّى . الفُلْج : الظفر بمـا أراد . الرعاية : حفظ الصحبة . لاحيًا : لائما . رفض : ترك . مترنِّما : مطربا ، أى لما خرج ممتلىء الوعاء ، ظافراً بما أراد ، لُمْتُه على ترك خدمة الأمير التى كلفه ، فأنشد

---

(١) لأعشى همدان ، يهجو لصوصاً ؛ وهو من شواهد ابن عقيل ١/٤٩٨

(٢) البيان والتبيين ١ : ٨٣ . والقارب : طالب الماء . وذات أوشال : موضع بعينه

(٣) ودان : موضع بين مكة والمدينة قرب من الجحفة ؛ قال ياقوت : « وقد أكثر نصيب من ذكرها فى شعره » وأنشد الأبيات .

(٤) ديوانه ٣١٧ .

رفع المسهم

معتذراً . المتربة ، أى الفقر . المرتبة: المنزلة الرفيعة . وهذا البيت ينظر إلى حكاية الأصمعىّ وقد رُئِى راكباً حماراً فقيل له : أبعد براذين الخلفاء تركب هذا ؟ فقال متمثلاً .

ولما أبتْ إلا طِرافاً بودّهـــا وتكديرها الشَّرْب الذى كان صافيا
شربنا برنقٍ من هواهـا مكدَّرٍ وليس يعافُ الرَّنْقَ مَنْ كان صاديا

يقول :هذا وأملك دينى ونفسى ، أحبّ إلىّ من ذلك مع ذهابهما[1] .

أطرف الشىء وتطرّفه : استفاده ، وقيل : استجاده .

نبوة : ارتفاع وقلّة ثبات . معتبَة : سخط . يالها : تعجب ، كأنه قال : ياعجبا لها ، ما أشدّها . يربّ: يصلح ويقوّى . الصنيع : الفعل الجميل . يشيّد : يرفع ويتم . رتّبه : بناه وهيّأه . السّراب : ما يظهر نصف النهار كأنه ماء ، اشتبه : أشكل . الحالم : من يرى فى منامه رؤيا ، وقد حلُم يحلَم : والرّوْع : الفزع ، يقول : مثل المترفّه بالخطّه السلطانية كحالم رأى نفسه فى النوم أميراً ، فانتبه فى أيدى أعاديه أسيراً ، أو رأى نفسه بين غزلان ورياحين فانتبه لزئير أسود ولصفير ثعابين ، وكذلك الأمراء إن رفعوا الخديم ببعض إنعامهم كدّروه بتعجيل انتقامهم . ومما يجرى فى هذا النَّمَط قول الشاعر :

إلى الله أشكو كلّ يومٍ وليلةٍ إذا نمت لم أعدم خواطر أوْهَامِ
فإن كان شرًّا كان لاشكّ واقعاً وإن كان خيراً كان أضغاث أحْلَامِ

أخذ المعنى هذا الشاعر من قول أشعب الطماع . قال: رأيت رؤيا نصفها حقّ، ونصفها باطل ، قيل: وكيف ذلك؟ قال: كنت أرانى أحمل بَدْرة ؛ فمن ثِقَلها كنت أسلح فى ثيابى ، فانتبهت فإذا السَّلح ولا بَدْرة . قال الفنجديهىّ : ومن أحسن ماسمعت فى هذا المعنى أبيات لطيفة المعانى ظريفة المبانى ، شرّفنى بإنشادها وإملائها علىّ السيّد الأجلّ أبو المظفّر يوسف بن أيوب صلاح الدين بقاهرة مصر لبعضهم:

(١) تاريخ بغداد ١٠ : ٤١٧ .

رفع المسهم

وزارنى طيف مَنْ أهْوَى على وَجَلٍ مِنَ الوُشَاةِ وداعى الصبح قد هَتَفَا
فكدت أُوقظ مَنْ حولى به فرحاً وكاد يُهتك ستر الحب بى شَغَفَا
ثم انتبهتُ وآمالى تحيبنى نيل المنى فاستحالت غِبْطتى أَسَفَا

ومن مُلح هذا الباب ، أن ابن عَبْدل دخل على بِشْر بن مروان لمَّا وَلىَ الكوفة ، فقال : أيّها الأمير إنى رأيت رؤيا ، فأذن لى بقصّها ، فقال : قل ، فقال :

أغفيت قبل الصبح نومَ مسهّدٍ فى ساعة ما كنت قبل أنامُها[1]
فرأيت أنك رُعتَنى بوليدةٍ مغنوجةٍ حَسَنٍ علىّ قيامُها
وببَدرةٍ حُملت إلىّ وبغلة شهباء ناجيَةٍ يصلّ لجامُها[2]

فقال له بشر : كلّ شىء رأيته فهو عندك إلا البغلة ، فإنها دهماء ، قال : امرأتى طالق ثلاثاً إن كنت رأيتُها إلا دهماء ولكنى غلطت .

قال البطين الشاعر : قدمت على علىّ بن يحيى الأرمينىّ ، فكتبت إليه :

رأيت فى النوم أنّى راكب فرساً ولى غلام وفى كفّى دنانيرُ
فجئت مستبشراً مستشعِراً فرحاً وعند مثلك لى بالفعل تبشيرُ

فوقّع فى أسفل كتابى : ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾[3] ، ثم أمر لى بكل ما رأيته فى منامى

---

(١) الخبر والشعر فى ذيل زهر الآداب ١٠١ .
(٢) بعده فى زهر الآداب :
فدعوتُ ربّى أن يثيبك جنّةً عِوَضًا نصيبُك بردُها وسلامُها
(٣) سورة يوسف ٤٤ .

رفع المسهم

المقالة السابعة وهي البرقعيدية

حكى الحارث بن همام، قال: أزمعتُ الشخوصَ من برقعيد، وقد شمتُ برقَ عيدٍ، فكرهتُ الرحلةَ عن تلك المدينةِ، أو أشهدَ بها يومَ الزينةِ. فلما أظلَّ بفرضه ونفلهِ، وأجلبَ بخيلهِ ورجلهِ، اتبعتُ السُّنَّةَ في لبسِ الجديد، وبرزتُ مع من برزَ للتعبيدِ. وحينَ التأمَ جمعُ المصلى وانتظمَ، وأخذَ الزحامُ بالكظمِ، طلعَ شيخٌ في شملتينِ، محجوبُ المقلتينِ، وقد اعتضدَ شبهَ المخلاةِ، واستقادَ العجوزَ كالسِّعلاةِ، فوقفَ وقفةَ مُنهافتٍ، وحيَّا تحيَّةَ خافتٍ. ولمَّا فرغَ من دُعائهِ، أجالَ خمستَهُ في وعائه؛ فأبرزَ منه رقاعًا قد كتبنَ بألوانِ الأصباغ، في أوانِ الفراغ، فناولهنَّ عجوزَهُ الحيزبونَ، وأمرها بأن تتوسَّمَ الزبونَ، فمن آنستْ ندى يديه، ألقتْ منهنَّ ورقةً لديه، فأتاحَ له القدرُ المعتوب، رقعةً فيها مكتوب...

* * *

أزمعت الشخوص، أى عزمت على الخروج. برقعيد: بلد بينه وبين الموصل عشرون فرسخاً. شمت: نظرت.

ويريد ببرق عيد، مقدّمات العيد التى ينظر الناس بها فى أسبابه، سأل رجل

الجُنيد ، لماذا سُمِّى يوم العيد ؟ فقال : لأنّ آدم لمّا خرج من الجنة ، وأُهبط إلى الأرض ، ثم تاب الله عليه ، فردّه إلى الجنة ، كان فى ذلك اليوم ؛ فقيل له يوم عيد ، لأنه أعيد إلى الجنة فيه، قال ابن الأنبارى رحمه الله : معنى يوم العيد ، الّذى يعود فيه الفرح والسرور . والعيد عند العرب : الوقت الذى يعود فيه الفرح أو الحزن ، وأصلُه « العِوْد » لأنه من عاد يعُود ، فلما سُكِّنت الواو وكُسِر ما قبلها قُلِبت ياء ، فصارت من باب ميزان وميقات ، وهما من الوزن والوقت ، وكذلك الياء إذا سكنت ، وانضمّ ما قبلها قلبت واواً مثل مُوسر ومُوقن ، وهما من أيسر وأيقن ، ويقولون فى الجمع مياسر .

المدينة : البلد ، مَنْ أخذها من مَدَن بالمكان يمدُن ، إذا أقام فيه ، فهى « فَعِيلة » والجمع مدائن بالهمز ، والميم أصلية والياء زائدة ، ومن أخذها من دَان يدين ، فالميم زائدة والياء أصلية ، وهى « مفعولة » . يقال : دِنْتُ الرّجل ملكته ، ودنت له أطعت ، ويقال للأمَة مَدِينة لأنها مملوكة ، قال الشاعر :

ربت وربأ فى حَجْرها ابن مدينةٍ يظلّ عَلَى مَسحاته يتركّلُ[1]

يعنى عبداً . يوم الزينة : يوم العيد لتزيّن الناس فيه . قوله : « أظل » ، أى قرب ودَنا حتى دخلنا فى ظلّه . بفرضه : يعنى زكاة الفطر . ونفله : يعنى صلاة العيد .

الفنجديهىّ : فَرْض العيد : صدَقة الفطر ، ونَفْل العيد مثل الصلاة والغُسل ولبس الجديد من الثياب .

ابن عمر رضى الله عنهما : فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر من رمضان على الناس صاعاً من تمر أو شعير ، على كل حرّ أو عبد ، ذكر أو أنثى من المسلمين .

ابن عباس رضى الله عنهما : فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة

(١) للاخطل ، ديوانه ٥ . تركل الشئ : دفعه برجله.

الفطر من رمضان لجبر الصيام من اللغو والرَّفَث طعمة المساكين، فمن أدَّاها قبل الصلاة فهى زكاة مقبولة ، ومن أدَّاها بعدها فهى صدَقة من الصدقات . أجْلب بخيله ورجله ، أى جمع أصحاب الخيل والرَّجالة وجاء بهم ، ضرب به المثل لإقباله وتصميمه على المجىء . لبس : لباس ، وجاء فى لبس الجديد حديث عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما على أحدكم أن يكون له ثوبان سوى ثوبىْ مهنته لجمعته ولعيده» .

جابر : كان للنبىّ صلى الله عليه وسلم حُلَّةٌ يلبسها فى العيدين ويوم الجمعة . برزت : خرجت . التأم : التحم والتصق . المصلّى : موضع صلاة العيد . الزّحام : الضيق لكثرة الناس . الكظَم : تضييق النفس من شدة الزحام . شملتين : عباءتين ، والشّملة : نوع من الأكسية ، وقيل لها شملة لأنّ صاحبها يشتمل بها ، أى يديرها حواليه . محجوب : مستور . المقلتين : العينين ، أراد أنه أعمى . اعتضد : علّقها فى عضُده . استقاد : جعلها تقوده . السِّعلاة : أنثى الغُول ، وذكَرُها يسمّى الكعنكَع ، وأنشدوا :

* غُولا تراعى شَرِساً كَعَنْكَعَا *

والغول : جنّ مسكنها الصحارى تتراءى للإنسان كأنها إنسان فلا يزال يتبعها حتى يضلّ الطريق فيهلك . قوله : « متهافت» ، أى متساقط لضعفه، وتهافت الشىء فى يدى : تناثر . خافِت : خفىّ الصوت ، وقد خفَت الرجل ، إذا ظهر عليه الضعف من مرض أو جوع أو غير ذلك ، وأصل خفت مات هزالا . فرغ : أتمّ . أجال : مشى وصرّف . خمسه : أصابعه . فى وعائه ، يعنى المخْلاة التى اعْتَضَدَها ، وهى تعلقية يعلّقها السائل فى عنقه أو ذراعه ، ويجعل فيها ما يُعْطَى من الصّدقة . أبرز : أخرج . أوان : وقت . الفراغ : قلّة الشغل . ناولهنّ : أعطاهنّ . الحيزبون : المسنّة القويّة الخلق . تتوسّم : تنظر . الزّبون : المنخدع عن ماله « فَعول» بمعنى «مفعول» ، وهو من ألفاظ أهل المشرق ، وأراد به الكثير

الصدقة ، آنست : أبصرت . ندًى : كرم . أتاح : ساق . القَدَر المعتوب : الملوم .

لقدْ أصْبَحْتُ موقوذًا بأوجَاعٍ وَأَوْجَالِ
وَمَمْنُوًّا بمحْتَالٍ وَمختَالٍ ومُغتَالِ
وَخَوَّانٍ مِنَ الإخوا نِ قالٍ لى لإ لالِي
وَإِعْمَالٍ مِنَ الْمُمَّا لِ فى تَضْلِيع أعْمَالِي
فَكَمْ أصْلَى بأَذْحالٍ وَأَمْحَالٍ وَتَرْحَالِ
وَكَمْ أَخطِرُ فى بالٍ وَلاَ أُخْطَرُ فى بَالِ
فلَيْتَ الدَّهْرَ لَمَّا جا ر أَطْفا لِيَ أَطْفَالِي
فلَوْلا أَنَّ أَشْبالِيَ أَغْلاَلِي وَأَعْلالِي
لَمَا جَهَّزْتُ آمالِي إلى آلٍ وَلاَ وَالى
وَلاَ جَرَّرْتُ أَذْيالى عَلَى مَسْحَبِ إذْلالى
فَمِحْرَابِيَ أَحْرَى بى وَأَسْمَالِيَ أَسْمَى لِي
فَهَلْ حُرٌّ يرَى تَخْـــفِيفَ أَثْقَالِي بِمِثْقَالِ
وَيُطفِي حَرَّ بَلْبالِي بِسِرْبالٍ وَسِرْوَالِ !

* * *

قوله : «موقوذاً» ، أى مشرفًا على الموت من شدّة الأوجاع والأوجال ، والموقوذة فى القرآن[1] : المقتولة بالخشب ، والوقْذ : شدة الضرب . أو جال : مخاوف . ممنوًّا : مبتلًى . محتال : ماكر كثير الحيلة . مختال : متكبّر . مغتال : مهلك . خوّان : كثير الخيانة .

ابن عمر رضى الله عنهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قلَّما يوجد فى

(١) وهو قوله تعالى فى سورة المائدة ٣ : « والمنخنقة والموقوذة » .

آخر الزمان درهم من حلال ،أو أخ يوثق به » . قال : مبغض . إقلالى : فقرى . إعمال : جِدّ وبحث ، تقول : أعملت الشىء فى الشىء ، إذ جعلتَه يعمل فيه . والعمال : عاملو كلّ شىء . تضليع : إفساد . أعمال : جمع عمل ، يريد أنه مطلوب يبحث على أعماله إذا أتى بها مجموعة فتنقض أعماله وتصير له أضلاعاً بعد اجتماعها ، وذلك فساد لها . ويحتمل أن يكون التّضليع من «ضَلَعُك مع فلان ». أى ميلك معه ، فأعماله تميل عن طرقها فتفسد . وقيل : تضليع الأعمال :تثقيلها ، قال الأزهرىّ رحمه الله : ضلَع الدين.ثقله حتى يميل صاحبه عن الاستواء لثقله ، وفى الحديث : « أعوذ بالله من ضَلَعِ الدَّيْن » . أصْلَى : أحترق . أذحال : أحقاد وعداوات . إمحال: فقر .تِرْحال : سَفَر ونقلة من بلد إلى بلد . أخطِر : أمشى متبختراً ، وقد خطر الرجل،إذا أقبل بيديه وأدبر بهما ، وهى مشية الشبّان . بالٍ : خَلَق . ولا أخطُر فى بالٍ :لا أمرّ على بال أحد ولا خاطره . جارَ : مال عن الحق ولم يعدِل . أطفأ : أمات . أطفالى : أولادى ، ومثله : أشبالى .

الفنجديهىّ : يقول : ليت الدّهر لمّا ظلم أولادى ، وجار عليهم أماتنى لأتخلّص ، فإنّ مقاساة الولائد سبب الوقوع فى المصائد . قال ابن عيينة : قلت لصيّاد: أىّ طائر أسرعُ إلى مصايدكم ؟ قال : الذى يزقّ، يعنى الذى يطعم ولده . أغلالى : قيودى . والأعلال : جمع علّ ، وهو القُراد الضخم ، وهو الذى يلصق بأخفاذ الدوابّ ، وهو كثير التشبّث والالتصاق ، لا يُقلَع إلا بجهد ، فيريد بالأغــلال أولاده لأنهم قيوده فلا يسرح بسببهم ، وبالأعلال أنهم قد تعلّقوا به يطلبون ما عنده ، وقال الشاعر يصف ناقته:

* ولو ظلّ فى أوصالها العَلّ يرتقى *

ويقال للقراد : الطِّلْح والفينق والحجير والعَلّ والبُرام والقُرشوم واللّبود فى بعض اللغات . جهّزت : أرسلت . آل : قريب ، وآل : أهل ، أو يكون آل أميرًا وسائسًا ؛ قال عمر رضى الله عنه : أُلْنَا وأُيِلَ علينا ، أى سُسْنا الناس

وساسنا غيرُنا، فيكون على هذا مقلوباً من «آيل» ، كما قيل : سار فى سائر .
مسحب : طريق . يقول : لولا ذلّ الأولاد ما قصدت والياً ، ولا جررت ذيلى فى طريق ذلّ ، ويقال : سحب ذيله سحباً إذا جرّه ، والمسحَب : موضع جرّه ثوبه محرابى : مسجدى . أحرى : أحقّ بى . أسمالى . أثوابى الخَلَقة . أسمى لى : أعزُّ لى وأرفع لقدرى . أثقالى : همومى أو ديونى ، أو كثرة عيالى واحدها ثقَل ، وثَقُلَ الشيء ثقلا ضدّ خَفَّ ، وأثقل الرجل : كثر عياله . بلبالى : حزنى ، والبلبال : وسواس الهموم . سربال : قميص . والسروال : معروف ، وفى الحديث أن امرأة سقطت من على حمار فأعرض النبىّ صلى الله عليه وسلم بوجهه عنها ، فقالوا : إنها متسرولة ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : «اللهمّ اغفر للمتسرولات من أمّتى ـ ثلاثاً ـ يأيّها الناس اتّخذوا السراويلات فإنها من أستر ثيابكم ، وحضّوا بها نساءكم إذا خرجْنَ » .

ومن مُلَح الصاحب بن عبّاد أن بعض الشعراء[1] كتب له :

أيا مَنْ عطاياه تُعطى الغِنَى ... إلى راحتيْ مَنْ نأى أوْ دَنَا
كَسَوْتَ المقيمينَ والزائرينَ ... كُسًا لم يخلْ مثلها مُمْكِنَا
وحاشيةَ الدار يمشون فى ... ثيابٍ من الخزّ إلاّ أنَا

فقال الصاحب : قرأت فى أخبار مَعْن بن زائدة أن رجلا قال له : احمِلْنى أيُّها الأمير ، فأمر له بناقة وفرس وبغلة وحمار وجارية ، ثم قال له : لو علمت أنّ الله خلق مركوباً غير هذا لحملتُك عليه . وقد أمرنا لك من الخزّ بجبّةٍ وقميص ودُرّاعة وسراويل وعمامة ومنديل ومُطرَف ورداء وكساء وجَوْرب وكيس ، ولو علمنا لباساً غير هذا من الخزّ لأعطيناكه . ثم أمر بإدخاله إلى الخزانة ؛ وصبّ تلك الخلع عليه[2] .

وأخبار الصاحب مستظرفة كثيرة الملح .

(١) هو أبو القاسم الزعفرانى .
(٢) الخبر والشعر فى يتيمة الدهر ٣ : ١٧١ ، مع تصرف واختصار .

قال الحارث بن همام : فلمَّا استعرضتُ حُلَّةَ الأبيات ، تُقْت إلى معرفة مُلْحِمها ، وراقم عَلَمها . فناجاني الفكرُ بأنّ الوُصْلَة إليه العَجوز ، وأفتاني بأنّ حُلْوانَ المُعَرِّفِ يجوزُ ؛ فرَصَدْتُها وهي تَسْتَقْري الصُّفوفَ صَفًّا صَفًّا ؛ وتَسْتَوْكِفُ الأكُفَّ كَفًّا كَفًّا ، وما إنْ يَنْجَحُ لها عَناء ، ولا يَرْشَحُ على يَدِها إناء ، فلمَّا أكْدَى استِعْطافُها ، وكدَّها مَطافُها ، عاذَتْ بالاسْتِرْجاع ، ومالَتْ إلى إرْجاعِ الرِّقاع ، وأنْساها الشَّيْطانُ ذِكْرَ رُقْعتي ، فلَمْ تَعُجْ إلى بُقْعَتي ، وآبَتْ إلى الشَّيْخِ باكِيَةً لِلْحِرْمانِ ، شاكِيَةً تَحامُلَ الزَّمانِ ؛ فقالَ : إنَّا للهِ ، وأُفَوِّضُ أمري إلى اللهِ ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ ! ثُمَّ أنشدَ :

لَمْ يَبْقَ صَافٍ ولا مُصافِ ... وَلا مَعِينٌ وَلا مُعِينُ
وَفِي المَساوِي بدا التَّساوِي ... فَلا أَمِينٌ وَلا ثَمِينُ

* * *

قوله : «ملحمها» ، ناسجها ، ولما جعل الشّعر حُلّة جعل له ناسجاً وراقماً . ناجاني : حدّثني . الوُصلة : الموصّلة . استعرضت ، أي نظرت وعرضتها على نفسي . تُقْت : اشتقت . أفتاني ، أعلمني . الحُلوان : أجر الكُهّان ، وأراد أجرة العرّاف ، وهو الذي يعرّف بالتلائف الملتقطة أربابها ، فيفتكّونها منه بما اتّفقوا عليه ، فذهب مالك أنّ من عرّف اللُّقَطة[1] ، وكان من شأنه أخذ الجُعْل على مثل ذلك ، فله أجرة مثله ، والشافعيّ لا يوجب له حقًّا ؛ سواء كان من شأنه أن يعرّف

(١) اللقطه ، كهمزة : ما التقط .

باللُّقَطة أو لم يكن ، تعب فى ذلك أو لم يتعب ، إلاّ أن يشترط قبل الطلب .

رصدتها : ارتقبتها . تستقرى : تتبع ؛ واقتريْتُ الأرض واستقريتها ، تتبَّعْتُها متأمِّلاً . تستوكف : تستمطر . ينجح : ينفع ويؤثِّر ؛ يقال : نجحت الحاجة إذا انقضتْ ، ونجح طالبها إذا لم يخب ، وأنجح : أشهر ؛ يقول : إنّ مشيها عليهم لم يقضِ حاجتها ولا نفعها . وقصد برشْح الإناء كرمَ الكفّ ؛ يقول : لم يرشح لها كفٌّ بعطيَّة . أكدى : خاب وصعب ، ويقال : أكدى الحافر ، وهو أن يحفر البئر يطلب الماء ، فإذا بلغ إلى الصَّلابة ويئس من الماء ولم يقدر على الحفْر قيل له : أكدى فهو مكدٍ ، والكُدْية هى الصلابة التى يتعذّر حفرها . استعطافها : تليينها القلوب . كدَّها : أتعبها . مطافها : مشيها وطوْفها على الناس ، ويحسن أن ينشد هنا فى حالها لأبى نُوَاس :

إذا لم يُعِنْك الله فيما تريدُه فليس لمخلوقٍ إليه سبيلُ
وإن هو لم يرشدك فى كلِّ مسلكٍ ضللتَ ، ولو أنّ السِّماك دليلُ

غيره :

إذا لم يكن عونٌ من الله للفَتَى فأكثر ما يجنى عليه اجتهادُهُ

عاذت : تعوّذت ولاذت . الاسترجاع ؛ قولهم : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، وفى حديث أم سلمة رضى الله عنها عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : «ما قال أحدٌ عند المصيبة إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ، اللهمّ أْجِرْنى فى مُصيبتى ، وأخْلِفْ لى خيراً منها ؛ إلا استجيب له » .

إرجاع : ردّ . تعج : تميل وترجع . بقعتى : موضعى . آبت : رجعت . الحرمان : الخيبة والمنع . تحامل : مشقّات ، وتحاملت فى الأمر : تكلّفته على مشقة . أفوّض : أردّ .

لا حول ، أى لا حيلة ، يقال : ما له حيلة ولا حَوْل ، وما له احتيال ولا محتال ، ولا مَحالة ولا مَحِيلة ؛ كلّه بمعنى . ويقال : ما له مَحال بالفتح ، أى حَوْل، ومِحال بالكسر ، أى مكر . ثعلب :هو من قولهم : مَحِل به ؛ إذا سعى به إلى السلطان وعرّضه للهلاك . ومَحِل به القرآن : شهد عليه بالتّقصير ؛ وقال الفرّاء : المَحالة على ثلاثة أقسام؛ هى الحِيلة، والّتى تجعل على رأس البئر كالبَكْرة،وواحدة مَحال الظهر وهى فَقاره . ويقال : أخذت فى الحوْلَقة والحوقلة ،إذا قلت: لاحول ولا قوّة إلا بالله ، وينتصب « لا حولَ ولا قوّة » بالتبرئة ، وإن شئت رفعتهما بالابتداء ، « وبالله » خبر « قوّة » ، وحُذفت خبر « لاحول » لدلالة الثانى عليه ، وإن شئت رفعت «حول » بالابتداء ، ونصبت « قوة » بالتبرئة ، وإن شئت نصبت « حولا » بالتبرئة ورفعت « قوّة » بالعطف على موضع « لا حول » ، وإن شئت نصبت«قوّة» بالتنوين عطفاً على اللفظ .

قوله : «صافٍ » ، أى خالص الودّ .مصافٍ : صادقٌ فى ودّه. مَعين : ماء كثير ، يريد صاحبَ كرم كثير . مُعين : يُعين بماله . المساوى : ضد المحاسن ، واحدها « سوء » على غير قياس ، وقيل لا واحدَ لها . بدا : ظهر . الثمين : النفيس الغالى الثمن ؛ يقول : إنّ الناس قد استووا فى الأفعال السيّئة ، وأراد قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يزال الناس بخير ما تباينوا ، فإذا استَوَوْا هلكوا » ، ومعناه أنّ الناس فى الغالب إنّما يتساوون فى الشرّ ، ولا تجدهم كلّهم فضلاء لأنّ الخير قليل .

قال أبو العباس التُّطيلىّ فيما يتعلّق بهذا المعنى :

والنّاس كالناس إلاّ أنْ تجرِّبَهُمْ ... وللبصيرة حكم ليس للبَصرِ[1]

كالأيك مشتبهاتٌ فى منابتها ... وإنما يقع التفضيلُ بالثمرِ

وقال التّهامىّ :

(١) ديوانه ٤٨

ومِنَ الرِّجالِ معالمٌ ومجاهلٌ ومن النّجوم غوامضٌ ودَرَارِى[1]
ولربّما اعتضد الحليمُ بجاهلٍ لا خير فى يُمنَى بغير يسَارِ
والنّاس مشتبهون فى إيرادهمْ وتفاضلُ الأقوام بالإصْدَارِ

* * *

ثُمَّ قالَ لها : مَنِّى النَّفْسَ وَعِدِيهَا ، وَاجْمَعِي الرِّقاعَ وُعُدِّيها ، فقالَتْ : لَقدْ عَدَدْتُها لمَّا اسْتَعَدْتها ، فَوَجَدْتُ يَدَ الضَّياعِ ، قَدْ غالَتْ إحْدَى الرِّقاعِ ، فقالَ : تَعْسًا لَكِ يالَكاعِ ، أنْحَرَمُ وَيْحَكِ الْقَنَصَ وَالْجِبالَةَ ، وَالْقَبَسَ وَالذُّبالَةَ ! إنَّها لَضِغْثٌ عَلَى إبَّالَةٍ . فانْصاعَتْ تَقْتَصُّ مَدْرَجَها ، وتَنْشدُ مَدْرجَهَا ؛ فلمَّا دَانتنِي قَرَنْت بالرُّقْعَةِ ، دِرْهَماً وَقِطْمَةً ، وَقُلْتُ لها : إن رَغِبْتِ فى الْمشَوفِ الْمُعْلَمِ - وَأَشَرْتُ إلى الدِّرْهَمِ - فَبُوحِى بالسرِّ الْمُبْهَمِ . وَإنْ أَبَيْتِ أنْ تشرَحى ، فخُذِى الْقِطْعَةَ وَاسْرَحِى . فَمالَتْ إلى اسْتِخلاصِ الْبَدْرِ التِّمّ ، والأبْلَجِ الهِمِّ ، وقالت : دَعْ جِدَالَكَ ، وَسلْ عَمَّا بدَالك ، فاسْتَطْلعْتُها طِلْعَ الشَّيخ وَبلدَتِهِ ، وَالشِّعرِ وناسِجِ بُردَتِه .

* * *

قوله : «عِديها» ، أى طمّعيها . استعدتها : رددتها . غالت : أهلكت ، واستعار للتضييع «يداً» مجازاً . تعساً : هُلْكاً ، والتّعس : الدّعاء ألاّ تقَال عثرتُه . يالكاعِ : يا لئيمة يا مُنتِنة ، واللّكاع : وسخ الفرْج . واللُّكع : ولد الحمار . القَنَص : الصيد .

(١) ديوانه ٥٦

رفع المسهم

الحُبالة : الشبكة ، وصفة الحُبالة أن يُعمد لحبل من شعر مخلوط بيسير من صوف ، فذلك أقوى له ، فيعقد فى أحدِ طرفيه عين يجرى فيها الحبل ، ويربط فى الطرف الثانى خشبة ، وربّما حدّدوا طرفها ، ثم يأتون إلى الطريق الذى يدخل منه الصيد إلى الماء فيحفرون فيه حفرة فيغطّونها بورق الشجر وشبهها ، ويفتحون عليها عين الحبل ، ثم يغطّونها بالتراب والزّبل ، حتى تصير فى طبع الأرض ، فإذا أقبل الصيد للماء ، فوضع يده أو رجله فى الحفرة ، سقطت به ، وانضمّ على يده أو رجله الحبل ، فيثب فازعاً ويفرّ ، فتتبعه تلك الخشبة ، فكلّما انتفض أقبلت عليه ، فتضربه بين يديه ورجليه وبطنه وظهره ، فتوهى أعضاءه ، وربّما كسرت يديه أو رجليه ، فلا يسير بها قدْر ميل ، حتى يقف موقوذاً منها ، فيأتيه الصائد فيأخذه ، وأنواع الحُبالة كثيرة .

قوله : «القبَس» ، يريد به نور المصباح . والذُّبالة : الفتيلة . ضِغْث : حُزمة من حشيش صغيرة ، وأصلها جماعة القضبان ، وشبهها من النبات ، يجمعها أصل واحد ، وكلّ ما جمعت عليه كفّك من حشيش أو عيدان فانتزعتَه من أصله ضغث . إبّالة : حُزمة كبيرة ، والضِّغث على الأبّالة مثل حزمة الحطّاب إذا حملها للبيع ، وجعل فوقها حُزيمة صغيرة لنفسه ؛ فالكبيرة إبّالة والصغيرة صِغْث ، فكأنه قال : إنها خسارة على خسارة ، ويقال لها : إبالة وأبيل وأبيلة ، وضِغْثٌ على إبّالة ، مَثَل أخذه من قول الشاعر :

فى كلِّ يوم من ذُؤالَهْ ضِغْثٌ يزيد على إبَّالَهْ[1]

وقال آخر وذكر ناقته :

رَدّتْ عوارِىَ غيطانِ الفَلا ونجتْ بمثل إبّالةِ من خالصِ الشَّعَرِ

وهذا مثل قول حَبيب :

(١) الميدانى ١ : ٤١٥ من غير نسبة واللسان ـ أبل ، ونسبه إلى أسماء بن خارجة ـ

فكمْ جزْعِ وادٍ جَبّ ذِروة غاربٍ وبالأمس كانت أتمكته جوانبُهْ[1]

قوله : «انصاعت» ، أى ذهبت نافرة وانثنت مسرعة ، وكلّ ماثنيته ولويته بسرعة ؛ فقد صعته صوعاً ، وكذلك إذا جمعته وفرّقته ، فذهب عنك بسرعة ، وصاع الشجاع القوم فى الحرب ؛ إذا جمعهم بهيبته ثم صدمهم ، ففروا سراعاً متفرّقين . وكلّ نافرٍ مسرعٍ منصاع ، وقال ذو الرمّة فى الخمر :

رَمَى فأخطأ والأقدارُ غالبةٌ فانْصَعْنَ والويْلُ هجّيراه والحـرَبُ[2]

تقتصّ ، أى تتبع . مدرجها : طريقها التى مشت فيها لتفريق الرقّاع ، ويقال: دَرج الشيخ والصبىّ درجاً ودَرَجاناً ، إذا تقاربتْ خُطاهما ، والمدْرَج: الموضع الذى دَرَجا فيه ، والمدرَجة: قارعة الطريق. تنشد: تطلب من نشدْت الضَّالّة، ومُدْرجها: رقعتها ، ويقال : أدرجت الكتاب والثوب طويتهما . القِطْعة : عند أهل المشرق: الواحدة مَنْ صرف يعرّفونه الخندوس ، يعمدون إلى دراهمه فيقطعونها قطعاً ، فهى صرفهم ، وبها يتصدقون ، فأراد أنه قرن برقعة الشعر درهما ، وقطعة من الخندوس ، وقال لها : إن خبّرتنى بقائل الشعر ، فخذى الدرهم أجرة ، وإن أبيت أن تعرّفينى به فخذى القطعة صدَقة وانصرفى . المشوف : المصقول المجلوّ ، والشوف: الجلاء ، والمعلَم : المنقوش ، ونقشه علامته ، وقيل : هو الذى عليه علامة الملك ، وأخذه من قول عنترة :

ولقد شربتُ من المُدامة بَعْدَمَا ركَدَ الهواجِرُ بالمشُوف المُعلَمِ[3]

---

(١) ديوانه ٤٤ . جزع الوادى : جانبه . جبّ : قطع . الذروة: أعلى شىء . الغارب : الكاهل . أتمكته : رفعته . وفى الديوان: « أمسكته جوانبه »

(٢) ديوانه ٩٦ ، وانظر حواشيه .

(٣) من المعلقة ٢٥٨ بشرح التبريزى .

رفع المسهم

بُوحى . تـكلّمى . المبهم : المغلق الملبس . أبيْتِ : امتنعت . اسرحى : اذهبى . اسخلاص : تخليص ، واستخلص الشيء ، جعله خالصاً . التّمّ : الكامل . والأبلج : النقيّ الأبيض ، وفعله ابلاجّ كاحمارّ . الهِمّ : الكبير الذى يهمّ به مَنْ رآه ، وشيخ هِمّ : مسنّ ، والهِمّ : الرقيق النحيف ، وهو من همته النار إذا أذابته ، وهَمَمت الشحم : أذبته . استطلعتها طِلْعهُ : استخبرتها خبره ، وسألتها أن تطلعنى عليه ، وتقول : استطلعت طِلع الشيء ، إذا حاولتَ الاطلاع عليه ، وأردت معرفة خبره الّذى تطلع منه عليه ، وطِلْع بالكسر . بُرْدته : ثوبه .

* * *

فقالَتْ : إنَّ الشَّيخَ منْ أهلِ سَرُوجَ ، وَهُوَ الَّذِى وَشَّى الشعْرَ المَنْسُوجَ ، ثُمَّ خَطفَتِ الدِّرْهَمَ خِطْفَةَ البَاشِقِ ، وَمَرَقَتْ مُرُوقَ السَّهْمِ الرَّاشِقِ ، فَخالجَ قلْبِى أَنَّ أَبا زَيْدٍ هُو المُشارُ إليهِ ، وَتأجَّجَ كَرْبِى لِمُصابِهِ بِناظِرَيهِ ، وَآثَرْتُ أن أُفاجِيهِ وأُناجِيهِ ، لِأعْجَمَ عُودَ فِراسَتِى فيهِ ، وَمَا كُنْتُ لِأصِلَ إِلَيهِ إلاَّ بتَخَطِّى رِقابَ الجَمعِ ، المَنْهِىِّ عنْهُ فِى الشَّرْعِ ، وَعِفْتُ أَنْ يتَأَذَّى بى قَوْمٌ ، أَوْ يَسْرِىَ إِلَىَّ لَوْم ، فَسَكَدْتُ بمَكانى ، وَجَعَلْتُ شَخْصَهُ قَيْدَ عِيانى ، إِلَى أنِ انْقَضَتِ الخُطْبَةُ ، وَحَقَّتِ الوَثْبَةُ ، فَخَفَفْتُ إِلَيْهِ ، وَتَوَسَّمْتُهُ عَلَى الْتِحَامِ جَفْنَيهِ ، فإذَ أُمْنِيَّتِى أُمْنِيَّةُ ابنِ عَبَّاسٍ ، وَفِراسَتى فِراسَةُ إياسٍ .

* * *

وشَّى : زيّن ورقّم . خطَفت : أخذت بسرعة . الباشق : من جوارح الطير . مرقت : خرجت بسرعة . الرّاشق : الّذى يرشق الصيد ، أى ينشبه ،

ويكون الراشق بمعنى المرشوق ، كقوله تعالى : ﴿من ماء دافق﴾[1] ، أى مدفوق.
قوله : «خالج» ، أى داخل وجاذب . تأجّج : اشتعل . كربى : هَمّى ، والتأجّج «التفعّل» من الأجيج ، وهو تصويت النار ولهبها إذا اشتعلت وعظمت . آثرت : اخترت وفضّلت ، وآثرته بكذا: فضّلته به والإيثار المصدر . أفاجيه : آتيه فجأة وهو لا يشعر . أناجيه : أحدّثه . أعجُم : أجرّب . فِراستى : نظرى ، وجعل لها عوداً مجازاً . تخطّى رقاب الجمع : الجواز على أعناق الناس ؛ خرّج الترمذىّ فى النهى عن ذلك ، قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تخطّى رقاب الناس يوم الجمعة اتّخذ جسراً إلى جهنم » .

عفت : كرهت . يتأذّى : يصيبهم أذى. يسرِى : يصل. اللوم : ضدّ الحمد ، وهو أن تأخذ الإنسان بلسانك ذمًّا لما فعل . شَكَدْتُ : التصقت ولزمت . قيد عيانى : غرض نظرى ، أى قيّدت نظرى فيه . انقضت : تمّت . حقّت الوثبة ، أى وجبت القفزة إليه . خففت : أسرعت . توسّمته : نظرته . التحام : التصاق وانغلاق . ألمعيّتى : ذكائى وصدق ظنّى ، والألمعىّ ، هو الذى يظن بك الظّنّ ، ولا يخطىء ، وهو اليلمعىّ من اللّمعان ، كأنه يلمع لذكائه وجودة فطنته ، وقال أوس :

الألمعىّ الذى يَظُنّ بك الظَّنّ كأَنْ قد رأى وقد سَمِعَا[2]

ولا يبيّن أحد الألمعىّ بأحسن مما بيّنه أوس ، فإذا سُئلت : ما الألمعىّ ؟ فأنشدت بيته تأت بالجواب الشافى .

والفِراسة ، أن تنظر الشىء فتستدلّ بظاهره على باطنه ، وبما حضر على ما غاب ، وقيل : الألمعيّة أن ترى الشىء على بُعْد فتعرفه وتحقّقه ، والفِراسة أن ترى الرجل بين يديك فتحكمَ عليه بما أضمر ، أو بما يريد أن يفعله ، فالألمعيّة فى البعد، والفراسة فى القرب ، وكيف اختلفت الألمعيّة والفراسة ، فالظنّ الصادق يجمع بينهما.

(١) سورة الطارق ٦ . (٢) ديوانه ٥٣ .

رفع المسهم

[ذكر ابن عباس وبعض أخباره]

وابن عباس رضى الله عنه ، هو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم القرشىّ الهاشمىّ ، يكنى أبا العباس .

ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ، وكان ابن ثلاث عشرة سنة يوم توفّى رسول الله صلى الله عليه وسلم . واختُلف فى السنة التى مات فيها ، ما بين ثمان وستين فى الأقل ، وأربع وسبعين فى الأكثر . وصلّى عليه محمد بن الحنفيّة ، وقال : اليوم مات ربانىّ هذه الأمة ، وضُرِبَ على قبره فسطاط .

روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : «اللّهم علّمه الحكمة وتأويل القرآن » ، وفى حديث آخر : «اللّهم بارك فيه ، وانشر منه ، واجعله من عبادك الصالحين» . وفى حديث آخر : «اللّهمّ زده علماً وفقّهه » ؛ وفى حديث آخر : «اللهم فقّهْهُ فى الدين وعلّمه التأويل » . وكلها أحاديث صحاح .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يحبّه ويُدنيه ويقرّبه ويشاوره ، مع وفور جِلّة الصحابة رضى الله عنهم .

وكان ابن عمر رضى الله عنه يقول : ابن عباس فتى الكهول ، له لسان سَئول ، وقلب عَقول .

عبد الله بن عبدالله : ما رأيت أحداً كان أعلَمَ بالسّنة ، ولا أجلَد رأياً ، ولا أثبت نظراً من ابن عباس .

ولقد كان عمر يعدّه للمعضلات ، مع اجتهاد عمر ونظره للمسلمين .

عمرو بن دينار : ما رأيت مجلساً كان أجمعَ لكلّ خيرٍ من مجلس ابن عباس ، الحلال والحرام والعربيّة والأنساب والشعر .

عطاء : كان الناس يأتون ابنَ عباس فى الشّعر والأنساب ، وناس يأتُونه

رفع المسهم

لأيام العرب ووقائعها ، وناسٌ يأتونه للعلم والفقه ، فما منهم صِنف إلا يُقبل عليهم بما يشاءون .

مسروق : كنتُ إذا رأيت ابنَ عباس ، قلت : أجمل الناس ؛ فإذا تكلّم قلت : أفصح الناس ، فإذا تحدث قلت : أعلم الناس .

أبو وائل : خَطَبنا ابن عباس رضى الله عنهما ، وهو على الموسم ، فافتتح سورة، فجعل يقرأ ويفسّر ، فجعلت أقول : ما رأيتُ ولاسمعت كلام رجلٍ مثله ، لو سمعته فارس والترك والروم لأسلمت .

طاوس : أدركت نحو خمسمائة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا ذكروا ابنَ عباس خالفوه ، فلم يزل يقودهم حتى ينتهُوا إلى قوله .

ابن مسعود : نِعْمَ تَرجمان القرآن ابن عباس ، ولو أدرك أسناننا ماعاشره منّا رجل .

يزيد الأصمّ : خرج معاوية حاجًا ، ومعه ابن عباس ، فكان لمعاوية موكب ، ولابن عباس موكب ممّن يطلب العلم .

القاسم بن محمد : ما رأيتُ فى مجلس ابن عباس باطلاً قطّ ، وما سمعت فتوى أشبه بالسنّة من فتواه .

وكان أصحابه يسمونه الحَبْر والبَحْر . وذكر أبو العباس فى الكامل أن عمر بن أبى ربيعة أنشده قصيدته :

أمِنْ آل نعمٍ أنْتَ غادٍ فمبكرُ غَدَاة غدٍ أم رائحٌ فمهجِّرُ

فحفظها مَنْ سمعها ، وهى ثمانون بيتاً[1] .

(١) الكامل للمبرد ٣ : ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، وفى آخره بعد أن أورد أبياناً من القصيدة : «فقال له ابن الأزرق — وقد كان حاضراً فى المجلس : قد أنت يابن عباس ! أنضرب إليك =

مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما : رأيتُ جبريل عليه السلام عند النّبىّ صلى الله عليه وسلم مرتين ، ودعا لى بالحِكْمة رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين .

وروى عنه أنه رأى رجلاً مع النبىّ صلى الله عليه وسلم فلم يعرفه ، فسأل عنه النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : أرأيته ؟ قال: نعم ، قال :ذاك جبريل ، أمّا إنّك ستفقد بصرك ؛ فعمِىَ بعد ذلك فى آخر عمره ، وهو القائل فى ذلك ـ ويروى لحسان رضى الله عنهما :

إن يأخذِ الله من عينىّ نورَهما ... ففى لسانى وقلبى منهما نُورُ[1]

قلبٌ ذكىٌّ وعقل غير ذِى دَخَلٍ ... وفى فمى صارمٌ كالسيف مأثورُ

نظر إليه الحطيئة فى مجلس عمر رضى الله عنهما ، فقال : مَنْ هذا الذى برع الناس بعلمه ، ونزل عنهم بسنّه ؟ فقيل له : عبد الله بن عباس .

وقال فيه حسان بن ثابت رضى الله عنهما :

إذا مَا ابنُ عبّاسٍ بَدَا لك وجهُه ... رأيتَ لَهُ فى كلّ أحواله فَضْلاَ[2]

إذا قال لم يترك مقالاً لقائلٍ ... بمنتطحاتٍ لاترى بينها فَصْلاَ[3]

كفَى وشفَى مافى النفُوسِ ولم يَدَعْ ... لذى إرْبَةٍ فى القول جِدًّاولاهَزْلاَ

= أكباد الإبل ، نسألك عن الدين فتعرض ، ويأتيك غلام من قريش فينشدك سفهافتسمعه! فقال : تالله ما سمعت سفها ، فقال ابن الأزرق : أما أنشدك :

رأتْ رجلاً أمّاإذا الشمسُ عارضَتْ ... فيخزَى، وأمابالعشىّ فيخسرُ

فقال : ما هكذا قال ؛ إنما قال : « فيضحى وأما بالعشى فيخصر » فقال : أوتحفظ الذى قال ؟ قال : والله ما سمعتها إلا ساعتى هذه ، ولوشئت أن أرددها لرددتها ، قال: فارددها ، فأنشده إياها كلها.

(١) ديوان حسان ١٦٢.

(٢) ديوانه ٣٥٩ ، ولم يرد فيه البيت الأول .

(٣) الديوان : « بمنتقطات » .

سموتَ إلى العليا بغير مشقّـة فنلتَ ذَراها لا ذليلا ولا وَغْلا[1]

ونظر إليه معاوية يوماً يتكلّم معه ، فأتبعه بصره ، فقال متمثّلاً :

إذا قال لم يترك مقالاً لقائـلٍ مصيب ولم يثن اللّسان على هُجْرِ
يصرِّف بالقول اللّسانَ إذا انتحى وينظر فى أعطافه نظرَ الصَّقْرِ

وروى أن طائراً أبيض خرج من قبره ، فتأوّلوه عِلمَه خرج إلى الناس .

وقيل : دخل قبرَه طائر أبيض ، فقيل : هو بصره .

وقال أبو الزبير : مات ابن عباس رضى الله عنهما بالطائف ، فجاء طائر أبيض فدخل فى نعشه حين حُمِل ، فما رُئى خارجاً منه .

وفضائله كثيرة مشهورة ، فلنقف منها على هذا القدر .

[ذكر إياس القاضى]

وأما إياس ، فهو أبو واثلة بن معاوية بن قرة بن إياس بن هلال بن رباب المزنىّ ، قاضى البصرة . وسبب قضائه أنّ عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كتب إلى عدىّ بن أرطاة عامله على البصرة ؛ أن اجمع إياس بن معاوية المزنىّ والقاسم ابن ربيعة الحارثىّ ، فولِّ القضاءَ أنفذَهما وأفقههما . فجمع بينهما ، فقال كلّ واحد : إنّ صاحبَه أنفذ وأفقه ، فقال له إياس : سلْ عنّى وعن القاسم فقيهَىِ المصر : الحَسَن وابن سيرين ـ وكان القاسم يأتيهما وإياس لا يأتيهما ـ فعلم القاسم أنه إن سألهما أشارا به . فقال القاسم : لا تسأل عنى ولا عنه ؛ فوالله الذى لا إله إلا هو ؛ إن إياسًا لأفقهُ منّى ، فإن كنتُ كاذباً فما عليك إلا ألّا تولّينى

(١) الوغل من الرجال : الضعيف الساقط .

وأنا كاذب، وإن كنت صادقاً فينبغى لك أن تقبل قولى. فقال له إياس: إنك جئتَ برجل، فوقفتَه على شفير جهنم، فنجّى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها، وينجو ممايخاف، فقال له عدىّ: أما إنك إذ فهمتَها فأنت لها؛ فاستقضاه.

وقال إياس رحمه الله: أرسل إلىّ ابنُ هَبيرة فأتيته، فسألنى فسكتُّ، فلمّاأطلتُ قال: هيه!قلت: سلْ عمّا بدا لك، قال: أتقرأ القرآن؟قلت: نعم، قال: أتفرض الفرائض؟ قلت: نعم، قال: أتعرف من أيام العرب شيئاً؟ قلت: نعم، قال: أتعرف من أيام العجم شيئاً؟ قلت: أنا بها أعرف، قال: إنى أريد أن أستعينَ بك على عملى، قلت: إن فىّ خصالاً ثلاثاً لا أصلح معها للعمل، قال: ما هى؟ قلت: أنا دميم كما ترى، وأنا عَيِىّ، وأنا حديد، قال: أمّا دمامتك فإنى لا أريد أن أحاسن بك الناس، وأما العِىّ فإنى أراك تُعْرِب عن نفسك، وأما الحِدّة فإن السوط يقوِّمك، قم. فولانى القضاء، وأعطانى عشرة آلاف درهم، فهى أول مالٍ تموَّلتُه.

ودخل عليه عدىّ بن أرطاة فى مجلس القضاء ـ وعدىّ أمير البصرة، وكان أعرابىَّ الطبع ـ فقال: يا هناه، أين أنت؟ قال: بينك وبين الحائط، قال: فاسمع منى، قال: للاستماع جلست، قال: إنى تزوّجت امرأة، قال: بالرَّفاء والبنين، قال: وشرطتُ لأهلها ألاّ أخرجَها من بينهم، قال: أوفِ لهم بالشرط، قال: فأنا أريد الخروج، قال: فى حفظ الله، قال: فاقض بيننا، قال: قد فعلت، قال: فبمَ تحكم؟ قال: بألّا تخرجها، قال: بشهادة مَنْ؟ قال: بشهادة ابن أخت خالتك.

وأول ما ظهر من ذكائه، أنه دخل دمشق، وهو غلام، فتحاكم مع شيخ عند قاضيها، فصال إياس بحِدّته على الشيخ، فقال له القاضى: إنه شيخ كبير، فخفِّض كلامَك، فقال له إياس: الحقّ أكبرُ منه، فقال له القاضى:

رفع المسهم

أسكت ، فقال : ومَنْ ينطق بحجَّتى ؟ فقال له القاضى : ما أراك تقول حقًّا ، فقال إياس : لا إله إلا الله ، أحقٌّ هذا أم باطل ؟ فدخل القاضى من فوره إلى عبد الملك بن مروان ، فأعلمه بما رأى من ذكائه ، فقال له عبد الملك : اخرج فاحكم بينهما ، وأخرجْه الآن من دمشق إلى بلاده لئلاّ يُفسد على أهل الشام .

ولما دخل عبد الملك البصرة رأى إياساً وهوصبىّ ، وخلْفه أربعة من القرّاء أصحاب الطيالسة ، وإياس يقدُمهم ، فقال عبد الملك : أُفٍّ لهذه العثانين ؛ أما فيهم شيخٌ يقدُمهم غير هذا الحدَث ! ثمّ التفتَ إليه ، وقال : كم سنُّك ؟ فقال : سنِّى ـ أطال الله بقاء الأمير ـ سنُّ أُسامة بن زيد بن حارثة حين ولاّه رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشاً فيهم أبو بكر وعمر ؛ فقال : تقدَّم بارك الله فيك ، وكان سنُّه سبع عشرة سنة .

وأمّا ذكاؤه وفِراسته ، فقد ألَّف فى ذلك المدائنىّ كتاباً سمَّاه كتاب «زكَن إياس» ، والزَّكن : التشبيه ، يقال : زَكَّنَ عليهم وزكَّمَ : شبَّه وخيَّل ، وقيل : الزَّكن : الظنّ والتفرُّس . ومن زكنِه أنه اختصم إليه رجلان فى قطيفتين : حمراء وخضراء ، فقال أحدهما : دخلت الحوضَ لأغتسل ووضعت قطيفتى ، ثم دخل واغتسل ، فخرج قبلى ، وأخذ قطيفتى ، فتبعته ، فزعم أنها قطيفته ، فقال : ألك بيِّنة ؟ قال : لا ، قال : ائتونى بمُشط ، فأُتِىَ به ، فسرَّح رأس هذا ، ثم هذا ، فخرج من رأس أحدهما صوف أحمر ، ومن رأس الآخر أخضر ، فقضى بالأخضر لصاحب الأخضر ، وبالأحمر لصاحب الأحمر .

وأتى المدينةَ فصلّى فى مسجد رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، فزكنه أهلُه حتى صاروا فرقتين : فرقة تزعم أنه معلم ، وأخرى تزعم أنه قاضٍ ، ثم وجّهوا إليه رجلا ، فأخبره خبرَهم ، فقال : أصحاب الذين ذكروا أنى قاضٍ ، ورويداً أخبرْك عن القوم ؛ أمّا الذى مَنْ صفته كذا فهو كذا ، وأما الذى يليه فهو كذا ، وأما ذاك الشيخ فإنه نجار ، فقال الرجل : فى كلِّهم والله أصبت إلاّ فى الشيخ ،

فإنه من قريش ، فقال إياس : وإن كان من قريش ! فقام الرّجل إلى أصحابه ، فقال : قد جئتكم من عند أعجب النّاس ، والله إنْ منكم من أحدٍ إلاّ أخبرَنى بصناعته إلاّ هذا فزعم أنه نجّار ، فقال : صدق والله ؛ إنى لأنجُر عيدان جوارىّ - يعنى عود المزمار .

ونظر إلى ثلاث نسوة فزعن من شىء ، فقال : هذه حامل ، وهذه مرضع ، وهذه بِكْر ، فسُئِلْن فوُجِدْن كذلك ، فسئل من أين لك علم ذلك ؟ فقال : لمّا فَزِعن وضعت كلّ واحدة منهنّ يدها على أهمّ المواضع لها ، فوضعت المرضع على ثديها ، والحامل على بطنها ، والبِكْر على فَرْجها .

وسمع نُباح كلب لم يره ، فقال : هذا نُباح كلب مربوط على شفير بئر ، فنُظِر فكان كما قال ، فقيل له فى ذلك ، فقال : سمعت عند نُباحه دويًّا ، ثم سمعت بعده صدًى يجيبهُ ، فعلمت أنه عند بئر .

ومن فِراسته أنه رأى أثر اعتلاف بعيرٍ ، فقال : هذا بعير أعور ، فنظروا فكان كما قال ، فقيل له فى ذلك ، فقال : لأنّ وجدت اعتلافه من جهةٍ واحدةٍ .

ولما صار ذكاؤه يضرب به المثل ، كما يُضرب بجود حاتم وحلْم الأحنف وشجاعة عمرو بن معديكرب ، نظمهم حبيب فى بيت جمع فضلَهم المتفرّق للعباس ابن المأمون ، فقال :

إقدامُ عمرٍو فى سماحة حاتمٍ فى حِلْم أحنفَ فى ذكاء إياس[1]

وتُوُفِّىَ سنة ثنتين وعشرين ومائة . وأخباره كثيرة ، وفيما أوردناه كفاية .

* * *

فَعَرَّفتُهُ حينئذٍ شَخْصِى ؛ وَآثَرْتُهُ بأَحَدِ قُمْصِى ، وَأَهَبْتُ بِهِ إِلَى قُرْصِى ، فَهَشَّ لِمَعْرِفتِى وَعِرْفَانِى ، وَلَبَّى دَعْوَةَ رُغفَانِى ،

(١) ديوانه ١٧٤ ، وفيه : « يمدح أحمد بن المعتصم » .

وَانطلَقَ وَيَدِي زِمَامُهُ ، وَظِلِّي إِمَامُهُ ، وَالْعَجُوزُ ثَالِثَةُ الأَثَافِي ، وَالرَّقِيبُ الَّذِي لا يَخْفَى عَلَيهِ خَافِي . فلمَّا اسْتَحْلَسَ وُكْنَتِي ، وَأَحْضَرْتُه عُجَالَةَ مُكْنَتِي ، قالَ لى : ياحَارِث ، أَمَعَنَا ثَالث ؟ فقُلتُ : لَيْسَ إِلاَّ الْعَجُوزُ ، قال : مادُونها سِرٌّ مَحجُوز . ثمَّ فتَحَ إِحْدَى كَرِيعَتَيْهِ ، وَرأْرأَ بِتَوْءَمَتَيهِ ، فإِذَا سِرَاجا وَجْهِهِ يَقِدَانِ ، كأَنَّهُمَا الْفَرْقَدَانِ . فابْتَهَجْتُ بِسَلامَةِ بَصَرِه ، وَعَجِبْتُ مِنْ غَرَائِبِ سِيَرِه ، وَلَم يُلِقْنى قَرارٌ ، وَلا طَاوَعَنى اصْطِبارٌ ، حتى سَأَلتُه : مادَعاكَ إِلَى التَّعالِي ؛ مَع سَيْرِكَ فى الْمَعامِى ، وَجَوْبِك الْمَوامِى ، وَإِيغالِكَ فى الْمَرَامِى !

* ٥ *

قوله : «أهبت به » ،أى دعوته ،وأصل «أهاب» دعالنفسه مَن بَعُد .وقيل : الإهابة دعاء الإبل للشرب . والقُرْص : رغيف صغير سُمِّىَ قرصا ، كأنه قرص من العجين ، أى قُطِع ،والتقريص: التقطيع. هشّ:خف فرحاً. والعارفة ، يريد النعمة وهى المعروف. لبَّى : أجاب وقال : لبّيك ، ومصدره تلبية وهى « تفعلة » ، من الإلباب وهوالّلزوم ، ولبّ بالمكان وألبّ به: أقام ، وأصله لَبَب بثلاث باءات ، فأبدلوا الآخرة ياء استثقالا لاجتماع الأمثال ، كما قالوا : تظنّيت وتمطّيت ، فالياء فيهما بدل من مثل الحرف الذى قبلها ، ثم أتبعوه الإبدال فى المصدر وهو تلبية ، فياؤه باء ، وقولهم :لبّيك، معناه إجابةً بعد إجابة ، ولزوماً لطاعتك بعد لزُوم . رُغفان : جمع رغيفٌ ، يريد أنه لمّا سمع بذكر الخبز ، فكأنّ الخبز دعاه فأجابه . زمامه: مقوده . إمامه : هاديه . الأثافىّ : حِجارة القِدْر ، وهى ثلاث ، والعرب تقول : رماه الله بثالثة الأثافىّ - يعنون بها الجبل ، لأنهم يجعلون حجَرين

ويلصقونهما بالجبل ، فيقوم الجبل مقام الحجر الثالث ، واحدتها أُثْفِيَّة بالتشديد ، وقد تُخفَّف ، وقد أثفيت القدر وأثفتها وثفيتها ، وتسمِّى العرب أثافىَّ الحديد المِنصَب . الرقيب: الحافظ ، يريد الله تعالى. استحلس وُكْنَتِى ، أى دخل بيتى ، وجلس على حِلْسه ، وهو ما يُبسط تحت بسطه ؛ يقيها الأرض ، وفلان حِلْس بيته ، أى لازم القعود فيه ، وفى الحديث : « كن فى الفتنة حِلْس بيتك » ، أى لا تدخل فيها ، والحِلْس : كساء يلِى ظهر البعير تحت البرذعة ويلزمه ، فشُبِّه الذين يعرفون الشىء ويلزمونه بالحِلْس ، ومنه قولهم : لست من أحلاسها ، أى من أصحابها العارفين بها . ومنه بنو فلان أحلاس الخيل ، أى الذين يضمِّرونها ويلزمون ظهورها ، وأحلاس القوافى : المجيدُون فى نظم الشعر ، والوُكْنة: الثقبة فى الحائط يسكنها الطائر ، وقيل : هى الموضع من الشجرة وغيرها ، يقع عليه للمبيت ، وهى الوَكْن ، ووكن الطائرُ وَكْنًا ، فهو واكن إذا حضن على فرخه ، فلزم وُكْنته . عُجَالة مُكنَتى: ما تعجَّل وأمكن من الطعام . محجوز: ممنوع ، وحجزت الشىء :حزته ومنعته ، وحجزت بين الشيئين حجزاً ، فأنا حاجز ، إذا جعلت بينهما حائلا ، والمفعول محجوز ، ومنه الحِجاز ؛لأنها أرض حجزت بين نَجْد والسَّراة . كريمتيه : عينيه ، وفى الحديث قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما من عبد أذهب الله كريمتيْه إلا كان ثوابه عند الله الجنة » قالوا : وما كريمتاه ؟ قال : عيناه . رأْرأ : قلَبَهما وأدارهما إدارة كثيرة . وتوءمتاه : كريمتاه ، وقوله : « مسحَ كريمتيه » ، يريد أنه حكَّهما بكفِّه ، فانتفض عنهما ما كان ألصقهما به ، حتى التحما . وقيل : رأرأ : أدار العين وحدَّدَ نظرها . وتوءمتاه: عيناه، وفى الغريب المصنَّف : رأرأتِ المرأة بعينها ولألأت ، إذا برقت عينُها ، وأنشد ابن الأعرابىّ :

عجبت من الُحور الكريم نجارها ... تُرأرِىء بالعينين للرجل الحِبْلِ[1]

الحِبْل: الداهية . الفرقدان : نجمان مُنيران فى بنات نعش . ابتهجت: فرحت .

(١) اللسان ـ حبل ، وروايته : « فيا عجبا للخود تندى قناعها » .

سِيَره : عاداته . يُلقِي قرار : يحبسنى سكون وطمأنينة. التَّعامى : استعمال العَمَى . المعامى : الطرُق المجهولة ، وقيل : القِفار البعيدة التى تعمى فيها الآثار فلا يُهتدى فيها . الموامى : القِفار ، واحدها مَوْماة . إيغالك : إبعادك ومبالغة دخولك . المرامى : المقاصد والبلاد التى ترميه إلى بلاد أُخْرَى ؛ يقول : سألته ما الذى دعاك إلى استعمالك العمى مع دخولك لطلبك الرزق فى المشقات وجَوْب البلاد البعيدة ، فلم تجِدْ لنفسك حيلة حتى تشبَّهت بالعميان !

* * *

فتظاهَرَ باللُّكْنةِ ، وتشاغَلَ باللُّهْنةِ ، حَتى إذَا قضَى وَطَرَهُ ، أَتأَرَ إلىَّ نظرَه ؛ وَأنشدَ :

وَلَمَّا تعامى الدَّهرُ وَهْوَ أبو الْوَرَى ... عَنِ الرُّشْدِ فِى أَنحائِه وَمَقاصِدِهْ
تَعَامَيتُ حَتى قيلَ إنى أَخُو عَمًى ... وَلاَ غَرْوَ أَن يحْذُو الْفَتى حَذْوَ والِدِهْ

ثمَّ قالَ لى : انْهَضْ إلَى الْمُخْدَع فائتنى بِغَسُولٍ يَرُوقُ الطَّرْف ، وَيُنَقِّى الْكَفّْ ، وَيُنعِّمُ الْبَشَرَةِ ، وَيُعَطِّرُ النَّكْهَة ، وَيَشدُّ اللِّثَة ، وَيقَوِّى المَعِدَة ، وَلْيَكُنْ نظيفَ الظَّرْفِ ، أَرِيجَ الْعَرْفِ ، رَقِيقَ الدَّقِّ ، ناعِمَ السَّحْقِ ، يَحْسَبُهُ اللَّامِسُ ذَرُورًا ، وَيَخَالُهُ النَّاشِقُ كَافُورًا ، وَاقْرُنْ بِهِ خِلالَةً نقِيَّةَ الأصلِ ، محبوبةَ الْوَصلِ ، أَنِيقَةَ الشَّكْلِ ، مَدْعاةً إلَى الأكلِ ؛ لَهَا نَحافَةُ الصَّبِّ ، وَصَقَالَةُ الْعَضْبِ ، وَآلَةُ الْحَرْبِ ، وَلُدُونَةُ الْغُصْنِ الرَّطْبِ .

تظاهر : استعان . واللُّكنة : احتباس اللسان ؛ يريد : لمّا امتلأ فمه بالطعام .

رفع المسهم

لم يتسرّح لسانه بالكلام ، فوجد بذلك علّة لقطع الجواب ، فكأنّ اللُّكنة أعانته على ذلك . اللُّهنة : الطعام المعجَّل للصيف قبل الغداء ، وكلّ ما تعجّلته قبل إدراك الطعام لُهنة ، و لَهَّنْت الضيف : علّلته بذلك . قضى وَطَره : أتمّ حاجته من الأكل ، والوطر : المراد ، ولا فعل له . أتأر : تابع نظره وحدّده . الوَرَى : الخلق . آنحائه : أغراضه ومقاصده ، والنّحو كالقصد . لاغرْو : لاعجب . يحذُو حذْوَه : أى يفعل فعله .

[ذكر العمى وما وردفيه من الشعر]

وهذا الاعتذار عن التعامى حسن ، وقد تقدم اعتذار ابن عباس رضى الله عنهما عنه . ومما يعزى للحُصْرىّ[1] فى ذلك :

وقالوا قد عميتَ فقلت كلاَّ ... فإنى اليوم أبصرُ من بَصِيرِ
سواد العين زار سَواد قلبى ... ليجتمِعَا على فهم الأمُورِ

أخذَه من قول بشار :

إذا وُلِدالمولود أعمَى وجدتَه ... وجدِّك أهدَى من بصيرٍ وأحْولاَ[2]
عميتُ جنيناً والذّكاء من العمَى ... فجئت عجيب الظنّ للعلم معقِلاَ
وغاضَ ضياء العين للقلب فاغتدَى ... بقلب إذا ما ضيع النّاس حَصَّلاَ
وشعرٍ كنوْر الرَّوض لاءمتُ بينه ... بقولٍ إذا ما أحْزنَ الشّعْر أسْهَلاَ

وقال بشار :

قالوا العمَى منظرٌ قبيحٌ ... قلت بفقدِى لكُمْ يَهُونُ[3]
تالله ما فى البلاد شئ ... تأسَى على فَقْدِه العُيُونُ

(١) الحصرى ، بضم الحاء وسكون الصاد ، منسوب إلى عمل الحصر أو بيعها : على ابن عبد الغنى القيروانى ، صاحب قصيدة « ياليل الصب » ، وهو ابن خالة إبراهيم بن على الحصرى ، صاحب كتاب زهر الآداب ، والبيتان فى نكت الهميان ٧٦ .
(٢) الأبيات عدا الأول فى الأغانى ٣ : ١٤٢ ، ونكت الهميان ٧٥ .
(٣) نكت الهميان ٧٥ .

وعكَس هذا المعنى أبو العيناء حين سأله المتوكل : ما أشدُّ ما عليك فى ذهاب بصرك ؟ قال : ما حرِمتُه يا أمير المؤمنين من رؤيتك مع إجماع الناس على جمالك .

ومما يُستملح من هذا الباب : نشأ أعمَى بين أعورين ، فإذا مشيا أو قعدا ، فحاذى عَورُ هذا عَورَ هذا نشأ بينهما أعمى .

وقال المتنبى يمدح العوَر ويذمّه فى بيت واحد :

أيا ابن كَروّسٍ يانصفَ أعْمَى وإن تفخر فيا نِصْفَ البصيرِ[1]

فإذا انضمّ ابن كَروس إلى مثله نشأ بينهما أعمى ، قال الشاعر :

وبيننا أبداً أعمَى نؤلّفُه قد يخلُق الله عِميانا من العُورِ

وقال آخر :

ألم ترنِى وعَمْراً حين نغدُو إلى الحاجات ليس لنا نظيرُ

أسايره على يُمنَى يديه وفيما بيننا رجلٌ ضريرُ

وقال آخر فى أعور وعوراء تعاشقا :

هى عوراء باليمين وهذَا أعورٌ بالشّمال وافق شَنَّا

بين شخصيهما ضريرٌ إذا ما قَعدَتْ عن شماله تتغنّى

فأما قول جميل[2] البشكرىّ فى صفة الذئب[2] :

وأعور مِنْ يمناه إن شاء مرّة وإن شاء من يسراه ما كان راقِدَا

لقدفزت دون العُور ـ أوس ـ برتبة[3] وأعطيتَ نابا يفلَق الصخر بارِدَا

(١) ديوانه ٢ : ١٤٤ ، قال فى شرحه « يخاطب ابن كروس الأعور وكان يعاديه » .
(٢) كذا فى الأصول ، ولعله تصحيف عن « المنخل » .
(٣) أوس اسم علم على الذئب .

فإنما وصفه بشدة الحذر ، وذكر العور على معنى الاستعارة كما قال حُميد ابن ثور :

ينامُ بإحـــدى مقلتيه ويتّقى بأخْرى المنايا فهو يقظان نائمُ[1]

وقال ابن المعذّل :

أشتهى فى المقلة القبـــلا لا كثيراً يشبه الحوَلاَ
واحمرار الخـدّ من خجلٍ إننى أستحسن الخجَلاَ

وقال آخر :

وأحولٍ ذِى حَرَكَهْ يملأُ بيتى بَرَكَهْ

يريد أنه يرى من الشىء اثنين ، كما قال الآخر :

فقد جعلتُ أرى الشخصين أربعةً والواحد اثنين ممّا بورك البصرُ

لأن هذا يصف الكبَر .

واعتذر القاضى أبو محمد عبدالوهاب[2] عن الحوَل فأحسن ، حيث يقول:

حمِدت إلهى إذ بُليت بحبِّها وبى حَوَلٌ يغنى عن النَّظَرِ الشَّزْرِ
نظرتُ إليها والرَّقيبُ يظنّنى نظرت إليه، فاسترحت من العُذْرِ

فحَولُه رفع عنه ثقل مؤنة التكلّف الذى ذكر الآخر حين قال :

ولمّا التقينَا والعيونُ نواظرٌ وليس لنارُسْلٌ سِوَى الطَّرْفِ للطَّرْفِ

---

(١) البيت لحميد بن ثور ، ديوانه ١٠٥ ، : « يقظان هاجم » .
(٢) هو أبو محمد عبد الوهاب بن نصر بن أحمد المالكى ، القاضى ذكره البناهى فى المرتبة العليا ٤٠ ـ ٤٢ .

تنزهّت فى خدَّيْك من نظر خفِى وما زلت أُخفِى الودّ ضعفاً على ضعفى
فإن غفل الواشون فزتُ بنظـرةٍ وإن نظروا نحوى نظرتُ إلى كَفِّى

فلذلك حمِد الله على الحوَل .

وقال الناشى فى هذا المعنى فأحسن :

يتناقلان اللفظ من جفنيهمَا فكأنمـا يتناسخان كتَابَا
وإذا سَهَتْ عَيْنُ الرقيب تخالستْ كفَّاهما خَلْس السَّلام سِلاَبَا

وللقاضى أبى محمد عبد الوهاب ، أنشدنا بعض أشياخنا البيت الثانى والأخير من القطعة التالية ، وكان كثيراً مايحرضنا بها على الطلب ، ويسلّينا عن الغربة :

ومحجوبةٍ فى الخِدْرِ عن كلِّ ناظرٍ ولو برزتْ باللَّيل ماضلَّ مَنْ يَسْرِى
أقولُ لهـا والدَّمع يغلبُ صبرها أعِدّى لفقدى ماستطعتِ من الصَّبْرِ
سأنفِق رَيْعانَ الشبيبة آنفاً على طلبِ العَلْيَاءِ أو طلب الأجْرِ
أليس مِنَ الحرمان أنّ ليالياً تمرُّ بلانَفْـعٍ وتحسَب من عُمْرِى!

ولم ينشدنا البيت الأول ولا الأوسط ، وهما من القطعة .

وأما كلام الحريرىّ الّذى فرغنا من شرحه ؛ فهو منقول من مقامة البديع[1] ، يقول على لسان عيسى بن هشام : «ثمّ فارقهم وتبعتُه ، وعرفت أنه متعامٍ لسرعة ما عرَف الدينار . فلما نظمْتنا خلوة ، مددت يمنايَ إلى يسرى عضديه ، فقلت : والله لتريِّنى سرَّك ،أو لأهتكنّ[2] سِترك ، ففتح عن توءمتيه[3] ، وحدَر لثامه عن وجهه ، فإذا والله أبو الفتح الإسكندرىّ ، فقلت له : أنت أبو الفتح ؟ فقال :

(١) المقامات ٩٣ .
(٢) المقامات : « لأكشفن» .
(٣) المقامات : « توءمتى لوز» .

أنا أبو قلمونْ فى كلّ لون أكُونْ
اخترمن الكسب دوناً فإنّ دهرك دُونْ
زَجِّ الزمان بحمقٍ إنّ الزمان زَبُونْ
لا تكذبنّ بعقلٍ ما العقل إلا الجُنونْ

وعتْب الحريرىّ على العمى فائقٌ فى النثر ، وشعره فى الاعتذار عنه رائق فى النظم ، وهو على انطباعه فى القصد إذا أتى بالبيتين أتى بالعجَب ، وهو فى ذلك كما قيل فى أبى منصور الفقيه : إذا رمَى بزُجَّيه قتل .

* * *

قوله : «المخدع» ، هو بيت داخل بيت ، قال ابن الأنبارىّ : هو الخِزانة فى جانب البيت ، وهو من خدع ، إذا توارى واستتر ، وأخدعه إخداعا : أخفاه ، فمن ضمّ ميم «مُخدع» فهو من «أخدع» ، ومن فتح فهو من «خَدع» ، وخدع الصبُّ فى جُحره خدعاً : دخله خوفاً من صائده . الغَسُول : الأُشنان ، وهو النّقاوة ، ويقال أيضاً : الغاسول ، وكل ماغسلت به ثوبك أو رأسك فهو غِسْل وغَسُول . يَرُوق : يعجب . والطرف : العين . ينقّى : ينظّف . والبَشَرة : ظاهر الجلد . والنكهة : رائحة الفم ، ونكهت الرجل أنكِهه وأنكَهه ـ والفتح أقلّ ـ واستنهكته ، كلّه شممت فاه ، قال الشاعر :

نكِهْتُ مجالداً فشممتُ منه كريح الكَلْبِ ماتَ حَدِيثَ عَهْدِ

واللّثة : اللحم على الأسنان . نظيف الظّرف : نقىّ الوعاء . أريج العَرْف : عَطِر الرّائحة ، والأرَج : فوح الطِّيب وأرَج المسكُ : فاح . فتّ الدقّ : طرىّ الكسر . ناعم : حسن ، قد بولغ فى سحقه ، يريد أنه فى الحال الذى يسحق يستعمل . الناشق : الشامّ . والذّرور والكافور : من أنواع الطيب ، والذّرُور هو

(١) اللسان — نكه ، وفيه : « فوجدت منه » .

المعروف بالذَّريرة ،والذَّرُور أيضاً: غُبار يُذَرّ فى العين، وكلّه مأخوذ من الذّرّ ، وهو التفرّق ، لأن أجزاءه تفرّقت عند سَحْقه ، وفعلُه ذرّ ، وأصلُه ذرَرَ . والكافور مأخوذ من الكَفْر ، وهو التغطية ، فلِشدّة فَوْحِه وحده يستر رائحة غيره من الطِّيب . واللّامس : الذى يمسُّه بيده . الخِلالة : عُوَيد رَقيق يخرج به الطعام من خلل الأسنان . أنيقة الشكل ، معجبة الهيئة ، وشَكْل الشيء : هيئته التى هو عليها . ومدعاة : داعية ، والهاء للمبالغة . نحافة الصَّبّ : رقّة العاشق . والعضْب : السيف القاطع . آلة : عدّة وأداة ، يريد أنها محدّدة مصقولة مثل آلة الحرب. ويروى : « ألّة » بالتشديد ، وهى الحربة . لدونة : لين. نحافة الصبّ : ليس هو تشبيهاً حقيقيًّا ، وإنما أراد أنها أخذت من العاشق نحافته ، ومن العضب صقالته ، ومن الغصن لُدونته ، ولو شبّه الخِلالة فى الرقّة بالعاشق ونحوله لكان جائزاً ، وكان من التشبيه المقلوب ، وكلاهما بديع فى بابه .

والخِلالة التى ذكر ، أصلها نبات لشُجَيْرٍ ينبت فى الصيف ، وتطلع له رءوس، يكون فى الواحد منها عدّة من قضبان رِقاق ، فيمسك الرجل منها فى جيبه رأساً ،فمتى أكل طعاماً نزع منها قضيباً فتخلّل به ، ويعرف هذا النبات عندنا بالبستينج ، فيحتمل أن يكون هذا بعينه هو الذى عندهم فى المشرق ، وإلا فصفته التى وصفت موجودة فى البستينج من الرقة والصّفاء واللّين والحدة .

وجاء فى الحديث النّهى عن التخلّل بعود الآس والرّمان والقصب ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نقّوا أفواهكم بالخِلال فإنها مسكن الملكين الكاتبين الحافظين ، وإن قلمهما اللسان ، ومدادهما الرّيق ، وليس عليهما شى أشدّ من فضول الطعام ».

أبو أيوب: قال صلى الله عليه وسلم :«حبّذا المتخلّلون فى الوضوء والطعام ».

أبو هريرة قال : قال صلى الله عليه وسلم :« من أكل فليتخلّل، فما تخلّل فليلفظ ، ومالاك بلسانه فليبتلع » .

رفع المسهم

[استطرد بذكر أشعار فى التشبيه رائقة]

والخِلالة إذا بلغت من رقتها ، أن تقع بين الأسنان ، فالعاشق إذا بلغ الغاية النّحول ، هو الذى يشبّه بها ، كما قال فى التاسعة فى وصف الصبىّ الهزيل من الجوع : « ولى منه سُلالة ، كأنها خِلالة » ، وأخذه من قول ديك الجن :

ارحَمِ اليوم ذلّتى وخُضُوعِى فلقد صرتِ ناحلًا كالخِلَالِ

وقال أبو الطيّب :

رُوحٌ تَرَدّد فى مثل الخلال إذا أطارت الريح عنه الثوب لم يَبِنِ[1]

فذكر أنّ ثوبه على بدنٍ لم يتبين للناظر . والتشبيه المقلوب عندهم شىء مستظرف ، ومذهب مستحسن كما قال ذو الرّمة :

ورملٍ كأوْرَاكِ العذارَى قطعتُه وقد جَلّلتْه المظلماتُ الحنَادِسُ[2]

فقلب التشبيه ، لأن العادة أن تشبّه الأعجاز بكثبان الرمل ، كما قال الآخر :

* مثل قضيبٍ تحته كثيبُ *

وكما قال الآخر :

وبيضٍ نضيراتِ الوجوه كأنّما تأزّرْن دون الأُزْرِ رملاتِ عالجِ

وأخذه حبيب ، وجوّد الصنعة حيث قال :

كم أحرزت قضُبُ الهندىّ مصلتةً تهتزّ من قُضُبٍ تهتزّ من كُثُبِ[3]

---

(١) ديوانه ٤ : ١٨٦

(٢) ديوانه ٣١٨

(٣) ديوانه ١١

علق قوله: «من قضب تهتز» بـ «أحرزت» يلجّ[1] لك بديع صنعته بسرعة، فإنه أراد: كم أحرزت قُضَب الهند وهى السيوف إذا أُصْلِتت من أغمادها، وهزّت. من قضب، أى قدود نساء. تهتزّ من كُثُب، أى أكفال شبه أكداس رمال.

وما أعذب وأظرف قول البحترى:

أين الغزال المستعير من النَّقَا كَفَلاً ومن نَوْرِ الأقاحى مبسِما[2]

فهذا هو الذى جرت به العادة فى التشبيه، فقلب ذو الرمّة العُرْف والعادة؛ فشبّه كُثبان النَّقَا بأكفال النساء، وتبعه خالد الكاتب وغيره.

حدث جحظة قال: حدثنى خالد الكاتب، قال: جاءنى يوماً رسول إبراهيم بن المهدىّ، فسرت إليه، فرأيت رجلاً أسود على فُرُشٍ قد غاص فيها، فاستجلسنى وقال: أنشِدْنى من شعرك، فأنشدته:

رأتْ منه عينى منظرِيْن كما رأتْ من الشَّمس والبدرِ المنير على الأرْض
عشيَّة حيَّانِى بوردٍ كأنَّه خدود أضيفتْ بعضهنّ إلى بَعْضِ
ونازعنى كأساً كأنّ حَبابها دموعِىَ لمّا صَدّ عن مُقْلَتِى غَمْضِى
وراحَ وفعلُ الرَّاح فى حركاتِه كفِعْلِ نسيم الريح فى الغُصن الغَضِّ

فزحف حتى صار فى ثلثى الفراش، وقال: يا فتى، شبّهوا الخدود بالورد، وأنت شبهت الورد بالخدود! فزدنى، فأنشدته:

عاتبتُ نفسى فى هوا ك فلم أجدها تقبلُ[3]
وأطعت داعِيها إلي ـك ولم أُطِعْ من يعْذِل
لا والذى جعل الوجو ه لحسن وَجْهك تمثلُ
لا قلت إن الصبر عَنْـ ـك من التَّصابى أجْمَلُ

(١) كذا فى ا، ب، وفى ط: «يلح».
(٢) ديوانه ١٩٥٨ (٣) الأغانى ٢١ : ٣١

فزحف حتى انحدر من الفراش ، ثم قال: زدْنى ، فأنشدته :

عش فحُبّيكَ سريعــاً قاتلى والصِّنى إن لم تصلنى وَاصِلِى
فأنا بين اكتئابٍ وضَنًى تركانى كالقَضِيب الذّابــل
فبــكى العاذل لِى من رحمةٍ فبــكائى لبــكاء العــاذِل

فاستخفّ طرباً ، ثم قال : يابليق[1] ، كم معك لنفقتنا؟ قال: ثمانمائة وخمسون ديناراً ، قال : اقسمها بينى وبين خالد ، فدفع إلىّ نصفَها .

وقد سُبِق إلى قوله : « كأنه خدود » ، قال المفضّل : دخلت على الرشيد وبين يديه طبق ورد ، وعنده جاريةٌ مليحة شاعرة أديبة ، قد أهديت إليه ، فقال : يامفضّل ، قُلْ فى هذا الورد شيئاً تشبّهه به ، فأنشأتُ أقول:

كأنه خَدُّ معشوقٍ يقبّلُه فم الحبيب وقد أبقى به خَجَلاَ

وقالت الجارية :

كأنّه لون خدّى حين تدفعنى كفُّ الرّشيدِ لأمر يوجب الغُسْلاَ

فقال : يا مفضّل قم فاخرج ، فإن هذه الماجنة قد هيّجتنا ، فقمت وأرخيت الستــور .

ولقد أحسن ابن الزقّاق فى قوله :

ورياضٍ من الشقائق أضحتْ تتهادى بهــا نسيم الرياح[2]
زرتها والغمام يجلِد منهــا زهراتٍ تروق لونَ الرّاح
قلت : ما ذنبُها ؟ فقال مُجيباً : سرقتْ حُمْرَةَ الخدود المِلاَح

(١) الأغانى : « يارشيق » .
(٢) ديوانه ١٣٥ ، المغرب ٣٢٤ .

رفع المسهم

وقال البحترى :

فى طلعة الشمس شىء من ملاحتها وللقضيب نصيبٌ من تثنِّيها[1]

وقال ابن المعتزّ :

سقتنىَ فى ليلٍ شبيه بشعرهـا شبيهةَ خدّيهـا بغير رقيب
فأمسَيْتُ فى ليلين: فى الشعر والدجى وشمسين : من خمر وخدّ حَبِيبِ

وأستطرد إلى قلب التشبيه من مبالغة التحول الذى ذكرنا ، فأقول : إذا صار جسم العاشق من النحول يوصف بمثل قول الشاعر :

أنحلنى الحبّ فـلو زجّ بى فى مُقْلَةِ النَّائم لم ينتبـه
قد كان لى فيما مضى خاتمٌ والآن لو شئت تمنطقت بِهْ

وبمثل قول أبى بكر بن دُريد :

إنَّ الذى أبقيتَ من جسمِهِ يامتلفَ الصبّ ولم يَشْعُرِ[2]
صُبابة لو أنها قطـرةٌ تجول فى جفنك لم تَقْطُرِ

صار جسم الخلالة على نحافته أكبر من جسم الصبّ بأضعاف ، فينقلب التشبيه ، وكذلك إذا بولغ فى وصف الأكفال بالعِظَم صغرت عندها الكُثْبان ، فينقلب التشبيه .

وقد ترجم ابن جنّى فى خصائصه ترجمة ، فقال : هذا باب من غلبة الأصول على الفروع ، ثم أنشد بعض ما أنشدنا ، وقرنها بمسائل من العربية حِسان تشبه الباب[3] .

---

(١) ديوانه ٢٤١ ، وفيه : « فى حمرة أورد شكل من تلهبها » .
(٢) ديوانه ٦٧
(٣) الخصائص ١ : ٣٠١ — ٣٠٣

رفع المسهم

وللمتقدّمين والمتأخّرين فى النحول شعر كثير، ويستحسن فى ذلك قول المجنون:

فأصبحتُ من ليلَى الغداةَ كناظرٍ ... مع الصّبح فى أعقاب نجم مغرّبِ[1]
ألا إنما غادرتِ يا أُمَّ مالكٍ ... صدًى أينما تذهبْ به الريح يذْهَبِ

أخذه المؤمّل فقال:

قد صرتُ من ضعفى إلى حالةٍ ... تجرى لها آماقُ حُسّادِى
يكاد جسمى من نحول الضّنَى ... تحمله أنفاسُ عُوّادِى

وزاد خالد الكاتب، فجعله لا يُدرك إلا بالوهم، فقال:

يا من تجاهلَ عمّا كان يعمله ... عمداً وباح بسرٍّ كان يكتُمُه
غَدَا خليلك نِضْواً لاحَراكَ به ... لم يبق من جسمه إلا تَوَهّمُه

فزاد ابن المعتزّ، وجعله يخفى على الموت، فقال:

مُسَهَّدٌ خانه التفريق فى أمَلِهْ ... أضناه سيّدُه ظلماً بمرتحَلِهْ[2]
فدقّ حتى لو أن الدهر قادَ لهُ ... حتناً لما أبصرته مقلتا أجَلِهْ

فأعدمه المتنبّى واستريح منه، فقال:

أراكِ حسبتِ السّلكَ جسمى فَعُقْتِه ... عليك بدُرٍّ عَنْ لقاء التّرائبِ[3]
ولو قَلَمٌ أُلقيتُ فى شَقِّ رأسِهِ ... من السّقم ما غيّرتُ من خَطّ كاتبِ

* * *

قال: فنَهَضْتُ فِيما أَمرَ، لأدْرَأَ عَنْهُ الْغَمَرَ، وَلَمْ أَهِمْ إِلَى أَنّه

(١) البيتان فى حماسة ابن الشجرى ١٥٦ بنسبتهما إلى محمد بن النمرى.
(٢) ديوانه ١: ١٤٩. السلك: الخيط. والترائب: محل القلادة من الصدر.

قَصَدَ أَنْ يَخْدَعَ، بِإِدْخَالِي الْمَخْدَعَ، وَلَا تَظَنَّيْتُ أَنَّه سَخِرَ مِنَ الرَّسُولِ، فِي اسْتِدْعَاءِ الْخِلَالَةِ وَالْغَسُولِ.

فَلَمَّا عُدْتُ بِالْمُلْتَمَسِ، فِي أَقْرَبَ مِنْ رَجْعِ النَّفَسِ، وَجَدْتُ الْجَوَّ قَدْ خَلَا، وَالشَّيْخَ وَالشَّيْخَةَ قَدْ أَجْفَلَا، فَاسْتَشَطْتُ مِنْ مَكْرِهِ غَضَبًا، وَأَوْغَلْتُ فِي إِثْرِهِ طَلَبًا، فَكَانَ كَمَنْ قُمِسَ فِي الْمَاءِ، أَوْ عُرِجَ بِهِ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ.

* * *

قوله: «أدرأ»، أى أزيل. الغَمَر: الودَك. أهِم: أظنّ، ويذهب وهمى. تظنّيت: حسبت، وأبدل إحدى نونى «ظنّ» ياء تخفيفاً للتضعيف. سخر: هزأ. الملتمَس: المطلوب. الجوّ هنا: داخل البيت. أجفَلا: هربا وأسرعا. قوله: «استشطت»: اشتدّ غضبى. مكرِه: خداعِه. أوغلت: بالغت وباعدت. قُمِسَ: غمس. عُرِج به: طلع به. عَنَان بفتح العين: سحاب، والعَنَانة: السحابة، وأعنّت السماء: صار لها عَنان، والله الموفِّق للصواب.

المقالة الثامنة وهي المعرية

[معرّة النعمان]

هي بلدة بالشام ، والنُّعمان : اسم جبل مطلّ عليها، والمَعَرّة اسم البلدة ، فأضيفت إليه ، ولها سبعة أبواب ، وعلى جبل منها دَيْر سمعان ، فيه قبر عمر بن عبدالعزيز، وقبر شيث بن آدم عند باب شيث منها ، وداخلها قبر يوشع بن نون ، وله يوم حَفِيل فى كلّ عام ، وإلى المعرّة ينسب الشاعر المعرّى . قال شيخنا ابن جبير : إنه خرج من قِنَّسرين يريد حِمْص، قال : فرأينا عن يمين طريقنا بمقدار فرسخين بلاد المَعَرَّة ، وهى سواد كلها محاطةٌ بشجر الزيتون والتين والفُسْتق وأنواع الفواكه ، ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قُراها مسيرة يومين ، وهى من أخصب البلاد ، وأكثرها أرزاقاً ، ووراءها جبل لبنان ، وهو سامى الارتفاع ، ممتدُّ الطول ، متّصل من البحر إلى البحر ، وفى سفح الجبل حصون للملحدة الإسماعيليّة ، فرقة مَرَقَتْ من الإسلام ، وادّعت الإلهية[1] ، قيِّض لهم شيطان يعرف بسنان ، خدعهم بأباطيل وخيالات ، وموّه عليهم باستعمالها ، وسحرهم بمُحالها ، فاتخذوه إلهاً يعبدونه ، ويبذلون الأنفس دونه ، وحصلوا من طاعته[2] بحيث يأمر أحدهم بالتردِّى من شاهق جبل ، فيتردّى المأمور ، والله يضل من يشاء[3] .

* * *

أخبر الحارثُ بن همّامٍ قالَ : رَأَيْتُ منْ أَعَاجِيبِ الزَّمَانِ ، أَنْ

---

(١) بعدها فى ابن جبير « فى أحد الأيام » .

(٢) بعدها فى ابن جبير « وامتثال أمره » .

(٣) رحلة ابن جبير ٢٣٤

تقدَّمَ خَصْمانِ ، إلَى قاضِى مَعَرَّةِ النُّعْمانِ ، أَحَدُهُما قَدْ ذَهَبَ مِنهُ الأَطْيَبانِ ، وَالآخَرُ كأَنَّهُ قَضِيبُ البانِ .

* * *

قوله : « الأطيبان » ، أى الأكل والنكاح ، أى هو شيخ مسنّ ، وقيل : الأطيبان : النوم والنكاح ، وقيل : طيب النكاح ، وطيب النكهة .

أبو هريرة ، قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « الأطيبان التمر واللبن » .

وسئل شيخ مسنّ من العرب عن حاله ، فقال : ذهب منى الأطيبان : السَّيْر والأيْر ، وبقى الأرْطبان : الضّراط والسّعال .

والبان : شجر تشبّه بقضبانه القُدود الناعمة .

* * *

فقال الشَّيخ : أَيَّدَ اللهُ القاضِى ، كَمَا أَيَّدَ بِهِ المُتَقاضِى ، إنَّهُ كانت لِى مَملُوكَةٌ رشيقة القَدِّ ، أَسِيلَةُ الخَدِّ ، صَبُورٌ على الكَدِّ ، تَخِبُّ أَحْيَانًا كالنَّهْدِ ، وَتَرقُدُ أَطْوَارًا فِى المَهْدِ ، وَتَجِدُ فى تَمُوزَ مَسَّ البَرْدِ ، ذَاتُ عَقْلٍ وَعِنانٍ ، وَخَدٍّ وَسِنانٍ ، وَكَفٍّ بِنانٍ ، وَفَمٍ بِلاَ أَسْنانٍ ؛ تَلْدَغُ بِلِسَانٍ نَضْناضٍ ، وَتَرْفُلُ فِى ذَيْلٍ فَضْفاضٍ ، وَتُجْلَى فى سوادٍ وَبَيَاضٍ ، وَتُسْقَى وَلَكِنْ مِنْ غَيرِ حِيَاضٍ ، ناصِحَةٌ خُدَعَةٌ ، خُبَأَةٌ طُلَعَةٌ ، مَطْبُوعَةٌ على المَنفَعَةِ ، وَمِطْوَاعَةٌ فى الضِّيقِ وَالسَّعَةِ ، إذا قَطَعَتْ وَصَلَتْ ، وَإنْ فَصَلْتَها عَنْكَ انْفَصَلَتْ ، وَطَالَمَا خَدَمَتْكَ فَجَمَّلَتْ ، وَرُبَّما جَنَتْ عَلَيْكَ فَآلَمَتْ وَمَلْمَلَتْ ، وَإنَّ هَذَا

الفتى استخدمنيها لغرض ، فأخدمتُه إياها بلا عِوَضٍ ، على أن يجتنيَ نفعها ، ولا يكلِّفها إلاّ وُسْعَها ، فأولج فيها متاعَهُ ، وأطال بها استمتاعَهُ ، ثم أعادها إليّ وقد أفضاها ، وبذل عنها قيمةً لا أرضاها .

* * *

المتقاضى ، أى المتحاكَم إليه الذى يطلب من الحاكم قضاءه ، وعونه على خصمه ؛ وهذا الغرض الذى ذكره ضرب من الألغاز ، لأنه مشى كلامه فى وصف جارية وغلام ، وقد ضمّن الكلام وصف إبْرَة ومِرْوَد . مملوكة ، يعنى الإبرة جعلها مملوكة لأنها مما يُتموّل . رشيقة القدّ : معتدلة القامة . أسيلة : ملساء . خدّ الإبْرة : شَقّ فيه ثقبها ، وأصل الخدّ شَقّ مستطيل فى الأرض ، والأسالة : ملاسةٌ مع طول .

صبور على الكدّ ، أى صابرة على المشقّة والتعب ، وفعول - بمعنى فاعل - يمتنع من إلحاق الهاء به إذا وقع صفة لمؤنث ، قال عنترة :

إنّى امرؤٌ سهلُ الخليقة ماجدٌ لا أتّبع النّفسَ اللّجُوجَ هَوَاهَا

ومنه : امرأة شكُور وصَبُور ولَجُوج ولَحِن أبو محمد خواصّ العراق بقولهم : شكورة ولجوجة وصبورة ، قال : إنّ هذه التاء إنما تدخل فى «فعول» إذا كانت بمعنى «مفعول» ، نحو ناقة رَكوبة وشاة حلوبة[1] . قال : وذكر النحويّون فى امتناع الهاء من «فعول» بمعنى «فاعل» للمؤنث عِلَلاً ، أجودُها أن الصفات الموضوعة للمبالغة نُقلت عن بابها لتدلّ على المعنى الذى تخصصّت به ، فأسقطت الهاء من صبور وفتاة معطار ونظائره ؛ كما ألحقت بصفة المذكّر فى رجل علاّمة ونسّابة ، ليدلّ على تحقيق المبالغة ، وتؤذن بحدوث معنى زائد فى الصفة - وامتناع الهاء المذكورة

(١) قال فى درة الغواص : «لانهما بمعنى مركوبة ومحلوبة» .

أصل مطّرد [لم يشذّ منه إلا قولهم][1]: عدوّة، فإنهم ألحقوه بصَدِيقة، والشيء في أصول العربية [قد] يُحمَل على ضدّه ونقيضه، كما يحمَل على نظيره ورَسيله[2].

تَخُبّ: تثب في الثوب بسرعة. النَّهد: الفرس الضَّخم. أطواراً: أحياناً، ومهدها: مثبر الخائط الذى تُمسك به إبرته. تَمُّوز: أحد الشهور، وهو يوليه. والبرد: أن يبردها الحدّاد بالمِبْرَد ليقوِّمها ويعدِّلها، فالبرد هنا فِعْل صانعها. قال ابن ظَفر: ذهب بالبرْد إلى ما طُبع عليه الحديد من البَرْد في القيظ. قوله: «ذات عقل وعِنان»، أراد بالعِنان الخيط لأنها ترسلُه في الخياطة، والعقل شدّها بالخيط حين تمسك في الثوب. سنان: طرفها المسنون، أى المحدّد. كفّ بنان: الكفّ والتضريب شيئان معروفان في الخياطة، فيريد أن الخائط يقلّب التضريب بأصابعه وهى البَنان ويكفّه بالإبرة. فم، يريد ثقب الإبرة. تلدغ: تضرب الإصبع. واللسان النضناض للحيَّة، والنَّضْنَضَة، قيل: هى صوت الحيَّة، وقيل: حركة لسانها، وإنما اختُلِفَ فيها لأن الحيَّة إذا ضُيّق عليها فتحت فاها وصفرت وحركت لسانها، فيقال: نضنضتْ، وشبّه طرف الإبرة بلسان الحيّة لكثرة حركته في الثوب؛ وما أحسن قول الشاعر في تشبيه لسان الأفعى بنُورِ السِّراج:

وقنديلٍ كأنَّ النُّورَ منه ... محيَّا مَنْ أحِبّ إذا تَجلَّى
أشار على الدُّجى بلسانِ أفْعَى ... فشمَّر ذيلَه فَرَقاً وَوَلَّى

وقال ابن الصبّاغ الصقلىّ في شمعة:

يطعنُ صدْرَ الدجى بعاليةٍ ... صَنوبَرِى لسانُ كوكَبِها
كحَيَّةٍ باللسان لاحسةٍ ... ما أدركت من سواد غيْهبِها

وللبيتين الأوّلين حكاية مستظرفة، حدّثنى بها غير واحد من الطّلبة أردت ترك ذكرها لأمرين: لشهرتها، ولأنى وجدت البيتين مثبتين في بعض النّسخ من

(١) من درة الغواص.
(٢) درة الغواص ٦٨.

القلائد لأحد رجالها ، ثم عزم علىّ بعض الأدباء أن أذكرها ، فذكرتها على اختصار لفائدتها ؛ وذلك أن الشاعر المعروف بالبكىّ الهجّاء ، دخل عليه فى ليلة ماطرة ذات رعد وبرق فى بيت فندق دوابّ ـ شخص فى الظّلام لا يعرفه ، وعلى البكىّ بقية من سِلْهامة[1] خَلَقة ، لا يواريه غيرُها ، وعلى الثانى بقية من قميص قد اسودّ من طول البلى وكثرة الأوساخ ، حتى لا يعرف رائيه من أىّ ثوبٍ هو ؛ وقد بلّل كلّ واحدٍ منهما المطر . وهما فى بلاء من الفقر والجوع والبرد ، فرَقّ لهما خادم الفندق ، فدخل عليهما بقنديل ، فعندما نظر كلّ واحد منهما صاحبه تأسّى به ، ورأى أنه قد وجد لنفسه نظيراً فى الشقاء . فقال البكىّ لجليسه : أىّ شىء أنت ؟ فقال : شاعر ، وشؤم الأدب بلغ بى ما ترى ، قال : فأجِزْ ، فقال :

* وقنديلٍ كأنّ النُّورَ منه *

فقال الآخر :

* محيًّا من أحبّ إذَا تجلّى *

فقال البكىّ :

* أشار على الدُّجى بلسانِ أفعَى *

فقال الآخر :

* فشمّر ذيله فرقًا وَوَلّى *

فقال له البكىّ ـ وقد أعجب به : بمن تعرّف ؟ فقال : بعنق البرة ، قال له : وأنا البكىّ ، فجعلا يتناظران بقيّة ليلتهما فى أيّهما أكثر حرماناً ، حتى أصبحا وكانا يتلمسان . فقال عنق البرة للبكىّ : هلمّ لنقترع ؛ أيّنا يقيم هنا ، وأيّنا يرتحل ؟ فإنا إن بقينا فى موضعٍ واحدٍ ، أدرك الناس من شؤمنا ما يؤدّى بهم إلى الهلاك ، فاقترعا فخرجت قرعة البكىّ بالرحيل ، فارتحل ونزل بفاس ، فحلّ بأهلها من بلائه ما قد شُهِر .

(١) كذا فى الأصول ، ولم أقف على معناها .

قوله : «ترفل فى ذيل فضفاض» ، أى تمشى فى خيط طويل . تجلّى فى سواد وبياض ، أى تبرز فى خيط أسود لخياطة السواد، وأبيض لخياطة البياض. تسقى: أراد سقى الحدّاد لها إذا أخرجها من النار وألقاها فى الماء لتصلُب. ناصحة : خائطة ، والنّصاح : الخيّاط ، ونصحتُ الثوب : خطته . خُدَعة : تخدع الخائط كثيراً ، فتخيط وجه الثوب الأعلى ، وتترك الأسفل ، والهاء فى هذه الصفات للمبالغة . خُبأَة طُلَعة ؛ يصف حالها من الخياطة حين تختبىء فى الثوب ، ثم تطلع فى يد الخائط . مطبوعة ، أى مصنوعة لينتفع بها . مِطواعة فى الضيق والسّعة ؛ يريد إذا دفعتَها فى الثوب دخلت فيه ، سواء اتّسع موضع دخولها أوضاق . إذا قطعت وصلت ، يريد إذا قطعت الثوب وفصّلته ألّفته . فصأتَها عنك : نحيّتها ، وجعلتها فى مئبرها . خدمتْك ، أى صرفتها فيما تحتاج من خياطة ثيابك . جَمَّتْ : ألّفت قطع الثوب . جنت عليك فآلمت ، أى ضربتك فأوجعتك وصيّرتْك ذا ألم . ململت ، أى جعلتك متقلّباً لشدة الوجع . قوله : « استخدمنيها »، أى طلب منى خدمتها . الغَرَض : الحاجة ، وأصل الغَرض ما قصَدَتْه سهام الرامى ، ثم سميت الحاجة غرضاً ، لأنها قُصدت بالرغبة فيها . وسْعها : طاقتها وقَدْر ما تحتمل مما تكلف . أولج فيها متاعه ، أى أدخل فيها خَيْطه . أفضاها : خرق عينها ، وفى المرأة خلط مسلكيْها ، من أفضيت إلى الشىء ، وصلت إلى متّسعه ، ومنه: القوم فوضى ، أى متسعون مختلطون . بذل : أعطى .

* * *

فَقالَ الحَدَث : أمَّا الشَّيْخُ فأصْدَقُ منَ القَطا ، وأَمَّا الإفْضاءُ فَفَرَطَ عَنْ خطأ ، وقدْ رَهَنْتُهُ ، عَنْ أَرْشِ ما أَوْهنْتُهُ ، تَمْلُوكاً لِي مُتَناسِبَ الطَّرَفَيْن ، مُنْتَسِباً إلى القَيْنِ ، نَقِيًّا مِنَ الدَّرَن والشَّيْنِ ، يُقارِنُ مَحْلُهُ سَوَادَ العَيْنِ . يُفْشِي الإحْسانَ ، وَيُنْشِي الاسْتِحْسانَ ،

وَيُغْذِى الإنْسَانَ ، وَيَتَحَامَى اللِّسَانَ ، إنْ سُوِّدَ جادَ ، أَوْ وَسَمَ أَجَادَ ، وَإذَا زُوِّدَ وَهَبَ الزَّادَ ، وَمَتى اسْتُزِيدَ زَادَ ، لا يَسْتَقِرُّ بِمَغْنًى ، وَقَلَّمَا يَنْكِحُ إلاَّ مَثْنَى ، يَسْخُو بِمَوْجُودِه ، ويَسْمُو عِنْدَ جُودِه ، وَيَنْقَادُ مَعَ قَرِينَتِهِ ، وَإنْ لم تَكُنْ مِنْ طِينَتِهِ ، وَيُسْتَمْتَعُ بِزِينَتِهِ ، وإن لَمْ يُطْمَعْ فى لِينَتِهِ.

* * *

[القطـــا]

القَطَا : طائر يصيح «قَطَا قَطَا» فسمِّى بصياحه ، وبما يُفهم من صوته ، ولذلك تسمِّيه العرب الصَّدُوق ، ويقال : أنسَب من قطاة ، لأنها إذا صاحت عرِفت ، وقال الشاعر :

تدعو القطا وبه تدعى إذا انتسبتْ ... ياصِدْقَها حين تدعوها فتنتسبُ
حمراء مقبلةً سَكَّاء مدبرةً ... للماء فى البحر منها نَوْطة عَجَبُ

وقال الكميت :

لا تَكْذِبِ القول إن قالت قطا صدقَتْ ... إذ كلّ ذِى نسبةٍ لا بُدّ ينتحِلُ[1]

وقال أبو وجْزة :

ما زلن ينسُبْن وَهْنًا كلّ صادقة ... باتت تباشر عُرْمًا غير أزواج[2]

---

(١) الحيوان ٦ : ٥٧٨ .

(٢) الحيوان ٥ : ٥٧٣ ، وروايته : « وهن ينسبن » ، والوهن : نصف الليل

يريد ، أن الحمير وَردَت الماء ليلا، فأثارت القطا عن أفاحيصه ، فَصاحت: «قطا قطا »؛ فذلك انتسابه وجعلها صادقة لصياحها قطا . والعُرْم بيضها ، لأن فيه سواداً وبياضاً ، وبَيْض القَطا أفراد ثلاثة أو خمسة ، قال مزاحم العقيلي في القطا وفراخها:

فلمّا دعَتْه بالقَطاة أجابَهـــا بمثل الّذى قالت له لم يبدّلِ[1]

وقال المعرّى :

عُرِفت جُدُودك إذ نطقتَ وطالَما لفظ القطا فأبان عن أنسَابِها[2]

وقال الأصمعىّ : القطا لا تصيح إلا إذا أرادت الماء ، فإذا عدم الماء ، وسمعت العرب صياح القطا ، فرحوا به وعرفوا قُرْب الماء من بعده .

وقيل : سُمِّى القطا لثقَل مشيِه ، يقال : قَطَا الرجل يَقْطُو ، إذا ثَقُلَ مشيه .

* * *

قوله: «فرط» أى سبق . عن خطأ ، أى عن غير تعمّد . رهنته : أعطيته رهْناً ، وأرهنتك: أعطيتك ما ترهنه . والأرْش : قيمة العيب ، أى دية الجرح ، مأخوذ من أرَشَ بين القوم لأنّ الأرش يُختصم فى قدره . أوْهنته : أفسدته ، ووهن الشىء يَوْهَنُ ويهِن: ضعُف ، وأوْهنته أنا ، إذا أضعفته . مملوكا ، يعنى المرود . متناسب الطرفين ، أى هذا الطرف مثل هذا الطرف، تكتحل بأيِّهما شئت . القَيْن: الحدّاد الذى صنعه . الدّرَن : وَسَخ الحديد ، والشَّيْن : العيب ، أى هو مصقول معتدل ليس فيه اعوجاج ولا عيب . يقارن محلّه سواد العين ، أى عند التكحّل به . يفشى : يحدِث ويظهر . وإحسان الكَحَل فى العين لا يخفى . ينشىء استحسان ، أى ينشىء لناظر العين استحسان الكحل فى العين

(١) الحيوان ٥ : ٥٧٨ .

(٢) لم أجده فى سقط الزند ولا فى اللزوميات .

والإنسان : إنسان العَيْن يغذيه بالكُحْل ، والإنسان : السَّواد الذى فى وسط العين ، إذا رأيته رأيت فيه شخصاً ، والشخص هو الإنسان ، فسُمِّىَ السواد به . يتحامى : يبعدعنه، يريدأنه يكحل العين ولا يقرب من الفم . قوله : « سُوِّد »، أى جعل فيه الكحل . جاد : أعطاه العين . وَسَم العين بالكحل : أجاد عمله فيها . قلّما ينكح إلا مثنى ، أى ينكح عينا واحدة فى الغالب . وقد نظم هذا النثر فى الثانية والأربعين .

جوده ، أى يجود بكحله للعين . ويسمُو : يطلُع للعين ، وجعل له الكحل غذاء يأخذ ويرتفع به للغير . قرينته : مُكحلته . من طينته : من جنسه . زينته : تزيينه للعين يُطمع فى لينته : أى لا يطمع أن يكون الحديد ليِّنا . وكلّ لفظة فسرّ بها المرود والإبرة ، لها لفظ فى ظاهرها غير ما فسّرت به .

* * *

فقال لهما القاضى : إمَّا أَنْ تُبِينَا ، وَإلا فَبِينَا ؛ فابْتَدَرَ الْغُلَامُ ، وَقال :

أَعَارَنِى إِبْرَةَ لِأَرْفُوَ أَطْـ ... ـمَارًا عَفَاهَا البِلَى وَسَوَّدَهَا
فانْخَرَمَتْ فِى يدِى عَلَى خَطإٍ ... مِنِّىَ لَمَّا جَذَبْتُ مِقْوَدَهَا
فلمْ يَرَ الشَّيْخُ أَن يُسَامِحَنِى ... بِأَرْشِهَا إِذْ رَأَى تَأَوُّدَهَا
بل قَالَ هَاتِ أُبْرَةً تُمَاثِلُهَا ... أَوْ قِيمَةً بَعْدَ أَنْ تُجَوِّدَهَا
واعْتَاقَ مِيلِى رَهْنا لَدَيْهِ وَنَا ... هيكَ بِهَا سُبَّةً تَزَوَّدَهَا
فالْعَيْنُ مَرْهَى لِرَهْنِهِ وَيدِى ... تَقْصُرُ عَنْ أَن تَفُكَّ مِرْوَدَهَا
فاسْبُرْ بِذَا الشَّرْحِ غَوْرَ مَسْكَنَتِى ... وارْثِ لِمَنْ لم يَكُنْ تَعَوَّدَهَا

* * *

رفع المسهم

تبينا : توضّحا وتفسّرا حديثكما المهمّ الملغز . فبينا : أبعدا ، أو ارتفعا . قوله: «أرفو» أى أخيط ، ويروى «لأرفأ» يقال : رفأت الثوب أرفؤه ورفوته وأرفوه ، والرفو من أدقّ أنواع الخياطة ، وهو نسج الخرق فى الثوب حتى يعود كأنه لم يكن فيه خرق .

[مما قيل فى رَفْو الثياب]

وقال ابن القابلة السبتىّ فى غلام رفّاء :

يارافياً قطع كلّ ثوبٍ ويارَشا حَبّةَ اعتمادى
عسى بخيطِ الوصالِ ترفُو ما قطّع الهجرُ من فؤادِى

وقال الحلوانىّ فى خياط :

ربّ خيّاطٍ فُتنت به فتنة أوهَتْ قُوَى جَلَدِى
لاعبٌ بالخيطِ يفتلُهُ أتراه ظنّه جَسَدِى !
ليت أنى كنتُهُ فأرَى بين ذاك الدُّرّ والبَرَدِ
فعلتْ بالثّوب إبرتُه فعلَ سهم الشَّوْق فى خَلَدِى
وجرى المِقْراض فى يدِهِ جَرْىَ عينيْه عَلَى كَبَدِى

ومن مجون أبى نواس ، أنه كان يؤاكل إسماعيل بن أبى سهل ، فعرضت له على مائدة رُقاقة فى جانبها خُرْق قد ضمّ ، فرفعها بإحدى يديه ونقرَها بالأخرى ، فانفرجت ، وقال وهو يضحك : أخبزكم مرفوء ؟ فلما خرج قال :

خبز إسماعيل كالوَشْى إذا ما انشق يُرْفَا
عجبا من أثر الصنعة فيه كَيْفَ يخفَى
إنّ رَفّاءك هذا ألطف الأمّة كفّا
فإذا قابل بالنّصف من الخبزةِ نِصْفَا

ألطف الصَّنعة حتى لا ترى المِغْرَزَ أَشْفَى
مثل ماجاء من التَّنُّور ما غادَرَ حَرْفَا

والأطمار : الثياب الخَلَقة ، واحدها طِمْر . عفاها البلى : غَيَّرها القدم ودرسها ، وسوَّدها بالأوساخ حتى صارت فى طبع الثوب ، فمتى غسلت لم تزل.

[مما قالت الشعراء فى الأطمار البالية]

ومما قالت الشعراء فى الأطمار البالية مِمّا يستحسن قول الحمدونىّ فى طيلسانٍ[1] وَهَبَه له أحمد بن حرب المهلبىّ :

يابن حرب أطلت هَمّى برفْوِى طيلساناً قد كنتُ عنه غنيًّا[1]
فهو فى الرَّفو آلُ فرعون فى العَرْ ض على النار بكرةً وعشيّا

وقال أيضاً فيه :

طَيْلسانٌ لابن حربٍ يتداعَى لا مَسَاسا
قد طوى قَرْناً فقرناً وأناساً فأناسا
لَبِسَ الأيام حَتَّى لم تَدَعْ فيه لِباسَا
غاب تحت الحسّ حتى لا يُرى إلا قِياسَا

(١) قال الثعالبى فى المضاف والمنسوب ٢٠٢ : كان محمد بن حرب أهدى إلى الحمدونى طيلسانا خلقا ، وكان الحمدونى يحفظ قول ابن حمران السلمى فى طيلسان :

يا طيلسانَ أبى حمرانَ قد برمَتْ بك الحياة فما تلتذّ بالعُمُرِ
فى كل يوم له رفًا يجدّده هيهات ينفع تجديدٌ مع الكِبَرِ
إذا ارتداه لعيدٍ أو لجمعته تنكب الناسَ لا يبلى من النَّظَرِ

واحتذى حذوه ، واثالث عليه المعانى ، حتى قال فى وصف الطيلسان قرابة مائتى مقطوعة ، ولا تخلو واحدة منها من معنى بديع

(٢) المضاف والمنسوب للثعالبى ٢٠٢ ، وفيه : « أطلت فقرى » .

وقال فيه أيضاً :

قل لابن حرب مقالة العاتبْ ... ولستُ فيما أقولُ بالكاذِبْ
أما رأيت الرّفاء يُحزنني ... برفْوِهِ طيلسانَكَ الذّاهِبْ
أفناه جَوْرُ البِلَى عليه كما ... أفْنَى الهوَى عُمرَ خالدٍ الكاتِبْ

وقال فيه أيضاً :

إنّ ابن حربٍ جادلى كاسياً ... بطيلسان هَرِمٍ قَشْعَمِ
انظر إلى كثرة تمزيقهِ ... كأنّما مُزّق فى مأتَمِ
رفوى له وهو رميمٌ كمن ... يبنى بناء فوق مستهدَمِ
يصدعه اللّحظ بإيماضِهِ ... صدع فؤاد العاشق المغرَمِ
يُذْكِرُنى كثرةُ تمزيقهِ ... تفرّقَ الناس عن الموْسمِ

وقال فيه أيضاً :

يابن حربٍ كسوتَنِي طيلساناً ... ملّ من صحبة الزمان وصَدّا[1]
طال تردادُهُ إلى الرفو حتّى ... لو بعثناه وحدَهُ لَتهدّى
فَحَسِبْنَا نسج العناكب قد جِئْنَ ... إلى ضعف طيلسانك شدّا

وقال أيضاً فيه :

يا قاتل الله ابن حربٍ لقد ... أطال إتعابى على عَمْدِ
بطيلسانٍ خلتُ أنّ البِلَى ... يطلبه بالوِتْرِ والحِقْدِ
أجدّ فى رفوِى له والبِلَى ... يلهُو به فى الهَزْلِ والجِدِّ

(١) المضاف والمنسوب ٦٠٣

إن أتهم الرافى فى رَفْوِهِ مضى به التمزيقُ فى نَجْدِ
غَنَّيته لما مضى راحلاً : تركتنى ياواحِدى وَحْدِى

والحمدونىّ هو إسماعيل بن إبراهيم حمدويه ، نُسب إلى جده ، وهو من أهل مَيْسان ، وكان حلو التصرّف مليح الافتنان ، وهو القائل :

من كان فى الدنيا له شارةٌ فنحن من نظّارة أدْنَى
نلحظها من كَثَبٍ حَسْرَةً كأننـــا لفظ بلا مَعْنَى

وقال ابن الرومىّ فى طيلسانه :

ولى طيلسانٌ ناحلٌ غير أنّه ثَبوت لهمات الرياح الزّعازِعِ
وما ذاك إلا أنه متهتّكٌ يخلى سبيلَ الريح غير مُنازَعِ
أراه لضوء الشمس بالعين رؤيةً ويمنعنى من لمسه بالأصابِعِ
شكا ثقل اسم الطيلسان لضعفِه فسميته ساجا فهل ذاك نافِعِي !

وقال ابن سارة فى فروة :

أودت بذات يدى فُرَيْوةُ أرنبٍ كفؤاد عُروة فى الضّنَا والرّقّةِ
يتجشم الرّفاء فى ترقيعها بعد المشقة فى قَرِيبِ الشُّقّةِ
لو أنّ ما أنفقت فى ترقيعِها يحصَى لزاد على رمال الرّقّةِ
إن قلتُ : « باسم الله » عند لباسِها قرأت علىّ « إذا السماء انشقّتِ »

وله فيها أيضاً :

لى فروةٌ وصفى لجائحتى بهـا يأتيك بين مقـرّطٍ ومشنّفِ
عطّلْتُ كتب أبى عبيدٍ بالذى ألفّتُ فيها من غَرِيبِ مُصَنّفِ
يسطو علىّ الغرم فى ترقيعها سطوَ الغرام على فؤاد المدنَفِ

فأنا وفروى خوف تمزيقى لَهَا أحكى معاويةً بجنب الأحْنَفِ

وله فى طيلسانه :

وطيلسان هَرِمٍ يُحتَمَى عليه أكلُ الخلّ والبقلِ
كأن كفّىَّ إذا انضمّتا عليه خوف الرّيح فى غُلِّ

ولبعض أصحابه فيه :

على منكب ابن علىّ سَمَلْ تقطّعه لحظات المُقَلْ
إذا غيّم الجوّ أبصرته رهين الذّبول بكفّ البَلَلْ
نسوا طيلسان ابن حربٍ بهِ وصاروا به يضربون المَثَلْ

وله فى غِفارته [1] :

لأحمـــد بن علىٍّ غِفَارةٌ كالسَّرَابِ
إن هبَّ أدنى نسيمٍ تمرّ مرّ السَّحَابِ

والشعر فى هذا الباب كثير .

قوله : « انخرمت » ، أى انكسرت . مقودها : خيطها . تأوّدُها : انكسارها ، وأصله الاعوجاج . أعتاق ميلى : أحبس مِرْوَدِى . ناهيك : كافيك ، ومعناه المبالغة ، كأنه بلغ النهاية فى العَيْب الذى فعل . سُبَّة : عيب يُسَبّ به . مَرْهَى : خالية من الكُحْل ، وقد مَرِه الرجل مَرَهاً إذا لم يتعهد الكحل ، والمَرْهَى من النساء : البيضاء البينة الزَّرَق الذى يختصّ الكحل فى زرقها . اسْبُر : قِسْ . غَوْر : غاية وقَدْر . ارثِ : ارحم وتوجع .

* * *

(١) الغفارة ، كـكتابة : زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة .

فأقبلَ القاضِي عَلَى الشَّيخِ ، وَقالَ : إيه ، بغير تَمْويه ، فقال :

أَقسمْتُ بالْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَمَنْ ... ضمَّ مِنَ النَّاسكِينَ خَيْفَ مِنَى
لَوْ سَاعَفتْنِي الأيَّامُ لم يَرَنِي ... مُرْتَهِنًا مِيلَهُ الَّذِى رَهَنَا
وَلاَ تَصَدَّيْتُ أَبْتَغِي بَدَلاً ... مِنْ إِبْرَةٍ غَالَهَا وَلاَ ثمَنَا
لَكِنَّ قَوْسَ الْخُطُوبِ تَرْشُقُنِي ... بِمُصْمِيَاتٍ منْ ها هنَا وَهُنَا
وَخُبْرُ حَالِي كَخُبْرِ حَالَتِهِ ... ضُرًّا وَبُؤْسًا وَغُرْبةً وَضَنَى
قَد عَدلَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا فأَنَا ... نَظِيرُه فى الشَّقاءِ وهْوَ أَنَا
لا هُوَ يَسْتَطِيعُ فَكَّ مِرْوَدِهِ ... لَمَّا غَدَا فى يَدَىَّ مُرْتَهِنَا
وَلاَ مَجَالِى لِضِيقِ ذَاتِ يدِى ... فيهِ اتِّسَاعٌ لِلْعَفْوِ حِينَ جَنَى
فهذِهِ قِصَّتِي وَقِصَّتُهُ ... فانْظُرْ إِلَيْنا وَبَيْننَا وَلَنَا

* * *

إيه : كلمة يُستزاد بها الحديث . والتمويه : الكذب ، وهو فى الحديث كالتعمية ، وقد موّه عليه ، إذا خيّل له أنّه على شىء وهو على ضدّه ، وأصل التمويه الصَّقْل ، كأنّ على ألفاظه المموّهة صقالة ، وهو من لفظ الماء . المَشْعر : المزدلفة ، وهو جمع ، سُمِّىَ مشعراً لأنه من علامات الحج ، وكلّ علامات الحج مشاعر ، والمَشْعر والمَنْسك : موضع ذبح الهَدْى بمكة المفضَّل ، سُمِّى مشعراً ، لأنه شعر أنه حرام كالبيت . الناسكين : الحجّاج الذين يُشعرون الهَدْى وما يُنْحر ، أنسَك ونسُكَ مَنْسكا ونَسْكاً ونَسَكاً ، إذا ذبح النُّسُك ، وأصلها ذبائح

الجاهلية ثم سُمّيت الأضاحى ، والنّاسك أيضاً : الزاهد . خَيْف : موضع بمِنى . قوله : « ساعفتنى » : ساعدتنى . تصدّيت : تعرّضت . غالها : أهلكها . الخطوب : الأمور الشداد . ترشقنى : تصيبنى . بمصميات : بسهام قاتلة . بؤس : شدّة حال . ضنًى : ضعف ومرض . وهو أنا ، أى هو مثلى فى ضيق الحال . مجالى : موضع تصرّفى . ذات يدى : مالى ، وذات اليد ما يُملَك . العفو : الغفران . جَنَى : أذنب . قصّتى : حديثى ، يقول : فانظر إلينا بعين الشفقة والرحمة ، وأصلِحْ بيننا بما ننصرف به شاكرين لك ، وهبْ لنا ما نُثنى به عليك ، وجعل النّظر عاملا فى الجميع ، لأن من وجوه النّظر الإصلاح بينهم والتكرّم عليهم .

* * *

فَلَمَّا وَعَى القَاضِى قَصَصَهُمَا ، وَتَبَيَّنَ خَصَاصَتَهُمَا وَتَخَصُّصَهُمَا ؛ أَبْرَزَ لَهُمَا دِينَارًا مِنْ تَحْتِ مُصَلاَّهُ ، وَقَالَ لَهُمَا : اقْطَعَا بِهِ الْخِصَامَ وَافْصِلاَهُ . فتَلَقَّفَهُ الشَّيْخُ دُونَ الْحَدَثِ ، واسْتَخْلَصَهُ عَلَى وَجْهِ الْجِدِّ لا الْعَبَثِ ، وقالَ لِلحَدَثِ : نِصْفُهُ لِى بِسَهْمِ مَبَرَّتِى ، وسَهْمُكَ لِى عَنْ أَرْشِ إِبْرَتِى ، وَلَسْتُ عَنِ الْحَقِّ أَمِيلُ ، فقم وَخُذِ الْمِيلَ . فَعَرَا الْحَدَثَ لِمَا حَدَثَ اكْتِئَابٌ ، وَاكْفَهَرَّ عَلَى سَمَائِهِ سَحَابٌ ، وجَمَ لَهُ الْقَاضِى ، وَهَيَّجَ أَسَفَهُ عَلَى الدِّينارِ الماضِى ؛ إِلاَّ أَنَّهُ جَبرَ بالَ الْفَتَى وَبَلْبَالَهُ ، بِدُرَيْهِماتٍ رَضَخ بِهَا لَهُ ، وقالَ لَهُمَا : اجْتَنِبَا المَعَاملاتِ ، وَادْرَآ الْمُخَاصماتِ ، وَلاَ تَحْضُرَانِى فِى الْمُحَاكَماتِ ، فَمَا عِندِى كِيسُ الْغَرَامَاتِ .

رفع المسهما

فنهضا من عنده ، فرحين برفده ، مفصحين بحمده ، والقاضي مايخبو ضجره ، مذ بض حجره ، ولا ينصل كمده ، مذ رشح جلمده .

* * *

قصصهما ، أى حديثهما ، وهو جمع قصة . خصاصتهما : فقرهما . تخصصهما : رفعتهما وانقباضهما ، وقد تخصص الرجل ، إذا انقبض عن العامة وتشبه بالخاصة. أبرز : أخرج . مصلاه : بساطه الذى يصلى عليه . افصلاه : اقطعاه وأزيلاه . استخلصه : حازه لنفسه خالصاً . الجد : التحقيق . العبث : الهزل . سهم : نصيب. مبرتى : إكرامى الذي وصلنى به القاضى . أميل : أخرج وأعدل عنه . عرا : قصد ونزل به . حدث : ظهر . اكتئاب : حزن وهم . وجم : غضب ، والوجوم : السكوت على غضب . هيج : حرك . أسفه : حزنه . باله : فكره . بلباله : حزنه ووسواسه . رضخ : كثر العطاء . اجتنبا : باعدا . المعاملات : المعاوضات والعوارى . ادركا : ادفعا . كيس : وعاء الدراهم . رفده : عطاؤه . يخبو ضجره : يسكن غضبه : بض حجره : رشحت كفه . قال الأخطل :

كزم اليدين من العطية ممسك ما إن تبض صفاته ببلال[1]

ينصل كمده : يزول حزنه . الجلمد : الصخر الصلب ، كنى به عن كفه ؛ وأنه بخيل ، ويد البخيل تشبه بالحجر ، وقال جرير :

كأنما خلقت كفاه من حجر فليس بين يديه والندى عمل[2]

يرى التيمم فى بر وفى بحر مخافة أن يرى فى كفه بلل

(١) ديوانه ١٥٩ .

(٢) لم يرد البيتان فى ديوانه

وقال ابن عبد ربه :

يَرَاعةٌ غرّنى منها وميضُ سنًا ... حتى مددتُ إليه الكفّ مقتبِسا[1]
فصادفت حجراً لو كنت تضربُه ... من لؤمه بعصا موسى لما انبجسا
كأنما صيغ من لؤم ومن كذبٍ ... فكان هذا له رُوحاً وذا نَفَسا

أين هذه الأكفّ من التى ذكر حجيّة بن المضرّب ، حين قال :

أناس إذا ما الدهر أظلم وجهه ... فأيديهمُ بيضٌ وأوجههم غُرُّ
يصونون أحساباً ومجداً مؤثّلاً ... ببذلِ أكفٍّ دونها المُزْن والبَحْرُ
فلو لامس الصخر الأصمّ أكفّهم ... أفاض ينابيع النّدى ذلك الصّخْرُ

وقال أبو الشيص :

إنّ الأمان من الزمان وريبه ... يا عقبَ شطّا بحرك الفيّاضِ[2]
بحرٌ يلوذُ المعتفون بسيْله ... فتم الجداول مترعُ الأحْواضِ
لأبى محمد المؤمّل راحتا ... مَلكٍ إلى أعلى العُلا نهّاضِ
فيدٌ تدفّق بالغنَى لصديقه ... ويدٌ على الأعداء سمّ قاضِ

وقال أبو تمام :

تعوّد بَسْطَ الكفّ حتى لو أنّهُ ... دَعَاها لقبضٍ لم تجبْه أناملُه[3]

وقال البحترىّ :

قد قلت للغيث الرّكام ولجّ فى ... إبراقه ، وألحّ فى إرعادِهِ :[4]

(١) العقد ٦ : ٢٩٥ .
(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ٧٦
(٣) ديوانه ٢٣٢
(٤) ديوانه ٧٠٣

لا تعرضنّ لجعفرٍ متشبّهاً بندى يديه فلستَ من أندادِهِ
الله شرّفه ، وأعلى ذكرَه ورآه غيثَ بلاده وعبادِهِ

وقال ابن الروميّ :

مُقبَّلُ ظهر الكف وهّاب بطنها له راحةٌ فيها الحطيمُ وزمزمُ
فظاهرها للنّاس ركنٌ مقبّـــلٌ وباطنها عينٌ من الجود عَيْلَمُ

* * *

حَتَّى إذا أفاقَ مِن غَشْيَتِهِ ، أَقْبَلَ علي غَاشِيَتِهِ وقالَ : قَدْ أَشْرِبَ حِسِّى، وَنبَّأَنِي حَدْسِي؛ أَنَّهُما صَاحِبا دَهَاءٍ ، لاخَصْمَا ادِّعَاءٍ ، فكَيفَ السَّبيلُ إلَى سَبْرِهِما ، وَاسْتِنْبَاطِ سِرِّهِما ! فقالَ لهُ نِحْرِيرُ زُمْرَتِه ، وشَرَارَةُ جَمْرَتِه : إنَّهُ لم يَتِمَّ اسْتِخْرَاجُ خَبْئِهِمَا إلاَّ بِهِما ، فقَفَّاهُما عَوْناً يُرْجِعُهُما إليهِ ، فَلمَّا مَثَلا بَينَ يدَيْهِ، قَالَ لهُما: اصْدُقَانِي، سنَّ بَكْرِكما ، وَلَكُما الأَمَانُ مِنْ تَبِعَةِ مَكْرِكُما . فأَحْجَمَ الْحَدَثُ واستَقَالَ ، وَأَقْدَمَ الشَّيخُ وَقَالَ :

* * *

قوله: «غشْيته» ، أى ذهاب عقله بأن يُغمَى عليه . وغاشيته : زوّاره ومَنْ يغشَى موضعه . أشرِب : دُوخِل : حِسّى : إدراكى وفهمى . نبّأنى : حدّثنى، وأخبرنى . حَدْسى : ظنّى ، قال الفرّاء رحمه الله: حدست أحدِس ، إذا قلت فى الشىء برأيك . غيره : حدَست : ظننت ظنًّا بلغت منه غاية الشىء فى عدده أو

وزنه ، وأصله من قول العرب : بلغت الحدْس ، أى الشىء الذى تطلبُ مَلاقه. والدّهاء فى الرجل : الحذق والتبصُّر فى الأشياء . لاخصما ادّعاء ، أى ليس بينهما ادّعاء على الحقيقة فيختصمان فيها . سبْرها : اختبارها . استنباط : استخراج . نِحْرير: حاذق . زمرته : جماعته ، وجعله شرارة ؛ لنفوذ ذهنه واتّقاده ، ولذلك يسمى نحريراً ، أى ماهراً بالأشياء كلها ، كأنه لإدراكه وفهمه بالأشياء ينحرها بظنّه الصادق . خبئهما : خفىّ ما عندها . قفّاها : أتبعهما . والعون : الشرطىّ ، لأنه يُعين من يتصرّف له . مثلاَ : وقفَا ، يقال : مَثَل الشىءُ ، فهو مائل ، إذا قام وانتصب ، وإذا لطىء بالأرض أو ذهب ، وهو من الأضداد . سنّ بكر كما : حقيقة خبر كما . والبَكْر : الفتىّ من الإبل ، وسنه : مبلغ عمره ، لأنّ بالسنّ يُعرف كم بلغ من العمر ، ولفظ المثل «صدقنى سِنّ بَكره» ، وروى البكرى عن ابن الأعرابىّ أن رجلاً سَامَ رجلاً بَكْراً على أن يشتريه مسنًّا ، فقال البائع : هذا جمل ؛ لبَكْر له ، وقال المشترى : هذا بَكْر ، فقال البائع : بل هو مسنّ ، فبينما هما يتنازعان إذْ نفر البَكْر ، فقال صاحبه : ليسكّن نفاره : «هدع هدع» ، وهى كلمة من العرب يسكّن بها صغار الإبل عند نِفارها ، ولا تقال للكبار ، فقال المشترى عند ذلك : صدقنى سنّ بَكرة . تبعة ؛ شُرِحت فى الصّدر . أحجم : تأخّر فَزِعاً . أقدم : تقدم متشجّعاً . استقال : طلب الإقالة .

* * *

أنا السَّرُوجِىُّ وهَذَا وَلَدِى ... والشِّبلُ فى المَخْبرِ مِثْلُ الأسدِ

ومَا تعَدَّتْ يدُهُ وَلا يَدِى ... فِى إِبْرَةٍ يَوْمًا ولاَ فى مِرْوَدِ

وَإِنَّما الدَّهْرُ المُسِىءُ المعتدِى ... مَالَ بنا حَتَّى غَدَوْنا نَجْتَدِى

كلَّ ندِى الرَّاحةِ عذْبِ المَوْرِدِ ... وَكُلَّ جَعْدِ الكَفِّ مَغْلُولِ اليَدِ

بِكُلِّ فَنٍّ وبِكلِّ مَقْصِدِ بالجِدِّ إن أَجْدَى وإلاَّ بالدِّدِ
لِنَجْلِبَ الرِّشْحَ إلى الحظِّ الصَّدى وَنُنْفِدَ العُمْرَ بِعَيْشٍ أَنْكَدِ
والموتُ مِن بَعْدُ لَنا بالمِرْصَدِ إن لم يفاجِ اليَوْمَ فاجَى فى غَدِ

* * *

الشِّبل : ولد الأسد . المِخْبَر : التجربة والخبرة . تعدّت : ظلمت ، والمتعدّى : الظالم المجاوز الحدّ فى الظلم . مال بنا ، أى حطّنا . نجتدى : نسأل الناس الجدا ، وهو العطاء . ندىّ الراحة : كريم الكفّ . وجعْد الكفّ ، ضدّه ، وأراد أن يسأل كل كريم سهل العطاء ، وكل لئيم صعبه ، وأصل الجعودة انقباض الشعر ، ثم استعيرت لقبض الكفّ من اللؤم ، ومثله مغلول اليد ، أى كأنّ يده محبوسة بغُلّ للؤمها ، والسائل كأنه يحاول بسطَها بالجود فيجدها محبوسة بغلّ اللؤم ، وفى الكتاب العزيز : ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كلَّ البَسْطِ ﴾(١) فهذا نهىٌ عن التبذير .

وقال حبيب فى قصيدة يمدح بها حفص بن عمر الأزدىّ ويذكر الجعودة ، وهى :

يَرَى الوَعْدَ أخزى العارِ إن هو لم تكنْ مواهبُه تأتى مقدّمة الوعْدِ (٢)
فلو كانَ ما يعطيه غيثاً لأمطرتْ سحائبُه من غير بَرْقٍ ولا رَعْدِ
من القوم جَعْدٌ أبيضُ الوجه والنّدى وليس بنانٌ يجتدى منه بالجَعْدِ

(١) سورة الإسراء ٢٩
(٢) ديوانه ١٣٠ :

وقال البحترىّ :

صنتَنِي عن معاشرٍ لا أسمِّى أوّليهم إلاّ غَدَاةَ سِبَابِى[1]
من جِماد الأكفّ غير جمادٍ وغضاب الوجوه غير غِضَابِ
خطروا خطرةً الجهام وسارُوا فى نواحى الظنون سَيْرَ السَّحَابِ

وقال أيضاً فى نحوه :

وخلّفنى الزمانُ على أناسٍ وجوههمُ وأيديهمْ حديدُ[2]
لهم حُللٌ حسُنّ فهنّ بيضٌ وأخلاقٌ قبحنَ فهنّ سُودُ
أناسٌ لو تأمّلهمْ لَبيدٌ بكَى خَلْفَ الّذى يشكُو لبيدُ

قوله « الدد » : ضد الجدّ ، وهو اللهو واللعب ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لستَ مَنْ دَدٍ ولا الدّد منى » ، أى لست من باطل ولا الباطل منى أجدَى : نفع. الحظ : البخت والنصيب . والصدِى : العطشان ، وأراد أن حظّه فى الدّنيا قليل ، فهو سعى له ليجلب رزقاً يكثر به حظه . ننفذ : نتمّم . أنكد : مشئوم وكل ما جلَب شرًّا فهو أنكد ونكِد . والمرصَد : الموضع الذى ترتقب فيه من تريد أخذه ، وقد رصدته رصداً ترقبته . يفاج : يأت على غفلة ، وأصله فاجأ بالهمز ، فسهّله .

* * *

فقال له القاضى : للهِ درّك ، فَمَا أَعْذَبَ نفثَاتِ فيكَ ، وواهاً لَكَ لَوْلاَ خِدَاعٌ فيكَ ، وَإِنِّى لَكَ لَمِنَ الْمُنْذِرِينَ ، وعَلَيْكَ مِنَ

(١) ديوانه ٨٦
(٢) ديوانه ٥٨١

رفع المسهم

الحذرين ، فلا تماكر بعدها الحاكمين ، واتق سطوة المتحكمين ، فما كل مسيطر يقيل ، ولا كل أوان يسمع القيل .

فعاهده الشيخ على اتباع مشورته ، والارتداع عن تلبيس صورته . وفصل عن جهته ، والخنثر يلمع من جبهته .

قال الحارث بن همام : فلم أر أعجب منها فى تصاريف الأسفار ، ولا قرأت مثلها فى تصانيف الأسفار .

* * *

قوله : «لله درك» ، أى ما أحسن كلامك ، والدر أصله اللبن ، وكأنه سمى بحكاية صوته عند الحلب . ولله ، أصله القسم ، ولا تدخل اللام فى القسم إلا على اسم الله تعالى ، والتعجب معها لازم ، فإذا قال الذى يسمع صوت الحلب لصاحب الناقة : لله درك ! فكأنه قال : والله إن درك هذا لكثير ، ثم استعير للفصيح فى كلامه ، ولكل من أحسن فى شىء ، فكأنه قيل : ما أحسن ماجئت به ! وقيل : معناه لله اللبن الذى شربته من أمك ، قال الفراء رحمه الله : ربما قالوا : درك ، ولم يقولوا : لله درك ، وأنشد :

درّ درّ الشباب والشعر الأسـ ـــود والضامرات تحت الرجال

قوله : «نفثات» ، أى كلمات . واهاً : عجباً . والمنذر : المعلم بما يخاف . تماكر : تخادع . سطوة : بطشة . المتحكم : الذى يتحكم بما شاء فيمتثل حكمه . مسيطر : أمير مسلط . يقيل : يغفر الزلة . أوان : وقت . عاهده : حالفه . مشورته : أخذ رأيه . الارتداع : الكف . تلبيس : تخليط . صورته : قصته . فصل : زال .

الختر : الخداع . يلمع : يضيء ، يريد أنه انفصل عنه وعلى وجهه علامة الغدر ، وأنّ يمينه التى حلف له كاذبة ، وأوّل مَنْ نظم فى هذا المعنى الشمّاخ حين قال :

أتتنى تميمٌ قَضُّها بقضيضِهـــا تمسّح حَوْلى بالبقيع سبالَهـا
يقولون لى : احلف ولستُ بحالف أخادعهم عنها لكيما أنالَهَا
ففرّجت همّ النفس عنى بحلفـةٍ كما شقّت الشقراء عنى جلالهـا

ومن الملح فى اليمين الفاجرة ، قول ابن الرومىّ :

وإنى لذو حَلِفٍ كاذبٍ إذاماستمحتُ وفى المال ضِيقُ
وهلى من جناحٍ على معسر يدافـع بالله ما لا يطيقُ

وقال فيه أيضاً :

إذا حلّتْ على ضيق دُيُونِى وباكرنى التِّجار وخوّفُونِى
دفعتهمُ بمن لو شاء أدّى حقوقهم إليهم منذ حِينِ

ولدِعبل :

سألونى اليمينَ فارتعْتُ عنهَا كى يغروا بذلك الإرتياع[1]
ثم أرسلتها كمنحدَر السَّيْـــل تدلى من المـــكان اليَفاعِ

وأنشد أبو علىّ :

لا شىء يدفعُ حقّ خصمٍ شاغبٍ إلا كحلف عبيدة بن سَمَيْذَعِ
يمضى اليمين على اليمين لحاجة عَضّ الجموح على اللجام المقدِعِ
فإذا يذكر حلفة أصفَى لهـــا وإذا يذكر بالتقى لم يَسْمَع

(١) ديوان ١٠٧ .

رفع المسهم

قوله: «تصاريف»، أراد التصرّف بالجولان فى البلدان. والأسفار: الأوّل: جمع السفر فى البلاد، والثانى: جمع سِفْر، وهو الكتاب، قال الفرّاء رحمه الله: الأسفار: الكتب العظام. والتصانيف: التآليف المنوّعة، والمصنّف الذى فيه أنواع شتى.

رفع المسهم

المقامة التاسعة وهي الإسكندرانية

قال الحارثَ بنُ هَمَّام : طَحَابِي مَرَحُ الشَّبَابِ ؛ وَهَوَى الاكتِسَابِ ، إِلَى أَنْ جُبْتُ مَا بَيْنَ فرْغَانَةَ وَغَانَةَ ، أَخُوضُ الْغِمَارَ ، لِأَجْنِيَ الثِّمَارَ ، وَأَقْتَحِمَ الأَخْطَار ، لِكَيْ أُدْرِكَ الأَوطارَ ، وَكُنْتُ لَقِفْتُ مِنْ أَفْوَاهِ العُلَمَاء ، وَثَقِفْتُ مِنْ وَصَايَا الحُكَمَاء ، أَنَّهُ يَلْزَمُ الأَدِيبَ الأَرِيبَ ، إِذا دَخَلَ الْبَلَدَ الْغَرِيب ، أَن يَسْتَمِيلَ قاضِيَهُ ، وَيَسْتَخْلِصَ مَرَاضِيَهُ ، لِيشْتَدَّ ظَهْرُه عِنْدَ الخِصَامِ ، وَيأْمَنَ فى الْغُرْبَةِ جَوْرَ الحُكَّامِ ؛ فاتَّخَذْت هَذَا الأَدَب إِمَاماً ، وَجعلتُه لِصَالِحِي زِمَاماً ، فَمَا دَخَلْتُ مَدِينةً ، وَلَاوَلجتُ عَرِينَة ، إِلاّ وامْتَزَجْتُ بِحَاكِمِهَا امتزاجَ الماء بالرَّاح ، وتقوّيتُ بعنايتِهِ تقوِّيَ الأجساد بالأرواح .

* ٥ *

طحا بك قلبك ووَهْمك طحْواً وطَحْيًا : ذهب بِكَ ، وطحا الله الأرض. ودحاها: بسطها. ابن الأنبارىّ: طحا قلبه فى الهوى واللهو ، إذا تطاول وتمادى، قال. علقمة :

* طَحَا بِكَ قلبٌ فى الحِسَانِ طَرُوبُ *

مرح الشباب : نشاط الفتوة . جُبْت : قطعت ومشيت .

رفع المسهم

[ذكر فرغانة]

فرغانة : مدينة فى أقصى خراسان ،وكان فيها بيتٌ يُسمَّى هيكل الشمس ، بناه فارس الملك ، وخَرَّبه المعتصم ، وبها قُتِل قتيبة بن مسلم الباهلىّ أمير خراسان سنة ثلاث وخمسين،وبينها وبين سَمَرْقند ثلاثة وخمسون فرسخاً . قال اليعقوبى: من سَمَرْقند إلى أسروشنة خمس مراحل شرقا ، ومن أسرُوشَنَة إلى فَرْغَانة مرحلتان ، ومدينة فرغانة التى ينزلها الملك يقال لها كاسان ، وهى مدينة جليلة القَدْر ، عظيمة الأمْر ، وكلُّ هذه المدن مضافة إلى عمل سَمَرْقند . وكان أنوشـ وان بنَى فَرْغَانة ، ونقل إليها من كل بيت قوماً ، وسمَّاها أزهرخانه، أى من كل بيت .

[ذكر غانة]

وغانة : بلد من بلاد السودان ، وإليها ينتهى التجار ، والمدخل إليها من سِجِلْمَاسة و ن سِجِلْمَاسة إليها مسافة ثلاثة أشهر ، ومن غانة إلى سِجِلْمَاسة شهر ونصف ، ودون ذلك ، وسبب ذلك أن الرِّفاق تتجهّز إليها من سِجِلْمَاسة بالأمتاع والأثقال ، فتباع فى غانة بالتِّبر،فمن سافر إليها بثلاثين حِمْلاً يرجع منها بثلاثة أحمال ، أو بحملين: واحد لركوبه ، وثانٍ للماء بسبب المفازة التى فى طريقها ، حدَّثنى غيرُ واحدٍ من تجارها أنهم يقطعون المفازة فى ستة عشر يوماً ، لا يرَوْن فيها ماء إلاّ على ظهور الإبل ، فأثمان أحمال الثلاثين جملاً يجتمع فيها من التِّبْر ما يجعل فى مِزْوَد واحد ، فيطوون المراحل للخِفَّة . وغانة بلد مملكة السودان، وانتشر الإسلام فى أهلها ، وبها مدارس للعلم،وبها من تجار المغرب كثير يدخلون للتِّجارة فيصيبون الخِصْب والأمن وكثرة المتاجر ، فيشترون بها خدما للتَّسرِّى، ويقيمون بها عند أميرها فى غاية الكرامة ، والخدم فيها قد جعل الله فيهنّ من

رفع المسهم

الخصال الكريمة فى خُلُقهن وخَلْقهن فوق المراد، من ملاسة الأبدان، وتفتق السواد، وحسن العينين ، واعتدال الأنوف ، وبياض الأسنان ، وطيب الروائح .

[مما ورد من الشعر فى وصف السواد والبياض]

وكان ابن الرومى وصف واحدة منهن بقوله :

تذكّرك المسك والغوالى والنـــدّ ذواتُ النَّسيم والعَبَقِ
ليست من العُبَّس الأكف ولا الـــفُلجِ الشّفاه الخبائثِ العَرَقِ
أكسبها الحبّ أنها صُبِغَتْ صِبْغة حَبِّ القلوبِ والحدَقِ
يفـــترذاك السّواد عن يقَقٍ من ثَغْرِها كاللآلىء النَّسَقِ
كأنّها والمِزاح يضحكها ليلُ تعرّى دُجاه عن فَلَقِ
لها حِرٍ يستعيرُ وقدتَه من قلبِ صبٍّ وصدر ذى حَنَقِ
يزداد ضيقاً على المراسِ كما تزداد ضيقا أنشوطُة الوَهَقِ
غصن من الآبنوس ركّب فى مؤزّر معجِب ومنتطِقِ

وقال الشّريف الرضى :

أحبُّك يالونَ السَّوادِ فإنّنى رأيتُك فى العينين والقلب تَوْأَمَا[1]
وما كان سهمُ العين لولا سَوادُها ليبلغ حبَّاتِ القُلوب إذا رَمَى
إذا كنت تهوى الظبى ألْمَى فلاتلمْ جنونى على الظّبى الذى كلّه لَمَى

وقال ابن مسلمة :

يكونُ الخالُ فى خدٍّ قبيحٍ فيكسوه الملاحَـــةَ والجَمالاَ

(١) ديوانه ٧٥٥ .

فكيف يُلامُ مشغوفٌ على مَنْ يَرَاها كلَّها فى العَيْنِ خَالاَ!

وله أيضا :

لام العواذلُ فى سوداء فاحمةٍ كأنّها فى سواد القلب تمثالُ
وهام باغفالِ أقوامٌ وما عَلِمُوا أنِّى أهيمُ بشخصٍ كلّه خَالُ

ولابن رباح :

وسوداء الأديمِ إذا تبدَّت يرى ماء النعيم جرى عليهِ
رآها ناظرِى نصبًا إليها وشِبْهُ الشّىء مُنْجَذِبٌ إليهِ

ولابن رشيق :

دعا بِكِ الحسن فاستجيبِى يامسكُ فى صبغةٍ وطيبِ (١)
تيهِى على البيض واستطِيلِى تِيْهَ شبابٍ على مَشِيبِ
ولا يرعْك اسوادُ لونٍ كَمُقْلَةِ الشّادِنِ الرَّبِيبِ
فإنّما النُّور عن سوادٍ فى أعين النـاس والقُلُوبِ

قال ابن رشيق : أخذته من قول الآخر ، أنشده الجاحظ :

مشبهاتُ الشّبابِ والمسك تفديهـــنّ نفسى من الرَّدَى والخطوبِ
كيف يهوى الفتى اللبيب وصَالَ الـــبيض ، والبِيضُ مشبهات المشِيبِ

وأخذ بيته الآخر من قول الآخر، أنشده الجاحظ :

وإنّ سواد العين فى العين نورُها وما لبياضِ العينِ نُورٌ فَيُعْلَمُ

فأخذه أيضاً أبو الطيب ، فقال فى كافور وأحسن :

---

(١) الغيث المنسجم ٢: ١٦١ ، معاهد التنصيص ٢: ٢٣ ، ديوان الصبابة (على هامش تزيين الأسواق) ٦٨ .

فجاءت بنا إنسانَ عينِ زمانه وخلَّتْ بياضاً خَلْفَها ومآقيا[1]

ولابن الجَهْم :

وعائب للسُّمْرِ من جهلِهِ مفضّلٌ للبيض ذى مَحْك[2]

قولوا له عنّى : أما تستحى ! مَنْ يجعلِ الكافور كالمسك !

والسابق لهذا المعنى أبو حفص الشّطرنجىّ ، والناس تبَع له حيث قال :

أشبَهكِ المسكُ وأشبهتِه قائمة فى لونه قاعدَهْ

لا شكّ ـ إذ لونُكما واحدٌ أنّكما من طينةٍ واحده

على أنّ العباس[3] بن الأحنف معاصره ، قال:

أحِبّ النساء السُّود من أجل تكتمٍ

ومن أجلها أحببت ما كان أسْوَدَا

فجئنى بمثلِ المسك أطيبَ نكهةً وجئنى بمثل اللّيلِ أطيبَ مَرْقَدَا

أخذ بيته الأول من قول ابن الأعرابىّ :

أحبُّ لحبّها السّودان حتّى أحبّ لحبِّها سودَ الكلاَبِ

وقال ابن الرومىّ فى تفضيل السّواد على البياض :

وبعضُ ما فُضّل السّواد به والحقّ ذو سلَّم وذو نَفَقِ

ألا يَعيب السوادَ حُلْكتُه وقد يُعاب البياض بالبَهَقِ

وهذه الأقوال كلها على استحسانها اعتذارات واقتدارات من الشعراء على تحسين القبيح ، والأمر المجمع عليه تفضيلُ البياض .

---

(١) ديوانه ٤ : ٢٨٧

(٢) ديوانه ١٦٢ (عن الشريشى)

(٣) كذا فى ب ، وفى ط ، ا : « على بن العباس » ، تصحيف ، ولم أجد الأبيات فى ديوان عباس بن الأحنف .

قال الجاحظ : العرب تمدح بالبياض ، وتهجو بالسّواد ، وربما مدحوا بالسّواد ، ولـكن أصل مايبنون عليه أمرهم ذمّه ، وأنشد :

لهمْ ديباجةٌ عُرِفت قديمـاً بياضٌ فى الوجوه وفى الجُلودِ

وأحسن كشاجم فيما قصد إليه بقوله :

يامشبهـاً فى فعـلِه لونَه لم تعدُ ما أوجبت القِسْمَهْ[1]
خُلْقُك من خَلْقِك مستخرَجٌ والظلم مشتقٌّ من الظُّلْمَهْ[2]

قوله :«جبت مابين فرغانة وغانة» ، ماهاهنا بمعنى الذى ، كأنه قال: جبت الذى بين فرغانة التى هى أقصى المشرق ، وغانة التى هى أقصى المغرب من البلاد والقفار والبحار لـكسب المال ، فماهى التى أوجبت لِمَا بين البلدتين ما ذكر أن يعمّ بالمشى ؛ ولوسقطت لم يلزم العموم ، وكأنه يشير بهذا التعبير إلى قول حبيب :

سَلِي هل عمرت القَفْرَ وهو سَبَاسِبٌ وغادرت رَبْعِي من ركابى سَبَاسِبَا[3]
وغرّبت حتى لم أجد ذكر مشرقٍ وشرقت حتى قد نسيت المَغَارِبَا

قوله : « أخوض الغمار » ، أى أدخل المياه الغزيرة فأجوزها . أقتحم الأخطار ، أى أترامى فى المخاوف . والخطَر : الغرَر . والأوطار : الحاجات . وقال أبو عمر القسْطلّى[4] فيما يتعلق بهذا :

تخوّفنى طُوْلَ السّفار وإننى لتقبيلِ كفّ العامرىّ سَفِيرُ
دعينى أرِدْ ماء الفلاة آجناً إلى حيث ماء المكرمات نَمِيرُ

(١) ديوانه ١٧ ، وفيه : « فى لونه فعله » .
(٢) فى الديوان : « عالمك من خلقك » .
(٣) ديوانه ١٧ ، والسباسب : القفار الفسيحة .
(٤) هو أبو عمر أحمد بن محمد بن العاس بن أحمد بن سليمان بن عيسى بن دراج ، المعروف بابن دراج القسطلى ؛ فى ط : « أبو عمرو » ، خطأ ، وقد ذكر فى بعض تراجمه ؛ وقد نبه إليه الدكتور محمود مكى فى حواشيه على ديوان ابن دراج ص ٢١ ، والأبيات فى ديوانه ٢٩٨ .

ألم تعلمى أنّ الثواء هو النَّوَى وأن بيوتَ العاجزين قبورُ
وأن خطيرات المهالك ضُمّنٌ لراكبها أنّ الجزاء خطِيرُ

وقال النابغة الجعدىّ :

إذا المرء لم يطلبْ معاشاً لنفسِهِ
شكا الفقر او لام الصَّدِيقَ فأكثَرَا[1]

فسِرْ فى بلاد الله والتمسِ الغِنَى تَعِشْ ذا يسار أو تموت فتُعْذَرَا

وقال ابن سارة :

سافِرْ فإنّ الفتى من بات مفتتحاً قُفلَ النجاح بمفتاحٍ من السَّفَرِ
إن شئت خضرتها يا ابن الرّخاء فكنْ
فى طىّ عمر الفيَافِى نائِىَ الحضَرِ
ولا يصدَّنْك عن أمرٍ تصعّبُه قدينبع الكوثر السلسال من حَجَرِ
لابدّ أن يقع المطلوب فى شَرَكٍ ولو بنى وكْرَهُ فى دارةِ القَمَرِ

[باب فى الحضّ على السفر وترك العجز]

ومما ينتظم فى باب الحضّ على السفر وترك العجز قولهم : لا ينبغى للعاقل أن يكون إلا فى إحدى المنْزلتين ، إما فى الغاية من طلب الدنيا ، وإما فى الغاية من تَرْكها ، ولا ينبغى للعاقل أن يُرى إلاّ فى أحدمكانين، إما معالملوك مكرّماً ، وإما مع العباد متبتّلاً ، ولا يعدّ الغرم غرما إلا إذا ساق غُنْماً،ولا الغُنْم غنما إلاّ إذا ساق غُرْماً ؛ ونظم هذا المعرىّ فقال :

(١) ديوانه ٧٣

ذرِ الدّنيا إذا لم تَحْظَ فيها وكُنْ فيها كثيراً أو قليلاً[1]
وأصْبح واحدَ الرّجلين إمّا مليكاً فى العشائرِ أو أبِيلاً

الأبيل : الراهب .

وفى كتاب الهند : من لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب .

وفى التوراة : ابنَ آدم، خُلقتَ من الحركة إلى الحركة ، فتحرّك وأنا معك .

وفى بعض الكتب : امدد يدك إلى بابٍ من العمل ؛ أفتح لك باباً من الرزق .

وقالوا : مَنْ ضعُف عن عمله اتّكل على رزق غيره .

وقال علىّ رضي الله عنه : الحرص مقدّمة الكون .

وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم لوفد عبد القيس : ما المروءة فيكم ؟ قالوا : العفّة والحِرفة .

ورُئِىَ عكْرِمة وراء نهر بَلْخ ، فقيل له : ما جاء بك هاهنا ؟ فقال : بناتى .

وقال رجل لمعروف الكرخىّ : ياأبا محفوظ أتحرّك لطلب الرزق أم أجلس؟ قال : لا بل تحرّك ، فإنه أصلحُ لك ، فقال : أتقول هذا ؟ قال : وما أنا قلته ولكن الله عز وجل أمر به ، قال لمريم عليها السلام : ﴿ وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾[2] ولو شاء لأنزله عليها .

وأنشد الثعالبىّ :

ألم تَرَ أنّ الله أوْحَى لمريمٍ وهزّى إليك الجِذْع يسّاقطْ الرُّطَبْ

(١) سقط الزند ١٣٧١ .
(٢) سورة مريم ٢٥

ولو شاء أن تجنيَه من غير هَزِّها جنَتهُ ، ولـكن كلّ شيء له سَبَبْ

وقال موسى بن عمران عليه السلام :لاتلوموا السَّفَر ؛ فإنى أدركت فيه مالم يدركه أحد ؛ يريد أن الله كلَّمه فيه .

ونظم هذا المعنى حبيب فقال :

فإن موسى صلّى على روحه الله صـــلاةً كثيرة القُدُسِ[1]

صـــار نبيًّا وعُظْمُ بُغيَتِهِ فى جذوة للصَّلاَء والقَبَسِ[2]

قال المأمون : لاشيء ألذُّ من السفر فى كفاية ؛ لأنك تحلّ كل يوم فى مَحِلَّةٍ لم تحلّها ، وتعاشر قوماً لم تعاشرهم .

الثعالبيّ : من فضائل السفر أن صاحبه يَرَى من عجائب الأمصار ، وبدائع الأقطار ، ومحاسن الآثار ، مايزيده علماً بقدرة الله ، ويدعوه إلى شكر نعمته .

وفى الأثر الصحيح : سافروا تصحُّوا وتغنموا .

آخر : السفر يشدّ الأبدان ، وينشّط الكسلان ، ويشهّى إلى الطعام .

آخر : ليس بينك وبين بلد نَسب ، كخير البلاد ماحَملك .

قال ابن رشيق : كتبتُ إلى بعض إخوانى: مثل الرجل القاعد -أعزّك الله- كمثل الماء الراكد ، إن تُرِك تغيّر ، وان تحرّك تكدّر ، ومثل المسافر كالسحاب الماطر ، هؤلاء يَدْعونه رحمة ،وهؤلاء يَدْعونه نقمة ، فإذا اتصلت أيامه ، ثقل مقامه ، وكثر لُوّامه ، فاجمع لنفسك فرجة الغيبة ، وفرحة الأوبة ، والسلام .

وقال ابن رشيق :

غِبْ عن بلادِك وارْجُ حسن مغبَّةٍ إن كنت حقا تشتكى الإقْلاَلاَ[3]

---

(١) ديوانه ١٧٠ . والقدس : الطهارة

(٢) البغية : المطلب . الجذوة : الجمرة ،والصلاء ، التدفؤ .

(٣) نقله فى النتف ٥٩

رفع المسهم

فالبدرُ لم يُجْحِفْ به إدباره ألّا يسافر يطلب الإقبالا

وقال أبو الطيّب :

وما بلد الإنسان غير الموافِق ولا أهله الأدنَوْن غير الأصادقِ[1]

وقال البحترىّ :

وإذا ما تنكرت لى بلادٌ أو صديق فإننى بالخيارِ[2]

وقال أبو الطيّب :

إذا لم أجِدْ فى بلدةٍ ما أريده فعندى لأخرى عَزْمَةٌ ورِكَابُ

وقال إبراهيم بن العبّاس الصولّى:

لا يمنعنَّك خفضَ العيشِ فى دَعَةٍ نزوعُ نفسٍ إلى أهلٍ وأوطَانِ[3]

تلقَى بكلّ بلادٍ إن حللتَ بها أهلاً بأهلٍ وجيرانًا بجيرَانِ

أى لا يمنعنَّك الشوقُ إلى الوطن فى الغربة من الاستمتاع بلذة العيش ، فالأرض واحدة ، والناس جنس واحد . وفى غير الحماسة :

لا يمنعنَّك خفضُ العيشِ فى دعةٍ من أن تبدّل أوطاناً بأوْطَانِ

برفع «خفض» ، أى لا يمنعنك عيشك الهنىء فى بلدك أن تجول فى البلدان ، وترى الناسَ ، فتستفيد النزهة والتجربة .

وقالوا : المسافر يسمع العجائب ، ويكشف التجارب ، ويجلب المكاسب . أوحِشْ أهلك إذا كان أنسُك فى إيحاشهم ، واهجر وطنك إذا نبتْ نفسك عنه .

قيل لأعشى بكر : إلى كم ذا الاغتراب ؟ أما ترضى بالدّعة ! قال : لو دامت الشمس عليكم يومين لملتموها .

---

(١) ديوانه ٢ : ٣٢٠ .

(٢) ديوانه ٩٨٧

(٣) ديوانه ١٥١ ، ديوان المعانى ١ : ١٩٢ .

أخذه حبيب فقال :

وطولُ مُقام المرء فى الحىِّ مُخْلِقٌ ... لديباجتيْه فاغتَرِبْ تتجدَّدِ (١)
فإنّى رأيتُ الشَّمسَ زيدَتْ محبَّةً ... إلى النَّاسِ أنْ ليستْ عليهم بسَرْمَدِ

وقال الحكماء :لاتُنال الراحة إلا بالتعب ، ولا تدرَك الدّعة إلا بالنّصَب .

وقال حبيب :

على أننى لم أحوِ وَفْرا مجمَّعاً ... ففزت بِهِ إلاَّ بشملٍ مبدّدِ (٢)
ولَمْ تُعْطِنِي الأيّام يوماً مسكّناً ... ألذّ به إلا بنومٍ مُشَرّدِ

وقال ابن عبد ربه :هل يجوز فى عقل ، أو يمثُل فى وهم ، أو يصحّ فى قياس ، أن يُحْصَد زرعٌ بغير بَذْر ، أو يثمر مالٌ بغير طلبٍ ، أو تُجْنَى ثمرة بغير غَرْسٍ ، أو يُورَى زندٌ بغير قَدْح ! وقد يكون الإكداء مع الكدّ ، والخيبة مع الغيبة .

وقال الشاعر :

ومازلت أقطعُ عَرْضَ البلادِ ... من المشرقيْن إلى المغربين
وأدّرع الخوفَ تحت الدُّجَى ... وأستصحب الجَدْىَ والفرقدَيْن
وأطوِى وأنشرُ ثوبَ الهمومِ ... إلى أن رجعتُ بخُفَّىْ حُنَيْن

وقال ابن رشيق :

يُعْطَى الفتَى فينالُ فى دَعَةٍ ... مالم ينل بالكدِّ والتَّعَبِ (٣)
فاطلُبْ لنفسك فَضْلَ رَاحتِهَا ... إذْ ليست الأشياء بالطَّلَبِ
إن كان لا رزقٌ بلا سببٍ ... فرجاء ربِّك أعظمُ السَّبَبِ

وقال محمد بن يسير :

---

(١) ديوانه ١٠٠ ، ١٠١
(٢) ديوانه ١٠٠ ، وفيه : «ولكننى لم أحو » .
(٣) نقله فى التنف ١١

قد يُرزَق الخافضُ المقيمُ وما شدَّ لِعنْسٍ رَحْلاً ولا قَتَبَا (١)
ويحرَم المـــال ذو المطية والرَّ حل ومَنْ لايزال مُغْتَرِبَا

وقال آخر :

قد يُرزَق المرء لم تتعب رواحلُه ويحرَم الرِّزقَ بالأسفار والتَّعَبِ
إنّى وعمرك ما أحصى ذَوِى حمقٍ الرزق أعْدَى بهم من لاصقِ الجرَبِ

ولآخر :

ألا ربَّ باغى حاجةٍ لاينالُها وآخر قد تُقْضَى له وهو جَالِسُ

آخر :

قد يُرْزق المرء، لامن حُسنِ حيلتِه ويُصرف الرزق عن ذى الحيلة الدَّاهِى
مامسَّنى من غنًى يَوْمٍ ولا عدَمٌ إلا وقولى فيـــه : الحمـــدُ للهِ

آخر :

لوكان باللبِّ يزداد اللبيب غنًى لـكان كلّ لبيب مثل كافُورِ
لـكنّه الرّزق بالقسطاس من حِكَمٍ يُقْصَى اللبيبُ، ويعطى كلّ ماخُورِ

ومثل هذا قليل فى كثير وإنما يحكم بالأغلب ، والنُّجْح مع الطلب أكثر، والحرمان للعاجز أصحب ، وشرح حبيب هذا المعنى فقال :

همّ الفتى فى الأرض أغصانُ المنى غُرِسَتْ وليست كلّ حينٍ تُورِق

أوصى بعضُ الحـكماء ابنَه وأراد سفرا ، فقال : إنّك تدخل بلداً لاتعرفه، ولا يعرفك أهله ،فتمسَّكْ بوصيّتى تنفُق بها ؛ عليك بحسن الشمائل ؛ فإنها تدلّ على الحرّية ، ونقاء الأطراف فإنها تشهد بالملوكية ، ونظافة البِزَّة فإنها تشهد بالنشء فى النعمة ، وطيب الرائحة فإنها تظهر المروءة ، والأدب الجميل فإنه يُكسب المحبَّة ، وليـكن عقلُك دون دينِك ، وقولُك دون فعلِك ، ولباسُك دون قدرِك ، والزم

(١) الأغانى ٥ : ٢١ ، من أبيات نسبها إلى بن عبدل الأسدى

الحياء والأنفة فإنّك إن استحييت من الفظاظة اجتنبت الخساسة ، وان أَنِفْتَ من الغلَبة لم يتقدّمك نظير فى مرتبة .

قوله : «لقِفت» ، أخذت ، واللَّقَف: أخذما يرمى إليك بيدك. ثقِفت: قيدت، ويُمدح الرجل الحازم به فيقال: فلان ثقفٌ لَقِف. والأريب : العاقل، وقد أرَب أرابة وأرَبًا ، صار أريباً ، والأريب من أربت العُقْدة أرَبا ، شددْتها . يستميل: يستنزل ويدعوه أن يميل إليه . يستخلص مراضيه ، أى يحوزها لنفسه . ومراضيه: مايُرْضى القاضى ويوافقه ، وهو جمع مَرْضاة ، ويقال :صلة الرحم مَرْضاة للربّ ، أى يرضيه برّها ،يقول:العاقل إذا دخل بلدة استعطف قاضيَها لنفسه، بحسن خلقه حتى يخفّ عليه أمره . ليشتدّ : ليتقوّى . جَوْر : ظُلم ، إماماً : قُدْوة ، زماماً: حبلاأقودها به . ولجت : دخلت . عرينة : بلدة ، وأصلها بيت الأسد . الراح : اسم الخمر ، وأبهم علَى ابن الرومىّ ممّ اشتُقّ اسمها حين قال :

واللهِ ما أدرِى لأيَّةِ عِلَّةٍ يدعونها فى الرَّاح باسم الرَّاحِ
أليحها أم رُوحها تحت الحشا أم لارتياح نديمها المرتاحِ !

وانظر الامتزاج الذى ذكر فى الخامسة والأربعين .

عنايته : اعتناؤه به واهتمامه .

* * *

فبينما أنَا عِنْدَ حَاكِمِ الإسكندريَّةِ ، فى عَشِيَّةٍ عَرِيَّةٍ ، وَقَدْ أَحْضَرَ مَالَ الصَّدقَاتِ ، لِيَفُضَّهُ عَلَى ذَوِى الْفَاقَاتِ ، إِذْ حَلَّ شَخْصٌ عِفْرِيَةٌ ، تَعْتِلُهُ امرأةٌ مُصْبِيَةٌ ، فقالَتْ : أَيَّد اللهُ القاضى ، وَأَدَامَ بِهِ التَّرَاضى ، إِنِّى امرأةٌ من أكْرَمِ جُرْثومةٍ ، وأطهرِ أُرُومةٍ ،

وأشرفِ خُئولةٍ وعمومةٍ ، ميسَمِي الصَّوْن ، وَشِيمَتِي الهَوْن ، وَخُلُقِي نِعْمَ الْعَوْن ، وبيني وبين جاراتي بَوْن ، وَكَانَ أَبِي إذا خَطَبَنِي بُنَاة المجدِ ، وَأَرْبابُ الْجِدِّ ، سَكَّتَهُمْ وَبَكَّتَهُمْ ، وَعَافَ وُصْلَتَهُمْ وَصِلَتَهُمْ ، وَاحْتَجَّ بأَنَّه عَاهَدَ اللهَ بِحِلْفَةٍ ، أَلاَّ يُصَاهِرَ غَيْرَ ذِي حِرْفَةٍ .

* * *

[ذكر الإسكندرية]

مدينة عظيمة من بلاد مصر ، بناها الإسكندر ذو القرنين ، وهو الذى مشى مشارق الأرض ومغاربها . قال السدّىّ : لما سأل أهلُ الكتاب النبىَّ صلى الله عليه وسلم عن ذى القرنين ، قال : سأخبركم كما تجدونه مكتوباً عندكم : إنَّ أول أمره أنه غلام من الروم ، أُعْطِىَ مُلْكاً ، فسار حتى أتى ساحل البحر من أرض مصر ، فابتنى عندها مدينة يقال لها الإسكندرية .

وقال الهمذانىّ : ذو القرنين ينسب إليه التاريخ قبل الإسلام ، ومؤدّبه أرسطاطاليس الحكيم ، وكان مُلْكه الذى بلغ فيه أقصى المشرق والمغرب خمسة عشر عاما ، والإسكندرية لما بناها رخّمها بالرخام الأبيض جدُرها وأرضها ، فكان لباسهم فيها السواد من نصوع بياض الرخام ، وإذا كانت ليلة مقمرة يُدْخِل الخياط الخيط فى خَرْق الإبرة من بياض رخامها .

وقيل : إنها مكثت سبعين عامًا لا يدخلها أحد إلا وعلى بصره خرقة سوداء من بياض جِصّها ورُخامها ، ولم يحتج لها فى تلك المدة إلى سراج بالليل من ضيائها . وقيل : كانت ثلاث مدن يحيط بجميعها سور .

قال ابنُ جبير: ماشهدنا[1] بلداً أوسعَ مسالك ، ولا أعلى بناء ، ولا أعتق ولا أحفل من الإسكندرية ، وأسواقها فى نهاية الاحتفال ومن أعجب ماقى وصفها أن بناءها تحت الأرض كبنائها فوقها وأعتق ، لأنّ الماء إذا جاء من النيل يخترق جميع آبارها وأزقّتها تحت الأرض ، فتتصل الآبار بعضها ببعض ، ويمدّ بعضها بعضاً ، وعاينّا فيها من سوارى الرّخام وألواحه كبراً وعلوًّا واتساقاً وحسنا مالا يُتخيَّل إلا بالوهم ؛ حتى إنك تلقى بعض سواريها يغصّ بها الجوّ صعوداً لا يدرى معناها ، ولا لأىّ شىء وضعت إلا مايتحدّث به أنه كان عليها من قديم الزمان مبانٍ للفلاسفة وأهل الرّياسة ومن أعظم عجائبها المنار ، آية للمتوسّمين وهداية للمسافرين ، لولاه ما اهتدوا فى البحر إلى برّ الاسكندرية ، ويظهر على أزيد من سبعين ميلاً ، ومبناه فى فى نهاية العَتَاقة والوثاقة طولاً وعرضاً ، يزاحم الجوّ سموًّا وارتفاعا ينحصر عنه الوصف ، وينحسر دونَه الطَّرف ، الخبر عنه يضيق ، والمشاهدة له تتسع ، ذرعْنا أحَدَ جوانبه الأربع ، فألفينا فيه نَيِّفاً وخمسين باعا ، ويذكر أن فى طوله أزيد من مائة وخمسين قامة

وأما داخله فرأى هائل ، اتساعَ معارج ، ومداخِل[2] وكثرة مساكن . حتى إن الوالج فى مسالكه ربّما ضلّ . وفى أعلاه مسجد موصوف بالبركة ، يتبرّك الناس بالصلاة فيه ، طلعنا إليه ، وشهدنا من شأن مبناه عجباً لايستوفيه وصف واصف ، والله تعالى لا يخليه من عزة الإسلام .

* * *

قوله «عشية عريّة» ، أى باردة . يفضّه : يفرّقه . ذوى الفاقات : أهل الفقر والحاجات . عِفْرية : يقال رجل عِفْرية وعِفَرّ وعِفِرّىّ ، إذا كان صحيحا شديداً موثّق

(١) رحلة ابن جبير ٩ ، ١٠ بتصرف .
(٢) ط : «دواخل» ، وما أثبته من ا ، ب وابن جبير .

الخلق ، أخذ من عَفَر الأرض ، وهو التراب ، أى من عَلِق به عفره بالأرض ومنه ليث عِفِرّين ، أى ليث ليوث ، مُعَفِّر لفريسته . قال الخليل : رجل عِفْرٌ بيّن العفارة ، إذا وصف بالشيطنة ، والعِفِّير أيضاً : الظَّريف الكيّس ، ويقال للشيطان : عِفْرِيت وعِفْرِية ، وهم عَفارية . وقرئ : ﴿قال عِفْرِيَةٌ مِنَ الجِنِّ﴾[1] ، وفى الحديث : « إن الله ليُبْغِض العفريت النُّفْريت » ، قيل هو الجُموع المَنُوع .

وقال أبو عثمان النَّهدىّ : دخل رجل عظيم الجسم على النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال له : متى عهدُك بالحِجَى . قال : ما أعرفها ، قال : فبالصُّداع ؟ قال : ما أدرى ماهو ! قال : أفأصِبت بمالك ؟ قال : لا ، قال : أفرُزِئت بولدك ؟ قال : لا ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله يُبغض العفريت النَّفريت » ، وهو الذى لا يرزأ فى بدنه ولا يصاب فى ماله .

وقوله : « تعتله » ، أى تسوقه بعنف ، وكذلك تدُعّه . مُصبية : لها صبىّ . جرثومة : أصل ، وكذلك أرومة . ميسمى : علامتى . الصَّون : الصيانة والانقباض . شيمتى : طبيعتى . الهوْن : الرفق . بون : بُعْد . بناة : جمع بانٍ ، والمجد : الشرف الضخم ، وأصله من الإبل المواجد ، وهى التى امتلأت بطونُها من الرّعى وعظمت . وأمجدَها راعيها ، إذا رعاها بحيث تمجُد ، ومجدُت وهى تمجُد : رعت فامتلأت . وحكى الأصمعىّ قال : أتيت شُعبة يوما ؛ وعنده حماد بن سلمة ، وهما يتكلّمان فى حديث فقال شعبة : يا أبا سلمة ، هذا الفتى الذى ذكرت لك ، فقال حماد : يابنىّ كيف تنشد بيت الحطيئة : « أولئك قوم . . » ؟ فابتدأت القصيدة من أوّلها :

ألا طرقتْنا بعد ماهجعتْ هندُ وقد سِرْنَ خَمْساً وائلات بها الجِدّ[2]

(١) هى قراءة عيسى الثقفى ، وانظر تفسير القرطبى ١٣ : ٢٠٣ .
(٢) ديوانه ١٩ ، ٢٠

إلى أن بلغت قوله :

أولئك قومٌ إن بنوْا أحسنوا البِنَى وإن عاهدوا أوفَوْا وإن عَقَدُوا شدُّوا[1]

فقال لى حماد : يا بنىّ إن العرب تقول : بَنَى يبنِى بناء فى العمران ، ويقولون فى الشرف : نبا يَنْبُو نَبْوًا ، فأنشِد هذا البيت « أحسنوا البِنَى » ، فعرفت قَدْر حمّاد من ذلك فما كنت أنشد إلا كما لقّننى .

قوله : «أرباب الجِدّ» . أى أصحاب السعد والمال ، والعرب تقول : لفلان جَدٌّ فى الدّنيا ، أى حظ وبخت ، قال امرؤ القيس :

* وقاهمْ جَدُّهم ببنى أبيهم[1] *

وقال آخر :

عش بجَدٍّ ولا يضرُّكَ نَوْكٌ إنما عيشُ مَنْ تَرَى بالجدودِ

وجدّ الرّجل : صار له جَدّ ، وأجدّه الله : جعل له جَدًّا ، وما كنتَ ذا جَدّ ، ولقد جَدِدْتَ تجِدّ ، ورجل جديد : حظيظ من الجَدّ والحظّ .

أبو عبيد قوله : « ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَد »[2] ، أى ولا ينفع ذا الغنى منك غناه إنما تنفعه طاعته . يعقوب : أى من كان له حظ فى الدنيا لم ينفعه ذلك فى الآخرة .

بكّتهم : قطع كلامهم وأهانهم . عاف : كره . وصْلتهم : اتّصالهم به ، والوُصْلة : سبب التواصل ، وهى فى الآدميين مايصل واحداً بآخر من حُبٍّ وغيره ، والوَصْلة بالفتح : ما جعلته بين عود وعود ، أو حبل وحبل ، فوصلْتهما به . صلتهم : عطيتهم . حِلفة : يمين . يصاهر : يخاتن . حِرْفة : صنعة ومكسب ، وهى فِعْلة من الحُرف وهو الحرمان ، والمحارَف : المحروم ، كأنّ صاحبها منع الرزق ، فصار يعالج كسبه .

---

(١) ديوانه ١٣٨ و بقيته :

* و بالأشْقَيْنَ مَا كانَ العِقَابُ *

(٢) اللسان ـ جدد ، وفى رواية : الجد ، بكسر الجيم ، أى الاجتهاد والعمل .

أبو هريرة رضى الله عنه ، قال صلى الله عليه وسلم : «خير الكسب كسب يد العامل إذا نصح » .

سهل بن سعد رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عمل الأبرار من الرجال الخياطة ، ومن النساء الغزل »

* * *

فَقَيَّضَ القَدَرُ لِنَصَبِي وَوَصَبِي ، أَنْ حَضرَ هَذَا الْخِدَعَةُ نَادِيَ أَبِي ، فَأَقْسَمَ بَيْنَ رَهْطِهِ ، أَنَّهُ وَفْقُ شَرْطِهِ ، وَادَّعَى أَنَّهُ طَالَمَا نَظَمَ دُرَّةً إِلى دُرَّةٍ ، فَبَاعَهُمَا بِبَدْرَةٍ ؛ فَاغْتَرَّ أَبِي بِزُخْرُفِ مُحَالِهِ ؛ وَزَوَّجَنِيهِ قَبْلَ اخْتِبَارِ حَالِهِ ، فَلَمَّا اسْتَخْرَجَنِي مِنْ كِنَاسِي ، وَرَحَّلَنِي عَنْ أَنَاسِي ، وَنَقَلَنِي إِلى كِسْرِهِ ، وَحَصَّلَنِي تَحْتَ أَسْرِهِ ، وَجَدْتُهُ قُعْدَةً جُثَمَةً ، وَأَلْفَيْتُهُ ضُجَعَةً نُوَمَةً . وَكُنْتُ صَحِبْتُهُ بِرِيَاشٍ وَزِيٍّ ، وَأَثَاثٍ وَرِيٍّ ، فَمَا بَرِحَ يَبِيعُهُ فِي سُوقِ الهَضْمِ ، وَيُتْلِفُ ثَمَنَهُ فِي الخَضْمِ وَالقَضْمِ ، إِلى أَنْ مَزَّقَ حَالِي بِأَسْرِهِ ، وَأَنْفَقَ مَالِي فِي عُسْرِهِ .

° ° °

قوله : «قيَّض » ، أى قدّر وساق . نَصَبِ : تعبى . وَوَصبى : مرضى ، ونصِب الرجل نَصَباً .أعيامن التعب ، ووصَبَ وَصَباً :أتعبه المرض، فهو نصِب ووصِب . الخِدَعة: الكثيرالخداع لغيره ، وبسكون الدال الذى يخدعه غيره كثيراً ؛ التحريك للفاعل والسكون للمفعول فيما يأتى على « فُعَلة» من الصفات . نادى : مجلس . رهطه : قومه، وهو اسم لجماعة من ثلاثة إلى عشرة ، ويجمع

أرهُط وأراهط . وفْق شرطه : أى موافق ما اشترط . نَظْمُ دُرّة ، يريد أنه جوهرىّ ينظم سلوك اللؤلؤ . بَدْرة : عشرة آلاف درهم ، وأراد بالدّرّة هنا الكلمة ، ويعبّر بها عن الحكمة ،قال النبىّ صلى الله عليه وسلم « لاتَدَعُوا الدُّرّة فى أفواه الكلاب » ، يعنى العلم . اغترّ: انخدع ، وهو افتعل من الغرور.زخرف محاله : تزيين باطله ، وأصل زخرف ؛ زيّن الشىء بالزخرف وهو الذهب . كِناسى :بيتى وأصله للظّبى ، وهو من قوله تعالى:﴿ الجَوَارِ الكُنَّسِ ﴾[1] تشبيهاً لها بالظباء على ماذكره ابن قتيبة ؛ ويقال له : كُناس ومِكنس من الكنس ، كأنّ الظبية قد كنست مرقدها ووطّأته . رحّلنى : نقلنى وحَملنى على الرّحْل . كِسْره : بيته ، وأصله جانب بيت الشّعر أو الخِباء ، لأنّ جانب الخِباء قد انكسر عن يمينه . أسْره:حبسه . قُعَدة : كثير القعود. جُثَمَة : كثير الجُثوم ، وهو ملازمة الموضع . ضُجَعَة : كثير الاضطجاع ، وهو الامتداد على الأرض للنوم . نُوَمة : كثير النوم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ثلاثة لهم المقت من الله»، وذكر الذى يكثر النوم بالنّهار ، ولم يأخذ من الليل شيئاً، وفى حديث آخر : « خير أهل شر الزمان مُؤمن نُوَمة » . أبو عبيدة : هو الخامل الذّكر الذى لا يعرف الشرّ وأهله ، فتريد أنه عاجز قد لازَم بيتها ، فإن تصرّفتْ فيه اعتَرضها ممتدّاً،فلا تجد معه راحة. رياش:ثياب ،« فِعال»من الرّيش،لأنها تكسو البدنَ كما يكسو الرِّيش الطائر . زِىّ : هيئة حسنة من اللباس . أثاث : متاع . رِىّ : حالة حسنة،وأصله الهمز ، فسُهِّل وأُدْغم ليوافق « زيًّا» .قال ابنُ الأنبارىّ: الأثاث : المتاع.والرّؤى والرُّؤاء : المنظر، وما له رؤاء أى ماله منظر ولالسان. والحرْفان ، من رأيتُ أرى . ما برح : ما زال . الهَضْم : النّقصان .الخَضْم : الأكل بالفم كله . والقَضْم : الأكل بأطراف الأسنان . مَزّق : قطع وأفسد . حالى: غناى،ويروى«مالى» مكان«حالى» ، ومافيه بمعنى الّذى كأنه قال : فرّق

(١) سورة التكوير ١٦

الذى لى ، ورواية ابن ظفر «بالى» بالباء ، وقال: البال : الخاطر ، وما لهذا الشىء بالٌ ، إذا حَقَّرته ، والبال كالخلَد ، تقول خَطَرَ ببالى ، كما تقول : خطَر بخلَدى ونفسى ، وكأنّ هذا هو الأصل. والبال : الحال أيضاً ، ومنه قوله :

* وخالَف بالَ أهلِ الدّار بالِى *

عسره ، أى فقره .

* * *

فلمَّا أَنْسانِى طَعْمَ الرَّاحَةِ ، وَغادَرَ يَيْتِى أَنقَى مِنَ الرَّاحَةِ ، قُلْتُ له : يا هَذَا ، إنَّهُ لاَ مَخْبأَ بَعْدَ بُوسٍ ، وَلاَ عِطْرَ بَعْدَ عَرُوسٍ ، فانهَضْ لِلاكْتِسَابِ بِصِنَاعَتِكَ ، وَأَجْنِنِى ثَمَرَةَ بَرَاعَتِكَ ؛ فَزَعَمَ أَنَّ صِنَاعَتَهُ قدْ رُمِيَتْ بِالْكَسَادِ ، لِمَا ظَهَرَ فى الأَرْضِ مِنَ الفَسَادِ ، وَلِى مِنهُ سُلالَةٌ ، كَأَنَّهُ خِلالَة ، وَكِلاَنَا مَايَنَالُ مَعَهُ شِبْعَةٌ ، وَلاَ تَرْقَأُ لهُ مِنَ الطَّوَى دَمْعَةٌ ، وَقدْ قُدْتُهُ إِلَيْكَ ، وَأَحْضَرْتُهُ لَدَيْكَ ، لِتَعْجُمَ عُودَ دَعْوَاهُ ، وَتَحْكُمَ بَيْننَا بِمَا أَرَاكَ اللهُ .

فأَقبَلَ القَاضى عَلَيْهِ ، وَقَالَ له : قَدْ وَعَيْتُ قَصَصَ عِرْسِكَ ، فَبَرْهِنِ الآنَ عَنْ نفسِكَ ، وَإِلاَّ كَشَفْتُ عَنْ لَبْسِكَ ، وَأَمَرْتُ بِحَبْسِكَ ؛ فأَطْرَقَ إِطْرَاقَ الأُفْعُوَانِ ، ثُمَّ شَمَّرَ لِلْحَرْبِ الْعَوَانِ ، وقال :

* * *

الراحة : القرار والعيش الهنيء ، وأراد بأنقى من الراحة خلوّ الكف من الشعر . مخبأ : ستر . بؤس : شدّة وفقر . عِطْر : طِيب .

[أصل المثل : لا عطر بعد عروس]

ولا عِطْرَ بعد عَرُوس ، مثل يضرب لتأخير الشيء عن وقت الحاجة إليه ، وأصلُه أن رجلاً تزوّجَ امرأة فوجدها تَفِلَةً[1] ، فقال لها : أين عِطْرُكِ ؟ قالت : خبأته لغير هذا الوقت ، فقال لها : لا مخبأ لعطر بعد عروس ؛ وبهذا اللفظ روى أبو زيد الأنصاريّ المثل[2] .

البكريّ : عَرُوس رجل كانت عنده ابنة عمّ له ، فمات عنها ، فتزوّجها بعده ابن عمٍّ لها آخَر ، وهي كارهة ، وانطلق بها إلى أهلِه وقد زوّدها طِيباً في سَفَط ، فمرّ بها بقبر عروس ، فأقبلت تبكيه وترفع صوتها ، وتقول : يا عَرُوسَ الأعراس ، ويا شديد الباس ؛ مع أشياء لا يعلمها النّاس . فانتهرها زوجُها ، وقال : ما تلك الأشياء ؟ فقالت : كان عن المكارم غير نَعّاس ، يُعمِل السيف صبيحة الباس . ثم قالت : يا عروس الأعراس الأزهر ، الكريم المحضر ، مع أشياء كانت تذكر ؛ فازداد زوجُها غضباً ، وقال : ما تلك الأشياء ؟ فقالت : كان عيوفاً للخنا والمنكر ، طيب النكهة غير أبخر ، ثم أخذت السَّفَط وكسرته على قبر عَروس ، ثم قالت : لا عطر بعد عروس ، فذهب مثلاً . فقال زوجها : ارجعي إلى أهلِك ، أنت طالق ، فقالت : إذًا أنصرف مغتبطة[3] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن عروساً هذا رجل من هُذيل ، وامرأته هُذليّة اسمها أسماء .

قوله : «براعتك» ، أي جودة تدبيرك . سلالة : ولد صغير كما سُلّ من بطن

(١) تفل الشيء : تغيرت رائحته ، وامرأة تفلة ومتفال .
(٢) اللسان ـ عرس ، جمهرة الأمثال ٢ : ٣٩٥ ، الفاخر ٢١١ .
(٣) فصل المقال ٣٣٨

أمه ؛ ولهذا سُمِّى ولد الناقة عند النِّتَاج قبل أن يعلم أذكر هو أم أنثى : سليل ، ثم اتسعوا فى السُّلالة فقالوا : فلان كريم السّلالة . والخِلالة : عُود تُنقّى به الأضراس من الطعام ، شبّهت ولدها به فى رِقّته . ترقأ : تنقطع . الطَّوى : الجوع ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « كفى بالمرء إثما أن يضيّع من يقوت » . تعجُم : تختبر . دَعْواه : ما ادّعاه من الصّنعة ، وعجمت العود : عضضته بأسنانك لتعلم قوّته من ضعفه . وعيت : حَفِظت . قِصَص عرسك : حديث زوجك . بَرِهِنْ : أظْهِر حُجّتك ، والبُرهان : الحجّة . لَبْسك . تخليطك والتباس أمرك . أطرق : أمال رأسَه إلى الأرض ساكتاً . الأُفْعُوان : ذَكَر الأفاعى ، وهذا منقول من قول المتلمّس :

فأطْرَقَ إطراقَ الشّجاع ولو رأى مساغًا لنابيْه الشّجاعُ لصَمَّما[1]

ووقع لنا فى رواية « لناباه »[2] ، وهى لغة . شمّر : احتزم . العوَان : التى قُوتل فيها مرة بعد أخرى ، وهى أشدّ ، والمرأة العَوان : التى علت فى السنّ ولم تهرم . والعَوان : الثيّب ، كانت ذات زوج أو لم تكن ، وعوّنت المرأة تعويناً ، والجمع عُون .

* * *

اسْمَعْ حَدِيثِي فإنَّهُ عَجَبُ يُضْحَكُ مِنْ شَرْحِهِ وَيُنْتَحَبُ
أَنا امْرؤٌ لَيْسَ فى خَصَائصِهِ عَيْبٌ وَلا فى فَخَارِهِ رِيَبُ
سَرُوجُ دَارِى الَّتى وُلِدْتُ بِهَا وَالأَصْلُ غَسَّانُ حِينَ أَنتَسِبُ
وَشُغْلِىَ الدَّرْسُ ، وَالتَّبحُّرُ فى الـ ـعِلْمِ طِلاَبِى ، وَحَبَّذَا الطَّلَبُ
وَرَأْسُ مَالِى سِحْرُ الْكَلاَمِ الَّذِى مِنهُ يُصَاغُ القَرِيضُ وَالْخُطَبُ

(١) من الأصمعية ٩٢ ص ٢٥٦ ، الشجاع : الحية الذكر ، ومساغ ، مفعل من ساغ يسوغ ، وأصل معناه سهولة مدخل الشراب فى الحلق .
(٢) يجعلونه شاهدا على إلزام المثنى الألف فى إعرابه .

رفع المسهم

أَغُوصُ فى لُجَّةِ الْبَيَانِ فأخْـتارُ اللآلِى مِنْهَا وَأَنْتَخِبُ
وَأَجْتَنِى الْيَانِعَ الْجَنِىَّ من الـقَوْلِ ، وَغَيْرِى لِلْعُودِ يَحْتَطِبُ
وَآخُذُ اللَّفْظَ فِضَّةً فإذَا مَاصُغْتُهُ قِيلَ إنهُ ذهَبُ
وَكُنْتُ مِنْ قَبْلُ أَمْتَرِى نَشَبًا بالأدَبِ المنْتَقَى وأَحْتَلِبُ
وَيَمْتَطِى أَخْمَصِى لِجُرْمَتِهِ مَرَاتِبًا لَيْسَ فوقَهَا رُتَبُ
وَطَالَمَا زُفَّتِ الصِّلاتُ إلى رَبْعِى فَلَمْ أَرْضَ كلَّ مَنْ يَهَبُ

* * *

قوله : « يُنتحب» ، أى يُبكى ، ونحب نحيباً : أعلن بالبكاء . خصائصه : فضائله ومايختصّ به من الأفعال المحمودة . ريْب : شكوك . التبحّر : التوسّع . طِلابى : أى طلبى ، وإنما هو للعلم ، وذكر التبحّر واللآلى والغوص وغير ذلك مجازاً ؛ وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما انتعل رجل قطّ ولا تخفّف ولا لبس ثوباً ليغدُوَ فى طلب علم يتعلمه إلاّ غفر الله له حيث يخطو عتبة بيته » . رُوى عن عائشة رضى الله عنها أنّها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من انتعل ليتعلم خيراً غفر الله له قبل أن يخطو » .

ابن عباس رضى الله عنهما ، قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : «الغُدُوّ والرّواح فى تعليم العلم خيرٌ عند الله من الجهاد فى سبيله » .

ابن مسعود رضى الله عنه ، قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « مَنْ خرج بطلب بابا من العلم ليردَّ به ضلالا إلى هدى ، أو باطلا إلى حق ، كان كعبادة متعبد أربعين سنة » .

قوله : «يصاغ» ، أى يصنع . الغريض : الشعر . أغوص : أغيب فى الماء إلى قعره . واللّجة : معظم الماء ، جعله للبيان مجازاً . اللآلى : جمع لؤلؤة أنتخب :

أختار . وقال المسيب بن علَس[1] فى وصف الغائص وانتخابه الدرة وتشبيه المرأة بها :

كَجُمَانة البحرىّ جاء بِهـــا غَوّاصُها من لُجّةِ البحرِ[2]
نصف النهار المـــاء غامرُه وشريكه بالغيب ما يدرِى
فأصاب مُنْيَتَه فجـاء بهـــا صدفيّـــةً كمضيئة الجَمْرِ
يُعْطَى بهـــا ثمنا فيمنعُها ويقول صاحبه : ألا تشرِى ![3]
وترى الصّرارىّ يسجدون لها ويضمُّهـــا بيديه للنحـــر

وقال عبد الرحمن بن حسان :

وهى بيضاء مثل جوهرة الغـــوّاصِ مُيِّزْتْ من جوهرٍ مكنون.

وقال النابغة :

أو درّةٍ صدفيّةٍ غواصُها بهِـجٌ متى يرها يُهِلّ ويسجد.

قوله : « اليانع » أى الناعم . الجنِىّ : الطرىّ . أمترِى نشباً ، أى أستخرج مالاً ، ومريتُ ضرع الناقة : مسحته وحككته ليدِرّ اللبن. والنَّشب ، قيل : هو العقار ومالا ينقل ، وكأنّ مالكه قد نشب إليه حيث لا ينتقل به ، كالذى مالُه الماشية أو الذهب والفضة . المنتقَى : المختار ، ويروى « المقتنى » ، وهو المكتسب . ويقال : احتلب وحلَب حلَباً ، والحليب : اللبن ، وهو الحِلاب ، والحِلاب أيضا : الإناء يحلب فيه ، وأصله السَّيلان. وتحلَّب الضَّرْع : سال ، وانحلبتْ عينه : سال دمعها . يمتطِى : يركب . أخمصى : باطن قدمى ، وهو ماضمُر منها وارتفَع عن الأرض . لُحْمته : أى لرفعته وشرفه . مراتباً : منازلا : والمرتبة منزلة الشرف ، من الرتَب وهو

(١) ط : « على » تحريف .
(٢) الأبيات فى شعراء النصرانية ٣٥٦ ، وخزانة الأدب ١ : ٥٤٥ .
(٣) ألا تشرى ، أى ألا تبيع ، كذا ذكره ابن الأنبارى فى الأضداد ٧٤

حما أشرف من الأرض . والرُّتَب : جمع رُتبة ، وهى بمعنى المرتبة ، وأصل الرُّتَب الدَّرَج تُقطع فى الحجر ليُصعد بها إلى أعلى الجبل ، ومنه رتب كلامَه ، إذا أتبع بعضُه بعضا على نظام واعتدال . زُفَّت : حُمِلت ، من زَفَفْت العروس إلى زوجها إذا أهديتَها له . الصِّلات : العطايا . رَبْعى : منزلى . لم أرض كلّ مَنْ يَهَبُ ، أى لا أرضى أن أكون تحت مِنّة كل أحد .

* * *

فَالْيَوْمَ مَنْ يَعْلَقُ الرَّجَاءَ بِهِ أَكْسَدُ شَىءٍ فِى سوقِهِ الأَدَبُ
لاعِرْضُ أَبْنَائِهِ يُصَانُ وَلا يُرْقَبُ فيهمْ إِلٌّ وَلا نَسَبُ
كَأَنَّهُمْ فى عِراصِهِمْ جِيَفٌ يُبْعَدُ مِنْ نَتْنِهَا وَيُجْتَنَبُ
فَحَارَ لُبِّى لِمَا مُنِيتُ بِهِ مِنَ اللَّيَالى وَصَرْفُها عَجَبُ
وَضاقَ ذَرْعى لضيقِ ذاتِ يدِى وَسَاوَرَتْنِى الهُمُومُ وَالكُرَبُ
وَقادَنى دَهْرِى المَلِيمُ إلى سلُوكِ مَا يَسْتَشِينُهُ الحَسَبُ
فَبِعْتُ حَتى لم يَبْقَ لى سَبَدٌ وَلَا بَتَاتٌ إِلَيْهِ أَنْقَلِبُ
وادَّنْتُ حَتى أَثْقَلْتُ سَالِفَتى بِحَمْلِ دَيْنٍ مِنْ دونِهِ العَطَبُ
ثُمَّ طَوَيْتُ الحَشَى عَلَى سَغَبٍ خَمسًا فلمَّا أَمَضَّنى السَّغَبُ
لَمْ أَرَ إلاَّ جِهَازَهَا عَرَضًا أَجُولُ فى بَيْعِهِ وَأَضْطَرِبُ

* * *

مَنْ يعْلق : معنى من استفهام[1] . يرقُبْ : يرعى . إلّ : قرابة ، وإلّ : بقاء

(١) حاشية ط : قوله : من استفهام ، الظاهر أن من موصولة وعبارة غيره ؛ أى أن من يتعلق به الأمل ، ويرجى منه النوال لا يستعمل الأدب والمعارف ، حتى صار ذلك كالسلعة الكاسدة عنده . انتهى بالحرف . مصححه .

عهد . وسبب: معرفةوصحبه، والسبب : العلم، ومنه : ﴿وآتيْنَاهُ مِنْ كلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾[1] ؛ وأصله الحبْل ؛ ثم يُستعمل فى كل ما يَرْبط شيئاً بشيء ، من كلام أو غيره . عِرَاصهم: مواضعهم ، وأصل العَرْصة ، فناء الدار. يقال: لَبّ الرَّجل يلُبّ لَبَابَةً ، ورجل ملبُوب : موصوف باللّبابة ، ولُبّ كل شيء من الثمار ولبابه : داخله ، ولبّ كل شيء : خالصه . مُنِيت: ابتليت وقُدِّرلى . صَرْفُها : تقلّبها وتصرّفها بما يكره . ذَرْعى : كناية عن صدرى وخُلقى ،وأصل الذَّرع كيل الشيء بالذّراع ؛ ثم صار مثلا ، يقال : ضاق ذَرْعى بكذا إذا لم تحتمله وضاق تصرُّفك فيه . ذات يدى ، أى مالى. ساورتنى : واثبتنى . الكرْب : الهموم ، وكرّرها لاختلاف اللفظ . المُلِيم : الذى أتى بما يُلام عليه . سُلُوك : دخول . يستشِينه : يستعيبُه ، والشَّيْن : العيب . لَبد : شيء لا قليل ولا كثير ، وأصله الصّوف ، وأكثر ما يستعمل مُزْدَوجاً مع سَبَد ؛ يقال : ما عنده سَبَد ولا لَبَد، أى لاشعر ولا صوف ، ويراد بها نفى الإبل والغنم ، ثم صار نفيا لكلّ شيء من المال . بَتَات : زاد . أنقلب : أرجع .

ادّنت : أخذت بالدّيْن، وفى حديث عمر: «فادّان مُعْرِضًا»[2] .والسالفة : صفحة العنق ، يريد أن هذا الدّيْن لثقله ومقاساة همومه فوق العَطَب ، والعطب : الذى هو الهلاك دونه فى الشدّة . عائشة رضى الله عنها : قال النبى صلى الله عليه وسلم :«إذا أراد الله أن يذلّ عبده ابتلاه بالدّيْن وجعله فى عنقه » ، وقال أنس رضى الله عنه : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « إياكم والدّين فإنه همٌّ بالليل ومَذَلّةٌ بالنهار » ، وروى جابر رضى الله عنه ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لاهمّ إلا همّ الدّيْن ولا وجع إلا وجع العين » .

الحشى : أسقاط الجَوْف . سَغَب : جوع . أمضّنى : أحرقنى . جهازها :

(١) سورة الكهف ٨٤ .

(٢) فى حديثه عن أسيفع جهينة ، أى استدان معرضا . النهايةلابن الأثير ٢ : ١٤٩

رفع المسهم

متاعها الذى جاءتنى به ، والجِهاز ، متاع البيت ، يريد شِوَارها . عَرَضاً ، أراد « عَرْضا » فحركه ضرورة ، والعرْض الأمتعة هنا ، أخبرنى بهذا مَنْ يوثق به فى اللغة : والعَرَض خلاف النقد مشهور فى اللغة . وفى العين : العَرَض ، بفتح الراء : كثرة المال ، فيقول : لمّا لم يبقَ لى مالٌ لم أر مالاً إلا جهازها ، فيكون على هذا أتمّ معنى ، ويخرج عن الضرورة التى ألزمته ذلك التحريك . أحول : أتصرّف . أضطرب : أكثر الترداد والتصرّف .

* * *

فَجُلْتُ فيهِ وَالنَّفْسُ كَارِهَهْ ... وَالعَيْنُ عَبْرَى وَالقَلْبُ مكتَئِبُ
وَمَا تجاوَزْتُ إذْ عبَثْتُ بِهِ ... حَدَّ التَّرَاضِى فَيَحْدُثُ الغَضَبُ
فإنْ يَكُنْ غَاظَهَا تَوَهُّمُهَا ... أنَّ بَنَانِى بالنَّظْمِ تَكْتَسِبُ
أوْ أنَّنِى إذْ عَزَمْتُ خِطْبَتَهَا ... زَخْرَفْتُ قَوْلِى لِيَنْجَحَ الأَرَبُ
فو الَّذِى سَارَتِ الرِّفَاقُ إلَى ... كَعْبَتِهِ تَسْتَحِثُّهَا النُّجُبُ
ما المكرُ بالمُحصَنَاتِ مِن شِيَمِى ... وَلاَ شِعَارِى التَّمْوِيهُ وَالكَذِبُ
وَلا يدِى مُذْ نَشَأْتُ نِيطَ بِهَا ... إلاَّ مواضِى اليَرَاعِ وَالكُتُبُ
بَلْ فِكْرَتِى تَنْظِمُ القَلاَئِدَ لا ... كَفِّى ، وَشِعْرِى المَنْظُومُ لا السُّخُبُ
فهذِى الحِرفَةُ المُشَارُ إلى ... مَا كُنْتُ أَحْوِى بِهَا وأجْتَلِبُ
فأذَنْ لشَرْحِى كما أَذِنْتَ لها ... ولا تراقِبْ واحْكُمْ بِمَا يَجِبُ

* * *

عَبْرَى : باكية . مكتئب : حزين . عَبَثْتُ : لعبت وتحكّمت فيه ؛ يقول : ماتصرّفت فى بيعه الا برضا منها ومنى[1] . قوله : « توهّمها » ، أى ظنها . خطبتها :

(١) حاشية ط : « قوله : ومنى ، لاحاجة إليه » .

مراسلتها فى النكاح . لينجح الأرب : لتقضى الحاجة . تستحثّها : تستعجلها . النُّجُب : الإبل الكرام . المكر : الخداع ، المحصنات : العفائف . شِيَمى : طبائعى . شِعارى : علامتى : التمويه ، تقدّم فى الثامنة . نيطَ : علِق ، وناط الشىء نوطًا : علّقه . اليَراع : الأقلام . والمواضِى : المسرعة فى الكتابة ؛ يريد أنه فصيح لا يتوقّف قلمه . السُّخُب : جمع سخاب ، وهى قلادة قرنفل ليس فيها جوهر ولا لؤلؤ . قال ابن ظفر : السّخُب : العقود من اللؤلؤ وغيره ، ومن الطّيب أيضا . أحْوَى : أحْوَز وأجمع .

فأذنْ : اسمع . لا تراقِبْ : لاتراع منّا أحدا ولا تؤثره على صاحبه واحكم بيننا بما يجب ؛ وأخذ معنى الأبيات المتقدمة من قول ابن هَرْمة :

إنى امرؤ لاأصوغ الْحَلْىَ تعملُه كفَّاى لكن لسانى صائغُ الكلِمِ

وقال آخر :

وإنى لنظّام القلائد للمُلَا ولستُ بنظّام القلائد للنَّحْرِ

* * *

قال : فلمَّا أَحْكَمَ مَاشادَهُ ، وأكملَ إنْشادَهُ ، عَطَفَ القاضى إلى الفَتاة ، بَعدَ أَنْ شُغِفَ بالأبياتِ ، وَقالَ : أَمَا إنَّهُ قَدْ ثبتَ عِنْدَ جَمِيعِ الْحُكَّامِ ، وَوُلاَةِ الأَحْكامِ ، انْقِرَاضُ جِيلِ الكِرَامِ ، وَمَيْلُ الأَيَّامِ إلى اللِّئامِ ، وإنِّى لإخَالُ بَعْلَكِ صَدُوقًا فى الْكَلامِ ، بَرِيًّا منَ الملامِ ، وَهَاهُوَ قَدِ اعْتَرَفَ لَكِ بالْقَرْضِ ، وَصَرَّحَ عن المحْضِ ، وَبَيَّنَ مِصْداقَ النَّظْمِ ، وَتَبَيَّنَ أَنَّهُ معروقُ الْعَظْمِ ؛ وإعْنَاتُ الْمُعْذِرِ مَلْأَمَةٌ ، وَحَبْسُ الْمُعْسِرِ مَالَمَةٌ ، وَكِتْمَانُ الفَقْرِ زَهَادَةٌ ، وَانْتِظارُ الْفَرَجِ بالصَّبْرِ

عِبَادَة ، فارْجِعِى إلى خِدرِكِ ، واعْذُرِى أَبا عُذْرِكِ ، وَنَهْنِهِى مِنْ غَرْبِكِ ، وَسَلِّمِى لِقَضَاءِ رَبِّكِ . ثُمَّ إنَّهُ فَرَضَ لهُمَا فى الصَّدَقَاتِ حِصَّةً ، وَناوَلَهُمَا مِنْ دَراهِمِهِمَا قَبْضَةً ، وقال لهُما : تَمَلَّلاَ بِهَذه المُلاَلَةِ ، وَتَنَدَّيا بِهذه البُلاَلَةِ ، واصْبِرَا عَلَى كَيْدِ الزَّمان وَكَدِّه ، فعَسَى اللهُ أنْ يأتىَ بالْفَتْحِ أوْ أمْرٍ مِنْ عنده . فنهَضا وَلِلشَّيْخِ فَرْحَةُ المطْلَقِ منَ الإسارِ ، وَهِزَّةُ المُوسِرِ بعد الإعسار .

* * *

قوله : « أحكم » ، أى أتقن . شاده : بناه وزيّنه ، وشاد البناء : أطاله وعَمِله بالشِّيد ، وهو الجِصّ ، ويقال فيه : أشاد ، ويقال : شاد عمله بالشِّيد وأشاده : أطاله ، هو الأول ، وأشاد الحديث : رفعه ، وعطف : ثنى عُنُقَه وردّها ، وكل ما تثنيه من عنق أو جارحة أو عُود فقد عطفتَه . شُعِفَ : أعجب . انقراض : انقطاع وهلاك . جيل : صِنْف ، وجيلُك : أهل عصرك بَعْلك : زوجك ؛ وبَعَل الرجل بُعولة : تزوّج . والقرْض : السَّلف ، أراد به ما أعطته من ثمن جهازها سلفاً . صرّح : بيّن . وصرّح عن المحْض ، مثل يضرب لسرّ الأمر ، إذا انكشف ، وقالوا : أمرٌ صُراح ، أى منكشف ظاهر ، والصريح من اللبن : المحض الخالص الذى لا رَغْوة فيه ، قال الشاعر :

* وتحت الرَّغوة اللَّبن الصَّريحُ[1] *

ثم قالوا : لكل شىء خالص : صريح . وقوله : « بيّن مصداق النظم » ، يريد أن نظمه إنما هو للشعر لا للجوهر . ومعروق : لا لحم على عظمه ، أى هو فقير

(١) أصل المثل : « تحت الرغوة الصريح » ، وأول من قاله عامر بن الطرب . وانظر جمهرة الأمثال ١ : ٢٧٠ .

إعنات : مشقة . المعذِر : الذى يجهد نفسه فى الشّىء ثم لا يستطيعه ، يقال : قد أعذر ، أى قد بَيَّن عذرُه أنّه لا يقدر عليه ، وعذَّر فهو معذِّر ، إذا قصّر فى طلب الشىء ، قال تعالى : ﴿وَجَاء المعذِّرُون مِنَ الأعْرابِ لِيُؤْذَن لهم﴾[1] ، وقال ابن دريد :

* حكم المعذِّر غير حكم المعذِر *

الملائمة والمأثمة : اللؤم والإثم . والمعسر : الفقير : والزهادة : قلّة الرغبة ، قال أبو هريرة رضى الله عنه : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ جاع واحتاج فكتمه الناس وأنزله بالله ، كان حقًّا على الله أن يفتح عليه رزق سنة من حلال » .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما ، أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « انتظار الفرج بالصبر عبادة » .

وقال ابن عمر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما صبر أهل بيت على جهد ثلاثاً إلا أتاهم الله عزّ وجل برزق » .

خدرك : بيتك ، وأصله السِّتر يكون خَلْفه الجارية المحجوبة . أبا عُذْرك : زوجك المفتضّ لك . نهنهى : كُفِّى . غربك : حدّة لسانك . وقيل : معنى « نهنهى من غَرْبك » ، أى غيِّضى من دموعك ، والغَرْب : فيْض الدمع ، والأوّل أشبه . سلِّمى : انقادى . فَرَض ، أى أوجب . حِصّة : نصيب . ناولها : أعطاها . قبْصة : ما أخذت بأطراف أصابعك . العُلالة : الشىء القليل . تعلّلا : خُذا منه شيئاً بعد شىء ، وكذلك تندّيا ، وأصل العُلالة بقية الماء فى الإناء ، وبقيّة اللبن فى الضّرْع بعد الحلب ، قال الراجز :

* يرضعها الدِّرة والعُلاله *[2]

(١) سورة التوبة ٩٠

(٢) اللسان ـ علل ، وروايته : « ترضعى » ، وقبله :

* أَحْمِلُ أُمّى وهِىَ الحَمّالَهْ *

والبُلالة : الندى القليل يبلُّ وجهَ الأرض . كيد : مكر . كدّه : جهده
وأنشد أبو مِحْجَن الثقفيّ :

عسى فرجٌ يأتى به الله إنّه له كلّ يومٍ فى خليقته أمرُ
عسى ماترى ألاّ يدومَ وأن ترَى له فرجاً مما ألحّ به الدهْرُ
إذا اشتدّ عسرٌ فارجُ يُسْرا فإنه قَضى اللهأنّ العسر يتبعُه اليُسْرُ

الإسار : الحبل يشدّ به الأسير . هِزّة : طرب. الموسر : الغنىّ . الإعسار : الفقر ، وسئل حكيم : أىّ الأشياء أحلَى ؟ قال: النُّصرة على العدوّ بعد الهزيمة ، والاستغناء بعد الحاجة ، والغلَبة للمتكلم .

* * *

قال الرَّاوى : وكُنْتُ عَرَفْتُ أَنَّهُ أبو زيدٍ ساعَةَ بَزَغَتْ شَمْسُهُ ، وَنَزَغَتْ عِرْسُهُ ، وَكِدْتُ أُفْصِحُ عَن افتنانهِ ؛ وإثْمارِ أَفْنانهِ ؛ ثُمَّ أشْفَقْتُ منْ غُرورِ الْقَاضِي عَلَى بُهْتَانِهِ ، وَتَزْوِيقِ لِسَانهِ ، فلاَ يَرَى عِنْدَ عِرْفانهِ ، أنْ يُرَشِّحَهُ لإحْسانهِ ، فأَحْجَمْتُ عَنِ القَوْلِ إحْجامَ المُرْتابِ ،وَطَوَيْتُ ذِكْرَهُ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكِتابِ ؛ إلاَّ أنِّى قُلْتُ بَعْدَ مَافَصَلَ ، وَوَصَلَ إلى مَاوصَلَ : لَوْ أنَّ لَنَا مَنْ يَنطَلِقُ فى أثَرِهِ ، لأَتَانَا بفَصِّ خَبَرِهِ ، وَبمَا يُنْشَرُ مِنْ حِبَرِهِ ! فأَتْبَعَهُ الْقاضِي أحَدَ أُمَنَائهِ ، وَأَمَرَهُ بالتَّجَسُّسِ عن أنْبَائِهِ ، فما لَبِثَ أن رَجَعَ مُتَدَهْدِهًا ، وَبَهْرَ مُقَهْقِهًا ، فقال له القاضى : مَهْيَمْ ، يا أبا مَزْيم ، فقال : لَقَدْ عَايَنْتُ عَجَبًا ، وَسمِعتُ ما أنْشَأَ لى طَرَبًا ،

فقال له :ماذَا رَأَيْتُ ، والَّذى وَعَيْتُ !

* * *

قوله : «بزغت» ، أى طلعت . ونزغت : نشزت وقابلته بالشرّ والذِّكْر القبيح ، وأراد أنّه عرَفه حين ساقته زوجته إلى القاضى. أفْصِح : أبِين . افتنانه : تنوّعه . إثمار : إخراج الثمر ، وهو حمل كلّ شجرة . أفنانه: أغصانه . أشفقت: خافت . عثور : ظهور ، وعثر على الأمر : اطّلع عليه . بهتانه : باطله وكذبه . تزويق : تزيين ، وهو من الزَّاوُوق الذى يعرفه العامة بالزّواق ، أى أنه تزيين فى الظاهر ، وليس له ثبات . عِرْفانه : تقدّم معرفته . يرشّحه :يهيئه، وفلان يرشّح لكذا ، أى يؤهّل له ، من رشّحت الأم ولدَها باللبن ، إذا جعلته فى فيه شيئاً بعد شىء حتى يقوَى ، وقيل : الترشيح: التربية ، وقيل: هو تحنّن الأمّ على ولدها من الشدّة . أحجمت: تأخّرت . المرتاب : صاحب الريبة. طويت: سترت . السِّجلّ: الورق. والكِتاب:المكتوب فيها،وقوله تعالى : ﴿ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكِتَابِ ﴾[1] ، قيل :السِّجلّ:اسم كاتب للنبىّ صلى الله عليه وسلم ، وقيل: ملَك من السماء الثالثة يَرفَع إليه الحَفَظة أعمال العباد كلّ خميس واثنين . فَصَل : زال وانفصل بفصّ خبره : بحقيقة أمره . ينشر : يظهر . حبّره : حسّن كلامه ، وأصله ثياب يمانية مزيّنة ، ونشرها : حلّها من طيّها . التجسُّس : البحث . أنبائه : أخباره ما لبث ، أى ما أقام ، والمعنى ما أبطأ شيئاً حتى رجع. متدهدهاً : متحرِّكاً ،والتدهده : قَذْف الحجر من أعلى إلى أسفل . قهقر : رجع إلى خلف . مقهقهاً : مبالغاً فى الضحك ، والقهقهة : حكاية صوت الضاحك . مهيم : كلمة استفهام ، معناها : ما الأمر ؟ عاينت : رأيت . أنشأ : أحدث ، وتقديره : سمعت شيئاً أحدث لى ذلك الشىء

(١) سورة الأنبياء ١٠٤ .

رفع المسهم

المسموع الطرَب ، ولا يكون «أنشأ» فعلاً لأبى زيد ، إنما هو فعل لـ« ما »من قوله : «ما أنشأ» . وعيت : حفظت .

* * *

قالَ : ولم يزَلِ الشيخُ مُذْ خرَجَ يُصفِّقُ بيَدَيهِ ، ويُخالِفُ بينَ رِجْلَيْه ، وَيُغَرِّدُ بملءِ شِدْقَيْهِ ، ويَقول :

كِدْتُ أصْلَى ببَلِيَّهْ مِنْ وقَاحِ شَمَرِيَّهْ
وَأزُور السِّجْنِ لَوْلا حَاكِمُ الإسكندريَّهْ

فَضحك القاضي حَتَّى هَوَتْ دَنِينتُهُ ، وَذَوَتْ سَكِينتُه ، فلَمَّا فاء إلى الْوَقارِ ، وَعَقَّبَ الاستِغْرَابَ بالاستِغْفارِ ، قال : اللَّهُمَّ بِحُرمَةِ عِبَادِكَ المُقَرَّبينَ ، حَرِّمْ حَبْسِي عَلَى المتأدِّبينَ . ثم قال لذلك الأمين : عَلَيَّ بِهْ ، فانطَلِقْ مُجِدًّا فى طَلَبِهْ . ثُمَّ عادَ بَعْدَ لَايه ، مُخبِّرًا بنَأْيهِ ، فقال له القاضى : أمَا إنَّهُ لَوْ حضَرَ ، لَكُفِيَ الحَذَرَ ، ثُمَّ لَأَوْلَيْتُهُ مَاهُوَ بِهِ أوْلَى ، وَلَأَرَيْتُهُ أنَّ الآخِرَةَ خيرٌ لهُ من الأُولَى .

قال الحارث بن همام : فلَمَّا رَأيْتُ صفْوَ الْقاضى إليْهِ ، وَفوْتَ ثمرَةِ التنبيه عَلَيْهِ ، غَشِيَتْنِي نَدامَةُ الفرزدقِ حِينَ أبَانَ النَّوَارَ ، وَالكُسَعِيِّ لَمَّا استبان النَّهَار .

* * *

يصفّق بيديه : يضرب بكفيه . يخالف بين رجليه : يعبث بهما فى مشيه .

فيضع كلّ رِجْلٍ موضع الأخرى ، وهى من أنواع الرقص ؛ أراد أنه يضرب بكفّيه ويرقص . يغرّد : يغنّى . بملء شدقيه ، أى بصوت شديد تمتلىء به أشداقه .

وملء القدح : قدر ما يملؤه . أبو يعقوب : يقال : أعطنى ملء القدح ماء ، وأعطنى مِلأيْه ، وأعطنى ثلاثة أملائه .

أصْلَى ببليّة ، أى قربتُ أن أحترق بها وأتصلّى بها ، والبليّة : المصيبة يبتلى بها ، وَقَاح ، جمع وقاحة ، وهى صلابة الوجه ، وأصلها من الحافر الصُّلْب ، وقال بعضهم فى صلابة الوجه :

لا يعملُ المِبْرَد فى وَجهِهِ بل وجهه يعمل فى المِبْرَدِ

فجعل وجهه لصلابته يؤثّر فى الحديد . شَمَّرِيّة ، أى شديدة القِحَة ، قال الأصمعىّ : سألت أعرابيًّا ، وقد خرج من الصَّلاة : ما قرأ الإمام؟ قال : ما أدرى إلا أنه وقع بين موسى وفرعون شَمّريّة . هوت : سقطت . دِنِينَته : قلنسوته ، وهذه اللفظة إنما وقعت فى المقامات بفتح الدال وكسر النون ، ودنينته بنونين لتوافق «سكينته» ، والصحيح حذف نونها الثانية وكسر الأولى ، وهى قلنسوة محدّدة الطرف يلبسها القضاة والأكابر ، وليست من كلام العرب ، إنما هى من الألفاظ المستعملة فى العراق ، وقد استعملها شعراؤهم ، قال ابن لَنْكَك :

نفسى تقيك أبا الهندامِ يا أمَلِى إنّى بكلّ الذى ترضاه لى راضِى[1]
ما كان أيْرى فقيهاً إذ ظفرت به فكيف ألبسته دِينيّةَ القاضِى

وقال الصابى :

وفوقه دينيّةٌ تَذْهَبُ طَورًا وتَجِى

(١) يتيمة الدهر .

(١) يتيمة الدهر ٢ : ٣٢٦ ، وهناك : « تقيك أبا الهيذام كل أذى » ، وأبو الهيذام شاعرا اسمه كلاب بن حزة ؛ كان ابن لنكك مولعا بهجائه .

رفع المسهم

ذَوت : زالت وخفيت. سكينته : وقاره ، وأصل ذَوَى ، فى الشىء الذى فيه بلل وندوّة ، فيجفّ بلله، فاستعاره للسكينة. فاء: رجع. وعقّب : أتبع. الاستغراب: كثرة الضحك ، حتى تدمع العينان ؛ أراد أنه أتبع ضحكه الاستغفار ليكون كفّارة له ، وهذا الذى حُكِىَ عن القاضى يُحْكَى مثاله عن الحجاج ، يقال : إنه كان إذا استغرب ضحكاً يوالى من الاستغفار .

وقال عبد الله بن مسعود : فى كتاب الله آيتان ما أصاب عبد ذنباً فقرأهما ثم استغفر الله إلا غفر له الأولى : قوله تعالى: ﴿ والَّذِين إِذَا فَعَلوا فَاحِشَةً . . . ﴾[1] الآية ، والثانية قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ... ﴾[2] الآية .

قال أبو سعيد الخدرىّ رضى الله عنه : من قال : « أستغفر الله الّذى لا إله إلاّ هو الحىّ القيوم وأتوب إليه » خمس مرّات ، غفر له ولو فرّ من الزحف .

شدّاد بن أوس رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: « سيّد الاستغفار أن تقول: اللهمّ أنت ربى لا إله إلا أنت وأنا عبدك أصبحت على عهدك[3] ووعدك ما استطعت. أعوذ بك من شرّ ما صنعتُ ، أبوء بنعمتك علىّ ، وأبوء لك بذنبى فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » .

وأصل غفر واستغفر غَطّى . قال قطرب : اللهمّ اغفر لنا ذنوبنا ، أى غطّها ، من قول العرب : غفرت المتاع فى الوعاء أغفره غفرا ، أى غطّيته . ثعلب : غَفَر الرجل فى مرضه يغفر غفراً ، أى نكس ، فكأنّ المرض غطّى عليه . وقال الأصمعى رحمه الله : اللهم اغفر لنا ذنوبنا ، أى استرها علينا ، ومنه : اصبغ ثوبك ، فإنه أغفر للوسخ ، أى أستر ، وهذه معان متقاربة .

---

(١) آل عمران ١٣٥ (٢) النساء ١١٠ .

(٣) الجامع الصغير ١ : ٥٧ ، وفيه : « وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك » ، وفى آخر الحديث : « ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح كان من أهل الجنة » .

رفع المسهم

قوله: «عَلَيّ به»، أى جئنى به. مجدًّا : مجتهداً فى طلبه . لأْيه : إبطائه. نأْيه : بعده. الحذَر : الخوف . أوليته ، بمعنى وليته وأعطيته . أوْلَى : أحقّ ، يريد أنه لو رجع إليه كان يصله فى المرّة الثانية بما هو خير مما وصله به أوّل مرة . قوله : « صغو » ، أى ميل . فَوْت : ذهاب . التنبيه : الإعلام . غشيتنى : غطّتنى. ولحقتنى . أبان : طلق . النّوار : بنت عم الفرزدق وزوجه . استبان : تبيّن .

وقال الشاعر :

لو أنّ صدور الأمر تبرز للفتَى كأعقابه لم تُلفــه يتندَّمُ

[ذكر الفرزدق وبعض أخباره]

والفرزدق اسمه همام بن غالب بن صعصعة ، دارمىّ من أشراف تميم ، والفرزدق لقّب به لجهومة وجهه وغلظه ، والفرزدق : قطعة العجين ، وقيل : الرغيف الضخم .

وخبره مع النوّار بنت أعين المجاشعىّ ، أنه خطبها رجل من قريش أو من دارم ، فبعثتْ إلى الفرزدق أن يكون وليّها إذا كان ابن عمها ، فقال: إنّ بالشّأم مَنْ هو أقرب إليك منى ولاء ، وأنا حذر من أن يقدم منهم قادم ، فينكر ذلك علىّ ، فاشهدى أنك جعلت أمرك إلىّ . فجعلت له أمرها أن يزوّجها ممن يرى ، وأشهدت له بذلك ، فقال لها : أرسلى إلى القوم أزوّجك ممّن خطبك. فلما غصّ مسجدُ بنى مجاشع ببنى تميم جاء الفرزدق ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : قد علمتم أن النّوار ولّتنى أمرَها ، وأشهدكم أنّى قد زوّجتها من نفسى ، فنشزَت عليه ونافرته من البصرة إلى عبد الله بن الزبير بمكّة حين أعياها أمراء البصرة، أن يطلقوها منه . وأعياها الشهود أن يشهدوا لها اتقاء من شرّه ، فلم يقدر أحد على

حملها ، حتى تحمَّلَها قومٌ من بنى عدىّ ، يقال لهم بنو نُسير إلى مكة ، فصحبتْهم النّوار ، فقال الفرزدق :

وقدسخِطتْ منىٍّ النَّوارالذى ارتضى ... به قبلها الأزواجُ ،خاب رحِيلُهَا[1]
أطاعت بنى أمّ النُّسَيْرِ فأصبحتْ ... على شارفٍ ورقاءصعب ذَلُولُهَا[2]
وإن امرأً يسعى ليفسد زوجتى[2] ... كساعٍ إلى أسْدِ الشَّرى يستبيلُهَا[3]
ومن دون أبوال الأسود بسالةٌ ... وبسطة أيدٍ يمنع الضَيْمَ طُولُهَا
وإنَّ أمير المؤمنين لعـــالم ... بتأويل ما وصَّى العبادَ رسولُهَا

ثم ارتحل فى أثرها حتى وصلا مكة ، فنزلت النَّوار على بنت منظور بن زبّان زوجة عبدالله بن الزبير رضى الله عنه ، ونزل الفرزدق على ابنه حمزة ، وقال :

أصبحتُ قد نزلتْ بحمزة حاجتِى ... إن المنوَّه باسمه الموثوقُ[4]
بأبى عُمارة خيرمَنْ وَطِئَ الْحَصَى ... وجرت له فى الصالحين عروقُ
بين الحوارىِّ الأغرّ وهاشمٍ ... ثم الخليفةُ بعدُ والصِّدِّيقُ

فكان كلُّ ما أصلح حمزة بن عبد الله من شأن الفرزدق نهاراً أفسده بنت منظور ليلًا ، حتى غلبت النَّوار ،وقضى ابن الزبير عليه ، فقال :

أمَّا البنُونَ فلم تُقْبَلْ شَفاعتُهمْ ... وشُفِّعَتْ بنتُ منظور بن زبّانَا[5]
ليس الشفيع الذى يأتيك مؤتزراً ... مثل الشفيع الذى يأتيك عريانَا

فلما سمع ابن الزبير شعره ، توقَّف فى أمره ، فلقيه يوماً بباب المسجد ، فضمَّه إلى الحائط ، حتى كادت تُزهَق نفس الفرزدق . وكان الزبير فى غاية من القوّة ، ثم

---

(١) ديوانه ٦٠٤، ٥ النقائض ٦٠٤ ، طبقات الشعراء ٢٨١ (٢) الشارف: الناقة المسنة.
(٣) يستبسلها : يأخذ بولها بيده . (٤) ديوانه ٥٧٠ .
(٥) ديوانه ٨٧٣ ، النقائض ٨٠٥ ، طبقات الشعراء ٢٨٢ .

هزّه وتركه خائفاً . ثم دخل على النَّوار ، فقال لها : إمّا أن تُتِعِّى زواج ابن عمّك وإلا قتلتُه ، وأرحت المسلمين من شرّ لسانه ، فقالت له : ولا بدّ أن تقتله ؟ قال : ولا بدّ ، فعطفها عليه رَحِم القرابة ، وقالت : لا والله لا أدَعَهُ للقتل ، قد رضيته . فتزوّجها ، فحكم عليه ابن الزبير بمهر مثلها عشرة آلاف درهم ، فسأل : هل بمكة أحد يعينه ؟ فدُلّ على سلم بن زياد ، وكان ابن الزبير قد حَبَسه ، فقال :

دَعِى مُغْلِقِى الأبواب دون فعالهمْ ومُرّى بمسرّى لِى هُبلْتِ إلى سَلْمِ (١)
إلى مَنْ يرى المعروف سهلاً سبيلَه ويفعل أفعال الكرام التى تَنْمِى

ثم دخل على سَلْم ؛ وأنشده القصيدة ، فقال : هى لك ومثلها لنفقتك ، فقبض عشرين ألفاً ، فدفع مهرَها ، فدخل بها ، وأحبلها قبل أن تخرج من مكة ، ثم خرج بها ، وهما عديلان فى محمل ، وكانت أبداً تخالفه وتسبّه ، لأنها كانت صالحة الدِّين ، وكان هو ردىء الدين ، زانياً قاذفاً للمحصنات ، فكانت تكرهه .

ومن ملح أخبارها أنه راود امرأة شريفة على نفسها ، فامتنعت عليه ، فتهدَّدها بالهجاء ، فاستعانت بالنَّوار ، فقالت : واعدِيه ليلة ؛ ثم أعلمينى . ففعلت ، وجاءت النَّوار ، ودخلت الحجَلة مع المرأة ، فلما دخل الفرزدق البيت ، أمرت الجارية فأطفأت السراج ، وبادر الحجَلة والنَّوار فيها ، وهو لا يشكّ أنها صاحبة الدار ، فواقعها . فلما فرغ قالت : يا عدوّ الله ، يا فاسق ! فعرفها ، وعلم أنه قد خُدِع ، فقال لها : وأنت هى ! يا سبحان الله ! ما أطيَبك حراماً ، وأبردك حلالاً ! فلم تزل تؤذيه بلسانها حتى أبغضها .

فحدَّث أبو معقل راويته ، قال : قال لى الفرزدق يوماً : امض بنا إلى حلقة الحسن ، فإنى أريد أن أطلِّق النَّوار ، فقلت : إنى أخاف أن تتبعها نفسُك ، ويشهد

(١) ديوانه ٧٧٥

رفع المسهم

عليك الحسن وأصحابه ، قال : امض بنا ، فجئنا حتى وقفنا على الحسن فقال : كيف أصبحتَ يا أبا سعيد ؟ قال : بخير ، كيف أصبحت يا أبا فِراس ؟ قال : لتعلمنَّ أن النَّوار طالق منى ثلاثاً ، فقال الحسن وأصحابه : قد سمعنا ، قال : فانطلقنا ، فقال الفرزدق : يا هذا ، إنَّ فى قلبى من النَّوار شيئاً ، فقلت : قد حذَّرتك ، فقال :

ندمتُ ندامةَ الكُسَعىّ لمّا ... غدت منِّى مطلَّقةً نوارُ[1]
وكانتْ جَنَّتِى فخرجْتُ منها ... كآدم حين أخرجه الضِّرارُ
ولو أنى ملكت يدِى ونفسِى ... لأصبح لى على القَدَرِ اختيارُ
وكنت كفاقئٍ عينيه عمداً ... فأصبح ما يُضىء له نَهارُ

وتوفّى سنة عشر ومائة .وفيها مات جرير وابن سيرين والحسن ، فقالت امرأة بصريَّة : كيف يفلح بلد مات فقيهاه وشاعراه ، وأضافت جريراً إلى البصرة لكثرة قدومه إليها ، ومسكنه باليمامة . وأخباره تطول ، وإنما ذكرنا منها ماتعلَّق بالنَّوَار معه .

[ذكر خبر الكسعىّ وقوسه]

وأما الكُسَعىّ فرجل منسوب إلى كُسع ، قبيلة باليمن ، واسمه محارب ابن قيس، وبندامته يُضرب المثل؛ يقال: أندم من الكُسعىّ[2]، وقيل: إنه من بنى سعد بن ذبيان ، وقيل : اسمه عامر بن الحارث .

ومن حديثه أنه كان يرعَى إبلاً بوادٍ كثير العشب والخُمط؛ فبينما هو يرعاها بَصُرَ بِذَنَبةٍ على صخرة ، فقال : ينبغى أن تكون هذه قوساً ، فجعل يتعهَّدها ويقوّمها حتى أدركت، فقطعها ، فلما جفّت اتّخذ منها قوساً ، وأنشأ يقول :

(١) ديوانه ٣٦٣ .
(٢) ثمار القلوب ١٣٤ ، الميدانى ٢ : ٣٤٨

يا ربّ وَفِّقنى لنَحْتِ قوسِى فإنَّها من لذَّتى لنفسِى
وَانفع بقوسِى وَلدى وَعِرْسِى أنحتُها صَفْراء مثل الوَرْسِ
* صَلْداء ليست كَقِسِىّ النُّكْسِ *

ثم دهنها وَخطمها بوتَر ، وَاتّخذ من بُرايتها خمسة أسهم ، وَجعل يقلِّبها فى كفّه ، وَيُنشد :

هنَّ وربى أسهمٌ حِسَانُ يلذّ للرَّامِى بها البَنَانُ
كأنما قوَّمها مِيزانُ فأَبشروا بالخصبِ يا صبيانُ
* إن لم يعقنى الشُّؤمُ والحِرمَانُ *

ثم أتى قُتْرَةً[1] على موارد حُمُر ، فكمن فيها ، فمرَّ به قطيعٌ ، فرمى عَيْراً منها بسهم ، فأخطه - أى أنفذه - وجازه ، وأصاب الجبل ، فأورى نارا ، فظنَّ أنه أخطأه ، فأنشأ يقول :

أعوذ بالله العزيز الرَّحْمَنْ من نكد الجدّ معاً والحِرْمَانْ
مالى رأيت السهم بين الصَّوَّانْ يُورى شَراراً مثل لون العِقْيانْ
* فأخلَف اليوم رَجَاءَ الصِّبْيَان *

ثم مرَّ به قطيع آخر ، فرمى عيْراً فأخطه السهم ، فصنع صنيعه الأوّل ، فانشأ يقول :

لا بارك الرَّحْمٰن فى رَمْى الْقُتَرْ أعوذ بالخالق من شرّ القَدَرْ
أأخطأ السهمُ لإرهاق الضَّرَرْ أم ذاك من سوء احتيالٍ ونَظَرْ
* أم ليس يغنى حَذَرٌ عنه قَدَرْ *

---

(١) القترة : ناموس الصائد .

رفع المسهم

ثم مرّ به قطيع آخر فرمى عيْراً ، فأخطأه السهم ، فصنع صنيعه الأوّل ، فأنشأ يقـــول :

ما بال سهمى يوقد الحُبَـاحِبَا قد كنت أرجو أن يكون صَائِبَا
فأخطأ العَيْر وولّى جانبـــاَ فصار رأيى فيـه رأياً خَائِبَا

ثم مرّ به قطيع آخر ، فرمى عَيْراً بسهم فأخطأه السهم ، وصنع ما صنع أولاً ، فأنشأ يقول :

يا أسفاً للشُّؤْم والجدّ النَّـكِدْ فى قوسِ صدق لم تزيَّن بأَوَدْ
أخلف ما أرجو لأهلٍ وَوَلَدْ فيها ولم يغنِ الحِذَار وَالجَلَدْ
* فخاب ظنّ الأهلِ جمعاً والوَلَدْ *

ثم مرّ به قطيـع آخر ، فرى عَيْراً بسهم ، فأخطه السهم ، وصنع كما صنع أولًا ، فأنشأ يقول :

أبعد خمس قد حفظْتُ عَدَّهَا أحمِل قوسِى وأرِيدُ رَدَّهَـــا
أخزى الإله لينها وشَدَّهَـــا والله لا تسلم منى بعدَهَـــاَ
* ولا أرجّى ما حييت رِفْدَهَا *

ثم أخذ القوس ، فكسرها على حجر وبات ، فلمّا أصبح أبصر الأعيار الخمسة مطروحة حوله ، فأسف وندم على كسر القَوْس ، وعضّ على إبهامه فقطعها تلهفاً ، وأنشأ يقول :

ندمت ندامةً لو أنّ نفسى تطاوِعُنِى إذاً لقطعتُ خَمْسِى
تبيَّن لى سَفَـاهُ الرأى مِنِّى لَعمرُ أبيك حين كسرت قَوْسِى

المقامة العاشرة وتعرف بالرحبية

حكي الحارث بن همام قال : هتف بي داعي الشوق ، إلى رحبة مالك بن طوق ؛ فلبيته ممتطياً شملة ، ومنتضياً عزمة مشعلة . فلما ألقيت بها المراسي ، وشددت أمراسي ، وبرزت من الحمام بعد سبت راسي ، رأيت غلاماً أفرغ في قالب الجمال ، وألبس من الحسن حلة الكمال .

* * *

هتف بي ، أي دعاني ، يقال : هتف بي هتفاً وهتافاً : دعاه ، وهتفت الحمامة : مدت صوتها . والشوق : تحرك الحب ، يريد أن شوقه إلى الرحبة يهيج عليه حتى سار إليها ، وجعل له داعياً مجازاً . والرحبة : مدينة شهيرة من عمالة الفرات ، بناها مالك بن طوق ، ولها فنسبت إليه ، وإليها تنسب الثياب الرحبية ، وتعرف برحبة الشأم ، وهي على يسار الطريق هي والرقة في استقبالك الفرات جائيا من حران ، وهي في آخر ديار ربيعة ، وأول بلاد الشأم والفرات ، بين ديار ربيعة والشأم ، فإذا عبرته صرت في حد الشام .

[ذكر مالك بن طوق]

ومالك - كنيته أبو كلثوم - بن مالك بن عتاب بن سعيد بن زهير بن جشم ابن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن ثعلب . وقال حبيب يمدحه ويذكر الرحبة :

رفع المسهم

يامالِ قـد علمتْ ربيعـةُ أنَّهُ ما كان مثلُك فى الأراقِمِ أرقمُ[١]
طالت يدِى لمَّـا رأيتُك سالمـاً وأنيخ عن خَدَّىَّ ذاك العِظْلِمُ[٢]
وشممت ترب الرّحبة العبقَ الثّرى وشفى صَدَاى البحرمنها الخِضْرِمُ[٣]
كم حلَّ فى أكنافها مِنْ معدمٍ أمسى بها يأوى إليـه المعدِمُ

وقال فيه:

رأته فى النوم عتَّابٌ فقال لهـا ذوو الفراسة : هذاصفوة الـكَرَمِ[٤]
فجاء والنَّسب الوضَّاح جاء به كأنه بُهْمَةٌ فِيهِمْ من البُهَمِ[٥]
طعَّان عمرو بن كلثوم ونا ئلُه إنَّ السيورَ التىقُدّتمن الأدَمِ[٦]
لو كان يأمل عمرو مثلَه خلفاً[٧] من صُلْبِهِ لم يجد للموت من ألمِ

يقول هذا فى اتصاله بنسب عمرو بن كلثوم ، وأين هذا من قول دعبل يهجوه :

الناس كلُّهمُ يعـــدو لحاجَتِهِ ما بين ذى فرحٍ مِنْهُمْ ومهمومِ[٨]
ومالكٌ ظلَّ مشغولاً بنسبته يَرُوم منها بناء غير مهدُومِ[٩]
يبنى بيوتاً خراباً لا أنيسَ بها ما بين طَوْقٍ إلى عمرو بن كلثوم

---

(١) ديوانه ٢٧٥ ، والأراقم بنو تغلب .
(٢) الديوان : « وأنحت عن خدى » . والعظلم ، كزبرج : نبت يصبغ به .
(٣) الخضرم : الماء الـكثير .
(٤) ديوانه ٢٦٨ .
(٥) البهمة : الشجاع .
(٦) النائل : العطاء . والأدم : الجلد .
(٧) الديوان : « ولما » .
(٨) ديوانه ١٤٤ ، ديوان المعانى ١ : ١٨١ .
(٩) الديوان « خرابا غير مرموم » .

وكان ملكا شجاعاً ، جواداً ممدوحا أميراً على الجزيرة مسكن قومه بنى ثعلب .

* * *

قوله « لبّيته » ، أى أجبته . ممتطياً : راكباً . شِمِلّة : ناقة سريعة . منتضياً : مجرّدا . عزمةً مشمعلَّة ، أى عزمة سريعة لاتوانىَ فيها . المراسى : هى محابس السفينة . أمراسى : حِبالى ، يريد أنه استعدّ للإقامة وترك السفر ، وضرب لذلك المثل بإلقاء المراسى وشدّ الأمراس . برزت : خرجت وظهرت . سَبْت : حَلْق ، ومتى دخل أهل المشرق الحمام حلقوا رءوسهم . أفرِغ : وُضع ليصنع . والقالَب : الذى تطبع فيه الدراهم ، ودِرْهم مفرغ ، إذا أذيبت فضته وصُبَّتْ فى قالَبه ، فيريد أنَّ هذا الغلام لإفراط حسنه أفرغ فى قالب الجمال .

[نبذ وحكايات وأشعار مما ورد فى الحسن والجمال]

ونذكر فى هذه المقامة من أوصاف الحسن والجمال ما أمكن ، ونُضيف إلى ذلك ما قيل فى العلمان من الأشعار الحِسان ممّا يليق بهذا المكان وندعها من كلّ مقامة يقع فيها ذكر العلمان . قال ابن عبد ربه : الحسن أحمر ، وقد تضرب فيه الصّفْرة مع طول المكث فى الكِنّ والتضمّخ بالطيب كما تضرب فى بيضة الأدحىّ . وقال أعرابىّ :

وما تطيّبت من صفراء خالية كالعاج صفّرها الأكنانُ والطِّيبُ

وقال آخر :

كأنّ لون البيض فى الأُدحىِّ لونكِ لولا صفرة الجادىِّ

يريد أنها تضمّخ بالجادىّ ، وهو الزعفران ، وصفرة النعمة لا تبلغ صفرته .

وقالوا : إن الجارية الحسناء تتلون بلون الشمس ، فهى بالضّحَى بيضاء ، وبالعشى صفراء ، قال الأعشى :

رفع المسهم

بيضاء ضحوتها وصفـــراء العشية كالعرَارَه[1]

العَرار : البهار .

وقال الحريرىّ فى الدرّة :فأما[2] قولهم فى الحسن : أحمر ، فمعناه أنه لا يكتسب ما فيه من الجمال إلا بتحمّل مشقة يحمرّ[3] منها الوجه ، كما قالوا : السَّنة الحمراء للمجدبة[4] ، وكَنَوْا عن الأمر المستصعب بالموت الأحمر ، وأما قوله :

هِجانٌ عليها حُمرة فى بياضِهـا تروق لها العينان والحسنُ أحمرُ

فإنه عنَى به الحسن فى حمرة اللّون مع البياض ،دون غيره من الألوان .

وقالوا فى الجارية : جميلة من بعيد ،مليحة من قريب ، فالجميلة الّتى تأخذ بصرك جملة ، فإذا دنت منك لم تكن كذلك ، والمليحة التى كلما كرَّرتَ بصرَك فيها زادتْكَ حسناً .

وقيل : الجميلة السمينة ؛ من الجميل ، وهو الشحم[5]، والمليحة البيضاء من المُلحة[6]؛وهى البياض ، والصَّبيحة كذلك من الصبح لبياضه .

وقالوا : إن الوجه الرَّقيق البَشَرة الصافى الأدِيم إذا خجل يحمرّ ، وإذا فرق يصفرّ ، ومنه قولهم : ديباج الوجه ، يريدون تلوّنه من رقّته .

وقال عديُّ بن زيد فى تلوّن الوجه :

حُمرة خلط صفرة فى بياضٍ مثل ما حاك حائكٌ دِيباجا

---

(١) ديوانه ١٥٣ ، والعرارة : شجر لها نور أصفر .

(٢) درة الغواص ١٠٤.

(٣) الدرة : « يحمار » .

(٤) الدرة : « للسنة المجدبة حمراء » .

(٥) فى القاموس : « الجميل : الشحم الذائب » .

(٦) فى القاموس : « الملحة : بياض يخالط سواد » .

رفع المسهم

وقال ابن عبد ربه فى ذلك :

يالؤلؤًا يَسْبِي العقـــولَ أنيقَا وَرَشًا بتقطيع القُلوبِ رَفِيقَا[1]
ما إنْ رأيتُ ولا سمعتُ بمثـله دُرًّا يعود من الحياءِ عَقِيقـَا
وإذا نظرتَ إلى محاسن وجهِهِ ألفيْتَ وجهك فى سَنَاه غريقـَا
يامن تقطّع خَصْرُهُ من رِقّةٍ ما بالُ قلبك لا يـكون رَقِيقَا !

وأعاد معنى: « درًّا يعود من الحياء عَقِيقًا » ، فى بيت آخر فقال وأحسن :

كم سَوْسَنٍ لَطَفَ الحياءُ بلونه فأصاره ورداً على وجَنَاتِهِ

قالت امرأة خالد بن صفوان لخالد: لقد أصبحتَ جميلاً ، قال : وكيف ذاك وما فِي رداء الحُسْنِ ولا عموده ولا بُرْنسه ! قالت : وما ذاك ؟ قال : عموده الشَّطَاط[2] ، ورداؤه البَيَاض ، وبرنسه سَوَاد الشعر .

وقالوا: الحَلاَوة فى العينين ، والجمال فى الأنف ، والحسن فى الوجه ، والملاحة فى الفم .

وقال بعضهم : الظرف فى القدّ ، والبراعة فى الجِيد ، والرّقة فى الأطْراف والخَصْر ، والشأن كلّه فى الـكلام ، والمدار على العقل .

وقال علىّ بن عبيد الريحانىّ : الحسن تناسبُ الصورة ، وزينته اعتدال الحركة ؛ ثم مالا يحسن اللسان الترجمة عنه من خفّة الروح والقبول .

وسئل عن اختياره من الحُسن ، فقال: أمّا ما يمـكن نعته فَخَلَّتَان

---

(١) مطمح الأنفس ٥٢

(٢) الشطاط : الطول وحسن القوام.

رفع المسهم

وثلاثة بينهما ، ليست من صفة اللسان تعجبنى صورة أكثر نعتها الملاحة ، وبراعة بفصاحة ، والخلّة الثالثة نسميها مَراح الروح وشكل النَّفس وماهية الشوق ، وبمقدار تمكّن الثالثة من القلب يستحكم سلطان الهوى على العقل ، فهذه زبدة هذا الباب .

وأحسن الحسن ،ما لم يُجْلَبْ بتزيين وتضييق ، وتحلية وتزويق ، وأطيب الطيب أنفاس عَبِقةٌ من كبدسليمة ، ومزاج معتدل ، وثغر نقيٌّ ،قال امرؤ القيس:

ألم ترَ انِي كلّما جئتُ طَارِقاً وجدْتُ بها طيباً وإن لم تطيَّبِ[1]

ويحكى أن سيبويه كان يقرأ على الخليل بن أحمد منتقباً ، لئلا يشغله بحسنه عن تعليمه . ومعنى «سيبويه» بالفارسية رائحة التفاح ، وكان يقال : إنه أطيَبُ الناس رائحة ومع تحفّظ الخليل وورعه ، فكان إذا استأذن عليه سيبويه يقول : مرحباً بزائرٍ لايملّ .

وكان أبو حاتم السجستانى يختم القرآن فى كل أسبوع ، ويتصدّق كلّ يوم بدينار ، ومع هذا الفضل كان يميل بحبّه إلى أبى العباس المبرّد ، وكان أبو العباس يلزم حلقته وهو غلام وسيم ، فقال فيه :

ماذا لقيتُ اليومَ من مُتَمَجِّنٍ خَنِثِ الكلامِ[2]
وقف الجمال بوجهِهِ فسمتْ له حدقُ الأنَامِ
حركاتُه وسكونُه يُجنَى بها ثمر الاثامِ
فإذا خلوتُ بمثله وعزمت فيه على اغترامِ[3]
لم أعْدُ أفعالَ العَفَا ف ،وذاك آكدُ للغرَامِ
نفسى فداؤك يا أبا العباس ياجلّ اعتصَامِي

(١) ديوانه ٤١ .
(٢) الشعر والخبر فى ابن خلكان ١ : ٢١٨ ، والأبيات الثلاثة الأخيرة فى نزهة الألباء ١٩٠
(٣) ابن خلكان : « اعتزام » .

رفع المسهم

فارحمْ أخاك فإنه نَزْر الكَرى بادى السَّقام
وأذِلّه مادون الحرا م فليس يَرْغَبُ فى الحرَام

والوَلُوع فى الجمال سجيَّة ركبها الله فى الأولياء وأكابر العلماء ، فمن دُونهم من السُّوقة والغوغاء . وعلى قدر ذكاء الأرض يَطيب زرعها ، وعلى قدر طِيب التربة يطيب تبْعُها ، فمنها العذب والأجاج وما بينهما ، وعلى قدر شرف النفس يكون حبّها ، فمنه المستحسن ومنه المستقبح .

* وكلّ إناء بالذى فيه ينضحُ *

فى كتاب الوشاح : العشق إذا تزيّن بالعفاف فهو معنى شريف ، ويتلو قوله تعالى : ﴿الأخِلَّاءُ يَوْمَئذٍ بَعْضُهمْ لبعضٍ عَدُوٌّ إلَّا المُتَّقِين﴾[1] ؛ فمن اتقى الله فهو خليل .

وذهبت طائفة من المتكلّمين البغداديين إلى أن الله تعالى إنما امتحن الناس بالهوى ، ليأخذوا أنفسهم بطاعة من يهوَوْنه ، وليشقّ عليهم سخطه ، ويسرّهم رضاه ؛ فيستدلّوا بذلك على قدر طاعة الله تعالى . لأنه لامِثْلَ له ولا نظير ، وهو خالقهم غير محتاج إليهم ، ورازقهم مبتدئ المنن عليهم ، فإذا أوْجَبُوا على أنفسهم طاعة لسواه كان هو تعالى أولى أن يُتَّبع رضاه .

قالوا : ولا ينبغى للعاقل ولا للجاهل أن ينكِر علاقة شخص بشخص ، وحنين شكل إلى شكل ، ومؤالفة إلفٍ إلى إلفٍ ، فالقلوب صافية قابلة ، والعيون إليها ناقلة .

وقالوا : لاعاشق على الأغلب إلا موفورَ النَّعماء ، مكفىّ كدّ المعيشة ؛ لأنه من فراغ نفسه ورقّة حاشيته .

---

(١) سورة الزخرف ٦٧

رفع المسهم

وقد قيل : إن جميلاً وبُثينة لوقعدا لينتين دون غداء وعشاء لبزق كلُّ واحد منهما فى وجه صاحبه .

ومن شرط المعشوق أن يكون ممّن يؤيس ويُطمع، ويستتر ويلمع ، ويبدو ويُحجَب ، ويلين ويصعُب ، ويُرضى ويُسخط ، ويقرُب ويشحَط ، كما قال أبو الطيب :

وأحْلى الهوى ما شكَّ فى الوصل رَبُّه
فى الهجر فهو الدَّهرَ يَرْجُو ويتَّقى[1]
وبين الرّضا والسخط والقرب والنّوى
مجـــالٌ لدمـــعِ المقلةِ المترقرِقِ

والحسن أول سعادة المرء ، ورائد اليُمْنِ ، وسائق النُّجح ؛ لأن الله تعالى بلطفِ الحكمة ، وبِشرف الإبداع والصنعة ، لم يخلق الصورة مختارة الصفات ، سليمة من الآفات ، إلاّ عن فضل الاحتفاء ، ولم يطابقها من الأخلاق إلاّ بما يناسب جمالها من العقل والصفاء . وقلّما تجد الخلُق إلاّ تبعاً للخلقة ، تناسباً يطّرد، وأصلا لا ينعكس ، وإجماعاً لا ينفرد ، وما خلق الله نبيًّا قطّ إلا وقد بهر أهلَ زمانه بحسنه وإحسانه ؛ فإذا نظرتَه لأوّل وهلةٍ رأيتَه أحسنهم صورة ، وأتقنهم بِنْيةً ، فهو أولَى مرتبة ، وأعلى منقبة .

وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : «إنّ الله لا يعذِّب حِسان الوجوه ، سُود الحدَق» .

وورد عليه وفد عبد القيس ، وفيه غلام وضىء الوجه ، فأقعده وراء ظهره ، وقال : إنما أتِيَ أخى داود من النّظر .

وقد أكثر الشعراء فى وصف الحسن ؛ فمن أحسن ذلك ما قال علىّ بن بسّام ؛ وكأنه يصف الفتى الذى ذكره الحريرىّ :

---

(١) ديوانه ٢ : ٣٠٤ ، وفيه البيت الأول بعد الثانى .

رفع المسهم

يامَنْ تسرْبَل بالملاحة وارْتَدَى فعليه تعتكف العيونُ إذا بَدَا
فيرى هِلالاً زاهراً ويرى قضيباً ناضراً ويُرى كثيباً أملَدَا
فإذا نهضت ترجرجا وإذا سفرت تبلجا وإذا مشيت تأوّدَا
فترى الجبين كتاج ملك زانَهُ درّ تراه مفرّقا ومنضَّدَا
ويجولُ ذاك الرَّشح فى أقطاره كالياسَمين جرَى به قَطْرُ النَّدَى
الوجه فضىٌّ أحاط بوجنتىْ ذهبٍ ، فأنبتَ عارضين زَبَرْجَدَا
وفمٌ عقيقىٌّ تضمّن لؤلؤا رَطْباً ونظم فوق ذاك زُمرُّدَا

ولأبى إسحاق الخفاجىّ[1] :

وأعيدَ أهدى نَرْجِساً من محاجرٍ وَثَنى فأبْدَى سَوْسَناً من سوالفِ
وقد ماجَ مِنْ عِطْفَيْهِ ماء شبيبةٍ تَعبٌ ولا أمواجَ غيرُ الرَّوادِفِ
تطلَّع مثل الرمح بسطة قامةٍ وفتكةَ ألحاظٍ ولِينَ مَعاطِفِ

ولابن وكيع :

يامَنْ إذا لاحتْ محاسنُ وجهه غفرت بدائعُها جميعَ ذنوبِهِ[2]
إ كان فى تَعْذِيب قلبى راحةٌ لك فاجتهد بالله فى تعذيبِهِ

ولأبى إسحاق الخفاجىّ :

ياربّ وضّاح الجبين كأنما رسمُ العِذار بصفحتيه كتَابُ[3]
تُغْرَى بطلعته العيون ملاحةً وتبيتُ تعشَقُ عقلَه الأَلْبَابُ
خُلِعَتْ[3] عليه منَ الصَّباحِ غلالةٌ تَنْدَى ومن شفق السَّحاب نِقَابُ

---

(١) هو أبو إسحاق بن إبراهيم بن أبى الفتح بن خفاجة ، والأبيات فى ديوانه ٣٣٦ .
(٢) يتيمة الدهر ٢ : ٣٤٠ ، وبعده هناك :
النَّجْمُ يَعْلَمُ أنَّ عينِىَ فى الدُّجَى معقودة بطلوعه وغروبه
(٣) ديوانه ٣٣٧ .

رفع المسهم

ولأبى نواس :

أساء فزادته الإساءة حُظْوَةً حبيبٌ على ما كان فهو حبيبُ
يعدّ علىّ الواشيان ذنوبَهُ ومن أين للوجهِ الجميل ذنوبُ !

ولأبى إسحاق الخفاجىّ :

تعلقته نَشْوانَ من خمرِ ريقةٍ له رشفها دونى، ولى دونها السُّكْرُ[1]
ترقرق ماء مُقْلَتاىَ ووجْهُهُ ويذكَى على قلبى ووجنتِه الجَمْرُ
أرقّ نسيبى فيه رِقَّةَ حسنِهِ فلم أدر أىٌّ قبلها منهما السِّحْرُ
وطبْنا معاً ثغرا وشعرا، كأنما له منطقى ثغرٌ، ولى ثغرُه شعرُ

* * *

وَقَدِ اعْتَلَقَ شَيْخٌ بِرُدْنِهِ، يَدَّعِى أَنَّهُ فَتَكَ بِابْنِهِ، وَالْغُلاَمُ يُنْكِرُ عِرْفَتَهُ، وَيُكْبِرُ قِرْفَتَهُ، وَالْخِصَامُ بَيْنَهُمَا مُتَطَايِرُ الشَّرَارِ، وَالزِّحَامُ عليهما يجْمَعُ بَيْنَ الْأَخْيَارِ وَالْأَشْرَارِ، إلى أَنْ تَرَاضَيَا بَعْدَ اشتطاطِ اللَّدَدِ، بالتَّنَافُرِ إِلَى وَالِى الْبَلَدِ، وَكَانَ مِمَّنْ يُزَنُّ بِالْهَنَاتِ، وَيُغَلِّبُ حُبَّ البنينَ عَلَى الْبَنَاتِ، فَأَسْرَعَا إِلَى نَدْوَتِهِ، كالسُّلَيْكِ فى عَدْوَتِهِ.

* * *

قوله :« وقد اعتلق شيخ بُرْدنه »، أى تعلّق بكمه وأطراف ثوبه . فَتَكَ : قتل ، والفتك : أن تأتىَ رجلا آمنا منك وتقتله، أو تكمن له فى موضع لا يعرف بك، فإذا أتاك قتلته ، ثم سُمِّىَ من هجم على الأمور العظام فاتكاً ، فإذا أدخلت

(١) ديوانه ٣٠٣ :

رجلا منزلك أو موضعاً لا مغيث له فيه ، فقتلته فذلك الغيلة ، فإن كان رجلاً يخافك فأمنته وآنسته حتى آمنك ، ثم قتلتَه فذلك الغدر. عِرْفته: معرفته. يُكْبِر: يراه أمراً كبيراً قِرْفته : تهمته ، وقد قرفتُه بذنب ، إذا حملتَه عليه واتّهمته به، وشبّه ما يلحق كلّ واحد منهما من أذى صاحبه بشرر النار اشتطاط اللَّدَد : اشتداد الخصام . التنافر : التحاكم . يزنّ بالهنات : يتّهم بالقبائح ، والهِنات : الدواهي والهَن والهَنة من الكنايات العامّة التي يكنى بها عن كلّ شيء ولا يقتصر بها على شيء دون شيء .

[فصل في ذكر بعض أخبار الولاة]

قوله «ويغلِّبُ حبَّ البنين على البنات» نذكر هنا من الولاة المتّهمين بهذه الهنات ما يليق بالموضع . قال أهل الأخبار: إن القاضي يحيى بن أكثم[1] ، كان مشتهراً بحبّ الغلمان ، وإن أهل البصرة رفعوا أمره إلى المأمون قبل اتّصاله به ، وقالوا فيه: إنه قد أفسد أولادَهم، وظهرت منه الفواحش، وأنه القائل في صفة الغلمان:

أربعةٌ تُعشَقُ ألحاظُهمْ ... فعين من يعشقهم ساهِرَهْ
فواحد دنياه في وجْهِهِ ... منافقٌ ليست له آخِرَهْ
وآخر دنياه منقوصةٌ ... من خَلْفِه آخرةٌ وَافِرَهْ
وثالث فاز بكلتيهما ... قد جمع الدُّنيا مع الآخِرَهْ
ورابعٌ قد ضاع ما بينهمْ ... ليست له دنيا ولا آخِرَهْ

فاستعظمها المأمون وعزله عنهم .

ثم اتصل بعد ذلك يحيى بالمأمون ، ونادمه ، فخرج معه في يوم عيد ، وقد ركب الجند أمامه ، ويحيى يحادثه ويضاحكه ، فنظرت إلى غلام أمْرَد من أولاد

(١) انظر أخبار يحيى بن أكثم في ابن خلكان ٢ : ٢١٧ ـ ٢٢٤ وأخبار القضاة لوكيع ٢ : ١٦١ ـ ١٦٧ ، وتاريخ بغداد ١٤ : ٢٩١ ـ ٢٠٤ ، وثمار القلوب ١٥٦ ، ١٥٧

الجند فى غاية الفَراهة ، عليه ثوب حرير أخضر ، ودرع موشّاة مزرّرة بالذهب . فالتفت إلى يحيى ، وقال له : ما تقول فى هذه البضاعة ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّ هذا لقبيح من إمام مثلك مع فقيه مثلى ، قال : فمن الذى يقول :

قاضٍ يرى الحدّ فى الزُّناة ولا يَرى على من يلوطُ من باسِ

قال : من عليه لعنة الله وغضبه ، ابنُ أبى نعيم[1] ، الذى يقول :

أميرنا يرتشى وحاكمُنا يلوط والشرّ بيننا راسى

قاض يرى الحدّ .. البيت، وبعده :

لا أحسِب الموت ينقضى وعلى الـ أمّة والٍ لآل عبّاسِ[2]

قال : أوصحيح هذا ؟قال : نعم ، قال : يُنْمَى إلى السّند ، وإنما مازحناك، ثم قال المأمون فى الغلام :

أيُّها الراكب ثوباً ه حريرٌ وحديدُ
جئت للعيد وفى وجـ ـهك للأعين عيدُ
أنت جندىّ ولكن فيك للحسن جُنودُ

وفى يحيى يقول ابن أبى نعيم :

ياليتَ يحيى لم يلده أكتُمُهُ ولم تطأ أرضَ العراق قدمُهْ[3]
ألوَطُ قاضٍ فى البلاد نعلمُه أىّ دواةٍ لم يُلِقْهَا قلمُهْ
* وأىّ جُحْرٍ لم يلجْه أرقَمُهْ[4] *

---

(١) ديوانه ٢ : ٣٠٢ .
(٢) ديوانه ٩٨٧
(٣) المضاف والمنسوب ١٥٨ .
(٤) ذكر فى المضاف والمنسوب بعد الأبيات : « فقال يحيى : دواتك أيها الأمير » .

وهذا كقول الآخر :

* يُدْخِل الأفعى إلى خِيس الأسَدْ *

ويحيى خُراسانىّ من مَرْو . وبلغ من تحكّمه على المأمون أن فرض لأربعمائة غلامٍ مُرْد ، واختارهم حِسان الوجوه يركبون لركوبه ، فقال راشد بن إسحاق :

خليلىّ انظرا متعجِّبَيْنِ ... لأظرف منظرٍ تقْلاَه عَيْنِى
لفرضٍ ليس يُقبل فيه إلا ... أسِيلُ الخدِّ حُلْوُ المقلتيْنِ
يقودهم إلى الهيجاء قاضٍ ... شديدُ الطَّعْن بالرُّمح الرَّدَيْنِى
إذا شهدَ الوغى منهم غلامٌ ... تَجَدَّل للجبين وللْيدَيْنِ
وبات الشيخُ منحنياً عليه ... وصُدغاه تحاذِى الركبتيْنِ

وقال فيه :

وكنا نرجِّى أن نرى العدْل بيننَا ... فأعقبناه بعد الرّجاء قنوطُ
متى تَصْلح الدّنيا ويصلُح أهلُها ... إذا كان قاضِى المسلمين يلُوطُ

* * *

وكان القاضى أبو القاسم علىّ بن محمد التنوخىّ[1] مولعاً بالغلمان ، وكان له غلام اسمه نسيم ، فى نهاية من الحسن ، وكان يُؤثره على سائر غلمانه ، ويخصّه بتقريبه واستخدانه ، فكتب إليه بعض من يأنسُ به :

هل علَى مَنْ لامُه مدغمةٌ ... لاضطرار الشعر فى ميم نسيمِ

فوقّع تحت البيت : نعم ، ولم لا ![2]

وسنذكر من شعره فى هذه المقامة ما يستملح .

(١) انظر أخبار تاريخ بغداد ١٢ : ٧٧ ، وابن خلكان ١ : ٣٠٣ .
(٢) الخبر فى معجم الأدباء ١٤ : ١٦٦ .

وممن كان يميل إلى الغلمان من الأمراء أبو العشائر الحمدانى[1] الذى يقول فيه المتنبى :

فيا بحرَ البحُور ولا أورِّى ... ويامِلكَ الملوك ولا أحاشِى[2]
كأنَّك ناظرٌ فى كلّ قلبٍ ... فما يخْفى عليك محلٌّ غَاشِ

وقال بعض الرواة : دخلت على أبى العشائر أعودُه من علّة، فقلت : ما يَجد الأمير ؟ فأشار إلى غلام قائم بين يديه ، كأنّ رضوان قد غفل عنه فأبَق من الجنة ، ثم أنشأ يقول :

أسْقَمُ هذا الغلامُ جسمى ... بما بعينيه مِنْ سَقَامِ[3]
فتورُ عينيه من دَلاَلٍ ... أهدى فتوراً إلى عظامِى
وامتزجتْ روحُه بروحِى ... تمازُجَ المـــاء بالمـدام

ولأبى العشائر :

سطا علينا و مَنْ حاز الجمال سطَا ... ظبىٌ من الجنة الفردوس قد هَبَطَا
له عِذاران قد خُطّا بوجنتِـــهِ ... فاستوقفا فوق خدّيه وما انبَسَطَا
وظلّ يخطُو فكلٌّ قال من شغَفٍ : ... يا ليتَه فى سواد الناظرين خَطَا !

ومع هذا الميل ، كان نزيه النفس ، رفيع الهمة ، سليم الناحية ، وكان فى الجود غاية ، وفى الشجاعة نهاية ، وفى الشعر آية . وإذا كان المتنبى الذى هو أشعرُ الناس عند الأكثرية ، يقول حين عوتب فى آخر أيامه على فتور شعره : قد تجوَّزت فى شعرى ، وأعفيت طبعى ، واغتنمت الراحة ، مذ فارقت آل حمدان ، ومنهم الذى يقول - يعنى أبا العشائر :

(١) انظر أخبار أبى العشائر فى يتيمة الدهر ١ : ٧١ - ٧٥ .
(٢) ديوانه : ٢١١ .
(٣) يتيمة الدهر ١ : ٧٢ :

أأخا الفوارِس لو رأيتَ مواقِفِي والخيْل من تحت الأسنةَ تَنْحَطُ (١)
لقرأتَ منها ما تخطُّ يد الوغى والبيض تُشكِل والأسنة تنقُطُ

فهكذا تستعار المعانى البديعة فى الألفاظ الرفيعة ؛ فما ظنك بمنْ يُثْنى عليه المتنبى هذا الثناء !

* * *

وممَّن وصف غلاماً فأحسن ، الأمير تميم بن المعزّ صاحب مصر ، حيث يقول:

وباتَ ضجيعى منهُ أهيفُ ناعمٌ وأدعجُ وَسْنَانٌ وألْعَسُ أشنبُ (٢)
كأنَّ الدجى من لون صُدغيه طالعٌ
وشمس الضُّحى فى صحن خدِّيه تَغْرُبُ

وقال أيضاً :

يا ليلةً باتَ فيها البدرُ معتنِقى وكانت الشمس فيها بعض جُلاَّسى (٣)
وبتُّ مستغنياً بالثَّغر عن قدَحِى وبالخدود عن التُّفاح والآس

وقال أيضاً :

وَرْدُ الخدود أرقُّ من وَرْدِ الرياض وأنعَمُ (٤)
هذا تَنَشَّقُهُ الأنو فُ وذَا يقبّله الفَمُ
فإذا عدلت فأفضل الـ وردين ورد يُلثَمُ

قوله : « ندوته » ، أى مجلسه .

[ذكر السُّلَيْك بن السُّلَكة]

والسليك ، هو ابن السُّلَكة ، معروف بأمّه ، وكانت أمَةً سوداء شديدة

(١) يتيمة الدهر ١ : ٧١
(٢) ديوانه ٤٠، ٤١ . اللعس : سواد مستحسن فى الشفة . والشنب : رقة وعذوبة وبرد فى الأسنان .
(٣) ديوانه ٢٥٠ .
(٤) ديوانه ٣٨٦ .

السواد ، وكان هو أسود، وأبوه عمرو بن سنان بن الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم السعدىّ التميمىّ .

وكان يسبق الخيلَ على رجليه ، وكان من العدَّائين ومن رَجْلَى العرب - وهم الذين يسعَوْن على أقدامهم ، ويسبقون الخيل ، فيستغنون بأرجلهم عنها - وكان من أشجع الناس ، وكان لا يُغيرُ إلاَّ وحده ، وكان يقال له : الرئبال :

وسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه عمرو بن معد يكرب ،فقال: أىّ العرب كان أبغضَ لك أن تلقاه ؟ فقال : أمَّا من مَعدّ فعدىّ بن فَزارة ومُرّة بن ذبيان وكلاب بن عامر وشيبان بن بَكْر وشقّ بن عبد القيس والأراقم من تَغلب ، ثم لو جُلْت بفرسى على مياه سعد ماخفت هَيْجَ أحدٍ ؛ما لم يلقنى حُرَّاها أوعبداها، قال : أما حُرَّاها فعامر بن الطفيل وعُتيبة بن الحارث بن شهاب ، وأما عبداها فعنترة الفوارس وسُليك المقانب .

وأما عدْوته المذكورة ، فيقال : إنه أحاط به عدوّه فنزا نزوة عُدّ فيها أربعًا وعشرون خطوة ، وعُدَّ أيضاً فى نزوة للشّنفَرى إحدى وعشرون خطوة.

ويقال فى المثل : أعدى من الشّنفَرَى ، وأعدَى من السليك .

فأما الشّنفرَى فإنه أغار على بَجيلة مع تأبَّط شرًّا وعمرو بن براق . فرصدتْهم بجيلة على الماء ، فقال تأبّط شرًّا: إنّ بالماء رصَدًا ، فقالا: ليس عليه أحد ، ولا بدّ من وروده ، فورد الشّنفرَى ثم عمرو ، فقال تأبّط شرًّا : القوم إنما يريدوننى ، فلذلك لم يعرضوا لكما ، وإذا وردتُ أنا الماء فسيشدّون علىّ ، ويأسرونى ، فاذهب يا شَنْفَرى ، كأنك تهرب ، وكن فى أصل ذلك القرن ، فإذا سمعتَنى أقول: خذوا خذوا ، فتعال فأطلقنى ، وقال لعمرو : إنّى سآمرك أن تستأسِر لهم ، فلا تبعد ، ولا تمكّنهم من نفسك . ثم ورد الماء ، فشدُّوا عليه ، وكتفوه ، وفعلا

ما أمرهما ، فقال : تأبّط شرًّا : يامعشر بَجيلة ، هل لكم فى أن تيسّروا فداءنا ، ونستأسر لكم ابنَ براق ؟ قالوا : نعم . فقال ياعمرو : هل لك فى أن تستأثر ويُيَاسروا فى الفدَاء ؟ قال : حتى أروّضَ نفسى شوطًا أو شوطين ، فجرى الأوّل كالريح ، والثانى كالخيل ، ثم أرَادأن يجرِىَ ثالثًا ، فجعل يقع ويقوم فشلاً ؛ يُطمعهم بذلك ، فقال لهم تأبّط شرًّا : خذوا خذوا ، فأسرعوا إليه بأجمعهم ، وهوَى الشّنفرَى كالريح فقطع وثاقه ، ثم أحضروا ثلاثتهم ، فنجوْا ، فقال تأبّط شرًّا من قصيدة :

ليلةَ صاحوا وأغرْوا بى سِرَاعَهُمُ ... بالعيْكَتَيْنِ لدَى عَمْرو بن بَرّاق (١)

لا شىء أسرعُ منّى غير ذِى عُذَرٍ ... أوذى جناح بجنب الرِّيْدِ خَفّاقِ (٢)

فالثلاثة عدّاءون ، والمثل مقصور على الشّنفرَى .

وأما السُّليك ، فرأته طلائع جيش لبكر بن وائل ، جاءوا مجرّدين ليُغيروا على تميم ، فقالوا : إن عَلِمَ السليك بنا أنذر قومه ، فبعثوا إليه فارسين على جوادين ، فلمّا صاحاه خرج يمحص (٣) كأنه ظبى ، فطارداه يوماً أجمع ، ثم قالا : إذا كان الليل أعيا فنأخذه ، ووجدا أثر بَوْله قد خدّ (٤) فى الأرض ، فقالا : قاتله الله ! ما أشدّ متنه ! فتبعاه ليلتهما : فلما أصبحا وجداه قد عثر بأصل شجرة ، فندر (٥) منها كمكان قدمه ، وسقطت قوسُه فى جريه فانخطمت ، فوجدا قطعه منها قد ارتزّت (٦) بالأرض ، فقالا : ما بعد هذا شىء ، والله لاتبعناه بعد هذا . ومرّ السليك إلى أهله ، فأنذرهم ، فكذّبوه لبعد الغاية ، فقال :

---

(١) من قصيدة مفضلية ٢٧ ـ ٣١ ، مطلعها :

ياعيدُ مالكَ من شوقٍ وإيراقِ ... ومرّ طيفٍ على الأهوال طرّاقِ

والعيكتان : موضع ، ورواية المفضليات : «معدى ابن براق» ، ومعدى مصدر ميمى من عدا يعدو .

(٢) العذر : جمع عذرة ، وهى ماأقبل من شعر الناصية على وجه الفرس . والريد : الشمراخ الأعلى من الجبل ، يقول : لاشىء أسرع منى إلا الفرس ، وإلا الطائر الجارح الذى يأوى إلى الجبل .

(٣) يمحص : يسرع

(٤) خد فى الأرض : شقها .

(٥) ندرت : سقطت .

(٦) ارتزت : أثبتت .

رفع المسهم

يكذّ بنى العَمْران: عمرو بن جندب وعمرو بن سعدو المكذّبُ أكذبُ[1]
ثكلتكما إن لم أكنْ قد رأيتُها كراديس يَهديها إلى الحيّ موكِبُ
كراديس فيها الحوْفزان وحولَه فوارس همّامٍ متى يَدْعُ يركَبُوا

فصدّقه قوم، فنجوا، وكذّبه آخرون، فورد عليهم الجيش فاكتسحهم.

ومن شعر السليك يرثى فرسه — وكان يقال لها النحّام — وأنشدها المبرّد فى باب التشبيه من الكامل:

كأن قوائم النّحّام لمّا تحمّل صُحبتى أُصُلاً مَحارُ[2]
على قَرْماء عاليةٌ شَواهُ كأنّ بياض غُرّتِه خِمارُ[3]
وما يُدْرِيك مافقرى إليه إذامَاالقومُ وَلّوْا أوأغارُوا[4]
ويُحضِرفوق جُهْدِ الحضْرِ نَصًّا يصيدُك نافِلاً والمخُّ رارُ[5]

أى يصيدلك. ونافلا: ثانيا، وَرار: ذائب من الهزال؛ وحكاية السُّليك، عن أبى عبيدة، وحكاية الشّنفرَى عنه وعن الشيبانىّ؛ وكلتاهما على اختصار.

ونزل على جماعة من كنانة ضيفاً، فأكرموه، وجمعوا له إبلاً كثيرة، وأعطوْه إياها، وكان قد كبِر وشاخ، وذهبت قوّته، وانتقص عَدْوُه، فقالوا له: إنْ رأيتَ أن ترينا مابقى من عَدْوك! قال: نعم، ابغُوا لى أربعين شاباً،

---

(١) الأغانى ٢٠ : ٣٥٣ (طبعة بيروت)
(٢) الكامل ٣ : ٣ : ٦٩، قال فى شرح هذا البيت : المحار : الصدفة، يريد الملاسة وأنه قد ارتفعت قوائمه للموت. والأصل : جمع أصيل، والأصيل : العشى.
(٣) قال أبو العباس : قرماء، ممدودة : اسم موضع : وشواه : قوائمه.
(٤) قال أبو العباس : ولوا أو أغاروا؛ إذا طلبوا أو هربوا.
(٥) قوله « يصيدك »، أى يصيد لك، يقال : صدتك ظبيا، قال الله عز وجل : ﴿ وإذا كالُوهم أوْ وزنوهم يُخْسِرُون ﴾.

وأتونى بدِرْع ثقيلة عظيمة ، فأتوا بِهَا واختارُوا من شبانهم أربعين أقوياء عدّائين ، فلبس سُليك الدرع ، ثم قال للشبّان : الحقونى ، ثم عَدَا عَدْواً وسطاً ، وعدا الشبان وراءه جهدهم ، فلم يلحقوه حتى غاب عنهم ، ثم كرّ راجعاً حتى عاد إلى القوم وحدَه يخطِر ، والدرع عليه ، وسبق الشبّان .

وخرج فى ليلة مقمرة يطلب الإغارة ، فغلب عليه النوم آخر الليل ، فبينما هو ملتفّ بكساء ، جَثَم عليه رجلٌ مثله ، شديد البأس ، عظيم القوّة ، وأمسك على يديْه ، ومنَعه التحرّك ، وجعل يهزه ويؤذيه ، ويقول له : اسْتأسرْ ياخبيث ، فاجتهد سليك حتى خلّص إحدى يديه ، فضمّ الرجلَ إليه ضَمّة ، وعصره عصرة ، فضرَط ، فقال له : أضرِطاً وأنت الأعلى[1] ! فأرسلها مثلا ، فلما تخلّص منه ، قال له : من أنت ؟ قال : أنا رجل افتقرت فقلت : لأخرجَنّ ولا أرجع إلى أهلى حتى آتيَهم وأنا غنىّ . فقال له السُّليك : انطلق معى ، فانطلقا فوجدا ثالثاً ، قصّتُه قصّتُهما ، فاصطحبوا حتى أتوا وادياً لِمُراد ، فلما أشرفوا عليه إذا فيه نَعَمٌ ، قد ملأ نواحيه من كثرته ، فقال لهما السُّليك : كونا قريباً منّى حتى آتىَ الرِّعاء ، فأعلمُ علمَ الحىّ : أهو قريب أم بعيد ؟ فإن كان قريباً رجعت ، وإن كان بعيداً أوحيت إليكما بقولى فأغيرا . فأتى الرِّعاء فاستخبرهم عن الحىّ ، فأخبروه ببعد الحىّ ، وأنهم إن طُلبوا لم يدرَكوا ، فقال للرّعاء : ألا أغنّيكم ؟ قالوا : بلى ، فرفع صوته فغنّى :

يا صاحِبَىّ ألا لا حىّ فى الوادِى ... سوى عبيدٍ وآمٍ بين أذْوَادِ[2]

أتنظران قــريبا ريث غفلتِهِمْ ... أم تغدوان فإن الريح للعَادِى!

فلما سمعا ذلك أتياه ، وطردوا الإبل فذهبوا بها ، ولم يبلغ الصريخُ الحىّ ، حتى فاتوا بالإبل[3] .

(١) الميدانى ١ ٤٢٠ ، جمهرة الأمثال ١ : ١٣٠

(٢) الريح هنا : القوة

(٣) الشعر والشعراء ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

رفع المسهم

قال ابن الأعرابى : آم مقلوب آيم ، وهم العزّاب ، جمع أيّمة[1] .

وكان السّليك من أدلّ الناس بالأرض وأعلمهم بمسالكها ، وكان يستودع الماء بيضَ النعام فى الشتاء ، ويدفنه فى المفاوز العظيمة ، فإذا كان الصيف وانقطعت إغارة الخيل أغار على رَبيعة ، وشرب من ذلك الماء . وكان يقول : اللّهم إنى أعوذ بك من الخَيْبة ، وأما الهيبة فلا هيبة .

* * *

قوله : «عِدْوته» ، العِدوة بالكسر : الحالة ، وبالفتح المرة الواحدة ، فيريد الحريرىّ أن إسراعهما إلى الوالى كان كعدوة السليك .

* * *

فَلَمَّا حَضَرَاهُ ، جَدَّدَ الشَّيْخُ دَعْوَاهُ ، واسْتَدْعَى عَدْوَاهُ . فاسْتَنْطَقَ الْغلامَ وَقَدْ فَتَنَهُ بمَحَاسِنِ غُرَّتِهِ ، وَطَرَّ عَقْلَهُ بِتَصْفِيفِ طُرَّتِهِ ، فقالَ : إِنَّهَا أَفِيكَةُ أَفَّاكٍ ، عَلَى غَيْرِ سَفَّاكٍ ؛ وعَضِيهَةُ مُحْتالٍ ، على مَنْ لَيْسَ بِمُغْتَالٍ . فقال الوالى للشَّيْخ : إِنْ شَهِدَ لَكَ عَدْلانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِلاَّ فاسْتَوْفِ مِنْهُ اليَمِينَ . فقال الشيخُ : إِنَّهُ جَدَّلَهُ خاسِياً ، وَأَفَاحَ دَمَهُ خالِياً ، فَأَنَّى لِي شاهِد ، ولَمْ يَكُنْ ثَمَّ مُشاهِدٌ ! ولَكِنْ وَلِّنِي تلقِينَهُ الْيمين ، ليَبين لك : أيصدق أم يَمِينُ ! فقال له : أنت المالك لِذَلِكَ ؛ مَعَ وَجْدِكَ الْمُتَهالِك ، على ابنِك الهالك !

* * *

واستدعى عدواه ، أى طلب إغاثته وأعداه الحاكم : أغاثه . استنطق : أمره أن ينطق ، وقد بيّن سرّ هذا الاستنطاق فى الرابعة والثلاثين عند شراء الغلام

(١) نقله فى اللسان ١٨ : ٤٧ .

رفع المسهم

قال : « ثم استنطقته عن اسمه ، لا لرغبة فى علمه ، بل لأنظر أين فصاحته من صباحته ، وكيف لهجته من بهجته[1] » . وكذلك لم يُرِد الوالى أن يستنطقَه ليقول حجته ؛ بل ليعلم حلاوته من صورته التى فتنته . وقد ذكرنا أنّ فائدة الحسن إنما تدور على اللسان .

[إبراهيم النظام وبعض أخباره وشعره]

وهذا الاستنطاق هو الذى ذهب بإبراهيم بن سيار النظّام ، الّذى هو إمام فى علم الكلام إلى علاقة غلام ؛ وذلك أنه لَقِىَ غلاماً جميلَ الوجه ، مقبول الصورة ، فاستحسنه ، وتصوّر فيه الصورة الباطنة المناسبة لخِلْقته الظاهرة ، فقال له : يا غلام ، إنه لولا ما سبق من قول الحكماء ، لما جعلوا السبيل لمثلى إلى مثلك بقولهم : لا ينبغى لأحد أن يصغُر عن أن يقول ، ولا أن يكبُر عن أن يقال له ، لَمَا أنستُ إلى مخاطبتك ، ولا انشرح صدرى إلى محادثتك ، لكنّه سبب الإخاء وعَقْد المودّة ، ومحلُّك من قلبى محلّ الروح من جسد الجبان ، فقال له الغلام ـ وهو لا يعرفه : لئن قلتَ ذلك أيُّها الرجل ، لقد قال أستاذُنا إبراهيم بن سيار النظام : الطباع تجاذِب ما شاكلها بالمجانسة ، وتميل إلى ما قارنها بالموافقة ، وكيانى مائل إلى كيانك بكلّيّتى ؛ ولو كان الذى انطوى عليه لك عَرَضاً لم أعتدّ به ودًّا ، ولكنه جوهر جسمى ، فبقاؤه ببقاء النفس ، وعدمه بعدمها ، وأقول كما قال الهذلىّ :

فتبيّنى أنى بكم كلِفٌ ثم اصنعى ما شئت عن عِلْمِ[2]

فقال له النظام : إنما كلّمتك بما سمعت ، وأنت عندى حَسن الصورة غلام ، ولولا أنّ محلّك محلُّ مقيم ما تعرّضت لك ، ثم اعتلقه النظام بعد ، وقال فيه جريا على علمه :

---

(١) متن المقامات ص ٣٧٣ (طبع الحسينية) .

(٢) ديوان الهذليين ٩٧٣ ، ونسبه إلى أبى صخر (طبعة مدنى) .

رفع المسهم

توهّمه طرفى فآلم خـــدّه فصار مكان الوهم من نظرى أثرُ[1]
وصافحـــه كفّى فآلم كفّه فمِنْ لمس كفّى فى أنامـــله عَقرُ
ومرّ بفكرى خاطراً فجرحتُه ولم أر خَلْقا قطّ يَجْرحه الفِكرُ[2]

وقال فيه أيضا :

وإذ تأمّل فى الزّجاجة ظلّه جرحته لحظة مقلة الظّلّ

وقال فيه أيضا :

أفرغ من نور سمـــاويٍّ مصوّرٍ فى جسم إنسىّ
وافتقر الحسن إلى حسنه فجلّ عن تحديد كيفىّ

وقال فيه :

يا مشرقا ملأَ العيـــو ن فلحظها ما يستقلّ[3]
أوفى على شمس الضُّحى حتى كأنّ الشمس ظلّ
أتريد قتلِى عامِـــداً ولَقَتْلُ مثلِى ما يحلُّ !

فصرّف فى شعره من صناعته ، وأبدع فى تخيله ببراعته .

* * *

قوله: «غرّته» ، أى وجهه . طَرّ ،أى قطع وأذهب . تصفيف طُرّته: شعره المعتدل على جبهته . أفيكة أفّاك : كِذبة كذّاب . سفاك: قتّال . عضيهة: بهتان وباطل . مغتال : قاتل الغيلة . استوف : استكمل . جدّله : صرَعه وألقاه على

(١) أمالى المرتضى ١ : ١٨٨
(٢) بعده فى أمالى المرتضى:

يمرّ فمن لينٍ وحُسْنِ تعطّفٍ يقال به سكرٌ وليس به سُكْرُ

(٣) ديوان المعانى ١ : ٢٣١

رفع المسهم

الجَدَالة . وهى الأرض : خاسياً : متباعداً ممنوع الكلام ، كأنه قهره ومنعه أن يصيح عند قتله ، ولذلك لم يجد عليه شاهداً ، وأصله الهمزة فسهّله ليوافق «خاليا» إن أخذتَه من خسأت الكلب ، وإن أخذته من خَسِيَ البصرُ إذا كلّ ، فلا تسهيل فيه ، ومعناه قريب من الأوّل ، أى أنه أضعفه بالضرب حتى لم يستطع الكلام ثم قتله . أفاح دمه ، بحاء مهملة : أراقه . قال أبو زيد فى نوادره : أفحت دمه ففاح فَيْحا وفيحانا ، وأنشد :

نحن قتلنا الملك الجَحْجَاحَا ولم نَدَعْ لسارحٍ مُراحَا

* إلاّ دياراً أو دما مُفَاحَا *

وقال أبو حاتم : أراد : ودما مفاحا أى مُهراقا . خاليا : بمعنى «منفردا» . أنّى ، بمعنى كيف . مُشاهد : من شاهد حاله وحضر عليها . وَلِّنى : مَكِّنّى . تلقينه : تفهيمَه وإلقاءه عليه . يمين : يكذب . وجْدك : حزنك . المتهالك : الكثير التفاوت ، وتهالكت المرأة عليه : تراخت عليه ، وتكاسلت ، قال الأعشى[1] :

تهالك حتى ينكر المرء عقلَه وتُسْبى الحكيم ذا الحجى بالتَّقَتّلِ[2]

* * *

فَقَالَ الشَّيْخُ لِلْغُلَامِ : قُلْ : وَالَّذِى زَيَّنَ الْجِبَاهَ بِالطُّرَرِ ، وَالْعُيُونَ بِالْحُوَرِ ، وَالْحَوَاجِبَ بِالْبَلَجِ ، وَالْمَبَاسِمَ بِالْفَلَجِ ، وَالْجُفُونَ بِالسَّقَمِ ، وَالأُنُوفَ بِالشَّمَمِ ، وَالْخُدُودَ بِاللَّهَبِ ، وَالثُّغُورَ بِالشَّنَبِ ، وَالْبَنَانَ بِالتَّرَفِ ، وَالْخُصُورَ بِالْهَيَفِ ، إِنِّي مَا قَتَلْتُ ابْنَكَ

(١) اللسان ـ فيح ، ونسبه إلى أبى حرب بن عقيل .
(٢) ديوان الأعشى ٣٥٣
(٣) الديوان : « حتى ينكر المرء عقله » . وتهالكت المرأة فى مشيها : تمايلت .

رفع المسهم

سَهْواً وَلاَ عَمْداً، وَلاَ جَعَلْتُ هَامَتَهُ لِسَيْفِي غِمْداً ، وإلاَّ فرَمَى اللهُ جَفْنِي بالعَمَشِ ، وَخدِّي بالنَّمَشِ ، وَطُرَّتِي بالْجُلَحِ ، وَطَلْعِي بالْبَلَحِ ، وَوَرْدَتِي بالْبَهَارِ ، ومِسْكَتِي بالْبُخَارِ ، وَيَدْرِي بالمحاقِ ، وفِضَّتِي بالاحْتِرَاقِ ، وشُعَاعِي بالإظلامِ ، ودواتي بالأقلام .

* * *

قوله : « الذى زيّن الجباه بالطرر . . » ، إلى آخر يمينه ، إنما ذكر صفات الحسن شيئاً بعد شيء ، ليُرى هذا الوالى كمال الغلام ، فيشتدّ حبّه فيه ، فإذا ذكر صفةً من صفاته نبّه الوالى بذكرها على النّظر إليها ، فوجدها كما يصف ، فهو الآن فى هذه اليمين يجلُو محاسنَ الغلام عليه .

الطّرَر : جمعُ طُرّة ، وهى اعتدال الشعر على الجبهة ، والطُّرّة عندهم أن يقطع للجارية من مقدّم ناصيتها حتى لا يبلغ الشعر حاجبيها ، فيبقى ما بين شعر ناصيتها وحاجبيها من جبهتها نقيًّا ، والشعر عليها معتدل ، كطُرّة الثوب ثم تسمّى الشعور الحسان طُرَراً .

أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : « ثلاث فاتنات : الشَّعر الحسَن ، والوجه الحسن ، والصوت الحسن » .

عائشة رضى الله عنها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ملائكة السماء يستبحون بذوائب النساء وبلحى الرجال ، فيقولون : سبحان الّذى زيّن الرجال باللحى ، والنساء بالذوائب » .

قال صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد أحدكم أن يتزوّج المرأة فليسأل عن شعرها كما يسأل عن وجهها » .

رفع المسهم

قالوا : الشعر الحسن يزيد الوجه حسناً وجمالا ، وقال ابن صارة[1] ـ وكأنه وصف طرة هذا الغلام ـ يصف بها أبا الفضل بن الأعلم ، وكان من أجمل الناس وأذكرهم[2] فى علم النحو والأدب ، وقرأ النحو قبل أن يلتحىَ ، فقال فيه :

أكـــرم بحفرٍ اللبيب فإنه ... مازال يوضح مُشْكِلَ «الإيضاح»[3]
ماء الجمال بخـــدِّه مترقرقٌ ... فالعين منه تجول فى ضَحْضَاحِ[4]
ما خدّه جرحته عينى ، إنّمـــا ... صَبَغت غِلالَته دِمَاء جِراحِى
لله زانُ زبرجـــد فى عسجدٍ ... فى جوهرٍ فى كَوْثرٍ فى رَاحِ
ذى طُرَّةٍ سَبِجيَّة ذى غُـــرَّةٍ ... عاجيَّة كالليل والإصْبـــاَحِ
رشأٌ له خدّ البرىءُ ولحظـــه ... أبداً شريك الموت فى الأرْوَاحِ

* * *

[مما قيل فى أنواع الحسن والجمال]

ونذكر بعد هذا الحوَر فى العينين ، وهو شدة بياض البياض وسواد الكحل ، وكلّ ذلك عندهم ممدوح . وقد أكثر الشعراء من وصف ذلك حتى لو تركنا ذكره لشهرته لكان لنا فيه عذر ، على أنّا نُلِمّ ببعض ما قيل فى ذلك ، وأمّا ما يزهّد فيه من ذلك ، ويقلّ ذكره فى أشعارهم فالزَّرَق ؛ على أنه قد جاء فى حديث عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «الزّرَق فى العينين يُمْن» .

---

(١) ط : « صارمة » ، تصحيف . (٢) نفح الطيب : «وأذكاهم» .
(٣) نفح الطيب ٥ : ٢١٣ ، ٢١٤ ، وكتاب الإيضاح فى النحو لأبى على الفارسى .
(٤) الضحضاح : الماء القليل .

رفع المسهم

وقال معاوية لصَحار العبدىّ : إنك أحمر ، قال : والذهب أحمر ، قال : إنك لأزرق ، قال : والبازى أزرق .

ولبعض أصحابنا :

أحبّك أن قالوا بعينيك زُرْقَةٌ كذاك عِتاق الطير زُرْق عيونُهَا

وقال الصّنوبرىّ :

قالوا به زُرْقـــة ، فقلت لهمْ بذاك تمت خصالُهْ البَهِجَهْ[1]
ما كَحَل العين مثلُ زُرْقتها كم بين ياقوتة إلى سَبَجـــهْ!

وقال آخر :

ما مثلُ ذا الظّبى فى الظِّباء الأزرق الأزرق القَبَـــاء
يجول فى مقلتيه طرفٍ فى زُرْقة المـــــاء والسماء
يا بأبى الشّعْر ما عليهمْ من ذلك النّور والبَهـاء
شُقْرَةُ شعـــرٍ على بياضٍ شعاع شمس على هـــواء

وكلّ هذا اعتذار جاء على وَفْق مدح سواد الألوان ، ولسواد الألوان فى التاسعة فصل مستطرف فقف عليه .

واختلفوا فى الحَوَر ، فقال أبوعبيدة : الحوراء : الشديدة بياض بياض العين فى شدّة سواد سوادها .

وقال أبوعمرو : الظبية الحوراء : السوداء العين الّتى ليس فى عينها بياض ، ولا يكون هذا فى الإنس إنما يكون فى الوحوش .

---

(١) يتيمة الدهر

وقال يعقوب : الحَوَر سعة العين وكبر المُقْلة وكثرة البياض .

وقال قطرب : الحوراء : الحسَنة المحاجر ، صغرت العين أم كبرت .

واشتقاق « ح و ر » يدل على صحة قول يعقوب وأبى عبيدة ؛ لأنهم إنما يوقعونه فى الغالب على البياض مثل الدقيق الحوارىّ للدرمك الشديد البياض ونحوه ، وقلّما يتفق شدة بياض العين إلاّ مع شدةّ سوادها ، ألاترى أن بياضها مع الزّرَق ليس هناك فى النقاء ، وقال القاضى التنوخىّ فى أحور :

حَوَرٌ بعينيه أطال تحيُّرِى ... ترك الدموع بخدِّىَ المتعصفِرِ[1]

غصنٌ تأوّد فوق غُصْنٍ من نقاً ... ليل تبلّج عن نهارٍ مُسْفِرِ

كالشّمس إلا أنه متنفّس ... عن مسكةٍ متبسّمٌ عن جوهرِ

والبَلَج : أن يكون ما بين الحاجبين نقيًّا من الشعر ، وهو من علامات السياده عند العرب ، ويُتمدّح به ويُتيمن بصاحبه ، ويُتطيّر بمقرون الحاجبين ؛ ويقال : أبلج وأبلد ، وهى البلجة والبلدة ، قال كثير :

جميلُ المحيَّا أبلجُ الوجه واضحٌ ... حليم إذا ما زلزلته الزّلاَزِلُ

الفلَج : أن يكون بين منابت الأسنان تباعد ، وقد فلج ثغره فلَجاً ، وهو مستحبٌّ فى الثغر. قال وجيه الدولة : وهو مما يليق بهذا الموضع لذكره أوصافا ذكرها الحريرى رحمه الله هنا :

إذا عدم الرَّوْضَ المنوَّرَ ناظرِى ... أرانيه ظبيٌ فاتر الطّرْف أدعجُ

فصدُغاه ريحانِى وعيناة نَرْجسِى ... ومنْ ثغره لى أقحوان مفلَّجُ

وواحَرَ بَا من حسن وردٍ بخدِّه ... يُطيف به من عارضيه بنفسجُ

---

(١) الأبيات فى يتيمة الدهر ٢ : ٣١٨ .

(٢) بعده فى اليتيمة :

وأطالَ مِنْ ليلى وقصّر ليله ... أنّى سهرت وأنّه لم يسهرِ

الجفون : أغطية العيون ، ثم تسمَّى العين جفناً مجازاً .

والسقم : فتور العين ، ومن حَسَن التشبيه فى ذلك قول أبى نواس :

فطبْ بحديث من نديم مساعدٍ وساقية بين المراهق والحُلْمِ[1]
ضعيفة كَرّ الطرف تَحْسِبُ أنَّها قريبة عهد بالإفاقةِ من سُقْمِ

وقال أيضاً :

وشادنٍ قال لى لمّـــا رأى سَقَمِى
وضعف جسمِىَ والدَّمع الذى انْسَجَمَا
أخذتَ دمعك من لفظى ، وجسمك من
خَصْرى ، وسُقْمَكَ من طرفى الّذى سَقِمَا

وقال ابن الرومىّ :

قلبى من الطرف السقيم سقيمُ لو أنّ من أشكو إليه رحيمُ

وقال ابن الزّقاق :

ومقلةِ شادنٍ أَوْدَتْ بجسمى كأنَّ السُّقْمَ لى ولهـا لباسُ[2]
يسلّ اللّحظ منها مَشْرفيّـــا لقتلِى ثم يغمِـــــدُه النُّعَاسُ

ولأبى العلاء بن زهر فى مثل ذلك :

يا راشقِى بسهامٍ مالهـا غرضُ إلّا فؤادى وما منها له عِوَضُ

---

(١) ديوانه ٣٢ ، حماسة ابن الشجرى ١٩٥ ، وذكر البيت الثانى وبعده :

تفوّق مالى من طريف وتالدٍ تفوّقَ الصَّهباء من حلَب الكَرْم

قال : قوله « تفوق مالى » هو من الفواق ؛ وهو ما بين الحلبتين .

(٢) ديوانه ١٩٠

ومرضى بجفونٍ كلّها سَقَمٌ صَحَّتْ وفى طبعها التمريضُ والمَرضُ
امنن ولو بخيالٍ منك يؤنسُنِي فقد يسدّ مسدّ الجوهر العَرَضُ

الشمم : ارتفاع فى لين الأنف ، وهو من علامات الجمال والسؤددِ ، قال الفرزدق :

بكفّهِ خَيْزُرَانٌ ريحُهُ عَبِقٌ من كَفِّ أَرْوَعَ فى عِرْنِينِهِ شَمَمُ[1]
يُغضِى حياء ويُغْضَى من مَهَابَتِهِ فلا يكلّمُ إلا حينَ يبتسمُ

وقال آخر :

فى باعه طولٌ وفى وجهِهِ نورٌ وفى العرنين منه شَمَمْ

وقال النابغة[2] :

* شمّ العرانين ضرّابُونَ للهَامِ *

اللهب : اشتعال النار بغير دخان ، فشبّه الحمرة فى الخدّ وضياءه بحمرة النار ، وكُنِيَ به أبو لهب لجماله .

وقال ابن وكيع ؛ فجمع الشّقم واللّهب :

واحزنى من جفون ظبيٍ أقام عُذْرِى بها عِذارُهُ[3]
أسقَم جسمى بسقم طَرْفٍ حيّرنى فى الهوى احْوِرَارُهُ
عجبت من جَمْرِ وجنتيه يحرِقُنى دونَهُ استعارُهُ
هو اختيارى فأبصروه[4] شاهدُ عقلِ الفتَى اختيارُه

(١) ديوان الحماسه ـ بشرح المرزوقى ١ ، ١٦ .
(٢) ديوانه ٧٣ . وصدره :
* مستحقبى حَلَقَ الماذىّ يَقْدُمُهُمْ *
(٣) يتيمة الدهر ١ : ٣٤٢ ، وفيه : « واحربى » .
(٤) اليتيمة : « هذا اختيارى » .

وله قريب منه :

كأنّ صدغاً له تراهُ ... وهو على خدّه مُدارُ[1]
بيتٌ من الحسن لى إليه ... حجٌّ مدى الدّهْرِ واعتمارُ

ولابن الزّقّاق :

بأبى من لم يدع لى لحظُه ... فى الهوى من رمقٍ منذُ رمَقْ[2]
جعلت نكهتُه فى ثغره ... عَبَقاً فى نَسَقٍ يسبى الحدَقْ
وبدت خجلتُه فى خدّهِ ... شفقاً فى فَلَقٍ تحت غَسَقْ

وقال الخفاجىّ[3] :

يابانةً تهتزّ فَيْنَانةً ... وروضةً تنفحُ مِعْطَارَا
كم دمع عينٍ فيك قد أجريتُهُ ... وقلب صبٍّ فيك قد طارَا
كَنّى فسمّى قوسَه حاجباً ... رمزاً وسمّى النّبل أشْفَارَا
فإن رَمَى يجرَحُنى طرفُهُ ... لَحَظْتُهُ أجرحه ثَارا
فيصبغُ الدّرّ عقيقاً بِهِ ... وأصبغ الألوان أزْهارَا[4]
يُدِيرُ للأعيُنِ من وَجْهِهِ ... كَعْبَةَ حُسْنٍ حيْثُمَا دارَا
قد طبع الحسنُ به درهماً ... تسبك منه العين دِينَارَا
فلِي به عينٌ مجوسيّةٌ ... تعبد من وَجْنَتِهِ نَارَا

غيره :

وأغيد تَدْمى وجنتاه من اللّمْحِ ... تخلّق إلاّ مِنْ صدُودِىَ بالشُّحِّ
غَدَا قاتلى أن ظلت أجرَحُ خدّه ... متى صار بالقتل القصاص من الجُرْحِ!

(١) يتيمة الدهر ١ : ٣٣٣ .
(٢) ديوانه ٢٠٨ .
(٣) هو أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة ، ويعرف بالخفاجى أيضا ، والأبيات فى ديوانه ١٢٥ .
(٤) الديوان « وأصبغ النوار » .

الثغور : جمع ثغر وهو السنّ . وتقدّم الشنَب فى الثانية .

وقال العباس بن الأحنف فى طيب الفم :

ذكرتكِ بالتفّاح لمّا شممْتُهُ ... وبالرّاح لما قابلَتْ أوجهَ الشّرْبِ[1]
وتذكّرت بالتّفاح منكِ سوالفاً ... وبالرّاح طعماً من مقبّلِك العَذْبِ

وقال ديك الجنّ ، واسمه عبد السلام :

بأبى فمٌ شهد الضّميرُ له ... قبل المذاق بأنه عَذْبُ
كشهادةِ لله خالصةٍ ... قبل العيان بأنّهُ الرّبُّ

وقال أحمد بن محمد الغسانىّ :

له مبسمٌ برقّه خاطفٌ ... عقولَ الرجال إذا ما ابتسمْ
أقول له إذ بدا دُرّه ... شهدنا لصانعه بالحِكَمْ
أرَى الدّر تثقبه الناظمونَ ... وما ثقبوا إذا فكيف انتظَمْ!

وقال أبو بكر البلوىّ :

تَقْطِفُ من ثَغْره ووجنَتِه ... أناملُ الطّرْفِ زهرةً عَجَبَا
شقيقها مُذهباً يُرَى خجلاً ... وأقحواناً مفضّضاً شَنَبَا

وقال ابن بشر الكاتب :[2]

ولم نَزَلْ ، والظلام حارسُنَا ... جسمَيْنِ مستودَعَيْنِ فى جِسْم
ألثمُهُ فى الدُّجَى وبرق ثنا ... ياهُ يرينى مواقِعَ اللّثْمِ

(١) ديوانه ٤٤
(٢) هو الحسن بن على بن بشر الكاتب ، والأبيات فى نهاية الأرب ٢ : ٩٠٤

ثم افترقنا عند الصَّباح وَقَدْ أثّر فيه كهيئة الخَـتْمِ

وقال الشريف الرضىّ :

بتْنَا ضجيعين فى ثَوْبىْ هوًى و تُقًى يلفّنا الشّوْق من فَرْقٍ إلى قَدَمِ (١)

وبات بارق ذاك الثّغر يُوضح لى مواقـعَ اللّثْم فى داجٍ من الظُّلَمِ

وقال المتنبى :

حِسان الثنّى ينقش الوشىُ مثلَه إذا مِسْنَ فى أثوابهنّ النّواعِمِ (٢)

ويبسِمْن عن دُرٍّ تقلّدن مثلَه كأنّ التراق وُشِّحَت بالمباسِمِ

فهذه معانٍ مختلفة فى أوصاف الثغر كلها حسان .

* * *

قوله : « والبنان بالترف » ، أى الأصابع باللين والنعمة ، وأحسن ماقيل فى ذلك قول النابغة :

بمَخَضَّبٍ رَخْصٍ كأنّ بَنَانَهُ عَنَمٌ يَـكادُ من اللّطَافَةِ يُعْقَدِ (٣)

فهذا تشبيه بديع .

وقال امرؤ القيس :

وتعطُو بِرَخْصٍ غيرِ شَثْنٍ كأنّهُ أساريعُ ظَبْيٍ أو مساويكُ إسْحِلِ (٤)

وقال غيره :

يا قمراً أبصرتُ فى مأتمٍ يندُب بشجواً بين أتراب (٥)

---

(١) ديوانه ٧٢٣

(٢) ديوانه ٢ : ١١١ ، : وفيه : « فى أجسامهن » .

(٣) ديوانه ٣٠

(٥) ديوانه ١٧

(٦) لأبى نواس ، ديوانه ٣٦١ ، مختار الأغانى ٣ : ١٣٠

أبرزَه المأتم لى كارهـــاً ... من بين رايات وحُجَّابِ
يبكى فيُذرِى الدُّرّ من نرجس ... ويَلطُمُ الوَرْدَ بعُنَّـابِ

وقال عُكّاشة[1] :

سقيا لمنزلنا الّذِى كا به ... يوم الخميس عشيَّةً أصْحَابَا
إذْ نحنُ نُسْقَاهَا شَمُولاً قَرْقَفاً ... تدَعُ الصَّحِيح بعقلِه مُرْتَابَا
من كفّ جارية كأنّ بنانها ... من فضّة قد قُمِّعَتْ عُنَّابَا
وكأنّ يُمناها إذاضربت بها ... تُلْقِى على يدها الشِّمال حِسَابَا

وقال آخر :

وحوراء اللواحظِ بين قلبى ... وبين جُفونها حَرْبُ الْبَسُوسِ
ترى ماء النَّعيم يحولُ فيهـا ... كمثل الخمر فى صافِى الكئوسِ
كأنّ بنانَها أقـلام عاجٍ ... مرصّعة الرأس بآبنوسِ

ووصف الخصور بالهَيف ، وهو الضّمر والرقة ، وسنذكر معها مايستظرف ، وقد تقدّم قول ابن عبد ربه :

يا مَنْ تقطّعَ خَصْرُه من رِقّةٍ ... ما بالُ قلبِك لا يكون رقيقا[2]

وقال ابن الرومىّ :

وَهَبَتْ له عَيْنِى الْهُجُوعَا ... فأثابها منه الدُّمُـــوعَا
ظبىٌ كأنّ بخَصْره ... من ضُمْرِه ظَمَأً وجُوعَا

(١) هو عكاشة بن عبد الصمد العمى ، منسوب إلى بنى العم ، من شعراء الأغانى ، والأبيات فى مختار الأغانى ٤ : ٥٠٨ .
(٢) مطمح الأنفس ٥٢ .

رفع المسهم

وقال عبيد[1] الله بن عبد الله :

سَلْمَى وما سَلْمَى تَفُوقُ المُنَى ... والحسْنَ أوصافا وأَلْوَانَا
وِشاحها يحسد خَلْخَالَهَا ... كجائعٍ يحسُد شَبْعَانَا

وقال كشاجم فى مقلوبهِ :

مسلولة الكَلّ غير بطنٍ ... مثقَلٍ فهى عنكبوتْ
حجُولها الدهرَ فى اضطرابٍ ... ووشْحها كاظمٌ صموت

وقال حبيب :

مَهَا الوَحْشِ إلا أن هاتَا أوانسٌ ... قَنَا الخطّ إلاّ أن تلك ذوابلُ[2]
من الهِيف لو أنّ الخلاخيل صُيِّرتْ ... لها وشُحًا جالت عليها الخلاخِلُ

أخذه القاضى ابن لبّال فقال :

جلوتِ لنا شيئا من الدّرّ عاطلاً ... بعيشك لِمْ جنّبْتِه الجِيدَ والنَّحْرَا
فقالت ولم تكذب خشيتُ سقوطَه ... وأومت إلىّ فيها فنظّمته ثَغْرَا
كذلك إن عَضّ السِّوارُ بِمِعْصَمِى ... وحاذرت أن يدميه حمّلْتُه الخصْرَا

وأكثر ما يذكرون الخَصْر بالرّقة مع ذكر الكَفَل بالعِظَم ، كما قال ديك الجن :

وتمايلتْ فضحكتُ من أردَافِهَا ... عجباً ، ولكنّى بكيتُ لخصْرِهَا[3]
تسقيك كأس مُدامةٍ من كَفِّها ... ورديّةٍ ، ومُدامَةٍ مِنْ ثَغْرِهَا

وقال القاضى أبوحفص بن عمر :

---

(١) ط : « عبد الله » ، وهو عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وأخباره وشعره فى ابن خلكان ١ : ٢٧٣ ، والبيتان فى ديوان المعانى ١ : ٢٥٠ .
(٢) ديوانه ٢٥٦
(٣) الأغانى ١٤ : ٥٥ .

مشتْ كالغصن يثنيه النّسيمُ ويعــدُوه النّسيم فيستقيمُ
لها رِدْفٌ تعلّق من ضعيفٍ وذاك الرِّدْفِ لي ولها ظَلُومُ
يعذّبني إذا فكّرت فيه ويتعبها إذا رَامَت تَقُومُ
وما حُبِّي لها إلا عذَابٌ عليه من نَضَارَتِها نعيمُ

* * *

قوله: «سهواً» . أى خطأ. والهامة: الرأس. وإلا فرَمى الله جَفْنى بالعَمَش، إنما ذكر العمش والنَّمش وما بعده لأنها أضداد لما تقدم، وعند الإشارة لها يتبيّن من الغلام عند الوالى أضدادُها ، فيزداد حسناً .

* وبضِدِّهَا تتبيَّنُ الأشْيَاء *[1]

والعَمَش : انتثار شعر العينين . والنَّمَش : أخفى من البَرَش . الجلَح : الصَّلَع، وهو انحسار الشعر من النّزعتين ، وفعله جَلَح الرجل واجْلَحّ ، كاسودّ . والطّلع: قد تقدّم فى الثانية ، وإذا علته خضرة سُمِّىَ بلحاً . والبَهار : نرجس المغرب ، وهو أصفر ، والورد أحمر ، فدَعا له بعلّة تذهب جمال وجهه وتصفّر حمرة خده . والبخار : كالبخَر :النّتْن .والمسكة : أطيب العطر ، فدعا له بتغيّر الرائحة . وتقدّم أن أطيب الطيب أنفاس عبقة من كبد سليمة . وتقدّم فى الثانية معنى قوله: « ووردتى بالبهار » منظوماً ، وقال الصابى فى أبخر :

نطق ابنُ نصرٍ فاستطارت جيفةٌ فى العالمين لنتن فيه الفاسدِ[2]
فكأنّ أهل الأرض كلّهمُ فَسَوْا متواطئين على اتّفاق واحِدِ

وقالت جنان فى أبى نواس :

فإذا ما أردت أن تحمد اللّـ ـهَ على ما أعطى وأولاك شُكْرَا
فليكن ذاك بالضمير فمن سَبَّحَ بالفسْو نال إثماً ووِزْرَا

(١) للمتنبى ديوانه ١ : ٢٢ ، وصدره :

* ونذيمُهم وبهمْ عُرفنا فَضْلَهُ *

(٢) يتيمة الدهر ٢ : ٢٦٣ .

وقال آخر :

أهـدى زريق قطّهُ لقمةً قد لا كها فى فمِهِ الأبْخَرِ
فبادر القِطّ إلى دَفْنِهَا يحسبهامن بعض ماقد خَرِى

قوله: «وبدرى بالمحاق» ، المحاق: أن ينمحق ضوء القمر فلايبقى منه شىء . واحتراق الفضة : اسوادها . وشُعاعى بالظلام ، أى صَباحة وجهه ووضاءته بسواد اللحية ، أى عاجلنى الله بالالتحاء ، ويريد بهذا كلّه أن يكسوَ بياض وجهه سواد الشعر ، فيكسد ولا يُلْتَفَتُ إليه .

وقال ابن المعتزّ فى مثل هذا الدعاء :

يا ربّ إن لم يكن فى وصلِهِ طَمَعٌ وليس لى فرجٌ من طول هجرَتِهِ[1]
فاشْفِ السّقام الّذى فى طرف مُقْلتِه واستر ملاحَة خَدَّيْهِ بلحيتِهِ

ونقل لفظ احتراق الفضة من قول أبى الحسين الثّغرىّ[2] ، وهو من شعراء اليتيمة:

لى حبيبٌ يزهَى بحسنٍ عجيبٍ وبقدٍّ مثل القضيب الرطيبِ
أحدقت بالسواد فضة خدَّيْـ ـه ، فقد أحرقت سوادَ القلوبِ

[ذكر العِذار والالتحاء]

ونذكر هنا مايليق بهذا الموضع مما قيل فى العِذار وفى الالتحاء مما مدح به وذُمّ ، قال ابن عبد ربه :

ومعذّرٍ نقش الجمال بمسْكِهِ خَدًّا له بدم القلوبِ مُضَرَّجا[3]
لما تيقّن أن سيف جفونِهِ من نرجسٍ جعل النّجاد بنفْسَجا

وقال ابن صارة[4] :

(١) ديوانه ١ : ٧١
(٢) هو أبو الحسين محمد بن عمر الثغرى الكاتب ، من شعراء العراق ، والبيتان فى اليتيمة ٢ : ٣٤٦ .
(٣) العقد ١ : ٣٣
(٤) ط : « صارمة » ، تصحيف ، والبيتان فى نهاية الأرب ٢ : ٨٦ .

ومعذّر رقّت حواشى حسنِه ... فقلوبنا حذَرًا عليـــه رِفَاقُ
لم يَكْسُ عارضَهُ السوادُ وإنّما ... نفضت عليه سوادَها الأحْدَاقُ[1]

وقال عبد المحسن الصورىّ :

ومعتذر العِذار إلى فؤادى ... لجـــرمٍ سابقٍ من مُقْلَتَيْهِ[2]
وكم أعرضْتُ عنه فأعرضَتْ بى ... عن الأعراض خضرةُ عَارِضَيْهِ
ولمّا قلتُ إنّ الشّعر يسعَى ... لِقلبى فى الخلاصِ سَعَى عَلَيْهِ

وقال أبو القاسم الزّاهى :

لولا عِذارُك ما خلعتُ عِذَارِى ... لـكنْتُ فى وَزَرٍ من الأوْزَارِ[3]
ما كنتُ أحسبُ أنّ أعينَ أو أرَى ... تخطيطَ ليلٍ فى بياض نَهَارِ
حتى نظرتُ إلى عِذارك فاغتدَى ... سَقَمَ القلوبِ ونزهـةَ الأبصَارِ

وللمعتمد بن عباد :

تمّ له الحسنُ بالعِذَارِ ... واختَاطَ اللّيل بالنّهارِ[4]
أخْضَرٌ فى أبيضٍ تبدّى ... ذلك آسِى وذَا بَهَارِى
لقَدْ حَوَى مجلسى تماماً ... إن يكُ من ريقه عُقَارِى

وقال ابن حمدون :

ظلّ على خـــدّه العِذارُ ... فافتضح الآسُ والبَهَارُ
وأبيضّ هذا واسودّ هذا ... واجتمع اللّيل والنّهَارُ
أغُضُّ عينى عنه لأنّى ... عليه من مُقْلَتِى أغَارُ

---

(١) والبيتان أيضا فى الذخيرة ١ : ١ : ١٢٣ .
(٢) يتيمة الدهر ١ : ٢٥٧
(٣) يتيمة الدهر ١ : ١٩٦
(٤) الذخيرة ١ ـ قسم ٢ : ١٥ ، ١ ـ ق ٢ : ١٤

رفع المسهم

فهذا كله حسن فى مدح العِذَار ؛ وإن كان النَّذيرَ بموت الجمال، فإذا تقوّى العِذار واسودّ ؛صاروا إلى نعيه ، كما قال أبو بكر البلَوىّ :

انظرْ إلى ميّتٍ ولـكنّه ... خِلْوٌ من الأكفانِ والغَاسِلِ
قد كتب الدهر على خدّه ... بالشّعر : هذا آخرُ الباطِلِ

وله فى ضدّه:

لمّا التحى مَنْ قد هويتُ ... وقلت رسمٌ قد دَثَرْ
عاينتُ من طـلّابه ... زُمَراً مـواصلةً زُمَرْ
وكذاك أصحاب الحديث ... نِفاقهم عند الـكِبَرْ

وكما قال أبو الحسن بن الحاجّ :

أبا جعفرٍ مات فيكَ الجمالُ ... فأظهر خدّك لُبْسَ الحِدَادِ
وقد كان ينبت زهرَ الرّياضِ ... فأصبَح يُنبِتُ شوكَ القَتَادِ
أبِن لى متى كان بدرُ السما ... ء يُدْرَك بالكونِ أو بالفَسَادِ !
وهل كنت فى الملك من عبد شمسٍ ... فأخنى عليك ظهورُ الفَسَادِ

وقال سعيد بن حميد فى غلام التحى :

هلّا وأنت بماء وجهك يُستقى ... روضُ الشّباب قليل شعر العَارِضِ
فالآن حين بدت بخدّك لحيةٌ ... ذهبت بحسنك ملء كفّ القابِضِ
مثل السّلافة عاد خمر عصيرها ... بعد اللّذاذة مثلَ خلّ الحَامِضِ

وقال علىّ بن بسام فى أخيه جعفر[1]:

يا مَنْ نَعَتْهُ إلىّ الإخوان لحيتُه ... أدبرتَ والدّهر إقبالٌ وإدْبارُ
قد كنتَ ممّن يهشّ الناظرون له ... تُغضّ دونك أسمـاعٌ وأبصَارُ
أيّامُ وجهك مصقولٌ عوارِضُه ... وللرّياض على خدّيك أنْوَارُ

(١) هو على محمد بن نصر بن بسام البغدادى ،والأبيات فى الذخيرة ١ ـ ق ١ : ١١٩ .

فيا لدهرٍ مضى ما كان أحسنَه ... إذ أنت ممتنعٌ ، والشَّرْط دِينَارُ
حانت منيَّتُه فاسودَّ عارضُه ... كما تُسوَّد بعد الميّت الدَّارُ

وفيه يقول أيضاً :

حانتْ وفاتُك يا أبا العباسِ ... فدع المكاس فلاتَ حينَ مكاسِ
ما بالُ وجهك بعد كثرة نُورِهِ ... قد سوَّدُوه بحالك الأنفاسِ !
أينَ الدَّنانيرُ التي عوّدتها ... هَيْهَات جاء الشعر بالإفلاسِ
كانت بخدٍّ ثيابه ديباجةٌ ... فاستُبدلت خِلساً من الأحلاسِ
وكذَا البناء فغيْر مرتفعٍ إذا ... كانت بليتُه من الآساسِ

وقال مُصعب المانجن :

قد ضافحتْ أقطارَ خدّك لحيةٌ ... تركتْه وهو مسوّدُ الأقطارِ
فكأنَّ خط الشَّعر فى جَنَباتِهِ ... ليلٌ أقام على نُجومٍ أو نَهارِ

وكان لمحمد بن بشر بابان يُدخِل من الأكبر أصحابَه ، ومن الأصغر أحبابَه فجاء يوماً غلامٌ مليح ، وأراد الدخول من الأصغر على عادته ، فمنِع ، فجعل يخاصم البوّاب لإدلاله ، فبلغ ذلك ابن بِشْرٍ ، فكتب إليه :

قلْ لمن رامَ بجهلٍ ... مدخل الظَّبي الغريرِ
بعد أن علق فى خدّيـ ... ـه مخلاةَ الشَّعيرِ
ليْتَهُ يدخلُ إن جا ... ءَ مِنَ البابِ الكبيرِ

وقال ابن الأبّار :

لستُ بُصابٍ إلى معذّرْ ... بل أنا فى حُبِّه معذَّرْ
لا أعشَق الظبى ذا لجامٍ ... لأنه فى الظباء منكَرْ

أحسنُ ما فيــه أن تراه بين مهاةٍ وبين جــؤذَرْ

ينظر قوله : «لأنه فى الظبا منكر» إلى قول حبيب:

تعشُّقك الـكبارَ يدلّ عنــدِى على أنّ الرحى قلبت ثفالاَ[1]

وقال آخر :

لى فى أبى يحيى ومعشوقِــــه شغل على ذِى شغل شاغــــلُ
يا ليت شعرى قــول ذى حيرةٍ مَنْ منهما المفعــــولُ والفاعِلُ !

وقال ابن حصين فى محبوب صغير :

بأبى ظبى صغير الســـنّ حازت ثلثَ سِــنِّى
سَرَّنى أن ليــس يدرِى مــذهبِى فيــــه وفَنِّى
فهــــو يدعونىَ عَمًّــــا وأنا أَدعــــوه بابْنى

وللخبز أرزىّ :

قالوا عشقتَ صغيراً قلت أرتُع فى روضِ المحاسن حتى يُدرِك الثَّمَرُ[2]
ربيـع حسن دعانى لاتّباع هوًى لمّا تفتّح فيه النّوْر والزَّهَرُ

وقال التَّنُوخى فى جَسيم :

من أين أستر وجدى وهو منتهَك ما لِلمتيّم فى نيل الهوى دَرَكُ[3]
قالوا عشقت عظيمَ الجسمِ قلت لهمْ الشَّمْس أعظم جسمٍ ضمّه الفَلَكُ

وللفقيه ابن حزم :

وذى عذَلٍ فيمنْ سبانِى حسنُه يُطيل ملامى فى الهوى ويقولُ[4]:

---

(١) ديوانه ٤ : ٤٢٠ (طبع المعارف)
(٢) يتيمة الدهر : ٣٣٨ .
(٣) يتيمة الدهر ٢ : ٣١٨ .
(٤) الذخيرة ، القسم الأول ١ : ١٤٧

أفي حسن وجهٍ لاح لم ترَ غيرَه ... ولم تدرِ كيفَ الجسم، أنت قتيلُ!
فقلتُ له: أسرَفْتَ في اللَّوم ظاهرًا ... وعندي ردّ لو أردتَ طويلُ
ألم ترَ أنّي ظاهِريٌّ وأنّني ... على ما بَدَا حتى يقومَ دليلُ!

وأحسنَ حبيبٌ حين قال:

قال الوشاةُ بدا في الخدّ عارضُه ... فقلت لاتنكروا وماذاك عائبُهُ[1]
الحسن مِنْهُ على ما كنتُ أعهده ... والشّعر حِرْزٌ له ممّن يطالبُهُ
أحلَى وأعذب ما كانت شمائلُه ... إذْ لاحَ عارضُه واخْضرّ شاربُهُ
وصار مَنْ كان يلحَى في مودّته ... إن سِيلَ عني وعنه قال صاحبُهُ

وقال الحلوانيّ:

قالُوا التحى فامّحتْ بالشّعر بهجَتُه ... فقلت: لولا الدُّجى لم يحسن القمرُ[2]
خطَّت يدُ الحسن فيه فوق وجنتِه: ... هذي محاسن - يا أهل الهوى - أُخَرُ

وله أيضاً:

لي حبيبٌ إذا شكوت إليه ... سامني بالهوى عذاباً شديدَا[3]
لستُ أدعو بالشّعر غيظاً عليه ... خيفةً أن يكون حسناً جديدَا
غير أنّي أدعو بقلبٍ تريحٍ ... أن أراه مثلي مُحبّاً عَميدَا

وقال غيره:

قد حلّ في سوقكَ الكساد ... مذ لاحَ في خدِّكَ السَّوادُ[4]
كأنما الشّعر فيه زرعٌ ... والنَّتْفُ منه لَهُ حَصَادُ

---

(١) ديوانه ٤٣٢، وفيه: «لاتنكروا».
(٢) نهاية الأرب ٢: ٨٥، من غير نسبة الذخيرة ٤ ـ ١: ٢٢٠.
(٣) الذخيرة ق ٤ ـ ١: ٢٠٠ (٤) الذخيرة ق ٤ ـ ١: ٢٢٢ ونسبها إلى الحلواني أيضاً.

وقوله :« ودواتى بالأقلام » ،أى ابتلاه الله أن يُلاط به ، قال الفنجديهىّ : أنشدنى بعضُ الشعراء بمرْورُوز لبعضهم :

دوادار الأمـــير له دواةٌ كمثل الياسمين بغير صُـــوفِ
يُرَى قلم الأمير يغوصُ فيهـــا مغاص عصيـــدةٍ فى حَلْق صوفِ

ونقل لفظ الدواة والأقلام من قول ديك الجن ؛ وكان يهوى غلاماً من حِمْص ، اسمه بكر ، فجلس معه ليلة يتحدّث بها حتى غاب القمر ، فقام بكر ليمشى ، فقال :

دع البدر فليغْرُبْ فأنت لنا بدرُ إذا ما تجلّى عن محاسنك الشَّعْرُ[1]
إذا ما انقضى سحر الذين ببابلٍ فأنت لنا سحرٌ وريقُك لى خَمْرُ
ولو قيل لى قُمْ فادع أحسنَ مَنْ ترى
لصِحت بأعلى الصّوت: يابَكْرُ يابكرُ !

وكان هذا الغلام شديد التصاون والتمنع ، فاحتال عليه قومٌ من حِمْص ، فأخرجوه إلى متنزَّهٍ ، فأسكروه وفسقوا به ، فبلغ ذلك ديك الجن فقال :

يا بكْر ما فعلت بك الأرْطَامُ يا دارُ ما فعلت بِـك الأيّامُ[2]
فى الدار بعدُ بقيـــة نستامها أم ليس فيك بقيـــة تُسْتَامُ
شغَل الظَّلامُ كراكَ فى أبوابهم[3] فتفرّغَت لدواتك الأقْلاَمُ

وله فيه أيضاً :

قولا لبكر بن مهديّ إذا اعتكرتْ
عساكرُ اللّيْل بين الطَّاسِ والجَامِ[4]

(١) الأغانى ١٤ : ٦٠ ، وفيه : « من محاسنك الفجر » .
(٢) الأغانى ١٤ :٦٢، وفيه : « مافعلت بك الأرطال » .
(٣) الأغانى: « فى ديوانه »
(٤) الأغانى ١٤ :٦٢ ، وفيه: « قولا لبكر بن دهمرد » .

رفع المسهم

ألم أقل لك إنَّ الكِبْرَ مَهْلَكَةٌ ... والْبَغْى والعُجْب إفسادٌ لأقْوَامِ
قد كنتَ تفرَقُ من سهم تعايِنُه[1] ... فصرت غيرَ رَميم رقعةَ الرَّامِى
وكنت تفزع من لمسٍ ومن قُبَلٍ ... فَقَدْ ذللتَ لإسراجٍ وإلجَامِ
إن تَدْمَ نحذاك من ركض فربَّتما ... أمسى وقلبى منك الموجع الدّامِى

قال أبو علىّ بن رشيق : كنت أوصى غلاماً وضيئاً ، كان يختلف إلىّ ، وأحذّره من كثرة التخليط ، فخرج يوماً فى جماعة من أصحابه ، فأوقِع به ، فأخبرت بذلك ، فقلت :

ياسوء ما جاءتْ به الحالُ ... إنْ كان ماقالوا كما قالوا
ماأحذق النَّاس بصوغ الخنا ... صيغ من الخاتم خَلْخَالُ

وهذا من قول ابن المعتزّ :

مَضَى خالدٌ والمال تسعون درهما ... وآب ورأس المال ثلث الدّرَاهِم[2]

وهذا المعنى الخبيث يتبين بعقد التسعين والثلاثين فى اليد .

وقال ابن رشيق :

سقطت ثنيّتُه فأوجِع قلبُه ... لسقوطها وجرى عليه عظيمُ[3]
فإذا مررتَ به فسلِّ فؤاده ... عنها وقُلْ صبراً كذاك الريمُ
عجبا للؤلؤةٍ هوَتْ من سِلْكِها ... والسّلك لا وَاهٍ ولا مفصومُ
أتعدّياً يا خطبُ وهو مصوّن ... أبداً بخاتم ربّه مختومُ

(١) الأغانى : « لغانية »
(٢) نقله فى التنف ٥٨ .
(٣) نقله فى التنف ٦٥

ويستحبّ لمن وُسم بوَسْمة الجمال ، أن يكون شديد التصاوُن ، قليلَ التبذُّل ، فذلك أدْعَى للسلامة ، وقد قال ابن وكيع فى ذلك :

قالوا عشقت كثير البخل ممتنعاً ... فقلت : هيهات عنكم غاب أطيَبُهُ[1]

لو جادها ، وقلت الجود عادَتُهُ ... وإنما عَزَّ لمّا عَزَّ مطلبُـــهُ

فإذا تبذَّل وأجاب كلّ من دعاه صار عرضةً للظنون ، ونبتْ عن محاسنه العيون ، لأنّ النفس الحرّة لا تنفك من غيْرة ، وقد قال العباس بن الأحنف :

يا قومُ لم أهجـــرْ كمُ لملالةٍ ... مِنّى ولا لمقالِ واشٍ حاسدِ[2]

لـكنّنى جـرّبتـكمْ فوجدتُـكمْ ... لا تصبرون على طعام واحدِ

وقال أبو الوليد بن حزم :

لمّا استمالك معشرٌ لم أرضَهُمْ ... والقول فيك كما علمتَ كثيرُ

داويتُ دونك مُهجتِي فتماسكتْ ... من بعد ما كادت إليك تطيرُ

فاذهب فغير جوانحِي لك منزلٌ ... واسمعْ فغير وفائِك المشكورُ

وله أيضاً :

يقول وقد لمتُه فى الهـوى ... فلان،وعرّضت شيئاً قليلاَ :

أتحسدُنى؟ قلت:لا، والذى ... أحلّك فى الحبّ مَرعًى وبيلا

وكيف وقد حُلّ ذاك الإزارُ ... وقد سلك النّاس تلك السبيلا!

---

(١) يتيمة الدهر ١ : ٣٣٢

(٢) ديوانه ١٠٦ ، الزهرة ١٥٠ ، الأغانى ١٥ : ١٣٢ (ساسى) ، الشعر والشعراء ٧٩٢ .

وقال محمد بن السرىّ :

قايستُ بين جمـــاله وفعاله ... فإذا الملاحَةُ بالخيانةِ لا تَفِي [1]
والله لا كلَّمتُـــه ولو أنه ... كالبدْرِ أو كالشَّمس أو كالمكتَفِي

وقال آخر :

أيا حسناً أزرتْ قبائح فعـــله ... عَلَيْهِ كما أزرى الكُسوف على البدرِ
لقد فُقْتَ كلّ الناس حسناً وزينةً ... ولكنما قبَّحْتَ ذلك بالغـــدْرِ

وقال ابن عيينة :

ضيعتِ عهد فتًى لعهدكِ حافظٌ ... فى حفظِه عجبٌ وفى تضييعكِ
إن تقتليه وتذهبى بفؤادِه ... فبحسن وجهكِ لا بحسن صنيعكِ

* * *

فقال الغُلامُ : الاصْطِلاَءُ بالبَلِيّة ، وَلا الإيلاءُ بهذهِ الأليّة ، والانقيادَ لِلْقَوَدِ ؛ وَلا الْحَلِفَ بِمَا لَمْ يَحْلِفْ به أَحَدٌ . وَأَبَى الشيخُ إلاَّ تَجْرِيعَهُ اليمينَ الَّتِي اخْتَرَعَهَا ، وَأَمقَرَ لهُ جُرَعَها . وَلَمْ يَزل التَّلاَحِى بينهُمَا يَسْتَعِرُ ، ومَحَجَّةُ التَّرَاضِى تَعِرُ ، والْغُلامُ فى ضِمْنِ تأَبِّيهِ ، يَخْلُبُ قَلْبَ الْوَالِى بتَلَوِّيهِ ، وَيُطْمِعُهُ فى أن يُلَبِّيهِ ، إِلَى أنْ رانَ هَـوَاهُ عَلَى قَلْبِهِ ، وألَبّ بِلُبِّـهِ ، فَسَوَّلَ لهُ الْوَجْـدُ الَّذِى تيَّمَهُ ، والطَّمَعُ الَّذِى تَوَهَّمَهُ ، أنْ

---

(١) إنباه الرواة ٣ : ١٣٧ ، ابن خلكان ١ : ٥٠٣ ، وبعده هناك :
حلفت لنا ألاَّ تَخُون عُهُودنا ... فكأنما حلفت لَنا ألاَّ تَفِي

يُخَلِّص الغُلامَ وَيَسْتَخْلِصَهُ ، وَأَنْ يُنْقِذَهُ من حِبَالَةِ الشَّيْخ ثُمَّ يَقْتَنِصَهُ .

* * *

قوله : «الاصطلاء»، أى الاتصال والتلبُّس . والبلية ، أراد دعوة الباطل التى ادَّعى عليه الشيخ . والإيلاء : الحلف . والألِيَّة : اليمين . والقَوَد : قتل النفس بالنفس ، فيقول : الصبر على الضرب أو القتل أهون من هذه اليمين التى لم يحلف بها أحد اخترعها : استنبطها . أمقر : أمرّ ، من المَقْر ؛ وهو الصَّبر .

[من ألوانِ من الحلِف]

وهذه اليمين المخترعة ، حكى الأصمعىّ شبهها، فقال : اختصم أعرابيّان عند بعض الولاة فى دَيْن ، فجعل المدّعَى عليه يحلف بالطلاق والعَتاق ، فقال المدّعِى : دعنى من هذه الأيمان، واحلف بما أقول لك،فقال: ما قولك ؟ قال : قل:لاترك الله لك خُفًّا يتبع خُفًّا ، ولا ظِلفاً يتبع ظِلفاً ، وحتَّك من أهلِك وولدك ، كما يُحاتّ الورق من الشجر ؛ إن كان بَقِىَ لى هذا الحق قِبَلَك . فأعطاه حقّه ولم يحلف له .

وحكى المسعودىّ أنّ الفضلَ بن الربيع قال:صار[1] إلىّ عبدُ الله بن مصعب ابن ثابت بن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما ، فقال : إنّ موسى بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب قد أرادنى على بيعته ، فأخبرت الرشيد بذلك ، فجمع بينهما ، فقال الزبيرىّ لموسى : سعيتم علينا ، وأردتم نقض بيعتنا ودولتنا ، فقال له موسى : ومن أنتم ! فغلب الرَّشيدَ الضحك حتى رفع رأسه إلى السقف لئلا يظهر منه الضحك ، ثم قال موسى : يا أمير المؤمنين ، هذا المشنِّع علىّ، خرج مع أخى محمد على جدّك المنصور ، وهو القائل[من أبيات][2] :

قوموا ببيعتكم نهضْ بطاعتنا إنّ الخلافة فيكم يا بنى الحسنِ

(١) ط : « سار » ، وما أثبته من ا ، ب . (٢) من المسعودى .

رفع المسهم

وليست سعايتُه حبًّا لك ، ولا مراعاةً لدولتك ؛ ولكن بغضاً لنا جميعَ أهلَ البيت[1]، وأنا أستحلفه بيمين ، فإن حلف بها أنّي قلت ذلك ، فدمى حلال لأمير المؤمنين. فقال له الرشيد: احلف له ياعبد الله، فامتنع ، فقال له الفضل: لِمَ تمتنع وقد زعمتَ أنه قال ماذكرته؟ قال: فإنى أحلف له ، قال موسى: قل: تقلّدت الحولَ والقوّة دون حول الله وقوّته إلى حولى وقوّتى ، إن لم يكن ماقلته حقاً . فحلف له ، فقال موسى : الله أكبر ! حدثنى أبى عن أبيه ، عن جده ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما حلف أحد بهذه اليمين وهو كاذب إلاّ عجّل الله له العقوبة قبل ثلاث» ، وهأنذا بين يدى أمير المؤمنين فى قبضته ، فإن مضت ثلاث ولم يحدث له حادث ، فدمى حلال لأمير المؤمنين .

قال الفضل: فو الله ماصلّيت العصر فى ذلك اليوم ، حتى سمعت الصراخ من داره[2] . فدخلت عليه، فوالله ما كدت أعرفه : لأنه صار كالزِّق العظيم، ثم اسودّ حتى صار كالفحم ، فعرّفت الرشيد فى الحين ، فما انقضى كلامنا حتى عرَفنا أنه قد مات ، فبادرت بتعجيله ، وتولّيت الصلاة عليه. فلما وُورِىَ فى قبره انخسف به ، وخرجتْ رائحة مفرطة النّتن، ومرّت أحمال شوك على الطريق، فأمرت بها فطرحت فى قبره، فانخسف ثانية ، فأمرت بألواح ساج، فطرحت على قبره وألقى التراب عليها، وانصرفتُ ، وأعلمت الرشيد . فأكثر التعجّب، وأحضر موسى ؛ فأعطاه ألف دينار ، وقال له : لِمَ عدلت عن اليمين المتعارفة عند الناس ؟ فقال : أخبرت بالسند المتقدّم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من حلف بيمين كاذبة مجّد الله فيها ، استحيا الله من تعجيل عقوبته ، ومن حلف بيمين كاذبة نازع الله فيه حوله وقوّته إلّا عجّل الله له العقوبة قبل ثلاث[3] » .

* * *

قوله : «التلاحى»، السّباب والتشاتم . علىّ رضى الله عنه، قال النبى صلى الله

(١) بعدها فى المسعودى : « ولو وجد من ينتصر علينا جميعا لكان معه ، وقد قال باطلا»:
(٢) ب والمسعودى : « من دار عبد الله » .
(٣) الخبر فى المسعودى ٣ : ٣٥١ ـ ٣٥٣ .

عليه وسلم : «من لاحَى الرجال سقطت مروءته وذهبت كرامته ، ومازال جبريل ينهانى عن ملاحاة الرجال كما ينهانى من عبادة الأوثان ». وفى المثل: من لاحاك فقد عاداك .

يستعر : يتّقد . محجّة التراضى : أى طريق الرضا . تَعِرُ : تصعب . وفى ضمن تأبّيه ، أى فى أثناء كلامه وامتناعه . يخلِب: يخدع ويأخذ قلبه . تلوّيه: انعطافه. يطمعه : يدعوه للطمع . يلبّيه : يجيبه لمراده . وران : غلب وغطّى . أبو هريرة رضى الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أذنب العبد نُكت فى قلبه نكتة سوداء ، فإن تاب صقلت ، وإن عاد زادت حتى تعظم فى قلبه ، فذلك الران » ، قال الله تعالى: ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾[1] .

ألبّ : أقام. لبّه : عقله : سوّل : زيّن . الوجْد : حرقة القلب. تيّمه : عبّده وذلّله ، والمتيّم : المستعبَد لهواه. توهّمه : ظنه . يستخلصه: يختصه لنفسه . حِبالة : آلة الصيد . يقتنصه : يصيده ؛ يقول : إنّ هذا الغلام فى أثناء كلامه بالتمنّع وترك الانقياد للشيخ يُطمع الوالى فى الانقياد له ، وإنه إذا دعاه لما يريده منه أجابه ، وإنما فعل هذا حين رأى إدامة نظر الوالى فى وجهه ، واستحسانه كلامه ، ولو فسّر الوالى حال الغلام بمنظومٍ لأنشد :

يهدِى لك الدُّرَ من لفظٍ ومبتسمٍ ... ضربان : منتثر منه ومنظُومُ
يجنى الذنوب، وأحنو أن أؤاخذه ... من أجل ذلك قيل الحسن مرحُومُ

ولأنشد إذا غلب عليه هواه :

مرآك مرآك لا شمسٌ ولا قمرٌ ... وورد خدّيك لا وردٌ ولا زَهرُ[2]
فى ذمّة الله قلبٌ أنت ساكنُهُ ... إن بنت بان فلا عينٌ ولا أثرُ
لولا محلّك من قلبى لما أسفتْ ... نفسى عليك ، فرفقاً أيُّها القمرُ

هذه الأبيات لأبى الوليد بن حزم ؛ وقد كرر معنى البيت الأخير فقال :

(١) المطففين ١٤ (٢) نفح الطيب ٤ : ٤ .

أذكيتَ من قلبي بنأيك لوعةً حتى خشيت على محلِّك فيهِ

ومما يتعلق بهذا المعنى قول الآخر :

ولمَّا رماني بالسهام تعمُّداً وفيها نصال الهجر حتى امتلا صَدْرِي
فقلت له لا ترمِ قلبي فإنهُ مكانُك والمرمىّ أنت ولا تدرِي

وقال آخر :

حملتُك فى قلبي فهل أنت عالم بأنَّك محمول وأنت مُقيمُ !
ألا إنَّ شخصاً فى فؤادى محلّه وأشتاقه ، شخصٌ علىّ كريمُ

وقال التّهامىّ :

قلبي فداؤُك وهو قلبٌ لم يزلْ تُذْكَى شهاب الشّوق فى أثنائِهِ (١)
جاورته شرّ الجوار وزرتهُ لمَّا حللتَ فناءه بفنائِهِ
حرِّق سوى قلبي ودعه فإننى أخشى عليك وأنت فى سودائِهِ

وقال آخر :

أودع فؤادى حرَقا أودَعِ نفسك تؤذى أنت فى أضْلُعِي
أمسك سهام اللَّحظ أو فارمِها أنت بما ترى مصابٌ مَعِى
موقعها القلبُ وأنت الذى مسكنُه فى ذلك الموضِعِ

* * *

فقالَ للشَّيْخ : هَلْ لَكَ فِيما هُوَ أَلْيَقُ بالأَقْوَى ، وَأَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ! فقال : إلَام تُشِيرُ لأقْتَفِيهِ ، وَلَا أَقِفُ لَكَ فِيه ؟ فقَالَ : أرَى أنْ تُقْصِرَ عن القِيلَ وَالقالِ ، وَتَقْتَصِرَ مِنْهُ عَلَى مائةِ مِثقَالٍ ،

(١) ديوانه ٨٨ .

لِأتحَمَّلَ منهـا بَعْضًا ، وَأَجْتَبِيَ الْباقِيَ لَكَ عَرْضًا ، فقالَ الشَّيْـخُ : مَا مِنِّى خِلاف ، فلاَ يَكُنْ لِوَعْدِكَ إِخْلَافٌ ، فنَقَده الوالِى عِشرين ، وَوَزَعَ عَلَى وزَعَتِه تَـكْمِلَةَ خمسِينَ . وَرَقَّ ثَوْبُ الأصيلِ ، وَانقطَعَ لِأجْلِهِ صَوبُ التَّحْصِيلِ ، فقال له : خُذْ ماراجَ ، ودَعْ عَنْكَ اللَّجاج ، وَعَلَىَّ فى غَدٍ أنْ أتوَصَّلَ ، إلى أنْ يَنِضَّ لكَ البـاقِى وَيَتَحَصَّل ، فقالَ الشَّيخُ : أَقْبَلُ مِنْكَ عَلَى أن أُلازِمَهُ ليلَتِى ، وَيَرْعاهُ إنسانُ مُقْلَتِى ، حَتى إذا أعْـفَى بَعْدَ إسفارِ الصبحِ ، بمَا بَقِىَ مِنْ مالِ الصُّلْح ، تَخلّصتْ قائبةٌ من قُوب ، وَبَرِىءَ براءة الذِّئب مِن دَم ابن يعقُوبَ ، فقال لهُ الوالى : ما أَرَاكَ سُمْتَ شَطَطًا ، وَلاَ رُمْتَ فَرَطا .

قال الحارث بن همام : فلَمَّا رَأَيْتُ حُجَجَ الشَّيْخ كالحُجَج الشُّرَيحِيَّةِ ، عَلِمْتُ أنَّهُ عَلَمُ السَّرُوجِيَّة

* * *

قوله : « أليق » أى أشكل وأصقل . بالأقوى : بصاحب القوّة . والذى هو أقرب للتقوى ، هو العفو لقوله تعالى : ﴿ وَأَنْ تَعْفُوا أقرَبُ للتَّقْوَى ﴾[1] . أقتفيه : أتبعه . لا أقف لك فيه ، أى لا أتوقّف فيما تشير به . تقصر : تكفّ . عن القيل والقال ، أى عن كل كلام . أجتبى : أجمع . عَرْضا : كلّ ما ليس فيه روح من الأمتعة غير العين ؛ وهو ليس بنقد من السِّلَع التى يُتّجر فيها من متاع ورقيق وغيرذلك . أتحمّل : أضمن ، وفلان حميل بكذا ، أى ضامن له . إخلاف : كذب وعد . نقده : أعطاه نقداً . وزّع : فرّق . وزَعَتُه : شُرْطته الذين يكفون

(١) سورة البقرة ٢٣٧ .

عنه الناس ، واحدهم وازع مثل كافر وكفرة ، وقد وزعته وَزَعاً كففته ، وأيضاً دفعته .وقال الحسن البصرىّ رحمه الله: لابدّ للسلطان من وَزَعَة . الأصيل العشىّ . وثوبه:ضوء الشمس ، وهو فى ذلك الوقت رقيق.صَوْب : وقع،وصاب السهم صوبا وصيِّبًا : وقع بالرميّة،وصاب السحاب الموضع:أمطر.والتحصيل : أن يحصّل بقية المال . راج : حضر وتيسّر ، ويقال:راج الشىء رَوْجاً فهو رائج إذا جاء جاء سريعاً . قوله: « إنسان مقلتى»،أى سواد عينى .يرعاه :يحفظه وينظره. أعْفَى : أتى بالبقيّة ، والعفاوة : بقية المرق فى القِدْر . تخلّصت: انفصلت. والقائبة : البيضة . والقُوب : الفرخ ، وهذا مثل يضرب للرجلين يفترقان بعد الصّحبة ، وجاء مقلوباً لأن الذى ينفصل ويخرج إنما هو الفرخ من البَيْضة ، والقُوب ، من تقوّب الشىء إذا انتشر ، ومنه القوباء لداء الحِزاز[1] . وابن يعقوب هو يوسف عليهما السلام ، وبراءة الذئب من دمه ، هو ما يحكى أنّ إخوته لما جاءوا إلى أبيهم يبكون على يوسف ، علموا أنه لا يصدّقهم ، فاصطادوا ذئباً فلطّخوه بدم ، وأتوْه يبكون ، وقالوا له : هذا الذئب قد ضرِىَ ، أكل أغنامنا وأكَلَ يوسف أخانا ، قال لهم : أطلقوه ، ودعا الله يعقوب أن ينطقه له ، فقال للذئب: ادنُ منِّى ، فجعل يبصبص بذنَبه ويدنو منه ، حتى وضع خدّه على فخذ يعقوب ، فقال له : لِم أكلتَ ابنى ، وفجعتنى فيه ؟ فقال : لا والله يانبىّ الله ، ما رأيته ولا أكلته ، وإنى لغريب فى أرضكم اليوم ، وصلت من مصر فى طلب أخ لى فقدته ، فأوثقنى هؤلاء وساقونى إليك ، فقال لهم يعقوب عليه السلام : الذئب مع أخيه أوْفَى منكم مع أخيكم .

قوله:«سُمْتَ»: أى كلّفت . شطَطاً: شيئاً بعيداً ، والشَّطَط:مجاوزة القدر . ورمت فَرَطاً: طلبت شيئاً متفاوتا ، وكيف لم يسمِّه شططا ، وقد حرمه لذة ليلةٍ مع هذا الغلام أحسن من ليلة الخفاجى[2] حيث يقول :

(١) فى القاموس : الحزاز ؛ كـكتاب : وجم فى القلب من غيظ أو نحوه .
(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة الأندلسى ، صاحب الديوان المنسوب إليه .

وليلة طَلْقَةٍ قضَتْنِي من موعدٍ للحبيب دِينَا[1]
بتْنَا نجرّ الذيولَ فيها والخمر تمشى بنا الهوينَى
أرسل فى روض وجنتيْه لحظةَ عين تفيض عينَا
كأنمَّا اللحظ كيمياءٌ تُذهب من وجهه لُجَيْنَا
وما توهَّمت أنَّ طرفا يقلب عين اللجين عينَا

أو ليلة الآخر حين يقول :

لمَّا رأى مَنْ ظلتُ فيه متيّماً جسمى ضئيلا والفؤاد مولَّهَا
جادت شمائله علىّ بليلةٍ أهدت إلى الصبّ المعنّى ما اشتهَى
عانقت فيها البدْر ليلةَ تِمِّهِ يا من رأى بدراً يعانقه الشُّهَا !

[ذكر أحمد بن سريج أحد أئمة الشافعيّة]

قوله: «الحجج السُّريجية» منسوبة إلى أحمد بن سُريج، وهو من كبار أصحاب الشافعىّ ، وكان حسن الاحتجاج ، مليح المناظرة .

وقال الفنجديهىّ: السُّريجيّة منسوبة إلى الإمام أبى العباس أحمد بن عمر ابن سريج إمام أصحاب الشافعىّ على الإطلاق ، ومن لا نفسَت ذات دَرّ بمثله فى الآفاق ، حججُه فى أحكام الشرع أوضح الحجج، وأقواها وأمتنها على مرور الأيام والحِجَج، وكان يلقّب بالبازى الأشهب ، وبالشافعىّ الثانى ، لتبحّره فى استنباط المعانى ، من غوامض الأخبار والمثانى ، دلائله فى فنون العلم متينة، وبراهينه مبينة.

وقال: رأيت فى المنام كأنا أمطِرْنا كبريتاً أحمر ، فملأتُ كمّى وحجرى وجيبى منه ، فعُبِّر لى أنى أُرْزَقُ علماً غزيراً كعِزَّة الكبريت الأحمر .

ومُمِع يتمثّل بهذه الأبيات :

(١) ديوانه : ٣٤٠ ، المغرب ٢ : ٣٦٩

فلا تحسد الكلب أكلَ العظامِ فعند الخـــراءة ما ترحَمُهْ
تراه وشيكاً شكِسًّا إستهُ كلوما جناها عليه فَمُهْ
إذا ما أهان امرؤٌ نفسَـه فلا أكرم الله مَنْ يكرمُهْ

وكان يناظر محمد بن داود ، فقال له ابن داود يوما وقد أكثر عليه السؤال : أبلِعْنى ريقى ، فقال له : قد أبلعتك الدِّجْلة والفُرات[1] .

وقال له مرة : أمهلنى ساعة ، فقال : قد أمهلتك من الساعة إلى أن تقوم الساعة[2] .

وقال له ابن داود يوما : أكلِّك من الرِّجْل وتُجيبنى من الرأس ! فقال له : كذلك البقر إذا حفيتْ أظلافها ، وهنت قُرونها .

واجتمع أبو العباس بن سُريج وأبو بكر بن داود الأصبهانىّ فى مجلس عيسى بن الجراح الوزير ، فتناظرا فى الإيلاء ، فقال ابن سريج : أنت بقولك : مَنْ كَثُرتْ لحظاته ، دامت حسراته ، أبصرُ منك فى الكلام فى الإيلاء ، فقال له ابن داود : لئن قلتَ ذلك ، فإنى أقول :

أنزّه فى روضِ المحاسن مقلتى وأمنع نفسى أن تنال مُحَرَّما[3]
وأحمل من ثقل الهوى مالو أنَّهُ يُصَبُّ على الصَّخْر الأصمّ تهدَّما
وينطِقُ طرفى عن مترجم خاطِرى فلولا اختلاسى رَدّه لتكلَّما
رأيتُ الهوى دعوى من الناس كلِّهِمْ فلستُ أرى حبًّا صحيحاً مسلَّما

وقال له ابن سُريج : بم تفتخر ؟ ولو شئت قلت :

---

(١) طبقات الشافعية ٣ : ٢٤ (طبع الحلبى) .
(٢) طبقات الشافعية ٣ : ٢٤ .
(٣) طبقات الشافعية ٣ : ٢٧ .

ومُساهِرٍ بالغُنْجِ من لَحَظَاتِهِ قد بتُّ أمنعُهُ لَذِيذ سِنَاتِهِ[1]
أصبُو لحُسْنِ كلامه وحديثه وأكرّر اللحَظات فى وجَنَاتِهِ
حَتى إذا ما الصبحُ لاح عموده ولّى بخاتم رَبِّه وبَرَاتِهِ

فقال له أبو بكر : أصلح الله الوزير ! يحفظ عليه ماقال ، حتى يقيم عليه شاهدين عَدْلين ، أنه ولّى بخاتمَ ربه وبراءته ، فقال له ابن سريج : فيلزمنى فى هذا مايلزمك فى قولك :

* وأمنع نفسى أن تنال محرّما *

فضحك الوزير ، وقال : لقد جمعتُما ظَرْفاً ولطفا وعلماً وفَهْماً .

اشتملت هذه الحكايةُ على أنّ هذين الرجلين العالمين على اشتهارهما بالعلم والفضل والدِّين كانا يرتاحان إلى التعشّق على سبيل التظرّف والتزام التعفّف على مايليق ويشكل بمنصبهما ؛ وإذا كان التّعشُّق بشرط العفاف ، فإنّما يزيد الرَّجُلَ الفاضل رقّة طبع ، وحلاوة شمائل .

وقال ابنُ سريج فى مَرَضه الذى مات فيه : أُريتُ فى المنام البارحة كأنّ قائلا يقول : هذا ربُّك يخاطبك ، فسمعته يقول : ماذا أجبتم المرسلين ؟ فقلت : بالإيمان والتّصديق ، قال : فقيل : ماذا أجبتم المرسلين ؟ فوقَعَ فى نفسى أنه يُراد منى زيادة فى الجواب ، فقلت : بالإيمان والتصديق ، غير أنا قد أصبنا من هذه الذنوب ، فقال : أمَا إنّى سأغفرها لك .

وتُوُفّىَ لخمس مضين من جمادى الأولى سنة ست وثلثمائة ، وبلغ سنه سبعاً وخمسين سنة وستة أشهر ، ودفن فى حجرة بسويقة غالب ببغداد رحمة الله عليه .

[طائفة من شعر النسيب]

ونذكر الآن من نفيس الشعر المضمّن « مَنْ ظفر من محبوبه بمراده من

(١) طبقات الشافعية ٣ : ٢٧ .

الوصال ، ثم عفّ عما يخلّ بأهل الجلال » ، قال إدريس بن اليمان :

لم تدر ما خلّدت عيناك فى خَلَدِى ... من الغرام ولا ما كابدتْ كَبِدى
أفديك من زائرٍ رام الدنوّ فلم ... يسطعه من حُرَقٍ فى الدّمْعِ مَتّقِدِ
خاف العيون ، فوافانى على عَجَلٍ ... معطّلا جِيدُهُ إلاّ مِنَ الغَيَدِ
عاطيتُه الكأس فاستحيتْ مدامتُها ... من ذلك الشّنَب المعسولِ والبَرَدِ
حتى إذا غازلتْ أجفانَه سِنةٌ ... وصيّرته يدُ الصّهباء طوعَ يَدِى
أردتُ توسيدَه خدّى وقلّ له ... فقال : كفّك عندى أفضَلُ الوُسُدِ
فبات فى حرمٍ لا غدر يُزْعِجُهُ ... وبتُّ ظمآن لم أُصْدِرْ ولم أُرِدِ
بدرٌ ألمّ وبدرُ التّمّ منمحقٌ ... والأفق محلولكُ الأرجاء من حَسَدِ
تحيَّر الليل فيه ، أين مطلعُه ... أما دَرى اللّيل أن البدر فى عَضُدِى!

وقال الرّمادىّ :[1]

وليلةٍ راقبتُ فيها الهَوَى ... على رقيب غيرِ وَسْنَانِ
والرّاح ما تنزل عن راحتى ... وقتًا ومن راحة نَدْمَانِى
وربّ يومٍ قيظه منضجٌ ... كأنّه أحشاء ظَمآنِ
أبرزَ من خدّيْهِ لى رشْحَهُ ... طَلاًّ على وَرْدٍ وسَوْسَانِ[2]
وكان فى تحليل أزْرَارِهِ ... أقْوَدَ لى من ألف شَيْطَانِ
فتحتُ الجنّة من جَيْبِهِ ... فبتّ فى جنّةِ رضْوَانِ
مروءةٌ فى الحبّ تنهى بأن ... يُجاهَرَ اللهَ بعصيان

وقال سعيد بن حميد :

زائرٌ زارَنا على غير وعدٍ ... أهيف الكَشْحِ ، مُثْقَلُ الأردافِ

---

(١) هو يوسف بن هارون الرمادى ؛ والأبيات فى المطرب لابن دحية ٤

(٢) الرشح : العرق ؛ والطل : قطرات الندى .

غالب الخوف حين غالبه الشَّوْ ق فأخفى الهوى وليس بخافِي
غضّ طرفى عنه تقى الله واختر تُ على بذله بقاء التَّصافِي
ثم ولّى والخوف قد هزّ عِطْفَيْ هِ ، ولم نَخْلُ من لباسِ العَفافِ

وقال بعض الطالبيين :

رموْنِي وإيَّاها بشَنْعاء هم بها أحقُّ ، أدال الله منهم وَعَجَّلاَ
بأمرٍ تركناه وربّ محمدٍ جميعا ، فإما عِفَّـــةً أو تحمُّلاَ

وسنزيد ما يستحسن فى العفاف وضده فى الثانية عشر .

قوله : « عَلَم السَّرُوجيّة » ، أى مشهورها . والعلَم : الجبل .

* * *

فلَبِثتُ إلى أنْ زَهَرَتْ نجومُ الظَّلامِ ، وَانتثَرَتْ عُقُودُ الزِّحامِ ، ثُمَّ قصَدْتُ فِناءَ الْوَالِي ، فإذا الشَّيخُ لِلْفتى كالِى ، فنشَدْتُهُ الله : أهُو أبو زيد ؟ فقال : إى ومُحِلِّ الصَّيْدِ ! فقُلْتُ : مَنْ هذَا الْغُلامُ ، الَّذِى هَفَتْ لهُ الأحْلاَم ، قال : هُوَ فى النَّسَبِ فَرْخِى ، وفِى الْمُكْتَسَبِ فَحِّى ، قُلْتُ : فهَلَّا كَفَيْتَ بمحاسِنِ فِطْرَتِهِ ، وكفيْتَ الوالِيَ الافتِنانَ بِطُرَّتِهِ ! فقال : لَوْ لم تُبْرِزْ جبْهَتُه السِّينَ ، لَمَا قَنْفَشْتُ الْخَمْسِين ، ثُمَّ قالَ : بت الليلة عندِى انْطِفْ نَارَ الْجَوَى ، وَندِيلَ الْهَوَى من النَّوى ، فقَدْ أَجْمَعْتُ على أن أنسَلّ بِسُحْرَة ، وَأُصْلِىَ قَلْبَ الوَالى نَارَ حَسْرَة .

* * *

رفع المسهم

لبثت : أقمت. عقود : جمع عقد ، أراد ما يعقد من جموع النّاس فى الزّحام . انتثرت : افترقت . زهرت : أضاءت. الفِناء : ما حول الدار . ناشدته : سألته . هفت ، أى طارت. الأحلام : العقول. فطرته : خِلْقته. تبرز : تظهر. والطّرّة : قد تقدمت ، وشبّه اعتدالَ الشّعر على الجبهة بشكل السين على السّطر ، وأخذه من قول التّهامىّ :

يارُبّ معنًى بعيد الشأن نَسْلُكُهُ ... فى سلك لفظٍ قريب الفهم مُخْتَصرِ (١)

لفظٌ يكون لِعِقْدِ القول واسطةً ... ما بين منزلة الإسهاب والْحَصَرِ

إن الكتابة صارت تحت أُنملهِ (٢) ... والُجود فالتقيا منه على قَدَرِ (٣)

تردّ أقلامُه الأرماحَ صاغرةً ... عكساً ، كعكس شُعاع الشّمس للقمَرِ (٤)

وفى كتابك فاعذُرْ مَنْ يهيم بهِ ... من المحاسن ما فى أحسن الصُّوَرِ

الطِّرْس كالخدّ والنونات دائرة (٥) ... مثل الحواجبِ والسِّينات كالطُّرَرِ

ومن ملح الخبز أرزىّ :

وبنفسى من إذا خمّشتُه ... نثر الوردُ عليه وَرَقَهْ

وإذا مَسَّتْ يدى طرّتَهُ ... أفلتت منه فعادت حَلَقَهْ

أخذها من حكاية لعمر بن أبى ربيعة ؛ حدّث المغيرة بن عبد الرحمن ، قال :

---

(١) ديوانه ٤٥ ، وفيه : « أسلكه » .

(٢) الديوان : « سارت » .

(٣) الديوان : « فالتقيا فيه » .

(٤) بعده فى الديوان :

يجلُو بياضَ المعانى سودُ أحرفها ... إنّ الظّلامَ ليجلُو رونق السَّحَرِ

(٥) الديوان « الطرس كالوجه » .

رفع المسهم

حججت مع أبي وأنا غلام ، عَلَيَّ جُمَّة[1] ، فجئت عمرَ فسلَّمت عليه ، فجلست عنده ، فجعل يمدّ الخُصْلة من شعري ثم يرسلها ، فترجع على ما كانت عليه ، ويقول : واشباباه ! حتى فعل ذلك مرارا ، ثم قال لي : يابن أخي ، قد سمعتني أقول في شعري : قالت وقلت ... وكلّ مملوكٍ لي حرّ إن كنتُ كشفتُ عن فَرْج امرأة حرام قطّ ، فسألت عن رقيقه ، فقيل لي : أما في الحوْك فسبعون سوى غيرهم[2] .

وساير عمرَ عُروة بن الزبير يحدِّثه ، فقال : وأين زين المواكب؟ - يعني ابنه محمداً ، وكان يُعرف بذلك لجماله - فقال عروة : هو أمامك ، فركد يطلبه ، فقال له عروة : يا أبا الخطّاب ، أولسنا أكفاء كراماً لمحادثتك ! قال : بلى ، بأبي أنت وأمي ، ولكني مغرًى بهذا الجمال حيث كان ، ثم التفت إليه ، وقال :

إنّي امرؤٌ مُولَعٌ بالحسن أتبعُه ... لاحظَّ لي فيه إلاّ لذّةُ النَّظَرِ[3]

أخذه العباس بن الأحنف ، فقال :

أتأذنون لصبٍّ في زيارتِكُمْ ... فعندكم شهواتُ السَّمْع والبَصَرِ
لا يضمر السُّوء إن طالت إقامته ... عفُّ الضمير ولكن فاسق النَّظَرِ

[مما قيل في حلق الشعر]

ومما يتعلق بذكر الشَّعر حِلاقه ، والشعر فيه كثير ؛ فنلمّ منه باليسير .

وأول من قَرَع هذا الباب - فيما يذكر - القائل :

حَلَقُوا رأسَهُ ليكسُوه قُبْحاً ... خيفة منهمْ عليه وَشُحّا

---

(١) الجمة : شعر الرأس .
(٢) الخبر في الأغاني ١ : ٧٧ .
(٣) الأغاني ٣ : ١٤٦ ، ١٤٧ .

كان من قبل ذاك ليلاً وصُبْحاً فمحوْا لَيْلَهُ وأبقوْه صُبْحا

وقال أبو العباس القُرَيعيّ :

كان إلاّ قَمَرا تحتَ دُجًى فانْجَلى اللَّيلُ ولاح القمَرْ
أو كزهْرٍ فى كمامٍ كامنٍ شققتْ عنه فتمّ الزَّهَرْ

وقال أبو العباس بن حَيّون :

حلقوكَ فى تغيير حسنكِ رغبةَ فازداد حسنُكَ بهجةً وضِياء
كالخمر فُضّ ختامه فتشعشعتْ والشَّمع قُطَّ ذُبَالُهُ فأضاء

* * *

قوله: «قنفشتُ» ، أى أخذت بسرعة ، تقول : قفشت الشيء ، قفشا إذا جمعت عليه كفَّك بسرعة ، وقد انقفشت العنكبوت ، إذا دخلت حُجْرها .

قوله: «الجوى» ، أى مرض القلب. نُدِيل: نعوّض، والإدالة: أن يكون الشيء لك مرة ولغيرك أخرى وهى من الدَّوْلة. النوى: البعد أو يريد: هلّم نجدّد المودّة فى هذه الليلة ، ويكون ذلك عِوَضاً من طول الفراق ، فقد عزمت على أن أنسلّ بالسَّحَر وأفرّ ، والانسلال: الخروج مستخفياً . أُصْلِى قلب الوالى : أجعله متحرّقا بالتحسر والتفجع .

* * *

قال : فَقَضَيتُ اللَّيْلَةَ مَعَهُ فى سَمَرٍ ، آنَقَ مِنْ حَدِيقَةِ زَهَرٍ ، وَخميلَةِ شجر ، حَتّى إِذَا لاَحَ الأُفُقَ ذَنَبُ السِّرْحانِ ، وَآنَ انبلاجُ الفَجْرِ وحانَ ، رَكِبَ مَتْنَ الطَّرِيق ، وَأَذَاقَ الوالِىَ عذَابَ الحَرِيق ، وسلَّمَ إِلَىَّ سَاعَةَ الْفِرَاقِ ، رُقْعَةً مُحْكَمَةَ الإِلْصَاقِ ،

وقالَ : ادْفَعْها إِلَى الْوَالِى إذا سُلِبَ القَرار ، وَتَحَقَّقَ مِنَّا الفِرَار ؛ فَفَضَضْتُها فِعْلَ المتملِّس ، مِن مِثْلِ صَحِيفةِ الْمُتَلَمِّسِ .

* * *

قَضَّيْت : أتممت . سَمَر : حديث بالليل يُسْمَرعليه . آنق : أحسن . حديقة : بستان ، ولا تكون إلا تحت حائط أو زَرْب . زَهْر : نوْر . خميلة : روضة فيها شجر . لألأ : لمع وأضاء . الأفق : جهات السماء . ذَنَب السِّرْحان ، هو الفجر الكاذب ، وهو ضوء يظهر قبل الفجر دقيق متصعِّد إلى السماء . والسِّرْحان : الذئب ، شبّه ضوءه بذنبه . آن : حَانَ وقَرُب . انبلاج الفجر : ظهور ضوئه . متن : ظهر . الحريق : النار . سلّم : ترك . محكمة الإلصاق : متقنة الطيّ . القرار : السكينة ، يريد أنَّ الوالىَ إذا أخبر بَهَرِ بنَا ذهب عقله ، فجعل يتململ ولا يقرّ . فضضتها : كسرت ختامها .

[ذكر المتلمس وصحيفته]

والمتلمّس ، شاعر مشهور ، اسمه جرير بن عبد المسيح ، وسمِّىَ المتلمّس بقوله :

فهذا أوانُ العِرْضِ جُنَّ ذبابُه زنابيرُه والأزرق المتلمِّسُ[1]

وهو مأخوذ من تلمّس الرجلُ الحاجةَ ، إذا طلبها سرًّا من غيره ، وأصل ذلك من اللّمس باليد ، كالذى يلمس بيده فى الظلام مواضعَ خفيَّة يطلب منها شيئاً ضاع منه ، أو كلمس الأعمى شيئاً بيده .

---

(١) القصر والممدود ١٣٣ ، قال فى شرحه : العرض : الوادى ، ويروى : « حمى ذبابه » .

ومن كلام عامّتنا: فلان يتلمّس، بسكون التاء، أى يَدخل بين الناس باستخفاء ولا يُشعَر به.

والمتلمّسُ أحد الثلاثة الذين اتفق العلماء على أنهم أشعر المقلِّين فى الجاهلية، وهم: المتلمّس والمسيّب بن عَلَس وحُصين بن الحمام.

والمتمّلس، بالميم قبل اللام، هو المتخلّص الذى يطلب السلامة والخلاص بسهولة، وقد أملس إذا خرج من بين القوم هارباً وهم لايشعرون، وقدأملس الشىء، إذا سقط من يدك ولم تشعر به لملاسته.

والصحيفة: الكتاب. وقصّتها [1] أن المتلمّس وطَرَفة كانا يتنادمان مع عَمْرو ابن هند ملك الحيرة - وكان سيّىء الخُلق شديده، وهو الذى حرّق من تميم مائة رجل، فهجوه، فقالَ فيه المتلمس - وكان طرده لشىء بلغه عنه:

أطردتنى حَذَر الهجاء ولا واللّات والأنصاب لاتئلُ [2]

أى لا تنجو.

وقال فيه أيضاً:

إن الخيانة والمغالةَ والخَنا والغَدْرَ نتركه ببلدة مفسدِ [3]
ملك يلاعب أمَّه وقطينها رِخْو المفاصل أيْرُهُ كالمِبْرَدِ
فإذا حللت ودون بيتىَ غَاوَةٌ [4] فابرِقْ بأرضك ما بدالك وارعُدِ

وقال طَرَفة:

فليت لَنَا مكان الملك عمرٍو رَغُوثاً حول قُبّتنا تَخُورُ [5]

---

(١) جمهرة الأمثال ١ : ٥٧٩ - ٥٨٢، الميدانى ١ : ٣٩٩.
(٢) الأغانى ٢٣ : ٥١٦ (طبع الثقافة ببيروت).
(٣) شعراء النصرانية.
(٤) غاوة: قرية من قرى حلب.
(٥) ديوانه ٩٠ - ٩٦، والرغوث: النعجة المرضع.

لعمرك إنّ قابوس بن هندٍ ليخلط ملكَه نَوْكٌ كثيرُ[1]

فى أبياتٍ شهرتُها تنبى وتغنى عن ذكرها ؛ فاستحيا أن يقتلهما بحضرته ، وبينهما إدلالُ المنادمة ، فكتب لهما بصحيفتين ، وختمهما لئلاً يعلما ما فيهما ـ هو أوّلُ مَنْ ختم الكتاب ـ وقال لهما : اذهبا إلى عاملى بالبحرين ، فقد أمرتُه أن يصلَكما بجوائز . فذهبا فمرّا بطريقهما بشيخ يحدِث ويأكل من خبز بيدِه ، ويتناول القمل من ثيابه ويقصعه ، فقال المتلمّس : ما رأيت شيخاً كاليوم أحمق من هذا ! فقال الشيخ : ما رأيتَ من حُمْقى ! أخرِج الداء ، وآكل الدّواء ، وأقتل الأعداء. ويروى: أقتل عدوًّا ، وأدخل طيّباً ، وأخرج خبيثا ، أحمقُ والله منّى مَنْ يحمل حتفَه بيده .

فاستراب المتلمّس بقوله ، وطلع عليهما غلام من أهل الحِيرة من كتّاب العرب ، فقال له المتلمّس: أتقرأ ياغلام ؟ قال : نعم ، ففكّ الصحيفة فإذا فيها : فإذا أتاك المتلمس فاقطع يديْه ورجليْه وادفنه حيًّا : فقال لطرفة : ادفع إليه صحيفتك ، فإنّ فيها مثل هذا، فقال طَرَفة : كلا لم يكن ليجترئ علىّ ـ وكان غِرًّا ! صغير السِّنّ ـ فقذف المتلمس بصحيفته فى نهر الحيرة ، وقال :

قذفتُ بها فى الثُّنى من جَنْب كافرٍ كذلك أقنُو كل فظّ مضلّل[2]
رضيت لها بالماء لمّا رأيتُها يجولُ بها التيّار فى كل جَدْوَلِ

وأخذ نحو الشأم وقال :

ألقَى الصحيفة كى يخفّفَ رَحْلَه والزّاد حتى نعلَه ألقاها

أراد :أنه تخفف للفرار ، فألقى مالا يُثقِل ، وما لابدّ للسفر منه .

---

(١) النوك : الحماقة

(٢) الشعر والشعراء ١ : ١٣١ . الثنى : منعطف النهر . كافر : اسم علم لنهر الحيرة ، وأقنو ، أى أجزى .

رفع المسهم

وقال حين نجا :

مَنْ مبلغ الشّعراء عن أخويهِمَ ... خبراً فتصدُقَهم بذاكَ الأنفسُ[1]
أوْدَى الذى علقِ الصحيفة منهمَا ... ونَجَا - حِذار حبائِهِ - المتلمِّسُ
أُلْقِ الصحيفة ، لا أبالك إنَّمَا ... يُخشَى عليك من الحِبَاء النِّقْرِسُ[2]

وأما طَرَفة فوصَل إلى البحْرين ، فلما قرأ العامل صحيفته ، وسأله عن المتلمّس فأخبره بفِراره ، عفا عنه لصدْقه ورعايته لطابع الملك حيث لم يفكّه .

وقيل : إنه سَجَنه ، وبعث إلى عمرو بن هند ، وقال له : ما كنت لأقتُل طَرَفة ، وأعادى قبيلته ، فإذا أردت قتله ، فابعث إليه مَنْ يقتله . ففعل وخُيِّر فى قتله ؛ فاختار أن يُسقى الخمر ، ويُفصَدَ أكحَلُه[3] ؛ ففُعِل به ذلك حتى مات نزفاً ، ودفن بهَجَر . وقيل فى قتله غير ذلك .

وقال البحترى يصدّق ما تقدم :

ولقد سكنت إلى الصدود من النَّوَى
والشَّرْىُ أَرْىٌ عند طعم الحنظَلِ[4]
وكذاك طِرْفة حين أوجس ضربةً ... فى الرأس هان عليه فَصْدُ الأكحَلِ

وقال ، وهو فى السجن يخاطب قومه :

أسلمنى قومى ولم يغضبُوا ... لسوءةٍ حلّت بهم فادحَهْ[5]
كلّ خليلٍ كنتُ خالَلتهُ ... لا تترك الله له واضِحَهْ
كلّهم أروغُ من ثعلبٍ ... ما أشْبَهَ اللَّيْلَة بالبَارِحَهْ !

---

(١) الشعر والشعراء ١ : ١٣١ ، ١٣٢ .
(٢) النقرس : داء معروف فى الرجلين ، وفسره فى اللسان ٨ : ١٢٧ بالداهية .
(٣) الأكحل : عرق فى اليد ، ويسمى عرق الحياة .
(٤) ديوانه ١٧٤٣ .
(٥) العقد الثمين ٥٤ .

رفع المسهم

وقال يخاطب عمرو بن هند فى السجن :

أبا منذرٍ كانت غروراً صحيفتى ولم أعطِكُمْ بالطَّوْعِ مالى ولا عِرْضِى (١)
أبا منذرٍ أفنيتَ فاستبق بعضَنَا حَنَانَيْكَ بعضُ الشَّرِّ أهونُ من بَعْضِ

وقتِل وهو ابن عشرين سنة ، والعرب تقول : أشعر الناس ابنُ العشرين وتعنيه ، إلاَّ أنَّ أبا العباس أنشد لأخته ترثيه :

عَدَدْنَا لَهُ ستًّا وعشرين حِجَّةً فلما توفىَّ واستَوَى سَيِّداً ضَخْما (٢)
فُجِعْنا به لمَّا رَجَوْنَا إيابَهُ على خَيْرِ حالٍ ،لا وليداً ولا قَحْما (٣)

وهلك المتلمّس فى الجاهليّة ببُصْرى.

* * *

فَإِذَا فيهَا مَكْتُوبٌ :

قُل لِوَالٍ غادَرْتُهُ بعدَ بَيْنِى سادِمًا نادِمًا يَعَضُّ اليَدَيْنِ
سَلَبَ الشيخُ مَالَهُ ، وَفَتَاهُ لُبَّهُ ، فاصْطَلَى لَظَى حَسْرَتَيْنِ
جادَ بالعَيْنِ حِينَ أعْمَى هَواهُ عَيْنَهُ فانثنى بِلاَ عَيْنَيْنِ
خَفِّضِ الحُزْنَ يامُعَنَّى فما يُجْـ ـدِى طِلاَبُ الآثارِ مِن بَعْدِ عَيْنِ
وَلَئِن جَلَّ مَاعَرَاكَ كما جَلَّ لَدَى المسلمين رزءُ الحُسَيْنِ
فقدِ اعْتَضْتَ مِنهُ فهماً وحزماً واللَّبِيبُ الأريبُ يَبغِى ذَيْنِ
فاعْصِ مِنْ بَعدِهَا المطامِعَ وَاعْلَمْ أنَّ صَيدَ الظِّبَاءِ لَيْسَ بِهَيْنِ

---

(١) ديوانه ٢٠٩ ، ٢١٠ .
(٢) الكامل للمبرد ١ : ٢٥٨ . وروايته : « فلما توفاها » :
(٣) القحم : الرجل المتناهى سنا .

رفع المسهم

لَا ولا كلُّ طائرٍ يلجُ الفَسخَّ وَلَوْ كان مُحْدَقاً باللُّجَيْنِ
ولَكَم مَنْ سَعَى ليصطادفاصطِ يدَ ولَم يَلْقَ غَيْرَ خُفَّيْ حُنَيْنِ

* * *

قوله : «غادرته» ، أى تركته . يعضّ اليدين : تندماً . سادماً : متغيّراً ، والسادم : المتغيّر العقل من الغمّ ، من قولهم : ماء سدِم ، ومياه سَدِم وأسْدام ، أى متغيّرة ، وقيل : السَّديم : الحزين الذى لا يُطيق ذهاباً ولا مجيئاً ، من قولهم : بعير مسدَّم ، إذا منِع من الضِّراب ، فكأنّ الحزين منع من الذهاب والمجىء ، فيقول : تركته يعضّ يديه تندماً وتلهُّفاً . اللظى : لهب النار ، وقد لظت النار : عَلاَ لهبُها ؛ فيريد أنّ الشيخ أخذ ماله والفتى عقله ، فاحترق بنار فَجْعَتَيْن جاد : سَمَح . العين : الذهب . هواه : تعشُّقه وميله : انثنى . رجع . بلا عينين ، أى بغير مال ولا بصر . خفّض : سكّن . معنًّى : معذَّب . يجدى : ينفع ، والعين ها هنا : الشخص .

* * *

[أصل المثل : طلب أثراً بعد عين]

وقولهم : طلب أثراً بعد عين ، كأنّ رجلا تمكّن من عدوّه أو مِنْ صيد ليرميَه ، فتراخى عنه حتّى فاته ، ثم شدّ فى طلبه بعد الفَوْت ؛ وأوّل مَنْ قال ذلك مالك بن عمرو العامرىّ ؛ وكان بعض ملوك غسان أخذه وأخاه سماكاً بسبب قتيلٍ كان له فى عمالته ، فحبسهما زماناً ، ثم قال لهما : إنى قاتلُ أحدكما ، فجعل كلّ واحد منهما يقول : اقتلنى مكان أخى ، فقتَل سماكاً وخلّى مالكاً ، فقال سِماك حين ظنّ أنه مقتول :

رفع المسهم

وأقسم لو قتلوا مالـكاً لـكنتُ لهم حيَّةً رَاصِدَهْ
برأس سبيل على مرقبٍ ويوما على طُرُقٍ وَارِدَهْ
أأُمَّ سماكٍ فـلا تجزعِي فللموتِ مَا تَـلِدُ الوَالِدَهْ

وانصرف مالك إلى قومه ، فلبث فيهم زمانا . ثم إن ركبا مرُّوا بهم فأحدهم يغنِّى بهذا البيت :

* وأقسم لَوْ قتلوا مالـكا *

فسمعتْ بذلك أمّ سماك ، فقالت: يامالك ، قبَّح الله الحياة بعد سماك! اخرج فى طلب ثأر أخيك ، فخرج فَلَقِيَ قاتل أخيه فى ناسٍ من قومه ، فقال : مَن أحسّ لى الجمل الأحمر ! فعرّفوه ، فقالوا له : لك مائة من الإبل ، وكُفّ عنه ، فقال : لا أطلب أثراً بعد عين ، فذهبت مثلاً ، ثم حَمَل على قاتل أخيه فقتله[1] .

* * *

قوله : «جَلّ» ، أى عظم . عراك : قصدك . رزء الحسين: المصاب بقتله حين قتل بكربَلاء .

[رزء الحسين *]

وحديثه أن معاوية لمـّا مات أرسل إليه أهل الكوفة أنْ قد حبسنا أنفسنا على بَيْعتك. وطُولب بالمدينة أن يبايع يزيد ، فخرج إلى مكة ، وأرسل ابنَ عمّه مسلم ابن عَقِيل إلى الكوفة وقال له : إن كان حقًّا ما كتبوا به ، فعرّفنى ألحق بك. فخرج من مكّة للنصف من رمضان ، وقَدِم [الكوفة] لخمسٍ خَلَوْن

(١) جمهرة الأمثال ٢ : ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، وأورد فى معنى الأثر قول حبيب :
قالُوا أتبكى على رسمٍ فقلتُ لهمْ من فاتَهُ العينُ هَدَّى شَوْقَه الأثرُ
(*) انظر خبر مقتل الحسين فى تاريخ الطبرى حوادث سنى ٦٠ ، ٦١ .

من شوّال ،وأميرها النّعمان بن بشير ، فدخل مستتراً ، فبايعه من أهلها ثمانية عشر ألفا . فكاتبه[1] بذلك. فلمّا همّ بالخروج لقيه ابنُ عَباس رضى الله عنهما، فقال له: يا بنَ عمّ ، أهلُ العراق أهل غدرٍ ، وإنّما يدعونك للحرب ، فقال له : يا بنَ عمّ ، كتب إلىّ مسلم باجتماع أهل الكوفة علىّ ، فقال له : قد جرّبتهُم ، وهم أصحاب أبيك وأخيك . وقتَلتُك غداً مع أميرهم ، إذا بلغ ابنَ زياد خبرُك استفزّهم، فكان الذين كتبوا إليك أشدّ عليك عن عدوّك ، فإن أبيتَ إلاّ الخروج فلا تخرجَنّ بنسائك وولدك معك ، فإنّى لخائف أن تُقتَلَ كما قتل عثمان ، ونساؤه وولده ينظرون إليه . فردّ عليه : لأن أُقتَلَ بموضع كذا[2]، أحبُّ إلىّ من أن أُستَحَلّ بمكة .

واتّصل الخبر بيزيد ، فكتب إلى عُبيد الله بن زياد بتوليتهِ الكوفة . فخرج مسرعا ، فدخلها فى حَشَمه وهو ملثّم ، والناس يتوقّعون قدومَ الحسين ، فجعل عُبيد الله بن زياد يسلّم على الناس ، والناس يقولون : وعليكَ السلام يابنَ رسول الله ، قدمت خير مقدمٍ ،حتى انتهى إلى القصر .

فحسر اللّثامَ، ففتح له النعمان الباب ،وتنادى النّاس: ابن مَرْجانة ، فحصبوه بالحصباء ، ففاتهم . ووضع الرّصد فى طلب مُسلم ، فصاح مسلم : يا منصور — وكان شعارهم — فاجتمع له فى ساعة واحدة ثمانيةعشر ألفا . فأحاطوا بالقَصْر فقاتلوا ابنَ زياد ، فلم يُمسِ المساءُ ومعه مائة رجل. فلما رأى تفرّقهم سار نحو أبواب كِنْدة ، فبلغ الباب ومعه ثلاثة ، فخرج وليس معه أحد ، فبقىَ حائراً لا يدرى أين يتوجّه ، فنزل من على فرسه، ودخل أحد أزقّة الكوفة ، فانتهى إلى باب مولاة لمحمد بن الأشعث ، فاستسقاها فسقته ، وأعلمها حاله ،

(١) أى كاتب الحسين .

(٢) تاريخ الطبرى « فقال له حسين : إنى أستخير الله وأنظر ما يكون » .

خرقت له ، فآوته وأعلمت محمد بن الأشعث بمكانه ، فمشى إلى ابن زياد ، فأعلمه ، فوجّه معه سبعين رجلا ، فاقتحموا عليه ، فقاتلهم مُسلم ، وأمّنه محمد بن الأشعث ، وحمله إلى ابن زياد فضرب عنقه ، وبعث برأسه إلى يزيد بن معاوية ، فصلب جُثّته .

وانتهى الأمر إلى الحسين ، وقد بلغ القادسيّة ، فهمّ بالرجوع ، فقال له إخوة مسلم : لا نرجع أو نُقتَل ، أو نأخذ بثأرنا ، فقال الحسين : لا خيرَ فى العيش بعدكم ، فسار حتى لَقِيَ خيلاً لابن زياد ، وعليها عمر بن سعد بن أبى وَقّاص ، فعدَل إلى كربَلاء ، وهو فى نحو خمسمائة فارس ، فلما كثرت العساكر أيقن أنّه لا محيص له ، فقال : اللهمّ احكُم بيننا وبين قومٍ دَعَوْنا لينصرونا ، ثم هُمْ يقاتلوننا ! ثم خطب قومه فقال : يا عبادَ الله ، اتّقوا الله ، وكونوا من الدنيا على حذرٍ ، فإن الدنيا لو بقيت على أحدٍ ، أو بقىَ عليها أحد ، لكانت الأنبياء أحقّ بها وبالبقاء ، غير أنّ الله خلقها للفناء ، فجديدُها بالٍ ، ونعيمها مضمحلّ ، وسرورها مكفهرّ ، والدارُ قلعة ، والمنزل تَلْعَة[1] ؛ فتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقوا الله لعلكم تفلحون .

ثم قاتل حتى قُتِل رضى الله عنه وفيه ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة ؛ وتولّى قتله سِنان بن أنس النّخعىّ ، واحتزّ رأسه ، وانطلق به مسرعاً إلى ابن زياد ، وهو يقول :

أوقِرْ ركابى فضّة وذهباً إنى قتلت الملكَ المحجّبا
* قتلتُ خيرَ الناس أمًّا وأبا *[2]

وبعث معه الرأس إلى يزيد بن معاوية ، وعنده أبو بَرْزة ، فجعل ينكت بالقضيب على فيه ، وهو يقول :

نفلّق هاماً من رِجالٍ أعزّةٍ علينا ، وهم كانوا أعقّ وأظلَما[3]

(١) يقال : هو على قلعة ، أى على رحلة ، والتلعة : مجرى الماء من أعلى بطون الأرض والنزول عليه مخوف .
(٢) بعده فى الطبرى :
* وخيرَهُمْ إذْ يُنْسَبُون نسبا *
(٣) حصين بن الحمام المرى ، من المفضلية ١٢

فقال له أبو برْزة : ارفع قضيبك عن فمه ، فلقد رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يلثمُه .

وقتِل يوم عاشوراء سنة إحدى وستين ، وقتِل معه سبعة وثمانون ، منهم علىٌّ ابنُه الأكبر ، ومن ولد أخيه الحسن عبد الله والقاسم وأبو بكر ، ومن إخوته العباس وعبد الله وجعفر ومحمد وعثمان بنو علىّ ، ومن بنى عمّه جعفر ومحمد وعون أبناء عبد الله بن جعفر . ومن ولد عَقِيل عبدُ الله وعبد الرحمن وجعفر ، ودفنهم أهل القادسيّة بعد قتلهم بيوم ، وقتلوا هم من أصحاب عمر بن سعد ثمانية وثمانين .

* * *

قوله : «اعتضت» : اقتلعت من العِوَض . يبغى ذين : يطلب هذين . الظِّباء : الغزلان . يَلِج : يدخلُ . محدَقاً باللّجين ، أى محلّقاً بالفضة ، والصائد يفرّق حول الفخ حبَّ القمح وشبهه ، فيلقطه الطائر حتى يتوصّل إلى ما نُصِب له فيقع ، فقال : ما كلُّ طائر يُخْدَع ، ولو خُلِق له الفخّ بحبّ اللّجين بدلا من القمح ، وإنى من هذا الصنف .

قوله : « ولكم مَنْ سعى ليصطاد فاصطيد » ، من قول الصابى :

يا قمـــراً كالخشْف فى نظرتِهْ وكالقضيب اللَّدْن فى نُضْرَتِهْ
خِلتُكَ صيداً كان فى قَبْضَتِى فصرتُ من صيدِىَ فى قَبْضَتِهْ

والسابق له كعب زهير بن فى قوله :

طافَ الرُّماة بصيدٍ راعهم فإذا بعضُ الرُّماة بنبْل الصيد مقتولُ[1]

* * *

(١) لم يرد هذا البيت فى ديوانه ، وأورده الميمنى فى ملحق الديوان ٢٥٩ ، نقلا عن الشريشى .

رفع المسهم

[أصل المثل : رجع بخفى حنين]

وخُفَّا حُنَين ، يضرب بهما المثل للخائب الخاسر ، واختلف فى حُنين ، فقال يعقوب: إنه كان رجلا مُدّعِياً ، فجاء إلى عبد المطلب ، وعليه خُفَّان ، فقال : ياعم إنى من ولد هاشم ، فأنعَمَ النَّظر فيه ، وقال: لا وعظام هاشم ، ما أرى فيك شمائلَ هاشم ، فارجع خائباً خاسراً .

وقيل: كان رجلاً مغنّياً ، فدعاه قوم من أهل الكوفة .ليُطربَهم فى نزهة، فخرجوا به إلى الصحراء ، فضربوه وسلبوا ثيابه ، وتركوا عليه خُفَّيْهِ ؛ فلما رجع إلى زوجته ـ وكانت تنتظر رجوعَه على عادته بما يفضُل من أطعمة النزهة ـ ورأته على تلك الحالة قالت لكل من سألها : رجَع حُنين بخُفَّيه .

وقيل: إنه كان صانعاً ، فساومه أعرابىّ بخُفّين ، وماكسه حتى أحرجه . فلما ارتحل الأعرابىّ ،أخذ حنين إحدى الخفين فوضعَها على الطريق ، ثم مشى وألقى الأخرى فى موضع آخر على الطريق ، وكمن له ، فلما مرّ الأعرابىّ بأُلخفّ قال : ما أشبه هذه بخفّ حُنين ؛ ولو كان معها الأخرى لأخذتُها . فلمّا انتهى إلى الأخرى ، ندِم على ترك الأولى ، فأناخ راحلَته ، وأخذها ورجع إلى الأولى ؛ فلما غاب عَمَد حنين إلى راحلته بما عليها فركبها ، ومضى بها ، ورجع الأعرابىّ إلى قومه بخُفّين ، فكان إذا سئل عن حاله قال : رجعت بخُفَّىْ حنين فصار مثلا .

وقيل : كان حُنين لصًّا حقيراً فأُخِذَ وصُلِب ، فجاءته أمّه وعليه خفّان فانتزعتهما ورجعت ، فقيل : رجعت بخُفَّىْ حُنين ، أى رضيت منه بذلك .

* * *

رفع المسهم

فتبصَّرْ ولاَ تُشِمْ كلَّ بَرْقٍ ربَّ برقٍ فيهِ صواعِقُ حَيْنِ
واغْضُضِ الطَّرْفَ تَسْترِحْ مِن غرَامٍ تَكْتَسِي فيهِ ثَوْبَ ذلٍّ وشَيْنِ
فبلاءُ الفَتَى اتِّباعُ هَوَى النَّفْسِ وَبِذْرُ الْهَوَى طَمُوحُ عَيْنِ

قال الراوى : فمزَّقتُ رُقْعَتَهُ شَذَرَ مَذَرَ ، ولَمْ أَبَلْ أَعَذَلَ أم عذَرَ .

* * *

قوله «تبصر» : أى أحسن النظر . حَيْن : هلاك . والصاعقة : نار ترسل مع الرعد والبَرْق ، وجمعها صواعق ، وصعق الرجل إذا أصابته ، وصعق إذا مات ، وقيس تقول : صاعقة ، وبنو تميم صاقعة ؛ وقد صقع . غرام : عذاب الحب . شَيْن : عيب . والبَذْر : زرع الحبّ فى الأرض .

طموح : ارتفاع يريد أن أصل العشق مداومة النظر ، ألمّ فيه بقول عيسى عليه السلام : « لا يزنى فرجُك ما غضضتَ بصرَك » ؛ وقد تقدَّم : من كثرتْ لحظاته دامت حسراته .

وقال سابق البربرىّ فى اتباع الهوى :

وهجر الهَوَى للمرءِ فاعلم سعادةٌ
وطُول الهوى رَيْنٌ على القَلْبِ رَائِنُ
فكن دافناً للشَّرّ بالخير تسترحْ من الشرّ إنّ الخير للشرّ دَافِنُ

وقال آخر :

إذا أنت لم تعصِ الهوى قادَكَ الهوى
إلى كلّ ما فيه عليك مقالُ

وقال المتنبي :

عزيزٌ أسى مَنْ داؤه الأعين النُّجلُ ... عناء به مات المحبون مِنْ قَبلُ[1]
فمن شاء فلينظر إليّ فمَنظرِى ... نذيرٌ إلى مَنْ ظنّ أنّ الهوى سَهْلُ
وما هى إلا لحظةٌ بعد لحظةٍ ... إذا نزلت فى قلبه رَحَلَ العَقْلُ

وقال ابن زيدون :

مَنْ يسأل الناس عن حالي فشاهدُه ... محضُ العيان الّذى يُغنى عن الخبَرِ[2]
أما الضّنَى فجنته نظرة عنَنٌ ... كأنّهـا والرّدَى جاءا على قَدَرِ
فهمتُ معنَى الهوى من وَحْيِ طرفك لى
إن الحوار لمفهـــــومٌ مِنَ الحَوَرِ

وقال العبّاس بن الأحنف :

الحبّ أوّل ما يكون لجاجةً ... تأتى به وتسوقُه الأقدارُ[3]
حتى إذا اقتحم الفتى لججَ الهَوَى ... جاءت أمورٌ لا تُطاقُ كِبَارُ

فهذا كله يبيِّن بيت الحريرىّ .

قوله : « مزقت » : قطعت . شذَر مذَر : قِطَعًا متفرقة فى كلّ جهة ، وأصل الشّذر قطع الذهب ، ومذَر اتباع لها .

لم أُبَل : أى لم أبالِ . عذل : لام . عذر : قَبِل العذْر .

---

(١) ديوانه ٣ : ١٨٠ .
(٢) ديوانه ٢٥١ .
(٣) ديوانه ٩٩٦ .

رفع المسهم

فهرست المسهم
غفر الله له ولوالديه

فهرس المقامات

	صفحة
صدر المقامات	١٢ - ٤٦
المقامة الأولى ، وتعرف بالصنعانية ؛ تتضمن ظهور أبى زيد فى مظهر الواعظ ثم كشف حاله بعد ذلك	٤٨ - ٧٤
المقامة الثانية ، وتعرف بالحلوانية ، تتضمّن محاسن من التشبيهات الرائقة فى الشعر .	٧٦ - ١٢٧
المقامة الثالثة ، وتعرف بالدينارية ، تتضمن أشعاراً فى مدْح الدينار وذمّه .	١٣١ - ١٥٧
المقامة الرابعة ، وتعرف بالدمياطية ، تتضمن محاورة أبى زيد مع ابنه فى المواصلة والقطيعة .	١٥٨ - ١٨٦
المقامة الخامسة ، وتعرف بالكوفية ، تتضمن وقوف أبى زيد إلى باب دار ابنه ، يطلب منه القِرَى ومجاوبته له	١٨٩ - ٢١٩
المقامة السادسة ، وتعرف بالمراغيّة ، وتتضمن الرسالة التى فيها كلمات معجمة ، وكلمات غير معجمة	٢٢٤ - ٢٦٨
المقامة السابعة ، وتعرف بالبرقعيدية ، تتضمن تعامى أبى زيد ، وقيام امرأته بقيادته ، وهو يبيع الرقاع المكتوبة	٢٧٢ - ٣٠٧
المقامة الثامنة ، وتعرف بالمعرّية ، تتضمن مخاصمه أبى زيد وابنة فى المِيل والإبرة	٣٠٨ - ٣٣٠
المقامة التاسعة ، وتعرف بالإسكندرانية ، تتضمن مخاصمة أبى زيد لامرأته ، وقيامه ببيع أثاثها ومتاعها .	٣٣٣ - ٣٦٥
المقامة العاشرة ، وتعرف الرحْبية ، تتضمن دعوى أبى زيد على شخص أنه اعتدى على ابنه	٣٧٥ - ٤٤٤

رفع المسهم
غفر الله له ولوالديه

فهرست المسهم
غفرالله له ولوالديه

فهرس الموضوعات(*)

	صفحة
مقدمة الشارح	٣ ـ ٦١
بديع الزمان الهمذانى	٢٢ ـ ٢٤
ذكر همذان	٢٤ ـ ٢٥
السبب فى إنشاء الحريرىّ للمقامات	٢٦ ـ ٢٨
ذكر قدامة بن جعفر	٣٣
عدىّ بن الرقاع	٣٤
القديم و الحديث فى الأدب	٣٥ ـ ٣٦
القول فى الحمام	٣٦ ـ ٤٠
من أقوالهم فى الحقد ذمًّا وحمداً	٤١ ـ ٤٢
مما ورد من الحكم على ألسنة البهائم وغيرها	٤٤ ـ ٤٥
مدينة صنعاء	٥٠ ـ ٥١
نبذ من أقوال الشعراء فى ذم الكبر	٥٦ ، ٥٧
من لطائف التجنيس	٦٣ ـ ٦٤
نبذ من الأشعار فى ذمّ الدنيا	٦٦ ـ ٦٨
أبو نواس فى مجالس الوعظ	٧٠ ـ ٧١
ذكر مدينة حلوان	٧٨

(*) وهى الموضوعات التى وردت فى أثناء الشرح .

رفع المسهم
غفرالله له ولوالديه

صفحة

شعار الكدية
مما قيل فى اللحى من الشعر ٧٨ - ٧٩
البحترىّ وبعض أخباره وشعره ٨٤ - ٨٩
وصية أبى تمام للبحترى ٩٠ - ٩٦
ذكر النرجس وماقال الشعراء فى تشبيه العيون به ٩٧
ذكر الوأواء الدمشقى وبعض شعره ١٠٣ - ١١٠
من قولهم فى الامتحان ١١٠ - ١١٤
يديهة السّلامىّ ١١٦
من نوادر صاعد بن الحسن الربعىّ ١١٧ ، ١١٨
مما قيل فى البديهة الحاضرة ١٢٢ ، ٢٢٣
نقد شعر الحريرىّ ١١٨ - ١٢١
من أقوالهم فى الفراق ١٢٣ - ١٢٥
فصل فى الحسد وما قيل فيه ١٢٥ ، ١٢٦
قصة المثل : أنجز حرٌّ ماوعد ١٣٥ - ١٣٨
مما قيل فى وصف الدينار من الشعر ١٤٣ - ١٤٤
فصل فى الوعد ومذاهب الناس فيه ١٤٤
فصل فى مدح الشىء وذمّه فى وقت واحدٍ ١٤٥ - ١٤٧
مما قيل فى سواد الليل ١٥٤ - ١٥٦
مذاهب الشعراء فى العفو أو الانتصاف ١٦٠ - ١٦٢
مما ورد فى الصبح من الشعر ١٧٠ - ١٧٢
نبذ مما قيل فى الحمام شعراً ونثراً ١٧٣
قولهم : حديث خرافة ١٧٧ - ١٨٠
١٨٦ - ١٨٨

رفع المسهم

صفحة

الكوفة	١٨٩ ـ ١٩١
مما ورد فى وصف الهلال من الشعر	١٩١ ـ ١٩٣
قصة موسى عليه السلام قبل مبعثه	٢٠٣ ـ ٢٠٥
إبراهيم عليه السلام	٢٠٧
مما قيل فى القِرى والأضياف	٢٠٧ ـ ٢٠٨
نبذ وحكايات فى البؤس والحرمان	٢٠٩ ـ ٢١١
ذكر مدينة فيد	٢١١ – ٢١٣
ذكر الكميت فى بعض أخباره وشعره	٢١٩ – ٢٢٣
ذكر قطرى بن الفجاءة	٢٣٢ – ٢٣٦
الحطيئة وسعيد بن القاص	٢٣٩ ، ٢٤٠
فصل فى الدواة والقلم والمداد	٢٤١ – ٢٥١
الضباع وما قيل فيها	٢٦٢ ، ٢٦٣
نبذ مما قيل فى أحوال الدهر	٢٦٣ – ٢٦٥
نبذ وأقوال فى ذم الزمان	٢٦٥ – ٢٦٧
ذكر ابن عباس وبعض أخباره	٢٨٦ – ٢٨٩
ذكر إياس القاضى وبعض نوادره	٢٨٩ – ٢٩٢
ذكر العمى وما ورد فيه من الشعر	٢٩٦ – ٣٠٠
استطراد بذكر أشعار فى التشبيه رائقة	٣٠٣ – ٣٠٦
ذكر معرة النعمان	٣٠٨
القطا	٣١٤ ، ٣١٥
مما قيل فى رفو الثياب من الشعر	٣١٨ ، ٣٧٦

رفع المسهم

	صفحة
مما قالت الشعراء فى الأطمار البالية	٣١٨ ـ ٣٢١
مما ورد من الشعر فى السواد والبياض	٣٣٥ - ٣٣٩
ذكر فرغانة	٣٣٤
ذكر غانة	٣٣٤ ، ٣٣٥
باب فى الحض على السفر وترك العجز	٣٣٩ ـ ٣٤٥
ذكر الإسكندرية	٣٤٦ ، ٣٤٧
أصل المثل : لا عطر بعد عروس	٣٥٣ ، ٣٥٤
ذكر الفرزدق وبعض أخباره	٣٦٨ - ٣٧١
ذكر خبر الكسعى وقوسه	٣٧١ ـ ٣٧٣
نبذ وحكايات مما ورد فى الحسن والجمال	٣٧٦ ـ ٣٨٣
فصل فى ذكر بعض أخبار الولاة	٣٨٤ ـ ٣٨٨
ذكر السليك بن السلكة	٣٨٨ ـ ٣٩٣
إبراهيم النظام وبعض أخباره وشعره	٣٩٤ ـ ٣٩٥
مما قيل فى أنواع الحسن والجمال أيضا	٤٠٩ ـ ٦١٨
ذكر العذراء الانحاء	٣٩٨ ـ ٤٠٩
من أنواع الحلف	٤١٩ - ٤٢٠
ذكر أحمد بن سريج أحد أئمة الشافعية	٤٢٥ - ٤٢٧
طائفة من شعر النسيب	٤٢٧ ـ ٤٢٩
مما قيل فى حلق الشعر	٤٣١ - ٤٣٢
ذكر المتلمس وصحيفته	٤٣٣ - ٤٣٧
أصل المثل : طلب أثراً بعد عين	٤٣٨ - ٤٣٩
رزء الحسين بن علىّ رضى الله عنه	٤٣٩ - ٤٤٢
أصل المثل : رجع بخفىّ حنين	٤٤٣ -

رفع المسهم

استدراك وتعليق *

صفحة	سطر	
٦	٢٠	أبو الحجـــاج الأبذىّ خطأ ، وصوابه : « الأندى » ، منسوب إلى أنده ، مدينة من كورة بلنسية بالأندلس . وانظر الروض المعطار ٣١ ، وبغية الملتمس للضبى ٤٧٧ .
١٠	١٣	أبو عبد الله بن إمام الأئمة الراشدين ، هو محمد ابن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على ، أحد ملوك دولة الملثمين بالمغرب ، بويع بالخلافة سنة ٥٩٥ وتوفى فى سنة ٦١٠ ، وابنه يوسف ولى عهده . وانظر المعجب فى أحوال المغرب ٣٨٦ ، ٣٨٧ .
٢٥	٩	هو أبو بكر بن اللبانة الدانى .
٥٦	٨	الصواب أن اسمه أبو حفص بن عمر السلمى قاضى قرطبة . من أهل أغمات ، وولى أيضاً قضاء فاس وتلمسان وإشبيلية ، وله شعر كثير مطبوع . توفى سنة ٦٠٤ . وانظر نفح الطيب ١ : ٢٧٣ وصلة الصلة لابن الزبير رقم ٣٠ ، والتكملة لابن الأبار برقم ١٨٣١ .

(١) ومعظم هذه الاستدراكات مما أفدته من الصديق العلامة الدكتور محمود مكى عند قراءته لهذا الجزء بعد طبعه .

رفع المسهم

ص ٦٣ ٢ صواب كتاب البيت :

فاحذر هدايا الناس تأمن من المنّ
بها أو قول واش يشى

ص ٦٣ ١٧ الخبر والأبيات فى زهر الآداب ٧٧ ، ٧٨

ص ٦٦ ٢٢ (حاشية ٤) فى ترجمة أبى عمران بن موسى بن عمران : توفى سنة ٦٠٤ ، وله تراجم أخرى فى التكملة لابن أبار برقم ٢١٤٧ والعصون اليانعة ١٣٥ ، وألف باء للبلوى ١ : ٢٣ ، ٣٥٦ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ٣٨٩ .

١٠٧ ١ أبو جعفر بن برد ، خطأ والصواب أن اسمه أبو حفص بن برد ، والبيتان فى الذخيرة ق ١ جـ ٢ : ٤٨ ، ٤٩ ، وله ترجمة فى جذوة المقتبس للحميدى ١٩٢ والذخيرة لابن بسام ق ١ جـ ٢ : ١٨ ـ ٥٢ ، ومطمح الأنفس ٢٧ ، ٢٨ .

١٠٨ ٢ أبو بكر الأبيض ، وهو أحمد بن محمد الأنصارى الإشبيلى ، وانظر ترجمته فى المطرب لابن دحيه ٧٠٦ .

١٢٨ ٢١ الحلوانى القيروانى ، هو عبد الكريم بن فضال الحلوانى القيروانى ، وله ترجمة فى المطرب ٥٩ ، ٧٥ ، والذخيرة لابن بسام ٤ : ٢١٩ ، والرّايات لابن سعيد ١٠٧

١٣٩ ٣ هو أبو بكر بن الجد

رفع المسهم

١٧٧	١٦	هو موسى بن عمران المارتلى
١٧٧	١٦ ، ١٧	الصواب أن الأبيات لأبى عامر بن شهيد ، وانظر الذخيرة لابن بسام ق ١ ج ١ : ٢٥٧
١٧٨	٣ ـ ٦	هذه الأبيات تنسب للمنفتل ، وانظر الذخيرة لابن بسام ق ١ ج ١ : ٢٥٧ .
١٧٨	٧ ، ٨	البيتان فى الذخيرة لابن بسام ق ١ ج١ : ٢٥٨
١٧٨	١١ ، ١٢	البيتان فى الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٥٨
ص ١٧٨	١٣	نسبة البيتين لأبى بكر بن بقى ، وهما بهذه النسبة فى الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٥٨
١٧٨	١٧ ، ٢٨	البيتان فى الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٥٨
٢٠٩	١٢	هو وهب بن سلمة القرطبى ، من أهل النسك والورع بالأندلس ، ذكره الرازى فى كتاب أعيان الموالى برقم ٢٧٢٨ .
٣١٣	٢	الصواب : « اليكىّ » ، بالياء ، واسمه أبو بكر ابن يحيى بن سهل ، وانظر ترجمته فى المغرب لابن سعيد ٢ : ٢٦٦
٣١٧	٩	الحلوانى ، هو عبد الكريم بن فضّال القيروانى ، والأبيات فى الذخيرة ٤ : ٢٢٠
٣٢٠	١٣	الأبيات فى قلائد العقيان ٣٠٠
٣٢١	٢٢ (الحاشية ١)	الغِفار فى الاصطلاح الأندلسى ضرب من العباءة أو الطيلسان .

٣٤٢ ٦ كذا فى جميع الأصوال بنسبة هذا البيت ،
إذا لم أجد فى بلدة ما أريده
فعندى لأخرى عزمة وركاب
إلى أبى الطيب ، والصّواب أن البيت لأبى فراس
من قصيدته البائية الرومية ، ديوانه ٣٨

٣٩٨ ٩ (العنوان) يكتب هكذا : مما قيل فى أنواع الحسن والجمال
أيضاً .

رفع
المسهم
غفر الله له ولوالديه

شرح

مقامات الحريري

للأديب العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الخريشي

تحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

الجزء الثاني

رفع
المسهم
غفر الله له ولوالديه

رفع
المسهم
غفرالله له ولوالديه
2008-12-07

كلية آداب - بنين

شرح مقامات الحريري

لأبي العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

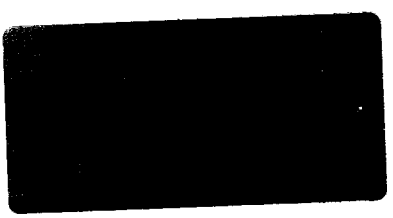

جامعة الكويت
إدارة المكتبات - قسم التزويد
رقم السجل: ١٣٦٧٣٢
التاريخ: ٩٨/٦/٢٥

الجزء الثاني

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

٨١٤,٥

رفع
المسهم
غفرالله له ولوالديه

جميع الحقوق محفوظة

١٤١٣هـ ١٩٩٢م

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية — المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢٠٤٢٧ LE

صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلكس ٢٩١٩٨ LE

رفع المسهم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقامة الحادية عشرة وهي الساوية

حدّث الحارث بن همام ، قالَ : آنَسْتُ مِنْ قَلْبِي القَسَاوَةَ ، حِينَ حلَلْتُ ساوَةَ ، فأخذت بالخَبَرِ المأثورِ ، فى مُدَاوَاتِهَا بزيارَةِ القُبُورِ .

فلمّا صِرْتُ إلَى محلّةِ الأمْوَاتِ ، وَكِفَاتِ الرُّفات ، رَأيتُ جَمْعاً عَلَى قَبرٍ يُحْفَرُ ، وَمَجْنُوزٍ يُقْبرُ ، فانْحَزْتُ إلَيهِمْ مُتَفكِّرًا فى المآلِ ، مُتَذَكِّرًا مَنْ دَرَجَ مِنَ الآلِ .

فلمَّا أَلْحَدُوا المَيِّتَ ، وَفَاتَ قَوْلُ لَيْتَ ، أَشْرَفَ شَيْخٌ مِنْ رِباوَةَ ، متخَصِّرًا بِهَرَاوَة ، وَقَدْ لَفَّعَ وَجْهَهُ بِرِدَائِهِ ، وَنَكَرَ شَخْصَهُ لِدَهائِهِ .

* * *

الحادية عشرة ، تبنى على الفتح كبناء أحد عشر . آنست : أدركت وأحسست .

القَسَاوة : غِلَظ القلب . وقلب قاسٍ وقَسِيّ ، أى صلب ، وقلوب قاسية وقَسِيّة ؛ وهما عن الكسائىّ والفرّاء لغتان بمعنى واحد .

أبو عبيدة : القاسية مأخوذة من القَسْوَة ، والقَسِيّة التى ليست خالصة الإيمان ، كالدرهم القسىّ وهو الذى خالطه غش من نحاس أو غيره ، وقد قسا القلبُ يقسُو قَسَاوة وقَسَاء : صَلُب .

رفع المسهم

ساوَة : بلد بينه وبين الرّى اثنان وعشرون فرسخاً ، وهى فى الطريق ما بين هَمَذان والرّىّ .

* * *

[نبذ من الأقوال الحكيمة فى المواعظ]

الخبر المأثور ، أى المحدّث به ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : « عُودُوا المرضَى ، واحضرُوا المقابر ، فإنّها تزهِّد فى الدنيا ، وتذكّر الآخرة » .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كنتُ نهيتُكم عن زيارة القبور ، ثم بَدَا لِى فزُورُوها ، فإنها ترقّق القلب ، وتدمع العين ، وتذكّر الآخرة » .

وسأل رجل عائشة رضى الله عنها ، فقال : يا أمّ المؤمنين ، إن لى داء فهل عندكِ دواؤه ؟ قالت : وما داؤُك ؟ قال : القسوة ، قالت : بئسَ الدّاء داؤك . عُدِ المرضى ، واشهد الجنائز ، وتوقّع الموت .

وقيل لعلىّ رضى الله عنه : ما شأنك جاورتَ المقبرة ! قال : إنى أجدُهم خيرَ جيران صدْق ، يكُفُّون الألسنة ، ويذكّرون الآخرة .

وكانت عجوز فى عبد القيس متعبّدة ، فإذا جاء الليل تحزّمت ، ثم قامت إلى المحراب ، فإذا جاء النهار خرجت إلى المقبرة ؛ فعُوتبت فى إتيان القبور ، فقالت : إن القلب القاسى إذا جفا لم يليّنه إلا رسوم البِلَى ، وإنّى لآتِى القبور ؛ فكأنى أنظر وقد خرجوا من بين أطباقها ، وكأنى أنظر إلى تلك الوجوه المتعفّرة ، وإلى تلك الأجسام المتغيّرة ، وإلى تلك الأكفان الدّسمة .

وقال ميمون بن مهران : خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة ؛ فلمّا نظر إلى القوم بكَى ، ثم أقبل علىّ فقال : يا ميمون ، هذه قبور آبائى بنى أميّة ،

رفع المسهم

كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا فى لذّاتهم وعيشهم ؛ أما تراهم صَرْعى قد خلت من قَبْلِهِمُ المُثلات ، واستحكم فيهم البِلَى ، وأصابت الهموم فى أبدانهم مقيلاً ، ثم بكى وقال : والله لا أعلم أحداً أنعم ممّن صار إلى هذه القبور وقد أمِنَ من عذاب الله .

استنشد المتوكل أبا الحسن علىّ بن محمد بن موسى بن جعفر بن علىّ بن الحسين ، فقال : إنى لقليلُ الرّواية فى الشعر ، فقال : لا بُدّ ، فأنشده :

باتُوا على قُلَلِ الأجبال تحرسُهُمْ ... غُلْب الرجال فلم تنفعهمُ القُلَلُ[1]
واستُنْزِلُوا بعد عزّ عن معاقِلِهِمْ ... وأُودِعُوا حُفَراً، يابئس ما نزَلوا!
ناداهُمُ صارخ من بعد ما دُفِنُوا : ... أين الأسرّة والتيجان والحُلَلُ؟
أينَ الوجوهُ التى كانت منعَّمَةً ... من دونها تُضرَبُ الأستارُ والكَلَلُ !
فأفْصَحَ القبرُ عنهم حين سِيلَ بهم[2]: ... تلك الوجوه عليها الدُّودُ يَقْتَتِلُ
قَدْ طالمـــا أكلُوا دهراً وما شَربوا
فأصبحوا بعد طولِ الأكل قد أُكِلُوا

قال عمر : لو أنْشِد شعراً فى أوصاف آبائه وبنى عمّه ملوك بنى أميّة وانحطاطهم من عزّ المملكة إلى ذل المقبرة ، لم يكن إلا هذا الشعر .

أبو الحسن القلوىّ كان قد سُعِى به إلى المتوكل ، وقيل له إن فى بيته سلاحاً وكتباً وغير ذلك ، فوجّه إليه بعدّة من الأتراك ، فهجموا عليه على غفلة ممّن فى داره ، فوجدُوه فى بيت مغلَقٍ عليه وحده ، وعليه مِسْح شعر ، ولا بساط فى البيت إلاّ الرّمل والحصى ، وعلى رأسه مِلْحَفة صوف متوجهاً إلى ربه ، يترنّم بالقرآن ، فمثلَ بين يدى المتوكل على حاله ، والمتوكّل يشرب وفى يده كأس ،

(١) المسعودى ٤ : ٩٤
(٢) فى الأصول : « فأصبح » ، والأصح ما أثبته من المسعودى

فلما رآه عظمه وأجلسه إلى جنبه . وعلم أنه لا يوجد عنده شيء مما قيل ، فناوله، فقال : يا أمير المؤمنين ، ماخامر لحمي ولا دمي قطّ ،فأعفني منه ، فأعفاه ، ثم قال : أنشدني شعراً أستحسنه ، فأنشده الأبيات المتقدّمة ، فأشفق من حضر عليه من المتوكل . فوالله لقد بكى المتوكل بكاءً طويلا ، وبكى من حضر ، وقال : يا أبا الحسن ، أعليك دَين ؟ قال : أربعة آلاف درهم ، فدفعت إليه ، ورُدَّ إلى منزله مكرّماً ، وقال له : ما يقولُ ولد أبيك في العباس بن عبد المطلب ! قال :وما يقولون يا أمير المؤمنين في رجل افترض الله طاعته على بنيه ! فأمر له بمائةألف درهم ، وإنّما أراد طاعة الله على بنيه فعرّض .

وقال سابق البربري[1] في المعاريض :

تعاونعلى الخيراتِ تظفرْ ولاتكنْ ... على الإثم والعدوان ممّن يعاونُ

وداهنْ إذا ما خفت يوماً مسلّطاً ... عليك ، ولا يحتال مَنْ لا يداهنُ

ولا تك ذا لونين يبدى بشاشةً ... وفي صدره ضَبٌّ من الغلّ كامِنُ[2]

رجعت إلى عرض المقامة .

عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجلس إلى قبر ، وكنت أدنى القوم منه ،فبكى وبكينا ، فقال : مايبكيكم ؟ قلنا : بكاؤك ، قال : هذا قبر أمي آمنة ، استأذنتُ ربي في زيارتها ، فأذن لي ، فاستأذنته في أن أستغفر لها ، فأبى عليّ ، فأدركني ما يدرك الولد من الرِّقّة .

وكان عثمان إذا وقف على قبرٍ بكى حتى يبلّل لحيته ، فسئل عن ذلك ، فقيل

---

(١) هو أبو سعيد سابق بن عبد الله ،صاحب الأشعار الحسنة في الزهد ، والبربري لقبه ، وليس منسوباً إلى البربر. خزانة ٤ : ١٦٥.

(٢) الضب بالفتح : العداوة والغيظ .

له :تذكر الجنة والنار ولا تبكى ، وتبكى إذا وقفت على قبر ! فقال : سمعت رسول الله ،صلى الله عليه وسلم ، يقول : «إنّ القبر أول منازل الآخرة ، فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر ، وإن لم ينج منه فما بعده أشدّ » .

والمقصود من زيارة القبور الاعتبار للزائر والانتفاع بدعائه للمَزور ، ولا ينبغى أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت .

وكان رجل يشهد الجنائز ، فإذا أمسى وقف على المقابر ، فقال : آنس الله وحشتكم ، ورحم الله غربتكم ، وتجاوز الله عن سيئاتكم ، وقَبِل الله حسناتكم؛ لا يزيد على هذا شيئاً . قال : فأمسيتُ ليلة ولم أدْعُ ، فبينما أنا نائم إذا خَلْقٌ كثير قد جاءونى ، فقلت : مَنْ أنتم ؟ قالوا نحن أهل المقابر ، قلت : ماحاجتكم ؟ قالوا : إنّك كنت عودتنا هديّةً عند انصرافك إلى أهلك ، قلت : وما هى ؟ قالوا : الدعوات التى كنت تدعو ، قلت : فإنى أعود لذلك ؛ فما تركتها بعد ذلك.

قوله : محلّة الأموات ، هى المقابر التى يحلُّون بها . كفات : قبور وأوعية وكَفتّ الشيءَ : ضممتَه وقبضتَه ، وكفات الشيء : ماضمه وستره ، وقوله تعالى: ﴿ألم نجعلِ الأرض كِفَاتاً * أحْيَاءوأمْواتا﴾[1] قيل : كِفات الأحياء بيوتهم، وكفات الأموات قبورهم . والرفات : العظام البالية ، وقال ابن المعتز فى مقبرة :

وسكّان دارٍ لا تزاوُرَ بينهمْ ... على قرب بعضٍ فى التجاوُرمن بَعْضِ[2]

كأنّ خواتياً من الطِّين فوقهمْ ... فليس لها حتّى القيامةِ من فَضّ

وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه :

انظر لنفسك يا مسكين فى مهلٍ ... ما دام ينفعك التفكير والنَّظَرُ

---

(١) سورة المرسلات ٢٥ ، ٢٦ .
(٢) ديوانه ٢ : ١٣٩

رفع المسهم

قف بالمقابر وانظر إن وقفتَ بها ... لله درّك ماذا تَسْتُرُ الحُفَرُ !
ففيهمُ لك يا مغرور موعظةٌ ... وفيهمُ لك يا مغترّ معتَبَرُ !

وقال مالك بن دينار : مررت بالمقابر ، فأنشدت أقول :

أتيتُ القبور فناديتُها ... فأين المعظَّم والمُحْتَقَرْ؟
وأين المدِلُّ بسلطانِهِ ... وأين المزكّى إذا ماافْتَخَرْ ؟
فنُوديت مِنْ بينهم: لاأرى ... شخوصاً لهم ولا من أَثَرْ !
تفانَوْا جميعاً فلا مخبرٌ ... وماتوا جميعاً ومات الخَبَرْ
فيا سائلي عن أناسٍ مضَوْا ... أما لَكَ فيما ترى مُعْتَبَرْ !
تروح وتغدو بناتُ الثَّرى ... وتمحَى محاسنُ تِلْكَ الصُّوَرْ!

ومما وجد على قبر مكتوباً :

تُناجيك أجداثٌ وهنّ سكوت ... وسكّانُها تحْتَ التُّراب خفوتُ
أيا جامعَ الدنيا لغير بلاغةٍ ... لِمَنْ تجمع الدُّنيا وأنت تَمُوتُ ؟

ومما وجد على قبر مكتوباً :

إن الحبيبَ من الأحبابِ مختلسٌ ... لا يمنع الموتَ بوّابٌ ولا حَرَسُ
فكيف تفرح بالدُّنيا ولذّتِها ... يا مَنْ يُمدّ عليه اللفظ والنَّفَسُ ؟
لا يرحَمُ الموت ذا جاهٍ لعزّته ... ولا الذى كان منه العلم يُقْتَبَسُ
قد كان قَصْرُك معموراً له شَرَفٌ ... فقَبْرُك اليوم فى الأجداث مُنْدَرِسُ

ووجد على قبر مكتوباً :

وقفت على الأحبة حين صُفّتْ ... قبورهمُ كأفراسِ الرِّهانِ

فلما أن بكيتُ وفاضَ دمعِي رأت عيناى بَيْنَهُمُ مكانِي

قال أعرابىّ: مَنْ خاف الموت بادر الفوت ، ومن لم يقمع النفس عن الشهوات بادرت به إلى الهلكات ، والجنة والنار أمامك .

مرض أعرابىٌّ فقيل له : إنك تموت ، قال : وإذا مت فإلى أين أذهب ؟ قالوا : إلى الله ، قال : فما كراهتى أنْ أذهب إلى مَنْ لم أر الخير إلاَّ منه !

وقال أعرابىٌّ : مابقاء عمر تقطعه الساعات ، وسلامة بدنٍ معرّض للآفات! ولقد عجبت للمؤمن كيف يكره الموت وهو ينقله إلى الثواب الذى أحيا له ليله، وأظمأ له نهارَه !

وقال آخر : مَنْ كانت مطيّتاه الليل والنهار ،سارا به وإن لم يَسِرْ ، وبلغا به وإن لم يبلغ .

آخر : تصرّف الليل والنهار ، لاتبقى معه الأعمار ، ولا لأحدٍ فيه الخيار .

* * *

قوله : مجنوز ، أى ميّت ؛ وحكى ابن سِيدَه قول بعضهم : جنزتُ الميت إذا سترته بالكفن . وقال الحسن ـ لما أُنْذر بجنازة النّوار امرأة الفرزدق ـ للمنذِر بها : إذا جنزتموها فآذنونى بالجَنازة ، والجنازة من جَنزت وهى بالفتح الميّت ، وبالكسر النعش ، وقيل معناهما واحد ، وهو الميّت ، والمختار الكسر . يُقْبَر: يدفن . انجزت : ملت . المآل : المرجع . مذكّراً : متذكّراً . درج : هلك . الآل: الأهل . ألحدوا : دفنوا وألقوْه فى اللّحد ، وهو حَفِير فى جانب القبر ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل المقبرة يقول : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون » .

وكان علىّ رضى الله عنه إذا دخلَها يقول : السّلام عليكم يا أهلَ الديار الموحشة والمنازل المقفرة ، من المؤمنين والمؤمنات . اللهمّ اغفر لنا ولهم ، واعفُ

عنّا وعنهم . ثم يقول : الحمدُ لله الّذى جعل الأرض كِفاتاً ، أحياءً وأمواتاً ، منها خُلِقْنا ، وإليها معادُنا ، وعليها محشرنا ، طوبَى لمن ذكر المعاد ، وقنَع بالكفاف ورضى عن الله .

وكان الحسَنُ البصرىّ رحمه الله إذا دخل قال : اللهمّ ربَّ الأجساد البالية، والعظام النَّخِرَة ، التى خرجت من الدنيا وهى بك مؤمنة ، أدخل عليها رَوْحاً منك وسلاماً منا .

قوله: «أشرف» : أى طلع. والرّبَاوة[1] : الكُدْية. متخصّر :أى جاعلها مما يلى خَصْره . هراوة :عصا . لفع : غَطَّى . نَكَّر : غيَّر هيئته . لدهائه:لمكره.

* * *

فقال : لِمِثْلِ هَذا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ، فاذْكُرُوا أيُّها الْغافِلُونَ ، وَشَمِّرُوا أيُّها الْمُقَصِّرُونَ ، وَأحْسِنُوا النَّظَرَ أيُّهَا الْمُتَبَصِّرُونَ . مَا لَكُمْ لا يَحْزُنُكُمْ دَفْنُ الأتْرَابِ ، وَلا يَهُولُكُمْ هَيْلُ التُّرَابِ ، وَلا تَعْبَئُونَ بِنوَازِلِ الأحْدَاثِ ، وَلا تَسْتَعِدُّونَ لِنُزُولِ الأجْدَاثِ ، وَلا تَسْتَعْبِرُونَ لِعَيْنٍ تَدْمَعُ ، وَلا تَعْتَبِرُونَ بِنَعْىٍ يُسْمَعُ ، وَلا تَرْتاعُونَ لِإلْفٍ يُفْقَدُ ، وَلا تَلْتاعُونَ لِناحَةٍ تُعْقَدُ ، يُشَيِّعُ أحَدُكُمْ نَعْشَ الْمَيِّتِ ، وَقَلْبُهُ تِلْقَاءَ الْبَيْتِ ، وَيَشْهَدُ مُوارَاةَ نَسِيبِهِ ، وَفِكْرُهُ فى اسْتِخْلاصِ نَصِيبِهِ ، وَيُخَلِّى بَيْنَ وَدُودِهِ ودُودِهِ ، ثم يخلُو بمزمره وعوده .

* * *

(١) الرباوة ، مثلثة الراء . والكدية ، بالضم : الأرض الغليظة .

رفع المسهم

ويقال : قصّر فهو مقصّر ، إذا ترك الشيء وهو قادر عليه وشمّر : اجتهد .

والمتبصّر : الناظر فى الشيء على وجه التفهّم ، فقد يصيب وقد يخطىء ، ولذلك قالوا : أحسنوا النظر . الأتراب : الأصحاب المتقاربون فى الموالد ، كأنّهم قُطعوا من تُربة واحدة ، وأكثر ما يقع للنساء ، وإذا مات للإنسان صاحبٌ على سِنّه كان أوْقَع لحزنه ، فلذا نبّه بالتّرب ، قال الألبيرىّ[1] :

فإنّ الردى غلّ أهل التقى ... فلم يبق إلا الغشومُ العَتِيد

وأوْدَى بكلّ خليل ودودٍ ... فأين ، ولا أين ، خلٌّ وَدُودْ !

وكم من أخى ثقةٍ قد لحدتُ ... فللّه ما غيّبتَهْ اللُّحُودْ

وأثكلنى الأنسَ ثكلُ اللِّدَاتِ ... فصرت كأنى غريب وَحِيدْ

وكم مِن شقيٍّ يُوارى التراب ... وكم من سعيدٍ بُوارِى الصَّعِيد !

قوله : «يهولكم» ، أى يفزعكم ، والهيل : الصبّ الكثير من أعلى إلى أسفل ، فى مثل كدْس الرمل ، وعند صبّ التّراب على الميت تطير القلوب إشفاقاً ، وتسيل العيون رحمة ، قال أبو العتاهية :

بكيتُكَ يا أخىّ بدمع عينى ... فلم يُغْنِ البكاء عليك شَيَّا[2]

كفى حَزَناً بدفنك ثُمّ أنّى ... نفضتُ تراب قبرك من يَدَيَّا

وكانت فى حياتك لى عظاتٌ ... وأنتَ اليوم أوعظُ مِنك حَيَّا

أبو على الرازىّ : مررت بصبيان فى طريق الشأم يلعبون بالتُّراب ، وقد ارتفع الغبار ، فقلت : مهلا ، قد غبّرتم ، فقال صبىّ منهم : يا شيخ : أين تفِر

---

(١) الكامل للمبرد ٢ : ١١ ، وذكر قبل هذه الأبيات :

طوَتْكَ خُطوبُ دَهْرِكَ بعد نَشْرٍ ... كذاكَ خُطُوبُهُ نشراً وطَيّا

فلو نشرت قُواكَ لِيَ المنايا ... شكوْت إليك ما صنعتْ إلَيّا

إذا هيل عليك الترابُ فى القبر ؟ فغُشِى علىّ ، فأفقت والصبىّ قاعد عند رأسى مع الصبيان يبكون ، فقلت له : أعندك حيلة فى الفِرار من التراب؟ قال : أنا لا أعلم ، ولـكن سل غيرى ، فقلت : ومَنْ غيرُك ؟ قال : عقلك . تعبئون : تبالون وتهتمون. والنوازل : جمع نازِلة ، وهى المصيبة . الأحداث: مايحدث على الإنسان من الخير والشر .والأجداث ، بالجيم :القبور ،واحدها جَدَث وجَدَف . تستعبرون : تبكون . تعتبرون : تتّعظون وتَرَوْنه عبرة . والنَّعْى : ذكر موت الإنسان ، وكانت العرب إذا مات منها سيّد ركب رجلٌ فرسَه ، ومشى فى الأحيا. ، فيقول : نعاءِ فلاناً ، والناعى :المخبر بموت الرجل ، وقد نَعاهُ نعياً . ترتاعون : تخافون . إلف : صاحب ، وهو فى الأصل مصدر ألفت الشىء إلفاً ، فسمِّىَ به ، ويقال فى معناه : أليف . تلتاعون : تحترقون من الحزن ، واللَّوعة : حرقة من الهمّ . المناحة : اجتماع النساء للبكاء على الميت . تعقد : تجمع وتؤلّف . وقلبه تلقاء البيت ، أى قلبه مستقبلٌ لبيت الميت ، يفكّر فيما ترك ليرثه . مُوَارَاة: دفْن ، وقد واراه ، إذا ستره . استخلاص : تحصيل . وَدوده الأول : محبوبه الذى يودّه ، ودُوده الثانى : جمع دودة ، والواو للعطف .

وقال سابق البربرىّ فى معنى ما تقدم :

نلهُو ونأمل أياماً تُعَـــدّ لنا ... سريعة المرّ تطْوِينا ونطْوِيهـا

كم من عزيزٍ سيَلْقَى بعد عِزّتِه ... ذُلاً ، وضاحكةٍ يوماً سنَبكِيها

وللحتوف تربّى كلّ مرضعـــةٍ ... وللحساب بَرَى الأرواحَ بَارِيها

لا تبرح النفس تَنمَى وهى سالمةٌ ... حتى يقومَ بنادى القوم نَاعِيها

ولن تزال طَوَال الدهر ظَاعِنَةً ... حتى تقيم بوادٍ غير وَادِيهـا

أموالنا لِذَوِى المِيراث نجمعُهـا ... ودُورُنا لخراب الدّهر نَبْنِيهـا

وقال آخر :

رفع المسهم

اعمل وأنتَ من الدُّنيا على حذَرٍ ... واعلم بأنَّك بعد الموت مبعوثُ
واعلم بأنَّك ما قدَّمتَ من عملٍ ... يُحْصَى عليك،وماخلَّفتَ مَوروثُ

وقال الحسن : ابنَ آدم ! أنت أسير الدنيا ، رضيت من لذَّاتها بما ينقضى ، ومن نعيمها بما يمضى ، ومن مُلْكها بما ينفَد ، تجمع لنفسك الأوزار ، ولأهلك الأموال ، فإذا مِتَّ حملت أوزارك إلى قبرك ، وتركت أموالك لأهلك . أخذه أبو العتاهية فقال :

أبقَيْتَ مالك ميراثاً لوارثه ... يالَيْت شعرىَ ماأبْقَى لك المالُ[1]
القوم بعدك فى حال تسرُّهُمْ ... فكيف بعدهم دارتْ بك الحالُ !
ملُّوا البكاء فما يبكيك من أحدٍ ... واستحكم القِيلُ فى الميراثِ والقَالُ

وقال ابن عبد ربه :

أيا مَنْ عندَه أمـلٌ طويلٌ ... يؤدِّيه إلى أجـلٍ قصيرِ
أتفرحُ والمنيَّـة كلَّ يومٍ ... تُريكَ مكان قبرك فى القُبُورِ
هى الدنيا فإن سرَّتك يوماً ... فإنَّ الحزن عاقبةُ السُّرُورِ
ستُسلَب كلَّ ما جمعْتَ فيها ... كعاريةٍ تُرَدّ إلى المعِيرِ

وقال جبلة بن الحويرث[1] :

يا قَلْبُ إنَّك فى الأحياء مغرورُ ... فاذكروهل ينفعَنْك اليوْم تذْكِيرُ[2]
تريد أمراً ولا تدْرِى: أعاجلُه ... خيرٌ لنفسك أم مافيه تأْخِيرُ !
فاستقدِرِ الله خيراً وارضَيَنَّ به ... فبينما العسر إذ دارتْ مياسِيرُ

(١) الأبيات فى المعمرين ٥٢ ودرة الغواص ٢٣ ونزهة الألباء ٢٨ ، وهى فى اللسان دهر ، قال : « قال ابن برى : هى لعثير بن لبيد العذرى. وقيل: لحريث بن جبلة العذرى»
(٢) بعده فى المعمرين :

قَدْ بحْتَ بالحبّ ما تُخْفِيه من أحدٍ ... حتَّى جرتْ بكَ أطلاقاً محاضيرُ

وبينما المرء فى الأحياء مُغتبطاً ... إذ صار فى الرّمس تعفوه الأعاصيرُ
يبكى الغريب عليه ليس يعرفُه ... وذو قرابتِـهِ فى الحىِّ مَسْرُورُ
حتى كأن لم يكن إلاّ تذكُّره ... والدَّهْر أيّتمَا حين دَهَارِيرُ
وذاك آخر عهدٍ من أخيك إذا ... بالموت ضمَّنه اللَّحْدَ الخناسير(١)

* * *

طَالما أُسِيتُمْ عَلَى انثِلاَمِ الحُبّةِ ، وَتَنَاسَيْتُمُ احترامَ الأَحِبَّةِ ، واستَكَنْتُمْ لاعْتِرَاضِ العُسْرَةِ ، واستَهَنْتُمْ بانقراضِ الأُسرَةِ ، وضَحِكْتُم عِندَ الدَّفْنِ ، وَلا ضَحِكُـكُمْ ساعَةَ الزَّفْنِ ، وَتبَخْتَرْتُمْ خلْفَ الجَنائزِ ، ولا تبختُرَكُمْ يومَ قبْضِ الجَوَائزِ ، وأعْرَضْتُم عَن تعديدِ النَّوَادِب ، إلَى إعْدَادِ المآدِبِ ، وَعَنْ تَحَرُّقِ الثَّوَاكِلِ ؛ إلَى التأنُّقِ فى المآكِل ، لاَ تبالُونَ بِمَن هُوَ بال ، وَلا تُخْطِرُونَ ذِكْرَ المَوْتِ ببالٍ ، حَتى كأنكُمْ قَدْ عَلِقْتُمْ من الحِمام بِزِمامٍ ، أوْ حَصَلْتُم مِنَ الزّمان عَلَى أمانٍ ، أوْ وَثِقْتُمْ بِسَلامَةِ الذّاتِ ، أو تَحَقَّقْتُم مُسالَمَةَ هَادِمِ اللّذّاتِ ؛ كلاّ سَاءَ ما تتوَهَّمُونَ ، ثُمَّ كلاّ سَوْفَ تعلَمُونَ !

* * *

قوله : «أسيتم» ، أى حزنتم . انثلام : انكسار ونقصان . اخترام : هلاك ، يقول : إذا انتقصَ لكم من المال أدنى شىء حزنتم عليه ، ولا تحزنُون على نقص أحبابكم .

(١) فى الأصول : « الحياصير » ، تحريف ، صوابه من المعمرين قال : الخناسير ، جمع الخنسير ـ ويقال : الخناسرة ـ والخناسير : هم الذين يشيعون الميت.

أنس رضى الله عنه ، عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم: منْ أصْبَحَ حزيناً على الدُّنْيا ، أصبح ساخطاً على الله .

قوله : «استكنتم» ، ذللتم ، واستكان ،استفعل من لفظ الكين، وهو لحم باطن الفَرْج . اعتراض العسرة : ظهور الفقر . انقراض الأسرة : موت القرابة الزَّفْن : الرقص .

ضحكتم عند الدفن ، جاء فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى كره لكم العبث فى الصلاة ، والرفث فى الصيام ، والضحك فى الجنائز .

ورأى ابن مسعود رضى الله عنه رجلا يضحك فى جنازة ، فقال : تضحك وأنت فى جنازة ! والله لا أكلمك أبداً .

ونظر عبد الله بن ثعلبة إلى رجل يضحك فى جنازة مستغرباً ، فقال : أتضحك ولعلّك قد أخذت أكفانك من القصّار !

وفى الحديث « كثرة الضحك تميت القلب وتُذهب بهاء المؤمن » .

قوله :«تبخترتم» ، أى تعظمتم وأظهرتم الإعجاب فى مشيكم. الجوائز :الصِّلات وهم يظهرون فى أحسن الثياب عند الملوك ليكثر لهم العطاء .

أعرضتم : تنحيتم ،وهو من العَرْض ،كأنك إذا لقيت من تكرهُ استقبلتَه بعرضك ، أى بجانبك . النوادب : النوائح اللواتى يندُبن الميت أى يبكينه ، فيقول : أعرضتم عن الباكيات حين عدَّدْنَ خصال الميت المحمودة ، ولم تفكر فى تلك الحال . إعداد ، أى استعداد . المآدب : المطاعم للأعراس . تحرّق : توجّع . الثواكل: الفاقدات لأحبابهنّ . التأنّق: التحسين ، وقد تأنّق فى الشىء، إذا احتفل فيه فأعجب به كل من رآه . بالٍ : دارس متغيّر ، يريد الميت . ببال : بفكر وخاطر .الحِمام : الموت ، وأصله القَدَر . وهو من حُمّ ،أى قُدّر، وذات الشىء نفسه وحقيقته . مسالمة : متاركة ومصالحة .

رفع المسهم

أبو هريرة رضى الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أكثروا ذكر هادم اللذات ، قالوا : وما هادم اللذات ؟ قال : الموت »[1] .

وقال الأليبرىّ فى معنى ما تقدّم :

كم آمنٍ للمنون لاهٍ ... عن الرَّدَى بات مطمئنّا
صبّحه وافدُ المنايا ... فعاين الموت حين عَنَّا
حتى إذا ما قضى بَكَاهُ ... حميمُه معولا مُرِنَّا
واروْه فى لحده وسنّوا ... عليه قَيْد التراب سَنَّا
وانتهبُوا ماله وشنوا الـ ... ـغارات فيما حَوَاهُ شَنَّا
لمثل هذا فكن معدّا ... ما قد أعدّ الهداة مِنَّا
وارتقب الموت فهو حَتْمٌ ... يخترم الطفل والمسِنَّا

قوله : كلا ، زجر ، أى ليس الأمر كما ظننتم .

* * *

ثم أنشد :

أيا مَنْ يَدَّعِى الفَهْمْ ... إلَى كَمْ يا أخا الْوَهْمْ
تُعَبِّى الذَّنْبَ والذَّمّ ... وتُخْطِى الخطأَ الجَمّ

أمَا بانَ لَكَ الْعَيبْ ! ... أمَا أنْذَرَكَ الشَّيْبْ !
وما في نُصْحِهِ رَيبْ ... وَلا سَمْعُكَ قَدْ صَمّ

أما نادَى بكَ الموتْ ... أما أسْمَعَكَ الصَّوْت !
أما تَخْشَى مِنَ الْفَوْت ... فتحْتاطَ وتَهْتَمْ

---

(١) نقله فى الجامع الصغير ١ : ٩٠ .

فكمْ تَسْدُرُ فى السَّهْوِ وتَخْتالُ مِنَ الزَّهْوِ
وتَنْصَبُ إلَى اللَّهْوِ كأنَّ الموتَ ماعَمّْ

* * *

قوله :

أيا من يدَّعى الفهم إلى كم يا أخا الوهم

يسمَّى هذا من أنواع الشعر المسمّط ، أى المفصّل ، مأخوذ من السِّمط وهو سلك الجوهر المفصّل بالزمرد والذهب وغير ذلك . الوهم : الغَلَط . الجمّ : الكثير ، وعلى قوله : «وتخطىء الخطأ الجم» ، ذكر الحريرىّ فى الدرّة[1] أنّ قول الخواصّ : « أخطأ لمن يأتى بالذنب متعمّداً تحريف للفظ والمعنى ، ولا يقال : أخطأ إلاّ لمن لم يتعمد الفعل ولمن اجتهد » ، فلم يوافق الصواب لقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجرٌ » وإنما أوجب له الأجر على اجتهاده فى إصابة الحق الذى هو نوع من أنواع العبادة ، لا عن الخطأ الذى يكفى صاحبه أن يُعذَر فيه ويرفع مأثمه عنه ، و[اسم] الفاعل من هذا النوع : مخطىء ، والاسم الخطأ ، قال الله تعالى : ﴿ وَما كانَ لمؤمنٍ أن يقتلَ مؤمناً إلاّ خطأً[2] ﴾ وأما المتعمّد ، فيقال فيه : خطِىء فهو خاطىء ، والمصدر الخِطء ، قال الله تعالى : ﴿ إنّ قتلَهُم كان خِطأً كبيرا[3] ﴾ ، والاسم منه الخطيئة ، ويقع على الصغيرة ، قال الله تعالى : ﴿ أن يغفرلى خطيئتى يوم الدين ﴾[4] إخبارا عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وعلى الكبيرة كقوله تعالى ﴿ وأحاطت به خطيئته... ﴾[5] الآية : قال أبو محمد الحريرىّ : ولى فى تضمين هاتين اللفظتين وتخصيص معنييهما المتنافيين :

لا تخطــونّ إلى خِطء ولا خطأِ من بَعْدَما الشيب فى فَوْدَيْكَ قد وَخَطَا
فأىّ عذر لمن شابَتْ مفارقُه إذا جرى فى ميادين الهوى وَخَطَا

وهذه التفرقة منه مستحسَنة ، وكذا يقع فى أكثر كلامهم ، وأما على

(١) درة الغواص ٦٩ (٢) سورة النساء ٩٢ (٣) سورة الإسراء ٣١
(٤) سورة الشعراء ٨٢ (٥) سورة البقرة ٨١

القطع فلا ، لأنه قد حكى الزجّاج وقطرب وابن دريد فى الجمهرة أنَّ العرب تقول: خطِئتُ الشىء أخطؤه خطأ، وخطئنى وأخطأته خطأ فى معنى واحد ، قال :

والنَّاس يلحوْن الأمير إذا هُمُو خطِئوا الصواب ولا يلام المرشدُ

أمَا : حرف استفتاح وإخبار . بان : ظهر . أمَا أنذرك الشيب ، سيأتى مستوفياً .

وقال فى الشيب الفقيه الزّاهد أبو عمران رحمه الله :

ذهب الشَّباب بجهله وبعارِهِ وأتى المشيبُ بحلمه ووَقارِهِ
شتَّان بين مبعَّدٍ من ربِّهِ بغروره ومبشَّر بجوارِهِ
مازلت أمرحُ بالشباب جهالةً كالطِّرف يمرح معجبًا بعِذارِهِ
وسحبت أثواب البَطالة لاهياً وجررتُ من بَطَرٍ فضول إزارِهِ
حتى تقلّص ظلُّه فتكشَّفتْ عوراتُه وبدا قبيح عَوَارِهِ
لم أحظ منه بطائلٍ غير الأسى وتندّمٍ منّى على أوزَارِهِ
والآن قد خَطَّ المشيب بمفْرِقى بمواعظٍ والحقّ فى تذْكارِهِ
والنفس تركب غيّها لا ترعوى عنه ولا تُصْغِى إلى إنذارِهِ
لهفى على عُمْرٍ يمرّ مضيّعًا محصًى علىّ بليله ونهارِهِ

كان شابٌّ فى بنى إسرائيل عَبَدَ الله عشرين سنة ، وعصاه عشرين سنة ، فنظر يوماً فى المرآة ، فرأى الشيب فى لحيته ، فساءه ذلك فقال : إلهى أطعتُك عشرين سنة ، وعصيتك عشرين سنة ، فإن رجعتُ إليك أتقبلنى ؟ فسمع صوتا من زاوية البيت : أحببتنا فأحببناك ، وتركتنا فتركناك ، وعصيتنا فأمهلناك ؛ فإن رجعت إلينا قبلناك .

قال ابن وضاح: إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتبْ، مسح إبليس على وجهه ، وقال: بأبى وجه لا يفلح أبدا ! وأنشدوا:

رفع المسهم

وإذا مضى للمرء من أعوامِهِ خَمْسُونَ وَهْوَ إلى التّقى لم يجنحِ
ركدتْ عليه المخزيات وقلن قَدْ أرضيتَنـــا فأقم لذا لا تبرحِ
وإذا رأى إبليس غُرّة وجهِهِ حيّا وقال : فديت من لم يفلحِ

وقال آخر :

تُلاحِظُنى المنيّةُ من قريبٍ وتلحظنى ملاحظة الرقيبِ
وتنشر لى كتابا فيه طىٌّ بخطّ الدهر أسطرُه مشيبِى
كتاب فى معانيهِ غموضٌ تلوحُ لكلّ أوّاب مُنيبِ
أزال الله يا صاحِى شبابِى فعوِّضت البغيضَ من الحبيبِ
وبدِّلت التكاسلَ من نشاطِى ومن حسن النضارة بالشُّحُوبِ
كذاكَ الشمس يعلوها اصفرارٌ إذا جنحت ومالت للغرُوبِ

وهذا القدر كافٍ هنا فى ذكر الشيب .

* * *

وقوله : « ريب » ، شك . أما أسمعك الصوت ، الصوت هنا : النياحة على الميت . والفوت : بُعْد الشىء . الاحتياط ، من الحوْطة ، وهى الوقاية . تسدُر : تتبختر . تختال : تتكبّر . الزهو : الكبر . عمّ : شمل .

ولأبى العتاهية فى معناه :

حتى متى ذو التّيه فى تيهِهِ أصلحــه الله وعَافَاهُ!
يتيهُ أهل التيه من جهلهمْ وهمْ يموتُونَ وإن تاهُوا
من طلب العزّ ليبقى به فإنّ عزّ المرء تَقْــواهُ
لم يعتصمْ باللهِ من خلقِــه مَنْ ليس يرجوهُ ويَخْشَاهُ

ولمحمد بن حازم :

فيا شامخاً أقصِر عِنانك مقصِراً فإنّ مطايا الدهر تكبُو وتعثُرُ
ستقرَعُ سِنّاً أو تعضّ ندامةً يديك إذا خان الزمان وتبصرُ
ويلقاك رُشْدٌ بعد غيّك واعظٌ ولكنّه يلقاك والأمر مدبِرُ

* * *

وَحتَّامَ تَجافِيكْ وإبطاءٌ تَلافِيكْ
طباعاً جَمَّعَتْ فيكْ عُيوباً شَمْلُهَا انضَمّْ

إذا أَسْخَطْتَ مَوْلاكْ فَمَا تَقْلَقُ مِنْ ذَاكْ
وَإنْ أَخْفَقَ مَسْعَاكْ تَلَظَّيْتَ مِنَ الْهَمّْ

وإنْ لاحَ لَكَ النَّقْشُ منَ الأَصْفَرِ تَهْتَشُّ
وإنْ مَرَّ بِكَ النَّعْشُ تَغَامَمْتَ وَلاَ غَمّْ

تُعَاصِي النَّاصِحَ الْبَرْ وَتَعتَاصُ وَتَزْوَرّْ
وَتنقَادُ لِمَنْ غَرّْ وَمَنْ مَانَ وَمَنْ نَمّْ

* * *

قوله : «تَجافيك» ، أى تباعدك من فِعْل الخير . إبطاء : تأخّر . تلافيك : تداركك . طباعاً : أخلاقاً ؛ يريد أن أخلاقك قد جمعت فيك عيوباً انضمّ عليك شملها . أخفق : خاب . مسعاك : طلبك ومشيك فى اكتساب الرزق . تلظّيت : احترقت واشتعلت، وهو تفعّلت ، من اللظى . الأصفر : الدينار ، ونقشه الكتاب

الذى فيه . تهتش : تخفّ وتهتزّ طرباً . تغامت : أظهرت الغمّ . ولا غمّ ، أى ليس عندك غمّ على الحقيقة .

كان أبو الدرداء رضى الله عنه إذا رأى جنازة قال : اغدى فإنا رائحون ، أو روحى فإنا غادون .

أبو عمرو بن العلاء قال : جلست إلى جرير وهو يملى على كاتبه :

* ودّع أمامَةَ حانَ منكَ رحيلُ *[1]

ثم طلعت جنازة فأمسك ، وقال شيّبتنى هذه الجنازة ، فقلت : فلمَ تُسابّ الناسَ ؟ قال : يبدءوننى ، ثم لا أعفو ، وأعتدى ولا أبتدى . ثم أنشأ يقول :

تروِّعنا الجنائز مقبلاتٍ ونلهُو حين تذهب مدبراتِ[2]
كروْعةِ هجمة لمغار ذئبٍ فلمَّا غاب عادت راتعاتِ

وقال آخر :

وتَعُدُّ كثرة من يموت تعجّباً عمّا قريبٍ سوف تدخُل فى العددْ
وأراكَ تحملهمْ ولست تردّهمْ وكأننى بك قد حُمِلتَ ولا تُرَدّ

قوله : «تعاصى الناصح البرّ» ، أى تعاصى مَنْ ينصحك ويبرّك . تعاص : تصعب ، وهو « تفتعل » من العصيان ، على القلب . تزورّ : تنقبض . غرّ : خدع . مان : كذب ، ونمّ : مشى بالنميمة .

* * *

وتَسْعَى فِى هَوَى النَّفسِ وَتَحْتَالُ عَلَى الْفَلْسِ
وَتَنْسَى ظُلْمَةَ الرَّمْسِ وَلاَ تَذْكُرُ مَا تَمْ

---

(١) ديوانه ٤٧٢ ، وبقيته :

* إن الوداع إلى الحبيب قليلُ *

(٢) ديوانه ٨٧ .

رفع المسهم

وَلوْ لا حَظَكَ الحَظُّ لمـا طَاحَ بِكَ اللَّحْظ
ولاَ كُنْتَ إذَا الْوَعْظُ جَـلاَ الأحْزَانَ تَغْتَمّ

ستُذْرِى الدَّمَ لا الدَّمْعْ إذَا عَايَنْتَ ذَا جَمْعْ
يَقِى فى عَرْصَةِ الجَمْعْ وَلاَ خَالَ وَلاَ عَمّْ

كَأَنِّى بِكَ تَنْحَطُّ إلى اللَّحْـدِ وَتَنْغَطُّ
وَقَدْ أسْلَمَكَ الرَّهطُ إلَى أَضْيَقَ مِنْ سَمّْ

* * *

الرَّمْس : القبر . لاحظك الحظّ : نظرك السعد . طاح بك : أذهبك وأهلـكك ، واللحظ : النظر بمؤخَر العين ، وقد لحظَه لَحْظاً ولاحظته ملاحظة ، وكله من اللحاظ ، وهو طرف العين ممّا يلى الصُّدغ . وجلاَ : كشف . تُذْرِى : تصبّ وترسل متفرّقاً.

أنس رضى الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :« يأيُّها النَّاس أبكوا فإن لم تبكوا فتباكَوْا ، فإنّ أهل النار يبكون فى النار حتى تسيل دموعهم فى وجوههم كأنها جداول ، حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء ، فلو أن السفن أجريت فى دموعهم لجرَتْ » .

لاجَمْع ، أى لا قبيل ولا عشير يحميك ولا يمنعك يوم القيامة . يقِى: يمنع. عَرْصة الجمع : موضع اجتماع الناس فى الحشر . تنحطّ : تنزل . اللّحْد : حفير فى جانب القبر . وتنغطّ : تنضمّ وتنقبض ، يقال : غططته فى الماء إذا أغرقته فيه وغمسته . أسلَمَك الرهط : تركك قومك . سَمّ : عين الإبرة ، يريد ضيقَ القبر

على الميت . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن للقبر ضغطة لو نجا منها أحد لنجا منها سعد بن معاذ » .

وعن أنس رضى الله عنه ، قال : توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فتبعها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فساءنا حاله ،فلما انتهينا إلى القبر فدخله ،التمع وجهه صفرةً ، فلما خرج أسفر وجهه ،قلنا :يارسول الله، رأينا منك شأناً فمِمّ ذلك؟قال : ذكرت ضغطة بنتي وشدة عذاب القبر فأتيت فأخبرتُ أن الله تعالى قد خفّف عنها ،ولقد ضغطت ضغطة سمع صوتها مابين الخافقين » .

* * *

هُنَاكَ الْجِسْمُ مَمْدُوْدُ لِيَسْتَأْكِلَهُ الدُّودُ
إِلَى أَنْ يَنْخَرَ الْعُودُ وَيُمْسِي الْعَظْمُ قَدْ رَمّْ

وَمِنْ بَعْدُ فَلاَ بُدّ مِنَ الْعَرْضِ إِذَا اعْتُدّ
صِرَاطٌ جِسْرُهُ مُدّ عَلَى النَّارِ لِمَنْ قَدْ أَمّْ

فَكَمْ مِنْ مُرْشِدٍ ضَلّْ وَمِنْ ذِي عِزَّةٍ ذَلّْ
وَكَمْ مِنْ عَالِمٍ زَلّْ وَقَالَ الْخَطْبُ قَدْ طَمّْ

فَبَادِرْ أَيُّهَا الْغُمْرُ لِمَا يَحْلُو بِهِ الْمُرُّ
فَقَدْ كَادَ يَهِي الْعُمْرُ وَمَا أَقْلَعْتَ عَنْ ذَمّْ

* * *

قوله : « ينخَر » ، أى يبلى ، والعود : تابوت الميت . رمّ : بلِيَ : قال

الفنجديهىّ : إلى أن ينخر العود ، أى إلى أن يبلَى الجسم الناعم الذى هو مثل القضيب ، وقال الألبيرىّ :

كأنِّى بنفسِى وهى فى السَّكَراتِ ... تعالِجُ أنْ تَرْقى إلى اللَّهواتِ (١)
وقد رمّ رحلى واستقلّتْ ركائبِى ... وقد آذنَتْنِى بالرَّحيل حُداتِى
إلى منزلٍ فيه عذابٌ ورحمةٌ ... وكم فيه من زجرٍ لنا وعِظَاتِ
ومن أعيُنٍ سالتْ على وَجَناتِها ... ومن أوجهٍ فى التُّرْبِ مُنعفِرَاتِ
ومنْ واردٍ فيه على ما يسرّه ... ومن واردٍ فيه على الحسرَاتِ

قوله : «اعتدّ» أى استعدّ ، روى أبو بكر رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، قال : « يُحْمَلُ الناسُ يوم القيامة على الصِّراط فيتقادع بهم جَنْبَتا الصِّراط تقادُعَ الفراش فى النار ، فينجّى الله برحمته مَنْ يشاء» . التَّقادع : التَّهافت ، كأنّ كل واحد منهم يقدعُ صاحبَه كىْ يسبقه . والجسر : بناء على النار يُجاز عليه من جهة إلى أخرى . وأمّ : قصد . مُرشد : هادٍ . ضلّ : تحيّر . الخَطْب : الأمر الشديد . طمّ : عظم . الغُمْر : الجاهل بالأمور . والذى يحلو به المرّ : هو التوبة والأعمال الصالحة التى يصلح بها ما فسد . يهِى : يضعف . أقلعت عن ذمّ ، أى رجعت عن أمر مذموم ، وقال ابن عبد ربه :

بادِرْ إلى التوبة الخلْصَاء مجتهداً ... والموتُ وَيْحك لم يَمْدُدْ إليك يَدَا (٢)
وارقب مِنَ الله وَعْداً ليس يُخلفه ... لابدّ لله من إنجاز ما وَعَدَا

* * *

وَلاَ تَرْكَنْ إلَى الدَّهرْ ... وَإنْ لاَنَ وَإنْ سَرْ
فَتُلْفَى كَمَنِ اغْتَرّْ ... بأفْعَى تَنْفُثُ السمّْ

(١) ديوانه ٤٨ (٢) العقد ٣ : ١٨٤ .

رفع المسهم

وَخَفِّضْ مِنْ تَرَاقِيكْ فإنَّ الْمَوْتَ لاَقِيكْ
وَسَارِ فى تَرَاقِيكَ وَمَا يَنْكُلُ إنْ هَمَّ

وَجَانِبْ صَعَرَ الخَدّْ إذا ساعَدَكَ الْجَدّْ
وَزُمَّ اللَّفْظَ إنْ نَدّْ فَمَا أَسْعَدَ مَنْ زَمّْ

وَنَفِّسْ عَنْ أَخِي الْبَثّْ وَصَدِّقْهُ إذَا نَثّْ
وَرُمَّ الْعَمَلَ الرَّثّْ فَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَمّْ

* * *

قوله: «لا تركن»: تقول: ركنت إلى فلان، إذا اتَّخذته ركنا تلجأ إليه، تلفى: توجَد. اغترّ: انخدع. تنفث: تبصق عند لَدْغها. خَفِّض: سكِّن. تراقيك ارتفاعك وتكبرك. سارِ: ماشٍ. والتراقى: العَظْمان المعوَّجان على الصدر. ينكل: يضعف وينقطع. إن همَّ: إن أرادك وهمّ بك، وفى معنى هذا قول أبى نواس ـ قال غانم الورّاق: دخلت عليه قبل وفاته بيوم فقال لى: أمعك ألواحُك؟ قلتُ: نعم، قال: اكتب:

دبّ فىّ السَّقَامُ سُفْلاً وَعُلْوَا وأرانى أموتُ عُضْواً فَعُضْوا
ليس تمضى من لحظةٍ لىَ إلاَّ نقصتنى بمرِّها بى جُزْوَا
ذهبت جِدّتى بطاعةِ نفسى وتذكّرتُ طاعة الله نِضْوَا
قد أسأنا كلّ الإساءة فالآ نَ صفحاً عنّا وغفراً وعَفْوَا

قوله: «نفّس»، أى وسِّع نفَسه، كأنه خُنِق فضاق نفَسه، فأمر بحلّه. أخى البث: صاحب الحزن. نَثّ: نطق وكشف له سره. رمّ: أصلح، وقد رممت الشىء رمًّا أصلحته. الرثّ: الخلَق.

رفع المسهم

وَرِشْ مَنْ رِيشُهُ انْحَصَّ ... بِمَا عَمَّ وَمَا خَصَّ
وَلاَ تَأْسَ عَلَى النَّقْصْ ... وَلا تَحْرِصْ عَلَى اللَّمْ

وَعَادِ الْخُلُقَ الرَّذْلْ ... وَعَوِّدْ كَفَّكَ الْبَذْلْ
وَلاَ تَسْتَمِعِ الْعَذْلْ ... وَنَزِّهْهَا عَنِ الضَّمْ

وَزَوِّدْ نَفْسَكَ الْخَيْرْ ... وَدَعْ مَا يُعْقِبُ الضَّيْرْ
وَهَيِّءْ مَرْكَبَ السَّيْرْ ... وَخَفْ مِنْ لُجَّةِ الْيَمّْ

بِذَا أُوصِيتُ يَاصَاحْ ... وَقَدْ بُحْتُ كَمَنْ بَاحْ
فَطُوبَى لِفَتًى رَاحْ ... بِآدَابِي يَا نَمّْ

* * *

رشْ : اجعل له ريشا . انحصّ : نتف ريشه ، تقول : رشت الرجل ، أى أعنتُه وأغنيته. بما عمّ وماخصّ ، أى بما كثر من العطيّة وقلّ . تأسَ : تحزن : على النَّقْص ، أى على النقصان فى الصَّدقة والمعروف ، ولا تكن أيضاً حريصاً على جمعه ومنعه فمِنَ احتاج إليه ، واللّم : جَمْع المال ، ولممت الشيء لمًّا . الرَّذْل : الردىء ، يريد: عادِ أخلاق البخل ، أو الخلُق السوء .

عائشه رضى الله عنها ،قال النبى صلى الله عليه وسلم :« مامن مسىء إلا وله توبة ، إلا صاحب سوء الخُلق لأنه لايتوب من ذنب إلاّ عاد فى شرّ منه» .والبذل: العطاء ، وبذلت الشيء بذلا ، أى أبحته عن طيب نفس . والعَذْل : اللوم ،أى.

من لامك على العطاء لاتسمه، وأعطِ ، وأحسن ماقيل فى ردّ العذل على كثرته قول زهير :

وأبْيَضَ فياضٍ نداه غمامةٌ على مُعْتَفِيه ماتُغِبّ فواضلُهْ[1]
بكرت إليه غدوةً فرأيته[2] قعوداً إليه بالصَّرِيم عَواذِلُهْ[3]
يفدّينه طورا ، وطورا يلمْنَه وأعْيَا فمايدرين أين مخاتِلُهْ[4]
فأقصرن فيه عن كريم مرزَّإٍ صبورٍ على الأمر الذى هو فاعله[5]

قوله « نَزَّهْها »، أى باعدها عن الضمّ ، أى عن ضمّ الأصابع على مافى الكفّ، يقول : ابسُطْ كَفَّكَ بالعطية ولا تقبضها على مافيها شُحًّا ، قال ابن عبد رَبّه :

ياقابضَ الكفّ لازالتْ مقبّضة فما أناملُها للناس أرْزَاقُ[6]
وغب إذا شئت حق لاتُرى أبداً فما لفقدك فى الأحشاء إحرَاقُ[7]

كأنّه قَلَبَ بيت ابن دُرَيد فى رجل من أهل البصرة[8] :

يامَنْ يقبّل كفّ كلّ ممخرقٍ[9] هذا ابنُ يحيى ليس بالمخراقِ
قبّل أناملَه فلَسنَ أناملا لكنّهنّ مفاتح الأرزَاقِ

---

(١) ديوانه ١٣٩ ، من قصيدة يمدح فيها حصن بن حذيفة بن بدر ، وفى الديوان « يداه غمامة » ، وقال فى شرحه : « يقول : تمطر يداه بالإعطاء كما تمطر الغمامة » ، وفواضله : عطاياه ؛ لأنها تفضل كل عطاء .

(٢) الديوان : « فوجدته » .

(٣) الصريم : جمع صريمة ؛ وهى القطعة من الرمل تنقطع من معظمه .

(٤) قال فى شرح الديوان : « أى لايدرى أين الأمر الذى يخلفه فيه ، أى كيف يخدعنه » .

(٥) أعرضن : ولين . ومرزأ : يصاب منه الخير ويرزأ ماله ، وفى الديوان : « جموع على الأمر » ، أى ماض عليه بجمع الرأى .

(٦) العقد ٢ : ٣٥١

(٧) الديوان : « إقلاق »

(٨) ديوانه ٨٧ .

(٩) الديوان : « مخرق » .

أخذه ابن دُريد من إبراهيم بن العباس الصولى يمدح الفضل بن سهل[1]:

لفضل بن سهل يدٌ تقاصَرَ عَنْها المَثَلْ
فَبَسْطَتُها للغنى وسَطْوتُها للأجلْ
وباطنُها للنَّدى وظاهرها للقُبَلْ

وسرقه ابن الرومى فقال:

أصبحتُ بين خصاصة ومذلَّةٍ والحرُّ بينهما يموتُ ذَليلاَ
فامدُدْ إليَّ يَدًا تعوَّد بطنُها بذْلَ النوال وظَهْرُها التَّقبيلاَ

وقال ابن عبد ربه:

وما خُلِقَت كَفَّاه إلا لأربعٍ عقائل لم يعقل لهنّ ثوانِي
لتقْبيل أفواهٍ، وإعطاءِ نائلٍ، وتقليب هنديٍّ وحَبْس عنانِ

قوله: «ودَعْ مايعقب الضير»، أى دع عنك شيئا يجيئك فى أثره ضرر. للمركب هنا: السفينة. واليمّ: البحر. واللجّة: معظم الماء، وجعل الميت كالمسافر، وضرب له البحر مثلا لكثرة مايرى من الأهوال، فأمره بالاستعداد لذلك. ياصاح: ياصاحب. بُحْتُ. نطقت، يريد أنّ كلّ ماقدّم من الوصيّة إنما هو على وجه النصح، كما وُصِّىَ هو بها قبل ذلك، وأراد بقوله: «صاح» كلّ مَنْ يسمع وصيّته، لا صاحباً معيّناً. طوبى: شجرة فى الجنة، وهى، عندهم «فُعْلَى» من الطيب. يأتمّ: يقْتَدَى بها فى الظاهر، يريد أنه مَن اقتدى بهذه الوصية فَطُوبَى له، وهو يريد: مَنْ حصل آداب المقامات كلها رأس.

* * *

(١) ديوانه ١٣٦ (ضمن مجموعة الطرائف الأدبية).

رفع المسهم

ثمَّ حَسَرَ رُدْنَهُ عَنْ سَاعِدٍ شَدِيدِ الأَسْرِ ، قَدْ شَدَّ عَلَيْهِ جَبَائِرَ المَكْرِ لاَ الْكَسْرِ ، مُتَعَرِّضًا الاستِمَاحَةَ ، فى مَعْرِضِ الْوَقَاحَةِ ، فاخْتَلَبَ بِهِ أُولئِكَ الْمَلأَ ، حَتى أَتْرَعَ كُمَّهُ وَملأَ ؛ ثُمَّ انْحَدَرَ مِنَ الرَّبْوَةِ ، جَذِلاً بالْحَبْوَةِ .

قال الراوى : فَجاذَبْتُهُ منْ ورَائِهِ ، حَاشِيَةَ رِدَائِهِ ، فالْتَفَتَ إِلَىَّ مُسْتَسْلِماً ، وَوَاجَهَنِى مُسَلِّماً ، فإِذَا هوَ شَيْخُنا أبو زَيدٍ بعَيْنِهِ وَمينِهِ ، فقلت له :

إِلَى كَمْ يا أَبا زَيْدْ أُفَانِينُكَ فِى الكَيْدِ
لِينحاشَ لَكَ الصَّيْدْ وَلاَ تَعبا بِمَنْ ذَمّْ

* * *

قوله : « حسر » ، أى كشف . ردنه : كُمّه . الأسر : الخِلْقة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وشَدَدْنا أَسْرَهُمْ ﴾ (١) ، أى خلْقهم ، وهو من الإسار ، وهو القِدّ الذى يشدّ به الأسير ، فشُرُك الجلد هى الإسار ـ ويراد بها فى الخلْقة العَصَب ـ التى يشتدّ بها الجسد وتلتئم بها الأعضاء ، وإليها حُكْم حركة البدَن من القيام والقعود ، فسبحان الذى أنشأ الخليقة كيف شاء ! الاستماحة : الطلب ، استفعالة ، من مَاحَ الرجلَ يميحه إذا أعطاه ، وأصل ذلك من المائح ، وهو النازل فى قَعْر البئر ليغرف ماءها ويفرّقه على دِلاَء المستقين ، وقد ماح البئرَ ميْحاً . الوقاحة : ترك الحياء وصلابة الوجه ، من الحافِر الوَقَاح وهو الصّلب . ومعرضها : موضع عَرْضها ونشرها ، وإن كسرت الميم وفتحت الراء فهو ثوب الوَقاحة ، لبسه لأنّ المِعْرَض الثوب الذى تُعرَض فيه الجارية للبيع ، والوقاحة : إظهار ذراعه صحيحاً

(١) سورة الإنسان ٢٨

مشدوداً عليه بخرْق ، ليوهمَ مَنْ رآه أنه مكسور. اختلب: خدع، واحتلب بالحاء: حلب ما عندهم كما تُحلَب الشاة . الملأ : الجماعة . أترع : ملأ . انحدر : هبط ، والرّبْوة، لغة فى الرُّباوة التى تقدّمت . جذِلاً : مسروراً. الحبوة : العطيّة. جاذبته: نازعته . ميْنه : كذبه . أفانينك : أنواع كذبك وحِيَلك . ينحاش : ينضمّ ويجتمع ، وحُشت الصيد أحوشه، إذا جئتَه من حواليه لتصرفه إلى الحبالة . لا تعبأ ، أى لا تبالى ، من عبّأت الحلم للجهل ، والخيل للحَرْب إذا أعْدَدته ، وإذا لم يبال بالشىء لم يستعدّ له .

* * *

فأجابَ مِنْ غَيْرِ اسْتِحْياء ، وَلاَ ارْتِياء ، وَقالَ :

تبصَّرْ وَدَعِ اللَّوْمْ وَقُلْ لِي هَلْ تَرَى الْيَوْمْ
فَتًى لاَ يَقْمُرُ الْقَوْمْ مَتى ما دَسْتُهُ تَمّ !

فقلتُ لهُ : بُعْدًا لَكَ يا شَيْخَ النَّارِ ، وَزَامِلَةَ الْعارِ ، فَما مِثْلُكَ فِي طُلاوَةِ عَلانِيَتِكَ ، وَخُبْثِ نِيَّتِكَ ، إلاَّ مِثْلُ رَوْثٍ مُفَضَّضٍ ، أَوْ كَنِيفٍ مُبيّضٍ .

ثمَّ تفرّقْنا ، فانْطَلَقْتُ ذَاتَ الْيَمِينِ ، وَانْطَلَقَ ذَاتَ الشِّمَالِ ، وَناوَحْتُ مَهَبَّ الْجَنُوبِ ، وَناوَحَ مَهَبَّ الشِّمَالِ .

* * *

ارتياء: إبطاء ، وهو «افتعال» من رؤية القلب، التى معناها التدبّر والتفكّر، وأصل بابه الهمزة ، فنقلها لمكان همزة اللاّم ؛ يقول : أجاب من غير فكرة .

يقمُر: يغلب،وتقول: قامرتُ الرجلَ قِماراً فقمرتُه أقمُره ، أى غلبته . دَسْته ، أى حيلته ، والدّست: الذى يكون لك فيه الغلَب فى الشطرنج ،تقول : الدّست لى ، والدَّست علىّ . ومن ألفاظ عامّة المشرق أن يقول الرجل لصاحبه : هلمّ نأخذ دستاً.تمّ : كمل . قوله: «زاملة»، أى حاملة ، والزاملة :الدابّة يحمَل عليها. طُلاوة علانيتك ، أى حسن ظاهرك . خبث نيّتك : فساد باطنك ، وفى معنى هذا قال لقمان لابنه : احذر واحدةً ـ وهى أهلٌ للحَذَرِ : إيّاك أن ترى أنك تخشى الله وقلبك فاجر ؛ يحذِّره من الرياء ، وفى الحديث :« من أصلَحَ سريرتَهُ أصلح الله علانيته » .

وقيل لرجلٍ مُراء : ما أحسن صلاتَك ! قال : ومع هذا فإنى صائم !

قال الشاعر :

وإذا أظهرت شيئاً حسَناً فليكن أحسن منه ما يَسُرّ
فمُسِرّ الخير موسومٌ به ومُسِرّ الشّر موسوم بشرّ

وقال محمود الوراق لابن أخيه :

تصوّف كى يقال له أمينٌ وما معنى التصوّف والأمانَهْ
ولم يُرِد الإلٰهَ به ولكنْ أراد به الطريقَ إلى الخيانَهْ

وقال فيه أيضاً :

شَمِّر ثيابَك واستعدّ لقائلٍ واحكك جبينَك للقضاة بثومِ
وعليك بالفَتْوى فاجلس عنده حتى تصيب وديعةً ليتيمِ

وقال الأبيض الألبيرىّ :

أهلَ الرياء لبستمُ ناموسكمْ كالذئب يُصبح فى الظلام العاتِمُ

فملكتم الدنيا بمذهب مالكٍ وقسمتم الأموال بابن القاسمِ
وركبتم شُهْبَ البغالِ بأشهبٍ وبأصبغٍ صبغت لكم في العالمِ

وقال آخر :

لا شيء أخسر صفقةً من عالمٍ لعبت به الدُّنيا مع الجُهَّالِ
فغدًا يفرّق دينه أيدى سَبَا ويُديلُه حرصًا لجمع المالِ
لاخير في كسبِ الحرامِ وقلَّما يُرْجَى الخلاص لكاسبِ الحلالِ
فخذِ انكفاف ولا تكن ذا فَضْلةٍ فالفضل تُسْأَلُ عنه أىّ سُؤَالِ

قوله: «مفضّض» ، مطليٌّ بالفضة. والكنيف: المستراح. ذات: جهة وناحية. ناوَحْت : قابلت . مهبّ : ناحية هبوبها . الجنوب : الريح القبليّة . والشمال [مقابل] الجنوبية .

رفع المسهم

المقامة الثانية عشرة وهي الدمشقية

حكي الحارث بن همّام قال : شَخَصْتُ مِنَ الْعِرَاقِ إِلَى الْغُوطَةِ ، وَأَنا ذُو جُرْدٍ مَرْبُوطَةٍ ، وجِدَةٍ مَغْبُوطَةٍ ، يُلْهِينِي خُلُوُّ الذَّرْعِ ، وَيَزْدَهِينِي حُفُولُ الضَّرْعِ . فلَمَّا بلَغْتُها بَعْدَ شِقِّ النَّفْسِ ، وإنْضاءِ الْعَنْسِ ، أَلْفَيْتُها كَما تَصِفُ الأَلْسُنُ ، وَفِيها ما تَشْتَهِي الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ، فَشَكَرْتُ يَدَ النَّوَى ، وَجَرَيْتُ طَلَقاً مَعَ الْهَوَى ، وَطَفِقْتُ أَفُضُّ فِيهَا خُتُومَ الشَّهَواتِ ، وَأَجْتَنِي قُطُوفَ اللَّذَّاتِ ، إلى أَنْ شَرَعَ سَفَرٌ فى الإعراقِ ، وَقدِ أَشْفَقْتُ مِنَ الإغراقِ ، فعادَنى عِيدٌ منْ تَذْكَارِ الْوَطَنِ ، والحَنِينِ إلى الْعَطَنِ ، فقَوَّضْتُ خِيامَ الْغَيْبَةِ ، وَأَسْرَجْتُ جَوَادَ الأَوْبَةِ .

* * *

[غوطة دمشق]

شَخَصْتُ ، أى خرجت . الغوطة : موضع بالشأم خصيب بخارج دمشق ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ستفتح عليكم الشأم فعليكم بمدينة يقال لها دمشق ، هى خير مدائن الشأم وفسطاط المؤمنين بأرض منها يقال لها الغُوطة » . قال الأصمعىّ : أحسن أنهار الدنيا ثلاثة أنهار : الغُوطة ، وسَمَرْقند ، ونهر الأُبُلَّة ، وهو قريب من البصرة ، وحشوشها ثلاثة : عُمان ، وأردبيل ، وهِيت .

رفع المسهم

وسُمِّيت دمشق باسم صاحبها الذى بناها ، وهى إرم ذات العماد .

وقال اليعقوبىّ : مدينة دمشق جليلة المِقْدار قديمة ، وهى مدينة الشأم فى الجاهلية والإسلام ، وليس لها نظير فى جميع بلاد الشأم فى أنهارها وبساتينها ، ومبانيها وكثرة عمارتها . وافتُتِحت فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه سنة أربع عشرة .

وقال شيخُنا ابن جُبَير [1] : مدينة دمشق هى جنَّة المشرق ، ومطلع حسنه المونق ، [2] وعروس المدن [2] . قد تحلّتِ بأزاهير الرياحين ، وتجلّت فى حُلَلٍ سندسيّة من البساتين ، وحلّتْ من موضع [3] الحسنِ بمكان مكين ، وتجلّتْ [4] فى منصّتها بأجمل تزيين ، وتشرفت بأن آوى الله المسيح وأمَّهُ منها إلى ربوة ذات قرار ومعين . ظلٌّ ظليل ، وماء سلسبيل ، ينساب انسياب الأراقم بكل سبيل ، ورياض تُحْيِي النفوس [5] بنسيمها العليل ، تبرز [6] لناظريها بمجتلًى صقيل ، وتناديهم : ألا هلمُّوا إلى معرّس للحسن ومقيل ، وقد سئمت أرضها كثرة المياه حتى اشتاقت إلى الظمأ ، فتكاد تناديك بها الصمُّ الصِّلاب : ﴿اركُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بارد وشراب﴾ [7] . قد أحدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر ، واكتنفتها اكتناف الأكمام للزهر ، وامتدّت بشرقيّها غوطتُها الخضراء امتداد البصر ، فكل موقع لحظتَه بجهاتها الأربع ، نضرتُهُ اليانعة قيْد النظر ، ولقد صدق القائلون عنها :

---

(١) رحلة ابن جبير ٢٤٠ .

(٢ ـ ٢) ابن جبير : « وهى خاتمة بلاد الإسلام التى استقريناها ، وعروس المدن التى جلبناها » .

(٣) ب : « وضع » ، ابن جبير : « موضوع » .

(٤) ابن جبير : « وتزينت » .

(٥) ب وابن جبير : « يحيي النفوس نسيمها » .

(٦) ابن جبير : « تتبرج » .

(٧) سورة ص ٤٢ .

رفع المسهم

إن كانت الجنة فى الأرض فدمشق لا شك منها ، وإن كانت فى السماء فهى بحيث تُسامِتُها وتحاذيها .

وقال فيها البحترى :

إذا أردْتَ ملأْتَ الطَّرْفَ من بَلَدٍ مستحسن ، وزمان يُشْبِهُ البَلَدَا[1]
يُمْسِى السحاب على أجْبالها فِرَقاً
ويُصْبِحُ النَّبتُ فى صحرائِها بَدَدَا
فلستَ تُبْصِر إلاّ واكفاً خَضِلاً أو يانعاً خضِرًا ، أو طائِراً غرِدَا
كأنّما القيظ وَلَّى بعد وَفْدَتِهِ[2] أو الربيع دنا من بعد ما بَعُدَا

* * *

قوله : « جُرْد »، أى خيل قصيرة شعر الجسد . جِدَةٍ : غنًى . مغبوطة : محسودة ، أراد مغبوطٌ عليها مالكُها ، فقلب . يُلْهِينى : يدعونى إلى اللّهو . خُلُوّ الذِّرْعِ : فراغ البال والصدر من الهمّ ، يزدهينى : يحمانى على الزَّهْو . حُفُولُ الضَّرْع : كثرة المال ، والضَّرْع للبقرة والشاة بمنزلة الثَّدْى للمرأة ، وحُفوله : امتلاؤه باللبن . شِقّ : مشقة . إنصاء : إهزال . والمَنْس : الناقة القوية . ألْفَيْتُها : وجدتها النَّوَى : البعد والانتقال من بلدٍ إلى بلد ، وأراد أنه شكر سفره . ويد النَّوى : النعمة التى أنعم بها عليه ، بأن أوْصله إلى الغُوطة . الهوى : ماتَهْوَاه النفس وتشتهيه . طفقت : أخذت . أفضّ : أكسر . ختوم : ربوط ؛ يريد أنّ شهوته التى كانت قد شُدّت ورُبطت أخذ يكسر ختومها ويسرّحها فى المآكل والمشارب واللذات . أجتنِى : أجمع . جناة قطوف : مايجنى من الثمار ، وجعله للذّات أتساعاً . شَرَع : أخذ وابتدأ ، من شرعت الدّابةُ فى الماء ، إذا

(١) ديوانه ٧١٠ ، ، وقبله :

أمّا دمشقُ فقَدْ أبْدَتْ محاسِنَهَا وَقَدْ وَفَى لكَ مُطْرِيهَا بِمَا وَعدَا

(٢) الديوان : « حيثيته ».

دخلته لتشربَ سَفْر : مسافرون ، الإعراق: المشى إلى العِراق. أشفقت: خِفْت الإغراق :الفقر من أجل الزاد والمأكل ، وكأنه غرق فى ذلك ، فهو يرجع إلى الغرق والإغراق : المبالغة فى الشىء ، يقال : أغرق الرجل فى القول والرمى بالقوس ، إذا بالغ فيهما .

عادَنى : زارنى . عيد : شوق ، وكلّ ما تذكرته واشتقت إليه فهو عيد ، كأنه عاد إلى قلبه بعد نسيانه ، ونقل لفظ الشاعر :

عاد قلبى من الطّويلةِ عيدُ واعترانى من حُبِّها تَسْهِيدُ (١)

ابن الأنبارى ، العيد هنا : الوقت الذى يعود فيه الحزن والشوق ، وقال تأبط شرًّا :

يا عِيد مالك من شوقٍ وإيراقِ ومَرّ طيفٍ على الأهوال طرّاقِ (٢)

العِيد : مايعتاد من الحزن والشوق ، ومعنى « يالك من شوق» : ما أعظمك من شوق . الحنين : الشوق . المَطَن : مبارك الإبل حول الماء ، وأراد به بلده. قوّضْت : هدّمت . خيام : بيوت . الأوبة : الرجوع ، وأراد قطعت أسباب الإقامة .

* * *

وَلَمَّا تَأَهَّبَتِ الرِّفاقُ ، وَاسْتَتبَّ الاتّفاقُ ، أَلْحَنَا مِنَ المَسِيرِ، دُونَ اسْتِصْحابِ الخَفِيرِ ، فَرُدْناهُ مِنْ كُلِّ قبيلَةٍ ، وَأَعْمَلْنَا فى تَحْصِيلِه أَلْفَ حِيلَةٍ ، فأَعْوَزَ وِجْدَانُهُ فى الأَحْيَاءِ ، حَتَّى خِلْنَا أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ

---

(١) صدرة فى اللسان ـ عود ، من غير نسبة ، قال : أراد بالطويلة روضة الصمان ، تكون ثلاثة أميال فى مثلها .

(٢) مطلع قصيدته المفضلية ، وإيراق ، مصدر آرقة بورقه ، من الأرق ، والطراق : الذى يطرق ليلا .

رفع المسهم

الأَحياء ، فَحارَتْ لعَوزِهِ عُزُومُ السَّيَّارَةِ ، وَانتَدَوْا بِبابِ جَيْرُون للاستِخارَةِ ؛ فَما زالوا بَيْنَ عَقْدٍ وَحَلٍّ ، وَشَزْرٍ وَسَحْلٍ ، إلى أن نَفِدَ التِّنَاجِي ، وَقَنَطَ الرَّاجِي .

وَكَانَ حِذَّهُمْ شَخْصٌ مِيسَمُهُ مِيسَمُ الشُّبَّانِ ، وَلَبُوسُهُ لَبُوسُ الرُّهْبَانِ ، وبِيَدِهِ سُبْحَةُ النِّسْوَانِ ، وَفي عَيْنَيْهِ تَرْجَمَةُ النَّشْوَانِ ، وَقَدْ قَيَّدَ لَحْظَهُ بالجَمْعِ ، وَأَرْهَفَ أُذُنَهُ لاستِرَاقِ السَّمْعِ . فَلَمَّا أَنَى انكِفاؤُهُمْ ، وقَدْ بَرَحَ لَهُ خَفاؤُهُمْ ، قالَ لهم : ياقَوْمِ لِيُفْرِخْ كَرْبُكُمْ ، وَلْيَأْمَنْ سِرْبُكُمْ ، فَسَأُخْفِرُكُمْ بِما يَسُرُّ رَوْعَكُمْ ، ويُبْدُو طَوْعَكُمْ .

* * *

استتبّ : تهيّأ وأقام . ألحنا : خفنا . الخفير : المجير ، وهو الذى تمشى الرفاق فى ذمته ، وتسمّيه العامة الغفير . رُدناه : طلبناه . أعوز : عدم . الأحياء الأول : القبائل ، والثانى ضدّ الموتى . حالت : تغيّرت . لِعَوزِه : لفقده . عُزُوم : جمع عَزْم ، وهو الجِدّ . السّيّارة : الرفقة ، وهى فَعّالة من السير . انتدوا : اجتمعوا .

* * *

رفع المسهم

[باب جيرون]

باب جيرون ، من أبواب جامع دمشق ، وجيرون هذا هو جيرون بن سعد بن عاد ، وهو الذى بنى دمشق ، ونقل إليها الرُّخام ، وسمّاها إرم ، وعلى هذا نقلة الأخبار ؛ وأنّ إرم ذات العماد هى دمشق ، يقال : إنه كان فيها أربعمائة ألف عمود. وقد تقدّم أيضاً أن دمشق سمّيت باسم بانيها ، وهو دمشق بن نمروذ بن كنعان ، وقيل : بانيها دمشق بن عامر بن لَمَك بن أرفخشذ بن سام بن نوح .

قال اليعقوبى[1] : جامع دمشق ليس فى الإسلام أحسن منه ، بناه الوليد ابن عبد الملك فى خلافته بالرّخام والذهب سنة ثمان وثمانين ، مفروش بالرّخام الأبيض المختم بالأزرق ، وسقفه لاخشبَ فيه ، مذهَّبٌ كلُّه ، ومنائره ثلاث : واحدة فى مؤخر المسجد ، مذهَّبٌ كلها من أعلاها إلى أسفلها .

وذكر شيخنا ابن جُبير فى وصف هذا الجامع ووصف دمشق غرائب لا يتَّسعُ لها هذا الكتاب ، فلنلمّ هنا ببعض ماوصف فى هذا الجامع ؛ لنَفِىَ بشرطنا. قال[2] : هذا الجامعُ من أشهر جوامع الإسلام حسناً وإتقان بناء ، وغرابة صنعة ، واحتفال تنميق وتزيين[3] ، ومن عجيب شأنه أنه لا يَلُمُّ به نسجُ العنكبوت[4] ، ولا تلُمّ به الطير المعروفة بالخطاف ، انتدب لبنائه الوليد[5] ، ووجّه إلى ملك الروم بالقسطنطينية يأمره بأشخاص اثنى عشر ألف صانع من بلاده ، وتقدّم إليه بالوعيد فى ذلك إن توقّف [عنه][6] ، فامتثل أمرَهُ مُذْعِناً ،

---

(١) اليعقوبى أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح ، صاحب كتاب البلدان والتاريخ المعروف باسمه .

(٢) رحلة ابن جبير ٢٤٠ ـ ٢٥١ ، بتصرف .

(٣) بعدها فى ابن جبير : « وشهرته المتعارفة فى ذلك تغنى عن استغراق الوصف فيه » .

(٤) ابن جبير : « لاتنسج به العنكبوت » .

(٥) ابن جبير : « الوليد بن عبد الملك » .

(٦) تكملة من ج وابن جبير .

وشرع فى بنائه ، وبلغت الغاية فى التأنق فيه ، وأنزلت جدره كلها بفصوص الذهب المعروفة بالفُسَيْفِساء ، وخلطت بها أنواع من الأصبغة الغريبة ، فمثلت أشجاراً ، وفرّعت أغصاناً منظومة بالفصوص ببديع الصنعة المعجزة وصف كلّ واصف ، فجاء يُغْشِى العيون وميضاً وبصيصاً .[1] وبلغت النفقة فيه أحد عشر ألف ألف دينار ومائتى ألف دينار[1] .

وكان أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه صالَحَ النّصارَى لمّا دخلها ، بأن أخذ نصف الكنيسة الشرقىّ ، فصيّرَه مسجداً ، وبقى النصف الغربىّ[2] للنصارى . فأخذه الوليد ، وأدخله فى الجامع بعد أن رغب إليهم أن يعوّضهم عنه ، فأبَوْا ، فأخذه قهرًا . وكانوا يزعمون أنّ مَنْ يهدم كنيستهم يُجَنّ ، فبادر الوليد ، وقال : أنا أول مَنْ يُجَنّ فى الله ، وبدأ الهدم بيده ، فبادر المسلمون ، فأكملوا هدمها . ثم أرضاهم عمر بن عبدالعزيز فى خلافته عن الكنيسة بمال عظيم .

وطول هذا الجامع من الغرب إلى الشرق : ذرعه مائتا خطوة[3] ، وهما[4] ثلثمائة ذراع ، وذرعه فى السعة من القبلة إلى الشمال مائة وخمس وثلاثون خطوة ، وهى مائتا ذراع ، وتكسيره بالمرجع المغربىّ أربعة وعشرون مرجعاً ، وهو تكسير مسجد النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ غير أنّ طوله من القبلة إلى الشمال ، وبلاطاته المتّصلة بالقبلة ثلاث ، مستطيلة من المشرق إلى المغرب ، سعَة كلّ بلاطة منها ثمان عشرة خطوة ، وقامت البلاطات على ثمانية وستين عمودا ، منها ثمانية أرجل تتخللها

(١-١) ابن جبير : « وكان مبلغ النفقة فيه حسبما ذكره ابن المعلى الأسدى فى جزء وصفه فى ذكر بنائه ـ مائة صندوق ، فى كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار ومائتا ألف دينار ؛ فكان مبلغ الجميع إحدى عشر ألف ألف دينار ومائتا ألف دينار ـ والوليد هذا هو الذى أخذ نصف الكنيسة الباقية منه فى أيدى النصارى وأدخلها فيه ؛ لأنه كان قسمين : قسما للمسلمين وهو الشرقى ، وقسما للنصارى وهو الغربى لأن أبا عبيدة . . .

(٢) ب ، ج : « النصف المصارع عليه » .

(٣) قال ابن جبير : الخطوة : ذراع ونصف .

(٤) ط : « هى » ، وما أثبته من ب وابن جبير .

واثنتان مرخّمة ملصقة بالجدار الذى يلى الصخرة ، وأربع أرجل مرخّمة أبدع ترخيم، مرصّعة بفصوص من الرّخام ملوّنة ، قد نظمت خواتيم، وصوّرت محاريب وأشكالا غريبة قائمة فى البلاط الأوسط، دور كلّ رجل منها اثنان وسبعون شبرا ، ويستدير بالصحن بلاط من ثلاث جهاته ، سعته عشر خُطا ، وعدد قوائمه سبع وأربعون ، منها أربع عشرة رجلا ، والباقى سوار ، وسقف الجامع كله من خارج ألواح رصاص . وأعظم ما فيه قبة الرصاص المتّصلة بالمحراب، وهى سامية فى الهواء ، عظيمة الاستدارة ، وقد استقلّ بها هيكل عظيم ، هو عماد لها يتّصل من المحراب إلى الصحن والقبّة ، قد أُغصّتْ بالهواء، فإذا استقبلتها رأيتَ مرأًى هائلا ، ومن أىّ جهة استقبلت البلد ترى القبة فى الهواء ، كأنها معلّقة فى الجوّ ، وعدد شمسياتها الزجاجية المذهبة الملونة أربع وسبعون، فإذا قابلتها الشمس واتصل شعاعها بها انعكس الشعاع إلى كلّ لون منها ، واتصل ذلك بالجدار القبلىّ ، ويتصل بالأبصار منها أشعة ملوّنة هائلة لا تبلغ العبارة تصوّرها ، ومحرابه من أعجب المحاريب الإسلامية حسناً وغرابة صنعة يتقد ذهباً كلّه ، وقد قامت فى وسطه محاريب صغار متصلة بجداره ، تحفّها سويريات مفتولات فتل الأسورة ، فإنها مخروطة ، بعضها أحمر ، كأنها مرجان لم يُرَ شىء أجملُ منها .

وفيها ثلاث مقاصير : مقصورة معاوية ، وهى أول مقصورة وضعت فى الإسلام ، طولها أربعة وأربعون شبراً ، وعرضها نصف الطُّول . ويليها بجهة الغرب المقصورة التى أحدثت عند زيادة الكنيسة فيه ، وهى أكبر[1] . والثالثة بالجانب الغربىّ ، يجتمع الحنفيّة فيها للتدريس .

وله أربعة أبواب : باب قبلىّ يعرف بباب الزيادة ، وباب شمالى يعرف بباب الناطفيين ، وباب غربى يعرف بباب البريد، وباب شرقىّ يعرف بباب جيرون ، وهو أعظمها .

(١) ابن جبير : « مقصورات » .

رفع المسهم

وله وللغربى دهاليز متسعة يفضى كل دهليز منها إلى باب عظيم كانت كلها مداخل للكنيسة ، فبقيت على حالها .

ثم ذكر فى الصحن عجائب من الأبنية والقباب والصوامع الثلاث و لمياه المدبرّة فيه ما يطول وصفه واختصاره. قال : وهذا الصَّحْن من أجمل المناظر وأحسنها ، وفيه مجتمع أهل البلد ومتفرّجهم ومتنزّههم ، كل عشيّة تراهم فيه ذاهبين وراجعين من باب جَيْرون إلى باب البريد ، لا يزالون على هذه الحالة إلى انقضاء صلاة العشاء الأخيرة ، منهم مَنْ يتحدّث مع صاحبه ، ومنهم مَنْ يقرأ . فهذا دأبهم أبداً بالعشىّ والغداة[1] ، وأكثر الاحتفال بالعشى ، [فيخيّل لمبصر ذلك أنّها ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم لما يرى من احتفال الناس واجتماعهم ، لا يزالون على ذلك كل يوم][2] ، وأهل البطالة يسمونهم الحرائين .

وللجامع أربع سقايات فى كل جهة سقاية . وأعظمها سقاية باب جيرون .

وذكر أنّ حول باب جيرون من الأبنية الغريبة ما يطول وصفُه ، وذكر باب جيرون فقال : يخرج من دهليزه إلى بلاط طويل عريض له خمسة أبواب مقوّسة ، لها ستة أعمدة فى جهة اليسار ، منه مشهد كبير كان فيه رأس الحسين رضى الله عنه ، قبل أن يُنقل إلى القاهرة ، وبإزائه مسجد صغير لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وقد انتظمت أمام البلاط أدراج ينحدر عليها إلى الدهليز ، وهى كالخندق العظيم تتصل إلى باب عظيم الارتفاع ينحسر[3] الطرف دونه سموًّا ، قد حفّته أعمدة كالجذوع طولاً ، وكالأطواد ضخامة ، وبجانبى الدّهليز أعمدة قامت عليها شوارع مستديرة ، فيها حَوانيت العطّارين وغيرهم ، وعليها شوارع مستطيلة فيها الحجر والبيوت للكراء مشرفة على الدهاليز ، وفوقها سطح بيت فيه سُكّان الحجر والبيوت ، وفى وسط الدَّهْليز حَوْض كبير مستدير من الرخام ، عليه قبة تقلّها أعمدة من الرخام . وفى وسط الحوض أنبوب صُفْر يزعج

(١) ابن جبير : « ولبعضهم بالغداة مثل ذلك » .

(٢) تكملة من ابن جبير .

(٣) كذا فى ابن جبير ، وفى ط ، ب : « يتحير » .

الماء بقوّة ، فيرتفع فى الهواء أزيد من القامة ، وحوله أنابيب صغار ترمى الماء علوًّا[1] ، فيَخرج منها كقضبان اللجين ، فكأنها أغصان تلك الدوحة المائية ، ومنظرها أبدع من أن يوصف ، وعن يمين الخارج من باب جيرون فى جدار البلاط الذى أمامه شبه غرفة ، بها هيئة طاق كبير مستدير ، فيه طيقان من صفر وقد فتحت أبوابًا صغاراً على عدد ساعات النهار ، ودبرت تدبيراً هندسياً ، فعند انقضاء ساعة من النهار ، تسقط صَنجتان من صُفْر من فمىْ بازيّين من صُفْر قائمين على طاستين من صفر مثقوبتين ، فتبصر البازيين يمدّان أعناقهما للصنجتين إلى الطّاستين ، ويقذفانهما بسرعة ، بتدبير عجيب تتخيّله الأوهام سحرا ، فعند وقوعهما يُسمع لهما دوىّ ، فيعودان من الأثقاب إلى داخل الجدار إلى الغرفة ، ويتعلّق الباب تلك الساعة بلوْحٍ أصفر ، فلا يزال كذلك حتى تنقضى الساعات ، فتغلق الأبواب كلها ، ثم تعود إلى حالاتها الأولى . ولها بالليل تدبير آخر ، وذلك أنّ فى القوس المنعطف على الطيقان المذكورة اثنتى عشرة دائرة من النحاس مخرّمة ، فى كلّ دائرة زجاجة ، وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة ، فإذا انقضت عمّ الزّجاجة ضوء المصباح ، وأفاض على الدائرة شعاعاً ، فلاحت دائرة محمرة ، ثم ينتقل إلى الأخرى ، حتى تنقضىَ ساعات الليل ، وقد وكلّ بها مَنْ يدير شأنها ، فيعيد فتح الأبواب ، ويسرح الصّنج إلى موضعه وهى التى تسمى الميقات .

ثم ذكر فى باب جيرون ، وفى الجامع وفى خارج البلد عجائب ليست من شرطنا ، وإنما ذكرنا منها مادعت إليه الحاجة من ذكر باب جيرون .

* * *

قوله: «الاستخارة» أى طلب الخيرة، واستخرت الله: سألته أن يهب لى الخيرة. شزْر : عقد. سَحْل: حلّ، وشززت الحبل شزراً شددت فتله ، وسحلت النّسج سَحْلا أفردت سُداه ولم تفتله. نفد: تم وفرغ . التناجى : التحدّث سِرًّا. قَنطَ : يئس

(١) ب « إلى عط » .

رفع المسهم

الراجى : الطامع . حِذتهم : قريباً منهم ، تقول : دارى حِذوه وحذوته وحذته ، أى حذاءه . مِيسمه : علامته ، وأصل المِيسم المِوْسم ، لأنه من وسمت الشىء ، فقُلبت الواو ياء لسكونها وكسر ما قبلها . لَبوسه : ثيابه . الرّهبان : العبّاد . والترهُّب : ترك النساء . سُبْحة : خيط ينظم فيه خرز يعدّ به التسبيح ، وكانت لأبى هريرة رضى الله عنه سُبْحة من النوى المجزّع ، وهو الذى حُكّ حتى اختلف لونه . وفرغ من سبحته ، أى من صلاته وما يتبعها من الذِّكر . ترجمة : علامة . النَّشْوان : السّكْران . قَيِّد لحظه : ربط نظره ، أى شخص فيهم . أرْهف : أحدّ . آن : حان وقرُب ، ويروى « ناء » مقلوب « آن » . انكفاؤهم : انقلابهم ورجوعهم . بَرَح : انكشف . خفاؤهم : سرّهم .

ليُفرِخ كربكم : ليزُولْ ويسكن ، ومَثَلُ العرب : أفرخ رَوْعك ، ومعناه : انجلى وانكشف كما ينكشف ما فى البيضة إذا انشق عن الفَرْخ . وقيل : معنى أفرخ ، ذهب .

وقال الفارسىّ فى التذكرة : معنى أفرخ رَوْعك : صار له فرخ ، وإذا أفرخ الطائر طار ، لأنه فارق الحِضْن ، وهذا قول حسن .

وقال عروة بن مضرّس : أتيت النبىّ صلّى الله عليه وسلم بجَمْع قبل أن يصلّىَ الصبح ، فقلت : يارسولَ الله ، طويت الجبلين ، ولقيت شدّة ، فقال : « أفرخ روْعك ، مَنْ أدركَ إفاضتنا هذه فقد أدرك الحج » ، وقال الأخطل يصف الثّور والكلاب :

حتّى إذا ما الثَّوْر أفرخ رَوْعُه ... وأفاق أقبل نحوها يتذمَّرُ[1]

أَضِمًا وهَزّ لمنْ رَوْقىْ رأسِه[2] ... إذْ قد أتيح لمنّ موتٌ أحمرُ

(١) ديوانه ٢٣١ .

(٢) الديوان : « رمحى رأسه » .

رفع المسهم

فقوله : « أفاق » بعد « أفرخ روعه » يدلّ على أنه أراد ذهب فزعه وزال . ويتذمّر ، يحضّ نفسه على الإقدام ، يقال: ذمرته إذا حضضته. وأضِما، أى غضبان ، والموت الأحمر مذكور فى المقامة بعد هذه . قوله : « كربكم » أى همكم . سربكم ، أى جمعكم ، أى تأمنوا فى نفوسكم . سأخفركم : سأجيركم . يَسْرُو : يكشف ويزيل . رَوْعكم : فزعكم . يبدو: يظهر . طوعكم : منقاداً لكم ، وأراد سأجيركم بشىء يزيل عنكم الفزع ، ويكون منقاداً لكم ، وذلك الشىء هو الكلمات التى يأتى بها .

* * *

قالَ الرَّاوِى : فاستَطْلَعْنا مِنْهُ طِلْعَ الخِفارَةِ ، وَأَسْنَيْنَا لَهُ الجِعالَة عَنِ السِّفارَة ، فزَعَمَ أَنَّها كَلِماتٌ لَقَّنَها فى المَنامِ ، لِيَحْتَرِسَ بِها منْ كَيْدِ الانام ، فجعَلَ بَعْضُنا يُومِضُ إلى بَعْضٍ ، وَيُقَلِّبُ طَرْفَيْهِ بَيْنَ لَحْظٍ وَغَضٍّ ، وَتَبَيَّنَّ لَهُ أَنَّا استَضْعَفْنا الخَبرَ ،وَاستَشْعَرْنا الخَوَر ، فقالَ : ما بالُكُمُ اتَّخَذْتُمْ جِدِّى عَبَثًا ؛ وَجَعَلْتُمْ تِبرِى خَبَثًا ! وَلَطالَما وَاللهِ جُبْتُ مَخاوِفَ الأَقْطارِ ، وَوَلَجْتُ مَقاحِمَ الأَخْطارِ ، فَغَنِيتُ بِها عَنْ مُصاحَبَةِ خَفِيرٍ ، وَاستِصْحابِ جَفِيرٍ . ثُمَّ إِنِّى سأُنْفِى مَارَاكُمْ ، وأَستَسِلُّ الحِذْرَ الَّذِى نابَكُمْ ، بِأَنْ أُوافِقَكُمْ فِى البَدَاوَة ، وأُرافِقَكُمْ فِى السَّماوَةِ ، فَإِنْ صَدَقَكُمْ وَعْدِى ، فَأَجِدُّوا سَعْدِى ، وَأَسْعِدُوا جَدِّى . وَإِن كَذَبَكُمْ فِمِى ، فَمَزِّقُوا أَدَمِى ، وَأَرِيقُوا دَمِى .

قال الحارث بن همام : فألهمنا تصديق رُؤْياهُ ، وَتحقيقَ مَا رَوَاهُ ، فنزعْنا عَنْ مجادَلتِهِ ، وَاستَهْمنَا على مُعَادَلتِهِ ، وَفصَمْنا بقَولِهِ عُرَى الرَّبائثِ ، وَألغَيْنا اتقاء العابثِ والعائثِ .

* * *

استطلعنا منه طِلْع الخفارة ، أى استخبرناه عن خبر الإجارة ، قال ابن الأنبارىّ : معنى السِّفارة فى كلامهم الإصلاح ، والسفير : المصلح .

قال الشاعر :

وما أدَعُ السِّفَارةَ بين قَوْمِى وما أمْشِى بِغشٍّ إنْ مَشَيْتُ

وأسنينا له الجعالة عن السِّفارة ، أى كثّرنا له العطاء ليدلّنا على الخير ، وأنْ يكون رسولا بيننا وبينه . ويمكن أن تكون السِّفارة فِعالة ، من لفظ السَّفير ، فيكون اسماً للحِرْفة كالنِّجارة والخياطة . لُقِّنها : حفظها . ليحترِس ، ليمتنع . يُومض : يشير . لحَظ : نظَر بطرف عينيه . غضّ : كسر النظر ؛ أى جعلوا يتغامزون عليه استضعافاً لخبره . استشعرنا الخوَر ، أى ظهر علينا الفزع والضعف من كلامه . العَبَث : اللعب . تبْرِى : ذهبى ، والتِبْر : كل مالم يصنع من الجواهر من نُحاسٍ وغيره . خَبثاً : فاسداً . جُبْت : قطعت . مخاوف : مواضع الخوف . الأقطار : نواحى الأرض . وَلَجْت : دخلت . مقاحم : مهالك ، والمُحْمة الأمر العظيم لا يركبه أحد لهوْله . الأخطار : جمع خطر ، وهو الغرر . جَزِير : جُعبة السهام . رابكم : شكّكم ، أستسِلّ : أزيل . الحذر : الخوف . نابكم : قَصَدكم . أوافقكم : أساعِدُكم وأمشى معكم مصاحباً لكم . أرافقكم : أسافر

معكم ، والرفيق: الصاحب فى السفر. السماوة : مفازة بين الشأم والعراق، وسماوة كل شىء شخصه ، وبذلك سُمِّيت السماوة لأنها منازل ثمود ، وفيها إلى الآن أشخاص منازلهم وآثارهم. أجدّوه : ردوه ذا جَدّ ، وهو السعد والحظّ ، والمعنى أنه يقول : إن كان سعدى قليلاً فأجدّوه ، أى كَثِّرُوا حظّه بعطيتكم حتى يعود صاحبه كثير السّعْد ، وكذلك يقدّر : أسعدوا جَدِّى ، فيريد : إنْ صدقتكم وعدى، وسلمتم، فهبوا لى من أموالكم ما يتقوّى به سَعْدى الضعيف، ويكثّر حظّى القليل . ويقال أيضاً : أجدّ الشىء إذا صيّره جديداً . مزّقوا : قَطّعوا . أدَمِى : حِلْدى . أريقُوا : صُبّوا .

ألهمنا ، أى ألقى فى قلوبنا . نزعنا : أقلعنا . مُجادلته : مخالفته . استهمنا : ضربنا السّهام وتخاطرنا على من يركب معه رفيقاً . ومعادلته : الركوب معه فى المحمل ، وهو أن يركب هذا فى الأيمن، وهذا فى الأيسر ، مأخوذة من العِدْل .

ونذكر هنا حكاية مضحكة تزيد المعادلة بياناً ، كان المعتصم يأنس بعلىّ ابن الجنيد الإسكاف، وكان عجيب الصُّورة والحديث ، فقال المعتصم لابن حماد : اذهب إلى ابن الجُنيد ، وقل له : يتهيّأ ليزاملنى، فأتاه فقال له : تهيأ لمزاملة أمير المؤمنين ، فإنّ مزاملة الخلفاء كبيرة ، فقال : كيف أتهيّأ لها ؟ أصيب رأساً غير رأسى ! أشترى لحية غير لحيتى ! قال ابن حمّاد : شروطها الامتناع عن الحديث والمذاكرة والمنادمة ، وألاّ تبصق ولا تسعل ولا تمخط ولا تتنحنح ، وأن تتقدّم فى الركوب إشفاقاً عليه من الميل ، وأن يتقدّمك فى النزول، فمتى لم يفعل هذا المعادل كان ومثقلة الرصاص التى تُعدل بها القبّة واحداً ، فقال لابن حماد : اذهب قل له ما يزاملك إلا مَنْ أُمُّه زانية . فرجع إلى المعتصم وأعلمه ، فضحك وقال : علىّ به ، فلما جاء قال : يا علىّ ، أبعثُ أليك أن تزاملنى فلا تفعل! فقال له : إن رسولك هذا الأرعن جاءنى بشروط حسّان السامى وخالويه الحاكمى ،

رفع المسهم

فقال : لا تبصق ولا تعطس ، وجعل يقرقع بصاداته ، وهذا لا أقدر عليه ؛ فإنّ رضيت أن أراملك ، فإذا جاءنى الفُساء والضراط فسوت وضرطت ، وإلا فليس بينى وبينك عمل . فضحك المعتصم حتى فحص برجليه ، وقال : نعم زامِلْنِي على هذه الشروط ، فسار ساعة فلمّا توسط البرّ ، قال : يا أميرَ المؤمنين ، قد حضر ذلك المتسامح ، قال : ذلك إليك ، قال : يحضر ابن حمّاد ، فحضر ، فناوله كمّه ، وقال أجد فى كمّى دبيب شىء ، فانظر ماهو ، فأدخل رأسَه فشمّ رائحة الكنيف ، فقال: ماأرى شيئاً ، ولكنى أعلم أن فى جوف ثيابك كنيفاً ، والضّحِك قد ذهب بالمعتصم كلّ مذهب ، وابن الجُنيد يفسو فُساء متّصلا ، ويقول لابن حماد: قلت: لى: لا تسعل أو لاتمخط ، فخَريت عليك ، ثم قال : قد نَضِجت القِدْر ، وأريد أخْرى ، فأخرج المعتصم رأسَه من العمارية حين كَثُر عليه الضحك ، وصاح : ويلك يا غلام ، الأرض : الساعة أموت !

قوله :«فصمنا» ، أى قطعنا وحللنا والأُرا :عيون من شريط أو غيره يُشَدّ بها فم الخُرْج أو الدِلْو ، واحدها عروة. والرّبائث : العُلَق ، واحدها رَبيثة ، وهو ما يثبّت الإنسان ويحبسه عن أمر يريده ، وقد ربثْتُك عن الأمر رَبْثاً ، وتربّثت أنا تربّثاً ،إذا تثبطت.ألفينا : اطّرحْنا . اتقاء : خوف. العابث: الذى يعبث بأموالهم من أهل الشر فيفسدها ، والعابث : المفسد ، ويقال : عَبَث بفتح الباء عَبَثاً : خلط . وبكسرها عبثاً : لعب واستخف ، وعاث عيْثا : أفسد .

* * *

« وَلَمَّا عُكِمَتْ الرِّحَالُ ، وَأَزِفَ التَّرْحَالُ ، اسْتَنْزَلْنَا كَلِمَاتِهِ الرَّافِيَةَ ، لِنَجْمَلَهَا الوَافِيَةَ البَاقِيَةَ ، فقالَ : لِيَقْرَأْ كلُّ مِنْكُمْ أُمَّ

القرآن ، كُلَّمَا أَظَلَّ الْمَلَوَانِ . ثم لِيَقُلْ بِلِسَانٍ خَاضِعٍ ، وَصَوْتٍ خَاشِعٍ : اللَّهُمَّ يا مُحْيِيَ الرُّفاتِ ، وَيَادَافِعَ الآفاتِ ، ويا وَاقِيَ المخافاتِ ، ويا كريم المكافاةِ ، وَيَا مَوْئِلَ الْعُفَاةِ ، ويا وَلِيَّ الْعَفْوِ والمعافاة ، صلِّ عَلَى محمدٍ خاتَمِ أنبيائكَ ، وَمُبَلِّغِ أنبيائك ، وعَلَى مَصَابِيحِ أَسْرَتِهِ ، وَمَفَاتِيحِ نُصْرَتِهِ ، وأعِذْنِي مِنْ نَزَغَاتِ الشَّيَاطِينَ ، وَنَزَوَاتِ السَّلاطينِ ، وَإِغْنَاتِ الباغين ، ومعاناةِ الطَّاغِينَ ، وَعُدْوَانَ المعادين ، وَغَلَبِ الغالِبِينَ ، وَسَلَبِ السَّالِبِينَ ، وَحِيَلِ الْمُحْتَالِينَ ، وَغِيَلِ الْمُغْتَالِينَ ، وَأَجِرْنِي اللَّهُمَّ مِنْ جَوْرِ المجاورين ، (١) وَمُجَاوَرَةِ الجائرين (١) ، وَسَطْوَةِ الْجَبَّارِينَ ، وَكُفَّ عَنِّي أكفَّ الضَّائِمِينَ ، وَأَخرِجْنِي مِنْ ظُلُمَاتِ الظالمين ، وأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عبادِكَ الصَّالحين .

* * *

عُكمت الرحال ، أى شدّت الأحمال بالعِكام ، والعِكام مايشدّ به فم العِكْم وهو العِدْل . وقيل : إنّ أصل العِكام كمامة تربط على فم البعير ، ومثله اللِّجام ، يُستعار لما يشدّ به المتاع ، ويقال : عكمت المتاع عكماً شددته فى العِكْم ، أو شددته بالعِكام ، وعكمت البعير شددت عليه العِكْم ، أو ربطت العِكام على فمه ، وأعكمتك أعنتك . أزِف : دنا وقرُب . استنزلنا : طلبنا منه إنزالها ، أى تلطّفنا به ليذكرها . الرّاقية : الرفيعة ، من رقىّ فى الدّرجة ، أو المعوّذة لنا ، من رَقيت المريض ، وهو أشبه لموافقتها لمعنى الواقية ، وهى الكافية ، لما يخاف من الشرّ . أظلّ الأمر :

(١ ـ ١) ساقط من نسخة المقامات المخطوطة .

قرب ودنا وكأنه ألقى عليك ظلّه . المَلوان : الليل والنهار ، والخاضع : الذليل ، وخضع خُضوعاً : أقرّ بالذل . والخاشع : المتواضع ، وخشع خُشوعا : خفض صوته ، ورمى ببصره إلى الأرض ، والخضوع قريب منه ، إلاّ أنّ أكثر ما يستعمل الخشوع فى الصّوت والخضوع فى الأعناق . الرُّفات : العظام البالية . الآفات : المضرّات . المكافأة : المجازاة . موئل : ملجأ . العُفاة : جمع عافٍ ، وهو سائل العفو ولىّ العفو : صاحب المغفرة . والمعافاة . المباعدة من الضّرر ، وقد عافاه ممّا يكره وأعفاه . أنبائك : أخبارك ، والنبأ الخبر . أسْرته : رهطه ، وأراد بالمصابيح المهاجرين ، وبالمفاتيح الأنصار . أعذنى : أجرنى . النّزغات : الإفساد ، نزغ الشيطان بين القوم ، أى أفسد ذات بينهم . والشيطان : البعيد من الخير ، من قولهم : دارٌ شَطُون ، أى بعيدة ، ونوًى شَطُون .

قال النابغة :

* نأت بسُعادَ عنك نَوًى شَطُون[1] *

وقال نابغة بنى شيبان :

فأضْحَتْ بَعْدَ مَا وَصَلَتْ بدارٍ شَطُونٍ لا تُعَادُ وَلاَ تَعُودُ[2]

نَزَوات : وثوب ، وقد نزا نزواً ونُزُوًّا ، إذا وثب ، ونزا على الشىء ، ارتفع . إعنات : مشقّة . الباغين : المتعدين ، وقد بغى عليه بَغْياً : تعدّى عليه . معاناة : معالجة ومقاساة . الطاغين : المسرفين فى الظّلم والمعاصى ، والعادين : المتجاوزين الحدَّ فى الظلم . غِيَل : جمع غيلة ، وهى الهلاك . والمغتال : المهلك . أجِرْنِى : أمّنّى . سطوة : بطش وتهديد . الضائمين : المذلين .

* * *

(١) اللسان ـ شطن ، وعجزه :

* فبانت ، والفؤاد بها رهينُ *

(٢) ديوانه ٣٤ .

اللَّهمَّ حُطنِي فِي تُرَبَتِي، وَغُرَبَتِي وَغَيْبَتِي ، وَأَوْبَتِي وَنُجْعَتِي ، وَرَجْعَتِي ، وَتصَرُّفِي وَمُنْصَرَفِي ، وَتَقَلُّبِي وَمُنْقَلَبِي . وَاحْفَظنِي فِي نفْسِي ، وَنفَائِسِي ، وَعِرضِي وَعَرَضِي ، وَعَدَدِي وَعُدَدِي ، وَسَكَنِي وَمَسْكَنِي ، وَحَوْلِي وَحَالِي ، وَمَالِي وَمَآلِي ، وَلاَ تُلْحِقْ بِي تغْييرًا ، وَلاَ تُسَلِّطْ عَلَيَّ مُغِيراً ، وَاجْعل لى مِنكَ سُلطاناً نصيراً . اللَّهم احْرُسْنِي بِعَينِك وعَوْنِكَ ، واخْصُصْنِي بِأَمْنِكَ وَمَنِّك ، وَتَوَلَّنِي باخْتِيارك وَخيْرِك . وَلا تَكِلْنى إلى كلاءةِ غيرِكَ ، وَهَبْ لى عَافِيَةً غيرَ عَافيةٍ ، وَارْزُقْنى رَفَاهِيَةً غَيْرَ واهِيةٍ . وا كْفِنِي مَخَاشِيَ اللَّأْوَاءِ ، وا كْنُفْنى بِنَوَاشِي الآلاء ، وَلا تُظْفِرْ بِيَ الأعْداء ، إنكَ سميعُ الدُّعاء .

* * *

قوله : « اللهم حطْنى فى تربتى» ،أى احفظنى فى بلدتى . أوبتى : رجعتى . نجعتى : سفرى فى طلب الرزق . نفائسى : كرائم مالى . عِرْضى : نفسى . وعَرَضى : مالى . عَدَدِى : أهلى . عُدَدِى : آلاتى ، وما أستعدّه . سكنى : أهلى . حولى : قوّتى . حالى : بالى . مآلى : مرجعى . منّك : إحسانك . تولّنى : كن لى وليًّا . تَكِلْنى : تُخْوِجُنى . كلاءة : حفظ وحراسة . وعافية : عيش سالم من الآفات .

قال أبو الدرداء رضى الله عنه : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم البلاء وما أعدّ الله لصاحبه من الثواب إذا صبر، وذَكَرَ العافية وما أعدّ الله لصاحبها من الثواب إذا شكر ، فقلت : يا رسولَ الله ، أُعافَى فأشْكُر، أحبُّ إلىّ من أن

أبتلَى فأصبر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نحبُّ معك العافية. غير عافية ، أى غير دراسة . رفاهية : غنًى متّسع . واهية : ناقصة ضعيفة . مخاشى : ما يُخشى ويخاف . اللأواء : الشدّة . اكنفنى : استُرْنى . غواشى : أى مايتغشّى به ، أى يتغطّى . الآلاء : النعم.

* * *

ثمَّ أَطْرَقَ لايُدِيرُ لَحْظاً ، وَلاَ يُحِيرُ لَفظاً ، حَتى قُلْنَا : قَدْ أَبْلَسَتْهُ خَشية ، أو أخرَسَتهُ غَشْيةٌ . ثمَّ أقنَعَ رَاسَهُ ، وَصَعَّدَ أَنفاسَهُ وَقَال :

أُقسِمُ بالسَّماءِ ذاتِ الأبْرَاجِ ، وَالأرضِ ذاتِ الْفِجَاجِ ، والماءِ الثَّجَّاجِ ، وَالسِّرَاجِ الْوَهَّاجِ ، وَالْبَحْرِ الْفَجَّاجِ ، والهَوَاءِ والعَجَاجِ ، إنَّهَا لِمَنْ أَيْمَنِ الْعُوَذِ ، وأغْنَى عَنكُمْ مِنْ لاَ بِسى الْحُوَذِ ، مَنْ دَرَسَها عِندَ ابْتِسَامِ الْفَلَقِ ، لَمْ يُشْفِق مِنْ خَطْبٍ إلى الشَّفَقِ ، ومَنْ نَاجَى بِهَا طَلِيعةَ الغَسَقِ ، أمِنَ لَيْلَتهُ مِنَ السَّرَقِ .

قال : فتلَقَّنَّاهَا حَتَّى أتْقَنَّاهَا ، وَتدَارَسْنَاهَا ، لِكَيْلاَ نَنساهَا .

* * *

أطرَق ، أى نظر إلى الأرض ساكناً ، وقد فسّر قوله « أطرق » بقوله : « لا يدير لحظاً ، ولا يُحِير لفظاً » ، فيدير لحظاً يُجيل نظرَه فى الجهات الأربع ، ويحير لفظاً : يردّ كلاماً ، والغَشية : أن يُغشَى على عقله . أقنع : رفع . صَعَّدَ : جعلها تصعَد ، أى ترتفع . الأبراج ، أى منازل القمر . الفِجاج ، أى المسالك ، واحدها : فجّ ، والفَجّ الطريق الواسع فى الجبل ، وقيل : هو المتّسع بين مرتفعين ،

وقيل : هو الفتح بن الشَّيْئين : الثَّجّاج : السَّيّال الكثير الصبّ . السراج : الشمس . الوهّاج : الوقّاد المتلألىء ، وهو من وَهَّج النار ، وهو اتقادها وحَرُّها ، العَجّاج : المصوّت لاضطراب أمواجه . الهواء : ما بين السماء والأرض . والعَجاج : الغبار . والعُوَذ : الرُّقَى . أغنَى : أجزأ وأكفى ، والغنى الكفاية ، وأغنى فلان مغنى فلان ، أى كفاه الحضور وقام مقامه . والحُوذ ، بالحاء المهملة الدِّرْع ، وينقط الحاء بيض السِّلاح . ابتسام الفلق : ظهور الفجر . يشفق : يخاف . خطْب : أمر شديد . الشَّفَق : الحمرة بعد غروب الشمس . ناجى : تكلّم بها سرًّا . طليعة الغسق ، أول طلوع الظلام . تلقّناها ، أى فهمناها . أتقناها : أحكمناها . تدارسناها ، الدَّرْس فى كلامهم الرِّياضة والتذليل ، وطريق مدروس : كثُر مشى الناس فيه ، فذلّلوه وأثروا فيه ، فمعنى دَرَس القرآن أو الدعاء ، ذلّل لسانه وراضه .

[ضروب من الأدعية المأثورة]

ونصل هذا الدعاء الذى ذكر أنه مستجاب وصدق إذا صحب الدعاء به الإخلاص ، والتضرُّع بأدعية يُنتفع بها إن شاء الله تعالى .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً قال : « اللهمّ أنت الصاحبُ فى السَّفر ، والخليفة فى الحضَر . اللهمّ إنّى أعوذ بك من وَعْثاء السفرِ ، وكآبة المنقلَب ، ومن الحَوْر[1] بعد الكَوْر ، ومن سوء المنظر فى الأهل والمال والولد » .

وقالتْ أمّ سلَمة رضى الله عنها : مَنْ خرج فى طاعة الله تعالى فقال : اللهم إنّى لم أخرُجْ أشِرًا ولا بَطَرا ، ولا رياء ، ولا سمعة ، ولكنّى خرجت ابتغاء

(١) فى اللسان : الحور : الرجوع ؛ يقال : حار بعدما كار ، والحور : النقصان بعد الزيادة ، لأنه رجوع من حال إلى حال ؛ وفى الحديث : « نعوذ بالله من الحور بعد الكور » معناه من النقصان بعد الزيادة . وقيل : معناه من فساد أمورنا بعد صلاحها ، وأصله من نقض العمامة بعد لفها ، مأخوذ من كور العمامة إذا انتقض ليها ، وبعضه بقرب من بعض .

رفع المسهم

مرضاتك ، واتقاء سَخَطك ، فأسألك بحقك على جميع خَلْقك أن ترزقني من الخير أكثر مما أرجو ، وتَصْرِفَ عنّي من الشرّ أكثر مما أخاف ... استجيب له بإذن الله تعالى .

وقالوا : كلمات الفرج عند الكرب : لا إله إلا الله الحليم الكريم ، وسبحان الله رب العرش العظيم ، والحمد لله رب العالمين .

قال جعفر بن محمد لسفيان الثّوريّ : إذا كثرتْ همومُك فأكثِرْ من قول : لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وإذا درت عليك النعم فأكثِرْ من الحمد لله العالمين ، وإذا أبطأ عليك الرزق فأكثِرْ من الاستغفار .

ومن قال في ليل أو نهار : اللهم ربّي لا إله إلا أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم ماشاء الله كان ، ومالم يشأ لم يكن ، أعلم أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ، اللهمّ إني أعوذ بك من شرّ نفسي ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها . إنّ ربّي على صراط مستقيم ... لم يضرّهُ شيء .

ومن قال : بسم الله الذي لا يضرُّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ، ليلا أو نهارا أمن مما يخاف .

ومن قال : سبحان الله وبحمده ، ولاحول ولاقوة إلا بالله ثلاث مرات بعد صلاة الصبح أمِنَ مِنَ كلّ غمّ وجُذام وَبرص وفالج .

ومن قال : باسم الله ماشاء الله لا قوة إلا بالله ، ماشاء الله كل نعمة من الله ، ماشاء الله الخير كلّه بيد الله ، ماشاء الله لا يَصْرِف السُّوء إلا الله ، من قالها إذا أصبح أمِنَ من الحرق والغَرَق .

ومن دخل على سلطان يخاف سطوته فقال : الله أعزّ وأكبر مما أخاف وأحذر ، اللهمّ رب السّموات السّبع ورب العرشِ العظيم ، كُنْ لي جاراً من عبدك فلان ، وجوره وأشياعه وأتباعه . تبارك اسمُك وجلّ ثناؤك ، وعزّ جارُك ، ولا إله غيرك ثلاثَ مَرات أمن من شره .

وقال المنصور للربيع :علىّ بجعفر ، قتلنى الله إن لم أقتله ! فلما مَثَل بين يديه حرّك شفتيه ، ثم قرب وسلم فقال ، : لاسلّم الله عليك يا عدوّ الله ، تعمل علىّ الغوائل فى مُلْكى قَتَلنى الله إن لم أقتلك ! فقال : ياأمير المؤمنين إنّ سُلَيمانَ أعْطى فشكر ، وإن أيوب ابْتُلِىَ فصبر ، وإن يوسف ظُلِم فغفر، عليهم السلام ، وأنت على أثرهم ، وأحقّ من تأسّى بهم . فنكس المنصور رأسه مليًّا ثم رفع رأسه ، وقال : إلىّ أبا عبد الله ، فأنت القريب القَرابة ، وأنت ذو الرحم الواشجة . والسليم الناحية، القليل الغائلة . ثم صافحه بيمينه ، وعانَقه بشماله ، وأجلسه معه على فِراشه ، وأقبل يسائله ويحادثه ، ثم قال : عَجّلوا لأبى عبدالله إذنَه وجائزتَه وكسوته . فلما خرج أمسكه الربيع وقال له : رأيتك قد حرّكت شفتيك فانجلى الأمر ، وأنا خادم السلطان ، ولاغنًى لى عنه ، فعلّمْنى إياه ،فقال: نعم ، قلت : اللهم احرسنى بعينك التى لاتنام ، واكنفنى بحفظك الذى لايرام، لا أهلِك وأنت رجائى، فكم من نعمة أنعمتها علىّ قلّ عندها شكرى فلم تحرمنى، وكم مِنْ بليّة ابتُليت بها قلّ عندها صبرى فلم تخذلنى . اللهمّ بك أدرأ فى نحره ، وأعوذ بك من شره .

ومن قال إذا سمع المؤذن:رضيتُ بالله ربًّا ،وبالإسلام دينًا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيًّا ، غفرت له ذنوبه .

ومن دعاء الأعراب :قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه:ما من قوم أشبه بالسّلف من الأعراب لولا جفاء فيهم .

وقال : غَيْلان إذا أردت أن تسمع الدعاء فاسمع دعاء الأعراب .

وقال الأصمعى:سمعتُ أعرابيًّا بفلاة من الأرض يقول:اللهمّ إن استغفارى إياك مع كثرة ذنوبى لَاُؤْم ، وإن تركى الاستغفار مع معرفتى سعة رحمتك لَعجز ، إلهى كم تتحبّبُ إلىّ برحمتك وأنت غنىّ عنى ، وكم أتبغّض إليك بذنوبى وأنا

فقير إليك : يا من إذا وَعَد وفَّى ، وإذا أوعد عَفَا ، أدخل عظيم جُرْمى فى عظيم عفوك ، يا أرحم الراحمين .

قال : وسمعتُ آخَر يقول فى دعائه : اللهم إنّى أسألك عَمَل الخائفين ، وخوف العاملين ، حتى أتنعَّم بترك النعيم طمعاً فيما وعدت ، وخوفا ممّا أوعدت . اللهمّ أعذنى من سطواتك ، وأجرْنى من نقماتك .

قال : ودعتْ أعرابيّة لابنٍ لها خرج مسافراً ، فقالت : كان الله صاحبَك فى السفر ، وخليفتَك فى أهلك ، وأنجح طَلَبتك ، امشِ مصاحَباً مكلوءا ، لا أشمت الله بك عدوًّا ، ولا أرى فيك لمحبّك سوءا .

وهذا الباب كثير ، وإنما ذكرنا من الأدعية ما جُرِّب واستُحسن ، والله ينفع بها آمين . قال أعرابى يصف دعوة :

وساريةٍ لم تسرِ فى الليل تبتغِى ... محلاً ولم يقطع بها البيدَ قاطعُ
سرتْ حيث لم تَسْرِ الرِّكاب ولم تنخْ ... لِوِرْدٍ ولم يقصر لها القيْدَ مانعُ
تحلُّ وراء الليل والليلُ ساقطٌ ... بأوراقِهِ فيــه سَمِيرٌ وهاجِعُ
تفتّح أبوابُ السماء لوفــدِها ... إذا قرع الأبواب منهنَّ قارِعُ
إذا وفدتْ لم يردِ الله وفدَها ... على أهلها ، والله راء وسامعُ
وإنى لأرجو الله حتى كأنّنِى ... أرى بجميل الظنّ ما الله صانعُ

* * *

ثمَّ سِرنا نُزْجِي الحُمولاتِ ، بالدُّعوتِ ، لا بالحُداة ، ونَحدِي الحُمولاتِ ، بالكلماتِ لا بالكُماة ، وَصَاحِبُنَا يَتعهّدُنَا بالعَشِيِّ والغَداةِ ، وَلَا يَستَنْجِزُ مِنَّا المِداتِ ، حتى إذا عاينَّا أطْلال عانة ، قالَ

رفع المسهم

لنا : الإعانة الاعانةَ ، فأحضرناهُ المعلومَ والمكتومَ ، وَأَرَيناهُ المَعْكُومَ والمختوم ، وَقُلنا له : اقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ، فما تَجِدُ فينا غير راضٍ ، فَما استخفّه سوَى الخِفِّ وَالتِّين ، وَلا حلِيَ بِعَيْنِهِ غَيرُ الحُلْيِ والعَين . فاحْتَمَلَ مِنهُمَا وِقْرَهُ ، وناءَ بِمَا يَسُد فقْرَه ، ثُم خالَسْنا مُخَالَسَة الطَّرَّارِ ، وَانصَلتَ مِنَّا انْصِلاتَ الفُرَّارِ ، فأَوْحَشنا فِرَاقُه ، وأَدْهَشَنا امْتِراقُه ، ولم نَزلْ نَنشدُه بكلِّ نادٍ ، وَنَسْتَخبِر عْنهُ كلَّ مُغْوٍ وَهَادٍ ، إلى أن قيل : إنه مُذْ دَخلَ عانة ، ما زايلَ الحانة .

* * *

قوله : « نزجى » ، أى نسوق . الحَمولات ، بفتح الحاء : الإبل ، وبضمها الأحمال . الحداة : خدَمة الإبل ، بمنزلة المكارين للدوابّ . نحى : نمنع . الكماة : الشجعان . يتعهّدُنا : يتفقّدنا . يستنجز : يطلب إحضار ما وعد به . عانة ، بعين غير منقوطة : قرية بالجزيرة كثيرة الأعناب .

وقال امرؤ القيس :

* مِنْ خَمْرِ عَانَةَ أو كُرومِ شِبَامِ *(١)

وأطلالها : آثارها ، يريد أنه لمّا أشرف على عانة ، قال لهم : أعطُونى ما أستعين به . المعلوم : الظاهر . والمكتوم : المستور . والمعكوم : المجعول فى عِكْمٍ ، قال يعقوب : العِكْمُ : نَمَطٌ تجعل فيه المرأة ذخيرتَها ، أو يكون المعكوم

(١) ديوانه ١١٥ ، وصدره

* أُنفٌ كلون دم الغزال معتّقٌ *

المشدّود بالمِسكام ، وقد تقدّم آنفا . والمختوم : المطبوع عليه ، يريد : أريناه أنواع أموالنا . استخفّ : استحقر . الخِف : الخفيف . الهَيْن : الهيّن . حَلِيَ : حَسُن . الحَلْى : ما يتحلّى به النّساء . والعين : الذهب والفضة ، يريد أنه استحقر الخفيف القَدْر الهيّن القيمة ، مثل الإمتاع ، وشبهها فتركها ، وأعجبه الحلىّ والذهب فحملهما ، أو يكون معنى « استخفّ » وجده خفيفاً ، والخِفّ والهَين ، يريد الخفيف عليه حمله ، الهيّن عليه نقله ؛ يريد الذهب والجوهر ، ويكون قوله « حَلِيَ بعينه » وما بعده مفسّراً ومؤكداً لاستخفّ وما بعده ، وهذا أشبه من الأول .

وقْره : حِمْله . ناء : نهض بثقل . خالسنا : سارقنا وتسلل عنّا . الطّرّار : الذى يشقّ الجيوب ويستخرج ما فيها ، والطّرّ : القطع ، وقد طر طَرًّا ، وطُرّة الشعر منه ، لأنها مقطوعة من جملته ، مفصولة عنه . والمنتهز الذى يخطف من يدك الشيء بسرعة . انصلَت : انسلّ ولم يشعر به . والانصلات : سقوط السيف من الغِمْد . والفرّار ، هو الزّاووق ، ويسمّى الزئبق ، سمى فراراً لأنه سريع السّيَلان لا يستقرّ فى موضع ، والفِرّار من كثر فراره . أوحشَنا : أذهب أنسنا . أدهشنا : حيّرنا . امتراقه : خروجه مسرعاً ، ومرَق السهم : خوج من القوس ، ومن الرميّة . ننشده : نطلبه . مغوٍ وهادٍ : مضلّ ومرشد . الحانة : بغير نقط : بيت الخَمّار أو حانوته ، والحان والحانة هى الدسْكَرة التى ذكر ، وقال ابن شهيد فيه :

يا رب حانٍ قد أدرت بديرِهِ ... خَمْر الصِّبا مُزِجَتْ بصفْوِ خُمُورِهِ[1]

فى فتيةٍ جعلوا الزِّقاق تكاءهُمْ ... متصارعين تخشُّعا لكثيرِهِ

يُهدى إلينا الراح كُلُّ معصفرٍ[2] ... كالخِشف خفّرَه الْتِماحُ خَفيره

(١) ديوانه ١١٥ .

(٢) الديوان : إلينا الرّاحُ كلّ معصفرٍ

والَى علىَّ بِطَرْفِهِ وبكفِّه فأمال من رأسى لعَبٌ كبيرهِ
وترنّم الناقوس عند صلاتهِمْ ففتحتُ مِنْ عَيْنى لرجع هديرهِ

زايل : فارق .

* * *

فأغْرَانى خُبْثُ هَذا القَول بسَبْكِه ، والانسِلالِ فِيماَ لَسْتُ مِن سِلْكِه ، فأدْلَجْتُ إلى الدَّسْكَرة ، فِى هَيئةٍ مُنكَّرَةٍ ، فإذا الشَّيخُ فِى حُلَّةٍ مُمَصَّرَةٍ ، بَينَ دِنانٍ ومِعصَرَةٍ ، وحَولَهُ سُقَاةٌ تَبْهَرُ ، وشُموعٌ تَزْهَر ، وآسٌ وعَبْهَرٌ ، ومِزمَارٌ وَمِزهَرٌ ، وهُو تارَةً يَسْتَبدِلُ الدِّنان ، وَطَورًا يَسْتنطقُ الْعِيدان ، وَدَفْعَةً يَسْتَنْشِقُ الرَّيْحَانَ ، وأُخْرَى يُغَازِلُ الْغِزْلاَنَ . فلمَّا عَثَرْتُ عَلَى لَبْسِه ، وَتفاوُتِ بينَ يَوْمِه من أمْسِه ، قُلْتُ له : أوْلَى لَكَ يامَلْعُون ، أأنْسِيتَ يَومَ جَيْرُونَ ! فَضَحِكَ مُسْتَغْرِبًا ثم أنشد مُطْرِبًا :

* * *

أغرانى : حَثَّنِى . سَبْكه : تجريبه . الانسلال : الدخول . سلكه : شكله ، وانسلكت حبة اللؤلؤ : جربتْ فى السِّلك ، وهوخيط النظام . أدلجتُ : مشيت بالليل . الدسكرة ، بناء كالقصر حوله بيوت يسكنها الخمار والحشم ، قال الجعدىّ :

ودَسْكرةٍ صوتُ أبوابِهاَ كصوت المواتحِ بالحوأب[1]

(١) ديوانه ١٤ . الدسكرة : من بيوت الأعاجم يكون فيها الغرباء والملاهى .

سبقتُ صياح فراريجهـــا ، وصوت نواقيسَ لم تضرَب
برَنّةِ ذى عتبٍ شارفٍ وصهباء كالمسك لم تقطَب

المواتح : البكرات، والحوأب:اسم ماء الفراريج :الديوك عتب : أوتار . وشارف : اسم العَوْد ، شبّهه بالشارف من الإبل ، لأنها أغنّ صوتاً وأطربه ، قال متمم :

إذا شارف منهنّ قامت فرجّعت حنيناً فأبكى شجوها البرك أجمعا[1]

ممّصرة : مصبوغة بالمصرة ، وهى العصفر قبل أن يوضع فيه الخلّ ، فلونها أصفر ، فإذا وُضع فيها الخلّ احمرّ ما يصبغ به وسمّى معصفراً . والحُلّة : ثوبان : إزار ورداء، وسُمّيتْ حُلّة ، لأنها تَحُلّ على لابسها كما يَحُلّ الرّجل على الأرض . دِنان : جمع دَنّ ، وهو نوع من الخوابى طويل الأسفل ضيّقه ، ويسمّى الراقود . وهذه الحالة التى وَجَد عليها الحريرىُّ السَّرَوجىّ بعد ذلك الترهّب الذى كان عليه فى أوّل المقامة لها نظائر لرجال مشاهير بالعلم والفضل .

* * *

[وصف بعض مجالس الشراب]

حكى الثعالبىّ فى يتيمته[2] ، وقد ذكر القاضى التنوخىّ فقال : هو أبو القاسم علىّ بن محمد بن داود بن فهم ، من أعيان أهل العلم والأدب ، وأفراد ذوى الكَرم وحسن الشيم ، وكان كما قرأت فى فصل للصاحب : إن أردت فإنى سُبْحة ناسك ، أو أحببت فإنى تفاحة فاتك ، أو اقترحت فإنى مدرعة راهب ، أو اخترت فإنّى نخبة شارب .

وكان تقلّد قضاء البَصْرة والأهواز بضع سنين ، وكان المهلّبى وغيره من وزراء العراق يميلون إليه جدًّا ، ويَعُدُّونه ريحانة الندماء ، وتاريخ الظرفاء ، يعاشرون منه مَنْ تطيب عشرته ، وتلين قشرته ، وتكرم أخلاقه ، وتحسن

(١) المفضليات ٢٧٠ . البرك : الألف من الإبل .
(٢) اليتيمة ٢ : ٣٠٩ .

أخباره ،وتسير أشعاره ؛ناظمةً حاشيتي البرّ والبحر ، وناحيتي الشرق والغرب . وكان من جملة القضاة الذين ينادمون الوزير المهلّبيّ ، ويجتمعون إليه فى الأسبوع ليلتين ، على اطّراح الحشمة والتبسّط فى القصف والخلاعة ، منهم ابن قريعة وابن معروف والقاضى التنوخى [1] وغيرهم ، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها ، وكذلك كان المهلبيّ ، وإذا تكمّل الأنس ، وطاب المجلس ، ولذّ السماع ، وأخذ الطرب فيهم مأخذه . وهَبُوا ثوبَ الوقار للعُقار ، وتقلّبوا فى أعطاف العيش ، بين الخِفّة والطيش ، ووُضع بين يدى كلّ واحد منهم طست من ذهب من ألف مثال مملوء شرابا ، فيغمس فيه لحيتَه ، بل ينقعها حتى تشرب أكثره ، ويرشّ بعضهم بعضاً ، ويرقصون بأجمعهم ، وعليهم مصبّغات الثياب ، ومخانق البرم ، ويقولون كلما يكثر شربهم هرهر ، وفيهم يقول السرىّ :

مجالس ترقص القضاة بها إذا انتشوا فى مخانق البَرم [2]

وإذا أصبحوا عادوا لعادتهم فى الترهّب والتوقّر والتحفّظ وأبّهة القضاة وحشمة المشايخ الكبراء .

وقال فى ابن معروف [3] : كان كما قرأته فى فصل للصاحب : شجرة فضل عودها أدب ، وأغصانها علم ، وثمرها عقل ، وعُروقها شرف ؛ تسقيها سماء الحرّية ، وتغذوها أرض المروّة ، وفيه يقول الصابى :

---

(١) فى الأصول : « الأندرجى » ، وما أثبته من اليتيمة .

(٢) البرم : نوع من الثياب ، وبعده فى اليتيمة والديوان ٢ : ٣١٠

وصاحبٍ يخلط المجون لنا بشيمَةٍ حلوةٍ من الشيمِ
تخضب بالراح شيْبَه عبثاً أنامل مثل حمرة العَنَمِ
حتى تخال العيون شيبتَهُ شيبةُ عثمانَ ضرّجت بدم

(٣) هو عبيد الله بن أحمد بن معروف ، ترجم له فى اليتيمة ٣ : ٩٤ — ٩٦ .

رفع المسهم

أقسمت بالله ما يرجى لمعـــروفٍ فى الحادثات سوى القاضى ابن معروفِ

ومن شعر ابن معروف :

لو كنت تدرِى ماالذى صنع الهوى والشّوْق فى الجسم النّحيل البالِى[1]
لهجرتَ هجرى واجتنبت تجنُّبى ووصلت مِنْ بعد النّعيم وصالِى

وقال القاضى التنوخى فى غلام جسيم :

له فى كل عضوٍ دِعْصُ رَمْلٍ ثقيل الجسم ذو روحٍ خفيفِ[2]
أأعشق لا عشقت أخَا نحولٍ كأنى لست ذا الخلق الظّريف
إذا لمستهُ كفّى لم تلامس سوى جِلْدٍ على عظم ضعيفِ

شرب[3] المأمون وعبد الله بن طاهر ، ويحيى بن أكثم القاضى ، فتعامل[4] المأمون وابن طاهر على سُكْرِ يحيى فغمزا به الساق ، فأسكره ، وكان بين أيديهم رِزَم من ورد وريحان ، فأمر المأمون ، فشق له قبرٌ فى الرِّزَم وصُيِّر فيه . وعمل بيتى شعر ، ودعا قينة فجلست عند رأسه ، وغنّت بهما وهما :

ناديته وهو حىّ لا حراكَ به مكفّنٌ فى ثيابٍ من رياحينِ
فقلت : قم ، قال : رجلى لاتطاوعنى فقلت : خذ ، قال : كفى لاتواتينى

فانتبه يحيى لرنة العود فقال :

يا سيّدى وأميرَ الناس كلّهمُ قد جَار فى حكمه مَنْ كان يَسْقِينى
إنى غفلْتُ عن السّاقى فصيّرنى كما ترانى سليبَ العقل والدينِ
لا أستطيع نهوضاً قَدْ وَهَى قدمِى ولا أجيب لداعٍ حين يدعونى

---

(١) اليتيمة ٣ : ٩٦ . (٢) اليتيمة ٢ : ٣١٨ .
(٣) الخبر فى العقد ٦ : ٣٥٤ ، ونهاية الأرب ٤ : ٩٣ .
(٤) كذا فى الأصول ونهاية الأرب ، وفى العقد : فتغامز .
(٥) فى الأصول : « ردم » ، وصوابه من العقد . والرزم : جمع رزمة ، بالكسر ، عنى بها الطاقات .

رفع المسهم

فانظرْ لنفسك فى قاضٍ يكون لكمْ إنى غدوتُ دفيناً فى الرياحين

* * *

والحالة التى وصف بها أبو زيد خَلْعَ الأمينَ عن الملك، ونقلته إلى المأمون . قال الربيع : قعد الأمين يوماً للنّاس وعليه طيلسان أزرق ، وتحته لِبْد أبيض ، فوقّع على ثمانمائة قصّة ، فلقد أصاب فما أخطأ ، وأسرع فما أبطأ ، ثم قال : يا ربيعُ أترانى لا أحسن التدبير والسياسة ، ولكنى وجدتُ شمّ الآس ، وشرب الكاس ، والاستلقاء من غير نعاس ، أشهى إلىّ . وكذلك خلعت قبلَه الوليد بن يزيد ، وبعده المتوكل وغيرهم من الخلفاء والأمراء ، ممّن آثر راحة النفس على تعب السياسة .

قوله: « تبْهر » ، أى تسقيه بالبَهار ، وهو شِبْه الإبريق ، وقيل : تبهر ، تغلب العقول بحسنها ، يقال: بهر بهراً ، إذا غلبه ، وبَهر القمر السماء : ملأها بنوره . تزهر : تضىء . شموع : مصابيح الشمع . آس : ريحان . عَبْهر : نرجس ، وقيل: ياسمين ، قال عَلِىّ رضى الله عنه : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : « شمّوا النّرجس ولو فى اليوم مَرّة واحدة ، ولو فى الشهر مرّةً واحدة ، ولو فى الدّهر مَرّةً واحدة ، فإنّ فى القلب حَبّةً من الجنون والجذام والبَرَص ، لا يقلعها إلا شم النّرجس » .

وقال علىّ رضى الله عنه : حَبانى النبىّ صلى الله عليه وسلم بالورْد ، وقال : « أما إنه سيّد ريحان الجنّة بعد الآس » .

وقال أردشير بن بابك : الورد دُرّ أبيض ، وياقوت أحمر ، على كراسىّ زبرجد أخضر ، بوسَطه شذور من ذهب أصفر ، له رقة الخمر ، ونفحات العطر .

[مما قيل من الشعر فى وصف الأزهار]

ونذكر هنا طرفا من المنظوم فى الأزهار يليق الموضع بحول الله تعالى ، قال محمد بن عبد الله بن طاهر ملمّا بقول أردشير :

رفع المسهم

كأنهنّ يواقيتٌ بطيف بها ... زمُرّد وسطه شذر من الذّهب
فاشرب على منظرٍ مستظرَفٍ حَسَنٍ ... من خمرةٍ مُزجَتْ كالجمر في اللّهَبِ

وللمعتمد بن عباد :

كأنّما ياسمينُنا الغضُّ ... كواكبٌ في السماء تبيَضُّ[1]
والطرُق الحمرُ في جوانبه ... كنهدِ عَذْرَاء مَسَّه عَضُّ

ولأبي الفضل الميكالي :

وما ضمَّ شملَ الأنس يومًا كنرجسٍ ... يقوم بعذر اللهو عن خالع العُذْرِ
فأحداقه أحـــداق تبرٍ وساقُه ... كقامة ساقٍ في غلائله الخُضرِ

ولعضد الدولة :

يا طيبَ رائحةٍ من نفحة الخيرِ ... إذا تمزق جِلبابُ الدّياجيرِ
كأنمارُشٌ بالماورد واعتبقتْ ... به دواخن نَدٍّ عند تبخيرِ
كأنّ أوراقه في القدّ أجنحةٌ ... حمرٌ وصفر وبيضٌ من زنابيرِ

ولعليّ بن بسام :

أما ترى الوردَ يدعو للورُود على ... حمراء صافيةٍ في لونها صَهَبُ[2]
مَداهنٌ من يواقيت مركّبةٌ ... على الزبرجَدِ في أفواهها ذهبُ

وقال آخر :

نرجسة عينها محـــبّرةٌ ... لم تكتحل قطُّ آفة الغمضِ

(١) نهاية الأرب ١١ : ٢٣٧ ، وانظر ديوان المعاني ٢ : ٢٣
(٢) نهاية الأرب ١١ : ١٨٩ ، ونسبها إلى ابن طاهر ، وفيه : « إلى خمر معتقة »

باكرها الطلّ فهى باهتةٌ تنظر فعل السماء فى الأرضِ

وللأسعد بن بليط :

بنفسجٌ باتت أكفّ الصبا تنثره فى زرقةٍ لا تُحَدّ
كأنما قُطّ بمنثوره رءوس أفلام من اللازَوَرد

وقال آخر فى نَوْر الباقِلاّ :

نوّارَة الباقِلاَ إذْ راق منظرُها تَحكى الفراشَةَ تنقيطاً وتْريشاَ
كأنّما هى ما حول الذبالة إذْ مَدّت جناحاً مكان الكفّ مرقوشاَ

والباب كثير .

* * *

قوله : «مزهر» عود الغناء . يَسْتبزل : يستسقى منها شرابا ، والمِبْزَل الثقب فى جانب الخابية تجرى منه الخمر صافية ، ويبقى العكر فى قعرها ، قال الأخطل :

لما أتَوْها بمصباح ومِبزَلِهِمْ سارتْ إليهم سئورَ الأبجل الضارِى[1]
تدمى إذا طعنوا فيها بجائفةٍ وفى الزّجاج عتيقٌ غير مسطارِ[2]

أراد أن الخمر خرجت خروج الدم من الأبجل ، وهو عرق .

وقال ابن حصين :

حجبتُ عنها الدنّ فاستعبرت جرياً كما قوّس إحليلُ

---

(١) ديوانه ١١٨ ، وشارت : سمت إليهم والضارى : العرق الذى بدأ منه الدم ، والأبجل : عرق يكون فى الدواب ، وفى الناس يسمى الأكحل .
(٢) الجائفة : الطعنة التى تصل إلى الجوف . والعتيق الخالص . والمسطار : الحديث .

كأنها فى الكأس منصبّةً خيط من الفضة مفتولُ

وقال آخر فى قمع الشراب :

ولما رأى الناس فضل المدامِ وخافوا على جُرْمِهَا أن يسيلاَ
تواخوْا إلى شربها بينهمْ سبيلَ حفاظ فكنت السَّبيلا

قوله: « يستنطق » ، يأمر بضربها ليُسمع صوتها يستنشق: يَشَمّ . يغازل : يلاعب . عَثَرت : اطّلعت ، وأعثرت فى معناه . لَبْسه : تخليطه . تفاوت : تباعد . أولى لك : كلمة تهديد معناها : قد وليَك الشرّ فاحذر . والملعون : المطرود ، ولعنه الله : طرده ، والاستغراب : الضحك الكثير .

ومما يوافق شعره وحاله قول الببغاء[1] :

غادِنى بالصَّبُوح قبل الصَّباح واجر فى حلبة الصَّبا والمِراح[2]
عاصِنيها كالجلّنار إذا مَا كُلِّلَتْ من حَبابها بالأقاح
فى اختصاصِ التّفاح بالطيب والحُمْـــرةِ لاَ فِى كثافةِ التّفاح
خَدَمَتْها الأجسام بالطبع لمّا شاهدتْ قُرْبَها من الأرواح
فتدارك بهـا حُشاشة نفسى أو فحرّك بها سكونَ ارتياحى
بين وردين من بَنَانٍ وخدّ وشرابين من رُضابٍ وراح
ونشيد مُسْتَنْبَطٍ من حديثٍ وغِناء يُغْنِى عن الإقتراح
فألذّ الحيـاة ما خالط العـا قلُ فيها فسادَه بصلاح

وله أيضا فى مثله :

زمَنُ الورد أشرف الأزمانِ وأوَانُ الربيع خير أوانِ[3]

(١) هو عبد الواحد بن نصر ، المعروف بأبى الفرج الببغاء ، وذكره وشعره فى اليتيمة ١ : ٢٠٠ ـ ٢٣٤ .
(٢) اليتيمة ١ : ٢٢٦ .
(٣) اليتيمة ١ : ٢٢٨ .

أشرفُ الزهر زارَ فى أشرف الدّهـــر فَصِلْ فيه أشرف الإخوان
وأدرها عَذْرَاء وانتهـز الـ إمكان من قبل عائق الإمكان
فى كئوسٍ كأنّهـا زَهَر الخَشْـــخاشِ ضَمَّت شقائقَ النّعمان
واختدعها[1] عند النُزال بألفا ظ المثانى ومطربات الأغانى

وقال [ابن][2] وكيع فى الخشخاش :

وخشخاشٍ كأنّا منه نفرى قميص زبرجدٍ عن جِسْمِ دُرِّ[1]
كأقداحٍ من البلّوْر صينتْ بأغشيةٍ من الديباج خضرِ

وقال آخر فى شقائق النعمان :

كأنّ الشقائق إذ برّزت غلالةُ دُرّ وثوباً أحمّْ
قصاع من الجزر مشبوبةٌ بأوساطها لُمَعٌ من حُمَمْ

* * *

لَزِمْتُ السِّفَارَ وَجُبْتُ الْقِفَارَ
وَعِفْتُ النِّعَـارَ لِأَجْنِي الْفَرَحْ
وخُضْتُ السُّيُولَ وَرُضْتُ الْخُيُولَ
لجـرِّ ذيولِ الصِّبَـــا وَالْمَرَحْ
وَمِطْتُ الْوَقَارَ وَبِعْتُ العَقَـارَ
لِحَسوِ الْعُقَـارِ وَرَشْفِ الْقَدَحْ

(١) كذا فى ا ، ب ، وهو يوافق ما فى اليتيمة ، وفى ط : « اجترعها » . وفى اللسان : يزاله الخمر وغيرها بزلا : ثقب إناءها ، واسم ذلك البزال » .
(٢) تكملة من ا ونهاية الأرب ١١ : ٢٦ .

ولَوْلا الطِّماحْ إلَى شُرْبِ رَاحْ
لَمَا كانَ باحْ فِـي بالمُـلَحْ

* * *

قوله :«السفار»:مصدر سافرت .جُبْت: قطعت . عِفْت : كرهت.خضت: جزت ومشيت فيها . رُضْت:ذَلّلت وركبت .المرَح :النشاط والعجب .مِطْت : نَحّيت وأزلت ، ويقال : ماط وأماط : باعد ، وأيضا باعد غيره ، والأصمعىّ يقول : ماط هو ، وأماط غيرَه . العَقَار : المال الثابت الذى لا يُنقل . حَسْو : شرب . العُقَار : الخمر . رَشْف : مَصّ. الطِّماح : ارتفاع النظر . باح: تكلّم. والمُلَح : الكلام الحلو ، يريد أنه فعل ما ذكر ليرتاح ويشرب الخمر .

* * *

[مما ورد فى الخمر والشراب من الشعر والحكايات]

ذكر أبو محمد الحريرى فى هذا الموضع من المقامات أوصافَ الخمر وفضلها ومنافعها ، وذهابها بالهموم والأسقام ، وذكر أنها من أفضل الأشياء وأن بيع أشرف الأعلاق فيها سداد ، وأن ترك الإصغاء فيها إلى العَذَل رشاد ؛ وأن كمال لذّتها مع السُّقاة الحسان ، والتّطريب بأنواع الغناء والألحان ، إلى غير ذلك مما أشار إليه ، ونبّه عليه ، وأنا أسوق هنا فى وصف الخمر فصلا من كلام الحكماء والأدباء وسائر الأفاضل من الملوك ومهرة الشعراء ،جريا معه فى أغراضه، حسبما فعلناه فى العاشرة فى أوصاف الغلمان ، وفى الحادية عشرة فى فضائل أهل الأديان، وأكثر اعتمادى فى هذا الفصل على اختيارات انتقيتها من كتاب قطب السرور[1]، وضَمّمْت إليها ما يلائمها من غيره ، وهو فصل بديع فى بابه .

ذكر مؤلفه فى منافع الخمر وفضائلها قول الله تعالى: ﴿ومِنْ ثمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ورِزْقًا حسنا﴾[2] وقال تعالى فى الجنة:﴿فيها أنهارٌ

(١) قطب السرور لأحمد بن القاسم المعروف بالنديم ، ذكره صاحب كشف الظنون ، وقال : كان حيا فى السنة ٣٤٠ .

من ماء غير آسن وأنهارٌ من لَبنٍ لم يتغيَّر طعمُه وأنهارٌ من خمر لذة للشاربين * وأنهارٌ من عَسَلٍ مُصَفًّى﴾[1] فلم يذكر الماء واللبن إلا بالسلامة من التغيّر، والعسل إلا بأنه مُصَفًّى، وجعل الخمر لذّة للشّاربين، فكان هذا من التفضيل. وقال تعالى: ﴿يَطُوفُ عليهم وِلْدَانٌ مُخَلَّدُون * بأكواب وأباريقَ وكأسٍ مِنْ مَعِينٍ * لا يُصَدَّعون عنها ولا يُنْزِفُون﴾[2]، فنفى عنها عيوب خمر الدنيا، وهي ذهاب العقل بالسكر والصداع بالخُمار وذهاب المال، كما قال تعالى في فاكهتها: ﴿لا مَقْطُوعَةٍ ولا مَمْنُوعَةٍ﴾[3]، فنفى عنها عيوب فاكهة الدنيا التي تأتي في وقت وتنقطع في آخر وتمنع إلا بالثمن، وقال تعالى: ﴿ويُسْقَوْنَ فيها كأْسًا كانَ مِزَاجُها زَنْجَبِيلاً﴾[4].

وأما ماذكره تعالى من أنّ فيها منافع للناس، فإنّ منافعها لاتحصى كثرة، فمن منافعها مايصيب النّاسَ من أثمانها، ولو لم تتصر الأعناب لبارت على أهلها. ومنها صلاح الجسم لأنها تروِّق الدم وتَفْتِق اللسان، وتزيد في الهِمَّة، وتهوّن الرزيّة، وتمدّ في الأمنية، قال جالينوس: الخمر تدرّ الدم وتصفّي اللون، وتقوّي المَعَة، وتبعث النشاط. وقال أفلاطون: إنما كان النبيذ يثمر السرور، ويولّد الضحك، ويطيّب النفس لشبهه بالدم، وأنّه يفعل في الجسد إذا اعتدل فعله، لأنه أحمر حارٌّ رطب والدم أحمر حارٌّ رطب، فإذا صحّ جوهره، وتمّت أجزاؤه ولّد في النفس السرور والضحك والنشاط.

الحارث بن كَلَدة. طبيب العرب: الطِّلاء[5] مصلحة للبدن ومطيبة للنفس، تفتح له العروق أفواهها، كما تفتح الفراخ أفواهها للطعام.

---

(١) سورة محمد ١٥، ١٦.
(٢) سورة الواقعة ١٨، ١٩.
(٣) سورة الواقعة ٣٢، ٣٣.
(٤) سورة الإنسان ١٧.
(٥) الطلاء، من أسماء الخمر.

رفع المسهم

بعث قيصر إلى قُسّ بن ساعدة ، فسأله : أيّ الأشربة أفضل ؟ فقال : ماصفا في العين ، ولذّ على الذوق ، وطابت رائحته في الأنف من شراب الكرم ، قال: ما تقول في مطبوخه ؟ قال : مرعًى ولا كالسّعدان ، قال : فما تقول في نبيذ الزبيب ؟ قال : ميّت أحْيِيَ ، وفيه بعض المنفعة[٢] ، وما يكاد يَحْيا من مات مرّة ، قال: ما تقول في نبيذ العسل ؟ قال : نِعْمَ شراب الشيخ للإبردة[٣] والمعدة الفاسدة[٤] .

قال : فنبيذ التمر ؟ قال : أوساخ تدعو إليها ضرورات تُذَمّ عاقبتها في الأبدان ، قال : فما الّذي يذهب بالهموم عند الشراب ؟ قال : جوهر فيه لا تبلغه عقول العباد ، قال : فما أصلحُ أوقات الشراب ؟ قال : أوّل النهار ، ألا ترى أنّ الدواء يبكّر به ، والمسافر يُدْلج لحاجته ! لأنّ العقول أول النهار أذكى والفطن أصحُّ ، قال : فمِنْ أيّ شيء يكون الخُمار ؟ قال : من ضعف قوة الجوارح عن جذب مايصعد إلى الدماغ من البخار حتى يغشيَه الهواء قليلا قليلا ، قال: فالصِّرف أفضل أم الممزوج ؟ قال : الصِّرْف سلطان جائر ، والممزوج سلطان عادل ، والعادل مصلح ، والجائر مفسد ، قال : أفتشربه أنت ؟ قال : نعم ، ولا أبلغ ما يغيّر عقلي ، قال : ولم ؟ قال : أصونه لسؤال مثلك[١] .

أمر الوليد بن يزيد بحمل ابن شرّاعة من الكوفة ، فلما قدِم عليه ، قال : يا بن شراعة ، والله ما أرسلت إليك ، أسألك عن كتاب الله ولا عن سنة نبيه ، قال : يا أمير المؤمنين لو سألتني عنهما لوجدتني حِمارًا ، قال : أرسلت إليك أسألك عن القهوة ، قال : دِهْقانها الحكيم وطبيبها الرفيق العليم ، فاسأل عمّا بدا لك ، قال : فأخبرني عن الماء ، قال : لابدّ لي منه والكلب والحمار شركائي فيه ، قال: فما تقول في اللبن ، قال: ما رأيته إلا استحييتُ من أمّي لطول ما أرضعتْني إياه ،

---

(١) ط : « أحيا » ، وصوابه من ا والعقد .

(٢) العقد : « المتعة » .

(٣) الإبردة ، بكسر الهمزة والراء : علة من غلبة البرد والرطوبة .

(٤) إلى هنا ما أورده في العقد ٦ : ٣٣٦ .

رفع المسهم

قال : فالسَّويق ؟ قال: شراب المحرور والمجلان والمسافر ، قال: فنبيذ التمر ؟ قال : سريع الامتلاء ، سريع الانفشاش ، قال : فما تقول فى نبيذ الزبيب ؟ قال : حومة حاموا بها على الشراب ، فلم يصيبوه ، قال : فما تقول فى الخمر ؟ قال: تلك صديقة رُوحى ، جلتَّ عن المثل ، تلك التى تزيد النفس إشراقاً ، قال : فأنت يا بن شراعة صديق ، اجلس ، أىُّ الطعام أحبُّ إليك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، ليس لصاحب الشراب على الطعام حكم ، غير أنّ أنفعَه أدسمُه وأشهاه أمرؤه ، قال : فأىّ المجالس أحبُّ إليك أن يكونَ شربنا فيه ؟ قال: ما لم تخفِ الشمسُ أن تحرقه ، أو السماء أن تغرقه ، ولا تشرب إلاّ على وجه السّماء ، فوالله يا أمير المؤمنين ما نادم الناس أصبح من وجهها ، قال : فابرز بنا . فلم يُرَ بعد ذلك يشرب إلا تحت السماء[1] .

كان أبو السَّائب فقيهاً وَرِعاً ظريفاً فسأله بعضُ المجّان ، فقال: يا أبا السائب ما تقول فى نبيذ الجَرّ[2] ؟ قال: اشربْه حتى تُجرّ . قال: فنبيذ الدّنّ ، قال : اشربْه حتى تجنّ ، قال : فالدّاذى[3] ؟ قال : أحلى من العسل الماذِى ، قال: فنبيذ الزبيب والعسل ؟ فرفع يديه ، وقال : العظمة لله ، قال: فما تقول فى الخمر؟ قال: لا أشربها قال : ولم ؟ قال : أخاف ألاّ أؤدِّىَ شكرها فتنزع منى .

قيل لأبى نواس : صف لنا الأشربة ، قال : أمّا الماء فيعظم خطرُه بقدر تعزّزه ، وأمّا السويق فبُلْغة المجلان ، وروىّ الظمآن ، وأمّا العسل فنبيل المنظر ، سخيف المخبر ، وأمّا الخمر فهى شقيقة الرُّوح وصديقة النفس ما ارتُضعت ممزوجةً ، وصِرْفها غير مأمون على نَهْك البدن وغَرْس السَّقَم المؤدّى إلى العطب .

قالت الهند : إنّ الشراب مبارك ، يزيد فى الدّم بحرارته ، ويكسر البلغم

(١) الخبر فى نهاية الأرب ٤ : ٩٣ ، والعقد ٦ : ٣٣٦ .
(٢) الجر . جمع جرة ، وهى الإناء من الخزف .
(٣) الداذى : شراب معروف بكثرة إسكاره ، وفى العقد : أحسن من النساء » .

رفع المسهم

بحدته ، ويشهى الطعام بلطافته ، وأما السكر فمحرّم فى كلّ ملّة ، وسبيل من سُبُل الضلالة ، واسم من أسماء الوسْوَسة ، قبيح الأفعال ، مذموم الأحوال .

وقالت الحكماء : من فضائل الشراب ؛ أنّ كل مشروب وإن راق وصفا وحلا وعُذب ، فأوّله طيّب ، ثم يعود فى نقصان حتى يعودَ مكروها إلا الشراب ، فإنّك كلّما ازددت منه ازددت فيه رغبَة وحبًّا ، وكان أوسطه إليك أعجبَ ، وآخره أطرب ، حتى إذا سرا فى العروق برقّته ، وعمّ البدن بلطافته ، ودبّ فى الأعضاء والمفاصل دبيب النمل فى نقَا الرمل ، وخادع عقلك فامتلأتَ بهجة وسروراً ، وعدت ملكا محبوراً ، تضرب فى الخلافة بأوفرسهم ، ثم أسلمك إلى النّوم الذى هو حياتُك وصحّتك ، فاجتذبت النفس ما شاكلها من لطيفه ، وأخذ كلّ عضو قوّته من كثيفه ، ثم لا يزال الهواء يخرج بالأنفاس متصعّداً ببخاره ، ويجذِب ما تحت الدماغ من أستاره ، فحينئذ تهبّ بجذَل ونشاط ، كأنما أنشِطت من رباط ، وذلك تقدير العزيز العليم .

وقالوا : الشراب مصباح الظّلَام ، وشفاء الأسقام ، وإذا تمنّى فى عظامك جعلك خالىَ الذّرْع ؛ فسيح الباع ، رخىّ البال ، قليل الاشتغال ، رَحْب الهِمّة ، واسع النعمة ، فهو أخو الصبوة ، وقسيم الشهوة ، ولو لم يكن من منَنِه عليك إلاّ أنه إذا مزجته بروحك ، وخلطته بدمك ، بغّض إليك الحرص ونصبَه ، والشّرَه وتعبه ، وحبّب إليك المروءة والسماح ، وحسّن لك الفكاهة والمزاح .

وقالوا : الشراب يلذّ لك فى السفر كلذته فى الحضر ، ويطيب استعماله فى الصحو ، كما يطيب فى المطر ؛ فهو أصل اللّذات الذى عليه تتفرّع ، وعنصرها الذى عنه تنبع ، وبه تتصل ، وإليه ترجع ، يردّ الشيوخ فى طبع الشبّان ، ويدعو الشبّان إلى نشاط النشوان ، وقال أبو نواس فى ذلك :

رفع المسهم

ما العيش إلا فى جُنون الصِّبا فإن تولّى فجنونُ المدامْ
راحٌ إذا ما الشيخ والَى بها خمساً تردّى برداء الغلام

فلله درُّ مَن استنبطه ودلّ عليه ، وسقياً لمن بحث عنه واهتدى إليه ، ماذا آثار وأىّ شىء أظهر !

قالوا: ومدار قَوامه على اثنى عشر شيئاً : المواد الثلاث ، والقوى الأربع ، والحواس الخمس . فالثلاث : هى نسيم الهواء ، وعذوبة الماء ، ومألوف الأهواء . والأربع هى القوة الجاذبة التى تطيّب الطعام وتبرّده ، والماسكة التى تمسكه وتجذبه ، والهاضمة التى تهديه وتنضجه ، والدافعة التى تدفع إلى كلّ عضو سهمه من جوهره ، فتخرج عنه ثقله ، والحواس الخمس : البصر والسمع والشم والذوق واللمس . وكلّ شىء من ذلك تدخله الزيادة والنقص فلا يستغنى عمّا يقويه فى حال ضعفه ، ويصفّيه من أوساخه ، فلم يجد أهل التجارب الماضون لذلك سبباً أبيَن أثرا ، ولا أخفّ محملا ، ولا ألطف دبيبا فى الأبدان من ماء الكرم ، فاستعملوه لذلك استعمالا دائما ، فهو ريحانة النفس وترياقها ، فيُشرب فى كل حين ، وينفع كل حاسة ، وتحيد عنه النوازل والأحزان ، وحُقّ للنفس [1] أن تألفه ، وللطبيعة أن تلائمه ؛ إذ كان حبيبَها وشقيقَ روحها ، فتراه يحدث فى النفس الشجاعة والتكرّم والأناة والتحلّم .

ومن علامات الكريم إذا أخذ فيه الشراب الاستحياء والتودّد واللهو والسرور والبذْل لما فى يديه ، وكسوة جليسه من أنفس ثيابه ، وإذا بلغ المدَى فى شربها توسّد يسارَه ، ونام حميداً كريماً .

ومن علامات اللئيم المماراة والسَّفَه ، وفَتْل الشارب والتلفّت إلى المربدة وشدة الغضب ، وربما بكى وعوى عُواء الذئاب ، ونَبَح نُباح الكلاب ، فشرْب الماء يحرُم مع مثل هذا ، فكيف الشراب !

---

(١) ط : « النفس » ، وما أثبته من ا ، ب .

ومن فضائله أنه يلائم الطبائع المعتادة فى كلّ زمان من فصول السنة ، يشربه المحرور ممزوجاً فيبرده ، والمقرور صِرْفاً فيسَخِّنه ، واليابس معتدلاً فيرطّبه ، والمرطوب صِرْفاً فيجفّفه ، فمن شربه فى الصيف فيستحبّ له أن يشربه على خضرة الجنان وتحت الظلال ، وعلى المياه وعلى الورد والياسمين والبنفسج والآس والسفرجل والتفاح . وإن كان فى الشتاء ، فبخلاف ذلك ، من الجلوس فى الأكنان واستعمال الكوانين ، وابس الأحمر والمُمَشّق [1] وشمّ فَتِيت المسك والعنبر والمرز نجوش [2] .

وأمّا الربيع والخريف فبين ذلك ، لأخذهما من رطوبة الشتاء وحرارة الصيف.

وإذا اجتمع مع الشراب نغم وألحان على صنوف الملاهى والميدان ، تعاونا على إذهاب الغموم والأحزان ، فلله دَرُّ من استنبطه ، ماذا أثار وعلى أىّ شىء دلّ !

ولو لم يكن الشراب أغلبَ شىء على العقول ، وأقربه للقلوب ، وألطف محلا فى النفوس ، وأشدّ ملاءمةً للأجسام ، وأجمعه لمحمود الخلال حتى لا تقاربه لذة ، ولا تساويه شهوة ، ولا تعدله خصلة من خصال المسرّات ـ لما تحملت الأشرافَ وذوى العقول أنفُسهم على معاقرته ، لا يردّهم ما ينالهم فيه عن معاودته ، من شنيع الأقوال ولوم العذّال ، فيما أنفقوا عليه من الذخائر ، وبذلوا من الأموال .

كان بالبصرة رجل ذو ضياع فأنفق ماله فى الشراب ، فباع ضيعته ، فلمّا تمّ البيع قال له المشترى : تأتينى بالعشىّ ، أدفع لك المال ، وأشاهدك ، فقال : لو كنتُ ممّن يَرَى بالعشىّ ما بعت الضيعة .

قال محمود بن الحسن الكاتب : بعت دارى فأصابنى مثل هذا ، فقلت :

---

(١) الممشق : المصبوغ ، وفى ف : « الممثل » ، وما أثبته من ا ، ب .

(٢) المرزنوش ـ ويقال المردقوش ، معرب « مردكوش » : الزعفران .

رفع المسهم

أَتْلفتُ مـالِى فى العُقـارِ وخَرَجْتُ فيها عن وَقَارِى[1]
حتّى إذا كُتب الـكتـا ب وجاءنى رسل التّجار
قالوا : الشّهـادَةُ بالعَشىّ ونحـنُ فى صَـــدْرِ النّهـارِ
فأجبتهمْ رُدُّوا الـكتـا ب ولا تُعنّوْا بانتظَارِى
لوْ كنت أظهر بالعشىّ لمـــا سمحـتُ ببيـع دارِى

وقال ابن الرومى :

أنا أهوى ذاتَ الخمار على الجيـــب وذات الوِشاح والدُّمْلُجَيْنِ[2]
وأرى فى النَّبيذ رأىَ صوابٍ لشيوخ العراق والـكوفتيْنِ
وإذا ما الغنـاء خاض ذوو الألْبَـــاب فيه اعتصمت بالحرَمَيْنِ
كُلَّما جاءت الرَّخائِصُ فيـه[3] كان أخذِى له بكلتـا اليـدين

وقال العَطَوىّ :

جارةٌ لى أجارها الـــحسْن من كلِّ عائبْ[4]
فهى بين النِّساء كالـــبدر بين الـكواكبْ
سألتْنى هـل النبيـــذ حـلالٌ لشـاربْ ؟
قلت : إى والَّذِى يُرِيـــنيكِ دُونَ الرَّقائبْ
فاشربيـه فإن فيـــه لإحدى العَجَائبْ
يُنبِتُ الورد فى ريا ض خدود الْكَواعِبْ

---

(١) ط : « عقارى » ، تصحيف .
(٢) الدملج : المعضد .
(٣) الرخصة : ترخيص الله للعبد فيما يخففه عليه .
(٤) ا : « غائب » .

رفع المسهم

ولبعض المتقدّمين :

مَنْ ذا يحرّم ماء المُزْن خالطَهُ ... في جوف خابية ماء العناقيدِ[1]
إني لأكره تشديد الرّواة لنا ... فيها ويعجبني قولُ ابن مسعودِ

وقال ابن الرومي :

أحَلّ العِراقيُّ النبيذ وشربَهُ ... وقال: الحرامان المدامةُ والسُّكْرُ[2]
وقال الحجازيّ الشرابان واحدٌ ... فحلّت لنا بين اختلافهما الخمرُ[3]
سآخذ مِنْ قَوْلَيْهما طرفيْهما ... وأشربها حِلاً وللوَازِرِ اوزْرُ[4]

خرج[5] الحسن بن هانىء ، ومعه مُطَيط صاحبه ، حتى أتيا دَيْر خَمّار ، فقال الحسن لمطيط : ادخل بنا نَتماجن على هذا[6] الخمّار ، فدخلا فسلّما ، فردّ عليهما السلام ، فقال له الحسن : أعندك خمر عتيقة [ياخمار][7]

قال : عندى منها أجناس ، فأىّ جنس تريد؟ قال : التى يقول فيها الشاعر :

حُجِبَتْ خيفةً وَصِينَتْ فجاءتْ ... كجِلاء العَروسِ بَعْد الصِّيانِ
وكأنّ الأكفّ تصبغ من ضو ... ء سَنَاها بالوَرْسِ والزَّعْفَرَانِ

فملأ له الخمّار قدَحاً من خمرة صفراء ، كأنها ذهب محلول ، فشربه

---

(١) العقد ٦ : ٣٦٨ ، الأشربة ٤٩ .
(٢) مختارات البارودى ٣ : ٦٨ العراق : يعنى به الإمام أباحنيفة . والنبيذ : مانبذ من عصير ونحوه .
(٣) الحجازى : المنسوب إلى الحجاز ، ويعنى بذلك الإمامين مالكا والشافعى .
(٤) مختارات البارودى . « وأشربها لأقارن »
(٥) الخبر والشعر فى نهاية الأرب ٤ : ٩٨ ، ٩٩ .
(٦) نهاية الأرب : نمزح بهذا الخمار .
(٧) من نهاية الأرب .

الحسن ، وقال: أحسن من هذا أريد ، فقال له الخمّار :من أىّ جنس تريد؟ قال : التى يقول فيها الشاعر :

رقّقتها أيدى الهَوَاجِرِ حتّى صَيَّرَتْ جسمَها كجِسْمِ الهَوَاءِ
فهى كالنّور فى الإناء وكالنّا رِ إذا ما تصير فى الأحشاء

فملأ له الخمّار قدحاً من خمرة كأنها العقيق ، فشربه ، وقال : ارفع من هذا أريد ، قال:أى نوع تريد ؟ قال :التى يقول فيها الشاعر :

فإذا حَسَا مِنْها الوضيع ثلاثةً سَمُح الوضيع كفعل ذى القَدْرِ
فى لونِ ماءِ المزن [1] إلا أنّها بين الضُّلوع كواقِدِ الجَمْر

فملأ له الخمّار قدحاً من خمرة بيضاء ، كأنها ماء المزن ، فشرب الحسن ، وقال للخمّار : أتعرفنى ؟ قال : إى والله ياسيّدى ، أنا أعرَفُ النّاس بك ، قال : فمن أنا ؟ قال : أنت الذى يَسْكَر [2] من غيرِ وزْن ، فضحك الحسن ، وقال لمطيط : ادفع إليه ما معك من النَّفَقة ، فأعطاه مائة درهم وانصرف [1] .

وقال أبو عثمان الناجم : دخلتُ على أبى العباس عبد الله بن المعتزّ ، وهو مخمور طيّب النفس ، فقال:يا أبا عثمان ، أنشدنى ما شئت حتى أعارضَك بأحسن منه أو مثله ، فأنشدته لأبى نواس :

وعاشق دَنِفٍ نبّهتُه سَحَراً فقام للرّاح والتذْكار مصطبحا
ودارتِ الخمر من صَهْبَاء صافيةٍ فما احتسَى قَدَحاً حتى بكى فَرَحا

(١) نهاية الأرب : « ماء الغيث » .
(٢) كذا فى نهاية الأرب . وفى الأصول : « سكر » .

ففكّر ساعة ، وضحك وقال :

وقهوةٍ كشُعاع الشمس صافيةٍ مثل الشّراب ترى فى قعره شَبَحا
إذا تعاطيتَهَا لم تَدْرِ من لَطَفٍ راحاً بلا قدَحٍ أعطيتَ أم قدَحا

وقالوا: مادَرَا رِيح الخزّ والسَّمور بأدفأ من الشراب للمصرور والمقرور[1].

وقال بعضهم : كنت فى متنزّه لى ، وإذا شيخ منبخ على عَلْوة معه صبىّ فى يوم بارد ، فكنت أسمع الصبىّ يقول للشيخ: أعطنى فَرْوَتى، فيناوله شيئاً لا أتبيَّنه، فبعثت غلامى ينظر إليه . فإذا عند الشيخ قَنِّينة ، كلّما طلب الصبىّ فَرْوَتَهُ سقاه قدحاً .

قال :وأنشدوا للهُدْهد الأصبهانىّ:

إنّا أناسٌ حَسَنٌ دينُنا لبيعنا الآجلَ بالعاجلِ
إذا شربْنَا خمسةً خمسةً فقد لبسنا الفَرْوَ من داخِلِ

وقال عمرو الضبابى :

أعْدَدْتُ للّيل إذا الليل بَرَدْ خابيتَيْن من طِلاء قد رَكَدْ
* فتطرد الهمّ وتكفيك الصَّرَد *

وقال آخر :

إذا هبَّت الأرواح فاجْعل دثارها إذا التحف الأقوام دُكّن المطَارِفِ
ثلاثة أرطالٍ شراباً معتّقاً تكنْ آمناً منها ولست بخائفِ
فإنّ دثار المرء من تحت جِلْدِه أخفُّ وأدْنَى منْ دثَارَ الملاحِفِ

(١) المصرور ، من الصر ، بالكسر ، وهو شدة البرد والمقرور ، من القر ، بالضم وهو البرد أيضا .

رفع المسهم

قال الجاحظ : جَلستْ عجوزٌ من العَرب إلى فتيانٍ يشربون ، فسقوْهَ قدحاً فطابت نفسها ، ثم سَقَوْهَا آخر فاحمرّ وجهها وضحكت ، ثم سَقَوْهَا قدحاً ثالثاً ، فقالت : خبرونى عن نسائكم بالعراق ،أيشربن من هذا الشراب ؟ قالوا : نعم ، قالت : زَنَيْنَ وربّ الكعبة ، والله لايدرى أحدكمُ مَنْ أبوه [1].

وسُقِىَ أعرابىٌّ قدحاً من شرابٍ ، ولم يكن يعرفه ، فحرّكته الأريحيّة ، فسألوه عنها ، فقال : والله ما أدرى ماهى ! غَيْرَ أنّى أراكم تُحبّبون إلىّ وأرانى أسرّ بكم ، وماوَهَب إلىّ أحد منكم شيئاً.

ومرّ أعرابىّ بقوم يشربون ، فدعوه ، فنزل وعقل بَعيرَه . وشرب معهم ، فلمّا أخذ منه الشراب ، قام إلى بعيره فنحَره ، وشوى لهم من كبِده وسنامه ، ثم رفع عقيرته يتغنّى :

عَلّلانى إنما الدُّنيا عِلَلْ ... واسقيانى ، عَلَلاً بَعْد نَهَلْ
بادرَا باللّهو يوماً صالحا ... ودعانى من عتاب وعَذَلْ
وانشلا ما اغبَرّ من قِدْرَيْكُما ... واسْقيانى أبعد الله الجمل

وقال إسحاق الموصلىّ : سقيت أعرابيّاً نبيذا ، فقال : ما على هذا شىء ، يُطَيِّبُ النفس ، ويطرد الحزن ، ويمنّى الخير ، ويَعِدُ الغنى ، ثم أنشأ يقول :

ألاَ خُذهَا كماء الزّعْفَرَانِ ... رَمَتْها بالتُّحولِ يدُ الزّمَانِ
تصوغ إذا علاها الماء طَوْقاً ... من الياقوتِ فُصِّلَ بالجُمَانِ
وتترك مَنْ أرادالشرب منها ... صحيحَ الجسم مُنْكَسِرَ اللِّسَانِ
كأنّ الشمس طالعة بكفّى ... إذا أخذتْ زجاجتَها بمانى

ومرّ الفرزدقُ بالحكم بن المنذِر بن الجارود ؛ فاستسقاه ماء ، فقال : هلاّ

(١) حلبة الكميت ١٢

لبناً يا أبا فراس؟ قال : ذلك إليك ، فملأ له عُسًّا من خمر ، وأمر فحُلِبَتْ عليه لَقْحة ، فصَعِدت الرَّغْوة فوق الشراب ، وأتاه به ، فشربه حتى صَكَّ بالعُسّ جَبهتَه ، وانتفخت أوداجُه ، واحمرَّت عيناه ، فمسح سِبالَه ، وقال : جزاك الله خيراً ، فإنك مازلت تُخْفِي الصَّدَقات ونِعمّا هي !

ودخل الأخطل على عبدالملك ، فقال : ليت شعري ، ما يعجبك من إدمان الخمر ، وأوّلها التقطيب والكراهة ، وآخرها السُّكر والسفاهة ! فقال : ولكن بينهما حالة ما يسرُّني بها مُلكك ، هذا نظمه الشاعر ، فقال :

إن يكُنْ أول المدام كريهاً ويكن آخر المدام صُدَاعَا
فلها بين ذا وذاك هناةٌ وصْفُها بالسرور لَنْ يُسْتطاعَا

وأنشد ابن قتيبة لأبي محجن الثقفي :

إذا متُّ فادفنِّي إلى جنب كرمةٍ تروِّي عظامي بعد موتي عروقها[1]
ولا تدفنَنِّي بالفـــلاة فإنني أخاف إذا ما متّ ألاَّ أذوقها

قال : فأخبرَني مَنْ رأى قبره بإرمينيَة ، أنه بين شجرات الكروم ، والفتيان يشربون عندها ، وينشدون شعره ، وإذا جاء قدحه صبُّوه على قبره .

ومنع عمر بن الخطاب رضي الله عنه أهلَ الشام شربَ الخمر . فقال شاعرهم :

ألم تَرَ أنَّ الدّهْرَ يعـــثُر بالفتَى ولا يملك الإنسانُ صَرْفَ المقادِرِ
صبرتُ ولم أجزعْ وقدمات إخوتي وما أنا عن شُرْبِ المُدام بصابِرِ
رَماها أمير المؤمنين بحتفِها فخِلاًّنُها يبكون حَوْل المعاصِرِ

ورأى ذؤيب التسلمي خمرا أهراقها السلطان ، فقال :

يا لقومي لِمَا أتى السلطانُ لا يكن للذي أهانوا هوانُ

---

(١) نهاية الأرب ٤ : ٩١ ، والعقد ٦ : ٣٥٠ والأشربة ٢٤ .

رفع المسهم

سكبوا فى التراب من حَلَبِ الكُرُو ... مِ عُقاراً كأنّها الزعفران
سكبت فى مكان نحسٍ لقد صا ... دف سَعْدَ السُّعُود ذاك المكانُ
كيف صبرى عن بعض نفسى وهل يصـ ... ـبر عن بعض نفسه إنسانُ !

ولمّا أنهمك الوليد بن يزيد فى الشّراب والتبذّل مع الندماء ، اجتمع وجوه بنى أميّة ، فلاموه وعنّفوه ، فقال لهم اسمعوا ماعندى :

أشْهِد الله والملائكة الأبـ ... ـرار والعابدين أهلَ الصّلاحِ
أننى أشتهى السماع وشرب الرّاح والعضّ فى الخدودِ الملاحِ
والنّديم الكريم والخادم الفا ... رِهَ يسعى علىّ بالأقداحِ
وظريف الحديث والكاعب الطّفْـ ... ـلة ترتجّ فى سُموط الوِشاحِ

انْصَرِفوا ، فيئسوا منه ، فدبّرُوا فى إفساد دولته .

ودخل على المأمون عمرو بن مسعدة ورجلٌ من الفقهاء ، وبين يَدَيْه جام زجاج فيه رطل شراب ، فمدّ به يدَه المأمون إلى الرجل ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، والله ماشربتُها ناشئاً فلا تسقنيها شيخاً ، فردّ يده إلى عمرو ، فأخذها منه ، وقال : الله الله يا أمير المؤمنين ، إنى آليتُ فى الكعبة ألاّ أشرَبها ؛ ففكر طويلاً والكأس فى يد عمرو ، ثم قال :

رُدّا علىّ الكأس إنّكما ... لاتعلمان الكأسُ ماتُجْدِى
لو ذُقتما ما ذقتُ مامزجَتْ ... إلا بدمعكما من الوَجْد
ما مثل نعماها إذا اشتملَتْ ... إلا اشتمال فمٍ على خدِّ
خوّفتمانى الله ربّكما ... وكَخِيفتيهِ رجاؤه عندِى
إن كنتما لا تشربان معى ... خوف العقاب شربتُها وحدى

وقال الحسن بن هانئ وهو الإمام فى الخمريات :

ساعٍ بكأسٍ إلى ناسٍ على طربِ كلاهما عجبٌ فى مَنْظَرٍ عجب[1]
قامت ترينى ، وأمر الليل مجتمعٌ صبحاً تولّد بين الماء والعنب
كأن صغرى وكبرى من فواقعها حصباء درٍّ على أرض من الذهب

وله أيضاً :

قال ابْغِنِي المصباح قلت له اتئد حسبى وحسبك ضوءها مصباحا[2]
فسكبتُ منها فى الزُّجاجة شَرْبةً كانت له حتى الصَّباح صباحا
مِنْ قهوة جاءتك قبل مِزَاجها عُطُلاً فألبسها المِزاج وشاحا
شقّ البُزال[3] فؤادَها فكأنّها أهدتْ إليك بريحها تفّاحا
فأتتكَ فى صور تداولها البِلَى فأزالهنّ وأثبت الأرواحا

وقال ابن المعتز :

ونارٍ قدحْتُهَا سراعاً بِسُحْرةٍ متى مايُرَقْ ماء عليها توقّدِ[4]
يجول حَباب الماء فى جَنباتها كما جال دمعٌ فوق خدّ موردِ

وقال ابن وكيع :

وصفراء من ماء الكروم كأنّها فراق عدوّ أو لقاء صديقِ[5]
كأنّ الحباب المستدير بطوْقِها كواعب دُرّ فى سماء عقيق

الطَّوْق : حاشية الكأس .

وقال ابن المعتز فى الحباب وتشبيهه له أحسنُ من تشبيهه بجميعه :

---

(١) ديوانه ٢٤٣ (٢) ديوانه ٢٥١ .
(٣) بزل الخمر : ثقب إناءها ، وذلك الموضع اسمه البزال .
(٤) ديوانه ٢ : ٣٧ .
(٥) يتيمة الدهر ١ : ٣٣٩ .

رفع المسهم

أسقِي مخدّرةَ الدِّنا ن سُلاف خمرٍ قَرْقَفا[1]
راحًا تخال حَبابَها دُرًّا يجـــول مجوّفا

وقال الحسن :

بنت عشر لم تعاينْ غيرَ نارِ الشمس نارَا[2]
ثم سَحَّت فأدارتْ فوقها طَوْقًا فدَارَا
كاقتران الدّرّ بالدرّ صـــغاراً وكبارَا
فإذا ما اعترضته الـــعينُ من حيث استدارَا
خِلْتَه فى جَنَبَاتِ الـــكأس واواتٍ صغارا

وله أيضاً فى مثل ذلك :

والـكأس أهواها وإن رُزِئت بلغ المعاش وقلّلَتْ فَضْلِى[3]
ذخرت لآدم قبـــل خِلْقتِـــهِ فتقدّمتْـــه بخطوة القبـــلِ
فأتاك شىء لا تلامِسُـــه إلا بحسن غريزة العقـــلِ
فإذا عـــلاها المـاء ألْبَسها نَمشاً كمثل خلاخل الحجْلِ
حتى إذا سكنت جوانحُها كتبت بمثل أكارع النملِ
خطين[4] من شـــتى ومجتمعٍ غُفْل من الإعجام والشكل

وقال ابن المعتز :

كأنّ فى كأسها والماء يقرعُها أكارعُ النمل أو نقش الخواتيمِ[5]

---

(١) ديوانه ٢ : ٨٧
(٢) هو الحسن بن هانى ، ديوانه ٢٧٤
(٣) ديوانه ٣١١ ، وفيه : « والراح أهواها » .
(٤) الديوان : « سطرين » .
(٥) ديوانه ٢ : ٦٢

رفع المسهم

وقال حبيب :

صُغْتَ وراض المَزْجُ سَيِّئَ خلقها ... فتعلّمتْ مِنْ حُسْنِ خُلْقِ الماءِ[1]
خَرْقَاء يلعبُ بالعُقول حَبابها ... كتلاعُب الأفعال بالأسماءِ
وضعيفةٍ ، فإذا أصابت فُرْصَةً ... قتلتْ ، كذلكَ قُدْرَة الضعفاء
وكأنّ بهجتَها وبهجةَ كأسها ... نار ونور قُيِّدَا بوعَاءِ
أو دُرّة بيضاء بكرٌ أطبقتْ ... حَبْلاً على ياقوتةٍ حمراءِ

وقال ابن لبّال :

ومدامةٍ لبست غلالة نَرْجسٍ ... وتنفسَت فى الكأس أىّ تنفسِ
باكرتُها والوردُ يوقِظُه النَّدَى ... وتبلّ خدّيه عيونُ النَّرْجِسِ
والشمس تنظر من وراء غمامةٍ ... لبست من الكافور أحسنَ مَلْبسِ
نبّهتها بيد المزاج فأصبحتْ ... تَرْنُو إلىّ بأعين لم تَنْعَسِ
وتوردت حتى توقّد كأسُها ... فحسبتها فى الكفّ جَذْوَة مقبسِ

* * *

ولا كَانَ سَاقْ ... دَهَانِى الرِّفاقْ
لأرْضِ العِرَاقْ ... بحَمْلِ السُّبَحْ

فلاَ تغْضَبَنْ ... ولَا تعْجَبَنْ
وَلَا تَعْتِبَنْ ... فَعُذْرِى وَضَحْ

---

(١) ديوانه ٣٨

رفع المسهم

وَلَا تعْجَبَنْ لِشَيْخٍ أَبَنّْ
بِمَغْنَى أَغَنّْ وَدَنٍّ طَفَحْ

فإنّ الْمُدَامْ تُقَوِّى الْعِظَامْ
وَتَشْفِى السَّقَامْ وَتَنْفِى التَّرَحْ

* * *

قوله : « دَهائى »، أى تشيطنى ومكرى . السّبْح: جمع سبحة ، وقد تقدّمت . تصخبَنْ : ترفعنّ صوتك بالصياح . تعتبنّ : تلومنّ . وضح : ظهر . أَبَنّ : أقام. مغنًى : منزل : أغنّ : كثير الأشجار ، فإذا هَبَّتِ الريح فيها سمعت لها غُنَّة ، ومن هذا قولهم : رَوْضةٌ غنّاء ، لأن صوت الرّيح يخرج من بين أشجارها ، وعشبها أغنّ .

ومَنْ فسّرها بأن الذباب يغنّى فيها، فهو صحيح فى المعنى فاسد فى التصريف ، لأنّ يغنى أصله (غ ن ى) وأغنّ أصله (غ ن ن) فيريد بالمغنَى الأغَنّ منزلا كثير الأشجار .

وفسّره بعضهم كثير الأهل ، والأوّل أولَى .

طفح: امتلأ خمراً ، المُدَام : الخمر. وقوله : « تقوّى العظام ، وتشفى السّقام » قد تجاوز هنا قوم حتى جعلوها من العاهات ؛ قال الأقيشِر — ويروى لأبى نواس :

وَمَقْعَدِ قومٍ قد مشى من شَرَابِنَا وأعمى سقيناه ثلاثاً فأبصَرَا

كُميتٍ كأن العنبر الوردَ ريحها إذا شمّها الحانى من الدّن كبَّرا
توقَّدُ فى أيدى السقاة كئوسها إذا ما رآها صائم القوم أفطَرا

وقال آخر :

أبا هاشمٍ هل لى سبيل إلى التى أرى شربةً منها قواماً لأحْدَبِ

قوله :« وتنفى الترح »، أى تزيل الحزن .

وقال الحسن بن هانىء فى أن الخمر تزيل الحزن والهمّ :

دعْ عنك لومى فإنّ اللوم إغرَاءُ وداوِنى بالّتِى مِنْها بىَ الدَّاءُ[1]
صفراء لا تنزل الأحزان ساحَتَها لو مسَّها حجرٌ مسَّتْه سَرَّاءُ
قامت بإبريقها والليل معتكرٌ فظلّ منْ وجهها فى البيت لألاءُ
وأرسلت من فم الإبريق صافيةً كأنّما أخْذُها بالعقل إغفاءُ
رقَّتْ عن الماء حتى لا يلائمها لطافة وجَفَا عن شكلها الماءُ
فلو مَزَجْتَ بها نورًا لمازجَها حتى تولّد أنوارٌ وأضواءُ

وقال البحترىّ :

فاشرب على زهر الرياض يشوبُهُ زهر الخدودِ وَزَهْرَةُ الصَّهْباءِ[2]
من قهوة تنْسِى الهموم وتبعث الشَّوْق الّذى قد ظلّ فى الأحْشَاءِ
يخفى الزجاجة لونُها ، فكأنّها فى الكأس قائمة بغير إناءِ

وقال حبيب :

بمدامة يغدو الفتى لكئوسِها حَوْلاً على السَّرَّاء والضَّرَّاءِ[3]

---

(١) ديوانه ٢٣٤ ، وروايته « وداونى بالتى كانت هى الداء »
(٢) ديوانه ٦
(٣) ديوانه ٣ .

رفع المسهم

راحٌ إذا ما الراح كُنّ مطيَّها كانت مطايا الشوق فى الأحشاءِ
عنبيّةٌ ذهبيّةٌ سَبَكتْ لها ذهبَ المعانى صاغةُ الشُّعَراءِ

* * *

وَأَصْفَى السُّرُورْ إِذَا مَا الْوَقُورْ
أَمَاطَ سُتُورْ الْ حَيَا وَاطَّرَحْ

وَأَحْلَى الْغَرَامْ إِذَا الْمُسْتَهَامْ
أَزَالَ ا كْتِتَامْ الْ هَوَى وَافْتَضَحْ

فَبُحْ بِهَوَاكْ وَبَرِّدْ حَشَاكْ
فَزَنْدُ أَسَاكْ بِهِ قَدْ قَدَحْ

وَدَاوِ الْكَلُومْ وَسَلِّ الْهُمُومْ
بِبِنْتِ الْكُرُو مِ الَّتِى تُقْتَرَحْ

وَخُصَّ الْعَبُوقْ بِسَاقٍ يَسُوقْ
بَلاَءَ الْمَشُوقْ إِذَا مَا طَمَحْ

* * *

قوله : «أماط» ، أى أزال . اطّرح: رمى بها ، وهذا منتزع من قول علىّ ابن الخليل :

لا تكمُلُ اللّذّات إلا بالْقيانِ وبالخمورِ
هتْك الستور فإنّما الـ ـلذات فى هَتْك الستورِ

رفع المسهم

فدعِ العواذل لا يقِفْـــنَ عَلَيْكَ من دُونِ الصُّدُورِ
واعلم بأنّك راجعٌ حَقًّا إلى ربٍّ غفورِ

قوله : «الغرام» ، شدة الحب . المستهام: الذى حمله الحبّ على أن يهيم ، أى يذهب ولا يدرى أين يتوجه . افتضح : اشتهر ، يقول: أصفى مايكون السرور إذا أزال الوقور ثياب الحياء واطّرحها عنه ، وأحلى ما يكونُ العشق إذا أزال العاشق الكتم وشهر نفسه به ، ومن هذا قول أبى نواس :

ألا فاسقنى خَمْراً وقُلْ لى هى الخمرُ
ولا تَسْقِنى سِرًّا إذا أمكنَ الجهرُ[1]
ويُحْ باسم مَنْ تهوَى ودَعْنِى من الكنى
فلا خَيْرَ فى اللّذات من دونها سترُ

قوله: «زند أساك» ، الزند: الذى يقدح به النار ، والأسى : الحزن ، يقول : بردِّ قلبك بذكر مَنْ تهوى ، فإنك إن رمت كتمه قدح به زند حزنك .

ونحو هذا مايحكى أن أبا الفضل الدّارمىّ ، كان له هوًى بغلام ، فإذا رآه أنكر حبّه ، والغلام يعرف شدّة وجده به ، فدمعت يوماً عينا أبى الفضل ، فقال له الغلام : دمعك شاهد عليك ، فقال :

وَهَبْنِى قد أنْكَرْتُ حُبَّكَ جُمْلَةً وآليت أنّى لا أروم محطّها
فمن أين لى فى الحبّ جرح شهادة سقامىَ أملاها ، ودَمْعِىَ خَطّها !

---

(١) ديوانه ٢٧٣ ، بعده هناك:

فعيش الْفَتَى فى سَكْرَةٍ بَعْدَ سَكْرَةٍ فإن طالَ هذا عِنْدَهُ قَصُرَ الدَّهْرُ
وما الْغَبْنُ إلاّ أنْ ترانِىَ صاحِيًا وما الغنم إلا أن يُتَعْتِعَنِى السُّكْرُ

وقال المتنبي :

وكاتم الحبّ يوم البين منهتكٌ وصاحب الدّمع لا تخفى سرائرُهُ[1]

والشعر فى هذا كثير ، وكله تبع لقول العباس بن الأحنف :

لا جَزى الله دمع عَينِيَ خَيْرًا وجزى الله كلَّ خير لسانِي[2]
نَمَّ دمعى فليس يَكتُمُ شيئاً ورأيت اللّسانَ ذا كتمان
كنت مثل الكتاب أخفاه طيٌّ فاستدلّوا عليه بالعنوان

أما الاشتهار الّذى ذكر فإنما يأخذ به أهلُ التّماجُن ومَنْ لا بالَ له ، وأما أهلُ المروءات والتّصاوُن ، فغايتهم إعلام المحبوب بشأنهم ، وكَتْمُه عن النّاس ، وذلك شديد ، ولا يقوم به إلاّ مَنْ كمل عقله ، وأما أن يكتمه عن محبوبه كحكاية أبى الفضل ، فأشدُّ أحوال هذا الباب أن يكون لمحبوبك أصحاب يألفهم ويألفونه ، فيعلمون بشأنك كما فعل أبو الأصبغ بن رشيد المرتكىّ ، أنشدنيه الفقيه أبو الحسن بن زرقون :

أبا قاسم إنْ قَسَمْت الْهَوَى كئُوسًا فحظِّىَ أوفى الكئُوسْ
وبين جُفونكِ يا قاتِلى وبين فؤادىَ حَرْبُ البسُوس
وبَيْنَ الجوانح نارُ الجوى كما قد سمعت بنار المجوسْ
أسارقك اللحظ فى خِفْيَةٍ كما يتناول قَيْدُ الشّموسْ
فمهما بدَوْتُ ومهما رنوْتُ فشغل العيون وشغل النفوسْ
سُررت به بين أصحابه فحذّوا اللحاظ وهزّوا الرءوسْ
وهذا على خطرة فَذّةٍ فكيف لو أنى نويت الجلوسْ

---

(١) ديوانه ٢ : ١١٥

(٢) ديوانه ٢٨٢ ، نهاية الأرب ٨ : ١٤٤ .

رفع المسهم

قوله: « داو الكلوم » ، يريد جراح قلبه من أنكاد الدهر ، ولذلك اتبعه بـ « سلّ الهموم » ، لأنه فى معنى « داو الكلوم » ، وهذا كقول العطوىّ :

أعجبتنّ أن أناخ بى الدّهْـــرِ فخاصمتُـه إلى الأقداحِ
لا تذاد الهمومُ أنشبن أظفا رًا حداداً بشرب ماء قَراحِ
أحمد الله صارت الكأس تأسُو دونَ إخوانى الثقات جراحِى

قوله : « تقترح » تتمنّى . الغبوق : شرب العشىّ ، والمسوق : المحبّ . وطمح : ارتفع بالنظر ، يقول : خُصّ شرابك بالعشىّ مع غلام حَسَنٍ يسقيك ويبيت معك على شرابك ، ويكون لإفراط حسنه ، يجلب عذاب العاشق إذا نظره .

ومما قيل فى السقاة ووصف الخمر من الشعر المستحسن قول أبى نواس :

إذا عَبّ فيها شارب القوم خلتَه يقبّل فى داج من الليل كَوْكَبَا[1]
ترى حيثُما كانت من البيت مَشْرقاً وما لم تكن فيه من البيت مَغْرِبَا
يدورُ[2] بها ساقٍ أغنّ ترى له على مُستدار الخدّ صُدغا معقربَا
سقانى ومنّانى بعينيه منيـــةً فكانت إلى نفسى ألذّ وأعجبَا

وقال ابن الرومىّ فأحسن :

ومهفهفٍ كَمَلَتْ محاسنُه حتى تجاوز مُنْيَةَ النَّفْسِ
تصبُو الكُئُوس إلى مراشفِهِ وتضجّ فى يده من الحبسِ
أبصرته والكأس بين فَمٍ منه وبين أناملٍ خَمْسِ
فكأنّها وكأنّ شاربَها قمر يقبّل عارضَ الشمسِ

(١) ديوانه ٢٤٤
(٢) الديوان : « يدير » .

وقال ابن المعتز :

ظبيٌ مُخَلًّى من الأحزان أودعنى ... ما يعلم الله من حُزْنٍ ومن قَلَقِ[1]
كأنه وكأن الكأس فى يدِه ... هلال أوّلِ شهر غاب فى شَفَقِ[2]

وقال أيضاً :

ياحسن أحمد غادياً أمسِ ... بمدامة صفراء كالورسِ[3]
وكأنّ كفيه تقسم فى ... أقداحِنا قِطَعاً من الشَّمْسِ

ولأبى طالب الرَّفاء فى معنى آخر :

لها فى كفّ شاربها شعاعٌ ... تطرّف منه مبيضُّ البَنانِ

ولأبى بكر الخالدىّ :

تُومِى إليك بأطراف معطّفة ... فيها خضابان للعُنَّاب والعنب

فهذا فى انتقال حُمْرتها لأصابع حابسها ، فإذا انتقلت لخدّ شاربها حدث للشعراء فى ذلك معنى بديع من صنع البديع يسمّى المطابقة ، وهو الوصف بالغروب والطلوع ، وقال فى ذلك الطليق المروانىّ :

أصبحَتْ شمساً وفوه مغرباً ... وَيدُ الساقى المحيِّى مَشرقَا
فإذا ما غربت فى فَمِـه ... أطلعت فى الخدّ منه شَفَقَا

ولأبى مطروح بن فتوح :

صهباء تغرب إنْ بَدَتْ من كفّه ... فى فيه ثم تلوح فى وَجَناتِهِ

وقال غيره :

بَدْرٌ بدا يشرب شمساً بدتْ ... وجِدّها فى الحسن من جدِّه
تغرب فى فيه ولـكنّها ... من بعد ذا تطلع فى خَدِّهِ

---

(١) ديوانه ٢ : ٥٥ . (٢) ديوانه ١٨
(٣) الديوان : « هلال تمٍّ ونجم غاب فى شفقِ » .

رفع المسهم

وقال آخر :

أقول والكأس على فِيهِ وقد ... صوّبها كالكوكب الصائبِ
ذا كوكبٌ يغرب فى كوكبٍ ... وَيْلِي عَلَى الطَّالِعِ والغارِبِ !

* * *

رجعنا إلى ذكر السقاة ـ قال ابن المعتز :

تدور علينا الكأس من كفّ شادنٍ ... له لحظ عين يشتكى السّقم مدنفُ[1]
كأن سلاف الخمر من ماء خَدّهِ ... وعنقودها من شعره الجعد يُقْطَفُ

وقال أبو بكر الخالدىّ :

أهلاً بشمس مُدامٍ مِنْ يَدَىْ قمرٍ ... تكامل الحسنُ فيه فهو تَيَّاهُ
كأنّ حمرتها إذ قام يمزجُها ... من خَدِّه اعْتُصِرَتْ أو من ثناياهُ
فى وجه فُلٍّ ورَيْحانٍ تراح له ... مِنّا قلوبٌ وأبصارٌ وتَهْوَاهُ
النَّرجس الغضّ عيناه وطُرَّتُهُ ... بنفسج ، وجَنىّ الورد خَدَّاهُ

ولابن الزّقاق :

وساقٍ يحثُّ الكأسَ وهْىَ كأنّما ... تلألأ منها مثل ضوءِ جبينِهِ[2]
سقانى بها صرف الُحمَيّا عشيّةً ... وثنّى بأخرى من رحيق جفونِهِ
هضيم الحشا ذو وَجْنَةٍ عَنْدَمِيّةٍ ... تريك قطاف الورد فى غير حِينِهِ
فأشرب مِنُ يمناه ما فوق خدّه ... وألثمُ من خدّيه ما فى يمينـــه

وقال الخوارزمى :

وصفراء كالدينار بنتُ ثلاثةٍ ... شمال وأنهـار ودهر محرّمُ[3]
مَسَرّةُ محزونٍ وعذر مُعَرْبدٍ ... وكنز مجوسىّ وفتنة مسلمِ
بدور بها ظبى تدور عُيوننا ... على عينه من شرْط يحيى بن أكثمُ

(١) ديوانه ٢ : ٥٤ (٢) ديوانه ٢٧٤
(٣) يتيمة الدهر ٢ : ١٣

وقال ابن المعتز :

ونداماى فى شباب وشيب أتلفت مالَهُمْ نفوس كرامُ[1]
بين أقداحهم حديث نضيرٌ وهو سحر وما سواه كلامُ
وغناء يستعجل الرَّاحَ بالرّا ح كما تاح فى الغُصُون الحمامُ
وكأنّ السقاة بين الندامى ألفاتٌ بين السُّطور قيامُ

* * *

وشَهَادٍ يُشِيدُ بِصَوْتٍ تَمِيدُ جِبالُ الحَدِيدِ لَهُ إِنْ صَدَحْ
وَعَاصِ النَّصِيحْ الَّذِى لا يُبِيحْ وِصَالَ المَلِيحْ إِذا مَا سَمَحْ
وَجُلْ فِى المِحَالْ وَلَوْ بالمُحَالْ وَدَعْ مَا يُقالْ وَخُذْ مَا صَلَحْ
وفَارِق أَبَاكْ إِذا مَا أَبَاكْ وَمُدَّ الشِّبَاكْ وَصِدْ مَنْ سَنَحْ
وَصَافِ الخَلِيلْ وَنَافِ البَخِيلْ وَأَوْلِ الجَمِيلْ وَوَالِ المِنَحْ
وَلُذْ بالمَتَابِ أَمَامَ الذَّهَابِ فَمَنْ دَقَّ بابَ كَرِيمٍ فَتَحْ

* * *

(١) ديوانه ١٨

قوله : « شادٍ » ، أى مغنٍّ . يُشيد : يتقن غناءه ويحكمه . تميد : تميل . صدح : رفع صوته بالغناء ، والصداح : الصوت الشديد ، يقول : وأحضر الخمرَ مغنياً تميل الجبال لحسن غنائه ، وهذا مثل ما حكى المنجّم، قال : حكى لى أنّ إبراهيم بن المهدىّ ، كان أحسن الناس غناء ببرهان، وذلك أنّى كنتُ أراه فى مجالس الخلفاء مثل المأمون والمعتصم يُغَنّى المغنون ، فإذا ابتدأ هو لم يبق أحدٌ من الغلمان والمتصرّفين وأصحاب الصّناعات والمهن الصِّغار والكبار ، إلاّ وقد ترك ما فى يده ، وصار بأقرب موضع يمكنه أن يسمعه ، فلا يزال مصغياً إليه ، لاهياً عمّا كان فيه ما دام يغنّى ، فإذا أمسك وغنّى غيره رجعوا إلى أشغالهم ، ولا برهان أقوى من شهادة الفطرة ، واتّفاق الطبائع على الميل إليه مع اختلافها فى غير ذلك .

وقال منصور بن المهدىّ : غنّى أخى إبراهيمُ الأمينَ يوماً فقال :

وكأسٍ شربتُ على لذةٍ وأخرى تداويتُ منهابها
لكىْ يعلمَ النّاس أنى امرؤ أتيت الفتوّة من بابها

وكان الأمين مشرفا على حمر الوحش ، وهو مخمور ، وكان من عادته ألاّ يشرب وهو مخمور ، فاستوى جالساً وطرب ، وقال : أحسنت والله يا عمّ ، وأحيَيْت لى طرباً . وغنّى يومئذ على أشدّ طبقة ينتهى إليها ، وما سمعت مثله قطّ ، وقد رأيت منه شيئاً عجيباً ، لو حُدّثتُ به ماصدقته ، كان إذا ابتدأ يغنّى أصغت الوحش ، ومدّت أعناقها ، ولم تزل تدنُو منه ، حتى تضع رءوسها على الدُّكان الذى كنا عليه ، فإذا سكت نفر عنّا ، حتى تنتهى إلى أبعد غاية يمكنها التباعُد فيها عنّا ، وجعل الأمين يعجب من ذلك .

قوله : « يبيح » ، أى يجعله له مباحًا ، يقول : اعْصِ مَنْ يعذُلك فى وصْل المليح متى سمحَ بوصله .

وكان أعرابيٌّ قد طال تعشّقه لجارية ، فقيل له : ما كنتَ صانعاً لو ظفِرْتَ بها ، ولا يرا كما غير الله ؟ قال : إذاً والله لا أجعلُه أهونَ الناظرين، لكنّى كنت أفعل بها ما كنتُ أفعله بحضرة أهلِها ، شكوى وحديث عذب ، وإعراض عمّا يسخط الرّبّ ، ويقطع الحُبّ ، فإن تَلَقّى وصال المليح ، إذا سمح بمثل هذا فعصيان النصيح واجب ، وأكثر الناس يرى أن الظفر بالمعشوق يُسْقط نصف عشقه ، وأن النّكاحُ يفْسِد الحب :

وقال المأمون :

ما الحبُّ إلا قُبْلَةٌ ... وغمز كفٍّ وعَضُدْ
وكتبٌ فيها رُقًى ... أنفذُ من نَفْث العُقَدْ
مَنْ لم يكن ذا حبّه ... فإنما يبغِى الولَدْ
ما الحبّ إلا هكذا ... إن نُكِح الحبّ فَسَدْ

وقال حبيب فى نقيضه وأجاد :

وقالت نِكاحُ الحبّ يفسد شكله ... وكم نكحوا حِبًّا وليس بفاسدِ ![1]

وقالت أمّ الضحّاك المحاربيّة :

شفاء الحب تقبيل وَضَمٌّ ... وجرّ بالبطون على البُطونِ
ورَهْزٌ تَهْمُلُ العينان منه ... وأخذٌ بالمناكبِ والقُرُونِ

وقال الحسن :

إذا هجع النِّيام نخلٌ عنى ... وعمّن كان أيصلح للدّبيب[2]

(١) ديوانه ١٣
(٢) ديوانه ٢٥

رفع المسهم

فإنى عالم فطنٌ أريبٌ ولم يخبرك مثلُ فتىً أريبِ
ألذُّ الفعل تأخذه سرورًا بمنح الحبّ أو منع الرقيبِ

وبعد هذا ما يقبح ذكره ، وشعر الحسن يكثر فى هذا الباب .

وقال ابن الأبّار رحمه الله ـ وذكر أنه فعل بمحبوبه وبرقيبه :

فوثبْنَا على الغـزال وثوباً ودبيْنَا على الرّقيب دبيبَا
فهل أبصرتَ أوسمعت بصبٍّ نالَ محبوبه ونالَ الرقيبَا !

وقال ابن بسّام : لقد ظَرُف ابن الأبار ، واستهتر ما شاء وقدّر ، وأظنه لو قَدَر على أبليس الّذى تولى له هذا المذهب لدَبّ عليه .

وابن المعتز كنّى ولم يصرح ، فقال :

فكان ما كان مما لست أذكرُه فظنّ خيراً ولا تسأل عن الخبر[1]

أين ما قدّمناه لابن الأبار من قول الآخر فى ضِدّه :

ومنعّمٍ غض القِطافِ عذبٌ لَمَاهُ للارتشافِ
فوَرَدْتُ جَنّة نحرِه ونعيمها دُونَ اقتطافِ
وعصيتُ سلطان الهوى وأطعت سلطان العَفافِ

وقال ابن الأبّار أيضا :

ومعرّض بالغصن فى حركاتِه تسَلُ القلوب العفوَ من لحظاتِه
عاطيتُه كأساً كأنّ سُلافَها مِنْ ريقِه المعسول أو وَجَنَاتِه
وأطعتُ سلطان العفاف تكرّماً والمرء مجبـــول على عاداته

(١) ديوانه ١ : ٣٨

رفع المسهم

وقال الشريف الرضيّ فأحسن :

بِتْنَا ضجيعيْن فى ثوبىْ هوًى وتُقًى ... يلفّنَا الشَّوقُ من فَرْقٍ إلى قَدَمِ[1]

وبات بارق ذاك الثَّغرِ يوضح لِى ... مواقعَ اللَّثْمِ فى داجٍ من الظُّلَمِ

وباتت الرِّيحُ كالغَيْرَى تجاذبُنَا ... على الكثيب فضولَ الرّيطِ واللِّمَمِ

وأكتم الصبح عنها وهى غافلة ... حتّى تكلّم عصفورٌ على عَلَمِ

فقمت أنفضُ بُرْداً ما تعلّقه ... غيرُ العَفافِ وراءَ الْغَيْبِ والكَرَمِ

وقال ابن فرج الجيانىّ :

وطائعةِ الوصال صددتُ عنها ... وما الشَّيطان فيها بالمُطَاعِ

بدت باللَّيل سافرةً فباتت ... دَياجى اللَّيْلِ سافِرَةَ القِناعِ

وما من لحظة إلاّ وفيها ... إلى فتن القلوب لَنَا دَوَاعِ

فملّكتُ الهوى جَمحات شوقٍ ... لأجرىَ فى العَفَاف على طِبَاعِى

كذاكَ الرَّوضُ ما فيهِ لمثلى ... سوى نظرٍ وشمّ من مَتَاعِ

ولستُ من السّوائم مهملات ... فأتخذ الرِّياضَ من المراعِى

وقال أيضا فأحسن :

بأيِّهما أنا فى الشكر بادى ... أشكر الطيف أم شكر الرُّقَادِ

سَرىَ لى فازْدَهى أملى، ولكنْ ... عففتُ فلم أَنَلْ مِنْهُ مرادى

وما فى النوم من حَرَج ولكنْ ... جريتُ من العفاف على اعتيادِ

كأنّه لما عفّ فى اليقَظة جرى على عادته فى النوم ، وهذا من قول أبى الطيب :

يردُّ يداً عن ثوبها وهو قادر ... ويعصِى الهوى فى طَيْفِها وهو رَاقِدُ

---

(١) ديوانه ٢٧٣

رفع المسهم

وهذا أملك شهوة من التّهامى ، وإن كان قد أحسن حيث يقول :

إنّى لأصرفُ طَرْفى عن محاسِنِها تكرّماوأ كفّ الكفّ عن لَمَمِ[1]
ولا أهمّ ولى نفسٌ تنازِعُنِي أستغفر الله إلاّ ساعة الحُلُمِ

وقال ابن طباطبا :

يقظانُهُ ومنامُه شَرَعٌ كلٌّ بكل منه مشتبهُ
إن همّ فى حُلْمٍ بفاحشةٍ زجرتْهُ عفّتُه فينتبِهُ

أخذه السّرىّ[2] ، فكتب إلى صديق له ، وكان اتّهمه بغلام بعثه إليه :

أبا بكرٍ أسأت الظنّ فيمنْ سجيتُهُ التمنُّع والخِلاَفُ
وخفتَ عليه فى الخلَوَاتِ منّى ولم يكُ بيننا حالٌ تُخافُ
جفوتُ من الصِّبا ماليس يُجْفَى وعفت من الهوى مالا يعافُ
فلو أنى هَمَمْتُ بقبح فعلٍ لدى الإغفاء أيقظنى العَفَافُ

قوله : «جُلْ» ، تصرّف . المِحَال : المكر . لُذْ : تعلّق وتستر . المُحَال : الباطل ، وما لا يمكن ثبوته . ودع ما يقال ، أى لا تلتفت إلى مَنْ ينقصك باتّباع لذّاتك ، وخذ ما يوافقك ويصلح بك .

وهذا رأى من اشتهر بالمجون كالحسَن فى قوله :

دَعْ عنك ما جدّوا به وتبطّلِ وإذا لقيت أخا الحقيقة فاهْزِلِ[4]
لا تركبنّ من الذنوب خسيسَها واعمد إذا قاربتها للأنبلِ
وخطيئة تغلو على مُستَامِها يأتيك آخرها بطعم الأوّلِ

(١) هو السرى الرفاء ديوانه ٢ .
(٢) ديوانه ١٨٣

حَلّاتُ لاحرجٌ عليّ حرامَهـــا ولربّما حلّلت غـــير مُحلَّلِ

وقال ابن وكيع :

لا تقبلنّ من الرشيد كلامَهُ وإذا دعاك أخو الغواية فاقْبَـلِ[1]
ودعِ الترهّب والتجمُّل للورَى فالعيش ليس يطيب للمتجمِّل

وقال أيضاً :

فارقتُ بعدك عِفّتي ووقاري وخلعت في طرق الجنون عِذاري[2]
لا تأمرنّي بالتستّر في الهوى فالعيشُ أجمع في ركوب العارِ
لا تكثرنّ عَليّ إن أخا الحِجَا بَرِمٌ بقرب الصاحب المكثار

قوله : « أباك » ، أي تمنّع منك. سنح: تيسّر، يقال : سنح الشيء سنوحاً ، إذا تيسر. صافِ الخليل ، أي أخلص الودّ لصاحب . ناف : باعد . أوْلِ الجميل: ألصق المعروف بمن يستحقّه ، وقد أولاني فلان المعروف : ألصقه بي، وجعله بينه وبيني . وقيل معنى «أوْلاني» مَلّكني، من قولهم : هذا ولىّ المرأة ، أي مالك أمرها . وقيل : معناه عضدني به وقوّاني ، من قولهم : بنو فلان ولاة على بني فلان، أي يُعينونهم ويعضّدونهم ، وقيل : أوْلاني : أنعم عليّ من الألاء ، وهي النِّعم ؛ واحدها إلْىٌ وألْىٌ، والأصل وِلْىٌ ووَلْىٌ ، أبدل من الواو المكسورة همزة ، على حدّ « إسادة » ، وأبدل من الواو المفتوحة همزة على حد أحَد وامرأة أناة . والِ المِنَح : تابع العطايا . أمام الذّهاب: قدّام الموت ، يقول: إذا شخت وأيقنت الموت ، فاضرب باب التوبة ، فإنه يُفْتَح لك إذ كلّ كريم بابُه يفتـح .

---

(١) اليتيمة ١ : ٣٤٢ (٢) اليتيمة ١ : ٣٣٤ .
(٣) اليتيمة : « الهذاير » .

رفع المسهم

ابن عباس، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :«إن المصلىَ يقرع بابَ الملك ، وإنه مَنْ يداوم قرع الباب يوشك أن يفتح له » ، والله تعالى أكرم الكرماء، وبابه باب التوبة . وقال الأليبرىّ :

فلازم قَرْعَ باب التوب دأبًا فإنّ لزومه سبب الدخولِ[1]

* * *

فقلتُ لهُ : بَخٍ بَخٍ لِرِوَايَتِكَ ، وَأُفٍّ وتُفٍّ لِغَوايتِكَ ، فباللهِ مِنْ أىّ الأعْياصِ عَيصُكَ ، فقَد أَفْضَنِى عَوِيصُكَ ؟ فقالَ: مَا أُحِبُّ أنْ أَفْصِحَ عَنى ، وَلَكِنْ سَأَكنِّى ..

أنَا أَطْرُوفةُ الزّما نِ وَأُعْجُوبةُ الأُمَمْ
وَأَنا الْحُوّل الَّذى احْـــتَالَ فى العُرْبِ وَالْعَجَمْ
غَير أنِّى ابنُ حاجَـةٍ هَاضهُ الدَّهْرُ فاهْتَضَمْ
وَأَبُو صِبْيةٍ بَدَوْا مِثْلَ لَحْمٍ عَلَى وَضَمْ
وَأَخُو الْعَيـلَةِ المُعْـــيِلُ إذَا احْتالَ لَمْ يُلَمْ

* * *

قوله :« بخٍ بخٍ » ، أى عجب عجب وتُثقّل وتخفّف ، وهى كلمة تقال عند الإعجاب بالشىء .

أفّ وتُفّ ، الأصمعى : الأفّ وَسَخ الآذان ، والتُّف : وسخ الأظفار ، ثم استعمل ذلك عند كلّ شىء يُضجَر منه .

---

(١) ديوانه ١٤ .

وقال غيره : الأفّ : القلّة ، مأخوذ من الأفَفَ وهو القلة ثم نُسِق التُّف عليه ، ومعناه كمعناه ، ويقال: لمن يُدْعَى عليه بالخيبة : أفّ وتُفّ لك . وقال ابن الأنبارى : إذا أفردت أفّ ، ففيها عشرة أوجه : فتح الفاء ، وكسرها وضمّها على قياس مُدّ ؛ وثلاثتُها بالتّنوين على قياس وَيْل ، فنصبه على الدّعاء ، ورفعه بالابتداء ، وخفضه على التشبيه بالأصوات كمَهْ وصهْ ، وأفْ كقد ، وأُفٍ بضم الهمزة منصوب على الدعاء ، وأفى بإضافته إلى نفسه ، وأف بضم الهمزة وسكون الفاء تشبيهاً بالأدوات ، نحو : هل وبل .

غوايتك : ضلالتك . الأعياص : الأصول ، والعِيص : بيت الأسد ، يريد: مِنْ أىّ القبائل والبلاد . أعضلنى: صعُب عَلَىّ . عَويصك: صعْب أمرك ومشكله . أفصح: أبين . أكنى أورّى ، أى أدلّ على نفسى بكلامٍ خفىّ . أطروفة : غريبة . الحوّل : الكثير الحيلة . هاضه : كسره . اهتضم : ظلم ونقص . الوضَم : خشبة الجزار التى يقطع عليها اللحم . والعَيْلة : الفقر ، وعال الرّجل يَعِيل عِيلة ، إذا افتقر ، قال الله تعالى : ﴿ وإن خِفْتُم عَيْلة ﴾ .

وقال الشاعر :

وما يدرِى الفقير مَتَى غناه وما يدرى الغنىّ مَتَى يَعِيلُ

والمُعِيل: الكثير العيال ، وقد أعال يُعيل .

* * *

[مما قيل فى الخضاب]

قوله: «الريب» ، أى لريبة . مسوّدوجه الشيب ، نبّه به على قوله فى أوّل المقامة :«مِيسمه ميسم الشبان» يريد أنّه خَضَب شيبه وتشبّه بالفتيان ، والخضاب مباح والتدليس مكروه . قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « غيّروا هذا الشيب».

رفع المسهم

وكان أبو بكر رضى الله عنه يخضب بالحناء والكتم ، وجاء النهى عن الخضاب بالسواد . وروى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يكون فى آخر الزمان قوم يخضبون بهذا السّواد كحواصل الحمام ، لا يريحون رائحة الجنة » .

ومن كلام المولدين : الخضاب تذكرة الشباب .

الخضاب أحد الشبابَيْن.

وقال مالك بن أسماء بن خارجة لجاريه له : قومى اخضبى رأسى ولحيتى ، فقالت : دعنى ، فقد عيبت مما أرقّمك ، فقال :

عَيَّرْتنى خَلَقاً أبلَيتُ جِدّتَهُ وهل رأيتِ جديداً لم يَعُدْ خَلَقاً !

وقال آخر :

أليس عندك شكرٌ للّتى جعلت
ما ابيضّ من قادِماتِ الرَّأْسِ كالحَمَمِ
وجدّدتْ منك ما قد كان أخلقه طولُ الزمان وصرف الدَّهْرِ والقِدَمِ

وقال آخر :

وقائلةٍ تقولُ وقد رأتْنِى ترقّع عارِضَاىَ من القَتِيرِ
عليك الخضْب علّك أن تُدَانِى إلى بيضٍ ترى منهنّ حُورِ
فقلت لها : المشيبُ نذير عُمْرِى ولستُ مسوّداً وجه النّذيرِ

وقال عبدان الأصبهانى :

فى مشيبى شماتةٌ لِعِدَاتِى وهو ناعٍ منغّصٌ لحياتِى

ويعيبُ الخِضَابَ قومٌ وفيهِ ... لِي أُنْسٍ إلى حضور وَفَاتِي
لا ومَنْ يعلم السَّرائر منِّى ... ما تطلَّبْتُ خَلّة الغانياتِ
إنما رُمْت أن يغيَّبَ عنِّى ... ما ترينيه كلّ يوم مراتِى
هو ناعٍ إلىّ نفسى ومَنْ ذا ... سرّه أن يرى وجوه النّعاةِ !

وقال آخر :

بكرت تحسِّنُ لى سَوَادَ خِضابِى ... لو كان ذاك يعيدُنِى لشبابِى
وإذا أديمُ الوَجْه أخلقه البِلَى ... لم يُنتفعْ فيه بحسْنِ خِضَابِ
ماذا الّذِى يبدى عليك خضابه ... وخلاف مايرضيك فى الأثوابِ !

وقال ابن عبد ربّه :

إذا فصل الخضاب بكىَ عليه ... ويفرح كلّما وصَلَ الخضابَا
كأنّ حمامةً بيْضَاء ظَلَّتْ ... تقاتل فى مفارِقِه غُرَابَا

وقال ابن الرومىّ :

يأيّها الرجل المسوّد شعرَه ... كيما يعدّ به من الشّبان
أقصرْ فلو سوّدت كلّ حمامة ... بيضاء ماعدّت من الغِرْيان

وأملح منه قول الآخر :

قالت خَضَبت الشَّيْبَ ثم أتيتنا ... تبْغِى لدينا بالخضاب وِدَادَا
فأجبتُها لم أختضبْ لكِ إنما ... شَيْبِى صَبَغْتُ على الشَّبَاب حِدَادَا

ومما أحسن ما قال ابن هانىء الأندلسىّ :

بنتم فلولا أن أغيرّ لمّتِى ... عبثاً وألقاكم عَلَىّ غضابَا[1]

(١) ديوانه ٥١

لخضبتُ شيباً في مفارق لِمّتي[1] ومحوتُ محو النَّفْسِ منه كِتَابَا[2]
وخضبتُ مبيضّ[3] الحداد عليكمُ لو أنَّني أجدُ البَيَاضَ خِضَابَا
وإذا أردتَ على المشيبِ وفادةً فاجعل مطيَّك دونَه الأحقَابَا
فلتأخذنَّ من الزَّمان حمامةً ولتدفعنَّ إلى الزَّمان غُرَابَا

* * *

قال الرَّاوي: فعَرَفتُ حينئذٍ أنَّهُ أبو زَيْدٍ ذُو الرَّيْبِ وَالغَيْبِ، وَمُسَوِّدَ وَجْهِ الشَّيْبِ، وَسَاءَنِي عُظْمُ تمرُّدِه، وَقُبحُ تورُّدِه، فقُلتُ لهُ بلِسَانِ الأَنَفَةِ، وَإِدْلالِ المَعْرِفَةِ: أَلَمْ يأنِ لكَ يَاشَيْخَنَا أَنْ تُقْلِعَ عَنِ اتِّلْنَا! فتَضَجَّرَ وَزَمْجَرَ، وَتنكَّرَ وَفكَّرَ، ثمَّ قال: إنَّهَا لَيْلَةُ مِرَاحٍ لا تلاحٍ، وَنُهزَةُ شُرْبِ رَاحٍ لا كِفَاحٍ. فعَدَّ عَمَّا بدا، إلى أنْ نتلاقى غَدا، ففارَقتُهُ فَرَقاً مِنْ عَرْبدَتِه، لأتعلَّقَا بعِدَتِهِ، وَبِتُّ لَيْلَتِي لابِساً حِدادَ النَّدَمِ، عَلَى نَقْلِي خُطَا القَدمِ، إلى ابنَةِ الكَرْمِ لا الكَرَمْ، وَعَاهَدتُ اللهَ سُبحَانه وَتعالَى ألاَّ أحْضُرَ بَعْدَهَا حَانَةَ نَبَّاذٍ، وَلَو أُعْطِيتُ مُلْكَ بَغْداذ، وَألاَّ أشْهَدَ مِعْصَرَةَ الشَّرَابِ، وَلَوْ رُدَّ عَلَيَّ عَصْرُ الشَّبَاب.

ثمَّ إنَّا رَحَّلْنَا العِيسَ، وَقْتَ التَّغْلِيسِ، وَخَلَّيْنَا بَينَ الشَّيْخَيْنِ وَإبْلِيسَ.

* * *

(١) الديوان: «في عذاري كاعبا».
(٢) الديوان: «شبابا».
(٣) الديوان: «مسود».

قوله : « تمرده » ، تشيطنه ، وتمرّد إذا كثر شرّه ، والمَريد : الخبيث الذى لا يطاق مكره تورّده : إتيانه بما لا يحلّ ، وأصل التورّد قصد الماء. الأنفَه : الغضب. يأْنِ : يحين ويقرب . الخنا : الفساد . تضجّر . اشتدّ غضبه . زمجر : تكلّم بما لا يفهم . تنكّر : تغيّر علىّ ، ونكّر نفسه كأنّه لا يعرفنى . مِراح : طرب ونشاط . تلاح : مشاتمة . نُهْزة : فرصة وغنيمة . كفاح : قتال . فَعَدّ : اصرف واترك . فَرَقاً : فزعاً . عَرْبدته : شرّه وشغبه . الحداد : ثياب الحزن . الخُطاَ : جمع خَطْوة ، وهى ما بين القدمين . نبّاذ : خمّار . عَصْر : زمان . رحّلنا العيس : جعلنا على الإبل رحالها . التغليس : الخروج فى الغَلَس ، وهى الظلمة التى بين طلوع الفجر والشمس .

وأظن أنه بنى هذه المقامة على حكاية لأبى دلامة ، حكى الأصبهانى[1] أنّ موسى بن داود الهاشمىّ[2] عزم على الحج ، فقال لأبى دلامة : احْجُجْ معى ولك عشرة آلاف درهم ، فقال : هاتها ، فدفعها إليه ، فأخذها وهرب إلى السواد ، وجعل ينفقها هنالك فى شرب الخمر ، فطلبه موسى فلم يقدِرْ عليه ، وخشىَ فَوْتَ الحجّ ، وخرج . فلمّا شارف القادسية إذا هو بأبى دلامة خارج من قَرْية إلى أخرى وهو سكران ، فأمر بأخذه وتقييده ، وطُرِح فى محمل بين يديه ، فلما سار غير بعيدٍ أقبل على موسى ونادى :

يأيّها النّاس قولوا أجمعون معاً : صلّى الإله على موسى بن داودِ
كأنّ ديباجَتَىْ خدّيه من ذهبٍ إذا بدا لك فى أثوابه السُّودِ
إنى أعـــوذ بداودٍ وأعظُمِه من أن أكلّف حَجّا يابْنَ دَاوُدِ
خُبِّرت أن طريق الحج معطشةٌ من الشّراب وما شربى بتصْريدِ[3]
والله مافىّ من أجرٍ فتطلبـــه ولا الثناء على دينى بمحمودِ

(١) الأغانى ١٠ : ٢٤٦ .
(٢) هو ابن عم أبى العباس السفاح ، وكان واليا على المدينة .
(٣) صرد شربه : قطعه .

فقال موسى : ألقوه عن المحمل ، لعنه الله ، فألقِيَ وعاد إلى موضعه بالسَّواد حتى أنفق المال .

وقال آخر :

ألم ترنى وبشاراً حَجَجْنَا ... وكان الحجُّ من خير التِّجَارَهْ
خرجنا طالبيْ سفرٍ بعيدٍ ... فمال بنا الطريق إلى زُرَارَهْ
فآب النَّاس قد حجوا وبرُّوا ... وأبنا موقَرِين من الخسارَهْ

وقال أبو نواس فى الحج :

وقائل: هلْ تريد الحجّ قلت له : ... نعم ، إذا فَنِيْتَ لذّاتُ بغدادِ
وكيف بالحجّ لى مادمتُ منْغَمِساً ... فى بَيْتِ قوّادة أو بيت نبَّاذِ !

قوله : « وخلينا بين الشيخين أبى زيد وإبليس » من قول الحسن :

بتُّ وإبليس إلى الصبح فى ... كلٍّ الذى يؤثمنى خَصْمى

وانظر هذا فى الثامنة والأربعين ، والله أعلم .

رفع المسهم

المقامة الثالثة عشرة وتعرف بالبغدادية

حدَّث الحارث بن همام ، قالَ : ندَوْتُ بِضَواحى الزَّوراء ، مَع مشيخَةٍ مِنَ الشُّعَراء ، لا يعْلَقُ لَهُمْ مبارٍ بغبارٍ ، وَلا يجرى معَهُمْ مِمارٍ فِي مِضْمارٍ ، فأفَضْنا فى حَدِيثٍ يَفضَحُ الأَزْهارَ ، إلى أن نَصَفنا النَّهار . فلَمَّا غَاضَ دَرُّ الأَفكار ، وَصَبَت النُّفُوسُ إلى الأَوكار ، لَحَظنَا عَجُوزًا تُقْبِلُ مِنَ الْبُعْدِ ، وَتحضِرُ إِحْضَارَ الْجُرْدِ ، وَقَدِ اسْتَتْلَتْ صِبْيةً أنْحَفَ مِنَ المَغَازِلِ ، وأضعَفَ مِنَ الجَوَازِلِ ، فَمَا كَذَّبتْ إِذْ رَأَتْنَا ، أَنْ عَرَتْنا ، حَتَّى إِذَا مَا حضَرَتْنَا قَالَتْ :

* * *

ندوتُ ، أى خرجت ، ويقال: نَدَتِ الإبل تندّ وإذا خرجت من المشرب ترعى فيما قرب منه ، وهو الذى قصد ، لأنه أراد أنه خرج مع أصحابه خارجَ البلد يستريحون ثم يرجعون . والضّواحى : المواضع البارزة للشمس .

* * *

[الزوراء]

والزوراء، هى فى الجانب الشرقىّ من بغداد، وسمِّيت زوراء لازورار قبلتها، أى لانحرافها . وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « تكون مدينة بين الفرات ودجلة يكون فيها مُلْك

بنى العباس ، وهى الزّوراء يكون فيها حرب مُفظِعة تُسْبَى فيها النساء ، وتُذْبَح فيها الرجال كما يُذبح الغنم » .

والزّوراء هى بغداد ، ويقال لها الزّوراء ، ومدينة السلام ، ومدينة المنصور ، وبغداد وبغداذ وبغدان وبغذان وبغدام وبغذام وبغذاد ـ عن الفراء .

وبعضهم يقول : تفسيره بستان رجل ، فبَغْ بستان ، ودَاد رجل . وقيل: بَغْ صنم ، وداد عطيَّة وإنما اختلفت العرب فى لفظها إذلم تكن من كلامها ، ولا اشتقاق لها من لغتها ، وأشهر لغاتها بغداد ، بدالين وبغدان ، بالنون . وكان الأصمعىّ رحمه الله لا يقول بغداد ، وإنما يقول مدينة السلام ، لأنّ بغ عندهم اسم صنم ، وداد عطيَّة بالفارسية فكأنها عطيَّة الصنم . وبناها المنصور ، وبعث رجالا يطلبون له موضعاً يبنى فيه مدينة ، فطلبوا فلم يجدوا ، حتى جاء ينزل فنزل على البرّ الذى فى الصَّراة ، فقال : هذا موضع أرضاه ، تأتيه الميرة من الفُرات ودِجْلة والصّراة ، فوجَّه حينئذ الصنَّاع من الشأم والموْصِل والكوفة وواسط والبصرة ، فابتدئت سنة خمس وأربعين ومائة .

وقال محمد بن أبى سهل : لمّا أراد المنصور بناء بغداد ، أمرنى أن آخذ الطالع ، فأخذنا طالعها ، فكان المشترى ، فأخبرته بما تدلّ عليه النجوم من طول بِنائها وكثرة عمارتها ، ثم قلت : وخَلَّةٌ أخرى يا أمير المؤمنين ، نجدها على ما تدلُّ عليه النجوم ... لا يموت فيها خَليفة ، فرأيته يتبسَّم ، وقال : الحمد لله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وقيل لرجل : كيف رأيت بغداد ؟ فقال : الأرض كلُّها بادية وبغداد حاضرتها .

ابن جبير[1] : بغداد هى المدينة العتيقة ، ولم تزل حَضْرة الخلافة العباسيَّة

(١) رحلة ابن جبير ١١٦ ، مع تصرف واختصار .

رفع المسهم

وقد ذهب رسمها[١] ووسمُها ، وهى بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل إنحاء الحوادث عليها ، والتفات أعين النوائب إليها كالطَّلَلِ الدّارس، والأثر الطّامس، أو تمثال[٢] الخيال الشّاخص ، فلا حسن فيها يستوقف البَصر ، ويستدنى من المستوفز الغَفْلة والنَّظَر، إلا دجلتها التى بين الشرقيَّة والغربيَّة منها كالمرآة المجلوَّة بين صفحتين ، أو العقد[٣] المنتظم بلبَّتين، فهى تردها فلا تظمأ، وتطلع [منها][٤] فى مرآة صقيلة فلا تصدأ . والهواء المنتظم يتولّد بين هوائها ومائها ، فهى معروفة بفتن الهوى ، إلا أن يَعْصِم الله منها . وكنّا سمعنا أنّ هواء بغداد يُنبت السرور فى النَّفس ، ويبعث دائماً على الانبساط والأنس ، فلا تكاد تجد فيها إلا جذلان ظرباً ، وإنْ كان نازح الدار مغتربا ، حتى حللت بقرية وزيران ، وهى على مرحلة منها ، فلما نفحتنا نوافح هوائها ، ونقعنا الغلة ببرد مائها ، أحسسْنا من أنفسنا على حال وحشةِ الانفراد دواعَى من الإطراب ، واستشعرنا بواعث فرح كأنه فرحه المُنيَّاب بالإياب ، وهفت بنا محركات من الأنس ذكّرتْنا معاهدَ الأحباب فى عصر الشباب ، هذا للغريب النازح الوطن ، فكيف الوافد فيها على أهل وسكن !

سَقَى الله بابَ الطّاق صَوْب غمامةٍ ورَدّ إلى الأوطان كلَّ غريبِ

وبغداد جانبان : شرقىّ وغربىّ ودجلة بينهما . فأما الجانب الغربىّ فقد عمّه الخراب ، واستولَى عليه ، وهو كان المعمور أولاً ، ولكنّه مع خرابه يحتوى على سبع عشرةَ مَحَلَّه ، كلّ واحدة منها مدينة مستقلّة ، لها الحمّامان والثلاثة ، وصلاة

(١) ابن جبير « ولم يبق إلا شهير رسمها » .
(٢) ط : « المثال » وما أثبته من ا وابن جبير .
(٣) ط : « والعقد » وما أثبته من ا وابن جبير .
(٤) من ابن جبير .

رفع المسهم

الجمعه فى ثمان منها ، وأكبرها القُرَيّة ، وهى على شطّ دِجْلة ومقربة من الجسر ، ثم الكَرْخ ، وهى مدينة مشهورة ، ثم مَحَلّة باب البصرة ، وهى مدينة بها جامع المنصور ، وهو كبير عتيق البُنْيان ، ثم الشارع وهى مدينة ، وهذه الأربع أكبر المحلّات ، والوسيطة بين دِجْلة وبين نهرٍ يتفرّع من الفرات ، وينصبّ فى دجلة ، يجىء فيها جميعُ المدائن التى يسبقها الفرات . وعلى بابها نهر آخر منه ينصبّ فى دِجْلة .

ومنها العتّابية ، وهى مدينة يصنع فيها الثّياب العتّابية ، وهى حرير وقطن مختلفات الألوان ، وأسماء سائر المحلّات يطول ذكرها ، وأمّا الشرقيّة فهى محدثة وهى حفيلة الأسوار ، عظيمة الترتيب ، تشمل من الخَلْق على بشر كثير لا يحصيهم ، إلا الذى أحصَى كلّ شىء عددا . وبالشرقىّ محلة الرُّصافة ، وبها كان بابُ الطّاق المشهور على الشطّ ، وبازائها مَحَلّة كبيرة تعرف بقبر أبى حنيفة رحمه الله ، فيها قُبّة سامية فى الهواء بيضاء ، فيها قبر الإمام أبى حنيفة ، وبالقرب منها قبر الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله .

وحمّامات بغداد لا تُحصى ، أخبرنى بعض أشياخها ، أن فيها اليوم ألفى حمّام ، وأكثرُها مطليّة بالقار ، مسطّحة به ، فيخيّل للناظر فيها أنها رخام أسود صقيل ، وأكثر حمامات هذه الجهة على هذه الصفة ، لكثرة القار عندهم ، وشأنه عجيب ، لأنّه مَنْبَع عين بين البصرة والكوفة ، يصير القار فى جوانبها كالصّلصال ، فيجرف ويجلب ، وقد انعقد فسبحان خالقه !

وببغداد من المدارس نحو الثلاثين ، ما منها مدرسة إلاّ كالقصر العظيم ، وأعظمها النظاميّة . وبساتين بغداد وحدائقها بالغربيّه ، ومنها تجلب الفواكه للشرقيّة ، والعادة أبداً أن يكون بين الشرقيّة والغربية جسران لجواز النّاس ، ومع ذلك فمن يعبر بينهما من النّاس فى الزوارق لا يحصَى ، وذلك لكثرة النّاس ،

(١) القرية ذكرها ياقوت ، وقال : محله ببغداد .

رفع المسهم

وزوارقها لا تحصى ، والنّاس ليلاً ونهاراً من معاينة العبور فيها فى نزهة متصلة رجالا ونساء .

وبالجملة فشأن هذه البلدة أعظم من أن يُوصف ، وأين هى اليوم مما كانت عليه ! هى اليوم داخلة تحت قول حبيب :

* لا أنتِ أنتِ ولا الدّيارُ دِيارُ[1] *

ثم ذكر ابن جبير أهلَها فذمّهم بكلّ عيب ؛ من الكبرياء وبيع الربا ، ثم استثنى فقهاءها ووعاظها .

* * *

[وصف الشعراء]

قوله: « مع مشيخه من الشعراء » ، قال الخليل فى مدح الشُّعراء : هم أمراء الكلام يصرِّفونه أنّى شاءوا وجائز لهم مالا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى ، وتقييده ومدّ مقصوره وقصر ممدوده ، والجمع بين لغاته والتّفريق بين صفاته.

وسئل غيرهم عنهم ، فقال : ما ظنُّك بقومٍ الاقتصاد محمود إلا منهم ، والكذب مذموم إلا بينهم !

وقال آخر: إيّاكم والشاعر ، فإنه يطلب على الكذب مثوبة ، ويقرع جليسه بأدنى كلمه .

وقال بعض الظرفاء يذمهم :

الكلْبُ والشاعر فى رتبةٍ ... ياليت أنى لم أكُنْ شاعرَا!
هل هو إلا باسِطٌ كفّه ... يستمطر الوارِدَ والصادِرَا
والله لولا حُرُقاتُ الهوى ... ما كنتُ إلا رَجُلاً تاجِرَا

وقال ابن الرومىّ :

يقولونَ مالا يفعلون مسبّةً ... من الله مسبوبٌ بها الشعراء

(١) ديوانه ١٤٤ ، وبقية :

* خَفَّ الْهَوَى وتونّتِ الأوطارُ *

وقال أيضاً :

للناس فيما يكلفُون مغارمٌ عند الكرام لها قضاء ذمام
ومغارم الشعراء فى أشعارهمْ إنفاق أعمارٍ وهَجْرُ منامِ
وجفاء لذاتٍ ، وهجر مكاسبٍ لوخولفت حُرِسَتْ من الإعدامِ
وتشاغُلٌ عن ذكر ربٍّ لم يزل حسنَ الصنائع ، سابغَ الإنعامِ

قوله : « مبارِ » ، أى معارض . مضمار : طلَق . ممارٍ : مجادل . أفضنا : اندفعنا . يفضح : يكشف عيوبها . شبّه الجماعات فى الآداب بالخيل الجِياد فى الطَّلَق لايلحق غبارَهَا مَنْ يجاريها ، وجعل حديثهم بحسن تفنّنه يفضح الأزهار متى قرن بها .

* * *

[مجلس للشعراء]

ونجعل تفسيراً لهذا المجلس الموصوف باجتماع الشعراء ماحدث به دِعْبل[1] أنه اجتمع هو ومسلم بن الوليد وأبو الشِّيص وأبو نُوَاس، وهؤلاء مشيخة شعراء عصرهم ، فقال لهم أبو نواس: إنّ مجلسنا هذا قد اشتهر باجتماعنا فيه، ولهذا اليوم مابعده فلْيأتِ كلُّ امرئ منكم بأحسن ما قال فلينشده، فأنشد أبو الشِّيص :

وَقَفَ الهوى بى حيثُ أنتِ فليس لِى متأخَّرٌ عنـــه ولا متقدَّمُ
أجدُ الملامةَ فى هواكِ لذيذةً حُبًّا لذكْرِكِ فَلْيَلُمْنِى اللَّوَّمُ
أشبهتِ أعدائى، فصرت أحبُّهمْ إذ كان حظِّى منكِ حظِّى منهمُ
وأهنتِنِى فأهنتُ نفسى صاغرًا ماممَّنْ يهونُ عليكِ ممن يُكْرَمُ

فجعل أبو نواسَ يعجب من حسن الشعر ، حتى ما كاد ينقضى عجبه .

---

(١) العقد ٥ : ٣٧٣ .

رفع المسهم

ثم أنشد مسلم أبياتاً منها :

فأقسم أنسى الدَّاعيات إلى الصِّبا ... فقد خأنها العين والستر واقعُ[1]
فغطَّت بأيديها ثمارَ نحورِها ... كأيدى الأُسَارَى أثقلتْها الجوامعُ

قال دعبل : فقال لى أبو نواس : هات أبا علىٍّ وكأنى بك قد جئت بأمّ القلادة .. لاتعجى ياسلم ، فأنشدته :

أين الشبابُ وأيَّةً سلَكَا ... أمْ أينَ يُطلب؛ ضلَّ أم هَلَكا[2]
لاتعجبى ياسَلْمَ من رجلٍ ... ضَحِكَ المشيبُ برأسه فبكَى
ياليت شعرى كيف صبرُكما ... ياصاحبىَّ إذا دمى سُفِكَا[3]
لا تطلبا بظُلامتى أحداً ... قلبى وطَرْفِى فى دمِى اشْتَرَكَا

ثم سألناه أن ينشدنا فأنشد :

لاتَبْكِ لَيْلَى ولاترْكنْ إلى هِنْدِ
واشْرَبْ على الوَرْدِ من حمراء كالوَرْدِ[4]
كأساً إذا انحدرتْ فى حَلْقِ شاربها ... وجدْتَ حُمْرَتَها فى العين والخدِّ
فالخمرُ ياقوتةٌ ، والكأس لؤلؤة ... فى كفِّ جاريةٍ ممشوقة القدِّ

---

(١) ديوانه ٢٧٣ ، وفيه : « فأقسمت أنسى » .
(٢) ديوانه : ١١٧
(٣) بعده فى الديوان .

ياسَلْمِ ما بالشَّيبِ منقصةٌ ... لاسوقةٌ يُبْقِى ولا مَلِكَا
قَصَرَ الغوايةَ عن هَوَى قمرٍ ... وجَدَ السَّبيلَ إليه مُشْتَرِكَا
وغَدَا بأخرى عن تَطَلُّبِها ... صبًّا يُطامِنْ دونها الحَسَكَا

رفع المسهم

تَسقيكَ من عَينها خمرًا ومن يَدِها
خَمْرًا ، فما لك من سُكْرَيْن من بُدِّ
لى سكرتان وللنّدمان واحـــدةٌ
شيء خُصِصْت به من بينهم وَحْدِى

فلما بلَغ هذا البيت، قاموا فسجدوا له ، فقال: أفعلتموها ! والله لا أكلمكم ثلاثاً ولا ثلاثاً ولا ثلاثاً ! ثم قال : تسعة فى هجر الإخوان كثير ، وفى بعضها استصلاح للفاسد ، وعقوبة على الهفوة . ثم التفت إلينا وقال : أعلمتم أن حكيما عَتب على حكيم ، فكتب المعتوبُ عليه إلى العاتب: يا أخِى ، إن أيام العمر أقلُّ من تحمّل الهجر ، نظمَ ذلك الشاعر فقال :

العمرُ أقصرُ مدةً من أن يحقَّ بالعتابِ
أو أن يكدّر ماصفا منه بهجرٍ واجتناب

وقال ابن طاهر :

إلى كَمْ يكون الصَّدُّ فى كلِّ ساعةٍ ولمْ لا تملّين القطيعةَ والهجرا !
رويدكِ إنَّ الدَّهرَ فيـــه بقيةٌ لتفريق ذاتِ البين فانتظرى الدهرا

وقال آخر :

ولقد علمت فلا تكن متجنيًا أن الصدود هو الفراقُ الأوّلُ
حَسْبُ الأحبَّة أن يفرِّق بينهم ريبُ الزمان فما لنا نستعجل !

وقال القاضى عبد الوهاب :

لا تتعجّل قطيعتى فكفى يوماً بذا الدّهر بيننا مقطع[1]

عمًّا قريبٍ تجيء فُرقتنا ثمَّت لا مُلتقًى ولا مجمَعْ

وأخذه الكل من جميل :[1]

ولعلَّ أيامَ الحياة قليلةٌ فعلامَ يكثر عَتْبُنا ويطُولُ !

قوله: « نصفنا » ، أى بلغنا نصفه . غاض : جَفَّ . درّ الأفكار: كلامها ، والدّرّ :اللّبن ، استعارة لما يتولد من الذهن . صبَتْ : مالت . الأوكار: البيوت هنا . لحنا : أبصرنا . تُخْضِر: تجرى . الجُرْد : الخيل القصيرة الشعر . استتلتْ : جعلتْهم تِلْوَها يتبعونها . أنحف : أقلّ لحمًا . الجوازل : فراخ الحمام ، واحدها جَوْزل . عرْتنا : قصدتنا .

* * *

حَيَّا اللهُ المَعارِفَ ، وَإن لم يَكُنَّ معارِف ؛ اعْلمُوا يا مَآلَ الآمِلِ ، وَثِمالَ الأرَامِلِ ، أَنِّى مِن سرَوَاتِ القَبَائِل ، وَسَرِيَّاتِ العَقَائِلِ ، لَمْ يزَلْ أَهْلِى وَبَعْلِى يَحْلُونَ الصَّدْرَ ، وَيَسِيرُونَ القَلْبَ ، وَيُمطُونَ الظَّهْرَ ، وَيُولُونَ اليَدَ . فَلمَّا أَرْدَى الدَّهْرَ الأعْضادَ ، وَفَجَع بالجَوَارِحِ الأكْبادَ ، وانقلَبَ ظَهْرًا لِبطْنٍ ، نبَا النَّاظِرُ ، وَجَفَا الحَاجِبُ ، وذهَبَت العَيْنُ ، وَفُقِدَتِ الرَّاحةُ ، وَصَلَدَ الزَّنْدُ ، وَوَهَنَتِ الْيَمِنُ ، وَضاعَ اليَسَارُ ، وَبانَت المَرَافِقُ ، وَلم يَبْقَ لها ثنيّةٌ وَلاَ نابٌ ، فَمُذِ اغْبَرَّ العَيشُ الأخضَر ، وَازْوَرَّ المحبُوبُ

(١) البيت لسعيد بن حميد ، من قصيدة له فى زهر الآداب ٥٦٣ ، ٥٦٤ .

رفع المسهم

الأصْفَر ؛ وَاسْوَدَّ يومِي الأبيض ، وَابيَضّ فَوْدِي الأسْود ، حتَّى رَثَى لنَا العَدُوُّ الأزرَقُ ، فَحَبَّذَا المَوتُ الأحْمَر . وتِلْوِى مَنْ تَرَوْنَ عَيْنُه فُرَارُه ، وَتَرْجَمانُه اصْفِرَارُه ، قُصْوَى بُغْيةِ أَحَدِهِمْ ثِرْدَة ، وقُصَارَى أُمنِيَّتِه بُرْدَة . وكُنْتُ آلَيْتُ ألاَّ أبْذُلَ الحُرّ إلاّ لِلْحُرِّ ، وَلَوْ أنِّى مِتّ مِن الضُّرِّ . وقَدْ ناجَتنِي القَرُونَة ، بأن تُوجد عِندَكُم المَعونة ، وآذَنَتْنِي فِراسَةُ الحَوْباءِ ، بأنكُم ينابيعُ الحَبَاء ، فنضَّرَ اللهُ امرأً أبَرَّ قَسَمِي ، وَصَدَّقَ تَوَسُّمِي ، وَنظَرَ إلَىَّ بِعَيْنٍ يُقْذِيها الجُمُود ، وَيُقَذِّيها الجُود .

* * *

للعارف الأول : الوجوه ، واحدها معروف . قال الشاعر :

متلثّمين على معارِفِنا ثنى لهنّ حواشيَ العصب

وإن لم يكنّ معارف ، أى وإن كنت لا أعرفهم . مآل : مرجع ، وقد آل يؤل أوْلا ومآلا ، إذا رجع . والآمل : الراجى . وثِمال : غياث وملجأ . الأرامل : المساكين ، يعقوب : هنّ جماعة الرجال والنساء ، ويقال لهم : أرامل ، وإن لم يكن فيهم نساء . ويقال : جاءت أرْملة من رجال ونساء محتاجين ، ويقال للرجال الضعفاء المحتاجين : أرْملة ، وإن لم يكن فيهم نساء . وأرمل القوم : فَنِيَ زادهمْ ، وواحد الأرامل أرْمَل وأرْملة ، وإنما قيل للفاقدة زوجها : أرملة ، لأنّ أمرها يئول إلى الضيعة والحاجة . سَرَوَات : ساداتٍ ، واحدها سراة ، والسَّرِىُّ : السيِّد الكبير

ذو المروءة ، والسرو : المروءة ، وقد سرىَ سرواً وسَرُو سراوةً : جمع السخا والفضل ، قال امرؤ القيس :

* ولَهَا عليه سَرَاوَةُ الْفَضْلِ *[1]

وأنشد يعقوب :

إن السرىّ هو السرىُّ بنفسه وابن السرىّ إذا سرى أسْرَاهما[2]

قال ثعلب : السرىّ فى كلامهم : الرفيع ، مأخوذ من السَّرَاة ، وسراة كلّ شىء : أعلاه ، وسَرِيات : سيدات . العقائل : كرائم النساء ، تريد أن أباها وأمها من السَّادات . البعل : الزوج ، وبعل الرجل بُعُولة : تزوّج . الصدر : مقدّم المجلس . القلب : قلب العسكر ، والعسكر خمسة أقسام : مقدّمة ، وساقة ، وميمنة ، وميسرة ، وقَلْب ، وهو محلّ الملوك ، أرادت أن قرابتها منهم . يُمْطُون : يهبُون . الظَّهر : الإبل بأوقارها ، وأمطاه : أعطاه دابة يركب مطاها ، أى ظهرها . يُولُون اليَد : يهبون النعمة . أردى : أهلك . الأعضاد : جمع عَضُد وهو غليظ الذراع الذى بين المرفق والمنكب . فجع : أحزن ، وجاء بفجيعة ، وهى الرزيّة يتفجّع عليها الجوارح : عوامل الجسد كاليد والرجل والعين ، تريد أنّ الدهر إذا أهلك أهلَها فكأنه قطع جوارحَها فتعطّلت منفعتها . انقلب : تحوّل . ظهر البطن : كناية عن الخلاف ، أى بعد أن كان مستقيما انقلب . نبا : ارتفع ولم يستقرّ . الناظر : مَنْ ينظرُ عليها . الحاجب : من يحجبها ويسترها . والعين : الذهب . الراحة : الدّعة والسكون . صَلْد : لم يورنارا ، وأرادت انقطاع الخير عنها . وهنت : استرخت . اليمين : القوّة . بانت : ذهبت وبَعُدت . المرافق :

---

(١) ديوانه : ٢٣٨ ، وصدره :

* فَلَهَا مقلّدوها ومقلتها *

(٢) اللسان ـ سرى .

مَنْ كان يرتفق بحياته ومنفعته ، والمرافق : كلّ ما ارتفقتَ به من مال وغيره . ثنيّة : صغيرة من الإبل . وناب : مسنّة .

وهذا الكلام كلّه استعارة كما تقدم فى الإبرة والمرْود ، لكنّه كنى هنا بالجوارح والأعضاء عمّن كان يستعين به من القرابة على الدّهر ، ومعانى الأعضاء بيّنة إلا الراحة ، فإنها بطن الكفّ : والزند : طرف عظم الساعد ، والثنيّة والناب صريحتان ، ونبا الناظر : لم ينم ، وجفا الحاجب : لم يرسل الجفن على العين فتنام ، كما قال بشار :

نَبَتْ عينى عَنِ التغميض حَتّى كأنّ جفونها عنها قِصَارُ[1]

وقال التّهامىّ :

قَصُرَتْ جفونى أم تباعد بينَها أم صوّرت عينى بلا أشْفَارِ[2]

قوله : « أغبرّ » ، أى علته غُبرة . والأخضر : الناعم . أزورّ : انقبض . الأصفر ، هو الدينار . الفَوْد : ناحية الرأس بين الأذن والجبهة ، وهذا من قول أعرابىّ ذكر مصيبته فقال: مصيبة والله تركت سود الرءوس بيضاً ، وبيض الوجوه سوداً ، وهوّنت المصائب بعدها .

وقال عبد الله بن الزّبير الأسَدىّ :

رَمَى الحدثان نسوَة آل حرب بمقدارٍ سَمَدْن له سُمُودَا
فردّ شعورهنّ السُّود بيضاً وردّ وجوههنّ البيض سودَا

وقال التّهامى :

تُسَوِّدُ الشمس مِنّا بيض أوجهنَا ولا تسوّد بيض العذر واللِّمَمِ

---

(١) المختار من شعر بشار ٨ (٢) ديوانه : ٣٠

وكانَ حاكُما فى الحكم واحِدةً لو احتكمنا من الدُّنيا إلى حَكَمِ

قوله : « رنى » بكى وأشفق . العدوّ الأزرق : أراد الرّوم وهم أعداء العرب . والموت الأحمر : الشديد ، ومنه الحُسْنُ أحمر ، أى مَنْ أحبّ الحُسْن احتمل المشقة . وفى الحديث : كنّا إذا احمرّ البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن أحدٌ أقربَ إلى العدوّ منه ، فمعناه اشتدّ ، وقيل : معنى الموت الأحمر :القتل ، وقد قال الأخطل :

* أن قد أتيح لهنّ موتٌ أحمرُ *(١)

يريد قتل الثور الكلاب ، وتقدّم فى المقامة قبل هذه ، فلما فيه من الدم سُمّى أحمر ، وهو الأظهر من مقصد الحريرىّ ، لأنه علّق غيره من الصفات باللّون مثل العدوّ الأزرق ، والرّوم زرق العيون ، فكذلك الموت الأحمر .

أبو عبيدة : الموت الأحمر أن يتغيّر بَصَر الرجل من الهول ، فيرى الدنيا فى عينيه حمراء ورداء ، والموت الأغبر :هو الموت جوعاً،لأنه يغبرّ فى عينيه كلّ شىء، والموت الأسود هو الموت فى غُمّة الماء ، والموت الأبيض هو موت العافية، قال الخطابى : الموت الأبيض ، أى فجأة ، لأنه يأخذ الإنسان ببياض لونه .

قوله : « تِلْوِى» ، أى خَلْفى وإلى جانبى . عينه : شخصه . فُراره :معرفته ، أى شخصه يعرّفكم بحاله ، والعرب تقول:عينه فراره للشىء تعرفه إذا أبصرته ، والفرّ فى البهائم . كشف أسنانها حتى يعرف مالها من السنّ . ووقع فى المقامات فُراره بضم الفاء ، وكذا فى نوادر أبى علىّ ، ووقع فى النسخ العِتاق من الأمثال لأبى عبيد : فِراره ، بكسر الفاء ، وأنشد أبو على:

* هو الحبيب عينه فِرارهُ *

---

(١) ديوانه ٢٣١ ، وصدره :

* أضِمّا و هَزّ لَهُنّ رُمْحىْ رأسِهِ *

رفع المسهم

وفسره فقال : نظرك إليه يُغنيك عن فرّه لتخبُره ، وهما لغتان : فُرارِه وفِرارُه .

قوله : « ترجمانه » المتكلم عنه ، يريد أن صفرةَ لونِه تخبِّرك أنّه جائع . قُصوى : غاية . بُغية : طلب . وقصارى أمنيّته ، أى منتهى ما يتمنّاه وغايته . بُرْدة : ثوب ، أى أقصى ما يُطلب ما يأكل وغاية مايتمنّى ما يلبس. آليت : حَلَفت . أبذل الحرّ : أهين الخدّ ، الحرّ : الكثير المروءة : ناجتْنِي : حدّثنى . القَرُونة : النفس . المُونة : مايستعان به ، آذنتنى : أعلمتنى . فِراسة الحوْباء : فطْنة النفس . الينابيع : جمع يَنْبُوع ، وهو مايخرج من الماء وينبع . الحِبَاء : العطاء . أبرّ . راعى وأكرم . توسّمى : نظرى وظنّى . يُقذيها : يجعل فيها القذى ، والجمود : الشحّ .

وقال بعضهم فى ذم التشكّى إلى المخلوق :

لاأشتكى ضُرِّى إلى النّا س وهم مَنْ أعْلمُ
إن إلهًا مَرّ بالضُّرّ جـــوادٌ مُنْعِمُ
أشكو الّذى يرحمنى إلى الّذى لايَرْحَمُ

الكستجىّ ، قال : أملقتُ حتى لم يبق فى منزلى إلا جارية ، فدخلت دار المتوكل ، فلم أزل متفكّراً ، فحضرنى بيتان ، فأخذت قصَبةً ، وكتبت على الحائط الذى كنت إلى جانبه :

الرّزقُ مقسومٌ فأجمِلْ فى الطّلبْ يأتى بأسبابٍ ومِنْ غيرِ سَبَبْ
فاسترْزِقِ الله فنى الله غنًى الله خير لك من أبٍ حَدِبْ

فركب المتوكّل فى ذلك اليوم ، وجعل يطوف على الحجر ، ومعه الفتح ابن خاقان ، حتّى وقف على البيتين، وقال : مَنْ كتب هذا ؟ وقرأهما الفتح له ،

فاستحسنهما ، وقال : مَنْ كان فى هذه الحجرة ؟ فقيل : الكستجىّ ، فقال : أغفلنا وأسأنا إليه ، فأمر لى بِبِدْرتين .

وقال محمد بن مخلد الكاتب : لزمتُ أبا الحسن علىّ بن محمد بن الفرات . أغدو وأروح إلى بابه ، لا أحظى بطائلٍ ، ولا أصل إلى تصريف ولا نائل ، حتى كرهت نفسى ، فرأيت هاتفاً فى المنام يقولُ لى :

بأيُّهـــا المكثر فى المطالبِ : اهجرْ تصاريفَ المُنَى الكواذبِ
إذا أتى وقت القضاء الغالبِ بادرتِ الحاجة كف الطالبِ

فتركت المسير إليه ، فلم يمضِ لى أسبوع حتى تقلَّد حامد بن العباس الوزارة ، فقلَّدنى كتابته ، فثابت حالى .

* * *

قال الحارثُ بن هَمَّام : فهِمْنا لِبراعة عِبارَتِها ، ومُلَحِ اسْتِعارَتِها ، وَقُلنا لَها : قَدْفَتَنَ كلامُكِ ، فكيفَ إلحامُكِ! فقالت : أفَجِّر الصَّخْرَ ، ولا فَخْر ، فقلنا : إن جَعَلتِنا مِن رُوَاتِكِ ، لم نبْخَل بمواساتك ، فقالت : لَأُرِيَنَّكُمْ أوَّلاً شِعَارِى ، ثمّ لَأُرَوِّيَنَّكُمْ أشْعارِى . فأبرزت رُدْنَ دِرْعٍ دَرِيسٍ ، وَبرزَت بِرزَة عَجُوزٍ دَرْدَبيس ، وأنشَدَت تقول :

أشكو إلى اللهِ اشتكاء المريضْ ريبَ الزّمان المتعدّى البغيضْ
ياقومِ إنى مِن أناسٍ غَنُوا دَهْراً وجَفْنُ الدّهر عنهم غضيضْ
فخارهُمْ ليسَ له دافعٌ وصيتُهمْ بين الورى مُستفيضْ

رفع المسهم

كانوا إذا ما نجمةٌ أعْوَزَتْ في السَّنةِ الشَّهْباءِ روضاً أرْيضْ
تُشَبّ للسَّارين نيرانُهمْ وَيُطعمون الضيف لحماً غَريضْ
ما باتَ جارٌ لهم سَاغِبًا ولا لروْعٍ قال:حال الجريضْ

* * *

قوله « همنا » ، أى تحيّرنا . البراعة : الفصاحة . عبارتها : سياق كلامها . مُلَح استعارتها ، يريدمااستعارته من تسمية الأشخاص بأسماء الأعضاء . إلحامك: نسجك الشعر . يفجّر الصَّخْر ، أى يُخرج من الحجر الماء ، ومن البخيل العطاء . مواساتك : صِلتك ، وأصلها أن تجعل صاحبك أسْوة نفسك . شعارى : ثوبى اللاصق بجسمى ، سُمِّىَ شعاراً لأنه يلى شعر الجسد ، والظِّهار : الثّوب الذى يظهر للعيون ، والدِّثار: الثوب الذى بينهما. رُدْن : كمّ . درع: قميص. دريس. خلَق برزتْ : ظهرت . دَرْدَبيس : داهية . ريب : جور . غَنُوا : أقاموا. غَضِيض: منكسر . صِيتهم : ذكرهم الحسن، وهو من الصوت ، فلما كسرت الصاد أصُيِّرٌ على وزن الذكر ومعناه ، وانقلبت واوه ياء . مستفيض : متحدَّث به مشهور . نُجْعة : مرعى . أعوزت : فقدت . الشهباء : التى أجدبت فلا مطرَ فيها ، ولا عُشَب . والرَّوض : الموضع الكثير العشب . أريض : متّسع . تشب: توقد. للسارين : للماشين بالليل : غَريض : طرىّ . ساغباً : جائعاً . الرَّوْع : الفزع . الجريض : الغَصّ بالريق عند الموت . حال : منع ، أى لايقول جارهم حال الموت دون الأمن .

* * *

[أصل المثل : حال الجريض دون القريض]

ووفد عبيد بن الأبرص على النعمان الأكبر ، وهو ابن الشقيقة وبانى

الخورنق ، فامتدحه فوصله وأكرمه ، وكان له يوم نعيم ويوم بؤس فى السنة ، فورد عليه فى يوم بؤسه ، فقال له : ما أخرجك ، ثكلتك أمك! فقال: حضور أجلى ، وانقطاع أملى ؛ وكانَ مَنْ لقيه يوم بؤسه لم يخلِّصه من الموت شىء ، فاستنشده :

* أقفرَ مِنْ أهْلِهِ مَلْحوبُ * (١)

فقال له : حال الجَرِيض دون القريض ، فعزم عليه أن ينشد ، فأنشده :

أقفرَ مِنْ أهْلِهِ عَبِيـــدُ فاليَوْمَ لا يُبدِى وَلاَ يُعيدُ

ثم قال له: اختر ، إن شئت أخرجتَ نفسك من الأكحل ، وإن شئت من الأبجل ، وإن شئت من الوريد ، فقال عبيد :

خَيَّرتنى بينَ سحابات عاد فرِدْتُ من بؤسك شرّ المراد

وكان قتل النعمان لعبيد سببَ قطعه يوم بؤسه ، فلم يفعله بعد(٢) .

* * *

فغيضَتْ منهمْ صروفُ الرّدَى بحارَ جُودٍ لمْ نخَلْها تفيضْ
وأودِعَتْ منهم بطونُ الثّرى أسْدَ التحامِى وأُسَاةَ المريضْ
فحملى بعد المطايا المطا وموطنى بعد البقاعِ الحضيضْ
وأفرخى ما تأتلى تشتكي بؤسًا له فى كلّ يومٍ وميضْ

(١) ديوانه : ١٠ وبقيته :

* فالقُطْبيّاتُ فالذَّنُوبُ *

(٢) ديوانه ٤٥ ، وبعده هناك :

عَنَّتْ لَهُ منيّةٌ نكدُ وحانَ مِنْها لَهُ وُرودُ

إذا دَعا القـانتُ فى ليـلهِ مولاه نادَوه بدمعٍ يفيضْ
يارَازقَ النَّعّاب فى عُشّـهِ وجابِرَ العظم الـكسير المهيضْ
أتِحْ لنا اللهمَّ مَنْ عِرْضُـهُ مِنْ دنسِ الذّمِّ نقىٌّ رحيضْ
يطفئُ نار الجوعِ عنّا ولو بعذْقةٍ من حازرٍ أو مَخِيضْ
فهلْ فتًى يكشِفُ ما نابَهُمْ ويَغْنَمُ الشّـكْرَ الطويل المريضْ
فو الذى تعنُو النواصى لَهُ يوم وجوهُ الجمعِ سودٌ وبيضْ
لولاهمُ لم تبْـدُ لِى صفحـةٌ ولا تصدَّيتُ لنظم القريضْ

* * *

قوله : «غيّضت» ، أى أذهبت. والصروف : الطوارى تَصْرِفك من حالٍ إلى حال . لم أَخَلْها : لم أحسبها . أودعَت : ضمنت . الثرى : التراب . التّحامى : الحماية والمَنَعة ، وتحاميته: تباعدت منه وتمنّعت عليه . أُساة : أطباء : المطايا : الإبل . المطا : الظهر . مَحَلى : ما أحمل عليه أثقالى . تقول : صرتُ أحملُ على ظهرى بعد أن كان محملى ظهور الإبل . اليفاع:الارتفاع من الأرض. الحضيض : أسفل الجبل. ما تأتلى : تقصّر . بؤسًا : ضرًّا . وميض : لمعان . القانت : العابد ، والقنوت. طول القيام : يفيض : يملأ العين حتى تفيض بالدمع. النعّاب : فرخ الغُراب ، اختصّه من الطير لأنهم يزعمون أنه يخرج من بيضته أبيضَ الزَّغَب ، فيراه الذَّكَر فيستريب فيضرب أنثاه ، وينقرها حتى تفرَّ طائرة فيطير خَلْفها ويتركانه ، فيقيِّض الله له ذبابًا يطيرُ حول عينيْه ، فيفتح منقاره ليشرّدها ، فتدخل فى حلقه ، فيتغذّى بها حتى يسودَّ ريشه ، فحينئذ يرجع إليها أبواه ، فيكمّلان تربيتَه . ويارازق النعّاب ، من دعاء داود عليه السلام. المهيض:

الذى انكسر بعد الجبر . أتِخ : قدّر . رحيض : مغسول . مَذْقة : جُرعة . حازِر . لبن حامض شديد الحموضة . والمخيض : اللبن يُمزَج بالماء ، ويحرّك ، والمخْض التحريك ليخرج زبده ، وإذا طال مكث المخيض واشتدّت حموضته سمى حازراً . نابهم : نزل بهم . العريض : الواسع العرض . تعنو : تذلّ . النّواصى : شعر مقدّم الرأس . صفحة : ناحية العنق . تصدّيت : تعرّضت . القريض : الشعر .

* * *

قال الرّاوى : فوالله لَقَدْ صَدَّعَتْ بأبياتها أعشار القُلوب ، واستخرجَتْ خبايا الجيوب ، حتى ماحَها مَنْ هِينُه الامتياح ، وارْتاحَ لِرفْدِهاَ مَنْ لم نَخَلْهُ يَرْتاح . فلمّا افعو عَمَ جيبها تِبْرًا ، وَأَوْلاها كلٌّ مِنّا بِرًّا ، تَوَلّتْ يَتْلُوهاَ الأصاغر ، وفوها بالشُّكْرِ فاغر ، فاشرأبّتِ الجماعة بَعْدَ ممرِّها ، إلى سَبْرِها ، لِتبلوَ مواقِعَ بِرِّها . فكفلْتُ لهم باستنباطِ السِّرِّ المرموز ، ونهضتُ أقفُو أثَرَ العجوز ، حتى انتهيتُ إلى سوقٍ مغتصّة بالأنامِ ، مختصّةٍ بالزّحام ، فانغمستْ فى الغُمار ، وامّلَسَتْ مِنَ الصِّبْيَةِ الأغمارِ ، ثم عاجَتْ بِخِلوٍّ بالٍ ، إلى مسجدٍ خالٍ ، فأماطتِ الجِلباب ، ونفضتِ النّقاب ، وأنا ألْمَحُها من خَصاصِ الباب ، وأرقبُ ما ستبدِى من العُجَابِ .

* * *

قوله : «صدعت» : شقّت: أعشار: قِطَع: خبايا : ماخبّىء فيها من الدراهم . ماحها : أعطاها . دِينه : عادته . الامتياح : طلب المعروف، يريد مشيخة الشعراء الذين قد مرّ ذكرهم ، وعيش الشعراء إنما هو من الاستجداء والطلب ، ومعلوم أنه مَنْ كانت عادته أن يأخذ لا يعطى فى الغالب شيئاً ، ولذلك قال: من لم نَخَلْه يرتاح ، أى من لم نحسب أنه يهتزّ للعطاء ، وقد ارتاح ، إذا اهتزّ للكرم والعطاء ولذلك قال حبيب :

لم يخلق الرحمنُ أحمقَ لحيةً من سائل برجُو النّدى من سائلِ

وقال آخر :

لَموتُ الفتى خيرٌ من الفقر للفتى ولَلموتُ خير من سؤال بخيلِ
لعمرُكَ ما شيء لوجهك قيمة فلا تَلْقَ مخلوقاً بوجه ذليلِ
ولا تسألنْ من كان يسأل مرّة فَلَلموتُ خيرٌ من سؤال سَئولِ

وحدّث عيسى بن عمر النحوىّ ، قال : قدمتُ من سفر ، فدخل علىّ ذو الرُّمة الشاعر ، فعرضت عليه أن أعطيَه شيئاً ، فقال : أنا وأنت نأخذ ولا نُعطى .

ومدح أبو الشمقمق مَرْوان بن أبى حفصة فقال له : يا أبا الشمقمق ، أنت شاعر وأنا شاعر ، وغايتنا جميعاً السؤال .

وكان بشار يعطيه فى كل سنة مائتى درهم ، فأتاه مرّة ، فقال : هلمّ الجزية يا أبا معاذ ، فقال : وَيْحَك ! أجزية هى؟ قال : هو ما تسمع ، فقال له بشار يمازحه : أنت أفصح منّى؟ قال: لا ، قال : فأعلم ؟ قال : لا ، قال : فأشعر ؟ قال: لا ، قال : فلمَ أعطيك ؟ قال : لئلا أهجوك ، قال : إن هجوتَنى هجوتُك ، قال أبو الشمقمق : أو كذا هو ؟ اسمع :

إنى إذا ما شاعرٌ هجانِيهْ أدخلت فى إست امّه علانيَهْ

بشار يا بشار . . . . وأراد أن يقول : يا بن الزانية ، فأمسك بشّار بفمه ، وقال : أراد والله أن يشتمَنِي. ثم دفع إليه مائتى درهم ، وقال : لا تسمعنّ منك هذا الصبيان .

ولقيتُ بسِجْلماسة شاعرَها وعينها الحاج أمدحثر ، وكان له شعر رائق ، فحُدِّثت عنه أنه قصده يوماً فتى شاعر يستجديه بشعره، فوقع الحاجّ تحت شعره :

نحنُ بزاةُ النّاسِ لا نصادُ مَنْ كان ذا فهمٍ بنا يَصْطَادُ

ثم كتب له ، قطعة من شعره ، وقال له : اقصد بها فلانا فإنه يصلُك بما يرضيك ، ففعل المقصود بالشعر بنية الحاج ، فوصله بما أرضاه .

وعد أبو نواس أبا الطفيل الشاعر وعداً فألحّ عليه ، فقال :

وأخْرَسَ ولاجٍ وغادٍ ورائحٍ رجاء نَوَال لو يُعـــانُ بجودِ
وإنى وإياه كعريانَ يصطلى من الظّلّ ناراً غير ذات وقودِ
زَوَيْتُ له وجهاً قَطُوباً عن النّدى وألبستُه من وعدِه بوعيدِ
فإن كنت لاعن سوء فعلِك مُقْلِعاً فدونك فاستظهرْ بنعل حديدِ
فعندىَ مَطْلٌ لا يطـــير غرابُه مطير ولا يدعى له بوليـــد

قوله : « افعوعم » ، امتلأ، وافعوعلُ بنيت للمبالغة . تبراً : ذهباً . أولاها : أعطاها . البرّ : الإكرام . فاغر : منفتح . اشرأبّت : تطلّعت ، وتقول : اشرأبّ الرجل ، إذا مدّ عنقَه لينظر . سَبْرها : اختبارها . تبلُو : تختبر ، يريد أنّ الجماعة أرادت أن تعرف : هل أوقعتْ إكرامَها فيمن يستحقه أم لا . كفلت ضَمِنت . استنباط : استخراج . للرموز : المخفىّ . نهضت : تقدّمت للشى أقفو : أتبع . منتصّة : ممتلئة . انغمست : غابت ودخلت . الغُمار : كثرة الخلق

وجماعتهم أتى تغمر الأرض ، أى تغطّيها ، وردّه ابن الانبارى وجعله من خطأ العامّة ، وقال : إنما تقول العرب دخل فى خُمار الناس ، بالخاء ، وهو جمعهم ، إذا استتر بهم ، ومنه الخُمار لتغطية الرأس ، ومنه الخمر . وقال يعقوب : هو كلّ ما استتر به الإنسان من شجر أو غيره ، فإن كان من شجر خاصّة فهو الضّرَاء ، وحكى بعضهم غُماراً ، جعله من غَمر الماء الشيء ، إذا غطاه . قوله : امّلست : انفلتت بسُهولة ، والامّلاس : أن يسقط الشيء من يدك ولا تشعر به . الأغمار : الجهّال . عاجت : مالت . بخلوٍّ بال ، أى خالية منفردة . أماطت : أزالت . الجلباب : ثوب أوسعُ من الخمار يتجلبب به ، أى يلتف فيه ، والجلباب كالملحفة للمرأة ، والرداء للرجل . نَضَت : نحّت وَجرّدت : النقاب : ما يغطّى به الوجه . ألحها : أنظرها . خَصاص : فُرَج ، يريد به من شُقوق الباب .

* * *

فلمّا انسَرَتْ أُهْبَةُ الخَفَر ، ورأيتُ مُحيّا أبى زيدٍ قَدْ سَفَر ، فهممتُ بأن أهجم عليه ، عَلَى ما أجرى إليه ، فاسْتَنقى استنقاء المتمرّدين . ثم رفع عقيرة المغرّدين ، واندفَعَ يُنشِدُ :

يالَيتَ شِعرى أَدَهْرِى أحاط علماً بقَدْرى
وهل دَرَى كُنْهَ غورى فى الخَدْعِ أم لَيْسَ يَدْرِى
كم قدْ قَمَرْتُ بَنِيهِ بحيلتى وبِمَكْرِى
وكم برزتُ بعرفٍ عليهمُ وبنُكْرِى
أصطاد قوماً بِوعظٍ وآخرين بشِعْرِ
وأستفزُّ بخَلٍّ عقلاً وعقلاً بِخَمرِ
وتارةً أنا صَخْرٌ وتارةً أختُ صخرِ

ولو سَلَكتُ سبيلاً مألوفةً طول عمرِى
لحاب قِدْحِي وَقَدْحِي ودام عُسْرِى وخُسْرِى
فقل لمن لاَمَ : هـذا عُذْرِى فدونك عُذْرِى

* * *

انسرَتْ : زالت ، ويروى : بفصل سرت عن إن ، ومعناه إن أزالت بالهمزة - والمنفصل فعل العجوز ، والمتصل فعل الأهبة ، وهى العُدّة ؛ يريد لمّا أن أزالت عنها هيئة لباسها التى استترت بها عنا كان الخَفَر وهو الحياء يمنعُها أن تكشف وجهها حتى نعرفها . محيّا : وجه . سفر : انكشف . أهجم : آخذه على غفلة . أعنّفه : أقبّح فعله . اسلنقى : صار على ظهره . المتمردين : الشياطين ومن لا يرعَى صلاحه . عقيرة : صوت . المغرّدين : المطربين بالغناء ، والعقيرة بمعنى معقورة ، أى جارحة مقطوعة . كان رجل قطعت إحدَى رجليه فرفعها ووضعها على الأخرى ، ورفع صوته فقيل لكلّ مَنْ رفع صوته : قد رفع عقيرَته .

قوله : « يا ليت شعرى » معناه : ليت دِرَايتى وفطنتى ، ومعنى الشاعر فى كلامهم الفطن العالم ، وسُمِّى شاعراً ، لأنه يفطن لما لا يفطن له غيره . وأجاز الفرّاء : ليتَ شعرى أباك ما صنع ، على معنى : ليتنى أعلم أباك ماصنع ، وأنشد :

ليت شعرى مسافر بن أبى عمـــرو وليتٌ يقولها المحزونُ

ومعناه ليتنى أعلم مسافرا .

وقال آخر :

خَمَّر الشيبُ لِمّتِي تخميرَا وحَدَا بى إلى القبور البَعِيرَا
ليت شعرى إذا القيامة قامتْ ودُعِى بالحساب أينَ المَصِيرا

قال ثعلب : المصير منصوب بشِعْرِى ، أى ليتنى أعلم المصير أين هو ، والبعير منصوب بحدا ، أى وحدا الشيب البعيرَ إلى القبور بى . كنه : حقيقة . غورى : آخر أمرى ، وأصل الغَوْر : قعر الحَرَجَة والمنخفض من الأرض . قَمَرت : غلبت وخدعت . مكرى : خداعى . أستفزّ : أستخف وأخدع ، واستفزّه من كذا : أخرجه منه ، والخلّ كناية عن الشرّ ، والخمر كناية عن الخير ، هذا على مذهب العرب . وكانت الخمر أجلَّ ما عندهم ، ويقولون : ما عنده خَلٌّ ولا خمر ، أى ما عنده شرّ ولا خير ، وإذا فسدت الخمر عندهم صارتَ خَلاً ، وقد قال فى ألغازه :

وما شىء إذا فسدَا تحوَّل غيْـــه رشدَا

يريد أنَّ الخمر إذا فسدت ، صارت خَلاً ، فبعد أن كانت حراما رجعت حلالا ، وزال تأثيرُها فى العقول .

صخر : هو ابن الشريد ، وأخته الخنساء ، فأراد أنه مرَّةً رجل ، ومرَّةً أخرى امرأة .

ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أربعة لُعِنوا فى السماء : رجل خلقه الله ذكراً فتأنَّث ، وامرأة خلقها الله أنثى فتذكرت ، تتشبَّه بالرجال . والذى يُضلُّ الأعمى ، ورجل حَصُور ؛ ولم يجعل الله حَصُوراً إلاَّ يحيى بن زكريا عليهما السلام .

وأما صخر ، فهو ابن عمرو بن الحارث بن الشَّريد بن رباح[1] ، من بنى سُليم بن منصور بن عكْرمة بن خَصَفة بن قيس بن عيلان . وكان فى جماله أجملَ رجل فى العرب ، وسنذكر لمعة من أخبار صخر وأخته الخنساء فى المقامة الأربعين إن شاء الله تعالى .

(١) ابن : « رياح » .

سلكت سبيلاً : دخلت طريقاً . مألوفة : مركوبة ملتزمة . قِدْحى : سهمى . قَدْحى : ضربى بالزّند . عسرى : فقرى . خسرى : ضدّ ربْحى ، والخسْر : النقص ، يريد : لو مشيت على طريقة واحدة أبدا لخسرت وخبت . دونك ، أى خذ .

* * *

قال الحارثُ بن هَمّام : فلمّا ظَهَرْتُ على جَلِيَّةِ أمْرِه ، وبديعَةِ إمْرِه ، وَمَا زخرفَ فى شِعْرِهِ مِنْ عُذْرِه ، علمتُ أن شيطانَهُ المَرِيد ، لا يسمعُ التفنيد ، ولا يفعل إلا ما يريد . فثنيتُ إلى أصحابى عِنَانِى ، وأبثثتُهُمْ ما أثبتَه عِيانى ، فوَجَموا لضيعة الجوائز ، وَتعَاهَدُوا على مَحْرَمَةِ العجائز .

* * *

جلية : ظاهرة . بديعة : غريبة . إمره : دهائه وعجبه . زخرف : زيّن . المَريد : العارى من الخير إنما هو شرّ كله . التفنيد : اللوم ، وفنّدت فعله ، إذا عبتَه . ثنيت : عطفت ، وتقول : جاء ثانياً عنانه ، إذا بلغ مراده ولم يجهد نفسه . أبثثتهم : أخبرتُهم . أثبته : حققه . عِياني : معاينتى . وَجَمُوا : غضبوا . الجوائز : العطايا . تعاهدوا : تحالفوا . محرمة : منع وحرمان .

رفع المسهم

المقامة الرابعة عشرة وهي المكية

حكى الحارث بن همّام ، قال : نهضتُ مِنْ مدينةِ السَّلامِ ، لحَجّةِ الإسلامِ ، فلمّا قضيت بعونِ الله التّفثَ ، واستبحتُ الطيبَ والرّفثَ ، صادَفَ مَوْسِمُ الخَيْفِ ، معممانَ الصّيف ، فاستظهرْت للضّرُورة ؛ بما يَقِي حَرّ الظّهِيرَة ، فبينا أنَا تَحْتَ طِرَافٍ ، مَعَ رُفقةٍ ظِرَافٍ ، وَقَدْ حَمِيَ وَطِيسُ الحَصْبَاء ، وَأَعْشى الهجيرُ عَيْنَ الحِرْبَاء ، إذْ هَجَمَ عَلَينا شَيْخٌ مُتسعسِع ، يتلوه فتًى مترعرِعٌ ، فسلّم الشّيْخُ تسليم أديبٍ أريبٍ ، وَحَاوَرَ محاورة قريبٍ لاَ غَرِيبٍ ، فَأَعْجَبْنا بما نَثَر مِنْ سمطه ؛ وعجبنا من انبساطه قَبْلَ بَسْطِهِ ، وَقُلْنَا لَهُ : ما أنتَ ! وكيفَ وَلَجْتَ وما استأذنْتَ !

* * *

نهضت ، أى تقدّمت ، وسمّى النهوض تقدّما لسرعة الحركة ، وسمّى المنصور بغدادَ مدينة السلام ، لأنّ دجلة يقال لها وادى السلام ، ونهر السلام ، وأضاف الحجة إلى الإسلام لأنها أحد أركانه ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « بنى الإسلام على خمس »، والحجّ أحدها . التّفث : ما يلزم الحاجّ من ترك الطّيب وحِلاق الشعر . والرفث : النكاح . استبحت : استحللت . الموسم : الموضع الذى يجتمع فيه النّاس من عيد أو سوق . الخيف : موضع بمكة . معممان : شدّة الحرّ . استظهرت : استعددت ، تقول : قد استظهر للشيء

بكذا إذا استعدّ له ، وقد تقدّم آنفاً للحسن :

* فدونك فاستظهر بنعل حديدِ *

بقى: يمنع . الظهيرة : حَرّ نصف النهار ، فيقول: بسبب ضرورة الحرّ جعلت على نفسى سِتْرًا يمنع عنى حرّ الشمس . طِراف : قبّة من جلد . ظراف : جمع ظريف ، وهو النّبيل المهذب . حَمَى وطيس الحصباء : اشتدّ حرّ الجنادل لمن وطئها ، وأصل الوطيس التنور يحمَى فيطبخ فيه . أعشى : أعمى . الهجير : حرّ نصف النهار . الحِرْباء : دويبّة تستقبل الشمس وتدور معها ، وانظرها فى المقامة السادسة والثلاثين ، وقال المعرّىّ :

وهجيرة كالهَجْر موجُ سَرابها ... كالبحر ليس لمائه من طُحْلُبِ[1]
أوفى بها الحرْباء عودىْ مِنبر ... للظُّهـــر إلا أنه لم يخطبِ
فكأنه رام الكلام ومسّه ... عِىّ فأسعده لسانُ الجندُبِ

وقال أيضاً فى نحوه :

وساحرة الأقطار يجنى سرابُها ... فتَصلب حرباءً بريًّا على جِذْعِ[2]

قوله : « هجم » أى دخل على غفلة . متسعسع : هَرِم متقارب الخطو . مترعرع: شاب متزايد ، وترعرع الغلام ، أى أخذ فى الزيادة فى طوله وخِلقته ، والرّعرع : الشباب . أريب : عاقل . حاور : راجع الكلام . نثر من سمطه ، أبدى من كلامه ، وأصل السّمْط خيط الجوهر . انبساطه : دالّته ، وهذا الكلام أصله فى البساط ، تقول : بسطته فانبسط ، فلا يكون الانبساط مطاوعاً إلا بعد الشروع فى البسط ، يقول : فهذا الشيخ انبسط علينا قبل أن نبسطه ،

(١) سقط الزند ١١٣٢ .
(٢) سقط الزند ١٣٥١ .

رفع المسهم

أى دلّ علينا قبل أن نجعل له السبيل فى ذلك . ومما يستحسن من المنظوم هنا قول ابن كناسة :

فىَّ انقباض وحشمة فإذَا لاقيتُ أهل الوفاء والكَرَمِ[1]
أرسلتُ نفسى على سجيَّتها فقلت ما قلت غير محتشم

قال إسحاق الموصلىّ : أنشدَنِى ابنُ كُناسة هذين البيتين ، فقلت له : وددت أنى سبقتُك إليهما وينقص من عمرى سنتان .

ولجت : دخلت .

* * *

فقال : أمَا أنا فعافٍ ، وطالِبُ إسعافٍ ، وَسِرُّ ضُرِّى غير خافٍ ، والنَّظرُ إلىّ شفيعٌ لى كافٍ ، وأما الانسياب ، الذى علق به الارتياب ، فما هُوَ بمُجاب ، إذْ ما على الكرماء من حجاب ، فسألناه : أنَّى اهتدَى إلينا ، وبم استدلَّ علينا ؟ فقال : إنَّ للكرام نشراً تنمُّ به نفحاته ، وتُرْشِدُ إلى روضه فوحاته ، فاستدللتُ بتأرّج عَرْفِكُمْ ، عَلَى تبلُّج عُرفكم ، وبشَّرَنى تضوُّعُ رَنْدكم ، بحسن المنقلَبِ مِنْ عندكُمْ . فاستخبرناه حينئذ عن لُبَانَتِهِ ، لنتكفَّل بإعانتِهِ .

* * *

عاف : طالب معروف . إسعاف : قضاء حاجتى . الشفيع : الطالب لغيره ،

(١) الأغانى ٤ : ٣٦ .

يقول : لست أحتاج إليكم مع ظهور سرّى لشفيع ، لأن نظركم إلىّ يغنى عن عن الشفيع . كافٍ : مغنٍ عن غيره . الانسياب : الدخول بسهولة ، وقد تقدّم أصله فى الأولى . الارتياب : الشكّ والإنكار . عجاب : مبالغة فى عجب . أنّى : كيف . نَشْرًا تنمّ به نفحاتُه : طيبا تفوح روائحه وأنفاسه . ترشد : تدلّ وتهدى . فَوْحاته : روائحه العطرة . والعَرف : الرائحة الطيبة ، وتأرّجها : تحركها ، وتأرّج الطِّيب : فاح . تبلّج : ظهور . عرفكم : معروفكم ؛ ولاحظ الحريرى فى هذا قول المَرْجِىّ :

يوم يقول الرسول قد أذنت ... فأت على غير رقبة فلج[1]
أقبلت أهوى إلى رحالهم ... أهدى إليها بريحها الأرِج

قالوا : ويستدل بالطيب على الملوكية فى المواطن التى يكون الناس فيها غير معروفين ؛ فمن ذلك الحمّام ومعرك الحرب ، ومثل هذا الموطن الذى ذكر الحريرى فى الحج إذا حلّ ، قالوا : والطيب دليل لا يكذب ونمّام لا يفسد . والطيب : غذاء الرُّوح ، والنفحات الذكية : نشاط النفس ، فهو حَبٌّ وطيب ، وقال ابن البوّاب :

إذا أبصرتْكَ العين من بُعْد غاية ... فأوقعتُ شكا فيك أثبتك القلبُ
ولو أنّ ركبًا يمّمُوك لقادَهم ... نسيمُك حتى يَستدلّ بك الركب

وقال السّرى الموصلىّ :

حُلِيُّهُ وثنـــاياه وعنـبرُه ... كلٌّ ينم عليه أو يراقبُهُ
فلست أدرى إذا ما سار فى أفق ... شمائل الأفق أذكى أم جنائبُهُ

(١) الشعر والشعراء ٥٥٨ ، قال : « ويقال : إن الجعفر بن الزبير » .

وقال أبن سكّرة :

أهلاً وسهلا بمن زارت بلا عِدَةٍ ... تحت الظلام ولم تحذر من الْعَسَسِ[1]
تستّرت بالدجى عَمْداً فما استترتْ ... وناب إشراقها ليلا عن الْقَبَسِ
ولو طواها الدُّجَى عَنّى لأظهرها ... برق اللُّثاتِ وعطر النّحر والنفَسِ

وأخذه المعتمد بن عباد فقال :

ثلاثة منعتْنا من زيارتهـــا ... خوفُ الوشاة، وخوف الحاسد الحَنِقِ
ضوء الجبين وَوَسْوَاس الحليّ وما ... تحوِى معاطفها من عنبر عَبِقِ
هب الجبين بفضل الكمّ تستره ... والحلْيُ تنزعه ، ما حيلة العرَقِ !

* * *

فقال : إنّ لى مأرباً ، ولفتاىَ مطلبًا ، فقُلْنا : كِلاَ الْمَرَامَيْنِ سَيُقْضَى ، وَكِلاَكما سوفَ يرضى ، ولكن الكُبْر الكُبْر ، فقلنا : أجل ، ومن دَحَى السَّبع الغُبْر ، ثم وثب للمقال ، كالمُنشَطِ من العِقال ، وأنشد :

إنّى امرؤٌ أبْدِعَ بى ... بَعْدَ الْوَجَى وَالتَّعَبِ
وَشِقّتِى شَاسِعَةٌ ... يَقْصُرُ عَنْهَا خَبَبِى
وَما مَعِى خَرْدَلَةٌ ... مطبوعَةٌ مِنْ ذَهَبِ

---

(١) يتيمة الدهر ٢ : ٢٣

فحيلتى مُنْسَـــدَّةٌ وَحَيْرَتِى تَلْعَبُ بِى
إنِ ارتحلتُ راجلاً خِفْت دَوَاعِى العَطَبِ
وإن تخلّفْتُ عنِ الرُّفـــقةِ ضَاقَ مذهبِى
فزفرَتِى فى صُعُدٍ وَعَبْرَتِى فى صَبَبِ
وأنتمُ مُنْتَجَعُ الرّ اجِى وَمَرْمَى الطّلَبِ
لهـــاكُمُ منهـلَّةٌ وَلا انهِلالَ السُّحُبِ
وجاركُمْ فى حَـــرَمٍ وَوَفْرُكُمْ فى حَرَبِ
ما لاذ مُرْتاعٌ بكُمْ فخافَ ناب النُّوَبِ

* * *

قوله : « مأربًا » ، أى حاجة . المرامين : المطلبين . الكُبْر الكُبْر ، أى قدِّموا الأكبر .

ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم : أمرنى جبريل عليه السلام أن أقدِّم الأكبر .

أجل : نعم . دحا : بسط . السبع الغبر : الأرضين . المنشَط : المحلول . عِقال : قَيْد البعير ، وعَقَدْته بأنشوطة ، أى عقدته عقدةً تنحلُّ بجذْبة أو بجذبتيْن ، وقولهم : بئر نَشُوط ، إذا كان دلوُها يخرُج بجذْبة أو جذبتين ، وتسمى عامَّتُنا عقدة الأنشوطة اللخّ . أبدِع بى : أى عَطِبَت ناقتى ، يقال : أُبْدِعَ بالرَّجل إذا كلَّت إبلُه أو عَطِبت . وفى الحديث : إنَّ رجلا أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : احملنى فإنى أُبْدِع بى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما عندى ما أحملُك عليه ولـكن اذهب إلى فلان فقل له يحملك » ، فأتاه فحمله

فرجع إليه فأخبره ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : «مَنْ دَلَّ على خير فله أجْر فاعلِه». قوله: «الوجى» : وجع الحافر من الحَفَى . شُقَّتى شاسعة : سَفْرتى بعيدة . خَبَبِى: مِشيتى ، وخببٌ الفرس خَبَباً ، وهو ضرب من العدْوِ دون الإسراع . الخردل : حبّ معروف فى نهاية الصِّغر . مطبوعة : مصنوعة . منسدّة : منغلقة . العطَب : الهلاك . تخلّفت : تأخرت . مذهبى : طريقى . زفرتى فى صُعُد : نفَسى فى ارتفاع . عبرتى فى صَبَب : دمعى فى انحدار . المنتجع : الموضع الخصيب الذى يُنتجَع للمرعى ، يقول: موضعكم خصيب وأنتم كرام فمن طلب منكم رزقه وجَده . لُهاكم : عطاياكم . منهلّة : منصبَّة . لاذ : تستّر ولجأ . مرتاع : خائف . النُّوَب: جمع نائبة على غير قياس ، وهى الداهية ، وجعل لها نابا مجازا وجنّس به ، وأصل الناب للسبُع .

* * *

ولا استَدرَّ آملٌ حِباكُمُ فمَا خُيِّبِ
فانعَطِفوا فى قِصَّتِى وَأحْسِنوا مُنقَلَبِى
فلَوْ بَلَوْتُمْ عِيشَتِى فى مطعَمى وَمَشْرَبِى
لساءكمْ ضُرِّى الذِى أسْلَمَنى للكُرَبِ
ولو خَبرتمْ حَسَبِى وَنسَبِى وَمَذْهَبِى
وَمَا حَوَتْ معْرفتى من العُلومِ النُّخبِ
لما اعترتكمْ شُبهةٌ في أنَّ دَائى أدَبِى
فليْتَ أنى لم أكنْ أُرْضِعتُ ثَدْىَ الأدَبِ

رفع المسهم

فقد دهانى شُؤْمه وَعقَّنِى فيــه أَبى

* * *

استدرَّ : طلب الدَّرَّ وهو اللبن . آمل : راجٍ . حِباءكم:عطاءكم . انعطِفوا: ميلوا . منقلَبى : مرجعى ، يقول : عساكم أن تشفقوا علىَّ وتميل قلوبكم بالرحمة إلىَّ حتى يحسن منقلبى من عندكم . بلوتم : جرَّبتم . أسلمنى : تركنى. الكرب: الهموم . خبرتم : اختبرتم . حَسَبى : شرفى . والحسب آباء أشراف بحسب أو أفعال كريمة . مذهبى : طريقتى . خوت : جمعت . النُّخَب المختارة . اعترتُكم قصدتُكم . شبهة : شكٌّ وحيرة . دهانى : أهلكنى وضرّنى . شؤمه : نحسه . عقنى : قطعنى وأساء إلىَّ بتعليمه ، فهو يتطيَّر بأدبه .

[حِرفة الأدب]

والتَّطيُّر بالأدب مذهب قــــديم متداول ، وقد أشار إليه ابن قتيبة فى صدر أدبه :

وقال عمرو بن شبَّة : من أعجب العجب ثلاثة مقارنة لثلاثة : الحِرْفة للأدباء ، وتباعد المال عن الظرفاء ، وإقبال الدنيا على النَّوْكى.

وقيل للحسن البصرى رحمه الله : لِمَ صارت الحرفة مقرونة مع العلم ، والثروة مقرونة مع الجهل ؟ فقال : ليس كما قلتم ، ولكن طلبتم قليلا فى قليل فأعجزكم ، طلبتم المال وهو قليل فى أهل العلم وهم قليل ، ولو نظرتم إلى مَنْ تحارَف من أهل الجهل لوجدتموهم أكثر ؛ وقال الحمدونى :

ماازددتُ من أدبى حرفا أُسَرّ به إلاّ تزيّدت حرفا تحته شومُ

كذا المقدَّم فى حــذق بصنعتهِ أنى توجَّه فيهــا فهو محرومُ

رفع المسهم

وقال أبو إسحاق الصّابى .

إذا جمعتْ بين امرأين صناعةٌ فأحببت أن تدرى الذى هو أحذقُ
فلا تتفقد منهما غيرَ ما جرتْ به لهما الأرزاق حين تفرّقُ
فحيث يكون النّقص فالرزق واسعٌ وحيث يكون الفضل فالرزق ضَيّقُ

أخذه عبد الملك بن وهبون ، فقال :

يعزّ على العلياء أنّىَ خاملٌ وإن أبصرت منى خمودَ شهابِ
وحيث ترى زند النّجابة وارياً فثمّ ترى زند السّعادة كابِيه

وقال أبو إسحاق الصّابى:

قد كنت أعجب من مالى وكثرته وكيف تغفل عنه حِرْفةُ الأدب[1]
حتى انثنت وهى كالغضبى تلاحظنى شَزْرًا فلم تبق لى شيئاً من النّشَبِ
واستيقنت أنها كانت على غَلطٍ فاستدركته وأفضت بى إلى الحَرَبِ
الضبّ والنون قد يُرْجى اجتماعهما وليس يُرجَى اجتماع المال والأدَبِ

وقال علىّ بن بسام يَرْثى عبد الله بن المعتز ، على ما كان بينهما من العداوة :

لله درُّك من مَيْت بمضيعةٍ ناهيك فى العلم والآداب والحسَبِ[2]
ما فيه « لوٌ » ولا « ليت » فتنقصَه وإنما أدركته حرفة الأدَب

(١) يتيمة الدهر ١ : ٢٤
(٢) ثمار القلوب ١٩٢

وكان ابن المعتز قام على المقتدر ، فلما ظفر به أمَرَ فَرُمِيَ فى صهريج فيه ماء فى شدّة البرد فمات . ومن عجائب الدنيا أنّ أباه المعتزّ لما خُلع عن الملك أدخِل حمّاماً ، وأغلق عليه فمات من حرّه .

وكما نَفَوْا أنّ يجتمع المال والفهم فى الغالب ، كذلك نَفَوْا أن تجتمع النجابة فى الولد والوالد فى الغالب ، قال الشاعر .

إذا أطلع الدهر حُرًّا لبيباً فكُنْ فى ابنه سَيِّء الإعتقَادِ
فلست ترى مِنْ نجيب نجيباً وهل تلد النّار غير الرّمَادِ !

ولما أوجع الفقر والحرمان القاضى عبد الوهاب [1] لأجل أدبه على ماشرطوا فى الأدب ، تمنّى الكفاف ولزوم العلم إلى الممات ، فقال :

يالَهْفَ نفسى على شيئين لو جُمعا عندى لكنت إذاً من أفضل البشر
كفاف عيش كفانى ذلّ مسألةٍ وخدمة العلم حتى ينقضى عمرى

فلما فتح عليه باب الرزق مات ، على ما يأتى ذكره ، فسبحان من أنفذ حكمه فى خلقه كيف شاء !

* * *

فقلنا له : أما أنت فقد صَرَّحَتْ أبياتُك بفاقَتِكَ ، وعَطَبِ إقتِكَ ، وَسَنُعْطيكَ ما يوَصِّلُكَ إلى بَلَدِكَ ، فما مَأْرَبة وَلَدِك ؟ فقال له : قُمْ يابُنَيّ كما قام أبُوكَ ، وَفُهْ بما فى نَفْسِكَ لا فضَّ فُوكَ . فنهضَ نهوضَ البطلِ للبِرَازِ ، وَأَصْلَتَ لِسَاناً كَالْعَضْبِ الْجُرَازِ ، وأنشأ يقول :

يا سادة فى المعالِي لَهُمْ مبانٍ مَشِيدَهْ

(١) هو عبد الوهاب بن نصر بن أحمد الفقيه المالكى ، ذكره فى المرقبة العليا ٤٠-٤٣ .

رفع المسهم

وَمَنْ إذَا نَابَ خَطبٌ قَامُوا بدَفْعِ المَكِيدَهْ
وَمَنْ يهونُ عَلَيْهِمْ بذْلُ الكنوزِ العتيدَهْ
أريدُ منكمْ شواءً وجَرْدَقًا وَعَصِيدَهْ
فإن غَلا فرُقاقٌ بِهِ تُوَارَى الشَّهِيدَهْ
أوْ لم يكن ذا ولا وذا فَشَبْعَةٌ مِنْ ثريدَهْ
فإن تعذَّرْنَ طُرًّا فعجوَةٌ ونَهيـــدَهْ
فأحضِرُوا ما تسنَّى وَلوْ شَظًى مِنْ قَدِيدَهْ
وَرَوِّجُوهُ فنفسى لمـا يَرُوجُ مُرِيدَهْ
والزَّادُ لا بدَّ منْهُ لرحـــلة لى بعيدَهْ
وأنتمُ خَيْرُ رهطٍ تُدْعَوْنَ عِنْدَ الشّديدَهْ
أيديكمُ كلّ يوْمٍ لَهـا أيَادٍ جديدَهْ
وَراحُكُمْ وَاصِلاتٌ شَمْلَ الصِّلَاتِ المفيدَهْ
وبُغيتى فى مَطاوى ما تَرْفِدُونَ زَهِيدَهْ
وَفِىَّ أجْرٌ وَعُقْبَى تنفيسِ كربى حَمِيدَهْ
وَلِى نتائجُ فِكْرٍ يَفْضَحْنَ كلَّ قَصِيدَهْ

* * *

قوله : « صرَّحت » : بينت . فاقتك: فقرُك ، وتصريح أبياته بعطب ناقته هو قوله ، « أبدع بى » المتقدّم ، وفى معناه : أنّ أعرابيّة خرجت إلى الحجّ ، فلما كانت ببعض الطريق عَطِبَتْ ناقتها ، فرفعت يديها إلى السماء وقالت :

رفع المسهم

بارب أخرجتني من بيتي إلى بيتك ، فلا بيتي ولا بيتك ! قوله :« نطيك » نطيك مَطِيَّة . مأربة : حاجة . فُهْ : تكلَّم . فضّ : كسر . نهض : تقدَّم . أصْلَت : جَرَّد . العضب الجُراز : السيف القاطع . مَشيدة : مرتفعة . ناب خطب : قصد أمر شديد . والمكيدة ، هي الكيد ، وكل ما يكاد به فهو مكيدة . وقاموا بدفعها : اقتدروا عليها ، يقول : إذا قصدوا بأمر عظيم وكِيدوا به اقتدروا على دفع الكيد واكتفوا بمن يريد ضَرَّهم . العتيدة : الحاضرة المذْخورة . رُقَاق : خبز رقيق . توارى : تغطَّى . الشَّهيدة : الشاة المشوية ، وقلَّما يؤكل لحمها إلا بالرُّقاق ، وربما سَمَّوا الهريسة شهيدة ، وأنشدوا في ذلك :

هلمّوا إلى من عُذِّبَتْ طولَ ليلها بأضيقِ سجنٍ في الجحيم تسعَّرُ
وقد جَلَدُوها الحدّ وهي بريّة فسيروا إلى دفن الشهيدة تُؤْجَرُوا

وقيل : الشهيدة الدُّجاجة المحشوّة ، وقيل : السمكة المحشوّة . طرًّا : جميعاً . عجوة : نوع من التمر الطيِّب . والنَّهيدة : الزُّبدة ، والتمر بالزُّبد شيء يلذ عندهم أكله . تسنّى : حضر . شظًى : قطعة . زوِّجوه : عَجِّلوه . ولا بدَّ منه ، أي قد وجب عليكم فالتزموه لي ، تقول : لابدَّ من كذا ، معناه قد ألزمتُه نفسي وجعلته واجباً عليَّ ، من قول العرب : قد أبدَّ الرَّجل الفوم ، وأبدَّ الرامي الوحشَ ، إذا ألزمهنَّ الحتف ، قال أبو ذؤيب :

فأبدهنّ حُتُوفَهُنَّ فهاربٌ بذَمائه أو بارِكٌ متجعجعُ (١)

قوله :«أيادٍ» : أي نعم . راحكُم : أنفسكم . واصلات شَمْل الصِّلات : أي تُؤلِّف وتصلُ متفرق العطايا والفوائد . بغيتي : إرادتي . مطاوى

(١) ديوان الهذليين ١ : ٩ الذماء : بقية الروح : متجعجع : لاصق بالأرض قد صرع.

ما ترفدون . مطاوى الثوب: معاطفه وما يُطوى منه. وترفدون:تعطون ،وتقدير البيت: بغيتى زهيدة أى قليلة فى مطاوى عطايا كم ، أى ماطلبتُه منكم قليل فى أثناء ما تهبون . قوله: « وفىّ أجر» : عن أنس رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أطعم أخاه المؤمن طعاماً وافقَ به شهوته أدخله الله الجنة» . وفى حديث عبد الله بن عمرو بن العاص «من أطعم أخاه خبزاً حتى يشبعه وسقاه ماء يرويه أبعده الله من النار سبع خنادق» . تنفيس: تفريج وترويح ، يقول : عاقبة تفريج همى لمن فرّجه محمودة للأجر الذى فيها، والثناء بشعرى عليه، وعلى هذا رتّب: «ولى نتائج فكر» : وهى أشعاره الحسان . يفضحن : يَشْهَرْن عُيوبها، يقول: إذا أنشدت شعرى افتضحت قصائد الشعراء وتنقصت .

* * *

قال الحارث بن همام : فلمَّا رَأَيْنَا الشِّبْلَ يُشْبِهُ الأَسَدَ ، أَرْحَلْنَا الوالدِ وَزَوَّدْنَا الْوَلَدَ ، فقابَلا الصُّنْعَ بشكرٍ نشَرَا أرديتَهُ ، وَأَدَّيَا بِهِ دِيتَهُ . وَلَمَّا عَزَمَا عَلَى الانْطِلاَقِ ، وعَقَدا للرِّحلة حُبُكَ النِّطاق ، قلت للشيخ : هَلْ ضاهَتْ عِدَتُنَا عِدَةَ يعقوب ، أو هل بقيتْ حاجةٌ فى نفسِ يعقوب! فقال: حاشَ للهِ وَكلاَّ ، بلْ جَلَّ معروفكُمْ وَجَلّى ، فقلت له : فَدِنَّا كما دِنَّاك ، وأفِدْنا كَمَا أفدناك أَيْنَ الدُّوَيْرة ، فتَمْ مَلَكْتَنَا الحيْرَة !

* * *

الشِّبل : ولد الأسد. أرحلناه:أعطيناه راحلةً يركبُها. الصنع: الفعل الجميل. نَشَرا أرديته : ، استعارة لنشر الشكر . أدّيا : أعْطَيا . ديته : ، حقّه ، يقول : جعلا شكرهما حقًّا لبرّنا ومكافأة لصلتنا ، وكأنّ المال للموهوب قد استهلكه الآخذ له ، فإن شكر عليه فالشكر للواهب هُوَ ديةُ ماله المالك . وإنما أراد

قول النبي صلى الله عليه وسلم « مَنْ نشر معروفا فقد شكرَه ، ومن ستره فقد كفره » .

[من الأقوال حكيمة فى الشكر]

وفى حديث جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مَنْ أُعْطِىَ شيئاً فوجد فلْيجْز، ومَنْ لم يجد فليُثن به ، فإن أثنى عليه فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره » .

وفى حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال : « مَنْ دعاكم فأجيبوه ، ومن أتى إليكم معروفا فكافئوه ، فإن لم يجد أحدُكم فليدْعُ له حتى يعلم أنه قد كافأه » .

وقالوا : إذا قصرت يداك عن المكافأة فَلْيَطُلْ لسانك بالشكر .

وما أحسن قول حبيب فى نشر الشكر وذمّ ستره .

للنارُ نار الشوق فى كَبد الفتى ... والبين يُوقِدُه هوًى مسمومُ[1]

خيرٌ له من أن يخامر قلبه[2] ... وهواه معروف امرئ مكتومُ

سَرَق الصنيعة فاستمرّ مُلَعَّنا[3] ... يدعو عليه النّائل المظلومُ

أُوقَنِّعُ المعروفَ وهو كأنّه ... قمرُ الدّجى إنى إذًا للئيمُ

مُتْرٍ من المال الّذى ملّكتَنى ... أعنى اقَهُ ومن الوفاء عديمُ[4]

فأروحُ فى بُرْدَيْن لم يَسْحَبْهما ... قبلى فتًى وهما الغنى واللّومُ

---

(١) ديوانه ٣٠١ ، وفيه : « النار » .
(٢) الديوان : « صدره » .
(٣) الديوان : « بلعنة » .
(٤) متر : دومال .

ومن ملح الأعراب ؛ أنّ أعربيًا لصًّا أخذه الحجاج ، فضربه سبعمائة سوط ، وهو يقول عند كلّ سوط : شكرا ياربّ ، فقيل له : والله ما يمنع الحجاج من تركك إلا كثرة شكرك ، أما سمعت الله يقول : ﴿لئن شكرتم لأزيدنّكم﴾[1] ! فأنشأ الأعرابى يقول :

* ياربّ لا شكر فلا تزدْنِي أسأتُ فى شكرك فاعفُ عَنِّى *

* باعد ثواب الشاكرين منى *

ومرّ بشار برجل قد رمحته بغلة فسقط مكسورا ، وهو يقول : الحمد لله والشكر لله ، فقال : استزده يزدك من هذه النعم .

وسيأتى نوع آخر من الشعر فى الشكر بحول الله تعالى .

* * *

قوله : «حُبُك النطاق» : النطاق وللمنطقه : ما يُشدّ على وسطك كالحزام . والحُبُك : خيوط أو شَرَك يُشدُّ بها النطاق ، وأراد أنهما تحزّما للارتحال ، ويقال : حبكت الشيء حَبْكا : شددته ، واحتبكت إزارى : شددته . والمحبوك : المفتول ، وحبكته : شددت فتله ، والحُبُك : الطرائق فى السماء من أثر الغَيْم ، والحُبُك أيضا : التكسير الذى يكون فى الرمل والشَّعر والماء .

ضاهت : شابهت . عدتنا : ما وعدناك به من الرَّاحلة ، ولا بنك من الزاد .

* * *

[عرقوب المضروب به المثل]

عرقوب : رجل[2] من العماليق يضرب به المثل فى إخلاف الوعد ، وقصّته أنّه أتاه أخ له يسأله شيئاً ، فقال له : إذا أطلعت هذه النخلة فلك طلعها ، فلما أطلعت أتاه فقال له : دعها حتى تصير بلحاً ، فلما أبلحت أتاه ، فقال له : دعها حتى تصير زَهْوًا[3] ، فلما أزهت قال له : دعها حتى تصير رُطَبا ، فلما أرطبت قال له :

(١) سورة إبراهيم ٧ (٢) مجمع الأمثال ٢ : ٣١١

(٣) الزهو : البسر الملون .

رفع المسهم

دَعْها حتى تصير تمراً ، فلما أثمرت عمِد إليها عرقوب من الليل فجدّها ، ولم يعطه شيئاً.

وقيل: عرقوب هو ابن سعد بن زيد مناة بن تميم ، ويقول بنو سعد: هو منّا.

وقيل : هو من الأوس والخزرج ، قال علقمة :

وقد وعدتك موعِدًا لَوْ وَفَتْ به كمَوْعودِ عرقوب أخاه بيثرب[1]

وقال كعب بن زهير :

كانتْ مواعيد عرقوب لها مثلا وما مواعيـــدها إلا الأباطيل[2]

* * *

وقال عبد الله بن عمر : خلْف الوعد ثلث النفاق . وحاجة نفس يعقوب : خشية العيْن على بنيه حين أمرهم أن يتفرّقوا على الأبواب ، ولا يدخلوا من باب واحد ، لأنهم كانوا فى غاية من الجمال وكمال الخَلْق ، وقال الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ يُغْنِي عنهمْ من اللهِ من شيء إلا حاجةً فى نفس يعقوب قضاها﴾[3] ، وأراد الحريرىّ : هل بقيت لك حاجة لم تقضها ؟ فقال : حاش لله ، أى معاذ الله .

ابن الأنبارىّ قولهم: حاشى فلانا ، معناه أستثنيه ، وأخرِجه من المذكورين.

الفرّاء : هو من حاشيت أحاشى ، ويقال : قام القوم حاشَى عبدَ الله بالنصب والخفض ، وحاشى لعبد الله ، وحاش وحَشَى ، وخفض ما بعدها بإضمار اللاّم لـكثرة صحبتها حاشى ، كأنها ظاهرة ، أو تقول : أضيفت حاشى إلى عبد الله ، لأنه أشبه الاسم لمّا لم يأت معه فاعل .

كلاّ : معناها الزّجر ، أى ليس الأمر كما تظنّ . جُلّ : عُظْم ، وهو من

---

(١) ديوانه ١٣٣ .
(٢) ديوانه ٨ .
(٣) سورة يوسف ٦٨ .

رفع المسهم

الجلل ، والجليل هو العظيم ويكون فى غير هذا اليسير وهو من الأضداد .
جلّى : سبق معروفكم كل معروف ، والمجلّى من الخيل : السابق .

دنّا : جازنا . أين الدوبرة ؟ سأله أين تسكن من البلاد . ملكتنا : غلبتنا ، يقول : قد التبس علينا أمرك وتحيّرنا فيه .

* * *

فتنفّس تنفُّسَ من ادّكرَ أوطانَهُ ، وأنشدَ والشّهيقُ يُلعثِمُ لسانهُ :

سَرُوجُ دارِى ولكنْ كيفَ السبيلُ إليها
وقدْ أناخَ الأعادِى بها وأخْنَوْا عليها
فوالّتى سِرْتُ أبغِى حطَّ الذُّنوبِ لدَيها
ماراق طَرْفِىَ شَىءٌ مِذْ غِبتُ عَنْ طَرفيها

ثم غرورقتْ عَيناهُ بالدُّموعِ ، وَآذنتْ مدَامِعُه بالهُموعِ ، فكرِهَ أن يَستَوْكِفَها ، ولم يملك أن يكفكفها ، فقطعَ إنشادَه المستحلَى ، وأوجزَ فى الوداعِ وولّى .

* * *

تنفّس : ردّد النفَس إلى الجوف بصوتٍ ورفعه إلى صدره ، والتّنفُّس : ضدّ الشهيق ، وهو ردّ النفَس إلى الجوف بصوت . يلعثِم : يلوى ويعقل ، ويقال : سأله عن كذا فما تلعثم ، أى ما توقّف ولا تلبّث ولا أبطأ ، فإذا ذكرت للغريب بلدُه وهو على بعد منه تنفّس وتلهّف . أناخ : أقام ونزل . أخنوْا : أفسدوا

وأتوا على خرابها . والتى يبغى حطّ الذنوب إليها هى مكة. حطّ: إلقاء وإنزال. لديها : عندها ، أى إذا حجّ ودعا الله حط ذنوبه عنه .

وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حَجّ هذا البيت فلم يرفُث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

راق : أعجب . طرفيها : جهتيها . اغرورقت:امتلأت . آذنت: أعلمت . الهموع : السَّيَلان . يستوكفها : يستـــدرّها ويجريها . يكفكفها : يردّها . المستحلَى : المستعذَب . أوجز : اختصر .

* * *

[من أقوالهم فى الحنين إلى الأوطان]

ومما ينتظم بهذا الموضع من ذكر الأوطان والتشوّق إليها قول رفاعة بن عاصم الفقعسى ، وأنشدها البكرى لامرأة من طيّئ :

أَلَمْ تعلمِى يادارَ بَلْجَـــاءَ أننى ... إذا أخصبت أو كان جدبا جنابُها[1]

أحبّ بلاد الله مابين منعجٍ ... إلىّ وسلمى أن يصوب سحابُها

بلادٌ بها نِيطَتْ عَلَىّ تمائمى ... وأوّلُ أرضٍ مَسّ جلدى ترابُها

قال علىّ بن عبد الكريم النصيبينى : أتانى ابن الرومىّ بقصيدته التى يمدح فيها سليمان بن عبد الله بن طاهر ، وقال لى : أنصفنى وقل الحقّ : أيُّما أحسن ، قولى فى الوطن :

ولى وطَنٌ آليت ألاّ أبيعَه ... وألاّ أرى غيرى له الدَّهْرَ مالكا[2]

عهدت به شرْخ الشباب ونعمةً ... كنعمة قومٍ أصبحوا فى ظلالكا

وحَبّب أوطان الرجال إليهمُ ... مآربُ قضّاها الشباب هنالكا

إذا ذكروا أوطانهم ذكّرتهمُ ... عهودَ الصّبا فيها فحنّوا لذلكا

(١) زهر الآداب ٦٨٢ ، اللالى ٢٧٢ ، الكامل ٢ : ٢٨٠ .
(٢) ديوان المعانى ١٨٩ زهر الآداب ٦٨٢ .

أو قول الأعرابيّ : أحب بلاد الله ... الأبيات ، فقلت : بل قولك لأنه ذكر الوطن ومحبته ، وأنت ذكرت حبّ الوطن والعلّة فى ذلك .

وقال ابن الرومى يتشوّق إلى بغداد :

بلدٌ صحبت به الشبيبة والصِّبا ... ولبستُ ثوب العيش وهو جديد[1]

فإذا تمثّل فى الضمير رأيتُه ... وعليه أغصان الشباب تميد

أخذه من قول أعرابى يتشوّق إلى بلده :

ذكرتُ بلادى فاستهلّتْ مدامِعِى ... بشوقٍ إلى عهد الصِّبا المتقادم

حننتُ إلى ربع به اخضرّ شاربى ... وقُطِّعَ عَنِّى قَبْلَ عَقْد التَّمائم

وقال إسحاق الموصلى :

أتبكى على بغدادٍ وهى قريبةٌ ... فكيف إذا ما ازددت عنها غدا بُعْدَا

لعمرُك ما فارقتُ بغداد عن قلًى ... لو أنا وجدْنا من فراقٍ لها بُدَّا

كفى حزناً أنْ رحت لم أستطع لها ... وداعاً ولم أحدث لساكنها عهدا

وأنشدنى شيخنا أبو بكر السَّلامىّ ، وكان يزعم أنهما لأخى الحريرى ، وقد أحسن قائلهما كائناً مَنْ كان :

طيب الهواء ببغدادٍ يؤرقنى ... شوقاً إليها وإن عاقت مقاديرُ

فكيف أصبُر عنها اليوم إذ جمعتْ ... طِيب الهواءين : ممدودٌ ومقصورُ

---

(١) ديوان المعانى ٢ : ١٨٩ ، وزهر الآداب ٦٨٣ .

رفع المسهم

المقامة الخامسة عشرة وهي الفرضية

أخبر الحارث بن همام قال: أرِقتُ ذات ليلةٍ حالكةِ الجلبابِ، هاميةِ الرِّباب، ولاَ أرق صَبٍّ طُرِدَ عن البابِ، وَمُنِي بِصدِّ الأحْبَابِ، فلم تزَل الأفكارُ يهجُن هَمِّى، ويُجلِبْنَ فى الوَسَاوسِ وهْمِى، حتى تمنَّيتُ لِمَضَضِ مَاعانيتُ، أَن أُرْزَقَ سَمِيرًا منَ الفُضَلاءِ، ليُقَصِّرَ طُول لَيْلَتِى اللَّيلاَء، فلَما انقضتْ مُنيَتِى، ولا أَغمضتُ مُقْلتى، حَتى قرعَ البابَ قارعٌ، لهُ صوتٌ خاشِعٌ، فقلتُ فى نفسى: لعلَّ غَرسَ التَّمَنِّى قد أَثْمرَ، وَليلَ الحظِّ قد أقمرَ، فنهضْتُ إليه عَجْلانَ، وَقلتُ من الطارِق الآن! فقال: غريبٌ أجَنَّه الليل، وغشيَهُ السَّيلُ، وَيبتني الإيواءَ لاغيرَ، وإذَا أَسْحرَ قدَّم السير.

* * *

أرقت: سهرت ولم أنمْ، وفى حديث زيد بن ثابت: شكوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أرقًا أصابنى، فقال: «قل اللّهمّ غارت النجومُ، وهدأت العيون، وأنت حىٌّ قيّوم، لا تأخذك سنة ولا نوم، ياحىّ يا قيوم، أهدِئْ لِيلى، وأنمْ عينى». فقلتها فأذهب الله عنّى ما كنت أجده.

حالكة الجلباب: سوداء الثوب. هامية الرّباب: سائلة السحاب؛ يريد

أن الليلة مظلمة ممطرة . صبّ : عاشق . طَرَد : نفى . مُنِى : ابتلى . صَدّ : هجر . الأفكار : أحاديث النفس . يَهِجْن . يُحرّكن . ويجلن : يصرفن ، والوساوس الفكر المقلقة . وَهْمِى : بالى وخاطرى ، وقال ابن شُهيد فى نحو هذه الليلة :

ولربّ ليلٍ للهموم تسدَّلتْ ... أستارُه فمحا الضِّيا بستورِهِ[1]
كالبحر يضرب موجُه فى موجِه[2] ... صعبٌ عَلَى العُبَّار وجهُ عبورِهِ
طاولتُه من عَزْمتى بتصبّرٍ[3] ... أثبتُّ همِّى فى قرارة كورِه
وبراحة من همتى ذُو كرّة[4] ... عَمَدَتْ تُذاكرنِى بطبع ذكيره
فردٌ إذا انبعثت دياجى جُنْحِه ... هَوْلاً علىّ خبطت فى ديجوره
حتى بدا عبد العزيز لناظرى ... أملى ، فمزّقتُ الدُّجى عن نوره[5]

وليلة الحريرى ضدّ ليلة ابن رشيق فى قوله :

ومن حسنات الدّهر عندىَ ليلة ... من العمر لم تترك لأيّامِنا ذَنْبَا[6]
خلوْنا بها ننفى القَذَى عن عيوننا ... بلؤلؤة مملوءة ذهباً سَكْبا
ومِلْنَا لتقبيل الخدود ولثمها ... كميل جياع الطَّيْر تلتقط الحبّا[7]

قوله :«تمنيت» . ابن الأنبارى: فى معناه قدّرت وأحببت أن يصير إلىّ ، وهو من المنْى وهو القدَر ، يقال : منى الله لك ما تحبه يَمْنِيه منياً ، أى قدّره لك. لمضض، أى لحرقة . عاينت : شاهدت ، ويروى «عانيت» أى قاسيت . سميراً:

---

(١) ديوانه ١١٧ ، يمدح عبد العزيز بن المؤتمن .
(٢) الديوان : « وجهه فى وجهه » .
(٣) الديوان : « بمضمر »
(٤) الديوان : « ذو ذكرة » .
(٥) ط : « فزقت الرجا » ، والصواب من ب والديوان .
(٦) معجم الأدباء ٣ : ٧٢ ، والتنف ٨ .
(٧) التنف : « كمثل جنوح » .

صاحباً يُسمر معه . يقصر : يردّها قصيرةً بأنسه وحديثه . الليلاء : الشديدة الطويلة السواد ، ولابن الزّقاق فى مثل هذا السمير :

ربّ ليلٍ أنحفتُ فيه بأنسٍ ... من سمير زَفَّ الحديثَ عروسا[1]
فاجتنينا مما يحـــدّث زهرًا ... واغتبقنا من خُلْقِه خَنْدريسا
واثنى الليل يفضُل الصبح حسناً ... والدّرارى يفضُلْنَ فيه الشموسا
ولئن كان لم يَحُلْ عن دجاه ... فلقد عاد فحمُه آبَنوســـــا

قوله : « أغمضت مقلتى » ، نامت عينى . قرع : ضرب . خاشع : لبّن . أثمر : طلع ثمره . الحظ : البخت . أقمر : صار فيه قمر ، يقول : لعلّ بختى قد زال نحسه وأقبل سعده ، إذ وجدت ما تمنّيت . نهضت : تقدّمت . الطارق : الآتى بالليل . أجنّه : ستره . غشيه : غطّاه . الإيواء مصدر آويت الرجل ، إذا أنزلته على نفسك وضممته ، وتقول : أويته وآويت بمعنى واحد . أسحر : دخل فى وقت السّحَر ، يريد أنه لا يطلب غير المبيت وينصرف فى السحر .

* * *

قال : فلمَّا دَلّ شُعاعهُ على شمسه ، وَنمَّ عُنوانُه بِسِرٍّ طِرْسِه ، وَعَلِمْتُ أن مُسَامرتَه غُنْمٌ ، وَمُسَاهَرتَهُ نُعم ، ففتحت الباب بابتسَامٍ ، وَقلتُ ادخلُوهَا بسَلاَم ، فدَخَلَ شخْصٌ قَد حَنى الدَّهْر صَعْدَتَهُ ، وَبَلَّلَ القَطْرُ بُرْدَتَهُ ، فَحَيَّا بلِسانِ عَضبٍ ، وَبيان عَذبٍ ، ثم شكَر عَلَى تَلبيَةِ صَوتهِ ، وَاعتذر مِن الطرُوقِ فى غيْر وقْتِه ، فدانَيْتُهُ المِصْبَاح المتَّقِدَ ، وَتأمَّلْتُه تأمُّلَ المنتقدِ ، فألفيتهُ شَيخَنا أبو زيدٍ بِلَا

(١) ديوانه ١٩٣ .

رفع المسهم

رَيبٍ ؛ ولا رجْمِ غَيبٍ ، فأحْلَلْتهُ مَحلَّ مَن أظْفَرنى بقُصْوَى الطَّلَب ونقلنى من وقْذِ الكَرَبِ ، إلى روْح الطَّرَبِ . ثمَّ أخَذ يشكو الأيْن وَأخذتُ فِي كَيفَ وَأين ، فقال : أبلغنى رِيقى ، فقد أتعبنى طريقى ، فظننتهُ مستبطئاً للسَّغَب ، متكاسلا لهذا السَّبب ، فأحْضرته مايُحْضَرُ للضيفِ المفاجِى ، فى الليل الدَّاجى .

* * *

الشّعاع : مايبدو لك من الشمس إذا ظهرت كالخيال . نمّ : أفشى السرّ : والطّرس : الكتاب . العنوان : مايكتب على ظهره ، يريد أنّ كلام الطارق دلّ على مراده . والمسامرة ، هى المساهرة . غُنْم : غنيمة . نَعْم : نعمة . بسلام ، أى بسلامة وأمن . قوله : « صَعْدته » ، الصَّعدة : الرمح الطويل ، وكنى به عن القامة . بردته : ثوبه . عَضْب : قاطع . تلبية : قولى له : لبّيك . الطروق : المجىء بالليل . دانيته : قربت منه . تأمّلته : نظرته . المنتقد : المجرب للدراهم ، أى نظرته بعين المباحثة ، ألفيته : وجدته . ريب : شك . رجم الغيب : رمى الظنّ . أظفرَنى : مَلّكنى . قُصْوَى : غاية ، وهى مؤنث الأقصى أى الأبعد . وَقْذ الكرب . حرقة الهموم : روح الطرب : راحة السرور . الأيْن : التعب كيف : سؤال عن حال . وأيْن : سؤال عن مكان ، أى سألتُه كيف حالُك ، ومن أين جئت . أبْلِغنى ريقى ، أى لا تكثر علىّ السؤال فيعجلنى جوابك عن بلع ريقى . السَّغَب : الجوع ، وقد سغَب وسغِب جاع . الدّاجِى : المظلم .

* * *

فانقبض انقباضَ المحتشمِ ، وأعرض إعراضَ البشِمِ ، فسؤتُ

ظَنًّا بامتناعِه ، وأحفظنى حُئولُ طباعه ، حتى كِدتُ أُغلِظ لهُ فى الكلامِ ، وألسَعهُ بحُمَةِ الملامِ ، فتبيَّن من لمحات ناظرى ، ماخامرَ خاطرِى ، فقال : ياضعيفَ الثِّقة ، بأهل المقَة ، عَدِّ عَما أخطرتَهُ بَالَكَ ، واستمِعْ إلىَّ لا أبا لك ! فقلت : هاتِ ، يا أخا التُّرّهات ، فقال : اعلم أنى بتُّ البارحةَ حليف إفلاسٍ ، ونجيَّ وَسواسٍ ، فلما قضى الليلُ نحبَه ، وغوَّر الصُّبحُ شُهْبَهُ ، غدَوْتُ وقتَ الإشراقِ ، إلى بعض الأسواقِ ؛ مُتَصَدِّياً لِصَيْدٍ يَسْنَحُ ، أو حُرٍّ يَسْمحُ ، فلحظْتُ بها تمرًا قَد حَسُنَ تَصْفِيفُه ، وأَحْسَن إليهِ مَصِيفُهُ ، فجمعَ عَلَى التّحقيق ، صفاءَ الرَّحيق ، وقنوءَ العقيق ، وقُبالته لِبَأٌ قَدْ بَرَز كالإبريز الأصفر ، والجلَى فى اللّونِ المُزَعْفَرِ ، فهو يُثْنِي على طاهيهِ ، بلسانِ تناهِيه ، ويصوِّب رأى مُشتريه ، ولو نقد حبَّة القلب فيه .

* * *

الحتشم : المستحى هنا . أعرض : نحّى وجهَه ، وتحقيقه : ولَّى عُرضه ، أى جانبه . البِشِم : الكسِل من الشِّبَع وقد بِشِم بشما : مرض من كثرة الأكل . سؤت ظنًّا : ساء ظنى ، وظنًّا المنصوب على التمييز فاعل فى المعنى ، من باب تفقّأ شحماً . أحفظنى : أغضبنى . حُئول طباعه : تغيّر أخلاقه . حُمة الملام : سَمّ العتاب . ألسعه : أقرصه بلسانى ، ولسعته العقرب : ضربته بإبرتها .

لمحات ناظرى ، أى خطرات عينى . خامر خاطرى . خالط فكرى . المِقة : الحبّ . عَدِّ ، أى اصرفه عن نفسك . الترّهات : العجائب ، وأيضاً الأباطيل ،

رفع المسهم

وأصلها الطرق الصغار المتشعبة عن الطريق الأعظم . حليف إفلاس : ملازم فقر. نجيّ : محدّث. ولما كانت الوساوس تشغل بال الإنسان وتجعله يتحدث وحده جعل نفسه محدّثاً لها . قضى نحبه : تمّ وانقضى ، وقضى الرجل نحبه : مات . والنّحب: النذر . وغوّر : غيّب . شهبه: نجومه . والإشراق: ارتفاع الشمس وصفاؤها . الأسواق : جمع سوق ، وسميت سوقاً ، لأن الأشياء تساق إليها ، وتساق منها ، أولأن سُوق الناس تكثر فيها . والسُّوق : جمع ساق ، والسَّوْق بالفتح: مصدر سقت ، وبالضم الاسم . متصديا : متعرّضاً .

يسنح : يعرض من جهة اليمين ويزاد بياناً عند ذكر السانح والبارح . يسمح : يجود . لحظت : نظرت، ولحظى: أضيق عيني، أي أبصرت بضيق عيني . تصفيفه ، أي جعله صفاً واحداً ، وصففت الشيء : جعلته صفًّا واحداً مضموماً . المصيف : زمن الصيف . الرحيق : الخمر . قنوء : حمرة . العقيق : خرز أحمر .

عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «تختموا بخواتيم العقيق فإنه لا يصيب أحدَكم غمّ مادام عليه ذلك» واللّبأ : أول مايحلب من اللبن وهو لم ينضج . برز : ظهر . الإبريز : الذهب الخالص . المزعفر : المصبوغ بالزعفران .

ويروى : «المعصفر» ، وهو المصبوغ بالعصفر . وطاهيه : طابخة :تناهيه . غايته وكماله، يقول :«هذا اللّبأ بحسن صنعته وجودة طبخه كأنه يثني للمشترين على طابخه وإن لم يكن له لسان ، فكماله في الحسن وجودته في الصنعة قام له مقام اللسان ، ويسمّى هذا الكلام بلسان الحال قال الشاعر :

ولسان نعمتك التي قلدّتني بالشكر أبلغ من لسان بياني

وقال المتنبي :

تُنشد أثوابنا مدائحَهُ بألسن ما لهنّ أفواهُ[1]
إذا مررنا على الأصمّ بها أغنته عن مسمعيه عَيْناهُ[2]

أخذه من قول نصيب :

فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهلُه ولو سكتوا أثنتْ عليك الحقائبُ[3]

وقال أبو العتاهية :

أيا عجبا كيف يعصى الإلـــه أم كيف يجحده الجاحدُ !
وفى كلّ شىء له آية تدلّ على أنه واحـــدُ
ولله فى كلّ تسكينة وتحريكة فى الورى شاهدُ

وقال الفضل بن عيسى الرقاشى : سَلِ الأرضَ : مَنْ غرس أشجارَك ، وشقّ أنهارك ، وجَنَى ثمارك ؟ فإن لم تجبك حواراً ، أجابتك اعتباراً .

---

(١) ديوانه ٤ : ٢٦٥ وفى شرحه : « قال أبو الفتح : يخلع عليهم ثيابا تنشد مدائحهم فيه ، بألسن مالهن أفواه تقعمج لجدتها ، والأصم يستغنى برؤيتها عن صوتها ، فقد اجتمع فيها الحسن والقعقعة . قال العروضى : هذا كلام من لم ينظر فى معانى الشعر ، ولم يرد الكثير فيه ، وكنت أرباً بأبى الفتح عن مثل هذا القول ؛ ألم يسمع بقول نصيب :

فعاجُوا فأثنوا بالذى أنت أهلُه ولو سكتُوا أثنت عليكَ الحقائب

ولم يكن للحقائب قعقعة ، وإنما أراد أنهم يرونها ممتلئة ، وكذلك أراد المتنبى بألسن خاله وأثوابه ، فيراها الناس عياناً ، فيعلمون أنها من هداياه ، فكأنها قد أثنت عليه ، وأنشدت مدائحه بألسنة لاتتحرك فى أفواه ، لأنها لاتنطق فى الحقيقة ، وإنما يستدل بها على جوده ؛ فكأنها أخبرت ونطقت .

(٢) الأصم : الذى لايسمع ، والمسمعان : الأذنان .

(٣) البيان والتبيين ١ : ٨٣ ، وقبله هناك :

أقولُ لركبٍ صادرينَ لقيتُهم قِفَا ذات أوْشالٍ ومولاكَ قاربُ
قِفُوا خبِّرونا عن سليمان إنّنى لمعروفِهِ من أهل ودّان طالبُ

ومنه سؤال العرب للمنازل الخالية والديار الدارسة ، وقال شاعرهم :

وأجهشتُ للتَّوْباد حين رأيتُه ... وكَبَّر للرحمن حين رآنى[1]
وأذريت دمع العين لمّا رأيته ... ونادى بأعلى صوته فدعانى
فقلت له أين الذين عهدتهمْ ... حواليك فى أمن وخصب زمان !
فقال مضوْا واستودعونى ديارهم ... ومن ذاالذى يبقى على الحدَثان![2]

التَّوْباد[2] : جبل بنى عامر ، وجوابه لهذا الشاعر بالمعنى ، فجعله لفظياً مجازاً ، وهذه الحالة الدالة التى سماها الجاحظ فى أقسام البيان النِّصْبة ، قال الجاحظ : جميع أصناف الدلالة على المعانى من لفظ أو غيره خمسة لا تنقص ولا تزيد ، أولها اللفظ ثم الإشارة ، ثم العقد ، ثم الخط ، ثم النِّصْبة ، والعَقد ؛ أخذ العدد فى الأصابع[3] .

قوله : « نقد » أى أعطى نقداً ، وهو المال الحاضر . حبّة القلب : سواده .

* * *

فأسرتنى الشهْوَةُ بأشطانها ، وَأسْلَمَتنِي الْعِيمَةُ إِلَى سُلطانها ، فبَقِيتُ أحْيَرَ من صَبٍّ ، وأذْهَلَ مِنْ صَبٍّ ، لاَ وُجدَ يُوصِلُنى إِلَى نَيلِ المُرَادِ ، وَلَذَّةِ الازدِرَادِ ، وَلَا قدمَ يُطاوِعُنِي على الذَّهَابِ ، معَ حُرقةِ الالْتِهَابِ ، لـكِن حَدَانى الْقَرَمُ وَسَورَتُه ، وَالسَّغَبُ وفوْرَتُه ، عَلَى أَن أَنتَجِعَ كلَّ أَرض ، وَأَقتَنِعَ من الوِرْدِ بِبَرْض ، فلَم أزَلْ سَحابةَ ذلِك النَّهارِ ، أُدْلِي دلْوِي إِلى الأنهارِ ، وَهِيَ لاَ تَرْجِع

(١) ياقوت ١ : ٤٢٤ ، مع اختلاف فى الرواية .
(٢) ط : التربان ، صواب فى ا ، ب وياقوت . (٣) البيان والتبيين ١ : ٧٦

بِبِـلَّةٍ ، وَلاَ تَجْلِبُ نقع غُـلَّة ، إلى أن صَفَتِ الشّمسُ لِلْغُرُوب ، وضَعُفتْ النفسُ من اللُّغُوبِ ، فُرِحْتُ بـكَبِدٍ حَرَّى ، وانثنيتُ أقدِّمُ رجلاً وأؤخّرُ أخرَى .

* * *

أسرتى : ربطتنى كالأسير . أشطانها : حبالها . أسلمتنى : تركتنى . العيْمة : شهوة اللبن . وسلطانها : قدرتها وغلبتها ، يريد أنّ الشهوة إلى اللَّبأ قهرته حتى تركته مستسلماً لا يملك نفسه .

[الضب وبعض طباعه]

الضّبّ : يشبه الحِرذون ، وهو حِرْذون الصحراء وإذا فارق جحرَه لم يهتد إليه فيتحيّر . فيجعل خجراً عند جُحره واقفاً ليهتدى به ، فإذا أزاله الصائد تحيّر ، فجاء فأخذه ، وربما قتله بذلك الحجر ، قال الشاعر :

وإن الضب ذو دَهْيٍ ومكرٍ كما اليربوعِ والذّئبِ اللعينِ (١)
يرى مِرْدَاته من رأس مِيلٍ ويأمنُ سيل بارقة هَتونِ (٢)
ويُدخل عقرباً تحت الذُّنابى رواغَ الفهد من أسدٍ كمينِ

جعل الذئب لعيناً ، لأنّ مَنْ رآه صاح عليه . ومرداته : حَجَره ، والعقرب يعدّه الضبّ للصائد إن أدخل يده فى جحره ، وأخذ بذنبه ، لسعته العقرب ، وربما أكل العقارب وترك منها واحداً فى باب جُحْرِه للصائد ، قال الشاعر :

وأخدعُ من ضبٍّ إذا جاء حارش أعدّله عنـد الذُّنابة عقْرَبا (٣)

والضبّ ، يوصف بالضلال وقالوا فى بيت المتنبى :

لقد لَعِبَ البينُ المشتّ بها وبى وزودنى فى السير مازوّد الضَّبّا (٤)

(١) الحيوان ٦ : ٤٥ . (٢) المرداة : الصخرة التى يرمى بها .
(٣) الحيوان ٦ : ٥٣ ، الكامل ١ : ٢٧١ ، (لسعته) : الميدانى ١ : ١٣٩ .
(٤) ديوانه ١ : ٦٠

أراد أنه زودنى الضلال عن وطنى ، الذى خرجت منه ، فما أوفق للعوْد إليه ، والاجتماع مع الحبيب .

وقال الواحدى يقول : جعل البين زادى زادَ الضب ، والضبّ لا يتزود فى المفازة ، ومعناه : فارقت الحبيب من غير وداع ولا التقاء يكون لى زادا على البعد . ويقال أيضا : أخدع من ضبّ ، وذلك أنه يطمع الصائد فى نفسه ، فإذا حنق عليه خدع فى جحره ، ومنه أخِذ معنى الخداع .

ويقال فيه : إنه أعقّ من ضبّ ، وذلك أنه يأكل أولاده ، ويكنى أبا الحِسْل ويسمّى ولده الحسل . وأمثال العرب به كثيرة . ويزعمون أنه كان حَكَمًا فى الدوابّ فى الزمان ، الذى كانت فيه الحيوان تتكلم . وعنه يروون : فى بيته يؤتى الحكم ، يعنى نفسه . وفيه خواص ليست فى الحيوان ، تزعم العرب أنه لا يشرب الماء ، وإذا أخذه العطش صعد ربوة واستقبل الريح ، وأنه طويل العمر . ويقولون : إنه أحيامن ضب ، يريدون أن حياته لا تكاد تنقضى ، وأنه لا يسقط له سنّ ، وأنه أطول الدواب دما ، وإذا ذبح يبقى زمانا ، وحينئذ يموت ، وأن له ذكرين ولأنثاه فرجين .

* * *

« أذهل من ضبّ » : أى أشغل قلباً من عاشق ، ووساوس العشق أفضت ببعض العشاق إلى الجنون . وُجْد : غنى ، وقد وجدت وجدا ، أى كثر مالى والازدراد : كثرة الأكل ، وزردت الطعام وازدردته إذا ابتلعته ، الالتهاب : اشتعال نار الجوع . حدانى : ساقنى . القرَم : شهوة اللحم ، وأراد به شهوة الأكل . سَوْرته : شدته . وفوْرة السغَب : غليان الجوع . أنتجع : أمشى فى طلب ما آكل . والوِرد : الحظ من الماء . والبَرْض : قليل الماء . سحابة ذلك النهار ، أى طوال ذلك النهار ، كما تقول : بياض يومى ، أى يومى كله ، أى لم يزل طول يومه يستجدى فلم يُعْط شيئاً . نقع غلّة : إرواء عطش صفت : مالت . اللُّغوب : الفشل . حرّى : ملتهبة . انثنيت : رجعت .

[مقامة البـــديع المجاعية]

أطال أبو محمد هذه المقامة حتى كادت تثقل على السامع ، وللبديع فيما يتعلق بمعناها مقامة بتراء فلو زيد فى البديعية وقصر فى الحريرية لاعتدلتا . وها أنا أذكر البديعية هنا بجملتها ؛ لرشاقتها وخفّتها .

قال عيسى بن هشام : كنتُ [١] ببغداد عام المجاعة ، فدفعت إلى جماعة قد نظمهم [٢] سلك الثريا ، وكلهم يطلب شيئاً ، وفيهم ذولثغ [٣] فى لسانه وفلَج فى أسنانه [٤] ، فقال : ماخطبك ؟ فقلت : حالات لا يُفلِح صاحبهما ، فقير كدّه الجوع ، وغريب ليس يمكنه الرجوع ، فقال [٥] ، أى الثلمتين تريد [٦] سدّها؟ فقلت : الجوع ياسيدى ، وقد بلغ منّى [٧] مبلغه ، فقال : ماتقول فى رغيف ، على خِوان [٨] نظيف ، ونقل قطِيف [٩] ، على لون لطيف [١٠] ، وخردل حرِّيف [١١] ، إلى شواء صفيف [١٢] ، يقربه إليك من لا يماطلك [١٣] بوعد ، ولا يعذبك بصدّ . [ثم يعلّك بعد ذلك بأقداح ذهبية ، من راح عِنَبيّة] [١٤] ، أذاك أحب إليك أم أوساط محشوة وأكواب مملوة ، وأنقال [١٥] معدّدة ، وفرش

---

(١) مقامات البديع ص ١٦٢ ، ١٦٣ (٢) المقامات : « ضمهم » .
(٣) اللثغ واللثغة : أن يبدل بعض الحروف ببعض .
(٤) الفلج : تباعد مابين الأسنان .
(٥) المقامات : « فقال الغلام » .
(٦) المقامات : « تقدم سرها » . والثلمة : أصل الشق فى الحائط ونحوه .
(٧) المقامات : « مبلغا »
(٨) الخوان : المائدة .
(٩) المقامات : « وبقل » ، والقطيف : المقطوف .
(١٠) المقامات : « إلى خل ثقيف » وأصل اللون : الدقل . وهو نوع من النخل .
(١١) الخردل : حب شجر معروف . والحريف : الذى له لذعة فى اللسان .
(١٢) الشواء : اللحم المشوى (١٣) المقامات : « من لا يمطلك » .
(١٤) من المقامات . (١٥) الأنقال : جمع نقل ، وهو ماينقل من الخمر .

منضدة ، [وأنوار مُجَوَّدة][1] ومُطْرِبٌ مُجيدٌ ، له من الغزال عين وجيد ، فإن لم ترد هذا ولا ذلك ، فما تقول فى لحم طيرىّ[2] ، وسمك بحرىّ ، وباذنجان مقلىّ ، ورَاح نقىّ ، وتفاح جنىّ ، ومضطجع وطىّ ، على حذاء نهر جارٍ ، وبركة ذات ثرثار .

فقلت : أنا عبد الثلاثة ، فقال : وأنا خادمها لو حضرت[3] ، فقلت من أىّ الحجرات[4] أنت ؟ فقال :

من ربعة الإسكندريّة[5] من نَبْعةٍ فيهم زكيّهْ
سَخُفَ الزّمان وأهلُه فركبتُ من سخفى مَطِيّهْ

* * *

وبينما أنا أسعى وأقعد ، وأهبُّ وأركد ؛ إذْ قابلنى شيخٌ يتأوَّه آهةَ الثَّكْلان ، وعيناهُ تهمُلان ، فما شغلنى ما أنا فيهِ من داء الذِّيب ، والحَوَى المذيب ، عَنْ تعاطى مداخلته ، والطَّمَع فى مخاتلته ، فقلت له : ياهذا ، إنّ لبُكائكَ سِرًّا ، ووراء تحرُّقك لشرًّا ، فأطلِعْنى على بُرَحائك ، واتّخذنِى من نصحائك ، فإنك ستجد منى طَبًّا آسيًا ، أو عونًا مواسيًا ، فقال : والله ما تأوُّهى من عيشٍ فاتَ ، ولا من دهْرٍ افتات ، بل لانقراضِ العلم ودرُوسِهِ ، وأفولِ أقمارِه وشموسِه ، فقلت : وأىّ حادثة نجمتْ ، وقضيّةٍ استعجمتْ

(١) من مقامات الهمذانى .
(٢) المقامات : « طرى »
(٣) المقامات : «لو كانت» (٤) المقامات : « الخرابات »
(٥) المقامات « أنا من ذوى الإسكندرية »

رفع المسهم

حتَّى هَاجت لك الأسف ، على فقدِ مَن سلف . فأبرزَ رقعةً مِنْ كمّهِ ، وأقسمَ بأبيهِ وأُمِّهِ ، لقد أنزلها بأعلامِ المدارِس ؛ فما امتازُوا عَن الأعلام الدَّوَارِس ، واستنطقَ لها أحبارَ المحابر ، فخرسُوا وَلا خرَسَ سكّان المقابر ، فقلتُ : أرينها فلعلّي أُغْنِي فيها ، فقال : ماأبعدت فى المرام ؛ فربَّ رميةٍ من غيرِ رامٍ . ثم ناوَلنيها ، فإذا المكتوب فيها :

* * *

قوله : « أسعى » ، أى أمشى مسرعاً . أهبّ وأركد : أتحرك وأسكن ، أراد أجرى وأقف ، وأصل الهبوب والركود للريح . يتأوه : يتوجّع ويقول : آه ، وهو قول الحزين . آهة الثكلان : توجّع الفاقد لأحبابه . تهملان : تسيلان ، وداء الذئب : هو الجوع ، والذئب أصبر السِّباع على الجوع وأعفّها ، وإذا افترس شاة أكل منها شبعة وترك سائرها ولم يرجع إليها ، وعافه إن أروَح[1] . الخوَى : خلوّ الجوف من الطعام . المذيب : المذهب اللحم والقوى . التعاطى : تناول مالا تحبّ . ومداخلته : معرفة سرّه . مخاتلته : مخادعته . تحرّقك : توجعك . والبُرَحاء : الشدّة والمشقّة . طَبًّا : حاذقاً . آسيا : طبيباً . مواسياً : معيناً ، والمواساة تكون بالنفس أو بالمال ، ويشاكل كلامه قول الشاعر :

ولا بدّ من شكْوَى إلى ذى مروءةٍ يُواسيك أويسلِيك أو يتوجَّعُ

افتات : ظلم وجاوز الحدّ . انقراض : انقطاع . دروسه : محوه . أفول :

---

(١) أروح : أصبحت له رائحة .

مَغِيب ، وكَنَى بالأقمار والشموس عن مشاهير العلماء ، وبأفولهم عن هلاكهم ، قال أبو الدرداء رضى الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «موت العالم مصيبة لا تجبر ، وثُلْمة لاتسدّ ، ونجم طمس ، وموت قبيلة أيسر من موت عالم». حادثة : نازلة وأمر حَدَث . نجمَت : ظهرت . قضية : قصّة . استعجَمت : أشكلت . هاجت : حركت . الأسف : الحزن . سلف : مات وذهب . أعلام : مشاهير ، وأصلها الجبال يُستدلّ بها على مجاهيل الأرض . المدارس : جمع مَدْرسة ، وهى المحاضر التى يدرس فيها العلم . امتازوا : افترقوا . والأعلام الدَّوارس : الجبال المقفرة الخالية من الأشجار والعمران . استنطق : استخبر ، وسألهم أن ينطقوا ويجيبوا عنها . أحبار : علماء . خرسوا : سكتوا . أُغْنِى : أقرّب وأنفع . المرام : الطلب .

* * *

[أصل المثل : رُبَّ رمية من غير رامٍ]

ربّ رميةمن غير رام[1] ، أى قد يصيب الغرض مَنْ ليس له علم بالرماية ، وهو مثَل ، قاله حكيم بن عبد يغوث المنقرىّ ، وكان حكيم من أرْمَى الناس ، فأقسم يوما ليَعقرنّ[2] ولابدّ ، فخرج ومعه قوسه فرمَى ولم يصنع شيئاً ، فبات ليلَه بأسوأ حال ، وفعل فى اليوم الثانى والثالث كذلك ، فلما أصبح قال لقومه : ماأنتم صانعون ، فإنى قاتل اليوم نفسى إن لم أعقِر اليومَ مهاةً ؟ فقال له ابنه : ! يا أبت احملنى معك ، أرْفِدْك ، فقال : وما أحمل من رَعِشٍ هِل ، جَبانٍ فشل ، فانطلقا فإذا هما بمهاةٍ فرماها فأخطأها ، ثم مرت به أخرى ، فقال له ابنه مطعم : ياأبت ناولنى القوس ، فغضب أبوه وهمّ أن يعلُوَه بها ، فقال له مطعم : أحمد بحمدك ، فإن

---

(١) الفاخر ١٤٣ ، مجمع الأمثال ١ : ٢٩٩ .

(٢) الفاخر : « ليدجن » .

رفع المسهم

سهمى سهمُك ، فناوله القوسَ ، فرمى مطعم فلم يخطىء ، فقال عند ذلك حكيم : رُبَّ رمية من غير رام ، وقال :

رماها مطعِم من غير علمٍ ... بمسّ القوس لم يخطىء صلاَهَا
وكان أبوه قد آلَى عليها ... فلم تبرر أليّته مَرَاهَا

* * *

أيها العالم الفقيهُ الذى فا ... قَ ذكاءً فما لَهُ من شَبيهِ
أفْتِنا فى قضيّةٍ حادَ عنها ... كلّ قاضٍ وحارَ كلُّ فقيهِ
رجلٌ ماتَ عَنْ أخٍ مسلمٍ حرٍّ ... تَقِىٍّ من أُمِّهِ وَأَبِيهِ
وله زوجةٌ لها أيُّها الحِـــبْرُ أخٌ خالصٌ بلا تَمْوِيهِ
فحوتْ فَرْضَها وحاز أخوها ... ما تبقّى بالإرثِ دونَ أخيهِ
فاشفِنا بالجوابِ عمّا سألْنا ... فهوَ نصٌّ لا خُلْفَ يوجَدُ فيهِ

فلما قرأتُ شِعْرها ، ولمحتُ سِرَّها ، قلت له : على الخبير سَقطْتَ ، وعندَ ابن بَجْدَتِها حَطَطت ، إلاّ أنى مضطرمُ الأحشاء ، مضطرٌّ إلى العَشاء ؛ فأكرِمْ مثواىَ ، ثمّ استمع فتوَاى ؛ فقال : لَقَدْ أنصَفْتَ في الاشتراطِ ؛ وتجافَيْتَ عن الاشتطاطِ ؛ فصِرْ معى إلى مربعى لنَظفَر بما تبتغى ، وتَنْقلِبَ كما ينبغى . قال : فصاحَبْتُه إلى ذَرَاه ، كَما حَكم الله . فأدخلَنى بيتًا أحرج من التابوت ، وأوْهَن من بَيْت العنكبوت ، إلاّ أنّه جَبَرَ ضِيقَ ربعه ، بتوسعة ذَرْعِه ، فحكّمنِي فى القِرَى ، ومطَايِب ما يشترى ؛ فقلتُ : أريدُ

أزهى راكبٍ على أشهى مركوبٍ ، وأنفعَ صاحبٍ معَ أضرّ مَصْحُوبٍ .

* * *

قوله : « فاق » ، أى فضل . ذكاء : حدّة ذهن . حاد : مال .

قوله : « رجل مات عن أخ . . . » ، البيت .

فائدة ذكر الأخ ، إثبات النَّسب ، لأن الأجنبىّ لا يرث ، وفائدة ذكر المسلم أنّ أهل دينين لا يتوارثان ، وفائدة ذكر الحرّ أن العبد لا يرث الحرّ ، وأما التقىّ ، فما لقيت من أشياخنا من نَبّه عليه ، حتى حدّثنى به الفقيه أبو العباس اللَّيْثِىّ ، عرف بالحضّار ، فقال فائدة لطيفة ، وهى التحرّز من قاتل العَمْد ، لأنه لا يرث وليّه ، فأراد أن موجبات التوارث قد كملت لهذا الوارث ، ومع هذا لم يرث أخاه .

والحِبْر : العالم . تمويه : شكّ وكذب . حَوَتْ : حازت . الإرث : لغةٌ فى الورْث ، وهو بالهمز بدل من الواو . لمحت : أى نظرت ، واللمحة نظرة غير متمكّنة . ابن بجدتها : عالم سرّها ، ويقال : بجد فى المكان إذا أقام به ، والمقيم بالموضع عالم به . وقيل : أصله من قولهم : فلان من أهل البَجد ، أى من أهل البادية ، وهم العلماء باللسان على ما وضع . حطّت : نزلت ، والخبير : عالم الخبَر ، وهذه أمثال للعالم بحقيقة الشىء . مضطرم : متّقد . مَثْوَاى : منزلى ، وأكرمت مثوَى الضّيف ، إذا أحسنت نُزُلَه ووطّأت له . فتواى : ما أفتيك به . الاشتراط والشرط بمعنى . تجافيت : تباعدت . الاشتطاط : مجاوزة الحدّ . مربعى : منزلى . تظفر : تفوز ، وأصله من الظُّفْر ، كأنه إذا ظفر بشىء أنشب أظفاره فيه . تنقلب : ترجع . ذَراه : منزله ، وكلّ ما كان من حائط وشبهه ذَرًى . أحرج : أضيق . أوْهَن : أضعف . جبر : أصلح . توسعة ذرعه :

رفع المسهم

سعة خلقه واحتماله . القِرَى : طعام الضّيف . مطايب : جمع طيب ، على غير قياس . أزهى : أعجب ، والزّهو الكِبْر ، وكانوا يصفّفون التمرة على اللّبأ عند بيعه ، فيريد بالراكب التمر وبالمركوب اللّبأ ؛ لأنهم يشقّون التمرة ويغترفون بنصفها من القَدَح الذى فيه اللّبأ . ويريد : بأنفع صاحب التمر ، وبأضرّ مصحوب اللّبأ ، وهذا يوافق قول الأعرابىّ :

ألاليت لى خبزًا[1] من التمر واللّبا وخَيْلاً من البرنىّ فرسانها الزّبد
فأطلب فيما بينهنّ بشهادة بموت كريم لايعدّ له لحدُ

والبَرنىّ من أفضل التمر ، وقال مُحار الكلابىّ :

أكلت الضِّباب فما عفتُها وإنى لأهْوَى قديد الغَنَمْ
وركّبت زبدًا على تمرةٍ فنعم الطعام ونعم الأدَمْ

والعرب تقول : على الثمرة مثلها زبدا ؛ وقيل فى تفسيره بالعكس ، لأنّ الأطباء يقولون : إن التمر مضرّ سريع العفن ، يولّد السّدَاد ، ويقولون أيضا : إنه حارّ رطب ملّين للبطن يولّد المنىّ ، فيقابل ضررُه نفعَه ، وكفى لنا أنه قوتٌ يُكتفى معه بأدنى الطعام ، وفيه قوة زائدة ، وبالجملة فاللفظ مشكل ، وماوجدت من يحققه .

ويُستملَح من كلام الحريرىّ أنه أراد بالراكب وبأنفع صاحب التمر ، لأنه قدّمه فى التفسير حين قال : لعلّك تعنى ابنة نُخيلَة ، مع لِبَإ سخيلة ، وليس فى الأبيات المتقدمة شاهد على اللّبأ ، لأن حكم الزبد للزوجة ، وتعلقه بالتمرة غير حكم اللّبأ ، فبالحرَى يقرن اللّبأ بالتمر إذا شقّت ، وجعله أضرّ مصحوب لأنه لبن لم ينضج ، والنار تقطع بعض ضرره .

---

(١) ط : « خيرا » تصحيف ، صوابه من ا ، ب .
(٢) السداد : داء يسد الأنف ، ويمنع نسيم الريح .

رفع المسهم

وقال الفنجدبهيّ : أزهى راكب التمر ، أى أحسن منظراً وأكثر حمرة ، وأشهى مركوب اللُّبأ . وجعل التمر راكباً واللُّبأ مركوباً ، لأنّ التمر يُجْتَنَى من رءوس النخل ، فهو كالراكب ، ولأن اللبأ يَضع تمرات فوق اللُّبأ والرائب ، ليزيد رغبة المشترى فيه . وجعل التمر أنفع صاحب ، لا كتفاء العرب به عن جميع المطعومات ، حتى يبقى أحدهم دهراً لا يأكل إلا التمر ، ولا يضرّه ذلك ، وجعل اللبأ أضرّ مصحوب ، لأنه يولِّد الصفراء .

وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها : إنا كنا آل محمد صلى الله عليه وسلم نمكث شهراً لا نستوقد ناراً ؛ إن هو إلا الأسودان : الماء والتمر .

وقال صلى الله عليه وسلم : « بيت لا تَمْر فيه جياعٌ أهله » .

والعرب تستحسن أكل الزّبد مع التمر ، قال سفيان الثورىّ : ما رأيت أحسن من زبدة على إزادة .

وقال معاوية لعبد الرحمن بن أبى بكر : أىّ اللقمة أطيب ؟ قال : تعضوضة عليها مثلها زبداً ، والإزاد نوع من التمر ، والتّعضوض تمر أسود .

وقالوا : ما أكلنا تمرًا أحمدَ من التّعضوض ، أى أشد حلاوة ، وتاؤه زائدة .

* * *

فأفكرَ ساعةً طويلةً ، ثم قال : لعلَّكَ تعْنِي بنت نُخَيلَةَ مع لِبَإِسُخَيلة ، فقلت : إيّاها عنيت ، ولأجلها تَعَنَّيْت ، فنهض نشيطاً ، ثمّ ربَضَ مُسْتشيطا ، وقال : اعلم أصلحك الله ، أن الصدق نباهةٌ ، والكذب عاهةٌ ؛ فلا يحملنّك الجوع الذى هو شعار الأنبياء ، وحِليةُ الأولياء

على أن تلحق بمن مانَ ، وتتخلّقَ بالخُلُق الذى يجانب الإيمان ، فقد تجوع الحرّة ولاَ تأكل بثديَيْها ، وتأبَى الدنيّةَ ولو اضطُرّتْ إليها . ثم إنى لست لكَ بزَبون ، ولاَ أُغْضِى على صفقة مغبون ، وها أنا قد أنذرتُك قبل أن ينهتِكَ السِّتْرُ ، وينعقِد فيما بيننا الوِتْرُ ، فلا تُلْغ تدبُّرَ الإنذار ، وحذارِ من المكاذبة حَذار .

* * *

قوله : «سخيلة» ، السَّخِيلة : ولد الشاة ذكراً كان أو أنثى . تعنّيت : تعبت .

وقال أعرابىّ : أنا أشتهى ثريدة دَكْناء من الفلفل ، زَقْطاء من الحمّص ، ذات جناحين من اللحم ، لها جناحان من الفُواق ، فأضرب فيها كما يضرب ولىّ السوء فى مال اليتيم .

وقال رجل لأعرابىّ : ما يسرنى لو بتُّ ضيفاً لك ، قال : لو بتَّ ضيفاً لى أصبحتَ أبطن من أمّك قبل أن تلدك بساعة .

قيل لأشعب : ما تقول فى ثريدة مغمورة بالسمن ، مشقّفة باللحم ؟ قال : فأضرب كم ؟ قالوا : تأكلها من غير ضرب . قال : هذا ما لا يكون ، ولكن لم أضرب أو أتقدم على بصيرة ؟

وقيل لمزبّد ـ وقد أكل طعاما كظّه[1] : قئه ، فقال : وما فيه ! خبز نقىّ ، ولحم جدى طرىّ ، امرأته طالق لو وجدت قيئاً لأكلته .

قوله : «نهض» ، تقدّم للشى . نشيطاً : أى خفيفا ، وهى من الأنشُوطة . ربض : نزل . مستشيطا : شديد الغضب . نباهة : رفعة . عاهة : آفة وعيب .

---

(١) ط : « فكه » ، وما أثبته من العقد ، والخبر فيه : قيل لمزيد المدينى ، وقد أكل طعاما كظه : قئ ، قال : أقئ خبزاً نقيا ، ولحم جدى ! امرأته طالق ، لوجدتهما قيئا لأكلته .

رفع المسهم

شعار : علامة ، وشعار المؤمنين فى الحرب « لا إله إلا الله » ، أى علامتهم ، والأنبياء عليهم السلام منزّهون عن شهوات المطاعم .

أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :« نور الحكمة الجُوع والتباعد من الله الشِّبع ، والقُربة إليه حبّ المساكين والدنّو منهم . لا تشبعوا فتطفئوا نور الحكمة من قلوبكم ، ومَنْ بات يصلّى فى خِفّة من الطعام ، بات حُور العين حوله حتى يصبح» .

أبو هريرة رضى الله تعالى عنه : دخلت على النبىّ صلى الله عليه وسلم فقلت : ما أحوجك إلى الجلوس ؟ قال : الجوع ، فبكيت ، فقال : لا تبكِ ، فإن شدّة القيامة لا تصيب الجائع إذا ما احتسب .

قوله : « حلية » : صفة يتحلّون بها . وتتخلّق : تتطبّع . يجانب : يباعد . وأشار لقوله صلى الله عليه وسلم ، قيل : أيكون المؤمن كذّابا ؟ قال : لا .

عمر رضى الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يبلغ صريحَ الإيمان عبدٌ حتى يدَع المزاح والكذب والمِراء ، وإن كان محقًّا » .

وقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : اتقوا الكذب ، فإن الكذب مجانب الإيمان .

* * *

[أصل المثل : تجُوع الحرّة ولا تأكل ثديها]

قوله : «تجوع الحرّة ولا تأكل ثديها» ، أى لا ترضع[1] لبنَها بالأجرة ، ثم تأكلها ، وهو مثل يُضرب للذى لا يمنعه من صيانته شدّة فقره ، وهذا المثل للحارث بن سليل الأسدىّ ، وكان خطب إلى علقمة بن خَصَفة الطائىّ ـ وكان شيخًا ـ فقال علقمة لامرأته: اختبرى ما عند ابنتك[2] ، فقالت: أى بنيّة ، أىّ الرجال

(١) جمهرة الأمثال ١ : ٢٦١

(٢) اسمها الزباء ، كما فى الجمهرة والميدانى .

رفع المسهم

أحبُّ إليك؟ الكهل الجحجاح الواصل المِيّاح ، أم الفتى الوضّاح، الذهول الطمّاح؟ قالت : بل الفتى، قالت : إن الفتى يُغيرك ، وإن الشيخ يميرك ، قالت : ياأماه إن الفتى شديد الحجاب ، كثير العتاب ، يا أمّاه أخشى من الشيخ أن يدنّس ثيابى ويبلِيَ شبابى ، ويُشمِت بى أترابى . فلم تزل أمُّها بها حتى غلبتْها على رأيها . فتزوّجها الحارث ، ثم ارتحل بها إلى أهله ، وإنه لجالسٌ ذات يوم بفناء قُبّته ، وهى إلى جانبه إذ أقبل شباب من بنى أسد يعتلجون ، فتنفسّتِ الصُّعَداء ثم بكت ، فقال لها :ما يبكيك ؟ قالت : مالى وللشيوخ ، الناهضين كالفروخ ، من كل حوقل فنيخ؟ فقال : ثكلتْكِ أمّك ! تجوع الحرة ولا تأكل بثديها ، ثم قال : وأبيك لرُبَّ غارة شهدتِها ، وسبيّة أردفتُها ، وخمرة شربتها ، فالحقى بأهلك ، فلا حاجة لى فيك .

قولها : « الجحْجاح » : السيد السمح . والمِيّاح: الكثير المعروف، ويُغيرك يتزوّج عليك ، ويُميرك : يميرك ، ويعتلجون : يتصارعون. والحوقل : اللسِن ، والفنيخ: الضعيف الرِّخو. وقول العامة: لاتأكل ثدييها، أى لاتأكل لحم الثدى خطأ لا وجه له ، ويجوز على حذف مضاف تقديره أجْرَ ثدييها أو ثمنهما ، أو يكون على المجاز ، كأنها إذا أكلت أجرهما فقد أكلتهما ، ونحوه قول الشاعر :

إذا صبّ ما فى القَعْب فاعلم بأنّه دم الشَّيْخ فاشْرَب من دم الشَّيْخ أودَعَا

يريد رَجُلاً أخذا إبلاً فى دية أبيه ، فيقول له : إذا شربت لبنها فكأنك تشرب دم أبيك .

قوله : « وتأبى الدنيّة ولو اضطرت إليها » : أى تتمنّع من إتيان الفعل الدنىء ، ولو أُلجئت إليه . والزَّبُون : الذى يغلب فى المعاملات ، فَعُول بمعنى مفعول ، لأنه يزين أى يدفع عن استكمال حقه .

أغضى : أسدل جَفْنِي، أى لا أسكت لك على الخداع. أنذرتك : نبَّهتك . ينهتِك : ينقطع . الوِتْر : العداوة ، وقيل : الفرد ، فيكون معنى : « ينعقد بيننا الوتر» ، أى يرتبط . وترِى بوترك ، أى شخصى بشخصك فى هذه المعاملة ، أوعدك المضاربة معك إن خدعتنى . تُلْغ : تترك . الإنذار : التحذير . حَذَار ، أى احْذَر وخف .

* * *

فقلْتُ : والَّذِى حرَّمَ أكل الرِّبا ، وأحَلَّ أكْلَ اللُّبَا ، ما فُهْتُ بزور ، وَلاَ دَلَّيْتُكَ بِغُرورٍ ، وستخبُر حقيقة الأمْرِ ، وَتَحْمَدُ بَذْلَ اللُّبَأ والتَّمْر . فهشَّ هشاشةَ المصْدُوقِ ، وانطلق مُغِدًّا إلى السوقِ ، فما كان بأسْرَعَ من أن أقبل بهما يَدْلَحُ ، ووجهه من التَّعَبِ يَكْلَحُ ، فوضعهما لَدَىَّ ، وَضْعَ الممتنِّ علىَّ ، وقال : اضرب الجيشَ بالْجَيْشِ ، تَحْظَ بِلَذَّةِ الْعَيْشِ . فحسرت عن ساعِدِ النَّهِمِ ، وحملتُ حملة الفيلِ الملتهِمِ ، وهو يَلْحَظُنِي كما يلحظ الحَنِق ، ويودُّ مِنَ الْغَيْظِ لو اخْتَنَقَ ، حَتَّى إذَا هَلْقَمتُ النَّوْعَيْنِ ، وغادرتُهُمَا أثرًا بعد عَيْنٍ ، أقْرَدْتُ حَيْرَةً فى إظلال الْبَيَاتِ ، وَفِكْرَةً فِي جوابِ الأبْيَاتِ ، فما لَبِثَ أنْ قَامَ ، وَأحْضَرَ الدَّواةَ وَالأقْلام ، وقال : قَدْ مَلأْتَ الْجرابَ ، فأمْلِ الْجَوَابَ ، وَإلاَّ فتهيَّأْ إن نَكَلْتَ ، لاغترامِ مَا أكَلْتَ ،

فقُلْتُ له : ما عندِى إلاَّ التَّحقيق ، فاكتُبِ الجَوَابَ ، وبالله التوفيق .

* * *

الربا : البيع الفاسد .

ابن عباس رضى الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أكل درهماً من ربا ، فهو مثل ثلاث وثلاثين زنية[1] ، ومن نبت لحمه من السُّحت فالنار أولى به » .

فُهت : نطقت . زور : باطل . دَلّيتك بغرور : ، يريد أنه لم يعرِّر به بل صدَّقه . ستنخبر : ستجرّب . هش : اهتزّ . المصدوق : الذى أخبر بالصدق . مغذًّا : مسرعاً ، وقد أغذّ إغذاذاً ، إذا أسرع . يدلح : يتثاقل فى المشى ، ودلحَتِ الدَّابة بالحمل دلُوحا ، والسحاب بالماء . نهضت به ثقيلاً . يكلح : يعيش . المتنّ : المتفضّل . اضرب الجيشَ بالجيشِ ، أى اخلطهما عند أكلك لهما . تحظ : تسعد . حسرت عن ساعد ، أى شمرت عن ذراع . النَّهم : الكثير الشهوة والحرص على الأكل . الملتهم : المبتلع لما وجد . يلحظنى : ينظرنى بطرف عينه . الحنِق : المغتاظ . وحنق حنقاً : اشتدّ غيظه . هلقمت : ابتلعت بسرعة . غادرتهما : تركتهما . أثراً بعد عين ، أى بعد أن كان الطعام مرئياً ابتلعته فلم يبق غير أثره الإناء .

* * *

(١) ساقط من ط .

[مشاهير أهل الزّرد]

ويليق بهذا الموضع أن نذكر فيه ما شهر من مغرّبات الزرَد[١] ، قال الشاعر فى أكول :

فتضرب خُمُسَ كفّك فى ثريدٍ ... بِلَقْمٍ[٢] منك منكش الذهَابِ
كأن دويَّهُ فى الحلق لما ... يُهيِمُ صوتُ رعدٍ أو سحاب

وقال آخر :

إذا غرّد العصفور طار فؤادُه ... وليثٌ حديد الناب عند الثرائدِ[٣]

وقال آخر :

لم ترعينى آكلا مثلَه[٤] ... يضرب باليسرَى معاً واليمينِ
تلعب بالقَصْعة أطرافُه ... لعبَ أخى الشِّطْرنج بالشّاهِين

فمن مشاهير أهل الزرَد هلال بن أسعر[٥] المازنى ، وهو من شعراء الدّولة الأمويّة ، ذكر الأصبهانىّ أنه كان عظيم الخلْق شديداً قويًّا .

---

(١) الزرد : سرعة ابتلاع الطعام.
(٢) ب: « يأكل »
(٣) الثرائد : جمع ثريدة ، وهى ما يهشم من الخبز ويبل بماء القدر
(٤) ب: « غيره » .
(٥) ط : « أسعد » تحريف ، صوابه من ا ، ب ؛ ولهلال هذا ترجمة فى الأغانى ٣ : ٥٢ ـ ٧٥ ؛ قال أبو الفرج : « شاعر إسلامى من شعراء الدولة الأموية ، و أظنه قد أدرك الدولة العباسية ، وكان رجلا شديدا ،عظيم الخلق أكولا معدوداً فى الأكلة » .

قال أبو عمرو بن العلاء : لم أكن أرَاهُ حيًّا ، بل رأيته ميّتاً ، فما رأيت على سرير أطول منه .

قال هلال : جمتُ مرّةً ، ومعى بعير لى ، فنحرته فأكلته إلا ماجعلته منه على ظهرى ، ثم أردت جماع امرأتى ، فلم أقدِرْ ، فقالت : كيف تصلُ إلىّ وبيننا بعير[1] !

وحدّث شيخ من بنى مازن ، قال : أتانى هلال ، فأكل جميع ما فى بيتنا ، فبعثنا إلى الجيران نستقرض الخبز منهم ، فلمّا رأى اختلافَنا ، قال: كأنكم أرسلتم إلى الجيران : أعندكم سَوِيق[2] ؟ فأتيته بجراب طويل فيه سَوِيق وبَرْنيّة[3] فيها نبيذ ، فصبّ السويق كلّه ، وصب النّبيذ ، وازدرد الكل[4] .

ومر على رجل من بنى مَازن بالبصرة ، ومعه زورق رُطَب[5] ، قد ساقها من بُسْتانِه ، فجلس على زَوْرَقٍ منها صغير ، مغطًّى بباريّة[6] فقال : آكل من رُطبك ؟ قال : نعم ، قال : ما يكفينى ؟ قال : ما يكفيك ، فجلس على الزَّوْرَق يأكل التمر إلى أن اكتفى ، فسلّت الباريّة فإذا الزورق مملوء نوًى[7] .

---

(١) الأغانى ٣ : ٦٨ ، فى خبره عن المعتمر بن سليمان ؛ قال المعتمر فى آخر الخبر : فقلت له : كم تكفيك هذه الأكلة ؟ قال : أربعة أيام .

(٢) السويق : دقيق الحنطة.

(٣) البرنية : إناء من خزف.

(٤) الخبر فى الأغانى ٣ : ٦٩ ، وفيه : « فصب السويق كله ، وصب عليه النبيذ حتى أتى على السويق والنبيذ كله » .

(٥) الأغانى ، : « رطبا فى زواريق » .

(٦) الباريّة : الحصير المنسوج ، وجمعه البوارى .

(٧) الخبر فى الأغانى ٣ : ٦٩ .

رفع المسهم

وقال صدقة بن عبدالله[١] المازنى : أولمَ[٢] علىّ أبى لما تزوّجت ، فعملنا عشر جفان ثريداً من جزُور ، فكان أول[٣] من جاءنا هلال، فقدّمت إليه جَفْنَةً فأكلها ، ثم أخرى حتى أتَى على عشر جفان ، ثم استسقى، فأتى بقربة من نبيذ ، فوضع طرفها فى شِدْقِه ، فأفرغها فى جَوْفه ، ثم خرج ، فاستأنفنا عَمَل الطعام ، ومن أعجب ما أكله مائتا رغيف بمكوك[٤] بلَح.

وكانت شبعته تكفيه لخمسة أيام . وكان لا يقاومه أحد فى النجدة .

ومنهم سليمان بن عبد الملك ، ذكر المسعودى[٥] أن شِبْعه[٦] كانت كل يوم مائة رطل بالعراقى ، وكان ربما أتاه الطبّاخون بسَفَافيد فيها الدجاج ، وعليه جبّة الوشى ، فبحرصه على الطعام ، كان يدخِل يده فى كُمّه ثم يقبض على الدجاجة ، وهى حارّة فيفصلها .

قال الأصمعىّ :ذكرت ذلك للرشيد ، فقال: قاتلك الله ! ماأعرفك بأخبارهم! لقد كنت أرى الدَّسَم فى أكمام جبابه ، ولا أدرى ماسببه ، حتى حدّثتنى[٧] . وكسانى منها جُبّة .

وخرج يوما من الحمام وقداشتد جوعه[فاستعجل الطعام ولم يكن فرغ منه][٨] فأمر أن يقدّمَ مالحق من الشواء ، ولم يكن فرغ من الطعام شىء ، فقُدِّم

---

(١) الأغانى : « صدقة بن عبيد المازنى » .
(٢) أولم على أبى : عمل لى وليمة زواجى .
(٣) كذا فى ب ، وهو يوافق ما فى الأغانى ، وفى ط : « فأول من جاءنا » .
(٤) المكوك : مكيال يسع صاعا ونصفا ، والخبر فى الأغانى ٣ : ٧٠ .
(٥) مروج الذهب ٣ : ١٨٥ .
(٦) الشبع من الطعام : ما يكفيك منه .
(٧) المسعودى : « عرضت على جباب بنى أمية ، فنظرت إلى جباب سليمان وإذا كل جبة منها فى كمها أثر كأنه أثر دهن ، فلم أدر ما ذلك حتى حدثتنى بالحديث » .
(٨) تكملة من المسعودى .

رفع المسهم

إليه عشرون خروفا ، فأكل أجوافها مع أربعين رُقاقة ، ثم قدِّم الطعام ، فأكل مع ندمائه كأنه لم يأكل[١] .

قال الشمردل وكيل عمرو بن العاص رضى الله عنه لما قدم[٢] سليمان الطائف ، دخل بستانيّ هو وعمر بن عبد العزيز ، وأيوب ابنه ، فجال فى البستان ساعة ، ثم قال : ناهيك بمالِكم هذا مالاً ! ثم ألقى صدرَه على غصن شجرة ، وقال : ويلك يا شمردل ! عندك شيء تطعمنى؟ فقلت : بلى عندى جدْى ، كانت تغدو عليه بقرة وتروح [عليه[٣]] أخرى ، قال : عَجِّل به ويحك ! فأتيته به كأنهُ عُكّة سمن ، فأكله وما دعا[٤] عمر ولا ابنه حتى إذا بقى الفخذ قال : هلمّ أبا حفص ، قال : إنى صائم ، فأتى عليه ، ثم قال : ويلك أعندك شيء ؟ فقلت : سبع[٥] دجاجات هنديات كأنهن رِئلان[٦] النعام ، قال : عَجِّل بهنّ ، فأتيته بهن ، فكان يأخذ برجل الدجاجة فيلقى عظامها بفيه ، فلمّا فرغ منهنّ قال : ويلك ! أعندك شيء ؟ فقلت : حَرِيرة[٧] كأنها قُراضة ذهب ، فقال: عَجِّلها ، فأتيته بها ، فجعل يشربها شربا ، فلما فرغ تجشّأ فكأنما صاح فى جُبّ ، ثم قال : يا غلام أفرغت[٨] من غدائى ؟ قال : نعم : فقدّم إليه ثمانين قدراً ، فأكثرُ ما أكل من قِدْر ثلاث لقمات ، وأقلّ ما أكل لقمة ، ثم مسح يده ، واستلقى على فراشه ، وأذن للناس ، وصُفّتِ الموائد ، فأكل معهم فما أنكرت من أكله شيئاً .

---

(١) المسعودى ٣ : ١٨٥ .
(٢) الخبر فى العقد ٦ : ٣٠١
(٣) من ب ، والعقد
(٤) ط : « ما دعا ابنه ولا عمر » ، والصواب ما أثبته من ب والعقد
(٥) العقد « خمس دجاجات » .
(٦) الرئلان : جمع رأل ، وهو فرخ النعام .
(٧) الحريرة : دقيق يطبخ بلبن وسمن .
(٧) أى هل أتممت إعداده ؟ كأنه جعل ما اتهمه من قبل مقدمة لغدائه .

رفع المسهم

وسبب وفاته أنَّ نصرانيًّا أتى بزنبيل مملوء بيضا ، وآخر مملوء تينًا ، فقال : قَشِّروا، فجعل يأكل بيضة وتينة ، حتى أكل الزِّنبيلين ، ثم أتوه بقَصْعة مملوءة مُحًّا بسكّر ، فأكله فأتخِم ، فمات .

ومنهم عمرو بن معد يكرب ، دخل على عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، فقال : مِنْ أين أقبلت يا أبا ثَوْر ؟ فقال : من عند سيّد بنى مخزوم ، أعظمها هامةً ، وأقلّها ملامةً ، وأفضلها حلماً ، وأقدمها سلماً ، قال : مَنْ هو ؟ قال : سيف الله وسيف رسوله خالد بن الوليد ، قال : فأىّ شىء صنعت عنده ؟ قال : أتيته زائراً فدعا لى بقعبٍ وفرس وثورٍ، فقال له عمر: وأبيك إن فى هذا لشبعاً ، قال : لى أو لك ؟ قال : لى ولك، قال: بلى ، فما تقول يا أمير المؤمنين ، إنى لآكل الجِذْع من الإبل ، أنتقيه عظماً عظماً ، وأشرب الشَّنّ من اللبن رائباً أو صريفاً [1] .

* * *

قوله : « أقردت » . سكت وخضعت . مالبث : ماتمهّل . الجراب : وعاء الزاد ، وأراد بطنه . أمْلِ ، يقال: أمليت عليه إذا ألقيتَ عليه ما يكتب ، وأملت لغة ، وقيل : الأصل أملت ، فأبدل من اللام ياء . نكلت : انقطعت .

* * *

قل لِمَنْ يلغز المسائلَ إنّى كاشفٌ سِرّها الذى تخفيهِ
إنّ ذا الميّتَ الذى قدّم الشّرْ عَ أخا عِرْسِهِ على ابن أبيهِ
وجلٌ زوّج ابنَه عن رضاهُ بحماةٍ له ، ولا غَرْوَ فيهِ

(١) الشن : القربة ، والرائب : اللبن الممخوض ، والصريف : اللبن ساعة يحلب .

رفع المسهم

ثمَّ مات ابنُه وقد عَلِقتْ منـــهُ فجاءتْ بابنٍ يَسُرّ ذَويهِ
فهو ابن ابنِـه بغيْرِ مراءٍ وأخو عِرْسِـهِ بلا تمويهِ
وابن الابْنِ الصَّريحُ أدنى إلى الجدِّ وأولى بإرثِهِ من أخيهِ
فلذا حِينَ ماتَ أوجب للزوْ جةِ ثُمْنَ التراثِ تَسْتَوْفِيهِ
وحوى ابن ابنِهِ الذى هو فى الأصـ
ـلِ أخوها من أمِّها باقيهِ
وتخلَّى الأخ الشقيق من الإرْ ثِ وقلنا يَكفيك أن تبكيه
هاكَ مِنِّى الفُتيا التى يحتذيهاَ كلُّ قاضٍ يقضى وكلُّ فقيهِ

* * *

لاغَرْوَ : لاعجب . علقت : حملت . ذويه : قرابته ، وأضاف « ذوى » إلى المضمر ، وهى لغة قليلة ، ومنعَها بعضهم ، وجوّزها جماعة من أئمة اللغة .

وقال أبو علىّ الفارسىّ : اللهمَّ صلّ على محمد وذويه ، حَمَلُوا « ذَوِى » على الأصحاب .

الأزهرىّ : سمعت غيرَ واحدٍ من العرب ، يقول : كنَّا مع ذوى عمرو ، يعنى مع أصحاب عمرو ، وهو كثير فى كلام قيس ومَنْ جاورهم .

وقال الحريرىّ فى الدرة[1] : ويقولون : رأيت الأمير وذويه ، فيهمُون فيه ، لأنّ العرب لم تنطق بذى ، الذى بمعنى صاحب إلاّ مضافاً إلى اسم جنس ، كقولك : ذو مال وذو نوال ، فأمّا إضافته إلى الأعلام أو إلى أسماء الصفات المشتقّة من

(١) درة الغواص ٨٥ .

الأفعال فلم تُسمع بحال ، ولهذا لَحَن من قال : صلى الله على محمد وذويه ، وكما لم يقولوا : ذو[1] أبي ولا ذو أمّي ، واقتصروا على إضافته إلى الجنس ، ولهذا لم يرفع السبيّ لأنه ليس بمشتقّ [من فعل][2] ، فلا يقال : مررت برجل ذى مالِ أخوه ؛ وتصحيحه ذو مال أخوه[3] ، لأن النكرة تختصّ بأن توصَف بالجملة[4] .

* * *

قوله : « مراء » جدال . تمويه : كذب . الصريح : الخالص . أدنى : أقرب . التّراث : المال الموروث . حوى : حاز . تخلّى : خرج بلا شيء . هالك : خذ . يحتذيها : يتبعها ويعمل بها .

وتقريب هذا اللغز أن تقولَ : رجل وابنه وامرأة وابنتها ، تزوّج الرجل البنت ، والابن الأمّ ، فمات الابن ، وقد حملت منه الأم ، فوضعت غلاماً ، فكان للرّجل ابن ابنه ، ولزوجته أخاً لأم ، ثم مات الرّجل وترك أخاً فورِثتْ زوجتُه الثمن ، وأخوها من أمّها الباقي ، لأنه ابن ابن الميّت ، وهو يحجب الأخ ، كما كان يحجبه الابن لو كان حيًّا .

ومثله قول الآخر :

وقائلةٍ أَوْصِ الغــداةَ فإنّنى ... أرى الموت قد حَطّتْ لديك ركائبُهْ
فقلت وقد راعَ الفُؤادَ مقالُهــا ... وضاقت به خوفَ الحِمام مذاهبُهْ
لكِ الثُّمنُ إن حانت وفاتى فريضةً ... وسائر ما يبقى فصنْوُكِ صاحبُهْ

جوابه :

تعلّم فإنّ العــلم أكبر ملبسٍ ... لمن شَرُفَتْ أخلاقُه ومــذاهبُهْ

---

(١) الدرة : « كما لم يقولوا : ذو عالم ولا ذو ظريف ؛ لم يقولوا : ذو نبي ولا ذو أمير ، وقصروا ذا على إضافته إلى الجنس » .
(٢) من درة الغواص .
(٣) درة الغواص : « أبوه » .
(٤) درة الغواص ٨٥ .

حليلة هذا أمّها زوجة ابنـــه فذلك والإلغاز جمٌّ عجائبُه
فإن ابنه صِنْوٌ لزوجته ومَنْ يقرّ بعرف العلم تعلُو مراتبُهْ
فميراثها ثُمْنٌ وللصِّنْوِ ما بَقِي كذلك يقضى مَنْ تعالتْ مناقبُهْ

والمتقدّم للسؤال فى هذه المسألة عبد الملك بن مروان ، وذلك أنه وقف به رجلٌ ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، أنا تزوّجت امرأةً ، وزوّجْتُ ابنى من أمِّها ، فامددنا بشىء نستعين به . فقال له : إن أخبرتنى كيف يُدْعَى ابنُ كلِّ واحد منكما لابن صاحبه ، فأنا أرفدُك ، وإلا فلاأعطيك شيئاً . فقال له الرجل : فسَلْ عن ذلك كاتبَك وصاحب شُرْطَتِك ، فإن أجاباك ، فما تعطيه لى ، فادفعه إليهما ، وإلا فأنا أعذِر . فسألهما فلم يعرفا ذلك ، فابتدر رجلٌ من آخر الصفوف ، وقال له : أرأيتَ إن أخبرتك ، أتعطِينى ما ذكرتَ للسائل؟ فقال له : نعم ، فقال ابن الأب عمّ ابن الابن وابن الابن خال ابن الأب ، فوصله .

فهذا أخفّ أمراً فى الظاهر من التّوارث الذى فرض الحريرىّ ، وأشكل فى المعنى .

* * *

قال : فلمّا أثبتَ الجوابَ ، واستثبتُّ منه الصّوابَ ، قال لى : أهْلَكَ واللّيـل ، فشمِّرِ الذَّيْل ، وبادِرِ السّيْلَ ، فقلت : إنى بدارِ غُربة ، وفِى إيوائى أفْضَلُ قُرْبة ، لاسيَّما وَقَدْ أغْدَفَ جُنْحُ الظَّلَامِ ، وَسَبَّحَ الرَّعْدُ فى الغمام ، فقال : اغرُبْ عافاكَ اللهُ إلى حيث شِيت ، ولا تطمَعْ فى أن تبيت ، فقلت . ولمَ ذاك ، مع خُلُوِّ ذَراك ؟

قال : لِأَنّى أنعمتُ النَّظَرَ ، فى التقامِكَ ما حَضَرَ ، حَتَّى لَمْ تبْقِ ولَمْ تَذَر ، فرأيتُك لا تنظُر فى مَصْلَحَتِكَ ، وَلاَ تراعِي حفظَ صِحّتِك ، ومَنْ أَمعَنَ فيما أَمْعَنتَ ، وَتبطَّنَ ما تبطَّنْتَ ، لمْ يَكَدْ يُخْلُصُ مِنْ كِظَّةٍ مُدْنِفة ، أوْ هَيْضَةٍ مُتلِفةٍ ، فَدَعْنِي بِاللهِ كِفافاً ، وَاخْرُجْ عَنِّى مَا دُمْتُ معافًى ، فو الذى يحيي ويُميت ، مالَكَ عِندى مبيتٌ .

فلمَّا سَمِعْتُ أليَّتَهُ ، وَبَلَوْتُ بليَّتَهُ ، خرجتُ مِنْ بيتِهِ بالرَّغْمِ ، وتزوُّدِ الغمِّ ، تجودُنى السَّماء ، وتَخْبطُ بِيَ الظَّلْماءُ ، وتنبحنى الكلاب ، وتتقاذف بى الأبواب ، حَتَّى ساقنِي إليكَ لُطْفُ القَضاء ، فشكرًا ليده البيضاء !

* * *

قوله : « أثبَت » صحّح . استثبتّ ، أى وجده ثابتاً . أهلك والليل ، كلام للعرب ، كأنه قال : بادرْ أهلَكَ قبل الليل ، وتحقيق المعنى فى ذلك أنه عطف الليل على الأهل ، وجعلهما مبادرين ، ومعنى المبادرة مسابقتك الشيء ، كقولك : بادرت زيداً المنزل كأنى سابقته إليه ، وكأنّ الليل والرجل المخاطب يتسابقان إلى أهل الرجل ، فأمره الآمر أن يسابق الليل إليهم ، ليكون عندهم قبل الليل . شمّر الذيل ، أى ارفع ساقَك ، واستعدَّ للمشى . إيوائى : ضمّى . قُرْبة : ما يُتقرّب به من أعمال البرّ . أغدف : أسبل وأرسل ، ومنه قول عنترة :

رفع المسهم

إن تُغْدِ فى دونى القِناع فإننى طَبٌّ بأخذ الفارس المتلثِّمِ (١)

وإنما قيل للغراب غُداف لسبوغ ريشه .

وقال رؤبة يخاطب أخاه :(٢)

* نُبِّتَ من جَناحِك الغُدافى *

جُنْحِ الظلام : ميله، وجَنَح الليل جنوحاً ، وأجنح: مال، وهو من الجناح وكان الطائر إذا عدل عن طريقِ طَيرانه ، فيرجع يطير إلى جهة جناحه ، قيل له : جَنَح ، ثم استعير فى الليل وغيره ، كما قيل: نكَّب عن طريقه ، هى من المنكب ، كأنه قال : مال بمشيه إلى جهة مَنْكِبه .

سبَّح : صوت . الغمام : السحاب . اغْرُب: غب وابعد . ذَرَاك : منزلك. أنعمت : بالغت . تراعِى : تحفظ . أمعن : كثر ، وتقول : أمعِنْ لى بحقى ؛ اعترف به وأظهِرْه ، مأخوذ من الماء المعين ، وهو الجارى الظاهر .

الفرّاء : المَعين من الماعون ، أو مفعول من العيون .

تبطَّن : ملأ بطنه . كِظَّة : امتلاء البطن . مدنفة : ممرضة. هيضة: انطلاق البطن بالقىء والإسهال . كِفافاً : مسالمة ، أى كفّ عنى شرّك وخيرك . معافًى: سالماً من الآفات .

---

(١) المعلقة ـ بشرح التبريزى ٢٥٦ ؛ قال: الإغداف: إرخاء القناع على الوجه ، والطب : الحاذق. ورواه : « المستلئم » والمستلئم : الذى قد لبس اللأمة ؛ وهى الدرع .

(٢) اللسان ـ غدف ، وروايته .

* رُكِّبَ فى جناحِكِ الغدافى *

وبعده :

* من القدامى ومن الخوافى *

رفع المسهم

أليته : يمينه . بلوت : خبرت وشاهدت . الرّغم : الذلّ . تجودنى : تمطرنى . والسماء : المطر هنا .

وتذكرت بهذه الحالة خروج السَّلامِىَ من دار الشريف الرضى فى عشيّة ماطرة ، فأعطاه كساء استتر به ، فلما وصل إلى منزله كتب إليه بقصيدة :

منها :[1]

ودّعتُ دارَك والسماء تجودُنى ... بيد الغمام فلا يكن بكَ ما بِى[2]
ما كنت إلا جنّةً فارقتُها ... كرهاً فصُبّ علىّ سوط عذابِ[3]
ورأيت غالية الطريق ومِسْكَهُ ... طيباً معدّاً لى عَلَى الأبواب
وحمى كساؤك لا عدمت مُعيرَه ... دُرّاعتى وعمامتى وجبابى
فوليت يابحر السماحة كُسوتى ... ووَلِى أخوك الغيثُ بَلّ ثيابى
فوصلت أشكر ذا وأشكو ذا وبالـ
ـعينين ما بهما من التَّسْكَابِ

وقال آخر فأحسن :

وغمامة نثرتْ دموعاً عندما ... نَثَر النَّسيم جُمانَها تَسْبِيكَا
تهدِى السقوفَ جمانها متفرّقاً ... وتمدّه عند السُّقوط سلوكا

وقال ابن شهيد فأحسن :

ومرتجزٍ ألقى بذى الأثل كَلْكَلاً ... وحطّ بجرعاء الأبارقِ ماحَطّا[4]
سعى فى قياد الرِّيح يسمح للصَّبا ... فألقت على غُبر التِّلاع به مِرْطَا

(١) من قصيدة ذكرها صاحب اليتيمة فى ٢ : ٣٨٢ ـ ٣٨٤ ، ومطلعها :
مازال بى مهر الشبيبة جامحاً ... حتى حملت على المشيب الكابى
(٢) اليتيمة : « فلا أرى بك مابى » .
(٣) ط : « صوب حذابى » ، تصحيف .
(٤) ديوانه ١٢١ .

وما زال يروى التّرب حتى كسا الرُّبا
درانك ، والغيطان من نسجه بَسْطَا
وعَنَّتْ له ريحٌ تساقط قَطْرَهُ كما نثرت حسناء عن جِيدها سِمْطَا

قوله : « تخبط » أى تجعلنى أمشى فيها على غير هدى . تتقاذف : تترامى وتتطارح ، وجعل الأبواب يرميه بعضها على بعض ، لِمَا كان يقرعها ولا تفتح له .

لطف القضاء ، أى رفق قدر الله وقضائه . يده البيضاء : نعمته الكريمة ، وتقول : لفلان علىّ يَدٌ بيضاء أى نعمة ، وجمعها أياد .

[مما قيل فى شكر النعمة]

قال ابن عباس رضى الله عنهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أهدى إلى قوم نعمة فلم يشكروها له استجيب له فيهم » .

قال عبد الله بن المبارك : أقبل نصر بن سيّار : فقال : اللهمّ إنى أهديت إلى بسّام نعمة فلم يَعدِلِى بشكرها ، فاجعل موتهم قتلاً بالسيف . فبلغنى أنه قتل منهم سبعون رجلا .

وقال أبو نواس وأتى بمعنى بديع :

قد قلت للعباس معتذرًا من ضعف شكريه ومعترفا[1]
أنت امرؤ جَلَّلْتَنِى نِعَمًا
أوهت قُوى شكرى فقد ضَعُفا
فإليك بعد اليوم تقدِمَةً لاقتْك بالتصريح مكتنِفَا
لا تحدثنّ إلىّ عارفة[2] حتى أقومَ بشكر ماسلفا

(١) ديوانه ٧١ .
(٢) الديوان : « لاتسدين » .

رفع المسهم

اعترضه الناشي في معناه فقال :

إن أنت لم تحدِثْ إليَّ يدا حتى أقوم بشكر ماسلَفَا
لم أحظَ منك بنائلٍ أبدا ورجعت بالحرمان منصرِفَا

وقال طريح :

طلبتَ ابتغاءَ الشُّكْرِ فيما صنعت بي
فقصَّرْتُ مغلوباً وإني لَشاكِرُ
وقد كنت تعطيني الجزيلَ بدايةً وإني لما استكثرتُ منك لحاقِرُ
فأرجع مغبوطاً وترجع بالّتي لها أوّلٌ في المكرمات وآخرُ

وقال آخر :

رهنت يدِي بالشُّكر في شكر برّه
وما فوق شكري للشّكور مَزِيدُ
ولو أنّ شيئا يستطاع استطعتُه ولكنّ ما لا يستطاع شديد

وقال إبراهيم بن العباس الصولي :

فلو كان للشكر شخص يبينُ إذا ما تأمله النـاظرُ[1]
لمثّلتُـهُ لك حتى تراه فتعلم إني امرؤٌ شاكرُ

وهذا الباب من الشكر وإن وفّيناه حقه هنا يأتي متفرِّقا في الكتاب .

* * *

(١) ديوانه ١٨٤ ، عيون الأخبار ٣ : ١٦١ .

[البطنة وقولهم فيها]

ولمّا ذكر البِطْنَة وخطرها ، وأنها أوجبتْ عليه خروجَه من منزل ضَيْفه على الحالة التى وصف ، أردنا أن نصِلها بما يشاكلها .

ومما جاء فى ذم البطنة من حديث عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أن يشترىَ غلاماً وضع بين يديه تمراً ، فإن أكل كثيراً قال : رُدُّوه ، فإن كثرة الأكل من الشؤم .

وقيل للمُشْتَرى : الرجل يأكل فى اليوم مرة ؟ قال : أكل الصدّيقين ، قيل : فمرتين ؟ قال : أكل المؤمنين . قيل : فثلاثاً ؟ قال : قل لأهلك يبنُوا لك مِعْلفاً .

ويقبح أن يكون الرجل وصّافاً لبطنه وفَرْجه ، وإن من المروءة أن يترك الرجل الطعام وهو يشتهيه .

وقال عمرو بن العاص لمعاوية رضى الله عنهما يوم الحكمين : أكثروا الطعام ، فوالله ما بَطَن قوم قط إلا فقدوا بعضَ عقولهم ، وما مضَتْ عزيمة رجل بات بطيناً .

وقال بعض الحكماء : لكل شىء صدأ وصدأ القلوب شبع البطون .

عزم المعتصم يوماً على الاصطباح ، وأمر ندماءه أن يطبخ كلٌّ واحدٍ منهم قِدْراً ، فدخل عليه غلام ابن أبى دواد ، فقال المعتصم : الساعة يأتى ابن أبى دواد ، فيقول : فلان الهاشمى ، وفلان القرشىّ والأنصارىّ ، فيقطعنا بحوائجه عما عزمنا عليه ، وأنا أشهدِكم أنى لا أمضى له يومى هذا حاجة ، فلم يتم الكلام إلا والحاجب يستأذن به ، فقال لجلسائه : كيف ترون ؟ فقالوا : لا تأذن له ، فقال : سوأة لكم ! الحمّى سنة أهون علىّ من ذلك ، ودخل فما هو إلا أن سلّم وجلس

وتكلم حتى ضحك المعتصم ، وسفر وجهه إليه ، ثم قال : يا أبا عبد الله ، لقد طبخ كل واحد من هؤلاء قِدْراً ، وقد جعلناك حكماً فى طبخها ، قال : فليحضر كل واحد قدره وآكل ، ثم أحكم فيها . فوضعت بين يديه ، فأكل من أول قِدْر أكلا كثيراً ، فقال المعتصم : هذا ظلم ، قل : وكيف ذاك ؟ قال: لأنى أراك أمعنت فى هذا اللون ، وستحكم لصاحبه ، فقال : علىّ أن آكل من القدور كلِّها مثله ، قال : شأنك ، فأكل ثم قال : أمَّا هذه فقد أجاد طباخها ، إذ قلَّل خلَّها وكثَّر زيتها ، ثم أكل من كل قِدْرٍ كذلك ، ووصف القُدور كلَّها بصفات حسنة سُرَّ بها أصحابها ، ثم قُدِّمَ الطعام ، فأكل مع القوم كما أكلوا ، أنظفَ أكل وأحسنَه ، وهو يحدِّثهم بأخبار الأكَلةِ فى صدر الإسلام ، كمعاوية وعبدالله ابن زياد ، والحجاج وسليمان بن عبد الملك . وعن أكَلة دهره مثل مَيْسرة التمّار ، ودَوْرق القصّاب ، وحاتم الكيّال ، وإسحاق الحمّامى .

فلما رفعت الموائد قال له المعتصم ، وقد أطرب حديثُه : ألك حاجة يا أبا عبد الله ؟ قال : رجل من أهل بيتك ، وطئه الدهر ، وغيَّر حاله ، قال : ومَنْ هو ؟ قال : سليمان بن عبد الله ، قال : قَدِّرْ له ما يصلحه ، قال : خمسون ألفاً ، قال : قد أنفذت ذلك له ، قال : ولى حاجة أخرى ، ثم ذكر ثلاث عشرة حاجة لا يردُّه عن شىء منها ، ثم قام خطيباً ، فقال : عمَّرك الله يا أمير المؤمنين طويلاً فبعمرك[1] تُخْصِب جنَّات رعيتك ، ويلين عيشهم ، وتنمو أموالهم ، ولازلت منعَّما بالكرامة والسلامة ، مدفوعاً عنك حوادث الأيَّام وغيرها ، ثم انصرف . فقال المعتصم : هذا والله يتزين الملك بمثله ، ويبتهج بقربه ، أما رأيتم كيف دخل ، وكيف تكلم ، وكيف أكل ، ثم انبسط فى الكلام ، وكيف طاب به أكلنا ، مايَرُدُّ هذا عن حاجته إلاّ لئيم الأصل ، والله لو سألنى فى مجلسى هذا ماقيمته

(٢) ب . « فلعمرك » .

رفع المسهم

عشرة آلاف ألف ما رددته عنها ، وأنا أعلم أنه يكسبنى فى الدنيا حمداً ، وفى الآخرة ثواباً .

وفيه يقول أبو تمام :

لقد أنسَتْ مساوئُ كلِّ دهرٍ محاسنُ أحمد بن أبى دُوَادِ[1]

وهذه الحكاية تنتظم فى حكايات أهل الزَّرد المتقدمين فى المقامة ، وقد احتوت على رجال موصوفين بذلك ، ختمنا بها الباب .

* * *

فقُلْتُ له : أَحبِبْ بلقائكَ المُتاحِ ، إلَى قَلْبيَ المُرْتاحِ ، ثمَّ أخَذَ يَفْتَنُّ فى حِكاياتِهِ ، وَيُشْمِطُ مُضْحِكاتِهِ بمبكياتِهِ ، إلى أن عَطَسَ أنْفُ الصَّباحِ ، وَهَتَفَ دَاعِي الْفَلاَحِ ، فتأهَّبَ لإجابةِ الدَّاعِي ، ثمَّ عَطفَ إلى ودَاعِى ، فَمُقْتُهُ عَنْ الانبعاث ، وقُلْتُ : الضِّيافةُ ثلاث ، فَناشدَ وحَرِّج ، ثمَّ أمَّ المخرج ، وأنشد إذْ عَرَّجَ :

لا تَزُرْ مَنْ تحِبُّ فى كل شَهْرِ
غَيْرَ يومٍ ولا تزدهُ عَلَيْهِ
فاجْتلاَءُ الهلالِ فى الشَّهرِ يومٌ
ثمَّ لا تَنْظرُ العُيُونُ إليْهِ

قال الحارث بن هَمَّامٍ : فودَّعْتُهُ بقَلْبٍ دامِي القُرحِ ، وَوَدِدْتُ لَوْ أَنَّ لَيْلَتى بَطيئةُ الصُّبْحِ .

* * *

(١) ديوانه ص ٧٩ .

رفع المسهم

قوله : « أحْبِبْ » ، تعجّب معناه : ماأحَبَّ لقاءكَ إلى قلبي. المتاح: المقدَّر، والمرتاح : المهتزّ طرباً . يفتنّ : ينوِّع . ويشْمِط : يخلط . أنفه : أوله ، وجعل الصباح أنفاً عاطساً مجازاً لمّا كان يدفَعُ ظلمة الليل. هتف: صاح. داعى الفلاح ، هو المؤذّن . والفلاح : البقاء . تأهّب : استعدّ . عُقْته : حبسته . الانبعاث : النّهوض .

وذكر أنّ الضيافة ثلاث : لأنه جاء فى حديث أبى شريح الخُزاعى رضى الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرِمْ ضيفَه » . وجائزته يوم وليلة ، والضيافة ثلاث ، ولا يحلّ له أن يثوِىَ عنده حتى يحرجه ، فما أنفِق عليه بعد ثلاث فهو صدقة .

أبو عبيدة : جائزته يوم وليلة ، أى يعطِىَ الضيف بعد إكرامه ثلاثةَ أيام ما يجوز به يوماً وليلة ، يقال: أسفّ بجائزة وجيزة، وجوزة، أى قدر مايجوز به المسافر من منهل إلى منهل .

ومن ملح باب الضيافة ، قال المبرّد : أضاف رجلٌ رجلاً فأطال المقام حتى كرهه ، فقال الرجل لامرأته : كيف لنا أن نعلم مقدار مُقامِه ؟ فقالت له : ألق بيننا شرًّا حتى نفتحا كم إليه ، ففعل ، فقالت المرأة للضيف : بالذى يبارك لك فى غدُوِّك غداً ، أيُّنا أظلم ؟ فقال : والذى يبارك لى فى مقامى عندكم شهراً ما أعلم .

ونزل بَصرىّ على مدنىّ ، وكان صديقاً له ، فألحّ عليه فى الجلوس ، فقال المدنىّ لامرأته : إذا كان غداً فإنى أقول لضيفنا : كم ذراع يقفز فأقفز ، فإذا قفز فأغلق الباب خلفه ، فلمّا كان من الغد ، قال له المدنىّ : كم قفزُك يا أبا فلان ؟ قال : جيّد ، فعرض عليه أن يقفز معه ، فأجابه ، فوثب المدنىّ من داره إلى خارج أذرعاً ، وقال للضيف : ثِبْ أنت ، فوثب الضيف إلى داخل الدار

رفع المسهم

ذراعين، فقال له : وثبت أنا إلى خارج الدار أذرعاً ، وأنت إلى داخلها ذراعين، فقال الضيف : ذراعان من الدار خير من أربع إلى « برّا » .

الأزهرىّ : برّا مولدة.

قوله : « ناشد » حَلَّف . حرَّج : وكَّد يمينه ، أى لا يقيم ، والحرَج : الإثم .

ابن الأنبارى: تحرّج فلان عن كذا ، أى تديَّن وضيَّق على نفسه ، والحرَج عندهم الضيق . أمَّ : قصد . عرَّج : التوى عن الباب منصرفاً . اجتلاء : نظو . القُرْح : الجرح ، وأنشد الثعالبى فى هذا المعنى ،فقال :

عليك بإقلال الزيارة إنّهـــا إذا كثرت كانت إلى الهجر مسلكا
فإنى رأيت الغيث يسأم دائما ويُسأَل بالأيدى إذا هو أمسكا

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « زر غِبًّا تزدد حبًّا » .

نظمه الشاعر فقال :

إذا شئت أن تُقْلَى فزر متواتراً وإن شئت أن تزداد حبًّا فزُرْ غِبًّا

وقالوا : قلة الزيارة أمان من الملالة .

وقالوا فى ضدّه : ترك الزيارة سبب القطيعة .

وقال علىٌّ رضى الله عنه : الصبر من كرم الطبيعة، والمنّ مفسدة الصنيعة ، وترك التعاهد للصديق يكون داعية القطيعة .

وقال عبد الصمد بن المعذَّل فى ضدّ هذا : وأن يحافظ على الصداقة بظهر الغيب ، ويمدح إبراهيم بن الحسن :

بامَن فدت نفسَه نفسِى وقد جعلت له وقاء لمن يخشى وأخشاه
أبلغ أخاك وإن شطّ المزَار به إنّى وإن كنت لا ألقاه ألقاه

وإنَّ طرفَ موصول برؤيتِهِ وإن تباعد عن مثواى مثواهُ
الله يعلم أنى لست أذكره وكيف يذكره مَنْ ليس ينساهُ
لاشىء مما نرى إلا له شبَهٌ وما لكم آلَ إبراهيمَ أشباهُ
عذراً فهل حسن لم يُنْمِهِ حسنٌ وهل فتًى عدلت جدواه جدواهُ

قال أبو العتاهية :

أقلِلْ زيارتَك الصَّديق ولا تُطِلْ إنيانَه فتلجَّ فى هِجْرانِهِ[1]
إنَّ الصديق يلج فى غشيانه لصديقه فيَلَجُّ فى عصيانِهِ
حتى تراه بعد طولِ سُرُوره وكأنه متبرِّمٌ بمكانِهِ
وإذا تولَّى عن صِيانةِ نَفْسِه رجلٌ تُنُقِّصَ واستُخِفَّ بشانه

وإفراط البِرِّ بالصاحب داع إلى كثرة الإخجال، ومانع من العودة بعد الانفصال .

وكتب ابن عمار إلى ابن زُرَيقَ ، وقد عتب عليه، أن اجتاز ببلده ولم يلقَهَ هذه الأبيات :

لم يلوِ عنك عنانى سلوةٌ خطرتْ ولا فؤادى ولا سمعى ولا بَصَرِى
لكن عدتْنِى عنكمْ خَجْلةٌ عَرَضَتْ كفانىَ العذر منها بيتُ معتذرِ
لو اختصرتمْ من الإحسان زُرْتكمُ والعذبُ يُهْجَرُ للإفراط فى الخَصَرِ[2]

ضمَّن ابنُ عمار هذا البيت أحسن تضمين ، وهو للمعرّى ، وما قيل فى

---

(١) ديوانه ٣٣٢ ؛ وفيه : « حدث رجاء مولى صالح الشهرزورى ، قال : كان أبو العتاهية صديقا لصالح الشهرزورى ، وآنس الناس به ، فسأله أن يكلم الفضل بن يحيى فى حاجة له ، فقال له صالح : لست أكلمه فى أشباه هذا ، ولكن طلبنى ماشئت فى مالى : فانصرف عنه أبو العتاهية ، وأقام أياما لايأتيه ، ثم كتب إليه : « أقلل زيارتك الصديق ..» الأبيات فلما قرأ الأبيات قال : سبحان الله ! أتهجرنى لمنعى إياك شيئا ؟ تعلم أنى مابتذلت نفسى له ، ونفسى مودتى ، ومن دون مابينى وبينك ماأوجب عليك أن تعذرنى . وذكر شعراً بعده .

(٢) سقط الزند ١٢٠ . والخصر : البرد .

العجز عن الشكر أحسن منه ، والإقلال يمنع تلاقِى الأحباب ، ويحطّ من همم ذوى الأحساب ، فإنه إذا لم يكن عندك ما تقدِّم بين يدى ضيفك أو زائرك تمنّيت إذا حلّ بك ألاّ تراه .

وقال حبيب :

وسيّانِ عندى صادفوا لى مطمعاً أعاب به أو صادفوا لى مَقْتَلاَ[1]

وقال ابن الجدّ :

وإنى لصبٌّ بالتلاقى وإنما يصد فؤادى عن معاذيرك العسر[2]

أذوب حياءً من زيارة صاحب إذا لم يساعدنى على بَرَّهِ الوفرُ

وفى المقامة التى تلى هذه فنٌّ ثانٍ من الزيارة ، تقف عليه إن شاء الله تعالى .

* * *

(١) ديوانه .

(٢) قلائد العقيان . .

رفع المسهم

المقامة السادسة عشرة وتعرف بالمغربية

حكى الحارثُ بن همّامٍ ، قال : شَهِدْتُ صلاةَ المَغْرِب ، فى بعض مساجدِ المَغْرِب ، فلمّا أدَّيتُها بفَضْلِها ، وشفَعتُها بنفْلِها ، أخذ طَرْفى رفقةً قد انتبذُوا ناحيةً ، وامتازُوا صَفْوَةً صافيةً ، وهم يَتعاطَوْنَ كأسَ المُنافَثةِ ، وَيَقتدِحُون زِنادَ المُباحَثة ، فرغبتُ فى مُحادثتِهم ، لكلمةٍ تستَفادُ ، أو أدَبٍ يُستزادُ ، فسَعَيتُ إليْهِمْ ، سَعْىَ المتطفِّل عليهم .

* * *

أدّيتها : تممتها . شفعتها : زوجتُها ، يريد أنه صلّى الفريضة ، ثم صلّى النافلة بفضلِها ، يريد أنه صلاّها فى الجماعة ، وهى أفضل من صلاة الفذّ . انتبذوا : انفردوا ، وصاروا إلى جهة وزاوية من المسجد . وامتازوا : انفصلوا . صفوة : خياراً . يتعاطون : يعطِى بعضُهم بعضاً . المنافثة : المحادثة . يقتدحون ، أى يضربونها ويستخرجون نارَها . المباحثة : المناظرة فى العلم .

* * *

[التطفّل وأصل اشتقاقه]

المتطفّل : الآتى إلى الطعام من غير أن يُدْعَى ، وهو الوارش[1] عند العرب .

---

(١) الوارش : الواغل .

رفع المسهم

وتطفّل : تشبّه بطُفيل العرائس ، وهو طُفَيل بن دلال الدارميّ ، يسمّى طفيل بالأعراس ، وطُفَيل العرائس ، لكثرة دَوَرَانه على حضورها ، ومشاهدته لها ، والأكل منها ، من غير أن يُدْعَى إليه ، واسمه مشتقٌّ من الطَّفَل ، وهو إقبال الليل على النهار .

أبو عمرو : الطَّفَل : الظُّلمة .

ابن الأعرابيّ : ويقال للطُّفيلى اللُّعموظ ، والجمع اللعاميظ[1] .

وطُفيل من بنى عبد الله بن غطفان ، كان يأتى الأعراس ولم يُدْعَ . ومسكنه بالكوفة ، وكان يقول : وددْتُ أنّ الكوفة بركة مُصهرَجة ، فلا يخفى علىّ فيها دخان ، فنُسب إليه كل من يتطفّل ، نسبةَ مذهب لانسب ، والتطفّل من أخلاق اللئام ، وسجايا الأوغاد ، ومنهى عنه فى الشرع .

ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ دُعِىَ فلم يُجب فقد عصى الله ورسوله ، ومن دخلَ على غير دَعْوى دخل سارقاً وخرج مُغيراً » .

عائشة رضى الله عنها : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « من دخل على قوم لطعام لم يُدعَ فأكل دخل فاسقاً ، وأكل حراماً » .

* * *

[من أخبار الطفيليّين]

ونسوق هنا فصلا للطفيليّين ، يكون فى هذه المقامة بمنزلة فصل الأكلة فى المقامة التى قبل هذه لأن حالتيهما متقاربة .

---

(١) فى اللسان : اللعمظ : الشهوان الحريص ، ورجل لعمظة ولعموظة ؛ وهو الشره النهم .

رفع المسهم

فمن ذلك ما يحكى عن بشار الطفيلىّ أنه قال : رحلتُ يوماً إلى البصرة، فلما دخلتها قيل لى : إنّ هنا عريفاً للطّفيليّين يَبَرُّهم ، ويكسوهم ويرشدهم إلى الأعمال ويقاسمهم . فسرت إليه فبرّنى وكسانى ، وأقمت عنده ثلاثة أيام ، وله جماعة يصيرون إليه بالزّلاّت[1] فيأخذ النّصف، ويعطيهم النّصف ،فوجّهنى معهم فى اليوم الرابع ، فحصلت فى وليمة ، فأكلت وأزللت معى شيئاً كثيراً وجئته به ، فأخذ النصف ، وأعطانى النصف ، فبعت ما وقع لى بدراهم ، فلم أزل على هذه الحالة أياما، ثم دخلت يوما على عرس جليل، فأكلت وخرجت بزَلّة حسنة ، فلقينى إنسان فاشتراها بدينار ، فأخذته وكتمته ، وكتمت أمرها . فدعا جماعة من الطفيليّين ، فقال : إن هذا البغدادىّ قد خان ، فظنّ أنى لا أعلمُ ما فعل ، فاصفعوه وعرّفوه ما كتمَنا ، فأجلسونى شئت أم أبَيْتُ ، وما زالوا يصفعوننى واحداً بعدواحد ، فيصفعنى الأول منهم ، ويشمّ يدى، ويقول: أكل مَضيرة[2] ، ويصفعنى الآخر ويشمّ يدى، ويقول: أكل كذا ، ويصفعنى الآخر ، حتى ذكروا كلّ شىء أكلته ، ما غلطوا بشىء منه ، ثم صفعنى شيخٌ منهم صفعة عظيمة ، وقال : باع الزّلة بدينار ، وصفعنى آخر ، وقال : هات الدّينار ، فدفعته إليه ، وجرّدَنى الثياب التى أعطانيها ، وقال : اخرج يا خائن فى غير حِفْظ الله . فخرجت إلى بغداد ، وحلفت ألاّ أقيم ببلد فيه طفيليّة يعلمون الغيب .

ونريد هنا أن نذكر بعض ما اشتهر من حكايات طفيليّة البصرة ، إذ هم أحذقُ خلق الله فى باب التطفيل :

بعث المأمون[3] فى طَلَب عشرة من زنادقة البَصْرة، فَجُمِعُوا فرآهم طُفيلىّ ،

---

(١) قال فى القاموس : الزلة : اسم للمأكول من مائدة صديقك أو قريبك ،عراقية أو عامية.
(٢) المضيرة : مرقة تطبخ باللبن .
(٣) الخبر فى العقد ٦ : ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

رفع المسهم

فمضى معهم، فأدخلوا فى سفينة، فدخل معهم، وجىء بالقيود، فَقُيِّدَ معهم، فقال أحدهم: يا طُفيلىّ إلىّ هنا، فأقبل عليهم فقال: فديتكم، أىّ شىء أنتم؟ فقالوا له: بل أنت، مَنْ أنت؟ وهل أنت من أصحابنا؟ قال: والله ما أعرفكم، غير أنى طفيلىّ، خرجت من منزلى، فرأيت منظراً جميلا، ونِعمة ظاهرة، فقلت: شيوخ وكهولٌ وشبّان، ما اجتمع هؤلاء إلا لصنيع، فدخلت وسطكم كأنى أحدكم إلى هذا الزورق، فرأيته قد فُرِش ومُهِّد، ورأيت سُفَرًا[1] مملوءة فقلت: نزهة إلى بعض البساتين والقصور، إن هذا اليوم يوم مبارك، فزدت ابتهاجاً، فجاء هذا الموكّل بكم فقيَّدكم، فطارعقلى فما الخبر؟ فضحكوا وفرحوا به، وقالوا له: قد حصلت فى الإحصاء، نحن مانيّة على مذهب مانى، القائل بالنور والظلمة، نسير إلى المأمون، فيسألنا عن مذهبنا، ويدعونا إلى التوبة. ويظهر لنا صورة مانى، ويأمرنا أن نَتْفُلَ عليها، ونبرأ منها، فمن فعل نجا، وإلا قُتل، فإذا دعيتَ فأخبره باعتقادك، وللطفيلىّ مداخلات وأخبار فاقطع سفرنا بها. فكان ذلك. فلما دخلوا على المأمون، دَعاهم بأسمائهم وامتحنهم فامَرَّ عليهم بالسيف، وتأخّر الطفيلىّ وقد استوعب العدّة، فسأل المُوَكَّلِينَ بهم، فقالوا: وجدناه معهم، فجئنا به، فقال له: ماخبرُك؟ فقال له: يا أمير المؤمنين، امرأته طالق إن كنت أعرف من أقوالهم شيئاً، إنما أنا رجل طفيلىّ، ثم قصّ قصته معهم.

فضحك المأمون كثيراً، ثم أظهر الصورة، فلعنها وبرئ منها، ثم قال: اعطوها لى حتى أسلح عليها، والله ما أدرى ماماني! أنصرانىّ أم يهودىّ أم مسلم؟ فقال المأمون: يؤدَّب على فرط جهله وتطفيله ومخاطرته بنفسه، فقال: يا أمير المؤمنين بحياتك، إن كنتَ ولابدّ عازما، فاجعل السِّياط كلّها على بطنى، فهو الذى حملنى على هذا الغَرَر. فعاد إلى الضحك، فاستوهبه منه إبراهيم

(١) السفر: جمع سفرة، وهى فى الأصل: طعام المسافر.

رفع المسهم

ابن المهدى بحديث فى تطفيله يذكر فى خبر إسحاق الموصلى ، فوهبه له ، وأجاز الطفيلىّ بجائزة سنيّة .

كان إبراهيم بن المدبّر عاملا على البَصْرة ، وكان له سبعة ندماء لا يأنَسُ بغيرهم ، وكلُّ واحد منهم منفرد بعلم من العلوم . وكان طفيلى يعرف بابن دَرّاج ، من أكمل الناس أدباً ، وأخفّهم رُوحاً وأشدّهم فى كلّ مليحة افتناناً . فاحتال ودخَل فى جملة الندماء ، فخرج إبراهيم ، فرآه فقال لحاجبه : قل لهذا الرجل ، ألك حاجة ؟ فسُقط فى يد الحاجب ، وعلم أنّ الحيلة تمّتْ عليه ، وأنه لا يرضى ابن المدبّر من عقوبته إلا بقتله ، فمرّ يجر رجليه ، فقال له : يقول لك الأستاذ : ألك حاجة ؟ فقال : قل له : لا ، فأدخله عليه ، فقال : فأىّ شىء أدخلك ! أأنت طفيلىّ ؟ فقال : نعم أصلحك الله ! فقال : إن الطفيلىّ يحتمل على دخوله على الناس بخصال ، منها أن يكونَ لاعباً للشِّطرنج أو بالنَّرْد ، أو ضارباً بالعود ، أو بالطنبور ، فقال : أيّدك الله ، إنا لما ذكرتَ فى الطبقة العليا ، فقال لبعض الندماء : لاعبه بالشطرنج ، قال : أعزّك الله ، فإن قُمِرْتَ[1] ؟ قال : أخرجناك ، قال : وإن قمرت ، قال : أعطيناك ألف درهم ، فقال : أحضرها فإن فى حضورها قوةً للنفس ، فلعبا بالشطرنج ، فغلب الطفيلى ، ومدّ يدَه لأخذ الدراهم ، فقال الحاجب : أعزّك الله ، ذكر أنه فى الطبقة العليا ، وإن فلانا غلامك يغلبه ، فأُحْضِر الغلام فغلبه ؛ فقالوا له : انصرف ، فقال : أحضرُوا النرد ، فلُوعب به فَغَلَبَ ، فقال الحاجب : لكن بوّابنا فلان يغلبه ، فأُحضر البوّاب فغلبه ، فقيل له : اخرج ، قال : فالعود ؟ فأُعْطِىَ عُودًا ، فضرب فأصاب ، وغنّى فأطرب ، فقال الحاجب : ياسيّدى إن فى جوارنا شيخاً يعلّم القيان ، هو أحْسَنُ منه ، فأحضِر إليه ، فكان أطيب منه ، فقيل له : اخرج ، فقال : فالطنبور ؟

---

(١) قمرت بالبناء للمجهول : غلبت .

رفع المسهم

فَضَرَبَ ضرْباً لم يُرَ أحْسَنُ منه ، فقال الحاجب : إنّ فلاناً المحتكر أطيبُ منه ، فأُحضر فكان أحذقَ منه ، فقال ابنُ المدبّر : قد تقصّينا لك بكلّ جهد ، فأبَتْ حرفتُك إلا طَرْحَك ، فقال : ياسيّدى ، بقيتْ معى فائدة حسنة ، فقال : وما هى ؟ قال : تأمر أن يحضر قوس بندق مع خمسين بندقة من رَصاص ، ويقام هذا الحاجب فأرميه فى دُبُره ، فإن أخطأته بواحدة ، فاضرب عنقى ، فضجّ الحاجب . ووجد ابن المدبّر شفاء نفسه فى عقوبته ، فأمر بخشبتيْن ، وشدّ الحاجب فوقهما . وأُعْطِىَ القوس ، فرماه بخمسين بندقة ، فما أخطأ دُبُرَه بواحدةٍ منها .

وحُلّ الحاجب وهو يتأوّه لما به ، فقال له الطفيلىّ : ياصفعان ، هل على باب الأمير من يحسن مثل هذا ؟ فقال له الحاجب : يا قَرْنان إذا كان البُرجاس[1] استى فلا يحسن أحسد مثلك .

قال : وذهب الضّحك بابن المدبّر هو وأصحابه كلّ مذهب ، ثم أعطاه ألف درهم وانصرف .

صحب طفيلىٌّ رجلا فى سفر ، فلما نزلوا ببعض المنازل ، قال له الرجل : خُذْ درهماً واشتر لنا لحماً . فقال له الطفيلىّ : قم أنت ، والله إنّى لتعِب ، فاشتر أنت . فمضى الرّجُل ، فاشتراه ، ثم قال له الرجل : قم فاطبخه ، فقال : لا أحسِن ، فقام الرجل ، فطبخه ، ثم قال الرّجلُ للطفيلىّ : قم فاثرِد ، فقال : والله إنّى لكسلان ، فثَرَد الرّجُل ، ثم قال له : قم فاغترف ، قال : أخشى أن ينقلب على ثيابى ، فغرف الرجل حتى ارتوى الثّريد ، فقال له : قم الآن فكل ، قال : نعم إلى متى هذا الخلاف ! قد والله استحييت من كثرة خلافك . وتقدّم فأكل .

---

(١) البرجاس ، بالضم : غرض فى الهواء يوضع على رأس رمح .

رفع المسهم

وقال طُفيل العرائس : ليس فى الأرض أكرم من ثلاثة أعواد : عصا موسى عليه السلام ، وخِوان الطعام ، ومِنبر الخليفة .

ومن وصيَّته لأصحابه : إذا دخلتم عُرساً ، فلا تلتفتوا إلى الملاهى ، وتخيَّروا المجالس ، وإن كان العرس كثير الزحام ، فليمضِ أحدُكم ولا ينظر فى عيون الناس ، ليظنّ أهل الرجل أنه من أهل المرأة ، وأهل المرأة أنه من أهل الرجل ، وإن كان البواب فظًّا وقِحًا ، فليبدأ به فليأمره ولينهَه من غير عُنْف ، ولكن بين النصيحة والإدلال .

وقال بُنان الطفيلىّ : التمكن على المائدة خير من ثلاثة ألوان .

وسئل بنان : هل تحفظُ من كتاب الله تعالى شيئاً ؟ قال : نعم ، آية . قيل : وما هى ؟ قال : ﴿وإذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا﴾[1] قيل : أتحفظ شيئاً من الشعر ؟ قال : بيتاً واحداً ، قيل : ماهو ؟ قال :

نزوركمُ لا نكافِئُكمُ بجفوتكمُ ... إن الكريم إذا ما لم يُزَرْ زارا[2]

وبعده :

يُقرِّب الشوق داراً وهى نازحةٌ ... مَنْ عالج الشوق لم يستبعِد الدارا

وقال أبو الورد المحاكى فى طفيلى :

طفيلىٌّ يؤم الخبز أنّى ... يراه ولو يراه على يَفاعِ

ولا يروِى من الأخبار إلاّ : « أجيب ولو دعيتُ إلى كُراعِ »

---

(١) سورة الكهف ٦٢ .

(٢) للعباس بن الأحنف ، العقد ٦ : ٢ ٢٢١ .

وقال طفيلي أيضاً :

نحنُ قومٌ إذا دعينا أجَبْنَا ومتى نفس يَدْعُنَا التَّطْفِيلُ[1]
ونَقُلْ علّنا دُعينا فغِبنَا وأتانا فلم يجدْنا الرّسولُ

وأقبل طفيليٌّ إلى طعام لم يُدْعَ إليه ، فقال صاحب الطعام : مَنْ دعاك ؟ فأنشده :

دعوتُ نفسي حين لم تَدْعُنِي فالحمدُ لى لا لك فى الدعوه[2]
وكان ذا أحسنَ من موعدٍ مُخْلِفُهُ يدعُو إلى الجفْـوَهْ

ودخل طفيليّ فى صنيع رجل من القبط ، فقال له : مَنْ أرسل إليك؟ فأنشأ يقول :

أزوركم لا أ كافيكم بجفوتـكم إن المحبّ إذا ما لم يُزَرْ زَارا

فقال : « زر زارا » ، ليس ندرى مَنْ هو ؟ اخرج من بيتى !

وقال آخر فى طفيليّ كوفيّ :

زَرَعْنا فلمّا سلّم الله زرعنَا وأوْفَى عليه مِنْجَلٌ لحصادِ[3]
بُلينا بكوفيٍّ حليف سَجَاعـةٍ أضرّ علينا من دَبًى وجرادِ[4]

وحدّث آدم الطويل ، قال : دخل حانوتيٌّ غريب يأكل شيئاً من الطعام فتقدّم سائل ، فقلت له : ما أكثر تردّدك إلىّ ! فقال الغريب الذى فى الحانوت : لعلّه كما قال الشاعر :

---

(١) العقد ٦ : ٢١٤ .
(٢) عيون الأخبار ٣ : ٢٣٢ ، العقد ٦ : ٢١٢ .
(٣) عيون الأخبار ٣ : ٢٣١ ، العقد ٦ : ٢١٤ .
(٤) ط : « رباً » وما أثبته من ب والعقد ، والدبى : الجراد الصغير.

لو طبخت قدر بمطمورةٍ أوفى ذُرَا قصرٍ بأعلى الثُّغُورِ
وكنت بالصين لوافيتَها ياعالم الغيب بما فى القدورِ !

حكى المبرّد قال : كان بالبصرة طفيليّ مشهور ، وكان ذا أدب وظَرْف ، مرَّ بسكة الطّبّاخ بالبصرة على قوم عندهم وليمة ، فاقتحم عليهم ، وأخذ مجلسه معهم من دُعِيَ ، فأنكره صاحب المنزل فقالوا له : لو تأنّيت أو صبرت ياهذا قبل الدخول حتى يؤذن لك ، كان أحسنَ لأدبك ، وأعظم لقدرك ، وأجلّ لمروءتك ؛ فقال: إنّمَا اتّخذت البيوت ليُدخل فيها ، وَوُضِعت الموائد ليؤكل عليها ، والحشمة قطيعة ، واطّراحها صلة .

وجاء فى الآثارِ : صلْ مَنْ قطعك ، وأعطِ مَنْ منعك، وأحسِنْ إلى مَنْ أساء إليك .

وأنشد :

كلّ يوم أدور فى عرصة الدا ر أشَمُّ القُتَار شمَّ الذبابِ
فإذا ما رأيت آثار عرسٍ أو دخاناً أو دعوة الأصحابِ
لم أعرج دون التقحّم لا أر هب شتماً أو لكزة البوّابِ
مستهيناً بمَنْ دَخَلْتُ عليه غير مستأذنٍ ولا هيّابِ
ذاك أهنا من التكلّف والغُرْ م وشتم البقّال والقصّابِ

كان بالبصرة طفيليٌّ يكنى أبا سلمة ، وكان إذا بلغه خبر وليمة ، لبس لُبْسَ القضاةِ ، وأخذ ابنيْه معه ، عليهما القلانس الطِّوال والطيالسة ، فيتقدم أحدهما فيدقّ الباب ، ويقول : افتح ياغلام لأبى سلمة ، ثم لايلبث حتى يلحقه الآخر ،

فيقول : افتح ويلك ! قد جاء أبو سلمة ، ويتلوهما ، فإن لم يعرفهم البوّاب فتح لهم ، وإن عرفهم لم يلتفت إليهم ، ومع كلّ واحد منهما فِهْرٌ مدوَّر يسمُّونه كيسان ، فينتظرون مَنْ دُعِيَ ، فإذا جاء وفتح له طرحوا الفِهر فى العتبة ، حيث يدور الباب ، فلا يقدرون على إغلاقه فيهجمون ويدخلون .

فأكل أبو سلمة يوماً على بعض الموائد لقمةً حارّة من فالوذج ، وبلعها بشدّة حرارتها ، فتجمّعت أحشاؤه ، فمات على المائدة ، فقال عبد الصمد بن المعذل يرثيه :

أحزان نفسِيَ عنّى غير منصرمَهْ
وأدمعى من جفون العين منسجمَهْ
على صديقٍ ومولًى لى فُجِعت به ما إن له فى جميع الصالحين لَهْ
كم جفنةٍ مثل دور الحوض مترعة كوماء جاء بها طباخها رَذمه
قد كلّلتْها شحوم من قليّتها ومن سنامِ جَزورٍ عبْطة سَنِمَهْ
غيبت عنها فلم تعلم لها خبراً لهفى عليك وعَوْلى يا أبا سَلَمَهْ
ولو تكون لها حَيًّا لما بعدت يوما عليك ولو فى جاحم حُطَمَهْ
قد كنت أعلم أن الأكل يقتله
لكننى كنت أخشى ذاك من تُخَمَهْ
إذا تعمم فى شبليه ثم غدا فإن حوزة مَنْ يأتيه مصطلمه

* * *

رفع المسهم

وقلت لهم : أتقبلُونَ نزيلاً يَطْلُبُ جَنَى الأسْمَارِ ، لا جَنِيَّ الثِّمَارِ ، وَيَبْغِي مُلَحَ الحِوَارِ ، لا مَلْحَاءَ الحُوَارِ ، فحلُّوا لى الحُبَا ، وقالوا : مَرْحباً مَرْحبًا ، فَلَمْ أجلِسْ إلاّ لَمْحَةَ بارقٍ خاطفٍ ، أو نُغْبَةَ طائرٍ خائفٍ ، حتَّى غشيَنَا جَوَّابٌ ، عَلَى عاتقهِ جرَابٌ ، فحيَّانا بالكلمتيْن ، وحيَّا المسجدَ بالتَّسْلِيمَتَيْنِ ، ثم قال : يا أولى الألباب ، والفَضْلِ اللباب ، أما تعلمونَ أن أَنْفَسَ القُرُبات ، تَنْفيسُ الكُرُباتِ ، وَأَمْتَنَ أسْبابِ النَّجاةِ ، مواساةُ ذوِى الحاجات . وَإنّى وَمَنْ أحَلَّنِي سَاحَتَكُمْ ، وأتاحَ لى اسْتِمَاحَتَكُمْ ، لشريدُ محلٍّ قاصٍ ، وبريدُ صبيةٍ خماصٍ ، فهل فى الجماعَةِ ، مَنْ يَفْثَأُ عَنَّا حُمَيَّا المجاعَةِ ؟ فقالوا له : ياهذا ، إنّك حضرت بعد العِشاء ، ولم يبق إلا فضَلاتُ العَشاء ، فإن كنتَ بها تنوعاً ، فما تجدُ فينا مَنوعاً ، فقال : إنَّ أخا الشدائد ، ليقنع بلُفاظات الموائد ، ونفاضاتِ المزاود . فأمر كلٌّ منهم عبده ، أن يُزوِّدهُ ماعِنْدَهُ .

* * *

قوله : « نزيلا » أى ضيفاً . الأسمار : المذاكرة بالليل . وجَنَاها : ما يُجْنَى من فوائدها . يبغى : يطلب . مُلَح الحوار : مليح الكلام ، والحوار : مراجعة القول . مِلْحَاء الحوار : لحم سنام الفصيل . الحُبا : جمع حَبْوه ، وكانت العرب ليس لها فى البوادى حيطان تستند إليها فى مجتمعهم ، فكان الرجل يقيم

ركبتيه فى جلوسه ، فيضع عليها أو يدير بهما ثوباً ، ويعقد عليهما يديه ، ويستريح إليها ، ويقوم ذلك له مقام الاستناد ، فيقال لذلك العَقْد : الحَبْوة ، فأراد أنهم حَلوا له الحُبَا إكراماً له . لحة بارق : لمعة برق . خاطف : يخطف العين بسرعة فيمنعها النظر . نُغبة : جَرْعة . غشينا : دخل علينا فجأة . جوّاب : قطاع للأرض بمشيه . العاتق : مابين المنكب والعنق . جراب : وعاء للخبز . الكلمتين : سلام عليكم . التسليمتين : سلامه عند الدخول وسلامه من الركعتين . وتحية المسجد : أن يركع الداخل فيه ركعتين ، وقيل : التسليمتين ، تسليمة من صلاة المغرب وتسليمة من الركعتين اللّتين بعدها . الألباب : الأذهان . اللّباب : الخالص . أنفس : أرفع . القُرُبات : مايُتقرَّب به إلى الله عز وجل ، واحدها قُربة . الكرُبات : الهموم . تنفيسها : تفريجها وإزالتها . أمتن : أقوى وأغلظ . النّجاة : التخلّص . مُواساة : جعلك لهم أسوة نفسك . ساحتكم : موضعكم . أتاح : قدّر . استماحتكم : اجتداءكم والطّلب منكم . شريد : منفر ، والشريد : الهارب . قاصٍ : بعيد . بريد : رسول . خماص . جياع . يَفْثأ : يكسر . حُميّا المجاعة : حِدّة الجوع . فضلات : بقايا . لُفاظات : ما يُلفظ منها ، أى يُطرح . نُفاضات : ما يُنفَض من بقية الزاد .

ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أكل ما يسقط من الخوان نفى عنه الفقر ، وعن ولده الحمق » .

والمزاود : أوعية الزاد .

* * *

فَأَعْجَبَهُ الصُّنعُ ، وَشَكَرَ عَلَيْهِ ، وَجَلَسَ يَرْقُبُ مَا يُحمَلُ إليه ، وثُبْنَا نحن إلى استثارة مُلَحِ الأدب وعُيونِهِ ، واستِنْباطِ معينِهِ من غُيُونِهِ ، إلى أن جُلْنا فيما لا يَستحِيلُ بالانعكاسِ ، كقولك :

سَاكِبِ كاس . فتداعينا إلى أن نستنتج له الأفكار ، ونَفترعَ منه الأبكارَ ، عَلَى أن ينظم البادِئُ ثلاث جمانات فى عِقْدِه ، ثمّ تتدرّج الزّيادات مِنْ بَعْدِه ، فيربّعَ ذُو ميمنتِهِ فى نظمِهِ ، ويسبّعَ صاحبُ ميسرتِهِ على رَغْمِهِ .

قال الراوى : وكنا قد انتظمْنَا عِدَّةً كأصابِعِ الكفِّ ، وَتألّفنَا أُلْفَةَ أصحابِ الكهفِ .

* * *

الصنع : الجميل . وقوله : «وجلس يرقب» ، وقال قبل هذا : « فلم أجلس إلا لمحة بارق » ، وقال فى الثامنة والعشرين ، « وجلس حتى خُتِمَ نَظْمُ التأذين » وأكثر ماصرف الجلوس فى مقاماته من قيام .

وقال فى الدّرّة[1] : « يقولون للقائم : اجلس ، والاختيار على ماحكاه الخليل ، أن يقال لمن كان قائماً : اقعد ، ولمن كان نائماً أو ساجداً : اجلس . وعلّل بعضهم هذا الاختيار بأنّ القعود هو الانتقال من علو إلى سفل ، ولهذا قيل لمن أصيب برجله : مُقْعَد ، وإن الجلوس من سفل إلى علو ، ومنه قول عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه :

قُلْ للفرزدَقِ والسفاهة كاسْمِها إن كنتَ نارك ما أمرتك فاجْلِس

أى اقصد نجداً .

وكان عمر والياً على المدينة فقال للفرزدق : إن كنت تلزم العفاف ، وإلا فاخرج إلى نجد .

(١) درة الغواص ٨٨ .

رفع المسهم

وحكى أبو عبد الله بن خالويه : قال دخلتُ على سيف الدولة بن حمدان يوماً ، فلما مَثَلْتُ بين يديه قال : اقعد ، ولم يقل : اجلس ، فتبينت بذلك اعتلاقه بأهداب الأدب واطّلاعه على أسرار كلام العرب .

والذى نظر هو الوجه ، ولهذا جعله على الاختيار ، ولم يجعله من اللحن ، إلاّ أنه لقرب المعنيين ، يجوز أن يكون قد استعمل جلس فى المقامات ، من القيام .

* * *

يرقب : ينظر ويحرس ثبنا : رجعنا . استثارة : استخراج . مُلح : مايتلمّح به من الكلام . عيونه : مختاره . استنباط : استخراج . معينه : ماؤه الصافى . عيونه : جمع عيْن الماء . وكنى بالمَعين والعَيْن عن الكلام والقلوب . جُلْنا : تصرّفنا . يستحيل : يتغيّر . الانعكاس : قراءة اللفظة من آخرها . ساكب : صابّ . تداعينا : دعا بعضنا بعضاً . نستنتج : نستدعى منها النّتاج وهو الولد . الأفكار : جمع فكْر ، وجعل مايبديه الفكر من الكلام نتاجاً له . نفترع : نفتض . جُمانات : جمع جُمانة ، وهى حبّة تعمل من فضة كالدرّة ، تتدرّج : تتمشى . يربّع : يصنع أربع جمانات . ذو ، بمعنى صاحب . يسبّع : يصنع سبعاً . رَغْمه : إكراهه وإذلاله . انتظمنا : اجتمعنا . تألّفنا : تصاحبنا وانضمّ بعضنا إلى بعض ، ومنه ألّفت الكتاب . والألفة : الصحبة والاجتماع . والكهف : الغار . وأصحابه قصتهم معروفة .

* * *

[قصة أصحاب الكهف]

قال ابنُ عباس فى قوله عزوجلّ : ﴿ما يَعلمُهم إلاّ قليلٌ﴾[1] : أنا من أولئك القليل ، وهم مكسلمينا ويمليخا ، وهو المبعوث بالورِق إلى المدينة ، ومرطونس

(١) سورة الكهف ٢٢ .

وساريونوس ويوانس وكفشطيوس وقطينوسيسوس، وهو الراعى ، والكلب اسمه قِطمير وهو أنمردون الكروى وفوق القاطى .

وقال أبو شبْل : بلغنى أنَّ من كتب هذه الأسماء فى شىء ووضعه فى الحريق سكن الحريق .

وذكر الطبرى[1] أنَّهم كانوا فى أيام الطوائف على دِين عيسى ابن مريم ، وكانوا فى حكم ملك للرّوم يُسمَّى دقيانوس يعبد الأصنام ، فبلغه عن الفتية مخالفتهم لدينه ، فطلبهم فهربوا منه ، فاجتازوا براعى غنم ، فأتبعهم بكلبه ، فعلَّموه دينهم، وصاروا إلى ربّهم ، فآواهم الليل إلى كهف، فقالوا : نبيت هنا الليلة ثم نصبح فنرى رأينا ، فضربَ الله على آذانهم فناموا ، وتبعهم الملك فوجدهم فى الكهف ، فلم يُطِقْ أحدٌ منهم دخوله ، فبنى عليهم بابَ الكهف ، ففتحه الرّعاء بطول الزمان ، فأقاموا فيه ما ذكر الله تعالى ، ثم أحياهم الله تعالى بعد ثلثمائة وتسع ، فشكُّوا : هَلْ ناموا يوماً واحداً أو بعضه؟ ثم مسَّهم الجوع، فبعثوا أحدهم بورِقٍ يشترى لهم طعاماً ، ووَصَّوْه أن يحترز حتى لا يشعر بهم أحد ، فيدلّ عليهم فَيُحْمَلُوا إلى الملك الذى فرُّوا منه أمس فيما ظنوا ، فيرجمهم أو يرجعوا إلى دينه ، فلمَّا أتى باب المدينة ، أنكر أنْ تكون هى التى خرج منها أمس فى ظنه لأنها تغيَّرت بمرور زمان بعد زمان عليها ، فأنكر أهلها . ثم أخرج الدراهم ليشترىَ طعاماً، فقال له البائع: مِنْ أين لك هذه الدراهم ؟ وأمسكه، فقال: خرجتُ أمس مع أصحاب لى فارِّين من هذا الملك ودينه ، فبتنا فى كهفٍ ، وأصبحنا اليوم، فأرسلونى لأشترِىَ لهم طعاماً ، فاستُرْ علينا ، فحمله الرَّجل إلى ملك المدنية يسمع منه ، وكان ملكاً صالحاً ، فقصَّ عليه القصة ، فركب الملك فى جملة من الناس ليطلعوا على أمرهم ، فدخل على أصحابه ، فوجدهم قد عادوا إلى نومهم ، فضرب الله على أذنه معهم ، فدخل النَّاس فوجدوا أجساماً لا ينكرون

(١) تاريخ الطبرى ٢ : ٧ ٩ .

رفع المسهم

منها شيئاً ، وكأنهم مستيقظون يكلمونهم ، غير أنها بغير أرواح ، فقال لهم الملك : هذه آية الله إليكم ، فبنوا عليهم مسجداً يصلون فيه .

* * *

فابْتَدَرَ لِعِظَمِ مِحْنَتِي ، صَاحِبُ مَيْمَنَتِي ، وقال : لَمْ أَخَامَلْ . وَقال مُيَامِنُهُ : كَبِّرْ رَجَاءَ أَجْرِ رَبِّكَ . وقالَ الَّذِي يَلِيهِ : مَن يَرُبَّ إِذَا بَرَّ يَنْمُ . وَقَالَ الآخر : سَكَّتْ كلَّ مَنْ نَمَّ لَكَ تَكْسِ .

وأفْضَتِ النَّوبةُ إِلَيَّ ، وَقَدْ تَعَيَّنَ نَظْمُ السِّمْطِ السُّبَاعِيِّ عَلَيَّ . فَلَمْ يَزَلْ فِكْرِي يَصُوغُ وَيَكْسِرُ ، وَيُثْرِي وَيُعْسِرُ ، وَفِي ضِمْنِ ذَلِكَ أَستَطْعِمُ ، فَلا أَجِدُ مَنْ يُطْعِمُ ، إلى أَن رَكَدَ النَّسِيمُ ، وَحَصْحَصَ التَّسْلِيمُ ، فقُلْتُ لأصحابي : لَوْ حَضَرَ السَّرُوجيُّ هذَا الْمَقَامَ ، لَشَفَى الدَّاءَ الْعُقَامَ ، فقالوا : لو نَزَلتْ هَذِهِ بإِيَاسٍ ، لأَمْسَكَ عَلى يَأْسٍ . وَجَعَلنَا نُفِيضُ فى استِصْعَابِهَا ، واستِغْلاَقِ بَابِهَا ، وذلك الزَّورُ المعترِي يَلْحَظُنَا لَحْظَ المزدَرِي ، ويؤلِّفُ الدُّرَرَ وَنَحْنُ لا نَدْرِي .

* * *

قوله : « لعظم محنتى » لعظم بليتى .

* * *

لمْ : من اللوم . مَلّ : من الملل . كبرُه : عظّم الكبير ، وقدّمه على نفسك .

يَرُبّ : يصلح . برّ : أكرم . يَنْمُ : يزيد خيرُه ، وترتفع منزلته . ونَمَى الشيء ينمِي وينمُو نَماءً ، ونموًّا ونميًّا : زاد ، قال الأصمعي : نَمَيْتُ حديثَ فلان إلى فلان أَنْمِيه ، إذا بلّغته على وجه الإصلاح وطلب الخير ، وفي الحديث : «فقال خيراً أو نمى خيراً» أي أبلغ خيراً ، أو رفعه ، وكلُّ شيء رفعته فقد نميته . ورواية ابن ظَفَر : « مَنْ يربّ إذا برّ يَنِمّ » ، أي إذا كان البرّ من الناس يمشي بالنميمة فمن يرب فعلا جميلا ويصلحه .

تَكِسْ : تكن كيِّساً ، والكيّس : الناقد في أموره ، وقيل العاقل .

أفضت : وصلت . النَّوبة : الدولة . السِّمْط : الخيط يُعقد فيه اللؤلؤ .

يَصُوغ : يصنع . يُثْرِي وَيَعْسُر ، أي يستغني ويفتقر ، أي يكثر الكلام مرّة ويقلّل أخرى .

وفي ضمن ذلك ، أي في أثنائه وفي مدّته . أستطعِم : أطلب طعاماً ، هذا أصله ، وتقول : أطعمت القارئ إذا وقف ففتحتُ عليه وأفتيته . واستطعمهُوَ ، إذا استدعى ذلك . علىّ رضى الله عنه : إذا استطعم الإمام فأطعموه ، أي إذا أرْتِجَ عليه ففتحوا له .

ركد النسيم : سكنت الريح ، يعني كلامه . حصحص : تبيّن . التّسليم : الانقياد ، أي انقدت للعجز عن الإتيان بها .

المقام : الموقف . المُقَام : الشديد الّذي لا يؤثّر فيه الدواء ، بمنزلة الرجم

رفع المسهم

العقيم ، التى لا تؤثر فيها النطفة فلا تلد .

إياس ، تقدّم ذكره . واليأس : ضدّ الطمع .

ولما ذكر هنا إياساً ويأساً ، نذكر فصلا ذكره فى الدّرة على اللفظتين ، قال :[1] ويقولون : أشرف فلان على الإياس من طلبه ، فيهمون[2] كما وَهِم أبو سعيد السكّرىّ ، وكان من جِلّة النحويّين ، وأعلام العلماء المذكورين ، فقال : إن إياساً سُمِّىَ بالمصدر ، من أيس ، وليس كذلك - [3]وإنما إياس عند المحققين مصدر آسيتهُ ، أى أعطيته ، والمصدر منه الأوْس ، ومنه المواساة ، فكأنهم سمّوا إياساً بمعنى تسميتهم عطاء[3] . ووجْه الكلام أن يقال : أشرف على اليأس ، لأنّ أصل الفعل منه يئِس على فعِل ، قال الله تعالى : ﴿ قَدْ يَئِسُوا من الآخرة كما يئس الكُفّارُ مِنْ أصحاب القبور ﴾[4] فأمّا أيس بتقديم الهمزة فمقلوب من يئس واستدلّ شيخنا أبو القاسم بن المفضل[5] النحوىّ على صحّة ذلك بأن لفظة يئس ، تساوى لفظة اليأس ، الذى هو الأصل فى نظم الصيغة ، فتكون الياء مبدوءا بها والهمزة مثنىً بها بخلاف تنزّلهما فى أيس ، فلهذا حكم على أيس أنها مقلوبة من يئس ، والمقلوب لا يتصرّف تصرّف الأصل ولا يكون له مصدر .

نفيض : نندفع بالكلام . المعترى : القاصد . يلحظنا : ينظر نا بطرَف عينه . استحقاراً منه لنا . المزدرِى : المحتقر . يؤلّف : يجمع . الدّرر : جواهر الكلام .

* * *

(١) درة الغواص ١١٦ .
(٢) الدرة : فيوهمون .
(٣ — ٣) ساقط من درة الغواص .
(٤) سورة الممتحنة ١٣ .
(٥) الدرة : « أبو القاسم الفضل بن محمد النحوى » .

رفع المسهم

فلمَّا عثر على افتضاحِنا ، ونضوبِ ضَحْضَاحِنا ، قال : ياقومِ ، إنَّ من العَناء العظيم ، استيلادَ العَقيم ، والاستِشْفاءَ بالسَّقيم ، وفَوْقَ كلِّ ذِي عِلْمٍ عليمٌ . ثمَّ أقْبَلَ عَلَيَّ ، وقالَ : سأنوبُ مَنابَكَ ، وأكْفيكَ ما نابَكَ ؛ فإن شئتَ أن تنثُرَ ، ولاَ تَعْثُرَ ، فقُلْ مخاطِبا لِمَنْ ذَمَّ الْبُخْلَ ، وأَكْثَرَ الْعذْلَ : لُذْ بِكُلِّ مُؤَمِّلٍ ، إذا لمّ وَمَلَكَ بَذَل . وَإنْ أحْبَبْتَ أنْ تنْظِمَ ، فَقُلْ لِلَّذِي تُعْظم :

أسْ أرْمَلا إذَا عَرَا وارْعَ إذَا الْمَرْءُ أسَا
أسْنِدْ أخَا نباهَةٍ أَبِنْ إخاءَ دَنَّسا
اسْلُ جَنابَ غاشِمٍ مشاغبٍ إن جَلَسَا
اسْرِ إذَا هَبَّ مرًا وارْمِ بِهِ إذَا رَسَا
اسْكُنْ تَقَوَّ فَعَسَى يُسْعِفُ وقْتٌ نَكَسَا

* * *

عثر : اطّلع . افتضاحنا : اشتهارنا بالعجز . نضوب ضحضاحنا : جفوف هائنا القليل . الاستيلاد : طلب الولد ، يقول : إنّ من تعب النفس طلب فائدة من ذهن كليل وقريحة جامدة . نابك : نزل بك . تنثُر : تقول نثراً . لُذْ : استتر به والجأ إليه . مؤمّل : مرجوّ لفعل الخير . لمّ : جَمع المال . بذَل : تكرّم على غيره ، وهذا اللفظ من المعكوس فى النثر بديع ، فما ظنك بهذا النظم الرفيع الذى أردفه عليه ، فإنه من أشرف حسناته ، رحمه الله !

قوله : « أسْ » أعط ، والأوْس : العطيّة . أرملا : فقيراً أفنى زاده . عرا :

قصد . ارع : احفظ الصحبة . أسا : أتى بسوء، وأصله الهمز أساء فسهّل الهمزة ، يقول : إنْ قَصَدك فقير فصِلْه ، وإن أخطأ عليك صاحبٌ فلا تقطعه ، وارع حقّ الصحبة ، ويقال : المرء بالهمز ، والمر بلا همز ، وبترك الهمز يستقيم الانعكاس فى بيت الحريرى ، ويقال : المرة ، قال دعبل :

واحفظ عشيرتك الأدنين إنّ لَهُمْ حقًّا يفرّق بين الزّوج والمِرَةِ[1]

وهذا البيت الذي فسرناه وما بعده من الأبيات تقرؤه إن شئت من أوّله ، وإن شئت من آخره . وجعل هذا النّمط فى عكس الحروف توطئة لما يذكر فى المقامة بعد هذا فى الرسالة القهقرية ، من عكس ألفاظها ، من أوّلها إلى آخرها إلا أنّ ذلك العكس بالألفاظ وهذا بالحروف، وكلاهما غاية فى بابه ، وإنما يذكر الأدباء هذا استملاحاً فى كلامهم ، وامتحاناً لخواطرهم .

* * *

[مثل من التصحيف وقلب الكلام]

ونريد أن نذكر هنا فصلا مما يوافقه أو يقارب على ما شرطناه ؛ فمن ذلك أن بعض الأدباء اتّهم صاحباً له بسعاية فى جانبه فكتب إليه فى المجلس : ساءك نم ، فنظره الذى وشى به ، فكتب إليه: صحّفه واقلب ، فهو والله مانطق به على لسانك ، من بغيك وعدوانك ، وهو مقلوب مصحف: منك أتيت ، فتضاحكا وتصافيا .

وكتب بعضهم إلى خازن السلطان :

قد أقبَلَ الشّهرُ وإقبالُهُ يأتى بما أجرى تَرْتِيبُهُ

(١) ديوانه ص ٤٧ .

فوجه البرّ ومقلوبه يجزيك عن برّك مقلوبُهُ

وكتب بعض الظرفاء إلى صاحب له وهو مقلوب مصحّف : ظبي سراب خشن . فإذا قرأتَه على الولاء من آخره بعد القلب والتصحيف جاء منه : حسُن شراب طيّب .

ومن أنواع المعميّات التصحيف ، ومثاله :أنّ إبراهيم بن المهدى كتب إلى إسحاق الموصلىّ : لا يرتج مثل الأسنّة ، فكتب إليه إسحاق . لا يرثُ جميل إلا بثيبة .

وقال أبو الجهم بن الأنبارىّ للحسن بن وهب : ماتصحيف :كلنى .بيمينك فبعنى بحبّتين ، فقال : كل شيء منك فى عينى حسن .

وغاب صديق عن صديق له ، فلمّا لقيَه قال له : عنّ تعبى، فجاوبه: زرعنا يرذاذ حبا ، فالأول قال : غبت عنّى ، والثانى قال : زرغبًّا تزداد حبًّا .

وذكر فى بعض مجالس الأدب التصحيف ، فقال فتى شابّ : أنا ابن بجدته، فقال بعضهم : ماتصحيف :نصحت فحشى ، فقال : تصحيف حسن ، فاستغرب إسراعه ، فاتهمه شاعر من بَلَنسِية ، فقال : ماتصحيفُ بَلنسية ؟ فأطرق ساعة ، ثم قال : أربعة أشهر ، فقال له البلنسىّ : صدق ظنّى إنك تنتحل ما تقول ويحك! والفتى يضحك ، فقال له : اشعر ، فإنك شاعر ، فقال : وأى نسبة بين أربعة أشهر وبلنسية ؟ فقام وهو يقول : هوذاك ؛ثم تنبّه بعد انصراف الفتى بعضُ مَنْ حضر ، فنظر فإذا أربعة أشهر ثلث سنة ،وهو تصحيف بلنسية ، فخجل المنازع ، ومضى إلى دار الفتى معتذراً .

كتب بعض وزراء ابن عبّاد إليه يتسخّط الإخوان هذا البيت :

وإذا صفا لك من زمانك واحدٌ فهُو المراد ، وأين ذاك الواحد!

رفع المسهم

فوقّع فى الكتاب: وأين ذاك الواحد ؟ صحّف تعرف: فلمّا قرأه الوزير طار سروراً ، ومثّل بالبساط فلثمه بين يديه، وإنما صحّف، وأين ، فجاء منه: وأنت ، فردّ عليه من كلامه أبلغ جواب .

ومن ملح ابن عباد فى التصحيف، أنه خرج فى جملة وزرائه الأدباء ، فاجتازوا بإشبيليّة بالموضع الذى يباع فيه الجير والجبس ، فلقىَ هناك جارية من أحسن الناس وأقلّهم حياء . فأقبل ابن عبّاد على ابن عمار ، وقال : يابن عمار الجيارين ، فقال ابنُ عمّار : يامولاى والجبّاسين ، فعلم مَنْ حضر أنهما لم يريدا أن يعرّف كلّ واحد منهما صاحبَه بما ذكر، فبحثوا عن مرادهما ، فلم يعرفوه، فسألوا: ابنَ عمّار ، فقال له ابنُ عباد : لاتبعها منهم إلا غالية . ثم إن ابن عمار أخبرهم أنّ ابن عبّاد أعجبه حسن الجارية ، وعابها بقلة الحياء ، فصحّف « الجيارين » ، فجاء منه « الحيازين » وصحّفت أنا « الجباسين » ، فجاء منه «الخناشين» ، فاستغربوا حضور أذهانهما وحسن كنايتهما .

أين هذه الأذهان من رجل مغفّل، كان له ابنٌ يُسمّى حسناً مسافراً ، فاستفتح المصحف يتفاءل له فى القدوم ، فخرج له « وَحُسْنَ مآب » ، فترك التيامن بهذا اللفظ لمآب الفتى سالماً ، وقال: تصحيف «حسن مآب» : «حسن مات» ، فاستدعى أمّ الفتى وخدمه ، ونعاه لهنّ فأقمن مناحةً ، وجاء الجيران والقرابة يقطّعون حادثتهم ، فهو يخبرهم بما تصحّف له ، والفتى داخل قد أقبل فى أغبط حال وأسرّها ، فاستحمق وصار مثلا .

* * *

قوله : «أسند» أضفه إليك وقرّبه منك. نباهة : رفعة . أبْن: باعد. دنس: عيب . يقول : صاحبْ مَنْ يشرّفك بذكره الجميل ، وباعد من يدنس عِرْضك وتعاب به .

* * *

رفع المسهم

[من أقوالهم فى اختيار الصديق]

وقد قيل : الصاحب رُقْعة فى الثوب ، فلينظر الإنسان ما يرقّع به ثوبه .

قال ابن رشيق:

اصحب ذوى القَدْرِ واستعدّ بهمْ ... وعَدِّ عن كلّ ساقط سَفِلَهْ[1]

فصاحبُ المرء شاهدٌ ثِقةٌ ... يقضى به غائباً عليه ولَهْ

ورُقعة الثّوب حين تَلْبَسُه ... شهرته أو تكون مشتكلَهْ

وفى الحديث : « الأنفس أجناد مجنّدة، وإنها لتشامّ فى الهوى كما تشامّ الخيل فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ».

ونظم هذا الحديث أبو نواس فقال:

إنّ القلوب لأجنـــادٌ مُجَنّدةٌ ... لله فى الأرض بالأهواء تعترفُ[2]

فمـــا تعارف منها فهْو مؤتلفٌ ... وما تناكر منها فهو مختلفُ

وقال طرفة - أو عدىّ بن زيد :

إذا كنت فى قوم فصاحب خيارَهم

ولا تصحب الأردَى فتردَى مع الرَّدِى[3]

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه

فكلُّ قرين بالمقارن مقتـــدِى

---

(١) نقله فى النتف ٦٠ .

(٢) ديوانه ٤٠٨

(٣) البيت الثانى فى ملحق ديوان طرفة ٨٧١

وقال أبو العتاهية :

اصحب ذوِي الفضل وأهْلَ الدّينْ فالمـــــرء منسوب إلى القرينْ

وقال الخالدىّ :

وإذا أرْدَتَ تَرَى فضيلة صاحبٍ فانظر بعين البحث مَنْ ندمائهُ
فالمرء مطـــــوىٌّ عَلَى عِلاّتِه طىّ الكتاب وصحبه عنوانهُ

ومما يروى لعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه :

فلا تَصْحَبْ أخا السّوء وإياك وإيّاهُ
فكمْ من جاهلٍ أوْدَى حليماً حين آخاهُ
يقاسُ المرء بالمـــــرءِ إذا ما المرء مَاشَاهُ
وفى النّاس مِن النّاس مقاييسٌ وأشباهُ
وفى العـــــين غنى للعيـــن أن تنطق أفواهُ
وللقلب على القَلْـــــبِ دليلٌ حين يَلْقاهُ

وقال ابن رشيق :

اختَر لنفسك مَنْ تعـا دى كاختيارك مَنْ تُصَادِقْ[1]
إن العـدوّ أخو الصديـق وإن تخالَفت الطرائقْ

قوله: « اسل جناب غاشم » يريد جانبْ منزلَ ظالم ، ولا تقربه . وسلوتُ يتعدى بعن وبنفسه ، تقول : سلوت عنه ، وسلوته وسليته .

---

(١) نقله فى النتف ٥٤ .

رفع المسهم

وقال الأسود بنَ يعفُر :

فأقسمت لا أشريه حتى يملّنى بشىء ولا أسليه حتى يفارقا

قوله :« مُشاغب » مسارع للشرّ . هبّ : تحرك . مِراء : جدال ، ومعنى « اسْرِ » اكشف وأَزِلْ ، يقول : إذا تعلّق بك وهبّ عليك جدال من صاحب فاكشفه عن نفسك بالمناصحة ، وباعد المراء . وتقول : سرَيت الثوبَ عنّى ، وسريته ، إذا كشفته ، قال ابنَ هرْمة :

* سرى ثوبَهْ عنى السرى المتخايلُ *(١)

ومنه سُرِّى عن الرجل أى كشف عنه ما كان يجده من الغمّ والغضب ، وقد يكون معنَى « اسرِ » باعد وفارق من الشَّرَى ، وهو سير الليل ، فيقول : فارِقْ موضعَ الجدال وباعده . رسا : ثبت ، أى إذا سكن الخلاف بين القوم فارْمِ أنت به واتركه ، ويروى : «اسْرُ» بالضمّ ، أى كن سرِيًّا ، أى سيداً ذا مروءة ، إذا هاج الجدال بين القوم فباعده .

وقال سابق البربرى :

لا تنفعنّ لجوجاً حين تزجُره إنّ اللّجوج له فى المـال إغراء
وَأَغْضِ فى حسن عَفْوٍ عن نوادره فالحرّ فيه عن الآفات إغضاء

* * *

[ذكر المِراء والجدال وما يتولد منهما]

والمراء مدافعة الحقّ وترك الانقياد ، لما ظهَر منه ، وقد يُستعمل بمعنى الجدال ، فمَنْ جادل ليظهر باطلاً فجداله محظور .

---

(١) ديوانه ١٦٦ وبقيته

* وآذن بالبَيْن الخليط المزايلُ *

رفع المسهم

وفى الحديث : « من ترك الجِدالُ مُحِقا بنَى الله له بيتاً فى الجنة » .

وقال ميمون بن مهران : لا تمارِ مَنْ هو أعلم منك إنه يختزن عنك علمه ولم تضره شيئاً .

وقال لقمان لابنه : مَنْ لا يملك لسانه يندم ، ومَنْ يكثرِ المراءَ يُشْتَمَ ، ومن يدخُل مَدَاخل السوءِ يتّهم . يابنىّ لا تمار العلماء فيمقتوك .

وقال مالك بن أنس رضى الله عنه : المِراء يقسى القلوب ويورث الضغائن .

وقال بلال بن سَعْدة : إذا رأيت الرجل لَجوجًا مماريًا معجباً بنفسه فقد تمت خسارته .

ولمسعر بن كدام يخاطب ابنه :

إنِّى منحتك يا كِدام نصيحتى ... فاسمع لقول أبٍ ، عليك شفيقِ[1]

أمّا المزاحة والمِراء فدعْهُمَا ... خُلُقان لا أرضاهما لصديقِ

إنى بلوتُهما فلم أختَرْهُما ... لمجاور جارٍ ولا لرفيقِ

قوله : « اسكن » الزم السكون والوقار . تقوّ : أراد تتقوى . يسعف : يساعد ويوافق . نَكَسَ : قصّر بك ، يقول : لا تبادر إلى الجِدال ، والزم السكون ، حتى يتقوّى نظرك ، ويظهر لك صوابك ، فعسى يوافقك على الإصابة بحسن التدبير وقت كان يصرفك عن الصواب ، لو التزمتَ الجِدال .

ومن أعاجيب ابن الرومى قوله فى ذم الجِدال :

لأولى الجِدالِ إذا غدوا لجدالهمْ ... حججٌ تضلّ عن الهدى وتَجُورُ

وهنّ كآنية الزجاجِ تصادمتْ ... فهوت وكلّ مكاسر مكسورُ

فالقاتل المقتول ثمّ لِوَهْنِه ... ولضعفه ، والآسر المأسورُ

---

(١) حماسة البحترى ٥٣ ، عيون الأخبار ١ : ٣١٨ .

رفع المسهم

وقال من شعر يمازح صديقاً له :

لكنّ فى الشيخ غريزية يخاصِمُ الله بها فى القَدَرْ
ما كان لِمْ كانَ وما لم يكن لمْ يكُنْ فهو كَيْلُ الْبَشَرْ

* * *

قال : فلمَّا سَحَرَنَا بآياتِه ، وَحَسَرَنَا بِبُعْدِ غاياتِه ، مَدَحْناهُ حتى اسْتَعْفَى ، وَمَنَحْناهُ إلَى أَنِ اسْتَكْفَى .

ثُمَّ شَمَّرَ ثِيابَهُ ، وَازْدَفَرَ جِرابَهُ ، وَنَهَضَ يُنْشِدُ :

لله دَرُّ عِصَابَةٍ صُدْقِ الْمَقَالِ مَقَاوِلاَ
فَاقُوا الأَنَامَ فَضَائِلاً مَأْثُورَةً ، وَفَوَاضِلاَ
حاوَرْتُهُمْ فوَجَدْتُ سَحْ بَانَ لَدَيْهِمْ بَاقِلاَ
وَحَلَلْتُ فِيهِمْ سَائِلاً فَلَقِيتُ جُودًا سَائِلاَ
أَقْسَمْتُ ، لَوْ كانَ الْكِرَا مُ حيًا ، لَكانُوا وَابِلاَ

* * *

قوله : « سحرنا » تركنا مسحورين . بآياته . بعجائبه ، يقال : إنّ فلاناً آيةٌ من الآيات ، أى عجب من العجائب . حسرنا : قطعنا وأكلنا . والغاية : الطَّلَق ، يريد أنا كلَّنا فى الغايات التى جرى فيها لبعدها ؛ ويريد اتساعه فى الكلام

استعفى : قال : عافونى منه . منحناه : أعطيناه . استكفى : قال : يكفينى .

رفع المسهم

ازدفر : حمله على ظهره ، والزفر الحِمْلُ على الظهر . جرابَه : وعاء خبزه. عصابة : جماعة . صُدْق المقال ، أى صادقين فى قولهم ، وصدْق جمع صَدُوق ، وعدل عن صدوق على جهة المبالغة فى صِدْقه . مقاولا : ملوكا . فاقوا : فضلوا ، وزادوا عليهم . فضائلا : جمع فضيلة ، وهى ما تفضُل به غيرك من الأفعال المحمودة . مأثورة : متحدَّث بها .

فواضلا : عطايا وأيادى ، الواحِدة فضيلة ، وفواضل المال : ما يأتيك من مَرَافقك وعكسه .

ومن كلام العرب : إذا عزب المالَ قلّت فواضله ، أى قلّ انتفاع ربّ الإبل بلبنها إذا بعدت ، قال الشاعر :

سأبغيك مالاً بِالمدينة إنّنى أرى عازبَ الأموال قلّت فواضِلُهْ

قوله : « حاورتهم » خاطبتهم .

* * *

[ذكر سحبان وائل]

سحبان فصيح العرب ، وهو سحبان بن زفر بن إياس بن عبد شمس الوائلى من وائل باهلة ، وكان من فصحاء العرب وبلغائها ، وبه يضرب المثل فى البيان والفصاحة ، فيقال : أفصح من سَحْبان .

ودخل عند معاوية وعنده خطباء القبائل ، فلمّا رأوْه خرجوا لعلمهم بقصورهم عنه ، فقال :

لَقَدَ عَلِم الحىّ اليمانون أنّنى إذا قلت أمّا بعد أنّى خطيبُها[1]

(١) البيت من شواهد الرضى فى الكافية ، وهو مع ترجمة سحبان فى خزانة الأدب للبغدادى ٤ : ٣٤٦ ـ ٣٤٨ ، قال : وروى صدره :

* وقَدْ علمتْ قيسُ عيلانَ أنّنى *

فقال له معاوية : اخطب ، فقال : انظروا لى عصاً ، فقالوا : وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين ؟ قال: وما كان يصنَع بها موسى وهو يخاطب ربّه ! فأخذها فى يده ، فتكلّم من الظهر إلى أن كادت صلاة العصر تفوت ، ماتنحنح ولاَ سَعل ، ولا توقّف ولا ابتدأ فى معنًى ، فخرج منه وقد بقيت عليه فيه بقيـة ، ولا مال عن الجنس الذى يخطب فيه ، فقال معاوية : الصلاة ! فقال : الصلاة أمامك ، ألسنا فى تحميد وتمجيد ، وعظة وتنبيه ، ووعد ووعيد! فقال له معاوية : أنت أخطب العرب ، فقال : العرب وحدها ! بل أخطب الإنس والجن ، فقال له معاوية : كذلك أنت .

وهو أوّل من قال : أما بعد ، وأوّل مَنْ آمن بالبعث من الجاهليّة ، وأوّل مَنْ توكأ على عصا ، وعُمِّر مائة وثمانين سنة ، وهو القائل يمدح طلحة بن عبيد الله ، وهو طلحة الطلحات الخُزاعى فقال فيه :

يا طلحَ أكرمَ مَنْ مشى حسباً وأعطاهمْ لِتَالِدْ[1]
منـك العطايا فاعطنى وعلىّ مدحُك فى المشاهِدْ

فقال له طلحة : احتكم ، فقال : بِرْذَوْنك الوَرْد ، وفصرك بِزَرَنْج[2] ، وغلامك الخباز[3] ، وعشرة آلاف درهم ، فقال له : أفّ أف لك ! لَمْ تسألنى على قَدْرِى ، إنما سألتنى على قدْرِك وقَدْر باهلة ، والله لو سألتنى كلّ قَصرٍ لى وعبد ودابة لأعطيتك .

* * *

(١) الخزانة ٤ : ٨٤٣ ، الميدانى ١ : ٢٤٨ .

(٢) ط : « بدرنج » تحريف ، صوابه من الخزانة ومجمع الأمثال . وذكره ياقوت فى أبيات لعبيد الله بن قيس الرقيات يمدح مصعب بن الزبير :

ملكٌ يُطعم الطعام ويُسْقَى لبن البُخْتِ فى عساسِ الخَلَنْجِ
جلَب الخيلَ من تهامَةَ حتّى بَلَغَتْ خيلُه قصور زَرَنْجِ

(٣) ط : « الخبار » ، وصوابه من ب والخزانة ومجمع الأمثال .

[ذكر باقل]

قوله : « باقلا » ، هو من إياد ، قيل من بنى مازن . وقال حُميد الأرقط فى وصف ضيف أكثرَ من الطعام :

أتانا وما داناه سحبانُ وائلٍ بياناً وعلماً بالذى هو قائلُ[1]
فما زال عنه اللَّقْمُ حتى كأنه من العِىّ لمّا أن تكلّم باقلُ[2]

والعرب تقول : إنّه لأعيا من باقل ، ومِنْ عيّه أنه اشترى ظبياً ، فحمله على عُنُقه ، فسئل عن ثمنه ، فحلّ عنه يديه وفتح أصابعه ، وأشار بها - وأخرج لسانه - يريد أنه بأحد عشر درهماً ، ولم يلهم أن يخبر عن سومه بلسانه - ولمّا عُيِّر باقل بفعله قال :

يلومونَ فى عيِّــه باقلاً كأنّ الحمــاقةَ لم تُخْلَقِ[3]
فلا تكثرُوا العتبَ فى عيّه فَلَلْعِىّ أجملُ بالأموَقِ
خروج اللسان وفتح البنانِ أخفّ علينا من المنطقِ

الأموق : الأحمق . قوله : « حلت » نزلت . سائلا : طالباً معروفَهم . جوداً : كرماً . سائلا : جارياً . حيّا : مطراً كثيراً .

والوَابل : أشدّ المطر ، يريد أنهم كانوا يزيدون عليهم فى الفضل .

* * *

(١) الميدانى ٢ : ٤٣ .

(٢) بعده فى الميدانى :

يقول وقد ألقى المراسِىَ للقِرَى أبِنْ لِىَ ما الحجاجُ بالناس فاعِلُ!
يدلِّلُ كفّاه ويَحْدُرُ حَلْقَه إلى البَطْن ما ضُمَّتْ عليه الأنامِلُ
فقلت لعمرى ما لهذا طرقْتَنَا فكُلْ ودعِ الإرجافَ ما أنت آكِلُ

(٣) يتيمة الدهر ٢ : ٢٤٢ .

رفع المسهم

ثُمَّ خَطَا قِيدَ رُمْحَيْنِ ، وَعَادَ مُسْتَعِيذاً من الحَيْنِ ، وقال : يَاعِزَّ من عَدِمَ الآلَ ، وَكَنْزَ مَنْ سُلِبَ الْمَالَ ، إنَّ الغاسِقَ قَدْ وَقَبَ ، وَوَجْهَ الْمَحَجَّةِ قدِ انْتَقَبَ ، وَبَيْنِي وَبَيْنَ كِنِّي لَيْلٌ دَامِسٌ ، وَطَرِيقٌ طَامِسٌ ، فَهَلْ مِنْ مِصْبَاحٍ يُؤَمِّنُنِي الْعِثَارَ وَيُبَيِّنُ لِيَ الآثار ؟

* * *

خطا : مشى ونقل خطاه . قَيْد : قَدْر . مستعيذاً : مستجيراً . الحَيْن : الموت . عدِم الآل : فقد الأهل ، يقول : أنتم عِزٌّ لمن فقد أهله ، وكنز لِمَنْ أخذ ماله . الغاسق : القمر .

عائشة رضى الله عنها قالت: نظر النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى القمر ، فقال : « ياعائشة استعيذى بالله مِنْ شرّ هذا ، فإنّ هذا هو الغاسق إذا وقب » ، يعنى مِن شرِّه إذا كسف . ووقب القمر : يقبُ وقوباً : دخل فى الظلام الذى يكسفه ، وكلُّ ماغاب فقد وَقَبَ . المحجَّة : الطريق . انتقب : استتر ، وجعل من الظلام نقاباً . وكِنّى : منزلى . دامس : مظلم . طامس : دارس ؛ لأنّ الظلامَ لمّا غطاه كأنه محاه . الآثار : الطرق التى أثر فيها المشى .

* * *

[وصف الشمع]

قال الصابى فى شمعة ، وذكر هذا المعنى :

وليلةٍ من محاق الشَّهر مُدْجِنةٍ لاالنجمُ يهدى السُّرَى فيها ولاالقمرُ[1]

(١) يتيمة الدهر ٢ : ٢٤٢ .

كلّفت نفسى بها الإدلاج ممتطياً عزماء هو الصارم الصّمصامة الذّكرُ
إلى حبيبٍ له فى النفس منزلة ما حلّها قبله سمعٌ ولا بَصَرُ
ولا دليل سوى هيفاء مخطفةٍ[1] تهدِى الرّكاب وجُنحُ الليلِ معتكرُ
غصن من الذّهب الإبريز أثمر فى أعلاه ياقوتة صفراء تستعِرُ
تأتيك ليلا كما يأتى المريبُ فإنْ لاح الصّباحُ طوتْها دُونَها الجدرُ[2]

وقال آخر فى مثله :

لنا شمعة نيطت ذراها بشعلة كحُقّةِ تِبرٍ عُلّقَتْ بلسانِها
إذا عَثَر السارى بذيلٍ من الدُّجا نحرنا له قلب الدّجَى بسنانِها
تفك قيودَ اللّيلِ عن كل زائرٍ فتجرى بها الرِّجْلان ملء عِنانِها
إذا ما أحسّتْ بالصباح تمارضت كنرجسةٍ قد أذبلت بمكانِها
تموت إذا ماقبّلتْ خدّ حائطٍ فتثبتُ خالا فوقه من دُخانِها
كأنّ الجراد امتصّ جوهر رُوحها ولم يمتنع منها سويدا جنانِها

وقال النّمَرىّ :

ولمّا دجا الليل مزقتــــه بروح ينفحُ جثمانُهـا
بشمعٍ أعير قدود الرماح يحاكى ذَراها وألوانها
غصون من التبر قد ركّبت لهيباً يزيّنُ أفنـــانها
فيا حسنَ أرواحها فى الدجى وقد أكلت فيه أبدانها

* * *

(١) المخطفة : الضامرة البطن
(٢) اليتيمة : « دونك الحذر » .

قَالَ : فلمَّا جِيء بالملتمَس ، وَجَلَّى الْوُجُوهَ ضَوْءُ الْقَبَسِ ، رَأَيْتُ صَاحِبَ صَيْدِنا ، هُو أَبو زيْدِنَا .

فقُلْتُ لأصْحَابِي: هذا الَّذِي أَشَرْتُ إلى أَنَّه إذا نَطَقَ أَصَابَ ، وإن اسْتُمْطِرَ صابَ .

فَأَتْلَعُوا نَحْوَهُ الأعْنَاقَ ، وَأَحْدَقُوا بِهِ الأحْدَاقَ ، وسأَلُوهُ أنْ يُسَامِرَهُمْ لَيْلَتَهُ ، عَلَى أن يَجْبُروا عَيْلَتَهُ . فقال : حُبًّا لِمَا أَحْبَبْتُمْ ، ورُحْبًا بكم إذْ رَحَّبْتُمْ ، غَيْرَ أَنِّي قَصَدْتُكُمْ وَأَطْفَالِي يَتَضَوَّرُونَ منَ الْجُوعِ ، وَيَدْعُونَ لِي بِوَشْكِ الرُّجُوعِ ، وَإِنِ اسْتَرَاثُونِي خَامَرَهُمُ الطَّيْشُ ، ولَمْ يَصْفُ لهُمُ العَيْشُ ، فَدَعُونِي لأَذْهَبَ فأَسُدَّ مَخْمَصَتَهُمْ ، وَأُسِيغَ غُصَّتَهُمْ ، ثمَّ أَنقلِبَ إِلَيْكُمْ عَلَى الأثَرِ ، مُتأَهِّبًا لِلسَّمَرِ إلى السَّحَرِ .

فقُلْنَا لأحدِ الغِلْمَةِ : اتَّبِعْهُ إلى فِئَتِهِ ، لِيَكُونَ أَسْرَعَ لِفَيْئَتِهِ ، فانطَلَقَ مَعَهُ مُضْطَبِنًا جِرَابَهُ ، ومُحْتَضِنًا إِيَابَه .

* * *

قوله : « الملتمَس » ، أى المطلوب وهو المِصْبَاح ، والقبس ضوءه . جلا : كشف . صاحب صيدنا ، أى الذى اصطاد أموالنا . استُمطر : سُئِلَ المطر . صَاب : وَقَع وقعا شديدا ، وكنى بالمطر الصَّوْب عن العلم الكثير . أتلعوا : مدّوا ، وأتلع الرجل : نصبَ عنقه ومدَّها ، وتطاول لينظر شيئاً . أحدقوا :

رفع المسهم

حلّقوا وأحاطوا ، والأحداق : سواد العين الأعظم : عيلته : فقره يتضوّرون : يَصِيحون . ابن الأنبارى : وقولهم : تركته يتضوّر ، معناه يظهر الضرّ الذى وقع به بالتقلقل والاضطراب والصياح ، فيتضوّر ، يتفعّل من الضَّور ، والضَّور بمعنى الضَّيْر ، ويقال: ضرّنى يضرُّنى ضرًّا ، وضارَنى يَضيرنى ويَضُورنى ضيراً وضوراً بمعنًى . وشْك : سرعة . استرائونى : استبطئونى . خامرهم : خالطهم . الطيش : الخِفّة وذهاب العقل من الجوع . أسدّ مخمصتهم : أزيل جوعهم . والغصة : مايُختَنق به وإساغتها : تسهيلها حتى تبتلَع . انقلب على الأثر ؛ أى فى الحين وفى الطريق الذى أمضى فيه . أرجع : أمشى على أثرى فيه مسرعا ، قبل أن يمشى غيرى فيغيّره ، فهذا معنى أنقلب على الأثر . متأهّبا : مستعدًّا . فيئتِه : رجوعه . مضطبنا : حاملا على ضِبْنِه[1] وهو خَصْره . محثحثا : معجّلا . إيابه : رجوعه .

* * *

فأبطأ بُطْئًا جاوزَ حدَّه ، ثمَّ عادَ الغلامُ وحدهُ ، فقلنا لهُ : ماعندكَ منَ الحديثِ ، عن الخبيثِ ؟

فقال : أخذَنى فى طُرُقٍ مُتْعِبَةٍ ، وَسُبُلٍ مُتشَعِّبَةٍ ، حَتّى أفضيْنا إلى دُوَيْرَةٍ خَرِبةٍ ، فقال : ها هُنا مُناخِى ، ووَكْرُ أفراخى . ثُمَّ استفتَحَ بابهُ ، واختلَجَ مِنِّى جِرابَهُ ، وقال : لَعَمْرى ، لقَدْ خفَّفْتَ عَنِّى ، واستوجَبْتَ الْحُسْنَى مِنِّى ، فهاكَ نصيحةً هى منْ نفائِسِ النَّصائِحِ ، ومغَارِسِ الْمَصَالِحِ ، وأنشـد :

(١) : « ط طبنة » تحريف

إذا ما حَوَيْتَ جَنَى نَخْلةٍ فلا تقْرَبنْها إلى قَابِلِ
وَإمَّا سقَطْتَ عَلَى بَيْدَرٍ فَحَوْصِلْ منَ السُّنْبُلِ الحَاصِلِ
وَلا تَلْبَثَنَّ إذَا مَا لَقطْتَ فتَنْشَبَ فى كِفَّةِ الحَابِلِ
ولا تُوغِلَنَّ إذا مَاسبَحْتَ فإنّ السَّلامةَ فى السَّاحِلِ
وَخاطِبْ بهاتِ،وَجاوِبْ بِسَوْفَ وَبِعْ آجِلاً مِنْكَ بالعَاجِلِ
وَلا تُكْثِرَنّ عَلَى صَاحِبٍ فَمَا مُلَّ قَطُّ سِوَى الْوَاصِلِ

* * *

الخبيث ، قال أبو الهيثم : الخبيث : الذكر من الشياطين وجمعه خُبث . أبو عبيدة : الخبيث : ذو الخبْث فى تفسيره . متشعّبة : متفرّقة ، وتشعّبَ الطريق : خرجت منه شُعب إلى كل جهة ، أى طرق أُخَر ، فأراد أنه خُلط عليه بحيث لا يهتدَى إلى منزله ، فكان يخرجه من طريق إلى طريق . أفضينا : وصلنا ، وهو من الفضاء . مناخى : منزلى ، وأصله موضع إناخة البعير . وكر أفراحى : عشّ أولادى . استفتح : ضرب وقال : افتحوا الباب . اختلج : أخذ بسرعة . جرابه : وعاء زاده . الحسنى : الفعل الحسَن . هالك : خُذْ النّفائس : الذخائر : الرّقاع . مغارس : مواضع يُغرَس فيها . المصالح : جمع مَصْلحة ، مفعلة من الصلاح . حويت : جمعت وحزت . جنى نخلة : هو التمر . بَيْدر : أندر الزرع ، يسمّى بالشأم أندر ، وبالعراق بَيدر . حَوْصِل : اجعل فى حَوْصلتك وهى للطائر فى الأصل . كفّة : شبكة . الحابل : الصائد . تُوغِلنّ : تكثِرنّ الدخول . سبحْت :

رفع المسهم

عمّت . الساحل : ماولِيَ الماء من الأرض ، وهو فاعل بمعنى مفعول ، لأنّ الماء سحله أى قشره وأخذ عشبه ، كما تُسْحَل الحديدة بالمبرد ، أى تبرد بالمبرد ، والسُّحالة : ماسقَط من المسحول .

وخاطِب بهات : عكس قول الصاحب ، وقد أهدى إليه العميرىّ[1] قاضى قزوين هدّية وكتب معها :

العميرىّ عبد كافِي الكفاة ومنِ اعتُدّ فى وجوه القُضاة[2]
خدم المجلس الرفيع بكتب مُفْحَمات من حسنها مترعاتِ

فوقّع تحتها :

قد قبلنا من الجميع كتاباً ورددنا لوقتِهـا الباقياتِ
لستُ أستغنم الكثير فطبعى قول خُذْ ، ليس مذهبى قَوْل هاتِ

قوله : « آجلا » ضد عاجل . وقوله : « ولا تكثرنَ على صاحب » ، أى لا تكثر من الزيارة وأقِلّها خشية الملل . وروى قدامة بن جعفر أنّ رجلاً كتب إلى آخر : إن رأيت أن تحدّد[3] لى موعدا لزيارتك أتوقّتُه إلى وقت رؤيتك فيؤنسنى إلى حين ، فافعل .

فأجابه الآخر : أخاف أن أعِدَك وعداً يعرِض دون الوفاء به مالا أملك دفعَه ، فتكون الحسرةُ أعظم من الفُرْقة .

فأجابه : إنما أسَرّ بموعدك ، وأكون جذلا بانتظارك ، فإن عاق عائق عن إنجاز وعدك ، كنتُ قد ربحت السرور لما أحبُّه ، وأصبت أجرى على الحسرة بماحرمتُه .

---

(١) يتيمة الدهر ٣ : ١٧٤ .
(٢) ط : « العميرى » ، وما أثبته من ب ، ج واليتيمة .
(٣) ط : « تجدد » ، بالجيم .

[نبذ مما قيل فى الزائر]

ولبعضهم :

أَتَى زائرًا من غير وعدٍ وقال لى أُجِلُّكَ عن تعذيبِ قلبك بالوعد

ومما جاء فى قصر الزيارة قول أبى الشيص :

يا حَبَّذا الزَّوْر الذى زارا كأنه مقتبِسٌ نارَا
نفسى فداء لك من زائر ماحلّ حتى قيل قد سارَا
مرَّ بباب الدار فاجتازها ياليتَهُ لو دخل الدارا !

وأنشد الحاتمى والوكيعىّ لجحظة :

يأبى منْ زارنى مكتتِمًا خائفًا من كل حس جَزِعَا
حــذِراً دلّ عليه نورُه كيف يُخفى الليل بدراً طلعَا
رصد الخَلْوة حتى أمكنَتْ ورَعَى السامر حتى هَجَعَا
كابد الأهوال فى زَوْرَته ثم ماســلّم حتّى ودّعا

وقال العباس بن الأحنف :

سألونا عن حالِنَا كيف أنتمْ فقرّنا وداعهمْ بالسؤال[1]
ما أناخوا حتى ارتحلنا فما نفــرِق بين النّزول والتّرْحالِ

وقال محمد بن أمية الكاتب :

يا فِراقًا أتى بعقبِ فراقٍ واتفاقًا جرى بغير اتفاق
حين حطّت ركابهم لتلاقٍ زُمّتِ العيس منهمْ لانطلاقِ

---

(١) ديوانه ٢٣١ ، والرواية فيه :

ما أناخوا حتّى ارتحلنا فما نفــرقُ بين المناخ والإرتحالِ
سألونا عَنْ حالنا إذ قدمنا فقرّنا وداعَهُمْ بالسُّؤَالِ

إن نفسى بالشّام اذ أنْت فيها ليس نفسِى نفسى الّتى بالعراقِ
أشتهى أن ترى فؤادِى فتَدْرى كيف وجدِى بهمْ وكيف احتراقِ

[طيف الخيال]

ومن الزوّار طيف الخيال ، وهو فى الشعر الجاهلىّ والمولّد كثير ، وسنذكر منه شيئاً يُستَحسن إن شاء الله تعالى ، قال قيس بن الخطيم[1] .

إنى مَرِيْتِ وكنتِ غير مَرُوبِ ومقرّبُ الأحلام غيرَ قريبِ[2]
ما تمنعِى يَقْظَى فقد تؤتينه فى النّوم غير[3] مصرّد محسوبِ[4]

وقال أبو الفرج الكاتب :

خيالك كان أعرف بالغَرام وأرأفَ بالمحبِّ المستهامِ
فلو يسطيعُ حين حضرت نومِى لكان يزور فى غَيْرِ المنامَ

وقال المرتضى[5] :

وزورٍ زارنى والّليل داجٍ فعلّلنى بباطلِ ذاك حيناً[6]
يرينى أنه ثانٍ وسادِى مضاجعةً ، وزور ما يُرينَا
نَعمتُ بباطل ، ويودّ قلبِى وِداداً ، لو يكونُ لَنَا يقينَا

وقال أيضاً :

وزورٍ تخطّى جنوب الملاَ فناديت : أهلاً بذَا الزائرِ[7]

---

(١) ديوانه ١٥ ، ١٦ .
(٢) غير مروب : غير مبعدة ، وفى ط : « شربت .. شراب » ، تصحيف .
(٣) مصرد : مقلل .
(٤) بعده فى الديوان :

كان المنَى بلقائها فلقيتُها فلهوتُ من لهوِ امرىء مكذوبِ

(٥) فى الأصول : « الرضى » ، وهو خطأ ، والأبيات فى طيف الخيال للمرتضى ١٥٣ ، وهى أيضا فى ديوانه المرتضى ٣ : ٣٠٣ .
(٦) الديوان : « وقد ملأ الكرى منا العيونا » .
(٧) طيف الخيال : ٢٤٣ منسوبة إلى المرتضى .

أتانِي هدوّ وعين الرّقيـــب مطروفة بالْكَرَى الغامرِ
وأحبِبْ به يُسْعِف الهاجعين وتحرَمُه مُقْـــلة السّاهرِ
وعَهْدِى بتمويه عين المحبّ تنمّ على قَلْبِهِ الطّائِرِ
فلمّا التقينا برغم الرّقا د موّه قلبى عَلَى نَاظِرِى

قال الرضىّ: قلتُ هذه الأبيات سنة سبع وثمانين وثلثمائة ، وتداول أهلُ الأدب إنشادَها ، واستغربوا هذا المعنى ، وشهدوا أنه مخترَع لم يسمع ، فلما تصفّحت ديوان شعر أبى سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة ، وجدت بخطه فى الجزء الثانى من شعره :

إن طيف الخيال زارَ طروقاً والمطايا بين القَنَان وشَعْبِ[1]
زارنى واصلاً على غير وعْدٍ وانثنَى هاجراً على غير ذَنْبِ
كان قلبى إليه رائدَ عينِى فعلَى العين مِنّـةٌ للقَلْبِ
كان عندى أنَّ الغرور لِطَرْفِى فإذا ذلك الغرورُ لِقَلْبِى

فلا أدرى : هل قصد نظمَها حتى لايخلِى شعره من هـذا المعنى ، أو أُنسِى سماعَه منى ، وقذف به خاطره ، وكثيرا مايلحق الشعراء ذلك ، فيتواردون فى بعض المعانى المسبوق إليها ، وقد كانوا سمعوها فأنسُوها ؛ والخواطر مشتركة ، والمعانى معترضة لـكل خاطر ، وكيفما جرى الأمر فالعنصر واحد .

* * *

ثم قال : اخْزُنْهَا فى تَأمُورِكَ ، وَاقْتَدِ بِهَا فى أُمُورِكَ ،

(١) ديوان الرضى ص ١ : ١٣٩ ، ١٤٠ ، طيف الخيال ٩٣ ، ٢٦٥ بنسبتها إليه والقنان وشعب : موضعان ، وفى ط « العنان » ، تحريف؛ وبعده هناك :
فوق أكوارهنّ أنضاء شوقٍ طرقوا بالغَرام دون الرَّكْبِ
كُلَّمَا أنَّتِ المَطِىّ من الإعـــياء أنوا من الجوَى والـكَرْبِ

وَبَادِرْ إِلَى صَحْبِك، فى كلاءةِ رَبِّكَ ، فَإِذا بَلَغْتَهُمْ ، فَأَبْلِغْهُمْ تَحِيَّتِى ، وَاتْلُ عَلَيْهِمْ وَصِيَّتِى ، وقُلْ لَهُمْ عَنِّى : إِنَّ السَّهَرَ فِى الْخُرَافَاتِ ، لِمَنْ أَعْظَمِ الآفَاتِ ، وَلَسْتُ أُلْفِى احْتِرَاسِى ، وَلاَ أَجْلُبُ الْهَوَسَ إِلَى رَاسِى .

قال الرَّاوِى : فلمَّا وَقَفْنَا عَلَى فَحْوَى شِعرِهِ ، وَاطَّلَعْنَا عَلَى نُكْرِهِ وَمَكْرِهِ ، تلاَوَمْنَا عَلَى تَرْكِه ، وَالاغتِرَارِ بِإِفْكِه .

ثمَّ تَفرَّقنَا بِوُجُوهٍ بَاسِرَةٍ ، وَصَفْقَةٍ خَاسِرَة .

* * *

قوله : « اخْزُنْها فى تامُورك » ، أى اجعلها فى قلبك ، والتَّامور : حجاب القلب ، وقيل : دم القلب . كلاءة : حفظ وكلأه يكلؤه : حفظه .

الخرافات : أحاديث اللهو والأباطيل ، قال الخليل : الخرافة الحديث المستملَح فى الكذب . أبو عبيدة : كان خرافة رجلاً صالحاً سبَتْه الجنّ ، فرأى منهم عجائبَ فحدَّث بها ، فيقال فى كلّ حديث يُستغرَب : كأنه حديث خُرافة .

ألفى : أترك . احتراسى : تحفّظى . الهَوَس : يبس الرأس ، يتولّد من كثرة السهر . فَحْوى : معنى . نُكره : منكره ودهائه . تلاومنا : لام بعضنا بعضا . الاغترار : الانخداع . إفكه : كذبه . باسرة : عابسة ، وبسر وجهه بسورا : عبّسه . وصفقة خاسرة ، أى تجارة ومبايعة ناقصة .

* * *

رفع المسهم

المقامة السابعة عشرة القهقرية

حدث الحارث بن همام قال : لحظتُ فى بعض مطارح البَيْن، ومطامح الْعَيْن ، فتيةً عليهم سيما الحِجَا ، وطِلاوَة نجُوم الدّجَى . وهم فى مماراةٍ مُشتدَّة الهُبُوب ، ومباراةٍ مشتطةِ الأُلْهُوب ، فهزَّنى لِقَصْدِهِمْ هَوَى المحاضرَةِ ، وَاسْتِجْلاءُ جَنَى المناظرةِ .

فلمَّا التَحَفْتُ بِرَهْطِهِمْ ، وَانْتَظَمْتُ فِى سِمْطِهِمْ ، قالوا : أَأَنْتَ مِمن يُبْلَى فى الْهَيْجَاء ، وَيُلْقِي دَلْوَهُ فى الدِّلاَء ؟ فقلت : بل أنَا من نَظارَةِ الْحَرْبِ ، لا منْ أبناء الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ . فأضْرَبُوا عن حجاجى ، وأفاضوا فى التّحَاجِي .

* * *

لحظت : نظرت . مطارح : جمع مَطْرَح ، وهو الموضع تطرح فيه نفسك ، أى ترميها فيه . البين : الفراق ، فيريد بمطارح البين البلاد التى طرحه فيها البين ورماه إليها . ومطامح العين: المواضع الحسان التى تطمح فيها العين بالنّظر، أى ترتفع إليها . سيما الحجا : علامة العقل ، والسِّيما من وَسَمْتُ الشىء وَسْمًا إذا علَّمته، وأصله «وَسْمَى»، فحوِّلت الواو من موضع الفاء إلى العين. فصار سِوْمى ، فقلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها . طلاوة : حسن . الدّجا : الظّلمة . المماراة : الخصام . مشتدّة : كبيرة الحركة . والشدّ : الجرى . الهبوب : مجىء الريح : مباراة : معارضة . مشتطّة : ممتدّة متجاوزة الحدّ . الألهوب : الجرى الشديد ،

فأراد أن حركة الكلام بينهم فى المناظرة شديدة . والمحاضرة : مجالسة العلماء . مناظرة : سؤال العالم لتعلم حسن نظره وقدْر معرفته . جناها : فوائدها . رهطهم : جماعتهم . انتظمتُ فى سِمْطهم ، أى جلست بينهم . يبلَى فى الهيجاء : يقاتل فى الحروب . النظارة . القوم يقعدون فى موضعٍ مرتفع من الأرض ينظرون منه القتال ولا يشهدونه ، فأراد أننى ممن يحضر معكم للاستماع ، لا للمناظرة . الحِجاج : مصدر حاجّه ، تقول : حاججت فلانا إذا أوردتَ عليه الحجّة وأوردها عليك ، فإن غلبتَه قلت : حججتُه . أفاضوا فى الأحاجى : اندفعوا فى الألغاز .

* * *

وكان فى بُحْبُوحَةِ حَلْقَتِهِمْ ، وَإِكْلِيلِ رُفْقَتِهِمْ ، شَيْخٌ قدْ بَرَتْهُ الْهُمُومُ ، وَلوَّحَتْهُ السُّمُومُ ، حَتَّى عَادَ أَنْحَلَ مِنْ قلَمٍ ، وَأَفْحَلَ مِن جَـلَمٍ ، إلا أنه كان يُبْدِى الْعُجَابَ ، إذا أجاب ، ويُنْسِى سَحْبَانَ ، كُلَّمَا أبَانَ . فأَعْجِبْتُ بِمَا أُوتِىَ مِنَ الإصَابة ، وَالتَّبْرِيزِ عَلَى تِلك العِصَابَة ، ومَا زالَ يَفْضَحُ كلَّ معمًّى ، وَيُصْمِى فى كلِّ مَرْمًى ، إلى أن خَلَتِ الْجَابُ ، ونَفِد السؤالُ والجواب .

فلمَّا رأى إنفاضَ القومِ ، وَاضطرَارَهم إلى الصَّوم ، عَرَّضَ بالمطَارَحَةِ ، وَاستأذَنَ فى الْمُفَاتَحةِ .

فقالوا له : حَبَّذَا ، وَمَنْ لنَا بذا !

* * *

بُحْبُوحة : وسط . إكليل : دائرة ، وأصلها عصابة مكلّلة بالدرّ والياقوت ،

تعتمد على رءوس الملوك . رفقتهم : جماعتهم . برته : أذهبت لحمه . لوّحته : غيّرته وأضمرت جسمه . السَّموم : الريح الحارّة . أقحل : أيبس .

جلم : مقصّ ، وأكثر ما يستعمل مثنًّى ، فيقال : جلَمان ، والعجب من أبى محمد يقول فى الدرّة : [١] ويقولون : قرضت [٢] بالمقراض ، وقَصَصت [٣] بالمقصّ [٤] فيَهمون ، كما وهم بعض المحدثين حين قال فى صفة مزنون [٥] بالقيادة ، وإن كان قد أبدع فى الإجادة :

إذا حبيبٌ صدّ عن إلفِـــهِ تيهًا وأعيَا كلَّ رَوّاضِ [٦]
ألّف فيما بين شخصيهِمـــا كأنّه مسمارُ مقـــرَاضِ

قال : والصّواب أن يقال ، مقراضان ومقصّان وجَلمان ، لأنهما [٧] اثنان .

فما منعه غيره أباحه هنا لنفسه ، فقال : أقحل من جَلم ، ولا نقول كما قال : إنه وهَم ، بل نقول : إنها لغة قليلة .

قال يعقوب : والجَلم الذى يُجَزّ به ، وقال رجل من الأزد فى مفرد مقراض :

---

(١) درة الغوص ١١٥ .
(٢) الدرة : قرضته .
(٣) الدرة : « قصصته »
(٤) الدرة : « فيوهمون » .
(٥) مزنون ، أى متهم .
(٦) قبله فى الدرة :

القَ ابنَ إسحاقٍ تلاقى فتًى لَيْس امرؤ عنه بمعتاضِ

(٧) بعده فى الدرة : ونظير هذا الوهم قولهم للاثنين زوج ، وهو خطأ ، لأن الزوج فى كلام العرب هو الفرد المزاوج لصاحبه . فأما الاثنان المصطحبان فيقال لها : زوجان ، كما قالوا : عندى زوجان من النعال ، أى نعلان .

رفع المسهم

فعليك ما اسطعت الظّهور بلمّتى وعلىّ أن ألقاكَ بالمقراضِ

وقال الراجز فى مفرد الجلم :

* وجَلَمٍ كريشة الوقـــــواق *

والوقواق : الخطّاف ، والجسم النّحيل يشبّه بالقلم والجلم ، وقلّب الشاعر التشبيه وألغز بالقلم ، فقال :

ضئيل الرّواء كثير الفَنـــاء من البحر فى المنصب الأخْضَرِ
كمثل أخى العشقِ فى شخصِه وفى لونه من بنى الأصْـــفَرِ

وقال ابن أبى لُبابة فى جلَم :

ومعتنقيْن ما اتّهمـا بعشقٍ وإن وُصفا بضمٍّ واعتناقِ
لعمرو أبيك ما اجتمعا لمعنًى سوى معنى القطيعة والفِراقِ

وتقدّم فى الثانية من أبيات المعانى فيه :

ارعت مراتع مدراها على وهَن[1] صنوين إن أفردا لم يرعيا أبدا

أبان : بَيَّن . التّبريز : الظهور والخروج قبلهم .

العصابة : الجماعة . يفضح : يشهر عيبه . معمّى : مستور . يصمِى : يصيب المقتل .

خلت الجِعاب : أى أفرغ الكلام ، والجُعبة : وعاء السهام ، فكنّى بها عن

(١) حاشية ط : الذى تقدم « على : عجل » .

القلوب ، وبالسهام عن الكلام الذى يصدر عنها .

الإنفاض: فَناء الزاد ، وقد أنفض القوم ، وأراد نفاد ما عندهم من العِلْم .
الصَّوْم : السُّكوت والإمساك عن الكلام .

المطارحة ، أصلها فى الغِناء ، وهو ما يأخذه المتعلّم عن المعلّم وعرّض بها ، أى ذكرها . المفاتحة : استفتاح الكلام .

* * *

فقال : أتَعْرِقونَ رِسالَةَ أرضُها سماؤُها ، وَصُبْحُها مَساؤُها ، نُسِجَتْ عَلَى مِنْوالَيْن ، وَتجلَّتْ فى لوْنَيْن ، وَصلَّتْ إلى جِهتَيْن ، وَبَدَتْ ذات وجْهَيْن ، إن بَزغَتْ مِن مَشْرِقِها ، فناهِيكَ بِرَوْنَقِها ، وَإنْ طَلعَتْ مِن مغْرِبِها ، فيا لِعَجَبِها !

قال : فكأن القوْمَ رُمُوا بالصُّماتِ ، أوْ حَقَّتْ عَلَيهِمْ كلمَةُ الإنْصاتِ . فما نبَسَ مِنْهُمْ إنسانٌ ، ولا فاهَ لأحَدهم لسانٌ ، فحين رآهم بُكْماً كالأنعام ، وصُمُوتاً كالأصنامِ ، قال لهم : قَدْ أجَّلْتُكُمْ أجَل العِدَّة ، وَأرْخَيْتُ لكُمْ طولَ المدّة ، ثمَّ هَاهُنا مَجْمَعُ الشملِ ، وَموْقِفُ الفَصْلِ ، فإن سمَحَتْ خَواطِرُكُمْ مَدَحْنَا ، وإن صَلَدتْ زِنَادُكُمْ قَدَحنَا ، فقالوا له : واللهِ مالنَا فى لُجّةِ هَذا البَحْرِ مَسْبَحٌ ، ولا فى ساحِلِه مسْرَحٌ ، فأرِحْ أفكارنَا مِنَ الكَدِّ ،

وَهَنِّئْ الْعَطِيَّةَ بالنَّقْدِ ، واتَّخِذناَ إخوانًا ، يثبُون إذا وَثَبْتَ ، ويُثيبُونَ مَتَى استَثَبتَ .

فأطرق ساعةً ، ثم قال : سَمَعًا لَكُمْ وَطاعةً ، فَاسْتَمْلُوا مِنِّى ، وانقُلوا عَنِّى ...

* * *

أرضها سماؤها : يريد أعلاها أسفلها . صبحها مساؤها : أولها آخرها . المنوال : خشبة الحائك ، أراد أنها نسجت من الطَّرفين ، لأنّك تبتدئها بالقراءة إن شئت من أولها ، وإن شئت من آخرها .

بَزَغَت : طلعت . ناهيك : كافيك .

رونقها : حسنها ، والرَّوْنق : صفاء الوجه وحسنه ونعمته .

الصّمات : السكوت ، والإنصات مثله . نبَس : تكلّم . الأنعام : المواشى .

أجّلتكم : أخّرتكم والعِدّة هنا : عدة الموت ، لأنها أطول العدد ، ألا ترى أنه أرخى لهم طِوَل المدة ؛ والطِّوَل : الحبل . والشّمل : الاجتماع . الفَصْل : القضاء ، يقول : قد طوّلت لكم الأمَد لتستخبروا هذه الرسالة ، وفى هذا الموضع يكون اجتماعنا ويفصل فيه بين العارف وضده .

خواطركم : أذهانكم . صلَدت : شحّت . قدحنا : ضربنا زند النار ، يقول : إن عرفتموها مدحناكم وإن جهلتموها عرّفناها لكم ، وجعل صلود الزند كناية عن جمود القرائح .

لُجَّة : معظم الماء . مَسْبح : موضع يُسبح فيه ، أى يعام . مَسْرَح : موضع

يُسرح فيه ، أى يُمشى ويتصرّف . الكد . الجهد والتعب . هنىء : طيّب . النقد : حضور المال . يثبون : يقومون لقيامك . يُثيبون : يهبون الثواب . استثبت : طلبت الثواب . استملوا : اكتبوا .

* * *

الإنسانُ صنيعةُ الإحْسانِ ، وربُّ الجميلِ فِعْلُ النَّدْبِ ، وَشِيمةُ الْحُرِّ ذخيرةُ الحمدِ ، وَكسبُ الشُّكْرِ استمارُ السَّعادةِ ، وعُنْوانُ الكرمِ تباشيرُ البِشْرِ ، واستعمالُ المُداراةِ يُوجِبُ المُصافاةَ ، وَعَقْدُ المحبَّةِ يَقْتَضى النُّصْحَ ، وَصِدْقُ الحديثِ حِلْيَةُ اللِّسانِ ، وفصاحةُ النُّطْقِ سِحْرُ الألبابِ ، وَشَرَكُ الهوَى آفةُ النُّفوسِ ، وَمَلَلُ الْخَلائِقِ شَيْنُ الْخَلائقِ ، وَسُوءُ الطَّمعِ يباينُ الوَرَعَ ، والْتِزامُ الحزَامةِ زِمامُ السَّلامَةِ ، وتَطَلُّبُ المَثالِبِ ، شَرُّ المعايبِ ، وتَتَبُّعُ العثَرَاتِ ، يُدْحِضُ المودّاتِ ، وخُلوصُ النِّيّةِ ، خُلاصةُ العَطِيَّةِ . وتهنئةُ النَّوالِ ثَمَنُ السُّؤالِ ، وتكلُّفُ الكُلَفِ ، يُسَهِّلُ الخَلَفَ ، وتيقنُ المُعونةِ يُسَنِّي المئونة ، وفَضْلُ الصَّدْرِ ، سَعَةُ الصدرِ ، وزينةُ الرِّعاةِ ، مَقْتُ الشَّعاةِ ، وجزاءُ المدائحِ ، بثُّ المنائحِ ، ومَهْرُ الوسائلِ ، تَشْفِيعُ المسائلِ ، ومَجْلَبَةُ الْغَوايةِ ، اسْتِغْراقُ الغايةِ ، وَتجاوُزُ الْحَدِّ يُكِلُّ الْحَدَّ .

* * *

صنيعة : ما يصطنعه الإنسان لغيره من الخير ، يريد أن الإنسان أهل الإحسان ، وإن عكستَ قلت : الإحسان صنيعة الإنسان ، أى إصلاح الإحسان وتتميمه

من صنع مَنْ يوصف بالإنسانيّة وقد تقدّم :

* وما فيهم مَنْ يربّ الصّنيع *

وقال أعرابيّ لعبد الملك بن مروان :

يربّ الّذى يأتى من الخير إنه إذا فعل المعروف زاد وتمّما
وليس كبانٍ حين تمّ بناؤه تتبّعه بالنّقض حتى تهدّما

فمعنى يربّ ، هو قوله : زاد وتمّما .

النَّدْب : السّيّد الخفيف : شيمة :طبيعة . الذخيرة : الشيء الرفيع من مالٍ أو غيره ،والادخار كالاقتناء . استثمار : تناول الثمر : عنوان : دليل : تباشير : أوائل ، وتباشير الصبح: طرائق ضوئه فى الليل ؛ ويقال للطواق التى تراها عَلَى وجه الأرض من آثار الرياح : التّباشير . البشر : طلاقة الوجه . المداراة : خداع القلوب بلطف الكلام ، ومداراة الناس:معاملتهم بما يحبّون . المصافاة : إخلاص الصحّبة . عقدها : ربطها . يقتضى : يتضمّن . حلية : زينة . الألباب : العقول . الهوى : ما يهواه الإنسان ويميل إليه . آفة : داء . الخلائق : الناس . شين : عيب . الخلائق : الطبائع ، يقول : الملل فى الناس يعيب أخلاقهم. سوء الطمع: كثرة الحرص . تباين : تباعد . الورع : الكف عمّا فيه إثم ، وقد وَرَع الرجل يَرَع ورعاً ورِعَة ؛ إذا كفّ عمّا لا يحلّ ، والورَع بفتح الراء : الجبان ، وقد وَرِع وورَع ، وقال عروة بن أذينة فى ذمّ الطمع :

لقد علمت وخيرُ القول أصدقه بأنّ رزقى وإن لم آتِ يأتينى
أسعى له فيعنينى تطلّبه وإن قعدت أتانى لا يعنينى
لاخير فى طمعٍ يدنى إلى طبَع وعقة من قوام العيش تكفينى

رفع المسهم

وأنشد الحريريّ البيت الأول فى الدرة :

لقد علمت وما الإسراف من خُلُقى أن الذى هو رزقى سوف يأتينى

قال : فيروى أكثرهم « الإسراف» بالسين المهملة ، وروى بعضهم بالشين المعجمة[1] ، ليكون معناه التطلّع إلى الشىء والاستشراف إليه .

* * *

[عروة بن أذنيه وهشام بن عبد الملك]

قال : ولهذا البيت حكاية تحثّ على استشعار اليقين، وإعلاق الأمل بالخالق دون المخلوقين ، فحليته بها تحلية لعاطله ، ومنبّهة على صدق قائله ؛ وهو ما رويته من عدّة طرق: أن عُروةَ هذا وفد على هشام بن عبد الملك فى جماعة من الشعراء ، فلما دخل عليه عروة قال له ألست القائل :

لقد علمت وخير القول أصدقه ... الأبيات

وأراك قد جئتَ تضرب من الحجاز إلى الشام فى طلب الرزق ! فقال له : لقد وعظتَ يا أمير المؤمنين فبالغتَ فى الوعظ ، وأذكرت ما أنسانيه الدهر . وخرج من فوره إلى راحلته فركبها ، ثم نصّها نحو الحجاز .

فمكث هشام يومه غافلا عنه ، فلمّا كان من الليل تعارّ[2] على فراشه ، فذكره فقال : رجل من قريش قال حكمة ، ووفد إلىّ اليوم، فجبّهته ورددته عن حاجته ! وهو مع هذا شاعر ، لا آمن ما يقول . فلما أصبح سأل عنه ، فأخبر

(١) البيت فى اللسان — شرف

(٢) التعار : التقلب على الفراش فى النوم .

بانصرافه ، قال: لا جرم، ليعلم أنّ الرزق سيأتيه ، ثم دعا بمولًى له ، فأعطاه ألفَ دينار ، وقال : الحق بهذا ، أين أدركتَه فأعطِه إياها .

قال : فلم يدركه إلا وقد دخل بيته ، فقال : أبلغ أمير المؤمنين السلام وقل له كيف رأيت !

* * *

قوله : «الحَزامة» :جودة الرأى ، والحازمُ: الجامع لرأيه ، المحكم لأموره وأصل الحزم الجمع والشدّ . ومنه الحزمة ، وحزمت المتاع جمعتَه وشددته ، ومنه الحِزام لأنه يُشدّ به ، وقد حَزُم الرجل : صار حازما .

الزّمام : مِقوَد البعير .

المثالب : المساوى ، وثلبه : ذكره بسوء . التطلّب : البحث ، يريد أن البحث عن عيوب الناس من أكبر العيوب ، قال رجل للمستورد الخارجيّ : أريد غلاماً عيّاباً ، قال : التمسه بفضل معايب فيه .

وكان يقول : أوّل ما يدلّ على عائب الناس معرفته بالعيوب .

معاوية :سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنّك إن اتّبعت عوراتِ الناس أفسدتَهم ، أوْ كِدْت تفسدهم .

أبو الدرداء :كلمة سمعها معاوية من رسول الله صلى الله عليه وسلم نفعه الله بها : مرّ المسيح صلوات الله عليه بقوم من اليهود ، فقالوا له شرّ ، فقال خيراً ، فقيل له فى ذلك ، فقال : كلٌّ ينفق مما عنده .

وكتب الشافعيّ رضى الله عنه لصديق له :

رفع المسهم

لئن ساءنى أن نلتنى بمساءة لَقَدْ سَرّنى أنّى خطرت ببالِكِ[1]

وأتى الشافعىّ رضى الله عنه مسجداً ، فصادف قوماً يغتابونه ، فسدّ الباب وقال :

هنيئاً مريئاً غيرَ داء مخامرٍ لعزّة من أعراضنا ما استحلّتِ[2]

وقال الشاعر :

ثالبنى عمرٌو وثالبْتــــه فألُمَّ المثلوب والثالبُ

قلت له خيْراً وقال الخنَى كلٌّ على صاحبه كاذبُ

قوله : «العثَرات» ، السقطات . يُدحض : يبطل ، يريد أنّ البحث عن عيوب الصاحب يُبطل مودّته .

أبو بُرْدة الأسلمى رضى الله عنه : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا معشر مَنْ أسلم بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه ، لا تذمُّوا النّاس ولا تعيّروهم ، ولا تتّبعوا عوراتهم ، فإنه من يلتمس عورة أخيه تتبَّعَ الله عورته ، ومَنْ تتبع الله عورَته يفضحه فى بطن بيته .

وقال سابق البربرىّ :

إذا ما كنت طالب كلّ ذنبٍ ولم تحْلُمْ أخاك عن العِتابِ

تُباعد مَنْ تباعد بعــد قربٍ وصارَ بِك الزّمان إلى اجتنابِ

وقال عبدالله بن جعفر : عليك بصحبة منْ إن صحبتَه زانك ، وإن غبت عنه صانك ، وإن احتجت إليه مانك ، وإن رأى منك خَلّة سدّها ، أو حسنة عدّها .

---

(١) البيت من أبيات لابن الدمينة ، ديوانه ١٧ .

(٢) من تائية كثير ، أمالى القالى ٢ : ١٠٧ ـ ١١٠ .

رفع المسهم

وقال الحسن بن وهب: مِنْ حُقُوق المودّة أخذ عفو الإخوان، والإغضاء عن تقصير إن كان.

وقيل: خيرُ الإخوان مَن إذا نسيتَ ذنبك لم يقرعك به، ومعروفَه عندك لم يمنّ عليك به.

وقال الشاعر:

إذا شئت أن تدعَى كريماً مهذّباً سنيّاً سرياً ماجداً فَطِناً حُرّا
إذا ما بدتْ من صاحبٍ لك زلّة فكُنْ أنتَ مُحْتالا لزلّته عُذْرا

قوله: «خلوص النية»، صفاؤها، أى من أخلص لك النية؛ فكأنه قد أعطاك خالص ماله، والخلاصة: ما خَلُصَ من الشيء وصفا.

النوال: العطاء. الكُلَف: المشقّات. يسنّى: يسهّل. المؤنة: خدمة الضيف وما ينفَق عليه، يقول: من تيقّن أن الله يُعينه على البرّ أو ما ينويه من الحقوق، سهّل عليه تكلّف المؤن؛ وهو من قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إنّ الله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه».

وقال صلى الله عليه وسلم: «من عظمت نعمة الله عنده عظمت مؤنة الناس عليه. فإن لم يقم بتلك النعمة عَرّض النعمة للزوال».

وأما معكوس ما قبله، وهو تيقّن الخلف يسهل الكلَف، فمن قوله صلى الله عليه وسلم «من أيقن بالخلف جاد بالعطية».

قال محمود الورّاق:

مَنْ ظنّ بالله خيراً جاد مبتدئاً والبخل من سوءِ ظنّ المرء بالله

رفع المسهم

قالوا: للمعروف ثلاث خصال : تعجيله وتيسيره وستره ، فمن أخلّ بواحدة منها ، فقد بخَسَ المعروف حقّه ، وسقط منه الشكر .

قوله : « الفضل » ، هو الزيادة على قدر الحاجة . الصَّدْر : هو المتقدم فى الأمور ، مثل الوالى وسيّد القوم ، يقول : مَنْ يتصدّر لأمور الناس ، ففضلُه وشرفُه سَعة خلقه .

الرّعاة : الولاة . مقت الشّعاة : بغض العمّال الذين يجمعون الزكاة . والشّعاة أيضاً المشّاءون بالنميمة للملوك ،فيقول : زين الملوك بغض العمال الذين جرت العادة فى قديم الزمان وحديثه بظلمهم الناس ، فإذا أبغضوهم بحثُوا على أعمالهم الفاسدة ، فخافوهم فعدلوا، وأما بغض المشّائين النّميمة للملوك فواجب ، لقول النبى صلى الله عليه وسلم « لعن الله المِثلب » . قيل : ومَن المِثلب يارسول الله ؟ قال : « الذى يَسْعَى بصاحبه إلى سلطان ، فيهلك نفسه وصاحبَه وسلطانه » .

قوله: « بثّ » ، أى نشْر . المنائح : العطايا ، يقول: جزاء المدح بَذْل المال، وأصل المنائح بذل فوائد الأموال لا الأموال .

مهر : حَقّ ، الوسائل : القُرَب ، والوسيلة ما تجعله سبباً بينك وبين مَنْ تريد الوصول إليه مثل الشفيع والهدية فى قضاء حاجتك .

المسائل : جمع مسألة ، وهى هنا سؤال المحتاج . والمجلَبة: مَفْعَلة من الجلب، والمعنى: حق الوسيلة قضاء الحاجة . الغَواية : الضّلالة . استغراق : تجاوز الحدّ ، والحدّ : الأوّل الفصل بين الشيئين ، وأصله المنْع ، والحدّ الآخر حدّ السيف وشبهه . يكلّ : يضعف .

* * *

وتعدّى الأدب ، يُحبِطُ القُرَب ، وتناسى الحقوق ، ينشىء

العُقوق ، وتحاشي الرِّيب يَرْفع الرّتب ، وارتفاعُ الأخطارِ باقتحام الأخطار ، وتنوُّهُ الأقدار بمواتاةِ الأقدار ، وشرفُ الأعمال في تقصيرِ الآمال ، وَإطالة الفِكْرَة تَنْقيح الحِكمة ، ورأس الرِّياسة تُهذِّبُ السِّياسة ، ومعَ اللَّجاجة تُلْغَى الحاجة ، وعند الأوْجَال تَتَفَاضَل الرِّجال ، وبِتَفَاضُلِ الهِمَمِ تتفاوت القِيَم ، وَبتزيُّد السَّفير يَهِنُ التَّدبير ، وَبِخَلَلِ الأحوالِ تتبيَّنُ الأهْوَال ، وَبِمُوجِب الصَّبر ثَمَرَةُ النَّصْر ، واستحقاق الإمْدَادِ بحسب الاجْتِهَاد ، ووُجوب الملاحظة ، كِفاء المُحافظة ، وصَفَاء المُوالِي بتعهد المَوَالِي ، وتحلّي المُرُوءاتِ يحفظ الأمانات ، واختبارُ الإخوان بتخفيفِ الأحزانِ ، ودفع الأعداء بكفّ الأوِدّاء ، وَامتحانُ العقلاء بمقارنة الجُهَلاء ، وتبصُّر العواقب يؤمِنُ المَعَاطِب ، وَاتقاء الشَّنَعَةِ يَنْشُر السُّمْعَة ، وَقُبْحُ الجَفاء ينافي الوَفَاء ، وَجَوْهَرُ الأحرار عند الأَسْرَارِ .

* * *

تعدّى : تجاوز . يحبط : يفسد .

ينشيء العقوق : يظهر المقاطعة . تحاشي : تَرْك واعتزال .

الرِّيَب : التُّهم . الرّتب : المنازل الرفيعة ، قال بعض الحكماء : ثلاثة لاغُرْبة معهنّ : مجانبة الرِّيَب ، وحسن الأدب ، وكفّ الأذى .

رفع المسهم

ونظمها الشاعر فقال :

يزين الغريبَ إذا ما اغترب ثلاثٌ، فمنهنّ حسن الأدَبْ
وثانية حسنُ أخـــلاقه وثالثهنّ اجتِناب الرِّيَبْ

وقال عمرو بن العاص رضى الله عنه لدهقان بعض ملوك العجم : بم ينبلُ الرجل عندكم ؟ قال: بترك الكذب، فإنه لا يشرُف إلا من وُثق بقوله . وبقيامه بأهله ، فإنه لا ينبُل مَنْ يحتاج أهلُه إلى غيره ، وبمجانبة الرِّيَب فإنه لا يعزّ من لا يأمن أن يصادف على سوءة . وبالقيام بحاجات الناس ، فإنه مَنْ رُجِيَ الفرج لديه كثرت غاشيته .

قوله : « ارتفاع الأخطار » أى شرف الأقدار والقِيَم . اقتحام : دخول شديد ، يقال : فلان يقتحم فى الأمور ، أى يدخل فيها بغير تثبت ولا رويّة ، وتقحّمت الناقة ، إذا اندّت فلم يمسِكْها راكِبها ، ومنه قُحْما العرب ، سُمِّيَت قُحمة، لأنهم إذا أجدبوا تركوا البادية ودخلوا الريف .

الأخطار : جمع خَطَر ، وهو الغَرَر .

تنوّه : ترفع . مواتاة : موافقة . الأقدار : الأول جمع قَدْر الإنسان ، أى منزلته، والأقدار الثانى : جمع قدَر الله تعالى .

وقال الشاعر :

الجِـــدّ أنهضُ بالفتَى مِنْ عقله فانهض بجدٍّ فى الحوادث أو ذرِ
ما أقربَ الأشياء حين يسوقها قَدَرٌ وأبعدَها إذا لم تقـــدَرِ

تقصير الآمال : تقليل الرجاء وكفّه ، ومَنْ قلّل الطمع شرُف عمله .

رفع المسهم

الفكرة : التدبير . تنقيح : تخليص ، وأصله أن تشذب العُقَد من العود أو القصب حتى يستوىَ موضعها مع القصب .

قال الشاعر :

وطارتْ بصلب قوّضت عند بيتها له أُبَنٌ ما قوّضت وكعوبُ[1]

صلب : عمود البيت ؛ جذبته المرأة لتضربه به فتهدّم بيتها .

تهذب : تخلص ؛ والمهذب : المخلّص من العيوب . والسياسة : حسن المداراة . واللجاجة : ركوب الرأس فى الباطل . تُلْفَى : توجد ويروى : «تلغى» و«تلقى» ، ومعناها تُترك وتطرّح . والحاجة : ما يُحتاج إليه ، فإن عكست رجعت الحاجة الفقر ، يريد : إذا لججت فى شىء أدركت حاجتك ، وعلى «تلغى» إذا وقعت لجة فى حاجتك تركتْ ، وعلى العكس : مَن افتقر لجّ فى السؤال حتى يعطى .

الأوجال : جمع وَجَل ، وهو الفزع ، والمعنى ، أنّ تفاضل الرجال فى الصّبر عند النوازل .

سلمان رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس شىء خيراً من ألفٍ مثله إلا الإنسان » .

وقال الشاعر :

ولم أرَ أمثالَ الرّجال تسارعُوا إلى الخير حتى عدّ ألفٌ بواحدِ

وفى عكسه يقول : الأمور المخوفة تصغر على العظيم وتعظم على الصغير ، فعلى قدر ما يفضل الرجل صاحبَه فى عزمه وإقدامه تتزايد الأوجال وتنقص .

وقد قال المتنبى :

على قَدْرِ أهل العزم تأتى العزائمُ وتأتى على قدر الكرام المكارمُ[2]

---

(١) الأبنة : العقدة فى العود ، وجمعها أبن .

(٢) ديوانه ٣ : ٣٧٨ ، ٣٨٩ .

رفع المسهم

وتعظمُ فى عين الصغير صغارُها وتصغُرُ فى عين العظيم العظائمُ

الهمم : جمع هِمّة . تتفاوت : تتباعد ما بينها . القيَم : المنازل . السفير : الرسول : يهِن : يضعف ، والمعنى أن السفير إذا تعدّى فزاد فى الحديث ضعف التدبير ، ولو عكست لقلت : إن تدبير المرسل إذا اختلّ ضعُف السفير ، وإن كان حازماً ، وعلى هذا أنشدوا :

إذا كنتَ فى حاجةٍ مرسلاً فأرسِلْ حكيماً ولا توصِهِ[1]
وإن ناصحٌ منك يوما دَنَا فلا تنأ عنه ولا تُقْصِهِ
وإن باب أمرٍ عليك التوَى فشاورْ لبيباً ولا تعصِهِ
وذو الحقّ لا تنتقص حقَّهُ فإنّ القطيعة فى نقصِـــهِ
ولا تحرصنّ فربّ امرىء حريصٍ مضاع على حِرْصِهِ

قوله : « خلل » ،فساد . والإحماد : أن تجد الرجل محمودا .

والاجتهاد : بلوغ الجهد ، وهو أقصَى الطاقة ، والمعنى : أنّ الرجل يستحق أن يكون محموداً بحسب ما بذل من اجتهاده وطاقته ؛ ولو عكست لقلت : الاجتهاد واجبٌ عليك فيما كلفته بحسبِ إحمادك من كلّفك .

الملاحظة : النظر بمؤخَر العين .

المحافظة : التحرّز ، والمعنى : إنك إذا أوجبتَ ملاحظة حال المحافظ لك ، ففعلك ذلك كفاء محافظته ، وإن عكست قلت إن المحافظ لك إذا صفت محافظتُه فهى كفاء ملاحظتك .

المُوالى : الذى يُوالى الخير ، والكرم ،أى يفعل المرة بعد المرة . تعهّد :

---

(١) البيت الأول فى الأغانى ١٦ : ٨٤ (ساسى) من غير نسبة .

تفقّد . المَوالى : بنو العمّ، وقيل: الموالى مَنْ والاك بعتق أو بحالف أو بصحبة ، فكلُّ واحد منهما مولًى للآخر ، والمُوالى بالضم الفاعل ، والمعنى: إذا تعاهدت مَنْ والاك بما أوجبه ولاؤه من رعايته، صفتْ مودته لك ، وإن عكست قلت: إن المَوالى يتعهدون منْ والاهم .

والصحيح فى هذا الموضع أنّ المُوالى الذى يوليك وُدّه ، والمَوالى : العبيد والأتباع .

وسألنى الأستاذ المقرئ الحاجّ ابن السقاط فى هذا الموضع ، فأجبت بما تقدّم ، فقال لى : معنى هذا الموضع غائب عمّن لا يعرف سيرة أهل المشرق ، وذلك أنّ الرجل الشريف حين يصبح عندهم يأمر مواليه أن يقصدوا نظراءه من الأشراف والأعيان ، فيأتون باب الشريف، فيستأذنون عليه، ويدخلون إليه ويقولون له : ينعم مولانا صباحك ، ثم يسألونه عن حاله وعمّا حدث عنده ، ثم يفعلون كذلك بجميع أصحاب مولاهم ، وكذلك يفعل مَوالى ذلك المقصود فى قصد نظراء مولاهم، فتنضبط بذلك عندهم الرّعايات بين الأصدقاء والأقارب ، وتتزايد المودّات بين الأولياء والأجانب. فعلى هذا المعنى يقول فى تعهد الموالى، وهو حسن إن شاء الله تعالى .

قوله: «تحلّى» ، أى تزيّن. والمروءات ، تقدمت. وتخفيف الأحزان: تهوين الطوارئ والنوازل . الأودّاء : الأحباب ، يريد أنهم يكفون الأعداء ، ورواية ابن ظَفَرَ «دفع العَداء» ، وأنكر «الأعداء» ، وقال: العَداء بالفتح والمد: الظلم.

امتحان : اختبار ، يقول : إنما يتبيّن لك العاقل بمقارنته وبمصاحبته للجاهل ، لأنّه لا يوافقه ، وإن عكست قلت : الجاهل إذا صحبَ العاقل تبصّر وانتقى جهلُه .

وقالوا : إذا أردتَ أن تُفْحِمَ عالمًا فأحضِرْهُ جاهلاً .

رفع المسهم

وقال الشاعر :

عَدْوَى البليد إلى الجليد سريعةٌ والجمر يُوضعُ فى الرماد فيخمَدُ

وقال صلى الله عليه وسلم : « ويل لعالِمٍ أمرٍ من جاهله » .

وجاء كيسان إلى الخليل يسأله ، ففكّر ليجيبَه فلمّا استفتح الكلام ، قال له : لا أدرى ما تقول ! فقال الخليل[1] :

لو كنتَ تعلمُ ما أقولُ عَذَرْتَنِي أو كنتُ أجهلُ ماتقولُ عَذَلْتُكا

لكنْ جهلتَ مقالتى فعذلْتَنِي وعلمتُ أنك جاهلٌ فعذرْتُكا

تبصّر العواقب : إمعان النظر فى عاقبة الأمور . والمعاطب : المهالك ، يريد من نظر فى عاقبة أمره أمِن ما يحذر .

الشّنعة : الفعل القبيح ينشر ذكره . السّمعة : الذكر الجميل يُسمَع عنك ، أو القبيح فينشر فى الناس .

الجفاء : سوء الأدب ، وثقل الكلام . وينافى : يباعد . الوفاء : ضد الغدر .

* * *

ثم قال : هَذِهِ مائَتَا لَفْظة ، تَحتَوِى عَلَى أدبٍ وَعِظَةٍ ، فمَنْ سَاقَهَا هَذَا الْمَسَاقَ ، فلا مِرَاء وَلاَ شِقَاق ، وَمَنْ رَامَ عَكْس قَالَبِهَا ، وَأنْ يَرَدَّهَا عَلَى عَقِبِهَا ، فَلْيَقُلِ : الأسْرَارُ

---

(١) الخبر والشعر فى ابن خلكان ١ : ١٧٣ بهذه الرواية : « وكان له — أى للخليل — ولد متخلف ، فدخل على أبيه يوماً ، فوجده يقطع بيت شعر بأوزان العروض ، فخرج إلى الناس وقال : إن أبى قد جن ، فدخلوا عليه ، وأخبروه بما قال ابنه ، فقال مخاطبا له ... وذكر البيتين .

عند الأحرار ، وَجَوْهَرُ الْوَفَاء ، يُنَافِى الْجَفَاء ، وَقُبْحُ السُّمْعَةِ يَنْشُرُ الشُّنْعة ، ثمَّ عَلَى هَذَا الْمَسْحَبِ فَلْيَسْحَبْهَا ، وَلا يَرْهَبْهَا ، حتَّى تكونَ خَاتِمَةُ فِقرِهَا ، وَآخِرَةُ دُرَرِهَا . وَرَبُّ الإحْسَانِ صَنِيعة الإنسان .

* * *

تحتوى : تشتمل . عظة : موعظة .

المراء والشقاق ، معناهما الخلاف ، والعكس ردّ أول الكلام على آخره ، وهو الردّ على العقب كما ذكره ، وهو معنى القهقرة الذى سَمّى به المقامة ، ولذلك لم ينسُبْها إلى بلد. والقهقرة: رجوع الرجل عنك ، كما جاء عليك،وذلك أن يرجع إلى خلْف ، وهو يستقبلك بوجهه ، وهو الردّ على العقب ، وذلك أنّ الرجل إذا توجّه مقبلا إليك ، فإنما يقدِّم فى مشيه إليك صدورَ قدميه ، فإذا تقهقر قدّم فى مشيه عَقِبَه ، وأصل القَهْقر : الحجر المدحرج ، فإذا ضربته تدحرج فى جَرْيه ، حتى يستقرّ ، فإذا أردت أن يرجع إلى الموضع الذى جاء منه ضربته فتدحرج راجعاً إلى جهة موضعه ، فشبّه رجوع الرجل على ماوصفناه ، وكذلك هذه الرسالة رجوعُ آخرها إلى أولها ، مشبّه بذلك .

ولذلك شبّه الأعرابى فرسَه فى اجتماعه بالحِجْر[1] فقال : محبوبك مهملج[2] كما تقهقر الأدعج

والمسحب : الطريق الذى تجرّ فيه الشيء .

---

(١) الحجر : الأنثى من الخيل

(٢) المهملجة : حسن سير الدابة فى سرعة

رفع المسهم

يرهبها : يخفها ، أى لا يخرج الألفاظ عن طريقها فتختلّ ، وذلك أن هذه الرسالة مركّبة كلها من مبتدأ وخبر ، فإن وقفت فيها على مبتدأ فى أولها أو آخرها أو وسطها ، فاقرأه مع مابعده تجده مستقيما ، واقرأه مع ماقبلَه تجده كذلك ، فإن وقفت على خبر مبتدأ فلا يستقيم مع مابعده ، وهو مع ماقبله أبعد ، فأراد بقوله « لا يرهبها » لا يبتدىء لفظه بغير مبتدأ فتتداعَى مبانيها ، وتبطل معانيها ، فتفهمه .

والفِقَر فى غير الموزون مثل القوافى فى الموزون ، والفِقر مشتقّة من فَقَار الظهر ، لأنها تنقطع على قافيتين أو ثلاثة ، وهذا هو الفرق بين الفِقَر والأسجاع إذ الأسجاع كلّها ترجع إلى قافية واحدة من سَجْع الحمام وهو لايختلف ، ولهذا قال المرّى فى الغراب :

أتى وهو طيار الجناح وإن مَشَى أشاعَ بما أعيا سطيحاً من السَّجْع (١)

وسطيح : كاهن ، وكلامه أسجاع .

* * *

قال الراوى : فلمَّا صَدَعَ بِرِسَالَتِهِ الْفَرِيدَةَ ، وَأَمْلُوحَتِهِ الْأُنِيقَة ، عَلِمْنَا كَيْفَ يَتَفَاضَلُ الإِنْشَاء ، وَأَنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاء . ثمَّ اعْتَلَقَ كلٌّ مِنَّا بذَيلِهِ ، وَفَلَذَ

(١) سقط الزند ١٣٣٧ ، قال فى شرحه : أتى : الضمير فيه يرجع إلى « موف » ، والمراد به الحمام الأورق ، وهو طيار الجناح ، والبيت قبله :

وَشِكْلَيْنِ مَا بَيْنَ الأثافىّ واحدٌ
وآخرُ موفٍ من أراكٍ على فَرْعِ

لَهُ فِلْذَةً مِنْ نَيْلِهِ ، فَأَبَى قَبُولَ فِلْذَتِى ، وَقَالَ : لستُ أَرْزَأُ تَلَامِذَتِى .

فقلتُ لهُ : كُنْ أَبَا زَيْدٍ ، عَلَى شُحُوبِ سَحْنَتِكَ ، وَنُضُوبِ مَاءِ وَجْنَتِكَ ، فقالَ : أَنَا هُوَ عَلَى نُحُولِى وقُحُولِى ، وقَشَفِ مُحُولِى ، فأَخَذْتُ فِى تَثْرِيبِهِ ، عَلَى تشْرِيقِه وَتغْرِيبه .

* * *

صدع : كشف وشقّ .

الفريدة : التى لا مثل لها .

أُملوحته ، يريد بها الرسالة ، والأُملوحة : الكلام المليح ، يعجَب له السامع .

والإنشاء : الكتابة

فَلَذ : قطع فلذة : قطعة ، وأصلها قطعة من كبد البعير .

قال الشاعر :

تكفيه حُزّة فِلْذٍ إنْ ألمّ بها من الشّواء ويروى شربه الغُمَرُ(١)

نيله : عطائه . أرزأ : أنقص .

والتلميذ : هنا متعلم العلم ، ولذلك أبى أن يأخذ منه شيئاً ، وهو فى كلّ مقامة إذا تعرَّض للكُدْية يفرده بالأخذ منه ، أو يبتدئ التقدير منه ، وذلك أنّ

(١) البيت لأعشى باهلة ، من قصيدته فى رثاء المنتشر ؛ ذكرها المبرد فى الكامل ٤ : ٦٤ ـ ٦٦ ، ورواية البيت هناك « تكفيه فلذة كبد » ، والغمر : قدح صغير لا يروى .

الجماعة فى هذه المقامة اشترطوا مناظرته ، وابن هام شَرَط أنّه من نظّارة الحرب، أى إنّما جلس لينظر ويتعلّم ، فلهذا أخذ منهم وتركه ، وزاده فائدة التنبيه على أنه أبو زيد ، ولذلك قال له : كن أبا زيد ، وكن أتى به بلفظ الأمر ، ومعناه الدعاء ، وفى الحديث : « كن أبا ذرّ » و « كن أبا خَيثمة »، وذلك أن النبىّ صلى الله عليه وسلم رأى شخصاً من بعيد ، فرجا أن يكون أبا ذرّ الغفارى ، فقال : « كن أبا ذرّ » أى جعلك الله أبا ذرّ ، فكان مارجاه النبىُّ صلى الله عليه وسلم ، وكذلك كان اللفظ هنا ، كأنّ ابن هام لمّا أعجب بفصاحة صاحب الرسالة تمنّى أن يكون أبا زيد ، لما عهد من فصاحته فقال : كن أبا زيد ، أى جعلك الله أبا زيد الّذى عهدتُ منه الفصاحة ، متى رأيتُه ، فصدّق منه أُمنيّته فقال : أنا هو الذى تمنّيت .

والدعاء بلفظ الأمر كثير فى كلامهم كقوله :

* ألا أنعم صباحاً إيّها الطلل البالى *[1]

وقول الآخر :

* ألا أنعم صباحاً أيها الربع واسلم *

أى سلّمك الله من رَبْع ، وجعل صباحك ناعماً .

الفنجديهى : كن أبا زيد ، أى أنت أبو زيد ، ومنه : ﴿ كنتمْ خَيْرَ أمةٍ أخرجت للناس ﴾ أى أنتم خير أمة .

شحوب : تغيّر : سَحْنتك : جلدة وجهك وهيئتك . نُضوب : جفوف . والوجْنة : العظم الشاخص تحت العين . تُحولى : يُبْسى . قَشَف : تغيُّر هيئته

---

(١) لامرئ القيس ديوانه ... ، وبقيته :

* وهل يَعِمَنْ مَنْ كَانَ فى العُصُرِ الخالِى *

رفع المسهم

بترك النظافة . مُحولى : جفوف جسمى .

تَثْريبه : لومه وتعييب فعله ، والتَّثريب بالذنب المؤاخذة به ، وأصله الاختلاط والإفساد ، وإنما يقول : لاتثريب عليك ، من قَدَر فعفا .

* * *

فَحَوْلقَ واسْتَرْجَع ، ثمّ أنشد منْ قلبٍ مُوجَعٍ :

سَلَّ الزَّمَانُ عَلَيَّ عَضْبَهْ ليرُوعَنِي وَأحَدَّ غَرْبَهْ
وَاستل منْ جَفْنِي كَرَا هُ مُراغِماً ، وأسَالَ غَرْبَهْ
وأجالنى فى الأفْقِ أطْـــــوِى شرقَهُ وأجُوبُ غَرْبَهْ
فبِكُلِّ جَوٍّ طَلْعَـةٌ فِى كلِّ يَوْمٍ لِى وغَرْبَهْ
وكذا المغرّبُ شَخْصُهُ مُتَغرِّبٌ ونواهُ غَرْبَهْ

ثمَّ وَلَّى يَجُرُّ عِطْفَيْهِ ، وَيَخطِر بيَدَيْهِ ، وَنحنُ بَيْنَ مُتَلَفِّتٍ إليه ، ومُتَهافتٍ عليه ، ثمَّ لمْ نَلْبَثْ أنْ حَلَلْنَا الحُبَا ، وتفرَّقْنا أيَادِىَ سَبَا .

* * *

حولق : قال لاحول ولا قوّة إلا بالله . استرجع : قال إنا لله وإنا إليه راجعون .

عضبه : أى سيفه القاطع . ليروعنى : ليفزعنى .

غَرْبه : حده . استلّ : أزال . كراه : نومه .

رفع المسهم

مراعِما : مذلّلاً .

غربه : مجرى دمعه ، والغَرْب فيض الدمع .

أجالني : صرفني ومشّاني .

الأفق : نواحي الأرض . أطوى : أقطع . أجوب : أخترق .

جوّ : ناحية . غَرْبة ، فَعْلة ، من الغروب مثل طَلْعة ، من الطلوع .

المغرّب : المبعد . المتغرّب : الملازم للغربة .

نواه : سفرته . غربة : بعيده .

* * *

[مما قيل فى السفر والاغتراب]

ومن أحسن ما قيل فى تبعيد السفر قول حبيب [1] :

سَلِي هل عمرتُ القفرَ وهو سباسبٌ ... وغادرت ربعى من ركابى سَبَاسِبَا [2]

وغرّبت حتى لم أجد ذكر مشرقٍ ... وشرّقت حتى قد نسيتُ المغاربا

خطوبٌ إذا لاقيتهنّ رددننى ... جريحاً كأنى قد لقيت الكتائبا

وله أيضاً :

ما اليومَ أوّل توديعى ولا الثانى ... البين أكبر مِنْ شوقى وأحزانى [3]

دعِ الفراق فإن الدهر ساعده ... فصار أملَك من رُوحى لجثمانى

خليفةَ الخضر من يربعْ على وطن [4] ... فى بلدة فظهورُ العيس أوطانى

فى الشام أهلى وبغداد الهوى وأنا ... بالرَّقمتين وبالفسطاط إخوانى

---

(١) ط : «ابن حبيب» ، والصواب ماأثبته من ا

(٢) ديوانه ١٧ (٣) ديوانه ٢٢٣ .

(٤) يربع : يقف .

وما أظنّ النوى ترضى بما صنعتْ حتى تبلغنى أقصى خراسان[1]

وقال الحلوانى :

يا نفسُ وَيْحَك ، فى التّغرب ذلّةٌ فتجرّعى كأسى هَوًى وهوانِ
وإذا نزلت بدار قـــوم دارهمْ فلهم عليك تعزز الأوطانِ

وقال ابن شرف :[2]

إن ترمك الغُرْبة فى معشر قد جُبِل النّاسُ على بُغْضِهِمْ[3]
فدارِهِمْ ما دمتَ فى دارهمْ وأرضِهِمْ مادمتَ فى أرضِهِمْ

وقال البستى :

لا يعدِم المرء كِنًّا يستكنّ به وَشَيْعةً بين أهليــه وأصحابِهِ
وَمَنْ نأى عنهمُ قلّتْ مهابتُه كالليثُ يُحْقَر لمّا غاب عنْ غابِهِ

والسابق لهذا المعنى زهير فى قوله :

وَمَنْ يغترب يحسِبْ عَدُوًّا صديقَه وَمَنْ لا يكرِّم نفْسَه لا يكرَّمِ[4]

وفى قوله :

فقرّى فى بلادك إن قوماً متى يَدَعُوا بلادهمُ يهونوا[5]

يقال : جاء يجرّ عِطْفيه، إذا جاء رخىّ البال متبختراً، وإنما ينظر فى عِطْفيه إذا كان مُعْجبًا بنفسه .

---

(١) الديوان : « حتى تشافه بى » .
(٢) نقله فى التنف ١٠٣
(٣) التنف : « قد جبل الطبع »
(٤) ديوانه ٣٢ .
(٥) ديوانه ١٩٢ ، وفيه : « فحلى فى ديارك » .

رفع المسهم

وثانى عِطْفَيه ، بمعنى متكبّر ، والعِطفان : جانبا الثوب ، والعِطاف الرّداء ، والجمع عُطُف .

ويقال : جاء يجرّ رجليه ، إذا جاء مثقلا لا يقدِرُ أن يحمل رجليه .

يخطر بيديه : يحرّكهما عند المشى .

متهافت : متساقط من النّدم على فراقه .

أيادى سبا ، يريد فى كلّ طريق وجهة .

* * *

[ذكر سبأ وسدّ مأرب]

وسبأ هو أبو قبائل اليمن المتفرّقة من سدّ مأرب الذين مزّقهم الله كلّ ممزّق . وسُمِّىَ سبأ لأنه أوّل مَنْ سَبَى السَّبْى ، وقيل : سبأ اسم أمّهم ، ومأرب اسم بلدهم .

وكانت سبأ من أحسن بلاد الله تعالى وأخصبها ، وأكثرها شجرا وماء ، وقد ذكر الله تعالى أنها كانتَ جنّتين عن يمين وشمال ، وكانت مسيرة شهر فى شهر للمُجِدّ الراكب ، يسير فى جنان من أولها إلى آخرها ، لا تواجِهه الشمس ، ولا يفارقه الظّل ، مع تدفّق الماء ، وصفاء الهواء ، واتّساع الفضاء ، فمكثوا ما شاء الله ، لا يعاندهم ملكٌ إلا قصموه .

وكانت فى بدء الزمان تركبُها السيول ، فجمع ملكُ حمير أهلَ مملكته ، فشاورهم فى دفع السَّيل ، فأجمعوا على حفر مسارب له حتى تؤدّيَه إلى البحر ، فحشد أهل مملكته حتى صرف الماء ، واتّخذ سدًّا فى موضع جَرَيان الماء من الجبال ، ورصفه بالحجارة والحديد ، وجعل فيه مجارىَ للماء فى استدارة الذراع ، يخترقون منها مقداراً

معلوماً من الماء وشِرْباً مقسوما للأرض ، فإذا جاء السيل تصرف فى المجارى إلى جنانهم ومزدرعاتهم ، بتقدير يعمّهم نفعه .

وقيل : صنعه لقمان بن عاد ، وجعله فرسخاً فى فرسخ ؛ وذكر الأعشى فى شعره أن حميراً ابتنته ، فقال :

رُخامٌ بنَتْـــه لهم حميرٌ ... إذا جاء ماؤهم لم يَرِمْ[1]
وأروى الزُّروع وأعنابَهم ... على سعَةٍ ماؤهم قد قُسِمْ[2]
فعاشوا بذلك فى غبطـــةٍ ... فجاف بهم جارف منهدِمْ[3]

فلما كفروا بأنعم الله ، ورأوا أن مُلْكهم لا يبيده شىء ، وعبدوا الشمس ، بعث الله على سدِّهم فأرة فخرقَتْه ، وأرسل عليهم السَّيل ، وأباد الله خضراءهم .

ولما انتهى الملك فى ولد سبأ إلى عمرو بن عامر مُزيقياء - وسمِّىَ بذلك لأنه كان يمزّق فى كل ليلة حُلّة كِبْرًا من أن تعاد عليه أو يلبسها غيره . وقيل : سُمِّىَ بذلك لأنه مزّق الأزد فى البلاد - وكان أخوه عمران كاهناً ، فأتته كاهنة تُدْعى طريفة فأخبرته بدنوّ فساد السدّ وفيض السيل ، وأنذرته ، فقال لها : وما آية ذلك ؟ فقالت : إذا رأيت جُرَذاً يُكثر بيديه الحفرَ ، ويقلّب برجليه الصخر ؛ فاعلم أنه قد اقترب الأمر . فقال : وما الأمر ؟ فقالتْ : وعدٌ

---

(١) ديوانه ٤٣ ، ولم يرم : لم يذهب

(٢) فى الديوان : : « ... وأعنابها ... إذ قسم » .

(٣) فى الديوان : « فجاربهم جارف منهزم » ، قال والمنهزم : الذى له صوت .

رفع المسهم

من الله ، ينزل يا عمرو ، فلتكثر الشكر .

فرأى عمرو يوما فى السد جُرذا يقلب صخرة ، ما يقلبها خمسون رجلا ، فرجع وهو يقول :

أبصرتُ أمراً هاج لى بَرْح السَّقَمْ
مِنْ جُرَذٍ كفحل خنزير أجمْ
له مخاليبُ وأنيـــابٌ قضم

أى معوَّجة . فأجمع على الخروج منها ، وأعمل الحيلة فى بيع مالِهِ ، وألاّ ينكر الناس عليه ، فقال لابنه : إنى صانع طعاماً ، وداعٍ إليه أهل مأرِب ، فاردد علىّ ما أقول لك من الحديث ، ففعل ابنه ذلك وردّ عليه بأقبح ردّ ، فصاح عمرو : واذلاه ! يُجيبنى صبىّ ! فحلف ألا يقيم ببلد ضِيمَ فيه ، فجعل يبيع أمواله[1] .

وبعضهم يقول لبعض : اغتنموا غضبة عمرو ، واشتروا منه قبل أن يرضَى ، فلما اجتمعت له أمواله ، أخبرهم بشأن السَّيل ، فأجمعوا على الجلاء ، فقال لهم عمرانُ أخوه : إنى أصف لكم بلْدَانا ، فاختاروا أيَّها شئتم ... فمن كان منكم ذا همّ بعيد ، وجمل غير شرودٍ ، فليحلق بالشِّعب من كرود ، فلحق به هَمْدان .

---

(١) فى معجم البلدان ـ مأرب : « وكان فيهم امرأة كاهنة تسمى طريفة ، فأقبلت يوماً حتى وقفت على عمران بن عامر وهو فى نادى قومه ، فقالت : « والظلمة والضياء ، والأرض والسماء ، ليقبلن إليكم الماء ، كالبحر إذا طما ، فيدع أرضكم خلا ، تسفى عليها الصبا . فقال لها عمران : ومتى يكون ذلك يا طريفة؟ فقالت : بعد ست عدد ، يقطع فيها الوالد الولد ، فيأتيكم السيل ، بفيض هيل . وخطب جليل ، وأمر ثقيل ، فيخرب الديار ، ويعطل العشار ، ويطيب العرار ، فقال لها : لقد فجعنا بأموالنا يا طريفة ، فبينى مقالتك ، قالت : أتاكم أمر عظيم ، بسيل لطيم ، وخطب جسيم ، فاحرسوا السد ، لئلا يمتد ، وإن كان لابد ، من الأمر المعد ، انطلقوا إلى رأس الوادى ، فسترون الجرذ العادى ، يجر كل صخرة صيخاد ، بأنياب حداد ، وأظافر شداد ... فانطلق » .

ثم قال : ومَنْ كان منكم ذا سياسة وصبر ، على أزمات الدهر ، فليلحق ببطن مُرّ ؛ فلحق به خُزاعة .

ثم قال : ومَن كان منكم يريد الراسخات فى الوحْل ، المطعمات فى المحل ، فليلحق بيثربَ ذات النخل . فنزلها الأوس والخزرج .

ثم قال : ومَنْ كان منكم يريد الخمر والخمير ، والأمر والتأمير ، فليلحق ببُصرى وسَدِير ، وهى من أرض الشأم ، فنزلها غَسّان .

ثم قال : ومَنْ كان منكم يريد الثياب الرِّقاق ، والخيل العتاق ، والذهب والأوراق ، فليلحق بالعراق ، فلحق بها مالك بن فهم بن الأزد .

وتخلّف مالك بن اليمان فى قومه ، حتى أخرجهم السيل فنزلوا نَجْران ، وانتسبوا إلى مَذْحج .

ودخلت جماعة منهم إلى معدّ ، فأخرجتهم معدّ بعد حروب ، فنزلوا بجبال السَّراة على تخوم الشأم .

فلمّا تفرّقت فى البلاد هذا التفرُّق ، ضربت العرب بهم المثل ، فقالوا : ذهبوا أيْدى سبأ وأيادىَ سبا ، أى متفرّقين فى كل ناحية .

وقيل فيهم : إنهم كانوا مجتمعين يداً واحدة ، فلما مزّقهم الله وفرّقهم ، صارت يدهم أيادِىَ متفرّقة ، وأخذ كل طائفة منهم طريقا على حِدَة . أو يريد به النعمة ، فالمعنى : تفرّقنا كما تفرّقت نعم أهل سبأ .

الزّجاج : سبأ مدينة تعرف بمأرب على ثلاث ليال من صنعاء .

الجوهرى : سبأ اسم رجل سُمّيت به البلدة .

رفع المسهم

وذكر فى الدرة أن لفظة التفرّق تستعمل فى الأشخاص والأجسام ، نحو تفرّق القوم ، وإنّ الافتراق يقال فى الأهواء والآراء، كما قال النبئ صلى الله عليه وسلم : « تفترق أمتى على كذا وكذا فرقة » ،فإذا قيل: إن لزيد ثلاثة إخوة متفرّقين ، فالمعنى أن كل واحد منهم ببقعة . وإن قيل مفترقين فالمعنى أن أحدهم لأبيه وأمه ، والآخر لأبيه ، والثالث لأمه ؛ وكذلك يقال : فرّق بالتشديد فيما كان من قبَل الجمع ، وفرَّق بالتخفيف ، فيما يراد به التمييز كقوله : فرق بين الحق والباطل ، والحالى والعاطل .

رفع المسهم

المقامة الثامنة عشرة وتعرف بالسنجارية

حكى الحارث بن همام قال : قفلتُ ذات مرّة من الشام ، أنحو مدينة السلام ، فى ركبٍ من بنى نُمَير ، ورفقةٍ أولى خيرٍ ومَيْر ، ومعنا أبو زيد السَّرُوجىّ : عُقْلَةُ العجلان ، وَسلْوَة الثكلان ، وأعجوبَةُ الزمان ، والمشار إليه بالبنان فى البيان .

فصادف نزولنا سِنْجار ، أن أوْلَمْ بِها أحَدُ التُّجّارِ ، فدعا إلى مأدُبَتِهِ الجُفَلَى ، مِنْ أهلِ الحَضارَةِ والفَلا ، حَتَّى سَرَتْ دَعْوَتُه إلى القافِلَةِ ، وجَمَعَ فيها بين الفريضَةِ والنَّافِلَة .

* * *

قفلت : رجعت من السفر .

* * *

[ذكر الشام]

الشأم ، ويقال له : شام وشأم ، ويذكّر ويؤنث ، وينسب إليه شامى وشآم ، على فَعَال . ويحكى عن سيبويه شآمىّ ، وإثبات الألف فى النّسب يدلُّ على إثباتها فى أصل البناء .

وقيل : ألفُ يمان وشآم عِوَض من ياء النسب ، قال طرفة :

رفع المسهم

* شآمية تروى الوجوه بليل *

وقال فى الدّرّة[1] المنسوب إليه على ثلاثة أوجه : شامىّ وهو القياس ، وشآمٍ بياء مخففة كالمنقوص ، وشآمىّ وهو شاذ لأنه يصير بمنزلة المنسوب إلى المنسوب ، وكذلك جوّزت الثلاثة فى المنسوب إلى اليمن .

وعلى الشاذّ منها قول العرىّ[2] :

إنّى أتيحت لى يمـانية إحدَى بنى الحارث من مذحِج

ولم يجز الحريرى تأنيث الشام وقال : لفظه مذكر .

وقال ابن الانبارى ـ وذكر الشام والحجاز وغيرهما : فَمنْ أنّث من ذلك شيئاً فإنما يذهب به إلى معنى المدينة .

وقالوا : الشأم صفوة بلاد الله .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحذيفة ومعاذ : « عليكم بالشأم فإنّ الله قد تكفّل بالشام وأهله » .

وسمّيت شاما لأنها عن شامة الكعبة .

ابن الأنبارى : يجوز أن يكون مأخوذاً من اليد الشُّومى وهى اليُسرى .

وقال قوم : أصله فى الكعبة ، لأنّ بابها يستقبل المطّلع ، فمن قابل طلوع الشمس كانت الكعبة عن يمينه فى شقّ الجنوب ، والشأم عن يده الشّومى فى شقّ الشمال .

أبو القاسم الزجاجى : قال : جماعة من أهل اللغة : يجوز ألاّ يهمز ، فيقال : شام جمع شامة ، سمّيت بذلك لكثرة قُراها ، وتدانِى بعضِها من بعض ، شبّهت بالشامات .

---

(١) درة الغواص ٩٠

(٢) فى الأصول : « عمر بن أبى ربيعة » وهو خطأ ، والبيت للعرجى فى ديوانه ١٩ ، والأغانى ١ : ١٠٨ .

وقال الشرقيّ سميت بسام بن نوح ، لأنه أوّل مَنْ بناها ،فغيّر اللفظ العجمى فجعل السين شيناً .

وقسّمت الشأم خمسة أقسام : الشام الأولى ، وأوّل حدّها من طريق مصر أمج ، ثم غزة ثم الرملة ، ومدينته العظمى فلسطين وعسقلان،وفلسطين هى الشأم الأولى ، وبها بيت المقدس .

الشأم الثانية الأردن ، ومدينته العظمى طَبَريّة ، وهى بشاطىء البحيرة ، واليرموك بين فلسطين والأردن .

والشأم الثالثة الغُوطة ، ومدينتها العظمى دمشق ، ومِن سواحلها طرابلس الشام .

الرابعة : أرض حمص الشأم .

الخامسة : قِنّسرين ، ومدينته العظمى حلب ، وهى من قِنّسرين على أربعة فراسخ . وساحلها أنطاكية ،مدينة عظيمة على شاطىء البحر داخلها المزارع والبساتين والأنهار .

* * *

قوله : « أنحو » أى أقصد . الركب : اسم لمن يركب الإبل ، كذا قال الخليل .

وقال يعقوب : الرَّكب :جمع راكب، وهم أصحاب الإبل خاصّة، ولا يكون الركب إلا أصحاب الإبل ، وراكب الفرس فارس ، وراكب البغل بغّال ، وراكب الحمار حمّار ، وراكب الفيل فَيّال ، والجمع خيّالة وبغّالة وحمّارة وفَيّالة ، وتبعه ابن قتيبة فى هذا ،وخطّأهما جميعاً ابن السِّيد وغيره واحتجوا بقول امرئ القيس :

رفع المسهم

إذا ركبوا الخيل واستلأموا تحرّقت الأرض واليوم قرّ[1]

فقوله : « ركبوا الخيل »، يدلّ على أنه يقال لمن ركب الفرس : راكب .

وماذكره يعقوب هو الصحيح ، لأنّ العرب إذا أفردت لفظ راكب أو ركْب لم يقع فى كلامها إلاّ على أصحاب الإبل مطلقاً، فإذا أرادت أن توقعه على أصحاب الخيل قيّدته بذكر الخيل ، فقالوا : ركبت الفرس ، وراكب الفرس ، فيذكّرون الفرس ، وعلى هذا أتى :

* إذا ركبوا الخيل واستلأموا *

فخفِيت هذه التفرقة على ابن السِّيد ، على حظّه الوافر من اللغة .

وقال الحريرى فى الدّرة[2] : الراكب هو راكب البعير خاصّة ، وجمعه رُكبان ، فأما الركب والأركوب ، فقد جوز الخليل أن يطلق اسمهما على راكبى كلّ دابة إلاّ أنّ الأركوب أكثر من الرّكب عدة وأكثر جماعة .

* * *

[بنو نمير]

وبنو نُمير قبيلة من بنى صعصعة ، إحدى جمرات العرب ، وأشرف بيوت قيس عَيلان، وجمرات العرب ثلاثة ، سموا بذلك لأنهم متوافرون فى أنفسهم لم يدخلوا معهم غيرهم ، والتجمير فى كلامهم التجميع ؛وهم بنو نمير ، وبنو الحارث ابن كعب ، وبنو ضبّة بن أدّ ، فطفئت جمرتان وهم بنو ضبّة لمحالفتها الرّباب ، وبنو الحارث لمحالفتهامذحِج ، وبقيَت نمير لم تحالف ،فهى على كثرتها ومنَعتها ، قال شاعرهم :

(١) ديوانه ١٥٤

(٢) درة الغواص ٥٠

نُميرٌ جمرة العرب الّتى لم تزل فى الحرب تلتهب التهاباً

وكان الرجل منهم إذا قيل له : ممّن أنت؟ قال : نميرىّ كما ترى ، إدلالاً بنسبته ، وافتخاراً بمَقعته ،حتى قال جرير فى الراعى :

فَغُضّ الطَّرْف إنك من نُمَيْرٍ فلا كعباً بلغتَ ولا كِلاَبا[1]

فصار إذا قيل له ممّن أنت ؟ قال : عامرىّ .

ومرّت امرأة بهم، فأحدّوا النّظر إليها ، فقال أحدهم: والله إنها لرَسْحاء ، فقالت : يابنى نمير ، والله ما امتثلتم فىّ واحدة من اثنتين ؛ لاقول الله عز وجل: ﴿ قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم ﴾[2] ، ولا قول جرير :

فَغُضّ الطَّرْف إنّك من نُمَيْرٍ فلا كَعْباً بلغتَ ولا كِلاَبَا

قوله: « أولى خير » ، أى ذوى غنًى . مير : صلةً وصدقة . عقلة العجلان: حابس المستعجل .

سلوة الثكلان : مذهب حزن الحزين ، يقول : إذا رآه مَنْ هو فى شغل معجّل حبَسه ، أو حزين أزال حُزْنَه .

البنان : الأصابع ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كفى بالمرء فتنة أن يشار إليه بالأصابع فى دين أو دينا إلاّ منْ عصمه الله » .

* * *

(١) ديوانه ٧٥

(٢) سورة النور ٣٠

رفع المسهم

[سنجـــار]

سنجار : بلد بينه وبين قرقيسيا نيّف وثلاثون فرسخاً ، وقرقيسيا على الفرات ، وهى كورة من كور ديار ربيعة ، وفى سنجار فوّهة نهر الخابور ، فيمرّ حتى يصبّ فى الفرات ، وهى على أميال من نَصيبين ، وعن يمين طريق الموصِـل .

* * *

قوله : « أولم » ، أى صنع وليمة ، والوليمة : طعام العرس . والمأدبة : طعام يدعَى إليه الناس .

والجَفَلى : الناس أجمع .

والحضارة : ضدّ البداوة ، يفتح أوّلها ويكسر . الفلا : القفر ، وأراد دعا أهل الحاضرة والبادية . سرتُ : وصلت .

القافلة : الرفقة الراجعة من سفرها . قال الأزهرىّ : سُمّيت قافلة تفاؤلاً بقفولها عن سفرها الذى ابتدأت .

وظنّ ابن قتيبة أن عوامّ الناس يغلطون فى تسميتهم الناهضين فى ابتداء الأسفار قافلة ؛ إلا منصرفة إلى وطنها وهذا غلط ، وما زالت العرب تسمى الناهضين فى ابتداء الأسفار قافلة تفاؤلاً ، بأنّ يُيسِّر الله لها القفول وهو شائع عند فصحائهم إلى اليوم .

وأراد بالفريضة ، أعيان التجار الذين حضورهم كالفرض ، وبالنافلة : المُكارين والأتباع ، أو يريد بالفريضة مَنْ لابدّ له أن يدعوه للحضور ، مثل القرابة والوجوه والأصحاب ، والنافلة لفيف الناس ، وأراد أنه حمل لعرسه مَنْ يحبّ ومن لا يحبّ ، والهاء من «فيها» ضمير الدعوة ، ويروى « فيهما » بالميم .

* * *

رفع المسهم

[ذكر الحاضرة والبادية]

وأما ذكر الحاضرة والبادية ، فقد أتينا فى ذلك بفصل أدبىّ مستحسَن ، ولسنا نحتاج إلى إقامة دليل شاهد على فضل الحاضرة ، لأنها محلّ الجمعيات والجماعات ، وإليها تجلب الخيرات ، وبها تستمدّ البركات ، ومنهم العلماء والفضلاء ، والملوك ، إلى ما يطول تعداده ، ومَنْ أراد الله به خيراً نقله من البادية إلى الحاضرة ، وقد أخبر الله تعالى عن يوسف عليه الصلاة والسلام فى قوله : ﴿ وقد أحْسَنَ بى إذ أخْرَجَنى من السجن وجاء بكم من البَدْوِ ﴾[1] ، وهذا فيه فضل للحاضرة لا يُدفع إذ قرن الخروج من السجن بالمجىء من البدو ، وعدّه من إحسان الله سبحانه وتعالى .

وقف أعرابى على دِعْبل وهو ينشد :

إذا القـــوس أوترها أيّدٌ رمى فأصـاب الـكلا والذّرى

فقال له : ما عنيت ؟ فقال دعبل : القوس قوس فَزِر ، أمطرت الأرض بها ، فأعشبت فرعاها المال ، فسمنت كلاه وأسنمه ، فقال الأعرابى : لله درّكم ياحاضرة ! إنكم لتسيرون معنا فتساوون ، ولتنكّبون عنا فتفوتون .

وفى ضدّ هذا المعنى قال شبيب بن شبة : كثر قطع الطريق بين مكّة والبصرة ، فبعثنى المنصور أقوم فى المناهل ، وأتكلّم بذمّ البادية ، وأوبّخهم بما يردعهم ، فلم أرد ماء إلا تكلّمت عليه بما يحضرنى ، فلا أجدُ مَن ينطق ، حتى قمت على ما لبنى تميم ، فلما انقضى كلامى ، قام رجل منهم فقال : الحمد لله أفضلَ ماحمدته ، وحمده الحامدون قَبْلك أو بعدك ، وصلى الله على سيدنا محمد أفضل صلاة وأتمّها

---

(١) سورة يوسف ١٠٠

رفع المسهم

وأخصها وأعمّها . ثم إنى قد سمعت ما قلت فى مدح الحاضرة وأهلها ، وذمّ البادية وأهلها ، ومهما كان فينا أهلَ البادية من سوء ، فليس فينا نقْب الدُّور ، ولا شهادة الزور ، ولا نَبْش القبور ولا نَيْك الذكور .

قال : فأفحمنى والله حتى تمنّيت أنى لم أخرج لذلك الوجه .

وقال القطامى :

فمن تكن الحضارة أعجبته فأىّ رجال بادية ترَانَا

قال ابن رشيق : ومن أملح ماسمعه الناس فى تفضيل البادية على الحاضرة من حلاوة وطلاوة وصحّة معنى ،وقرب مأخذ ، مأخوذ من قول أبى الطيب :

مَنِ الجآذرُ فى زِىّ الأعاريبِ حُمْرَ الحُلَى والمطايا والجلابيبِ (١)

ثم قال :

ما أوجهُ الحَضَرِ المستحسناتِ به كأوْجُهِ البدوياتِ الرّعابيبِ (٢)

حُسْنُ الحضارة مجلوبٌ بتطريةٍ وفى البداوة حُسْنٌ غيرُ مجلوب (٣)

أفدِى ظِبـــــاء فلاةٍ ما عرفن بها

مَضْغَ الكلامِ ولاَ صَبْغ الحواجيب

ولا بَرَزْنَ من الحمّام مائلةً أو راكهنٌ صقيلاتُ العراقيبِ (٤)

---

(١) ديوانه ١ : ١٢٩ : والجآذر: جمع جؤذر ، وهو ولد البقرة الوحشية . وأعاريب : جمع عرب ، أو اسم جنس . والجلابيب : الملاحف .

(٢) الرعابيب : جمع رعبوبة ، وهى المرأة الممتلئة البيضاء .

(٣) بعده فى الديوان :

أيْنَ المعيزُ مِنَ الآرامِ ناظرةً وغير ناظرةٍ فى الحسنِ الطيب

(٤) العراقيب : جمع عرقوب ؛ وهو مايكون عند الكعب ؛يريد أن حسنهن بغير تطرية ولاتصنع ولادخول حمام .

رفع المسهم

ومِنْ هوى كلّ من ليست مخضّبةً
تركت لون مشيبي غـــــير مخضوب

فلو لم تفضل البادية إلا بهذا ، لكان فيه مقنع .

* * *

فَلَمَّا أَجَبْنا مُنادِيه ، وَحَلَلْنَا نَادِيه ، أَحْضَرَ مِنْ أطعمةِ اليد والْيَدَيْن ، مَاحَلاَ فِى الْفَمِ وحَلِىَ فى الْعَيْن . ثمَّ قَدَّمَ جَاماً ، كأنَّمَا جُمِدَ مِنَ الهواء ، أو جُمع من الْهَباء ، أَوْ صِيغَ من نور الْفَضاء ، أَوْ قُشِرَ من الدُّرَّةِ الْبَيْضاء ، وَقَدْ أُودِعَ لَفَائِفَ النَّعِيمِ ، وَضُمِّخَ بالطِّيبِ الْعَمِيمِ ، وَسِيقَ إليه شِرْبٌ مِنْ تَسْنِيمٍ ، وَسَفَرَ عَنْ مرأًى وَسِيمٍ ، وأرجٍ نَسِيمٍ .

فَلَمَّا اضطرمَتْ بمحضَرِه الشَّهَوات ، وقرِمَتْ إلى مَخْبَرِهِ اللَّهَوَاتِ ، وشارفَ أَن تُشنَّ عَلَى سِرْبِهِ الْغَارَات ، وَيُنادَى عِنْدَ نَهْبِهِ : يالَلثَّارات ! نَشَزَ أَبُو زَيْدٍ كَالْمجنون ، وَتَبَاعَدَ عَنْهُ تَبَاعُدَ الضّبِّ من النُّونِ ، فَرَاوَدْناهُ عَلَى أَنْ يَعُودَ ، وَأَلاَّ يكون كَقُدَارٍ فى ثمودِ .

* * *

قوله : «ناديه» أى مجلسه . وطعام اليد : الثريد ونحوه . وطعام اليدين : الدجاج الصحاح والشواء ونحو ذلك ، وكانت وليمة فى الأنصار ، فحضرها حسان بن ثابت ، وقد كُفَّ بصره ، ومعه ابنه عبد الرحمن ، فلما وضع الطعام ،

رفع المسهم

جىء بالثريد ، قال حسان لابنه : يا بنيّ ، أطعام يدٍ أم طعام يدين؟ قال : بل طعام يد . فأكل ، ثم جىء بالشواء ، فقال مثل ذلك ، فقال : بل طعام يدين . فأمسك .

حلاَ : طاب ، حَلِيَ : حَسُن ، وحلا فى الفم ، من الحلاوة ، وحَلِيَ فى العين من الحِلْى المتزيّن به .

وفى الدّرة[1] : العرب تقول : حلا فى فمى ، وحَلِيَ فى عينى ، وليس الثانى من نوع الأول ، وهو من الحلْى الملبوس ، فكأنّ المعنى : حَسُن فى عينى كحسن الحلْى الملبوس ، وهو من ذوات الياء ، والأوّل من ذوات الواو ، إلا أن المصدر فيهما جميعاً الحلاوة ، والاسم حُلْو لا حالٍ ؛ لأنّ الحالى ضدّ العاطل ، وهو الذى عليه الحلْى .

والجام : إناء من زجاج . جُمِّد : عقِد وصنع جامدا .

والهباء : غبار الشمس ، وهو ماتراه يدخل عليك مع الشمس من شِقّ باب أو كوّة حائط .

صِيغ : صُنِع . نور الفضاء ، يعنى الشمس ، والفضاء ؛ الأرض الواسعة ، وفى الفضاء يتّسع ضوء الشمس فيبيضّ نورها .

أودِع : ضمّن وجُعل فيه . لفائف النعيم : مالفّ من الحلوى وطوِىَ بعضه على بعض .

الفندجيهىّ : لفائف النعيم اللّوزينج والقطائف .

ضمّخ : لطّخ . العميم : الكثير . شِرْب : ماء . وتسنيم : أرفع شرابات أهل الجنة . سفَر : كشف .

---

(١) درة الغواص ١٠٣ .

مرأى وسيم : منظر حسن . أرج نسيم : طِيب الرائحة ، والنسيم : الريح الليّنة الهبوب ؛ يريد : لمّا أحضر الجام ، ساقوا معه ماء عذباً لغسل اليد ، ثم كُشف لهم عن الجام ، فرأوْا منظراً من الحلواء الملوّنة ، ورائحة عطرة من الأفاويه .

وقال فى مثل ذلك عبد السلام بن الحسين المأمونى[1] :

خَبيصةٌ فى الجام قد قدّمَتْ مدفونة فى اللّوْز والسّكّرِ
يأكل مَنْ يأكلها خمسةً بكفه فيهـا ولم يشعُرِ

قوله : « اضطرمت » أى اشتعلت . قرِمت ، أى اشتهت .

اللهوات : جمع لهاة وهى أقصى الفم . شارفَ : قارَب وأشرف عليه . تُشنّ : تفرّق . سربه : جماعته ، ويريد به ما فيه من الحلواء ، والسِّرْب : بالكسر : جماعة النّساء ، وبالفتح : الإبل فى المرعى . الغارات ، يريد الأيدى التى تُغير على الطعام . نهْبه : انتهابه بالأيدى وأكل ما فيه . يالثارات : كلمة ينادى بها العرب إذا ظفروا بأعدائهم الذين لهم عندهم دم . والثأر : الطلب بالدم ، وثأرَ بالقتيل : قتل قاتله .

وقال حسان بن ثابت :

لتسمعنّ وشيكا فى دياركمُ الله أكبر ياثاراتِ عثمانا[2]

فالثارات هنا جمع ثأر ، وهو المطلوب بالدم ، قال :

وكيف تجلّد الأقوام عنه ولم يقتل به الثأر المنيمُ

قال أبو علىّ : الثأر : المقتول ، سُمّىَ بالمصدر ، كرجل عَدْل ، لذلك جُمع

(١) عبد السلام بن الحسين المأمونى ، من أولاد المأمون الخليفة العباسى ، ذكره الثعالبى وأورد طائفة من شعره فى اليتيمة ٤ : ١٤٩ — ١٧٩

(٢) ديوانه ٤١٠ .

بالتاء ، وتفسير أبي عليّ عكس ما تقدم ، وإذا كان منقولا من المصدر احتمل وصف الفاعل به والمفعول وثارات عثمان محتملة للتفسيرين ، فتقديره على قول أبي عليّ : يامطلوبات عثمان ، وعلى القول الآخر : ياطالبات عثمان هذا أوانكم بالجدّ ، وتفسير : يالثارات فى المقامة يستقيم على المعنيين ، فعلى الأول معناه : يا مطلوبات الجياع ، قد تمكنا منك ، وعلى الثانى معناه : ياطالبين الأكل ؛ قد تمكنتم من المأكول .

وقوله : «نشز» ، أى وثب . وتقدّم فى الضبّ أنّه لا يرد الماء ، وأن مسكنه الصحراء .

والنون : الحوت ، وهو لا يفارق الماء ، وهما لا يجتمعان ، وقد تقدم للصابى :

* الضبُّ والنون لا يرجى التقاؤهما *

وقال الآخر :

فلو أنهم جاءوا بشىء مقـــــارب
لقلت هو الشِّكْلُ للوافق للشِّكلِ[1]
ولكنهم جاءوا بحيتان لجّةٍ قوامِسَ، والمكنى فينا أبانا الحِسْل

فضرب بتباعدهما المثل .

راودناه : أردناه على الفعل ، تقول : راودته على كذا ، إذا أردته على فعله . يعود : يرجع . ثمود : أمة صالح عليه الصلاة والسلام .

وقدار : هو عاقر الناقة ، يضرب به المثل فى الشؤم ، فيقال : أشأم من قُدار ، ومن أُحَيْمر عاد .

* * *

(١) الحيوان ٥ : ٥٢٩ ، ونسبهما إلى الكميت .

[قصة ثمود]

وتقريب قصته ، أن ثمود كانت تبنى فى طول أعمارها ، فاتخذوا من الجبال بيوتا فرهين ، وبيوتهم إلى وقتنا هذا باقية منحوتة فى الجبال ومساكنهم على قدر أجسامهم ، ورممهم وآثارهم فيها بادية ، فلما بُعث فيهم صالح ، قال له زعيمهم : إن كنت صادقاً فأظهرْ لنا من هذه الصخرة ناقةً سوداء عشراء ، ذات عرف ، فأتى الصخرة فتمخضت كالحامل ، وانشقت عن الناقة . ثم تلاها سَقْبُها[1] ، فآمن كثير منهم ، وكان شِرْبُها[2] يوماً وشِرْبُهم يوماً ، فإذا كان يوم شِرْبها حلبوها ، فملؤا من لبنها كلّ إناء ووعاء ، فلما امتنعت إبلهم من الماء يوم شِرْبها استثقلوها ، وكان فيهم امرأتان : عنيزة وصدقة ، فبذلتا أنفسهما لقُدار على أن يعقر الناقة ، وهو قُدار بن قديرة ، وهى أمّه وسالف أبوه ، وكان قُدار أزرقَ اسمر قصيرا ، وكان له صديق اسمه مصدّع بن مهرج ، معاون له على ما كان به من الفساد فى الأرض ، وكانا فى تسعة من أهل الفساد ، فضرب قُدار عرقوبَها بسيفه ، وضرب مصدّع العرقوب الآخر ، واستهموا لحمها ، فخرجت ثمود تعتذر إلى صالح ، وتزعم أنها لا ذنب لها . فقال : انظروا ، هل تدركون فصيلها ، فعسى أن يرفع عنكم العذاب ! فالتمسوه ، فصعد إلى جبل يقال له : القارة ، وطال الجبل به فى السماء ، حتى ما تناله الطير ، وبكى . ثم استقبلهم ، ورغا ثلاثا ، فقال صالح : تمتّعوا فى داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب ، وآية ذلك أن تصبح وجوهكم فى الأول مصفرّة ، وفى الثانى محمرّة ، وفى الثالث مسودّة . فلما رأوا صدقه أوّل يوم أرادوا قتله ، فمنع منهم . فلما رأوا صدقه فى اليوم الثالث تحنّطوا وتكفّنوا وبكوا وضجّوا ، وجعلوا

---

(١) السقب : ولد الناقة .

(٢) الشرب : النصيب من الماء .

رفع المسهم

ينظرون من أين يأتيهم العذاب . فصبحتهم فى اليوم الرابع صيحة من السماء ، قطعت قلوبهم فى صدورهم ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، فعقروها يوم الأربعاء ، وأصيبوا يوم الأحد ، وإنما أصيبوا والمذنب بعضهم ، لأنهم رضوا فعله ، والنية أبلغ من العمل — وبلادهم بين الشأم والحجاز إلى ساحل البحر الحبشى . ومرّ النبى صلى الله عليه وسلم بقريتهم ، ونهى الناس عن دخولها ، وأراهم مرتقى الفصيل —

ولما رأى صالح أنها دار سخط ، ارتحل بمَنْ معه إلى مكة ، فلم يزالوا بها حتى ماتوا ، فقبورهم فى غربىّ البيت ، بين دار الندوة والحِجْر .

وقال حباب بن عمرو :

كانت ثمود ذوى عزّ ومكرُمَـــةٍ
ما إن يضام لهم فى النّاس مِن جارِ
فأهلكوا ناقةً كانت لربّهمُ قد أنذروها فكانوا غيْرَ أبرارِ

* * *

فقال : والّذى يُنشِرُ الأمواتَ من الرِّجامِ ، لاعُدْتُ دُونَ رَفْعِ الجامِ ، فلمْ نَجِدْ بُدًّا مِنْ تَأْلِيفِهِ ، وإبرازِ حَلِيفِهِ ، فأشْلَناهُ والعقولُ مَعَهُ شائلَةٌ ، وَالدُّمُوعُ سَائِلَةٌ . فلمَّا فاءَ إلَى مَجْثَمِهِ ، وَخَلَصَ مِنْ مَأْثَمِهِ ، سَأَلْنَاهُ لِمَ قام ، ولأى مَعْنًى اسْتَرْفَعَ الجام ؟ فقال : إنَّ الزُّجاجَ نَمّام ، وَإِنِّى آلَيْتُ مُنْذُ أعوامٍ ، ألاَّ يَضُمَّنِي وَنَمُوماً مَقَام .

فقلنا : وما سَبَبُ يَمِينِكَ الصَّرّى ، وَأَلِيَّتِكَ الحُرَّى ؟

* * *

رفع المسهم

قوله : « يُنشر » ، أى يُحيى الموتى ويقيمهم ، فيُنشَرُون فى الأرض .

والرجام : القبور ، واحدها رجَم . تألّفه : ضمّه وترك خلافه . إبرار حَلِفه : مراعاة قسَمِه .

أشلناه : رفعناه . شائلة : مرتفعة .

فاء : رجع . مَجْثمه : موضعه ، وأصله للطائر .

الصّرّى : العزيمة ، ويقال : أصررت على الشىء ، عزمت عليه ، وهو منّى صَرّى وصِرىّ وأطْرَى أى عزيمة وجِدّ .

وضلّت ناقة أبى السّمال ، فقال : والله لئن لم يردّها الله علىّ لا أصلّى أبداً ، فذهب فى ابتغائها ، فوجدها وقد تعلّق زمامها بشجرة ، فقال : علم الله أنها كانت منى صرّى فردّها علىّ .

وقال حبيب :

لما رآهم بابكٌ دون المُنى ... هَجَر الغَواية بعد طُول وصالِ[1]

تخذ الفِرار أخاً وأيقن أنه ... صرّىّ عزمٍ من أبى السّمّال

يقول : لما رأى كثرة من يحاربه أيقن أن ما تمناه فيهم لا يدركه ، فهجر الضلالة ، وانهزم ، إذ أيقن أن طالبه مُصِرٌّ على طلبه .

الحرّى : الوكيدة الشديدة ، والكبد الحرّى : اليابسة العاطشة .

وناظر الحريرىُّ بهذه المقامةِ مقامةَ المضيريّة[2] فى البديعية ، ومن هنا إلى أولها مبنىٌّ على تلك .

* * *

(١) ديوانه ٢٦١ .

(٢) ط : « الطيرة » تحريف .

رفع المسهم

[المقامة المضيرية للبديع الهمذانى]

قال البديع : حدّثنا عيسى بن هشام قال :

كنت بالبَصْرة ومعى أبو الفتح الإسكندرىّ ، رجل الفصاحة ، يدعوها فتجيبُه ، والبلاغة ، يأمرها فتطيعه . وحضرْنا معه دعوة بعض التّجار ، فقدّم مَضيرة[١] تُثنى على الحضارة[٢] ، وَتترجرج فى الْغَضارة[٣] ، وتؤذِن بالسّلامة ، وتشهد لمعاوية رحمه الله بالإمامة ، فى قصعة يَكِلّ[٤] عنها الطَّرف ، ويموج فيها الظَّرْف .

فلمّا أَخَذَتْ من الخِوان مكانها[٥] ، ومن القلوب أوطانَها ، قام أبو الفتح يلعنُها وصاحبَها ، ويمقتها وآكِلَها ، ويَثْلِبُها وطابخَها ، وظننّاه يمزح ، فإذا الأمر بالضدّ ، وإذا المزاح عينُ الجِدّ ، وتنحّى عن الخوان ، وترك مساعدة الإخوانِ ، فرفعناها فارتفعت معها القلوب ، وسافرت خلفها العيون ، وتحلّبت لها الأفواه ، [وتلمظت لها الشفاه] واتّقدت لها الأكباد ، [ومضى فى إثرها الفؤاد][٦] ، لكنّا سألناه عن أمرها ، وساعدناه على هجرها

ثم أخذ يذكر لهم المانع من أكلها ، كما يذكر الآن السّروجىّ .

ومقامة[٧] المضيرة طويلة مضحكة . . .

* * *

---

(١) المقامات : « فقدمت إلينا مضيره » ، والمضيرة : نوع من الطعام ، يتخذ من اللحم واللبن الحامض ؛ وربما أضيف إليه الحليب ، ثم يوضع عليه التوابل والأبزار .

(٢) أى تدل على أن أهل الحضر أقدر على صنعها من البدو .

(٣) تترجرج : تموج وتتحرك . والغضارة : القصعة .

(٤) المقامات : « يزل » . والطرف : العين .

(٥) الخوان : الذى يوضع عليه الطعام .

(٦) تكملة من مقامات البديع .

(٧) مقامات البديع ١٢١-١٤٣ .

رفع المسهم

فقال: إنّه كان لى جارٌ لسانُه يتقرّب، وقلبُه عقرب، ولفظُه شَهْدٌ ينقعُ، وخبؤه سمٌّ مُنقع، فملتُ لمجاورتِه، إلى مُحاورتِه، واغترّت بمكاثرتِه، فى مُعاشرتِه، واستهوتنى خُضرةُ دِمْنتِه، لِمُنادمتِه، وأغرّتنى خُدْعةُ سِمَتِه، بمناسمته. فمازجتُه وعندى أنّه جارٌ مُكاسرٌ، فبان أنه عُقابٌ كاسرٌ، وآنستُه على أنّه حِبٌّ مُؤانسٌ، فظهرَ أنّه حُبابٌ مُوالسٌ، وما لحتُه ولا أعلمُ أنّه عِندَ نقدِه، مِمّنْ يُفرَحُ بفقدِه، وعاقرتُه ولم أدرِ أنّه بعدَ فرِّه، مِمّنْ يُطرَبُ لفرِّه.

* * *

قوله: «جار لسانه يتقرّب»، معناه يُتودّد إليه بلسانه، ويكتم العداوة فى قلبه، وهذا ما يذكر بعده.

[نبذ من الأقوال الحكيمة فى الجار]

أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أشراط الساعة سوء الجوار».

تعوّذوا بالله من ثلاث، هنّ العواقر: إمام السوء، إن أحسنتَ لم يشكر، وإن أسأتَ لم يغفر، ومِن جارِ السوء إن رأى حسناً ستره، وإن رأى قبيحاً أذاعه، ومن امرأة السوء، التى إن غبت عنها خانتك، وإن دخلتَ عليها لسّنتك».

قال بعض الفضلاء: الجار السوء يفشى السرّ، ويهتك السِّتر.

وقيل لأهل البحرين: إن كنتم تحبون أن يحبكم الله ورسوله، فحافظوا

على ثلاث خصال : صدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وحُسْن الجوار ، فإن أذى الجار يمحو الحسنات ، كما تمحو الشمس الجليد عن الصَّفاة .

* * *

قوله : «ينقع» ، أى يَرْوى العطش . ومُنْقَع ، أى أُدِيم حبسه ، وأنقع سَمّ الحية : ثبت ودام . خَبْؤه : باطنه ، وما خبأه من الشرّ .

محاورته : محادثته . بمكاشرته : مضاحكته : معاشرته : مصاحبته .

استهوتنى : ذهبت بى . خُضرة دِمنته : حسن ظاهره ، وتقدمت خضراء الدمن .

أغرتنى : حرّضتنى وألصقتنى به . سِمَته : علامته . مُناسمته : مصاحبته ، وقرّب نسمتى من نسمته ، أى شخصى من شخصه .

مازجته : خالطته . مكاسر : قريب الدار ، وكِسْر البيت : جانبه . والعُقاب الكاسر : التى تضم جناحيها ، وتهوى على فريستها ، فضمّ الجناح هو كَسْره .

وآنسته : أبصرته . حِبّ : حبيب ، وكان زيد بن حارثة يسمّى حِبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى حبيبه .

وَضَح : تبيّن . حُباب : حية . موالس : مخادع خائن فى صحبته .

مالحته : واكلته ، أى أكلت معه الملح ، وأصل المالحة الرّضاع كأنه حين نادمه راضعه الكأس ، وملحتِ المرأةُ الصبيّ : أرضعته .

نَقْده : تجربته . عاقدته : عاهدته ، وعقدت يدى على يده .

فرّه : اختباره وكشف سرّه ، يريد أن هذا الصاحب كان يظهر مودته ، ويسرّ عداوته .

* * *

رفع المسهم

[ممّا قيل فى المودّة والإخاء]

وقال الشاعر ؛ وهو المغيرة بن حبناء[1]:

أخُوكَ الذى لا ينقضُ النأىُ عهدَه ... ولا عند صَرْفِ الدّهر يَزْوَرُّ جانبُهْ
وليس الذى يلقاك بالبِشْرِ والرّضا ... وإن غبت عنه لستعتك عقارِبُهْ

قال: وأنشد آخر:

علىّ لإخوانى رقيبٌ من الصّفا ... تبيد الليالى وهو ليس يَبِيدُ[2]
وإنى لأستحيى أخى أن أبرّه ... قريباً وأن أجفوه وهو بعيد

وقال ابن المعتزّ:

لم يبق مِمّا فاتنى كسبُه ... إلاّ فتًى يسْلَمُ لِى قلبُهْ[3]
ينأى فلا يذهبه نأيُه ... عنّى ولا يفسده قربُهْ
يكون حسبى من جميع الورى ... فى كلّ حال وأنا حسبُهْ

وقال بشار وزاد معنى:

تودّ عدوّى ثم تزعم أننى ... صديقُك، إن الرأى منك لَعازِبُ[4]
وليس أخى مَنْ وَدّنِى رأىَ عينهِ
ولكن أخى مَنْ ودّنى وهو غائب

* * *

(١) ط: «شعمة» ، وهو خطأ ، والبيتان من أربعة أبيات فى أمالى القالى ٢ : ٢٣٠ .
(٢) اللآلى ٢٧٢ من غير عزو . (٣) اللآلى ٢٧٢ .
(٤) أمالى القالى ١ : ٨٣ .

وَكانَتْ عِنْدِى جَارِيةٌ ، لاَ يُوجَدُ لهَا فى الجَمالِ مُجَارِيةٌ ، إن سَفَرَتْ خجِل النَّيِّرَانِ ، وَصلِيَتِ الْقُلُوبُ بالنِّيرَانِ ، وَإنْ بَسمَتْ أزْرَتْ بالْجُمَانِ ، وَبِيعَ الْمَرْجَانُ بالمجّان ، وإن رَنَتْ هيَّجَتِ الْبَلاَبِلَ ، وَحَقَّقَتْ سِحْرَ بَابل ، وَإنْ نَطَقَتْ عَقَلَتْ لُبَّ العاقِلِ ؛ وَاسْتَنْزَلَتِ الْعُصَمَ مِنَ الْمَعَاقِلِ ، وإن قَرَأت شفَتِ الْمَفْئودَ ، وَأَحْيَتِ الْمَوءودَ ، وَخِلْتَهَا أُوتيتْ من مَزامِيرِ آلِ داود . وَإنْ غَنَّتْ ظَلَّ مَعْبَدٌ لهَا عَبْداً ، وقيل سحقاً لإسحاق وَبُعْدًا ، وَإن زَمَرَتْ أَضْحَي زُنام عِنْدها زنيماً ، بَعْدَ أَنْ كان لِجِيلِهِ زعِيماً ، وبالإطْرَابِ زَعِيماً ، وإن رَقَصَتْ أَمَالَتِ الْعَمَائِم عن الرّءوسِ ، وَأَنْسَتْكَ رَقْصَ الْحَبَبِ في الكئوسِ ، فكنتُ أزدرى مَعَهَا حُمَرَ النَّعَمِ ، وَأُحَلِّى بتَمَلِّيها جيدَ النَّعم ، وأحْجُبُ مَرْآها عن الشمس والقمر ، وأذود ذكراها عن شرائع السَّمَر ، وأنا مَعَ ذلِكَ أَلِيحُ ، من أَنْ تَسْرِىَ بِرَيّاهَا رِيحٌ ، أَوْ يَكُنَّ بهَا سَطِيح ، أَوْ يَمُرَّ عَلَيْهَا بَرْقٌ مُلِيح .

* * *

قوله : « مجارية » ، مبارية معارضة ، وفلان يبارى الريح جوداً ، كأنه يعارضها بفعله ، فإذا هبت فى زمن الشتاء والجهد ، فضرّت المحتاجين تتبع آثار فسادِها بماله وهباته فأصلحها .

سفرت : كَشَفَتْ وجهها . خجِل : استحيا . النَّيِّران : الشمس والقمر .

صَلِيت : أحرقت ، يقول : إذا كشفت وجهها افتضحت الشمس والقمر لبديع حسنها ، واخترقت القلوب بنيران حبها .

* * *

[مما قيل فى جمال المرأة]

ونسوق هنا جملة من الشعر المستحسن فى أوصاف النسوان :

قال الشاعر :

لما تبدّت من الأستار قلتُ لها
سبحان سبحان ربّى خالقِ الصُّوَرِ
ما كنت أحسِب شمساً غيرَ واحدة
حتى رأيت لها أختاً من البَشَرِ
كأنها هى إلا إن يفضّلها حسنُ الدلال وطرف فاتر النظرِ

وقال أعرابى :

إذا حُجِبتْ لم يكفِك البدرُ فقدَها وتكفيك فقدَ البدر إن فُقِدَ البَدْرُ
وحسبك من خمر تفوتك ريقها ووالله ما مِنْ ريقها حسبُك الخمرُ
وما الصّبر عنها إن صبرتَ وَجَدْته جميلاً ، وهل فى مثلها يحسُن الصبرُ!
ولو أن جلد الدّرّ لامسَ جلدَها لكان للمس الدّرّ فى جلدها أثرُ

وقال العباس بن الأحنف :

تاهَتْ علينا بأنْ تَمّتْ محاسنُها خَوْدٌ تكمّلُ فى أعطافها الفِتَنُ(١)

(١) ديوانه ٢٨٠ .

رفع المسهم

هَمَتْ بإتياننا حتى إذا نظرتْ إلى المِرآةِ نهاها وجهُها الحسنُ
ما كان هـــذا جزائى من محاسِنِها
أغرت بىَ الشَّوقَ حتى شفّنى الشَّجَنُ

وقال بشار:

درّة حيثما أديرت أضاءتْ ومشمّ من نَيْئِمَا شُمّ فاحا
وجناتٌ قال الإله لها كو نى فكانتْ رَوْحا رُوحا ورَاحا

وله أيضاً:

كأنّها يوم رَاحَتْ فى محاسنِها قارْتَجّ أسفلُها واهتزّ أعلاها
حَوْراء جاءتْ من الفردوس مقبلةً فالشّمس طلعتُها والمسْك رَيّاها
راحت ولم تعطِه بُرءا لِمِلّتِه عنها ولو سألته النفس أعطاها
من اللواتى اكتست بُرداً فشقّ لها من حسنها الحسنُ بِرْدا الافردّاها

وقال السّلامى:

وفيهنّ سكرى اللّحظ سَكْرى من الصّبَا
يُعاتب حلوُ اللفظ حُـــلْوَ الشّمائل[1]
أدارت علينا من سُلافِ خدودها[2]
كؤوساً وغنّتْنا بصـــوت الخلاخل

(١) اليتيمة ٢ : ٣٧١
(٢) اليتيمة : « حديثها ».

وقال أيضاً :

لبّيكَ لبّيك داعى اللّهو من كَثَبِ إلى معاطفَ كالأغصان من كُثُبِ
إن السّوالف كالسّوسان فى صُعُدٍ إنّ الغدائر كالخلخال فى صَبَبِ
إلى خدود بنات الروم قد برزتْ من حجْبها وأدارت أعْيُنَ العَرَبِ
من كلّ سافرة عن مشرقٍ خجلا فيه طرازان من ماءٍ ومن لهبِ
واستضحكت عن لآلٍ أو حصى بَرَدٍ
يكاد يَقطرُ من مائيّة الشّنَبِ
تحدُو بها فتيةٌ صيغت وجوههمُ
من الرّضا وعواليهمْ من الغضَبِ

وللأمير تميم بن المعز :

ناولتُها شِبْهَ خدّيها معتّقةً صِرفاً كأنّ سناها ضوء مقْباس[1]
فبّلتها وقالت وهى ضاحكةٌ
فكيف تُهدى خُدُودَ النّاس للناس[2]
قلت اشربى فهى دَمْعى ، وحمرتها دمى ، وطابخها فى الكأس أنفاسى
قالت فإن كنت من حُبى بكيت دما فأسقنيها على العينين والرّأسِ
بالليلة بات فيها البدر مُعتَنِقِى
وباتت الشمس فيها بعض جلّاسى
وبتُّ مستغنيا بالثغر عن قدحٍ وبالخدود عن التّفاح والآس

(١) ديوانه ٢٤٩ ، وفيه : « مشعشعة » ، والمقباس والقبس : الشعلة من النار .
(٢) الديوان : « وكيف تسقى »

وقال أيضاً :

قَالتْ وقد نَالها للبين أوجعُه ... والبين صعبٌ على الأحباب موقعُه[1]
اجعل يديك على قلبي فقد ضُفَتْ ... قواه عن حمل ما تحويه أضلعُه[2]
واعطفْ عليّ المطايا ساعةً فعسى ... مَنْ شتّ شمل الهوى بالوصل يجمعُه
كأنني يوم وَلّتْ حسرةً وأسًى ... غريق بحر يَرَى الشاطى ويمنَعُه

وقال النهامى :

أهدى لنا طيفُها نجداً وساكنَه ... حتى اقتنصنا ظِباء البدو فى الحَضَرِ[3]
فبات يجلو لنا من وجهها قمراً ... من البَراقع لولا كُلْفة القمَرِ
وراعها حرّ أنفاسى فقلت لها : ... هواىَ نار وأنفاسى من الشَرَرِ
وزاد دُرّ الثنايا دَرّ أدمعها ... فالتفّ منتظمٌ منه بمنتثِرِ
ولو قدرت وثوبُ الليل منخرقٌ ... بالصبح رقّعته منهن بالشَّعَرِ
بيضاء يَسحبُ ليلا حسنه أبداً ... فى الطّول منه وحسن الليل فى القِصَرِ
لو لم يكن أفحوانا ثغرُ مبتسمها ... ما كان يَزداد طيبًا ساعة السَّحَرِ

ولبعض أصحابنا :

شُدِهْتُ فلا أدرى بأىّ صفاتها ... تقيّد ألباب الورَى وتَقُودها
وأىّ لآليها أشدُّ نفاسة : ... أمنطقها أم ثغرها أم عقودُها!
فللشمس مرآها ، وللغصن قدُّها، ... وللمسك ريّاها ، وللرّيم جيدُها

وقال الحسن :

---

(١) ديوانه : ٢٦٠ ، وفيه : « وقال وقد ودعه بعض أهله لسفره » ، وقال صاحب اليتيمة : « وهو مما يغنى به » .
(٢) الديوان : « ما فيه أضلعه » .
(٣) ديوانه ٤١ ون ط : « أهدى لنا طبغها » ، وصوابه من الديوان .

وذات خـدٍّ مورَّدْ فتّانة المتجـرِّدْ[1]
تأمل العـين منهـا محاسناً ليس تنفـدْ
فبعضها فى انتهـاء وبعضها يتـولدْ
فالحسن فى كلّ جزء منها معـادٌ مردَّدْ
وكلّما عـدت فيهـا تكون فى العَوْدِ أحمَدْ

* * *

قوله: «أزرت بالمجان»، أى قصرت بحبّ الفضة.

المرجان: اللؤلؤ الصغار.

والمجّان: شىء لا ثمن له، وخذ هذا مجّاناً، أى باطلا؛ أراد أنها إذا ضحكت فبدت أسنانها كانت أحسن مما وصف. وأخذه من قول أبى تمام:

وقهوةٍ كوكبها بزهرُ يَسْطَعُ منها المِسْكُ والعَنْبَرُ[2]
ورديّةٌ يحثُّها شادنٌ كأنها من خدّه تُعْصَرُ
مهنهف لم يبتسم ضاحكاً مذ كان إلا كَسَدَا الجوهر

وقال آخر وذكر المجّان:

عثمان يعلم أنّ المدح ذو ثمنٍ لكنه يشتهى مدحاً بمجّانِ
والناس أكيس من أن يمدحوا رجلا حتى يروا عنده آثارَ إحسان

رنت: نظرت. البلابل: وساوس الهموم. والسِّحْر، ينسب إلى بابل. وقال السّلامى فى هذا المعنى:

(١) ديوانه ٣٧١.
(٢) ديوانه ٤٤١

أكحيلة الأجفان بالسحر الذى ... لولاه مادرت البلابل بابلْ
قد كان قلبى غافلاً عمّا به ... أودى وقلبُ أخى السلامة غافلْ
حتى دَهانى منك صدرٌ رامح ... ذرب سِنانه وطرفٌ قاتلْ
ماعِقدك المهنا بجيدك درّة ... لكن فِرِنْدٌ فى حسامٍ جائلْ

وللأمير تميم بن المعتز :

وليلةٍ بتُّها على طَرَبٍ ... آخرها مشبهٌ لأُولاَهَا[1]
أقبل البرقَ من ثنيّتِها ... وألثم الشمس من مُحَيّاها
سقتنِيَ الرّاح وهى خدّاها ... بأكؤس السحر وهى عيناها
إذا أرادتْ مزاجَها جعلت ... بآخر اللحظ من فِى فاها
فيا لها قهوةً معتّقةً ... وليس إلا الخدود مأواها
حَبَابها الثغر حين تمزج لى ... وَنُقْلُها ألثمُ حين أسقاها

* * *

[ذكر بابل]

وبابل مدينة كان ينزلها ملوك العجم ، وهى دار نمروذ بن كنعان ، وكانت بابل ، من استعظامِها واستبشاع أمرها ، لا تكاد تحصل . وأسسها نمروذ ، وكانت مدينةً ضاحكة للنظر ، زاهية البناء ، واسعة الفِناء ، جمعت إلى حسن المنظر رصافة البنيان وبهاء المنصِب ، فكانت سهلة بطحاء مربّعة ، فى كل تربيع حِصْنان عظيمان ، وسورها لايكاد سامِعُ خبرِه يصدّقه ، كان عرضه خمسين

(١) لم ترد هذه الأبيات فى ديوانه .

ذراعاً ، فى ارتفاع مائتى ذراع ، فى دور أربعة وستين ميلا ، وحوله خندق يجرى فيه الفرات ، وفيها مائة باب نحاس .

وهى أقدم بناءٍ بُنِيَ بعد الطوفان ، ونسب السِّحر لها لأن بها هاروت وماروت معلِّمَى السِّحر ، فكانا يعجبان من بنى آدم حيث يعصون الله تعالى على إنعامه عليهم ، فابتلاهما الله تعالى فسلّط عليهما الشّهوة الآدمية ، وحرّم عليهما القتل والزنا والخمر ؛ وأنزلهما إلى الأرض للحُكْمِ بين أهلها ، فجاءتهما الزّهرة فى خصام ، فوقعت فى قلوبهما ، فشكَا كلّ واحدٍ منهما لصاحبه مايجده من حبِّها ، فأرسلا إليها ؛ فراودَاها فأبتْ حتى يعلّماها الاسم الذى يرجعان به إلى السماء ، فأبيا عليها ، قالت لهما : فاشربا الخمر ، فشرباها فسكِرا وعلّماها الاسم ، وواقعاها ، ثم خرجا فوجدا رجلا ، فظنّا أنه ظهر على أمرهما فقتلاه ، وتكلّمت الزهرة بالاسم الّذى يرجعان به إلى السماء فرفعت ومسخت كوكباً وخُبِّرَا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا ، فهما يعذّبان ببابل ، ويعلّمان السحر.

وجاءت امرأة إلى عائشة رضى الله تعالى عنها ، فقالت : يا أمّ المؤمنين ، قالت لى امرأة : هل لكِ أن أعلّمك شيئاً يصرِف وجهَ زوجك إليك ! فأتت بقيسَيْنِ ، فركبتُ واحداً ،وركبت الآخر ، وسرنا ماشاء الله ،فقالت : أتدرين أنك ببابل ؟ ودخلت على رجلين ، فقالا لى : بُولِي على ذلك الرماد ، فذهبت ولم أبلْ ، ورجعت. فقالا لى: ما رأيت؟ فقلت : مارأيت شيئاً ،قالا : أنت على رأس أمرك ، فرجعت فتشدّدت وبُلْت ؛ فخرج مثل الفارس المقنّع ، فصعد فى السماء ، فقالا لى : ما رأيت ؟ فأخبرتهما ، فقالا لى : ذلك إيمانك فارَقك ، فخرجت إلى المرأة ، فقلت لها : والله ما علّمانى شيئاً ، ولا قالا لى كيف أصنع ، فقالت : فما رأيت ؟ قلت : كذا وكذا ، فقالت : أنت أسحر العرب ، اعملية ،

رفع المسهم

فقطعت جداولَ ، فإذا زرع يهتزّ ، فقلت : أفرك فإذا هو قَدْ يبِس ، فأخذتُه وفركته ، وقالت : خذيه ، واجعليه سويقاً واسقيه زوجك ، فلم أفعل شيئاً من ذلك . وانتهى الأمر إلى هذا فهل لى من توبة ؟

ورأت رجلا من خُزاعة فقالت : يا أمّ المؤمنين، هذا أشبه الناس بها روت وما روت . روى هذا الحديث بإسناد له ابن قتيبة .

* * *

قوله : « عقلت لبّ العاقل » ، اللبّ : العقل ، وعقلته : شددته بعِقال، وهو قيد البعير .

والعُصْم : الوعول ، والأعصم : التيس الجبلىّ الذى فى يديه بياض ، والمِعْصم : موضع الخلخال .

الخليل : الأعصم الوَعِل ، وعِصْمته : بياض فى رجليه .

والمعاقل : قرون الجبال ، وأراد أن كلامها لعذوبته يغلب أهل العقول حتى تعدّاهم إلى الوحش ، أو يريد بالعصم مَنْ له عزمة وهمّة من الرجال ، فإذا سمعها تذلّل لها .

وأخذ هذا من قول أبى بكر بن دريد[1] :

لَوْ ناجَتِ الأعصمَ لا نحطّ لها ... طوعَ القياد من شماريخ الذّرَا[2]

أو صابت القانت فى مخلوقِ ... مستصعب المسلك وَعْر المرتقَى[3]

---

(١) المقصورة ١٢٥ (نشرة العطار)

(٢) ط : « باحت » ، وصوابه من المقصورة . وناجت : سارت والأعصم : الوعل الذى فى يديه بياض . والشماريخ : جمع شمراخ ؛ وهو رأس الجبل . والذرا : جمع ذروة .

(٣) صابت : وافقت ووجدت . والقانت : المطيع . والمخلوق : الأملس . ومستصعب : صعب . .. والمسلك : الموضع الذى يسلك فيه .

ألهاهُ عن تَشبيحه ودِينِـــه تأنيسها[1] حَتَّى تراه قد صَبَا[2]

والسابق إلى هذا المعنى النابغة بقوله :

لو أنها عَرَضَتْ لأشمط راهبٍ عَبَد الإله صَرُورةٍ متعبِّدِ[3]
لرنا لرؤيتها وحُسْن حديثهـــا وخالهُ رشَداً وإن لم يُرْشَدِ

والمفئود : الذى يشتكى فؤاده . والموءود : المدفون حيًّا ، وانظره فى الخامسة والثلاثين .

وأراد أنّ حسن صوتها بالقرآن يشفى من مرض الفؤاد ، ويحيى الموتى . والعرب تزعم فى شعرها أنّ إفراط الحُسْن يُحيى الموتى .

قال الأعشى :

لوْ أسْنَدَتْ مَيْتاً إلى نَحْرِها قام ولم يُحْمَـــلْ إلى قابرِ[4]
حتى يقول الناس ممـــا رأوْا يا عجبا للميِّت الناشر ![5]

وقال توبة بن الحُمَيِّر :

ولو أنّ ليلَى الأخيليَّةَ سلَّمتْ علىّ وفوقِى تُرْبَةٌ وصفائحُ[6]
لسلَّمت تسليم البشاشة أو زَقَا إليها صدًى من جانب القبرِ صائحُ[7]

(١) ط : « تأنيثها » ، تحريف . والتأنيس : الأنس وحسن الحديث .
(٢) صبا : فعل أفعال الصبيان .
(٣) ديوانه ٣١ . الراهب : الخائف من الله . والصرورة فى الجاهلية : الذى لم يتزوج ، وفى الإسلام : الذى لم يحج .
(٤) ديوانه ١٣٩ ، ١٤١ . والنحر : أعلى الصدر .
(٥) نشر الله الموتى : أحياهم وبثهم .
(٦) ديوان الحماسة ـ بشرح المرزوقى ١٣١١ .
والصفائح : الحجارة العراض يغطى بها القبر .
(٧) زقا : صاح . والصدى : مايجيبك من الجبال وغيرها إذا صحت ؛ وكانت العرب تزعم أن عظام الموتى تصير هاما وأصداء ، وبعده فى الحماسة :

وَأَغْبطُ مِنْ ليلَى بما لا أنالُه ألاَ كلّ ماقرّت به العين صالحُ

قوله : «مزامير» ، المزمار : الصوت نفسه ، والجمع مزامير . وقيل : صوابه مزمار ، ولا يقال زامر ، ويقال للأنثى : زامرة ولا يقال : زمّارة ، والآلة التى يزمر بها الزّمارة .

وكان داود عليه الصلاة والسلام أحسن خلق الله صوتاً ، وإذا قرأ الزّبور رقّتْ لصوته الوحوش ، وحنّت حتى تؤخذ بأعناقها وهى مصغية له ، وما صَنعت الشياطين المزامير والبرابط إلا على صوته .

ومعبد ، أطبع المغنّين المتقدّمين ، وإسحاق الموصلى أطبع المتأخرين ، وفى معبد يقول حبيب :

محاسِنُ أوصاف المغنّين جَمَّةٌ وما قَصَبَاتُ السَّبْق إلاَّ لِمَعْبَدِ (١)

* * *

[أخبار معبد]

وهو معبد (٢) بن وهب ، وقيل ابن قطن (٣) وأبوه أسود ، وكان هو خِلاسيًّا مديد القامة ، أحْوَل .

غنّى فى أول الدولة الأمويّة ، وتوفّىَ أيام الوليد بن يزيد .

وكان (٤) علّم جارية اسمها ظبية فاشتراها رجل من الأهواز ، وذهبت به إلى كلّ مذهب ، فماتت وأخذت جواريه أكثر غنائها ، فكان من أجلها يفضّل معبداً على نظرائه ، ويظهر التعصّب له ، فسمع به معبد ، فخرج إليه حتى أتى البصرة ، فصادف الرّجل خارجاً إلى الأهواز فى سفينة ، فسأله الدخول معه ،

(١) ديوانه ١٠٣ .
(٢) أخبار معبد فى الأغانى ١ : ٣٦ ـ ٦٠ .
(٣) الأغانى « قطن ، مولى ابن قطر » .
(٤) الخبر فى الأغانى ١ : ٤٨ ، ٤٩ ، باختصار وتصرف .

فأمر الملاح أن يُجلِسه فى مؤخر السفينة ، وانحدر حتى بلغ إلى فم نهر الأبلّة ، فتغدّوا وشربوا ، وأمر جواريه فغنّين ، فغنّتْ إحداهنّ للنابغة[1] :

* بانت سعادُ وأمْسَى حَبْلُها انجذما *

ومعبد ساكت فى ثياب السّفر ، حتى سكتت ، فصاح : ياجارية ، غناؤك ليس بمستقيم ، فغضب مولاها ، وقال : وما أنت والغناء ! ثم غنّت الثانية بشعر عبد الرحمن بن أبى بكر :

بابنة الأزْدىّ قلبى كئيبُ ... مُستهام عندها ما يُنيبُ[2]
ولقد قالوا فقلتُ دعونى ... إنّ مَنْ تَنْهَوْنَ عنهُ حبيبُ
إنّما أفنى عظامِى وجسمِى ... حُبُّها ، والحبّ شىء عجيب[3]

فصاح معبد : يا جارية ، قد أخْلَلْتِ بهذا الصوت إخلالاً شديداً ! فازداد غضباً مولاها ، وقال : ويلك ! أما تكفّ عن هذا الفُضُول ! ثم غنّت أخرى لكُثَيِّر فقالت :

خليلىّ عوجا سَلّما ساعةً معِى ... على الرّبع نقضِى حاجةً ونودِّعِ[4]

---

(١) الأغانى وعده من الأصوات

بانتْ سُعَادُ وأمْسَى حَبلُها انصرَما ... واحتلّتِ الغَوْرَ والأجراعَ من إضَمَا
إحدَى بَلِىٍّ وما هام الفؤاد بها ... إلاّ السفاهَ وإلاّ ذُكْرَة حُلَمَا

والبيتان فى ديون النابغة ٦٥

(٢) الأغانى ١ : ٥٥

(٣) فى الأغانى : « إنما أبلى عظامى » ، وبعده هناك :

أيُّها العائبُ عندى هواها ... أنْتَ تغدى من أراك تعيبُ

(٤) الأغانى ١ : ٥٥ ونسبه إلى كثير ، وفيه : « عوجا منكما » . وبعده هناك :

ولا تعجلانِى أنْ أُلِمَّ بِدِمنةٍ ... لعزّةَ لاحَتْ لى ببيداء بَلقع

وقولا لقلبٍ قَدْ سَلا : راجِعِ الهوى ... وللعين أذرِى من دموعك أودَعِى
فلا عيشَ إلا مثل عيش مَضَى لنا ... مَصِيفاً أقمنا فيه سن بعد مَرْبع

فقال معبد . ما قوّمتنّ صوتاً واحداً ، فقال له الرجل : والله ما أراك تدَع هذا الفضول بوجه ولا حيلة ، وأقسمت بالله لئن عاودتَه لأخرجنّك من السفينة . فاندفع معبد يغنّى الصوت الأوّل ، فصاح الجوارى : أحسنت والله يارجل! فأعِدْه ، قال : لا ولا كرامة ، ثم غنّى الثانى ، فقلن لسيّدهنّ : هذا والله أحسنُ الناس غناء ، فاسأله أن يعيد لعلّنا أن نأخذه ، ثم غنّى الثالث فزلزل عليهم السفينة ، فوثب الرجل وقبّل رأسه ، وقال : أخطأنا عليك ، فأسألك أن تنزل إلىّ ، فأبَى فلم يزل به حتى نزل ، وقال له : مِنْ أين أخذ جواريك هذا الغناء ؟ قال : من جارية أخذت عن أبى عَبّاد معبد ، ثم استأثر الله بها ، وكانت منّى محلّ الروح من الجسد ، فلذلك أفضّل معبداً على جميع المغنّين ، فقال له معبد : وإنك لأنت هو ! أفتعرفنى ؟ قال : لا ، فصكّ معبد بيده صلعتَه ، وقال : فأنا والله معبد ، وإليك قدمت من الحجاز ، ولقصدك بالأهواز دخلت السفينة ، والله لا قصّرتُ فى جواريك [هؤلاء][1] حتى أجعلهنّ خلَفا من الماضية . فأكبّ الرجل والجوارى على يديه ورجليه بالتقبيل ويقولون : « كتمتَنا نفسَك ، حتى أسأنا عشرتك ، وأنت مِمّن نتمنّى من الله أن نلقاه .

ثم وهب له ثلثمائة دينار وطِيباً وهدايا بمثلها ، فأقام عنده سنة حتى أخذ عنه جواريه ثم انصرف إلى الحجاز .

قال ابن الكلبى : قدِم ابنُ سريج والغريض المدينة ، وكانا فى صنعة الغناء من الحذّاق ، يتعرّضان لمعروف أهلها ، فلمّا شارفاها تقدّما ثقلَهما ، ليرتادا

(١) تكملة من الأغانى .

منزلا ، حتى إذا هما بمغسلة تغسل فيها الثياب قرب المدينة ، إذا هما بغلام ملتحف بإزارٍ وطرفه على رأسه ، وبيده حُبالة يصيد بها الطير، وهو يتغنّى :

القصر فالنخل فالجمّاء بينهما أشهى إلى القلب من أبواب جَيْرونِ[1]

فإذا الغلام معبد فلما سمعاه مالا إليه ، واستعاداه ، فأعاد الصوت ، فسمعا شيئاً لم يسمعا مثله قطّ ، فقال أحدُهما لصاحبه : هل سمعت كاليوم قطّ ؟ قال : لا والله ، فما رأيك ؟ قال ابن سريج : هذا غناء غلام يصيد الطّير ، فكيف بمن فى المدينة ، أمّا أنا فشكلت ولدى إن لم أرجع ، فرجع ولم يدخلها[2] .

وروى إسحاق أنّ معبداً سافر إلى مكة ، فسمعَ ببطن مرّ غناء ، فقصد الموضع ، وإذا رجل جالس على حرف بِرْكة فارقٌ شعرَه حسنُ الوجه عليه درّاعة مصبوغة بزعفران ، وهو يتغنّى :

حَنّ قلبي من بعد ما قد أنابا ودعا الهمّ شجوه فأجابا[3]
ذاك من منزلٍ لسلمى خلاء لابس من خلائِه جلبابا[4]
مُجْتُ فيه وقلت للرّكب عوجوا طمعاً أن يردّ رَبْعٌ جوابا
فاستثار المنسيّ من لوعة الحبّ وأبدى الهموم والأوصابا

---

(١) الأغانى ١ : ١١ ، وفى ط : « فالنخل فالأبواب » ، وما أثبته من ا والأغانى ، وأبواب جيرون بدمشق ، وبعده فى الأغانى :

إلَى البَلاَطِ فمَا حازتْ قرائنه دورٌ نَزَحْنَ عن الفحشاء والهونِ
قَدْ يكتُمُ النّاس أسراراً فأعلمها ولا يناُلون حتّى الموت مكنونى

والأبيات من أصوات الأغانى ، وهى لأبى قطيفة .

(٢) الخبر فى الأغانى ١ : ٤٤ ، ٤٥ .

(٣) الشعر لعمر بن أبى ربيعة ، والأغانى ١ : ٤٧ .

(٤) الأغانى « مكتس من عفائه » .

فقرع معبد بعصاه وغنّى :

مَنَع الحياة من الرجال ونفعَها حَدَقٌ تقلّبها النّساء مِرَاضُ[1]
وكأنّ أفئدة الرجال إذ رأوْا حَدَق النساء لنَبْلِها أغراضُ

فقال الرجل له: أنت معبد ؟ قال نعم، وقال له معبد : بالله أنت ابن سُريج! قال : نعم ، ووالله لو عرفتُك ما غنّيت بين يديك .

قال معبد : فلمّا قدمت مكة ، قيل لى : إن ابن صفوان قد جَعَل بين المغنّين جائزة ، فأتيت بابه ، فطلبت الدّخول ، فقال لى آذِنُهُ : قد أمرنى أن ألاّ آذن لأحد عليه ، قلت : فدعنى أدنو من الباب ، فأغنّي صوتاً ، فقال : أمّا هذا فنعم ، فدنوت من الباب ، فغنّيت ، فقالوا : معبد ، ففتحوا لى وأخذت الجائزة .

* * *

[ذكر إسحاق الموصلى]

وأما إسحاق فذكره صاحب الأغانى[2] ، وقال : كان محلّ إسحاق من العلم والأدب والرواية، وتقدّمه فى الشعر وسائر المحاسن أشهرُ من أن يوصف . وأمّا الغناء فكان أصغرَ علومه، وأدنى ماوُسِم به وإن كان الغالب عليه ؛ وهو الذى صَحّح أجناس الغناء وطرائقها ، وميّزها تمييزاً لم يقدر أحد عليه قبله ولا بعدَه ، من تدقيق المجارى ، وتمييز الأصناف التى جعلوها صِنْفاً واحداً ، وهى فى نفسها كذلك ، ولكنها تفترق عند متيقظ مثله ، وأين مثلُه !

---

(١) الأغانى ١ : ٤٨ ، والشعر للفرزدق ، ديوانه ٤٨٨ .
(٢) أخبار إسحاق الموصلى فى الأغانى ٥ : ٢٦٨ – ٤٣٣

وروى عنه أنه [١] قال : بقيتُ دهراً أغلِّس إلى هشام [٢] أسمع الحديث . وإلى الكسائى أقرأ عليه جزءاً من القرآن ، وإلى الفرّاء وابن [٣] غزالة أسمع اللغة ، ثم آتى منصور زلزل ، فيطارحنى طريقتين أو ثلاثاً ، ثم آتى عاتكة بنت شهدة، فآخذ منها صوتاً أو صوتين ، ثم آتى الأصمعىّ وأبا عبيدة ، فأستفيد منهما وأناشدهما ، ثم أصير إلى أبى فأعلِمُه بما صنعتُ ، وأتغدّى معه ، فإذا كان العشىّ رحت إلى الرشيد .

وروى الحديث ، ولقىَ أهلَه ، مثل مالك بن أنس وسُفيان بن عُيينة وغيرهما . وسأل المأمونَ أن يكون دخوله مع أهل العِلْم والأدب ، لا مع المغنّين ، فإذا أراده للغناء غنّاه ، فأجابه إلى ذلك .

وقال المأمون : لولا ما سبق لإسحاق على ألسنة الناس من الشّهرة بالغناء ، لوليّته القضاء بحضرتى ، فإنه أولى به ، وأصدق وأعفّ ، وأكثر ديناً وأمانة من هؤلاء القضاة . وكان أجودَ الناس بالمال وأبخلَهم بالغناء . وأعطى لمنصور زلزل لمّا علمه الضّرب بالعود أكثر من مائة ألف درهم [٤] .

وأهدى له ابن الأعرابىّ [٥] نسخة من النوادر بخطّه ، فمرّ يوماً على المدائنىّ ، فقال : إلى أين يا أبا عبد الله ؟ قال : أمرّ على رجل كما قال الشاعر :

نحمل أشباحَنا إلى ملكٍ نأخذ من ماله ومن أدَبِهْ [٦]

---

(١) الأغانى ٥ : ٢٧١ .

(٢) الأغانى : « هشيم » .

(٣) فى حواشى الأغانى عن شرح القاموس : « وعبدالواحد بن أحمد بن غزال ، مقرئ »

(٤) الأغانى ٥ : ٢٧٤ .

(٥) الأغانى ٥ « أبو عبد الله بن الأعرابى »

(٦) قال صاحب الأغانى « والبيت لأبى تمام الطائى »

فقال : ومن هو ؟ قال : أبو محمد إسحاق بن إبراهيم .

ومات وهو أشعر أهل زمانه ، وقال رأيت جريراً فى منامى ينشد شعراً ، فلما فرغ أخذ كُتبة شعر فألقاها فى فمى ، فابتلعتُها ، فتأوّلت ذلك أنه ورّثنى الشعر .

ومرّ به شيخ وهو فى الحديث ، فقال لجلسائه : هذا أشبه النّاس بجرير الذى رأيت ، فسئل الشيخ ، فإذا هو عُمارة بن عَقيل بن بلال بن جرير .

ومن شعره يفتخر [1] :

إذا كانت الأحرار أصلى ومَنْصِبى
وقام بنصرى خازمٌ وابن خازم
عطست بأنفٍ شـــامخ وتناولتْ
يداىَ الثّريا قاعـــداً غير قائم

وسمعها الأصمعى فاستحسنها ، وأعجب بها وفضّلها .

ودخل على مروان بن أبى حفصة وهو يتحدّث مع أبيه فأنشده :

إذا مضر الحمراء كانت أرُومتى وقام بنصرى خازم وابن خازم [2]

عطست بأنف ... البيت .

فجعل إبراهيم يحدّث مروان ، وهو ساه عنه ، فقال : مالك لا تجيبنى فقال : إنك ما تدرى ما أفرَغ ابنُك فى أذنى .

---

(١) فى الأغانى ٥ : ٢٧٨ : « أن الأصمعى أنشد قول إسحاق يذكر ولاء لخزيمة بن حازم » وذكر البيتين .
(٢) الأغانى ٥ : ٢٦٩

ووجّه إليه[1] أحمد بن هشام بزعفران رطب وكتب إليه :

اشربْ على الزّعفران الرّطب متّكئاً ... وانعَمْ نَعِمْتَ بطول اللّهو والطربِ
فحرمة الكأس بين الناس واجبةٌ ... كحرمةِ الودّ والأرحام والأدب

فأجابه إسحاق للوصلى :

اذكُرْ أبا جعفرٍ حقّاً أمُتّ بِهِ ... أنّى وإياك مشفوفان بالأدَبِ
وأنّنا قد رَضَعْنا الكأس دِرّتها ... والكأس حرمتُها أولى من النّسبِ

وجلس[2] عند إبراهيم بن مُصعب للشرب ، فسقى الغلمان مَنْ حضر ، وجاء غلام قبيح الوجه بقدح إلى إسحاق ، فلم يأخذ منه ، فقال له إبراهيم : لم لا تشرب ؟ فقال :

أصبَحْ نديمك أقداحا تسلسِلُها ... من الشّمول[3] وأتبعْها بأقداحِ
من كفّ ريمٍ مليح الوجه رقّتُه ... بعد الهجوع كمسك أو كتفّاحِ
لا أشرب الراح إلا من يدىْ رَشإٍ ... تقبيلُ راحته تُغْنى[4] عن الرّاحِ

فدعا له بوصيفة تامّة الحسن، فى زِىّ غلام ، عليها أقبية[5] ومنطقة ، فسقته حتى سَكِر ، ثم أمر بتوجيهها إليه بكلّ ما معها إلى داره .

ومن طرف إسحاق ، أن كلثوما العتّابى كان من العلم وغزارة الأدب

---

(١) الأغانى ٥ : ٣٠١
(٢) الأغانى ٥ : ٣٣٠ .
(٣) الشمول : الخمر .
(٤) الأغانى . « أشهى من الراح » .
(٥) الأقبية : جمع قباء ، بالفتح ؛ وهو ثوب يلبس فوق الثياب . وقيل : ثوب يلبس فوق القميص ويتمنطق به .

وكثرة الحفظ والترسّل والنظم على ما لم يكن عليه أحد ، فحضر مجلسَ المأمون ، فوضع بين يديه ألف دينار ، وغمز إسحاق بالعبث به ، فأقبل إسحاق يعارضه فى كلّ باب ويزيد عليه ، وهو لا يعرف إسحاق ، فقال : أيأذن أمير المؤمنين فى نسبة هذا الرجل ، والسؤال عن اسمه ؟ فقال : أفعل ، فقال له العتابى : ما اسمُك ومَنْ أنت ؟ فقال : أنا من الناس ، واسمى كُلْ بَصَل ، فقال له العتابى : أمّا النسبة فمعروفة ، وأما الاسم فمنكور ، فقال له إسحاق : ما أقلّ إنصافَك ، أوَ مَا كُلْثوم من الأسماء ! فالبصل أطيَبُ من الثُّوم ! فقال له العتابى : قاتلك الله ، ما أملحك ! ما رأيت كالرجل حلاوة ، أيأذن أمير المؤمنين فى صلته بما وصلنى ، فقد والله غلبنى ؟ فقال له المأمون : بل ذلك موفور عليك ، وأمر له بمثله . فانصرف إسحاق إلى منزله ، ونادمه العتّابى بقية يومه .

وكانت هُشَيمة المغنّية تجيد الشراب ، فلما ماتت قال يرثيها :

أضحت هشيمة فى القُبورِ مقيمةً ... وخلت منازلُها من الفتيانِ[1]

كانت إذا هجر الحبيبَ محبُّه[2] ... دبّت له فى السرّ والإعلان

حتّى يلين لما تريد قيادَهُ ... ويصيرَ سيِّئُه إلى الإحسان

وهو إسحاق بن إبراهيم بن ماهان ، أصله فارسىّ ، وترك ماهان إبراهيم صغيراً ، فنشأ فى بنى تميم .

وهذا الذى ذكرنا نبذة من أدبه .

وأما محاسنه فى الغناء فلا يأتى عليها الحصر ، قال الواثق : ما غنّانى إسحاق قطّ إلا ظننت أن قد زِيدَ فى ملكى ؛ وإن إسحاق نعمةٌ من نعَم المُلْك ،

---

(١) الأغانى ٥ : ٤١٠ .

(٢) الأغانى : « إذا هجر المحب حبيبه » .

التي لم يحظ أحد بمثلها ؛ ولو أنّ له العمر والنشاط لِمَا يشترى لاشتريتُهما بشطر ملكى .

وحدّث حمّاد ابنه قال[1] : حدّثنى أبى قال : غدوت يوماً وأنا ضَجِر من ملازمة دار الخليفة . فركبت بكرةً عازماً أن أطوف فى الصّحراء ، وأتفرّج ، وقلت لغلمانى : إن جاء رسول الخليفة فعرِّفوه أنى ركبتُ فى مُهِمّ[2] ، ومضيت ، وطفتُ مابدالى ، وغدوت ، وعُدْت ، وقد حَمِىَ النّهار ، فوقفت فى ظلّ جناح شارع[3] لأستريح ، فلم ألبث أن جاء خادم يقود حمارا فارهاً ، عليه جارية تحتها منديل دبيقىّ[4] ، وعليها من اللباس الفاخر مالا غاية وراءه ، فرأيت لها شمائل ظريفة وطَرْفاً فاترا ، فحُدِّثت[5] أنها مغنّية ، فدخلت الدار التى كنت عليها واقفاً ، فعلِقها قلبى علوقاً شديدا لم أستطع معه بَراحاً . وأقبل رجلان شابّان ، لهما هيبة تدلّ على قدرهما ، وهما راكبان ، فأذن لهما فحملنى حبُّ الجارية وحسنُ حالهما أن توسّلت بهما ، فدخلت معهما ، فظنّا أن صاحب الدار دعانى ، وظنّ هو أنى معهما ، فجلسنا ، وأتى بالطعام فأكلنا ، وجىء بالشراب ، فخرجت الجارية ، وفى يدها عود ، فرأيت جاريةً حسناء ، فغنّت غناء صالحاً ، فتمكّن ما فى قلبى منها ، وشربنا . ثم قمتُ للبول ، فسألها صاحب المنزل عنى ، فأنكرانى ، فقال : هذا طفيلىّ ، ولكنه ظريف ، فأجلوا عشرته ، فجئت وجلست فغنّت فى لحن لى :

ذكرتك أنْ مَرَّتْ بنا أمُّ شادنٍ أمام المطايا تشرئبُّ[6] وتسنَحُ

(١) الأغانى ٥ : ٤٣٢

(٢) الاغانى : « فى بعض مهماتى ، وأنكم لاتعرفون أين توجهت » .

(٣) الأغانى : « فوقفت فى الشارع المعروف بالمخرم » والمخرم : محلة ببغداد :

(٤) دبيق منسوب إلى دبيق ، وهى بليدة كانت بين الفرما وتنيس من أعمال مصر ، وقد خربت الآن .

(٥) الأغانى : فعرفت عليها أنها مغنية » ، وخرصت ، أى خفت وظننت .

(٦) ط : « تستريح » ، والأجود ماأثبته من الأغانى .

من المؤلفات الرّمل أدماء حرّةٌ شُعاع الضّحى فى وجهها يتوضّحُ

غادّته أداء صالحًا . ثم غنّت أصواتًا فيها من صنعتى :

الطّلول الدوارسُ فارَقتْها الأوانِسُ

أوحشتْ بعد أنِسها فهى قَفْرٌ بسابِسُ

فكان أمرها فيه أصْلَحَ من الأوّل ، ثم غنّت من صنعتى فى شعرى[1] :

قل لمن صدّ عاتبًا ونأى عنك جانبًا

قد بلغتَ الّذى أرد تَ وإن كنت لاعِبا

واعترفنا بما ادّعيت وإن كنت كاذبا[2]

فكان أصلح ممّا غنته ، فاستعدته منها لأصحّه . فأقبل علىّ أحد الرجلين ، فقال : ما رأيتُ طفيليًا أصفَق وجهًا منك ، لم ترْضَ بالتّطفيل حتى اقترحت ! وهذا تصديق المثل ، «طفيلى وقد يقترح» ، فلم أجبه[3] . وكفّه صاحبُه عنى ، فلم ينكفّ ، ثم قاموا للصّلاة فأخذتُ عود الجارية ، وأصلحته إصلاحًا محكمًا . وعدت إلى موضعى ، فصلّيت ، ثم عادوا ، فعاد ذلك الرجل فى عَرْبَدَته علىّ ، وأنا صامت ، فأخذت الجارية عودَها ، وجسّته ، فقالت : مَنْ جسّ عودى؟ فقالوا : ما جسّه أحد ، فقالت : والله لقد جسّه حاذق متقدّم ، وشدّ طبقته ، فقلتُ لها : أنا أصلحته ، فقالت : بالله عليك خذه ، واضرب به ، فأخذته منها وضربتُ مبدأ طريق عجيب صَعْب ، فيه نَقَرات محكَمة[4] ، فما بَقِىَ منهم أحدٌ إلا وثب ، وجلس بين يدى ، وقالوا : بالله ياسيدى ، تُغنّى؟ قلت : نعم ، وأعرّفكم بنفسى

(١) الأغانى : « ثم غنت أصواتا من القديم والحديث ، وغنت فى أثنائها من صنعتى » .
(٢) لم يرد هذا البيت فى رواية الأغانى .
(٣) الأغانى : « فأطرقت ولم أجبه » .
(٤) الأغانى : « محركة » .

أنا إسحاق الموصلىّ ، والله إنى لأتيه على الخليفة وأنتم تشتمونى منذ اليوم لأنى تملّحْتُ معكم بسبب هذه الجارية ! ووالله لا نطقتُ بحرف ولا جلست معكم ، أو تخرِجوا هذا المعربد الغثّ ، ونهضت لأخرج. فتعلّقوا بى وتعلّقت الجارية بى ، فقلت : والله لا أجلس إلا أن يخرَج؛ فقال له صاحبه : مِنْ شِبْه هذا حذرت عليك ، فأخرجوه ، فغنّيت الأصوات التى غنّتها الجارية من صنعتى ؛ فطرب صاحبُ البيت طربا شديدا ، وقال لى : هل لك فى أمرٍ أعرضه عليك ؟ فقلت : ما هو ؟ فقال : تقيم عندى شهراً ، والجارية مع ما عليها لك ، فقلت : أفعل ، فأقمتُ عنده ثلاثين يوماً لا يعرف أحدٌ أين أنا ، والمأمونُ يطلبنى .

فجئت بذلك منزلى بعد شهر ، وركبت إلى المأمون ، فقال لى : يا إسحاق ، ويحك ! أين تكون؟ فعرّفته الخبر فقال : علىّ بالرجل الساعة ، فعرّفتهم موضعه فأحضره ، وقال : أنت رجل ذو مروءة وسبيلُك أن تُعاون عليها ، فأمر له بمائة ألف درهم ، ونهاه ألاّ يعاشر ذلك المعربد الذّل ، وأمر لى بخمسين ألفا ، وقال : أحضِرْ لى الجارية ، فأحضرتها فغنّته ، فقال : قد جعلتُ لها نوبةً فى كلّ يوم ثلاثاء ؛ تغنّى مع الجوارى ، وأمر لها بخمسين ألف درهم . فربحتُ والله تلك[٢] الرّكبة وأربحت .

وتشبه هذه الحكاية حكاية إبراهيم[٣] بن المهدى، إذ شفع للمأمون فى طفيلىّ قد قدّمنا ذكره ، فقال إبراهيم : يا أمير المؤمنين ، هب لى ذنبَه ، وأحدّثك حدثاً عجيباً فى التّطفيل عن نفسى ، قال : قل ، فقلت ؛ خرجت يوماً

---

(١) الأغانى « أحضرنى » .
(٢) الأغانى : « بتلك » .
(٣) الخبر فى العقد ٦ : ٢٠٨ — ٢١٠

فمررت فى سكك بغداد ، فشممتُ رائحةَ أبزار من جناح دار ، وقدورٍ قد فاح قتارُها . فسألت خياطاً :عن ربّ الدار ، فقال رجل من التجّار اسمه فلان . فخرجتْ من شُبّاك فى الجناح كفٌّ ومِعصم ، ما رأيت مثلهما قطّ ، فذهب عقلى وبُهتّ ، وإذا رجلان نبيلان ، فقال الخياط : هذان نديماه ، وهما فلان وفلان ، فحرّكت دابتى ، ودخلت بينهما ، وقلت :قد استبطأ كما أبو فلان ، فأتينا الباب ، فدخلنا ، فلم يشكّ صاحبُ الدار أننى منهما ، فرحّب بى ، وأجلسنى فى أجلّ موضع ، فأتينا بالألوان ، فكانَ طعمُها أطيبَ من رائحتها ، فقلت فى نفسى : أكلت الألوان وبقِيَ الكفّ . ثم سرنا إلى مجالس المنادمة ، فإذا أنبلُ مجلس ، وصاحب الدار مقبل باللّطف والحديث علىّ لمّا ظن أنى منهما ، فخرجتْ جارية تتثنّى كأنها خُوط بان ، فسلّمت وجلست ، وأخذت بالعود وجسّته ، فتبيّنت الحذق فى جسّتها ، وغنّت هذا الصوت :

توهّمها طرْفى فأصبح خدها ... وفيه مكان الوهم من نظرى أثرُ
وصافحها كفى فألم كفّها ... فمن لمس كفى فى أناملها عَقرُ
ومرّ بفكرى شخصها فجرحتُه ... ولم أرشخصاً قطّ يجرحه الفكر

فهيّجتْ بلابلى ، وطربت ، ثم غنّت :

أشرتُ إليها هل علمت[1] مودتى ... فردّت بطرف العين إنّى على العهد
فحُدتُ عن الإظهار عمداً لسرّها ... وحادت عن الإظهار أيضاً على عمد

فصحت : السلاح ! وجاءنى ما لم أملك معه نفسى ، ثم غنّت :

أليس عجيباً أنّ بيتاً يضمّنى ... وإياكِ لا نخلو ولا نتكلّمُ

(١) النقد : « عرفت »

رفع المسهم

سوى أعينٍ تَشْكُو الهوى بجفونها وترجيع أحشاء على النار تُضْرَمُ
إشارة أفواهٍ وغمزُ حواجبٍ وتكسير أجفان وقلب متيّمُ[1]

فحسدتها على حذقها، فقلت: ياجارية بقى عليك شيء، فغضبَتْ ورمت بالعود، وقالت: متى كنتم تُحضِرون مجالسكم البُغضاء! فندمت ورأيت تغيّر القوم، فدعوت بالعود وغنّيت:

ما للمنازل لا يُجِبْنَ حزينا أصَمَمْن أم بَعُد المَدَى فَبَلِينا
راحوا العشيّة رَوْحةً مذكورةً إنْ مِتْنا أو بقينَ بقينا[2]

فأقبلت على رجلٍ تقبلهما، وتقول: المعذرة والله ياسيّدى من تغيير منك، وقام مولاها وصاحباه، وصنعوا مثلها، وشربوا بالطاسات طربا، ثم غنّيت:

أفى الحق أنْ أمسِى[3] ولا تَذكرينني
وقد سجمت[4] عيناى من ذكرك الدّمَا[5]

إلى الله أشكو مخلَها وسماحتى لها عسلٌ منّى وتبذل علقما[6]

فجاء والله من طرب القوم ماحسبتُ له أن يخرجوا من عقولهم، فأمسكت حتى إذا هدأ القوم اندفعت أغنّى:

---

(١) العقد: «وكف تسلم» وما أثبته من أ، ب
(٢) العقد: «أوحين حيينا».
(٣) ط: «هل عمى»
(٤) العقد: «وقد سفحت عيناى»
(٥) بعده فى العقد:
فؤدّى مصابَ القلْبِ أنتِ قتلتِهِ ولا تتركيه ذاهلَ العقل مغرما
(٦) بعده فى العقد:
إلى الله أشكو أنّها مادريّةٌ وأنى لها بالودّ ماعشت مكرِما

هذا محبُّكِ مطويٌّ على كَمَدِهْ صبٌّ[1] مدامعه تجرى على جَسَدِهْ
له يدٌ تسأل الرّحمنَ راحتَه مِمّا به ويدٌ أخرى على كَبِدِهْ
يا مَنْ رأى كلفا مستهدفا أسِفًا كانت منيّته فى طرفِهِ ويَدِهْ[2]

فصاحت الجارية : السلاح ! هذا والله الفناء يامولاى . وسكروا ، وأمر صاحب الدّار غلمانه بحفظهم إلى منازلهم ، وبقيت أشرب معه - وكان جيّد الشراب - فقال : ياسيّدى ذهب والله ماخلا من أيامى باطلا إذْ كنتُ لاأعرفك ، فمن أنت ؟ فأخبرته ، فقبّل رأسى ، وقال : وأنا أعجب من هذا الأدب ، وأنا منذ اليوم مع الخلافة . ثمّ سألنى عن قصتى فأخبرته خبر الطعام والمِعْصم ، فأحضر جواريه [ولا أشعر][3] . ثمّ قال : مابقىَ غير أمّي وأختى ، ولأنزلنّهما إليك . فعجبت من كرمه ، وسعة صدره ، فقلت : ابدأ بالأخت ، ففعل ، فلمّا رأيت مِعصما ، قلت : هى هى . فأرسل إلى عشرة مشايخ وأحضر بَدْرتين ، وقال : أشهدكم أنى قد زوّجت أختى فلانة من إبراهيم بن المهدى ، وأمهرتها عنه عشرة آلاف درهم . فدفعت إليه البَدْرة الواحدة ، وفرّقت الأخرى على المشايخ ، وانصرفوا ، وقال : ياسيّدى أمهّدلك بعض البيوت ، فأحشمنى[4] ، فقلت : بل أحملها لى منزلى فى عمارية ، فوحقّك يا أمير المؤمنين ، لقد حمل إلىّ من الجهاز ماضاق عنه بعض دُورى .

فتعجّب المأمون من كرمه ، وأمر بإحضاره فصار من خواصّه .

* * *

قولهُ : « سُحْقًا » أى بعداً .

* * *

(١) العقد : حرى مدامعة .
(٢) لم يرد هذا البيت فى العقد .
(٣) من العقد
(٤) أحشمه : أخجله .

رفع المسهم

[ذكر زنام الزامر]

وزنام الزامر هو الذى أحدث الناى ، وهو المزمار الذى تدعوه عامّتنا بالمغرب الزّلامى ، فصحّفوه بإبدال نونه لاما ، وإنما هو زنامىّ ، وقال فيه الشاعر :

إنّ فى ناى زنام شغلا يشغل العاقل عن نَاىِ زِنَام

قال القاسم بن زرزور الزامر : حدّثنى زنام الزامر ، قال : لما اعتلّ المعتصم علّته التى مات فيها ، قال : هيّئوا لى الزلال حتى أركبه ، فهُيِّئ له فركب ، وأتى فيمن معه ، فمرّ بدجلة بإزاء منازله ، فقال : يا زنام ، قلت : لبيك يا أمير المؤمنين ! قال : ازمر :

يا منزلاً لم تَبلَ أطلالُهُ حاشا لأطلالك أن تَبْلَى
العيش أولَى مابكاه الفَتى لابدّ للمحزون أن يَسْلَى
لم أبكِ أطلالك لكنّنى بكيت عيشى فيك إذْ وَلَّى

قال : فزمرت ومازلت أردده ، وهو ينتحب ويبكى إلى أن خرج ، ثم توفّىَ بعد خمسة أيام .

وزِنام سار المثل بضرب زمره وإتقان صنعته .

وكان الواثق مولعاً بزمره بعد أبيه المعتصم ، حدّث حسين بن الضحاك قال[1] : دخلت على الواثق ، فقال : قل الساعة أبياتاً ملاحا حتى أهبَ لك شيئاً مليحا ؛ قلت : فى أىّ معنى ؟ قال : فيما شئت بما ترى بين يديك ، فالتفتّ فإذا بساط قد تفتّحت أنواره ، وأشرق فى نور الصبح ، فخجلت وأرتجّ علىّ ، فقال

(١) الأغانى : ٧ : ١٩٦ ، ١٩٧ .

الواثق : ألست ترى نُور صباح ، وَنَوْر أقاح ! فُتح لى ، فقلت :

أَلستَ تَرَى الصُّبح قد أسفَرا ومنسكبَ الغيث قد أمْطَرَا[1]
وأسفرت الأرض عن حُلّةٍ تُضاحك بالأصفر الأحمَرَا[2]
وتُعمل كأسين فى فتيةٍ تطارد بالأصغر الأكبرا
يحثُّ كئوسهمُ مخطَفٌ تجاذِب أردافَهُ المئزرا[3]
فكلٌّ ينافس فى برّه ليفعل فى ذاته المنكرا

فضحك ، وقال : تستعمل ماقلت ياحسين إلا للفسق فلا ولا كرامة . ثم قال : قوموا بنا إلى حانة الشطّ . فقام إليها ، وشرب وطرب ، وماترك أحداً من المغنّين والجلساء إلا أمر له بصلة. وكان من الأيام التى سارت أخبارها فى الآفاق ، فلما كان من الغد غدوت عليه ، فقال : أنشدنى ماقلتَ فى يومنا الماضى ، فأنشدته :

ياحانة الشّطّ قد أكرمت مثْوانا عودى بيوم سرور كالذى كانا
لا تُفقدينا دعاباتِ الأمير ولا طيب البَطالة إصراراً وإعلانا
وهاج زَمْر زُنامٍ بين ذاك لنا شجواً فأهدى لنا رَوْحا وَرَيْحَانا

---

(١) الأغانى : « وسبكر » .
(٢) بعده فى الأغانى :
ووافاك نَيْسَانُ فى وردِه وحثّك فى الشُّرب كى تَسْكَرَا.
(٣) بعده فى الأغانى :
ترجّلِ بالبانِ حتّى إذا أدار غدائره وفَرَّا
وفضّض فى الجُلّنار البها ر والآبنوسة والعَيْهَرَا
خلطاً تمازج ما شذّرتْ مقاريض أطرافه شذْرا

رفع المسهم

وَسَلْسَلَ الرَّطْلَ عمرٌو ثم عَمَّ به الـ ـشَّقْيا فألحق أخرانا بأولانا
لازلتِ آهلة الأوطانِ عامرةً بأكرم النّاس أعرافاً وأغصانا

ذكرنا هذه الحكاية لظرفها ، ولما وقع لزنام من الذكر فى شعر حسن .

* * *

قوله: «زنيا» ، أى دعيًا فى الزّمر. قال ابن الأعرابىّ : الزنيم ابن الزانية .

أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل الجنة ولد الزنا ولا شىء من نسله إلى سبعة آباء » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :« كانت العباد فيما مضى إذا عَبَد الله أحدُهم أربعين سنة يسمَّى نورُه بين يديه ، فعبد الله عابد أربعين سنة وأربعين، فلم يسع له نور ، فابتهل إلى الله تعالى فقال : عبدتك أربعين وأربعين ، ولم يسع لى نور ؛ فأُرِىَ فى منامه أنه لغير رِشدة ، فقال : يارب إن كان أبواى أكلاً حُماضاً أضرس أنا ! : فسمى نوره بين يديه .

قوله : «جيله » ، أى أهل عصره .

الزعيم الأول السيد ، والثانى الضامن ، أراد أنه يضمن لمن سمعه أن يطربه»
وقال أبو الفضل الدّارِمىّ فى زامر أسود :

وحالكِ اللّونِ كالليل البهيم لَهُ فضائل مشرقات الحس كالفَلَقِ
تخالُ مجلسنا وجهاً به حسناً إذ صار فيه كخالٍ معجب لَبِقِ
تراه يحفظ ما يوحَى إليه به وسرّه أبدا يهوِى بمنخرقِ

يحدُو بأنفاسه الأوتار مجتهداً فتستقيم به الألحان فى الطُّرُقِ
أهدى الشَّبابُ إليه حسنَ بهجته فناسب المسك فى لونٍ وفى عَبَقِ

الحبب : الفقاقيع تعلو الماء والخمر . أزدرى : أحتقر . النَّعَم : الإبل وأكرمها الحمر . أحلَّى : أزيّن . بتَمَلِّيها : بطول حياتها ومدّتها ، والملاوة : المدة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وأملِى لهم ﴾ . مرآها : رؤيتها . أذود : أدفع . شرائع : طرق . السَّمَر : الحديث بالليل . أليح : أشفق ، تسرِى : تسير ليلا . ريّاها : رائحتها الطيبة . يكْهن : يشعر ويحسن ، وتكهّن الرجل : تحدث عن الغيب .

* * *

[ذكر سطيح]

وسطيح الغسّانى أكهن الناس ، وأنذر بسيل العرِم ، فكان يدرَج جسده كما يدرَج الثوب ، خَلاَ جُمجمة رأسه ، وإذا مستّ باليد أثرت فيه للِينِ عظمها .

ومن كهانته أنه لمّا كان ليلة ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتجّ إيوان كسرى ، فسقطت منه أربع عشرة شُرفة ، فأعظم ذلك أهل المملكة ، وكتب إلى كسرى صاحبُ الشام أن وادى السماوة انقطع تلك الليلة .

وكتب إليه صاحب اليمن أنّ بحيرة ساوة غاضت تلك الليلة .

وكتب إليه صاحب طبريّة أنّ الماء لم يجر تلك الليلة فى بحيرة طبريّة .

وكتب إليه صاحب فارس أن بيوت النار خَمَدت تلك الليلة ، ولم تخمَد قبل ذلك بألف سنة[1] .

فلما تواترت عليه الكتب ، أظهر سريره ، وبرز إلى أهل مملكته ، فأخبرَهم

(١) الفائق : « ألف عام »

الخبر ، فقال الموْبذان : أيها الملك إنى رأيت تلك الليلة رؤيا هالتْنى ، رأيت إبلا صِعاباً ، تقود خيلا عِرابا ، حتى اقتحمت دجلة وانتشرت فى بلادنا .

قال : فما عندك فى تأويلها ؟ قال : ما عندى شيء ، ولـكن أرسل إلى عاملك بالحيرة يوجّه إليك رجلا من علمائهم فإنهم أصحاب علم بالحدثان . فبعث إليه، فوجّه عبد المسيح بن بُقيلة الغسانى ، فأخبره كسرى بالخبر فقال : أيها الملك، ما عندى فيها شيء ، ولـكن جهِّزنى إلى الشأم إلى خالى سطيح . فجهّزه ، فلما قدم عليه وجده قد احتُضِر ، فناداه فلم يجبه ، فقال[٢] :

أصمّ أم يسمعُ غطريفُ اليمنْ رسولُ قَيْل العُجم يَهْوِى لِلْوَثنْ[٣]
يا فاصلَ الخُطّةِ أعيَتْ مَنْ ومَنْ أتاك شيح الحىّ من آل سَنَنْ
أبيضُ فضفاض الرّداء والرَّسَنْ[٤]

فرفع إليه سطيح رأسه ، وقال: عبد المسيح، على جملٍ مُشيح، أقبل إلى سطيح ، وقد أوفى على الضريح ، بعثك ملِك بنى ساسان ، لارتجاج الإيوان ، وخُمود النيران ، ورؤيا الموْبذان ؛ رأى إبلا صعابا ، تقود خيلا عِرابا ، حتى اقتحمت الواد ، وانتشرت فى البلاد . عبدَ المسيح ، إذا ظهرت التلاوة ، وغاض وادى السماوة ، وظهر صاحب الهَرَاوة ، فليست الشام لسطيح بشام ، يملك منهم ملوك وملِـكات ، بعدد ما سقط من الشرفات ، وكلّ ما هو آت آت ، ثم قال[٥] :

---

(١) ط : « نفيلة » صوابه من ا ، ب والطبرى .
(٢) تاريخ الطبرى ٢ : ١٦٧ والفائق ١ : ٤٦١ ؛ والرجز هناك أطول وأكمل .
(٣) الطبرى : « يسرى للوثن » .
(٤) الطبرى : « والبدن » .
(٥) تاريخ الطبرى ٢ : ١٦٨ ، وأول الشعر هناك :
شمّر فإنّكَ ماضى الهمّ شِمِّيرُ لا يفزعنّك تفريق وتغييمُ

إن كان ملك بنى ساسان أفرطهمْ فإن ذا الدهر طوراً دهاريرُ
منهم بنو الصَّرْح بهرامٌ وإخوته والهرمزان وسابورٌ وسابورُ
غربًا أصبحوا منهم بمنزلةٍ تَهاب صولَهُمُ الأسدُ الهياصيرُ
حَنّوا المطىّ وجدّوا فى رحيلهمُ فما يقوم لهم سَرْجٌ ولا كورُ
والنّاس أبناء عَلّاتٍ فمن عَلَوا أن قد أقلّ، فمجفورٌ ومَهْجُورُ
والخير والشرّ مقرونان فى قَرَنٍ والخير متّبع والشرّ محـــذور

فأتى كسرى فأخبره، فغمّه ذلك، فقال: إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكا، يدور الزمان؛ فملكوا كلّهم فى أربعين سنة.

قوله: «يمّ» : من النميمة. مُليح : كثير الظهور .

* * *

فاتفق لِوَشْكِ الحظِّ المبخوسِ ، وَنكَدِ الطّالعِ المَنْحُوسِ ، أنْ أَنْطَقَتْنِي بوَصْفِهَا حُمَيَّا المُدَامِ ، عِندَ الجَارِ النَّمّامِ . ثمّ ثابَ الفَهْمُ ، بَعدَ أَنْ صَرِدَ السَّهْمُ ، فأَحْسَسْتُ الخَبَالَ وَالوبالَ ؛ وَضَيعَةَ ما أُودِعَ ذَلك الغِرْبال ، بَيْدَ أَنى عاهَدْتُه ، عَلَى عَكْسِ مَا لَفظتُهُ ، وَأَن يحفظ السِّر وَلَوْ أَحفظتُه ؛ فزَعمَ أنّه يخزُن الأسرار ، كما يخزُنُ اللّئيمُ الدّينار ، وَأنّه لا يَهْتِكَ الأَسْتارَ ، وَلوْ عُرِّض لأن يَلِجَ النّار .

* * *

الحظّ : البخت والنصيب. و وَشْكه: سرعة زواله المبخوس: المنقوص. نكد : مشقّة . الطالع : نجم الإنسان، والطالع يقابله التساقط . حُمَيّا : حدّة

ثاب : رجع . صرِد : خرج من قوسه ، وأراد بالسهم اللفظ الذى سمع منه جاره
الخبال : الفساد . الوبال : الثقل ، وهو وبال عليه أى ثقيل فى العاقبة ، وطعام
وبيل : ثقيل مقيخِم ، ومنه استوبلت المدينة إذا لم توافق جسمك وان أحببتَها .
أوْدَع : جعل فيه . والغِربال ، معلوم ، يشبّه به النّمام حيث لا يمسك ما جعل
فيه ؛ قال الحطيئة يهجو أمه :

تَنَحَّىْ فاجلِسِى منّى بعيـــدا أراح الله منـــك العالَمينا[1]
أعِربالا إذا استُودِعتِ سرًّا وكانونا على المتحـــدّثينا

كانون : أبرد أيّام الشتاء ، ويريد أنها باردة لحديث .

قال كعب بن زهير رضى الله عنه :

ولا تمسّك بالعهدِ الذى زَعَمَتْ إلاّ كما يمسّك الماء الغرابيلُ[2]

وقال فى الحماسة :

ولا أكتّم الأسرار لـكن أنمّها ولاأدع الأسرار تغلى على قلبى[3]
وإن قليـل العقل مَنْ بات ليلة تقلّبه الأسرارُ جنباً إلى جنب

وقال آخر :

أعزز علىّ بأخـلاق وُسمْت بها عند البريّة يا فالوذج السُّوق
تضيق بالسّر ذرعا إن خُصصت به حتى يرى دائعًا كالنفخ فى البوق

وقال فى ضده :

ومستخبر عن سر ريّا رددته بعمياء من ريّا بغـــير يقين

(١) ديوانه ٢٧٧ (طبعة الحلبى) .
(٢) ديوانه ٨ .
(٣) ديوان الحماسة . ١٨٥ ، والبيتان لسحيم العقسى .

رفع المسهم

وقال انتصِحْنى إننى لك ناصح وما أنا إن خُبِّرته بأمين

وقال قيس بن الخطيم[١] :

إذا جاوز الإثنين سِرٌّ فإنّه بِبَثٍّ[٢] وتكثير الحديث قمينُ[٣]
يكونُ له عندِى إذا ما ضمنتُه مكان[٤] بسوداء الفؤادمَكِين

وقال العباس بن الأحنف[٥] :

تَعتّبْتَ[٦] تطلب ما أستحقُّ به الهجرَ منك ولا تقدِرُ
وماذا يضرّك من شُهرتى إذا كان سرُّك لا يُشْهَرُ
أمِنى تخاف انتشار الحديث وحظّىَ من صونه أوفرُ
ولو لم أصنه لبُقْيَا عليك[٧] نظرتُ لنفسى كما تنظرُ

قوله : « بيد» بمعنى غير . عكم: ربط .أحفظته :أغضبته . يهتك : يخرق

* * *

فَإن غبَرَ عَلَى ذلك الزّمان ، إلاّ يوم أو يومان ، حَتى بَدا إلى أَمير تِلْكَ الْمَدَرَة ، ووَاليهـا ذى المَقْدُره ، أن يَقْصِدَ باب قَيْلِه ، مُجدّدًا عَرْضَ خَيْلِه ، وَمُسْتَطْرِدًا عَارِضَ نَيْلِه ، وَارْتادَ أنْ تَصْحبَهُ تحْفَةٌ تُلاَئِمُ هَوَاه ، لِيُقَدِّمَها بَينَ يَدَىْ نَجْواه ،

(١) ديوانه ص ١٠٥
(٢) الديوان : « بنشر »
(٣) بعده فى الديوان :

وإن ضيّع الإخوانُ سرّاً فإننى كتوم لأسرارِ العشِير أمينُ

(٤) الديوان : « مقر » .
(٥) ديوانه ١٤٦ .
(٦) الديوان : «تعتبت » .
(٧) الديوان : « ولو يكن فى بقيا » .

رفع المسهم

وَجَعَلَ يَبذلُ الجعائل لروّاده ، وَيُسَنِّى لِمَنْ يُظفِرُه بمراده ، فأسفَّ ذلكَ الجارُ الختَّارُ إلى بذولِه ، وَعَصَى فى ادّراع العَارِ عَذْلَ عذُولِه ، فأتَى الْوَالِيَ ناشِرًا أُذُنَيْهِ ، وَأَبَثَّهُ ما كُنت أَسْرَرْتُهُ إليه ، فما رَاعَنِى إلَّا انْسِيابُ صاغِيَتِهِ إلَىَّ ، وَانْثِيالُ حَفَدَتِهِ عَلَىَّ ، يسومُنِى إيثارَه بالدُّرة اليتيمة ، على أن أتحكَّمَ عَليه فى القِيمة ، فغَشِيَنى من الهَمِّ ، مَاغَشِىَ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَه من اليَمِّ .

* * *

غبَر : مضى . المدَرة : البلدة . قَيله : ملكه الأعظم .

مجدّدا عرْض خيله ، أى ليعرض عليه ماعنده من الأجناد . والنَّيل ، أى العطاء . ارتاد : طلب . تحفة : هدية . تلاءم ، توافق . هواه : إرادته . نجواه . حديثه مع الملك .

والجُعْل : حقّ من دَلَّك على حاجة ، والجعالة بمعناه ، والجعائل جمعها . يُسنِّى : ييسّر وأصل الرّوّاد طلاب المرعى ، واحدهم رائد ، وأصل الوسائل ، أسباب الود .

أسفّ : انحط ودنا ، وأسفّ الطائر : تدلّى نحو الأرض لشىء يأخذه ، وأسفّ الرجل : طلب مذاق الأمور .

والجار الختّار : الخدّاع بذوله : عطاؤه . ادّراعه : لبسه الدرع . ناشرا أذنيه ، أى طامعا ، وهو مثَل . أبثّه : قال له سرًّا .

قوله : «راعنى» أى أفزعنى .

انسياب : دخول . صاغيته : حاشيته . ومن يميل إليه .

انثيال : انصباب . حَفدته : أتباعه

يسومنى : يعرض علىّ ، إيثاره : تفضيله على نفسى .

الدرّة اليتيمة : الجوهرة النفيسة، وبهذا سمّى الثعالبى كتابه الدرة اليتيمة ، أى الدّرّة المنفردة التى لا مثل لها . واليتيمة درّة مشهورة فى البيت الحرام أكبر من بيضة الحمامة ، استخرجها من البحر كلب جاء ليَلغ ، فتعلّقت محارتها بفمه ، فغصها فى البرّ ، فهى من عجائب الدّنيا .

ومن عجائبها الحافر ، وهو حجر ياقوت ، شبّه حافر الفرس ألصقه أمير المؤمنين بمصحف عثمان .

والغريبة الثالثة : فرس ذهب لم يصنعه صانع ، إنما وجد فى معدن الذهب وهو عند ملك الحبشة بغانة .

والذى غشى فرعون وجنوده من اليمّ ، هو الغرق . واليمّ : البحر الذى ذهبت نفوسهم فيه .

[تكملة قصة موسى]

ولا بد أن نلمّ بنبذة من خبره ، نكمل بها القصّة حسبما شرطنا ؛ وذلك أنّ موسى عليه الصلاة والسلام ، لمّا خرج فارًا من فرعون حسبما قدمناه فى الخامسة، توجّه إلى مدين ، فبلغها كالاً جائعاً فقيراً ، فوجد الناس يسقُون كما نص الله تعالى: ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمُ امرأتين تَذُودان﴾[1] ، أى يحبسان غنمهما، فأخبرتاه بأنهما لا يسقيان حتى يُصدر الرعاء ، وأن لهما أبًا شيخاً كبيراً ، فرحمهما واقتلع الصخرة عن البئر ـ وكان لا يرفعها إلا نفرٌ ـ فملأ وسقى لهما ، ثم تولّى إلى ظلّ شجرة مثمرة فقال : ﴿رَبِّ إنى لمَا أنزلتَ إلىّ مِنْ خَيْرٍ فقيرٌ﴾[2] . قال ابن عباس رضى الله عنهما : قال هذا موسى ، ولو شاء إنسان أن ينظر إلى خُضْرة أمعائه من شدة الجوع لفعل ـ أراد خضرة البقل الذى أكل فى طريقه ـ فرجعت الجاريتان بسرعة إلى أبيهما ، فأنكر مجيئهما قبل الوقت الذى جرت العادة بمجيئهما

(١) سورة القصص ٢٣
(٢) سورة القصص ٢٤

رفع المسهم

فيه ، فأخبرتاه خبر موسى ، فأرسل إلى إحداهما فأتته وهى تستحيى منه ، فقالت: ﴿إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾ [١] . فمشى معها، وهى بين يديه فضرب الريح ثوبها ، فنظر إلى عجيزتها فقال لها: امشى خلفى ، ودلينى على الطريق، فلما أتى الشيخ سأله عن شأنه ، فقص عليه قصته فقال: ﴿لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾ [٢] . فقالت التى دعته: ﴿يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين﴾ [٣] فقال لها الشيخ: أما القوة فقد خبرتيه بقلع الصخرة، فما يدريك أمانته ؟ قالت له : إنى مشيت أمامه فلم يحب أن يخونني وردنى خلفه . فقال له: ﴿إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين.. ﴾ [٤] إلى آخر القصة .

فلما قضى أجله ، وسار بأهله ، وكان فى شتاء ، رفعت له نار فيما رأى فكانت من نور الله تعالى، فقال لأهله: ﴿امكثوا إنى آنست نارا...﴾ [٥] الآية، ومعنى تصطلون، أى من البرد فكان عند إتيانه لها ما أخبر الله تعالى من أنه ﴿نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين﴾ [٦] . ثم قال له : ﴿وما تلك بيمينك يا موسى * قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى﴾ أى أضرب بها ورق الشجر للغنم ﴿ولى فيها مآرب [٧] أخرى﴾؛ من حمل الزاد عليها والسقاء وغير ذلك ، فقال له ﴿ألقها يا موسى * فألقاها فإذا هى حية [٨] تسعى﴾ . ﴿فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا أو لم يعقب﴾ [٩]

---

(١) سورة القصص ٢٥
(٢) سورة القصص ٢٥
(٣) سورة القصص ٢٦
(٤) سورة القصص ٢٧
(٥) سورة القصص ٢٩
(٦) سورة النمل ٨
(٧) سورة طه ١٧ ، ١٨ .
(٨) سورة طه ٢٠
(٩) سورة القصص ٣١ .

رفع المسهم

أى لم ينظر فنودى : ﴿ لا تخف إنك من الآمنين .. ﴾[1] الآيات .

فسأل الله تعالى أن يرسل معه أخاه هارون ردأ ، أى عوناً لكونه كان أفصح منه لسانا للجمرة التى كانت أحرقت لسانَه فى صغره ، فثقل لسانه فقال تعالى : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بأخِيك ﴾[2] .

فأقبل موسى إلى أهله فصار بهم إلى مصر ، فدخلها ليلا ، فنزل ضيفاً بأمه وأخيه ، وهم لا يعرفونه ، وهارون غائب ، فنزل بجانب الدار ، وجاء هارون فسأل عنه أمّه فأخبرته أنه ضيف ، فدعاه وأكل معه ، ثم سأله : مَن هو ؟ فقال : أنا موسى ، فقام كلٌّ واحد منهما لصاحبه واعتنقه .

فقال له موسى : ياهارون ، إن الله قد أرسلنى وإياك إلى فرعون ، فانطلقْ معى ، فقال : سمعاً وطاعة ، فصاحت أمهما ، وقالت : نشدتكما الله تعالى ألا تذهبا إليه فيقتلكما ! فسكتناها ثم انطلقا إليه ليلا فى قول السدّىّ وضربا الباب ، فكلمهما البواب ، فقالا له : ﴿ إنا رسول رب العالمين[3] ﴾ ، ففزع البواب ، فأتى فرعون فأخبره أن مجنونين بالباب يزعمان كذا ، فقال : أدخلهما .

وأما ابن إسحاق فحدث أنهما وقفا على باب فرعون ، يلتمسان الإذن ، يغدوان ويروحان سنتين ، وفرعون لا يعرف بهما حتى دخل مُلَهٍّ له ، فقال له : أيها الملك ، إن على الباب رجلا يزعم أنّ له إلها غيرك ، فقال : أدخلوه ، فدخلا وبيد موسى عصاه ، فلما وقفا عرفه فرعون ، فقالا : إنا رسول رب العالمين ، فجاوبه بقوله ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً .. ﴾[3] الآيات ، ثم ذكّره أياديَه قِبَله .

فقال له موسى : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا علىّ أنْ عَبدتَ بنى إسرائيل ﴾[4] ، أى

---

(١) سورة القصص ٣١
(٢) سورة القصص ٣٥ .
(٣) سورة الشعراء ١٨
(٤) سورة الشعراء ١٨ ـ ٢٢

اتخذتهم عبيدا ، تقتل من شئت وتسترق من شئت . فقال له ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ[1]﴾ فأراه الآية الكبرى فى العصا ، أن ألقاها فإذا هى ثعبان مبين ، ملأت ما بين السماطين فاتحةً فاها ، قد صار مِحْجَنها على ظهرها ، فارفضّ الناس ، ومال فرعون عن سريره ، فناشد موسى ربّه ، فأدخل يده فى جيبه ، فأخرجها بيضاء كالثلج ، ثم ردّها ، فعادت هيئتها ، ثم وضع يده على الحيّة فصارت عصاً كما كانت أول مرة ، وأخذ فرعون بطنه - وكان فيما يزعم يمكث الخمس والستّ ولا يلتمس الخلاء - وكان ذلك مما زيّن له أنه ليس له شبيه فى الناس - فقال لملئه : إن هذا لسحر عظيم ، فجمع السحرة ، ووعدهم ليوم العيد ، وأن يحشر الناس ضحى ، يحضرون أمرهم مع موسى ، فاجتمعوا لذلك اليوم ، فصف خمسة عشر ألف ساحر ، كلّ ساحر له نوع من السحر ، فخرج موسى يتوكأ على عصاه ، حتى أتى الجمع ، وفرعون فى مجلسه مشرف على وجوه أهل مملكته فقال لهم موسى : ﴿وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ .. ﴾[2] الآية .

فقال بعضهم لبعض : أهكذا يقول ساحرا فخيروه فى أن يلقى أو يلقُوا ؟ فقال : بل ألقوا ، فخيّلوا بحبالهم وعصيّهم أشياء حيّروا بها العقول ، من حيّات قد ملأت الوادى ، يركبُ بعضُها بعضاً ، ونيران تحرق فى ظاهرها ما مرّت به وظُلم متكاثفة ، كما وصف الله تعالى ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وجاءوا بسحر عظيم﴾[3] ، ففزع موسى وأخوه لهول ما رأيا وذلك قوله تعالى : ﴿فَأَوْجَسَ فى نفسه خِيفة مُوسَى * قُلْنَا لا تَخَفْ إنك أنت الأعلى .. ﴾[4] الآيات . فألقى موسى عصاه ، فجعلت تَلقف كلّ ما خيلوا به ، وكانوا جلبوا آلاتهم فى السفن فى النيل ، فابتلعت السفن ، وأقبلتْ فاتحةً فاها ،

---

(١) سورة الشعراء ٢٣ .
(٢) سورة طه ٦١ .
(٣) سورة الأعراف ١١٦ .
(٤) سورة طه ٦٨ .

رفع المسهم

على قُبّة فرعون بمن فيها ، ففروا وتعلّقوا بموسى يستنقذون به. فأخذها موسى، فإذا هى عصا فى يده كما كانت، فوقع السّحرة سُجّدًا قائلين: ﴿آمنا بربّ هَارُونَ وموسى﴾[1] لما تبيّنوا أن أمر العصا إلهى ،ليس من تخاييلهم ، فقال لهم فرعون: ﴿آمَنتُمْ لهُ قبلَ أنْ آذَنَ لكم ... ﴾[1] الآيات إلى قوله تعالى : ﴿ واللهُ خَيْرٌ وأبقى ﴾ ، أى لاسلطان لك إلا فى الدنيا ولا سلطان لك بعدها ، ﴿ قالُوا رَبَّنا أفْرِغْ علينا صَبْراً وَتَوَفَّنا مسلمين ﴾[2]، فقتلهم فكانوا أول النهار سحرة وآخره شهداء .

ثم أمر الله تعالى نبيّه موسى أن يخرج ببنى إسرائيل فقال : ﴿ أسْرِ بعبَادِى لَيْلا ﴾[3] .

فأمرهم أن يستعيروا الحلىّ من القبط، فخرجوا ليلا ، وألقى الله على القِبْط النوم ، حتى طلعت الشمس ، وكان موسى على ساقة بنى إسرائيل وهارون على المقدّمة ،وعدد بنى إسرائيل ستّمائة ألف وعشرون ألف مقاتل ، لا يَعدّون ابنَ العشرة لصغره ، ولا ابن الستين لكِبَره . وتبعهم فرعون ، وعلى مقدّمته هامان وهم فى ألف ألف وستمائة ألف ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فأرسَلَ فِرْعَونُ فى المَدَائِنَ حاشِرِينَ ﴾[4]. فَلَمّا تراءى الجمعان، قالُوا : يامُوسَى أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أن تأتينا بالذبح ومن بعدما جئتنا اليوم يدركنا فرعون فيقتلنا ! فقال : ﴿ كلاّ إنّ مَعِى ربى سيهدين ﴾[5].

فأتى موسى البحر، وكنّاه أبا خالد ، فضربه بعصاه، فانفلق فكان ﴿ كلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم ﴾[6]، والطود : الجبل،فصار فى البحر اثنا عشر طريقا فدخل كلّ سِبْط طريقَهُ، وكلّ سبط يقول:قتل أصحابنا ففتح الله بينهم قناطر،فنظر آخرُهم إلى

(١) سورة طه ٧٠ ـ ٧٣
(٢) سورة الأعراف ١٢٦ .
(٣) سورة الدخان ٤٣
(٤) سورة الشعراء ٣٥
(٥) سورة الشعراء ٦٢
(٦) سورة الشعراء ٦٣

والبحر، فلم نزل نجاوز فرعون حتى جاء، فأبصر خيل الله تقتحم، فاقتحم جبريل على فرس أنثى، فاقتحمت الخيل في أثره، فلما توسط البحر، أطبق البحر بإذن الله عليهم، فلما أدرك فرعون الغرق، قال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ (١)، وجعل جبريل يدس في فيه الطين مخافة أن تدركه الرحمة، فيقول الله: الآن وقد عصيت قبل؟! وكنت من المفسدين. وأخرج الله بدن فرعون سويًّا، حتى عرفه بنو إسرائيل، فذلك قوله: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ (٢) غشي فرعون وجنوده من اليم.

وَلَم أَزَلْ أُدَافِعُ عَنْهَا وَلَا يُغْنِي الدِّفَاعُ، وَأَسْتَشْفِعُ وَلَا يُجْدِي الاسْتِشْفَاعُ، وَكُلَّمَا رَأَى مِنِّي ازْدِيَادَ الاغْتِيَاظِ، وَارْتِيَادَ المَنَاصِ، تَجَرَّمَ وَتَضَرَّمَ، وَحَرَقَ عَلَيَّ الأَرَمَ، وَنَفْسِي مَعَ ذَلِكَ لَا تَسْمَحُ بِمُفَارَقَةِ بَدَنِهَا، وَلَا بِأَنْ تَنْفَصِمَ عَنْ قَلْبِي وَمِنْ صَاحِبَيْهَا، حَتَّى آلَ الوَعِيدُ إِيقَاعًا، وَالتَّقْرِيعُ قِرَاعًا، فَقَادَنِي الإِشْفَاقُ مَعَ الحَيْنِ، إِلَى أَنْ قَضَّتْ سَوَادَ العَيْنِ بِصَفْرَةِ العَيْنِ، وَلَمْ تَحُطَّ الوَاشِي بِغَيْرِ الإِثْمِ وَالشَّيْنِ.

---

(١) سورة يونس، ٩٠.

(٢) ٢٢١ المقالة (٢)

٩٦ المقالة (٤)

٦٢ المقالة (٦)

٦٧ - ٧٠ المقالة (١)

٢٢ المقالة (٣)

٦٢ المقالة (٥)

(٢) وتجرم: أتى الجرم. وتضرم: اشتد غضبه. والأرم: الأسنان. وحرق

عضّ بعضها على بعض، حتى صوّت، وذلك لشدة الغيظ، وهو مثل. آل: رجع الوعيد: التهديد.

الحين: الموت. قضّته: عاوضته وبادلته. سواد العين: جاريته التي هي نور عينه.

صفرة العين: لون الدنانير. لم يحظ: لم يأخذ حظوة، وهي النصيب.

والواشي: النمام، سمّي واشيا لاستخراجه الأخبار وتوصّله إلى معرفتها، من قولهم: فلان يوشي الخبر، إذا استخرجه؛ وقيل: سمّي واشيا لتحسينه ما ينقل من الأخبار، وثوب موشّى: محسّن بعافيه من النقوش. وقيل: هو من الشيه، وهي العلامة، كأنه جعل لنفسه علامة من الوصف القبيح. والشين: العيب.

وعلى وصف الجارية المذكورة بالأدب والجمال تريد أن نسوق فصلا في الجواري ذوات الأدب ممّن أهديت إلى ملك كمال هذه، أولها معه سبب:

حديث الأصمعي (١). قال: بعث لي هارون الرشيد وهو بالرقّة، فحملت إليه، فأنزلني الفضل بن الربيع ثم أدخلني عليه وقت المغرب، فاستدناني، وقال لي: ياعبد الملك، وجّهتُ فيك بسبب جاريتين، أهديتا إليّ، لهما أدب، أحببت أن تبرزهما عندهما ثم تشير علي بالصواب فيهما.

(١) الخبر في تاريخ بغداد ٦: ٤٠٦ وفيه: عبد الملك بن قريب الأصمعي.

ثم أمر بإحضارهما فأحضرتا ، فرأيت جاريتين ما رأيت مثلهما قطّ ، فقلت لإحداهما: ما عندكِ من العلم؟ فقالت : ما أمر الله في كتابه، ثم ماينظر الناس فيه من الأخبار والأشعار . فسألتها عن حروفٍ من القرآن ، فأجابتني كأنها تقرأ القرآن من كتاب، ثم سألتها عن الأخبار والأشعار والنحو والعروض، فما قصرت في جوابي في كلّ فنٍّ أخذتْ فيه ، فقلت لها : فأنشدينا شيئاً ، فأنشدت :

يا غياثَ العِبَادِ في كلّ محْلٍ ما يريد العباد إلاّ رِضاكا
لا ومَنْ شرّف الإمام وأعلَى ما أطاع الإلهَ عبدٌ عصاكا

فقلت : يا أمير المؤمنين ، ما رأيت امرأة في مَسْك[1] رجل مثلها .

وخبَرْت الأخرى، فوجدتها دونها ، فأمر أن تُصْنَع[2] تلك الجارية لتحمَل إليه في تلك الليلة ثم قال : ياعبد الملك ، أنا ضَجِر ، وأحبّ أن تُسمعني حديثا مما شهدت من أعاجيب الزمان أتفرّج به ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، كان لي صاحب في بَدْو بني فلان ، وكنت أغشاه ، وأتحدث إليه ، وقد أتت عليه ست وتسعون سنة ، وهو أصحُّ النفوس ذهناً وأقواهم بَدَنا ، فغبت عنه ، ثم أتيته فوجدته ناحيَ البدن ، كاسفَ البال، فسألته: ماسبب تغيّره؟ فقال: فَصَدْتُ بعض القرابة ، فألفيت عندهم جارية ؛ قد طَلَتْ بالورس بدَنَها ، وفي عنقها طبل تنشد عليه :

محاسنها سهامٌ للمَنايا مُرَيْشةٌ بأنواع الخطوبِ
ترى ريب المنون بهنّ سهما يُصيب بنَصْلِه مُهَجَ القلوبِ

فقلت :

فني شَفَتي في موضع الطَّبْل ترتمي كما قد أبحتِ الطبل في جيدك الحسَنْ

(١) المسك ، بالفتح : الجلد .
(٢) صنعت الجارية ، بالبناء للمجهول : أحسن إليها حتى سمنت .

هبينىَ عوداً يابسا تحت شِقّةٍ يمتّع فيما بين نحرِك والذّقَنْ

فلمّا سمعت الشعر ، رمت بالطبل فى وجهى ، ودخلت الخيمه ،فوقفت حتى حمِيَت الشمس على مفرق رأسى ، فلم تخرج ، فانصرفت قريح القلب ، فهذا التغيُّر من عشقى لها .

فضحك الرشيد حتى استلقى، ثم قال:ويلك ياعبدالملك ! ابنُ ست وتسعين يعشق! فقلت له:قد كان هذا ، فقال : ياعباس ، أعْطِ عبد الملك مائة ألف درهم ، ورُدّه إلى مدينة السلام .

فانصرفت ، ثم أتانى الخادم،فقال:أنارسولٌ بنفقك-يعنى الجارية-تقول لك: إنّ أمير المؤمنين أمر لها بمالٍ وهذا نصيبك ، فدفع لى ألف دينار ، فلم تزل تواصلنى بالبرّ الواصل ، حتى كانت فتنة محمد ، وانقطع خبرُها عنّى ، وأمر لى الفضل بعشرة آلاف درهم .

وحدثّ على بن الجهم ، قال: لما أفضت[1] الخلافة إلى المتوكل ، أهدى إليه الناس على أقدارهم ، فأهدى إليه ابن طاهر جاريةً أديبة ، تسمّى محْبوبة ، تقول الشعر ، وتلحّنه ، وتحسِنُ مِنْ كلّ علم أحسنَه ، فحلّت من قلب المتوكل محلاً جليلا ، فدخلتُ يوما للمنادمة ، فخرج وهو يضحك . فقال:ياعلىّ ، دخلت فرأيت محبوبة قد كتبت على خدّها بالمسك « جعفر » ، فما رأيت أحسن منه ، فقل فيه شيئاً ، فسبقتنى محبوبة ، فقالت وأخذت عودها ، وغنّتْ :

وكاتبةٍ بالمسكِ فى الخد جعفراً بنفسى مخطّ المسك مِنْ حَيثُ أثّرا

(١) الخبر فى الأغانى ١٩ : ١٣٣ ، ١٣٤ (ساسى) والمحاسن والأضداد ٢٥١ ، ٢٥٢ .

لئن أوْفَقَتْ سطراً من لِسانك خَدَّها ... لقد أودعَتْ قلبي ابن الموعد أسطُرا
فيا مَنْ مَنَاها في السَّرِيرة جعفرٌ ... سَقَى الله من سقيا ثَنَاياك جعفرا
ويا مَنْ لمملوك يظل يلمُّ كه ... مطيعاً له فيما أسرّ وأجهرا
ويا مَنْ لعيني مَنْ رأى مثل جعفرٍ ... سَقَى الله صوبُ المُنْكَرَاتِ لجعفرا

قال : فتقلّبت خواطري ، حتى كأنّي ما أحسن حرفاً من الشِّعر ، فقلت للمتوكل : أقِلْني ، فقد والله غرّب ذهني عني ، فما يزال معتريني به

ثم دخلت عليه بعد ذلك للمنادمة ، فقال : يا علي ، أعلمت أني غاضبت محبوبة ، وأمرتها بلزوم مَقْصورتها ، وسمعت أهل القصر من كلامها ؟ فقلت : يا سيّدي ، إن غاضبتها اليوم ، فصالحها غداً . فدخلتُ عليه من الغد ، فقال : ويحك يا علي ! رأيت البارحة في النوم كأني صالحت محبوبة ، فقالت جاريته : شاطر ، ياسيدي ، لقد سمعت الآن في مقصورتها هَيْنَمة ، فقال : قم حتى ننظر ما هي ، فقامَ حافياً ، حتى قربنا من مقصورتها ، فإذا هي تغنّي ، وتقول :

أدور في القصر لا أرى أحداً ... أشكو إليه ولا يكلّمني (١)
كأنني قد أتيت معصيةً ... ليست لها توبة تخلّصني
فمَنْ شفيعي لها إلى مَلِكٍ ... قد زادني في البكا وصالحني
حتى إذا ما الصباح لاح علا ... ني فأبعدته فما رحمني (٢)

فصفق المتوكل طرباً ، فلما سمعته خرجت تقبّل رجليه ، وتمرّغ خدّها في التراب حتى أخذ بيدها ورضيها عنها .

---

(١) المحاسن والأضداد : « لا أرى أحداً » ٢٦٢ ، ٢٦٣ : ٢٠٢ .
(٢) المحاسن والأضداد : « فقارفني » .

حدث أبو علي بن الأسكري المعبري عن أبي بكر بن القرية قال: ولما نهينا موسى عليه السلام قال: كنت[1] بين أحلاس تميم بنهاوند فتق الغناء فدعا بجلاسه، وعُدّت السكارة، فأمرها فغنت:

وبدا لها من بعدما ألممت بالـ ـبرقين تألق موطناً لاحت له

يبدو كجاشية الرداء ودونه صعب الذرى متمنع أركانه

وبدا لينظر كيف لاح فلم يطق نظراً إليه وصدّه أشجانه[2]

فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه والماء ما سمحت به أجفانه[3]

قال: فأحسنت ما شاءت، وطرب تميم طرباً شديداً، ثم غنت:

أستودع الله في بغداد لي قمراً بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه

فأرطن تميم في الطرب جداً، ثم قال لها: تمنّي ما شئت، فلك ملكي، فقالت: أتمنى عافية الأمير وسعادته، فقال: لا بدّ والله، فقالت: على الوفاء أتمنى أيها الأمير، فقال: نعم فقالت: أتمنى أن أغنّي هذه النوبة ببغداد. فتغيّر وجه تميم، وتكدّر المجلس، وقمنا. فلحقني بعض خدمه، فردّني. فلما وقفت بين يديه، قال لي: ويحك! أرأيت ما امتحنّا به، ولابد من الوفاء: وما أثق في هذا

(١) الخبر في محاسن الأضداد ٢٥١، ٢٥٢.

(٢) المحاسن والأضداد: «هيجانه».

(٣) المحاسن والأضداد: «سحت به أجفانه».

بغيرك ، فتأهبْ لتحملَها إلى بغداد ، فإذا غنّت هناك ، فاصرفها ، فقلت : سمعاً وطاعة ، فأصحبها جاريةً سوداء تخدمها وتعادِ لها ، وأمر لى بناقة وبجمل عليه هودج ، فأدخِلت فيه ، وسرنا مع القافلة إلى مكة ، فقضينا حجّنا . ثم لما وردنا القادسية ، أتتنى السّوداء ،فقالت لى : تقول لك سيدتى :أين نحن؟ فقلت : نحن نزول بالقادسيّة ، فأخبرتها ، فسمعتُ صوتها قد ارتفع بالغناء :

لمّا نزلنا القادسيّـــة حيثُ مجتمع الرُّفاقِ [1]
وشممت من أرض الحِجـا ز نَسيمَ أنفـاسِ العِرَاقِ
أيقنت لى ولمـــن أحـــبّ بجمع شَمْـلٍ وَاتّفاقِ
وضحكت مِنْ فَرَحِ اللّقـا ء كما بكيتُ من الفراقِ

فصاح الناس من أقطار القافلة : أعيدى أعيدى ، بالله ! فأعدتُ لها كلمة .

فلما نزلنا الياسريّة[1] على خمسة أميال من بغداد فى بساتين متّصلة يَبيتُ الناس بها ، ثم يبكّرون ببغداد . فلمّا قرب الصباح إذا بالسوداء قد أتتنى مذعورة ، فقالت : إن سيدتى ليست بحاضرة ، ووالله لا أدرى أين هى ؟ فطلبتها فلم أجدها ، ولا وجدت لها ببغداد خبَرا ، فقضيت حوائجى ببغداد ، وانصرفت إلى تميم ، فأخبرته خبرَها ، فلم يزل واجماً عليها .

وأخبار الغيان كثيرة فلنقتصر على هذا القدر .

* * *

[نبذ من أقوال الحكماء فى الوشاة وبعض حكاياتهم]

ومما جاء فى الواشى ، ماحُكِىَ أن رجلا وَشَى برجل إلى بلال بن

(١) الياسرية : قرية كبيرة على ضفة نهر عيسى ، بينها وبين بغداذ ميلان ، وفى ا ، ب « الناصرة » ، وهو خطأ .

أبي بردة، فقال للساعي : انصرف ، حتى أكشف عما ذكرت ، فلما كشف عن الساعي ، إذا هو لغير رِشْدة ، قال : نبأنا أبو عمرو ـ وما كَذَبَ ولا كُذِّبت ـ حدّثني أبي عن جدّي ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: « الساعي لغير رشدة » .

وذُكر السعاة عند المأمون ، فقال: لو لم يكن من غيّهم إلا أنهم أصدق ما يكونون أبغض ما يكونون عند الله .

وقال ذو الرياستين : قبول النميمة شرّ من النميمة، لأن النميمة دلالة ، والقبول إجازةً ، وليس مَنْ دَلّ على شيء كمن قبله وأجازه ، وقد جعل الله السامع شريك القائل ، فقال : ﴿سماعون للكذب﴾ .

وقال الشاعر :

لعمرُك ماسبّ الأميرَ عدوُّه ولكنّما سبّ الأميرَ المبلِّغُ

ووشَى واشٍ بعبد الله بن همام السّلولي إلى زياد ، فقال له: إنه هجاك، فقال: أجمع بينكما، قال : نعم؛ فبعث إلى ابن همام ، وأدخل الرجل بيتاً ، فقال زياد : يابنَ همام ، بلغني أنك هجوتني، فقال: كلاّ ، أصلحك الله ما فعلت، ولا أنت لذلك بأهل ، فأخرج الرجل، وقال : إن هذا أخبرني ، فأطرق ابن همام هُنيهة ، ثم أقبل على الرجل فقال :

وأنت امرؤٌ إما ائتمنتك خالياً فخنتَ ، وإمّا قلت قولاً بلا عِلْمِ
فأنت من الأمر الذي كان بيننا بمنزلةٍ بين الخيانة والإثم

فأعجب زياد بجوابه ، وأقصى الواشي ولم يقبل منه .

قال الشاعر :

لا تقبلنّ نميمةً من قائل وتحفظنّ مِنَ الذي أنبا كمَا

على بن أبى طالب : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن موسى قال : يارب إنى حيث ذهبت لا أنصر ولا أخذل ، فأوحى الله إليه : إن بنى عمك غمازا ، قال : يارب دلنى عليه ، قال : يا موسى ، أبغض الغماز ، فكيف أعمز !

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أبغضكم إلى المشاءون بالنميمة ، المفرقون بين الأحبة ، والملتمسون بين البراءة العيب » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى » ، وذكر رجلا يأكل لحوم الناس ويمشى بالنميمة .

* * *

فما هذبت الله تعالى من ذلك المهذب ، ألا أحاطر عنا من بعد ، والزجاج مخطوم بهذيب الطباع الذميمة ، وبه يضرب المثل فى النميمة ، فقد جرى على سبيل على ، ولندلكم الشعب لم تعتد إليه يميني !

فلا تعذلونى بعد ما قد شرحته ... على أن جرم منكم فى اقتطاف القطائف

فقد بان عذرى فى صنيعى وإننى ... سأرتق فتقى من تلك يدى وطالما

على أنه مازودتكم من فكاهة ... ألذ من الحلوى لدى كل عارف

* * *

[من أقوالهم فى النميمة]

قوله « والزجاج مخصوص بهذه الطباع الذميمة » قال السرى[1] فيما يتعلق بالزجاج من التهم :

رأيتك تبدى[2] للصديق نوافذا ... عيوبك من أمثالها[3] الدهر آمن

وتكشف أسرار الأخلاء مازحا ... ويارب مزح[4] راح وهو ضغائن

سأحفظ مابينى وبينك صائنا ... عهودك إن العهد للمرء صائن[5]

وألقاك بالبشر الجميل مداهنا ... فلى منك خل ماعلمت مداهن

أنم بما استودعته من زجاجة ... يرى الشىء فيها ظاهرا وهو باطن

وقال ابن المعتز :

لحى الله امرأ أعطاك سرا فضيعه ... وقص الله فاه فإنك كاتمه

أنمت من الزجاج بما أودعتا ... وأنت من الزجاج بما أودعاه

وقال السرى :

أستودع الله خلا منك أوسعه ... ودا ويوسعنى غشا وتمويها[6]

كل امرئ فى أحشائه لهب ... لما يطيق له صبرا حواشيها

قد كان صدرك للأسرار جندلة ... صنينة بالذى تخفى نواحيها

فنادت[7] من بث ما استودعت جوهرة ... رقيقة تستشف العين مافيها

(١) هو السرى الرفاء ، ديوانه ٢٦٧ ، وفيه : « وقال يعاتب صديقا له أسر إليه حديثا فأذاعه » .

(٢) الديوان : « تبدى » .

(٣) الديوان : « من أوصابها » .

(٤) الديوان : « عادة » .

(٥) الديوان : « إن الحر للعهد صائن » .

(٦) ديوانه ٢٢٧ .

(٧) ديوانه : « طبا » .

(٨) الديوان : « فصار » .

وله أيضاً :

ثنانى عنك ما استشعرت سرًّا خلالٌ فيك لستُ لها براضِ[1]
وإنّك كلّما استُودعتَ سرًّا أنمّ من النّسيم عَلَى الرياضِ

قوله : «وبه جرى[2] المثل فى النميمة» ، يقال : أنمّ من الزجاجة على مافيها ، لأنه جوهر لايكتم مافيه .

[نتف من أقوال البلغاء فى وصف الذهب والزجاج]

قال الأصبهانىّ : مازال البلغاء يتعاطون وصف هذا الجوهر[3] ، فعبّروا عن مدحه وذمّه ، فأماذمه فإن إبراهيم بن سيار النظام أخرجه فى كلمتين بأوجز لفظ ، وأتمّ معنى ، فقال : سريعُ الكسر ، بطيء الجَبْر .

وقال فى الذهب : الذهب لئيم ، لأن الشكل يصير إلى شكله ، وهو عند اللئام أكثر منه عند الكرام .

وأما سهل بن هارون ، فكان يوماً بمجلس أحد الملوك ، وشدّاد الحربىّ يعدّد خصال الذهب ، فقال : هو أبقى الجواهر على الدَّفْن ، وأصبرها على الماء ، وأقلّها نقصا فى النار ، وهو أوزن من كلّ ذِى وزن ، إذا كان فى مقدار شخصه ، ولو وضعت على ظهر الزئبق فى إناء قيراطا من ذهب ، لرسبَ حتى يضربَ قعر الإناء ، وسائر الجواهر تطفو فوقه ؛ ولو كان الجوهر ذا وزن ثقيل ، ورجح عظيم ولا تشدّ الأسنان المتقلقلة بغيره ، ولا يُوضع فى مكان الأنوف المصطلمة سواه ، وميلُه أجود الأميال ، والهند يُمِرّه فى العين بلا كحل لصلاح طبعه ، وعليه مدار التبايع مذ كان التبايع ، وهو ثمن لكل شىء ، وهو الزرياب[4] والصّفائح التى تكون فى سقف الملوك ، والطبخ فى قُدوره أغْذَى وأمرأ .

(١) ديوانه ١٥٧ .
(٢) ا : « وبه يضرب المثل »
(٣) أى الزجاج
(٤) الزياب : الذهب الخالص .

وسئل علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه عن الكبريت الأحمر ، فقال : هو الذهب ؛ فأدرك سهل بن هرون من الغيرة والحسد مادعاه إلى معارضته ، فقال يذمّ الذهب ، ويفضّل الزّجاج : الذهب مخلوق والزجاج مصنوع ، وإن فضله الذهب بالصلابة فضله الزجاج بالصفاء ، والزجاج أبقى على الدّفن ، والزجاج نور علوىّ ، والذهب متاع سيّال ، ولم تتخذ الناس آنية للشراب[1] أجمع لما يريدون من الشراب منه ، والشراب فيها أحسن منه فى كلّ معدن ، ولا يفقد معه وجه القديم ، ولا يثقل اليد ، ولا يرتفع فى السّوم .

وكان سليمان إذا شرب فى إناء كلحت فى وجهه مَرَدة الجنّ ، فعلّمه الله تعالى صنعة القوارير ، فحسم عن نفسه تلك الجراءة . ومَنْ كَرع فيه فكأنّما كرع فى إناء من ماء وهواء ونور ، وقد تقدح النار من كسر قِنّينة الزجاج إذا كان فيها ماء لأنّ طبع الزجاج والماء ، والهواء والشمس واحد ، وليس فيما يدور الفلك عليه أقبل لكلّ صِبْغ منه وأجدر ألاّ يفارقه ؛ حتى كأن ذلك الصّبْغ جوهرية فيه . ومتى سقط عليه ضياء أنفذه إلى الجانب الآخر ، وأعاره لونه ، فإن كان الجام ذا لونين ، أراك الوشىُ أحسَن من وشى صنعاء ، ومن ديباج تُستَر وإذا وقع شعاع المصباح على جوهر الزّجاج صار المصباح والقنديل مصباحاً واحداً ، وردّ الضياء كل واحد منهما على صاحبه . واعتبروا ذلك بالشّعاع الذى يسقط على المرآة على وجه الماء ، أوعلى الزجاج ، ثم انظروا كيف يتضاعف نوره ، وإن كان سقوطه على عين إنسان أعشاه وربما أعماه ، قال الله تعالى : ﴿ اللهُ نور السّوات والأرْضِ مثلُ نوره كمشكاةٍ فيها مصباحٌ المِصْبَاحُ فى زُجاجة الزجاجة كأنها كوكب درّىّ ﴾[2] ، والزيت فى الزجاجة نور على نور . قال الله تعالى : ﴿ إنّ صرحٌ ممرّد من قَوَارِير ﴾[3] .

---

(١) ط ، ب : « الشراب » .
(٢) سورة النور ٣٥ .
(٣) سورة النمل ٤٤ .

رفع المسهم

وقال تعالى: ﴿وأكواب كانت قوارير قوارير من فضة﴾ (١) فاشتق
[illegible]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحادي بله: «يا أنيشة ارفق بالقوارير»،
فاشتق للنساء اسمها. وقد وزه الطيب طعاما من كنوز الجنة، وعلى لا تصدا،
وإن استحت فالماء وعذوبتها بلاء، ومتى عملت العادة تعذر
والسم الذهب يخير منه، وإن سقط عليك أقلت به، ومن الوشم سرعة إلى
بيوت اللئام، وإبطاؤه عن بيوت الكرام فوعر من مصائد الشيطان، ولذلك
قالوا: أهلك الرجال الأحمران، وهو قتالي نحال من أحبابه

فلم يبق في المجلس أحداً إلا تحير من ذلك وتعجب من بلاغته وحسن بديهته، واحتجاجه في معارضته من غير روية، وأيقن أنه ليس دون اللسان حاجز، وأنه بحر ذاخر يذهب في كل فن. فإذا صح العقل صح تقويم اللسان.

قوله «القطائف»، هي ما يجنى من الثمار، يريد بها الحلوى التي حرمهم أكلها.
والرتق: السد والإغلاق وهو ضد الفتق، ويقال: هو الفاتق الراتق، أي هو مالك الأمر، فهو يفتح ويغلق ويضيق ويوسع. ورتق: ضم وجمع، وامرأة رتقاء: لا يصل إليها الرجال. وقوله تعالى: ﴿أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما﴾ (٢) أي كانتا سماء واحدة، وأرضاً واحدة، فجعلت كل واحدة منهما سبع. وقيل: كانتا معاً ففتقناهما بالهواء الذي بينهما. وقيل: فتق السماء بالمطر والأرض بالنبات، فقال: ساعد ماخر فقه.

قوله: «التليد»، المال القديم. والطريف: المكتسب. فكأنه [illegible]

(١) سورة الإنسان ..
(٢) سورة الأنبياء ..

(٧) «يا أنيشة»: ب، ل.
(٦) «يا أنجشة»: ب.

قال الحارث بن همام: فقبلنا اعتذاره، وقبلنا بذله، وقلنا له: قد أمكنت وقدرت فنعمت النعيمة خير من البشرة، فما نشر عن حالة الحطيئة ما انتشر، ثم سألناه عمل أحد في إجارة اللثات، فقال له اللثات بعد أن رأش له نبل السعاية، وجذم حبل الرعاية، فقال: أحد في الاستحداء والاستكانة، والاستشفاع إلى ذوي المكانة.

* * *

عِذارُه: شعر خدّه، شبه بالشوكة التي تقع على خد الفرس. وقد عذرت الفرس تعذيرًا وأعذرته بالعذار بمعنى أولجته، وأعذرت اللجام فجعلت له عذارا، وأنشد ابن رشيق في المعنى:

وأسمر اللون عسجدي * يكاد يستطرد الجماما[1]

طاق محل العذار نورًا * كالنهر لا يعرف الطماما

ولكس الزوامل إذ زالى ... وكانت الحشا مارينا أن ...

... وظن أن العلق ... يزح عنا في الغرام ...

وما دري أنه ... أنبت في قلبي (2) الغراما

وهل ترى عارضا ... حائلا قد ت ... حسامًا

قوله: قد عدما وقنت، أي قد يئسا أمرضت وأوجعت ...

حالة الحطيئة: هي أم جميل بنت حريث عمة حماوته، واسم أبيه لبيد، وكانت تمشي بالنميمة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المشركين، وقيل بين زوجها وبين النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل ذلك للماشي بالنميمة، لأن الحطب يهيج النار، والنميمة تهيج الشر. وقيل: سميت حالة الحطب لأنها كانت تطرح الشوك للنبي صلى الله عليه وسلم في طريقه، وكانت عوراء، وأبو لهب أحول ...

(1) نقله في التنبيه ... (2) ... قال ...

والقتات : النمام بالكذب والنميمة ، وقتّ يقتّ قتاً : مشى بالنميمة ، ونمّ ينمّ نمًّا : ضيع الأحاديث ولم يحفظها ، وقيل : النميمة من قولهم : جلود نمّت إذا لم تمسك الماء . والقتات أيضاً : المتسمّع على من ليس يشعر به ، وهو القتّات ، والقتام والمسّاس والهمّام والغمّاز والمهيم ، والمورّش والمِمْأس ، وقد مأس يمأس .

دخاله : خاصته العالم بداخل أمره . المفتات : المستبدّ برأيه المتسوّر على ما لا ينبغي له .

راش : جعل لها ريشاً .

السعاية : المشي بالنميمة . جَذَم : قطع . الرعاية : حفظ الصداقة . الاستخذاء : الخضوع . والاستكانة : الذلّ . ذوو المكانة : أهل الجاه .

* * *

وكنتُ حرَّجتُ عَلَى نفسِي ، ألّا يَسْتَرْجِعَهُ أُنْسِي ، أو يَرْجِعَ إلىَّ أَمْسِي ؛ فَلَمْ يكُنْ له مِنّى سوى الرَّدّ ، والإصْرارِ على الصَّدّ ، وهُوَ لا يكْتئبُ مِنَ النَّجْهِ ، وَلَا يتّئبُ مِنْ وَقَاحَةِ الْوَجْهِ ، بَلْ يُلِطُّ بالْوَسائِلِ ، وَيُلِجُّ فى المسائل ؛ فَمَا أَنْقَذَنِى مِنْ إبرامِهِ ، ولا أَبْعَدَ عَلَيْهِ نَيْلَ مرَامِهِ ؛ إلا أبياتٌ نفثَ بِها الصَّدْرُ الْمَوْتُور ، والخاطِرُ المبْتُورُ ؛ فإنَّهَا كَانَتْ مَدْحَرَةً لشَيْطَانِهِ ، وَمَسْجَنَةً له فِي أَوْطَانِهِ . وعِنْدَ انتشارِها بتّ طَلَاقَ الْحُبور ، ودَعَا بالْوَيْلِ والثّبور ، ويئسَ من نَشْرِ وَصْلِي الْمَقْبُور ؛ كما يَئِسَ الكفَّارُ مِنْ أَصحابِ الْقُبور .

* * *

حرّجت : أثمت وضيقت عليها بيمين أكيده . الإصرار : العزيمة . والصّدّ : الإعراض عنه . يكتئب : يهتمّ . النّجْه : الجفاء وتغليظ الكلام . يتّئب : يرجع . يُلِطّ : يكثر اللزوم بها . ويقال : ألط بالشيء ، إذا لزمه .

إبرامه : ثَقَّله . نفَث : نطق وتكلم . الموتور : المظلوم . المبتور : المقطوع بالهم . مَدْحرة : مدفعة ومبعدة ، ودحَرتُ الشيء دحوراً ودَحْراً : أبعدته ودحِرَ هو : بعُد . بَتّ : قطع وأمضى ، وجعله بتّاً وهو مالا رجعة له فيه .

الحُبور : السرور ، وحَبَرْته حَبْرتُهُ : سرَرته . الثبور : الهلاك ، وثبر الله العدو ثبوراً : أهلكه . يئس : قطع رجاءه . نشرَ : أحيا . المقبور : المدفون . الكُفّار : الدافنون للموتى .

* * *

فناشَدْناه أنْ يُنْشِدَنا إياها ، وَيُنْشِقَنَا رياَّها ، فقال : أجَلْ ، خُلِق الإنسان من عجل ، ثم أنشد لا يَزْويه خجل ، ولا يَثنيه وَجَلَ :

وندِيمٍ مَحَضتُه صِدْق وِدّى إذْ تَوَهّمْتُه صَدِيقاً حَمِيماَ
ثمَّ أوليتُه قطيعةَ قالٍ حين ألفيتهُ صَديقاً حميماَ
خِلْتُهُ قَبْلَ أنْ يجرَّبَ إلْفاً ذا دِمامٍ فبانَ جِلْفاً ذَمِيماَ
وَتَخيّرتُهُ كَلِيماً فَأمْسَى مِنْهُ قَلْبِي بِمَا جَناهُ كَلِيماَ

* * *

ناشدناه : سألناه وجعلناه . يُنشِقَنا ريّاها : يشممنا رائحتها . أجل ، حرف جواب بمعنى نعم .

خلق الإنسان من عجل : قال أبو علىّ : هو على القلب ، معناه : خلق العَجَلُ من الإنسان ، قال الزّجّاج : ويدلّ على ذلك قوله تعالى : ﴿وَكان الإنسانُ عَجُولاً﴾[1] ومثله : ﴿وقد بَلَغنى الكِبَر﴾[2] أى بلغت الكبر ، ومثله : ﴿فاختلَطَ بِهِ نباتُ الأرض﴾[3] .

(١) سورة الإسراء آية ١١
(٢) سورة آل عمران آية ٤٠
(٣) سورة الكهف آية ٤٥ .

رفع المسهم

أى الموثق بالنساء

وقال القطامى

* كما بطنت بالفدن السباع (٢) *

أى بطّنت بالسباع بالفدن وهو الطين بالتبن ، والفدن : القصر. وقال ابن مقبل

وابتذلت * وقع المحاجن بالمهرية الذفن *

أى ابتذلت المهرية بوقع المحاجن ، ومن جعل العجل الطين ، فلان قلب فيه ، وأراد : لم يصبروا عن الآيات لعجلتهم فى طلبها.

وقوله : يزويه ، أى يقبضه. جبل : جبان ، وقد جبل إذا استحيا. يقال : رجل وجل وجل.

محضته : أى أخلصته. أتوهمته : حسبته. والحميم : الخاص من الإخوان ، والحميم الثانى : الماء الحار البخن.

والصديد : الدم المخلط بالقيح . أولية : ألصقت به. اللطيمة : الجمل . قال ليبغض إلىّ . صاحبا . دمام : عهد بالى : تبين . جلف : جافيا . ذميما . مذموما . كلما الأول مكلما ، والثانى مجروحا .

[نبذ مما قيل فى غدر الإخوان وقلة الوفاء]

وقد أكثر الناس من التشكى بغدر (١) الإخوان وقلة الوفاء منهم على

(٢) الديوان ٣٠٣ ، وصدره :

* وضرح (٢) السير عن كتمان وابتذلت *

(٢) اللسان ـ سبع ـ وصدره :

* فلما أن جرى سمن عليها *

(٣) ديوانه ٣٠٣ ، وصدره :

* منعه نحلت ولم يوشم به جسمى *

حديث الزمان وحديثه فليس تستوحش منه لما يليق بهذا الموضع.

قال سفيان الثوري رحمه الله تعالى لصديق له: هل يلتبس عليك شيء تكره ممن لا تعرف؟ قال: لا، قال: فأقلل ممن تعرف.

قال الجاحظ: قرئ على باب شيخ من أهل الرّي: جزى الله من لا يعرفنا ولا نعرفه خيراً، كأنه أراد من مقاته.

وقال امرؤ القيس بن حجر:

إذا قلت هذا صاحبٌ قد رضيته ... وقرّت به العينان بدّلت آخرا (١)

كذلك جدّي، ما أصاحب صاحباً ... من الناس إلا خانني وتغيّرا

وقال النابغة:

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمّهُ ... على شَعَثٍ، أيّ الرّجال المهذّب (٢)!

ولما انحرف ابن الزيات عن إبراهيم بن العباس الصولي، تحامَاه الناس أن يلقوه، وكان الحارث بن سنجر صديقاً له، فهجره من ذلك، فكتب إليه:

تغيّر لي فيمن تغيّر حارثٌ ... وكم من خليلٍ غيّرته الحوادثُ (٣)

أحارث إن أشركتَ فيك فطالما ... نعمنا وما بيني وبينك ثالثُ

وكتب لابن الزيات:

أخي بيني وبين الدهر صاحبُ إننا غَلَبا (٤)

صديقي ما استقام فإن ... نبا دهر على نبا

وثبتُ على الزمان به ... فعاد به وقد وثبا

ولو عاد الزمان لنا ... لعاد أخاً لنا حدبا

وكتب إليه أيضاً:

وكنتُ أخي بإخاء الزمانِ ... فلما نبا صرتَ حرباً عوانا (٥)

(١) ديوانه ٦٩
(٢) ديوانه ١٤
(٣) ديوانه ١٨٢
(٤) ديوانه ١٥٥
(٥) ديوانه ١٦٦

وكنتُ إليك ألوم الزمانَ فأصبحتُ فيك ألوم الزّمانا
وكنتُ أعِـدّك للنائباتِ فأصبحت أطلبُ منك الأمانا

وقال أبو فراس :

أقلّب طرفى لا أرى غيرَ صاحبٍ يميلُ مع النّعماء حيث تميلُ[٢]
وصِرْنا نرى أنّ المتارِكَ محسنٌ وأن خليلاً لا يضرّ خليلُ
تصفّحْتُ أحوالَ الرجال فلم يكنْ إلى غير شاكٍ فى الزمان وُصُولُ
أكلّ خليل هكذا غير منصفٍ وكل زمان بالكرام بخيلُ!

وله أيضاً .

إذا الخلّ لم يهجُرك إلاّ ملالةً فليس له إلا الفِراقَ عقابُ[١]
إذا لم أجد فى بلدةٍ ما أريده فعندى لأخرى عزمَةٌ ورِكابُ
بمن يثق الإنسان فيما ينوبُه ومِنْ أينَ للحرّ الكريم صِحابُ!
وقد صار هذا الناس إلا أقلّهم ذِئابا على أجسادهنّ ثيابُ

وقال الخباز البَلَوىّ :

ألا إنّ إخوانى الذين عهدتُهُمْ أفاعى رمالٍ لا تقصّر فى اللّسْعِ
ظننت بهم خيراً فلمّا بلوتُهم نزلت بوادٍ منهمُ غيرِ ذِى زَرْعِ

ولابن هارون القرطبىّ :

ذهب الوفاء فلا وفاء يرتجَى تلقى الصديق من الوفا عُرْيانا
يعطيك ودّا صادقاً بلسانه وَيُجِنّ تحت ضلوعِه ألوانا

(١) ديوانه ٣٤ . (٢) ديوانه ٣٨

وقال المعرّى :

فظنّ بسائر الإخوان شرًّا ولا تأمَنْ على سرّ فؤادا[1]
فلو خبرتهمُ الجوازء خُبْرِى لما طلعت مخافة أن تُكادَا
تجنّبت الأنام فلا أواخِى وغبتُ عن الأنام فلا أعادَى[2]
ولمّا أن تجهّمنى مُرادِى جريتُ مع الزّمان كما أرادا
وهوّنت الخطُوبَ عَلَىّ حتّى كأنّى صِرْت أمنحها ودادا

وله أيضاً :

والخلّ كالماء يبدِى لى ضمائرَه مع الصفاء ويخفيها مع الكدر

وكتب المعتصم[3] صاحب المرية إلى ابن عمار :

وزهّدنِى فى النّاسِ معرفتى بهمْ وطولُ اختيارِى صاحباً بعد صاحِبِ
فلم تُرنِى الأيام خِلاً تسرّنى مباديه إلا ساءنى فى العَواقبِ
ولا قلت أرجوه لدفعِ ملمّةٍ من الدهر إلا كان إحدى المصائبِ

وقال البحترى :

أما العداة فقد أرَوْك نفوسَهُمْ فاقصد بسوء ظنونك الإخوانا

وقال أيضاً[4] :

أما العدوّ فَيُبْدِى ما عنده ويكاشفْ
لكن توقّ وحاذر من الصّدِيق الملاطِفْ

وقال منصور بن إسماعيل التميمى الفقيه : قال ابن رشيق :

لو قيل لى خذ أماناً من حادثات الزمانِ[5]

(١) سقط الزند ٥٥٩ (٢) سقط الزند « وزدت على العدو فا أعادى » .
(٣) هو المعتصم بن صمادح ، والأبيات فى تمام المتون ٥٤ ، ٥٥ .
(٤) ملحق ديوانه ٢٦٠٩ عن الصريشى (٥) نقله فى التنف ٨١

لما أخذت أمانا إلا من الإخوان ما لقي

وهذا الباب لا يحصى كثرة.

وتظنيته منيتنا طويلا فبيتنه لعينا رجيما

وتراءيته لما تراءى تجلى عنه سبحي له مريدا لعينا

ولو سمت أن تهب نسيما فأبى أن يهب إلا سموما

بت من سمعه الذي أعجز الرا قي سليما وبات مني سليما

وهذا نهجه غداة افترقنا مستقيما والجسم مني سقيما

لم يكن رائعا خصيما ولكن كان بالشر رائعا لي خصيما

قلت لما بلوته: ليته كا ن عدما ولم يكن لي ندما

بعض الصبح حين يمم لي قل بي لأن الصباح يلغي نعوما

وغاني إلى هوى الليل إذ كا ن تسواد الضحى رقيما أكتوما

وكفى من يشي ولو فاه بالصد ق أثاما فيما أتاه ولوما

قوله: «تظنيته» أي حسبته، وأبدل من إحدى نونيه ياء.

لعينا: رجيما: شيطانا مبعدا مرجوما بالنجوم، وقيل: الرجيم: المرجوم أي المشتوم المسبوب، من قوله سبحانه وتعالى: ﴿لئن لم تنته لأرجمنك﴾ (١)، أي لأسبنك. وقيل: الرجيم المطرود، وهو مذهب أهل التفسير، فمعنى اللعين والرجيم واحد.

تراءيته: ظننته من تراءى الشيء: ظهر بعض الظهور، مريدا: محبا.

جلى: كشف، سبحي: تحبب، مريدا: كثير الشر، خصيما: لئيما: وضيع القدر خسيس الهمة.

توسمت: ظننت، وتوسمت فيه الخير، أي رأيت فيه سمته أي علامته.

(١) سورة مريم ٤٦.

والنّسيم : الريح الليّنة . والسّموم : الحارّة . لَسْعه : ضرّه : سليم : الأوّل ملدوغ والثانى سالم . ذرائع : الأول حسن المنظر والثانى ملزع بلونه : جربة . عدما : غير موجود . يلقى : يوجد . هوى : محبوب . رقيبا : حافظا . يشى : ينمّ . فاه : نطق .

(٢) قوله : بغضّ الصبح ، هو من المثل : الليل أخفى للويل وقالوا أنمّ من الصبح ، لأنه يهتك حجاب الظلام . وقال بعض الحكماء لابنه اجعل نظرك فى العلم ليلا لأن القلب فى النهار كالطائر ، وهو فى الليل ساكن ، فما ألقيت فيه من شىء وعاه .

[من أقوالهم فى الليل]

فأما أكثر الشعراء فنهم إلى الليل أفزع ، ومن النهار أنزع ، لأن الليل أجمع لشتات الهموم والفكر ، وأجلب لشوارد الأحزان والذكر . قال امرؤ القيس :

وليل كموج البحر أرخى سُدُولَه عَلَىّ بأنواع الهموم ليبتلى (١)

وقال النابغة :

وصدرٍ أراح الليل عازبَ همِّهِ تضاعف فيه الحزنُ من كلّ جانب (٢)

وقال قيس بن ذريح :

نهارى نهار الناس حتى إذا بدا لىَ الليل هزّنى إليك المضاجعُ (٣)

وقال الطرماح بن حكيم :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح فيك بأروح (٤)

بلى إن للعينين فى الصبح راحةً لطرحهما طرفيهما : كلّ مطرّح

---

(١) ديوانه ١٨ (٢) [illegible] ٢٧ : ١ [illegible]
(٣) ديوانه ١٠٧ (٤) ديوان المعانى ١ : ٣٤٧ ، ٣٤٨ [illegible] (٢)

وقال ابن المعتز :

لا تلق إلا بليلٍ مَنْ تواصِلُهُ ... فالشمس نمّامَةٌ والليل قوّادُ[1]
كم عاشقٍ وظلام الليل يستُره ... لاقَى الأحبة والواشون رُقّادُ

وقال المتنبي وأجاد :

كم زورةٍ لك فى الأعراب خافِيَةٍ ... أدْمَى وقد رقدوا من زَوْرة الذِّيب[2]
أزورهم وسواد الليل يشفع لِي ... وأنثنى وبياضُ الصبح يُغْرِى بى

وهذا البيت أميزُ شعره على كثرة الجيّد فيه . والبديع فيه أنه قابل الشطر الأول بالثانى حرفا بحرف، فقابل « أزورهم » بقوله : « أنثنى » ،و« سواد الليل » ببياض الصبح » ، « ويشفع لى » بـ « يُغْرى بى » .

وحكى ابنُ جنى قال : حدثنى المتنبي وقت القراءة قال قال لى ابن حِنْزابة وزير كافور : أعلمت أنى أحضرت كتبى كلها ، وجماعة من أهل الأدب يطلبون من أين أخذت هذا المعنى ، فلم يظفروا به ! وكان أكثرَ مَنْ رأيتُ كتباً .

قال ابن جنى : ثم إنى عثرت على الموضع الذى أخذ منه ، فوجدتُه لابن المعتز مصراعاً بلفظ [لَيِّن] صغير [جدًّا] جرى فيه معنى بيت المتنبي كله على جزالة لفظه وحسن تقسيمه وهو :

* فالشّمس نَمّامة والليل قواد *

قال: الثعالبي إما أن يكون ألمّ به فحسّنه وزينه ، فصار أولى به ، أو عَثَر على الموضع الذى عثر عليه ابن المعتز فأربى عليه فى جودة أخذه ، وإما أن يكون قد افترع المعنى وابتدعه ، فلِلّه درّه! وناهيك بشرف لفظه وبراعة نسجه![3]

قال: ولبعض أهل العصر بيت يجمع خمس مطابقات ولا يستقل إلا بإنشاد بيتين قبله وهو :

---

(١) ديوانه ١ : ٧٧ (٢) ديوانه ١ ١٦١
(٣) يتيمة الدهر ١ : ١١٥ .

رفع المسهم

عذيرى من الأيام مدّت صروفَها إلى وَجْهِ مَنْ أهوى يدُ المسخ والمحو
وأبدت برأسى طالعاتٍ أرى بها سهامَ أبى يحيى مسدّدةً نحوى
فذاك سوادُ الخط ينهى عن الهوى وهذا بياضُ الوخط يأمرُ بالصَّحْوِ

وقال ابن رشيق :

أيّها الليلُ طِرْ بغير جَناحِ ليس للعين راحةٌ فى الصَّباحِ (١)
كيف لا أبغضُ الصّباح وفيه بان عنى أولو الوجوهِ الصِّباحِ

وقال المتنبى :

وكم لظلام الليل عندك من يدٍ تخبّر أن المانويّة تكذبُ (٢)
وقاك أذى الأعداء تسرى إليهمُ وزارك فيه ذو الدّلال المحجّبُ

المانويّة هم الثّنويّة ، وهم الذين يقولون : إن الخير كله من النور ، والشّر كله من الظلام ، فكذّبهم بأن وجد الخير فى الظلام حيث ستره من أعدائه ، ووقاه شرّهم ، وكان عوناً على زيارة حِبِّه ، ووجد الضدّ فى النور ، وهذا كله يجرى فى نمط بيت الحريرى .

* * *

قال : فلما سمع ربُّ البيت قريضَهُ وَسَجْعَهُ ، وَاسْتَمْلَحَ تقريظَهُ وَسَبْعَهُ ، بوّأه مَهادَ كَرامتِهِ ، وصَدَّرَه عَلَى تَكْرِمَتِهِ . ثمّ اسْتَحْضرَ عَشْرَ صحافٍ من الغَرَب ، فِيهَا حَلْواءُ الْقَنْدِ والضَّرَبِ ؛ وقال له :

لا يستوى أصْحَابُ النَّارِ وَأصحابُ الجنّةِ ، وَلا يَسَع أَنْ يُجْعَلَ الْبَرِىءُ كذِى الظِّنَّةِ ، وهَـذِهِ الآنية تتنزّلُ مَـنْزِلَةَ الأبرار ،

(١) تزيين الأسواق ٢٠١ ، ديوان الصبابة ١٠٩ ونقله فى النتف ٢٢٠
(٢) ١ : ١٧٨ ، ١٧٩

تقريظه وسبعه : المدح والذم ، ويقال : سَبَعه يسبَعه ، إذا مدحه وقرظه ومن هذا سميت الذئب إذا رميته ، وقيل : معنى سبعت قلت له قولا غمّه وذُعِر منه ، ويقال : سبعت الوحش : ذعرتها ، والأسد أفزعته

بوّأه : أنزله ، مهاد : فراش . صدّره : قدّمه وأجلسه فى صدر المجلس

الترحيب : التكرمة والتبجيل والعمل بما يجلب الضيف المكروم عليه . ودخل على عمر على سلمان رضى الله عنهما فلما رآه وعاده قال : كيف تجدك يا أبا عبد الله ؟ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن المرض لا يكتب لمن لم يكن يعمل عملا يدخل عليه ألم المرض ، فباقى له عيادة المسلم إكراما له وإعظاما لما يغضب الله تعالى له

قوله : استحفزه : أعجله . والضرب : نوع من الخشب كريم

القند : عصارة قصب السكر . والضرب : العسل الأبيض

الظِّنة : التُّهمة ، أراد بالبرىء آنية الغرب ، وبالمتّهم جامَ الزجاج .

والأبرار : الأخيار . صون : حفظ . عوّمها : تلصق بها

عاد : قوم هود ، وأراد بالعادين هودا وحده مؤمنا ، وبين قومه وبينهم كفارا فيهما أضداد كالبرىء والمتهم ، فلم يخرج من نوعهما ، وإن كانت جنسية الآدمية والقرابة تجمعهم ، وكذلك الزجاج والغرب يجتمعان فى الآنية والوعاء ، ويختلفان فى الاحتواء على ما فيهما من الإخفاء والإظهار .

* * *

[ذكر هود عليه السلام وقومه]

وهو هود بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح . وعاد هو ابن عوص

ابن إرم بن سام بن نوح، وكانوا أهل أوثان ثلاثة يعبدونها من دون الله، وكانوا ثلاث عشرة قبيلة باليمن، فدعاهم هود إلى عبادة الله تعالى، فكذبوه وعصوه، وكانوا جبابرة أقوياء، طول الرجل منهم مائة ذراع، وطول أقصرهم ستون ذراعا، قال الله تعالى: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ (١) أي عظما وطولا وقوة وشدة، وعظمهم هود عليه الصلاة والسلام، وقال لهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ...﴾ (٢) الآية، فكان جوابهم أن قالوا: ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ (٣)، وقالوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ (٤) وقالوا: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ...﴾ (٥) الآيات، واستكبروا ولم يؤمنوا، فحبس عنهم القطر ثلاث سنين حتى جهدوا.

فأوفدوا وفدا يستسقون لهم، فبعثوا قيل بن عنز، ونعيم ابن هزال، ومرثد بن سعد، وكنيته أبو سعد، وجلهمة بن الخيبري، ولقمان بن عاد، ومع كل رجل منهم رهط من قومه، فلما قربوا من مكة نزلوا على معاوية بن بكر الهذيلي، وكانوا أخوالا لعاد وأعمامه، فأنزلهم وأكرمهم شهرا، يشربون الخمر وتغنيهم قينتان له يقال لهما: الجرادتان. فلما رأى معاوية طول مقامهم عنده، وقد بعثهم قومهم للبلاء الذي نزل بهم مما لقي عاد ذلك، وقال: هلك أخوالي وأعمامي، والله ما أدري ما أصنع بهم، وإني لأستحيي أن آمرهم بالخروج من عندي فيظنون أني قد ضقت بي مقامهم عندي، فقال شعرا وأعطاه للجرادتين فغنتاهم به، وهو:

ألا يا قيل ويحك قم فهيم ... لعل الله يصبحنا غماما
فيسقي أرض عاد إن عادا ... قد امسوا لا يبينون الكلاما
وإن الوحش تأتيهم جهارا ... فلا تخشى لعادتهم سهاما

---

(١) سورة الأعراف آية ٦٩.
(٢) سورة الشعراء ٢٨
(٣) سورة فصلت ٦٥
(٤) سورة الشعراء ٣٦ (٦)
(٥) سورة هود
(٦) الطبري « لقيم ».

وأنتم هاهنا فيمَ اشتهيتمْ نهاركمُ وليلكمُ التّماما
فقبّح وفدكمْ من وفدِ قوم ولا لُقّوا التحيّة والسلاما

فقال بعضهم لبعض : إنما بعثكم قومكم لما نزلَ بهم ، فادخلوا الحرم . فاستسقوا ، فقال مَرْثد بن سعد : والله لا تسقون حتى تطيعوا نبيكم ، فقال له جهلة:

أبا سعد وإنّك من قَبيلٍ ذوى كرم وإنّك من ثَمُودِ
أتأمرنا لنترك دين رِفْدٍ[1] وزَمْلٍ آل صَدٍّ والوفود[1]
ونترك دين آباء كرام ذوى رأى ونتبَع دين هود!
فإنّا لا نطيعُك ما بقينا ولسنا فاعلين لما تريدُ

ثم قال لمعاوية : امسك مَرْثدًا عنا ، لا يدخلنّ مكة معنا وهو على دين هود. فدخلوا مكة ، وخرج مَرْثَد ، فأدركهم قبل أن يدعُوا ، فقال : اللهمّ لا تدخلنى فى شىء مِمّا يدعوك به وفدُ عاد .

وقيل : قال : اللهمّ إن كان هود صادقا فاسقنا ، فقد هلكنا ، فأنشأ الله سحائب ثلاثا : بيضاء ، وحمراء وسوداء ، ونودى من السحائب : ياقيل ، اخْتَرْ لنفسك وقومك ، قال : لقد اخترتُ السّحابة السوداء ، لأنها أكثر السحاب ماء. فنودى : اخترت رمادا رِمْدِدا[1] ، لا يُبقى من عادٍ أحدا ، فساق الله سبحانه وتعالى السحابة السوداء إلى عاد ، فاستبشروا ، وقالوا : هذا عارضٌ مُمطِرنا ، فسخرت عليهم سبع ليال ريحٌ صرصر ، فلم تَدَعْ منهم أحداً إلاّ هلك .

ولما خرجت الريح عليهم ، قال سبعة منهمْ : تعالوْا نقف على شفير الوادى فنَرُدّها ، فجعلت الريح تأخذ الواحد منهم فترميه حتى يدقّ عنقه ، فتركتهم كما قال الله تعالى : ﴿ كأنّهمْ أعجازُ نَخْلٍ خاوية ﴾[2] . واعتزل هود وَمنْ معه من

(١) الطبرى « : والعبود »
(٢) ط : « ومدداً » وصوابه من تاريخ الطبرى (٣) سورة الحاقة آية ٧

المؤمنين فى حظيرة ، مايصيبهم منها إلا نسيم يُلينُ البشرة ، وتلذّه الأنفس ، وإنها لتمرّ من عاد بالظعن بين السماء والأرض .

ورجع وفد عاد ، فنزلوا على معاوية ، فأتاهم راكب على ناقة فى الليلة الثالثة من مصابهم ، فأخبرهم الخبر ، فقالوا : وأين فارقت هود ؟ فقال : بساحل البحر ، وخُيِّرُوا حين دعوا بمكة لأنفسهم ، فقال لقمان : يارب أعطنى عُمْرًا ، فعمّره الله عمر سبعة أنسر ، يأخذ الفرخ إذا خرج من بيضته فيغذّيه حتى يموت ، ثم يأخذ آخر حتى بَقِىَ السابع ، فقال له ابن أخيه : مابقىَ من عمرك ؟ قال : عمْر هذا النَّسر ، وهو لِبَد ـ ولِبَد بلسانهم ـ الدّهر . فلما لم يستطع لِبَد النهوض مع النسور ، أيقن لقمان بالموت ، فماتا جميعا .

واختار قبل أن يصيبه ماأصاب قَومَه ، فاقتلعته الريح فقتلته .

وقال مرثد : يارب أعطنى برًّا وصدقًا وعمر هود ، فعمّر مائة وخمسين سنة[1]

* * *

ثمّ أمرَ خادِمَهُ بنقْلِها إلى مَثْوَاه ، لِيَحْكُمَ فِيهَا بما يَهْوَاه .

فأقبل علينا أبو زيد ، وقال : اقرءوا سورة الْفَتْحِ ، وأبشِرُوا بانْدِمالِ الْقَرْح ؛ فقَدْ جَبَرَ اللهُ كُلْكُمْ ، وَسَنَّى أكلَكُمْ ، وَجَمَعَ فى ظِلِّ الْحَلْوَاء شَمْلَكُمْ ، وَعَسَى أن تكرهُوا شيئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكم .

ولمّا هَمّ بالانْصِرَاف ، مال إلى اسْتِهْدَاء الصِّحَاف ، فقَالَ للآدِب : إن مِن دلائلِ الظَّرْف ، سَمَاحَةَ المهْدِى بالظَّرْف ، فقال :

---

(١) الخبر فى تاريخ الطبرى ١ : ٢١٩ ـ ٢٢٢ ـ أبسط وأطول :

كلاهما للشتات والملام ، فاحذف الكلام ، وانهض بسلام ، فوثب في الجواب ، وشكر شكر الروض للسحاب . [illegible]

[illegible]

[illegible] أى منزلة . وقال : أقرنا والقورة الفتح ، أى لأن الله سبحانه وتعالى قد فتح عليكم ، [illegible] الفرج [illegible] أصابع [illegible] على أنفسكم [illegible] كل طعام [illegible] عندكم المفترق ، ومعنى الآية قال [illegible] لا [illegible] المكروه عند نزوله . [illegible] إن المكاره لم تزل متباينة

كم من يدٍ لا تستقلُّ بشكرها ... لله في طىّ المكاره كامنه

الآدب : [illegible] الفرس .

(١) [illegible] الظرف : جودة الرأى . الأصمعى وابن الأعرابى : الظريف : البليغ الجيد الكلام ، وقالا : الظرف فى اللسان ، واحتجا بقول عمر رضى الله عنه أنه إذا كان الرجل ظريفا لم يقطع ، أى إذا كان بليغا احتج عن نفسه بما يسقط عنه الحد . وقال الكسائى رحمه الله تعالى : [illegible] الوجه ، يقال لسان ظريف ووجه ظريف . غيره : الظريف الحسن الوجه والهيئة [illegible] المدينة ، والظرف : [illegible] تقدم . وثب : بالغ وعجل جوابه . الروض : موضع العشب والأنوار .

* * *

[illegible] ثم استأذنا أبو زيد إلى حوانيته [illegible] في حلوانه ، وجعل [illegible] الأواني بين يديه [illegible] على [illegible] ثم قال :

لستُ أدرى أأشكو ذلك النمام أم أشكرُ ، وأتناسى فعلته التي

(١) [illegible] ٢٢٢ – ٢١٢ : ١ [illegible]

فضلها أم أدناه كرم فإنه، وإن كان أسلف الجريمة، وأتمم الليلة فعلى غيمة انهلت بعد الديمة، وبسيمة انحاوت على هذه العيمة. وقد خطر ببالي أن أرجع إلى أشبالي، وأقنع بما تسنى لي، وألا أتعب نفسي ولا أجمالي، وأنا أودعكم وداع محافظ، وأستودعكم خير حافظ.

ثم استوى على راحلته، واحتل في زافرته، ولاذ إلى زافرته.

فغادرنا بعد أن وخدت عنسه، وزايلنا أنسه، كدست غاب عنه صدره، أو ليل أفل بدره.

* * *

حواؤه : موضعه، والحواء : أخبية قريب بعضها من بعض. ويفضّ : يفرّق. وأسلف الجريمة : قدّم الذنب. تمم : زيّن، والتمتمة : النقش. غيمه : سحابة. انهلّت : سالت. الدِّيمة : العطية هنا، وانظر معنى هذا الشك الطارىء عليه في السابعة والعشرين في قوله :

* يا أخي الحامل ضَيْمِي *

محافظ : راعٍ للمودة. أستودعكم : أتركم وديعة في يده. خير حافظ : هو الله سبحانه وتعالى يشير لقوله تعالى: ﴿ فالله خير حافظاً ﴾[2]. استوى عليها، أي ركبها، وقال في الدّرة[3]: الراحلة تقع على الجمل والناقة، والهاء فيها للمبالغة. كالتي في داهية وراوية، وسمّيت راحلة لأنها تُرحل، أي يشد عليها الرّحل، فهي فاعلة بمعنى مفعولة، كما جاء في التنزيل: ﴿عيشة راضية﴾[3]، بمعنى مرضية،

(١) سورة يوسف ٦٤ (٢) درة الغواص ٢٨١ (٣) سورة الحاقة ٢١

و﴿لاعَاصِمَ اليومَ من أمْرِ اللهِ﴾ [١]، أى لامعصوم ، و﴿من ماء دَافق﴾[٢] أى مدفوق،و﴿حَرَماً آمنا﴾[٣]أى مأموناً، كما جاءمفعول بمعنى فاعل فى قوله تعالى: ﴿حجاباً مستورا﴾[٤]أى ساتراً ، ﴿وكَانَ وَعْدُهُ مأتِيًّا﴾[٥] ، أى آتيا .

فى حافرته : فى الطريق الذى جاء منه . لاوياً : عاطفاً . زافرته : قرابته . وخدَت : أسرعت . عنسه : ناقته الصلبة ، ومنه عنست المرأة ، إذا طال مكثها لاتتزوج . زايلنا : فارقنا . دست : مجلس . صدره : أعيانه . أفل : غاب .

(١) سورة هود ٤٣
(٢) سورة الطارق ٦
(٣) سورة القصص ٥٧
(٤) سورة الإسراء ٤٥
(٥) سورة مريم ٦١

رفع المسهم

المقامة التاسعة عشرة وهي النصيبية

روى الحارث بن همّام ، قال : أمحل العراقُ ذاتَ العَوَيْم ، لإخلاف أنواء الغَيْم ، وتحدّث الرّكبانُ بريف نَصيبين ، وَبُلَهْنِيَة أهْلِها المخصبين.

* * *

أمحل: أجدب ، أى لم ينزل فيه مطر . إخلاف الأنواء ، يريد النجوم التى من عادتها أن تطلع بالمطر ، وأخلفت: لم تجىء بمطر. الركبان: أهل الأسفار . ريف: خصب.

* * *

[ذكر مدينة نصيبين]

نصيبين مدينة ديار ربيعة العظمى ، وهى مطلّة على جبل الجودىّ الذى استوت سفينة سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام عليه ، وهو جَبَلٌ عالٍ مستطيل .

أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «زُوِيَتْ لى الأرض ، فرأيت مدينة أعجبتنى ، فقلت : ياجبريل ، أىّ مدينة هذه ؟ قال : نصيبين ، فقلت : اللهمّ عجِّل فتحها » .

قال اليعقوبىّ : هى مدينة عظيمة كثير الأنهار والجنّات والبساتين ، ولها نهر عظيم يقال له النهرماس ، عليه قناطر حجارة قديمة رومية ، وأهلها قوم من ربيعة من بنى تغلب ، أفتتحها غَنْم بن عِياض فى خلافة عمر رضى الله عنهما سنة ثمان عشرة .

قال شيخنا ابن جبير [1] : مدينة نصيبين شهيرة العتاقة والقِدَم ، ظاهرها شباب ، وباطنها هَرَم ، جميلة المنظر ، متوسطة بين الكبر والصّغَر ، أمامها وخلفها بسيط أخضر مَدّ البصر ، قد أجرى الله فيه مذانب من الماء تسقيه ، وتطّرد فى نواحيه ،

(١) رحلة ابن جبير ٢١٧ .

رفع المسهم

وتحفّ بها عن يمين وشمال بساتين ملتفّة الأشجار ، يانعة الثمار . وينساب بين يديها نهر قد انعطف عليها انعطاف السّوار ، والحدائق تنتظم حافتيه ، وتفيء ظلالها الوارفة عليه ، فرحم الله أبانواس حيث يقول :

طابتْ نَصيبين لى يوماً فطِبتُ لها ... لَيْت حظّى من الدنيا نصيبينُ

فخارجها رياضيّ الشمائل ، أندلسى الخمائل ، برق نضارة وغضارة ، ويأتلق عليه رونق الحضارة. وداخلها شعث البادية باديةٌ عليه ، فلا مطمح للبصر إليه ، لاتجد العين فيه فسحة مجال ، ولا مسحة جمال. وهذا النهر ينساب[1] إليها من عين معينة ، منبعها بجبل قريب منها ، تنقسم منها مذانب تخترق بسائطها وعمائرها ، ويتخلّل البلد منها جزء يفترق على شوارعها ، ويلج فى بعض ديارها ، ويخترق جامعها[2] منه ميزاب ينصبّ فى صهريجين ، أحدهما وسط الصحن ، والآخر عند الباب الشرقى ، ويفضى إلى سقايتين حول الجامع . وعلى النّهر جسر معقود من صمّ الحجارة ، متّصل بباب المدينة القبلى ، وفيها مدرستان ومارستان واحد .

* * *

قوله : وبلهنية أهلها الخصبين ، البلهنية : رخاء العيش .

[ذكر أشعار مستحسنة فى أوصاف الرياض]

ونريد أن نصل ماذكره من خصب نصيبين بأشعار مستحسَنة فى أوصاف الرياض تقع كالصفة لها ، قال إبراهيم بن العباس الكاتب :

تأملْ سماء أظلّت عَلَيْكَ فيها مصابيحها تَزْهَرُ[3]
وأرضا تقابلهـــا بالعَرو ... سِ والمرجُ بينهما جعفرُ[4]
وَمِسْكَبُ نور غداة الربيـــع أنفاسُه المِسْك والعنبرُ

(١) ابن جبير : « يتسرب » .
(٢) ابن جبير : « ويصل إلى جامعها المكرم عنه سرب يخترق صحنه » .
(٣) ديوانه ١٣٣ (٤) الديوان : « شمسهما جعفر »

رفع المسهما

خلالَ شقائقه أصفرٌ وأضعافُ أصفرِه أحمرُ
والماء مطَّردٌ بينها يضيق بآذيِّه المصْدَر
ولِلنَّاطقـــاتِ بأكنافِهِ دواعِي اشتياق ومستعبَرُ
يشارفه البرّ من جانبٍ[1] ومن جانب بحره الأخضَرُ
مجال وحوش ومرسى سفينٍ فياعَذْبَ لهو ويامنظَرُ[2]
ويا حسن دنيا ويا عزّ مُلْكٍ يسوسهم الملك الأكبر
إمامٌ به أمرَ الآمرو نَ بالعُرفِ واستُنكِر المنكَرُ

وأنشد السيرافى :

ومجلس فتيانٍ إلى جنب حافة بقطْرُ بلّ بين الرّياض الحدائقِ
تَناصِى[3] ميادينا له أحدقَتْ به مواخرها موصولة بالجواسِقِ
وحفّ بريحان وكَرْمٍ مُعَرَّش ونهر وأشجار ونَخل بواسِق
ووَرْدٍ ونَسرين وآسٍ وَسَوْسَنٍ أفاطيره محفوفة بالشّقائقِ
تزخرفُ بالنّوار حتى كأنما بِهِ جنّة محفوفة بالنّمارق

وقال كُشاجم :

وروْضة صنّفَ النّوار جوهره فيها فاشئت من حُسْن ومن طيبِ
كأنّ ماتجتنيه مِنْ زخارفها أخلاق مستحسنِ الأخلاق محبوبِ
ما انفكّ للعين فيها أعين ذرُفٌ تبكِي بدمع من الأنواء مَسْكوبِ
حتّى كأنّ أفانين النبات بها على الميادين ألوانُ اليعاسيب

(١) الديوان : « يساوقه » .
(٢) رواية الديوان :
مجال وحوش ومرقى أنيس فياعُرْف لَهْوٍ ويامنْظَرُ
(٣) ط « تقاضى » تحريف

كأن غُدُرَانها بالرَّوض محدقةً تحبير ثوبٍ من الموشيِّ منصوبِ

ولتميم بن المعز[1]:

وقاذفة بالماء فى وسْطِ بركةٍ قد التحفت لحفا من الظِّلِّ سَجْسَجا[2]

إذا اقذَفَتْ بالماء سلَّطه مُنْصُلاً[3] وعاد عليها ذلك النَّصل هَوْدَجا

تحاول إدراك النجوم بقذفها كأنَّ لها قلباً على الجوِّ محرَجا

لدى روضةٍ جاد السَّحاب ربوعها فزخرفها بين الرياض ودَبَّجا

على نرجس غَضٍّ يلاحظ سَوسَنا وآسٍ ربيعيٍّ ينافِحُ بنفسَجا

كأن غُصون الأقحوان زمرّد تعمَّمَ بالكافور ثم تتوَّجا

ونوار نَسْرينٍ كأنّ نسيمه من المسك فى جوِّ السماء تأرّجا

قال أبو البختزى[4]: تعرضت لأبى فحمة[5] - وكان مجنونا ببغداد - له بديهة حسنة، فقلت له: كيف أنت يا أبا فحمة؟ فأنشأ يقول:

أصبحتُ منك على شَفَا جُرُفٍ متعرِّضاً لموارد التَّلَفِ

وأراك نحوى غير ملتفتٍ متَحرِّفا عن غير منحرَف

يامَنْ أطال بهجره كلَفِى أسفِى عليك أشدُّ من كَلَفِى

فأخرجت قبضة نرجس من كمى، فأخذها وشمّها مليا، وأنشأ يقول:

لما تزوّجت الجنوب بهاطلٍ حوْنٍ هتونٍ زبرج دلاَّح

أضحى يلقّحها بوسمىِّ الصَّبا فاستثقلت حملا بغير نكاحِ

حتى إذا حان المخاض تفجّرتْ فأتت بِوُلْدَانٍ بلا أرواح

حاك الربيع لها ثيابا وشّيتْ بيد الندى وأنامِل الأرْواح

(١) ديوانه ٨٨

(٢) الديوان «وحفا»، والسجسج: الذى ليس فيه حرمؤ ذولاقر.

(٣) الديوان: «ردته منصلا»، والمنصل: السيف

(٤) الخبر فى العقد ٦، ١٧٠، وفى الأصول: «البحترى» وصوابه مافى العقد.

(٥) كذا فى العقد، وفى الأصول «قحمة» بالقاف

من أصفرٍ فى أزهـرٍ قد زانهُ تـبْرٌ على وَرَقٍ من الأوضاحِ
رُكِّبْنَ فى عقدالزَّبرْجد فاغتدى نحو الغـــزالة ناظراً بملاح

* * *

[فصل فى ذكرما يستحسن من أشعار المجانين]

ويتصل بهذه الحكاية فصلٌ فى ذكر ما يستحسن من أشعار المجانين ، فإن أبا محمد قد ذكر فى هذه المقامة المصابين ، وذكر المجانين فى غيرها ، لئلا يخلّ بما شرطنا . قال بعض الأدباء [1] : كان رجلٌ من أهل الأدب ، قد ذهب عقله بالمحبّة ، [وخلفه دابة تدور معه ، فاستوقفته][2] وقلت له : يا أبا فلان ، ماحالك ، وأين النعمة؟ قال : تغيّر قلبى بالحبّ ، فتغيرت النعمة ، ثم بكى وأنشأ يقول :

أرَى التجمّل شيئاً لستُ أحسِنُهُ وكيف أخفى الهوى والدّمع يعلنُهُ
أم كيف صبر محبٍّ قلبُه دَنِفٌ الشوق يُنحله والهجرُ يحزنه
وإنه حين لا وصـــلٌ يساعفه يهوى السلوّ ، ولـكن ليس يمكنُهُ
و كيف ينسى الهوى مَنْ أنت فتنتُه وفترة اللحظ من عينيك تفتنه

فقلت: أحسنت والله ، فقال : قف قليلا ، فوالله لأطرحنّ فى أذنيك أدباً أثقل من الرصاص ، وأخفّ على الفؤاد من ريش النعام [3] ، فوقفت ،فأنشد :

الحبّ نار على قلبى مضرّمةٌ لم تبلغ النّارُ منها عُشْرَ معشارِ
الماء ينبع منهـا فى محاجرنا بالرّجال لمـاء فاض من نارِ !

وأنشد أيضا :

أعاد الصدود فأحيا الخليلاَ وأبدَى الجفاء فصبراً جميلا

(١) العقد ٦ : ١٧١ ، ونسب الخبر إلى أبى بكر الوراق
(٢) من العقد
(٣) العقد « الحواصل » .

رفع المسهم

وأحسِب نفسي على ما تَرَى ستلقَى من الهجر غمًّا طويلا
وأحسب قلبي على مابدا سيذهب مني قليلا قليلا

قال الحسن بن هانئ : رأيت مانيا الموسوس فأنشدني :

شعر حَيٍّ أتاك من لفظ ميتٍ صار بين الحياة والموتِ وَقْفَا[1]
قد برتْ جسمَه الحوادثُ حتّى كاد عن أعين البريّة يخفَى
لو تأمّلتني لتُبصر شَخْصِي لم تبيّن من المحاسن حَرْفَا

ثم أتيت جعيفران الموسوس ، وهو شيخ كبير من بني هاشم ، عليه قطيفة ، وفي عُنقه غُلّ من ذهب ، فقال : من أين جئت ياحسن ؟ فقلت : من بيت مانويه : فقال : في حرٍ أم مانويه ! وقال لي اكتب :

ماغرّد الديك ليلاً في تنبّهه إلاحثثتُ إليك السّيرَ مجهودَا[2]
ولاهدت كلّ عين لَذّ راقِدُها بنومةٍ في لذيذ العيش ممهودا
إلا امتطيتُ الدّجى شوقا إليك ولو أصبحتُ في حَلَقِ الأقيادِ مصفودا
أسعى مخاطرة بالنّفس يا أملي والليل مدّرع أثوابه السُّودا
فلم ترِقّ ولم ترثِ لذي دنفٍ زودته حرُقات القلب تزويدا
هيهات لا غَدْر في جنٍّ ولا بشر من الخلائق إلا فيك موجودا

ثم قال لي : خرّق رقعةً مانويّة ، فخرقتها ، ثم مضيت فلقيت عرددا المصاب ، وحوله الصبيان ، وهو يلطم وجهه ، ويقول : يأيها الناس ، الفِرَاق مرّ المذاق ، فقلت : أبا محمد ، من أين أقبلتَ ؟ فقال شيّعت الحاجّ إذ كان لي فيهم سَكَن[3] ، وقلت في ذلك :

---

(١) العقد ٦ : ١٧٠ (٢) العقد ٦ : ١٧١
(٣) سكن ، أي أهل دار.

رفع المسهم

هُمُ ارحلوا يومَ الخميس غُدَيَّةً ... وودعتهمْ لمّا استقلُّوا وَوَدَّعُوا
فلما تولّوا ولّت النفس مَعْهمُ ... فقلت: ارجعي قالت: إلى أين أرجع؟
إلى جسدٍ ما فيه لحم ولا دمٌ ... وما هو إلاّ أعظمٌ تتقعقعُ
وعينان قد أعماهما الحزن والبُكا ... وأذن عَصَتْ عُذّالها ليس تسمَعُ

وجعيفران من مجانين الكوفة، أعطاه رجل درهما، وقال له: قل شعرا على قافية الجيم، فقال بديها:

عادَني الهمُّ فاعتلجْ ... كلُّ هَمٍّ إلى فرجْ[1]
سلِّ عنك الهموم بالـ ... ـكأسِ والراح تنفرجْ

وهو القائل:

ما جعفرٌ لأبيه ... ولا له بِشَبيهِ[2]
أضحى لقوم كثير ... فكلُّهُمُ يدَّعِيه
هذا يقول بُنَيَّ ... وذا يخاصِم فيه
والأمُّ تضحك منهم ... لِعِلْمِها بأبيهِ

وقال مانى:

مِن الظِّباء ظباء عَمّها السُّحُبُ ... وَحُلِّيها الدُّرُّ وَالياقوت والذَّهَبُ[3]
ياحسن ماسرقت عيني وما انتهبتْ ... والعين تسرِق أحيانا، وتنتهبُ
إذا يَدٌ سرقت فالحدّ يقطعها ... والحدّ في سَرَقِ العَينِ لا يجبُ

(١) العقد ٦ : ١٦٥
(٢) العقد ٦ : ١٦٥
(٣) العقد ٦ : ١٦٩

رفع المسهم

وله أيضاً :

له وجنات فى بياض وحمرة لحافاتها بيضٌ وأوساطها حُمرُ[1]
رقاق يجول الماء فيها كأنها زُجاج أجيلت فى جوانبها الخمرُ

وأشعار المجانين فى هذا الباب أكثر من أن تحصى.

* * *

فَاقْتَعَدْتُ مَهْرِيًّا ، وَاعْتَقَلْتُ سَمْهَرِيًّا ، وَسِرْتُ تَلْفِظُنِي أَرْضٌ إِلَى أَرْضٍ ، وَيَجْذِبُنِي رُفْعٌ مِنْ خَفْضٍ ، حَتَّى بَلَغْتُهَا نِقْضاً عَلَى نِقْضٍ . فَلَمَّا أَنَخْتُ بِمَغْنَاهَا الْخَصِيبِ ، وَضَرَبْتُ فِي مَرْعَاهَا بِنَصِيبٍ ، نويتُ أَنْ أُلْقِيَ بِهَا جِرَانِي ، وَأَتَّخِذَ أَهْلَهَا جِيرَانِي ، إِلَى أَنْ تَحْيَا السَّنَةُ الْجَادُ ، وَتَتَعَهَّدَ أَرْضَ قَوْمِي الْعِهَادُ ، فَوَاللهِ مَا تَمَضْمَضَتْ مُقْلَتِي بِنَوْمِهَا ، وَلاَ تَمَخَّضَتْ لَيْلَتِي عَنْ يَوْمِهَا ، دُونَ أَنْ أَلْفيتُ أبا زيدٍ السَّرُوجيَّ يجولُ فى أرجاء نَصِيبين ، وَيَخْبِطُ بِهَا خَبْطَ الْمُصابين وَالْمُصِيبِينَ ، وهو يَنْثُر مِن فِيهِ الدُّرَر ، وَيحتلِبُ بكفَّيْهِ الدِّرَرَ . فوجَدْتُ بِهَا جِهَادِي قدْ حَازَ مَغْنَماً ، وَقِدْحِي الْفَذَّ قَدْ صار تَوْءَمَا ، وَلَمْ أَزلْ أَتْبَعُ ظِلَّهُ أَينَمَا انبعَثَ ، وَالْتَقِطُ لَفْظَهُ كلَّمَا نَفثَ ، إلى أنْ عَرَاه مَرَضٌ امْتَدَّ مَدَاهُ ، وَعَرَقَتْهُ مُدَاه ، حَتى كَادَ يَسْلُبُه الْمَحْيَا ، وَيُسْلِمُهُ إلى أبي يَحْيَى .

* * *

قوله : «اقتعدت مهريًّا» ، أى ركبت بعيرا منسوبا إلى مَهْرة ، قبيلة من قضاعة ، إبلهم أنجب الإبل ، زعموا أنه كان يلقّحها الوحش ، وهى إبل متوحّشة

(١) العقد ٦ : ١٦٨

صغار بيض ، تكون بين عُمَان والشِّحْر ، وتزعم العرب انها إبل الجن لسرعتها، فبقيت أنسالها فى بنى مَهْرة . قال أبو عبيدة : للهريّة من الإبل تسير أربعمائة ميل كل يوم ، ثم نسبَت العرب إلى مَهرة كل بعير نجيب .

اعتقلت : حبست ، والاعتقال :أن تحبس الرّمح بين ركابك وساقك .
تلفظنى : ترمينى . رفع : مرتفع : خفض : منخفض . يجذبنى : يسوقنى لنفسه.
نِقضاً على نقض : هزيل على هزيل ؛ وأخذ هذا اللفظ من قول أبى الشيص يصف شدّة السير :

أ كَلَ الوجيفُ لحومهمْ ولحومَها فأتوك أنقاضاً على أنقاضِ
ولقد أتتك على الزمان سواخطاً فرجَعْنَ عَنْك وهنّ عنه رَوَاضِى

وقال حبيب فى معناه :

وركبٍ يساقون الرّكاب زجاجة من السَّيْر لم تَقْصِدْ لها كفُّ قاطبِ[1]
وقد أكلوا منها الغواربَ بالسرَى وصارت لها أشباحهم كالغوارِب

ولحبيب أيضاً :

وركب كأمثال الأسنّة عرّسوا على مِثْلِها والليلُ تسطو كواكبُهْ[2]
على كلّ روّاد المِلاط تهدّمت عريكته العلياء وانضمّ جانبُهْ[3]

---

(١) ديوانه ٤١ ، والقاطب : مازج الماء .
(٢) ديوانه ٤٤ ، وفيه :« غياهبه » وبعده هناك
لأمرٍ عليهم أن تتمّ صدورُه وليس عليهمْ أن تتمّ عواقبُهْ
(٣) رواد : يذهب ويجىء ، والملاط : رأس الكتف. عريكته : سنامه .

رفع المسهم

رعته الفيافى بعدما كان حقبةً رعاها ، وماء الأرض ينهلُ ساكبه[1]
فكم جزْع وَادٍ جَبَّ ذِرْوة غاربٍ وبالأمس كانت أتمكنته مذانبه[2]

قوله : « أنخت » بركت. مغناها : موضع سكناها . نويت: قصدت . جِرانى صدرى ، والجِران : باطن عنق البعير ، يقول : لما أخذ نصيباً فى مرعاها ، أضمر أن يقيم بها ريثما يأتى أرضه المطر . الجماد : التى لا مطر فيها . تتعهد : تتفقّد وتزور . العِهاد . كثرة المطر .

وتمضمضت العينُ بالنوم ، إذا خالطها ودبّ فيها ، وتمخّضت المرأة : أضرّ بها وجعُ الولادة ، وتقول : تمخّضت المرأة عن زوجها إذا حَمَلَت بالولد عنه ، وتمخضت بولدها إذا تحرّكت به ودنتْ ولادتها ، وإذا استعير هذا المعنى لليلة صار تمخّضها عن اليوم السابق لها ، كأنّ اليوم ألقى فى الليلة ما كان فيه من الحيوان فتحرّكت به ؛ فيريد أنه لم ينقض يومى الذى وردتُ فيه نصيبين حتى وجدت فيه أبا زيد قبل أن أدخل فى ليلتى ، ولأجل هذا قال قبل هذا : تمخّضت مقلتى بنومها ، أراد أنه لقيه قبل الليلة التى ينام فيها ، ولو قال : تمخضّت بيومها للزم أن يكون اليوم الذى يأتى بعدها ، كأنّها كانت تحمله فتلده إذا طلع صبحه من حيث أنه متصل بها ، ولو جعلت « عن » بمعنى الباء لانقلب إلى هذا المعنى ، وإنما دل الكلام على صحة المعنى الأوّل ، وأصله المَخَض بالتحريك ، ومنه : مخضت اللبن مَخْضاً ، حرّكته لإخراج زَبده ، ومخَضَت المرأة وتمخّضت : تحرّك ولدها ليخرج ، ثم يستعار ذلك للأيام وغيرها ، فأما استعارة حمل الولد فكقول عمرو بن حسان فى النعمان :

أجدّك هل رأيت أبا قبيسٍ أطال بقاءه النّعم التركامُ

---

(١) الديوان: « وماء الروض ».

(٢) الجذع: منعطف الوادى . جب : قطع. أتمكنه : أسمنته . المذانب : مسايل الماء.

تمخّضت المنون له بيومٍ أتى ، ولكلّ حاملةٍ تمامُ

النّعم الركام : الإبل الكثيرة ، وصُغّر قابوس ، تصغير الترخيم ، وجعل المنيّة حاملا باليوم الذى هلك فيه وجعل اليوم ولدها على جهة الاستعارة ، وقال حبيب فى معناه :

حتى إذا مخّض اللهُ السّنينَ لها مخْضَ الحليبة كانَتْ زُبْدَةَ الحِقبِ[1]

فهذه استعارة من مخْض اللبن ، أراد أن السنين تحرّكت لهذه البلدة، أى كانت تمرّ عليها فلا تنالها بمكروه حتى وجدها المسلمون كالزّبدة فى حسنها ولذّتها فأكلوها باستباحة مَنْ فيها .

قوله : « ألفيت » ، أى وجدت . يجول : يتصرّف . أرجاء : نواحى . يخبط : يسأل الناس ، وأصل الخبط نفض ورق الشجر ، يُنفض للإبل فيخزن ثم يدقّ لها فى زمن الشّتاء ، ويبلّ بالماء فتعلفه ، ثم يستعار الخبط المعروف ، وقال زهير بن أبى سلمى :

وليس مانعَ ذى قربى وذِى نَسَبٍ يوماً ولا مُعْدِماً مِنْ خابِطٍ وَرَقَا[2]

يقال : خبطتُ الرجل ،أى سألته ، وخبط الرجل بالأمر : لم يهتد لصوابه ، والبعيرَ : ضرب بيده الأرض ، والشىء : ضربته ، والدابّةَ الأرض : شدّت وطأها ، والشيطانُ الإنسانَ : صرعه .

قوله : « المصابين » أى المجانين . والمصيبين : الواجدين لما يطلبون ، والمصيب أيضا ضدّ المخطىء ، والمفعول مُصاب ، فيريد أنه يجول فى نواحيها مسرعاً كالمجنون ، أو كالمتيقّن بوجود حاجته .

---

(١) ديوانه ٨ .
(٢) ديوانه ٥٣ .

رفع المسهم

الدُّرَر : الجواهر ، والدِّرر : اللبان، أراد أنه يتكلم بكلام حسن فيأخذ به العطايا. قِدْحِي الفَذّ ، أى سهمى المنفرد . توءما : زوجا، وأراد أنه كان منفردا فصار بأبى زيد زوجا . انبعث : نهض وتوجّه . نفث : نطق . عراه : قصده . امتدّ مداه ، أى طالت مدته . عرقته : أخذت لحمه . مُداه : سكاكينه . بُسْلِمُه : يتركه ، وأبو يحيى : كنية الموت ، وقد تقدّم فى المقامة قبل سهام أبى يحيى مسددة نحوى .

* * *

[ذكر ثواب المرضى]

أبو هريرة رضى الله تعالى عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من مات مريضاً مات شهيدا ، ووُقِيَ من فتنة القبر ، وغُدِيَ وَرِيح عليه برزقه من الجنة » .

وقال : « مرض يوم يكفّر ذنوب ثلاثين سنة » .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم: «الصداع والحمّى يصيب الإنسان وإن ذنوبه مثل أحُد فما يفارقه حتى لا يدع من ذنوبه وزن خردلة» .

أنس رضى الله تعالى عنه، قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المريض إذا برئ وصحّ من مرضه كان كمثل البرَدَة تقع من السماء فى صفاء لونها » .

* * *

فوَجَدْتُ لِفَوْتِ لُقْيَاهُ ، وَانْقِطَاعِ سُقْيَاه ، مَا يَجِدُه الْمُبْعَدُ عَنْ مَرَامِهِ ، وَالْمُرْضَعُ عِنْدَ فِطَامِهِ ، ثمّ أُرْجِفَ بأنّ رَهْنَهُ قَدْ غَلِقَ ، وَمِخْلَبَ الحِمَامِ بِهِ قَدْ عَلِقَ ، فَقَلِقَ صَحْبُهُ لِإِرْجَافِ الْمُرْجِفِينَ ، وَانثالوا إِلَى عَقْوَتِهِ مُوجفينَ :

حَيَارَى يَمِيدُ بِهِمْ شجُوهُمْ كأنَّهُمُ ارْتَضَعُوا الخندريسَا
أسالوا الغُرُوبَ وَعَطُّوا الجيوبَ وَصَكُّوا الخدودَ وشَجُّوا الرءوسَا
يَوَدُّونَ لَوْ سالمتْهُ المنون وغالتْ نفائسَهُم والنُّفوسَا

* * *

قوله: «سقياه»، أى فوائده التى كان يسقيه بها. مرامه: حاجته. فطامه: قطعه عن الرضاع. أرجف: تحدث، والإرجاف: خوض الناس فى الفتنة وحديثها. وغلق: كفّ، وكان من فعل الجاهلية أن يقول الراهن لمن يمسك رهنه: إن لم آتك إلى كذا فالرّهن لك فإن أتاه بالدَّيْن بعد الأمد قال له: قد غَلِق الرهن.

وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يغلَق الرهن، له غُنْمُه وعليه غُرْمُه».

المخلب: ظفر الطائر الصائد. الحِمام: المنون. انثالوا. انصبّوا واندفعوا. عقوته: موضعه وأصلها فناء الدار.

موجفين: مسرعين. حيارى: جمع حيْران، والحيرة: التردّد فى الأمر وعدم التهدّى له، قال الواثق:

لا يك الشَّقْمُ ولكن كان بى وبنفسى وبأمّى وأبى[1]
قيل لى إنك صُدِّعتْ فما خالطت سَمْعِى حتى دِيربى[2]

وقال آخر:

أنا مذ خبرت بالمِلَّةِ والله عليلُ[3]
ليت حُمّاك بجسمى ولك السر الطويلُ

(١) العقد ٢ : ٤٥٣.
(٢) العقد: «خالطت سمعى حتى ديربى».
(٣) ديوان المعانى.

رفع المسهم

يميد : يميل . شجوهم : حزنهم . الخندريس : الخمر . أسالوا الغروب : أجروا الدموع ، والغَرْبة : الفيضة من الدمع ، والجمع غروب : عطّوا : شقوا . صكّوا : لطموا : شَجُّوا : جرحوا . يودّون : يتمنّون . سالمته : تركته وصالحته ، وأصله الصلح . المنون : المنيّة . غالت : أهلكت . نفائسهم : كرائم أموالهم .

[من أقوالهم فى عيادة المريض]

ونذكر هنا من الشعر مايوافق هذا الموضع :

دخل أبو دَهمان القيسىّ يوما على بعض الأمراء يعوده ، فأنشده :

بأنفسِنا لا بالطّوارف والتّلْدِ نَفيكَ الّذى تُخْفِى من السُّقْمِ أو تبدِى[1]
بنا معشرَ العُوّادِ مابكَ من أذًى فإن أشفقوا ممّا أقول فبي وحدِى

ودخل محمد بن عبد الله بن طاهر على المتوكل يعوده ، فقال :

الله يدفعُ عن نفس الإمام لنا وَكُلّنا للمنايا دُونَهُ غَرَضُ[2]
فليت أن الذى يَعْرُوهُ من مرضٍ بالعائدين جميعاً لابه المرضُ
ففى الإمام لنا من غيره عِوَضٌ وليس فى غيره مِنْهُ لَنَا عِوَضُ

وكتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر :

أعززْ عىّ بأن أراك عليلاَ أو أن يكون لك السّقام نَزِيلاَ[3]
لوددتُ أنى مالكٌ لِسَلامَتِى فأعيرُها لك بُكْرَةً وأصيلا
فتكونَ تبقى سالماً لسلامتى وأكونَ ممّا قد عراك بديلاَ
هذا أخ لك يشتكى ماتشتكى وكذا الخليل إذا أحبّ خليلا

هذا الشعر على فتوره شرُف بمنصب قائله .

وكان المعتصم أمّيًا لأن أباه هارون الرشيد ندبه فى صِغَرِهِ للتعلّم فسمعه

(١) العقد ٢ : ٤٥١ وهما للبحترى ، ديوانه ٨٥٦
(٢) العقد ٢ : ٤٥٢ :
(٣) العقد ٢ : ٤٤٩ .

رفع المسهم

يوما يقول- وقد مَرّتْ به جنازة : ليتنى مكانك ولا أرى هذا البلاء ، فقال له : لا أندبك إلى شيء تتمنّى الموت من أجله ؛ فلهذا لم يكن له علم بالأدب كأخويه الأمين والمأمون .

ولأبى العباس المبرّد :

يا عليلُ أفديك من ألم العِلّةِ هَلْ لى إلى اللقاء سَبِيلُ (١)
إنْ يَحُلْ دونك الحجاب فما يُحْجَبُ عنّى وبِكَ الضَّنَى والنُّحولُ (٢)

ولأبى تمام فى مالك بن طوق :

أَلْبَسَكَ اللهُ منه عافيةً فى نومِك المعتَرَى وفى أَرَقِكْ (٣)
يُخْرِج من جسمك السَّقَام كما أُخرِجَ ذمُّ الفعال من خُلُقِكْ

ولابن عبد ربه :

يامَنْ عَلَيْهِ حجابٌ مِن جَلالَتِهِ وإن بَدَا لكَ يوماً غيرَ مَحْجُوب (٤)
ما أنت وحدك مكسوًّا ثياب ضنًى بل كلّنا لك مُن مُضْنًى وَمَشْحُوبِ
ألقَى عليك يداً للضرّ كاشفةً كَشَافُ ضُرِّ نبىّ الله أيوبِ

* * *

قال الراوى : وَكنتُ فيمَنِ التفّ بأَصْحَابِهِ ، وأَغذّ إلى بابه ، فلمّا انتهينا إلى فِنائه ، وتصدّينا لاستنشاء أنبائه ، برَزَ إلينا فَتَاهُ ، مفترّةً شَفَتاه ، فاستطلعْنا طِلْعَ الشّيخ فى شَكاتِهِ ، وَكُنْهَ قُوَى حَرَكَاتِهِ ،

(١) العقد ٢ : ٤٥١ .
(٢) ديوانه ٣١١ العقد ٢ : ٤٥٢ ، وقبله فيهما :
كَمْ لَوْعَةٍ للنّدَى وكم قلقٍ لِلْمَجْدِ والمكْرُماتِ فى قَلَقِكْ
(٣) العقد ٢ : ٤٥٤ ، مع اختلاف فى ترتيب الأبيات .

فقال : قد كان فى قبضةِ المرْضة ، وَعَرْكةِ الوعْكة ، إلى أن شَفَّهُ الدَّنف واستشفّه التَّلَف ، ثمَّ منَّ الله تعالى بتقويةِ ذَمَائه ، فأفاقَ مِنْ إغمائه . فارجعوا أدراجَكم ، وانضُوا انزِعاجَكمْ ، فكأنْ قد غَدَا وَرَاح ، وساقاكم الرَّاح . فأعظمنا بُشْرَاه ، وأقترحْنا أن نَرَاه ، فدخل مؤذناً بنا ، ثمَّ خرَج آذناً لنا ، فلقِينا منه لَقًى ، ولساناً طلقاً ، وجلسنا مُحْدِقينَ بسريره ، مُحدّقينَ إلى أساريره .

* * *

قوله : «أغذ» ، أى أسرع . تصدّينا : تعرّضنا . الاستنشاء : الاستطلاع . أنبائه : أخباره . برزَ : خرج . مفترّة : ضاحكة . استطلعناه : سألناه أن يُطلِعَنا . طِلع الشيخ فى شكاته : خبر مرضه . كُنْه : حقيقة . عرْكه الوَعْكة : شدة المرْضة ، وعركتُ الشيء : دلكته بيديك وحَككته ، ووعكته الحُمّى : كسرته . وشفّه الدنف : أضعفه المرض ونقص جسمه استشفّه : استقصى بقية قوته . ذَمَائه : قوى نفسه إغمائه : ذهاب عقله من الضعف . ارجعو أدراجَكم ، أى فى الطريق الذى جئتم فيه . انضُوا انزعاجكم ، أى أزيلوا زعَجكم وطَيْشَكم ، والانزعاج : ضد القرار . أعظمنا بشراه ، أى وجدنا ما بشّرنا به عظيما ، والبِشارة بكسر الباء : ما بُشِّرتَ به ، والبُشارة بضمها : ما يُعْطَى على البِشارة . والبَشارة بفتحها : الجمال ، وفلان بَشيرُ الوجه ، أى حسنه ، وعند أكثرهم أن لفظ « بشّرته » لا يستعمل إلا فى الإخبار فى الخير ، وليس كذلك ، بل يستعمل فى الخير والشرّ قال تعالى : ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1] ، والعلّة فى ذلك أن البشارة إنما سميت بذلك لاستعانة تأثير خبرها فى بشرَة مَن بُشِّر بها ، وقد تتغيّر البشرة للمساءة

(١) سورة التوبة ٢٤ .

بالمكروه ، كما تتغيّر عند المسرّة بالمحبوب ، إلا أنه إذا أُطْلِق لفظها وقع على الخير ؛ كما أنّ النذارة يُطلق لفظها فى الشر ، وهذا ذكره الحريرى فى الدّرّة قال ابن عُزيز: البشرى: والبشارة إخباربما يسر ، قال تعالى : ﴿ لهم البشرى ﴾[1] .

اقترحنا : طلبنا ، واقترحت الشيء : فعلته قبل أن يُفعل. مُؤْذِناً : معلماً . ألمّى : طريحاً . طلقاً : فصيحا . محدقين : محلقين ، وأحدق القوم بالشيء إذا أحاطوا به واحتفّوا حَولَه .وحدّقوا ، أى نظروا إليه نظراً شديداً ، فهم محدِقون إليه ، أى ناظرون ، والحدَقة : سَواد العين الأعظم . والأسارير : تكاسير جلد الوجه .

* * *

[نبذ من الأقوال المأثورة فى عيادة المريض]

أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عاد مريضاً فجلس عنده قدر ساعة ، أعطاه الله تعالى أجْر عمل سنة لا يعصيه فيها طرفة عين » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :« عيادة المريض إذا دخلتَ عليه ، أن تضعَ يدَك على رأسه وتقول : كيف أصبحت ؟ أو كيف أمسيت ؟ وإذا دخلت عليه تعتمدَتْك الرحمة ، وإذا خرجت من عنده خُضْتَها مقبلا ومدبراً » ـ وأومأ بيديه إلى حَقْويْه .

أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مَن عاد المريض خاض الرحمة ، فإذا جلس عنده انغمس فيها » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا دخلتم على مريض فنفّسوا عليه

---

(١) سورة يونس آية ٦٤ .

رفع المسهم

فى أجله ، فإنّ ذلك لا يردّ شيئاً وهو يطيّب نفس المريض[1] » .

نفّسوا : وسّعوا عليه بطول عمره[2]

ودخل كُثَيِّر على عبد العزيز بن مروان يعوده فقال له : لولا أن سرورك ما يتمّ بأن تسلمَ وأسقم أنا ، لدعوت ربى أن يصرف مابك إلىّ ؛ ولكن أسأل الله لك أيها الأمير العافية ، ولى فى كنفك النعمة . فضحك وأمر له بمال فخرج وهو يقول :

ونعودُ سيّدَنا ويُسيّدَ غيرِنا ... ليت التّشكى كان بالعوّادِ[3]

لو كان يُقبَل فِدْيَةٌ لفديتُه ... بالمصطفى من طارِفى وتلادِى

وكتب آخر إلى عليل :

نُبّئت أنك معتلٌّ فقلت لهم ... نفسى الفداء له من كُلِّ مَحْذُورِ[4]

ياليت عِلّتَه بى غيرَ أنّ له ... أجر العليل وأنّى غير مأجورِ

* * *

فَقَلَّبَ طَرْفَهُ فى الجَمَاعَةِ ، ثُمَّ قال : اجْتَلُوهَا بِنْتَ السَّاعَةِ ، وأنشد :

عَافانِى اللهُ وَشُكْراً لَهُ ... مِنْ عِلَّةٍ كادَتْ تُعفِّينى

وَمَنَّ بالبُرْءِ عَلَى أَنَّهُ ... لابُدَّ مِنْ حَتْفٍ سَيَبْرِينِى

ما يتناسانى ، وَلَكِنَّهُ ... إلى تَقَضِّى الأكْلِ يُنْسِينِى

---

(١) نقله فى الجامع الصغير ١ : ٣٩ .

(٢) العقد ٢ : ٤٤٨ .

(٣) العقد ٢ : ٤٤٨

(٤) العقد ٢ : ٤٨

إنْ حُمَّ لَمْ يُغْنِ حميمٌ وَلا حِمَى كُلَيْبٍ مِنْهُ يَحْمِينى
وما أُبالِي إن دَنا يَوْمُـهُ أَم أَخَّرَ الحَيْنُ إلى حِينِ
فأىُّ فخرٍ في حيـاةٍ أرى فيهَا البَلاَيَا ثُمَّ تبلينِي

* * *

قوله : قلّب طرفه ، أى حوّل عينيه ينظرهم . اجتلوا : انظروا ، ونسب الشعر للساعة لمّا قيل فيها . عاناني : أى سلّمنى . تعفّيني : تهلكنى . منّ : أنعم . حَتْف : هلاك . تقضّى الأُكل : تمامه وآخره . يُنسِيني : يؤخّرنى ، والأصل الهمزة فسهّله للشعر . حُمّ : قدّر . حميم : صاحب .

[ذكر حِمى كليب]

حمى كليب ؛ هو ابن ربيعة أخو مهلهل الشاعر وخال امرئ القيس ، وكان أعزّ الناس فى العرب. وبلغ من عزه فيهم أنه اتخذ جَرْو كلب ، فإذا نزل بمنزل فيه كلأ قذف ذلك الجَرْو فيه ، فحوى فحيثما بلغ عُواؤه لايرعى أحد عشب ذلك الموضع إلا بإذنه ، وإذا جلس لايمرّ أحد بين يديه إجلالاً له ، ولا يُخشَى أحدٌ فى مجلسه غيرُه ، ولا توقد نارٌ غير ناره ، ولا يُجيرُ تغلبىّ ولا بكرىّ رجلاً ، ولا يحمى حمًى ولا يُغير إلا بإذنه .

وكان يحمِى الصيد فيقول : صَيْد كذا فى جوارى ، فلا يصيب أحد منه شيئاً ، وكان قد حَمَى حِمًى لا يطؤه إنسان ولا بهيمة ، فدخل فيه يوماً فطارت قُنبرة بين يديه من عَلَى بيضها ، فقال لها :

يالكِ من قُنبرة بمَعْمَرِ خلاَ لكِ الجوّ فبيضى واصْفِرِى
ونَقِّرِى ماشئتِ أن تنقّرِى

وكانت امرأته جليلة بنت مرّة بن شيبان ، وكان لمرّة ـ وهو من بنى بكر ـ

عشرة من الولَد ، منهم الحارث وجسّاس ونَضْله وهمّام ، فجاءت جساساً خالة له اسمها البَسوس ، التي يقال فيها : أشأم من البَسوس ، فنزلت عليه ، ولها ابن وناقة تُسمّى سراب ، بفصيلٍ لها ، فدخل الحي يوماً ، فوجد بيض القُنبرة قدوطئته سَراب فكسرته ، فسأل عنها فأخبر أنها لخالة جساسٍ ، فقال : أو قد بلغ من قدره أن يُجير دون إذني ! ياغلام ، ارم ضَرْعها ، فخرقه بسهم ، وقتل فصيلها ، ثم طرد إبل جساس ، ونفاها عن المياه ، عن شُبَيْثٍ والأحصّ (غديرين) حتى بلغ غَدير الذّئاب ، فجاء جساس ، فقال : نفيت عن المياه مالي ، حتى كدت تهلكه ! فقال : إنّا للمياه شاغلون ، فقال : هذا كفعلك بناقة خالتي وفصيلها ، فقال : أو قد ذكرتَها ! أما إنّي لو وجدتها في غير إبلي مرّة استحللت تلك الإبل لها ، فعطف عليه جَسّاس فرسه ، فطعنه ، فلمّا أحسّ الموت ، قال : ياجساس ، اسقني ماء . فقال : تجاوزت شُبيثاً والأحصّ ، واحتزّ رأسه ، وأمال يديه ، وجاء . فقالت أخته لأبيها : إنّ جَسّاساً جاء خارجة ركبتاه ، قال أبوها : والله ما خرجتَ إلا لأمرٍ . فلما وصله قال : ما وراءك يابُنيّ ؟ قال : طعنت طعنة لتشغلنّ شيوخ وائل رقصاً . قال : قتلتَ كليبا ؟ قال : نعم ، قال : وددتُ أنّك وأخوتَك متّم قبل هذا ، مابنا إلا أن تتشاءم بنا وائل ، ثم لقي أخاه نَضْله فقال :

وإني قد جنيتُ عليك حربا تَغِصُّ الشّيخ بالماء القَرَاح[1]

فأجابه أخوه نضلة :

---

(١) الخبر في الميداني ١ : ٣٧٥ ، برواية مخالفة ، وفيه . « وأقبل جساس يركض حتى هجم على قومه ، فنظر إليه أبوه وركبته بادية من حوله فقال : لقد أتاكم جساس بداهية ، قالوا : ومن أين تعرف ذلك ؟ قال : لظهور ركبته ؛ فإني لأعلم أنها بدت قبل يومها ثم . قال : ماوراءك ياجساس ؟ فقال : والله لقد طعنت طعنة لتجمعن منها عجائز وائل رقصا ، قال : وماهي ثكلتك أمك ! قال : قتلت كليبا ، قال أبوه : بئس لعمر الله ماجنيت على قومك ، فقال جساس:

تأهبْ عنك أهبةَ ذي امتناع فإن الأمر جلّ عن التلاحي =

فإن تك قد جنيتَ عليّ حربا فلا وانٍ ولارثُ السِّلاح

وكان أخوه همّام قد آخى مهلهلا أخا كليب ، وعاهده ألاّ يكتمه شيئاً ، فجاءته أمَةٌ له ، وعنده مهلهل ، فأسرّت إليه الخبر ، فقال له مهلهل : ماقالت لك أَمَتُك ؟ فقال : زعمت أنّ أخي جساساً قتل كليباً ، فقال : است أخيك أضيق من ذلك . وتحمّل القوم ، وغدا مهلهل فى ثأر أخيه بالخيل ، واجتمعت أشراف تَغْلب ، وأتوا مُرّة ، فتكلموا معه فى القِصاص من جَسّاس وإخوته ، فذهب مُرّة إلى الدية ، فغضبت تَغْلِب ووقعتْ فى الحرب ، فدامت بينهم أربعين عاماً .

وكان فيما بينهم خمس وقائع : أوّلها يوم عُنيزة وآخرها قتل جَسّاس ، وذلك أنه لما اجتمع نساء تَغلِب للمأتم قالوا لأخته : رحِّلى جليلة عن مأتمك ، فإنّ قيامها شمانةٌ بنا ، وعار علينا ، فقالت لها : اخرجى بهذه من مأتمنا ، فإنك شَقيقة قاتلنا ، فلما رحلت قالت أخت كليب : رِحْلَةَ المعتدى ، وفراق الشامت ! ويلٌ غداً لآل مرّة ، من الكرّة بعد الكرّة .

فلما بلغ ذلك جليلة قالت : وكيف تشمت الحرّة بهتك سِتْرها ، وترقّب وِتْرها ! أسعد الله جَدّ أختى ، أفلا قالت : نفرة الحياء ، وخوف الاعتداء !

وجاءت وهى حامل ، فولدت غلاماً وسمّته بالهجرس ، ورّباه جسّاس ، فكان لا يعرف أباً غيره ، فزوّجه ابنَته ، فوقع بينه وبين بكرىّ كلام ، فقال له البكرىّ : ما أنت بمنتهٍ حتى ألحقك بأبيك . فأمسك عنه ، ودخل إلى أمه فسألها فأخبرته ، فلما أوَى إلى فراشه ، وضع أنفه بين ثدى زوجته ، وتنفّس

= فإنى قد جنيت عليك حرباً تغصّ الشيخ بالماء القراحِ

فأجابه أبوه :

فإنّى قدْ جنيتُ عليك حَرْباً تُغِصُّ الشيخ بالماء القَرَاحِ
سألبس ثوبها وأذبُّ عنّى بها يوم المذلّةِ والفضاحِ

تنفيسةً تنفُّطَ[1] ما بين ثديها من حرارتها ، فقامت الجارية فزعةً ، فدخلت إلى أبيها فأعلمته ، فقال : ثائر وربّ الكعبة .

فلما أصبح أرسل وراء الهجرس ، فأتاه فقال له: إنما أنت ولدى ومعى ، وقد كانت الحرب فى أبيك زمانا طويلا حتى كدنا نتفانَى ، وقد اصطلحنا الآن ، فانطلِقْ معى حتى نأخذ عليك ما أخِذَ علينا ، قال : نعم ، ولكن مثلى لا يأتى قومَه إلا بسلاحه ، فأتيا جمعاً من قومهما ، فقصّ عليهم جساس ما كانوا فيه من البلاء ، وما صاروا إليه من العافية ، ثم قال : وهذا ابن أختى قد جاء ليدخل فيما دخلتم فيه ، فلما قدّموا للعقد أخذ بوسط رمحه ، وقال : وفرسى وأذنيه ، ورمحى ونَصْليه ، وسبئى وغِراريه ، لا يترك الرجل قاتل أبيه وهو ناظر[2] إليه . ثم طعن جساساً فقتله ، ولحق بقومه وكان آخر قتيل فيهم .

وقد قيل فى صورة قتل كليب غير ما ذكرنا ، وحكايات الجاهلية كثيرة الاضطراب ، وقد نسب شعر القنبرة لطرفة .

وقال النابغة الجعدىّ وذكر قتل كليب وحذّر به عقالا العقيلى :

كليبٌ لعمرى كانَ أكثر ناصرا ... وأبصرَ حزماً منك ضُرِّج بالدَّمِ[3]

رمى ضرع نابٍ فاستمرّ بطعنةٍ ... كحاشية البُرْد اليمانى المسهّمِ[4]

فقال لجساسٍ : أغثنى بشربةٍ ... تُدارك بها منّا علىّ وأنعمِ[5]

فقال :تجاوزت الأحصّ وماءه ... وبطنَ شُبيث وهو ذو مترسّمِ

---

(١) تنفط : احترق . (٢) ب : « ينظر » .

(٣) ديوانه ١٤٣ وفيه : « وأيسر جرماً » .

(٤) الناب : الناقة المسنة . والمسهم : المخطط بصور على شكل السهام .

(٥) الديوان : « تمن بها فضلا على وأنعم » .

رفع المسهم

الترسّم : اتباع الماء فى قعر البئر ، يقول : أىّ افتخار فى حياة تعرض علىّ فيها الامتحانات ، ثم بعد هذه المشقات تردّنى إلى الكبر والشيخوخة ؛ فلم أبال ، أدنا الموت أم تأخّر ، إذ المآل إلى الهرم القائد إلى الموت . وأشار بهذا إلى قول النمر بن تَوْلَب[1] :

يودّ الفتى طولُ السلامة جاهداً فكيف ترى طولَ السلامة يفعلُ !

وإلى قول حميد بن ثور :

أرَى بصرى قد رابنى بعد صحّةٍ وحسبك داء أن تصحّ وتسلَما

وجاء : كفى بالسلامة داء .

وجاء فى أجر البلايا قوله صلى الله عليه وسلم : «إن الرجل ليصيبه البلاء حتى يمشى فى الناس ما له خطيئة» .

أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الهوى والبلاء والشهوة معجونة بطينة آدم » .

* * *

قال : فدعَوْنَا لهُ بامْتِدادِ الأجَلِ ، وارتدادِ الْوَجَل ، ثمَّ تَدَاعَيْنَا إلى الْقِيَامِ ، لاتقاء الإبْرَام ،فقال : كلاَّ بل ابْثُوا بياضَ يَوْمِكم عِندِى، لتَشْفُوا بالمفاكَهَةِ وجْدِى ، فإنّ مُناجاتَكم قُوتُ نَفْسِى ، وَمِغْنَاطيسُ أُنسِى . فتحرّينا مَرْضَاتَهُ ، وَتَحَامَيْنَا مُعَاصَاتَهُ ، وَأقبَلْنَا عَلَى الْحَدِيثِ نَخُضُ زُبْدَه ، وَنُلغِى زَبَدَه ، إلَى أنْ حَانَ وَقت الْمَقيلِ ، وَ كَلَّتِ

(١) خاص الخاص ٧٨

رفع المسهم

الْأَلْسُنُ مِنَ الْقَالِ وَالْقِيلِ . وَكَانَ يَوْمًا حَامِيَ الوديقَة ، يَانِعَ الْحَدِيقَةِ ، فقال : إِنَّ النُّعَاسَ قَدْ أَمَالَ الْأَعْنَاقَ ، وَرَاوَدَ الْآمَاقَ ، وهو خَصْمٌ أَلَدُّ ، وَخِطْبٌ لا يُرَدُّ ؛ وفصلُوا حَبْلَهُ بِالْقَيْلُولَةِ ، وَاقْتَدُوا فيهِ بِالْآثَارِ المنقولة .

* * *

قوله ارتداد الوجل ، أى إزالة الخوف . واتقاء الإبرام : خشية التثقيل .

* * *

[ذكر تخفيف العيادة]

قال بعضهم :

إذا ما عُدتَ محموماً فخفّف ... فتخفيف العيادة خير عادَهْ

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أخفّوا العيادة ، وأقلّوا الجلوس ؛ والتعزية يوم » .

أبو القاسم الوزير بن عيسى ، قال : أنشدنى أبو بكر أحمد بن موسى ابن مجاهد ، وقد جئته عائدا ، وأطال قوم عنده الجلوس ، فقال لى : يا أبا القاسم ، عيادة ثم ماذا ؟ فصرفت مَنْ حضر ، ثم هممت بالانصراف معهم ، فأمرنى بالرجوع ، ثم أنشدنى عن محمّد بن الجهم :

لا تُضْجِرَنّ مريضاً جئتَ عائِدَهُ ... إن العيادة يومٌ أو بعض يومين

وسلْه عن حاله ، وادعُ إلاله لهُ ... واقعُد بقدر فُواقٍ بين حَلْبتين

مَنْ زارَ غِبًّا إذا دامت مودّته ... وكان ذاك صلاحا للخليلين

وقال آخر :

عيادة للمرء يوم بعـــد يومين وجلسةٌ لك مثل اللحظ بالعين[1]

لا تُبرمَنّ مريضاً فى مُساءلة يكفيك من ذاك تَسْآلٌ بحرفيْنِ

مرض[2] يحيى بن خالد ، فكان إسماعيل بن صبيح إذا دخل عليه يعوده وقف عند رأسه ، ودعا له ، ثم يخرج ويسأل الحاجبَ عن منامه وطعامه وشرابه . فلما أفاق قال : ما عادنى إلا إسماعيل بن صبيح ، ودعا له .

وممّن زاد على التخفيف فقطع الزيارة عبيد الله بن عبد الله بن ظاهر ، مرض أخوه محمد بن عبد الله فلم يعده عبيد الله ، فكتب له محمد :

إنى وجـــدتُ على جفا ئك مِنْ فعالك شاهدَا[3]

إنّى اعتللتُ فما وجدْ تُ سوى رسولِك عائدا[4]

ولو اعتللتَ فلم أجـــد سبباً إليـــك مساعِدَا

لاستشعرتْ عينى الكَرَى حتى أعـــودَك راقدَا

فأجابه عبيد الله أخوه :

كحِلت مقلتى بشوْك القَتادِ لم أذق مذ حُمِمْتَ طعم الرُّقادِ

يا أخى الحافظ المودّة والنّا[5] زل من مقلتى مكانَ السّواد

منَعتْنى عليـــك رقّة قلبى من دخولى عليك فى العُوّادِ

---

(١) العقد ٢ : ٤٥٠ . وفيه : « يوم بين يومين » .

(٢) الخبر فى العقد ٢ : ٤٥١ .

(٣) العقد ٢ : ٤٥١ .

(٤) العقد : « فما فقدت سوى رسولك » .

(٥) العقد : « الباذل المودة » .

رفع المسهم

لو بأذنى سمعت منك أنيناً لتفرّى من الأنين فؤادى

ومرض حماد عَجْرد ، فعاده أصحابه إلا مطيع بن إياس ، وكان خاصًّا به ، فكتب إليه يقول :

كفاك عيادتى من كان يرجو ثواب الله فى صِلَةِ المريضِ
فإن تحدثْ لك الأيام سقما يحول جريضُه دون القَريضِ
يكن طول التأوّه منك عندى بمنزلة الطّنين من البَعوضِ
فما نفسى عليكَ تذوب حُزناً وما دمعى عليك بمستفيضِ

ولمحمد بن عبد الله فى محبوب له مرض :

أليسك الله منه عافيةً تغنيك عن دعوتى وعن جَلَدِكْ
سقمك ذَا لا لعلة عرضتْ بل سقم عينيك دبّ فى جَسَدِكْ
فيامريض الجفون أحْيِ فتًى قتلتَه بالجفون لا بيدِكْ

وقال آخر فى محبوب له تركت الحمّى على فِيهِ أثراً :

يا أملِى كيف أنت من ألمكْ وكيف ما تشتكيه من سقَمِكْ
هذان يومان لى أعدّهما مذ لم تَلُحْ لى بُرُوق مبتسَمِكْ
حسدت حماك حين قيلَ لَنا بأنها قبلتك فوقَ فمِكْ

وقال العباس بن الأحنف :

قالت : مرضت فعُدْتها فتبرّمَتْ وهى الصحيحة والمريضُ العائدُ[1]
والله لو أنّ القلوب كقلبها ما رقّ للولد الضعيف الوالدُ[2]

(١) ديوانه ٨١ .
(٢) الديوان : « للولد الصغير » .

قوله : «البثوا» ، أى أقيموا . بياض يومكم ، أى طوله ، وبياض النهار : ضوءه : مناجاتكم : محادثتكم .

مغناطيس ، حجر يجلب الحديد تقول له العامة حجر المسّ . تحرّينا ، أى قصدنا . تحاميتا : تباعدنا . نمخّض زبده : نحرّك ونجمع فوائده ، وكنى بالزبد ، وهو جمع زبدة عن خيار الكلام . نُلغى زَبَده : نترك مالا خير فيه ، وزبد الماء : ما يعلوه من الرغوة . المقيل : النوم فى وقت القائلة . حامى الوديقة : شديد الحرّ . يانع الحديقة : ناعم الرّوضة ، والحديقة كلّ بستان محاط بحائط أو زرب . راود : طالَب . الآماق : العيون ، وأصله طرف العين من جهة الأنف . والخِطب : من يخطب المرأة . والقيلولة : الرقاد فى القائلة . والآثار : الأحاديث .

* * *

[نبذ مما قيل فى القيلولة]

قلنا وقال : يقال : قال يقيل قيلولة ومقيلا : نام نصف النهار .

أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله عليه وسلم « ثلاث مَنْ ضبطهن ضبط الصوم : من تسحّر ، وقال ، وشرب بعد مايأ كل » .

وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «قيلوا فإن الشياطين لاتقيل» . ودخل العباس على ابنه وهو مضطجع ، فضربه برجله ، وقال : قم لا نامت عيناك ! تنام فى ساعة يقسّم فيها الرزق ! وإنّما النوم على إحدى خصال : خُرْق أو حمق ، أو خلق ، فنومة الحمق بعد العصر ، لا ينامها إلا سكران أو شيطان ، ونومة الخرق نومة الصبح ، ونومة الخلق نصف النهار » .

ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : استعينوا بقيلولة النهار على قيام الليل ، وبالسّحور على صيام النهار .

رفع المسهم

قال الراوى : فاتَّبعنا ماقال ، وقلنا وقال . فضرَب الله على الآذان، وأفرغَ السِّنَة فى الأجْفَانِ ؛ حتى خرجنا من حُكم الوُجود ، وصُرِفنا بالهجود عن السُّجود، فما استيقظنا إلاَّ والحُرُّ قَدْ باخ ، واليومُ قَدْ شاخ، فتكرَّعْنا لصلاة العَجْماوَيْن ، وأدَّيْنا ماحَلَّ من الدَّيْن .

ثم تحثحثْنا للارْتحال ، إلى مُلْقَى الرِّحال ، فالتفت أبو زيدٍ إلى شِبْلِهِ ، وَكَان عَلَى شَاكِلَتِهِ وَشَكْلِهِ ، وَقال : إنّى لإخال أبا عَمْرة ، قد أضْرَم فى أحْشَائهم الجَمْرَة ، فاستَدْع أبا جامع ، فإنَّه يُشْرَى كلَّ جائع ، وَأَرْدِفْهُ بأبى نُعَيْمٍ ، الصَّابِرِ عَلَى كلِّ ضَيْمٍ ، ثمَّ عَزِّزْ بأبى حَبِيب المحبَّبِ إلى كلِّ حبيب ، المُقلَّبِ بَيْنَ إحراقٍ وتعذيب ، وَأَهِبْ بأبى ثَقيف ، فحبَّذا هُوَ مِنْ أليف ، وَهَلُمَّ بأبى عَوْن ، فَمَا مِثْلُهُ مِنْ عَوْنٍ ، وَلَوِ استحضرْتَ أبا جميل ، لَجَمَّل أىّ تجميل .

* * *

قوله: « السِّنة ، النوم . الهجود : الرقاد . باخ : سكن حرّه . تحثحثنا ، أى تحرّكنا . ملقَى الرحال : موضعها . شبله : ولده . شاكلته : طريقته . شكله : مثله ، وتكون الشاكلة والشكل واحداً وجمع الشكل أشكال وشكول .

إخال : أحسب ، وكنّى الجوع أبا عُمرة ، لأنه يعمر كلّ جوف ؛ قيل لمدنى : أتعرف أبا عمرة ؟ قال : كيف لا أعرفه وقد تربع فى كبدى .

رفع المسهم

وقال الراجز :

حلّ أبو عَمْرة وَسْطَ حُجْزَتى وحلّ نسج العنكبوت بُرْمَتِى

أضرم : أوقد ، وكنّى الخوان ـ وهو المائدة ـ أبا جامع للاجتماع حوله للأكل . وأردفه : جيء به خلفه ، وكنى الحوّارى ، وهو الدرمك أبا نُعيم ، لأن خبزه أنعم الأخباز وأصفاها .

الضّيم : الذلّ ، وجعله صابرا على كل ذلّ ، لأنه لا يصل من صورة البر إلى الخبز إلا بعد علاج شديد ، وتغيير له من حال إلى حال .

وفسر معنى أبى حبيب بقوله : المحبّب إلى كل لبيب . وقوله : المقلّب بين إحراق وتعذيب ، يريد أنّ ما ولى من الجدى النار وقت شبّه احترق ، ومالم يلِها أدركه حرّها فأنضجه وأسال وَدَكه ، فذلك تعذيبه .

أهِبْ : ادْعُ به وصِحْ به .

وكنّى الخل أبا ثقيف لأنه يثقف الطعام ، أى يحذقه فيطيب للأكل .

أليف : صاحب ، وإنما قال : حبذا هو من صاحب ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « نعم الإدام الخل » .

وكنّى الملح أباعون ، لأنه يُستعان به على أكل الطعام ، وطعام بلا ملح لا يؤكل ، وقد أشار إلى هذا بقوله : فما مثله من عَوْن .

وكنى البقل أبا جميل لأنه يحسّن بحضرته الإدام ويزيّنه ، أو لأنه يذهب بالجميل ، وهو وَدَك اللحم فيخفّ للأكل وقوله : لجمّل أى تجميل ، أليق بالتفسير الأول ، ولا يمتنع من الثانى ؛ وحدث واثلة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أحضروا موائدكم البقل فإنه مطردة للشيطان مع تسمية الله تعالى » .

أبو الفضل بن مالك : يعجبني البقل على المائدة فإذا رأيت السكباج نسيت البقل . السكباج : لحم بخلّ، والسكّ بالفارسية، الخلّ ، والباج اللحم ، وسمى السكباج بأمّ القرى لأنه من أجلّ أطعمتهم .

* * *

وَحَيَّهَلْ بأمِّ الْقِرَى ، الْمُذَكِّرةِ بِكِسْرَى ، وَلاَ تتناسَ أَمْ جابر، فَكم لَهَا مِنْ ذاكِرٍ ، وَنَادِ أمَّ الْفَرَجِ ، ثم افتِكْ بها ولا حَرَجَ ، وَاخْتِمْ بأبي رَزِين ، فهو مِثْلاَةُ كلِّ حَزِينٍ ، وَإِنْ تَقْرُنْ به أبا الْعَلاء ، تَمْحُ اسْمَكَ مِنَ الْبُخلاء . وَإِيَّاكَ وَاسْتِدْنَاءَ الْمُرْجِفِينَ ، قبل اسْتِقْلالِ حُمُولِ الْبَيْنِ ، وَإِذَا نَزَعَ الْقَوْمُ عَنِ الْمِرَاسِ ، وصافَحُوا أَبا إِياسٍ ، فأَطِفْ عَلَيْهِمْ آبَا السَّرْوِ ، فَإِنَّهُ عُنْوانُ السَّرْوِ .

* * *

وأمّ الشيء : معظمه وجليله ، ومنه أمّ القرآن الحمد لله ، وأمّ القرى لمكة المشرّفة ، وأمّ الشيء أجلّه ، والقِرى : طعام الضيف ، فكأنه قال : عجّل بطعام فاضل يقدّم للضيف .

وكسرى ملك الفرس ، وجعلها تذكّرته ، لأنه أوّلُ مَنْ صنعت له ، فاستعملها ، وأمر بإجادة الصنعة فى طبخها ، وقيل : إن غيره طبخها واستعملها فى زمن كسرى فنُسبت إليه .

وكنى الجُوزَابَةَ بأم الفرخ ، وهى خبزة توضع فى التنّور ويعلّق عليها طير أو لحم ، فيسيلُ ودَكه فيها ما دامت تطبخ ، فتفرج عنك هَمَّ الإدام فلا تحتاج إليه فهى خبزٌ بإدامه .

رفع المسهم

افتكّ بها ولا حرج ، أى كُلْها ولا إثم عليك ، وإن كان اللفظ يعطيك معنًى آخر ، فالمراد به هذا .

وكنى الخبيصَ أبارَزين لفضله فى الطعام وشرفه ورجحان ثمنه ، وجعله آخر ما يؤكل ، والرزين من الرّجال : الكثير الوقار ، وقرن به الفالوذج ، لأنه نوع منه ؛ قال بعض الطفيلية : الحلواء مثل الملك ، يدخل بيتاً فيه قوم جلوس ليس فيه مقسع لأحد ، فإذا نظروا إلى الملك تضايقوا وأوسعوا له .

وكان عبد الله بن جُدْعان سيّداً شريفاً فى قريش ، فوفد على كسرى وأكل عنده الفالوذج ، فسأله عنه فقيل له : هو الفالوذج ، قال : وما هو ؟ قيل لُباب البرّ مع عسل النّحل ، فقال : ابغُوا لى غلاما يصنعه فأتوه به فابتاعه ، وقدم مكة فصنع بها الفالوذج ، فوضع الموائد بالأبطح إلى باب المسجد ، ثم نادى : ألا من أراد الفالوذج ، فليحضر ! فكان فيمن حضر أمية بن أبى الصلت ، وكان يمتدحه كثيراً فقال فيه :

لكلّ قبيلةٍ رأسٌ وهادٍ ... وأنت الرأسُ تقدمُ كلّ هادى[1]

له داعٍ بمكةَ مشمعلّ ... وآخر فوق دارَتِهِ ينادى

إلى رُدُحٍ من الشّيزى[2] مِلاء ... لباب البرّ يلبك بالشهاد

ولُباب البرّ : خالص القمح ، ويسمى النّشا . يلبك : يخلط ، والشهاد : العسل ، والفالوذج : الذى رأيت يسجلماسة هو العسل والسمن يوضعان على النار ، ثم يعقدان بالنشا ، ثم يلوّن الكلّ بالزعفران فيجىء متعقّق الحمرة ، فيقطع قطعاً

---

(١) ديوانه ٢٧ .

(٢) الشيزى : خشب أسود تتخذ منه القصاع والجفان ، والردح : الجفان الواسعة .

على قدر أكبر التمر ، وفى شكله ، ويؤتى به فى الأعراس بعد الشواء ، ويؤتى بالطبيص آخرا ، وخبيصهم فى غاية البياض ليس كخبيص الأندلس ، ويُقرّص قُرصاً على قدر صغار الجبن ، فمن رآها على بعد لم يشكّ أنها جُبْن . ويعدّ رجال المائدة ، ويؤتى بطبق كبير فيوضع بين أيديهم ، وأمام كل رجل قرصته ، فلا يكاد يكملها بالإكل لإفراط حلاوتها . وأكثر أطعمة أهل القبلة مستملاة من أطعمة أهل المشرق ؛ وكذا أكثر أحوالهم من مبانيهم وأشكال ديارهم وسطوحها ، واستعمال الإبل فى السواقى والطواحين ، ودقّ النوى لعلفها نعم ، وعلى أنّ البربرية غالبة على ألسنة أهل القبلة فهم يستعملون كثيراً من ألفاظ أهل العراق ، يقولون لفرق الناس الشّماسك ، وكذا تسمية أهل سجلماسة ، ويسمون البرّادة التى لشرب الماء بُوقالا ، وكذا تسمية أهل سجلماسة ، وجمع البوقال بواقيل ، قال الحسن بن هانئ :

أضمرتُ للنيل هجرانا ومقليةً ... إذ قيل لى إنما التّمساح فى النّيل

فَمَنْ رأى النيل رأى العين من كثبٍ ... فلا أرى النيل إلا فى البواقيل

وكان رأى التمساح أخذ رجلا ، فهجا النيل . والبرّادة عندهم آنية من صُفْر ، فيها مخاطيف يعلّق فيها البواقيل ، وترفع للهواء فيبرُد فيها الماء .

قوله : المرجفين ، الطست والإبريق ، لأنّ لهما عند أخذهما صوتا ، بنقر أحدهما فى الآخر ، فكأنّ ذلك الصوت يرجف ، أى يخبر بتمام الطعام والحث على القيام .

أبو بكر الصفار : حضر مجنون بالكوفة طعامَ قوم ، فجلس يأكل ، فجعل الغلام يحرّك الطشت والإبريق ، فقال : من هذا الذى يرجف بنا قبل انقضاء عملنا ؟

رفع المسهم

بينما صُفَيلٌ يأكل ، سمع صوت دقّ الأسبان ، فامتنع من الأكل فقيل له : ألا تأكل ؟ قال : حتى يسكن هذا الإرجاف الذى أسمع .

وقيل لطفيليّ : ممّ اصفرّ وجهك ؟ قال : من فترة بين قَصْعتين ، مخافة أن تكون قد فنيت .

استقلال : ارتفاع . حول البين ، أى إبل الفراق ، ويريد بها الموائد لأنها إذا ارتفعت يفرق أهل المجلس ، فيقول : إياك أن تقربهما قبل أن ترتفع الموائد ، فيتهيأ الناس للغسل والانصراف ، فإن غسلت الأيدى والموائد باقية توهّم أن ثمّ طعاما يُستأنف أكله

نزع : زال وتنحّى . المراس : غسل الأيدى ودَلك بعضها ببعض .

صافحوا : باشروا ، والغَسُول قد تقدّم فى السابعة .

أطف : اجعله يطوف وقد بيّن لما كناه أبا السرو ، أنه من فعل السرىّ من الرجال ، وعنوان السرو : دليل المروءة .

* * *

قال : ففقه ابنه لطائف رموزه ، بلطافة تمييزه ، فطاف علينا بالطيبات والطيب ، إلى أن آذنت الشمس بالمغيب . فَلَمّا أجمعنا على التّوْديع ، قُلْنَا له : أَلَمْ تَرَ إلى هَذَا اليومِ البديع ، كيف بَدَا صُبْحُهُ قطريراً ، ومُسْيُهُ مستنيرا ! فسجَد ثم رفع رأسه ، وقال

لا تيأَسَنْ عند النُّوَبْ ... من فَرْجةٍ تَجْلو الكُرَبْ

فكَمْ سَمومٍ هبّ ثمّ جَرَى نَسِيما وانقلب

وسَحَابٍ مكروه تَنشّى فاضْمَحَلّ وما سَكَب
ودُخَانِ خَطْبٍ خيفَ مِنْـــهُ فما استبانَ له لَهَب
وَلَطَالَمَا طَلَعَ الأَسَى وَعَلَى تفيئَتِـهِ غَـرَب
فاصبِرْ إذا ما نابَ رو ْ عٌ فالزّمانُ أبو العَجَب
وترجَّ من رَوْحِ الإلـــهِ لطائفاً لاتُحْتسبْ

قال: فاستَمْلَيْنا منه أبياته الغُرّ، ووالَيْنا لله تعالى الشكر، وودَّعناهُ مسْرُورين ببُرْئِه، مغمورين ببرِّه:

* * *

قوله: «فقه»، أى فهم. لطائف: دقائق. رموزه: إشاراته الخفية، والرَّمْز: الإشارة بالشفتين أو العينين. آذنت: أعلمت. أجمعنا: عزمنا. البديع: العجيب. قطريرا: مظلما، ورجل قطرير: شديد العبوس، واقطرّ القوم: اشتدوا. الصُّبْح والمُسْى: اسمان لوقت زوال الظلام والضياء. مستنيرا: كثير الضوء.

والنُّوَب: النوازل. فُرْجة: راحة. تجلو الكُرَب: تزيل الهموم، وأنشدوا فى هذا المعنى:

لا تضيقنّ فى الأمور فقدَ تُكْـشَفُ غَمّاؤهـا بغـير احتيالِ[1]
رُبما تكرَهُ النفوس من الأمـــر له فَرْجَة كحل العِقـــالِ

كذا أنشدوه فَرْجَة بالفتح، والفُرْجة بالضم فى الحائط وشبهه، وبالفتح فى الأمر، وانظر هذا البيت فى الأربعين فى أخبار [أبى] عمرو بن العلاء.

سَموم: ريح حارة. نسيما: ريحانيّته. تنشّى: ابتدأ وظهر. اضمحلّ:

(١) البيتان فى اللسان ـ فرج ونسبهما إلى أمية بن أبى الصلت.

زال . سكب : أمطر . خطب : أمر شديد . لهب النار : اشتعالها بغير دخان ، وفى هذا المعنى قال أبو نواس :

خَفِّضْ عليك ولاتَكُنْ قَلِقَ الحَشَا ... مما يكون وعَلَّهُ وعَسَاهُ
فالدهر أقصر مُدَّة مما تَرَى ... وعساك أن تُكْفَى الذى تَخْشَاهُ

وقال أيضا :

حَسِّنِ الظنَّ بمَنْ قد عَوَّدَكْ ... كلَّ إحسان وقوَّى أوَدَكْ
إن ربا كان يكفيك الدى ... كان بالأمس ، سيكفيك غدَكْ

الأسى : الحزن . تفيئته ، أى حينه ، وقال الزَّبيدى فى الأبنية : جاء على تفيئة ذلك ، وتفِيئُتُهُ حينه ووقته . والرَّوْح . الرزق : والرَّوْح : السرور والفرحَ ، والروْح : بَرْد نسيم الراحة .

اللطائف : جمع لطيفة ، وهى رِفق الله تعالى بعباده وإحسانه إليهم ، واللطيف : الرفيق والمحسن ، وأرادفى البيت : ارجُ فى شدائدك الله ، فله ألطاف كثيرة لا تحصى بالعِدّة ، فبعد العسر يُسر .

* * *

[نبذ من الأقوال الحكيمة فى الفرج بعد الشدة]

وأنشد أبو حاتم فى معنى أبيات المقامة :

إذا اشتملتْ على اليأسِ القلوبُ ... وضاقَ لِمَا به الصَّدْرُ الرَّحيبُ
وَوُطِّنَتِ المكاره واطمأنَّتْ ... وأرست فى مكامنها الخطوبُ

ولم ترَ لانكشاف الضُّرّ وجهاً ولا أغنى بحيلته الأريبُ
أتاك على قُنوطٍ منه غَوْثٌ يمُنّ به اللّطيف المستجيبُ
وكلّ الحادثات إذا تناهت فمقرونٌ بها الفرجُ القريبُ

قال أبو بكر بن الأنباري : أنشدني إسماعيل القاضي :

لا تعقبنّ على النّوائبْ فالدّهر يُرْغِمُ كلّ عاتِبْ
واصبرْ على حَدَثانِهِ إن الأمورَ لها عواقِبْ
ولكلّ صافيةٍ قذًى ولكلّ خالصة شوائبْ
كم فَرْجةٍ مطويّةٍ لك بين أثناء النّوائبْ
ومَسرّةٍ قد أقبلتْ من حيث تُنتظر المصائبْ

قال القاضي رحمه الله : ما عرض لي همّ فادح ، فذكرت تلك الأبيات ، إلا رجوت من الله الفرج ، ثم تئولُ عاقبة ما أحذره إلى فاتحة ما أوثر .

قال عليّ الكاتب : أصبحت يوماً مغموماً غمًّا لا أعرف سببه ، فجاءني رجل بظهر حُوار وإذا فيه :

روّح فؤادك بالضُّحَى ترجع إلى رَوْح وطيبِ
لا تيأسن وإن ألحّ الدهر من فرج قريب

قال : فزال عني الهمّ ، ووجدت طعم الفرج .

وحكى الأصمعيّ رحمه الله تعالى قال : بتُّ ليلةً بالبادية وحيداً مغموماً ، فلما انتهى الليل سمعت قائلا يقول ولم أر شخصه :

فرج القضاء بكفّ مَنْ بقضائه نَزَل البلاء

واصـــبر فكلّ شديدةٍ لا بدّ يتبعُها رَخـــاء

وقال آخر :

سوفَ تبلى كلّ جدَّهْ وستقضى كلّ مـــدّهْ
إنما الدهر عنـــاء وعـــوارٍ مســـتردّهْ
شدّة بعـــد رخـاء ورخـاء بعد شدة

وقال آخر :

خف إذا أصبحت ترجُو وارجُ إن أصبحت خائفْ
ربَّ مكروه مخـوّفٍ فيـــه للهِ لطـائفْ

* * *

قوله : استمليتها : كتبتها . الفرّ : الحسان . واليْنا . تابعْنا . مغمورين : مغطين . برّه . إفاقته . برّه : إحسانه وإكرامه .

وحَبَّهل : قال ابن الأنبارى : فيها ست لغات .

قال عبد الله بن مسعود . إذا ذكر الصالحون فحيّهلاً بعمر ، ومعناه أقبلوا على ذكر عمر ، فتنوّن هَلاً وتنصبه على المصدر ، كأنه قال : مرحباً به .

الثانى : تفتح حيَّ وَهَل وتبنيها كخمسة عشر .

الثالث : تسكن هاء « هلا » هذه الشبهة لكثرة الحركات .

الرابع : حيّهل بتسكينهما جميعاً كبَخْ بخْ .

الخامس : حيّهل إلى عمر : أى هلموا إلى ذكره .

السادس : حيهل على عمر : أى أقبلوا على ذكره .

رفع المسهم

تفسير ألفاظ ما تضمنته هذه المقامة

من كلمات لغوية وكنى طفيليه وكنايات صوفية

قوله : ذات اللويم ، يعنى به الزمان المتقادم ، ومثله ذات الزمن .

والسمهرية : الرماح ، وفى تسميتها بذلك قولان : أحدهما أنها سميت بذلك لصلابتها ، من قولهم : اسمهرّ الشيء ، إذا اشتدّ . وقيل إنّها منسوبة إلى سمهر زوج رُدَينَة ، وكانا جميعاً يقوّمان الرماح بسوق هَجَر فَنُسِبَتْ إليهما .

وقوله : نقضاً على نِقض : أى مهزولا على مهزول .

و « الجران » باطن العُنق ، وقيل منه يُعمل السياط .

وقوله : فضرب الله على الآذان ، أى أنامنا ، ومنه قوله عز وجل ﴿ فضربنا على آذانِهِمْ فى الكَهْف ﴾، أى أنمناهم ، وقيل فى تفسيره منعناهم السمع .

وقوله : تكرّعنا لصلاة العجْماوَيْن ، أى غسلنا أكارعنا ، وهو كناية عن الضوء ، والعجماوان : صلاتا الظهر والعصر ، سُمّيتا بذلك لإسرار القراءة فيهما ، ومنه الحديث : « صلاة النهار عجماء » .

وقوله : هلمّ ، أى قل هلمّ ، وهى تأتى بمعنى هاتِ وبمعنى أقبل ، والأفصح أن يوحد لفظهما مع المذكر والمؤنث والاثنين والجمع ، وبه نطق القرآن فى قوله تعالى: ﴿ والقائلين لإخوانهم هَلُمَّ إلينا ﴾، ومن العرب من يقول للمذكر الواحد هَلُمّ ، وللاثنين هَلُمّا ، وللجمع : هلمّوا ، وللمؤنث الواحده هلمّى وللاثنتين هَلُمّا ، وللجمع هَلُمْنَ

وقوله: حَيَّهْل ، أى عجّل وأسرع ، يقال : حيّ هلْ بفلان بتسكين اللام

رفع المسهم

وفتحها ، وتنوينها وبإثبات النون معها ، ومعه قول ابن مسعود فى عمر رضى الله عنه : إذا ذكر الصالحون فحىّ هَلاً بعمر ، وفى حَيَّهْل لغات أخر أضربنا عن ذكرها ، إذ ليس هذا موضع استيفاء شرحها .

فهذا تفسير الألفاظ اللغوية .

وأمّا تفسير الكنى الطفيلية والكنايات الصوفية :

فأبو يحيى ، كنية الموت

وأبو عمرة : كنية الجوع ، ويكنى أيضاً أبا مالك .

وأبو جامع : الخوان .

وأبو نعيم : الخبز الحوّارى .

وأبو حبيب : الجدى .

وأبو ثقيف : الخل .

وأبو عون : الملح .

وأبو جميل : البقل .

وأمّ القرى : السِّكْباج .

وأم جابر : الهريسة .

وأم الفرج : الجوذاب .

و أبو رَزِين : الخبيص .

وأبو القلاء : الفالوذق « كذا فى الأصل » .

وأبو إياس : الفسول .

والمرجفان : الطست والأبريق . وأبو السرو . البخور .

رفع المسهم

المقامة العشرون وهي الفارقية

حكي الحارث بن همّام قال : يَمَّمْت ميّافارِقين ، مع رُفْقَةٍ موافقين ، لا يُمارُون فى المُناجاة ، ولا يَدْرُون مَاطَعْمُ المُداجاة ، فكُنْتُ بهم كمَنْ لَمْ يَرِمْ عَنْ وَجارِه ، ولا ظَعَنَ عن أليفِهِ وجارِه . فلمّا أنَخْنا بها مطايا التَّسْيار ، وانتقَلْنا عَنِ الأَكْوارِ إلَى الأَوْكارِ ، تَواصَيْنا بتَذْكارِ الصُّحْبَةِ ، وتناهينا عن التَّقاطُعِ فى الغُربة ، واتَّخَذْنا نادِيًا نَعْتَمِرُهُ طَرَفَي النَّهارِ ، ونتهادى فيه طُرَفَ الأخبار ، فبينا نَحْنُ به فى بَعْضِ الأيامِ ، وقَدِ انتَظَمْنا فى سِلْكِ الالْتئامِ ، وَقَفَ عَلَيْنا ذُو مِقْوَلٍ جَرِىّ ، وجرْسٍ جَهْوَرِىّ ، فحيّا تَحِيَّة نفّاثٍ فى العُقَدِ ، قَنّاصٍ للأُسْـــدِ والنَّقَدِ ، ثم قال :

* * *

يممت ، أى قصدت .

[ذكر ميافارقين]

ميّافارقين ، بلدة منها إلى نصيبين ثلاثون فرسخا ، وميافارقين بديار بكر ، وهى من كُور الجزيرة ، وكان تملّكها سيفُ الدولة ، وذكرها المتنبى ، فقال :

نجانفَ عن ذات اليمين كأنّها ترَقُّ لميّا فارقين ونرحمُ[1]

(١) ديوانه ٣ : ٣٥٨ .

الفنجديهى : سمعتُ بعضَ الأدباء يقول : سُمّيت ميافارقين ، لأنّ ذا الرمّة أو غيره من العشاق ، لو وصل إليها بالاتّفاق ، وشاهد وجوه أهلها الملاح ، والعيون السقيمة الصحاح ، وعاين رشاقة القدود ، ولباقة الخدود ، وسواد العِذَار ، وبياض الغُرر ، وسمرة الشّفاه اللمس ، وحمرة الوجنات والجباه المُلَس ، لقال لصاحبته : مَيِّافارقيني ، ولا ترافقيني ، فلا يجوز التيمم مع وجود الماء ، ولا حاجة إلى الدواء بعد البرء والشفاء .

* * *

قوله : « يمارون » أى يجادلون ولا يخالفون . المناجاة : المحادثة . المداجاة : المساترة بالعداوة . لم يرم : لم يزل . يقال ما رامني ولا يريمني ، أى لم يبرح عنى ولا زال ، ولا يقالُ إلاّ منفيًّا وَجاره : لده ، وأصله الجحْر : ظعن : رحل . أليفه : صاحبه . الأكوار : الرحال . الأوكار : البيوت ، يريد أنهم أتموّا سفرهم وبلغوا الوطن ، فتركوا النقلة وأقاموا فى البيوت . تناهينا : نهى بعضُنا بعضًا . ناديًا : مجلساً . نعتمره طرفى النهار ، أى نجلس فيه بالغدوّ والعشىّ . طُرَف : غرائب . السِّلك : خيط النظام . وانتظمنا : اجتمعنا فيه . الالتئام : الاتفاق ، يقال : لسان جرىء مقدم على الكلام . جرس : صوت . جَهْورِىّ : عالٍ . نفّاث : ساحر ، والعُقد : ما يعقِدها السّحرَة وينفثُون عليها بالبصاق . قمّاص : صائد . النَّقَد : غنم صغار .

* * *

عِنْدِىَ ياقوم حدِيثٌ عَجِيبٌ فيهِ اعتبارٌ للّبيبِ الأريبْ
رأيت فى ريعان عُمْرى أخا بأسٍ له حَدُّ الحسام القَضِيبْ
يُقْدِمُ فى المعرك إقدام مَنْ يُوقِنُ بالفتْك ولا يستريبْ

فيُفرِجُ الضِّيق بكرّاته حتّى يرى ما كان ضنكا رَحيبْ
ما بارز الأقران إلا انثنى عَنْ مَوْقِفِ الطَّعْنِ برمْحٍ خَضِيبْ
ولا سَما يَفْتَحُ مُسْتَصْعباً مُستغلِقَ البَابِ مَنيعاً مَهيبْ
إلا ونُودِى حِين يَسمُو لَهُ نَصْرٌ من الله وفَتحٌ قَرِيبْ
هذا وكَمْ مِنْ لَيْلَةٍ بَاتَهَا يَمِيسُ فى بُرْدِ الشَّبابِ القَشِيبْ
يرتشف الغيدَ وَيَرْشُفُنَهُ وَهُوَ لَدَى الْكُلِّ الْمُفَدَّى الحبيب
فَلَمْ يَزَلْ يَبْتَزُّهُ دَهْرُهُ مافيه من بَطْشٍ وعُودٍ صَلِيبْ
حَتَّى أصارتْهُ اللّيالى لَقًى يعافُهُ مَنْ كانَ مِنْهُ قَرِيبْ
قد أَعْجَزَ الرَّاقِيَ تَحْلِيلُ مَا بِهِ مِنَ الدَّاء وأعْيَا الطَّبِيبْ
وصارم البيضَ وصارمْنَهُ مِنْ بَعْدِ ما كان المجابَ المجيبْ
وآض كالمنكوسِ فى خَلْقِهِ ومَنْ يَعِشْ يَلْقَ دواهِى المَشِيبْ
وها هو اليوم مسجًّى فمَنْ يَرْغَبُ فى تكفِينِ مَيْتٍ غَرِيبْ

* * *

واللبيب والأريب : كلاهما بمعنى العاقل . رَيْعان : أول . أخا بأس : صاحب شدة . الحسام المقضيب : السيف القاطع . المعرَك : موضع القتال ، وأراد به فروج الأبكار . الفتك : سَفْك الدم ، وهو أيضاً ركوب الرجل ما همّ به . كرّات : دفعات ورجَعات . ضنكا : ضيقا . رحيب : واسع . بارز : قاتل . الأقران : الأمثال فى الشدّة وغيرها . انثنى : رَجَع . خَضِيب : مخضوب ، يريد أيضا افتضاض الأبكار . سما : ارتفع وقام . منيع ، أى صعب ممنوع . مهيب : مخوف . يميس : يتبختر . يرتشف : يقبّل ويمصّ ريقهنّ . والترشّف :

المص الكثير . والغيد : جمع غَيْداء ، وهى الليِّنة المفاصل من النِّعمة ، وقيل : المائلة العنق فى نعمة . يبتزّه : يجرّده . والبطش : القوة والتناول الشديد . صليب : قوىّ شديد . لقّى : طريحا . يعافه : يستثقله ويكرهه . تحليل : إذهاب وإزالة ، وتحلّل الداء : ذهب شيئاً فشيئا . أعيا : غلَب . صارم : قاطع . البِيض : النساء الحسان . المجاب : الذى تجيبه النساء لحاجته منهنّ . والمجيب : الذى يجيبهن لحاجتهنّ منه . آض : رجع : المنكوس : المردود إلى حالته الأولى من الضعف ، وأشار إلى قوله تعالى : ﴿ اللهُ الَّذِى خلقكمْ مِنْ ضَعْفٍ ثمّ جَعَلَ من بعدِ ضعفٍ قُوَّةً ثمّ جعلَ من بعد قُوَّةٍ ضعفا وشيبة ﴾ ، فردّه إلى الحالة الأولى ، وهذا هو النّكس فى الخلق ، والنّكس فى المرض أن يمرض ، ثم يبرأ ، ثم يمرض . والنّكْس فى السهام : أن ينكسر السهم ، فيُجعل فى الجعبة محوّلا الكسر إلى فوق ، فإذا أدخل الرامى يده فى الجعبة ليأخذ سهما فوجده محوّلا تركه وأخذ غيره . دواهى المشيب : حوائج الشيخ من الضعف والعلل وغير ذلك .

ونذكر هنا من الأدب ما يليق بالموضع :

* * *

[شكوى الضعف والكبر]

دخل المستوغر بن ربيعة على معاوية وهو ابن ثلثمائة سنة ، فقال : كيف تجدك يا مستوغر ؟ فقال : أجدنى قد لان منّى ما كنت أحبّ أن يشتدّ ، واشتدّ منى ما كنت أحبّ أن يلين ، وابيضّ منى ما كنت أحبّ أن يسوّد ، واسودّ منى ما كنت أحبّ أن يبيض ، ثم أنشأ يقول :

رفع المسهم

سلنى أنبئك بآيات الكِبَرْ نَوْمُ العشاء وسُمَالٌ بالسَّحَرْ
وقلة الطعم إذا الزاد حَضَرْ وتركك الحسناء من قبل الظُّهُرْ
* والناس يَبْلَوْن كما تَبلَى الشَّجَرْ *

ثم قال : ألا أخبركم بجيّد العنب ؟ هو ما زَوِىَ عمودُه ، واخضر عوده ، وتفرّق عنقودُه . ألا أخبركم بجيّد الرُّطَب ؟ هو ما كبر لحاه ، وصغر نواه ، ورقّ سَحَاه .

وفى الزبور : مَن بلغ السبعين اشتكى من غير علة .

وقال ابن أبى معن :

من عاش أخلقت الأيام جِدَّته وخانه ثقتاه السّمع والبصرُ

* * *

قوله مسجّى : أى مغطى .

* * *

[استطراد بذكر بعض الأفاكيه]

ووصف فى أوّل الشعر ذكره بالشدة وفى آخره باللين ، وأذكر من الصفتين ما يكون من شرط ما ذكر .

حكى أبو زياد الكلابى ، قال : كان عندنا أبو الغريب شيخاً فتزوّج ولم يُولم ، فاجتمعنا على باب خِبائه فصحنا : أولِمْ ولو ببربوع ، أو بقرد مجذوع ، قتلتنا من الجوع : فأولم ، فلما عرّس غدونا عليه فقلنا :

يا ليت شعرى عن أبى الغريبِ إذ باتَ فى مجاسدٍ وطيبِ[1]

(١) ذيل زهر الآداب .

رفع المسهم

معانقـاً للرشأ الرّبيبِ أأخذ المحفار فى القليبِ

* أم كان رخواً يابس القضيبِ *

فصاح : يابس القضيب والله ! ثم أنشأ يقول :

سقياً لعهد خليلٍ كان يأدم لي زادى ويُذهبِ عن زوجاتيَ الغضبْ

كان الخليل فأضحى قد تخوّنه مرُّ الزمان وتَطعانى به النُّشَبْ

يا صاح أبلغ ذوِى الزوجات كلّهمُ أن ليس وصلٌ إذا انحلّتْ عُرَا الذَّنَبْ

والقوافى وقعت فى لفظ يعقوب موقوفة . وعُرَا الذنب : عُروق الذكر .

وكان أبو البيداء الأعرابىّ عِنّيناً ، وكان يتجلّد ويقول لقومه : زوّجونى امرأتين، فيقولون : أمَا فى واحدة كفاية ! فيقول: أمّالى فلا ، فزوّجوه أعرابيّة ، وقالوا له : إن كفتك وإلا زوّجناك الأخرى ، فدخل بها ، وأقام عليها أسبوعاً فزاره إخوانُه فى اليوم السابع ، فقالوا له : يا أبا البيداء ، ما كان من أمرك فى الأوّل ؟ فقال : عظيم جدًّا ، فقالوا : فى اليوم الثانى ، فقال أعظم وأجلّ ، قالوا : فى اليوم الثالث ، قال : لا تسألوا ، فقالت امرأته من وراء الستْر :

كان أبو البيداء ينزو فىْ الوَهَقْ حتى إذا ما حلّ فى بيت أفَقْ

فيـه غزال حسن الدّل خَرِقْ مارسه حتى إذا ارفضّ العرَقْ

* تـكسّر المفتاح وانسدّ الغَلَقْ *

الوَهَق : حبْل يفتح فيه عين واسعة تؤخذ بها الدابة ، والأفَق الجيد . وينزو : يمتدّ ويقصر .

وتزوّج الفرزدق بامرأة من مجاشع ، فعجز عنها فقال :

يا لهفَ نفسِى على نَعظٍ فجمتُ به حين التقى الرّكبُ المحلوق والرّكبُ

ما أبعد ما بين حالته هذه وبينها وقد لقيته جارية ، فنظرها نظرا شديداً ، فقالت له : مالك تنظر ، فوالله لو كان لى ألف حِرٍ ما طمِعْتَ فى واحد ، قال : ولم يا لخناء ؟ قالت : لقبح منظرك وسوء مخبرك فيما أرى ، فقال لها : أما والله لو خبَرْتنى لغفر مخبرى على منظرِى ، ثم كشف لها وأراها مثل ذراع البَكْر ، فكشفت له عن مثل سنام البَعير ، فتسنّمها ، وقال :

أدخلت فيها كذراع البكْرِ مُدَمْلج الرأس شديد الأسْرِ
زاد على شبرٍ ونصف شبر كأنما أولجته فى جُحْرِ

وسمع بشار كلام امرأة ، فأحبّها وأرسل لها أن تواصله ، وألحّ عليها ، فقالت لرسوله : أى معنى له فىّ أولِى فيه ، وهو أعمى لا يرانى ، فيعرف جمالى ، وهو قبيح الوجه لاحظّ لى فيه ! فليت شعرى لأىّ شىء يطلب وصال مثلى ! فأدّى إليه الرسول كلامَها ، فقال عُدْ إليها فقل لها :

أيُرِى له فضل على آبارهمْ وإذا أشطّ سجدن غير أوابِى[1]
تلقاه بعد ثلاث عشرة قائماً نظر المؤذن شكّ يوم سحابِ
وكأنّ هامةَ رأسه بِطّيخةٌ حُملت إلى ملك بدجلة جابِى

وعشق[2] امرأة وتردّد رسوله إليها حتى أبرمها ، فشكته إلى زوجها ، فقال : أجيبيه وعِديه إلى هنا ، ففعلت ووجّهت له ، فجاء ولم يعرف بزوجها ، فقال لها : ما اسمُك بأبى أنت وأمى ! فقالت : أمامة ، فقال :

أمامة قد وُصفت لنا بحسن وإنا لا نراك فألمسينا

(١) الاغانى ٣ : ٢٠٢ ، وأشط : ألعظ .
(٢) الخبر والشعر فى الأغانى ٣ : ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

فوضعت يده على أيْر زوجها ، وقد أنعظ لحسن حديثها معه ، ففزع ووثب قائماً وقال :

علىّ أليّةٌ ماعشتِ حيًّا أمسك طائعاً إلّا بعودِ
ولاأهدى لأرضٍ أنت فيها سلام الله إلا مِنْ بعيدِ
طلبتُ غنيمةً فوضعت كفّى على أيْرٍ أشدّ من الحديدِ
فخير منكِ مَنْ لاخير فيه وخير من زيارتكمُ قعودِى

فقبض زوجها عليه ، وقال : همت أن أفضحك ، فقال : كفانى فديتك ما فعلت بى ، والله لا أعود لمثلها أبدا .

سمع[1] الحكم بن عبدل امرأة تتمثل بقوله :

وأعْسِر أحيانا فتشتدّ عسرتى فأدرِكُ ميسور الغنى ومعى عِرْضِى

فقال لها: ياأختيّة ، أتعرفين قائل هذا الكلام؟ قالت : هو ابن عبدل ، قال: أفتعرفينه عيناً[2] ؟ فقالت : لا ، والله ، فقال : أنا هو ، والذى أقول :

وأنعِظ أحياناً فينقدّ جلدهُ وأعذِلُه جُهْدِى فلا ينفع العذلُ
وأزداد نَعْظاً حين أسمع جارتى فأوثقه كى مايثوب له عقلُ
وربّتما لم أدْرِ ماحيلتى به إذا هو آذانى وغرّبه الجهلُ
فآويته فى بطنِ جارى وجارتى مكابرة قُدْمًا[3] وإن رغِمَ الفحلُ

فقالت المرأة : بئس الجار والله للمغيّبة أنت ، قال: إى والله والقى معها زوجها

(١) الخبر والشعر فى الأغانى ٢ : ٤٠٩ ، ٤١٠ .
(٢) الأغانى: « أفتثبتينه معرفة » .
(٣) اقدم : المضى فى الإقدام .

وابنها وأخوها ، آين قول هذا على إسلامه من قول عنترة على جاهليته :

وأغضّ طرفى ما بدتْ لىَ جارتى حتى يوارى جارتِى مأواها[1]
إنى أمرؤ سمح الخليقة ماجدُ لا أتبع النفس اللجوج هَوَاها

وقال أبو الرقمق[2] :

كل يوم أنا من أيْرِىَ فى أمْرِ عُجَابِ
ليس يخليىَ من همٍّ وحزن واكتئابِ
عينه فى كلّ من دبّ على وجه التّرابِ
لم يدع لى ذهبا إلّا رماه بالذّهابِ
وابتدى المشؤم أن يَعْـــمَل فى بيع الثّيابِ
لعنة الله عَلَيْـــه وبراغيث الـكلَابِ

وللمفجع البصرى فى ضد ما تقدم ، والمفجّع صاحب ابن دريد ، والقائم مقامه بالبصرة فى الإملاء :

لِىَ أيْر أراحـنى الله مِنْـهُ صار همى به عريضا طَوِيلاَ[3]
نام إذ زارنى الحبيب عِنـاداً ولَعَهدِى به ينيك الرّسُولاَ
حُسِبَتْ زورة علىّ اِثْنَيْن وانصرفنا وما شفينا غَلِيلاَ

ولراشد بن إسحاق[4] :

طالمـا قمت كالمنارة تهتز اهتزازاً تسمو إليه العيونُ

(١) ديوان عنترة ٩١ .
(٢) يتيمة الدهر ، ١ : ٢٦٩ ، وهو أحمد بن محمد الأنطاكى ؛ ترجم له الثعالبى وذكر كثيرا من شعره .
(٣) يتيمة الدهر ٢ : ٢٣٤ .
(٤) هو أبو حكيمة ، وفى ثمار القلوب ٣٢٥ وما بعدها بعض أخباره وشعره .

رفع المسهم

ربّ يوم رفعتُ فيه ثيابى ... فكأنّى فى مشيتى مخنونُ
فحملتْ قوسك الخطوب وأفنت ... لك فنونٌ تفنى عليها الفنُونُ
لم يَدَعْ منك حادثُ الدهر إلا ... جلدة كارتشاء فيها غضونُ
تتثنّى كأنّها صولجانٌ ... أو كما حُرّفَتْ من الخطّ نونُ

وله أيضا فيه :

كأنه حين أطويه وأنشرُه ... سير يُلَفُّ على دوّامة الزِّيقِ
وإن يقم قلت قناةٌ معنفقة ... أوْ عروة رُكّبَتْ فى رأس إبريقِ

وله أيضا فيه :

أيْرٌ ضعيف المتن رثّ القوى ... لو شئت أن أعقده لانعقدْ[1]
إنْ يُمْسِ كالبقلة فى لينها ... فطالما أصبح مثل الوَتِدْ

وله أيضا فيه :

ينام على كَفِّ الفتاة وتارةً ... له حركات مايُحِسُّ بها الكفُّ[2]
كما يرفع الفرخ ابن يومين رأسَهُ ... إلى أبويه ثم يُدركه الضَّعْف

الفنجديهى : سمعت الحافظ أباجعفر الروزنىّ يقول : مازحتُ شيخنا نجيب ابن ميمون الواسطىّ يوماً ـ وكان شيخاً دمثاً ظريفاً ـ فقلت له : أخبرنى هل بَقِىَ ـ من سلطان الهوى شىء ؟ وهل نقوم للخدمة المكازة الميمونية ؟ فقال : آه آه ، ثم أنشدَ :

تعفّف فوق الخُصيتين كأنّه ... رَشَأٌ على رأس الركيّة ملتفُّ[3]

(١) ثمار القلوب ٢١٦ .
(٢) لإسحاق بن راشد ، شرح المختار من شعر بشار ٢١٧ .
(٣) شرح المختار من شعر بشار ٢١٣ ، ونسبه إلى راشد بن إسحاق ، وهما أيضا فى معاهد التنصيص ٣ : ١٩٧ .

كفرخ ابن ذى يومين يرفع رأسه إلى أبويه ثم يدركه الضعفُ

وأنشد أيضاً :

يقوم فى الليل عند البول منحنياً كأنه قوس ندّافٍ بلا وَتَرِ
ولا يقـــوم إذا نبّهتُه سحراً كما تقوم أيور الناس فى السّحر

ثم بكى بكاء شديداً ، وذكّرنا ووعظنا .

وهذه الأبيات المنسوبة لراشد بن إسحاق كلها من قصائد له مطوّلة فى هذا الفنّ ، وأكثر شعره فيه ، وله فيه شعر كثير ؛ ومنه انتزع الحريرى قصيدته فى هذه المقامة .

* * *

ثمّ إنه أعلنَ بالنحيب ، وبكى بكاء المحبِّ عَلَى الحبيبِ . وَلَمَّا رقأتْ دَمْعَتُه ، وانفثأتْ لَوْعَتُهُ ، قال : يانُجْعَةَ الرُّوَّادِ ، وَقُدْوَةَ الأجوادِ ، وَاللهِ مانطقْتُ بِبُهْتان ، وَلاَ أخبرتكمْ إلاّ عَنْ عِيان ، وَلَوْ كانَ فى عَصَايَ سَيْرٌ ، وَلِغَيْمِى مُطَيْر ؛ لاستأثرتُ بما دَعَوْتُكمْ إليه ، وَلَمَا وَقَفْتُ مَوْقِفَ الذَّالِّ عليه ، ولَكِنْ كيفَ الطَّيَرَان بلَا جَنَاحٍ ، وَهَلْ عَلَى مَنْ لاَ يَجِدُ مِنْ جُناح !

* * *

قوله : «أعلن» أى رفع صوته . والنحيب : البكاء . وفى بكاء المحب على الحبيب يقول الشاعر وزاد معنى :

أتتنى تؤنّبنى فى البُكاء فأهـــلاً بها وبتأنيبها
تقول وفى قولهـــا حكمةٌ أتبكى بعين ترانى بها !

رفع المسهم

فقلت : إذا استحسنتْ غيرُكم أمرت البكاء بتأديبها

قوله : رقأت ، أى انقطعت . انفثأت : انكسرت وسكنت . لوعته : حرقته . النجعة : المرعى . الروّاد : الطالبون لها . بهتان : باطل . عيان : معاينة .

قوله : « فى عصاى سير » مثل يضرب لمن ليس عنده منفعة ولا له قوّة . والسير : الشراك يدخل فى ثقب فى رأس العصا ويعقد منه حَلقة ، يدخل فيها يده التى تمسك العصا ، فتكون أشدّ لاعتماده عليها ، وضربه بها ، فجعل عصاه عاطلة من سيرها ، وهو يريد أن لا منفعة عنده .

وأنشدُوا :

بالكَ من هِمّةٍ وَخيْرْ لو كان لى فى عصاى سَيْرْ

صبراً على النائبات صبراً ما يصنع الله فهو خيْرْ

فمن قليل بدا كثيرٌ كم مطر بدؤُه مُطَيْرْ

* * *

[العصا وما قيل فيها شعراً ونثراً]

وذكر الجاحظ[1] فوائد العصا ، فمنها : سئل يونس عن قول الله عز وجل : ﴿ ولِيَ فيها مآربُ أخْرَى ﴾[2] فقال : لست أحيط بجميع مآرب موسى ، لكنى أذكر جملة تدخل فى باب الحاجة إليها :

من ذلك أنها تُحسَل للحيّة والعقرب والذئب والفحل الهائج ، ويَتوكأ عليها الكبير والسقيم والأقطع والخطيب والأعرج ، فتنوب للأعرج عن ساق أخرى [وتنوب][3] للأعمى عن قائده . وهى للقصّار والدّباغ وهى المِفأد[4] للمَلّة ومِحرَاك للتّنُّور ، ولدقّ الجصّ والسمسم ، ولخبط الشجر ، وللشرطىّ والمكارىّ ، وللراعى

(١) البيان والتبيين ٣ : ٦٧ وما بعدها ، مع تزيد واختصار

(٢) سورة طه ١٨

(٣) من البيان والتبيين .

(٤) المفأد : الخشبة التى يحرك بها التنور . والملة : الرماد الحار الجمر

خدمه ، والراكب مركبه . ووتِد فى الحائط، وتركزها فتجعلها قبلة ، وإن شئت مظلّة ، وتدخلها فى عروة المزود وطرفها فى يدك ، والثانى فى يد صاحبك ، وإن كان فيها زُجّ كانت عنَزة ، فإن زدتَ شيئاً ؛ كانت عُكّازا ، فإن زدت شيئاً كانت مِطْرَدا (١) ، وإن زدت شيئاً كانت رمحاً .

وكانت آيات موسى صلوات الله وسلامه عليه فى عصاه، وكانت لاتفارق يد سليمان عليه الصلاة والسلام فى مقاماته ، حتى سلّط الله الأرَضة وهو ميت فسقط ، فكانت للجنّ آية .

وكان الحكم بن عَبْدل أعرج أحدب هجّاء خبيث الهجاء ، وكان الشعراء يقفون بأبواب الملوك فلا يؤذَن لهم ، وكان يكتب على عصاه حاجتَه ويبعث بها ، فلا تُؤخّر له حاجة ، فقال يحيى بن نوفل :

عصا حَـكَمٍ فى الباب أوّل داخل ... ونحنُ على الأبواب نُقْصَى وتُحجَبُ (٢)
وكانت عصا موسى لفرعون آية ... وهـذى لعمر الله أدهى وأعجَبُ
تُطاع فلا تعصَى ويُحذر أمرُها ... ويُرغب فى المرضاة منها وتُرْهَبُ

فضجك الناس منها وشاعت بالكوفة ، وصارت ضُحكة ، فاجتنب أن يكتب عليها .

وكان لابن عبدل صديق أعمى يقال له يحيى بن عُلَيّة ، وكان ابن عبدل قد أقعِد، فخرجا ليلة إلى منزل بعض إخوانهما ، وابن عبدل يُحمَل والأعمى يقاد ، فلقيهما صاحب العَسَس ، فأخذهما وحبسهما ، فنظر ابن عبدل إلى عصا ابن علية فى الحبس إلى جانب عصاه ، فضحك وقال :

حَبْسى وحَبْسُ أبِى عُلَيّـــة من أعاجيب الزّمانِ (٣)

(١) المطرد : رمح قصير .
(٢) البيان والتبيين ٣ : ٧٥ ، الأغانى ٢ : ٤٠٤ .
(٣) الأغانى ٢ : ٤٠٥

رفع المسهم

أعمى يُقاد ومقعَدٌ لا الرِّجْل منه ولا اليدانِ
بأمن رأى ضَبّ الفلا ةِ قعيد موتٍ[1] فى مكانِ
طِرفى وطِرفُ أبى عُلَيْـ ـةَ دَهْرَنا متوافقانِ
من يفتخر بجواده فجِيادنا عُكّازتانِ

وقال أيضا :[2]

أقول ليحيى ليلة السجن سادراً[3] ونوحى به نوم الأسير المقيَّدِ
أعِنّى على حِفظ النُّجوم ورعيها أعنك على تحبير شِعْرٍ مُقَصَّدِ
فنى حالتينا عبرة وتفكُّرٌ وأعجب من ذا حبس أعمى ومقعدِ
كلانا إذا العكّاز فارق كفّه يُنيخ صريعاً أوعلى الكفّ يسجُد
فعكّازُة تهدى إلى السُّبْلِ أكُمَّها وأخرى مقام الرِّجل قامت مع اليدِ

وولى إمْرة الكوفة أعرج وولىَ شرطتها أعرج ، فقصد الأميرَ ابنُ عهدل وهو أعرج ، ووجد سائلا أعرج فقال[4] :

ألقِ العصاودَعِ التخامع والتمِسْ[5] حملا فهذى دولة العُرْجانِ
لأميرِنا وأمير شرطتنا معاً ياقومنا لكليهما رِجْلانِ
فإذا يكون أميرنا ووزيرُنا وأنا فإنّ الرابع الشيطانُ[6]

فبعث إليه الأمير بمائتى درهم فضة وسأله أن يكفّ .

وكثيراً ماتصرّف الشعراء فى ذكر عصا موسى عليه السلام على أغراضهم ، فمنها ما يحسن ومنها مايقبح . وقال ابن سارة :

ولى عصاً من طريق الدمّ أحمدُها بها أقدّم فى تأخيرها قَدَمِى
كأنّها وهى فى كفّى أهُشُّ بها على ثمانين عاماً لا على غنمِى

(١) الأغانى « قرين موت » (٢) الأغانى ٢ : ٤٠٦ .
(٣) السادر : المتحير . (٤) الأغانى ٢ : ٤٠٦ .
(٥) التخامع : التظاهر بالخمع ، وهو العرج . (٦) فى البيت إقواء

كأننى قوسُ رامٍ وهى لى وَترٌ أرمى عليها سِهامَ الشيب والهرمِ

وقال أبو بكر البلَوِىّ :

كأنّ يمينى حين حاولتُ بسطَها لتوديع إلفى والهوى يصرُفُ الدَّمْعَا
يمينَ ابن عمرانٍ وقد حاول العصا وقد جعلت تلك العصا حَيَّة تسعَى

قال ابن رشيق : كنت أميل إلى قينة اسمها ليلى ، فعشقها بعضُ خُدّامِ الحصون ، وكان يَحْسَب خدمتها وكنسها منزله لا يثلم جاه متوليها فنهيته عنها فلم ينته ، فقلت فيه :

ظنّ أنّ الحصونَ مُلك سليما نَ وليلَى بجهـــله بلقيسَا
وله فى العصا مآربُ أخرى حاش لله أن تكون لموسى

وقال الصابى :

يُبدِى اللّواطَ مغالطاً وعِجانه أبداً لأغراض الورى يستهدفُ
فكأنه ثعبان موسى إذ غدا لحبالهم وعصيّهم يتلقّفُ

وقال الصاحب :

هـذا ابن مَقْـوِيَهْ له آيـة يبتلع الأيْر وأقصى الخصى
يكفُر بالرسل جميعـاً سوى موسى بن عمران لأجل العصا

وقال أبو الفرج الأصبهانى فى القاضى الأندنجى ، والتمس منه عكازة فلم يعطها إيّاه :

اسمعْ حديثىَ تسمعْ آيةً عَجَبا لاشىء أعجب منه يَبْهَرُ القِصصا
طلبتُ عكازة للرِّجْلِ تحملنى ورُمتها عند من يخفى العصا فعصَى
وكنت أحسبه يهوى عصا عَصَبٍ ولم أكن خلته صبًّا بكل عصا

ولما قدم قتيبة بن مسلم والياً على خراسان سقطت الخضرة من يده ، فتطيّر

به أهل خراسان ، فقال : يا أهل خراسان ليس كما ظننتم ، ولكن كما قال الشاعر :

فألقت عَصاها واستقرّ بها النّوى كما قرّ عينا بالإيابِ المسافرُ (١)

وأما قول الشاعر :

وبكفيكَ ألاّ يرحل الضيفُ لائماً عصا العبد والبئرُ الّتي لا تميهُها (٢)

فقال يعقوب: البئر هنا حفرة تجعل فيها المَلّة، وتجعل عليها الخبزة، والعصا تقلّب بها الخبزة على المَلّة ، وينفض بها الرماد .

وقال آخر :

إذا جاء ثقّاف يجرُّ قَنَاتَهُ طويلَ العصا نكّبته عن شياهِنا

فالثّقاف الرسول بين المريب والمريبة ، يأتى كالسائل ، فإذا وقف ثقف الأرض بعصاه ، فإذا سمعت المرأة ذلك خرجت إليه ، فأبلغها الرسالة ، فثقفه علامة بينهما ، وأراد بالشياه النساء .

قوله : « غيمى » ، أى سحابى . مُطَير : تصغير مطر ، أى لو كان لى قوة ومال لآثرت بذلك نفسى . استأثرت : اختصصت . جناح : إثم .

* * *

قال الرّاوى : فطفِق القومُ يأتمرون فيما يُأمَرُون ، ويتخافتُونَ فيه يأتون ، فتوهّمَ أنّهم يتمالئون على صَرْفِه بِحِرْمان ، أو مطالبته بِبُرْهان ، ففرط منه أنْ قال : يا يلامع الْقَاعِ ، ويَرامع البِقَاع ، ما هذا الازْتِيَاء ، الّذى يأباه الأحْيَاء ، حتى

(١) اللسان ـ عصا ، ونسبه إلى عبد ربه السلمى

(٢) اللسان ـ عصا ، من غير نسبة

كأنكم كُلِّفتم مَشقَّة لا شُقَّة ، أو استُوهِبتُم بلدةً لا بُرْدة ، أوْ هُزِزْتُم لِكُسْوَةِ البيت ، لا لِتَكْفِين الليْت ، أفٍّ لمن لا تندى صَفاتُه ، ولا تَرْشَحُ حَصاتُه !

فَلَمَّا بَصُرَتِ الجَمَاعَةُ بِذَلاقَتِهِ ، وَمَرَارَةِ مَذَاقَتِهِ ، رَفَأَه كلٌّ مِنْهمْ بِنَيْلِهِ ، وَاحْتَمَلَ طَلَّهُ خَوْفَ سَيْلِهِ .

* * *

يأتمرون : يتشاورون . يتخافتون : يتكلمون سراً . فيما يأتون ، أى فيما يفعلون معه . توهم : ظنّ . صرَفه . ردّه .

حِرْمان : خيبة . بُرهان : حجّة . فرط : سبق : يَلمَع : جمع يَلْمَع وهو السراب . القاع : منخفض الأرض . يَرامع : جمع يَرْمَع وهى الحصى البيض ، وقيل الحجارة الرخوة .

البِقاع : جمع بقعة ، وأراد أن لهم ظاهراً وليس لهم خبرة ، كالسراب يحتمل أنه ماء ولا حقيقة له ، واليرمع تظنه فضة وهو حجر .

الارتياء : تدبير الرأى ، وأصله الهمز لأنه من الرأى . استوهبتم : طلبت منكم هبة . بردة : ثوب يلبس . هَزَزْتم : حرّكتم . البيت : الكعبة .

أف : خيبة ، وقد تقدم أن الصخرة والحصاة يكنى بهما عن يد البخيل . ذلاقته : حدّة لسانه . رَفَأه : وصله . والطل والسّيل هنا : القليل والكثير .

* * *

قال الحارث بن همام : وكَانَ هذَا السائِلُ واقفاً خَلْفِى ،

ومحتجباً بظهرى عن طَرْفى . فلمّا أرضاه القوم بِسَيْبِهِمْ ، وحقّ علىّ التّأسّى بهِمْ ، خلجت خاتمِى مِنْ خِنْصَرِى ، وَلفتُ بَصَرِى ، فإذا هو شيخنا السّروجِىُّ بلا فِرْية ولا مِرْيَة ، فأيقنتُ أنها أُكْذُوبة تكذّبها ، وأحْبُولَةٌ نَصَبَها ، إلا أنّى طويتُه على غَرَّهِ ، وَصُنْتَ شَغَاهُ عَنْ فَرِّه ، فحصبتُهُ بالخاتَمِ ، وقلت : أرْصِدْه لنفقة المآتِمِ ، فقال : واهاً لَكَ فما أضْرَمَ شعلتك ، وأكرم فعلتك ، ثم انطلق يسعى قُدْما ، ويهرول هَرْولَتَه قِدْمًا .

* * *

سيبهم : عطاؤهم . وحق : وجب . التأسّى : الاقتداء . خلجت : جذبت وأخرجت . الخنصر : الأصغر من الأصابع ، ويليها البنصر ثم الوسطى ثم السبابة وتسمى المسبّحة والمشيرة ، ثم الإبهام ، وقال أبو العلاء المعرّى :

شغلت عن المرء من خمسة اثنتين نغصّهما المفخ[1]
يُشار إليك بسبّابة وتثنى على فضلك الخِنْصَرُ
فمن أجل ذا رُفعتْ هذه إلى خالق الخلْق تستغفرُ
ومن أجل ذا كُسيَتْ خاتما يزين وعُرِّيَتِ البنصرُ

وقال صريع الغوانى يلغز بخاتم :

وأبيض أمّا رأسه فمدوّرٌ نَقِىٌّ وأمّا جسمه فَمَعَارُ[2]

(١) لم أجدها فى ديوانه (٢) ديوانه ٢٣٨

ولم يُتَّخَذْ إلا لتسكن وسطه[1] خضيبة رأس ما عليه خُمَارُ
لها أخوات أربع هنّ مثلها ولكنها الصغرى وهن كبارُ

لفتّ : رددت . فرية : كذب . مرية : شكّ ، وتقول : بين القوم أكذوبة يتكاذبون بها ، أى أحاديث كذب . تكذّبها : استفعلها . أحبولة : آلة يصاد بها . وطويته على غَرِّه ، أى سترت عليه طريقته الملتزمة من الحيل ، والغَرّ بالفتح : كسور الثوب ، يقال : اطو الثوب على غَرِّه ، أى على كسور طيّه الأولى.

جابر : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « طىّ الثوب راحته » .

صنت : حفظت وكتمت . شغاه : عَيْبه . فَرَّه : كشفه . والشّغا : بروزسنّ على أخواتها ، وخروج الحنك الأعلى على الأسفل .

وحصبته : رميته ، والحصباء : الحصى الصغار ، وحصبته : رميته بالحصباء ، فاستعاره للخاتم .

أرصده : أعده . واهاً : عجبا . ما أضرم شعلتك ، أى ما أكبر توقّد ذهنك ، والشعلة لسان النّار ، وإنما تعجّب منه لأنه قد عرفه وأعلمه أنه قد عرف مكره حين قال له : أرصده ، ثم ستر عليه ، وأهل الشرق يتختّمون ويتصدقون بخواتمهم . وفى البديعية[2] بعد تشك تقدم من أبى الفتح : قال ابن هشام : فوالله ما آنسنى عن وحدتى إلا خاتم ختمت به خنصرَه ، فلما تناوله أنشأ يقول :

ومنطقٍ من نفسه بقلادة الجوزاء حُسْنا
متألف من غير أسْرته على الأيام خِدْنا
كمُقيَّمٍ لَقِىَ الحبيب فضمّه شغفاً وحزنا

(١) الديوان : « وما يشترى إلا لتسكن وسطه » .
(٢) المقامة البغدادية من مقامات البديع ٩٧ ، ٩٨ .

عِلْقٌ سَنِيٌّ قدره لكنَّ مَنْ أهداهُ أسنى
أقسمت لو كان الورى فى المجد لفظا كنتَ معنى

قال: فهمهمته حتى سفرت الخلوة وجهها، فإذا والله أبو الفتح، والطلا زغلوله[1]، فقلت أبا الفتح، شبت وشبَّ الغلام، فأين الكلام، وأين السلام؟ فقال:

غريباً إذا جمعتنا الطريقُ ألوفاً إذا نظمتنا الخيامُ

قوله، يسعى، أى يسرع المشى. قُدْماً: أى قدامه وقبالته. يهرول: يسرع، والهرولة جرى بين المشى والعدو. قِدْما، أى قديما وأوّلاً، ومعناها كما فعل فى أول مرة حين سعى قدما.

* * *

فنزعتُ إلى عِرفانِ مَيّتِه، وَامْتِحانِ دَعْوى حَمِيّتِهِ، فقرعْتُ ظُنْبُوبى، وَأَلْهَبْتُ أُلْهوبى، حتى أدركتُه عَلَى غَلْوة، واجْتَلَيْتُهُ فى خَلْوة، فأخذتُ بِجُمْعِ أردانِه، وَعُقْتُهُ عَنْ سَنَنِ مَيْدانِه، وقلت له: والله مالك مِنّى مَلْجأ وَلا مَنْجَى، أوْ تُرِيَنِّى مَيّتَك المُسجَّى، فكشف عَنْ سَرَاوِيله، وأشارَ إلى غُرمولِه. فقلت له: قاتلك الله! فَمَا ألعبك بالنُّهَى، وأحْيَلَكَ على اللُّهى! ثم عُدْت إلى أصحابى عود الرَّائدِ الذى لا يكذبُ أهلَه، ولا يبرقش قولَه، فأخبرتهم بالذى رأيْتُ وما وريتُ ولا رَاءيْت، فقهقهوا مِنْ كيت وكَيْت، ولَعَنُوا ذلك المَيْت!

* * *

(١) الطلا: ولد الظبية

نزعت : اشتقت . امتحان : تجربة . قرعت : ضربت . ظنبوب : مقدّم عظم الساق ، ويقال: قرع لهذا الأمر ظنبوبه ، إذا أسرع وجدّ فيه ، ويبيّنه قول سلامة بن جندل :

كنا إذا ما أتانا صارخ فَزِعٌ كان الصُّراخُ له قَرْعَ الظنابيبِ (١)

أى كانت إغاثتنا له إسراعنا فى نصرته . ألهبت : أشعلت . ألهوبى: شدة جرى . والغلوة : مقدار رمية السهم . اجتليته : نظرته . بجُمع أردانه ، أى بجميع أطراف ثوبه . عقته : صرفته عن وجهه . سَنَن: طريق . مَيْدانه : موضع جريه وطَلَقِه . مَلجأ: موضع يُلجَأ إليه . مَنجى : موضع تنجو فيه. غُرّ موله : ذَكَره . قاتلك الله ، أى قتلك الله ؛ وأكثر ما يقع فاعلت على الاثنين ، وقد يكون عن الواحد ، نحو ناولت وسافرت ؛ وقيل: معنى قاتله، لعنه ، وقيل عاداه . النُّهَى : العقول ، واحدها نُهْية ، ومنه نهيته عن كذا فانتهى . واللُّها : العطايا، واحدها لَهْوة ، وأصله القَبْضة من الطعام، تُجعَل فى فم الرَّحَا . يكذب : يحدّث بالكَذِب : يُبَرْقِش : يُزيّن ، والبرقشة التزيين بألوان شتى . وريّت ، يقال: روّيت الخبر أُوَرّيه توريةً : سترته وأظهرت غيره، وفى الحديث الشريف ، أنه صلى الله عليه وسلم كان إذ أراد سفراً، ورّى بغيره ، وهو مأخوذ من الورَاء، كأنه جعل الخبر وراءه ولم يُظهِره . راءيت: استعملتُ الرياء ، يريد أنّه صَرّح لهم بذكر العورة ، ولم يُكَنِّ عنها . فقهقهوا : أكثروا الضحك .

أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب » . والقهقهة من الشيطان والتبسم من الله . من كيت وكيت ، أى من هذه القصّة التى أسمعهم ؛ وكيتَ وكيتَ ، كناية عن الحديث المدمج المتداخل . والله أعلم .

تم الجزء الثانى بحمد الله ويليه الجزء الثالث

وأوله المقامة الحادية والعشرون

---

(١) المفضليات ١٢٤

رفع المسهم

فهرست المسهم
غفر الله له ولوالديه

فهرست المقامات

	صفحة
المقامة الحادية عشرة وتعرف بالساوية، تتضمن وقوف أبي زيد بالمقابر واعظا	٣ — ٣٠
المقامة الثانية عشرة وتعرف بالدمشقية، تتضمن كون أبي زيد خفيرا، وأنه خفر القافلة بدعوات لقنها في المنام	٣٤ — ١٠٥
المقامة الثالثة عشرة وتعرف بالبغدادية تتضمن كون أبي زيد مكديا ومعه صبيان، وهو في صفة عجوز	١٠٦ — ١٣٠
المقامة الرابعة عشرة وتعرف بالحجازية والمكيه تتضمن كون أبي زيد وابنه معدمين، يطلب هذا راحلة وهذا زاداً	١٣١ — ١٤٩
المقامة الخامسة عشرة وتعرف بالفرضية، تتضمن أن أبا زيد ألغز عليه في مسألة فرضية فأخرج سرها	١٥٠ — ١٦٢
المقامة السادسة عشرة وتعرف بالمغربية، تتضمن إلقاء أبي زيد على أهل المسجد بعض المسائل	١٦٣ — ٢٣٢
المقامة السابعة عشرة وتعرف بالقهقرية، تتضمن الرسالة التي تقرأ من أولها بوجه ومن آخرها بوجه	٢٣٣ — ٢٦٣
المقامة الثامنة عشرة وتعرف بالسنجارية تتضمن قصة أبي زيد مع جاره النمام	٢٦٤ — ٣٥٢
المقامة التاسعة عشرة وتعرف بالنصيبية تتضمن كون أبي زيد مريضا وزيارة أصحابه له وكيف كنى لابنه الكنايات الطفيلية	٣٥٤ — ٣٩١
المقامة العشرون وتعرف بالفارقية، تتضمن طلب أبي زيد تكفن ميت، وكنى بكلامه عن ذكره	٣٩٢ — ٤١٣

رفع المسهم
غفر الله له ولوالديه

فهرست المسهم
غفر الله له ولوالديه

فهرس الموضوعات

	صفحة
نبذ من الأقوال الحكيمة فى المواعظ	٤ — ١٠
غوطة دمشق	٣٤ — ٣٥
باب جيرون	٣٨ — ٤٠
ضروب من الأدعية المأثورة	٥٣ — ٥٥
وصف بعض مجالس الشراب	٥٩ — ٦٢
مما قيل من الشعر فى وصف الأزهار	٦٢ — ٦٤
مما ورد فى الخمر والشراب من الشعر والحكايات	٦٧ — ٨٣
ذكر السقات	٩١ — ٩٢
مما قيل فى الخضاب	١٠٠ — ١٠٣
الزوراء	١٠٦ — ١١٠
وصف الشعراء	١١٠ ، ١١١
مجلس للشعراء	١١١ — ١١٤
أصل المثل : حال الجريص دون القريض	١٢١ ، ١٢٢
حرفة الأدب	١٣٨ — ١٤٠
من الأقوال الحكيمة فى الشكر	١٤٤ ، ١٤٥
عرقوب المضروب به المثل	١٤٥ ، ١٤٦
من أقوالهم فى الحنين إلى الأوطان	١٤٨ — ١٤٩
الضب وبعض طباعه	١٥٨ — ١٥٩
مقامة البديع المجاعية	١٦٠ — ١٦١
أصل المثل : رب رمية من غير رام	١٦٣ — ١٦٤
أصل المثل : تجوع الحرة ولا تأكله بثديبها	١٦٩ — ١٧٠
مشاهير أهل الزرد	١٧٣ — ١٧٧

(*) وهى الموضوعات التى وردت فى أثناء الشرح .

رفع المسهم
غفر الله له ولوالديه

صفحة

مما قيل فى شكر النعمة	١٨٤ — ١٨٥
البطنه وأقوالهم فيها	١٨٦ — ١٨٨
التطفل وأصل اشتقاقه	١٩٣ — ١٩٤
من أخبار الطفيليين	١٩٤ — ٢٠٢
قصة أصحاب الكهف	٢٠٦ — ٢٠٨
مثل التصحيف وقلب الكلام	٢١٢ — ٢١٤
من أقوالهم فى اختيار الصديق	٢١٥ — ٢١٦
ذكر المراء والجدال وما يتولد منهما	٢١٧ — ٢١٨
ذكر سحبان وائل	٢٢٠ ، ٢٢١
ذكر باقل	٢٢٢
وصف الشمع	٢٢٣ — ٢٢٤
نبذ مما قيل فى الزائر	٢٢٩ — ٢٣١
عروة بن أذينة وهشام بن عبد الملك	٢٤١ ، ٢٤٢
مما قيل فى السفر والاغتراب	٢٥٧ ، ٢٥٨
ذكر سبأ وسد مأرب	٢٥٩ — ٢٦٢
ذكر الشام	٢٦٤ — ٢٦٦
بنو نمير	٢٦٧ — ٢٦٨
سنجار	٢٦٩
ذكر الحاضرة والبادية	٢٧٠ — ٢٧٢
قصة ثمود	٢٧٦ ، ٢٧٧
المقامة المضيرية للبديع	٢٧٩
نبذ من الأقوال الحكيمة فى الجار	٢٨٠ ، ٢٨١
مما قيل فى المودة والإخاء	٢٨٢
مما قيل فى جمال المرأة	٢٨٤ — ٢٨٨
ذكر بابل	٢٨٩ — ٢٩١
أخبار معبد	٢٩٣ — ٢٩٧

رفع المسهم

	صفحة
ذكر إسحاق الموصلى	٢٩٢ — ٣٠٧
ذكر زنام الزامر	٣٠٨ — ٣١١
ذكر سطيح	٣١١ — ٣١٣
تكملة قصة موسى	٣١٧ — ٣٢٢
ذكر بعض حكايات الجاريات المغادبات	٣٢٣ — ٣٢٨
نبذ من الأقوال الحكيمة فى الوشاة وبعض حكاياتهم	٣٢٨ — ٣٣٠
من أقوال فى النميمة	٣٣١ ، ٣٣٢
نبذ من أقوال العلماء فى وصف الذهب والزجاج	٣٣٢ — ٣٣٤
من أقوالهم فى الليل	٣٤٣ — ٣٤٥
ذكر هود عليه السلام وقومه	٣٤٦ — ٣٤٩
ذكر مدينة نصيبين	٣٥٣ ، ٣٥٤
ذكر أشعار مستحقة فى أوصاف الرياض	٣٥٤ — ٣٥٧
فصل فى ذكر مايستحسن من أشعار الجانين	٣٥٧ — ٣٦٠
ذكر ثواب المرضى	٣٦٤ — ٣٦٥
من أقوالهم فى عيادة المريض	٣٦٦ — ٣٦٧
نبذ من الأقوال المأثورة فى عيادة المريض	٣٦٩ — ٣٧١
ذكر حمى كليب	٣٧١ — ٣٧٥
ذكر تخفيف العيادة	٣٧٦ ، ٣٧٩
نبذ مما قيل فى القيلولة	٣٧٩ ، ٣٨٠
نبذ من الأقوال الحكيمة فى الفرج بعد الشدة	٣٨٧ — ٣٨٩
ذكر ميافارقين	٣٩٢ — ٣٩٣
شكوى الضعف والكبر	٣٩٥ — ٣٩٦
استطراد بذكر بعض الأفاكيه	٣٩٦ — ٤٠٣
العصا وما قيل فيها شعرا ونثر	٤٠٣ — ٤٠٧

رفع المسهم

رفع
المسهم
غفر الله له ولوالديه

شرح

مقامات الحريري

لأبي العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

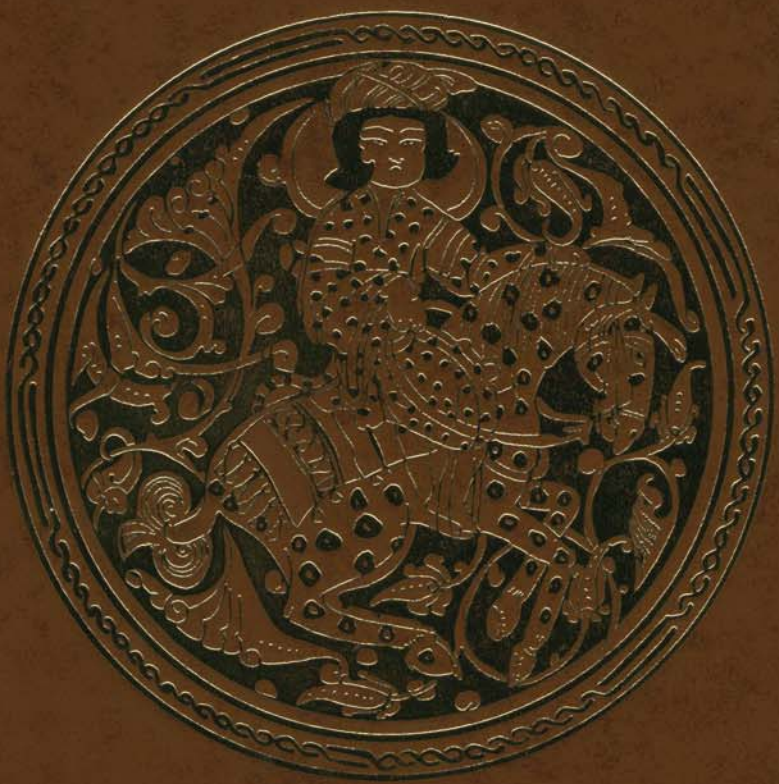

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

الجزء الثالث

رفع
المسهم
غفر الله له ولوالديه

رفع
المسهم
غفر الله له ولوالديه
2008-12-07

كلية آداب - بنين

شرح مقامات الحريري

لأبي العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

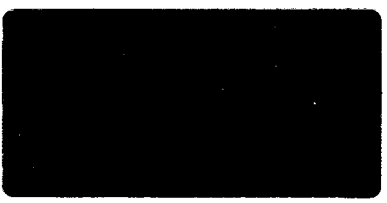

جامعة الكويت
إدارة المكتبات - قسم التزويد العربي
رقم التسجيل: ١٣٦٧٣٣
التاريخ: ٩٨/٦/٢٨

الجزء الثالث

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

رفع
المسهم
غفر الله له ولوالديه

٨١٤ .٥

جميع الحقوق محفوظة

١٤١٣هـ ١٩٩٢م

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية — المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢٠٤٢٧ LE

صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلكس ٢٩١٩٨ LE

رفع المسهم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقامة الحادية والعشرون وهي الرازية

حَدّثَ الحارث بن هَمّامٍ قال : عُنيتُ مُذْ أَحْكَمْتُ تَدْبيرِى ، وَعَرَفْتُ قَبيلِي مِنْ دَبيرِى ، بأن أُصْغِىَ إلى الْعِظـاتِ ، وَأُلْغِىَ الْكَلِمَ الْمُحْفِظَاتِ ، لِأَتحَلَّى بمحاسِنِ الْأَخْلاَقِ ، وَأَتَخَلَّى مِمَّا يَسِمُ بالإِخْلاَقِ . وَمَا زِلْتُ آخُذَ نَفْسِي بِهَذَا الْأَدَبِ ، وَأُخْمِدُ بِهِ جَمْرَةَ الْغَضَبِ ؛ حَتَّى صَارَ التَّطَبُّعُ فِيهِ طِبَاعاً ، والتَّكَلُّفُ لَهُ هَوًى مُطَاعاً .

عُنيت ، أى شغلت . أحكمت : أتقنت . قَبيلى من دَبيرى ، أى ما أُقْبِلُ عليه من أمرى وما أدبر عنه . ابن الأنبارى : مايعرف قبيلاً من دَبيرٍ ، أى مايعرف الإقبال من الأدبار ، أى مايعرف ما أقبل به من القبَل إلى الصدر مما أدبر عنه . وقيل : معناه : مايعرف الشاة المقابلة من المدابرة ، والمقابلة التى شُقَّ أذنُها إلى قُدّام ، والمُدابرة التى شق أذنها من مؤخّرِها ، وترك ماقطع معلقاً إلى خلف لا يَبين .

أُصغِى : أميل . العظات : هى المواعظ . أُلغى : أترك . الكِلِم : جمع كلمة . المحفِظات : المُغْضبات . أتحلَّى : أتزيّن وأتصف . وأتخلى : أزول وأتفرغ ، وتخليت من كذا : تركته . يسم : يُجعل سِمَة . الإخلاق : العيوب وتمزيق العِرْض وأصله فى الثوب . أخمد : أسكن .

رفع المسهم

[الطبـع والتطبّع]

والتطبّع له فى الطبيعة أثر ،وإن لم تذهب الطبيعة بالجملة ، لأنه اتفقت العرب والعجم على قولهم : الطبع أملَك . وكان ملك من ملوك الفرس ، له وزير مجرّب حازم ، فكان يَعْرف اليُمْن فى مشورته ، فهلك وقام ابنُه بعده، فلم يرفع به رأساً، فذُكر له مكانته من أبيه، فقال : كان أبى يغلط فيه ، وسأريكم ذلك . فأحضره ، وقال له : أيُّهما أغلب على الرجلُ ؟الأدب أو الطبيعة ؟ فقال : الطبيعة لأنها أصل والأدب فرع ،وكلّ فرع يرجع إلى أصله . فدعا الملك بسُفْرةٍ فوضعت، وأقبلت سنانير بأيديها الشمع، فوقفت حول السفرة، فقال له : اعتبر خطأك وضعف مذهبك ، متى كان أبو هذه السنانير شمّاعاً ؟ فقال له : أمهلنى فى الجواب إلى الليلة المقبلة ، فقال : لك ذلك . فخرج الوزير ، وأمر غلامه أن يسوق له فأرة فساقها حيّةً فربطها بخيط وعقدها فى سينيّة . فلما راح إلى الملك وضعها فى كمّه ، ودخل فأحضر السفرة والسنانير ألقى لها الوزير الفأرة ، فاستبقت السنانير إليها، وتطاير الشمع حتى كاد البيت يضطرم عليهم ناراً . فقال للملك : كيف رأيت غلبه الطبع للأدب ! قال : صدقت ورجع له ما كان عليه أبوه . وقال ذو الإصبع :

كلّ امرىء راجع يوما لشيمتِه وأن تخلّق أخلاقاً إلى حين[1]

وقال المتنبى :

أبِى خلق الدنيا حبيباً تُديمه فماطابى منها حبيبا تردّه[2] ؟
وأيسر مفعول فعلت تغيُّرا تكلُّف شىء فى طباعك ضدّه

وقال العرجىّ :

يأيّها المتحلّى غير شيمته ومن شمائله التبديل والمَلَقُ[3]

(١) من مفضيلته ٣١ ص ١٦٣ ، وفيه : « صائر » . (٢) ديوانه ٢ : ١٩ .
(٣) ديوانه ٣٣ ، وفيه : « ومن شمائله الإقتصار » .

رفع المسهم

ارجع إلى خلقك المعروف ديدنهُ[١] إنّ التخلّق يأتى دونه الخُلقُ

وقال المتنبى أيضاً :

يراد من القلب نسيانكمْ وتأبى الطباع على الناقِلِ[٢]

وقال الشريف :

هيهات لاتتكلفنّ لِىَ الهوى فضَح التَطَبُّعُ شيمةَ المطبوع[٣]

وقال ابن طاهر الأندلسى :

نَقْل الطباع من الإنسان ممتنعٌ صعب إذا رامه من ليس من أَرَبِهْ
يريد شيئاً وتأباه طبائعه والطّبْع أملك للإنسان من أدبِهْ

فيريد أنه راض نفسه على اتباع الخير وبعد الشرّ ، حتى انقادت له إلى مايريد، والتطبُّع استعمال غير مافى طبعك ، والتكلّف استعمال مالاتقدر عليه إلا بمشقة .

* * *

فَلَمَّا حَلَلْتُ بالرَّىّ ، وَقَدْ حَلَلْتُ حِبَا الْغَىّ ، وَعَرَفْتُ الْحَىَّ من اللّىّ ، رَأَيْتُ بِها ذَاتَ بُكْرَة ، زُمْرَة فِى إِثْرِ زُمْرَة، وَهُمْ مُنْتَشِرُونَ انتشارَ الْجَرَادِ ، وَمُسْتَنُّونَ اسْتِنانَ الجيـاد ، وَمُتَوَاصِفُونَ وَاعِظاً يَقْصِدُونه ، وَيُحِلُّونَ ابْنَ سَمْعُونَ دُونَهُ .

[الرّىّ]

قوله : « فلما حللت بالرىّ » :

الرىّ : أرض على جادّة خُراسان ، واسم مدينة الرىّ المهديّة ، سمِّيت

---

(١) فى الديوان : « ارجع إلى الحق إما كنت قاعله » .
(٣) ديوانه ٣ : ٢٢ .
(٣) ديوانه ١ : ٤٩٦ .

بهذا الاسم ، لأنّ المهدى تولاّها فى خلافة المنصور لما توجّه إلى خراسان لمحاربة عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدىّ ، وبها ولد الرشيد ، والمهدىّ أقام بها عدة سنين ، فشيَّد بناءها وأتقنه، وأرضع نساء الوجوه من أهلها الرشيد . وأهلُ الرىّ أخلاط من العرب ، والعجم قليل فيها. وافتتحها قرط بن كعب الأنصارىّ فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه . ويشرب أهلها من عيون كثيرة وأودية عظيمة ، وبها وادٍ عظيم يأتى من بلاد الديلم يقال له نهر عيسى ، ولكثرة مياه البلد كثرت ثماره وجنّاته وأشجاره ، وله رساتيق [1] وأقاليم . ونسِب إليها الرازىّ ، وهو من شاذّ النسب .

وكتب الحجّاج إلى قتيبة بن مسلم : مايقيمك بأرض الفراعنة والجبابرة ! سرْ إلى خراسان ، أرض الفِضّة والعقيان ، والجوارى الحسان .

* * *

وتقدَّم الحبا . والغىّ : الضلال ، والعرب تقول : مايعرف الحىّ من اللىّ ، والحوّ من اللوّ ، تقوله لمن تستجهله وتنفى عنه الفِطْنة ، وتصريفها أنّ الحىّ مصدر حويت الشىء حزتَه وجمعته ، ولويت الرجل : مطلتَه ومنعتَه حقّه لوًّا وليًّا ولَيانا، فالحىّ مدح واللىّ ذم ، فكأنه إذا قال : عرفت الحىّ من اللىّ إنما قال : عرفت الخير من الشرّ ،وما يضرّ مما ينفع ، وعرفت الحىّ من اللىّ . وقَبيلى من دَبيرى ، إنما يستعملان فى النفى . وتجوّز أبو محمد فى استعمالهما فى الإيجاب حيث كان أصلا للنفى .

الزّمرة : الجماعة ، وتقول : فلان إثْرَ فلان أى خلفه وقريباً منه ، كأنه يتبع أثره إذا رفع هذا قدمه وضع الآخر قدمه فى الموضع. منتشرون : متفرقون . مستثنون : جارون . متواصفون : يصفه بعضهم لبعض .

* * *

(١) الرساتيق : القرى ، واحده رستاق ، معرب

[ابن سمعون]

ابن سمعون : هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن إسماعيل بن[١] عيسى بن إسماعيل المعروف بابن سمعون، الواعظ . وكان وحيدَ عصره وفريد دهره فى الإخبار عمّا هجس فى الأفكار ، وليًّا من الأولياء الأخيار ، كلامه فى الوعظ نافع ، ونصحه فى القلوب ناجع ، ومجاله فى تصاريف الكلام على الخواطر رَحْب واسع . وكان يقال : له الشيخ المنطَق[٢] بالحكمة .

وحدّث أبو الطاهر محمد بن علىّ العلاف قال : حضرت ابنَ سمعون يومًا وهو فى مجلس الوعظ على كرسيّه ، وكان أبو الفتح القوّاس جالساً إلى جنب الكرسىّ ، فغشيَه النعاس فنام ، فأمسك أبو الحسن عن الكلام ساعة حتى استيقظ أبو الفتح ورفع رأسه ، فقال له : رأيتَ النبىّ صلى الله عليه وسلم فى نومك ؟ فقال نعم ، فقال أبو الحسن : لذلك أمسكت عن الكلام خوفاً أن تنزعج وتَنقطع عن الكلام الذى كنتَ فيه[٣] .

وذكر أبو علىّ الهاشمىّ ، قال : حكى لى مولى[٤] الطائع لله تعالى ، قال : أمرنى الطائع أن أوجّه إلى ابن سمعون فأحضِره دار الخلافة ، ورأيت الطائع على صفةٍ من الغضب ـ وكان يُتقَّى فى تلك الحال، لأنّه كان ذا حدّة ـ فبعثت إلى ابن سمعون وأنا مشغول القلب لأجله ، فلما حضر ، أعلمت الطائع حضورَه ـ فجلس مجلسه ، وأذن له فى الدخول فسلّم عليه[٥] بالخلافة ، ثم أخذ فى وعظه فأوّل ما ابتدأ به أن قال : روِى عن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ... وذكر خبراً ، ولم يزل يجرى فى ميدان الوعظ حتى بكَى الطائع وسمِع شهيقه ، وابتلّ منديله بين يديه بدموعه ، فأمسك ابن سمعون حينئذ، ودفع إلىَّ دُرْجاً فيه طيب

(١) المنتظم : « ابن عنبس » .
(٢) المنتظم : « الناطق بالحكمة » .
(٣) المنتظم ٧ : ١٩٩ .
(٤) المنتظم : « دجى مولى الطائع » .
(٥) المنتظم : « فدخل وسلم بالخلافة » .

رفع المسهم

وغيره ، فدفعته إليه وانصرف. وعدت إلى الطائع ، وقلت : يامولاى ، رأيتك على صفة من الغضب على ابن سمعون، ثم انتقلتَ عنها عند حضوره ، فما السبب ؟ فقال: رُفِع إلىّ أنه ينتقّص عليًّا رضى الله عنه ، وأحببت أن أتيقّن ذلك ، فإن صح منه قلتُه ، فلمّا حضر بين يدىّ افتتح كلامه بذكره[1] والصلاة عليه ، وأعاد فى ذلك وأبدى ، وقد كان له مندوحة فى الرواية عن غيره وترك الابتداء به، فعلمت أنه وُفِّق[2] لما تزول به عنه الظنّة ، وتبرأ ساحته عندى ، ولعله كوشف[3] بذلك .

وله كتاب المجالس وهو كلّه أحاديث متصلة الأسانيد .

ومن كلامه أن القلب بمنزلة المرأة فإذا أصابتها لطْخة عولجت بالزّيت ، فإذا زادت زيد فيها من حتات الآجرّ ، فإذا زادت جُلِيَت بالحديد ، فإذا زادت على ذلك حتى ركبها الصدأ لم يكن لها بُدٌّ من عرضها عَلَى النار حتى يتم جلاؤها .

توفِّىَ ابن سمعون فى ذى القعدة سنة سبع وثمانين وثلثمائة ، ودفن بداره بشارع العباسى ، فلم يزل هناك حتى نقل يوم الخميس الحادى عشر من رجب سنة ست وعشرين وأربعمائة ودفن بباب حرب ببغداد . وقيل: إن أكفانه لم تكن بليتْ بعد .

* * *

فلم يتكاءدْنى لاستماعِ المواعظ ، واختِبَارِ الْوَاعِظ ؛ أنْ أقاصِىَ اللَّاغطَ ، وأحْتَمِلَ الضَّاغط . فأصْحَبْتُ إصحابَ المِطْواعَة ، وَانْخَرَطْتُ فى سِلْكِ الجماعَة ؛ حَتَّى أَفْضَيْنَا إلى نادٍ جَمَع الْأَمِيرُ والمأمُور ، وَحَشَدَ النَّبيهُ والمغْمورَ ، وفِى وَسَطِ هَالَتِهِ ، وَوَسْطِ أهِلَّتِهِ ، شَيْخٌ قَدْ تَقَـــوّسَ واقْعَنْسَسَ ،

(١) المنتظم : « يذكر على » .
(٢) المنتظم : « وقف » .
(٣) الخبر فى المنتظم :٧ : ١٩٩، وانظر بقية أخباره هناك .

رفع المسهم

وَتَقَلْنَسَ وتَطَلَّسَ ؛ وَهُوَ يَصْدَعُ بوعْظٍ يَشْفِي الصُّدُورَ ، وَيُلِينُ الصُّخورَ ؛ فَسَمِعْتُهُ يَقُول ، وَقَدِ افْتَتَنتْ بِهِ الْعُقُول :

* * *

قوله: يتكاءدنى ، أى يشقّ على . أقاصى : أباعد . اللاغط : الصائح بكلام لا يُفهم، والضاغط : الذى إذا زاحمك ضغطك لحائط أو غيره حتى ينقطع نَفَسُك، يريد أنه لم يمنعه ما أصابه من السبّ والصياح به والضغط واللكز من مزاحمة الناس حتى قرب من الواعظ .

ويبين هذا قوله فى الخمسين: «ولم أزل أتنقل فى المراكز، وأغضى للّاكز والواكز» .

أصحبت : انقدت . المِطْواعة : المنقادين المطاوعين . والانخراط : دخول الإنسان فى الأمر بغير علم . وتقدّم السلك .

أفضينا : وصلنا، وأراد أنّ هذا المجلس جمع العامة والأمير، ومَنْ له ذكر رفيع وشهرة . ومَنْ هو مجهول مخمول . وأراد بالهالة حلْقة الناس ، وبالأهلّة أشراف الناس والعلماء . وحرّك السين من «وسَط»، مع الهَالة لأنها دارة وساحة، العرب تقول: فلان جلس وسَط الدار واحتجم وسَط الرأس بالتحريك ، وسكّن مع الأهلة لأنه أراد معنى بيْن ، والعرب تقول : جلس وسْط القوم ، فحملوه على بَيْن، لمّا حلّ محلّها وكان فى معناها، ولا يجوز جلس بين الدار، فلهذا لا يقال جلس وسْطَها بالتسكين.

تقوّس : انحنى. اقعنسس : تقبّض واحدودب. والقَعَس : دخول الظهر وخروج الصدر ، والحَدَب ضدّه وبيّنه الراجز بقوله .

* أقعس يمشى مشية التقاعس *

تقلْنَس : لبس القلنسوة . تطلّس : لبس الطيلسان وهو كساء أخضر يلبسه الخواص . يصدع : يشقّ .

* * *

ابن آدمَ ، ما أغرَاك بما يَغُرّكَ ، وأضْرَاك بِمَا يَضُرُّكَ ، وَأَلْهجَكَ بِمَا يُطْغِيكَ ، وَأَبْهَجَكَ بِمَنْ يُطْرِيكَ . تُعْنى بِمَا يُعَنِّيكَ ، وَتُهْمِلُ ما يَعْنِيكَ ، وَتَنْزِعُ فى قَوْسِ تَعَدِّيك ، وَتَرْتَدِى الحِرْصَ الَّذِى يُرْدِيكَ ؛ لا بالْكَفَافِ تَقْتَنِع ، وَلاَ من الحَرامِ تَمْتَنِع ، ولا لِلْعِظَاتِ تَسْتَمِعُ ، وَلاَ بالوعيد تَرْتَدِع . دَأْبُكَ أَنْ تَتَقَلَّبَ مَعَ الأهواء ، وَتَخْبِطَ خَبْطَ الْعَشْوَاء ، وَهَمُّكَ أن تدأبَ فى الاحْتِرَاثِ ، وَتَجْمَعَ التُّرَاث للوُرَّاث ؛ يُعْجِبكَ التَّكَاثُرُ بِمَا لَدَيكَ ؛ وَلاَ تَذْكُرُ ما بين يَدَيْكَ ، وَتَسْعَى أبداً لِغارِيكَ ، وَلاَ تبالى أَلَكَ أم عَلَيْكَ . أتظنّ أن سَتُتْرَكَ سَدًى ، وَألاَّ تحاسبَ غداً ؛ أم تَحْسِبُ أَنَّ الْمَوْتَ يقبلُ الرُّشا ، أو يميِّزُ بين الأَسَدِ والرَّشا . كلاَّ واللهِ لَنْ يَدْفَعَ المنـون ، مالٌ ولا بَنُون ؛ وَلاَ يَنفَعُ أهلَ الْقبُور ؛ سِوَى الْعَمِلِ المبْرور . فطوبى لِمَنْ سَمِعَ وَوَعَى ؛ وَحَقَّقَ ما ادَّعَى ؛ ونَهى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ، وَعَلِمَ أَنَّ الفائز مَنِ ارْعَوَى ، وَأَنْ لَيْسَ للإنسانِ إلاَّ ما سَعَى ، وأن سَعْيَه سَوْفَ يُرَى . ثُمَّ أنشدَ إنشادَ وَجِلٍ ، بصَوْتٍ زَجِلٍ :

. . .

قوله: «ماأغراك» ماأكثر لصوقك . يغرّك: يدلّك على الغرر . أضراك : أشدّ ملازمتك . ألهجك : أشدّ حبك .

يطغيك : يردك طاغياً متجاوزاً قدرك . أبهجك : أشدّ سرورك . يُطريك :

يمدحك فى وجهك، والنفس ميالة كثيرة الانخداع بمَنْ يعظّم شأنها ويثنى عليها، فرّارة ممن يحقرها ويذمها، ولذا قال صلى الله عليه وسلم :«احْثُوا التراب فى وجوه المداحين » تذليلا لهم بذلك حيث أكسبوا غيرهم عزة النفس والكبر. قال الشاعر:

وخدعته بخديعة لمّا أَبَى والحُرّ يُخْدَعُ بالكلام الطيّبِ

تعنى : تشتغل . يعنّيك : يتعبك . تنزع :ترمى. تعدّيك :ظلمك الحرص: أسوأ الطمع. يرديك:يهلكك .

* * *

[نبــذ من الأقوال الحكيمة]

كعب بن مالك قال:قال رسول الله صلى عليه وسلم :«ماذئبان جائعان أُرْسِلا فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشَّرف لدينه » .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:« اقتربت الساعة ولا يَزْداد الناس إلا حرصاً على الدنيا ولا تزداد منهم إلا بعداً ».

وقال محمود الوراق :

كم إلى كم أنت للحــرْ صِ وللآمال عبــدُ
ليس يجدى الحرْص والسعـ ـيُ إذا لم يكُ جِـدُّ
ما لما قــــدره اللــه من الأمر مَرَدُّ

وفى كتاب للهند : لا ينبغى للملتمس من عيشه إلا الكفاف الذى يدفع به الحاجة عن نفسه ، وما سوى ذلك فإنما هو زيادة فى غمّه .

رفع المسهم

وقالت الحكماء : أقل الدنيا يكفى ، وأكثرها لا يكفى .

وقال أبو ذؤيب :

والنَّفسُ راغبةٌ إذا رغّبْتَها وإذا تُرَدّ إلى قليل تقنع (١)

وقال سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه لابنه : يا بُنىّ ، إذا طلبتَ الغنى فاطلبه بالقناعة ، فإنها مال لا ينفد ، وإياك والطّمع فإنما هو فقر حاضر . وعليك باليأس فإنك لم تيأس من شىء قطّ إلا أغناك الله عنه .

وقال : الغنىّ من استغنى بالله والفقير من افتقر إلى الناس .

قال ابن أبى حازم رحمه الله تعالى :

استغن بالله لا تَضْرَعْ إلى النَّاسِ واقنع بيأسٍ فإن العزَّ فى اليأسِ
واستغن عن كلّ ذى قربى وذى رَحمٍ إنّ الغنىّ مَن استغنى عن الناس

ومن دعاء عمر رضى الله عنه : اللهم ، لا تكثر لى من الدنيا فأطغى ، ولا تقلّل لى منها فأنسى ، فإنّه ما قلّ وكفى ، خير ممّا كثُر وألهى .

وقالوا : ثمرة القناعة الراحة ، وثمرة الحرص التعب .

وقالوا : لاغنى إلا غنى النفس .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عندك ما يكفيك وأنت تطلب مايطغيك ! لا بقليل تقنع ، ولا بكثير تشبع . يا بن آدم ، إذا أصبحت آمناً فى سربك معافًى فى بدنك ، عندك قوت يومك فعلى الدنيا العفاء » .

وقيل لأبى حازم : ماما لُك ؟ فقال : مالان : الغنَى بما فى أيدى ، واليأس مما فى أيدى الناس

وقيل لآخر : ما مالُك ؟ فقال : التجمّل فى الظاهر والقصد فى الباطن .

ومما قيل من الشعر فى معنى ما تقدّم ، قال محمود الورّاق :

(١) ديوان الهذليين ١ : ٣

رفع المسهم

يا عائب الفقر ألا تزدجرْ عيبُ الغنى أكبرُ لو تعتبرْ
من شرف الفقرِ ومن فضله على الغنى لو صحّ منك النظر
أنك تعصى الله تبغى الغِنَى وليس تعصى الله كى تفتقرْ

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

ومن سرّه أنّ لا يرى ما يسوءه فلا يتّخذ شيئاً يخاف له فَقْدَا
فإنّ صلاح المرء يرجع كلُّه فساداً إذا الإنسان جاز به الحدّا

وقال البحترى :

إذا ما كان عندى قوت يومٍ طرحتَ الهمّ عنى يا سعيدُ
ولم تخطر هموم غدٍ ببالى لأن غداً له رزق جديدُ

وقال ابن طباطبا:

إنّ فى نيل المُنَى وَشْكُ الرّدَى وقياس القصد ضدّ السّرفِ
كسراج دُهْنه غَمَرٌ له فإذا غرّقتَهُ فيـــه طُفِى

وقال آخر :

وإذا نبـــا بىَ منزل جاوزتُه واعتضت منه غيره لىَ منزَلا
وإذا غـلا شىء علىّ تركتـه فيكون أرْخَصَ مايكون إذاغلا

* * *

قوله : « ولا بالوعيد ترتدع » أى لا تكفّ عن غيّك ولا ضلالك بما تخوّف به من أهوال الآخرة . دأبكَ ، أى عادتك . الأهواء : جمع هوى ، وهو ما تحبّه النفس وتميل إليه . تخبط : تمشى على عماية . العَشْواء : الناقة التى لا تبصر . تدأب : تداوم . الاحتراث : الكسب . التراث : المال الموروث .

رفع المسهم

[نبذ من الأقوال الحكيمة أيضا]

وفى معناه أنه وجد على حائط مكتوبا : ابنَ آدم غافص [1] الفرصة عند إمكانها ، وكل الأمور إلى وليّها ، ولا تحلّ فى قلبك همّ يوم لم يأت إن يكن من أجلك ، يأتك الله برزقك فيه ، ولا تجعل سعيَك فى طلب المال أسوة المغرورين ، فربّ جامع لبعْل حليلته . واعلم أن تقتير المرء على نفسه توفيرٌ منه على غيره ، فالسعيد من اتّعظ بهذه الكلمات . قال بديع الزمان :

أيا جامَع المال من حَلّهْ يبيت ويُصْبح فى ظِلّهْ
سيؤخذ منك غداً كلّه وتُسْألُ من بعد عن كلّهْ

وله أيضاً :

يا حريصاً على الغنى قاعداً بالمراصِدْ
لستَ فى سعيك الّذى خضت فيه بقاصدْ
إن دنياك هذه لستَ فيها بخالدْ
بعد هذا فإنما أنت ساعٍ لقاعدْ

وقال سابق البربرى :

فتى متى تلهو بمنزل باطلٍ كأنك فيه ثابتُ الأصل قاطنْ
وتجمع مالاً تأكل الدهر دائباً كأنك فى الدنيا لغيرك خازنْ

وقال رجال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : إن فلاناً جمع مالا ، قال : فهل جمع له أياما ! أخذه الشاعر فقال :

ارفه يعيش فتًى يغدو على ثقةٍ إنّ الذى قَسَمَ الأرزاق يرزقُهُ
فالعِرْض منه مصونٌ لا يُدنِّسُهُ والوجه منه جديد ليس يخلقُهُ
جمعت مالاً ففكِّر هل جمعت له يا جامع المال أياماً تفرّقُهْ
المال عندك مخزون لوارثِه ما المال مالك إلا حين تنفقُهُ

(١) فى اللسان : غافص الرجل مغافصة ، أخذه على غرة

قوله :« التكاثر » أى كثرة المال، تقول : تكاثر المال تكاثراً : جاز الحدَّ فى الكثرة .

أبو سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم : « من أمسى وأصبح وهمّه الدينار والدرهم تكاثراً حشِر مع اليهود والنصارى ، والذين قالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ».

تسعى لغاريْك : تجهد فى كسبك لتدرك شهوة بطنك وفرجك ، وهما الغاران ، قيل : هما الفرج والفم . وقيل : الحنكان : الأعلى والأسفل ؛ وأخذ اللفظ من قول الشاعر :

ألم تر أنّ الدهر يومٌ وليلة وأن الفتى يسعى لغَاريْه دائبا

قوله سدًى ، أى مهمل مسيّب . الرُّشا بالضم : جمع رِشوة وهى العطية تَدفع بها مضرَّةَ من يقدر عليكَ . الرّشا ، بالفتح : الغزال . كلاّ : زجر . المنون : هى المنّية ، المبرور. المتقبّل . وَعَى : حفظ الوصية . ما ادعى ، أى ما ادعاه من أنه قبِل الوصية . وحققه : داوم عليه بعمله . ارعوى : رجع وتاب . ما سعى ، أى ما عمل وتعب فيه . الفائز : الظافر بحاجته . وَجِل : خائف . زجل : شديد ، وزجل الصوت زجلا : ارتفع وأيضاً طرّب.

وقال أبو العتاهية فيما تقدّم من ذكر الموت :

بين عينِى كلّ حين عــلَم الموت يلوحُ
كلنـا فى غفـلة والـــموتُ يغـدو ويروحُ

وقال البديع :

إنمـا الدّنيـا غرور ولمن أصغى نصيحُ

ولسان الدهر بالوعْـــظ لواعيـه فصيحُ
نحن لا هون وآجا لُ المنـايا لا تريحُ

* * *

لَعَمْرُكُ ما تُغْنِي الْمَغانى وَلاَ الْغِنىَ
إذَا سَكنَ الْمُثْرِى الثرى وثَوَى بِهِ
فَجُدْ فِي مَرَاضِى اللهِ بالمالِ راضياً
بما تَقْتَنِى مِنْ أجْـــرِه وثوابِهِ
وبادِرْ به صَرْفَ الزَّمـــــانِ فإنَّهُ
بِخُلْبَهِ الأشنَى يَغُـــولُ ونابِهِ
وَلاَ تأمَنِ الدَّهرَ الخئونَ ومكرَهُ
فَكَمْ خاملٍ أخْنَى عليـــــه ونَابِه
وعاصِ هَوَى النَّفْسِ الَّذى ما أطاعَهُ
أخُو ضَلَّةٍ إلاَّ هَوَى من عِقَـابِهِ
وحافِظْ عَلَى تَقْوى الإلَهِ وَخَوْفِهِ
لتَنْجُوَ مِمَّا يُتَّقَى مِنْ عِقـــابِهِ
ولا تَلْهَ عَنْ تذكارِ ذَنْبِكَ وابْكِهِ
بِدَمْعٍ يُضَاهِى الْمُزْنَ حالَ مَصَابِهِ
وَمَثِّلْ لعينِكَ الْحِمَـامَ ووقعَهُ
وَرَوْعَهُ مَلْقَاهُ وَمَطْعَمَ صـــابِهِ

وإنّ قصارى مَنزِلِ الحيِّ حُفْرَةٌ
سَتُنْزِلُهَا مُسْتَنْزَلاً عَنْ قبـابِهِ

فواهاً لِعَبْـدٍ سـاءَهُ سوءُ فِعلِهِ
وأبْدَى التَّلاَفِي قبـل إغلاق بَابِهِ

* * *

قولهُ : لَعمرك ، العَمر البقاء، فأقسم به كأنه قال : وحق بقائك الكريم علىّ المحبَّب إلىّ .

المغانى : المنازل الشريفة . المثرى : الكثير المال . الثّرَى : التراب الندىّ ، وأثرى صار له كثير من المال كالثرى فى كثرته . ثوى : أقام . جُدْ : تكرّم بمالك . تقتنى : تكتسب ، أى لاتنفع المنازل الرفعية البناء ولا المال الكثير إذا آل الحال إلى الموت . بادر : سابق . صَرَف : تقلّب .

الأشغى : المعوجّ . يغُول : يهلك . نابه : ضرسه . الخئون : الكثير الخيانة . النابه والنبيه ، من النباهة وهى الجلالة والرفعة ، والخامل ضدّه ، وأخنى علىّ : أخذ مالى . ضُلّة ، أى ضلالة ، وهوى: سقط . عقابه الأول جباله، والثانى عذابه . تلْهُ : تشتغل . يضاهى : يشابه . الوبْل : أكثر المطر . حال مَصابه ، أى حال وقوعه، والمَصاب: مصدر صاب يصوب صوباً ومَصاباً . الحِمام : الموت . روعة : فزع صاحبه حين يلقاه . صابه : مرّه ، والصاب شجر مرّ . وقصارى : آخرونهاية، كأنه قصر عندها أى جلس فلم يجاوزها . واهاً : عجباً . التلافى: التدارك لمافات . إغلاق بابه ، أى موته .

[ملَك الموت]

وفى روعة ملقاه يُحكى أنّ إبراهيم عليه السلام ، قال لملك الموت : هل تستطيع

رفع المسهم

أن تُرِيَنى صورتك التى تقبض عليها روح الفاجر ، قال : لاتستطيع ذلك ، قال : بلى ، قال : فأعرِض عنى ، ثم التفت ، فإذا هو برجل أسود قائم الشعر منتن الريح ، أسود الثياب ، يخرج من فيه ومن منخريه لهيب النار والدخان . فغُشِيَ على إبراهيم عليه السلام ، ثم أفاق وقد عاد إلى صورته : فقال إبراهيم : لولم يكن للفاجر عند موته إلا صورتك لكان حسبه .

وفى مطعم صابه، يحكى أنّ إبراهيم عليه السلام قال له الله تعالى: كيف وجدت الموت ياخليلى ؟ قال : كسَفّود جُعل فى صوف رطب ، قال: أما إنّا هونّا عليك. وقال لموسى عليه السلام : كيف وجدت الموت ؟ قال كعصفور يقلى على المقلى، لا يموت فيستريح ، ولا يَطير فينجو . وفى رواية : كشاة تُسْلخ من جلدها وهى حية .

وقال كعب الأحبار لعمر رضى الله عنهما ، وقد سأله أن يحدّثه عن الموت ، قال : الموت يا أمير المؤمنين كغصن كثير الشّوْك ، أدخل جوف رجل، فأخذَت كلّ شوكة بعرْق ، ثم جذبه رجل شديد الجذب ، فأخذ الغصن ما أخذ ، وأبقى ما أبقى .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم عند موته يقول : «إن للموت لَسَكَرات، اللهم هوّن علىّ سَكَرات الموت »

وقالت عائشة رضى الله عنها: « لاأغبط أحداً يهون عليه الموت بعد الذى رأيته من موته صلى الله عليه وسلم » .

فهذه حال أحبابه فكيف بمن غمر فى بحار المعاصى ! اللهم عفوك

وشعر المقامة مزدوج القوافى ، وعارضه الزاهد بن عمران فقال :

مالى وللدنيا وعلمى بها غرّارة خـــدّاعة مالى

تغرنى حتّى إذا مُكِّنَتْ تعَبتُ فى نفسى وفى مالِى
هِمْتُ بها حبا فقد أفسدت ما كان من صالح أعمالِى
أعمى الهوى قلبى وحُبِّى، لها رأس خطاياى وأعمالِى
تبكى على الفائت من حظِّها عينى بتسْكاب وإهمالِى
ياربّ زهّدنِى فى حبها ولا تؤاخذنى بإهمالى

وله فى مثله :

ارغب عن الدنيا وأوصافِهَا مشوبة جاءتك أوصافيَهْ
قتل أولى الألباب من فعلها فاصغ إلى نصحى وأوصافيَهْ
ما بالغنى يغترّ ذو فطنةٍ كلاًّ ولا يغترّ بالعافيَهْ
كم من غِنىً قد عاد فقرًا وكم عافية قد أصبحت عافيَهْ

وله أيضاً :

ما الزهد يا قوم ـ فلا تجهلُوا ـ بلبس أسمالٍ وأخلاقِ
لكنه لُبْس ثياب التقى فى حسن آداب وأخلاقِ

وله أيضاً :

خليلىّ لايغُرُرْك مِنّىَ ظاهرى ومهما سألت الله فاسألْهُ لِى صَفْحَا
فلو كنت ذا علمٍ كعلمى بباطنى لأضربت عن ذكرى أيادى النهى صفحَا
ولكن أرى الله الجميل بفضله فلم يفش لى سرّاً ولم يُبْدِ لى صفحا

وقال بعض الزهاد لصاحبه : إنى أحبك فى الله ، فقال له : لو علمت منى ما أعلم من نفسى لأبغضتَنى فى الله .

وله أيضاً :

تحفظ بدينك لا تبتذلْهُ ولاتلفِ عرضَك عِرْضًا كليَا

وعدٍّ عن الذنب لاتأتِهِ وبادر بإصلاح مامنك لِيما
فأنت ابن عمران موسى المسيء ولستَ ابن عمران موسَى الكليما

وقال غيره :

لا تأمن الدهر الخئو ن وخَف بوادر بَغْتَتِهْ
فالموت سهم مرسلٌ والعمر قَدْر مَسَافتِهْ

* * *

قال : فظلّ القومُ بَيْنَ عَبْرَةٍ يَذْرونَها ، وتَوْبةٍ يُظْهِرُونَها ؛ حَتَّى كادَتِ الشَّمْس تَزُولُ ، والفريضَةُ تَعُول . فلمّا خشعتِ الأصوات ، والتأمَ الإنصاتُ ، واستكنَّتِ العَبراتُ والعِبارَات ؛ استصرخ مستصرخٌ بالأمير الحاضِر ، وَجَعَل يجأَرُ إليه من عامِلِهِ الجائِرِ ، والأميرُ صاغٍ إلى خَصْمِهِ ، لاهٍ عَنْ كَشْفِ ظُلْمِهِ .

فلما يَئِسَ مِن رَوْحِهِ ، استنهض الواعِظَ لنصحه ؛ فنَهض نَهْضَةَ الشِّمِّير ، وأنشد مُعَرِّضاً بالأمير .

* * *

قوله: «عبرة يذرونها»، أى دمعة يصبّونها . وتَعُول، تزيد وتضيق، يريد يضيق وقتها ، ويدخل عليها وقت غيرها فترجع صلاتين. خشَعت : ذلّت. التأم الإنصات : اتّصل السكوت . استكنّت العبَرات والعِبارات ، أى سكن البكاء والكلام . استصرخ مستصرخ، أى استغاث مستغيث . يجأر: يصيح. يريد أنّ رجلا تشكّى للأمير من عامل له ولاّه عليهم، فجار، فمال الأمير مع الوالى ، وترك المشتكى . وقوله : صاغ، أى مائل . ولاهٍ ، أى تارك ومشتغل. يئس : قطع رجاءه . رَوْحه:

رفع المسهم

نصرته وعدله الذى يريح المشتكى ، والرّوح الفرح والسرور . استنهض : سأله النهوض لينصح الأمير .

عائشة رضى الله عنها : قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من كان ذا وصلة لأخيه المسلم إلى السلطان فى مبلغ برّ، وتيسير عسير، أعانه الله على إجازة الصراط : يوم دحَض الأقدام » .

الشِّمِّير: الماضى فى أموره: معرّضا : من التعريض وهو أن تخاطب غيره وأنت تريده .

* * *

عجباً لِرَاجٍ أن ينالَ وِلايَةً ... حتَّى إذا ما نَالَ بُغيَتَهُ بَغَى

يُسْدِى ويُلْحِمُ فى المظالم والغَا ... فى وِرْدِها طوْراً وطوراً مُولِغا

ما إن يبالِى حينَ يتّبع الهوى ... فيها أأَصْلَحَ دينَهُ أم أوتغَا

يا ويحَهُ لو كان يُوقِنُ أنَّهُ ... ما حالةٌ ألاَّ تحولُ ، لَمَا طَغَى

أوْ لَوْ تبيَّنَ ما ندامَةُ مَنْ صَغَا ... سَمْعاً إلى إفْكِ الوشاةِ لَمَا صَغَا

فانْقُدْ لمن أضحى الزمام بكفِّهِ ... وتغاضَ إن ألغى الرّعايةَ أوْ لَغَا

وارْعَ المُرارَ إذَا دَعَاكَ لِرَعْيِهِ ... وَرِدِ الأُجاجَ إذا حماكَ السَّيْغَا

واحمل أذاه ولو أمضك مَسُّه ... وأسَالَ غَرْبَ الدَّمْعِ منْكَ وأفْرَغا

فليُضحكنْكَ الدَّهْرُ منه إذا نبا ... عَنْهُ وشبَّ لِكَيْدِه نارَ الْوَغَى

ولينزانَّ به الشَّمَاتُ إذا بدا ... مُتخلِّياً مِنْ شُغْلِهِ مُتَفَرِّغا

وَلَتَأْوِيَنَّ له إذا ما خَدَّهُ ... أضحى على تُرْبِ الهوانِ مُمَرَّغا

نال بغيته ، أى أدرك ماطلب . بغى : جار وظلم . يُسدى ويلحم ، أى يتصرّف فى المظالم طولا وعرضاً ، ومقبلا ومدبراً . والسّدى: خيوط الثوب طولا ،

رفع المسهم

واللحمة خيوطه عرضا : والغاً : شاربا . وردها : ماؤها . مولغاً : مسقياً غيره ، ويريد أنه يباشر الظلم بنفسه تارة ،ويوليه غيره أخرى . أوتغ : أفسد وأهلك .

ياويحه ، قال الأزهري رحمه الله تعالى: ويْح كلمة رحمة، وويل كلمة عذاب، والفرق بين ويح وويل أنّ ويح تقال لمن وقع فى بليّه ، يُرحَم ويدْعى له بالتخلص منها . وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ويحكِ » ، فجزعت فقال لى: « ياحميراء ، إن ويح كلمة رحمة فلا تجزعى منها ولكن اجزعى من الويل » .

يوقن : يحقق . تحول تتغيّر . طَغَى : ارتفع وجاز الحدّ فى الجوْر . صغى : مال . إفك . كذب . الوشاة : جمع واشٍ، وقد تقدم . انقد : أطع ، يقول : من أصبح حاكمك فاتبعه وأطع له . تغاضَ : تغافل : ألغى : ترك . الرعاية : المحافظة للحقوق . لغا : أخطا وقال قبيحا ، ثم قال : إن حَمَلك على الذل فاحتمله ، وكنّى برعى المُرار عنه . رِدِ الأجاج : اشرب الماء المرّ والملح . حماك السَّيِّغا : منعك العذب السهل للشرب . أمضّك : أحرقك وصيّرك مهموماً ، والمضّ التوجع من قول أو جرح . مسُّه : وقعه بجسمك . والغرْب : فيض الدمع ، والغرْب : الدلو .

* * *

هذا أَهُ ولَسَوْفَ يُوقَفُ موقفاً ... فيه يُرَى ربُّ الفصاحة أَلْثَغَا

ولَيُحشرَنَّ أذلَّ مِنْ فقعِ الفَلاَ ... ويحاسَبَنَّ على النّقيصةِ والشّغا

ويؤاخذَنَّ بما اجتنَى ومن اجتبَى ... وَيُطَالَبَنَّ بما احْتَسَى وبما ارتَغَى

ويناقشَنَّ على الدقائق مثل ما ... قد كان يصنع بالورَى بلْ أبْلَغَا

حَتَّى يَعَضَّ على الولايةَ كَفَّهُ ... ويودُّ لو لم يبْغِ مِنْهَا ما بَغَى

* * *

رفع المسهم

هذا له ، إشارة إلى ذل العزل . الألثغ : الأخرس المحبوس اللسان ، وهو أيضاً الذى يُبْدِل الباء والراء غيناً . وربّها : صاحبها . والفقع ضرب من الكمأة مَنْ وطئه كسره لضعفه ، وهو الفُقّاع ، وبه يضرب المثل ، فيقال : أذلّ من فقع بقرقر .

الشّغا : الزيادة . اجتنى : جمع أموال الناس وضبطها لنفسه . اجتبَى : اختار، يريد أنه يطالب بما أخذ من الدنيا ويحاسب على الوالى الذى اختاره وولاّه .

احتسى : شرب الحسوة من اللبن بعد الحسوة . ارتغى : شرب الرّغوة ، أى يؤاخذ بالقليل والكثير والظاهر والباطن . يناقش : يبحث عليه ويخرج ماعنده . أبلغ : أزيد . يبغ : يدرك ويطلب .

[ذكر الولاية والعزل والتشكى من الولاة]

ونذكر هنا فصلا من الآداب يحتوى على الولاية والعزل والتشّكى من الولاة، حسبما تضمّن هذا الموضع فى المقامة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ستحرصون على الإمارة ، وتكون حسرة وندامة ، فنعمت المرضعة ، وبئست الفاطمة » .

أراد عمر رضى الله عنه أن يستعمل رجلا فبدر الرجل يطلب العمل فقال : قد كنّا أردنا لذلك ، ولكن مَنْ طلب هذا العمل لَمْ يُعَنْ عليه .

ولقىَ عمر رضى الله عنه أبا هريرة رضى الله عنه فقال : ألا تعمل ؟ فقال : ما أريد العمل، قال: قدطلبه مَنْ هو خير منك، يوسف الصديق عليه السلام قال: ﴿ اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ﴾ .

قال المغيرة بن شعبة : أحِبّ الإمرة لثلاث : لرفع الأولياء ، ووضع الأعداء ولسترخاص الأشياء . وأكرهها لثلاث: لروعة البريد، وذلّ العَزْل، وشماتة الأعداء

رفع المسهم

وقال أمير لأعرابيّ : قل الحق وإلاّ أوجعتُك ضرباً، قال : وأنت فاعمل به، فوالله لَمَا وعدك الله على تركه أعظم مما توعَّدتَنى به .

وذُكِر أهل الساطار عند أعرابيّ ، فقال أما والله إن اعتزّوا فى الدنيا بالجَوْر لقد ذلوا فى الآخرة بالعدل ، ولقد رضوا بقليل ، فإن عوضاً من كثير باقٍ ، وإنما تزلّ القدم حيث لاينفع الندم .

تظلّم رجل للمأمون من عاملٍ له ، فقال له : ياأمير المؤمنين ، ماترك لنا فضة إلا فضّها ، ولا ذهباً إلا ذهب به ، ولا ماشية إلا مشى بها ، ولا غلّة إلا غلّها ، ولا ضيعة إلا أضاعها ، ولا عِلْقا إلا علقه ، ولا عِرْضاً إلا عرَض له ، ولا جليلا إلا أجلّه ، ولا دقيقاً إلا دقه . فعجب المأمون من فصاحته ، وقضى حاجته .

قحطبة بن حميد : إنى لواقف [1] على رأس المأمون يوماً ، وقد جلس للمظالم، فكان آخر من دخل عليه وتقدم إليه امرأة وقد همّ بالقيام، عليها أُهبَة السفر وثياب رثّة . فوقفت بين يديه، وقالت : السلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فنظر المأمون إلى يحيى بن أكثم ، فقال يحيى : وعليك السلام ياأَمَة الله ، تكلمى فى حاجتك ، فقالت :

ياخير منتصفٍ يُرجَى له الرّشَدُ ... ويا إماماً به قد أشرق البلدُ
تشكو إليك عميدَ الملكِ أرملةٌ ... عَدَا عليها فلم يُترك لها سَبَدُ [2]
وابتزّ منى ضياعى بعد منعتِها ... ظلماً وفرّق منّى الأهل والولدُ

فأطرق المأمون حيناً ثم رفع رأسه فقال :

فى دون ماقلتِ زال الصَّبْرُ والجلدُ ... عنّى وأقرح منّى القلبُ والكَبِدُ
هذا أوان صلاة العصر فانصرفى ... واحضرى الخصم فى الوقت الذى أعِدُ
والمجلس السبت أن يقضَ الجلوس لنا ... نُنْصِفْكِ منه وإلا المجلسُ الأحدُ

(١) الخبر فى العقد ١ : ٣٣ ، نهاية الأرب ٦ : ٢٧٦
(٢) السبد فى الأصل : الشعر ، يكنى به عن الغنم ، ويكنى بالغنم عن الشيء القليل .

فجلس يوم الأحد ، فكانت أوّل من تقدم إليه ، فقالت : السلام عليك ياأمير المؤمنين ، فقال : وعليك السّلام ، أين الخصم؟ فقالت: واقف على رأسك ، وأشارت إلى ابنه العباس ، فقال : يا أحمد بن أبى خالد، خذ بيده فأجلسه معها للخصومة . ففعل. فجلس، فجعل كلامُها يعلو كلامَه فقال لها : أحمد ياأمة الله، أنت بين يدى أمير المؤمنين وتكلّمين الأمير، فاخفضى من صوتك ، فقال له المأمون: دعها ياأحمد فالحقّ أنطقها والباطل أخرسه . ثم قضى لها بردّ ضياعها وظلم العباس[1] . وأمر لها بنفقة وبكتاب إلى عامل بلدها أن يحسن معاونتها .

قال أبو العيناء : كان عيسى بن فرخان شاه يتيه علىّ فى وزارته ، فلما صُرِف رهبنى ، فلما لقيَنى سلّم علىَّ فدنوت منه وقلت له : والله لقد كنتُ أقنع بإيمائك دون بيانك ، وبلحظك دون لفظك ، والحمد لله على ما آلت إليه حالتك ، فإن أخطأتْ فيك النعمة فلقد أصابتْ فيك النقمة ، وإن كانت الدنيا أبدت مقابحها بالإقبال عليك ، فلقد أظهرت محاسنها بالانصراف عنك ، ولله المنة إذ أغنانا عن الكذب عليك ، ونزّهنا عن قول الزور فيك ، فقد والله أسأتَ حَمْل النِّعم، وما شكرت حَقّ المنعم . فقيل له: ياأبا عبد الله ، لقد أبلغَت فى السّب ، فما كان الذنب ؟ فقال : سألته حاجة أقلّ من قيمته ، فردّنى عنها بأقبح من صورته .

وقال ابن الرومىّ فى أبى الصقر ، وكان قد مدحه فلم يرفع به رأساً :

فلئن نُكِبَتَ لطالما نُكِبَتْ ... بك همة لجأت إلى سَنَدِكْ
لو تسجد الأيام ماسجدت ... إلا ليوم فتّ فى عَضُدِكْ
يا نعمة ولّت غضارتُها ... ما كان أقبح حسنَها بيدِكْ
فلقد غدت بَرْداً على كبدى ... لما غدت حَرًّا على كبدكْ

وقال فيه :

خفّض أبا الصقر فكم طائرٍ ... خرَّ صريعاً بعد تحليقِ

(١) فى العقد : « فظلم العباس اظلمه لها » .

زُوّجْتَ نعمى لم تكن كفؤها فصانها اللهُ بتطليقِ
لا قدّستْ نعمى تَسَرْبلتَها كم حُجّةٍ فيها لزنديقِ

وقال فيه قبل النكبة:

غدا يعلو الجيادَ وكان يعلو إذا ما استفره السبت الطِّراقا
أعنّتها الشّسوع فإن عراها حفاء الكدّ أنعلها طراقا
فزُوِّج بعد فقر منه نُعْمَى أرانى الله صُبْحتَها طلاقا

ومن غرائب التكاتب فى العزل ، ما كتب به أحمد بنِ مهران إلى معزول: بلغنى أعزّك الله انصرافُك عن عملك ، فسررت بذلك ، ولم أستفظعه لعلمى بأن قدرَك أجلُّ وأعلى من أن يرفعَك عمل تتولاه، أو يضعك عزل عنه ، والله لو لم تختر الانصراف ، وترد الانعزال ، لكان فى لطف تدبيرك ، وثقوب رويّتك، وحسن تأتّيك،ماتزيل به السبب الداعى إلى عَزْلك والباعث على صرفك ، ونحن إلى أن نهنّئَك بهذا الحال، أولى بنا من أن نعزّيَك ؛إذْ أردت الصرفَ فأوتيته، وأحببت الاعتزال فأعطيته ، فبارك الله لك فى منقلبك وهنّأك النعم بدوامها ، ورزقك الشكر الموجب المَزيد لك فيها .

كان[1] أبو شراعة لايسأل ابن المدبّر حاجة إلا قضاها،ولا يشفع لأحد إلاشفّعه، فلما عُزل إبراهيم بن المدبر عن البَصرة شيّعه الناس ، فردّهم حتى لم يبق إلا أبو شراعة ، فقال ياأباشراعة، غاية كلّ مودّع الفراق. فانصرف راشدا مكلوءا من غيرقِلىً والله ولا ملل . وأمر له بعشرة آلاف درهم . فعانقه أبو شراعة وبكى وأطال ، ثم قال وهو أحسن ماقيل فى التهنئة بالعَزل :

يا أبا إسحق سِرْ فى دَعَةٍ وامضِ مكلوءا فما منك خَلَفْ
ليت شعرى أىّ أرض أجدَبتْ فأريحتْ بك من جهد العَجَفْ
نزل اللطف من الله بهمْ وحُرمناكَ بذنب قد سَلَفْ

(١) الخبر والشعر فى الأغانى ١٩ : ١٢٤ ـ ساسى

إنمـا انت ربيع باكرٌ حيثما صرّفه الله انصرفْ

ومن ملح هذا الباب أنّ بعض الوزراء قلّد ابن حجاج عملاً ،فخرج إليه يوم الخميس ، وتبعه كتاب عزْله يوم الأحد ، فقال فيه :

يامن إذا نظر الهلا لُ إلى محاسنِه سَجَدْ
وإذا رأته الشمس كا دتأن تموتمن الحسدْ
يوم الخميس بعثْتَنِي وصرفتنى يوم الأحَدْ
والناس قد غنوا عـــلىْ لمـّاخرجتمن البلدْ
ما قام عمرو فى الولا ية قائماً حتى قعدْ

* * *

ثم قال : أيّها المتوشِّحُ بالولاَية ، المترشِّحُ للرِّعايةِ ؛ دَعِ الإدلال بدَوْلَتِـك ، والاغترارَ بصَوْلَتِك ؛ فإنّ الدّولة ريح قُلّب ، والإمْرَةَ بَرْقٌ خُلّب . وإن أسْعَدَ الرّعاة ، مَنْ سَعِدَتْ بهِ رعيّتُه ، وأشقاهُمْ فى الدّارَيْنِ مَنْ ساءت رعايتُه ؛ فلا تَكُ مِمّنْ يَذَرُ الآخرةَ وَيُلْغِيها ، وَيُحِبُّ الْعاجلةَ وَيبْتَغِيها ، وَيَظْلِمُ الرَّعِيّةَ وَيُؤْذِيها ؛ وإذا تَوَلَّى سَعَى فى الأرْض لِيُفْسِدَ فيها؛ فو الله ما يَغْفُلُ الدّيان ،وَلاَ تُهْمَلُ يا إنسان ، ولا تُلْغَى الإساءةُ ولا الإحْسَان ؛ بل سَيُوضَعُ لَكَ الميزانُ ، وكَمَا تَدِينُ تُدَانُ .

قال : فوجَمَ الوالِى لما سَمِع ، وامْتُقِعَ لونُه وانْتُقِعَ ، وجعل يتأفّفُ من الإمْرَة ، ويُرْدف الزَّفرَةَ .

[مما قيل فى اللثغ من الشعر]

وذكر اللثغ ، وللشعراء فى اللثغ مايستحسن ، قال ابن شهيد :

مرض الجفون ولثغةٌ فى المنطق ... شيآن جرّا عِشْق من لَم يَعْشَقِ (١)
ينبي فينبو فى الكلام لسانُه ... فكأنه من خمر عينيهِ سُقِى
لايُنعش الألفاظَ من عثراتِها ... ولو أنها كتِبت له فى مهرَقِ (٢)

وأحسن مافى وصفه قول الرمادىّ :

لا الراء تطمع فى الوِصال ولا أنا ... الهجر يجمعنا فنحن سواء
فإذا خلوت كتبتها فى راحتِي ... فبكيت منتحباً أنا والراء

اخذه أبو القاسم بن العريف ، فقال :

أيها الألثغ الذى شفّ قلبى ... جُدْ بحرف ولو نطقت بسبِّى
هجرك الراء مثل هجرِى سواء ... فكلانا معذّب دون ذنبِ
فإذا شئت أن أرى لى مثالا ... فى غرامى خططتُ راء بجنبى

* * *

قوله: «المتوشّح» اى المحتزم. والمترشح: المهيأ للرعاية اى لحفظ الناس. الاغترار الانخداع، صولتك: عزّك وقهرك، يقال: صال الرجل على قِرْنه، والفحْل على إبله، أى قهر وعلا، والفحل أيضاً عض، وربما همز فعل الفعل. قُلّب، أى متقلّب. خلّب: خادع لاماء فيه، يريد أنّ الولاية تنقل من إنسان إلى آخر. تلغى: تهمل. العاجلة الدنيا لأن خيرها معجّل. تولّى: صار والياً. سعى: مشى مسرعا.

ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَن ولِىَ من أمر أمتى شيئاً فحسنت سريرتُه رُزِق الهيبة فى قلوبهم، وإذا بسطت يده لهم بالمعروف

(١) ديوانه ١٣٢ ، وفيه : «سبيان» ،
(٢) المهرق : الصحيفة

رزق المحبة منهم ، وإذا أنصف الضعيف من القوىّ قوّى الله سلطانه وإذا عدل مدّ فى عمره»:وقال رسول اللهصلى اللهعليهوسلم . «آفةالدين ولاةالسوء،وأيّماوالٍ وَلِىَ شيئاً من أمور المسلمين فلم ينصح لهم ، ولم يجتهد كنصيحته وجهده لنفسه، كبّه الله تعالى على وجهه يوم القيامة» .

وقال رسول اللهصلى اللهعليه وسلم:«ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا، ولكن مَنْ أخذ من هذه وهذه »

الديان : المجازى وهو الله سبحانه وتعالى ، لأنه يجزى العباد على أعمالهم .

وقال الألبيرىّ :

كل امرئٍ فيما يدين يدانُ سبحان من لم يخل منه مكانُ (١)
ياعامرَ الدنيا ليسلكنَها وما هىَ بالتى يبقى بها سكانُ
تفنى وتبقَى الأرض بعدك مثل ما يبقى المناخ وترحَلُ الركبانُ
أأسرّ فى الدنيا بكلّ زيادة وزيادتى فيها هى النقصانُ

تهمل تترك همَلاً . وجَم : سكت غاضباً وامتُقع وانتُقع : تغيّر وذهب الدم من وجهه ، ويقال فى معناها : انتقع واهتقع .

يتأفف : يقول:أُف أُف،وذلك فعل النادم المهموم . الزفرة : النفخة من الهمّ.

* * *

ثم عَمَدَ إلَى الشَّاكى فَأَشْكَاهُ ، وإلى المشكوِّ مِنْه فأَشْجَاهُ ، وألطفَ الواعظَ وحَبَاه ، واسْتَدْعَى منه أن يَنْشاهُ ، فانقلب عنه المظلومُ منصوراً ، والظّالم مَحْصُورا ، وبَرَز الواعظ يتهادَى بَيْنَ

(١)ديوانه ١٧٧ .

رُفْقَته، ويتَبَاهَى بفوزِ صَفْقته · واعتقبتُه أخْطُو متقاصرا ، وأريه لَمْحًا باصِراً . فلمَّا استشفّ ما أُخفيه ، وفطِن لتقلُّبِ طَرْفِي فيه ، قال : خيرُ دَلِيلَيْكَ مَنْ أرشد ، ثم اقترب منّى وأنشد :

أنا الذى تعرفهُ يا حـــارثُ حِدْثُ ملوكٍ فـكِهٌ منافثُ
أُطرب مالا تُطرِب المثالثُ طوراً أخو جِدٍّ ، وطوراً عَابثُ
ما غـيّرتْنِي بَعْدَكَ الحَوادِثُ ولا التحى عودِىَ خَطْب كارِثُ
ولا فَرَى حدِّىَ نابٌ فارثُ بل مِخْلَبِي بـكل صيد ضَابِثُ
وكل سَرْح فيـه ذئبي عائثُ حتَّى كأنى للأنـامِ وارِثُ

* سامهمُ وحامهمْ ويافثُ *

* * *

أشكاه : أنصفه ورفع عنه شكواه ، وفى الحديث : شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حرّ الرمضاء فلم يُشْـكِنا. أى لم يزل شكوانا، أى شكوْا إليه ما يصيب أقدامَهم من شدّة الحر فى صلاة الظهر ، وسألوه تأخيرها إلى الإبراد ، فلم يجبهم إلى ذلك، وأنشد يعقوب :

* ونشتكى لو أنها تُشكينا *

* * *

والمشكو إليه الوالى الذى اشتكى إليه · أشجاه : آذاه وأبكاه . ألطف : برّه وأكرمه · حباه : أعطاه الحِباء . يغشاه : يزوره . محصوراً . محبوساً · يتهادى : يمشى متثاقلا مشى الوقار · يتباهى : يتعاظم . بفوزِ صفقته ، بظفر قصته مع الوالى، وفاز فوزًا : ظفر بخير دنياه وأخراه، وأصل الصفقة فى البيع هو أن تضربَ بيدك على يد مبايعك · اعتقبته :مشيت خلفه، كأنك تطأ بصدور قدميك مواطئ عقبيه: أخطو متقاصراً ، أى أمشى مستخفياً متشبّهاً بالقصار . لمحا باصراً ،أى نظراً شديداً.

استشفّ : استقصى . فطن : تنبّه وشعر . أرشد : دلّ ، يقول: إذا كان لك دليلان، فخيرهما مَنْ هداك الطريق ، فلما رآه ينظر وتشكك فيه . قال : خير دليليك من دلّك عليّ . اقترب : قرب .

حِدْث ملوك ، أى يحدِّثهم بما يطربون . فكه : طيب الحديث ، والفكه المزّاح الحسن الخلق ، وفكه فكها وفكاهة: طابت نفسه وكثر ضحكه ، قال الشاعر :

فكهٌ إلى جنب الخوان إذا غدت نكباء تقطع ثابت الأطنابِ[1]

أبو عبيدة : رجل فكه : يأكل الفاكهة ، وفاكه: عنده فاكهة .

وقال الشاعر أيضاً :

فكه العشيّ إذا تأوّب رحلُه صيف الشتاء مسامح بالميسر

أى يأكل الفاكهة وقرىء « فاكهين وفكهين » : قال الفراء رحمه الله تعالى : معناهما واحد أى معجبين بما آتاهم ربهم ، كطمع وطامع ، وفكه وتفكه إذا تعجّب ومنه: ﴿فظلتم تفكّهون[2]﴾ ، وقيل: معناه تندمون .

قوله : منافث ، أى محادث . المثالث : من أوتار العود . طوراً : حيناً . عابث : لاعب . الحوادث : ما يحدثه الدهر من خير أو شر . التحى : قشر . خطب كارث : أمر ثقيل صعب . فَرَى : قطع . نابى : ضرمى . فارث : مفتّت للكبد ، قال الشاعر :

هَوَى من صخرة صلْدٍ ففرث تحتها كبده

وفرثت الكرش : أخرجت مافيها من الزبل . ضابث : قابض عليه . السرح: المواشى تغدو راعية فى المسرح وتروح منه . عائث : مفسد آكل لها .

* * *

(١) اللسان ـ فكه ، من غير نسبة

(٢) سورة الواقعة ٦٥ .

[ذكر سام وحام ويافث]

وسام وحام ويافث ، أولاد نوح عليه الصلاة والسلام، وفيهم نزلت: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾(١). وبذلك جاءت الأخبار، وهم لأمٍّ واحدة. وأصاب حام امرأته فى السفينة . فدعا نوح عليه السلام أن يغيّر الله نطفته ، فجاءت بالسودان .

وذكر أهل التوراة أنّ نوحاً عليه السلام شرب وانتشى وتعرّى ، فأبصر حامٌ عورتَه ، فاطّلع عليه أخواه ، فأخذا رداءه فألقياه على عواتقهما ، ومشيا على أعقابهما ، فواريا ، فعلم نوح عليه السلام بذلك ، فقال: ملعون كنعان بن حام ، عبد العبيد يكون لأخويه ، ومبارك سام ، ويكثر الله يافث (٢)

وفى تفسير النّقاش أن نوحاً لما أهبط من السفينة، نام فبدت عورتُه فنظر إليها حام فضحك ، ولم يغيّر عليه يافث ونظر ذلك سام ، فزجره وغطّى عورة أبيه، فلما استيقظ أخبره ، فدعا نوح ابنه حاماً فقال: يابنىّ غيّر الله ماء صلبك، فلا تلد إلا السودان . وقال ليافث : جعل الله ذريتك عبيداً لأولاد سام ، وقال لسام : جعل الله منك الأنبياء والصالحين والملوك . فكان سام القيّم بعد أبيه فى الأرض ، ونزل وسطها ، نزل الحرم إلى اليمن إلى الشام . ومن ولده الأنبياء كلهم عربيها وعجميها. ومن ولده عاد وثمود وطسم وجديس والعماليق ويعرب وجرهم ، وهم العرب العاربة، لأن العربيّة لسانهم التى جبلوا عليها، ويقولون لبنى إسمعيل العرب المتعرّبة ، لأنهم إنما تكلموا بها حين سكنوا بين أظهرهم ، ومن العماليق الجبابرة بالشأم والفراعنة بمصر .

سعيد بن المسيّب : سام ولده العرب وفارس والروم وفى كلّ خير ، وأما يافث فمن ولده الصقالبة وبرجان والأسبان والترك والخزر ويأجوج ومأجوج .

ابن المسيب : وليس فى واحد من هؤلاء خير .

(١) سورة الصافات آية ٧٧ .

(٢) الإصحاح التاسع من سفر التكوين .

رفع المسهم

وأما حام فمن ولده السند والهند وأجناس السودان كلّها مثل كوش والزَّنْج والزغاوة والحبشة والزطّ والقِبْط بن كنعان بن حام ، والخلاف كثير .

* * *

قال الحارث بن همام : فقلت له : تالله إنك لأبو زيد ، ولقد قمتَ لِلّهِ ولا عَمْرو بنَ عُبيد . فهشّ هشاشة الكريم إذا أُمَّ ، وقال : اسْمَعْ يابْنَ أُمّ ؛ ثم أنشأ يقول :

عليك بالصّـــــدْق ولو أنَّهُ أحرقك الصّدق بنارِ الوعيدْ
وابْغِ رضا الله ، فأغبى الورى من أسخط المولى وأرضَى العبيدْ

ثم إنه وَدَّعَ أخدانه ، وانطلق يسحبُ أرْدَانه . فطلبناه من بَعْدُ بالرّىّ ، واستنشرنا خبره مِنْ مَدَارج الطىّ ؛ فما فينا مَنْ عَرَفَ قَرَارَهُ ، ولا دَرَى أىُّ الجراد عَارَهُ .

* * *

[أخبار عمرو بن عُبَيد الزاهد]

قوله: «ولا عمرو بن عبيد» ، هو الزاهد الذى كان يسكن بالبصرة ويجالس الحسن البصرى ؛ حتى حفظ عنه شيئاً كثيراً من علومه ، واشتهر فضله بصحبته ، وكان له سمت وإظهار زهد .

ورآه الحسن يوماً فقال: هذا سيد شباب أهل البصرة إن لم يحدّث . ثم أعتزله ونهى عنه ، فقال بالعزل ودعا إليه ، وترك مذهب أهل السنة ، واعتزل الحسن البصرىّ ، ونُسِبت إليه المعتزلة .

فأما قيامه الذى ذكره فهو دخوله على المنصور فى جماعة من أهل العلم ، فاستشارهم فى أمرٍ ، فكلهم أشار عليه بمراده إلا عمراً فإنه لم يَصْحَبْهُمْ ونصحه ، فقال: يا أمير المؤمنين

إنّ هذا الأمر لو كان باقياً لأحد قبلك لما وصلك ، ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذاتِ العماد﴾ ، قال: فبكى المنصور حتى بلّ ثوبه ، فقال الربيع : يا عمرو ، غممتَ أمير المؤمنين ، فقال عمرو : إن هذا ـ يعنى الربيع ـ صحبك عشرين سنة، ما نصحك يوماً واحداً ، وما عمل وزراؤك بشيء من كتاب الله تعالى . فقال له المنصور : فماذا أصنع ؟ هذا خاتمى فى يدك ، فخذه أنت وأصحابك ، فاكفونى . فقال عمرو : ادعُنا بعَدْلِكَ تسمح أنفسنا بعوْنك ، ببابك ألف مظلمة ، اردد منها واحدة حتى نعلم أنك صادق .

ويروى أنه قال له المنصور : أعنّى بأصحابك ، فقال : ارفع عَلَمَ الحقّ يتبعك أهله . ثم قال له المنصور : ما حاجتك يا أبا عثمان ؟ فقال له : تأمر برفع هذا الطيلسان عنى ، فرُفع . وكان أمر المنصور أن يطْرَح عليه عند دخوله . فقال له : لا تدَعْ إتياننا ، قال : نعم ، لا يضمّنى وإياك بلد إلا أتيتُك ، وإن بدتْ لى حاجة إليك سألتك ، ولكن لا تعطِنى حتى أسألك ، ولا تَدْعُنِى حتى آتيَك ، قال : إذا لا تأتيَنا أبدا ، فلما وَلّوْا للخروج ، أتبعهم المنصور بصره ، ثم قال:

كلّكم يمشى رُوَيْدْ كُلكُّم حابُل صَيْدْ

* غير عمرو بن عُبَيْدْ *

وكان جدُّه باب من سبى فارس، وكان أبوه عبيد بن باب نسّاجا ، ثم تحوّل فصار للحجّاج شُرطيًّا بالبصرة . وكان فظًّا غليظاً خسيسًا ، وبلغه أن الناس إذا رأوا ابنه قالوا : هذا خير الناس ، ابن شرّ الناس، فقال : صدقوا ، أنا كآزر وابنى كإبراهيم .

وقال إسحاق بن الفضل : بينما أنا واقف إلى جنب عُمارة بن حمزة ببابب المنصور ، إذ طلع عمرو بن عبيد على حمار ، فنزل ونحّى البساط برجله ، وجلس دونه ، فقال لى عمارة : لا تزال بصرتُكم ترمينا بأحمق ، فما فصَل كلامه

رفع المسهم

من فيه حتى خرج الربيع ، وهو يقول : أين أبو عثمان عمرو بن عبيد ؟ فوالله ما دلّ على نفسه حتى أرشِد إليه . فأتكأه يده ، ثم قال : أجب أمير المؤمنين جعلنى الله فداءك ! فمرّ متوكئاً عليه ، فقلت لعمارة الذى استحمقه : قد دُعِىَ وتركنا ، فقال : كثيراً ما يكون مثل هذا ، فأطال اللّبث ، ثم خرج الربيع ، وعمرو متوكىء عليه ، وهو يقول : يا غلام ، حمار أبى عثمان . فما برح حتى أقرّه على سرجه وضمّ إليه ثوبه ، واستودعه الله عز وجل . فأقبل عمارة على الربيع ، فقال : لقد فعلتم اليوم بهذا الرجل فعلا لو فعلتموه بولىّ عهدكم لكنتم قد قضيتم حقه . قال : فما غاب والله عنك مما فعله أمير المؤمنين أكثر وأعجب . قال : فإن اتّسع لك الحديث فحدّثنا ، فقال : ما هو إلا أن سمع أمير المؤمنين بمكانه ، فما أمهل حتى أمر بمجلس ففرش لبودا ، ثم انتقل هو والمهدىّ إليه ، وعلى المهدىّ سواده وسيفه ، ثم أذن له . فلما دخل عليه سلّم بالخلافة ، فرد عليه ، وما زال يدنيه حتى أتكأه فخِذه وتحفّى ، ثم سأله عن نفسه وعن عياله ؛ يسمّيهم رجلا رجلا وامرأة امرأة ، ثم قال : يا أبا عثمان عِظْنِى ، فقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم * بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ والفجر * وليال عشر * والشفع والوتر * والليل إذا يسرِ * هل فى ذلك قسم لذى حِجْر ... ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ يا أبا جعفر ، فبكى المنصور رحمه الله تعالى بكاء شديداً ، وكأنه لم يسمع تلك الآية الشريفة إلا تلك الساعة ، فقال : زدنى ، قال إن الله سبحانه وتعالى أعطاك الدّنيا بأسرها فاشْترِ نفسك منه ببعضها ، وإن هذا الأمر الذى صار إليك إنما كان فى يد مَنْ كان قبلك ثم أفضى إليك ، وكذلك يخرج منك إلى من هو بعدك ، وإنى أحذّرك ليلة تتمخّض صبيحتُها عن يوم القيامة . قال : فبكى والله أشدّ من بكائه الأوّل حتى رجف جنباه ، فقال له سليمان بن مالك : رفقاً بأمير المؤمنين لقد أتعبتَه فى هذا اليوم ، فقال له عمرو : بمثلك ضاع الأمر وانتشر ، لا أبالك ! وماذا خفتَ على أمير المؤمنين أنْ بكَى

من خشية الله تعالى . قال : فأنت والله الصادق البرّ ، قد أمرت لك بعشرة آلاف درهم تستعين بها على سفرك وزمانك ، فقال : لا حاجة لى بها ، قال : والله لتأخذنّها ، قال : والله لا آخذها ، فقال له المهدىّ : يحلف أمير المؤمنين وتحلف ! فأقبل على المنصور فقال : مَنْ هذا الفتى ؟ فقال : هذا ابنى محمد ، وهو ولىّ عهد المؤمنين ، فقال : والله لقد سمّيتَه اسماً ما استحقّه عملُه ، وألبستَه لبوساً ما هو من لبوس الأبرار ، ولقد ملّكته أمراً ، أمْتَعُ ما يكون به أشغل ما يكون عنه . ثم التفت إلى المهدىّ وقال : يا بن أخى ، إذا حلف أبوك حلف عمك ، لأن أباك أقدر على الكفّارة من عمك . ثم قال : يا أبا عثمان ، هل من حاجة ؟ قال : نعم ، قال : ما هى ؟ قال : لا تبعث إلى حتى آتيَك ، قال : إذاً لا نلتقى . قال : عن حاجتى سألتنى ، ثم استحفظه الله عز وجل وودّعه ، وانصرف . فلما ولّى أتبعه المنصور بصره وهو يقول :

* كلكم يمشى رُوَيْدْ * الأبيات

وقال إسماعيل بن مسلمة أخو القعنبىّ : رأيت الحسين بن أبى جعفر بعبّادان فى المنام ، فقال لى : يعقوب ويونس بن أبى عبيد فى الجنّة ، فقلت : فعمرو بن عبيد ، فقال : فى النار ، ثم رأيته فى الليلة الثانية والثالثة كذلك ، فقلت له فى الليلة الثالثة : فعمرو بن عبيد ؟ فقال : فى النار ، كم أقول لك !

* * *

قوله : « هش » أى فرح . أمّ : قُصِد . الوعيد : التهديد . أغبى الورى : أجهل الناس به ، قال المنصور : والله ما عزّ ذو باطل ، ولو طلع فى جبينه القمر ، ولا ذلّ ذو حق ولو أصفق العالم عليه .

وفى معنى قوله : « وابغ رضا الله ... » البيت . أنّ ابْنَ هبيرة شاور الحسن

البصرىّ ، فقال : يا أبا سعيد ، ما تقول فى كتب تأتينا من عند يزيد بن عبدالملك ، فيها بعض ما فيها ، فإن أنفذتُها خفت سخط الله ، وإن لم أنفذها خفت على دمى . فقال الحسن : يا بنَ هبيرة ، خف الله فى يزيد ، ولا تخف يزيد فى الله ، فإن الله مانعك من يزيد ، ولا يمنعك يزيد من الله . يا بنَ هبيرة ، لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . فاعرض كتاب يزيد على كتاب الله سبحانه وتعالى ، فما وافقه فنفّذه ، وما خالفه فلا تنفذه . فقال : صدقتَنى ورب الكعبة .

وشاور معاوية الأحنف فى استخلاف يزيد ، فسكت ، فقال : مالك لا تقول ؟ فقال : إن صدقناك أسخطناك ، وإن كذبناك أسخطنا الله عز وجل ، فسخطك أهون علينا من سخط الله تعالى . قال : صدقت .

وكتب أبو الدرداء إلى معاوية : أمّا بعد ، فإنه مَنْ يلتمس رضا الله بسخَط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومَنْ يلتمس رضا الناس بسخط الله وَكَله الله إلى الناس .

وكتبت إليه عائشة رضى الله تعالى عنها : أما بعد فإنه من يعمل بسخط الله تعالى يصير حامدُه من الناس ذامّاً له . والسلام .

قوله : « أخدانه » أصحابه . ويسحب أردانه : يجرّ أذياله . استنشرنا : طلبنا أن ينشر لنا . والمدرجة : الورقة تكتب فيها الرسالة ، ويدرج فيها الكتاب ، وأضافها إلى الطىّ لأنّها تطوَى على ما فيها من الكتاب ، فكأنه قال مما أدرِج فى الورق من الكتاب وطُوِىَ عليه ، يريد أنه أرسل فيه الرسائل إلى البلاد ، فلم يعرف له موضع قرّ فيه وثبت . عاره : ذهب به وأتلفه .

ويكنون بالجراد عن الناس ، فكأنه قال : ما يدرى أىّ الناس ذهب به . ويقال : عارت عينه ، صارت عوراء ، ووعرتها أنا : فقأتها ؛ فكأنه ذهب كما تذهب العين وهذا بضعف . والله أعلم بالصواب .

رفع المسهم

المقامة الثانية والعشرون وهي الفراتية

حكى الحارث بن همام قال : أَوَيْتُ فِي بعض الفترات ، إلى سِقْي الفُرات ، فلقيتُ بِهَا كُتَّاباً أبْرَعَ من بني الْفُرات ، وأعذب أخلاقاً من الماء الفُرَات . فأطفتُ بِهِمْ لِتَهَذُّبِهِمْ ، لا لِذَهَبِهِم ، وكاثرتُهم لأدَبِهِمْ ، لا لمآدبهم . فجالَسْتُ مِنْهُمْ أَضْرَابَ قَعْقَاعِ بن شَوْرٍ ، وَوَصَلْتُ بِهِمْ إلى الكَوْرِ بعد الحَوْرِ ؛ حَتَّى إنَّهُمْ أَشْرَكُونِي فى الْمَرْبَعِ وَالْمَرْتَعِ ، وأحلُّونِي محلَّ الأُنْمُلَةِ مِنَ الإصبع . واتخذونى ابنَ أُنْسِهِمْ عِنْدَ الْوِلَايَةِ والْعَزْل ، وخازنَ سِرِّهِمْ فى الجِدِّ والهزل .

* * *

أويت ، أى ملت وانضممت . الفترات : جمع فَتْرة ، وهى الهدنة والسكون ؛ فكأنه قال : مشيت فى بعض السنين الآمنة . والفترة أيضا : ضعف الأعضاء ، والفترة أيضاً ما بين نبىّ ونبىّ .

* * *

[سِقى الفرات]

وسقى الفرات بلاد يسقيها الفرات ، والفرات نهر يشقّ بلاد الروم وبلاد العراق ، ويقع فى البحر الحبشىّ ، وجريانه خمسمائة فرسخ .

وقال الرّشاطىّ : ابتداء الفرات وفوّهته من قاليقَلا من بلاد إرمينيّة ،

رفع المسهم

ثم يسير إلى منبِج من كور قنّسرين إلى سُميساط ، ثم إلى مَلَطْية ، ثم إلى كيسوم من أرض الرّقة، ثم إلى الرّقة وقرقيسيا والرحبة وكور الفرات ، ثم إلى الأنبار ، ثم إلى الكوفة ، ويلتقى مع الدّجلة ما بين واسط والبصرة ، ومنها انصبابها إلى البحر ، وجريانهما من الشمال إلى الجنوب .

وقال شيخنا ابن جبير : هذا[1] النهر كاسمه فرات ، وهو من أعذب المياه وأخفّها ، وهو نهر كبير زخّارٌ ، تصعد فيه السفن وتنحدر . وأما سِقيه فى أحواز بغداد فنبين لك قدره . فذكر أنه عاينه فى طريقه من الكوفة إلى بغداد ، وأنه رحل مع أمير الحاجّ من الكوفة يوم السبت .

قال : ونزلنا قريب الظهر على نهر منسرب من الفرات ، ورحلنا من ذلك الموقع ، وبتنا ليلة الأحد سَلْخ محرّم بقرية من الحِلّة ، ثم جئناها يوم الأحد . وهى مدينة عتيقة الموضع ، مستطيلة متّصلة بالفرات من جانبها الشرقى ، وهى على شاطئه ، ويمتد بطولها. ولها أسواق حَفيلة جامعة للمرافق، قوية العمارة وديارها بين حدائق النخيل ، وألفينا بها جسراً معقوداً على مراكب كبار متصلة من الشطّ إلى الشطّ، أمر الأمير[2] بعقدها اهتماما بالحاجّ، فعبرناها، ونزلنا على الفرات على فرسخ من البلد ، والطريق من الحِلّة إلى بغداد أحسن طريق وأجملها فى بسائط وعمائر تتصل بها القرى يمينا وشمالا ، ويشق هذه البسائط أغصان من [ماء][3] الفرات تسقيها ، فللعين فى هذه الطريق مسرح انشراح ، وللنفس مزاد انبساط وانفساح.

ومن مدينة الحِلّة يتسلسل الحاجّ أرسالاً وأفواجا ، لا يعرج المتأخر على المتقدم ، فحيثما شاءوا نزلوا، ومن جملة الدواعى لافتراقهم كثرة القناطر المعترضة فى طريقهم إلى بغداد لا تكاد تمشى ميلا إلا ونجد قنطرة على نهر متفرّع عن

(١) رحلة ابن جبير ١٩٢ ومابعدها بتصرف (٢) ابن جبير : « الخليفة » .

رفع المسهم

الفرات ، فلو زاحم ذلك البشر تلك القناطر دفعةً، لترا كموا وقوعا بعضاً على بعض .

فرحلنا من الحِلّة ضحوة يوم الاثنين أوّل يوم من صفر ، ونزلنا بعصره بقرية تعرف بالقنطرة ، كثيرة الخِصْب ، كبيرة المساحه ، متدفقة فيها جداول الماء ، وارفة الظلال بشجرات الفواكه ، من أحسن القرى وأجملها ، بها قنطرة محدودة تصعد إليها وتنحدر عنها على فرع من فروع الفرات ، فعُرِفت القرية بها .

ثم رحلنا عنها بسحَر الثلاثاء ، ونزلنا ضحوة بالفراش ؛ قرية كثيرة العمارة يشقها الماء وحولها بسيط أخضر جميل المنظر ، والقرى من الحِلّة إلى بغداد على صفة الفراش فى الحسن والاتساع .

ثم رحلنا منها ونزلنا عشيّ النهار بزَريران[1] ، وهى قرية من أجمل قرى الأرض وأحسنها منظراً، وأفسحها ساحة وأوسعها اختطاطا ، وأكثرها بساتين ورياحين وحدائق من نخيل،ولها سوق تقصر عنه أسواق المدن . وحسبك من شرفها أن دجلة تسقى شرقيّها والفرات يسقى غربيّها ، وهى كالعروس بينهما .

ومن شرفها أن بإزائها إيوان كسرى ، وهو بناء عالٍ فى الهواء على مقدار الميل منها وأمامها بيسير مدائنه . واجتزنا سحراً على المدائن ، فعاينّا من طولها واتساعها مرأى عجيبا .

ونزلنا قافلين بصرصر ، وهى أخت زَريران حسنا ، يمرّ بجانبها القبلى نهر متفرع من الفرات وهى من القرى التى تملأ النفوس حسنا وجمالا ، لها أسواق حفيلة ، وجامع وجسر معقود على مراكب من الشطّ إلى الشطّ وهى من بغداد على ثلاثة فراسخ ، ورحلنا منها قبل الظهر ؛ وجئنا بغداد قبل العصر ،على بساتين وبسائط يقصر الوصف عنها ، فمن أراد أن يعرف قدر سِقْى الفرات فليقف على هذا الفصل الذى ذكرناه .

---

(١) فى الأصول : « زريدان » ، وصوابه من ابن جبير ومعجم البلدان

رفع المسهم

وقوله : « كتابا أبرع من بنى الفرات » ، أى أحذق وأزيد فضيلة .

[ذكر بنى الفرات]

والفرات رجل من عجْل كان له أبناء مشاهير بالكتابة والحذاقة والبراعة ، وتقلّد الوزارة ،قال فى بعضهم صالح بن سوسى رحمه الله :

آل الفرات نداهمْ على الفرات يزيدُ
وأنت فضلك فيهم وعليك منه شهودُ

وقال ابن المعتز فى علىّ بن محمد بن الفرات :

أبا حسنٍ ثبَّتّ فى الأمر وطأتى وأدركتنى فى المعضلات الهزاهزِ [1]
وألبستَنى درعا علىّ حصينـةً فناديت صرف الدهر: هل من مبارِز!

وقال علىّ بن بسام :

وقفت شهـوراً للوزير أعـدّها فلم تثنه نحْوى الحقـوق السوالفُ
فـلا هـو يرعانى رعاية مثـلِه ولا أنا أستحيي الوقوف وآنفُ

وكان موسى بن الفرات عاملا لأحمد بن الخصيب وزير المنتصر بن المتوكل، واستوزر المقتدر أبا الحسن علىّ بن محمد بن الفرات ثلاث مرات، يعزله ثم يردُّه . وقُتِل المقتدر وأبو الفتح الفضل بن جعفر [2] بن الفـرات وزيره .

وتولّى بعض دواوين المقتدر أبو طالب بن جعفر بن الفرات والحسن بن أبى الحسين بن الفرات . فـكان محل آل الفرات ، الوزارة والـكتابة والبراعة والحذاقة .

وحُـكِىَ أن بعض الأدباء جوّز بحضرة الوز ر أبى الحسن بن الفرات أنّ

(١) ديوانه ١١٩

(٢) فى الفخرى ٢٤٣ : « أبو الفضل جعفر الفرات » .

رفع المسهم

السين تقام مقام الصاد فى كلّ موضع فقال له الوزير :أتقرأ:﴿جنات عدن يدخلونها ومن صَلَح من آبائهم﴾ ، أو« ومن سلح ؟ »فخجل الرجل وانقطع .

ومثل هذا النادرة أن النضر بن شميل مرض، فدخل عليه قوم يعودونه،فقال له رجل منهم :يكنى أباصالح:مسح الله مابك،فقال له :لاتقل مسح بالسين ولكن بالصاد بمعنى أذهب، وهو كلام العرب . فقال أبو صالح إن السين تبدل من الصاد كالصراط والسراط وصقر وسقر، فقال له النضر :فأنت إذا أبو سالح! فخجل الرجل .

قوله : « أعذب من الماء الفرات » أى أحلى ، والماء الفرات: العذب الحلو . أطفت : أى ألممت ونزلت . لتهذّبهم : لظرفهم وتخلصهم من عيوب الجفاء . كاثرتهم : صاحبتهم فكثّرت عددهم بى . مآدبهم : طعامهم . أضراب : أمثال .

* * *

[القعقاع بن شور]

القعقاع بن شور ، قال المبرّد : هو رجل سيد من عبد الله بن دارم ، وكان إذا جالسه جليس فعرفه بالقصد إليه جعل له نصيبا فى ماله ، وأعانه على عدوّه ، وشفع له فى حاجته، وغدا إليه بعد المجالسة شاكراً له ؛ حتى شهر بذلك .

قال الفنجديهىّ : هو القعقاع بن شور بن عمرو بن ذهل بن ثعلبه بن عكابة ابن صعب بن علىّ بن بكر بن وائل الشيبانى ، وهو من الأجواد والأسخياء ، يضرب به المثل فى حسن المجالسة والمعاشرة وإتيان الجليس بالشىء النفيس .

قال أبو عبيد:وكان من جلساء معاوية،فأهدى إلى معاوية هدايا يوم المهرجان فيها جامات ذهب وفضة، فدفعها إلى جلسائه ودفع إلى القعقاع جام ذهب ، وفى القوم أعرابىّ إلى جنب القعقاع، فدفع إليه الجام فأخذه الأعرابى ونهض ينشد :

رفع المسهم

وكنت جليس قعقاع بن شوْرٍ ولا يشقى بقعقـاع جليسُ[1]
ضحوك السن إن نطقوا بخـيرٍ وعند الشرّ مطراق عبوسُ

[أشعار فى وصف الجليس]

ومما يستحسن فى البر بالجليس قول صاعد اللغوىّ :

لى من سرّ بنى العباس خـــلّ وجليسُ
شهد المجـــد عليه أنه العِلْق النفيسُ
فإذا جالسته لم تدر مَنْ منّا الجليس

وقال كشاجم :

جليس لى أخو ثقـةٍ كأنّ حديثه حبره[2]
يسرك حسن ظاهره وتحمد منه مختبره
ويستر عيبَ صاحبه ويستر أنه ستره

وقال آخر :

جليس لى له أدب رعاية مثـله تجبُ
لو انتُقـدت خلائقه تبهرج عندها الذهب

وقال آخر :

لى صديق غلطت بل لىَ مولىً مَنْ لمثلى بأن يكون صديق
نتلاقَى التقـاء روحٍ بروحٍ بضروب التقبيـل والتعنيق
ليس فى الأرض من يميز منـا عاشقاً فى اللقاء من معشوقِ

أين ما وصف به القعقاع من قول والبة المشهور :

قلت لنَدمانى على خلوة أدْنِ كذا رأسك من راسِيَا[3]

(١) الكامل للمبرد ١ : ١٧٧ ، ثمار القلوب ١٢٨
(٢) ديوانه ٧١
(٣) مختار الأغاني ٨ : ٣١٠

رفع المسهم

ونم على وجهك لى ساعة إنى امرؤ أنكح جُلاّسيا

والبة بن الحباب شيخ الحسن بن هانى أدّبه صغيراً، فتخلّق بخلقه. وقال الحسن:

وجليس كانّ فى وجنتيه كلُّ شىء تسمو إليه النفوسُ[1]

قد أصبنا منه فتستغفِر الله كثيرا وقد يصاب الجليسُ

[الحوْر والكور]

قوله : الكَوْر والحَوْر ، أى الزيادة والنقصان، وكلام العرب : نعوذ بالله من الحوْر بعد الكَوْر ، أى من انتقصان بعد الزيادة ، فقلب اللفظ على مراده، وهو من كَوْر العمامة ، وهو استعارة من نقض الأمر ، كنقض العمامة بعد كَوْرها وهو شدّها ، وكار عمامته : شدّها على رأسه وجمعها وحاربها فنقضها وأفسدها .

وأمر الحجاج رجلا على جيش ، ثم بعثه مرة أخرى تحت لواء أمير آخر، فقال: هذا الحوْر بعد الكَوْر، فقال له الحجاج : وما الحوْر بعد الكوْر؟ قال : النقصان بعد الزيادة، فعلَى هذا أكثر أهل اللغة .

وقيل معناها : نعوذ بالله من الخروج عن الجماعة بعد كوننا فى الكوْر، وهو الاجتماع ، من كار عمامته جمَعها فى رأسه . وحارها : أفسدها .

ويُروى « بعد الكَوْن» ، من قولهم : حار بعد ما كان، أى كان على حالة جميلة فرجع عنها . وقيل : معناه نعوذ بك من خروجنا عن الجماعة بعد الكوْن على الاستقامة ، فحُذف للعلم به .

* * *

فى المرتع والمربع ، يعنى المأكل والمنزل، والمرتع الاتساع فى الأكل الكثير والشرب ، والمربع : المنزل فى الربيع ، من ربعت فى الموضع أقمت فيه . الأنملة .

(١) ديوان أبى نواس ١٩٦ وفيه : « كل حسن » .

رفع المسهم

طرف الأصبع أى عظموه ورفعوه فوق رءوسهم .

ابن أنسهم ، أى الذى يأنسون به . عند الولاية والعزل ، أى زمن العمل والعطل . خازن : كاتم وحابس .

* * *

فاتَّفَقَ أنْ نُدِبوا فى بعضِ الأوقاتِ ، لاستقراء مَزَارِعِ الرُّزْدَاقاتِ ، فاختاروا مِنَ الجوارى المنشآت، جاريةً حالكةَ الشِّياتِ، تَحْسَبُها جاريةً وَهِىَ تمرّ مرّ السّحَاب ، وتنسابُ فى الحَبَاب كالحُباب . ثمّ دَعَوْنى إلى المرافقة ، فلبَّيتُ بلسان الموافقة .

* * *

نُدبوا ، أى دعوا . استقراء ، أى تتبع . الرزداقات : العمالات والأنظار ، وأراد أنهم خرجوا عمالا على الزرع ، وكل موضع أو قرية انفصل عن المدينة بعمله فهو رزداق ورستاق ومخلاف وكورة ، فالرزداق بخراسان وهو فارسىّ عربىّ ،والمخلاف لليمن ، والكورة لغيرهما من الأرضين .

الجوارى : السفن . المنشآت : المصنوعات . حالكة الشيات : مسودّة اللون ،والشية فى الفرس لون يخالف لونه كالغرّة والتحجيل وغيرذلك ، فأراد أن موضع البياض فى غير السفينة هو منها أسود فهى كلها سوداء جامدة : ساكنة.

[فى وصف السفن]

وركب السَّلامىّ دجلة فى زورق ، ولم يكن رأى دجلة قبل ذلك فقال :

وميدانٍ تجول به خيولٌ تقود لدَّراعين ولا تقادُ[1]

(١) يتيمة الدهر . ٢ : ٣٦٥ .

ركبت به إلى اللذات طِرفاً له جسمٌ وليس له فؤادُ
جرَى فحسبت أن الأرض وجهٌ ودِجْلة ناظر وهو السَّوَادُ

وقال القاضى التنوخىّ يصف دِجْلة فى الظلام : والقمر يلمع عليها ، وينتظم فى سِلْك أبيات السَّلاَمىّ رحمه الله تعالى :

أحسِنْ بدجله والدّجى متصوّبُ والبدر فى أفق السماء مغرّبُ (١)
فكأنها فيه بساطٌ أزرقُ وكأنه فيها طراز مُذهَبُ

وقال منصور بن كيغلغ :

كم ليلةٍ سامرتُ فيها بدرَها من فوق دِجْلة قبل أن يتغيَّبا (٢)
والبدر يجنح للأفول (٣) كأنه قد سلّ فوق الماء سيفاً مُذْهَبا

وتسميته للسفينة جارية ، لجريانها على الماء ، قال تعالى فى السفن العظام : ﴿ ومن آياته الجوارِ فى البحر كالأعلام ﴾ (٤) .

ولبعضهم :

يا من تأهّبَ مزمعاً لِرَوَاح متيّماً بغدادَ غير مـلاح
فى بطن جاريةٍ كفتْك بسيرها رَقَلان كل شَناحة وشَنَاح
فكأنها والماء ينطح صَدْرَها والخيزرانة فى يد الملاَّح
جَوْنٌ من العِتبَان يبتدر الدّجَى يهوى بصوت واصطفاق جَنَاح

الشَّناح : الجمل التامّ الخلق .

وقال عبد الجليل بن وهبون يصف الأصطول :

---

(١) يتيمة الدهر ١ : ٧٥ (٢) يتيمة الدهر ١ : ٧٥
(٣) فى اليتيمة : « للغروب » . (٤) سورة الشورى ٣٢

رفع المسهم

يا حسنَها يوماً شهدتُ زِفافها بنت الفضاء إلى الخليج الأزْرَقِ[1]
من كلّ لابسة الشباب مُلاءةً حسب اقتدار الصّانع المتأنّق
ومجاذفٍ تحكى أراقمَ رَبْوةٍ نزلت لتكرع فى غدير مُتْأقِ
والماء فى شَكْلِ الهواء فلاَ تَرَى فى شَكْلِهَا إلاّ جوارحَ تلتقى

ولابن حريق :

وكأنما سكن الأراقمُ جوفها من عهد نوح صاحب الطوفانِ[2]
فإذا رأين الماء يطفح نضنضتْ من كلّ خَرْقٍ حَيَّةٌ بلسان

* * *

قوله : ينساب ، أى تمشى بسلاسة . الحباب : طرائق الماء . والحُباب ، بالضم : الحيّة . وتشبيهه المشى السهل بحباب الماء أفشى وأعرف من تشبيهه بمشى الحية ، وتشبيهه بمشى الحية قد استعمل ، وهو متمكن فى المعنى ، وبه وقع التشبيه هنا فى المقامة ، وقال امرؤ القيس فى تشبيهه بحَباب الماء :

سموتُ إليها بعد ما نام أهلُها سُمُوّ حَباب الماء حالاً على حالِ[3]

وقال ابن الرومى:

فصغت ذلك من قولى إلى قمرٍ يلهو بمكتحلٍ طوراً ومُخْتَضِبِ
جرت تُدافع من وَشْيٍ لها حسن تدافُعَ الماء فى وشيٍ من الحَبَبِ

وقال عمر بن أبى ربيعة فى مشى الحية :

فلمّا فقدت الصوت منهم وأطفِئَتْ مصابيحُ شُبّتْ بالعشاء وأنوُرُ[4]
وغاب قُمَيْرٌ كنت أرجو غيوبَهَ وَروّح رُعْيَانٌ وهـوّمُ سُمّرُ
وخُفّض عنى الصوت أقبلت مشية الـ ـحُباب وركنى خيفة القوم أزْوَرُ

(١) نفح الطيب ٤ : ٦٠
(٢) نفح الطيب ٤ : ٥٧ ، وفيه : « خشبة الطوفان » .
(٣) ديوانه ٢١ (٤) ديوانه ٦٦

ثبت فى الكتب الصحاح ضم الحاء وقول الإعرابىّ :

من المتصدّيات لغير سوء تسيل إذا مشت سَيْلَ الحُبابِ

يروى بالفتح والضم . وابن الإفليلى يأبَى إلا الضم .

وقال أبو القاسم بن هانئ فجمع بين التشبيهين :

قامت تميسُ كما تدافع جَدْوَلُ وانساب أيْمٌ فى نقاً يتهيَّلُ[1]

وأتت تُزَجِّى ردفها بقوامها فتأطّر الأعلى وماج الأسفلُ

وقال آخر ورفع الاحتمال :

لما دنا الليل بأرواقه ولاحت الجوزاء والمِرْزَمُ

أقبلت والوطء خفيف كما ينساب فى مكمنِه الأرقمُ

وما أحسن قول ابن شهيد فى معناه[2] :

ولمّا تمكن[3] من سُكْرِهِ ونام ونامت عيون العَسَس

دنَوتُ إليه على رِقْبَةٍ دنوّ محبٍّ دَرَى ما التمسْ

أدِبّ إليه دبيب الكرى وأسمو إليه سموّ النَّفَسْ

أقبِّل منه بياضَ الطُّلى وأرشف منه اللَّمَى واللَّعَسْ

* * *

فلمّا تورّكنا على المطيَّة الدهماء ، وتبطنَّا الوليّة الماشية على الماء ، ألْفَيْنَا بها شيخاً عليه سَحْقُ سِرْبال ، وسِبٌّ بال ، فعافت الجماعة محضرَه ، وعَنَّفتْ مَنْ أحضره ، وَهَمّتْ بإبرازِه

(١) ديوانه ١١٠

(٢) ديوانه ١٢٠ ، نفح الطيب ٣ : ١٩٠ ، الذخيرة قسم ١ مجلد ١ : ٢٤٥

(٣) الذخيرة والنفح .

من السّفينةِ ، لولاَ ما ثابَ إليها من السَّكينة ؛ فلمّا لَمَحَ مِنَّا استثقالَ ظِلِّهِ ، واستْبَرادَ طَلِّهِ ، تعرَّضَ للمنافثة فصُمِّت ، وحَمْدَلَ بعد أن عَطِسَ فَاَ شُمِّت .

* * *

قوله : المطية الدهماء ، هى السفينة السوداء . وتورَّكناها : قعدنا عليها متكئين . وتبطّنا : دخلنا بطنها . الولّية : المطيعة . وأوهم لِقول الناس : فلان ولىٌّ يمشى على الماء ، فلما كانت مطيعة لخدامها ماشية على الماء سماها ولِيّة . ألفينا : وجدنا . سحق سربال ، أى قميص خَلَق . والسِّب : الخمار . فيريد أنّ عليه مئزرا أو خماراً بالياً ، والمئزر كالخمار للمرأة . عافت : كرهت . عنّفت : لامت وأغلظت له القول ، والعنف ضدّ الرفق . ثاب : رجع .

قال الفرّاء رحمه الله تعالى : معنى السكينة الطمأنينة .

أبو عبيدة : هى فعيلة من السّكون . وتشبه حالة أبى زيد هنا فى إهانته أوّلا وإكرامه آخراً حالة مَعْبَد فى دخول السفينة ، وقد تقدّمت فى الثامنة عشرة .

لمح : رأى . والظّل ، يوصف بالثقل مبالغة فى ثقل صاحبه ، يقال للمستثقَل : ظلك علىّ ثقيل ، أى أخف ما يمكن أن يوجد منك الظّل السريع الانتقال يثقل علينا ، فيُصوّر شخصك أى منزلته من الثقل ، وإنما يتصور ثقل الظل حقيقة إذا أخذ عليك إنسان عين الشمس فى زمن البرد أو ضوءها وأنت تنظر ما يدفىء .

[ذكر الثقلاء]

ومما قيل فى ثقيل :

أنت يا هــذا ثقيلٌ وثقيــــلٌ وثقيــلُ
أنت فى المنظر إنسا نٌ وفى المخبر فيــلُ

رفع المسهم

لو تعرضت لظـلٍّ فسَد الظـلّ الظليلُ

وكان الأعمش إذا حضر مجلسه ثقيل يُنشد :

فمـا الفيل تحمله ميّتاً بأثقلَ من بعض جلاّسِيَا

وذكر ثقيلا كان يجلس إلى جانبه ، فقال : والله إنى لأبغض شِقّى الذى يليه منّى .

وكان حماد بن سلمة إذا أرى مَنْ يستثقله قرأ : ﴿ ربنا اكشف عنّا العذاب إنا مؤمنون ﴾ (١) .

عائشة رضى الله عنهـا : نزلت آية فى الثّقلاء : ﴿ فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ﴾ (٢) .

الشعبى : من فاتته ركعتا الفجر فليعلن الثقلاء .

وكان أبو هريرة رضى الله عنه إذا رأى ثقيلا قال : اللهمّ اغفر له وأرِحْنا منه .

قيل لجالينوس : لم صار الرجل الثقيل أثقل من الحمل الثقيل ؟ قال : لأن ثقله على القلب دون الجوارح ، والحمل الثقيل يستعين القلب بالجوارح عليه .

وقال طبيب للحجاج : إياك ومجالسة الثقلاء ، فإنا نجد فى الطبّ أن مجالستهم تُمِيت الروح .

وقال حكيم لآخر : لا تصحبنّ ثقيلا ، فمن يصحبه فإنما يعذّب روحه .

وقيل : سخنة العين النظر إلى الثقلاء .

وكان بعضهم إذا رأى ثقيلا غُشِيَ عليه . وكان آخر إذا رأى ثقيلا غمّض عينيه .

وكان بعض الظرفاء إذا رأى ثقيلا قال : قد جاءكم الجبل ، فإن جلس عندهم قال : قد وقع عليكم .

---

(١) سورة الدخان ١٢ .

(٢) سورة الأحزاب ٥٣ .

رفع المسهم

وسمع الأعمش كلام ثقيل فقال : مَنْ هذا الذى يتكلّم وقلبى يتألم .

قال رجل لخالد بن صفوان : أتستثقل فلانا ؟ قال : أوّه كدتَ والله أن تصدع قلبى بذكره ، والله لهو أثقل من شراب الترنجبيل بماء التين فى أيام الحكاك بعقب التخمة وأوان الحجامة .

سلّم ثقيل على بعض الظرفاء فقال : وعليك السّلام شهراً .

قعد ثقيل عند ظريف ، فسئِل عن ذلك ، فقال : كانت نفسى قد شمخت علىّ فأردت أن أهينها بذلك .

وقال رجل لغلام هاشمى : يابغيض ، فشكاه إلى أبيه ، فقال : قد علمتُ أنك بغيض ، فكرهت أن أقوله لك حتى يكون بغضك بإسنادك .

وسئل إنسان له ثلاث بنين ثقلاء : أىّ بنيك أثقل ؟ فقال: ليس بعد الكبير أثقل من الصغير إلا الأوسط .

كان أبو العتاهية يقول لابنه محمد : أنت والله يا محمد ثقيل الظلّ ، مظلم الهواء ، جامد النسيم ، بارد حامض منتن .

قال سهل بن هارون : مَنْ ثقّل عليك نفسه ، وغمك سؤاله ، فأعِرْه أذناً صماء، وعيناً عمياء .

وأنشدوا :

مشتملٌ بالبُغْضِ لا تَنثنى إليه لحظًا مقلةُ الرامقِ (١)
يظلّ فى مجلسنا قاعدًا أثقل من واشٍ على عاشقِ

وقال بعضهم :

يا مَنْ تبرّمت الدنيا بطلعتهِ كما تبرّمت الأجفان بالسّهدِ (٢)
إنى لأذكره حيناً فأحسبُه من ثقله جالساً منى على كبدِى

(١) زهر الآداب ٤٤٢ ، وورد البيت محرفا فى الأصول والصواب ما أثبته من زهر الآداب .
(٢) المحاسن والمساوى ٢ : ٤٢٧

ولبعضهم :

نظر العين نحوه ـ علم الله ـ يُمرضُ
فإذا ما أردتُمُ أن تروه فغمّضُوا
لا تصبكم ملمّـة واللمّات تعرِضُ

وقال بعضهم :

شخصك فى مقلة النّديمِ أوحش من نحسَة النجومِ
يا رجلا وجهه علينـا أثقل من مِنّـةِ اللئيمِ
إنى لأرجو بمـا أقاسى منك خلاصى من الجحيمِ

وقال بعضهم أيضاً :

ولى خلّتـان على هامتىِ جلوسُهما مثلُ حدّ الوتِدْ
ثقيـلان لم يعرِفَا خِـفَّةً فهذا الصُّدَاع وذاك الرمدْ

والأشعار فى الثقلاء كثيرة وفى كتب الآداب مشهورة ، فلنقتصر على هذه النبذة .

[ما جاء فى البارد]

قوله : استبراد طلّه . الطّل : أضعف المطر ، وهو الرذاذ ، وأكثر نزوله ساكناً بغير ريح ، ولا بَرَد فى الغالب يكون معه ، فكنَى هنا بالطّل عن كلامه القليل ، وإنه عندهم بارد الحديث ، وإن كان ما جاء منه ثقيل مؤذٍ .

وقد جاء فى ذلك :

ولو مازج النار فى حرّها حديثك أطفأ منها اللهبْ

وقال آخر فى شعر الصولى :

دارى دبلا خيش ولـكنّنى عقدت من خيشىَ طاقينِ

دارٌ متى ما اشتد بى حرّها أنشدت للصّولىّ بيتين

وكلامه :

ويوم كتنور الطهاة سجرتُه على أنه منه أحرّ وأوقدُ
ظللتُ به عند المبردّ جالساً فمازلت فى ألفاظه أتبرّدُ

لقى برد الخيار المغنى أبا العباس المبرد فى يوم ثلج بالجسر ، فقال له : أنت المبرّد وأنا برد الخيار ، واليوم كما ترى ؛ اعبُر بنا لا يهلك الناس من الفالج بسببنا .

وقال كشاجم رحمه الله تعالى :

غناء مديح بأرض الحجاز يطيب وآمنا بحمصٍ فلا
لبرد الغنـاء وبرد الهواء فإن جمعا خفت أن يقتـلا

قوله : تعرّض ، أى تهيأ . المنافثة : الكلام معهم . صُمّت : سُكّت .

ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « موقع حديث الرجل من القوم كموقعه من قلوبهم » .

حمدل : قال الحمد لله . ماشُمّت : ماأدخل عليه السرور بقولهم : يرحمك الله تعالى .

ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من عطس أو تجشأ فقال الحمد لله على كل حال دُفع بها عنه سبعون داء أهْونها الجذام » .

[ماجاء فى تشميت العاطس]

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا عطس أحدكم فليقُل الحمد لله ، والذى يشمّت : يرحمك الله ، وليقل هو : يهديكم الله ، ويصلح بالكم » .

ومما يستظرف من حديث العطاس أن صوفيًّا فى بلدنا كان حافظاً للشعر ، فلا يعرض فى مجلسه معنى إلا وينشد عليه شعراً ، فاتفق أن عطس رجل بمحضره ، فشمّته الحاضرون ، فدعا لهم ، فرأى الصوفىّ أن تشميته قطع إنشاده بمالا يشاكله

من النظم ، وإن لم يشمته كان تقصيراً فى البر . فأصبح للطلبة راغباً أن ينظم له هذا المعنى ، فقال الوزير الحسيب أبو عمرو بن محمد :

يا عاطساً يرحمك الله إنْ ... أعلنتَ بالحمد على عَطْسَتِكْ
ادع لنا ربّك يغفر لنا ... وأخلِص النية فى دعوتِكْ
وقل له يا سيّدى رغبتى ... حضور هذا الجمع فى حضْرَتِكْ
وأنت يارب النداء والندى ... بارك ربّ الناس فى ليلتك
فإن يكن منك لنا دعوة ... فأنت محمود على عَوْدَتِكْ

وهذا الوزير الشريف إنما يصرف شعره فى أوصاف الغزلان ، ومخاطبات الإخوان .

وكتب إلىّ يستهدينى كتاب العقد :

أيا مَنْ غدا سلكا بجيد معارفه ... ومَنْ لفظُه زهر أنيق لقاطفِهِ
محبُّك أضحى عاطلَ الجِيد فلتجُدْ ... بعقد على لبّـــاته وسوالِفِهْ

وتوعّك فى بعض الأعياد فعاده من أعيان الطلبة جملة ، فلما همّوا بالانصراف أنشدهم ارتجالا :

لله درّ عصابة أمجـادِ ... شَرُفَ النداء بقصدهم والنّادِى
لما أشاروا بالسّلام وأرْبَعُوا ... أنشدتهم وصدقت فى الإنشادِ
فى العيد عدتم وهو يوم عَرُوبة ... يا فرْحَتِى بثلاثة الأعْيَادِ

* * *

فأخْرَدَ ينظُرُ فيما آلتْ حالُه إليه ، وينتظِرُ نُصْرَةَ المبغىِّ عليه . وجُلنا نحْنُ فى شُجُونٍ ، من جدٍّ ومُجُونٍ ؛ إلى أن اعترضَ ذكرُ الكتابتَيْن وفضلِهما ، وتبيانِ أفْضِلِهما ، فقال قائل : إن كتبةَ

الإنشاءِ أَنبلُ الكُتّاب ؛ ومالَ مائلٌ إلى تفضيل الحسَّاب . واحتدَّ الحِجاج ، وامتدّ اللَّجَاج ؛ حتَّى إذا لم يَبْقَ لِلْجِدَالِ مَطْرَحٌ ، ولا لِلمراءِ مَسْرَحٌ ؛ قال الشيخ : لَقَدْ أكثرتُمْ ياقومُ اللَّغَط ، وأَثَرْتُمْ الصّوَاب والغلط ، وإنّ جَليَّةَ الحُكْمِ عندى ، فارتضوا بِنَقْدِى ، ولا تَسْتَفْتُوا أحداً بَعْدِى .

* * *

قوله : أخرد، أى سكت ذلاً، ويروى : خرد ، أى سكت حياء واستتر ، تقول: أخردت وخرَدت من حرّ الشمس . أى استترت ، وأقْرد من لفظ القرد أو القراد ، وأخرد من لفظ الخريدة . آلت : رجعت . المبغىّ عليه ، أى المظلوم، وأراد أن ينظر النُّصرة على أعدائه، من قوله تعالى: ﴿ثم بَغَى عليه لينصرنَّه الله﴾ جُلنا : تصرّفنا . شجون : ضروب من الكلام ، ومنه : الحديث شجون ، أى فنون ، ومشتبك بعضه ببعض . وفى الحديث : « الرحم شجنة من الله » ، معناه القرابة مشتبك بعضها ببعض ، كاشتباك العروق . اعترض : تصلّب وظهر . الإنشاء : الكتابة . وكتبة الإنشاء هم كتبة بين يدى السلطان وهم المترسّلون . أنبل : أعظم قدرا . والحُسّاب : كتبة الزمام

احتدّ : اشتدّ والحجاج : المحاجّة[1] واللجاج : ركوب الرجل على الباطل ، مطرح : موضع يطرح فيه . المراء ، قد تقدّم . آثرتم : فضلتم . جليّة : بيان . نقدى : تمييزى .

* * *

(١) ط : جمع جحة ، والوجه ما فى ا .

رفع المسهم

اعْلمُوا أنّ صناعَةَ الإنشاءِ أَرْفَع ، وصِناعة الحِسَابِ أنْفَع ، وقَلَم المكاتبةِ خاطب ، وقَلَمَ المحاسبهِ حاطِب ، وأساطِيرَ البلاغةِ تُنْسَخُ لِتُدْرَس ، ودَساتيرَ الحُسْبانات تُنْسَخُ وتُدْرَس . والمنشئ جُهَيْنَةُ الأخبار ، وحَقيبةُ الأسرار ، ونجىُ الْعُظماءِ ، وكبيرُ النّدَماء ، وقلمُه لِسَانُ الدَّوْلَة ، وفارسُ الجَوْلة ، ولُقْمَانُ الحِكْمَةِ ، وتَرْجُمان الْهِمّةِ . وهُوَ البشيرُ والنّذيرُ ، والشَّفيعُ والسَّفيرُ . به تُسْتَخْلَصُ الصَّياصِى ، وتُمْلَكُ النَّواصى ، ويُقْتَادُ العاصِى ، ويُسْتَدْنَى القاصِى ، وصاحِبُهُ بَرِئ مِنَ التّبِعَاتِ ، آمِنٌ كَيْدَ السُّعَاة ، مُقَرّظٌ بَيْنَ الجَماعَاتِ ، غيرُ مُعَرَّضٍ لِنَظْمِ الجماعات .

* * *

قوله : خاطب ، أى جامع للكلام . حاطب : جامع للحطب ، يريد أنّ المنشىء كالخطيب يختار من الكلام النفيس فيسرقه ، ولا يبالى كاتب الحساب بما كتب ، ويكون حاطب بمعنى مجمع المال . أساطير : أحاديث ، وهى جمع أسطار ، وأسطار : جمع سطر . وقيل : الأساطير : جمع أسطورة وإسطارة . دساتير : أزمّة . تدرس : تمّحى أو تُترك حتى تتغيّر .

[أصل المثل : عند جهينة الخبر اليقين]

جهينة الأخبار ، أى العارف بها . واختلفوا فى المثل ، قال الأصمعى رحمه الله تعالى : جُفَينة بالجيم والفاء .

وقال أبو عبيدة رحمه الله تعالى : حُفَينة ، بحاء غير معجمة .

وقال ابن الكلبى : جُهينة بالجيم والهاء ، وهو الصحيح.

رفع المسهم

وأصله أنَّ حصين بن عمرو بن معاوية بن كلاب خَرَج يطلب فُرصة فاجتمع برجل من جُهينة يقال له الأخنس بن كعب، فنزلا فى بعض منازلهما . وتعاقدا ألاّ يلقيا أحداً إلا سابآه، وكلاهما فاتك يحذر صاحبه، فلقيا رجلا، فسلباه كلَّ مامعه فقال لهما : هل لكما أن تردّا علىّ بعض ما أخذتما منّى وأدلّكما على مغنم ؟ فقالا : نعم، قال: هذا رجل لخمىّ قدم من بعض الملوك بمغنم كثير، وهو خلْفى فى موضع كذا، فردّا عليه بعضَ ماله، وطلبا اللخمىَّ، فوجداه نازلا فى ظل شجرة وقدّامه طعامه وشرابه، فحيّاه وحيّاهما، وعرض عليهما الطعام، فنزلا وأكلا، وشربا مع اللخمىّ . ثم إن الأخنس ذهب لبعض شأنه، فلما رجع أبصر سيف صاحبه مسلولاً، واللخمىّ يتشحّط فى دمه، فسلّ سيفه، وقال : ويحك ! قتلتَ رجلا قد تحرّمنا بطعامه وشرابه ! فقال : اقعد يا أخا جهينة، فلهذا وشبهه خرجنا. ثم إنّ الجهنّى شغلَ صاحبه بشىء، ثم وثب عليه فقتله، وأخذ متاعه ومتاع اللخمىّ . ثم انصرف إلى قومه راجعاً بماله، وكانت لحصين أخت تسمَّى صخرة، فكانت تبكيه فى المواسم وتسأل عنه فلا تجد مَنْ يخبرها بخبره، فقال الأخنس حين أبصرها :

وكم من فارس لا تزدريه ... إذا شَخَصَتْ لرؤيته العيونُ[1]
علوتُ بياض مفرقه بعَضبٍ ... فأضحى فى الفلاة له سكون
يذلّ له العزيز وكلّ ليثٍ ... من العِقْبان مسكنه العرينُ
فأضحت عرسه ولها عليه ... بُعَيْدَ هدوء رقْدتها أنينُ
كصخرة إذ تسائل فى مراحٍ ... وفى[2] جرم وعلمُهما ظنونُ
تسائل عن حصينٍ كلّ ركب ... وعند جُهينة الخبر اليقينُ
فمن يك سائلا عنه فعندى ... لسائله الحديث المستبينُ

مراح وجَرْم : قبيلتان .

(١) قبله فى الميدانى ٢ : ٤
وكم مِنْ ضيغمٍ وردٍ هموسٍ ... أبى شِبْلَيْنِ مَسْكَنُهُ العَرِينُ

(٢) الميدانى : « وأعار » .

حقيبة : وعاء . نجيّ : متكلم . النُّـدماء : الجلساء على الخمر ، يريد أن أصحابه أعيان وأشراف . النذير : المخوّف . السفـير : الرسـول بين القوم . تستخاص : تملك وتحصل . الصَّياصى : الحصون . النواصى : الرءوس ، وأصل الناصية شعر مقدّم الرأس . القاصى : البعيد . التّبعات : المطالبات . السّعـاة : جمع ساعٍ ، وهو جانبى الصدفة . مقرّظ : ممـدوح . نظم الجماعات : تجميا الحساب ، والجماع : الأخلاط وضروب من الناس ، والجماع : كل شيء انضم بعضُه إلى بعض وتجمّع ؛ أراد أنّ كاتب التراسيل قدأمن من مكر عمّال الزّكواد الذين يسرقون مال الرّعيّة والسلطان ولا يعرّض لأن يؤلف ماافترق من الخراج حتى يصير جماعات .

* * *

فلمَّا انْتَهى فى الفَصْـلِ ، إلَى هَذَا الْفصْل ، لَحَظَ من لَمَحَاتِ الْقَوْمِ أنَّهُ ازْدَرَع حُبًّا وبُغْضاً ، وأرْضَى بعضاً وأحْفَظَ بعضاً . فعقَّبَ كلامه بأن قَالَ : إلاَّ أنَّ صِناعَةَ الحِسَاب مَوْضُوعَةٌ على التّحقيق ، وصِناعَةَ الإنشاءِ مبنيّةٌ عَلَى التّلفيق ، وقَلَمَ الحاسِبِ ضَابِط ، وقَلَمَ المنشئ خَابِط . وبين إتاوةِ تَوْظِيف المعاملاتِ ، وتِلاَوةِ طَوَامير السِّجلاّت ، بَوْنٌ لا يُدْرِكُهُ قياس ، ولا يَعْتَوِره الْتِباس ، إذ الإتاوةُ تَملأُ الأكياس ، والتِّلاَوةُ تفرِّغُ الرَّاسَ ، وخراجُ الأوَارِجِ ، يُغْنِي النّاظِرَ ، واستخراجُ المدارج يُعَنّى النّاظر .

* * *

الفصل ، أى القضاء والحكم ، وأراد أنه فصل فى القضاء بين الصنفين من الكتاب . إلى هذا الفصل ، أى إلى هذا الحدّ . والفرق ، فالأول من فصل الحاكم بين الخصمين فصلا : قضى ، والثانى من فصلت بين الشيئين فَصْلا وفصولا : فرقت ، يريد أنه فصل بين الكلام المتقدّم والكلام المستأنف ، وأراد أنه ازدرع فى

قلوب كَتَبة الإنشاء حبّه لمدحه لهم ، وفى قلوب كتبة الحساب بغضه لمّا قصّر بهم ، فأخذ يستأنف مدحهم .

أحفظ : أغضب . عقّب : أتبع ، وأراد بالتحقيق أن صنعة الحساب برهانية محققة . والتلفيق : ضمّ شيء لطيف إلى مثله ، ولفقت الشيء تلفيقاً ضممتَ بعض أجزائه إلى بعض . ضابط : محقق ، والضبط الأخذ بشدة ، ورجل ضابط للشيء ، إذا قويَ عليه فلم يُفلت منه . خابط : مغرّر ، وخبط : مشى على غير هداية .

الإتاوة : الخراج والجباية إلى بيت المال . توظيف : تقسيط . ووظّف على الناس الغرم : قسّطه عليهم ، والوظيفة : نصيبك الذى تغرمه . المعاملات : أنواع من علم الحساب ، وأصلها مصدر عاملت الرجل معاملة إذا وافقته على بيع أو كراء أو إجازة أو غير ذلك مما يتعامل به الناس بعضهم مع بعض . تلاوة : قراءة . طوامير السجلات : بطائق التّرسيل ، والطّومار : الكتاب . بون : بعد . يعتوره : يتداوله ويقصده . التباس : شك . الأكياس : أوعية الدراهم . والإتاوة : رشوة العمّال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : هدايا العمال رشوة . تغرّغ الرأس : تهوّسه بكثرة الدروس والسهر . الأوارج : أزمّة الخراج . وقيل : صِنْف من الخراج . الناظر : العامل فيها ، وأورجها ، إذا تولى عملها والقيام بها . المدراج : الرسائل ، سمّيت بذلك لأنها تُدْرَج ، أى تطوى على مافيها ، واستخراجها : تتبع معانيها بجودة النظر ودرس ألفاظها . يعنّى : يتعب . الناظر : سواد العين ، يريد أنّ كاتب الزمام فى راحة وهو يملى على أكياسه بالدراهم . وكاتب الرسالة متعوب قليل المال .

* * *

ثمّ إن الحسبَة حَفَظةُ الأموال ، وحَمَلَةُ الأَثْقَال ، والنّقلة الأَثْبَاتُ ، والسَّفَرةُ الثِّقَـــات ، وأَعلَامُ الإنصاف والانْتِصاف ، والشّهُود المَقَانِع فى الإخلاف ، ومنهم المستوفِى الذى هُـوَيَدُ السُّلْطَان ، وقُطب الدِّيوان ، وقِسْطَاسُ الأعمال ، والمُهَيْمِنُ عَلَى العُمّال ،

وإليه المآبُ فى السِّلم والْهَرْج ، وعليه المدارُ فى الدّخْلِ والخَرْج ، وبه مناطُ الضّرِّ والنّفْع ، وفى يده رِباطُ الإعطاء والمنْع .

ولولا قلم الحسَّاب ، لأودت ثمرَةُ الاكتِساب ، ولاتَّصَلَ التَّغابُن إلى يوم الحِسَاب . ولَكَانَ نِظامُ المعاملاتِ مَحْلولاً ، وجُرْحُ الظُّلاَماتِ مَطْلُولاً ، وجيـــدُ التّناصُفِ مغلولاً ، وسَيْفَ التّظالُمِ مَسْلُولا . على أنَّ يَراعَ الإنشاءِ متقوِّل ، ويراعَ الحِسَابِ متأوّل . والمحاسِب مُناقِش ، والمنشِئ أبو بَرَاقش ، ولكليهما حُمَةٌ حِينَ يَرْقَى ، إلى أن يُلْقَى ويُرقَى ، وإعنَاتٌ فِيما يُنشَا ، حتَّى يُغْشَى وَيُرْشَى ؛ إلاَّ الذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ وقليلٌ ما هُمْ .

* * *

النَّقلة : الأثبات ، أى هم على يقين وثبات فيما ينقلون . السَّفَرة . الكتبة . الثّقات : الأمناء . أعلام الإنصاف ، يريد المشاهير بإنصاف السلطان من الناس والناس منه ، وتقول : أنصفت الرجل : أعطيتَه حقّه ، وانتصفت منه : أخذت حقك . والمقانع : الذين يُقنع بفعلهم ، أى يرضى . والإخلاف : جودة الزرع ، تقول : أخلف الزرع ؛ إذا طاب ؛ وردّ على أصحابه أضعاف ما أنفق عليه . المستوفى : رأس المشارب . قطب : أصل . وقُطْب القوم سيّدهم الذى يدبر أمرهم ويدورون على رأيه ، بمنزلة قطب الرحى الذى تدور عليه . الديون : دار كتاب الخراج ، وهو فارسىّ معرّب . قسطاس : ميزان ؛ يريد أنه ميزان العمل الذى يعتدل به . المهيمن : الشاهد . المآب : الرجوع . السِّلْم والهَرْج : الصلح والحرب . المدار : المعوّل ، أى عليه أن يعول فى إدارة مايدخل على السلطان من المال من رعيته ، وما يَخرج عنه من لوازم الأجناد وغيرهم ، وفلان كثير الدخل والخرْج ،

رفع المسهم

إذا كَثُر ما يدخل عليه من الفوائد وما يخرج عنه من الإنفاق .

مناط : تعلّق . أودت : هلكت . نظام : خيط . مطلولا ، هدراً أى باطلا لاحق فيه . التناصف : أخذ الحق وإعطاؤه ، واستعار له عنقاً ، وجعله مغلولا ؛ أى محبوسا بغلّ . التظالم : ضدّ التناصف . يراع : أقلام . متقوّل : منحول ما يقوله . متأوّل : مدبّر ؛ يريد أنّ الملك يلقى للكاتب مقصده ، فيحسن الكاتب الألفاظ ويرتّب الفِقَر ، فيزيد فى كتابته ألفاظاً على ما حدّ له بالضرورة ، فتلك الزيادات ضرب من التقوّل وهو أن يقول على الرجل ما لم يقل ، وكاتب الحساب لا يحتاج إلى تقوّل . مناقش : مباحث . أبو براقش ؛ أى يأتى بأنواع مختلفه ، وأبو براقش : طائر فيه ألوان شتّى ، مشتق من البَرْقَشة ، وهى النقش والرقم ، يقال : برقَشت الثوب . وأنشد سيبويه وعزاه أبو عمرو بن العلاء لبعض بنى أسد :

إن يبخلوا أو يحسنوا أو يعذروا لا يجفلوا
يغدوا عليك مرجّلين كأنهم لم يفعلوا
كأبى براقش كل حين لونه يتحيّلُ

وأبو براقش وأبو قلمون ، كنية للرجل الكثير التلوّن ، القليل الارتباط ، وأصل أبى قلمون كنية لثياب إبريسم تنسج بمصر والروم ، تتلوّن للعيون ألواناً شتى . وفى البديعية :

أنا أبو قلمون فى كل لون أكون

حُمَة بالتخفيف: سمّ وشرّ . يَرْقَى: يصعد فى منزله ، ويرتفع فى أصابع الكاتب حين يكتب به . يُرْقَى: إشارة للرشوة لأنها تسكن شرّه ، كما تسكن الرقية الوجع ،

رفع المسهم

إعنات : مشقّة . يُنْشَى : يكتب . يُغْشَى : يُقصَد ويدخل عليه .

[حائك الكلام]

هذه المقامة بناها أبو محمد على حكاية حائك الكلام المشهور، لأنهم حقروه أولا فى السفينة ثم عظموه آخرا بعد الاختبار .

(١) ونذكر الحكاية وإن طالت لموافقتها المقامة : حدّث عمرو بن مسعدة(٢) أنّ المعتصم لمّا رجع من الثغر ، وصار بناحية الرّقة قال لى : ما زالتَ تسألنى فى الرخّجى(٣) حتى ولّيتُه الأهواز، وقعدَ فى سُرّة الدنيا يأكلها خضماً وقضماً ، ولم يوجّه إلينا بدرهم واحدٍ ، اخرجْ إليه من ساعتك ، واحلف ألاّ تقيم ببغداد إلاّ يوماً واحداً ، فحلفت له، وقلت فى نفسى: أَبَعْدَ الوزارة أصير مستحثًّا لعامل خراج ! ولم أجد بدًّا من طاعته. فخرجت إلى بغداد، ففرش لى زورق، وغُشِّىَ بالسّلخ(٤)، فلما صرت عند دير هزْقل(٥) ، وإذا رجل يصيح : يا ملاح ، رجلٌ منقطع ، فقلت للملاح : قرب إلى الشطّ، فقال: هذا شحاذ ، وإن قعد معك ، آذاك فأمرت الغلمان فأدخلوه فى كوثل(٦) الزّورق ، فلما حضر الغداء دعوتُه فأكل أكل جائع ، إلاّ أنه نظيف ، فلما رُفِع الطعام ، أردت أن يستعمل معى ما يستعمل العوامّ مع الخاصة ؛ أن يقوم فيغسل يده فى ناحية ، فلم يفعل ، فغمزه الغلمان فلم يفعل ، فقلت : يا هذا ، ما صناعتُك ؟ فقال : حائك ، فقلت فى نفسى : هذه شرٌّ من الأولى ، ثم قال لى : جُعِلت فداك ! سألتَنى عن صناعتى فأخبرتُك ، فما صناعتك ؟ فقلت : هذه والله أعظم، فكرهت ذكر الوزارة فقلت : كاتب.

---

(١) العقد ٤ : ١٧٥ .

(٢) كذا فى الأصول والمعروف أن عمر وبن مسعدة توفى سنة ٢١٧ فى حياة المأمون .

(٣) الرخجى . منسوب إلى رخج ، من نواحى كابل ، وهو عمر بن فرج . كان من أعيان الكتاب فى أيام المأمون .

(٤) السلخ الجلد .

(٥) دير هرقل : بين البصرة وعسكر مكرم (ياقوت) .

(٦) الكوثل . مؤخر السفينة أو سكانها .

رفع المسهم

فقال : الكاتب على خمسة أصناف : كاتب رسائل ويحتاج أن يعرف الفصل من الوصل ، والتهانى والتعازى والصدور وجملاً من الإعراب . وكاتب خراج يحتاج إلى أن يعرف الزرع والمساحة والتقسيط والحساب . وكاتب جند ، يحتاج إلى أن يعرف شِيَاتِ الخيل وحُلَى الناس . وكاتب شرطة يحتاج إلى أن يَعْرِف الجراح والقصاص والدّيات ، وكاتب قاضٍ يحتاج إلى أن يعرف الفقه والوثائق وما يتعلق بذلك ، فأيهم أنت أعزك الله تعالى ؟

قلت : كاتب رسائل ، قال : فأخبرنى ؛ إن كان لك صديق تكتب له فى المحبوب والمكروه[٢]، فتزوّجتْ أمه ، كيف تكتب إليه؟ تهنيه أو تعزيه؟ قلت : والله لاأدرى ، وهو بالتعزية أولى ، قال : صدقت ، فكيف تعزيه؟ قلت: والله لا أدرى، وهو بالتعزية أولى، قال:صدقت،فكيف تعزيه ؟ قلت:والله لا أدرى.

قال : فلستَ بكاتب رسائل : فأيهم أنت ؟ قلت : كاتب خراج ، قال : فما تقول وقد ولاّك السلطان عملاً ، فجاء قوم يتظلّمون من بعض عمالك ، فأردت أن تُنصِفهم ، وكنت تحب العدل وتؤثر حسن الأحدوثة، وكان لأحدهم قراح[١] فأردت مساحته ؟ قلت : أضرب العطوف فى العمود . قال : إذن تظلم الرجل ، قلت : فأمسح العمود على حدة ، والعطوف على حدة ، قال : إذن تظلم الناس ، قلتُ :والله فماأدرى؟ قال: فلستَ بكاتب خراج، فأيهم أنت؟قلت : كاتب جند .

فقال : فما تقول فى رجلين اسم كل واحد منهما أحمد، أحدهما مقطوع الشفة العليا ، والآخر مقطوع السفلى، كيف تكتب عليهما؟ قلت : أكتب أحمد الأعلم وأحمدالأعلم . قال : وكيف ورزق هذا مائةدرهم ورزق الآخر ألف درهم،فيقبض هذاعلى دعوة هذا ، فتظلم صاحب الألف ، قلت : والله ما أدرى ! قال : فلستَ بكاتب جند ، فأيهم أنت ؟ قلت : كاتب قاض .

قال : فما تقول فى رجل توفّىَ وخلّف زوجة وسُرّية، وللزوجة بنت وللسُّرّية[٣]

(١) القراح : المزرعة ليس فيها بناء ولا شجر .

(٢) بعدها فى العقد : « وجميع الأسباب » . (٣) السرية: المملوكة يتسراها صاحبها .

رفع المسهم

ابن ، فتنازعتا فيه ، فقالت كلّ واحدة منهما هذا ابنى وقالت واحدة هذا ابنى ، كيف تحكم بينهما وأنت خليفة القاضى ! قلت : والله ما أدرى ؟ قال : فلستَ بكاتب قاض ، قال : فأيّهم أنت ؟ قلت : كاتب شرطة .

قال: فما تقول فى رجل وَثَب على رجل، فشجّه شجّةً[1] موضحة ، فوثب عليه المشجوج فشجّه شجّةً مأمومة[2] ، فقلت : لا أعلم ، وقد سألت ففسّر لى ما ذكرت

قال : أما الرجل الذى تزوّجت أمه ، فتكتب إليه : أما بعد فإنّ أحكام الله تعالى تجرى بغير محابّ المخلوقين ، والله يختار للمخلوق ، فخار الله لك فى قبضها إليه ، فإن القبر أكرم لها ، والسلام .

قال : وأما القراح فتضرب واحداً فى واحد فى مساحة العظوف، فتمّ بابه .

قال : وأما المقطوع العليا فتكتب عليه أحمد الأعلم ، وعلى المقطوع السفلى أحمد الأشرم ، وأما المرأتان فيوزن لبنهما ، فأيتهما [illegible] أخفّ فهى صاحبة البنت . وفى المُوضحة خمس من الإبل ، وفى المأمومة ثمانية وعشرون .

قلت : فما نزع بك إلى هنا ؟ قال : ابن عم لى كان عاملا على ناحية فخرجت إليه فلقيته معزولا ، فخرجت إلى بعض النواحى أضطرب فى المعاش ، قلت : أليس قد ذكرت أنك حائك ! قال : أنا أحوك الكلام ، ولستُ بحائك الثياب . فلما بلغنا الأهواز أمرتُ الحجام فأحفى من شعره ، وأدخل الحمام ، فكسوته من ثيابى ، وكلمت الرخّجى فيه فى الأهواز فأعطاه خمسة آلاف درهم ، ورجع معى .

فقال لى المعتصم : ما كان من خبرك فى طريقك ؟ فأخبرته خبرى ، ثم خبر الرجل ، فقال: هذا لا يُستغنى عنه ، فلأىّ شىء يصلح ؟ قلت : هو والله يا أمير المؤمنين أعلم الناس بالمساحة والهندسة ، فولاّه البناء ، فكنت ألقاه فى الموكب النّبيل فينزل عن دابّته فأمنعه ، فيقول : يا سبحان الله ! إنما هذه

(١) الموضحة من الشجاج : التى بلغت العظم .
(٢) المأمومة : الشجة التى بلغت أم الرأس

رفع المسهم

نعمتك ، وبك أفدتها .

ومثل إيهامه هنا أنه حائك إيهام أبى زيد فى التاسعة أنه نظّام .

* * *

قال الحارث بن همام : فلمّا أَمْتَع الأَسْمَاعَ ، بَما راقَ ورَاعَ ، استنْسَبْنَاهُ فاسْتَرَاب ، وأَبَى الانتِسابَ ، ولو وَجَد منسابًا لأنسَاب . فحصَلْتُ مِنْ لَبْسِهِ عَلَى غُمّة ؛ حتّى ادّكرتُ بَعْدَ أمَّة . فقلتُ : والّذى سَخَّرَ الْفَلَكَ الدّوّار ، والْفُلْكَ السَّيّار ، إنّى لأجِدُ ريحَ أبى زيْد ، وإن كنتُ أعْهَدُهُ ذَا رُواءٍ وأيْدٍ .

فتبسَّمَ ضاحِكًا مِنْ قَوْلِى ، وقَالَ : أنا هُو على اسْتِحالةِ حَالِى وحَوْلى ؛ فقلْتُ لأَصْحَابِى : هذا الَّذى لا يُفْرَى فرِيُّهُ ، ولا يُبَارَى عبقرِيُّهُ . فخطبُوا منه الوُدّ ، ويَذلُوا لَهُ الْوُجْد ؛ فرغِبَ عن الأُلْفة ، ولم يرغب فى التّحفَة ، وقال : أمّا بَعْدَ أن سَحَقْتُمْ حقِّى ، لأجْلِ سَحْقِى ، وكَسَفْتُمْ بالِى ، لإخْلاَقِ سِرْبالِى ، فَمَا أراكُمْ إلاَّ بالْعَيْنِ السّخِينة ، ولا لكُمْ مِنِّى إلا صُحْبَةَ السفينة .

* * *

قوله : « أمتع الأسماع » أى متّع الآذان ولذّذها ، ومنه يقال فى الكتابة : أبقاك الله وأمتع بك ، ومعناه : أطال الله عمره ، من الماتع وهو الطويل عند العرب ، ومنه متَع النهار ، أى علا ، وقال الأنصارىّ .

واهًا لأيام الصِّبا وزمانِه لو كان أمتَع بالمقام قليلا !

ونُبَلاء الكتاب يكتبون بها إلى الأتباع والأدنياء ، ولا يكتبون بها إلى الأكفاء والأعلون .

* * *

رفع المسهم

[طرف وملح بين الأدباء والشعراء]

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات إلى عبد الله بن طاهر كتابا فى صدره : وأمتع بك ، فكتب إليه ابن طاهر : (١)

أحُلْتَ عما عهدت من أديكْ أم نلتَ ملكا فتهتَ فى كتبكْ
أم قد ترى أنَّ فى ملاطفة الـ إخوان نقصًا عليكَ فى أدبكْ
إنّ جفا كتاب ذى مقةٍ يكون فى صدره : وأمتع بكْ
أتعبتَ كفّيْك فى مخاطبتى حسبك ممّا لقيت من تعبكْ

فأجابه ابن الزيات :

كيف أخون الإخاء يا أملِى وكلّ شىء أنال من سَببكْ
إن يك جهل أتاك من قِبلِى فعدْ بفضلٍ علىّ من حسبكْ
أنكرتَ شيئاً ولستَ فاعله ولن تراه يُخَطُّ فى كتبكْ
فاعف فدتك النفوس عن رجلٍ يعيش حتى المماتِ فى أدبكْ

ومن ملح أجوبة ابن الزيات أن الحسن بن وهب مرض فلم يعده ، ولا تعرفّ خبره ، فكتب إليه الحسن :

أيّهذا الوزير أيدك الله وأبقاك لى زماناً طويلاَ
أجميلا تراه يا أكرم النا س لكيما أراه أيضا جميلا
إننى قد أقمت عشراً عليلاً ما ترى مرسلا إلىّ رسولا
إن يكن يوجب التعهد فى الصحـــبة منّا علىّ منك طويلا
فهو أولى ياسيّد الناس برًّا وافتقاداً لمن يكون عليلا

(١) العقد ٤ : ١٨٢ ، أدب الكتاب ١٦٢ .

فأجابه ابن الزيات :

دفع الله عنـك نائبـة الدّهْـ ـرِ وحاشاك أن تـكون عليلاَ
أشهـد الله ما علمت وماذا كَ من العذر جائزًا مقبولاَ
ولعمرى أن لو علمت فلا رُمـ ـتُك حَوْلاً لـكان عندى قليلا
فاجعلن لى وإلى التعلّق بالعـذْ ـرِ سبيلاً إن لم أجد لى سبيلا
فقديمًا ما جاد بالصّفح والعفـ ـو وما سامح الخليل خليـلا

وكتب بعض الـكتاب إلى صديق له يعاتبه على ترك عيادته :

ياجافيًا ترك السؤال بعبدهِ نفسى فداؤك من ملولٍ قاطعِ
اعتلّ عبدك من تشكّى رأسه سـتًّا وأردفها بيـوم سابـعِ
فحبستَ رسلك عن تعهد عاتّى وقطعتَ من سبب الوصالِ مطامعى
وعلمتُ منك تماديًا فى جفوتى فرجعتُ فى عفوى كأحسن راجعِ

فأجابه الآخر :

لا والّذى قسّم الجمال بفضلِه فحباك منـه بالضِّياء اللامع
ما إن علمتُ بعلّةٍ لك سيدى إلا بخطِّك فى القريضِ البارعِ
وإذا أتتك رسالتى فقرأتَها فأقبل فديتك من مُقرّ خاضعِ

وكان[1] الحسن بن وهب يتعشّق غلاماً لأبى تمام رومىًّا، وكان أبو تمام يتعشق غلاماً للحسن خَزَريًّا ، فرآه أبو تمام يعبث بغلامه ، فقال : والله لئن أعنقت فى الرّوم لأركضنّ إلى الخزر ، وما أشبّهك إلاّ بداود وأشبّه[2] نفسى بخصْمه، فقال الحسن : لو كان هذا منظوما خفناه ، والمنثور عارض لاحقيقة له ، فقال أبو تمام:

---

(١) الخبر والشعر فى كتاب أخبار أبى تمام للصولى ١٩٤ .
(٢) أخبار أبى تمام : « وأشبهنى » .

أبا علىّ لصرف الدهر والغِيَرِ ... وللحوادث والأيام والعِبَرِ
أذكرْ بَنِى أمر داودٍ وكنتُ فتًى ... مصرّف القلب فى الأهواء والذِّكَرِ
أعندك الشمس لم يَحْظَ المغيب بها ... وأنت مضطرب الأحشاء بالقمرِ
إن أنت لم تترك السير الحثيثِ إلى ... جآذر الروم أعنقنا إلى الخزر

(١) وكان الحسن يكتب لابن الزيات ، فلما وقف على مابينهما من أمر الغلامين، تقدّم إلى بعض ولده، وكانوا يجلسون عند ابن وهب أن يُعْلموه ما يدور بينهما، فعزم غلام أبى تمام على الحجامة ، فكتب إلى الحسن يعلمه بذلك ، ويسأله توجيه نبيذ مطبوخ فوجّه إليه مائة دنّ ومائة دينار وخلعة وبخورا وكتب إليه :

ليتَ شعرى يا أمْلَح النّاس عندى ... هل تداويتَ بالحجامة بَعْدِى ! (٢)
دفع الله عنك لى كلَّ سوء ... باكرٍ رائح وإن خنت عهدى
قد كتمتُ الهوى بمبلغ جهدِى ... فبدا منه غير ما كنتُ أبدى
وخلعتُ العِذار فليعلم النا ... س بأنّى إليك أصفِى بودّى
وليقولوا بما أحبوا إذا كنـ ... ـت وَصُولاً ولم تَرُعْنِى بصدّ
مَنْ عذيرى من مقلتيك ومن إثـ ... ـراق وجهٍ (٣) من تحت حمرة خدِّ

ووضع الرقعة تحت مصلاّه ، وأعلم ابن الزيات خبرها ، فأرسل فى الحين ، وشغله بشىء ، ووجّه مَنْ جاءه بها . فلما قرأها كتب فيها على لسان أبى تمام :

ليتَ شعرى عن ليتَ شعرك هذَا ... أبهزلٍ تقوله أم بجِدّ
فلئن كنتَ فى المقال محقًّا ... يابن وهب لقد تطرّفت بعدِى
وتشبّهت بى وكنت أرى أنّى أنا العاشق المتيّم وحدى
إن مولاى عبد غيرى ولولا ... شؤم جَدّى لكان مولاىَ عبدِى

(١) فوات الوفيات ١ : ٢٦٨ ، وأخبار أبى تمام للصولى ١٩٦ ، ١٩٧
(٢) الصولى : « ثغر » .

ثم قال : ضعوا الرقعة مكانَها ، فلما قرأها الحسن قال : إنا لله إفتضحنا عند الوزير . وأعلم أبا تمام ، فتلقّياه فقالا : إنا جعلنا هذين الغلامين سبباً لتكاتبنا بالأشعار ، فقال لهما : ومَن يظن بكما غير هذا ! فكان قوله عليهما أشدّ .

محمد بن إسحق : قلت لأبى تمام : غلامُك أطوع للحسن من غلامه لك ، قال : إنى أعطى غلامه قيلا وقالا ، ويعطى غلامى ثياباً ومالا ، وقال أبو تمام فى غلامه :

ياعمرو قل للقَمَرِ الطالع اتّسع الخرق على الراقع
ياطول فكرى فيك من حاملٍ لرقعة مفكوكة الطابع
ما أنتَ إلا رشا جؤذرٌ حلّ بمغْنَى أسدٍ جائِع

قوله : راق ، أى أعجب . راع : أفزع لأفراط حسنه . استنسبناه : سألناه عن نفسه ، وهذا من قول النبى صلى الله عليه وسلم « إذا جاء الرجلُ الرجل ، فليسأله عن اسمه واسم أبيه وممن هو ، فإن ذلك أوصل للمودة » . استراب : دخلته الريبة . منسابا : موضعاً يدخل فيه . لبسه : تخليطه . وغمة القلب : ما يعطيه من الشك أو الهمّ ، فأراد أنّه لبّس عليه فلم يعرفه .

ادّكرت ، أى ذكرت . أمّة : حين . الفلَك : مدار النجوم . والفُلْك السيّار ، أى السفينة السريعة . والفُلْك لفظ يقع للواحد والجمع . أعهده : أعرفه . رواء : فتوّة وحسن هيئة . أيد : قوّة . استحالة : تغير . الحول : القوة ، وأيضا الحيلة . ولو خاطبه ابن همام بشعر لكان للشريف الرضى فى جوابه للصابى ، وقد شكا إليه الهرم والجلوس فى المحفّة وامتناعه من التصرف ، فقال :

لَئِنْ رام قَبْضاً من بنانك حادثٌ لقد عاضنا منك انبساطِ جنانِ[1]

(١) ديوان الشريف الرضى ٩٤٤ .

وإن أقعدتْك النائبات فطالما سَرَى موقَراً من مجدك الملوَانِ
وإن هدّمتْ منك الخطوب بمرّها فثَمَّ لسان للمناقب بانِ

قوله : « لا يُفرى فَرِيَّه » ، أى لا يقطع قَطْعَه ولا يعمل عمله ، قال الحوافزان :

وما ارتعشت كفٍّى ولاطاش ضَرْبُها إذا طرحوا بالفارس المتهلِّل
ولكنها إذْ ذاك تفرِى فريَّها وتقرع رأس الفارس المتقلِّلِ

يُبَارى عبقريَّه : يجارى جنيَّه ، ولفظ الحريرى كله منتزع من الحديث الصحيح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رأيت فيما يرى النائم كأنى على بئر وأرى جميع الناس ، فجاء أبو بكر فنزل ذَنُوبا أو ذنوبين . وفيه ضعف ، والله يغفر له. ثم جاء عمر رضى الله عنه فاستحالت بيده غرباً ، فلم أر عبقرياً من الرجال يفرى فريَّه ، حتى ضرب الناس بأعطانهم » . يقال رجل عبقرىّ ، أى كامل قوىّ ، والعبقرىّ أيضاً الحسَن من كل شىء . الوَجْد : المال . رغِب عن الألفة ، أى تباعد عن الصحبة . ولم يرغب فى التحفة ، أى لم يطمع فى العطيّة ، أى لم يقبل عطيَّتَهم ولا صحبتهم . سَحَقْتُم : نقضتم وغيّرتم . سحق : ثوبى البالى . وكسفتم بالى : تنقّصتم حالى وغيرتموها . سربالى : قميصى . السخينة : الساخطة الحارة الدمع .

* * *

ثم أنشد :

اسمَعْ أُخَىَّ وصيّةً مِنْ ناصحٍ ماشابَ محضَ النُّصْحِ مِنْهُ بِغِشِّهِ
لاتعْجَلَنْ بقضيّـــةٍ مبتُوتةٍ فى مَدْحِ مَنْ لم تَبْلُهُ أو خَدْشِهِ
وقفِ القضيّةَ فيه حتَّى تَجْتَلِى وَصْفَيْهِ فى حالَىْ رضاه وبطشِهِ
ويبينَ خُلّبُ بَرْقِهِ مِنْ صِدقِهِ للشائمينَ ، ووبْلُهُ مِنْ طَشِّهِ
فهناكَ إن تَرَ مايشينُ فوارِهِ كَرَمًا وإن تَرَ ما يَزِينُ فأفْشِهِ

ومَن استحِقَّ الإرتقاءَ فرقّهِ ... ومن استَحَطَّ فحطَّهُ فى حَشّهِ
واعلمْ بأنَّ التِّبْرَ فى عِرْق الثَّرَى ... خافٍ إلى أنْ يُسْتَثَارَ بنبْشِهِ
وفضيلةُ الدينارِ يَظْهَرَ سِرُّهـا ... مِنْ حَكّهِ لا مِنْ ملاحَةِ نقشهِ
ومن الغباوةِ أن تُعَظِّم جاهلاً ... لِصقَال ملبسِه ورونق رقشْهِ
أو أن تُهِينَ مهذَّبًا فى نفسِه ... لدروسِ بِزّتِهِ ورَثّةِ فُرشهِ
ولكم أخِى طرْزِنِ هِينَ لفضلِه ... ومفوّفِ البُرْدِيْنِ عِيبَ لفحشه
وإذا الفتَى لم يَغْشَ عارًا لم تكُنْ ... أسمـاؤُه إلاَّ مراقِىَ عرشهِ
ما إن يضرّ العضبَ كونُ قِرابِهِ ... خَلَقًا ولاَ البازِى حقارة عُشّه

* * *

شاب : أى خاط ، ومَحْضه : خالصه . وغشه : عيبه وفساده .

وللزاهد بن عمران فى النصيحة :

اسمع أُخَىّ نصيحتى ... والنُّصْح من أصل الديانَهْ
لا تعرضنّ إلى الشها ... دة والوساطة والأمانَهْ
تسلم من اُن تُعْزَى لزو ... رٍ أو فضولٍ أو خِيَانَهْ

وقال آخر فيمن لا يقبل النصيحة :

إذا ما هُديت امرأ مخطئا ... أضلّ السبيلَ إلى قصدِهِ
ولم تُلفِه سامعاً قابـلا ... فحسِّن له المشى فى ضِدِّه

وقوله : « لا تعجلن » ، وما بعده من قول الشاعر :

لا تمدحن امرأ حتى تجرّبه ... ولا تذمّنّه من غير تجريبِ

ولابن عمران أيضاً :

تحرّ سبيل القصد فى الناس ولتكنْ على حذر منهم ولا تُسِئ الظَّنّا
ولا تمدحنَّ مَنْ لم تجرّب ولا تَقُل على غير علم ذاك من ذا كمُ أسْنَى
فما كلّ مَنْ يرضيك ظاهر حاله لدى الخبر محموداً وقد يُحمَدُ الأدْنَى

القضية : الحكم . مبتوتة : مقطوعة . تَبْلُه : تجرّبه خدشه : عيبه وإذايته، تجتلى : تنظر . بطشه : صولته عند الغضب ، يقول : لا تحكم بشئ على أحدٍ حتى تجرّبه فى الشدة والرخاء . وقال رجل لعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه: إن فلانا لرجُلُ صدقٍ ، قال : أسافرت معه ؟قال لا ،قال: فهل كانت بينك وبينه خصومة ؟ قال : لا . قال : فهل ائتمنتَه على شئ؟قال لا . قال : فأنت الذى لاعلم لك به ، وإنما أراك رأيتَه يرفعُ رأسه ويَخْفضه فى المسجد . يِبَين :يظهر . خُلّب كاذب . الشائمين : الناظرين إلى البرق . وبله : مطره الكثير . طشه : مطره القليل . يشين : يعيب . وارِه : استره . كرماً ، أى تكرّماً منك عليه .أفشه : حدّث به وانشره . الارتقاء : الترفيع . رقّه : ارفعه . استحطّ : اتّضع . حُشّه : كنيفه وهو المستراح . التّبر : الذهب قبل السَّبْك . يستثار : يستخرج . النّبش : البحث عليه . الغباوة : الجهالة . رونق رقشِه : حسن زينته . مهذّباً : مخلصاً . دروس : إخلاق . بزّته : لُبْسته . رثّة : ضعف . طمرين : ثوبين خَلَقين . هِيبَ : حِيف . منوّف : مزين . لفحشه : لقبح كلامه . يَغْش عاراً : يدخله . أسماله : ثيابه البالية . مراقى : سلالم ومدارج . عرشه :سريره ومنزلته .العضب: السيف . قرابه : جفنه .

ومما ينتظم فى هذا السلك أن النجّاد العدَوِىّ دخل على معاوية فى عباءة فاحتقره ، فقال : يا أمير المؤمنين إن العباءة لا تكلّمك ، إنّما يكلمك مَنْ فيها ، ثم تكلّم فملأ سمعه بياناً ، ثم خرج ولم يسأله شيئاً ، فقال معاوية: ما رأيتُ رجلاً أحقر أوّلاً ، ولا أجلّ آخراً منه .

وقال بعضهم :

إنى وإنْ كنت أثوابى ملفّقةٌ ... ليست بخزٍّ ولا من نسج كتّانِ
فإن فى المجد همّاتى وفى لغتى ... فصاحةً ، ولسانى غيرُ لحّانِ

وقال آخر :

هل ينفعنْك بعد شيبك فى الهوى ... توقير مكتسبٍ ولُبْس ثياب
هيهات ما فخر المهنّد فى الوغى ... بحلى غمدٍ فوقه وقِرَابِ

وقال الخابزرزى :

لاتنظرنّ إلى أثوابِ مغترب ... نائى المحلّ بعيد الأهل والدّارِ
وانظر إليه إذا ما قام فى ملأٍ ... بمنطقٍ لذوى الألبَاب سَحّارِ

وقال المعرى :

وإن كان فى لبس الفتى شرف له ... فما السيف إلا غِمْدُه والحمائلُ (١)

وقال أبو هِفّان :

لَعَمْرى لئن بيعت فى دار غربةٍ ... ثيابِىَ إن ضاقت علىّ المآكلُ
فما أنا إلا السيف أخلق جفنُه ... له حلية من نفسِه وهو عاطلُ

وقال لبيد :

أصبحت مثلَ السيف أخلق جَفْنُه ... تقادم عهد القين والسيفُ قاطعُ (٢)

وقال النَّمَرى :

فإن تك أثوابى تمزّقن عن بلًى ... فإنى كنصل السَّيْف فى خلق الْغَمْدِ

كان بالكوفة رجل يعرف بأبى ذؤيب ، وكان متصدّاً للشعراء ، فدخل مجلسه محمد بن حازم الباهلىّ ، وعليه ثياب رَثّة ، وهم يتكلمون فى معانى الشعر ، فسأله ابن حازم عن بيت للطِرِمّاح ، فردّ أبو ذؤيب جواباً محالاً ، وهو فى ذلك

(١) سقط الزند ٥٢٦ . والحمائل : جمع حمالة السيف .
(٢) ديوانه ١٧١ .

كالمزدرى لابن حازم ، فوثب مغضباً فقيل له : ماذا فتحتَ على نفسك الشرّ ؟ أتدرى من احتقرت ؟ قال : لا قيل: هو أخبث الناس لساناً، وأهجاهم ، هذا ابن حازم ، فوثب حافياً حتى لقيه وحلف أنه لم يعرفه واستقاله فأقاله ، وقال:

أخطا علىّ وردّ غيرَ جوابى ... وزرى علىّ وقال غير صوابِ
وسكتّ من عجبٍ لذاك فزادنى ... فيما كرهت بظنّه المرتابِ
وقضى علىّ بظاهرٍ من كُسْوةٍ ... لم يدرِ ما اشتملت عليه ثيابى
من عِفّـــةٍ وتكرّم وتجمّلٍ ... وتجلّدٍ لمصيبةٍ وعتـــابِ
لكنه رجعت عليـــه ندامةً ... لمـــا يسبّ وحاف مضّ عتابى
فأقلتُه لمّـا أقرّ بذنبـــه ... ليس الكريم على الكريم ببابِ

وكان ابن حازم ساقط الهمة ، يرضيه اليسير على انطباعه فى شعره .

وقال حماد بن يحيى : قال لى ابن حازم يوماً : مابقى علىّ شيء من اللذات إلاّ بيع السنانير : فقلت له : ويحك ! وأىّ فى ذلك من اللذة ؟ قال : يعجبنى أن تجىء العجوز الرّعناء تخاصمنى، وتقول:هذا سَنّورى سرق، فأخاصمها ، فتشتمنى، فأشتمُها وأغيظها ثم أنشد :

صِلْ خمرةً بخمّارِ ... وصِلْ خمّاراً بخمرِ
وخذ نصيبك من ذَا ... وذا إلى حيثُ تدرى

فقلت: إلى أين ويحك! فقال : إلى النار يا أحمق .

* * *

ثُمَّ ما عَتَّم أن اسْتَوْقفَ الملاّحَ ، وصَعِد من السّفينَةِ وساحَ، فندم كلٌّ مِنّا عَلَى ما فرّط فى ذاتِهِ ، وأغْضَى جَفْنَهُ على قَذَاتِهِ ،

وتعاهَـدْنا على ألاَّ نحتقرَ شخْصاً لرثاثةِ بُرْدِه ، وألاَّ نزدَرِى سيفاً مخبوءاً فى غمدِه .

* * *

قوله «ما عتّم» ، أى ما أبطأ ولاتأخّر ، ويقال: عَتّم القِرَى،إذا تأخر،وأعتم حاجته: أخّرها ، ومنه صلاة العتَمة لتأخّر وقتها . استوقف الملاّح : أمر خادم السفينة بالوقوف . صعد : ارتقى وارتفع . ساح : ذهب فى الأرض . فى ذاته ، أىفى نفسه . أغضى جفنه : سدّعينه . قذاته : عاره وعيبه الذى تلقّى به السروجىّ عند الدخول فى السفينة . والقذاة : مايسقط فى العين فيوجعها . نزدرى : نحتقر . لرثاثة بُرْده : لإخلاق ثوبه . الله تعالى الموفق .

رفع المسهم

المقامة الثالثة والعشرون وهي الشعرية

حكى الحارثُ بن هَمّامٍ ، قال : نبا بي مَأْلَفُ الْوَطنِ ، في شَرْخ الزَّمَن ؛ لخِطْبٍ خُشِي ، وَخَوْفٍ غَشِي ؛ فأرَقْتُ كأسَ الكرَى ، ونَصَصْتُ رِكابَ السُّرَى ، وجُبْتُ في سَيْرِي وُعُورًا لَمْ تُدَمِّثْها الخُطا ، ولا اهْتَدَتْ إِلَيْهَا الْقَطا ؛ حَتَّى وَرَدْتُ حِمَى الخِلافة ، والحَرَمَ الْعَاصِمَ من المخافة ، فَسَرَوْتُ إيجاسَ الرَّوْعِ واسْتِشْعَارَهُ ، وتسْرَبَلْتُ لِبَاس الأمْنِ وشِعَاره . وقصرت هَمّي على لَذَّةٍ أَجْتَنِيها ، وَمُلْحَةٍ أَجْتَلِيهَا . فبرزتُ يومًا إلى الحَرِيم لأَرُوضَ طِرْفِي ، وأجِيلَ في طُرُقِهِ طَرْفِي ؛ فإذا فُرْسَانٌ متتالون ، وَرِجالٌ مُنْثالونَ ، وشيخٌ طويلُ اللِّسان ، قَصِيرُ الطَّيْلَسان ، قَدْ لَبَّبَ فتًى جديد الشباب ، خَلَقَ الجِلْبَاب ؛ فركَضْتُ في إثْرِ النَّظارة ؛ حتّى وافينا بابَ الإمارة ، وهنالك صاحبُ المعونةِ متربِّعًا في دَسْتِهِ ، ومروِّعًا بِسَمْتِهِ .

* * *

قوله « نبا بي » أي قَلِق ولم يوافقني . الوطن : المنزل . ومألفه . موضع الاجتماع به والتأليف فيه .

شرْخ : أوّل ، أراد في أول زمانه وشبابه . خطْب : أمر مخوّف . خُشِي : خِيفَ . وغَشِي : نزل وغطّى .

أرَقْت : هرقت ، وجعل للكرى وهو النوم كأساً مجازاً ، وكنى بهرقها عن

إزالة النوم عن عينه . نَصبصْت : رفعت وحرّكت ركاب السرى : إبل السّير. جُبْت : قطعت. وعوراً : طُرقا صعبة . تدمّثها : تسهّلها وتليّنها . الخُطا هنا : الأقدام ، وقوائم الحيوان . والقطا : طائر وقد تقدم . وهدايتها : فيما زعموا أنها تترك فراخها بالصحراء ، وتذهب عند طلوع الشمس لطلب الماء من مسيرة عشرين ليلة فما دونها، فيَرِدْنه ضحْوةَ يومهنّ فيحملن الماء لفراخهنّ فينهلْنهنّ ثم يرجعن بعد الزوال إلى تلك المسافة ، فيشربن ويأتين فراخهنّ فى عشية يومهنّ فيستقينهنّ عللاً بعد نهَل ، ولا يخطئن مواضع فراخهنّ ، فيقال لذلك : أهْدَى من القطا ، قال الشاعر[1] :

تميم بطرق اللؤم أهدى من القَطَا ... ولو سلكتْ سُبُلَ المكارم ضَلّتِ
ولو أنّ بُرغوثا على ظهر قملة ... رأته تميمٌ يوم زحفٍ لولّتِ

وقال حميد بن ثور :

كما اتصلتْ كدْراء تسقِى فراخها ... بِعَرْدةَ رِفْهاً والمياه شُعوب[2]
فجاءت ومَسْقاها الذى وردتْ به ... إلى الصدر مشدود العِصَام كئيبُ[3]
تبادر أطفالاً مساكينَ دونها ... فَلاً لاتخطاه الرقابُ رغِيبُ
وصفن لها غوثاً بأرض تنوفةٍ ... فما هى إلاّ نهلة وتؤبُ

قوله : «حمى الخلافة» ، هى بغداد . الحرم : موضع الأمن . العاصم : المانع . سروت : أزلت . إيجاس الروع : إحساس الفزع والخوف . واستشعاره ، استفعال من شعرت بالشيء . تسربلت : لبست سِرْبالا . قصرت همى : حبست همتى وأرادتى . مُلَحهُ : طُرْفة وشيء عجب . أجتليها : أنظرها . الحريم : موضع متسع حول قصر الملك يجتمع فيه أجناده وغيرهم . أروض : أعلّم وأسوس . طِرْفى : فرسى . أجيل: أمشى . متتالون : متتابعون . منثالون : منصبون لكثرة

(١) هو الطرماح ، كما فى العقد : ١ ٢٤١ وعيون الأخبار ١ : ٣٢١ .
(٢) ديوانه ٥٣ وكدراء من صفة القطاة ، والقطا الكدرى : نوع من القطا غبر الألوان، رقش الظهور . وعردة هضبة . والرفه : أقصر الوردو والشعوب : البعيدة .
(٣) شمرت ، مرت جادة ، وتنوب : ترجع إلى الماء مرة بعد مرة .

رفع المسهم

جريهم . الطيلسان : ثوب خزّ أخضر . لتبّ : جعل فى عنقه ثوباً وقاده به ، وأخذ بتلابيبه وهى أطوق ثوبه ، والتلابيب مأخوذة من اللّبة وهى وسط الصدر . جديد الشباب ، أى فتىّ السن ، وتقدم الجلباب .

ركضت فى أثر النظارة ، أى خلف الناظرين لما يفعل به ، ومن شأن الغوغاء والعامة إذا رأوا محبوساً أو مضروباً أن يتبعوه ويتكاثروا عليه . ونظر عمر رضى الله عنه إلى قوم يتبعون رجلا مُريباً ، فقال : لامرحباً بهذه الوجوه التى لاتُرى إلاّ عند الشرّ . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ما اجتمعوا قطّ إلا ضرُّوا ولا تفرقوا إلاّ نفعوا . قيل له : قد علمنا ضرّ اجتماعهم . فما نفع افتراقهم ؟ قال : يذهب الحجّام إلى دكانه ، والحدّاد إلى كِياره ، وكلّ صانع إلى صنعته . وقال دعبل :

ما أكثَر الناس لابلْ ما أقلّهمُ والله يعلم أنّى لم أُقلْ فَنَدا[1]
إنى لأفتح عينى حين أفتحُها على كثير ، ولكن لاأرى أحدا

ومرّ على بن الجهم بمبرسم ، والناس قد تجمّعوا حوله ، وحلّقوا به ، فلما رآهم المبرسم أخذ بعِنان فرسه وأنشأ يقول :

لاتحفلن بمعشر الهمج الذين تراهمُ
فبحق مَنْ أبلى بهم نفسى ومن عافاهمُ
لو قيس مولاهم بهم كانوا إذا مولاهمُ

ثم نظر حوله ، فرأى غلاماً جميل الوجه ، حسن اللبسة ، فهجم عليه وشقّ ثيابه وهو يقول :

هذا السعيد لديهمُ قد صار بِى أشقاهمُ

---

(١) ديوانه ٦٣ .

رفع المسهم

وافينا : وصلنا . صاحب المعونة : والى الجنايات، وقال الرستمىّ : وَلِىَ فلان المعونة ، أى ولى العوْن، أى ولاَّه السلطانَ عوْنه على حفظ المدينة ولفظها مفعولة وهى بتأويل المصدر بمنزلة قولهم : ماله معقول ، أى عقل ولا مجلود أى جلد .

مروّعاً بسمته ، أى مفزعاً بهيئته ووقاره .

* * *

فقال لَهُ الشَّيْخُ : أعزَّ اللهُ الوالِى ، وجَعَلَ كَعْبَهُ العالى ، إنِّى كَفَلْتُ هَذَا الْغُلامَ فَطِيماً ، وربَّيْتُهُ يتيماً ؛ ثمَّ لَمْ آلُهُ تعليماً . فَلَمَّا مَهَرَ وَبَهَرَ ، جَرَّدَ سَيْفَ الْعُدْوَانِ وَشَهَرَ ، وَلَمْ أَخَلْهُ يَلْتَوِى عَلَىَّ ويتّقِح ، حِينَ يَرْتَوِى مِنِّى وَيَلْتَقِحُ . فقال له الفَتَى : عَلامَ عَثَرْتَ مِنِّى ؛ حتَّى تنشرَ هذا الخزْىَ عَنِّى ، فواللهِ ما سَتَرْتُ وَجْهَ بِرِّكَ ، وَلَا هَتَكْتُ حِجابَ سِتْرِكَ ، وَلَا شَقَقْتُ عَصَا أمْرِك ، وَلَا أَلْغَيْتُ تِلاوَةَ شُكْرِكَ .

فقالَ له الشيخُ : وَيْلَكَ وأىُّ رَيْبٍ أَخْزَى مِنْ رَيْبِكَ ، وهَلْ عَيْبٌ أَفْحَشُ مِنْ عَيْبِكَ ، وقَدِ ادَّعَيْتَ سِحْرِى واستلْحقتَهُ ، وانْتَحَلْتَ شِعْرِى واسْتَرَقْتَهُ ، واستراقُ الشِّعرِ عند الشعراء ، أفظعُ من سَرِقةِ البيضاءِ والصَّفراء ، وَغَيْرَتُهُمْ عَلَى بناتِ الأفكار ، كغيرتهمْ على البناتِ الأبكار . فقال الوالِى للشَّيخ : وهَلْ حِينَ سَرَقَ سَلَخ ، أم مَسَخ أم نسخ !

* * *

رفع المسهم

جعل كعبه العالى ، أى جعل أسفل شىء منه يعلو أرفع شىء فى غيره .
كفلته : ضممته وقمت بمؤنته .

أبو هريرة رضى الله عنه ، قال النبى صلى الله عليه وسلم «أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين — وهو يشير باصبعيه — وخير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشرها يتيم يساء إليه » .

أبو أسامة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من مسح على رأس يتيم لم يمسحه إلا لله ، كانت له بكل شعرة مرّت عليها يده حسنة ، ومن أحسن إلى يتيم أو يتيمة كنت أنا وإيّاه فى الجنة كهاتين ـ وفرّق بين إصبعيه » .

فطيما : أى صغيرا كما منع الرضاع . لم آله : أى لم أقصر فى تعليمه . مَهَر : ظهر وصار ماهراً أى حاذقاً . بَهَر : غلب أمثاله . العدْوان : الظلم . يلتوى : ينعطف ، لضرّى وهو من فعل الحيَّة إذا أتبعها الرجل التوتْ عليه لتلسعه . يتّقح : يسقط حياؤه . يلتقح : يشرب لبن لقحتى ، واللقحة : الناقة ذات اللبن . عثرت : اطلعت . الخزى : العار والشرّ ، والخزى : الهوان . هتكتُ : خرقت . حجاب سترك ، أى ثوب طاعتك . ولا شققت عصا أمرك ، أى ما خالفت حكمك ، وشقّ فلان العصا : خرج عن الأمر مخالفاً . وشقّ عصا المسلمين : فرّق جماعتهم ، والأصل فى العصا الائتلاف والاجتماع ، ومنه قولهم للمطمئن : ألقى العصا ، وقيل شَقّ العصا : صار منها فى شقّ وخرج عن الجماعة ، وفسر قوله تعالى : ﴿ شاقُّوا اللهَ ورسوله ﴾ بالمباينة ، لأن من صار فى شق عن شق صاحبه فقد باينه ، وقيل : معنى شقّ العصا ذهب إلى شقّها أى كسرها ، فجىء بالشقّ الذى هو من صفة العصا ؛ وفى ضمنه المجاهرة بالخروج عن الجماعة قال الشماخ :

تصدّع شعب الحىّ وانشقّت العصا كذاك النوى بين الخليط شقوقُ[1]

ألفيت : تركت . تلاوة : قراءة ، والريب : الريبة والتهمة : أخزى : أضرّ ،

(١) ديوانه ٢٤٢ .

وأكثر هوانًا . أفحش : أقبح . ادّعيته : نسبته لنفسك وليس لك . سحرى : بديع كلامى . استلحقته : ألحقتَه بنفسك. انتحلت: ادّعيت . أفظع : أمرّ . البيضاء والصفراء : الفضة والذهب . بنات الأفكار ، هى الأشعار . سلخ : أخذ المعنى . مسخ : قلب الكلام وغيّره . نسخ : نقله بعينه .

والقائلون بالتناسخ لهم ألفاظ تشبه هذه ، وهى النسخ والمسخ والرسخ والفسخ ؛ فالفسخ عندهم أن يحوّل الأدنى إلى الأعلى، والمسخ أن يحوّل الأعلى من الحيوان إلى الأدنى ، والرسخ رد الحيوان جماداً ، والفسخ أن يتلاشى فلا يكون شيئاً ، وقال شاعرهم :

تعـــوّذْ بالإله من المسوخ ... وسله أن تكونُ من النُّسوخِ[1]

لقد خاب الذى أضحى وأمسى ... يُنقَّلُ فى فسوخٍ أو رسوخِ

وقال المعرى :

وقال بأحـــكام التناسخ معشرٌ ... غلَوْا فأجازوا الفسخ فى ذاك والرَّسْخا[2]

[السرقات الشعرية وأنواعها]

وتقسيم الحريرىّ السرقة فى قوله : سلخ ومسخ ونسخ، يدخل تحت أحكام السرقات التى عدَّها أبو محمد الحسين بن على بن وكيع رحمه الله تعالى فى كتابه المترجم بالمنصف فى الدلالات على سرقات المتنبى، فإنه جعلها عشرين وجهاً عشرة أوجه يُغفر فى سرقتها ذنب الشاعر للدلالة على فطنته .

الأول منها استيفاء اللفظ الطويل فى الموجز القصير ، كقول طَرَفة :

أرَى قبر نحّامٍ بخيل بماله ... كقبر غوىٍّ فى البطالة مفسدِ[3]

---

(١) من ثلاثة أبيات فى شرح اللزوميات ١ : ٢٢٤ من غير نسبة .

(٢) اللزوميات ٢٢٥ (٣) ديوانه ٥٢ والنحام : الحريص على المال

اختصره ابن الزِّبَعْرى ، فقال :

والعطيَّات خِساس بينهمْ وسواء قبر مثرٍ ومُقِلّ (١)

ففضل صدر بيته وجاء ببيت طرفة فى عجز بيت أقصر منه بمعنًى لائح ولفظ واضح .

الثانى : نقل اللفظ الرذل إلى الرشيق الجزل ، كقول العباس بن الأحنف :

زعموا لى أنها بانت تُحَمّ ابتلى الله بهذا من زعمْ (٢)
اشتكت أكل ما كانت كما يُكْسَفُ البدر إذا ما قيل تَمّ

فهذا معنى لطيف أخذه ابن المعتز فقال :

طوى عارضُ الحمّى سَنَاهُ فحالاَ وألبس ثوباً للسّقام هُزَالاَ
كذا البدرُ محتومٌ عليه إذا انتهى إلى غايةٍ فى الحسنِ عاد هِلاَلاَ

الثالث : ماقبح مبناه دون معناه إلى ماحسن مبناه ومعناه ، كقول أبى نواس :

بُحّ صوتُ المال ممّا منكَ يدعو أو يصيح (٣)
ما لهذا آخذٌ فوْ قَ يديه مَنْ يصيح

معناه صحيح ولفظه قبيح ، أخذه مسلم فقال :

تظلّم المال والأعداء من يده لازال للمال والأعداء ظَلاَّما (٤)

فجوّد الصنعة وجمع بين تظلمين كريمين ، ودعا للممدوح بدوام ظلمه للمال والأعداء ، وكلّ ذلك مليح جزل نقل عن ضعيف المبنى .

الرابع : عكس مايصير بالعكس ثناء بعد ما كان هجاء ، كقول البلاذرى :

قد يرفع المرء اللئيم حجابُهُ ضعةً ودون الرُّفْ منه حجابُ

(١) المؤتلف والمختلف للامدى ١٣٣ (٢) ديوانه ٢٥٢ ، ديوان المعانى ٢ : ١٦٥
(٣) ديوانه ٧٠ (٤) ديوانه ٦٤

رفع المسهم

معكوسه :

ملك أغرّ محجّبُ معروفه لا يُحجبُ

الخامس : استخراج معنى من معنى احتذى عليه وإن فارق ما قصد إليه ، كقول أبى نواس فى الخمر :

لا ينزل الليل حيث حلّتْ فدهرُ شُرّابِهَا نَهارُ[1]

احتذاه البحترى وفارق مقصده ، فجعله فى محبوب ، فقال :

غاب دجاها وأىّ ليـــل يدجو علينا وأنت بدر

السادس : توليد كلام من كلام لفظهما مفترق ، ومعناهما متفق ، كقول أبى تمـام :

لأمرٍ عليهم أن تَتِمّ صدورُه وليس عليهم أن تَتِمّ عواقبهْ[2]

أخذه من قول الأعرابىّ ، أنشده الأصمعىّ رحمه الله تعالى :

فكانَ على الفتى الإقدامُ فيهـا وليس عليه ما جَنَتِ ٱلمَنُونُ

فجرد لفظه مَنْ أخذ منه ، وهو فى معناه متفق معه ؛ وهذا من أدل الأقسام على فطنة الشاعر .

السابع، فى توليد معانٍ مستحسنات فى ألفاظ مختلفات ، وهذا من أشذّ باب وأقلّه وجودًا، وإنّما قلّ لأنّه من أحق ما استعمَل فيه الشاعر فطنته ؛ كقول أبى نُوَاس :

واسْقِنيهَا من كُمَيْتٍ تَدَعُ اللّيلَ نهارَا[3]

(١) ديوانه ٢٧٤

(٢) ديوانه ٤٤ (٣) ديوانه ٢٧٤

رفع المسهم

ثم قال أيضاً :

لا ينزل الليل حيث حَلّتْ فدهرُ شُرّابها نهارُ[1]

ثم قال أيضاً :

قال ابغنى المصباح قُلت له اتّئد حسبى وحسبك ضوءها مصباحا[2]

فكل هذه معان متقاربات وألفاظ متشابهات ، مولّد بعضها من بعض .

الثامن: مساواة الآخذ المأخوذ منه فى الكلام حتى لا يزيد نظام على نظام ، وإن كانَ الأوّل أحقّ به لأنه ابتدع ، والثانى اتّبَع ،من ذلك قول العكوك فى فرس :

مطّرد يرتجّ من أقطارِه كالماء جالت فيه ريحٌ فاضْطَرَبْ

فذكر ارتجاجه ، ولم يذكر سكونه ، فأخذه ابن المعتزّ فقال :

فكأنه موجٌ يذوب إذا أطلقتَه ، فإذا حبستَ جَمدْ

فجمع بين الصفتين .

التاسع : مماثلة السارق المسروق بزيادته فى المعنى ما هو من تمامه ؛ كقول أبى حيّة :

فألقت قناعاً دونه الشّمْسُ واتّقَتْ بأحسن موصولَيْن : كفٍّ ومِعْصَمِ

أخذه من قول النابغة :

سَقَط النَّصِيف ولم ترد إسقاطَهُ فتناولتْه واتّقَتْنَا بالْيَدِ[3]

فلم يزد النابغة على اتقائها باليد ، وزادعليه أبو حيَّة بقوله : « دونه الشمس » وخَبَّر عن المتّقى بأحسن خبر فاستحقّه .

(١) ديوانه ٢٧٤ (٢) ديوانه ٢٥٦

(٣) ديوانه ٣٠

العاشر : رُجْحَانَ السَّارق على المسروق منه بزيادة لفظ على لفظ مَنْ أخذ عنه ، كقول حسان :

يُغْشَوْنَ حتى ما تهرّ كلابُهُمْ لا يَسألون عن السَّوَادِ المقبلِ[1]

وقال أبو نواس رحمه الله تعالى :

إلى بيت حانٍ لا تهرّ كلابُهُمْ علىّ ولا يخشون طول ثوائى

ولافرق بين المعنيين .

والسرقات المحمودة أكثر من أن تحصر .

[السرقات المذمومة]

ونريك وجه السرقات المذمومة ، وهى كالمحمودة عشرة أقسام :

الأول : نقل اللفظ القصير إلى الطويل الكثير ، كقول سالم الخاسر :

أقْبَلْنَ فى رأْد الضحى بِنا يَسْتُرْنَ وجْهَ الشَّمْسِ بالشَّمْسِ

أخذه الثانى فقال :

وإذا الغزالةُ فى السماء تعرَّضتْ وبدا النهـــار لوقته يترحَّلُ

أبدتْ لعينِ الشمس عيناً مثلَها تلقى السماء بمثل ما تستقبل

المعنى صحيح والكلام مليح؛غير أنه تطويلٌ تضييق ، والبيتان جميعاً نصف بيت سالم .

الثانى : نقل الرشيق الجزل إلى المستضعف الرذْل ، كقول القائل :

كأنّ ليلى صبير غادية أو دُمْيَةٌ زيِّنَتْ بها البِيَعُ

---

(١) ديوانه ٣٠٩

رفع المسهم

أخذه أبو العتاهية فقال :

كأنّ عتّابَةَ من حُسْنِها دُمْيَة قَسٍّ فُتنت قَسَّهَا

فقصر لفظه عن الفصاحة ، ومعناه عن الرجاحة .

الثالث : نقل ماحَسُنَ معناه ومبناه إلى ما قبح مبناه ومعناه، كقول امرىء القيس :

ألَمْ ترَ يانى كُلَّمـــا جئتُ طارقاً وجدتُ بها طيباً وإنْ لَمْ تطَيَّبِ (١)

فأتى بمالا يعلم وجوده فى البشر من وجود طيب ممّن لم يمسّ طيباً ، وجاء ببيتٍ فى مراده ، حسن النظام مستوفىَ التمام ، أخذه كُثَيِّرٌ ، فقال :

فما رَوْضَةٌ بالحسن طيِّبةُ الثَّرى يمجّ النَّدَى جَثْجَاثُها وعَرَارُهَا (٢)
بأطيبَ من أرْدَانِ عزّة موهِناً إذا أوقِدَتْ بالمندل الرطب نارُهَا

فطوّل وحسَّن ، وقصّر غاية التقصير ، وأخبر أنها إذا تطيّبت كالروضة فى طيبها ، وذلك مما لا يعدم فى أقل البشر تنظيفاً .

الرابع : عكس ما يصير بالعكس هجاء بعد أن كان ثناء ، كقول أبى نواس رحمه الله تعالى :

فهو بالمال جـــوادٌ وهـو بالعِرْضِ شحيحُ (٣)

عكَسَه ابن الرومى فقال :

ما شئت من مال حمىً يأوِى إلى عِرْض مباحِ

---

(١) ديوانه ١ (٢) الكامل للمبرد ٣ : ١١٥
(٣) ديوانه ٧٠

رفع المسهم

الخامس : نقل ماحسنت أوزانه وقوافيه إلى ما قبح وثقل على لسان راويه، كقول مسلم رحمه الله تعالى :

أمّا الهجاء فدقّ عرضُك دونهُ والمدْحُ عنك كما علمتَ جليلُ [1]
فاذهبْ فأنت طليق عِرْضِك إنَّه عِرْضٌ عززتَ به وأنت ذليلُ

أخذه أبو تمام فقال :

قال لى النَّاصِحُونَ وهو مقالٌ ذمّ من كان جاهـلاً إطراءُ [2]
صدقوا فى الهِجَاءِ رفعةَ أقوا م طغامٍ فليس عندِى هِجَـاءُ

فبين الـكلامين فرق بعيد .

الثامن :[3] نقل العذب من القوافى إلى المستكره الجافى، كقول أبى نواس :

فتمشّتْ فى مفـاصلِهِمْ كتمشّى البرء فى السَّقَمِ [4]

فهذا الـكلام أتم بهاء من قول مسلم :

تجرى محبَّتُهـــا فى قلبِ عاشقها جَرْىَ المعافاة فى أعضاء منتكَسِ [5]

التاسع: نقل ما يصير على التفتيش والانتقاد إلى تقصير وإفساد، كقول القائل:

ولقد أروح إلى النجار مرجّلاً مدلى بمالى لينـــــا أجيادى

وإنما له جيد واحد، وهذا وإن جاز عند بعض العرب، فهو عند الآخرين غير حميد ولا سديد .

---

(١) ديوانه ٣٣٤ (٢) ديوانه ٤ : ٣٠١ (طبع المعارف)
(٣) قوله : « الثامن » ، سقط السادس والسابع من جميع الأصول .
(٤) الوساطة ٥٦ (٥) ملحق ديوانه ٤٢٥

العاشر : أخذ اللفظ والمعنى وهو أقبح السرقات وأدناها وأوضعها

وقد أكثر الشعراء ذم السرقة والسارق ، وأول من ذمّ ذلك طَرَفة حين قال :

ولا أُغير على الأشعار أسرقها عنها غنيتُ وشرّ الناس مَنْ سَرقا[1]

وقال الأعشى :

فكيف أنا وانتحالى القوا فِ بَعْدَ المشيب، كفى ذاك عارا[2]

ومن سرقة اللفظ والمعنى ، ما يحكى عن أبى المعافى أنه لما مدح أبا العباس محمد ابن إبراهيم الإمام بقوله :

إليك بمدحتى يا خير أبنا رسول الله مَنْ تَلِدُ النّساء
ستأتيك المدائح من رجالٍ وما كفٌّ أصابعُها سواء

فأخذه آخر وغيّره بأن وضع الرجال موضع النساء ، وغيّر عجز البيت الآخر فقال :

* كما اختلفت إلى الغَرَضِ النِّبَالُ *

فاستعدى عليه أبا المعالى صالح بن إسماعيل، وهو على شُرْطة محمد بن إبراهيم بالمدينة ، فقال :

ما سارقُ الشعر فيه وَسْمُ صاحبه إلاّ كسارق بيتٍ دونَه غَلَقُ
بَلْ سارق البيت أخفى حين يسرِقُه والبيت يستره من ظلمةٍ غَسَقُ
من جيّد الشعر أن يخفى لسارقه وجيّد الشعر قد سارت به الرفَقُ

فقال صالح : فما تحب أن أفعل به ؟ فقال : تحلّفه عند منبر النبىّ صلى الله عليه وسلم ألّا ينشد هذا الشعر إلا لى .

(١) ديوانه ٢١٦ (٢) ديوانه ٥٣

وكان محمد بن زهير يشرب ، فإذا سكر لا يفيق إلا بإنشاد الشعر ، فأمر يوماً جبّار بن محمد الكاتب أن ينشده ، فأنشده أبياتاً لأبى نواس اُدعى أنه قائلها وهى :

صاحِ مالِي وللرسوم القفـارِ ولِنَعْتِ المطىّ والأكـوارِ
شغلتنى المدام والقصْف عنهـا وسمـاع الغناء والمزمـــارِ

ومضى فى الشعر ، وأبو نواس قاعد ، فوثب وتعلّق به قدّام محمد بن زهير ، وأنشأ يقول :

أعْدِنى يا محمد بن زهـير يا عـذاب اللّصوصِ والذّعارِ
يسرق السارقون ليلاً وهذا يسرق الشعر جهرة بالنّهارِ
صار شعرى قطيعة لجبـارٍ أفهذا لقـــــلة الأشعار !
قل له فليُغِرْ على شعر حمّـا د أخى الفتك أو عَلَى بشّارِ

وسرق محمد بن يزيد الأموى شعرًا لحبيب ، فقال حبيب :

مَنْ بنو مجدلٍ مَنِ ابنُ الحباب مَنْ بنو تغلبٍ غَدَاة الكُلاب[1]
مَنْ طفيلٌ وعامر ومن الحـــارث أو مَنْ عتيبـة بن شهابِ
إنما الضيغم الهصور أبو الأشبـــال جبّار كل جيش وغابِ
مَنْ عَدَتْ خيله على سرح شعرِى وهو للحين راتـع فى كِتابِى
غارة أسخنت عيونَ المعـانى واستباحتْ محـارمَ الآدابِ
لو ترى منطقى أسيراً ولاصـــبحتَ أسـيراً لِعبْرةٍ وانتحابِ

---

(٢) ديوانه ٤ : ٣٠٨ (طبع دار المعارف) وفيه « من بنو عامر »

رفع المسهم

يا عذارَى الأشعار صرتنّ من بعـــــدى سبايا تُبَعْنَ فى الأعرابِ
طال رهبى إليك يارب ياربّ و رغبى إليك فاحفظ ثيـــابى

وعارض أبو أحمد عبد الله بن عبد الله بن طاهر قصيدة البحترىّ ، فاستعار من ألفاظها ومعانيها ما أوجب أن قال البحترى :

ما الدّهر مستنفدٌ ولا عجبُهْ تسومنـــا الخسفَ كلَّه نُوَبُهْ[1]
نال الرضا مادحٌ وممتـــدَحٌ فقـل لهـذا الأمير ما غضبُهْ
أجلِ نصوص البلاد يطردُهُمْ وظـــلّ لصُّ القريض ينتهبُهْ
اردُدْ علينا الذى استعرتَ وقل قولك يُعرفْ لغالبٍ غلبـــــه

واستعدى ابن الرومى العلاء بن عيسى على البحترىّ ، فقال :

قل للعَلاَء بن عيسى والذى نصلت به الدواهى نصول الآل فى رجَبِ[2]
أيسرقُ البحترىّ الناسَ شعرَهُمُ جهراً وأنت نكال اللِّص ذى الرِّيبِ
وتارة يـــترزُ الأرواح منطقُه فالقوم ما بين مقتول ومغتصبِ
نَـكِّلْهُ إنّ أناساً قبله ركبُوا بدون ما قد أتاه باسقَ الخشبِ
إذا أجاد فأوجِبْ قطع مِقْوَلِهِ فقد دها شعراء الناس بالحرَبِ
وإن أساء فأوجبْ قتـله قوَداً بمن أمات إذا أبقى على السلبِ
يسىء عفًّا فإن أكدتْ وسائله أجاد لصًّا شديد البأس والـكلبِ
حىّ يغير على الموتى فيسلبُهُمْ حرَّ الـكلام بجيش غير ذى لجبِ

---

(١) ديوانه ١ : ٢٠٧
(٢) ديوانه ابن الرومى ٤١٤ (نشرة شريف سليم)مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات

رفع المسهم

وقال فيه ابن الحاجب :

والفتى البحتريّ يسرق ما قا ... ل ابن أوسٍ فى المدْحِ والتَّشْبِيبِ
كلّ بيت له يجوّد معنا ... ه فمعناه لابن أوسٍ حبيبِ

ولابن الحاجب أيضاً :

هل إلى محنة تخبر مَنْ فا ... ضلنا فى القريض والمفضُولُ
محنة تفضح اللصوص وتقضِى ... بالّذى فيهم قضَى التنزيلُ
سارق المال تقطع الكفُّ منه ... واللسان السروق منها بديلُ
ليسود الذى يحق له السو ... دَ دُمنّا ويرذل المرذولُ

وبلغ الصاحبَ بن عبَّاد أن بعضهم سرق شعره ، فقال أبلغوه عنى [1]:

سرقت شعرِى وغيرى ... يُضَام فيه ويُخدَعْ
فسوف أجزيك صَفْعًا ... يَكلّ[2] رأسًا وأخدعْ
فسارقُ المالِ يُقْطَع ... وسارق الشِّعر يُصْفعْ

فاتخذ السارق لذلك جملا وهرب من انرّىّ .

وبين السرىّ الموصلىّ والخالديين مستظرفات فى هذه السرقات ، اشتهرت فى كتب الآداب، فلنلمّ ببعض ماقال السرى فيهما وفيه . يقول الثعالبىّ : السرىّ وما أدراك ما السرىّ ، صاحب الشّعر الجامع بين عقود الدرّ ، والنافث فى عُقَدِ السِّحْر ؛ولله درّه ! ما أعذب بَحره ، وأصفى قطرَه ،وأعجب أمرَه! وقدأخرجت

(١) اليتيمة ٣ : ١٧٧
(٢) اليتيمة « يكد »

رفع المسهم

من شعره ما يكتب على جبهة الدّهر ، ويعلّق فى كعبة الظرف [١] . وكتبت منه محاسن وملَحاً ، وبدائع وطرفاً ، كأنها أطواق الحمام وصدور البزاة البيض ، وأجنحة الطواويس وسوالف الغزلان ، ونهود العذارى الحسان ، وغمزات الحدق الملاح .

قال يتظلّم إلى سلامة بن فهد من الخالديين :

تحيّف شعرى يا بن فهدٍ مصالتٌ ... عليه فقد أعدمتُ منه وقد أثْرَى [٢]
وفى كل يوم للغُبيَّيْن غارةٌ ... تروّع ألفاظى المحجّلة الغـرّا
إذا عنّ لى معنى تضاحك لفظه ... كما ضاحك النوّار فى روضه الغُدُرا
غريب كنشْر الرّوْض لمّا تبسمت ... مخائله للفكر أودعتـه سَطْرا
فوجه من الفتيان يمسح وجْهَه ... وصدرٌ من الأقوام يسكنُه الصَّدْرا
تناوله مثرٍ من الجهل معـدمٌ ... من العلم معذور متى خلع العذرا
لأطفأتما تلك النجوم بأسْرِها ... وأدنستما تلك المطارف والأزْرَا
فويْحكما هـلاً بشطرٍ قنعتما ... وأبقيتما لى فى محاسنه الشَّطْرَا [٣]

وقال يخاطب أبا الخطاب [٤]، وقد سمع أن الخالديّين يرجعان إلى بغداد [٥] :

بكرتْ عليك معرَّة [٦] الأعراب ... فاحفظ ثيابك يا أبا الخطاب [٧]
وَردَ العراق ربيعةُ بن مكَدّمٍ ... وعُتيبْة بن الحاث بن شهـاب

---

(١) اليتيمة : « الفكر » .
(٢) اليتيمة ٢ : ١٢٥ ـ تحيف : اغتصب . والمصالت : اللص .
(٣) اليتيمة: « شطرا »
(٤) فى اليتيمة ٢ : ١٢٨ : « المفضل بن ثابت الضبى » .
(٥) بعده فى اليتيمة ، « وذلك فى أيام المهلبى الوزير »
(٦) اليتيمة « مغيرة »
(٧) اليتيمة ٢ ، ٢٨

رفع المسهم

أفعندنا شـــكّ بأنّهما هما ... فى الفتك لافى صحة الأنساب
جلبا إليك الشعر من أوطانه ... جَلْب التِّجَار طرائف الأجْلاَب
شنّا على الآداب أقبح غارةٍ ... جرحت قلوب محاسن الآداب
فحذار من حركات صِلِّىْ[1] غارة ... وحذار من فتكات ليثىْ غاب
تركت غرائب منطقى فى غربة ... مسبيّة لا تهتـدى لإياب
أعزز علىّ بأن أرى أشلاءها ... تدمى بظفْر للعـدوّ وناب
جرحى وما ضُربت بحدّ مهنّدٍ ... أسرى وما حُملتْ على الأقتاب
إنْ عزّ موجود الـكلام عليهما ... فأنا الذى وقف الـكلامُ ببابى
كم حاولا أمرِى فطال عليهما ... أن يدركا إلاّ مثـارَ ترابى

والقصيدة[2] طويلة جمعتُ منها ما وافق الغرض ، وسنلمّ بشىء منهـا فى الثالثة والثلاثين بعون الله تعالى .

وقال يتظلم منهما لأبى البركات :

يا أكرمَ الناس إلا أن تعدّ أبا ... فاتَ الكرام بآيات وآثار[3]
أشكو إليك حليفىْ غارة شهرًا ... سيف العقوق على ديباج أشعارى[4]
ذئبين لو ظفرا بالشِّعر فى حَرَمٍ ... لمزّقاه بأنياب وأظفـارِ
سـلّا عليه سُيُوفَ البغى مصلتةً ... فى جَحفلٍ من شَنِيع الظّلْم جرّارِ
وأرخصاه فظل العطر مُتَّهَماً[5] ... لديهما يُشترى من غير عطّارِ

---

(١) اليتيمة « صلّىْ قفرةٍ »
(٢) انظرها كاملة فى اليتيمة ٢ ، ١٢٨
(٣) اليتيمة ٢ ، ١٢٦
(٤) اليتيمة ، « سيف الشقاق »
(٥) اليتيمة ، « ممتهناً »

رفع المسهم

إن قَلّداك بدرٍ فهو من نجبى[1] أو ختّماك فياقوتى وأحجارى
كأنه جنة راقت حدائقها بين الغبيّين فى نار وإعصار
عارٍ من النسب الوضاح منتسب فى الخالدين بين الخزى والعارِ

وشتّان بين قول السرىّ فى أبى بكر وأبى عثمان ابنى هشام الخالديين، وبين قول الثعالبى فيهما[2] حين قال: إنّ هذين لساحران، يُغربان فيما يجلبان، ويُبْدِعان فيما يصنعان، وكان ما يجمعهما من أخوّة الأدب مثل ما ينظمهما من أخوّة النسب، وهما فى الموافقة والمساعدة يجيئان بروح واحدة، ويشتركان فى قول الشعر وينفردان، ولا يكادان فى السفر والحضر يفترقان، وكانا فى التساوى، كما قال أبو تمام:

رضيعىْ لِبانٍ شريكى عِنَانٍ عتيقى رهانٍ حليفَىْ صَفَاءِ

بل، كما قال البحترى:

كالفَ قـدَيْن إذا تأمّل ناظرٌ لم يَعْلُ موضع فَرْقَدٍ عن فَرْقَدِ

بل كما قال الصابى:

أرى الشاعرَيْن الخالديّين نَشَرا قصائد يفنى الدهر وهى تخلُدُ
جواهر من أبكار لفظ وعُونِه يقصّر عنها راجزٌ ومقصِّدُ
تنازع قوم فيهما وتناقضوا ومرّ جدال بينهم يتردّد
فطائفة قالت سعيد مقدّمٌ وطائفة قالت لهم بل محمدُ

---

(١) اليتيمة «من لُجَيجى»
(٢) اليتيمة ٢ : ١٦٥

رفع المسهم

وصاروا إلى حكمى فأصلحت بينهمْ ... وما قلت إلاّ بالتى هى أرشَدُ
هما الاجتماع الفضلُ زوجٌ[1] مؤلف ... ومعناهما من حيث ألفت مفردُ
كذا فرقدا الظلماء لمّا تشاكلا ... عُلاً أشْكَلاَ ذاك أم ذاك أمجدُ
فزوْجهما ما مثله فى اتفاقه ... وفردُهما بين الكواكب أسعد
فقاموا على صلْح وقال جميعهم ... رضينا وساوى فرقدَ الأرض فرقدُ

وأفاضل الشأم والعراق ، بعضهم يفضل السرىّ عليهما ، وبعضهم يفضلهما .

فهذا كله فصل فى السرقات مستظرف ، احتوى على فوائد من علم الأدب ، وهى عشرون وجهاً والعشرون وجهاً فى السرقة جلبتها من كتاب الوكيعى على اختصار .

* * *

فقال : والذى جعل الشِّعْرَ ديوانَ العرب ، وَتُرْجُمَانَ الأدب ، ما أحدث سِوَى أنْ بَتَر شَمْل شَرْحِهِ ، وأغار على ثلثْ سَرْحه . فقال له : أنشدْنا أبياتكَ بِرُمَّتِها ؛ لِيَتَّضِحَ ما اخْتَاره مِنْ جملتها ؛ فأنشد :

يا خاطِبَ الدُّنْيَا الدَّنِيّةِ إنَّهَا ... شَرَكُ الرّدَى وقَرَارَةُ الأكدارِ
دارٌ مَتَى ما أضْحَكَتْ فِى يَوْمِهَا ... أبْكَتْ غداً بُعْداً لَهَا مِنْ دارِ
وإذا أظَلَّ سَحَابُها لَمْ يَنْتَفِعْ ... مِنْهُ صَدًى لِجِهَامَه الغرَّارِ
غارَاتُها ما تنقضى وأسِيرُها ... لا يُفْتَدَى بِجلالَةِ الأخْطَارِ
كَمْ مُزْدَهٍ بِغُرُورِها حتَّى بدا ... متمرِّدًا مُتَجاوِزَ المقدارِ

(١) كذا فى الأصول ، وما أثبته من اليتيمة .

قَلَبَتْ له ظَهْرَ المجَنِّ وأَوْلَغَتْ فيهِ المُدَى ونزتْ لأخذِ الثَّارِ
فَارْبأ بعُمْرِكَ أنْ يَمُرَّ مُضيَّعاً فيهَا سُدًى مِنْ غَيْرِ ما اسْتِظْهَارِ
واقطَعْ عَلائقَ حُبِّهَا وطِلابَهَا تَلْقَ الهُدَى ورفاهَةَ الأسْرَارِ
وارقُبْ إذا ما سألَمتْ من كَيْدِها
حَرْبَ العِدَا وتَوَثُّبَ الْقَدَّارِ
واعْلَمْ بأنَّ خطُوبَهَا تَفْجَا ولَوْ طالَ الْمَدَى وَوَنَتْ سُرَى الأقْدَارِ

. . .

قوله: «والذى جعل الشعر ديوان العرب» ، أى كتاباً تدوّن فيه أخبارهم ، قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « إن هذا الشعر جَزْل من كلام العرب به يعطى السائل ويكْظَم الغيظ وبه يؤتى القوم فى ناديهم » . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إنّ من الشعر لحكمة» رواه ابن عمر رضى الله عنه قال: تعلّموا الشعر فإن فيه محاسنَ تُبتغَى ومساوى تُتَّقَى . وحكمة للحكماء ويدلّ على مكارم الأخلاق .

قوله : « يا خاطب الدنيا الدنية » ، أى التى لا خير فيها . شرك : مصائد . الردى : الهلاك . قرارة : موضع يَستقِرّ فيه الماء . الأكدار : ما يتكدر به الماء الصافى .

أظلّ : دنا وقرب . ينتقع : يرتوى . صدى : عطش . جهامه : سحابه الذى لا ماء فيه. الغرّار: الخدّاع . تنقضى : تنقطع وتتم ، أراد أن الدنيا تُهْلِكُ مَنْ فيها ، فكنى بالأسير عن ذلك وأسير الموت لا يُفْدَى . الجلائل : جمع جليلة وهى الشىء الرفيع ، وتقدمت الأخطار . مزدَهٍ : مُعجب . غرورها : خداعها . متمرداً : متجاوزاً الحد فى الفساد .

رفع المسهم

المجنّ : التّرس . آولغت : جعلتها تلغ الدم . المدى ، جمع مُدْية : السكين . نزت : وثبت عليه . الثأر : طلب الدم ، وأراد أنها لما بسطت الأرزاق للإنسان فأعجب بها ، وركب رأسه فى الفساد تحوّلت عليه ، وسقت سِكّينها من دمه ، والعرب تقول : قلبت له ظهر المَجِنّ ، أى غيّرت له حالى ، وهو مثل يضرب للمحاربة بعد المسالمة ، وأصله فى الحرب ، لأن الرجل إذا صالح صاحبه جعل بطن مِجَنّه مما يلى صاحبه المصالح ، فإذا حاربه قلب له ظهره للقتال . ومن جواب رسالة المهلب إلى الحجاج : وزعمت أنى إنْ لم أُلْقِهُمْ فى موضع كذا أسرعت إلى صدر الرمح ، فلو فعلتُ لقلبتُ إليك ظهر المجن ، ثم إذًا كانت الواقعة ، فهذا يبيّن ما ذكرناه .

ارْبأ بعمرك ، أى ارفع عنها نفسك واحتفظ فيها بعمرك ، وتقول : ربأتُ القومَ أى صرت لهم ربيئة ، وهو الحارس لهم ، والمربأ : الموضع المشرف الذى يقعد فيه الناظر ، فمعنى ارْبأ بنفسك : أى ارتفع بموضع ممتنع واحترس فيه لتنجو . سُدًى : مهملا . استظهار : استعداد ، وقد استظهرت بالشىء فظهرت به وأظهرتُه إذا جعلته خلف ظهرك حماية ووقاية ، والظهير المعاون . والعلائق : كلّ ما يعلق القلب بحب الدنيا . والرفاهة : الخفض والعيش الهنىء . الأسرار : البواطن ، يريد أنّ سرّ الإنسان وخاطره إذا قطع علائق الدنيا كان مترفّهاً خالىَ السر والبال . ارقب : احرس . سالمتْ : صالحت . كَيْدَها : مكرها . الغدار : الذى يؤمّنك فإذا أمنته خانك . وتوثبه : تهيّؤه للوثب عليك . خُطوبها : أمورها ونوازلها . تفجأ : تأتى على غفلة . ونت : فترت : والسرى : مشى الليل . الأقدار : مايقدره الله على العبد من خير أو شر ، فيقول : إذا أمنتْك الدنيا من مكرها ، فلا تأمنها فخطوبها تأتى على غفلة بعد أمد طويل ، وضمّن هذا الشعر وصايا فى التحذير من الدنيا .

* * *

[ذكر التحذير من الدنيا وغرورها]

ونسوق هنا من النظم والنثر ما ينتظم فى سلك ما نظم ، قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» .

رفع المسهم

وقال : « الدنيا حلوة خضرة ، فمن أخذها بحقها بورك له فيها ، ومن أخذها بغير حقها كان كالآكل الذى لا يشبع » .

وقيل لعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : صف لنا الدنيا ، فقال : ما أصف من دار أوّلها عناء وآخرها فناء ، حلالها حساب ، وحرامها عذاب ؛ من استغنى فيها فُتِن ، ومن افتقر فيها حزن .

وقال ابنه محمد بن الحنفيّة : من كرمت عليه نفسه هانت عليه الدنيا .

وقيل لبعض الحكماء : صف لنا الدنيا ، فقال : أملٌ بين يديك وأجل مطلٌّ عليك ، وشيطان فتّان ، وأمانىّ جرّارة العنان ، تدعوك فتستجيب ، وتزجرها فتخيب .

وقيل لآخر : صف لنا الدنيا ، فقال : ناقضة للعزيمة ، مرتجعة للعطية ، كل مَنْ فيها يجرى إلى مالا يدرى .

وقال هارون الرشيد : لو قيل للدنيا : صفى نفسك ، ما وصفتْ نفسها بأكثر من قول أبى نواس :

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشّفتْ ... له عن عدوٍّ فى ثياب صديق[1]

وقال آخر :

ياخاطب الدنيا إلى نفسه ... تنحّ عن خطبتها تسلمِ[2]
إن الذى تخطب غدّارة ... قريبة العرس من المأتمِ

وقال أبو العرب الصقلى :

ولا يغررك منها حسن بُرْدٍ ... له علَمان من علم الذَّهَابِ
فأوّله رجاء من سَرابٍ ... وآخره رداء من ترابِ

(١) ديوانه ١٩٢

(٢) العقد ٣ : ١٧٤ من غير نسبة .

رفع المسهم

وقال أبو العتاهية ،

أصبحت الدنيا لنا فتنةً والحمد لله على ذَاكَا[١]
قد أجمع الناس على ذَمِّها وما أرى منهمْ لها تاركَا

وله أيضاً :

هى الدنيا إذا كَمَلت وتمَّ سرورها خذلتْ[٢]
وتفعل فى الذين بَقُوا كما فيمنْ مضى فعلتْ

وقال المتنبى :

أبداً تسترِدّ ما تهب الدّنـ يا فيالَيْت جودَها كانَ بخْلاَ[٣]
وهى معشوقة على الغدر لا تحـ فظ عَهْدا وَلاَ تُتَمِّمُ وصْلاَ
كلّ دمع يسيل منها عليهاَ وبفك اليدين عنها تخلّى
شِيَمَ الغانيات فيها فلا أد رِى لذا أنَّث اسمَها الناسُ أم لا

وله أيضاً :

فذى الدار أخْوَن من مُومسٍ وأخدعُ من كِفّةِ الحابلِ[٤]
تَفَانَى الرجال على حبِّها وما يحصُلون على طائلِ

وقال المعرى :

وجَدْنَا أذى الدنيا لذيذاً كأنما جَنَى النحل أصنافُ الشقاء الذى نَجْنى[٥]
على أم دَفْرٍ غضْبة الله إنّها لأجدر أنثى أن تخون وأن تُخْنِى[٦]

---

(١) ديوانه ١٨٦ .
(٢) العقد ٣ : ١٧٤
(٣) ديوانه ٣ : ١٣١ .
(٤) ديوانه ٣ : ٣٣ .
(٥) سقط الزند ٩١٩ . وجنى النحل ،هو العسل .
(٦) أم دفر ، كنية الدنيا . والدفر : النتن . وأخنى عليه الدهر : أهلكه .

رفع المسهم

كعاب دُجاها فرعُها ونهارها محيَّا لها قامت له الشَّمْسُ بالحُسْنِ (١)
كأنّ بنيها يولدون ومالَها حَليلٌ فتخشى العار إن سمحت بابْنِ (٢)

وقال ابن عبد ربه :

ألا إنّما الدّنيا غضارة أيكةٍ إذا اخضرّ منها جانبٌ جَفّ جانبُ (٣)
هى الدار ما الآمال إلا فجائع عليها ولا اللذات إلا مصائبُ
فلا تكتحلْ عيناك فيها بعَبرةٍ على ذاهبٍ منها فإنّك ذاهبُ

وقال أبو العتاهية :

رضيت بذى الدنيا كل مكاثرٍ ملحٍّ على الدنيا وكل مفاخرِ (٤)
ألم ترها تَرْقِيه حتى إذا سما فرَتْ حَلْقَهُ منها بشَفْرَةِ جازِرِ

وقال أبو بكر البلوىّ :

إنّ الذى أصبح لا والدٌ له على الأرض ولا والِدَهْ
قَدْ مات مِنْ قبلها آدم فأىّ نفس بعده خالدَهْ
إن جئت أرضاً أهلها كلّهم عُورٌ فغمِّض عينك الواحدَهْ

وقال ابن عمران :

أُفٍّ لدنيا قد شُغِفْنا بها جهلاً وعقل للهوى متبعْ
فَتَانةٌ تخدع طُلاّبها فلا تكن مِمّنْ بها يَنْخَدِعْ
أضغاث أحلام إذا حُصِّلت أو كوميض البرق منها لمعْ

---

(١) شبه الدنيا بالكعاب ؛ وهى الفتاة التى تكعب ثديها .
(٢) قال البطليوسى فى شرح هذا البيت : الوأد : وضع التراب على الميت وتركه ؛ شبه الدنيا فى إهلاكها لأبنائها بامرأة زانيه تخشى الفضيحة إذا ظهر لها ولد ، فهى تدفنه لتقطع أثره والحليل الزوج .
(٣) العقد لابن عبدربه ١ : ١٧٥ .
(٤) العقد ٣ : ١٧٤ :

رفع المسهم

وقال ابن قاضى ميلة :

لدنيـاك نورٌ ولـكنـه ظـلام يَحَارُ بِهِ المبصِرُ
فإن عشت فيهـا على أنهـا كما قيـل قنطرة تُعبَرُ
فلا تعمرنّ بهـا مـنزلاً فإن الخـراب لمـا تُعمِرُ
ولا تذْخرنّ خـلاف التقى فتفنى ويبقى الذى تَذْخَرُ

ابن عمران : واعلم أن الإنسان لا يحب شيئاً إلا أن يجانسه فى بعض طباعه ، وإن الدنيا جانست الإنسان فى بعض طبائعه فأحبّها بكله .

وقال :

نُراعِ لذكر الموت فى حال ذِكْرِهِ وتعترض الدنيا فنلهُو ونَلْعَبُ[1]
ونحن بنو الدنيا خُلِقْنَا لغيرها وما كنت منه فهو شىء محبّبُ

وقال إبراهيم بن أدهم :

نُرَقِّعُ دنيـانا بتمزيق ديننا فلا ديننـا يبقى ولا ما نُرَقِّعُ[2]
فطوبى لعبدٍ آثر الله ربه وجاد بدنيـاه لمـا يتوقّع

وهذا مثل قول أعرابىّ وقد قيل له : كيف أنت فى دينك ؟ فقال : أخرِقه بالمعاصى ، ولا أرقّعه بالاستغفار .

وللأعمى التطيلىّ :

تنافس الناس فى الدّنيا وقد عَلِمُوا أن سوف تقتلهمْ لذاتهمْ بَدَدَا[3]
قل للمحدّث عن لقمان أو لِبَدٍ لم يترك الدهر لقماناً ولا لِبَدَا
وللذى همّه البنيان يرفعـه إن الردى لم يغادر فى الثّرى أحدَا
ما لابن آدمَ لا تفنى مطالبُـه يرجو غدا وعسى ألاّ يعيش غَدَا

(١) العقد ٣ : ١٧٦ . (٢) العقد ٣ : ١٧٦ .
(٣) ديوانه ٢٧ .

رفع المسهم

تأمل هذه المقاطع فإنها تضمت حكما وآدابا وكل قطعة منها ، لها تعلّق بشعر الحريرى إما باللفظ أو بالمعنى .

* * *

فقال الوالي : ثمّ ماذا ، صنع هذا ؟ فقال : أقْدَمَ للأمة فى الجَزاء ، على أبياتِي السُّداسيّةِ الأجزاء ، فحذف منها جُزْأيْنِ ، ونقصَ من أَوْزَانِها وَزْنَيْنِ ؛ حتّى صارَ الرُّزْءُ فيها رُزأيْنِ . فقال له : بَيِّن ما أخذ ، ومن أيْنَ فَلَذ ؟ فقال : أرْعِنى سمعك ، وأخْلِ للتّفهّم عَنِّى ذَرْعَك ؛ حتّى تتبيّن كيف أصْلَت علىّ ، وتقدِّرَ قدْر اجترامِهِ إلىّ ؛ ثم أنشد ، وأنفاسه تتصعّد :

ياخاطب الدنيا الدنيّـةِ إنَّها شَرَكُ الرَّدَى
دارٌ متَى ما أضحكتْ فى يومها أبكَتْ غدا
وإذا أطلَّ سَحَابُهَا لم يَنتفعْ منه صدَى
غاراتُهـا ما تنقَضِى وأَسيرُها لايُفْتَـدَى
كم مُزْدَهٍ بغرُورِها حتَّى بَدَا مُتمرِّدا
قَلَبَتْ له ظهر المجَنِّ وأوْلَغَتْ فيه المُدَى
فارْبأ بِعُمْرِك أنْ يَمُرَّ مُضَيَّعاً فيهـا سُـدَى
واقْطَعْ علائق حُبِّهَا وطِلاَبِهَا تَلْقَ الهُدَى
وارقُبْ إذا ماسألَمَتْ من كَيْدِها حَرْبَ العِدَا
واعلم بأنَّ خطوبَهَا تفجاَ ولو طالَ الْمَدَى

رفع المسهم

فالتفتَ الوالي إلي الغُلاَم وقال : تبًّا لَكَ مِنْ خِرِّيجٍ مارق ، وتلميذٍ سارِق ! فقال الْفتى : برئت من الأدَب وبنيه ، ولحقتُ بِمَنْ يناويه ، ويقوّضُ مبانيه ؛ إن كانتْ أبياته نَمَتْ إلى عِلْمى ، قبل أن ألّفتُ نظْمِى ؛ وإنما اتّفَق تواردُ الخاطِر ، كما قَدْ يَقَع الحافر على الحافر .

* * *

قوله : أقدم أى تقدم . لؤمه فى الجزاء ، يريد أنه جازاه على ما فعل معه من الخير مجازاةَ لئيمٍ ، فسرق شعره. السداسية الأجزاء ، لأن عروضها من الكامل ، وأجزاؤها متفاعلن ست مرات : الرّزء : المصاب . فَلَذ : قطع . أرِعْنى سمعك : أى اسمع منى . ذَرْعَك : بالك وقلبك . أصلَت : جرد سيفه . تتصعّد : تتطلع إلى فوق . الخِرِّيجُ : الذى خرّجه معلمه ، وفلان خِرّيجك ، أى الذى خرج بتهذيبك وتعليمك . مارق : خارج عن الطاعة . وتلميذ : طالب متعلم . برئتُ : زُلت وانفصلت . يناويه : يعاديه . يقوِّض : يَهْدِم . نَمَتْ : اتصلت . ونميت الحديث أسندته . ألّفت نظمى : جمعت شعرى .

توارد الخواطر : تواطؤ الأذهان ، أى وقع لذهن الفتى من الكلام ما وقع لذهن الشيخ ، مثل الحافر الذى وقع على الحافر .

وهذا الكلام يُعزَى لأبى الطيب المتنبى ، وسئل عن اتفاقات الخواطر ، فقال : الشعر مَيْدان ، والشعراء فرسان ، فربّما اتفق توارد الخواطر ، كما قد يقع الحافر على الحافر .

قال الأصمعى رحمه الله تعالى : قلت عمرو بن العلاء : أرأيت الشاعرين يتفقان فى المعنى ويتواردان فى اللفظ لم يلق أحدهما صاحبه ، ولا سمع شعره ؟ فقال لى : تلك عقول رجال توافقت على ألسنتها .

رفع المسهم

[نبذ فى توارد الخواطر]

ومن مشهور ذلك ما وقع فى القصيدتين البائيتين لامرئ القيس وعلقمة ، وكذلك اتفاقه مع طرفة فى قوله :

وقوفاً بها صحبى على مطيّهم يقولون لا تهلك أسًى وتجلّدِ (١)

وقال امرؤ القيس (٢) : وتجمّلِ .

ومن توارد الخواطر قول ربيعة بن مقروم .

لو أنها عرضتْ لأشمطَ راهبٍ عبَد الإله صَرورةٍ متبتّلِ

وقال النابغة (٣) : « صرورة متعبد » :

وقال :

لرنا لرؤيتها وحُسْنِ حديثها ولهمَّ من تامورِه يتنزّل

وقال النابغة :

لرَنا لرؤيتها وحُسْن حديثها ولخاله رشداً وإن لم يَرْشُدِ (٤)

تامورِه : صومعته .

ومن ذلك ما حكى أبوعلىّ أنه خرج جرير والفرزدق مردَفيْن إلى هشام ابن عبد الملك ، فنزل جرير يبول ، فتلفّتَت الناقة فضربها الفرزدق وقال :

إلامَ تلفّتين وأنت تحتِى وخيرُ النّاس كلّهُمُ أمَامى (٥)

---

(١) من المعلقة ؛ ديوانه ٣٠ .

(٢) من قوله فى ديوانه ص ٩ .

وقوفاً بهَا صَحْبِي عَلَىَّ مطيّهم يقُولونَ لا تهلك أسًى وتَجَمَّلِ

(٣) من قوله فى ديوانه ٣١ .

لو أنها عَرَضَتْ لأشمطَ راهِبٍ عبـد الإلٰه صَرُورَةٍ متَعبِّـدِ

وانظر الشعر والشعراء ١١٤ .

(٤) ديوانه ٣٢ .

(٥) الأغانى ٩ : ١٦٩ .

رفع المسهم

مَتَى تَردى الرَّصافة تستريحي من التّهجير والدَّبَر الدَّوَامِي [١]

ثم قال : الآن يجيء جرير ، فأنشده البيتين فيردّ عليّ :

تَلفّتُ أنها تحت ابن قينٍ إلى الكيرين والفأس الكهام [٢]

متى تأت الرصافة تَخْزَ فيها كَخِزْيك فى المواسِمِ كلَّ عامِ

قال : فجاء جرير والفرزدق يضحك ، فقال : مايُضْحِكُكَ يا أبا فراس ؟ فأنشده البيتين ، فقال جرير : تلفت أنها البيتين .. كما قال الفرزدق سواء ، فقال: واللهِ لقد قلت هذين البيتين ، فقال جرير : أماعلمت أن شيطاننا واحد .

ومر [٣] رجل بالفرزدق بالمِرْبَد فقال : من أين أقبلت ؟ قال : من اليمامة ، قال : فأىّ شيء أحدث ابن المراغة ؟ فأنشده :

* هاج الهوى لفؤادك المهتاج *

فقال الفرزدق :

* فانظر بتُوضح باكِرَ الأحداج *

فقال الرجل :

* هذا هوًى شغف الفؤاد مبرّحٌ *

فقال الفرزدق :

* ونوًى تقاذف غير ذات خِلاج [٨] *

فقال الرجل :

* إنّ الغرابَ بما كرهتَ لمولعٌ *

---

(١) التهجير : المشى فى الهاجرة . والدبر : فرحة فى الدابة .
(٢) ديوانه ٥٠٢
(٣) ديوانه ٨٩ ، بدائع البدائه ٦٣ ، والأحداج : جمع حدج ؛ وهو من مراكب النساء .
(٤) الخلاج : الشك .

رفع المسهم

فقال الفرزدق :

* بنوى الأحبّة دائم التشحاج *

فقال الرجل: هكذا والله قال : أفسمعتها من غيرى؟ قال : لا ولـكن هكذا ينبغى أن يقال ، فقال : أما علمت أن شيطاننا واحد .

ودخل الفرزدق على امرأة من عُقَيل فحدّثها ، وأقبل فتًى من قومها كانت تألفه ، فدخل فأقبلت عليه تحدّثه ، وتركت الفرزدق ، فغاظه ذلك ، وقال للفتى: أتصارعنى ؟ قال : ذلك إليك فقام الفرزدق فلم يلبث أن أخذه الفتى مثل الـكرة فصرعَهُ ، وجلس على صدره ، فضرَط الفرزدق ، فوثب الفتى عنه وقال : هذا مقام العائذ بك ، والله ما أردتُ ما جرى ، فقال : والله ما بى ذلك ، ولـكن كأنى بابن المراغة جرير قد بلغه الخبر ، فقال :

جلستَ إلى ليلَى لتحظَى بقُرْبها فخانك دَهرٌ لا يزال خئون
فلو كنت ذا حزم شددتَ وكاءها كما شدَّ خرقا بالدلاص قيونُ

فلما بلغ الخبر جريراً قال البيتين .

وأمر [1] سليمان بن عبدالملك الفرزدق أن يضرب رقاب أسرى فاستعفاه ، فلم يفعل ، وأعطاه سيفاً لا يقطع ، فضرب به عنق رومىّ فنبا السيف ، فضحك سليمان ومَنْ حوله ، فجلس وهو يقول :

أيعجَبُ النَّاسُ أنْ أضحكتُ سيِّدَهُمْ خليفةَ الله يُسْتَسْقَى به المطرُ
لم يذب سَيْفِى عن رُعْبٍ ولا دهشٍ عن الأسير ولـكِنْ أخر القَدَرُ

ثم قال : ما إن يعاب فرس إذا كبا ، ولا يعاب صارم إذ نبا ، ثم جلس

(١) الخبر فى تاريخ الطبرى ٦ : ٤٧٥ ، ٥٤٨ ، الأغانى ١٥ ، ٣٤٣ .

رفع المسهم

وهو يقول : كأنى بابن المراغة قد بلغه الخبر فقال :

بسيفِ أبي رَغْوانَ سيفِ مجاشعٍ ضربتَ ولم تَضْرِب بسيفِ ابن ظالِمِ
ضربت به عند الإماء فأرعِشَتْ يداك وقالوا محدث غيرُ صارم

ثم قال : كأنى ياأمير المؤمنين بابْن القَيْن قد أجابنى فقال :

ولا نقتلُ الأسْرَى ولكنْ نَفُكُّهُمْ إذا أثقل الأعناقَ حملُ المغارمِ

فأخبر الفرزدق القصة ، فقال :

كَذَاكَ سيوفُ الهند تنبو ظُبَاتُها وتقطع أحيانا مناطَ التَّمَائِمِ
ولا نقتل الأسرى ولكنْ نفكّهمْ إذا أثقل الأعناق حملُ المغارِمِ
وهل ضَرْبَةُ الرومىّ جاعلةٌ لكم أباً عَنْ كليبٍ أو أبا مثل دارِمِ

فهذا إن صح من أعجب اتفاق الخواطر .

وقال الأقيشر :

جريتُ مع الهوى طَلْق العتيقِ وهان علىّ مأثور الفُسُوقِ (١)
وجدتُ ألذَّ عارية الليالى قِرَان النَّغْم بالوترِ الخَفُوقِ
ومسمعةً إذا ما شئت غَنّتْ متى نزل الأحبَّة بالعقيقِ
تمتَّعْ من شباب ليس يَبْقَى وصل بِعُرَا الصَّبُوح عُرَا الغَبوقِ

وقال أبو نواس رحمه الله تعالى :

جَرَيْتُ مع الهوى طلق الجموحِ وهانَ علىّ مأثورُ القبيحِ (٢)
وجدتُ ألذّ عارية الليالى قران النغم بالوتر الفصيح

(١) الوساطة ١٩١ ، ١٩٢ ، قال : وأنا أرتاب بأبيات الأقيشر ، فإنها لا تشبه شعره ، ولم أرها فى ديوانه . وانظر سرقات أبى نواس لمهلهل . بن يموت ٨٣ .
(٢) ديوانه ٢٥٧ .

ومسمعةً إذا ما شئت غنّت متى كان الخيام بذى طلوح
تمتّع من شباب ليس يَبْقَى وصل بِعُرَا الغبوق عُرَا الصَّبُوح

ومن ذلك مانَسب السرى للخالدى فيما قدّمناه من سرقة شعره، قال السرىّ[1] :

وكأنّ كأس مدامها لما ارتدت بحبابها
توريد وجنتها إذا مالاح تحت نقابها

وقال أبو بكر الخالدىّ :

فكأنّ الكأس لمّا ضحكت تحت الحباب[2]
وَجْنَةٌ حمراء لاحت لك من تحت النقاب

وقال السرى فى وصف جام فيه فالوذج :

بأحمرَ مبيضّ الزجاج كأنه رداء عروسٍ مشربٌ بخَلوق[3]
له فى الحشا برد الوصال وطيبه وإن كان تَلْقَاه بلون حريق
كأنّ بياض اللّوز فى جَنباته كواكِبُ دُرٍّ فِى سَمَاءٍ عَقيقِ

وقال أبو بكر الخالدى :

مُداماً كأنّ الكفّ من طيبِ نَشْرِها وصُفْرتها قد خُلِّقَتْ بخَلُوق[4]

(١) يتيمة الدهر ٢ : ١٦٦ .
(٢) يتيمة الدهر ٢ : ١٦٦ .
(٣) يتيمة الدهر ٢ : ١٦٦ وقبله هناك ،

إذا شِئْتَ أن تَجْتَاح حقًّا بباطلٍ وتغرق خصما كان غير غريقِ
فسائل أبا بكرٍ تجدْ منه سالكا إلى ظلماتِ الظلم كل طريقِ
ولاطفه بالشّهد المخلّق وجهه وإن كان بالإلطاف غير حقيقِ

(٤) يتيمة الدهر ٢ ، ١٦٣ وقبله .

ألاَ فاسقِنِى والليل قد غاب نوره لغيبَةِ بدرٍ فى الغمام غريقِ
وقد فضح الظلماءَ برق كأنه فؤاد مشوقٍ مولعٍ بخفوقِ

نُعاينها نَوْرا عـــلاه تجسّدٌ ونشربها ناراً بغير حريق
كأنّ حَبَاب الماء فى جَنَبَاتِهَا كواكبُ لاحتْ فى سماءٍ عَقِيقِ

وقال السرى رحمه الله تعالى :

رأتْ شيباً يُصاحبنى فصدّت وكان جزاؤه منها العُبوسَا[1]
وقالت إذْ رأت للمُشطِ فيه سواداً لايشاكله نفيسا
تلقّ العاج منه بمشط عاج ودع للآبنوس الآبنوسا

وقال أبو عثمان أيضاً :

وقفتنى ما بين هَجْرٍ وبُوسِ وانثنت بعد ضِحْكَةٍ بعُبُوسِ[2]
ورأتنى مشطت عاجا بعاج وهى الآبنوس بالآبنوس

وهذا إمّا توارد أو تسابق ،والتسابق أشبه بهم .

* * *

قال : فكأن الوالي جوّز صدق زعمه ، فندم على بادرة ذمّه ؛ فظلّ يفكر فيما يكشف لَهُ عن الحقائق ، ويميِّز به الفائق مِن المائق ، فلم ير إلاّ أَخذهما بالمناضلة ، ولزّهما فى قَرَن المُساجلة . فقال لَهُمَا : إنْ أردتما افتضاحَ العاطل ، واتضاح الحقِّ من الباطل ، فتراسلا فى النَّظْمِ وتَبَارَيَا ، وتَجَاوَلاَ فى حَلْبَةِ الإجازة وَتَجَارَيَا ؛ لَيَهْلِكَ مَنْ هلك عن بيّنة ، ويحيا مَنْ حيَّ عن بينة ؛ فقالا له بلسانٍ واحد ،وجوابا متوارد : قد رضينا بسبْرك ، فرنا بأمْرِك .

فقال : إنّى مولعٌ من أنواع البلاغة بالتجنيس،وأراه لها كالرئيس ؛

(١) ديوانه ١٥٥ .
(٢) يتيمة الدهر ٢ : ١٨٢ .

رفع المسهم

فانْظِماَ الآن عشرة أبيات تُلحمانها بوَشيِه، وترصّعانها بحليِه، وضمّناها شرح حالى مع إلفٍ لي بديع الصّفة، ألْمَى الشّفه، مَليحَ التثنّى، كثير التّيهِ والتجنّى، مُغْرًى بتناسِي العهد، وإطالةِ الصدّ، واخْتِلافِ الوعْد؛ وأنا له كالعبد.

* * *

قوله: زعمه، الزعم قول معه اعتقاد. بادرة: سابقة وهى الكلمة الرديئة تبدر من المتكلم. الفائق: الفاضل، وفاق الناس، فضلَهم وعلاهم بقول أو علم. المائق: الأحمق الضعيف التدبير. المناضلة: المراماة. لزّها: ضمهما وشدّها. قَرَن: حبل يقرن بين الشيتين.

[المساجلة ومثل منها]

المساجلة: أن يستقى ساقيان فيخرج كلّ واحد منهما من الماء مثل مايخرج الآخر، فأيّهما نكل فقد غلب، وقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب:

مَنْ يُسَاجِلُنى يساجلْ ماجدا يملأ الدلو إلى عَقْد الكَرَب[1]
وأنا الأخضر مَنْ يعرفنى أخضر الجلدة من بيت العرب

ومرّ الفرزدق بالفضل، وهو يستقى وينشد البيتين، فشمّر ثيابه عن نفسه، وقال: أنا أساجِلُك، ثقةً بنسبه، فقيل له: هذا الفضل بن العباس، فردّ ثيابه وقال: مايساجُله إلاّ مَنْ عَضّ أير أبيه. ثم صارت المساجلة يقصد بها قصد المفاخرة، وأراد هنا بالمناضلة والمساجلة، أن يقول هذا بيتا، وهذا بيتاً حتى يُعلم لمن الغلَب. وأكثرُ ماجرت به العادة فيها بأنصاف الأبيات كما شهر فى قصة امرئ القيس

(١) البيت الأول فى اللسان — سجل، ونسبه للفضل بن عباس بن عتبة.

والتوءم حين قال امرؤ القيس :

أحارِ ترَى بُرَيْقا هبّ وهنا

فقال التوءم :

* كنار مَجُوسَ تَسْتَعِرُ اسْتِعارَا *[1]

ثم مضيا على القطعة بالأنصاف حتى كملت ، وهى مشهورة .

قال أبو العيناء : وقف علىَّ غلام يسألنى ما أحسبه بلغ الحلم ولا قارَبه وخرج غلام لى أسود قد اغتسل ، وهو يرعد ، وكان خبيثاً ، فأومأتُ إلى الأسود فقلت :

* كأنه ذئب غضًى أزَلُّ *

فقال الغلام :

* باتَ النّدَى يضربُهُ والطَّلُّ *

فوصلته بدارهم وانصرف.

واجتاز ابن أبى الخصال مِنْ بلده شقورة بآبدة ، وهو صبىّ صغير يطلب الأدب، فأضافه بها القاضى ابن مالك ، ثم خرج معه إلى حديقة معروشة ، فقطف لهم منها عنقوداً أسود ، فقال القاضى :

* انظُرْ إليه فى العَصَا *

فقال ابن أبى الخصال :

* كرأس زنجىٍّ عصا *

فعلموا أنه سيكون له شأن فى البيان .

ومثل ذلك ما حدّثنى به الشيخ الفقيه أبو الحسين بن زرقون عن أبيه أبى عبد الله أن أبا بكر بن المبجل وأبا بكر بن الملاح الشّبليين ، كانا متواخَيَيْن

(١) ديوان امرىء القيس ١٤٧ .

متصافِيَيْن ، وكان لهما ابنان قد برعا فى الطلب ، وحازا قصب السبق فى حلْبة الأدب ، فتهاجى الابنان بأقذع هجاء ، فركب ابن المبجل فى سَحَرٍ من الأسحار مع ابنه عبد الله ، فجعل يعتبه على هجاء ابن الملاح ، ويقول له : قطعت مابينى وما بين صَفِيِّ أبى بكر بإقذاعك فى ابنه ، فقال له ابنُه: إنه بَدَأنى ، والبادىء أظلم ، وإنما يجب أن يُلْحَى مَنْ بالشرّ تقدّم ، فعذره أبوه ؛ فبينما هما على ذلك إذ أقبل على وادٍ تنقّ فيه ضفادع ، فقال أبو بكر لابنه أجز :

* تَنِقّ ضفادع الوادى *

فقال ابنه :

* بصوتٍ غير معتاد *

فقال الشيخ :

* كأنّ نقيق مقولها *

فقال ابنه :

* بنو الملاح فى النادى *

فلما أحست الضفادع بهما صمتت ، فقال أبو بكر :

* وتصمت مثل صَمْتِهِمُ *

فقال ابنه :

* إذا اجتمعوا على زادٍ *

فقال أبو بكر :

* ولا غَوْثَ للهوف *

فقال ابنه:

* ولا غيْث لمرتاد *

رفع المسهم

والإجازة بالأبيات بكمالها كثيرة مشهورة .

وحكى الماوردىّ أنّ الناس تذاكروا حفظ السرّ بمجلس عبدالله بن طاهر، فقال عبد الله :

ومستودعٍ سِرًّا تضمّنتُ سترَه فأودعته من مستقرِّ الحشى قَبْرَا (١)

فقال ابنه عبيد الله، وهو صبىٍ :

وما السرّ فى قلبى كثاوٍ بحفرة لأنى أرى المدفون ينتظر الحَشْرَا

ولكننى أخفيه حتى كأنه من الدهر يوماً ما أحطتُ به خُبْرَا

وحكى الفقيه أبو الحسن أنّ أباه حدثه أن الأديب أبا الطاهر بن أبى ركْب (٢)، حضر عنده بَسْبَتة بقرية شنان فى عَقب شعبان لاستقبال رمضان ، فأكل مع مَنْ حضر ضروباً من الأطعمة والألوان ، فقال أبو الطاهر رحمه الله تعالى لأبى عبد الله بن زرقون أجِز :

حمدت لشعبان المبارك شبعةً تسهّلُ عنّى الجوع فى رمضانِ

فقال أبو عبد الله رحمه الله تعالى :

كما حَمِد الصبُّ المتيَّمُ زورةً أطاق لها الهجران طولَ زمانِ

فقال أبو الطاهر :

دَعَوْها بشعبانية فلو أنهم دَعَوْها بشبعانية لكفانى (٣)

وحدّثنى أيضاً أن أباه شيخنا الفقيه أبا عبد الله المذكور قعد مع صهره أبى الحسن عبد الملك بن عياش الكاتب على بحر المجاز، وهو مضطرب الأمواج، فقال له أبو الحسن : أجز :

وملتطمِ الغوارب موجَتْه بوارحُ فى مناكبها غيومُ

(١) الشعر والخبر فى كتاب أدب الدنيا والدين ٢٨ برواية مخالفة .

(٢) كذا ضبط فى نفح الطيب ، بفتح الراء وسكون الكاف .

(٣) الخبر فى تحفة القادم ٣٣ ، ونفح الطيب ٤ : ٣٢٣ .

رفع المسهم

فقال أبو عبد الله :

تمنَّع لاتعوم به سفينٌ ولوحدَقت به الزهر النجومُ

* * *

قوله: «افتضاح العاطل» أى شهرة الفارغ من قول الشعر . تراسلا : تجاريا، والتَّراسل فى الغناء والنشيد، أنْ يتجاذب الصوتَ المغنِّيان، والتراسل فى الخيل، أن ترسل فرسين فى الطَّلَق (١) .

تباريا : تجاريا . وتجاولا : تصرّفا . والحلبة يأتى ذكرها فى المقامة ، وأراد تجاريا فى الشعر كما يتجارى خيل الحلبة فى الميدان ، بسبرك : قياسك وتجربتك لنا . متوارد : متسابق متتابع . والتجنيس : أن تكون الألفاظ متناسبة والمعانى متباينة . تلحمانها : تنسجانها . وشيه : رقمه . ترصّعانها : تزيناها ، وكلّ ماخرزته أو عقدته فهو مرصَّع . إلف : معشوق يؤلَف ويؤنس به . بديع : غريب . ألمَى: أسمر ، واللّمَى أن تتعتّق حمرة الشفة حتى تضرب إلى السواد . التثنّى: الانعطاف. التيه : الإعجاب والاحتقار بغيره . التجنِّى : ادعاء الجناية على عاشقه ، وذلك أن المعشوق يحسب كل مايفعله عاشقه ذنباً عليه وجناية ليتوصّل بذلك إلى هجره ، ثم سمّىَ الصدّ والإعراض تجنّياً . مغرًى : مولَع . والتناسى : استعمال النسيان. أرادأنه يعِدعاشقه بالزيارة وغيرها فإذا ذُكّر بها قال: نسيت. والصدّ:الإعراض .

* * *

قال: فبرز الشيخ مجلّيًا ، وتلاه الفَتى مُصَلِّيًا ؛ وتجاريا بيتا فبيتاً على هذا النَّسَق ، إلى أن كمل نظم الأبيات واتّسَقَ، وهى :

وأحوى حَوَى رِقّى برقّةِ ثغرِه وغادرنى إلْفَ السُّهادِ بغدْرِه

تصدّى لِقتلى بالصدود وإنّنِى لَفِى أسْره مُذْ حازَ قَلْبِى بأسْرِه

(١) الطلق : الشوط فى جرى الخيل .

رفع المسهم

أصَدِّقُ منه الزُّورَ خوفَ ازورارِه ... وأرضى اسْتِماعَ الهَجْرِ خشيةَ هَجْرِهِ
وأستعْذِبُ التّعذيبَ منه وكلّما ... أجَدَّ عذابِي جَدّ بى حُبُّ بِرّه
تناسَى ذمامِي والتناسِي مذمّةٌ ... وأحفَظُ قَلْبِي وهو حافظ سِرِّهِ
وأعجب ما فيه التَّباهِى بِعُجْبِهِ ... وأكبِرُه عن أن أفُوهَ بِكِبْرِهِ
له مِنِّيَ المدْحُ الّذِي طابَ نشرُهُ ... ولي منه طيُّ الودِّ من بعد نشرِه
ولو كان عَدْلاً ماتجنّى وقد جنَى ... علىّ وغيرى يجتنِي رشْفَ ثغرِه
ولولا تثنّيه ثنيْتُ أعِنّتِى ... بداراً إلى مَنْ أجْتَلِى نُور بَدْرِه
وإنى على تصريف أمرِى وأمْرِه ... أرى المرّ حُلْواً فى انقيادِى لأمْرِه

* * *

على هذا النسق ، أى على هذا التتابع والانضمام . اتّسق : انضمّ واجتمع . ونسقت الشيء بالشيء ضممته إليه . أحوى : أسمر الشفة، والحُوّة: حمرة تضرب إلى السواد، يقال: شفة حوّاء حمراء . رِقّى ، أى ملكى ، والرّق الملك ، ورقّ الرجلُ رِقًّا : صار عبداً . برقّة لفظه : بحلاوة كلامه . غادرنى إلفَ السهاد: تركنى صاحب سهر . بغدره : بقلة وفائه . تصدّى : تعرّض . أمَره : حبسه . بأسره : بجملته . والزور : الكذب . ازوراره : انقباضه، والهُجْر : الفحش . أستعذب : أستطيب . أجدّ عذابى : جدّد عذابى . جدَّ : زاد واجتهد . برّه : إكرامه ، يريد مَتى زادَنى عذاباً وهجراناً زدت فيه حبًّا وبرًّا . ذِمامى : عهدى . مذمّة : عيب . أحفظ : أغضب . التباهى : التفاخر . أكبره : أعظِمُه وأراه كبيراً . أفُوه : أنطق . نَشْره : تحرّك رائحته . رَشْف ثغره : تقبيلُ أسنانه . ثنيت : عطفت . أعنّتِي : جمع عِنان . أجتلى : أنظر . نور بدره : حسن وجهه، يقول: لولا حسن تثنّيه لتركته وملت إلى غيره. ثم قال : وإنى على مايلقانى به من الهجر والجفاء ،

وألقاه به من البر والصفاء ، ليرجع عندى المرء من أفعاله حلواً فى اتباعى لما يُحِبّ ويأمر به . وقد أنشدوا فى ذلك :

لئِن ساءنى أن نلتنِى بمساءةٍ لقد سرّنى أنى خطرت ببالكِ[1]

وقال فى مثله :

وأهنتِنى فأهنتُ نفسى صاغراً مامَن يهون عليك ممن يكرمُ[2]

فهذا غاية الانقياد لمراعاة مراد الحبيب .

وقال الشاعر :

ولقد منحتكمُ المودّة محضةً وكتمت مااشتملتْ عليه ضلُوعِى
جازيتمونى بالوصال قطيعةً شتّان بين صنيعكُمْ وصَنيعى
فإذا أتيتك زائراً متشوّقاً قصُر الطريق وطال عند رُجوعِى

وفى معنى قوله : « له منّى المدح » يقول ابن رشيق ، وزاد معنى مستظرفاً :

أرَاك اتّهمت أخاك الثّقهْ وعندك مقت وعندى مِقَهْ[3]
وأثنى عليك وقد سؤْتنِى كما طيّب العودُ مَنْ أحرَقَهْ

وقال ابن زيدون :

بنى جَهْورٍ أحرقتُمُ بجفائكمْ جنانى فما بال المدائح تعبَقُ[4]
تَعدّونى كالعنبر الندّ إنّما تطيب لكم أنفاسُه حين يحرَقُ

وهما وإن تواردا على هذا المعنى ، فإنما أخذاه من قول حبيب :

---

(١) ديوان الحماسة ـ بشرح الرافعى ٢ : ١٠٦
(٢) العقد ٥ ، ٣٢٥ من أبيات نسبها لأبى الشيص .
(٣) نقله فى التنف ٥١
(٤) ديوانه ٥٩٠

لولا اشتعالُ النار فيما جاورتْ ما كان يُعرَف طيبُ عَرفِ العُودِ(١)

* * *

ونذكر هنا جملة من الشعر الرائق المستظرف الفائق ، تنسحب على أوصاف الغلام المذكور، وتتعلّق بشعر الحريريّ من جهة التجنيس ، أو من جهة الانقياد للمحبوب وإن جفا وصدّ .

ونبدأ بذكر حكاية أبي إسحاق الحُصْرِي لتعلّقها بما انبنت عليه المقامة من توارد الخواطر .

كان أبو إسحاق يختلف إلى بعض مشيخة القيروان، وكان الشيخ كلفا بالمعذّرين وهو القائل :

ومعذَّرين كأنّ نبتَ خدودهمْ أقلامُ مسك تستمدّ خَلُوقَا
قرنوا البنفسج بالشقيق وَنَظَّمُوا تحت الزبرجد لؤلؤا وعقيقَا
فهمُ الذين إذا الخلىّ رآهمُ وجَد الهوى بهم إليه طريقا

وكان يختلف إليه غلام من أعيان أشراف القيروان ، وكان به كَلِفًا، فبينما هو عنده والحُصْرى قد أخذ فى الحديث إذ أقبل الغلام وهو يقول :

فى صورةٍ كَمَلَت فخلتِ بأنّها بدرُ السماء لِستةٍ وثمَانِ
يعشَى العيون ضياؤها فكأنّها شمس الضحى تَعْشَى بها العينانِ

فقال الشيخ : ياحُصْرىّ ، ماتقول فيمن هام بهذا القدّ، وصبا لهذا الخدّ ؟ فقال الحُصْرى : الهيمان والله بهذا غاية الظرف ، لا سيما إذا شام كافورة خدّه ذلك المسك الفتيت ، وهجم على صبحه ذلك الليل البهيم ، والله ما خلت سواده فى بياضه إلا بياض الإيمان فى سواد الكفر ، أوغيهباً فى ضوء الفجر . فقال للحُصْرى:

(١) ديوانه ٨٥

رفع المسهم

صِفْه ، فقال : مَنْ ملك رقّ القول حتى انقاد له صعابه،فذلّ له جموحه حتى سطع له شهابه ، أقعدُ منى فى ذلك،فقال : صِفْه ، فإنى معمل فى ذلك فكرى . فأطرق ساعة ، فقال الحُصرىّ :

أو رد قلبى الرَّدَى لامُ عِـــذَارٍ بدا
أسود كالكفرِ فى أبيضَ مثل الهُدى

فقال له الشيخ : أراك اطّلعت على ضميرى ، أو خضت بين جوانحى ، فقال له الحصرى : ولم ذاك ؟ قال : لأنى قلت :

حَرّك قلبى فطارْ صولج لام العِذارْ
أسودُ كالليل فى أبيضَ مثل النهارْ

فهذه غاية فى بابه .

وقال السّرِىّ :

بلانى الحبّ فيك بما بَلانى فشأنى أن تفيض غروبُ شانى (١)
أبيت الليل مرتقباً أناجى بِصدْق الوجد كاذبة الأمانى
ويشهد لى على الأرَق الثريّا ويعلم ما أقاسى الفرقدانِ (٢)
ستصرف طاعتى عمّن نهانى دموع فيكَ تلْحَى مَنْ لحانى
ولم أجهل نصيحتَه ولكن جنونِ الحب أحْلَى فى جنانى
فيا ولع العواذلِ خَلِّ عنى ويا كفّ الغرامِ خذى عنانى

وهذا مما يأخذ بمجامع القلوب ، ويحتوى على النوعين من المعنى المطلوب .

(١) ديوانه ٢٦٨ ؛ من قصيدة يمدح بها أبا الهيجاء بن سعيد بن حمد الله ، ويعاتبه على جفوة لحقته منه ، وقد نالته علة وجراحات فى بعض أسفاره .
(٢) الديوان : « ويعلم — ما أجن »

رفع المسهم

وقال السَّلامى :

ما ضنَّ عنك بموجود ولا بَخَلاَ أمرٌّ ما عنده النَّفْس التى بَذَلا[١]
يحكى المطايا حنيناً والهجير جوًى والمُزْن دمعاً وأطلال الديار بِلَى

وقال أيضاً :

مُنيت بمنْ إذا منيت أفضت منـاى إلى بنفسج عارضيْهِ[٢]
وفاضت رحمـــة لى حين ولَّى مـــدامعُ كاتبىّ وكاتبيْه

وله فى غلام بدوىّ :

تعلَّقته بدوىَّ اللّسانِ والوجه والزِّىِّ تَنْبتَ الجُنَانِ[٣]
أعانق مَنْ قدّه صَعْدةً تَرى اللحظ منها مكان السِّنانِ
أدار اللثامَ على خـدِّه فأهدى الشقيقَ إلى الأقحوانِ
ومسك ذوائبه سائل على آس ديباجه الخسروانى
أحيِّيه بالورد والياسمـــين فيصبو إلى الشِّيخ والأيْهُقَانِ[٤]

وله فى غلام غَزِّىّ رام :

قمرٌ من الأتراك تَحسب أنه الـــخَوْد الحصان على أقبَّ حِصانِ[٥]
يرمى بِلَحْظَيْه القلوب وسهمُه فعجبت كيف تشابه السهمانِ
بطلٌ حمائله كعارضه وحا جبُـه الأزجُّ كَقَوْسهِ المِرْنانِ[٦]
حيَّيْتُهُ فدنا فأمطر راحتى قبَـلا فايت فمى مكان بنانِى

---

(١) يتيمة الدهر ٢ : ٣٧٦
(٢) يتيمة الدهر ٢ : ٣٧١
(٣) يتيمة الدهر ٢ : ٣٧١
(٤) الأيهقان : عشب يطول وله وردة حمراء وورقه عريض (٥) يتيمة الدهر ٢ : ٣٧٥
(٦) القوس المرنان ، سميت بذلك لرنين صوتها .

رفع المسهم

وللشريف الرضى :

ياصاحبَ القلبِ الصحيح أما اشتفى ... ألم الهوى من قلبيَ المصْدُوع[1]
أأسأتَ بالمشتاق حين ملكتَه ... وجزيت فرطِ نزاعه بنُزوع
وتركتنى ظمآن أرشف غُلّتى ... أسفِى على ذاك اللَّمَى الممنوعِ
قلبى وطرفى منك هـذا فى حِمَى ... قيظٍ وهـذا فى رياض ربيعِ
كم ليلة جرّعتـه فى طولهـا ... مَضَض الملام ومؤلم التقريعِ
تفلِى أناملـه الـتراب تعلُّلاً ... وأناملى فى سنِّىَ المقْرُوعِ
أبكى ويبسم والدّجَى ما بيننا ... حتى أضاء بثغره ودمُوعى
قمرٌ إذا استعجلته[2] بعتابه ... لبس الغروب فلم يعد لطلوعِ
لو حيث يُستمع السِّرار وقفتما ... لعجبتما من عِزّه وخُضُوعى
أعزز علىّ إذا امتلأت من الكرى ... أنِّى أبيتُ بليلةِ الملسوع

وللوزير ابن المغربى :

دَنِفٌ بمصر وبالعراق طبيبُه ... يُضنيه طولُ بعـاده ويذيبُه
ماناله إلا الذى هو أهلُه ... إذ غاب عن بلد وفيه حبيبُه
لزم السّهادَ تحيّرا وتَلدُّدًا ... وتأسفاً إذ أوبقته ذنوبه
زعم الفراق دعا به فأجابهُ ... ونعم دعاه فـلا أراه يجيبُه

وله أيضاً :

ولقد أرَه فى الغديـر يشقّه ... من جانبيْه
والماء مثل السيف وهـو فرنده ... فى صفحتيْه
صبغت بياض النيل حمـرةُ وردةٍ ... فى وجْنتيْه

(١) ديوانه ١ : ٤٩٧ (٢) الديوان : « استخجلته » .

رفع المسهم

ولابن الزقاق :

تمنيتُ مَنْ أهوى به وهو قاتلي ... وربّ مُنًى للمرء فيها منـاياه[1]
قسا فرمانى عن قسىّ حواجبٍ ... تنوبُ لها دأبا عن الرشق عيناهُ
أذلنَا دماء فى هواه وأدمعاً ... وضنّ لنـــا ظلما بظَلْم ثناياهُ
فما بَرِحَ الشَّوق المبرِّحُ ساميا ... لأحْوَى حَوَى كلَّ المحاسنِ مرآهُ
فمنظرُه والثّغر منـه وعَرْفُهُ ... وقامته والرِّدْف منه وخَدّاه
لشمْسِ الضحى والدّرّ والمِسْك نفحةٌ ... وغُصْنِ النقا والدّعص والورد أشباهُ

وقال أيضاً رحمه الله تعالى :

ومهفهفٍ نبت الشّقيق بخدِّهِ ... واهتزّ أملودُ النَّقَا فِي بُرْدِهِ[2]
ماء الشبيبة والجمـال أرقُّ مِنْ ... صَقْلِ الحُسَام المنتضَى وفرِنْدِه
يُحْيِي الأنام بلمحةٍ من وصْله ... من بعد ماوردوا الحمام بصدّه
إن كنتَ أهديتَ الفؤادله فقلْ ... أىّ الجوى لجوانحى لم يُهْدِهِ

وقال أيضاً :

أرقَّ نسيمَ الصَّبـا عَرْفُهُ ... وراقَ قضيبَ النقا عِطْفُهُ[3]
ومرّ بنـا يتهـادى وقد ... نضا سيفَ أجفانِه طَرْفُهُ
ومدّ لمبسمه راحـــةً ... فخلت الأقاح دنا قَطْفُهُ
أشار لتقبيلها فى السَّلَام ... فقـالَ فمى ليتنى كَفُّهُ

ولإدريس بن اليمانى :

وذى لَعَسٍ للأقحوان ثناياهُ ... وللورد خدّاه وللآس صُدْغاهُ[4]
وللسّوسن الريّان صفحة خدِّه ... وللظَّبْى عَيْناهُ وللمِسْكِ رِيّاهُ

---

(١) ديوانه ٢٨٣
(٢) ديوانه ٢٩٢
(٣) ديوانه ٢٠٢
(٤) اللعس : سواد مستحسن فى الشفة .

رفع المسهم

فريد جمالٍ تمّ لى توءم الهوى به ولكلّ العاشقينَ فرداهُ

ولبعض أصحابنا :

كُفّ عنى الملامَ يامَنْ يلومُ إنّ لوم الشجى فى الحبّ لُومُ
جُلّ همى بأن أهيم حياتى صغرت همّة امرئ لا يهيمُ
أبدا أطلبُ الغرام مجـدًّا فكأنى إلى الغرامِ غريمُ
إن ربما رمت برامة قلبى مُقْلتَاهُ حبّى لَهُ لا يريمُ
صحّ حبّى واعتلّ جسمى فحسبى أنّ كلّى إلى هواهُ سَقيمُ

وكلّ ما تضمنت هذه الجملة مع قطعة الحريرى من التذلّل والخضوع إلى المحبوب، فهو حكم الباب، والمجمَع عليه عند ذوى الألباب، إلا قوله : « وغيرى يجتنى رشف ثغره » ، فإن أكثر أهل هذا الشأن يأبوْن أن يكون المحبوب بين عاشقين، وينسبون محبّة إلى خساسة الهمة، ويعتدونها على المحبوب من أكبر التهمة، قال امرؤ القيس :

إنى بحبْلِك واصلٌ حَبْلِى وبريش نَبْلِكِ رائشٌ نَبْلِى (١)
مالم أجدك على هـدى أثرٍ يقرو مقصّك قائف قبلى (٢)

يقول : أنا أديم من مُواصلتك مالم أجِدْ غيرى يتبعك طمعاً فى مواصلتك .

وقال أبو ذؤيب :

تريدين كيما تجمعينى وخالداً وهل يُجمَع السّيْفان ويحك فى غمدِ (٣)

فهذا قد أبَى الشركة على التساوى ، فكيف الإقامة على الجور الذى.

---

(١) ديوانه ٢٣٩
(٢) يقرو: يتبع ، والقائف : الذى يقفو الأثر. (٣) ديوان الهذليين ١ : ١٥٩

رفع المسهم

ذكر الحريرى . وقد قدّمنا فى العاشرة للمولدين فنًّا غير هذا ،على أن المحبوبَ إذا كان حسنَ الخلُق حسن القبول زاد فى أبّهة جماله ، كما أنّ الجفاء فى المحبوب والخلق الذّميم يطمس نور حسنه وينقص من كماله ، وأنشدوا :

أيا حَسَناً أزرت قبائحُ فعلِه عليه كما أزْرَى الكسوفُ على البدرِ

وقال عبد الصمد المصرى :

فلو زُيّن الحسنُ من وجهه بهجر الصّدود ووصل الوصالِ
لتمّ ولكنّ ما إن أرى جميل المحيا جميل الفعالِ

وقال آخر :

صَحَا عن حبك القلب المشوقُ فما يصبو إليكِ ولا يتوقُ
جفاؤك كان عنك لنا عزاء وقد يُسْلِى عن الولد العقوقُ

فهذه جملة كافة .

[أنواع البلاغة فى صناعة الشعر]

ونرجع إلى ذكر أنواع البلاغة فى صناعة الشعر التى سمّاها المحدثون صنعة البديع ، والشعراء يتفاضلون فى سياقها والاقتدار عليها ، وهى فى أشعار العرب موجودة ، وفى الشعر المولّد أكثر . وأنا آتى منها بما للناظر فيه كفاية بعون الله سبحانه وتعالى ، ونبدأ منها بالتجنيس الذى أولع به الحاكم فى المقامة .

التجنيس

هو اتفاق اللفظ أو أكثره واختلاف الحكم ، قال أبو بكر حازم بن حازم: التجنيس أن تجىء الكلمة تجانس أخرى فى بيت شعر أو كلام ،وهو من أضيق أنواع البديع ، فمنه قوله تعالى : ﴿ وأسلمت مع سليمان ﴾[1] ، ﴿وأقِمْ وجهك للدين القيّم ﴾[2] .

(١) سورة النحل ٤٤ (٢) الروم ٤٣

وفى الحديث «عُصَيّة عصت الله ورسوله، وغِفار غفر الله لها، وأسلم سالمها الله، والظلم ظلمات يوم القيامة» .

وقال خالد بن صفوان لرجل من بنى عبد الدار : هشمتك هاشم ، وأمّتك أمية ، وخَزمتك مخزوم ، وأنت من عبد دارها ، ومنتهى عارها ، تفتح لها الأبوابَ إذا أقبلت ، وتغلقها إذا أدبرت .

والتجنيس أنواع ، فمنه تجنيس اللفظ وهو ماتقدّم ، ومنه تجنيس الخطِّ وهو مايصح تصحيفه ، كقوله تعالى : ﴿ وهمْ يَحسبون أنَّهُمْ يحسنون صنعاً﴾(١) .

وفى حديث سعد بن أبى وقاص : لمّا أسلمت راغمتنى أمى ، فهى مرة تلقانى بالبِشْر ، ومرة تلقانى بالبُسْر .

البحترى : من سعادة جدّك ، وقوفك عند حدّك .

وفى رسالة : عاد إلى المسامحة والمحاسنة ، بعد المشامخة والمخاشنة . وقال البحترىّ :

ولم يكنِ المغترّ بالله إذ سرَى ليُعْجز والمعتزّ بالله طالبه(٢)

وقال البحترىّ أيضا :

وحالاً كريش النَّسر مهما رأيته جناحاً لشهمٍ عاد ريشاً على سهمِ(٣)

ومنه تجنيس السمع كقوله تعالى ﴿ وُجوهٌ يومئذ نَاضرة*إلى رَبِّهاناظرة﴾(٤)

ومن رسالة : لم يكن لأمره مضيعاً ، ولا لسرّه مذيعا .

البستى : مَنْ لم يكن لك نسيباً ، فلاترجُ منه نصيباً . ومَنْ لم يكن لك صدره بالحاجات فسيحاً ، فلا تسمع له بها لسانا فصيحا . وقال :

أبوك كريم غير أنك سابقٌ مداه فلا ضيمٌ عليك ولا ذمُّ(٥)

---

(١) سورة الكهف ١٠٤ (٢) ديوانه ٢١٥

(٣) ديوانه ٢٦٥٩ ، نقلا عن الشريشى (٤) سورة القيامة ٢٢

(٥) ديوانه ٢٨٧

رفع المسهم

فلا يَعجبنّ الناس مما أقوله وأقضى به فالغيث يقدمه الغَيْمُ

وقال المعرّى رحمه الله تعالى :

أعوذُ بالله من قومٍ إذا سمعوا خيرًا أسرّوه أو شرًا أذاعوه (١)

وخالد بن سنانٍ ليس ينقصُه من قدره الكون فى حىّ أضاعوه

ومنه تجنيس المضارعة ، فمنه من رسالة : أنابِهِ بين احتفاء واحتفال ، وبين ذكر مطرٍ مطرب . وثناء مغرٍ مغرب .

وقال أبو تمام :

يمدّون من أيد عواصٍ عواصمٍ تطول بأسياف قواضٍ قواضبِ (٢)

وقال المعرّى : من اتقى الله فهو السالم السارى .

وقال ابن عمار :

إذا ركبوا فانظره أوّل طاعنٍ وإن نزلوا فانظره آخرَ طاعم

وباب التجنيس فاق الناسَ فيه حبيب ، والنّاس له تبع ، كما انفرد بحسن القطع فى آخر قصائده ، فلا يكاد الشاعر الماهر يَزيد بيتا فى آخر قصائده فى الغالب . كما انفرد الحسَن بحسن الابتداء فله ابتداءات لا يجارى فيها ، كما انفرد ابن المعتز بجودة التشبيه يكاد على كثرته فى شعره ألا يسقط له تشبيه واحد ، كما انفرد المتنبى بلطف التخلص من التغزّل إلى المدح . ومن تجنيس حبيب قوله :

عداك حرّ الثغور المستضامة عن برد الثغور ومن سلسالها الحَصِبِ (٣)

السلسال العذب والحصب: الجارى على الحصباء؛ شبه الريق به ، فى هذا

---

(١) لزوم مالايلزم ٢ : ٣٩٨ ، ٣٩٩ (٢) ديوانه ٤٢ (٣) ديوانه ١٠

البيت من صنع البديع التجنيس والطباق والتتميم والترديد والتبليغ، وتأتى هذه الأنواع فى هذا الفصل ، وحبيباً أكثر الناس استعمالا لصنع البديع،ومن شعره يُتعلَّم . وقال أيضا :

كم نيل تحت سناها من سَنَا قمرٍ وتحت عارضها من عارِض شنبِ[1]

وقال أيضا :

يامن تدمِّى عينه تلك الدمى فيه ويقمر ليلة الإقمار

أخذه البحترى فقال :

جافى المضاجع لا ينفكُّ فى جَلَبٍ يكاد يُقْمِرُ من لألائه القمرُ[2]

وأنشد أبو على الفارسى فى نوادره لأبى الغول الطهوى يصف سحابا :[3]

وقرى كلّ قرية كان يقرو ها قرى لا يجفّ منه القِرَىّ

وفى المقامات من التجنيس كثير، وفى هذا الشرح منه ما يُستظرف ويستبدع ، فمما يستحسن منه قول السرىّ يمدح سيف الدولة :

أغرّتُك الشّهاب أم النهارُ وراحتُك السحاب أم البحارُ[4]
خلقت منيّة ومُنًى فأضحَتْ تمور بك البسيطة أو تمارُ
تحلّى الدينَ أو تحمى حماه فأنت عليه سُور أو سوارُ
سيوفك من شكاة الثغر برءٌ ولكن للعِدى فيها بوارُ
وكفّاك الغمام الجود يسرِى وفى أحشائه ماء ونارُ

(١) ديوانه ١١ (٢) ديوانه ٩٥٨
(٣) مع آخر فى الصناعتين ٣٣٥ (الأولى — حلبى) منسوبان لأبى عمر (٤) ديوانه ١٠٥

فيمنَى من سجيتها المنـايا ويُسْرَى منَ عطِّيتها اليسار

ومن الشعر الذى جمع إلى التجنيس حسن التقسيم والطباق جواب الصابى أبا أحمد الشيرازى ، من شعر يشتكى له نقرساً أصابه وأوله :

إلى الله أشكو ضنًى شفَّنى وكم قبله من ضنًى قـد شفانى

فأجابه الصابى :

عنَانى من الهم ما قَدْ عنانى فأعطيتُ صَرْف الليالى عِنانى[1]
ألِفْتُ الدموع وعفت الهجوعَ فعيناى عينـــان نَضَّاختانِ
لسقم ألحّ على سيِّدٍ به قـد غفرتُ ذنوبَ الزَّمانِ
وكيف سطا بهما واستطا لَ وأرض بساطهما النّيران
وهــلاَّ تجاوزه قاصــدًا إلى عصبة عُصِبَتْ بالهوانِ
إذا ماسعى لطـلاب العـلا فـكلّ أوانٍ هم فى توان
أتتنى بالأمس أبيـــــاته تعلّل روحى بروْح الجنانِ
كبُرْد الشباب وبَرْد الشرا بِ وطَلّ الأمان ونَيْل الأمانى
وعهد الصِّبا ونسيم الصّبـا وصَفو الزمان ورجع القيانِ
أجبت عن الشِّعر مسترسلاً بطبع شجاع وقَلْبٍ جَبَانِ
ولولا سكونى إلى فضـله قبضت بنانى بقبض اللِّسانِ

وقال أبو الفتح البستى :

إنَّ أسيافنا العضاب الدوامى صيَّرت ملـكنا قرينَ الدَّوَامِ[2]
باقتسام الأموال من وقت سامٍ واقتحام الأموال من وقت حام

(١) اليتيمة ٢ : ٣٠٣، ونسبها إلى الصاحب
(٢) يتيمة الدهر ٤ : ١٣٨ منسوبة إلى الحسن بن المؤمل .

رفع المسهم

التشبيه

وقد أوردنا فى هذا الكتاب منه كل غريب . والتشبيهات على ضروب مختلفة ، فمنها تشبيه الشيء بالشيء صورة وهيئة ، ومنها تشبيهه به معنى ، ومنها تشبيهه به لوناً ، ومنها تشبيهه به صوتاً ، ومنها تشبيهه به حركة وسرعة ، فالأوّل كقوله :

كأنّ قلوب الطير رطباً ويابساً لَدَى وكْرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البالِي[1]

أجمع أهل العلم بالشعر كأبى عمرو بن العلاء والأصمعى ، أن أحسن التشبيه مايقابل به تشبيهان فى بيت واحد ، وأن أحداً لم يقل ذلك كبيت امرىء القيس ، كأن قلوب الطير . وقال بشار : مازلت مذ سمعت قوله : كأن قلوب الطير أراود نفسى أن أشبه شيئين بشيئين ولا أستطيع ذلك إلى أن قلت :

كأنّ مَثَار النَّقْع فوق رءوسنا وأسيافَنا ليل تهاوى كواكِبُهْ[2]

ويا بعد ما بين البيتين على أن بيت بشّار غريب ، ولا أحفظ للبيتين ثالثاً ، إلا أن بشاراً قد قال أيضاً :

من كل مشتهر فى كف مشتهر كأن غرّته والسيف نجمان

وأما تشبيه المعنى فكتشبيه الشجاع بالأسد والجميل بالقمر ، وكقوله :

وكالسيف إن لاينتَه لان متنه وحدّاه إن خاشنتَه خَشِنان[3]

واللون كقول ابن هرمة :

وليلٍ كسربال الغراب ادّرعتُه إليك كما أختَّ اليمانىّ أجدل[4]

(١) ديوانه ٣٨

(٢) ديوانه (المختار) ١

(٣) العكبرى ٣ : ٢٠١ ونسبه لأبى الشبص .

(٤) كذا فى ديوانه ١٦٦ ، وفى الأصول : « كما أخت اليمانى » .

رفع المسهم

والصوت كقول النابغة :

* له صَرِيف صريف القعو بالمسَدِ *[1]

والحركة والسرعة ، كقول امرئ القيس :

* كجُلمود صخرٍ حطَّه السيلُ من علِ[2] *

وربما امتزجت هذه المعانى بعضها ببعض ، فإذا اتفق فى الشئ المشبه معنيان أو ثلاثة معانٍ من هذه الأوصاف قوىَ التشبيه ، وتأكد الصدق فيه ، وأصدق التشبيهات ما إذا عكس لم ينتقض ، بل يكون كل مشبه بصاحبه مثل صاحبه ، ويكون صاحبه مشبهاً به صورة ومعنى ، كقول امرئ القيس :

نَظَرتُ إليها والنجومُ كأنّها مصابيحُ رُهْبانٍ تُشَبُّ لِقُفَّلِ[3]

فتشبيهُ النجوم بالمصابيح لفرط ضيائها صحيح ، وتشبيه المصابيح بالنجوم صحيح ، وربما أشبه الشئ صورة ، وخالفه معنى . وقد تقدّم ذكر ذلك فى الثانية ، وربما قاربه وداناه وشابهه مجازاً لا حقيقة .

وأدوات التشبيه كأنّ والكاف ومِثْل ، وتسقط الكاف مع المصدر فيشبّه بالمصدر ، وقد يشبّه بقولهم : تخاله وتحسبه ، فما كان منه صادقاً قيل فيه « كأنه » أو كذا ، وما قاربه الصدق قيل فيه : تراه أو تخاله ؛ فإذا حققتَ

---

(١) ديوانه ١٨ ، وصدره :

* ومقذوفةٍ بدخيس النّحضِ بازلها *

المقذوفة : المرمية . والدخيس : اللحم . والنحض : اللحم المكتنز ، والبازل : المسن من الأبل . والصريف : الصياح من النشاط والقعو : مايضم البكرة . والمسد : الحبل .

(٢) ديوانه ١٩ وصدره :

* مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعاً *

(٣) ديوانه ٣١ .

هذا الفصل انكشفت لك أسرار التشبيه ، وقد تقدّم نوع من التشبيه فى الثانية ، وسيأتى فى الأربعين تشبيهات الغريب العقم فى حكاية الأصمعى .

الاستعارة

هى من العارية لأنّ الشاعر يُعير المعنى ألفاظاً غير لفظه الموضوع له ، وهى على ثلاثة أوجه : أحدها يستعيره الشاعر من الألفاظ على سبيل التمثيل وتتميم المعانى ، وهذا الضرب يعدّ فى البديع ومحاسن الشعر ، وهو كثير فى كلامهم ، وعليه انبنى كتاب المقامات ، وقلّما يوجد بيت يخلو منه ، وما جاء منه فى القرآن سماه بعضهم مجازاً وأباه بعضهم ، نحو قوله تعالى : ﴿ واخفض لهما جَنَاح الذّلّ من الرَّحْمةِ ﴾(١) ، ﴿ واشْتَعَلَ الرَّأس شَيْباً ﴾(٢) وقال النبى صلى الله عليه وسلم : «دبّ إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء» .

وقال امرؤ القيس :

* وليلٍ كَموْج البحرِ أرخى سُدُولَه *(٣)

وقال علقمة وهو بديع :

* والصبح بالكوكب الدرىّ منحور(٤) *

وقال زهير فى الحرب :

* ضَروس تُهِرّ الناس أنيابُها عُصْلُ(٥) *

---

(١) سورة الاسراء آية ٢٤ (٢) سورة مريم

(٣) ديوانه ١٨ وعجزه :

* على بأنواع الهموم لِيَبْتَلِى

(٤) ديوانه ١٣٧ ، وصدره :

أوودتُها وصدورُ العِيسِ مُسْنِفَةٌ

(٥) ديوانه ١٠٣ وصدره :

إذا لَقِحَتْ حربٌ عوانٌ مُضِرّةٌ

وقال عمرو بن كلثوم :

ألا أبلغ النعمان عنى رسالةً فمجدك حولى ولومك قارحُ[١]

وقال الحسن :

فى مجاسٍ ضحك السُّرور به عن ناجذيه وحَلّتِ الخمرُ

وقال العباس بن الأحنف :

قد سحبَ الناس أذيال الحديث بنا وفرّق الناس فينا قولَهم فرقا[٢]

فكاذب قد رمى بالظنّ غيرَكمُ وصادق ليس يدْرِى أنه صدقا

الثانى: أن ينتحل الشاعر قولا لغيره فيدخله فى شعره ، وهذا هو الاجتلاب الذى نفاه جرير عن نفسه بقوله :

ألم تعلم مسرَّحِيَ القوافى فلا عِيًّا بهنّ ولا اجتلابا[٣]

الثالث : أنه يستعير الشاعر ألفاظاً كان غنياً عنها ، والمعنى غير مفتقر إليها، ويسمى الحشو والاستعانة ، ويحسن بقدر ما يتحمل من الفوائد ويقبح إذا فرغ منها .

الإشارة

قال قدامة : الإشارة هى اشتمال اللفظ القليل على المعانى الكثيرة باللمحة الدالة ، ولم يأت أحد منها بمثل قول زهير :

---

(١) الصناعتين ٢٩٣ . والحولى : ماأتى عليه الحولّ . والقارح من ذى الحافر بمنزلة البازل من البعير ، ولايبزل إلا إذا طعن فى التاسعة .

(٢) ديوانه ١٦٩

(٣) ديوانه ٦٢

رفع المسهم

وإنى لو لقيتك فاجتمعْنَا لكانَ لكلِّ منكَرة كِفاء[1]

وقال امرؤ القيس :

على هَيْكل يعطيكَ قبل سؤاله أفانين جَرْيٍ غيرَ كزٍّ ولا وانِ[2]

فتأمل مااشتملت عليه لفظة «أفانين» مما لو عُدَّ كان كثيراً ، وما اقترن به من جميع أصناف الجودة طوعاً من غير طلب ولا مسألة ، ثم نفى عنه الكزازة والونى، وهما أكبر عيوب الخيل .

والإشارة من غرائب الشعر ومُلحه ولا يأتى بها إلا شاعر مبرز ، وتسمَّى اللمحة الدالة ، وأصلها الاختصار ، وهى أنواع، فمنها الوحى، كقول جاهلى فى يزيد ابن الصَّعق :

تركت الركاب لأربابها وألزمت نفسى على ابن الصعق[3]

جعلت يدىّ وشاحاً له وبعض الفوارس لاتُعتنق

فقوله :«جعلت يدى وشاحاً له» إشارة بديعية دالة على الاعتناق بغير لفظة .

الإيماء

ومنها الإيماء ، فمن ملحه قول قيس بن ذريح :

أقول إذا نفسى من الوجد أصْعدَتْ لها زَفْرَةٌ تعتادنى هِىَ ماهيا[4]

وقول كثير :

تجافيتِ عنّى حين لا لى حيلةٌ وغادرتِ ما غادرتِ بين الجوانح[5]

فقوله : « غادرت ماغادرت » إيماء مليح .

(١) ديوانه ٨١ (٢) ديوانه ٩١

(٣) الصناعتين ٣٦٧ من غير نسبة (٤) ديوانه ١٦٠

(٥) ديوانه ٥٢٥ .

التلويح

ومنها : التلويح ، ومن أجوده قول النابغة فى طول الليل :

تطاولَ حتّى قلتُ ليس بمنقضٍ وليس الذى يَرْعى النُّجومَ بآيبِ[١]

فالذى يرعى النجوم هنا الصبح ، أقامه مقام الراعى ، يغدو فتذهب الإبل والماشية ، فتلويحه هذا عجب فى الجودة ، ومنه قول المجنون :

لقد كنت أعلُو حبّ ليلى فلَم يَزَلْ بىَ النقض والإبرامُ حتّى علانيا[٢]

فلوّح بالصحة والكتمان ، ثم بالسقم والاشتهار تلويحاً عجيباً .

التعريض

ومنها التعريض ، كقول عمرو بن معد يكرب :

فلو أن قومى أنْطَقَتْنِى رماحهُمْ نطقت ولكنّ الرماح أجرَّتِ[٣]

أى لو أن قومى صدقوا فى القتال وطعنوا برماحهم أعداءهم لنطقتُ بمدحهم ، ولكنهم صرفوها عن أعدائهم منهزمين ، فكأنها أجرّت لسانى ، أى شقته كما يُجَرُّ لسان الفصيل ، فكأنها أسكتتنى . فهذا تعريض ينوب عن التصريح ، وأخذه أبو بكر بن دريد فقال :

يا بنى مالك عقلتُمْ لسانى كيف يجرِى المقيّد المعقولُ[٤]

إن سلكتمْ إلى الفَعال سبيلاً وضَحتْ لى إلى المقال سبيلُ

---

(١) ديوانه ٢

(٢) ديوانه ٢٩٤

(٣) الأصمعيات ١٢٢

(٤) ديوانه ١٠٢

رفع المسهم

ومن التعريض قوله :

بنى عمّنا لاتذكروا الشِّعر بعدما دفنتم بصحراء الغمـــير القوافيا[١]

ومنه قول حميد بن ثور ، وقد تقدّم :

أَرَى بصرِى قدخاننى بعدصحّةٍ وحسبُك داء أنْ تصِحّ وتسْلَما[٢]

التفخيم

ومنها: التفخيم ، كقول الغنَوى :

أخى ما أخى لا فاحشٌ عند بيته ولا وَرَعٌ عنـد اللقـاء هَيُوب[٣]

ونحو هذا حكاية الأعرابى فى نوادر أبى علىّ حين سئل : أله بنون ؟ فقال: نعم ، وخالقهم لم تقم عن مثلهم منجبة ؛ فلمّا ذكر أسماءهم قال : جهم وماجَهْم ، غَشَمَشم وما غَشَمْشم ، عشرب وما عشرب[٤] .

ومن هذا التفخيم ما يجىء على التهويل والتعظيم نحو قوله تعالى : ﴿ الحاقّة ما الحاقّة ﴾ و ﴿ القارعة ما القَارِعة ﴾ وهو كثير فى كلام العرب .

ومما جاء فى الإشارة على معنى التشبيه قول الأعرابى يصف لبناً ممذوقاً :

* جاؤا بمَـذْقٍ هَلْ رأيتَ الذئب قط[٥] *

فأشار إلى تشبيه لونه إذا غلب عليه المذق بلون الذئب كما صرح به الآخر حين قال :

فيشربُه مذقاً ويسقى عيالَهُ سحاباً كأقراب الثعالب أَوْرَقا[٦]

---

(١) من أبيات فى البيان والتبيين ٢ : ١٨٦ ، ونسبها لسويد المرائد الحارثى . (٢) ديوانه ٧

(٣) هو كعب بن سعد الغنوى من قصيدة له فى الأصمعيات ٩٥ والورع : الجبان

(٤) العشرب : الأسد الشديد

(٥) الخزانة ١ : ١٧٦ ، وقبله

* حتّى إذا كادَ الظّلاَم يختلِطْ *

(٦) اللسان — مذق من غير نسبة . والمذق : اللبن المخلوط بالماء .

المطابقة

أبو الفرج علىّ بن الحسين ، قلت لأبى الحسن علىّ بن سليمان الأخفش - وكان أعلم مَنْ شاهدته بالشعر : طائفة وهم الأكثرون تزعم أن الطّباق ذكر الشيء وضدّه ، فيجمعهما اللفظ لا المعنى ، وطائفة تقول : هو اشتراك المعنيين فى لفظ واحد ، مثل قول زياد الأعجم :

وَنُبِّئْتهم يَسْتَنْصِرُون بكاهلٍ وللؤم فيهم كاهِـــلٌ وَسنامُ[1]

فكاهل قبيلة وكاهل للعضو ، فقال : من ذا الذّى يقول هذا ؟ قلت : قدامة وغيره ، فقال : هذا يا بنّى هو التجنيس ، ومن ادعى أنه طباق فقد ادعى خلافاً على الخليل والأصمعىّ ، فلت : أفكانا يعرفان هذا ! فقال : سبحان الله ، وهل غيرُهما فى علم الشعر وتمييز خبيثه من طيبه ! قلت : فأنشدنى أحسن طباق للعرب ، فقال : قول عبد الله الزّبير الأسدىّ :

فردّ شعورهن السّودَ بيضا وردّ وجوههنّ البيض سودا[2]

وقال أبو الفرج : وأنا أقول أن أحسن بيت قيل فيه :

للسّود فى السود آثارتركنَ بها لمعاً من البيض يثنى أعين البيضِ

يعنى أن اللّيالى بمَرُورهنّ تبيّض سواد الشعر .

قال أبو حاتم : سألت الأصمعى عن صنعة الشعر ، فذكر فى بعض قوله المطابقة، وقال : أصلها وَضْع الرجل فى موضع اليد، فقلت : أنشدنى أحسن ماقالت العرب فى ذلك فقال : قول زهير :

لَيْثٌ بِعثّر يصطاد الرجال إذا ما كذب الليث عن أقرانه صَدَقَا[3]

---

(١) الصناعتين ٣١٦ (٢) الصناعتين ٣٢١

(٤) ديوانه ٥٤

وقيل : المطابقـة أن يأتى الشاعر بلفظتين مختلفتين فى المعنى واللفظ فى بيت واحد أو فى كلام ، نحو قوله تعالى : ﴿ ولَـكُمْ فى القِصَاصِ حياة ﴾[1] . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار : «إنـكم لَتـكثرون عند الفزع وتقلّون عند الطمع» .

وقال علىّ رضى الله عنه : من رضى عن نفسه كثر مَنْ يتسخّط عليه .

وقال : أعظم الذنوب ما صغر عند صاحبه .

وقال الحسن : كثرة النظر إلى الباطل تذهب بمعروف الحق .

وقال الفرزدق :

لعن الإله بنى كليبٍ إنَّهُمْ لا يغـــدرون ولا يفُون لجار[2]
يستيقظون إلى نهيق حميرهمْ وتنـام أعينهُمْ عن الأوتارِ

وقال حبيب :

يرى العلْقم المأْدومَ بالعزّ أَريةً يمانية والأرىُ بالضَّيْمِ علقمـا[3]

التقسيم

ومنها التقسيم . قال أبو الحسن علىّ بن هارون بن على بن حماد بن إسحاق الموصلى : هو أن يستقصىَ الشاعر تفصيل ما ابتدأ به فيستوفيَه ، فلا يغادر قسما يقتضيه إلا أورده ، وإلى هذا كان يذهب أهلنا ، وأحسن ماقيل فى ذلك قول زهير :

يَطعنهمْ ما ارتمَوْا حتى إذا طَّعنوا ضارب حتى إذا ماضاربوا اعْتَنَقَا[4]

وقول عنترة :

---

(١) سورة البقرة ١٧٩ .
(٢) الصناعتين ٣٢٢ ، نهاية الأرب ٧ : ١٠١
(٣) ديوانه ٢٩٤
(٤) ديوانه ٥٤

إن يلحقوا أُكْرُرْ وإن يستلحموا أشدد وإن يُرْمَوْا بضنكٍ أنزلِ (١)

أبو العيناء : أجمع علماء الشعر أن أحسن تقسيم أتى به متقدم قول عمر ابن أبى ربيعة :

تهيمُ إلى نُعْمٍ فلا الشَّمْل جامعٌ ولا الحبلُ موصولٌ ولا أنت تصبرُ (٢)
ولا قرب نعمٍ إن دنت لك نافعٌ ولا بُعدها يُسْلِي ولا أنت مُقْصِرُ

المبرد : لم أسمع أحسن من تقسيم لقيس بن ذريح ، وهو :

وقد كان فيها للأمانة موضعٌ وللكفّ مرتاد وللعين مَنْظَرُ (٣)

وقد تقدم فى شرح الثانية بيت المتنبى فى التقسيم وهو: بدت قمرا ... البيت .

ونسج على منواله الزاهر فقال :

سَفَرْنَ بُدُورا وانتقبنَ أهِلَّةً ومِسْنَ غُصونا والتفتنَ جآذرا
وأطلعن فى الأجياد بالدر أنجما جعلن لحبّاب القلوب ضرائرا

وقال الناشى :

رأيت على أكوارنا كلّ ماجد يرى كلّ مايفنى من المال مغنَما
ندوّم أسيافاً ونعلُو قواضبا وننقضّ عِقبانا ونَطْلُع أنجمَا

وقال السَّلامِىّ :

ماضَنّ عنك بموجود ولا بَخِلاَ أعزُّ ما عنده النفس التى بَذَلاَ (٤)
يحكى المطايا حنيناً والهجير جوًى والمزن دمعاً وأطلال الديار بلًى

والتقسيم فى الشعر كثير .

---

(١) ديوانه ٦٥
(٢) ديوانه ٩٢
(٣) ديوانه ٨٧ ، وفيه : « وللقلب »
(٤) يتيمة الدهر ٢ : ٣٧٦

رفع المسهم

التسهيم

قال علىّ بن هارون : هذا لقب نحن اخترعناه ، وصفة الشعر المسهّم أن يسبق المستمع إلى قوافيه قبل أن ينتهى إليها راويه ، حتى لو سَمِع الشطر الأوّل استخرج الآخر قبل أن يسمعه ، وأحسن ما قيل فى ذلك قول جندب أخت عمرو ذى الكلب ترثى أخاها :

فأقسمتُ يا عمرُو لو نَبّهاك ... إذًا نبها مِنْك دَاءً عُضَالا[1]
إذا نَبّهَا ليثٌ عِرّيسةٍ ... مُفيتا مُفيدا نفوساً ومالاَ
وخَرْقٍ تجاوزتُ مجهولَةَ ... بوجناء حَرْفٍ تشكّى الكَلاَلا
فكنتَ النهار به شَمْسَهم ... وكنتَ دجى اللّيل فيه الهلالا

قال الخاتمىّ : فانظر إلى ديباجة هذا الكلام ، ما أصفاها ، وإلى تقسيماته ماأوفاها ، وانظر إلى قوله : مفيتا مفيداً ، ووصفها إياه بالشمس بالنهار والهلال بالليل ، تجد المطيع الممتنع القريب البعيد .

التتميم

هو أن يذكر الشاعر معنى فلا يترك شيئاً يتم ويتكامل الإحسان معه فيه إلا أتى به ، وأحسن ما قيل فى ذلك قول طرفه :

فَسَقَى ديارَكِ غيرَ مُفْسِدِهَا ... صَوْبُ الرَّبيعِ ودِيمَةٌ تَهْمِى[2]

فقد تم الإحسان فى المعنى الذى ذهب إليه بقوله: «غير مفسدها»، ويتلوه قول خليفة بن نافع العَنَزى :

---

(١) الصناعتين ١٤٢ ، العمدة ٢ : ٢٦ ، نهاية الأرب ٧ : ١٤٢ ، أمالى المرتضى ٢ : ٢٤٣
(٢) ديوانه ١٤٦

رجال إذا لم يقبل الحق منهمُ ويعطوه عادوا بالسُّيوف القواطعِ

فالمعنى تم بقوله « ويعطوه » ، ولولاه كان ناقصاً .

وقال حبيب :

حتّى لقد ظنّ الغواة وباطل أنى تجسّم فىّ روح السَّيِّدِ (١)

فتمّ الإحسان فى المعنى الذى أراد بقوله « وباطل » ، والسيد الحميرى له فى الشيعية مذهب ردىء ، والغواة هنا القائلون بالتناسخ . يقول : لإفراطِ حبهم فى أهل البيت ، توهّمَ الغواة أن روح السّيد تجسم فىّ ، وتوهُّمهم باطل .

الترديد

هو تعليق الشاعر لفظة فى البيت بمعنى ، ثم يرددها فيه بعينها ويعلقها بمعنى آخر ، وأكثر ما يستعمله المحدَثون ، وأجمعوا أن أباحيّة النميرىّ سبق إلى الإحسان جميع من تقدَّمه وتأخَّر عنه فى قوله :

أَلاَ حىّ من أجل الحبيب المغانيَا لبسن البِلَى مِمّا لبسن اللَّيَا لِيَا

إذا ما انقضى للمرء يوم وليلة تقاضاه شىء لا يملّ التقاضيا

ابتدأ بالمصراع الأول فأحسن الابتداء ، وردّد فى المصراع الثانى فأحسن فى الترديد ، ثم ابتدع فى البيت الثانى ما ليس لأحد مثله .

أبو تمام : لا أعلم أحدا أحسن صنعة فى الترديد من زهير فى قوله :

مَنْ يَلْقَ يوماً على عِلاَّته هَرِماً يَلْقَ السَّماحةَ منهُ والنَّدى خلقا (٢)

الحاتمى : وأحسن الخليع الباهلى فى الترديد بقوله :

لقد ملأْت عينى بحسن محاسنٍ مَلأْنَ فُؤادى لوعةً وهُمُوماَ

(١) ديوانه ١١٤ .

(٢) ديوانه ٥٣

رفع المسهم

التجريد

وهو أن يجرّد الشاعر موصوفه من صفته ، ويسندها لأجنبي فى الظاهر ، وهو يريد الأول فى المعنى ، مثل قول الأعشى :

ياخيرَ مَنْ يركب المطىّ ولا يَشْرب كأساً بكفٍّ مَن بَخِلاَ (١)

فظاهره أنه لا يشرب كأسا بكفّ رجل ينسب إلى البخل إنما يشربها بكف كريم ، وذلك الكريم هو الممدوح فى المعنى ، فجرّده فى الظاهر ، وهو يريد بكفّ بخيل من نفسه . وأبو علىّ الفارسى اختار لهذه الصنعة اسم التجريد ، ومنه قول طرفة :

جازتَ البيدَ إلى أرحُلِنا آخرَ الليل بَيْعفُورٍ حَذِرْ (٢)

يعنى بيعفور حذر ، من نفسها . وقال الأخطل :

رَبِيع حيًّا ما يستقلّ بحمله سئوم ولا مُسْتَنْكِس البحر ناضِبُهْ (٣)

أى ما يستقل بحمله سئوم من نفسه ، أى ليس بملول ، وقال النابغة .

لم يحرَمُوا حسن الغذاء وأمّهم طَفَحَتْ عليك بنائقٍ مِذْكَارِ (٤)

ومما يتعلق بنوع من التجريد قول امرئ القيس : « على لاحب لا يهتدى بمناره » . فظاهره أن المنار الذى يهتدى به إلى الطريق لا يهتدى به . وهو فى المعنى قد جرّد الطريق من المنار ، وإنما أراد : ليس به منار أصلا ، فليس ثمّ اهتداء ، فنفى المسبب الذى هو الاهتداء ، وأثبت السبب الذى هو المنار فى اللفظ ، واتكل على قوة دلالة المعنى ، وأن مراده نفى سبب الهداية الذى هو المنار فتنتفى الهداية ، ومثله قول النابغة :

يحفّه جانبا نيقٍ ويُتبعُه مثلَ الزجاجة لم تُكْحَلْ من الرمدِ (٥)

---

(١) ديوانه ٢٢٥ (٢) ديوانه ١٨

(٣) ديوانه ٢١٩ . مستنكس البحر ، أى لا ينزع ولا يستفرغ ماؤه .

(٤) ديوانه ٣٧ (٥) ديوانه ٣٤

رفع المسهم

أى ليس بهارمد فتحتاج إلى كحل .

وقال الراجز :

* ولم يقلب أرضَها البيطَارُ *

وقال الله عز وجل ﴿ ولم يكن له وليّ من الذل ﴾[1] وهو كثير فى الكلام .

التتبيع

وهو أن يريد الشاعر معنًى فلا يأتى باللفظ الدال عليه ، بل بلفظ تابع له ، فإذا قال التابع أبان عن المتبوع، وأبدَعُ ما فى ذلك قول عمر بن أبى ربيعة :

بَعِيدَة مهوَى القُرْطِ إمَّا لنوفل أبوها وإمَّا عبدُ شمسٍ وهاشم

ذهب إلى طول العنق ،فلم يذكره بلفظ خاص به أتى بمعنى دلّ به على طوله، وهو قوله : « بعيدة مهوى القرط » . ومثله قول الآخر :

نعلّق فى مثل السَّوارى سُيُوفنا ومابينهاوالكفّ مهوًى نَفَانِف

فأراد نعلّق سيوفنا فى أعناق مثل السوارى فى الطول والاعتدال ، ومابين العنق والكفّ طول كثير، فكنى عن طول القامة بغير لفظه الخاص به ، وأبدع ما فى التتبيع قول امرىء القيس:

* تئوم الضحى لم تنتطق عن تَفَضّل *

فدلّ على ترفها ، وأن لها مَنْ يكفيها المؤنة باللفظ التابع لذلك .

التبليغ

وسمّاه قوم الإيغال ، وهو أن يأتِىَ الشاعر بالمعنى فى البيت تاما قبل انتهائه إلى القافية ،ثم يبلغ القافية بزيادة مفيدة تزيد معنَى البيتِ براعة .

---

(١) سورة الإسراء ١١١ .

قيل للأصمعىّ رحمه الله تعالى : مَنْ أشعرُ الناس ؟ قال : منّ يأتى إلى اللفظ الخسيس فيجعله بلفظ حسنا أو ينقضى كلامه قبل القافية فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى ، مثل قول ذى الرُّمة :

أظن الذى يُجْدِى عليك سؤالها دموعًا كتبديد الجمان المفصّلِ(١)

فتم كلامه ، ثم احتاج إلى القافية فقال : المفصّل فزاد شيئاً .

ومن التبليغ قول امرئ القيس :

كأنّ عيونَ الوحشِ حَوْلَ خِبائنا وأرْحِلنا الجزْع الذّى لم يُثقَّبِ(٢)

فقد أتى على التشبيه قبل القافية ، وزاد بقوله : « الذى لم يثقّب » بلوغاً إلى الغاية القصوى فى الجودة، وكذلك قوله :

إذا ما جرَى شأوَيْنِ وابتلّ عِطْفُه تقول هزيز الريح مرّت بأثأبِ(٣)

فمرّت بأثأب زيادة على التشبيه التام ، والأثأب شجر يكون للريح فى أغصانه حفيف شديد ، فأفادت الزيادة فى التشبيه معنى بديعاً . وقال زهير :

كأنّ فُتات العِهْنِ فى كل منزل نَزَلْنَ به حَبّ الفنا لم يُحَطَّمِ(٤)

وسمى أصحاب البديع هذه الزيادة فى آخر البيت الإيغال والتبليغ ، وفى حشوه المبالغة والتتميم .

التصدير

هو أن يبدأ الشاعر بكلمة فى البيت ثم يعيدها فى عجُزه ، أو فى النصف منه ، ثم يردّدها فى النصف الآخر عنه، فإذا نظم الشعر على هذه الصنعة أمكن استخراج

---

(١) ديوانه ٥٠١ وفيه : « كتبذير » (٢) ديوانه ٧٣ . والجزع : الخرز

(٣) ديوانه ٤٩

(٤) ديوانه ١٢ . والقنا : شجر ثمره حب أحمر وفيه نقطة سوداء . والعهن : الصوف .

رفع المسهم

قوافيه قبل أن يطرق أسماع مستمعيه ، وأحسن ما فيه قول عامر بن الطفيل :

وكنْتَ سَناما فى فزارة تامكا وفى كلّ قوم ذروة وسنام[١]

التامك : الشديد ، وقال الآخر[٢] :

سريع إلى ابن العمّ يلطم وجهه وليس إلى داعى الندى بسريع

وقال آخر :

جَهول إذا أزرى التحلّم بالفتى حليمٌ إذا لم يزر بالحسب الجهلُ

والتصدير والترديد المتقدم يسميه كثير من البلغاء ردّ الإعجاز إلى الصدر .

الاستثناء

قيل إن أول من بدأ به النابغة ، وأحسن كل الإحسان فى قوله :

ولا عَيْب فيهم غير أنّ سيوفهمْ بهنّ فلولٌ من قِراع الكتائبِ

وهذا كقول الجعدى :

فتًى كُملت أخلاقُه غير أنه جواد فما يُبْقى من المال باقِيَا[٤]

فتًى تمّ فيه ما يسرّ صديقَه علَى أنّ فيه ما يسوء الأعاديا

ويستحسن قول أبى هفان :

فإن تسألى عنّا فنحنُ حلى العلا بنى دارمٍ والأرْض ذات المناكبِ[٥]

ولا عيب فينا غير أنّ سَماحَنا أضرّ بنا والبأس فى كل جانب

فأفنى الردى أعمارنا غير ظالمٍ وأفنى النّدى أموالنا غير غائب

ويسمى هذا تأكيد المدْح بما يشبه الذم .

(١) ديوانه ١٢٦ .

(٢) هو المغيرة بن عبد الله المعروف بالأقيشر والبيت فى تحرير التحبير ١١٦

(٣) ديوانه ٦

(٤) ديوانه ١٧٣

الالتفات

إسحاق الموصلى قال : قال لى الأصمعى رحمه الله تعالى: أتعرف التفات جرير ؟ قلت: لا ، فأنشدنى :

أتنسى إذ تودّعنى سُلَيمى بيطن بشامةٍ سُقِى البَشَامُ[1]

ألا تراه مقبلا على شعره ، ثم التفت إلى البَشَام فدعا له !

الاعتراض

ويسمى الالتفات ، وهو أن يكون الشاعر آخذاً فى معنى ، فيعدل عنه آخذاً فى غيره قبل أن يتم الأول، ثم يعود إليه فيتمه، فيكون فيما عدل إليه مبالغة فى الأول وزيادة فى حسنه .

قال ابن المعتز : الالتفات انصرافُ المتكلم عن الإخبار إلى المخاطبة ، وعن المخاطبة إلى الإخبار ، ومن أحسن مافى قول ذلك قولُ النابغة :

ألا زعمتْ بنو عبس بأنى ـ ألا كذبت ـ كبير السنّ فانِ

وقبل : بل قول كثير :

لَونّ ا الباخلين وأنتِ منهم رأوْكَ تَعلّموا منكِ العطايا[2]

فقوله : « ألا كذبت » وقوله : « وأنت منهم » اعتراض بين أول الكلام وآخره ، وفيه زيادة حسنة، ويستحسن قول الآخر :

فإنى إن أفتك يفتك مِنّى فلا يسبق به عِلْق نفيس

---

(١) ديوانه ٥١٢

(٢) ملحق ديوانه ٥٠٧ ، وفيه : « المطالا »

فقوله : « فلا تسبق به » اعتراض لطيف فى معناه وموضعه، ويسمى هذا أيضاً وما تقدم من قول طرفة الحشو المفيد .

ومنه قول الأخطل :

وأقسَمَ المجـد حقّا لا يحالفهم حتى يحالف بطنَ الراحة الشَّعَرُ[1]

فقوله : « حقّاً » حشو أفاد معنى حسناً ، وكذلك قول امرىء القيس :

كأنّ عُيونَ ألوَحْشِ حول خِبائنا وأرحِلنا الجزْع الذى لم يُثَقَّبِ[2]

فقول خبائنا وأرحلنا لوسقط لكان التشبيه تاما والوزن ناقصاً ، فأورده حشوا ، وفيه زيادة بارعة رائعة ، وهى الإخبار عن كثرة الصيد والتمدّح بأنه مرزوق فى صيده ، وما أحسن قول ابن المعتز رحمه الله تعالى :

وخيل طواها السَّيْرُ حتّى كأنهـا أنابيب سُمْرٌ من قَنا الخطِّ ذبَّلِ[3]
صَبَبْنا عليها ظالمينَ سياطَنـا فطارت بها أيدٍ خِفاف وأرجلُ

فوقع «ظالمين» أحسن موقع لأنه نفى بذلك عنها هجنة البطء ، وأخذه من قول أعرابى :

وعوْد قليل الذنب عاودتُ ضربَه إذا هاج شوقى مِن مَعَاهِدِها ذكرُ
وقلت له ذلفـاء ويحَك سبّبت لك الضرب، فاصبر إن عادَتك الصَّبْرُ

فحسّنه ابن المعتز ما شاء . وأما الحشو القبيح ، فكقول أوس بن حجر :

وهُمْ لمقلّ المـال أولاد عَلّةٍ وإن كان محضا فى العمومة مُخْوِلا[4]

فذكره للمال مع قوله : «مقلّ» حشو لا فائده فيه، وكذلك قول الهذلى[5] رحمه الله :

---

(١) ديوانه ١١٢ . (٢) ديوانه ٥٣
(٣) نهاية الأرب ١١ : ٥٩ ، ديوان المعانى ٢ : ١٠٧ .
(٤) ديوانه ٩١ .
(٥) هو أبو العيال الهذلى .

رفع المسهم

ذكرت أخى فعاودنى صداع الرأس والوصبُ[1]

فذكْر الرأس مع الصداع حشولا فائدة فيه ، وأهجن منه قول الأعشى :

فرميتُ غفلةَ قَلْبِه عن شأنه فأصبتُ حَبّة قلبها وطحالَها[2]

فتكريره ذكر القلب لافائدة فيه ، وهجّنه بذكر «طحالها» . ودون هذا قول ديك الجنّ :

فتنفّست فى البيت إذ مَزَجَتْ بالماء واستلّت سنَا الذهب[3]

كتنفّس الريحان مازجَه ما ورد جوْر ناضر الشُّعَبِ

فذكر الماء مع المزج حشولا فائدة فيه ،وأخذه من قول أبى نواس :

سلبوا قناع الطين عن رمقٍ حىّ الحياة مشارف الحتفِ[4]

فتنفّست فى البيت إذ مزجَتْ كتنفّس الرّيحان فى الأنفِ

فلم يذكر أبو نواس الماء مع المزج ، وذكره ديك الجنّ فقصّر عنه ، وزاد الحسن عليه بذكر الأنف حسْناً . وذكر ديك الجنّ ماء الورد مع الريحان ولم يذكره الحسن ، لأن ذكاء الريحان أكثر ما يكون إذا أصابه بلَل ، لكنه فى ذكره ماء الورد زيادة معنى بلا شك ، إلاّ أنه قد انضاف إليها العيوب المتقدّمة . ومع هذا فالحسن قد استوفَى المعنى فى بيت واحد ، وديك الجنّ فى بيتين ، وصاحب بيت أبدا عندهم بانفاق أشعر ، كقول امرئ القيس :

أَراهنّ لا يُحبِبْن مَنْ قلّ ماله ولا مَنْ رأين الشَّيْب فيه وقوّسَا[5]

فما احتوى عليه هذا البيت ، أتى به علقمة فى ثلاثة أبيات مشهورة ، وإن كان المعنى أبسطَ وأجلّ فالفضل لصاحب البيت ، والزمان واحد ، لأنّ مَنْ قال علقمة سرقه فقد أخطأ ، فأما إذا كان السابق مستوفِىَ المعنى فى بيت واحد ، ويسوقه

---

(١) ديوان الهذليين ٢ : ٢٤٢ (٢) ديوانه ٢٧ .
(٣) ٢٠٩ (٤) ديوانه ٣٠٣ .
(٥) ديوانه ١٠٧

رفع المسهم

المتأخر فى أبيات فالكلام فى هذا ، كقول امرىء القيس :

نَمُشُّ بأعراف الجياد أكُفَّنَا إذا نحن قمنا عن شِواء مُضَهَّبِ (١)

أخذه عَبدة بن الطبيب فقال :

لَمّا نزلنا نصبنا ظلّ أخْبية وفار باللّحم للقوم المراجيلُ (٢)
وَرْدٌ وأشقر لم يُنهِئْه طَابِخُهُ ماغَيّر الغلىُ منه فهو ما كُول
ثمّتَ قُمنَا إلى جُرْدٍ مسوّمة أعرافهنّ لأيدينا منادِيلُ

وقال عبد الملك يوماً لجلسائه ، وكان يجتنب غير الأدباء : ما خير المناديل ؟ فقال قائل : منايل مصر كأنها قيْض البيض ، وقال آخر : مناديل اليمن ، كأنها أنوار الربيع ، فقال عبد الملك : ما صنعتما شيئاً ، أفضل المناديل ما قال أخو تميم ـ يعنى عبدة ـ وأنشد الأبيات ، وهى مع جودتها قصَّرت عن بيت امرئ القيس.

وكذلك قول طرفة :

نَطْرد القُرّ بحَرٍ صادق وعليك القَيْظِ إن جاء بقُرّ (٣)

وقال الأعشى :

وتَبْرد بَرْدَ رداء العَرُو س بالصّيف رَقْرَقْتَ فيه العبيرا (٤)
وتسخن ليلة لا يستطيعُ نُباحًا بها الكلبُ إلا هريرا

الاستطراد

البحترى : أنشد أبو تمام لنفسه يهجو عثمان بن إدريس الشامى :

وسابحٍ هَطِلِ التّعداء هتّانِ على الجِراء أمينٍ غيرِ خَوّانِ (٥)
أظمى الفصُوصِ ولم تظمأ قوائمه فخلّ عينيك فى ظمآن رَيّانِ

(١) ديوانه ٥٤ (٢) المفضليات ١٤١ وفيها : « رفعنا ظل أردية »
(٣) ديوانه ٧٣ والعليك : الشديد الحر (٤) ديوانه ٩٥
(٥) ديوانه ٤ : ٤٣٤ (طبع المعارف) .

فلو تراه مُشيحاً والحصى فِلَقٌ بين السنابك من مَتْنَىً ووُحْدَانِ
أيقنت إن لم تثبَّت أن حافرَه من صَخْرِ تدمُر أو من وَجْهِ عثمان

ثم قال : ما هذا من الشعر! قلت: لا أدرى، فقال : هذا هو الاستطراد، فقلت: فما معنى ذلك ؟ فقال : يريك وصف الفرس ، وهو يريد هجاء عثمان ، فأخذه البحترى ، فقال فى فرس :

يهوى كما تهوى العُقاب وقد رأتْ صيْدًا وينقضّ انقضاض الأجْدَلِ (١)
ما إن يعاف قذًى ولو أوردتَهُ يوما خلائق حمدويه الأحْوَلِ

وكان حمدويه عدوًّا لممدوحه ، فاستطرد به . ويقال : إن البحترى لما عُيِّر بسرقة هذا البيت أزاله من شعره . وقال دِعبل :

فلو أننى أصبحت فى جود مالك وعزّنه ما نال ذلك مَطْلَبِى (٢)
فتى شَقِيتْ أموالُهُ بسماحِهِ كما شقيت قيس بأرماح تغلِب

فخرج فى استطراده من مدح إلى ذم ، وهو مقلوب استطراد زهير فى قوله :

إن البخيل ملوم حيث كان ولـــكنّ الجواد على عِلاَّته هَرِمُ (٣)

فخرج من ذم إلى مدح . وقال جرير :

ترى بَرَصاً بمجمع إسْكَتَيْهِ كعنفقةِ الفرزدق حين شابا (٤)

والسابق إلى هذا المعنى والناس له تبع السموءل حيث قال :

وإنّا أناس لا نرى القتل سُبَّةً إذا ما رأته عامرٌ وسَلُولُ (٥)

ومما يُستحسَن ، قول بشار :

خليلىّ من كَعْبٍ أعينا أخاكما على دَهْرِه ، إنّ الكَرِيم مُعِين (٦)
ولا تبخلا بُخْلَ ابن قَذْعَةَ إنه مخافة أن يُرجَى نداه حزين

(١) ديوانه ١٧٤٥ ، وفيه : « وينتصب انتصاب »
(٢) ديوانه٢٦ ، ونقله عن الشريشى .
(٣) ديوانه ١٥٢ (٤) ديوانه ٦٩ ، والعنفقة : مابين الذقن وطرف الشفة السفلى ـ
(٥) ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ٤ : ١١١
(٦) ديوانه ٩٧ (مطبعة الشباب)

رفع المسهم

إذا جئته فى حاجة سدّ بابه فلا تَلْقَهُ إلاّ وأنتَ كَمِينُ

فقف على هذه الجملة من صناعة البديع ، ففيها كفاية بعون الله سبحانه وتعالى:

* * *

وأما قوله : فبرز الشيخ مجلِّياً ، وتلاه الفتى مصلِّياً ، فأصل ذلك فى الخيل . ونذكر من ذلك جملة تليق بهذا الموضع ، وينتظم المجلّى والمصلّى فى حكاية الرشيد مع المأمون .

[حكاية فرسى الرشيد والمأمون]

وذلك أن الرشيد أجْرَى الخيلَ يوما بالرَّقة فوقف متلوّما حتى طلعت ، فإذا فى أولها فَرسَان فى عِنان واحد ، فتأمّلهما ، فقال : فرسى والله . ثم تأمّل وقال : وفرس ابنى عبد الله ، فجاء الفَرسَان أمام الخيل ؛ فرسُه السابق وفرس المأمون المصلِّى ، فسُرّ بذلك الرشيد سروراً عظيما . قال الأصمعىّ : فقلت للفضل : يا أبا العباس ، هذا من أيامى ، فاحتل حتى توصّلنى ، فقال الفضل : ياأمير المؤمنين ، إن الأصمعىّ قدأعدّ فى أمر الفرسين شيئاً يريد به سرور أمير المؤمنين ، فقال : هات يا أصمعىّ ، فقلت : يا أمير المؤمنين، كنتَ وابنك اليوم وفرساكما ، كما قالت الخنساء ـ وقد قيل لها : كيف تفضّلين أخاك على أبيك ؟ فقالت :

جارَى أباه فأقبلا وهما يتعاوران مُلاءةَ الحُضْر (١)
وهُمَا كأنهما وقد برزا صَقْران قد حَطّا إلى وَكْرِ
حتى إذا جدّ الجراء وقد ساوت هناك الغُدر بالغُدْرِ
وعلا هُتاف الناس : أيّهما ؟ قال المجيب هناك : لا أدرى
بَرَقَت صحفيةُ وجه والدِه ومضَى على غُلَوَائه يجرى
أوْلى فأولى أن يساويَه لولا جلال السنِّ والكِبْر

قيل لأبى عُبيد : ليس هذا فى مجموع شعرها ، فقال : العامّة أسقط من أن يجودوا عليها بمثل هذا. فقولها: «ملاءة الحُضْر» تعنى بها غُبْرة الفرسين التى أثاراها

(١) ديوانها ١٣٨

رفع المسهم

جعلتها كالمحفة يرتديانها ويتجاذبانها . وسيأتى مَنْ أخذ منها هذا المعنى ومَنْ سبق إليه فى الأربعين .

[مراتب الخيل فى الحلبة]

ومراتب الخيل فى الحلبة : السابق منها يسمى المجلّى ثم المصلّى ثم المسلّى ، ثم التالى ثم المُرتاح ثم العاطف ثم الحَظِىّ ، ثم المؤمَّل ، ثم اللطيم ، ثم السَّكَيت .

قال الأصمعى وأبو عبيدة : لم نَسْمع فى سوابق الخيل اسماً لشىء منها ممّن يوثق بعلمه إلا الثانى واسمه المصلّى . قال الأصمعى ، هو من الصَّلا وهو جانب ذَنَبه . والعاشر واسمه السَّكَيْت ، وما سواهما فإنما يسمى الثالث والرابع إلَى التاسع .

وكان عند المتقى العباسى فتًى راوية للخبر والشعر يأنس به ، فقال ليلة لجلسائه : عودوا إلى ذكر الخيل ، فقال الفتى : يا أمير المؤمنين ، حدّثنى كلاب بن حمزة العقيلىّ : قال : كانت العرب ترسل خيلَها أراسيل ، عشرة عشرة ، والقصب سبعة سبعة ، فلا يدخل الحجرة من الخيل إلّا ثمانية : الأوّل السابق المجلّى لأنه جَلَى عن وجه صاحبه الكرب . والثانى المصلّى لأنه وضع جحفلته على قَطَاة المجلّى ، وهو صَلاه ، والصّلا عُجْب الذنَبِ . والثالث المسلّى ؛ لأنه كان شريكا فى السبق فسلّى عن صاحبه بعضَ همّه . والرابع التالى ، لأنه تلا المسلّى دون غيره ، والخامس المُرتاح وهو المفتعل من الراحة ، لأنّ فى الراحة خمس أصابع ، فلما كان الخامس على خامسة الأصابع سمى مرتاحاً . والسادس حَظِىّ ، لأنه نال حظا فحظىَ به وإن قَلّ ، لأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى السادس نصيباً وهو آخر حظوظ الحلبة ، وسمّى السابع العاطف لدخوله الحجرة لأنه قد عطف بشىء وإن خَسّ إذ كان قد دخل الحجرة ، الثامن المؤمّل ، على القلب والتفاؤل ، كما سُمّىَ اللديغ سليما فسمى مؤمّلا لقربه من ذوات الحظوظ . التّاسع اللطيم ، لأنه لورام الحجرة لُطِم دونها ، لأنه أعظم جُرْماً من السابع والثامن . العاشر السَّكَيت ،

لأن صاحبه يعلوه خشوع وذلة ويسكت خزياً وعيًّا ، وكانوا يجعلون فى عنقه حَبْلاً ، ويحملون عليه قرداً يركضه ليعيّر بذلك صاحبه .

أبو عبيدة يشدد السُّكَّيت ، وسمى سكّيتاً لأنه آخر العدد الذى يقف عليه العادّ والسّكت الوقوف ، وسُمِّيتْ حَلَبة ، لأن العرب تحلب إليها خيولها أى تضمِّرها .

وأنشد ابن الأنبارى أبياتا تجمعها وهى قوله :

جاء المجلّى والمصلّى بعده ثم المسلّى بعده والتّالى
والخامس المرتاح ينقص عَدْوُه والعاطف الصَّهّال كالرِّئبال
نسقا وقاد حظيّها فى صَهْوَةٍ ذاك المؤمّل غير ذى الأشكال
ثم اللطيم يقودها بجميعها قبل السَّكَيْت العاشر الذَّيّالِ

[أشعار فى وصف الخيل]

ونذكر هنا جملة مقاطيع فى أوصاف الخيل يكمل بها الغرض المقصود ، قال امرؤ القيس :

إذا ما ركِبْنَا قال ولْدان أهلِنا تعالوا إلى أن يأتِنَا الصيد نَحْطِبِ (١)

وقال عُمَارة بن عقيل :

وأرى الوحش فى يمينى إذاما كان يوماً عِنانُه بشِمَالِى

وقال حبيب :

مخالق وجْهُه على السّبق تَخْليقَ عروسِ الأبناء للعُرْسِ (٢)
تقتل عشراً من النّعام به بواحد الشدّ واحد النَّفَس

(١) ديوانه ٣٨٩
(٢) ديوانه ١٦٩ ، ١٧

وقال أيضاً :

إن زار ميداناً مضى سابقاً ... أو ناديا قام إليه الجلوس[1]
نرى رزانَ القوم قد أسمَجَتْ ... أعْيُنُهمْ فى حُسْنِه وهْىَ شُوسْ
كأنّما لاح لهم بارقٌ ... فى المَحْلِ أوْ زُفّتْ إليهم عَرُوسْ
سامٍ إذا استعرضته زانـــه ... أعْلَى ، رطيبٌ وقرارٌ يبيسْ
كأنما خامره أوْلَقٌ ... أو عارضت هامته الخندريسْ
عوّدَه الحاسم بخــلاً به ... ورَفْرَفَتْ خوفاً عليه النُّفُوسْ

وقال البحترى :

وأغرّ فى الزمن البهيم محجّلٍ ... قد رُحْتُ منه على أغرّ محجّلِ[2]
كالهيكل المبنىّ إلا أنه ... فى الحُسْنِ جاء كَصُورةٍ فى هيكلِ
ذَنب كما سَحَب الرداء يذبُّ عن ... عُرْفٍ ، وعرف كالرداء المسبَلِ
تُتَوَهَّمُ الجوزاء فى أرساغِه ... والبــدر غرة وجهه المتهلِّلِ
وتراه يَسْطَعُ فى الغبار لهيبُه ... لوناً وشدًّا كالحريق المشعَلِ
هزِج الصَّهيل كأنّ فى نَغَماتِه ... هَزّات مَعْبد فى الثَّقيل الأوّلِ
مَلَك العيون فإنْ بدا أعطينَه ... نظر المحبّ إلى الحبيب المقبلِ

وقال عبد الله بن المعتز :

ولقد وطئت الغيث يحمِلُنِى ... طِرْفٌ كلون الصّبْح حينَ وقَدْ[3]
يمشى ويعرِض فى العِنان كما ... صدف المعشَّق ذو الدلال وصَدّْ
جمّاع أطراف الصُّوار فما الْـ ... أُخْرَى عليه إذا جرى بأشدّْ

(١) ديوانه ١٧٩ .
(٢) ديوانه ١٧٤ .
(٣) زهر الآداب ١٧٧ ، العقد ١ : ٢٠٦ .

بلّ المهـــابدمائهنّ ولَمْ يبتلّ منـــــــه بالحميم جَسَدْ
وكأنه موج يذوب إذا أطلقته وإذا حسبت جَمَدْ

وقال المتنبي :

وعَيْنى إلى أذْنىْ أغرّ كأنّه من الليل باقٍ بين عينيه كوكبُ[1]
له فضلةٌ عن جسمه فى إهابه تجيء على صدر رحيب وتَذْهَبُ
شققتُ به الظلماء أُدْنِى عِنانه فيطغى وأُرخِيه مِرَاراً فيلعبُ
وأصرع أىّ الوحش قفّيْتُه به وأنزل عنه مثـــلَه حين أركبُ
وما الخيلُ إلاّ كالصديق قليلة وإن كثرت فى عين من لايجرّبُ
إذا لم تعاين غير حُسْنِ شِياتِها وأعضائها فالحسن عنك مغيَّبُ

وقال ابن نباتة يصف فرساً أغرّ حمله سيف الدولة عليه :

قد جاءنا الطّرف الذى أهديتَه هاديه يعقد أرضَه بسمائه[2]
تختـال منه على أغرّ محجلٍ ماء الدياجى قَطْرَةٌ من مائِهِ
وكأنما لطَمَ الصباح جبينَه فاقتصّ منه فخاض فى أحشائِهِ
لاتعلق الألحـاظ فى أعطافه إلا إذا كَفْكَفْتَ من غُلوَائِهِ

وقال أيضاً :

وأدهم يستمدّ الليـــــــل منه وتطلع بين عينيــه الثريا[3]
سرى خلف الصباح يطير مشيًا ويطوى خلفه الأفلاك طَيًّا
فلما خاف وشك الفَوْتِ منه تشبّث بالقـــــــوائم والمحيَّا

وقال أبو منصور[4]، يخاطب أبا الفضل الميكالى :

يامُهْدِىَ الطّرف الجواد كأنما قد أنعلوه بالرياح الأربع[5]

(١) ديوانه : ١ : ١٧٩
(٢) هو ابن نباته السعيدى ، نهاية الأرب ١٠ : ٦٤.
(٣) نهاية الأرب ١٠ : ٦٤
(٤) هو أبو منصور الثعالبى .
(٥) معاهد التنصيص ٢ : ٢٧٠

لاشيء أسرعُ منه إلاخاطرى ... فى شكر نائلك اللطيف الموقعِ
ولو أنى أنصفت فى إكرامه ... لجلال مُهْدِيه الكريمِ الأرْوَعِ
أقضمته حَبّ القلوب لحبّه ... وجعلْت مربطه سواد الأدْمُعِ
وخلعتُ ثم قطعت غير مضيّق ... بُرْدَ الشباب لجلّه والبرقعِ

وقال القسطلّى :

سامى التَّلِيل كأنّ عقد عذاره ... فى رأس غصن البانة الميّادِ(١)
يهدى بمثل الفرقدَيْن وناب عن ... رعى السِّماك بقلبه الوقادِ
فكأنما أطأ الأباطح والرُّبا ... بعُقاب شاهقةٍ وحيّة وادِ
وكأنه من تحت سَوطى خارجاً ... فى الرَّوْع شعلة قادحٍ بزنادِ

ولأبى تمام الأندلسى :

وأقبّ تتّقد البروق إذا جرى ... من غيظها حسداً بأن لم تلحقِ
ملَك الرياحَ قوائما فجرى بها ... فيكاد يأخذ مغرباً من مشرقِ

وقال فيه أيضا :

وتحتِىَ ريح تسبق الريح إن جرتْ ... وما خلتُ أن الرّيح ذاتُ قوائمِ
له فى المدى سبْقٌ إلى كلّ غاية ... كأنّ لنا فيه نفوذ عزائم
وهمّةِ نفس نزهَتْها عن الونى ... فيا عجبا، حتى العلا فى البهائم !

وكان للمتوكل ببِطليوس فرس أخضر أغرّ محجل على كَفَله ست نقط بيض ، فبذل كل شاعر فى وصفه جهده ، فما سبق الغاية إلا البَجلىّ بقوله :

حمل البدر جوادٌ سابحٌ ... تقف الريح لأدنى مهَله

---

(١) ديوانه ٥٤٥

وكأنّ الصبح قد خاض به فبدا تحجيله مِن بَلَلِه
لبس اللّيل قميصا سابغاً فالثريّا نقط فى كَفَله
كلّ مطلوب وإن طالت به رجله من أجله فى أجله

والباب لا يدخل تحت الحصر ، فلنكتف بهذا القدر .

* * *

فلّما أنشداها الوالى مَتَراسِلَيْن ، بُهِتَ لذكائِهِما المتعادِلَيْن . وقال : أشهد بالله أنّكما فرقدا سَماء ؛ وكَزَنْدَيْن فى وعاء ، وأنّ هذا الحدَث لَيَنْفِقُ مِمّا آتاهُ اللهُ ، ويَسْتغنى بوُجْده عَمَّنْ سِوَاه . فَتُبْ أيُّها الشَّيْخُ مِن اتّهامِه ، وثُبْ إلى إكْرامِهِ .

فقال الشيخ : هَيْهَاتَ أن تراجِعَه مِقَتِي ، أو تَعْلَق به ثِقتِي . وقدْ بلَوْتُ كفرانَهُ للصّنيعِ ؛ ومُنِيت منه بالْعُقُوق الشّنِيع . فاعترضه الفتى وقال : ياهذا ، إنّ اللّجاجَ شؤم ، والحَنَقَ لُؤم ، وتَحقيق الظّنة إثْم ، وإعنـــاتَ البرئ ظُلْم . وهَبْنِي اقْتَرفْتُ جَرِيرة ، أو اجترحْتُ كبيرة ؛ أما تذكرُ ما أنشدْتَنِي لِنَفْسِك ، فى إبّانِ أنْسِكَ :

* * *

قوله : « بُهِت » أى تحير . المتعادلين : المتماثلين ، وشبّههما بالفرقدين لرفعتهما وتوقدهما ، وأخذ الحريرى هذا التشبيه من البحترى فى قوله :

* كالفرقدين إذا تأمّل ناظر *

وتقدّم فى الثانية ، وبالزّندين لما فيهما من النار ، وفى هذين من الذكاء وجعلهما فى وعاء ، يريد : متى التمسهما الإنسان وجد فيما وقعت عليه يده حاجته .

رفع المسهما

وجْده: غناه وماعنده من العلم . ثب : ارجع . هيهات ، معناها بُعد . مِقَتِي: محبتي . تعلَق به ثقتي، يريد : لا أثق به بعد ماجرَّبته ، وبلوت كفرانه للصنيع، أى جرّبت قلة شكره لفعل الجميل معه مُنِيت . بليت . العقوق : المقاطعة . الشنيع : المشتهر بالقبيح .

[فصل فى كفران الصنيع]

ونسوق هنا فى كفران الصنيع فصلا يليق بهذا الموضع . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من عباد الله عباد لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم». قلنا : مَنْ أولئك يارسول الله ؟ قال : « المتبرئ من والديه رغبة عنهما ، والمتبرئ من ولده، ورجل أنعم الله عليه نعمة فكفرها » .

وفى التوراة : من صنع معروفا إلى أحمق فهى خطيئة تُكتب عليه .

وقال الحجاج لابن الكلبى: أخبرنى عن خمسة أشياء أضيعت فى الدنيا . قال: نعم أصلح الله الأمير! سراج يوقد فى شمس ، ومطر جوْد فى أرض سبخة، وامرأة حسناء تُزفّ إلى عِنّين ، وطعام اجتهد صاحبه فى صنعته فقدمه إلى سكران أو شبعان،ومعروف تصنعه إلى رجُلٍ لا يشكرك عليه .

عائشة رضى الله عنها:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:«لاتنفع الصنيعة إلا عند ذى حسب ودين، كما لا تنفع الرياضة إلا فى نجيب » .

المدائنى : خرج فتْيان فى صيد لهم فأثاروا ضبعة فنفرت ومرّت ، فاتبعوها ، فلجأت إلى بيت رجل ، فخرج إليهم بالسيف مسلولاً ، فقالوا له : يا عبد الله ، لِمَ تمنعنا من صيدنا ؟ فقال : إنها استجارت بى. فخلُّوا بينها وبينه ، فنظر إليها فإذا هى مهزولة مضرورة، فجعل يسقيها اللبن صبوحاً ومَتيلاً وغبوقاً ، حتى سمنت وحسنت حالها، فبينما هو ذات يوم متجرد عَدَتْ عليه فشقّت بطنه وشربت دمه، فقال ابن عمّ له :

رفع المسهم

ومنْ يَصْنَع المعروف فى غير أهلِه يلاقى الذى لاقَى مُجير امِّ عامِرِ[1]
أعد لها لمّا استجارتْ بقربه مع الأمن ألبانَ اللّقاح الدرائرِ
فأشبعَها حتى إذا ما تَمَكَّنَتْ فرتْه بأنياب لها وأظافرِ
فقل لذوى المعروف، هذا جزاءمَنْ يُوجِّهُ معروفاً إلى غير شاكرِ

وعن جابر رضى الله تعالىعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :«إذا أراد الله بعبد خيراً جعل صنائعه ومعروفه فى أهل الحفاظ ، وإذا أراد به سوءا جعلها فى أهل المضائع » وقال حسان :

إنّ الصنيعة لا تكون صنيعةً حتى يصَاب بها طريق المصنع

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدقت . وأنشِد عبد الله بن جعفر هذا البيتَ فقال: هذا رجل يريد أن يبخّل الناس؛ أمطِر المعروف مطرا ، فإن صدفت موضعه فهو الذى قصدت ، وإلاّ فكنت أحقَّ به .

قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : لا يُزَهِّدَنك فى المعروف كفر من كَفَره ، فإنه يشكرك عليه من لم تصنعه إليه .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اصنع المعروف إلى مَنْ هو أهله ، وإلى من ليس أهله ، فإن أصبت أهله فقد أصبت أهله ، وإن لم تصب أهله فأنت أهله». وقد قال الحريرى بعد هذا :

واحفظ صَنِيعك عنده شَكَر الصنيعة أم غَمَطْ

أى لا تفسد معروفك بالمنّ ؛ شكره من أنعمت عليه أم كفره . وغمط : ستر . وهو ضد شكر .

---

(١) جمرة الأمثال : ١ : ٥٢٥

رفع المسهم

قوله: اعترضه ، أى واجهه وقابله : شؤم: نحس وطِيَرة . الحَنَق: الغضب . الظِّنة : التهمة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ثلاث لازمات أمتى: سوء الظن، والحسد، والطيَرة» . قيل: ما يذهبهن؟ قال: «إذا ظننت فلا تحقق، وإذا حسدت فاستغفر، وإذا تطيّرت فامض» . إعنات : مشقة . هبنى : احسبنى . اقترفت واجترحت ، معناهما اكتسبت . جريرة : جناية . إبَّان أنسك ، أى وقت أنسى بك .

* * *

سامِحْ أخاكَ إذا خَلَطْ منه الإساءة بالغَلَطْ
وتجافَ عن تَعْنيفِه إنْ زاغَ يوماً أو قسطْ
واحْفَظْ صَنيعَكَ عنده شَكَرَ الصنيعة أم غَمَطْ
وأطِعْهُ إن عاصَى وهُنْ إنْ عزَّ وادْنُ إذا شَحَطْ
واقْنَ الوفاء ولو أخَلّ بما اشترطْتَ وما اشْتَرَطْ
واعْلَمْ بأنَّكَ إن طَلَبْتَ مهذَّباً رُمْتَ الشَّطَطْ
من ذا الذى ما ساء قطُّ ومَنْ له الحُسْنَى فقطْ
أو ما ترى المحبوبَ والْمَكْرُوهَ لُزَّا فى نَمَطْ
كالشوكِ يَبْدُو فى الغصو نِ مع الجَنِيّ المُلْتَقطْ
ولَذَاذة العمر الطَّو يلِ يشوبُها نَغَصُ الشَّمَطْ
ولو انتقَدْتَ بنى الزّما نِ وَجَدتَ أكْثرَهم سَقَطْ
رُضْتُ البَلاغةَ والبرا عةَ والشجاعَةَ والخِطَطْ
فوجَدْتُ أحْسَنَ ما يُرَى سَيْرَ العُلُومِ مَعاً فقطْ

* * *

تجاف : تباعد . تعنيفه : لومه . زاغ : مال . قسط : جار .

رفع المسهم

وقوله : وهُنْ إنْ عَزّ ، لفظ المثل : إذا عز أخوك فهن ، يُروَى بضم الهاء وكسرها ، فالضّم من هان يهون ، قال ابن أحمر :

دَبَبْتُ لها الضِّرَاء وقُلْت أبقَى إذا زّ ابنُ عمك أن تَهُونَا (١)

ورواه بالكسر أبو عبيد وثعلب ، وقال أبو عبيد : معناه أن مياسرتك صديقك ليست بضيم يركبك ، فتدخلك منه حميَّة ، إنما هو حسن خُلق وتفضّل منك ، فإذا عاسرك فياسره ، فالضيم الّذى ذكر هو الهوان بعينه . قال ابن درستويه : معناه إذا صار أخوك عزيزا قويا عليك فأطِعْه واخضع له ، تسْلَمْ من ظلمه . رواية الكسر من هَان يَهِين ، ويكون معنى عزّ تصعَّب واشتدّ لا من العزة ، ومعناه إذا صعب أخوك فلِنْ له ، والمثل لهذيل بن هبيرة ؛ وسببه أنه أغار على ضبّة فغنم ، وأقبل بالمغانم ، فقال له أصحابه : اقسمها بيننا ، فقال : أخاف أن يدركم الطلب ، فأبوْا ، فعندها قال المثل ، ونزل فقسّمها

قوله شحط ، أى بَعد . وأقْنِ الوفاء : أى الزمه ، وقنِيتُ الحياء بكسر النون أقنيه قنيانا ، ألزمته . أخلّ : نقص . بما اشترطت وما اشترط ، أى بما جعلتما بينكما من علامة ، ومنه أشراط الساعة أى علاماتها ومنه الشّرط لأن لهم علامة يعرفون بها . مهذبا : مخلصاً . والشّطَط : مجاوزة القدر ، قال الفضيل بن عياض : مَنْ طلب أخا بلاعيب بقىَ بلا أخ.

قال الحارث المحاسبى : ثلاثة أشياء عزيزة أو معدومة : حُسْن الوجه مع الصيانة ، وحسن الخلق مع الدِّيانة ، وحسن الإخاء مع الأمانة . وقال النابغة :

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمّه على شعثٍ ، أىّ الرجال المهذب! (٢)

وقال يزيد بن محمد المهلّبى :

ومَنْ ذا الذى تُرْضى سجاياه كلها كفى المرء فضلاً أن تعدَّ مَعايبُهْ (٣)

(١) فصل المقال لأبى عبيد ١٩٦ .

(٢) ديوانه ٥ .

(٣) ط : الباهلى ، تحريف . والبيت فى زهر الآداب ٧٥٥ ، نهاية الأرب ٣ : ٩٤ .

رفع المسهم

قوله: «قطّ» بمعنى الدهر والأبد . والحسنى: الفعل الحسن . فقط : حسب . لزا : ربطا . النّمط : ثوب من الصوف المصبوغ ، والنّمَط الطريق ، تقول : الزم هذا النمط ، والنمط النوع من العلم والخير، فيريد أن الخير والشر قد نظما فى سلك واحد ، فإذا أتى يوم يُرْضِى أتى بعده يومٌ يسخط .

الجنىّ : الطرىّ مما يجنَى ، فعيل بمعنى مفعول ، وأصل مجنىّ مجنوىّ فأُعِلّ . والملتقط : من قولك: لقطت هذه الفاكهة واحدة واحدة، أى اخترتها وانتخبتها .

أبو أمامة ، قال: قال النبى صلى الله عليه وسلم : «إنّ الناس اليوم كشجرة ذات جنًى ، ويوشك الناس أن يعودوا كشجرة ذات شوك إن ناقدتهم ناقدوك ، وإن تركتهم لم يتركوك ، وإن هربت منهم طلبوك»، قيل؛ فكيف المخرج من ذلك ؟ قال : « تقرضهم من عِرْضك ليوم فقرك» ، وأنشد عمر بن الجعْد :

طبْ عن الأمّة نفساً وارض بالوحدة أُنْسَا
لست بالواجد حرًّا أو تردّ اليوم أمسا
ما وجدنا أحداً يســـوَى على الخبرة فَلْسَا

قوله : «نغص» تكدير العيش ، ونغص الرجل إذا لم يتم له أمره وتكدّر عيشه. يشوبها : يخالطها .الشَّمَط : اختلاط الشيب بالسواد وانتقدت : فتشت. والسَّقَط : من لا خير فيه .

وللزاهد بن عمران فى معنى أبيات الحريرى رحمه الله :

إذا وَغْدٌ جفاك فلا تَلُمْهُ لأنّك إن فعلتَ أثرت جِيفَهْ
وإن يصُل الكريمُ عليك فاصفحْ ستعطفه أصالته الشريفهْ
ومَنْ يك بين ذاك فأغضِ عنه تنل مجدًا ومرتبةً مُنيفَهْ
وسُلّ الضغن إن آنستَ ضِغْنًا ببسط الوجه والحيَل اللّطيفة

أخذ البيتين الأولين من قول حاتم :

وأغفرُ عوراءَ الكريم ادّخارَه وأُعرِض عن شتم اللّئيم تَكَرُّما[1]

* * *

قال : فجعل الشّيْخُ يُنضنض نَضْنَضَةَ الصِّلّ ، ويُحْمِلقُ حَمْلَقَةَ البازِى المُطِلّ ، ثمّ قال : والّذِى زيَّنَ السّمَاءَ بالشّهُبِ ، وأنْزَلَ الماءَ من السّحُب ، ما رَوْغِي عن الاصْطِلاح ؛ إلا لتوَقِّى الافتضاح ، فإنّ هذا الْفَتَى اعْتَادَ أن أمُونَهُ ، وأراعِي شئونه ، وقَدْ كانَ الدَّهْرُ يَسُحّ ، فَلَمْ أكُنْ أشُحّ ؛ فأمّا الآن فالوقْتُ عَبُوس ، وحَشْو الْعَيْشِ بُوس ؛ حتّى إن بزّتِى هَذِهِ عارَة ، وبيتِي لا تَطُورُ به فارَة .

قال : فرقَّ لمقالِهِمَا قَلْبُ الوالى ، وأوَى لَهُمَا مِنْ غِيَرِ اللّيَالى ، وصَبَا إلى اختصاصِهِمَا بالإسعاف ، وأمَرَ النَّظارة بالانصراف .

* * *

قوله : « يُنضنض » يحرك لسانه . الصِّلّ : الحية . يحملق : ينظر بحملاقه وهو باطن جفنه ، وذلك نظر الغضبان . المطلّ : المشرف على فريسته . الشهب : النجوم . رَوْغِى : فرارى . توقِّى : خشية . الافتضاح : الشهرة . أمونه : أتكلف لوازمه . أراعى : أحفظ . شئونه : أموره . يسحّ : يصب الرزق . الحشو : ماحُشِى به . بوس : ضرّ . بزّتى : ثوبى . عارة ، أى عارية . تطوره : تقرب منه ؛ يريد أن الفأرة ليس لها فيه ماتأكل ، وأخذ هذا المعنى من قول امرأة وقفت على قيس بن سعد بن عبادة ، فقالت : أشكو إليك قلة الجرذان ،

---

(١) ديوانه ١٠٨

رفع المسهم

فقال : ما أحسن هذه الكناية ! املئوا بيتها خبزاً ولحماً وسمناً . وقد أعاد هذا المعنى منظوماً فى الثالثة والثلاثين ، فقال [1]:

وأمحلَتْ رَبْعِيَ حتى خلتْ من ربعيَ المحلِ جُرْذَانَهُ

وحكى الفنجديهىّ بسنده إلى أبى محمد الحسن بن إسماعيل الضرّاب ، قال: كنت قاعداً أنسخ فى السراج ، وبين يدىّ قدح فيه ماء ، وظرف فيه كعك وزيب ولوز ، فجاءت فأرة فأخذت لوزة فمضت ، ثم عادت فأخذت أخرى فبدّدت الماء الذى فى القدح ، فعادت الفأرة فكببتُ القدَحَ عليها واشتغلت بشغلى ساعة، فإذا فأرة أخرى قد جاءت فشقشقت وبقيت ساعة على ذلك، والفأرة الأخرى تشقشق من داخل القدَح ، فلم تجد حيلة فى خلاصها ، فمضت أختها ، فأتتْ بدينار فوضعته ووقفتْ ، ولم أرفع القدح عن الفأرة ، فمضت وأتت بدينار آخر ، ووقفتْ ولم أرفع القدح ، ففعلتْ ذلك إلى أن أتت بسبعة دنانير، ووقفتْ ساعة ، ولم أخلّ عن الفأرة ، فمضت وأتت بقرطاس فارغ فعلمت أنها لم يبق عندها شىء فخلّيت عن الفأرة .

قال الفنجديهىّ : رويت هذه الحكاية عن أشخاص وأشياخ ثقاة .

وعلى ذكر الفأرة والجرذان كتب أبو حفص الورّاق رقعة إلى الصاحب ، منها: وحال عبد مولانا فى الحنطة مختلفة، وجرذان دارهِ عنها منصرفة ، فإن رأى أن يخلط عبده بما أخصب عنده فعل إن شاء الله تعالى . فوقّع فيها : « أحسنت يا أبا حفص قولا ، وسنحسن إليك فعلا ، فبشّر جرذان دارك بالخصب ، وأمّنها من الجدب ، فالحنطة تأتيك فى الأسبوع ، ولست عن غيرها من النفقة بممنوع. إن شاء الله تعالى » .

قوله « أوى »: أشفق . غِيَر : تغيّرَ وهو من تغيُّر الحال ، وهو اسم واحد بمنزلة الجمع ، والغِيَر مذكّر وجمعه أغيار . هذا قول الكسائى . ويجوز أن يكون

(١) ص ٣٦٥ (المطبعة الحسينية) .

جمعاً ، واحدته غِيرة وهذا قول ابن عمرو ، يقال للدية : غِيرة لأنها تغير الفؤاد إلى الرّضا به . صَبَا : مال . الإسعاف : قضاء الحـــاجة . النّظّارة : الناس الناظرون إليه .

* * *

قال الراوى : وكنت مُتشوقاً إلى مَرْأَى الشَّيْخ لعلّى أعلمُ عِلْمَهُ ، إذا عاينت وَسْمَه ، ولم يَكُنِ الزِّحَامُ يُسْفِرُ عَنْهُ ، ولا يَفْرَجُ لى فأَدْنُوَ منه . فلمّا تقوّضتِ الصُّفُوف ، وأجْفَل الوُقوف ، توسّمْتُه فإذا هو أبو زيدٍ والفتَى فَتَاهُ ، فعرفتُ حينئذ مَغْزَاه فيما أتاه ، وكِدْتُ أَنقضّ عليه ، لأستعْرِفَ إليه . فَزَجَرَنِى بإيماء طَرْفِهِ ، واسْتَوْقَفَنِى بإيماء كفّهِ .

* * *

متشوقاً : متطلعاً . وَسْمه : علامته . يسفر : يكشف . يفرج : يفتح لى فرجة . تقوّضت : تفرّقت ، وأصلها الهدم . أجفل : أسرع المشى . توسّمته : نظرته . مغزاه : مذهبه ومقصده . انقضّ : انحطوانصبّ أستعرف إليه : أعرّفه بنفسى . زجرنى : انتهرنى . إيماض : إشارة بالعين خفية ، وكثيراً ما يصرف الحريرىّ فى المقامات تنبيه أبى زيد لابن همام على نفسه بخفىّ الإشارة ، المغنية عن تصريح العبارة ، وهو مذهب للعرب ، ونبلاء أهل الأدب ، وقد قالوا : رُبّ كناية تغنى عن إيضاح ، رُبّ لحظ يدل على ضمير .

[مختار من الشعر فى إشارة اللحظ]

وفى إشارة اللحظ يقول الشاعر :

أشارت بطرف العين خيفة أهلها إشارة محزونٍ ولم تتكلّمِ
فأيقنتُ أن اللحظ قد قال مرحبًا وأهلا وسهلا بالحبيب المتيّمِ

وقال أبو نواس :

لهـــفى على النّجل العيونِ النُّهّـــد القُبّ البطونِ

الناطقات عن الضمير لنا بألسنة الجفونِ

وقال المهدى بن المنصور :

ومُطلع من نفسه مايسرّه عليه من اللحظ الخفىّ دليلُ
إذا هو لم يُبدِ الذى فى ضميره ففى اللحظ والإيماء منه رسولُ

وقال تميم بن المعتز :

سبحان مَنْ خلق الخدو د شقائقاً تُتَنَسَّمُ[1]
وأعارها للألحاظ فهى بلحظها تتكلّمُ

وقال آخر :

العين تبدى الذى فى نفس صاحبها من المحبّة أو بغضٍ إذا كانا
والعين تنطق والأفواه صامتةٌ حتى ترى من ضمير القلب تبيانا

وقال أعرابى :

وليل لم يقصِّرْهُ رقادٌ وقصّر طولَه وصلُ الحبيب
بمجلس لذّةٍ لم نَقْوَ فيه على شكوى ولا عدِّ الذنوبِ
بخلنا أن نقطّعه بلفظٍ فتَرجمت العُيون عن القلوبِ

وقال الحسن بن بشير :

أماَ تَرَى لى ناظراً شاهداً بالحبّ ، والأعينُ رُسْلُ القلوبِ
ودون إلحاح جُفونى هوًى يخبّر عَمّا فى ضمير الكئيبِ
وأنتَ لا شك به عالمٌ لأنّ عندَ اللحظ علم الغيوبِ

وقال الأحوص :

ودّعتُهنّ ولا شىء يراجِعُنِي إلا البنان وإلاّ الأعين السُّجُمُ[2]

(١) ديوانه ٣٨٦ .
(٢) ديوانه ٢٢٢ .

إذا أردن كلامى عنده عرضتْ من دونه عبراتٌ فارعوى الكلمُ
مسنّدات وقد مالتْ سوالفُها وما بهنّ سوى مَسِّ الهوى ألمُ

وقال مانى الموسوس

بنانُ يدٍ تُشِير إلى بنانِ تَجاوَبتـــا وما تتكلّمانِ
جَرَى الإيماء بينهما رسولا فأحكم وحيَه المتناجيانِ
فلو أبصَرْتنا لغضضت طَرْفاً عن المتحدّثين بلا لسانِ

والباب لا يحصى كثرة فلنقتصر على هذه اللمعة

قوله : «واستوقفنى بإيماء كفه» : أى أمرنى بالوقوف، والإيماء : الإشارة .

* * *

فلزمتُ وَقْفِى ، وأخَّرْتُ مُنْصَرَفِى. فقال الوالى: مامَرَامُك، ولأىّ سَبَبٍ مَقَامُكَ ؟فابتَدرهُ الشيخُ وقالَ : إنَّهُ أنيسى ، وصاحبُ مَلْبُوسِى. فَتَسَمَّحَ عِنْدَ هذا القول بتأنيسِى ، وَرَخَّصَ فى جُلُوسِى . ثمّ أفاضَ عَلَيْهِمَا خِلْعَتَيْن ، وَوَصَلَهُمَا بنصابٍ من الْعَيْنِ ، واسْتَعْهَدَهُمَا أن يَتعَاشرا بالمعروف ، إلى إظلالِ الْيَوْمِ المخُوفِ . فنهضَا مِنْ ناديه ، مُشيدِينِ بِشُكْرِ أياديهِ ، وتبِعْتُهُمَا لأعرِفَ مثواهما ، وأتزوّد من فحواهما .

فَلَمَّا أَجَزْنا حِمَى الوالى ، وأفضيْنَا إلى الْفضاءِ الخالى، أدركنى أحَدُ جَلاوِزَتِهِ ، مُهِيباً بِى إلى حَوْزَتِهِ ، فقلتُ لأبى زيد : ما أظُنُّهُ اسْتَحْضَرَنى إلَّا لِيَسْتَخْبِرَنى ، فماذا أقولُ ؟ وفى أىّ وادٍ معه أجُولُ ؟ فقالَ : بَيِّنْ لَهُ غَبَاوَةَ قَلْبِهِ . وَتَلَعابِى بلُبِّهِ ؛ لِيَعْلَمَ أنّ رِيحَهُ لاقَتْ إعْصَارَا ، وَجَدْوَلَهُ صَادفَ تَيَّارا ، فقلْتُ : أخَافُ أن يتَّقِدَ غضبُهُ

فَيَلْفَحَكَ لَهَبُهُ ، أو يَسْتَشْرِىَ طَيْشُهُ ، فَيَسْرِىَ إليكَ بَطْشُهُ ، فقالَ: إنى أرْحَلُ الآن إلى الرُّها ، وأنَّى يلتقِى سُهَيْلٌ والشُّها !

* * *

مرامك : مرادك. مقامك : تلبّثك ووقوفك. أنيسى : صاحبى الذى أتأنّس به. فتسمّح يتأنيسى ، أى أولانى منه المؤانسة . رخّص : ليّن وسهل . أفاض : صبّ . خلعتين : كسوتين . والنصاب : عشرون دينارا ، والعين : الذهب . استعهدهما : استحلفهما . يتعاشرا : يتصاحبا . إظلال : قرب ودنوّ . اليوم المخوف : يوم موته . ناديه : مجلسه . مُشِيدين : رافعين بشكره أصواتهما . أياديه : نعمه . مثواها : مسكنهما . فحواها : معنى كلامهما ، ويروى : «نجواها» أى سرّها . أجزنا : خلّفنا . أفضينا : وصلنا . الفضاء : المتّسع من الأرض . جلاوِزَته : شُرَطه ، واحدهم جِلواز ، والجلاز عقب ملوىّ على القوس ، وجلزت القوس والسوط والسكين : عصبتهما بالعقب ، فسمّوا جلاوزة ، لأنهم يعصِبون بالسياط الناس عند الضرب ، أولأن السياط لا تفارق أيديهم ، والجاز : الشدّ ، وهم يربطون الناس ويشدّونهم . مهيباً : داعياً . حوزته موضعه الذى يحميه ويحوزه . استحضرنى : طلب حضورى . ويستخبرنى : يسألنى خبره . أجول . أتصرّف وأمشى ، أى علِّمنى فى أى غرض من الحديث آخذ معه . غباوة : جهل ، ورجل غبىّ غير فطِن . تَلعابى بلبّه ، أى لعبى بعقله ، والتّلعاب بنيةٌ للمبالغة . يستشرى : ينتشر . طيشه : خفته من الغضب . يسرى : يسير . بطشه : إيقاعه وتناوله بما يكره .

الرُّها : بلد من كورة الجزيرة تجاورها الرّقة وحرّان ، سمّيت باسم صاحبها الرها بن البلوى بن مالك بن ذعر ، وهو أوّل من نزلها . وقال اليعقوبىّ : الرُّهامن ديار مضر ، وهى مدينة روميّة ذات عيون كثيرة منها عجيبة ، تجرى

الأنهار وبها الكنيسة التى للنصارى ، وهى إحدى عجائب الدّنيا الموصوفة ، وكان بالرُّها رجل ضعيف الحال متجمّل بين الناس ، فخرج ذات يوم من منزله وعليه جبّة له ، فلقيه سائل ، فسأله شيئا يدفئه ، فقال : والله ما أملك غير جُبّتى هذه ، فقال السائل : ألا تحب أن تكون من الذين قال الله تعالى فى حقهم : (وَيُؤْثِرُونَ على أنفسهم ولو كَانَ بهم خَصَاصة) ، فدفعها إليه.

أنّى : كيف . سهيل والسها : كوكبان لا يلتقيان ، لأنّ السها نجم خفىٌّ فى بنات نعش ، وبنات نعش لا تغرب أبداً فى بلاد أرمينية ، وفى سمتها بلاد الشام والمغرب والأندلس ، وسهيل لا يرى فى شىء من هذه البلاد إلا رؤية لا يعتدّ بها فى أيام قلائل ، فلا يلتقى سهيل والسها بوجه ، وإنما أخذ هذا من لفظ عمر بن أبى ربيعة حيث قال :

أيُّها المنكحُ الثّريا سهيلاً عَمْرَكَ الله كيف يلتقيانِ (١)
هى شامية إذا ما استقلّت وسُهَيْلٌ إذا استقلّ يمانِ

والثريا هذه بنت علىّ بن عبد الله بن الحارث ، وكانت موصوفة بالجمال ، وكان عمر يشبّب بها ، فتزوّجها سهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى ، فنقلها إلى مصر ؛ فضرب لها عمر المثل بالكوكبين . وأبدل الحريرى لفظ الثريا بالسها ، وأفاد عدم الالتقاء ، وسهيل هو كوكب أحمر يخيّل إليك لشدة اضطرابه أنه يستدير ، وقال المعرّى فى صفته فأحْسَنَ :

وسهيلٍ كوجنة الحِبّ فى اللوْ نِ وقَلْبِ المحبِّ فى الخفقَانِ (٢)
مستبدًّا كأنه الفارس المعـــلِمُ يبدُو مُعارض الفرسانِ
يُسْرِعُ اللمح فى احمرار كما تُســـرع باللمح مقلةُ الغضبانِ

---

(١) ديوانه ٥٠٣ . (٢) سقط الزند ٤٣٣ .

رفع المسهم

ضرّجتْهُ دمًا سيوف الأعادى فبكت رحمةً له الشِّعريانِ
قدماه وراءه وهو فى العجـ ـز كساعٍ ليستْ له قدمانِ

قالوا : ولا تقع عين بعير على سهيل إلا مات من حينه .

وقد أشار المعرى إلى هذا فى قوله :

لا تحسبَنْ إبلِى سهيلا طالعا بالشأم فالمرئىّ شعلة مقبسِ

ومتى طلع صرفت الإبل كلّها وجوهها عن مطلعه وقابلته بأعجازها :

وقال المتنبى :

وتنكر قتلهمْ وأنا سهيل طلعتُ بموت أولاد الزناء [1]

وفى معنى تخويف ابن همام للسروجى بعقاب الوالى ما حُدّث أن أبا الحسن العباس بن حيون ، دخل عليه فى السجن مَنْ أعلمه أن إبراهيم بن الأغلب يريد قتله ، فلم يجد مفرًا ، فقال لمعلمه بالخبر ، وأحسن فى قوله :

تخوّفنِى بمخلوق ضعيفٍ يهاب من المنية ما أهابُ
له أجلٌ ولى أجـل وكلٌّ سيبلغ حيث بلّغه الكتابُ

* * *

فَلَمَّا حضرتُ الوالىَ وَقَدْ خَلاَ مَجْلِسُهُ ، وانْجلَى تَعَبُّسُهُ ، أخذ يَصِفُ أبا زيدٍ وفضلَهُ . ويَذُمّ الدَّهْرَله . ثم قال : نشدْتُكَ اللهَ ، أَلَسْتَ الَّذِى أَعَارَهُ الدَّسْت ؟ فقلتُ : لا والَّذِى أَحَلَّكَ فى هذا الدَّسْت ، ما أَنَا بصاحب ذَلِكَ الدَّسْت ؛ بَلْ أنت الَّذِى تمّ عليه الدَّسْت ، فازْوَرّتْ مُقْلَتَاه ، واحمَرَّتْ وَجْنَتَاه ، وقال : واللهِ ماأعْجَزَنِى قَطُّ فَضْحُ مُرِيب ،

(١) ديوانه ١ : ١٢ .

رفع المسهم

لا تكشيف معيب؛ ولكن ما سَمِعْتُ بأنَّ شيخاً دَلَّسَ، بَعْدَ ما تَطَلَّسَ وَتَقَلَّسَ، فبهذا تمَّ له أنْ لَبَّسَ . أفتدْرِى أينَ سَكَعَ ، ذَلِكَ اللُّكَعُ؟ قلْتُ : أشْفَقْ مِنْكَ لتعدِّى طَوْرِه ، فظَعَنَ عن بَغْدَادَ من فَوْرِه . فقال: لا قرّبَ اللهُ لَهُ نَوي ، ولا كَلأَهُ أيْنَ ثَوَى ؛ فَمَا زَاوَلتُ أشَدَّ مِن نُكْرِه ، وَلاَ ذُقْتُ أمَرّ من مَكْرِه ، ولولا حُرْمةُ أدبِهِ ، لَأَوْغَلْتُ فى طلَبِهِ ، إلى أنْ يَقَعَ فى يَدِى فَأُوقِعَ به . وإنى لأكره أن تشيع فعلتُه بمَدِينة السَّلَام ، فأفتضِح بين الأنام ، وتحبَطَ مكَانتى عند الإمام ؛ وأصِيرَ ضُحْكَةً بين الخاصِّ والعامّ . فعاهَدَنى على ألاَّ أفُوهَ بما اعْتَمد ، مادُمْتُ حِلاًّ بهذا البَلَدِ .

قال الحارث بن همام : فعاهَدْتُهُ مُعَاهَدَةَ مَنْ لاَ يتأوَّل ، ووَفَيْتُ له كما وفَى السَّمَوْءَل .

قوله : «انجلى» ، أى زال وانكشف . نشدتك : حلّفتك . الدّست الأول هو الثوب ، والثانى : المجلس ، والثالث هو الأول ، والرابع هو الخداع والحيلة ، وقدمه فى الحادية عشرة حيث قال : متى مادَسْته تمّ . ازورّت مقلتاه : اعوجّت عيناه وتغيّر نظرهما . والوجنتان : ما أحاط بالعين من أسفل . أعجزنى : غلبنى . فضح مريب : كشف متهم . تطلّس : لبس الطيلسان ، وهو من لباس الخواص ، وهو كساء خزّ . لبّس: خلَط . سكع : ذهب . اللُّكَع: اللئيم العاجز ، قال بعض أهل العلم: كان يقال: خمس خصال ، من أقبح شىء فيمن كنّ فيه: الحدَّة فى السلطان، والكبْر فى ذى الحسب ، والبخل فى الغنىّ، والحرص فى العالم ، والفسق فى الشيخ ، وثلاث هن أحسن شىء فيمن كنّ فيه: تُؤدَةٌ لغير ذلّ، وجود لغير ثواب ، ونصَب لغير الدنيا .

أشفق : خاف . تعدّى طوره : تجاوز قدره . ظعن : رحل . فوره : حينه . نوى : بعد وسفر . كلأه : حفظه . ثوى : أقام . زاولت : حاولت . نكره : منكره . مكره : خداعه . أوغلت : أبعدت . أوقع به : أتناوله بالشرّ والمكروه والضّرب .

وقال أبو حازم فى معنى دعاء الوالى على السّروجىّ :

إذا استقلتْ بك الرِّكَابُ فحيث لادرّت السَّحابُ
زالت سراعاً وزلت تجرى ببينك الظّبىُ والغُرابُ
بحيثُ لا يُرْتَجى إيابٌ وحيث لا يبلغ الكتابُ

والذى استعمل الناس فى الدعاء على الغائب ألّا يرجع قولُ زهير :

* لَدَى حيثُ ألقتْ رحلَها أمّ قشعمِ *(١)

وقال آخر :

كما سار الحمار بأمّ عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

ومثل هذا رقْية المرأة إذا سافر زوجها ، قالت : نافرك القمر ، وظل الشجر ، شمال تشمله ، ودَبُور تدبره ، ونكباء تنكبه : شبك ولا انتقس ، وتعس ولا انتعش . ثم ترمى أثره بحصاة ونواة وروثة وبعرة وتقول : حصاة حصّ أثره ، ونواة نأت داره ، وروثة راث خبره ، وبعرة تبعره ، ولو أوغل فى طلبه كما ذكر فأدركه لأنشده السّروجى :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خِلْتُ أنّ المنتأى عنك واسِعُ(٢)

---

(١) ديوانه ٢٣ ، وصدره :

* فشدّ ولُم يفزِعْ بيوتاً كثيرَةً *

(٢) ديوانه ٥٥ .

وقال المعرى :

إذا ما أخَفْتَ المرء جُنّ مخافةً وأيقن أنّ الأرض كِفّة حابلِ[1]
يرى نفسه فى ظل سَيْفِكَ قائماً وبينكما بُعد المدى المتطاولِ

وقال محمد بن هانىء رحمه الله تعالى :

فلا مهجة فى الأرض منك منيعة ولوقطرت من ريق أرقَط شَجْعَمِ[2]
ولو أنها نِيطَتْ بمخلَب طائر ولو أنها باتت على قرن أعْصَمِ

وقال أشجع السُّلَمِى فى الرشيد ، حين بعث لإدريس بن عبد الله العلوىّ من اغتاله بالمغرب :

أتظنّ ياإدريس أنك مُفلتٌ كيدَ الخلافة أو يقيك حِذارُ
إن السيوف إذا انتضاها عزمُهُ طالت وتقصُر دونه الأعمارُ
هيهات ألاّ أن تكون ببلدةٍ لايُهتدى فيها إليك نهارُ

ولأبى العرب الصقلى :

كأنّ بلاد الله كفُّكَ إن يَسِرْ بها هارب تجمع عليه الأناملا
فأين يفرّ المرء عنك بجرمه إذا كان يطوى فى يديك المراحلا

قوله :تشيع ، أى تتصل،يقال : شاع الخبر فى الناس، أى اتصل بكل واحد، فاستوى علم الناس به ، ويقال:سهم شائع وشاع، إذا كان فى جميع الدار فاتصل كل جزء منه بكلّ جزء منها ، وأصله فى الناقه، يقال: أوزعت الناقة ببولها إيزاعا، إذا فرّقته ، فإذا أرسلته متصلا ، قيل : أشاعت به . تحبط : تسقط وتبطل . مكانتى : منزلتى . ضُحْكة : يضحك الناس به وتسكين عينها للمفعول،وتحريكها

(١) سقط الزند ١٠٧٥ . (٢) ديوانه ١٢٥ ، والشجعم : الأسد .

رفع المسهما

للفاعل . أفوه : أنطق . اعتمد ، أى قصد من الخداع . حِلاً : مقيما . يتأول : يحتال ليمينه فيحملها فى الباطن على غير ما أوقعها فى الظاهر عليه ، فيريد أنه ثبت له اليمين .

* * *

[قصّة السموءل]

السموءل ، هو ابن عاديا ، يُضرب به المثل فى الوفاء ، وقصة وفائه أن امرأ القيس، لما ألحّ المنذر فى طلبه لحق بعمرو بن جابر بن مازن يستجير به ، فقال له : يا بن حُجْر ، إنى أراك فى خلل من قومك ، وأنا أنفس بك ، أفلا أدلك على رجل لم أر أحسن جواراً منه؟ فدلّهُ على السمول بتيماء ، ووصف له حسبه وحصنَه، فقال : ومَنْ لى به؟ فقال : أُصحبك من يوصلك إليه، فأصحبه الربيع بن ضبع ـ وكان الربيع يأتى السموءل ويمدحه فيحمله ويعطيه ـ فمشوا حتى قدموا على السموءل ، فأنشدوه أشعاراً فعرف حقّهم ، وأنزل هنداً بنت امرئ القيس فى قبّة من أدم ، وأنزل القوم فى مجلس له براح ، فكان عنده ما شاء ، ثم طلب أن يكتب له للحارث بن أبى شمر الغسانىّ بالشّام ليوصّله إلى قيصر ، ففعل ، فاستودعه بنته وأدراعه الخمس ، وهى الفضفاضة ، والصافية ، والمحصنة ، والحريق ، وأم الذيول ، وكنّ لبنى آكل المرار ، وهم أجداده يتوارثن ملكا عن ملك . فمضى إلى قيصر، وأقام عنده حتى جهّزه بجيوش، ثم بعث له بالحلّة المسمومة ، فلما لبسها تقطع لحمه ، ومات . فلما بلغ خبر موته المنذر قصد تيماء حصن السموءل ، فبعث إليه أن يعطيه أدراع امرئ القيس وما ترك عنده من المال ، فقال له : إنما أدفع ذلك لابنته ولورثته ، فحاصره فى الحصن ، حتى أخذ ابناً له صغيراً ، فقال للسموءل إما أن تعطينى ماترك امرؤ القيس أو أقتل ابنك وأنت تنظر إليه ، فقال له : والله لا وفيت له فى حياته ، وأغدره بعد وفاته ! اذهب ، فشأنك بابنى فافعل به ماشئت ،

رفع المسهم

فذبحه وهو ينظر إليه ، ولم يرض بالغدر ، فلما جاء الموسم ذهب بالدروع فدفعها لابنته وورثته ، وقال :

وفيتُ بأدرع الكِندىّ إنى ... إذا ما خان أقوامٌ وفيتُ
وقالوا إنه كنز عظيم ... ولا والله أغدر ماحييتُ[1]
بَنَى لى عاديا حصناً حصيناً ... وبئراً كلّما شئت استقيت

فضرب به المثل فى الوفاء[2] . وانظر فى الثلاثين ابتداء الحكاية .

(١) موضعه فى الأغانى :

وأوصَى عاديا يوماً بألاَّ ... تُهَدِّم يا سموءلُ مابنيتُ

(٢) الخبر والشعر فى كتاب الأغانى ٦ : ٣٣٦ ، ٣٣٧ .

رفع المسهم

المقامة الرابعة والعشرون النحوية

حكى الحارث بن همام قال: عاشَرْتُ بقطيعة الرَّبيع، فِي إبّان الرَّبيع، فتيةً وجوهُهُمْ أَبْلَجُ من أنواره، وأخلاقُهُمْ أَبْهَجُ مِنْ أَزْهارِهِ، وألفاظُهُمْ أرقُّ مِنْ نسيمِ أَسْحَاره.

فاجتليتُ مِنْهُمْ مَا يُزْرِي على الرَّبيعِ الزَّاهِرِ، ويُغْنِي عَنْ رنَّاتِ الْمَزَاهِرِ؛ وكنّا تقاسَمْنَا عَلَى حِفْظِ الوداد، وحَظْرِ الاستبداد، وألاّ يَتفرَّدَ أحَدُنا بالْتذاذ، ولا يَسْتأْثِرولو بَرَذاذ. فَأجمعْنَا فى يومٍ سَمَا دَجْنُهُ، وَنَمَا حُسْنُهُ، وحَكَمَ بالاصطباحِ مُزْنُهُ، عَلَى أنْ نَلْتَهِيَ بالْخُرُوجِ، إلى بعض المرُوج؛ لِنُسرّح النَّوَاظِرَ، فى الرِّياضِ النّواضِرِ، ونَصْقُلَ الخواطِرَ، بشِيمِ الْمَوَاطِرِ؛ فَبَرَزْنا ونَحنُ كالشّهورِ عـــدّه؛ وكنّا كَنَدمانَيْ جَذِيمَةَ مَوَدَّة.

* * *

عاشرت: صاحبت.

قطيعة الربيع: بلد معروف، والربيع حاجب المنصور ومولاه، وهو [والد][1] الفضل بن الربيع بن يونس بن محمد بن عبد الله بن أبى فروة، وكان أقطعه المنصور بلداً بالعراق فبناه، وبنى الناس معه، حتى صار فيه عمارات كثيرة، وهى محلّة قريبة من كرخ بغداد فى أعلى غربية بغداد، فنُسِبتْ إلى الربيع.

إبّان: وقت. فصل الرّبيع: النّوار. أبلج: أحسن لوناً وأنعم أنواره:

---

(١) زيادة من معجم البلدان.

رفع المسهم

أزهاره ، ونوّر النبات وأنور صار فيه النّوْر ، وأبهج : أحسن لوناً ، والبهجة: حسن اللون ونسيمُ السّحر ريحه اللينة الباردة ، وفى حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم: « يقول الله تعالى للجنّة كلّ يوم : طيبى لأهلك فتزداد طيباً » ، فذلك البَرْد الذى تجده الناس بسحَر ذلك اليوم .

وقال ابن عمّار فى نسيم السّحَر على الرياض فأحسن :

ويومٍ لَنَا بالسّدّ بين معاطفٍ ... من النّهر تنساب انسيابَ الأراقم
بحيث اتخذنا الروض جاراً تزورُنا ... هداياه فى أيدى الرّياح النّواسم
يبلّغنا أنفاسَه فيردّها ... بأعطرِ أنفاس وأذكى لناسم
تَسير علينَا ثم عنّا كأنّها ... حواسدُ تمشى بيننَا بالتّمائم

اجتليت : نظرت . يزرى : يقصر ، وتقول : زريتُ عليه إذا عبتَ عليه ما فعل ، وأزريتُ به قصّرْت . الزاهر : الناعم . رنات : أصوات . المزاهر : عيدان الغناء . تقاسمنا : تحالفنا . حَظْر : منع . الاستبداد : الانفراد بالشىء . يستأثر : يختص : رذاذ : أقل المطر ، أى اتفقوا ألاّ ينفرد واحد بشىء دون أصحابه . أجمعنا : عزمنا : سما دَجْنُه : ارتفع سحابه : نما : زاد . الاصطباح : شرب الخمر بالسّحر . مزنه : مطره ، وفى مثل بكورهم يقول عبد الجبار الصّقلى[1] :

بادِرْ إلى اللّذاتِ وارْكَبْ لها ... سوابقَ اللّهو ذواتِ المراحْ[2]
من قبل أنْ ترشف شمسُ الضّحى ... ريقَ الغوادى من ثُغور الأقاحْ

نلتهى[3] : نتسلى ونتفرج . والمروج : المواضع المنخفضة الخصيبة ، واحدها

---

(١) هو أبو محمد عبد الجبار بن حمديس ، وشهرته ابن حمديس .
(٢) ديوانه ٨٩ ، وفيه: « باكر إلى اللذات » .
(٣) ط : « انتهى » التصحيف .

مَرْج ، وسمى مَرْجًا ، لأنّ البهائم تمرج فيه أى تسيب . نسرّح : نسيب النواظر : العيون ، وبالضّاد واعم الأزهار . والخواطر : الأذهان . شيم المواطر : نظر السحاب . برزْنا : خرجنا ، وجعل خروجهم فى السّحر ، لأن أول النهار أحمد أوقات الشرب ، فقال : أوّل النهار ، ألا ترى الدّواء يبكّر به ، والمسافر يُدلج لحاجته ، لأن العقول أوّل النهار أزكى ، والفطن أصحّ ، وقال العَطَوىّ :(١)

قبّح الله أوّلَ الناس سنّ الشرب ظهراً ماذا أتى من خسارِ !
مجلس مونِقٌ وكأس وندما ن وتأخيرها إلى الإظهار
نكتة فى السرور بادية الشّـ ـين لأهل العقول والأبصار
إنّ شرب النبيذ سيرٌ إلى اللّه ـو وخير المسير صَدْرُ النّهار
ما رأينا لنشوة الصبح شكلاً كنديم مساعد وعُقارِ
وغناء يفتّ فى عضد الحا ـم ويُزرى على النُّهى والْوَقَارِ
وأحاديث فى خلال الأغانى كانفتاح الرّياض غِبَّ النّهار

وبعضهم يمدح الغَبوق ، ويذم الصبوح ، وابن المعتز ممّن يذهب إلى ذلك.

[جَذيمة وندِيمَاه]

قوله : كندمانى جذيمة ، أى صاحبيه على الخمر ، واسمهما مالك وعَقيل ، وجذيمة ابن مالك بن تَيْم الأزدىّ ، وكان مَلك أيام الطوائف بشاطىء الفرات وما والى ذلك إلى السواد ستين سنة .

قال ابن الكلبى : جذيمة : أول من ملك قُضاعة بالحيرة ، وأوّل من حَذَا

---

(١) ط : « الاطوى » ، تصحيف .

النعال[١] وأدلج من الملوك ، ورُفِع له الشمع ، وكان من أفضل ملوك العرب رأياً ، وأظهرهم حزماً ، وهو أوّلُ من استجمع الملك له بأرض العراق ، وغزا بالجيوش ، وكان به بَرَص ، فكنت العرب عن البَرص إعظاماً فقالت له : جَذيمة الوضّاح ، وجَذيمة الأبرش .

وكان غزا طسْماً وجديساً فى منازلهم ، فصادف حسان بن تُبّع ، قد أغار عليهما ، فانصرف جذيمة . وصادفت خيول تبع سرّية له فقتلوهم ، فبلغ الخبر جذيمة فقال[٢] :

رَبّما أوفيتُ فى عَـلَمٍ ترفَعْنَ ثوبى شِمَالاتُ[٣]
فى فتوٍ[٤] أنا كالُهُمْ مِنْ بلايا غزوةٍ ماتُوا
ليت شعرى ما أماتهمُ نحنُ أسرينا[٥] وهم باتوا

وكان جذيمة قد تنبّأ وتكهّن ، واتخذ صنمين ، وسماهما الضيزنين[٦] ، ومكانهما بالحيرة معروف .

وغزا إيادا بعين أباغ ، فبعثوا قوماً منهم سرقوا منهم الضيزنين ، وأصبحوا

---

(١) حذا النعل : قدرها وقطعها ، وفى المعارف لابن قتيبة ٥٥٤ : « وأول من حذا النعال جذيمة الأبرش بن مالك ، وهو أول من وضع المنجنيق وأدلج من الملوك ، ورفع له الشمع ، وكان ينادم الفرقدين ذهابا بنفسه ، وكان يشرب قدحا ، ويصب لكل نجم قدحا فى الأرض ؛ حتى نادمه مالك وعقيل .

(٢) وردت أبيات هذه القصيدة فى سيبويه ٢ : ١٥٤ وابن سلام ٣٢ ، ٣٣ ، والأغانى ١٤ : ٧٣ والمؤتلف للامدى ٣٤ والخزانة ١ : ٥٠٧ ، وفى تاريخ الطبرى ١ : ٦١٣ ، ٦١٤ أحد عشر بيتاً ، ونقل عن ابن الكلبى قال : ثلاثة أبيات منها حق والبقية باطل .

(٣) أوفيت : أشرفت . والعلم : المرتفع من الأرض . والشمالات : جمع شمال من الرياح ، والنون فى « يرفعن » تأكيد للفعل ضرورة .

(٤) ط : « فتون » تصحيف . وفتو : جمع فتى . وكالئهم : حافظهم .

(٥) الطبرى : « ونحن أدْجَلْنا » .

(٦) ط : « الضيرتين » تصحف .

رفع المسهم

بهما فى إياد ، فأرسلوا إليه : إن صنميك أصبحا عندنا ، زهدا فيك ورغبة فينا ، فأعطنا عهداً ألا تغزونا، ونردها إليك. ففعل .

وكان بلغه أن غلاماً من لَخمْ يسمى عدىّ بن نصر مقيم فى أخواله من إياد ، وله ظرف ولُبّ وأنه لحسنٌ أن ينادم الملك ، ويقوم بمجلسه . فاشترط على إياد أن يبعثوا مع الصنمين بعدىّ بن نصر، وكان له جمال وظرف ، فدفعوه إليه معهما فضمّه إلى نفسه . وكان ينادمه ويَسقيه فتعشّقته رَقاش أخت جذيمة ، فبعثت إليه : إذا سقيتَ أخى واستنشَى ، فاخطبنى لك ، وأشهِدْ عليه ، ففعل . فلما طرب جذيمة خطبها ، فأنعم عليه ، وأشهد عليه ، فقال له : عرّس بأهلك ، ففعل . فلما أصبح غَدا على جذيمة مضرّجًا بالطّيب ، فقال له : ماهذه الآثار ؟ فقال : آثار العرس ، قال : وأىّ عرس ؟ قال : عرس رقاش ، فأكبّ جذيمة على الأرض، وفرّ عدىّ، وطلبه جذيمة فلم يدركْه. وقيل : ظَفِر به . وقال لرقاش:

حَدّثينى رَقاشُ لا تَكْذِبينى أبحرٍ زنيتِ أمْ بهجينِ
أم بعبدٍ فأنت أهْلٌ لعبدٍ أم بدونٍ فأنت أهلٌ لدونِ

فقالت له :

أنت زوّجْتَنى وما كنتُ أدرِى فأتانى النّساء للتزيينِ
ذاك من شُرْبك المدامة صِرْفًا وتماديك فى الصّبا والمجونِ

فحبسها فى قصرها، فاشتملت على حَمْل[1] فأتت بغلام ، وسمته عمراً ، وربّته حتى ترعرع ، فجمّلته وعطّرته وألبسته كسوة مثله ، ثم أزارته خاله فأعجب به ، وألقيت عليه محبّته، وخرج جذيمة فى سنةٍ قدأ كمأت، وبُسط له فى روضة، وعمرو

(١) الطبرى : ١ : ٦١٥ : « على حبل »

رفع المسهم

مع غِلمة يجتنون الكمأة ، فكانوا إذا أصابوا كمأة طيبة أكلوها ، وإذا أصابها عمرو ، خبأها ثم أقبلوا يتعادَوْن[١] وعمرو يقدمهم ، ويقول :

هـذا جنايَ وخيارُه فيهْ إذ كلّ جانٍ يدُه إلى فيهْ

فالتزمه جذيمة ، وحلّ منه بمكان . ثم إن الجنّ استهوته[٢] ، فطُلِب زماناً ، وأرسَل فيه فى الآفاق ، فلم يجد له خبراً . ثم إن عمراً أوفى على مالك وعقيل ابنى فارج بن مالك بن كعب بن القيس بن حمير بن قضاعة ، وقد نزلا منزلا ، وهما متوجّهان إلى خاله جَذيمة ، ومعهما قَيْنة ، يقال له أم عمر ، وهى تغنّيهما وتسقيهما ، فرأت عمراً وقد تلبّد شعره وطالت أظفاره ، وساءت حاله ، فاحتقرته فرمت إليه بكُراعٍ[٣] من طعامها ، وناولتْهما ، وأوكأت زِقّها ولم تناول عمرا شيئاً ، فقال عمرو :

صَدَدْتِ الكأس عنّا أمّ عمرٍو وكان الكأسُ مجراها اليَمينا[٤]
وما شرّ الثلاثة أمّ عمرٍو بصاحبك الّذى لا تصبحينا
فما شرب الشّراب كمثل عمرو وما نال المكارم فاصبَحينا
فإلاّ تنكرى عمرا فإنى أنا ابن عدىّ حقاً فاعرفينا
وخالى لا أبالك ذُو المعالى جذيمة كيف ويحكِ تنكرينا!

فقالا له : مَنْ أنت يافتى ؟ قال : أنا عمرو بن عدىّ ، فضمّاه إليهما ، وغسلا رأسه ، وأخذا من شعره . وقلّما أظفاره ، وألبساه بعض الثياب التى كانت معهما ، وقالا : ما كنا نُهدى جذيمة أنفسَ من ابن أخته ، ثم وَرَدا به على جذيمة فسرّ به سروراً شديداً ، وقال : لهما تمنّيا ، فسألاه أن يكونا نديميه ماعاش وعاشا ،

(١) تعادى القوم ، أى تباروا فى العدو .
(٢) استهوته الجن ، أى ذهبت بهواه وعقلة .
(٣) الكراع : مستدق الساق من البقر والغنم .
(٤) البيتان الأولان ينسبان لعمرو بن كلثوم ؛ وهما فى معلقته ص ٢١١ — بشرح التبريزى

فنادماه أربعين سنة ، ما أعادا عليه حديثاً ، فضرب بهما المثل فى تأكيد الألفة .

ونال مالك بن نويرة فى مالك :

وكنّا كندمانىْ جَذِيمة حِقْبةً ... من الدّهر حتى قيل لن يَتَصَدَّعَا[1]

فلمّا تفرقنا كأنىّ ومالكاً ... لطول اجتماع لم نَبِتْ ليلةً مَعَا

وتمثلت بهما عائشة رضى الله عنها عند قبر أخيها عبد الرحمن .

وقال أبو خراش الهذلى يرثى أخاه:

تقول أراه بعد عُرْوَة لاهياً ... وذلك رزء لو علمت جليلُ[2]

فلا تحسبى أنْ قد تناسيت عهدَه ... ولكنّ صبرى يا أميمَ جميلُ

ألم تعلمى أن قد تفرّق قبلَنا ... خليلاَ صفاء : مالكٌ وعَقِيلُ

وغزا جذيمة عمرو بن الظرب بن حسان بن أذينة السميذع العملبق من العماليق ، ومنهم قوم من حمير . وكان ملك الجزيرة وملك الحضر، وهى مدينة قديمة بين دِجْلة والفرات ، فهزم جذيمة جيوش عمرو وقتله وفرّق جموعه ، وقال فى ذلك شاعرهم :

كأنّ عمرو بن برقا لم يكن ملكاً ... ولم تكن حوله الرّايات تختفقُ[3]

لاقى جذيمة فى شعواء متعلةٍ ... فيها حراشِفُ بالنيران ترتشقُ

[الزباء]

فملكت بعده الزّباء ابنته واسمها نائلة .[4]

قال ابن الكلبىّ : ولم يكن فى عصر الزباء أجمل منها جمالا ، وأكمل

---

(١) من قصيدة مفضلية ص ٢٦٧ .

(٢) ديوان الهذليين ٢ : ٢١٦ .

(٣) البيتان فى تاريخ الطبرى ١ : ٦١٨ بنسبتهما إلى الأعور بن عمرو بن هناءة بن مالك بن فهم الأزدى وفيه : «عمرو بن تربى» .

(٤) خبر الزباء وجذيمة فى كتاب المقتالين من الأشراف ١١٢ ـ ١١٥ .

منها كمالا ، وكان لها شعر إذا مشت يتدلّى وراءها، وإذا نشرته جلّلها، فسمّيت الزباء ، لكثرة شعرها ،فجمعت خيل أبيها وغزت بالجيوش مَنْ حواليها من الملوك، فذلّلتهم ، فضُرب بها المثل فقيل : أعزّ من الزباء ، واشتهر عنها علوّ الهمة ، وسموّ القدرة ، وقوّة المنَعة ، ومَضاء العزم ، وبذْل الأموال . فلما استحكم مُلْكها أرادت أن تغزُوَ جذيمة لتُدرك فيه ثأر أبيها ، فنهتها أختها زَبيبة عن ذلك وقالت : لاطاقة لكِ به ، ولكن ابْنِي أمرَك فيه على المكر والحيَل . فبعثتْ إلى جذيمة تخطبه على نفسها،ليتّصل ملكه بملكها ، فيصيرا بذلك أعزّ الملوك ـ وكان بلغه عن جمالها ماأطمعه فى الظَّفَر بها ـ فاخبر أرباب دولته بمخاطبتها إيّاه ، فكلّهم أشار عليه أن يتزوّجها، إلا قصير بن سعد[1] بن عمرو ـ وكان لبيباً عاقلاً له عزم وحزم ، وكان خازنَه وعميد دولته ـ فإنه قال له : هذا رأى فاتر ، لأن الزباء قتلتَ أباها والدم لا ينام ، ولك فى بنات الملوك الأكفاء متّسع ، فقال له الملك : إنّ النفس إلى ما تحبّ توّاقة ، وإن كان القدَر قد جرى بشىء فلا مفرّ عنه .

وكتبت إليه الزباء تطلب منه قدومه عليها للنكاح ، وقالت له : لولا أنّ السعى فى مثل هذا للرّجال أجمل، ولهم ألزم ، لسرتُ إليك. وأهدت مع كتابها من العبيد والسلاح والأموال والذهب هدّية سنية ؛ فلما وصلت أبهجته ، وحسب أن ذلك لفرط رغبتها فيه ، فشاور قومه وابن أخته عمرا ، فشجعوه على المسير إليها ، واستخلف عَمْراً على ملكه ، وسار فى خواصّه حتى نزلوا بالفُرْضة ، فشاور خواصّه وقصيرا فى الجملة ، فأشاروا عليه بالمسير إلا قصيرا ، فإنه قال : أيّها الملك كلّ عزم لا يؤيّد بحزم فآخره إلى فساد ؛ ولولا أن الأمور تجرى على المقدور ، لعزمت على الملك ألاّ يفعل ، فقال جذيمة : الرأى مع الجماعة ، فقال قصير : أرى القدَر سابق الحذر، ولا يطاع لقصير رأى . فلما قرب من ديارها أرسل إليها يعلمها

(١) ط : « سعد » ـ تحريف .

بموضعه ،فأظهرت السرور به ، وأخرجت له هدايا وأنواعا من الأطعمة والأشربة، فقال لقصير : كيف ترى ؟ فقال قصير : مَنْ لم ينظر فى العواقب لم يأمن المصائب ، فاستدرِك الأمر قبـــل فوته ، وارجع فإنّ فى يديك بقية تستدرِك بها الصّواب، وإن كنتَ لابدّ فاعلا فإن القوم إنْ تلقَّوْك غداً يجىء قوم ويذهب قوم، فالأمر فى يديك،وإن تلقّوك صَفّيْن فإذا توسطتَهم وأحدقوا بك ، فقد ملكوك ، وهذه العصا — وهى فرس لجذيمة تستبق الطير — فسأعرضها لك فاركبها لتسلم عليها ، فإنه لايُشَقّ غبارها ، فأرسلها مثلا .

فلما كان غد لقوه صفين ، فلّما توسّطهم انقضُّوا عليه ، فقال لقصير: صدقتَ فما الرأى ؟ فقال له: بِقّة تركتُ الرأى ، وهذه العصا ، اركبها ، فشغلَه الأمر عنها . فلما رأى قصير الجيوش نسير بجذيمة أعطى العصا عِنانها ، فهوت به هُوِىّ الرّيح ، فتطاول إليه جذيمة ينظره ، فقال: ويل له جذيمة؛ فجرت به إلى غروب الشمس .

ـ قال الأصمعى رحمه الله تعالى : لم تقف حتى جرت ثلاثين ميلا ، ثم وقفت فبالت ، فبُنى على الموضع بُرْج يسمى برج العصا ـ وأشرفت الزباء من قصرها تنظر إلى جذيمة ، وهو يساق ، فقالت: ماأحسنَكَ من عروس يزف إلىّ ! فدخلوا به إليها ، وحولها ألف وصيفة ، لاتشبه واحدة صاحبتها فى خَلْق ولازِىّ ، وهى بينهنّ كالقمر حفت به النجوم ، فأمرت بالأنطاع فبُسطت ، وقالت للوصائف : خذن بيد سيدكنّ وبَعْل مولاتكنّ، فأجلسنه على الأنطاع ، ففعلن به ذلك ، ثم كشفت له عن شَعْرتها [1] ، فرأى شعرها قد طال حتى عقدته من وراء ظهرها ، فقالت له :ياجذيمة أشوارذات عروس ؟ قال : بل شوار بظراء تِفَلة ،وأمْر غدر قد بلغ المدى [2] ، فقالت : والله ما ذاك من عدم المواس ، ولـكنهاشيمة أناس .

---

(١) الأشعران : جانبا الفرج ، وفى ط : « شعرتها » .

(٢) فى المقتالين : فقالت : ياجزيمة ، أذات عروس ترى ، قال : بلغ المدى وجف الثرى وأمر غدر أرى .

رفع المسهم

ثم أمرت به فسُقِى بالخمر حتى أخذت فيه ، وكانت الملوك لا تضرب أعناقها إلاَّ فى الحرب[١] ، ثم أمرت أن تقطع رواهشه[٢] ، وقالت : تحفّظن بدمه ، لأنه إن قطرت من دمه قطرة فى غير الطشت طُلبَ بدمه ، فجرى دمه فى طشت ذهب ، فلما ضعفت يداه سقطتا ، فقطرت على النّطع من دمه قطرات ، فقالت : لاتضيّعُوا دم الملوك ، فقال لها « لايحزنك دمٌ ضيّعه أهله » ، فذهبت مثلا ، فقالت : إن دماء الملوك شفاء من الكلَب ، ووالله ماوفّى دمك ولا شفى قتلُك ، ثم أمرت به فدفن .

وكان عمرو بن عدى يخرج كلّ يوم لبعض الحيرة ، يستطلع أمر خالِه ، فنظر يوما إلى فارس قد أقبل ، فأشرف عليه قصير ، فقال له : ماوراءك ؟ فقال له : سعى القدر بالملك إلى حتفه ، فاطلب بثأره ، فقال عمرو : وأىّ ثأر يُطلب من الزّبا ، وهى أمنع من عُقاب الجوّ ! فقال قصير : والله لاأنام عن طلب دمه مالاح نجم ، فاجْدَع أنفى واضرب ظهرى ، ودعنى وإياها . فقال عمرو : ما أنت لذلك بأهل ، وقد علمتُ نصحَك لخالى . فقال : خلّ عنى إذًا ، فجدَع أنفه ولَحِق بالزباء ، فقالت : ماجاء بك؟ فأشار بظهره وأنفه ـ فقالت العرب : «لأمر ماجدع قصير أنفه!» فقالت : ياقصير ، بيننا دم خطير ، فقال : يا ابنة الملوك العظام لاثأر ولا قوَد ، ولقد أتيت فيه على ما يأتى مثلك فى مثله ، وقد جئتك مستجيراً بك من عمرو . فإنه علم أنى أشرت على خاله بالمجىء إليك ، فجدع أنفى وأذنى ، وأوجع ظهرى ، وحال بينى وبين مالى وولدى ، فاستجرتُ بك لعلمى أنّى لا أكون مع أحد أثقلَ عليه منك ، فقالت له : أهلاً وسهلا ـ وكان يبلُغها من رأيه وحزمه ـ فاحتضنته وأنزلته واصطفته ، فلما وثقت به ، أخذت تستشيره فى أمورها . فقال لها يوما : إن عمرا يطلبك بخالِه ، والرأى أن تتخذى نفقا لعلك تحتاجين إليه ، فقالت له :

(١) بعدها فى مجمع الأمثال : « تكرمة لهم » .
(٢) الرواهش : « عروق ظاهر الكف » .

إنّى قد اتخذته تحت سريرى ، وخرجت به تحت سرير أختى ـ وكان الفرات يشق بين قصيريهما ـ فأظهر لها السرور ، ثم قال لهـا : إنّ لى بالعراق أموالاً كثيرة تصلح بالملوك فإن جهزتنى بمال للتجارة ، توصلت فيه إلى أخذ تلك الذخائر وننقلها إليك ، فجهّزته . فاحتال حتى وصل إلى عمرو، فجهّزه بطُرَف من الجواهر والخزّ والديباج والأسلحة ، فرجع بها ، فلما تحققت نصحه ، أرسلته إلى العراق ثالث سفرة ليضرب لهـا بها عدّة من السلاح ، ويشترى لها خيلاً وعبيدا لتجهّز جيشا إلى مَنْ حواليها من الملوك ، فمشى فيما أمرته به ، وتوصل إلى عمرو ، وقال: قد أصبتُ الفرصة من الزّبّاء، فقال عمرو: قل أسمع، ومرأفعل، فأنت طبيب هذه القَرْحة ، فقال : الرجال والمـال ، فقال : حكمك فيما عندى مسلّط، فعمد إلى ألفى رجل من أهل القتال ،وجعلهم فى غرائر سود ، وجعل سلاحهم السيوف والحَجَف[1] ،وجعل رءوس الغرائر مربوطة من داخلها،وجعل عمرا فى الحملة ، وساق الخيل والعبيد ، فلما قاربها بعث إليها البشير بسلامة قصير وكل ماجاء به ، فسألت عن العِير أين نزل ؟ فقيل لها : بالغوير ـ وكانت تنظره من غير طريق الغوير ـ فقالت: عسى الغوير أبؤسا ، وتقدّم قصير، فدخل عليها فبشّرها ، فرقيَتْ سطحا عاليا لتنظر مجىء الإبل،فنظرت قوائمها تسوخ فى الأرض لما عليها من الأثقال ، فقالت : يا قصير :

ما للجمال مشيُها وئيدَا أجندلاً يحملن أم حديدا !
أم صَرَفانا[2] بارداً شديداً أم الرجال جُثَّما قعـودا

وكانت قالت لجواريها : إنى أرى الموت الأحمر فى الغرائر السود ، فذهبت مثلا

فدخلت الجمال المدينة ، فجسّ بواب بمخصرة فى يده غرارة على آخر بعير ،

(١) الحجف : بالتحريك : التروس من جلود بلا خشب ولا عقب .
(٢) الصرفان . تمر رزين صلب .

رفع المسهم

فأصابت المحصرة خاصرة رجل فضرَط فصاح: الشرّ الشرّ ، فأظهروا علامة كانت بينهم ، فحلّوا رءوس الجوالق ، فخرج منها ألفا دارع بألفي سيف ، فصاحوا: يالثأر الملك المقتول غدراً ! وهربت الزباء تطلب النفق إلى تحت الفرات ، فسبق عمرو إلى بابه مع قصير ، وكانت صورة عمرو مصورة فى جانبها ، فعندما رأته عرفته ، وكانت جعلت تحت فصّ خاتمها سمّ ساعة فمصّت الفصّ ، وقالت : بيدى لا بيد عمرو . فسقطت ، وعمرو وقصير يضربانها بالسيف ، فماتت بين السم والسيف ، فاستباحوا بلدها بما فيه ، واستولى عمرو على مملكتها . واتخذ عمرو الحيرة دار ملكه، وتوارثها بنوه واحدا واحدا إلى النعمان بن المنذر، وهو الذى أدرك زمن المصطفى صلى الله عليه وسلم وقتله كسرى ، وهو آخرهم ، وكان مقتل والد الزباء عند بعث عيسى عليه السلام . وقال ابن دريد :

وسيفُ عمرو أستَعْلتْ به همتُه ... حتى رمى أبعدَ شأو المرتَمَى (١)
فاستنزل الزّباء قسراً وهى من ... عُقاب لوح الجوّ أعلى منتهى

* * *

إلى حديقةٍ أخذتْ زُخْرُفَها وازّيّنَتْ، وتنوّعتْ أزاهيرُها وتلوّنتْ، ومعنا الكميتُ الشّموس، والسقاةُ الشُّمُوس . والشّادِى الذى يُطرِبُ السّامِعَ ويُلْهِيهِ ، وَيَقْرِى كُلَّ سَمْعٍ ما يشتهِيهِ . فلمّا اطمأنّ بنا الجُلُوسُ ، ودَارَتْ علينا الكُئوس ، وَغَلَ عَلَيْنَا ذِمْرٌ ، عَلَيْهِ طِمْرٌ ، فتجهّمناهُ تَجَهُّمَ الغِيدِ الشِّيبَ ، ووجَدْنا صَفْوَ يومنا قدْ شِيبَ .

* * *

[فصل فى الرياض والبساتين وبعض ما ورد فيها من الشعر]

قوله : إلى حديقة أخذت زخرفها وازينت .

---

(١) المقصورة ١١٩

رفع المسهم

نُريد أن نصل باب الرياض والبساتين، إذ هى جامعة ألوان لم تدخلها الصنعة، ولم تمازِجْها الكلفة، مع بديع أزهارها التى سمّاها الله سبحانه وتعالى زينة، وزخرفاً فقال تعالى: ﴿حتّى إذَا أخذت الأرضُ زخرفها وازّيَّنَت﴾، وأن نجتنِيَ فيه بعض ماقالت العرب، ونقلته الرواة من الشعر المستحسن، والتشبيه المشاكل، فإن جُلّ النفوس مستأنسة به ونازعة إليه، ومرتاحة لذكره، ومشتاقة إلى زمانه، ولاتكون الرياض مونقة، والأزهارُ مشرقة، إلاّ فى اعتدال الزمان، وجدّة الأيام، وهى إذا حلّت الشمس فى برج الحمل، كما قال الحسن:

أما تَرى الشمسَ حلَّت الحملاَ ... وقام وزنُ الزمان واعتدلاَ (١)
فاشرب على جدّة الزمان وقدْ ... أصبح وجه الزمانِ مقتبلاَ
وغنّت الطيرُ بعد عُجْمتَها ... واستوفت الخمرُ حولَها كَملا

قال الأصمعى رحمه الله تعالى: سألت أعرابيًّا عن الغيث، فقال: عُطِّلت الحياض، وأشرقت الرياض، وأخرجت الأرض زخرفها، وأنبتت من كل زوج بهيج.

وقيل لأعرابىّ: أىّ شىء رأيتَ أحسن؟ فقال الأعرابىّ: ظباء راتعة، فى رياض يانعة، والشمس طالعة.

وقيل لآخر: صف لنا الربيع وأوحزْ، فقال: هو صديق النّفس بريحانه، وملِك الطّرف بريعانه، مع أنه أشكل بالشبيبة، وباعث الشهوة البعيدة.

وقال إبراهيم بن السدّى: خرجت أريد نزهة نهر الأُبُلّة مما يلى كاظمة تميم وقصر مَعْبد، حتى غوّرت فى مبنى أتخيّل الرياض، وأجيل ناظرى فى مساقط الغيث، حَتى دفعتُ إلى أعرابىّ عند روضة غناء، عميم نبتها، زاهر نورها، يطيف بها، فقلت: يا أعرابىّ، أحسنٌ عندك ماترى؟ فقال: كلاَّ والله، سماء

(١) ديوانه ٣١٣

مظلّة وأرض مقلة ،تضحك هذه عن بكاء هذه ، فما شئت من درّة بيضاء ، وياقوتة حمراء ، وزمردة خضراء ، قد نظمتها أيدى المزن فى نحور الصعيد .

وقال يزيد بن ماهان الأوسىّ : أتيت أرضَ السماوة فى أنفٍ[1] من الربيع، وقد اكتهل النبت ، فلما جزتُ ساحةَ الحىّ دفعت إلى جوار كأنهنّ دُمى العاج ، يمشين كقضيب البان ، وبين أيديهنّ روضة مشرقة، وهنّ يَطُفْنَ بها، ويهبْن الولوج فيها . فقلت : مالكنّ لاتلجن الروضة ، فهى أوطأ لأقدامكنّ، وأقرب لإثارة أرَجها من أنوفكنّ ؟ فقالت إحداهن : أحرام عندكَ أن يطأ بعضنا خدود بعض ؟ قلت : بلى والله ، قالت : فوجْه الأرض أحق بالتحريم أن يحصد أو يُتَوسّد .

وبعث الحجاج إلى عبد الملك بجاريتين ، وكتب إليه : هما عندى بمنزلة روضتين من رياض السّماوة، جاد الربيع أوّله وآخره عليهما، فاعتمّ نبتهما ، ونوّر زهرهما، وحسُن منظرهما ، وقد بعثت إلى أمير المؤمنين بهما مباركا له فيهما .

وقد ذكرت الشعراء الغيثَ والرياض بألفاظ مستحسنة ، ومعان مستظرفة، وتمثيل رائع ، وتشبيه رائق ، يبعث السرور ، وينفى لوعة المحزون، ويجلب أريحية الفتوة والشباب ،فنذكر هنا من محاسن أشعارها ولطائف مذاهبها فى ذلك مانرجو به أن يفىَ بالغرض الذى قصده وضمّنه الحريرىّ صدرَ هذه المقامة ونوافقه ، ونشرح منزعَها الشريف فى ذلك ونحققّه إن شاء الله تعالى .

أنشد السِّيرافىّ رحمه الله تعالى يصف روضة :

نضّاخة تملأ العينين بهجتُها ... فيحاء حُفّتْ بأنواع الرياحينِ
فى ظل آس وجرجير ونرجسةٍ ... وسوسَن زان وردا بين نسْرينِ
وكرْمة ذات أعنابٍ مذلّلة ... من كلّ أقطارها تحت الأفانينِ

(١) أنف الربيع : أوله

شبّهت فيها العناقيد التى بقيتْ أولاد زنجية فُطْسَ العرانينِ
فتارةً من يواقيت منضَّدةٍ وكالزَّبرجد فى بعض الأحايينِ
فعينها غَدَقٌ وماؤها غبقٌ وريحها ريح مسك الهند والصينِ
فيها زرابىّ قد بُثَّتْ ملمَّعة يضحكن عن زهر أنواع البساتينِ

فعارضه حسن الكوفىّ، فقال:

كأنّها كاعبٌ حسناء أبرزَها عيد فلم تألُ فى طيبٍ وتزيينِ
تبرّجَت لتروقَ الناسَ بهجتها فالناس مابين مبهوت ومفتونِ
والأيك مائلة الأغصان زائدة قد كسيت زخرفا حمرَ الأفانينِ
إذا الرَّخاء جرتْ فى نَوْرها لفظت قُراضةً من حرير الرىّ والصينِ
كأنما أُلبِست أكمامها حُللاً من وشى إسكندرٍ أو مِنْ نصيبينِ

وقال علىّ بن الجهم:

لم يَضْحك الروض إلا حين أعجبه حسنُ النّباتِ وصوتُ الطّائرِ الغَرِدِ[1]
بدا فأبدى لنا دنيا محاسنها وراحت الراح فى أثوابها الجُدُدِ
ماقابلتْ قُضُب الريحان طلعتَه إلا تبيَّن فيه ذلة الحسدِ
بين النديمين والخِلّين مسرعة وسيره بيد موصولة بيدِ
فبادرتْه يد المشتاق تَسْنُده إلى الترائب والأحشاء والكبدِ
لا عذّب الله إلا مَنْ يعذّبه بمسمع بارد أو صاحب نَكِدِ

وقال البحترىّ:

سقى الغيثُ أكناف الحمَى من مَحَلّةٍ إلى الخِفّ من رمل اللِّوى المتفاودِ[2]

---

(١) ديوانه ٨٩، ٩٠

(٢) ديوانه ٦٠٣. والخفف. المعروج من الرمل. واللوى: ماالتوى منه.

رفع المسهم

ولا زال مخضَرٌّ من اللون يانع[1] عليــه بمحمرٍ من النَّور حاشدِ[2]
يذكرنا رؤيا[3] الأحبة كلَّما تنفس فى جُنْحٍ من الليل باردِ
شقائق يحملن الندى فكأنَّه دموع التصابى فى خدود الخرائدِ
ومن لؤلؤ كالأقحوان منظمٍ على نُكَتٍ مُصفرَّة كالقَرائدِ

وقال أيضاً :

وكانّ الحوادث والأقحوان الـ غضّ نظمان : لؤلؤٌ وفريدُ[4]
قطرات من السحاب ورَوْضٌ نثرت وردها عليه الخــدودُ

وقال أيضاً :

وقد نَبَّه النّوروزُ فى غَسَقَ الدجى أوائل وردٍ كنَّ بالأمس نُوّما[5]
ومن شجرٍ رَدَّ الربيع لبــاسَهُ عليه كما نشَّرْت بُرْداً متنَمنما

وقال الحسن بن وهب :

طلعَتْ أوائلُ للرَّبيـع فبشَّرَتْ نَوْرَ الرياض بجـدَّةٍ وشَبابِ
وغدا السحاب يكاد يسحب فى الثّرى أذيال أسحمَ حالك الجلبابِ
يَبْكى فيضحك نورهنّ ، فيالَهُ ضحكا تحسَّر عن بـكاء سحابِ
وترى السماء إذا أجدَّ ركابُها فـكأنمـا التحفتْ جَنَاح غُرَابِ
وترَى الغصون إذا الرياح تأرَّجَتْ ملتفَّةً كتعانُق الأحبــاب

ولأبى زرعة الدمشقى :

وقد أخذت زهر الرِّياض حُليَّها وألبست الأرضَ الفضاءالزخارفُ

---

(١) الديوان: مخضر من الروض .
(٢) الديوان : « حاسد » .
(٣) الديوان : « ريا» .
(٤) ديوانه ٧٢٢ ، ٧٢٣
(٥) ديوانه ٢٠٩٠

لُجين وعِقيان يروق وجوهرٌ تؤلّفه أيدِى الربيع اللطائفُ
تهادى التلاع الغور مِسْكا وعنبراً تؤديه أنفاسُ الرياح العواصفُ
كأنّ أباريق المُدامة بينها من المنظر الأعلى ظباء رَواعِفُ

ولبكر بن حماد :

فسقياً لأيّامِنا الذاهباتِ لقد فارقتنا بصَفْوِ الْهَوَى
وهذا الربيع ورَيْعانُه يجَدّدُ عهدًا لها قد مَضَى
يذكّرنى الورد حمرَ الخدودِ ولُعْسَ الشِّفاه إذا ما بَدَا
وسَوْسنه صحن خد الفتا ة إذا برزتْ لحبٍّ أتى
ونشر الرِّياح رياح الحبيبِ تباعَدَ موعدُه أو دَنَا
يجود بها الطّلُّ وشى النّبات وينظمه بلآلِى النّدى

ولمحمد بن يزيد :

وروضة صنف النوّار جوهرَها فيها كما شئت من حسن ومن طيبِ
كأنّ ما تجتنيه من زخارفِها أخلافُ مستحسن الأخلاق محبوبِ
ما انفك للعين فيها أعينٌ ذرف تبكى بدمع من الأنواء مسحوبِ
حتى كأن أفانين النّبات بها على الميادين ألوانُ اليَعَاسيبِ
كأنّ غدرانها بالروض محدقةٌ تحبير ثوبٍ من الموشِىِّ مخضوبِ

وقال كشاجم :

إلَى الرّوض الذى قد زينتْه شآبيب السّحائب بالبكاء
بكين عليه فابتهجت رُباه تباهى فى زخارف نسج ماء

رفع المسهم

كأن الأقحوان بجانبيـــــه عـذارى يَبْتَسِمنَ من الحيـاء

وقال ابن الزَّقاق :

وحدائقٍ خُضْرِ المعاطف أُلْبِسَتْ من حسن بهجتها ثياب زَبَرْجَدِ[1]
جَرَّتْ عليه الشمسُ فَضْلَ ردائها[2] فيُرَى زبرجد هنّ تحت العسجد

وقال أيضاً :

وروضـــةٍ عاطر بنفسجُها عطَّرها وشيُها وسندسُهَا[3]
لمـا غذتْها السَّحابُ دِرِّتُهـا من فوق حَوْذانِها وزَرْجسها[4]
خاف عليـه الغمامُ حادثةً فسلَّ سيف البر ق يحرسُها

وقال أيضاً :

نُـثِر الورد فى الغدير وقد دوّحَهُ بالهبوب نَشْر الرِّياحِ[5]
مثل درع الـكمى مَزَّقها الطَّعْـنُ فسـالت دماه بِجَرَاحِ

وقال أيضاً ،

وقزازة زَرْقاء راق صفاؤُها قد ضم زهر الجلّنار رداؤهـا[6]
فاعجب لراح كأسُها من فضَّة ما إن تسيل وقد يسيلُ إناؤها

---

(١) ديوانه ١٤٠

(٢) الديوان : «زرت عليه الشمس»

(٣) ملحق ديوانه ٢٩٤

(٤) فى الأصول : « حواداتها » ، والمثبت من الديوان . والحوذان : نبت .

(٥) ديوانه ١٣٠ ، وفيه : «وقد درجه».

(٦) ديوانه ٢٨٢ .

رفع المسهم

ومن ملح الأدباء وما تصرفوا به فى الأنوار ما كتب به أبو دلف إلى ابن طاهر يعاتبه :

إخاؤكم كالورد ليس بدائم ... ولا خير فيمن لا يدومُ له عهدُ[1]
وعهدى لكم كالآس حسناً وبهجة ... له ورق خضر إذا فنَى الوردُ

فأجابه ابن طاهر :

وشبَّهتَ ودّى الورد فيما تذمّه ... وهل زهرة إلاَّ وسيدُها الوردُ[2]
إخاؤكم كالآس مرّ مذاقُـــه ... وليس له فى الريح قبلٌ ولا بَعْدُ

ولم يأت أحد بأخبث من تشبيه ابن الرومى فى ذمّ الورد :

كأنه مُرمٌ بغـــل حين أبرزَهُ ... بعد الخراء وباقى الرَّوْث فى وسطهْ[3]

وقال أبو الشيص :

يامن تَجَلّى بريحانٍ ينـادمه ... من بين ورد وخيرىّ ونَسْرِينِ[4]
وياسمين وعودٍ ما يغـــــيره ... ما كان أحسن ذا لو لم يكن دونى

وقال أبو المعلى الطائى :

كأن عيونَ النور زُيِّنَّ بالنـــدى ... عيونٌ تراسلن الدموع على عذلى

وقال أيضاً :

تَرَى للنّدىَ فيه مجالا كأنَّما ... نثرن عليه لؤلؤا فتبـدَّدَا

---

(١) نهاية الأرب ١١ : ١٩٢
(٢) نهاية الأرب ١١ : ١٩٣
(٣) نهاية الأرب ١٠ : ١٩٢ ، وقبله :

مادِحَ الوردِ لا تنفكُّ عن غلطٍ ... ألستَ تَنظُرُهُ فى كمِّ مُلْتَقِطِهْ

قوله : حديقة ، أى بستان . زخرفها ، أى زينتها . تنوَّعت أزاهيرها : اختلفت أنواع أزهارها .

وهذه الحديقة التى ذكر من حسنها، مثل البستان الذى دخله عُروة بن الزبير مع عبد الملك بن مروان ـ وكان عروة معرِضاً عن الدنيا ـ فحين رأى فى البستان الوصف الذى ذكر الحريرى قال : ما أحسن هذا البستان ! فقال له عبد الملك : أنت والله أحسن منه ، لأنه يؤتى أكله كلَّ عام وأنت تؤتى أكلك كلَّ يوم ، وكان عبد الملك يحب عروة ويعظّمه، على ما بين الزبيريَّة والمروانية من التباغض .

وقال لابن شهاب حين وفد عليه : عند من طلبت؟ قال: عند سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار وقبيصة بن ذؤيب ، فقال عبد الملك : فأين أنت من عروة بن الزبير! فإنه بحر لا تكدّره الدلاء. قال ابن شهاب: فلم أبارح عروة بعد حتى مات.

قال ابن وكيع فى وصف ما ذكره الحريرى :

ألست ترى وشْىَ الربيع تنمْنما	وما صنع الرّبعىّ فيه ونظَّما[1]
وقد حكت الأرض السماء بنوْرِها	فلم أر فى التشبيه أيُّهما سَمَا
فخضرتها كالجوّ فى حسن لونِهِ	وأنوارها تحكى لعينيك أنجما
فمن نرجسٍ لما رأى حُسْنَ نفسه	تداخله عجب به فتبسَّما
وأبدى على الورد الجنىّ تطاولا	وأظْهر غيظ الورْد فى خدّه دما
وزهرٍ شقيق نازع الوردَ فضلَه	فزاد عليه الورد فضلاً وقدَّما
فظل لفرط الحزن يلطِم خدّه	فأظهر فيه اللّطم جمرًا مضرّما
ومن سوسنٍ لما رأى الصِّبغ دونه	على كل أنواع الرياض تقسّما
تجلبب من زرق اليواقيت حُلّة	فأغرب فى الملبوس فيها وأحكما

(١) ديوانه ٩٢ ، ٩٣ ، يتيمة الدهر ١ : ٣٣٦ .

وأنوار منثور يخالف شكلُها فصار بها شكلُ الربيع منمنما
جواهر لو قد طال فيها حياتُها رأيت بها كلّ الملوك مخيّما

وقالو أبو بكر البلوىّ :

وروضةٍ بات طَلُّ الغيث ينسجُها حتّى إذا التحمت أضحى يدبِّجُها
يبكى عليها بكاء الصبّ فارقه إلفٌ فيُضحكها طورا ويُبهجُها
إذا تنفّس فيها ريحُ سوسَنِها وفاح مثل خُزاماها بنفسجُها
أقول فيها لساقينا وفى يدِه كأس كشعلة نار إذ يوهِّجُها :
لا تمزجنْها بغير الريق منك فإنْ تبخل بذاك فدمعى سوف يمزجُها
أقلّ مابى من عينيك أنّ يدى إذا دنت نحو قلبى كاد يُنضجُها

وقال الوزير المهلّبىّ :

الورد بين مضمّخٍ ومضرّج والزّهر بين مكلّلٍ ومتوّج
طلع النهار فلاح نَوْر شقائقٍ وبدت سطور الورد بين بنفسج
والثلج يهبط كالنّثار فقم بنا نصبحْك بابنة كرمة لم تمزج
فكأنّ يومك فى غلالة فضةٍ والنبت من ذهب على فَيْروزج

وقال السرى :

وحديقة يُنْسيك وشى بُرُودها حتى تشبِّهها سبائب عبقرى (١)
يجرى النّسيم خلالَها فكأنما غُمِستْ فضولُ ردائها فى العنبر
طارت قلوبُ المحل تخفِقُ بينَها بخفوق رايات السحاب المطر
طارتْ عقيقة برقه فكأنما صدعتْ ممسك غيْمِه بمعصفر

(١) ديوانه ١٠٩، اليتيمة ٢ : ١٥١

وقال السَّلامى :

نَسَبُ الرِّياض إلى الغمام شريفُ ومحلُّها عند النسيم لطيفُ[١]
أو ما ترى طرزَ البروقِ توسّطتْ أفقاً كأنَّ المزن فيه شنوفُ[٢]
واليومُ من خَجل الشقيق مضرّجٌ خَجِلٌ ومن مرض النسيم ضعيفُ
والأرض طرسٌ والرياضُ سطورُه والزهـر شكلٌ بينهـا وحروفُ
فأدِرْ سقيت الرَّىّ جامَكَ إنه[٣] يومٌ على كبد الزمان خفيفُ

قوله : الكميت ، يعنى الخمر . الشَّموس : التى فيها حدَّة . والشُّموس : السقاة الذين وجوههم كالشمس ، وللسَّلامى فى ذلك :

وظبية من بنـات الأنس فى يدِها ووجهها للصِّبا والحسن خاتام[٤]
قد حلّت لؤلؤ الأزرار عن دُرَرٍ لهن فى ثغرها الفضىّ أتوام[٥]
وزارت الأرضَ منها مقلتان لها وحشِيّتان وعذب الريق بسّامُ
والكأس للسكر التبرىّ صائغةٌ والمـاء للحبب الدرِّىّ نظّامُ
بِتْنا نكفكف بالكاسات أدمعَنا كأننا فى حُجور الرَّوض أيتامُ

وهذه أشعار غريبة عجيبة ، ولابن سكرة فى ذلك :

اشرب ففى اليوم فضلٌ لو علمتَ به بادرت باللّهْو واستعجلتَ بالطَّرَبِ[٦]
ورد الخدود وورد الروض قد جُمِعا والغيم مبتسم والشمس فى الحجبِ

---

(١) يتيمة الدهر ٢ : ٣٨٠ .
(٢) اليتيمة : « شفوف » .
(٣) اليتيمة : « فاشرب وثقل وزن جامك إنه » .
(٤) يتيمة الدهر ٢ : ٣٧٩ . وخاتام ، أى خاتم .
(٥) أتوام : جمع توءمة ؛ وهى اللؤلؤة الكبيرة .
(٦) يتيمة الدهر ٣ : ١٦ .

لا تحبس الكأس واشربها مشعشعة حتى تموت بها موتاً بلا سببِ

وقال سيف الدولة وذكر قوس قُزح :

وساقٍ صبيح للصَّبُوح دعوتُه فقام وفى أجفانه سِنَةُ الْغَمْضِ (١)
يطوف بكاساتِ العقار كأنجمٍ فمن بين منقضٍّ عليها ومنفضّ
وقد نشرت أيدى الجنوب مَطارفا على الجوّ دُكْناً والحواشى على الأرضِ
يطرِّزُها قَوسُ السماء بأصفرٍ على أخضرٍ فى أحمرٍ تحت مبيضٍّ
كأذيال خَوْدٍ أقبلت فى غلائلٍ مصبَّغة والبعضُ أقصرُ من بعضِ

وهذه من التشبيهات الملوكية التى لا يحضر السوقة مثلها . وقال ابن الزقاق:

وشادنٍ طاف بالكئوس ضحًى فحثَّها والصَّباح قد وضَحا (٢)
والرَّوض يُبدى لنا شقائقَهُ وآسه العنبرىّ قد نفحَا
قلنا وأين الأقاح ؟ قال لنا أودعته ثَغْرَ مَنْ سقى القدحَا
فظلَّ ساقى العقار يحجزه عنّا فلمّا تبسَّم افتضحا (٣)

وقال أيضاً :

نَبّهتُه ونجومُ الليل زاهرة والفجر منصدعٌ والصُّبْحُ قد لاحا (٤)
والليل منهزم ولّتْ عساكره والرَّوْض مبتسمٌ والزهر قد فَاحَا
فقام يمسحُ عينيْهِ براحتِه فخِلْتُهُ فى ظلامِ الليل مِصْبَاحَا

---

(١) يتيمة الدهر ١ : ١٢٤ .
(٢) ديوانه ١٢٤ .
(٣) الديوان : « فظل ساقى العقار يجحد ما قال » .
(٤) ديوانه : ٢٩٢

قوله الشادى : المغنى . يلهيه : يشغله ويزيل همه . يقرى : يعطى ويهدى . سمع : أذن . ولبعضهم فى غلام مغن ـ وأجاد :

فديتك يا أتمّ الناس ظَرْفاً ... وأصلحهم لمتّخذٍ حبيبا
فوجهُك نزهة الأبصار حُسْناً ... وصوتك أمتع الأصوات طيبا
وسائلةٍ تسائل عنْك قُلْنا ... لها فى وصفك العجب العجيبا
رنا ظبيا ونَمَّى عندليباً ... ولاح شقائقا ، ومشى قضيبا

وقال ابن الزقّاق :

يذكّرنى تحنانُ شدو غنائه ... على الأيْك تَحْنَان الحمام المغرّدِ[1]
له نغمات أفحمت كلّ صادحٍ ... وصوتُ نشيدٍ قد شجا كلّ منشدِ
فدعْ كل ماحُدِّثت عن صوت مَعْبَدٍ ... وطارحْ نشيداً عن نشيدِ ابن معبدِ

قوله : اطمأن ، أى استقر وسكن . وغلَ : دخل ، والواغل الداخل على الشّراب ولم يُدْعَ إليه . ذمِر : شجاع ، والذمر أيضاً : الخبيث ذو الدهاء ، وهو مخفف من ذمْر ، وهو الشجاع ، والجمع أذمار ، ومنه فلان حامى الذمار ، معناه : يحمى مايلزمه أن يحميه ، وسمى ذمارا لأنّ الإنسان يذمر نفسه ، أى يحرضها به ، وذمرتُ الرجل أذمره ، إذا حرّضته . طمْر : خلَق . تجهّمناه : عبسنا له ، والجهامة : العُبوس ، ويقال : تجهّمنى فلان بكذا ، يتجهّمنى بمعناه .

[مما قيل فى الشيب والشباب]

الغيد : النساء الحسان اللينات الأعناق . الشّيب : الشيوخ ، الواحد أشيب . شيب : كدّر ونغّص ، وأوّل من نطق بهذا المعنى امرؤ القيس بقوله :

---

(١) ديوانه : ٢٩٢

رفع المسهم

أراهنّ لا يُحبِبن من قلّ ماله ولا من رأين الشّيب فيه وقَوَّسا(١)

وعلقمة فى قوله :

إذا شاب رأسُ المرء أوقلّ ماله فليسَ له من ودّهِنّ نصيبُ (٢)

وقال حبيب فى هذا المعنى فأحسن :

لعِبَ الشيب فى المفارق بل جـدّ فأبْكَى تُماضراً ولعوبَا (٣)
يانسيبَ الثّغام ذنبُك أبقَى حسفاتى عند الحسان ذنوبَا (٤)
ولئن عبنَ ما رأين لقـد أنـ ـكرْنَ مستنكراً وعِبْنَ مَعيبا (٥)
لو رأى الله أنّ للشيب فضلاً جاورته الأبرار فى الخلد شيبا

وقال على بن الجهم :

أنـكرتْ ما رأت برأسِى وقالتْ أمشيبٌ أم لؤلؤ منظومُ (٦)
قلتْ أوْلاهُما برأسى فأنّتْ(٧) أنّةً يستثيرها المهمومُ
حسرتْ عنّى القِناعَ ظلُومُ فتولّتْ ودمعُها مَسْجُومُ

وقال عمرو الوراق:

لا تطلبنْ أثراً بعـينٍ فالشيب إحدى الميتتينِ (٨)
أبدى مقـابح كل شيـ ـنٍ ومحا محاسنَ كلّ زينِ

---

(١) ديوانه ١٠٧ ، وقوس ، أى كبر وانطوى كانطواء القوس .
(٢) المفضليات ٣٩٢.
(٣) ديوانه ٢٥ ، وتماضر ولعوب من أسماء النساء .
(٤) الثغام : شجرة بيضاء الزهر والثمر ، يشبه بها الشيب. وفى الديوان: «عند الغوانى» .
(٥) الديوان : « خيرا » .
(٦) ديوانه ١٧٦ :
(٧) الديوان :
* قلتُ شَيبٌ وليْسَ عَيباً فأنّتْ *
(٨) الشيب والشباب ..

فإذا رأيتَ الغـــانيا ت رأينَ منك غراب بينِ
ولربما نافسن فيـ ـك وكنّ طوعاً لليدينِ
أيام همّتك الشبـــا ب وأنت سَهْلُ العارضينِ

الفنجديهى : من أحسن ما سمعت فى هذا المعنى قول ابن البياضى ، رحمه الله تعالى :

عرض المشيب بعارضىّ فأعْرَضُوا وتقوّضت خِيم الشباب فقوّضُوا
فكأنّ فى الليل البهيم توسّطوا حفرا وفى الصبح المنير تقبّضُوا
ولقـد رأيتُ وما رأيت بمثـله بيناً غراب الين فيه أبيضُ

وقال حبيب وزاد فى الشيب نقاء الخد :

راحتْ غوانى الحىّ عنك غوانياً يابسْنَ نَأياً تارة وصُدُودا[1]
من كلّ سابغة الشباب إذا بدتْ تركت عميد القريتين عميدا[2]
أزرينَ بالمُرْدِ الغطارف بدّنا غيـداً أَلِفْتَهُمُ لدانا جيـدا
أحلى الرجال من النساء مواقعاً مَنْ كان أشبههم بهنّ خدودا
حتى إذا ما الشعر سوّد وجهه عاد المسوّد بينهنّ مَسُودَا[3]

هذا من قول الأعشى :

وأرَى الغوانى لا يواصِلْنَ امرأ فقد الشباب وقد يصِلْنَ الأمْرَدَا[4]

ولحبيب ـ وروى لأبى دلف :

---

(١) ديوانه ٨٧
(٢) الديوان : « عميد القوم »
(٣) لم يرد فى الديوان
(٤) ديوانه ٢٢٧ ، وروايته : « إن الغوانى » .

رفع المسهم

نظرت إلىّ بعين من لم يعدلِ لمّا تمكّن طرفُها من مَقْتَلِي
لما رأت وضَح المشيب بلحيتى صدّت صدود مفارق متحمِّلِ
فجعلت أطلب وصلَها بتلطّف والشّيب يغمزها بألاّ تفعل

وقال محمد بن أمية :

رأيْن الغوانى الشَّيْب لاح بعارضِى فأعرَضْنَ عَنِّى بالخدودِ النَّواضر
وكنَّ إذا أبصرننى أو سمعننى دنَونَ فرفّعن الكوى بالمحاجِرِ

وللشريف الرضىّ رحمه الله :

قالُوا المشيب فعِمْ صباحا بالنّهى واعقِرْ مِراحكَ للطّروق الزائرِ (١)
لودام لى ودّ الكواعب لم أبلْ بطلوع شيب وابيضاضِ غدائرِ
لكنّ شيب الرأس إن يكُ طالعا عندى فوصْلُ البيض أوّل عابرِ (٢)
إن أعرضت عنه الخدود فطالمَا (٣) عطفتْ له بسوالفٍ ومحاجرِ
ولقد يكون وماله من عاذلٍ واليوم عاد وماله من عاذرِ
كان السّواد سواد عين حبيبه فغدا البياض بياضَ عين الناظرِ
لو لم يكن فى الشيب إلاّ أنه عذر الملول وحجة للهاجرِ

وقال أيضاً :

لجام الشيب ثنى لى جيادِى وربانى لعذّالى ورَاضَا (٤)
لوى عنّى الخدود من الغوانى وغمّض عَنِّىَ الحدَقَ المِراضا
وصار بياضُه عندى سواداً وكان سوادُه عندى بياضا

---

(١) ديوانه ٣٧٠ .
(٢) الديوان : « غائر » .
(٣) الديوان : « إن أصفحت » .
(٤) ديوانه ٤٢٢ .

رفع المسهم

ودخل أبو دُلف على المأمون ، وقد ترك الخضاب ، فغمز جارية عنده أن تعبث به ، فقالت : شبتَ ياأبا دلف ، إنا لله وإنا إليه راجعون ! فسكت عنها ، فقال له المأمون : أجبها ، فأطرق برأسه ثم رفعه ، فقال:

تهزأتْ إذْ رأت شيبي فقلتُ لها ... لا تهزئى من يَطُل عمرٌ به يشبِ[1]
شيب الرجال لهم زين ومكرمةٌ ... وشيبكنّ لكنّ الويل فاكتئبي
فينا لكنّ ـ وإن شيب بدا ـ أربٌ ... وليس فيكنّ بعد الشيب من أربِ

* * *

إِلاَّ أَنَّهُ سَلَّمَ تَسْلِيمَ أُولِى الْفَهْمِ ، وَجَلَسَ يَفُضُّ لَطَائِفَ النَّثْرِ والنَّظْمِ ، وَنَحْنُ نَنْزَوِى من انْبِسَاطِهِ ، ونَنْبرِى لِطَىِّ بِساطِهِ ، إلى أَنْ غَنَّى شَادِينَا الْمُغْرِب ، ومغرّدنَا الْمُطْرِب :

إلاَمَ سُعَادُ لاتَصِلِينَ حَبْلِى ... وَلاَ تَأْوِينَ لِى مِمَّا أُلاَقِى
صَبَرْتُ عَلَيْكِ حَتَّى عِيلَ صَبْرِى ... وكادَتْ تبلغُ الرُّوحُ التّرَاقِى
وها أَنَا قَدْ عَزَمتُ على انتصافٍ ... أُسَاقِى فِيهِ خِلِّى ما يُسَاقِى
فإِن وَصْلاً أَلَذُّ به فَوَصْلٌ ... وإِنْ صَرْماً فصَرْمٌ كالطَّلاَقِ

قال: فاستفهَمْنَا العابث بالمثانى ، لِمَ نصب الوصْلَ الأوَّلَ ورفعَ الثانى ؟ فأَقْسَمَ بتُرْبةِ أبَويْه ، لقدْ نَطَق بما اختاره سِيبويه .

* * *

قوله: «يفضّ» يكسر. لطائم: أوعية الطيب، وجعلها للكلام مجازا. ننزوى :

---

(١) العقد ٣ : ٥٢ .

ننقبض . وننبرى: نبادر . لطىّ بساطه : لقطع كلامه . المغرب : الحسن الغناء الآتى بالغريب فيه . والشادى والمغرّد واحد وهو المغنى . المطرب : الآتى بالطّرب وهو الاهتزاز بالسرور ، وقد يكون من شدة الحزن ، وقال ابن رشيق فى مغنّ :

غننى يامجوّد الخلق عندى : «حىّ بجدا ومَنْ بأكناف نجدِ»[1]
واسقنى مايصير ذو البُخْلِ منها حاتما والجبانُ عمرَو بن معدِى
فى زمان الشباب عاجلنى الشيـ ـبُ فهذا أوائل الدنّ دُرْدِى

وقال البجلى فى مغنيّة :

ولاعبةِ الوشاح بغصن بانٍ لها أثر بتقطيع القلوبِ
إذا استولت طريق العود نقْرا وغنّتْ فى محبٍّ أو حبيبِ
فيُمْناها يفدّيهـا فؤادى ويُسْرَاها تُفَدّيها ذنوبِى

قوله : تأوين ، أى تشفقين . عِيل : غلب ، وأنث الروح لأنه ذهب به إلى النفس ، قال ابن ظفر: الرّوح الذى يكون به الحياة ، وإذا فارق الجسد كان الموت ، والنفْس التى بها العقل وهى المقبوضة عند النوم ، ولا معنى للإكثار فى هذا ، لأن الشارع ليس له فيه قول يعوّل عليه ، ولا للحواس على إدراكه حَوْل فنهتدى إليه.

التراقى : العظمان المعوجّان أعلى الصدر : خِلّى : صاحبى . صرم : قطيعة ، ويستقبح عندهم مجازاة الحبيب على إساءته ، كبيت امرئ القيس :

* فسُلّى ثيابى من ثيابك تَنْسُلِ *[2]

---

(١) نقله فى التنف ٢٦

(٢) ديوانه ١٣ وصدره :

* وإنْ تَكُ ساءتْكِ مِنّى خليقةٌ *

وقول طرفة :

وإذا تلسُنِي ألسُنَهَا إنَّنِي لست بموهون فقره[1]

وقول الأعرابيّ :

إن كان أهلك يمنعونك رغبةً عنّى فأهْلِيَ بى أضنُّ وأرغبُ

والمستحبّ عندهم قول ابن ربيعة :

ألا يامنْ أحبُّ بكلّ نفسى ومَنْ هو من جميع الناس حَسْبِى[2]
ومن يظلم فأغفرْه جميعاً ومَنْ هو لا يهمّ بغفر ذَنبِى

وقال أبو نواس :

جنان تَسُبّنى - ذكرتِ بخيْرٍ - وتزعم أننى رجل خبيثُ[3]
وأن مودتى كذب ومينٌ وأنى للذى يُطْوَى بَثوثُ
وما صدقت[4] ولا ردّ عليها ولكنّ الملول هو النّكوث
ولى قلبٌ ينازعنى إليها وشوق بين أضلاعى حثيثُ
رأت كَلَفِي بها ودوامَ عهدى فملّتنى كذا كانَ الحديثُ[5]

وقال ابن شهيد :

كَلِفت بالحب حتى لو دنا أجَلى لما وجدتُ لطعْمِ الموتِ من أَلَمِ[6]
وعاقنى كَرَمِى عمّن ولهتُ به ويلى من الحبّ أو ويلى من الكرم

وأطرب من شعر المقامة للغناء ، ماحكى أن القاضى أبا عبد الله محمد بن عيسى

---

(١) ديوانه ٧٤
(٢) ديوانه ٤٨٥
(٣) ديوانه ٣٦٩
(٤) ديوانه : « وليس كذا ».
(٥) لم يرد فى الديوان
(٦) ديوانه ١٥٢

رفع المسهم

من بنى يحيى ، خرج إلى حضور جنازة ، وكان رجل من إخوانه ينزل بقرب مقبرة قريش ، فعزم عليه بالميل إليه ، فنزل وأحضر له طعاماً ، وغنّت جاريته :

طابت بطيب لثاتك الأقداحُ وزها بحمرة وجهك التّفّاحُ
وإذا الربيع تنسّمتْ أرواحهُ نَمّتْ بعَرْفِ نسيمك الأرواحُ
وإذا الحنادس ألبست ظلماءها فضياء وجهِك فى الدّجَى مِصْبَاحُ

فكتبها القاضى طرباً بها على ظهر يده ، ثم خرج . قال الراوى : فلقد رأيته يكبّر على جنازة والأبيات على ظهر يده .

وقال إبراهيم بن المهدى : دخلتُ يوما على الرشيد وفى رأسه فضلة خُمار ، وبين يديه المغنون ، فقال : يا إبراهيم ، بحقّى عليكَ غنِّنِى ، فأخذت العودَ فغنيتُه من أشعار جرير :

أسرى لخالدة الخيال ولا أرَى شيئاً ألذّ من الخيالِ الطارقِ (١)
إن البليّة من تملّ حديثه فاتبع حديثك من حديث الوامقِ (٢)
أهواك فوق هوى النّفس ولم يَزَلْ مذ بنْتِ قلبى كالجناح الخافق
شوقا إليك ولم تجار مودتى ليسَ المكذّب كالحبيب الصادق (٣)

وقال إبراهيم الموصلى لابن جامع : لو هذا طلب الغناء كما نطلبه ، ما أكلنا معه الخبز ، فقال ابن جامع : صدقت .

ومما ينتظم فى هذا النمط ويغنّى به قولُ الآخر :

قال الوشاة لهند عن تصارمنا ولستُ أنسى هوى هندٍ وتنسانى
قد قلت حين بدا لى بخلُ سيدتى وقد تتبع فى بثى وأحزانى
هل تعلمين وراء الحب منزلة تُدْنِى إليك فإنّ الحب أقصانى

(١) ديوانه ٣٩٧ (٢) الديوان « فانشج فؤادك »
(٣) ديوانه : « ليس المكاذب » .

والحريرى لم يتعرض بشعره فى هذا ، لأنه بنى البيت فى المسألة ، لكن فيما ذكرناه زيادة بيان ، وأنه يجب أن يختار المغنى ما يتلقّى للغناء من كل جهاته بالاستحسان

قوله : العابث بالمثانى ، أى اللاعب بأوتار عود الغناء . ومما يستحسن فى وصف العود قول ابن القاضى :

جاءت بعود تناغيه ويُسعدها ... فانظر بدائع ما خصّت به الشجرُ
غنّت على عودها الأطيار مفصحةً ... غضا فلمّا ذوى غنّى به البشرُ
فلا يزل عليه أو به طربٌ ... يهيجه الأعجمان : الطير والوتر

وقال ابن شرف :

سقى الله أرضًا أنبتت عودك الذى ... زكت منه أغصانٌ وطابت مغارسُ[1]
تغنّى عليه الطير والعود أخضرٌ ... وغنى عليه الغِيدُ والعود يابسُ

ومما قيل فى ذم مغنّ :

لو أبصرتْ عيناك بشراً جالساً ... والعود فى يده يبثُّ وساوسا
لرأيت منه فتى تحبّ بأن ترى ... فى الرأس منه مشاورا وَطَنافِسَا
فإذا تربّع ـ لا تربع بعدها ـ ... وبدا يحرّك عودَه متنافسا
فكأنّ جُرْذان المدينة كلها ... فى عوده يقرضن خبزاً يابسَا

المثانى : أوتار بالعود، معروفة على سائر أوتاره . بتربة أبويه، يريد عظامهما التى تصير ترابا فى القبر ، ولذلك أقسم بالقبر .

---

(١) نقله فى التنف ١٠٣ .

[ترجمة سيبويه]

وأما سيبويه ففارسيّ ، مولى لبنى الحارث بن كعب ، واسمه عمرو بن عثمان بن قنبر ، وتفسير سيبويه بالفارسية ريح التفاح ، وهو لقب له لأنه كان من أطيب الناس رائحة ، وأجلّهم وجها، وقد أشرنا إلى ذلك فى العاشرة[1]. وقيل: معنى « سى » ثلاثون و« بويه » رائحة التفاح، فكأنّ معناه: الذى ضعف طيب رائحته ثلاثين مرة . وقيل : إن أمه كانت ترقّصه بذلك وهو صغير فلزمته .

وولد بالبيضاء ، وهى قرية بشيراز من عمل فارس ونشأ بها ، وقدم البصرة فى أوّل أيامه ليكتب الحديث ، فلزم حَلْقة حماد بن سلمة فاستملى عليه يوماً قول النبىّ صلى الله عليه وسلم : « ليس من أصحابى إلا مَنْ لو شئت لأخذت عنه ليس أبا الدرداء » فقال سيبويه: ليس أبو الدرداء، بالرفع ، وظنه اسم ليس، فقال حمّاد: لحنتَ ياسيبويه ، ليس هذا حيث ذهبت ، إنما ليس هنا استثناء ، فقال سيبويه : سأطلب علماً ليس يلحنّنى فيه أحد ، فلزم الخليل، فبلغ فى علم النحو الغاية ، وضُرِب به فى ذلك المثل وهو أوّل مَنْ بسط طريقته ، وشرّع شريعته ، وكتابهُ الإمام فى النحو، الذى لم يُصنع قبله ولا بعده مثله، وغاية لأئمة فهمه . وأخذه الأخفش عنه .

وقيل ليونس: ألّف سيبويه كتاباً نحواً من ألف ورقة فى علم الخليل ، فقال: متى سمع سيبويه هذا كله ! فأْتِنى بكتابه ، فنظر فيه فقال : يجب أن يكون صدق عن الخليل ، كما صدق فيما حكاه عنّى .

وناظر الأصمعىّ سيبويه ، فغلبه الأصمعىّ بلسانه ، فقال يونس : الحقّ مع سيبويه .

وكانت فى لسانه حبسة، وقلمه أبلغ من لسانه . قال أبو زيد : كان سيبويه

(١) الجزء الأول : ٣٧٩

رفع المسهم

يختلف إلىّ وهو غلام له ذؤابتان، وإذا قال فى كتابه : حدّثنى مَنْ أثق به ، فإنما يعنينى .

قال الأخفش: كان سيبويه إذا وضع شيئا من كتابه عرض علىّ وهو يرى أنّى أعلم منه ، وكان أعلم منّى .

والأخفش هذا هو سعيد بن مسعدة مولى بنى مجاشع ، يكنى أبا الحسن ، وهو الذى أخذ الكتاب عن سيبويه ، وهو أكبر من سيبويه ، وصحب الخليل. وأما الأخفش الكبير شيخ سيبويه فهو عبد الحميد بن عبد المجيد ، يكنى أبا الخطاب وهو الأخفش الكبير ، ويونس هو ابن حبيب، يكنى أبا عبد الرحمن مولى بنى ضبّة ، أخذ النحو عن حماد بن سلمة وعن أبى عمرو بن العلاء ، وقيل: إنه جاوز المائة فى سنّه . ولما فاق سيبويه فى علم النحو أهلَ عصره ، وبرّز فيه على نظرائه من أهل دَهْرِه ، سمع أن الكوفيين ظهروا ببغداد عند الرشيد بعلم النحو ، وهم الكسائى وأصحابه ، فقصدهم ببغداد ، وناظرهم بحضرة الرشيد وبحضرة يحيى بن برمك .

وناظره الكسائىّ ، وقيل الفراء بحضرة الكسائى فى المسألة الزنبورية[1] المشهورة ، وقد ذكرناها فى الرابعة والثلاثين، وكان ـ فيما ذكر ـ الظهور لسيبويه، وتراضوا بينهم بشهادة الأعراب الحاضرين بباب الخليفة ، فقدم الكوفيون بجانبهم عند الخليفة للأعراب من لغتهم أن يجيبوا بموافقة قول الكوفيين ، فأجابوا بذلك ، فخرج سيبويه خجلا وكاد يموتُ غمًّا ، فزعموا أنهم شفعوا للرشيد لئلا يرجع مغلوبا خائبًا، فأمر له بعشرة آلاف درهم ، فانبعث إلى الأهواز ولم يعرّج على البصرة . فأقام هناك مدة مديدة إلى أن مات .

وحكى أنه لما انصرف عنهم مغموما لَقِيَ الأخفش سعيد بن مسعدة ، فأخبره

(٣) إنباه الرواة ٢ : ٣٥٨ ، ٣٥٩ .

رفع المسهم

بتألبهم عليه، فدخل الأخفش، فسأل الكسائىّ عن مائة مسألة فخطّأه فيها كلّها ، فقال له : أنت سعيد بن مسعدة ؟ فقال له : نعم ، فسأله أن يؤدب أولاده فأجابه . وقرأ عليه الكسائى كتاب سيبويه ، وأعطاه سبعين ديناراً .

ويروى أنه لما بلغ الكسائىّ موتُه، قال للرشيد : يا أمير المؤمنين، أدِّ عنى ديَته ، فإنى أخاف أن أكون شاركت فى موته .

وقيل : إنه مات من ذَرَب المعدة .

وقيل : إنه لما خَرج عنهم سأل مَنْ يرغب من الملوك فى النحو ، فقيل له : طلحة بن طاهر بخُراسان ، فقصده ، فلما انتهى إلى ساوة مرض ومات .

ولما احتُضر وضع رأسه فى حِجْر أخيه ، فقطرت دمعة من دموعه على خدّه ، فرفع عينيه إليه ، وقال :

أُخَيَّيْنِ كنا فرّق الدهر بيننا إلى الأمد الأقصى، ومَنْ يأمنِ الدَّهرا![1]

ثم قال عند موته :

نؤمّل دنيا لنبقَى بها وتأتى المنية دونَ الأمَلْ[2]
حَثيثا يروّى أصول الفسيلِ فعاش الفسيلُ ومات الرَّجُلْ

وفيه أنه مات بشيراز وقُبِر بها سنة ثمانين. وقيل سنة أربع وتسعين ومائة .

قال أبو سعيد الصولى : رأيت على قبره مكتوبا لسليمان بن يزيد :

---

(١) إنباه الرواة ٢ : ٣٥٧ .
(٢) إنباه الرواة ٢ : ٣٦٠

ذهب الأحبة بعد طول تَزوارِ ونأى المزارُ فأساءوك وأسْرَعُوا
تركُوك أوحشَ ما تكون بقفرةٍ لم يؤنسوك وكربةً لم يَدْفَعُوا
قُضِيَ القضاء وصرت صاحبَ حُفْرَةٍ عنك الأحبّة أعرضوا وتصدّعُوا

* * *

فتشعّبتْ حينئذٍ آراء الجمْع ، فى تجويز النَّصْبِ والرّفع ، فقالت فرقةٌ : رفعهما هو الصّواب ، وقالت طائفة : لا يجوز فيهما إلا الانتصاب ، واستَبْهَمَ عَلَى آخرين الجواب ، واستعَرَ بينهم الاصْطِخاب ، وذلك الواغل يبدى ابتسامَ ذى معرفة ، وإن لم يَفُهْ ببنت شفة ، حتّى إذا سكنتِ الزّماجر ، وصَمَتَ المزجور والزّاجر . قال : يا قوم ، أنا أنبِّئكمْ بتأويلهِ ، وأميّز صحيح القولِ مِنْ عليله ؛ إنه لَيجوز رفع الوصلين ونصبُهما ، والمغايرة فى الإعراب بينهما ، وذلك بحسب اختلاف الإضمار ، وتقدير المحذوف فى هذا المضمار . قال : ففرط من الجماعة إفراط فى مماراته ، وانخراط إلى مباراتهِ .

* * *

قوله: تشعبت ، تفرقت ، وشَعَبتُ الشيء: فرّقته وجمعته ، وهو من الأضداد. ورجل شعاب : يضم ويجمع . آراء : جمع رأى . واستبهم : استغلق . استعر : اتقد : الاصطخاب : اختلاط الأصوات ، وقد صخب صخبا. بنت شفة : كلمة .

[بعض حكايات النحويين]

ومثل اختلاف هذه الجماعة على المعانى فى رفع «وصل» وخفضه ، اختلاف أصحاب الواثق[1] على جارية غنّت بحضرته :

أظلومُ إنَّ مصابَكُمْ رَجُلاً أهدى السَّلامَ تحيةً ظلمُ

وذكر الخريرى فى الدرّة : أن أبا العباس المبرد ذكر أن أبا عثمان المازنى

(١) وردت هذه الحكاية فى درة الغواص ٤٣ ، وإنباه الرواة ١ : ٢٤٩ ، وطبقات الزبيدى ٩٣

قصده بعضُ أهل الذمة ليقرأ عليه كتاب سيبويه ، وبذل له مائة دينار ، فامتنع أبو عثمان من قبول بذله ، فقلت له : جعلت فداك ! أتترك هذه النفقة ، مع فاقتك وشدّة إضاقتك ؟ فقال : إن هذا الكتاب يشتمل على ثلثمائة كذا وكذا آية من كتاب الله تعالى ، ولستُ أرى أن أمكّن منه ذمّيًا ، غيرةً على كتاب الله وحميّة له .

قال : فاتفق أن غنّت جارية بحضرة الواثق بقول العرْجى : أظلوم . . . البيت ، فاختلف مَنْ بالحضرة فى إعراب « رجل » فمنهم من نصبه بأن على أنه اسمها ، ومنهم من رفعه على أنه خبرها ، والجارية مُصِرَّة على أن شيخها أبا عثمان لقّنها إياه بالنصب ، فأمر الواثق بإحضاره . قال أبو عثمان : فلما مَثَلْتُ بين يديه قال : ممّن الرجل ؟ قلت : من بنى مازن ، قال : من أىّ الموازن ؟ أمازن تميم أم مازن قيس ؟ أم مازن أم ربيعة ؟ فقلت : من مازن ربيعة ، فكلّمنى بكلام قومى وقال لى : باسمك ؟ يريد ما اسمك ـ وهم يقلبون الميم باء والباء ميما إذا كان فى أول الأسماء ـ فكرهت أن أجيبه على لغة قومى لئلا أواجهه بالمكر ، فقلتُ : بكر ياأمير المؤمنين ، ففطن لما قصدته وأعجب منه ، ثم قال : ماتقول فى قول الشاعر :

* أظلوم إن مصابكم رجلا *

أترفع « رجلا » أم تنصبه ؟ فقلت : بل الوجه النصب ، قال : ولم ذلك ؟ فقلت : « إن مصابكم رجلا » مصدر بمعنى إصابتكم . فأخذ اليزيدىّ فى معارضتى فقلت : هو بمنزلة قولك : إن ضربكم زيدًا ظلم ، فالرجل منصوب بمصابكم ومنصوب به ، الدليل عليه أن الكلام معلّق إلا أن تقول « ظلم » فيتمّ . فاستحسنه الواثق وقال : هل لك من ولد ؟ قلت : نعم ، بنيّة يا أمير المؤمنين ، قال : ما قالت لك عند مسيرك ؟ قلت : أنشدت قول الأعشى[1] :

(١) ديوان الأعشى ٤١

أيا أبتـا لاتَرِمْ عنـدنا فإنا بخـير إذا لم تَرِمْ
أرانـا إذا أضمرتك البلا د نُجْفَى وتُقطع منـا الرحِمْ

قال : فما قلتَ لها ؟ قال : قلت قول جرير :

ثِق بالله ليس له شريكٌ ومِنْ عند الخليفة بالنّجاح[1]

قال : أنت على النجاح إن شاء الله تعالى . ثم أمر لى بألف دينـار وردّنى مكرماً .

قال أبو العباس : فلما عاد إلى البصرة قال : كيف رأيتَ يا أبا العباس ! ردّنا الله تعالى مائة فعوّضنا بألف .

قال الحريرىّ : فهذه الحكاية ترغّب فى اقتباس الأدب ودراسته حيث استعطف المازنىّ الواثق ببيت الأعشى حتى اهتزّ لإحسان صلته

قال : وفى أخبار النحويين[2] أيضاً أنّ المازنىّ سئل بحضرة المتوكل عن قوله تعالى:﴿ وَمَا كَانَتْ أُمّكِ بغيًّا ﴾ فقيل له : كيف حذفت الهاء من « بغيا » وفعيل بمعنى فاعل ، تلحقه الهاء ، نحو فتىّ وفتية وغنىّ وغنيّ ، فقال : إن « بغيا » ليست « فعيلا » إنما هو فعول بمعنى فاعل ، لأن الأصل « بَغوى » ومن أصول التصريف أنه متى اجتمعت الياء والواو فى كلمة وسبقت إحداهما بالسكون قلبت الواو ياء ، كشويته شيًّا ، ويوم وأيام ، وهذا أصل مطّرد لم يشذّ منه إلا القليل ، فعلى هذه القضية تحذف الهاء وجوباً لأنها بمعنى « باغية » ، كما تحذف من « صبور » لأنها بمعنى « صابرة » .

قال المازنىّ :[3] حضر يعقوب عند الواثق وقد حاز منزلة العلماء ، فقال لى الواثق: سله عن مسألة،فقلت له: ماوزن « نكتل »؟ فقال : « نفعل » ،فقلت له:

---

(١) ديوان جرير ٩٨
(٢) طبقات الزبيدى ٩٥ .
(٣) إنباه الرواة ١ : ٧٥ .

غلطت، ثم قال لى: فسّره . فقلت: أصله «نكتيل»، فقلبت الياء ألفاً للفتحة قبلها وسكنت اللام للجزم، لأنه جواب أمر، فحذفت الألف لالتقاء الساكنين ، فقال الواثق : هذا الجواب لا جوابك يا يعقوب ، فلما خرجنا قال لى يعقوب : ما حملك على هذا وبينى وبينك المودة ؟ فقلت : والله ما ظننت أنه يعزب عنك مثل هذا ! فانظر كيف لم يثبتْ يعقوب الأوزان على ثبوت قدمه فى العلم .

لقى هارون الرشيد الكسائىّ فى بعض طرقه فوقف عليه ، وتحفّى بسؤاله عن حاله ، فقال : أنا بخير يا أمير المؤمنين ، ولو لم أجد من ثمرة الأدب إلا ماوهب لله تعالى لى منْ وقوف أمير المؤمنين علىّ لكان ذلك كافيا محتسبا .

ودخل أبو يوسف رحمه الله تعالى وهما فى مذاكرة وممازحة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّ هذا الكوفىّ قد غلب عليك ، فقال : يا أبا يوسف إنه ليأتينى بأشياء يشتمل عليها قلبى ، وتأخذ بمجامعه ، فقال الكسائىّ : يا أبا يوسف ، هل لك فى مسألة ؟ فقال: فى نحو أو فى فقه ؟ فقال: بل فى فقه ، فضحك هارون حتى فحص برجليه ، وقال : تُلقِى على أبى يوسف الفقه ؟ فقلت : نعم ، ثم قال : يا أبا يوسف ، فما تقول فى رجل قال لزوجته : أنت طالق إن دخلت الدار ؟ قال : إذا دخلت الدار طلقت ، قال : أخطأت يا أبا يوسف ! فضحك الرشيد ثم قال : فكيف الصواب ؟ قال : إذا قال: «أنْ» وجب الفعل ، دخلت بعد أو لم تدخل ، وإذا قال «إن» بالكسر لم يجب ولم يقع الطلاق .

دخل الفراء على الرشيد فتكلم فلحن مرات ، فقال له جعفر: ياأمير المؤمنين ، إنه قد لحن ، فقال الرشيد للفراء : أتلحن يا يحيى ؟ فقال : إنّ طبع أهل البدو الإعراب وطباع أهل الحضر اللحن ، فإذا حفظت أو كتبت لم ألحن ، وإذا رجعت إلى الطبع لحنت ، فاستحسن الرشيد كلامه وعلم أنه الحق [1] .

---

(١) الخبر فى طبقات الزبيدى ١٤٣ .

رفع المسهم

وهذا القدر من المناظرة النحوية كاف .

* * *

قوله : الزماجر ، أى الأصوات من الجوف كصوت الأسد، الواحدة زمجرة .
صمت : سكت . المزجور : المنهىّ ، والزاجر : الناهى ، وزجرته : انتهرته .
أنبئكم بتأويله : أخبركم بتفسيره . المغايرة : المخالفة ، وهى من لفظ « غير » .
المضمار : الموضع يختبر فيه جرى الخيل . فَرْط : تجاوز الحدّ . مماراته : مخاصمته . انخراط : اندفاع وانطلاق ، وخرط عبده : أطلقه على أذيّة الناس ، والمرأة نكحها ، والشجرة نثر ورقها بيده . مباراته : معارضته .

* * *

فقال : أمّا إِذْ دَعَوْتُمْ نَزَالِ ، وتلبَّبْتُمْ لِلنِّضال ؛ فما كلمةٌ هِيَ إن شِئْتمْ حرفٌ مَحْبوبٌ ، أو اسمٌ لِمَا فِيهِ حرفٌ حَلُوب ؟ وأَىّ اسمٍ يتردّد بَيْنَ فردٍ حازمٍ ، وجَمْعٍ مُلازمٍ ؟ وأيّةُ هاءٍ إذا التحقَتْ أماطتِ الثِّقَل ، وأطلقتِ المُعتقَل ؟ وأيْنَ تدْخلُ السِّينُ فتعزل العاملَ ، من غير أن تجاملَ ؟ وما منصوبٌ أبداً على الظَّرْف ، لا يَخْفِضُهُ سِوَى حَرْف ؟ وأىّ مضافٍ أخلّ من عُرَى الإضافة بعُرْوة ، واختلف حُكْمُهُ بين مَساءٍ وغُدوة ؟ وما العاملُ الّذى يتّصل آخرُه بأوّله ، ويعملُ معكوسُه مثلَ عَمَله ؟ وأىّ عاملٍ نائبه أرحبُ منه وكْراً ، وأعظمُ مَكْراً ، وأكثر لله تعالى ذكراً ؟ وفى أىّ موطنٍ تَلْبَسُ الذُّكران براقعَ النّسوان ، وتبرز رَبّاتُ الحِجَال بعمائم الرجال ؟ وأَيْنَ يجب حفظ المراتب ، على المَضْرُوب والضارب ؟

رفع المسهم

وما اسم لا يُعرَف إلاّ باستضافةِ كلمتين ، أو الاقتصار منه على حَرْفيْن . وَفى وصفه الأول الْتزام ، وفى الثّانى إلْزام ؟ وَمَا وَصْفٌ إذا أُرْدِف بالنون ، نقص صاحِبُهُ فى الْعُيُون ، وَقوُّمَ بالدُّون ، وَخرَجَ من الزَّبون ، وتعرَّضَ لِلْهُون ؟

فهذه ثنتا عشرة مسألة ، وفْقَ عَدَدِكُمْ ، وزِنَةَ لَدَدِكُمْ ، ولَو زِدْتُمْ زدْنا ، وَإن عُدْتمْ عُدْنا .

• • •

نزالِ ، أى انزلوا للحرب ، ولذلك بُنيت على الكسر لأنها فى معنى فعل الأمر ، وهى كلمة تقال فى الحرب ولها مقامان : الأول أن ينزلوا من ظهور الإبل إلى ظهور الخيل ، والثانى أن ينزلوا من ظهور الخيل إلى الأرض ؛ وذلك أشدّ ما يكون للحرب . تلبَّبْتم : تحزمتم . النضال : المراماة بالسهام . حرف : ناقة . حلوب : لها ابن . حازم : مشمر ، أخذ بالثقة . أماطت : أزالت . المعتقل : المحبوس . تجامل ، أى تلقى المعزول بجميل . أخلّ : نقص . معكوسه : مقلوبه . نائبه : القائم مقامه . أرحب منه وكرا : أوسع موضعا . مكرا : تصرفا . الحِجال : جمع حَجَلة ، وهى الستر . المرانب : المواضع . استضافة : إضافة . أُردف : جُعل رِدْفه ، أى خلفه . قوّم : قدرت قيمته . الدون : الحقير . الزَّبُون : الكريم الكثير دفع العطايا ، أى أُخرِج من هذه الصفة . والهون : الهوان . وفْق : موافقة . لددكم : خصامكم . عدتم : رجعتم للخصام .

ومن ملح ابن رشق فى مليح نحوىّ :

إن زارنى يوماً على خلوة أو زرتُه فى موضعٍ خالِ[1]

(١) نقله فى التنفيح ٦٣

كنت له رفعًا على الابتدا وكان لى نصباً على الحال

وقال الميكالى :

أفدى الغزال الذى فى النحو كلمنى مجادلا فاجتنيتُ الشهد من شَفَتِهْ
وأورد الحججَ المقبولُ شاهدُه مناظراً ليُرِيَنى فَضْلَ معرفتهْ
ثم اتفقنا على رأيٍ رضيت به والرفع من صفتى والخفض من صفته

* * *

قال المخبرُ بهذه الحكاية : فوَرَدَ علينا من أحاجيه التى هالَتْ ، لمّا انْهالَتْ ، ماحارَتْ له الأفكار وحالَتْ . فلمّا أعْجَزَ القَوْمُ فى بَحْرِه ، واسْتَسْلَمَتْ تمأمنا لِسِحْرِه ، عَدَلْنا عن استثقال الرُّؤْيةِ له ، إلى اسْتِنْزالِ الرِّوايةِ عَنْه ، ومِن بَغْيِ التبرُّم به ، إلا ابتغاءِ التَّعلُّمِ منه .

فقالَ : والذى نَزَّلَ النحوَ فى الكلامِ ، مَنزلةَ المِلْحِ فى الطَّعامِ ، وحَجَبَهُ عَنْ بَصائِرِ الطَّغامِ ؛ لأنلتكمْ مَرَاما ، ولا شَفَيْتُ لكُمْ غَرَاما ، أو تخوَّلَنى كُلُّ يدٍ ، ويختصَّنى كُلُّ مِنكُمْ بيدٍ . فلم يبقَ فى الجماعةِ إلاَّ مَنْ أذْعَنَ لِحُكْمِهِ ، ونَبَذ إليه خُبْأَةَ كُمِّهِ . فلمّا حَصَلتْ تَحْتَ وكائِهِ ، أضْرَمَ شُعْلَةَ ذكائِهِ ، فكشف حينئذٍ عَنْ أَسْرارِ ألْغازِه ، وبَدائِعِ إعْجازِه ، ماجلا بهِ صَدَأَ الأذهان ، وجلَّى مَطْلَعَه بنورِ البرهان .

---

(١) يتيمة الدهر .

رفع المسهم

قال الرّاوى : فهِمْنا ، حينَ فَهِمْنَا ، وَعَجِبْنَا إِذْ أُجِبْنَا ، وَنَدِمْنَا على ما ندَّ منَّا . وَأَخَذْنَا نَعْتَذِر إليْهِ اعْتِذارَ الأَكياس ، ونُعْرِضُ عَلَيْهِ ارْتِضَاعَ الْكَاس . فقال : مأربٌ لاحَفاوَة ، وَمشربٌ لم يَبْقَ له عِنْدِى حَلاَوَة ، فَأَطْلَنا مُرَاوَدَتَهُ ، وَوَالَيْنَا مُعَاوَدَتَهُ .

. . .

أحاجيه : ألغازه : هالتْ : عظُمت فى النفوس . انهالت: انصبّت ، وانهال الرمل : انصبّ أعلاه إلى أسفله . الأفكار : الأذهان . حالت : تغيرت . استسلمت : انقادت . تمائمنا : معاذاتنا ، وهى الأحراز . عَدَلْنا : ملنا . الروية : الفكرة . استنزال: طلبه بتلطّف . بغى : ظلم . ابتغاء : طلب . التبرم: الاستثقال، وبرم بالأمرَ برَماً : ضجر ، واليرَم: البخيل الذى لايدخل فى الميسر . والبصيرة : اليقين والمعتقَد وجمعها بصائر . والطغام : الأوغاد وأرذال الناس . أنلتكم: أعطيتكم . مراما : مرادا . تخوّلنى: تملّكنى وتعطينى . يختصّنى : يفردنى . بيد ، أى نعمة . أذعن : انقاد وذلّ . نبذ : رمى . خُبْأة كمه : ماخبىء فيه . بدائع : غرائب . إعجازه : ماعجز به . جَلاَ : كشف . صدأ : وسخ . جلّى : أوضح . البرهان : الحجّة . همنا : تحيرنا لحسن ماسمعنا ، وهام الرجل : ذهب فى غير طريق . فهمنا ، من الفهم ، أى عرفنا . نَدّ : سبق وخرج ، يريد الخصام الذى بدروه به وردُّوا كلامه ، وندّ : أصله شَرد البعير . قوله: الأكياس : الحذّاق العقلاء . ارتضاع : شرب . مأرب : حاجة ، قال يعقوب : قال الأمويّ : ومن الأمثال : مأرب لا حفاوة، يضرب للرجل إذا كان يتملّقك، أى إنّما بك حاجة إلىّ لا حفاوة لى . قال ابن سيده: مأرب بيننا، يكون واحداً وهو السابق ، ويكون جمع مأربة،من الجمع الذى يفارق واحده بالهاء . حفاوة : تهمّم ، وقدحفيت بك ، أى تهمّمت واعتنيت . ومشرب لم يبق له عندى حلاوة ، قال الشاعر فى معناه :

رفع المسهم

ولم أجتنبْ شرب المُدام لعلّةٍ ... ولم أحق الصّهباء ذمًّا ولاَ عَذْلاَ
تنافرنى أن صرتُ ضدًّا لشكلها ... فليستْ لنا أهلا ، ولستُ لها أهلا

وقال ابن رشيق :

قرعت سنّى على مافاتنى ندماً ... من الشّباب ومَنْ باللّهو للشّيب[1]
فقد رددت كئوس الرّاح مترعةً ... على السقاة وكانت جلّ مشروبى
أنزّه السمعَ والعينين فى نغم ... ومنظر عابثٍ بالحسن والطّيبِ
من كلّ لافظةٍ بالدرّ باسمةٍ ... عنه محلاةٍ نوعٍ منه مثقوبِ
أيام تصحبنى الغِزْلان آنسةً ... هذا على أننى أعْدَى من الذّيب

والسابق لردّ الكأس لعلة الكبَر أيمن بن خُرَيم بن فاتك الأسدىّ فى قوله:

وصهباء جرجانية لم يَطُفْ بها ... حنيفٌ ولم يسعر بها ساعةً قِدْرُ[2]
ولم يحضر القَسّ المهينمُ نارَها ... طُروقا ، ولم يشهد على طبخها حبْرُ
أتانى بها يحيى وقد نمت نومَةً ... وقدغابت الشِّعرَى وقدجَنَح الذّسْرُ
فقلت اغتبقها أو لغيرىَ فاسقها ... فما أنا بعد الشّيب ويحك والخمرُ
تعفّفت عنها فى السّنين[3] التى خلت ... فكيف التّصابى بعدما كلأ العُمْرُ[3]
إذا المرء وفّى الأربعين ولم يكنْ ... له دون مايأتى حياء ولا سِتْرُ
فدعه ولاتنفس عليه الّذى ارتأى ... وإن جرّ أسباب الحياة له الدّهرُ

قال الهيثم بن عدىّ : كنا نقول بالكوفة : مُنْ لم يروِ هذه الأبيات فلا مُروءة له ، أنشدَها أبو علىّ فى نوادره . وأنشد أيضاً :

---

(١) نقله فى التنف ١٠ .
(٢) أمالى القالى ١ : ٧٨ ، وفيه : « لم تنغر » ، أى تغلى .
(٣) كلاه : انتهى إلى أقصاه .

رفع المسهم

رأيتُ النّبيذ يُذِلّ العزيز ... ويكسو التقيّ النّقيّ اتّساخا[1]
فهبنى عذرتُ الفتى جاهلاً ... فما العذر فيه إذ المرء شاخا

وأنشد أيضاً فى نوادره لمن حرّم الخمر على نفسه فى الجاهلية مروءةً جملة أشعار ، شهرتُها فى الكتاب أغنت عن ذكرها ، وأين شرف أولئك فى جاهليتهم ـ على أن الخمر مباحة لهم ـ من مجون جماعة من الإسلاميّين ـ على تحريمها عليهم ـ مثل الرّمادى فى قوله :

أفى الخمر لامت لِخلّتى مستَهامها ... كفرتُ بكأسى إن أطعت ملامها
لمحمولة فى الفلك فى جنّة المنى ... قد أوصى لنوح غرسها وضِمامَها
فخادعَهُ إبليس عنها لعلمه ... بها فرأى كتمانها واغتنامَها
ففاز بثلثيها ونوح بثلثها ... ولولا مضيّى عنه لم يكُ رَامَها
له حظ أنثى وهو حظٌ مذكّرٌ ... قليل لعينى أن أطيل انسجامها
وإنا لَوِتْرانِ وقد مات جدنا ... عنينا وإنا لا نجيز اقتسامها

أخذ هذا من خبرٍ يروى، أنّ نوحا عليه الصلاة والسلام لما نزل من السفينة ، نازعه إبليس أصلَ العنب ، فاصطلحا أنّ لنوح الثلث ولإبليس الثلثين .

ولما قيل للحسن : نزعتَ عن اللهو إلى التوبة ، قال :

قالوا نزعت ولمّا يعلموا وطرِى ... فى وصل أغيدَ ساجِى الطَّرْفِ ميّاسِ[2]
كيف النزوع وقلبى قد تقسّمه ... لحظ العيون ولون الراح فى الكاسِ
إذا نزعت إلى رشدٍ تكنّفنى ... رأيان قد شغلا يُسْرِى وإفلاسى
فاليسر فى القصف واللذات أخلسها ... والعمر فى وصل مَنْ أهوى من النّاس

(١) أمالى القالى ٢ : ١٣٩ .
(٢) نهاية الارب ٤ : ٩٦ ، ديوانه ٢٩٦

لا خير للعيش إلا فى المجون مع الأكفاءِ فى الورد والخيرىّ والآس
ومسمع يتغنّى والكئوس لها حثٌّ علينا بأخماس وأسداس
يا موريَ النار قد أعيت قوادحُه أقبس إذا شئت من قلبى بمقياسِ

* * *

فَشَمَخَ بأنفه صَلَفاً، ونَأى بجانبه أنفاً، وَأنشد:

نَهانِىَ الشَّيْبُ عَمَّا فيهِ أَفراحِى
فكيفَ أجمعُ بين الرَّاحِ وَالرَّاحِ
وَهَلْ يجوز اصطباحِى مِنْ معتّقةٍ
وَقَدْ أنارَ مَشيبُ الرَّأسِ إصباحِى
آليتُ لا خامرتنِى الخمرُ ما عَلِقَتْ
رُوحى بجسْمِى وَأَلفاظِى بإفصاحِ
ولا اكتستْ لى بكاساتِ السُّلافِ يدٌ
وَلا أَجَلْتُ قِداحِى بينَ أقْداحِ
وَلاَ صَرَفتُ إلى صِرْفٍ مُشَعشعةٍ
هَمِّى ولا رُحْتُ مُرْتاحاً إلى رَاحِ
وَلاَ نَظَمْتُ عَلَى مشمولةٍ أبداً
شَمْلى ولا اخترت نَدْماناً سِوَى الصَّاحِى
مَحَا المشيبُ مِراحِى حينَ خَطَّ على
رَأْسِى، فأبْيَضَ بِهِ من كاتِبٍ ماحِى

ولاحَ يَلْحَى عَلَى جَرِّى العِنانَ إلى
مَلْبَى فَسُحْقاً لهُ مِنْ لائحٍ لاحِي
ولو لَهَوتُ وفَودِى شائبٌ لَجَبــا
بَينَ المصابيحَ من غَسَّانَ مِصْبَاحِي
قــومٌ سَجاياهُمُ توقيرُ ضيفِهِمُ
والشَّيْبُ ضيفٌ لَهُ التوقيرُ ياصاحِ

ثمّ إنه انسابَ انسيابَ الأَيْم ، وأجْفَلَ إجفالَ الغَيْم . فعلمت أنّه سِرَاجُ سَرُوج ، وبَدْرُ الأدَبِ الذى يَجْتابَ البرُوج . وكان قُصَارانا التحرُّقَ لبُعْدِه ، والتفرّقَ مِنْ بَعْدِه .

* * *

قوله: «شمخ، أى تكبرورفع أنفه . صلفا : قِحة وصلابةوجه ، وفى فلان صلَف ، أى قلة انطباع وموافقةإذا أردتمنه شيئاً تهاون بك، والتصّليفان : ناحيتا العنق ، كأنه إذا كلّمته فى شىء أعرض عنك ، ولوى عنك صليفَه ، والصلّف مجاوزة قدر الظّرْف ، وفى الشهاب : آفة الظرف الصّلف . ناء : نهض ، ويروى: نأى، تباعد . أنفاً : غضبا ، وأنفت من كذا تنزهت عنه وترفعت ، وأصله من رفع الأنف ، فكأنه رفع أنفه تيهاً عليهم وتكبرا عن منادمتهم لاحتقارهم له أولا قبل اختباره ، ثم تبدّلهم آخر بعد اعتباره ؛ واعتذر لذلك بالشيب .

ونذكر هنا فصلا أدبيًّا يأتى على جميع أغراض هذه الأبيات :

قال بعض الظرفاء يذم الخمر : الشراب : أول الخراب ، ومفتاح كلّ باب ، يمحق الأموال، ويذهب الجمال ، ويهدم المروءة ، ويوهن القوّة ، ويضع الشريف، ويذل العزيز ، ويبيح الحرائر ، ويفلس التجار، وينهتك الأستار ، ويُورِث الشّنار .

وقال بعضهم لابنه : كثرة الشراب تكسد القلب ، وتقلّ الكسب ، وتغيّر اللّب ، واعلم أن الظمأ الذابح ، خير من الريّ الفاضح .

وقال يزيد بن محمد المهلبي يذمه :

لعمرُك ما يحصى على الناس شرّها ... وإن كان فيها لذة ورَخاء
مرارا تريك الغيّ رشدا ، وتارةً ... تخيل أنّ المحسنين أساءوا
وأنّ الصديق الماحض الودّ مبغَضٌ ... وأنّ مديح المادحين هجاء
وجرّبت إخوان النبيذ فقلّما ... يدوم لإخوان النبيذ إخاء

وقال ابن الرومى :

مودّة إخوان النبيذ سلافةٌ ... يبولونها عند انقضاء المجالسِ
فبينا نراهم أهلَ ألفٍ وأثرة ... وبينا نراهمْ بينهمَ حربُ داحسِ
فأما إذا ناديتَهم للمّة ... فناد التّصاوير التى فى الكنائس

ولهذا كتب الحسن إلى صديق له يستهدى منه مشروباً :

لمّا رأيت الحظَّ للقاعدِ ... والنّاس من واشٍ ومن حاسِدِ
خلوت فى بيتىَ وحدى ولا ... أقلّ فى الأعداد من واحد
فابعثْ بها تشغلنى واكفنى ... رؤية هذا العالم الفاسد

وقال أيضاً :

خلوت بالخمر أناجيها ... أشرب منها وأعاطِيها[1]
نادمتُهَا إذ لم أجد صاحباً ... أرضاه أن يشرَكنى فيها
شربتُها صِرفاً على وجهها ... فكنت ساقيها وجانيها

(١) ديوانه ٣٥٠ .

رفع المسهم

قيل لبعضهم : لم لا تتخذ لك نديماً ؟ قال : لأنه مأخوذ من النَّدم .

واختلفوا فى اختيار استعمال النديم ، فمنهم من اختار نديماً واحداً ، ومنهم مَن انتهى فى الاختيار إلى ستة بالساقى وصاحب البيت ، وما زاد على ذلك مذموم بإجماع منهم . قال : وأنشدوا فى ذلك :

وخيرُ النُّدامى ستّةٌ من ذَوِى الحِجَى ... فخمسة إخوانٍ وآخر يَمْنَعُ
ويحمد فى الإخوان مَنْ كان محسناً ... بصوتٍ يغنّيه ولا يتمنّع

* * *

قوله : نهانى الشيب ، جعله الناهى عن اللذات ، لأنه الداعى إلى الفناء والنذير بالموت ، وما يقول بغير هذا إلا متكلّف عذر ، كقول أعرابى — ويروى لإبراهيم بن المهدى :

لقد جلّ قدر الشيب أنْ كان كلما ... بدت شيبة يعرى من اللهو مَرْكَبُ

وقال المعذّل :

لاح شيبى فظِلْت أمرحُ فيه ... مرح الطِّرْف فى اللجام المحلّى
وتولّى الشباب فازددت ركضاً ... فى ميادين باطلٍ إذْ تولّى
إنّ من ساءه الزمان بشيبٍ ... لأحق أمره بأن يتسلّى
أترانى أسوء نفسىَ لمّا ... ساءنى الدهر ، لا لَعَمْرِىَ كلاّ

وقال البحترى يعتذر منه :

عيّرتنى بالشيب وهى رمتْـهُ ... فى عذارِى بالصدّ والاجْتِنابِ[1]
لا تَرَيْه عاراً فما هو بالشّيـــب ولـكنّه جـلاء الشباب

(١) ديوانه ٨٤

رفع المسهم

وبياض البازىّ أصدق حسناً إن تأمّلتَ من سوادِ الغراب

أخذه ابن رشيق فقال :

وإن لم تعجبنى ببياض شَعْرٍ فلا تستغربى بَلَقَ الغرابِ[1]
تعافين المشيب وليس هـذا ولـكن هـذهِ شيةُ الشَّبَابِ

وقال حبيب يتشكاه :

أصبحتْ روضةُ الشباب هشيما وغدت ريحـهُ البليلُ سَمُوما[2]
شعـلة فى المفارق استودعتنى فى صميم الفؤاد ثـكلا صميماً
غُرّةٌ بُهمةٌ ألا إنمـا كُنْـــــتُ أغرًّا أيام كنت بَهيما
دقّة فى الحيـاة تُدْعَى جلالاً مثـل ما سُمِّىَ اللديغ سليما

وقال مسلم بن الوليد :

الشيب كره وكره أن يفارقنى أعجب بشىء على البَغْضاء مورود[3]
يمضى المشيب فلا يأتى له خلفٌ والشَّيْب يذهب مفقوداً بمفقودِ

أخذه سليمان بن وهب حين نظر إلى المرآة ، فقال : عيب لاعدمناه .
وقال أبو الفتح البستىّ :

ياشيبتى دُومى ولا تترحّلى وتيقّنى أنى بوصلك مولَعُ
قد كـنت أجزع من حُلولك مدّة والآن من خوفِ ارتحالك أجزعُ

وزاد أبو الطيب على هذا فقال : وذكر أنه يتمنّى الشيب فى زمن الشباب :

---

(١) نقله فى التنف ١١ .
(٢) ديوانه ٣ : ٢٢٣ (دار المعارف)
(٣) ديوانه ٣١٠

مُنَّى كُنَّ لى أنّ البياض خضابُ فيخفى بتبييض القرُونِ شَبَابُ[1]
ليالِيَ عند البيض فَوْدايَ فتنةٌ وفخر وذاك الفخر عندى عَابُ
فكيف أذمُّ اليوم ما كنت أشتهى وأدعو بما أشكوه حين أجاب

كأنّ أبا الطيب نسى ما قاله فى الشيب فى الزمن الذى زعم أنه كان يشتهيه ويتمنّاه[2] :

ابعَدْ بعِدْتَ بياضاً لا بياضَ له لأنت أسْود فى عينى من الظُّلَمِ

وقال ربعىّ :

مَنْ كان يبكى الشباب من أسفٍ فلست أبكى عليه من أسفِ
كيف وشَرْخ الشباب أوقفنى يوم حسابى موافف التَّلَفِ
لاصَحِبتُ شِرّة الشباب ولا عَدِمْتُ مافى المشيب من خَلَفِ

وقال ابن رشيق :

أراك للشيب ذا اكتئابٍ فأين تمضِى عن الصواب[3]
إن كنت ترعى الوفاء حقّا فالشيب أوفى من الشَّبَابِ

وحقيقة الأمر أنه مازال الناس يكرهون الشيب ويذمُّونه ، نثراً ونظماً . لما فيه من دليل الفناء ، والهجنة عند النساء ، وقطع اللذات بالرِّقبة والحياء ، ويحبون الشباب ويمدحونه ، لما فيه من عذرة الجاهل ، وإتيان العاجل ، وحسن الشمائل ؛ إلا أن لطف الحذاق من الشعراء فى تحسين ما كانوا يكرهون ، وتقبيح ما كانوا يمدحون رياضةً للنفوس ، وتوسعاً فى القول، كما قال أحدهم :

---

(١) ديوانه ١ : ١٨٨
(٢) ديوانه ٤ : ٣٥
(٣) نقله فى التنف ١٢ .

رفع المسهم

تفارِيق شيب فى العذار لوامعٌ وماحُسْنُ ليلٍ ليس فيه نجوم !

وقالوا : فى الشيب استحكام الوقار ، وتناهى الجلال ، وميسم التّجربة . فهذه مقاصدهم فقف عليها .

قوله : أفراحى: جمع فرح . الراح : الخمر ، والثانى جمع راحة، وهى الكفّ . معتقة : خمر قديمة شديد الحمرة . أنار : بيّض . إصْباحى : احمرار شعرى ، والصبحُ : حمرة الشعر، وضعه موضع السّواد ، لأنّ كِلَيهما من حلية الشباب ، وحمله على هذا ماضمن الشيب من التحسين فيقول مستفهماً : هل يجوز شربى فى البكور من خمر صافية فى حال تغيير الكِبَر شبابى ، وتبديله حلية الشباب بحلية الشيوخ . خامرتْنى : خالطتْنى . إفصاحى : تبيينى . السُّلاف : الخمر . وأجات : صرّفت . قِداحى : سهام الميسر . أقْدَاح : جمع قِدْح ، وهو الكأس . صرفت : رددت . صِرْف : خمر . مشعشعة : رقيقة المزيج . هِمّتى : إرادتى . رُحْتُ : مشيتُ بالعشىّ . مرتاحا : مهتزًّا من الطرب ، وارتاح : وجَد راحة الطلب أو خِفّة الكرم . نظمت : جمعت . مشمولة : خمر ، وهى الشَّمول ، سمِّيت بذلك لاشتمالها على عقل صاحبها ، وقيل : لأنها تشمل القوم بريحها ، أى تعمُّهم . وقيل : لها عصفة كعصفة الريح الشمال . شملى : مجموع أمرى ، والندمان : هو النديم . الصاحى : المُفيق من سكره . مَحَا : أزال . مراحى : طَرَبى . خطّ : كتب . أبغِضْ به ، أى ما أبغضه إلىّ . لاح : ظهر . يلْحَى : يلوم ويغلظ القول . جَرّى العنان ، أى انْهماكى فى الملاهى . مَلْهى : لهو . سُحْقاً : بعداً . لائح : ظاهر فى الرأس . لاحٍ : شاتم وعائب ، يريد أن شيبه لاح فى رأسه فلحاه على اللهو والصِّبا . فَوْدِى : جانب رأسى . شائب : فيه الشيب . خبا : طفىء وسكن ضوءه . غسان : قبيلة . وأحسن

ماسمعت فى شيب الفؤد ، وفى وخط المشيب الّذى ذكر ، قول عبدالرحيم بن هارون :

رأيت الشيب مبتسما بفودِى ففاضتْ أدمعِى بدم الفؤاد
وعمرى كلّ يوم فى انتقاصٍ وذاك النقص لقّب بالزياد
ولى خطٌّ وللأيام خـــط وبينهمـــا مخالفة المِداد
فأكتبه سواداً فى بياض وتكتبه بياضاً فى سواد

أنشدها الفنجديهىّ وقال عند إنشادها: ولعبدالحميد أبيات، كأنها روضات جنات.

قوله : سجاياهم ، أى طبائعهم . ياصاح ، أراد ياصاحب فرخّم لكثرة الاستعمال . ولما جعل غسان من عادتهم توقير الضيف ، والشيب ضيف وجب عليه توقيره . ومراعاة مثل هذا العموم قد تقدّم له فى ذم الزجاج الذى جرت عليه سبيله ، وأخذ هذا من قول دعبل :

أحبّ الشيب لمّا قيل ضيفٌ كحبّى للضُّيُوف النّازلينا[1]

وقال المتنبى فى ذم هذا الضيف :

ضيفٌ ألمّ برأسى غير محتشِمٍ والسيفُ أحسنُ فِعلا منه باللِّمَم[2]
ابعَدْ بعِدت بياضا لا بياض له لأنت أسودُ فى عينِى من الظُّلَمِ

وقال محمود الورّاق :

للضيف أن يُقرَى ويُعرفَ حقُّه والشّيب ضيفٌ فاقْرِه بخضابِ
وافى بأصدقِ شاهد ولربّما وافى المشيب بشاهد كذّاب
فافسخ شهادته عليك بخضبة تنفى الظنون بها عن المرتاب
فإذا دنا وقت الرحيل فخلّه والشّيب يذهب فيه كلّ ذهاب

وقوله: والشيب ضيف له التوقير ، قام وكيع لسفيان فنكر قيامه إليه فقال:

(١) ديوانه ١٥٠
(٢) ديوانه ٤: ٣٥

رفع المسهم

أتتكر علىّ قيامى إليك،وأنت حدّثتنى عن عمرو بن دينار ، عن أنس بن مالك رضى الله عنهم : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:«إنّ من إجلال الله عز وجل إجلال ذى الشيبة المسلم». قال : فأخذ سفيان بيده، فأقعده إلى جانبه .

وعن أنس رضى الله تعالى عنه ، قال : قال النبى صلى الله عليه : «ما أكرم شابٌّ شيخاً لِسنّه إلا قيّض الله تعالى له من يكرِمه عند كبَر سنه» .

وقال صلى الله عليه وسلم: «أوحَى إلىّ ربى يقول : الشيب على عبدى المؤمن نور من نورى ، وأنا أكرَم مِنْ أن أحرق نورى بنارى» .

وحدث محمد بن مسلم الخوّاص الرجل الصالح . قال :رأيت يحيى بن أكثم القاضى فى المنام ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : أوقفنى بين يديه ، وقال : ياشيخ السوء ، لولا شيبتُك لأحرقتك بالنار ، فأخذنى ما يأخذ العبد بين يدى مولاه ، فلما أفقت قالها ثانية وثالثة ، فلما أفقت قلت : يارب ، ما هكذا حُدِّثت عنك ، فقال تعالى : وما حُدِّثتَ عنى ؟ قلت : حدثنى عبدالرزاق ، قال : حدثنى معمر بن راشد ، عن ابن شهاب الزّهرى ، عن أنس بن مالك، عن نبيّك محمد صلى الله عليه وسلم عن جبريل ، عنك يا عظيم ؛ أنك قلت : ما شاب لى عبد فى الإسلام شيبة إلا استحييتَ منه أن أعذبه بالنار ، فقال الله عز وجل : صدق عبد الرزاق وصدق معمر ، وصدق الزّهرى وصدق أنس وصدق نبيِّى وصدق جبريل ، أنا قلت ذلك ، انطلقوا به إلى الجنة .

* * *

رفع المسهم

تفسير ما أودع هذه المقامة

من النكت العربية والأحاجى النحوية

أما صدر البيت الأخير من الأغنية الذى هو : « فإن وصلاً ألذّ به » ؛ فإنه نظير قولهم : المرء مجزىٌّ بعمله ، إن خيراً فخيرٌ ، وإن شرًّا فشرٌّ ، وهذه المسألة أودعها سيبويه كتابَه وجوّزَ فى إعرابها أربعة أوجه :

أحدها — وهو أجودُها — أن تنصب : « خيراً » الأول وترفع الثانى . وتنصب : «شرًّا » الأول وترفع الثانى ، ويكون تقديره : إن كان عملهُ خيراً فجزاؤه خير ، وإن كان عمله شرًّا فجزاؤه شرّ ، فتنصِب الأوّل على أنه خبر كان ، وترفع الثانى على أنه خبر مبتدأ محذوف . وقد حذِفت فى هذا الوجه « كان » واسمها لدلالة حرف الشّرط الذى هو « إن » على تقديرهما . وحذف أيضاً المبتدأ لدلالة الفاء التى هى جوابُ الشرط عليه ؛ لأنه كثيراً مايقع بعدها .

الوجه الثانى : أنْ تنصبهما جميعاً ، ويكون تقدير الكلام : إن كان عملهُ خيراً فهو يُجزى خيراً ، وإن كان عمله شرًّا فهو يجزى شرًّا ؛ فينتصب الأوّل على أنه خبر « كان » وينتصب الثانى انتصاب المفعول به .

والوجه الثالث: أن ترفعهما جميعاً ، ويكون تقدير الكلام : إن كان فى عمله خير فجزاؤه خير ، فيرتفع «خير» الأوّل على أنه اسم « كان» ويرتفع « خير » الثانى على ما بُيِّن فى شرح الوجه الأول .

وقد يجوز أن يرتفع «خير » الأول على أنه فاعل « كان» وتجعل « كان» المقدّرة ها هنا هى التامّة التى تأتى بمعنى حدث ووقع، فلا تحتاج إلى خبر كقوله تعالى : ﴿ وإنْ كَانَ ذُو عُسرَةٍ فنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ ﴾ ، ويكون التقدير فى المسألة : إن كان خيرٌ فجزاؤه خير ، أى إن حدث خير فجزاؤه خير .

رفع المسهم

والوجه الرابع : وهو أضعفها أن ترفع الأوّل على ما تقدّم شرحه فى الوجه الثالث، وتنصب الثانى على ما بُيّن ذكره فى الوجه الثانى ، ويكون التقدير : إن كان فى عمله خير فهو يجزى خيراً ، وعلى حسب هذا التقدير والمقدّرات المحذوفات فيه يجرى إعراب البيت الذى غُنِّى به . ومما ينتظم فى هـذا السّلك قولهم : المرء مقتول بما قُتِل به ؛ إن سيفاً فسيف ، وإن خِنْجَراً فخنجر .

وأما الكلمة التى هى حرف محبوب أو اسم لما فيه حرفٌ حلوب ، فهى « نعم » ، إن أردت بها تصديق الأخبار أو العِدة عند السؤال فهى حرف ، وإنْ عنيتَ بها الإبل فهى اسم . والنَّعم تذكر وتؤنث وتُطلق على الإبل وعلى كلّ ماشيةٍ فيها إبل . وفى الإبل الحرْف وهى الناقة الضامرة ، سُمّيت حرفاً تشبيها لها بحرْف السيف . وقيل : إنها الضخمة تشبيها لها بِحَرف الجبل .

وأما الاسم المتردد بين فرد حازم وجمع ملازم ، فهو : سراويل ، قال بعضهم : هو واحد وجمعه سَراويلات ، فعلى هذا القول هو فرد ، وكنىَ عن ضَمِّه الحَصْر بأنّه حازم .

وقال آخرون: بل هو جمع، واحده سِرْوال، مثل: شِملال وشَمَاليل، وسِرْبال وسَرابيل ، فهو على هذا القول جمع .

ومعنى قوله : ملازم ، أى لا ينصرف ؛ وإنما لم يَنْصرف هذا النوع من الجمع، وهو كلّ جمع ثالثه ألف وبعدها حرف مشدّد ، أو حرفان أو ثلاثة أوسطها ساكن لثقله وتفرّده دون غيره من الجموع بأن لا نظير له فى الأسماء والآحاد ، وقد كنى فى هذه الأُحْجية عمّا لا ينصرف بالملازم ، كما كنى فى التى قبلها عمّا ينصرف باللازم .

* * *

رفع المسهم

وأما الهاء التى إذا التحقت أماطت الثقل ، وأطلقت المعتقل ، فهى الهاء اللاحقة بالجمع المقدّم ذكره ، كقولك: صيارفة وصياقلة ، فينصرف هذا الجمع عند التحاق الهاء به ، لأنها قد أصارته إلى أمثال الآحاد ، نحو : رفاهية وكراهية ، فخفّ بهذا السبب وصُرِف لهذه العلة . وقد كنى فى هذه الأحجية عمّا لا ينصرف بالمعتقل ، كما كنى فى التى قبلها عمّا لا ينصرف باللازم .

وأما السين التى تعزل العامل من غير أن تجامل ، فهى التى تدخل على الفعل المستقبل وتفصل بينه وبين أن ، التى كانت قبل دخولها من أدوات النصب ، فيرتفع حينئذٍ الفعل وتنتقل أن عن كونها الناصبة للفعل إلى أن تصير المخففة من الثقيلة ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى ﴾ ، وتقديره : علم أنه سيكون .

وأما المنصوب على الظرف الذى لا يخفضه سوى حرف ، فهو : « عند » إذ لا يجرّه غير « منْ » خاصة ، وقول العامة : ذهبت إلى عنده لَحَن .

وأما المضاف الذى أخلّ من عُرَى الإضافة بعرْوة ، واختلف حكمه بين مساء وغدوة ، فهو « لَدُن » ولدن من الأسماء الملازمة للإضافة ، وكلّ ما يأتى بعدها مجرور بها إلاّ غُدوة ، فإن العرب نصبتْها بلدن لكثرة استعمالهم إياها فى الكلام ، ثم نوّنتها أيضاً ليتبيّن بذلك أنّها منصوبة ، لا أنّها من نوع المجرورات التى لا تنصرف ، وعند بعض النحويين أن « لَدُن » بمعنى « عند » ، والصحيح أنّ بينهما فرقاً لطيفاً ، وهو أنّ « عند » يشتمل معناها على ما هو فى ملكك ومكْنَتِك ، ممّا دنا منك وبَعُد عنك ولدن يختصّ معناها بما حضرك وقرُب منك.

وأما العامل الذى يتصل آخره بأوله ، ويعمل معكوسه مثلَ عمله ، فهو : « يا » ، ومعكوسها « أى » ، وكلتاهما من حروف النداء ، وعملهما فى الاسم

رفع المسهم

المنادى سيّان ، وإن كانت « يا » أجوَل فى الكلام ، وأكثر فى الاستعمال . وقد اختار بعضهم أن ينادى بأىْ ، القريب فقط كالهمزة .

وأما العامل الذى نائبه أرحب منه وكرا ، وأعظم مكرا ، وأكثر لله تعالى ذكرا ، فهو باء القَسَم ؛ وهذه الباء هى أصل حُروف القسم بدلالة استعمالها مع ظهور فعل القسم فى قولك : أقسم بالله ، ولدخولها أيضاً على المضمر ، كقولك : بكَ لأفعلنّ ؛ وإنما أُبْدِلت الواو منها فى القَسَم لأنهما جميعاً من حروف الشفة ؛ ثم لتقارب معنييهما ؛ لأنّ الواو تفيد الجمع والباء تفيد الإلصاق ، وكلاهما متّفق ، والمعنيان متقاربان . ثم صارت الواو المبدلة من الباء أدْوَر فى الكلام وأعْلَق بالأقسام ؛ ولهذا ألغز بأنها أكثر لله تعالى ذِكْراً . ثم إن الواو أكثرُ موطنا من الباء ، لأن الباء لاتدخل إلا على الاسم ، ولاتعمل غير الجرّ ، والواو تدخل على الاسم والفعل والحرف . وتجرّ تارة بالقسم وتارة بإضمار ربّ . وتنتظم أيضاً نواصب الفعل وأدوات العطف فلهذا وصفها برُحب الوكر وعظم المكر .

وأما الموطن الذى يلبس فيه الذّكران براقع النسوان ، وتبرُز فيه ربّات الحجال بعمائم الرجال ، فهو أوّل مراتب العدد المضاف ، وذلك بين الثلاثة إلى العشرة ، فإنه يكون مع المذكّر بالهاء ومع المؤنث بحذفها ، كقوله تعالى : ﴿سَخّرها عليهم سَبْعَ ليالٍ وثمَانِية أيّامٍ﴾ والهاء فى غير هذا الموطن من خصائص المؤنث ، كقولك : قائم وقائمة وعالم وعالمة ، فقد رأيت كيف انعكس فى هذا الموطن حكم المذكر والمؤنث حتى انقلب كل منهما فى ضدّ قالبه ، وبرز فى بزّةِ صاحبه .

وأما الموضع الذى يجب فيه حفظ المراتب عن المضروب والضارب ، فهو حيث يشقبه الفاعل بالمفعول لتعذّر ظهور علامة الإعراب فيهما أو فى أحدهما ،

رفع المسهم

وذلك إذا كانا مقصورين مثل موسى وعيسى ، أو من أسماء الإشارة نحو ذاك وهذا . فيجب حينئذٍ لإزالة اللّبس إقرار كل منهما فى رتبته ، ليعرف الفاعل منهما بتقدمه ، والمفعول بتأخّره .

وأما الاسم الذى لا يفهم إلا باستضافة كلمتين ، أوالاقتصار منه على حرفين فهو « مهما » ، وفيها قولان : أحدهما : أنها مركبة من « مه » التى هى بمعنى اكفف ، ومن « ما » والقول الثانى ـ وهو الصحيح ـ أنّ الأصل فيها «ما» فزيدت عليها «ما» أخرى ، كما تزاد على «إنّ» فصار لفظها « ماما » ، فثقل عليهم توالى كلمتين بلفظ واحد ، فأبدلوا من ألف «ما» الأولى «ها» فصارتا «مهما» . ومهما من أدوات الشرط والجزاء ، ومتى لفظت بها لم يتمّ الكلام ، ولا عُقِل المعنى إلا بإيراد كلمتين بعدها ، كقولك : مَهما تفعل أفعل وتكون حينئذ ملتزما للفعل ، وإن اقتصرتَ منهما على حرفين وهما «مه» التى بمعنى اكْفُفْ ، فهم المعنى وكنت ملزماً مَنْ خاطبته أن يكفّ .

وأما الوصف الذى إذا أردف بالنون نقص صاحبه فى العيون ، وَقُوّم بالدون ، وخرج من الزّبون ، وتعرّض للهُون ، فهو « ضيف » إذا لحقته النون استحال إلى « ضيفن » وهو الذى يتبع الضيف ويتنزّل فى النقد منزلة الزّيْف .

رفع المسهم

المقامة الخامسة والعشرون وتعرف بالكرجية

حكى الحارث بن همام قال : شَتَوْتُ بالكرَج لِدَيْنٍ أَقْتَضِيه ، وأَرَبٍ أَقْضيه ، فبلوت من شتآتها الكالِح ، وصِرّها النّافح ، ما عَرَّفنِي جَهْدَ البلاء ، وَعَكَفَ بى عَلَى الاصْطِلاء ؛ فَلَمْ أكنْ أُزايِلُ وِجارِى ، وَلاَ مُسْتَوْقَدَ نارِى ، إلاّ لضرُورةٍ أُدْفَعُ إليْهَا ، أوْ إقامَةِ جماعةٍ أُحافِظُ عَلَيْهَا ، فاضْطُرِرْتُ فى يومٍ جوّهُ مُزْمَهِرّ ، وَدَجْنُهُ مكفهِرّ ، إلى أن بَرَزْتُ من كِنانِى ، لِمُهِمّ عَنانى ؛ فإذا شيخٌ عارِى الجِلْدَة ، بادِى الجُرْدَة ، وقد اعتمّ بِرَيْطَة ، واسْتَتْفَرَ بِفُوَيْطَة ، وَحَوالِيهِ جمعٌ كثيف الحواشى ، وهو ينشدُ وَلاَ يُحاشِى .

* * *

شَتَوْت : أقمت فى الشتاء

[الكرج]

والكرَج : مدينة معروفة ، وبشدة البرد موصوفة ، وهى بين أصبهان وهَمَذان ، وقد تقدم برد همذان[1] فى الأولى ، ومن همذان إلى نهاوند مرحلتان ، ومن الكرَج إلى مدينة أصبهان ستون فرسخاً . وهى منازل عيسى بن إدريس بن معقل العجلىّ ، ولم تكن فى أيام العجم مدينة مشهورة ، وإنما كانت فى عداد القرى العظام من رساتيق كورة أصبهان ، فنزلها العجليّون فبنوْا بها الحصون والقصور ، وجعلها أبو دلف مدينة عظيمة .

وقال أبو دلف : دخلت على الرّشيد ، فقال لى : ياقاسم ، ماخبر أرضك ؟ قلت : خراب يباب ، خرّ بها الأكراد والأعراب ، فقال قائل : هذا آفة الجبل وهو أفسده ، فقلت : فأنا أصلحه . قال الرشيد : وكيف ذلك ؟ قلت : أفسدتُه وأنت علىّ ،

(١) فى الجزء الأول ، صفحة ٢٤ ، ٢٥

وأصلحه وأنت معى . ففعل ذلك ، وعمّر الكرَج ، حتى صار دار أجناد ، ومحلّ وفود وقُصّاد .

وقال علىّ بن جبلة[1] : زرته فى الجبل ، فلما حللت بالكرَج ، أظهر من برّى وإكرامى أمراً مفرطا ، حتى تأخّرت عنه تأخرا كبيراً . فوصل إلىّ معقل بن عيسى ، فقال : يقول الأمير : انقطعتَ عنى ، وأحسبك استقللتَ برّى ، فلا يغضبنّك ذلك ، فسأزيدُ فيه حتى ترضى . فقلت : والله ماقطعنى عنه إلا إفراطه بالبرّ . قال : وكتب إليه فى ذلك :

هجرتُك لم أهجرْك من كفر نعمةٍ ... وهل يُرتجى نَيْلُ الزيادة بالكفر
ولكنّنى لما أتيتك زائراً ... فأفرطت فى برى عجزت عن الشكر
فآليت لا آتيك إلاّ مسلّما ... أزورك فى الشهرين يوما وفى الشهر
فإن زدتنى برّا تزايدت جَفْوَةً ... ولم تلقنى طول الحياة إلى الحشرِ

فلما وصلت إليه ، قال : قاتله الله ماأشعره ، وأدق معانيه ! فأجابنى لوقته ، وكان حسن البديهة :

ألا ربّ ضيفٍ طارق قدبسطته ... وآنسته قبل الضيافة بالبشرِ
أتانى يرجّينى فما حال دونَه ... ودون القِرَى والعرف من نيله سترى
وجدتُ له فَضلا علىّ بقصده ... إلىّ وبرّا راد فيه على برّى
فزوّدته مالا يقلّ بقاؤه ... وزوّدنى مدحا يَدُوم مع الدهر

وبعث إلىّ بها وبألف دينار مع وَصِيفة ، فقلت حينئذ :

إنما الدنيا أبو دلَفٍ ... بين مبداه ومُحْتَضَرِهْ
فإذا ولّى أبو دلَفٍ ... ولّت الدنيا على أثره
ملك تندى أنامله ... كانبلاج النّور عن مَطَره

(١) الأغانى ١٩ : ٢٩٨ (بيروت)

مستهلٌّ عن مواهبـــه كابتسام الزهر عن زهَرهْ
جبلٌ عزَّتْ مناكبهُ أمنَتْ عـدنان فى ثَغرِهْ
كلّ من فى الأرض من عَرَبٍ بين باديه ومحتضرهْ
مستعيرٌ منـه مـكرمة يـكتسبها يوم مفتَخِرهْ

والبيت الثانى أحفظ المأمون علَى ابن جبلة حتى سلّ لسانه من قفاه .

* * *

قوله : أقتضيه ، أى أجمعه . أرب : حاجة . بلوت : قاسيت . الـكالح : الشديد ، وكلح كلوحا . أبدى أسنانه عند العبوس ، والبرد الشديد يبدى الأسنان عند رعده . صرّها : يردها الشديد . النافح : المتحرك بالريح الباردة . جهد البلاء : مشقة الضرّ ، ويقال : بلغ جهده ، أى أقصى قوته ، فأراد بجهد البلاء المشقة التى يتمنّى الإنسان عندها الموت ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعيذ منه .

أبو هريرة رضى الله تعالى عنه : علّمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الدعاء : « اللهم إنى أعوذ بك من سوء القضاء ، وجهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وشماتة الأعداء » ؛ وروى فى «جهد البلاء» ، أنه القتْل صبرا

أنس رضى الله تعالى عنه يرفعه قال : قتْل الصبر جهد البلاء .

وقال صلى الله عليه وسلم : « جهد البلاء أن تحتاج إلى ما فى أيدى فى الناس فيمنعوك »

مجاهد قال : كنت جالسا عند عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بالـكوفة ، فأُتِىَ برجل أن يضرب عنقه ، فقلت : هذا والله جهد البلاء ، فقال : والله ما هذا إلا كشَرْطة حجام بمشراط ، ولـكن جهد البلاء فقر مدقع بعد غِنًى مُوسع .

الأحنف : جهد البلاء خمسة : خادم مذموم ، وحطب رطب ، وبيت يصف ،

وخوان ينتظر ، وجبار على الباب يدق .

عـكف بى على الاصطلاء : أزمنى التسخُّن بالنار وعكف على الشىء عكوفا:لزمه. أزايل وجارى : أفارق بيتى، والوجار جحر الضبع. إقامة جماعة ، أى حضور الصلاة مع الجماعة ، وبردشكير بغرناطة كان أشد على ابن صارة ـ حيث منعه الصلاة ـ من برد الـكرَج على ابن هام حيث يقول ابن صارة :

أحلّ لنا تركَ الصلاة بأرضكمْ وشرب الحمَّيـا وهو شىء محرّمُ
فراراً إلى نار الجحيم فإنهـا أرقّ علينا من شـكير وأرحمُ
لئن كان ربى مُدْخِلى فى جهنّمٍ فنى مثل هذا اليوم طابت جهنّمُ

جوّه مزمهرّ : هواؤه بارد ، والزمهرير: البرد . دَجْنه مكفهرّ : سحابه متراكم مظلم . كنانى : بيتى : مهمّ : أمر لا يؤخر . عنانى: عرض لى وقصدنى . الجرْدة الجلدة : التى تجرّد عنها ثوبها،وفلان حسن الجردة والتجرّد ، أى حسن العرى ، وقيل : الجردة الثوب المتجرّد البالى . والريطة عند العرب : شىء رقيق ، شبه الملحفة ، ولذلك سُمِّىَ به المرأة ، ولا معنى لهذه الصفه لأنه قد وصفه بالعرْى ، وإنما أراد هنا شبه الـكراز لفظ مغيّر عن أصله كالفوطة عندنا ، ضرب مما يعتمّ به، وهى مغيّرة عن أصلها ، وإنما أصل الفوطة ثوب يجلَب من الهند غليظ ، وتصغيرها فُويطة ، يلبسه أهل مصر وأهل المشرق كما يلبس أهل المغرب وأهل الأندلس الإحرام والمئزر. واستئفر : بالثوب إذا لواه على فخِذيه، ثم أخرجه من بينهما ، فشدّه فى حُجْزته ، واستئفر الـكلب بذنَبه : جعله بين فخِذيه فتخيل صورة السروجىّ هنا التى نهاية فى القبح على مايتّصف به أبدا ، وقد لوَى على رأسه قطعة من عمامة بالية ، واستئفر بمثلها، فلا تجدله مثلا إلا ما قال أبو دلامة فى نفسه :

إذا لبس العمامة كان قردًا وخنزيراً إذا نزع العِمَامَهْ :

وأين هذا من قول ابن رشيق فى غلام معتمّ بعمامة حمراء :

يامن يمرّ ولا تمرّ به القـــلوب من الحرقْ
بعمامة من خدّه أو خـدّه منها سَرَقْ
فكأنه وكأنهـــا قمرٌ أحاط به شفق
شغل الجوارح والجوا نح والخواطر والحدَقْ

وقال السَّلامى فى عمامة :

حسناء ضافيـة ، بيضاء صافيـةٌ كأنَّ روْنقها فى صارم ذكرِ
يزين أطرافها طرز كما رقمت على المجرّة طرز الأنجم الزّهرِ

كثيف : خشن منضمّ بعض حواشيه إلى بعض من الكثرة . يحاشى : يستثنى .

* * *

ياقومِ لا ينبئكُمْ عَنْ فَقْرِى
أصدقُ مِنْ عُرْيِى أوانَ القُرِّ
فاعْتبروا بما بدا من ضُرِّى باطِنَ حالِى وخَفِىَّ أمرِى
وحاذروا انقلابَ سِلْمِ الدّهرِ فإنّنِى كنتُ نَبِيَه القدْرِ
آوِى إلى وَفْرٍ وَحَدٍّ يَفْرِى تفيدُ صُفرِى وتُبيدُ سُمْرِى
وتشتكى كومِيِ غداةَ أقرِى فجرّدَ الدّهرُ سيوفَ الغدْرِ
وشنَّ غاراتِ الرزايا الغُبْرِ ولم يَزَلْ يَسْحَتُنِى ويَبْرِى
حتّى عفتْ دارِى وَغاضَ دَرِّى
وبارَ سِعْرِى فى الورى وشِعْرِى

(١) نقله فى التنف ٤٥

وَصِرْتُ نِضْوَ فاقةٍ وَعُسْرِ
عَارِى الْمَطَا مجرَّدًا مِن قشْرِى
كأننى المِغزلُ فى التَّعرِّى لادِفْءَ لى فى الصِّنّ والصَّنَّبرِ
غيرُ التَّضحِّى واصطلاءِ الجَمْرِ فهل خِضمٌّ ذو رداءٍ غَمْرِ
يسْتُرُنِى بِمُطْرَفٍ أو طِمْرِ طِلاَبَ وجه اللهِ لا لشكرِى!

* * *

ينبىء : يخبر . أوان القرّ : وقت البرد . حاذروا : خافوا . سِلْم : صلح . تبيه القدر : رفيع المنزلة . آوى : ارجع . وفر : مال كثير . يفرِى . يقطع . تفيد : تأتى بالفوائد . صُفرِى : دنانيرى . تُبيد : تتلف . سُمْرِى : رماحى . كَوْمى : إبلى ، والكوْماء: الناقة العظيمة السنام أقرى : أطعم الأضياف ، أى تشتكى إبلى من كثرة ما أنحرها للضيفان . شنّ : فرّق . الرزايا : المصائب . الغبر : الآتية فى الزمان المحل . يَسحَتُنى : يستأصل مالى . يبرى : يقطع لحمى . عَفَتْ : درست . غاض : ذهب وجفّ . درّى : لبن إبلى . بار : كسد وضاع . سعرى:سوقى . نضو:هزيل . فاقة : حاجةوفقر . عسر:ضيق حال . المطا : الظهر قشْرى : ثيابى . والدفء : ذهاب البرد،وقددفئ يدفأ، أى سخن وذهب برده . الصِّنُّ والصنّبر : يومان من أيام العجوز ، وهى سبعة : أربعة من آخر فبراير، وثلاثة من أول مارس . وقال الشاعر فجمعها :

كُسِع الشتاء بسبعة غُبْرٍ بالصِّنّ والصَّنَّبر والوبْرِ[1]
وبآمرٍ وأخيه مؤتمرٍ ومعلِّلٍ وبمطفىء الجمرِ

التَّضحّى : الجلوس للشمس . خضمّ : كريم ، شبِّه بالبحر ، وهو الخضمّ . ذو رداء غمر : ذو عطاء كثير . مطرَف : ثوب مربّع فى طرفه عَلَم . الفرّاء: قيل مُطْرَف لأنه أُطرِف،أى جُعل فى طرفيه العلمان. طِمْر: ثوب خَلَق.

* * *

(١) اللسان ـ صنبر .

رفع المسهم

ثمّ قَالَ : يا أرْبابَ الثَّراء ، الرَّافلينَ فى الفِرَاء ؛ مَنْ أُوتِى خيراً فلينفِقْ ، وَمنِ استطاعَ أن يُرْفِقَ فلْيُرْفِق ؛ فإنّ الدُّنيا غَدُور ، والدَّهْرَ عَثُور ، وَالمُكْنَةُ زَوْرَةُ طَيْف ، وَالفرصة مُزْنَةُ صَيْف . وَإنّى وَاللهِ لَطالَمَا تَلَقّيْتُ الشّتاءَ بكاماته ، وَأعْدَدْتُ الأُهبَ لَهُ قَبْلَ موافاتِهِ ، وَها أنَا الْيَوْمَ ياسَادَتى ، ساعِدِى وسادَتى ، وجِلْدَتِى بُرْدَتِى ، وحَفْنتِى جَفْنتِى ، فلْيَعْتبِرِ العاقِلُ بحالِى ، ولْيبادِرْ صَرْفَ اللَّيالِى ؛ فإنَّ السَّعِيدَ مَنِ اتَّعَظَ بِسَواه ، واستعدَّ لِسَرّاه .

* * *

أرباب الثراء : أصحاب المال . الرّافلين : الماشين بخُيلاء وتبختر : الفِرَاء : جمع فروة . أوتى : أعطى . خيراً : مالاً . يُرفق : يعين ، وأرفقنه : أعطيته مايرتفق به . غَدُور : كثيرة الخداع . عَثور : واقع بأهله . المكنة : الغِنَى .

طيف : مايرى فى النوم .

ابن الأنبارى : فى طيف الخيال قولان : قيل : أصله طيّف فخفِّف ، وقال الأصمعى رحمه الله تعالى : هو مصدر طاف ، وبه أخذ السهيلىّ رحمه الله تعالى ، فقال : هو مصدر طاف الخيال يَطيف طيْفا ، ولا يقال : منه طائف على فاعل ، لأنه لا حقيقة للخيال ، إنما هو توّهم وتخيّل . فإن كان شىء له حقيقة قلت : فيه طائف ، نحو قوله تعالى : ﴿ فطاف عليها طائف من ربك ﴾ ، لأن الذى طاف عليها له حقيقة ، ويقال : إنه جبريل عليه الصلاة والسلام . وأما قوله تعالى : ﴿ إذا مسّهم طيف من الشيطان تذكروا ﴾ فقد قرئ ﴿ طائف ﴾ أيضاً فطائف لأن له حقيقة ، وطيف لأنه غرور الشيطان وأمانيه تشبه بالخيال وما لا حقيقة له ، فتحصّل من هذا ثلاث مراتب الخيال ، ولا حقيقة له فيعبّر بالطيف ، ويقال فى وسوسة الشيطان : طائف وطيف ، وما عدا هذين فهو باسم الفاعل ، ولا يعبَّر عنه بطيْف

فقف عليه . الفُرصة : ماتهيأ لك وتيسّر لك من مطالبتك . مزنة صيف ، أى سحابة لا دوام لها ، وأراد قول عمران بن حطّان :

أرى أشقياء النّاس لايسقُونها على أنهم فيها غراب وجوّع
أراها وإن كانت تُحَبُّ فإنها سحابة صيف عن قريب تَقَشَّعُ

ولما ولِيَ بلال بن أبى بردة البصرة ، كان إذا اجتاز فى مواليه بخالد بن صفوان يقول : * سحابة صيفٍ عن قريب تقشّعُ *

فبلغ قوله بلالا ، فقال : والله لا تقشع حتى يصيبك منها شؤبوب ، فردّه ثم ضربه مائة سوط .

كافات : جمع كاف ، وأراد بها آلته ومايستعدّ له بها وهى الأهب التى أراد . موافاته : مجيئه وحضوره . ساعدى : ذراعى . بردتى : ثوبى ، الحفنة : ماءملأ الكفّ . الجفنة : الصحفة . فليتعظ ، أى يعتبر ويجعلنى عبرة . صرف : تقلّب . استعد : أعدّ : لمسراه : مثواه . وقال الألبيرى فى هذا المعنى :

وذى غنى أوهَمته همّتُهُ أنّ الغنى عنه غير منفصلِ [1]
فجرّ أذيال عُجْبِهِ بَطَراً واحتال للكبرياء فى حُلَلِ
بزّته أيدى الخطوب بِزّتَه فاعتاض بعد الجديد بالسَّمَلِ
فلا تثق بالغنى فآفته الفقـــر وصرف الزمان ذو دُوَلِ
كفى بنيل الكفاف منه غِنًى فكفّ به الدهر غيرَ مُحتَفِلِ

[من مقامة البديع البخارية]

ومن مقامات البديع : حدثنا [1] عيسى بن هشام قال : أحلّنى جامع بخارى يومٌ وقد انتظمتُ مع رفقة فى سِلك الثُّريا . وحين احتفل الجامع بأهله طلع إلينا ذو طِمْرَيْن ، قد أرسل صوانا ، واستتلى طفلا عريانا ، يضيق بالضرّ وسمُه ، ويأخذه القرّ ويدعُه ، لا يملك غير القشرة بردة ، ولا يكتفى لحماية رعدة ، فوقف الرجل وقال : لا ينظر لهذا الطفل إلاّ مَنْ الله طفّله ، ولا يرقّ لهذا الضرّ إلاّ مَنْ لا يأمن

(١) مقامات الهمذانى ٩٥.

رفع المسهم

مثله . يا أصحاب الجدود المفروزة ، والأردية المطروزة ، والدُّور المنجّدة ، والقصور المشيّدة . إنكم لن تأمنوا حادثا ، ولن تعدَموا وارثا ، فبادروا الخير ما أمكن ، وأحسنوا مع الدهر ما أحسن ، فقد والله طَعِمْنا السِّكباج ، وركبنا الهملاج ، ولبسنا الديباج[1] ، وافترشنا الحشايا بالعشايا ، فما راعنا إلا هبوب الدهر بغدْرِه ، وانقلاب المجنّ لظهره ، فعاد الهملاج قَطوفا[2] ، والديباج صوفا ، وهلمّ جرا إلى ما تشاهدون من حالى وزيّى ؛ فها نحن نرتضع من الدهر ثدى عَقِيم ، ونركب من الفقر ظهر بَهِيم ، فلا نرنو إلاّ بعين اليتيم ، ولا نمدّ إلاّ يدَ العديم . فهل من كريم يجلو غياهب هذه البئوس ، ويفُلّ شَبا هذه النحوس . ثم قعد مرتفِقا[3] ، وقال للطفل : أنت وشأنك ، فقال : ماعسى أنْ أقول وهذا الكلام لو لقِىَ الشّعر لحلقه ، أو الصخر لفلَقه ، وإن قلباً لم ينضجه ماقلت لنىء ، وقد سمعتم يا قوم ، ما لم تسمعوا قبل اليوم ، فليَشغَلْ كلٌّ منكم بالجود يده ، وليذكر غده ، واقياً بى ولده ، وامنحونى أشكركم ، واذكرونى أذكركم . وتمامها فى العشرين .

* * *

فقيل له : قَدْ جلوتَ علينا أدَبك ، فاجْلُ لنا نسبَك ، فقال : تبًّا لمفتخِرٍ ، بعَظْمِ نَخِر ، إنَّمَا الفخرُ بالتّقَى ، والأدبِ الْمُنْتَقَى ؛ ثم أنشد :

لَعمرُكَ ما الإنسانُ إلاّ ابنُ يَوْمِهِ
عَلَى ما تجلّى يَوْمُه لا ابنُ أمْسِهِ

(١) السكباج : لحم يطبخ بالخل ويجعل معه مرق ، والهملاج : الدابة السريعة ، والديباج : الحرير .
(٢) القطوف : الدابة البطيئة فى سيرها .
(٣) مرتفقاً ، أى فى مكان عال .

وما الفخرُ بالعظمِ الرَّمِيمِ وإنّما
فخارُ الذى يبغى الفخار بنَفسهِ

ثمَّ إنّه جلسَ مُحْقَوقِفاً ، واجرنْثَمَ مُقَفْقِفاً . وقال : اللّهمّ يا مَنْ غَمَرَ بنوالِه ، وَأمَرَ بسؤالِه ؛ صلّ على محمد وآلِه ، وأعنّى على البردِ وأهْوَالِه ، وأتِحْ لى حُـــرًّا يؤثِرُ من خَصاصة ، ويُواسِى ولو بقُصاصة .

* * *

قوله : «جلوت» ، أظهرت وكشفت . أُجلُ : اكشف وبيّن عنه . تَبًّا : خسرانا . نَخِر : بالٍ . المنتقى : المختار . تجلّى : تبدّى وظهر . الرّميم : البالى . يبغى : يطلب .

وقوله : « تبًّا لمفتخر ، بعظم نخِر » ، كانت العرب تتفاخر بالأحساب ، وتتعاظم بكرم الآباء ، فنزل القرآن العظيم بترك ذلك فى قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ و ﴿ إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حِجة الوداع : « أيها الناس ، إنما الناس إخوة وليس لعربىّ على عجمىّ فضل إلا بالتقوى . أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، وأكرمكم عند الله أتقاكم »، فلذلك قال : إنما الفخر بالتقى .

وقال علىّ كرم الله وجهه ورضى عنه :

الناس من جهة التمثيل أكفاء أبوهمُ آدمٌ والأمّ حوّاء
فإن يكن لهم من قبل ذا نسبٌ يفاخِرون به فالطين والماء

وقال عامر بن الطفيل :

وإنى وإن كنتُ ابن سيّد عامرٍ ... وفى السرِّ منها والصريح المهذّبِ[1]
ثَمـا سودَتْنى عامرٌ عن ولادةٍ[2] ... أبى الله أن أسمُو بأمّ ولا أبِ
ولكنّنى أحمى حِماها وأتّقى ... أذاها وأرمى مَنْ رماها بمنكبِ[3]

فهذا مع إمكانه الفخر بالآباء لم يفخر إلا بنفسه . وأخذه عبد الله بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب فقال :

لَسْنا وإن أحسابُنا كرمتْ ... يوماً على الأحساب نَتّكِلُ
نبنى كما كانت أوائلنا ... تبنِى ونفعل مثل ما فعلوا

وهذا مثل قول الحسن رضى الله تعالى عنه وقد أجزل صلةَ شاعر ، فلم فى ذلك فقال : أترانى خفت أن يقول : إنى لست ابن فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا ابن علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ، ولكنى خفت أن يقول: لستَ كمثلهما فيصدّق ويحمَل عنه، ويبقى مخلّداً فى الكتاب محفوظاً على ألسنة الرواة ، فقال الشاعر: أنت والله يا بن رسول الله أعرف بالمدح والذم منى .

قوله : والأدب المنتقى ؛ حدّث يحيى بن أكثم قال : بينما أنا جالس مع المأمون إذ دخل الدار فتى، أبدع الناس زيًّا وهيبة ووقاراً، وهو لا يلتفت إعجاباً بنفسه ، فنظر إليه المأمون ، فقال : يا يحيى إنّ هذا الفتى لا يخلو أن يكون هاشميًّا أو نحويًّا ، ثم بعثا مَنْ يتعرف ذلك منه . فعاد الرسول فأخبر أنه نحوىّ ، فقال المأمون : يا يحيى ؛ أعلمت إن علم النحو قد بلغ بأهله من عزة النفس وعلوّ الهمة منزلة بنى هاشم فى شرفهم ! يا يحيى، مَنْ قعد به نسبه قام به أدبه .

قال : وأنشد الشاعر :

---

(١) ديوانه ٢٨ .
(٢) الديون : « وراثتم » .
(٣) الديوان : « بمقنب » .

كنِ ابنَ مَنْ شئت واتّخذ أدبا ... يُغنِيك مأثورُه عن النَّسبِ
إنّ الفتى من يقول ها أنا ذا ... ليس الفَتَى من يقول كان أبى
مالىَ عقـــلى وهمتى حَسَبِى ... ما أنا مولًى ولا أنا عـربى
إنِ انتمى منتمٍ إلى أحـــدٍ ... فإننى مُنْـتَمٍ إلى أدبى

وتـكلم رجل عند عبد الملك بكلام ذهب فيه كلّ مذهب ، فقال له وقد أعجبه : ابن مَنْ أنت يا غلام؟ فقال : ابن نفسى يا أمير المؤمنين، التى نلت بها هذا المقعد منك ، قال:صدقت. أخذه ابن دريد فقال :

كن ابن من شئت وكن مؤدّباً ... فإنما المرء بفضل حِسِّه[1]
وليس مَنْ تـكرمه لغيره ... مثل الذى تـكرمه لنفسِه

وقالت عائشة رضى الله عنها : كل كرم دونه لؤم ، فاللؤم أولى به ، وكل لؤم دونه كرم فالكرم أولى به — يعنى أن أفعال الإنسان إذا كرمت لم يضرّه لؤم آبائه ، وإذا لؤمت لم ينفعه كرم آبائه . وقال المعرّى :

لو عرفَ الإنسان مقداره ... لم يفخر المولَى على عَبْدِه[2]
لولا سجاياه وأخـــلاقه ... لـكان كالمعدوم فى وُجْدِهِ
ومجـــده أفعـاله لا الذى ... من قبله كان ولا بعـــدِه

قوله : ما تجلّى يومه ، أى على ما ظهر وانـكشف يومه من أفعاله المحمودة أو المذمومة . محقوقفا : منحنياً . اجرنثم : انقبض . مقفقفا : مرتعداً ، ويقال : قفّ شعره إذا ارتفع من ذعر أصابه . وقفّ جلدى من هذا الحديث ؛ إذا اقشعر من استشناع ما سمع .

غمر بنواله ، أى غطّى بعطاياه . وأمر بسؤاله : يريد قوله تعالى : ﴿ واسألوا

(١) ديوانه ٧٠ ، وفيه : «كيسه» .
(٢) سقط الزند ١٠١٦ مع اختلاف فى الألفاظ وترتيب الأبيات .

الله من فضله ﴾ . آله : أهله . أهواله : شدائده ومخاوفه . أتح : قدِّر . يؤثِر : يفضِّل غيره على نفسه . خصاصة : جوع، وهذا منتزع من القرآن .

* * *

قالَ الرّاوى : فلمّا جَلَّى عن النَّفْسِ الْعِصامِيّة ، والمُلَحِ الأصْمَعِيّة ، جعلتْ مَلامِحُ عينِي تَعْجُمُهُ ، ومَرامِي لَحْظِي تَرْجُمُهُ ، حتَّى استبنتُ أنَّهُ أبو زَيْدٍ ، وأنّ تعرّيهُ أحبولَةُ صَيْدٍ . وَلَمَحَ هُو أنَّ عِرْفانى قَدْ أدْرَكَهُ ، وَلَمْ يأمَنْ أنْ يَهْتِكَهُ ، فقالَ : أُقسِمُ بالسَّمَرِ والقَمَرِ ، والزُّهْرِ والزَّهَر ، إنَّهُ لَنْ يَسْتُرَنِي إلاَّ مَنْ طابَ خِيمُهُ ، وأُشرِبَ ماء المروءةِ أديمُهُ . فعقَلْتُ ما عَناهُ ، وإنْ لم يَدْرِ القومُ مَعْناهُ ، وَساءَنى ما يعانيهِ من الرّعدة ، واقْشِعْرارِ الجِلْدَة . فَعَمَدْت لِفَرْوَةٍ هِيَ بالنّهارِ رِياشى ، وفى اللّيلِ فِراشِي . فنضوتُها عَنّى ، وقلتُ له : اقْبَلْها مِنِّى ؛ فما كذبَ أنِ افْتراها ، وعَيْنِي تَرَاها . ثم أنشد :

لِلّهِ مَنْ أَلْبَسَنِي فروةً أضحتْ من الرِّعْدَةِ لِى جُنَّهْ
أَلْبَسنيهَا واقِيَـــا مُهْجَتِى وُقِّىَ شرَّ الإنسِ والجِنّـهْ
سَيَكْتَسِى اليومَ ثنائى وَفى غدٍ سَيُكْسَى سُنْدُسَ الجَنَّه

* * *

والعصامية : منسوبة إلى عصام بن شهبر بن الحارث الجرمىّ، حاجب النعمان ابن المنذر الذى يقول له النابغة :

فإنى لا ألام على دخولٍ ولكن ما وراءك يا عصام[1]

ولم يكن عصام شريفاً ، ولا نشأ فى قومه ،ولكن كان من أشدّ الناس بأساً ، وأفصحهم لساناً ، وأحزمهم رأياً ، وأقربهم إلى النعمان ، وقال له رجل يوما : كيف بلغتَ هذه المنزلة من الملك وأنت دنىء الأصل ؟ فقال :

نفسُ عصامٍ سوّدت عِصَاماَ وعلّمته الكرّ والإقداما[1]

* وصيّرته سيّدا هماما *

ويقال : كن عصاميا ولا تكن عظاميا ، أى افتخر بنفسك لا بآبائك الذين ماتوا وبقيَت عظامهم . فكلّ من ليس له شرف قديم ، وشرف بنفسه ، يقال له عصامىّ .

وكانت لرجل عند الحجاج حاجة ، فوُصِف بالجهل والحمق ، فأراد أن يختبَره ، فقال : أعصاميٌّ أنت أم عظاميّ ؟ فقال له الرجل : عصاميّ عظاميّ ، فظنّ أنه يريد افتخاره بنفسه لفضله وبآبائه لشرفهم ، فقال الحجاج : هذا من أفضل الناس ، وقضى حاجته ، ثم جرّ به بعد ذلك ، فوجده أجهل الناس ، فقال له : أصدِقنى وإلا قتلتُك ، أجبتَنِي بعصاميّ وعظاميّ ، فقال له الرجل:لم أعلم معناهما ، فخشيت أن أقول أحدهما فأخطىء ، فقلت فى نفسى:أقولهما معا ، فإن ضرّنى أحدهما نفعنى الآخر ، فقال الحجاج: المعاذير تصيّر الغبيّ خطيبا ، فذهبت مثلا .

وسمع المأمون رجلا يفخر بنفسه وهو ناقص ، فقال: أنت عظامى لا عصامىّ.

---

(١) ديوانه ٧٤ .

(١) ديوانه ٧٩ .

رفع المسهم

ولهذا أشار بما تقدم من قوله « تيهًا لمفتخر ، بعظم مخرِ » ، يريد أن عصاما ساد بنفسه لا بآبائه ، وكذلك السَّروجيّ لم يفخر إلا بنفسه .

الأصمعية : التى حكاها الأصمعيّ ، وقد مرّ من مُلح الأصمعيّ فى هذا الكتاب جملة كافية بحمد الله تعالى . والأصمعيّ عِصاميّ لأنه من باهلة ، وهى أجبن قبيلة فى العرب وألأمها ، وذكر المبرّد فى كامله جملة أخبار فى أمثالها ، قال فيها الشاعر :

ولو قيـــل للـكلب يا باهلِي عوى الـكلبُ من لؤم ذاك النَّسَبْ[1]

وهو مع ذلك خامل المنشأ ، وقد ذكرنا فى الأربعين خمول أبيه إلا أنه ساد الناس بنفسه أدباً وعلما ودينا . ومن مُلَحه أنه قال : بينما أنا فى طرق البصرة إذا أنا بكناس يكنس كنيفا ، وإذا هو يقول :

فإياك والسـكنى بأرض مذلّةٍ تعدّ مسيئًا فيه إن كنت مُحسنا
فنفسك أكرِمْها وإن ضاق مسكن عليك بها فاطلب لنفسك مسكنا

قال : فوقفت عليه ، فقلت : والله ما بقِيَ عليك من الهون شىء إلا وقد أهنتَها به ، فما الذى نلتَ من كرامتها ؟ قال : والله لـكنس ألف كنيف أحسن من القيام على باب مثلك ساعة .

الأصمعيّ : كان أعرابيان متواخيان بالبادية ؛ ثم إن أحدهما استوطن الريف ، واختلف إلى باب الحجاج ، فولاّه أصبهان . فسمع أخوه خبره فضرب إليه ، فأقام ببابه حينا لا يصل إليه ، ثم أذن له بالدخول ، فأخذه الحاجب فمشى به وهو يقول :

فلستُ مسلّما ما دمتُ حيًّا على زيد بتسليم الأمـيرِ

---

(١) الـكامل للمبرد ٣ : ١١ .

رفع المسهم

فقال زيد : لا أبالى ، فقال الأعرابىّ :

أتذكر إذ لحافُك جلدُ شاة وإذ نعلاكَ من جلد البعيرِ

فقال : نعم ، فقال الأعرابىّ :

فسبحان الّذى أعطاكَ ملكا وعلّمك القعود على السرير

تعجمه : تختبره . مرامى لحظى : نظرات عينى وسهام نظرى ، واحد المرامى مَرْماة، وهى السهم .

ترجمه : ترميه وتهجم عليه . أحبولة : شبكة . يهتكه : يكشفه . السّمَر : ظل القمر ، ثم سُمِّى حديث الليل سمرا به . الزُّهر : النجوم . خِيمه : طبعه . أشرب : سُقِىَ . المروءة : الفعل الجميل . أديمه : وجهه ، ويقال : أشرب فلان حبّ فلان، إذا خالط حبُّه قلبه. ماعناه: ما أراده ، يريد أنه لما قال: لن يسترنى، إنما أراد لن يستر علىّ هذه الحيلة التى أريد بها خداع الناس بعد ماعرفها إلا مَنْ هو كما وصف .

وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم: « من رأى عورة أخيه فسترها كان كمن أحيا موءودة من قبرها » .

ساءنى : شقّ علىّ . يعانيه : يقاسيه . اقشعرار : انقباض وارتعاد . عَمَدت : قصدت . رياشى : لباسى . نضوتها : جرّدتها . افتراها : اتخذها . جُنّة : ستراً ووقاية . واقيا : صائنا . مهجتى : نفسى . وقِىَ : كُفِىَ . الجِنّة : الجنّ : سندس: ثياب خضر.

* * *

قال : فَلَمّا فتَنَ قُلُوبَ الجماعة ، بافتنانِهِ فِى البَرَاعَةِ ، أَلْقَوْا عَلَيْهِ مِنَ الفراء المغشّاة ، والجبابِ المَوَشّاة ، ما آدَهُ ثِقَلُهُ ، ولَمْ يَكَدْ

يُقِلّهُ ، فانْطَلَقَ مُسْتَبْشِراً بالفرَج ، مُسْتَسْقِياً لِلْكَرَج ، وتبعتُهُ إلى حَيْث ارتفعتِ التقيّة ، وبَدتِ السَّماءُ نَقيّة ، فقلتُ له : لَشدَّ ما قرَسك البرْد ، فلا تتعرّ مِنْ بَعْد ، فقال : وَيْكَ ! لَيْسَ من العَدْل ، سُرْعَة الْعَذْل ، فَلاَ تعجلْ بلومٍ هُوَ ظُلْمٌ ، وَلاَ تَقْفُ ما لَيْسَ لكَ بِهِ عِلْم ؛ فوالّذِى نَوَّر الشّيْبه ، وَطَيَّبَ تُرْبَةَ طَيْبة ، لَوْ لَمْ أتعرَّ لَرُحْتُ بالخَيْبة ، وصَفَرِ الْعَيْبَةِ .

* * *

افتنانه : تنوّعه . البراعة : الجودة والفصاحة المغشاة : المغطّاة بغيرها من الثياب . الموشّاة : المزيّنة بالرقم . آده : أثقله . يقلّه : يرفعه . مستسقيا : داعيا بأن يسقيها الله تعالى . التقية : الخشية .

قوله : بدت السماء نقية ، مَثَل ضرب لخلوّ الموضع من الناس وظهوره فيه وحده . ويْك ، أى عجبا لك . العَذَل :اللوم .

تقف: تتبع ، يقال : قفوت أثره أقفوه قفواً ، إذا تتبعته ، ومنه : قَفَا فلان فلانا إذا أتبعه بكلام قبيح ،ويقال: قَفَاه بالتخفيف .

أبو عبيدة رحمه الله تعالى : أصل القَفْوُ والتّقافى : البهتان يَرْمِى به الرجل صاحبه ، واحتج بحديث حبان بن عطية : « مَنْ قفا مؤمنا بما ليس فيه حبسه الله تعالى فى ردغة[1] الخبال حتى يأتى بالمخرج » . قال الفراء رحمه الله تعالى : القفو: مأخوذ من القيافة ، وهو تتبع الأمر ، يقال : قاف القائف يقفُو قيافة ، فهو قائف ، بتقديم الفاء على الواو ، كما قالوا فى جَذَب :جَبذ ، وقرىء : ﴿ولا تَقُفْ﴾ مثل تَقُلْ . نَوَّر : بيّض .

(١) الردغة : الطين والوحل ؛ كذا فسره ابن الأثير وأورده فى النهاية .

[ذكر طيبة]

طيبة مدينة النبي صلى الله علية وسلم ، وطيّب الله تربتها بأن صيّرها موطنا لنبيه صلى الله عليه وسلم ، فى حياته ومستقرًا له بعد مماته . وذكر شيخنا ابن جبير المدينة فقال : للمدينة[1] المكرّمة أربعة أبواب وهى تحت سورين فى كلّ سور باب يقابله آخر : باب الحديد ، وباب الشريعة ، وباب القبلة ، وباب البَقيع ، وبين سورها الغربىّ وخندق النبى صلى الله عليه وسلم مقدار غَلوة ، وبين السور والخندق عين النبى صلى الله عليه وسلم ، وعليه حَلَق عظيم مستدير ، ومنبع العين وَسَطه ، كأنه الحوض المستطيل ، وتحت العين سقايتان بينهما جدار لطهر الناس وغسل أثوابهم ، والعين للاستقاء والعين تمد السقايتين ، وتهبط إليهما على خمس وعشرين درجة ، وماؤها يعم أهل الأرض فضلا عن أهل المدينة . وبمقربة من الحوض ممّا يلى الحوض حجر الزيت ، يقال : إنّ الزيت رشح للنبى صلى الله عليه وسلم من ذلك الحجر . وبالقرب منه بئر بضاعة وبإزائها من الجهة اليسار جبل الشّيطان حيث صرخ يوم أُحُد : قتل نبيكم . وعلى شفير الخندق حصن العزّاب ، وهو خرب . كان عمر رضى الله عنه بناه لعزّاب المدينة ، وأمامه لجهة الغرب على بعد بئر رُومة التى اشتراها عثمان رضى الله عنه بعشرين ألفا . وداخل باب الحديد سقاية يهبط إليها على أدراج ، وهى بمقربة من الحرم المكرّم ، وبقبلىّ الحرم دار مالك بن أنس رضى الله عنه . ويُطيف بالحرم شارع مبلط بالحجر المنحوت ، وفى جوفىّ المدينة جبل أُحد على ثلاثة أميال منها ، وبقبليّه مسجد حمزة ، وقبره برحبة بجوفىّ المسجد ، وبإزائه قبور الشهداء ، وحوله تربة حمراء أنزل فيها سورة الفتح الشريفة ، وشرقى المدينة بَقيع الغَرْقد ، وإذا خرجت على باب البقيع تلقى على يسارك قبر صفيّة عمة النبى صلى الله عليه وسلم وأم الزبير ، وأمامها قبة مختصرة البناء على قبر مالك بن أنس . وأمامه قبر

(١) رحلة ابن جبير ، ١٧٦ بتصرف .

رفع المسهم

السلالة الطاهرة إبراهيم بن النبي صلى الله عليه وسلم عليه قبة بيضاء وعلى يمينها قبر عبد الرحمن بن عمر ، الذى جلده أبوه الحدّ فمات ، وبإزائه قبر عَقِيل بن أبى طالب وعبد الله بن جعفر ، وبإزائه روضة صغيرة فيها ثلاثة من أبنائه صلى الله عليه وسلم ، ويليها رَوْضة العباس والحسن رضى الله عنهما ، وعليها قبة مرتفعة فى الهواء ، وقبراهما مرتفعان على الأرض مغشيان بألواح ملتصقة أبدع التصاق ، مرصّعة بالصفائح الصّفر مسكوكة بمسامير على أبدع صفة ، وعلى هذا الشكل قبر إبراهيم عليه السلام بن النبي صلى الله علية وسلم ، وفى آخر البقيع قبر عثمان بن عفان الشهيد ، وعليه قبة مختصرة البناء ، وبمقربة منه قبر فاطمة بنت أسد أم علىّ كرم الله وجهه ، ومشاهد البقيع أكثر من أن تُحْصَى لأنها مدفن الصحابة رضى الله عنهم . وقبل المدينة على نحو الميلين قُباء ، وكانت مدينة كبيرة متصلة بالمدينة المكرّمة ، وبها المسجد الذى أسس على التقوى وهو مربع مستوى الطول والعَرْض له باب واحد من جهة الغرب ، وهو سبع بلاطات فى الطول ، ومثلها فى العرض ، وفيه صومعة طويلة بيضاء تظهر على البعد ، وفى وسطه مبرك الناقة بالنبىّ صلى الله عليه وسلم ، عليه حلق قصير شبه الروضة ، يتبرّك الناس بالصلاة فيه وفى صحنه مما يلى القبلة شبه محراب على مسطبة ، وهو أوّل موضع ركع فيه النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى قبليّه دار بنى النجار ، وهى دار أبى أيوب الأنصارىّ ، ويليها دار عائشة رضى الله تعالى عنها ، وبإزائها دار عمر ودار فاطمة ودار أبى بكر رضى الله عنهم أجمعين ورضى عنّا بهم ، وبإزائها بئر أريس حيث تفَل فيه النبى صلى الله عليه وسلم فعاد عذبا بعد أن كان أُجاجا ، وفيه وقع خاتمه من يد عثمان رضى الله عنه ، وحديثه مشهور ، وفى آخره تلّ مشرف يعرف بعرفات لأنه كان موقف النبى صلى الله عليه وسلم يوم عَرَفة ، ومنه زويت له الأرض فأبصر الناس بعرفات . ويدخل من التل على دار الصّفة ، وبها كان عمار وسلمان وأصحابهما . والطريق من قبل قُباء إلى المدينة بين حدائق النخل المتصلة ، والنخيل تحدق بالمدينة من

جهاتها ، وأعظمها جهة القبلة والشرق ، وأقلها جهة الغرب . وآثار المدينة وقباء لاتحصى. فلمّا خص الله تعالى تربة طيبة بصفوة عباده أقسم الحريرى بمن طيّبها .

صفر العيبة : خلو الوعاء .

* * *

ثمَّ نَزَعَ إلى الفِرَار ، وتَبْرقَعَ بالاكْفهرار ، وقال : أما تعلمُ أنّ شِنْشِنتِي الانتِقَالُ من صَيْدٍ إلى صَيْد ، والانعطافُ مِنْ عَمْرٍو إلى زيدٍ ، وأراكَ قَدْ عُقْتَنِي وعَقَقْتَنِي ، وأفتّنِي أضْعَاف ما أفدْتَنِي، فاعْفِنِي عافَاكَ اللهُ مِنْ لَغْوِكَ ، واسْدُدْ دُوْنِي بابَ جدّكَ ولَهْوِكَ. فجبذتُهُ جَبْذَ التِّلْعَابة ، وجَعْجَعْتُ به للدُّعابة ، وقلتُ له : والله لَوْ لم أوارِك ، وأُغَطِّ عَلَى عَوَارِك ، لَمَا وَصَلْتَ إلى صِلَة ، ولانقَلَبْتَ أكْسَى مِنْ بصلة ، فجازنى عن إحسانِي إلَيْكَ ، وَسَتْرِى لَكَ وَعَلَيكَ ، بأنْ تَسْمَحَ لِى بردِّ الفرْوة ، أوْ تعرِّفَنِي كَافاتِ الشَّتْوَة . فنظرَ إلىّ نَظَرَ المتعجّب ، وازمَهرَّ ازمِهْرَار المتغضِّب ، ثمّ قَال :أمَّا رَدُّ الفَرْوةِ فأبعدُ مِنْ رَدِّ أمسِ الدَّابِرِ ، والميتِ الغابِرِ .

. . .

نَزَعَ : مال وحنّ . وتبرقع:ستر وجهه . الاكفهرار: العبوس. شِنشنتى: طبيعتى . الانعطاف : الرجوع . عقتنى : حبستنى . عققتنى : قطعتنى. أفتّنى : حرمتنى . أفدتنى : أكسبتنِي فائدة . اعفنى : أرِحْنَى وعافِنى. لغوك : باطلك.

التلعابة : كثرة اللعب ورجل تِلْعابة : حسن اللعب مزّاح ، وفى الحماسة :

هُوَ الظفر الميمون إن عاد واغْتَدَى به الركب والتِّلعابة المتحبِّبُ

جمجمت: صحت ودعوت به ، والجمجمةُ : رُغاء الإبل . الدُّعابة: المزاح . أوارِك : أسترك . عوارك : عيبك . صلة : عطية . سترى لك ، أى ثوبى ، وأراد بعليك، سكوتى عنك حين قلت:لن يسترنى إلامن طاب خِيمه . ازمهرّ : توقدت عيناه غضبا . المتغضّب : المستعمل الغضب . الدابر : الماضى . والغابر : الذاهب .

* * *

وأمّا كافاتِ الشَّتْوَة ، فسبحانَ مَنْ طبَع على ذِهْنِك ، وأوْهَي وعاء خزْنك ، حَتَّى أنسيتَ ما أنشدتك بالدَّسْكرَة ، لابن سُكّرَةَ :

جاء الشِّتَاء وعِنْدِى مِنْ حوائجه
سبعٌ إذَا القطرُ عَنْ حاجاتنَا حبسَا
كِنٌّ وكيسٌ وكانونٌ وكاسٌ طِلاً
بعد الكبَاب وكُسٌّ ناعمٌ وكِسَا

ثمّ قال : لَجَوابٌ يَشفى ، خيرٌ من جلبَابٍ يُدْفِى ؛ فاكتفِ بِمَا وَعَيْتَ وانْكفِ . ففارَقتُه وقَدْ ذهبتْ فرْوَتِى لِشِقْوَتِى ، وحَصَلْت عَلَى الرِّعْدَة طولَ شَتْوَتِى

* * *

وقوله : سبحان من طبع ، معناه تنزيهاً لك يا ربنا من الولد والصاحب والشريك،أى نزهناك من ذلك ، وانتصابه على المصدر ، كأنك قلت : سبحت الله تسبيحا ، فجعلت « سبحان » فى موضع التسبيح ، ومعنى طبع على قلبك ، أى غشّاه الصدأ والدنس والوسخ ، قال الله تعالى:﴿فَطُبِعَ على قُلوبِهِمْ﴾ وقال: ﴿كذلكَ يطبع الله على قلوب الّذين لا يَعْلمون﴾،وفى الحديث« نعوذ بالله من طمع يدنى إلى طبَع» . وقال الشاعر :

لاتطمعنْ طمعاً يدنى إلى طَبَعٍ إن المطامع فقر والغنى ياسُ

وأنشد يعقوب :

لاخير فى طمَع يُدنِى إلى طبَـــع وغُفّةٌ من قوام العيش تَكْفينى[1]

والذهن : قوّة ادراك العقل. أوهى : أضعف . خزنك: تثقيفك وحرزك . الدسكرة : هنا قرية معروفة بينهـــا وبين بغداد على طريق خراسان ستة عشر فرسخا .

[ترجمة ابن سكّرَة]

وابن سكّرَة من شعراء اليتيمة قال صاحبها[2]: ابن سكرة الهاشمىّ هو أبوالحسن محمد بن عبدالله بن محمد . شاعر متسع الباع ، فى أنواع الإبداع ، فائق فى قول الظرف والملح ، أحد الفحول والأفراد ، وجالَ فى ميدان المجون والسخف بما أراد . وكان يقال ببغداد: إن زمانا جاد بابن سكرة وابن الحجاج لسخىّ جدّا ، وما أشبههما إلا بجرير والفرزدق فى عصرهما . ويقال إن ديوان ابن سكرة يربو على خمسين ألف بيت .

---

(١) البيت فى اللسان ـ غفا من غير نسبة. والغفة : بلغة من العيش. (٢) اليتيمة ٣ـ٣ .

رفع المسهم

ومن شعره فى غلام فى يده غصن نُوار :

غصن بانٍ بدا وفى اليدِ منهُ ... غصن فيه لؤلؤ منظومُ[1]
فتحيّرت بين غصنين فى ذا ... قمر طالع وفى ذَا نجوم

وله فى غلام يعرف بابن برغوث :

بُليت ولا أقول بمَنْ لأنى ... إذا أنا قلت مَنْ هُو تعشقوه[2]
حبيب قد نفى عنّى رُقادى ... فإن غمّضت أيقظنى أبوهُ

وله فى غلام أعرج :

قالوا بليت بأعرج فأجبتُهُمْ ... العيب يحدث فى غُصون البان[3]
ماذا علىّ إذا استجدتْ شمائلا ... وروادفا تغنى عن الكُثْبَانِ
إنى أحبُّ جلوسَه وأريده ... للنوم لا للجرْى فى الميْدَانِ
فى كلّ غصن منه حسن كامل ... ماضرّنى إن زلّت القدمان

وله فى غلام سميّه :

إذا باسمى دُعيت حننت شوقا ... وذكّرنى به الداعى حَبيبى[4]
فليت كما اتفقنا فى الأسامى ... وألفتها اتفقنا فى القلوبِ

وله أيضاً :

بنفسى عِذار بَدَا طالعا ... على ناضر الورد ما أمْلَحَا[5]
كتمت هواه زَمان الصِّبا ... وبوّحت[6] بالحبّ لمّا التحى

---

(١) اليتيمة ٣ : ٣
(٢) اليتيمة ٣ : ٨
(٣) اليتيمة ٣ : ٦
(٤) اليتيمة ٣ : ٤
(٥) اليتيمة ٣ : ٥
(٦) اليتيمة : « صرحت »

وقالوا محـــا الشعر لمّا بدا محاسنه منـــه واستقبحا
فقلت لهمْ ما محـا حسنه ولـكنّ صـــبرىَ عنه محا

وله فى مثله :

وغزال لولا تَميمة شعـــر ذكّرته لقلت بعض الجوارى[1]
شاربٌ أشرَبَ الصبابة قلبى وعذار خلعتُ فيـــه عذارى

وله فى مثله أيضاً :

مَنْ عذيرى من شادنٍ لايرانى وهو روحِى أهلا لردّ السلام[2]
أنا من خـده وعينيه والثغـــــر ومن ريقِهِ البعيد المرام
بين وردٍ ونرجس ولآلٍ أقحوان وبابلىّ مُـدام

وله فى مثله أيضاً :

فى وجه إنسانة كلفت بها أربعة ما اجتمعنَ فى أحدِ[3]
الخدّ ورد والصُّدغ غالية والريق خمر والثّغر من بَرَدِ

وله فى مثله أيضاً :

لقد أمسكت من عمر بن يحيى بحبل ما أخاف له انبتاتا[4]
حبَانى فى الحيـــاة ورمّ حالى وأوصَى بى أبا حسن وماتا
فـكنت مجاورا للبحرِ منه فلمّـــا مات جاورتُ الفُراتا

وله فى وزير المهلبى :

لاعذّب الله ميتا كان يُعشِنى فقد لقيت بضرّى مثل مالاَقَى

---

(١) اليتيمة ٣ : ٣
(٢) اليتيمة ٣ : ٤
(٣) اليتيمة ٣ : ٦
(٤) اليتيمة ٣ : ٢٢

رفع المسهم

طواه موتٌ طوَى عنى مكارمَهُ فذقت من بعـده بالفقر ماذاقا[1]

وقال فيه أيضاً :

مضى ملك عمّ البرية جودُه رءوف وإن راع الأسود شفيقُ[2]
سكرتُ بنعماه وجـود وزيرِهِ فقالت لى الأيام : سوف تذوقُ

وقال رحمه الله أيضاً :

لقد كان الشباب فكان غضًّا له ثَمَرٌ وأوراق تظـلُّك[3]
وكان البعضَ منك فمات فاعلم مَتَى ما مات بعضُك مات كُلُّكْ

ويابعد ما بين حاله وقت قوله : جاء الشتاء ... البيتين . وبين حاله وقت موت المهلَّبى، وقد أدرك فاقة، فسئل عما أعدّ للشتوة فقال :

قيل ما أعددت للبر د فقـد جاء بشِدّه[4]
قلت : درّاعة عُرْيٍ تحتها جُبّة رعـده

* * *

قوله : « إذا القطر عن حاجاتنا حبسا » ، فى معنى ذلك أن الحسن بن وهب تأخر عن ابن الزيات وهو يكتب له ، فاستبطأه فكتب الحسن إليه :

أوجب العذرَ فى تراخى اللقـاء ما ترى بى من هذه الأنواءِ[5]
لست أدرى ماذا أقول وأشكُو من سماء تعوقنى عن سماء
غير أنى أدعو على تلك بالثُّكـلِ وأدعو لهـذه بالبقـاء
فسلام الإله أهـديه منّى لك غضًّا يا سيِّـد الوزراء

كان لابن عبد ربه فتى يهواه ، فأعلمه أنى راحل غدا ، فلما أصبح عاقه عن

(١) اليتيمة ٣ : ٢٠ (٢) اليتيمة ٣ : ٢١ (٣) اليتيمة ٣ : ٢٤
(٤) اليتيمة ٣ : ٢٢ (٥) الأغانى ٢٠ : ٥٤ ـ ساسى

السفر تكاثُرُ المطر ، فانجلى عن ابن عبد ربه همّه ، وكتب إليه :

هلاّ ابتكرت لبين أنت مبتكرُ ... هيهات يأتى عليك الله والقدَرُ[1]
ما زلتُ أبكى حذار البين ملتهباً ... حتى رثا لى فيك الريح والمطَرُ
يا بَرْده من حيَا مُزْنٍ على كبدٍ ... نيرانهـا بغليل الشّوق تستعِرُ
آليت ألاّ أرى شمساً ولا قمراً ... حتى أراك ، فأنت الشمس والقمر

وعد ابنَ رشيق محبوبُهُ الصائغ أن يكون عنده يوم عيد فصلّى وارتقبه ، فإذا بالسماء قد أرعدت وأبرقت ، فكتب إليه :

تجهّم العيـد وانهلّتْ مدامعُهُ ... وكنت أعهد منه البشر والضِّحكا[2]
كأنه جاء يطوِى الأرض من بَعَدٍ ... شوقا إليك فلما لمْ يَجِدْك بكَى

وكتب السَّلامىّ إلى أصحابه والمطر قد قطعه عنهم :

قطعتكمُ برَغم المجد شهراً ... أشدُّ علىَّ من شهر الصّيام[3]
وكيف أزوركمْ والمزن تَبْكى ... على دارِى بأربعةٍ سِجَام
وكانتْ منزلاً طلق الحميّا ... فصارت وادياً صعْبَ المرَام
تهافتَ ركّع الجدران فيها ... سجوداً للرُّعود بلا إمام
أنادى كلما ارتفعت سحاب ... فأبكتنا البوارق بابتسام
حوالينا بذاك ولا علينا ... كفانا الله شَرَّكَ من غمام

كنّ ، أى بيت . كيس : وعاء الدراهم . كانون : حيث تجعل النار فيه . طِلا : خمر . كباب : لحم يشرح ويشوى ، وكبّبتُه : فعلت ذلك به ، وقيل : الكباب قطع الكرش تلوى عليها المصارين ، وأراد بها هاهنا شواء اللحم . والكُسّ : اسم فرج المرأة وليس بعربى ، قال الفنجديهى رحمه الله تعالى : سمعت

(١) معجم الأدباء ٤ : ٢١٥ (٢) نقله فى التنف ٥٦ (٣) اليتيمة ٢ : ٣٩٤

رفع المسهم

بعض الفضلاء يقول : كتب ابن سكّرة فى يوم مطر إلى صديق له :

يوم مطير وعندى من خواطره ... سبعٌ إذا القطر عن حاجاتنا حُبسا[1]
حروف كافاتها فيهـــا مقوّمة ... إذا تلاها الفتى ذو اللبّ أو درسا
لِنٌّ وكيس وكانون وكأس طِلا ... مع الكباب وكُسٌّ ناعم وكِسا
فلو مطرت البحار الدَّهْرَ لم ترنى ... أقول : أحسن هذا اليوم بى وأسا

وزاد ابن مسعود عليه كافا ثامنة فقال :

وكم ليلة فى شهر كانونَ بتُّها ... أعانق من حِبِّى بها الدِّعْصَ والغُصُنَا
سمعت من الكافات فيها ثمانياً ... فماشئت من مرأى أنيق حوى الحسَنا
كبابا وكيزانا وكيسا وكاعباً ... كساء وكوباوالكوانين والكسا

كما نقصه الأمير تميم بن المعز السابعة ، فقال :

إذا هبّ سلطان المريسىّ ضاحكاً ... سُحَيراً وحلّ الغرب كلّ نقابِ[2]
وَزَرَّ على الأرض الغمامُ ثيابَهُ ... فقم والقـــه فى عُدّة وحرابِ
بكِنٍّ وكانون وكأس مدامة ... وكيس وكُسٍّ وافرٍ وكباب

نقلت أبيات ابن مسعود من شرح شيخنا ابن اللبان ، قال : ولما جمعنا فى أيام الشتاء ما جمعنا من الكافات ، قلت فى ضدها من الحرّ بيتين ، جمعت فيهما من الراءات ثمانية وهى :

عندى فديتُك راءات ثمانية ... ألقى بها الحرَّ إنْ وافى وإن بَرَدا
رَقٌّ ورُوح ورَيْحان وريق رشاً ... ورفرف ورياض ناعم وردا

جلباب : ثوب يلبس على الثياب . اكتف : اقتنع . وعيت : حفظت . انكفى : ارجع إلى موضعك . طول : مدة . والله تعالى أعلم .

---

(١) ابن خلكان ١ : ٥٢٧ . (٢) ديوان تميم ٥١ والمريسى ريح جنوبية .

رفع المسهم

المقامة السادسة والعشرون وتعرف بالرقطاء

حدّث الحارثُ بن همّام قال : حَلَلْتُ سُوقَ الأهْوَاز ، لابسًا حُلَّةَ الإعْوَاز ، فلبثت فيها مُدّة ، أكابدُ شدّة ، وأُزجّي أيامًا مُسْودَّة ، إلى أنْ رأيتُ تَمادِيَ المقام ، من عوادِي الانتقام ، فرَمَقْتُها بعينِ القالِي ، وفارَقْتُها مفارَقَةَ الطَّلَلِ البالِي . فظَعَنْتُ عَنْ وَشَلِها كيشَ الإزارِ ، رَكْضًا إلى المياهِ الغِزارِ ؛ حَتَّى إذا سِرْتُ مِنْها مَرْحَلَتَيْنِ ، وَبَعُدْتُ سُرَى لَيْلَتَيْنِ ، تَراءَتْ لِي خيْمةٌ مَضْرُوبة ، ونارٌ مَشْبوبة ، فقلتُ : آتِيهِما لَعَلِّي أنقعُ صَدَى ، أو أَجِدُ على النارِ هُدًى .

* * *

حللت: نزلت . الأهواز : مدينة واسعة لها سبع كور بين البصرة وفارس ، قال الرّشاطي: الأهواز : متصلة بالجبل وأصبهان ، وقيل: إن الأهواز بلد مَنْ سكنَ قصبتَه ، ضعف عقله ولزمته الحمّى .

حُلة الإعواز :ثوب الفقر ،والحُلّة إزارٌ ورداء ، ولا يقال لثوبٍ واحدٍ : حُلّة . لبثت : أقمت . أكابد : أقاسي . أزجّي : أسوق . مسودّة : شداد مشؤمة . تمادى : دوام وطول . المقام : الإقامة . عوادى: جمع عادية ، من العُدْوان وهو الظلم . والانتقام : العذاب والنكاية . رمقتها : نظرتُها . القالى : البغيض . الطلل : ما شخص من آثار الدار . ظعنت : ارتحلت . وشَلها : ماؤها القليل .

كميش: مشمّر، وانكمش فى طلب حاجته: أسرع فيها، والإزار والمئزر: مايلبس عرَضاً من السراويل، ولا تعرف العرب السراويل، ووجدها أعرابى فظنّها قميصاً، فأدخل يديه من على ساقيها، والتمس من أين يخرج رأسه فلم يجد، فرمى بها، وقال: هذا قميص الشيطان.

قوله: راكضا، أى جاريا، وهمزة ماء مبدلة من هاء «مياه». الغزار: الكثيرة. سُرى ليلتين، أى سرت مقدار مايسار فيه ليلتين. تراءت: ظهرت. مشبوبة: موقودة. أنقع صدى: أروى عطشا. أجد على النار هدى، أى أجد عليها مَنْ يُرْشدنى إلى الطريق

* * *

فلمّا انتهيتُ إلى ظِلِّ الخَيْمَةِ، رأيتُ غِلْمَةً رُوقَةً، وشارَةً مَرْمُوقَةً، وشَيخاً عَلَيْهِ بِزّةٌ سَنِيّة، ولَدَيْهِ فاكِهَةٌ جنيّة. فَحَيَّيْتُهُ ثمَّ تَحامَيْتُهُ. فَضَحِكَ إِلَيّ، وأحْسَنَ الرَّدَّ عَلَيّ، وقال: ألاَ تَجْلِسُ إِلَى مَنْ تَرُوقُ فاكِهَتُهُ، وَتَشوقُ مُفاكَهَتُهُ! فَجلست لاغتنامِ مُحاضَرَتِهِ، لا لالْتِهامِ ما بِحَضْرَتِهِ، فحِينَ سَفَرَ عَنْ آدَابِهِ، وكَشَرَ عَنْ أنيابِهِ، عَرَفْتُ أَنَّهُ أبو زيدٍ بِحُسنِ مُلَحِهِ، وقُبْحِ قَلَحِهِ. فتعارفنا حينئذٍ، وحفَّتْ بِى فَرْحتان ساعتئذٍ، ولَمْ أَدْرِ بأيِّهما أنا أضْفَى فرَحًا، وأوفَى مَرَحًا! أَبِإسْفارِهِ، مِنْ دُجُنّةِ أسفارِهِ، أم بِخِصْبِ رِحَالِهِ، بَعْدَ إمْحَالِهِ.

* * *

رُوقة: حسانا، وغلام روقة، إذا أعجبك، وغلمان رُوقة، الواحد والجمع سواء، وقيل: رُوقة لفظ مفرد والجمع رُوق، والهاء للمبالغة. شارة: هيئة حسنة

يشار إليها . مرموقة : محبوبة . بزّة سنية ثياب حسان ، والبزّ والبَزّ أفضل الثياب . جَنيّة : طرية كما اجتنيت . حَيَّيْتهُ : سلّمت عليه . تحاميته : تباعدت عنه . تروق : تعجب . تشوق : تشوّق وتدعو إلى الطرب . مفاكهته : ممازحته ، وفاكهتُه : حدّثته بما يعجب التهام : ابتلاع . سَفَر : كشف وبيّن أنه من أهل الأدب . كشَر عن أنيابه : كشف عن أسنانه عند الضحك . مُلَحه : مليح كلامه . قَلَحه : صفرة أسنانه . تعارفنا : عرّفته من أنا وعرفني من هو . حفّت : أحاطت . والمرَح : شدة الفرح ؛ وأوفى مرحاً ، أى أكمل طربا ونشاطا . إسفاره : طلوعه وإضاءته . دجنة : سواد وظلام . أسفاره : جمع سفر . رحاله : أوقاره ، يصف كثرة ماله ، وأنه إذا نزل منزلا أخصب بكثرة أحماله . إمحاله : جدبه .

* * *

وتاقَتْ نَفْسِي إلي أنْ أفُضَّ خَتْمَ سِرِّه ، وَأَبْطُنَ داعِيَةَ يُسْرِه ، فَقلْتُ لَهُ : مِنْ أينَ إيابُكَ ، وإلى أيْنَ انسيابُكَ ، وبِمَ امتلأتَ عِيابُكَ ؟ فقال : أمّا المُقْدَمُ فمِنْ طُوس ، وأمّا المَقْصَدُ فإلي السُّوس . وأمَّا الجِدَة التّي أصَبْتُهَا ، فمِنْ رسالةٍ اقتضيتُهَا . فسألتُهُ أَن يَفْرُشَنِي دِخْلَتَهُ ، وَيَسْرُدَ عَلَيَّ رِسَالَتَهُ ، فقالَ : دون مرامكَ حَرْبُ الْبَسُوس ، أو تَصْحَبَنِي إلَى السُّوس . فَصاحَبْتُهُ إليها قَهْراً ، وعكفتُ عليهِ بِهَا شهرًا ، وَهُوَ يَعُلَّنِي كاساتِ التعليل ، ويجرّنى أَعِنَّةَ التَّأميل .

* * *

تاقت : اشتاقت . أفضّ : أكسر . ختم : ربط وشد . أبْطُن : أعرف باطنه . يُسره : غناه . إيابك : رجوعك . انسيابك : ذهابك . عيابك : أوعية متاعك .

رفع المسهم

طوس : مدينة منها إلى نيسابور مرحلتان ، قال اليعقوبى : مدينة طوس العظمى ، يقال لها لوبان ، وبها قبر الرشيد ، وبها توفّى الرضا علىّ بن موسى ابن جعفر بن محمد بن علىّ بن الحسين ، وهى من ثغور الجبال المتصلة بخراسان ، ومجاورتها أيضاً مدينة أصبهان ، وهى عظيمة .

وأما السوس ، فمدينة بأرض فارس ، تعمل بها الثياب السُّوسية من الخزّ ، قال الرشاطى : السوس من كُور الأهواز ، والسوس فى بلاد الغرب ، وذكر الجاحظ أن من طنجة إليها عشرين يوما .

وسوسة من بلاد إفريقية على البحر ، تُصنع بها ثياب رفاع ، والسوس اسم مشترك ، والذى قصد الحريرى منهما الأولى .

الجِدة : الغنى . اقتضبتها : ارتجلتها . يُفرِشنى دخلته : يبسط لى باطن أمره ، وأفرشتك حديثى : بسطته لك وبيّنته . يسرد : يقرأ . مرامك : مطلبك . وتقدّمت حرب البسوس فى التاسعة عشرة .

عكفت : أقمت . يعلّى : يسقينى مرّة بعد مرة ، والتعليل أن يطمعك فى قضاء حاجتك فإذا تقاضيتَه أظهر لك عِلَلا وعوائق ثم يمنّيك ، فمتى ماجئتَه اعتلّ لك بعلّة مانعة من قضاء حوائجك .

يجرّنى : يعلّقها بى ويجعلنى أجرّها . أعنّة : جمع عنان . التأميل : مصدر أمّله ، إذا رجاه وحقق له أمله .

* * *

حَتَّى إذا حَرِجَ صَدْرِى ، وَعِيلَ صَبْرِى قُلْتُ له : إِنَّه لَمْ يَبْقَ لَكَ عِلّة ، وَلاَ لى فى المُقَامِ تَعِلّة ، وفى غَدٍ أَزْجُرُ غُرَابَ الْبَيْنِ ، وأَرْحَلُ عَنْكَ بِخُفَّىْ حُنَيْن ، فقال : حَاشَ لِلّهِ أَنْ أُخْلِفَكَ ، أَوْ أُخَالِفَكَ ؛ وَمَا أَرْجَأْتُ أَنْ أَحدّثَكَ إِلاَّ لِأُلَبِّثَكَ . وإِذَا كُنْتَ قَدِ اسْتَرَبْتَ

بعدَتى ، وأغْرَاكَ ظَنُّ السُّوءِ بتباعَدَتى ، فأَصِخْ لِقَصَصِ سِيرتى المتَدّة ، وأضِفْها إلَى أَخْبَارِ الفرج بَعْدَ الشِّدَّةِ .

فَقلْتُ لَهَا : هاتِ فَمَا أَطْوَلَ طِيَلَكَ ، وَأَهْوَلَ حِيلَكَ . فقال : اعْلَمْ أنَّ الدَّهْرَ الْعَبُوس ، أَلْقَانِى إلَى طُوس ، وأنا يَوْمَئذٍ فقيرٌ وقِيرٌ ، لاَ فتيلَ بها ولا نَقير ، فأَجْأَنِى صَفَرُ اليدَيْنِ ، إلَى التَّطوُّقِ بالدَّيْن ، فادَّنتُ لسُوءِ الاتّفاقِ ، مِمَّنْ هُوَ عَسِرُ الأخلاَقِ ، وتَوَهَّمْتُ تَسَنِّىَ النَّفاقِ ، فتوَسَّعْتُ فِى الإنفاقِ ، فَمَا أَفقتُ حَتَّى بَهَظَنِى دَيْنٌ لَزِمَنِى حقُّهُ ، وَلاَ زَمَنِى مستحقُّهُ ، فَحِرْتُ فى أمْرِى ، وَأَطْلَعْتُ غَرِيمِى على عُسْرِى .

* * *

حرِج صدرُه ، إذا ضاق . عيل : غلب ، وعالنى الأمر يَعُولنى عَوْلاً : غلبنى . وقرأ ابن مسعود رضى الله عنه : ﴿وإنْ خِفتُمْ عائلة﴾ أى خصلة تَعُولكم وتغلبكم . تعِلّة : ما تبديه من العلل فى اعتذارك لمن يتقاضاك ، وفى غد أزجر غراب البين ، أى التفاؤل به لفراقك ، وإنّما ينسبون الفراق للغراب ، لأنهم إذا ارتحلوا عن موضع اجتمعت الغربان فيه يلتقطنَ ماتركوا من بقايا طعامهم وزبل دوابهم ، وإذا أخذوا فى هَدْم البيوت للرحيل وأبصرهم الغراب صاح رغبة فيما يلتقط ، فيقولون عند ذلك : نعِقَ غراب البين ، فصاروا يتشاءمون به ، وزجْر الطير يذكر فى الثامنة والثلاثين . قال المعرِّى فى صدق التفاؤل بالغراب :

نبىّ من الغربان ليس على شرْعِ ... يخبِّرنا أن الشُّعوب على صدعِ[1]
أُصَدِّقه فى مِرْيةٍ وقد امترتْ ... صحابة موسى بعد آياته التسعِ

(١) شروح سقط الزند ١٣٣٢ . والشعوب : القبائل .

كأنّ بفيهِ كاهناً أو منجّماً يخبّرنا عما لَقِينا مِن الفَجْعِ
وما كان أفْعَى أهل نجران مثلَه ولا كان للإنسِ الفضيلة فى السَّمْعِ (١)
أتى وهو طيّار الجناح وإن مَشَى أشاح بما أعْيَا سطيحاً من السَّجْعِ (٢)

قوله : أخلفك ، أكذب وعدك . أرجأت : أخّرت . لأثبّتك : لأثبّطك وأجعلك تقيم معى . استربت : تشكّكت ، وداخلك الريبة . أغراك : حرّضك وألصقك . أصِخْ : أسمع : قَصَص : خير وحديث . سيرتى : عادتى . أضفها : ضمّها. وأخبار الفرج بعد الشدة أن ينزل بالإنسان شدّة فيشرف منها على الهلاك ثم ينزل الله تعالى تفريجها ، فالحديث بها يسمى خبر الفرج بعد الشدة .

[قصص فى الفرج بعد الشدة]

ومنها ماجاء فى حديث أنس رضى الله عنه ، قال : كان رجلٌ على عهد النبىّ صلى الله عليه وسلم يتّجر من بلاد الشام إلى المدينة ، ولا يصحب القوافل توكلاً منه على الله تعالى ، فبينا هو جاءٍ من الشام عرض له لصٌّ على فرس ، فصاح بالتاجر : قِفْ ، فوقف التاجر ، وقال له : شأنك بمالى ، فقال له اللصّ : المال مالى ، وإنما أريد نفسَك ، فقال له : أنظِرْنى حتى أصلّى ، قال : افعل مابدا لك. فصلّى أربع ركعاتٍ ورفع رأسه إلى السماء يقول: ياودود ياودود ، ياذا العرش المجيد ، يا مبدىء يامعيد ، يا فعّالاً لما يريد ، أسألك بنُور وجهك الذى ملأ أركان عرْشك ، وأسألك بقدرتك التى قدّرت بها على جميع خلقك ، وأسألك برحمتك التى وسعت كلّ شىء ، لا إله إلا أنت يامغيث أغِثْنى ، ثلاث مرّات. وإذا بفارس بيده حَرْبة ، فلمّا نظره اللص ترك التاجر ومضى نحوه ، فلما دنا منه

(١) أفعى أهل نجران: كاهن منهم . ونجران أقدم بلاد اليمن، وكانت لها كعبة تحج فخربت
(٢) سطيح كاهن ، والكهان : معروفون بالسجع .

رفع المسهم

طعنه ، فأذراه عن فرسه ثم قتله ، وقال للتاجر : اعلم أنى ملك من السماء الثالثة ، لمّا دعوتَ الأولى سمعنا لأبواب السماء قعقعة فقلنا: أمرٌ حدث، ثم دعوتَ الثانية ، ففتِحت أبواب السماء ولها شَرَر ، ثم دعوت الثالثة ، فهبط جبريل عليه السلام ينادى : مَنْ لهذا المكروب ؟ فدعوت الله أن يولِّيَنى قتله . واعلم ياعبد الله أن مَنْ دعا بدعائك فى كلّ شدّة أغاثه الله ، وفرَّج عنه . ثم جاء التاجر إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخبره الخبر ، فقال : لقد لقّنك الله أسماءه الحسنى التى إذا دُعى بها أجاب ، وإذا سُئل بها أعطى .

وقال عمرو السرايا : كنت أعبرُ فى بلاد الروم وحْدِى ، فبينا أنا نائم إذ ورد علىّ علج فحرّكنى ، ثم قال: ياأعرابىّ ، اختر إمّا مسايفة ، وإما مطاعنة ، أو مصارعة ! فقلت :المسايفة والمطاعنة لامعنى لهما ، ولكن المصارعة، فلم ينهنهنى أن صرعنى وقعد على صدرى ، وقال : أىّ قِتلة تريد أن أقتلك ، فذكرت الدعاء ورفعت رأسى إلى السماء ، وقلت : أشهد أن كلّ معبود مّادون عرشك إلى منتهى الأرضين باطل ، عزّ وجك الكريم ؛ فقد ترى مانزل بى . وأغْمِىَ علىّ ، فأفقت والرومى قتيل إلى جانبى ، فقمت ، وكنت أعلّم الناس هذا الدعاء .

ووَجّه سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد إلى العراق ، فأطلق أهل سجون الحجاج وضيَّق على يزيد بن أبى مسلم كاتبه . فظفر به يزيد لمّا وَلِىَ إفريقيّة ، فجعل محمد يقول : اللهم احفظ لى إطلاق الأسرى ، وإعطاء الفقراء ، فلما دنا يزيد منه وفى يده عنقود ، قال: يامحمد مازلت أسأل الله أن يُظفرنى بك . فقال له محمد : وما زلتُ أستجير الله منك ، قال : فوالله ما أجارك ولا أعاذك منّى . ووالله لأقتلنّك قبل أن آكل هذه الحبّة من العنب ؛ ووالله لو رأيت ملكا

يريد قبض روحك لسبقته إليها . وأقيمت الصلاة فوضع حبَّة العنب بين يديه ، وتقدّم فصلّى بهم ، وكان أهل إفريقية اجتمعوا على قتل يزيد ، فلما ركع ضربه رجل بعمود حديد فقتله ، وقال لمحمد: اذهب حيث شئت .

وقال حماد الراوية : كنت منقطعاً إلى يزيد بن عبد الملك ، وكان أخوه هشام يحفونى فى أيامه لذلك ، فلمّا مات يزيد ، وأفضت الخلافة إلى هشام خفتُه ، فمكثت فى بيتى سنة؛ لا أخرج إلا لمن آمن إليه من إخوانى سرّا . فلمّا لم أسمع أحداً يذكرنى فى السنة أمِنت فخرجت ، وصلّيت الجمعة فى الرُّصافة ، فإذا شُرْطيّان قد وقفا علىّ ، وقالا : يا حمّاد ، أجب الأمير يوسف بن عمر ، فقلت فى نفسى : مِنْ هذا كنت أخاف ، ثم قلت للشرطيين : هل لكما أن تَدَعانى حتى آتى أهلى فأودّعهم وداع مَنْ لا يرجع إليهم أبدًا، ثم أسير معكما إليه؟ فقال : ما إلى ذلك من سبيل ، فاستسلمت فى أيديهما ، وسرت إلى يوسف بن عمر وهو فى الإيوان الأحمر ، فسلّمت عليه فردّ علىّ السلام ورمى إلىّ كتاباً فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هشام أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر. أما بعد فإذا قرأتَ كتابى هذا فابعث إلى حماد الراوية مَنْ يأتيك به من غير تروّع ولا تتعتع ، وادفع إليه خمسمائة دينار وجملاً مهرِيًّا يسير عليه اثنتى عشرة ليلة إلى دمشق، فأخذت الدنانير وجعلت رجلى فى غَرْز جمل أعدّه لى ، ووافيت دمشق لاثنتى عشره ليلة ، واستأذنت على هشام ، فأذن لى ، فدخلت عليه فوراً فى دار مفروشة بالرّخام ، وبين كلّ رخامتين قضيب من ذَهب ، وهو جالس على طِنْفَسةٍ حمراء ، وعليه ثيابٌ حمر من الخزّ ، وقد تضمّخ بالمسك والعنبر ، فسلّمت عليه ، فردّ علىّ السلام واستدنانى فدنوت منه ، حتى قبّلت رجله ، فإذا جاريتان لم أرَ مثلهما قط ، فى أذنَىْ كلّ واحدة منهما حَلْقتان فيهما لؤلؤتان تُوقدان ، فقال : كيف أنت ياحماد وكيف حالك ؟ فقلت : بخير ياأمير المؤمنين ، قال : أتدرى فيم بعثت إليك ؟ قلت: لا، قال: فى بيت خطر ببالى لم أدر مَنْ قائله ، قلت : وماهو ؟ قال :

رفع المسهم

ودَعَوْا بالصَّبوح يوماً فجاءت قَيْنَةٌ فى يمينهـــا إبريقُ

فقلت : هو لعدىّ بن زيد فى قصيدة له ، قال : أنشدْنيها فأنشدته :

بَكَرَ العاذلون فى وَضَح الصبـ ـح يقولون لى : أما تستفيقُ
ويلومون فيـك يا ابنة عبد اللّـــه والقلْب عنـدكم موثوق
لستُ أدرى إذ أكثروا العذل فيها أعـدوّ يَلُومنى أم صـديقُ !

حتى انتهيت إلى قوله :

ودعوا بالصبوح يوماً . . . البيت

قدّمته على سُلافٍ كعين الدّ يك صَفَّى ســلافَها الرَّاووقُ (١)
مُرّة قبـل مزجهـا فإذا ما مُزِجْتْ لذَّ طعمَها مَنْ يذوقُ
وطفا فوقها فقاقيعُ كاليـا قوت حمرٌ يزينها التَّصفيق (٢)
ثم كان المزاج ماء سحابٍ لا صِرًى آجنٌ ولا مَطْروقٌ (٣)

قال : فطرب ، ثم قال لى : أحسنتَ والله ياحماد ! ثم قال لإحدى الجاريتين : اسقيه ، فسقتنى شربة ذهبت بثلث عقلى ، ثم قال : أعده فأعدته ، عليه ، فاستخفّه الطرب حتى نزل عن فرشه ، ثم قال للأخرى : اسقيه ، فسقتنى شربة فذهب ثلث آخر من عقلى ، ثم قال : سَل حاجتك ، فقلت : إحدى الجاريتين ، فقال : هما جميعاً لك ، ثم قال للأولى اسقيه ، فسقتنى شربةً سقطتُ منها فلم أفق إلا والجاريتان عند رأسى وعشرة من الخدم مع كلّ واحد بَدْرة ، فقيل لى يقول : لك أمير المؤمنين : انتفع بهذا فى سفرك ، فأخذتها والجاريتين وعاودت أهلى .

---

(١) الراووق : المصفاة وناجود الشراب الذى يروق فيه . والناجود : الوعاء .
(٢) التصفيق : المزج .
(٣) الصرى : الماء الذى طال استنقاعه . والآجن : المتغير طعمه . والمطروق : ماء يخوض فيه الناس وغيرهم .

وذكر أبو محمد هذه الحكاية فى الدرّة[1] وقال : هذه حكاية تنشر مآثر الأجواد ، وترغّب المتأدب فى الازدياد . وهذه النبذة دالة على أخبار الفرج بعد الشدّة فلنقتصر عليها .

* * *

قوله : ما أطول طيلك ، أى ما أكثر حيلتك . يقال ذلك للكثير الدهاء والتصرّف ، والطّيَل : الحبْل . أهول : أخوف وأغرب . وقِير : إتباع لفقير ، وفائدة الإتباع المبالغة فى معنى الأوّل ، وذلك أنك تقول : فلان فقير فيكون له الشىء اليسير من المال ، فإذا قلت : وقير ، فليس له شىء البتة . وقيل : معنى وقير مثقل بالدين مُوقَرٌ به ، والإتباع قصد لأنه فسره بقوله : لافتيل لى ولا نقير ، كأنّ إنسانا توهم أن له شيئاً فذكر وقيرا لنفسه ، ثم زاده بياناً بما بعده ، ولأنه ذكر استئناف الدّين بعد ذلك .

ويكون الوقير أيضاً من الوقْر فى العظم ، وهو الكسر كأنه مكسور العظم ، كما أن الفقير أصله المكسور الفَقار . والفتيل : الخيط الذى فى شِقّ النواة مثل الفتيلة ، والنقير الفرض الصغير الذى فى ظهرها ، وفيه كالنقطة ومنه تنبت النخيل ، والقِطمير : اللفافة التى عليها ، وهى القشرة اللطيفة .

صَفَر اليدين : فراغهما من المال . التطوّق : لُبْس الطوق : أراد أنه لبس من الدّين طوْقاً . ادّنت : أخذت الدَّيْن ، والانفاق ، ضدّ الاختلاف . عسر : صعب توهّمت : حسبت . تسنى : تيسر . النَّفاق ، ضد الكساد . توسّعت : كثّرت . بهظنى : غلبنى وثقل علىّ . حقه : واجبه .

أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : إن أبواب الرزق مفتوحة إلى باب العرش فينزل الله تعالى إلى عباده أرزاقهم على قدر نفقاتهم ، فمنْ

(١) درة الغواص ١١٠ ، وهى أيضا فى نزهة الألباء ٣٧ ، ٣٨

قلّل قُلِّل له ، ومن كثر كثّر عليه .

مستحقّه : صاحبه فخرت فى أمرى ، أى فى همّ الدّين ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : علمنى جبريل دعاء فى الدّين ، وهو أن يصلّى إذا زالت الشمس أربع ركعات، يقرأ فى كل ركعة بأم الكتاب وآية الكرسى وقل هو الله أحد ، فإذا سلّم قرأ: ﴿قل اللهم مالك الملك تُؤتى الملك مَنْ تَشَاء وتنزعُ الملك مِمّن تشاء وتُعِزّ مَنْ تشاء وتُذِلُّ مَنَ تشاء بيدك الخير إنّك على كل شىء قدير * تُولِجُ اللّيل فى النهارِ وتُولِج النهار فى الليل وتُخْرِج الحىّ مَنْ الميت وتخرج الميت من الحىّ وترزق مَنْ تشاء بغير حساب﴾، ثم يقول: يافارج الهمّ يا كاشف الغمّ، يا مجيب دعوة المضطر يارحيم الدنيا والآخرة ، ارحمنى رحمة تغنينى بها عمّن سواك واقضِ دَيْنى؛ فإن الله تعالى يقضى دينه عنه وفيها اسم الله الأعظم .

غريمى : صاحب دَينى ، سُمِّىَ غريماً لإدامته التقاضى وإلحاحه وملازمته مَنْ عليه الدين ، ويكون الغريم أيضاً المطلوب بالدّين لازم له كما قال الشماخ :

تلوذ ثعالب الشرّفين منها كما لاذ الغريم من التّبيع[1]

عسرى : فقرى .

* * *

فَلَمْ يُصدِّقَ إِمْلاَقِى ، وَلاَ نَزَعَ عَنْ إِرهاقِى ، بَلْ جَدّ فى التَّقَاضِى ، ولَجّ فِى اقْتِيَادِى إِلى القاضى . وكُلَّمَا خَضَعْتُ له فى الْكَلاَمِ ، واسْتَنْزَلْتُ مِنْهُ رِفْقَ الكِرَام ، ورَغْبْتُهُ فِى أَنْ يَنْظُرَ لِى بِمَيَسَرَة ، أَوْ يُنْظِرَنى إلى مَيْسَرَة . قال : لا تَطْمَعْ فِى الإِنْظَارِ ،

(١) ديوانه ٢٧٧ .

واحْتِجَانِ النُّضارِ ، فَوَحَقِّكَ ما تَرَى مَسَالِكَ الخَلاَصِ ، أو تَرَيني سَبائكَ الخِلاَصِ . فَلَمَّا رأيتُ احْتِدَادَ لَدَدِه ، وألاَّ مَناصَ لي مِنْ يَدِهِ ، شاغبتُهُ ، ثمّ واثبتُه ، ليرافِعَني إلى وَالِي الجَرائم ، لاَ إلَى الحاكم في المظالِم ، لِمَا كان بَلَغَني من إفضالِ الْوَالِي وفَضْلِهِ ، وتَشدُّدِ القاضِي وبُخْلِهِ . فَلَمَّا حَضَرْنا بابَ أَمِيرِ طُوس ، آنسْتُ ألاَّ بأْسَ وَلاَ بُوس . فاسْتَدْعَيْتَ دواةً بَيْضَاءَ ، وأنْشأْتُ رسالةً رَقْطَاءَ ؛ وَهِي :

* * *

ومثله إملاق ، وأملقَ . ذهب ماله ، مشتق من الملقات وهي الصخور المُلْس ، كأنه افتقر حتى لم يبق له ما يلبس إلاّ جلده الأملس . نزع : كفّ . إرهاق : تكليفي مالا أطيق ، وأرهقتُه : كلّفته مشقة ، والرَّهَق : الظلم . جَدّ : عزم واجتهد ، التقاضي : طلب المال . لج : عزم وركب رأسَه . استنزلت : طلبت . رفق الكرام : لطفهم وحنانهم على الفقير . مياسرة : لين ومساهلة . يُنظِرني : يؤخرّني والإنظار الإمهال ، وفي حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا : « من أنظر معسراً أظلّه الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلاّ ظله » .

ميسرة : غنى . احتجان : اختزان ، واحتجنت الشيء : ضممته بالمِحْجَن ، وهو عود معقّف . النّضار : الذهب . مسالك الخلاص . طرُق النّجاة . سبائك : فقَر وقطع . الخِلاص ، بالكسر : الذهب الخالص . احتداد : اشتداد ، وقد احتدّ . لدده : خصامه وإلحاحه . مناص : مخلص ومفرّ ، وناص عن قرينه نوصاً ومناصاً ، إذا فزع وفرّ ، وما أحسن ما قال العبدي في محمد بن إبراهيم يشكو غريماً لازمه :

اقض عنّي يابن عمّ المصطفى أنا بالله من الدّيْن وبك

مِنْ غريم فاحش قد عرّنى أسود الوجه لعرضى منتهكْ
أنا والظلُّ وهو ثالثُنا أينمازلتُ من الأرض سَلَكْ

شاغبته :شاررته، أى أوقعت بينى وبينه الشغاب . واثبته : ضاربته ووثبت إليه ، ووثب إلىّ . والى الجرائم: حاكم الجنايات، والحاكم فى المظالم : هو القاضى. إفضال : إنعام . فضله : جوده وكرمه .وتشدّد : بخل ، ورجل شديد ومِشْداد ، أى بخيل، قال الله تعالى : ﴿وإنه لحبِّ الخير لشديد﴾، أى لبخيل من أجل حبه الخير وهو المال ، أو تشدّد شدته على من تعين قبله حق . آنست : علمت وأحسنت بأس : ضُرّ . وبوس : شدّة . بيضاء : ورقة يكتب فيها؛ ولابن الزّقاق فيها :

وواضحة كمثل النصل تجرى مع الإبصار كالماء القَرَاح(١)
ترى حُبُك المداد بجسم نَورٍ كمخضرّ الفرند على الصّفاح
كأنّ سواده فى صفحتيها بقايا الليل فى وَجْهِ الصّباح

رقطاء : فيها حرف منقوط وآخر غير منقوط ، والرقطاء عندهم الدّجاجة المرقشة ، وهى المنقّطة بسواد وبياض ، ومنه قيل للنهر أرقط ؛ لأن فيه تنقيطاً خلاف لونه ، ولو شكر لمعطيه الدّواة لأنشد هذه الأبيات ، وهى لابن سكرة :

أخ مزجت بروحى روحَه وجَرَى منه كجرى دمِى فى الجسم أفْدِيهِ(٢)
أهْدَى إلىّ دواة لو كتبتُ بها دهرى أياديه لم تنفد أياديهِ

وهذه الرسالة التى أنشأها أبو محمد أبدع فيها بما أراد ، وأغرب بها وأجاد

ونشد من الشعر النّفيس فى مدح الرسائل مايجرى لها كالوصف ، ويسرى بذكرها طيب العَرْف ، فمن ذلك قول أبى تمام :

(١) ملحق ديوانه ٢٩١ (٢) يتيمة الدهر ٣ : ٢٢

رفع المسهم

مـدادٌ مثل خافية الغرابِ وقرطاس كرُقراقِ السَّرَابِ[1]
وألفاظ كألفاظ المثانى وخطّ مثل وَشْمِ يدِ الكَعَابِ
كتبت ولو قدرت هوًى وشوقا لـكنت إليك سطراً فى الـكتاب

وله فى كتاب جاء من الحسن بن وهب :

لقد جلّى كتابك كل بَثّ جَوٍ وأصاب شاكلة الرّمى[2]
وكان أغضّ فى عينى وأندى على كبدى من الزّهرِ الجنىّ
وأحسن موقعاً منى وعندى من البشرى أتتْ بعد النّعِىّ
فكائن فيه من معنىً خطيرٍ وكائن فيه من لفظ بَهِىّ
فيا ثلج الفؤاد وكان رضْفاً ويا شبَعى برونقـه وريّ

من أبيات كلها عيون، وفيما ذكرنا دليل على ما تركنا .

وقال أبو نواس فى كتاب ورد عليه من صديق :

ووارد ورد إنشاء يؤكّده صدوره عن سليم الورد والصَّدْرِ
شـــدّت بتيجانه منه على نزه تقسّم الحسن بين السمع والبصَر
عذوبة صدرت عن منطقٍ ينع كالـماء يخرج ينبوعاً من الحجرِ
وروضة من رياض الفـكر دبّجها صوبُ القرائح لا صَوْبٌ من المطر
كأنما نشرتْ أيدى الرّبيع بها بُرْداً من الوشى أو ثوباً من الحِبَرِ

ولابن طاهر فى ابن ثوابة :

فى كل يوم صدور الـكتب صاردةٌ عن رأيه وندى كَفَّيْه عن مَثَلِ
عن خط أقلامه خط القضاء على الأعـــداء بالموت بين البيضِ والأسَلِ
لعـابها عَسَلٌ فى الصدر تبعثه وربما كان فيـه النفع للعِلَلِ
كأنّ أسطارها فى بطن مُهْرَقةٍ نَوْرٌ يضاحك دمع الواكف الخضِلِ

(١) ورد البيت الأول فى ديوان المعانى ٢ : ٨٣ من بيتين نسبا إلى الحسن بن وهب .
(٢) ديوانه ٣٤٤ ، أدب الـكتاب ٤٦ .

وقال بعضهم :

كتاب فيه من غُرَرِ المعانى ... قلائد لا تنظمها اليدانِ
إذا نشرت صحائفه تجلَّتْ ... بروضتها أزاهيرُ المعانِي
ترود العين منها فى مرَادٍ ... مريع جاده فيض البنان
كأن مجال عين الفكرِ فيهِ ... مجال اللحظ فى غُرَرِ الحسانِ

وقال آخر :

يدير على القرطاس أسمر مرهفاً ... إذا دار لم تلحق به البيضُ والسُّمْرُ
كأنّ المعانى روضة وهو غيثُها ... فمهما سقى أغصانها ضحِك الزَّهْرُ

وقال الرمادىّ :

قلم الوزير وكفّه ... هذا يصول وذا يطولُ
أضحى كليثِ خفيَّةٍ ... ودواته لِلَّيْثِ غيلُ

* * *

أخلاقُ سَيِّدنا تُحَبّ ، وبعقْوتِهِ يُلَبّ ، وقربُهُ تُحَف ، ونأيه تَلَف ، وخلّتُهُ نَسَب ، وقطِيعَتُهُ نَصَب ، وغربُهُ ذَلِق ، وشُهْبُهُ تأتِلق ، وَظَلْفهُ زانَ ، وقويمُ نَهْجِهِ بَانَ ، وذهنُه قَلّب وَجَرَّبَ ، ونَعْتُهُ شَرّقَ وغرَّب

سَيِّدٌ قلّبٌ سَبَوقٌ مُبِرٌّ ... فَطِنٌ مُغْرِبٌ عَزوفٌ عَيُوفُ
مُخْلِفٌ مُتْلِفٌ أَغَرُّ فريدٌ ... نابهٌ فاضِلٌ ذَكِيٌّ أَنُوفُ
مُفْلِقٌ إن أبان ، طبٌّ إذا نا ... بَ هِياجٌ وجَلَّ خَطْبٌ مخوفُ

* * *

قوله : أخلاق سيدنا تحب ، حسن أخلاق الإنسان من كمال سعادته، وكرم فضيلته ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اللهمّ كما حسَّنْت خَلْقى فحسِّن خُلُقى» مع أن الله عز وجل يقول فيه : ﴿ وإنَّك لَعَلَى خُلُقٍ عظيم﴾ .

قوله : وبعقوته يلَبّ ،أى بمنزله يقام لحماية الممدوح من يلوذ به وإكرامه له . وقربه تحف ، أى من قرب منه أتحفه وهاداه، ومن بَعُد منه فقد الأمْنَ فهلك . والنأى : البعد ، ولمّا كان القربُ سببا للتّحف والنأى سبباً للتلف ، جعل نفس القرب والبعد هما الحياة والموت . خَلّته : صداقته . نسب، أى هو للصديق بمنزلة النسيب ، قيل لبزرُ جُمْهِر : مَنْ أحبّ إليك:أخوك أم صديقك ؟ فقال : لاأحبّ أخى إلا إذا كان صديقى . وقال أكثم بن صيفى : القرابة تحتاج إلى مودّة ، والمودة لاتحتاج إلى قرابة . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : القرابة قد تقطع، والمعروف قد يكفر ، وما رأيت كتقارب القلوب، أخذه ابن مناذر فقال:

قدْ يُقطَع الرحم القريب وتُكْفر النّعمى ولا كتقارب القلبين[1]
يُدْنى الهوى هذا،ويدنى ذا هوًى فإذا هما نفس تُرَى نفسيْنِ

أخذه أبو تمام فحسّنه فقال :

فإنّ الفتى فى كلّ حال مناسِبٌ مَنَاسبَ روحانيةً مَنْ يشاكلُ[2]
ولن تَنْظم العِقدَ الكعابُ لزينةً كما تنظم الشملَ الأشتَّ الشمائلُ[3]

وقد تقدَّم حديثِ : الأرواح جنود مجندة ، ونظم الحسن له .

وقال الشاعر :

لاخيرَ فى قربَى بغير مودّةٍ ولربّ منتفعٍ بودّ أباعدِ

---

(١) الأغانى ١٧ : ٢٦ ـ ساسى
(٢) ديوانه ٢٥٦ ، وفيه : « فى كل ضرب مناسب » .
(٣) الديوان : « الشتيت » .

رفع المسهم

وإذا وجدت من البعيد مودَّةٍ فامْدُدْ له كفَّ القبول بساعدِ

قوله : وقطيعته نصب ، أى عداوته همٌّ وتعب ، وقد قال أبو تمام :

وإلا فأعلِمه بأنك ساخطٌ ودعه فإنّ الخوف لاشك قاتلُهْ(١)

غربه : أى حدّه . ذلِق، أى حادّ . شهبه : نجومه ، يعنى أخلاقه ومكارمه تأتلق : تضىء . وظَلَفه : منعه وكفه ، وظلفت نفسى عن الشىء : منعتها منه . زان : يزين ، يقول : إن قمعه من تجاوز قدره ومنعه مَنْ سأل ما لا يحبّ زُيِّن بالممنوع ، وشرِّف بالمقموع ، فتأديب الملوك لاعارَ به ، وإنما العار أن يهينك كفؤك ، ومَنْ لاحكمَ له عليك . وقال المتنبى :

ومِنْ شرف الإقدام أنك فيهمُ على القتل موموق كأنّك شاكد(٢)

وإنّ دما أجريتَه بك فاخِرٌ وإنّ فؤادا رُعْتَهُ لك حامدُ

وقال حبيب :

خشعوا لصولتك الّتى هى عندهمْ كالموت يأتى ليس فيه عارُ(٣)

وقال آخر :

وإنّ أمير المؤمنين وعتْبه لَكالدَّهْرِ لاعارٌ بما فعل الدّهرُ(٤)

وإذا تزين بمنْعه ، فما ظنك بعطائه! على أن اليد القابلة للجدوى ، وهى اليد السفلى،لاتنفك عن حشمة أو ذلة ، وقد اعتذروا لهذا المعنى، قال أبو تمام :

رأيتُ رجائى فيك وحدك همة ولكنّه فى سائر الناس مطمع(٥)

---

(١) ديوانه ٢٣٢ .
(٢) ديوانه ١ : ٢٧٦ . موموق: محبوب . والشاكد : المعطى .
(٣) ديوانه ١٤٦
(٤) البيت فى شرح العكبرى ٢ : ١١٣ ، بدون نسبة
(٥) ديوانه ١٩٢

رفع المسهم

وقال أيضاً :

تُدْعَى عطاياه وَفْراً وهى إن شهرتْ كانت فخاراً لمن يعروه مؤتنفاً[1]
مازلت منتظراً أعجوبة زمناً حتى رأيت نوالا يقتضى شرفَا

وقال إبراهيم بن العباس :

إذا طمعٌ يوما عرانى منحتُه كتائب يأس كَرّها وطرادَها[2]
ســوى طمعٍ يدنى إليك فإنّه يبلغ أسباب العلا مَنْ أرادَها

وقال الخريمى :

عطاؤك زين لامرئٍ إن أصبته بخير وما كلّ العطاء يزينُ[3]
وليس بعار لامرئٍ بذلُ وجهه إليك كما بعضُ السؤال يشينُ

وقال أبو الطيب :

وفيضُ نواله شرفٌ وزينٌ وفيضُ نوال بعض الناس ذمّ

وقال ابن أبى خالد :

شرف للشريف منك نوال رُبَّ نيل تعَــافُهُ الأحرَارُ

فزاد بقوله : للشريف على من سبق .

قوله: قويم نهجه، أى مستقيم طريقه . بان تبين. قلّب: بحث. شرّق وغرّب: أى مشى بوصفه المادحون شرقاً وغرباً ، وأنشد المتنبى وزاد فيه معنى :

ستحيا بك السّمّار مالاح كوكبٌ وتحدو بك السفّار ماذرّ شارقُ[4]

---

(١) ديوانه ٢٠١ (٢) ديوانه ١٨٣.
(٣) البيتان فى ديوان أمية بن أبى الصلت ٦٣ .
(٤) ديوانه ٢ : ٣٤٨ ، وفى ترتيبه ؛ الثانى قبل الأول .

تخلّى من الدنيا ليُنْسَى فما خلَتْ مغاربُها من ذكره والمشارق

قلّب : درّب بالأمور ، وفلان حوّل قلّب ، إذا كان متصرّفا فى أموره ، نفاعا لأوليائه ، ضرّاراً لأعدائه ، كأنه لمعرفته بالأمور قد حوّل الأمور وقلّبها . ومبرّ ، أى غالب لاعدائه . فطن : ذكى . مُغْرِب : يأتى بالغرائب . عزوف : نزيه النفس بعيد من الريب . عيوف : كاره للدنايا . والمتلف عند العرب : الذى يتلف ماله بالجود . والمخلف : الذى يخلف ما أتلف بالإغارة على الأعداء ، وأخذ أموالهم ، يصفه بالشجاعة والكرم . وقال البحترىّ :

بأرْوَعَ من طىٍّ كأن قميصَه بُزَرُّ على الشيخين زيد وحاتم (١)
سماحاً وبأسا كالصواعق والحيا إذا اجتمعا فى العارض المتراكم

وقال ابن الرومىّ :

لم تخلنى قط من صنائعك الـــغرّ ولا من حروبك الغُرْسِ
تصرّف الغيث فى صواعقه وتارة فى سِجاله البجْسِ

وقال البحترىّ :

ضحوك إلى الأبطال وهو قريعهم وللسيف حدّ حين يسطو ورونقُ (٢)
حياة وموت واحد منتهاهما كذلك غمر الماء يُروِى ويُغرقُ

وقال ديك الجن :

هو عارض زجلٌ فمن شاء الحيا أرضى، ومَنْ شاء الصواعق أغضبا (٣)

---

(١) ديوانه ١٩٧١
(٢) ديوانه ٩٦ ١٤ ، وفيه : « وهو يروعهم »
(٣) ديوانه ١٥٠

وقال أبو مسهر :

تحيا الأنام به فى الجدب إن قحطوا جوداً وتشقى به يوم الوغى الهمام
كالمزن يجتمع الحالان فيه معاً ماء ونار ، وإرهام وإضرامُ

وقال ابن الرومىّ :

والنـــاس طرًّا بين مرتقب سطواته ومؤمل نفْعَـــهْ
كالعارض التهبت صواعقه وسقى البلاد فلم يدع بُقْعَهْ

قوله : أغرّ : مشهور . فريد : ليس له نظير . نابه : رفيع الذكر . ذكى : متوقد الفطنة، ويروى: «زكّ» ، وهو الطاهر العفيف ، وقيل: هو المتزيد فى الخير ، والزّكاء : النماء والزيادة . أنوف : كثير الحميّة والغضب لما يستراب منه . مفلق. فصيح ، وأفلق: جاء بالفلق، وهى الداهية كأنه جاء من الفصاحة بما لا يطاق. أبان : بيّن كلامه . طبّ : حاذق حسن التدبير . ناب هياج: حدث شر واختلاف. جلّ خطب : عظم أمر . مناظم : جمع منظوم . تأتلف : تجتمع، يريد أن ما ينظم فى شرفه من المدائح يأتلف بلا تكلّف على الشعراء لكثرة صفات الفضل والسؤدَد ، كما قال حبيب :

تغايَرَ الشِّعر فيه إذ سهِرتُ لَهُ حتى ظننتُ قوافيه ستقتتلُ (١)

وقال أبو الطيب :

لك الحمد فى الدرّ الذى لِىَ لفظه فإنك معطيه وإنّىَ ناظم (٢)

وقال آخر :

مالقينا من فَضْل جود ابن يحيى صَيّر الناس كلهم شعراء

* * *

(١) ديوانه ٢٢٧ (٢) ديوانه ٣ : ٣٩١

مَنَاظِمُ شَرَفِهِ تأْتَلِف ، وشُؤبوبُ حِبائه يَكِف ، ونائل يَدَيْهِ فاضَ ، وشُحُّ قَلْبِهِ غاضَ ، وخِلْف سَخائِهِ يُحْتَلَب ، وذَهَب عِيابِهِ يُحْتَرَب . مَنْ لَفَّ لِفَّهُ فَلَجَ وَغَلَبَ ، وتاجِرُ بابِهِ جَلَب وخَلَبَ . كفّ عَنْ هَضْمِ بَرِى . وبرِئَ مِنْ دنسِ غَوِى ، وقَرَنَ لِيانَه بِعِزّ ، ونكّبَ عَنْ مَذْهَبِ كَزّ . لَيْسَ بوثّابٍ عِنْدَ نُهْزَةِ شَرّ ، بَلْ يَعِفّ عِفّةَ بَرّ .

فلِهَذا يُحَبُّ ويُسْتَحَقُّ عَفافُهُ
شَعَفــــاً به فلبابُهُ خَلَّابُ
أخلاقُهُ غُرٌّ ترفّ وفُوقُه
فُسوقٌ إذا ناضلْتَه غلاّبُ
سُجُجٌ يَهِشّ وذو تلافٍ إن هَفَا
خِــلٌّ فليسَ بحقه يُرْتَابُ
لا باخلٌ بل باذلٌ خِرْقٌ إذا
يُعْتَرُّ ، بَرْزٌ لا يليــه بابُ
إنْ عَضَّ أَزْلُ فَلَّ غربَ عِضاضِهِ
بِنابِهِ فانحتّ منــــهُ نابُ

. . .

شؤبوب حبائه : دفع عطائه ، والشؤبوب : دُفَع المطر . يكف : يقطر ويسقط . نائل : عطاء . فاض : سال وخرج على الأرض . غاض : غاب وجفّ .

والخِلْف : حلمة الضَّرْع الذى يُحلب منه اللبن ، وهو أيضاً اسم للضَّرع . سخائه : جوده . عيابه : جمع عيبة . يُحترب : يستلب ، أى لكثرة جوده كأنّ ماله يسلبه القاصدون له . من لفّ لِفّه ، أى من التف به ودخل فى جماعته ، واللِّف : لفيف الناس ، ولفّ القوم : اجتمعوا والتفّ بعضهم ببعض ، وأخذ هذا اللفظ من قول الأعشى :

وقد ملأت بكرٌ وَمَنْ لَفّ لِفَّها نُباكاً فأحواض الرّبا فالنواعصا[1]

بكْر قبيلة ، ومَنْ لفّ لِفّها ، أى مَن التفّ بها . فلج ، أى ظفر بما أحبّ . جلب : ساق ، أى التاجر الذى يقصد بابه بما جلب إليه من الفوائد يجازيه على ذلك بالعطاء الكثير ، فلكثرة ما أخذ فكأنه قد خدعه ، والملك المفضال يوصف أنه يُخدع لكثرة هباته ، وقيل لعرّابة : بم سدت قومك ؟ قال : أنخدع لهم فى مالى . هضم : نقص ، أراد أنه لايهضم ولا يظلم من لم يذنب إليه غَوِى : ضالّ مفسد . ليانه ، أى لين خلقه . بعزّ : بمنع وبعظم ، والعزة فى اللغة : الشدة والمَنَعة ، والعزاز : الأرض الصلبة ، يريد أن الأمير إذا انبسط لم يهب ، وإذا اشتدّت سطوته لم يُؤْلَف ، فحالة هذا الممدوح بين العزة واللين ،

وقال أبو تمام :

المجدُ شيمتُه وفيه فكاهةٌ سمحٌ ولا جدّ لمن لم يلعبِ[2]

شرِسٌ يقبع ذاك لينُ خَليقةٍ لاخيرَ فى الصَّهباء مالم تقطّبِ[3]

نَكَب : عدل ومال . مذهب : طريق : كزّ : بخيل قليل الخير . وثّاب : عجول كثير الوثوب . نُهزة : فرصة وغنيمة . ويعفّ : يكف نفسه . بَرّ : مطيع لله ، أراد أنه عفيف عن المحارم . قوله : شعفا ، أى حبا يطلب الغاية ، وشعاف القلب : أعلاه ، يريد أن عفافه بلّغه غايةَ الحبّ من القلوب ، وفلان

(١) ديوانه ١٤٩ . (٢) ديوانه ١٣ . (٣) تقطب : تمزج .

مشعوف بفلان ، إذا ذهب به حبّه كل مذهب .الفراء : هو من الشّعف ، وهى رءوس الجبال ، واحدها شعفة ، فكأنَ معنى شعف بفلان ، ارتفع حبه إلى أعلى موضع فيه .

لبابه : خالصه . خلاب : آخذ للنفس غالب عليها . غُرّ : حسان . ترفّ : تتلألأ وتشرق ، والرفيف : بريق اللون . وفُوقه : سهمه والفُوق : طرف السهم الذى يلى الوتر . ناضلته : راميته ، يقول : سهمُه ، غلاّب لمن راماه . سحج : سهل الخلق . يهشّ : يهتزّ طربا . تلاف : تدارك . هفا : زلّ وسقط ، والهفوة : الزلة . خِلّ : صاحب . يرتاب : يشكّ . خِرق : كريم جواد يتخرّق فى العطاء . يعترّ : يقصد . بَرْز : ظاهر غير محتجب . قال الفنجديهىّ : رجل بَرْز ، أى عفيف عاقل كريم . لا يليه باب ، أى لا يحتجب ببابه دون قصاده .

[مما قيل فى الحجاب]

شاد الملوكُ قصورهم وتحصّنُوا ... من كلّ طالب حاجة أو راغبِ
غالوْا بأبواب الحديد لعزها ... وتنافسوا فى قبح وجه الحاجب
فإذا تلطّف للدخول عليهمُ ... راجٍ تلقّوْه بعذرٍ كاذبِ
فاطلب إلى ملك الملوك ولا تكن ... بادى الضراعة طالباً من طالبِ

هى لمحمود الورّاق .

وقال أبو مسهر : أتيت أبا جعفر محمد بن عبدالكافى فحجبنى ، فكتبت إليه :

إنى أتيتكَ للتسليم أمسِ فلمْ ... تأذَنْ عليك لِيَ الأستارُ والحجبُ
وقد علمتُ بأنى لم أردّ ولا ... والله ما ردّ إلا الحلم والأدبُ

فأجابنى بهذا القول :

لو كنتَ كافأت بالحسنى لقلت كما ... قال ابن أوس وفيما قاله أدبُ
ليس الحجاب بمقصٍ عنك لى أملاً ... إنّ السماء ترجّى حين تحتجبُ[1]

وقال حبيب :

سأترك هـذا البـاب ما دام إذنه ... على ما أرى حتى يلين قليـلاَ
فما خاب مَنْ لم يأتِهِ متعمداً ... ولا فاز من قَدْ نال منه وصولاَ
ولا جعلت أرزاقنا بيد امرئٍ ... حمى بابه من أن يُنـال دخولاَ
إذا لم أجد للإذن عندك موضعاً ... وجدت إلى ترك المجىء سبيلاَ

وحُجِب أبو العتاهية عن بعض الهاشميين ، وقال له : تكون لك عودة فقال :

لئن عدتُ بعـد اليوم إنى لظالمُ ... سأصرف نفسى حيث تُبغَى المكارمُ
مَتَى يظفرِ الغـادى إليك بحاجةٍ ... ونصفك محجوبٌ ونصفك نائمُ !

قال المتنبى :

أصبحتَ تأمرُ بالحجاب لخلوةٍ ... هيهات لستَ على الحجاب بقادرِ[2]
مَنْ كان ضوء جبينه ونوالِهِ ... لم يحجباً لم يحتجبْ عن ناظرِ
فإذا احتجبتَ فأنت غير محجّبٍ ... وإذا بَطَنْتَ فأنت عينُ الظاهرِ

وقال جرير :

قومٌ إذا حضر الملوكَ وفودُهم ... نُتِفَتْ شواربُهمْ على الأبواب[3]

(١) ابن أوس : هو أبو تمام والبيت فى ديوانه ٢٢ .
(٢) ديوانه ٢ : ١٣٧ .
(٣) ديوانه ٥٦ .

رفع المسهم

وقال آخر :

نهيت جميع الناس عن كلّ خطة ... يدبّرها فى رأيهـا ابنُ هشامِ
فلمّا وردنا الباب أيقنت أنّنا ... على الله والسلطان غيرَ كرام

وقال آخر :

وكل خفيف الشأن يدعى مشمّراً ... إذا فتح البوّاب بابك إصبعاَ
ونحن الجلوس الماكثون توقّراً ... حياء إلى أن يفتح الباب أجمعاَ

قوله : عض أزْلٌ ، أى اشتد زمان ، والأزْل : ضيق العيش من الجدب والقحط ، وعضّ : قبض بأسنانه . فلّ : كسر . غرْب : حدّ . بمنابه : بكفايته . انحتّ : انكسر . ناب : سنّ ، يقول : إن عضت الشدائد الناسَ وأضرّتْ بهم دفعها وكسر أنيابها بمواهبه وخيره لمن أفقرته . ومن مليح ما قيل فى هذا المعنى قول المتنبى :

أظمتْنِىَ الدّنيا فلمّـا جئته ... مستسقيا مطرتْ علىّ سحائباَ[1]
حالٌ متى علم ابنُ منصور بها ... جاء الزمان إلىّ منها تائباَ

نقل المتنبى اللفظ والمعنى من قول أبى تمامٍ :

كثرت خطايا الدهر فىّ وقد يرى ... لنـــداك وهو إلىّ منها تائبُ[2]

وألمّ به الحصنى أيضاً فى قوله :

وقد تحسنُ الأيّام بعـــد إساءةٍ ... ويذنب صَرْف الدهر ثم يتوبُ

وقال ابن المعتز :

وعوّقنى الدهر عن قُربه ... زمانا فقـد تاب عن ظلمه

(١) ديوانه ١ : ١٢٥ . (٢) ديوانه ٢٩ .

وقال ابن الرومى :

أساءت لى الأيام يا بن محمدٍ وهنّ إلىّ اليوم معتذرات
رأين مطافى حول عفوك عائداً فهنّ لما أبصرنه حذرات

وقال أبو تمام :

إذا العيس لاقت بى أبا دلف غدًا تقطّع ما بينى وبين النوائب

وقال أبو نواس :

أخذتُ بحبلٍ من حبـــال محمدٍ أمنتُ به من طارق الحدثانِ
تغطّيت من دهرى بظلّ جناحه فعينى ترى دهرى وليس يرانى
فلو تسأل الأيام عنّى ما درَتْ وأين مكانى ما عرفن مكانِى

وقال أيضاً :

أنا فى ذمّة الخصيب مقيمٌ حيث لا تهتدى صروفُ الزمانِ
قد عرفْنَا من الخصيب خلالاً آمَنتنا طوارق الحـــدثانِ
كيف أخشى من الليالى اغتيالاً ومكانى من الخصيب مكانِى

* * *

وجَدِيرٌ بمَنْ لَبَّ وفَطَنَ ، وقَرّبَ وشَطَن ، أن أَذعَنَ لِقَرِيعِ زَمَن ، وجَابِرِ زَمِن ، مُذْ رَضِعَ ثَدْىَ لِبانِهِ ، خُصَّ بإفاضَةِ تَهْتَانِه . نَعَش وفرَّج ، وصافَرَ فأبْهَج ، ونافَرَ فأزْعَجَ ، وفاءَ بحقٍّ أبْلَج ، أَتْعَبَ مَنْ سَيَلِي ، وقُرِّظَ إذْ هُزَّ وَبُلِي ، وتَوَّجَ صِفَاتِهِ ، بِحُبِّ عُفَاتِهِ .

رفع المسهم

فَلاَ خَلاَ ذَا بَهْجَةٍ يَمْتَدُّ ظِلُّ خِصْبِهِ
فإنه بَرٌّ بِمَنْ آنَسَ ضَوْءَ شَهْبِهِ
زانَ مَزَايا ظَرْفِهِ بِلُبْسِ خوفِ ربِّهِ

* * *

قوله : جدير ، أى حقيق . لبّ : كان لبيبا وعاقلا . شَطن : بَعُد . أذعَن : ذلّ وانقاد . القريع : السيد يدفع ضرّ الزمن ويقرعه . جابر زَمِن ، أى مغنى فقير ، والزمِن الفقير الذى لازمه الفقر أو المريض الذى لازمه المرض ، وبه زمانة ، وأصل ذلك من لزمن . لبانه ، أى لبن أمّه ، وقال فى الدرة[1] وقولهم : الرضيع الإنسان ارتضع بلبنه ، صوابه بلبانه ، لأن اللّبن هو المشروب ، واللّبان ، هو مصدر لابنه ، أى شاركه فى شُرْب اللبن ، هذا معنى كلامهم الذى نحْوا إليه ولفظوا به . التّهتان : سيَلان المطر ، وإفاضته : صبّه ، وأراد فى لبن أمه ، ارتضع الجود فداوم عليه ، كقول المتنبّى :

سموْا للمعـــالى وهم صِبيةٌ وسادوا وقادوا وهم فى المهودِ[2]

وقد غلط المتنبى فى هذا ، ونُسب فيه إلى الكذب والمحال الفاضح ، لأن سيادة الأطفال فى المهود وقوْد الجيوش من أنحلِ المحال ، وهـذا وإن كان ظاهره كذلك ، فقد اتسعت العرب وأهل الأدب فى هذا القدر ، وأقاموا تخيّل النجابة فى المولود فى مهده مقام وجودها فى كبره . ثم إذا وجدوا صفة الكمال فى الرجل التامّ حكموا بكمالها ، لأنه رضعها فى ثدى أمه ، أو غذى بها فى بطن أمه ، ألا ترى قوله : تعلمت العلم قبل أن يقطع سرّك وسرَرْك ، وقبل أن يقطع ذاك ، كان

(١) درة الغواص ٩٩ (٢) ديوانه ١ : ٣٤٥ .

رفع المسهم

فى بطن أمّه ، وهذا لم ينكره أحد ، ومن شعر الحماسة فى الذى رأى المهلب فى مهده فقال :

خذونى به إنْ لم يَسُدْ سرواتهمْ ويبرع حتى لا يصاب له مثلُ [1]

وفيها أيضاً :

لئن فرحت بى معقل عند شيبتى لقد فرحت بى بين أيدى القوابل

وذلك لتخيّل النجابة فيه فى ذلك الوقت ، ألا ترى ماتثبت نساء العرب من بلوغ السيادة لأبنائهنّ عند ترقيصهن ، وانظر إلى ذلك إن شئت فى فصل نظمناه فى كتابنا الموضوع لاختصار نوادر أبى علىّ ، فقد سقط عن المتنبى والحريرى بهذا ماعِيب عليهما ، وقال سوار بن أبى شراعة :

تعرف السّوْدَدَ فى مولودهمْ وتراه سيّدا إن أيفعا

نَعَش : رفع الضعيف بجوده . فَرّج : أزال همه . ضافر : فاخر . أبهج : أدخل السرور على أحبابه إذا كان له الغلب . نافر : خاكم فى النسب .

وكانوا فى الجاهلية إذا تنازع الرّجلان الشّرف تنافرا إلى حكمائهم فيفضّلون الأشرف ، وسميت منافرة [1] لأنهم كانوا يقولون عند المفاخرة : أينا أعزّ نَفَرًا .

[منافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة]

وأشهر منافرة فى الجاهلية منافرة عامر بن الطّفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب مع علقمة بن عُلاثة بن عوف بن الأحوص بن جعفر ، حين قال له علقمة : الرياسة لجدّى الأحوص ، وإنما صارت إلى عمك أبى براء من أجْله ، وقد أسنّ عمك وقعد عنها ، فأنا أولى بها منك . وإن شئت نافرتُك ، فقال عامر : قد

---

(١) المنافرة : المفاخرة بالنسب ، وخبر المنافرة بين عامر وعلقمة فى الأغانى ١٥ : ٥٠ ـ ساسى ، مع تصرف واختصار .

شئت والله ؛ لأنا أكرم منك حسباً ، وأثبت نسباً ، وأطول قصباً، فقال علقمة: أنافرك وإنى لبرّ وإنّك لفاجر ، وإنى لولود وإنك لعاقر ، وإنى لعفٌّ وإنك لعاهر ، وإنى لوافٍ وإنك لغادر ؛ فقال عامر : أنافرك ؛ أنا أسنى منك سنّة، وأطولُ قمّة ، وأحسن لمّة ، وأجعدُ جمّة ، وأبعد همّة . فقال علقمة : أنت جسيم وأنا قضيف[1]، وأنت جميل،وأنا قبيح؛ولكن أنافرك أنا أولى بالخيرات منك. فخرجت أمّ عامر فقالت : نافره أيُّكما أولى بالخيرات ، ففعلوا على أن جعلوا مائة من الإبل يعطاها الحكم الذى ينفر عليه صاحبه ، فخرج علقمة ببنى خالد بن الأصفر وبنى الأحوص ومعهما القباب والجزور والقدور؛ ينحرون فى كلّ منزل يطعمون، وخرج عامر ببنى مالك ، وقال: إنها المقارعة عن أحسابكم ، فاشخصوا : بمثل ماشخص به ، وقال لعمه أبى براء : أعنّى ، فقال : سُبَّنى ، فقال لا أسبّك وأنت عمّى ، فقال : وأنا لا أسبُّ الأحوص وهو عمّى، ولكن دونك نعلى ، فإنى ربعت فيها أربعين سنة؛ ولم ينهض معه . فجعلا منافرتهما إلى أبى سفيان بن حرب ابن أميّةَ ، ثم إلى أبى جهل بن هشام ، فلم يقولا بينهما شيئاً، ثم رجعا آخرا إلى هرم ابن قطبة بن سيار بن عمر الفزارىّ، فقال: لعمرى لأحكمنّ بينكما، فأعطيانى موثقاً أطمئن إليه أن ترضيا بحكمى ، وتسلّما ماقضيت بينكما . ففعلا ، فأقاموا عنده أياماً فأرسل إلى عامر فأتاه سرًّا ،فقال : قد كنت أحسب أنّ لك رأيا،وأن فيك خيرا، وما حبستك هذه المدة إلا لتنصرف عن صاحبك ؛ أتنافر رجلا لا تفتخر أنت وقومك إلا بآبائه ! فما الذى أنت به خيرٌ منه ؟ فقال عامر : نشدتك الله والرحم ، ألاّ تفضل علىّ علقمة ، فوالله لئن فعلتَ لا أفلح بعدها ، هذه ناصيتى فاجزُزْها واحتكم فى مالى ، فإن كنت ولابدّ فاعلاً فسوِّ بينى وبينه ، فقال له ما قال لعامر ، فقال له: أتفاخر رجلا هو ابن عمّك فى النسب وأبوه أبوك وهو مع ذلك أعظم منك غَناء وأحمد لقاء ، وأسمح سماحا ! فما الذى أنت به خير منه ! فردّ

(١) قضيف ، أى نحيف

عليه علقمة مارد عامر وانصرف وهو لايشك أنه ينفّر عامراً عليه . فأرسل هرِم إلى بنيه وبنى أخيه ، وقال لهم: إنى قائل غداً بينهما مقالة ، فإذا فرغت فليطرد بعضكم عشر جزائر فلينحرْها عن علقمة ، وليطردْ بعضُكم مثلها فلينحرْها عن عامر ، وفرّقوا بين الناس لا يكون بينهم جماعة . ثم أصبح هرِم فجلس مجلسه وأقبل عامر وعلقمة حتى جلسا ، فقال هرِم: إنكما يا بنى جعفر قد تحاكمتما إلىّ ؛ أنتما كركبتى البعير الآدم الفحْل تقعان على الأرض [معا] (١) ، وليس فيكما واحد إلا وفيه ماليس فى صاحبه، وكلا كما سيد كريم . ولم يفضّل واحدا منهما على صاحبه لئلا يجب بذلك شرّا بين الحيّين ، ونحرت الجزر وفرّقت على الناس .

وعاش هرِم حتى أدرك خلافة عمر رضى الله عنه ، فقال: ياهرم ، أىّ الرجلين كنت مفضلا لو فعلت ؟ فقال : لو قلت ذلك اليوم عادت جَزَعة ، ولبلغت شَعفات هَجَر ، فقال عمر : نعم مستودع السرّ أنت ياهرِم ، مثلك فليستودع العشيرة أسرارهم . والحكاية طويله ، وقال فيه الأعشى (٢):

حَكّمتموه فقضى بَينَكمُ أبلجُ مثلُ القمرِ الباهرِ
لايقبل الرّشوة فى حكمِه ولا يبالى غَيْرة الخامِرِ

قوله : فاء ، أى رجع أبلج : بيّن ظاهر . أتعب مَن سَيَلِى ، يقول : إن الأمير الذى يأتى بعده فى تعب لأنه يروم أن يفعل مثل مافعل فيعجز عنه ، وأعاد هذا المعنى منظوماً فى السابعة والثلاثين حين قال :

سماحُهُ أزرى بمن قبلَه وعَدْله أتعب مَنْ بعدَهُ (٣)

أخذه من قول رجل قال لأحد الأمراء وقد عزل عن عمله : أصبحتَ والله

(١) من الأغانى (٢) ديوان الأعشى ١٤١ . (٣) المقامات ٤١٤ .

فاضحاً متعبا ، أما فاضحاً فلكلّ وال قبلك بحسن سيرتك ، وأما متعبا فلكل وال بعدك أن يلحقك .

قرّظ : مدح . هزّ : حرك بالثناء عليه . بلى : جرّب : توّج صفاته ، أى زيّنها وشرفها . عُفاته : قصاده . بهجة : سرور ، وكنّى بخصبه عن ماله ودعا له بالبركة والكثرة إذ جعله ممتدّ الظل . برّ : مكرم . آنس : أبصر . شهبه : نيرانه الساطعة ، واحدها شهاب ، وأصل هائه التثقيل فخفّفت ، وكانت العرب توقد النيران فيقصدها الأضياف بالليل ، أراد أنه كثير الإكرام لمن يقصد ناره ، وأخذ اللفظ من قوله تعالى : ﴿ آنس من جانب الطُّورِ نارًا ﴾[1]

مزايا : فضائل . ظرفه : حسن هيئته وعذوبة لسانه ، وهو مصدر ظرُف يظرُف ظرفا فهو ظريف ، فمن قال : الظريف البليغ ، وقصَره على اللسان لم يَجُزْ له أن يقول : ما أظرف زيد ؟ على الاستفهام ، ومن جعل الظرف حسن الوجه والهيئة جاز له ذلك ، وكذلك مَنْ جعل الظرف عاما فيكون معناه : أىّ شىء فيه من الظرف ؟ أوجهه أم هيئته أم ذكاؤه وبلاغته ؟

بلُبس : اختلاط ، أراد أنه يخلط الهزل بالجد ، والمزاح وخفّة الطرب بالانقباض والحشمة ، وقد تقدّم فى صفة التنوخى مثل هذا . والمزايا : جمع مزيّة وهى التمام والكمال ، وأصلُها من الزىّ .

* * *

فَلْيَهْنِ سَيِّدَنَا فَوْزُه بِمَفَاخِرَ تَأَثَّلَتْ وَجلَّتْ ، وفَوْقَهُ بِصَنَائِعَ تَمَّتْ ونَمَّتْ ، وَيُلائِمُ قُرْبَ حَضْرتِهِ ، وَثْبُ رِقِّهِ بِحَظٍّ مِنْ حُظْوَتِهِ ؛ فإِنَّهُ تَلِيدُ نَدْب ، وشَرِيدُ جَدْب ، وجَرِيح

(١) سورة القصص ٢٩

نوَبٍ أثَّرَتْ ، وَنَاظِمُ قَلاَئدَ تَسَيَّرَتْ ، إذاجاشَ لُحطبةٍ فَلاَ يُوجَدُ قائل ، ثمّ قس ثَمَّ باقِل .

فإن حَبَّر قلتَ : حِبَرٌ نُمْنِمَتْ ، وخِلْتَ رياضاً قَدْ نَمَتْ ، هذا ثَمَّ شِرْبُهُ بَرْض ؛ وقوتُه قَرْض، وفَلَقُهُ غَسَقَ ، وجلبابه خَلَق . وقد قَلقَ لِتوغّرِ غريمٍ غاشم ، يَسْتَحِثّهُ بحقٍّ لازم ؛ فإنْ مَنَّ سَيِّدُنا بكَفِّهِ ، بهباتِ كفِّهِ ، توشَّحَ بِمجدٍ فاقَ ، وباء بأَجْرٍ فكّى مِنْ وَثاق.

لا خَلَتْ سجايا خُلُقِهِ ، تَرْفِدُ شائِمَ برقِهِ ، بِمَنّ رَبٍّ أَزَليّ ، حيّ أبَدِيّ

* * *

فوزه : ظفره . تأثلت : تقدمت واتصلت . جلّت : عظمت . فوْقُهُ : سبقه . صنائع : أفعال جميلة . نمت : اشتهرت . يلائم : يوافق . حضرته : موضعه الذى يحضر فيه ، والقرْب: جمع قرية،وهى مايتقرب به من أعمال البر إلى الله تعالى ومن الهدايا إلى الملوك . غَوْث : إغاثة وكشف ضرّ . رقّه : عبده . حظّ : نصيب . حظوته : مكانته ورفعته . تليد ندب ؛ تقول : ندبت القوم دعوتَهم ، يريد أنه عبدٌ للدعوة التى دعاه بها خصمه إلى الوالى ، والتّليد من العبيد : ماولد عند غيرك ثم اشتريتَه صغيراً ، فكبر عندك، وجعل نفسه عبداً للدعوة لمّا تعبّد بها، أو يريد بالتليد القديم ، فإن التليد والتالد المال القديم ، والنّدب : الهمّ ،من ندبت الميت ندبا ، فيريد أنه قديم همّ ، ورجل ندب ، أى خفيف فى قضاء الحوائج لأصحابه ، فيريد على هذا بتليد ندب ، أى خفيف ومنْ هذه صفته

فقد وجبت حرمته . وشريد جدب : طريد فقر وجوع ، والجدْب ضد الخصب . نوب: نوازل . أثّرت : أبقت به أثرا وأثرها أخذها ماله حتى عاد فقيراً ، فمن نظره رأى أثر النوائب عليه . ناظم قلائد : قائل قصائد . ورسائل تسيّرت : مشت فى الناس والبلاد ، جاش لخطبة : تحرك صدره للكلام بها ، يريد أنه إذا أراد قول خطبة ازدحم الكلام فى صدره وارتفع ، كما يجيش القِدْر ، أى يغلى ، ونقدّم هذا الكلام .

قسّ : فصيح العرب، ويأتى ذكره فى الأربعين . ثمّ ، معناه هنالك . باقل، تقدم ، يريد أن قسا علّى فصاحته لو حضر مع الموصوف لنظمٍ أو نثرلرجع فى عىّ باقل، والعادة إنما يذكر معه سحبان للزوم الرسالة وقال حبيب وذكر ثلاثة من أصحاب عبد الله بن طاهر :

أول :

حازوا خلائق قد تيقّنت العلا كلّ التيقّن أنهنّ نجومها[1]

ثان :

لو أن باقلاً المفهَّهَ ينبرِى فى مدحها سهلت عليه حُزومها

ثالث :

ولو أن سحبانا يسحب ذيله فى ذمها لم يدر كيف يذيمها[2]

حبّ : قال شعرا أورسالة ، وأصل حَبَر:وشّى وزين . حِبَر : ثياب موشاة . تُمنِمتْ : زينت ورقمت . نمّت: تحركت بالروائح العطرة .

وقال الصابى فى المهلّبى وكأنه يصف هذا الكلام :

وإن استنطق الأنامل جاءتْ ببيان كالجوهرِ المنضودِ[3]

فى سطور كأنّما نشرتُ يمـــناه منهـــا عصائبا مِنْ بُرودِ

فِقَرٌ لم يزل فقيرا إليهـــا كلُّ مبدى بلاغة ومعيـــدِ

(١) ديوان أبو تمام ٣١١ (٢) يذيمها : يذمها (٣) يتيمة الدهر ٢:٢٤٩

يَغْتدِى البارع المفيد لديْها ... لاحقا بالمقصّر المستفيد
ببيان شافٍ ولفظ مصيبٍ ... واختصارٍ كافٍ ومعنى سديدٍ

وله فى مثله أيضاً :

وكم من يدٍ بيضاء حازت جمالَها ... يدٌ لك لا تسودّ إلا من النَّقْسِ[1]
إذا رقّشت بيضَ الصحائف خِلْتَها ... تطرّز بالظلماء أردية الشمسِ

وقال السرىّ رحمه الله تعالى :

شغلتْك عن حسن الشآم مدائحٌ ... حسنت فما تنفك تطرب سامعاَ[2]
زهر إذا صافحن سمع معانٍ ... خَفَضَ الكلامَ وغضّ طرفا خاشعا
جاءتكَ مثلَ بدائع الوشْيِ الذى ... مازال فى صنعاء يتعب صانعا
أو كالربيع يريك أخضر يانعاً ... متورِّدا شرقاً وأصفر فاقعا

وله أيضاً فى مثله :

سأبعث الحمد موشيًّا سبائبهُ ... إلى الأمير صحيحاً غير مؤتشبِ[3]
إنّ المدائح لا تهدى لِناقدها ... إلا وألفاظها أصْفَى من الذهب
كم رُضْتَ بالفكر منها روضة أُنُفاً ... تفتّح الزهر فيها عن جَنى الأدب
لفظ يروح له الريحان مطّرحا ... إذا جعلناه ريحانا على النخب

قوله: شِرْبه ، أى حظه من الماء . بَرْض:قليل. قرض : سلف، والقرْض ماأخِذ ليعوَّض منه. وَفَلقه : ضوء صبحه . غَسَق : ظلام ، يريد أن حاله متغيرة. جلبابه : ثوبه . خلَق : بالٍ . توغّر : توقّد واشتدّ غضبه ، والتّوغّر : التوقد لشدّة الغيظ ، والوغْر شدة الحر . غاشم: ظالم جافّ . يستحثه : يستعجله . لازم:

(١) يتيمة الدهر ٢ : ٢٤٩ .
(٢) ديوان السرى ١٦١ .
(٣) ديوان السرى ٣٩ .

رفع المسهم

وأجب . منّ : أنعم وأحسن . بكفّه : بردّه عنى . هبات : عطايا . توشح : تحزم وتزين ، وتوشّح الرجل بثوبه : جعله موضع الوشاح وتحزم . فاق : فضل بهذا المجد كل أحد . باء : رجع . فكّ : إنقاذى . وثاق : شدّ وربط . سجايا : طبائع . ترفد : تصل وتعين ، والرّفد : المعونة : شائم برقه : راجى خيره ونازل أمره ، ونزّل البرق منزلة الجود لأنه يأتى بالمطر والمطر يشبّه به الجود : بمنّ : بإحسان وإنعام . أزلىّ : قديم . أبَدِىّ : باقٍ مع الأبد وهو الدهر .

وإذ قد فرغنا من شرح هذه الرسالة على صعوبتها ، فإنا نعتذر إلى مَنْ وقف على شرحنا لها من صعوبة هذا المقام ، فإن هذه الرسالة وأمثالها إنما يؤتى بها على جهة المُلَح والاقتدار ، لا على أنها من نفيس الكلام الفصيح ، ألا ترى الحريرىّ كيف اعتذر فى مثلها حيث قال : أجلّ الأبيات العرائس ، وإن لم يكنّ نفائس ؛ ولا شك أن الشارح لمثل هذه الرسالة يقارب تعب منشئها فى أنه يغوص على تلك الاستعارات البعيدة ، فيريد أن يبرز المعنى فى غاية البيان ، واللفظ فى أغلبها موضوع على غاية الإبهام ، فوقع التمانع ، فلا يصل إلى عبارة متوسطة تتعلق بالمعنى ، ولا تبعد من اللّفظ إلاّ بعد جهد ، فهذا عذرنا فى هذه الرسالة الرقطاء والقهقرية والخيفاء المتقدمتين ، وما علمت أحداً شرحها شرحَنا ولا بلغَ منها مبلغنا ، ولله منشئها من عالمٍ بارعٍ ! فما اتّفق له إنشاؤها إلا بعد التبحّر فى علوم اللغات حتى كأنّ أبا حفص بن برد يخاطبه بهذه الأبيات :

أبا العلاء استمعْ تعريضَ ذى مقةٍ ... أهدى لك الودّ محضاً غير مقطوبِ
أنت الذى لم نُعاشر مثلَه رجلاً ... فى العلم والظرف والآداب والطيبِ
تحصيل فضلك للحسّاد معجزة ... وكُنْهُ علمك شىء غير محسوبِ
أمّا اللغات فما يعقوب يبلغ ما ... وعيت منها ولا أشياخُ يعقوبِ

* * *

رفع المسهم

قَالَ : فَلَمَّا استشفَّ الأميرُ لآليها ، وَلَمَحَ السِّرّ المودَعَ فيها ، أوْعَزَ فى الحال بقضاء دَيْنِي ، وفصَلَ بين خَصْمِي وبيني . ثمّ اسْتَخْلَصَنى لِمُكاثَرَتِهِ ، واختصَّنى بأَثَرَتِهِ . فلبثت بِضْعَ سنين أنعم فى ضيافته ، وأَرتَعُ فى ريف رأفته ؛ حتَّى إذا غمرتنى مواهبُهُ ، وأطال ذيلى ذهبُهُ . تلطّفْتُ فِي الارْتِحَالِ ، عَلَى ماترى مِنْ حُسْنِ الحال .

قال : فقلت لَهُ شكْراً لِمَنْ أتاحَ لَكَ لُقيان السَّمْحِ الكريم ، وَأنقذَكَ مِنْ ضغْطةِ الغريم . فقال : الحمدُ لله عَلَى سَعَادَةِ الجدّ ، والخلوصِ مِن الخصْمِ الألدِّ . ثم قال : أَيُّمَا أحبُّ إليكَ ؟ أن أُحْذِيَكَ من العطاء ، أم أُتحفَكَ بالرسالَةِ الرَّقْطاء . فقلت : إملاءُ الرِّسالَة أحبُّ إِلَىّ . فقال : وهو وحقِّكَ أخفّ عَلَىّ . فإنّ نِحْلَةَ ما يَلِجُ فى الآذان ، أهْونُ مِنْ نِحْلَةِ ما يخرُجُ من الأرْدَان . ثمَّ كأنّهُ أنفَ واسْتَحْيا ، فجمعَ لِى بَيْنَ الرِّسالةِ والحُذْيا ، ففزتُ مِنْهُ بِسَهْمَيْن ، وفصلت عَنْه بِغُنْمَيْنِ ، وأَبْت إلى وَطَنِي قريرَ العين ، بما حزتُ من الرسالة والعين .

* * *

قوله : استشفّ ، نظر . لآليها : جواهر كلامها . لمح : رأى . المودَع : المضمّن المجعول ، وعنى بالسرّ ماذكر من النقط لحرف والترك لآخر . أوعز : تقدم . فصل : قطع . استخلصنى : ضمّنى وأنقذنى منه . لمكاثرته : لزيادة عدده ، يريد أن الأمير خلّصه من غريمه وضمه إليه ، وجعله فيمن حواليه فكثروا به . اختصنى بأثرته : أفردنى بعطيته ، وآثرنى بها على غيرى . لبثت : أقمت .

بضع سنين : قال أبو عبيدة رحمه الله : البِضع من واحد إلى أربعة ، وقال

الأخفش: من واحد إلى عشرة، وقال الفرّاء : مادون العشرة ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : البضع من الثلاثة إلى عشرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر لما نزلت ﴿فى بضع سنين﴾: البِضع مابين السبع والتسع، قال ابنُ سلاّم : فلما انقضت سبع سنين ظهرت الروم على فارس. وقال أبو محمد فى الدّرة: البِضع أكثر مايستعمل فيما بين الثلاث إلى العشر ، وأسرّ ذلك إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى تفسير قوله تعالى: ﴿وهُمْ مِنْ بعد غَلَبهم سيغلبون . فى بضع سنين﴾، وذلك أنّ المسلمين كانوا يحبون أن تظهر الروم على فارس ، لأنهم أهل الكتاب والمشركون يميلون إلى أهل فارس ، لأنهم أهل أوثان ، فلما بشّر الله المسلمين بأنّ الروم سيغلبون سُرّ المسلمون . ثم إن أبا بكر رضى الله عنه أخبر مشركى قريش بما نزل عليهم، فقال له أمية بن خلف: خاطِرْنى على ذلك ، نخاطره على خمس قلائص فى مدّة ثلاث سنين ، ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فسأله عن البِضع ، فقال : ما بين الثلاثة إلى العشرة ، فأخبره بخطاره مع ابن خلف ، فقال له : ما حملك على تقريب المدة ؟ قال : الثقة بالله ورسوله ، فقال له : عد إليهم فزدهم فى الخطر ، وازدد فى الأجل ، فزادهم قَلوصين وزادوه سنتين ، فظفرت الروم بفارس قبل انقضاء الأجل الثانى تصديقاً لتقدير أبى بكر رضى الله عنه . ويقال: البضع بغير هاء للمؤنث مثل خمس وبضعة للمذكر مثل خمسة .

أرتع : آكل وأتنعم ، والريف: الخِصْب ، والرأفة : الرفق. غمرتنى مواهبه: غطّتنى عطاياه ، وأرادبإطالة ذيله كثرة ماله حتى صار منه فضول ، وصار يجرّ ذيله تبختراً . تلطفت : تسلّلت برفق . أتاح : قدّر . لقيان : لقاء . الضُّغطة : التضييق ، وضغطه : ضيّق عليه . الجَدّ : الحظ والسعد . الألدّ : الشديد الخصومة . أحذيك : أعطيك . أتحفك : أهديك . وإملاء الرسالة : إلقاؤها عليه ليكتبها . نِحْلَة: عطية . يلِج: يدخل . الأردان: الأكمام . أنِف: كُبِر ذلك عليه واستنكفه . والحذيا : العطية فصلت: زلت . أبْتُ : رجعت : قرير العين: مسرورا بالفائدة . حزت : جمعت، وصار فى حوزى، أى فى ملكى . والعين : الذّهب الأحمر .

رفع المسهم

المقامة السابعة والعشرون وهي الوبرية

حكى الحارثُ بن هَمّامٍ، قالَ : مِلْتُ فى ريِّق زَمانْ الَّذِى غَبَر ، إلى مُجاوَرَةِ أهْلِ الْوَبَرِ ؛ لآخذَ أخْذَ نُفُوسِهم الأَبِيّة ، وألْسِنتِهم العربيَّة ، فشمّرتُ تَشميرَ مَنْ لاَ يألو جُهْدًا ، وجعلتُ أَضرِبُ فى الأرضِ غَوْرًا ونَجْدًا ؛ إلى أن اقْتَنَيْتُ هَجْمَةً من الرَّاغية وثَلَّةً من الثَّاغية ، ثمَّ أوَيْتُ إلى عَرَبٍ أردَافَ أَقيالٍ ، وأبناء أقوالٍ ، فأوطَنُونِى أمْنَعَ جَنابٍ ، وَفَلُّوا عنِّى حَدّ كُلِّ نَابٍ ، فما تَأَوّبنِى عندهم همّ ، ولا قَرَعَ صَفاتِى سَهْمٌ .

* * *

غبَر ، تقدم . أهل الوبر : أصحاب البوادى : الذين مالهُم الإبل ، وكَنَى بالوبر عنها . الأبيّة : العزيزة التى تأبى الذلّ . يألو جهدا : يقصّر فى الاجتهاد . أضرب : أمشى فى الأرض . وغوْرًا ونجْدًا : مرتفعاً ومنخفضاً . اقتنيت : اكتسبت لنفسى لا للبيع .

وشرح الحريرى ألفاظا فى المقامة فنقتصر فيها على شرحه إلاّ بقدر ما يزيد الكلام بياناً ، مثل قوله : آخذ أخذ نفوسهم ، أى أتخلّق بأخلاقهم وطباعهم ، ويقال : لو كنت مثلنا لأخذت بإخذنا ، بكسر الهمزة وفتحها ، أى بخلائقنا وشكلنا ، واستعمل فلان على الشأم وما أخذ أخذه ، أى وما والاه وكان حيّزه . وقوله : إرداف أقيال ؛ يفسّر القيْل بالملك وبردف الملك ، وقيل : القيْل بالمشرق كالقائد

بالأندلس والرِّدافة فى الجاهلية كالوزارة فى الإسلام ، والرِّدافة : بأن يرتدف مع الملك على مركوبه ، وأن يستخلفه فى موضعه متى غزا . أويت : رجعت واتخذته مأوى . أوطنونى : أنزلونى . جناب : جانب . فَلّوا : كسروا . ناب : ضرس . تأوَّبنى : أتانى ليلا ولا قرع صفاتى سهم ، أى لم ينلنى ضرّ .

* * *

إلى أَن أَضْلَلْتُ فى لَيْلَةٍ مُنيرَةِ الْبَدْر ، لِقْحَةً غَزِيرَةَ الدَّرّ ؛ فَلَمْ أَطِبْ نَفساً بإلغاء طَلَبِهَا ، وإلْقَـــــاء حَبْلِهَا عَلَى غارِبِهَا ؛ فتدثّرْتُ فَرَسًا مِحْضَارًا ، واعْتَقَلْتُ لَدْنًا خَطَّارًا ، وَسَرَيْتُ لَيْلَتِي جَمْعَاء ، أَجُوبُ البَيْدَاء ، وأقترى كُلَّ شجراءَ ومَرْدَاء ، إِلَى أَن نَشَرَ الصُّبْحُ راياتِه ، وحَيْعَلَ الدَّاعى إِلى صَلاته ، فنزلْتُ عَنْ مَتْنِ الرَّكوبة ، لأداءِ المكتوبة . ثم حُلْتُ فى صَهْوَتِها ، وفررتُ عَنْ شَحْوَتِها ، وسِرْتُ لا أَرَى أَثراً إلاَّ قَفَوْتُهُ ، وَلاَ نشزًا إلاَّ عَلَوْتُهُ ، ولاَ وادِياً إلاَّ جَزَعتُهُ ، ولا راكباً إلاَّ اسْتَطْلَعْتُهُ ، وجِدِّى مع ذلك يذهَبُ هَدَرًا ، وَلاَ يجدُ وِرْدُه صدَرًا ، إِلَى أَن حَانَتْ صَكَّةُ عُمَىّ ، ولَفْحُ هَجِيرٍ يُذْهِلُ غَيْلاَنَ عَنْ مىّ .

. . .

أضللت : أتلفت ، وضلّت الناقة وأضلّها ربُّها . منيرة : مضيئة . اللِّقحة : الناقة لها لبن . غزيرة الدّرّ : كثيرة اللبن . إلغاء : ترك . غاربها : أعلى سنامها . اللدن : الرمح اللين . الخطّار : الطويل المضطرب . واعتقلت الرمح : جعلته مابين مرجك ورجلك . أجوب البيداء : أقطع القفر . وفسر « حيعل » بأنّه قول المؤذن : حىّ على الصلاة حىّ على الفلاح ، وشاهده :

ألا ربّ طيف بات منكِ معانِقي إلى أن دعا داعي الصلاة فحيّلا

وقال آخر :

أقول لها ودمع العين جارٍ ألم تحزنْك حيعلةُ المنادى

ومعنى حيّ ، هلمّ وأقبلْ ، والفلاح : الفوز، وأفلح الرجل، إذا فاز وأصاب خيرا، والمفلحون: الفائزون، وقيل: الفلاح البقاء، أى أقبلوا على بيت البقاء فى الجنة. والمفلحون: الباقون. والصلاة: المعلومة ، والصلاة: الرحمة كقوله تعالى : ﴿أولئك عَلَيهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾، وكقوله عليه الصلاة والسلام : «اللهمّ صل على آل أبى أوفى » ، والصلاة بمعنى الدعاء كالصلاة على الميت ، وكقوله صلى الله عليه وسلم : «إذا دُعِىَ أحدكم إلى طعام فليجِبْ فإن كان مفطرا فليأكُلْ وَمَنْ كان صائما فليصلْ» . أداء : قضاء . حُلْت فى صهوتها : ركبت ظَهرها ووثبت عليها . فررت : كشفت . قفوته : اتّبعته . نشَزا : مرتفعا . اسطعتة : استخترته وسألته . جِدّى : عزمى واجتهادى . هدراً : باطلا . وردُه صَدَراً ، أى سؤاله خبرًا، والورد إتيان الماء، والصدر: الرجوع عنه . لَفْح : تحرّك . هجير : حرّ . يذهل : يشغل .

[أخبار ذى الرمة مع مىّ]

غيلان اسم ذى الرُّمة ، وهو غَيْلان بن عُقْبة بن بيهس بن مسعود بن حارثة ، عداده فى الرِّباب ، والرباب: عدىّ بن عبد مناة وتيم بن عبد مناة وعُكْل ، وهو عوف بن عبد مناة ، وثور بن عبد مناة ، وضبة بن أدّ وهو عمهم، وأد بن طابخة ابن الياس بنُ مضَر ، وسمى ذا الرُّمة ، لقوله يصفُ وتِدًا :

وغير مرضوخ القفا موتود أشعثَ باقى رُمّةِ التقليد[1]

نعم فأنت اليوم كالعمودِ[2] من الهوى أو شبه المورودِ

(١) ديوانه ٥٠١ . مرضوخ القفا : مدقوق ، يعنى الوتد . والرمة : القطعة من الحبل .

(٢) الديوان : « كا لعمود » ، قال فى شرحه : العمود ما انضمت عليه الضلوع .

بمىّ ذات المبسم المبرودِ [1] والمقلتين وبياض الجيدِ

وقيل: سُمّى به لأنه خشى عليه من المسّ، فأتى به رجل من الحىّ فكتب له معاذة علّقت فى عنقه، وشُدّت بحبل. وقيل: سمته بذلك خرقاء التى يذكرها فى شعره، وذلك أنه رآها وهى فى جَوارٍ على سنّها فأعجبته وأدام الالتفات إليها، ثم قال لها: يا جارية اُخرزى لى هذه القربة. فعلمت مراده، فقالت له: إنى خرقاء، فولّى وفى يده قطعة حبل بالٍ فنادته: ياذا الرّمة إن كنتُ خرقاء، فجاريتى صناع، فاذهب إليها، فمضى عليه ذو الرمة، وسمّاها فى شعره خرقاء، فمضت عليها [2].

وهى مىّ بنت عاصم بن طلبة بن قيس بن عاصم، وتُكْنى أم ثور، وغلبت عليه حتى عرف بها، فقيل غيلان مىّ كما قيل كثيّر عزة.

وأول أمره مع مىّ - فيما حكى الأصبهانى عن أمة لأمّ مىّ - قالت [3]: كنا نازلين بأسافل الدّهناء ورهط ذى الرُّمة مجاورون لنا، فجلست مية تغسل ثيابا لها ولأمها، فى بيت رثّ فيه خروق، وهى فتاة أحسن مَنْ رأيته حين بدا ثدياها، فلما فرغت لبست ثيابها وجلست عند أمها، وأقبل ذو الرُّمة يُنشد ضالة، فدخل وجلس ساعة ثم خرج، فقالت مية: إنى لأرى أنّ هذا العذرىّ قد رآنى منكشفةً واطّلع علىّ من حيث لا أشعر، فإنّ بنى عذرة أخبث قوم فى الأرض - فاذهبى

(١) فى الديوان: «يامى ذات المبسم»

(٢) الخبر فى الأغانى: «.. وكان اجتاز بخبائها وهى جالسة جنب أمها فاستسقاها ماء، فقالت لها أمها: قومى فاسقيه. وقيل بل خرق إداته لما رآها وقال لها اخرزى لى هذه، فقالت: والله ما أحسن ذلك فإنى لخرقاء — قال: والخرقاء التى لا تعمل بيدها شيئا لكرامتها على قومها - فقال لأمها: مريها أن تسقينى ماء، فقالت لها: قومى ياخرقاء، فاسقيه ماء، فقامت فأتته بماء، وكانت على كتفه رمة، وهى قطعة من حبل، فقالت: اشرب ياذا الرمه.. فلقب بذلك. الأغانى ١٨: ١

(٣) الأغانى ١٨: ١

فقصّى أثره ، فقالت :قصصتُ أثره فوجدته قد تردَّد أكثر من ثلاثين مرة، كل ذلك يدنو فيطلّع عليها،ثم يرجع على عقبه ثم يعود.فأخبرتها بذلك ، ثم لم ينشب أن جاءنا شعره فيها من كلّ وجه ومكان .

وحدّث أيضا بسنده عن عُمارة بن ثقيف.[1] أنّ ذا الرُّمة حدَّثه أن أوّل أمره معها أنه خرج مع أخيه وابن عمِّه فى بغاء إبل لهم ، فوردوا على ماء ، وقد جهدهم العطش . قال : فأتيت خباء عظيما أستسقى لهما ماء ؛ فإذا عجوز جالسة فى رواقه ، فالتفتت وراءها وقالت : يامىّ ، اسق الغلام ، فدخلت عليها وهى تنسج شُقّة ، فقالت لى : لقد كلّفك أهلك السفر ، على ما أرى من حَداثة سنك ، ثم قامت تصبّ فى ركوتى ماء وعليها شوذب[2]، فلما انحطّت على القربة رأيت مرأى لم أر أحسَن منه ، فلهوت بالنظر إليها ، وهى تصبّ الماء فيذهب يمينا وشمالا.فقالت العجوز: يابنىّ ألهتك مىّ عما بعثك له أهلك،أما ترى الماء يذهب يمينا وشمالا ؟ قلت : أما والله ليطولنّ هُيامى بها، ثم أتيت بالماء أخى وابن عمى فلففت رأسى ، وانتبذت ناحية وقلت :

قد سَخِرتْ أخت بنى لبيدِ منّى ومن سَلْم ومن وَليدِ
رأت غلامىْ سفرٍ بعيد يدِّرعان اللّيل ذا السدود
* مثل ادّراع اليلمق الحديد *[3]

وهى أول قصيدة[4] قلت: ثم مكثتُ أهيم بها فى ديارها عشرين سنة .
وأما ابن[5] قتيبة فقال : مكثت مىٌّ تسمع شعر ذى الرُّمة ولا تراه ،

(١) الأغانى ١٨ :١٨ (٢) الشوذب : الثوب المطويل (٣) اليلمق : القباء
(٤) ديوانه ١٥٥ ـ ١٦٣ ،ومطلعها:
هل تعرف المنزلَ بالوحيدِ قفرًا محاه أبدُ الأبيدِ
(٥) الشعر والشعراء ٥٠٩

رفع المسهم

فجعلت لله أن تنحر بَدنَه يوم تراه ـ وكانت من أجمل الناس ـ فلما رأته دميما أسود صاحت : واسوءتاه ! واضيعة بدنتاه ! فقال :

على وجه مىّ مَسْحةٌ من مَلاَحَةٍ وتحت الثياب الشَّينُ لو كان باديا

فكشفت عن جسدها ، وقالت : أشيمًا ترى لا أمّ لك ! فقال :

ألم تر أن الماء يخبث طعمه وإن كان لون الماء أبيضَ صافيا

فقالت له : قد رأيتَ ما تحت الثياب ، فلم يبق إلاّ أن أقول لك : هَلُمّ فَذُقْ ما وراءه ، فوالله لاذقت ذلك أبدا[1] . ثم صلح الأمر بينهما ، فعادا لما كانا من حبّهما .

وهو شاعر مجيد مكثر وصّاف للأطلال والديار والصبر على قطع القفار .

أبو الفرج[2] : كان سليمان بن أبى شيخ ، رواية لشعر ذى الرُّمة ، فأنشد يوما قصيدة له وإعرابىّ من بنى عدىّ بسمعه فقال : أشهد أنك فقيه تحسن ما تلوته ، وكان يحسبه قرآنا .

وكان أهل البادية يعجبهم شعره ، وكان جرير والفرزدق يحسدانه .

وقال حماد الراوية : ما أخّرّ القوم ذكره إلا لحداثة سنه ، وأنهم حسدوه .

وقال أبو المطرّف : لم يكن أحد منهم فى زمانه أبلغ منه ، ولا أحسن جوابا ، وكان كلامه أحسن من شعره .

وقال مولى لبنى هاشم : رأيته بسوق المِرْبد وقد عارضه رجل فقال : يا أعرابىّ ـ يهزأ به ـ أتشهد بما لم تر ؟ قال : نعم ، قال : بماذا ، قال : أن أباك زناك أمك .

---

(١) فى خبر الأغانى ١٨ : ٢٨ فقال :

فياضيعة الشّعر الذى لجّ فانقضى بمىّ ولمْ أمْلِك ضلال فؤاديا

(٢) الأغانى ١٨ : ٧ .

الأصمعيّ ما أعلم أحداً من العشاق شكا أحسن من شكوى ذى الرُّمة، مع عفّة وعقل .

أبو عبيدة: يخبر ذو الرُّمة فيحسن الخبر، ثم يردّ على نفسه فيحسن الرّد، ثم يعتذر فيحسن التخلّص، مع حسن إنصاف فى الحكم وعفاف .

وقال ذو الرّمة: من[1] شعرى ماساعدنى فيه القول، ومنه ماأجهدت نفسى فيه . ومنه ما جننت فيه جنوناً، فأما الذى طاوعنى فيه القول فقولى :

خليليّ عوجا فى صُدور الرواحلِ ... بجمهور حُزْوى فابْكيا فى المنازل[2]

لعلّ انحدار الدمع يعقب راحة ... من الوجد أو يشفى نجىّ البلابل

وأما ما أجهدت نفسى فيه فقولى :

أأن توسَّمت من خرقاء منزلةً ... ماء الصبابة من عينيك مسجومُ[3]

كأنها بعد أحوالٍ مَضَيْنَ لَهَا ... بالأشيمَيْن يمانٍ فيه تسهيمُ

وأما الذى جننت فيه جنونا فقولى :

مابال عينك منها الماء يَنْسَكِبُ ... كأنه من كُلَى مفرّيةٍ سَرِبُ[4]

براقة الجيد واللبّات واضحةٌ ... كأنها ظبية أفضَى بها لببُ[5]

زَيْنُ الثياب وإن أثوابها اسْتُلِبَتْ ... فوق الحشية يوما زانها السلبُ

إذا أخُو لذة الدنيا تبطّنَها ... والبيتُ فوقهما بالستر محتجبُ

ساقت بطيّبة العِرْنين مارنُها ... بالمسك والعنبر الهندىّ مختضب

لمياء فى شفتيْها حُوّة لَعَسٌ ... وفى اللّثات وفى أنيابها شَنَبُ

كحلاء فى بَرَجٍ، بيضاء فى دَعَجٍ ... كأنها فضة قد زانها ذهبُ

وهذه القصيدة من المطولاَت التى نيّفتْ على المائة وربعها، وتصرّف فيها

---

(١) الأغانى ٨-١ : ٢٢ (٢) ديوانه ٤٩١ . والجمهور : العظيم من الرمل

(٣) ديوانه ٥٦٧ والأشيمان جبلان من جبال الرمل .

(٤) ديوانه ١ (٥) اللبب: منقطع الرمل .

ماشاء من أوصاف الأطلال والديار والثور والحمار والكلاب والظبي وغير ذلك، وفي خلال ذلك يأتي بتشبيهات بديعات . وهو أشعر الشعراء الإسلاميين في التشبيه ، وكان يقول : إذا قلت « كأنّ » فلم أجد مخرجا فقطع الله لساني .

واحتذى في ذلك حذوه من المولدين ابنُ المعتز ، وقصده الحريري في هذا الموضع لمعنيين : أحدهما لأنه كان صادقاً في حبّ مية فكان لا يشغله عنها شيء ، لامثل كثير عزة وغيره ممن لا يصدُق في حبه ، والثاني أنه يكثر في شعره صبره على قطع الهواجر لمية مثل قوله :

وهاجرةٍ من دون مَيّة لم تقلْ قَلوصي بها والجندب الجونُ يَرْمَحُ (١)
إذا جعل الحرباء مما أصابه من الحرّ يلوي رأسه ويُرَنِّحُ
لئن كانتِ الدنيا عليّ كما أرى تباريح من مَيّ فَلَلْمَوتُ أروحُ
ولما شكوت الحب كيما تثيبني بودّي قالت إنما أنت تمزحُ

فذكر الحريري أن هذه الهاجرة شغلته عن ذكر مَيّ حتى طلب ظلاً يلوذ به

* * *

وكان يومًا أطول من ظِلّ القناة ، وأحرّ من دمْـــعِ المُقلاتِ فأيقنتُ أني إنْ لَمْ أستكنّ من الوقْدَة ، وأستحمّ بالرَّقدة ، وأدْنَفني اللغوب ، وعَلِقَتْ بي شَعُوب . قعجتُ إلى سَرْحةٍ كثيفة الأغصان ، وَريقةِ الأفنان ، لأغوِّر تَحْتَهَا إلى المَغْيربان ؛ فَوَاللهِ ما استَرْوحَ نفسي ، ولا استراحَ نَفَسي ؛ حتّى نظرتُ إلى سَانِحٍ ، في هيئة سَائح ؛ وهُوَ يَنتَجِعُ نُجْعتي ، ويشتَدُّ إلى بُقْعتي ، فكرِهْتُ انعياجَهُ إلى مَعَاجي ؛ فاستعذتُ باللهِ مِنْ شَرِّ كلِّ مُفاجي . ثمَّ

(١) ديوانه ٨٦ . لم تقل ، من القيلولة والقلوص : الناقة الفتية . والجون : الأبيض أو الأسود ، من الأضداد . يرمح : يضرب الأرض برجله من شدة الحر .

ترجّيْتُ أَن يتصَدَّى منشدًا ، أو يتبدّى مُرْشداً . فلمَّا اقتربَ من سَرْحتِي ، وكادَ يُحلُّ بساحتِي ، ألفيتُه شيخنا السّرُوجيّ ، مُتّشِحًا بجرابِهِ ، ومضطغنًا أُهْبَةَ تَجوابه ، فآنسني إذْوَرَد ، وأَنْسَانِي ماشرَدَ ، ثمَّ استوضحتُه مِنْ أين أثرُه ، وَكَيْفَ عُجرُهُ وبُجرُه .

* * *

أستكنّ : أستتر وأطلب كِنًّا . الوقدة : شدة الحرّ . أستجمّ : أستريح فأتقوّى . أدنفنى : أمرضنى . اللّغوب : التعب .

وذكر طول اليوم وأنشد عليه فى الشرح : « ويوم كظل الرمح... » ، وذكر أنَّ اليوم القصير يوصف بإبهام القطاة ، ولم ينشده عليه شيئاً . وقال جرير :

ويومٍ كإبهام القطاة محبّبٍ إلىّ صِبــاه غالبٍ لِيَ باطُلُه[1]
رزقنا به الصَّيْد الغزير فلم يكنْ كمن نبلُه محرومةٌ وحبالُه
وذلك يَوْمٌ خيرُه قبل شرّه تغيّب واشِيه وأقصر عاذِلُه

قال الأصمعىّ : قال لى خلف الأحمر : ويحه فما ينفعه حين يئولُ إلى الشرّ! قلت : فكيف يجب أن يقول ؟ قال : خيره دون شره ، قلت : والله لا أرويه بعدها إلا هكذا .

عُجْتُ : ملت . مَرْحة : شجرة . كثيفة : ملتفة الأغصان . وريقة : كثيرة الورق . والأفنان : الأغصان ، أو ما تفرّع منها . وما أحسن ما نظم فى الفرار من الحرّ الى الظل المنازى كاتب مروان صاحب ميا فارقين حين قال :

وَقَانَا وْقدةَ الرَّمْضَاء روضٌ سقاه مضاعف الطّل[3] العميمِ

(١) ديوانه : ٤٧٩ ، مع اختلاف فى الرواية . (٢) نفح الطيب ٤ : ٢٨٨ .
(٣) نفح الطيب : الغيث .

رفع المسهم

قصـــدنا دَوْحَهُ فحنا علينا حُنُوَّ الوالداتِ على الفطيمِ
يراعى الشمس أنَّى قابلَتْنا فيحجبها ويأذنُ للنسيمِ

وهذا ما يتعلق بالغرض ، وزاد فيه معنى بديعا بقوله :

ويسقينا على ظمإٍ زلالاً ألذَّ من المدام مع الكريمِ (٢)
يَرُوع حصاه حالية الغواني فتلمس جانب العقد النظيمِ

تأمّل هذه الصفة تجدها غاية فى بابها ، وتخيّلْ هذه الجارية كيف نظرت بياض الحصَى فى الماء ، فارتاعت وحسبت عقدها تناثر ، فالتمسته بيدها .

وقال السّرى فأحسن :

أدِرْها فقد أَلوم إحدى الغنائِم ولا تخش إثماً لستَ فيها بآثمِ (١)
ولا عيش إلا فى اعتصامٍ بقهوة يَرُوح الفتى منها خضيبَ المعاصِم
ولا ظل إلا ظلّ كَرْم معرّشٍ تغنّيك من قُطْرَيْه وُرْقُ الحمائمِ
سماء غصونٍ تحجب الشمس أن ترى على الأرض إلاَّ مثل نثرِ الدَّرَاهِم

وقال ابنُ لُبّال فى متنزَّهٍ بشَريش يسمى أجّانة :

أيا حبذا إجانة كيفما اغتدتْ زمان ربيع أو زمان عصيرِ (٢)
مذانب ماء كاللّجين على حصًى كدرّ بلا ثقب أغرّ نثيرِ
ورمل إذا ما ابتلّ بالماء عِطفُه غنينا به عن عنـــبر وذَرور
وتين كما قامت على حَلَماتها نهودُ عذارى الزنج فوق صدورِ
كأن القباب الخزّ فيها عرائسٌ على سُرُرٍ مفروشة بحريرِ

وله أيضاً عفا الله تعالى عنه :

كأنّ جنَى القوطىّ فى رونَق الضُّحَى وقد حملته راحة الورّقاتِ

---

(١) ديوانه ٢٤٢ ، ٢٤٣ (٢) النفح : من المدامة القديم .

رفع المسهم

نهود عذارى زُحزحت عن مقرّها فقامت على الأطراف والحلمات

قوله : استروح نفسى ، أى استنشقت الريح فتنفّست فيه من التعب ، أى ما سكنتْ عنّى أنفاس التعب ، واستروحت الشىء ، وجدتَ ريحه . سائح : عابر يسيح فى الأرض ، أى يمشى فى جهاتها ، ويقال للمكدى : سائح ، لأنه يسيح فى طلب الكدية . ينتجع نجعتى ، أى يقصد قصدى فى طلب الراحة . والانتجاع : طلب المرعَى . يشتدّ : يجرى . بُقعتى : موضعى . انعياجه : انعطافه . معاجى : مكانى الذى عجت إليه . مفاجى : آتٍ على غفلة . يتصدّى : يتعرّض . منشدا : دالاً على الشىء . تقول : نشدت الضالة : طلبتَها ، وأنشدتها : دللت عليها طالبها . مرشدا : هادياً للطريق . ساحتى : موضعى الذى أنا فيه . ألفيته : وجدته . متشحّا بجرابه ، أى جعل جرابه موضع الوشاح . أهبة تجوابه ، أى عدة جَوَلانه . ورد : وصل . ما شرد : ما نفر ، يعنى الضالّة . استوضحته : سألته أن يوضّح لى أمره .

* * *

فأنشد بديهاً ، ولم يَقُلْ إيهاً :

قُلْ لِمُسْتَطْلِعٍ دَخِيلةَ أَمْرِى لَكَ عِنْدِى كرامَةٌ وَعَزَازَهْ

أنا ما بين جوبِ أرضٍ فأَرْضٍ

وَسُرَّى فِى مفـــازةٍ فَمَفَازَهْ

زادِىَ الصَّيدُ والمطيةَ نَعْلِى وَجهازى الجرابُ والعُكَّازَهْ

فإذا ماهبطتُ مصراً فَبَيْتِى غُرْفَةُ الخانِ والنَّدِيمُ جُزَازَهْ

لَيْسَ لي ما أساءَ إن فاتَ أو أحز

نُ إن حاوَلَ الزَّمانُ ابْتِزَازَهْ

غير أنى أبيتُ خِلْوًا مِن الهَمِّ ونَفسِى عن الأَسَى مُنْحازَهْ
أرقدُ اللَّيْلَ ملءَ جفنى وقلبى باردٌ من حَرارَة وَحَزازَهْ
لا أبالى من أىّ كأسٍ تفوّقـــتَ ولا ماَ حلاوَةٌ من مَرَازَهْ
لا ولا أستجيزُ أنْ أجعل الذلّ مجازاً إلى تَسَنِّى إجازهْ
وإذَا مَطْلَبٌ كسَا حُلّةَ العا رِ فبُعدًا لِمَنْ يَرُومُ نَجَازَه
وَمَتَى اهتزّ للدناءة نِكسٌ عَافَ طبعى طباعَهُ وَاهْتَزَازَهْ
فالمنايا ولا الدنايا وخيرٌ
مِنْ ركوبِ الخَنَا ركوبُ الجِنَازَهْ

* * *

بديهاً : مرتجلا من غير فكرة . المستطلع : الذى يحب أن يطّلع على الأمر دخيلة أمرى : باطنه . عزازة : عزة ورفعة . جوب : قَطْع . سرى : مشى الليل . مفازة ، قال الأصمعى : هىَ المهلكة سميت بذلك تفاؤلا لسالكها بالفوز ، كما سُمِّىَ اللديغ سليما تفاؤلاً بالسلامة ، قال ابن الأعرابى : هى مأخوذة من فوّز الرجل ، إذا هلك ، والعرب تسمى النعل مطيّة مجازاً حيث يستعان بها على قطع المفازة . وأنشد أبو علىّ الفارسى رحمه الله :

رَوَاحِلُنا ستٌّ ونحن ثلاثة نجنّبهنّ الماء فى كلّ مَشْرَبِ[1]

وقال أبو نواس :

إليك أبا العباس ياخيرَ مَنْ مشى عليها امتطينا الحضرمىّ الملسَّنَا[2]
قلائصَ لم تعرف حنيناً إلَى طَلاً ولم تدرِ ماقرع الفنيق ولا الهِنَا[3]

(١) شرح العكبرى ١ : ٣٠٣ من غير نسبة . وفيه : « من غير منهل » .
(٢) ديوانه ٧٦ ، شرح العكبرى ١ : ٣٠١ . (٣) الهنا : القطران .

رفع المسهم

وأخذه أبو الطيب فقال :

لا ناقتى تقبل الرديف ولاَ بالسَّوْط يوم الرّهان أجْهِدُها[1]
شِراكها كُورها ومِشْفَرُها زمامُهـا والشّسُوع مِقْوَدُها
أشـدّ عصف الرياح يسبقه تحتِىَ من خَطْوِها تأيُّدُها

وكان السَّروجىّ أكثرَ عدّة من أبى الشمقمق[2] فى قوله :

كلّمَا كنتُ فى جموع فقالوا قرّبوا للرّحيل قرّبْتُ نعلى[3]
أترى أننّى من الدهر يوماً لى فيه مطية غـير رِجْلِى
حَيثما كنتُ لا أخلف رَحْلاً مَنْ رآنى فقد رآنى ورحلى

ومن أبيات المعانى فى نعل :

وسوداء المناسب يمتطيهـا أخو الحاجات ليس له نَكيرُ
فيحملُها وتحمـله وفيهـا منافع حيث يبتدر السَّفيرُ
على أن السّفار ينال منها فيرقعها إذا جَدّ المسيرُ

السفير : ورق الشجر ، والمِسْفَرة المكنسة . والجهاز : مايحتاج إليه المسافر من العِدّة . والعُكّازة : العصا . مصرا : بلدا . الخان : الفندق . والنّديم : الصاحب على الشّراب، وجُزازة، قيل : إنه خليعٌ مشهور عندهم ، وهذا لايبعد . وأخبرنى الأستاذ أبو ذرّ وغيره أنها القراطيس الصغار، يكتب للناس فيها صفة حاله فيستجديهم بها ، فيريد أن نديمه إذا دخل بلدة قطع من قرطاس يجزّها ورقةً كبيرة، يكتب فيها بما يجلب ممّا يُؤكل ويشرب، والجزازة: مايسقط من الشيء تجزّه، كالقصاصة ما يسقط مما يُقصّ ، والنُّحاتة والقُلاَمة وغير ذلك ، فلما كانت القطعة الصغيرة تسقط من الورقة سمّوْها جُزازة ، ثم اشتهر عندهم ماصغر

(١) ديوانه ١ : ٣٠١ (٢) اسمه مروان بن محمد.
(٣) كتاب « شعراء ماسيون ٣٥ ، والعقد ٣ : ٤٤ / ٤ : ٢٥٥ .

من القراطيس بهذا الاسم . قال الفنجديهيّ : جزازة ، أى قطعة كاغد عليها شىء مكتوب ، والجزازة : ما يقطع من الشىء . قال : وأنشد بعضهم :

وقالُوا كيف حالُك قلتُ حالِي تُقضى حاجتى وتفوت حاجِي
نديمى هرَّتى وسميرُ أنسى دفاتيرى ومعشوقِي سراجى

أساء : أصاب فيه بسوء ، وأحزن عليه . حاول : طلب . ابتزازه : تجريده وإزالته . خِلْو : فارغ البال الأسى : الحزن . منحازة : متنحية ومنعزلة ومنقبضة . وانحاز : انعزل . ملء جفنى : أى أرقد هنيئاً لقلة همى ، فتمتلىء عينى بالنوم ، وهو من قول المتنبى :

* أنام مِلْء جُفونى عن شوارِدِها[1] *

والحزَازة فى القلب : تأثير الهمّ كأنه يحزّ فيه ، أى يقطع . وقال الشاعر :

إذا كان أولاد الرجال حزازةً فأنْتَ الحلالُ الحلو والبارد العذبُ

والحزازة هنا : الولد السوء ، ولا شىء أنكى للقلب من همّه ، والحزازة أيضاً الحِقْد والغيظ ، وفى قلبى منه حزازة ، أى حرقه وحزن . تفوّقت ، أى شربت فُواقها ، وهو أخذه مافيها شيئاً فشيئاً ، ومابين عَبّة وعَبّة فواق ؛ وأصله مابين حَلْبة من الضّرع وحلْبة . مزازة : بين الحموضة والحلاوة . مجازاً : طريقا يجاز عليه . تسنّى : تيسر . إجازة : عطية وصلة . يروم : يطلب . نجازه : قضاءه وتمامه ، ولبعضهم فى هذا المعنى :

أشدُّ من عَيْلَةٍ وجُوع إغضاء حرّ على الخضوعِ
فقنع من الدّهر قوتَ يوم وأنت بالمنزلِ الرفيعِ
ولاَ ترد ثروة بمالٍ يُنالُ بالذلِّ والخشوع

(١) ديوانه ٣ : ٣٦٧ ، وبقيته .

* ويَسْهَرُ القَوْم جَرّاها ويختصِمُ *

وارْحَلْ إذا أجدبْت بلاد منها إلى الخِصْب والربيع

الدناءة : الفعل القبيح. نِكس: دنىء . عَاف : كَرِه. اهتزازه: طربه وخفته . ولبعضهم فى هذا المعنى :

ويجتنب اللبيبُ ورود ماء إذا كان الكلابُ يَلغْنَ فيهِ
كما سقط الذباب على طعامٍ فتتركه ونفسُك تشتهيه

وقال أبو محمد المصرىّ يخاطب المعتمد وقد فرّ منه :

رحلتُ وفى القلب جَمْرُ الغَضَى وهجرِى لكمْ دُون شكٍّ صوابُ
كما تهجرُ النفسُ حُرَّ الطعام إذا ما تساقط فيه الذبابُ

المنايا ولا الدنايا ، أى إتيان المنية ولا فعل الدنية ، قال أوس بن حارثة : مَلَك المنيّة ولا الدنية ، فى وصية طويلة ، والمنية معناها المقدورة المحكوم بها ، وهى مفعولة من المُنَى وهو المقدَّر والقدَر ، يقال : مَنّاك الله بما يسرّك ، وأصلها ممنووة فصُرفت مفعولة فعيلة ، كمطبوخ وطبيخ ، وأدغمت الياء فى الياء . الخنا : الفساد . الجنازة : النعش .

* * *

ثُمَّ رَفَعَ إِلىَّ طَرْفَهُ ، وَقَالَ : لأمرٍ مَاجَدَعَ قَصِيرٌ أنْفَهُ ، فأخبرتُهُ خبَر ناقتى السَّارِحَة ، وما عانيتُهُ فى يَومِي وَالْبَارِحَه ، فقال : دَعْ الالتفات ، إلى مافات ، والطِّمَاحَ إلي ماطَاحَ ، وَلاَ تَأسَ عَلَى ما ذَهَبَ ، ولو أنَّهُ وادٍ مِنْ ذَهبٍ ، وَلاَ تَسْتَمِلْ مَنْ مَالَ عن ريحك ، وأضْرَم نَارَ تبَارِيحكَ ، ولو كانَ ابْنَ بُوحِكَ ، أَو شقِيقَ رُوحِكَ ، ثُمّ قَالَ : هَلْ لَكَ فِى أن تَقيلَ ، وتتَحَامَى القالَ والقيل ؟ فإنّ

الأبْدَان أنضاءُ تَعب ، والهاجرةَ ذاتُ لَهَبٍ ، ولَنْ يَصْقُلَ الْخاطِرَ ، ويَنَشِّطَ الْفَاتِرَ ، كَقَائِلَةِ الْهَوَاجِر ، وخصوصاً فى شَهْرَىْ ناجِر ، فقلْتُ : ذاكَ إليكَ ، وما أريدُ أَنْ أشُقَّ عليك ، فافترشَ التُّرْبَ واضطجَعَ ، وأظْهَرَ أن قَدْ هَجع ، وارتَفَقْتُ عَلَى أنْ أحْرُس ، ولا أنعَس ، فأخذتْنى السِّنة ؛ إذْ زُمَّتِ الألْسِنة ، فَلَمْ أُفِقْ إلاَّ واللَّيْلُ قَدْ تولّج ، والصُّبْحُ قَدْ تبلّجَ ، ولا السَّرُوجىُّ ولا المُسرِج .

* * *

قوله: «لأمرٍ مّا جَدَع قصيرأنفه» أى ماجدع قصيرأنفه إلالمعنى ، وكذلك أنت ماخرجت فى هذا الوقت لشدّة حرّه إلى هذه القفار المخوفة إلاّلمعنى ، فأخبرْنى به ، فلذلك قال: «فأخبرتُه خبر ناقتى» ، وأيضاً فإنّ أوّل الكلام يدلّ عليه ، لأنه قال : فاستوضحته من أين أثره ، فأخبره السَّروجى فى الشعر بقصته ، فلما أكملها سأل ابنَ همام عن قصته ، فأخبره بالناقة الضائعة. والسارحة : التى سرحت ، أى مشت حيث شاءت . عاينته : شاهدته ورأيته . الالتفات : النظر إلى جهة . والطماح : ارتفاع العين بالنظر وطاح : ذهب وتلف . لا تأس : لا تحزن . ولاتستمل : تستدع حبّه وأن يميل إليك بودّه . مال : انحرف . عن ريحك : عن طريقك وهواك . أضرم : أوقد . تباريحك : أحزانك . تقيل : تنام فى القا تتحامى : تتباعد عنها . أنضاء : جمع نِضْو وهو المهزول ، أى قد أهزل التعب أبداننا . الهاجرة : القائلة سُمّيت هاجرة لأنها تَهْجُر البرد ، أو لأنها أكثر حرًّا من سائر النهار ، يقال: فلان أهْجر من فلان ، إذا كان أضخم منه . لهب : نار .

وشهرىْ ناجر: يونيه و يوليه ، وهما أشد الحرّ. قال الأزهرىّ : هما حَزيران

وتمّوز ، النّجران : العطشان . ابن سيده : ظن قوم أنهما حَزيران وتموز ، وهذا غلط ، وإنما هما وقت طلوع نجمين من نجوم القيظ .

الليث : كل شهر فى صميم الحرّ فاسمه ناجر ، لأن الإبل تنجرّ فيه ، أى تشتدّ عطشاً حتى تيبس جلودها ، فلا تكاد تروى من الماء .

هجع : رقد . وارتفقت : توكأت على مرفقى . السِّنة : النوم القليل . زُمّت : ربطت ومنعت . فأولج: دخل . تبلّج : أضاء وظهر . المسرج : الفرس عليه سرجه .

* * *

فبتّ بَلَيْلَةِ نابغيّة ، وأحزانِ يَعْقُوبيَّة ، أساوِرُ الوُجُوم ، وأساهِرُ النُّجوم ، أفكِّرُ تارَةً فى رُجْلَتِي ، وأخرَى فى رَجْعَتِي ، إلى أنْ وَضحَ لى عِنْدَ افتِرارِ ثَغْرِ الضَّوْء فى وَجْه الجوّ ، راكِبٌ يَخِدُ فى الدّوّ ، فألمعتُ إلَيْهِ بثوْبى ، وَرَجَوْتُ أنْ يُعرِّج إلى صَوْبى ، فَلَمْ يَعْبَأْ بإلماعِي ، ولا أوَى لِالْتِياعِي ، بَلْ سارَ على هِينَتِهِ ، وأصْمَانى بسَهْمِ إهانَتِهِ ، فأوفضتُ إلَيْهِ لأسْتَرْدِفَه ، وأحْتَمِلَ تَغَطْرُفَهُ . فلمّا أدْرَكْتُهُ بَعْدَ الأيْنِ ، وأجلْتُ فيهِ مَسْرَحَ الْعَيْنِ ، وَجَدْتُ ناقتِي مطيتَه ، وضالّتِي لُقْطتَه ، فَمَا كذَّبْتُ أنْ أذرَيْتُه عَنْ سَنَامِهَا ، وجَاذَبْتُه طَرَفَ زمامِها ، وقلتُ له : أنا صاحِبُهَا وَمُضِلُّهَا ، ولِي رِسْلهَا ونَسْلُهَا ، فلا تكُنْ كأشعب ، فتُتْعِبَ وَتَتْعَب .

* * *

رفع المسهم

أساور : أوائب . الوجوم : السكوت على غيظ ، والمعنى : أنّ الغيظ إذا اشتدّ عليه عالج كظْمَه ودفعه عن نفسه ، فكأنه يواثبه . أساهر : أسامر ، والسهر امتناع النوم . الرُّجْلة ، بضم الراء : القُدْرة على المشى ، ورجل يرجل رجلاً ورجلةً ، إذامشى فى السفروحده بلا دابّة. وضح : تبيّن . افترار : انكشاف ، وافترّ كشف أسنانه عندالضحك . يخد : يسرع . الدوّ : الصحراء ، والراكب : من يركب البعير . والجوّ : نواحى السماء . يعرّج إلى صوبى : يميل إلى جهتى وقصدى . يعبأ : يبال . إلماعى : إشارتى ، وهومصدر ألمعت إليكّ ، أى أشرت إليك ، فإذا بعد عنك الرجل فلم يسمع صوتك جردت ثوبك وأشرت إليه ، والإشارة بالثوب هى الإلماع . أوى : أشفق . التياعى : تحرّقى وتوجعى . هينته : سكينته . أصمانى : أصاب مقتلى . إهانته : احتقاره . أوفضت : أسرعت . أستردفه : أطلب إليه أن يُرْدفنى . تغطرفه : تكبّره ، والغِطْريف : السيّد العظيم . الأبن : الفتور . أجلت : صرفت . مسرح : موضع تسرحها وجَو لانها بالنظر . واللقطة : ما يجده الإنسان قد سقط لغيره ، فيأخذه ويلتقطه . أذريته : رميت به عنها . مضلّها ، أى الذى ضلّت له . رِسْلها : لَبنها .

[ذكر أشعب وبعض نوادره]

أشعب : الطماع ، رجل مدنىّ صاحب نوادر وملاهٍ وله صنعة فى الغناء ، وكان أبخل الناس وأكثرهم طمعاً . ويقال فى المثل . أطمَع من أشعب ، ولهذا قال الحريرىّ : فلا تك كأشعب ، أى لا تطمع فى أخذ الناقة فتكون مثله فى طمعه فى مال غيره . فتتعب من تعلقت له بشىء ، وتتعب ، أنت معه فى المخاصمة .

ومن حكايات أشعب : قال سالم بن عبد الله بن عمر لأشعب : ما بلغ من طمعك ؟ قال : لم أنظر إلى اثنين يتسارّان فى جنازة إلا قدّرت أن الميت أوصى لى بشىء .

رفع المسهم

وقال له ابن أبى الزناد : ما بلغ من علمك ؟ قال : ما زفّت بالمدينة امرأة ، إلا كنست بيتى رجاء أن يُغلط بها إلىّ.

وكانت عائشة بنت عثمان كَفَلَتْه مع ابن أبى الزناد ، فقال أشعب : تربّيت معه فى مكان واحد ، وكنت أسفل ويعلو حتى بلغنا ما ترون .

وقيل لعائشة : هل آنستِ من أشعب رشداً ؟ فقالت : أسلمته منذ سنة فى البزّ ،فسألته بالأمس : أين بلغت فى الصناعة ؟ فقال : يا أمّه ، قد تعلمت نصف العمل وبقى نصفه ، تعلّمت النّشر فى سنة ، وبقىَ علىّ تعلّم الطىّ .

وسمعته اليوم يخاطب رجلا وقد ساومه قوس بندق ، فقال : بدينار ، فقال أشعب : والله لو كنت إذا رميت عليها طائراً وقع فى حجرى مشويًّا مع رغيفين ، ما اشتريتُها بدينار، فأىّ رشد يؤنس منه !

ونظر إلى رجل يعمل طبقًا ، فقال له : أسألك بالله إلاّ ما زدتَ فى سَعته طوقا أو طوقين ، فقال له الرجل : ما معنى ذلك ؟ فقال : لعلّه أن يُهْدَى إلىّ يوما فيه شىء :

وقيل له : أرأيت أطمع منك ؟ قال : نعم ، خرجت إلى الشأم مع رفيق لى ، فتلاحينا عند دير فيه راهب ، فقلت له : الكاذب منّا ، أيرُ الراهب فى استه ، فنزل الراهب من صومعته وقد أنعظ ، فقال : أيكما الكاذب ؟ ثم قال: دعوا هذا ، امرأتى أطمع منى ومن الراهب ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ فقال : إنها قالت : ما يخطر على قلبك شىء يكون بين الشك واليقين إلاّ وأنا أتيقّنه ، ودعوا هذا ، شاتى أطمعُ منّى ومنها ، قيل : وكيف ؟ قال : صعدت على سطح، فنظرت إلى قوس قزح فظنّته حبل قتّ ، فأهوت إليه فسقطت فاندقت عنقها .

رفع المسهم

وقيل له : هل رأيت أطمع منك ؟ قال : كلبة آل فلان ، رأت رجلا يمضغ عَلَكاً فتبعته فرسخين ، تظن أنه يأكل شيئاً .

وقيل له : ما بلغ من طمعك ؟ قال : أضجرنى الصبيان يوماً ، فأردت أن أشغلهم عنّى ، فقلت لهم: إن بموضع كذا عرساً، فامضوا نحوه . فلما ذهبوا ظننت أن ثَمّ عُرْساً ، فتبعتهم .

وقال ابن شرف :

وما بلوغ الأمانى فى مواعدها ... إلا كأشعب يرجو وعدَ عرقوبِ [1]
وقد تخالف مكتوب القضاء به ... فكيف لى بقضاء غير مكتوبِ .

وقال ابن حجّاج :

فديتُ مِنْ نفسىَ مَنْ كلَّما ... لقيته والحق لا يغْضَبُ
فقلت : يا عرقوب أطمعتنى ... فقال: لُمْ نفسك يا أشعبُ

* * *

فأخذَ يَلْذَعُ ويَصِى ، ويَتّقِحُ ولا يَسْتَحْيِى ، وبينا هو ينزو ويَلِين ، ويَسْتَأْسِدُ ويَسْتَكين ؛ إذ غشينا أبو زيد لابساً جِلْدَ النّمِر ، وهاجماً هجوم السَّيْلِ المنهمر ، فخفتُ واللهِ أن يكون يَوْمُه كأمسه ، وبَدْرُه مثلَ شَمْسه ، فألحقَ بالقارظيْن ، وأصيرَ خَبَراً بَعْدَ عَيْن . فلَمْ أرَ إلاّ أن أذكّرَتُهُ العهود المنسيّة ، والفعلة الإمسيّة ،

(١) نقله فى التنف ٩٣

ونَاشَدْتُه اللهَ : أَوَافَى للتّلافِي ، أم لما فيه إتْلافِي ؟ فقال معاذ الله أن أجْهزَ عَلَى مَكْلومِي ، أو أصِلَ حَرُورِي بِسَمُومِي ؛ بل وافيتُكَ لأخبُرَ كُنْه حالك ، وأكون يميناً لشمالك . فسكن عند ذلك جَاشِي ، وانْجَاب اسْتِيحَاشِي ، وأطلعتُه طِلْعَ اللِّقحة ، وَتَبَرْقُعَ صَاحِبِي بالْقِحَة .

* * *

قوله : يتّقِح ، أى يبدى الوقاحة : ينزو : يقفز . يستأسد : يتشبّه بالأسد فيتقوّى . يستكين : يذلّ ، يريد أنه كان مرة يتقوّى ومرّة يذلّ . غشينا : جاءنا فجأة . لابساً جلد النمر ، أى وقحا شجاعا . هاجما : آتياً على غفلة . المنهمر : الكثير الانصباب ، وتقدّم أثر خبر بعد عين ، الإمسية : المنسوبة إلى أمس . ـ الفنجديهى : رأيت بخط الحريرىّ النسبة إلى أمس إمسىّ ، وهو من شاذ ـ النسب ـ نانشدته : حلّقته . أوافَى : أجاء وأوتَى . التلافى : التدارك قبل فوته . معاذ الله ، أى أستجير بالله ممّا ذكرت . أجهز : أتم عليه . مكلومى : مجروحى ، وفى أخبار علىّ رضى الله عقه أنه ما أجهز على مكلوم قط . أخبر : أعلم . كنه : حقيقة جاشى : نفسى ، قاله ابن سيده : وقيل : الجأش القلب ، وقيل : رباطتُه وشدّته عند الشيء يسمعه ، مايدرى ما هو . وقيل : جاشى : رَوْع قلبى واضطرابه عند الفزع . واستوحش من الشيء : لم يأنس به . انجاب : انقشع وزال . أطلعته طِلْعها ، أخبرته سرها وعلوت طِلْع الأكمة ، أى مكانا يطلع منه على ما حولها ويُشرف عليه والقحة : صلابة الوجه ، كأنه جعل منها بُرقعا على وجهه .

* * *

رفع المسهما

فنظر إليه نَظَرَ ليث العرِّيسة ، إلى الفريسة . ثمّ أشرع قِبَله الرّمح، وأقسَم له بمن أنار الصُّبح ، لئن لم ينجُ منجى الذُّبابِ ، ويَرْض مِنَ الغَنيمة بالإيابِ ، ليوردَنّ سِنانه وَريدَه، وليفجعَنّ به وليدَه وَوَديدَه . فنبذ زمام الناقة وحاصَ ، وأفلت وله حُصاص ، فقال لى أبو زيد : تسلّمْها و نسنّمها ، فإنها إحدى الحُسْنيَيْن ، وويلٌ أهون من وَيْلَيْنِ .

قال الحارث بن همام : فحِرْتُ بين لوم أبى زيدٍ وشُكرِه ، وزنة نفعِه بضرّه . فكأنه نُوجئَ بذاتِ صدرِى ، أو تكهّن ما خامَرَ سرّى . فقابلنى بوجهٍ طليق ، وأنشد بلسانٍ ذليق :

يا أخى الحاملَ ضَيْمِى ... دون إخوانى وقَوْمِى
إن يكن ساءك أمسى ... فلقد سرّك يومى
فاغتفر ذاك لهذا ... واطّرِحْ شُكْرِى ولَوْمى

ثم قال : أنا تَئِقٌ ؛ وأنت مئِق ، فكيف نتّفق ! وولّى يفرِى أديم الأرض ، ويركضُ طَرْفَه أيّما رَكْض ، فما عدمْتُ أن اقتعدت مَطيَّتِى ، وعُدْت لِطيّتى ، حتى وصلتُ إلى حِلّتى ، بعد اللَّتيّا والّتى .

* * *

العرِّيسة : مأوى الأسد . والفريسة : الصيد يفترسه ، أى يكسر عنقه ، وهى أكيلة الأسد . أشرع : صوّبَ . أنار : نَوّر . ينج منجَى : يخلص مخلص ، وشبه خلوصه بخلوص الذباب ، لأنه يقع على الجسد أو الطعام فيتقذّرُ الإنسان

بمقرّه فيشرده ، وهو واجد عليه ، فينجو الذباب ، سالما بعد أذَايته .

[مما قيل من الشعر فى الذباب والبعوض]

وأخذه من قول إبراهيم بن العباس الصولى لمحمد بن الزيات :

كنْ كيف شئت وقُلْ ما تشا ... وأبرِقْ يمينا وأرعِدْ شمالا (١)
نجا بك قومك مَنْجَى الذباب ... حمتْه مقاذِيره أن يُنَالا

وأخذه إبراهيم من قول الآخر :

أسمعنى عبدُ بنى مسمعٍ ... فصُمْتُ عنه النَّفْسَ والعِرْضا (٢)
ولم أُجِبْه لاحتقارى له ... ومَنْ يَعَضّ الكلب إن عضا !

ومن قول الآخر :

قوم إذا ما جنى جَانيهمُ أمنوا ... لِلُؤْمِ أحسابهم أن يُقْتَلُوا قَوَدا

وهو كثير ، وإنما اخترع إبراهيم لفظ الذباب .

وعرّض - أى بعض الأدباء - على صاحب له بمحضر جماعة شعرا ، فجعل يعرِض عن محاسن الشعر ويتتبع مواضع النقد حسدا ، فقال له صاحب الشعر : أراك كالذباب تُعرِض عن المواضع السليمة ، وتتبع قروح الجسد .

وقال ابنُ الرومىّ :

تأمّل العيبِ عيبُ ... ما بالذى قلتَ ريبُ
والشِّعر كالشَّعر فيه ... مع الشَّيْبَة شيبُ

---

(١) ديوانه ١٦٣ .
(٢) إنباه الرواة ١ : ١٤٠ وفيه : « شاتمى » .

فليصفح الناس عنه فطعنهمْ فيه عيبُ

ومنكيات الذباب لابن آدم كثيرة ، منها نزوله على الوجه عند النوم ، فيلقَى منه بلاء ، أو فى الصلاة فيصير أضرّ من إبليس للتشاغل ، وأما إذا تساقط فى الطعام فتنغيصه وتنفيره للطباع أضرار لا تَخفى ، وقد قدّمت آنفا فى ذلك من الشعر شيئاً ، ولذلك تضرب به العرب المثل فتقول : أجرأ من ذباب ، لأنه ينزل على الأسد والأمير .

ونذكر هنا ما هو أشدّ أذاية منه وهو البعوض ، ولولا أنّ أيامه قلائل لأخلى البلاد ، قال ابن رشيق يتشكّاه :

يا ربّ لا أقوى على دفع الأذى وبك استعنت على الضعيف الموذِى[1]
مالى بعثتَ إلىّ ألفَ بعوضة وبعثتَ واحدةً إلى نمروذِ !

وقال ابن شرف :

لك منزل كملت بشارته لنا لّلهو لكن تحت ذاك حديث[2]
غنّى الذباب وظلّ يزمِر حوله فيه البعوض ويرقص البرغوث

وقال آخر :

ليلُ البراغيث والبعوضِ ليلٌ طويلٌ بلا غموض
فذاك ينزو بغير رقصٍ وذا يُغَنِّى بلا عروضِ

وقوله : ويرضى من الغنيمة بالإياب ، منقول من قول امرىء القيس ، وقد

---

(١) نقله فى التنف ٣٠

(٢) نقله فى التنف ٩٤ . وينسبان لابن رشيق أيضاً .

رفع المسهم

طوّفت ...[1] البيت . وهومشهور . يوردنّ : يُدْخلنّ . وريده : صفحة عنقه ، والوريدان : العرقان يجرى فيهما النَّفَس ، وهما فى مقدّم العنق ، وفجعته المصيبة فجعاً : أوجعته فهو فجيع ومفجوع ، وموت فاجع ، والفجيعة : الرزيّة الموجعة . يفجعنّ : يحزننّ . وليده : ابنه . وديده : صاحبه . نبذ : رمى . حاص مال إلى الهرب ، ويقال : حاص يحيص حيصاً ، إذا عدل ، ومنه ﴿ ما لهمْ مِنْ مَحِيص ﴾[2]، أى من ملجأ ومحيد . تسلّمها : خذها . تسنّمها : اركب سنامها . إحدى الحسنيين ، أى المسرتين ، ولو رجع له الفرس لكملتاله ، فالناقة إحداهما . بذات صدرى : علم بحاجة نفسى و بحقيقة ما أضمرته فى صدرى . تكهّن : علم . خامر : خالط . طليق : مستبشر . ذليق : حديد . ضيمى : ذلّى وضرّى : ساءك : أحزنك . اطّرِحْ : اترك ، وقد أعاد هذا فى السابعة والثلاثين فقال : وهبها لا خطأ ولا إصابة .

وسأل الحطيئة عتيبة النهّاس العجلىّ فردّه ، فقال له قومه : عرّضتنا ونفسك للشر ، هذا الحطيئة ، وهو هاجينا أخبث هجاء ، فقال : ردّوه ، فردّوه ، فقال : كتمتّنا نفسَك ولك عندنا مايسرّك ، ثم قال له : مَنْ أشعر الناس ؟ فقال : الذى يقول :

ومَنْ يجعلِ المعروفَ من دُونِ عِرْضِه
يَفِـــرْهُ ومنْ لا يتّق الشتمَ يُشتَم[3]

فقال له : وهذه من مقدمات أفاعيك . ثم قال لوكيله : اذهب به إلى السوق فابتعْ له كلّ ما أحبّ ، فعرض عليه الخزّ ورقيق الثياب ، فعرض هو إلى

---

(١) وهو فى ديوانه ٩٩ ، والبيت بتمامه :

وقدْ طوّفتُ بالآفاقِ حتّى رَضِيتُ من الغَنيمةِ بالإيابِ

(٢) سورة إبراهيم ٢١ .
(٣) ديوانه ٣٠ .

الأكسية الغلاظ فاشترى له ما أراد ، فرجع إلى عتيبة ، فقال له اسمع :

سُئِلْتَ فلم تبخلْ ولم تُعطِ طائلاً فسيان لاذمٌّ عليك ولا حَمْدُ
وأنت امرؤ لا الجود منـــه سجيّة
فتُعْطِي وقد يُعْدِي على النّائل الوُجْدُ[1]

وامتدح أبو تمام إبراهيم بن المهدىّ ، فوجده عليلا ، فقبل منه المدحة وأناله ما يصلحه ، وقال له : عسى أن أقوم من مرضى فأكافئك ، فأقام شهراً ثم كتب له :

إنّ حراما قبـــول مدحتنا وترك ما نَرْتجى من الصَّفَدِ[2]
كما الدنانير والدراهم فى الـــــبيع[3] حرام إلاّ يداً بيـد

فقال لحاجبه : أعطه ثلاثين ألفاً ، وجئنى بدواة ، فكتب إليه :

عاجلتَنا فأتاك عاجلُ برّنا قُلاًّ ولو أمهلتَنا لم نُقَلِّلِ
فخذ القليل وكن كأنك لم تقُلْ ونكون نحن كأنّنا لم نفعل

وقال الخوارزمى :

ولمّا أن رأيت ابنىْ وليدٍ وبينهما اختلافٌ فى الفَعالِ
وهبت قبيح ذا لجميل هذا وأسلمت العواقب للّيالى
إذا اليدُ أحسنت منها يمينٌ تسوّغنا لهـا ذنب الشّمال

---

(١) الخبر والشعر فى الأغانى ٢ : ١٦٨
(٢) الخبر فى زهر الآداب ٣٧٦ ، وفيه : « دخل أبو تمام الطائى على أحمد بن أبي دواد »
(٣) زهر الآداب : « فى الصرف »

قوله يفرى : أى يقطع . أديم الأرض : وجهها . يركض طِرْفه : يجرى فرسه . أيّما ، صفة لمصدر محذوف ، وفيه معنى التعجب من كثرة جريه ، تقديره : يركض ركضاً ، أىّ ركض . اقتعدت : ركبت القَعُود ، وتقدمتْ فى الأولى . ماعدوت : ماجاوزت ، أى ما عملت شيئاً قبل القعود على الناقة. حِلّتى : موضعى الذى هو سكنى ونزولى . وحلّ : نزل .

رفع المسهم

تفسير ما أودع هذه المقامة من الألفاظ اللغوية والأمثال العربيـة

قوله : « ريّق زماني ورائقه » يعني أوله ، وقد يخفف فيقال « ريْق » .

وقوله : « آخذ أَخْذَ نفُوسِهم الأبيّة » ، يعني أقتدي بهم ، يقال : أخذه ، بكسر الهمزة وفتحها .

والهجْمة ، نحو المائة من الإبل .

والثلّة : القطيع من الغنم .

والراغية : الإبل . والثاغية : الشاء ، ومنه قولهم : ماله راغية ولا ثاغية ، أي لا ناقة له ولاشاء .

وقوله : « أرداف أقيال » ، أي يخلُفون الملوك إذا غابوا .

وقوله : « أبناء أقوال » ، أي فصحاء ، يقال للمِنْطيق : إنه ابن أقوال .

وقوله : « فتدثّرت فرساً محضاراً » ، التـدثُّر : الوثوب على ظهر الفرس ، والمِحْضار والمِحْضير : الشديد العَدْو ، مأخوذ من الحُضْر ، وهو العدو .

وقوله : « أقترى كلَّ شجراء مرداء » الاقتراء : تتبّـع الأرض . والشجراء : ذات الشجر ، والمرداء الخالية من النبات ، ومنه اشتقاق الأمْرَد ، لخلوّ وجهه من الشّعر .

وقوله : « حَيْعل الدّاعي إلى صلاته » ، يعني قول المؤذن : حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح ، والمصدر منه الحيعَلة ، ومثله من المصادر الهيلَلة والحمْدلة .

رفع المسهم

والحوقلة والبسملة والحسبلة والسبحلة والجعلفة ؛ فالهيللة حكاية قول : لا إله إلاّ الله . والحمدلة : حكاية قول : الحمد لله . والحسبلة حكاية قول : حسبنا الله ، والسبحلة حكاية قول : سبحان الله . والجعلفة حكاية قول : « جُعلت فداك ».

وقوله : « فنزلت عن مَتْن الرّكوبة ، يعنى المركوبة ، يقال : ناقة رَكوب ورَكوبة وحَلوب وحَلوبة ، وقد قرىء : ﴿فمنها ركوبتهم﴾ .

والصَّهْوة : مقعد الفارس . والشَّحْوَة : الخطوة . والجزع : قطع الوادى عَرْضاً . وقوله : « صكّة عمىّ » يعنى قائم الظهيرة ، وقد اختلف فى أصله ، فقيل: كان عمّى رجلا مغواراً ، فغزا أقواماً عند قائم الظهيرة ، وصكّهم صَكّةً شديدة ، فصار مثلاً لكل مَنْ جاء ذلك الوقت ، وقيل : المراد به الظّبى، لأنه يسْدِر فى الهواجر ، ويذهب بصرُه ، فيصطك، وكذلك الحية ، واصْطكاك الظبى بما يستقبله كاصطكاك الأعمى ، ثم صُغّر الأعمى تصغير الترخيم ،فقيل : عُمَىّ ؛ كما صغّروا أسْوَد وأزهر ، فقالوا : سويد وزهير .

وقوله : «وكان يوماً أطْوَلَ من ظلّ القناة » ، يوصف اليوم الطويل بظلّ القناة ، كما يوصف اليوم القصير بإبهام القطاة ، والعرب تزعم أنّ ظل الرّمح أطول ظلّ ، ومنه قول شبرمة بن الطفيل :

ويومٍ كظلّ الرمح قصّر طوله دم الزقّ عنا واصطفاق المزاهر[1]

وقوله : « أحرّ من دمع المقلات » المقلات هى المرأة التى لا يعيش لها ولد ، فدمعها أبداً حارّ لحزنها ، لأنه يقال : إن دمعة الحزن حارة ودمعة السرور باردة ، ولهذا قيل للمدعوّ له : أقرّ الله عينه ، مأخوذ من القرّ وهو البرد ، وقيل للمدعوّ عليه : أسخن الله عينه، مأخوذ من السّخنة ، وهى الحرارة ، وقيل: إن إقرار العين مأخوذ من القرار ؛ فكأنه دعا له أن يُرزق ما يقرّ عينه حتى

(١) البيت فى المضاف والمنسوب ٦٢٦ ونسبه إلى ابن الطثرية .

لا تطمح إلى ما لغيره . وكانت الجاهلية تزعم أن : إن المقلات إذا وطئت على قتيل شريف عاش ولدها ، ولهذا أشار بشر بن أبى خازم فى قوله :

تظلّ مقاليتُ النســاء يطأنه يَقُلْن : ألا يُلْقَى على المرء مِئْزَرُ[1]

وقوله : « عَلِقَتْ بى شَعوب » يعنى المنية ، ولا يدخل هـذا الاسم أداة التعريف ، مثل دجلة وعرَفة .

وقوله : «لأغوّر تحتها إلى المُغَيربان» ، التقدير : النزول إلى القائلة ؛ كما أن التعريس : النُّزول آخر الليل للتهويم أو الاستراحة .

والمُغَيْربان ، تصغير المغرب ، وكان قياس تصغيره المغيرب ، إلاّ أنّ العرب ألحقت آخره ألفاً ونوناً على طريق الشذوذ .

وقوله : « مضطغناً أهبة تَجْوابه » ، الاضطغان : أن يحمل الشىء تحت حضنه ، والاضطبان أن يحمله تحت ضِبْنه ، والضِّبْن : ما بين الإبط والكشح ، وكلاهما متقارب . ويقال : أول مراتب الحمل الإبط ثم الضّبن ، وهو أسفل الإبط ثم الحضن ، وهو عند الجنب .

والتجواب مصدر جاب ، وجميع المصادر التى جاءت على « تَفْعال » هى بفتح التاء إلاّ قولهم : تِبْيان وتِلْقاء لاغير ، وزاد بعضهم : تِيصال .

وقوله: « عُجَرِى وبُجَرِى » يريد به جميع أمرى الظاهر والباطن ، وأصل العجر العُقَد الناتئة فى العصب ، والبجر : العُقد الناتئة فى البطن .

وقوله : « ولم يقل إيهاً » ، أى لم يأمرْنى بالكفّ ، يقال : للمستزاد : إيه . وللمستنكف : إيهاً .

وقوله : « لأمرٍ ما جدع قصير أنفه » ، قصير هو مولى جذيمة الأبْرَش ، وكان جَدَع أنفه بيده حين قتلت الزباء مولاه ، ثم أتاها وأوهمها أن عمرو بن

(١) ديوانه ٨٨

عدىّ ابن أخت جذيمة ، هو الذى جدَع أنفه اتهاماً له بأنّه غشَّ خاله جذيمة إذ أشار عليه بقصْدها ، فَحَظِىَ بهذا القول عندها حتّى جهّزته مراراً إلي العراق ؛ فكان يأتيه بالطُّرف منه إلى أن استصحب فى آخر نوبة الرجال فى الصناديق ، وتوصَّل إلى قتلها ، والأخذ بثأر مولاه منها . وقصته مشهورة .

وقوله : « ولو كان ابن بُوحك » يعنى ولد الصُّلب ، إشارة إلى أنه ولد فى باحة الدار؛ وهى عرْصتها ، وجمعها بُوح . وقيل : إن البوح من أسماء الذكر .

وقوله . « فى شهرىْ ناجر » هما شهرا الحرّ ، وقيل : إنها حَزِيران وتمُّوز . وأنكر ابن دريد هذا القول ، وقال : هما طلوع نجمين .

وقوله : « بت بليلةٍ نا بغية » أومأ به إلى قول النابغة :

فبتّ كأنّى ساورتنى ضَئيلة من لرُقش فى أنيابها السمُّ ناقع(١)

وقوله : «فألمعت إليه بثوبى» يعنى أشرت إليه، يقال منه :ألمع ولمع بمعنى .

وقوله : « يلدغ ويصىء » ، هذا مثل يضرب لمن يظلم ويشكو ، يقال : صاءت العقرب تصىء صِيئاًوصَيئاً بفتح الصاد وكسرها ؛ إذا صوّتت، وكذلك الفرخ ، وما أحسن قول ابن الرومى فى هذا المعنى :

تشكى المحبّ وتشكو وهى ظالمة كالقوس تُصْمِى الرّمايا وهى مِرْنانُ(٢)

وقوله : « ينزو ويلين » ؛ هذا مثل يضرب لمن يتعزز ثمّ يذلّ، ويقال : إن أصله أن الجدى ينزو وهو صغير فإذا كبر لان .

وقوله: «لا بسأجلد النمر»،هذامثل يضرب للمتّقح الجرىء،لأن النمر أجرأ سَبُع وأقله احتمالاً للضيم ، ومن هذا اشتقاق قولهم : تنمّر ، أى صار مثل النَّمِر .

وقوله : « فألحق بالقارظين » الأصل فى القارظ الذى يجنى القرَظ ، وهو النبات المدبوغ به ؛ والقارظان المشار إليهما أحدهما من عَنزة والآخر من النَّمِر

(١) ديوانه ٥٥ (٢) تمام المتون ٢٤٦ ، ٣٧٧

ابن قاسط ، خرجا يجنيان القَرَظ فلم يرجعا ، ولا عُرف لهما خبر ، فضُرِب بهما المثل لكل غائب لا يُرْجَى إيابه ، وإليهما أشار أبو ذؤيب فى قوله :

وحتّى يثُوب القارظان كِلاهما ويُنْشَرَ فى القتلى كليبٌ لوائلِ[1]

وقوله : « حَرورى بسَمُومى » ، الحرور : الرّيح الحارة ليلا ، والسَّموم : الريح الحارة نهاراً ، وقد يقام أحدهما مقام الآخر مجازاً . وقال بعضهم : الحرور يكون ليلا ونهاراً ، والسموم يختصّ بالنهار .

وقوله : « لَيْثٌ عِرّيسة » يعنى مأْوَى السبع ، ويقال فيه . عرّيس وعِرّيسة بإثبات الهاء وحذفها ، كما يقال : غاب وغابة وعَرين وعَرينة . فأمّا الغِيل والخِيس فلم يلحقوا بهما الهاء .

وقوله : « أفلت وله حُصاص » هذا المثل يضرب لمن نجا من هلكة أشفى عليها بعد ما كاد يَهْوِى فيها . وَالحُصاص : العَدْو ، وقيل إنه الضراط .

وقوله : « ويلٌ أهْوَن من ويلين » ، هذا المثل يضرب تسلية لمن ناله بعض المكروة ، ومثله قول الراجز[2] :

أبا منذرٍ أفنيت فاسْتَبْقِ بعضنا حَنانيك بعضُ الشرّ أهون من بعض

وقوله : « أنانئق ، وأنت مئق ، فكيف نتفق » ، هذا المثلُ يضرب للمتنافيين فى الخلق ؛ فإنّ التّئق هو الممتلىء غيظا ؛ مأخُوذٌ من قولهم : أتأقت الإناء ؛ إذا ملأْته . والمئق هو الباكى ؛ فكأن التئق ينزع إلى الشرّ لغيظه ، والمئق يضيق ذرعاً باحتماله ، ومثله قول بعضهم : أنا كلِف ، وأنت صلِف ، فكيف نأتلف !

وقوله : « لطيّتى » يعنى لقصدى ووجْهتى ، وقد يقال فيها : طِيَة ، بالتخفيف .

(١) ديوان الهذليين ١ : ١٤٤ .

(٢) البيت لطرفة ، ديوانه ٢٠٨ ، هو من بحر الطويل ، وليس رجزا .

رفع المسهم

وقوله : « بعد اللَّتَيَّا والتى » اللَّتيا تصغير الّتى، وهو على غير قياس التصغير المطرد ؛ لأنّ القياس أن يضمّ أول الاسم إذا صُغّر ، وقد أُقرّ هذا الاسم على فتحته الأصلية عند تصغيره ، إلاّ أنّ العرب عوّضته عن ضمّ أوله ، بأن زادت ألفا فى آخره ، وأجرت أسماء الإشارة عند تصغيرها على حكمه ، فقالت فى تصغير الذى والّتى : اللّذيا واللّتيا ؛ تصغير ذا وذاك . وقد اختلف فى معنى قولهم : بعد اللتيا والتى ، فقيل : هما من أسماء الداهية . وقيل : المراد بهما بعض صغير المكروه وكبيره .

رفع المسهم

المقامة الثامنة والعشرون وهي السمرقندية

حدّث الحارث بن همام قال : استَبْضَعْتُ فى بَعْضِ أسفاري الْقَنْد، وقصدتُ به سَمَرْقَند ؛ وكنت يومئذٍ قويمَ الشَّطَاطِ ، جَمُومَ النّشَاطِ ، أرمي عَنْ قَوْسِ المِرَاحِ ، إلى غَرَضِ الأفراح ، وأستعين بماء الشّباب ، على مَلامِح السّرابِ ، فوافيتُها بُكْرة عَرُوبة ، بعد أن كابدتُ الصُّعوبة ، فسعيتُ وَما وَنَيْتُ ، إلى أن حَصَل البيت . فلّما نقلت إليه قَنْدى ، وملَكتُ قول عِنْدِى ، عُجت إلى الحمّام على الأثَر ، فأمطتَ عَنّى وَعْثاء السّفَر ، وأخذت فى غُسْلِ الجُمعة على الأثَرِ .

° ° °

استبضعتُ : اتخذت بضاعة . القَنْد . عسل السكر .

[ذكر سمرقند]

و سَمَرْقَنْد : بلد عظيم من بلاد خراسان ، غزاها ملك من ملوك اليمن اسمه شمر ، فملَكها وهَدمها فسمِّيت شمر كند، بمعنى خرابة شمر ، ثُم عرِّبت فقيل : سمرقند ، وأهلها السُّغد . وفى رواية أنه لما انتهى إلى السُّغد قاتلهم أياماً تحوّلوا إلى مدينتهم فحاصرهم حولاً حتى افتتحها عنوة ، فقتَل منهم وسبَا وهدمها ، ثم ثاب له رأى، فأمرَ ببنائها ، فبُنيَتْ خيراً مما كانت ، ثم أمر بصخرة فبُنيت عند بابها ، وكتب عليها : هذا بناء ملك العرب لا العجم ، شَمِر الملك الأشمّ . ووُجد فى سورها لوح من نحاس فيه كتاب ، وهو: «هذا ماأمر ببنائه شمر» ، وقد تقدّمَ

أن فرغانة من أعمالها التى هى آخر خراسان ، وبين سَمَرْقند وبغداد ستة أشهر، وتقدم أن مدينة سمرقند من أحسن بلاد الله تعالى ، ولما أشرف قتيبة بن مسلم عليها ، فرأى ما أدهشه لإفراط حسنها . قال : كأنها السماء فى الخُضْرة ، وكأنّ قصورها النجوم والزهرة ، وكأن أنهارَها المجرّة .

* * *

قوله : قويم الشَّطَاط ، أى معتدل القامة : جموم النّشاط ، أى كثير القوة والخفة . والمراح : النشاط . و الأفراح : جَمع فرح ، و ماء الشباب : نَضارة الفتوّة و نعمة الصبا . ملامح السراب : مواضع يلمح السراب فيها ، أى يلمَع ويظهر ، فأراد أنه استعان بقوّة فتوّته على قطع الصحراء . وافيتها : أتيتُها .

[يوم عَروبة]

عروبة ، اسم يوم الجمعة ،سُمِّىَ بذلك لحسنه حيث كان موسما ، وهو من قولهم : جاريةٌ عَروب أى حسناء ، وكانت العرب تسمّى أيام الأسبوع بأسماء يجمعها بيتان وهما :

أؤمل أن أعيش وأنّ يومى بأوّلَ أو بأهْوَنَ أو جُبارِ[1]
أو التّالى دُبار فإنْ أفُتْهُ فمؤنس أو عَروبة أو شِيارِ

وعَروبة من الأسماء التى تدخلها الألف واللام مرّة وتسقط منها أخرى ، قال الشاعر :

* يوم كيوم عَروبة المتطـــــــاولِ *

(١) البيتان فى اللسان : جبر ، دبر ، شير ، أنس ، هون . أول : الأحد. أهون : الاثنين. جبار: الثلاثاء : دبار : الأربعاء ، مؤنس : الخميس . عروبة : الجمعه . شيار : السبت .

وقال آخر :

* يوم العَروبة أورادا بأورادِ *

وحكوا أن سيبويه ، كان فى حلقة بالبصرة فتذاكروا شيئاً من حديث قتادة ، فذكر سيبويه حديثا غريباً ، وقال : لم يرو هذا إلاّ سعيد بن أبى العَروبة ، فقال له بعض الفضلاء : ماهاتان الزيادتان ؟ ـ يعنى الألف واللام فى العروبة ـ فقال سيبويه : هكذا ينبغى أن يقال ، لأن العَروبة هى يوم الجمعة ، فَمَنْ قال : عَروبة فقد أخطأ . قال محمد بن سلاّم : فذكرت ذلك ليونس بن حبيب ، فقال : أصابَ : سيبويه لله درّه .

وسُمِّىَ يوم الجمعة لما جاء فى حديث سلمان قال : قال رسول الله صلى الله لِمَ سُمِّىَ يوم الجمعة ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : لأن فيه جَمع أبوك آدم » . وقال بعضهم فذكر عروبة :

فى العيد زار، وكان يوم عَروبةٍ يا فرْحتى بثلاثة الأعيادِ

وكان المتوكل صاحب بطليُوس ينتظر وفود أخيه عليه من شنتيرين يوم الجمعة ، فأتاه يوم السبت ، فلمّا تلقاه عانقه ، وأنشد :

تخيّرتِ اليهودُ السبت عيداً وقلنا فى العَروبة يوم عيدِ
فلما أن طلعتَ السبت فينا أطلت لسانَ محتجّ اليهود

وقال ابن الرومى :

وَحبَّب يومَ السَّبت عندى أننى ينادمنى فيه الذى أنا أحببتُ
ومن عجب الأشياء أنّىَ مسلم حنيف ولكنْ خير أيامىَ السبتُ

* * *

(١) الخبر والشعر فى نفح الطيب ٣ : ٤٤٨

قوله : كابدت ، أى قاسيت . سَعَيْت وما ونيت : خرجت وما فترت ، ويقال: ونى يني ، أى ضعف ، والونى الضعف والفتور والإعياء . ملكت قول عندى ، يريد أن المسافر فى الطريق لايحسب ماله مِلْكا له حتى يدخل المدينة ، لأنه متعرّض للهلاك فى الطريق ، فإذا دخل المدينة وحصل فى بيته ملكه فصار « ملكت قول عندى » عبارة عن سلامة ماله وخلاصِهِ من حوادث الأسفار نحو الغرق والنهب والغرق والغضب ، أو يكون عبارة عن الحصول فى البيت يقول : عندى كذا ، أى فى بيتى .

عُجتُ ، أى ملت على الأثر ، أى فى الحين ، ورجع على الأثر أى أتى مستعجلا ، كأنه مشى على أثره فى طريقه قبل غيره ، فمعنى عجت إلى الحمام على الأثر ، أى دخلته على الفور فى الحال. وقد ذكرنا باباً أدبيا من الشعر فى الحمام فى الرابعة ، ونذكر هنا فيه فنا آخر من الأدب .

[ذكر الحمّام وماورد فيه من الشعر والحكايات]

قال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم : « ستفتح عليكم أرض الأعاجم ، وتجدون فيها بيوتا يقال لها الحمامات ، فلا يدخلها الرجل إلا بإزار، وامنعوا النساء أن يدخلنها إلا مريضة أو نفساء » .

وروى أن عبيد بن قرط الأسدىّ ، دخل مع صاحبين له بلدا فيها حمام فأحب صاحباه دخوله فيها ، فنهاهما عبيد ، فأبيا إلا دخوله ، فلما دخلاه رأيا فيه رجلا يتنوّر، أى يستعل النّورة فسألاه عنها. فأخبرهما بإذهابها الشّعر، فاستعملاها فلم يحسنا فأحرقتهما وأضرّت بهما ، فقال عبيد :

رفع المسهما

لعمرى قد حذّرتُ قرطا وجاره ولاينفع التحذيرُ من ليس يحذرُ
نهيتهما عن نوْرةٍ أحرقتهما وحمام سوء نارُه تتسعّرُ
فما منهما إلا أتانى موقعاً به أثر من مسها يتقشّرُ
أحِدّكما لم تعلما أنّ جارَنَا أبا الحِسْل بالبيداء لايتنوّرُ
ولم تعلما حمّامنا فى بلادنا اذا جعل الحرباء فى الجدب يحضُر

ورد أعرابىّ البصرة ، فنزل على ابن عمّ له ، فلما رأى البصرىّ شَعَثَ الأعرابىّ ، أراد أن ينظّفه ، فقال له يوم جمعة : إنّ الناس يتطهّرُون للجمعة ، ويتنظّفون ، ويلبسون أحسن الملابس ، فتعال أدخلْك الحمّام لتتنظّف من قشَف السفر والبادية ، وتتطهّر للصلاة ، فدخل معه الحمام ، فعندما وطىء الأعرابىّ فرش أوّل بيت فى الحمام ، لم يحسن المشى عليها لشدة ملاستها فزلق ، وسقط لوجهه، وصادفت جبهته حرف مدخل البيت، فشجّه شجّةً منكرة فخرج مرعوباً وهو ينشد، ودماؤه تسيل :

وقالوا تطهّرْ إنّه يومُ جمعةٍ فأبتُ من الحمّام غيرَ مطهّرِ
تزوّدتُ منه شَجّةً فوق حاجبى بغير جهاد بئسما كان متجرى
يقول لىَ الأعراب حين رأينَنِى به لابظبى بالصّريمة أعفرِ (١)
وما تعرف الأعراب مشيا بأرضها فكيف ببيت ذى رخام ومرمَرِ !

وقال ابن سكّرة : دخلت حماما ،فخرجت وقد سُرِق مدامى،فعدت إلى دارى حافياً وأنا أقول :

---

(١) نظر فى ذلك إلى المثل : « به لا بظبى أعفر » ، والأعفر :الأبيض ، يضرب للشجاعة . وانظر مجمع الأمثال ١ : ٩٠

إليك أذمّ حمّام ابن موسَى فإن فاق المُنَى طيباً وحرّا
تكاثرت اللّصوص عليه حتى ليحفى من يطيفُ به ويعرَى
ولم أفقد به ثوبا ولكن دخلت محمداً وخرجت بشْرَا

— يريد بشْرًا الحافى ، وكان من كبار الزهاد ، ولزم المشى حافيا فلقِّب به .

* * *

وقوله : أمطت ، أى أزلت . وعثاء السفر : شدته ومشقته ، وفى الحديث : « اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب » ، وأصله من الوعث ، وهو الدَّهَس ، أى الرمل الدقيق . وقيل : الوعث الرمل تغيب فيه القوائم ، وقيل : هو الطريق الخشن الصعب . بالأثر ، أى بالحديث المروىّ . وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : « من اغتسل يوم جمعة غسل الجنابة ثم راح فى الساعة الأولى فكأنما قرّبَ بَدَنة ، ومَنْ راح فى الثانية فكأنّما قرّب بقرة ، ومن راح فى الثالثة فكأنما قرّب كبشا ، ومَنْ راح فى الرابعة فكأنما قرّب دجاجة ، ومَن راح فى الخامسة فكأنّما قرّب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر » .

* * *

ثمّ بادَرْتُ فى هيئة الخَاشِع ، إلى مَسجِدِها الجَامِع ، لأَلْحَقَ بمَنْ يَقْرُبُ من الإمام ، ويُقرِّب أفْضَلَ الأنعام ، فَحظِيتُ بأن جلّيتُ فى الحَلْبة ، وتَحَيّزْتُ المركز لاستِماعِ الخطبة ، ولم يَزلِ النَّاسُ يَدْخُلونَ فى دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ، ويَرِدُونَ فرادَى وأَزْوَاجًا ؛ حَتَّى إذا اكْتَظَّ الجامع بحفْلِهِ ، وأَظَلَّ تساوِي الشَّخْصِ وَظِلِّهِ ، برَزَ الخطيبُ فى أُهْبَتِهِ ، متهادِيًا خَلْفَ عُصْبتِهِ ، فارتقَى فى منبر الدّعْوَة ، إلى أن

مَثَلَ بَالذِّرْوة ؛ فسلَّمَ مشيراً باليمين ، ثم جَلَس حَتَّى خُتِمَ نظمُ التأذين .

* * *

الأنعام : هى الإبل والبقر والغنم . وقال فى الدرة : فرّقت العرب بين النعم والإنعام ، فجعلت النّعم اسما للإبل خاصة وللماشية التى فيها الإبل ، وتذكر وتؤنث ، وجعلت الأنعام اسما لأنواع المواشى مثل الإبل والبقر والغنم . حظيت : سعدت . جلّيت : سبقت . والحلبة : جماعة الخيل ، وأراد بها الناس المبادرين للصلاة ، وأنه سبقهم . المركز : الموضع تنتظر فيه الصلاة . دين : طاعة . أفواجاً : جماعات . يردون : يأتون الجامع . اكتظّ : امتلأ وضاق بأهله . حفله : اجتماع الناس فيه . أظل : دنا قرب . تساوى الشخص وظلّه ، يريد حديث عمر رضى الله عنه : أن صلّ الظهر إذا صار ظلك مثلك . برز : خرج . أهبته : عدّته للصلاة . متهاديا : متمايلا لوقاره . عصبته : جماعة المؤذنين . ارتقى : طلع . متّل بالذروة : جلس بأعلى المنبر أو ظهر بأعلاه . والمائل : اللاطىء بالأرض أو القائم المنتصب ، وهو من الأضداد ، وسمى المنبر منبر الارتفاعه وعلوّه من النبر ، وهو ارتفاع الصوت ، ونبر الرجل نبرة : تكلم بكلمة فيها علوّ ، وأنشد أبو الحسن بن البراء :

إنى لأسمع نبرةً من قولها ... فأكاد أن يُغْشَى علىّ سرورا[1]

مشيراً باليمين ، مذهب الشافعى رضى الله عنه أن الخطيب إذا جلس على المنبر ، أشار إلى الناس بيمينه مسلّما من غير كلام . قال ابن عمر رضى الله عنهما :

---

(١) البيت فى اللسان ــ نبر من غير نسبة .

رفع المسهم

انطلقت مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى مسجد قُباء ، فصلّى فيه ، فخرج عليّ صهيب ، فقلتُ : ياصهيب ، كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يردّ مَنْ يسلّم عليه ؟ قال : يشير بيده .

قوله : جلس ، قال الخليل : يقال لمن كان قائماً : اقْعد ، ولمن كان نائماً أو ساجداً : اجلس ، وهذا صحيح لأنّ القعود هو الانتقال من علو إلى سفل ، ولهذا يقال لمن أصيب برجله : مُقعَد ، والجلوس هو الانتقال من سُفل إلى علو ، ورجل جالس: آتٍ نجداً ، وهو المكان المرتفع . وذكره الحريرى فى الدرّة[1] . ختم : أكمل .

* * *

ثُمّ قام وقال : الحمدُ لِلّهِ الممدوحِ الأسماء ، المحمود الآلاءِ ، الْوَاسِعِ الْعَطَاءِ ، المدْعُوِّ لحسْمِ اللأْوَاءِ ، مَالِكِ الأُممِ ، ومُصوِّر الرِّمَم ، وأهل السّمَاحِ والكرَم ، ومُهلِكِ عادٍ وإرَم ، أدْرَكَ كلّ سِرّ عِلْمُه ، ووسِعَ كُلَّ مُصِرّ حِلمُه ، وعمَّ كلّ عالِمٍ طَوْلُه ، وهَدَ كلّ مارِدٍ حولُهُ . أَحْمَدُه حَمْدَ مُوَحِّدٍ مُسْلِم ، وأدْعُوه دعاء مؤمّلٍ مُسَلِّمٍ ، وهُوَ اللهُ لاَ إِلَهَ إلاَّ هُوَ الواحِدُ الأَحَد ، العادِلُ الصَّمَد ، لاَوَلَدَ لَهُ وَلاَ والِدٍ ، ولاَ رِدْءَ مَعَهُ وَلاَ مُسَاعِد . أرسل محمداً للإسلامِ مُمَهِّدًا ، وللملّةِ مُوَطِّدًا ، وَلِأَدِلَّةِ الرُّسُلِ مؤكِّدًا ، وللأَسْوَدِ والأَحْمَرِ مسدِّدًا .

. . .

(١) درة الغواص ٨٨

رفع المسهم

قوله : الآلاء ، أى النعم الواسعة الكثيرة . حسم اللأواء : قطع الشدة . الرّمم : العظام البالية . مصورها : منشىء صورها ، وأراد قوله تعالى : ﴿ قُلْ يُحييها الذى أنشأها أوّل مرّة ﴾[1] ، عاد وإرم : أمّتان قديمتان ، وقيل : إرم قبيلة من عاد فيها مملكة عاد . وقيل إرم : اسمٌ لقبائل كثيرة ، كالعماليق وطسم وجديس هلكوا ، وهم من ولد إرم بن سام بن نوح ، ومن لم يصرف إرم جعله اسماً للقبيلة . وقال سابق البربرىّ فى ذهاب الأمم :

وكيف يأمَنُ ريبَ الدهر مرتهَنٌ ... بعدْوة الدّهر إن الدهر عدّاء[2]
ألقى على الجيل مِنْ عادٍ كلا كِلَهُ ... وقوم هود فهم هامٌ وأصداء

وقال أيضاً :

أين الملوك التى عن خَطْبها غفلتْ ... حتى سقاها بكأس الموت ساقِيها
غرّت زمانا بملك لادوامَ له ... جهلا كما غرّ نفساً مَنْ يمنّيها
وصبّحت قوم عاد فى ديارهمُ ... بمقطع يوم عادتهمْ عوادِيها
وثُبّعا وثمود الحِجْرِ غادرهمْ ... ريب المنون رميما فى مغانيها
فكيف يبقى على الأحداث غابرنا ... كأننا قـــد أظلّتْنَا دواهيها

وقال الألبيرىّ :

أين الملوك وأين ماجمعوا وماَ ... ذخَرُوه من ذهب المتاع الذاهبِ
ومن السوابغ والصّوارم والقنا ... ومن الصواهل : بُدَّنٍ وشوازبِ
كانتِ سوابقها تحمّل منهم ... أقمار أندية وأسد كتائبِ
كانوا ليوثَ خفيّةٍ لكنّهم ... سكنوا غياض أسنّة وقواضبِ
قصفتهمُ ريحُ ارّدى ورمتهمُ ... كفّ المنون بكلّ سهم صائب

---

(١) سورة الأنعام ٦ . (٢) الشوازب : الضامرة .

رفع المسهم

قوله : مصرّ ، أى مقيم على الذنب . والعالم : كل مخلوق ، وأراد به الحيوان . طوله : فضله . هدّ : أذلّ وأهلك ، وهد البناء : كسرَه وهدمه . والمارد : العاتى وهو المبالغ فى الطغيان والفساد ، والكثير الشرّ . حوله : قوته ، مؤمّل : راجٍ . مسلّم : مفوّض . الصمد ، من أسماء الله تعالى والسيّد المطاع ، والصمد : الذى لا يولد له ، وقيل : الصمد الذى لا جوف له .

وقال ابن الأنبارىّ : أجمع أهل اللغة بلا خلاف على أنّ الصمد الذى ليس فوقه أحد ، الذى يصمد إليه الناس فى أمورهم ، وأنشد لورقة بن نوفل :

سبحان ذى العرش سبحانا يدوم لهُ ربّ البرية فردٌ واحد صمدُ

وأنشد : * بعمرو بن مسعود وبالسيّد الصمد [1] *

وأنشد : * ولا رهينة إلا سيّد صمدُ *

وأنشد : * خذها حُذيف فأنت السيّد الصمَدُ [1] *

قوله : ردء : معين ، وأردأتك على الأمر : أعنتك . مساعد : موافق لمراده . مهداً : باسطاً . والملّة : الدين . الأحمر ، أراد به الأبيض وأراد لكلّ الناس ، وقيل : الأحمر العجم مثل الروم والفرس ، لأنهم بيضٌ تعلُوهم حمرة ، والأسود العرب ، لأنهم لكناهم الصحارى تغلِب السمرة على ألوانهم .

* * *

وَصَل الأرْحَامَ ، وعَلَّمَ الأحكامَ ، وَوَسَمَ الحلالَ والحرَام ، وَرَسم الإحلال والإحرام ، كرّم الله مَحَلَّهُ ، وكَمَّلَ الصلاةَ والسّلامَ له ، ورحم آلَهُ الكُرَماء ، وَأهْلَهُ الرُّحَمَاء ، ما هَمَرَ

(١) اللسان ـ صمد .

رفع المسهم

رُكَام ، وَهَدَر حَمَام ، وَسَرَحَ سوام ، وسطا حُسَام . اعْمَلُوا رَحِمَكُمُ اللهُ عَمَلَ الصُّلَحَاء ، واكْدَحوا لِمَعَادِكُمْ كَدْحَ الأصِحّاء ، وارْدَعُوا أهواءكُمْ رَدْعَ الأعداء ، وأعِدُّوا لِلرحلَة إعدادَ السُّعَداء ، وادّرِعوا حُلَلَ الْوَرَع ، وداووا عِلَلَ الطمَع ، وسَوُّوا أوَدَ الْعَمَلِ ، وعاصوا وَساوس الأمل ، وصوّرُوا لأوْهامِكمْ حُئولَ الأحْوال ، وَحُلولَ الأهوالِ ، ومُساورة الأعلال ، ومصارَمة المآلِ والآل .

* * *

الأرحام فى الأصل: الفروج ، ثم يكنى بها عن القرابات لِلّذين بينهم رَحِم. وسم : بيّن ، وجعل له علامة ، والسِّمة : العلامة . رسم : كتب وبيّن وأصل الرسم الأثر ، ورسمت الشيء : أثرت به أثرا . الإحلال : الدخول فى الحِلّ . الإحرام : الدخول فى الحَرَم ، وأراد أنه على موضع الحِلّ والحرم . آله : أهله . هَمَر رُكام : انصبّ سحاب . هَدَر : صوّت . وسرح : تفرّق فى المرعَى ، سوام إبل راعية . سطا : اهتزّ ليقطع . اكدحوا : اعملوا ، والكدح عمل الإنسان من خير وشرّ ، واكتسابه للدنيا والآخرة . لمعادكم ، أى ليوم بعثكم ، والمعاد المرجع . الأصِحّاء : جمع صحيح . اردعوا : كُفُّوا . ادّرعوا : البسوا الخوف . أوَد : اعوجاج . وساوس الأمل : أحاديث الطمع والرجاء . أوهامكم : نفوسكم . حئول: تغير . حلُول: نزول . الأهوال : المخاوف . مساورة : مواثبة . الإعلال: الإصابة بعلّة ، مصارمة : مقاطعة . الآل : الأهل والقَرابة .

* * *

وادّكِرُوا الحِمَامَ وسَكْرَةَ مَصْرَعِهِ ، والرَّمْسَ وهَوْلَ

مَطْلَعِهِ ، واللَّحْدَ ووحْدَةَ مُودَعِهِ ، والمَلَكَ وَرَوْعَةَ سُؤالِهِ وَمَطْلَعِهِ . والْمَحُوا الدَّهْرَ وَلُؤْمَ كَرِّه ، وَسُوءَ مِحالِهِ وَمَكْرِه . كَمْ طَمَسَ مَعْلَمًا ، وأمَرَّ مَطْعَمًا ، وطَحْطَحَ عَرَمْرَما ، وَدَمَّرَ مَلِكًا مُكَرَّما .

* * *

ادّكروا الحِمام : اذكروا الموت . الرَّمس : تراب القبر . هول مطلعه : خوف مايراه الإنسان فيه . اللّحد : الحفيرة فى جانب القبر . مُودَعه : المجعول فيه ، كأنه وديعة فيه . المَلَك : منكر ونكير ، اللذانِ يفتِنان الناس فى قبورهم روعة : تقريع وتخويف . المطلع : المأتى .

قال الجوهرىُّ ، رحمه الله تعالى : يقال : أين مطلع هذا الأمر ؟ أى مأتاه ، وهو موضع الاطِّلاع من إشراف إلى انحدار ، وجاء هول المطلع فى الحديث ، حَدَّث وائلة بن الأسقع وغيره قالوا : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: «يأيها الناس ، اذكروا الموتَ وهولَ مطلعه وماتقدمون عليه من أعمالكم ، فإنما أنتم عابرو سبيل إلى دار الخلود . ازهدوا فى دنيانا قصة غير زائدة ، مفرقة غير مجمعة ، وارغبوا فى دار لاتخرَب قصورُها ولا يبلى سرُورها ، ولايموت ساكنها. أعمار أهل الجنة : أبناء ثلاث وثلاثين سنة ، مكحّلون يأكلون ويشربون ، لايخرج من أجوافهم شىء إلا يعرقون ، عرقهم ذلك مسك ، فلم أر مثل الجنة ، نام طالبها ، ولم أر مثل النار ، نام هاربها » .

وقال ابن سُكَّرة :

مَحَّدُ ما أعددتَ للترب والبِلَى وللمَلَكين الواقفَيْن على القبرِ [1]

(١) يتيمة الدهر ٣ : ٢٤

وأنت مصرٌّ لا تراجع توبةً ولا ترعوى عما يُذمُّ من الأمر[1]
سيأتيك يومٌ لا تحاول دفعَه فقدِّم له زاداً إلى البعث والحشرِ

وتقدَّم البابُ موفًّى حقه فى الحادية عشر .

[مما قيل فى الأمل والطمع من الشعر]

نذكرُ هنا بعض ما قيل فى الأمل والطمع المانعين للناس من أعمال البر ، قال أبو العتاهية :

تعلّقتُ بآمال طوالٍ أىّ آمالِ[2]
فأقبلت على الدهر ملحًّا أىَّ إقبالِ
أيا هذا تجهز لـ فراق الأهل والمالِ
فلابدَّ من الموت على حالٍ من الحالِ

وقال أبو تمام :

أتأمّل فى الدنيا تجـدّ وتعمُرُ وأنت غداً فيها تموتُ وتُقْبَرُ
تُلَقِّحُ آمالاً وترجو نتاجَهـا وعمرك ممـا قد تُرَجِّيه أقصرُ[3]
وهذا صباح اليوم ينعاك ضوءه وليلته تنعاكَ لو كنت تشعرُ
تحُوم على إدراك ما قد كفيتَه وتقبل بالآمال فيهـا وتدبرُ

---

(١) بعده فى اليتيمة :

تَبِيتُ على خمرٍ تعاقِرُ دَنَّها وتصبح مخمورًا مريضاً من الخمرِ

(٢) ديوانه ٢١٣ ، وفيه :

تمسّكت بآمالٍ طوالٍ أىّ آمالِ

(٣) ديوانه ٤٨٢ .

رفع المسهم

رزقك لا يعدُوك إمَّا معجّلٌ على حاله يوماً وإمَّا مؤخَّر

وقال محمود الوراق :

علام يسعى الحريص فى طلب الرزق بطولِ الرواح والدَّلَجِ
يا قارع البـاب ربّ مجتهـد قد أدمن القَرْع ثم لم يلَجِ
فاطوِ على الهمّ كفَّ مصطبرٍ فآخرُ الهـــــم أوّل الفرجِ

وقال عبد الصمد بن المعذّل :

وأعــلم أنَّ بنـات الرجا تحلُّ العزيز محلّ الذليلِ
وأن ليس مستغنيا بالـكثـ ـير مَنْ ليس مستغنيا بالقليلِ

قوله : المحوا : انظروا . كرّه : رجوعه . محاله : شدّته ومعاداته وخداعه . طمس: محا وأذهب . معلما : موضعاً مرتفعاً ، تعلم به الجهة التى هو فيها. طحطح : أهلك وفرّق . عرمرماً : جيشاً كبيراً . دمّر : أهلك ، والدمار : الهلاك .

[ذم الدهر وما قيل فيه من الشعر والحكايات]

ونذكر بعض مَنْ ذمّ الدهر من ملوك الإسلام .

من ذلك أنَّ سليمان بن عبد الملك لبس فى يوم الجمعة لباساً شهر به ، ودعا بتخت فيه عمائم ، وبيده مرآة، فلم يزل يعتمّ بواحدة بعد أخرى ، وأرخى سدولها، وأخذ بيده مخصرة ، واعتلى منبره ناظراً فى عِطْفَيْه ، وجمع حشمه ، وقال : أنا الملك الشاب، السيد الحبحاب ، الكريم الوهاب . فتمثّلت له إحدى جواريه ، فقال : كيف ترين أمير المؤمنين ؟ فقالت : أراه مُنَى النفس وقُرَّة العين ، لولا ماقال الشاعر :

أنت نعم المتاع لو كنت تبقَى غـير أن لا بقـاء للإنسانِ
أنت خِلْوٌ من العيوب ومما يكره الناس غـير أنك فانى

فدمعت عيناه ، وخرج على الناس باكياً ، فلما فرغ من صلاته رجع ودعا الجارية ، وقال لها : ماحملك على ماقلت؟ قالت : والله مارأيتك ولادخلت عليك . فأكبر ذلك ، ودعا بقية جواريه فصدَّقنها على ذلك ، فراعه ذلك ولم يبق إلا مُديدة حتى مات[1] .

الفضل بن الربيع ، قال : كنت مع المنصور فى السفر الذى مات فيه ، فنزلنا بعضَ المنازل ، فدعا بى وهو فى قُبَّته إلى حائط ، وقال : ألم أنهكم أن تدَعُوا العامة تدخل هذه المنازل : فيكتبون فيها ما لاخير فيه ، قلت : وما هو ؟ قال : ألا ترى ماعلى الحائط مكتوبا :

أبا جعفرٍ حانتْ وفاتك وانقضتْ سنوك ، وأمر الله لابدَّ نازلُ
أبا جعفر ، هل كاهن أو منجّم يردُّ قضاء الله أم أنت جاهل ؟

فقلت : والله ماعلى الحائط شىء ، وإنه لنقىٌّ أبيض ، قال: والله ، قلت: والله. قال : إنها والله نفسى نعت إلىّ الرحيل ، بادر بى إلى حرم الله وأمنه هارباً من ذنوبى وإسرافى على نفسى ، فرحلنا ، وثقل حتى بلغ بئر ميمون ، فقلت له : قد دخلت الحرم ، قال : الحمد لله ، وقُبِض من يومه ، ولمَّا حضرته الوفاة ، قال : هذا هو السلطان ، لاسلطان من يموت[2] .

علىّ بن يقطين ، قال : لمَّا كنا مع المهدىّ بما سبذان ، قال لى : أصبحت جائعاً فائتنى بأرغفة ولحم بارد ، فأكل ونام فى البهو ، فما استيقظ إلا لبكائه ، فبادرنا فقال : أما رأيتم ما رأيت ، وقف علىّ رجل لو كان فى ألفٍ ما خَفِىَ علىّ ، فقال :

(١) الخبر والشعر فى العقد ٤ : ٣٢٥ . (٢) الخبر والشعر فى المسعودى ٣ : ٣١٧

كأنّى بهـذا القصرِ قد باد أهلُه وأوحش منه رَبعُهُ ومنازلُهْ
وصار عميد الملك من بعد بهجةٍ إلى قبرِه تُحثَى عليـــه جنادلهْ
فلم يبقَ إلا ذكرهُ وحديثه ينادى عليه معولاتٌ حلائلُه

فما أتت عليه عشرة أيام حتى توفّى.

قال الأصمعىّ : دخلت على الرشيد يوماً ، وهو ينظر فى كتاب ، ودموعه تنحدّر على خده ، فالتفت وقال : اجلس ، أرأيت ما كان منّى ؟ قلت : نعم ، قال: أما إنه لو كان من أمر الدنيا ما رأيت هذا ، ثم رمى إلىّ به ، فإذا فيه مكتوب لأبى العتاهية :

يا مؤثِرَ الدنيـا بلذّتِها والمستعدَّ لمن يفاخرُهُ[1]
نِلْ ما بدَا لك أن تنال من الـدُّنيا فإنَّ الموتَ آخرُه
هل أنت معتبر بمن خَربتْ منه غداة قضَى عساكرُه[2]
وبمَنْ خلتْ منه أسرَّته وبمن خلْت منه منابرُهُ
أين الملوك وأين غيرهُمُ صاروا مصيراً أنت صائرُهُ

ثم قال : كأنّى أخاطَب بهذا دون كلّ الناس ، فلم يلبثْ إلا قليلا حتى مات.

ولمّا رجع المأمون من غزونه التى افتتح فيها أربعة عشر حِصْناً نزل على عين تعرف بالعشيرة ، ينتظر رجوعَ رسُلِه من الحصون ، فأعجبه بَرْدُ مائها وصفاؤه ، وحسن بياضه وكثرة الخضرة والخُصْب بالموضع ، وجلس على خشب بُسِط له على الماء ، وطُرِحَ فيه درهم ، فقرأ كتابته فى قرار الماء لصفائه ، ولم يقدر أحدٌ يدخل الماء لشدّة برده ، فلاحت سَمَكةٌ نحو الذراع ، كأنها سبيكة فضة ، فنزل بعض الفرّاشين فأخذها ، فاضطربتْ فى يده وتململتْ ، ووقعت فى الماء ، فنضح منه على صدر المأمون ، ثم أخذها ووضعها بين يديه فى منديل ، تضطرب ، فأمر

(١) ديوانه ١٢٣ والمسعودى ٣ : ٣٧٦ . (٢) الديوان : « دساكره » .

بأن تُقْلَى الساعة ، فأخذته رعدة من ساعته ، ولم يقدِرْ يتحرّك ، فغُطِّيَ باللحف، وهو يرتعد ، ويصيح : البرد ، فأُتِيَ بالسمكة فلم يقدر عليها ، وسال على جسمه عرق كالرّب لم يعرفه الأطباء ، فلما ثقل قال : أخرجونى أنظر إلى عسكرى ، وأنظر إلى مالي وملكى ، وذلك ليلا ، فأشرف على الجيش وانتشاره ونيرانه ، فقال : يامَنْ لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه ، فلما ثقلَ رنا بطرفه نحو السماء ، وقد امتلأت عيناه دموعاً ، فقال : يامن لا يموت ارحم مَنْ يموت ، وقُضِيَ عليه من ساعته (١) .

وكان كثيراً ما ينشد:

ومَنْ لم يزلْ غرضاً للمنو ن تتركُه ذات يوم عميدَا (١)
وإن أخطأتْ مرة نفسُه فيوشك مخطئها أن يعودَا
فبينا يحيد وتخطئنَه قصدن فأعجلنه أن يحيدَا

وذكر أبو المواريث قاضى نصيبين ، أنه رأى فى المنام ليلة قائلا ، يقول :

يا نائم الليل فى جثمان يقظانِ ما بالُ عينيك لا تبكى بتهتانِ (٢)
إن الليالىَ لم تُحسِن إلى أحدٍ إلا أساءتْ إليه بعد إحسانِ
هلا رأيتَ صروفَ الدهر مافعلتْ بالهاشِمِيِّ وبالفتح بن خاقانِ

ـ يعنى المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان ـ قال : فأتى البريد بقتلهما فى تلك الليلة .

وقال سابق البربرىّ :

وربَّ أغيدَ ساجِى الطّرْف معتصبٍ بالتـاج نيرانه للحرب تستعرُ
يظلّ مفترشَ الدّيباج محتجباً إليه تبنى قباب الملك والحجرُ
قـد غادرته المنايا فهو مستلَبٌ مجنـدل ترِب الخدّين منعفِرُ

* * *

(١) المسعودى ٤ : ٤٥ .
(٢) الأبيات للحسين بن الضحاك ، ديوانه ١١٣ .

هَمّه سَكُّ المَسَامِعِ ، وَسَحُّ المَدَامِعِ ، وإكداءُ المطامِعِ ، وإردَاءُ المُسْمِعِ والسَّامِعِ . عَمَّ حُكْمُهُ المُلُوكَ وَالرِّعاعَ ، وَالمَسُودَ وَالمُطَاعَ ، وَالمحسُودَ وَالحُسّاد ، وَالأساوِدَ وَالآساد ، ما مَوَّل إلاّ مالَ ، وَعَكَسَ الآمال ، وَمَا وَصَل إلاَّ وَصَالَ ، وَكلَمَ الأوْصالَ ، وَلاَ سَرَّ إلاَّ وَسَاءَ ، وَلَؤُمَ وَأَسَاءَ ، وَلاَ أَصَحّ إلاّ وَلَّدَ الدّاء ، وَرَوّع الأوِدَّاء .

اللهَ اللهَ ، رَعاكُمُ اللهُ ! إلاَمَ مُدَاوَمَةُ اللّهْو ، وَمُوصَلَةُ السّهْو ، وَطُولُ الإصْرَار ، وَحَمْلُ الآصَار ، وَاطّرَاحُ كلاَمِ الحُكَمَاء ، وَمُعَاصاةُ إلهِ السَّمَاء !

* * *

همّه : مراده . سك المسامع : قطع الآذان ، وقد سك أذنه ، إذا استأصلها بالقطع ، والمقطوع الأذن ، يقال له : أسَكّ ، وسككتُ الشيء فاستكّ ، أى سددته فانسدّ . سحّ : صبّ . إكداء : قطع ومنع . إرداء : إهلاك . الرعاع : سقط الناس . المسُود : مَنْ ليس بسيِّد . المطاع : الذى يقول ما أراد فيطاع ولا يعصى ، الأساود : الحيّات . والآساد : جمع أسد . موّل : أعطى مالا . مال : انحرف وخرج عن طريقه . عكس : قلب . الآمال : جمع أمل وهو الرجاء ، وقال مسلم بن الوليد :

الدّهر آخذُ ما أعطى مكدِّرُ ما أصفَى ومفسِدُ ما أهوَى له بيدِ[1]
فلا يغرَّنك مِنْ دهر عطيّتُهُ فليسَ يَتْرُكُ ما أعطى على أحد

(١) ديوانه ٢٩٧ .

رفع المسهم

وقال أبو تمام :

أقول لنفسى حين مالت بصفوها إلى خطراتٍ قد نَتَجْنَ أمانيا[1]
فهبْنِي من الدنيا ظفرتُ بكلِّ ما تمنَّيتُ أو أُعطِيتُ فوقَ مُنائيا[2]
أليسَ اللّيالى غاصباتِى مُهْجَتِى كما غصبتْ قبْلِى القرون الخواليا

قوله : صَال : صاح وهدر . كَلِم : جرح . الأوصال : المفاصل ، وهو موصّل نظم عضو فى عضو . لَؤُم : صار لئيما . روّع الأودّاء : أفزع الأحباب . السَّهْو : الغلط . الإصرار : الإقامة عَلَى الذنب . الآصار : الأثقال ، يريد إثقال الذنوب . اطِّراح : تَرْك ورمى .

* * *

أَمَا الْهَرَمُ حَصَادُكُمْ ، والْمَدَرُ مِهَادُكُمْ ! أما الحِمَامُ مُدْرِكُكُمْ ، والصِّرَاطُ مسلكُكُمْ . أمَا السَّاعَةُ مَوْعِدُكُمْ ، والسّاهِرَةُ مَوْرِدُكُمْ ! أمَا أهْوَالُ الطَّامّة لَكُمْ مُرْصَدَة ! أمَا دارُ الْعُصَاةِ الْحُطَمَةُ المؤصَدَة ، حارِسُهم مَالِك ، وَرُواؤهم حَالِك . وطَعَامُهُمُ السُّمُوم ، وهَواؤُهم السَّمُوم . لاَ مَالَ أسْعَدَهم وَلَا وَلَد ، ولا عَدَدَ حَمَاهُمُ وَلاَ عُدَد . أَلا رحِمَ اللهُ امرأً مَلَكَ هَوَاهُ ، وأمّ مَسَالِكَ هُدَاه ، وأحْكَمَ طاعة مولاه ، وكدّ وكدَح لِرَوْح مأواه ، وعَمِلَ مادامَ العُمرُ مُطَاوِعاً ، والدَّهر موادِعاً ، والصّحّة كامِلَة ، والسَّلاَمَةُ حاصِلة ، وإلّا دَهَمَه عدمُ المرام ، وحَصَرُ

(١) ديوانه ٤٨٤ ، وفيه : « قد فتحن » .
(٢) فى الديوان : « هبنى ... أمانيا » .

الكَلَام ، وإلمام الآلام ، وحُموم الحِمام ، وهُدوء الحواس ، ومِراس الأرْماس .

* * *

مسلككم : طريقكم . السَّاهرة : وجه الأرض ، وقيل الأرض البيضاء. المورد : موضع الماء الذى يَرِدُه الناس والبهائم ، ولا غناء لأحد عن قصد الماء ، فجعل الساهرةَ مورداً على هذا المعنى . أهوال الطّامَّة : مخاوف القيامة ومافيها من الهَوْل والخوفِ ، وأصابت الناس طامَّة أى داهية وأمر عظيم ، وقد طَمّ الأمر ، إذا عظم وجاوز الحدَّ . مُؤْصَدة : مُعَدَّة ينتظرون بها . والحُطَمة : التى تحطم الناس ، أى تَكسِرُهم ، يعنى جهنم أعاذنا الله منها ، وهو اسم علم من أسماء جهنم دخلته اللام إيذاناً بالصفة . المؤصَدة : المغلقة . رواؤهم : منظرهم الحسن. حالك : أسود . السُّموم : جمع سَمّ . والسَّمُوم : الريح الحارة . أمّ : قصد . أحكم : أتقن . كدح : عمل . رَوْح مأواه : راحة مسكنه . موادعا : متاركا ومصالحاً . قال ابن عمر رضى الله عنهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل يعظه « اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سَقَمك ، وفراغك قبل شغلك ، وغِناك قبل فَقْرك ، وحياتك قبل موتك » .

دهمه : غشيه وأتاه فجأة ، ودهمه يدهَمه لغة . المرام : المطلب . حصر : حبس . إلمام : نزول . الآلام : الأسقام : حُموم الحمام : دنوّ الموت . هدوّ : سكون . الحواس : الإدراكات ، وهى التى يحسّ بها الإنسان الأشياء ويدركها وهى خمسة : العين يدرك بها النظر ، والأنف والأذن يدرك بها الشم ، والسَّمع واللسان واليد يدرك بهما الذوق ، واللّمس ، فيريد أن هذه الجوارح تَسْكُن بالموت ولا تتحرّك .

رفع المسهم

[مما قيل فى عجز الأطباء حين يجىء الأجل]

ونشد هنا أبياتاً لها بالموضع بعض تعلّق ، ونذكر فيها الأطباء الذين لا حيلة لهم فى الموت ، قال عدىّ بن زيد :

أين أهل الديار من قوم نوحٍ ثم عادٌ من بعدهم وثمودُ[1]
بينما هُمْ على الأسرّة والأنمـاط أفضت إلى التّراب الخدودُ
والأطباء بعدهم لحقوهمْ ضلّ عنهم سَعوطهم واللدودُ
وصحيحٌ أضحى يعود مريضاً وهو أدنى للموتِ ممن يعودُ

وقال الخليل بن أحمد :

فكن مستعدًّا لداعى الفنـاء فإن الذى هو آت قريبُ[2]
وقبلك داوَى المريضَ الطبيبُ فعاش المريض ومات الطبيبْ

ولابن الرومىّ ـ وفصده بعض الأطباء ، فزعم أن الفصد زاد فى علّته ، فقال :

غلِطَ الطبيبُ علىّ غلطة مُوردٍ عجزت مواردُه عن الإصدار[3]
والنّاس يلحَوْن الطبيب وإنّما غَلَطُ الطبيب إصابة المقـدارِ

وقال غيره :

قد قُلْتُ لمـا قال لى قائلٌ قد صار نُعمان إلى رمسِهِ
فأين ما يُذكَرُ من طبِّه وحـذقه بالمـاء مع جَسِّهِ !

(١) ديوانه ١٢٢ .
(٢) نزهة الألباء ٤٧ .
(٣) ابن خلكان ١ : ٣٥٢ .

رفع المسهم

هيهات لا يدفع عن غيره من كان لا يدفع عن نفسهِ

ومنه قول الآخر :

أقول لنعمان وقد ساق طِبُّه نفوساً نفيسات إلى باطن الأرضِ
أبا منذرٍ أفنيت فاستبقِ بعضنَا حَنانَيْك بعضُ الشرّ أهون من بعضِ (١)

ويحكى أن القاضى ابن منظور بلغه أن أبا العلاء بن زهر مرض فضحك ، وقال : فأين طبُّه ؟ فبلغت أبا العلاء فقال:

قالوا ابن منظـورٍ تبسَّم هازئا لمّا مرضت فقلت يعثر من مشَى
قد كان جالينوس يمرض دائماً فمن الإمام المرتضى قبل الرّشا

وقال المتنبى :

لابُدّ للإنسان مِن ضَجَعَةٍ لا تقلب الإنسان عن جَنْبِهِ (٢)
ينسى بها ما مرّ من عُجبهِ وما أذاق الموت من كربهِ
نحن بنو الموتَى فما بالُنَا نعافُ مالابدّ من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنـا على زمانٍ هى من كَسْبِهِ
فهذه الأرواح من جَوِّهِ وهـذه الأجساد من تربه
يموت راعى الضأن فى جهله موتة جالينوسَ فى طِبِّهِ

أصيب الجرمى فى عينيه فقال :

إذا ما مات بعضُك فابْكِ بعضاً فبعض الشىء من بعض قريبُ
يمنّينِيَ الطبيبُ شفـاء عينِي وما غـيرُ الإله لهـا طبيبُ

* * *

قوله : مِراس ، أصله معالجة الشىء الشديد ، وكل شىء التصق بشىء

(١) هذا البيت لطرفة ، ديوانه ٢٠٨ .
(٢) ديوانه ١ : ٢١٠ .

رفع المسهم

واحتكّ به فقد مارسه . ومرست الدواء بالماء : دلكته . والأرماس : القبور ، واحداها رمْس ، فيريد بها ما يَلْقاه الإنسان فى قبره من الدواهى ، وتقدّمت فى الحادية عشر ، ويروى : الأمراس : جمع مرس ، وهو حبل من ليف يُفتل على ثلاثة . مراسه : جريانه على البَكْرة ، فالبكرة تأكل قوته كلّ يوم فتقطعه ، كما أن الأيام تأكل قوة ابن آدم فتقطعه ، فإذا مات أكل بدنه القبر .

* * *

واهاً لها حَسْرةً ألَمُهَا مؤكّد ، وأمَدُها سَرْمَد ، ومَمَارِسُها مُكمَد ، مالولَهِهِ حاسم ، وَلاَ لِسَدَمِه راحم ؛ ولا مِمَّا عَرَاه عَاصِم ، ألهمكم اللهُ أحْمَدَ الإلْهَام ، وردّاكمْ رِدَاءِ الإكرام ، وأحلّكم دَارَ السَّلاَم ، وأسْأَلُهُ الرّحمةَ لَكُمْ ولِأهْلِ مِلّةِ الإسْلاَم ، وهُوَ أسْمَحُ الكِرَام ، والمسلِّم والسَّلاَم .

* * *

آها : كلمة توجع . حسرة : فجيعة ، والهاء فى «لها» كناية عن الحسرة أضمرها بشريطة التفسير ، أى ماأعظمها من حسرة ، آها ، أى تأوّها . ألمها مؤكد ، أى وجعها شديد متتابع . سرمد : دائم . ممارسها : معالجها ومخالطها . مكمد : مهموم محزون . ولهه : حزنه . حاسم : مزيل قاطع . سدمه : حيرته ، عراه : قصده . عاصم : مانع . ألهمكم : ذكّركم ونبّهكم . أحلّكم : أنزلكم . دار السلام : الجنة ، من دخلها سلم من العذاب وبقى فى سلامة . ملة : دين . أسمح : أكرم . السلام : الذى هو من أسماء الله سبحانه وتعالى ، ومعناه المسلم لعبده أو هو على حذف المضاف ، ومعناه ذو السلام ، أى صاحب السَّلام ، ويحتمل أن يريد به

رفع المسهم

اللفظة التى يقطع بها الكلام ، كما تقول لمن تقطع كلامه : والسلام ، أى لا زيادة عندى على هذا ، أو أردت: والسلام عليكم .فحذفت اختصارًا .

وفى تأويل «السلام عليكم» وجهان : أحدهما أنه اسم الله بمعنى « الله تعالى عليكم » ، أى على حفظكم ، أو بمعنى السلامة عليكم ، فالسلام جمع سلامة

قال ابن الأنبارى : السلام فى كلام العرب على أربعة أقسام: السلام التسليم، تقول : سَلَّمت سلاما ، والسلام الله تعالى ، والسلام جمع سلامة ، والسلام شجر عظام واحدها سَلَامة قال الأخطل :

ورابيةُ السكران قفرٌ فما بها لهم شبحٌ إلاّ سلامٌ وحَرْملُ(١)

* * *

قَالَ الحارثُ بن هَمَّام : فَلَمَّا رأيت الْخُطْبَةَ نخبةً بِلَا سَقَط ، وَعَرُوساً بِغَيْرِ نُقط ، دَعَانى الإعْجَابُ بِنَمَطِهَا العجيب ، إلى استِجْلَاءِ وجْهِ الخطيب ، فأخذتُ أَتَوَسَّمُه جِدًّا ، وأَقلِّبُ الطَّرْف فِيهِ مُجدًّا ، إلَى أنْ وَضَحَ لِي بِصِدْقِ الْعَلَامات ، أنَّهُ شيخنا صاحب الْمقَامات ، وَلَمْ يَكُنْ بُدٌّ من الصَّمْت ، فى ذلك الْوقْتِ ؛ فأمسكتُ حتَّى تحَلَّلَ من الْفَرْض ، وحَلَّ الانتشارُ فى الأرض ، ثمَّ واجَهْتُ تِلْقَاءه ، وابتَدَرْتُ لِقَاءه .

فلَمَّا لَحَظَنِي خَفَّ في القيام ، وأحْفَى فى الإكرام ؛ ثمَّ استَصْحَبَنِي إلى دارِه ، وأوْدَعَنِي خصائِصَ أسرارِه ، وحِينَ انتشَرَ جَناحُ الظَّلَام ،

(١) ديوانه ٢ (٢) السكران : موضع بالشام . والحرمل : نبت .

رفع المسهم

وحانَ ميقات الأنام ، أحْضَرَ أباريقَ المُدام ، مَعْكُومَةً بالفِدَامِ . فقلتُ : أتَحْسُوهَا أمام النّوم ؛ وأنتَ إمَامُ القوم ! فقال : مه ؛ أنا بالنَّهار خطيب ، وبالليلِ أطيب ، فقلتُ : واللهِ ما أدرى : أأعجبُ من تسلِّيك عَنْ أناسِك ، ومسْقَط رَاسِك ، أم من خطابتِكَ مع أدْناسِك ومدَارِ كاسِك .

* * *

نخبة : مختارة . سقَط : لفظ ردىء . استجلاء : نظر . أتوسمه : أنظر سِمَتَهُ ، أى علامته التى يعرف بها . جدّا : كثيرا . مجدّا : مجتهداً . وضح : تبيّن . ذو المقامات : صاحب المجالس . البُدّ : الفرار ، قال الفراء رحمه الله تعالى : يقال : لابُدّ اليوم من قضاء حاجتى ، أى لافرار ، ويقال : ليس لهذا الأمر بدٌّ ، أى لامحالة . الصمت : السكوت والإنصات لاستماع الخطبة فرض عند الشافعى رضى الله عنه لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ القُرْآنُ فاستمِعُوا لَهُ وأنْصِتُوا ﴾[1] أى لاستماع الخطبة .

وقال جماعة من المفسرين : إنه إنما نزلت الآية فى السكوت لاستماع الخطبة .

أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا قلتَ لصاحبك والإمام يخطب : أنصِت فقد لغوْت » .

أبو هريرة وأبو سعيد ، أنهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ خرج إلى الجمعة وعليه الوقار ، ثم رجع ، ثم أنصت إلى أن جلس الإمام ، فلم يتكلم حتى ينزل ، ثم صلّى الجمعة غفر الله له ما بينه وبين الجمعة التى تليها » .

(١) سورة الأعراف ٢٤١

تحلّل من الفرض : تخلّص من الصلاة . الانتشار : انحلال الجموع من الصلاة وانبساطهم على الأرض . ميقاته : وقته . معكومة : مشدودة ، وعكمت البعير شددت فمه ، والوعاء : شددت رأسه . الفِدام : خرقة يشدّ بها فم الإبريق ليصفّى ما فيه . تحسوها : تشربها . وأنت إمام القوم : توبيخ له على قبح فعله مع الفضل الذى سَبق له ، والعيب الكبير يصغر فى حق أهل الريب ، كما أنّ الصغير يعظُم فى حق أهل المروءات ، وقال المتنبى فى المعنى وإن كان من غير الباب :

وما يُوجع الحرمان من كفّ حازمٍ ... كما يوجع الحرمانُ من كف رَازِقِ[1]

وقال المخزومى :

والعيبُ فى الجاهل المغمورِ مغمورُ ... وعيبُ ذى الشّرف المذكور مذكورُ
كفوفةِ الظّفر تخفَى من حَقارتها ... ومثلها فى سواد العين مشهور

وقال إبراهيم بن المهدىّ :

لولا الحياء وأننى مشهورُ ... والعيب بالرجُلِ الكبير كبيرُ
لحللتُ منزلة الذى يحتلّه ... ولكان منزلُنَا هو المهجورُ

مه : اسكت ، ومعنى قوله : أنا بالنهار خطيب ، وبالليل أطيب ، مما وقع فى كتاب مفتاح السرور والأفراح ، حكاية عن بعضهم أنه قال : رأيت قاصًّا يقص غداةَ يوم ، ثم رأيته بالعشىّ فى حانة والقدَح فى يده ، فقلت : ما هذا ؟ فقال : أنا بالغداة قاصّ ، وبالعشىّ عاص .

ومن ذلك ما كتب به يحيى بن خالد لابنه الفضل حين بعث فيه أهلُ خُراسان كتاباً إلى الرشيد : إنه مشتغل بالصيد وإدمان اللذات ؛ فرمى به إلى يحيى وقال : ياأبتِ اكتب إليه بما يردعه ، فكتب على ظهر الكتاب :

(١) ديوانه ٢ : ٣٤٢ .
(٢) القوف : البياض الذى يكون فى أظفار الأحداث .

حفظك الله يابنيّ ، وأمتع بك . فقد انتهى إلى أمير المؤمنين ما أنت عليه من التّشاغل بالصيد وإدمان اللذات، فعاودْ ماهو أليقُ بك وأزين لك ، فإنه من عاد إلى ما يزينه ، وترك ما يشينه ، لم يعرفه أهل دهره إلا به . وقد قلت أبياتاً فالتزمها ، وإن جاوزتَها عزلتك عن سخط ، ولم أكلمك حولاً ، وكتب إليه :

انصب نهاراً فى طلاب العُلا ... واصبر على فقد لقاء الحبيبِ
حتى إذا الليل أتى مقبــلاً ... واسترتْ فيه عيونُ الرقيب
فباشِرِ الليــل بمـا تشتهى ... فإنّما الليلُ نهـار الأريب
كم من فتىً تحسبه نَاسِكاً ... قد لقىَ الليل بأمرٍ عجيبِ
ألقى عليه الليــلُ أثوابه ... فبات فى لهوٍ وعيش خصيب
ولذة الأحمــق مشهورة ... يرصدها كلّ حسود رقيب

فامتثل ما فيها حتى عزِل عنها .

وقال الحلوانى فى ضده :

أنت الّذى قسمَ الزمان لنفسِه ... قسمين بين رياسة ومَتـابِ
أعطى لمرتبــــــة العلاء نَهارَه ... منها وجنح اللّيــلِ للمحراب

وقال الفنجديهى فى قوله : أنا بالنهار خطيب وبالليل أطيب ، معناه أنا صالح المنظر ، فاسد المخبَر ، أنظر فى مرآة المراءات ، وأسّرِ مساواة المساءات ، وأديم المناجاة جلْوة ، وأقيم المداجاة خلوة ، آمر الناس بالرّشاد ، وأنا أتوسّد وسادة الفساد .

وقال ابن عمر رضى الله عنهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أحسن الصلاة حين يراه الناس ، ثم أساءها حين يخلو ، فتلك استهانة يستهين بها ربه» .

رفع المسهم

قوله : تسلّيك عن أناسك ، أى اشتغالك عن أهلك وبلدك ، وهو مسقط رأسه ، أى الموضع الذى سقط فيه رأسُه عند ولادته . خطابتك : فصاحتك فى خطبتك . إدناسك : عيبك وتلطيخ عرضك . مدار : دورانه فى أيدى الشاربين .

* * *

فأشاحَ بِوَجْهِهِ عَنِّى ، وقال : اسْمَعْ مِنّى :

لَا تَبْكِ إلْفاً نأى ولا دَارَا ودُرْ مَعَ الدَّهْرِ كَيْفَما دارَا
واتّخِذ النَّاسَ كُلَّهُمْ سَكَناً وَمَثِّلِ الأرْضَ كُلَّهَا دارَا
واصْبِرْ عَلَى خُلْقِ مَنْ تُعَاشِرُه ودارِه فاللَّبِيبُ مَنْ دَارَى
وَلاَ تُضِعْ فُرْصَةَ السُّرُور فَمَا تَدْرِى:أَيوماً تعيش أم دارَا
واعْلَمْ بأنّ المنونَ جَائِلَةٌ وقَدْ أدارَتْ على الْوَرَى دارا
وأقسَمَتْ لاتزال قانصةً ما كرَّ عَصْرُ المحْيَا ومادَارَا

فكيفَ تُرْجَى النَّجاةُ من شَرَكٍ
لم يَنْجُ مِنْــــهُ كِسْرَى ولا دارَا

* * *

أشاح : نحّى معرضا ، وأشاح فى الأمر : صمم عليه .

إلفاً : صاحبا . نأى : بَعُدَ ، يقول له جوابا لِلَومة : لا تبك صاحباً بَعُد عنك ، ولا منزلاً تغرّبتَ عنه ، وتقلّبْ مع الدهر كما يتقلّب مع أهله . ودُرْ ، من الدوران . سكنا : أهلا وإلفا تسكن إليه . ومثّل الأرض كلها دارا ، أى

بلدا ، والدار البلد فى قوله تعالى : ﴿ فأصْبَحُوا فى دارهمْ جاثمين ﴾[1] ﴿ وتمتّعُوا فى داركم ﴾[2] . داره : لا يفْنهْ وسايسْه . اللبيب : العاقل . دارَى : أحسن مخالطة الناس ، وأصلُها الخداع ، تقول العرب : دريت الصيد أدريه دريا ، وداريته أداريه مداراةً ، والدريَّة بعير يقعد عنده الصائد ، يستتر به فيجىء الصيد فيأنس بالبعير ، فيرميه من قرب . وكان الحسن يقول : المداراة تستجلب مودة القلوب فتخدعهم فى عقولهم . وفى الحديث : « أحبُّ الناس تحبُّبا إلى الله أكثرهم تحبُّبا إلى الناس » وفيه : « إذا أحب الله عبداً حبَّبه إلى الناس » .

وقال ابن عبد ربه :

وجهٌ عليه من الحياء مهابةٌ ومحبَّةٌ تجرى مع الأنفاسِ[3]
وإذا أحبّ الله يوماً عبْدَه ألقى عليه محبـــة للنـاس

كتب عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه إلى سعد بن أبى وقاص : إن الله إذا أحبَّ عبداً حببَّه إلى الناس ، واعتبرْ منزلتك من الله بمنزلتِك من الناس ، واعلم أنَّ مالك من الله بمنزلة ما للناس عندك .

وقال بعضهم : أتيت الخليل فوجدته على طِنْفسةٍ صغيرة ، فوسَّع لى ، فكرهت أن أضيّق عليه فتأخرت ، فأخذ بعضدى ، وقدّمنى إلى نفسه ، وقال : لا يضيق سمّ الخياط بمتحابين ، ولا تسع الأرض متباغضين ، أخذه ابن عبد ربه فقال :

صِلْ مَنْ هويت وإن أبدَى مباغضةً فأطيب العيش وصلٌ بين إلفَيْنِ[3]
واقطع حبائل خدنٍ لا تلائمه فقلَّما تســع الدنيا بغيضينِ

---

(١) سورة العنكبوت آية ٣٧ (٢) سورة هود ٦٥ .
(٣) العقد ٢ : ٣١٦

ولأبى محمد بن أبى الوليد المالقى :

صيّر فؤادك للمحبوب منزلةً ... سَمُّ الخياط مجال للمحبّين
ولا تسامح بغيضا فى معاشرة ... فقلّما تسع الدنيا بغيضَيْنِ

ولابن الزقاق :

ألا ادْنُ وإن ضاق الندىّ فإنه ... رحيب بودّ ضُمّنته الأضالعُ[1]
يضيق الفضاعن صاحبين تباغضاً ... وسمّ خياطٍ بالحبيبين واسع

وقال التهامى :

بين المحبّين مجلسٌ واسعْ ... والودّ حال يقرّب الشاسعْ[2]
والبيت إن ضاق عن ثمانية ... متّسع بالوداد للتاسِعْ

فرصة : نهزة وغنيمة . دارا : دهراً وقال السَّرِىّ[3] .

قم فانتصفْ مِنْ صروف الدَّهْرِ والنَّوَبِ
واجمع بكأسِك بين اللّهو والطرَبِ[4]
واخلع عذارك واشربْ قهوة مُزِجت ... بقهوة الفَلَجِ المعسول والشَّنَبِ
تَوِّج بكأسك قبل الحادثات يدِى ... فالكأس تاج يدِ المثرِى من الأدب

جائلة : دائرة .

[ذكر كسرى]

كسرى ، اسم ملك الفرس ، وكسرى ملك الملوك أنوشروان بن قُباذ بن

(١) ملحق ديوانه ١٤١ . (٢) لم أجدها فى ديوانه
(٣) ديوانه ٢٦ (٤) بعده فى الديوان
أما ترى الصُّبْح قد قامت عساكرُهُ ... فى الشَّرْقِ تنشر أعلاماً من الذَّهبِ
والجوّ يختالُ فى حجبٍ مُمَسَّكَةٍ ... كأنما البرقُ فيها قلب ذى رُعُبِ

فيروز بن يزدَجرد بن بهرام ، الملك العادل ، ملك العرب والعجم ، كان موصوفاً بالعدل ، معروفاً بحسن الرعاية والفضل ، وشهرته فى كتب الآداب مغنية فى ذكره عن الإطناب . قيل : كان مولد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لاثنتين وأربعين سنة مَضَتْ من ملكه، وملك تسعاً وأربعين سنة .

وكسرى أبرويز بن هرمز بن أنوشروان ، كان ملكا شديد البطش ، نافذ الرأى ، قد بلغ من الظفر ومسالمة الدهر حدًّا لم يبلغه ملك من الملوك ، كان ملكه ثمانى وثلاثين سنة .

وفى سنة ثلاثين مِنْ مُلْكه بُعِث نبينا صلى الله عليه وسلم .

وحدّث خالد بن ربوة ـ وكان رأساً فى المجوس ، فأسلم ـ قال : كان كسرى إذا ركب ركب معه رجلان، فيقولان له ساعتئذ : أنت عبد ولست برب ، فيشير برأسه أن نعم ، فركب يوماً ، فقالا ذلك له فلم يُشرْ برأسه ، فشكواه إلى صاحب الشرطة ، فركب ليعانبه . وكان كسرى قد نام فلما وقع صوت حوافر الدواب فى أذنه استيقظ ، فدخل عليه صاحب الشرطة ، فقال : أيقظتمونى ، إنى رأيت كأنه رُقِيَ بى فوق سبع سموات ، فوقفت بين يدى الله تعالى ، وإذا رجل بين يديه ، عليه إزار ورداء ، فقال لى : سلِّم مفاتيح خزائن الأرض إلى هذا ، ألست المأمور بكذا فلم تفعل ! وإنى أردت أن أقولها فاستردَّها منه فأيقظتمونى . وصاحب الإزار والرداء هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

وبعَث له رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن حذافة بن قيس ، وكتب له : بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله النبىّ إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله عزّ وجل فإنى

رسولُ الله إلى الناس كافة لأنذِر مَن كان حيًّا ويحق القول على الكافرين ، فأسْلِمْ تَسْلَمْ ، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك .

فلما قرأ الكتاب شقّه ، وقال : يكتب إليّ بهذا وهو عبدى ! فبلغ الخبرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « مزّقه مزّق اللهُ ملكه ». أو قال :« اللّهم مزّقهم كل ممزّق » .

ثم كتب كسرى إلى باذان ، وهو على اليمين : أن ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجُلين جَلْدَين يأتيانى به. فبعث باذان قهرمانه ـ وكان كاتباً حاسباً، وهو بابومة ، وبعث معه برجل من الفُرس ، وكتب معهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى ، وقال لبابومة : وَيلك ! انظر مَن الرجل ، وكلّمه ، وائتنى بخبره . فخرجا حتى قدما الطائف ، فسألا عنه فقالوا : هو بالمدينة ، واستبشرَ أهلُ الطائف ، وقالوا : نصب له كسرى ، كفيتم الرجل، فخرجا حتى قدم المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلّمه بابومة وقال : إنّ شاهنشاه ملك الملوك كسرى كتبَ إلى باذان يأمره أن يبعث إليك مَنْ يأتيه بك ، وقد بعثنى إليك لتنطلِق معى ، فإن فعلتَ كتبت فيك إلى ملك الملوك بكتاب ينفعُك ، ويكفُّ عنك به ، وإن أبيتَ فهو مَنْ قد عَلمت ، وهو مُهلكك ومهلك قومك ، ومخرّب بلادك. فقال لهما : ارجعا حتى تأتيانى غداً .

وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر أن الله تعالى قد سلّط على كسرى ابنَه شيرويه ، فقتله فى ليلة كذا فى شهر كذا ، بعد مامضى من الليل كذا ، سلّط الله عليه ابنه ، فقتله . فقالا : هل تدرى ماتقول ؟ فإنا قد خفنا منك ما هو أيسر من هذا ، أفنكتب به عنك ونخبر الملك ؟ قال : نعم ، أخبراه ذلك عنى وقولا له :إن دينى وسلطانى سيبلغ مابلغ ملك كسرى ، وقولا له : إن أسلمتَ أعطيتك الناس تحت يدك ، وملّكتك على قومك من الأبناء . فخرجا مِنْ عنده حتى قدما على باذان ، فأخبراه الخبر ، فقال : والله ماهذا بكلام ملِك ، وإنى لأرى الرجل

رفع المسهم

نبيًّا ، فإن كان ما قال حقاً ، فهو نبيّ مرسل ، فإن لم يكن فسأرى فيه رأياً . فلم يلبث أن قدم عليه كتاب شيرويه ، وفيه : أمَّا بعد ، فإنى قد قتلت كسرى ولم أقتله إلا غضباً لفارس ، ممَّا كان استحلّ من قتل أشرافهم ؛ فإذا جاءك كتابى هذا فخذ لي الطاعة ممَّن قبلك ، وانظر إلى الرجل الذى كتب لك فيه ، فلا تهجه حتى يأتيك أمرى فيه ، فقال باذان : إنّ هذا الرجل لَرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسلم وأسلمت الأبناء من فارس .

وكسرى أنوشروان هو الذى بنى سورَ الأبواب وهو من عجائب الدنيا فلما بناه هادته الملوك وكاتبته . وهو الذى افتتح كثيراً من بلاد الشأم الرومية ، ونقل منها الرخام إلى العراق . وقيل : إن النبى صلى الله عليه وسلم ولد لاثنتين وعشرين سنة من ملكه ، وقيل : إنه ولد فى آخر ملكه كما قدّمنا .

ثم ولىَ من بعده ابنه هرمز ، وكان مضعَّفا ، غزته الملوك وطمعت فيه ، ثم خلعته الفرس ، وسملَت عينيه .

وعقد الملك لابنه أبرويز فى حياته ، فبعد حروب شديدة اجتمع لأبرويز أمره ، وكان وزيره بُزُرْجمهر أكثر الفرس حكما ومواعظ .

وفى ملكه كانت وقعة ذى قار بين بكر بن وائل ، والهرمز صاحب أبرويز ، لأربعين سنة لمولد النبى صلى الله عليه وسلم . وقيل إنها كانت فى غزوة بدر ـ وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « هذا يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبى نُصِرت » .

وكان على مربط أبرويز خمسون ألف دابّة وألف فيل ، فخرج فى أحد أعياده ، وقد صفّت له الجيوش وأحدقت به مائة ألف فارس دون الرَّجالة ، وصُفّت له الفِيَلة ، فلما بَصُرت به سجدت له ، فما رفعت رءوسها حتى رفعت خراطيمها بالمحاجن ، فأعلم بذلك وقال : وددت أنها فارسية ، ولم تكن هندية ، انظروا إلى

أدبها من بين سائر الدواب . ثم هدم الله تعالى هذا الملك العظيم بالإسلام ، قال الألبيرى :

فطفِ البلاد لكى ترى آثارَ مَنْ قد كان يعمُرُها من الأقيالِ
عصفت بهم ريحُ الرَّدَى فذرتهمُ ذَرْوَ الرياح الهُوج حقف رمالِ
فتقطعت أسبابهم وتمزَّقتْ ولطالما كانوا كنظم لآلى

قيل لأبرويز ـ وكان حكيما : ماشهوةُ ساعة ؟ قال: الجماع ، قيل : فما شهوة يوم ؟ قال : دخول الحمام ، قيل : فما شهوة جمعة ؟ قال : غسل الثياب ، قيل : فما شهوة شهر ؟ قال : تجديد الثياب، قيل فما شهوة سنة ؟ قال : تزوج الأبكار. قيل : فما شهوة الأبد ؟ قال : أمَّا فى الدنيا فمشاهدة الإخوان ، وأما فى الآخرة فنعيم الجنة .

ونظر إلى قذاة فى طعام ، فدعا الطباخ فقال : ماهذا ؟ فقال : حاولته بالليل فى وقت لم يكن فيه ماء معين ، فأمر بضرب عنقه ، فغضب الطباخ ؛ وقال : يابن الأشتوربان ـ تفسيره يابن سائس الدواب ـ فعفا عنه ، وقال : إنا معشر الملوك نعاقب فى الصغير ، ونعفو عن الكبير .

[ذكر دارا]

وأما دار بن دارا بن بهمن ، وهو آخر ملوك الفرس الأول ، فإنه كان ضخم الملك ، ذا قدرة ومكانة ، وهو الذى بنى بأرض الجزيرة مدينة دارابجرد ، وكانت جنده ستمائة ألف ، ولقبه الإسكندر بالجزيرة ، فدارتْ بينهم الحروب أربعين يوماً ، وخندق دارا على عسكره خَمْس خنادق ، وجعل على كلّ خندق اثنى عشر ألف رجل ، وكانت النوبة لاتصيب الرجل إلا يوماً فى كل خمسة أيام ، فوجد الإسكندر من ذلك وجداً شديداً ، فبعث إلى دارا : إنّا كدنا نتفانى ، ورأيت

رأياً فيه البقاء لنا ولك ، وذلك أن تفرج لى ، فأخرق صفّك خرقا إلى جانب بلادك ، وأرجع إلى بلادى ، فإنا لا نرى الفرار من الزحف ، وهو عار لا يغسل. فأجابه دارا : لا سبيل إلى ذلك . فلما رأى الإسكندر ذلك وضع البرنس ، وحسر عن رأسه ، وقال : يامعشر الروم ، هذا هو العجز والذلّ عن الانتصار ، هل فيكم من يحتال لى فى هذا الأمر ، وله نصف مال الروم والعجم ، ونصف مافى بيوت الأموال ؟ فقد أدركتنى الحميّة . فبلغ الخبر إلى صاحب حرس دارا فقال : أنا أفعل ذلك وآخذ مالا عظيما . فلما التحم القتال حمل على دارا فطعنه بحربة فى ظهره ، فوقع على الأرض وانهزم عسكر دارا . فجاء الإسكندر ووضع رأس دارا فى حجره ، ومسح التراب عن وجهه ، وقبّله وبكى ، وقال : الحمد لله الذى لم يجعل قتلك على يدى ، ولا على يد أحد من جندى ؛ فسلْ ما بدا لك أقضه ، فقال له دارا : من حاجتى عندك ألاَّ تخرب بيوت النيران ، وأن تنصفَنى مِنْ قاتلى قبل موتى ، فإنه إن بقى عندك سيكفر معروفك ، كما كفَر معروفى . فقال له الإسكندر : حاجتى عندك أن تزوّجنى بنتك روشنك ، فقال دارا : على أن تجعل الملك من بعدك لولدك منها ، فأجابه إلى ذلك وزوّجه ابنته ، وأخذ الإسكندر قاتله وقطعه أربع قطع ، واستولَى على جميع مملكته .

وملك دارا أربع عشرة سنة ، وقيل : ست سنين ، وقسم الإسكندر غنائم عسكره فى ثلاثين يوما . وشاور الإسكندر معلّمه أرسطاطاليس فى أن يقتل من بقى من الفرس ، فقال له : لا تفعل ، ولكن ولّ على كلّ جهة شريفاً من أهلها فيتنافسون ، فلا يجمعهم مُلك أبداً ، ففعل فهم ملوك الطوائف ، حتى انتزع أردشير منهم الملك ، وقال : إنّ كلِمةً فرقتنا خمسمائة سنة وتسع عشرة سنة ـ يعنى كلمة أرسطاطاليس ـ لكلمة بالغة .

وملوك الفرس الأول ستة عشر ملكا ، وملوك الفرس الثوانى اثنان وثلاثون ،

رفع المسهم

منهم امرأتان . وملك بعد أردشير سابور ، وهو من عظمائهم ، ففتح الحصونَ ومدنَّ المدن ، وبنى الإيوان وهو بالجانب الشرقيّ من المدائن ، وهو من عجائب البنيان ، وعجائب الفرس كثيرة ، وفى هذه النبذة غُنية توافق ما شرطنا .

* * *

قَالَ : فلمَّا اعْتَوَرتْنَا الـكئوس ، وَطَرِبتِ النُّفوس ، جَرَّعَنى الْيَمِينَ الغَمُوس ، عَلَى أنْ أحْفَظ عليهِ النَّاموس. فاتَّبعتُ مَرامَه ، ورَعَيْتُ ذمامَه ، ونَزَّلتُه بين الملإ مَنْزِلَة الْفضَيل ، وسَدَلْتُ الذَّيلَ عَلَى مَخازِي اللَّيل ، ولم يَزَل ذلكَ دابَه ودابى ، إلى أنْ تَهيَّأ إيابى . فوَدَّعْتُهُ وَهُوَ مُصرٌّ عَلَى التَّدْليس ، وَمُسِرٌّ حَسْوَ الْحَنْدريس .

* * *

قوله : اعتورتنا ، أى قصدتنا ودارت علينا .

الغَموس : الشديدة ، وهى فى الجاهلية التى تغمس صاحبها فى العار ، وفى الإسلام تغمس صاحبها فى الأوزار ، والغَمْسُ ارتباط الشىء فى ماء ، أو صِبْغ حتى اللقمة فى الخلّ .

والغَموس قيل إنها اليمين التى يقطع بها الرجل حق غيره فيحلف كاذبا . الليث رحمه الله : هى اليمين التى لا استثناء فيها ، وفى الحديث : « اليمين الغَموس تدع الديار بلاقع » ، أى قفراً فارغة مِنْ كلّ رزق .

والناموس : إظهار فعل الخير ، وتنامس الرجل إذا ظهر بما لا يعتقد ، وأصل النَّمس الستر ، وكلّ شىء سترت به شيئاً فهو ناموس له ، وناموس الرجل صاحب سره ، ويقال : لصاحب سرّ الخير ناموس ولصاحب سر الشر جاسوس . قال أبو عبيدة : هما بمعنى .

غيره: الناموس: صاحب سر الملك ، وقد نمس ينمس نمسا، ونامسته منامسة. مرامه : مطلبه ومراده . رعيت ذمامه : حفظت حقّه ، وما بيني وبينه مما يجب أن يراعى . الملأ : الجماعة .

[ذكر الفضيل]

الفضيل : هو ابن عياض التميمىّ ، كنيته أبو علىّ ، وهو ممَّنْ شهر بالزهد والخير ، وهو من رجال رسالة القشيرى ، قال صاحبها أبو على : خراسانى من ناحية مَرْو ، ولد بسمرقَنْد ، ومات فى الحرم سنة سبع وثمانين ومائتين .

وكان شاطراً يقطع الطريق ، وسبب توبته أنه عشق جارية فبينما هوذات يوم يرتقى الجدار إليها ، إذ سمع تالياً يتلو: ﴿ألمْ يأنِ للذين آمنوا أن تخشَع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق[1]﴾ ، فقال : يارب قد آن ، فرجع فأوى إلى خربة ، فإذا فيها رفقة فقال بعضهم : نرتحل ، وقال بعضهم : حتى نصبح ، فإن فضيلا فى الطريق فيقطع علينا ، فأمَّهم وسار معهم حتى بلغوا ، وجاور الحرم .

قال الفضيل : إذا أحبّ الله عبدا أكثر همَّه ، وإذا أبغض عبدا وسَّع عليه دنياه .

وقال : الكامل المروءة من برّ والديه ، وأصلح ماله ، وأنفق ماله وأنفق من فضله ، وأكرم إخوانه ، وحسَّن خلقه ، ولزم بيته .

وقال : إذا رأيتُ الليل مقبلاً فرحت ، وقلت: أخلو بربى ، وإذا أبصرت الصبح استرجعت كراهة أن يجىء مَنْ يشغلنى .

واطلع عليه بعض إخوانه من كوَّة ولحيته تقطر دموعا ، فقال : يا هؤلاء ،

---

(١) سورة الحديد ١٦ .

رفع المسهم

ليس هذا زمن حديث إنما هو زمن : احفظ لسانك ، وعالج قلبك ، وأخف مكانك ، وخذ ما تعرف ، ودع ما تنكر .

وقال : لو أنَّ الدنيا بحذافيرها عُرضت علىَّ لا أحاسب بها لكنت أتقذّرها كما يتقذّر أحدكم الجيفة إذا مرَّ بها أن تصيب ثيابه .

وقال : ترك العمل لأجل الناس رياء ، والعمل لأجل الناس هو الشرك .

قال أبو علىّ سليمان الدارانىّ : صحبت الفضيل ثلاثين سنة ، ما رأيته ضاحكا ولا متبسّما إلا يوم مات ابنه علىّ ، فقلت له فى ذلك ، فقال : إن الله تعالى إذا أحبَّ أمراً ابتلاه .

وقال : إنى لأعصى الله فاعرف ذلك فى خلق حمارى .

وأخباره كثيرة ، وهذه اللمعة دالة عليها .

قوله : سدلت ، أى أرخيت . مخازى : قبائح ، وما يخزى عليها فاعلها . لو اطَّلع على فعله . دأبه ودأبى : عادته وعادتى . إيابى : رجوعى . مصر : مقيم التدليس : تلبيس الأمر وكتمان العيب .

ويشبه عذل ابن همام السروجى فى شرب الخمر ثم مساعدته إياه بعد لومه وشربه معه، قول ابن أبى ربيعة[1] ، وهو أحسن ما قيل فى المساعدة :

وخلٍّ كنتُ عينَ النصح منه ... إذا نظرت ومستمعا سميعا
أطاف بغيّه فنهيت عنها ... وقلت له : أرى أمراً شنيعا
أردت رشادَه جَهْدى فلمّا ... أبى وعصى أتيناها جميعا

(١) ديوانه ٤٩٥ .

وقال أعرابى :

وكنت إذا علقت حبال قومٍ صحبتهمُ وشيمتى الوفاء
فأحسنُ حين يحسِن محسنوهم وأجتنب الإساءة إن أساءوا
أشاء سوى مشيتهم فآتى مشيتَهم وأترك ما أشاءُ

رفع المسهم

المقامة التاسعة والعشرون وهى الواسطية

حكى الحارث بن همّام قال : ألجأنى حُكْمُ دَهْرٍ قاسطٍ ، إلى أنْ أَنْتجعَ أَرْضَ وَاسِط، فقصدْتُها وأنا لا أعرفُ بها سَكَنًا ، وَلاَ أَمْلِكُ فِيها مَسْكَنًا . ولمَّا حَلَلْتُها حُلَول الحوتِ بالبيداء ، والشَّعرة البيضاء فى اللِّمَّةِ السوداء ،قادنى الحظُّ النّاقص ، والجَدُّ الناكِص ، إلى خانٍ يَنزِل له شُذّاذ الآفاق، وأخلاطُ الرِّفاق ، وهو لنظافةِ مَكانِهِ، وظَرافةِ سُكّانِهِ ،يرغِّبُ الْغريبَ فى إيطانِهِ ، ويُنْسِيهِ هَوَى أوطانِهِ . فاستفردْتُ منه بحجْرَة ، ولمْ أَنافس فى أُجْرَة ، فما كانَ إلاّ كلمْحِ طَرْف ، أو خَطّ حرف ؛ حتَّى سمعتُ جارِى بيتَ بيْت ، يقول لنزيله فى البيت :

. . .

ألجأنى : اضطرنى : قاسط : جائر . أنتجع : أقصد لطلب الرزق .

[ذكر واسط]

واسط : بلد معروف بناه الحجاج وسط المسافة التى بين البصرة والكوفة ، منها إلى كل واحدة منهما خمسون فرسخاً ، وسكنه ، ومات فيه .

قال اليعقوبى : واسط مدينتان على حافتى دجلة ، فالمدينة القديمة التى هى :

منازل الدهاقين هى الشرقية من دجلة ، وهى مدينة كَسْكَر . وابتنى الحجاج مدينة فى الجانب الغربى ، وجعل بينهما جسرا من السفن ، وبنى بها قصره والقبة الخضراء التى يقال لها خضراء واسط والمسجد الجامع ، وعليها سور ، ونزلتها الولاة بعد الحجاج . وهى بين البصرة والكوفة والأهواز متوسطة ، فسمّيت واسط بذلك .

قال الطبرىّ خرج[1] الحجاج يرتاد منزلا لأهل الشام ، فأمعن حتى نزل أطراف كَسْكَر ، فبينما هو كذلك ؛ إذ هو براهب قد أقبل على أتان له ، فعبر دِجْلة ، فلما كان بموضع واسط ، تفاجّت الأتان فبالت ، فنزل الراهب فاحتفر ذلك البول وحمله[2] حتى رمى به دجلة ، وذلك بعين الحجاج ، فقال : علىّ به ، فلما أتاه[3] قال : ما حملك على ماصنعت ؟ فقال : إنا نجد فى كتبنا أنه يُبنى فى هذا الموضع مسجد يُعبد الله فيه[4] ما دام أحد فى الأرض يوحّده ، فاختط الحجاج مدينة واسط ، وبنى المسجد فى ذلك الموضع ، وذلك سنة ثلاث وثمانين .

* * *

قوله . سكنا ، أى صاحبا يُسكن إليه ويُؤنس به ، والمسكن : المنزل الذى يُسكن فيه . البيداء : الصحراء ، أراد أنه غريب ليس له صاحب ولا منزل كالحوت فى الصحراء . واللمّة : الجُمَّة من الشعر تُلِمّ بالمنكب . قادنى : ساقنى . الحظ : النصيب . والجَدّ : السعد . الناكص : الراجع إلى خلفه ، يريد أنّ سعده يمشى إلى جهة خلْف ، ونكص ينكُص : رجع القهقرى . خان : فندق . والشذّاذ : الغُرباء الذين شذّوا عن أوطانهم ، أى فروا منها وبعدوا ، والشَّذّاذ التفرق ، وكلمة شاذة : مفترقة من جنسها ، وشذّ الرجل : انفرد عن أصحابه .

---

(١) تاريخ الطبرى ٦ : ٣٨٤
(٢) الطبرى : « احتمله »
(٣) الطبرى : « فأتى به »
(٤) ط : « يوجد » تحريف

والآفاق : النواحى . أخلاط الرفاق : من لا يتخصص منهم ولا يتعين . إبطانه : سكناه . هوى أوطانه : حب بلاده . استفردت : سكنتها منفرداً . والحجرة : البيت . أنافس : أغال ، من قولهم : نفستُ عليه بالشىء ، إذا ضننتَ به ، ولم تحبّ أن يصير إليه . لمح الطرف : نظر العين . بيت بيت ، أى بيته ملاصق بيتى ، وهما اسمان جعلا كاسم واحد ، وبنيا على الفتح . نزيله : النازل معه .

* * *

قُمْ يا بُنَىّ ، لَا قَعَدَ جَدُّكَ ، وَلَا قام ضِدُّكَ ، واستَصْحِبْ ذا الوجْهِ البَدْرِىّ ، واللَّونِ الدُّرّىّ ، والأَصْلِ النقىّ ، والجِسْمِ الشقّ ، الَّذِى قُبِضَ ونُشِر ، وسُجِنَ وشُهِرَ ، وسُقِىَ وفُطِم ، وأُدْخِلَ النَّارَ بَعْدُ ما لُطِمَ . ثم ارْكُض إلى السّوق ، رَكْضَ المشوق ، فقايِضْ به اللَّاقِحَ المُلْقِح ، المُفْسِدَ المُصْلِح ، المُكْمِدَ المُفرِّح ، المُعَنَّى المُرَوِّح ، ذا الزَّفيرِ المُحْرِق ، والجَنِينِ المُشْرِق ، واللَّفْظِ المُقْنع ، والنُّبْلِ المُمْتِع ، الَّذى إذا طُرِق ، رَعَدَ وبرق ، وباحَ بالحُرَق ، ونفث فى الخِرَق .

* * *

جَدُّك : سعدك . ضِدّك : عدوك المخالف لك . البدرىّ : الأبيض المستدير كالبدر ، يريد الرغيف ، شبّهه بالبدر فى بياضه واستدارته . وقال ابن الرومى : مررتُ بخباز يبسط الرّقاق كأسرع من رجوع الطرف ، ما بين أن ترى العجين فى يده كالكرة حتى يندَحِى فيصير كالقمر ، إلا مقدار لحظة ، فشبّهت سرعة انبساطها ، بسرعة الدائرة فى الماء يقذف فيه بالحجر فقلت :

رفع المسهم

ماأنسَ لا أنسَ خبّازا مررتُ به
يدحُو الرّقاق كوشك اللمح بالبصر[1]
ما بين رؤيتها فى كفّــه كرةً وبين رؤيتها قـــوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تندَاحُ دائرة فى صفحة المـاء يُرمى فيه بالحجر

* * *

[مما قيل من الشعر فى الغلمان]

ويتعلق بهذا ما قيل من الشعر فيمن ليس له نباهة من الغلمان : كان ابن وضاح جالساً مع جملة من الأدباء ، فمرّ بهم غلام نظيف يبيع الخبز ، فلم يتّجه لأحدٍ فيه شىء إلاّ ابنُ وضاح ، فإنه قال :

خابز الخبزِ ظريفُ عذبت فيه الحتوفُ
خامل الأنساب لكنْ هو فى الحسن شريف
خَصْرهُ أهيفُ شختٌ[2] وكذا الغزلان هِيف
من يخاصم مقلتيــه حُكِّمت فيه السيوف

ونظر إدريس بن اليمانى إلى غلام وسيم بالحمّام عليه أسمال ، فقال :

توشّح بالظلماء وهو صباحٌ وأمرض بالأجفان وهى صِحاحُ
وظلّ فؤادى طائراً عن جوانحى وليس له إلاّ الغرامُ جناحُ

---

(١) نقله البارودى فى مختاراته ٤ : ٧١
(٢) شخت ، أى ضامر .

قضيبُ صباح فى وِشاح دُجُنَّةٍ ألا ليتنى تحت الوشاح وشاحُ
ولا عجب أن أفسدَتْنى جُفونه فكلّ فساد فى هواه صَلاَحُ

وقال الرَّصافى :

يقولون لى يوما وقد مرّ ضارباً بمعوَلِهِ ضرَب المرجَّمِ بالْغَيْبِ[1]
تعلّمَ صَفَّارا فقلت : استعارها غدّاة رَنَا من صِيْغة العاشق الصَّبِّ
يعود النحاس الأحمر التّبر عسجداً
بكفّيه عند السبك والمدّ والضَّرْبِ
فحمرَتُه مشتقّة من حَيائِهِ وصفرتُه مما يخافُ من العَتْبِ

قوله الدرىّ : الأبيض الذى يشبه الدّرّ فى لونه ، ويقال : كوكب دُرّىّ منسوب إلى الدرّ ، مشبَّهاً به لصفائه وحسنه ، بضمّ الدال وتشديد الياء ، ودُرى بالضم والهمز، ودِرىء بكسر الدال مع الياء ومع الهمزة ، ودرّىء بالفتح والهمز ، فمن كسر وهمز فهو فُعِيل ، من درأ الكوكب ، إذا جرى فى أفق السماء ، ومن كسر بلا همز فلأجل الياء بمد الراء ، ومَنْ ضم وهمز فخطّأه الفراء ، قال : فُعيل ليس فى أبنية العرب ، وأثبته سيبويه . قال أبو عبيدة : أصله دَروى مثل سَبُوح ، فجعلوا الواو ياء ، وجعلوا الضمة قبلها كسرة ، ومثله عُتوّ وعِتىّ .

قوله : الأصل النقىّ ، يعنى القمح الذى صنع منه كان نقيًّا من الزبل وغيره. وشقاء جسمه ، قد فسّر فى التاسعة عشر ، وهو الآن يبيّن بعض شقائه ، فقبض ونشر . وقت العجن، أو وقت الخبز ، لأنه يقطع قبضة ثم يُبْسَط للخبز. سجن:

---

(١) ديوانه ٤٨ عن الشريشى

خُزن قمحه فى المخازن . وشُهِر : أبرز منها للسوق وشُهر على الناس ، أو يكون سجنه الغُرْن ، وشهرته البيع فى السوق ، أو عندما يُطاف به على الأسواق : وقال للعرىّ يُلغز فى القمح :

وسمراء فى بيضِ الحسان شريتُها ... بصُفرٍ من العين الشّبيهة بالشمس
وقد غيِّبت فى الخِدْر عصراً مصونة ... محجبة عن أعين الجن والإنس
فلمّا بدت عنه بدت سيمةُ النَّوى ... عليها ولم تجزع لحادثة الأمس
فأهـلاً بأنثى لم تردّ يد لامسٍ ... بسوء ولا أبدت نفاراً من اللّمس

سُقِىَ : جُعل الماء عليه للعجين . فُطِم : قطِع عنه الماء . لطِم : سُوِّىَ بالكفّ ، وعامتنا تشدّد الطاء . اركُض : أسرِع . المشوق : الكثير الشوق ، وشاقَك الشىء يشوقك ، إذا هاجك . قايضْ : عاوِض ، وقايضت الرجل فعلتَ معه ما يُفعل معك . اللاّقح فى الأصل : الناقة يعلوها الفحل ، فتحمل منه . ولقحت : حملت ، والملقّح : الفحل يعلوها عند السفاد ، وقد بيّن أنه يريد حجر الزند ، جُعل لاقحا لأنه حامل بالنار ، وملقِحاً لأنّ به تخرج النار من الزند ، فكأنه ألقحه بالنار ، أى جعلها فيه . والزّند أيضاً لاقح ملقِح ، لأن النار لا توجد فى واحد منهما على انفراده ، والنار تُصلح فى موضع وتُفسد فى آخر ؛ فلذلك وصفه بهما . والمعنى : المتعِب بإحراقه . المروِّح : المدخل الراحة بإصلاحه ، وإن جعله للزند ، فمعناه إذا شحّ ، ومروّح إذا أورى ، ونحوه . المكمِد ، أى المحزن . المفرّح : ضدّه . والزّفير . التّنفس ، وزفرة الحجَر هى النار ، وهى تحرق كلّ ما تعلّقت به . وهو الجنين ، أى المستور فى الحجر ، فإذا ظهر أشرق وأضاء . واللفظ : صوت الحجَر فى الزّند ، فإذا أبدى النار أقنعك واكتفيت به . وهو نيْله ، أى عطاؤه . والممتِع : الكثير وقليل النار كثير ، وقد قال الأعرابىّ : إنّ السَّقْط يحرق الدوحة ، أراد ما يسقط من الزّند من النار الضعيفة يحرق الشجر

رفع المسهم

الكثير الملتف . طُرِق : ضُرب . رَعد : صوّت . برق : لمعت ناره . باح : أظهر ما يسرّ فيه . الحرَق : التهاب القلب بالهمّ ، فكنى به عمّا فى الحجر من النار . نفث : بزق . الخِرَق : التى تسقط فيها نار الزند ؛ وهذه ألفاظ كلّها متقاربة ، بعضها يفسِّر بعضا ، لأنها من مليح الكلام .

* * *

قال : فلمّا قَرَّتْ شِقْشِقةُ الهادِر ، ولَمْ يَبْقَ إلّا صَدَرُ الصَّادِر ، بَرَزَ فتًى يميسُ ، وَمَا معه أَنيس ، فرأيتُها عَضْلَةً تَلْعَبُ بالعُقول ، وتُغْرِي بالدّخُول فى الفضول ، فانطلقتُ في أثَرِ الغلام ، لأخْبُرَ فَحْوَى الكلام ، فَلَمْ يَزَلْ يَسْعَى سَعْيَ العَفَارِيت ، وينفقَّدُ نَضَائِدَ الْحوَانيت ، حتّى انْتَهَى عِنْدَ الرَّواح ، إلى حجارة القدّاح . فَنَاوَلَ بائِعَها رَغيفًا ، وتناوَل مِنْهُ حَجَرًا لطيفًا . فعجبت مِنْ فطانةِ المرسِلِ والمُرْسَل ، وعَلِمْتُ أنَّهَا سَرُوجية وإن لَمْ أسأل ، وما كذَّبتُ أن بادَرْت إلى الخان ؛ مُنطَلِقَ الْعِنان ؛ لأنظُرَ كُنْهَ فَهمِى ، وهَلْ قَرْطسَ فى التّكهُّن سَهْمِي ؛ فإذا أنا فى الفِرَاسةِ فارِس ، وأبو زيدٍ بَوصِيدِ الخانِ جالس . فتهادَيْنَا بُشْرَى الالتقاء ، وتقارَضنا تحية الأصدقاء .

* * *

قرّت : سكنت . الهادر : الفحل . وشِقْشقته : مايخرج من لهاته . وتقدّمت فى الأولى ، ويزعمون أنها لاتوجد عند نحر الفحل ، وكذلك بيضه لا يوجد ، قال : وأنشد بشر بن المعتمر :

خصيته تطلّ من حظمِه عند حدوث الذّبح والنّحرِ
ما إن يرى الراءون من بعدها شِقْشِقَةً مائلة الهــدْرِ

وأراد به : سكَت المتكلّم . صدَر الصادر : خروج الخارج من الماء بعد شُرْبه . برز : خرج . يميس : يتبختر ويتثنى . عَضْلة : داهية وأمرٌ صعب . تُغرى : تحرّض وتلصق . فحوى : معنى . يسعى : يجرِى . العفاريت : شرّ الشياطين وأدْهاها . نضائد : ما جعل شيئاً على شيء . الرَّوَاح : العشِيّ . القدَّاح : حجر الزند تقدح النار منه . ناول : أعطى . لطيفاً : دقيقا . فطانة : ذكاء . وما كذَّبت ، أى ما خيّبت . منطلق العنان : مسيّب حيث شاء . كنه : حقيقة . قرطس : أصاب الغرَض مرة بعد أخرى ، والقرطاس يُجعل غرَضا ، فإذا توالى ضربه قيل : قَرْطس . والتكهن : الحديث بما يكون . والفِراسة : النظر بالظّن . وصيد الخان : فناء الفندق ، وقيل بابه ، من أوصدت الباب ، أغلقته ، وقيل : عَتَبة بابه . تهادينا : أهديته وأهدانى . البشرى : السرور ، أى فرح كلٌّ واحد منا بصاحبه . فتهادينا البشرى : تقارضنا : اندفعنا بالسّلام ، يريد حالة الصديقين إذا التقيا بعد سفر ، فيبالغ كلٌّ واحد منهما فى سلام صاحبه ويتابعه . والتحية : السلام ، ومنه التحيات لله ، ومنه قوله تعالى : ﴿وإذَا حُيِّيتم بتحيَّة فحيُّوا بأحسنَ منها[1]﴾ ، أى سُلِّم عليكم . وقيل : التحية : المُلْك ، وكان الملك يُحَيَّا بأنعم صباحا ، وأبيت اللعن ، وقيل : معناه البقاء لله ، وقال زهير ابن جناب :

مِنْ كلّ ما نال الفتى قد نلتُه إلا التحيــة من إله قادرِ

أى البقاء.

---

(١) سورة النساء آية ٨٦

ثمَّ قالَ : ماالَّذِى نَابَكَ ، حَتَّى زايلتَ جنابَكَ ؟ فقلت : دهرٌ هاضَ ، وجَوْرٌ فاض . فقال : والّذِى أنزلَ المطرَ من الغمام ، وأخرج الثّمرَ من الأكمام ؛ لَقَدْ فَسَدَ الزَّمان ، وعَمَّ العُدْوانُ ، وعُدِمَ المِعْوَان ، واللهُ المُسْتَعَان ؛ فكيفَ أَفلتّ ، وَعَلَى أىٍّ وَصْفيكَ أجفلت ! فقلتُ : اتخذتُ اللّيْلَ قميصاً ، وأدلجتُ فيه خميصاً . فأطرقَ يكتُ فى الأرض ، ويفكّر فى ارتيادِ القرْض والفرْض . ثمَّ اهتزَّ هِزّة مَنْ أكثبهُ قَنَص ، أو بَدَتْ لَهُ فُرَص ، وقال : قَد عَلِقَ بقلبى أن تُصاهِرَ مَنْ يأسُو جراحَك ، ويَرِيشُ جناحَك ، فقلت : وكيفَ أجمع بَيْنَ غُلٍّ وقُلّ ، ومَنِ الَّذِى يَرْغَبُ فى ضُلّ ابن ضُلّ ! فقال : أنا المشيرُ بكَ وإليك ، والوكيل لَكَ وعليك ، مع أنّ دينَ القوم جبرُ الكسير ، وفكّ الأسير ، واحْترام العَشِير ، واستنصاحُ المُشير ؛ إلاَّ أنهم لو خَطَبَ إليهمْ إبراهيمُ بن أدْهم ، أو جبَلة بن الأيهم ؛ لَمَا زوّجوه إلاّ على خمسمائة دِرْهم ، اقتداءً بِمَا مَهَرَ الرَّسول صلّى الله عَلَيْهِ وسلّم زوجاته ، وعَقَدَ بِهِ أنكحةَ بناته ؛ على أنّك لَنْ تُطالَبَ بِصَدَاق ، ولا تُلْجأَ إلى طلاق . ثمَّ إنّى سَأَخْطبُ فى موقفِ عَقْدِك ، وبمجمع حَشْدِك ، خطبةً لَمْ تفتُق رَتْقَ سَمْع ، ولا خُطِب بمثلها فى جَمْع .

* * *

نابك : نزل بك . جنابك : بلدك وناحيتك ، والجناب : فناء الدار . هاض :

رفع المسهم

كسر . فاض: كثر . الغمام : السحاب . والثمر: الثمار . وأكمامها : ما يكون فيها ثمرها ،وكل ماوارى شيئاً فهو كام له وكمّ . عمّ : شمل . العدوان : الفساد . للعوان : ما يستعان به . وقال الشاعر :

لله دَرّ أبيـــك أىّ زمـانٍ أصبحت فيه وأىّ أهل زمانِ
كلٌّ يدانيكَ المحبة جاهـلاً يعطى ويأخُذُ منك بالميزانِ
فإذا رأَى رُجْحَان حَبّة خردلٍ مالت مودّتُه مع الرجحـانِ

وقال ابن لنـكك [1] :

نحنُ مع الدهرِ فى أعاجيبِ فنسأل الله صَبْرَ أيوبِ
أقفرتِ الأرضُ من محاسنها فابكِ عليها بـكاءَ يعقوبِ

وَصْفَيْك : حاليْك من الخير والشرّ ، وهى حالة السفر . أجفلْت : هربت مسرعاً ، والإجفال : الهروب ، ثم قال : مشيت فى ظلام الليـــل ، فصار لى كالقميص . أدّلجت : مشيت فى السحر . خميصاً : جائعا . أطرق : أمال رأسه ساكنا . ينـكُت : يخطّ فى الأرض . ارتياد : طلب . الفرض من العطية ؛ ما فرضت على نفسك عطاءه ، على ألا تجازَى عليه . والقرض : ما أعطى من غير فرض .

قال الحريرىّ : القرض بالقاف : ما يستعاد عوضه ، والفرض بالفاء : مالا عوض فيه ، وأنشد فى الدرّة [2] لأبى عبد الله النّمرِىّ يرثى أبا عبد الله الأزدىّ :

مضى الأزدىّ والنَّمرِىّ يمضى وبعض الشَّـكْلِ مقرون ببعضِ
أخى والمجتنِى ثمرات ودّى وإن لم يجزنى قَرْضى وبرضِى

(١) هو محمد بن محمد بن لنـكنك البصرى ، وله ترجمة فى اليتيمة ٢ : ٣٢٠ ـ ٣٢٤ ، وفيها البيتان .
(٢) درة الغواص ص ٤٧ .

وكانت بيننا أبداً هنـــات توفّر عرضَهُ فيها وعِرْضِي
وما هانَتْ رجال الأزد بعدِي وإن لم تدنُ أرضهمُ من ارضي

الهنات : كناية عن المنكرات ، فأراد أنه أمال رأسه إلى الأرض مفكراً ، وجعل يخط فيها بيده أو بعود ، وهو فعل المهموم الكثير الفكر ، كما قال امرؤ القيس :

ظَلَلْتُ ردائى فوق رأسِي قاعداً أعدّ الحصَى ما تنقضى عبراتى[1]

فلم يرد أنه يعدّها ليعلم كم فيها ، وحاله من البكاء والحيرة تنفى الثبات على العدد ، وإنما أراد أنه كان يعبث فيها بيده اشتغالا ، وفى قلبهِ من الهمّ ما غلب على الصبر ، وقد بالغ ذو الرمّة فى بيان هذا المعنى بقوله[2] :

عشيّة مالى همّةٌ غـير أنّنى بلقط الحصى والخطّ فى الدار مولَع[3]
أخطّ وأمحو تارةً وأعيدُه[4] بكفّى والغربان فى الدّارِ وقّعُ

وقال ابن جعيل فى ذلك :

لا ينكتُون الأرض عند سؤالهمْ لتطلّب العلّات بالعيـــدانِ
بل يبسطون وجوهَهُمْ فترى لهم عند السؤال كأحسن الألوان

وقال الشريف الرضىّ فأحسن :

تفرى أناملُه التراب تعلّلاً وأناملى فى سِنِّىَ المقروع[5]

---

(١) ديوانه ٧٨
(٢) ديوانه ٣٤٢، ٣٤٤
(٣) فى الديوان : « فى الترب مولع » .
(٤) فى الديوان : « وأمحو الخط ثم أعيده » .
(٥) ديوانه ١ : ٤٩٧ وفيه : « تفلى أنامله » .

رفع المسهم

قوله : أكثبه ، أى دنا منه . قَنَص : صيْد . فرص : جمع فرصة ، وهى كالفنيمة . يأسو : يطبّ . يريش : يجعل عليه الريش . الغُلّ : الزوجة هنا .

وقالت عائشة رضى الله عنها : إنما النساء أغلال فلينظر أحدكمُ غلاً يجعل فى عنقه .

وتقول العرب للمرأة السّيّئة الخلق : غُلّ قمِل [1] .

وعوتب الكِلابى فى ترك التزوّج فقال : وجدت معاناة العِفّة أيْسر من معاناة العيال .

القُلّ : القِلّة . وضُلّ ابن ضُلّ : مجهول لا يعرف ، وفلان ضُلّ إذا كان مجهولا متمكنا فى الضلال . المشير بك وإليك ، يقال : أشار به إذا رفعه وأشار النارَ وأشار بها وتشوّرها ، أى رفعها ، فمعنى أنَا المشير بك ، أى أرفَعُ قدرك ، وأعظِم منزلتك ، أى أثنى عليك بخير فى غيبتك عند إصهارك ، والمشير إليك إذا حضرت ، أشرت إليك أن تتزوّج فيهم إذا رأيتهم أكفاءك .

والوكيل لك عليهم حتى يزوّجوك ، والوكيل عليك ، لتمتثل ما آمرك به من الزواج فيهم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . قيل فيه : الكافى هو ، قال الفراء : يكون المعنى : كافينا الله ونعم الكافى ، كقولك : رازقنا الله ونعم الرازق . ابن الأنبارىّ وهو أحسن فى اللفظ من قولك : كافينا الله ونعم الوكيل . دينهم : عاداتهم . جبر : إصلاح . فكّ : حلّ . احترام : إعزاز وتقريب ، وهو افتعال من الحرمة ، أى يجعلونه فى حرمتهم ، المشير : الصاحب . استنصاح المشير ، أى مَنْ أشار عليهم بشىء رأوه ناصحاً .

(١) قال فى اللسان : « أصله أنهم كانوا يغلون الأسير بالقد وعليه الشعر ، فيتقمل القد فى عنقه » .

رفع المسهم

[ترجمة إبراهيم بن أدهم]

إبراهيم بن أدهم ، هو من شيوخ الصوفية ، وهو من رجال رسالة القشيرى[1] ، قال صاحبُها : فمنهم أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور بن إسحاق البلخىّ من كُورة بلخ ، من أبناء الملوك .

وحدث إبراهيم بن بشار ، قال : صحبت إبراهيم بن أدهم بن منصور بن إسحاق البلخىّ بالشام ، فقلت له : يا أبا إسحاق ، خبِّرنى عن بدء أمرك كيف كان ؟ فقال : كان أبى من ملوك خراسان، وكنت شابًّا ، فركبت يوما على دابّة ومعى كلب ، وخرجت إلي الصيد فأثرت ثعلبا ، فبينا أنا فى طلبه ، إذ هتف بى هاتف : ألهذا خلقت أم بهذا أمرت ؟ ففزعت ووقفت ، ثم عدت فركضت الثانية ، ففعل مثل ذلك ثلاث مرّات ، ثم هتف بى من قَرَبوس السرج : لا والله ما لهذا خلقت ، ولا بهذا أمِرْت . قال : فنزلت وصادفت راعياً لأبى ، فأخذت منه جُبّة من صوف، فلبستها وأعطيته الفرس، وما كان معى . ثم دخلت البادية متوجِّها إلى مكة ، فبينا أنا يوما فى مسيرى إذا برجل يسير ، وليس معه إناء ولا زاد ، فلمّا أمسى وصلّى المغرب حرّك شفتيه بكلام لا أفهمه ، وإذا أنا بإناء فيه طعام وإناء فيه شراب ، فأكلت وشربت ، وكنت على ذلك معه أياما ، وعلّمنى اسم الله الأعظم ، ثم غاب عنى ، وبقيت وحدى أنا ذات يوم مستوحش من الوَحْدة ، دعوت الله فإذا أنا بشخص آخذ بحُجْزتى ، فقال لى : سَلْ تُعطَ ، فراعنى صوته ، فقال : لا روعة عليك ولا بأس ، أنا أخوك الخِضر، إنّ أخى داود علّمك اسم الله الأعظم فلا تدعُ على أحد بينك وبينه شحناء فتهلكه ، ولكن ادع الله به أن يقوّىَ ضعفك ، ويؤنس وحشتَك ، وتجدّد به فى كلّ يوم نيّتك ورغبتك ، ثم تركنى وانصرف .

(١) رسالة القشيرى ص ٥١ .

رفع المسهم

وصحبه سفيان الثورىّ والفضيل بن عياض ودخل الشأم ومات بها . وكان يأكل من عمل يده ، مثل الحصاد وحفظ البساتين .

وكان كبير الشأن فى الوَرَع ، وقال : أَطِبْ مطعمك ولا عليك،ألاّ تقوم بالليل ولا تصوم بالنهار .

وكان عامة دعائه : اللهم انقلنى من ذلّ معصيتك إلى عز طاعتك .

وقال لرجل فى الطّواف : اعلم أنك لا تنال درجة الصالحين حتى تجوز ستّ عقبات ، وهى أن تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة ، وتغلق باب العزّ وتفتح باب الذلّ ، وتغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد ، وتغلق باب النوم وتفتح باب السهر ، وتغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر ، وتغلق باب الأمن وتفتح باب الاستعداد للموت .

وقال محمد بن المبارك الصورىّ : كنت مع إبراهيم بن أدهم فى طريق بيت المقدس ، فنزلنا وقت القيلولة تحت شجرة رمّان ، فصلّينا ركعات ، فسمعت صوتا من أصل الرمان : يا أبا إسحاق ، أكرمنا بأن تأكل مناشيئاً ، فطأطأ رأسه فقال ذلك ثلاث مرات ، ثم قال : يا محمد ، كن شفيعا إليه ليتناول منّا شيئاً ، فقلت : ياأبا إسحاق ، لقد سمعتَ ، فقام وأخذ رمانتين ، فأكل واحدة وناولنى الأخرى ، فأكلتها وهى حامضة ، وكانت قصيرة ، فلمّا رجعنا مررنا بها وهى شجرة عالية ورُمّانها حلو ، وهى تثمر فى كلّ عام مرتين ، وسمّوها رمانة العابدين .

وركب إبراهيم فى مركب ، فهاجت ريح شديدة ، فلفّ إبراهيم رأسه بعباءة وطرح نفسه مع الناس ، فسمعوا صوتا من البحر يقول : لا تخافوا ففيكم

إبراهيم بن أدهم ، وصاح الناس فى المركب : أين إبراهيم بن أدهم ؟ ثم سكنت الريح ، فخرج وما عرفوه .

قال له رجل : من أين كسبك ؟ فقال :

نرقّع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ، ولا ما نرقّعُ

وأخباره فى كتب التصوّف كثيرة تطول .

[ذكر جبلة بن الأيهم]

وأما جبلة بن الأيهم بن جبلة بن الحارث الأوسط بن ثعلبة بن الحارث الأكبر بن عمرو بن جَفْنة ، وفى نسبه اختلاف .

وهو آخر ملوك غسان ، وكان طوله اثنى عشر شبرا ، فإذا ركب مسح الأرض بقدميه .

ولما أراد أن يُسلِم كتب إلى عمر ليستأذنه فى القدوم عليه ، فسُرّ بذلك وكتب إليه : أن اقدَم ، فلك مالنا وعليك ما علينا ، فخرج فى مائة فارس من عَكّ وجفنة ، فلما دنا إلى المدينة ألبسهم ثياب الوشْى المنسوجة بالذهب الأحمر والحرير الأصفر ، وجلّل الخيل بجلال الديباج ، وطوّقها أطواق الذهب والفضة ، وليس تاجه وفيه قُرْطا مارية ، فلم يبق فى المدينة إلا من خرج إليه ، وفرح المسلمون بقدومه وإسلامه .

ثم حضر الموسم مع عمر ، فبينما هو يطوف بالبيت إذ وطىء على إزاره رجل من فزارة فحلّه ، فالتفت إليه جبلة مغضَباً ، فلطمه فهشم أنفه ، فاستعدى عليه الفزاريّ عمر ، فقال : ما دعاك إلى أن لطمت أخاك ؟ فقال : إنه وطىء إزارى ، ولولا حرمة هذا البيت لأخذت الذى فيه عيناه ، فقال له عمر : أمّا

أنت فقد أقررت ، فإما أن ترضيه وإما أن أقيدَه منك ، قال : أتقيدُه منى ، وهو رجل سوقة ! قال : قد شملك وإياه الإسلام ، فما تفضله إلا بالعافية ، قال : قد رجوتُ أن أكون فى الإسلام أعزَّ منى فى الجاهلية ، فقال : هو ذاك ، قال : إذاً أتنصّر . قال : إن تنصّرت ضربت عنقك . واجتمع وفد فزارة ووفد جَبَلة ، وكادت تكون فتنة ، فقال جبلة : أنظرنى إلى غد يا أمير المؤمنين . قال : ذلك إليك .

فلما كان فى جُنْح الليل خرج فى أصحابه إلى القسطنطينية فتنصّر ، وأعظم هِرَقْلُ قدومَه وسُرّ به وأقطع له الأموال والرّباع ، فلما بعثَ عمر رضى الله عنه رسوله إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام فأجابه إلى المصالحة ، ثم قال للرسول : أرأيت ابن عمّك الذى أتانا راغباً فى ديننا ؟ يعنى جبلة ، قال : لا . قال : ألقَه ثم ائتنى وخذ الجواب . فذهب فوجد على باب جَبلة من الجمع والحجاب والبَهْجة مثل ما على باب قيصر .

قال : فتلطّفتُ فى الأذن حتى دخلتُ عليه : فرأيت رجلا أصهب اللحية فأنكرته ، فإذا هو قد دعا بسُحالة الذهب فذرّها على لحيته ، حتى عاد أصهب ، وهو قاعد على سرير من قوارير . فلما عرفنى رفعنى معه على السّرير ، وجعل يسائلنى عن المسلمين ، فقلت : قد أُضعِفوا إضعافا على ما تعرف ، وسأل عن عمر رضى الله عنه ، فقلت : بخير حال ، فاغتمّ بسلامة عمر ، فانحدرتُ عن السرير فقال : لِمَ تأبى الكرامة ؟ فقلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن هذا ، قال : نعم صلى الله عليه وسلم ، ولكن نقِّ قلبك من الدّنس ولا تبالِ علام قعدت ، فطمعت فيه عند صلاته على النبىّ صلى الله عليه وسلم فقلت : ويحك ياجبلة ألا تُسلم ! وقد عرفتَ الإسلام وفضله ؟ قال : أبعدَ ما كان منى ! قلت : نعم ، قد فعل رجل من فزارة أكثر ممّا فعلت ، ارتدّ وضرب أوجه المسلمين

بالسيف ثم أسلم ، وقبِل منه وخلّفْتُه بالمدينة مسلما .

قال : زدنى من هذا ، إن كنت تضمن لى أن يزوّجَنى عمر ابنته ويولّيَنى الأمر من بعده ، رجعت إلى الإسلام . فضمنت له التزويج ، ولم أضمن الخلافة . فأومأ إلى وصيف بين يديه، فذهب مسرعاً فإذا موائد الذهب قد نُصبت بصحائف الفضة، فقال لى : كُلْ ، فقبضت يدى ، وقلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الأكل فى آنية الذهب والفضة ، فقال : نعم صلى الله عليه وسلم ، ولكن نقّ قلبك ، وكلْ فيما أحببت . فأكل فى الذهب والفضة ، وأكلتُ فى الخلَنج[1] . ثم جىء بطشت من الذهب، فغسل يديه فيها ، وغسلت فى الصُّفر . ثم أومأ إلى خادم عن يمينه ، فذهب مسرعاً ، فسمعت حسًّا ، فإذا خدمٌ معهم كراسىّ مرصّعة بالجواهر ، فوُضِع عشرة عن يمينه وعشرة عن يساره . وإذا عشر جوار فى الشعور ، عليهنّ ثياب الوشى ، مكسّرات فى الحلْى ، فقعدن عن يمينه ، وقعد مثلهن عن يساره ، وإذا بجارية قد خرجت كالشمس حسنا ، وعلى رأسها ناج عليه طائر ، وفى يدها اليمنى جَام ، وفيه مسك وعنبر فتيت ، وفى يدها اليسرى جام فيه الورد ، فصفرت للطائر ، فوقع فى جام ماء الورد ، فاضطرب فيه ، ثم وقع فى جام المسك ، فتمرّغ فيه، ثم طار فوقع على صليب فى تاج جبلة ، فرفرف حتى نفض ما فى ريشه عليه ، وضحك جبلة من شدة السرور ثم قال للجوارى اللاّتى عن يمينه : بالله أضْحِكْنا فاندفعن يغنين ، تحقق عيدانهنّ يقلـــــن :

لله درّ عصـــابة نادمتُهمْ يوماً بِجلّقَ فى الزمان الأوّلِ[2]

---

(١) الخلنج : شجر تتخذ منه الأوانى .

(٢) ديوان حسان ص ٣٠٨ .

رفع المسهم

يسقُونَ منْ ورد البريصَ عليهمُ بَرَدَى يصفّق بالرحيق السلسل[1]
أولاد جفنة حول قبر أبيهمُ قبر ابن مارية الكريم المفضلُ
يُغْشَوْن حتى ما تهرّ كلابهمْ لا يسألون عن السواد المقبل
بيض الوجوه نقيّةٌ أحسابُهُمْ شمّ الأنوف من الطّراز الأولِ

فضحك ثم قال : أتدرى من قائل هذا ؟ قلت : لا ، قال : حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثمّ قال للاتى عن يساره : بالله أبكينا ، فاندفعن بعيدانهنّ يغنّين :

لمن الدار أقفرتْ بعُمانِ بين أعلى اليرموك والصّمّانِ[2]
ذاك مغنى لآل جفنة فى الدّهْـــر وحقٌّ تعاقبُ الأزمانِ
قد أرانى هناك دهراً مكينا[3] عند ذى التاج مَجْلِسى ومكانى
ثَكِلَتْ أمّهم وقد ثكلتْهُمْ يوم حَلُّوا بحارث الجُولان
ودنا الفِصْح فالولائد ينظمـــ ـن سراعا أكِلّةَ المرجان

فبكى حتى سالت الدموع على لحيته ، ثم قال لى : وهذا لحسان أيضاً ، ثم أنشأ يقول :

تنصّرت الأشراف من أجلِ لطمةٍ وما كان فيها لو صبرتُ لها ضَرَرْ
تكنّفنى فيها لجـــاج ونخوةٌ وبعتُ بها العينَ الصحيحة بالعَوَرْ
فيـــا ليت أمّى لم تلدْنى وليتنى رجعت إلى الأمر الذى قال لى عُمَرْ
وياليتنى أرعى المخاضَ بقفرةٍ وكنت أسيراً فى ربيعة أو مُضَرْ

---

(١) لحسان بن ثابت ، ديوانه ٣٠٨ ، مع اختلاف فى ترتيب الأبيات
(٢) البريص وبردى : نهران بالشام . ويصفق يمزج .
(٣) لحسان ، ديوانه ٤١٤ ، وفيه : « أوحشت بعمان » وفيه أيضاً : « فالحام » بدل « الصمان » قال شارحه : وهى مواضع بأكناف دمشق .
(٤) الديوان « حق مكين »

رفع المسهم

ويا ليت لى بالشأم أدنى معيشةٍ أجالس قومى ذاهبَ السمع والبصرْ

ثم سألنى عن حسان ، أحىٌّ هو ؟ قلت: نعم . ثم أمر بمال وكسوة ونُوق موقورة برًّا ، وقال : أقرئه سلامى ، وادفع له هذا إن وجدته حيًّا ، وإن وجدته ميّتاً ، فادفعه إلى أهله ، وانحر الجمال على قبره .

قال: فلما قدمت على عمر أخبرته الخبر، فقال : هلاّ ضمنتَ له الأمر،فإذا أسلم قضى الله علينا بحكمه ! ثم بعثت إلى حسان ، فأقبل وقد كُفّ بصره ، فلما دخل قال : ياأميرالمؤمنين إنى وجدتُ ريح آل جفنة ، قال: نعم ، هذا رجل أقبل من عنده قال : هات يا بن أخى ما بعث به إلىّ معك ؟ قلت : وما علمك ؟ قال : إنه كريمٌ من عصبة رجال كرام مدحتُهم فى الجاهليّة ، فحلف ألاّ يلقى أحداً يعرفنى إلا أهدى إلىّ معه شيئاً . فدفعته إليه وأخبرته بأمره فى الإبل ، فقال : وددت أنى كنت ميتاً فنحرتَ على قبرى ، ثم أخذها وانصرف وهو يقول :

إنّ ابنَ جفنة من بقيّةِ معشرٍ لَم يُغذُهم آباؤهمْ باللُّـــوم
لم يَنسنى بالشام إذ هو ربُّها كلاًّ ولا متنصِّراً بالـــروم
يعطى الجزيل، ولا يراه عنده إلا كبعض عطية المـــذموم
وأتيته يوما فقرّب مجلسى وسقى وروّانى من الخرطوم

وذُكِر أنّ رسول عمر لما أرسله إلى قيصر ، قال : وأمرنى أن أضمن لجبلة ما شرط ، فلمّا قدمت القسطنطينية وجدت الناس منصرفين من جنازته ، فعلمت أن الشقاء قد غلب عليه[1].

— وحُدّثت أن صاحب بَرْطونة[2] اليوم من ذرّيته . وذكر الثعالبىّ أنه وجد للصّابى فصلا من كتاب استظرفه جدًّا ، يذكر صلةً وصلت إليه

(١) برطونة : بليدة على الفرات مقابل رحبة مالك بن طوق ـ ياقوت .
(٢) انظر خزانة الأدب ٢ : ٢٤١ .

من الصاحب ، وهو : وصل أطال الله بقاء سيدنا أبو العباس أحمد بن الحسين ، وأبو محمد أحمد بن جعفر بن شعيب حاجّين ، فعرّجا إليّ ملمّين ، وعاجا عليّ مسلّمين ، فحين عرفتهما ، وقبل أن أردّ السلام عليهما مددت اليد إلى مامعهما ، كما مدّها حسان بن ثابت إلى رسول جبلة بن الأيهم ، ثقةً منّى بصلته ، وشوقاً[1] إلى تكرمته ، واعتماداً[2] لإحسانه ، وألفا لموارد إنعامه ، وتيقّناً أن الخطرة منى على باله ، مقرونة بالنّصيب من ماله ، وأن ذِكْراه ، مشفوعة بجدواه[3].

رجع ما انقطع . فيريد أنه لو خطب لهؤلاء القوم ابنُ أدهم على زهده وفضله ، أو ابن الأيهم على ملوكيته وعزته لسوّوْا بينهما فى الصّداق اقتداء بالنبيّ صلى الله عليه وسلم .

[ذكر مغالاة الصّدُقات]

وجاء فى الترمذىّ أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: لاتغالُوا فى صَدُقات النساء ، فإنها لو كانت مكرمة أو تقوى عند الله ، لكان أولاهم بها نبىّ الله صلى الله عليه وسلم ، وما أعلم أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نكح شيئاً من نسائه ، على أكثر من اثنتى عشرة أوقية .

قال ابن عيينة : والأوقية عند أهل العلم أربعون درهما ، واثنتا عشرة أوقية أربعمائة وثمانون درهما .

وفى غير الترمذى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : «تياسروا فى الصّداق» وكانت صدقات أزواج النبى صلى الله عليه وسلم على عظم قدره ، وعلو مرتبته

---

(١) اليتيمة : « تشوقا »
(٢) اليتيمة : « واعتبادا »
(٣) يتيمة الدهر ٢ : ٢٢٢

اثنتى عشرة أوقية ونشًا ، والنَّش عشرون درهما ، فذلك خمسمائة درهم .

وروى عن عمر رضى الله عنه: أنه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ألا لاتغالوا فى صَدُقات النساء ، فإنه لا يبلغنى عن أحد أنه ساق أكثر من شىء ساقه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو سيق إليه إلاّ جعلت فضل ذلك فى بيت المال . فعرضتْ له امرأة فقالت : يا أمير المؤمنين ، كتاب الله أحق أن يُتَّبع أو قولك؟ قال : كتاب الله تعالى . ثم قال : فيم ذلك ؟ قالت : الله تعالى يقول : ﴿ وآتيتم إحداهنّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ﴾[1] . فقال عمر رضى الله عنه : كلّ أحد أفقه من عمر ! ثم رجع إلى المنبر ، فقال : إنى كنت نهيتُكم عن أن تغالوا فى صدقات النساء ، فليفعل كلّ رجل منكم فى ماله ما أحبّ .

فرجع عمر عن اجتهاده إلى ما قامت عليه الحجة فأباحه للناس واستعمله فى نفسه ، فأصدق أم كلثوم بنت علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهم أربعين ألفاً . والقنطار ألف دينار ومائتا دينار ؛ إلا أن المياسرة فى الصداق أحبّ عند أهل العلم من المغالاة .

ومن الملح فى صداق خمسمائة ، ما حدّث به ابن أبى شيبة قال : كان حجاج جارنا، فسمعته يقول لأبيه: تزوجَتْ أمى على خمسمائة درهم ، وبقيت أنا لك ربحاً ، فقال له أبوه : من سخنة عين هذا الربح أخشى .

* * *

قوله : مَهرَ : يقال : مَهرَ المرأة يمهَرها ، وأمهرها : عيّن لها مهراً . لن تطالَب بصداق ، أى أن القصة ليس لها حقيقة. فليس ثَمّ من يطالبك بصداق ولا طلاق. حشدك : جمعك ، وأصله مصدر، ثم استعمل لجماعة الناس . تفتُق : تشق . رتْق: غلق . والسمع : الأذن .

* * *

(١) سورة النساء ٢٠

قال الحارث بن همّام : فازْدَهانى بوصْفِ الخطبةِ المتلُوّة ، دُونَ الخِطْبة المجلوّة ؛ حتى قلت له : قدْ وَكَلْتُ إليْكَ هـذا الخَطْب ؛ فدبِّره تَدْبير من طبّ لمن حَبّ .فنهضَ مُهَرْولاً ، ثمّ عادَ مُتَهلِّلاً ، وقال : أبْشِرْ بإعْتابِ الدَّهْر ، واجْتِلابِ الدَّرّ ؛ فقدْ وُلِّيتُ العَقْد، وأكفِلْتُ النَّقْد ، وكأنْ قَدْ ثم أخذ فى مواعَدَةِ أهلِ الخان ، وَ إعْدادِ حَلْواءِ الخِوان . فلمَّا مَدَّ اللّيلُ أطْنابَه ، وَأغلق كُلُّ ذى بابٍ بابَه ، أذَّنَ فِى الجماعة : ألاَ احْضُرُوا فِى هذه السّاعَة ؛ فلمْ يَبقَ فيهمْ إلاَّ مَنْ لَبَّى صَوْتَه ، وحَضرَ بيتَه. فلما اصْطَفُّوا لَدَيْهِ ، واجْتمعَ الشاهِدُ والمشهودُ عليه ، جَعَل يرفع الأصْطرْلاب ويَضعُه ، ويلحظُ التّقويم وَيَدَعُه ، إلى أن نَعَس القـوْم ، وغَشِىَ النَّوْم ، فقلتُ له : يا هذا ضعِ الفاسَ فى الرّاس ، وخلّصِ الناس من النُّعاس . فنظر نظرَةً فى النُّجوم ، ثمّ انتشط من عُقْـلَه الوُجُوم ، وأقسَم بالطُّور ، والـكتابِ المسْطـــور ؛ لَيَنْكَشِفَنَّ سِرُّ هَذَا الأمْرِ المسْتُور ، ولَيَنْتشِرَنَّ ذِكْرُه إلى يَوْم النّشور . ثمَّ إنَّهُ جثَا عَلَى رُكْبَتِهِ ، واسْتَرْعَى الأسْمَاعَ لخطْبَتِهِ ،

* * *

ازدهانى : دعانى إلى الزهو ، وهو العُجب والـكبر ، أى أعجبت بوصفها ، المتلوّة : المقروءة . الخِطبة : الزوجة المخطوبة . المجلوّة : التى كشف وجهها لينظر إليها . وكَلْت : أسندت إليك ، وجعلتك القائم . الخطب : الأمر .

طبّ : أصلح حال العليل . فيقول : دبّر هذا الأمرَ تدبير الطبيب أمرَ

حبيبه إذا كان عليلا ، وطبّه أى عناه ، وقيل : معنى طبّ حذق بالشىء وجاد فيه ذهنُه ، والطّبّ :الحاذق بالأمر ، فيكون معناه ، دبِّر أمرِى تدبير المميّز الحاذق أمرَ حبيبه .

قال ابن الأنبارىّ : قولهم : مَنْ حبّ طبّ ، أى من أحب حَذَق وفطِن واحتال لمن يحب ، والطّبّ فى اللغة : الحِذْق والفطنة ، ورجل طبيب وطبّ ، إذا كان حاذقًا ، وسمِّى الطّبيب لفطنته .

ومعنى حَبّ أحبّ . وقال البصريون : لا يقال : حبّ يُحِبّ ، وجاء عنهم : محبوب ، على فعلٍ لا يُتكلم به . الكسائى والفراء : يقال : حببت وأحببت ، وحبّ فى المثل يدلّ على صحته . والبصريون يقولون . حبّ إتباع لطبّ .

مهرولا : مسرعاً . متهلّلا : مستبشراً . إعتاب : إرضاء . الدّرّ : اللّبن . ولّيت العقد ، أى أعطيت النكاح ، أى جعلنى أبو الزوجة وليًّا لها . أكفلت النقد ، أى جعلت كفيلا على أخذه ، والكفيل : الضامن ، أو يكون معنى أكفلت: ضمن لى وأعطيت كفيلاً . والنّقد : المال الحاضر . وكأن قد ، أى وكأن قد أحضر المال وتيسّر النكاح . الخوان : المائدة . أذّن : صاح . لبى : أجاب وقال : لبيك . الأصطرلاب : آلة للمنجّمين يأخذون بها الأوقات . يلحظ : ينظر . التقويم : التعديل . غَشِىَ النوم : غطّى العيون وخمّرها . ضع الفاس فى الراس ، أى اقصد إلى عين الخبر ، وهى كلمة تقال عند التوكيد فى العزم على الأمر ، ومعناه : اقطع ما تريده من الأمر وافعله .

والذى نظر نظرة فى النجوم ، هو إبراهيم عليه السلام ، لأنه تفكر ما الذى يصرفهم عنه إذا كلّفوه الخروج معهم ، فقال : إنى سقيم . انتشط : انحلّ . والعُقلة : ما ينشب فيها الإنسان فتعقله ، ويقال : لفلان عُقلة يعتقل بها الناس ، وذلك إذا صارعهم عقل أرجلَهم . والوجوم : العبوس والحزن الشديد ، أراد

أنه كان فى تقويمه طالع نحس ، فكان معبّسا حزيناً ، فلما زالت ساعته ودخلت ساعة طالع سعد ، استبشر وزال عبوسه ، وإنما عقد هذا النكاح ليلاً لأن قصدَه المكر ، ولأنهم كانوا يختارون نكاح آخر النهار على أوله . قال بعض العلماء: ذهبوا فى ذلك إلى اتّباع السنة فى الفأل ، فآثر الناس استقبال الليل بعقد النكاح ، تيمّناً بما فيه من الهدوّ والاجتماع على صدر النهار ، لما فيه من التفرق والانتشار، وذهبوا إلى تأويل القرآن لأن الله سمّى الليل فى كتابه «سكَناً» ، وجعل النهار « نشوراً » كما يستحبون النكاح يوم الجمعة للاجتماع ، وقال الشاعر :

ويوم الجمعة التنعيم فيه وتزويج الرّجال من النساء

الطور : جبل موسى عليه السلام الذى آنس من جانبه النّار وكلّمه الله عنده . سرّ هذا الأمر ، أراد ما أضمره لهم من الخداع ، أى أنه سينكشف ويتحدّث به إلى يوم القيامة . جثا : يجثو جُثُوًّا : جلس على ركبتيه . استرعى : استدعى . الأسماع : الآذان ، ويقال : أرعنى سمعك ، أى اسمع منى ، وأخلِ أذنيك لاستماع حديثى .

* * *

وقال : الحمد لله الملِك المحمود، المالِك الوَدُود ، مصوّرِ كلِّ مولودٍ، ومآلِ كلِّ مَطْرود ، ساطِحِ المِهاد ، وموطِّدِ الأطواد ، ومرسل الأمطار ، ومُسَهِّلِ الأوطار ، عالِمِ الأسرار ومُدْرِكها ، ومدمِّرِ الأملاكِ ومُهْلِكها ، ومكوِّرِ الدّهور ومكرِّرها ، ومُوردِ الأمورِ ومُصْدِرها . عمّ سَماحُه وكَمَل ، وهَطَل رُكامه وهَمل ، وطَاوَع

السُّؤل وَالأَمَل. وأوسَعَ المرْمِل والأرْمَل . أَحْمَدُه حمداً ممدوداً مداه ، وَأُوَحِّده كما وَحّدَه الأوّاه ، وَهو اللهُ لا إله للأُمم سِواه ، وَلا صَادِعَ لِمَا عدّله وَسوّاه. أَرْسلَ محمداً عَلَماً لِلإسلام ، وَإِماما للحكّام ، وَمُسدِّدًا للرّعاع ، ومعطِّلاً أحكام وَدٍّ وسُواع ، أعْلَمَ وعلَّم ، وحَكَم وأحْكم ، وأصّلَ الأُصُولَ وَمَهَّد ، وأكّد الوُعود وأَوْعَد ؛ واصل اللهُ لهُ الإكرام ، وأوْدَعَ روحه دار السَّلاَم ، ورحم آله وأهله الكرام ؛ ما لَمَع آل ، ومَلَع رال ، وطلع هلال ، وسُمِع إهْلال .

. . .

قوله : مآل ، أى ماجأ . مطرود : مَنْفِيّ . ساطح : باسط . للهاد : الأرض . موطّد الأطواد : مثبّت الجبال . والأوطار : الحاجات . مدمّر الأملاك ، أى مهلك الملوك ، والأملاك : جمعَ ملِك .

[أشعار فى التطيّر من الدنيا والزهد فيها]

وهذا كما قال عدّى بن زيد :

أينَ كسرى كسرى الملوكِ أنوشِرْ ... وانَ أم أين قَبْلَهُ سابورُ[1]
وبنو الأصفر الكرام ملوك الرّوم لم يبق منهمُ مَذكور
وأخو الحضْر إذ بَناهُ واذ دجْلة تجبَى إليه والخابور[2]

---

(١) الأغانى ٢ : ١٣٨ ، ١٣٩ من قصيدة مطلعها :

أيُّهَا الشامِتُ المعيِّرُ بالدّهـ ... ـر أأنتَ المبرَّأ الموفورُ

(٢) الخابور : اسم لنهر كبير فى أرض الجزيرة ، والحضر : قصر بتكريت .

رفع المسهم

وتفكّر ربّ الخورنق إذ أشـــرف يوما وللهدى تذكيرُ[1]
لم يهبْهُ رَيْبُ المنون فباد الـــمُلك عنه فبابُه مهجورُ
ثم بعد القلاع والملك والإمْـــرَةِ وارتهمُ هناك القبورُ
ثم راحُوا كأنهم قصبٌ جفّ فألوتْ به الصَّبَا والدَّبورُ

وقال الأسود بن يعفُر :

ولقد علمتُ لو أنّ عِلمِى نافِعِى أن السبيل سبيل ذى الأعوادِ[2]
ماذا أؤمل بعد آل محرّقٍ تركوا منازلهمْ وبعد إيادِ
جَرت الرياحُ على محلِّ ديارهمْ فكأنّهُمْ كانوا على ميعادِ[3]
ولقد غنُوا فيها بأكرم غبطةٍ[4] فى ظلّ ملك ثابت الأوتادِ
فإذا النّعيم وكلّ ما يُلْهَى به يوماً يصير إلى بِلًى ونفادِ

الأصمعىّ: أصيب فى حفير حول الحيرة تابوت ، فيه رجُلٌ عليه خُفّان ، وعند رأسه لوح فيه : « أنا عبد المسيح بن حيان بن بقيلة .

حلبتُ الدهر أشطَرَه حَياتِى ونلتُ من المُنَى فوق المزيدِ
وكافحت الأمور وكافحتنى ولم أخضع لمعضلةٍ كئودِ
وكدت أنال بالشّرف الثريا ولكن لا سبيل إلى الخلود»

---

(١) بعده الأغانى :

شادَهُ مَرْمَراً وجلّله كِلْـــسًا فللطَّيرِ فى ذُرَاه وُكورُ

(٢) المفضليات ٢١٦ ، وروايته : « ولقد علمت سرى الذى نبأتنى »

(٣) المفضليات : « فكأنما كانوا » .

(٤) المفضليات : « عيشة » .

دخل أُرطاة بنُ سهيَّة على عبد الملك ، فقال : كيف حالك ؟ ـ وكان قد أسنّ ـ فقال : ضَعُف حالِي ، وقلّ مالي ، وكثر منىّ ما كنت أحبّ أن يقلّ ، وقلّ منّى ما كنت أحبّ أن يكثر ، قال : فكيف أنت فى شعرك ؟ فقال : والله ما أغضب ، ولا أطرب ، ولا أرهب ، وما الشعر إلا من نتائج هذه ، على أنّى القائل :

رأيت المرء تأكلهُ الليالى كأكل الأرض ساقطةَ الحديدِ
وما تبغى المنيّـة حين تأتِى على نفس ابن آدم من مزيدِ
وأعـلم أنّهـا عمّا قليـــلٍ ستُوفِى نذرها بأبى الوليـدِ

فارتاع عبد الملك ، ثم قال : بل تُوفى نذرها بك، مالى ولك ! قال : ياأمير المؤمنين لا تُرَعْ ، فما عَنيتُ إلاّ نفسى ، فقال : أما والله لتلمّنّ بى .

وأبو الوليد كنية لعبد الملك ولأرطاة .

* * *

والتكوير : إدخال الليل على النّهار والنّهار على الليل ، وكوّرتُ الشىء رددتَه ، ولويتَ بعضَه على بعض . هطل وهَمَل، معناهما صبّ . الرّكام: السحاب المتراكم . السُّؤل : المطلوب . أوسع : أغنى . المرمِل: الذى نَفِد زاده .الأرمل : الفقير ، أو الذى ماتت زوجته ، أوالتى مات زوجها ، يقال لها أرمل وأرملة ، ومنع قوم أن يقال للفاقد زوجته : أرمل ، وأجازه بعضهم .

بداه : غايته. الأوّاه: إبراهيم عليه السلام ، وهو من التأوّه ، وهو التوجّع والتحزّن والنطق بأوّاه أوّاه ! صادع : مفسد ، والصدع : الشقّ فى زجاجة أو حائط . علمًا ، أى إماما يهتدى به . مسدّداً : مصلحا . والرعاع : السقّاط

والضَّعفة من الناس . وَدّ وسُواع : صنمان . حكم : قضى. أحكم : أتقن . أصّل: ثبّت الأصول . مَهّد : سوّى ووطّأ . الوعود : جمع وعد . أوعد: هدّد وخوّف. واصل : داوم . أودع روحه دار السلام : أدخله الجنة . آل : سراب . مَلَع : أسرع . رال : فرخ النعام . إهلال : رفع الصوت بالتلبية بمكة .

* * *

اعْمَلُوا رعاكم اللهُ أصلحَ الأعمال ، واسْلُكوا مسالكَ الحلال، واطّرِحوا الحرَام ودعُوه ، واسْمَعُوا أمْرَ الله وَعُوه ، وَصِلُوا الأرحام وراعوها ، وعاصُوا الأهواء وارْدَعُوها ، وصَاهروا لَحُمَ الصَّلاَحِ والْوَرَع ؛ وصَارِمُوا رَهْطَ اللَّهْوِ والطَّمَع . ومُصاهِرُكُمْ أَطْهرُ الأحْرارِ مَوْلِداً ، وأسْرَاهُمْ سؤْدُداً ، وَأَحْلاَهُمْ مَوْرِدًا ، وَأَصَحُّهُمْ مَوْعِداً . وَهَاهُوَ أُمَّكُمْ ، وَحَلَّ حُرَمَكُمْ ، مُمْلِكاً عَرُوسَكُمُ المكرّمة ، وماهراً لها كمَا مَهَرَ الرَّسولُ أُمَّ سلمَة ، وَهُوَ أَكرَمُ صِهْرٍ أودِعَ الأَوْلاَد ، ومُلِّكَ ما أَرَادَ ، وماسَهَا مُملِكُهُ وَلاَ وَهِم ؛ ولا وُكِسَ مُلاحِمُهُ ولا وُصِم ، أسأل الله لكم إحماد وصاله ودوام إسعادِه ، وألهَمَ كلاً إصلاحَ حالِه والإعدادَ لمعادِه . ولهُ الحمدُ السَّرْمَدُ ، والمدْح لِرسولِهِ محمد .

• • •

اطّرحوا : اتركوا وارموا به . عُوه : احفظوه . الأرحام : القرابات ، الواحد رَحِم ، والأرحام من النساء الواحد رحم ، راعوها : احفظوها وحاموا عليها . الأهواء : دواعي النفس . ارْدَعُوها : كُفّوها . صاهروا : ناكحوا .

رفع المسهم

لحم : قرابات ،ولحمة النسب : التحام القرابة وانضمامها . صارموا : قاطعوا . مصاهركم : خَتَنُكم المتزوّج إليكم . أسراهم : أشرفهم وأكثرهم مروءة ، وقد سَرِيَ فهو سريّ . أمّكم : قصدكم . حلّ : نزل حرمكم : بلدكم وموضعكم، الذى هو كالحرمَ فى أمته . مُمْلكا : متزوّجا ، والإملاك : التزويج الذى تُمْلَك به المرأة .

قال ابن هشام : أمّ سلمة بنت أمية بن المغيرة ، تزوّج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وقعة بدر فى سنة اثنتين من التاريخ ، واسمها هند بنت أمية زاد الركب بن المغيرة ، وفى حديث أنس رضى الله عنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم تزوج أمّ سلمة على متاع قيمته عشرة دراهم .

سها : أخطأ . مُمْلِكه : منكحه الذى أعطاه وليّته . وَكْس : غبن ، ووَهِم . فى الحساب : غلط فيه ، وملاحه : أى مصاهره . وُصِم : عِيب ، والوصْم :العيب ، وأحمد الرجل احمادًا ، أى صار أمره إلى الحمد ، أراد أنه من أهل الأحساب فلا ينقص مَنْ يصاهره . الإعداد للمعاد ، أى الاستعداد لليوم الذى يعاد فيه إلى نشأته الأولى . السّرمد : الدائم . والرسول : الذى يتابع أخبار الذى بعثه ، أخذا من قولهم : جاءت الإبل أرسالا ، أى متتابعة ، ويثنّى رسولان ، ويجمع رسل . ومنهم من يوحّده فى كل حال ، قال الله تعالى : ﴿ أنّا رسولُ رب العالمين ﴾[1] وحّده ، لأنه فى معنى الرسالة ، وأنشد :

فأبلغ أبا بكر رسولا سريعة فما لك يابن الحضرميّ ومالیا

---

(١) سورة الأعراف آية ١٠٤

قال الفراء رحمه : الله وحدّه اكتفاء بالرسول من الرسولين ، وأنشد :

أَلِكْنِي إليها وخير الرسـ ـو ل أعلمُهمْ بنواحى الخبَرْ[1]

أراد الرّسل ، فاكتفى بالواحد عن الجمع .

* * *

[بعض خطَب النكاح]

وإذ كملت الخطبة فلنسق من خطب النكاح ما يحسن بالوضع .

ومن مشاهير الخُطب فيه خطبة أبى طالب فى تزويج النبى صلى الله عليه وسلم من خديجة رضى الله عنها وهى :

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزَرْع إسماعيل ، وجعل لنا حَرَماً آمنا وبيتا محجوجا ، وجعلَنَا الحكامَ على الناس . ثم إن محمد ابن عبد الله ابنُ أخى ، ممّن لا يوازن فتى فى قريش إلا رجح به برًّا ، وفضلا ، وكرما وعقلا ، ومجدا ونبلا ، وإن كان فى المال قُلّ فإنما المال ظلّ زائل ، وعارية مسترجعة ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك وما أحببتم من الصّداق فعلىّ .

فهذه الخطبة من أفضل خطب الجاهلية .

وعن يحيى بن أكثم : أراد المأمون أن يزوج ابنته من علىّ الرضا ، فقال : يا يحيى تكلم ، فأجلَت أن أقول : أنكحت ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ، أنت الحاكم الأكبر والإمام الأعظم ، وأنت أولى بالكلام ، فقال :

---

(١) اللسان ـ رسل ، ونسبة إلى أبى ذؤيب .

رفع المسهم

الحمد لله الذى تصاغرت الأمور بمشيئته ، ولا إله إلا الله إقرارا بربوبيته ، وصلى الله على سيدنا محمد عند ذكره وعترته . أما بعد ، فإن الله سبحانه قد جعل النكاح دينا، ورضيه حكما ، وأنزله وحيا ، ليكون سببا للمناسله وإنى قد زوّجت ابنة المأمون من علىّ بن موسى الرضا ، وأمهرتها أربعمائة دينار ، اقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانتهاء إلى ما درج إليه السلف الصالح ، والحمد لله رب العالمين .

وحضر المأمون إملاكا وهو أمير ، فسأله مَنْ حضر أن يخطب ، فقال : الحمد لله، والصلاة على المصطفى رسوله ، وخير ما عُمل به كتاب الله : ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم[1] ﴾ ، ولو لم يكن فى المناكحة آية منزّلة ولا سنة متّبعة إلاّ ما جعل الله فى ذلك من تأليف البعيد ، وبرّ القريب ، لَسارع إليه الموفّق المصيب ، وبادر إليه العاقل اللبيب .

وفلان قد عرفتموه فى نسبٍ لم تجهلوه ، خطب إليكم فتاتكم فلانة ، وقد بذل لها من الصداق كذا ، فشفّعوا شافعنا ، وأنكوا خاطبنا ، وقولوا خيرا تحمدوا عليه وتؤجروا فيه .

أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم .

وخطب رجل من بنى أمية إلى عمر بن عبد العزيز أخته ، فأطال ، فقال عمر: الحمد لله ذى الكبرياء ، وصلّى الله على محمد خاتم الأنبياء ، أما بعد فإن الرغبة منك دعت إلينا ، وإن الرغبة منا فيك أجابت بنا ، وقد أحسن بك ظنا مَنْ أودعك كريمته ، واختارك ولم يختر عليك ، وقد زوّجناك على كتاب الله تعالى، إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان .

---

(١) سورة النور آية ٣٢

رفع المسهم

وكان الحسن البصرىّ رحمه الله يقول فى خطبة النكاح بعد الحمد والثناء.

أما بعد فإن الله تعالى جمع لهذا النكاح الأرحام المنقطعة، والأنساب المفترقة، وجعل ذلك فى سنة من دينه، ومنهاج من أمره، وقد خطب فلان إليكم، وعليه وعليكم من الله نعمة، وهو يبذل من الصدق كذا، فاستخيروا الله، وردوا خيرا، يرحمكم الله!

الأصمعى رحمه الله: كانوا يستحسنون من الخاطب أن يطيل ليدل على الرغبة، ومن المخطوب إليه الإيجاز ليدل على الإجابة.

* * *

فلمّا فرغ من خطبته البديعه النِّظَام، العَرِيّة من الإعجام، عَقد العَقْدَ على الخمْسِ المئين، وقال لى: بالرِّفاءِ والبنين. ثمّ أحضر الحلْوَاء التى كانَ أعدَّها، وأبْدَي الآبدَة عندَها. فأقبلتُ إقبالَ الجماعةِ عَلَيْها، وكِدْتُ أهْوِى بيدى إليها، فزجَرَنى عن المُؤَاكلة، وأنهضنِى للمُناولة؛ فوالله ما كان بأسْرَعَ من تَصافُح الأجفان، حتّى خرَّ القومُ للأذقان. فلمّا رأيتُهم كأعجازِ نخلٍ خاوية، أو كصَرْعَى بنتِ خابية؛ علِمْتُ إنَّهَا لإحْدَى الكُبر، وأمُّ العبَر؛ فقلتُ له: ياعُدَىّ نفسهِ، وعُبَيْدَ فَلْسِه، أعددْتَ للقومِ حَلْوَى، أم بَلْوَى؟ فقال: لم أعْدُ خبيص البَنْج، فى صِحَافِ الخَلَنْجِ. فقلتُ: أقسِمُ بمَنْ أطْلَعَها زُهْراً، وهَدَى بها السَّارين طُرّاً؛ لَقَدْجئتَ شيئاً نُكْرًا، وأبقيت لكَ فى المخزيات ذكراً!

* * *

قوله : البديعة النظام : أى الغريبة التأليف . العريّة من الإعجام ، أى العاطلة من النقط . الرِّفاء : السكون والالتحام ، ويُدْعى للمتزوّج ، فيقال له : بالرِّفاء والبنين ، أى بالاتفاق مع الزوجة ووجود البنين مما يكون منها ، وهو من رفأتُ الثوب ، إذا ضممتَ بعضه إلى بعض، ومن رَفَوْتَ الرّجل إذا سكنتَه، قال أبو زيد رحمه الله : هو من المرافاة غير مهموز ، وهى الموافقة .

تزوّج عَقِيل بن أبى طالب فقيل له : بالرِّفاء والبنين ، فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا رفأ أحدكم أخاه فليقُل : على الخير والبركة ، بارك الله لك وبارك عليك » .

الآبدة : الداهية ، وجاء بآبدة ، أى بكلمة أو خصلة وحشية منكرة ، واشتقاقه من الأوابد ، وهى الوحش ، وكذلك الآبد ، يقال : أبد الشاعر ، إذا أتى بالعويص فى شعره ، فمعنى أبدى الآبدة ، أى أظهر الداهية التى يبقى ذكرها على الأبد . زجرنى : نهانى . أنهضنى : أقامنى وقدّمنى . المناولة : إعطاء الطعام . تصافح الأجفان: غلقها وفتحها بسرعة ، كقولك: طرفة العيون. خرّوا للأذقان، أى سقطوا على وجوههم ، والذّقن مجمع اللّحيين يعبّر به عن الوجه ، لأن العرب تسمّى الشىء ببعض ما فيه ، وإذا خَرّ على وجهه ، فأقرب شىء إلى الأرض ذقنه ، فخصّه بالذِّكر لهذا ، قال الله تعالى : ﴿يخرّون للأذقان سُجَّدا﴾(١) أعجاز : أصول . خاوية : فارغة متأكّلة ، ويقال: خاوية ساقطة بالية . صرعى: قتلى ، وأراد به السكارى ، . وبنت الخابية : ، هى الخمر ، ومعنى الخابية التى تخبأ فيها الأشياء ، مأخوذ من خبأت، فبُنيت على ترك الهمز، ويقال: خبأت الشىء وخبّأته وخبّيته ، وقرأت الشىء وقريته . إحدى الكبر : واحدة من الكبائر.

(١) سورة الإسراء آية ١٠٧ .

رفع المسهم

أم العبر : أى أعظم الدواهى ، وما يُتّعظ به . لم أعدُ : لم أتجاوز . الخبيص : نوع من الحلواء . البَنج : نبات يسكر منه ، وهو لبن الخشخاش البرىّ المعروف بالأفيون . والخلنج : ضرب من الخشب . زُهرا : مضيئة ، يعنى الكواكب . السارين : الماشين بالليل . طرًّا : جمعا . نُكْراً : منكرا . والمخزيات : جمع مخزية ، وهى الخصلة الرديئة يختزى صاحبها متى ذكرتْ له ، والخزى الهوان .

* * *

ثمّ حِرْتُ فِكْرَةً فى صَيُور أَمْرِه ، وخيفةً من عَدْوَى عَرِّه ، حتى طَارَتْ نَفْسِى شَعَاعًا ، وأُرْعِدَتْ فرَائِصِى ارتياعًا . فلمّا رأى استِطَارَةَ فَرَقِى ، واستِشاطةَ قَلقى ، قال : ما هذا الفِكْرُ المُرْمِض ، والرّوْعُ المُومِض ؟ فإنْ يكُنْ فِكْرُكَ فى أَجْلِى ، من أجْلِى ؛ فأنا الآن أَرتع وأطفِر ، وأُقوِى هَذِهِ البُقْعَةَ مِنِّى وأُقْفِر ، وكَمْ مِثلِها فارقتُها وهى تَصْفِر ؛ وإن يكُنْ نظرًا لِنَفْسِك ، وحَذَرًا من حَبْسِك ، فتناوَلْ فُضالَةَ الخَبِيص ؛ وَطِبْ نفساً عن القميص ؛ حتّى تأمَنَ المُسْتَعْدِىَ وَالمُعْدِى ، وَيتمهَّدَ لكَ المقامُ بَعْدِى ؛ وإلا فالمفرّ المفرّ ؛ قبل أن تُسْحَبَ وتُجَرّ : ثم عَمَدَ لاستخراج ما فى البيوت ، من الأكياس والتّخوت . وَجَعل يَسْتَخْلِص خالصةَ كلّ مخزون ، ونخبة كلّ مَذْرُوعٍ وَموزون ؛ حتى غادر ما ألغاه فخّه ، كعظمٍ استُخرج مُخّهُ .

* * *

صَيُور : آمال ورجوع ، أى ما يصير إليه أمره . عدوى عَرّه ، أى انتقال

ضرره ، والعرّ: الجرب ، والعَدْوَى انتقال المرض إلى الصحيح، ومعناه عند العرب: إذا كان الجَرَب بواحدة من الإبل سرى فى غيرها ، وفى الصحيح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا عَدْوَى ولا طيَرة ولا صَفَر ولا هامة ، ولا يورد مُمْرِض على مُصحّ » . فقال أعرابى : يارسول الله ، فما بال الإبل التى تكون فى الرمل ، كأنّها الظباء فيجىء البعير الأجرب فيدخل فيها فيجر بها كلّها ؟ وقال : فمن أعدى الأوّل . وقال النابغة :

فلا تتركنّى بالوعيـــد كأننى إلى الناس مطلىّ به القار أجْرَبُ (١)

فأراد أنّه خاف أن يؤخذ بذنب السَّروجىّ . شَعاعا : متفرقة فى كلّ جهة، يقال نفسٌ شَعاع ، أى تفرقت هِمّتها ، ورأىٌ شَعاع ، أى متفرّق . والفرائص : جمع فريصة ، وهى بَضْعة عند الكبدِ تُرْعد عند الفزع ، قال مرؤ القيس :

* وتُرْعِدُ منهنّ الكُلَى والفريصُ *

ارتياعا : فزعا . استطارة فرَقى : انتشار فزعى . واستشاطة : التهاب واحتراق . المُرمض : المحرِق ، وهو من لَفْظ الرَّمْضاء : والرَّوْع : الفزع . المُومض : الذى يَدَع صاحبه مبهوتاً شاخص البصر من شدته ، وأومضت المرأة بعينها إذا برقت . الأجَل ، بالتحريك : التأخير؟ وبتسكينها الجناية يقول: إن تفكّرت فى تأخيرى من الهرب بسبب جنايتى ، فالآن أجمع أموالهم وأفرّ ، قال الفنجديهىّ : إن يكن فكرك فى أجْلى، أى فى جنايتى، يقال : أجَلَ الرَّجل عليهم شرًّا يأجَل ويأجل أجِلا أى جناية . وهيّجه من أجْلِى أى من جرّائى . أرتع : آكل أموالهم . أطفر : أنر هاربا ، وطفر : وثب وسار مسرعاً. أقوى

(١) ديوانه ١٣ .

(٢) ط : «الفرائص» ، والبيت لامرىء القيس ، ديوانه ١٨٣ ، وقبله :

* فيشرَبْنَ أنفاسًا وهنّ خوالفُ *

وأقفر : ، معناهما أُخْلِي موضعى ، وأقفر الرحل من أهله : انفرد عنهم وبقى وحده والدّار خلت وكذلك أقوتْ وقَوَيْت وأقفرت الأرض من الكلأ ، ورأسه من الشعر ، وجسده من اللّحم ، وأقوى وأقفر لا يتعدّيان . تصفر : تصوت ، وهذا عجزُ بيت لتأبَّط شرًّا ، وصدره :

* فأبت إلى فَهْمٍ وما كدت آيبا[1] *

تصفِر ، أى تنفخ ندما على فوتى ، والنادم على الشىء يتابع النفخ ، يقول : كمْ مثل هذه الخصلة فارقتُها ، وهى تصفر تَنَدُّما على مافاتها . تناولْ : خذ . فضالة : بقية . طب نفسا ، عنه ، أى لتكنْ نفسُك طيّبة على فقده ، فإنّك إذا أكلت الخبيص ، سَكِرْت فجرّدتك فصرت فى جملة مَنْ أُكِلَ ماله فتأمن بذلك . المستعدِى : هو الشاكى . والمعدِى : هو الحاكم ، ويقال : استعديت الحاكم فأعدانى ، أى استعنته فأعاننى . يتمهّد : يتوطّأ . المفرّ المفرّ : أى بادر الفرار ، وتُسحب ، هو تجرّ . الأكياس : أوعية الدراهم والدنانير . التُّخوت : أوعية الثياب . يستخلص : يختار . خالصة : خيار ، وكذلك نخبة . مذروع : مكيل بالذّراع ، يعنى الثياب . موزون : ، يعنى الجواهر وما فى معناها ممّا يباع بالوزن ، مثل العطريات وغيرها من شبهها . الفخّ : آلة للصيد يحسن أن يكنى به عن المكيدة .

* * *

فلمّا همّن ما اصطفاه ورَزّم ، وشمّر عن ذِرَاعَيْهِ وتحزّم ؛ أقبل علىّ إقبال من لَبِسَ الصّفَاقة ، وخلَع الصداقة ، وقال : هل لك فى المصاحبة إلى البَطِيحة ، لأزوِّجَك بأخرى مَليحة . فأقسمتُ له بالذى جعله مباركاً

(١) الأغانى ١٨ : ٢١٥ ـ ساسى ، وبقيته :

* وكَمْ مثلُها فارقتُها وهِىَ تَصْفِرُ *

أينما كان ، وَلم يَجْعَلْهُ مِمّن خانَ فى خان ؛ إنّه لاقِبَل لى بنكاح حُرّتين، ومُعاشرةِ ضُرّتين . ثم قلت له قول المتطلّع بطباعِه ، الكائِلِ له بصاعِهِ : قد كفتْنِي الأولى فخرًا ، فاطلب آخر للأخرى .

فتبسّم مِن كلامِى ، ودَلف لإلْتِزَامِى . فلويتُ عنه عِذارى ، وأبدَيت له ازْورَارى ، فلمّا بَصُرَ بانقباضِى ، وتجلّى له إعراضى أنشد :

* * *

همّن : شدّه بالهِمْيان وهو نوع من التِّكّة. اصطفاه : اختاره . رزّم : جعله رُزمة ، والرّزمة فى كلام العرب : التى فيها ضُروب من الثياب وأخلاط يقال : رازّم الرجل فى أكله ، إذا اخلط بعضه ببعض ، ورازمت علَف الدّابة : خلطته ، وقد يريد به ما شدّ على وسطه من المـــال بهِمْيانه. الصفاقة : صلابة الوجه . خلع : أزال

البَطِيحة : قرية عامرة بقرب البصرة من جهة واسِط ، وبينها وبين البصرة وواسط جهة كبيرة ، تعرف بالبطاح وتتوسطها البطيحة .

معاشرة ضرتين : مصاحبة زَوْجَين . المتطبّع بطباعه : المتخلّق بخلقه . الكائل له بصاعه ، أى الذى أعطاه مِن الهزل مثل ما أعطاه . دلف : أسرع . التزامى : معانقتى وضمى له لوبت : عطفت ، أى أعرضت عنه بوجهى . ازْورَارى : انقباضى . تجلّى : ظَهَرَ . إعراضى : تركى إقبالى عليه .

* * *

رفع المسهم

يا صارفاً عَنِّى المـــودّ ـةَ والزَّمان لَهُ صروف
ومعنِّفى فى فَضْح مَنْ جاوَرْتُ تعنيفَ العَسُوفْ
لاتلحَنِي فيماَ أتيـــــتُ فإنَّنى بهمُ عَـــروفْ
ولقدْ نزلت بهمْ فلمْ أرَهُمْ يُراعون الضّيوفْ
ويَلَوْتُهُمْ فوجـــدتُهُمْ لمَّا سَبَكْتُهمُ زُيوفْ
ما فيهمُ إلاَّ مخيـــــفٌ إنْ تَمَكّنَ أو مَخُوفْ
لا بالصفىّ ولا الوَفىّ ولا الحَفِىّ ولا العَطُوفْ
فوثبتُ فيهمْ وثبـــةَ الذّئبِ الضّرِىّ على الخروفْ
وتركتهمْ صَرْعى كأنّهُمُ سُقُوا كأس الحُتوفْ
وَتحكّمتُ فيما اقتنَوْ هُ يدِى وهمْ رُغمُ الأنُوفْ

. . .

صارفا : منحنياً: المودّة: المحبّة. صروف: دفوع . معنّفى:موبخى ولائمى. فَضْح: كشف . والعسوف : الآخذ بجهالة قبل التجربة . تلحنى : تلمنى . يُراعون : يحفظون حقوقهم . بلوتُهم . خبرتهم ، ومثله سبكْتُهم . زيوف : دراهم رديئة ، يريد أنهم قوم لا خير فيهم . مخيف : مضرّ مفزع . إن تمكّن : ارتفع وكانت له مكانة . مخوف : لا يقدم عليه خوف ضرره . الصّفى الوفىّ . الصادق الود . الحفىّ : المكرم لصديقه المعتنى به . العطوف : الرحيم . الضرىّ : المعتاد الذى ضرىَ أخذ الخرفان . صرعَى : مطرحون على الأرض . والحتوف : جمع حَتْف وهو الهلاك . اقتَنوْه : اكتسبوه . رغم : إذلال .

. . .

رفع المسهم

ثمَّ انثنيت بمغنمٍ حُلْو المجانِي والقُطُوفْ
وَلَطَالَمَا خلفتُ مكـــلومَ الحشَا خَلْفِي يطوفْ
وَوَتَرتُ أرباب الأرا ئِكِ وَالدَّرانِكِ والسُّجوفْ
ولَـكَمْ بلغتُ بحيلَتِي ماليس يُبلَغُ بالسيوفْ
ووَقفت فى هولٍ تُرا عُ الأسْدُ فيه من الوقُوفْ
وَلَـكَمْ سَفـكتُ وكم فتكتُ وكم هَتَكْتُ حِمَى أَنوفْ
وكمْ ارتكاضٍ موبقٍ
لِى فِي الذّنوب وكَمْ خفوفْ
لـكِنّنى أعْدَدْتُ حُسْـــن الظّنِ بالمولى الرءوف

• • •

انثنيت ، أى رجعت . المجانى : ما يجنَى من الثمار . والقُطوف : مايقتطف منها ، وهى جمع قُطْف وهو العنقـــود . خلّفت : تركت خلفى . مكلُوم : مجروح . الحشى : إسقاط الجوف . وترت : أخذت منهم ثأرى وحقى . أرباب الأرائك : أصحاب الأسرّة . والدرائك : البُسط . السّجوف : جمع سِجْف ، وهو الستر ، والأرائك : جمع أريكة ، والدّرانك واحدها درنُوك . الهول : الأمر المفزع . تراع : تفزع ، وفيه : متعلقه وقوف ، يريد أن الأسد تفزع أن تقف فى الهول الذى وقفَ فيه . سفـكت : قتلت . فتـكت : عتيت . هتكت قطعت . رَحِمى : مايحمى ويمنع . أنوف : كثير الأنفة والحمية . ارتكاض : جرى واضطراب وتحرّك . موبِق : مهلك . خفوف . إسراع : الرءوف : الـكثير الرفق والرحمة .

[مما قيل فى الاعتراف بالذنوب والطمع فى رحمة الله وعفوه]

قال ابن رشيق فى معنى هذا الخروج بعد تَعْديد ذنوبه :

إذا أتى الله يوم الحشر فى ظُلَلٍ ... وجىء بالأمم الماضين والرسلِ[1]
وحاسب الخلق مَنْ أحصى بقدرته ... أنفاسهم وتوفّاهم إلى أجـــلِ
ولم أجد فى كتابى غـــير سيئة ... تسوءنى وعسى الإسلام يسلمُ لي
رجوتُ رحمةَ ربّى وهى واسعـة ... ورحمة الله أرجى لى من العملِ

ولابن ننـكك: ١

إذا خفق اللـــواء علىّ يوماً ... وقد أخـــذ امرؤ القيس اللواء[2]
رجـــوت الله لاأرجو سواهُ ... لعـــــلّ الله يرحم من أساء

وقال ابن الزّقاق :

يا عـالمَ السرّ منى ... اصفحْ بفضـــلِك عنّى[3]
منّيتُ نفسى بعفـوٍ ... مولاىَ منك ومنّى
وكانَ ظنى جميـلاً ... فـكن إذاً عندَ ظنّى

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حاكيا عن الله تعالى : « أنا عند ظنّ عبدى بى فليظنّ بى مايشاء » .

توفى رجل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان مسرفاً على نفسه ، فلماحضرته الوفاة رفع رأسه فإذا أبواه يبكيان عليه ، فقال لهما: مايبكيكما ؟ قالا : نبكى لإسرافك على نفسك ، قال : فلا تبكيا ، فوالله ما يسرنى أن الذى بيد الله من أمرى بأيديكما . فأتى جبريل عليه السلام النبىّ صلى الله عليه وسلم

---

(١) نقله صاحب التتف صفحة ٦٢ .
(٢) يتيمة الدهر ٢ : ٢٣٠ . (٣) ديوانه ٢٧٤ .

فأخبره أن فتًى توفِّيَ اليوم ، فاشهده فإنه من أهل الجنة ، فاستكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويْه عن عمله ، فقالا : ما علمنا عنده شيئاً من خير إلا أنه قال عند الموت كذا .

قال : من هاهنا أتى حُسنُ الظنّ بالله من أفضل العمل عنده .

وعن أنس رضى الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يموتَنّ أحدكم حتى يُحسن ظنه بالله تعالى ، فإن حسنَ الظنّ ثمن الجنة » .

أبو هريرة رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « حسن الظنّ مِنْ حسن العبادة » .

وكان محمد بن نافع الواعظ صديقاً لأبي نواس ، قال : فلما بلغنى موتُه أشفقت عليه ، فرأيته فى النوم ، فقلت : أبا نواس ، فقال : لاتَ حين كِناية ! قلت : الحسن ، قال : نعم ، قلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر الله لى ، قلت : بأىّ شىء ؟ قال : بتوبة تبتها قبل موتى ، بأبيات قلتها ، قلت : أين هى ؟ قال . عند أهلى . فسرت إلى أمّه ، فلما رأتنى أجهشت بالبكاء ، فقلت : إنى رأيت كذا ، فكأنها سَكَنَتْ ،وأخرَجت إلىّ كتبا مقطعة ، فوجدت بخطه كأنه قريب :

يارب إن عظمت ذنوبى كثرةً ... فلقد علمت بأنّ عفوك أعظمُ (١)
إن كان لا يرجوك إلا محسن ... فمن الّذِى يدعو ويرجو المجرمُ (٢)
أدعوك ربّ كما أمَرت تضَرّعاً ... فإذا رددتَ يدى، فمن ذا يَرْحَمُ !
مان إليك وسيلة إلا الرجا ... وجميل ظنّى ثم أنى مسلمُ

(١) ديوانه ١٩٩ : ٢٠٠ . (٢) الديوان « فبمن يلوذ ويستجير المجرم » .

رفع المسهم

وإنما قال: «لات حين كناية» لأنّ العرب لاتكنى الميت إنماتدعوه باسمه، قال الراجز :

وقام نسوة بجنب حُفْـرَتِي بنـات أختى وبنـات إخوتى

* يدعون باسمى وتناسوا كنيتى *

وقال آخر :

فقد جعلت تُدْعَى كُلاب بن جعفرٍ بأسمائها لابا لـكنى لا تُجيبُهـا

* * *

قال : فلمّـا انتَهَى إلى هَذَا البيتِ لَجَّ فى الاسْتِعْبار ، وألَظَّ بالاستغفارِ ، حتَّى اسْتَمَالَ هَوَى قلبِي المنحرف ، وَرَجَوْت لَهُ ما يُرْجى للمقترف المعترف . ثمّ إنَّهُ غَيَّض دمعَه المُنهلّ ، وتأبَّطَ جِرابَهُ وانْسَلّ ، وقال لابنهِ : احتملِ الباقِي ، واللهُ الواقِى .

قال المخبر بهذه الحكاية : فلمّـا رأيتُ انْسِيابَ الحيّةِ والحُيَيَّة ، وانتهاءَ الدّاءِ إلى الْـكَيّـة ، عَلِمت أَن تَرَيُّثِي بالخان ، مجلبة للهوان ، فضممتُ رُحَيْلِي ، وجمعتُ للرِّحْلةِ ذَيْلِي ، وبت ليلتِي أسرِى إلى الطِّيب ، وأحتسِبُ اللهَ عَلَى الخطيب .

. . .

قوله : لجّ فى الاستعبار، أى أكثر فى البكاء . ألظّ : ألحّ ، وألظّ به: دار عليه . استمال : استعطف وأماله إليه . المنحرف : المائل عنه. المقترف : المكتسب

الإثم ، ويقال : قرَف فلان فلاناً، إذا ألصق به عيبًا وكسبه ذنباً، واقترف فلان ذنبا ، أى اكتسبه وألصقه بنفسه . المقترف : المقرّ بذنبه .

أبو هريرة رضى الله عنه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لله عزّ وجل ملائكة يترحّمون على المقرّين على أنفسهم بالذّنوب » .

وروى أبو ذرّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه : «ابن آدم إنك إن يبلغ ذنبك عنان السماء ، ثم تستغفرنى أغفر لك ولا أبالى » . غيَّض : جفّف وغيّب ، من غِيض الماء إذا انتقص وجفّ . المنهلّ : السائل . تأبط : أى جعله تحت إبطه . انسلّ : خرج مُخفيا نفسه متحرزاً أن يراه أحد. انسياب : مشى لا يحسّ به . الحيّة : ، يعنى الشيخ ، سماه حية لإذايته أهل الخان بالمنج : فجعله كسم الحية فيمن ألقته ، ويقال أيضاً فى تصغير الحية حُوّية ، وأصلها الواو لأنها من تحوّت أى تلوّتْ ، وقيل : هى من الحياة لطول عمرها . انتهاء الداء إلى الكيّة : ، مثل يضرب لانتهاء الداء إلى أقصاه ، تقول العرب : آخر الطبّ الكى ، تريد أنّ المريض يعالج بكلّ دواء فلا يوافقه فإذا عولج بالكى لم يبق بعده دواء ، وإلاّ فهو الموت ، فيريد أنه إن أقام بعدها انتهى إلى هوان وعذاب . تريّثى : تثبطى، وتربّث بالمكان : أطال الجلوس فيه . مجلبة ، أى سبب جلبة وسوقه رُحَيله : يريد متاعه وصغّره لفقره وقلّة ما عنده ، ورحل الإنسان ماله ومتاعه فى السفر . أسرى : أمشى بالليل . الطّيب : قرية بالعراق بمقبرة واسط بينها وبين البَطيحة المتقدمة ، وسميت الطّيب لطيب هوائها وخصبها .

احتسب : أدعو وأقول : حسيبه الله ، ومجازيه على قبيح أفعاله، والاحتساب طلب الأجر ، فمعنى أحتسبُ الله على الخطيب ، طلب إلى الله تعالى الثواب بإنكارى على الخطيب ، والله تعالى ربّى عليه توكّلت وإليه أنيب .

رفع المسهم

المقامة الثلاثون وهي الصورية

حكى الحارث بن همام، قال : ارتحلتُ من مدينة المنصور ، إلى بلدة صُور ؛ فلمّا حَصلْتُ بها ذا رِفعةٍ وخَفْض ، ومالكَ رفعٍ وخفض ؛ تقتُ إلى مِصْر توقانَ السقيم إلى الأُسَاة ، والكريم إلى المواساة ؛ فرفضْتُ عَلائق الاسْتِقامة ، ونفضت علائقَ الإقامة ، واعْرَوريتُ ظهرَ ابْن النِّعامة ، وأجفلتُ نحوَها إجفالَ النِّعامة . فلمَّا دخلتُها بَعْدَ مُعاناة الأَيْن ، ومُداناة الحَيْن ، كلفتُ بِهَا كَلَفَ النَّشْوَانِ بالاصْطِباح ، والحيران بتنفُّس الصَّباح .

* * *

[ترجمة المنصور]

قوله : مدينة المنصور ، هى بغداد، والمنصور هو أمير المؤمنين أبو جعفر بن محمد بن علىّ بن عبد الله بن عباس ، استُخلف بعد أخيه السفاح ، وبويع له يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلتْ من ذى الحجة سنة ثلاث وثلاثين ومائة . وهو ابنُ إحدى وأربعين سنة وعشرة أشهر ، وكان حاجًّا وقت وفاة السفاح، فعقد له البيعة عمُّه موسى بن علىّ بن عبد الله بالأنبار ، وورد الخبر على المنصور فى أربعة عشر يوماً .

وقد بشّر به النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ونظر إلى عمه العباس ، فقال :

رفع المسهم

هذا عمّى أبو الخلفاء الأربعين أجود قريش كفًّا ، ومن ولده السّفاح والمنصور والمهدى .

وقال المنصور : رأيتُ فى المنام كأنى فى المسجد الحرام ، فنودى : أين عبدُ الله ؟ فقمت أنا وعبد الله بن يحيى نستبق ، حتى وصلنا إلى الدرجة العليا ، فجلس هَوُ وأخذ بيدى ، فأصعدت ، وأُدخلت الكعبة ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ومعه أبو بكر وعمر وبلال . قال . فأقعدنى وأوصانى بأمّته ، عمنى ، فكان كورُها ثلاثاً وعشرين كوراً ، وقال : خذها إليك أبا الخلفاء إلى يوم القيامة .

وقال المنصور : الخليفة لايُصلحه إلاّ التقوى ، والسلطان لايُصْلِحُه إلا الطاعة ، والرعيّة لايُصْلحها إلاّ العدل ، وأولى الناس بالعفو أقدرُهم على العقوبة ، وأنقصُ الناس عقلاً مَن ظلَمَ مَنْ هو دونه .

وولد المنصور فى سنة خمس وتسعين فى اليوم الذى مات فيه الحجاج ، ومات بمكة ببئر ميمون لستٍّ خَلَوْن من ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة .

* * *

[ذكر مدينة صور]

صور : مدينة بالشأم ، بينها وبين دمشق ثلاثون فرسخاً .

وقال شيخنا ابن جبير[1] : مدينة صُور يضرب بها المثل فى الحصانة ، لاتُلقى لطالبها بيد طاعة ولا استكانة ، قد أعدّها الإفرنج مفزعا لحادثة زمانهم ،

(١) رحلة ابن جبير ٢٧٦ باختصار .

رفع المسهم

وجعلوها مثابةً لأمانهم . وحَصانتها ومناعتها[1] أعجب ما يحدّث به ، وذلك أنّها راجعة إلى بابيْن ، أحدُهما فى البر والثانى فى البحر ، والبحر يُحيط بها إلا من جهة واحدة ، فالبرّى يُفْضِى إليها[2] بعد ولوج ثلاث أبواب أو أربعة ، كلّها فى ستائر مشيدة محيطة بالباب ، والبحرىّ يُدْخل إليه بين بُرْجين مشيّدين إلى مَرْسى له ، ليس فى البلاد أعجب منه وصفاً ، يحيط به سور المدينة من ثلاثة جوانب ، ويُحدق به من جانب آخر جدار معقود بالجصّ ، والسفن تدخل تحت السّور وتُرمى فيه ، ويعترض من البُرْجين المذكورينَ سلسلة عظيمة معقودة تمنع عند اعتراضها الداخلَ والخارج ، ولا مجالَ للمراكب إلا عند إزالتها ، وعلى الباب حُرّاس ، لا يدخل الداخل ولا يخرج إلا على أعينهم ، فشأن هذا المرسَى شأنٌ عظيم ، وعند الباب البرّى عين مَعينة ، تنحدر إليها على أدراج ، والآبار والجباب بها كثيرة ، لا تخلو دار منها ، ولا بساتين بها إنما تُجلَب لها الفواكه من أقطارها التى بالقرب منها .

ولها أعمالة[3] متصلة ، والجبال بالقرب منها معمورة بالضّياع ، ومنها تجىء الثمرات إليها ، وللمسلمين الباقين بها مسجدان .

وأعلمنى أحد أشياخنا أنها أخذت من أيديهم سنة ثمان عشرة وخمسمائة بعد محاصرة طويلة ، وبها كانت دار الصنعة ومنها تخرج مراكب المسلمين للغزو .

* * *

قوله : ذا رفعة ، أى عزّة ومكانة . خفض : طيب عيش ، ومعنى مالِك رفع وخفض ، أى صاحب أحمال تُرْفع على الإبل فى السفر ، وتحطّ عنها للنزول ،

---

(١) ابن جبير: «ومنعتها» (٢) ابن جبير : «إليه» (٣) ابن جبير «ولها عمالة متسعة»

رفع المسهم

ويريد أنه ذو قدرة وتمكّن يخفض ويرفع من أراد . قوله : تُقتْ ، أى اشتقت

[ذكر مصر]

مصر : قال الهمذانى : سميت بمصر بن هرمس بن هروس جدّ الإسكندر. وقال أهل اللغة : المصر الحدّ فسمّيت مصر لأنها حد بين المشرق والمغرب . ابن دريد كل بلد عظيم مصر ، نحو البصرة والكوفة .

طول مصر من الشّجرتين اللتين بين أمج والعريش إلي أسوان ، وعرضها من بَرْقة إلى أيلة ، فهى مسيرة أربعين ليلة . وافتتحت كلها فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، على يَدَىْ عمرو بن العاص بن وائل السهمىّ .

ولما افتتحت مصر ، أتى أهلُها إلى عمرو ، فقالوا له : أيها الأمير ، إن لنيلنا هذا سنّة لا يجرى إلا بها ، فقال لهم : ما ذاك ؟ فقالوا له : إذا كان اثنتا عشرة ليله تخلو من بئونة من أشهر العجم ، عمدنا إلى جارية بكْر بين أبويها فأرضينا أبويْها ، وحملنا عليها من الحلْى والحلل أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها فى النيل . فقال لهم عمرو : إن هذا لا يكون فى الإسلام ، وإن الإسلام يهدم ما قبله . فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى - وهى أسماء ثلاثة أشهر للقبْط - لا يجرى النيل فيها لا قليلا ولا كثيرا ، حتى همّوا بالجلاء منها . فلما رأى ذلك عمرو بن العاص كتب بذلك إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه . فكتب عمر بطاقة ، وكتب إلى عمرو : إنى بعثت إليك بطاقة فألقِها فى النيل . فأخذ عمرو البطاقة فإذا فيها : من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر ، أمّا بعد ، فإن كنت إنما تجرى من قِبَلك فلا تجرِ ، وإن كان الله الواحد القهار ، هو الذى يجريك ، فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك . فألقى البطاقة فى النيل قبل يوم الصليب بيوم وقد تهيّأ أهلُ مصر للجلاء ، فلمّا ألقى البطاقة فى النيل أصبحُوا يوم الصليب ، وقد أجراه

الله تعالى ستة عشر ذراعاً فى ليلة واحدة ، فقطَع الله تعالى تلك ألسنة السوء من أهل مصر .

قال ابنُ جبير : ومدينة مصر كبيرة عامرة ، مختلفة الأسواق من المدن التى سارت بأوصافها الرّفاق ، وهى على شط النيل ، وعلى النيل فى مقابلتها قرية كبيرة الشأن ، كثيرة البنيان ، تعرف بالجيزة ، وتعترض بينهما جزيرة فيها مساكنُ حِسان وعلالىّ مشرفة ، وهى مجتمع لهوِ أهل مصر ومتنزّههم ، وبينها وبين مصر خليج يذهب بطولها نحو الميل ، ولا مخرج له . وبالجزيرة جامع يُخَطب فيه .

[ذكر المقياس]

ويتصل بهذا الجامع المقياس الذى يعتبر فيه قدر زيادة فيض النيل كلّ سنة ، وابتداؤه من شهر بئونة ، ومعْظَم انتهائه أغشت وآخرها أول أكتوبر .

والمقياس : عمود رخام سُمِّر فى موضع ينحصر فيه الماء عند انتهائه إليه ، وهو مفصّل على اثنتين وعشرين ذراعا ، وكل ذراع مفصلة على أربعة وعشرين قسما أقساماً متساوية تعرف بالأصابع ، فإذا استوى الماءُ تسع عَشرةَ ذراعاً فى الفيض ، فهى الغاية عندهم فى طيب العام ، وربما كان الماء فيها كثيراً لعموم الفيْض ، والمتوسط ما استوى سبع عشرة ذراعا ، وهو أحسن ممّا زاد عليه . والذى يستحق به السلطان خراجه ست عشرة ذراعاً فصاعدا ، وعليها تُعْطَى البشارة للذى يراقب الزيادة فى كلّ يوم ، ويعلم بها مياومة ، وإن قصر عن ست عشرة فلا يجىء لذلك السلطان فى ذلك العام ، ولا خَراج إلا ما يعوّل عليه ، وبقريه الجيزة يوم الأحد سوق عظيمة يتحدث بها .

(١) رحلة ابن جبير ١٣ .

رفع المسهم

[ذكر الأهرام]

وعلى نحو سبعة أميال فى الصحراء التى يفضى منها إلى الإسكندرية ، الأهرامُ القديمة ، المعجزة البناء الغريبة المنظر ، المربّعة الشكل ، كأنها القباب المضروبة قد قامت فى جو السماء ، لا سيما الاثنان منها فى سعة الواحد منهما من ركنه إلى ركنه ثلثمائة خطوة ، وست وستون خطوة محدّدة الأطراف فى رأى العين ، وربما أمكن الصعود إليها على خطر ومشقة ، فتلقى أطرافها المحددة كأوسع ما يكون من الرحاب ، قدأقيمت من الصخور العظام المنحوتة ، ورُكّبت تركيباً بديع الإلصاق ، يكاد يُعجز أهلَ الأرض نقض بنيانها .

[بعض معالم مصر]

وبمصر أيضاً المسجد المنسوب إلى عمرو بن العاص ، وبها الجبّانة المعروفة بالقرافة ، وهى من عجائب الدنيا ، لما تحتوى عليه من مشاهد الأنبياء ، وأهل البيت والصالحين والعلماء وذوى الكرامات من أهل الزّهد .

وبها قبر آسية امرأة فرعون ، وبها مساجد معمورة بالليل والنهار ، يَبيت بها الصالحون .

وبها قبر الشافعىّ محمد بن إدريس الإمام رضى الله عنه ، وهو من المشاهد العظيمة احتفالًا واتساعا .

والمشهد العظيم الشأن الذى بالقاهرة ، حيث رأسُ سيدنا الحسين بن علىّ رضى الله عنهما ، هوفى تابوت من فِضّة مدفون ، قد بُنى عليه بنيان يقصر الوصف عنه ، مجلّل بأنواع الدّيباج ، محفوف بأمثال العمد الكبار ، شمعا أبيض أكثرها موضوع فى أتوار الفضة ، وحُفّ أعلاه كلّه بأمثال التفافيح ذهبا فى مصنع شبه الروضة ، يبهر الأبصار حسناً وجمالا ، وفيه من أنواع الرّخام المجزّع الغريب

الصنعة ، البديع ، الترصيع ، مالا يتخيّله المتخيّلون ، والمدخل إليها على مسجد على عنالها فى التأنّق ، حيطانه كلُّها رخام ، وأغرب مافيه حجر موضوع فى الجدار الذى يستقبله الداخل ، شديد السواد والبصيص يصف الأشخاص كلها كأنه المرآة الهندية ، ولتزاحم الناس على القبر وانكبابهم عليه وتمسّحهم به وبالكسوة التى عليه مرأى هائل .

وأخبار مصر كثيرة فلنقتصر على هذه النبذة .

* * *

الأساة : الأطباء . المواساة : أن يجعلك أسوة نفسه فى ماله فيقاسمك فيه . رفضت : تركت . علائق : أسباب تتعلّق به فتحبسه . نفضت : أزلت واطّرحت ، ونفضت ثوبى من الغبار : أزلته عنه . عوائق : موانع ، وهى ما يصرف الإنسان عن وجهه الذى يمرّ فيه ويريده . اعروريت : ركبته عريا .

ابن النعامة : الطريق ، وقيل صَدْر القدم قال عنترة :

* وابنُ النعامة عِنْد ذلكَ مَرْ كَبِي[1] *

وقيل : ابن النعامة الساق ، وقيل : عِرْق فى الرِّجْل . وقيل الفرس الفارة

أجفلت : أسرعت . النعامة : واحدة النعام . معاناة : مقاساة . الأين : الفتور من التّعب مداناة الحين : مقاربة الهلاك . كلفت بها ، أى أحببتها وولعت بها . النّشوان : السكران ، يريد أنه فرج فرحَ السكران ، إذا أصبح للشرب ، وهو الاصطباح والمهموم بالليل إذا طلع ضوء النهار انجلى همه ، فجعل بياض الفجر . تنفّس أى انتشر فى الظلام .

---

(١) صدره : « ويكون مركبك القلوص ورحله » وهو فى اللسان — نعم ، منسوب لخزز بن لوزان .

رفع المسهم

فبينما أنا يوماً بها أطوف ، وتحتي فَرسٌ قَطُوف ؛ إذْ رأيت على جُرْدٍ من الخيل ، عُصْبَةً كمَصابيح اللّيل ؛ فَسألتُ لانتجاع النّزهة ، عن العُصْبةِ والوجهة ؛ فقيلَ : أمّا القومُ فشهود ، وأما المقصدُ فإملاكٌ مَشهود ؛ فحدَتْني مَيْعَةُ النّشاط ، على أنْ سِرْتُ مع الفُرّاط ؛ لأفوز بحلاوَةِ اللُّقـــاطِ ، وأحُوزَ حَلْواء السِّماط : فأفْضَيْنا بَعْدَ مُكابَدَةِ العَناء ، إلى دارٍ رفيعةِ البِناء ، وسيعةِ الفِناء ، تشهدُ لبانيها بالثراء والسَّنَاء . فلمَّا نزلنا عَنْ صَهَواتِ الخيُول ، وقدَّمْنا الأقْدام لِلدّخول ، رأيتُ دِهْليزَها مُجللاً بأطمارٍ مخرَّقة ، ومُكَلَّلاً بمخارِفَ مُعَلَّقة ، وَهُنَاكَ شخصٌ عَلَى قطيفة ، فوق دَكّةٍ لَطِيفة .

* * *

قَطوف : متقارب الخطو ، كأنه يقطف خطوه ، أى يقطعه . جُرْد : مُلس ، والأجْرَد : القصير الشعر . عُصْبة : جماعة . مصابيح : سُرُج ، ويريد بها النجوم . قوله : الوجهة كالجهة ، وهو كلّ موضع استقبلتَه وقصدْتَه وتوجّهتَ إليه . إملاك : نكاح ، وأمْلَك الرجُل إملاكا : تزوج ، وأملكه غيرُه : زوّجه . وشهدنا إملاكه ، أى عرسه .

ابن عمر رضى الله عنهما ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « مَنْ شَهِد إملاك امرىء مسلم ، فكأنّما صام يوماً فى سبيل الله واليوم بسبعمائة » . مشهود : أى محضور . حدَتْنى . ساقَتْني . مَيْعة : حدّة ونشاط ، والميعة أوّل الشباب ، وأوّل جَرْى الفرس ، وميعة كلّ شىء معظمه . والفرّاط : السّباق المتقدّمون ،

الواحدفارط . اللُّقاط : ما يلتقَط من العرس مما ينثر فيه للحاضرين ، نحو الكعك والخبيص ، وما يُنثَر فيه يسمى نثراً ، وكان نثار العرب فى عرسهم التمر . أحُوز: أحصل . السّماط: السوق التى جوانبها صفّان متقابلان ، والسماط أيضاً أن يصطفّ العسكر صفّين متقابلين ، والسماط فى الطعام : أن تلصق مائدة بأخرى ، ويجلس الناس عليها صفين متقابلين ، والسماط الصفّ منه ، ومنه سِمْط الجوهر ، ومنه الشِّعر للسّمط ، وهو الذى أبياته منفصلة على أجزاء متقابلة ، وقد نبّهنا عليه فى الحادية عشرة[1] . مكابدة : مقاساة ، وهى من الكَبَد كأنّ الكبِد يتعب بها . والعَناء : التعب . رفيعة البناء ، قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله بعبد هوانا أنفق ماله فى البناء » .

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « مَنْ بنى بناء فى غير ظلم ولا اعتداء ، أو غرس غرسا فى غير ظلم ولا اعتداء ؛ فإن أجره جارٍ ما انتفع به أحد من خلق الرحمن» .

وقال بعضُ الحكماء: إذ أيسر الرجل ابتلى بثلاثة أشياء : صديقه القديم يجفوه ، وامرأته يتزوّج عليها ، وداره يهدمها ويبنيها .

وعلى قوله : أما القوم فشهود، جاء فيهم حديث ابن عباس رضى الله عنهما، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أكْرِموا الشهود ، فإنّ الله عز وجل يستخرج بهم الحقوق ، ويدفع بهم الظلم » .

قوله وسيعة ، أى واسعة ، والفِناء : الساحة ، وهى ما حول الدار . الثراء : كثرة المال . السناء : الشرف والرفعة . صهوات : ظهور . دِهليز : مدخل الدار ، الذى تسميه عامتنا الأسطوان ، والأسطوان عند العرب : السوارى ، واحدها أسطوانة : وأنشد أبو موسى الحامض[2] فى نوادره وذكر الدّهليز فقال :

---

(١) فى الجزء الثانى ص ١٧ (٢) ط « الجاحظ » تحريف .

رفع المسهم

أويت فى الدهليز مـذ أربعٍ ولم أكن آوى الدهاليزا[1]
خبزى من السوق وشعرى لكمْ تلك لعمرى قسمـةٌ ضِيزَى

مجلّلاً : مغطًّى . أطمار : ثياب خلَقة . مكلّلا : محلّقا . مخارف : قفف أو نعاليق للغرباء ، يجعلون فيها مايأخذونه من الصدقة ، والمخارف عند العرب : جمع مخرف ، وهى قُفَيْفة تشبه الزّنبيل ، يُخْتَرف فيها الرّطب ، أى يُجتنى فيها . قطيفة : نوع من البسط . دَكّة : هى الدكان .

* * *

فَرَابنى عُنوان الصّحيفة ، ومَرأى هذه البِدْعة[2] الطّريفة ، ودَعانِى التَّطيّر بتلك المناحِس ، إلى أن عمدتُ لذلك الجالس ؛ فعزمت عَلَيْه بصرْف الأَقْدَار ، ليعرّفنى مَنْ ربُّ هذه الدار ، فقال : لَيْس لَهَا مالِكٌ مُعَيَّن ، ولا صاحبٌ مُبيّن ، إنما هِى مِصْطَبة المقيّفين والمدَرْوزين ، ووليجةُ المُشَقْشِقين والمُجَلْوِزينَ . فقلت فى نفسى : إنا لِلّه على ضَلّةِ الْمَسْعَى ، وإمْحَالِ المرْعَى ؛ وهَمَمْتُ فى الحالِ بالرُّجْعَى ، لَـكنّى استَهْجَنْتُ الْعَوْدَ من فَوْرِى ، والقَهْقَرَةَ دونَ غيرى ، فولَجْتُ الدَّار مُتجرِّعاً الْغُصَص ، كما يَلِجُ العصفورُ الْقَفَص ، فإذا فيها أرائكَ مَنْقُوشة ، وَطنَافِسُ مَفْرُوشَة ، ونمارِقُ مَصْفوفة ، وسُجوفٌ مَرْصوفَة ، وقد أقبلَ المَلِكُ يميسُ فى بُرْدتِهِ ، وَيَتَبَهْنَسُ بَيْنَ حَفَدَتِهِ ، فحِين جَلَسَ كأنَّهُ ابنُ ماءِ السّماء ،

(١) فى اللسان : الدهليز ، بالكسر : مابين الدار والباب ؛ فارسى معرب .
(٢) هذه الكلمة ساقطة من ط

نادَى منادٍ من قِبَلِ الأحماء : وحُرْمةِ ساسَان ، أستاذِ الأُسْتَاذِين ، وقُدْوة الشحّاذين ، لا عَقَدَ هَذَا الْعَقْد المُبجَّل ، فى هَذَا اليوم الأغرِّ المحجّل ، إلاّ الذى جال وجَابَ ، وشبَّ فى الكُدْيةِ وشاب .

* * *

رابى : شككنى وخوّفنى . عُنْوان : دليل . الصحيفة : الكتاب ، أراد تطيّرت بتلك المخارف ، وأراد أنها دار خيبة وحرمان . وكان ابن همام فى هذه القصة طفيليًّا على ما وصف به نفسَه من الرفاهية ، وربما يتولّع أهل الظرف والأدب بمثل هذا ، فقد حكينا عن إبراهيم بن المهدىّ وإسحاق الموصلىّ مثلَ هذا فى أخبار الطفيليين على منادمتهما للخلفاء وكثرة أموالهما .

البدعة :الشىء المبدع الذى لم يفعل قبله مثله . والطريفة : الغريبة المستظرفة . التطيّر : التشاؤم . المناحس : جمع منحوس وهو الذى لا يفارقه النحس ، وأراد به المخارق والأطمار التى قدم . مصرّف الأقدار : هو الله تعالى . ربّ الدار : مالكها أو الناظر فى إصلاحها ما ذكره ممّا لا يفهم له معنى فهو بسطة المكدين . وقيل المقيفون جمع مُقيف ، وهو الذى يقفوا آثار الناس ، أى يتبعهم يطلب لهم شيئا ، ويدعو لهم . والمدروزين : المكدين ، ودروزة كلمة أعجمية معناها الكُدْية . والمُشَقْشِق : الذى يحاكى أصوات الطيور فتجتمع إليه فيصطادها . والمجلوز والجلواز : الشُرطىّ الذى يتصرّف حول السلطان .

قوله: وليجة ، أى مدخل ، والوليجة : الموضع الذى يلج الإنسان فيه ، أى يدخله أو كهف يستتر فيه . القهقرة : الرجوع إلى خلف . ضَلّة : ضلاله . المسعى : المشى

بعجلة ، أراد أنّ مشيه كان لغير فائدة . المحال : يبوسة وجفوف . فَوْرِى : حَيْنى من قبل أن أسكن . الغُصَص : جمع غصّة ، وهى ما يختنق بها ، وتجرّعها صعب . أرائك . سُرُر مزيّنة . طنافس : بُسُط . ونمارق : مخادّ . سجوف : سُتُور . مرصوفة : مضمومة ملتصقة ، وجعل البيت بهذه الأمتعة الكثيرة لأنه بيت عرس ، فهى تستعدّ له ، وإن كان قد رأى فى دهليزه مرقّعات تدلّ على فقر ، فإن الغرباء فى البلاد يعلّقون مُرَقّعاتهم فى دهليز الفندق ، وبيته فى غاية الرفاهية ، والدار المذكورة ، إنما كانت فُندقاً للفقراء الغرباء والمُكْدِين . والجالس فى دهليزها : خادم الفُندق ، وحين سأله عنها أخبره أنها ليس لها ربٌّ معيّن ، إنما هى دار المكدين والمحارَفين[1] . وقيل لأحد المكدين : أتبيع مرقّعتك ؟ فقال : هل رأيتَ صائداً يبيع شبكته !

المُلْك : العروس . يميس : يتبختر ويتبهنس ، مثله فى المعنى . حَفَدته : خدمه وأتباعه ، ويقال : حَفَد العبد يحفِد حفداً ، إذا خدم . وفى الدعاء : «وإليك نسعى ونحفِد» ، أى نخدمك ونعمل لك ، وقال الشاعر :

حَفَد الولائدُ بينهنّ وأسلمتْ بأكفّهنّ أزمّة الأجمالِ[2]

أبو عبيدة ، يقال : حفد يحفِد ، وأحفد يُحفد ، وفسّر طاوس قوله تعالى : ﴿ بنينَ وحَفَدَة ﴾[3] ، أى خدماً ، فهو مطابق للغة ، وفسّره ابن مسعود رضى الله عنه بالأختان ، وهو مطابق لما فى المقامة ، لأن المكدين لا خدم لهم . وقال الفراء رحمه الله : الحَفَدة : جمع حافد ، كـكامل وكَمَلة .

[ذكر المنذر الملقب بابن ماء السماء]

ابن السماء ، الجوهرىّ : ماء السماء لقب عامر بن حارثة الأزدى أبو عمرو مُزيقياء ، الذى خرج من اليمن لما أحسّ بسيْل العَرِم ، وسُمّى ماء السماء ،

---

(١) المحارف : المحروم (٢) اللسان ـ حفد ، دون نسبة (٣) سورة النحل ٧٢

لأنه كان إذا أجدب قومُه مانهم ، أى كفاهم مؤنتهم ، حتى يأتيهم الخِصْب ، فكأنه خَلَفٌ من ماء السماء . وقيل لولده : بنو ماء السماء ، وهم ملوك الشأم ، والعرب تُسَمّى أيضاً بنى ماء السماء ، لأنّهم يعيشون بماء السماء ، قال الأزهرىّ رحمه الله : السّماوة ماء بالبادية ، وكان اسم أمّ المنذر ماء السماء ، فسمّته العرب ابنَ ماء السماء .

وهو المنذر بن امرئ القيس بن عمرو بن عدىّ ، وأمه ماء السماء ، وهى امرأة من النَّمِر بن قاسط ، سُمّيت بذلك لجمالها . ولما ملك كسرى الذى اسمه قباذ بن فيروز ، خرج فى أيامه رجل يقال له مَزْدك ، فدعا الناس إلى الزندقة وإباحة الحرم ، وألاّ يمنع أحدٌ أخاه مايريده . فدعا قباذ المنذرَ ليدخل فى هذا المذهب ، فأنِف ، وأبى المنذر هذا الفعل الخسيس ، فطرده قباذ من مملكته ، ونفاه عن الحيرة . ودعا الحارثَ بن عمرو بن حُجْر آكل المرار ، فأجابه ، وكان الحارث شديد الملك ، فشدّد له ملكه ، وكانت أم أنوشروان بين يدى قباذ يوماً ، فدخل عليه مَزْدك ، فلما رآها قال لقُباذ : ادفعها إلىّ لأقضى حاجتى منها . قال له قباذ : دونَكَها ، فوثب إليه أنوشروان ، فلم يزل يسأله أن يهب له أُمّه حتى قبّل رجليه ، فتركها له . فلما هلك قُباذ وتولّى أنوشروان ، وجلس فى مجلسه أقبل المنذر إليه ، وأذِن للناس ، فدخل عليه مَزْدك ، ودخل عليه المنذر ، فقال أنوشروان : كنت أتمنّى أمنيّتين ، أرجو أن يكون الله تعالى قد جَمَعهما لى ، فقال مزدك : وما هما أيها الملك ؟ قال : تمنّيت أن أملك فأستعمل هذا الرجل الشريف - يعنى المنذر - وأن أقتل هؤلاء الزنادقه ، فقال له مَزْدك : أو تستطيع أن تقتل الناس كلّهم ؟ فقال : إنك لها هنا يابن الزانية ! والله ماذهب نتن ريح جَوْربك من أنفى ، مذ قبّلت رجليك إلي يومى هذا ، وأمر به ، فقتل وصُلِب . وقتل فى فى ضحوة واحدة من الزنادقة مائة ألف ، وصلَبهم ، وطلب الحارث ، فخرج

رفع المسهم

حارباً بجميع مامعه ، وأخذ المنذر فى طلبهم ، فأخذ من بنى آكل المرار ثمانية وأربعين رجلا ، فضرب رقابهم وألحّ فى طلب امرئ القيس ، فلحق بالسموءل. وتمام القصة فى الثالثة والعشرين[1] .

* * *

قوله: الأحماء ، أى الأختان . ساسان : شيخ المكدين، قال الفنجديهىّ : ساسان هو أستاذ المكدِين ومقدّمهم ، وواضع طرائقهم ومعلّمهم . قال أبو الفتح إسماعيل بن الفضل بن الإخشيد السراج المكدِى فى كتابه : حدثنا أبو بكر البطايرنى المكدِى ، حدّثنا محمد بن على بن أحمد الفقيه المكدِى ، حدثنا مليك ابن صالح المكدِى ، قال: سمعت طرارة المكدى ، قال : قال ساسان : ألا أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟ قلت : بلى ، قال : هى الكدية .

وقوله: أستاذ الأستاذين ، حدّث أحمد بن الحسن، قال: كنت عند أبى الحسن ابن أبى الفضل ، فدخل رجل فذكر أنه شاعر ، فقال : الشعراء ثلاثة : شاعر وشُعرور وشعرة ، فأما الشاعر فالمفلق ، والشّعرور المستملح ، والشعرة المستثقل لرداءة شِعره . والأستاذون ثلاثة : أستاذ فى الدين كالعلماء والفضلاء ، وأستاذ فى الدنيا كالوزراء والعمال والولاة ، وأستاذ لادين عنده يتعلّم منه ولا دنيا ينتفع بها ، كالحجام ، يسمى أستاذاً والبنّاء والملاح. وبنو ساسان : ملوك الفرس .

قُدْوة : مقدّم. الشحاذين: المكدين والشّحّاذ : الملحّ فى المسألة ، وشحذت السيف بالغَت فى صقالته . المبجّل: المعظّم ، يقال: بجّلته تبجيلا ، أى عظمته تعظيما، مأخوذ من البجيل والبَجال ، وهو الرجل الضخم ، وفى الحديث : أصبتم خيراً تجبيلا ، أى كثيرا ضخماً . الأغرّ : المشهور لحسنه . المحجّل: الأبيض . شب : ترعرع ونشأ .

---

(١) انظر ص ١٧٢ ، ١٧٣ من هذا الجزء

فأعجبَ رهْطَ الصهْرِ ما أشـارُو إليه ، وأذِنُوا فى إحْضَارِ المنصوصِ عليه ، فَبرزَ حينئذٍ شيخٌ قدْ أمـالَ المَلوانِ قامَتَه ، ونوّر الفَتيان ثَغـامَتَه ، فتباشرتِ الجماعَةُ بإقبالِهِ ، وتبادَرَتْ إلى استقبـالِه ، فلمّا جَلَس على زُرْبيّته ، وسكنتِ الضوضاءُ لهَيْبتِهِ ، ازْدَلَف إلى مَسْنَدِه ، ومَسَحَ سَبَلَتَهُ بيدِه ، ثم قال : الحمد للهِ المبتدِئِ بالإفْضَال ، المبتدِعِ للنَّوال ، المتقرَّبِ إليه بالسؤال ، المؤمَّلِ لتحقيق الآمال ، الّذى شَرَع الزَّكاةَ فى الأمـوال ، وزَجَر عن نَهْرِ السّوّال ، وندَبَ إلى مواساة المضطر ، وأَمَرَ بإطْعَامِ القَانع والمُعترّ ، ووصفَ عباده المقرّبين ، فى كتابه المبين ، فقال وهو أصدق القائلين : ﴿ والّذين فى أموالهم حقٌّ مَعْلومٌ . للسّائِلِ والمحرُومِ ﴾ .

أحْمَدهُ عَلَى ما رزقَ من طُعْمَةٍ هَنِيَّة ، وأَعُوذُ بهِ من استِمَاعِ دعْوَةٍ بلا نيّة . وأشْهَدُ ألاَّ إلهَ إلاّ اللهُ وحده لا شريكَ له ، إلهاً يَجْزِى المتصدّقين والمُتَصـدّقات ، ويمحَقُ الرِّبا وَيُرْبِى الصدقات . . . .

* * *

الملَوان والفتيان : الليل والنهار . وثَغامته : شَعْرته . نوّرها : بَيّضها . والثَّغام : نبت أبيض ، وهو ضرب من البُهَمَى ، منابته الجبال ، إذا يَبِس ابيضّ بياضا شديدا .

أبو حنيفة : تنبت الثغامة خُيوطا طُوالا دِقاقا من أصل واحد، فإذا جفّت ابيضّت كلها ، وإذا أمحل الثغام ، كان أشدّ بياضا ، ويشبّه به الشيب ، قال المرار الفقعسىّ :

أعلاقةً أمّ الوليِّد بعـد ما أفنـان رأسك كالثّغام المُخْلِسِ (١)

وقال حسان رضى الله عنه :

إمّا نَرَىٰ رأسى تغيّر لونُه شمطًا فأصبح كالثّغام المحوِلِ (٢)

والثّغام : مرعى ، وتُعْلَفه الخيل ، وقال بشر وذكر الخيل :

فباتت ليلة وأديم يومٍ على البُهْمَى يَجُزّ لها الثّغـــاما (٣)

قوله :زُرْ بيته : طِنفسته ، والجمع الزّرابى ، وقيل هى الوسائد ، وقيل الثياب الموشاة . والضّوضاء : الأصوات . ازدلف : قَرُب . مسنده : موضع إسناده . سَبلته : لحيته ، وقيل شاربه .

وهذه الخطبة التى ذكر ، ليس فيها لفظ إلا وهو يتضمّن إشارة للكُدية .

قوله : المبتدِع ، أى الفاعل له قبل أن يفعل . النّوال : العطاء . المؤمّل : المرجوّ . شرع : فرض : ونَهْر السؤّال ، من قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾(٤) ، وقال ابن عمران :

---

(١) اللسان ـ ثغم : « المرار الأسدى »
(٢) ديوانه ٣١٠ .
(٣) لم أجده فى ديوانه .
(٤) سورة الضحى .

رفع المسهم

إنّ ابن آدم حين يلحِف سائلٌ ينقد من حَنَقٍ عليه فينهرُهْ
والله إن يقصده عبد ملحِفٌ بسؤالِهِ يدنيه منه ويشكرُهْ
فسلِ إلا له ولُذْ به لا تنسَه فالله يذكُر عبدَه إذ يذكُرُهْ

وقال أيضاً :

سؤالنا دعـــــاؤنا للجنّهْ لهم علينا بالقبول مِنّهْ
مَنْ سال منهم وبك أعطيتَه ولو بتمـــــرة فواسيتَّهْ
أو أجمِلِ الردّ لا تنهرنَّهْ وإن يكن يُلحف فاعذرنَّهْ

* وادْع له الله وصَبِّرَنَّه *

قوله : نَدَب : ، أى دَعا وحرّض . المضطر : الشديد الحاجة . القانع : المتذلل عند السؤال . والمعترّ : المتعرّض للمعروف . والمحروم : الذى لا يسأل أحداً شيئاً وهو محتاج . طُعمة هنيّة : الكدية ، لأنّ فائدتها تحصل بلا تحمّل تكلّف ولا مشقة . دعوة بلا نيّة : قولك للسائل : الله يعطيك ووسّع الله عليك ونحوه ، وأنشدوا فيهم :

ورجالٌ ونساء وبنات وبَنُونا
وإذا يدعَى لهم يو ما تراهم يغضبونا

وقال آخر :

ألم ترنى أبْغضتْ ليلى وذكرها كما أبغض المسكينُ دعوةَ سائِلِهْ

لأن السائل لا يطلب من المسئول الدعاء ، إنما يطلب ما يشبع الأمعاء .

ومما يُستظرف من هذا ماحَكَى الأصمعىّ . قال : مرّ بى أعرابىٌّ سائلا ، فقلت له: كيف حالك ؟ قال: أسأل الناس إلحافا فيعطونى كُرْهاً ، فلا يُؤجَرون على ما يعطونى ، ولا يُبارك لِى فيما آخذ ، والعمر بين ذلك فان ، والأجل قريب والأمل بعيد .

سأل أعرابى رجلا يكنى أبا عمرو عند داره ، فقال : يرزقك الله ، فعاد إليه يوماً آخر فقال بمثل ما قال أمسِ وتنحنح ، ففلتَتْ منه ضرطة ، فقال الأعرابىّ :

إن أبا عمرو لمكبوس الوسَطْ إذا سألنـــاه تمطَّى وضَرَطْ

* إعطاؤه : يرزقك الله فَقطْ *

قوله: أشهد أن لا إله إلا الله ، أى أعلم وأبيّن ، ومنه : شهد الله ، أى أعلم وبيّن أنه لا إله إلاَّ هو ، ومنه : شهد الشاهد عند الحاكم ، أى بَيّن له ما عنده وأعلمه الخبر . يمحق : يزيل ويستأصل . الربا : الحرام وأصله الزيادة . ويُرْبى: يزيد ويكثر ، أى يضعفها له .

* * *

وأشْهَدُ أنّ محمداً عبدُه الرّحِيم ، ورسُوله الكريم ، ابتعثه لِيَنْسَخَ الظُّلْمَةَ بالضّياء ، وَيَنْتَصِفَ لِلفقراءِ من الأغنياء ، فرَفَقَ صلَّى الله عليه وسلّم بالمِسْكين ، وخَفَض جناحَهُ لِلْمُسْتَكين ، وفَرَض الحقوقَ فى أموالِ المُثْرين ، وَبَيَّن ما يَجب لِلْمُقِلّين على المكْثِرين ، صلَّى الله عليه صَلاَةً تُحظيهِ بالزُّلفة ، وعَلَى أَصْفيائه أهلِ الصُّفة . أما بعد :

رفع المسهم

فإنّ اللهَ تعالى شرع النِّكاح لتتعفَّفُوا ، وسنَّ التّناسُل لكى تتضاعفوا ، فقال سبحانه : ﴿ يأيُّها النَّاس إنا خلقناكُمْ من ذَكَرٍ وأُنثَى وجعلناكُمْ شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾ . وهذا أبو الدرّاج ، ولاّج ابن خرّاج ، ذو الوجه الوَقاح ، والإفْكِ الصُّراح ، والْهَرِيرِ والصِّياح ، والإبرام والإلحاح ، يخطب سَلِيطَةَ أهْلِهَا ، وشريطة بَعْلِها ؛ قَنْبس بنت أبى العَنْبس ، لِمَا بَلغَه من التِحافِها بإلحافها ، وإسْرافِها فى إسْفافِها ، وإنكماشِها على معاشها ، وانتعاشها عند هِراشها . وقد بَذَلَ من الصَّدَاقِ شِلاَّقاً وعُكَّازاً ، وصِقَاعاً وكرّازاً ، فأنكحوه إنكاحَ مثلِه ، وصِلُوا حَبْلَكُمْ بحبله ، ﴿ وإنْ خفتُمْ عَيْلَةً فسَوْف يغنيكُم اللهُ منْ فضله ﴾ .

أقول قولى هذا ، وأستغفر الله العظيم لى ولكمْ ، وَأسألُه أن يكثر فى المصاطب نَسْلَكُمْ ، ويحرس من المعاطب شَمْلَكُمْ .

* * *

ينسخ : يزيل . المسكين : الضعيف الذليل . وخفَض جناحه : ألان جانبه ، فهو مثلٌ للإشفاق والحنان ، وأصله أنّ الطائر إنما يخفض جناحه على فراخه ، ويُلحفها به شفقة عليها ، قال الله تعالى : ﴿ واخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ منَ الرَّحْمَةِ ﴾[1] . واستكان : خَضَع وذلّ ، وهو استفعل من كان ، أصله استكوْن ، نقلت حركة الواو إلى الكاف ، فانقلبت الفاء لتحرّكها فى الحكم وانفتاح ماقبلها

(١) سورة الإسراء ٢٤

فهى فى الأصل كاستقام وبابه ، أو يكون افتعل من السكون لأن الخاضع يقلّل الكلام ، وأصله استكن ، فوصلت فتحة الكاف بألف كقوله :

* قلت وقد جرت على الْكَلْكَالِ *

أراد الكلكل ، وقال تعالى : ﴿ فما استكانوا لربّهم وما يتضرّعون ﴾[1] .

وأنشد أبو على :

* فَمَا اسْتَكَانَ لما لاَقَى ولا خَضَعَا *

قوله : المثرين : الأغنياء . الزلفة : القربة ، يُقرَّب بها إلى الله تعالى . أصفيائه : أحبابه .

الصُّفّة : تشبه : القبلة ، والصّفّة كالسقيفة ، وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الغرباء يظعنون إليه من الجهات ، وليس عندهم شىء ، فيسكنون سقائف المسجد ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرّض الناس على الصّدقة عليهم ، وكان يجلس لهم ، فيعلّمهم القرآن . وخصّهم الحريرىّ بالذّكر لأنّ لهم حالة يشبهون بها المُكْدِين؛ من لباس الخُلْقان ، والعيش من صدقات الناس ؛ فهم يتأسَّوْن بأهل الصُّفة ، ويجعلونهم حجّةً على مَنْ زَجَرهم .

ومما يحسن أن ينشد فى هذا المعنى قول ابن عمران :

السائلون عيال الله والمال لِلّه فابذله فيهم خابَ مَنْ لَؤُما
فجدْ على ثقةٍ بالله من خَلَفٍ يا ويح مَنْ كان للرحمن متّهِماَ !
واحذر من الردّ إن الله يمقته من غير عذرٍ وشؤم الشحّ قد عَلِماَ

(١) سورة المؤمنين ٧٦

الشعوب : جمع شَعب ، وهو أكبر من القبيلة . الدرّاج ، كناه بذلك لكثرة حركته . ولاّج : كثير الولوج على الناس للكُدية . خرّاج : كثير الخروج فى طلب رزقه ، والولاّج : الخرّاج الّذى يُحسن الدخول فى أموره والخروج منها ، ويقال : فلان ولاّج خرّاج ، إذا كان متصرّفا فى أموره نفّاعا لأوليائه ، ضرّارا لأعدائه . والإفك : سوء الكذب . الصُّراح : الظاهر البيّن ، يريد أنه إذا وصف حالته فى كُدْيته لا يتكلّم إلا بالكذب . الهَرير : كثرة الصياح والشرّ ، وهرير الكلب : صوته دون نُباحه من قلّة صبره على البرد . والإبرام : الإثقال والإضجار ، يريد أنه يوالِى الصياح على من يكديهم ويثقل عليهم بالعتب على ترك الصَّدَقة حتى يفتدوا منه . والإلحاح : المداومة والإكثار من السؤال .

وقدم الحطيئة المدينة فى سنة مجدبة ، فمشى أشرافها بعضُهم لبعض ، خوفاً من لسانه ، وقالوا : قدم علينا هذا الرجل ، وهو يأتى الشريف منّا ، فإن أعطاه جَهَد نفسه ، وإن حرمه هجاه ، فجمعوا له بينهم أربعمائة دينار فأتوه ، فقالوا : هذه صلة آل فلان ، وهذه صلة آل فلان ، فأخذها ، وظنوا أنهم قد كفوه المسألة ، فإذا هو يوم الجمعة قد استقبل وهو يقول : مَنْ يحملنى على بغلين كفاه الله كيّة النار .

السَّليطة : الحديدة اللسان ، وقد سلُطت فهى سَليطة . شريطة : موافقة بعلها ، أى زوجها ، أى جاءت على شرط زوجها ، فهى مثله فى خصالها كلّها . قَنْبس : اسمها ، وهو من القبَس ، وهى الشعلة ، كأنها لحدّتها شعلة نار تحرق ما مرّت به . عنبس : من العبوس ، ونونه ونون قنبس زائدتان . التحافها : ارتدائها والتوائها فيه . إلحافها : إلحاحها فى السؤال . إسفافها : تساقطها على ما تجمع من الناس ، والإسفاف : التّتبّع لمداق الأمور ، والإسفاف : الدخول فى الأمر الدنىء ، وقد أسفّ : تعرّض للأمر الدنىء . انكماشها : انحفازها واجتهادها

نتعاشها : قيامها وارتفاعها . هراشها : مشارّتها لقرابتها ، والمهارشة أصلها للكلاب ، وهى أن يترافع الكلبان ويتنابحا ، ويعضّ كل واحد صاحبه ، فجعل مدافعتها عند الشرّ لأقرانها ومضارتها كالهراش للكلاب ، ولا تكل عندهم نجابتها ، حتى تفوق أقرانها فى الشرّ والسبّ بالقبائح وضرب الكفّ على ذلك ، وإلا فهى ناقصة . بذَل : أعطى . شلاّقا : ثوب مرقع ، وليس بعربىّ ، وقيل هو شِبْه المِخْلاة ، وقيل هو خريطة تُجعل فيها كِسَر الخبز . عُكّازاً : عصا تُقْرع بها الأبواب ، وتضرب بها الكلاب . صِقَاعا : خرقة بالية تجعلها على رأسها . كرّازا : إناء تعلّقه فى ذراعها، تجعل فيه الصدقة. وقيل: الكرّاز إناء لشرب الماء ، وتسمّيه عامتنا الكرازة ، فكان صداق هذه المرأة ثوبا مرقّعا تلبسه للكُدْية. وخرقة بالية لرأسها وعصا تَقرع بها الأبواب ، وإناء إما أن تجعل فيه مايَدِقّ من الصدقة أو تجعل فيه ماء لشربها عند طوافها للكُدْية ، والكرّاز هو الخُرْج ، والكرّاز : كبش يَحْمِل عليه الراعى أداته . عَيْلة : فقرا . شملكم : عددكم . المعاطب : المهالك .

وخطّأ أبو محمد فى الدرة[1] من يذهب من الخواصّ بالعيْلة إلى العيال ، وقال : إنما العيْلة الفقر ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وإنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾[2] وتصريف الفعل منه عال يَعيل فهو عائل ، والجمع عالة ، وفى التنزيل العزيز : ﴿ ووجَدَكَ عائلاً فأغْنَى ﴾[3] ، وفى الحديث : «لأن تدَع ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تتركهم عالة يتكفّفون الناس » . وأما الذين يعالون فهم عيال ، واحدهم عيّل كجيّد وجياد ، وجمع عيال على عيائل كركاب وركائب ، وأعال فهو معِيل : كثر عياله ، وعالَهم يعُولهم . وفى الحديث : « ابدأ بمن تعول » ، ومن كلام العرب : والله

(١) درة الغواص ٣٩
(٢) سورة التوبة ٢٨
(٣) سورة الضحى ٨

رفع المسهم

لقد عُلْتُ حتى علت أى صنت عيالى حتى افتقرت . وأما قوله تعالى : ﴿ ذَلك أَدْنَى أن لا تَعُولوا ﴾[1] فمعناه ألاَّ تجوروا . وقال بعض العرب لحاكم حُكِم عليه بما لم يوافقه : والله لقد عُلتَ علىّ فى الحكم ، أى جرت ، ومَنْ فسَّر فى الآية ﴿ تعولوا ﴾ بأنّ معناه تكثُر عيالكم فقد وَهِمَ .

* * *

[رسالة للصابى فى التطفيل]

وإذْ فرغنا من تفسير هذه الخطبة الهزلية ، وقد قدّمنا أن ابن همام فى هذه المقامة طفيلىّ ، فنذكر هنا العهد الذى كتب الصابى بأمر معز الدولة لمحمّد ابن فريعة الطفيلىّ ببغداد ، وقد استخلفه على التطفيل ؛ فإن هذا العهد يوافق خطبة المقامة فى كثير من أغراضها .

وذلك عهد عهده محمد بن عبد الرحمن إلى الفضل بن النعمان ، حين استخلفه على سُنّته ، واستنابه على حياطة رسومه وسنّته ؛ من التطفيل على أهل مدينة السلام ، وما يتصل بها من أرباضها وأكنافها ، وما يجرى معها مِنْ سوادها وبياضِها وأطرافها ، لما توسّمه فيه من قلة الحياء ، وشدّة اللقاء ، وكثرة اللقم ، وجودة المضم .

وأمره أن يتوسّم اسم التطفيـــل ومعناه ، ويعرف مغزاه ومنحاه ، ويتصفّحه تصفّح الباحث عن حظه بمجهوده ، غير القائل فيه بتسليمه وتقليده ، فإنّ كثيراً من الناس قد نسب صاحبه للشَّرَه والنَّهم ، وحمله على الجشع والقَرَم ، فمنهم من غلط فى استدلاله ، فأساء فى مقاله ، ومنهم مَنْ شَحّ بماله ، فدفع عنه

(١) سورة النساء ٨

باحتياله ، وكلا الفريقين مذموم، وجميعهما مُليم ملوم ، ولا يتعلقان بعذر واضح، ولا يتعرّيان من لباس فاضح . وقد عُرِفت يا أخى بالتطفيل ، ولا عار فيه عند ذوى التحصيل ، لأن التطفيل مشتق من الطَّفَل ، وهو وقت المساء وأوان العشاء ، فلما كَثُر استُعمل فى صدر النهار وعجزه ، وأوله وآخره ، كما قيل : القمران للشمس والقمر ، وكما قيل العمران لأبى بكر وعمر .

وأمره أن يعتمد موائد الكبراء والعظماء بعراياه ، ويبسط الأمر بسراياه ، فإنه يظفر من إرادته بالغنيمة الباردة ، ويصل بها إلى الغريبة الشاردة . فيجد بها من ظرائف الألوان ، الملذّذة للسان ، وبدائع الطعوم ، السائغة فى الحلقوم ، مالا يجده عند غيرهم ، ولا يناله إلا لديهم ، لحِذْق صناعتهم وجوْدة أدواتهم ، وخِصْب ناديهم ، وكثرة ذاتِ أيديهم ؛ والله يوفر من ذلك حظّنا ، ويُسَدّد نحوه لحظنا ، ويوضّح عليه دليلنا ، ويسّهل إليه سبيلنا .

وأمره أن يجتلب التِّكرِمة ممن يحصل منهم ودّه ، ويستدعى بالتلطف نائله ورِفْده ، وكثيراً مَا يتّفق ذلك للداخلين ، ويتيسر للمتوصّلين .

وأمره أن يصادق قَهارمة الدور ومدبّريها ، ويرافق وكلاء المطابخ ومُدِيريها ، فإنهم يملكون من أصحابهم أزمّة مطاعمهم ومشاربهم .

وأمره أن يتعهد أسواق المتسوّقين ومواسم المتبايعين ؛ فإذا رأى وظيفة قد زيد فيها ، أو أطعمة قد احتُشد منها ، أتبعها إلى القصد بها ، وشيّعها إلى المنزل الحاوى لها ، واستعلَم ميقات الدعوة ، ومَنْ يحضرها من أهل اليسار والثروة .

وأمره أن يجتنب مجامع العوامّ المقلين، ومحافل الرّعاع المقترين ، وألاّ ينقل إليها قدما ، ولا يغفر لما كلها فماً ، فإنها عصابة تجتمع على مضَض النفوس والأحوال . وقلة الأحلام والأموال ، وفى التطفيل عليها إحجاف بها يؤلم . وإزراء بمروءة التطفيل يثلم .

وأمره أن يحوز الخِوان إذا حصل، والطعام إذا نُقل، حتى يعرف بالحدْس والتخمين عدد الألوان فى الكثرة والقلة، وافتنانها فى الطِّيب واللذة، فيقدّر لنفسه أن يشبع مع آخرها، وينتهى عند انتهائها، فلا يفوته نصيب من كَثيرها وقليلها، ولا يخطئه الحظّ مِنْ دقيقها وجَليلها. ومتى أحسّ بثقلة الطعام وحجْره، أمعن فى أوّله إمعان الكيّس فى سعيه، والرشيد فى أمره، فإنه إذا فعل ذلك سلم من عواقب الأغمار الذين يكفون طرفا، ويقلّون تأدبا، ويظنّون أن المائدة تُبلِغُهم إلى آخر حاجتهم، وتنتهى بهم إلى حدّ غايتهم، فلا يلبثون أن يخجلوا خجلة الوامق الراغب، وينقلبوا بحسرة الراهق الخائب.

وأمره أن يروضَ نفسه، ويغالط حِسّه، ويضرب عن كثير مما يلحقُه صَفْحاً، ويطوى دونه كشحاً، ويستحسن الصَّمَم عن الفحشاء، ويغمض عن اللقمة الخشناء، وإن أتته الوكْزة فى حلقه، صبر عليها لأجل الوصول إلى حقه، وإن وقعت الصفعة فى راسه، عضّ عليها بمواقع أضراسه، وإن لقيه لاقٍ بالجفاء، قابله باللطف والصفاء، إذا كان ولِج الأبواب، وخالط الأصحاب، وجلس مع الحضور، واختلط بالجمهور، فلا بدّ أن يلقاه المنكِر لأمره، ويمرّ به المستغرب لوجهه، فإن كان حرّا حسنا أمسك وتذمّم، وإن كان فظّا غليظاً همّهم وتكلّم. وأن يستعمل مع المخاطَب له الملاينة، وأن يجتنب عند ذلك المخاشنة. ليردّ غيظه ويقلّ حده، ويكفّ غَرْبَه ويأمن سعيه. وأمره أن يتعهد الجوارشات المعدّة للعدد، والمقوية للعد، المشهيّة للطعام، المسهلة سبيل الانهضام، وأن يكون فى اتخاذها كالكاتب الذى يخطّ أقلامه، والفارس الذى يَصقُل حسامه.

وأمره إذا غشىَ أبوابَ الملوك وأهل السلطان، أن يصانع البوّابَ والحجاب، ويخدم القوّاد والكتّاب، فإذا دخل السواد الأعظم، توسط الجمع لا يتأخّر

ولا يتقدّم ، بعد أن يجمل ثيابه ، ويحسّن كلامه وجوابه ، فطعام الأمراء تُدْعَى إليه الحفلاء احتفالا ، ويُتَكَفّل بالوفود على العموم اكتفالا .

فهذا العهد مطابق لأحوال هذه المقامة .

[بعض الخطب الهزلية]

ومما يتصل بخطبة المقامة من الخطب الهزلية ما حدّثوا :

أن رجلا خطب إلى قوم ، وجاء يخطب ، فاستفتح خطبة النكاح بحمد الله فأطال ، ثم ذكر خلق السموات والأرض واقتصر ، ثم ذكر القرون حتى ضجر مَنْ حضر ، ثم التفت إلى الخاطب فقال : ما اسمُك أعزك الله ؟ فقال : والله قد نسيت اسمى من طول خطبتك ، وهى طالق ثلاثا إن تزوّجتُها بهذه الخطبة . فضحك القوم وعقدوا له فى مجلس آخر .

أنكح خالد بن صفوان عبدَه أمتَه ، فقال له العبد : لو دعوت الناس فخطبت . قال : ادعهم أنت ، فدعاهم ، فلمّا اجتمعوا تكلّم خالد ، فقال : إن الله أعظمُ وأجلّ من أن يُذكر فى نكاح هذين الكلبين ، وأنا أشهدكم أنى قد زوّجت هذه الزانية من هذا ابن الزانية .

خطب مُصعب بن حيّان خطبة نكاح ، فحصِر فقال : لقّنوا موتاكم « لا إله إلا الله » . فقالت له الجارية : عَجّل الله موتك ، ألهذا دعوناك !

خطب ثقيل فى تزويج فأطال ، فقام واحد من القوم ، وقال : إذا فرغ الثقيل ، بارك الله لكم ، فإن علىّ شغلا أريد المبادرة فيه .

رفع المسهم

وخطب رجل امرأة ، فجعل يخطب ويُنعِظ، فضرب رأس ذكره بيده وقال: مَهْ ! إليك يُساق الحديث .

* * *

فلمَّا فرغ الشيخُ من خُطْبَتِه ، وأبْرَمَ لِلخَتَن عَقْدَ خِطْبته ، تَساقَطَ من النِّثَار ما اسْتَغْرَق حَدَّ الإكثار ، وأغْرى الشَّحِيحَ بالإيثار . ثم نهض الشيخ يَسْحَبُ ذَلاذِله ، ويَقْدُمُ أراذِلَهُ .

قال الحارث بن هَمّام : فتبعتُه لأنْظُرَ عُرْجَةَ القوم ، وأُكْمِلَ بَهْجَةَ اليوم . فعاج بهم إلى سِماطٍ زَيَّنَتْهُ طُهاتُه ، وتناصَفَتْ فى الحُسْنِ جهاتُه . فحِينَ رَبَعَ كلُّ شخصٍ فى رِبْضَتِهِ ، وَطَفِقَ يَرْتَعُ فِي رَوْضَتِهِ ، انْسَلَلْتُ مِن الصَّفّ ؛ وفرَرتُ من الزَّحفِ . فحانت من الشيخ لَفتَةٌ إلىّ ، ونظرَةٌ هجم بها طَرْفُهُ عَلَىّ ، فقال: إلى أيْنَ يا بُرَم ؟ هَلاَّ عاشَرْتَ مُعاشرةَ مَنْ فيهِ كرَم ! فقلت : والّذى خلَقَها طِباقا ، وطَبَقها إشراقا ، لاذقتُ لَمَاقا ، ولاَ لُسْتُ رُقاقا ، أو تخبرَنى : أيْنَ مَدَبُّ صِباك ، ومن أيْنَ مَهَبُّ صَباك ؟ فتنفَّس الصُّعَدَاء مراراً ، وأرسل البكاء مِدْراراً ، حتَّى إذا استَنْزَفَ الدَّمع ، استَنْصَتَ الجمع ، وقال لى : أرعِنِي السَّمْع .

. . .

قوله : أبرم ، أى أحكم وسدّد . والخَتَن : ولىّ الزوجة مثل الأب والأخ وابن العم ، فهم الأختان ، وكل شىء من قبَل الزوج ، فهم الأحماء ، واحدهم حمًا مثل قفًا ، وحمو مثل أبو ، وحَمْء مهموز ، والأصهار تجمعهم .

والخِطبة : مراسلة المرأة للزواج . والنِّثار : ما نُثِر عليه من الدراهم ، وقد نثرت الشىء نثرا إذا رَمَيْتَ به متفرقًا ، وأصحابُ الزوج تدخلهم حميّة عند ذلك فينثر كلُّ واحد منهم من الدراهم ما أمكنه ، فَتُجْمَع ويُشترى منها أنواع الأطعمة ، ولذلك قال : أغرى الشحيحَ بالإيثار : أى حرّضه على أن يتكرّم . واستغرق : جاوز . وحدّث ابنُ قتيبة عن أبى عثمان ، قال : مررت بمحضر قد اجتمع فيه خلق كثيرون ، فسألت بعضَهم : ما جمعهم ؟ فقال : هذا سيّد الحى تزوج منا فتاةً ، فتكلّم الشيخ فقال : الحمد لله وصلّى الله على رسول الله ، أما بعد؛ فإن الله جعل المناكحة ـ التى رضيها فعلا، وأنزلها وحيًا ـ سبب المناسلة، وإن فلانا ذكر فلانة ، وبذل لها من الصَّدَاق كذا ، وقد زوّجته إياها ، وأوصيته بوصية الله فيها ، ثم قال : هاتوا نِثَاركم ، فقلبت على رءوسنا غرائر التمر .

قوله: ذلاذله، أى أطراف ثوبه ، والذلذل. مايلى الأرض من أسفل القميص، أراذله : جمع أرذل ، وهو الدنىء ، والرَّذْل والمرذَل والرّذيل : الدّون . والعُرْجة: التعريج ، ويقال :ماعليه عُرْجة ولاتعريج، أى إقامة . وبهجة الشىء : حسنه ونضارته . وعاج : مال . والسِّماط : كلّ مُسْتَوٍ على نسق، وصُفَّ الناس سماط وأراد به المائدة . والطّهاة : الطبّاخون من النّاس . تناصفت : اعتدلت ، وأنصف كلّ جزء منها صاحبَه ، والتناصف : اعتدال الحسن . رَبَع : جلس ، يقال: ربعت بالمكان : أقمت به ، وربعت الحجَر : رفعته باليد ، لأنظر شدتى . ورَبَع : وقف وتحبّس . ربْضته : موضعه الذى يقعد فيه ، والرِّبضة : القطعة

الغليظة من الثّريد . يرتع : يأكل ، وفلان يرتع ، أى هو مخصب لا يعدم شيئاً يريده . الروضة : موضع العشب ، وأراد بها ما بين أيديهم من الطعام . الزّحف : الضرب والوثوب إلي الشّرّ ، وأراد أنه لما جلس كلُّ إنسان أن يأكل خشىَ هو إن جلس للأكل أن يغرم ويشتهر بأنه طفيليّ ، فيحتاج أن يتدَافع ، وأن يتواثب مع صاحب الحانوت فى ثمن ما أكل ، ففرّ من ذلك . والزحف : مشى الأعمى . لفتة : نظرة بالتواء ، كأنه يلوى عنقه فينظر ، ولفت إليه لفتا والتفت : صَرف وجهه إليه . وهجم : دَخَل عليه بغتة . بُرَم : بخيل ، وهو الذى لا يدخل مع القوم فيما دخلوا فيه من المغرَم . والمعاشرة : ترك المخالفة فى الصحبة . طِباقاً : جمع طبق ، أى هى طبق فوق طبق ، يعنى السماء . وطبّقها : ملأها وعمّها ، يقال : طبَّق الغيمُ تطبيقا إذا أصاب بمطره جميعَ الأرض . إشراقاً : نوراً وضوءا . لَماقا ، الأصمعى رحمه الله : هو ما يُشرب ، فإن أردت نفيه ، قلت : ما ذقت لَماقا ، وأنشد :

كبرقٍ لاح يُعجب مَنْ رآه ولا يشفى الحوائمَ من لُماقِ[1]

الحوائم : العطاش ، وحكى يعقوب أن اللّماق يَصْلُح فى الأكل والشرب ، قال ابن كيسان : هو الشىء اليسير من الطعام والشراب .

لُست رُقاقا : أكلت خبزا مرقّقا ، وَاللَّوْس : تتبع بقية الشىء الحلو فى فمك . ابن سيده : لاس لوْساً : تتبّع الحلاوة ، فأكلها ، وماذاقَ لوْسا ولا لواساً ، أى ذواقا ، ولا يلوس كذا ، أى لا يتناوله .

أو تخبِرنى : حتى تخبُرنى . أين مدبّ صِباك ، يريد أين ولدت فدببت صغيرا . مهبّ صَباك : مجىء ريحك ، وأراد أين بلدك . الصّعداء : التنفس بتوجّع

(١) اللسان ـ لمق ، ونسبه إلى نهشل بن حرى .

وهى من فعل المهموم . استنزف الدمع : استفرغه بالبكاء حتى انقطع ، ونزف وأنزفه : أفناه بالبكاء ، واستنصت : أمرهم بالسكوت .

* * *

مَسْقَط الرَّأسِ سَروجُ وبِهَا كُنْتُ أَمُوجُ
بلدةٌ يوجَدُ فيهَا كلُّ شىء وَيُروجُ
وِرْدُها من سَلْسَبيلٍ وَصَحَارِيهَا مُرُوجُ
وبنُوها ومغانيهِمْ نُجومٌ وَبُرُوجُ
حَبَّذا نَفْحَةُ رَيّا هَا وَمَرآها البهيجُ
وأزاهيرُ رُبَاهَا حِينَ تنْجابُ الثُّلُوجُ
مَنْ رآها قال مَرْسَى جَنَّةِ الدُّنيا سَروجُ
ولِمَنْ يَنْزَاحَ عَنْهَا زَفَراتٌ ونشيجُ
مِثْلُ ما لاقيتُ مُذْ زَحْزَحَنِى عَنْهَا العُلُوجُ
عَبْرَةٌ تَهْمِي وَشَجْوٌ كُلَّمَا قَرَّ يَهِيجُ
وهمومٌ كُلَّ يومٍ خَطْبُهَا خَطْبٌ مَرِيجُ
ومساحٍ في التَّرَجِّى قَاصِرَاتُ الخَطْوِ عُوجُ
لَيْتَ يَوْمِى حُمَّ لمَّا حُمَّ لى مِنْهَا الخُرُوجُ

مَسْقط الرأس ، يريد الموضع الذى سقط فيه رأسه عندما ولِدَ . أموج : أتصرّف وأتحرّك ، والمائج : المضطرب . يروج : يتعجّل . وِردها : ماؤها . السلسبيل . عين فى الجنة ، والسلسبيل الخمر . والمروج : المواضع الخصبة . مغانيهم :

رفع المسهم

منازلهم . والبروج : منازل القمر، وأراد أنهم فى الحسن والرفعة كالنجوم ، وأن دورهم فى العلوّ والاستواء كالبروج .

[مما قيل فى الحنين إلى الأوطان]

وسبقه الحلوانى القيروانى إلى هذا التشبيه ، فقال يتشوّق إلى القيروان بعد خرابها :

ليتَ شعرى وليت حرف تمنّ ... رُبّما علل الفـــؤاد السّقيما (١)
كيف يا قَيْروانُ حالُك لمّا ... نثر البين سلكَكِ المنظوما
كنتِ أمّ البلاد شرقاً وغرباً ... فمحا الدهر وشْيَكِ المرقـوما
نحن أولادها ولكنّ عَقَقْنا (٢) ... بعد أن لم نُطِقْ بها أن نقيما
دِمَنٌ كانت البروج وكنّـا ... أمُـــراً فى قِبابها ونُجوما

وقال السرىّ يتشوق إلى الموصل وكان بحلب :

أمحلّ صَبْوتنا دعاء مشوقِ ... يَرْتاح منك إلى الهوى الموموقِ (٣)
فمتى أزورُ قباب مشرفة الذّرَا ... فأدور بين النّسر والعيّوقِ
وأرى الصّوامع فى غوارب أكُمِّها ... مثل الهوادج فى غوارب نُوقِ
محمّرة الجُدْران ينتح طيبُهـا ... فكأنّهـا مبنيّـــة بخَلوقِ
حُمْرًا تلوح خلالَها بيض كمَـا ... فُصِّلت بالكافور بين (٤) عقيقِ
كلف تذكّر قبل ناهية النّهى ... ظلّين : ظلّ هوى وظلّ حديقِ
فتفرّقت عـبَرَاته فى خدّه ... إذ لامجـــير له من التفريقِ

---

(١) الذخيرة ٤/١/٢٢٥ . (٢) الذخيرة : « نحن أبناؤها ولكن غنينا » .
(٣) ديوانه ١٨٦ مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات .
(٤) الديوان : « سمط عقيق » .

رفع المسهم

وقال الثعالبي : ما نظرت إلى الصوامع مذ برزت من نيسابور إلا ذكرت بيته ، فأرى الصوامع،واستأنفت العجب من حسن هذا التشبيه وبَراعته .

* * *

قوله : نفحة ريّاها ، أى حركة رائحتها الطيبة . مرآها البهيج : منظرها الحسن . وأزاهير رُباها: أنوار كِداها ،وهى جمع أزهار،وأزهار جمع زهر،وهو النَّورْ .تنجاب : تَزُول.

ثم قال : سَرُوج هى الموضع الذى أرست به جنة الدنيا،أى ثبتت فيه فكأنه قال : جنة الدنيا هى سَروج . وسَروج هذه بلد بقرى وعمارات ، وهى من بلاد الجزيرة وكورها المشهورة ، والجزيرة انقسمت قسمين : ديار ربيعة وديار مضر، وسَروج من كور ديار مضر،وهى ثغرية إذا كان للمسلمين قوّة يملكونها، وإذا ضعفوا غلبَهم الروم،عليها وهى كثيرة الثلج والبرَد.

قوله: ينزاح : يبعد . النشيج: البكاء. والزفرة : تنفّس المهموم . زحزحنى: نَحَّانى . تهمى : تسيل . شَجْو : حزن . قرّ : سكن . يهيج : يتحرك . خطْبها: أمرها مَريج :مختلط.مساع:مواضع تصرفه ، ويكون المسعى مصدراً بمعنى السّعى. قاصرات ، أى قصيرة ، وكذا استعمالها لأن فعلها قصُر ، واسم فاعلها فعيل مثل ظرف فهو ظريف . الخَطْو : جمع خطوة . عوج: معْوجّة . يومى حمّ ، أى يوم موتى قدّر ، أراد : ليت أنى مت ولا أرى خروجى منها .

أنس رضى الله عنه قال : النبى صلى الله عليه وسلم : « لا يتمنّين أحدكم الموت لضرّ نزل به ،فإن كان لا بدّ فاعلا ، فليقل :اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى : وتوفّنى إذا كانت الوفاة خيراً لى » .

جابر رضى الله عنه : أن النّبى صلى الله عليه وسلم قال « :لا تمنّوا الموت فإن هول المطلع شديد ، وإن من السعادة أن يطول عمر العبد ، وأن يرزقه الله الإنابة » .

رفع المسهم

وفى معنى وصفه سروج وبكائه عليها، قال الحصرى[1] الأعمى يتشوق إلى القيران:

أيا سقى الله أرض القيروان حيا ... كأنه عبراتى المستهلاّت[2]
فإنّما لذة الجنات تربتها ... مسكيّة وحصاها جوهريات
أرض أريضة، أقطار مباركة ... لله فيها براهين وآيات

وحدّثنى الفقيه أبو عبد الله بن زرقون فى بستانه بطريانة، أيام قراءتى عليه النوادر والكامل، وكان رحمه الله ذاكراً بالطريقة الأدبية، مع تميّزه بالطريقة الفقهيّة، فدارت بينى وبينه فى إحدى العشيات أنواع من المذاكرات فى فنون أدبيات، فاهتزّ رحمه الله، وهشّ، وأظهر السرورَ بى - وأنا يومئذ غلام ما بَقَل عِذَارى - فقال: لقد علمتَ أن بينى وبينك أخوّة، قلت: وكيف ذاك ياسيدى؟ فقال: إنى وُلدت ببلدك شَرِيش؛ فزدت بالحديث غبطة، واستزدت منه، فقال لى: ومع ذلك فثَمّ قصة مستظرفة:

اعلم أنى كنت اجتزت بشَرِيش قافلاً من العَدْوة، مع الفقيه أبى بكر عبد الله بن العربىّ رحمه الله. فلما صرنا فى بطاحها، وبين كَرْماتها وجنانها، أخذ الفقيه أبو بكر يثنى عليها بكلّ لسان، على كثرة مارأى من البلدان، ويقول: إن الأشياء التى جمعت فيها لانكاد تجتمع فى بلدة، من كثرة الزّرع والضّرع والزيت والعصير والملح وغير ذلك، فقلت له: أعلمت أنى ولدت بها؟ فقال لى أبو بكر: أتقول أنت الآن:

* مسقط الرأس شريشُ *

---

(١) ط: «الحضرى» تحريف (٢) ديوانه ٣٩

فقلت له مجيزا :

* وبها كنت أعيشُ *

فقال أبو بكر :

* بلدة يوجـــد فيها *

فقلت :

* كلّ شيء ويَرِيش *

فقال أبو بكر :

* وِرْدها من سلسبيلِ *

فقلت :

* وصحـــــاريها عريشُ *

ثم سرنا فى طريقنا على قوافى التسروجية ، فرددناها شريشية ، وقطعنا بها الطريق ونحن لانشعر ، فكانتْ أسرّ عشيّة رأيت ، بمجالسة مثل هذا الفاضل وسنّه قد نيّف على الثمانين بسنتين، يحدّثنى عن ابن عربى وابن عبدون الكاتب ونُظَرائهم ، فى رياض كلّها نزهة على نهر إشبيليّة ، وهى أمامنا على بهجتها وجمالها ، مادحاً لى ولبلدى ، ليدخل علىّ بذلك المسرّة ، نسأل الله أن يبلغه غاية السرور فى دار البقاء .

* * *

رفع المسهم

قال : فلمَّا بيّنَ بَلَدَهُ ، ووعَيْتُ ما أَنْشدَه . أَيقَنْتُ أَنَّهُ عَلاّمَتُنا أبو زيْد ، وإن كان الهرَمُ قَدْ أوثقه بقَيْدِ . فبادَرْتُ إلى مُصَافَحَتِه ، واغتنمْتُ مؤا كَلَتَهُ مِنْ صَفْحَتِهِ ، وظَلْتُ مُدَةَ مقامِي بمصر أعْشُو إلي شُوَاظِهِ ، وأحْشُو صَدَفَتَيّ مِنْ دُرِّ ألفاظِهِ ، إلي أن نَعَب بيننا غُراب البَيْن ، ففارقتُه مفارقة الجفنِ للعين.

* * *

قوله : وَعيت ، أى حفظت . عَلاَّمتنا : عالمنا المشهور بالعلم . أوثَقَه : ربطَه وشدّه ، وقد تقدّم هذا القبيل من الهرم فى أخبارٍ وأشعار حسانٍ . مصافحته : معانقته ووضع كفّى على كفّه .

ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : « أيُّما امرىء يُصافح أخاه ليس فى صَدْرِ واحدٍ منهما على أخيه إحْنَه لم تتفرّق أيديهما حتى يغفر الله لهما ما مضى من ذنوبهما » .

الإحْنة : الحقد .

اغتنمتُ : حسبتُها غَنيمة . مؤا كلته : الأكل معه .

ابن عمر رضى الله عنهما : طعام السخىّ دماء ، وطعام الشحيح داء .

ظلْتُ ، أى دمت ، قال تعالى : ﴿ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴾[1] ، أى دُمْتَ عليه مقيماً . قال سيبويه رحمه الله : أصلُه : ظَلِلت . الليث : يقال : ظلَّ نهاره صائما . ولا تقول العرب : ظلّ إلا لكلّ عملٍ بالنّهار ، كما لا تقول :

(١) سورة طه آية ٩٧

بات إلاَّ للعمل باللّيل . أعْشُو : أنظر ببصر ضعيف . شواظه. ناره ،والشُّواظ لهبُ النّارِ الّذى لا دخان فيه . صَدَفَتىّ : أذُنى . نعب : صاح . البيْن :الفراق، والغُراب إذا صاح عندهم تشاءموا به ، وقد تقدَّم ذلك . مفارقة الجفن للعين ، أى مسرعا بقدر ما تفتح عينَك .

تم الجزء الثالث من كتاب شرح المقامات للشريشى ويليه الجزء الرابع وأوله شرح المقامة الحادية والثلاثين .

رفع المسهم

فهرست المسهم
غفرالله له ولوالديه

فهرس المقامات

صفحة

المقامة الحادية والعشرون الرازية ، تتضمن كون أبى زيد واعظا وتعريضه بالأمير ينهاه عن الظلم ٣ — ٣٧

المقامة الثانية والعشرون الفراتية ، تتضمن تفضيل أبى زيد لموضوعى الإنشاء والحساب ٣٨ — ٧٥

المقامة الثالثة والعشرون الشعرية ، تتضمن كون أبى زيد مدعيا على ابنه أنه سرق شعره ٧٦ — ١٧٣

المقامة الرابعة والعشرون النحوية ، تتضمن إلقاء أبى زيد على جلسائه مسائل فى النحو ، على سبيل الإلغاز ١٧٤ — ٢٣٢

المقامة الخامسة والعشرون الكرجية ، تتضمن كافات الشتاء ، وطلب أبى زيد ثياباً يكتسى بها ٢٣٣ — ٢٥٩

المقامة السادسة والعشرون الرقطاء ؛ تتضمن الرسالة التى حروفها على نوعين ، نوع فيها منقوط ، والآخر من غير نقط ٢٦٠ — ٢٩٦

المقامة السابعة والعشرون الوبرية ، وتتضمن طلب الحارث ابن همام ناقته الضالة ، وما حصل من أبى زيد معه فى ذلك ٢٩٧ — ٣٢٩

المقامة الثامنة والعشرون السمرقندية ، تتضمن وقوف أبى زيد بربوة يخطب خطبة عارية من الإعجام ٣٣٠ — ٣٦٨

رفع المسهم
غفرالله له ولوالديه

المقامة التاسعة والعشرون ؛ تتضمن اجتماع الحارث بأبى زيد فى الخان ، وكيف صرع أبوزيد أهل الخان بإطعامهم الحلواء وأخذه مالهم ٣٦٩ — ٤١١

المقامة الثلاثون ؛ تتضمن كون أبى زيد خطيبا فى تزويج مكديه لمثلها ٤١٢ — ٤٤٧

فهرست المسهم
غفرالله لوالديه

فهرس الموضوعات(*)

صفحة

الطبع والتطبع . . . . . ٤ ، ٥
الرعد . . . . . ٥ ، ٦
ابن سمعون . . . . . ٧ ، ٨
نبذ من الأقوال الحكيمة . . . . . ١١ – ١٣
نبذ من الأقوال الحكيمة أيضا ١٤
الموت . . . . . ١٧ – ٢٠
ذكر الولاية والعزل والتشكى من الولاة . . . . . ٢٣ – ٢٧
مما قيل فى اللثغ من الشعر . . . . . ٢٨ ، ٢٩
ذكر سام وحام ويافث . . . . . ٣٢ ، ٣٣
أخبار عمرو بن عبيد . . . . . ٣٣ – ٣٦
سقى الفرات . . . . . ٣٨ – ٤١
ذكر بنى الفرات . . . . . ٤١ ، ٤٢
القعقاع بن شور . . . . . ٤٢ – ٤٣
أشعار فى وصف الجليس . . . . . ٤٣ ، ٤٤
الحور والكور . . . . . ٤٤ ، ٤٥
فى وصف السفن . . . . . ٤٥ – ٤٧
ذكر الثقلاء . . . . . ٤٩ – ٥٢
ماجاء فى البارد . . . . . ٥٢ ، ٥٣
ما جاء فى تشميت العاطس . . . . . ٥٣ ، ٥٤
أصل المثل : عند جهينة الخبر اليقين . . . . . ٥٦ ، ٥٧

(*) وهى الموضوعات التى وردت فى أثناء الشرح .

رفع المسهم
غفرالله لوالديه

صفحة

حائك الكلام . . . . . ٦٢ - ٦٥
السرقات الشعرية وأنواعها . . . . . ٨١ - ٨٥
السرقات المذمومة . . . . . ٨٥ - ٩٥
ذكر التحذير من الدنيا وغرورها . . . . . ٩٧ - ١٠١
نبذ فى توارد الخواطر . . . . . ١٠٤ - ١٠٩
المساجلة ومثل منها . . . . . ١١٠ - ١١٤
أشعار فى وصف الغلمان . . . . . ١١٧ - ١٢٣
أنواع البلاغة فى صناعة الشعر ١٢٣
التجنيس . . . . . ١٢٣ - ١٢٧
التشبيه . . . . . ١٢٨ - ١٣٠
الاستعارة . . . . . ١٣٠ ، ١٣١
الإشارة . . . . . ١٣١ ، ١٣٢
الإيماء . . . . . ١٣٢ ، ١٣٣
التلويح ١٣٣
التعريض ١٣٣
التفخيم ١٣٤
المطابقة . . . . . ١٣٥ ، ١٣٦
التقسيم . . . . . ١٣٦ ، ١٣٧
التسهيم ١٣٨
التتميم . . . . . ١٣٨ ، ١٣٩
الترديد ١٣٩
التجريد . . . . . ١٤٠ ، ١٤١
التتبيع ١٤١

رفع المسهم

صفحة

التبليغ .. .. ١٤١ ، ١٤٢
التصدير ١٣٢
الاستثناء ١٤٣
الالتفات ١٤٤
الأعتراض .. .. ١٤٤ – ١٤٧
الاستطراد .. .. ١٤٧ – ١٤٩
حكاية فرسى الرشيد والمأمون .. .. ١٤٩ ، ١٥٠
مراتب الخيل فى الحلبة .. .. ١٥٠ ، ١٥١
أشعار فى وصف الخيل .. .. ١٥١ – ١٥٥
فصل فى كفران الصنيع .. .. ١٥٦ ، ١٥٧
مختار من الشعر فى إشارة اللحظ .. .. ١٦٣ – ١٦٥
قصة السموءل .. .. ١٧٢ ، ١٧٣
جذيمة ونديماه .. .. ١٧٦ – ١٨٠
الزباء .. .. ١٨٠ – ١٨٥
فصل فى الرياض والبساتين وما ورد فيها من الشعر . . . ١٨٥ – ١٩٧
مما قيل فى الشيب والشباب .. .. ١٩٧ – ٢٠١
ترجمة سيبويه .. .. ٢٠٦ – ٢٠٩
بعض حكايات النحويين . . . . . ٢٠٩ – ٢١٢
الكرج . . . . . ٢٣٣ ، ٢٣٤
من مقامة البديع البخارية . . . . . ٢٤٠ – ٢٤١
ذكر طيبة . . . . . ٢٥٠ – ٢٥٢
ترجمة ابن سكرة . . . . . ٢٥٤ – ٢٥٧
قصص فى الفرج بعد الشدة . . . . . ٢٦٥ – ٢٦٨
مما قيل فى الحجات . . . . . ٢٨٢ – ٢٨٥

رفع المسهم

صفحة

منافرة بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة . . . ٢٨٧ – ٢٨٩
أخبار ذى الرمة ومى . . . . . ٢٩٩ – ٣٠٤
ذكر أشعب وبعض نوادره . . . . . ٣١٤ – ٣١٦
مما قيل من الشعر فى الذباب والبعوض . . . . ٣١٩ ، ٣٢٠
ذكر سمرقند . . . . . ٣٣٠ ، ٣٣١
يوم عروبة . . . . . ٣٣١ ، ٣٣٢
ذكر الحمام وما ورد فيه من الشعر والحكايات . . . ٣٣٣ – ٣٣٥
مما قيل فى الأمل والطمع من الشعر . . . . . ٣٣٢ – ٣٤٣
ذم الدهر وما قيل فيه من الشعر والحكايات . . . ٣٤٣ – ٣٤٦
مما قيل فى عجز الأطباء حين يجىء الأجل . . . . ٣٥٠ – ٣٥١
ذكر كسرى . . . . . ٣٥٩ – ٣٦٣
ذكر دارا . . . . . ٣٦٣ – ٣٦٥
ذكر الفضيل . . . . . ٣٦٦ – ٣٦٧
ذكر واسط . . . . . ٣٦٩ – ٣٧٠
مما قيل من الشعر فى الغلمان . . . . . ٣٧٢ – ٣٧٣
ترجمة إبراهيم بن أدهم . . . . . ٣٨١ – ٣٨٣
ذكر جبلة بن الأيهم . . . . . ٣٨٣ – ٣٨٨
ذكر المغالاة فى الصدقات .. .. ٣٨٨ ، ٣٨٩
أشعار فى التطير من الدنيا والزهد فيها . . . . ٢٩٣ – ٣٩٥
بعض خطب النكاح .. .. ٢٩٨ – ٣٩٩
مما قيل فى الاعتراف بالذنوب والطمع فى رحمة الله وعفوه . . ٤٠٨
ترجمة المنصور ٤١٢

رفع المسهم

صفحة

ذكر مدينة صور ٤١٣
ذكر مصر ٤١٥
ذكر المقياس ٥١٦
ذكر الأهرام ٤١٧
بعض معالم مصر ٤١٧
أخبار المنذر الملقب بابن ماء السماء ٤٢٣
رسالة للصابى فى التطفيل .. .. ٤٣٤ - ٤٣٧
بعض الخطب الهزلية ٤٣٧
مما قيل فى الحنين إلى الأوطان ٤٤٢

رفع المسهم

رفع
المسهم
غفر الله له ولوالديه

شرح

مقامات الحريري

لأبي العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

المجلد الرابع

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

رفع
المسهم
غفر الله له ولوالديه

رفع
المسهم
غفر الله له ولوالديه
2008-12-07

كلية آداب - بنين

شرح مقامات الحريري

لأبي العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

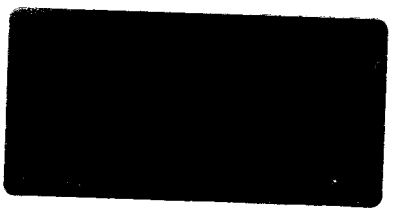

جامعة الكويت
إدارة المكتبات - قسم التزويد العربي
رقم التسجيل: ١٣٦٧٣٤
التاريخ: ٩٨/٦/٢٨

الجزء الرابع

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

رفع
المسهم
غفر الله له ولوالديه

جميع الحقوق محفوظة

١٤١٣هـ ١٩٩٢م

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية — المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢٠٤٢٧ LE

صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلكس ٢٩١٩٨ LE

رفع المسهم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقامة الحادية والثلاثون وهي الرملية

حكى الحارثُ بن همّام قال : كنتُ فى عُنْفُوَانِ الشَّباب ، وَرَيْعَانِ العيشِ اللُّبَاب ، أُقْلِى الاكْتِنَان بالغاب ، وأَهْوَى الاندلاَقَ مِنَ الْقِرَاب ؛ لِعِلْمِى أنّ السَّفَر ، يَنْفُجُ السُّفَر ، ويُنْتِجُ الظَّفَر ، ومُعَاقَرَةَ الْوَطَنِ تَعْقِرُ الفِطَنَ ، وتَحْقِرُ من قَطَن ، فَأَجَلْتُ قِدَاحَ الاسْتِشَارة ، واقْتَدَحْتُ زِنادَ الاسْتِخَارة ، ثم اسْتَجَشْتُ جأْشاً أثبتَ من الحِجارة . وأَصْعَدْتُ إلى سَاحِلِ الشامِ للتِّجارة ، فَلَمَّا خَيَّمْتُ بالرَّملة ، وَأَلْقَيْتُ بِها عَصَا الرِّحْلَةِ ، صَادَفْتُ بِهَا رِكَابًا تُعَدُّ لِلسُّرَى ، ورِحَالاً تُشَدّ إلى أمِّ الْقُرَى .

* * *

عنفوان وَرَيْعَان ، معناهما أول . اللباب : الخالص . أُقْلِى : أبغض . الاكتنان : الاستتار والإقامة فى السكن . والغاب : الشجر المتلفّ ، وهو بيت الأسد ، وأراد به بلدته ، وأنه كان يكره الإقامة بها ويحبُّ السفر . أهوى : أحِبّ . الاندلاق : الخروج بسرعة وسهولة . والقِراب : وِعاء يُجْعَلُ فيه السيف ، وهو غمده . السُّفَر : جمع سُفرة ، وهى التى يجعل فيها الخبز ويضّم عليها

بحاق، وتستعمل فى السفر . يَنْفُج : يُكثر ، أى تكثر المأكولات فى السفر فتنفُج به . يُنتج : يولّد . الظّفَر : الفوز بالحاجة . معاقرة الوطن : ملازمة بلد الإنسان . تعقر الفِطَن : تميت القلوب وتبلد الأذهان . قطن : سكن وأقام، فيريد أن الإقامة فى بلد الإنسان تُحَقِّر شأنه وتبلّد خاطره .

[مما قيل فى الأوطان]

قال الشاعر :

أنفِقْ من الصَّبر الجميـــل فإنه ... لم يخش فقراً مُنْفِقٌ من صَبْرِهِ
والمرء ليسَ ببالغٍ فى أرضه ... كالصَّقْر ليس بصائد فى وَكْرِهِ

وأنشد الفَنجديهىّ :

نَقِّلْ ركابك فى الفَلاَ ... ودَعِ العوالى والقُصُورْ
فمحـــالفو أوطانِهم ... أشبـــاه سكّان القبورْ
لولا التغـــرُّب ما ارتقى ... دُرُّ البحور إلى النُّحورْ

وقالوا : مَنْ لم يصاحب البَرْ والفاجر، ولم يؤدبه الرخاء مرّة والشدة أخرى ، ولم يخرج من الظِّلّ إلى الشمس ، فلا ترجُه . وتقدم مثل هذا فى التاسعة[1].

وقال أبو العباس الأعْمَى :

مَلِلْتُ حمصَ وملّتْنى فلو نطقتْ ... كما نطقتُ تلاحَيْنا على قَدَرِ
وسوّلتْ لى نفسى أنْ أفارِقَها ... والماءفى المزنِ أصفَى منه فى الغُدُرِ
أما اشتفت مِنِّىَ الأيام فى وطنى ... حتى تضايق بى ماعزَّ من وطرى
ولاقضتْ من سوادالعين حاجَتَها ... حتى تكرَّ على ما كان فى السَّفَرِ

(١) الجزء الأول صفحة ٣٣٩ ـ ٣٤٠

وقال البحترىّ :

ولَيْسَ اغترابى من سجِسْتَان أننى عدمت بها الإخوان والدَّارَ والأَهْلاَ[1]
ولكنّنى مالى بها من مُشاكلٍ وإنّ الغريب الفَرْدَ مَنْ يعدَم الشّكْلا

ولأبى الفتح البستى عفا الله عنه :[2]

مَا أَنْصَفَتْ بغدادُ حين توحَّشت لنزيلها وهى المحلّ الآنَسُ
لم يَرْعَ لى حقَّ القرابة بُحْتُرٌ[3] فيها ولا حقَّ المروءة فارسُ[4]

وتعقّب عليه المعرّى فى هذا فقال فى أبى القاسم علىّ بن المحسّن التّنوخىّ القاضى :

ذمَّ الوليدُ ولم أذُمَّ جوارَكُمُ فقال ما أنصفتْ بغدادُ حُيّيتا[5]
فإن لقيتُ وليدا والنوى قُذُفٌ[6] يوم القيامة لم أعْدِمْه تبكيتا
أحسنت ما شئت فى تأنيسِ مغتربٍ ولو بلغت المدى[7] أحسَنْتَ ماشِيتا

وقال أبو الفتح البستىّ[8] :

وما غُرْبَةُ الإنسان فى شُقّة النّوى ولكنّها والله فى عدم الشّكْلِ

---

(١) ديوانه ٢٦٢٩ (عن الشريشى) .
(٢) كذا فى الأصول ، والصواب أن البيتين للبحترى ، من قصيدة يمدح فيها على بن يحيى المنجم فى ديوانه ١١٣٣ ، وهما أيضا فى شرح البطليوسى على سقط الزند ١٦٤١ .
(٣) ط : « مجتر » ، تصحيف ، وفى الديوان : « طيىء » .
(٤) الديوان : « ولاحق الصداقة » .
(٥) سقط الزند ١٦٤١ ، ١٦٤٢ ، وفيه : « حوشيتا » .
(٦) قذف ، أى بعيدة .
(٧) سقط الزند : « المنى » .
(٨) يتيمة الدهر ٤ : ٣١ ، ونسبهما إلى أبى سليمان الخطابى

وإنى غريب بين بُستَ وأهلِها وإن كان فيها أُسْرَتِي وبها أهلِي

ولأبى بكر بن بقىّ :[1]

أقمتُ فيكم على الإقتار والعَدِم لو كنت حرًّا أبيَّ النَّفس لم أُقِمِ[1]
فلا حَدِيقتكُمْ يُجْنَى لها ثَمرٌ ولا سماؤكمُ تَنهَلُّ بالدِّيَمِ
أنا امرؤٌ إن نَبَتْ بى أرضُ أندلسٍ جئت العراق فقامت لى على قدمِ
ما العيش بالعلم الإحالة[2] ضعفَت وحُرفةٌ وُكِلَتْ بالقُعْدِدِ الهرمِ

وللفقيه أبى محمد بن حزم :

ولى حول أكناف العراق صَبابةٌ ولاغَرْوَ أن يستوحش الكلِفُ الصَّبُّ
فإن يُنزل الرحمن رَحْلِيَ بينهمْ فحينئذ يبدو التأسّف والكَرْبُ
هنالك يَدْرِى أنّ للبعد قصةً وأنّ كساد العلم آفتُه القُرْبُ

* * *

قوله: أجَلْت، أى صرّفت . قداح : سهام . الاستشارة : مشاورة غيره فى رأيه ، وإجالة القداح تأتى فى الثالثة والأربعين ، واستعار هنا لمن يستشيره فى أمر السفر قداحًا، فإن وافق رأيَه فكأنّه خرج له على السهم: «افعل» وإن خالفه فكأنه خرج عليه «لاتفعل» . اقتدحت : ضربت . زِناد : ما يكون فيه النار . الاستخارة : طلب الخيرة من الله تعالى . استجشت : حَرّكت . جأشا : نفسا، وهى فى سكونها عن السفر كالحجر فلا تتحرّك للسفر . أصعدت : طلعت . خيّمت : أقمت .

---

(١) نفح الطيب ٣ : ٤٨ ٤ .
(٢) النفح : « حِيلةٌ » ، « البرم » .

رفع المسهم

الرَّمْلة : بلدة بالشام ، سَمَّتها العرب بالرَّملة لمّا غلب عليها الرمل ، وهى من كُور فلسطين ، بينها وبين بيت المقدس ثمانية عشر ميلا ، وكانت لدّ[١] مدينة فلسطين القديمة ، فلما وَلِيَ الخلافة سليمان بن عبد الملك ابتنى مدينة الرّملة ، وخرّب لدّ ، ونقل أهلُ لدّ إليها ، فصارت الرملة مدينه فلسطين .

أُلقيت : تركت . الرِّحلة : الارتحال ، وكنى بإلقاء العصا عن الإقامة بعد أن تهيّأ .

أم القرى : مكة . وكنا نوينا ترك ذكر مكة لشهرتها ، ثم وجدنا شيخنا ابن جُبير قد ذكر فيها أشياء قلّ مَنْ يضبطها ، فأثبتناها إعلاماً لمن أحبّ استطلاعها ، وتبرّكا بذكر البيت الشريف أعزه الله تعالى .

[ذكر مكة ومعالمها]

قال شيخنا[٢] : مكة بلد قد وضعها الله تعالى بين جبال محدِقة بها ، وهى فى بطن وادٍ ، مدينة كبيرة مستطيلة لها ثلاثة أبواب :

باب المعلّى يخرَج منه إلى الجبّانة بالموضع الذى يعرف بالحجُون عن يسار المارّ إليها جبلٌ فى أعلاه ثنيّة ، عليها علَم يشبه البرجَ منها إلى العمرة ، وتعرف الثنيّة بكَدَاء ، وهى التى جعلها حسّان موعد خيل الإسلام فى قوله :

* تُثيرُ النَّقْع موعِدُها كَدَاء[٣] *

ومنها دُخِلَتْ مكة يوم الفتح ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ادخلوها من حيث قال حسان » .

---

(١) لد ، بالضم والتشديد ، ذكرها ياقوت وقال : « قرية قرب بيت المقدس ، من نواحى فلسطين » .

(٢) هو محمد بن أحمد بن جبير الكنانى الأندلسى ، المعروف بابن جبير ، صاحب الرحلة المعروفة باسمه .

(٣) ديوانه ٤ ، وصدره :

* عَدِمْنَا خَيلنا إنْ لم تَرَوْهَا *

رفع المسهم

والحجون هو الذى قال فيه الحارث بن مُضاض :

كأنْ لم يكُنْ بين الحَجُون إلى الصفا
أنيسٌ ولم يسمُرْ بمكَّة سامرُ[1]

وعن يسار المارّ إليها جبل ، وفى جبّانة الحَجُون مدفن جماعة من الصّحابة دُثِرت اليومَ قبورهم ، وفيها بقيّة علم ظاهر ، وهو موضع خشبة عبد الله بن الزبير ، كان فى موضعه بناء مرتفع ، فهدَمَهُ أهلُ الطائف غيرةً منهم على ما كان يجدّد من لعنة الحجاج صاحبَهم . وعن يمينك إذا استقبلتَ الجبّانة مسجد فى مَسِيلٍ بين جبلين ، وهو الذى بايعت الجنّ فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وعلى باب الحَجُون طريق الطائف والعراق ، والصُّعود إلى عرفات ، والباب بين الشرق والشمال مائلا إلى الشرق[2].

الباب الثانى: باب السفلى[3] إلى جهة الجنوب، عليه طريق اليمن ، ومنه دخل خالد بن الوليد ، يوم الفتح .

الباب الثالث : باب العُمرة يعرف بالباب الزاهر، عليه طريق المدينة والشأم وجُدّة ، وهو غربىّ ، ومنه يُخرَج إلى التَّنعيم ،وهوَ على فرسخ من مكة ، وهو أقرب ميقات للمعتمرين ، وطريقه حسن ، فيه الآبار العذبة المسماة بالشُّبَيكَة .

وعلى ميل من مكة فى طريق التَّنعيم يُلْفَى مسجد بإزائه حَجَر كالمصطبة ، يعلوه حجر آخر مسند ، فيه نقش داثر ، يقال إن النبى صلى الله عليه وسلم قعد عليه مستريحاً عند مجيئه من العمرة، يمسح الناس خدودهم به تبرّكا. وبعده بغَلْوة على

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ : ٢٥٨ من قصيدة، وبعده فى ابن جبير:

بلى نَحْنُ كنَّا أهلَها فأبادنا صروفُ اللَّيالى والجُدود العواثرُ

(٢) رحلة ابن جبير : « إلى الشرق أميل » . (٣) ابن جبير : « المسفل » .

رفع المسهم

يسار الطريق قبر أبى لهب وامرأته ، قد علاهما جبلان عظيمان من الصَّخْر لرجم الناس على قديم الدهر .

وعلى قدر ميل يُلفَى الزاهر، وهو مبنىٌّ على جانبي الطريق ، يحتوى على دارٍ وبساتين لأحد المكيين ، وفيه مكان مستطيل ، عليه كيزان الماء ، ومراكن مملوءة ، وهى القصارِى للشرب والطّهور ، وفيه منفعة كبيرة للمعتمرين .

وعلى جانبي الطريق فى الزاهر أربعة أجْبال : جبلان ، من هنا وجبلان من هنا ، يُذكر أنها التى جعل إبراهيم عليه السلام أجزاء الطير عليها ، ثم دعاها عند قوله : ﴿ رَبِّ أرنى كَيْفَ تُحْيِي الموتى ﴾[1] .

وعند إجازتك بالزّاهر تمرّ بالوادى المعروف بذى طُوَى ، كان ابن عمر رضى الله عنهما يغتسل فيه عند دخوله مكة ، وفيه نزل النبيُّ عليه الصلاة والسلام عند دخوله ، وفيه مسجد إبراهيم عليه السلام ، وفيه آبار تعرف بالشُّبيكة . ثم تخرج من الوادى إلى أعلام ، وهى أحجار موضوعة بين الحِلّ والحرم ، كالأبراج المصفوفة ، فداخلُها إلى جهة مكة حَرَم ، ووهى كالأبراج ، وآخذةٌ من أعلى جبل ، يعترض عن يمين الطريق فى[التوجّه][2] إلى العُمرة ، وينشق الطريق إلى جبل عن يساره ، وهما ميقات المعتمرين ، [وفيها مساجد مبنية بالحجارة][2] وخارجها[3] بنحو غَلْوَتَيْن مسجد عائشة رضى الله عنها .

ومن جبال مكة جبل أبى قُبيس ، وهو على الحرَم فى الجهة الشرقية يقابل الحجر الأسود ، فى أعلاه مسجد عليه سطح يشرف على مكة ، ويُظهر حسنَها وحُسْنَ الحرَم واتساعه وجمال الكعبة ، وهو مستودَع الحجر الأسود من الطوفان ، حتى أدّاه إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وفيه قبر آدم عليه السلام ، وهو أحد أخشَبَىْ مكة ، والأخشب الثانى المتصل بقُعَيْقِعان فى الجهة

---

(١) سورة البقرة ٢٦٠.
(٢) من رحلة ابن جبير .
(٣) الرحلة : « خارج هذه الأعلام » .

رفع المسهم

الغربيّة ، وفيه موقف النبي صلى الله عليه وسلم ، عند انشقاق القمر .

ومن جبالها حراء ، على مقدار فرسخ ، ومشرف على منًى ، وهو مرتفع فى الهواء ، كان متعبَّد النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى اهتزّ تحته ، فقال : اسكن حراء ، فما عليك إلا نبيّ وصدّيق وشهيدان ، لعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضى الله عنهما ، وفيه نزلت أول آية من القرآن ، وهو آخذ من المغرب إلي الشمال ، وعلى طرفه الشمالىّ جبّانة الحجُون المتقدمة .

ومن جبالها جبل ثَوْر ، وهو فى الجهة اليمانية على فرسخ أو أزيد ، وفيه الغار الذى أوى إليه النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وعلى مقربة من الغار قبة جبريل ، وهى عمود منقطع من الجبال ، قد قام شبه الذراع المرتفعة مقدار نصف القامة ، وانبسط من أعلَى شبه الكفّ ، كأنّه قبّة مبسوطة ، يستظلّ تحتها نحو العشرين رجلا ، ومن مكة إلى مِنًى نحو خمسة أميال .

ومنًى مدينة عظيمة الآثار واسعة الاختطاط ، وقد خربت اليوم إلاّ منازل يسيرة محدَثة للنزول ، كان الطريق إليها الميدان اتساعاً وانفساحاً . وأوّل مايلقى المتوجّه إليها بقربها مسجد البَيْعة التى عقدها العباس للنبى صلى الله عليه وسلم على الأنصار ، ثم يُفْضِى بها إلي جَمْرة العقبة ، وهى أوّل منًى وعليها مسجد ، وبها عَلَمٌ منصوب شبه أعلام الحرَم المذكورة ، يجعله الرامى عن يمينه مستقبلاً مكة ، ويرمى بها سبعَ حصيات يوم النحر أثر طلوع الشمس ، ثم ينحر أو يَذْبَح ، ويحلّق أو يُقصّر ، ومنًى كلّها مَنْحَر ، ويحلّ له كلّ الأشياء إلا النساء ، وبعدها الجمرة الوسطى ، وبها أيضا عَلَم ، وبين الجمرتين قدر غَلْوة ، وبعدها بمقدار غلوة الجمرة الأولى التى ترمى وقت الزوال ثانى يوم النّحر بسبع حَصَيات ، وفى الوسطى بسبع ، وفى جمرة العقبة بسبع ، فتلك إحدى وعشرون حَصاة ، ويُفْعَل ذلك فى ثالث يوم النحر ، فتلك اثنتان وأربعون حَصاة ، وسبع تقدّمت يوم النحر ، فتكمل تسع وأربعون حَصاة .

رفع المسهم

وفى أثر ذلك ينفضّ الحاجّ إلى مكة ، وعند الجمرة الأولى يُلْقَى مجرى الذّبيح عليه السلام ، وفى موضع المجرى حَجَرٌ ملصق بجدار فيه أثر قَدَم صغيرة ، يقال إنها أثر قدمه ، عند تحرّكه لأَنَ له الحجر إشفاقاً ، فيقبّله الناس ويلمسونه تبرّكا به .

ومسجد الخيف آخر مِنًى ، وهو متّسع الساحة ، كأكبر ما يكون من الجوامع ، وصومعته فى رحبة المسجد ، وله فى القبلة أربع بلاطات ، وهو مسجد مشهور البركة ، ومن مِنًى إلى المزدلفة نحو خمسة أميال ، والمزدلفة تسمى المشعر الحرام وجمعاً فلها ثلاثة أسماء . ووادى محسّر حدٌّ بين المزدلفة ومنًى . والمزدلفة بسيط من الأرض فسيح حولها صهاريج للماء ، وفى وسط البسيط حلَق فى وسطها قبّة ، فى أعلاها مسجد يصعد إليه على أدراج من جهتين ، يزدحم الناس عليه للصلاة فيه عند مبيتهم بها ، وبين المزدلفة وعرفات أزيد من خمسة أميال .

وعرفات بسيط من الأرض [على] مدّ البصر ، لو حُشِر الخلائق فيه لوسعهم ، تحدِقُ به جبال كثيرة . وفى آخر البسيط جبل الرّحمة ، وهو موقف الناس ، والعلَمان قبله ، فما أمامهما إلى عرفات جبل ، وما دونهما حَرَم .

وجبل الرحمة منقطع عن الجبال ، قائم فى البسيط ، فهو كلُّه حجارة . وكان صعبَ المرتقى ، فأحدثوا فيه من أربع جهاته أدراجاً وطيئة يصعد فيها بالدوابّ الموقرة . وفى أعلاه قبّة تنسب لأم سلمة رضى الله عنها ، وفى وسطها مسجد يحدِق به سطح فسيح السّاحة جميل المنظر ، يزدحم الناس عليه للصلاة فيه ، فيشرف منه على بسيط عرفات ، وفى أسفله عن يسار القبلة دار عتيقة البنيان، فيها غُرَف ، لها طِيقان تنسب إلى آدم عليه الصلاة والسلام . وعن يسارها مسجدٌ صغير . وبمقربة من العلمين مسجد إبراهيم عليه الصلاة والسلام، بقىَ منه

الجدار القبلى يخطب فيه الخطيب يوم الوقفة ، ثم يجمع بين الظهر والعصر ، ثم يقف الناس بعد جمعهم الظّهر والعصر باكين داعين متضرّعين ، حتى يغيب قُرْص الشمس ، ثم يدفع الإمام المالكىّ بالناس بالنّفْر دفعا ترتجّ منه الجبال ، فيصلُّون بمزدلفة المغرب والعشاء الآخرة ، فيبيتون بها ، والدنيا كلها شموع مُسْرجَة ، فإذا صلّوا الصبح غدْوة النحر وقفوا داعين .

ومزدلفة كلّها موقف إلا وادى محسِّر ، فإن فيه تقع الهَرولة إلى منًى ، فإذا بلغوا منًى رموا بها جمرة العقبة .

ثم يَنْفِر الناس إلى البيت المكرّم إلى طواف الإفاضة ، وهو كمال الحجّ .

وأما البيت المكرّم فهو قريب من التربيع ، له أربعة أركان : ركن ينظر إلى الشرق وفيه الحجرَ الأسود ، ومنه ابتداء الطّوَاف. يبعد الطائف عنه قليلاً ، والبيت عن يساره ، ثم يُلفَى بعد ذلك فى طوافه الرّكن العراقىّ ، وهو ناظر إلى الشمال . ثم الركن الشامىّ ، وهو ناظر إلى المغرب ، ثم الركن اليمانىّ ، وهو ناظر إلى الجنوب ، ثم يعود إلى ركن الحجر الأسود ، وذلك شوط واحد .

وباب البيت فى السَّفح الذى بين ركن الحجرَ والركن العراقىّ ، وهو قريب من الحِجْر بعشرة أشبار ، وما بين الحِجْر والباب يسمَّى الملتَزم ، وهو موضع استجابة الدعاء ، ويرتفع الباب من الأرض أحد عشر شبراً ونصفا ، والباب من فضّة ، مذهّب بديع الصَّنْعة ، يستوقف الأبصار حسنا ، وعُضادتاه كذلك ، وعلى رأسه لوحُ ذهب خالص إبريز فى سعة نحو شبرين ، وله نقّارتا فضة ، كبيرتان يتعلّق عليهما قفل الباب ، والباب ناظر إلى الشرق ، وسعته ثمانية أشبار ، وطوله ثلاثة عشر شبرا ، وغِلَظ الحائط الذى ينطوى عليه الباب خمسة أشبار ، وداخل البيت مفروش بالرخام المجزّع ، وحيطانه كلّها رخام مجزّع ،

رفع المسهم

قد قام على ثلاثة أعمدة من السّاج ، مفرطة الطول ، بين كلّ عمود وعمود أربع خُطاً ، ودائرة البيت كلّه من نصفه الأعلى مطليٌّ بالفضة المذهبة ، يُخَيَّل إليك أنها صفيحة ذهب لغلَظها بالجوانب الأربع .

وللبيت خمسة مصابيح ، وعليها زجاج عراقيٌّ بديع النقش ، أدرجت فى وسط السقف ، ومع كل ركن مضوأ ، ويُلفِي الداخل من الباب عن يساره ركن الحجر الأسود وباب الرحمة ، هو الذى يصعد عليه إلى السطح .

والمقام حجر مغشًّى بالفضة ، ارتفاعه ثلاثة أشبار ، وسعته شبران ، أعلاه أوسع من أسفله ، وآثار القدَمين والأصابع فيه ، صُبّ لنا فيه ماء زمزم ، فشربناه منه .

ومن الباب إلى الركن العراقىّ حوض طوله اثنا عشر شبرا وعرضه خمسة أشبار ، وارتفاعه شبر ، هو علامة موضع المقام ، وهو مصبّ ماء البيت .

وموضع المقام الذى يصلَّى فيه ما بين الباب والركن العراقىّ ، وموضع المقام قبّة حديد موضوعة إلى جانب قبّة زمزم ترفع فى أشهر الحجّ ، وتزال قبة الخشب ، لأنها أجمل ، لازدحام الناس . ومن ركن الحجر إلى الركن العراقىّ أربعة وخمسون شبراً ، ومن الحجر الأسود إلى الأرض ستة أشبار ، فالطويل يَتطامن لتقبيله ، والقصير يَتطاول له .

وموضع الطواف مفروش بحجارة مبسوطة كأنها الرخام : سود وحمر وبيض ، تتّسع عن البيت مقدار تسع خطاً ، وسائر الحرم مفروش برمل أبيض ، وطواف النساء فى آخر الحجارة المفروشة .

والحِجْر ستة أذرع وهو الذى تركته قريش من البيت ، وعليه جدار دوره تسع وعشرون خطوة ، وهى أربعة وسبعون شبرا من داخل الدويرة ، ودور جداره كلّه مجزّع بديع الإلصاق من الرخام ، وهو مفروش بالرخام المجزّع البديع التفاريع والتقاطيع ، فمرآه عجيب .

رفع المسهم

والحرم له ثلثمائة سوار من الرخام ، وذرْع الحَرَم فى الطول أربعمائة ذراع ، وفى العرض ثلثمائة ذراع ، فتكسيره ثمانية وأربعون مرجعا ، وله تسع صوامع وتسعة عشر باباً ، أكثرها مفتّح على الأبواب ، منها باب الصفا ، وهو مفتح على خمسة أبواب ، وهو أكبرها ، وعليه يُخْرَج إلى السعى بين الصفا والمروة . وللصفا أربع عشرة درجة ، وللمروة خمسة ، وما بين الصفا والمروة ميل ، وهو اليوم سوق جميل ، يجمع الفواكه بمكّة وحوانيت الباعة يمين وشمال فلا يكاد الساعون يخلصون للسعى لكثرة الزحام .

وقبّة بئر زمزم تقابل الحجر الأسود ، منها إليه أربع وعشرون خطوة ، وداخلها مفروش بالرخّام الأبيض وتنور البئر فى وسطها من رخام دوره أربعون شبرا ، وارتفاعه أربعة أشبار ونصف ، وغلَظه شبر ، وعمقه إحدى عشرة قامة ، وعمق الماء سبع ، وباب القبة ناظر إلى الشرق .

ثم ذكر فى البيت وما يتصل به من البئر من ذلك غرائب من صنع الرخام والنقوش وغير ذلك أشياء لا يسع كتابنا ذكرُها ، فلنقتصر على هذا القدر [1] .

* * *

فعصَفَتْ بى ريحُ الغَرامِ ، واهْتَاجَ لى شوقٌ إلى البيت الحرَام ؛ فزَمّتْ ناقتى ، ونبذتُ عُلِقى وعَلاَقَتِى

وقُلتُ لِلاَئمى أَقصِر فإنِّى سأختَارُ المَقَامَ عَلَى المُقامِ

وأنفِقُ ماجمعتُ بأَرْضِ جَمعٍ

وأسْلُو بالخَطِيمِ عن الخُطَامِ

ثمَّ انتظمْتُ مَعَ رُفْقَةٍ كنُجومِ اللَّيْل ، لَهُمْ فى السَّيْر جَرْيَةٌ

(١) رحلة ابن جبير صفحة ٨٢ وما بعدها ، مع تصرف .

السَّيْلِ ، وإلى الخيرِ جَرْىُ الْخَيْل ؛ فلم نَزَلْ بين إدْلاَجٍ وتأويب ، وإيجافٍ وتَقْريب ، إلَى أنْ حَبَتْنَا أيْدِى الْمَطَايَا بالتُّحفة ، فى إيصالنا إلى الْجُحْفَةِ ؛ فَحللْناَها مُتَأهِّبين لِلإحْرَام ، مُتبَاشِرِينَ بإدْرَاكِ الْمَرَامِ ، فَلَمْ يَكُ إلاّ أن أنَخْنَا بِهَا الرَّكائب ، وحَطَطْنَا الْحَقَائب ، حتّى طَلَع عَلَيْنَا مِنْ بين الْهِضَاب ، شَخْصٌ ضاحِى الإهَاب ؛ وهو يُنَادِى : يا أهل ذا النادِى ، هَلُمَّ إلى ما يُنْجِى يَوْمَ التَّنَادِى . فانْخَرَطَ إليْهِ الحجِيجُ وَانْصَلَتُوا ، واحتفُّوا به وأنْصَتُوا . فلمّا رَأَى تَأثُّفَهُمْ حَوْلَه ، واستعْظَامَهُمْ قَولَه ، تَسَنَّم إحْدَى الآكام ، ثم تَنَحْنَحَ مُسْتَفْتِحاً لِلْكَلاَم ، وقال :

* * *

قوله : عصفت ، تحرّكت واشتدّت . الغَرام : الشوق . اهتاج : تحرّك . زمت : شددت زمامها . نبذت : رميت . عُلَقِى : ما يتعلق به ويُمسكه عن إرادته . عَلاَقتى : ما يتعلّق بقلبى . أقْصِرْ : كفّ . المَقام : مقام إبراهيم عليه عليه السلام . المُقام : الإقامة . وجَمْع : اسم المزدلفة ، سمِّيت بذلك لاجتماع الناس فيها . الحطيم : حَجَرٌ بمكة . الحُطام : كسب الدنيا . انتظمتُ : ارتفقت . كنجوم الليل ، أى هم أشراف وأهل أحساب . جَرْية : انصباب . الإدْلاج : سَيْر الليل . تأويب : سَيْر النهار . إيجاف : إسراع . تقريب : جَرْىٌ متقارب . حبتْنا : أوصلتنا وأعطتْنا . التُّحفة : الهديّة . إيصالنا : توصُّلنا .

الجُحفة ميقات أهل الشأم ومصر والمغرب ، وبينها وبين البحر ثمانية أميال .

حللناها : نزلنا فيها . الإحرام : الدخول فى الحَرَم . متباشرين : يبشِّرُ بعضُنا بعضاً . بإدراك المرام : بلوغ الحاجة . أنخنا الركائب : بركنا الإبل

بالأرض . حططنا الحقائب : أنزلنا الأحمال عن ظهورها . الإهاب : الكُدَى، واحدتها هَضْبة . ضاحى الإهاب : بارز الجلد ، أى ثوبه خَلَق لايستره . النّادِى : المنزل . هلّم ، أى أقبلوا . يوم التّنادى ، أى يوم البعث لاجتماع الناس فيه ، أو لأنه ينادى للحساب . انخرط : اندفع بسرعة . الحجيج : اسم لجماعة الحجّاج . انصلتوا : خرجوا إليه مسرعين . احتَفُّوا : استداروا : وأنصتوا : سكتوا . تأثّفهم : اجتماعهم وثبوتهم حتى صاروا له كالأثافىّ للقِدْر . استطعامهم قوله : استدعاءهم كلامه . تسنّم : ارتفع عليها ، وأصل « تسنّم » ركب البعير ، الآكام : الكُدَى .

* * *

يامَعْشَرَ الحُجّاج ، النّاسِلينَ من الفِجاج ، أَتَعْقِلُونَ مَاتُواجِهُون ، وإلَى مَنْ تَتَوَجَّهُون! أَمْ تَدْرُونَ عَلَى مَنْ تَقْدَمونَ ، وَعَلامَ تُقْدِمونَ ! أَتَخَالُونَ أَنَّ الحجَّ هُوَ اختيارُ الرَّواحِل ، وقَطْعُ الْمَرَاحِل، واتّخاذ الْمَحامِل ، وإيقَارُ الزَّوامِل ! أم تَظُنُّونَ أَنَ النُّسُكَ هُوَ نَضْوُ الأَرْدَانِ ، وإنْضاءُ الأَبْدَان ، وَمُفَارَقَةُ الْوِلْدانِ ، والتَّنَائى عن الْبُلْدَانِ ؛ كَلاَّ واللهِ ، بل هُوَ اجْتِنَابُ الْخَطِيّة ، قبل اجْتِلاَب الْمَطِيّة، وإخْلاَصُ النِّيَّة ، فى قَصْدِ تِلْكَ الْبَنِيَّة ، وإمْحَاضُ الطَّاعَة ، عِنْدَ وُجْدَانِ الاسْتِطَاعَة ، وإصْلاَحُ الْمُعامَلاَتِ ، أمام إعمالِ اليَعْمُلات !

* * *

الناسلين : المسرعين . الفِجاج : الطرق . وتعقلون : تفهمون . تواجهون : تَسْتَقبلون بوجوهكم ، يريد البيت . إلى مَنْ تتوجهون : تقصدون . الرواحل :

الإبل . المراحل : المواضع يُرحل إليها وينزَل فيها . المحامِل: آلات من خشب يركب عليها ، واحدها محمَل ، يقال : إن الحجّاج أوّلُ من أحدثها ، ولذلك قال الشاعر :

أوّلُ عبدٍ صنع المحاملا أخزاه ربّى عاجلا وآجلا

قوله : لزوامل : جمع زاملة ، وهى البعير وغيره من الدوابّ يحمَل عليها الطعام. وإيقارها : رفع الأوقار عليها ، وهى الأحمال ، والوِقْر : الحِمْل . النسك : التعبّد ، نَضْو الأردان ، تجريد المخيط من الثياب . التنائى : التباعد . اجتناب بُعْد ، واجتنبته : بعدت عنه وتركته . الخَطِيّة : الذنب ؛ يريد أن أوّل مايجب على الحجاج أن يقدّموا التوبة . والبنيّة ، هى الكعبة . إمحاض : إخلاص . وُجْدان : إصابة . الاستطاعة : القدرة على الشيء ، وهى شرط وجوب الحج . المعاملات : الأفعال التى يتعامل بها الناس بينهم من المبايعات وغيرها ، وأراد إصلاح فعل العبد بينه وبين ربه . إعمال اليَعْمُلات : استعمال الإبل للمشى ، واليَعْمُلة : الناقة تعمل كثيراً فى المشى .

* * *

فوالّذى شَرَعَ المناسِكَ للنَّاسِك ، وأرْشَدَ السَّالِكَ في اللّيْل الحالِك ، ما يُنْقِي الاغتِسَالُ بالذَّنُوبِ ، مِنَ الانغماس فى الذُّنوب ، وَلاَ تَعْدِلُ تَعْرِيَةُ الأجْسَام ، بِتَعْبئةِ الأجْرَام ، وَلاَ تُغْنِي لِبْسَةُ الإحْرَامِ ، عَنِ المُتَلَبِّسِ بالحَرَامِ ، ولا يَنْفَعُ الاضطباع بالإزار ، مَعَ الاضْطِلاَعِ بالأوْزَارِ ، ولا يُجْدِى التَّقَرُّبُ بالحَلْق ، مع التّقلُّبِ فى ظُلَمِ الخُلْقِ ، وَلاَ يَرْخَصُ التَّنَسُّكُ فى التَّقْصِير ، دَرَنَ التَّمَسُّكِ بالتَّقْصِيرِ ، وَلاَ يَسْعَدُ بِعِرْفَةَ ، غَيْرُ أَهْلِ المَعْرِفَةِ ، ولا يَزْكُو بالخَيْفِ ، مَنْ يَرْغَبُ فى الحَيْفِ ، وَلاَ يَشْهَدُ المقامَ ،

رفع المسهم

إلاَّ من استَقَام ، وَلاَ يَحْظَى بِقَبُول الحَجّة ، مَنْ زَاغ عَن المحجّة ، فرَحِمَ اللهُ امْرَأً صَفـــا ، قَبْلَ مَسْعَاهُ إلى الصّفَا ، وَوَرَدَ شَرِيعَةَ الرِّضَا ، قَبْلَ شُرُوعِهِ على الأَضَا ، ونزَعَ عن تَلْبِيسِهِ ، قَبْلَ نَزْعِ مَلْبُوسِهِ ، وفاضَ بمعروفِهِ ، قَبْلَ الإفاضةِ مِنْ تَعْرِيفِهِ . ثمَّ رَفَع عَقِيرَتَهُ بِصَوْتٍ أَسْمَعَ الصُّمّ ، وكادَ يُزَعْزِعُ الجِبَالَ الشُّمّ .

* * *

شرع : فرض . المناسك : مواضع الذبح والنّحر ، والنّاسك : الذى يأتى بنُسُك ، وهو مايُذْبح أو ينحَر فى الحرم . أرشد السالك : على الطريق للمشى فيها . الحالك : الشديد السّواد . الذّنوب : الدّلو . الانغماس : الغطس ، يريد أن التطهّر لايزيل الذُّنوب . وما أحسن قول الحُلوانىّ فى غلام وسيم أراد النهوض للحج :

يا طالبَ الحجّ وهو ذو صِغَرٍ ... عجلتَ فاستأْنِهِ إلى الكِبَرِ[1]
إن كنتَ تبغى مثوبةً فعسى ... تحمِـــل لى قُبلةً إلى الحجرِ
وإن رميت الجمار فارم بهـا ... كلَّ فؤاد عليـــك لم يطرِ
فقال دعنى وزمزماً فعسى ... أغسل عن وجنتى دم البشر

قوله : تَعدل ، أى تقاوم وتساوى . الأجرام : الأجسام ، واحدها جِرْم . تعبئة الأجرام : تحمُّل أعباء الذنوب . لبْسة : هيئة اللباس . التلبّس : التعلّق والاختلاط . الاضطباع : الاشتمال والالتحاف ، واضطبع الرجل بثوبه ، إذا أدخله تحت عضُده الأيمن وألقاه على منكبه الأيسر ، والاضطلاع : القيام بها . والأوزار : أثقال الذنوب . يجدِى : ينفع . يَرْحَض : يغسل . التقصير : الأخذ من الشّعر . دَرَن : وسخ . التمسّك : التعلق . التقصير : التضييع ، وترك الاجتهاد ،

(١) الذخيرة لابن بسام ٤/١/٢٢١ ، وهو الشاعر الأندلسى عبد الكريم بن فضال ، المعروف بالحلوانى .

عَرَفة: يوم من أيام الحج ، سُمِّيت بذلك لأن آدم عليه السلام لما أهبط من الجنة، نزل بالهند ، وحوّاء بجُدّة فالتقيا بعَرفة ، فسمِّيَ موضع التقائهما ويوم التقائهما عَرَفة ، وقيل : هى من العرف وهو الصَّبْر ، ورجل عارف ، أى صابر ، فسُمِّيَ الموضع عرفة لصبْر الناس على القيام به للدعاء . وقيل : هى من العَرْف ، وهو الرِّيح الطّيّبة ، لأنها طيِّبة بنسبتها إلى منًى لما بِمِنًى من أقذار الفروث والدماء لأن بِمِنًى يُنحر الهدى . يزكو: يكون نامياً ، والزكاء : النماء والصلاح. والخَيْف : موضع بمكة سمى بالخَيْف ، وهو ما ارتفع من الأرض عن موضع السّيل ، وانحدر عن غِلَظ الجبل . والحَيْف : الظلم . يحظى : يسعد ويظفر . زاغ : مال وخرج . المحجَّة : الطريق المستقيم . صفا : خلص قلبه . مَسْعاه : سعيه وجَرْيه . الصفا : صخرة بمكة . ورد : دخل . شريعة الرّضا : طريقة الخير ، والشريعة فى النهر والغدير : الطريق . يهبط عليه إلى الماء ، وبه سمِّيت شريعة الدين لأنه طريق موصِّل إلى الله تعالى ، فورَد الشريعة ، دخل فيها ، ووصل إلى الماء ، وشرعت الدوابّ فى الماء : دخلت فيه . الأضا : الغُدْران . نزع : زال وكفّ . تلبيسه: تخليطه ، والإفاضة : آخر الطواف . تعريفه : وقوفه بعرَفة . عقيرته : كناية عن صوته يُزعزع : يحرِّك . الشمّ : المرتفعة .

* * *

وأنشد :

ما الحجّ سَيْرُكَ تأْويباً وإدْلاَجا ولا اعْتيامُكَ أجمالاً وأحْداجا
الحجُّ أن تَقْصِدَ البيتَ الحرَام على
تجْرِيدكَ الحجَّ لا تَقْضِي به حاجا
وتَمْتَطِي كاهِلَ الإنصافِ مُتّخِذاً
رَدْعَ الْهوَى هادِياً والحقَّ منْهاجا

وأنْ تواسِي ما أُوتيتَ مَقْدُرَةً مَنْ مَدَّ كَفًّا إلي جَدْواكَ محتاجا
فهذه إن حَوَتْهَا حَجَّةٌ كَمُلَتْ وإن خلاَ الحجُّ مِنْهَا كان إخداجا
حَسْبُ المرائينَ غَبْنًا أنّهُمْ غَرَسُوا
وما جَنَوْا ولَقُوا كدًّا وإزعاجَا
وأنَّهُمْ حُرِمـوا حِرْزًا ومَحْمِـدةً
وألحموا عِرْضَهُمْ مَنْ عاب أو هاجَى
أُخَيَّ فابْغِ بما تُبْدِيهِ من قُرَبٍ وَجْهُ الْمُهَيْمِنِ ولاَّجًا وخرّاجَا
فليْسَ تَخْفَى على الرَّحْمَنِ خافيـةٌ
إن أخلص العبدُ فى الطاعات أو دَاجَى
وبادِرِ الْمَوْتَ بالْحُسنَى تقـدِّمُهَا
فمـا يُنَهْنِهُ دَاعِى الموتِ إن فاجـا
واقْنَ التَّواضُعَ خُلْقًا لا تزايـلهُ عَنْكَ اللَّيالِى ولَوْ أَلْبَسْنَكَ التاجا
ولاَ تشِمْ كُـلَّ خالٍ لاَحَ بارقُـهُ
ولَوْ تَرَاءى هَتُونَ السَّكْبِ ثجَّاجا
ما كُلُّ داعٍ بأَهْلٍ أن يُصاخَ له
كَمْ قَدْ أَصَمَّ بنعْيِ بَعْضُ مَنْ ناجَى
وما اللَّبيبُ سِوَى مَنْ باتَ مُقتنعًا
ببُلغـةٍ تُدْرِجُ الأَيّامَ إدْراجا
فـكُلُّ كُثرٍ إلى قُلٍّ مَغَبَّتُهُ وكُلُّ نازٍ إلى لينٍ وإن هاجَا

* * *

اعتيامك : اختيارك . أحْدَاجاً : جمع حِدْج ، وهو ما يجعل على ظهر البعير ، يُركب عليه . حاجاً : جمع حاجة . تمتطى : تركب . كاهل : مقدّم الظهر . رَدْع : كفّ وردّ . هادياً : دليلا . منهاجا : طريقاً . تواسى : تعطى . جَدْواك : عطيتك . حَوَتْها : جمعتها . إخداجا : نقصاناً . المرائين : المظهرين الخير ، وهم على خلافه . وحَسْب ، بمعنى يكفى . كدًّا : عجلة وشدّة . الإزعاج : ضد السكون والقرار ، وأزعجته : لم تدعه يستقرّ . حرزا : تحصيل ، وأحرزه : جعله تحت حِرْز . ألحوه : أمكنوه من لحمه . العِرْض : مايسبّ من الرجل أو يمدح . هاجى : شاتم وسابّ .

[ذكر المرائين وماقيل فيهم]

ومما قيل فى الرياء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إيّاكم والشّرْك الأصغر . قالوا : وما الشرك الأصغر ؟ قال : الرياء » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا رياء ولا سُمْعة مَنْ يسمع يسمِّع الله به » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من أسرّ سريرة ألبسه الله رداءها ؛ إن خيراً فخير ، وإن شرًّا فشرّ » .

وقال : « مَنْ أصلح سريرته ، أصلح الله علانيته » .

وقال الشاعر :

وإذا أظهرت شيئاً حسناً ... فليكُنْ أحسنَ منه ماتُسِرّْ

فمُسِرُّ الخير موسومٌ به ... ومُسِرّ الشرّ موسوم بشرّْ

وقال يحيى بن أكثم :

يقول لى القاضى معاذ مشاوراً ... وولّى أمرأ فيما يرى من ذَوى الفضلِ

بعيْشِك ماذا تحسبُ المرء فاعلا ... فقلت وماذَا يفعل الذئب فى النّحْلِ !

يدقُّ خلاياها ويأكُل شهدَها ... ويترك للزّبّال ما كان من فضلِ

رفع المسهم

وأنشد الفرزدق :

رئيس السوق محمود السَّجايا يقصّر عن مدائحه البليغُ
نسمّيه بيحيى وهـــو ميْت كما أن السليمَ هو اللديغُ
يعاف الوِرْد إن ظمئت حَشَاهُ وفى مال اليتيم له ولوغُ

وللأبيض فى الفقهاء المرائين :

أهلَ الرياء لبستمُ ناموسكمْ كالذئب يُدلج فى الظلام العاتِمِ (١)
فملكتمُ الدنيا بمذهب مالكٍ وقسمتمُ الأموال بابن القاسمِ
وركبتمُ شُهْبَ البغال بأشهبٍ وبأصبغٍ صبغت لَكمُ فى العالمِ (٢)

وله فى نحوه أيضاً :

قل للإمام سنا الأئمة مالكٍ نورُ العيون ونزهةُ الأسماعِ (١)
لله درّك من هُمامٍ ماجـــدٍ قد كنت راعينَا فنعم الرَّاعى
فمضيتَ محمود النّقيبة طاهراً وتركتنا قَنَصاً لشرِّ سباعِ
أكلوا بك الدنيا وأنت بمعزلٍ طاوى الحشى متكفّت الأضلاع
تَشكوك دنيا لم تزل بك بَرَّةً ماذا رفعت بها من الأوضاع !

وفى الإسرائيليات : جاءت عصفورة ، فوقفت على فخّ ، فقالت له : مالى أراك منحنياً ؟ قال : لكثرة صلاتى انحنيت ، قالت : فمالى أراكَ بادية عظامُك؟ قال: لكثرة صيامى بدتْ عظامى ، قالت : فما هذا الصوف عليك ؟ قال : لزهادتى لبست الصوف ، قالت :فما هذه الحبّة فى يدك ؟ قال : قربان إن مرّ بى مسكين ناولتُه إيّاها ، قالت : فإنى مسكينة ، قال : خِذيها فقبضت على الحبة ، فإذا الفخ فى عنقها ، فصاحت : قِعِى قعى . تفسيره : لا غرنى مراء بعدك أبدا .

(١) نفح الطيب : ٣ : ٤٤٨ .
(٢) ابن القاسم وأشهب وأصبغ ، من فقهاء المالكية .

رفع المسهم

قال الشاعر :

نعـوذ بالله من أناسٍ نشيَّخُوا قَبْل أن يَشيخُوا
تقوّسوا وانحنوْا رياء فاحذرهمُ إنّهمْ فخوخُ

وكان صائد يصيد العصافير فى يوم بارد ، فكان يذبحها والدموع تسيل ، فقال عصفور لصاحبه : لا بأس عليك من الرجل ، أما تراه يبكى ! فقال له الآخر : لا تنظر دموعه ، وانظر ما تصنع يداه .

وراءى بعضهم ثم هتك الله ستره ، فقال :

بينَـا أنا فى توبتى مقبلاً قد شبّهونى بابن دوّادِ
وقد حَملتُ العلم مستظهراً وحـدّثوا عنى بإسنـاد
إذ خطر الشيطان بى خَطْرةً نَكَسْتُ منها فى أبى جاد

ابن دوّاد : عابد بمكة .

صلّى رجل مراء فقيل له : ما أحسن صلاتك ! قال : ومع ذلك فإنى صائم .

وقال طاهر بن الحسين لأبى عبد الله المروزىّ : كم لك منذ نزلت العراق ؟ قال : منذ عشرين سنة ، وأنا أصوم الدهر منذ ثلاثين سنة ، قال : يا أبا عبد الله سألناك عن مسألة فأجبتنا عن مَسألتيْن .

وأمر عمر لرجل بكيس ، فقال : آخذ الخيط ؟ فقال عمر : ضع الكيس .

وكتب رجل عند الحسين كتاباً فقال : أتجعلنى فى حلٍّ من تراب الحائط ؟ فقال : يا أخى بلّ ورعك لا يتكسّر .

وأخبارهم كثيرة .

* * *

قوله : ابْغِ أى اطلب : القُرَب : أفعال البرّ التى تقرب من الله تعالى ، واحدها قُرْبة . ولأَجاً وخرّاجا ، أى كيف تصرّف فيها . داجى : ساتر العداوة ونافق .

رفع المسهم

الحسنى : اسم لافعل الحسن ، وتكون الحسنى مؤنثة الأحسن فتلزمها اللام ، كالكبرى والأكبر وبابه ، وتكون الحسنى كالبُشْرى والرُّجعى .

ينهنه يزجر ويكفّ. فاجَى: جاء بغتة ، ولبعضهم:

وهل نحن إلاّ مرامى السِّهامِ ... ويحفزُها نابلٌ دائبُ
طَرائِدُ تطلبنا النائبات ... ولا بد أن يُدْرِك الطالبُ
حبائلُ للدَّهْر مبثوثةٌ ... يُرَدّ إلى جذبها الهاربُ

وقال آخر فى معناه :

تحارِبنا جنود لاتُجارَى ... ولا تلقى بآساد الحروبِ
تفوّق أسهمًا عن ظهر غيبٍ ... وما أغراضها غير القلوبِ
فأنّى باحتراس من جنودٍ ... مؤيدة تمدّ من الغيوب

وقال ابن جبلة :

وأرى اللّيالى ماطوتْ مِنْ شِرّتى ... زادته فى عِظَتِى وفى إفهامى[1]
وعلمت أنّ المرء من سُنَنِ الردى ... حيث الرميّة من سهام الرامى

قوله : اُقْنَ ، أى اكتسب والتزم . خُلُقاً : طبيعة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ تواضع لله رفعه الله » .

وقالت الحكماء : كلّ ذى نعمة محسود عليها إلا المتواضع .

وقال عبد الملك : أفضلُ الرجال مَنْ تواضع عن رفعة ، وعفا عن قدرة ، أنصف عن قوّة .

وقال رجل لبكر بن عبد الله : علِّمْنى التواضع ، فقال له : إذا رأيتَ مَنْ هو أكبرُ منك فقُلْ : سبَقنى إلى الإسلام والعمل الصالح فهو خير منى ، وإذا رأيتَ هو أصغر منك ، فقل : سبقته إلى الذُّنوب فهو خير منى .

(١) الأغانى

وقال أبو العتاهية :

يامن تشرّفَ بالدنيا ولذّتِها ... ليس التشرّفُ رفعَ الطّينِ بالطّينِ[١]

إذا رأيت شريفَ القوم كلّهمِ ... فانظر إلى مَلِكٍ فى زىّ مسكين

وقال أبو الفتح البستىّ :

من شاء عيشًا رغيدا يستفيدُ به ... فى دينه ثُمّ فى دنياه إقبالا[٢]

فلينظرنّ إلى مَنْ فوقه أدبا ... ولينظرنْ إلى مَنْ دونه مالاَ

قوله : لا تشِمْ ، أى لاتنظر . خالٍ : سحاب . لاح بارقه،ظهر برقه: تراءى: تظاهر . هَتُون : كثير الماء . السَّكْب : الصَّبّ . نجاجا : صبّابًا ، نج الماء يثج نجا ونججتُه أنا . يُصاخ : يسمع . أصمّ : كسب الصمم . والنّعىّ : الخبر بالموت . ناجى : حَدّث . اللبيب : العاقل . بُلْغة : قوت يوم . تدرج تَطْوِى . كُثْر : كثرة . قُلّ : قلة . مغبّته : عاقبته وآخره ناز : مرتفع،ونزَا الفحل ينزو نزوًا : قفز على الأنثى . لين: فتور . هاج : اضطرب ، ويروى : «وكل نازٍ إلى لين» وهو الصحيح ، أخذه من المَثَل: فلان ينزو ويلين ، يقول: لاتنخدع بما يكون له ظهور فى ملبسه وهيئته ، فقد يخيب ظنك وتقلّ فائدته ، أو يكون مضرًّا لانتفاعاً كما قد ينادى بك ، فتظنّ النداء لمنفعة ، فإذا سمعته فاجأك بمصيبة.وأخذ لفظ « كم قد أصمّ بنعى » من قول أبى تمام :

أصمّ بك الناعى وإن كان أسمَعَا ... فأصبح مغْنى الجود بعدك بلقعا[٣]

والسابق إلى هذا المعنى جَزْو بن ضِرار ، أخو الشماخ بقوله :

أتانى فلم أسرُرْ به حين جاءنى ... حديثٌ بأعلى القُبّتين عجيبُ

تصامته حتّى أتانى بقيّنةٍ ... وأفرغ منه مخطىء ومصيبُ

وقال المتنبّى :

طوَى الجزيرة لمّا جاءنى خبرٌ ... فزعت منه بآمالى إلى الكذب[٤]

(١) ديوانه ٢٧٤ (٢) يتيمة الدهر ٤ : ٣٠٧

(٣) ديوانه ٣٧٤ (٤) ديوانه ١ : ٨٧ ، ٨٨

حتى إذا لم يَدَعْ لى صدقه خبرًا شَرِقتُ بالدمع حتى كاد يشرَق بِى

أشار بعد ذلك بالبيتين إلى القناعة ، وأن كثير الدنيا مصيره إلى قليل، وقد تقدم أمثال هذا .

وقال أبو تمام :

يا قليلَ البقاء فى هــذه الدا رإلى كَمْ يغرّك التسويفُ (١)
عجباً لامرىء يذلّ لذى الما لِ ، ويكفيه كلّ يوم رغيفُ

ولابن عمران :

عجبًا لنا نبغى الغنَى والفقرُ فى نَيْلِ الغنى لَوْ صحّت الألباب
فيما يبلِّغنى المحــلَّ كفايةٌ والفضل فيه تَـكاثرٌ وحسابُ

* * *

قال الرّاوِى : فلمّا ألقَحَ عُقْمَ الأفهامِ ، بِسحْر الـكلام ، استَرْوحْتُ ريحَ أبى زيد ، ومادَ بِى الارتيـاحُ إليه أىَّ مَيْـدٍ ، فمـكثتُ حَتَّى اسْتَوْعَبَ نَثَّ حِكْمَتِه ، وانْحَدَرَ مِنْ أَكَمَتِه . ثمَّ دَلَفْتُ إليه ، لِأَتَصَفّحَ صَفَحَاتِ مُحيّاه ، وأَستشِفَّ جَوْهَرَ حُلَاه ؛ فإذا هُوَ الضّالّة الَّتى أَنْشُدُها ، ونَاظِمُ الْقَــلَائِدِ الَّتِى أَنْشَدَها ، فعانقتُه عِنـاقَ اللاّمِ لِلأَلِف ، ونزَّلـتُهُ مَنْزِلَةَ الْبُرْءِ عِنْدَ الدَّنَف . وسألته أن يُلازمَنى فأَبَى ، أو يُزَامِلَنِي فنَبَا ، وقال : آليتُ في حَجَّتِى هذه ألاَّ أَحْتَقِب وَلاَ أَعْتَقِب ، ولا أَكْتَسِبُ ولا أنتَسِب ، ولا أرتفِقَ وَلاَ أُرَافِق ، وَلاَ أُوافِقَ مَنْ ينافق .

(١) لم أجدها فى ديوانه.

رفع المسهم

ثم ذهب يُهَرْوِل ، وغادَرَنِى أُوَلْوِل .

فلمْ أزَل أَقْرِيهِ نظرى ، وأودّ لو يَمْشِى عَلَى ناظِرِى ، حَتَّى توقَّلَ أحَدَ الأطواد ، وَوَقفَ للْحجِيجَ بالمِرْصاد .

فلمّا شاهَدَ إيضاعَ الرَّكبان فى الكثبانِ ، وَقَّعَ بالبَنَان على البنان .

* * *

قوله : فلما ألقح عُقْم الأفهام ، أى جعل العقيم منها حاملاً بالعلم والفهم . استروحْت : شممت فوجدت رائحته . مادَ : مال . الارتياح : الطّرب . مكثت : أقمت . أستوعب : أستوفى : نثّ : نشر . أكمته : كُدْيته[1] . دلفت : أسرعت . أنصفّح : أنظر . صفحات محيّاه : جهات وجهه . أستشفّ : أبالغ النظر فيها . جوهر حُلاه : خلقة صفاته . أنشدها : أطلبها . القلائد : جمع قلادة ، وهى ما يُجعل فى العنق من سلوك الجوهر وغيرها ، ومنه تقليد البُدْن بمكة ، وتقلّدت بالسيف : جعلته فى عنقى ، وقلّدتك الأمر : جعلتُه فى عنقك ، وناظم القلائد : جاعلها فى خيطها ، ويعنى بالقلائد مانثر من وعظه ، وأنشده من شعره ـ وصدق لَعَمْرِى إنّ كلامه المنظوم والمنثور أبْهى من القلائد فى أعناق الخرائد .

وقوله : عناق اللام للألف ، أمّا بخط المغرب فلا معانقةَ بينهما إلا فى الطرَفين ، وربما وقعت فى بعض هذا الخطّ كالصليب ، وفى بعضه لا التقاء بينهما البَتّة ، وإنما يريد صورة لام ألف بالخطّ الكوفىّ ، وهما بذلك الخط متعانقان متلازمان من الأعلى إلى الأسفل . وأخذ اللفظ من قول بكر بن خارجة :

يامَنْ إذا قرأ الإنجيل ظلّ له ... قلب الحنيف عن الإسلام منصرفا
رأيت شخصك فى نومى يعانِقُنى ... كما تعانق لامُ الكاتب الألفا

(١) الكدية : الأرض الغليظة .

رفع المسهم

[مما قيل فى العناق من الشعر]

ونذكر هنا ما يستحسن فى العناق ، قال البحترىّ :

تلك نُعْمٌ لو أنعمت بوصالٍ لشكرنا فى الوصل إنعام « نعمِ »[1]
نسيتْ موقف الجِمَارِ وشخصا نا كشخصٍ ، أرمى الجمارَ وترمِى

وقال أيضاً :

ولم أنسَ ليلتنا فى العنا قِ لَفّ الصَّبَا بقضيب قضيبا[2]
كما مرّت الريح فى سيرها فطوراً خفوقا ،وطوراً هبوبا

وقال ابن المعتز :

كأنما عانقتْ ريحانةٌ تنفَّستْ فى ليلها البارد[3]
فلو ترانا فى قميص الدُّجَى حسِبتَنا من جَسَدٍ واحدِ

وقال علىّ بن الجهم :

سقى الله ليلاً ضمّنا بعد هجعةٍ وأدنى فؤادًا من فؤاد معذَّبِ[4]
فبتْنا جميعاً لو تُراق زجاجةٌ من الماء فيما بيننا لم تسرّبِ

وقال ابن عبدوس الفاسى : سرتُ يوماً إلى ابن الجهم ، فأنشدنى البيتين فى العناق ، فاقتدح زندى لإيراد مثله ، فقلت :

لا وللمنازلِ من نجدٍ وليلَتنا بعيد إذ جسدانا بيننا جَسَدُ
كم رام فينا الكرى مع لطف مسلَكِهِ نوما فما انفكّ لا خدٌّ ولا عضدُ
ما أنصفونى، دعونى فاستجبتُ لهم حتى إذا قربونى منهمُ بَعُدوا

أخذ هذا البيت من قول الآخر :

أشكو الذين أذاقونى مودّتهمْ حتى إذا أيقظونى للهوى رَقَدُوا

(١) ديوانه ١٩٤٠ (٢) ديوانه ١٥٠ (٣) ديوانه ٧٧
(٤) ديوانه ٩٥ (٥) للعباس بن الأحنف ؛ ديوانه ٨٤

وقال أبو نواس :

لبسنا رداء الليل والليل راضعٌ ... إلى أن تردَّى رأسُه بمشيبِ
وبتْنا كغصنىْ بانةٍ عصفتْهما ... مع الصبْح ريحا شمال وجنوب
إلى أن بَدَا ضوء الصباح كأنه ... مبادى نصولٍ فى عذارٍ خضيبِ
فياليلُ قد فارقتَ غير مذمّمٍ ... وياصبْح قد أصبحتَ غير حبيبِ

قال صالح بن موسى :

لى سيّد ما مثله سيّدٌ ... تصدّتِ الحمّى له فاشتكىَ
عانقته عند موافاتِها ... والأفق بالليل قد احْلَولَكا
فجاءت الحمّى لعاداتها ... فلم تَجِدْ مابيننا مَسْلَكا

ولابن الرومى :

طالما التفتْ إلى الصبْـ ... ـح لنا ساقٌ بساقِ
فى نقابٍ من ودادٍ ... ولثامٍ من عناقِ

وقال أيضاً :

أعانقها والنفس بعد مشوقةٌ ... إليها وهل بعد العناق تدانِ![1]
وألثم فاها كى تموتَ حَرارتى ... فيشتدّ ما ألْقى من الهيَمَانِ
كأنّ فؤادى ليس يشفى غليلَه ... سوى أن يُرى الروحانِ ممتزجان

وقال ابن المعتز :

يارُبّ فتيانٍ صحبتهمُ ... لايرفعون لسَلْوة قلبا
لو تستطيع قلوبهم نفذَتْ ... أجسامهم فتعانقتْ حُبّا

---

(١) أمالى القالى ١ : ٢٢٦

وقال ابن رشيق :

ومهفهفٍ يحميه عن نظر الورَى ... غيرانُ سُكْنَى الموت تحت قِبابِهِ[1]
فلثمتُ خدًّا منه ضرّم لوعتِي ... وجعلت أُطفِئُ حرّها برُضابه
وضممتُه للصَّدر حتى استوهبت ... منى ثيابى بعضَ طِيب ثيابِهِ
فكأنّ قلبي من وراء ضلوعِه ... طرباً يخبِّر قلبه عمّا به

وقال ابن لُبّال :

ما كنت أحسب قبل رؤية وجهِه ... أن البدورَ تدور فى الأغصانِ
غازلتُه حتى بَدا لى ثغرُه ... فحسبته دُرًّا على مرجانِ
كم ليلةٍ عانقته فكأنّما ... عانقت مِنْ عِطْفَيْهِ غُصن البانِ
يطغى ويلعب عند عَقْدِ سواعدِى ... كالمهر يلعب عند ثَنْيِ عِنانِ

وقال آخر :

مشتاقةٌ طرقَتْ فى الليل مشتاقا ... أهلاً بمن لم تَخُنْ عهداً وميثاقا
يا زائراً زار من قُرْبٍ على بُعْدٍ ... آنستَ مستوحشا لاذقت ما ذاقا
يا ليلُ عرّج على إلْفَيْن قد جعلا ... عقد السَّواعدِ للأعناق أطواقا

وقال ابن الزقّاق :

ومرتجَّةِ الأعطاف أمّا قوامُها ... فلدْنٌ، وأما رِدْفُها فرَدَاحُ[2]
سريتُ[3] فبات اللَّيلُ من قِصَرٍ بها ... يطير وما غيْرُ السرور جناحُ
وبتّ وقد زارت بأنعم ليلةٍ ... يعانقنى حتى الصَّباحِ صباحُ
على عاتقى من ساعِدَيْها خمائلٌ ... وفى خَصْرِها من ساعدىّ وشاحُ

---

(١) نقله فى التنف ١٣ .
(٢) ديوانه ١٢٩ والرداح : الضخمة .
(٣) ديوانه « ألمت »

ونظير هذا قول برهون الغرناطيّ :

لله درّ ليالٍ ما أحَيْسِنَهـا ... وما أحَيسِنَ منها لَيْلَةَ الأحدِ
لو كنتَ حاضِرَنا فيها وقد غفلتْ ... عينُ الرقيب فلم تنظر إلى أحَدِ
أبصرتَ شمس الضحى في ساعدي قمرٍ ... ريمٌ موسّدةٌ في ساعدَيْ أَسَدِ

وقال ابن قاضى ميلة :

حيث التقى أسدُ العرين وظبيةٌ ... تحت اللحاف وصارمٌ وسِوَارُ
قالت أرى بيني وبينك ثالثاً ... ولقد عهدتك للدخيل تغارُ
أأمِنْتَ نشرَ حديثنا فأجبتُها ... هـذا الذى تُطْوَى له الأسْرَارُ

أخذ هذا من قول امرئ القيس :

تجافَى عن المأثور بيني وبينَها ... وتُدْنِي عليَّ السَّابِرِيَّ المضلّعا[1]

يعنى بالمأثور السيف .

قوله : الدّنف : المريض . يُزَاملني : يرادفني ، والزّميل : الرّديف نبَا . ارتفع وامتنع . أحتقب : أركب موضع الحقيبة ، وهى ما يعلّق خلف الراكب ، فيريد أنه حلف ألاّ يكون رديفاً ، ويريد بأحتقب أتّخذ حقيبة للزّاد ، يريد أنه لا يحمل زاداً اتكالا على ماعند الله تعالى . أعتقب : أركب عقبة يعنى نَوْبة ، وهما يعتقبان ويتعاقبان ، إذا ركب أحدُهما فجاء الآخر فكان مكانه ، والاعتقاب : ركوب واحد ونزول آخر .

ولحاتم فى المعنى :

وما أنا بالساعى بفضل زمامِها ... لتشربَ ماء الحوض قبل الركائب[2]

---

(١) ديوانه ٢٤

(٢) ديوانه ١١٨

رفع المسهم

وَما أنا بالطّاوى حقيبةَ رحلها لأبعثها خِفا وأنزل صاحبى
إذا كنتَ رَبًّا للقلوص فلا تَدَعْ رفيقك يمشى حلفها غير راكب
أنخها فأردفه فإن حملتكما فذاك وإن كان العقابُ فعاقبِ

أرتفق: أستعين أرافق: أطلب رفيقاً. يُهَرْول: يسرعُ المشى. غادرنى: تركنى أولول: أصيحُ: يا ويلى. أقريه: أتبعه. توقّل: صعد. الأطواد: الجبال. بالمرصاد: بمضيق الطريق بحيث يرتصد فيه جميع الناس، والمرصد والمرصاد عند العرب الطريق. إيضاع: سرعة، وقد أوضع فى سيره: أسرع كأنه يهتزّ ويركُض. الكُثْبَان: أكداس الرمل. رقع: ضَرَب بالبنان على البنان، أى صفّق بيديه، وقد تطلق البنان مرادًا بها اليد، قال الله تعالى: ﴿واضربوا مِنْهُمْ كلَّ بنَان﴾[1]، أى الأيدى والأرجل.

وأنشد الفَنْجديهىّ:

أقاموا الدِّيدبانَ على يفاعٍ وقالوا لا تَنَمْ للدَّيْدبَانِ
إذا أبصرت ضيفا من بعيدٍ فوقِّع بالبنان على البنان
تراهم خشية الأضياف خُرْساً يقيمون الصلاة بلا أذان

* * *

واندفع ينشد:

لَيْسَ مَنْ زارَ راكِبًا مِثلَ ساعٍ على القَدَمْ
لا ولا خادمٌ أطا ع كماصٍ منَ الخدَمْ
كيفَ يا قومِ يَستَوِى سَعْىُ بانٍ ومَنْ هدَمْ
سيقيمُ المفرِّطو نَ غدًا مأتَمَ النَّدَمْ
ويقول الذى تقرّ بَ: طوبَى لمنْ خَدَمْ

(١) سورة الأنفال ١٢

وَيكِ يانفسُ قدِّمي صالحاً عند ذى القِدَمْ
وازْدَرِى زخرفَ الحيـ ـاةِ فوُجدانُه عَدَمْ
واذكُرِى مصرَعَ الحِمَا مِ إذا خطبُه صدَمْ
واندُبِى فِعْلَكِ القبيـ ـحَ وسِحِّى له بدمْ
وادْبُغِيهِ بتوبَةٍ قبلَ أن يَحْلَمَ الأدَمْ
فعَسَى اللهُ أن يقيـ ـكِ السَّعِيرَ الّذى احتَدَمْ
يَوْمَ لا عَثْرَةَ تُقا لُ ولا يَنْفعُ السَّدَمْ

* * *

قوله : ليس من زار راكباً ... البيت . يريد أن ثواب الماشى فى الحجّ أكثر من ثواب الراكب .

وقال ابن عباس لبِنِيه : اخرجوا من مكّة مشاة ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنّ للحاجّ الراكب بكلّ خطوة تخطوها راحلته سبعين حسنة ، وللماشى بكل خطوة سبعمائة حسنة من حسنات الحَرَم ، قالوا : يارَسول الله ، وماحسنات الحَرَم ؟ قال : الحسنة منها بمائة ألف .

وقوله : سَعْى بانٍ ومَنْ هَدَم ، من قول بشار:

متى يبلغ البنيانُ يوما تمامَه إذا كنتَ تبنِيه وآخرُ يَهْدِم

المفرّطون: المقصّرون. مأتم : مناحة . ويك : تعجّب. ازدرِى : احتقرى. زخرف : زينة . وُجدان، مصدر وجدت الشىء.اندبى : ابكى . الحِمام: الموت. مصرعه : طَرْحه للميت بالأرض.خطبه : أمره الشديد .صَدم : ضرب، والصَّدْم: ضرب الشىء الصلّب بمثله ، وأراد أنه أصاب ، من قولهم : صدمهم أمر ، أى

أصابهم . سِجِّى : صُبّى . يحلم : يثقب . الأدَم : الجلد ، وهو مثل يُضرب للشيء يفوت ، قال الشاعر :

* كدابغة وقد حـــلم الأديم[1] *

السَّعير : النار المتّقدة . احتدم : التهب واشتد اتّقاده . السّدَم : همّ مع ندم .

* * *

ثمّ إنّه أغْمَدَ عَضْبَ لِسانِهِ ، وانْطَلَقَ لِشانِهِ ، فما زِلْتُ في كُلِّ موردٍ نَرِدُه ، ومُعَرَّسٍ نَتَوَسّده ، أتَفَقَّدهُ فأفقِدُهُ ، وأسْتَنْجِدُ بِمَنْ يَنْشُدُهُ فَلا يَجِدُه ، حتّى خِلْتُ أنّ الجِنَّ اخْتَطَفَتْهُ ، أو الأرْضَ اقْتَطَفَتْهُ ، فما كابَدْتُ في الْغُرْبةِ ، كهذهِ الكُرْبة ، ولا مُنيتُ في سَفْرَة ، بِمِثْلِها مِنْ زَفْرَة .

* * *

عضب : حدّ ، وأراد بإغماده سكوته . لشأنه : لأمره . مورِد : موضع الماء . نَردُه : نقصِده . معرّس : موضع النزول بالسَّحَر للاستراحة . نتوسّده : ننزل فيه . أتفقّده : أطلبه ، والتفقّد طلب المفقود ، قال الله تعالى : ﴿ وتَفقَّدَ الطَّيْرَ ﴾[2] ، طلبه بعد مافقده . أستنجد : أستعين . ينشده : يطلبه . اختطفته : أخذته ، بسرعة . اقتطفته : اقتطعته . كابدت : قاسيت . الكربة : الهمّ . مُنيت : بُليت . زفرة : تنفّس المهموم .

---

(١) صدره :

* فإنَّكَ والكِتابَ إلَى عَلِيٍّ *

من أبيات للوليد بن عقبة يحض فيها معاوية على قتال على . اللسان ـ حلم .

(٢) سورة النمل ٢٠ .

رفع المسهم

ولأبى طالب الرّقّىّ فى غلام محرِم[1] :

ومشتملٍ عِطْفَىْ عفاف وفتنـــةٍ
يرى قَتْلَ مَنْ يهوى إلى النُسك مَسْلَكَا
جَنَى اللحظُ من خدّيه وَرْدًا مكفورًا[2]
ومِنْ عارضيه ياسمينًا ممسَّكَا
فيا رائحًا منـــه بأوفر فتنةٍ تجهَّز لعام بعد هـذا لعلّكا

وقال صالح بن موسى :

عشقتُ صوفيًا له شاهدٌ يقيم عذرى عند عُذَّالِى
قد عبَـدِ اللهُ بأحواله فليتَه ينظُـر فى حالِى

(١) أبو طالب الرقى من شعراء اليتيمة ، والأبيات فى الجزء الأول فيها ص ٢٤٥ .
(٢) اليتيمة : « مورِدا » .

رفع المسهم

المقامة الثانية والثلاثون وتعرف بالطيبية

حكى الحارث بن همام ،قال : أجمعتُ حين قضيتُ مَناسِكَ الحجّ ، وأقمتُ وظائف العجّ والثّجّ ، أن أقصدَ طَيْبَة ، مع رُفْقَةٍ مِنْ بنى شَيْبَة ؛ لِأَزورَ قَبْرَ المُصْطَفى ، وَأَخرُجَ من قَبيلِ مَنْ حَجَّ وَجَفَا ، فأُرْجِفَ بأنَّ المَسالِكَ شاغِرَة ، وَعَرَبَ الحَرَمَيْنِ مُتَشاجِرَة ، فحِرْتُ بَيْنَ إشْفاقٍ يُثَبِّطُنِي ، وأَشْواقٍ تُنَشِّطُنِي ؛ إلى أنْ أُلْقِيَ فِي رُوعِي الاسْتِسْلامَ ، وتغليبُ زِيارَةِ قَبْرِه عَلَيْهِ السَّلامَ فَأَعْتَمْتُ الْقُعْدَةَ ، وَأَعْدَدْتُ الْعُدَّةَ ، وَسِرْتُ والرُّفقَةَ ، لاَ نَلْوِى على عُرْجَةٍ ، وَلاَ نَنِي فى تأويبٍ ولا دُلْجَةٍ ، حَتَّى وَافَيْنَا بنى حرْب ، وقد آبُوا مِنْ حَرْب ، فأَزْمَعْنَا أَنْ نُقَضِّىَ ظِلَّ الْيَوم، فِى حلّةِ الْقَوْم.

* * *

أجمعت : عزمتُ عليه كأنه جَمع نفسه له.ومناسك الحج:متعبّداتُهُ .وظائف: لوازم ، والوظيفة : النصيب الذى يلزمك عزمُه . العجّ : رفع الصوت بالتّلبية ، وكانوا فى الجاهلية إذا أتَمُّوا حجّهم يتفاخرون بمآثر آبائهم ، فأمِرُوا بالثناء على الله تعالى.والثّجّ : إراقة الدماء ،وعجّ يعجّ عَجًّا وعجيجاً :رفع صوته،وثَجَجْتُ الدمع ، أثجّه : أسلته ، وهو لازم ومتعدّ . وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل الأعمال فقال : « العجّ والثّج » .

رفع المسهم

طَيْبة : مدينة النبي صلى الله عليه وسلم . بنوشيبة : حَجَبة البيت ، وشيبة هو عبد المطلب ، وسُمِّيَ بذلك ، لأنه نشأ بالمدينة عند أخواله صغيراً ، فلما مات أبوه هاشم ذهب إليه المطلب ، فأتى به فرآه معه أهلُ مكة فقالوا : ماهو إلا عبد اشتراه ،فغلب عليه عبدُ المطلب . جَفَا أراد به قول النبي صلى الله عليه وسلم : «مَنْ حَجّ البيت ولم يَزُرْنِي ، فقد جفانى ، ومَنْ زارنى بعد وفاتى فكأنما زارنى فى حياتى » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :« من جاءنى زائراً لايهمّه إلا زيارتى كان حقًّا على الله أن أكون له شفيعا يوم القيامة». وفى رواية :« مَنْ زار قبرى وجَبَتْ له شفاعتى » .

وأرجَف الرَّجل : خاض فى الفتنة والأخبار المسيئة . وشغَر الطريقُ : خلا من حُماته والمدينةُ خلتْ من حماتها ، وبلد شَاغر ، بعيد من القاضى والسلطان ، فلا يمتنع مِنْ غارة أحد،والشّغر:التفرقة ،ومنه: خرجوا شَغَر بَغَر ، أى تفرّقوا ، وشغرعن بلده شغراً وشغاراً،إذا طرحوه ونفوْه،واشتغرَتِ الحربُ بينهم:اتّسعتْ وعظمت ، وامرأة شاغرة،إذا رفعت رجليْها لكلِّ من نكحها ، والمعنى أنّ المسالك شاغرة ، أى أنّ الطرق مضطربة خالية من حماتها . الحرمين : مكة والمدينة . متشاجرة : مختلفة . إشفاق : خوف . يثبِّطنى : يحبسنى . تنشّطنى : تحرّضنى . رُوعى : نَفْسى . الاستسلام : الانقياد لأمر الله تعالى . أعتمت : اخترت . القُعْدة : الراحلة المتّخذة للركوب . تلوِى: تعطف . عُرْجة:شىء يُشغل ليُعرَج عليه . نَنِى : نفتر ، وتأويب ودُلجة : مشى النّهار والسّحر ، والدُّلجة ، بضم الدال : الاسم من الإدلاج ، وهو سير جميع الليل ، والتأويب : سير النهار أجمع ، والدَّلجة ؛ بفتح الدال من الإدلاج بوزن الافتعال ؛ وهو أن يسير من آخر الليل . يعقوب:خرجنا بدُلجة ودَلْجة:إذا خرجوا فى آخر الليل. وافينا:

رفع المسهم

وصلنا . آبوا : رجعوا . أزمعنا : عزمنا . نقضّى : نتمّ ، أراد عزمنا على أن ننزل ونتمّ بقية يومنا عندهم ، وظلّ الشيء إنما يبقى ببقائه . والحِلّة . النزول ، والقوم : اسم للجمع ، والحِلّة هيئة الحلول ، والحِلّة مجلس القوم ومجتمعهم ، لأنهم يحلّونه ، والجمع حِلال ، والحِلّة جماعة بيوت الناس .

* * *

وبينما نَحْنُ نَتَخَيَّرُ المُناخَ ، ونَرُودُ الوِرْدَ النُّقاخ ، إِذْ رَأَيْنَاهُمْ يَرْكُضُونَ ، كَأَنَّهُمْ إلى نُصُبٍ يُوفِضُون ، فَرَابَنَا انْتِيالُهُمْ ، وَسَأَلْنَا مَا بالُهُمْ ؟ فقيلَ : قَدْ حَضَر نادِيَهُمْ فقيهُ العَرَبِ : فإهراعُهُمْ لِهَذَا السَّبَب ؛ فقلْتُ لِرُفْقَتِي : أَلاَ نَشْهَدُ مَجْمَعَ الحَيّ ، لنتبيَّنَ الرُّشْدَ من الغَيّ ! فقالوا : لَقَدْ أَسْمَعْتَ إِذْ دَعَوْتَ ، ونَصَحْتَ وَمَا أَلَوْت .

* * *

المُناخ : موضع النزول. نَرُود : نطلب . الوِرْد النُّقاخ: الماء البارد العذب، وأنشد أبو علىّ :

تركتُ النَّبيذ لأهل النبيذِ وأصبحت أشرب عذباً نُقاخا

سُمِّى نقاخا ، لأنه ينقخ الفؤاد ببرده ، أى يكسره . يركضون : يجرون مسرعين . نُصب : صنم ، كانوا فى الجاهلية ينصبونه ، ويذبحون عليه لأوثانهم ، وجمعُه أنصاب ، والنَّصَب : للشرّ ، قال الله تعالى: ﴿بنَصْبٍ وعَذَاب﴾ . يُوفضون: يُسرعون . إهراعهم: إسراعهم ، وأهرع : أسرع فزِعاً مرتعداً . وَيُهْرَعون : يُستحثُّون . ألوتُ : قصرت .

(١) سورة ص ٤١ .

رفع المسهم

ثمَّ نَهَضْنَا نَتَّبِعُ الْهَادِى ،وَنَؤُمُّ النَّادِى ، حتَّى إذا أَظْلَلْنَا عَلَيْهِ ، واسْتَشْرَفْنَا الفَقِيهَ المنهودَ إليه ، أَلْفَيْتُهُ أبا زَيْدٍ ذَا الشُّقَر والبُقَر ، والْفَوَاقِر والْفِقَر ، وقدْ اعْتَمَّ الْقَفْدَاء ، واشْتَمَلَ الصَّمَّاء ، وقَعَدَ القُرْفُصَاء ، وأَعْيَانُ الحىّ بِهِ مُحْتَفُّونَ ، وأَخْلاَطُهُمْ عَلَيْهِ مُلْتَفُّونَ ، وَهُوَ يقول : سَلُونِى عن المُعْضِلاَتِ ، واسْتَوْضِحُوا منِّى المُشْكِلاَت ، فوالَّذِى فَطَرَ السَّمَاء ، وعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء ، إنِّى لَفَقِيهُ الْعَرَبِ الْعَرْبَاء ، وأَعْلَمُ مَنْ تحتَ الْجَرْبَاء . فَصَمَدَ لَهُ فَتًى فَتِيقُ اللِّسَانِ ، جَرِىء الْجَنَانِ ، وقال : إنِّى حاضرتُ فُقَهَاءَ الدُّنيا ، حتَّى انْتَخَلْتُ مِنْهُمْ مائة فَتًى ، فإنْ كُنتَ مِمَّنْ يَرْغَبُ عن بناتِ غَيْرٍ ، ويَرْغَبُ مِنَّا فى مَيْرٍ ، فاسْتَمِعْ وأَجِبْ ، لِتُقَابَلَ بِمَا يَجِبُ ، فقال : اللهُ أَكْبَرُ ، سَيَبِينُ الْمَخْبَرُ ، وَيَنْكَشِفُ الْمُضْمَرُ ، فاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ .

* * *

الهادئ : الدليل . نؤمّ : نقصد . النادى : مجتمَع القوم . أظللنا : قربنا منه ودنونا وأشرفنا عليه . استشرفنا : نظرنا وتأمَّلنا ، والاستشراف : أن تضع يدَك على حاجبك من الشمس إذا أردت النَّظر إلى شىء يبعدُ منك. المنهود : المقصود ، ونهدت إليه ونهضت بمعنًى ، ونَهَدَ ينهَد نَهَداً ، أى شخص ونهض . وقيل : أكثر مايستعمل هذا فى الحرب ، يقال : نهد إلى العدوّ ، إذا نهض ليقاتله . ألفيتُه : وجدته . ذا الشُّقر والبُقر : صاحب الدواهى ، يقال : جاءنا بالشُّقَر والبُقر ، إذا جاء بالكذب المستفظَع ، وجاء بالشُّقَارى والبُقَارَى ، أى بالكذب . والفواقر : قواصم الظَّهر ، يراد بها الدواهى ، والفاقرة : الكاسرة للفَقار ، وهو

عظم الصُّلْب . والفِقَر فى النثر ، مثْلُ القوافى فى الشعر . القَفْداء ، بالقاف قبل الفاء : أن يلفّ عمامته على رأسه ولا يرسل منها شيئاً . ابن سيده : القَفْداء : والقَفْد ، إذا لوى عمامته على رأسه ، ولم يُسْدِلها ، قال الأزهرىّ رحمه الله تعالى : العمّة القَفْداء معروفة ، وهى الميْلاء ، والسنّة أن يتعمّم ويُسْدِل خلف ظهره .

ابن عمر رضى الله عنهما . كان النبى صلّى الله عليه وسلم إذا تعمّم سدَلَ عمامته بين كتفيه . والصَّمَّاء : أن تُجلِّل نفسك بالثوب غير المخيط ، ولا ترفع شيئاً من جوانبه ، فتكون فيه فُرْجة تخرج منها اليد ، وإنما نَهَى عن ذلك مخافةَ أن تصيبَه شدّة فى تلك الحالة ، وهو لا يقدِر على إخراج يده ، فيدفعها فيهلِك .

وقال الفجنديهىّ : رأيتُ بخط الحريرىّ : اشتمل الصَّمَّاء ، أى التحف بثوب جَلّل جسده ، وقيل لها صمّاء لأنها لا منفذ فيها كالصخرة الصماء ، التى لا صَدْع فيها ولا خَرْق ، وهى عند الفقهاء أن يشتمل بثوبٍ واحد ليس عليه غيره ، ثم يرفعه من أحد جانبيه فيضعه على مَنكِبيه ، فتبدو عورته ، فنُهى عن ذلك .

وقال الأزهرىّ : هذا أصَحّ الكلام ، والفقهاء أعلم بتأويل هذا . والقُرْفُصاء : أن يقعد على إليَتيْه ، وينصب ساقيه ، ويلصق فخِذيه ببطْنه ويحتبى بيديه فيضعهما على ساقيه ، قاله أبو عبيد . وقيل : هى جلسة المحتبِى ، ثم يرفع فَخِذَيْه وركبتيه إلى صدره ، ويدير يديه عَلَى ساقيه ، ويشدّهما ، فإذا فعلت ذلك بالرجل وشدّدت يديك عليه ، فقد قرفصتَه .

الفنجديهى : رأيت بخط الحريرىّ : معناه أن يَحْتَبِىَ بيديه ، قال أبو أمامة : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يجلس القُرْفصاء فيضع يده اليمنى على الشمال عند المفصل . وتقرفَص الرّجل ، إذا جمع يديه وانضمّ من جَرَب أو قروح به .

أعيان : أشراف . محتفّون : محلّقون ، والمنزل محفوف بالناس إذا اجتمعوا بحَفافيه ، أى بجانبيه . والأخلاط : الدُّون من الناس . والمعضِلات : الغامضات

من الكلام الصَّعْب. واستوضحوا ، أى طلبوا منّى إيضاحها ، أى بيانها . فَطَر: خلق ، وفطر الله الخلق ابتدأ خلقهم ، قال ابنُ عباس : ما كنت أدرى ما فاطرُ السموات والأرض حتى احتكم إلىّ أعْرابيّان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتُها، أى ابتدأتُها ، وقال الله تعالى: ﴿إلاَّ الذّى فَطَرَنى﴾[1] أى خلقنى. ويتفطَّرن: يتشقَّقن ، وانفطرت : تشقَّقت . وعلّم آدم الأسماء كلّها ، أى علمه أسماء كل شىء من المخلوقات . وفقيه العرب، أى عالمهم ، وقال تعالى: ﴿ليتَفَقَّهُوا فى الدين﴾[2] أى ليكونوا علماء به ،وكلّ عالم بشىء فهو فقيه فيه ، ويقال:فقهت عنك ، أى فهمت، وفقهت فقهاً ، أى صرت فقيها ، وهو الحاذق بما يعلمه ، وفقِهت الرجل : غلبته فى الفقه . العَرْباء : الخالصة ، وهذا الادّعاء الذى يُدعى الآن يسمى انتحال العلم .

وقال بعض الحكماء : لاينبغى لأحد أن ينتحل العلم .

وقال مقاتل بن سليمان يوما ، وقد دخلتْه أبّهة العلم : سلونى عمّا تحت العرْش إلى أسفل الثرى ، فقال له رجل : مانسألك عن شىء من ذلك ، إنّما نسألك عما معك فى الأرض ، أخبِرْنى عن كلْب أهل الكهف ما كان لونه ؟ فألجمه .

ولما شُهِرتْ تآليفُ ابن قتيبة ، ولُحِظ بعين العالم المتفنّن، صعِد المنبر ، وقد غَصّ المحفل واعتلى ، تبريزاً على علماء وقته ، مع فضل جاه اشتمل به من السلطان ، فقال : ليسألنى مَنْ شاء عمّا شاء ، فقام إليه أحد الأغفال ، فقال له : ما الفتيل والقِطمير ؟ فلم يُحْر جوابا ، وألجمه ونزل خجلا ، وانصرف إلى منزله كسلاً . فلما نظر اللفظتين وجد نفسه أذْكرَ الناس بهما ، وهذا من عقاب العُجْب .

ورأيت فى بعض الأخبار أنّ ابنَ قتيبة سُئِل عن حرف لغة فلم يعلمْه وقت

(١) سورة هود ٥١ . (٢) سورة التوبة ٢٢ .

رفع المسهم

السؤال ـ وكان أبيض مشرباً بحمرة ـ فلما وجد الحرف غلبت الحمرة على وجهه ، حتى طفىء أسفاً على فَوْتِ الحرْف وقت الحاجة ، ولعله كان ما قدّمنا فى الحكاية .

وقال قتادة : ما سمعت قطّ شيئاً إلا حفظتُه ، ولا حفظت قطّ شيئاً فنسيته . ثم قال : يا غلام هات نعلى ، فقال : هما فى رجليك ، ففضحه الله .

وقال قَتَادة : حفظت ما لم يحفظ أحدٌ قطّ ، ونسيت ما لم ينس أحد قطّ ، حفظت القرآن فى سبعة أشهر ، وقبضت على لحيتى ، وأنا أريد أن أقطع ما تحت يدى ، فقطعت ما فوقها .

وكان بشر يش رجل من أهل الدين والورَع ، وحجّ فى أيام أبى حامد ومحبه ، ففاتت صلاة الصبح يوماً لأحد أصحابه ، فلامه على ذلك ، فاعتذر له صاحبه فلم يعذِره . ثم قال له عَلَى معنى الترغيب : كَمُلتْ لى اليوم عشرون سنة ، ما فاتتنى صلاة الصبح فى جماعة ، فلمّا كان فى اليوم الثانى أدرك الحاج من صلاة الصبح ركعةً واحدة ، فلما لَقِيَه صاحبه بعد الصلاة قال له : هذا كما رأيت . وإنما ذكرت عملك على معنى التبصرة والإرشاد ، فلو ذكرتَه على غير ذلك لفاتتك ، وإذا كان موسى كليم الله قد عاتبه الله على الانتحال ، حين سئل : أىّ الناس اليوم أعلم ؟ قال : أنا ، وابتُلى بالسفر حتى لقى الخِضْر ، وجلس إليه راغباً فى أن يعلِّمه ، والخضر لاينبسط له فى التعليم ، ونقَر عصفور فى البحر ، فقال له الخَضِر : ما علمى وعلمك فى علم الله تعالى ، إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر .

وروى عن عبد الملك بن حبيب من طريق وهب بن منبّه : أنّ الله تعالى قال لموسى عليه السلام : أتدرى لم كلّمتُك ؟ قال : لا ياربّ ، قال : إنى اطّلعت على قلوب العباد فلم أرَ فيها قلبا أشدّ تواضعاً من قلبك ، قال المنجم :

لكل شىء فى الورى آفةٌ وآفة المرء من الكِبْرِ

وقال آخر :

الكِبْر يأسٌ والتواضع رفعةٌ والمزح والضحك الكثير سقوط
والحرصُ فقر والقناعة رفعةٌ واليأس من روح الإله قنوطُ

فينبغى لكل عاقل أن يقول : ما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ ربِّ زدنى علماً ﴾[1]، ولا يَرَى لنفسه حظًّا ، ويشكر الله تعالى على ما أعطاه فهو بالأدب أليق ، وبالشرع أوفق .

ومن سخيف الشعر فى الانتحال :

وما عنَّ لى من غامض العلم غامضٌ مَدَى الدَّهر إلاّ بتَّ منه على عِلْمِ

وقال عدىّ بن الرِّقاع :

وعلمت حتى ما أشاورُ عالما عن علم واحدةٍ لكى أزدادها[2]

وسمعه كُثيِّر ينشده الوليد بن عبد الملك ، فقال له : كذبت وربّ البيت الحرام ، فليمتحنك أمير المؤمنين فى صغار الأمور دون كبارها ، حتى يتبين جَهلُك ، وما كنتَ قطّ أحمق منك اليوم حين تظنّ هذا فى نفسك[2].

وقال أبو موسى المنجم : ما أحدٌ تمنّيت أن أراه ، فلمّا رأيته أمرت بصَفْعِه إلا عديًّا ، فقيل له : ولم ذلك ؟ قال : لقوله هذا البيت ، كنت أعرض عليه أصناف العلوم ، فكلّما مرّ عليه بشىء لا يحسنُه أمرت بصفعه .

قوله : وأعلم مَنْ تحت الجرباء : سُمِّيَت السماء جرباء ، لأن النجوم فيها كالجَرَب فى البدن .

وقال ابن الرومىّ فى غلام يَهْواه وخرج عليه جُدَرىٌّ ، وأشار إلى جرب السماء :

وقالوا شانه الجُدَرِىّ فانظرْ إلى وجهٍ به أثر الكلومِ
فقلت : ملاحةٌ نُثِرت عليه وما حُسْنُ السَّماء بلا نجومِ!

(١) سورة ط ١١٤ (٢) الأغانى ٨ : ٣٣

وقال أبو بكر بن السراج فى الفتح بن مسروق البلخىّ ، وقيل : قالهما فى ابن ياسر المغنّى ، وكان من أحسن الناس وجهاً :

لى قمر جُــدَّر لمّا استوَى فزاده حسنا وزاتْ الهمــومْ[1]
كأنّمَا غنّى لشمس الضحى فنقّطته طربا بالنجــومْ

وقال آخر :

كأنّ آثار بُجديرٍ بوجْنَتِهِ عشر معوّرة فى صحف ورّاقِ

* * *

وقال ذو الوزارتين أبو الوليد بن زيدون :

قالَ لى اعتلّ مَنْ هويتَ حسودُ قلت أنتَ العليلُ ويْحَكَ ، لا هُو[2]
ما الذّى تنقِمُونَ من بثّرَاتٍ ضاعفتْ حسنَهُ وزانت حلاهُ
وَجْهُه ـ فى الصّفاء والرقة ـ المـا ء ، فلاَ غَرْوَ أنْ حَبابٌ علاَهُ

قوله : صمَد ، أى قصد . فَتِيق : طَلِيق . جرىء الجنان : ماضى القلب قويّه . انتخَلْت : اخترت . الفتيا : لغة فى الفَتْوى ، وهما اسمان يُوضعان موضع الإفتاء ، تقول : إفتاء وفُتْيَا وفَتْوى .

بنات غير ، كناية عن الكذب . الفنجديهىّ . رأيت بخط الحريرىّ : بَنَات الغير : الكذب .

الفرّاء : يقال للرجل ، أبو بنات عبر ، وهو الباطل بعين مهملة وباء منقوطة ، واحدة .

مَيْر : رزق وصلة ، وأصله جَلْب الطعام للأكل . الله أكبر : حكَى أهل اللغة أنّ معناه كبير ، وقال الفرزدق :

إنّ الّذِى سَمَكَ السّمَاء بنَى لَنَا بيتــاً دعائمُه أعزُّ وأطْوَلُ[3]

(١) إنباه الرواة ٣ : ١٤٨
(٢) ديوانه ١٢٤ .
(٣) ديوانه ٢١٤ .
(٣) ديوانه ٢١٤ .

رفع المسهم

أى عزيزة طويلة .

قال معن بن أوس :

لَعَمْرُكَ ما أدرى وإنِّى لأوْجَلُ عَلَى أيّنا تَعْدُو المَنيّة أوّلُ[1]

أى لوجل ، وقال النّحويون : الكسائى والفراء وهشام معناه : أكبرُ من كل شىء ، فحذفت مِنْ لأنّ أفعل خبر، كقولك : أبوك أفضل وأعقل ، أىْ من غيره ، ولو كان اسما لم يحذف منه شىء ، ألا ترى أن مَنْ قال : أخوك أفضل لم يقل إن أفضل أخوك ، فحذفت « مَنْ » فى الخبر ، لأن الخبر يدلّ على أشياء غير موجودة فى اللّفظ ، نحو أخوك قام ، فيدلّ على المصدر والزمان والمكان والاسم لايحذف منه شىء يدلّ عليه . والخَبَر ، مصدر خبرت خَبَرَةً ومُخْبَرًا ، إذا جرّبته ، فأراد : سيتبيّن لك بالتجربة ماادّعيته من العلوم، وينكشف لك ماأضمرته منها . اصْدَع : تكلّم وأظهر ، وصدعتُ بالحق تكلّمتَ به جهارا، وقوله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَر ﴾[2] أى أظهرْ دينك .

وإنما اعتمد الشيخ أبو محمد الحريرى فى شرح الألفاظ التى ألغز بها على الوجه المعنى ؛ ولنشرح ما سوى ذلك مما اشتملتْ عليه إن شاء الله تعالى :

* * *

[فقيه العرب وفتواه]

قال : ما تَقُولُ فِيمَن تَوَضَّأَ ثُمَّ لَمَسَ ظَهْرَ نَعْلِهِ ؟ قال : انتقَض وُضُوءهُ بِفِعْلِهِ (النَّعْل : الزّوجة) .

قال : فإن توضّأ ثُمَّ أَتَـكَأَهُ الْبَرْد ؟ قال : يجدّدُ الوُضُوء من بَعْدُ (الْبَرْد : النوم) .

قال : أَيَمْسَحُ المتوضّئ أُنْثَيَيْه ؟ قال : قَدْ نُدِبَ إليـه ، ولم يوجَبْ عليه . (الأنثَيان: الأُذُنان) .

(١) ديوانه ٥٧ . (٢) سورة الحجر ٩٤

قال : أيجُوز الوضوء مِمّا يَقْذِفُهُ الثُّعبان ؟ قال : وهَلْ أنظف مِنْهُ لِلْعُرْبَان ! (الثُّعبان : جمع ثَعْب، وهو مَسيلُ الوادى)

قال : أَيُسْتَبَاحُ ماءُ الضَّرِير ؟ قال : نعم ، وَيُجْتَنب مـاء الْبَصِير . (الضَّرير : حَرْف الوادى . والبَصير : الكَلْب) .

قال : أيحِلّ التَّطوُّف فى الرَّبيع ؟ قال : يُكْرَهُ ذلك لِلْحَدَثِ الشَّنيع . (التَّطوُّف : التَّغَوُّط . والرَّبيع : النَّهْر الصَّغير) .

* * *

قوله : لمسّ، جرّ أصابعه عليها . أتكأه : جعله مُتّكئًا . يقذفه : يطرحه من بطنه . والضّرير : الأعمى . والبَصِير : البَصَر .

والطّوف : مصدر طاف حَوْل الشيء إذا دار به . والحدَث : الغائط ، وجعله شنيعًا لأن الإنسان إذا فعله فى الماء ظهر على وجه الماء فكانت به شنعة ، واستُقذر الماء فلم يستعمل ، وإن كان مباحًا استعماله .

* * *

قال : أيجب الغُسْلُ على مَنْ أمْنَى ؟ قال : لا ولو ثنّى . (أمْنَى : نزل مَنْى ، ويقال منه : مَنَى وأمْنَى وامْتَنَى) .

قال : فَهَلْ يجبُ عَلَى الْجُنُب غَسْلُ فَرْوَتِهِ ؟ قال : أجل وَغَسْلُ إبْرَتِهِ (الفرْوَة: جِلْدَةُ الرَّأس ،والإبْرَة :عَظْمُ المِرْفَق) .

قال : أيجبُ عَلَيْهِ غَسْلُ صَحِيفَتِهِ ؟ قال : نعم كَغَسْلِ شفَتِهِ (الصَّحيفة : أسِرّةُ الْوَجْه) .

قال : فإن أخَلَّ بِغَسْلِ فَأْسِهِ ؟ قال : هو كما لَوْ أَلْغَى غَسْلَ رَأْسِه (الفأس : العَظْم المشرِفُ عَلَى نُقْرَةِ القفا) .

رفع المسهم

قال : أيجوزُ الغُسْلُ فِي الجرابِ ؟ قال : هو كالْغُسْلِ فى الجِباب .
(الجِراب : جَوْفُ البئر)

قال : فما تقولُ فيمن تيمّم ثم رأى رَوْضا ؟ قَالَ : بَطَلَ تَيَمُّمُهُ فليتوضّأ (الرَّوْض هاهنا: جَمْع رَوْضة ،وهى الصُّبابَة تَبْقَى فى الحوْضِ).

• • •

أخلّ : نقص . نُقْرَة : حُفْرة . الرَّوض : مواضع الغيث . والصُّبابة : البقيّة .

* * *

قال: أيجوزُ أن يَسْجُدَ الرَّجل فى العَذِرَة ؟ قال: نعم وليجانب الْقَذِرَة
(العَذِرة : فناء الدار) .

قال : فهَلْ له السُّجودُ عَلَى الخِلاَف ؟ قال : لا ، ولا عَلَى أَحدِ الأطراف . (الخِلاَف : الـكُمّ) .

قَالَ : فإنْ سَجَدَ على شِمَالِهِ ؟ قال : لا بأسَ بفِعاله . (الشِّمال : جمع شَمْلَة) .

قال: فهلْ يجوزُ السُّجود عَلَى الكُرَاعِ ؟ قال: نَعَمْ ، دُون الذِّرَاع
(الكُراع : ما اسْتَطَالَ من الحَرّة ، وهى أرضٌ ذاتُ حجارةٍ سُودٍ) .

قال : أيُصَلِّى عَلَى رَأْسِ الْكلْب ؟ قال : نَعَمْ ، كَسَائِرِ الْهَضْبِ
(رأس الكلب : تَنِيّةٌ مُعْروفَة) .

قال: أيجوزُ للدّارِسِ حَمْلُ المصاحِف ؟ قال: لا، ولا حَمْلُها فى الملاحِف.
(الدّارِس : الحائض) .

قال : ما تقول فيمَن صلَّى وعانَتُه بارِزَة ؟ قال : صَلاَتُه جائِزة .
(العانة : الجماعة من حُمُر الوحش) .

والكُراع : الرِّجْل ، وكُراع كلِّ شيء طرفه . والحَرَّة : أرض فيها حجارة سُود . والهُضْب : جمع هَضَبَة وهى الصخرة العظيمة ، والكُدْية الصغيرة ، وقيل : الهضبة الجبل المنبسط على وجه الأرض ، وقيل : الجبل الطويل المتَّسع والجمع هضاب . ثَنِيّة : عَقَبَة .

* * *

قال : فإن صَلَّى وعَلَيْهِ صَوْمٌ ؟ قال : يُعِيدُ ولَوْ صَلَّى مائة يوم .
(الصَوْم : ذَرَق النَّعام)

قال : فإن حَمَل جِرْوًا وصَلَّى ؟ قال : هُوَ كما لَوْ حَمَلَ باقِلَّى .
(الجِرْو : الصِّغار من القِثَّاء والرُّمان) .

قَالَ : أتَصِحُّ صَلاَةُ حامِلِ الْقَرْوَة ؟ قَالَ : لا ، ولو صَلَّى فَوْقَ الْمَرْوَة
(القَرْوَة : مِيَلَغَةُ الْكَلْبِ) .

قَالَ: فإنْ قَطَرَ عَلَى ثَوْب الْمُصَلِّى نَجْو ؟ قال يَمْضِى فى صَلاَتِهِ ولا غَرْو . (النَّجْو : السَّحَاب الَّذِى قدْ هَرَاقَ ماءه) .

قال: أيجوزُ أن يَؤُمَّ الرِّجالَ مُقَنَّع ؟ قَالَ : نعم ، ويؤمُّهُمْ مُدَرَّع .
(المقنَّع : لابس المِغْفَر ، والمدرَّع : لابس الدِّرْع) .

قال : فإن أمَّهُمْ مَنْ فى يَدِه وَقْفٌ ؟ قال: يُعِيدُون ولَوْ أنَّهم ألف

(الوَقف : السِّوَارُ من العَاج أو الذَّبْل ، وأراد أنّه لا يَجُوز للرجال الائتمامُ بالنِّساء) .

• • •

المِيلَغَة : ما يَشْرب فيه الكلاب الماء ، وهى من وَلغ الكلبُ ، إذا تَناول الماء بلسانه والقَرْوة : نَقِير من خشب تشرب منه الكلاب . والقِثّاء : هو الفَقُّوس . والنَّجْو : هو الحدَث لا غَرْو : لا عجب . والمقنَّع : لابس القِناع ، يريد المرأة . والوقْف : ما وُقِف وحبس من الأموال على المساكين والمساجد . والذَّبل : جلد السُّلَحفاة البرّية ، ويقال : إنها تعظم ، فربّما يضع التاجر ليلا عليها حمله يظنّها صخرة فترتحل به ، ويستعمل من الطّبق الذى عليها خلاخل للحشَم والعبيد . والعاج عَظم الفيل .

* * *

قال : فإن أُمَّهُمْ مَنْ فَخِذُهُ بادية ؟ قال : صَلاتُهُ وصَلاتُهُمْ ماضية . (الفخِذ : العشيرة ، وبادِية ، أى يسكنون البَدْو ، واختار بعض أهل اللغة تسكين الخاء مِنْ هذه الفَخِذ ، ليحصُل الفرق بينها وبين العضو) .

قال : فإنْ أَمَّهُمَ الثور الأجمّ ؟ قال : صَلِّ وخَلاكَ ذمّ . (الثَّور : السَّيِّد . والأجَمّ : الذى لا رُمْحَ معه) .

قال : أيَدْخُلُ القَصْرُ فى صَلاةِ الشَّاهِد ؟ قال : لا ، والغَائبِ الشاهد . (صلاة الشّاهِد : صلاة المغرب ، سُمِّيَتْ بذلك لإقامتها عِنْدَ طُلُوع النجم ، لأنّ النَّجْم يُسمَّى الشاهد)

قال : أيجوز لِلْمَعْذُورِ أنْ يُفْطِرَ فى شَهْرِ رَمَضان ؟ قال : ما رُخِّصَ فيه إلاّ للصِّبْيان . (المَعْذُورُ : المخْتُون ، وهو أيضا المُعذّر) .

قال : فهَلْ للمعرِّسِ أنْ يأكُلَ فيه ؟ قال : نَعَمْ بِمِلْءِ فِيهِ .

رفع المسهم

(المعرِّس : المسافر الّذى ينزل فى آخر ليله لِيَستريحَ ثمّ يرتحل).

قال : فإنْ أفطرَ فيه المُرَاة ؟ قال : لا تُنكِرُ عليهم الوُلاة .

(المُراة : الّذينَ تأخذهم العُرَواء ، وهى الحمّى بِرِعْدَةٍ) .

* * *

قال: فإنْ أكلَ الصّائمُ بَعْد ما أصْبَحَ ؟ قالَ:هُوَ أحْوَط لهوأصْلَحَ.

(أصبح ، أى استصْبَحَ بالمصباح).

قال : فإنْ عَمَدَ لأن أكلَ ليلاً ؟ قال : ليُشَمِّرْ لِلْقضاء ذَيْلاً .

(ذكر ابن دُرَيدأنّ الليل فَرْخ الحُبارى ، وقالَ غيرُهُ : هُوَ وَلَدُ الكروان).

قال : فإن أكلَ قَبْلأن تتوارَى البَيْضاء؟ قالَ : يلزمُه والله القضاء.

(البَيْضاء من أسماء الشّمس) .

قال: فإن اسْتَثارَ الصّائمُ الكَيْد؟ قال : أفْطَرَ وَمَنْ أحَلّ الصَّيْد .

(الكَيْد : القيء . واستثاره ، أى استدْعاه) .

قال : أَلَهُ أنْ يُفطِرَ بإلْحاحِ الطّابخ؟ قال : نعم لا بطاهِي المَطابخ .

(الطّابخ : الحُمّى الصّالب) .

قال : فإن ضحِكَتِ المرْأةُ فى صَوْمها ؟ قالَ : بَطلَ صَوْمُ يَوْمِها .

(ضَحِكت ها هنا ، أى حاضتْ ، ومنه قولة تعالى : ﴿ فضحِكَتْ فَبَشّرناها بإسْحَاقَ ﴾ .

قال:فإن ظَهَرَ الجُدَرِيّ عَلَى ضَرّتِها؟ قال: تُفطِرُ إنْ آذنَ بمضرّتها .

(الضَّرّة : أصْلُ الإبْهام ، وأصْلُ الثّدْي أيْضًا).

رفع المسهم

الطَّاهى : طابخ اللّحم . والصَّالب : الحمّى لا ترعد ، وإلحاحها : ملازمتها .
الجُدَرِىّ : قروح صغار تخرج على الصبيان . وضَرّتها : شريكتها فى زوجها .

* * *

قال : ما يجبُ فى مائة مِصْباحٍ ؟ قال : حِقَّتانِ يا صاح .
(المِصْباح : النّاقة التى تُصبح فى المبْرك) .
قال : فإن مَلَكَ عَشْرَ خَنَاجر ؟ قال : يُخْرِج شاتين ولا يُشاجر .
(الخناجِر : النُّوق الغِزار الدّرّ ، واحدتها خِنْجَر وخُنْجُور) .
قال : فإن سَمَحَ للسّاعِي بِحَمِيمَتِه ؟ قال : يا بُشرَى لَهُ يَوْمَ قيامَتِه .
(السّاعِى : جابِى الصَّدَقة ، والحَمِيمَة : خِيارُ الْمَال) .
قال : أَيَسْتحِقُّ حَمَلَةُ الأوْزَارِ من الزَّكاةِ جُزًّا ؟ قَالَ : نَعَمْ إذا كَانُوا غُزًّى . (الأوْزار : السِّلاَح . وغُزًّى : جمع غازٍ) .
قال : أيجوز للحاجِّ أنْ يَعْتَمِرَ ؟ قال : لا ، ولا أنَ يَخْتَمِرَ .
(الاعتمارُ : لُبْس العِمارَة ، وهِىَ العمامة ، والاختمار : لبس الخِمـــار) .
قال : فَهَلْ لَهُ أنْ يَقْتُلَ الشُّجاع ؟ قال : نعم ، كما يقتل السِّباع .
(الشُّجَاع : الحيّة) .

الحِقّة : التى استحقّت أن يركب عليها . والخناجر : نوع من السّكاكين الكبار . ويشاجر : يخالف . والجابى : الجامع للصدقة، ومنه الجباية .
والأوزار : أثقال الذنوب . والغُزّى : هؤلاء الرّماة بالنشّاب . ويَعْتَمِر : يحجّ بعمرة . ويختمر : يستعمل الخبز المختمر .

* * *

رفع المسهم

قال : فإنْ قَتَلَ زَمَّارَةً فى الحرَمِ ؟ قَالَ : عَلَيْهِ بَدَنَةٌ مِنَ النَّعَمِ .
(الزَّمَّارة : النَّعَامة واسْمُ صَوْتِها الزَّمَّار) .

قال : فإنْ رَمَى ساقَ حُرٍّ فجدَّلَهُ ؟ قال : يُخرِج شاةً بَدَلَهُ .
(ساق حُرّ : ذَكَر القَمَارِى)

قال : فإن قَتَل أُمَّ عَوْفٍ بَعْدَ الإحرَام ؟ قَالَ يتَصَدَّقُ بِقُبْضَةٍ مِنْ طَعَامٍ . (أم عَوْف : الجرادة) .

قال : أيجبُ عَلَى الحـــاجِّ اسْتِصْحَابُ الْقَارِب ؟ قالَ : نعم ، ليسوقَهُمْ إلى الْمَشَارِبِ. (القارِب : طالبُ المَاء باللَّيْلِ) .

قَالَ : ما تَقُولُ فى الحَرَامِ بَعْـــدَ السَّبْتِ ؟ قَالَ : قدْ حَلَّ فى ذَلِكَ الوقْتِ . (الحَرَام : المحرَّم ، والسَّبْتُ : حَلْق الرَّأس . وحَلَّ ، من تحليل الحَجّ) .

قال : ما تقولُ فِى بَيْع الـكمَيت ؟ قال : حَرَامٌ كبَيْعِ المَيْتِ .
(الـكُمَيْت: الخَمْر) .

والزَّمَّارة: المرْأة تَضْرب بالمزمار . والبَدَنة الناقة ، سُمِّيت بذلك لضخامتها وبَدُن الرَّجُل ضَخُم . جَدَّلَهُ : قتله وطرحَه على الجدالة ، وهى الأرض . ومن أبيات اللغز فى الجرادة :

وما صَفْرَاءُ تُـكْنَى أمّ عَوْفٍ كأنّ سُوَيْـقَتَيْها مِنجـلاَنِ

والقارب : السفينة الصغيرة . والـكُمَيْت : الفرس الأسود العُرْف والذَّنَب. والـكُمْتَة : حُمْرَة تضرب إلى السواد .

* * *

رفع المسهم

قال : أيجوز بَيْعُ الخلّ بلحْم الحَمل ؟ قال : ولا بلحْم الحَمَل .
(الخلّ ابنُ المخاض ، ولا يحلّ بيعُ اللّحم بالحيوان ، سواء كان من جِنْسه أو مِنْ غير جنسه) .

قال : أيحلّ بيعُ الهَدِيّة ؟ قال : لا ولا بَيْعُ السَّبِيّة . (الهديّة ، بالتّشديد : ما يُهْدَى إلى الكعبة ، ويقال فيها هَدْيَة ، بتسكين الدّال وتخفيف الياء . والسبيّة : الخمر) .

قال . ما تقول فى بيع العَقِيقة ؟ قال : محظورٌ على الحقيقة . (العَقِيقة: ما يُذْبحُ على المولود فى اليوم السّابع من وِلادته) .

قال : أيجوز بيعُ الدّاعى ، على الرّاعى ؟ قال . لاَ ، ولاَ على السّاعى.
(الدّاعى : بقية اللّبن فى الضّرْع ، والسّاعى: جَابِى الصّدَقه) .

قال : أيُبَاع الصَّقْر بالتّمر ؟ قال: لاَ ، ومالِك الخلْق والأَمْر .
(الصَّقْر : الدِّبس) .

قال : أيَشْترى المسْلِم سَلَب المُسْلِماَت ؟ قال : نَعَم ، ويورَثُ عنه إذا مات . (السَّلَب : لِحاء الشّجر ، وهو أيضا خُوصُ الثُّمام)

والحمَل : الخروف . والعَقِيقة : خَرَزة حمراء . محظور : ممنوع . والصَّقْر : من جوارح الطير . الدِّبْس : عسل التّمر . خَوص : ورق . الثُّمام : شجر ضعيف وَرَقُه كورق الدّوْم مزدوجة .

* * *

قال : فهل يجوزُ أَنْ يُبتَاع الشّافِع ؟ قال : ما لجوازه من دافع
(الشافع : الشاة الّتى يتبعها سَخْلُهَا) .

قال : أَيُبَاعُ الإبريقُ على بنى الأصْفَر ؟ قال : يُكرَه كبيع المِغْفَر .

رفع المسهم

(الإبريق : السّيف الصّقيل الكثير الماء . وبنو الأصفر : الرّوم) .

قال : أيجوز أن يبيعَ الرّجل صيفيّه ؟ قال : لا ، ولكنْ ليبعْ صفيَّهُ . (الصيفيّ : الولد على الكِبَر ، والصفيّ : الناقة الغزيرة الدّرّ) .

قال : فإنِ اشْتَرَى عبْدًا فبانَ بأمّه جِراح ؟ قال : ما فِي رَدّهِ من جُناح . (الأمّ : مُجْتَمعُ الدّمَاغ) .

قال : أتثبت الشُّفْعَة للشريك في الصحراء ؟ قال : لا ، ولا للشّريكِ فى الصَّفْرَاء . (الصّحْرَاء : الأتان التى يُمازج بياضَها غُبْرة والصّفرَاء : النّاقة) .

قال : أيحِلّ أنْ يُحْمَى ماءُ البِئْرِ والخَلاَ ؟ قال : إن كان فى الْفَلاَ فَلاَ . (يُحْمَى : يمنع . والخَلا : الكَلأ) .

الإبريق : آنية الخمر . الصَّيْفيّ : ما ولد فى زمن الصيف . والصَّفيّ : الصاحب الخالص . والدّرّ : اللبن . وبان : ظهر . وجَنَاح : إثم . والأتان : الأنثى من الحمير .

* * *

قال : ما تقول فى مِيتة الكافِرِ ؟ قال : حِلٌّ المقيم والمسافر .

(الكافر : البحر ، وميتته : السَّمَكُ الطّافِي فوق مائِه) .

قال : أيجوز أن يُضَحَّى بالحُول ؟ قال : هو أجْدَرُ بالقَبُول .

(الحُول : جمع حائل) .

قال : فهلْ يُضَحَّى بالطّالِق ؟ قال : نعم ، ويُقْرَى منها الطارِق .

(الطالق : الناقة تُرْسل ترعَى حيث شاءت) .

رفع المسهم

قال : فإنْ ضَحَّى قبل ظُهورِ الغَزالَة؟ قال : شاة لحمٍ بلا مَحالةٍ .

(الغَزَالة : الشمس) . قال بعضهم : يقال : طلعت الْغَزالة . ولا يقال : غَرُبَت، وضدَّها الجَوْنة ، تسمَّى بها عند مغيبها ، لأنها تسودُّ حين تغيب ، كما قال الشاعر :

* تبادر الجوْنة أن تغيبا[1] *

قال : أيحِلّ التَّكسّب بالطَّرْق ؟ قال : هو كالقِمَار بلا فرق .

(الطَّرْق : الضَّرْب بالحصَى ، وهو من أفعال الكهَنة) .

قال : أيسلِّم القائمُ على القَاعِد ؟ قال : محظُورٌ فيما بين الأبَاعِد .

(القاعد : التى قعدت عن الحيْض أو عن الأزْواج) .

والطّافى : المرتفع على وجه الماء . والحُول : جمع أحْوَل وحَوْلاء . أجْدَر : أحق . والطَّرْق : السَّيْر بالليل . محظور : ممنوع .

* * *

قال : أيَنَامُ العاقِلُ تحت الرَّقيع ؟ قال : أحْبِبْ به فى الْبَقيع .

(الرَّقيع : السَّماء ، وعَنَى بالبقيع المدينة) .

قال : أيُمْنَعُ الذِّمّى مِنْ قتلِ الْعَجُوز ؟ قال : معارضتُه فى الْعجوز لا تجوز . (العَجُوز: الخمر . وقتلها : مَزْجُها) .

قال : أيجوز أنْ ينتقل الرَّجُلُ عِنْ عِمَارَةِ أبيه ؟ قال : ما مجُرِّز لحاملٍ ولا نبيه . (العِمارة : القَبيلة)

---

(١) اللسان ـ جون

رفع المسهم

قال : ما تقول فى التَهوُّد ؟ قال: هو مفتاح التَّزَهّد . (التَّهوُّد : التوبة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إنَّا هُدْنا إليكَ ﴾ .

قال : ما تقول فى صَبْرِ البَلِيّه ؟ قال : أعْظِمْ بِهِ من خَطِيّة .

(الصَّبْر: الحبس . والبليّة: الناقةُ تحبَس عند قبر صاحبها، فلا تُسْقَى ولا تُعلَف إلى أن تموت ، وكانت الجاهلية تزعُمُ أنَّ صَاحِبَها يُحْشَرُ عليها) .

قال : أيحِلّ ضربُ السَّفير ؟ قال : نعم ، والحَمْلُ على المستشير .

(السَّفير : ما تساقط من ورق الشجر. والمستشير: الجمل السَّمين ، وهو أيضا الجمل الّذى يعرف اللاقِحَ من الحائل) .

والرّقيع : الأحمق الذى يتخرّق عليه رأيه حتى يَحْتاج إلى أن يرقّع ، ثم كثر حتى صار الرّقيع المَاجن القليل الحياء ، فأراد : أيرقُد عاقل تحت رقيع ؟ فقال : ما أحسن ذلك، إذا كان فى البقيع ؛ هذا معناه فى الظاهر، وما قصد به قد فسره . والبقيع فى الأصل : كلّ موضع فيه أصول أشجار مختلفة . التّهوّد : الدّخول فى دين اليهوديّة . عمارة أبيه : ما كان أبوه يعمره من دار يسْكنها ومال يعمره . السَّفِير : الرسول . المستشير : المسترشد الذى يستشيرك فى أموره والحمل عليه إهانته وظلمه . اللاّقح : الحامل بالولد ، والحائل : ضدّها .

* * *

قَالَ : أيُعَزِّر الرَّجُلُ أباه ؟ قال : يفعلُه البَرّ ولا يأباه . (التَّعزير : التَّعظيم والنُّصرة والتوقير) .

قال : ما تقول فيمن أفقر أخاه ؟ قال : حبّذا ما توخّاه .

(أفقره : أعاره ناقة يركب فقارها) .

رفع المسهم

قال : فإن أعْرَى وَلَدَهُ ؟ قال : يا حُسْنَ ما اعْتمده ! (أعْرَاه : أعطاه ثمرة نخلة عامًا) .

قال : فإن أصْلَى مملوكَهُ النّار ؟ قال : لا إثمَ عَلَيْهِ ولا عار . (المملوك : العَجين الذى قد أُجيد عَجْنُه حَتَّى قوِىَ) .

قال : أيجوز للمرأة أن تصرم بَعْلَهَا ؟ قال : ما حَظَرَ أحدٌ فعلها . (البَعْل : النّخْل الذى يشرب بعروقه من الأرض) .

قال : فهل تؤدَّب المرأة على الخجل ؟ قل : أجل . (الخَجَل : سوء احتمال الغنى ، ومنه قوله صلى الله وسلم للنساء : « إنّكن إذا جعتُنَّ دَقَقْتُنَّ ، وإذا شبعتُنَّ خجلتُنَّ ») .

قال : ما تقول فيمن نَحَتَ أثْلَةَ أخيه ؟ قال : أثِمَ ولو أُذِنَ له فيه . (نَحَتَ أثْلَته ، إذا اغتابه وقَدَح فى عِرْضه) .

يعزّر : يؤدّب ، والتّعزير : ضرب دون الحدّ . والبَرّ : المكرِم لأبيه . تورخاه : قصده ، وكذلك اعتمده . أصْلاَه : جعله فيها . تصرّم : تقطع وتباعد ، وأصل الصَّرْم القطع . بعلها زوجُها . حظر : منع . الخجَل : الاستحياء . وأراد بسوء احتمال الغنى ، أن تكون مبذِّرةً لمالها سفيهةً ، فكأنّ الغنى لمّا أتاها لم تحتمله فأفسدته نحَت : نجَر . أثلة : شجرة .

* * *

قال : أيحجُر الحاكم على صاحب الثّور ؟ قال : نعم ، ليأمن غائلة الجور . (الثّوْر : الجنون) .

رفع المسهم

قال: فهل له أن يضرب على يد اليتيم ؟ قال : نعم ، إلى أن يستقيم .
(يقال : ضرب على يده ، إذا حَجَر عليه) .

قال : فهل يجوز أن يتّخذ له رِبَضاً ؟ قال : لا ، ولو كان له رِضاً .
(الرِّبَض : الزوجة)

قال : فمتى يبيع بَدَنَ السّفيه ؟ قال حِينَ يَرَى له الحظَّ فيه .
(البَدَن : الدّرع القصيرة) .

قال : فهل يجوز أن يبتاع له حُشًّا ؟ قال : نعم ، إذا لم يكن مُغشًّى . (الحُشّ : النخل المجتمع) .

قال : أيجوز أن يكونَ الحاكم ظالمًا ؟ قال : نعم ، إذا كان عالمًا .
(الظّالم : الذى يشرب اللبن قبل أن يروّب ويخرُج زبَده) .

قال : أيُستقْضى مَنْ ليست له بصيرة ؟ قال : نعم ، إذا حسُنت منه السّيرة . (البصيرة : التّرس) .

قال : فإن تَعرّى من العَقْل ؟ قال : ذاك عنوان الفضل . (العَقْل : ضرب من الوشى) .

غائلة : ضَرر . الرّبض : بقاع من الأرض تباع وتشترى . الحُشّ : الكَنِيف . مغشًّى : يغشاه الناس ويدخلونه . البصيرة : اليقين والنّظَر السديد . السِّيرة : العادة . عُنْوان : دليل وعلامة .

* * *

قال : فإن كان له زَهْوُ جبّار ؟ قال : لا إنكارَ عليه ولا إكبار .

رفع المسهم

(الزهو : البُسْر المتلوّن . والجبّار : النخل الذى فات اليدو ضدّه القاعد) .

قال: أيجوز أن يكون الشّاهد مريباً ؟ قال : نعم ، إذا كان أَرِيباً. (المُرِيب : الّذى يكثر عنده اللبن الرائب) .

قال : فإنْ بان أنّه لاط ؟ قال : هو كما لو خاط . (لاطَ الحوض ، إذا طيّنه) .

قال : فإن عُثِر على أنه غَرْبَل ؟ قال : تُرَدّ شهادته ولا تُقبل . (غَرْبل ، أى قتل ، ومنه قول الراجز * ترى الملوك حوله مغربلة *

قال : فإن وضح أنّه مائن ؟ قال . هو وصفٌ له زائن . (المائِن ها هنا : الذى يَعُول ويكفى المئونة ، من مان يَمُون ، لا مِنْ مَانَ يَمِين) .

قال : ما يجب على عابدِ الحق ؟ قال : يحلَّف بإلَه الخلق . (العابد ها هنا : الجاحد. والحقّ: الدّين) .

قال : ما تقول فيمن فقأ عَيْن بلبل عامدا ؟ قال : تُفقَأ عينُه قولاً واحدا . (البُلْبل : الرّجل الخفيف) .

قال : فإن جرح قطاة امرأةٍ فماتت ؟ قال : النّفس بالنفس إذا فاتت . (القَطاة : ما بين الوَرِكَيْن) .

والزّهو : التكبّر والإعجاب . الأريب : العاقل . لاط : عمل عمل قوم لوط . وضح : تبيّن . مائن : كاذب . القَطاة : نوع من الحمام ، وفقأ العين: أخرجها . والبُلْبل : طائر .

* * *

رفع المسهم

قال : فإن أَلْقَتِ الحامِلُ حشيشاً من ضَرْبِهِ ؟ قال : لِيَكفَر بالإعناق عن ذنبه . (الحشيش : الجنين المُلْقَى ميتاً) .

قال: ما يجب على المختتفى فى الشرع ؟ قال : القطع لإقامة الرّدع. (المختفى: نبّاش القبور) .

قال : فما يصنع بمن سرق أساودَ الدار ؟ قال : يُقطع إن ساوَيْن رُبْع دينار . (الأساود : الآلات المستعمله كالإجّانة والقِدْر : الجُفْنة) .

قال : فإنْ سَرَقَ ثميناً من ذَهَب ؟ قال : لا قَطْع كما لو غَصَب . (الثمين : الثُّمْن ، كما يقال فى النصف : نصيف ، وفى السُّدْسِ سَدِيس) .

قال : فإن بانَ على المرأة السّرَق ؟ قال : لاحَرَج عليها ولا فرَق (السَّرَق : الحرير الأبيض) .

قال . أينعقِدُ نِكاحٌ لم يَشْهَدْه القوارى ؟ قال : لا والخالق البـارى . (القوَارِى : الشهود لأنهم يُقِرُون الأشياء ، أى يتّبعونها) .

قال: ما تقول فى عريسٍ باتت بلَيْلَةٍ حُرّة ، ثم رُدّتْ فى حَافِرتها بسُحْرَة ؟ قال : يجب لها نصف الصّدَاق ، ولا تلزمُها عِدّة الطلاق .

(يقال : باتت العروس بليلةٍ حرّة ، إذا امتنعت على زوجها ؛ فإن افتضّها قيل : باتت بليلة شيبـاء . والرّد فى الحافرة بمعنى الرجوع فى الطريق الأوّل ، وكَنَى به عن طلاقها قبل وِرْدها إلى أهلها) .

* * *

الحشيش: نبات يابس . الرّدْع : الكفّ والمنع . الأساود: الحيات . الثّمين: الرفيع الثمن .

رفع المسهم

القوارى : طيور خضر ، وقد بين هو أنه أراد بالقَوارى الشّهود ، ويقال : المسلمون قوارى الله فى الأرض أى شهوده ، وقال جرير :

* المسلمون لِمَا أقولُ قَوارِى *

وبابت العروس بليلة شَيْبَاء ، إذا غشيها زوجها .

النفجديهى : رأيت : بخط الحريرى رحمه الله تعالى :

طيّبوها ولم أطيِّب بطِيبٍ ربّ منعٍ ألذّ من إعطاء

بتّ فى دِرْعِها وباتت ضجيعى فى بصـــير وليلة شَيْبَاء

المبصير هنا: قطعة من دم :

وقد أتينا على مافى هذه المسائل من الغريب فى الظاهر ، وأمّا مَاقصده من المعنى فهو مفَسّر فى الأصل ، ولقد أحسن أبو محمد فى هذه الفتاوَى وبلغ من الإقتدار والاتساع فوق المراد ، وإن كان لايوصف فيها الابتداع ، فقد أحسن فى الاتّباع .

[الملاحن والمعاريض]

والسابق إلى هذا المعنى أبو بكر بن دُريْد رحمه الله تعالى فى كتابٍ سمّاه بالملاحن ، وهى من اللّحْن ، وهو أن تورِّىَ بلفظ عن لفظ .

ثم تمم تلك الأغراض وحسّنها أحمدُ بن عبيد الله فى كتاب سَمّاه بالمنقذ[1].

وفائدة حفظ هذه الأغراض أن يخوّف الرجل أو يروِّعه أمير ظالم أومسلّط غاشم ، فيتخلّص منه بهذه المعاريض . فأما أن يقطَع بها حقّ مسلم فلاسبيلَ إليها ، ومعتَمدُهم فيهـا حديث عمران بن حصين أنّ النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « إن فى المعاريض مندوحةً عن الكذب » .

(١) فى كشف الظنون : « المنقذ من الإيهام لمحمد بن أحمد البصرى ، المعروف بالعجيج مات سنة ٣٢٠ ، وهو يشبه الملاحن لابن دريد .

وفى حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « عجبت لمن يُحْسِن المعاريض كيف يكذب ، ولمنْ لاحَن النَّاس كيف لايعرف جوامع الكلم ! »

وقول النبىّ صلى الله عليه وسلم لطلائع المشركين حين لقُوه فى نفر من أصحابه ، فقالوا : ممّنْ أنتم ؟ قالوا : من ماء ، فتركوهم ، وأراد ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾[1] .

وقوله صلى الله عليه وسلم فى مُزاحه لإحدى عماته « إن الجنة لاتدخلها عجوز » ، فلمّا جزعت قال لها « إن الله تعالى يخلقهم يود القيامة أبكاراً » .

وقال لامرأة : « مافعل زوجُك الذى فى عينيه بياض »؟ فلمّا جزعت قال : « لها أو ليس فى كلّ عين بياض »؟

وقال له رجل : احْمِلْنى ، قال : ما عندى إلا ولد الناقة ، فقال : وما أصنع بولد الناقة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « وهل الإبلُ إلا من النّوق ! » .

فاستُجيزت المعاريض على هذا النحو من المزاح أو التحويف .

ومن ذلك أنّ بعض العرب أُدخِل على الواثق ، وكان يقول بخلْق القرآن ويعاقبُ منْ خالفه ، فقال له ، ما تقول فى القرآنُ ، فتصامَم عليه ، فأعاد السؤال ، فقال : من تَعْنى يا أمير المؤمنين ؟ فقال : إيّاك أعنى ، فقال : مخلوق - يعنى نفسه ، وتخلّص منه .

وقال لآخر من الصالحين : ما تقول فى القرآن ؟ فأخرج يده ، وجعل يعدّ أصابعه ، ويقول : التّوراة والإنجيل والقرآن هؤلاء الثلاثة مخلوقة. فعنَى أصابعه، وتخلّص منه .

---

(١) سورة الطارق : ٦

رفع المسهم

وتعذّر على رجل لقاء المأمون فى ظُلامة ، فصاح على بابه : أنا أحمد النبىّ المبعوث . فأدخل إليه ، وأعلِم إنه تنبَّأ فقال له : ما تقول؟ فذكر ظلامته ، فقال: له ما تقول فيما حُكِى عنك ؟ فقال : وما هو ؟ قال : ذكروا أنّك تقول إنّك نبى ، فقال: مَعاذ الله ، إنّما قلت: أنا أحمد النبىّ المبعوث ، أفأنت يا أمير المؤمنين ممّن لا يحمده ؟ فاستظرفه ، وأمر بإنصافه .

وخرج شُرَيح القاضى من عند زياد ، وتركه يجُود بنفسه ، فسأله الناس عن حاله ، فقال : تركتُه يأمر وينهى ، فجزعوا لسَلامَتِه ، فما راعهمْ إلا صياح النّائحات عليه . فسئل شُريح عن قوله ، فقال : تركته يأمر بالوصيّة ، وينهى عن البكاء .

وسُئِل ابن شُبْرمة عن رجل ليُسْتَعمل، فقال: إن له شرفاً وقدماً وبيتاً. فنظروا فإذا هو ساقط سفلة ، فقيل له فى ذلك، فقال: شرفُه أذناه ، وبيته الّذى يأوى إليه وقدَمه الذى يمشى عليه .

وقال صاحب المنقذ :

إذا حلفْت بالأيْمان اللازمة لك ، فانو بالأيمان الأيدى ، قال تعالى : ﴿ وعَنْ أيْمانهم وعن شَمائلهم ﴾ . فإن قلت : كلُّ امرأة طالق فاعْنِ الطّالق من الإبل ، وهى التى يطلُقها الراعى ، والطّالق الّتى يحمل عليها عِقالها .

فإن قيل : احلف بظَهار امرأتك كَظَهْر أمّك ، فاعْنِ بالظّهر ما رُكِب من الخيل والبغال والحمير ، ولا جناح عليه فى ركوب دوابّ أمه

فان قال: احْلِفْ بما لك على المسلمين صدَقة، فاعْنِ ما لك على المساكين من دَيْن ، وليس لك عليهم شىء .

فإن أحلفك بأنّ كلّ مملوك لك حرّ . فالمملوك : الدّقيق الملتوت بالماء أو الزيت أو السمن .

فإن قال: كلّ غلام لك حرّ . فالحرّ : الحيَّة الذَّكَر ، والحرّ من الرمل الّذى ماوطىء ، والحرّ: ذكر الحمام، قال حُميد.

* دَعتْ ساقَ حُرٍّ ترْحةً وترنّما *(١)

فإن أحلفك بأنّ كل جارية لك حرّة ، فالجارية السفينة ، والريح والشمس.

فإن قال : احلف وإلا كلّ أمة لك حُرّة ، فالحرّة الأذن ، والحُرّة السحابة الغزيرة المطر .

فإن أحلفك : وإلا فمالك حبس ، فحبس بلد معروف ، قال ابنُ حِلِّزة :

* لمن الديار عَفَوْن بالحبس *

فإن قال: وإلاّ فهو كافر . فالكافر الليل، أوالبحر أوالزرّاع للبَذْر ، قال الله تعالى : ﴿ أعجَبَ الكُفّارَ نباته ﴾(٢) ، وأصله الساتر .

وتقول : كلّ امرأة تزوجْتُها فقد طلّقتها بتاتاً. فتزوّجت اتخذْتُ زوْجًا من النبات أى لونا ، وقال الله تعالى:﴿وأنبتْنَا فيها من كلِّ زوجٍ(٣) بَهيج﴾ . وقال تعالى : ﴿فأخرجْنَا به أزواجاً(٤) من نباتٍ شَتّى﴾، وطلّقتها ألبستها الطلق ، وهو قبة من جلود والنبات : الزاد .

وتقول : مانطيّبت ولاتمسّكت . فتطيّبت أتيت الطِّيب،وهو بلد بين واسط والسوس ، أو طَيْبة مدينة النبي صلى الله عليه وسلم . وتمسّكت : لبست مَسْكا وهو الجلد ، أوتفعّلت من الامتساك .

وتقول : ماله قِبَلى درهم ولا دينار . فدرهم قبيلة من رَبيعة ، لهم خُطّة فى البصرة ، ودينار اسم رجل معروف .

---

(١) ديوانه ٢٤ ، وصدره :

* وماهاجَ هذا الشَّوق إلاّ حمامةً *

(٢) سورة الحديد ٢٠ (٣) سورة ن ٧

(٤) سورة طه ٣

رفع المسهم

وماله قَبَلي ثوب ولاَ شُقّة ولاقميص . الثّوب : الرجوع ، من ثاب يثُوب ، والشُّقّة : البعد . والقميص : غشاء القلب .

وماله قِبَلي شَيٌّ بوجه من الوُجوه ، ولابسبب من الأسباب . الشيّ : مصدر شويت اللحم . والوجوه صور مختلفة من التّصاوير . والوجه : المقصِد ، والجمع وجوه ، والأسباب : الحبال .

وما أوصيتُ إليه ، وما أوصى إليّ . أوصى دخل فى الواصِى ، وهو بيت متّصل بعضه ببعض .

ولا أعلم له داراً ولاعَقاراً ؛ فدارَا : بلد معروف بالجزيرة ، قال الشاعر :

ولقد قلتُ لرجْلِي بيْنَ حرّانِ ودَارَا[1]
اصبرى يارجْلُ حتّى يَرزُق اللهُ حِمَارا

والعَقار : النّخل .

ولا أعرف للمرأة بَعْلاً ولاَ وليًّا . فالبعْل : النخل أو الشجر ، يَشْرب بماء السحاب ، والوَلِيّ : يَلِي الوَسْمِيّ .

وتقول : ما اشتريتُ لفلانة ضَرّتك قميصاً ، ولا إزاراً ولا رداء ، ولا قِناعاً ولا غِلالة ، ولا حَلّيْتها خاتماً ولاَ خُلْخالاً ولا طوْقاً ولا سِوارا ؛ ولا قرّطتها ولاشنّفتُها ولا كسوْتها ، ولاجلست مع قَيْنة ولامغنّية ولاضاربة بعودولا بطبل ولارَباب ، ولاسمعت زَمّارة ولا ذقت نبيذاً فالقميص غِشاء القلب ، والرّداء السيف أو الدّين أوالغطاء ، والإزار : قُبُل المرأة أو جسم الرجل ، قال الشاعر :

• فدّى لك من أخى ثقة إزار[2] •

والإزار : العفاف ، والقِناع : جمع قِنَع ، وهو طبق يجعل عليه الفاكهة .

---

(١) دارا : بلدة فى لحف جبل بين نصيبين وماردين ـ ياقوت

(٢) الشان ـ أزر ، من أبيات لجعدة بن عبدالله السلمى

(٥ ـ شرح مقامات الحريرى ج ٤)

وفى الحديث : إنّ[1] الربيع ابنة معوذ أتت النبيّ صلى الله عليه وسلم بقِناع من رُطب وآخر من زَغَب فأكل منه ، والزّغَب: القِثّاء . والفِلالة : مسمار من مسامير الدّروع ؛ قال :

* فهنّ وضاء صافياتُ الفلائلِ[1] *

والفِلالة: الجماعة من الناس ، والخاتَم: شعرات بيض فى قوائم الفرس. والسِّوار مصدر ساورت الرّجُلَ. والخلخال: الرّمْل الجريش . والطّوْق: المصدر من الطاقة، وقرّطْتُها من القُرْط، وهو العَلَف الرّطب تأكله الدّواب، فإذا يبس فهو القَتّ. وشَنَفْتُها جعلتُها مُشنَفة أى مبغَضة ، من شنفت الرّجُلَ، إذا أبغضتَه . وكسوتها : ضربت كُسَاها ، وهو جانبها ، وجانب كلّ شىء كساه والجمع أكساه ، والقَيْنة: هزْمة بين الوَرِكين وعُجْب الذّنَب من الفرس، والعُود الذى يُتبخّر به، والزّمّارة: الفاجرة، ومنه نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن كسب الزمّارة ، والزّمّارة : الغُلّ، وفى خبر الحجاج: أتى سعيد بن جُبير وفى عنقه الزّمّارة، أى ساجور، والطبل: السّلة التى يجعل فيها الطعام ، والطّبْل: الخراج . والمغنّية : ناقة تضرب بنابها ، والرّباب : سَحَاب متراكب قريب من الأرض. والنّبيذ : ما نبَذته النعام أو الحمير بأرجلها من الحصى.

وتقول : مالى مركوب ومابعت عبداً ، وقد افتقرت حتى مافى مِلْكى نفقةُ يوم . مالى، بمعنى مِلْكى ، ومركوب : ضُربت ركبتُه ، وثنيّة بالحجاز . وعَبْد: جبل من جبال طيِّىء . وافتقر : اشتدّ فقاره أو كَسَر فقار جَدْى أوَحَمَل ، والمِلك : الحجة .

وتقول : ما أضعتُ عملكَ ولاقصّرتُ ولا أهملتُ ولا فرّطتُ ولاسامحتُ أحداً ، ولا تركتُ واجباً ، ولا ارتفقت بحبّه ، ولا أبقيتُ غايةً فى مناصحتك . أضعت : كثّرت ضياعى . وفرّطت : بعثت فارطا ، وهو طالب الماء ،

(١) ذكرها ابن حجر فى الإصابة ٤ : ٢٩٣ (٢) للنابغة ، ديوانه ٦٤ اللسان (علل) ، وصدره :

* عُلِينَ بِكَدْيَوْنٍ وأبْطُنِ كُرَّةٍ *

رفع المسهم

وقَصَرت : بنيت قصراً . وأهمَلت : كثُرت هَواملى ، وهى الإبل السارحة فى المَرْعى بلا راعٍ . وسامحتُ : نظرتُ أيّنا أكرم . والواجب : السّاقط ، وارتفقت : نِمْتُ على مِرْفَقى ، والغاية : رايةُ الحمار .

وتقول : ماشتمت له أَبًى ولا عمًّا ولاعمّة ، ولا خالاً ولا خالة ، ولاصحبتُه ، ولا شاهَدْته ولا راسلتُه ، ولاشاربته ، ولا نادمتُه ، ولا رأيتُه منذدَهْرِ أَبَى : داء يأخذ المعزى ، قال :

* أبىَ لا إخال الضّأن منـــه نواجيًا[1] *

وعمّ : قطعة من الناس ، وقرية بالشأم ، والعمّة النخلة ، قال صلى الله عليه وسلّم : « نعمت العَمّة لكم النخلة » ، وقيل لها عَمّة لأنها خُلِقت من بقية طينة آدم عليه السلام . والخال : السحاب ، والخالُ من البُرود ، والخالُ من الخِيلان ، والخالةُ : جمع خالٍ من الكِبْر . وصحبتُه : منعته ؛ قال تعالى: ﴿ وَلَاهُمْ مِنَّا يُصْحَبُون ﴾[2] ، أى يمنَعون . وشاهدته : أكلت معه الشَّهد ، وراسلته : شربت معه الرِّسْل ، وهواللبن ، وشاربته من الشوارب ، ونادمته من النَّدَم ، ورأيتُه : ضربت رئتَه ، ودَهْر : قبيلة من إياد .

وتقول : ما كتبتُ له حرْفاً ، ولاخططت له بقلم ، ولا شتمته ولا هجوته ، ولا افتريتُ عليه ، ولا أعرف عليه سوءا . الحرْف الناقة المضمَرة ، والقَلم : القِدْح ، قال الله تعالى : ﴿إِذْ يُلقُونَ أقلامَهم﴾[3] ، يعنى قِداح الميسر . والشّتْم : قبْح الوجه ، وهجوته : أزلت نعمتَه ، وهو الهَجَى مقصور ، وافتريتُ : لبست الفَرْو ، والسّوء : البرَص .

وتقول : رأيته فى السّوق متوفًّى مقبورا ، وما أخذ دواء ولامعجوناً .

---

(١) اللسان ـ أبى ، ونسبه لابن أحمر

(٢) سورة الأنبياء ٤٣ (٣) سورة آل عمران ٤٤

رفع المسهم

فالسوق : أصول الشجر وأعناقها . متوفّى دائماً . مقبوراً : مبخّراً بالعود الهندىّ الذى فيه قبر ، أى رخاوة . والدواء والدّاوية : جلدة اللبن ، والمعجون : المضروب على عِجانه .

وتقول : هو مجنون مُصاب ، قد غُلّ مراراً ، فما اعتذرتُ له ، ولا تنصّلت ، لأنه ليس من الأجواد ، ولا الشُّجعان الذين يُقدَح فى أنسابهم . المجنون : المستور . مصاب : مجدّر من صاب يصوب ، وغَلّ من الغُلّة ، واعتذر وتنصّل : اتخذ عِذارا وَنَصْلا . والأجواد : العطاش . والشّجعان : الحيّات ، والأنساب : أسنان المُشْط .

وتقول : رأيت الجيش بالثّغر ، والفارس فى الفوارس ، فما أفضّلُ عليه أحَداً من العرب والعجم . الجَيْش : الغَلَيان ، والثّغر : شَجَرٌ له شوك ، والفارس : الحسن الفِراسة ، والفوارس : كُثْبان رمل ، والعرب : فَساد المعدة ، وعَرِبَتْ معدتُه . والعَجَم : النّوى .

وما أكلتْ دابتى شعيرا . الشعير : جمع شَعيرة ، وهو مسمار من الفِضّة فى قائم السّيف .

والباب متسع وفيه تأنُّس لما ذكره أبو محمد .

* * *

ومن المعاريض ، أن الحجاج لما أخرَج ابنَ القبعثرَى من سِجْنه قال له : صمتَ يا غضبان ، قال : القيْد والرّتْعَة[1] ، والخفض والدعة ، ومَنْ يكن ضيفَ الأمير يسْمَن ، قال : لأحملنّك على الأدهم ، قال : مثل الأمير يحمل على الأدهم والوَرْد والكُمَيت . قال : إنه حديد ، قال : لأن يكون حديداً خيرٌ من أن يكون بليداً ، قال : اضربوا به الأرض ، قال : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُم وفيها نُعيدكم ﴾[2] قال : جُرّوه ، قال : ﴿ بسم الله مجراها ومرساها ﴾[3] ، قال : احملوه على الأيدى

(١) الرتعة : الاتساع فى الخصب (٢) سورة طه ٥٥ (٣) سورة هود ٤١

فلمّا حمِل قال: ﴿ سبحان الذى سَخّر لنا هذا ﴾[1]، فضحك الحجاج وقال : غلبنا هذا الخبيث ، خلّوه إلى صفحى عنه ، قال : ﴿ فاصْفَحْ عَنْهم وقُلْ سَلامٌ ﴾[2].

وقال خالد بن الوليد لعبد المسيح بن عمرو الغسّانى ـ وهو ابن ثلثمائة وخمسين سنة ـ من أين أقصى أثرك ؟ قال : من صُلْب أبى ، قال : مِنْ أين خرجت ؟ قال: من بَطْن أمى ، قال : فعلام أنت ؟ قال : على الأرض ، قال : ففيم أنت ؟ قال : فى ثيابى ، قال : أتعقل لا عقلت ! قال : إى والله وأقيّد ، قال : ابنُ كم أنت ؟ قال : ابن رجل واحد ، قال : فما سنّك ؟ قال : عَظْم ، قال : ما تزيدنى مسألتك إلاّ عِيًّا ، قال : ما أجبتك إلا عن مسألتك .

الربيع بن عبد الرحمن ، قلت لأعرابىّ : أتهمز إسرائيل ؟ قال : إنى إذاً لَرَجل سوء ؛ أراد قوله : ﴿ هَمّازٍ مَشّاء بنميم ﴾[3]، قلت : أتجرّ فلسطينَ ؟ قال : إنى إذاً لقَوىّ !

خلف الأحمر : قلت لأعرابىّ: ألقى عليك بيتاً ؟ قال : على نفسك فألقِه .

قيل لأعرابى : أتهمز الفأرة ؟ قال : الهرّ يهمزُها .

ودخل رجل من محارب قيس على عبد الله بن يزيد الهلالى عامل إرمينيَة ، وقد بات على قربٍ من غدير فيه ضفادع ، فقال عبد الله : ما تركتْنا شيوخ محارب ننام فى هذه الليلة لشدة أصواتها . فقال المحاربىّ : أصلح الله الأمير ! إنها أضلّت برقعاً ، فهى فى بُغائه . أراد الهلالىّ قول الأخطل :

تنقُّ بلا شىء شيوخ محاربٍ وماخِلْتها كانتْ تَريشُ ولا تَبْرِى[4]
ضَفادعُ فى ظَلْماء ليـلٍ تجاوَبَتْ فدلّ عليها صوتُها حيَّةَ البحرِ

(١) سورة الزخرف ١٣ .
(٢) سورة الزخرف ٨٩
(٣) سورة القلم ١١
(٤) ديوانه ١٣٢

رفع المسهم

وأراد المحاربيّ قول الآخر :

لِكُلّ هِلالِيّ من اللؤم برقعٌ ولابن هلالٍ برقعٌ وقميصُ

وهذا النحو من التعريض كثير .

وقال أبو الحسن بن سراج رحمه الله تعالى :

يا ضَرّة الشمس التى أشرقتْ قد أشرقتْ حجّة مُشْتاقِكْ
لَحْظُك أو خَصْرُك قد ضَمِنَا ما ضمنتْ عهدةُ ميثاقِكْ
ثَأْرُ الهوى يطلبه ثائرٌ مصرعه ما بين أحداقِكْ
لا تذْخرى أنفَس صوتٍ فقد يُرْغَبُ فى أنفس أعْلاَقِكْ
رفقًا بمَنْ مُلِّكته فى الهوى فإنه آخرُ عُشّاقِكْ

فأنفس أعلاق المرأة معلوم ، والظّرف كلّه فى قوله : « فإنه آخر عُشّاقك » يعرّض أنها أسنّتْ فلا عاشق لها من بعده . والقينة : التى داعبها وما زحها تفهم ما خوطبت به ، لأنها تلميذة ولاّدة بنت المكتفى ، وولاّدة شاعرة بارعة التّنْدير ، فمن تندّرها قولها فى ذى الوزارتين ابن زيدون عاشقها تعرّض له بشىء كان يُزَنّ به :

ما لابن زيدون على فَضْلِهِ يغتابنى ظلمًا ولا ذَنْبَ لِى[1]
يلحَظُنى شَزْرا إذا جئتُه كأنّما جئت لأخصِى عَلِى

وعَلِىٌّ صَبيُّه ، وكان يمزح معه .

. . .

فقال له السّائل : لِلّه دَرُّكَ من بحرٍ لا يُغَضْغِضُه الماتح ، وحَبْر لا يبلُغُ مدحَه المادح ؛ ثمّ أطرَق إطراقَ الحَيِيّ ، وأرمّ إرمام

(١) تمام المتون ١١٠ .

العَيِيّ . فقال له أبو زيد : إيه يا فتى ! فإلى متى وإلى متى ! فقال : إيهِ لم يبْق فى كنانتى مِرْماة ، ولا بَعْد إشراقِ صُبْحِكَ مماراة ؛ فباللهِ أىّ ابنِ أرْضٍ أنت ؟ فما أحسن ما أبَنْت ! فأنشدَ بلسانِ ذَلِقٍ ، وصوتٍ صَهْصَلِقٍ :

أنا فى العالم مُثْـــلهْ ولأهل العِلْمِ قِبْلَهْ
غَيْرَ أنى كُلَّ يومٍ بَيْنَ تَعْرِيسٍ ورِحْلَهْ
والغريب الدار لو حَـــلّ بطُوبَى لم تَطِبْ له

ثمّ قال : اللهمّ كما جَمَلْتنا ممن هُدِىَ ويَهْدِى ، فاجعلهم مِمَّنْ يهتدِى ويُهدِى .

فساق إليه القومُ ذوْدًا مع قَيْنَةٍ ، وسألوه أن يَزُورَهُمْ الفيْنة بعد الفيْنة . فنهض يُمَنِّيهِمُ الْعَوْد ، ويُزجِّى الأمَة والذَّوْد .

. . .

قوله : يغضّضه : ينقصه . الماتح : المستقى من أعلى البئر ، والمائح ، بالياء من قعرها . حَبْر : عالم . أطرق : أمال رأسه ساكتاً . وأرمّ : سكت . العيىّ : الذى إن كلّمتَه لم يُحْسن ردّ جوابه . إيه : بمعنى زدنى من سُؤالك .

ابن السرىّ : إذا قلت : « إيهِ يارجل » ، فإنما تأمره أن يزيدَكَ من الحديث المعهود بينكما ، كأنك قلت : هات الحديث ، وإن قلت إيهٍ : بالتنوين ، فكأنك قلت : هات حديثاً ما ، فإلى متى سكوتك ؟ مرماة : سهم يرمى به السَّبْق ، وقيل : هو سهم مدوّر النّصل . بعد إشراق صبحك ، أى بعد ظهور فضلك . وإشراق ضوء . مماراة : شك . أبنْت : بيّنت . ذَلِق : حديد . صَهْصَلِق : شديد .

رفع المسهم

مُثلة : مغيّر الخلق ، فهى « فُعْلَة » من المثل ، ويقال المُثْلة والمثل بمعنى .

* * *

[ذكر قباح الوجوه من أهل العلم وغيرهم]

ونذكر على قوله : « أنا فى العالم مثلة » ، فصلاً فى ذكر قباحِ الوجوه من العلماء وغيرهم .

فمنهم الجاحظ ، وأراد المتوكل أن يعلِّم بنيه الثلاثة ولاة عهده ، فأدخِلَ عليهم ، فارتاعوا من قبح وجهه ، فأخرِج عنهم بعنف .

وحكى المسعودىّ : أنّ الجاحظ قال: ذُكِرْتُ للمتوكّل لتعليم بعض ولده ، فلما رآنى استبشع منظرى ، فأمر لى بعشرة آلاف درهم[1] وصَرَفنى .

وقال الحمدونىّ :

لو يُمسَخُ الخِنزيرُ مسخاً ثانياً لرأيتَه فى دون قُبحِ الجاحِظِ[1]
رجُلٌ ينوب عن الجحيم بوجهه وهو العدوّ لكلّ عينٍ لاحظِ

قال الأصمعىّ رحمه الله : دخلتُ يوما على جعفر بن يحيى ، فقال لى : هل لك يا أصمعىّ من زوجة ؟ قلت : لا ، قال : فجارية ؟ قلت : للمهنة ، قال : فهل لك أن أهب لك جارية نظيفة ؟ ، قلت : إنى لمحتاج إلى ذلك . فأمر بجارية فأخرِجَتْ وهى فى غاية الحسن والجمال والهيئة والظَّرف ، فقال لها : قد وهبتُك لهذا ، وقال لى : خذ هذه ، فشكرته ، وبكت الجارية ، وقالت : يا سيّدى ، أتدفعنى لهذا الشيخ مع ما أرى من سَماجَتِك وقبح منظره ! وجَزِعَتْ جزعاً شديداً ، فقال لى : يا أصمعىّ ، هل لك أن أعوّضك منها ألفَ دينار ؟ فقلت : ما أكره ذلك ، فأمر لى بها ، ودخلت الجارية ، فقال لى : يا أصمعىّ ، أنكرت عليها شيئاً ، فأردت عقُوبتَها بك ، ثم رحِمتُها منك ، فقلت : أيّها الأمير ، أفلا

(١) نسبهما الثعالبى فى ثمار القلوب ٤٠٤

أعلمتنى قبل ذلك ، فإنى لم آتك حتى سَرّحتُ لحيتى ، وأصلحت وجهى وعِمّتى ، فلو عرفتُ الخبر لسرت على هيئتى وخِلقتى ، فوالله لو رأتنى كذلك لما عاودتْ شيئاً تنكره أبداً .

وما ضرّ من ذكرنا قُبْحَهم مع العلم الذى زيّنهم الله به ، وكذا ينبغى لِمَنْ خُلِق قبيح الصورة أن يستعمل لها الأخلاق الحِسان ، والأفعال الحسان ، لئلاّ يجمع بين قبيحين .

كان الأوْقص المخزومىّ أقبح الناس خِلْقة ، وما رُوِى مثله فى العفاف والزهد . وكان قاضى مكة ، فقال يوما لجلسائه : قالت لى أمّى : يا بنىّ إنك خُلِقت خِلقةً لا تصلُح معها لمجالسة الفتيان فى بيوت القيان ، فعليك بالدِّين ، فإنّ الله تعالى يرفع به الخسيسة ، ويتمّ به النقيصة . فنفعنى الله بكلامها ، فوُلِّيت القضاء .

وروى أن أمّ مالك بن أنس أوصته بمثل هذه الوصية ، حين أراد أن يتعلّم الغناء فى حَدَاثته ، فتركه وتعلّم العلم ، فذهب به حيث بلغ .

وكان عطاء بن أبى رَبَاح أعور أسود أفطس أشلّ أعرج ، ثم عَمِىَ . وأمّه سوداء تسمّى بَرَكة ، وقيل لأهل مكة بعد موته : كيف كان عطاء بن أبى رباح فيكم ؟ قالوا : كان مثل العافية التى لا يُعرَف فضلها حتى تُفْقد .

وكان فى خلقة أبان بن عثمان كلّ عَيب ، وكان يُضْرَب بعُيوبه المثَل فى المدينة .

كان معن بن زائدة أميرَ اليمن يوماً جالساً إذ أتته امرأة من بنى سَهْم ، ومعها ابن صغير يتبعُها ، ويطأ أذيالها ، فقالت : أصلح الله الأمير ! إن عَمّى زوّجنى مَنْ ليس بكفء ، فقال : مَن هو ؟ فقالت : ابن ذى مناجب ؟ فقال : علىّ به ، فدخل أقبح مَنْ خلق الله ، وأشوهَهم خَلْقاً ، فقال : مَنْ هذه منك ؟

رفع المسهم

قال : امرأتى ، قال : خلّ سبيلها ، ففعل ، فأطرق معن ساعة ، ثم رفع رأسه فقال :

لَعَمْرِى لقد أصبحتُ غير محبَّبٍ ... ولا حسنٌ فى عينها ذو مناجبِ
فما لُمْتُها لما تبيَّنت وجهه ... وعيناً له خَوْصاء من تحت حاجب
وأنفاً كأنفِ البَكْرِ يقطرُ ناتئاً ... على لحية عَضْباء منه وشاربِ
أتيت بها مثل المهاة تَسُوقها ... فياحسنَ مجلوب ويا شرّ جالبِ

وكان تزوجها بمكة وقدم بها اليمن . والصبىّ هو ابن جامع المغنّى المشهور .

وحكى البحترئ فى نوادره عن رجل سمّاه قال : مررت بامرأة من أجمل الناس ، معها رجل من أقبحهم ، فقلت لها : يا أمَة الله ، مَنْ هذا منك ؟ قالت : رجُلَيه ، فقلت : ومَنْ قَرَنك به ؟ قالت : أخيه ، فقلت :

جزى الرحمن عنك أخاك شرًّا ... فقد أخزاك فى الدنيا وزادَا
فلم أرَ مُغْزِلًا قُرِنَتْ بكلبٍ ... ولا خزًّا بطانته بجادا

وقال آخر :

ألا رُبَّ بيضاء المحاجرِ طَفْلةٍ ... تُساق إلى وَغْدٍ من القوم تنبالِ
يقولون جرّتها إليك قرابةٌ ... فويح العذارى من بنى العمّ والخال !

وقال آخر :

لابن عبد النور وجهٌ ... صار للقُبْحَ ملاذا
قال قرد إذْ رآه ... لعنة الله على ذا

وقال فى بشار :

تُوائب أقماراً وأنتَ مشوّهٌ ... وأقرب خلق الله من شَبَهِ القِرْدِ

وكان بشار ضخماً قبيح الوجه ، جاحظ الحدَقتين ، أقبح الناس عمًى ومنظراً فقال فيه حمّاد عجرد :

رفع المسهم

ألا مَنْ مُبْلِغٌ عنى الـ ـذى والدُهُ بُرْدُ[1]
إذا ما نُسِبَ النَّاس فلا قَبْلٌ ولا بَعْـد
وأعمى يشبهُ القِرْدَا إذا ما عَمِىَ القِرْدُ

فقال بشار عندما سمع هذا البيت : ما أخطأ ابن الزانية من حين شبّهنى بقرد وجعل يبكى ويقول : ما حيلتى ! يرانى ويشبّهنى ، ولا أراه فأشبهه ! وبعده :

ولو تُلقِيـهِ فى صَلْدٍ صفًا لانصَدعَ الصَّلْدُ
هو الـكلب إذا ما ما ت لم يُوجَدْ له فَقْدُ

وأنشده رجل قول حماد :

دُعيتَ إلى بُرْدٍ وأنت لغيره وهبك ابْرُدٍ نـكتُ أمك من بُرْدِ

فقال : هاهنا أحد ؟ قال: لا ، قال: أحسن والله ابن الزانية ، ولقد نَهَيْتَ له فى بيت واحد على خمسةَ معانٍ من الهجو ، وهى : « دعيتَ إلى برد » معنى . « وأنت لغيره » معنى ثان ، و « هبك لبرد » معنى ثالث ، « نـكت أمك » شتم واستخفاف مجرّد ، وهو معنًى رابع ، ثم ختمها بقوله : « من بُرْد » فأتى بالطامّة الـكبرى .

وأوجعُ ما مرّ عليه من قول حماد :

لو طُلِيتْ جـلدتُه عَنْبراً لأفْسدَتْ جِلْدَتَه العَنْبَرَا[2]
أو طُلِيتْ مِسْـكاً ذكيًّا إذًا تحوّل المسك عليـه خَرَا

كان حفص بن أبى بردة[3] أفطس أعفص مقبّح الوجه ، وكان حماد صديقه ، فتناشدوا الشعر يوما ، فطعن حفص على مرقّش ، فقال حماد :

لقد كَانَ فى عينيك ياحفصُ شاغلٌ وأنف كَنِيل العُودِ عمّا تتبّع[4]

(١) الشعر والخبر فى الأغانى ١٤ : ٣٢٩ (٢) الاغانى ١٤ : ٣٣١
(٣) ط : « وردة » تصحيف . (٤) الأغانى ١٤ : ٣٥١ .

تَتَبَّعُ لحناً فى كلام مرقّش ووجْهك مبنىٌّ على اللحْنِ أجمعُ
فأذناك إقواء وأنفك مُكْفَأٌ وعيناك إيطاء ، فأنت المرقّعُ

أخذ تشبيه الأنف بالثّيل من قول كَعْب فى الوليد بن عبد الملك :

فَقَدْتُ الوليدَ وأنفاً له كثيل البَعيرِ أبى أنْ يبولاَ

قال أبو زيد : رأيت أعرابيًّا كأنّ أنفه كوزٌ من عِظَمه ، فرآنا نضحك ، فقال لنا : ما يضحككم ! فوالله لقد كنتُ فى قومٍ يسمُّونى الأفطَس .

وقال الشاعر :

إذا أنت أقبَلْت فى حاجةٍ إليه فكلّمه من خلفِهِ
فإن أنت واجهتَه بالكلا م لم يُسمع الصّوْت من أنفِهِ

وقال آخر :

إنّ عيسى أنف أنفهِ أنفه ضِعف لِضَعْفِه[1]
لو تراه راكباً والـ ـأنفُ قد جال بعطفِهِ
لرأيت الأنف فى السّر ج وعيسى رِدْفُ أنفِهِ

وقال الحسن فى جعفر بن يحيى :

ذاك الوزير الذى طالت علاوته كأنّه ناظرٌ فى السيف بالطول

وقال أبو علىّ الخليع[2] :

سابور وَيْحك ما أخَسّك بل أخَصّك بالعيوبِ !
وَجهٌ قبيح فى التبسّم كيف يحسُن فى القطوبِ !

كان جحظة البرمكى ناتئ العينين جدًّا ، قبيح الوجه ، فقال فيه ابن الرومىّ :

نبئتُ جحظة يَستعير جحوظَهُ من فيل شِطْرَنْجٍ ومِنْ سَرَطَانِ[3]
يا رحمةً لمنادميه تحمّلوا ألم العيون لِلَذّةِ الآذان

(١) ذيل زهر الآداب ٢٨١
(٢) هو الحسين بن الضحاك ، والبيتان فى ديوانه ٢٩
(٣) ذيل زهر الآداب ١٩٨

وكان طيّب الغناء ، وحضر مجلسه عليّ بن بسام ، فتفرّق القوم المخادّ ، فقال لحظة : مالى لا أُعْطَى مخدّة ؟ فقال له ابن بسام : غنّ فالمخادّ كلها إليك تصير ، وقال فيه :

يا مَنْ هجَوْناه فغنّانا أنت وحقّ الله أهْ جَانَا
سيّان إن غنّى لنا لحظةٌ أو مرّ مجنون فزنّانا

وله فيه أيضاً :

لحظةَ الحسن عندى يد أشكرها منه إلى المحشر
لمّا رآنى ردّ بِرْذَوْنَهُ وصانني عن وجهه المُنكَر

كان الخطيئة قبيح المنظر ، كثير الشرّ ، فالتمس يوما إنسانا يهجوه فلم يجد ، فجعل يقول :

أبتْ شفتاىَ اليومَ إلاّ تكلّماً بشرٍّ فما أدرى لمن أنا قائلُهْ[1]

فاطّلع فى ماء فرأى وجهه ، فقال :

أرَى لِيَ وَجْهاً قبّح الله شخصَه فقُبِّح من وجهٍ وقُبِّحَ حامله

نظر إلى هذا إسماعيل بن معمر القراطيسىّ فقال :

ويْلِي على ساكن شطّ الصراة من وحنتيه شمتُ برق الحياهْ[2]
ما تنقضى من عجَبٍ فِكْرَتى من خصلة فرّط فيها الولاهْ
ترك المحبّين بلا حاكمٍ لم يقعدوا للعاشقين القصاه
وقد أتانى خبرٌ ساءنى مقالها فى السرّ : واسوءتاه !
أمثل هذا يبتغى وصلَنا أما يرى ذا وجْهَهُ فى المِرَاهْ !

وقال الأصبهانىّ : إن القراطيسىّ سأل العباس بن الأحنف فقال له : يا أبا الفضل ، هل قلتَ فى معنى قولى هذا شيئاً ؟ فقال : قلت :

(١) ديوان الخطيئة ١٢٠ . (٢) الاغانى ٢٠ : ٨٨ ، ٨٩ — ساسى

جاريةٌ أعجبها حُسْنُها ومثلُها فى النَّاس لم يخلقِ[1]
خبّرتها أنى محبٌّ لها فأقبلتْ تضحك من منطقى
والتفتتْ نحو فتاةٍ لها كالرَّشأ الوَسْنَان فى قَرْطَقِ
قالت لها قولى لهذا الفتى: انظر إلى وجْهك ثم اعشقِ

وقال الصّقلىّ فى صفة عذول قبيح :

رأى وجه مَنْ أهوى عذولى فقال لى أجلّك عن وجهٍ أراه كريها
فقلت له بل وجه حِبّى مرآةٌ فأنت تَرَى تمثالَ وَجْهِك فيها

ولابن القابلة السَّبْتى :

ووجه حبيبٍ رقّ حسنا أديمُهُ يرى الصبُّ فيه وجهه حين ينظُرُ
تعرّض لى عند اللقاء به رشًا تكاد الحُمَيّا من محيّاه تقطرُ
ولم يتعرضْ كىْ أراه وإنما أرادَ يُرينى أنّ وجهَكَ أصفرُ

ولبعض المصريين فى غلام يهواه :

يجرى النَّسيم على غِلالة خدِّه وأرقّ منه ما يمرُّ عليهِ
ناولته المرآة ينظر وجْهَهُ فعكست فتنةَ ناظريْهِ إليهِ

وقال الرّمادىّ :

وإذا أراد تنزُّهاً فى روضة أخذ المراةَ بكفِّه فتنزّها

كان للفضل بن سهل وصيفة ظريفةٌ كثيرة المُلَح والنَّوادر ، وكانت ساقيتَه ، وكان أبو نواس يولع بها ويمازحها ، فقال لها يوما : إنى أحبّك وتبغضيننى فلم ذلك ؟ فقالت له : وجهُك والحرام لا يجتمعان ، فقال :

---

(١) ديوانه ٢٠٣

مذكّرة مؤنثة مَهاةٌ إذا برزتْ تشبّهاغلاما[1]
تَعافُ الماء والعَسلَ المصفّى وتشرب من فتُوّتها المُدَاما
تقول للحظها[2] ياسيفُ أبْشِر ستروى من دم وتشقّ هامَا
وقائلةٍ لها فى وجه نصحٍ علام قتلتِ هذا المستهاما ؟
فكان جوابها فى حسن مسٍّ:[3] أأجمع وجه هذا والحراما !

ومن ملح ابن لنكك فى أهاجى أبى رياش :

على القبح الفظيع أبو رياشٍ يعاشرنا بأخلاقٍ ملاحِ[4]
يُبيح أكفّنَا أبدا قفاه فنصفَعُه على وَجْهِ المزاحِ

وله فيه أيضاً :

قل للوضيع أبى رياشٍ لا تبلْ تِهْ كلّ تيه بالولاية والعملْ[4]
ما ازددت حين وليتَ إلا خسّةً كالسكلْبِ أنجس مايكون إذا اغتسل

* * *

قوله : تَعريس ، أى نزول آخر الليل . يهدى : الأول يرشد ، ويدلّ على الطريق ، ويقال: هداه يَهْدِيه هدًى فى الدِّين ، وهداه يهديه هِداية فى طريق . يَهْدِى: بعطي هدية ، ويقال : أهداه هدِيّةً يُهديها إهداء ، إذا أعطاها . الذّود : مابين الثلاث إلى العشر من الإبل ، ولا تكون إلاّ إناثاً . قَيْنَة : جارية مغنية ويقال: القَيْنة الأمَة ، كانت مغنّية أو غيرَ مغنّية . القِينة :الساعة والحين ، ويقال : إنى لآتيه القَيْنة بعد القَيْنة ، وقِينة بعد قِينة ، يستعمل بالألف واللام وبتركهما ، أى أديم الاختلاف إليه الحين بعد الحين والوقتْ بعدَ الوقت . يُزَجّى : يسوق . السَّفيه : البطّال المشتغل باللهو .

---

(١) ديوانه ٣٩٢ .
(٢) الديوان : « لسيفها »
(٣) الديوان : « سر »
(٤) اليتيمة ٢ : ٢٢٦ ، ٢٢٧

قال الحارث بن همّام : فاعترضْتُه ، وقلت له : عَهِدِى بكَ سَفيهاً ، فمتى صرت فقيهاً ! فظلّ هُنَيهةً يجول ، ثم أنشأ يقول :

لَبِستُ لِكُلِّ زمانٍ لَبُوسا
ولا بستُ صَرْفَيْهِ : نُعمَى وبُوسا
وعاشَرْتُ كلَّ جليسٍ بِما يُلائمُهُ لأروقَ الجليسا
فعِند الرُّواةِ أديرُ الكلامَ وبينَ السُّقاةِ أديرُ الكئوسا
وطوراً بوعْظِى أُسيلُ الدُّموعَ
وطَوْراً بِلَهْوِى أسُرُّ النُّفُوسا
وأَقرِى المسامعَ إمَّا نَطَقْتُ بياناً يقودُ الحرُون الشَّمُوسا
وإن شئتُ أرْعَفَ كفِّى اليراعَ
فساقطَ دُرًّا يُحَلِّى الطُّروسا
وكم مشكلاتٍ حَكَكْنَ الشُّها
خفاء فصِرْنَ بكشفِى شُمُوسا
وكم مُلحٍ لى خَلَبْنَ العقولَ وأسأرْنَ في كلِّ قلبٍ رسيسا
وعَذْراء فُهْتُ بِها فانثَنَى عليها الثَّناء طليقًا حَبِيسا

* * *

هنيهة : سويعة ، تصغير هنة ، ويقال فى تصغيرها هُنيّة وهُنيهة ، كما تصغّر سنة سُنَيّة ، وسُنيهة . يجول : يتصرّف . لبوسا : ثوباً يشاكله ، أخذه من قول النابغة :

البِس لكلّ حالة لبوسَها إما نعيمَها وإمّا بوسَها

لابست : خالطت . صَرْفَيْهِ : حاليه من الخير والشر . عاشرت : صاحبت . يلائمه : يوافقه . أروق : أعجب ، والصَّرْف اسم لحادث الدهر ، لأنه يصرف الأشياء عن وجوهها . طورًا : مَرّة . أقْرِى المسامع : أعطى الآذان ، وأجمل فيها البيان . إمّا نطقْت ، أى إن نطقت . الحَرون : الذى يأبى المشى والانقياد . الشَّمُوس : الذى إذا نخس وثب ، وقيل : الذى يمنع الركاب . اليَرَاع : الأقلام : أرعفها : أسالها بالمداد . يُحْلِي : يزيّن . الطّروس : الكتب ، سُمّيت بذلك لأنها ممحوّة ، والمطروس : المحُوّ . قال رؤبة :

* كما رأيت الطَّلَل المطروسا *

[مما قيل فى وصف القلم]

وعلى ذِكْر اليراع قال محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمىّ فى قلم :

وأهيفَ طاوى الكَشْحِ أسمرَ ناطقٍ له جَولاَنٌ فى بطون المهارقِ[1]
كأنّ اللآلى والزَّبَرْجد نُطْقَهُ ونَوْرَ الخُزامَى فى عيون الحدائق
إذا استعجلته الكفّ أمطر خالُهُ بلا صوت إرعاد ولا صوب بارقِ

وقال ابن عبد ربه :

بكفّه ساحرُ البيان إذا أدَارَه فى صحيفةٍ سَحَرا[2]
مهفهفٌ تَزْدَهِى به صحفٌ كأنما حُلِّيتْ به دُررا
يكاد عنوانها لروْعَتِه يُنْبيك عن سرّها الذى استترا

وقال التّهامىّ :

يَلْقَى العِدَا من كُتْبِه بكتائبٍ يجرِّرْنَ من زَرَدِ الحروف ذُيُولاَ[3]

(١) العقد ٤ : ١٩١ ، أدب الكتاب ٨١ . (٢) العقد ٤ : ١٩٣ .
(٣) ديوانه ٣١ .

فترى الصحيفة حِلْيَةً وَجِيَادَها أقلامَهُ وسَرِيرهنّ صَهِيلا
فى كفِّه قلم أتمُّ من القنا طولاً وهنّ أتم منه طولا

وله أيضاً :

وإذا راش بالأنامل منه قلماً واستمدّ ساء وَسرّا[1]
قلمٌ دبّر الأقاليم حتّى قال فيه أهلُ التناسخ إمْرَا
يتبع الرمحُ أمرَه فابن عشرين ذراعاً بالرأى يخدُم شبرَا

السها : نَجْم خفىّ . خَلَبنَ : خدعن . أسأرْنَ : أبقين ، والسؤر : البقية . وفى الحديث : « إذا أكلتم فأسئروا » ، وأخذت سائره ، معناه بقيّته . الرسيس : أوّل بَرْد الحمّى ، يريد أن هذه المُلَح لعذوبتها إذا حلّت فى القلب أحدثت فيه حَرَكة وهِزّة ، وإذا سمع ذو الذكاء كلاماً مستظرفاً من نثر أو نظم وجد له دَبِيباً وقشعريرة . وأخذ « وكم مشكلات » ، من قول على رضى الله عنه :

إذا المشكلات تصدَّيْنَ لى كشفتُ حقائقها بالنَّظَرْ[2]
وإن برقت فى مخيل الصَّوا ب عمياء لا يجتليها البَصرْ
مقنَّعةً بغيوب الأمور وضمتُ عليها صحيح الفكرْ
لساناً كشِقْشِقَةِ الأرحَبِىّ أوْ كالحسام اليمانىّ الذَّكَرْ
وقلبا إذا استنطقَتْه الغُيُوبُ أمرَّ عليها بِوَاهى الدَّرَرْ

عذراء : قصيدة بِكْر ، لم يُسبق إليها . فُهْت : نطقت . انثنى : رجع . طليقاً : منتشراً فى الناس . حبيساً : موقوفاً عليها لا يتعدّاها لغيرها .

[ذكر مدح الشعراء للشعر]

ومدْح الشعراء للشعر باب شأوه بعيد ، وسنذكر لحبيب ـ وهو المبرّز فيه ـ

(١) ديوانه ٣٩ (٢) ديوانه ٢٢ ، ٢٣ ، زهرة الآداب ٤٠

ولغيره ما يستحسن ويُستجاد ، قال حبيب :

جاءتْكَ من نَظْمِ اللِّسان قلادةٌ ... سِمْطَانِ فيها اللُّؤْلؤ المكنُون[1]
حُذِيتْ حذاء الحضرميّة أُرهفَتْ ... وأجادَها التَّخْصِيرُ[2] والتبيينُ
إنسيّة وحشيّة كَثُرتْ بها ... حركاتُ أهل الأرض وهي سكونُ
أمّا المعانى فهى أبْكَارٌ إذا ... فُضّت[3] ولكنّ القوافىَ عُونُ

وقال أيضاً :

فوالله لاأنفك أهدى قصائداً ... إليك يحملْنَ الثّناء المبجّلاَ[4]
يُحاك بها بُرْدٌ عليك مجدَّدٌ ... وتحسبه درًّا عليك مُفَصَّلا
ألذّ من السّلوَى وأطيب نَفْحَةً ... من المسك مفتوقاً وأيسر محملا
أخفّ على سمعٍ وأثقلَ قيمةً ... وأقصرَ فى سَمْعِ الجليس وأطْوَلاَ

وقال البحترىّ :

تَطُوعُ القوافى فيكمُ فكأنّما ... يطير إليكمْ من عُلُوّ قصيدُها[5]
وكم لىَ من محبوكةِ الوشىِ فيكمُ ... إذا أُنشدت قام امرؤٌ يَسْتَعِيدُها

وقال أيضاً :

ألستُ الموالى فيكَ نظمَ قصائدٍ ... هى الأنجم اقْتَادَتْ مع اللّيل أنجما[6]
ثناء تخالُ الروض منه منوِّرًا ... ضحًى وتخالُ الوشى فيه مُسَهَّما

وقال أيضاً :

إليك القوافى نازعاتٍ قواصدًا ... يُسَيِّرُ ضاحى وشيها ويُنمْنِمُ[7]

(١) ديوانه ٣٣٠ ، ٣٣١ (٢) ط : « التحصين » وصوابه من الديوان .
(٣) الديوان : « نصت » . (٤) ديوانه ٢٥٥ (٥) ديوانه ٦٥٥
(٦) ديوانه ١٩٨٤ (٧) ديوانه ١٩٣١ .

ومشرقةٍ فى النَّظْم غُرًّا يزيدُها ... بهاء وحسنا أنّها لك تُنظَمُ
ضوامِنُ للحاجات إمّا شوافعاً ... مشفّعةً ، أو حاكماتٍ تُحَكَّمُ

وقال علىّ بن الجهم :

ولكنّ إحسان الخليفة جعفرٍ ... دعانى إلى ما قلت فيه من الشِّعر[1]
فسار مسيرَ الشمس فى كلّ بلدةٍ ... وهبّ هبوبَ الريح فى البرّ والبحرِ

ولابن الرومى يهجو :

خذها إليك مَنيحةً سيّارةً ... فى النّاس من بادٍ ومن متحضّرِ
تغدو إليك بحاصبٍ وبتاربٍ ... وعلى الرّواة بلؤلؤ متحيّرِ

وقال السرىّ الموصلى :

أتتك يجول ماء الطبع فيها ... مجالَ الماء فى السّيْفِ الصّقيلِ[2]
قوافٍ إن ثَنَتْ للمرء عِطْفاً ... ثنى الأعطافَ فى بُرْدٍ جميل

وقال أيضاً[3] :

شرِقتْ بماء الطبع حتى خلتُها ... شرِقت لرونقها[4] بِتِبْرٍ ذائبِ
ويقول سامعها إذا ما أُنشِدت ... أعقود حَمْدٍ أم عقود كواكبِ

وقال أيضاً :

ألفاظُها كالدرّ فى أصدافِهِ ... لا بَل تزيدُ عليه فى لألائه[5]
من كلّ رائعة الجمال كأنّما ... جاد الشّباب لها برونقِ مائِهِ
والشعر بحرٌ حُزْتَ أنفسَ دُرِّهِ ... وتنافس الشعراء فى حَصْبائِهِ

(١) ديوانه ١٤٧ (٢) ديوانه ٢١٨
(٣) ديوانه ٢٣ (٤) الديوان : «لريقها» (٥) ديوانه ٥

وقال أيضاً :

لفظ صَقَلْتُ متونَهُ فكأنه ... في مشرِقاتِ النَّظْمِ دُرّ سِخَابِ[1]
وكأنما أجريتُ في صَفَحَاتِهِ ... حرّ اللُّجين وخالص الزِّرْيَابِ
أغربْتُ في تحبيره فَرُواته ... في نزهة منه وفي استغرابِ
وقطعت منه شبيبةً لم تشتغل ... عن حسنة بَصباً ولا بتَصابِ
وإذا ترقرق في الصحيفة ماؤه ... عَبَق النسيم فذاك ماء شبابي
يُصغي اللّبيبُ له فيقسم لُبّهُ ... بين التّعجُّب منه والإعجاب
جِدٌّ يطير شرارُه ، وفُكَاهةٌ ... تَستعطف الأحباب للأحباب

قال يحيى بن أكثم لمحمد بن حازم : مافي شعرك شيء غير أنك لا تطيله، فقال:

أبَى لِيَ أن أطيلَ الشِّعر قصدي ... إلى المعنى وعلمِي بالصَّوابِ[2]
فأبعثُهنّ أربعةً وخمسًا ... مثقّفةً بألفاظ عِذابِ
خوالدَ ما حدَا ليلٌ نهاراً ... وما حَسُن الصَّبا بأخي الشّباب
وهنّ إذا وَسَمْتُ بهنّ قوما ... كأطواق الحمائم في الرِّقابِ
وهنّ إذا أقَمْتُ مسافراتٌ ... تَهادَاها الرُّواة مع الرِّكابِ

* * *

عَلَى أنّني مِنْ زَمانِي خُصِصْتُ
بكَيْدٍ ولا كيْدَ فِرْعَوْنَ موسى
يُسَعِّر لي كلّ يومٍ وغًى
أطا منْ لظاها وطِيساً وطِيسا
ويَطْرُقني بالخطوبِ الّتي
يُذِبْنَ القُوَى ويُشِبْنَ الرءوسا

(١) ديوانه ٤٢ والسخاب : القلادة (٢) الأغاني ١٤ : ٩٨، ٩٩

ويدنى إليّ البعيد البغيضَ ويُبعد عنّى القريبَ الأنيسا
ولولا خساسَةُ أخـــلاقِه لما كان حَظّىَ مِنْه خسيساً

فقلت له : خفِّض الأحزانَ ، ولا تَلُمِ الزمان ، واشكُرْ لمن نقلك عن مذهبِ إبليسَ ، إلى مذهَبِ ابن إدريس .

* * *

قوله : على أنني ، أى مع أننى . وقوله : ولا كيد فرعون موسى ، أضاف فرعون إلى موسى ، لأنّ الفراعنة كانوا جماعة .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنّ لكل أمة فرعوناً ، وفرعون هذه الأمة أبو جهل » .

وفرعون موسى ، كان أكبر الفراعنة كيداً وأطولَهُمْ عمراً ، وأعتاهم على الله ، وأسراهم مملكةً .

ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : قال موسى عليه الصلاة والسلام : يارب ، أمهلتَ فرعون أربعمائة سنة ، وهو يقول : أنا ربكم الأعلى ، ويكذّب بآياتك ويجحد رسلك ! فأوحى الله تعالى إنه كان حسنَ الخُلُق سهل الحجاب ، فأحببت أن أكافئه .

وأما عذابه لبنى إسرائيل فقد قدمناه فى الخامسة .

ومما يحكى عنه أنّه كان يأمر بالقَصَبِ فيشقّ ، ويُجعل أمثال الشفار ، ثم يضيف بعضَه إلي بعض ، ثم يؤتى بالحبالَى من بنى إسرائيل فيوقَفْن عليه ، فيحزّ أقدامهنّ ، حتى إن المرأة لتضع ولدها فيقع بين رجليها ، فتظَلّ تطؤه تتّقى به حدّ القَصَب عن رجليها .

قال وهب بن منبّه : بَلَغَنِي أنه ذبح فى طلب موسى تسعين ألف ولد .

ولسَب الثعالبيّ المفسر فرعونَ ، فقال : هو أبو العباس الوليد بن مصعب بن الرّيان

ابن أراشه بن ثروان بن عمرو بن قاذم بن عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام .

قوله : يُسَعِّر ، أى يهيّج . وغًى : حرب. لظاها : حرّها . وطيساً : شدة ، وحَمِىَ الوطيس : اشتدت الحرب ، وأصله تَنّور من حديد يطبخ فيه ، فشبِّهت شدّة الحرب وحرارتها به . وقيل : هو حفرةٌ يُختَبزَ فيها . والوطيس : الوطء الشديد ، والبلاء الذى يطسّ الناس ،أى يدقهم ويقتلهم .

يطرقنى : يقصدنى ليلا . الخطوب : الأمور الشداد . خساسة : حقارة . حظّى : نصيبى .

ومما قيل فى معنى قوله : ويدنى إلىّ البعيد البغيض . . البيت .. قول الزاهد ابن عمران :

إلمام كلّ ثقيل قد أضرّ بنا ... نروم نقصَهمُ والشىء يزدادُ
ومَنْ يخفّ علينا لا يلمّ بنا ... والثقيل مع السّاعات تَزْدَادُ

ويقرب منه قول الشاعر :

وكيف يودّ القلب مَنْ لا يودّه ... بلى قد تريدُ النفس مَن لا يريدُها

وقال عدىّ بن الرقاع[1] :

تَبلتك[2] أخت بنى لؤىّ إذ رمَتْ ... وأصاب نَبْلُك إذ رميتَ سِواها
وأعارها الحدَثان منك مودّةً ... وأعار غيرَك وُدّها وهَوَاها

وهذا من قول الأعشى :

عُلّقتُها عرَضاً وعُلّقت رجُلاً ... غيرى ، وعُلّق أخرى غيرَها الرَّجُلُ[3]

(١) الآلى ١٣٩ .
(٢) ط : « بلتك » ، والصواب ما أثبته من الآلى
(٣) ديوانه ٥٢ .

وقال مسلم بن الوليد ـ وهو صريع الغوانى ، وكان خاملا فولاّه بنو سهل جرجان فشرُف ـ فقال :

أهلَ الصفاء نأيتمْ بعد قُرْبِكمُ ... فما انتفعتُ بعيش بعدكم صافِى[1]
وقد قَصَدْتُ ندى مَنْ لا يوافقنى ... فكان سهمى عنه الطّائش الطافى
أردتُ «عمراً» وشاء الله «خارجةً» ... أما كفَى الدّهرَ من خُلْفِى وإخلافى!

ولهذا أشار ابن شرف بقوله :

سَلْ عن رضاى عَنِ الزّمان فإنهُ ... كرضا الفَرَزْدق عن بنى يَرْبُوعِ[2]
فله حالٌ قد تنقّل عهدُها ... كخلاف نَقْل الدهر حال صريعِ
دارت درارىّ الخطوبِ قواصداً ... حتى نظرن إلىّ من تَرْبيعِ

وله أيضاً يتشكّى :

مالى أجاذُب ذى الدنيا مولّيةً ... فكلّ ثوب عليها قُدّمن دبُرِ[3]
أتى الزّمان على يأسٍ به لبَنِى الدُّنيَا كبشرى بمولود على كِبَرِ

وقال أيضاً :

إنى وإن عَزّنى نيلُ المنى لَأرَى ... حِرْصَ الفتى خَلّةً زيدت على العدمِ[4]
تقلّدتنى الليالى وهى مدبرةٌ ... كأننى صارمٌ فى كفّ منهزمِ

وقال جحظة :

ضاقت علىّ وجوه الرأى فى نفرٍ ... يلقوْن بالجحد والكفران إحسانى
أقلّب الطرف تصعيداً ومنحَدَراً ... فما أقابل إنساناً بإنسانى

وقال أيضاً :

لقد مات إخوتِىَ الصالحونَ ... فمالى صديقٌ ومالى عمادُ

---

(١) ديوانه ٣٢٧
(٢) نقله الميمنى فى التنف ١٠٤
(٣) نقله الميمنى فى التنف ١٠١
(٤) نقله الميمنى فى التنف ١١١

إذا أقبل الصبحَ ولّى السرورُ وإن أقبل الليل ولّى الرقادُ

قوله : خَفّض ، أى سَكّن .

* * *

[ترجمة الإمام الشافعى]

وابن إدريس هو الإمام الشافعىّ محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف ، يلتقى نسبُه مع بنى هاشم وبنى أميّة فى عبدِ مناف .

وقال صلى الله عليه وسلم : « نحن وبنو المطّلب كهاتين » ـ وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى مضمومتين .

وحاصرت قريش بنى المطلب مع بنى هاشم فى الشِّعْب .

وكان الشافعى أعلَمَ الناس وأورعَهم وأعبدهم ، وأجودهم ، فإن أردت أن تقف على حفظه ومبلغ علمه ، فانظر رحلته .

ووصفه بعضُ أهل العلم فقال : هو شقيق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نَسَبِه وشريكُه فى حَسَبِه .

زوّج المطلب ابنَه هاشماً الشِّفاء بنت هاشم بن عبد مناف أخيه ، فولدت له عبد يزيد جدّ الشافعى رضى الله عنه ، فكان يقال لعبد يزيد : المحضُ لاقذًى فيه ، فولَد الشافعىّ رضى الله تعالى عنه هاشمان : هاشم بن المطلب وهاشم بن عبد مناف ، فالشافعىّ ابن عم النبىّ صلى الله عليه وسلم وابن عمّتِه ، لأن الشفاء أخت عبد المطلب ، فهى عمة النبى صلى الله عليه وسلم .

وأسلم السائب جدُّه يوم بدر ، وكان صاحب راية بنى هاشم بن عبد مناف

رفع المسهم

أسيرَ وفدَى نفسه ، فأسلم ، فقيل له : لِمَ لَمْ تُسلِم قبلِ أن تَفتَدِى ؟ فقال : ما كنتُ أحرمُ المؤمنين طمعاً لهم فىّ .

قال أبو ثور : مارأيتُ ولا رأى الراءون مثله .

وقال أحمد بن حنبل : ماصلّيت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو الله للشافعىّ . وقال له ابنه : أىّ رجل كان الشافعىّ حتى تدعو له هذا الدعاء ؟ فقال : يابنىّ كان كالشّمس للدنيا ، أو كالعافية للناس .

وحدّث صالح بن أحمد بن حنبل قال : مشى أبى مع بَغْلَةِ الشافعىّ فى ركابه ، فبعث إليه يحيى بن معين فقال له : يا أبا عبد الله ، أما رضيتَ إلا أن تمشى مع بغلته ! فقال : يا أبا زكرياء ، لومشيتَ من الجانب الآخر لكان أنفع لك ، ومايمسّ أحدٌ محبرةَ إلا وللشافعى فى عُنُقِه مِنّة .

وقال الشافعىّ رضى الله عنه : ماشبِعْتُ منذ ست عشرة سنة ، لأنّ الشِّبَع يثقّل البدن ، ويقسّى القلب ، ويزيل الفِطنة ، ويجلِب النوم ، ويضعف صاحبه عن العبادة .

وقال : ماحلَفْتُ بالله لاصادقاً ولا كاذباً .

وقال : ماناظرتُ أحداً قطّ فأحببت أن يخطىء ، وما كلّمت أحداً إلا أحببت أن يوفّق ويُسَدّد ويعان ، ويكون عليه من الله رعاية وحفظ . وما كلّمت أحداً إلا وأنا لا أبالى أن يُبَيِّن الله الحقّ على لسانه أو لسانى ، وما أوردتُ الحجة على أحدٍ ، فقبِل منى إلا هبْته واعتقدت محبّته ، ولا ثابرنى على الحق أحدٌ ودافع الحجة إلا سقط من عينى ورفضته .

وكان يختم القرآن فى رمضان ستّين مرّة كلّ ذلك فى الصلاة .

وقال الكرابيسىّ : بتُّ معه غير ليلة فكان يصلّى نحواً من ثلث الليل ، فما رأيته يزيد على خمسين آية ، فإذا أكثر فمائة آية . وكان لايمرّ بآية فيها رحمة إلا

سأل الله لنفسه ولجميع المسلمين ، ولا بآية عذاب إلا تعوّذ منها وسأل النجاة منها لنفسه ولجميع المسلمين .

وقال عمر بن عبد الله البَلَوىّ: جلسْنا يوماً نتذاكر الزّهاد والعبّاد والعلماء ، وما بلغ من زهدهم وفصاحتهم وعلمهم ، فبينما نحن كذلك إذ دخل علينا عمر ابن نباتة ، وقال : فيم تتحاورون ؟ فأعلمناه ، فقال عمر : والله ما رأيت رجلاً قطّ أوْرعَ ولا أخشَع ولا أصبَح ولا أسمح ، ولا أعلم ولا أكرم ولا أجمل ، ولا أجَلّ ولا أفضل، من محمد بن إدريس الشافعىّ ، خرجت أنا وهُو والحارث بن اللبيد إلى الصّفا ، وكان الحارث صاحب صالح المُرّى، وكان من المتّقين الخاشعين ، وكان حسن الصوت، فقرأ ﴿هذا يَوْمَ لا يَنْطِقُون. ولا يُؤْذَنُ لَهُمْ فيَعْتَذِرون﴾[1] فرأيتُ الشافعى رضى الله عنه قد تغيّر لونه ، واقشعرّ جلده واضطرب اضطراباً شديداً ، ثم خرّ مغشيًّا على وجهه ، فلما أفاق جعل يقول : أعوذ بك من مقام الكاذبين ، وأعراض الغافلين ! اللهم خضعتْ لك قلوبُ العارفين ، وذَلّت لك قلوب المشتاقين ، اللهم هب لى جُودَك ، وجَلِّنى بسِتْرك ، واعف عن تقصيرى بكرم وجهك . ثم قمنا وتفرّقنا .

وقال الربيع بن سليمانَ ، سمعت الشافعىّ رضى الله عنه ، يقول: أتى علىّ عيد وليس عندى نفقة ، فاستسلفت سبعين ديناراً لنفقة أهلى ، فبينا أنا كذلك إذ أتانى رجل من قريش يشتكى إلىّ الحاجة فأخبرته خبرى، وقلت له :خذ ما تحبّ، فقال لى : مايقنعنى إلاّ أكثر من هذه الدنانير ، فقلت له : فخذها ،وبتُّ ومامعى دينار ولا درهم ، فبينا أنا فى منزلى إذ أتانى رسول جعفر بن يحيى البرمكى ، يقول : أجب الوزير ، فأجبته . فقال : ماشأنك فى هذه الليلة ؟ يهتف بى هاتف كلّما دخلت فى النوم، يقول:الشافعىّ الشافعىّ ، فأخبرته بالخبر ، فأعطانى خمسمائة دينار ، ثم قال: أزيدك فأعطانى خمسمائة أخرى ، فلم يَزَلْ يزيدُنى حتى أعطانى ألفى دينار .

(١) سورة المرسلات ٣٥ ، ٣٦

ومن جُوده أن سوطه وقع من يده ، فأعطى مَنْ ناوله إياه خمسين دينار .

وورد مكة بعشرة آلاف درهم ، فضرب خباءه خارجَها ، فأتاه الناس ، فما برح من موضعه حتى فرّقها .

وكان شاعراً مجيدا ، قال أبو القاسم بن الأزرق : دخلت عليه ، فقلت له : يا أبا عبد الله ، أما تنصفنا ! لك هذا الفقه تفوز بفوائده ، ولنا هذا الشعر ، وقد جئتَ تُداخلنا فيه ! فإمّا أفردتَنا أو أشركتنا فى الفقه ، وقد أتيتُ بأبيات إن أجزتَها بمثلها تبت من الشّعر ، وإن عجزتَ تُبْ منه ، فقال لى : إيه يا هذا ، فأنشدته هذا الكلام :

ما همّتى إلا مقارعةُ العِـــدَا ... خَلُق الزمان وهمّتى لم تخلُقِ
والنّاس أعينهم إلى سبب الغِنى ... لا ينظرون إلى الحجا والأولَقِ
لـكنّ مَنْ رُزِق الحجا حُرِم الغنى ... ضـدّان مفـترقان أىّ تفرق
لو كان بالحيـل الغنى لوجدْتُنِى ... بنجوم أقطـار السماء تعلّقِى

فقال الشافعىّ رضى الله تعالى عنه : ألا قلت كما أقول ارتجالا :

إن الذى رزق اليسار فلم يَنَلْ ... حمـداً ولا أجراً لغـيرُ موفّقِ[1]
فالجـدّ يدنى كلّ أمر شاسعٍ ... والجدّ يَفْتَح كلّ باب مُغْلَق
فإن سمعت بأنّ مجدوداً حوى ... عُوداً فأثمر فى يديه فحقّقِ
وإذا سمعت بأنّ محروماً أتى ... ماء ليشربه فغـاض فصدّق
وأحقّ خلق الله بالهمّ امرؤ ... ذو همّـةٍ يُبْـلَى بعيشٍ ضيّقِ
ومن الدليل على القضاء وكونِه ... بُؤْس اللبيب وطيبُ عيش الأحمَقِ

فقلت له : لا قلتُ شعرا بعدها .

---

(١) ديوانه - ، ونقل جامعه عن محمد بن منصور ، قال : قرأت فى كتاب طاهر بن محمد النيسابورى بخط الإمام الشافعى ، وذكر الأبيات .

رفع المسهم

قال المبرِّد : كان الشافعيّ رضى الله عنه أشعرَ الناس وآدب الناس ، وأعرفهم بالفقه والقراءات ، ولقد أخبرنى بعضُ أصحابى أنه مات ولدٌ لعبد الرحمن ابن مهدىّ ، فكتب إليه الشافعى رضى الله عنه : يا أخى، عَزِّ نفسك بما تُعزِّى به غيرك ، واستقبح من فعلك ما تستقبحه من غيرك . واعلم أن أمضّ المصائب فقدُ سرور ، وحرمان أجر ، فكيف إذا اجتمعا مع اكتسابِ وزرْ ! فتناول حظّك يا أخى إذا قرب منك قبل أن تطلُبَه وقد نأى عنك ، ألهمك الله عند المصائب صبرًا ، وأحرز لنا ولك بالصبر أجراً ، وكتب إليه :

إنى أعزّيك لا أنّى على ثقة ... من الحياة ولكنْ سُنّة الدِّينِ (١)
فما المعزّى ببـاقٍ بعـد ميِّتِه ... ولا المعزِّى وإن عاشا إلى حين

وقال أيضاً :

علمى معِى حيثما يَمّمتُ ينفعنى ... قلبى وعاء له لا بطنُ صُنْدُوقِ (٢)
إن كنتُ فى البيت كان العلمُ فيه معى ... أو كنتُ فى السّوقِ كانَ العلمُ فى السّوق

وقال أيضاً :

ومنزلةُ السَّفيهِ من الفقيهِ ... كمنزلة الفقيه من السَّفِيهِ (٣)
فهذا زاهدٌ فى قُرْب هـذا ... وهـذا فيه أزهدُ منه فيه
إذا غلب الشقاء على سفيهِ ... تقطّع فى مخالفـة الْفَقِيه

وناظرَ الشافعيّ محمد بن الحسن الكوفىّ بالرَّقة فقطعه الشافعيّ ، فبلغ ذلك هارون الرشيد ، فقال : أما علم محمد بن الحسن إذا ناظر رجلاً من قريش ، أنه يقطعه ؛ سائلا أو مجيبا ، والنبىّ صلى الله عليه وسلم يقول : « قدِّموا قريشا ولا تقدَّموا عليها ، وتعلَّموا منها ولا تعلِّموها » ، فإن علم العالم منها يَسَعُ طباق

(١) ديوانه ٦٨ (٢) ديوانه ٤٩ . (٣) ديوانه ٧١

الأرض . وكان الشافعيّ يعظّم محمد بن الحسن لعلمه ، واستعار شيئاً من كتبه فلم يسعفه بذلك ، فكتب إليه الشافعيّ رضى الله تعالى عنه :

قُلْ للّذى لم تَرَ عيـ نامَنْ رآه مثلَهُ(١)
ومن كأنّ من رآ ه قد رأى من قبلَهُ
العلم ينهى أهلَه أن يمنعوه أهلَهُ
لعلّه يبذُله لأهله لعلّه

فبعث إليه بما سأل .

وقال فى الفقيه ابن عبد الحكم وقد اعتلّ فعاده :

مَرِضَ الحبيبُ فعُدْته فمرضت من حَذَرِى عَلَيْهِ
شُفِىَ الحبيبُ فعادنى فشفيت من نظرى إليه

وقال أبو سعيد : سمعت الشافعى رضى الله عنه يقول بيتين وهما :

إنى أرى نفسى تتوق إلى مصرِ ومِن دُونها عَرْضُ المهامه والقَفْرِ
فوالله ما أدرى أللخفض والغنى أقاد إليها ، أم أقاد إلى القبر !

قال : فوالله ما كان إلا قليل حتى سيق إليهما جميعا .

ورأيته بعد وفاته ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : أجلسنى على كرسىّ من ذهب ونثر علىّ اللؤلؤ الرّطب .

وقال المُزَنىّ : دخلت عليه غداة وفاته فقلت له : كيف أصبحت يا أبا عبد الله ؟ قال : أصبحتُ من الدنيا راحلاً ، ولإخوانى مفارقاً ، ولكأس المنية شاربا ، ولا أدرى إلى الجنة تصير نفسى فأهنّيها أم إلى النار فأعزّيها ! ثم أنشا يقول :

(١) ديوانه ٥٤ .

ولمّـا قسا قلبي وضاقتْ مذاهبي جعلت الرّجا منّي لعفوك سُلّما[1]
تعـاظَمني ذنبي فلمّـا قرنتـه بعَفْوك ربّي كان عفوُك أعظما

وكانت وفاته فى رجب ليلة الجمعة سنة أربع ومائتين ، ودفن فى صبيحتها وهو ابن أربع وخمسين سنة ، وصلّى عليه السّرى بن الحكم أمير مصر ، ودفن بها نحو قبور الشهداء فى مقبرة بنى عبد الحكم وعند رأسه عمود من الحجر كبير ، وفيه مكتوب : « هذا قبر محمد بن إدريس الشافعىّ أمين الله » .

وقال الشافعىّ : أظلم الظالمين لنفسه مَنْ تواضع لمن لا يكرمُه، ورغِب فى مودة من لا ينفعه ، وقَبِل مدح مَن لا يعرفه .

وقال : مَنْ غلبت عليه شدة الشهوة بحبّ الدنيا لزمته العبودية لأهلها ، ومن رضىَ بالقَنَع زال عنه الخضوع .

وقال الربيع بن سليمانُ : سمعت الشافعىّ يقول :

وأنزلنى طُولُ النوى دارَ غُرْبةٍ يجاورنى مَنْ ليس مثلى يشاكِلُه[2]
أخامقـةٍ حتى يقـال سجيّةٌ ولو كان ذَا عقْلٍ لكنت أعاقله

قال : وسمعته ينشد :

صُنِ النفس واحملها على ما يَزينُها تَعِشْ سالما والقولُ فيك جميلُ[3]
ولا تولينّ النـاس إلا تجمّلاً نَبَا بك دهرٌ أو جفاكَ خليلُ
وإن ضاق رزق اليوم فاصبرْ إلى غدٍ عسى نكباتُ الدهر عنك تزولُ
ولا خيرَ فى ودّ امرئٍ متلوّنٍ إذا الريحُ مالتْ مال حيث تَميلُ
وما أكثر الإخوانِ حين تعدُّهمْ ولكنّهم فى النائبات قليلُ !

(١) ديوانه ٥٩ . (٢) ديوانه ٥٣ . (٣) ديوانه ٥٣ .

قال : وسمع رجلاً يَسُبُّهُ على رجل من أهل العلم ، فقال لأصحابه : نزّهوا أسماعكم عن استماع الخنى ، كما تنزّهون ألسنتكم عن النطق به ، فإن المستمع شريك القائل ، وإنّ السفيه ينظر إلى أخبث شيء في وعائه ، فيحرص على أن يفرغه في أوعيتكم .

نظم بعضهم هذ المعنى ، فقال :

فسمعك صُنْ عن سماع الخنى ... كصونِ اللسان عن النُّطق به
فإنك عند استماع الخنى ... شريكٌ لقائله فانتبهْ

وكان الحسن البصريّ رحمه الله ، إذا خطب الحجاج ، وذكر السَّلَف ، يتكلّم تشاغلاً عن خطبته ، فقيل له في ذلك ، فقال : إن السامع والمتكلم شريكان ، ألم تسمع قول الشاعر :

فجاء به ناطق منهمُ ... بليغٌ ومستمعٌ صامتُ
فكلٌّ له حظّه أنه ... أعان مَعَ الناطق الساكتُ

وقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود :

إن كنتَ لا ترهب ذمّي لما ... تعلم من صَفْحي عن الجاهل
فاخش سكوتي إذ أنا منصتٌ ... فيك لمسموعي خنى القائل
فالسامع القول كمن قاله ... والموكل المأكول كالآكل

وذكر الفنجديهيّ الشافعيّ ، فقال: هو إمام الأنام ، ونظام الإسلام، أحد الأئمة الأربعة الأطواد ، الشامخة في الدين الأجواد ، رضيع لبان النبوّة ، أفضل العلماء ، وأعلم الفضلاء ، وصدر البدور وبدر الصدور ، وهادي الدّعاة، وداعي الهداة ، إكسير العلوم ، وإكليل الرسوم . عِلْم العلماء شظيّةٌ من عِلْمه ، وحلم الحلماء جَذْوَةٌ من حلمه ، وعقائد الأصول مقتدَحة من زناد كلماته ، وقواعد

الفروع مقترحة من عداد نعمانه ، فارس هَيْجاء المشكلات ، ومقوّم عَوْجاء المعضلات ، منبع السُّنن ، ومتّبع السَّنن ، فاز بقلبات الأقران ، وحاز قَصَبَاتِ الرّهان ، بطهارة الأعراق ، ودمائة الأخلاق ، وفخامة شرف الأمومة ، وكرامة طرفى الأبوّة والعمومة ، درّة الأصداف ، من صميم آل عبدمناف ، كشف الظّلمة عن الأمة ، وصرف عنهم المظلمة المدلهمّة ، بعلمٍ كالبحر اللجّىّ ، ورأى كالبدر فى الليل الدجىّ ، مذهبه مؤيّد بنصوص القرآن ، وفصول الفرقان ، أسّس بُنيانه على تقوى من الله ورضوانه ، فهو بين المذاهب والأديان ، كالناظر فى الأجفان والسمع فى الآذان ، والعقل فى الإنسان ، والعدل للسلطان ، أحلّه الله محلّ القُدْس ، وأدلى إليه سحاب الأنس .... فى كلام أكثر من هذا .

* * *

فقال : دَعِ الهِتَار ، ولا تهتِك الأستار ، وانهضْ بنا لِنَضْرِبَ إلى مسجد يَثْرِب ، فعسى أن نَرْحَضَ بالمزارِ ، درَن الأوْزار . فقلت : هيهات أن أَسِيرَ ، أو أفقَـــهَ التفسير ، فقال : تاللهِ لقدْ أوجَبْتَ ذِمَمًا ، وطلبت إذ طلبت أَمَمًا . فهاكَ ما يشفى النَّفس ، ويَنْفى اللَّبس ، قال : فلمّـا أوضح لى المعمّى ، وكَشَفَ عَنّى الغُمَّى ، شدَدْنا الأكْوَار ، وسِرْت وسار . ولم أزل مِنْ مسامَرَته ، مدّة مسايَرَتِهِ ، فيما أنسانى طعْمَ المشقّة ، ووددْتُ معـــه بُعْدَ الشُّقة ، حتّى إذا دَخَلْنا مَدِينة الرّسول ، وفزنا من الزّيارةِ بالسُّول ، أشأم وأعْرَقتُ ، وغرّب وشَرْقتُ .

. . .

رفع المسهم

قوله : دع الهِتار : ، أى أترك تمزيق العِرْض ، وفلان يهاتر فلانا ، أى يسابّه بالباطِل من القول ، والقبيح من اللفظ ، وأصل الهَتْر سقَط الكلام والباطل ، والمهاترة : القول الذى ينقض بعضه بعضاً ، وأُهتِر الرجل فهو مهتَر ، إذا أولِع بالقول فى الشىء ، واستُهتر ، فهو مستهتَر : ذهب عقله فيه ، وانصرفت إليه همته . تهتِك : تخرق وتكشف ، يريد أنه لما عرض له بنقائصه قال له : دع كشف العيب ، فليس هذا موضعه . انهض : تقدم . لنضرب : لنمشى فى الأرض . نَرْحض : نغسل . المزار : زيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم . درَن الأوزار : وسخ الذنوب . هيهات : معناه بَعُدَ ذلك عنك . أفقه : أفهم ، وذِمَمًا : جمع ذمّة ، وهى العهد . أمَمًا : شيئاً قريبا ، والأمَم : القصد . هاك : أى خذ . المعمّى : المغطَّى المشكِل المعنى ، وأراد به شرح المائة الفتيا الملغِزة . ويقال لمن يطلب ما يمكن ولم يشتطّ : طلب أمَمًا قال عبيدالله بن قيس الرقيّات :

كوفيّةٌ نازح محلّتها لا أمَمٌ دارها ولا صَقَبُ[1]

الصَّقَب : القرب . الغُمّى : هى الغمة التى تغطّى على الذهن ، والمعمّى الأمر الملتبس . الأكوار : ما هو للإبل كالبراذع للدواب . الشُّقة : السفر البعيد . والسُّول : المراد ، أشأم وأعرقت : قصدَ الشأم وقصدتُ العراق .

[فصل فى زيارة قبر الرسول عليه السلام]

ونذكر هنا فصلاً فى زيارة القبر المعظّم وتوديع زائره له ووصف الروضة والمسجد وذِكْر يثرب ، وهى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم ومهاجَره ، سمّاها طيبة لما كان اشتقاقها من التّثريب[2] . وكان صلى الله عليه وسلم يغيّر الأسماء التى تدلّ على الاستقباح إلى ضدّها .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ زار قبرى وجبت له شفاعتى » .

---

(١) ديوانه ٨ ، وفيه « ولا سقب » ، وهما سواء (٢) التثريب : الإفساد

ابن عمر رضى الله عنهما : يثرب أرض مدينة الرسول فى ناحية منها .

وقال شيخنا ابن جبير فى روضته صلى الله عليه وسلم : شاهدنا [1] الرّوضة المكرّمة ، وقد وقع الأذان بوصول صدر الدين رئيس الشافعيّة الأصبهانىّ الذى ورث النّباهة والوجاهة فى العلم كابراً عن كابر ، المعروف برئيس العلماء ، توارثه عن أبٍ فأبٍ ، وقد غصّ الحرم بالمنتظرين ، وقد أعدّ له كرسىّ بإزاء الرّوضة المقدسة ، فصعد وحضر قرّاؤه أمامه ، فابتدءوا بالقراءة بنغمات عجيبة ، وتلاحين مطربة بهيجة ، وهو يلحظ الرّوضة المقدّسة ، ويُعلن بالبكاء . ثم أخذ فى خطبةٍ من إنشائه سحريّة البيان ، وسلك فى أساليب من الوعظ باللّسان ، وأنشد أبياتاً بديعة من قوله ، كان يردّد منها هذا البيت ، ويشير إلى الروضة المعظّمة المطهّرة .

هانيك روضتُه تفوح نسيماً صلّوا عليه وسلّموا تَسْلِيماَ

وتمادَى فى وعظه إلى أن أطار النفوس من خشيةٍ ورقّةٍ ، هو يعتذر من التقصير ، لهول ذلك المقام ويقول : عجبا لألكَنِ العجم ، كيف ينطق عند أفصح العرب . وتهافتت الأعاجم عليه معلنين بالتوبة ، وقد طاشت ألبابُهم ، ودِهشت عقولهم ، فيلقُون نواصِيَهم بين يديه ، فستدعى الجلّسين ، ويجرّهم ناصية ناصية ، وكلّما جزّ ناصية كساها عمامة ، فتوضع عليه للحين عمامة أخرى ، ثم ختم مجلسه ، بأن قال : معشر الحاضرين ، قد تكلّمت لكم ليلة بحرَم الله ، وهذه الليلة بحرم رسوله ؛ ولابد للواعظ من كُدْيَة ، وأنا أسألكم حاجة وإن ضمنتوها إلىّ أرقتُ لكم ماء وجهى فى ذكرها . فأعلن الناس بالإسعاف وشهيقهم قد علا ، فقال : حاجتى أن تكشِفُوا رءوسكم ، وتبسطوا أيديَكم ، ضارعين لهذا النبى الكريم فى أن يرضى عنّى ويسترضى الله عزّ وجل لى . ثم أخذ فى تعداد ذنوبه ، والاعتراف بها ، فأطار الناس عمائمهم ، وبسطوا أيديَهم للنبى صلى الله

(١) رحلة ابن جبير ص ١٦٨ وما بعدها مع تصرف .

رفع المسهم

عليه وسلم ، داعين له باكين متضرعين ؛ فما رأيت ليلة أكثر دموعاً، ولا أعظم خشوعاً من تلك الليلة . ثم انفضّ المجلس .

قال ابن جبير رحمه الله : ثم كان فى اليوم التالى لهذه الليلة وداعنا للروضة المكرّمة ، فياله وداعاً ، ذهلت له النفوس ارتياعاً ، حتى طارت شعاعاً ، وماظنّك بموقف ينادَى بالتوديع فيه سيّدُ المرسلين، وخاتم النبيين، ورسولُ رب العالمين ! إنه لموقفٌ تنفطر فيه الأفئدة ، وتطيش له الألباب المتّئدة ، فوا أسفاه واأسفاه ! كلٌّ يبوح لديه بأشواقه ، ولا يجدُ بُدًّا من فراقه ، فما تستطيع إلى الصبر سبيلا ، ولا تسمع فى ذلك المقام إلاّ رنّةً وعويلا ، وكلٌّ بلسان الحال ينشد :

محبّتى تقتضى مَقامِى وحالتى تقتضى الرّحيلا

بوّأنا الله بزيارة هذا النبىّ الكريم منزلَ الكرامة ، وجعله شفيعاً لنا يوم القيامة ، وألمّنا بفضله فى جواره الكريم دار المقامة .

ثم ذكر الرّوضة المقدّسة مع المسجد العتيق الذى احتَوى على الروضة ، فقال: المسجد المبارك مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم مُستطيلٌ ، وتحفُّه من جهاته الأربع بلاطات مستطيلة ، ووسطه كلّه صحن مفروش بالحَصى والرّمل ، وفى الصحن خمس عشرة نخلة ، فالجهة القبلية لها خمس بلاطات مستطيلة من غَرْب إلى شرق ، والجنوبيّة كذلك ، على الصفة المذكورة والشرقيّة لها ثلاث بلاطات ، والغربيّة لها أربع بلاطات . وطول المسجد مائة خطوة وست وتسعون خطوة ، وسعته مائة وست وعشرون خطوة ، وعددُ سَواريه مائتان وتسعون ، وهى أعمدة متصلة بالسّمك دون قامةٍ تنعطف عليها ، فكأنّها دعائم قوائم ، وهى من حَجَرٍ منحوت قطعا قطعا ، مُلَمْلَمة[1] مثقوبة توضع أنثى فى ذكر ، ويفرغ بينهما الرصاص المذاب إلى أن يتصل عموداً قائماً ، وتُكسى بغِلالة جير ، ويبالَغ فى صَقْلها ودَلْكها ، فتظهر كأنها رخام أبيض ، وتحفّ بالبلاط المتّصل بالقبلة من

(١) الململم : الحجر المجتمع الأملس

البلاطات الخمس مقصورة تكتنفه من غرب إلى شرق ، والمحراب فيها ، وعلى رأس المحراب حجر مربّع أصفر قدرَ شبر فى شبر ، ظاهر البريق ، يقال : إنه كان مرآة كسرى . وفى أعلى داخل المحراب مسمار مثبّت فى جداره ، فيه شِبْه حَقّ صغير لايعرف من أىّ شىء هو ، ويزعمون أنه كان كأس كسرى . ونصف جدار القبلة الأسفل رخام موضوع أزاراً على إزار مختلف الصّنعة واللون ، بجزع أبدع تجزيع . والنصف الأعلى من الجدار مزيّن كلّه بفصوص الذهب المعروفة بالفُسَيْفِساء ، قد نتج الصانع فيه نتائج غريبة من الصّنعة ، تضمّنت تصاوير أشجار مُختلفة الصفات ، مائلة الأغصان بثمرها ، والجداران الشرقى والغربى النّاظران إلى الصحن مُجَرّدان أبيضان مُقرفَصان ، قد زُيّنا برسم يتضمّن أنواعاً من الأصبغة إلى مايطول وصفه من الاحتفال فى هذا المسجد المبارك .

وفى الجهة الشرقية بيتٌ مصنوع من عُود لمبيت بعض سَدَنَتِه ، وسدنَتُه غِيانٌ أحابيش صقالبُ ظراف الهيئات ، نظاف الملابس ، والمؤذّن الرّاتب فيه أحد أولاد بلال ، وفى جوف الصَّحْن قبّة كبيرة تُعرَف بقبّة الزيت ، هى مخزن لجميع آلات المسجد .

وله تسعة عشر باباً لم يبقَ منها مفتوحاً سوى أربعة : اثنان فى الغرب ، ويُعرَفان بباب الرحمة ، وباب الخشية ، واثنان فى الشرق : باب جبريل ، ويقابله دار عثمان الّتى استُشهد بها ، وباب الرّجاء . وفى الشرق خمسة مغلقة ، وفى الغرب كذلك ، وفى الجنوب أربعة وفى القبلة واحدٌ صغير ، وله ثلاث صوامع إحداها فى الركن الشرقىّ على هيئة الصوامع ، واثنتان فى ركنى الجهة الجنوبية صغيرتان على هيئة بُرْجين ، والرَّوضة المقدّسة مع آخر الجهتين ، الجهة القبلية ممّا يلى الشرق ، وقد انتظمت من بلاطاته ممّا يلى الصّحن فى السعة اثنين ونيّفت إلى البلاط الثالث بمقدار أربعة أشبار ، ولها خمسة أركان بخمس صفحات ، وشكلُها شكلٌ

عجيبٌ لا يكاد يتأتّى تصويرُه ولا تمثيله ، والصّفحات الأربع محرّفة عن القبلة تحريفاً بديعاً ، لا يتأتّى لأحد معه استقبالها فى صلاته ، لأنه ينحرف عن القبلة ، والذى اخترع ذلك فى تدبيرها مخافة أن يتّخذها الناس مصلّى عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه وأخذت من الجهة الشرقية سعة بلاطتَين ، وانتظم داخلها من أعمدة الأبلطة ستة ، وسعة الصفحة القبلية منها أربعة وأربعون شبراً ، وسعة الصفحة الشرقية ثلاثون شبراً ، ومن الركن الشرقىّ إلى الركن الجنوبىّ صفحة سعتها خمسة وثلاثون شبراً ، ومن الركن الجنوبىّ إلى الغربى صفحة سعتها تسعة وثلاثون شبراً ، ومن الركن الغربىّ إلى القبلىّ صفحة سعتها أربعة وعشرون شبراً ، وفى هذه الصفحة صُندوق آبنوس مختّم بالصندل ، مصفّح بالفضة ، مكوكب بها طوله خمسة أشبار ، وعرضه ثلاثة أشبار ، وارتفاعه أربعة ، وهو قُبالة رأس النبى صلى الله عليه وسلم ، فجميع سعة الروضة من جميع جهاتها مائة شبر ، واثنان وسبعون شبراً ، وهى مؤزّرةٌ بالرخام البديع النحت الرائع النعت ، وينتهى الإزار منها إلى نحو الثلث أو أقلّ يسيراً ، وعليه من الجدار المكرم ثلث آخر ، قد علاه تضميخ المسك والطّيب مقدار نصف شبر مسوّدًا مترا كباً مقشققا مع طول الأزمنة والأيام ، والذى يعلُوه من الجدار شبابيك عُود متّصلة بالشّمْسَة الأعلى ، لأنّ أعلى الروضة متصل بسُمْك المسجد ، والى حيّز إزار الرخام تنتهى الأسعار ، وهى لازورديّة اللون ، مختّمة بخواتم بيض مثمّنة ومربعة ، وفى داخل الخواتيم دوائرُ مستديرة ، ونُقَط بيض تحفّ بها ، فمنظرها منظر بديع الشّكل. وفى أعلاها رسم مائل إلى البياض ، وفى الصفحة القبلية أمام وجه النبى صلى الله عليه وسلم مسمار فضّة ، هو قبالة الوجه المكرّم ، فيقف الناسُ أمامه للسّلام ، وإلى قدميه صلى الله عليه وسلم رأس أبى بكر رضى الله عنه ، ومما يلى كتفى أبى بكر رأس عمر رضى الله عنهما ، فيقف المسلِّم مستدبر القبلة ، ومستقبل الوجه الكريم ، فيسلِّم ثم ينصرف يميناً إلى وجه أبى بكر ، ثم إلى وجه عمر رضى الله تعالى عنهما .

رفع المسهم

وأمام هذه الصفحة المكرّمَة نحو العشرين قِنديلاً معلّقة من الفضة ، وفيها اثنان من ذهب ، وفى جوفَى الروضة حوضٌ صغير مرخّم فى قبلته شكلُ محراب ، قيل : إنه بيت فاطمة رضى الله تعالى عنها ، ويقال : هو قبرها ، وعن يمين الرّوضة المكرّمة المنبر الكريم ، ومنه إليها اثنتان وأربعون خطوة ، وهو فى الحوض المبارك الّذى طوله أربع عشرة خطوة ، وعرضه ستّ خطا ، وهو مرخّم كلّه وارتفاعه شبر ونصف ، وارتفاع المنبر نحو القامة أو أزيد وسعته خمسة أشبار ، وطوله خمس خطوات ، وأدراجه ثمانية ، وبابه على هيئة الشّبّاك مقفل يُفتح يوم الجمعة ، وطوله أربعة أشبار ونصف شبر .

والمنبر مغشّى بعود الآبنوس ، ومقعد النبى صلى الله عليه وسلم من أعلاه ظاهرٌ ، وقد طبق عليه لوح من الآبنوس غيرُ متّصل به ، يصونه من القعود عليه ، يدخل الناس أيديَهم إليه ، ويمسحونه تبركا بلمْسِ ذلك المقعد الكريم ، وعلى رأس رجْل المنبر اليمنى ، حيث يضع الخطيب يده حلقة فضة مجوّفة مستطيلة تشبه حَلْقة الخياط ، لكنها أكبر لاعبة تستدير فى موضعها ، يزعمون أنها كانت لُعبة للحسن والحسين فى حال خطبة جدِّهما ، صلوات الله عليهم أجمعين .

وفى الرّوضة الصغيرة التى بين القبر والمنْبر ، جاء الأثر أنها روْضة من رياض الجنة ، وقدرُها ثمان خُطا ، ويتزاحَمُ النّاس فى هذه الرّوضة للصلاة ، وبإزائها لجهة القبلة عمود ، يقال إنه مُطْبق على بقية الجِذْع الّذى حَنّ للنبىّ صلى الله عليه وسلم وقطعة منه فى وسط العمود ظاهرة ، يقبّلها الناس ، ويمسحون خُدُودهم فيها وعلى حافتها فى القبلة منها صندوق كبير للشّمْع والأنوار التى توقد أمام الرّوضة كلّ ليلة ، ومصلّى الإمام فى الروضة الصغيرة المذكورة إلى جانب الصندوق ، وبينها وبين الروضة الكبيرة محمَل كبيرٌ مدهون عليه مُصْحَفٌ كبيرٌ فى غِشَاء مقفل ، هو أحدُ المصاحف الأربعة التى وجّه بها عثمان إلى البلاد ،

رفع المسهم

وبإزاء المقصورة لجهة المشرق خزانتان كبيرتان محتويتان على كتب ومصاحف موقوفة على المسجد ، ويليها فى البلاط الثانى دفةٌ لجهة الشرق ، وَدَفّة مطبقة على وجه الأرض إلى سرداب يهبط إليه على أدراج تحت الأرض ، يُفْضِى إلى خارج المسجد إلى دار أبى بكر ، وهو كان طريق عائشة رضى الله عنهما إليها . وذلك الموضع هو موضع الخوخة المُفْضية لدار أبى بكر رضى الله عنه التى أمر النبى صلى الله عليه وسلم بإبقائها ، وبإزاء دار أبى بكر دار عمر وابنه عبد الله بن عمر رضى الله عنهم أجمعين .

وفيما ذكرناه كفاية ، والله تعالى أعلم .

رفع المسهم

المقامة الثالثة والثلاثون وتعرف بالتفليسية

حكى الحارث بن همّامٍ ، قال : عاهدتُ اللهَ مُذْ يَفَعْتُ ، ألاّ أؤخِّر الصّلاة ما استَطَعْت ؛ فكنتُ مَعَ جَوْبِ الفَلَوَاتِ ، ولَهْوِ الخَلَوَاتِ ، أُراعِي أَوْقَاتَ الصَّلاَة ، وأُحَاذِر مِنْ مأْنَم الْفَوَاتِ . وإذا رافقْتُ فى رِحْلَة ، أو حَلَلْتُ بِحِلّةٍ ، مَرْحَبْتُ بِصَوْتِ الدَّاعِي إِلَيْهَا ، واقْتَدَيْتُ بِمَنْ يُحَافِظُ عَلَيْهَا .

فاتّفَق حين دخلتُ تَفْلِيس ، أن صَلّيْتُ مَعَ زُمْرَةٍ مَفالِيس فلمَّا قضَيْنَا الصَّلاَة ، وأزْمَعْنَا الانفِلاَت ، بَرَز شيخٌ بادِى اللَّقْوَةِ ، بالِي الكُسْوةِ والقُوّة ، فقال : عَزَمْتُ عَلَى مَنْ خُلِقَ مِنْ طينة الحُرِّية ، وتفوَّق دَرَّ الْمَصيبَة ، إلاَّ ما تكلّفَ لِي لُبْثَةً ، واسْتَمعَ منّى نَفْثَةً ، ثم له الخيارُ مِنْ بَعْد ، وبيدِه الْبَذْل والرّدّ . فَعَقَدَ لَهُ الْقَوْمُ الحَبَا ، وَرَسَوْا أَمْثَالَ الرُّبا .

يفعت : شبيت ولم أبلُغ الحُلم ، وقاربت ذلك .

ابن أبى الخير : يفَع الغلام وأيفَع ، إذا كان ابنَ سبع سنين ، فإذا ناهز الحُلُم قيل : مُراهق وكوكب[1] ، فإذا أدرك قيل : فيه حَزَوَّر .

غيره : غلامَ يَفعة غضُّ الشباب ، وجاريةٌ يَفعة ، والجمع أيفاع وأيفُع ، فهو يافع على غير قياس . قال ابنُ سيده رحمه الله : ولم يقل أحدٌ منهم يَفَع الغلام ، ولا مُوفع ، ومثله أبْقَل الموضع ، وأوْرَس ، والوَرْس : نَبْتٌ أصفر . جوب :

(١) فى القاموس : الكوكب : الغلام المراهق .

قطع . الخلوات : حيث يخلو للذاته . أراعي . أحفظ . مأثم : إثم . الفوات . فوت الوقت . رافقت فى رحلة : صاحبت فى ارتحال وسفر . حَلَلْتُ : نزلت ببلدة . والحِلَّة : جماعة البيوت ، والحِلّة : القوم الحُلول والجمع حِلال. مَرْحبت: قلت مَرْحَبًا . الدّاعى : هو المؤذّن .

[ما قيل فى أداء الصلاة فى وقتها وما جاء فى تركها]

وجاء من الأثر فى تأخير الصلاة قوله صلى الله عليه وسلم : « إنّ الرجل ليصلّى الصلاة وما فاتَهُ وقتها ، ولَما فاته من وقتها أعظمُ أو أفضلُ من أهله وماله » . فهذا وقد أدرك آخر الوقت سيندم على فوات أوله .

وقال عليه الصلاة والسلام : « الوقت الأوّل من الصلاة رضوان الله ، والثانى عفو الله » ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : رِضْوان الله أحبُّ إلىّ من عفوه . وإنّما قال ذلك لأن عفو الله لا يُتصوّر إلا عند اكتساب خطيئة .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، أنه ذكر الصلاة يوماً فقال : « مَنْ حافظ عليها كانت له نوراً وبرهانا ونجاة من النار ، ومن لم يحافظ عليها كان يومَ القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبىّ بن خلف » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إنّ الذى تفوته صلاة العصر ؛ فكأنما وُتِرَ أهله وماله » .

وكتب عمر رضى الله عنه إلى عمّاله : إن أهمّ أموركم عندى الصّلاة ، من حفظها وحافظ عليها حفظ دينَه ومن ضيّعها فهو لما سواها أضيَع .

وجاء فى القرآن: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بعدِهِمْ خَلْفٌ أضاعوا الصلاة واتّبعوا الشهوات فسوف يلقون غيًّا﴾[1] ، وفى التّفسير : لم يتركوا الصّلاةَ وإنما أضاعوا وقتها .

وقال صلى الله عليه وسلم: « لا تفريط فى النوم ، وإنما التفريط فى الّذى يؤخّر الصلاة إلى وقت الأخرى »

(١) سورة مريم ٥٩

رفع المسهم

وسُئِل النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الّذين هم عن صلاتهم ساهون ، فقال: « هم الذين يؤخّرون الصلاة عن وقتها » .

وممّا يُستظرف من هذا الباب أنّ المنصور قيل له : إن أبا دُلامة لا يحضر الصلاة ، لأنه معتكفٌ على الخمر ، وقد أفْسَد فتيان العسكر ، فلو أمرتَه بالصلاة معك لأصلحتَه وغيره . فلمّا دخل عليه قال : أبو دلامة الماجن ! قال : يا أمير المؤمنين ، ما أنا والمجون ، وقد ساورْت بابَ قبرى ، فقال: عنى من استكانتك وتضرّعك وإياك أن تفوتك صلاة الظهر والعَصر فى مسجدى ، فإن فاتَتْك لأحْسِنَنّ أدبَك ، ولأطيلنّ حبسَك . فوقع فى شرّ أمر ، فلزم المسجد أياماً ثم كتب رقعةً ودفعها إلى المهدىّ ، فأوصلها إلى أبيه وفيها :

ألم تعلَما أنّ الخليفةَ لزّنى ... لمسجدِه والقَصْرِ مالى وللْقَصْرِ (١)
أصلّى به الأولى جميعاً وعصرَها ... فويلى من الأولى، وَوَيْلى من العَصرِ !
أصلّيهما بالكُرْه فى غير مسجدِى ... فمالىَ فى الأولى وفى العصر من أجْرِ
يكلّفنى مِنْ بعد ما شبتُ توبةً ... يحطُّ بها عنّى الثّقيلَ من الوِزْرِ
ووالله مالى نيّــةٌ فى صلاتها ... ولا البرّ والإحسان والخيرُ من أمرى
لقد كانَ فى قومِى مساجدُ جَمّةٌ ... ولم ينشرح يوماً لغِشيانها صَدْرِى
وما ضرّه ـ والله يغفر ذنبه ـ ... لو أن ذنوبَ العالمين على ظهرى!

فقال : صدقَ دَعوهُ يُضلّ مَنْ يشاء ، وما يضرّنى ذلك ! والله لا يفلح هذا أبداً ، فدعوه يفعل ما يشاء .

وكان الجمّاز منقطعاً إلى أبى جَزْء الباهلىّ ، فتناسك أبو جَزْء ، فقال الجمّاز : لا أحِبّ أن تخالطنى إلا أن تتنسّك فأظهر النُّسك ، ثم كتب إليه :

(١) الخبر والشعر فى الأغانى ١٠ : ٢٤٨ .

قد جفانى الأمير كى أتقرّى ... فتقرّيتُ مكرهاً بجفائِهِ[1]
والّذى أنطوى عليه المعاصى ... علم الله نيّتى من سمائِهِ
ما قِراة لمكرَهٍ بقراةٍ ... قد رواه الأمير عن فُقهائِهِ

ومن مجون أبى نواس أن الأمير لما نهاه عن الخمر وحَبَسه ، فكلّمه فيه الفضل بن الربيع ، وأخرجه كتب إليه :

أنتَ يابن الربيع علّمتنِى الخيـ ... ـرَ وعوّدْتَنِيه والخيرُ عادَهْ[2]
فارعوى باطلِى وراجعَنِى الحلـ ... ـمُ فأحدثتُ رهبةً وزَهادَهْ
لو ترانى ذكرت بى الحسن البصـ ... ـرىّ فى حال نسكه أو قَتادَهْ
المسابيح فى دراعى والمُصـ ... ـحف فى لَبّتِى مكانَ القلادَه
فإذا شئت أن ترى طرفة تَعْـ ... ـجب منها ملوحةً مستفادَهْ
فادْعُ بى لا عدمتَ تقويمَ مثلى ... فتأمّلْ بعينـ ... ـك السّجّادَهْ
لو رآها بعضُ المرائين يوماً ... لا شتراها يعدّها للشهادَهْ
أثرٌ لاحَ للصّلاة بوجْهى ... تُوقن النّفْس أنه من عِبادَهْ

وأذِن بشار لأصحابه والمائدة بين يديه ، فأكل ولم يدعُهم لطعامه ، ثم دعا بطشتَ وكَشَف عن سوءته فبال ، ثم حضر الظهر والعصر والعشاء الأولى والآخرة ، فلم يُصَلِّ فقالوا له : أنت أستاذنا وقد رأينا منك أشياء أنكرناها عليك . قال : وما هىَ ؟ قالوا : دخلنا والطعام بين يديك فلم تُدعُنا إليه ، قال : إنما أذنت لكم لتأكلوا ، ثم ماذا ؟ قالوا : دَعَوْت بالطشت ونحن حضورٌ فبُلْت ونحن نراك ؛ فقال : أنا مكفوف وأنتم بصراء وأنتم المأمورون بغَضّ البصر دُونى ، ثم ماذا ؟ قالوا : حَضَرتِ الصلاةُ فلم تصلّ ، فقال : إنّ الذى يقبلُها تفاريق يقبلها جملة . هذا على أنه القائل :

(١) الأمالى ٣ : ٤٦ . تقرى : تنسك .
(٢) ديوانه ١٤٥ ، ذيل زهر الآداب ١٦٨ .

ألم تر أنّ الدهر يقدح فى الصَّفَا وأنّ بقائى إنْ حييتُ قليلُ[١]
خَليلُك ما قدّمت من عَمل التُّقى وليس لأيّام المنــون خليلُ
فعش خائفاً للموت أو غير خائفٍ[٢]
على كلِّ نفس للحِمَام دليلُ

وقال الحسن رحمه الله تعالى[٣] :

وندمانٍ يرى غبناً[٤] عليــه بأن يمسى[٥] وليس له انتشاء
إذا نبّهتَه من نــوم سُكْرٍ كفاه مَرّةً منك النداءُ
إذا ما أدركتْه الظهر صلّى[٦] فلا ظهرٌ عليــه ولا عشــاءُ[٧]
يُصلّى هذه فى وقت هــذى فكلّ صلاته أبداً قضاء

[ذكر مدينة تفليس]

تفليس : مدينة بأرمينيَة بينها وبين قَالِيقَلاَ ثلاثون فرسخا، ومن قالى قلا ابتداء الأنهار العظام، أوّلها الفرات ـ وقد تقدّم ـ يأخذ من قالى قلا فرسخين، ثم يشقّ مغرِّبا إلى دَبيل إلى وَرْثان ، ثم يصبّ إلى بحر الخزَر ،والثانى الكبير يخرج من مدينة قالِى قَلاَ ، ثم يشقّ إلى مدينة تَفْلِيس مشرّقا إلىمدينة بَرْدعة وأرضها ، ثم يقرب من بحر الخزَر ، فيلتقىّ مع الرسّ ويصيران نهراً واحداً .

ويقال : إن خَلْف الرسّ ثلثمائة مدينة خراب، وهى التى ذكرها الله تعالى ، وأصحاب الرسّ بُعث إليهم حنظلة بن صفوان فقتلوه ، فأهلكوا . وقيل فى أصحاب الرسّ غير ذلك .

(١) نقله البارودى فى مختاراته ٤ : ٤٦ (٢) المختارات : « عائف »
(٣) مختار الأغانى ٣ : ٦٦
(٤) ط : « عيبا » ، تصحيف . (٥) المختار : « يلقى » .
(٦) ط : « حيا » ، وماأثبته من المختار .
(٧) المختار : « ولا عصر عليه ولا عشاء » .

رفع المسهم

وإرمينيَة مقسومة على ثلاثة أقسام ، فالقسم الأوّل مدينة دَبِيل ، ومدينة قالى‌قلا ، ومدينة خِلاَط ، ومدينة شِمْشَاط ، ومدينة السوّاد ، والجزء الثانى مدينة بَرْدعة ، ومدينة البَيْلُقان ، ومدينة قيلة ، ومدينة الباب والأبواب والثالث مدينة خَزْوان ومدينة تفْليس . والمدينة التى تعرف بمسجد ذى القرنين ، وافتتحت إرمينيَة فى خلافة عثمان ، وافتتحها سليمان بن ربيعة الباهلىّ فى سنة أربع وعشرين .

عُصْبة : جماعة . مفاليس : فقراء ، وأفلسَ الرجل : صار صاحبُ فلوس بعد أن كان صاحب دنانير . أزمعنا الانفلات : عزمنا على الخروج . اللقوة : داء يأخذ فى الوجه ، و الفُوَاق : ما بين الحلبتين . درّ العصبيّة : لبن الحمّية ، وهو مَثَل . نفثة : كلمة . البذل : العطاء . والردّ : المنع . الحبا : عقد اليدين على الركبتين . رَسَوْا : ثبتوا . الرّبا : الكُدَى .

* * *

فَلَمَّا آنَسَ حُسْنَ إِنْصَاتِهِمْ ، وَرَزَانَةَ حَصَاتِهِمْ ، قال : يا أُولِى الأَبْصَار الرَّامِقة ، والْبَصَائر الرَّائقة ؛ أَمَا يُغنى عن الخبر العِيان ، ويُنْبِئُ عن النّار الدّخانُ ؛ شيبٌ لاَئح ؛ وَوَهْنٌ فادِح ، ودَاءٌ وَاضِح ، والباطِنُ فاضح .

ولقد كنتُ واللهِ ممّن مَلَكَ ومَالَ ، وولِىَ وآل ، ورَفَد وأنال ، ووصَل وَصال ؛ فلم تَزَل الجوائحُ تَسْحَت ، والنّوائب تَنْحَت ؛ حتّى الْوَكْرُ قفرٌ ، والكفُّ صِفرٌ ، والشِّعار ضُرّ ، والعيْشُ مُرّ ؛ والصِّبْيَةُ يتضاغَوْن من الطَّوى ، ويتمنَّـــوفَ

حُصاصة النَّوى ولم أَقُمْ هَذَا المقَامَ الشَّائن ، وأكشِفْ لكُمُ الدَّفائن ؛ إلاّ بَعْدَ ما شَقيت ولُقيت ، وشِبتُ مِمَّا لَقِيت ؛ فَلَيْتَنِي لم أَكُنْ بقِيتُ . ثمَّ تأوَّهَ تأوُّهَ الأَسِيف ، وأنشد بصوتٍ ضعيف . . . .

* * *

آنس : أبصر . إنصاتهم : سكوتهم . رزانة حصاتهم : رجاحة عقولهم ، والحصاة يكنى بها عن العقل ، قال طرفة :

وإنّ لسان المرء ما لم يكنْ لهُ حَصَاةٌ على عَوْرَاتِهِ لدليلُ(١)

الأبصار الرّامقة : العيون الناظرة . البصائر : جمع بصيرة وهى المعتقد . الرائقة : المعجبة . العيان : المعاينة ، يقول : معاينتك الشيء تُغنى عن خبرته

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ليس الخبَر كالمعاينة » .

ينبئ : يخبر . لائح : ظاهر . وَهَن : ضُعف . فادح : مثقل بَيّن . فاضح : أى صاحبه فى شهرة وفضيحة . ملك : كان ملكا أو ملك الأموال العظام فصار ذا مِلك : مال : صار ذا مال . ولِيَّ : صاروا ليا . آل : ساس ، أى صار يسوس الناسَ ، أى يكون عليهم أميراً ، قال عمر رضى الله عنه : ألنا وإبل علينا . رِفْد : وَهَب الرفد . أنال : أعطى النّيل والنوال ، يقال : منه نالته وأنلته . وصل : أعطى صِلة ، والرّفد والنّوال : العطاء . والإيالة : السياسة ، آل الأميرُ رعيّتَه أحسن سياستهم ، وآل مالَه يؤله : أصلحه . صال : بطش وعدّد ، وصال

(١) لم أجده فى ديوان طرفة ، والبيت فى اللسان (حصى) ، ونسبه مع بيت قبله إلى كعب بن سعد الغنوى .

رفع المسهم

الفحل : هَدَر فى قطيعه . الجوائح : المصائب . تَسحت : تستأصل الأموال . تنحت : تنجر وتأخذ . النوائب : النوازل . الوكر : قعر المنزل : صِفْر : خالية من الدَّرَاهم . الشِّعَار : اللباس : يتضاغوْن : يصيحون ، والضّغاء صياح الذئب إذا جاع ، والضّغاء : البكاء بذلّ وخشوع . الطَّوَى : الجوع . مصاصة : مايمصّ منه . الشائن : العائب صاحبَه . شَقِيت : أدركنى الشقاء . لُقيت : أصابتنى لَقْوة . تأوّه : توجّع ، وقال أوّه . الأسيف : الحزين .

* * *

أشكو إلى الرّحْمَنِ سُبْحانَهُ تَقَلُّبَ الدَّهرِ وعُدْوَانَهُ
وحادثاتٍ قَرَعَتْ مَرْوتى وقَوَّضَتْ مَجْدِى و بُنْيَانَهُ
واهْتَصَرَتْ عُودِى ويَاوَيْلَ مَن
تَهْتَصِرُ الأحـــداثُ أغصانَهُ

وأَمْحَلَتْ رَبْعى حتَّى جَلَتْ مِنْ رَبْعِيَ المَحْلِ جِرْذانَهُ
وغادرتْنِي حائراً بائراً أَكَابِدُ الْفَقْرَ وأشجانَهُ
من بَعْدِ ما كنتُ أُخا ثَرْوةٍ
يَسْحَبُ فى النِّعمـــةِ أردانَهُ

يختبطُ العافون أوراقَهُ ويحمد السّارُون نيرانَهُ
فأَصْبَحَ اليومَ كأَنْ لم يكنْ أعانَه الدَّهْرُ الذى عانَهُ
وازوَرَّ مَنْ كان له زائراً !
وعاف عافِي الْعُرْفِ عِرْفانَهُ

فهل فتى يحزنُهُ ما يَرَى من ضُرِّ شيخٍ دهرُهُ خانَهُ
فيَفرِج الهمَّ الَّذى همَّـــــه ويُصْلِحَ الشأن الذى شانَهُ

* * *

عدوانه : ظلمه . قرعتْ مَرْوتى : ضربت صخرتى ، وأراد بها نفسه . قوّضت : نقضت وهدمت . اهتصرت : كسرت وحتّتت ، وهَصْرُ الغصن : تعطُّفه وانحناؤه ، وضرب بالمَرْوة والعود أمثالا وهو يريد جسده وماله. أمحلته: جعلته مَحْلاً . جلَت: طردتْ . المحل : الذى لا نبات فيه ولا رزق . جرذانه : فئرانه ، وقد تقدّم فائدة هذا المعنى. بائرا : هالكاً. أكابد : أقاسى . أشجانه : أحزانه . أخا ثروة : صاحب غنى . يسحب . يجرّ . أردانه : أذياله . يختبط : يطلب . العافون : الطالبون للرزق ، وخبطت الورق : ضربتُها بالعصا ، فتسقط فتعلفُها الإبل ، فيضرب بها المثل لعطية الكريم ، وأنشد زهير[1] :

وليس مانِعَ ذِي قُرْبَى وذى رَحِمٍ[2] يوما ولا معدماً من خَابِطٍ وَرَقَا

السارون : الماشون بالليل . عانه : أصابه بالعين . ازورّ : انقبض . عاف : كَرِه . عافى العُرْف : طالب المعروف . عرفانه : معرفته . همّه : أذابه . وشَانَهُ : عابه .

[من كلام الأعراب]

ومن كلام العرب فى هذا الباب، ماحَكَى الأصمعىّ رحمه الله: أنّ الأعراب أصابتْهم سنوات كثيرةٌ جدْبة ، فدخلت طائفة منهم البَصْرة وبين أيديهم أعرابىّ يقول : أيّها الناس ، إخوانكم فى الدين ، وشركاؤكم فى الإسلام ،

(١) ديوانه : ٥٢ .
(٢) الديوان : « وذى نسب » .

رفع المسهم

عابرُو سبيل وفلاَّل بؤس ، وصَرْعى جَدْب ، تتابعت علينا سنون ثلاث غيَّرت النِّعم ، وأكلت النَّعَم ، فأكلنا ما بقى من جلودها فوق عظامها ، فلم نزل نعلِّل بذلك نفوسنا ، ونمنّى بالغيث قلوبَنا ، حتى عاد مختاراً ، وعاد إشراقُنا ظلاما ، فأقبلنا إليكم يصرَعنا الوعر ، ويُنْكينا السهل ، وهذه آثار مصائبنا لائحة فى قَسَمَاتِنَا . فرحم الله متصدّقاً مِنْ كثير ، أو مواسياً من قليل ، فلقد عَظُمت الحاجة ، وكَسِفَ البال ، وبلغ المجهود ، والله يجزى المتصدّقين .

وقف أعرابىّ على حَلْقة يونس النحوىّ ، فقال : الحمدُ لله ، وأعوذ به أن أذكّر به وأنساه ، إنّا أناس قَدْ قدمنا هذه المدينة : ثلاثون رجلا ، لاندفن ميّتاً ، ولانتحوّل عن منزل ، وإن كرهناه ، فرحم الله عبدًا تصدّق على ابن سبيل ، ونضْوِ طريق ، وفَلِّ سَنة ، فإنه لا قليل من الأجر ، ولاغنى عن الله . ولا عمل بعد الموت ، يقول الله تعالى: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فيضاعفه له ﴾ ، إن الله لا يستقرض من عَوَزٍ ، ولكن ليبلوَ أخبارَ عباده .

قال الأصمعىّ رحمه الله: وقف أعرابىّ علينا ، فقال : تتابعت علينا سنون ، بتغيير وانتقاص ، فما تركت لنا ضَيَعاً ولا رَيْعاً[1] ، ولا نافطة ولا عافطة[2] ، ولا ثاغية ولا راغية[3] ، فأماتت الضَّرْع وأفنت الزَّرع ، وعندكم من فضل الله نعمة فأعينوا مِنْ عطيّة الله إياكم ، وارحموا أبا أيتام ، وأنضاء زمان ، فلقد خلّفْتُ أقواما لا يمرّضون مريضَهم ، ولا يُكَفِّنون ميّتهم ، ولا ينتقلون من المنزل وإن كرهوه ، ولقد مشيت إليكم حتى انتعلتُ الدماء ، وجُعْت حتى أكلت النوى المحرقة .

وقفت أعرابية على عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فقالت:

---

(١) الضيع جمع ضيعة ، وهى العقار . والريع : مسيل الوادى من كل مكان مرتفع .
(٢) العافطة : النعجة ، وكذلك النافطة .
(٣) الثغاء : صوت الغنم ، والرغاء : صوت البعير أو الناقة .

رفع المسهم

إنّى أتيت من أرض شاسعة ، تهبطنى هابطة ، وترفعنى رافعة ، فى ملحّات من البلايا ، بَرَيْنَ لحمى ، وهضْن عظمى ، وتركتنى والهة ، وقد ضاق بى البلد ، بعد الأهل والولد ، وكثرة العدد ، لا قرابة تؤوينى ، ولا عشيرة تحمينى . فسألتُ أحياء العرب : مَن المرتجى سَيْبُه ، المأمون عيبُه ، الكثير نائلُه ، الكفىّ سائله ، فدُلِلْت عليك ، وأنا امرأة من هوازنَ ، فقدت الوالد والرافد ، فاصنع فى أمرى واحدة من ثلاث : إمّا أن تحسِنَ صفدَى ، وإما أن تقيم أوَدِى[1] ، وإما أن تردّنى إلى بلدى ، فقال : بل أجمعهنّ لك ففعل بها ذلك .

خرج المهدىّ يطوف بالبيت بعد هَدْأة من الليل ، فسمع أعرابيّة من جانب المسجد ، وهى تقول : قوم متظلّمون ، نبتْ عنهم العيون ، وَفَدَحَتْهم الديون ، وهضّتهم السُّنون ، بادت رجالهم ، وذهبت أموالهم ، أبناء سبيل ، وأنضاء طريق ، وصية الله ووصية رسوله صلى الله عليه وسلم ، فهل من آمرٍ بخيرٍ كلأه الله فى سفره ، وخَلَفه فى أهله ! فأمر لها بخمسمائة درهم .

ومما جاء فى ذم السؤال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأَنْ يأخذ أحدُكم حبلَه فيحتطب فيه أهونُ من أن يأتىَ رجلا أعطاه الله من فضلِه فيسأله ؛ أعطاه أو منعه » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ فتح على نفسه باباً من السؤال ، فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر » .

وقال أكثم بن صيفى : كلّ سؤال وإن قلّ أكثر من كلّ نوال وإن جلّ .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : المساكين لا يعودون مريضاً ، ولا يشهدون جنازة ، ولا يحضرون جمعة ، وإذا اجتمع الناس فى أعيادهم ومساجدهم يسألون

(١) الصفد : العطاء . والأود : الاعوجاج .

الله من فضله ، اجتمعوا يسألون الناس ما بأيديهم .

سأل سائل بمسجد الكوفة فلم يُعطَ شيئاً ، فقال : اللهمّ إنك بحاجتى عالم لا تعلّم ، أنت الذى لا يعوزك نائل ، ولا يلحفُك سائل ، ولا يبلغ مدحك قائل ؛ أسألك صبراً جميلا ، وفرجاً قريباً ، وبصراً بالهدى ، وقوّة فيما تحب وترضى . فتبادروا إليه بالعطية ، فقال : لا والله لا أرزؤكم الليلة شيئاً ، ثم خرج وهو يقول :

ما نال باذلُ وجهه بسؤاله ... عوضاً ولو نال الغِنَى بسؤالِ
وإذا النّوال مع السؤال وزنته ... رَجَح السؤال ، وخفّ كلّ نَوَالِ
وإذا ابليت ببذل وجهكَ سائلاً ... فابذله للمتكرّم المِفْضَالِ

وقال بعض الأدباء : المخذولُ مَنْ كان له إلى اللئام حاجة .

وأنشد الجاحظ فى نوادره لأعرابىّ :

سير المنوامح بالقليعة فى الضّحَى ... يمشى الذليلُ بها على بلْبالِ
خيرٌ من الطمع الدنىء ومجلسٍ ... بفناء لا طلق ولا مِفضَالِ
فابْثُثْ حوائجكَ لليلك فإنه ... يغنيك قبل تخشُّعٍ بسؤالِ

* * *

قال الراوى : فصَبَتِ الجماعةُ إلى إنْ تَسْتَثْبِتَه ، لتَسْتَنْجِسَ خُبْأَتَه ، وتَسْتَنْفِضَ حَقِيبتَه ، فقالت له : قَدْ عَرَفنا قَدْرَ رُتبَتِك ، ورأَينا دَرَّ مُزْنتِك ؛ فعرِّفْنا دَوْحَةَ شُعبَتِك ، واحْسِرِ اللِّثامَ عن نِسْبَتِك . فأَعْرضَ إعْرَاضَ مَنْ مُنِىَ بالإعْنَاتِ ، أو بُشِّر بالْبنَات ، وجَعلَ يلْمَنُ الضَّرُورات ، ويتأَفَّفُ مِنْ تَغَيُّض المرُوءات . ثم أَنْشَدَ بلفظ صادِعٍ ، وجَرْسِ خادِعٍ :

رفع المسهم

لَعَمْرُكَ ما كلّ فرعٍ يدلُّ جناهُ اللّذيذ على أصْلِهِ
فَكُلْ ما حَلاَ حِينَ تُؤْتَى بِهِ ولا تَسْأَلِ الشَّهْدَ عَنْ نَحْلِهِ
ومَيِّزْ إذا ما اعْتَصَرْتَ الكروم
سُلاَفَةَ عَصْرِكَ من خَلِّهِ
لِتُغْلِي وتُرخِصَ عن خِبْرةٍ وتَشْتَرى كلاًّ شِرَا مثلِهِ
فعارٌ على الفَطنِ اللَّوْذَعىّ دُخُولُ الغميزةِ فى عَقْلِهِ

* * *

قوله : تَسْتَثْبته : تحقق مَنْ هو . تستنجش ، تستخرج ، والنَّجَش : استخراج الشيء المجهول المستور . وقيل : تنفير الوحش ، وهو من الأوّل، لأنّ تنفير المطمئن كإظهار الكامن . خبْأته : سرّه الّذى أخبرهم بظاهره حيث قال : كيت وكيت .

الحقيبة : وعاء يعلّقه الرجل خلف رَحْلِه ، يجعل فيه ما يعز عليه ممّا يحتاج أن يتناوله متى شاء ، وأراد بها ها هنا موضع سِرّه تستنفض : تنثر ما فيها . رتبتك : قدرك ومنزلتك . دَرّ مُزْنتك : ماء سحابك ، وأراد ما أبدى لهم من البلاغة . دوحة : شجرة . شعبتك : فرعك وغصنك . احْسِر : أزل واكشف . اللّثام : ما يُجعَل على الأنف والفم ، يريد عرّفنا أصلك ، ومن أين أنت . مُنِىَ : بُلِىَ . الإعنات : المشقة ، وعنّته وأعنته : كلّفته ما يشقّ عليه . وبُشّر بالبنات : أُخبِر بولادتهنّ ، وقد أخبر الله تعالى أن مَنْ بُشّر بالأنثى ظلّ وجهُه مسودًّا وهو كظيم ، يتوارَى مِنَ القَوم من سُوء ما بشّر به . وقد تقدّم وأد البنات وهو دسّهنّ فى التراب .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم من طريق عقبة بن عامر : « لا تكرهوا البنات فإنهنّ المؤنسات الغاليات » . وقال عليه الصلاة والسلام « أحبّوا البنات ، فإنّي أبو البنات » ، وإنّ الرجل إذا ولدت له ابنةٌ هبط إليها مَلَكان فمسحا على ظهرها ، وقالا : ضعيفة خرجت من ضعيف ، مَنْ أعان عليكِ لم يزل يصاب إلى يوم القيامه .

قوله : يتأفف ، يقول : أف أف ، وهو من فعل المهموم الملهوف . تغيُّض المروءات : ذهاب الأفعال الحسان . صادع : شديد يشقّ الأذن . جرس : صوت . جناه : ما يجتنَى منه . الشهد : العَسَل ، أى كل العسل ، ولا تسلْ عن النحل التى صنعته ، ولا مِنْ أين هو ، ضربه مثلا لترك سؤالهم عنه ، إذ أفادهم . سُلافة : خمر لم تُعْصَر . عصرك : تعصيرك . خِبرة : معرفة وتجربة . الوَذْعِيّ : الذكى . الغميزة : ضعف التدبير والنظر ، لأنّ الذى لا يحسن التدبير ، والنظر إذا سقط غمزه الناس وعابوه .

* * *

قال : فازْدَهَى القَوْمَ بذَكَائِه ، واختَلَبَهُمْ بِحُسْنِ أدَائه مع دائه ، حتَّى جمعوا له خبَايا الخُبَن ، وخفَايا الثُّبَن ، وقالوا له : يا هذا ، إنَّك حُمْتَ على رَكِيَّةٍ بَكِيَّةٍ ، وتعرّضت لِخَلِيَّةٍ خَلِيَّة . فخذ هذه الصُّبابة ، وهَبْهَا لا خطأً ولا إصابة .

فنزّلَ قُلَّهُمْ مَنْزِلَةَ الكُثْر ، ووصَلَ قبولَهُ بالشُّكْرِ . ثم تولَّى يجرُّ شِقَّهُ ، ويَنْهَبُ بالخبْطِ طُرْقَهُ .

قال المخبرُ بهذهِ الحِكايَةِ : فصُوِّرَ لِى أنَّهُ مُحيلٌ لِحَلْ

متصنّعٌ فى مِشْيتِهِ . فنهضتُ أَنْهَجُ مِنْهاجَه ، وَأَقْفُو أَدْرَاجَه ؛ وهُوَ يَلْحَظُنِى شَزْرًا ، ويَوسِمُنِى هَجْرًا ؛ حتَّى إذا خَلاَ الطريق ، وأَمْكَنَ التَّحقيق ، نَظَرَ إِلَىَّ نَظَرَ مَنْ هَشَّ وَبَشَّ ، وما حضَ بَعْدَ ما غَشَّ ، وقال : إِنِّى لإخالُكَ أَخَا غُرْبَة ، ورائدَ صُحْبَة ؛ فهلْ لك فى رفيقٍ يَرْفُق بِكَ ويُرافِق ، وَيَنْفُقُ عليك ويُنْفِق ؟ فقلت له : لو أتانى هذا الرفيقُ لَوَاتانى التَّوفيق . فقال لى : قدْ وَجَدْتَ فاغتبط ، واسْتَكْرَمتَ فارتبِطْ .

* * *

ازدهى : دعاهم إلى الزهو والإعجاب به . ذكائه : حدّة ذهنه . اختلبهم : خدعهم . الخبن : أطراف الثوب ، كالكم وغيره ، والثُّبَنُ : أطراف الرداء وشبهه ، والخُبْنة فى الثوب الخيط ، وقد خبنته عطفته وكففته بالخياطة ، وقيل : الخَبْن القبض ، والخُبْنة لما بلى من حُجْزة السراويل والإزار ، والجمع خُبَن ، والثُّبنة ما يلى الظهر من السراويل والإزار . حُمْتَ : حلقت . ركية : بئر . بكية : قليلة الماء . خلية : جَبْح النحل حيث كان من حجر أو شجر ، وقيل الخلية الخشبة المنقورة لها خاصة ، والخلية فى غير هذا السفينة ، فشبّهت خلية النحل بها . خلية : فارغة ، الصُّبابة : الشىء القليل إذا أخذ منه بكثرة . اخبط : أراد به أخذ الأموال بالسؤال ، يقال : خبطت الشجرة خبطاً ، نفضتُ ورقها ، أراد أنه كان يجرّ جانبه المعلّ ، فكلّ مَنْ مرّ به وسأله رحمه . مخيل : مغير . حِلْيَتُه : خلقته وصفاته . نهضت : تقدّمت للمشى . أنهج منهاجه : أمشى فى طريقه . أقفو أدراجه : أتبع آثاره . يلحظنى : ينظرنى .

شزراً ، أى فى جهة بمؤخر عينه . قال ابن الأنبارىّ : نظر إلىّ شزرا ، أى نظر إلىّ من جانب عينه من شدّة العداوة والبغضاء ، يقال : شزر يشزَر ، إذا نظر

من جانب عينه من العداوة أو من الفَرَق . ويُوسعنى هجراً ، أى يكثر تجنّبى ومباعدتى . هشّ : خفّ واهتزّ . بشّ : حسن اللقاء ، ويقال : بش فلان بفلان ، إذا سرّ به وفرح وانبسط إليه ؛ ويقال : تبشبش به بمعنى بشّ به ، والبشاشة والهشاشة الطلاقة والتبسّم . ماحض : أخلص ودّه . غشّ ، ضد أخلص ، ويقال : غشّه ، أى عمل فيما يحبه شيئاً قليلا وخلطه بما يسوءه ، أخذ من الغشش ، وهو الشراب الكدر . إخالك : أحسبك . رائد : طالب . يرفق بك : يلاطفك ويكون بك رفيقاً . يرفق : يوليك مرافقة ، أى يعينك بماله حتى يجد معها الرفق . لواتانى : لوافقنى . اغتبط ، أى كن به مغتبطا أى محبًّا فى بقائه ، والغِبْطة : حسن الحال . استكرمت فارتبط ، أى اتّخذت كريماً ، وجاء هذا اللفظ فى حكاية ذكرها أبو علىّ ، وهى أنّ فتى من العرب جاء إلى أمّه ، وقد عمِيت فقال لها : يا أمّه ، إنى اشتريت فرساً ، فقالت : صفه لى ، قال : إذا استقبل فظْبى ناصب ، وإذا استدبر فهِقْل[1] هاضب ، وإذا استعرض فسِّيد[2] قارب ، موالى المسمعين ، طامح الناظرين ، مدعاق الطُّبيين ، قالت : أجدْت إن كنت أعربت ، قال : إنه مشرف التّليل ، سبط الخصيل ، وهواه الصهيل ، قالت : أكرمت فارتبط[3] .

. . .

ثمّ ضَحِك ملِيًّا ، وتمثَّل لى بشراً سَوِيًّا ؛ فإذا هو شيخنا السَّرُوجىّ ، لا تَلَبَةَ بجسمه ، ولا شبهةَ فى وَسْمِه ؛ ففرحتُ بلُقْيَتِه ، وكَذِب لَقْوَته ، وهَمَمْتُ بمَلاَمَتِه ، على سوء مَقَامَتِه ، فشحَا فاه ، وأَنشدَ قبل أن ألحاه :

ظَهَرْتُ بِرَثٍّ كَيْمَا يقالُ فقيرٌ يُزَجِّى الزَّمانَ المُزَجَّى

(١) الهقل : الفتى من النعام ، والهضب : نوم من السير .
(٢) السيد : الذئب ، والقرب : نوم من السير .
(٣) مجمع الأمثال ٢ : ١٤١

رفع المسهم

وأظْهَرْتُ لِلنَّاس أنْ قَدْ فُلِجْتُ

فكَمْ نال قلبِى بِهِ ما تَرَجَّى

ولولاَ الرَّثَاثَةَ لم يُرْثَ لى ولولاَ التَّفالُجُ لم أَلْقَ فُلْجَا

ثمَّ قال : إنَّه لم يَبْقَ لِى بهذِه الأرْض مَرْتَع ، ولاَ فى أَهلها مطمع ؛ فإن كنتَ الرفيق ، فالطريقَ الطَّريقَ . فسِرْنا مِنْها مُتَجرِّدَيْن ، ورافقتُه عامَيْن أَجْرَدَيْن . وكنتُ على أن أصحبه ما عِشتُ ، فأَبَى الدَّهرُ المُشِتّ .

* * *

قوله : ملِيًّا، أى طويلا . قُلبة : عِلّة. قال الكسائى رحمه الله : مابه قُلْبة ، أى شىء يقلقه فينقلب من أجله على فراشه لعلّته . وقال الفراء رحمه الله : مابه من وجع يُخاف عليه منه ، من قولهم : قلُبَ الرجل إذا أصابه وجع فى قلبه ، فلا يكاديَنقلب منه . قال الأصمعىّ رحمه الله : معناه مابه داء ، مأخوذ من القُلاب، وهو داء يصيب الإبل فى رءوسها فيقلبها إلى فوق. شبهة : التباس وتغيّر . وسمْه : صفاته. اللُّقيَة : المرّة الواحدة من اللقاء . وقال فى الدّرة[1] : العرب تقول : لقية ولقاءة ولقاية، إذا أردوا المرّة الواحدة ، فإن أرادوا المصدر ، قالوا : لقيته لقاء ولَقًى ولُقيًّا ، هذا وأنشد :

وإنّ لقاها فى المنام وغيره وإنْ لم تجد بالبَذْلِ عندى لرابحُ

وخطّأ من يقول : لقيته لقاءة واحده ، وأغفل أنّ سيبويه قال فى كتابه : أنيته إنيانةً ، ولقيته لقاءة واحدة .

(١) درة الغواص ٩٣

والقوة : استرخاء اللحى وعَوَجه . مقامته : مجلسه الذى كدى به شَحَاناه : فتحه قال جرير :

وُضِع الخزير فقيل أين مجاشع فشحا جحافِلَه جُراف هَبْلَع[1]

الخزير، بنقط الخاء ثم زاى: دقيق يلبك بشحم، وجراف الشيء سخونة. ألحاه : ألزمه . يزجّي : يسوق . المزجى : القليل الخير ، وهذا كما قال : لبست الحميصة أبغى الخبيصة .فُلجت: أصيبت بفالج. الرثاثة:سوء الحال. التفالج: استعمال الفالج ، وهو خَدَرٌ يصيب الجسد. فلجاً : فوزا وظفرا. مَرْتع: موضع يَرْعى فيه. مُنْجَرِدَيْن: مُسْرعين، وانجرد الرجلُ فى سيره ، إذا جدّ فى الذهاب. أجردين: تامّين كاملين ، وسرتُ يوماً وشرًا وحوْلا أجرد ، وجريدًا أى تاما ، قال سُويد بن كراع :

وجَشّمنِي خوف ابن عفان ردّها فثقّفتُها حولاً جريدا ومَرْبعا[2]

الشتّ : المفرّق .

(١) ديوانه ٣٤٥ (٢) الشعر والشعراء ٦١٧

رفع المسهم

المقامة الرابعة والثلاثون وتعرف بالزبيدية

أخبر الحارث بن همّام ، قال : لمّا جبتُ البيدَ إلى زَبيد ، صحبَنى غلامٌ قد كنت رَبَّيتُه إلى أن بلَغَ أشدَّهُ ، وثقّفتُه حتّى أكملَ رُشْدَه .

وكان قد أنِسَ بأخلاقى ، وخَبَر مجالبَ وِفاقي ؛ فلم يكُنْ يتخطَّى مرامِى ، ولا يُخطِئُ فى المرامِى ؛ لا جـــرم أنّ قُربَهُ التاطتْ بِصَفرِى ، وأخلصْتُه لحضَرِى وسَفَرِى ، فألوَى به الدّهرُ المُبيدُ ، حين ضَمَّنَا زبيد .

* * *

جُبْت : قطعت . البِيد : الصحارى .

زَبيد : بلدة باليمن بينها وبين صنعاء أربعون فرسخا ، وليس فى اليمن بعد صنعاء أكبر منها ، ولا أغنى من أهلها ، ولا أكثر خيرا ، واسعة البساتين ، كثيرة المياه والفواكه من الموز وغيره ، وهى برّية لا ساحلية .

وبلغ أشدّه : أى بلغ الحلم ، وقيل ثلاثين سنة . قال الأزهرىّ رحمه الله تعالى : الأشدّ فى كتاب الله تعالى على ثلاث معان : أما قوله تعالى فى قصة يوسف عليه السلام ﴿ ولمّا بلَغ أشدّه آتيناه حُكْمًا وعلْما ﴾[1] فبلوغه مبلغ الرجال ، وكذا فى اليتيم ، حكمه أن يحفظ عليه ماله حتى يبلغ أشدّه ، وبلوغه أشده أن يُؤنس الرُّشد منه مع أن يكون بالغا .

(١) سورة يوسف ٢٢

رفع المسهم

وأما قوله تعالى فى قصة موسى عليه الصلاة والسلام ﴿وَلَمَّا بلغ أشدَّه واستَوَى﴾[1] فقرن بلوغ الأشد بالأستواء وهو أن تجتمع قوّته ، ويكتهل وذلك من ثمان وعشرين إلى ثلاث وثلاثين سنة ، وذلك منتهى الشباب . وأما قوله تعالى ﴿حَتَّى إذَا بلَغ أشدّه وبلغ أربعين سنة﴾[2] فهى نهاية بلوغ الأشد ، وعندها بُعِث محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد اجتمعتْ حكمته وتمام عقله ، فبلوغ الأشدّ محصور البداية محصور النهاية مابين ذلك .

ثقفته : قوّمته وحَذَقته . خبر : أى جرّب وعَرَف . مجالب وفاق : أى عَرف من أين يُجلب مايوافقنى . يتخطّى : يتجاوز . مرامى : مرادى ومَقْصدى . لاجرم ، أى لامحالة ولابدّ ، ثم صارت بمعنى حقًّا . قُرْبة : ماُيتقرب به إلى من المبرّة . التاطت : لصقت . بصفَرى : بنفسى وقلبى ، والصَّفَر دود فى البطن ، إذا جاع الإنسان عضَّت شراسِيفَه ، وهى رقيق البطن ، قال أعشى باهلة :

* ولا يَعضّ على شُرْسُوفِه الصَّفَرُ *[3]

فيريد أن هذا الغلام مهذّب يأتى بمحاولاته على الوفاق ، ويقرب الطعام من مولاه وقت الحاجة ، ومن حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنّ النبى صلى الله عليه وسلم قال : « نعمّا للمملوك أن يتوفاه الله ، بحسن عبادة ربه ، وطاعة سيّده نعما له » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إذا نصح العبد لسيده وأحسن عبادة رَبّه فله أجران » .

أخلصته : أفردته . ألوى : ذهب به وأهلكه . المبيد : المهلك . وننشد هنا أبياتا لابن الحضرمى فى غلام هلك للمتوكّل ببطليوس :

غالته أيدى المنايا وكُنّ فى مقلتيه

---

(١) سورة القصص ١٤ (٢) الأحقاف ١٥ (٣) الكامل ٤ : ٦٥ ، وصدره :

* لاَ يَغْمِزُ السَّان من أينٍ ولا وَصَبٍ *

وكان يَسْقى الندامى بطـــرفه ويَدَيْه
غُصن ذَوَى وهلالٌ جاء الكسوفُ عليه

ويُستحسن لابن هَمام أن ينشد فى وصف هذا الغلام :

حين تمَّت آدابُهُ وتردَّى برداء من الشَّباب جديدِ
وسقاه ماء الشبيبة فاهْتـــزّ اهتزاز الغصن النّدىّ الأملودِ
وسمت نحوه العيون وماكا نَ عليه لزائدٍ من مَزِيدِ
وكأنّى أدعوه وهو قريبٌ حين أدعوه من مكان بعيدِ

وأنشد بعضهم :

نأى آخر الأيام عنك حبيبٌ فللعين سَحٌّ دائم وغروب[1]
كأن لم يكن كالغصْنِ فى مَيْعة الضُّحى
سقاه النـــدى فاهتزّ وهو رطيبُ
وريحان صدرى كانَ حين أَشَمُّهُ ومؤنس قَصْرِى كان حين أغيبُ
وكانت يدى ملآنة ثم أصبحتْ بمُنْد إلهى وهىَ منه سليبُ

* * *

فلمَّا شالتْ نَعامتُه ، وَسَكنَتْ نَأْمتُـــه ، بقيتُ عامًا ، لا أسيغَ طعاماً ، ولا أُرِيغُ غُلاَمًا ، حتَّى ألجأتنى شَوَائبُ الْوَحْدَة ، وَمَتَاعِبُ القَوْمَةِ والْقَعْدَةِ ؛ إلَى أَن أعتاضَ عن الدُّرّ الخَرَز ، وارتادَ مَنْ هُوَ سِدَادٌ مِنْ عَوَزٍ ؛ فقصَدْتُ مَنْ يَبيع العبيدَ ، بسُوقِ زَبيد ، فقلتُ : أريدُ غلاماً يُعْجبُ إذا قُلِّبَ ، وَيُحْمَدُ

(١) لإبراهيم بن المهدى يرثى ابنه ، وهى قصيدة وردت فى الكامل ٤ : ٢٣ ـ ٢٥ ، ومنها هذه الأبيات .

إِذَا جُرِّب ؛ ولْيَكُنْ مِمَّنْ خَرَّجَهُ الأَكْيَاس ، وأَخرَجه إِلَى السُّوقِ الإفلاَس ؛ فاهْتَزَّ كلٌّ مِنْهُمْ لِمَطْلَبِى وَوَثَب ، وبَذَل تَحْصِيلَهُ عَنْ كَثَب . ثمَّ دارت الأَهِلَّة دَوْرَهَا ، وتقلَّبَتْ حَوْرَها وكَوْرها ، وَمَا نجزَ من وَعُودِهِمْ وعْدٌ ، ولا سَحَّ لهَا رَعْد .

فَلَمَّا رأيتُ النَّخَّاسِين ، ناسِينَ أو مُتَنَاسِينَ ، علمتُ أَنْ لَيْسَ كلُّ مَنْ خَلَق يَفْرِى ، وأَنْ لَنْ يَحُكَّ جِلْدِى مثلُ ظُفْرِى . فَرَفَضْتُ مَذْهبَ التَّفويض ، وبَرَزْت إِلى السُّوق بالصُّفْر والبِيض .

* * *

شالت نعامته ، أى ارتفع نعشه . ويقال فى المصلوب : شالت نعامته ، أى ارتفعت خشبتُه ، وشالت نعامة القوم ، أى ولَّوْا منهزمين ، وهو مَثَلٌ يُضْرَبُ للانهزام والهلاك والتفرّق . وأنشد الشاعر :

تَلقى خصاصةَ بيننا أرماحُنا شالتْ نعامةُ أيِّنا لم يفعل

يخاطب أعداءه وقد وافقهم ، يقول : هلّم نلقى فى الفُرْجة الّتى بيننا أرماحنا ، ونضرب بالسيوف ، هلك وانهزم مَنْ لم يفعلْ ، يدعوعليه وينسب ذلك النعامة ، لأنّ النعام موصوف بالشَّخف والرِّق والشراد . فإذا قالوا : شالت نعامتُهم ، وخفَّتْ نعامتهم ، ورَقّ رأيهُم ، فمعناه إذا تركُوا مواضعهم بجلاء أو بموت . ويقال : أحمَقُ من نعامة ، لأنها تنشر للطعام ، فربما رأت بيضةَ نعامةٍ أخرى وحدها فتحضُنها ، وتنسى بيضَتَها ، ثم تجىء الأخرى فترى على بيضتها غيرها ، فتمضى لوجهها ، وإياها عنى ابن هَرْمه بقوله :

كتاركة بيضها بالعراء وملبسةٍ بيض أخرى جَناحا[1]

قاله الجاحظ :

وأما أبو عبيدة فقال : عنى الحمامة . وقال ابنُ الاعرابىّ ، بيضة البلد التى سَار بها المثل هى بيضة النعامة التى تتركها فلا تهتدى إليها فتفسد فلا يقربها شىء . قال الراعى :

لو كنتَ من أحد يُنجَى هجوتكمُ
يا ابنَ الرّقاع ولكن لستَ من أحدِ[2]
تأبَى قضاعة أن ترضَى لكمْ نسبًا[3]
وابنا نزار فأنتمْ بيضةُ البلدِ

قوله : نأمته ، أى حركته التى تنمو بحياته. وزعموا أنّ النّامّة بوزن العامّة، عِرْق اليَافوخ . أسيغُ طعاما : استسهِلُ بَلْعَه . أرِيغ غلاما : أطلبه . السِّدَاد : اسم مايسدّ به الشىء ، مثل سِداد القارورة وهو صمامها ، وسِداد الفقر مايذهبه ويكتفى به من المال ، وسِداد الثّغر مايذهب خوفه من الخيل والرجال ، والسّداد بالفتح : الإصابة فى المنطِق، وقال يعقوب: السّداد والسِّداد بمعنًى واحد ، وسنعيد ذكره فى أخبار العرجى .

والعَوَز : فقد الشىء فإنه أراد عبدا يَسُدّ به فَقْد غلامه الميِّت . إذا قُلِّب أى إذا قلِبت خلقته وجدت كلّ جزء منها حسنا . خرّجه : حَذّقه وربّاه . الأكياس : أهل الفطنة والحذق . والإفلاس : الفقر . وثب : قفز وعجِل إلى

(١) ديوانه ٨٧ ، قال فى شرحه : « يضرب مثلا لمن ترك مايجب عليه الاهتمام به والجد فيه ، واشتغل بما لايلزمه » .
(٢) اللسان ـ بيض ، والبيت الثانى فى المضاف والمنسوب ٤٩٦ .
(٣) اللسان : « تأبى قضاعة لم تعرف لكم نسبا » .

المشى . بذل : أعطى ، تحصيله : وجوده وحصوله . كَثَب : قرب يريد أنه أعطى من نفسه القدرة على حصوله فى أقرب مدة . دارت الأهلة دورها ، أى كملت الستة وكملت الأهلة فيها بالطلوع . كَوْرها وحَوْرها : زيادتها ونقصانها ، وقد تقدّم الكور والحوْر . نجز : حضر . سَحّ : أمطر .

النخّاسين : الدلاّلين للعبيد والدواب . ثعلب : أُخِذ من النَّخْس وهو الدفع ، فمعنى النخّاسين الذين يشترون العبيد ليدفعوهم إلى غيرهم . ليس كلُّ مَنْ خلَق يفرِى ، مثل ، وخلق قدّر ، يقال : خلق الصانع الجلد ، إذا قدر مايقطع منه ، وقيل : الخَلْق : القَطْع ، والفَرْى : القطع أيضاً ، ولكن تقديرا ، فمعنى المَثَل : ليس كلّ من قطع شيئاً قدّر مايقطع به ، ويفرِى أيضاً : يُحسن القطع على جهة الإصلاح . قال زهير :

ولأنْتَ تفرِى ماخلقْتَ وبعـــضُ القوم يَخْلُق ثم لايَفْرِى[1]

ويقال أيضاً : خلق الشىء صنّفه ، وفَرَاه : أفسده ، وأراد ليس كلّ الناس يحسن شراء العبيد .

قوله : لايحك جِلْدى مثل ظفرى هو مثل يضربُ فى ترك الاتكّال على الناس ، قال الإمام الشافعىّ رضى الله عنه :

ماحكّ جلدكَ مثل ظُفْرِكْ فتولّ أنتَ جَمِيعَ أمْرِكْ
وإذا قَصَدْتَ لحاجةٍ فاقصد لمعترف بقَدْرِكْ

رفضت : تركت . التفويض : أن يتّكل الرجل على غيره ويسلّم أمره إليه . الصُّفْر والبيض : الدّنانير والدراهم .

* * *

فإنّى لأستَعْرِضُ الغِلْمَان ، وأستَعْرِفُ الأثمان ، إذْ عارَضنى رجلٌ قد اختَطَمَ بلِثامٍ ، وقَبَضَ عَلَى زَنْدِ غُلام ، وقال :

(١) ديوانه ٩٤

مَنْ يَشْتَرِى مِنِّى غُلاَمًا صَنَعاً
فى خَلْقِهِ وَخُلْقِهِ قَدْ بَرَعـــا
بكلِّ ما نُطْتَ به مُضْطلِعـا
يَشفيك إن قال وإن قلتَ وعَى
وإن تُصِبْكَ عَثْرةٌ يقُـــلْ لَعا
وإن تَسُمْهُ السَّعْىَ فى النـار سَعَى
وإن تُصاحِبْهُ ولَوْ يوماً رَعَى وإن تُقنِّعْهُ بِظِلْفٍ قَنِعاَ
وهو على الـكِنْسِ الذى قَدْ جَمعا
ما فاه قـــطُّ كاذِبًا ولا ادّعَى
ولا أجابَ مطمعًا حين دعا ولا استجاز نَثَّ سِرٍّ أودِعَا
وطَالَمَا أَبْدَعَ فيما صَنَعـاَ وفاق فى النثر وفى النَّظمِ مَعا
واللهِ لوضَنَّكَ عَيْشٍ صَدَعاَ وصِبْيَةٌ أَضحَوْا عُراةً جُوَّعا
* ما بعتُه بمُلكِ كِسْرَى أجمعاَ *

قال : فَلَمَّا تأمّلتُ خَلْقَهُ القويم ، وحُسْنَهُ الصَّميم ، خِلتُه مِنْ وِلْدَانِ جَنّـةِ النَّعِيم ، وقُلتُ : ما هذا بشراً إنْ هذا إلاَّ مَلَكٌ كريم.

* * *

أستعرض: أطلب أن يُعرَض علىّ ، وعارضنى: قابلنى . أستَعرِف : أطلب معرفته . اختَطَم : جعَل اللثام على طرف الأنف ـ وهو الخَطْم والخُرطوم للسباع ـ واللثام : ما كان على الأنف من النقاب . والزَّنْد : طرف عظم الساعد المتّصل

بالكف ، فهو قد قبض على أرق موضع فى الذراع . الصنع : الحاذق بالصناعة ، والمرأة صناع . برع : فضل وفاق غيره . نطت : علقت . مضطلعاً : مكتفيا قوياً عليه . وعى : حفظ . لعاً ، كلمة تقال للعاثر ـ يعنى : أقال الله عثرتك ، وسلمك الله ـ تسمه السعى : تكلفه المشى . رعى : حفظ الصحبة . الظلف للشاة بمنزلة الحافر للدابة . الكيس الحاذق . فاه : تكلم .

ثم قال : لم يدعه الطمع قط فأجابه . استجاز : استحل . نث : نشر ، أبدع : أغرب وأتى بما لم يسبق إليه . ضنك : ضيق . صدع : كسر ، وأنشدوا فى هذا المعنى :

وقد تخرج الحاجات يا أم مالك ... علائق من ربّ بهن ضنين

خلقه القويم : المعتدل القامة . الصميم : الخالص ، وهو فعيل ، من صم الشىء إذا لم يكن فيه فرجة ولا خلل . خلته : حسبته .

[ذكر الغلمان وأخبار عشاقهم]

وننشد فى هذه المقامة فى الغلمان ماله سبب وتعلق بذكر يوسف عليه السلام ، أو يكون الغلام مملوكاً حتى يوافق غرض المقامة .

كان شفيع غلام المتوكل أحسن الفتيان وأظرفهم ، وكان المتوكل يجن به جنونا ، فأحب يوما أن ينادم حسين بن الضحاك ، وأن يرى ما بقى من شهوته ـ وكان قد أسن ـ فأحضره وسقاه حتى سكر ، وقال لشفيع : اسقه ، فسقاه وحياه بوردة ، وكانت على شفيع ثياب موردة . فمد حسين يده إلى ذراع شفيع ، فقال المتوكل : أتخمش أخص خدمى بحضرتى ، فكيف لو خلوت به ! ما أحوجك إلى الأدب ! وكان قد غمز شفيعا على العبث به ، فدعا بدواة فكتب :

وكالوردة الحمراء حيا بوردة ... من الورد يمشى فى قراطق كالورد (١)

(١) ديوانه ٤٣ ، والأغانى ٧ : ١٧١ ، وفيه : « وكالدرة البيضاء حيا بعنبر » .

له هبَبَات عنـد كل تحيّةٍ بكفّيه تستدعى الحليم إلى الوجدِ[١]
تمنّيت أن أسْقَى بعينيه شَرْبَةً تُذَكّرنى ماقد نسيتُ من العهدِ
سقَى الله دهراً لم أبِتْ فيه ليلةً خليًّا ولـكن من حبيبٍ على وَعْدِ

ثم دفعها لشفيع فأعطاها المتوكل : فاستملحها وقال : أحسنت والله ياحسين ! ولو كان شفيع ممّن تجوز هبته لوهبتُه لك ؛ ولـكن بحياتى ياشفيع إلاّ كنتَ ساقيَه بقيّة يومنا . وأمر له بمال كثير .

وكان لمعز الدولة غلام تركىّ ، وكان وضىء الوجه ، منهمكًا فى الشراب ، ولفرْط ميل مولاه إليه جعله رئيس سريّة جرّدها لحرب بنى حمدان ، وكان المهلبىّ[٢] يستظرفه ويستحسنه ، فقال :

ظبيٌ يُروق المـــاء فى وجَنَاته ويروقُ عودُه[٣]
ويكادُ من شبَه العذا رى فيه أن تبدُو نهودُه
ناطوا بمِعْقِـدِ خَصْرِه سيفًا ومِنطقة تئودُه[٤]
جعلوه قائدَ عسكرٍ ضاع الرّعيلُ ومَنْ يقودُه[٥]

فـكانت الدائرة على جيش الغلام ، كما أشار إليه ، ولو غزاهم بالسّلاح الذى أمر به الببغاء غلاماً غازياً وهو :

يا غازياً أنت الأحزانُ غازيةً إلى فؤادىَ والأحشاء حين غزَا[٦]
إن بارزتْك رماةُ الرّوم فارمهمُ بسهم عينيك تقتُلْ كلّ مَنْ برزا

لـكان الظافر الغالب .

وكان[٧] بديع غلام عمير[٩] المأمورىّ أحسن خلق الله وجهاً ، وكان

(١) الديوان : « بعينيه تستدعى الحلى » .
(٢) هو الحسن بن محمد ، من ولد قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة . له ترجمة فى اليتيمة ٢ : ١٠٢
(٣) اليتيمة ٢ : ٢٠٣ ، وفيها : « يرق » (٤) يئوده أى يثقله .
(٥) الرعيل : الجيش (٦) يتيمة الدهر ١ : ٢٢٤ .
(٧) الخبر والشعر فى الأغانى ٢٠ : ٥٦ ـ ساسى ، ومختار الأغانى ٧ : ٢٨٧ .
(٩) فى المختار : « عمر » .

الوزير ابن الزيات مفتوناً به ، فاجتاز عليه راكباً بآلة الحرب ، فقال فيه :

راحَ علينا راكبًا طِرْفَهُ أغيدُ مثل الرّشأ الآنسِ
قد لبسَ القرطقَ واستمسكتْ كفّاه من ذِي بدَنٍ مائسِ
وقُلِّدَ السيف على غُنْجِهِ كأنه فى وقعةِ الدّاحِسِ
أقول لمّا أن بدا مقبلاً : ياليتنى فارسُ ذا الفارسِ !

وقال ابنُ الزقاق :

ومهنّدٍ عَضْبٍ براحةِ أغْيَدِ فى جفنه عضبٌ يَقُدُّ مفاصِلِي[1]
يسطو بذاك وذا فيغدُو قِرْنُهُ بهما صريعَ لواحظٍ ومناصِلِ
ماضٍ كلا السّيْفين لكنْ لحظُه أمضى وإلاّ فاسألنّ مَقاتِلِي

وكان لأبى عيسى بن الرشيد غلام اسمه يُسْر[2] ، وكان آيةً فى الجمال ، وكان صالح أخوه يتعشّقه ، فبلغت لأبى عيسى قصةٌ جرت بينهما ، فحجبه ومنعه أن يخرج من داره إلا بمحافظ ، وكاد حسين بن الضحاك يموت فيه عِشْقاً ، فقال فيه :

ظنّ من لا كان ظَنّا بحبيبي فحمَـــاهُ[3]
أرصَـد البابَ رقيبيْـ ـن له فاكتنفاهُ
فإذا ما اشتاق قربى ولقائي منعـــاهُ
جعل الله رقيبيـ ـهِ من السّوء فِداهُ

وقال فيه :

إنّ مَنْ لا يرى وليس لا يرانِي نُصْبَ عينى ممثّلٌ بالأمانِي[4]

(١) ملحق ديوانه : ٢٩٧ .
(٢) الخبر والشعر فى الأغانى ٧ : ٢٢٠ ، وديوانه ١٢١ ، وفى ط : « بشير » .
(٣) الأغانى ٧ : ١٨٧ ، ديوانه ١١٢
(٤) الأغانى ٧ : ١٩٢ ، ديوانه ١٢٢ .

يأبى مَنْ ضميرُه وضميرى أبدا بالمغيبِ يَنْتجِيانِ
نحن شخصانِ إن نظرتَ وروحا ن إذا ما اختبرت ممتزجانِ
فإذا ما هممت بالأمر أو هم بشىء بَدَأتُه وبَدَانِي
كان وِفْقًا ما كان منه ومنّى فكأنّى حكيتُه وحَكانِى
خطراتُ النّفوس منّا سواء وسواء تحرُّك الأبدانِ

وجاءه يوما فتحدّث معه ، فأشار لتقبيله ، فقال له بشير : إياك والتعرّض لى وانجُ بنفسك ، وكانت فيه عَرْبدة ، فقال فيه حسين :

أيها النّفّاث فى الْعُقَدِ أنا مطويٌّ على الكمَدِ
إنما زخرفْتَ لى خُدَعًا قدحَتْ فى الرُّوح والجسدِ
ما لِأُنسٍ كان مبتذَلاً منك لى بالأمسِ لم يعُدِ (١)
يوم تعطينى وتأخذُها دونَ نَدْمانى يدًا بِيَدِ
ذاك يومٌ كان حاسدُنا فيه معذورًا على الحسَدِ

* * *

ثمّ اسنطقتُه عن اسْمِهِ ، لا لِرغبَةٍ فى عِلْمِهِ ؛ بل لأنظُرَ أينَ فَصَاحتُه من صَبَاحَتِهِ ، وكَيْفَ لَهْجَتُهُ مِنْ بَهْجَتِه ؛ فلمْ يَنْطِقْ بحُلْوةٍ ولا مُرَّةٍ ، ولا فَاهَ فَوْهةَ ابنِ أَمَةٍ ولا حُرَّةٍ . فضربتُ عَنْهُ صفحًا ، وقلتُ له : قُبْحًا لِعيِّك وشُقْحا ، فغارَ فى الضحْكِ

(١) ديوانه ٤٨ الأغانى ٧ : ١٩٢ ، وبعده فى الأغانى والديوان :

هاتِ يا خُدّاعُ واحِـدَةً من كثيرٍ قُلتَه وقـدِى
ليتَ شِعرى بعـد حَلْفِك لِى بوفاء العهْدِ بعـد غـدِ
ما الذى بِالله صَـيّره بعـد قُرْبٍ فى مدى الأبدِ

وأنجد ، ثمّ أنغضَ رأسَهُ إلَيّ وأنشد :

يا مَنْ تَلهّبَ غيظُهُ إذْ لم أَبُحْ
باسْمِي له ، ما هكذَا مَنْ يُنْصِفُ
إنْ كانَ لا يُرْضيكَ إلاّ كَشْفُهُ
فأصِخْ لَهُ ، أنَا يوسفٌ أنا يوسفُ
ولَقدْ كشفْتُ لَكَ الغِطاءَ فإن تكُنْ
فَطِنًا عَرَفْتَ وما إخالُكَ تعرِفُ

قال : فسَرَّى عَتْبي بشِعْرِه ، واستبَى لُبِّي بسحْرِه ؛ حتَّى شُدِهْتُ عن التحقيق ، وأُنسِيتُ قِصَّةَ يوسفَ الصِّدِّيق ؛ ولم يَكُنْ لِي هَمٌّ إلاَّ مساومَةَ مَوْلاَه فيه ، واستطْلاَعَ طِلْعَ الثَّمَنِ لأُوَفّيه . وكنتُ أحسِبُ أنَّهُ سيَنْظُرَ شَزْرًا إليّ ، ويُغْلِي السِّيمَةَ عَلَيَّ ؛ فأَحَقَّ إليّ حيثُ حَلّقْتُ ، ولا اعْتَلَقَ بما به اعْتَلَقْت ؛ بل قال : إنَّ الغلام إذا نَزُرَ ثمنه ، وخَفَّتْ مُؤَنُه ، تَبرَّكَ بِهِ مولاه ، والْتَحفَ عَلَيْهِ هَواه ، وإنِّي لأوثِرُ تحبيبَ هَذَا الغلامِ إليك ، بأن أخفِّفَ ثمنَه عَلَيْك ، فزِنْ مائتي درهمٍ إن شيتَ ، واشكُرْ لي ما حييتُ . فنَقدتُه المبْلَغَ في الحال ، كما يُنقَدُ في الرَّخيصِ الحلال ، ولم يَخْطرْ لي ببالٍ ، أنَّ كُلَّ مُرْخَصٍ غال .

* * *

قوله : استنطقته ، أي سألته أن ينطق . صَبَاحته : حُسْنه . لهجته : لفظه ، وأصلها طرف اللسان ، فكنى بها عن حلاوته . بهجته : حسنه ونضارته ،

وأصلها حسن الظن . لم ينطق بحلْوةٍ ولا مرّةٍ ، أى بكلمة جيدة ولا رديئة . فَاهَ : نطق . ضربتُ عنه : أعرضت عنه . صفحاً ، أى أوليته صفحةوجهى، وهى جانبه . شُقْحاً ، إتباع لقبح ، وقيل: هى من شَقَح البُسْر ، إذا تغيّرت خضرته بحمرة أو صفرة ، وهو أقبح ما يكون فى رأى العين ، وقيل : هو من شَقَحْتُ العود إذا كسرتَه ، وقال : هو من أشقاح الكلاب ، وهى أدبارها ، ويقال : قُبحا وشُقحا بضم أولهما وفتحه . غارَ : أتى الغوْر ، وهو المنخفض من الأرض. أنجد : أتى نجداً ، ومعناه بالغ فى الضحك وذهب فى جهاته . أنغض رأسه ، أى حرّكه ؛ كأنه يهدّد ويستخفّ به . تلهّب : اشتعل . أبُخْ : أتكلم . أصِخْ : استمع . أنا يوسف ، أى أنا حرّمثل يوسف صلوات الله عليه ، إذْ باعَه إخوته . سرَى عَتْبى : أزال لومى استبى لبّى : أى تملّك عقلى بسِحْره وحلاوةِ كلامه . شُدِهت: تحيّرت ، وهو مقلوب دهشت. التحقيق : التمييز ، وهذا كما قال الشاعر:

والله ما فتئتْ نفسى محاسنُه إلاّ وقد سحرتْ ألفاظُه أُذنى
ما تُصدِرُ العينُ عنه لحظةً مللاً كأنه كلّ شىء مرتَضًى حسَنِ

استطلاع طلعه : استخبار خبره ، والسؤال عَنْ قدره . لأوَفِّيَه : لأعطيه كاملًا وافياً . شزرًا : نظر فيه إعراض . التسيمة : السَّوْم ، وهو السؤال عن الثمن . ما حَلّق إلىّ حيثُ حلّقْت ، أى ما دار إلىّ حيث دُرْت ، أى ما كان عنده شىء مما ظننتُ به من طلبه سوْماً غالياً . نَزُر:قلّ. مُؤَنه : لوازمه ومايحتاج إليه . تبرّك : رآه مباركا ، والبركة: الكثرة والسعة . التحف : انضمّ . هواه : حبّه . أوثر : أفضّل .

* * *

فَلَمّا تحقّقَتِ الصّفقة ، وحقّتِ الفُرْقة ، هَمَلتْ عَيْنَا الغلام، ولا هُمُولَ دَمْعِ الغمام ، ثم أقبل على صاحبه وقال :

لحاكَ اللهُ هَلْ مثلى يباعُ لكيما تشبَعَ الكِرشُ الجياع
وهل فى شِرعَةِ الإنصافِ أَنِّى أَكُلَّفُ خَطَّةً لا تُستطاعُ
وأَنْ أُبْلَى بروْعٍ بعد روْعٍ ومِثلى حينَ يُبْلَى لا يُرَاعُ
أَمَا جَرَّبْتَنِي فخَبِرْتَ مِنِّى نَصَائحَ لم يمازجْهَا خِدَاعُ
وكم أرْصَدْتَنِي شَرَكًا لصَيدٍ فعدتُ وفى حبائِلِكَ السِّبَاعُ
وَلُمْتَ بِىَ المصاعِبَ فاستَقَادتْ
مطاوِعةً وكان بِهَا امتنــاعُ

* * *

تحقّقت الصفقة : تمّ البيع . هَمَلت : سالَتْ . الغَمام : السحاب لحاه الله : لعنه وأبعده ، ولحيت الرجل : لمتُه ، وأصله من لحوْت العود ألحوه ولحيته ألحاه ، إذا قشرته ، وأنشد ابن الأعرابىّ فى نوادره :

لَحَوْتُ شَمَاساً كما تُلحَى العصا سبًّا لو انّ السبّ يُدْمِى لَدَمِى[1]

ويقال : لاحَاه ملاحاة ولحًا ، أصلها المبالغة ، ثم كثرت حتى جُعلت كلّ ممانعة ومدافعة ملاحاة . الكِرش : العيال ، وكرش الرجل عيالُهُ وصغار ولده ، ويقال فى المعيل : عليه كِرش منثورة ، وإذا أكثرت المرأة أولادَها قيل : نثرنَ كَرِشَها ، وقد قدّم أن صبيته جوّع . الشِّرعة : الطريق . والخطّة ، مثل القصة : الأمر يقع بين القوم . أُبلَى : أمتحَن . الرّوع : الفزع ، لأنه يصيب الرّوْع وهو القلب . يمازجها : يخالطها . أرصدتنى : جعلتنى رصداً ، والرصد : مَنْ يرقبك وأنت لا تعلم فإذا جئتَه هجم عليك . والشَّرَك : آلة الصيد . حبائلى : شباكى نطت : علقت . المصاعب : الأمور الشاقّة . استقادت : انقادت .

(١) البيت فى اللسان ـ لحا . وفى ط : لحيت » وما أثبته من اللسان .

وأىُّ كريهةٍ لَمْ أُبْلِ فيها وغُنْمٍ لم يكُنْ لِي فيه باعُ
وما أبْدَتْ لِيَ الأيامُ جُرْمًا فيُكْشفَ فى مصارَمتِى القناعُ
ولم تعثر - بحمد الله - مِنِّى على عَيبٍ يُكَتَّمُ أو يُذَاعُ
فأنَّى ساغَ عِندكَ نبذُ عَهْدِى كما نَبذتْ بُرايتَها الصَّناعُ
ولِمْ سَمَحَتْ قَرونُكَ بامتهانِى
وأنْ أُشْرَى كما يُشْرَى المتاعُ
وهَلاَّ صُنْتَ عِرْضِى عنه صَوْنِى
حَدِيثَكَ يوم جَدَّ بنا الْوَدَاعُ
وقلت لكن يُسَاوِمَ فىّ هذا سَكابٍ فما يُعارُ ولا يباعُ
فما أنا دُونَ ذاكَ الطِّرفَ لكنْ
طباعُكَ فوقَها تِلْكَ الطِّباعُ
على أنّى سأنشِدُ حين بَيْعِى أضاعُونِي وأىّ فتًى أضاعُوا

* * *

أبل: أبالغ وأجهد نفسى فيه. غُنْم: غنيمة. جُرْم: ذنب. مصارمتى: مقاطعتى، وكشفت فى الأمر القناع، إذا جاهدت فيه وبالغت. تعثّر: تطلع. يكتّم: يستر. يذاع: يفشى. و«بحمد الله» فى البيت، وقعت اعتراضا بين العامل والمعمول، كما وقعت فى التاسعة والأربعين اعتراضاً بين المبتدأ وخبره فى قوله: «وأنت - بحمد الله - ولىّ عهدى» وتعلّقها بمحذوف تقديره: أبتدئ بحمد الله، أو أفتتح بحمد الله الذى خلّصنى من عيب يُغتَرَى عليه، أو الذى جعلك ولىّ عهدى، ومنه: سبحان الله وبحمده، معناه أنزّه الله وابتدئ بحمده، أو أفتتح بحمده، ودخلت الواو هنا لغير معنى العطف، ألا ترى أنّك لو قلت: سبحان الله وحمده، لكان المعنى:

أسبحه تسبيحًا وأحمده حمدًا ، هكذا يقتضى ماجاء من المصادر منصوبًا فى هذا الباب ، وفى قولنا : وبحمده لا يكون المعنى ماتقدم فى المنصوب ، ولكن الباء آذنت بمعنى ابتدأت ، أو أبدأ بحمد الله ، كأنك قلت : حمدت الله على إلهامه إياىَ تسبيحه ، وتأمّل قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُون بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ .

قوله ساغ : أى سهل . نبذ : ترك . البُراية : مايتساقط من العود إذا نُجِر ، ومن القلم إذا بُرِى ، وكذا يأتى فى مثل البُرَادة والنُّحاتة ونحوها . الصَّنَاع : الحاذقة بالصّنعة ، والرجل صَنَع بغير ألف . قَرونك : نفسه . سمحتْ : جادت . أشرَى : أباع . عنه ، أى عن البيع . صونى حديثك ، أى صيانتى للحديث الذى أحدّثت من بيعى وأنا حرّ . يوم جَدّ بَنا الودَاع ، أى فى هذه الساعة التى تريد أن تودّعنى فيها . سكَاب : اسم فرس لرجل من العرب من بنى تميم ، سأله بعض الملوك أن يبيعَها منه ، فأبى عليه وقال :

أبيتَ اللعنَ إن سَكَابِ عِلْقٌ كريمٌ لا يُعَار ولا يباعُ[1]
مقَدّاة مكرّمة علينا يُجاع لها العِيال ولانجاعُ

الطَّرف : الفرس الكريم ، يقول : لست أنا دون الفرس ، لكن طباع مالكه أفضل من طباعك ، حيث كان يجيع عياله ويشبعه ، ولم يهنه بالبيع كما أهنتنى به .

[ذكر العرْجى وإيراد بعض شعره]

وعَجُز البيت الأخير صدر بيت لعبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان رضى الله عنهم ، وهو العرْجِىّ ، سُمِّىّ بذلك لأنه وُلد بالعَرْج[2] من مكة ، وقيل : بل كان له بها مال ، وكان يُكثر الاختلافَ إليه ، فنُسب إليه . يكنى أباعمرو ، وهو شاعر

(١) البيت الأول فى اللسان ، والصحاح وتاج العروس ـ سكب .
(٢) ياقوت : العرج : قرية جامعة فى واد من نواحى الطائف .

رفع المسهم

مطبوع بالغزل مجيد ويشبّه فى غزَلِه ومقصِدِه بعمر بن أبى ربيعة ، وكان يهوَى جيْداء أم إبراهيم بن هشام المخزومى، ولها يقول :

أبصرتُ وجهاً لها فى جِيده تلَعٌ ... تحتَ العقود وفى القُرْطين تَشْهيرُ (١)
وجهٌ تحيّر فيه الماء فى بشَرٍ ... صافٍ له حين أبدته لنا نورُ

ولها يقول :

إلى جَيْداء قد بَعثُوا رسولاً ... ليخبِرَها فلاَ صَحِبَ الرَّسولُ (٢)
كأنّ العام ليس بعام حجٍّ ... تغيَّرت المواسمُ والشُّكُولُ

ولها يقول :

عوجى علينا ربّةَ الهودَجِ ... إنك إن لا تَفْعَلى تحرَجِى (٣)
فالحجّ إن حَجَّتْ وماذا منًى ... وأهله إنْ هى لم تحجج !
فما استطاعت غير أن أومأتْ ... نحوى بعينىْ شادنٍ أدْعَجِ

وقال أيضاً :

باتَا بأنعم ليــلةٍ حتّى بَدَا ... صبح يلوّح كالأغرِّ الأشقَرِ (٤)
فتلازَما عنـد الفراق صبابةً ... أخْذَ الغريم بفضْل ثوب المعسِرِ

فلمّا شاع نسيبُه بها قبض عليه ابنها محمد عند ولايته الحجاز ، بسبب طَلِبة عليه ، فضربه بالسياط وألقى الزّيتَ على رأسه ، وأوقفه للناس فى الشمس ، حتى غُشِىَ عليه ، وسجنه بضع سنين حتى مات فى سجنه ، فقال فى السجن :

أضاعونى وأىّ فَتًى أضاعُوا ... ليوم كريهةٍ وسِدادِ ثغْرِ (٥)

---

(١) ديوانه ١٠٥ ، وفيه : « تشمير » .
(٢) ديوانه ١٩٠ ، الأغانى ١ : ٣٩٧ . وفيه: « ليحزنها »
(٣) ديوانه ١٧ ، الأغانى ١ : ٤٠٧ .
(٤) الأغانى ١ ، ٣٩٧ ، الديوان ١٧٨
(٥) الأغانى ١ : ٤١٣ ، ديوانه ٣٤٥

رفع المسهم

وخلّوني ومعترَك المنايا وقد شرعتْ أسنّتُهم لنحري
كأنّي لم أكنْ فيهم وسيطاً ولم تكُ نسبتي في آل عمرو
أُجرَّر في المجامع كلّ يوم فيالله مظلمتي وقَسْري !
عسى الملك المجيب لمن دعاه ينجّيني ويعلم كيف شكري
فأجزِي بالكرامة أهلَ ودّي وأجزِي بالعَداوة أهل وِتري

فلما أفضت الخلافة إلى الوليد بن يزيد بن عبدالملك ، قبض على محمد بن هشام وأخيه إبراهيم ودعا لهما بالسّياط ، فقال له محمد : أسألك بالقرابة! قال: وأيّ قرابة بيني وبينك ؟ قال : فأسألك بصهر عبد الملك ! فقال : لم تحفظه ، فقال : يا أميرَ المؤمنين إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يُضرب قرشيٌّ إلا في حدٍّ ، فقال: فني حدّاً أضربُك وقَوَدٍ ، قال : وماذاك ؟ قال : أنت أوّلُ من سَنّ ذلك على العَرْجي وهو ابن عمي وابن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، فما رعيت [حَقّ][1] جَدّه ولا نسبَه بهشام من قِبَل أمّه ، اضربْهما[2] ياغلامُ ، فضربهما ضرباً مبرِّحًا ، وأثقلا بالحديد ووجّه بهما إلى يوسف بن عمر ، وأمره بتعذيبهما ، فضربهما حتى ماتا .

وغنى إسحاق الموصلي الرشيدَ قوله :

* أضاعوني وأيَّ فتى أضاعوا *

فسأل عن سبب هذا الشعر ، فأخبره بحديث العرْجي، قال إسحاق : فرأيته يتغيّظ ، فلما أخبرته بما فُعل بابنيْ هشام ، جعل وجهه يُسفر وغيظه يسكن ، ثم قال: ياإسحاق ، لولا ماحدّثتني به من فعل الوليد ،لما تركت أحداً من أماثل[3] بني مخزوم إلا قتلتُه بالعرْجيّ .

ومن جيدّ شعر العَرْجي :

فهل أنت آتٍ أهل ليلى فناظرٌ لذنب جفوْني، أم جفوْني تجرّما[4]

(١) من الأغاني (٢) الأغاني : « اضرب ياغلام »
(٣) كذا في الأغاني ، وفي ط : « أمثال » (٤) ديوانه ٣٦ ، وفيه : « تعرما » .

فإن يكُ من ذنبٍ[1] ففي ذاك حكمهم ... وحسب امرئ في حقه[2] أن يُحَكَّما
كمثل شهاب النار في كف قابسٍ[3] ... إذا الريح هبَّتْ وهو كابٍ أضرما

ومن جيده :

أخبرتُ أنّك قلتِ نقتله ... لا تفعلنّ ، فدتكمُ نفسي[4]
والله لا آتي لكم سَخَطًا ... حتى أغيّب في ثَرَى رمسي
والله لا أنسى تطوّفها ... تهتزّ بين كواعب خمس
كالبدر صُورتها إذا انتقبت ... وإذا سفَرت فأنت كالشمس

ومنه :

حُورٌ بعثْنَ رسولاً في ملاطفة ... ثَبْتًا إذا أسقط النَّسّاءةُ الوَهِمُ[5]
فجئت أمشي على هولٍ أجشّمه ... تجشُّمُ المرء هَوْلاً في الهوى كَرَمُ
أمشي كما حرّكتْ ريحٌ يمانيةٌ ... غصنًا من البانِ رطْبًا طَلَّهُ الرَّهَمُ[6]
حتى جلست إزاءَ البَيْت مكتتمًا[7] ... وطالبُ الحاج تحت الليل يكتتم
فبت أسقَى بأكواسٍ أعَلُّ بها ... من باردٍ طاب منه الطّعم والنَّسَمُ

وفي معنى قوله : أمشي كما حرّكت . . البيت يقول ابن دعبل :

قالتْ لقد أعييتنا حُجَّةً ... فأتِ إذا ما هجَعَ السَّامِرُ[8]

---

(١) الديوان : « في ذنبي » .
(٢) الديوان : في « حقنا » .
(٣) كذا في الديوان ، وفي ط : « فارس » (٤) ديوانه ١٤٨ وفيه : قلت : نهجره .
(٥) ديوانه ٢ ، وفيه : « ثقفا »
(٦) الديوان : « طلة الرهم » . والرهم . المطر الخفيف .
(٧) الديوان :

* لما بلغتُ إزاء الباب مكتتما *

(٨) كذا في الأصول ، والبيت الثاني ينسب إلى عمر بن أبي ربيعة ، ملحق ديوانه ٤٩٠

واسْقُطْ علينا كسُقوط النَّدَى ليـلة لاناهِ ولا آمِرُ

وقال الواثق :

قالت إذا الليل دَجَا فأتِنا فجئتُهـا حين دجا الليلُ
خفِّي وطء الرِّجل من حارسٍ ولو دنا حـلّ به الويلُ

ومن ظَرْف العرجيّ ،أنه وعدهوى له أن تزوره فى منتزهٍ ،فجاءته على أتان ومعها جارية لها ، وجاء العرْجيّ على عَيْرٍ ومعه غلام ، فواقعها العرجيّ ، ثم خرج فرأى الغلام يواقع الجارية والعَير على الأتان ،فلما نظر الحال قال : هذا يوم غاب عُذّالُه .

* * *

[فصل فى التضمين]

ويسمَّى أخذ الحريرىّ شطر بيت العرْجيّ التضمين ، وليس بسرقة . والتضمينُ يكون فى بيت وفى شطر بيت ، والشُّعراء تتولَّع به كثيراً ، وهو من صنعة البديع ، فمن الثانى قول الأخطل :

ولقدْ سما للخرّميّ فلم تقلْ بعد الوفى لكن تضايقَ مقدَمِى[1]

ومثله قول الآخر :

وجُزْتُ عـلى باب الأمير كأنّنى
قفَانَبْكِ من ذِكْرى حبيب ومَنْزِلِ

ومن تضمين بيت بكماله قول الحسن بن هانئ :

إنّى عجبْت وفى الأيام معتبَرٌ والدّهر يأتى بألوان الأعاجيبِ

(١) البيت فى العمدة ٢٠ : ٧٨ والبديع لابن المعتز ١١٤ ، ونسبه إلى الأخيطل ، ولم أجده في ديوان الأخطل .

من صاحبٍ كان دنياى وآخرتى ... عدَا علىّ جِهارًا عَدْوَةَ الذِّيبِ
قد كان لى مثلٌ لو كنتُ أعقِلُه ... من رأى غالب أمرٍ غير مغلوبِ
لاتَمْدَحنَّ امرأً حتى تجرِّبَهُ ... ولا تذمّنّه من غير تجريبِ

فضمّن هذا البيت .

قال ابن حجاج :

قد قلت لما أنْ رجعتُ مُوَلِّيًا ... ومعِى مدَابيرٌ من الكتّابِ[1]
نحن الذّين لهم يقال وكلّفا ... فَلّ العصا وطريدة الحجاب
قومٌ إذا قصدوا الملوك لمطلبٍ ... نُتِفتْ شواربُهمْ على الأبواب

وقال ابن رشيق : سألنى بعض أصحابى أن أضمّن له قول الشاعر :

فإن فخرتَ بآباء لهمْ شرفٌ ... قلنا صدقت،ولكن بئسَ ماوَلَدُوا[2]

ولا أزيد على بيت واحد ، فقلت :

أصبحت من جملة الأشراف إن ذُكِرُوا
كواحد الآس لايزكُو له عــدَدُ

والتضمين كثير .

* * *

[خبر النضر بن شميل مع المأمون]

وعلى بيت العرْجىّ :

* أضاعونى وأىّ فتًى أضاعوا *

حديث النضر بن شميل،قال:[3] كنتُ أدخل على المأمون فى مَمَرِه فدخلتُ

---

(١) يتيمة الدهر٣ : ٧٩. (٢) التنف ٢٤
(٣) نزهة الألباء ٨٥ــ ٨٧ ، درة الغواص ٦٤ معجم الأدباء ١٩ : ٢٣٩

رفع المسهم

ذات ليلةٍ وعليّ أطمار أخلاق ، فقال : يانَضْر ، ماهذا التقشّف ! تدخل على أمير المؤمنين فى هذه الخُلْقان ؟ فقلت : أنا شيْخٌ ضعيف ، وحَرّ مَرْوَ شديد ، فأتبرّد بهذه الخُلْقان ، قال : لا ، ولـكنك قشِف ، فيُحمَل منك هذا على التقشف . ثم أجرينا الحديث ، فقال : حدّثنا هشيم ، عن مجاهد ، عن الشعبيّ عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إذا تزوج الرجل المرأةَ لدينها ولجمالها وكمالها ، كان فيها سَدادٌ من عَوَز » فأورده بفتح السين ، قلتُ : يا أمير المؤمنين ، حدّثنا عوف بن أبى جَميلة الأعرابىّ ، عن الحسن عن علىّ بن أبى طالب رضوان الله عليهما ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا تزوج الرّجل المرأة لدينها ولجمالها وكمالها كان فيها سِدادٌ من عوز » ، وكان المأمون متـكئا فاستوى جالسا ، وقال : كيف قلت يانضر « سِداد » ؟ قلت: سِداد لأنّ « السّداد » هنا لحن، قال: أوتلحّننى! قلت: إنما لحنَ هشيم ـ وكان لحّانة ـ فتبع أمير المؤمنين لفظَه ، فقال: فما الفرق بين السّداد والسِّداد؟ قلت : السّداد القصد فى الدين والسبيل والسِّداد بالـكسرْ البلغة فى الشىء ، وكلّ ماسددتَ به شيئا فهو سِداد ، قال : أو تعرف العرب ذلك ؟ قلت : نعم هذا العرْجى من ولد عثمان ، يقول :

أضاعونى وأىّ فتىً أضاعُوا ليوم كريهةٍ وسِداد ثَغْرِ

ثم أطرق مليًّا ، وقال: قبّح الله من لا أدب له ! ثم تجارينا الحديث ، فقال: كيف روايتك للشعر؟ قلت: قد رويت الـكثير منه ، قال: فأنشدنى أحسنَ ماقالته العرب فى الحِلْم فأنشدته :

إذا كان دُونى مَنْ بُليتُ بجهلِه
أبيْتُ لنفسى أن أقابل بالجهلِ

وإن كان مثلى فى محلّ من العلا هويت إذاً حلْمًا وصفحًا عن المثلِ

وإن كنتُ أدنى منه فى الفَضْل والحِجا رأيتُ له حقَّ التَّقــدّم والفضلِ

فقال : ما أحسن ما قال ! فأنشدْنى أحسن ما قالته العرب فى الحزم » فأنشدته :

على كلّ حالٍ فاجعل الحزم عُدّة لِمَا أنت باغيه وعونًا على الدَّهْرِ
فإن نلتَ أمرًا نِلْتَه عن عزيمةٍ وإن قصّرت عنه الحقوق فمن عُذْرِ

قال : فما أحسن ما قال ! فأنشِدْنى أحسنَ ما قالته العرب فى إصلاح العدوّ حتى يكون صديقًا ، فأنشَدته :

وذِى غيلة ســـاءلتُه فقهرتُه فأوقرته منّى بعبء التحمُّلِ
ومَنْ لا يدافع سيئات عــدوِّه بإحسانه لم يأخذ الطَّول من عَلِ
ولم أر فى الأشياء أسرعَ مهلكًا لضغنٍ قديم مِنْ ودادٍ معجّلِ

فقال : ما أحسن ما قال ! فأنشدنى أحسن ما قالته العرب فى السّكوت فأنشدته :

إنى ليهجرُنى الصديق تجنّبًا فأريه أنّ لهجرِه أسبابا
وأراه إن عاتبته أغريْتُه فيكون تركى للعتاب عتابا
وإذا بليتُ بجاهلٍ متحكّمٍ يجد المحال من الأمور صَوابا
أوليتُه منّى السكوتَ وربّما كان السكوت عن الجواب جوابا

فقال: ما أحسن ما قال! ثم قال: ما مالُك يا نضر ؟ قلت: أريضةٌ بمرو الرّوذ أتصابها[1] وأتمزّزها ، قال : أفلا نفيدك مالاً معها ؟ قلت : إن رأى ذلك أمير المؤمنين ، فإنى لذلك لمحتاج .

فأخذ القرطاس وكتب وأنا لا أدرى ما يكتب ، ثم قال : كيف تأمر إذا

(١) اتصابها ، أى أشرب صبابتها .

أردت أن تُتْرب الكتاب، قلت : يا غلام أتْرِب الكتاب ، قال : فهو ماذا ؟ قلت : مترَب ، قال : فمن السَّحاة ، قلت : يا غلام اسحُ الكتاب ، قال : فهو ماذا ؟ قلت: مسحَى[1] ، قال : فمن الطين ، قلت: يا غلام طِنِ الكتاب ، قال : فهو ماذا ؟ قلت :مَطين ومُطان ، فقال: هذه أحسن من الأولى ، ثم قال: ياغلام أتربه واسحه وطِنْه . ثم صلّى بنا العشاء، ثم قال لغلامه: امض معه إلى الفَضْل بن سهل بهذا الكتاب ، فلمّا قرأه قال : بمَ استأهلت أن يأمر لك أمير المؤمنين بخمسين ألف درهم ؟ وما سبب ذلك؟ فأخبرته الحديثَ على جهته ، فقال : لحنتَ أميرَ المؤمنين ، فقلت: كلاّ إنما لحن هشيم — وكان لَحّانة — فتبع أميرُ المومنين ألفاظه ، وقد تتبع ألفاظه الفقهاء ورواة الأخبار . فعجّل لي ما في الكتاب ، وأمر لي من عنده بأربعين ألف درهم ، فانصرفت بتسعين ألف درهم بحرف استفاده مني .

وهذا الخبر جاء في أخبار النحويين . وذكره الحريري في درّة الغواص بأخصر مما ذكرناه ، ثم قال بإثر الخبر : وقد أذكرني هذا المثل أبياتا أنشدنيها أحد أشياخي رحمهم الله لأبي الهيذام :

لي صديق هو عندي عَوَزْ ... من سداد لا سِداد مِنْ عَوَزْ
وجهُه يذكّرني دار البلى ... كلّما أقبل نحوي وضَمَزْ[2]
وإذا جالسني جرّعني ... غُصص الموت بكَرْبٍ وعَلَزْ[3]
يصف الودّ إذا شاهدني ... وإذا غاب وشَى بي وهَمَزْ
كحمار الشوء يبدي مرحاً ... فإذا سيق إلى الحمل غَمَزْ
ليتني أُعطِيتُ منه بدلاً ... بنصيبي شرّ أولاد المَعِزْ

(١) مجالس العلماء: وه مسحو».
(٢) ضمز : سكت ولم يتكلم .
(٣) العلز : محركة : القلق والهلع .

قـــد رضينا بيضةَ فاسدةً عِوَضاً منه إذ البيع نَجَزْ

* * *

[حكاية أبى حنيفة والإسكاف]

وكان لأبى حنيفة رحمه الله جارٌ إسكاف بالكوفة ، يعمل نهاره أجمع ، فإذا أجنّه الليل رجع إلى منزله بالخمر ولحم أو سمك ، فيطبخ اللحم أو يشوى السمك ، حتى إذا دبّ الشراب فيه رفع عقيرَته يُنشد :

أضاعُونى وأىّ فتى أضاعُوا ليوم كريهة وسِدَاد ثَغْرِ

فلا يزال يشرب ويردّد هذا البيت ، حتى يغلبَه النوم .

وكان أبو حنيفة رحمه الله يصلّى الليل كلّه ، ويسمع جلبته وإنشاده ، ففقد صوته ليالى ، فسأل عنه فقيل له : أخذه العسس منذ ثلاث ليال ، وهو محبوس ، فصلّى الفجر وركب بغلته ، ومشى فاستأذن على الأمير ، فقال : ائذنوا له ، وأقبلوا به راكباً ، ولا تَدَعوه ينزل حتى يطأ البساط ، ففُعِل به ذلك ، فوسّع له الأمير مجلسَه ، وقال له : ما حاجتك ؟ فقال : لى جارٌ إسكاف أخذه العسس منذ ثلاث ليال ، فتأمر بتخليَته ؟ فقال : نعم ، وكلّ مَنْ أُخِذَ من تلك الليلة إلى يومنا هذا ، ثم أمر بتخليتهم أجمعين . فركب أبو حنيفة وتبعه جاره الإسكاف ، فلما أوصله داره ، قال له أبو حنيفة : أتُرانا يا فتى أضعناك ؟ قال : لا بل حفظت ورعيت جزاك الله خيراً عن صحبة الجوار ورعاية الحق ، ولله علىّ ألاّ أشرب الخمر أبداً ، فتاب ولم يَعُد إلى ما كان عليه[1] .

[من حكايات الجوارى والغلمان]

ومما يوافق هذا الموضع فى المقامات من ظرف الحكايات التى تضمنت بيع

(١) الخبر فى الأغانى ١ : ٤١٤ .

رفع المسهم

المماليك عند الضرورات ، وما للأجواد من جزيل الهبات ، مما ذكروا من أحسن أخبار الخلفان أن جعفر بن يحيى عرض عليه فى بعض متوجّهاته مملوك من مماليك رجل جفاه السلطان ، فقبض ماله ، وأمر ببيع مماليكه ، فعُرض عليه من جملتهم غلام كما طرّ شاربه ، أجمل الناس ، يدير بين فكّيه لسانا أبين من الصبح . قال جعفر : فقلت له : ما اسمك ؟ قال : ماهر ، فقلت له : وما صنعتك ؟ قال : الأدب والغناء والشعر وما شئت من بعد ، فسألته عن ثمنه ، فقال : خمسمائة دينار للضرورة ، قال : فأدّيت ثمنه ، وسألته أن يُسمعَنِي شيئاً من غنائه ، فأخذ العود وغنّى :

حلتُمْ جبالَ الحبّ فوق وإنّنى ... لأعجز من حمل القميص وأضعفُ
ظفرتمْ بكتمانِ اللسان فمن لكمْ ... بكتمان عين دمعُها الدّهرَ يذرِفُ!

فأطربنى غناؤه ، وشجانى فأجزته ، ووهبت له وخلعت عليه ، وأمرته بمعادلتى . فلما اجتزتُ منزل مولاه بمقدار ميل ، أنشأ يقول :

وما كنتُ أخشى معبدا أن يبيعَنى ... بشىء ولو أضحتْ أنامُلُه صِفْرا
أخوهم ومولاهمْ وحاملُ سرّهِمْ ... ومن قد ثوى فيهمْ وعاشرهم دهرَا
أشوقاً ولمّا تمضِ لى غير ساعةٍ ... فكيف إذا خبّ المطىّ بناشهرا!

فقلت : يا غلام ، أتعرف منزل مولاك من ها هنا ؟ فقال : هيهات ، وهل تخفى معالم الصبّ ! فقلت : اذهب فأنت حرّ لوجه الله تعالى ، ووهبت له ألف دينار ، فقال لى زميلى : أمثل هذا يُعتق ؟ فقلت : أومِثلُه يُملَك ! فولّى وهو يقول :

لا يوجدُ الخيــر إلا فى معادنه ... والشرّ حيث طلبت الشرّ موجودُ

وحدّث ابن عائشة قال : كان لرجل من قَيْس عَيْلان جارية ، وكان

بها معجبًا ، ولها مكرِمًا فأصابته حاجة وجهد ، فقالت له : لو بعتنى فإن نلت طائلا عدت به عليك ، فعرضها للبيع ، فعرضت على عمر بن عبد الله بن مَعْمر المذحجى ، فأعجبته فاشتراها بمائة ألف درهم ، فلما مضت لتدخل القصر ودّعت مولاها وأنشدته :

هنيئاً لك المالُ الذى قد أصبتَه ... ولم يبق فى كفّى إلا تفكُّرِى
أقول لنفسى وهى فى كرب غشيةٍ ... أقلّى فقد بان الحبيب أو اكثرِى
إذا لم يكن للوصل عندك حيلة ... ولم تجدِى بدّا من الصّبر فاصبرِى

فأجابها مولاها :

فلولا قعود الدهر بى عنك لم يكنْ ... لفرقتنا شىء سوى الموت فاعذرِى
أموبُ بحزنٍ من فراقك موجعٍ ... أناجى به قلباً طويل التفكّر
عليك سـلام لا زيارة بيننا ... ولا وَصْلَ إلا أن يشاء ابنُ مَعْمَرِ

فقال ابن معمر : قد شئت ، خذ بيدها فهى لك وثمنها .

• • •

قال : فلمّا وَعى الشّيخ أبياتَهُ ، وعَقَل مُناغَاتَهُ ، تنفّسَ الصُّعَداء ، وَبكَى حتّى أَبْكَى البُعَدَاء ؛ ثمّ قال لى : إنّى أُحلُّ هذا الغلام محلّ ولَدِى ، وَلاَ أُمَيِّزُهُ عن أفلاذِ كَبِدِى ؛ ولولا خلُوّ مُراحِى ، وخُبوّ مصْباحِى ؛ لَمَا دَرَجَ عن عُشّى ، إلَى أن يُشَيِّع نعشى ، وقَدْ رأيتُ ما نَزَل به من لَوْعَةِ البَيْن ، والمؤمنُ هَيْنٌ لَيْن ، فهلْ لك فى تَسْلِيَةِ قَلْبِهِ ، وتَسْرِيَةِ كَرْبِهِ ؛ بأن تعاهِدَنى عَلَى الإقالةِ فيه مَتَى اسْتَقَلْتُ ؛ وألاَّ تَسْتَثْقِلَنِى إذا ثَقُلت ؛ فنى الآثارِ

المُنْتَقَاة ، المَرْوِيّة عن الثِّقاة : مَنْ أقالَ نادماً بيعَتَه ، أقالَهُ اللهُ عَثْرَتَه .

قال الحارثُ بن هَمام : فوعَدْتُهُ وَعْدًا أَبْرَزَهُ الحَيَاء ، وفى القلبِ أَشْياء ، فاستَدْنى حينئذٍ الغُلامَ إليه ، وقَبَّلَ ما بَيْنَ عَيْنَيْه ، وأنشدَ والدَّمْعُ يَرْفَضُّ من جَفْنَيه :

خَفِّضْ فَدَتْكَ النَّفْسُ ما تُلاَقِي
مِنْ بُرَحاء الوجْدِ والإشفاقِ
فَمَا تَطولُ مُدَّةُ الفِراقِ ولاتني ركائب التَّلاَقِي
* بحُسْنِ عَوْنِ القادِرِ الخلاَّقِ *

• • •

قوله : عقل مناغاتَه ، أى فهم كلامَه ، والمناغاة تكليم الطفل بما يهوى ويفرح به ، فإذا رَدَّدَ الصبىّ كلامك أوحاكاك فقد ناغاك . الصُّعَدَاء : ارتفاع نَفَس المهموم . أفلاذ : قِطَع ، يريد أولاده ، والفَلْذة : قطعة من الكبد ، ولِفَرْط الإشفاق به والمحبة فى الولد ، يخاطبه أبواه بقلبى وكبدى . وقالوا : أولادنا أكبادنا ، وقال الشاعر :

وإنما أولادُنا بيننا أكبادُنا تمشى على الأرْضِ

مُراحى : موضع إبلى ودوابّى ، وكنى بخلوّ المراح عن الفقر وذهاب المال . درج : مشى . لوعة البين : حُرْقة الفراق . هَيْن لَيْن ، هما مع الازدواج مخففتان ،

فإن أفرِدتا شدّدتا . قوله : لمـا دَرَج عن عُشِّى ، يقول: لولا الفقر ما بعتُه مادمتُ حيًا. وتسرية كربه : إزالة همّه . المنتقاة : المختارة. المدوّنة: المكتوبة المجموعة ، والحديث معروف من طريق أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مَنْ أقال نادماً بيعتَه أقاله الله عثرته» ، أى عفا عن زَلّته . أبرزه : أظهره ، ويريد بقوله : وفى القلب أشياء : أنه أضمر ألاّ يقيله أبدا . يرفضّ : يسقط متفرّقا . خَفِّض : سَكّن . بُرَحاء : شدّة . الوجد : الحزن . الإشفاق : الخوف . تَنِى : تَفْتُر .

• • •

ثمّ قال له : أستَوْدِعكَ مَنْ هُوَ نِعْمَ المولَى . وشمّرَ ذَيْلَه وَوَلّى . فلبثَ الغُلامُ فِى زفيرٍ وعَويل ، رَيْثَما يَقْطَعُ مَدَى ميل. فلما استَفاق ، وكفكفَ دَمْعَه المُهْرَاق ، قال: أتَدْرِى لِمَ أعْوَلْتُ وعَلامَ عَوّلْتُ ؟ فقلتُ : أظُنُّ فِرَاق مَوْلاكَ ، هو الذى أبْكاكَ . فقال : إنّكَ لَفِى وادٍ ، وأنا فى وادٍ ، ولَكَمْ بين مُريدٍ ومُراد ، ثم أنشد :

لَمْ أبْكِ واللهِ عَلَى إلْفٍ نَزَحْ
وَلاَ عَلَى فوتِ نعيمٍ وفَرَحْ
وإنّمَا مَدْمَعُ أجفانِى سَفَحْ عَلَى غَبِىٍّ لحظُهُ حِينَ طمحْ
وَرَّطَهُ حَتَّى تعنّى وافتَضَحْ
وضيّعَ المنقُوشَةَ البِيضَ الوَضَحْ

رفع المسهم

وَيْكَ أَمَا ناجَتْكَ هاتيكَ المُلَحْ
بأَنني حُـرٌّ وبيعِي لَمْ يُبَـحْ
* إذْ كانَ فى يُوسُفَ معنًى قَدْ وَضَحْ *

* * *

زَفِير: أنفاس مرتفعة . عويل: بكاء . ريث: قَدْرَ. مدَى : غاية . والميل : قَدْر مدّ البَصر من الأرض ، ويقال إنه ألفُ خطوة من خُطا البعير ، والفرسخ: ثلاثة أميال، والبريد أربعة فراسخ. استفاق: استراح وخفّ مايجده . كفكف : ردّ وأذهب . المُهَراق : المصبوب . أعولت : بكيت بصوت عالٍ ، وأعول إعوالاً : صاح ، ورفع صوته ، وعوّلت على كذا اتّكلت عليه ، وعلى الله معوّلى اتّكالى ، وقال الشاعر :

* ولَيْسَ على رَيْب الزّمان معوّلُ *

كم بين مُريد ومُراد ، يريد أنّهما متقاربان فى اللفظ ، متباعدان فى المعنى ، لأنّ المريد فى الشيء المحبّ فيه ، والمُراد الشيء المطلوب ، وهو المحبوبُ ، فأنت قد تُريد الشيء فتُمنَعه، وغيرُك قد يراد له فيأباه ولا يريده ، فاللفظان متضادّان ، فيقول: التبس عليك سرّ بكائى فظننتَ أنه على فراق مولاى . فتفطن الآن أنّه على سُخْف عقلك ، كما التبس اللفظان على غير ناقد ، فإذا تفطّن لهما تباعدا عليه ، والمريد عند أهل الإرادة المبتدى ، والمُراد المنتهى ، فالمريد هو الذى نُصب للتعب والقساوة ، والمراد الّذى لقىَ الأمر من غير مشقة ، فهو مرفوق به مرفّهٌ ، وقيل : المريد متحمِّل والمراد : محمول .

الجنيد: المريد تتولاّه سياسة المعلّم، والمراد تتولاّه رعاية الحق، لأن المُريد يسير، والمراد يطير ، فمتى يلحق السائر الطائر !

رفع المسهم

القُشيريّ : كلّ مريد فى الحقيقة مُراد، لأنه إذا أراده الحق للخصوصية ، وفقِه للإرادة ، ولـكنهم فرقوا بينهما .

قوله : إلف ،أى صاحب . نَزَح : بَعُد . سَفَح : جرى . غبيّ : جاهل . لَحظه : نظره . طمح : ارتفع. ورّطه : أنشبه ، والوَرْطه: أهْوِية تـكون فى رأس الجَبَل يشقّ على مَنْ وقع فيها الخروجُ منها. وتورّطت الماشية: وقعتْ فى الوَرْطة ، قال طُفيل :

تهابُ طريقَ الحق تحسب أنه وُعُورٌ وراطٌ وهو بَيْداء بلْقَعُ(١)

وقيل :الورطة : الوحْل تقع فيه الغنم، فلا يمكنها التخلّص، ثم ضرب مثلاً فى كلّ شدّة يقع فيها الإنسان،وأورطت فلانا فتورّط هو ، أى وقع فيما يعسُر التخلّص منه .

أبو عمرو : الوَرْطة الهلـكة ، قال الرّاجز :

إن تأت يومًا مثلَ هذى الخُطّهْ تلاقِ من ضَرْبِ نمير وَرْطَهْ(٢)

قوله :تعنّى ، أى تعب . افتضح: اشتهر،والوَضَح :الشديدة البياض النقية ، أى ضيّع الدراهم المنقوشة البيض ، والوضَحُ : البيان والضوء والغُرّة والفضّة والدرهم الصحيح ، وقيل : إنه وصف الدراهم بالمصدر ، كما يقال : امرأة زُورٌ وكَرَم . ويك: عَجَبًا لك. وقوله: هاتيك، يقال للمذكّر: ذا ، وهو للقريب،وذاك لما هو أبعد ، وذلك لأبعد الثلاثة ، وللمؤنث ذه وذى وذ ، بلاياء ، وتاوتى وهى للقريبة،وتيك للتى هى أبعد منه ، وتلك وتالِك لأبعدهنّ ، وتدخل ها التنبيه على كلّ ماليس فيه لام ، لأن اللام موضوعة للبعيد ، وها موضوعة للقريب ، فلا يجمع

(١) البيت فى اللسان ـ ورط .
(٢) اللسان (ورط) وفى ط « يمير » ، وصوابه من اللسان .

بينهما ، نحو هذا وهذاك وهاتا ، وشاهده :

* ولَيْستْ دارُنا هاتا بدارِ *

وهذه وهذى وهذِ وهاتيك ، وشاهده قولُ ذى الرُّمة :

قد احتَمَلتْ مىٌّ فهاتيك دارُها بها السُّحم تَرْدى والحَمامُ المطوَّقُ[1]

قوله : لم يبح ، أى لم يجعل مباحاً .

أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة أنا خصمُهم ، ومَنْ كنت خصمَه خصمتُه : رجل عاهد ثم غدر ، ورجل باع حرًّا ، ورجل استأجر أجيراً فلم يوفّه أجره » . وَضَح : تبيّن .

. . .

قال : فتمثَّلتُ مقالَهُ فى مِرْآة المُدَاعبِ ، ومعرِض المُلاعِب ، فتصَلّب تَصَلُّبَ المُحِقِّ ، وتبرّأ مِنْ طينة الرِّقّ . فجُلْنا فى مُخاصَمة ، واتّصَلَتْ بمُلاكَمة ، وأفضتْ إلي مُحاكَمة : فلمّا أوْضَحْنا للْقَاضِى الصُّورةَ ، وتَلَوْنا عَلَيْه السُّورَةَ ، قال : ألاَ إنَّ مَنْ أَنْذَرَ ، فقدْ أَعذَر ، ومَنْ حَذّرَ كَمَنْ بَشّر . ومَنْ بَصَّر فما قَصَّر ؛ وإنَّ فيما شَرَحْتُماه لَدَليلاً عَلَى أنَّ هذا الغلامَ قدْ نَبّهك فَمَا ارعَوَيْتَ ، ونَصَحَ لَكَ فمَا وَعَيْت . فاسْتُرْ دَاء بَلَهِك واكتُمْهُ ، ولُمْ نَفْسَكَ ولاَ تَلمْهُ ، وحَذَارِ من اعْتِلاَقِهِ ، والطّمَع فى استِرْقَاقه ، فإنَّهُ حُرُّ الأدِيم ، غيرُ معرَّض للتّقْوِيم .

---

(١) ديوانه ٣٩٠ . قال فى شرحه : « السحم : السود ، يعنى الغربان . ترددى ، أى تذهب . والغراب لا يستطيع المشى . ويروى : « بها السحم فوضى » .

رفع المسهم

وقد كان أبُوه أحْضَرَه أمْسِ ، قُبَيْلَ أفُولِ الشَّمْسِ ، واعْتَرَفَ بأنَّه فَرْعُهُ الَّذِى أنْشَأهُ ، وألاّ وارثَ سِواه ، فقلت للقاضِى : أوَ تعرفُ أباه ، أخزاه الله ! ، فقال : وهَلْ يُجْهَلُ أبو زيدٍ الَّذِى جُرْحُهُ جُبَار ، وعند كُلِّ قاضٍ له أخبارٌ وإخْبار ، فتحرقتُ حينئذٍ وحَوْلَقت ، وأفقتُ ولـكِنْ حِينَ فاتَ الوقتُ ، وأيقنتُ أنَّ لِثامَهُ كان شَرَكَ مكيدَتِهِ ، وبيتَ قَصيدَتِهِ . فنكَّسَ طارفى ما لَقِيت ، وآليت ألّا أعامِلَ ملثَّمًا ما بقيت .

* * *

تمثّلت: تصوّرت . المداعب : المازح . والمَعرَض بفتح الميم : الموضع الذى تُعرَض فيه الأشياء ، والمَعْرِض الثوب تُعْرَض فيه الجارية. تصلّبَ : تقوّى،وهو « تَفَعّل » من الصَّلابة وهى الشدة. والأرض الصُّلبة :القوية . ولا أعلم أحداً خالف فى هذه الرواية إلا ابنُ ظَفَر فإنه رواه : « تصلّت » بالتاء بنقطتين ، وفسره بتجرّد وجدّ ، وكل جادّ مجاهد مسرع فى أمره: فهو مُتَصلّت فيه ، فذكروا أنه تصحف عليه اللفظ ، فشرحه على تصحيفه . المحقّ :صاحب الحق. الرّق: العبودية : وذكر الطينة لأنها أصل الخلق. وتبرّأ منها، تباعد . جُلْنا : تصرّفنا . ملاكمة : مدافعة ومُضاربة ، واللـكم : الضرب بجُمْع الـكفّ . أفضت : اتّصلت . أوضحنا : بيّنّا . الصُّورة : القصة . تَلَوْنا : قرأنا.وذكرناها له . أنذر :أعلم . أعذر : أتى بعُذْر ، ويقال: قد أعذرمن أنذر ، أى قد بلَغ أقصى العذر مَنْ أنذرك ، وعُذِّر الرجل فهو معذَّر، إذا اعتذر ولم يأت بعذر . ومنه قوله تعالى:﴿ وَجَاءَ المعذّرون من الأعراب ﴾ . ارعويت : رجعت عن جهلك وانـكففت . بلَهك ، غَفْلتك وجهلك . حَذَارِ ، أى احذر أنْ تتعلّق به . استرقاقه : تملّـكه وتعبّده ، ومنه

قولهم : سوق الرقيق ، ومنه سُمِّيَ العبد رقيقاً ، لأنهم يرقّون لما لكهم ويخضعون له ويذلّون : والأديم : الجلد . للتقويم : لمعرفة قيمته . أفول : غروب . أنشاه : أحدثه وولّده . جُبَار : باطل . إخبار : إعلام . وأخبار : جمع خبَر ، وأخبره : أعلمه . تحرّقت : عضضت أسنانى حتى صوّتت من شدة الغيظ . حَوْلقت : قلتُ : لاحول ولاقوة إلا بالله . أفقت : انتبهت ، وأنشد الفنجديهى فى معنى هذا :

يفتضِحُ الجاهلُ لكنَّهُ من بعد ماغرّبه الناصحُ
ويصلح ابنُ السوء لكِنَّه من بعد مامات الأبُ الصالحُ

قوله : وأيقنت أن لثامه كان شَرَكَ مكيدته ، أى شبكة حيلته . وبيت القصيدة : أحسن بيت فيها ، فأراد أن حيلته كانت لثامه ، نكّس طرف : أى كسر عينى ، وأمال نظرى .

° • °

ولَمْ أزَلْ أتأوّه لُحسْرِ صَفْقَتِى ، وافتضاحِى بين رُفْقَتِى . فقال لى القاضى ، حينَ رأى امْتِعاضِى ، وتبيَّنَ حَرَّ ارْتِماضِى : ياهَذا ، ما ذَهَب من مالِكَ ما وَعَظَك ، ولا أجْرَمَ إلَيْكَ مَنْ أيقظَك . فاتّعِظْ بما نابَك ، وكاتِمْ أصْحابَكَ ما أصابَك ؛ وتذكّرْ أبدًا مادَهَمَك . لتقِىَ الذِّكْرَى دَرَاهِمَك ، وتخلّقْ بتخلُّق مَنِ ابتُلِىَ فصَبرَ ، وتجلّت له العِبر فاعتبرَ .

قال الحارث بن همّام : فودّعتُه لابساً ثوبَ الخجل والحزَن ، ساحباً ذيلَ الغَبْن والغَبن ، ونويتُ مكاشفة أبى زيد بالهَجْر ، ومصارمتَه يَدَ الدهر . فجعلتُ أتنكّبُ عَنْ ذَرَاه ، وأتجنّب أنْ

أراهُ ؛ إلى أنْ غَشِيَنِي فى طريقٍ ضيّق ، فحيّانى تحيَّة شَيِّق ، فما زِدتُ على أن عَبَسْتَ وما نبستُ ، فقال لى : ما بالُك شَمَخْتَ بأنفك على إلْفك ! فقلت : أنسيتَ أنَّك احْتَلْتَ وَخَتَلت ، وفَعَلتَ فَعْلتَك الّتى فَعَلْت ! فأضْرط بى مُتَهازِيا ، ثم أنشد متلافيا :

* * *

أتأوّه : أتوجّع . رفقتى : أصحابى . امتعاضى : توجّعى . ارتماضى : حرقة قلبى من شدّة الهمّ ، ولايكون المتعِض كاظماً ، فلابدّ من ظهور الكرْب عليه ، وأمْرٌ ممِض وماعضٌ ، أى ممضٌ كارب .

قوله : ماذهب من مالك ماوعظك ، هو مثل ، ومعناه إذا ذهب من مالك شىء حذرَّك أن يحلّ بك مثله ، فتأديبه إياك عِوَض من ذهابه . أجرم : أذنب . نابك : نزل بك . دهمك : غَشِيَك . تجلّت : ظهرت . العبَر : العلامات المخوّفة ، واعتبرت بالشىء إذا اتّعظت به . الخجل : الحياء . ساحبا : جارًّا . الغبْن : بسكون الباء فى البيع ، وبفتحها فى الرأى ، يريد أنه غبن فى رأيه وبيعه ، قال فى الدّرة : الغبْن بإسكان الباء فى المال ، وبفتحها فى الرأى والعقل . نويت : أضمرت . مصارمته : مقاطعتُه ، وصرمتُ فلانًا : قطعت ما بينى وبينه من المودّة . والصّرْم : القطع ، وقيل للّيل : صريم ، لانقطاعه عن النهار ، وهو فى تأويل مَصْرُوم أى مقطوع ، وكذلك الصّريم من الرمل ، وهو الذى انقطع من معظَمه .

يد الدهر : أى أبدَ الدهر .

أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لايحلّ للمسلم أن يهجُرَ أخاه فوق ثلاثة أيام والسابق السابق إلى الجنة » .

رفع المسهم

ذَراه :جهته . غَشِيَنى : قصدنى وأتانى على غفلة . شيّق : شديد الحبّ، مانبستُ : ماتكلّمت . شمخت : رفعت أنفك كبراً ، وشمخ : تكبّر . ختلت : خدعت ، وخاتل فى معنى خَتَل ، وأصل المخاتلة المشى للصيد قليلا قليلا خفية لئلاّ يُسمع حسّك ، ثم جُعلت مثلا لكل شىء وُرِّى به وسَتَر على صاحبه . متلافيا : متداركا للألفة .

* * *

يامَنْ نَدَا مِنْهُ صُدُو دٌ مُوحِشٌ وَتجَهُّمُ
وغَدا يريشُ مَلاَوِمًا مِنْ دونهنّ الأسْهُمْ
وَيقول : هل حُرٌّ يُبا عُ كما يُباعُ الأدهمُ
أقْصِرْ فما أنا فيهِ بِدْ عًا مثل ما تَتَوهَّمُ
قدْ باعت الأسباطُ قبْلِي يوسفًا وهمُ هُمُ
هذا وَأقسِمُ بالّتى يَسْرِى إلَيها المُتْهِمُ
وَالطّائفين بِها وهُمْ شُعْث النَّواصِى سُهَّمُ
ما قمتُ ذاكَ الموقفَ الـ مُخزِى وَعِنْدِى دِرْهَمُ
فاعذرْ أخاكَ وكُفَّ عَنْهُ مَلاَمَ مَنْ لايَفْهَمُ

* * *

تجهّم : عُبوس . مَلاَوما : جمع مَلام أو ملاومة ، وهى اللوم والعتاب ، يريد أنّ لومه أنفذ من السّهام . الأدهم ، قيل :أراد به الفرس وقصد لونَه للقافية ، وقيل:أراد العبد الأسود . بدْعًا ، أى أوّلا أى ماأنا أوّل من فعل ذلك . الأسباط :

رفع المسهم

إخوة يوسف عليه السلام . وهم هم : أى وهم أنبياء لم يتغيّروا عن مراتبهم ، ويقال : هو هو ، أى هو كما عهدتَه لم يتغيّر .

[قصة يوسف عليه السلام]

وقد جرى ذكرُ يعقوب والأسباط فى المقامات فى مواضع، وبنى هذه المقامة على ذكر يوسف وجماله وبيع إخوته إياه . ونريد أن نلمّ بطرَف من أخبارهم على شرط الكتاب .

ذكر أهلُ الأخبار أنّ يعقوب ـ وهو إسرائيل عليه السلام ـ تزوّج بنت خاله ليا بنت ليّان بن بتويل، فولدتْ له رُوبيل وشمعون ولاوى ويهوذا وغيرهم ، ثُم تُوفِّيَتْ وخلَفَ على أختها راحيل ، فولدت له يوسف وبنيامين . وكان يوسفُ وأمه قد قُسِم لهما من الحسن شطْرُه ، فكفلتْ يوسفَ عمّتُه . وكانت أكبرَ ولد إسحاق ، وكانت عندها مِنطقة لإسحاق يتوارثونها على قدر أسنانهم. فلمّا ترعرع يوسف أراد يعقوب أخذَه منها ، وقال لها :والله لاأقدر على الصّبر عنه، فقالت له: والله لا أقدر على صَرْفِه إليك . فلما رأت عزمه على أخذه ، حزمت المنطقة تحت ثياب يوسف وهو نائم ، ثم ادّعت فقدَها فطُلِب فوجدت عنده ، وكان من سنّتهم أن مَنْ سرق شيئاً أخذ فيه ، فتركه لها حتى ماتت . فلمّا رجع إلى أبيه شُغِل به عن سائر بنيه ، فحسَدُوه ، فسألوا أباهم إرساله معهم للنزهة ، بعد أن ضَمِنوا حفظَه ، فأخرجوه إلى البريّة ، وأخذوا يضربونه ، وكُلّما ضربه واحدٌ استغاث بآخر ، فيضربه الآخر . فلما كادوا يقتلونه منعهم يهوذا ، وذكّرهم بما ضمنوا لأبيه من حفظه ، فانطلقوا فأدلَوْه فى الجبّ ، وهو يقول : يا أباه لو تعلم مايصنع بابنك بنو الآباء ! وكان بعض إخوته لأمّه ، فجعل يتعلّق بشفير الجبّ ، فربطوا يديه ، وألقَوْه فيه ، فقالوا له : ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً ينجُّوك . ثم أرادوا أن يَرْضخوه بصخرة ، فمنعهم يهوذا ، وكان يأتيه بالطعام خِفْيةً منهم .

رفع المسهم

ثم مرّت سيارة فأدلى واردُهم دلوَه فتعلّق به ، فلما رآه بشّر به السيارة . وقال السُّدىّ: إنّ الذى أخرجه إنما دعا صاحباً له اسمه بشرى ، فأتى إخوته الذين أخرجوه وقالوا: إنه عبد لنا ، فباعوه منهم بعشرين درهما على أن يُخرجوه من أرض الشأم، فشرطوا لإخوته أن يغرّبوه ، ويذهبوا به إلى مصر ، فحينئذ رجعوا إلى أبيهم عشاء يبكون .

فهذه قصة بيع الأسباط يوسف على اختصار .

ثم إنّه لمّا بلغ مصرَ من العزيز ، وكان فرعون ـ وهو الريّان بن الوليد ـ قد ولاّه خزائنها ، فكان من قصّته مع امرأة العزيز ومن حبّها فيه ومن دعائها إياه لنفسها ، ومِنْ تأبّيه من ذلك واستنزالها إياه ؛ حتى همّ بها ، ورؤيته برهان ربّه ـ وهو رؤيته صورةَ يعقوب يعضّ على إصبعه ، وقيل : إنه رأى فى الحائط مكتوبا : « ولا تقربوا الزنا ـ ومبادرته الباب فارًّا منها ، وقدّها قميصَه من دُبر ، ووجوده العزيز على باب الدّار جالساً مع ابن عمّ له، وهو الشاهد من أهلها ـ وقيل: إنه كان صبيًّا فى المهد ـ واشتهار أمرها بمصر ، حتى تحدّثت به نسوة فى المدينة ، وقلن :امرأة العزيز تُرَاود فتاها عن نفسه، وإحضارها لهنّ وإعدادها لهنّ ما يتّكئن عليه ـ وقيل: المتّكأ الأترجّ ـ وأمرها له أن يخرج عليهنّ ، وإعظامهنّ إياه حتى شغلن به عن أنفسهن ، وقطّعن أيديَهُنّ وقلن : حاش لله ماهذا بشراً ، تنزيهاً له عن أن يأتىَ ـ مثله ريبة ، فكان من هذا الخبر ماقص الله فى القرآن ونطقت به التّفاسير والأخبار .

ثم إن امرأة العزيز قالت للعزيز: إن عبدك فضحنى فى النّاس فإمّا سجنتَه ، وإمّا برزتُ للناس أعتذر عن نفسى ، فحبسه ، فدخل معه رجلان أحدُهما خبّاز الملك والآخر نديمه . وكانَ لمّا بلغ الحلم آتاه الله حُكْماً وعلماً من العبارة ، فكان

رفع المسهم

فى السِّجن يفسر الرؤيا للمسجونين ، ويمرّض مرضاهم ، ويُوَسّع على من ضاق عليه مكانه ، فقال أحدالفتَيين لصاحبه : هلمّ نُجرّب هذا العبد . فسألاه من غير أن يَريا شيئاً ، وقالا له : إنا نراك من المحسنين فى معاشرتك أهلَ السجن ، فقال لهما : أمّا أحدُكما فينادم الملك، وأما الآخرُ فيصلَب ، فقالا له : مارأينا شيئا، فقال لهما : قُضِيَ الأمر فيكما . ثم قال للذى ظن أنه ناجٍ منهما : اذكُرْنى عند ربّك ، وأخبِرْه أنى محبوس ظلماً . فأوحى الله تعالى إليه : إن اتخذتَ من دونى وكيلا لأطيلنّ سجنَك ، فعوقب بالسجن حيث همّ بامرأة العزيز ، وبإطالته حيث اتّكل فى أمره على غير ربه .

ثم كان من رؤيا الملك وجَهْل أهلِ دولته وتفسير يوسف لها، وقول الملك : ائتُونى به وتأبّيه الخروج حتى يسأل النِّسوة عن شأنه وشهادتهنّ عند الملك بتبرئته واعتراف امرأة العزيز بأنها راودته ، وقوله فى العزيز :﴿لِيَعْلَمَ أنّى لم أخُنْه بالغيب﴾ .

ويقال إن جبريل قال له عند ذلك : ولا يوم همتَ بما همَمْتَ به ! فقال : ﴿وما أبرّئ نفسى إنّ النفس لأمّارة بالسُّوء إلاّ مَا رَحِمَ ربى..﴾الآية . واستخلاص الملك إياه لنفسه ، وجعْله على خزائن أرضه ؛ ما اشتهر قرآناً وتفسيراً .

ويقال إن العزيز مات فى تلك المدة ، وإن يوسف تزوّجها ، وقال لها : أليْسَ هَذَا خيرًا ؟ فقالت: لاتلمنى ، كنت امرأة حسناء فى مُلْكٍ ودُنْيا ، وكان صاحبى لايأتى النساء ، وكنتَ كما جعلك الله فى حُسْنك ، فغلبَتْنى نفسى على مارأيت . فيزعمون أنّه وجدها عذراء ، وأنها ولدت له ابنين .

ثم أجدبت الأرض، فأتاه إخوته منتجعين، فكان من أمرِه معهم ،وإحسانه إليهم فى الكيل، وطلبه لهم أنَ يأتوه بشقيقه بنيامين، ورجوعهم موقَرين، ورغبته إياهم فى إرساله معهم ، وأخذه بسرقة الصُّواع وتأذّيهم بذلك ، ورجُوعهم إلى

رفع المسهم

أبيهم وتوالى الحزن على يعقوب بفقد ابنيه ، وأمره لبنيه أن يرجعوا طالبين ليوسف وأخيه ، ودخولهم على يوسف أذلاء صاغرين ، وتعريفه إياهم بمكانه ، وبعثه بالقميص إلى أبيه ، وجمع شملهم بعد طول مدة الفراق مما نص الله تعالى أنه عبرة لأولى الألباب . ولولا أن الأمر فى كتب التفسير أشهر من أن يجهل ، لفسرناه فصلاً فصلاً .

* * *

قوله : وأقسم بالتي يسرى إليها المتهم - يعنى مكة - والمتهم الآتى تهامة ، وتهامة اسم مكة ، قال الأصمعى : سمعت العرب تقول : إذا انحدرت من ذات عرق فقد أتهمت . شعث سهم : أى متغيرة ألوانهم وشعورهم .

قوله : اعذر أخاك ، قال زيد بن على : ثلاثة لا يجتمعن إلا فى كريم : حسن الحضر ، واحتمال زلات الإخوان ، وقلة الملالة للصديق .

* * *

ثم قال : أما معذرتى فقد لاحت ، وأما دراهمك فقد طاحت ؛ فإن كان افتقارك منى ، وازورارك عنى ، لفرط شفقتك على غبر نفقتك ، فلست ممن يلسع مرتين ، ويوطئ على جمرتين . وإن كنت طويت كشحك ، وأطعت شحك ، لتستنقذ ما علق بأشراكى ، فلتبك على عقلك البواكى .

قال الحارث بن همام : فاضطرنى بلفظه الخالب ، وسحره الغالب ، إلى أن عدت له صفيا ، وبه حفيا ، ونبذت فعلته ظهريا ، وإن كانت شيئا فريا

لاحت : ظهرت . طاحت : هلكت اقشعرارُك : انقباضك . والقُشعريرة : رِعْدة وانقباض . ازورارك : انقباضك وَميلك . لفرط شفقتك ، لكثرة خوفك . غبّر نفقتك : أى تخاف على مَا بَقِي من نفقتك وإن أخذها . بُوطِيء ، أى يجعل غيرَه يطأ الجمر ، أى لا أضُرّ مرتين . والكَشح : الخَصْر ، وقيل : الجنْب ، وقيل : هو اسم لما بَيْن الأضلاع ، ورأس الوَرِك ، وكلُّها متقاربة ، وطوى كشحه على أمر ، استمرّ عليه ، وطوى كشْحَه ، مثل يضرب للمجانبة والمكاتمة ، قال الشاعر :

طَوَى كشحاً خليلُك والجناحا لبينٍ منك ثُمَّ غـدَا وراحَا[1]

والشحّ : البخل مع الحِرْص ، واضطرنى : ألجأنى ، الخالب : الخادع . صفيًّا : صاحباً مخلصا ، حفيًّا : معينا . كريماً : مكرِماً ، نبذت : رميت . وطرحت ظِهْرِيًّا ، أى خلف ظهرى ، واتخذه ظهريا ، أى عُدة يستظهر بها ، أى يجعلها خَلْف ظهره حتى متى احتاجها استعملها فَرِيًّا : عجباً ومنكرًا ، والفرىّ : الأمر العظيم ، والفرىّ الكذب .

ومما جاء فى الشعر على أخبار يوسف عليه السلام

قال ابن الزقاق :

بأبى وغير أبى أغنُّ مُهَفْهَفٌ مهضوم ماخَلْف الوِشاحِ خَمِيصُهُ[2]
لِبس الفؤادَ فمزّقَتْهُ جفونُه فأتى كيوسف حين قُدّ قميصُهُ

وقال أيضاً :

وســـافرٍ عن قمرٍ مبتسمٍ عن دُرَرِ[3]

(١) اللسان (كدح) (٢) ديوانه ١٩٦ ، والخميص : الضامر البطن .
(٣) ملحق ديوانه ٢٩٣

لولاح للحور وقد سلّ حُسامَ الحَوَرِ
لقُدّ منه شغَفاً قَميصُه مِنْ دُبُرِ

ومن المُلح فى ذلك قول ابن حجاج فى بختيار :

فديت وجه الأمير من قَمَرِ يجلو القَذى نُورُه عن البَصَرِ(١)
إنّ زليخا لو أبصرتْكَ لما ملّت إلى الحشر لذة النّظر
بل وحياتى لو كنتَ يوسفَها لم تكُ من تهمة العزيز بَرِى
فإننى عالم بأنّك لو شمّمتَ ريّا نسيمها العَطِرِ
سبقتَها واندلَقْتَ تقبُها من بين تلك البيوت والحجر
ولم تزل بالكدّين تنقرُها(٢) من قبل وقت العشا إلى السّحَرِ
طبعك كالماء فى سُهولته لكن أبو الزّبْرِقان من حَجَرِ
إنّ الملوك الشّباب ما خُلِقُوا إلاّ صلابَ الفِياش والكَمَرِ

وقال آخر :

قميص يوسف لمّا قُدّ من دُبُرِ كانت براءته فيه من الكذب
وفى قميصك لمّا قد من دُبُرِ تما يدلُّ على الفحشاء والرِّيَبِ

وقال آخر فى الحسن بن وهب :

إذا لقيتَ بنى وهب بمنزلةٍ لم تدر أيّهما الأنثى من الذّكَرِ
مؤدّبون على الفحشاء من صِغَرٍ مدرّبون على النّكراء من كِبَرِ
قميص أنثاهُمُ ينشقُّ من قُبلٍ وقمص ذُكرانهم تنقدّ من دُبُرِ
محنّكونَ ولم تقطع سرائرُهمْ بين الحواضِنِ والدّايات بالكَمَرِ

(١) اليتيمة ٣ : ٤٠ (٢) اليتيمة : « تقصرها » .

المقامة الثالثة والثلاثون وتعرف بالتفليسية

حكى الحارث بن همّام قال : مَرَرْتُ فى تَطْوافى بِشِيراز ، على نادٍ يَسْتَوْقِفُ المُجْتَاز ، ولو كان على أَوْفاز ؛ فلم أَسْتَطِعْ تَعَدِّيه ، ولا خَطَتْ قَدَمِى فى تَخَطِّيه ؛ فعُجْتُ إليه لأَسْبُكَ سِرَّ جَوْهره ؛ وأَنْظُرَ كَيْفَ ثَمَرُهُ من زَهَرِه ، فإذا أهلُه أفراد ، والعائجُ إليهم مُفَاد . وبينما نحنُ فى فكاهةٍ أطربَ من الأغارِيد ، وأطيبَ من حَلَبِ العَناقيد ؛ إذ اخْتَفَّ بنا ذو طِمْرَيْن ، قد كاد يُنَاهِزُ العُمْرَيْن ، فحيَّا بِلِسَانٍ طليق ، وأبان إبَانَةَ مِنْطِيق ، ثم احتبَى حُبْوَةَ المُنْتَدِين ، وقال : اللّهمَّ اجْعَلْنا من المهتدين . فازْدَرَاهُ القومُ لِطِمْرَيْهِ ، وَنَسُوا أنّ المرء بأصْغَرَيْه

• • •

القطواف : مصدر طوّفت حول الشىء ، إذا أكثرتَ المشىَ حولَه ، وقد طفتُ به وأطفتُ ، وإذا درت وأكثرت ذلك قلت : طوّفت .

وشيراز : مدينة فارس العظمى ، وهى مدينة جليلة عظيمة ، ينزلها الولاة ، ولها سعة حتى إنه ليس فيها منزل ، إلاّ وفيه لصاحبه بُستان فيه جميع الثّمار والرياحين والبُقول ، وكلّ ما يكون فى البساتين . وشُرْب أهلها من عيون تجرى فى أنهارٍ تأتى من جبالٍ يسقط عليها الثلج .

قوله : ناد : مجلس . يَستوقف : يحبس ويجعله يَقِف . المجتاز : خاطر الطريق المارّ عليه .

أوفاز : انحفاز وعجلة ، ومنه قولهم : قعد مستوفزًا ، معناه قعد على وَفْزٍ من الأرض ، والأوفاز : جمع وَفْز وهو ألاّ يطمئن فى قعوده . قال الجوهرى رحمه الله تعالى : تقول نحن على أوْفاز ، ولاتقول على وفَز ، ومعناه ألاّ تلقاه مُعَدًّا .

الأزهرىّ : الوفْزة : الوثبة بعَجلة ، وقَعَد مستوفزًا ، إذا رفع أليَتَيْه ووضع رُكبتيه ولم يطمئن .

تعدّيه : تخطّيه وجوازه . وخَطَتْ : مشت . عُجْتُ : مِلْت . أسبُكُ . أجرّب سرّ جوهره : أراد باطن أهله إذ كانوا فى الظاهر ذوى مناظر ، فأراد أن يعرف : هل هم أهل علوم وآداب ، حتى يكملوا فى الظاهر والباطن ، أم أمرهم على خلاف ذلك . وبيّن ذلك بقوله : كيف ثمره من زهره ، فكنى بالزّهر عن ظاهرهم ، وبالثّمر عن سرّهم الباطن ، وسرّ كل شىء : باطنه وخالصه ، وقال المعرّى :

فلا يغرّنْك بِشرٌ من سواه بدا ولو أنار ، فكم نَوْرٌ بلا ثَمَرِ[1]

قوله : أفراد ، أى كبراء لانظير لهم ، فمن مال إليهم استفاد ، وأفراد : نجوم الدّرارى . والعائج : المائل . فكاهة : حديث مطرب . الأغاريد : أصوات الطير ، ويُطلقون على ما كان فيه حنان ورقة منها اسم التّغريد والغناء ، إلا الحمام فإنهم يسمّون أصواتها غناء وتغريدا وبكاء ونياحًا ، ويأخذونه من حال السامع لها . وقرئ على أبى الحسن بن السراج قولُ سُوَيد بن الأعلم :

لقد تركتْ فؤادَك مستجنًّا مطوّقةٌ عـــلى فَنَنٍ تَغَنّى
يَميـــل بهـا وتركبه بلحـنٍ إذا ما عنّ للمحـــزون أنّا

(١) سقط الزند ١٣٩ ، وفى ط : « سر » موضع : « بشر » .

فقال : إنما تكون أصوات الحمام على ما فى نفس المستمع ، فإذا سمعها مَنْ يطرب سمّاها غناء ، وإذا سمعها مَنْ يحزن سماها بكاء .

وقال ابن قاضى ميلة مصدّقا لما قاله ابنُ السّرّاج :

لقد عَرَض الحمام لنا بسجْعٍ إذا أصغى له ركبٌ تلاحَى
شجا قلب الخلىّ فقال غنّى وبرّح بالشّجىّ فقال ناحا[1]

وسبقه المعرّى بقوله :

بأرضٍ للحَمامة أنْ تغنّى بها ولمن تأسّف أن تَنوحَا[2]

وقد قدّمنا فى شرح الصدر فصلاً للحمام . وما أحسَن قول البحترىّ :

حَيّتْكِ عَنّا شَمال طافَ طائفُها فى جنة نفحَتْ روْحًا وريحانا
غنّت سُحَيراً فناجى الغصنُ صاحبَه سِرًّا بها ، وَتَداعى الطير إعلانا
وُرقٌ تغنّى على غصُنٍ مهدّلةٍ تسمُو بها وتمسّ الأرض أحْيَانا
تخال طائرها نشوانَ من طرَبٍ والغصن من هِزّةِ عِطْفَيْهِ نَشْوانا

وهذه ديباجة أبى عبادة . وحلَب العناقيد : الخمر . احتفّ : انتظم . طِمْرين ، أى ثوبين خَلَقين . يناهز : يقارب . المُمْرين : ثمانين سنة ، وذلك أن الإنسان من الشبيبة إلى الأربعين فى نماء وزيادة وقوّة ، ومن الأربعين إلى الثمانين فى نقص ، فالبالغ الثمانين قد استوفَى عُمْرَىِ الزيادة والنقص . وسئل ذو الرُّمة عن سنّه ، فقال : بلغتُ نصف عمر الهَرِم أربعين سنة ، وقيل : العمر ستون سنة ، لقوله عليه الصلاه والسلام : « أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين » .

(١) نثار الأزهار ٢٩ ، ونسبه للمنازى .
(٢) سقط الزند ٢٤٥ .
(٣) من زيادات ديوانه .

ومن حديث أبي هريرة رضى الله تعالى عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : «مَنْ أتت عليه ستون سنة فقد أعذر الله إليه» ، فالعمران على هذا مائة وعشرون سنة . والحكماء يزعمون أنه منتهى ما يبلغ عُمر ابن آدم ، والأظهر من سياق المقامة أنه أراد الأول ، لأن مَنْ قارب مائة وعشرين سنة لا يلتذ بخمر ولا بغيره وهو يزعم فى المقامة أنه يحاول شربها لغناء وغير ذلك .

قوله : أبانَ : بيّن . مِنْطيق : فصيح . احتبَى حبوَهم ، أى جلس مثل جلوسهم المنتدين : أهل المجلس . ازدراه : احتقره .

أصغريه : قلبه ولسانه ، وقيل لهما الأصغران لصغر حجمهما مِنْ بين الأعضاء لفضلهما وشرفهما على الأعضاء ، قال علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : ولكنى مدرّب الأصغرين ، ولجلبهما القيام والكمال ، كأنه قال : المرء يقوّم أموره بلسانه وقلبه ، ويكمل المرء بهما ، قال الأصمعىّ رحمه الله تعالى : كان ضمرة بن أبى ضمرة قصيرًا ، وكان يقول : للمرء بأصغريه ، بقلبه ولسانه .

* * *

وأخذوا يتداعَوْنَ فَصْلَ الخطاب ، ويَعتدُّون عُودَهُ من الأحطاب ، وهو لا يُفيضُ بكلِمَةٍ ، ولا يُبينُ عن سِمَة ، إلى أن سَبَر قرائحَهُمْ ، وخَبَر شائلَهُمْ وراجحَهُمْ . فحين استخرَج دَفائنَهُمْ ، واستنثَلَ كَنائنَهُمْ ، قال : ياقومِ لو عَلِمْتُم أنّ وراء الفِدام ، صَفْوَ المُدام ، لَمَا احتقرتُمْ ذا أخلاق ، وقُلْتُم ما لَهُ مِنْ خَلاق . ثم فَجّر مِنْ يَنابيعِ الأدب ، والنّكتِ النُّخَب ، ما جلَب بِهِ بدائعَ العَجَب ،

واستوْجَبَ أن يُكتَبَ بذَوْب الذَّهَب . فلمَّا سَلَب كُلَّ خِلْبٍ ، وقَلَب إليه كُلَّ قَلْب ، تحلْحَل ، ليرْحَلَ ، وتأهّب ، ليذهَب ، فعَلِقَتِ الجماعَةُ بذيْلِهِ ، وعاقتْ مَسْرَب سَيْلِهِ ، وقالت له : قَدْ أَرِيْتَنا وَسْمَ قِدْحِك ، فخبِّرنا عَنْ قَيْضِكَ وعُحِّك . فصَمتَ صُموت من أفْحِم ، ثم أعْوَلَ حَتَّى رُحِم .

قال الرّاوى : فلمَّا رأيتُ شَوْبَ أبى زيدٍ وَرَوْبَهُ ، وأسلُوبه المألوفَ وصَوْبَه ، تأمّلتُ الشيخ على سُهُومَةِ مُحيَّاه ، وسُهُوكةِ رِيّاه ، فإذَا هُو إيّاه .

* * *

يتداعَوْن : يدعو بعضُهم بعضا إلى ذكر الفصاحة ، والأشبَه أن يكون من الأدعيّة ؛ وهى الأحجيّة والأغلوطة ، كأنهم يتحاجَوْن . وفصل الخطاب ، كناية عن الفصاحة . يعتدّون : يحسبون ، الأحطاب : جمع حَطَب ، ولا يقال للعود حطب حتى يجفّ ماؤه ويبيس ، فأراد أنهم حسبوا أبا زيد من جنس الحطب لا نضارة فيه ، كأنه لا علْم عنده . وقال الشاعر :

إذا العود لم يثمرْ وإن كان شعبةً من المثمرات اعتدَّه الناسُ للحطبِ

يُفيض : يتكلم ويندفع فى القول ، وفاضَ لسانه وأفاض ، أى أبان . يبين : يبيّن . سِمَة : علامة . سَبَر : قاس وجرّب . قرائحهم : أذهانهم . خَبَر : جرّب . شائلهم : ناقصهم . راجحهم : وافيهم ، والشائل من الدراهم : الناقص الذى يشول به الميزان ، أى يرتفع ، والراجح ضده . وقال فى الدّرة : الشائل : المرتفع ، وأنشد :

ياقومِ مَنْ يعذر فى عجردٍ القاتل المرء على الدانِق[1]
لما رأى ميزانه شائلاً وجاه بين الأذن والعاتق

استنثل كنائنهم : استخرج ماعندهم ، والكنانةُ : جعبة السهام . الفِدام : خرقة تُجعل على فم الإبريق ليصفوَ الخمر بها . أخلاق : ثياب بالية . خَلاَق : نصيب وافر من الخير . ينابيع : مخارج الماء من العيون . النّكت : المعانى الغامضة ، والنكتة : نقطة فى شىء تخالف لونه ، فإذا كانت فى الكلام فهى عيونه . النُّخَب : المختارة . بدائع : غرائب . ذوب الذهب : ما ذاب منه ، ولو أنشدهم شعراً يوافق مجلسهم لم يكن إلا أبيات الناشى :

كأنهمْ فى صدورِ الناس أفئدةٌ تُحِسّ ما أخطروا فيها وماعتمدُوا
يُبْدُون للناس ماتخفِى ضمائرُهمْ كأنهم وجدوا منها الّذى وَجَدُوا
دلّوا على باطن الدنيا بظاهرِها وعلْم ما غاب عنهمْ بالّذى شهِدُوا
مطالع الحق ما مِنْ شبهة غسقتْ إلا ومنهمْ لديْها كوكبٌ يَقِدُ

أو أبيات ابن شهيد حيث قال :

وفتيةٍ كالنّجوم حسْنًا كأنّهمْ شاعرٌ نبيلُ[2]
مقتد الجانبين ماضٍ كأنّه الصارم الصقيلُ
رامُوا انصرامِى[3] عن المعالِى والقرب من دونها كليلُ
فاشتدّ فى إثرها مِسَحٌّ كلّ كثير به قليلُ

(١) درة الغواص ٨٥ ، ٧٦ .
(٢) ديوانه ١٣٩ .
(٣) الديوان « انصرالى » .

فى مجلس شانه القصافى تطيش فى وصفه العقول[1]

قوله : خلَب ، أى خدع . والخِلْب: الحجاب الذى بين سَواد القلب وسواد البطن . تَحَلْحَل : تحرّك ، وأصله للبعير إذا حرّكته للقيام تقول له : حل حل . عاقتْ : منعتْ وحَبَسْت. مَسْرب : طريق مَسِيل الماء ، وسرب يسرُب سروباً: مضى على وجهه فى سفر بعيد ، وسرب الماء يَسْرُب سَرَبا ومسرباً فهو سَرِب : سال ، والمعنى منعته المشى . وَسْم قِدْحِك : عَلامة سهمك ، والقِدْح السهم قبل أن يُراش ويركّب نصله . وأرْويتَنا من نضحك ، أى أسقيتنا من بَلَلِك ، والنضح : الرشّ الخفيف : قَيْضك وحُتّك ، أى ظاهرك وباطنك ، لأنّ القَيْض قشرة البيضة العليا وقلبها الأصفر هو المحّ ، بحاء غير منقوطة .

الفنجديهى : عن قَيْضِك وحُتّك أى عن نسبك وبلدك . صمْتُ : سكت . أفحم : غلبَ وقطع عن الكلام . أعول : بكى . وشَوْب أبى زيد وَرْوبه ، أى تخليطه فى حِيَله ، والشوْب: الخلط ، تقول: شُبْت الماء باللبن ، أى خلطتهما والرَّوْب: اتخاذ الرائب ، والشَّوْب: اللبن الممزوج بالماء هنا ، والرَّوْب : الخالص . ويقال : ما عنده شوْب ولا روْب ، أى لا مرقَ ولا لبن ، وقيل : الشوْب العسل ، والرَّوْب اللبن : وفلان يَشُوب ويرُوب ، أى يخلط ويصفّى ، وأصله يَرِيب ، قلبت « يروب » طلبا للازدواج ، يضرب مثلا لمن يخلط فى القول والعمل والشَّوْب والرَّوْب جميعا : الخلط ، وراب الرجل روْبا : اختلط عقله ورأيه . أسلوبه: طريقه . المألوف الملتزَم . صَوْبه: قصده وجانبه وصوابه . سهومة محيّاه: تغيّر وجهه . سُهُوكة ريّاه : نتن رائحته من النحر وغيره . وقوله: فإذا هُو إياه :

---

(١) البيت فى الديوان :

فِى مَجْلِس شابه التصابى وطَارَدَتْ وَصْفَهُ العقول

استعمل إيّاه ، وهو ضمير منصوب فى موضع الرفع ، وهو غير جائز عند سيبويه ، وجوّزه الكسائىّ فى مسألة مشهورة جرت بينهما :

[ذكر مسألة نحوية]

قال الفنجديهىّ : سألت شيخنا العلاّمة إمام النحاة جمال العلماء ، أبا محمّد عبد الوهاب بن برّى بن عبد الجبّار المقدسى عن شرحها ، فقال أيده الله : سألتَ شرح الله صَدْرَك ، وأعلى فى منازل الشرف قَدْرك ، عن المسألة التى جرت بين سيبويه والكسائىّ ، وهى قوله : « كنت أظنّ أن العقربَ أشدُّ لسعةً من الزنبور فإذا هو إياها » ، وسألتَ عن وجْهِ النصب فى « إياها » عند من أجاز ذلك . فاعلم أن مذهب النحويين البصريين فى مثل هذه المسألة أن يكون ما بعد إذا مرفوعاً بالابتداء والخبر ، فيقال : فإذا هو هى ، على حدّ ما فى الكتاب العزيز : ﴿ فإذا هى بَيْضاء للناظرين ﴾[1] وقوله : ﴿ فإذا هِىَ ثُعبانٌ مبين ﴾[2] ، فإذا هنا ظرف مكان وليست كالزمانيّة ، وسأفرّق بينهما . وتقديرها فى نحو : خرجت فإذا زيد قائم : خرجت فبالحضرة زيد قائم ، والعامل فى إذا « قائم » ، وإن شئت نصبتَ قائما على الحال ، وجعلت الخبر فى إذا ، كما تقول : خرجت فإذا زيدٌ القائم فالقائم بالرفع على الخبر والنصب على الحال ، ومذهب الكوفيين فى الحال أن تكون نكرةً ومعرفة ، ومن هنا منع سيبويه من إيّاها فى المسألة ، لأن المضمر لا يقع حالاً لتعريفه وعدم الاشتقاق فيه ، والحال تكون نكرة مشتقّة ، والكوفيون يجيزُون النصب على معنى : خرجت فإذا زيد قائما . والأقرب عندى أن يريدوا فإذا هو موجود إياها ، فحذف الخبر وهو موجود لدلالة الكلام عليه ، ومثل هذا عندهم : لئن ضربته ليضربنّه السيّد الشريف ، فينصبون السيّد بإضمار ، فإذا حملته على هذا تخرّج .

---

(١) سورة الأعراف ١٠٨ . (٢) سورة الشعراء ٣٢ ، الأعراف ١٠٧ .

رفع المسهم

وحكى عن أبى زيد أنه سمع هذه المسألة من العرب ، بنصب « إياها » ، فإن صحّ أنه سمعها فهذا وجه، ويجوز فى قياس قولهم: أن يكون على إسقاط الكاف ، وهم يروُون فى الخبر :« ذَكاة الجنين ذَكاةَ أمه[1] »، بنصب « ذكاة » يقدّرون كذكاة أمّه ، فتقديرها فإذا هو كَهَا ، أى فإذا الزنبور كالعقرب ، وهم يجيزون إدخال الكاف على الضمير ، وسيبويه يمنعه إلاّ فى الشعر كقول العجّاج :

* وأم أوعالٍ كها أو أقربا *

وقال رؤبة :

فلا أرى بعلاً ولا حلائلا[2] كَهُو ولا كَهُنّ إلا حاظلا

وأجاز بعضُ النحويين أن يكون « إياها » كنايةً عن الجملة ،التقدير: فإذا هو لسعتُه كلسعتها، فكنى عن الجملة بقوله : « إياها » وينصب على الحال، لأنها كناية عن الجملة ، وهي نكرة فتصير فى حُكْمِ النكرة ، كما صارت الهاء فى : ربّه رجلاً نكرة فى المعنى ، لكونها كناية عن نكرة ، ولذا دخلت « رُبّ » عليها، وهى لا تدخل إلاّ على نكرة ، فهذا مايقتضيه وجه النصب فى « إياها » على ما ذكره الكوفيون ، والفرقُ بين إذا الزمانية والمكانية من أوْجُهٍ :

أحدها أنّ الزمانية تقتضى الجملة الفعلية لما فيها من معنى الشّرْط ، والمكانية تقع بعدها الجملة الابتدائية أو المبتدأ وحده .

والثانى:أنّ الزمانية تقتضى جوابا والمكانية لا تقتضيه .

والثالث : أنّ الزمانية مضافة إلى الجملة التى بعدها ، والمكانية ليست مضافة إلى ما بعدها ، بدليل خرجت فإذا زيد ، فزيد مبتدأ وإذا خبره .

---

(١) الخبر فى النهاية لابن الأثير ٢ : ١٦٤ . قال : والتذكية الذبح والنحر » . .

(٢) ديوانه ١٢٨ .

رفع المسهم

والرابع : أنّ الزمانية تكون فى صدر الكلام ، نحو إذا جاء زيد فأكرمه ، والمكانية لا يُبتدأ بها إلا أن تكون جوابا للشرط ، كالفاء فى قوله : ﴿ وإنْ تُصِبْهمْ سَيِّئة بما قدمت أيديهم إذا هُمْ يقنطون ﴾ .

والخامس : أنّ الزمانية تقتضى الاستقبال والمكانية تقتضى معنى الحضور ، لأنها للمفاجأة ، والمفاجأة للحاضر دون المستقبل .

انقضى الكلام عليهما على جهة الاختصار .

• • •

فكتمتُ سِرَّه كما يُكتَمُ الدَّاء الدخيل ، وسترتُ مكرَه وإن لم يكن يُخيل ؛ حتّى إذا نَزَعَ عن إعْوالِه ، وقد عَرف عُثورى على حالِه ، رمَقنِي بعينٍ مِضحاكٍ ، ثمّ طفِق يُنشِدُ بِلِسَان مُتَبالٍ .

أستغفرُ اللهَ وأعنُو لَهُ من فَرَطاتٍ أثقَلَتْ ظَهْرِيَهْ
يا قـــومِ كم من عاتقٍ عانسٍ مَمْـــدوحةِ الأوصاف فى الأنديَهْ
قتلتُهـــا لا أتّقِي وارِثًا يطلُبُ منّى قَوَدًا أودِيَهْ
وكلّ ما استُذنِبْتُ فى قَتْلِها أحَلْت بالذّنب على الأقضيَهْ
ولم تَزَلْ نفسِيَ فى غيِّها وقَتْلِها الأبكارَ مُستشريَهْ

قوله : الدّاء الدخيل ، هو الذى لا يُتكلَّم به استقباحًا له أو لمحلّه . يُخيل : يشتبه ويشكل ، وخال يَخيل : اشتبه . نزع : كفّ ، إعْوالِه : بكائه . عُثورى : اطلاعي . رمقنى : نظر إلىّ . بعين مِضحاك ، أي كثير الضحك . مُتَبالٍ :

مستعمل للبكاء بتكلّف . أعنو : أذلّ . فرطات : سقطات وزلّات . عاتق : شابّة قد أدركت ولم يَبْنِ بها زوجها ، بل هى بِكْر ، ويريد بها الخمر التى لم يفضّ أحدٌ ختامها . وعانس : طالت إقامتها فى بيت أبيها . الأندية : المجالس . القَوَد : قتل النفس بالنفس . استُذنِبتْ : نُسبت إلى الذنب : الأقضية : جمع قضاء ، أى كلما قيل لى : فعلت هذا الذنب ؟ قلت : إنما هو قضاء الله وقَدَره ، وأخذ هذا المعنى من قول الحُسَين بن الضحاك :

واترُكى العَذْل على مَنْ قالَهُ وانسبى جَوْرى إلى حكم القَضا[1]

ولهذا البيت حكاية أدبية ، قال الحسينُ : كانت لى نَوْبة فى دار الواثق ، فبينا أنا نائم ذات ليلة ، إذْ جاءنى خادم من خدّام الحَرَم ، فقال لى : إن أمير المؤمنين يدعوك ، فقلت له : وما الخبر ؟ قال : إنه كان نائما إلى جَنْب حظيّته فقام وهو يظنّها قائمة ، فألمّ بجارية أخرى ، وعاد إلى فراشه ، فغضبت حظيّته وتركته حتى نام ، ثم قامت ، ودخلت حجرتَها فانتبه وهو يظنّها عنده ، فطلبها فلم يجدْها ، فقال : مَنِ اختلس كريمتى ، وينحكم أين هى ! فأخبرناه أنّها قامت غَضْبَى ومضت إلى حجرتها . فدعا بك ، قال : فمضيت مع الرّسول وروّيت أبياتا فى طريقى ، فلما جئته خبّرنى القصة ، وقال لى : قل فى هذا شيئاً ، ففكّرت هُنَيْهة كأنّى أقول شعراً ، ثم أنشدته الأبيات :

غَضِبتْ أن زرتُ أخرى غضبةً فلها العُتْبى علينا والرِّضا[1]
يا فدتْك النفس كانت هفوةً فاغفريها واصفحى عمّا مَضَى
واترُكى العَذْل على مَنْ قاله وانسبى جَوْرِى إلى حكم القضا
فلقد نبّهتْنى من رقدتى وعلى قلبى كنيران الغضى

(١) ٧٠ ، وفى ط : « الحسن » تحريف .

فقال : أحسنتِ بحياتى ، أعدها علىّ يا حُسين ، فأعدتها عليه حتى حفظها . وأمر لى بخمسمائة درهم . فقام ومضى إلى الجارية فأنشدها الأبيات فتراضيا ، فكان بعدُ إذا رآنى تبسّم لموقع الأبيات ونجحِها عند الجارية ، والإحالة على القضاء بالذّنب هو مذهب الجَبْرية فمن فعل منهم ذنبا قال : لا ذنب لى ، إنما قُدّر علىّ ومذهب القدريّة خلافه ، قال الشاعر فى ردّه :

إذا أذنبوا قالوا مقاديرُ قُدِّرَتْ وما العار إلا ما تجرُّ المقادِرُ

وقوله : غيّها ، أى فسادها . مستشرية : لاحية مصمّمة ، واستشرَى الشىء : انتشر ، واستشرَى فى أمره : لجّ فيه .

[وَأْد البَنَات]

والقتل الذى ذكره للبنات هو الوأد الذى كانت تفعله الجاهلية ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وإذا المَوْءودةُ سُئِلَتْ . بأىّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾

والموءودة : الّتى تُدفَن حيّة ، فتنقل بالتراب ، والوأد : القَتْل .

وورد قيس بن عاصم المِنقَرِىّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : بعض الأنصار عن وأده البنات ، فقال قيس : ما ولدتْ لى بنتٌ إلاّ وأدتها ، وما رحمت منهنّ إلاّ واحدة ولَدَتْها أمها ، وأنا فى سَفَرٍ ، فدفعتْها إلى أخوالها ، وقدِمتْ فسألت عن الحمل ، فأخْبِرت أنها ولدت ميتاً . ومضت سنون ، حتى ترعرعت ، فزارت أمّها ذات يوم ، فدخلتُ فرأيتُها قد ضَفَرَتْ شَعْرها ، وجعلت فى قرونها شيئاً من الخَلُوق ، ونظّمت عليها ودَعاً ، وألبستها قلادة ، وجعلت فى عنقها مخنقة ، فقلت : مَنْ هذه الصبيّة فقد أعجبنى حسنُها ؟ فبكتْ ثم قالت : هذه ابنتك ، كنت خبّرتك أنّى ولدت ميتاً ، وهذه التى ولَدْت ، فجعلتها عند خالها ، وبلغتْ لهذا المبلغ . فأمسكتُ عنها حتى اشتغلتْ أمها ، ثم أخرجتها يوما ، فخفرتُ

حفرة فجعلتها فيها ، وهى تقول : يا أبت أتغطّينى بالتراب ! حتى واريتُها وانقطع صوتُها ، فما رحمت واحدة منهنّ ممن وأدتُ غيرَها . فدمعتْ عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « إنّ مَنْ لا يَرْحَم لا يُرْحَم[1] » .

وذُكِرَ[2] أن قيساً وأدَ بيده بضع عشرة ابنة ، وكان السبب فى وأد البنات أن المشمرج[3] اليَشْكَرىّ أغار على قوم قيس ، فسبا نساء فيهنّ ابنته وابنة أخيه ، فدخل قيس إليهم فسألهمْ أن يهبوهما له ، فوجد المشمرج قد اصطفاهما لنفسه ، فسأله إياهما ، فقال : قد جعلت أمرهما إليهما ، فإن اختارتاك فخذهما ، فاختارتا المُشَمْرِج ، فانصرف فوأدَ كلّ ابنة له خوفا من الفضيحة ، فاقتدت به العرب فى ذلك .

قال الهيثم : إن الوأد كان مستعمَلا فى قبائل العرب قاطبة ، وكان يستعمله واحد ويتركه عشرة ، فجاء الإسلام ، وقد قَلّ إلاّ فى تميم .

وقيل : كان الوأد فى تميم وقيس وبكْر وهوازن وأسد ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم اشدد وطأتك على مُضَر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » ، فأجدبوا سبع سنين حتى أكلوا الوبر بالدم ، ولهذا جاء تحريم الدم ، وهذا خبر بيّن أنّ الوأد كان للحاجة لا للأنَفة ، وبه نزل القرآن ، قال الله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْتُلوا أولادَكُمْ خَشْيَةَ إملاق ﴾ ، وقال : ﴿ ولا يقتُلْنَ أولادهنّ ﴾ .

ومن ذَكَرَ أنه كان أَنَفةً وأنه كان فى تميم ، ومَنْ جاورهم فيحتج بحديث أبى عبيدة ، أن تميما منعت النعمان الإتاوة ، فوجّه إليهم أخاه الريان ، وجُلّ من معه من بكر بن وائل ، فاستاق النَّعم وسبَى الذّرارى . وفى ذلك يقول المشمرج اليشكرىّ :

---

(١) الخبر فى الأغانى ١٤ : ٦٩ ، ٧٠ (٢) الخبر فى الكامل ٢ : ٨٢

(٣) ط : « المستخرج » تصحيف ، وفى الأغانى ونهاية الأرب ٤ : ١٢٧ : « عمرو بن المشمرج » .

لمّا رأوا راية النعمان مُقبِلةً قالوا ألا ليتَ أدنى دارِنا عدَنُ
يالَيت أمّ تميم لم تكن عرَفَتْ مُرّا[1] وكانت كمَن أودى به الزّمنُ

وقال النعمان فى جوابه :

لله بكرٌ غداةَ الرَّوْع لو بِهِمُ يُرْمَى ذُرا حضَنٍ زالت بهم حضَنُ
إذ لا أرى أحداً فى الناس يُشبههم[2] إلا فوارس خامت عنهمُ اليمنُ

فوفدت إليه تميم ، فأناب إليهم ، وأحب البُقيا . وقال:

ما كان ضرّ تميما لو تعمّدها من فضلنا ما عليه قَيْسُ عَيْلانِ

فسألوه النساء ، فقال: كلّ امرأة اختارت أباها رُدّت إليه ، وإن اختارت صاحبها تُركت عنده فكلّهن اخترنّ آباءهنّ إلاّ ابنة قيس بن عاصم ، اختارت صاحبها عمرو بن المشرح ، فنذَر قيس : ألاّ تولد له ابنة إلا قتلها .

فهذا شىء يَعْتَلّ به من وأد البنات ، ويقول : فعلناه أَنفة ، وقد كذّب بما أنزل الله تعالى فى القرآن المجيد . وأين فعلُ قيس فى الوأد وقساوة قلبه من فعل صعصعة بن ناجية بن عقال جدّ الفرزدق ! فإنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، إنى كنت أعمل عملا فى الجاهلية لنفسى ، أينفعنى ذلك اليوم ؟ قال : وما عملك ؟ قال . أضللتُ ناقتين عُشَرَاوَيْنِ[3] ، فركبت جملا ومضيت فى بُغائهما ، فرُفِع لي بيت فقصدته ، فإذا شيخ جالس بفناء الدار ، فسألته عنهما ، فقال : هما عندى ، وقد أحيا الله تعالى بهما قوماً من أهلك مُضَر ، فجلستُ عنده ليَخرجا إلىّ ، فإذا عجوز قد خرجت من كِسْر البيت ، فقال لها : ما وَضَعَتْ ؟ فإن كان ذَكَراً شاركناه فى أموالنا ، وإن كان أنثى وأدْناها !

(١) ط : « مروا » تصحيف . (٢) الكامل : « أشبههم » .
(٣) العشراء : الناقة التى أتى عليها منذ حملت عشرة أشهر .

رفع المسهم

فقالت : وضعتْ أنثى ، فقلت : أتبيعنيها ؟ فقال : وهل تبيع العرب أولادَها ! قال : فقلت : إنما أشترى حياتَها لارقّها ، فقال : بكم ؟ فقلت : احتكم ، قال : الناقتين والجمل ، قلت : ذلك لك ، على أن يبلّغنى وإياها الجمل ، ففعل . فآمنتُ بك يا رسول الله ، وقد صارتْ لى سنّة فى العرب ، أشترى كلّ موءودة بناقتين وجمل ، فعندى إلى هذه الغاية ثمانون ومائة موءودة ، قد أنقذتها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا ينفعك ذلك ، لأنك لم تبغِ وجه الله ، وإن تعمل فى إسلامك عملا صالحًا تُثَبْ عليه » .

وقال الفرزدق يفتخر بفعل جدّه على جرير :

ألم تر أنا بنو دارمٍ زُرارة منّا أبو مَعْبَدِ[1]
ومنّا الذى منع الوائداتِ وأحيا الوئيد فلم تُوأَدِ
أيطلب مجدَ بنى دارمٍ عطيةُ كالجَمَل الأسوَدِ
قَرَنَبى يحكّ قفا مُقْرِفٍ لئيمٌ مآثره قُعْدُدِ
ومجد بنى دارمٍ دونه[2] مكانُ السماكين والفَرْقَدِ

وعطية هو أبو جرير ، ويأتى فى الأربعين .

وجاء فى الحديث الترغيب فى إكرام البنات ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « مَن ابْتُلى بشىء من هذه البنات ، فأحسنَ إليهنّ كنّ له سِتْرًا من النار » . وفى طريق آخر « مَنْ كان له ثلاث بنات ، وثلاث أخوات أو بنتان ، أو أختان ، فأحسنَ صحبتهنّ واللهَ اتقى فيهنّ ، فله الجنّة » .

ولبعضهم تهنئة بمولودة: اتّصل بى خبر المولودة ، كرّم الله غُرّتَها ، وأنبتها نباتًا حسنًا ؛ وقد علمتُ أنهنّ أقربُ إلى القلوب ، وإن الله عز وجل قد بدأ بهنّ

(١) ديوانه : ٥٠٢
(٢) الديوان : « فوقه » .

فى الترتيب، فقال سبحانه: ﴿ يَهَبُ لمنْ يَشاءُ إناثا وَيَهبُ لِمَنْ يشاء الذُّكُور ﴾ وماسّماه الله تعالى هبةً فهو بالشّكر أوْلَى ، وبحسنِ التقبّل أحْرى .

وقال بعض الشعراء :

أُحِبّ البنات وحُبّ البنا تِ فَرْضٌ على كلّ نَفْسٍ كريمَهْ
فإنّ شعيبا من أجل ابنتَيْـــه أخْدَمه الله موسَى كليمَهْ

وفى الحديث : « دَفْن البنات من المَكْرُمات » .

عزّى رجلٌ يحيى بن خالد فى حُرْمة له ، فقال: أيّها الوزير دَفْنُ الحُرَم من النِّعم ، ثم قال :

تَعَزّ إذا رُزِئْتَ فخَيْرُ درعٍ يسربَل للمصائب دِرْعُ صَبْرِ
فلم أر نعمةً شملتْ كريما كعورَة مسلم سُتِرَتْ بِقَبْرِ

وقال عمر بن أبى علقمة المرىّ :

إنّى وإن سِيق إلى المَهْرُ ألفٌ وعَبْدان وذَوْدٌ عَشْرُ
* أحَبُّ أصهارى إلىّ القبرُ *

وقال إسحاق بن خَلَف :

لولا أُميمةُ لم أجزعْ من العَدَمِ ولم أجُبْ فى الليالى حِنْدسَ الظُّلَمِ (١)
تهوَى حياتِى وأهوى موتَها شفقاً والموتُ أكرم نزّالٍ على الحُرَمِ (٢)

---

(١) ط : « أبو اسحاق » ، وهو خطأ .
(٢) ديوان الحماسة بشرح التبريزى ١ : ٢٧٤ ، وبعده هناك :

وزادنى رغبة فى العيش معرفتى ذلّ اليتيمة يجفوها ذوو الرَّحِمِ
أحاذِرُ الفقر يوماً أن يُـلِمّ بها فيهتك السِّتر عن لحمٍ على وَضَمِ

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

لكلِّ أبى بنتٍ يراعِى شئونَها ثلاثة أصهارٍ إذا ذُكِرَ الصِّهْرُ
فبيتٌ يغطِّيها وبعلٌ يصونُها وقَبْرٌ يُوارِيها وخيرُهمُ القَبْرُ

وقال آخر :

لاتيأسنْ منها فقد زوّجتُها كفؤا وضَمِنْت الصَّدَاق مَليكا

* * *

حتّى نَهانِى الشَّيْبُ لَمّا بَدَا فى مَفْرِقِى عن تِلْكُمُ المَعْصِيَهْ
فلم أُرِقْ مذْ شاب فَوْدِى دماً من عاتِقٍ يَوْماً ولا مُصْبِيَهْ
وهأنذا الآنَ على ما يُرَى منِّى ومِنْ حِرْفتى المُكْدِيَهْ
أَرُبَّ بِكْرًا طالَ تَعْنِيسُها وحَجْبُهَا حتّى عن الأهوِيَهْ
وهى على التَّعْنِيس مَخْطُوبَةٌ كخِطبَةِ الغانيةِ المُغْنِيَهْ
ولَيْسَ يَكفِينِى لتجهيزها على الرِّضا بالدُّونِ إلاَّ مِيَهْ
واليدُ لا تُوَكى على دِرْهَمٍ والأرْضُ قفرٌ والسَّماء مُصْحِيَهْ
فهلْ معينٌ لى على نَقْلِهَا مصحوبةً بالقَيْنَةِ المُلْهِيَهْ
فيغسِلَ الهمَّ بصابونِهِ والْقَلْبَ من أفكارِه المضنِيَه
ويقتنى منِّى الثناء الَّذى تَضُوعُ رَيَّاهُ مع الأدعِيَهْ

* * *

قوله : فَوْدِى ، أى ناحية رأسى . مُصبِية : لها صَبْوة ، أو يصبو إليها مَنْ رآها ، وجعل الخمر مُصْبِية ، لأنّها تغلب شرّابها فتصيّرهم سكارى ، كقولهم

عقول الصبيان ، فهى تلعبُ بهم كما تلعب الأمّ بصبيانها . جِرْ فَتِى : صنعتى للكدية : الصعبة ، وأكدى الحافرُ : بلغ كدية ، فرفع عن الحفر آيساً من الماء ثم استُعير لغير ذلك أَرُبّ : أصلح . تَعْنيسها : إقامتها بغير زوج .

قال عمر رضى الله تعالى عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مكتوب فى التَّوراة : مَنْ بلغتِ ابنته اثنتى عشرة سنة ، فلم يزوّجها فأصابت إثما فإثم ذلك عليه » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ بلغَ له ولد النكاح وعنده ما ينكحه به فلم ينكحه ، فأصاب إثماً فالإثم بينهما » . ويَعْنى بها خرزاً قديمة حجبها عن الأهوية ، لئلا يُفْسدها الهواء .

قوله : مخطوبة : مطلوبة . الغانية : البارعة الجمال التى غَنِيتْ بحسنها عن الزينة ، قال الرُّسْتمى : أصلها فى ذات الزوج التى استغنت بزوْجِها ، ثم قيل فى غير ذات الزوج . قال عمارة : هى الشابّة التى تعجب الرجال ويعجبونها . المُغْنية : التى نشأت فى الغِنى ، وأغْنَى بمعنى استغنى ، والمغنية أيضاً : التى تغنى زوجها عن غيرها لكمال خصالها . تُوكأ : تُشدّ وتربط ، والوِكاء : الخيط يشدّ به فم الوعاء .

وراود عبدٌ فى الجاهليّة ابنةَ سيِّده عن نفسها ، فأمكنته حتى بلغ أربه منها ، ثم عمِدتْ إليه فخبّته . فقال لها أبوها فى ذلك ، فقالت : مَنْ ورد غير مائه ، صدَر بمثل حالِه ، إنّ العبد لمن نوكه قد ابتذل إناء لم يوكِه ، فقال أبوها : يابنيّه لاشالا ولا عى .

وميّه : محذوفة اللام ، ولا يدرى أواو لامُها أم ياء ، قاله صاحب العين . وقال ابنُ الأعرابىّ : امْأيت القومَ ، وأمأيتُهم : صاروا بى مائة ، ففى مأيت دليل قاطع على أن اللام ياء .

وقال الفراء رحمه الله تعالى وكُراع : أصلها مِئية ، وأنشد :

رفع المسهم

فقلتُ والرّكب قد تُخْطِيه منيّتُه أدنى عطيات آبائى مثياتُ

قوله : قَفْر: غير عامرة. مُصحية : زال سحابها، ضربه مثلا للخُلوّ من المال ، فلا فى أرضه خصب فتعمر من أجله ، ولا فى سمائه سحاب فيرجَى خيرُها . وقد تقدّم لغيمى مطر .

القَيْنة الملهية : الجارية المغنّية ، وهى فى كلام العرب الأَمَة ، مغنّية كانت أو غيرَ مغنّية ، قال زهير :

• ردّ القيان جِمالَ القوم فاحتملوا[1] •

واشتقاقها من قُنتُ الشىء أقينه قَيْناً ؛ إذا لمته ، قال الشاعر :

ولى كَبِدٌ مجروحةٌ قد بدا بها صدُوع الهوى لو أن قيناً يَقِينُها[2]

ولهذا سُمِّىَ الصّواغ والحداد قَيْنًا ، والماشطة قَيْنة .

قوله : فيغسل الهمّ بصابونه : يعنى فينفى هَمّى بالخمر لأنها تنفى الهمّ والحزن والغم كما يغسل الصابون وسخ الثوب . المضنية : المَمْرضة . يقتنى : يكتسب . تضوّعَ ريّاه : تتحرك رائحته ، يريد أنه يكتسب منه السامع الدعاء فيثنى عليه ثناء حسنا فى الدنيا ويدعو له بالآخرة ، ويقال: ضاعَ المسك يضُوع، أى انتشرت رائحته ، وقال الشاعر :

وما هو إلاّ المِسْكُ عند ذوِى الحجى
يَضُوع وعنـــد الجاهلينَ يضيعُ

---

(١) ديوانه ١٦٤ ، وبقيته:

• إلى الظهيرة أمرٌ بينهمْ لَبِكُ •

(٢) اللسان ـ قين

قال الراوى : فلمْ يَبْقَ فى الجماعة إلاَّ مَنْ نَديتْ له كفُّه ، وانباعَ إليه عُرْفُه فمَّا نجحتْ بغيتُه ، وَكَمُلَت مِنَّتُه ، أخذ يُثنى عليهمْ بصالح ، ويُشَمِّر عن ساقِ سارح ؛ فتبعته لأستعرفَ رَبيبَةَ خِدْره ، ومَنْ قتل فى حِدْثان أمره ، فكأنَّ وَشْكَ قيامِى ، مثَّلَ له مَرَامى . فازدلَف منّى ، وقال : اقْفُه عنِّى :

قَتْل مِثلى يا صاحِ مَزْج المُدام ... لَيْسَ قَتْلى بلَهْذَمٍ أو حُسامِ
والَّتى عُنِّسَتْ هى البِكْرُ بنتُ الـ ... ـكَرْمِ لا البِكْرُ بنتُ الكرامِ
ولتجهيزها إلى الكأْسِ والطَّا ... سِ قيامى الَّذِي تَرَى ومُقامِى
فتفَهَّمْ ما قلتُه وتَحَكَّمْ ... فى التَّغاضِى إنْ شئتَ أو فى المَلامِ

ثم قال : أنا عِرْبيدٌ ، وأنت رِعْديد ، وبيننَا بَوْنٌ بَعيد . ثمَّ ودَّعنى وانْطَلَقَ ، وزوَّدنى نَظْرةً من ذى عَلَق .

* * *

ندِيت : كرمت . انباع : سال . عُرْفه : معروفه . نجحت : انقضت وتمت ، بُغْيته : طَلِبته . طَفِق : أخذ وجعل . سارح : ذاهب ، يريد أنه شمّر للسير ، وأضاف ساقا لسارح ، وهو يريد : عن ساق رجل سارح ، أى ذاهب . ربيبة خدره ، أى الّتى رباها فى بيته ، وربيبة الرجل بنت امرأته من غيره ، قيل لها ذلك لأنه يربّيها فهى « فعيلة » بمعنى مفعولة ، فأصلها مربوبة ، ويقال : ربّ فلان فلانا ورباه وربّبَه وتربّبه بمعنى واحد . حدْثان : أول . وَشْك : سرعة . مرامى : مرادى ومطلبى . ازدلف : قَرُب ، ويقال : قتلت الخمر ، إذا مزجتَها ، وقد فسره بقوله : مزج المدام .

رفع المسهم

[حكايات وأشعار حول الخمر]

قال الأخطل :

فقلت اقتلُوها عنكمُ بِمِزَاجها وأَحْبِبْ بها مقتولةً حين تُقْتَلُ[1]

وكان الأخطل خليعاً ، فأثنى هنا على الممزوجة . وقال فى التى لم تمزج :

وكأسٍ مثل عين الديك صرفٍ تُنسى الشاربينَ لها العُقُولا[2]
إذا شرب الفتى منها ثلاثاً بغير الماء حاوَل أن يَطُولاَ
مشَى قرشيَّةً لاشكّ فيها وأرخى من مآزره الفُضُولا

• • •

وأصبح عبد الملك يوما فى غَداةٍ باردة ، فأنشِد هذه الأبيات ، ثم قال : كأنّ الأخطل الآن فى حانوت خمار محلّل الإزار ، مستقبلَ الشمس . ثم بَعَث مَنْ يطلبه بدمشق ، فوجده كما وصف .

وقال له يوما: ألا تُسْلِم فنفرِضَ لك فى الفىء ونعطيك عشرة آلاف درهم ! قال: فكيف بالخمر ؟ فقال له عبد الملك : وما تصنع بها ،وإنّ أوّلها مُرّ وآخرها سُكْر ! قال الأخطل : وفيما بين هاتين منزلة مايسرّنى لىَ بها .

وقال حسان بن ثابت رضى الله عنه وقد أُعطِىَ كأس خمر ممزوجة :

إنّ التى ناولتِنِى فرددتُها قُتِلَتْ ـ قُتِلتَ ـ فهاتها لم تُقتل[3]
كِلْتاهما حلَب العصير فعاطِنِى بُزجاجة أرخاهما لِلْمَفْصَلِ

فدعا بالقتل على الذى أعطاها له ممزوجة .

---

(١) ديوانه ٤ ، وروايته : « فأطيب بها » .
(٢) ديوانه ٣٧١ (٣) ديوانه ٣١١

وذكر الحريرى فى الدّرة[1] البيتين ، وقال فى قوله : « أرخاها » القياس : أشدّها إرخاء للمفصل ، لأنّ أصل هذا الفعل أرخى ، فبناؤه ليس مقيساً كما قالوا : « ما أحوجه إلى كذا فبنوه من حوج ، وإن كان قياسه : ما أشدّ حاجته .

ولهذين البَيْتين حكاية يحسن أن نعقبها بروايتها ، ونضوع نشرها بنشر مُلَحِها ، وهى ما رواه أبو بكر محمد بن القاسم الأنبارىّ عن أبيه ، قال : حدّثنا الحسن بن عبد الرحمن الربعىّ قال : حدّثنا أحمد بن عبد الملك بن السّماك السعدىّ قال : حدّثنا أحمد بن ظبيان الحائز ، قال : اجتمع قوم على شراب لهم ، فغنّاهم مغنّيهم بشعر حسان : « إن التى » البيتين . فقال بعضهم : امرأتى طالق إن لم أسأل الليلة عبيد الله بن الحسن القاضى عن علّة هذا الشعر ، لم قال : « إن التى » ، فوحّد ، ثم قال : كلتاهما ، فثنّى ؟ فأشفقوا على صاحبهم وتركوا ما كانوا عليه ، ومضوا يتخطّوْن القبائل ، حتى انتهوا إلى بنى شُقْرة وعُبيد الله ابن الحسن يصلّى ، فلمّا فرَغ من صلاته قالوا : قد جئناك فى أمرٍ قد دعتْنا إليه ضرورة ، وشرحوا له خَبَرَهُم ، وسألوه الجواب ، فقال :

• إنّ الّتى ناولْتِنى فرددتها •

عَنَى بها الممزوجة بالماء ، ثم قال : من بعد : كِلْتاهما حلَب العصير ، يريد الخمر المحتلبة من العنب ، والماء المتحلب من السحاب ، المكنّى عنها بالمعصرات فى قوله تعالى : ﴿وأنزلنا من المُعْصِرات ماء ثجّاجا﴾ ، قال الشيخ الإمام الأجلّ الأوحد العالم أبو محمد أدام الله سعادته : فهذا ما فسّره به عبيد الله بن الحسن .

وقد بقى فى الشعر ما يحتاج إلى كشف سرّه ، وتبيان نُكَته ، أما قوله :

إن التى ناولتنى فرددتها قتلت قتلت . . .

فإنه خاطب به السّاقى الذى كان ناوله كأساً ممزوجة ، لأنه يقال : قتلتُ الخمر إذا امزجتَها ، فكأنه أراد أن يعلمه أنه قد فطِن لما قَدْ فعله ثم ما اقتنع منه بذلك

(١) درة الغواص ٧٣

حتى دعا عليه بالقَتْل فى مقابلة المزح . وقد أحسن كلّ الإحسان فى تجنيس اللفظ ، ثم إنه عقّب الدعاء عليه بأن استعطى منه ما لم تقتل - يعنى الصَّرْف - التى لم تمزج .

وقوله : أرخاها للمفصل ، يعنى اللِّسان ، وسُمِّىَ مِفْصَلاً بكسر الميم ، لأنه به يفصَل بين الحق والباطل ، وليس فيما اعتمده عبيد الله بن الحسن من الإسماح وخفض الجناح ، ما يقذِف فى نزاهته أو يغضّ من نُبْلِه وبراعته .

ويضارع هذه الحكاية فى وطأة القضاة المتقشِّفين المستفتين وتلاينهم فى مواطن اللّين ، ما يحكى أن حامد بن العباس ، سأل علىّ بن عيسى فى ديوان الوزارة عن داء الحُمار ، وعن دوائه ، فأعرض عن كلامه ، وقال : ما أنا وهذا للمسألة ! فخجل حامد منه ، ثم التفت إلى قاضى القضاة أبى عَمرو ، فسأله عن ذلك فتنحنحَ القاضى لإصلاح صوته ، ثم قال : قال الله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ (١) ، وقال النّبىّ عليه الصلاة والسلام : « استعينوا على الصناعات بأهلها » . والأعشى هو المشهور فى الجاهلية بهذه الصناعة ، قال :

وكأسٍ شَرِبْتُ على لذّةٍ وأخرى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا (٢)
لكى يعلَمَ النّاسُ أنّى امرؤ أتيت المروءة من بابِهَا

ثم تلاه أبو نواس فى الإسلام ، فقال :

دعْ عنك لومى فإنّ اللوم إغراء وداوِنى بالّتى كانَتْ هى الدّاءُ (٣)

فأسفَر حينئذ وجْه حامد ، وقال لعلىّ بن عيسى : ما ضرّك يابارد أن تجيبَ

(١) سورة المائدة ٤١
(٢) دايونه ١٧٣
(٣) ديوانه ٢٣٤

رفع المسهم

بعض ما أجاب به قاضي القضاة ؛ وقد استظهر في جواب المسألة بقوله سبحانه أولا ، ثم بقول الرسول عليه الصلاة والسلام ثانياً ، وبيّن الفتيا وأدّى المعنى ، وتفصّى من العهدة . فكان خجل عليّ بن عيسى من حامد بهذا الكلام أكثر من خجل حامد منه ، لما ابتدأه بالمسألة وتبع حسانَ مسلمُ بن الوليد ، فقال وأحسن :

إذا شئتما أن تسقياني مُدامةً ... فلا تقتلاها كلّ ميتٍ محرّمُ[1]
خلطنا دماً من كَرْمة بدمائنا ... فأظهرَ في الألوان منّا الدمَ الدمُ

وقال أبو نواس في الصَّرف :

وكُمَيْتٍ أرقّها وهَجُ الشمـ ... ـس وصيفٌ يفنى بها وشتاءُ
لم يَشِنْها الطاهي بطبخ ولا غيـ ... ـرها عن طبيعةِ الكرْم ماءُ

وقال فيه أيضاً :

توارتْ من الأبصار من عهد آدمٍ ... حِذارًا لكون الماء يوماً قرينُها[2]
فصُنْها عن الماء القراح وأسقِني ... فإنك إن لم تسقِني متّ دُونَها

على أنه القائل :

ألا دارِها بالماء حتى تليننَها ... فلن تكرمَ الصهباء حتى تهينَها

وقال أبو نواس لإخوانه في مرض موته : إياكم والخمر صِرفا فإنها أحرقت كبدي ، قال ابن رشيق :

قِدْرُ المُدامة فوق قِدْر الماء ... فارغَبْ بكأسك عن سِوَى الأكفاء[3]

---

(١) ديوانه ١٧٩ .
(٢) ديوانه ٣٤٩ .
(٣) التنف ٥ .

رفع المسهم

مالى ومَزْجَ الرّاح إلاّ فى فمى بالرّيق من فم غادةٍ حسناء
ذاك المِزاج وإن تعدّانى الّذى فى لُزْنَ من ذى رقّةٍ وصفاء
أشهى وأبلغ فى الفؤاد مَسَرّةً من غيره وأدبّ فى الأعضاءِ
لِى الصِّرْفُ إن مَزَجَ النّديم ولم أكُنْ مستأثراً فيها عن النُّدَماءِ

وقال أيضاً :

قلت لمن ناولَنِى مُرّةٍ ما بِىَ حُبّ الغِيدِ بل حُبُّها[1]
لا تسقنى راحَكَ ممزوجةً واشرب فما يمكننى شربُها
ما راحتى فى الرّاح إن غُيّرَتْ دعها كما جاء بها رَبُّها

ونصلُ بهذا النّمط ، ما قيل فى نبيذ الزبيب ، قال أبو الأسود الدؤلىّ :

دع الخمر يشربها الغواةُ فإنّنى رأيتُ أخاها مغنياً بمكانِها
فإن لا يكنْها أو تكنه فإنّه أخوها غذَتْهُ أمُّهُ بلبانِها

يقول : إن لا يكن الزبيب الخمر أو الخمر الزبيب، فإنهما أخوان غذيا بابن واحد وهى الحبّة التى هى أصل العنب والزبيب ؛ فأحدهما ينوب مناب الآخر ، وأنشد الحامضىّ :

تركتُ الحميّا لستُ أختار شربَها وما حاجتى فى أن أمرّ الأعاديا
ولكنّ أخرَى من نبيذٍ معتّق يمنّيك إن أكثرت منه الأمانيا
أخو الخمرِ من عنقودها غير أنهمْ إذا قطعوها جَفّفُوه لياليا

قال المأمون : نقلت هذا المعنى بأبيات ملوكية لا تحضر السوقة بمثلها :

---

(١) التنف ٧

رفع المسهم

صلى النَّدْمان يوم المهرجانِ بكأسٍ من معتّقةِ الدِّنانِ
بكأس خمرٍ وإنّى عتيقٌ فإنّ العبد عبد خمروانى
وجنّبنى الزّبيبين طرّا فشأن ذوى الزّبيب خلاف شانى
فأشربها وأزعمها حراماً وأرجو عفو ربّ ذى امتنانِ
ويشربها ويزعمها حلالاً وتلك على الشّقىّ خَسارتان

سأل رجل شريحاً القاضى : هَلِ النبيذ حلال أم حرام؟ فقال : حلال، فقال: قليله خيرٌ أم كثيره؟ قال : قليله ، قال الرجل: مارأيت حلالاً وقليله خير من كثيره إلا هذا .

وقال قُتيبة بن مسلم لقاضى مَرْو : بلغنى أنك شربتَ النبيذ ، قال : نعم أصلحك الله ! أشربُ منه ما يسلّى العقل ويُطيب النفس ، ويُغْنِى عن الماء، ويهضم الطعام ، قال : فما أبقيت ؟ قال : أبقيت أخبثَه وأردأه ، الاتّكاء على الشمال ، ومنادمة الرجال ، والاختلاف إلى المبَالِ .

وترك رجل النبيذ فقيل له: لِمَ تركتَه وهو رسول السرور إلى القلب ؟ فقال: ولكنه بئس الرسولُ ! يُبعثُ إلى الجوف فيذهب إلى الرأس .

• • •

قوله لَهْذم : هو سِنان الرُّمْح . بنت الكرم : الخمر ، وتجهيزها : حملها . والطاس : إناء الخمر كالإبريق يصبّ منه الشراب فى الكأسِ ، وجمعه طاسات ، قال الناشِى :

وكأنّما الطاسات مما حَوْلَها من نورها يَسْبَحْنَ فى ضَحْضَاحِ
لو بُثّ فى غسق الظلام ضياؤها طلع المساء بغُرّة الإصباح

[مما قيل فى ذم الغناء ومدحه]

وقدّم فى المقامة أنّه لا يجهّزها إلا مصحوبة بالقينة، أى لا يشربها إلا بالغناء .

وقد ذمّوا الغناء ومدحوه ، فأما ذمّه ، فقال الكندىّ : الغناء بِرْسام حادّ ، لأن المرء يسمع فيطرَب ، ثم يسمح فيفتقر ، فيغتمّ فيمرض فيموت .

وقال يزيد بن الوليد: إياكم والغناء فإنه يُسقط المروءة ، وينقص الحياء ، ويبدى العَوْرة ، ويزيد فى الشهوة ، وإنه ليَنوب عن الخمر ، ويصنع بالعقل ما يصنع به السّكر وإن كان ولا بد فجنّبوه النساء ، فإنّ الغناء داعية الزنا .

وأما مدحه فقال ربيعة بن عبد الرحمن : السماع مطربة ، وهو من نتيجة العقل ، فمَنْ كَرِه السماع ، دلّ بذلك على قلة عقله .

وقال بعض الفلاسفة ، جُعلت اللّذات خمسا فى خمس، فجعل اللمس لليدين، والشمّ للمنخرين، والسمع للأذنين، والذوق للسان، واللون للعينين ، وعلى كلّ جارحة تعب من اللذات إلا النّغمة ، فإنه لا تعب على الأذنين فيها ، ولذلك صار النّاس كلُّهم عربيُّهم وعجميّهم ، صغيرهم وكبيرهم مشتركين فى الإصاخة إلى النّغمة الحسنة ، والصوت المستمتع ، متباينين فى غير ذلك . وقد يوجد أكثرها فى أكثر الحيوان كالخيل يصفر لها عند الشرب ، فتشرب والإبل يحدَى لها فتنقاد ، قال الشاعر :

فليس الشّراب إلاّ باللاهِي وبالحرَكاتِ فى بَمٍ وزِيرِ
فلا تشربْ بلا طَرَبٍ فإنى رأيتُ الخيلَ تشربُ بالصّفِيرِ

وقال آخر :

فانظر إلى الإبلِ الّتى هى - وَيْكَ - أغلظُ منك طَبْعا

رفع المسهم

تُصغِى إلى صوت الحدا ... ةِ فتقطعُ الفَلَواتِ قطعا

قوله : التغاضى أى التغافل . عِرْبيد : سيىء الأخلاق عند سُكْرِه ، وهو الذى يؤذِى بيده ولسانه أصحابه . رِعْدِيد : جَبَان فزّاع . بَوْن : فضل ومزيّة من ذى عَلَقٍ ، أى من صاحب محبّة ؛ هو مثل يضرب لمن ينظر بودّ ومحبّة ابن طريف : العَلَق: الحبّ ، وعلِق فلانٌ فلانَة ، أى أحبّها. والله الموفق .

المقامة السادسة والثلاثون الملطية

أخبر الحارث بن همّام قال : أَنَخْتُ بِمَلَطِيَّة مَطِيَّةَ البَيْن ، وَحَقِيبَتِى مَلْأَى من الْعَين ؛ فجَعَلْتُ هِجِّيرَاىَ ، مُذْ أَلْقيتُ بِهَا عَصَاى ؛ أن أَتَوَرَّدَ موارِدَ الْمَرَحِ ، وأَتَصَيَّدَ شَوارِدَ المُلِحِّ ؛ فَلَمْ يَفتْنِي بِهَا مَنظرٌ ولاَ مَسْمَع ؛ ولاَ خَلاَ مِنِّى مَلْعَبٌ وَلاَ مَرْتَع ؛ حَتَّى إذا لم يَبْقَ لِى فيهَا مأرب ، وَلاَ فى الثَّواء بِهَا مَرْغبٌ ، عَمَدْتُ لإنفاقِ الذَّهَب فى ابتياعِ الأُهَب . فَلَمَّا أَكْمَلْتُ الأعداد ، وتَهَيَّأَ الظَّعْنُ فيهَا أَوْ كَادَ ، وَجَدْتُ بِهَا تِسْعَةَ رَهْطٍ قد سبئوا قَهْوَة ، وارتبئوا رَبْوة ، ودَمَاثَتُهُمْ قَيْدُ الأَلْحَاظ ، وفُكَاهَتُهُمْ حُلْوةُ الأَلْفَاظ ، فنحوتُهُمْ طَلَبًا لِمُنَادَمَتِهِمْ لاَ لِمُدَامَتِهِمْ ، وشَغَفًا بِمازَجَتِهِمْ لا بِزُجَاجَتِهِمْ .

* * *

أَنَخْتَ المطيّة : صيّرتها باركة بالأرض .

[ذكر ملطية]

مَلَطِيَّة : بلد بالجزيرة ذات أنظار وقُرى ، بينها وبين الرَّقَّة خمسون فرسخاً ، والرَّقَّة : أمّ قرى الجزيرة ، وذكرها المسعودى فى شعره فقال :

ولم يحلبوها من وراء مَلَطْيَةٍ تصدَّع أجبالٌ بها وأكامُ

(١) ضبطها ياقوت : « بفتح أوله وثانيه وتخفيف الياء » قال : والعامة تقول بتشديد الياء وكسر الطاء » .

وقيل : مَلَطْية فى ثغر الشأم .

قال اليَعقوبىّ : ملطْية هى المدينة العظمى ، وكانت قديمة فأخربها الرُّوم ، فبناها المنصور سنة تسع وثلاثين ومائة ، وجعل عليها سورًا واحداً ، ونقل إليها عدّة قبائل من العرب ، قال : وهى فى مستوٍ من الأرض يحيط بها جبال الروم ، وماؤها من عيون وأودية من الفرات ، وخفّفها المتنبى ضرورةً فقال :

وكرّتْ فدرّت فى دماء مَلَطْيَةٍ مَلَطْيَةُ أمٌّ للبنين ثَكُولُ[1]

قوله : مطيّة البين ، يريد ناقة السفر ، أى أقام بها وترك السفر . الحقيبة : وعاء الرحل . والعَيْن : الذهب . هِجّيرَاى : عادَتى . وألقى بها عصاه ، أى أقام بها وترك السفر . أنورّد : أطلب وأدخل ، وتوردّت الإبل الماء : دَخلته قِطْعةً قطعة . والمرح : النشاط . شوارد : نوافر ، وأراد أنه أتْبَع نفسه جمعَ اللذات بملطيّة وشاهدَها . مرتع : موضعٌ خصيب كثير الطعام . مآرب : حاجة . الثّواء : الإقامة . عمدت : قصدت . ابتياع الاهَب : اشتراء العُدد للسَّفَر . الظّعن : الارتحال . الرَّهْط . الجماعة من ثلاثة إلى عشرة . سبَئُوا قهوةً : اشتروا . ارتبئوا ربوة : طلَعوا كُدْيةً ، وقال الحسن :

وفتيانِ صِدْقٍ قد صرفتُ مطيَّهمْ إلى بَيْتِ خَمّارٍ نزلْنا به ظُهْرَا[2]

أتينـــا يهوديا تجمّل ظاهرًا
ويُضْمِرُ فى المكنون من سِرِّه الشَّرّا

فجاء بهـــا زَيْتيَّةً ذهبيّةً فلم نستطعْ دون السُّجود لها صَبْرَا

خَرجْنا على أنّ المُقام ثلاثةٌ فطابتْ لنا حتى أقمنا بها شهرًا

---

(١) ديوانه ٣ : ١٠٢ .

(٢) ديوانه ٢٧٢ مع اختلاف فى الرواية وترتيب الأبيات .

رفع المسهم

وقال فى شراء الخمر بثيابه :

نجوتَ من اللص المغير بسيفه إذا مارماه بالتّجار سَبِيلُ[١]
واصَلْتُ[٢] خمّارا علىّ بخمرة فراح بأثوابى[٣] ورُحْتُ أَميل

وقال الأمير تميم بن المعز :

شَربْنا على نَوْح المطوّقة الوُرْقِ وأَرْدِيةِ الرَّوْضِ الملفّفَةِ البُلْقِ[٤]
معتّقة أفنى الزمان وجودَها فجاءت كفوت اللّحْظِ أورقةِ العِشْقِ
كأنّ السحاب الغرّ أصبَحْن أكؤُساً
لنـا وكأنّ الرّاحَ فيها سَنَا البرق
فبتنا نحثّ الكأس حثًّا وإننا لنشربُها بالحثّ صِرْفا ونَسْتَسْقِى
إلى أن رأيت النّجْم وهو مغرِّبٌ
وإقبال[٥] رايات الصّباح من الشّرْقِ
كأنّ سوادَ الليل والفجر طالعٌ
بقيّة لَطْخِ الكُحْل فى الأعين الزُّرْقِ[٦]

وأحسن فى هذا المعنى ماشاء ، إلاّ أنه جعل شربنا فى الرّوض على نوح الحمام، ولو عوّض من لفظ « النوح » لفظ الغناء أو التغريد لكان أتمّ لِلذّته ، كما قال ابن الرومىّ :

وأذكى نسيم الروض ريعانَ ظِلِّهِ وغنّى مغنّى الطّيْرِ فيه فرَجّعَا[٧]

---

(١) ديوانه ٣٢٣ (٢) ديوانه : « وسلطت »
(٣) الديوان : « بأسلابى »
(٤) ديوانه ٢٩٦ وفيه : « الملفوفة » .
(٥) الديوان : « وأقبل »
(٦) الديوان : « بقايا مجال الكحل فى الأعين الزرق » .
(٧) نقله البارودى فى مختاراته ٤ : ٧٥ .

وكانت أهازيج الذّباب هناكمُ على شدوات الطير صوتا موقّعا

وقال آخر :

وكأسٍ كريق الإلف شَعْشَعها به
وعيشىَ مِنْ هذا الشَّراب المُشَعْشَعِ
إذا ماشَرِبنَا كأسَها صبّ فضلَها على رَوْضِنَا للمُسمِع المُتَخَلِّعِ

المسمع : المغنّى ، يعنى به الذباب الذى ذكره عنترة فى قوله :

فترىَ الذباب بها يُغنّى وحده هَزِجًا كفعل الشّارب المترنّم[1]

وإنما ذكر الحريرىّ الرّبوة ، لأنّ النّبات فيها أحسن وأسلم من نبات الانخفاض ، لأن نبات الانخفاض وَخِم ، قال الله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أصابها وابلٌ فآتَتْ أُكُلَها ضعفين ﴾[2] . وقال المتنبى[3] :

* نحنُ نَبْتُ الرُّبَّا وأنت الغمام *

قوله : دمائثهم قَيدُ الألحاظ، أى سهولة أخلاقهم تقيّد عيون الناظرين إليهم، حتى لا ينظروا إلى غيرهم ، قال ابن المعتزّ :

مَنْظَرهُ قَيد عُيونِ الوَرَى فليس خَـــلْقٌ يتلقّاهُ

نحوتهم : قصدتُهم . شغفا : حُبًّا .

* * *

(١) من المعلقة ص ١٨١ ـ بشرح التبريزى ، ورواية البيت هناك .
وَخَلاَ الذُّبابُ بِهَا فليْسَ ببارِحٍ غَرِدٍ كفِعْلِ الشاربِ المُتَرَنِّمِ
(٢) سورة البقرة ٢٦٥ (٣) ديوانه ٣ : ٣٤٣، وصدره :
أينَ أزْمَعْتَ أيُّهذَا الهمامُ
(٤) ديوانه

فلمّا انتظمتُ عاشِرَهُمْ ، وأَضْحَيْتُ معاشِرَهم ، أَلْفَيْتُهُمْ أبناء عَلّاتٍ ، وقَذائفَ فَلَوَاتٍ ؛ إلاّ أنّ لُحْمَةَ الأدب ، قدْ أَلّفتْ شَمْلَهُمْ أُلْفَةَ النّسب ؛ وساوَتْ بينهم فى الرُّتَبِ ؛ حتّى لاَحُوا مِثْلَ كواكبِ الجوْزاء ، وبَدَوْا كالجملةِ المتناسبةِ الأجزاء ، فأبهجنى الاهتداءُ إليهم ، وأحْمَدْتُ الطّالِعَ الّذى أَطْلَعَنِى عَلَيْهِمْ ، وطَفِقْتُ أُفيضُ بقِدْحِى مع قِداحِهِمْ ، وأَسْتَشْفِى برياحِهِمْ لابراحِهِمْ ، حَتّى أدّتْنَا شُجُونُ المُفاوضة ، إلى التّحاجى بالمُقايَضَة ، كقولك إذا عنيت بِهِ الكرامات : مامثلُ النّوْم فات ؛ فأنشأنا نَجْلو السُّهَا والْقَمَر ، ونجنى الشَّوْكَ والثَّمَر .

* * *

انتظمت : سرت معهم فى نظام واحد ، والنظام الجوهر . معاشرهم : مصاحبهم . ألفيتُهم : وجَدْتُهم . أبناء عَلّاتٍ ، أى غرباء من بلاد مختلفة ، وبنو العَلّات : الذين أبوهم واحد وأمّهاتهم شتى . قذائف فَلَوات ، أى قد رمت بهم القفار ، والطرق المختلفة واحدتها قذيفة ، وهى التى يُقذف أى يرمى بها . لحمة ، أى قرابة . ألفت شملَهم : أى جمعت متفرّقهم ، وجعل للأدب لحمة مجازا ، وجعل الأدب يجمعهم كما يجمع بنى العَلّات الأب ، والبلاد تفرّقهم ، كما تفرّق بنى العَلّات الأمّهات .

[مما قيل فى المودة بين الشعراء]

وهذا نحو مايُحكى[1] أنّ دِعْبِلاً ذُكِرَ عند علىّ بن الجهم فكفّره ولعنه ، وقال : كان يَظْهَر على أبى تمام وهو خير منه ، ديناً وشِعْرًا ، فقال له بعض من حضر : لو أن أبا تمام أخوك مازِدْت على مدحك له ، فقال : إن لم يكنْ

(١) الخبر فى أخبار أبى تمام للصولى ٦١ ، ٦٢ .

أخى فى النَّسَب ، فهو أخى فى المودّة والأدَب ، أما سمعتَ ماخاطبنى به » وأنشد لأبى تمّام :

إن كان يجمعنا الإخاء فإننا نَغْدُو ونَسْرِى فى إخاء تالدِ[1]
أو يَفترق نسبٌ يؤلف بيننا أدب أقمْنَاه مقـــامَ الوالدِ

وكرّر أبو تمام هذا المعنى ، فأحسَن بقوله :

ذُو الوُدّ منى وذو القربى بمنزلةٍ وإخوتى أسوةٌ عندى وخِلاّنِى[2]
عصابة جاورتْ آدابُهم أدبِى فهم وإن فُرِّقوا فى الأرض جيرانِى[3]
أرواحُنا فى مكانٍ واحدٍ وغدت أجسامنا فى عِرَاقٍ أو خُرَاسَانِ

وأنشد إسحاق الموصلى :

يقولونَ لى هَلْ من أخٍ أو قَرَابةٍ فقلت لهم إن الشُّكول أقاربُ
نَسِيبِىَ فى رأيى وعزمى ومَذْهبى وإنْ باعدتْنَا فى الولاء المناسبُ
وليس أخِى إلا الصحيحُ وِدادهُ ومَنْ هو فى وَصْلِى وقُرْبِىَ راغبُ

وكان لسليمان بن وهب نديمٌ يأنس به، فعرَبَدَ عليه ليلةً فطرحه وجفاه فوقف له بالطريق ، فلمّا مرّ به وثب إليه ، ثم قال : أيّها الوزير ، لاتكُنْ فى أمرى إلاّ كما قال علىّ بن الجَهْم :

القوم أخدانُ صِدْقٍ بينهمْ نسبٌ من المودّة لم يُعدَلْ به نسبَ[4]
تراضعوا دِرّةَ الصَّهباء بينهمُ فأوجبوا رَضِيع الكأس مايجبُ
لا يحفظون على السَّكْرانِ زَلّتَهُ ولا يريبكَ من أخلاقهم رِيبُ

فقال : قد رضيت عنك رضا صحيحا ، فعُدْ لشأنك .

---

(١) ديوانه ٨٦ ، وبعده :

أوْ يختلفْ ماء الوِصالِ فماؤنا عَذبٌ تحدّر من غمامٍ واحدِ

(٢) وفيه : «وإخوانى» .
(٣) الديوان : « بشآم أو خرسان »
(٤) ديوانه ١٠٥ ، ١٠٦ ، الأغانى ١٠ : ٢٤٣

قوله الرتب : أى المنازل الرفيعة . مثل كواكب الجوزاء ، أى فى الإضاءة والرفعة . والجملة المتناسبة الأجزاء ، أى المتّفقة ، يعنى مقاديرهم فى الفضل وغيره متساويةً لاتفاضل بينهم ، كالجملة التى لامزية لبعضها على بعض ، وأقل جملة حسابية أجزاؤها متناسبة لا كسر فى بعضها ولها النّصف والثلث والربع والخمس والسدس والسبع والثمن والتسع والعشر هى ألفان وخمسمائة وعشرون ، نصفها ألف ومائتان وستون وثلثها ثمانمائة وأربعون ، وربعها ستمائة وثلاثون ، وخمسها خمسمائة وأربعة ، وسدسها أربعمائة وعشرون وسبعها ثلثمائة وستون ، وثمنها ثلثمائة وخمسة عشر ، وتسعها مائتان وثمانون وعشرها مائتان واثنان وخمسون .

قوله : أبهجَنى، أى أفرحنى أحمَدْت: وجدته محمودا . الطّالع: النجم الذى يسعد به صاحبه وينحس على زعمهم . طفقت : أخَذْت . أفيض بقِدْحِى : أضرب بسهمى ، وهذا من فعل الميسر : وأراد أنه يمشى كلامُه مع كلامهم ويَدْخل مداخَلهم . أدّتنا : أوصلتنا . شجون المفاوضة . طرق المراجعة فى الكلام ، والشجون فى الكلام ، تداخله،واختلاط بعضه ببعض ، والتفاوض : الاندفاع فى الحديث ، وفى المثل : الحديث ذو شجون ، أى ذو فنون وأصلُه من الشجر المشجون ، وهو الشّجر الذى التفّ بعضُهُ ببعض . التّحاجِى : التغاطن . المقايضة : المعاوضة والمقارضة . الكرَى : النوم . فات ، بمعنى مات ، وأراد أنّ هذا النوع من الألغاز هو أن يُؤتَى بلفظٍ عوضا من لفظ آخر يتوارد معه على معنى واحد ، والمماثلة التى بينهما إنما هى موافقة المعنى . نجلو : نكشف . السها : نجم خفىّ، وقرن السها فى خفائه مع القمر فى ظهوره ، وإنما يشير إلى قولهم فى المثل : أريها السها وترينى القمر ، وأواد أنهم يأتون بلفظة ظاهرة المعنى ، وأخرى خفية ، فلا يتمّ لهم شىء .

* * *

رفع المسهم

وبينا نحنُ نَنْشرُ القَشيبَ والرَّثَّ ، ونَنْشُلُ السَّمينَ والغثَّ ، وغَلَ عَلَيْنَا شيخٌ قدْ ذَهَبَ حِبْرُه وسِبْرُه ، وبقِيَ خُبْرُهُ وسَبْرُه ؛ فمَثَلَ مُثولَ مَنْ يَسْمَعُ ويَنْظُرُ ، ويلتقِطُ ما تَنْثُر ، إلى أن نُفِضَتِ الأَكياسُ ، وحَصْحَصَ الْيَاسُ .

فَلَمَّا رأى إجبالَ القرائح ، وإكداءَ الماتحِ والمائحِ ، جَمَعَ أذيالَهُ ، وولاّنا قَذَالَه ، وقال : ما كُلُّ سَوْدَاءَ تَمْرَة ، ولا كُلُّ صَهْبَاءَ خَمْرَة ، فاعْتَلَقْنَا بِهِ اعْتِلاقَ الحِرباءِ بالأعْوادِ ، وَضَرَبْنَا دون وِجْهَتِهِ بالأسْدَاد ، وقلنا له : إنّ داءَ الشَّقِّ أن يُحَاصَ ، وإلاّ فالقِصَاصَ القِصَاصَ ؛ فَلاَ تَطْمَعْ أنْ تَجْرَحَ وتَطْرَحَ ، وتُنْهِرَ الفَتق وتَسْرَح . فَلَوَى عِنَانَهُ راجعًا ، ثُمَّ جَثَمَ بِمَكَانِهِ راصِعًا ، وقال : أمَّا إذا استَثَرْتُمُونِي بالبحث ، فَلأَحْكُمُ حُكْمَ سُلَيْمَانَ فى الحَرْث .

* * *

القشيب : الثوب الجديد. الرّثّ : الخَلَق . ننشُل : نخرج النشيل ، وهو لحم يطبخ بلا تابل ثم يُنشل ، أى يُخرج بالمِنْشَل ، وهو حديدة معقّفة . ذهب حبره وسبره: هيئته ولونه ، قال الفراء : من قولهم : جاءت الإبل حسنة الإحبار والإسبار ، قال الأصمعى رحمه الله : هى الجمال والبهاء وآثار النعمة ، يقال: فلان حسن الحَبْر والسَّبْر ، إذا كان جميلاً حسن الهيئة ، وفى الحديث : يخرج من النار رجل قد ذهب حَبْره وسَبْره ، أى قد ذهب جماله وبهاؤه ، وسمّى الحَبْر حَبْرًا لأنه يزين الكتاب ، ويحسن القرطاس ، وحَبَّرت الشيء زيّنته ، وقيل إنه سُمِّيَ حَبْرًا لأنه يؤثر فى القرطاس ، فيكون علامة فيما يقع فيه ، ويقال للأثر : حبرة وحُبار ،

والسَّبْر: الأصل واللون والهيئة والمنظر، والسَّبْر مايدلّ به على لون الدابة وكرمها، ويروى حِبره وسِبرُه، بكسر أوّلهما وفتحه، فإذا كسرا كانا اسمين، وإذا فتحا كانا مصدرين، وحَبْره علمه، وسَبْره قياسه. مثل: تمثّل قائما. الأكياس: أوعية الدراهم، ونفضت: ألقى مافيها، وأراد فراغ كلامهم. وحَضْحَض: تبيّن، اليأس: ضد الرّجاء. إجبال القرائح: انقطاعها عن الكلام. إكداء: صعوبة، وأصل هذا فى البئر، فأوّل مايرشُح من مائها هو القريحة، ثم نقل إلي الطّبيعة والذهن، وأجْبَل الحافر: إذا حال بينه وبين الماء جبل، وأكْدَى: حال بينه وبينه كُدْية، والجبل والكدية حجارة وصلابة تَعْرِض فى البئر، لايمكن حَفْرها معها، ثم يقال: أكدى أى قلّ خَيْرُه وأجبل الشاعر، أى انقطع شعره. وأكدى فلان عطائى، أى قطعه وقلّل خيره، ومنه قوله تعالى ﴿وأعطى قليلاً وأكْدَى﴾[1]. والماتح: المستسقى على فم البئر. والمائح: النازل إلي قَعْرها ليملأ الدّلاء ويفرّق بينهما بنقطتى الحرف الّذى قبل آخرها، فمتى كانتا فوق الحرف، فالمستسقى فوق البئر لكثرة الماء، ومتى كانتا تحته فالمستسقى فى قعر البئر ليملأ الدلو بيده، وذلك لقلّة الماء، وإذا تكاثرت الدِّلاء عليه، وكَثُر صياح النّاس عليه من رأس البئر، وكل يرغبه ليملأ دلوه، فيأخذ دلْوَ مَنْ لامال له فيضرب به رجا البئر، أى جانبه ليرتدع النّاس عنه، ثم يضرب مثلا للمُهان، قال الشاعر:

فلا يُرمَى بى الرَّجَوانِ إنّى ... أقلّ القوم مَنْ يُغْنِي مَكانِي[2]

وقالت جارية من العرب تستعطفه:

يأيّها المائحُ دلوِى دُونَكَا ... إنّى رأيتُ النّاس يَحْمَدُونَكَا[3]

---

(١) سورة النجم ٣٤.

(٢) اللسان - رجا (٣) اللسان - ميح.

ومن أمثالهم : أبصر من المائح ياستّ للمائح .

وأنشد الفنجديهيّ :

يا مائح العين عُدِمْت الرَّدَى

من حوض هذى العين كَمْ تَسْتَقِى

مِنْ شيمةِ المـــاء انحدارٌ فِمْ ماء جفـــــونى أبدًا يَرْتَقِى

قوله : جمع أذياله : شمر ثيابه للقيام . قذاله : قفاه .

ما كلّ سوداء تمْرة ، مَثَل . والسوْداء تستعمل للتمرة والفحمة فيقول : ما كل الكلام سهل فتتعاطونه وما كلّ ماجئتم به بفائق فيدخل فى باب المقايضة ، وهو مثلٌ يضرب فى موضع النهمة .

والصهباء : من أسماء الخمر ، والصُّهبة أن تعلوَ الحمرَة شُقَرة وأصوله سود .

[الحرباء وما ورد فيها من الشّعر]

الحِرْباء : دوّيبّة تستقبل الشمس بوجهها إذا استوتْ فى كبد السماء ، وإنْ لم يتأتّ لها الفرصة بوجهها تململتْ وتقلّبتْ ، ولم تزل فى قلق حتى تميل الشمس ، فتستقبلَها ـ أعنى قُرْصَها ـ بوجهها حتى تغرب وهى فى طول يومها ، لاتأكل شيئا ، فإذا جاء الليلُ ذهبت تبغى ماتأكل ، والأنثى منها حرباءة .

وقال أبوعبيدة : الحرباء تستقبل الشمس برأسها أبدا ، يقال : إنما تفعل ذلك لتقىَ جَسَدَها برأسها ، وقيل: الحرباء ذكَر أمّ حُبين، وفى صدره استرخاء وقُرْب من الأرض ، فإذا حميت الأرض بالشمس خاف على صدره أن تحرِقه الأرض لازوقه بها ، فيصعد على عود شجرة ، فليتزمه بيديه ، ويجعله بينه وبين الشمس ، ويضرب به المثل فى التّشبث بماتعلّق به ، وذلك أنّه إذا تعلّق بعود التزمه ، وقبضَ عليه فلا يفارقه ، حتى يستوثِقَ من آخر ، فيُضرب المثل به ، فيقال : أحزم من الحرباء . وقال قيس بن الحدادية :

بانت سعادُ فأمسى القلبُ مشتاقَا وأفلقتها نوى الإزماع إقلاقَا[1]
واحتثَّ حاديهمُ بزلاً مخيّسةً كُوم الذّرا مدد الأعضاد أفياقَا
أنَّى أتيحَ لهـا حِرباء تَنْضُبَةٍ لايرسل الساق إلا مُمْسكا ساقَا

والساق : ساق الشجرة ، والتَّنْضب : شجر يتعلّق بأعواده الحرباء ، فيقال حرباء تنضبه ، كما يقال : ذئب غَضَى . وقال الأزهرى رحمه الله تعالى : الحرباء دويّبة على خِلْقَةِ سام أبرص ، ذات أربع قوائم دقيقة الرأس مخطّطة الظهر ، وأكثر الشعراء من ذكر الحرباء وتشبيهها ، ومن جَيّد ذلك قول ذى الرّمّة :

ودوّيّةٍ جَرْدَاء جَـــدّاء خيّمت
بها هفوات الصّيف من كلّ جانبِ[2]
كأنّ يدىْ حربائها مقشّمًا يَدَا مذنبٍ يستغفر الله تائبِ

وقال آخر :

وقد جعل الحرباءُ يصفرّ لونُه ويخضرّ من لفح الهجير غَباغبُه[3]
ويشبَح بالكَفّين حتى كأنه أخو فجوة عالَى به الجِذْعَ صالبُه[4]

وقال أيضاً :

يظلّ بها الحرباء للشمس مائلاً على الجذلِ إلاّ أنه لايُكَبِّرُ[5]
إذا حوّل الظلُّ العشيّ رأيتَهُ حنيفاً وفى قرن الضّحَى يتنصّرُ

---

(١) البيت الثالث ، من أبيات ثلاثة فى ديوان أبى دواد الإيادى ٣٢٦ .
(٢) ديوانه ٧٨ .
(٣) ديوانه ٤٧ ، وفى ط : « عباعبه » ، وصوابه من الديوان ، والغباغب : الجلد ، واحده غبغب .
(٤) يشبح : يمد كفيه ، كأنه مصلوب .
(٥) ديوانه ٢٢٥ ، وحماسة ابن الشجرى ٢٢٦ ، وفى ط : « الجذع » ، وما أثبته من الديوان .

غدا أكهب الأعلى وراحَ كأنه
من الضّحّ واستقباله الشمس أخضرُ[1]

أخبر أنه يدور مع الشمس فى وقت الزوال ، حتى تكون الشمس فى حذاء القبلة ، فكأنّه باستقباله لها فى ذلك الوقت مُسْلِمٌ يصلّى لها ، وفى الضّحى تكون فى وجه المشرق ، فكأنّه نصرانىّ فيستقبلها بصَلاته .

قال ابن الرومىّ :

ما بالُها قد حَسُنَتْ ورقيبُها أبداً قبيحٌ قبـــح الزُّقَباء
ماذاك إلاّ أنّها شمسُ الضحى أبدا يكون رقيبها الحرباء

قوله : وجهته ، أى جهته . والسّدّ : الحاجز بين الشيئين . يحاص : يخاط ، ويقال : حاص ثوبَه وعين صقره وشقوق رجليه حَوْصاً وحياصة : خاطها ، وقيل : الحوص : الخياطة بعد رقعة ، ولا يكون إلا فى جلد ، وأنشد يعقوب :

ترى برجليه شُقُوقا فى كلَعْ من بارئٍ حِيصَ ودامٍ مُنْسَلِعْ[2]

الكَلَع : الوسخ ، ومنسلع : متشقق . القصاص : أخذ الحق فى الجنايات . وتنهر : توسّع فتردّه كالنّهر . الفَتْق : الخرق . وتسْرَح : تذهب . لوى عنانه : أماله وعَطفه . جثم : برك . راصعا : لاصقا بالأرض والرّصَع : تباعد مابين الركبتين ، ورصع بالشىء يرصَع رُصوعاً إذا لازمه . استثرتمونى : طلبتمونى واستخرجتم ماعندى . والبحث : المناقشة فى السؤال ، وأصله الصّيد تقول : استثرتُ الصيدَ ؛ إذا بحثتُ عليه حتى تقيمه من مرقده .

[قصة سليمان فى الحرث]

قوله : حكم سليمان فى الحرث . كان سليمان عليه السلام ، فيما ذكروا

(١) أكهب : أغبر إلى السواد . والضح : الشمس ، وقيل الضح : ما طلعت عليه الشمس
(٢) اللسان ـ كلع ، ونسبه وآخر إلى حكيم بن معية الربعى .

رفع المسهم

أبيض ، وضيئاً ، جسيما كثير الشّعر ، يلبس من الثياب البياض . فلما بلغَ مبلغَ الرجال ، كان أبوه فى أيام مُلكه يُشاوره فى أموره ، وكان هذا الحكم ـ فيما ذكر عن ابن عباس رضى الله عنهما ـ أن رجلين دخلاَ على داود عليه السلام ، أحدهما صاحب حرث ، والآخر صاحب غنم ، فقال صاحب الحرث : يانبيّ الله ، انفلتَتْ غنم هذا فى زرعى ليلا ، فرتَعَت فى حرثى ، فلم تستبق منه شيئا ، فقال له داود : اذهب ، فإن الغنم لك ، فملّكه رقابها بما أكلت من حَرْثه ، فلما خرجا من عنده خطرا على سليمان عليه السلام ، فأخبراه بقضاء أبيه ، فقال : لو وُلِيتُ أمركما لقضيت بغير هذا . فأخبر داود عليه السلام ، فدعاه وقال له : كيف كنت تقضى بينهما ؟ فقال : أدفع الغنم إلى صاحب الحرث ، فيكون له رِسْلها ونَسلُها وصوفُها ، ويبذر صاحبها لصاحب الحرث مثل حرثه ، فإذا صار الزرع كهيئته يوم أكل ، أخذ غنَمه . فقال دواد : القضاء ماقضيتَ به ، وحكم بقضاء سليمان عليهما السلام .

وقال ابن مسعود وشريح ومقاتل : أراد بالحرث الكرْم ، وأن الغنم أكلت قضبانه ، فأفسدته ، فحكم بها داود لصاحب الكرْم ، ولم يكن بين الغنم والكرم تفاوت ، فمرّوا بسليمان عليه السلام ، وهو ابن إحدى عشرة سنة ، فقال : يعمل الراعى فى إصلاح الكرْم حتى يعود كهيئته ، ثم يأخذ غنمه .

ومن عجائب حكم سليمان عليه السلام مارواه مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : بينا امرأتان معهما ابناهما ، إذ جاء الذئب ، فذهب بأحدهما ، فقالت : هذه إنماذهب بابنك ، وقالت الأخرى : إنّما ذهب بابنك ، فاختصما إلى داود عليه السلام ، فقضى به للكبرى فمرّتا على سليمان ، فأخبرتاه ، فقال عليه السلام : « ائتيانى بسكين أشقّه بينكما ، فقالت الصغرى :

لا يرحمك الله ، هو ابنها ، فقضى به للصُّغرى » . قال أبو هريرة رضى الله عنه : والله إن كنت سمعت بالسكين قبل ذلك ، ما كنت أقول إلا المُدْية .

قوله : الشمائل : الخلائق والطباع . والشّمول الذهبية : الخمر الحمراء .

* * *

[من وصف الشعراء للخمر]

وذكر فى هذه المقامة أنهم سبئوا قهوة ، وذكر هاهنا أنها فى لونها حمراء ، والعرب تتمدّح بشرب الخمر السبيئة ، وتصفها بالحمرة ، كقول الأعشى ، وهو فى أوصافها فى الجاهليّين ، كالحسن فى الإسلاميين ، وحبُّه فيها صدَّه عن الإسلام :

وَسَبَيْئَةٍ مِمَّا تعتّـــق بابلٌ كدمِ الذبيح سلبْتُها جِرْيالَها(١)

وقوله :

فقمنَا ولمّا يَصْحُ دِيكُنَا إلى خمرة عنـــد حَدَّادِهَا(٢)
فقلت له : هـــذه هاتِهـا بأدْماء فى حَبْلِ مُقْتَادِهَا(٣)
فقـــامَ فصبَّ لنـــا قهوةً تسكّفُنَا بعـــد إرعادِهَا
كُمَيْتٌ تكشّف عن حُمْرَةٍ إذا ضُرِّجَتْ بعد إزبادها(٤)
فجال علينـــا بإبريقه مخضّبُ كفٍّ بفِرْصَادِهَا(٥)

---

(١) ديوانه ٢٧ . والجريال : صبغ أحمر .

(٢) ديوانه ٦٩ ، ٧١ وفيه : « إلى جونة » ، وهى خابية الخمر . والحداد صاحب الخمر ، يحد الناس عنها لنفاسها .

(٣) الأدماء : صادقة البياض .

(٤) كميت : تضرب إلى السواد ، فإذا مزجت ذهب سوادها وصارت حمراء . صرحت : ذهب زبدها .

(٥) الفرصاد : التوت ؛ إذا كان أحمر اللون

فَرُحْنَا تنغَّمنا نَشْـوَةٌ تجُور بنـا بعد إقصادها[1]

وقال أبو ذؤيب :

ولا الرّاح راحُ الشام جاءت سَبِيّةً لها غاية تهدِى الكريمَ عُقَابُهَا[2]
عقارُها كالتِّبر ليستْ بِخَمْطَةٍ ولا خِلّةٍ يكوِى الشروبَ شِهَابُهَا[3]

وقال الحسن :

وخَمّارٍ أنختُ عليه ليلاً قلائصَ قد تَعِبْنَ من السِّفار[4]
فجمجم والكرَى فى مُقْلَتَيْهِ كمخمورٍ شكَا ألم الخُمَارِ
أبَنْ لى كيفَ سِرْتَ إلى حريمى وثوبُ اللّيلِ مصبوغٌ بقَارِ
فقلتُ له ترفَّقْ بى فإنى رأيتُ الصُّبْحَ من خَلَلِ الدِّيارِ
فكان جوابُه أن قال كلاَّ وما صُبْحٌ سوى صُبْحِ العُقَارِ
وقام إلى الدِّنان فسدَّ فاها فعاد الليلُ مسدولَ الإزَارِ

وقال عبد الصمد :

وخيمةِ نَاظُورٍ تَحُفُّ بروْضةٍ يُحَيِّيكَ منها وردُها والبَنَفْسَجُ
وأشْمَطَ أعلَى وسطِها بعد هجمةٍ تراهُ بها من قـره يتشنّجُ
دعوتُ فلبّى وهو بالصوتِ عارفٌ وأقبل نحو البابِ يزْهُو ويهرجُ

---

(١) تجور : تميل . وفى ط : « قصادها » تحريف ، والصواب ما أثبته من الديوان .
(٢) ديوان الهذليين ٧٢ والعقاب : الراية . وفى الديوان : « تهدى الكرام » .
(٣) فى الديوان : كماء الذىء » ، قال فى شرحه : أراد فى صفائها ، وهو ماقطر من الفحم . والخطة : التى أخذت ريحاً ولم تدرك . وفى ط : «ليست بمحضة» ، تصحيف ، والخلة : الحامضة . وقوله : يكوى الشروب ، أى لها ومض شديد مثل النار . والشروب : الندامى .
(٤) ديوانه ٢٧٥

رفع المسهم

فقلت له المصباح إن كنت مسرجاً فقال: قفوا فالخمر فى الكأس تُسْرِجُ

* * *

اعْلَمُوا يا ذَوِى الشَّمائِلِ الأَدَبِيّة ، وَالشُّمُوعِ الذهبيّة ، أَنَّ وَضعَ الأُحْجِيَّة ، لامتحانِ الأَلْمعِيّة ، واسْتِخْرَاجِ الخبيّة الخفيّة ، وشَرْطُهَا أن تَكُونَ ذاتَ مُمَاثَلَةٍ حَقِيقيّة ، وألفاظٍ معنوِيّة ، ولطيفةٍ أَدَبِيّةٍ ؛ فمَتَى نافَتْ هَذَا النَّمط ، ضَاهتِ السَّقَط ، ولَمْ تَدْخُلِ السَّفَطَ ؛ ولم أَرَكُمْ حافَظْتُمْ عَلَى هَذِهِ الحُدُودَ ، ولا مِزْتُمْ بين المقبولِ والْمَرْدُودِ ، فقلنا له : صَدَقْتَ ، وبالحقِّ نَطَقْتَ ؛ فَكِلْ لَنَا مِنْ لُبابِكَ ، وأَفِضْ عَلَيْنَا مِنْ عُبابِكَ ؛ فقال : أَفْعَلُ لِئَلاَّ يَرْتابَ المبطِلُونَ ، ويَظُنُّوا بِي الظُّنون .

* * *

قوله: «لامتحان الألمعية» ، أى لاختبار الفطنة . نافتْ: باعدت . النّمط : النوع ، يقال : الزم هذا النّمط ، أى هذا المذهَب والفنّ والطريق . ضاهت : شابهت . السَّقَط : ردىء المتاع ومالا يُعبأ به . والسّفط : وعاء لجميع الثياب الرفيعة ، وسفط العلوم: الكتُب، أى لم تكتب ولم تدوَّنْ فى الكُتب . مِزْتم : فرّقتم . لُبابك : خالص ماعندك . أفِضْ : صُبّ . عبابك : بحرك، وعبّ البحر عُبَاباً هاجَ واضطرب : يرتاب : يَشُكّ .

* * *

رفع المسهم

ثم قابلَ ناظورةَ القوم ، وقال :

يا مَنْ سَمَا بذكاءٍ في الفضلِ وَارِي الزّنادِ
ماذا يعـــائِلُ قولي: جُوعٌ أَمِـدَّ بزادِ

ثم ضحك إلى الثاني وأنشد :

ياذا الّذي فاق فَضْلاً ولم يُدَنِّسْهُ شَيْنُ
ما مثلُ قولِ المحاجي: ظَهْرٌ أَصابتْهُ عَيْنُ

ثم لحظ الثالث وأنشأ يقول :

يا مَنْ نتائج فِكْرِه مثل النقود الجائزهْ
ما مثلُ قولك للّذي حاجَيْتَ: صادف جائزهْ

ثم أتلع إلي الرابع وقال :

أَيا مُسْتَنْبِطَ الغامـــــضِ مِنْ لُغْزٍ وإضمارِ
أَلا اكشِفْ لي ما مثلُ: تناوَلْ أَلفَ دينـارِ

ثم رمى إلى الخامس ببصره، وقال :

يأَيُّهـذا الألْمعِـــيّ أَخُو الذّكاء المنجلِي
ما مثل أَهْمَلَ حِلْيَـةً بَيِّنْ هُديتَ وعَجِّلِ

* * *

ناظورة القوم : كبيرُهم الّذي ينظرون إليه . سما : ارتفع . ذكاء : جَوْدة الذّهن . وارى: مبدى النار ، أى زنده متى ضرب أورَى نارا . فاق : فَضَل غيرَه . النتائج : مايولّده الفكر من الكلام . النقود : الدراهم . أتلع : مدّ

رفع المسهم

عنقه ونصبه ، وتلع الرجل يتلع تلعا : أخرج رأسه من شيء كان فيه . مستنبط : مستخرج . الغامض : الخفيّ ، وغمض غموضا : دقّ وأحوج إلى النظر ، والألمعيّ : هو الذّكي ، أي صاحب الفطنة .

* * *

ثم التفت لِفتَ السادس وقال :

يا مَنْ تقصّرُ عن مدا ... هُ خطا مُجاريهِ وتضعُف

ما مثل قـــولك للّذي

أَضْحَى يحاجيك: اكفُفِ اكفُفِ

ثم خلج السابعَ بحاجبه وقال :

يا مَنْ له فِطْنةٌ تجلّتْ ... ورُتبةٌ في الذّكاء جلّتْ

بَيِّنْ فما زِلْتَ ذا بيـان ... مامثل قولي:الشّقيق أفلتْ

ثم استَنْصَت الثّامنَ وأنشد :

يا مَنْ حدائق فضـــلِهِ ... مَطْلولةُ الأزهارِ غضّهْ

ما مِثلُ قولكَ لِلْمُحاجي ... ذي الحِجَى: ماالختارَفِضّهْ

ثم حدج التاسع ببصره ، وقال :

يا مَنْ يشارُ إليْهِ في الـــقلْبِ الذّكيِّ وفي البراعَهْ

أوضِحْ لنا ما مثلُ قوْ ... لكَ للمحاجي :دُسْ جماعَهْ

قال الرّاوي : فلمّا انتهى إليّ ، هزّ منكبيّ ، وقال :

يا مَنْ له النُّكتُ التي ... يُشْجي الخصوم وينكتْ

أنت المبينُ فقل لنـا ... مامثلُ قولي:خالِيَ اسكتْ

رفع المسهم

التفت لفت ، أى قصد قصده بالنظر ، ولفت عنقه إلىّ ، أى لواها ناظرًا إلىّ .
حداه : غايته . خلج : غمز ، وقال الراجز .

* قد خلجتْ بحاجبٍ وعينِ *

تجلّت : ظهرت . جلّت : عظمت . واستنصت : سكّت . حدائق : بساتين .
مطولة : أصابها الطلّ . غضّة : ناعمة . الحِجا : العقل . حَدَج : رمى . البراعة : الفصاحة ووفور العقل . يشجى : يغصّ ، والغصص : الاختناق . ينكت : يَقْلِبُهُمْ على رءوسهم ، وطعنه فنَكَتَه : ألقاه على رأسه ، وعند القضاعىّ يشجى ، وينكت ، أى يسكت على ذلك .

* * *

ثمّ قال : قدْ أَنهلتُكُمْ وأمْهلتُكُمْ ، وإنْ شِئْتُمْ أن أُعَلِّلَكُمْ عَلَلْتُكُمْ .

قال : فَأَجْأنا لَهَبُ الْغُلَلِ ، إلى اسْتِسْقَاءِ الْعَلَلِ ؛ فقال : لَسْتُ كَمَنْ يَسْتَأْثِرُ على نَدِيمِهِ ، وَلاَ مِمَّنْ سَمُنَهُ فى أَدِيمِهِ . ثم كرَّ على الأول وقال :

يا مَنْ إذا أَشْكَلَ المعمَّى جَلَتْهُ أفكارُه الدقيقَهْ
إن قَالَ يوماً لكَ المُحاجِي : خذ تِلْكَ ما مثلُهُ حقيقَهْ

ثمّ ثنى جَيدَه إلى الثانى ، وقال :

يا مَنْ بَدَا بيانُهُ عن فضلِهِ مبيّناَ
ماذا مثالُ قولِهم : حمارُ الوحش زُيّناَ

ثم أوحى إلى الثالث بلَحْظِهِ ، وقال :

يا مَنْ غدا فى فضلِهِ وذكائِهِ كالأصْمَعِى
ما مثل قولك الّذِى حاجاك : أنفق تَقْمَعِ

ثم حَملق إلى الرابع وأنشد :

يا من إذا ما عويصٌ دجا أنار ظلامَهْ
ماذا يعـاثل قولى : استنْشِ ريحَ مُدامَهْ

ثم أومض إلى الخامس ، وقال :

يا مَنْ تنزّه فهمُه عن أن يُرَوِّىَ أَوْ يُشكّا
ما مثـــــل قولِك للذى
أضحى يُحاجى : غَطّ هَلْكَى

* * *

أنهلتكم : أسقيتُكم ، والنّهلَ : الشّرب الأوّل ، والعَلَل : الشرب الثانى أعْلُكم : أسقيكم عَلَلاً . لهبُ الغَلَل ، أى حرّ العطش . يستأثر ، أى يخصّ نفسه بشىء دون أصحابه . سَمْنُه فى أديمه : أى خَيْره موقوف عليه ، والأديم هنا : زقّ السمن ، وأصل المثل : سمنكمُ هُريقَ فى أديمكم ، أى خيركم موقوف عليكم ؛ قاله أبو عبيدة . وخطأ البكرىّ فى تفسير الأديم بالزّقّ ، وقال : إنّما الأديم هنا طعامكم المأدوم ، فعيل بمعنى مفعول ، أى خيرهم راجع إليهم ، وهو قول الأزهرىّ رحمه الله ولم يذكر الأوّل ، وهو مثلٌ يُضرب للبخيل ولمن لا يتعدّاه خيرُه ، وينفق على نفسه دون غيره . وقمعه يقمَعُه : ضربه بالمِقمعة ، أى قهره وكفّه ، وقمع الشرابُ وأقمع : مرّ فى الحلق مرًّا بغير جَرْع . كرّ :

عطف . جيده : عنقه . أوحى : أشار . حلق : أحدّ النّظر . عويص : صعب . دَجَا : اسودّ . أنار : جعل فيه النور . تنزّه : تباعد . يروّى : يفكر ، وقد روّأت الحديث ، إذا دبّرْتَهُ وهيّأته .

* * *

ثم أقبل إلى السادس ، وأنشد :

يا أخا الفِطْنةِ الّتى بانَ فيه كمالُهُ
سار باللّيلِ مُدّةً أىّ شىء مِثــالُه

ثم نحَا بصَره إلى السابع ، وقال :

يا مَنْ تحلّى بفهمٍ أقامَ فى النّاسِ سُوقَهْ
لك البيــان فبيِّنْ مامثلُ :أحْبِبْ فرُوقَهْ

ثمّ قَصَدَ قَصْدَ الثامنِ ، وأنشد :

يا مَنْ تبوّأ ذِرْوةً فى المجدِ فاقَتْ كُلَّ ذِرْوهْ
مامثل قولك: أَعطِ إبْ ريقًا يلوحُ بِغَيْرِ عُرْوة

ثم ابتَسَم إلى التاسع ، وقال:

يا مَنْ حَوَى حسن الدِّرَا يهِ والبيان بغير شَكّ
ما مثل قولك للمُحـا جى ذي الذّكاء:الثورُ يُلْكِى

ثم قبض بجُمعه على رُدْنِى ، وقال :

يا مَنْ سما بثقوبِ فِطْنَتِه فى المُشْكِلاتِ ونور كَوْكَبِهِ
ماذا مثال صَفِير جَحْفَلَةٍ بَيِّنْهُ تِبيانا يَتِمّ بِهِ

* * *

بان : تبين . تحلّى : تزيّن . تبوّأ : نزل . والذّروة : أعلى الشى .
ثُقوب : نفوذ .

* * *

قال الحارثُ بن هَمّام : فلمّا أطْرَبنا بِمَا سمعناه ، وَطالَبنا مكاشفةَ مَعْناه . قلنا له : لسنا من خيْلِ هذا الميْدَان ، ولا لنا بحلّ هذه العُقَد يَدَان ، فإن أبَنْتَ مَنَنْت ، وإن كتمتَ غمْت . فظَلَّ يُشاورُ نَفْسَيْهِ ، ويُقَلِّبُ قِدْحَيْهِ ، حتى هان بذل الماعون عليه .

فأقبل حينئذٍ على الجماعَة وقال : يا أهْلَ البَلاَغةِ والبَراعة ، سَأُعَلِّمُكُمْ ما لم تكونوا تَعْلَمُونَ ، ولا ظننتُمْ أنّكُمْ تُعَلَّمُونَ . فأوكُوا عليه الأوْعِيـة ، وروِّضوا بِهِ الأنْدِية . ثم أخـذ فى تفسيرٍ صَقَلَ بِهِ الأذهان ، واستَفْرَغَ مَعَه الأردان ، حتّى آضتِ الأفهامُ أنْوَر من الشّمْس ، والأكمامُ كأنْ لم تَغْنَ بالأمْسِ .

* * *

أبنت : بيّنت . منّت : أفضلك علينا . نفسيه : أراد أنّه يردِّد رأيه : هل يفعل أولا يفعل ؟ فكأنّ له نفسيْن ، يردّد المشورة عليهما حتى يظهر لهما الرأى الأرجح فيهما فيبنى عليه . وقال حويرث العبدىّ :

لكلّ امرئٍ نفسان نفسٌ كريمة ونفس فيعصيها الفَتى أو يطيعُها

وقد تقدّم معنى يقلّب قدحيه . الماعون : المعروف ، وقال يونس :

رفع المسهم

الماعون فى الجاهليّة : كلّ عطيّة ومنفعة ، وفى الإسلام الزكاة والطاعة . وقال ابنُ عباس : الماعون المعروف كلّه حتى ذكرَ القِدْر والقَصْعة والفأس .

وحكى الفَنجديهىّ عن ابن عباس : الماعون العاريّة ، وقال الماعون : اسم جامع لمنافع البيت ، كالقِدْر والفأس والماء والمِلح ونحوها ، وقال الأعشى :

بأجود منه بماعونِهِ إذا ما سماؤهم لم تَغِمْ[1]

والأظهر فيه ، أنّه من العون ، وأصله معوون بوزن « مفعول » ، فقدّمت الواو التى بعد العين ، فصار موعون ، ثم قلبت ألفا كما قيل : يا جل[2] . وحكى الفراء عن بعض العرب : الماعون الماء ، فيكون على هذا مفعولاً من العين ، ويُعَلّ كعالّ من العوْن ، أو يكون فاعولاً ، من مَعَن الماءُ ، إذا سال . وهو أيضاً قول مَن اشتقه من قولهم : مُعِنّ هربا ، أو من قولهم : عين مَعين . قال قُطرب : ماعون فاعُول من المعن ، وهو الشىء اليسير ، ومنهم من قال : أصله معونة ، والألف بدل الهاء .

قوله : أوْكُوا : أى شدّوا . روّضوا : زيّنوا ، واجعلوها مثل الرياض . الأردان : الأكمام . آضت : رجعت أذهانهم مضيئة بالفهم وزال عنها الالتباس . تغنَ بالأمس ، يريد أنّ أكمامهم كانتْ بالأمس ممتلئة بالدراهم ، فتفرّغت اليوم إذ وهبوا له ما فيها .

* * *

ولما همّ بالمَفَرّ ، سُئِل : أين المفرّ ؟ فتنفّس كما تَتَنفّسُ الثّكُول ، ثم أنشأ يقول :

(١) ديوانه ٣٩ . (٢) ياجل ، أصله يوجل .

رفع المسهم

كُلّ شِعبٍ لِيَ شِعْبُ وبه رَبْعِيَ رَحْبُ
غَـيْرَ أَنِّى بِسَرُوجٍ مُسْتَهَامُ الْقَلْبِ صَبُّ
هى أرضى البِكْرُ والجَوْ الّذِى مِنْهُ المهبُّ
وإلى روضتِها الغَنّـا ءِ دُونَ الرَّوضِ أَصْبو
ما حَلاَ لى بعدَها حُلْـوٌ ولا اعْذَوذبَ عَذْبُ

قال الرّاوى : فقلت لأصحابى : هذا أبو زيدٍ السَّرُوجى ، الّذى أدْنَى مُلَحِه الأحاجى ، وأخذتُ أصِفُ لَهُمْ حُسْنَ تَوْشِيَتِهِ . ثمّ التفتُّ فإذا بِهِ قَدْ طَمَر ، وناء بما قَمَر ؛ فعجِبْنا مما صَنع إذْ وَقَعَ ، وَلَم نَدْرِ أين سَكَعَ وصَقَعَ .

* * *

المفرّ : المهرب . المَقرّ : المنزل والبلد . الثّكول : المرأة الثّكْلَى الفاقدة لأحبابها . شِعْب ، أى طريق ، أى كلّ بلد لى بلد . ربْعِى رَحْب ، أى منزلى متّسع . المستهام : الذى غلب الحبّ على قلبه فخرج هائما على وجهه لا يَدْرى أين يتوجّه ، وهام يَهِيمُ : ذهب عقله فخرج فى غير الطريق ، وقيل : الهائم : العليل القلب ، الّذى يجد فى قلبه هُياماً ، وهو وجَعٌ يَجِدُه البعير ، فلا يروَى من شرب الماء : قال عروة بن حزام :

بى اليأس أو داء الهُيَام أصابنى فإيّاك عنّى لا يكُنْ بك مابيا[1]

---

(١) اللآلى ٢٢٦.

أو يكون من التهويم ، وهو هجوم النوم ، وهو فى الأوجه الثلاثة اسم مفعول ، وكان قياسه مستهيماً إلاّ أنه لما كان كأنه مغلوب على ذلك ، جاء على هذا وحذف « به » لدلالة المعنى . والصّبّ : العاشق . البِكْر : التى ولدت بها . الجوّ : اسم لنواحى السماء . مهبّ الريح : موضع هُبوبها من الجوّ ، وأراد بلدته التى يجىء منها ويخرج عنها للبلاد . الغَنّاء : الكثيرة الأشجار ، وتقدّمت علّتها . أصبو : أميل . أدنى : أقل . توشيته : تزيينه كلامه . مشيئه : إرادته . طَمَرَ : وثب ، وهو من الأضداد يقال : طمرتُ الشىء : سترتُه ، وطمر الجرح سَفَل وعَلاَ أيضاً ، ومنه قيل للبرغوث طامر ، لنزوه وارتفاعه . ناء : نهض . قَمَرَ : حازه بالقمار . سكع : مشى مَشْىَ المتعسّف . صَقَع : ذهب ، وقيل : لم يدر أين ذهب . والسَّكْع : الذهاب على غير هداية ، والصُّقع : الناحية من الأرض ، وما أدرى أين صَقَع ، أى أىّ ناحية قَصد من الأرض .

* * *

[فصل فى تفسير الأحاجى]

إذا أردت أن تعرف المماثلة فى هذه الأحاجى فنظر « جوعٌ أمِدّ بزاد » فقابله بطوامير ، فتقسم هذه اللفظة ، فتقابل القسم الأول وهو « طوا » بقولك : « جوع » فتجده مثله فى المعنى ، وتقابل بالقسم الثانى ، وهو « مير » قولك : « أمد بزاد » ، فتجدة مثله فى المعنى ، والمَيْر الإمداد بالزاد ، وميرالرجل : أعطى نفقة وقوتا لعياله ، فهذه المماثلة الحقيقية التى قدّم ، وكذلك تقابل « ظهر أصابته عين » بقولك : « مطاعين » ، فتجد المَطَا الظهر ، وعِينَ الرجل : أصيب بالعين ، وكذلك صادف جائزة ، هى ألفىْ صلة ، وألفى هى : صادف ، والجائزة هى الصّلة ، تصل

بها مَنْ قصدك . وإن تركت الألفاظ منظومة بغير تفسيم ، ينتج منها معنًى آخر فيقال لك : ما الطوامير ؟ فتقول : الكتب ، الواحد طُومار ، والمطاعين : جمع مِطْعَان ، وهو الكثير الطعن ، والفاصلة ، الّتى تقع بين شيئين فتفصل هذا من هذا والفاصلة فى العروض : توالى أربعة أحرف أو ثلاثة متحركة بعدها ساكن ، وهكذا هى المقايضة فى هذه المقامة ، تصل اللفظة فيكون لها معنى ، وتفصلها فيكون لها معنًى آخر .

وأنا أفسّر معنى المتصلة إذ المنفصلة قد وقع تفسيرها فى المقامة . قوله : هادية ، أى مرشدة ، تقول : هدْتنى الطريق فهى هادية . والغاشية : ما يغشَى القلب ، أى يغطيه من الهمّ والسّقَم ، والغاشية أيضاً القوم يَغْشَوْنك ، أى يقصدونك ويزورونك ، والغاشية : القيامة ، والغاشية : المرأة تغشاك وتزورك ، والغاشية غشاء القلب ، والغاشية : غشاء السَّرْج .

والمهمه : القفر ، والأخطار : جمع خَطَر ، وهو الغَرَر ، والأخطار : المنازل الشريفة . والأبارقة : جمع إبريق ، وهو إناء معروف ، والأبارقة أيضاً : السُّيوف الصقيلة ، واحدها إبريق ، والطافية : الجيفة تطفو على وجه الماء ، أى تطلع عليه .

الفرازين : وزراء الفُرْس الواحِد فرْزان ، ومنه فرزان الشطرنج ، الذى تسميّه العامه « فرزا » ، لأنه وزير الشاه ، والشاه فى كلام الفرس المَلِك . وقمت : معناه كففت .

والمنتقم : الفرح بمصيبة غيره . والرَّحْراح من الأوانى : الواسع القصير الحديد ، ورَحْرَاح : موضع معروف . والصُّنبُور : النخلة الطويلة العُنُق القليلة الحمل ، والصُّنبور أيضاً : العفاص الذى يجعله السّقاء فى فم القربة ، ويشدّ

عليه ويفرغ منه الماء ، والصُّنبور أيضاً : اللئيم ، والصُّنبور من الناس مَنْ ليس له نسْل .

والسَّرَاحِين : الذئاب الواحد سِرْحان . الأُسكوب : المطر الكثير الصبّ والأُسكوب والأسكاب : قطعة خشب فيها قرص تُجعل فى خرْق الزّق . والمقلاع : آلة يُقلع بها الشىء . والله الموفق .

رفع المسهم

تفسير الأحاجى المودعة هذه المقامة

أمّا جوعٌ أمِدّ بزادٍ ، فمثله طَوامير ، وأما ظَهْرٌ أصابَتْه عين ، فمثله مَطاعِين ، وأما صَادف جائزة فمثله الفَاصلة . وأمّا تناول ألف دينار ، فمثله هادية . وأمّا أُهْمِل حَلْية فمثلُهُ الغَاشِية .

وأمّا اكفُف اكفُف ، فمثله مَهْمَه ، وأما الشقيق أفلت فمثله أخطار .

وأمّا ما اختار فضة فمثله أبَارقة ؛ لأن الرّقَة من أسماء الفضة ، وقد نطق بها النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « الرّقَة ربع العشر » .

وأما دس جماعة فمثله طافية . وأمّا خالى اسكت فمثله خالصة ؛ لأنّك إذا ناديت مضافاً إلى نفسك جاز لك حذف الياء ، وإثباتها ساكنة ومتحرّكة ؛ وقد حُذف هاهنا حرف النّداء ، كما حذفه فى أصل الأُحْجيّة . وصَهْ بمعنى اسكت ، وأما خُذْ تلك فمثله هاتيك .

وأمّا حمار وحش زَيِّنا ، فمثله قَرازين ، لأن الفرأ حمار الوحش ، ومنه الحديث : « كلّ الصيد فى جوف الفرا » .

وأما قوله : « أنفق تقمع ، فمثله منتقم ؛ لأنّ الأمر مَنَ مان يَمُون مُنْ . ومضارع وَقَت تقِم .

وأمّا استنْشِ ريح مدامه ، فمثله رَحْراح ؛ لأن الأمْرَ من استدعاء الرائحة رُحْ . وأما غطّ هَلْكى فمثله صنبُور ؛ لأنّ البورُم الهَلْكى ، وفى القرآن ﴿ وَكُنْتُمْ قومًا بُوراً ﴾ .

وأمّا سارَ بالليل مدة ؛ فمثله سَراحين .

وأما أحْبب فَرُوقة ؛ فمثله مِقْلاَع ، لأنّ الأمر من وَمق يمق مُقْ. واللاع : الجبان ؛ يقال : فلان هَاعٌ لاعٌ ؛ إذا كان جباناً جَزُوعاً .

وأما أعط أبريقاً يلُوح بغير عُروة ، فمثله أسْكُوب ؛ لأن الأوس الإعطاء والأمر منه أس . والسكوب : الأبريق بغير عُرْوة .

وأمّا الثَّور ملكى ، فمثله اللآلى ؛ لأن اللأى على وزن القنا هو ثور الوحش.

وأما صفير جَحْفلة ، فمثله مكاشفة ؛ لأن المُكاء الصّفير ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَا كان صَلاَتُهُمْ عِنْدَ البيت إلاّ مُكَاء وتَصْدِية ﴾ ، والأصل فى المكاء المدّ ؛ ولكنه قصَرَه فى هذه الأحجية ، كما حذف همزة الفرا فى أحجيته ، وكلا الأمرين من قصر الممدود ، وحذف همزة المهموز جائز .

رفع المسهم

المقامة السابعة والثلاثون وتعرف بالصَّعْدية

حكى الحارثُ بن همّام قال: أَصْعَدْتُ إلى صَعْدة ، وأنا ذُو شَطاطٍ يحكى الصَّعْدة ، واشتدادٍ يبدُر بناتِ صَعْدة ؛ فلمّا رأيتُ نُضْرَتَها ، ورعَيْتُ خُضْرَتَها ، سألتُ نَحارير الرُّواة ، عمّا تَحْويه من السَّرَاة ، ومعادِن الخيرات ؛ لأتَّخِذَه جَذْوَةً فى الظُّلُمات ، ونَجْدةً فى الظُّلاَمات . فنُعِتَ لى قاضٍ بها رحيبُ الْباع ، خَصِيبُ الرِّباع ، تميمىّ النَّسبِ والطَّباع ؛ فلم أَزَلْ أَتقرَّبُ إليه بالإلْمَامِ ، وأَتَنَفّقُ عليه بالإجْمَام ؛ حتَّى صرتُ صَدَى صَوْته ، وسَلْمَان بيتِه .

* * *

أصعدت : طلعتُ وارتفعتُ ، قال يعقوب : الإصعاد إلي نجد واليمن والحجاز ، والانحدار إلى العراق والشام وعُمان . وقال الأخفش : أصعد فى البلاد : سار فيها ومضى ، وأصله الذهاب فى الصعود وهو الارتفاع ، ثم توسّعوا فى ذلك . قال الفرّاء رحمه الله فى ابتداء الأسفار والمخارج ، تقول : أصعدنا من مكّة إلى بغداد ، وأصعدنا من بغداد إلى خراسان ، فأما فى السِّلْم فتقول: صعدت فيه لا أصعدت . قال يعقوب رحمه الله : صعَد فى الجبل وأصعد فى البلاد : انحدر فيها ، وصَعِد : ارتقى .

وصَعْدة : مدينة عظيمة باليمن ، بينها وبين صنعاء ستون فرسخاً ، وتحكمُ

فيهـا صنعةُ الجلود ، والجلد الصَّعدِيّ فى غاية الجودة ، ويضرب المثل بحسن نسائها .

الشَّطاط : طول القامة . والصَّعْدة : الرمح . اشتداد : جرى . يبدُر : يسبق . بنات صَعْدة : حمر الوحش . نُضرتها : خصبها ونعمتها ، والنضرة : صفاء اللون وبريقه . نحارير : علماء ، والنِّحرير ، الماهر الحاذق الّذى جرّب الأمور وعرفها ، وهو اسم يجمع وجوها من المدح ، فيفسّر النحرير بالعالم والمفلِق والحاذق والماهر والعادل . والسَّرَاة : السادة ، وهو جمع سَرِيّ ، وهو السيد الشريف ، وجمع فَعِيل على فَعَلة عزيز لا يُعرف غير هذا . الجَذوة : الجمرة الغليظة العظيمة ، وجمعها بثلاث حركات ، ويجمع ثلاثتها ، نحو جَذا وجُذا وجِذا نجدة : قوّة وعونا . الظُّلامات : جمع ظُلامة ، وهو ما يشتكيه المظلوم ، رَحيب الباع : واسع العطاء ، فكَنَى بالباع عن ذلك . والعرب إذا وصفَت الرجل بالسّخاء ، قالوا : هو رحيب الباع ، وطويل الباع ، وكريم الباع ، والباع والبوع بَسْط اليد بالمعروف ، وقد باع يبوع منه ، ويقال للبخيل : قصير الباع . خصيب الرِّباع ، أى هو كثير المال فجمع له كرمه كثرة ماله ، فالنّاس يجدون فى كَنَفِه الخِصْب وقد يراد بخصيب الرباع نافق سوق الأحكام فالمتعلّق به يجد الخصب .

تميميّ النّسب ، أى من بنى تميم وشرك الطباع مع النّسب ، وهو يريد أنه كامل تام فى خلقه ، فنسب قبيلته لتميم ، وطباعه للتّمام والكمال فغلّب أحدهما ، وشرك بينهما للقرب . قال ابن شرف : فيما يلِمّ بهذا التشريك ، ويحسن أن يمدح قاضى المقامة به لجوده :

جارِرْ علينا ولا تحفِلْ بحادِثَةٍ إذا ادّرعتَ فلا تسألْ عن الأَسَلِ (١)

(١) نقله فى التنف ١٠٩ .

رفع المسهم

اسم حكاه المُسمَّى فى الفَعال فقدْ حاز العليَّيْنِ من قولٍ ومن عَمَلِ
فالماجد السيّد الحرّ الكريم له كالنّعت والعطف والتوكيد والبدلِ
زانَ العُلا وسواه شانَها، وكذا تميّز الشَّمْسُ فى الميزان والحَمَلِ
وربّمـــا عابَهُ ما يفخـــرُون به
يُشْنَا من الخَصْر ما يُهْوَى من الكَفَلِ
سلْ عنه وانطِقْ به وانظر إليه تجدْ ملء المسامع ، والأفْواهِ والمُقَلِ

فإنه أراد بقوله : «حاز العليّين» ، أى حاز عليًّا بالاسمية ، والعلوّ بالفعلية ، وهذا مثل ما تقدم للحريرىّ :

جاد بالعين حين أعمى هَواه عينَـه فانثنَى بلا عَيْنَيْنِ

فقد أوقع التشبيه على شيئين ، يتفّقان فى اللفظ ، ويختلفان فى المعنى . وقد أنشدنا فيما تقدّم لبعض المتأخرين :

فكيف أصبر عنهـــا اليوم إذ جَمَعَتْ
طيب الهواءين ممـــدودٍ ومقصـورِ

فالمقصود هوى النفس ، والممدود الهواء الذى بين السماء والأرض ، وقد قدّمنا فى تفسير قول الحريرى ، وحيّا المسجد بالتّسليمتيْن ، أنّ السلام الواحد على مَنْ فى المسجد عند دخوله ، والثانى تحليل الصلاة .

وقوله: هنا تميميّ النسب والطباع من هذا القبيل ، وأكثره فى كلام المولّدين ، وهو مستعمل فى كلام العرب ، ولا يبعد أن يكون من هذا قولهم: التقى الثريان ، فإنهم يُريدون بذلك كثرة المطر ، وأنه يبلغ فى الأرض إلى التراب الندى ، فالثرى الواحد المطر ، والثانى التراب النّدىّ ، على أنه يحتمل أن يريد

بذلك أنّ الغراب اليابس لمّا بلّهُ المطر ، حتى لحق بالغراب النّدى ، صار اليابس منهما يسمّى «ثرى» ، فقيل : التقى الثريان ، وقال النابغة :

وقد أبقَتْ صُروف الدّهر منّى كما أبقت من السّيف اليمانى[1]
يُصَمَّمُ وهو مأثور جُرازٌ إذا جُمعت بقائمهِ اليـــدان

فسّره أبوعبيد البكرى[2] وغيره : بأنه أراد بذلك الجارحة ، والأيْد الذى هو القوّة ، فجمع على الأخفّ ، فهذا من قبيل ماقدمناه ، ولا يحضرنى الآن غير هذا من كلام العرب .

قوله : الإلمام ، أى تخفيف الزيارة . أننفّق ، أتخرّج ، والنّفاق ضدّ الكساد . الإجمام : الزيارة . صدى صوته ، أى متى دعاه وجده حاضراً مجيباً له ، والصدى : صوت الجبل الذى يردّ عليك إذا صحتَ .

وابن همام فى هذا المقامة شُرْطِىّ القاضى .

[ذكر مناقب سلمان الفارسىّ]

وسَلْمان الذى ذكره ، هو سلمان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وخادمه ، ويعرف بسلمان الخير ، قالت عائشة رضى الله عنها : كان لسلمان رضى الله عنه مجلس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفرد به فى الليل ، حتى كاد يغلبنا عليه .

وقال عليه الصلاة والسلام : « أمرنى ربى بحُبّ أربعة ، وأعلمنى أنه يحبّهم : علىّ ، وأبو ذرّ ، والمقداد ، وسَلْمان » ، رضى الله تعالى عنهم .

وأتى أبوسفيان على سلمان وصهيب وبلال ، فقالوا : ماأخَذتْ سيوفُ الله من عُنق عدوّ الله مأخذَها ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : أتقولون هذا لشَيخ قريش

(١) هو النابغة الجعدى والبيتان فى أمالى القالى ١ : ٧١ . واللآلى ٢٤٦ والخزانة ١ : ٥١٣ . والمأثور : الباقى أثره ، والجراز : الماضى النافذ .
(٢) فصل المقال ١٤٨ .

وسيدهم ! وأتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال : يا أبا بكر ، لعلّك أغضبتَهم ، لئن كنت أغضبتَهم لقد أغضبتَ ربّك فأتاهم أبو بكر رضى الله عنه فقال : يا أخوتاه ، أأغضبتكم ؟ فقالوا : لا ، ويغفر الله لك .

وكان من أبناء أساورة فارس ، وأصله من رامهرمز ، وقيل : كان من أصبهان ، وكان يطلب دينَ الله ويتبع مَنْ يرجو ذلك عنده ، فدان بالنصرانية وغيرها ، وقرأ الكتب ، وصبَر فى ذلك على مشقات نالته ، وكلّها مذكورة فى إسلامه فى كتب السِّيَر .

وقيل : تداوله فى ذلك بضعة عشر ربًّا ، حتى أفضى إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فاشتراه من قوم من اليهود .

وأوّل مشاهده الخندق ، وهو الذى أشار بحفره ، فقال أبو سفيان وأصحابه : هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدُها .

وسئل علىّ عنه فقال : علم العلم[1] الأول ، بحر لا ينزف ، هو منّا أهل البيت ، وفى رواية : هو مثل لقمان الحكيم ، وكان فاضلاً حبْرًا زاهداً عالماً متقشفاً .

وتعلّم عملَ الخوص ، فقيل له : لم تعمل هذا وأنت أمير ! وقد أجرِىَ عليك رزق ، فقال : إنى أحببت أن آكل من عمل يدى . وكان يتصدّق بما يرزَق من بيت المال ، وكانت له عباءة يفترش بعضها ويلبس بعضها .

وقال صلى الله عليه وسلم : «لو كان الدِّين فى الثريّا لنالهُ سلمان» .

أبو هريرة رضى الله عنه ، كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأ سورة الجمعة ، فلما قرأ : ﴿وآخرين مِنْهُمْ لمّا يلحقوا بهِمْ﴾[2] - وفينا سلمان - وضع يده على سلمان ، ثم قال : «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجل من هؤلاء» .

(١) ط : «علم» وما أثبتّه من الاستيعاب ص ٦٣٧ .
(٢) سورة الجمعة ٣

رفع المسهم

وتوفّيَ في آخر خلافة عثمان رضى الله عنه ، وماترك شيئاً يورَث عنه . وفضائله كثيرة .

وعلى قولهم لأبي بكر « لا ، ويغفر الله لك » . قال أبو محمد في الدّرة : وربما أجاب المستخبر بلا النافية ، ثم عقبها بالدعاء له ، فيستحيل الكلام إلى الدعاء عليه ، كما روى أنّ أبا بكر رضى الله عنه رأى رجلا ، بيده ثوب ، فقال: أتبيع هذا ؟ فقال لا عافاك الله، فقال أبو بكر رضى الله عنه : لقد علمتم لو تعلمون! فهلا قلت : لا وعافاك الله !

قال أبو محمد :والمستحسَن ماقال يحيى بن أكتم للمأمون، وقد سأله عن أمر، فقال : لا ؛ وأيد الله أمر أمير المؤمنين .

وحكى أنّ الصاحبَ بن عباد لمّا سمع هذه الحكاية ، قال : والله لهذه الواو أحسنُ من واوات الأصداغ ، في خدود المُرْد الملاح .

* * *

وكنت مع اشتيارِ شُهْدِه ، وَانْتِشَاق رَنْدِه ، أشْهَدُ مشاجر الخصوم ، وأسْفِرُ بين المَعْصُومِ منهم والموْصُوم . فبينَما القاضي جالسٌ لِلإسجال، في يَوْمِ المَحْفِل والاحْتِفَال ؛ إذ دَخَلَ شَيْخٌ بالي الرِّياش ، بادِي الارْتِعَاش ؛ فتبصّرَ الحَفْلَ تبصُّرَ نَقّاد ، ثم زعم أنّ لهُ خَصْما غيرَ منقاد ؛ فلم يكن إلاّ كَضَوْء شرارة، أو وَحْي إشارَة ؛ حتّى أُحْضِرَ غلام ، كأنّهُ ضِرْغام فقال الشيخ : أيّدَ اللهُ القاضِي ، وعَصَمَهُ من التغاضِي ؛ إن ابني هذا كالقلم الرّدِي ، والسّيْفِ الصّدِي ، يجهل أوصاف الإنصاف ، ويَرْضَعُ أخلافَ الخِلاَفِ ، إن أقْدَمْتُ أحْجَمَ ، وإذا أعْرَبتُ أعْجَم ،

وإن أذكيتُ أَحْمَدَ ، ومَتَى شَوَيت رِمَّدَ ؛ مع أنى كَفَلْتُهُ مذْ دَبَّ ، إلى أنْ شَبَّ ، وكُنْتُ له ألطفَ مَنْ رَبَّى ورَبّ .

فأكبر القاضى ما شكا إليه ، وأطرف بِهِ مَنْ حَوَالَيْهِ ، ثم قال : أَشْهَدُ أَنّ العُقُوق أَحدُ الثُّكلَيْن ، ولرُبَّ عُقْمٍ أَقرُّ لِلعَيْن .

* * *

قوله : اشْتِيار شهده ؛ أى استخراج عسله ، وأراد اجتناء منفعته . انتشاق : شمّ ، يقال : نشق الريح الطيبة نشقًا وانْتَشق : وتنشَّق : شَمّها . الرَّنْد : شجر طيب الرائحة ، قال ابن دريد رحمه الله : هو الآس ، وقال الجوهرى رحمه الله : ربما سُمِّىَ العودُ رَنْدا . مشَاجر الخصوم : مواضع الخصام التى يتشاجر فيها الخصمان ؛ أى يمتزج كلام هذا بكلام هذا ، من الشَّجْر ، واحدها مَشْجَر ، وقد يُراد بها المصدر ، ويُجمع لاختلاف أنواعه . أسفر : أمشى بينهم بالصلح المعصوم : المحفوظ من الوقوع فيما يحذر ، وأصل العصمة فى كلامهم المنع ، وعصمتُه من كذا ، إذا منعتَه . ﴿واللهُ يَعْصِمُك مِنَ الناس﴾[1] ، أى يمنعك . الموصوم : ذو الوصْم ، وهو العيب ، فأراد أنه يُصلح بين أهل الخير والشرّ . للإسجال : للحكم ، وأسجل القاضى على نفسه بالحكم ، وسجّل ، إذا كتب على نفسه ، فأراد أنه جلس للحكم فى العقود والسجلات . ومحفل القوم : مجتمعهم . والاحتفال : كثرة النّاس واجتماعهم ، ومعنى احتفل الرجل : جمع ، وأراد : يكثر من الشىء الذى قصد ، وجمع المحفل محافل ، ومنه الشاة المحفَلة ، وهى التى يحبس لبنُها أياماً فى ضَرْعها لا تحلب . الرياش : الثياب . تبصّر الحفل : نظر الجمع وشخص فيهم . نقّاد : مفتش ، كأنه ينقُد ببصره الرجال ، ويريد أنه نظر من شرط القاضى أهل الحزم

(١) سورة المائدة ٦٧ .

والجراءة، فأخبرهم بقصة ابنه، فانطلقوا فأتوا به، ونقاد الدراهم: الذى يُمْعِن النظر فيها والتقليب لها، ليميّزَ جيِّدها من رديئها . وحى إشارة ، يريد إشارة العين ، إذا غمزت مَنْ تريد أن يفهم إشارتك دون غيره ،والوحى: الإيماء الخفىّ . ضِرْغام: أسد فى عِظَم خلقته وشدّته . التغاضى : التغافل والسكوت عن الظلم . الصَّدَى : الذى علاه الصدأ ، وهو وسخ السيْف . والأخلاف جمع خِلْف ، وهو مايحلب منه اللبن ويقبض عليه الحالب . قال ابن دريد : وقيل : الخِلْف للناقة كالضَّرْع للبقرة . أحجم : تأخر . أعربت : أوضحت . أعجم : أبهم ولبّس . أذكيت : أوقدت . أخمد : أطفأ ، وخمدَت النار : طُفِىء لهبُها . كفلته : ربّيته . دبّ . مشى مشىَ صغير على يديه ورجليه . شبّ : صار شاباً ألطف: أشفق وأرق . ربّ: أصلح ، يريد أنه أصلح أحوالَه ، وأحسن تربيتَه تحرُّزا من أن ينسبه القاضى إلى تقصير . أكبر : رآه كبيراً . أطرف : أعجب ، وجعلهم يستطرفون خبره . الثّكلين : الفقدين ، يريد أنّ الرجل إذا عقّه ولده ولم يبرّه فكأنه قد فقده .

[ذمّ العقوق]

ومما جاء فى العقوق : كان جرير الشاعر أعقّ النّاس بأبيه ، وكان بلال ابنه كذلك ، فراجع جرير بلالاً فى الكلاَم ، فقال له بلال : الكاذب بينى وبينك ناك أمّه ، فأقبلت أمّه عليه ، وقالت : ياعدوّ الله ، تقول هذا لأبيك ! فقال جرير: دعيه ، فكأنه سمعها منى وأنا أقولها لأبى .

وممنّ شُهِر عنه العقوق بوالديه الحُطيئة الشاعر ، قال يهجو أباه :

لحاكَ اللهُ ثمّ لحاكَ حقًّا أبًا ولحاكَ من عمٍّ وخالِ[1]

---

(١) ديوانه ١١٩

رفع المسهم

فبئس الشيخ أنت لدى المخازى وبئس الشيخ أنت لدى المعالى
جمعتَ اللؤم لاحيّاك ربى وأبوابَ السَّفاهة والضَّلال

وقد تقدّم هجو نفسه وأمّه .

وممن هجا أباه وغيره علىّ بن بسام ، وماسلم من هجائه أمير ولا وزير ، ولا كبير ولا صغير ، ومما قال فى أبيه :

هبك عُمِّرتَ عُمرَ عشرين نَسْرًا أترى أننى أموت وتبقى! (١)
فلئن عشتُ بعد موتك يوما لأشقّن جيب مالك شقّا

وقال فيه أيضاً :

بعثتُ لأستهديك عَيْرًا ولم أكن عَلِمْتُ بأنّ العَيْرَ صار لنا صِهْرا
فوجّهْ به كى نشترك فى ركوبه فتركبه بَطْناً وأركَبُه ظهرا

وقال فيه أيضاً :

شِدْتَ داراً خلتَها مكرّمةً سلّط الله عليهـا الْغَرَقا
وأرانيكَ صريعاً وسْطَها وأرانيهـا صعيدا زَلَقَا

وقال فيه أيضاً :

بنَى أبو جعفر داراً فشيّدَها ومثله لخيـار الدّور بنّـاءُ
فالجوع داخلها والذلّ خارجها وفى جوانبها بؤسٌ وضرّاءُ
ماينفع الدار من تشييد حائطها وليس داخلَها خبزٌ ولا ماء

وكذب ، كان أبو جعفر محمد بن نصر بن منصور بن بسام فى نهاية السّودَد والمروءة والنظافة ، رجل مترَفٌ نبيل المركب ، مليح الملبس ، ظريف العلمان ، له همة فى تشييد البنيان ، ومارثاه ابن الرومى به يدلّ على كذب ابنه ، قال ابن الرومى فيه :

---

(١) ابن خلكان ١ : ٣٥٢ .

أوْدَى محمد ابن نصرٍ بعدما ضُرِبَتْ به فى جوده الأمثال[1]
ملكٌ تنافست العلا فى عصره وتنافستْ فى موته الآجالُ
مَنْ لم يعاين سيرَ نعش محمدٍ لم يدر كيف تُسيِّر الأجبالُ
ودَخرته للدهر أعلم أنهُ كالحِصْنِ فيه لمن يئولُ مآل
وتمتعتْ نفسى بروح رجائه زمنًا طويلا والتمتع مالُ
ورأيتُه كالشمس إن هى لم تُنَلْ فالرِّفق منها والضِّياء ينالُ
لهفى لفقدك يا محمد إنه فُقِدَتْ بك النَّفحات والأنفالُ
بالله أُقسمُ إنّ عمرك ما انقضَى حتى انقضى الإحسانُ والإجمال

ولابن بسام يعزّى أبا القاسم بن وهب فى ابن مات له :

قل لأبى القاسم بن وهبٍ أنى بك الدَّهْر للعجائب[2]
ماتَ لك ابنٌ وكان زينا وعاش ذو الشَّيْن والمعايبْ
حياةُ هذا كموت هذا فليس تخلُو من المصائب

وقد تقدّم هجوه فى أخيه .

ومن حسن التعطف على الابن العاق، قول إبراهيم الصابى ، وكان ابنه يعقّه :

أرْضَى عن ابنى إذا ماعقّنى حَذَراً عليه أن يغضبَ الرحمنُ من غَضَبِى
ولستُ أدرى بم استحققتُ من وَلَدِى إسخانَ عينى وقد أقررتُ عينَ أبى!

* * *

قوله : ولرب مُقْم ، العقم ألاّ تلد المرأة .

---

(١) مختارات البارودى ٣ : ٣٢٤
(٢) خاص الخاص ١٠٩

فقال الغُلاَم ؛ وقد أمْعَضَه هذا الكلام : والّذى نصب القُضَاة لِلْعَدْل ، ومَلَّكَهُمْ أعِنَّةَ الْفَضْلِ والْفَصْل ، إنّه مادَعاَ قطّ إلاّ أَمّنت ، ولاَ ادّعَى إلاّ آمنتُ ، ولاَ لَبّى إلاّ وأَحْرَمْتُ ، وَلاَ أَوْرَى إلاّ وأَضْرَمْت ؛ بَيْدَ أنّهُ كَمَنْ يَبْغِى بَيْضَ الأَنُوق ، ويَطْلُبُ الطَّيَرانَ مِنَ النُّوق . فقال له القاضى : وبِمَ أَعْنَتَكَ ، وامْتَحَنَ طَاعَتَكَ ؟ قَالَ : إنّهُ مُذْ صَفِرَ من المـال ، ومُنِىَ بالإمحـال ، يَسُومنى أن أتَلَمَّظَ بالسُّؤال ، وأَسْتَمْطِرَ سُحْبَ النَّوَالَ ؛ ليَفيضَ شِرْبُه الّذى غاض ، ويَنْجَبِر من حَالِهِ ما انْهَاضَ ، وقَدْ كانَ حِينَ أَخَـذَنى بالدَّرْس ، وعَلَّمَنِى أَدَبَ النَّفْس ، أَشْرَبَ قَلْبِى أَنَّ الحِرْص مَتْعَبة ، والطَّمَعَ مَعْتبة ، والشَّرَه مَتْخَمة ، والمسْأَلَة مَلْأَمة .

* * *

أمعضه : أوجعه وأغضبه ، وأمعض من ذلك وامتعض : غضب وشقّ عليه وأوْجَعه . ادّعى : نسب لنفسه ماشاء ، وفلان مُدَّعٍ وفعله الدعوى . آمنت : صدقت ما ادّعاه . لبّى : من تلبية الحاج إذا صاح : لبّيك لبّيك . أحرمت : صرت محرِماً . أورى : أظهر له النار من الزند . أضرمت : أوقدت . بيْد : غير الأنوق : ذكر الرَّخَم ولا بيض له ، فكأنه طلب أمراً لا يكون أبدا ، ومثله : طلب الأبلق العَقُوق ، والأبلق الذكر والعَقوق من الخيل : التى امتلأ بطنها من حملها ؛ يقال للأنثى : قد أعقت وهى معقّ وعَقوق ؛ فكأنه طلب أمراً لا يكون أبداً ، لأنه لا يكون الأبلق عَقوقاً .

ويقال : إن رجلا سأل معاوية أن يزوّجه أمه هنداً ، فقال : أمرُها إليها ، وقد أبتْ أن تتزوّج ، قال : فولّنى مكان كذا وكذا ، فقال معاوية متمثّلاً :

رفع المسهم

طلب الأبلق العقوق فلمّا لم ينله أراد بيضَ الأنوقِ

والأَنُوق : طائر أبيض فى شواهق الجبال ، فبيضها فى حرز لا يُطمَع فيه ، فمعناه طلب مالا يكون ، وأما طلب الطّيَران من النوق فمثل الأول، وهو لا يمكن. قوله : أعنتك ، أى أنْعَبَكَ ،وكلّفك مايشقّ عليك،من عَنِتَ البعير يعنِت عنتا، إذا حَدَث فى رجله كَسْر بعد الجبر ، فلا يمكنه التّصرّف إلاّ بمشقة . قال أبوعبيد رحمه الله:عنّته: أضرّبه، والعَنَت : الضرر،قال: وأعنتَه أيضا ، أهلكه . وقال أحمد بن عبيد : أعنَتَه:شدّد عليه ،والعنت : التّشديد .

ابن عَزيز: عَنت : هلاك ، وأصله المشقّة والصعوبة ، ومنه قولهم : أكَمَة عَنُوت ، إذا كانت صعبة المَسْالك ، وقوله تعالى : ﴿ لَأَعْنَتَكُم[1] ﴾ ، أى لأهلكـكم ، ويجوز أن يكون المعنى لشدّد عليـكم وتعبّدكم بما يصعب أداؤه عليـكُم ، كما فعل بمَنْ قبلـكم . امتُحِن : ابتُلِىَ . صَفِر : خلا . مُفِىَ : بُلِىَ . الإمحال : الجدْب والفقر . يسومنى : يكلّفنى . أتلمّظُ بالسؤال ، أى أكثر الـكلام به ، والتلمُّظ : تتبُّع مابقىَ فى الفم من الطعام باللّسان بعد الأكل. سُحُب: جمع سَحابة . النوال : العطاء ، قال ابن الأنبارى رحمه الله : النّوْل والنّوال : المنفعة والحَظّ ، ونِلْت الرجل : إذا نفعتُه ، وأنلته حظًّا ونالنى فلان : نفعنى ، وقولهم : ما كان نَوْلك أن تفعل كذا ؛ أى ما كان لك منفعة فى هذا الفعل ، ونولك :منصوب خبر كان وأنْ نفعل اسم كان أو بالعكس. يفيض : يسيل ويكثر. شِربه : ماؤه ، وأراد به ماله : غَاض : جَفّ . انهاض : انـكسر . أشرَب : روى وسقى . الحرص : كثرة الطمع والطلب للدنيا ، والشّرَه : الحرص الـكثير . مَتْخمة : مفسدة ، والمسألة : سؤال مافى أيدى الناس . مَلْأَمة : لؤم.

* * *

(١) سورة البقرة ٢٢ .

رفع المسهم

ثم أنشدنى من فِلْقٍ فيه ، ونَحْتِ قوافيه :

إرْضَ بأَدْنَى العَيْشِ واشكُرْ عليهِ ... شكر مَن القُلُّ كثيرٌ لديْهِ
وجانِبِ الحرْصِ الذى لَمْ يَزَلْ ... يَحَـــطُّ قَدْرَ المتراقِى إلَيْهِ
وحَامِ عَنْ عِرْضِكَ واسْتَبْقِهِ ... كَمَا يحامِى اللَّيْثُ عن لِبْدَتَيْهِ
واصْبِرْ عَلَى ما نابَ من فاقةٍ ... صَبْرَ أُولِى العَزْمِ وأَغْمِضْ عَلَيْهِ
ولا تُرِقْ ماءَ المحيَّـــا ولَوْ ... خوَّلَكَ المسئولُ ما فِى يَدَيْهِ
فالحرُّ مَنْ إن قَذِيَتْ عَيْنُهُ ... أخفى قَذَى جَفْنَيْهِ عن ناظِرَيْهِ
ومَنُ إذا أَخْلَقَ ديبـــاجُهُ ... لَمْ يَرَ أَنْ يُخْلِقَ دِيباجَتَيْهِ

* * *

فِلْق : شِقّ من بين شفتيه . نحت : نجر ، أراد إنشاء قصائده . والقوافى ، من قفوت الشىء ، إذا تتبعته ، وسمّيت بذلك الاتباع بعضها بعضا . القُلّ : القِلّة . المتراق : المرتفع . لِبْدَتيْه . شعر متلبّد على كَفَله وبين كتِفيه . ناب : نزل . فاقة : فقر . أغمِضْ ، أى استره واغفل عنه ، والمحيّا : الوجه . خوّلك : ملّكك . الناظر : سواد العين ، فيريد أنه إذا وقع فى عينيه قذى وهو السقط على شِدّة إذايته ، احتمله الحرّ الكريم وصبر عليه ، وأخفاه من ناظريه : تجلّد ، أى أخفى أذى بعض العينين من بعض ، وهذا غاية فى المبالغة . ديباجه : ثوبه ، والديباج : ثوب رفيع . ديباجتيه : خدّيه ، وقيل ديباجة الخدّ حسن بشرته ، وأخلق الشىء ، وأخلقه غيرُه لازم ومتعدّ ، يقول : إذا افتقرتَ وبلىَ ثوبك فلا تبذل وجْهَك لأحد ، ولا تَهِنْهُ بالسؤال ، وهذا من قول حبيب :

رفع المسهم

دَلّ السؤال شجاً فى حَلْق معترضٍ من دونه شَرَقٌ من خَلْفه حَرَضُ[1]
ما ماء كفك إن جادت وإن بخلت من ماء وجهى إذا أفنيته عِوَضُ

وقال فى ابن الزيات :

أعْطَى ونطفة وجهى فى قراراتها يَصُونها الوَجَناتُ الفضّة القُشُبُ[2]

يقول : لم يخلق وجهى سؤال ، فوجهى غضّ جديد ، والنطفة : ماء الوجه الذى نهى الحريرىّ عن إراقته حين قال :

ولا تُرِق ماء المحيّـا ولو خوّلك المسئولُ ما فى يَدَيْهِ

[بين أبى تمام وعبد الصمد بن المعذل]

قال الصولىّ : كان حبيب رحمه الله لا يجيب هاجيا ، ترفّعاً عنه ، فانحدر إلى البصرة والأهواز يمدح من بهما ، فكتب إليه عبد الصمد بن المعذّل :

أنت بين اثنتين تبرز للنّا س[3] بكلتيهما بوجهٍ مُذَالِ[4]
لَسْتَ تنفَـكّ طالباً لِوصَالٍ من حبيب أو طالباً لِنَـوالِ
أىّ ماء لحرّ[5] وجهك يبقَى بين ذلّ الهوى وذلّ السؤال

فلما قرأ الشعر قال : قد شغل هذا ما يليه ، ولا أرَب لنا فيه[6] .

وحكى الأصبهانىّ قال : جمع مجلسٌ أبا تمام وعبد الصمد ، وكان عبدُ الصمد

---

(١) ديوانه ١٤٩
(٢) ديوانه ٤٨ .
(٣) فى أخبار أبى تمام للصولى : « تغدو مع الناس » .
(٤) المذال : المهان .
(٥) « الصولى : لماء وجهك » .
(٦) أخبار أبى تمام للصولى ٢٤١، ٢٤٢

سريحَ القول ، وفى أبى تمام بطء ، فأخذ عبد الصمد قرطاسا ، وكتب : أنت بين اثنتين .. الأبيات ، ورمى بها إلى أبى تمام ، فأخذه وخلاَ به طويلا ، وجاء وقد كتب فيه :

أفىّ تنظم قولَ الزُّور والفَنَدِ وأنت أنزرُ مِنْ لا شىء فى العَدَدِ
أشْرجتَ قلبك من بغض على حُرَقٍ[1] كأنها حَرَكاتُ الرُّوحِ فى الجَسَد

فقال له عبد الصمد : يا ماصّ بَظْرِ أمه[2] ، أخبرنى عن «لا شىء» فى العدد كيف يكون ؟ وعنْ قولك : «أشْرَجْتَ[3] قلبك» ، أعيبة أو خُرْج ، فأشْرِجَه ، عليك لعنة الله[4] .

فانقطع أبو تمام انقطاعاً مارّىَ مثله .

وحكاية الصولىّ أوْلَى بالصحة من هذه ، وليس عبد الصمد من رجال أبى تمام ، ولا له من التصرّف فى أنواع الشعر ما لأبى تمام ، وصنْعُ البديع وَقْفٌ عليه ، ولو صحّت الحكاية فلا يحكم بالقدرة ، لكن يحكم بالجملة ، واستعمال ديوان حبيب فى مجالس العلماء شاهد على فضله ، على أنّ ما جمعنا لعبد الصمد فى هذا الكتاب غاية فى بابه . فلنرجع إلى ما قيل فى ذل السؤال .

[مما قيل فى ذل السؤال]

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ سأل وعنده مايغدّيه أو يعشيه ، فإنما يستكثر من جَمْرِ جهنّم » .

---

(١) ط : « أسرجت » بالسين تصحيف .
(٢) بعدها فى الأغانى : « ياغث » . وأشرجت العيبة : أو شددتها بخيط أو نحوه
(٣) أشرجت العيبة : شددتها بخيط .
(٤) الخبر فى الأغانى ١٣ : ٢٥٣ ، ٢٥٤ برويه عن ابن مهرويه . وفى آخر الخبر : قال أبو الفرج الأصفهانى : « كان فى ابن مهرويه تحامل على أبى تمام لا يضر أبا تمام هذا منه ، وما أقل ما يقدح مثل هذا فى أبى تمام » .

وقال الحسن بن عليّ رضى الله عنهما : حسبك من السؤال أنه يضعف لسانَ المتكلِّم ، ويكسر قلب الشجاع البطل ، ويوقف الحرّ الكريم موقفَ العبد الذليل ، ويذهب بنُضْرة اللون ، ويمحو الحسب ، ويحبِّب الموت ، ويمقت الحياة .

الأصمعى رحمه الله : سمعت أعرابيًّا يقول : المسألة طريق المذلّة ، تسلب الشريف عزّه والحسيب حسبه .

وقال معاوية لعبد الله بن الزبير : أنشِدْنى ثلاثة أبيات غريبة ، فقال أنشدكها بثلاثين ألفاً تدفعها إلىّ ، فقال : حتى تنشد فأسمع ، فأنشده أبياتَ الأفوه الأودىّ[1] :

بلوتُ النّاسَ قرناً بعد قرنٍ فلم أرَ غير خَتْلٍ أو قتالِ[2]
ولم أرَ فى الخطوب أشدّ ضرّا وآذى مِنْ مُعاداة الرِّجال[3]
وذقت مرارة الأشياء طرًّا فما شىء أمرُّ من السؤال

ثم قال له : أسمعتُك وأنت الحكَم ، فحكَم له ، وأمر له بثلاثين ألفا .

وينظر إلى ما نسبه ابن المعذل لحبيب من إضافة ذل السؤال ، ما أضافه له علىّ بن الجهم من ذل الاعتذار ، وقال يعتذر للمتوكل :

إنّ ذلّ السؤال والإعتذارِ خُطَّةٌ صَعْبَةٌ على الأحْرَارِ[4]
ليس من باطلٍ تورّدها المر ء ولكن سوابقُ الأقْدَارِ
فارْضَ للسائل الخضوعَ وللقا رِف ذنباً بذلّة[5] الإعتذار

(١) ديوانه ٢٢ (مجموعة الطرائف الأدبية) ، عيون الأخبار ٣ : ١١٣ .
(٢) الديوان : « غير خلاب وقال » .
(٣) رواية الديوان : « فما طعم الخطوب »
(٤) ديوانه ١٤٩ .
(٥) الديوان « مضاضة » .

رفع المسهم

إن تجافيتَ مغنما كنتَ أولَى مَنْ تجافَى عن الذنوب الكبارِ
أو تعـــاقبْ فأنت أعرف بالله وليس العِقـابُ منك بعارِ

وقال أيضاً :

هى النفس ما حمَّلتَها تتحمَّلُ والدهر أيَّامٌ تجورُ وتعدِلُ[1]
وعاقبة الصبر الجميـل جميلةٌ وأكمل أخلاق الرجال التفضُّلُ
ولا عارَ أن زالت عن المرء[2] نعمة ولكنَّ عارا أن يزول التجمُّلُ
وما المال إلا حسرةٌ إن تركتَه وغُنْم إذا قـدَّمْتَه متعجَّلُ

* * *

قالَ : فَعَبَس الشَّيْخُ واكفهرّ ، وَاندَرَأَ على ابنِه وهرّ ، وقال له : صَهْ يا عُقَق ، يا مَنْ هو الشَّجَى والشَّرَق . ويْكَ ، أتَعلَمُ أمَّكَ البِضَاع ، وظِئْرَكَ الإرْضَاع ! لَقَدْ تحكَّكتِ العَقْرَبُ بالأفْعَى ، واستَنَّتِ الفِصَالُ حَتَّى القَرْعَى . ثمَّ كأنَّهُ ندِم على مافَرَط مِنْ فيه ، وحَدَتْهُ الشَّفَقَةُ على تَلافِيه ، فَرَنَا إليْهِ بعَيْنِ عاطفٍ ، وخَفَضَ له جَنَاحَ مُلاطِف ، وقال له : وَيْكَ يا بُنَيَّ ، إنَّ مَنْ أُمِرَ بالقناعَة ، وزُجِرَ عن الضَّرَاعة ، هُمْ أربابُ البِضاعَة ، وأولُو المكْسَبة بالصِّناعة ؛ فأمَّا ذَوُو الضَّرُورات ، فقد استُثْنِيَ بِهِمْ فى المحظورات ؛ وهَبْكَ جَهِلْتَ هَذَا التأويل ، ولم يَبْلُغْك ما قيل ، أَلَسْتَ الَّذِى عارَضَ أباه ، فيما قالَ وما حاباه !

(١) ديوانه ١٦٢ ، ١٦٣ (٢) الديوان : « عن الحر »

قوله : اكفهر ، اشتدّ عبوسه ، ووجهٌ مكفهِرّ : منقبض كالح ، لا يُرى فيه أثرُ بِشْر ولا فرح . اندرأ : اندفع على ابنه بالشتم . هرّ : كشّر وجهه وعبّسه . صه: اسكت . يا عُقَق : يا كثير العقوق ، ويقال :عَقّ أباه يعقّه عقوقا ، فهو عاقّ ، ويُعدَل إلى عُقَق للمبالغة ، كفاسق وعمر ؛ وعَقّ أباه : لم يطعه وقطع رحمه . ولما قُتِل حمزة عمُّ النبي صلى الله عليه وسلم ورضى الله عن عمه ، مرّ به أبو سفيان ، فطعنه بالرمح فى شِدْقِه ، وقال : ذق عُقَق ، أى ذق جزاء فِعْلِك يا عُقَق ، والعَقّ : القطع والشق .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ثلاثة لا يدخلون الجنة : العاقُّ لوالديه ، والدَّيُّوثُ ، وَرَجُلة[1] النساء » .

قوله : الشَّجَا : الاختناق بالطعام ، الشَّرَق بالماء والطعام والشراب ، بهما قوام العيش ، فإذا عرض فيهما ذلك فقد عرضت مشقّة وأذيّة فى موضع الالتذاذ ، وكذلك الولد العاق ، وهو أذيّة فى موضع راحة ، وما أحسن قول القائل :

قَراية السوء داء سُوء فاحمل أذاهمْ تَعِشْ حميدَا
فمن تكن قَرْحةٌ بفيه يَصْبِرْ على مَصِّه الصَّديدا

الهُضاع : النكاح والجماع . ظئرك : مرضعتك . تحكّكت : لصقت بها وحلّقتَ حواليها . استنّت : جَرَتْ متتابعة فى سَنَن ، وهو الطريق والمذهب ، ومنه فلان يستنّ ، أى يجرى على أىّ أمر شاء ، لا يزجره عنه زاجر . وقيل : استنّت ، أى سمنت ، من قولهم: سنّ الراعى إبله ؛ إذا أحسن رَعْيَها فأسمنها ، فكأنه حسّنها وصقلها . القرعى[2]: التى يصيبها القَرَع فى رأسها ، والقَرْعى : جمع قريع ، مثل مَرْضى ومريض ، وهذه أمثال تضرب لمن يتشبّه بغيره ، ولا يقوى قوّته .

---

(١) الرجلة (بالضم) من النساء المترجلة ابن الأثير .

(٢) لفظ المثل: استنت الفصال حتى القرعى ، ذكره الميدانى فى ١ : ٣٣٣ ، وقال: « يضرب للذى يتكلم مع من لا ينبغى أن يتكلم بين يديه لجلالة قدره » .

فرّط : سبق. حدته : ساقته . المِقَة : المحبة . تلافيه: تداركه بالعطف عليه. رنا : نظر : عاطف : راحم . ملاطف ، أى رفيق به،أى حسّن كلامه وأنسه. وخفض الجناح ؛ يكنى به عن لين الجانب ويك : عجبا لك ! زجر : نهى . الضّراعة: التذلل، وضرع ضراعة فهوضارع ، تضرّع: تذلل وتخشع .البضاعة : التجارة . المحظورات : الممنوعات ، وأراد بالاستثناء ما أحلّ الله من المحرّمات لأهل الضرائر ، ويروى : سوّغوا فى المحظورات ، أى رخّصوا لهم فيها. هبك: أحسبك . التأويل : التفسير . ولم يبلغك ماقيل، يعنى فى إباحة السؤال للمضطر ، وهو قول الناس : الضرورات تبيح المحظورات ، ويصدّقه قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ فى مخمصة. ﴾[1] الآية،وقال عليه الصلاة والسلام:« إنما المسألة كدوح يكدح بها أحدكم وجهه إلاّ مسألة من ذى سلطان أوفى أمر لابدّ منه » عارضه : قابله بنقيض ماقاله . حاباه : اختصّه بهذه الوصية ، أى جعل هذا الشعر وصية لمن سمعه ، ويقال : حابى فلان فلاناً ، إذا مال إليه واتّصل به ، أخذ من حَبِيّ السحاب ، وهو السحاب الذى يدنو بعضه من بعض وقيل . حَباه : خصّه بالميل ، أخذه من الحَبْوَة ، وهى العطية يحبُوها الرجل صاحبَه ، ويخصّه بها ، قال اليزيدى : ثلاثة إن لم تظلمهم ظلموك : ابنك ، وزوجك ، وخادمك .

* * *

لا تَقْعُدَنَّ على ضُرٍّ وَمَسْغَبَةٍ ... لِكَى يقال عَزِيزُ النَّفْسِ مُصْطَبِرُ

وانْظُرْ بِعَيْنِكَ هَلْ أَرْضٌ مُعَطَّلَةٌ ... من النَّبَاتِ كأَرْضٍ حَفَّهَا الشَّجَرُ

فَعَدِّ عَمَّا تُشِيرُ الأَغْبِيَاءُ بِهِ ... فأىُّ فضلٍ لِعُودٍ مالَهُ ثَمَرُ

وَارْحَلْ رِكَابَكَ عن رَبْعٍ ظَمِئْتَ بِهِ ... إلى الجَنَابِ الَّذِى يَهْمِى بِهِ المطرُ

---

(١) سورة المائدة ٣ .

رفع المسهم

واستَنْزِلِ الرِّىّ من دَرِّ السَّحَابِ فإنْ
بُلِّتْ يَدَاكَ به فَلْيهنِكَ الظَّفَـرُ
وإنْ رُدِدْتَ فَمَا فى الرَّدِّ مَنْقَصَةٌ
عليْكَ ، قد رُدَّ موسَى قَبْلُ والخَضِرُ

* * *

مسغبة : جوع . حفَّها : حلّقها ، يريد أنّ الأرض ذات الخصب تُقصَد لما فيها من الأرزاق ، والأرض المُعَطّلة من النبات - وهى الجدبة - يفرّ عنها ، وكذلك الغنىّ يُكرَم لمالِه ، والفقير يهجر ويهان .

[فضل المال]

ومما جاء فى فضل المال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمجاشعىّ : « إنْ كان لك مالٌ فلك حسب ، وإن كان لك خُلُق فلك مروءة ، وإن كان لك دينٌ فلك كرم » .

وقال حكيم لابنه : يا بنىّ أوصيك ، عليك بطلب المال ، فلو لم يكن إلا أنه عزّ فى قلبك ، وذلّ فى قلب عدوّك[1] .

وقال آخر لابنه : يا بنىّ أوصيك باثنتين لن تزال بخير ما تمسّكت بهما : درهمك لمعاشك ، ودينك لمعادك .

وكان سعد بن عبادة يقول : اللهمّ ارزقنى حمداً ومجداً ، فإنه لا مجدَ إلاّ بفَعَال ، ولا فعال إلاّ بمال .

وقالوا : المال آلة للمكارم ، وعون على الزمان ، ومتألّف للإخوان ، ومَنْ فقدَه قلّت الرغبة إليه والرهبة منه .

قال سفيان الثورىّ : المال سلاح المؤمن فى هذا الزمان .

(١) هامش ط : « قوله : « فلو لم يكن إلا أنه » جواب لو محذوف ، أى لكفاك أونحوه »

وكان لأحيحة بن الجلاح بالزوراء ثلاثمائة ناضح ، فدخل بستاناً له فمرّ بتمرة فلقطها ، فلِيمَ على ذلك ، فقال : تمرة إلى تمرة تمرات ، وجمل إلى جمل ذود . ثم أنشد يقول :

إنّى مقيمٌ على الزوراء أعمُرها ... إن الحبيب إلى الإخوان ذو المالِ[1]
استغن أومت ولا يغررْك ذو نشبٍ ... من ابن عمّ ومن عمٍّ ومن خالِ[2]
كلّ الفداء إذا ناديتُ يخذُلُنى ... إلاّ الفداء إذا ناديتُ يا مالى

وقال عروة بن الورد :

ذريني للغنى أسعى فإنّى ... رأيتُ الناسَ شرُّهُمُ الفقيرُ[3]
وأدناهم وأهونُهُمْ عليهم ... وإن أمسى له حَسَبٌ وخِيرُ
يُباعده القريب ونَزْدَريه ... حليلتُه ويقهره الصغير
ويلقى ذو الغنى وله جلال ... يكاد فؤادُ لاقيهِ يطيرُ
قليل ذنبه والذنب جمٌّ ... ولكنْ للغنى ربٌّ غفور

ومن أمثال بغداد : المال المال ، وما سواه محال .

قوله : الأغبياء : الجهال ، وأراد بهم الذين يأمرون بالبخل . ظمئت : عطشت . والركاب : الإبل . والجناب : الجانب والناحية . يهمى : يسيل . والرِّىّ : الشبع من الماء ، والصَّوْب وقع الماء . والظفر : الفوز بالحاجة ، يقول : فارق أرضك واغترب فى طلب المال ، واسأل الكرماء يعطوك .

وقال الشاعر :

سأعمِل نصَّ العيس يوماً ليكفِنى ... غِنَى المال يوما أو غِنَى الحدَثانِ
فالموتُ خيرٌ من حياة يُرى بها ... على المرء بالإقلالِ وَسْمُ هَوانِ

---

(١) الاغانى ١٥ : ٣٧ ، وفيه : « على الإخوان » (٢) الأغانى : « ولامم »
(٣) البيان والتبيين ١ : ٢٣٤ ، ولم ترد الأبيات فى ديوانه .

إذا قال لم يُسْمَعْ لحسنِ مقالهِ وإن لم يقــل قالوا عديمُ بيانِ
كأنّ الغنى فى أهله يجعل الفتى بغـــير لسانٍ ناطقاً بلسان

وأشار بقوله : « قد رد موسى قبل والخضر ، إلى قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا ﴾[1] .

وفى نسب الخضر اختلاف ، منهم مَنْ جعله من قابيل بن آدم ، ومنهم من يجعل بينه وبين سام بن نوح خمسة آباء ، ويجعله من ذرية سام ، وقال عليه الصلاة والسلام : « إنما سُمِّىَ خضراً لأنه جلس على فروة بيضاء ، فإذا هى تهتزّ خضرة » . والفروة : الأرض البيضاء ، وقصته مع موسى مشهورة . وقيل إن موسى صاحبه غير موسى بن عمران . وقال موسى للخضر حين فارقه : عظنى فقال : لا يراك الله حيث نَهَاك ، ولا يفقدُك حيث أمرك ، فكما تذهب بأمل صادق فتخيب ، قد تذهب بأملٍ كاذب فتصيب ، وتذهب للحقير ، وتدرك الجليل . وقد ذهب موسى ليقتبس ناراً ، فكلّمه ربه . وقد تقدّم هذا .

قال ابن عبد ربه : مما جُبِل[3] عليه الحرّ الكريم ، ألاّ يقنع من شرف الدنيا والآخرة بشىء مما انبسط له من أمر الدنيا ، بل يكون أمله فيما هو أسمى درجة وأرفع مرتبة ، ولذلك قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وهو عامل بالمدينة لدُكين[2] الراجز : إن لى نفساً توّاقة ، فإذا بلغك أنى صرت إلى أشرف من منزلتى فأتنى . فلما صار خليفة أتاه ، فقال : أنا أعلمتك أن لى نفسا توّاقة ، وأنّ نفسى تاقت إلى أشرف منازل الدنيا منزلة ، فلما بلغتُها وجدتها تَتُوق إلى أشرف منازل الآخرة منزلة .

ومن الشاهد لهذا المعنى أنّ موسى عليه السلام لمّا كلّمه ربه تكليماً سأله ،

---

(١) سورة الكهف ٧٧ (٢) ط : « الرعين » تحريف (٣) العقد ٣ : ٢٠ ، ٢١

النظر إليه إذْ كان ذلك ـ لو وصل إليه ـ أشرف من المنزلة التى نالها ؛ فالحرّ الكريم لا يقنع بمنزلة إلا رجا أشرف منها قال : ومن قولنا فى هذا المعنى :

والحرّ لا يكتفى أبداً من نيل منزلةٍ ... حتى ينال التى من دونها العطبُ
يسعى به أملٌ من دونه أجلٌ ... إن كفّه رهبٌ يدعو به رغبُ
لذاك ما سال موسى ربّه : أرنى ... أنظرْ إليك وفى تسآله عجبُ
يبغى التزيّد فيما نالَ من كرم ... وهو النجىّ لديه الوحىُ والكُتُب

وقال حبيب : [1]

ذرينى وأهوالَ الزمان أقاسِها ... فأهواله العظمى تليها رغائبه

* * *

قال : فلمّا أن رأى القاضى تنافىَ قولِ الفتى وفعلِه ، وتَحَلِّيَهُ بما لَيْسَ من أَهله ، نَظَرَ إليه بعينٍ غَضْبَى ، وقال : أتميميًّا مرةً وقيسيًّا أخرى ! أفٍّ لمن ينقُضُ ما يقول ، ويتلوّنُ كما تتلوّن الغُولُ . فقال الغلام : والّذى جَعَلك مفتاحاً لِلْحَقّ ، وفتّاحًا بين الخلق ؛ لقد أُنسِيتُ مذ أُسِيت ، وَصَدِئَ ذهنى مذ صَدِيت ؛ على أنّهُ أَينَ البابُ الفتْح ، والعَطاءُ السُّرُح ! وهَلْ بين مَنْ يتبرعَ باللُّهَا ، وإذا استُطعِم بقول : ها !

قال له القاضى : مَهْ فمع الخواطِئ سَهْمٌ صائبٌ ، وما كل بَرْقٍ حالِب . فيزِنِ البُرُوق إذا شِمْت ، ولا تَشْهَدْ إلاّ بما عَلِمْت .

---

(١) ديوانه ٤٤ .

قوله تحلّيه : تزيّنه ، وقوله : أتميميًّا مرة وقيسيًّا أخرى ، مثل يضرب لمن يتناقض فيما يقول ، تقديره : أتنسَب مرةً لتميم وتنسَب مُرّةً لقيس ! وتميم وقيس قبيلتان عظيمتان ، وبينهما أبداً مكافحات ومقاتل ، وتميم هذا ابن مرّة بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر ، وقيس ابن الياس ، قال أبو الدرداء رضى الله تعالى عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا الدرداء ، إذا فاخرت ففاخرْ بقُرَيْش ، وإذا كاثرت فكاثر بتميم ، وإذا حاربت فحارب بقيس ، إلاّ أن وجهها كنانة ، ولسانها أسد ، وفرسانها قيس ، ألاَ إن لله فرسانا فى سمائه وهم الملائكة ، وفرسانا فى الأرض وهم قيس ، وإنّ آخر من يقاتل على الإسلام حين لا يبقى إلا ذكره ، ومن القرآن إلا رسمه ، رجل من قيس » ، قلت : يا رسول الله ، من أىّ قيس ؟ قال : من سُلَيم . وفى البديعية :

إنّ حالى مع الزما ن كحالى مع «المُنسَب»[1]
أنا أُصحى مع النّبيـ ـطِ وأُمسِى مَعَ العربْ
نسبى فى يد الزما ن إذا سامه انقلبْ

وقال زفر بن الحارث لعمران بن حِطّان : أزيديًّا مرة ، وأوزاعيًّا أخرى ! وقال عمران بن حِطّان :

فاعذر أخاك ابن زنباعٍ فإنّ له فى النائبات خطوباً ذات ألوانِ[2]
يوماً يمانٍ إذا لاقيتُ ذا يمنٍ وإن لقيتُ مَعَدِّيًّا فعدنانى

وقال آخر :

أفى الولائد أولادٌ لواحـدةٍ وفى العبـادة أولادٌ لعلاّتِ

قوله : يتلوّن ، أى يتغير ويتنوّع . والغُول : ساحرة الجن ، وهو يتصوّر

(١) مقامات الهمذانى ١٠٥ (٢) الكامل ٣ : ١٧٠

فى صور شتى . وأخذه من قول كعب بن زهير :

فما تدومُ على حالٍ تكونُ بها إلاّ كما تلوّنُ فى أثوابها الغُولُ[1]

وتزعم العرب أنه إذا انفرد رجل فى الصحراء ظهرت له فى خِلْقة إنسان ، ولا يزال يتبعها حتى يضلّ الطريق ، فتدنو منه ، وتتمثل فى صور مختلفة فتهلكه رَوْعاً . وإذا أرادت أن تضلّ الناس أوقدت نارا فيُبصرها السارى فيقصدها ، فتفعل ذلك وتروِّعه ، فإن كان الذى يأتيها شجاعا مِقْدَاماً تحامل وتبعها ، فإذا رأت ذلك لم تضرّه ، وجلس يصطلى بنارها وهى معه . وقال تأبّط شرا :

وأدهَمَ قد جبتُ جِلبابه كما اجتابت الكاعبُ الخَيْعَلاَ[2]
إلى ضوء نارٍ تنوّرتُها[3] فبتّ لها مدبراً مُقْبِلاَ
فأمسيتُ والغُولُ لى جارةٌ فيا جارتا أنت ما أهْوَلا
فمن يكُ عن جارتى سائلاً فإنّ لها باللِّوى منزلا

قال أبو عمرو رحمه الله بات تأبّط شرًّا ليلة ذات ظلمة ورعد وبرق بواد يقال له : رحَى بطان ، فلقيَه الغول - وهو سبُعٌ من سباع الجنّ - فما زال يقاتلها حتى قتلها ، فقال :

ألاَ مَنْ مبلغٌ فتيان فَهْمٍ بما لاقيتُ عند رحَى بطانِ[4]
فإنّى قد رأيت الغُولَ تهوِى بسَهْب كالصَّحيفة صَحْصحان[5]
فشدَدْت شدّة نحوى فأهوَى لها كفّى بمصقولٍ يمانِ
لها عينان فى رأسٍ قبيح كرأس الهرّ مشقوق اللسان
وساقاً مخدَج وشَواةِ كلب وثوبٌ من عباء أو شِنَان[6]

---

(١) ديوانه ٨ (٢) الشعر والشعراء ٣١٣ . والخيعل : الفرو ، واجتابته : لبسته .
(٣) الشعراء : « على شيم نار » (٤) مختار الأغانى ٢ : ١٥١ .
(٥) السهب : الفلاة . والصحصحان : ما استوى من الأرض .
(٦) المخدج : الناقص الخلق . والشواة : قحف الرأس . والشنان : القربة الخلقة .

قالوا : وخِلْفَتُها خلقة إنسان ورجْلاها رجلا حمار ، فإذا صاح بها الرَّجُل : رجلى حمار ! نهقت نهيقا لا تخطىء السَّبسب والطريق ، وفرَّت منه .

وانظر فى التاسعة والأربعين ذكر القطرب وفيه شىء مستظرَف .

قوله: فَتَّاحًا ، أى حاكما . وافتح بيننا ، أى احكم بيننا ، والفتّاح : الناصر ، والفتح : النصر . والحاكم ينصر المظلوم . أسيت: حزنت صدىٌ ذهبى ، أى تغطى بالغفلة ، من الصَّدأ ، وهو ما يعلوه من الدَّرَن . وصَديتُ ، غير مهموز أصدى صدًى ، وأراد مذ افتقرت علانى الوسخ ، وصحبنى النسيان . الفُتُح : الكثير الفَتْح الواسع الذى لا يغلق فى وجه قاصده . السَّرُح . الكثير الذى يسرح صاحبه فى أنواع الجود ، والسرح : السهل السريع ، وناقة سَرُوح : مسرعة فى سيرها . يتبرع : يتفضّل بجوده متطوعاً ، وتبرّع : تطوّع . اللها : العطايا . ها . معناها : خذ وتناول . وذكر أبو محمد هذه اللفظة فى الدّرة[1] فقال : ويقولون لمن يُناول شيئاها، بقصر الألف ، فيلحنون فيها ، لأن الألف ممدودة كما جاء فى الحديث: « الذهب بالذهب رباً إلا هاء وهاء » . ويجوز فيه فتح الهمزة وكسرها مع المدّ ولا تقصر إلا إذا اتصلت بها كاف الخطاب ، فيقال : هاك ؛ كما يروى أن عليا رضى الله عنه آب إلى فاطمة رضى الله عنها من بَعض مواطن الحرب ، وسيفه يَقْطر دما ، فقال :

* أفاطمَ هاكِ السيف غيرَ مذمَّمِ *

وعند النحويين أنّ المد فيها بدل من كاف الخطاب ، لأنّ أصل وضعها أن تقترن كاف الخطاب بها . فساقها أبو محمد هنا مقصورة بغير كاف ، ووقع فيما زعم أنه لحن . فإن قيل : لعلّها لما وقعت فى فقرة موقوف عليها ، يحتمل فيها ذلك ، فنقول : إنه قد أردفها على فقرة قبلها مقصورة بإجماع ، وهى اللها فسوّاها معها ؛ على أن أهل اللغة حكموا فى اللفظة أربع لغات : ها مقصورة كما فى المقامة ، وهاء

(١) درة الغواص ٨٦

بالمدّمع فتح الهمزة وكسرها . وسمع رجل أبا العتاهية ينشد :

فانظر بطرفك حيث شئـــت فلن ترَى إلا بخيلا

فقال : قد بخّلت الناس كلّهم ، فقال : كذبتَ بل أنت بواحد منهم سخيّ .

قوله : مه : اكفف . الخواطئ : السهام تخطىء الغرَض ، وهذا مثل يضرب لمن يكثر الخطأ ويأتى أحياناً بالصواب . خالب : خادع شِمْت البرق : نظرت سحابه أينَ يمطر . أعظم : جعله عظيما .

* * *

فلمّا تبيّن للشّيخ أنّ القاضى قد غضبَ للكِرَام ، وأعْظَمَ تَبْخيل جَميع الأنام ؛ علم أنه سَيَنْصُرُ كلمتَه ، ويُظْهِرُ أكرُومتَه ، فما كذّب أن نَصَب شَبَكَتَهُ ، وشَوَى فى الحَريق سَمَكتَه ، وأنشأ يقول :

يأيّها القاضى الّذى عِلْمُهُ وحِلْمُهُ أرْسَخُ مِنْ رَضْوَى
قد ادّعى هذا عَلَى جَهْلِهِ أنْ لَيْسَ فى الدُّنْيا أخو جَدْوَى
وما دَرَى أنّك من مَعْشرٍ عطاؤهمْ كالمَنِّ والسَّلْوى
فجُدْ بما يَثْنيه مُسْتَخْزِيًا ممّا افترى مِن كذِبِ الدَّعْوَى
وأنْشَنِي جَذْلانَ أُثْنِي بما
أوْلَيْتَ من جَدْوَى ومن عَدْوَى

* * *

والحريق : ما تحرقه النار من الحشيش والعيدان ، وناره ضعيفة لا تدوم . السمك : كبش الماء ، فلا يستوى إلاّ على نارٍ قوية فربّما شوى سمكته ما دام لهب النار موجوداً ، فإذا سكن اللهب لم يتمكن من شيّها لعدم الجمر فى الحريق ، فيريد أنّه حرّض القاضى بالشعر على الكرم ، حين اهتزّ للكرام ، وغضب

من تبخيلهم . فهزّه بهذا الشعر ليجود عليه قبل أن يسكن ، فربّما يبدو له ألاّ يجود . أرسخ : أثبت . رضوى : جبل بالمدينة سَهْل مشتق من الرضوان ، كأنّ الذى يصعده راض عنه لقلة المشقّة فى صعوده . أخو جدوى : صاحب عطية وكَرَم . المنّ والسلوى : طعام كان يَنْزل على بنى إسرائيل ، وقيل : المنّ الترنجبين والسلوى السمانى ، وهو طائر . يثنيه : يردّه . مستخزيا : صاغرا خاضعاً . ويروى «مستخديا» ، والخدية : الاستحياء ، أو يكون بمعنى مهانا ، والخزى : الهوان افترى : كذب واستبعد . أثنى جذلان : أرجع فرحاً . أوليت : أعطيت . جدوى : إعانة ، أى أرجع بالجدوى ، وبإعانتك لى عليه حتى يتوب من عقوقه .

* * *

قال : فهشّ القاضى لقولِهِ ، وأَجْزَلَ له من طَوْلِهِ ، ثمّ لفتَ وَجْهَهُ إلى الغُلام ، وقدْ نَصَلَ لَهُ أسْهُمَ المَلاَم ، وقال لَهُ : أرأيْتَ بُطْلَ زَعْمِك ، وخَطَأَ وَهْمِك ! فلا تَعْجَلْ بَعْدها بذَمّ ، وَلاَ تَنْحَتْ عُوداً قبل عَجْم ، وإيّاكَ وَتَأَبِّيك ، عن مُطَاوَعَةِ أبيك ، فإنّك إن عُدْتَ تَعُقُّهُ ، حاقَ بك منّى ما تستحِقُّه ، فسُقِط الفتَى فى يَدِهِ ، ولاذَ بحَقْوِ وَالِدِه ، ثم نَهَضَ يُحْفِد ، وتَبِعَهُ الشَّيْخُ يُنْشِد :

مَنْ ضامه أو ضارَهُ دَهْرُهُ فليَقْتَصِد القاضِىَ فى صَعْدَهْ
سَمَاحُهُ أزْرَى بِمَنْ قَبْلَهُ وعَدْلُهُ أتْعَبَ مَنْ بعدَهْ

* * *

هشّ : فرح . أجزل : أكثر . طَوْله : إفضاله وهباته . ولفت : ردّ . نصل : جعل له نصالا ، وأنصلها : نزع نصالها ، والنَّصْل : حديدة السهم . بطل زعمك ، أى بطلان قولك . وهمك : ظنك . تنحت : تنجر . عَجْم : اختبار ،

أى حتى تعلم : هَلْ هو قويٌّ أوضعيف ، يقول : لاتعتب أحداً حتى تجرّبه . قوله: وإياك وتأبّيك عن مطاوعة أبيك ، أى احذر أن تمتنع عن مطاوعة والدك ، فإنك ومالك لأبيك.

جابر رضى الله عنه : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول الله ، إن أبى أخذ مالى ، فقال له: اذهب ، فأْتِنى به ، فأوحى إلى النبى صلى الله عليه وسلم أن يسأل الشيخ عن شىء فى نفسه ، قاله فى شأن ابنه . فلمّا جاء الشيخ ، قال له النبىّ صلى الله عليه وسلم: ما بال ابنك يشكوك ؟ أتريد أن تأخذ ماله ! فقال : سله يا رسول الله ، هل أنفقتُه إلا على نفسى أو على إحدى عماته أو خالاته ! فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : دَعْنى من هذا ، أخبرنى عن شىء قلتَه فى نفسك ، ما سمعتْه أذناك ، فقال : يا رسول الله ، ما زال الله يزيدنا بك يقينا ، لقد قلتُ فى نفسى شيئاً ، ما سمعته أذناى ، وأنشد يقول :

غذوتُك مولوداً وعُلْتُك يافعاً ... تَعَلّ بما أجنى عليك وتنهلُ
إذا ليلةٌ ضافتك بالسُّقْم لم أبتْ ... لسقمك إلاّ ساهراً أتململُ
كأنى أنا المطروقُ دونَك بالّذِى ... طُرِقت به دُونى فعيناى تَهمل
تخاف الرّدى نفسى عليك وإنها ... لتعلم أن الموت وقت مؤجّلُ
فلما بلغتَ السنّ والغاية التى ... إليها مدى ما كنتُ فيك أؤمّلُ
جعلتَ جزائى غلظةً وفظاظةً ... كأنك أنت المنعِم المتفضّل
فليتك إذْ لم ترعَ حق أبوّتى ... فعلتَ كما الجار المجاور يَفْعَلُ

قال : فحينئذ أخذ النبى صلى الله عليه وسلم بتلابيب ابنه ، وقال : «أنت ومالك لأبيك» .

قوله : حاق ، أى نزل ، تقول : حاق به المكروه والشؤم يَحِيق حَيْقا ، نَزَلا به .

ابن عرفة: وجبا عليه وألزماه ، قال الأزهرى رحمه الله: الحيق مايحيط بالإنسان من سوء عمله ومكروه فعله ، وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ ، أى لا ترجع عاقبة مكرهم إلا عليهم . سُقِط فى يده ، يقال ذلك للنادم المتحيّر ، ويقال : سُقِط فى يده وأُسْقِطَ فى يده ، إذا ندم على فعله ، وتحسَّر عليه ، واليَد هنا : الندم ، وقوله : سَقَط الفتى فى يده ، قال جماعة من أهل اللغة : صوابه : سُقِط فى يده من غير تسمية الفاعل ، لأن الفعل مسند إلى المجرور . وقال الأزهرى رحمه الله : إنما حَسَّنَ سُقِط فى يده بضم السين ، غير مسمًّى فاعلُه الصلة ، وهى فى يده ، ومثله قول امرئ القيس :

* دع عنك نهبا صِيح فى حَجَراته *

أى صاحَ المنتهب فى نواحيه ، وكذلك المراد سقط الندم فى يده . وقال أبو القاسم الزجاجى: سُقِط فى أيديهم نظم لم يُسمع قبل القرآن ، ولا عرفته العرب ، فيوجد فى أشعارها وخفى على الإسلاميين قال أبو نواس :

* ونشوة سقطت منها فى يدى *

وأخطأ فى استعمالها ، لأن فعلت لا يُبنَى إلا مما يتعدّى ، لا يقال : رغبت ولا غضبت ، إنما يقال رغب فىّ وغضب علىّ . لاذ : لجأ وتستّر ، ولاذ فلان بفلان: تستر به ودار حوله ، وبعضهم يقول: ألاذ ، والأولى هى الغالبة ، واللواذ مصدر لاوَذ ، ولذا أثبتت الواو، ولو كان مصدر «لاذ ، لقلت لياذاً، كقمت قياماً.

بحقو : مَحْضر ، وجمعه أحقاء وحقاء . وحفد يحفد أسرع . ضامه : أذله .

ضارَه : ضرّه : أزرى : قصّر . وتقدم معنى البيت في الرسالة السادسة والعشرين

* * *

قال الرّاوي : فحِرْت بين تعريف الشّيخ وتنكيره ، إلى أن احْرَوْرَف المسير به . فناجَيْتُ النَّفْسَ باتّباعه ، وَلَوْ إلى رِباعِه ، لَعَلِّي أَظْهَرُ عَلَى أسراره ، وأعرفُ شَجَرَةَ ناره ، فمذْتُ المُلَق ، وَانطَلَقْتُ حيث انْطَلَق ، ولم يَزَلْ يَخطُو وأعْتَقِب ، ويُبْعِدُ وأقترب ، إلى أن تَرَاءى الشَّخْصان ، وحقّ التَّعارُف على الخِلْصان ، فأبْدَى حينئذٍ الاهتِشاش ، وَرَفَعَ الارْتِعاش ، وقال : مَنْ كاذبَ أخاه فَلاَ عاشَ . فعرفت عِنْد ذلك أنّه السَّرُوجي بلا محالةَ ، وَلاحُتُول حالَة . فأسْرعْتُ إليه لأصافِحَهُ ، وأستعرِفَ سانِحَهُ وبارِحَهُ ؛ فقال : دونك ابنَ أخيكَ البَرّ ، وتَرَكَني ومَرّ . فلم يَعْدُ الفتى أن أَنَ افترّ ، ثمّ فرّ كما فرّ ، فمُذْتُ وقد استَبنتُ عَيْنَهُمَا ، ولكنْ أَيْنَ هما !

* * *

احرورف : مال والحرف . ناجيت : حدّثت . رباعه : دياره . شجرة ناره ، يريد أصل جبلّته . أعتقب : أمشي خلفه واتبع عَقِبه . تراءى : ظهر ، وخُلْصان الرجل : صديقه الذي خلصت له مودّته . الاهتشاش : الطّرب والبِشر . الارتعاش : الرِّعْدة ، يريد أن داءه كذب لاحقيقة له بحاله : حيله . حتول : تغيّر . أصافحه : أعانقه وأسلّم عليه . أستعرف سانحه وبارحه ، أي أطلب منه

أن يعرّفني بخيره وشره . والسانح من الطير والوحش ما مرّ على ناحية يمينك ، والبارح ما مرّ على ناحية يسارك . وقيل : السانح ما أولاك ميامنه ، والبارح : ما أولاك مياسره ، وأكثر العرب تتبرك بالسّانح وتتشاءم بالبارح ، وبعضهم يتبرّك بالبارح ، ويتشاءم بالسانح ، والسانح : الذى يمر عليك عن مياسرك إلى ميامنك ، فيمكن للطّاعن طعنه ، وللرامى رميه ، فالذى يتيمّن به يرى أنه رزق حاصل ، والذى يُتَشاءم به يرى أنّه عاطب وهالك ، والبارح بالضدّ ، فالأول يَرَى أنه فائت ، ورامیه خاسر فيتشاءم به ، والثانى يرى أنه سالم غير عاطب ، فيتَيَمّن به ، والذين يتيمّنون بالبارح ويتشاءمون بالسانح أهل نجد ، والذين يضادّونهم أهل العالية .

قوله : دونك ، أى خذه واقصده . البرّ : والبار : الكثير الإكرام لأبويه . افترّ : ضحك . استبنْت : عرفت . عينهما : شخصهما ، وجعله آخر المقامة برّا له لموافقته له فى الحيَل ، وَجَرت العادة بأنّ الأب إذا كان نجيباً ، فالابن بالضدّ ولهذا قال الشاعر :

إذا أطلع الدّهْر حرًّا نجيباً ... فكن فى ابنه سَيِّئ الإعتقادْ
فلست ترى مِنْ نجيب نجيباً ... وهل تترك النّار إلا الرمادا

* * *

المقامة الثامنة والثلاثون وهي المروية

حكى الحارثُ بن هَمّام قال: حُبِّبَ إليّ مُذْ سَعَتْ قَدَمِى ، ونفثَ قَلَمِى ، أن أتّخذ الأدب شِرْعة ، والاقتباس منه نُجْعَة ؛ فكنتُ أنقبُ عن أخباره ، وخَزَنَةَ أسراره ؛ فإذا ألفت منهُمْ بُغيَة الملتمس ، وجَذْوة المقتبس ، سَدَدْت يدى بَغَرْزِهِ ، واستنزلْتُ منه زَكاةَ كَنْزِه ؛ على أنّى لم ألقَ كالسَّرُوجىّ فى غزارَةِ السُّحْب ، وَوَضْع الهَناء مواضِعَ النُّقَب ؛ إلاّ أنّهُ كانَ أسْيَرَ من المثل ، وأسْرَعَ من القمرِ فى النُّقَل ، وكُنْتُ لِهَوَى مُلاقاتِهِ ، واستحسان مَقاماتِهِ ، أرغبُ فى الاغتراب ، وأستعذب السَّفَرَ الّذِى هو قِطعة من العذاب .

* * *

قوله : نفث ، أى كتب ، والنَّفْث ما تلقيه من فيك من البُصاق الغليظ ، فشبّه ما يلقيه القلم من المداد بالنَّفْث ، هذا ظاهر اللفظ ، وإنما أراد فى المعنى بالقلم ذِكْره ، ونفثه مفيه ، فكنّى عن البلوغ بذلك ، فهو يريد وقت الحلم ، وهو الوقت يَقْوى فيه على المشى فى الأسفار ، والتصرف ؛ كذا فسره لنا بعض حُذّاق أشياخنا ، وفسرّه الفنجديهى على ظاهره ، فقال : معنى مذ سعت قدمى نفث قلمى ، مذ قدرت على المشى والكتابة والنظم والنثر . شِرْعة : طريقة وشريعة وعادة ، ومعناه : أصرف همتى إلى علم اللغة والعربية . قال الشافعى رضى الله عنه : مَنْ تعلّم القرآن عظمت قيمته ، ومن نظر فى الفقه نَبُل مقداره ، ومَنْ تعلّم اللغة رقّ طبعه ، ومن تعلّم الحساب جَزُل رأيه ، ومن كتب الحديث قوِيَت حجته

ومن لم يصنْ نفسَه ، لم ينفعه عمله .

الاقتباس : الاكتساب وهو افتعال ، من القَبس . نجعة : طلب المرعى ، أى جعلت طلب الأدب لى غذاء ورزقا . أنقّب : أبحث . أخباره : علمائه . ألفيت : وجدت . بغية : حاجة . الملتمِس : الطالب للشىء . جَذْوة : جمرة عظيمة . والمقتبِس : الطالب للنار ، والغرْز : للرجْل ، كالرّكاب للسرْج ، ومعنى شددت بغرزه ، أى تمسكت بركابه وبالغت فى خدمته ، روى ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أخذ بركاب رَجُلٍ لا يرجوه ولا يخافه غفر له » .

غزارة : كثرة ، والسّحب : جمع سحابة ، كَنَى بها عن كثرة العلم . الهناء : القَطِران . النُّقَب : جمع نُقْبة وهو أوّل ما يبدو من الجَرَب ، وهو مثلٌ لمَنْ وضع الشىء فى موضعه ، أراد أنه ماهر ، أى حاذق يعطى كلّ طالب ما يستحقه ويشفيه من سؤاله ، لأن الجهل فى القلب بمنزلة الدّاء ، فهذا يوقع بيانه بموضع الجهل ، فيبرأ صاحب ذلك من دائه ، ووضع الهناء مواضع النقب ، عَجُزُ بيت لدريد بن الصمّة ، وكان خرج فرأى الخنساء الشاعرة تهنأ ذوداً لها ، ثم نَضَتْ ثيابَها واغتسلت وهو يراها ولا تراه فقال :

حَيُّوا تُماضرَ وارْبَعُوا صَحْبِى ... وقِفُوا فإنّ وقوفكم حَسْبِى (١)
ما إن رأيتُ ولا سمعتُ به ... كاليوم طالىَ أُبْنُقٍ جُرْبِ
متبذّلاً تبدُو محاسنُه ... يضع الهناء مَواضع النُّقبِ

وتُماضر اسم الخنساء . قوله : أسيَر من المثل ، أى أنه لا يستقرّ ببلد .

---

(١) الشعر والشعراء ٣٠٢ والأغانى ١٥ : ٧٦ وبعد هذا البيت هناك :

أخْنَاسَ قد هَامَ الفؤاد بكمْ ... وأصابَه تَبْلٌ من الحبِّ

النقل ، يريد انتقاله فى المنازل فلا يقيم بمنزلة سوى ليلة ، وينتقل فى الثانية إلى أخرى ، فأراد أنّ أبا زيد لا يستقرّ ببلد إلاّ ما يستقرّ القمر بمنزله وهى ليلة واحدة ، بل هو أسرع من القمر فى ذلك ، وإنما خَصّ القمر به لأنّه أسرع الكواكب ثقلةً من بُرْج إلى بُرْج ، إذ لا يمكث فى البرج إلا يومين أو ثلاثاً ، والبرج منزلتان وثلث ، والشمس تمكث فى البرج ثلاثين يوماً ، وعطارد يمكث فيه سبعة عشر يوماً ، والمشترى اثنى عشر شهراً وزُحَل ثلاثين شهراً ، والمرّيخ شهراً ونصفا ، والزُّهرة ستة وعشرين يوماً ، والرأس والذنب ثمانية عشر شهراً ، ذلك تقدير العزيز العليم .

قوله : وأستعذب السفر الذى هو قطعة من العذاب : هو حديث صحيح ، رواه مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « السفر قطعة من العذاب ، يمنع أحدكم نومه وطعامه وشرابه ، فإذا قضى أحدكم نُهْمَتَهَ من وجهته فليعجّل الرجوعَ إلى أهله ». النُّهمة . بلوغ الهمة والشهوة والحاجة ، ورجل منهوم بكذا مولَع به .

* * *

فلمّا تطوّحتُ إلى مَرْو ، ولا غَرْوَ ، بشّرَنى بمَلْقَاهُ زَجْرُ الطَّيْر ، وَالفأل الّذى هو بَرِيدُ الخَيْر؛ فلم أَزَلْ أنشُده فى المحافل، وعند تلقّى القوافل. فلاَ أَجِدُ عنه مُخبِرًا ، ولاَ أَرَى له أَثَرًا ولا عِثْيَرًا ، حتى بلغ اليأسُ الطمعَ وَانْزَوَى التأميلُ وانقطَع ، فإنّى لذاتَ يوم بحضْرة والى مَرْو ، وكان ممّن جمَع الفضلَ والسَّرْو ، إذ طَلَع أبو زَيْدٍ فى خَلَقٍ مُملاَق ، وَخُلُق مَلاّق. فحيّا الوالِىَ تحيّةَ المُحْتَاجِ ، إذا لقِى ربَّ التاج ، ثم قال له:

اعلم وقيتَ الذّم ، وكفيتَ الهمّ ؛ أن من عُذِقَت به الأعمال ، أعلقت به الآمال، وَمَن رُفِعَتْ له الدّرجات، رُفِعَتْ إليه الحاجات. وَأنّ السعيد مَنْ إذا قَدَرَ ، وَوَاتَاه القَدَر ، أدّى زكاة النّعم ، كما يؤدّى زَكاة النَّعَم، والتزمَ لأهْل الحَرَم ، ما يُلْتزمَ للأهل والحَرَم . وقد أصْبحتَ بحمد الله عَميد مِصْرِك ، وعمادَ عَصْرِك ، تَزْجَى الرّكائب إلى حَرَمِك ، وتُرْجَى الرّغائب من كَرَمِك ،وتُنْزَل المطالبُ بساحتك، وتُسْتَنْزَلُ الرّاحة من راحتِك ، وكان فضلُ الله عليك عظيما ، وإحسانُه لديك عميماً .

* * *

قوله : تطوّحت، يقال : تطوّح فى البلاد : ذهب به هاهنا وهاهنا ، فأراد بقوله : تطوّحت : رميت بنفسى إليها .

[ذكر مرو]

مَرْو : بلدة بخُراسان[1] ، جليلة لها قرى ومحلاّت ، وتسمّى أمّ خُراسان ، وهى دار خلافة المأمون ، ومنها خرج أبو مسلم صاحب الدعوة ، يُنسب إليها . الثّوب مَرْوِىّ والرجل مَرْوزىّ ، وهو شاذ النسب، ومن مَرْو إلى مَرْو[2] خمس مراحل ، وعلى مرو نهر قوهستة بالسّابيان ، وهو جبل عظيم الارتفاع ، تسيل منه أنهار تخترق بلاد خُراسان ، منها وادى خُوَارزم ، مسيرته أربعون يوماً ،ووادى القندهار مسافته شهر ، ونهر سجستان ، مسافته شهر ، ونهر مَرْو ، مسافته شهر ، ونهر هَرَاة مسافته عشرون يوماً ، ونهر بَلْخ مسافته اثنا عشر

(١) يريد مرو الشاهجان ، ولصبتها نيسابور .
(٢) يريد من مرو الروذ إلى مرو الشاهجان ؛ ذكرها ياقوت .

يوما ، وبلخ هى متوسّطة خراسان ، منها إلى فرغانة ثلاثون مرحلة مغربا ، وإلى سجستان مما يلى القبلة كذلك وإلى كابول وقندهار كذلك ، وإلى خوارزم كذلك . وأهل مَرْو أطبع الناس على البُخْل ثم أهل خراسان ، قال ثمامة: ما رأيت الدّيكَ يأكل فى بلد قطّ إلا وهو يدعو الدجاجة إلى الحَبّ ، ويلفظ الحب إليها ، إلا بمَرْو ، فإننى رأيته يأكلُ وحده ، فعلمت أنّ لؤمهم كثير جدّا ، وهو فيهم طبع ، ورأيتُ بها طفلا صغيرا ، بيده بيضة ، فقلت له أعطنيها ، فقال لى : ليست تسعُها فى يدك ، فعلمت أنّ المنع طبع مركّب فيهم .

لا غرو : لا عجب . زَجْر الطـــير . التفاؤل بها ، وفسّر الشافعىّ رضى الله عنه قوله النبىّ صلى الله عليه وسلم « أقرّوا الطيرَ على مكِناتها[1] » . لأن الرجل كان فى الجاهلية ، إذا أراد الحاجة أتى الطائر فى وَكْرِه فنفّره ، فإن أخذ ذات اليمين مضى لحاجته ، وإن أخذ ذات الشمال رجع» . فنهى النبىّ صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال : « لا عَدْوى ولا طِيَرة ، ويعجبنى الفأل » قيل : وما الفأل ؟ قال : « كلمة طيبة ».

[العيافة والزجر]

وزجْر الطير القيام بها، والتشاؤم . وكان عند العرب قوّة زائدة وإدراك ، فينظر الزّاجر منهم للطائر ، ولما يفعل ، فيستقرى من ذلك ما يتيامَن به ويتشاءم منه ، مثل ما يحكى عن أمية بن أبى الصّلت أنه كان يشرب مع إخوان له فى قصر غَيْلان بالطائف ؛ إذ سَقَط غراب على شرف القصر، فنعب نعبة ،فقال له أميّة : بغيك الكَشْكث- وهو التّراب، فقال له إخوانه مايقول؟ قال : يقول: إذا شربتَ الكأس الذى فى يدك مِتّ . ثم نعب نَعْبة ، فقال أميّة نحو ذلك ، فقالوا له :

(١) ذكره ابن الأثير فى النهاية ٤ : ٢٥٠ ، وقال فى شرحه : « أى لا تزجروها وأقروها على مواضعها التى جعلها الله لها » .

رفع المسهم

وما يقول ؟ قال : زعم أنّ علامةَ ذلك أن يقع على هذه المزبلة تحت القَصْر ، فيستثير عظما ، فيشجَى به فيموت . فبينما هم يتكلّمون ، إذوقع الغراب على هذه المزبلة ليلتقط ، فاستثار عظما ، فأراد أن يبتلعه ، فشجيَ به فمات ، فانكسر أمنيّة ، ووقع الكأس مِنْ يده ، وتغيّر لونه ، فجعلوا يعيّرونه عليه ، ويقولون : ما أكثر ما سمعنا بمثل هذا ، وكان باطلا ! فألحّوا عليه ، حتى شرب الكأس ، فمال[1] فى شِقّ فأغمى عليه ، ثم أفاق ، وقال : لابرىء فأعتذِر ، ولاقوىّ فأنتصر ، ثم زهقت نفسه[2] .

وحكى المدائنى قال[3] : خرج كُثيّرٌ من الحجاز يريد مصر ، ليزور عَزّة ، فلما قرُب منها رأى غراباً على شجرة ينتف ريشه ، فتطيّر من ذلك ، فلقيه رجل من بنى لِهْب[4] فقال : ياأخا الحجاز ، مالك كاسفَ اللون ؟ فذكر له ما رأى ، فقال : إنك تطلب حاجة لاتدرِكُها . فقدِم مصر ، والناس منصرفون من جنازة عزّة فقال :

---

(١) كذا فى الأغانى ، وفى ط : « فبال » .

(٢) الخبر فى مختار الأغانى ١ : ٨٢ ، ٨٣ .

(٣) ورد الخبر فى ديوان كثير ٤٦١ هكذا : « قيل : وفدت عزة كثير على عبدالملك بن مروان فلما دخلت سلمت ، فرد عليها السلام ، ورحب بها وقال : ماأقدمك ياعزة ؟ قالت : شدة الزمان وكثرة الألوان واحتباس القطر وقلة المطر ، قال : هل ترين لكثير : »

وقَدْ زَعَمَتْ أنّى تغيّرتُ بعدها ومَنَ ذَا الّذِى ياعَزُّ لا يتغَيَّرُ

قالت لا ، ولكنى أورى له :

كأنى أنادى صخرةً حين أعرضتْ من الصمّ لو تمشى بها العُصْمُ زلّتِ

فقال : ماكنت لتصيرى إلى حاجة أو تنهى نفسك لى فأزوجك منه . قالت : الأمر إليك ، ياأمير المؤمنين ؛ ماكنت لأزهد فى هذا الشرف الباقى لى مادامت الدنيا ؛ أن يكون أمير المؤمنين ولي . فعظم بذلك قدرها عنده ، وأمر لها بمال ، وكتب إلى كثير وهو بالكوفة أن اركب البريد وعجل فإنى مزوجك عزة ، فأتاه الكتاب وهو مضن من الشوق إليها ؛ فرحل فأقبل نحوها ، فلما كان فى بعض الطريق . . » وساق بقية الخبر كما هنا .

(٤) بنو لهب ، من قبائل العرب الذين اشتهروا بالعيافة والزجر . وفى الديوان : « بنو نهد » تصحيف .

رأيتُ غُراباً ساقطاً فوق بانةٍ ينتّف أعْلَى ريشه ويُطايرُهْ
فقلت ولو أنّى أشاء زجرتُه بنفسىَ لِلّهبِّى فهل أنت زاجره
فقال غرابٌ لاغترابٍ من النوى وفى البانِ بَيْنٌ من حبيب تجاوره
فما أعيَف اللّهبىّ لادَرّ دَرُّه وأزْجَره للطّير ، لاطار طائرُه[1]

وممّن زجر لنفسه بشرّ ذو الرّمة فقال :

رأيتُ غراباً ساقطاً فوق قَضْبَةٍ من القَضْبِ لم يَنْبُتْ لها ورقٌ خضرُ[2]
فقلتُ غرابٌ لاغترابٍ وقضبةٌ لقَضْبِ النوى ، تلك السِّياقَةُ والزّجْرُ

وممّن زجر بخير أبو حيّة ، حين قال[3] :

وقال صِحابى هُدهدٌ فوق بانةٍ هدًى وبيان بالنّجاح يلوحُ
وقالوا دمٌ ، دامت مواثيق بيننا ودَامُ لنا حلو الصفاء صَريحُ
وقالوا حمامات ، فحُمّ لقاؤها وطلحٌ فزيرت والمطىُّ طُلُوحُ

ومن مُلح الزّجر زجر أبى نواس ، وذلك أنه استخفى عنه أصحابه ، وكان لايفارقهم ، ووجّهوا رسولاً إليه ، فرمى له ظهر قرطاس من وراء الباب ، غير مكتوب ، وخرموه بزبر ، وختموه بقار ، وأمروا الرسول أن يرمِىَ إليه الكتاب من وراء الباب ، فاستعلم موضعهم ، وتعرف حالهم ، وكتب إليهم :

زجرت كتابكمْ لمّا أتانى بمرّ سوانحِ الطّيرِ الجوارى
نظرتُ إليه مخروما بزبرٍ على ظهرٍ ومختوما بقارِ
فعِفت الظّهر أهيف قُرْطَقِيًا يَحارُ الطّرْف منه باخورارِ
وكان الزّبرُ ذَا شدْوٍ مصيب وقارُ الختم من قارِ القُفار

---

(١) ديوانه : « لاعز ناصره ».
(٢) ملحق ديوانه ٦٦٧
(٣) من قصيدة له فى الأمالى ١ : ٧٠ والآلى ١ : ٢٤٣ ، وأبيات منها فى المحاسن والمساوى ٢ : ١٧ .

فطِرتْ إليكمُ يا أهلَ وُدِّى بقلْب من هواكمْ مستطارِ
فكيف ترونني وترون زَجْرِى ألستُ من الفلاسفة الكبارِ !

وما أحسن قول ابن قاضى ميلة[1] وجمع الوصفين :

ولمّا التقينا مُحرمين وسيرُنا بلَبّيكَ يطوى والرّكائبُ تَعْسِفُ
ففلت لِتِرْبَيْها أبلغاها بأنّنى بهـا مستهامٌ قالتا : نتلطّفُ
تفاءلتُ فى أن يطوى طارقُ الهوَى بأنْ عنّ لى منها البَنان المطرَّفُ
وأمّا دماء الهَدْيِ فهو تواصُلٌ يدومُ ورأىٌ فى الهوَى يتألّفُ
وفى عَرَفاتٍ ما يخبّر أنّنى بعارفةٍ من نَيْل وصلِكِ أسعَفُ
وتقبيل ركنِ البيت إقبالُ دَوْلةٍ لنـا وزمانٌ بالمودّة يعطِفُ
وأباحتْها ما قلتُه فتنَهّدَتْ وقالتْ أحاديثُ العيافة زُخْرُفُ
لئن كنت ترجُو فى مِنَى الفوزَ بالمُنَى فباخَيْفِ من أعراضنا نتخوّفُ
وقد أنذر الإحرام أنّ وصالنا حرامٌ وأنّا عن مرادِك نُصْرَفُ
فهذا وَقَذْفى بالخصا لك منذرٌ بأنّ النوى لى عن ديارك تَقْذف
فبادِرْ نفارِى ليلةَ النّفر إنّه سريع وقُلْ مَنْ بالعيافة أعرَفُ

* * *

قوله: أنشُده ، أى أطلبه والحافل : الجموع . والقوافل : الرفاق الرواجع . عثيرا : غبارا . اليأس : قطع الرجاء . انزوى: انقبض . التأميل: الترجّى، وهو مصدر أمّل الخير ،أى ترجّاه . انقمع: انكفّ . السّرْو: السيادة . مملاق : فقير. ملاّق : متلطّف فى كلامه. عُذِقت: عُلّقتْ وشدّدت به ،وعذق شاته بعذقها، إذا ربط فى صوفها خرقة تخالف لونها . الدرجات : المنازل الشريفة .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) ميلة : مدينة صغيرة بأقصى إفريقية ، بينها وبين بجاية ثلاثة أيام . ياقوت

«خُلقان يحبُّهما الله ، وهما السخاء والسماحة، وخلقان يُبغِضهما الله ، وهما البخل وسوء الخلق . وإذا أراد الله بعبد خيراً استعمله على قضاء حوائج الناس » .

وقال خالد بن صفوان : لا تسأل الحوائج ثلاثة لا تُسألها : كذوباً ، فتقرّب بعيداً ويبعِّد قريباً ، ولا أحمق فإنّه يريد أن ينفعك فيضرّك ، ولا رجلا له إلى صاحبك حاجة ، فإنه يصيِّر حاجتك بطانة لحاجته .

واتاه : وافقه وطاوعه . أدّى : أعطى . زكاة النّعم : الإبل والشاء ، أى أعطى الصنائع والمعروف .

الحُرَم : جمع حرْمة ، أراد بذلك أهلَ الصِّيانةِ والعفاف .

الفنجديهى : الحرَم أقوام محترَمون ، والحرَم الثانى :الأهل والقرابة ، ومَن يحرُم على الإنسان نكاحُه أو أتركه لضياعه . عميد : سيّد .

مصرك : بلدك ، والمِصْر : الحدّ ، ويكتب أهل نجد : اشترى فلان من فلان الدار بمُصورِها ، أى بحدودها.

قطرب : هو مأخوذ من مَصَرْت الناقة أمصُرها مَصراً ، إذا حَلَبْتَها ، وجعلتَ ضَرْعَها بين إصبعين ، فخرج من اللبن شىء قليل ، فيسمّى مِصْراً ، لأن الناس يجتمعون إليه ثم يتبتون ، أوّلَ فأوّلَ وقيل : المصر العلامة .

العماد : ما يقوم عليه الخِباء ، شبّهه فى قيامه بالأمور بالعماد .

تُزْجَى : تساق . الرّكائب : الإبل . حرمك : بلدك وموضعك الذى تحميه . الرغائب : العطايا . ساحتك : فناء دارك . راحتك : كفّك .

ونذكر من الأحاديث ما يوافق هذا الفصل الذى قدّمنا تفسيره .

قال النبىّ صلى الله عليه وسلم «مَنْ عظُمت نعمة الله عليه عَظُمت مئونة الناس

إليه ، فإن لم يَقُمْ بتلك المئونة عرَّض النِّعمة للزوال » .

عمرو بن العاص : والله لَرجُلٌ ذكَّرنى ، ينام على شِقّة مرّة ، وعلى الأخرى أخرى ، يرانى موضعا لحاجته لَهُوَ أوجب علىّ حقا ؛ إذا سألها منى أن أفضيَها له .

وقف العتّابى بباب المأمون ، فجاء يحيى بن أكثم ، فقال له : إن رأيتَ أن تُعلِم أمير المؤمنين بموضعى ! قال : لست بحاجب قال : لقد علمتُ ، ولكنك ذو فضل وذو الفضل مِعْوان ، قال : سلكت بى غير طريقى ، قال : إنّ الله تعالى ألحقك بجاه ونعمة فهما مقيمان عليك بالزيادة إن شكرتَ ، وبالتغيّر إن كفرت ، وأنا اليوم لك خير منك لنفسك ، أدعوك إلى ما فيه زيادة نعمتك ، وأنت تأبَى ذلك ، ولكل شىء زكاة ، وزكاة الجاه بذلُه للمستعين .

[من غرر المدائح]

وأما قوله : تزجى الركائب إلى حرَمك ، فهو كثير فى الشعر ، ونذكر منه شيئاً يبين حالة القصد لهذا الاسم ، وقال الحسن يمدح الأمين[1] :

أقولُ والعيس تعرو رِى الفلاَة بنا ... صعْر الأزِمة من مَشْنَى وَوُحْدان[2]

يا ناقُ لا تسأمِى أو تبلُغِى مِلَكاً ... تقبيلُ راحته والركن سيّانِ

محمدٌ خير مَنْ يمشى على قدمٍ ... مِمّن برا الله من إنسٍ ومِنْ جانِ

محمد بين أمـــلاكٍ تفضّله ... ولادتان من المنصور ثنتان

تنازع الأحدان الشّبْه فاشتبها ... خَلْقاً وَخُلقاً كما قُدَّ الشِّراكان

سيّان لا فرق فى المعقول بينهما ... معناهما واحدٌ والعِدّة اثنان

وقال حبيب :

إلى أحمدَ الممدوح أمّتْ بنا السُّرَى ... نواعبُ فى عُرْضِ الفَلاَ ورواسم[3]

(١) هو الحسن بن هانئ المعروف بأبى نواس ، والأبيات فى ديوانه ٦٥ .

(٢) المرورى : سار فى الأرض وحده . والصعر : جمع أصعر وصعراء ، من الصعر وهو الميل .

(٣) ديوانه ٢٨٦ ، وأمت : قصدت . نواعب : مسرعات . رواسم : ترسم الأرض بأخفافها .

رفع المسهم

إلى سالم الأخلاق مِنْ كلِّ عائبِ ... وليس له مال من الجود سالمُ
جدير بألاّ يصبح المال عنده ... جديراً بأن يبقى وفى الأرض غارم (١)

وقال آخر (٢) :

سأجهد عزمى والمطايا فإننى ... أرى العفوَ لا يُمتاحُ إلا من الجُهْدِ
مَرَرْنَ بنا رهواً ووخداً وإنما ... يظلّ ويُمسى النّجح فى كنف الوخدِ (٣)
قواصدُ بالسير الحثيث إلى أبى ... المغيث فما تنفك ترقُلُ أو تُخْدِى (٤)
إلى مُشرق الأخلاق للجود ماحوَى ... ويحوى وما يخفى من الأمر أو يُبْدى
فتًى لم يزل تُقْضَى به طاعة الندى ... إلى العيشة الغراء والشُّؤْدِ الرغد (٥)

وقال فيها معتذراً :

أتانى مَعَ الركبان ظنٌّ ظننتُه ... لَفَفْتُ له رأسى حياء من المجْدِ (٦)
ومن زمن أبستغيه كأنّه ... إذا ذكرت أيامُه زمنُ الورْدِ
أُسَرْبِلُ هجرَ القول من لو هَجَرته ... إذاً لمجانى عنه معروفه عندى
كريمٌ متى أمدحْه أمدحه والورى ... معى ومتى ما لُمْتُه لُمْتُه وَحْدِى (٧)

وقال أبو الطيب :

فلم تلقَ ابنَ إبراهيم عَنْسِى ... وفيها قوتُ يومٍ للقُرادِ (٨)

---

(١) غارم : خاسر.
(٢) هو أبو تمام والأبيات فى ديوانه ١٢٨ ، ١٢٩
(٣) فى ط : « زهوا » تصحيف . والزهو : السير السهل . والوخد السير السريع .
(٤) الحثيث : السريع . وترقل : تسرع » .
(٥) فى الديوان : « الفيحاء المسراء » .
(٦) ط : « رأساً » .
(٧) هذا البيت من شواهد البلاغة ، وانظر معاهد التنصيص ١ : ٢٥ .
(٨) ديوانه ١ : ٣٥٧ . وفى ط . « عيسى » والعنس : الناقة الصلبة .

فلمّا جئته أعلَى محلّى وأجلسنى على السّبع الشدادِ[1]
تهلّلَ قبلَ تسليمى عليه وألقى ماله قبلَ الوِسَادِ
كأنّ الهامَ فى الهيجا عيونٌ وقد طُبِعت سيوفك من رقادِ
وقد صفّتَ الأسنّة من همومٍ فما يَخْطِرن إلا فى فؤادى

وقال أبو الهندىّ :

سألناه الجزيلَ فما تأنّى وأعطى فوق مُنْيَتِنا وزادا
وأحسنَ ثم أحسنَ ثم عُدْنا فأحسن ثم عدتُ له فعادَا
مراراً ما قصدتُ إليه إلاّ تَبسّم ضاحكا وَثَنَى الوسادا

وقال أبو الطيب :

ولمّا قلّت الإبلُ امتطينا إلى ابن أبى سليمانَ الخطوبا[2]
مطايا لا تَذِلّ لِمَنْ عليها ولا يبغى لها أحدٌ رُكوبا
وترتع دُون نبتِ الأرض فينا فما فارقتُها إلا جديباً[3]
إذا نُكِبَتْ كِنَانتُهُ استبنّا بأنصُلها لأنصِلها نُدُوبا[4]
يُصيب ببعضها أفواق بعضٍ فلولا الكَسْرُ لاتّصلت قضيبا[5]

---

(١) قال شارحه: السبع الشداد، يريد السنوات السبع، والشداد هنا: المتقنة الصنع، قال تعالى: ﴿ وبنينا فوقكم سبعاً شداداً ﴾

(٢) ديوانه ١ : ١٤٠ .

(٣) الديوان : « حربيا » .

(٤) نكبت : قلبت على رأسها . والكنانة : الجعبة . قال الشارح « المعنى : إذا ألقى ما فى كنانته رأينا لنصوله آثارا فى فصوله لأنه يرميها على طريقة واحدة، فتصيب النصول بعضها بعضا » .

(٥) الفوق من السهم : موضع الوتر والجمع أفواق . قال شارحه : « المعنى يريد أنه حسن الرمى ، وأنه يصيب ببعض نصوله أفواق السهام التى رماها ، وأنه لولا كسر السهام لاتصلت حتى تصير قضيباً مستوياً ، أى غصنا » .

ألستَ ابن الأولى سعِدُوا وَسادُوا
ولم يلدُوا امرَأً إلاّ نَجِيبا[1]
ونالوا ما اشتهوْا بالحزم هَوْناً وصاد الوحشَ نبلهُمُ دَبيبا
وما ربحُ الرِّياض لها ولكنْ كساها دفنهُمْ فى التُّرْبِ طيبَا

ومن المدح قول السَّرِىّ فى أبى الحصين القاضى :

لقد أضحتْ خِلالُ أبى حُصَينٍ حصونا فى الملمّات الصعابِ[2]
كسانى ذيلَ[3] نائلهِ وآوَى غرائب منطقى بَعْدَ اغترب
فكنتُ كروضةٍ سُقيت سحاباً فأثنت بالنّسيم على السّحاب

وقال بديع الزمان وشاعر الأوان :

يا سيّد الأُمرَا فخراً فما مِلكٌ إلاّ تمنّاك مولًى واشتهاك أبا[4]
وكاد يحكيك صوبُ الغيث منسكبا لو كان طلق الحيّا يُمطِرُ الذّهبا
والدّهر لولم يخُنْ والشمس لو نطقتْ واللّيث لولم يصد[5] والبحرُ لو عَذُبا

هذه الجملة كافية وكأنها تفسير ما أجمل من ذكر ممدوحه .

* * *

ثمّ إنّى شيخٌ تَرِبَ بَعْدَ الإتراب، وعَدِمَ الإعْشاب، حين شاب. قصدتُك من مَحَلّةٍ نازحة ؛ وحالةٍ رَازِحة ، آمل من بَحْرِك دُفعة ، وَمِنْ جاهِكَ رفعة. والتأميلُ أفضل وسائِلِ السائل ، ونائلِ النائل ؛ فأوجِبْ لى ما يجب عليك ، وأحسنْ كما أحسَنَ اللهُ إليك . وإيّاك أن تَلْوِىَ

(١) ط : « وجادوا » .
(٢) ديوانه ٧٣
(٣) الديوان : « ظل نائله »
(٤) يتيمة الدهر ٤ : ٢٧٦
(٥) ط : « يصل » تحريف .

عِذَارك ، عَمّن ازدارَك ، وأمّ دَارَك ، أو تَقْبِضَ راحك ؛ عمّن امتاحَكَ ، وامتار سَمَاحك ؛ فوالله ما مَجد من جَمَد ، وَلا رَشَد من حَشَد ؛ بل اللبيب مَنْ إذا وَجَد جاد ، وَإن بَدَأ بعائدةٍ عاد ؛ والكريمُ مَنْ إذا استُوهب الذَّهَب ، لم يهبْ أن يَهَب .

ثمّ أمسك يَرْقبُ أُكُلَ غَرْسِهِ ، ويرصُدُ مَطْيَبَةَ نَفْسِهِ وأحب الوالِي أن يعلمَ : هل نُطفتُه ثَمَد ، أم لقريحته مَدد ! فأطرَقَ يُرَوِّى فى استيراء زَنْدِه ، واستشفافِ فِرِنْدِه ، والتبس على أبى زيد سِرُّ صَمْتَتِه ، وإرْجاءِ صِلَتِه ، فتوغّر غضبا ، وأنشد مقتضِبا :

* * *

قوله : تَرِب ، افتقر فلم يبق له ما يقعدُ عليه غيرَ التراب . والإتراب : الاستغناء ، وأترب : صار له من المال بكثرة التراب . والإعشاب : إصابة العشب ، وأراد به المال . مَحَلّة : منزل يحلّ فيه .

نازحة : بعيدة . رازحة : كالّة من الهُزال ، ورزح رُزُحًا : كلّ من العمل .

ابن الأنبارى : رزح فلان : ضَعُف ، وذهب ما فى يده ، وأصله من رَزَحَتْ إبلُ فلان وكلابه ، إذا ضعفت ، ولزقت بالأرض ، وقيل : هو من المرزَح ، وهو المطمئن من الأرض ، فكأنّ الرازح قد لزمه ، وضعف عن الارتقاء إلى العلوّ . آمل : أرجو . جاهك : عزّك . والوسائل : جمع وسيلة ، وهو الشّفيع ، فجعل نأمولَه أفضلَ وسيلة . نائل : عطاء ، والنّائل : المعطى ، ونِلْتُ

له بالعطاء أنول وأنلت أنيلُ ، ورجل نالٌ[1] ورجلان نالان ، ورجال أنوال ، ونلتُه أنوله نَوْلا أعطيته ، قال الأعشى :

يَنولُ العشيرةَ ما عنده ويغفر ما قال جُهّالُها[2]

تلوى عِذارك : تعرض بوجهك . ازدارك ، بمعنى زارك ، واستعمل قصدَك . راحك : جمع راحة ، وهى باطن الكف . امتاحك : استسقاك وأراد طلب معروفك ، قال الرّاجز :

أفلح ساق بودّيكَ امتاحا وقرّ عينا ورجا الفلاحا

قوله : امتارَ : استجلب منك الرزق . سماحك : جودك . تَجُدَ : كَرُم ، وصار ماجدا ، أى شريفا ، ومَجُد يمجُد ، مجداً فهو ماجد ، ومجد مجادة فهو مجيد . وقيل : المجد تكرّم الآباء خاصة ، وقيل : الأخذ من الشرف والسؤدد ما يكفى . وقيل كَرم الفعل . جد : بخل . حشد : جمع المال . اللبيب : العاقل . وجد : استغنى . جاد : تكرّم . عاد : فعلها مرة بعد أخرى ، وقد تقدم منظوما . لم يهب : لم يخف . أن يهب : أن يعطى ، وهذا كله قصد فيه التجنيس فجاء منه بكل بديع .

قوله : نطفته ثمَد ، أى قليل .

الأزهرى : النطفة تقال للماء القليل والكثير ، ورأيت أعرابيا شرب من ركية غزيرة الماء فقال : والله إنها لنُطفة باردة ، والثمد : الماء القليل الذى لا مدَد له . قريحته : ذهنه . أطرق : أى أمال رأسه للفكرة . فى استيراء زنده : فى استخراج ناره ، وأراد طلب ما عنده من العلم والاستشفاف : الاستقصاء فى

---

(١) فى القاموس : رجل نال ؛ أى جواد كثير النائل .

(٢) ديوانه ١٦٩ .

النظر والتأمل فيما يبصره، واستشف الثوب : جعله طاقا واحدا ، أو رفعه فى ظل حتى ينظر : أكثيف هو أم رقيق ، واستشفّه : رأى ماوراءه ، والاستشفاف : النظر إلى كلّ شىء صقيل . الفِرِنْد : جوهر السيف ، وأراد أن الوالى أعجب بكلامه ، فأراد أن يعلم هل كان فى حفظه لغيره أو ارتجاله لنفسه . صَمْتَته : سكتته . إرجاء : تأخير . توغّر : توقّد . مقتضبا : مرتجلا .

* * *

لا تَحْقِرَنْ أبيْتَ اللَّعْنَ ذَا أدبٍ ... لِأَن بَدَا خَلَقَ السِّربالِ سُبُروتَا
ولا تَضِعْ لأخى التأميل حُرْمَتَهُ ... أكانَ ذا لَسَنٍ أم كانَ سِكِّيتَا
وانْفَحْ بِعُرْفِكَ مَنْ وافاكَ مُخْتبِطًا
وانْعَشْ بِقَوْتِكَ من ألفيتَ مَنْكوتَا
خيرُ مالِ الفتَى مالٌ أَشاد له ... ذِكْراً تناقَلَهُ الرُّكْبانُ أَوْصِيتَا
وما على المشترى حمداً بموهبةٍ ... غَبْنٌ ولو كان ما أَعْطاهُ يَاقُوتَا
لَوْلاَ المروءةُ ضاقَ العُذْرُ عن فَطِنٍ
إذا اشْرَأَبَّ إلى ما جاوَز القُوتَا
لـكِنَّهُ لابتناء المَجْدِ جَدَّ ومِنْ ... حُبِّ السَّماحِ ثَنَى نحو العُلاَ لِيتَا

* * *

قوله : أَبَيْتَ اللعن ، تحية ملوك الجاهلية ، قال ابن الأنبارى رحمه الله فى تفسيرها قولان : أحدهما أبيت أن تأتىَ من الأشياء ما تستحق اللّعن عليه ، فاللّعن منصوب ، والآخر ـ وهو أردأ القولين ـ أن تكون الألف بمعنى «يا» ،

وبيت من البيوت مضاف إلى اللعن ، لأن بعضهم يخفض اللعن ، وتقديره : يا بيت اللعنِ : سمة للملك ، نقل من الوجه الأول لكثرة الاستعمال ، ألا ترى أنها تعطى معنى النداء فى البيت ، وتقديره : يا ملك أو يا أمير ، ويتضمّن معناه الدعاء ، أى جعلك الله ممّن يكره اللعن ؛ ولذا وقع اعتراضا بين اللفظين ؛ الأول طالب للثانى ، كما قال ابن محلّم :

إنّ الثمانين — وبُلِّغتَها — قد أحوجت سمعى إلى تَرْجمانْ[1]

سَبْرُوتا : فقيرا محتاجا ، والسَّبْروت : الفقير الذى لا ثياب له . ذا لَسَنٍ ، أى فصيحا . سِكِّيتا : عَيِيًّا كثير السكوت . انفَحْ بُعْرفك ، أى ارم بمعروفك . انعش بغوثك ، أى ارفع بعطيتك ، والغوث الإغاثة ، وهى المبادرة بالنصرة لمن جاء يستغيثك . والإنعاش أن ترى رجلا قد أهوى للسقوط فترفعه ، أو افتقر فتجبره . منكوتا : ملقًى على رأسه ، ونُكِت الرجلُ فهو منكوت ، إذا ضُرِب فأسقِط على رأسه . قوله أشاد : أى رفع .

[الذكر الحسن]

صيتا : ذكرا حسنا . وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « إذا أردتم أن تعلموا ما للعبد عند الله فانظروا ما يتّبعه من حسن الثناء » .

وقيل لبعض الحكماء : ما أحمد الأشياء ؟ قال : أن يبقى للانسان أحدوثة حسنة .

أكثم بن صَيْفىّ : إنما أنتم خَبر ، فطيّبوا أخباركم ، أخذه حبيب فقال :

وما ابنُ آدم إلا ذكر صالحةٍ أو ذكر سيّئة يسرى بها الكَلِمُ

---

(١) من قصيدة له فى أمالى القالى ١ : ٥٠

رفع المسهم

أمّا سمعتَ بدهرِ باد أمّتُــه جاءت بأخبارها من بعدها أُمَمُ

الأحنف : ما ادّخرت الآباء للأبناء ، ولا أبقت الموتى للأحياء شيئاً أفضل من اصطناع المعروف عند ذوى الأحساب .

وقيل لمعاوية : أىّ الناس أحبّ إليك ؟ قال : مَنْ كانت له عندى يد صالحة ، قيل : فإن لم تكن ؟ قال : فمَنْ كانت لى عنده يد صالحة .

قال بُزُرْجُمِهر : إذا أقبلتْ عليك الدنيا فأنفق منها فإنّها لا تفنى ، وإذا أدبرتْ عنك فأنفِقْ منها ، فإنها لا تبقى . أخذ هذا المعنى الشاعر فقال :

لا تبخلنّ بدُنْيــا وهى مقبلةٌ فليس ينقصها التّبذير وَالسَّرَفُ
فإنْ تولّت فأحرَى أن تجود بها فالحمد منها إذا ما أدبرتْ خَلَفُ

وقال آخر :

إذا جادت الدّنيا عليك فجُدْ بها على النّاس طُرًّا قبل أن تتفلّتِ
فلا الجودُ يُفنِيها إذا هى أقبلتْ ولا الشحُّ يُبقيها إذا هى ولّتِ

وكان سعيد بن العاص يقول على المنبر : مَنْ رزقه الله رزقا حسنا ، فلْينفِقْ منه سرًّا وجهْراً ، حتى يكونَ أسعدالناس به ؛ فإنما يتركُ ما يترك لأحَدُ رجلين؛ إمّا لمصلح فلا يقل عنده شىء ، وإمّا لمفسد فلا يبقى له شىء . أخذه الشاعر فقال :

اصعَدْ بمالِكَ فى الحيــاة فإنّما يبقى خلافك مصلحٌ أو مفسدُ
فإذا جمعتَ لمفسدٍ لم تُغنِــه وأخــو الصلاح قليله يتزَيّد

[مما قيل فى المروءة]

قوله : لولا المروءة ، المروءة هى الأفعال الشريفة ، التى يجب أن يقال

الرجل بها سرء ، مثل الرّجولة للأفعال التى يستحقّ الرجل أن يقال له بها رجل .

وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « لا دينَ إلاّ بمروءة » .

وقال عمر رضى الله عنه : المروءة مروءتان : ظاهرة وباطنة ، فالظّاهرة الرياش والباطنة العفاف .

قدم وفدٌ على معاوية رضى الله عنه ، فقال لهم : ما تعدون المروءة ؟ قالوا : العفاف وإصلاح المعيشة ، قال : اسمع يايزيد !

وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « تجاوزُوا لذوى المروءات عثراتِهم ، فوالله إنّ أحدهم ليعثر وإنّ يده بيد الله » .

عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : إنّا معشرَ قريش ، نعدّ الحلم والجود سؤدُدا ، ونَعدّ العفاف وإصلاح المال مروءة .

أنوشِرْوان : المروءة ألاّ تعمل عملا فى السرّ تستحيِى منه فى العلانية .

غيره : المروءة اسم جامع للمحاسن كلها .

وقالوا : للمروءة العفّة والحِرْفة .

قوله : اشرأبّ : تشوّف ، والتّشوّف أن تسمع بالشىء وتتطلّع أن تراه ، وتمتدّ أن تنظر إليه ، يقول : لولا الأفعال الجميلة كان عذر الفطن الحاذق يضيق عليه إذا سئل وقيل له : قد جاوز مالُك قوتَك ، وفضل عن مؤنتك ، فلِمَ تجهَد فى طلب المال ، وترغب فى الزيادة منه . قال : فالمروءة توسّع عليه عذرَه ، فيقول ذو المروءة . إنما اكتسبه لأنفقَه فى البرّ ، وبيّن هذا بقوله : « ثَنى نحوَ الغِنَى لِيتا » واللِّيت : صفحةُ العنق فيقول : إنما ثَنى عنقَه ، وأما لهَا حبًّا فى السماح .

وقد سَبقه إلى هذا التّهامىّ بقوله :

رفع المسهم

ولولا العطايا أنّها سُنّةٌ له لما قال للدّنيا إذا عثرتْ : لعا[1]
فإن باشر الدنيا فللجود نالها[2] وإن هجر الدنيا فعنهـا ترفّعا

فزاد بقوله : « وإن هجر الدنيا » معنى حَسَنًا .

وقالوا : نعم العون على المروءة المال .

وقال الأحنف بن قيس :

فلو مُدّ سَرْوِى بمال كثيرٍ لجـدتُ وكنتُ له باذلاً[3]
فإنّ المروءة لا تُستطاعُ إذا لم يكنْ مالُها فاضلاً

وقال آخر :

لولا شماتة أعداء ذوى حسدٍ أو أن أنال بنفعٍ مَنْ يُرَجّينى[4]
لما خطبتُ إلى الدنيا مطالبَها ولا بذلتُ لها عِرْضى ولا دِينى

* * *

وما تنشّقَ نَشْرَ الشُّكْرِ ذو كرمٍ
إلاّ وأزْرَى بِنَشْرِ المِسْكِ مفتوتا
والحمدُ والبُخْلُ لم يُقْضَ اجتماعُهما
حتى لقدْ خِيلَ ذا ضبًّا وذا حُوتا

---

(١) ديوانه ١٧٣ ، ولعا : صوت معناه الدعاء للعاثر بأن يرتفع من عثرته .
(٢) ديوانه
* فإن يلتمس الدنيا فللجُودِ لاهَا *
(٣) البيتان فى البيان والتبيين ٣ : ٢٩٢ .
(٤) البيتان فى العقد لابن عبد ربه ٣ : ٤٣٠ ، وفيه : « وأن أنال » وبعدها :
لكنْ منافسة الأكفاء تحملنى على أمورٍ أراها سوف تُرْدِينى
وقد خشيتُ بأن أبقى بمنزلةٍ لادين عندى ولادنيا توافينى

والسَّمحُ فى الناسِ محبـــوبٌ خلائقه
والجامد الـكفّ ما ينفكّ مَمْقُوتا
وللشَّحيح على أمواله عِلَلٌ يوسعنَهُ أبداً ذمًّا وتَبكيتاَ
فَجُـــد بما جمعتْ كفّاك من نشبٍ
حتّى يُرَى مُجتَدِى جَـــدْواك مَبْهُوتا
وَخُذْ نصيبك مِنْهُ قَبلَ رائِعَـــةٍ
من الزّمانِ تريكَ العُودَ مَنْحُوتاَ
فالدهرُ أنـكَد من أن تَستَمِرَّ بِهِ
حالٌ ، تَـكَرَّهْتَ تِلْكَ الحالَ أم شِيتاَ

فقال له الوالى : تالله لَقَدْ أحسَنْتَ ، فأىّ ولد الرَّجُلِ أنْت؟ فنظَرَ إليه عَنْ عُرْض ، وأنشد وهو مُنْصرِف :

لاَ تَسْأَلِ المرءَ مَنْ أبوهُ ورُزْ خـلا لَهُ ثمَّ صِلْهُ أو فاصْرِم
فما يَشِينُ الشِلاَفَ حين حَلاَ مذاقُهاَ كَوْنُهاَ ابنَـةَ الحِصْرِمِ

* * *

قوله : تنشّق ، أى شم . نشر : رائحة . أزرى : عاب . مفتوتاً : مدقوقاً ، يقول : لَشكْرُ المعروف عند أهل الجود أعطرُ من ريح المسك إذا فتّ فانتشرت رائحته .

وقال إبراهيم الشيبانىّ : كنت أرى رجلا من وجوه أهل الكوفة ، لا يجفّ لِبدُه ، ولا يستريح قلبه فى طلب حوائج الناس ، وإدخال المرافق على الضعيف ، فقلت له : أخبرنى عن الحال التى هَوّنتْ عليك هذا التّعب فى القيام بحوائج

الناس ، ماهى ؟ قال: قد والله سمعت تغريدَ الأطيار بالأسحار فى فروع الأشجار، وسمعتُ خُفُوق أوتارِ العيدان وترجيع أصوات القِيان ، فما طربت من صوتٍ قطّ طَرَبِى من ثناء حسن ، بلسانٍ حسن ، على رجل قد أحسن ، وما سمعتُ أحْسنَ من شكر حرّ لرجلُ حرّ، ومِن شفاعة محتسِبٍ لطالبٍ شاكر ، فقلت له : قبّح أبوك ! لقد حُشِيت كرماً ، فلذة السمع هنا بمنزلة الشم فى البيت .

خيّل : حسب ، والضبّ والحوت قد تقدّما فى الثامنة عشر .

قوله : الجامد الكفّ : هو البخيل، وهو ضدّ السّمْح . ممقوتاً : مبغوضاً . عِلَل : أعذار . يُوسِعْنَه ذمًّا ، أى يكثرن ذمه ، التبكيت : الهوان والتوبيخ . جُدْ : تكرّم . نشَب : مال. مجتدى جدواك : طالب عَطاياك. مبهوتاً: متحيِّراً، يريد أنه يعجب من كثرة ماتعطيه فيتحيّر وما يدرى كيف يشكرك !

[مدح الكرم وذم البخل]

ومن مدح الكرم وذم البخل قالوا :

لو لم يكن فى الكرم إلا أنه من صفات الله عز وجل .

وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « إنّ الله يحبّ الجود ومكارم الأخلاق ويذمّ سَفْسافها » .

وقيل لقوم من العرب : مَنْ سيّدكم ؟ فقالوا : فلانٌ على بخلٍ فيه ، فقال عليه الصلاة والسلام: « وأىّ داء أدْوى من البخل[1] » !

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[2].

وقال المأمون لمحمد بن عباد : أنت متلاف ، فقال : مَنَع الجود سوء ظن بالمعبود، يقول الله عز وجل: ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾[3]

(١) النهاية لابن الأثير ٢ : ١٤٣
(٢) سورة الحشر ٩
(٣) سورة سبأ ٣٩

وقال كسرى : عليكم بأهل السخاء والشجاعة ؛ فإنهم أهلُ حسن الظن بالله ، ولو أن أهل البخل لم يدخل عليهم من ضرّ بخلهم ومذمة الناس لهم وإطباقُ القلوب على بغضهم ، إلا سوء ظنّهم بربهم فى الخَلَف لكان عظيما ، أخذه محمود الوارق فقال :

مَنْ ظنّ بالله خيراً جاد مبتدئاً والبخل مِنْ سوء ظنّ المرء بالله

وخوّف بخيلٌ سَخِيًّا الإملاق والفقر ، فردّ عليه السخىّ ، يقول: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً﴾(١).

وقال الحسن والحسين لعبد الله بن جعفر : إنّك قد أسرفتَ فى بذل المال ، فقال : بأبى أنتما وأمّى ! إن الله عوّدنى أن يتفضّل علىّ ، وعوّدته أن أتفضّل على عبيده ، فأخاف أن أقطع العادة فيقطع عنى عادته .

قوله : وخذ نصيبك منه قبل رائعة . الرائعة الشيبة ، لأنها تروّع الإنسان أى تفزعه ، وتعلمه أنها تأتيه بالكِبَر والهرم . والعود المنحوت ، أراد به الجسم اليابس لأنّ الهرم يُذهِب نعمة الجسم ، وأصل المنحوت المنجُور .

وأراد بقوله : خُذ نصيبَك قولَهُ عليه الصلاة والسلام: «يقول ابن آدم: مالى مالى ، ومالَه مِنْ مالِهِ إلا ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فأمضى » .

[مما قيل فى الشيب]

وقال الشاعر فى الرائعة :

أهلاً برائعةٍ للشيب واحدةٍ تفنى الشباب وتنهانا عن الغَزَلِ(٢)

وقال أبو الطيب المتنبى :

راعتْك رائعةُ المشيب بعارضى ولو انها الأولَى لراعَ الأسحمُ(٣)

---

(١) سورة البقرة ٢٦٨ .
(٢) شرح الكبرى ٤ : ١٢٣ .
(٣) ديوانه ٤ ، ١٢٣ . العارض ، مايل الخد والأسحم : الأسود .

لو كان يُمْكِنُنى سَفَرْتُ عن الصِّبا فالشَّيب من قَبلِ الأوان يُكَتَّمُ[1]

وفى رواية ابن جنى: «رائعة البياض»، وقال: هى أول شعرة تطلع من الشيب. وأنشد ابن الأعرابى «أهلا برائعة الشيب» وأنشد غيره «برائعة بيضاء» أى بشعرة تطلع من المشيب بيضاء تروع الناظر، وهذا أصوب من الوجه الآخر، وقال كُثَيِّر:

كَذَب العواذل بل أردْنَ خِيانتى وبدتْ روائع لِمَّتِى وقُتُومُ[2]

وقال الألبيرى:

بصُرتُ بشيبةٍ وخطت بِلَيْلِى فقلت لها تأهّبِى للرحيلِ[3]
ولا يَهْنِ القليل عليك منها فما للشيب وَيْحَك من قليلِ
فكمْ قد أبصرتْ عيناك مُزْنًا أصابك طلها قبلَ النّزولِ[4]
فلا تحقِرْ بنوْر الشَّيب واعلمْ[5] بأنّ القطر يَبْعَثُ بالشُّيولِ

وقال أبو بكر البلوىّ:

نُكِبْت فى شعرى وشَعرى وما نفسىَ فى صبرى بمنكوبَهْ
إذا دنت بيضاء مكروهةٌ منّى نأت سوداء محبوبَهْ

وقال كُشاجم فأحسن:

نظرتُ إلى المراة فروّعتْنِى طلائع شيبتين لدَى المتابِ[6]
فأمّا شيبة ففزعتُ منها إلى المقراضِ من حبّ التّصابِى
وأمّا شيبة فصفحتُ عنها لتشهد بالبراءة من خِضَابِى

---

(١) الديوان: «تلثم».
(٢) ديوانه ٢٠٦، والقتوم: الشحوب والتغير.
(٣) ديوانه ١٤٧، ١٤٨
(٤) الديوان: «الهمول»
(٥) ديوانه: «بزر الشيب»
(٦) ديوانه ١٠

فهالكَ من مشيبٍ قد تبدّى أقمت به الدّليل على شبابي[1]

وقال البحترىّ :

وأبتْ تركى الغديّاتُ والآ صالُ حتىْ قضيْن بالمقراضِ[2]
شعراتٌ أقصُّهنّ ويرجِعْـ ـنَ رجوعَ السّهام فى الأغراض[3]

وقال ابن المعتزّ :

ألستَ ترى شيباً برأسِى شاملاً ونتْ حيلتى عنهُ وضاقَ به ذَرْعِى
كأنّ المقاريض التى يعتورْنَهُ مناقير طير تنتقِى سُنْبل الزّرْعِ

وقال رجل من الأزد :

ولقد أقولُ لشيبةٍ أبصرتُها فى مَفْرِق فمحتُها إعراضِى
عنّى إليكِ فلستُ منتهياً لقدْ عَمّمْتُ منك مفارِقى ببياضِ
هل لى سوَى عشرينَ عاماً قدْمَضَتْ مَعْ ستةٍ فى إثرهنّ مواضى
ولقلّمـــا أرتاع منكِ وإنّنى فيما هويتُ وإن وزعتِ لماضِى
فعليك ما اسطَعْتِ الظّهورَ بِلِمّتِى وعلىّ أن ألقاكِ بالمقْرَاضِ

وقال أبو نواس :

وإذَا عَدَدْتُ السنّ كم هِى لم أجدْ للشّيب عذراً أنْ يُلِمّ براسى

وقال أبو دلف :

فى كلّ يوم أرَى بيضاء قد طلعتْ كأنما نبقتْ فى ناظِرِ البَصَرِ[4]
لئن قرضتُك بالمقراضِ عن بَصرى لمـا قَرضتُك عن همّى وعن فكرِى

---

(١) الديوان :

فيـا عجباً لذلك من مشيب أقتُ به الدليل على الذّهَابِ

(٢) ديوانه ١٢٠٩ ، وفيه «خضبت بالمقراض» (٣) الأغراض : الأهداف .
(٤) أمالى المرتضى ١ : ٦٠٨ ، وفيه : «كأنما طلعت فى أسوه البصر»

وقال كشاجم :

أخى قمْ فعاونّى على شيبةٍ بغتْ ... فإنىَ منها فى عَذَاب وفى حَرْبِ[1]
إذا مامَضى المنقاش يأتى بها أتَت ... وقدأخذت من دونها جارةَ الجنب
كحانٍ على السّلطانُ يَجْزَى بذنبهِ ... تعلّق بالجيران من شدّة الرُّعْبِ

ولأبى الفضل الدارمىّ :

شيبةٌ نغّصَتْ علىّ شبابى ... فتعمّدتُ نَتفَهـــا غيرَ وانِ
قلتُ ماذا كذا العمرُ التّصابى ... لشبابى أجلْ عنـد الحسانِ
فأجابت جَرَى من الرّسْم للسلـ ... ـطان أخذ البراء مِثلِ الجانى
فإن ازددتَ فى الجفاء فلا تنـ ... ـكرْ قدومى عليك مَعْ إخوانى

وهذا مثل قول الآخر :

وزائرةٍ للشيب لاحتْ بعارضى ... فبادرتُها بالقَطْفِ خوفاً من الحَتْفِ
فقالت على ضعفِى استطلت ووحْدتى ... رويدَك حتى يلحق الجيشُ من خَلْفِى
فلم يك إلا عن قريبٍ فأقبلَتْ ... وعمّت جميعَ الرأس رَغماً على أنفى
فوا أسفا لو كان يُغْنِى تأسّفِى ... على زمنٍ ولّى ونحنُ على حرفِ

وقال الرّمانى :

وثلاثِ شَيْبَاتٍ طَلَعْنَ بمفرقى ... فظننتُ أن نزولهنّ رَحِيلِى
طلعت ثلاثٌ فى طلوع ثلاثةٍ ... واشٍ ووجهُ مراقب وعذولِ
فعزلْنَنِى عن صَبْوَتى فلئن ذلا ... تُ لقـد سمعتُ بذلّة المعزولِ

وفى معنى قول أبى نواس : « وإذا عددت السن كم هى » قال المعرى :

عجبتْ هنـدُ من تسرُّع شيبى ... قلت هذا عَقْبى فِطام السُّرورِ
عوّضتنى يد التّقاسف من مِسْـ ... ـكِ عِذارىَ ريشاً من الـكافورِ

(١) زهر الآداب ٢ : ٨٩٨ .

كأنّ لى فى انتظار شَيْبى حسابٌ غالطنِى فيه صُرُوفُ الدُّهُورِ

وقال ابن الملح الشَّبْلىّ :

طَلَع المشيبُ بلمّتى فتعجّبوا من كدّه وَتعجبُوا من مُهْلَتِهْ
ماشبتمن كبَرٍ ولكن مَنْ يبتْ دنفاً ومشتاقاً يشِبْ من ليلتِهْ

وقال أبو عثمان الخالدىّ :

فديتُكِ ما شبتُ من كِبْرةٍ وهذى سِنِّى وهـذا الحسابُ[1]
ولكن هجرتِ فحلّ المشِيبُ ولو قد وصلتِ لحلّ الشّباب[2]

وهذا القدر كاف .

* * *

قوله : فالدهر أنكد ... البيت يقول : إن كنت غنياً أو فقيراً فتلك حالٌ لاتدوم، كرهتَ أو رضيتها .

وقوله : أىّ ولد الرجل أنت ، هذا الكلام إنما يقع فى باب النفى ، قال يعقوب : تقول العرب : لاأدرى أىُّ ولد الرجل هو ؟ يعنون بالرّجل آدم وولده الناس ، فكأنه قال : ما أدرى أىّ الناس هو .

عُرْضٍ : جانب . مغضٍ : مغمض عينه ، يريد أنه لم يعجبه سؤاله ، فلم يقبل عليه بنظرِه ، ولا بإنشاده . ورُزْ ، بالراء قبل الزاى ، معناه اختبرْ واطلب . قال ابن الأنبارى : رزت ماعنده ، أى طلبتُه وأردته ، قال الزُّبيدىّ : الرّوْز قريب من التحقيق ، والروز أن تأخذ الصنجة بيدك ، فترفعها لتختبر ثقلها ، قال الشاعر :

وإنّ الله رازَ حلوم قيسٍ فلمـا ذاق خِفّتهـا قَلاها

وقال الأعشى :

فمشى ولم يخش الأنيـ ـس فرازها وخَلاَ بهـا

اصْرِم : اقطع الصحبة . الشُّلاف : الخمر الخالصة . الحصرم : الحامض ، لأنّ

(١) ديوانه ١٠٨ (٢) الديوان : « لعاد الشباب »

عود العنب حامض ، ويتولّد عنه شيء لذيذ ، وتقدّم معنى البيتين .

وأما وجود الأشياء مع أضدادها مثل الحلاوة مع ما أصلهُ مرّ فله نظائر ، قال حبيب :

* والنار قد تُنتضَى من ناضِرِ السَّلَمِ *(١)

وقال المتنبي :

فإن الماء يَجْرِي من جمادٍ وإن النار تخرج من زناد(٢)

وقد يجرى أيضاً خلاف العادة فى الأشياء ، فقد يتشابه الشيئان من جهة ، ويتباعدان من أخرى .

قال المعرّى :

قد يَبْعدُ الشيءُ من شيء يُشابِهُه إنّ السماء نظير الماء فى الزَّرَقِ(٣)

قال المتنبي وقد سبقه إليه :

وقد يتقارب الوصفان جدًّا وموصوفا هما مُتباعِدان(٤)

وما أحسن قول ابن صارة :

يا مَنْ يعذِّبنى لمّا تملّكنى ماذا تريد بتعذيبى وإضرارى
تروقُ حسناً وفيك الموت أجمعه كالصّقل فى السّيف أو كالنور فى النار

وقال ابن عبدون أستاذ بلَنْسية :

يا مَنْ محيَّاهُ جنّات مفتّحةٌ وهجره لى ذنب غيرُ مغفورِ
لقد تناقضتَ فى خَلْق وفى خُلُقٍ تناقضَ النّار بالتدخين والنُّورِ

* * *

قال : فقرّبه الوالى لبيانه الفاتن ؛ حتى أحلّه مَقْعَدَ الخائن . ثم فَرَض له من سُيُوب نَيْلِه ، ما آذن بطول ذَيْلِه ، وقِصَرِ ليلِه . فنَهَض

(١) ديوانه ٢٦٩ . تنتقى : تستخرج ، وصدره :

* أخرجتموه بكرهٍ من سَجِيّته *

(٢) ديوانه ٢ : ٣٦٥ (٣) سقط الزند ٦٨٨ (٤) ديوانه ٤ ، ٢٥٥ .

عنه بِرُدْنٍ مَلْآن ، وقلبٍ جذلان ، وتبعتُه حاذِياً حَذْوَهُ ، وَقافياً خَطْوَهُ ، حتّى إذا خَرَج من بابِهِ ، وَفَصَل عن غابِهِ ، قلت له : هُنِّئْتَ بما أوتِيتَ ، ومُلِّيتَ بما أُوتيتَ . فأسفر وَجْهُهُ وتَلالأَ ، وَوالى شكراً لِلّهِ تعالى ، ثم خطَر اختيالا ، وأنشد ارتجالاً :

مَنْ يَكُنْ نال بالحماقـــة حظّا أو سَمَا قَدْرُه لطِيبِ الأُصولِ
فبفضلى انتفعتُ لا بِفُضولى وبقولى ارتفعتُ لا بقُيولِي

ثمّ قال : تعساً لِمَنْ جدَبَ الأدب ، وطُوبَى لمن جدّ فيه ودَأب ، ثم ودَعنِي وذَهَب ، وَأَوْدَعَنِي اللّهَب .

* * *

قوله : مقعد الخائن : كناية عن القرب ، كما أن مَزْجَرَ الكلب كناية عن البعد . سهوب : عطايا ، وأصلها الكنوز والمعادن . نَيْلِه : ماله الموهوب ، وفى كتاب العَيْن : أفلت المعروف ونلته ونوّلته واسم ماتهب النّوال والنّيل . آذن : أعلم . طول ذيله : كثرة ماله . قصر ليله : يريد قلة همه ، لأنّ المهموم لاينام فيطول ليله ، ووصف الليل بالطول والقصر ، وله باب مشهور فى كتب الأدب تركنا ذكره لشهرته وكثرته ، وعلّته راجعة لما ذُكِر من أن لَيْلَ السرور قصيرٌ ، وليل الهمّ طويل .

[مما قيل فى طول الليل]

وحدث إسحاق الموصلىّ قال : دخلت على الرشيد وهو مُستلقٍ على قفاه وهو يقول : أحسن والله فتى قريش وظريفها وشاعرها ، قلت : فيمَ ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال فى قوله :

لا أسأل الله تغييراً لما فعلتْ نامت وقد أسهرتْ عينيَّ عيناها
فاللَّيل أطولُ شيء حين أفقِدُها واللَّيل أقصر شيءٍ حين ألقاها

ثم قال : أتعرفه ؟ قلت بصوت ضعيف : لا ، قال: بحق عليك ؟ قلت: نعم هو الوليد بن يزيد ، فقال استر ما سمعتَه مني ، وإنه ليستحق أكثرَ مما وصفته به[1]

ولبعضهم وأجاد :

إنّ اللّيالىَ للأنام مطيّةٌ تُطْوَى وتُنشر بينها الأعمارُ
فقِصارهُنّ مع الهموم طويلةٌ وطِوالهُنّ مع السرورِ قصارُ

وأنشد الفنجديهى للطرائفى :

أخو الهوى يستطيلُ الليلَ من سهرٍ واللَّيل فى طوله جارٍ على قَدَرِ
لَيْلُ الهوى سَنَةٌ فى الهجر مدَّتُه لكنّه سنة فى الوصل من قِصَرِ

وأنشد السّلامى رحمه الله :

ليلى وليلى سَواءٌ فى اختلافهما قد صيَّرانى جميعاً فى الهوى مثلا[1]
يجود بالطول ليلى كلّما بخِلَتْ بالطّول ليلَى وإن جادتْ به بَخِلاَ

وقال ابن أبى دباكل :

يطولُ اليومُ لا ألقاكِ فيه وحولٌ نلتقى فيه قَصِيرُ

وتبعه بشار ، فقال وأحسن :

---

(١) الخبر والشعر فى شرح المختار من شعر بشار ٢١ ، والشعر أيضاً فى زهر الآداب ٧٤٩

لا أظـــلم الليـــلَ ولا أدّعِي أنّ نجوم الليل ليست تغورْ[1]
ليـلى كما شاءت فإن لم تَزُرْ طال وإن زارتْ فليلى قصيرْ
تصرّف الليـل على حكمها فهو على ماصرّفَتْهُ يَدُورْ

وزاد ابن العريف الزاهد على هذا المعنى ، فقال وأحسن :

لستُ أدرى أطال ليلىَ أم لا كيف يدرى بذاك مَنْ يتقلّى
لو تفرغت لاستطالة ليـلى ولرعْيِ النّجوم كنتُ مُخِـلاّ
إن للعـاشقين عن قصر الليـ ـل وعن طوله من الهمّ شُغْلاَ

قوله : ردن ، أى كم . جذلان : مسرور . حاذياً حذوه ، أى متبعا له جاعلا قدمى موضع قدمه ، فيتّسع فيه ، فيقال : حذوت حَذْوَه ، أى فعلت مثل فعله ، وأصله فى حَذْو النعل بالنعل ، وقد تقدم .

قافيا : متبعاً . فَصَل : زال وخرج . غابه : موضعه ، والغاب الشجر الملتفّ يتّخِذ الأسد فيه بيْتاً . مُلّيت : أطيل لك ومتّعت به ، من الملاوة ، وهو الحين . أوليت : أعطيت . أسفر : أضاء ، ومثله تلألأ ، إلاّ أن معناه أبلغ ، وأصل تلألأ : ابيضّ ، فأشبه بياض اللؤلؤ ، وصفاءه ، يريد أنّه انبسط وجهه وحسنت خلقته لما دعاه . والَى : كَرّر . خطر اختيالا : جرّ أثوابه إعجاباً بنفسه . مما قدره : ارتفعت منزلته . طيب الأصول : شرف الجدود . الفُضُول : الحمق والدخول فيما لا يعنى . والقُيُول : مَنْ دون الملك ، واحدهم قَيْل ، وأراد بهم الأجداد الأشراف ، وطابق بين الحماقة والفضول ، وبين طيب الأصول والقيول ، وسلخه من قول المتنبى :

---

(١) نسب القالى فى الأمالى ١ : ١٠٠ هذا الشعر لعلى بن بسام وكذلك فى زهر الآداب ٨٤٩ والنويرى ١ : ١٣٥ ، ونثار الأزهار ٢٣ ، وديوان المعانى ١ : ٣٤٩

ما بقومِي شرفتُ بل شَرُفوا بِي وبنفسي ارتفعتُ لا بجُدُودِي [1]

أشار إلى نسبه من ملوك كنده .

قال آخر :

أيها الفاخر جهلاً بالحسبْ إنّما الناس لأمّ ولأبْ
إنما الفخر بعقل راجحٍ وبأخلاق حسانٍ وأدبْ
ذاك مَنْ قد فاخر النّاسُ به فاق مَنْ فاخر منهمْ وغلَبْ

وقال الحكيم بن قنبر :

لاخير فيمن له أصلٌ بلا أدبٍ حتّى يكون على مانابه حَدِبَا
كم مِنْ حسيبٍ أخي عِيّ وطمطمةٍ فدْمٍ لدى القوم معروفا إذا انتسبا
فى بيت مكرمةٍ آباؤه نُجُبٌ كانوا الرءوس فأضحى بعدهم ذَنَبَا

وقد تقدمت نظائره .

قوله: تَعْسا ، أى هلاكا . جدب: عاب ، وفى الحديث: «جدب ابن الأثير بالسمر بعد العِشاء» [2] أى عابه ، وقال ذو الرّمة .

إذا نازعتك القولَ مَيّةُ أو بَدَا لك الوجه منها أو تَضاءَ الدِّرْعَ سالِبُهْ [3]
فمالك من خدٍّ أسيلٍ ومنطقٍ رَخيمٍ ومِنْ خلق تعلل جادبُهْ [4]

قوله : دأب ، أى دام عليه . أودعنى : ضمننى ، وجعله فى قلبى . اللّهب : جَمْر النار .

ومما يتعلّق بما قدمناه من الشعر قول جحظة .

---

(١) ديوانه ١ : ٣٢٢ . (٢) النهاية لابن الأثير ، وقال : «أى ذمه وعابه»
(٣) ديوانه ٤٢
(٤) أسيل : سهل . رخيم : فيه لين . جادبه : عائبه .

رفع المسهم

أرى الأعياد تتركنى وتمضِى وأوشك أنّها تبقَى وأمضِى
علامة ذاك شيبٌ قد علانِى وضعفٍ عند إبرامى ونَقْضِى
وما كذبَ الّذى قد قال قبلى إذا مامرّ يوم مرّ بعضِى
أرى الأيام قد ختمتْ كتابى وأحسبها ستتبعه بفضّ

وعلى قوله: « إذا مامرّ يوم مرّ بعضى » قال بعضُ بنى حمدان:

المرء وقت له تناهٍ مقدّرٌ طوله وعَرْضُهْ
فكلّما مرّ منه يوم فإنّما مرّ منه بعضُهْ

وجحظة مطبوع الشعر، هو القائل فى أبى بكر بن دريد:

فقدتُ بابن دريدٍ كلّ قائدةٍ لمّا غدا ثالثَ الأحجار والتُّرَبِ (١)
وكنت أبكى لفقد الجود مجتهداً فصرت أبكى لفقد الجودِ والأدَبِ

أين هذا من قول الفرزدق يرثى سائسا، أنشده أبو محمد فى الدرة:

ليبك أبا الخنساء بغلٌ وبغلةٌ ومخلاة سوء قد أضِيع شعيرُها (٢)
وتَجْرَفة مطروحة ومِحسّة ومقرعة صفراء بالٍ سهودها

أخذه من قول زيد الخيل يرثى عبداً له:

أمّا تعاورَتك الرّماح فلا أبكيك إلا الدّلو والمرسِ

وقد قدّمنا فصلا فى التشاؤم بالأدب فى قوله، فقد دهانى شؤمه وأنهى عليه هنا بقوله: تعساً لمن جَدَب الأدب، وطوبى لمنْ جدّ فيه وأدب.

---

(١) تاريخ بغداد ٢ : ١٩٧
(٢) درة الغواص ٩٧ .

رفع المسهم

[فصل فى مدح الأدب]

ونذكر هنا فصلا مقنعاً فى مَدحِه ، حسبما شرطنا من الجرى معه على أغراضه .

قال العلاء بن أيوب كان يقال : مَثَلُ الأديب ذى القريحة ، مثلُ دائرة تُدَار من خارجها ، فهى فى كلّ دارةٍ تدار تتّسع وتزداد عِظَماً ، ومثلُ الأديب غير ذى القريحة مثلُ دائرة تُدَار من داخلها ، فهى عن قليل تبلغ إلى باطنها .

أوصى بعض الحكماء بَنيه ، فقال لهم : الأدب أكرمُ الجواهر طبيعةً ، وأنفسُها قيمة ، يرفع الأحساب الوضيعة ، ويفيد الرغائب الجليلة ، ويُغْنِي من غيره عشيرة ، ويكثر الأنصارَ من غير رزيّه ، فالبَسوه حُلّة ، وتزيّنوا به حِلْيَة ، يؤنسكم فى الوحشة ، ويجمع القلوب المختلفة .

وقال شبيب بن شبّة : اطلبوا الأدب فإنه مادّة للعقل ، دليل على المروءة صاحب فى الغربة ، مؤنس فى الوحشة ، حلية فى المجلس .

وقال الخليل : مَنْ لم يكتسب بالأدب مالاً اكتسب به جمالا .

وأنشد الأصمعىّ رحمه الله :

إن يك للعقل مولود فلست أرَى ذا العقل مستوحشاً من حادث الأدَبِ
إنى رأيتهما كالماء مختلطاً بالتّرب تظهر عنه زهرة العُشُبِ

وقال عبد الملك لبنيه : عليكم بالأدب ، فإنكم إذا احتجتم إليه كان لكم مالا ، وإن استغنيتم عنه كان لكم جمالا .

ابن المقفع : إذا أكرمك الناس لمالٍ أو لدنيا ، فلا يعجبنّك ، فإنّ تلك كرامةٌ تزول بزوالهما ، ولكن ليعجبنّك إذا أكرموك لدين أو أدب .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : كفاك من علم الدين أن تعرف مالا يسع جهله ، ومن علم الأدب أن تروِى الشاهد والمثل .

رفع المسهم

وقال بُزُرْجُمِهر : ماورّثت الآباء الأبناء خيراً من الأدب ، لأن به يكسبون المال ، وبالجهل يتْلِفونه .

وقال: حسنُ الخُلق خير قرين ، والأدب خير ميراث ، والتقوى خيرُ زاد.

وقالوا : ثلاث لاغربة معهن مجانبة الرِّيَب ، وحسن الأدب ، وكفّ الأذى.

وقال بُزُرْجُمِهر : من كثر أدبه كثر شرفه ، وإن كان قبلُ وضيعاً ، وبعد صيته ، وإن كان خاملا ، وسادَ وإنْ كان غريباً ، وكثرت الحاجة إليه وإن كان فقيراً

وقال عمر رضى الله عنه عنه : من أفضل ما أعطيَتْه العرب الأبيات ، يقدّمها الرجل بين يدى حاجته ، فيستعطف بها الكريم ويستنزل بها اللئيم .

وقالوا : الأدب أدَبَان . أدب الغريزة ، وهو الأصل وأدب الرّواية وهو الفرع ، ولا يتفرّع الشيء إلا عن أصله ، ولا ينمو الأصل إلاّ باتصال المادّة .

وقال حبيب فأحسن:

وما السَّيْفُ إلاّ زَبْرَةٌ إن تركتَه ... على الخِلْقة الأولى لَمَا كان يقطعُ[1]

وقال آخر :

ما وهبَ الله لامرئٍ هِبَـةً ... أفضلَ من عقله ومن أدَبِهْ
هُمَا كمال الفتى فإن فُقِدَا ... ففقدُه للحيـاة أحْسَنُ بِهْ

وقالوا : إذا كان الرجل طاهر الأدب ، طاهر المنبت ، تأدّب بأدبه ، وصلح بصلاح أهله وولده .

وقال الشاعر :

رأيت صلاح المرء يُصلِحُ أهلَهُ ... ويُعْديهمُ عند الفساد إذا فَسَدْ
يعظَّم فى الدنيا لأجل صلاحِهِ ... ويُحْفَظُ بعد الموت فى الأهل والولَدْ

---

(١) ديوانه ١٢٨ . الزبرة : القطعة من الحديد .

رفع المسهم

المقامة التاسعة والثلاثون وهي العمانية

حدَّثَ الحارثُ بن هَمّام ، قال : لَهِجْتُ مُذ اخضرَّ إزاري ، وَبَقَل عِذاري ، بأنْ أَجُوبَ البَرَاري ، على ظهورِ المَهاري ، أُنجِدُ طوراً ، وأُسْلِكُ تارَةً غوراً ؛ حتَّى فَلَيْتُ المعالِمَ والمجاهلَ ، وبَلَوْتُ المنازلَ وَالمَنَاهِل ، وأدْمَيْتُ السَّنابِكَ والمناسِمَ ، وَأَنضيتُ السَّوابِقَ والرَّواسم فلمّا مَلِلتُ الإضْحارَ ، وقد سَنَحَ لِي أَرَبٌ بِصُحار ، مِلْتُ إلى اجْتِيازِ التَّيّار ، واخْتِيارِ الفُلْكِ السَّيّار ، فَنَقَلْتُ إِلَيْهِ أساودى ، واستصحبتُ زادِي ومَزَاودِي ، ثم ركبتُ إليه ركوبَ حاذرٍ ناذرٍ ، عاذلٍ لنفسه عاذِرٍ . فلمَّا شَرَعْنا فى القُلْعَة ، ورَفَعْنَا الشُّرُعَ للسُّرْعَة ، سَمِعْنَا مِنْ شاطِىء المَرْسَى ، حِينَ دَجا اللَّيْلُ وأَغْسَى ، هاتفًا يقول : يا أَهْلَ ذا الفُلْكِ القَويم ، المزجّى في البَحْرِ العَظيم ، بِتَقْدِيرِ العَزِيزِ العَلِيم ، هَلْ أَدُلُّكُمْ على تجارة تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ! فَقُلْنا : أَقْبِسْنَا نارَكَ أَيُّها الدَّليلُ وأَرْشِدْنا كما يُرْشِدُ الخليلَ الخليلُ .

* * *

لهجتُ ، أى اشتدّ حبّى ، وأصله فى الفصيل إذا رضع أمه ، يقال : لَهِج بضَرْع أمّه ، إذا لزمَه ليرضعه . اخضرّ إزارى ، كنى به عن الشباب ، وكانت العرب إذا بلغ منها الغلام الحُلُمَ ، وأشعر لبس الإزار لِيَسْتُرَ عورته . بقل عذارى : اخضرّ شاربى ، وبدا الشعر فى وجهى أخضر مثل البقل .

رفع المسهم

[مما قيل فى العذار]

ونذكر هنا شيئا مما قيل فى العِذار ، قال أبو نُواس :

مِنْ أينَ للرشأ الأغنّ الأحْوَرِ ... فى الخدّ مثل عِذاره المتحيّر
قمر كأنّ بعارضَيْه كليْهما ... مِسْكاً تساقطُ فوق وردٍ أحمر

وقال أيضاً :

قَدْ كانَ بَدْرَ السّماء حسناً ... فالنّاس فى حبّــه سواءُ
فــزاده ربُّهُ عِــذارا ... تمّ به الحسنُ والبهاءُ
لاتعجبوا ، رَبُّنــا قــديرٌ ... يزيدُ فى الخلق ما يشــاءُ

وقال ابن رشيق :

حَمّتْ عــذارَاهُ بقبلهِ ... فاستلّ من عينيه سَيْفَيْنِ[1]
نذلك الحمّر من خــدّه ... دمٌ جرى بين الفريقيْنِ

وقال غيره :

قمرٌ كأنّ قَوَامَه ... من قدّ غصنٍ مسترَقُّ
وكأنّما قــلم الزمــرّ ... دفى عَوَارِضِهِ مشــقُّ

ولأبى الفضل الدارمىّ :

ياذا الّذى خَطّ الجمالُ بوجهه ... خَطّيْن هاجا لوعةً وبَلَابلا
ماصَحّ عندى أنّ لحظَكَ صارمٌ ... حتى رأيتُ بِعارضَيْك حمائلاَ

وقال أيضاً :

قلتُ للمُلْقِى على الخدّين مِنْ ... وردٍ عُذارا
أسبل الصُّدغُ على خدّيك من مسكٍ عِذارا

(١) نقله فى التنف ٨١

أم أعان الليلَ حتّى غلب الليلُ النّهارا
قال ميدان جرى الحـــــنُ عليه فاستدارا
ركضتْ فيـه هجونٌ فأثارته غبُـــارا

قوله : أجوب ، أى أقطع . البرارى : الصّحارى . المهارِى : إبل كرام . أنجد : أطلع ، والنّجْد: المرتفع . والغور : ضدّه ، وقد أنجد وغار . أسلك : أدخل وأمشى . فلّيْت : قطعت . المعالم : المواضع المعلومة ، والمجاهل ، ضدّها . بلوْت : جرّبت . المناهل : مواضع المياه . السفابك : أطراف الحوافر . المناسم : جمع منسِم ، وهو مقدّم خُفّ البعير . أنضيت : أهزلت . السوابق : الخيل . الروامم : الإبل السريعة ، ورَسَمَت الناقة فهى رَاسمة ، إذا أثّرت فى الأرض من شدة وطئها ، قال أبو عبيد رحمه الله : إذا ارتفع السير عن العَنَق قليلا ، فهو التّزيد ، فإذا ارتفع عن ذلك ، فهو الذّميل ، ثم الرّسيم . الإصحار : الدّخول للصحراء ، يريدَ مَلّت من سفر البر . سنح : ظهر وعرض . أرَب : حاجة .

[ذكر صُحَار]

صُحَار : سوق عُمان ، وهى مدينة كبيرة على ساحل البحر ، مُرْساها فرسخ فى فرسخ ، وبلاد عُمان ثلاثون فرسخاً ، ماولى البحر سهول ورمال ، وما تباعد عنه حزون وجبال ، وهى مدن ، منها مدينة عمان وهى حصينة على الساحل ، ومن الجانب الآخر مياه تجرى إلى المدينة ، وفيها دكاكين التّجار مفروشة بالنّحاس مكان الآجرّ ، وهى كثيرة النخل والبساتين وضروب الفواكه والحنطة والشعير والأرز وقصب السكر ، وفى الأمثال: مَنْ تعذّر عليه الرزق فعليه بعُمان ، وفى أحوازها مغاص اللؤلؤ . وعُمان من أحواز اليمن سُمّيت بعمان بن سبأ .

الفنجديهىّ : صحار اسم بلدة بكورة عُمان وهى قصبتها ممّا يلى الجبل .

• • •

التيّار : البحر . الفُلْك : السفينة . التّيّار : الكثير المشى ، والفُلْك يكون واحدا وجمعا ، ويذكّر ويؤنث .

أساودى : أمتاعى، لأنها تسوّد الأرض بظلها ، وهى جمع أسودة ،وأسودة جمع سَواد ، وسواد الأمير ثَقَلُه . أبو عبيد : كُلّ شخص سَواد ، من متاع أو إنسان أو غيره . الحاذِر : الخائف . ناذر : حالف ، وأراد به الذى ينذر بخبر إن سلمه الله تعالى من هَوْل البحر . عاذل وعاذر ، يريد أنه يعذِل نفسه عن التغرير بدخول البحر ومقاساة أهواله ، ويعْذِرُها لكثرة المقاجر . شَرَعنا فى القُلْعة : أخذنا فى قَلْع المراسى ، ورفع القلع وهى الشّرُع. قوله: أغْشَى، أى أظلم هانِئاً ، أى صائحا . القويم : المستقيم . المُزْجَى : المسوق المسير ، قال الله تعالى : ﴿ رَبُّكُمُ الَّذِى يُزْجِى لَكُمُ الْفُلْكَ فِى الْبَحْرِ ﴾ أى يسيّرها ، وأزجاه : إذا ساقه . أقبسْنَا : أعطنا أرْشِدْنَا : دُلّنَا ، قاله الأزهرى رحمه الله .

* * *

فقال : أَتَسْتَصْحِبُونَ ابْنَ سَبِيلٍ ، زَادُهُ فِى زَبِيلٍ ، وَظِلُّهُ غيرُ ثَقِيلٍ ، وَما يَبْغِى سِوَى مقيل . فأجمعنَا عَلَى الجُنُوحِ إليهِ وَألاَّ نَبْخَلَ بالمَاعُونِ عَلَيْهِ .

فَلَمَّا استَوى على الْفُلْكِ ، قالَ : أعُوذُ بمالِكِ الْمُلْكِ ، مِنْ مَسَالِكِ الْهُلْكِ . ثُمَّ قالَ : إنَّا رَوَيْنا فى الأخبار ، المنقولةِ عن الأحْبارِ ، أنَّ اللهَ تَعالَى ما أخذَ على الْجُهَّالِ أَن يَتَعَلَّمُوا ، حَتى أخذَ على الْعُلَماء أنْ يُعَلِّمُوا ، وإن مَعِى لَعُوذَةً ، عن الأنبياء مأخُوذة ، وعِنْدِى لكُمْ نصيحَة ، بَرَاهينُها صَحِيحة ، وَما وَسِعَنِى الكِتمان ، وَلاَ مِنْ خِيمِى

الحِرْمان فتدبَّرُوا القَـــــوْلَ وتفهّموا ، واعْمَلُوا بِما تُعَلَّمُونَ وعَلِّمُوا .

ثمّ صاحَ صَيْحَةَ المباهِي ، وقال : أتَدْرُون ما هي ! هِيَ واللهِ حِرْزُ السَّفر ، عِنْدَ مَسِيرِهِمْ فى الْبَحْرِ ، وَالْجُنَّةُ مِن الْغَمّ ، إذا جاشَ مَوْجُ الْيَمّ ، وبِهَا اسْتَعْصَمَ نوحٌ مِن الطُّوفان ، ونجا ومَنْ معه من الحيـــوان ؛ عَلَى ما صَدَعَتْ بِهِ آىُ القُرْآنِ . ثم قرأ بَعْدَ أساطيرَ تَلاَها ، وزخارفَ جَلاَها ، وقال : ارْكبوا فيها باسم اللهِ مَجْرَاهَا ومُرْسَاهَا . ثمّ تنفّسَ تَنَفُّسَ الْمُغْرَمِين ، أو عِبادِ اللهِ المكرَمِين .

وقالَ : أمّا أنا فقدْ قُمْتُ فيكُمْ مَقامَ المبلِّغين ، ونصحتُ لكُمْ نُصْحَ المبالِغين ، وسَلَكْتُ بِكُمْ مَحَجَّةَ الرَّاشِدِينَ ، فاشْهَدِ اللَّهُمَّ وأنتَ خيرُ الشاهدينَ .

* * *

ابن سبيل : هو المسافر الذى انقطع به ، وهو يريد الرجوعَ إلى بلده ، ولا يجد ما يتبلّغ به ، فله سهم فى الصدقات . زَبيل : قُفّة من جلود ، وألغز به بعضهم فقال :

وذى أذنين لايقتات قوتاً ... وجوفٍ للحوائج واحتمالِ
يكلّف شغل أهل البيت طُرًّا ... وتُحمل فيه أقوات العيال
تُسِرُّ إليه فى الأسواق سِرًّا ... فلا يُفشيه إلا فى الرِّحالِ

خلّه غَيْر ثقيل ، أى هو خفيف الروح ، وقد تقدّم معنى استثقال ظلّه فى

الثانية والعشرين ، ويريد بظله شخصه ، كما يسمّى الشخص سواداً ، لأنه يسوّد الأرض بظله .

قال زياد بن عبد الله: قيل للشافعي رضي الله عنه:هل تمرض الرّوح ؟ قال : نعم من ظلّ الثقلاء ، قال: فمررت به يوما وهو بين ثقيلين، فقلت كيف الروح؟ قال : في النّزع .

وقال الهيثم بن عديّ : النّظر إلى الثقيل حُمّى الروح . مقيل: موضع جلوس في القائلة . الجنوح : الميل ، والماعون اسم للمطر . وأنشد أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه :

يهجّ صبيره الماعون هجّا إذا نسم من الهيف اعتراه

والماعون الزكاة ، قال الرّاعي :

قومٌ على الإسلام لمّا يمنعوا ماعُونَهم ويضيّعوا التّهليلا

مسالك : طرق ابن عباس رضي الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا في السفن أن يقولوا : بسم الله الملك، ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ ، الآية ﴿ بسم الله مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لغفور رحيم ﴾ .

وقوله : إن الله تعالى ما أخذ على الجُهّال أن يتعلّموا حتى أخذ على العلماء أن يعلّموا ، قيل : معنى أخذ : أوجب ، وأراد قوله تعالى : ﴿ وإذ أَخَذَ اللهُ ميثاقَ الّذينَ أوتوا الكتاب لَيُبَيِّنُنَّه للناس ولا يَكْتُمُونَهُ ﴾

أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما آتى الله تعالى عالماً علما إلا أخذ عليه الميثاق ألاّ يكتمه » . قال الحسن بن عمر : أتيت الزّهريّ بعد أن ترك الحديث ، فألقيته على بابه ، فقلت : إمّا أن تحدّثني وإما

أن أحدثك ، قال : حدّثنى ، فقلت : حدّثنى الحكم بن عيينة ، عن يحيى بن الجزار ، قال : سمعتُ علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يقول : ما أخذ الله على الجهال أن يتعلّموا حتى أخذ على العلماء أن يعلّموا ، قال : فحدّثنى بأربعين حديثاً.

قوله: عُوذة ، أى ما يتعوّذ به الإنسان من الحِرْز وشبهه. براهينها : حُجَجها. خيمى : طبعى . الحرمان : منع الفوائد . المُباهى : المفاخِر الكثير الإعجاب . السَّفْر : المسافرون. الجُنّة ، الستر. جاش: تحرّك وهاج . اليمّ : البحر. استعصم : امتنع . الطوفان : الماء العامّ . صدَعَتْ : نطقت . آى : جمع آية ، وتقدمت . الأساطير ، هى الأباطيل . زخارف : أشياء مُزيّفة المغرمين : المعذبين ، والمُغْرَم المولع بالحب وغيره . الرّاشدين : الهادين للطريق .

* * *

قال الحارث بْنُ هَمَّام : فَأَعْجَبَنَا بَيَانُهُ البادِى الطُّلاَوة ، وعَجِبْتُ له أصواتُنَا بالتِّلاَوَةِ ، وَأَنِسَ قَلْبِي مِنْ جَرْسِهِ ، مَعْرِفَةَ عَيْنٍ شَمْسِه ، فقُلْتُ لَهُ : بالَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ اللُّجِّىّ ؛ أَلَسْتَ السّروجىّ ! فقال لى : بلى ، وَهَلْ يَخْفَى ابْنُ جَلاَ ! فأَحْمَدْتُ حينئذٍ السَّفَر ، وسَفَرْتُ عَنْ نَفْسِى إذْ سَفَر ، ولَمْ نَزَلْ نسيرُ والبَحْرُ رَهْوٌ ، والجـوُّ صَحْو ، والعيش صَفْو ، والزّمانُ لَهْو ، وأَنَا أَجِدُ للقيانِه ، وَجْدَ المُثْرِى بعِقيانِه ، وأفرحُ بمناجاتِه ، فَرَحَ الغَرِيق بمَنْجاتِه ، إلَى أَنْ عَصَفَتِ الجَنُوب ، وعَسَفَتْ الجُنُوب ، ونَسِىَ السَّفْرُ ما كانَ . وجاءَتْ الموجُ مِنْ كلّ مكان ؛ فمِلْنَا لِهَـذَا الحَدَثِ السَّائر ، إلى إحْدَى الجزائر ؛ لنُرِيح ونَسْتَرِيح ، رَيْثَمَا تُوَاتِى الرِّيح .

فتمادَى اعتياصُ المَسير ؛ حَتى نفِدَ الزّادُ غير اليَسير ؛ فقال لى أبوزَيد : إنَّهُ لَنْ يُحْرَز جَنَى العُودِ بالقعود ، فهل لَكَ فى استثارَةِ السُّعُودِ بالصعودِ ! فقلْتُ لَهُ : إنِّى لَأتبَعُ لَكَ مِنْ ظِلّك ، وأطوَعُ مِنْ نَعْلِكَ .

* * *

الطُّلارة : الحسن والقبول . عُجْت : ارتفعت . آنس : أحسّ وأدرك . جرسه : صوته الخفىّ . عين شمسه : حقيقة نفسه ومعرفته اللجّى : العظيم اللجّة وهى معظم الماء .

[ذكر الطوفان]

ونذكر هنا بعض ماحدث من طُوفان نوح عليه السلام :

ذكر أهلُ الأخبار أن نوحاً عليه السلام أوّلُ نبىّ بُعِث ، وأنّ قومه كانوا أهلَ أوثان ، يعبدونها من دون الله ، فبُعِث لهم نوح فدعاهم إلى الله ، فكانوا يبطشون به ، ويستخفّون به ، وهو يقول : اللهم اغفر لقومى فإنهم لايعلمون . فلمّا كثر استخفافُهم به ، قال : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ ، فأوحى الله إليه أن اصنع الفلك فإنهم مغرقون . فأقبل على قَطع الخشب وضَرْب الحديد وتهيئة العود بالقار وغيره ، فصنعه من خشب الساج ، وجعل طوله ثمانين ذراعا وعرضه خمسين ذراعا ، وطوله فى السماء ثلاثين ذراعا . وكان قومه فى خلال صنعة السفينة يأتونه أفواجاً ، يستخفّون عقله ، ويعدُّون فِعلَه من جنونه ، ويقولون له : عملت سفينة فى البرّ ، فيقول لهم : سوف تعلمون . فلما اطمأنوا فى الفلك فار التّنور من الهند ، وقال الشعبى رحمه الله

من الكوفة . وفتحت أبواب السماء بماء منهمر ، وتفجّرت الأرض عيوناً ، فكان بين إرسال الماء وارتفاعه أربعون يوماً ، فلما بلغ الماء إليهم أووْا إلى الجبال ، فكانت الجبال تستقبلهم بالحجارة ، وتغرقهم في الماء ، فماتوا غرق ، وارتفع الفُلك ، وجعل يجرى في موجٍ كالجبال ، ودار الأرضَ كلها في ستة أشهر وعشر ليال . ويقال : إنهم ركبوها لعشر ليال مَضيْنَ من رجب ، ونزلوا يوم عاشوراء من المحرّم ، فلذلك صام الناس يوم عاشوراء ، وأتت السفينة الحرَم فدارت به أسبوعاً ، ولم يبق شيء من الخلائق ولا من الشجر إلاّ هلك ، إلا نوح ومَنْ معه ، وإلاّ عوج بن عنق - فيما يزعم أهل الكتاب - وانتهت آخرا إلى الجوديّ ، وهو جبل بالجزيرة من أرض الموصل فنزلت عليه .

* * *

قوله: ابن جلا ، أى المشهور المعروف ، يقال للرجل إذا كان عالى الشرف واضح الأمر لا يخفى مكانه : هو ابن جَلا ، أى هو الذى الأمور ينفسه ، وأوضحها ، قال سحيم بن وثيل :

أنا ابنُ جلاَ وطَلاّعُ الثنايا متَى أضعِ العمامة تعرِفُونِي

وكان صاحبَ غارات ، يطلع فيها من ثَنِيّة الجبل على قومه ؛ قال ثعلب : العمامة تُلبس في الحرب وتُوضع في السِّلم ؛ قال ابن الأعرابيّ : يقال للسيّد: ابن جلا، قال سيبويه رحمه الله : جَلاَ فعل ماض، كأنه يعنى الذى جلا ، أى أوضح وكشف .

قوله : أحدْت ، أى وجدته محمودا . سَفَرْت : كشفت وأزلت الهم . سَفَر : عرّفنا بنفسه ، ويقال : سفرتُ عن نفسى كما سَفَر ، أى عرّفته شخصى كما عرفنى هو شخصه ونفسَه . رهو : ساكن ، ويقال : فعل ذلك رَهْوًا ، أى ساكناً من غير تشدّد ، قال تعالى : ﴿واترك البَحْرَ رَهْواً﴾ . والرّهْو عند العرب الساكن ، يقال : جاءت الريح رَهْوًا ، أى ساكنة ، ويجوز أن يكون رَهوا من

نعت موسى عليه السلام، أى اتركه على هيئتك ، أو يكون من نعت البحر ، أى دَعْه يا موسى ساكناً واقفاً ماؤه واعبره . الجوّ : ناحية . السماء هنا : نقّ من السحاب المثرى: الغنى . والعِقْيان : الذهب ينبت نباتاً . عصفت الريح : اشتدّت. الجُنوب : الريح القبلية . عسفت : جاءت من كلّ جانب ، والعسفُ ركوب الأمر على جهالة . والخبوب ، بخاء معجمة ، جمع خِبّ ، وهى الرواية الصحيحة عن ابن جَهْور وغيره ، وهو هَيْج البحر واضطراب الماء ، وهو الذى صحّحه الفنجديهىّ . كأن أبا عمرو القَسْطَلىّ شاهدَ هذه الحالة من هول البحر فوصفه بقوله[1] :

إليك شحنّا الفُلْك تهوى كأنّها ... وقد ذُعِرتْ من مغرب الشمس غربانُ
على لُجَجٍ خضرٍ إذا هبّت الصَّبا ... ترامَى بنا فيها ثَبيرٌ وثَهْلانُ
موائلَ يرعى فى ذراها موائلٌ[2] ... كما عُبِدَتْ فى الجاهلية أوثانُ
تقاتل مَوْجُ البحر واليمّ والدُّجى[3] ... تموجُ بنا فيها عيونٌ وآذانُ
ألا هلْ إلى الدنيا معادٌ وهل لنا ... سوى البحر قبرٌ أو سوى الماء أكفانُ

وقال آخر :

وسماء فى الثرى مخضلّةٍ ... لازَوَرْدِيّةٍ ما فيها صفا
غطّتِ[4] الأرضَ فلم تترك لنا ... من فضاء الأرض إلاّ طَرَفا
فكأنّ الأرض فيها عائمٌ ... غاب إلاّ هامةً أو كتِفا

---

(١) هو ابن دراج القسطلى ، واسمه : أحمد بن محمد بن العباس بن أحمد بن سليمان بن عبيد ابن دراج ، وفى كنيته خلاف ، ذكره الدكتور محمود على مكى فى حواشى ديوانه ص٢١ ، والأبيات فى ديوانه ٨٧ ، ٨٨ .

(٢) الديوان :

* مَوَائِل تَرعى فى ذُرَاهَا مَوَائِلاً *

(٣) الديوان : « يقلن وموج البحر والهم والدجى » .

(٤) ط : « غصت » .

وكأنّ الموج فيها سكرٌ لبسوا لأما وغالوا حُجُفا
خافقٌ راجفةٌ أحشاؤه كحشا المهجورِ يهوى أسفا

قوله : نسى السَّفر ما كان، أى نسوا ما كان من طيب العيش بصفو الصحو. قولُه : الحدَث الثائر ، أى الأمر الطارئ . لنريح ، أى لنُريح أنفسَنا من تعب الهوْل والخوف ، وأراحَ الرجلُ : استراحَ وأراح غيرَه ، وأراحَ الريحَ وأروحَها واستَرْوَحها: وجدَها . رَيْث : قَدْر ، والرّيث اللُّبْث والبُطء . تُواتِي : توافق . اعتياص : التواء وتصعّب . نفِدَ : فَنِيَ . استِنَارة : استخراج ، يقول : هل لك فى إدراك الحظّ بالخروج من السفينة إلى البريّة .

* * *

فَنَهَدْنا إلى الجزيرة ، على ضُعفٍ من المِريرَة ؛ لنركُضَ فى امتراء الميرَة ؛ وكِلانا لا يَملِك فَتيلا ، ولا يَهْتَدِى فِيها سبيلا ؛ فأقبلْنا نَجُوس خِلالَهَا ، ونتقيّأ ظِلالَهَا ، حتّى أفضَيْنا إلى قَصْرٍ مَشيدٍ ، له بابٌ مِنْ حَديد ، ودُونَه زُمْرَةٌ من عَبيد . فَناسَمْناهُمْ لنتَّخِذَهُمْ سُلَّماً إلى الارْتقاء ، وأرشِيَةً لِلاستِقاء ؛ فألفَينا كُلاًّ منهمْ كَثيباً حسيراً ؛ حتّى خِلْناه كسيراً أو أسيراً . فقلنا : أيَّتُها الغِلْمة ، ما هذه الغُمَّة ؟ فلم يُجيبوا النِّداء ، ولا فاهُوا بِبَيْضاء ولا سَوْداء ، فلمّا رأينا نارَهُمْ نارَ الحُباحِب ، وخُبْرَهُم كَسَراب السَّباسِب ، قُلْنا : شاهَتِ الوُجُوه ، وَقَبَّح اللّكعُ وَمَنْ يَرْجوه فابْتدرَ خادمٌ قد علَتْه كَبْرَة ، وعَرَتْه عَبْرة ، وقال : يا قوم ، لا توسِعُونا سبًّا ، ولا تُوجِعُونا عَتْبا ؛ فإنا لَفى حُزْنِ شامِلٍ ، وشُغْلٍ عنِ الحديثِ شاغل ، فقال له أبو زيد : نَفِّسْ خِناقَ

الْبَثّ ، وانفِثْ إن قَـدَرْتَ عَلَى النَّفْث ، فإنك ستجد مِنِّى مَرّافاً كافياً ، وَوَصّافاً شافياً .

* * *

مَهْدنا : تقدَّمْنا . المِريرة : قُوّ النفس . تركُض ، بفتح أوّلها ، وأصل الرّكْض ، تحريك القوائم ، ومنه ﴿ واركُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ ، ولهذا قيل للجنين إذا اضطرب فى بطن أمه : قد ارتكض ، ومن مُشْكل أبيات المعانى :

قد سبق الحَلْبَةَ وهو راكِضُ فكيف لا يسبقِ وهو رابضُ

المراد : أنّ أمه سبقت الجياد وهى حامل به ، فأضاف السَّبْقَ إليه لاتصاله بها ، وأراد براكض تحريكه قوائمه فى مقرّه ، والرَّكْض يستعمل فى الخيل وغيرها فيقال : ركضَ البعيرُ برجله ، والطائر بجناحه .

قوله : امتراء ، أى استخراج . المِيرة : جَلْب الرزق ، ومار الرجل على أهله مَيْراً : جلب لهم القوت .

نجُوس خلالها : تطوف فى طرقها ، قال الليث وابن سيده : الجوس والجَوَسان : التردّد فى خلال الدّور والبيُوت ، وقال الأصمعىّ والأزهرىّ وأبو عبيدة : جاسوا الموضع : وطئوه ، وفلان يجوس بنى فلان ، أى يطؤهم يطلب فيهم . وقال الطبرى والنقّاش والزّجاج والثعالبى : ﴿ فجاسُوا[٢] خِلالَ الديار ﴾ ، أى طافوا بين بيوتهم ، يقتلونهم ويطلبونهم ، ذاهبين وجائين . والخلل : الفرجة بين الشيئين ، والجمع خِلال . تَتَقَيّاً : تستظلّ ، وتقيّأ به : استظلّ به ، وتقيّأ : تقلّبَ

أفضينا : وصلنا . مَشِيد: مرتفع البناء، والشِّيد : الجصّ . زمرة : جماعة. ناسمناهم: قربنا منهم ، وناسمَه: سارّه وَشامَهُ ، وناسمت الرجلَ: قربت نسمتك من نَسَمته ، وتحدّثت معه سرًّا . أرشية : حبالا . الارتقاء : الصعود . المَسْك : الجلد ، يريد أنه شديد التوجّع ، وهذا كما تقول : لقيت فلانًا فى ثوب نمِر ، أو فى جلد أسد، أى لقيته بادىَ الشرّ ، قال الشاعر :

فطوراً ترانا فى مُسُوكِ جِيَادنا وطوراً ترانا فى مُسُوك الثَّعالِب

قال البكرىّ : الخيل توصف بالإقدام والثعالب بالرّوغان ، فيريد أنهم مُقْدِمُون على أعدائهم يوما ، ورائغون عنهم يوما . وقال الأستاذ : أى أُسِرُوا فكُتِفوا بجلود خيلهم المعقورة وفى جلود الثعالب ، كناية عن خُبْث الأسير . فاهوا : نطقوا . سوداء : كلمة رديئة نار الحباحب : ما تطاير من الشَّرَر فى الهواء بتصادم حجرين أو بضرب حافر فى حَجَر ، وتلك نارٌ لا منفعة فيها ، وقيل : الحُباحب رجل بخيل كان يُوقِد نارا ضعيفة لئلا يُقصَد ، فإن أحسّ بإنسان أطفأها لئلا يَقْتبِس أحدٌ من ناره ، وقيل : نار الحباحب نار سراجه ، ولبخله كان إذا جاء أحد يوقد منه أطفأها ، وقال عبد الصمد بن المعذّل فى أخيه :

ليت لى منك يا أخى جارةٌ من محاربِ
نارُها كلّ شَقْوةٍ مثلُ نارِ الحُباحِبِ

يريد جارةَ القطامىّ التى يقول فيها :

إلى حيزبونٍ تُوقِد النّارَ بعد ما تَلَفَّتِ الظَّلْماء من كلّ جانبِ

فلمّا تنازعْنا الحديثَ سألتُها عن العِيّ قالت: معشرٌ من محاربِ
ألا إنما نيران قومي إذا شَتَوْا لطارقِ ليل مثل نار الحباحِب

وقيل : الحباحبّ ذباب يطير بالليل ، له شعاع كالسراج . قوله : خُبرهم ، الخُبر بضم الخاء ، مصدر خبرت أخبُر إذا امتحنت ، والسباسب والبَسابس : الأرض المستوية ، واحدها سَبْسَب وبَسْبَس . شاهَتِ الوجوه : قُبحت الوجوه . وفى الحديث : « أخذ عليه الصلاة والسلام قبضةً من تُرابِ يَوْمِ بدر فحثاها فى وجوه المشركين ، وقال: شاهت الوجوه »، ويقال شاهَ وجهُ الرجل يشوهُ شوْهاً وشَوْهة، قبح، ووجهٌ مشوّه ، أى مقبّح، ورجل أشوه وامرأة شوهاء . والكَلَع اللئيم ، وقد لكع لكعا فهو ألكع، ولُكَع ولكيع ، إذا لؤم وحُمق وامرأة لَكاع ولَكيعة . قوله : علته كَبْرة ، أى أسنّ وكَبِر . وعرته عَبْرة ، أى غشيته دَمْعة. والخادم : الخصىّ ، موصوف بطول العمر وسُرعة العَبْرة ، قال الهيثم بن عدىّ : فى الخصىّ عشر خصال لاتجتمع فى غيره : التّهمة ، والنميمة ، والشّرَه ، وسُرعة الدمعة ، وطول العُمْر ، وكِبرَ القَدَم ، والتبرّى من الصلع ، والإجارة فى الصفر ، والقيادة فى الكِبَر ، والاسترخاء فى المقعدة وسعة الحجر . لاتوسعون سَبًّا ، أى لاتكثروا شتمنا عتبا لوما وموجدة ، وعتبت عليه أعتب عتبا وعتابا ، وأعتبه : أرضاه ، والمُعْتَبَى الرضا ، واستعتبته طلبت إليه أن يعتب ، وقال النابغة :

* وإن تك ذَا عُتْبى فمثلُك يُعْتِب *[1]

وقال حبيب :

سَرَتْ تحمل العُتْبى إلى العَتْب والرّضا إلى السّخط والعذر الجميل إلى الحِقْدِ[2]

---

(١) ديوانه ١٤ ، وصدره :

* فإن أكُ مَظْلُوماً فعبدٌ ظلمتَه *

(٢) ديوانه ٢١٥

الخِناق : الحبل يُخنَق به كالعقال للجمل يُعقَل به . نفّس : روّح وحلى عن المخنوق . والبَثّ : الحزن . انفُث : تكلّم ، وأصله ابصُق ، عَرّافا : كثير المعرفة ، والعَرّاف : العالم بالشيء ، وأصله الكاهن .

* * *

فقال لَهُ : اعْلَمْ أَنّ ربَّ هذا الْقَصْرِ هو قُطْبُ هَذِهِ الْبُقْعة ، وشاهُ هذه الرّقعة ؛ إلاّ أَنّهُ لَمْ يخلُ مِن كَمَدٍ ، خُلوّه مِن ولَدٍ ؛ ولم يزلْ يستكْرِمُ المَغارِس ، ويتخيَّر من المفارِشِ النَّفائِس ؛ إلى أَنْ بُشِّرَ بِحَمْلٍ عَقِيلَة ، وآذَنَتْ رَقْلتُهُ بفَسِيلة ، فنُذِرَت لهُ النُّذور ، وأُحْصِيَتِ الأيّام والشُّهور . ولمّا حانَ النِّتاج ، وصِيغَ الطّوْق والتّاج . عَسُرَ مَخاضُ الْوَضْع ، حَتّى خِيفَ عَلَى الأَصْل والفَرْع ؛ فَمَا فِينا مَنْ يَعرفُ قراراً ، وَلاَ يَطْعَمُ النَّوْم إلاّ غِراراً . ثمّ أَجْهَشَ بالبُكاء وَأَعْوَلَ ، وردَّدَ الاسْترْجاعَ وطوّل . فقال لَهُ أبو زيد : اسْكُنْ يا هذا واسْتَبْشِر ، وَأَبْشِر بالْفَرج وبَشِّر ؛ فعندى عزيمةُ الطَّلْق ، الّتى انْتَشَرَ سَمْعُهَا فى الْخَلْق . فتبادَرَتِ الْغِلْمَةُ إِلَى مَوْلاَهُمْ ، متباشرينَ بانكشافِ بَلْوَاهُمْ ، فلم يكُنْ إلاّ كَلاَ ولاَ ، حَتى بَرَزَ مَنْ هَلْمَمَ بنا إليه . فَلَمّا دَخَلْنا عَلَيْه ، وَمَثَلْنا بَيْنَ يَدَيْهِ ، قال أبو زيد : لِيَهْنِكَ منالُكَ ، إن صَدَق مَقالُكَ ، ولم يَفِلْ فالُك .

* * *

قُطْب هذه البقعة ، أى رئيس هذه الأرض ، وقطب القوم : سيّدهم الذى يلجئون إليه .

وشاه هذه الرقعة : مَلِك هذه الجزيرة ، وأراد بالرقعة سُفْرة الشطرنج ، وشاهها : ملِك جيشها الذى يتصرّف فى بيوتها كيف شاء ، وقد أحسن مَنْ قال فيها :

أرضٌ مربّعة حمراء من أدَمِ ... ما بين خِلّين موصوفَين بالكرَمِ
تذاكَرَا الحرب فاختالاَ لها شَبَهاً ... من غير أن يَستَعِيَا فيها لسفكِ دمِ
هـذا يُغير على هـذَا وذاك عَلَى ... هذا يُغير وعين الحرْب لم تَنم
فانظر إلى فِطَنٍ جاشتْ بمعرفةٍ ... فى عسكرين بلا طَبْلٍ ولا علَمِ

قوله : كَمَد ، أى حزن . المغارس والمغارش : النساء ، كأنّ النُّطَف تغرَسُ فيهنّ فيكثر الولد منها النّفائس : الكرائم . عَقِيلة : خَيِّرة ، والعقيلة درّة البَحْر ، وبه سُمِّيَت المرأة لكرمها وشرفها ، وكل كريمة من النساء والإبل والخيل فهى عَقِيلة . الرَّقْلة : النّخْلة الطويلة . الفَسِيلة : نُخَيلة تكبّر فى أصل النخل ، أراد أنّ المرأة حملت بولد . نذرت النذور ، أى وَعِدَتْ بفعل خير إن سلم الحمل . أحصِيت : عددت ، وعلم مابقىَ منها . حان النِّتاج : قرب وقت الولادة صِيغَ : صُنِع . الطَّوْق : الثوب يلبسه المولود بغير جيب ، ولمّا سبق إلى جذيمة ابن أخته عمرو ، وكان له طَوْقٌ يلبسه فى الصِّغر ، فقال له : البسه فلم يَسَعْه ، فقال : شبّ عمرو عن الطوق ، فذهبت مثلا ، قال ابن القَبْطُرْنة[1] فى الحكم بن حزم ، وكلّفه ذلك ابن سراج :

---

(١) ط : « القبطرية » تصحيف ، صوابه من نفح الطيب ، قال « وكان بنو القبطرنة بالأندلس أشهر من نار على علم ، وقد تصرفوا فى البراعة والقلم ، ولهم الوزارة المذكورة والفضائل المشكورة » .

رأى صاحبى عَمْراً فكلّف وصْفَه وحمّلنى من ذاك ماليس فى الطّوْقِ[1]
فقلت له : عمرو كعمرو فقال لى صَدَقْتَ ولكن شبّ هذا عن الطّوْقِ

عَسُر : صعب . مخاض : تحرّك الولد عند الولادة ، وقيل : وجع الولادة . القَرار : السكون . الغِرَار : النوم القليل ؛ وهو من غَرّ الطائرُ فرخَه يَغُرّه ، إذا أطعمه شيئاً بعد شىء ، وأخذه من قول الشاعر :

لا أذوقُ النّومَ إلاّ غِرَاراً مثل حَسْو الطّير ماء الثّمادِ[2]

ولا يَطْعَمُ النّوم ، أى لا يذوقه ، ويقال : طعمه وتطعّمه : ذاقه ، وفى المثل : تَطَعّم تُطعم ، أى ذُقْ تَشْتَهِ . أجهش : أى تَهَيّأ للبكاء ، والإجهاش : تغيّر الوجه عند إرادة البكاء . أعوَل : رفع صوته بالبكاء . الاسترجاع ، قد تقدّم . الطّلْق : وجع الولادة ، سُمّى طَلْقاً على التفاؤل للمرأة بالانطلاق بالولَد . سمّها : ذكرها الجميل . تبادرت : تَسَابَقَتْ .

وجمع غلام غِلْمة وغلمان . البَلْوى : البلاء . كَلاَّ وَلاَّ ، أى كالفظ بها ، وهى كناية عن قلة اللّبث وسرعة الأمر ، ويُضرب بلا المثل ، فيقال : أخف من لا على اللسان ، وأقل من لا فى اللفظ ، وقال جرير :

يكون نزول القوم فيها كَلاَّ ولاَّ غِشاشاً ولا يُدْنُونَ رِجْلا إلى رجلِ[3]

غِشاشا ، أى قليلا . ويقال : لقيه على غِشاش ، أى على عجلة ، وقال الكُمَيْت :

---

(١) نفح الطيب ١ : ٦٣٦ ، قلائد العقيان ١٢٦ ، قال فى النفح : « وركب أبو الحسن بن القبطرنة إلى سوق الدواب بقرطبة ومعه أبو الحسن بن سراج فنظر إلى أبى الحكم بن حزم ؛ غلاماً كما مق تمائمه ؛ وهو يروق كأنه زهر فارق كمائمه ، فسأل أبا الحسين بن سراج أن يقول فأوقع عليه ؛ فثنى عنان القول إليه ، فقال » وذكر البيتين .

(٢) الكامل ١ : ١٥١ ـ بشرح المرصفى ، من أربعة أبيات نسبها إلى بعض الأعراب ، وفى ط « الثمار » تحريف .

(٣) ديوانه ٤٦١ ، وفيه « رحلا إلى رحل » بالحاء .

كلاَ وكذا تغميضُهم ثم هجتُمُ لدَى حِينَ أن كانوا إلى النَّوم أفقَرا[1]

يقول : كان نومُهم فى القلة والسرعة ، كقول القائل : لا وذا .

وقال الحسن[2] رحمه الله :

يا عاقد القَلْب مِنِّى هلاّ تذكَّرْت خِلاّ
تركتَ مِنِّى قليلاً مِنَ القليلِ أقلاّ
يكادُ لا يتجزّى أقلّ فى اللفظ مِن لاَ

وفى أبيات البديع :

وأرْوَع أهداه لِىَ اللّيلُ والفَلاَ وخمس تمسّ الأرض لكنْ كَلاَ ولاَ

جعل قوائم فرسه وهى الخمس تمسّ الأرض فى المشى كلا ولا على اللسان . قوله : برَز ، أى خرج . هلم : دعا ، وقال لنا هلمّ مَثَلنا : وَقَفْنا ، ومثل بين يديه : انتصب قائماً . منالك : عطاؤك . ولم يفل قالك : لم يخطىء رأيك ، وقال رأيه فيولةٌ : ضَعُفَ وأخطأ .

* * *

فاسْتَحضَر قلماً مَبْرِيًّا ، وزَبَداً بحْرِيًّا ، وَزَعفَرَانًا قَدْ دِيفَ ، فى ماء وردٍ نظِيف ؛ فَمَا إنْ رجَع النَّفَس ، حتّى أَحْضِرَ ما الْتَمَس ، فسجَد أبوزيدٍ وعفّر ، وسَبَّحَ وَاسْتَغفر ، وأَبْعَد الحاضِرِينَ ونفّر . ثمّ أخذ الْقَلَمَ واسْحَنْفَر ، وكتب على الزَّبَدِ بالمُزَعْفَرِ :

---

(١) اللسان (لا) ، وفيه « تغميضة » .

(٢) هو الحسن بن هانئ ، أبو نواس

أيُّها الجنين إنّى نصيـــــحٌ لك، والنُّصْحُ مِنْ شروطِ الدِّينِ
أنتَ مستعصِمٌ بِكِنٍّ كَنِينٍ وقرارٍ من الشُّكُونِ مَكِينِ
ما ترى فيهِ ما يروعكَ من إلـــفٍ مداجٍ ولا عَدُوٍّ مُبِينِ
فمتى ما برزتَ مِنْه تَحَوَّلْـــتَ إلى منزلِ الأذَى والهُونِ
وتَرَاءى لك الشَّقاءُ الّذى تَلْـــقَى فتبكى له بدمعٍ هَتُونِ
فاستدِمْ عيْشَك الرغيدَ وحاذِرْ أن تبيـع المحقوقَ بالمظْنُونِ
واحترِسْ من مُخادعٍ لَك يَرْقِيـكَ ليُلْقِيكَ فى العذاب المُهِينِ
ولَعمرِى لَقَدْ نصحتُ ولـكِنْ كمْ نصيحٍ مُشبَّهٍ بظنينِ

* * *

والزَّبَد: حجر معروف، وهو شديد البياض دقيق الثقب جدًّا، يوجد عائمًا على وجه الماء يصرف فى الأكحال. وقالت الحكماء: من خصائص الزَّبد البحرىّ أنه إذَا عُلِّق على امرأة ماخض سَهُل عليها الولادة، ويكون فى بحر اليمن. ديفٌ: خُلِط. التمس: طلب عفَر: جعل وجهه على الأرض، والعَفَر التراب. اسْحَنْفَر: جدّ وشمر للكتابة، ويقال: اسحنفر فى الأمر، إذا تحفز فيه. وقالت جارية من العرب:

يا أمّتا أبصرَنِى راكبٌ مُسْحَنْفِرٌ فى مَسْرَبٍ لاحِبِ[1]
عازلتُ أحثُو التّرب فى وجهِهِ عمداً وأحمى حَوْزَةَ الغائبِ

(١) تنسب هذه الأبيات للبحترى، وانظر الديوان وحواشيه ص ٣٠١.

فأجابتها أمها[1]:

الحصن أولى لو تأبّيته ... من حَتْفِك التّرب على الراكب

مسرب : طريق لاحب بيّن . الغائب : زَوْجها . الحصن: العفّة . تأبّيته : تعمّدته وقصدته . المزعفر : المداد من الزّعفران . الجنين : الولد فى بطن أمه . النّصح : ضدّ الغش ؛ قال الخطّابى : النّصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الحظّ للمنصوح ، وقيل: أصلُها من نَصَح الرجل ثوبَه ، أى خاطه، والنّصَاح : الخيط، شبّهوا فعل النّاصح بالخيط الذى يلائم الخَلَل والفتوق ، والتوبة النّصوح ، كأنها ترقّع ماخرقته المعصية . مستعصم : مستمسك ممتنع ، واستعصم[2] فى ذكر يوسف : امتنع وتأبّى . كِنّ : موضع يكنّ فيه . كَنِين : ساتر ، والسكين : المستور . والقرار : المكان المطمئنّ الذى يَستقرّ فيه الماء ، وأراد به الرّحِم . يُروعك : يفزعك . إلف : صاحب . مداج : يَظْهر الحُبّ ، ويضمر خلافَه ، وداجاه: ساتَره بالمداوة . بَرَزتَ : خرجت. الأذى: الضرر. الهُون : الهَوان . تَراءى : تظاهر . هَتُون : كثير السّيلان. وهتنت السّماء : صبّت . الرّغيد : الواسع . المحقوق : الّذى لا يُشكّ فيه . المظنُون : المشكوك فيه ؛ فهو يُشير على الصبىّ أن يُقيمَ فى بَطْن أمه ولا يخرج للدُّنيا . ظَنِين : متّهم .

• • •

ثمّ إنّه طَمَسَ المكتُوبَ عَلَى غَفْلَة ، وَتَفَل عَلَيْه مائة تَفْلَة ، وشدّ الزّبَدَ فى خِرْقَةِ حَرِيرٍ ، بعْد ما ضَمَّخَها بعَبِير ، وَأَمَر بتَعْليقها على فَخِذِ

---

(١) فى الديوان :

قالت لهـا ضاحكةً أمُّهـا ... أنتِ كمثل الأمَلِ الخائبِ

(٢) هو قوله تعالى فى سورة يوسف ٣٢ ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾

الماخِضِ ، وألاَّ تعلَقَ بِهَا يَدُ حائض ، فلم يَكُنْ إلاَّ كَذَوَاقِ شَارِب ، أو فواق حالِب ، حتَّى انْدَلَق شَخْصُ الولَد ، خِصِّيصَى الزَّبَد ، بقُدْرَةِ الواحدِ الصَّمد .

فامتلأَ القَصْرُ حُبوراً ، وَاستُطِيرَ عَميدُهُ وعبيدُه سُرُوراً ، وأحاطتِ الجماعة بأبي زيدٍ تُثْنِي عليه، وتُقبِّلُ يَدَيْهِ ، وَتَتَبَرَّكُ بمَسِّ طِمْرَيْه ؛ حتَّى خُيِّلَ إلَيَّ أنَّهُ القَرَنِيُّ أُويْس ، أو الأَسَدِيُّ دُوَيْس .

* * *

طَمَس : غطّى ، وطمست الدار إذا غطّى التراب آثارها ومحاها . والتَّفَل: نفخ يخرجُ معه بُصاق متفرّق ، وأوله البَزْق ثم التَّفْل ، ثم النَّفْث ، ثم النفخ .

ضَمَّخَها : لطّخها . عَبِير: أخلاط من الطِّيب. الماخض: الحامل. ولا تَعْلَقُ بها يد حائض ، تمويه بأن مكتوبه من القرآن والحائض لا تمسّه . الذَّواق : مسّ الطعام أو الشراب بلسانك . الفُوَاق : ما بين الحلبتين من الوقت ، لأنّ الناقة تُحْلَب ثم تترك ساعة يرضَعُها فصيلُها لتدرّ ثم تحلَب . اندَلَق : خرج بسرعة ، وكلّ شيء يدرّ خارجا بسرعة فقد اندلَق ، واندلق السَّيفُ من غِمْدِه إذا سقط من غير أن يسلّ . خِصِّيصَى الزَّبد ، أى خاصّيته التى ينفرد بها عن الأجسام ، واختصصتُ بالشيء : انفردتُ به ، وجاءنى خصِّيصَى القوم ، مقصورا ، أى خاصّتهم ، وخصَصْتُه بالشيء خصوصا وخُصوصيّة وخِصِّيصَى .

ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما وُلِدَ فى أهل بيت غلامٌ إلا أصبح فيهم عِزٌّ لم يكن » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ وُلِدَ له مولود فأذَّن فى أذنِه اليمنى وأقام فى اليسرى ، دفعت عنه أم الصبيان » .

رفع المسهم

حُبورا : سرورا . واستُطير : داخله السرور . عميدُه : سيّده طِمْرَيه : ثوبيه .

وذكر ابن قُتيبة بسندٍ متصل بابن عباس رضى الله عنهما ، أنه قال : مَرَّ عيسى بن مريم عليه السلام على بقرةٍ قد اعترض ولدُها فى بطنها ، فقالت : يا كلمةَ الله ، ادعُ الله أن يخلِّصَني ، فقال : يا خالقَ النَّفْس من النَّفَسِ ، ويا مُخرج النَّفَس من النَّفْس ، ويا مخلِّص النَّفْس من النَّفْس خلِّصها ، فألقت ما فى بطنها ، فإذا عسرت على المرأة ولادتُها فيكتب على مكيال ، ثم تعطاه المرأة .

وذكر الفَنْجديهيّ بسندٍ متصل بأبى هريرة رضى الله عنه ، قال : بينا عيسى ويحيى عليهما السلام فى البرية إذْ رَأيا وحشيّةً ماخضا[1] ، فقال عيسى ليحيى : قل تلك الكلمات : جَنَّة ولدت مريم ، مَرْيم وَلَدَتْ عيسى ، الأرض تدعوك يا ولد ، اخرج يا ولد ، اخرج .

قال حمّاد بن زيد : فما يكونُ فى الحىّ امرأةٌ ماخض ، فيقال هذا عندها إلاّ ولدتْ ، حتّى الشاة التى يتعسّر وضعها ، فيقال هـذا عندها ، فلا تبرح حتى تضع .

يونس بن عبيد الله : اللهمّ أنت عُدّتى عند شِدّتى ، وأنت صاحبى عند كُرْبَتى ، وأنت ولىّ نعمتى ، مَنْ قالها عند النُّفَساء إذا عسر عليها ولدها ، أو على بهيمة ، أذن الله تعالى فى خروجه .

وذكر عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : إذا عسر على المرأة ولادتُها ، فليكتبْ لها بسم الله لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سُبْحانَ الله رب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لم يلْبَثُوا إلاّ عشيّةً أوضحاها ﴾[2] ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ . لم يَلْبَثُوا إلا ساعةً من نهارٍ بلاغ فهلْ يُهْلَكُ إلا القوم الفاسقون ﴾[3] .

(١) الماخض : الحامل .
(٢) سورة النازعات ٤٦ .
(٣) سورة الأحقاف ٣٥ .

رفع المسهم

قال سفيان : يكتب هذا فى جام وتُسقاه .

وذكر عن أبى الزّناد قال: كنت مِثْنَاثاً ، فقيل لى استغفرالله إذا جامعت، ففعلت فوضع لى بضعة عشر ذكرا .

قوله خُتِيل : أى شبّه .

[ذكر أويس القرنى]

وأويس القَرَنىّ بَشّر به النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو من التابعين .

وفى صحيح مسلم: إنّ أهل الكوفة وَفَدُوا على عمر رضى الله عنه ، وفيهم رجل مِمّنْ كان يسخر بأويس، فقال عمر رضى الله عنه :هل هاهنا أحد من قَرَن ؟ فجاء ذلك الرجل ، فقال عمر: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن رجلاً يأتيكم من اليمن يقال له أويس ، لايدع باليمن غير أمّ له ، وقد كان فيه بياض ، فدعا الله ، فأذهبه الله عنه إلا موضع الدينار أو الدرهم ، فمن لَقِيَه منكم فليستغفرْ لكم .

وفيه عن أُسَيد بن جابر ، قال : كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا أتاه أمداد أهل اليمن سأل: أفيكم أويس بن عامرٍ ؟ حتى أتى على أويس، فقال : أنت أويس بن عامر ؟ قال : نعم ، قال: من مُرَادٍ ، ثم من قرن ؟ قال : نعم ، قال : فكان بك بَرَصٌ فبرئتَ منه إلاّ موضع الدرهم ؟ قال : نعم ، قال : ألك والدة ؟ قال : نعم ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « يأتى عليكم أوَيْس بن عامر ، مع أمداد أهل اليمن ، من مُرَاد ثم من قرن ، وكان به بياض فبرِىءَ منه إلا موضع الدرهم ، له والدة هو بها بارٌّ لو أقسم على الله لأبرّه ، فإن استطعت أن يَسْتَغْفِر لك فافعل» ، فاستغفرْ لى فاستغفر له ، فقال عمر رضى الله عنه أين تريدُ ؟ فقال : الكوفة ، قال ألا أكتب لك إلى عاملها ؟ قال : أكون فى غبر النّاس أحبُّ إلىّ . قال: فلما كانَ فى العام القابل حَجّ رجل من أشرافهم،

فوافى عمرَ رضى الله عنه ، فسأله عن أُوَيس ، فقال : تركتُه رثَّ البيت ، قليل المتاع . قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولُ : يأتى عليكم أويس ابن عامر مع أمداد أهل اليمن من مُراد ثم من قَرَن ، وكان به بَرَص فبرئ منه إلا موضع درهم ، له والدة هو بها بارّ،لو أقسم على الله لأبرّه ، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل. فأتى أويسا فقال : استغفر لى ، فقال : أنت أحدث عهدا بسفر صالح ؟ قال : نعم ،قال له : لقيت عمر ؟ قال : نعم ، فاستغفر له ، ففطن له الناس ، فانطلق على وجهه ، قال أسَيْد : وكسوته بُرْدة ، فكان كلما رآه إنسان قال : من أين لأوَيسٍ هذه البُرْدة !

وفى كتاب الإحياء : أنّه لما ولىَ عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : أيّها الناس ، مَنْ كان من أهل العراق فليقمْ ، فقاموا ، فقال : اجلسوا إلاّ مَنْ كان من قَرَن ؟ فجلسوا إلا رجلا واحداً ، فقال له عمر رضى الله عنه قَرَنىٌّ أنت ؟ قال: نعم ، قال : أتعرف أويسا ؟ قال : نعم ، وما تسأل عن ذلك يا أمير المؤمنين ؟ والله ما فينا أحمق ولا أجنّ ولا أحوج منه ! فبكى عمر رضى الله ، ثم قال : ماقلت ، إلاّ أنّى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يدخل فى شفاعته مثل ربيعة ومضر » . ولمّا كان عند أهله كالمجنون بَنَوْا له بيتاً على باب دارهم ، فكان تأتى عليهم السَّنة لا يرَوْن وجهه ، كان يخرج أوّل الأذان ويأتى بعد العشاء الآخرة ، وكان طعامُه أن يلقط النَّوى ، فكلّما أصاب حَشَفَةً خبأها لإفطاره، فإن أصاب مايقوته باع النَّوى،وتصدّق به ،وإلاّ اشترى منه مايقوته. وكان لباسه قطع الأكسية من المزابل ، يلفقُ بعضَها إلى بعض ، ثمّ يلبسها ، وإذَا مرّ بالصبيان رجموه ، يظنُّون أنه مجنون ، ولهذا أعظَّم النبى صلى الله عليه وسلم حرمته ، فقال : « إنى لأجد نفس الرحمة من قبل اليمن » إشارة إليه .

[ذكر الأمير دبيس]

وأما دُبَيس فهو الأمير سيف الدولة بن مَزْيد الأسديّ ، وقيل: دبيس بن صدقة بن مزيد ، وذكر أبو الحسن عليّ بن الحسين بن أبي طالب الباخرزيّ الأمير أبا الأعز دبيس بن عليّ فقال: خدمتُه ببغداد ، وعبرتُ إليه أختَ يده الجواد ـ يعني دجلة ـ وهي زاخرة الأمداد ، فإذا باحة للطارقين مباحة ، وراحة في كَفِّها للعفاة رَاحَة ، وقباب التفّت بها غابُ القنا ، واشتركَ مع أسودها الناس في فرائس الغنى .

قال الفنجديهيّ : سمعت بعضَ أهل الفضل يقول ببغداد : لما سمع الأمير دبيس ، أن الرئيس أبا محمد الحريري ذكرهُ في مقاماته ، وأورد فيها بعض صفاته ، أنفذ إليه من الخلع السنيّة ، والجوائز الهنيّة ومزية العطية ، ماعجز عنه الوصف ، وكلّ عنه الطرف ، واقتضاه علوّ همته ، وسموّ قدرته . ثم عصى دبيس على الإمام المسترشد بالله أمير المؤمنين أبي منصور الفَضْل بن المستظهر بالله ، وسعى في إراقة دمه ، وجَمع العساكر وحشد ، وقصد بغداد في عسكر عظيم ، وعاث في أطرافها ، وأفسد في أكنافها ، فخرج المسترشد بالله أمير المؤمنين من دار الخلافة ، واجتمعت إليه الأجناد ، وظهر إليه وحمل عليه ، فهُزم دبيس وعسكره ، وانتهى إلى الحِلّة المزيدية ، فانتهبها ، وذلك في المحرّم في سنة سبع عشرة وخمسمائة . وانهزم دبيس في خواصّ من أصحابه وغلمانه خوفاً من الخليفة ، ومرّ نحو الشام ثم قتل الأمير دبيس بن صدقة بن مزيد في سنة ثلاثين أو في سنة تسع وعشرين ، قتله السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه لأمور أنكرها وأسباب امتعض لها ، نُسبت إليه[1] .

ثمّ انثالَ عليهِ من جوائز المجازاة ، ووصائِلِ الصِّلاتِ ، ما قَيّض له

رفع المسهم

الغِنَى، وبيَّضَ وجْهَ المُنَى، ولم يَزَلْ يَنْتابُه الدَّخْل، مذ نُتِج السَّخْل؛ إلى أنْ أعْطِيَ البَحْرُ الأمان، وتَسَنَّى الإتمامُ إلى عُمان؛ فاكتفَى أبو زيدٍ بالنِّحلَة، وتأهَّبَ للرِّحلة؛ فلم يَسْمَحِ الوالِي بحركتِه، بعد تجْرِبة بَرَكَتِه، بل أوْعَزَ بضمِّه إلى خُزانَتِه. وأن تُطْلَقَ يَدُه فى خِزانَتِه.

قال الحارث بن هِمّام: فلمّا رأيتُه قَدْ مال، إلى حَيْث يُكْتَسَبُ المال، أنحَيْتُ عليهِ بالتّعنيف، وهَجَّنتُ له مفارقةَ المألَفِ والأليف، فقال: إليك عنّى، واسمَعْ مِنّى.

* * *

قوله: انثال، أى انصبّ. جوائز: عطايا. وصائل: متّصلات غير منقطعة، والوصائل: ثياب حمر مخطّطة تُصْنَع باليمن يلبسها النساء، قال الشاعر:

* لها حُبُكٌ كأنها من وصائلِ *

فيّض: قُدِّر وساق ينقابه، أى يقصده ويأتيه مَرّةً بعد أخرى.

الدخْل: الغنم يا التى تدخل إليه من قبل الأمير وغيره، ورجل كثير الدخل: إذا كثر دخول الرزق عليه. والسَّخْل: الولد.

ومما يستحسن فى التهنئة بمولود قول الخُلوانىّ:

نجْم تولّد من شمسٍ ومن قمرٍ ... وأين مَنْ أبواه الشّمْس والقَمَرُ

شمس المفافِ ومجد البدْرِ بينهما ... تولّد النور إلاّ أنه بشرُ

أخذه من قول ابن الرومى :

شمس وبَدْرٌ ولَدَا كَوْكَبًا أقسمت بالله لقد أنجبا

وجاء الرّمادى يُهَنِّئُ الفقيه ابن العطار بمولود ، فقال :

يَهْنِيكَ مازادتِ الأيام فى عددِكْ من فلذةٍ بَرَزتْ بالسَّعْدمن كَبِدِكْ[1]
كأنما الدهرُ دهرٌ كان مكتئباً من انفرادك حتى زادَ فى عَدَدِكْ
لا خلّفتك الليالى تحت ظِلّ ردًى حتى ترى ولداً قد شبَّ من وَلَدِكْ

قوله : تَسَنَّى الإتمام ، أى تيسّر إتمام المشى والإقلاع . اكتفى : اقتنع . النِّحلة : العطية . أوْعَزَ ووَعز ، تقدم ، يعقوب : لا يقال . وَعَز بالتّخفيف . حُزَانته : جماعته ، وعياله الذين يتحزّنون لنكبته ولفقده ، ويحزن هو لِضَيْعَتِهِمْ . أنحيت : ملت عليه وقصدته به . التعنيف : اللوم والأخذ باللسان . المألف : البلدة وموضع الألفة . الأليف : الصّاحب . إليك عنى : تباعد هنى .

* * *

لا تصبُونَّ إلى وَطَنْ فِيهِ تُضَامُ وتُمْتَهَنْ
وارْحَلْ عن الدارِ الَّتِى تُعْلِى الوِهادَ على القُنَنْ
واهْرَبْ إلى كنَّ يَقِى ولو أنَّهُ حِضْنَا حَضَنْ
وار بأْ بنفسك أن تقيـــمَ بحيث يَغْشاك الدّرَنْ
وجُبِ البلادِ فأَيُّها أَرْضاكَ فاخْتَرْهُ وَطنْ
وَدعِ التــذكُّرَ للمعا
هِدِ والحَنِينَ إلى السَّكَنْ

(١) نفح الطيب ٣ : ٤١٤

واعلمْ بأنّ الحُـرّ فى أوطانِهِ يَلْقَى النَبَنْ
كالدرِّ فى الأصداف يُسْـتَزْرَى ويُبْخَسُ فى الثَّمَنْ

* * *

تَصْبُونَّ : تَمِيلَنّ ، وصبوت إليه مِلْتُ بالمحبّة . تُضَام : تذل . تمتهن : تحتقر ، وقال محمد بن بشر فى هذا المعنى :

إنّما أزْرَى بقـدرى أننى لستُ من بَابَةِ أهلِ البَلَدِ
ليس منهم غير ذى مقلِيَةٍ قدوى الألباب أو ذِى حَسَدِ
يتحامونْ لقائى مثلَ ما يتحامونْ لقاء الأسَـدِ
مطلعى أثقل فى أعينهـمْ وعلى أنفسِهمْ من أحُـدِ
لو رأونى وسط بحرٍ لم يكنْ أحـدٌ يأخـذ منهم بيدِى

وقال البحترىّ :

أشرقٌ أم أغرّب ياسعيـدُ وأنقص من زَمانِى أم أزيدُ[1]
عَدَتْنِى عَنْ نصيبينَ الْعَوَادِى فبختى أبلهٌ فيها بَليـدُ
وأخلفنى الزمان على رجالٍ وجوههمُ وأيديهمْ حديدُ
لهم حُلَلٌ حسُنّ فهنّ بيضٌ وأخلاق سَمُجْنَ فهنّ سود

وممن نبا به بلده القاضى أبو محمد عبد الوهاب ، خرج من بَغْداد يريد مصر ، فشيّعه أكابرها ، ومن أصحاب محابرها جملة موفورة ، فقال لهم : والله لو وجدت بين أظهركم رغيفين كلّ يوم ، ماعدلتُ ببلدكم بلوغ أمنية ، والخبز عندهم يومئذ ثلثمائة رطل بدينار ، وقال :

---

(١) ديوانه ٥٨٠ .

سلامٌ على بغدادَ مِنِّى تحيَّةٌ وحُقَّ لها منى السَّلامُ المضاعَفُ(١)
لعمرُك ما فارقتُها قالياً لها وإنى بشطَّىْ جانِبَيْها لعارفُ
ولكنها ضاقت عَلَىَّ برُحْبها ولم تكن الأقدار ممن يُساعِفُ
فكانت كخِلٍّ كنت أهوى دنوَّهُ وتأبَى به أخلاقُه فيخالفُ

وقال أيضاً :

بغدادُ دار لأهلِ المال واسعةٌ وللفقاليس دار الضَّنْكِ والضِّيقِ(٢)
قد صرتُ أمشى مهاناً فى أزقَّتِها كأننى مصحفٌ فى كَفِّ زنديقِ

قوله: الوِهَاد والقُنن: الانخفاض والارتفاع ، والقُنة : أعلى الجبل ، والوَهْدَةُ القعدة من الأرض تجرى إليها مياه جهاتها . حَضْناً : جانباً حصيناً مانعاً . أربأ ، أى ارتفع . يغشاك : يُغَطِّيك . الدَّرَن: الوسخ . المعاهِد : منازل سكناه . الحنين: الشوق . السَّكَن : الأهل . الأصداف : محالّ الجوهر . يستزرى : يستحقر . يبخس : ينقص ، ومعنى هذه الأبيات يقول : أرحل من بلد يعلو فيه قدر أصاغر الناس قدرَ أكابرهم ، ولا تُقِمْ فيه على الهوان ، وارفع قدر نفسك من أن تقيم بموضع توسّخك فيه الإهانة ، فإنّ المرء حيثُ يضع نفسه ، وطُفْ بالبلاد ، واختر وطناً ما أرضاك ، فإنّ الحرّ يضيع فى وطنه ، ولا يعرف قدره .

الأصمعىّ : سمعتُ بعضَ العرب يقول : الفقر فى الوطن غربة ، والغنى فى الغربة وطن .

ونظر أبو الحسن إلى برذونٍ يُستَقَى عليه ، فقال : المرء حيث يضع نفسه ، لو هَمَلَج هذا لم يُبْلَ بما ترون .

---

(١) معجم البلدان ٢ : ٢٣٩ (٢) معجم البلدان ٢ : ٢٤١ .

رفع المسهم

الزبير رضى الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن العباد عباد الله ، والبلاد بلاد الله ، فحيثما وجدتَ خيراً فأقم ، واحمد الله » .

وقال هلال بن العلاء الرّقّىّ :

لا تجزعنّ وإن نأتْ أرضٌ تُنالُ بها المحبّهْ
وطنُ الغريب يَسارُه والفقرُ فى الأوطان غربَهْ

وقال آخر :

أشدّ من فاقةِ الزّمانِ مقام حُرٍّ على الهوانِ
فاسترزق الله واستغنِهِ فإنه خيرُ مستعانِ
فإن نبا منزلٌ بحرٍّ فمن مكانٍ إلى مكانِ

وقال آخر :

شرّق وغرّب تجد من غادرٍ بدلاً فالأرض من تربةٍ والنّاسُ من رجُلِ

وقال آخر :

مَنْ ضاق عنك فأرض الله واسعةٌ عن وجه كلّ مضيق وجه منفرجِ
خيرُ المذاهب فى الحاجات أنجحُها وأضيق الأمر أدناه من الفرجِ

* * *

ثمّ قالَ : حَسْبُكَ ما استمعتَ ، وحبّـــذَا أنتَ لَو اتّبَعْتَ . فأوضحتُ له معاذيرى ، وقُلت له : كُنْ عَذِيرِى . فعَذَرَ واعتَذَر ، وزوّدَحتّى لم يَذَرْ ، ثمّ شيّعنِى تَشْيِيع الأقارِب ، إلى أنْ ركبتُ فى القارِب . فودّعْتُه وأنا أشكرُ الفِراقَ وَأذُمّه ، وَأوَدّ لو كان هلكَ الجنِين وأمّه

* * *

رفع المسهم

حسبك : يكفيك . أوضحت : بيّنت . معاذيرى : أعذارى ، والعَذِيرةُ : العذر ، ويقال : عذيرك من كذا، بمعنى هلمّ معذرتك منه ، وقيل: العذير بمعنى عاذر ، فَعِيل بمعنى فاعل ، أى هلمّ لمن يعذرك منه .

ثعلب : العذير ، مصدر بمعنى النَّكير ، ومعنى عذيرى منه ، أى مَنْ يعذِرنى منه !

وعذَر : قَبِل العذر . والله أعلم .

رفع المسهم

المقامة الأربعون وهي التبريزية

أخبر الحارثُ بنُ هَمّام، قالَ: أزمَعْتُ التَّبْريز مِنْ تَبْريز، حِينَ نَبَتْ بالذَّليلِ والعَزيز، وَخَلَتْ من المُجير والمُجيز؛ فبينَما أنا في إعْدادِ الأُهْبَة، وارْتيادِ الصُّحبة، أَلْفيتُ بها أبا زيدٍ السَّروجيّ مُلْتَفًّا بِكِساءٍ، ومحتفًّا بِنِسلاءٍ، فسألتُه عَنْ خَطْبه، وإلى أيْنَ يسْرُبُ مَعَ سِرْبه؛ فأَوْمَأَ إلى امرأةٍ مِنْهُنَّ باهِرَةِ السُّفور؛ ظاهِرَةِ النُّفور، وقال: تزوّجتُ هَذِه لِتُؤْنِسَني في الغُرْبة، وَتَرْحَضَ عَنّي قَشَفَ الْغُرْبة، فَلَقِيتُ مِنْهَا عَرَقَ القِرْبة، تَمْطُلني بِحَقّي، وتُكَلِّفُني فَوْقَ طَوْقي، فأنا مِنْهَا نِضْوُ وَجىً، وحِلْفُ شَجْوٍ وشجًى. وها نَحْنُ قَدْ تَساعَيْنا إلى الحاكِم، لِيَضْرِبَ عَلَى يدِ الظّالِم؛ فإنِ انْتَظَمَ بَيْنَنا الوِفاق، وإلاّ فالطّلاقُ والانْطِلاق.

قال: فمالت إلى أن أخْبُرَ لِمَنَ الغَلَب، وكَيْفَ يكون المُنْقَلَب! فَجَعَلْتُ شُغْلي دَبْرَ أُذُني، وصَحِبْتُهما وإنْ كُنْتُ لا أُغْني.

* * *

أزمعتُ: عزمتُ، والزِّماع العَزْم، والتَّبْريز: الخروج إلى البراري، وهي الأرضُ الفضاء بلا شجر. تَبْريز: قرية من كُوَر أذربيجان من عمل خُراسان، بينها وبين المراغة عشرون فرسخا.

نَبَتْ: قلعت وارْتَفَعَت. المجير: الذي يُجيرُك من النّاس ويكفيك شرّهم، والمجيز: الواهب الجائزة وهي الصِّلة. ارتياد: طلب. مُحَلِّقًا. محتفّا. خَطْبه:

أمْرِه . يسرُب : يذهب . ومِرْبه : جماعة نسائه . أومأ : أشار . باهرة : ظاهرة . والسُّفور : كَشف النِّقاب عن الوجه . تَرْحَض : تغسل ، ورَحَض الثوبَ يَرْحَضُه غسله . قشَف : تغيّر ، ورجل متقشّف : لا يتعهد الغسل والنظافة . والقَشف : سوء العيش . وَمَعلَه حقّه ، كناية عن جماعه لها ، والمَطْل في الأصل : المدّ ، يقال : مطل القَيْن الحديد يمطُله مَطْلاً إذا ، مدّه وطوّله ، فمعنى يَمْطُلها : تطوّل عليّ . والطَّوْق : الطاقة . نِضْو وَجَى : هزيل من الجفاء ، وأراد به شرّها وما يلقاه منها . حِلْف شَجْو : صاحب حزن . والشَّجا : الاختناق بالعظم وهو شيء صعب : ليضرب على يدِه : ليكفّه ويمنعه

* * *

فلمّا حضَرا القاضي ؛ وكان ممّنْ يَرَى فضلَ الإمساك ، ويَضِنُّ بنُفاثةِ السِّواك ، جثَا أبو زَيْدٍ بَيْنَ يَدَيْه ، وقال : أيّدَ الله القاضي وَأحْسَن إليه ، إن مَطِيَّتِي هذه أبيَّةُ القِيادِ ، كثيرةُ الشِّرَادِ ؛ مع أنّي أطوعُ لها مِنْ بَنانِها ، وأحْنَى عَلَيْها مِنْ جَنانِها . فقال لها القاضي : وَيْحَكِ ! أما علِمْتِ أنّ النُّشوزَ يُغضِبُ الرَّبّ ، ويُوجِبُ الضَّرب ! فقالت : إنّهُ مِمَّنْ يَدُور خَلْفَ الدّارِ ، ويأخُذ الجارَ بالجار ، فقال له القاضي : تبًّا لك ! أتَبْذُرُ في السِّباخ ، وتَسْتَفْرِخُ حَيْثُ لا إفراخ ! اعزُبْ عنّي ، لا نَعِمَ عَوْفُكَ ، ولا أمِنَ خَوْفُكَ ، فقال أبو زيد : إنّها وَمُرْسِلِ الرِّياحِ ، لأكْذَبُ من سَجاح !

فقالَتْ : بل هُوَ ومَنْ طَوّقَ الحمامَة ، وَجَنَّحَ النَّعامَة ، لأكْذَبُ مِنْ أبي ثُمامة ، حِينَ مَخْرَقَ باليَمامَة !

* * *

رفع المسهم

لا أُغْنِي ، أى لا أنفع ، الإمساك : الشح ، يضِنّ : يبخل ، والنُّفاثة : ماتطرحُه من فيك من السّواك بعد الانتفاع به ، وهذا وإن كان فى غاية البخل مُنتَزَعٌ من قول الشاعر :

لقد بخلتْ حتى لو أنّى سألتُها قَذَى العين من ضاحى التراب لَضَنَّتِ

وقال آخر فى معناه :

يبخل بالماء ولوْ أنه منغمسٌ فى وَسَطِ النِّيلِ
شحًّا فلا تطمع فى خَيْرِه ولو توسَّلْتَ بجبريلِ

وقال آخر :

ما كنتُ أحسِب أن الخبز فاكهةٌ حتى نزلتُ على أوْفَى بنِ منصورِ
يا حابس الرَّوْث فى أعقاب بَغْلَتِه خوفًا على الحبِّ من لَقْط العصافير

وهذا الباب مستوفًى فى الرابعة والأربعين :

ومما يُستظرف من لفظ السِّوَاك ، قول بعض الظرفاء :

قد هجرتُ السِّوَاكَ من أجل أنّى إن ذكرتُ السِّوَاكَ قلتُ سِواكا
وأحِبّ الأراك من أجْلِ أنّى إن ذكرتُ الأراك قلت أراكا

جَنَا : برك ، أيّد : قوّى مطيّتى : زَوْجَتى ، أبيّة : صَعْبة ممتنعة على قائدها. الشِّراد : النُّفور ، أحْنى : أعطف وأرْحَم . جَنانها : قلبها .

النُّشوز : عصيان الزوج ومخالفته ، والنُّشوز أصله الارتفاع . ووَبْخ ، معناها التوبيخ والتقبيح ، وتستعمل أيضاً للترحّم ، وقوله : وبوجب الضرب من قوله تعالى : ﴿ واللاّتى تَخافُونَ نُشُوزَهُنّ فعِظوهُنّ واهجروهن فى المضاجع واضْرِبُوهُنّ ﴾[1] فنشوزهن : عِصْيانهُنّ . الأزهرىّ : النُّشوز : كراهة كلّ واحد من الزوجين صاحبه ، ونشزَتْ تنشُز فهى ناشز

(١) سورة النساء ٣٤ .

رفع المسهم

ابن عمر رضى الله عنهما قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « لا تُسْكِنُوا النّساء الغرَف فيشرفن ، ولا تعلّموهنّ الكتابة ، واستعينوا عليهنّ بالضرب » .

ابن عباس رضى الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حَلّقُوا السوط حيث يراه أهل البيت » .

ووصّى بعضَ أهله فقال : « أنفِقْ على أهلك من طَوْلِك ، ولا ترفع عصاك عنهم ، وأخِفْهم فى الله » ؛ فمعنى لا ترفع عصاك ، أى لا تترك تأديبهم فى الله تعالى . قوله : ويأخذ الجار بالجار ، العرب تسمى فَرْج المرأة بالجار ، ودُبرها جار الجار ، وأخذه الحريرى من قول أعرابى جاء لامرأته وقد اغتلم واشتدّت شهوته ، فأنعظ ، فلما قرب منها وهجم عليها قالت له : إنى حائض ، قال لها : فأين الهَنَة الأخرى ؟ ثم حمل عليها وهى تدافعه وتصبّه ، وهو ماض فى شغله ينشدها :

كلاّ وربّ البيت ذى الأستارِ لأهتِكَنّ حلق الحمّـــارِ
* قد يؤخذ الجارُ بذنب الجارِ *

قال الخليل : الحمّار : مااستدار من طَوْق الجفن ، وكذلك حمّار الظّفر والدبر ، ومما يبيّن هذا المعنى قول الشاعر[1] :

جارُك قَدْ يجنِي عليكَ وقَدْ تُعْدِى الصّحاحَ مبارِكُ الجُرَبِ[2]
ولربّ مأخوذٍ بذنب قَرينِهِ ونجا المقارُف صاحبُ الذّنبِ[3]

---

(١) البيتان فى العقد ٥ : ١٥٠ و ٢٣٢ ، ونسبهما لذؤيب بن عمرو ، يقولهما لأبيه ، وذكر قبلهما :
يا كعب إن أخاك منحقبٌ إن لم يكن بِكَ مرةً كعبُ

(٢) فى العقد « جانيك من يجنى عليك » .

(٣) المقارف : المرتكب ؛ وموضع هذا البيت فى العقد ٥ : ٢٣٧
والحربُ قد تضطرُّ صاحبَها نحو المضيق ودونَهُ الرّحبُ

أتبذر : أتزرع ، والبَذْر الحبوب تزرع : السِّباخ : الأرض ذات الملح والرَّشْح ، وهي لا تنبت شيئاً لملوحتها وقلة جفافها ، وأراد: أتزرعُ نطفتَك في موضعٍ لا يقبل الولد ، تستَفْرِخ : تلتمس عمل الفرخ . اعزب : غب

طوّق الحمامة : جعل لها طَوْقاً ، والحمام عند العرب ذوات الأطواق نحو الفواخِت والوَرَاشين والقمارىّ ، ودخلت الهاء على أنه واحد للجنس لا للتأنيث ، الليث : تقول العرب : حمامة ذكر ، وحمامة أنثى ، والجميع الحمام .

الشافعي : كلّ ما عبّ وهَدَر فهو حمام ، يدخل فيه القمارى والوراشين ؛ سواء كانت مطوّقة أو غير مطوّقة ، آلفة أو وحشية ، وهذا القول كأنّه الأكثر لأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يأمر بأخذ الحمام التي تستفرخ في البيوت ، وليست ذوات أطواق ، وكان يسمّيها حماما ، وكان في منزله حمام أحمر ، اسمُه وَرْدان ، وقد قدّمنا فصلا في الحمام في الصدر

تخرّق الرجل : أوهم أنه على حق وصواب ، وهو على خلافه

[قصة زواج مسيلمة بسجاح]

وأوردُ هنا في شرح تزويج مسيلمة بسجاح ما يبيّن سخف نبوّتهما ، وإن كان الحريري قد أشار إلى ذلك في هذه المقامة .

(١) كان مسيلمة بن حبيب الحنفيّ ، ثم أحد بني الدِّيل ، قد تسمّى بالرحمن في الجاهلية ، وكان من المعمّرين .

ذكر وثيمة بن موسى أن مسيلمة تسمّى بالرحمن قبل أن يولَد عبد الله أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولمّا بُعِث رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت قريشٌ تقول: إنّما يعلّم محمدا رجلٌ يقال له الرحمن، فنزلت ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ﴾(٢) وكانت بنو تميم قد تخاذلت في أمر الرِّدة بعد موت النبي صلى الله

(١) القصة في تاريخ الطبري ٣ : ٢٧٦ وما بعدها (٢) سورة الرعد ٣٠

عليه وسلم واختلفوا فى ذلك اختلافاً شديداً ، فبينما هم على ذلك إذ فاجأتهم سجاح بنت الحارث مقبلةً من الجزيرة ، تقود بنى ربيعة . فأتاهم أمرٌ كان أعظمَ مِمّا هُمْ فيه من الاختلاف ، وكانت سَجَاح تميميّة وبنو أبيها فى تغلب ، وادّعت النبوّة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم فى الجزيرة ، فاجتمعتْ عليها بنو تميم ورؤساء تغلب ، فادّعت أنّها أنزل عليها . « يأيّها المؤمنون المتقون ، لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكنّ قريشاً قوم يبغون » . فاجتمعت تميم كلها تنصرُها ، فكان فيهم الأحنف وحارثة بن بدر ووجوه بنى تميم ، وكان مؤدّبها شبيبَ ابن ربعىّ الرياحىّ ، فقالت : « أعِدُّوا الركاب ، واستعدوا للنّهاب ، ثم اغدوا على الرّباب ، فليس من دونهم حجاب » . فصمدت إليهم ، وقتلت فيهم قتلاً كثيراً ، ثم قالت لأجنادها : اقصدوا اليمامة ، فقيل لها إن شوكة أهل اليمامة قويّة شديدة وقد غَلُظ أمرُ مسيلمة ، فقالت : « يامعاشر تميم ، اقصدوا اليمامة ، فاضربوا فيها كل هامة ، وأضرموا ناراً ملهامة ، حتى تتركوها سَوْداء كالحمامة » ، وإنّ الله تعالى لم يجعل هذا الأمر فى ربيعة - تعنى نبوّة مسيلمة - وإنما جعلها فى مُضَر ، واقصدوا هذا الجمع ، فإذا قصدتموه عكّرتم على قريش .

فسارت فى قومها ، وهم عدد لا يُحصى ، وبلغ مسيلمةَ الخبرُ ، فضاق به ذرعا ، وتحصّن فى حِجْر حصن اليمامة ، وأحاطت به جيوشها ، فأرسل فى وجوه قومه ، وقال : ماترون ؟ قالوا : نسلّم هذا الأمر لها ، فإن لم نفعل فهو البوار . فقال لهم بدهائه : سننظر . ثم بعث إليها ، وقال : إنّ الله قد أنزل عليك وحياً وعلىّ ، فهلمّى نجتمع فنتدارس ما أنزل الله ، فمن عرف الحق تَبِعه ، واجتمعنا ، فأكلنا العرَب أكلاً بقومى وقومك . فأنعمت له ، فأمر بضرب قبّة من أدَم ، فضُرِبت وأمر بالعود المندلىّ فبُخّرت به ، وقال : أكثروا من الطيب ، فإن المرأة إذا شمّتْ رائحته ذكرت الباه . وأتته إلى القبة ، وقالت : هات ماأنزل عليك ربك ،

فقال: « ألم تر كيف فعل ربك بالحُبْلَى ، أخرج منها نسمةً تَسْعَى، ومن بين صِفاق[1] وحَشَى ، من بين ذكر وأنثى ، وأمات وأحيا ، إلى ربكم يكون المنتهى » . قالت: وما ذاك ؛ قال : « ألم تر أن الله خلقنا أفراجاً ، وجعل لنا النساء أزواجاً ، فنولِجُ فيهنّ قعسا إيلاجاً ، ونخرجه منهنّ إذا شِئنا إخراجا » ، قالت : فبأىّ شىء أمر ربك ؟ قال :

ألا هُبِّي إلى الخِـدعْ ... فقد هُيِّئ لك المضجعْ
فإن شئتِ ففى البيت ... وإن شئتِ ففى الخِدَعْ
وإن شئتِ سَلَقْناكِ[2] ... وإن شئتِ على أربَعْ
وإنْ شئتِ بثلثيـــه ... وإن شئتِ به أجمَعْ

قالت : بل به أجمع . قال : كذلك أوحى إلىّ . فواقعها فلمّا قام عنها قالت : إنّ مثلى لا يُنكَح هكذا ، فيكون وَصْمَةً على قومى ، ولكنّى مسلّمة لك النبوّة ، فاخطبنى إلى أوليائى يزوّجوك ، ثم أقود معك تميماً . فخرج وخرجت معه ، واجتمع الحيّان : حنيفة وتميم ، فقالت سَجاح : إنه قرأ علىّ ما أنزل عليه ، فوجَدْتُه حقا ، فتبعته ، ثم خطبها فزوّجوه منها .

وقال الأغلب العجلى فى ذلك :

قد لقيتْ سَجاحُ من بعد العمَى ... ملوّحاً فى العين مشدودَ القُوَى
كأنّ عِرْق أيْرِه إذا بدا ... حبل عجوز ضفرت سَبْعاً قُوَى
مازال عنهـــا بالحديث والمُنَى ... والخُلُقِ السَّفْسافِ يَرْدَى فى الرَّدَى[3]
قال : ألا أدخِلُه ؟ قالت : بَلَى ... فشام فيها مثلَ محراب العَصَا

(١) الصفاق : الجلد الأسفل الذى تحت الجلد الذى عليه الشعر .
(٢) سلقه : ألقاه على قفاه .
(٣) السفساف : الردىء . ويردى مثل يرضى : هلك .

تقول لمّا غاب فيها واستوَى لمثل هذا كنت أحْسِبك الحُسَى

واليمامة بلدُ الزرقاء . وسيأتى ذكرها فى الخمسين ، فعلى نحو ماذكرنا من أمرسجاح ، ذكَرَها أكثرُ أهلُ الأخبار.

وقال الفنجديهىّ: سَجاح بنت الحارث بن سويد بن عِقْيان ،من بنى يربوع ، كنْيتها أم صادر ، ادّعت النبوّة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم فى الجزيرة فى بنى تغلِب ، فاستجابوا لها ، وتبعها قوم من تميم ، وظهر أمرها حتى هابتْها العرب وصالحتها ، لتجوز فى بلادهم حيث شاءت . فسمعت بمسيلمة فى اليمامة ، فقالت لقومها «عليكم باليمامة ، دُفّوا إليها دفيف الحمامة[1] ، فإنها غزوة صرامة ،لا تلحقكم بعدها ملامة ».

وبلغ مسيلمةَ خبرُها فهابها ، وخاف إن هو شُغِل بها غليه ثمامة بن أثال وشرحبيل على حُجْر اليمامة إذ هما من قِبَل أبى بكر رضى الله عنه ، فأرسل إليها يستأمنها على نفسه ، فأمّنته فجاءها فى أربعين من بنى حَنيفة ، فقال لها : نصف الأرض لى ، والنصف الذى كان لقريش صار لك ، فقالت : لا يردّ النصف إلا من جَنف ، فاحمل النّصف . فصالحها على أن يحمل إليها نصف غلاّت اليمامة من تلك السنة ، وعلى أن يُسلِفَها ثمن غلات السنة المقبلة .ففعلت منه ، وقدِم لها مغلّ تلك السنة ، ورجعت إلى الجزيرة ، فلم تزل فى بنى تغلِب حتى نقَلَهُمْ معاوية عام انفراده بالملك إلى الكوفة ، فانتقلت معهم ، وحسن إسلامها .

[قصة تخاصم أبى الأسود مع امرأته]

وأظن أن الحريرىّ صوّر تخاصمَ زوجة أبى زيد معه على تخاصم أبى الأسود الدؤلىّ مع زوجته عند معاوية .

---

(١) ط : « الجماعة » تحريف ، والصواب ما أثبته من تاريخ الطبرى .

حدث أهل الأخبار قالوا : كان أبو الأسود كبيراً عند معاوية ، وكان معاوية يجالسه ويُدْنيه ، ويسأله فيجيبه فيما يعلم ، فبينما هو ذات يوم عند معاوية وقد قدم المدينة إذ دخلت عليه امرأة بَرْزَة[1] فقالت : أصلح الله أمير المؤمنين وأمتع به ! إنّ الله جعلك خليفة فى البلاد ، ورقيباً على العباد ، يُسْتَسْقى بك المطر ، ويُسْتَنْبت بك الشجر ، ويُؤمَّن بك الخائف ، ويُرْدَع بك الجانف[2] . أنت الخليفة المصطفى ، والأمير المرتضى ؛ فنسأل الله لك النعمة فى غير تغيير ، والبركة من غير تقتير ؛ فقد ألجأنى إليك يا أمير المؤمنين أمرٌ ضاق بى عنه المخرج ، من أمر كرهتُ عاره ، لمّا أردتُ إظهاره ، فليكشف عنى أمير المؤمنين ، وليُنصفنى من الخصم ، وليكن ذلك على يديه ، فإنى أعوذ بك وبحَقْوَيْك من العار الوبيل ، والأمر الجليل ؛ الذى يشتدّ على الحرائر ، ذوات البيوت الأخاير .

فقال لها معاوية : مَنْ هذا الذى أشركِ شعارَه ؟ قالت : أمر طلاقٍ جائر ، من بعْلٍ غادر ، لا تأخذه من الله مخافة ، ولا يجد بأحد رأفة ، قال : ومَنْ بعلُكِ ؟ قالت : هو أبو الأسود . فالتفت معاوية إليه فقال : أحقٌّ ما تقول هذه المرأة ؟ فقال : إنّها تقول من الحق بعضاً ، وليس أحد يطيق عليها نقضا . أما ما ذكرتْ من أمر طلاقها فحق ، وسأخبرك عن ذلك بصدق ، أنا والله ما طلقتُها لريبة ظهرتْ ، ولا مِنْ هفوةٍ حضرت ؛ ولكن كرهت شمائلها ، فقطعت حبائلها . قال : فأىّ شمائلها كرهتِ ؟ قال : إنك تهيِّجها علىّ جواب عتيد ، ولسان شديد . قال : لابدّ من جوابها ، قال : هى يا أميرَ المؤمنين كثيرة الصَّخب ، دائمة الذَّرَب ، مُهينة للأهل ، ومُؤذِية للبَعْل ؛ إن ذكَر خيراً دفنته ، وإن ذكَر شرّا أذاعته ، تخبر بالباطل ، وتَطِير مع الهازل ، لا تنكِل عن عَتْب ، ولا يزال زوجها معها فى تعب ؛ فقالت : أما والله لولا حضور أمير المؤمنين ، ومَنْ حضر من المسلمين ،

---

(١) امرأة برزة ، أى بارزة المحاسن . أو المرأة الجليلة التى تبرز للقوم يجلسون إليها ويتحدثون .

(٢) الجانف : المائل .

رفع المسهم

ترددت عليك بوادرَ كلامك بنوادرَ تردَعُ كلَّ سهامك. فقال معاوية : عزمتُ عليك لما أجَبْتِه ! فقالت : هو والله ياأمير المؤمنين سئول جهول ، ملحاح ملول ، إن قال فشرّ قائل ، وإن سكت فقَدْمٌ غائل ، ليثٌ حين يأمن ، ثعلب حين يخاف ، شحيحٌ حين يُستضاف ، إن التُمِسَ الجود عنده انقمع ، لما يعلم من لؤم آبائه ، وقصر رشائه ، ضيفه جائع ، وجاره ضائع ، لايحمي ذِماراً ، ولا يُضْرم ناراً ، ولا يَرعى جِواراً ، أهون الناس عليه مَنْ أكرمه ، وأكرمهم عليه من أهانه .

فقال معاوية : مارأيت أعجبَ منها . انصرفي رواحاً[1] ، فلمّا كان العشيّ جاءت ، فلما رآها أبو الأسود قال : اللهمّ اكفني شرّها ، فقالت : كفاك الله شرّي ، وأرجو ألاّ يعيذك من شرّ نفسك . قال : ناوليني هذا الصبيّ حتى أحمله ، قالت : ماجعلك الله بأحقّ من يحمل ابني مني . فوثب فانتزعه منها ، فقال معاوية : مهلا يا أبا الأسود . قال : ياأمير المؤمنين حملتُه قبل أن تحمِلَه ، ووضعته قبل أن تضعه ، وأنا أقوم عليه في أدبه ، وانظر في أوَده ، أمنحه علمي ، وألهمه حلمي ؛ حتى يكمل عقله ، ويستحكم قِيلُه ، قالت : كلاّ أصلحك الله احمله خِفّاً ، وحلته ثِقلاً ، ووضعه شهوة ، ووضعته كُرْهاً . حجري فناؤه ، وبطني وعاؤه ، وثديي سقاؤه ، أكلؤه إذا نام ، وأحفظه إذا قام .

فقال معاوية : مارأيت أعجبَ من هذه المرأة ! فقال أبو الأسود : ياأمير المؤمنين ، إنها تقول من الشعر أبياناً فتجيدها ، قال : فتكلّف أنت لها أبياناً لعلك أن تقهرها بالشعر ، فقال أبو الأسود :

مَرْحباً بالتي تجور عليها ثمّ أهلاً بالحاملِ المحمولِ
أغلقتْ بابها عليّ وقالت إنّ خير النِّسا ذواتُ البعولِ
شغلتْ قلبها عليّ فراغا هل سمعتم بفارغٍ مشغولِ !

(١) الرواح : العشي .

فقالت :

ليس مَنْ قالَ بالصواب وبالحـــقِّ كَمَنْ حاد عن مقار السبيلِ
كان حجرى فِناءهُ حين يُضْحى ثم ثدبى سقاؤُه بالأصيـــلِ
لستُ أبغى بواحِدى يابن حربٍ بدلاً ما رأيته والجاهـــلِ

فقال معاوية رضى الله عنه :

ليس مَنْ قد غذاه طفلاً صغيراً وسقاه من ثديه بالجدُولِ
هى أولى به وأقربُ رحما من أبيه وفى قضاء الرّسولِ

ثم دفعه معاوية إليها .

* * *

فزفَرَ أبو زيدٍ زَفيرَ الشُّواظ ، واستَشاطَ استِشاطَةَ المغتاظ ، وقال لها : وَيْلَكِ يادَرفارِ يا فَجار ، يا غُصَّةَ البَعْل والجار ، أتَعمَدين فى الخَلْوةِ لِتَعْذيبى ، وتُبدِينَ فى الحفلَةِ تَكْذيبى !

وقد علمتِ أنّى حِينَ بَنَيْتُ عَلَيْكِ ، ورَنَوْتُ إليكِ ، ألْفَيتُكِ أقْبَحَ مِنْ قِرْدَة ، وأيْبَسَ مِنْ قِدَّة ، وأخْشَن من لِيفَة ، وأنتَنَ مِنْ جِيفَة ، وأثقَلَ مِنْ هَيْضة ، وأقْذَرَ مِنْ حِيضَة ، وأبْرَزَ من قِشْرَة ، وأبرَدَ مِنْ قِرَّة ، وأحمَقَ من رِجْلة ، وأوْسَعَ من دِجْلة ؛ فَسَتَرْتُ عَوارَكِ ، ولم أُبْدِ عارَكِ . عَلَى أنّه لَوْ حَبَتْكِ شَيْرِينُ بجَمالِها ، وزُبَيْدَةُ بمالِها ، وبِلقيسُ بعَرْشِها ، وبُوران بفَرْشِها ، والزَّبّاء بمُلْكِها ،

رفع المسهم

ورَابعة بِنُسْكِها ، وخندفُ بِفخرِها ، والخَنْساء بشِعْرها فى صَخرِها ، لأنِفتُ أَنْ تَكُونِى قعِيدَةَ رَحْلِي ، وَطَرُوقَةَ فَحْلِي .

* * *

قوله : زفر : أى تنفّس بغيظ ، والزَّفْر والزَّفير ردّ النفس فى جوفه حتى تنفخ عروقه . قال ابن عرفة : الزَّفير من الصدر والشَّهيق من الحلق . الشُّواظ : النار بغير دخان وزفيره : صوت انقاده . استشاط : اشتدّ غيظه وانتشر فى جسده .

يا فَجَار : ابن عمر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : « مَنْ قذف امرأته جُلِد يوم القيامة مائة جلدة بسياط من نار » .

والغُصّة : ما يختنق به . والبعْل : الزوج ، وأراد أنّها مؤذية يشقى بها زوجها وجارها ، كما يشقى صاحب الغُصّة . تعمدين : تقصدين . الخَلْوة . الانفراد . والخفْلة : الاجتماع . بنيتُ عليك ، أى تَزَوّجتك ، وكانت العرب إذا تزوج الرجل بَنَى على أهله قُبّة ، فيسمّى دخول الزوج بناء لذلك . رنوتُ : نظرتُ . ألفيتك : وجدْتُك . قِدّة : شراكة تُقَدّ من جلد غير مدبوغ . واللِّيفة ، واحدة ليف النخل ، وهى التى تكون بين الجرائد . هَيْضة : هى التخمة تئول إلى القىء والإسهال وقِشْرَة الشىء : ما علا عليه

ودِجْلة : نهر العراق ، وعليه بغداد والبصرة ، وواسط على جَرْفها ، ويجرى على وجه الأرض أربعمائة فرسخ . ولم يحمل الحريرىّ مبالغة السعة على هذه ؛ وإنما أراد دجلة العوراء ؛ وهى التى انتشر ماؤها فى البطاح ، حتى صارت سعتها هنالك ثلاثين فرسخا فى مثلها .

وقال ابن سُكّرة يهجو امرأة بالسِّعة :

لاتعذُلونى على ما كان من مَلَلٍ مَنْ ذا يراكِ ولا يصبُو إلى المَلَلِ[1]

(١) يتيمة الدهر ٣ : ١٣ .

إن كنت أبصرت أشفى منك فى بصرى فلا بلغتُ الذى أهواه مِنْ أمل
البحر أنت ، وأيْرى ليس من سَمَكٍ وليس بينى و بين البحر من عمل

قال هشام بن عبد الملك للأبرش الكلبىّ : زوِّجْنى امرأة من كلْب ، فزوّجه ، فقال له ذات يوم يهزل معه: تزوّجنا إلى كلْب، فوجدنا فى نسائهم سمة، فقال الأبرش : ياأميرَ المؤمنين ، إن نساء كلبٍ خُلِقْنَ لرجال كلب .

وسمع رجل من كِنْدَة رجلا يقول : وجدنا فى نساء كندة سمة ، فقال : إنّ نساء كندة مكاحل فقَدَتْ مَرَاودها.

قيل: لامرأة تُطلَّق كثيراً : مابالك تُطلّقين أبدا ؟ قالت: يريدون الضّيق: ضَيّق الله عليهم .

قوله: فسترت عَوارك ، ابن عباس، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « مامِنْ مُسْلِمٍ اطّلع على عورة مسلم فأذاعها عليه شماتة وعدوانا إلا كان حقّاً على الله أن يَفْضَحه عاجلا أو آجلا ، ومَنْ سترها عليه كان حقًّا على الله أن يدخله فى ستره وحجابه يوم تُبْلَى السرائر وتُخْرَج الخبآت » . حَبَتْك : أى خَصّتك .

وشيرين هى بنت أبرويز بن هرمز ، وكانت آية فى الجمال ، وغاية فى الحسن والكمال ، فاقت نساء زمانها صيانةً وظَرْفاً، وبَهرتْهنّ ملاحةً ولُطْفاً ، وخلّفت فى العراق آثاراً منها قصر شيرين ، ولها قصة منظومة مشهورة بالعجمية .

[زبيدة بنت جعفر زوج الرشيد]

وزبيدة : هى بنت جعفر بن عبد الله بن أبى جعفر المنصور ، زوجُها هارون الرشيد ، وجدّها المنصور ، وعَمّها المهدى ، وابنها الأمين ؛ فكانت الخلافة قد اكتنفتها ، وليس فى بنى هاشم عباسيّة وَلَدَتْ خليفة إلا هى . ولدت فى حياة المنصور ، فسمّيت أمَة العزيز .

رفع المسهم

وكان المنصور يرقصها ويقول: بازُبَيْدة أنت زبيدة ! فغلب ذلك على اسمها، وكانت أموالها لا تحصى ، وأنفقت فى سبيل الله وفى الحج وفى بناء المساجد والقناطر ما لم ينفقه أحد قبلها ؛ فمن ذلك ما أنفقت فى حفرها للعين المعروفة بعين المشاش بالحجاز ، فإنها حفرتها ، ومهّدت الطريق لها فى كلّ رفع وخفض ، حتى أجرتها من مسافة اثنى عشر ميلا ، فأحصى ما أنفقت فيها فوجد ألف ألف وسبعمائة ألف دينار ، دون ما كان فى وقت الشغل بها فى البذل ، وما عمّ أهلَ القافلة ، ولها فى طريق مكة من العراق آثار كثيرة فى مصانع حفرتها ، وبِرَكٍ أحدثتها ، تنزل وفود الحج عليها ، فلا تجد ماء إلا فيها ، فيشربون ويسقُون إبلَهم ، ويتزوّدون وهم فى الكثرة أعداد لا يحصيهم إلا خالقُهم ، والكل داعون لزبيدة إلى زماننا هذا.

وأما آثارها الملوكية ، فإنها أوّلُ من اتخذت الآلات من الذهب والفضة المكلّلة بالجوهر . وبلغ ثوب وشى اتخذ لِلباسها خمسين ألف دينار .

وهى أول من اتخذ القباب من الفضة والأبنوس ، وكلاليبها من الذهب ، ملبسة بالوشى والديباج ، وأنواع الحرير الملوّن ، وهى أوّل مَن اتخذ الخفاف المرَصّعة بالجوهر ، وشماع العنبر . ولما أفضى الأمر إلى ابنها الأمين رفع منازل الخدَم ككوثر وغيره ، فلمّا رأت حُبّه فيهم اتخذت له الجوارى المقدودات الحسان الوجوه ، وعمّمت رءوسهنّ ، وجعلت لهن الطّرَر والأصداغ والأقفية ، وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق ، فبانت قدودهنّ ، وبرزت خُصورهنّ . وبعثت بهنّ إليه ، فاستحسنهنّ وأبرزهنّ للناس ، فسمّوهنّ الغلاميات .

وأخبارها كثيرة ، وعندما قُتِل الأمين دخل عليها بعضُ خدمها ، فقال لها : ما يُجلسك وقد قتِل أمير المؤمنين ؟ فقالت : ويلك وما أصنع ؟ قال : تخرجين وتأخذين بدمه ، كما خرجت عائشة تطلب بدم عثمان ، فقالت : اخسأ لا أمّ لك ! ما للنساء وطلب الدماء ! ثم أمرت بثيابها فسُوّدَت ودعت بدواة ، فكتبت إلى المأمون:

أخيرَ إمام قام من خير عنصرِ وأفضل راقٍ فوق أعواد مِنْبَرِ
ووارثَ علم الأوّلين وفخرَهم إلى الملك المأمون من أمّ جعفرِ
كتبتُ وعيني تَسْتَهِلُّ دموعها إليك ابن عمي من جُفوني ومحجري
أصبْتُ بأدنى الناس منك قرابةً ومن زال عن عيني فقلّ تصبُّري
أتى طاهرٌ، لا طهّر الله طاهراً،[1] فمـــا طاهر في فعله بمُطهَّرِ
فأبرزني مكشوفة الوجه حاسراً وأنهب أموالي وحرّق أدوُري
يعزّ على هارون ما قد لقيتُه وما نالني من ناقص الخلق أعورِ
تَذَكّرْ أميرَ المؤمنين قرابتي فديتُك من ذي قربةٍ متذكّرِ
فإن كان ما أبدى لأمرٍ أمرته صبرتُ لأمرٍ من قَدِيرٍ مُقَدَّرِ
وإنْ كان ما قد كان منه تعدّياً علىّ أمير المؤمنين ففيّرِ

فلمّا قرأها المأمون، بكى بكاء شديداً، ثم قال: إنّي لأقول كما قال عليّ أمير المؤمنين حين بلغه قتلُ عثمان رضي الله عنهما: والله ما أمرتُ، ولا رَضِيتُ، اللهمّ جَلِّلْ قلب طاهر حزنا.

قال إبراهيم الحربي: رأيتها في المنام، فقلت لها: ما فعل الله بك؟ فقالت: غفر لي، فقلتُ: بما أنفقت في طريق مكة؟ فقالت: أما النفقات فرجعت أجُورَها إلى أربابها، وغفر لي بنيّتي.

[بوران بنت الحسن بن سهل وزوجها بالمأمون]

وأما بُوران فهي خديجة بنت الحسن بن الحسن بن سهل، تزوّجها المأمون على يد إسحاق الموصليّ، وفي هذا التزويج قِصّة الزّبال وهي طويلة ظريفة، نذكرها على جهة الاختصار، حدّث إسحاق الموصليّ قال:

---

(١) هو طاهر بن الحسين قائد المأمون ؛ قتل الأمين بتدبيره سنة ١٩٨ .

بينا أنا ذات يوم عند المأمون ، وقد خلا وجهُه ، وطابت نفسه ، فقال : يا إسحاق ، هذا يوم خلوة وطيب ، فقلت : طيَّب الله عيش أمير المؤمنين ، وأدام سرورَه وفرحَه . فأخذَ بيدى ، وأدخلنى فى مجالس غير التى كنّا فيها ، فأخذنا من المآكل والشرابِ حتى غَرُبت الشمس ، فقال : قد عَزَمْتُ على دخول إلى دار الحرم ، فلا تَرِمْ حتى آتيك ، فنَهض وبقيتُ إلى عامة الليل ، وكان المأمون أشغفَ خلق الله بالنساء ، وأشدّهم ميلاً إليهنّ ، فقلت فى نفسى : هو فى لذة وأنا فى غير شىء ، وتذكرتُ صبيّةً اشتريتُها ، وكنت عزمت على افتضاضها فنهضت إلى الباب ، فقال الحاجب : أين تريد ؟ فقلت : الانصراف ، قال فإن طلبَك ، قلت هو من لذة السرور فى شُغْلٍ عن طلبى ، فقيل لى : إن غلمانك استبطئوك وانصرفوا . فجيء بدابة ، فركبتُها ومشيت ، فأحسست بالبول ، فصدت إلى زقاق لأبول ، فبلْتُ وقمت لأتمسح بالحيطان إذا أنا بشىء معلّق من تلك الدور ، فنهضت فإذا بزِبيل[1] كبير بأربع آذان ، ملبس ديباجا ، فقلت : إنّ لهذا سببا ، وبقيت أتروّى فى أمره ، ثم قلت : والله لأجلسنّ فيه كائنا ما كان ، فجلست ، فلمّا أحسّ بى الذين يرقبونه ، جذبوه إلى رأس الحائط ، فإذا أربع جوار يقُلن لى : انزل بالرّحب والسعة ، فمشتْ بين يدىّ جارية بشمعة ، حتى نزلتُ إلى دار نظيفة إلى مجالس مفروشة ، لم أرَ مثلَها إلاّ فى دار ملك ، فجلست فما شعرت إلاّ بعد ساعة ، حتى أزيلت ستور كانت فى ناحية الدار ، وإذا وصائف يتماشين ، فى أيديهنّ الشمع ، وبعضهنّ بمجامر يحرق فيها العود ، وبينهنّ جارية تتهادى كأنّها البدر الطالع ، فنهضتُ قائماً ، فقالت : مرحبا بك من زائرا وجلست . ثم استطردتْ إلى سؤالى أبدع استطراد ، فقلت : انصرفت من عند بعض إخوانى ، وغَرّنى الوقت ، وحرّكنى البول ، فعدلتُ إلى هذا الزقاق ،

---

(١) الزبيل : القفة أو الوعاء .

رفع المسهم

فوجدت زبيلاً معلّقاً ، فحملنى النبيذ أنْ جلست فيه ، فإن كان خطأ فالنبيذ أكسبَنيه ، قالتْ : لا ضيرَ ، أرجو أن تحمَد عاقبة أمرك ، قالت : فما صناعتك ؟ قلت: بزّاز من بغداد ، قالت : فهل رويت من الأشعار شيئاً ؟ قلت : شيئاً ضعيفا ، قالت : فذا كِرْنا ، قلت : إن الداخل حشمةً ولكن تهدئين ، قالت : صدقَت ، فأنشدْتنى لجماعة من القدماء والمحدَثين من أجود أقاويلهم ، وأنا مستمع لا أدرى مِمّ أعجب ! أمِنْ حسنها ، أم من حُسْن روايتها وجودة ضبطها للغريب ، أم من اقتدارها على النّحو ومعرفة أوزان الشعر ! ثم قالت: أذَهَب ما كان عندك من الحصَر ؟ قلت : إى والله ، قالت : فإن رأيت أن تنشدنا ، فأنشدتُها لجماعة من القدماء ما فيه مقنع ، فاستحسنتْ ذلك ثم قالت: والله ما ظننت أن يوجد فى أبناء السوقة هذا !

ثم أمرت بالطعام فأُحْضِر ، وقالت : المماجلة[1] أول الرضاع ، فدونك . وجعلتْ تقطّع وتضع بين يدىّ ، وفى المجلس من صنوف الرياحين وغرائب الفواكه ما لا يكون إلا عند سلطان ، ودعت بالشّراب ، فشربتُ قَدَحًا ، ثم سكبتْ لى قدحاً ، فشربت ، ثم قالت: هذا أوان المذاكرة بالأخبار وأيام الناس ، فاندفعتُ فقلت : بلغنى أنه كان كذا ، وكان رجل يقال له كذا ، حتى أتيت على عدة أخبار حسان ، فسُرّت بذلك ، وقالت : كَثُر تعجُّبى أن يكون أحدٌ من التجار يحفظ مثل هذا ، وإنّما هذه أحاديث ملوك ، فقلت : كان لى جار يُنَادم الملوك ، فإذا تعطّل حضرتُ معه ، فربّما حدّث بما سمعتِ ، فأخذتها عنه . فقالت : لَعمْرى لقد أحسنتَ الحفظ ، وما هذا إلا لقريحة جيّدة ، وأخذنا فى المذاكرة إذا سكتّ ابتدأتْ هى ، وإذا سكتّ ابتدأتُ أنا ، حتى قطعنا عامة

---

(١) يقال : ملج الصبى أمه ، أى تناول ثديها بأدنى فمه ، والكلام على التشبيه .

رفع المسهم

الليل ، وبخور العود يَعْبق ، وأنا فى حالة لو توهمها المأمون لطار فرحاً . فقالت : إنك من الرجال وضيء الوجه ، بارع الأدب ، وما بقيَ عليك إلا شيء واحد . قلت : وما هو ؟ فقالت : لو كنت تترنَّم ببعض الأشعار ! فقلت : والله لقديما كُلِفْتُ به ولم أرزَقه ، فأعرضت عنه ، وفى قلبى منه حزازة ، وكنت أحبّ أن أسمع فى مجلسى هذا منه شيئاً لتكمل ليلتى ، قالت : كأنّك عرّضت بنا ! قلت : والله ماهو تعريض ، قد بدأتِ بالفضل وأنتِ جديرةٌ باستتمامه . فأحْضِر عودٌ بأمرها ، فغنّت بصوت ماسمعت كحسنه ، مع حسن أدائه ، وجَوْدة الضرب . فقلتُ : والله لقدأ كمل الله فيك خلالَ الفضل وحَباكِ بالكمال الراجح ، والعقل الوافر ، والأخلاق الرضيّة والأفعال السنية . قالت : هل تعرف هذا الصوت ومَنْ غنّى فيه ؟ قلت : لا والله ، قالت الشعر : لفلان ، وكان سببه كذا والغناء لإسحاق ، قلت : وإسحاق هذا جُعِلْتُ فداك فى هذا الحال ! قالت : بخٍ بخٍ ! إسحاق بارع هذا الشأن ، قلت : سبحان الله ! لقد أعطىَ هذا مالم يعطه أحد ، قالت : فكيف لو سمعتَ هذا الصوت منه ! فلم نزل كذلك حتى إذا انشقّ الفجر أقبلت عجوز كأنها دَايةٌ لها ، قالت : أى بنيّة ، إن الوقت قَدْ حضر ، فنهضتْ عند قولها ، فقالت : مصاحباً ، لتستر ما كنا فيه ، فإن المجالس بالأمانات ، فقلتْ : جُعِلت فداك ، أفأحتاج إلى وصية فى ذلك ! وودعتها وجارية بين يدىّ إلى باب الدار ، ففُتح لى ، وخرجت إلى دارى فصلّيت الصبح ، ونمْتُ .

فأنبَهنى رسول المأمون فسِرْتُ إليه ، فلما رآنى ، قال : ياإسحاق ، تشاغلنا عنك ، فما كان حالك ؟ قلت : اشتريت صبيّةً وكنت معلّقَ القلب بها ، فمضيتُ لها ، وشربت معها ونِمْت ، فقال : يُهنِيأ مثل هذا ، فهل لك فيما كنا فيه أمسِ ! فقلت : وما يمنع من ذلك ؟ فنهضتُ إلى مجلس أمس ؛ فلما كان العشاء قال : لا تَرِمْ ، فإنى أجيئك ونهض ، فتأمّلت ما كنت فيه البارحة ، فإذا هو شيء

لا يصبر عنه إلا جاهل؛ فخرجتُ . فقال الغلمان : الله الله، فإنه أنكر علينا تخليتَك ، فوعدتُهم أن آتيَ قبل أن يجيء ، وأنّ خروجي لعذر ، وفي الحين أرجع .

فنهضت إلى الزّبيل فجلست فيه ، فرُفع بي إلى موضع البارحة ، فإذا هي قد طلعت ، فقالت : لقد عاودت ، فقلت : ولا أظنّ إلاّ أني قد تثقّلت ، فقالت : مادح نفسه يقرئك السلام ، قلت : فهفوة فُنّي بالفضل. قالت : قد فعلنا ، ولا تُعد، فأخذنا في مثل الليلة السالفة من المذاكرة والمناشدة وغريب الغناء منها إلى الفجر .

فانصرفتُ إلى منزلي وصليت ونمت ، فأنبهني رسولُ المأمون ، فلمّا رآني قال : أبيت إلا مكافأة لنا ! فقلت : والله يا أمير المؤمنين ماذهبت إلى ذلك ، ولكن ظننت أن أمير المؤمنين قد تشاغل عني بلذّته ، وأغفل أمري ، وجاء الشيطان ، فذكّرني أمر تلك الملعونة، فبادرت قال: فما كان منك ؟ قلت : قضيت الحاجَة منها ، قال: فقد انقضى ما كان بقلبك منها ، وواحدةٌ بواحدة ، والبادي أظلم. قلت : بل أنا أظلم ، وإليك المعذِرة ، قال : لا تثريبَ عليك ، فهل لنا في مثل حالنا أمس؟ قلت : إي والله ، فقمنا إلى موضعنا إلى الوقت ، فقال : يا إسحاق ما عزمُك ؟ قلت : لا عذرَ لي ، قال : فعزمت عليك لتجلس حتى أجيء ، فإني عازم على الصّبوح ، وقد نغّصتَ عليّ منذ يومين ، قلت : فالليلة إن شاء الله ، فما هو إلا أن غاب وجالتْ وساوسي ، فلمّا تذكّرت ما كنت فيه البارحة هان عليّ ما يلحقني من سَخَطِه؛ فوثبت مبادراً ، فوثب إليّ جند الدار ، وحُبست ، فقلت : الله الله ! إني معلّق البال ببعض مالي منزلي ، فقالوا : ما إلى تركك من سبيل ، فلم أزل أرغّب هذا وأقبّل يَدهذا ، ووهبت خاتمي لهذا ، وردائي لهذا، وخرجت أعدُو حاسراً حتى وافيت الزّبيل ، فتعدّدتُ فيه ، فرُفِعتُ إلى موضعي ، وأقبلت ، فقالت : صدقنا ! قلت : إي والله ، قالت : أجعلتُها دارَ مقامٍ ؟ فقلت : جُعِلت فِداكِ ! حق الضيافة ثلاث ، فإن رجعتُ فأنتُم في حلٍّ من دمي . قالت:

رفع المسهم

والله لقد أتيتَ بحُجَّة ، ثم جلسنا فى مثل تلك الحال ، فلماّ قرُب الوقت علمت أن المأمون لابُدّ أن يسألنى، ولا يقنع منى إلا بشرح القصّة ، فقلت لها : أراك ممّن يعجب بالغناء ، ولى ابن عمّ أحسنُ منّى وجها ، وأظرف قدًّا ، وأكثر أدبا ، وأنا حسنة من حسناته ، وهو أعرف خلق الله بغناء إسحاق الموصلى ، قالت : طفلىّ وتقترح ؟ قلت لها : أنت الحكَمة ، قالت: إن كان ابنُ عمك على ما تصف فما نكره معرفتَه ، ثم جاء الوقت فنهضتُ فلم أصل إلى دارى إلاّ ورسل المأمون قد هجموا علىّ ، وحملونى حملا عنيفاً ، فوجدته على كرسىّ وهو مغتاظ ، فقال: يا إسحاق أخرجتَ من الطاعة ! قلت: لا والله قال : فما قصّتك وما هذا الانحراف؟ فأصدقنى ، قلت : فى خلوة ، فأومأ إلى مَنْ بين يديه فتنحّوْا فحدثته الحديث وقلت له : قد وعدتُها فى أمرك ، قال : قد أحسنت ، ولولا ذلك لنكّلت بك، فقلت: قد سلّم الله، فأخذنا فى لذتنا فى ذلك اليوم ، وهو لا يسمع منى غيرَ حديثها، فلم يتمّ النهار إلا والمأمون معلّق القَلب، فلما جاء الوقت سِرْنا وأنا أوصيه وأقول: بجنّب أن تظهرنى بحضرتها ، ودعنى من نخوة المُلك ، وكن لى تبعاً ، وهو يقول: نعم ويلك ! وإن قالت : غنّ كيف أصنع ؟ قلت : أنا أدفعها عنك .

ثم سرنا إلى زبيلين فقعدنا فيهما ، فرُفعنا إلى الموضع ، فأقبلت فسلّمت ، فما تمالك إذ رآها أن بُهِت فى حسنها ، وقالت لى : والله ما أنصفتَ ابن عمك إذ لم ترفع منزلته ، وكان قد قعد دونى ، فقالت : ارتفع فديتُك ، أنت جديد ، وهذا قد صار من أهل البيت ، فنهض إلى صدر البيت ، وأقبلتْ تُذاكره وتناشده وتمازحه ، وهو يَظْهر عليها فى كل فن . ثم أحضِر النّبيذ فشربنا ، وهى مقبلة عليه ومسرورة به ، وهو أكثر ، وأخذتِ العود فغنّتْ صوتاً ، وقالت : وابن عمك هذا من التجار ؟ قلت : نعم ، قالت : إنكما لغريبان . فلما شرب المأمون ثلاثة أرطال داخله الفرح والطرب ، ثم رأيتُه ينظر إلىّ نظر الأسد إلى فريسته ، فصاح : يا إسحاق ، فنهضت وقلت: لبيك يا أمير المؤمنين !

قال : غنّ هذا الصوت ، فلمّا علمتْ أنه الخليفة نهضت إلى كِلّةٍ مضروبة ، فدخلتها ، فلما فرغتُ من الصوت ، قال : انظر مَنْ ربّ هذه الدار ؟ فسألت عجوزاً ، فقالت : هو الحسن بن سهل ، فقال : عليّ به ، فغابت العجوز ساعة وإذا الحسن قد حضر ، فقال له : ألك ابنة ؟ قال: نعم بوران ، قال: فزوّجتها ! قال : لا والله ، قال : فأنى أخطُبها إليك ، قال : هى أمَتُك ، وأمْرُها إليك ، قال : قد تزوّجتُها على نقد ثلاثين ألفاً نحملها إليك صبيحة يومنا ، فإذا قبضْت المال فاحملها إلينا ، قال : نعم ، ثم خرجنا .

فقال : يا إسحاق لا يقف على ما وقفْتَ عليه أحد ، فسترتُ الحديث إلى أن مات المأمون ؛ فما اجتمع لأحدما اجتمع لى فى تلك الأربعة الأيام : مجالسة المأمون بالنهار ، ومجالسةَ بُوران بالليل ، ووالله ما رأيتُ أحداً من الرجال فى ملوكهم مثل المأمون ، ولا شاهدت امرأة تقارب بُوران فهما وعقلا ، وما أظن أحداً وقف من العلوم على ما وقفت عليه .

وفى المسعودى : انحدر المأمون إلى فم الصّلح فى شعبان سنة تسع ومائتين ، وأملك[1] بخديجة بنت الحسن بن سهل ، ونَثَر الحسن فى ذلك الإملاك مالم ينثره قطّ ملك فى جاهلية ولا إسلام ، نثر على الهاشميين والقواد والكتّاب بنادق مسك ، فيها رقاع بأسماء ضياع ، وجوار وأسماء دِيار ودوابّ وغير ذلك ، فإذا وقعت البندقة بيد الرجل ، فتحها فيجدها على قدر سعده ، ثم ينثر بعد ذلك الدنانير والدراهم ونوافج المسك على عامة الناس ، وأنفق على المأمون وعلى جميع قواده ، فلما أراد المأمون الانصراف إلى مدينة السلام قال له : يا أبا محمد ، سلْ حوائجك ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، أسألك أن تحفظ عليّ مكانى من قِبَلك ، فأمر المأمون أن يحمل له خراج فارس والأهواز لسنة[2] .

وذكر الحريرىّ فى الدّرة أن المأمونَ لمّا بنى على بُوران ، فرش له حصير منسوج بالذهب ما مسّه أحد ، وعليه در منثور ، فوجّه الحسن إلى المأمون أن

(١) أملك : تزوج (٢) مروج الذهب ٤ : ٣٠

رفع المسهم

هذا نثار يجب أن يُلتقَط، فقال المأمون لمن حوله من بنات الخلفاء : شرّفن أبا محمد ، فمدّت كل واحدة منهنّ يدها ، فأخذت دُرّةً وبقيَ باقي الدرّ يلوح على الحصير المذهب ، فقال : قاتل الله أبا نُواس ، لقد شبّه بشيء ما رآه قط ، فأحسن في وصف الخمرة والحباب الذي فوقها فقال !

كأنّ صُغْرى وكُبْرى من فواقِعها حَصْباءُ دُرٍّ على أرض من الذّهبِ[1]

فكيف لو رأى هذا معاينة !

ويقال : إن الحسن بن سهل نثر في ذلك العرس على المأمون ألف حبة جوهر وأشعل بين يديه شمعة عنبر، وزنها مائة رطل ، فأمر له المأمون بمائة ألف ألف درهم، وأقطعه مدينة فم الصّلح ، وهي قريبة من واسط ، وكان العُرس بها .

وذكر المبرّد أن الملاحين الذين تصرّفوا في هذا العرس نيّفوا على السبعين ألفاً ، وكانت جراية السلطان عليهم ، ولما بَنَى المأمون على بُوران وأراد غشيانها حاضت ، فقالت : أتى أمر الله فلا تستعجلوه ! فنام في فراش آخر ، فلما أصبح دخل عليه أفاضل ندمائه يهنّئونه ويدعون له فأنشدهم بديها :

فارس في الحرب منغمِسٌ عارف بالطّعن في الظُّلَمِ
رامَ أن يُدْمِي فريستَه فأنَقتْهُ من دم بدمِ

وأكثر الشعراء في ذلك الإملاك ، وأستظرف منها قولَ ابن أبي حازم الباهليّ :

بارك الله للحسَنْ ولبُورانَ في الخَتَنْ[2]
يابنَ هارون قد ظفرْ تَ ولكنْ ببنت مَنْ!

---

(١) ديوانه ٢٤٣

(٢) البيتان في معاهد التنصيص ٣ : ١٣٩ ، من شواهد التوجيه ، وهو إيراد الكلام بوجهين مختلفين ، وهنا لم يعلم ما أراد بقوله : « ببنت من » .

فلما وصلت إلى المأمون قال : لا والله ماندْرِى أخيراً أراد أم شرًّا .

ويشبه هذا أن رجلا أتى رجلا خياطاً بثوب ليقطع له منه قميصاً ، فقال : والله لأفصلنّه لك تفصيلا، لايُدْرَى أقميص هو أم قباء ؟ ففعل ذلك ، فقال له صاحب الثوب : وأنا والله لأدعونّ لك دعاء لايُدْرَى ألك هو أم عليك ؟ وكان الخياط يسمّى بِشْرا ، وكان أعور ، فقال :

خاط لِي بشرٌ قَبَاء لَيْت عينيه سواء[1]

وأتت المأمون بجهاز لم يُسمع بمثله قطّ كان فيه الفُرُشُ منسوجةً بالذهب .

وقال إبراهيم بن العباس الصّولىّ يهنئ الحسن بمصاهرة المأمون :

هنّئتَ أكرومةٌ جلّت نعمتَها أعلت وليّك واجتثّتْ أعاديكا[2]

ما كان يُحْبَى بها إلا الإمام ولا كانت إذا قُرِنَتْ بالخلْق تعدوكا

وماتت بُوران فى سنة إحدى وسبعين ومائتين ، وقد بلغت ثمانين سنة .

وتَمّ بُوران أخرى وهى بنت كسرى ، وأمها مريم بنت قيصر ، ملكت سنةً ونصفاً ، وليست المعنيّة فى المقامة .

* * *

[ذكر بِلقيس وعرشها]

وأما بِلقيس فهى ابنة شراحبيل بن أبى سرْح بن الحارث بن قيس بن صيفى ابن سبأ ، وكان سبب مراسلة سليمان إليها أنه فقد الهدهد ، وبه يُعرَف قُرْب الماء من بُعده ، فنزل سليمان عليه السلام بمفازة ، فدعا بالهدهد فلم يُوجَدْ ، فقال وهو غاضب ﴿ مَالِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ ...﴾[3] الآيات. وكان الهدهد قدمرّ بعرش

(١) معاهد التنصيص ٣ : ١٣٨ ، ونسبه إلى بشار، وذكر بعده :

فقلتُ شعراً ليس يُدرَى أمديحٌ أمْ هجـــاء

(٢) ديوانه ١٣٥، ١٣٦ (٣) سورة النمل ٢٠ ومابعدها .

بِلقيس وبساتينها ، فلمّا رجع تلقّته الطير ، فقالوا : تَوَعَّدَك رسول الله بنتف ريشك أو بذبحك، فينقطع نسلُك،فقال : وما استثنى؟ قالوا : بلى، قال :﴿ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾،أي بعذر مبين فأتى سليمانَ فقال:ماغيّبك عني؟قال:﴿أحطتُ بما لم تحطْ به ﴾ حتى بلغ ﴿ فانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ . قالَ سَنَنظرُ أصدقْتَ.. ﴾ الآيات فوجّهه بالكتاب ، فوافقها في قصرها ، فسدّ عليها بالكتاب ضوء طاق ،فالتفتتْ فألقى إليها الكتاب ، فأخذته وغطّته بثوب ، ونادت في قومها فقالت : ﴿ يأيُّها الملأُ... ﴾ الآيات، فقالوا لها: ﴿نحن أولو قوة...﴾ الآيات. ثم قالت: إن قَبِل الهدية فهو مَلِكٌ من ملوك الدنيا وأنا أعزّ منه ، وإن لم يقبلها فهو نبيّ من عند الله .

فلما رجع بالهدية قال سليمان: ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمالٍ ﴾ إلى ﴿وهم صاغرون﴾ . فلما رجع إليها رسلُها بالخبر، خرجتْ فزعة في قومها ـ قال ابن عباس رضي الله عنهما: ومعها ألف قَيْل ، وأهل اليمن يسمون القائد القَيْل ـ مع كل قَيْلٍ عشرة آلاف . وكان سليمان مهيباً لا يبدؤه أحدٌ بشيء حتى يسأل عنه ، فخرج فرأى رَهَجاً قريباً منه،فقال:ماهذا ؟ قالوا : بلقيس ، قال : وقد نزلت منّا بهذا المكان . ثم قال : ﴿ أَيُّكُمْ يأتِينِي بِعَرْشِهَا ﴾ فأتاه به الذي عنده علم الكتاب قبل ماقطع كلامه ، وصرفَ بصَره ، فرآه مستقرًّا عنده ، فقال:هذا من فضل ربي . ثم جاءت بلقيس وقعدت إلى سليمان،فقيل لها :﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ فنظرتْ إليه وقالت :﴿ كأنّه هو﴾ ثم قالت: تركته في قصري والجنود محيطة به،فكيف جيء به! وكانت شعراء الساقين ، فقالت الجن :إن نكحَها سليمان فولدت له غلاماً ماننفكّ من العبودية أبداً ، فلم تبق له بنهاناً ، فيرى شَعْرَها فيه فلا يتزوّجها ، فبنوا له صَرْحاً أخضر من قوارير كأنه الماء ، وجعلوا في باطن طرائقه كلّ شيء من الدواب والسمك وغيره ، وأُلقِيَ لسليمان كرسيّه في أقصاه ،فلما رأى منه مارأى قعد عليه ،ودعا بها فلما رأت صور السمك فيه حسبته لجّة ، وكشفتْ عن ساقيها.فأبصر شَعْرَها سليمان ،

رفع المسهم

فصرف بصره عنها ، وقال إنه صرح ممرّد من قوارير ، فقالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي .. ﴾ الآية . فقال سليمان للجن : ما يُذهِب الشعر ؟ فقالوا : له النُّورة ، فاستعملها سليمان عليه السلام .

وذكر ابن إسحاق أنها لمّا أسلمت ، قال لها سليمان : اختاري رجلاً من قومك أزوّجكه ، فقالت : ومثلي يُنكح ، وقد كان لي من الملك والسلطان ما كان ! فقال لها : ما ينبغي أن تحرّمي ما أحلّ الله لك ، فزوّجها ذا تبع ملك هَمْدان ، وملّكه اليمن ، وردّها معه ، فلم يزل ملك اليمن حتى مات سليمان . وكانت بلقيس من بيت الملكة ، قيل : إنها ولدها أربعون ملكا ، واختلف في أمها فقيل : إنسيّة وقيل جنّية .

وأما عرشها ، وهو سريرها ، فقيل : كان طوله ثمانين ذراعا ، وعرضه كذلك . وكان عرشها صفائح من ذهب وفضة قد ركبت فيه فُصُوصُ الياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر والدرّ واللؤلؤ ، وكان له قائمتان من ياقوت وقائمتان من زَبَرْجد ، والملك لله وحده ، الذي سخر لسليمان هذا الملك العظيم ومَنْ أحضر له هذا العرش العظيم قبل رجع الطرف !

وذكر الحريري في الدرّة : أن صواب لفظ « بِلقيس » أن تكسر باؤه لأن كل أعجمي يُعرّب فقياسه أن يلحق بأمثلة كلام العرب ، قال : وعلى ذلك بِلقيس.[1]

وقرأت في أخبار سيف الدولة أن الخالديّين مدحاه ، فبعث إليهما وصيفاً ووصيفة ، مع كلٍّ واحد منها بَدْرَة وتَخْت من ثياب مصر والشام ، فكتبا إليه :

---

(١) درة الغواص ٦٢ .

لم يَعْدُ شكرك فى الخلائقِ مطلقاً إلا ومالُك فى النَّوال حَبِيسُ[1]
خوَّلتنا شمسا وبدْرًا أشرقت بهما لدينا الظلمة الحِنْدِيسُ
رَشأٌ أتانا وهو حُسْنًا «يوسفٌ» وغزالة هى بهجةً «بِلقيسِ»
هذا ولم تقنع بذاك وهذه حتى بعثتَ المال وهو نفيسُ
أنَتِ الوصيفةُ وهى تحمل بَدْرةً وأتى على ظهر الوصيفِ الكيسُ
وكسَوْتَنا مما أجادت حَوْكَهُ مصرٌ وزادت حُسْنَهُ تِنِّيس
فغدا لنا من جودك المأكول والـ ـمشروبُ والمنكوحُ والملبوسُ

فلما قرأها سيف الدولة قال: أحسنا، إلا فى لفظ «المنكوح»، إذ ليست مما يخاطب بها الملوك.

وهذا من بديع نقده المليح وشواهد ذكائه الصريح.

وأما الزَّبَّاء: فقد تقدّم ملكها فى الرابعة والعشرين.

* * *

[ذكر رابعة العدوية]

وأما رابعة فهى[2] بنت إسماعيل العدويّة، وكانت قد بلغت من النّسك والفضل والزهد منزلة شريفة، وكانت منوَّرة البصيرة، مطهَّرة السريرة، حَظِيَتْ بالمكاشفات الربانية. وكان سفيان الثورىّ يذهب إليها ويسألها عن مسائلَ دينية، ويعتمد عليها، وخطبها عبد الواحد بن زيد، فقالت له بعد أن

(١) ديوان الخالديين ١٦٢.
(٢) انظر ترجمتها فى ابن خلكان ١: ١٨٢

حجبته أياما ثم أذنت له: ياشهوان، أى شىء رأيته فىّ من آية الشهوة! ألا خطبتَ شهوانية مثلك !

وقال أبو سليمان الدارانى: بتّ ليلة عند رابعة العدوية، فقامت إلى محراب لها، وقمت إلى ناحية من البيت فلم تزل قائمة إلى السَّحَر، فقلت: ما جزاء من قوّانا على قيام هذه الليلة ؟ قالت: جزاؤه أن نصوم له غدا.

وزارها أصحابها، فذكروا الدنيا وأقبلوا على ذمّها، فقالت: اسكتوا عن ذمّها، فلولا موضعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها ! ألا مَنْ أحبَّ شيئاً أكثر من ذكره.

واحتاجت رابعة إلى شىء فقيل لها: لو بعثتِ إلى فلان؟ قريب لها، فقالت: والله لا أطلب الدنيا ممّن يملكها، فكيف بمَن لا يملكها !

وحدّث جعفر بن سليمان قال: أخذ بيدى سفيان الثورىّ فقال لى: سربى إلى المؤدّبة التى لا أجدنى أستريح إذا فارقتها - يعنى رابعة - قال: فلما دخلت عليها، رفع سفيان يديه، وقال: اللّهمّ إنّى أسألك السلامة ! فبكت رابعة، فقال لها: ما يبكيك ؟ فقالت: أنتَ عرّضتَنى للبكاء، فقال لها وكيف ذلك ؟ قالت: أمَا علمتَ أن السّلامة من الدنيا تَرْكُ ما فيها، فكيف وأنت مغلطّخ بها !

وقال سفيان الثورى لرابعة رحمة الله عليهما: ما حقيقة إيمانك ؟ قالت: ما عبدته خوف النار، ولا رجاء الجنة، فأكون كالأجير السوء، بل عبدتُه حبًّا له وشوقا إليه، وقالت فى معنى ذلك:

أحبّك حُبّيْن: حبّ الهوى وحبًّا لأنّك أهلٌ لذاكَ

فأمّا الذى هو حبّ الهوى فشُغْلِى بذكرك عمّن سواكَ
وأمّا الذى أنت أهلٌ له فكشفك لى الحجبَ حتى أراكَ
فلا الحمد فى ذا ولا ذا ليا ولكنْ لك الحمدُ فى ذا وذاكَ

وقيل لها : كيف حبّك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : شغلنى حبُّ الخالق عن حبّ المخلوقين .

ودخل سفيان عليها وهى قائمة تصلّى، فلم تعرِّج عليه ، ودخل جعفر ـ وكان يخدمها ـ فقال لسفيان : أىُّ شىء دارَ بينك وبينها ؟ قال: ما كلّمتنى. فقال لها: يا سبحان الله ! الشيخ جاء إليك فما كلّمتيه، فقالت: إن العبد إذا كان مقبلاً على الله عز وجل كان الله مقبلاً عليه ، وقد كنتُ مقبلة على الله عز وجل ، ولست أشكّ فى إقباله علىّ ، فأيما أحبّ إليك أن أكون مقبلةً على الله ويكون مقبلا علىّ ، أو أقبل على هذا ؟ ثم قالت : الله أكبر .

وقال لها رجل : إنى أحبك فى الله، فقالت : فلا تَعْصِىَ الذى أحببتنى له وأنشدت :

أتضمنُ يافتَى تركَ المعاصِى وأرهنه الكفالَة بالخلاَصِ
أطاع الله قومٌ فاستراحُوا ولم يتجرّعوا غُصَصَ المعاصِى

* * *

[ذكر خندف]

وأما خندف ، فهى ليلَى بنت حُلْوان بن عمران بن الحافِ بن قضاعة ، وهى امرأة إلياس بن مضر، ولدَتْ منه عمراً وهو مدركة ، وعامراً وهو طابخة ،

وعميراً وهو قَمَعة ، فندّت لهم إبل ، فخرجوا فى طلبها فأدركها عمرو ، فسُمِّىَ مدركة ، واقتنص عامر أرنباً فطبخها ، فسُمِّىَ طابخة ، وانقمع عمير فى بيته فسُمِّىَ قمعة ، فلما أبطئوا عليها خرجَتْ فى إثرهم ، فقالت : مازلت أخندف فى إثركم ؟ فلقّبت خندف ، والخندفة بالهرولة ، وهى أمّ عرب الحجاز ، وجميع ولد إلياس من خندف ، ولخندف يُنسبُون ، وجميع ولد مضر من إلياس وخندف ، فمن مدركة كنانة وأسد ابنا خُزَيمة ، ومن طابخة ضبّة بن طابخة ، ومزينة والرِّباب ، وهم عدىّ وتميم بن مرّ بن أدبن طابخة ، وثور وعُكْل بن مدركة ، وقُرَيش وهو فى كنانة .

ومنها سيد ولد آدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى مافى كنانة من الشجعان المشاهير فى الجاهلية .

ومن طابخة تميم ، وهى أكبر قبيلة فى العرب وأشجعها ، وهى عدد لا يحصى ، وعزٌّ لايدرك .

وقال المنذر بن ماء السماء ذات يوم وعنده وفود قبائل العرب وَدَعا ببُرْمَتَيْن فقال : ليلبس هذين البردين أكرم العرب وأشرفهم حسباً وأعزّهم قبيلة ، فأحجم الناس ، فقام الأحمر بن خلف بنَ بَهْدَلة بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة ابن تميم ، فلبس أحدَهما وارتدى الآخر ، فقال له المنذر : ماحجتك فيما ادعيت ؟ قال : الشرف من نزار فى مضر ، ثم فى تميم ، ثم فى سعد ، ثم فى بَهْدلة ، قال : هذا أنت فى أصلك ، فكيف أنت فى عشيرتك ؟ قال : أنا أبو عشرة وعم عشرة وخال عشرة قال : هذا أنت فى عشيرتك ، فكيف أنت فى نفسك ؟ فقال : شاهد العين شاهدى ، ثم قام فوضع قدمَه فى الأرض ، وقال : من أزالها فله مائة من الإبل ، فلم يقم إليه أحد ، وفى ذلك يقول الفرزدق :

فما تمّ فى سعدٍ ولا آل مالكٍ غلام إذا ما قيل لم يتبهدَلِ (١)

لهم وهَبَ النّعمانُ بُردى محرّق بمجد معدّ والعديدِ المحصّلِ

فانخندف هذا الفخر فى الجاهلية ثم النبوّة ، ثم المالك إلى يوم القيامة وفيها يقول الراجز :

* وخندف هامة هذا العالم *

* * *

[ذكر الخنساء]

وأما الخنساء فهى تُماضر بنت عمرو بن الشريد ، من سَراة قبائل سُليم بن منصُور بن عكرمة بن خَصَفة بن قيس عيلان ، قدمتْ على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومها بنى سُلَيم ، ولسُلَيْم فى الإسلام سابقة حسنة ، حضر منهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فَتْح مكة وحرب حُنين ألف رجل .

وذكروا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستنشد الخنساء ويعجبُه شعرها ، فكانت تنشده وهو يقول : هيه يا خنساء ! ونظرتْها عائشة رضى الله عنها ، وعليها صِدَارٌ من شَعر ، فقالت: يا خنساء ، أتلبسين الصِّدار وقد نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : لم أعلم بنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وكان للصِّدار سبب، كان زوجى رجلا مِتْلافاً فأملق، وأراد أن يسافر، فقلت له: أقم حتى آتى أخى صخرا ، فأتيته فشاطرنى، ماله فأتلفه زوجى ، فعدت إليه فعاد بمثل ذلك ، فأتلفه زوجى ، فعدت إليه فى الثالثة والرابعة ، فقالت له زوجته : إن هذا المال متلَف ، فامنعها شرار مالك ، فقال :

(١) ديوانه ٧٤٤ .

رفع المسهم

والله لا أمنحُهـــا شرارَها وهى حَصان وقد كفتنى عارَها (١)
ولو هلـكْتُ خرّقَتْ خمارها واتّخـــذت من شعرها صِدارَها

فلما هلك اتّخذت هذا الصّدار .

وقيل لجرير : مَنْ أشعر الناس ؟ قال: أنا ، لولا هذه الفاعلة - يعنى الخنساء - قيل له : فبِمَ فضلتك ؟ قال بقولها :

إنّ الزمان وما تفنى عجائبُه أبقى لنا ذنبًا واستُؤصِل الرّاسُ (٢)
أبقى لنا كلّ مجهول وفجّعنا بالحـالمين فهمْ هامٌ وأرماسُ (٣)
إن الجديدين فى طول اختلافِهما لا يَفْسُدان ولـكن يَفْسُد الناسُ

فأجمع علماء الشعر أنه لم تـكن قطّ امرأة قبلها ولا بعدها أشعرَ منها .

وكان النابغة الذبيانى يجلسُ لشعراء العرب بعُكَاظ على كرسىّ ، ينشدونه فيفضل من يرى تفضيلَه ، فأنشدته فى بعض المواسم فأُعجب بشعرها ، وقال لها : والله لولا أنّ هذا الأعمى أنشدنى قبلك - يعنى الأعشى - لفضّلتك على شعراء هذا الموسم .

وكان بشار يقول : لم تقل امرأة شعرا إلاّ ظهر الضعف فيه ، فقيل له : أوَ كذلك الخنساء ؟ فقال : تلك كان لها أربع خصى .

ومن جيّد ما رثت به صخرا قولُها :

---

(١) شرح ديوان الخنساء ٢١ ، الأغانى .

(٢) ديوانها ١٥٥ ، وروايته : « وما يفنى له عجب » .

(٣) فجعنا : أحزننا ، والهام : جمع هامة ، أراد به هاهنا الجثث والمرقات . والأرماس : القبور ، جمع رمس .

ألا يا صَخْرُ إن أبكيتَ عيني لقد أضحكتني دَهْراً طويلا (١)
بكيتُك في نساء معـولاتٍ وكنتَ أحقَّ من أبدَى العويلا
دفعتُ بك الجليلَ وأنت حيٌّ فمن ذا يَدْفَعُ الخَطْبَ الجليلا
إذا قَبُح البكاء على قتيلٍ رأيت بكاءك الحسنَ الجميلا

ومنه :

يؤرّقني التذكّرُ حين أمسي ويردَعُني عن الأحزان نُكْسي (٢)
على صخرٍ وأيّ فتًى كصخرٍ ليوم كريهة وطِعان خَلْسِ
ولم أر مثله رُزِئا لجنٍّ ولم أر مثله رزءا لإنسِ
يذكّرني طلوعُ الشمسِ صخرا وأبكيه لكلِّ غروب شمسِ
ولولا كثرةُ الباكين حَوْلي على إخوانهم لقتلتُ نَفْسي
وما يبكون مثل أخي ولكنْ أعزّي النفسَ عنهُ بالتأسّي

ومنه أيضاً :

أبعْدَ ابنِ عمرو من آل الشّريـد حَلَّتْ به الأرض أثقالها (٣)
لعَمْرُ أبيه لنِعْمَ الفتَى إذا النفس أعجبها مالها
فإن تـك مُرّة أودتْ به فقـد كان يكثر نقتالها
فخرّ الشوامخ من قَفْـدِه وزُلزلت الأرضُ زلزالها

---

(١) ديوانها ٢٢٥ .
(٢) ديوانها ١٥٠ ، وفيه : « مع الأحزان » .
(٣) ديوانها ٢٠١ ، وقبله :
ألا ما لعينك أم مالها وقَدْ أخضل الدّمع سِرْبالها

ومنه أيضاً :

أعيفَ جودا ولا تجمُدَا ألا تبكيانِ لصخرِ الندى[1]
ألا تبكيانِ الجريء الجميلَ[2] ألا تبكيان الفتى السيّدا
طويلُ النجادر فيعُ العِما د سادَ عشيرتَه أمرَدا

ومنه أيضاً :

تعرّقني الدهر نهشا وحزّا وأوجعَني الدّهرُ قرعاً وغمزا[3]
وأفنى رجالي فبادوا معاً فأصبحتُ من بينهم مستفزّا[4]
كأنْ لم يكونوا حِمىً يُتّقى إذ الناس إذ ذاكَ مَنْ عزّ بزّا
وكانوا سَراةَ بني مالكٍ ونخرَ العشيرة مجداً وعِزّا
جززنا نواصيَ فُرسانِها وكانوا يظنّون ألاّ تُجَزّا
وَمَنْ ظنّ ممّن يلاقى الحرو ب ألاّ يصابَ فقد ظنّ عَجْزا

ومنه أيضاً :

ياصخرُ وِرّادَ ماء قد تهادَرَه[5] أهل الموارِدِ وما فى وِرْده عارُ
مثلَ السَّبَنْتَى إلى هَوْجاء معضلةٍ له سلاحان أنيابٌ وأظفارُ[6]

---

(١) ديوانها ٤١ . (٢) الديوان : « الجميم » .
(٣) ديوانها ١٤٣ . (٤) الديوان :

* فأصبح قلبي لهم مستفزّا *

(٥) ديوانها ٧٥ (٦) السبنتى : النمر .

رفع المسهم

وماعجولٌ عَلَى بَوٍّ تحنّ له ... لها حنينان إعلان وإسرارُ
تَرْتع مارَتَعَتْ[1] حتى إذاادّكَرَتْ ... فإنّما هى إقبال وإدبارُ
يوما بأوجعَ منى حينَ فارقنى ... صخرٌ فللدهر إحلاء وإمرارُ
وإنّ صخرا لوالينا وسيِّدُنا ... وإنّ صخراً إذا نشتُو لنَحّارُ
وإن صخراً لتأتمُّ الهداةُ به ... كأنه علمٌ فى رأسه نارُ

وحدث المفضّل قال: كنت جالساً يوماً على باب منزلى، أحتاج إلى دِرْهمٍ واحد، وعلىّ دين عشرة آلاف درهم، إذ جاءنى رسول المهدىّ، فقال: أجب أمير المؤمنين، فقلت فى نفسى: وما بعثته إلىّ! لعلّ ساعياً سَعَى بى عنده. ثم دخلت منزلى، ولبست ثيابى، وسرتُ إليه، فلما مثلت بين يديه أومأ إلىّ بالجلوس، فلما سكن جأشى، قال لى: يا مفضّل، ما أفخرُ بيت قالته العربُ؟ فأرْتِجَ علىّ ساعة، ثم قلت: يا أمير المؤمنين قولُ الخنساء، فاستوى جالساً وكان متكئا، فقال: أىّ، [بيت هو؟][2] فقلت قولها:

وإنّ صخراً لتأتمّ الهداةُ به ... كأنه علمٌ فى رَأْسِهِ نارُ

فقال: قد قلت له فأبى علىّ - وأومأ إلى إسحاق[3] بن بزيع - قلت: الصواب مع أمير المؤمنين، ثم قال: يامفضّل، حدّثنى فحدّثته حتى انتصف النهار، قال: أنشدنى، فأنشدته قول الحسين بن مُطير الأسدىّ:

وقد تَغدِرُ الدنيا فيضحى غنيُّها ... فقيرا ويَثْرَى بعد بؤسٍ فقيرُها
وكمْ قد رأينا من تَغَيُّر عيشةٍ ... وأخرى صفا بعد كَدٍ غديرُها
فلا تقربِ الأمر الحرام فإنه ... حلاوته تَفْنَى ويبقى مريرُها

---

(١) ط: «فقلت».
(٢) من الأغانى.
(٣) فى الأغانى: فأومأ إلى إسحاق بن بزيع، ثم قال: قد قلت له ذلك فأباه.

وكان المهدىّ رقيقا فبكى ، وقال : يامفضّل ، كيف حالك ؟ فقلت : كيف يكون حال مَنْ عليه عشرة آلاف درهم ، وليس معه منها درهم واحد ، قال : يا إسحاق ، أعطه عشرة آلاف دِرْهم قضاء لدينه ، وعشرة آلاف درهم يستعين بها على حاله ، وعشرة آلاف درهم يصلح بها من شأنه [1].

ورأى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه الخنساء تَطوفُ بالبيت محلوقةَ الرأس ، تبكى وتلطم خدّها ، وقد علّقت نعلَ صَخْرٍ فى خمارها ، فوعظها فقالت : إنّى رُزِئت فارساً لم يُرْزأ أحدٌ مثله ، فقال: إن فى الناس مَنْ هو أعظم مرزأة منك ، وإنّ الإسلام قد غطّى ما كان قبله ، وإنه لايحلّ لك لطمُ وجهك ، ولا كشف رأسك ، فكفّتْ من ذلك وقالت :

هَريقى مِنْ دُمُوعك واستفيقى ... وصبراً إنْ أطقتِ ولَنْ تُطيقِى [2]
وقُولى إنّ خيرَ بنى سُليمٍ ... وأكرمَهم بصحراء العقيقِ
ألا هل تَرْجِعَنّ لنا الليالى ... وأيامٌ لنا بِلِوَى الشَّقِيقِ
وإذ فينا معاوية بن عمرٍو ... على أدْماء كالجمل الفَنيقِ [3]
فنبكيه فقد أودَى حميداً ... أمينَ الرأى محمودَ الصّديقِ [4]
فلا والله لاتَسْلوك نفسى [5] ... لفاحشةٍ أتَيتُ ولاعُقوقِ [6]
ولكنّى رأيت الصبر خيراً [7] ... من النّعلين والرأس الحليقِ

وأما أبو العباس المبرّد فقال : وقالت الخنساء ترثى أخاها معاوية بن عمرو ، وكان أخاها لأبيها [وأمها ، وكان صخر أخاها لأبيها] [8] وكان أحبّهما إليها ،

---

(١) الخبر والشعر فى الأغانى ١٦ : ٢١ ، ٢٢ . (٢) ديوانها ١٧٣ .
(٣) أدماء : ناقة بيضاء . والفنيق : الفحل من الإبل .
(٤) الديوان : « لنبكيه » (٥) الديوان : « ماسليت نفسى » .
(٦) الديوان : « بفاحشة علمت » .
(٧) الديوان : « بعاقبة فإن الصبر خير » . (٨) من الكامل .

رفع المسهم

واستحق ذلك لأمور : منها أنه كان موصوفاً بالحلم مشهوراً بالجود ، معروفاً بالتقدّم والشجاعة ، محظوظاً في المشهرة ، ثم أنشد الأبيات المتقدّمة [1].

وكان صخر أحمل رجل في العرب ، وكان سبب قتله أنه جمع جمعاً ، وأغار على بني أسد بن خزيمة ، فنذِروا به واقتتلوا قتالا شديداً ، فارفضّ أصحاب صخر عنه ، فطعنه ربيعة بن ثور الأسديّ ، فأدخل جوفه حلقا من الدِّرع ، فاستقلّ [2] منها ، وسار إلى أهله فاندمل عليه الجرح ، ونتأ منه مثل اليد ، فأضناه ذلك حولاً ، فسمع سائلا يقول لامرأته : كيف صخر اليوم ؟ فقالت : لاحيٌّ فيرجَى ، ولا ميت فيُنْعَى ، ولقد لقينا منه الأمرّين ـ وامرأته بديلة الأسدية وكان سباها من بني أسد ، واتخذها لنفسه ـ فلما سمع قولها علم أنها بَرِمَتْ منه ، ورأى تحزّن [3] أمه عليه ، فقال :

أرَى أمّ صخرٍ لاتجفُّ دموعُها ... وَمَلّتْ سُلَيمى مضجعِي ومَكانِي
وما كنت أخشى أن أكونَ جِنازة ... عليك ، ومَنْ يغترّ بالحدَثانِ
أهمّ بأمر الحزم لو أستطيعهُ ... وقد حيل بين العير والنَّزَوَانِ
لعمرِي قَدْ نبّهتِ مَنْ كان نائما ... وأسمعتِ مَنْ كانتْ له أذنانِ
فأيّ امرىء ساوى بأمّ حليلةً ... فلاعاش إلا في شَقًى وَهَوَانِ

ثم عزم على قطع ذلك الموضع ، فلما قطعه يئس من نفسه ، فقال :

أجارتَنا إنّ الخطوب قريبُ ... على الناس ، كلّ الخطئين تصيبُ
أجارتَنا إنّا غريبان هاهنا ... وكلّ غريب للغريب نسيبُ

---

(١) الكامل ٤ : ٥١ .
(٢) ط : « فاستعل » تحريف . وفي الكامل : « استقل بها » .
(٣) الكامل : « حزن أمه » .

فلما مات دفن فى أرض بنى سُليم بقرب عَسيب[1].

وحضرت الخنساءُ القادسيّة مع بنيها وهم أربعة رجال ، فقالت لهم من أوّل الليل: يابنىّ إنكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، والله الذى لا إله إلا هو؛ إنكم لبَنُو رجلٍ واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ماخنت أباكم ، ولا فضحت خالكم ، ولا هجّنت حسبَكم ، ولا غيّرت نسبَكم ، وقد تعلمون ما أعدّ الله تعالى للمؤمنين من الثواب الجزيل فى حرب الكافرين . واعلموا أنّ الدار الآخرة خيرٌ من الدار الفانية ، يقول الله عز وجل: ﴿ يأيّها الّذين آمنوا اصبروا وصابِرُوا ورَابِطُوا واتّقُوا اللهَ لعلّكُمْ تُفْلحون ﴾ ، فإذا أصبحتم غدا إن شاء الله سالمين فاغدوا لقتال عدوّكم مستبصرين ، وبالله على أعدائه مستنصرين ، فإذا رأيتم الحرب قد شمّرتْ عن ساقها ، وجلّلَت نارا على أوراقها ، فتيمّمُوا وطيسَها ، وجالدوا رئيسها ، تظفروا بالغُنْم والكرامة فى دار الخلد والمقامة . فلمّا أضاء لهم الصبح باكروا مراكزهم فتقدّموا واحداً بعد واحد ، يُنشِدون أراجيزَ يذكرون فيها وصيّة العجوز لهم ، حتى قُتِلوا عن آخرهم ، فبانها الخبر ، فقالت : الحمد لله الذى شرّفنى بقتلهم ، وأرجو من ربّى أن يجمعنى بهم فى مستقرّ الرحمة .

وكان عمر بن الخطاب يعطيها أرزاق بنيها الأربعة ، وكان لكلٍّ منهم مائتا درهم ، حتى قُبِض رضى الله تعالى عنه .

قوله : قعيدة رحلى، أى امرأة بيتى. وناقةٌ طروقة : بلغت أن يطرقها الفحل. وأنفت. استنكفت وكرهتْ.

* * *

قال :فتذمّرتِ المرأة وتنمّرَتْ، عن ساعِدِها وشمّرَت ، وقالت له : يا أَلْأَمَ مِنْ مادِرٍ ، وأشأَم مِنْ قاشِرٍ ، وأجبَنَ من صافِرٍ ، وأطْيَشَ

(١) الخبر والشعر فى الكامل ٤ : ٦ ، ٦١ مع اختلاف فى العبارة وتغيير فى الأبيات .

من طامر ؛ أترْمِينى بشَنَارِك ، وتَفْرِى عِرْضِى بشِفَارِك ، وأنت تعلمُ أنَّك أحقرُ مِنْ قُلاَمة ، وأعْيَبُ من بَنْلة أبى دُلامة ، وأفْضَحُ مِنْ حَبْقة ، فى حَلْقة ، وأحيرُ من بقّة ، فى حُقّة .

وهَبْكَ الحسنَ فى وَعْظِه ولَفْظِه ، والشَّعْبِيَّ فى عِلْمِه وحِفْظِه ، والخَلِيلَ فى عَرُوضِه ونَحْوِه ، وجَرِيراً فى غَزَلِه وهَجْوِه ، وقُسًّا فى فصاحتِه وخطابَتِه ، وعبد الحميدَ فى بلاغته وكِتابَتِه ، وأبا عمرو فى قراءتِه وإعْرَابِه ، وابنَ قَرِيبٍ فى روايتِه عن أعرابِه ؛ أتظُنُّنِى أرْضَاك إماماً لِحَرَابِى ، وحُسَاماً لِقِرَابِى ، لا والله وَلا بَوَّاباً لِبَابِى ، وَلا عَصًا لِجِرَابِى .

* * *

تذمّرت : غضبت ، وتذمّر الرجل ، إذا رأى ما يكرهه فغضب وتهدّد ، والذّمْر : اللوم والحضّ ، وذَمَر قائد الجيش أصحابَه يذمُرهم ، إذا لامهم وأسمعهم مايكرهون ليجِدّوا فى القتال . تنمّرت : تغيّرت وتشبّهت بالنّمِر ، ولا يُوجد النّمِر إلا مستنكراً غضبان ، ونمِر الرجل وتنمّر : تنكّر وتغيّر . حسرت عن ساعدها : شمّرت عن ذراعها . أطيش : أخفّ ، والطيش : خِفّة العقل .

والطامر : البرغوث ، يقال له طامر ابن طامر . قال الأصمعىّ : كنت بالبادية فرأيت أعرابيًا قد بسط كساءه ليفلّيه فى الشمس ، فوقفتُ أنظر إليه ، فجعل يأخذ البراغيث ، ويدَع القمل ، فقلت له : لم تأخذ بعضا وتدَع بعضا ؟ فقال : أبدأ بالفرسان ثم أعكِر[1] على الرجّالة .

(١) عكر على الشيء : كر وانصرف إليه .

سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يسبّ برغوثا ، فقال : « لا تسبه فإنّه نبّه نبيًّا من الأنبياء لصلاة الفجر » .

أبو الدرداء رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا آذاك البراغيث ، فخذ قَدَحًا من ماء ، واقرأ عليه سبع مرات ، ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ إلى قوله : ﴿ المتوكلون ﴾[1] . فكفّوا شرّكم وأذاكم عنّا ، ثم ترشّ الماء حول فراشك ، فإنك تبيت الليلة آمنًا من شرّها » .

شَنَارك : عيبك وعارك . تفرِى :تقطع ، وفرى ، يستعمل فى القَطْع على جهة الإصلاح ، وقد جاء هنا فى الإفساد ، ومنه قول الشاعر :

فَرَى نائباتُ الدهر بيني وبينَها وصَرْف الليالى مثلَ مافُرِىَ الجِلْدُ

ابن سيده : فَرَى الشيء يفريه فريًا وفرّاه تفرية ، كلاهما شقّه وأفسده . وأفراه أصلحه ، والمتقنون من أهل اللغة ، يقولون : فرى : شَقّ للإفساد وأفرى للإصلاح. وقيل: أفراه أفسده ، وفراه:قطعه للإصلاح. قال الأصمعىّ رحمه الله؛ أفرى الجلدَ مَزّقه وأفسده ، يُفريه إفراء ، وفرى المزادة يفريها فَرْيًا : خرزها .

القُلاَمة : مايقص من الظفر ،وبها يتعلّق وسخه، فهى مع حقارتها مستقذَرة .

[ذكر أبى دلامة]

وأما أبودُلامة، فاسمه زَنْد ـ بالنون ـ بن الجون ، وهو كوفىّ أسود ، مولى لبنى أسد ، أدرك آخر أيام بنى أميّة ، ونبغ فى أيام بنى العباس ، ومدح السَّفّاح والمنصور والمهدىّ ، وكان صاحبَ نوادر ومُلَح ، وكان خليعًا فاسد الدين ، ردىء المذهب ، وقد تقدّم له شىء من ذلك فى الصّلاة والحجّ ، ونذكر له هاهنا شيئًا فى الصيام ، ونضيف له فنونًا من سائر مُلَحه .

وأما بغلته فكانت جامعةً لعيوب الدوابّ كلها ، وكانت أشْوَهَ الدوابّ

(١) سورة إبراهيم ١٢

خِلْقَةً فى منظر العين، وأسوأها خلقاً فى مخبرها ، فكان إذا ركبها تبعه الصبيان يتضاحكون به ، وكان يقصد ركوبها فى مواكب الخلفاء والكبراء ، ليضحكهم بشماسها ؛ حتى نظم فيها قصيدته المشهورة[1] وهى :

أبْعِـدَ الخيل أركَبُها كراماً ... وبعد الفَرْهِ مِنْ حُضْرِ البغالِ[2]

رُزِقْتُ بُغَيْلَةً فيهـا وِكَالٌ ... وليتَهُ لم يكُنْ غيرَ الوِكالِ[3]

رأيتُ عيوبَها كَثُرَتْ وغالتْ[4] ... وإن أكْثَرْتُ ثَمَّ من المَقالِ[5]

ليُحصِىَ[6] منطقى وكلام غيرى ... عُشَيْرَ خصالها ، شرُّ الخصالِ[7]

فأهْوَنُ عَيْبِهَا أنِّى إذا ما ... نزلتُ وقلت : إمشى لاتُبَالِى

تقومُ فما تَبُتُّ[8] هناك شِبْراً ... وتَرْمَحُنِى وتأخذ فى قِتَالِى

وحِينَ ركوبُها آذيت نفسى[9] ... بضربٍ بالميمن وبالشِّمَالِ[10]

---

(١) وردت هذه القصيدة فى ثمار القلوب للثعالبى ٣٦١ـ٣٦٤ ، وكتاب البغال للجاحظ ، وأبيات منها فى الأغانى ١٠ : ٢٦٥ ، ونهاية الأرب ١٠ : ٨٩.

(٢) ثمار القلوب : « بعد الغر » والبيت فى كتاب البغال ونهاية الأرب :

أبعِـد الخيل أركبها وراداً ... وشُقْرًا فى الرَّحيل إلى القتالِ

(٣) الوكال : الكسل والبطء .

(٤) كذا فى كتاب البغال : وفى ثمار القلوب : « وعيبت فيها » . وفى نهاية الأرب . « وعالت » وفى ط: « وليست »

(٥) كتاب البغال ونهاية الأرب وثمار القلوب : « ولو أفنيت مجتهدا مقالى » .

(٦) ثمار القلوب : « ليحصر » .

(٧) ثمار القلوب : « فغير خصالها شرح الخصال » ، ولم يرد هذا البيت فى نهاية الأرب .

(٨) ثمار القلوب : « فما تسير هناك سيراً » . وفى كتاب البغال : « تقوم فما تريم إلا استحثث » .

(٩) ثمار القلوب : « وحين ركبتها آذيت نفسى » .

(١٠) ثمار القلوب : « أركزها » .

رفع المسهم

وبالرِّجْلَيْنِ أركُضُها جميعاً ... فهالك فى الشقاء وفى الكلاَل[1]
أتانى خائبٌ يَسْتَامُ[2] منِّى ... عريق[3] فى الخسارة والضَّلاَلِ
وقال تبيعُها ؟ قلتُ ارتَبِطْها ... بحكك إنّ بهمى غَيْر غالِ
فأقبل ضاحكاً نحوى سرورا ... وقال أراك سَهْلاً ذَا جمالِ
هلمّ إلىّ يَخْلُو بى خِداعاً[4] ... ومايدرى الشَّقِىُّ بمن يُخَالِي
فقلت بأربعين فقالَ أحسِنْ ... إلىّ فإن مثلك ذو سِجَالِ[5]
فأترُكُ خمسةً منها لعلمى ... بما فيه يصيرُ من الخبال
فلمّا ابتاعها منى وبُتّت ... له فى البيع غير المُسْتَقَالِ
أخَذتُ بثوبه وبرئتُ مما ... أعدّ عليه من سُوء الخلال
بَرِئتُ إليك من مَشَشٍ[6] قديم ... ومن جَرَدٍ[7] ومن بَلَلِ الحَالى[8]

(١) بعده فى كتاب القول فى البغال ونهاية الأرب :

رياضةُ جاهلٍ وعُلَيْجِ سَوْءٍ ... من الأكراد أحبَنَ ذى سُعَالِ
شقيم الوَجْهِ هِلْباجٍ هِدَانٍ ... نَعُوسٍ يوم حَلّ وارتِحَالِ
فأدّبها بأخلاق سماحٍ ... جزاه الله شراً عن عيالى
فلمّا هَدّنى ونفى رُقادى ... وطالَ لِذَاكَ هَمّى واشتغالى
أتيتُ بها الكناسةَ مستغيثاً ... أفكّر دائباً كيف احتيالى
بمُهدةِ سِلْعةٍ ردّت قديماً ... أُطمُّ بها على الدّاء العُضالِ
فبينا فِكْرتى فى السّوم تُمْرَى ... إذا ماشئتُ أرخِصُ أم أغالى

(٢) كتاب البغال وثمار القلوب ونهاية الأرب : « حق شق » .
(٣) فيما عدا الشريشى : « قديم » .
(٤) كتاب البغال ونهاية الأرب : « وراوغنى ليخلو بى خداعا » .
(٥) السجال هنا : المباراة والمساجلة ، يريد أنه لا يعاكس فى الثمن » .
(٦) المشش : ورم يأخذ فى مؤخر عظم الوظيف أو باطن الساق .
(٧) الجرد فى الدواب : ورم فى مؤخر عرقوب الفرس يعظم حتى يمنعه المشى .
(٨) فى كتاب البغال ونهاية الأرب وثمار القلوب : « وتخريق الجلال » وبعده فيها :

ومن فرطِ الحِرَان ومن جماحٍ ... ومن ضَعْفِ الأسافِل والأعالى

ومن فَتْقٍ بها فى البطن ضخمٍ ومن عُقَّالها[1] ومن انفِتَالِ
ومِنْ قطع اللسان ومن بياضٍ بعينيها ومن قَرْض الحبالِ[2]
ومن عضّ الغُلام ومن خِراطٍ[3] إذا ماهمّ صحبُك بارتحال
وأفطَى من فُريخ الذّر مشيا بها عَرَنٌ وداء من سُلال[4]
وتكسِرُ سرجها أبدا شِماساً وتقمص للإكاف على اغتيالِ[5]
ويُدْبِرُ ظهرُها من مَسّ كفٍّ وتهزم فى الجِمام وفى الجلال[6]
تظلّ لِرَكْبِهِ منها وقوذاً يخاف عليك من وَرَمِ الطِّحال
ومِشْفَارٌ[7] تقدّم كلّ سرج تصيّر دَفّتيه على القَذَال
وتَحْفَى لو تسيرُ على الحشايا ولو تمشى على دَمِثِ الرِّمالِ
إذا استعجلتُها عَثَرَتْ وبالتْ وقامتْ ساعة عند المبال
وتضرِط أربعين إذا وقفنا على أهل المجالس للسُّؤال
فتقطع منطِقى وتحول بينى وبين حديثهمْ فيما تُوالِى
وتذعَرُ للدّجاجة إذ تراها وتنفِر للصّفير وللخَيال

---

(١) العقال : داء يأخذ فى قوائم الدابة .
(٢) كتاب البغال : « بناظرها ومن حل الحبال » ، وبعده :
وعقّالٍ يُلازمها شَديدٍ ومن هَدْمِ المعالِف والرِّكالِ
تُقطّع جلدها جرَباً وحكّاً إذا هُزِلتْ وفى غير الهُزالِ
(٣) كتاب البغال ونهاية الأرب : « ومن شد العضاض ومن شباب » .
(٤) العرن : داء يأخذ الدابة فى آخر رجلها ، وفى غير العريشى : « والطف »
(٥) فى كتاب البغال :
وتُلقِى سَرْجَها أبداً شِماساً وتَسْقُط فى الوحولِ وفى الرّمال
(٦) فى نهاية الأرب :
ويَهزِمُ لُجُمها إذا خَصِمتْها ويُدْبِرُ ظهرَها مِنْ الجِلال
(٧) ط : « ومشفار » ، والصواب ما أثبته من نهاية الأرب .

فأمّا الاعتلاف فأدْنِ منها ... من الأتبان أمثال الجبال
وأما القتّ فأتِ بألف وَقْرٍ ... بأعظم حملِ أحمال الجمال
فلستُ بعالفٍ منها ثلاثا ... وعندك منه عودٌ للخلال
وإن عطشت فأوردْها دُجَيْلاً ... إذا أوْرَدْتَ أو نهرىْ بِلَالِ[1]
فذاك لريِّها سُقيتْ حميا ... وإنْ مدّ الفرَات فللنهالِ
وكانت قارحاً أيّام كسرى[2] ... وتذكُر تُبّعاً عند الفعالِ
وقد دَبرَتْ ونُعمانٌ صبيّ[3] ... وقَبْل فِصاله تلك الليالى[4]
وتَذْكُر إذ نشا بِهْرَامُ جُورٍ[5] ... وعامِلُه على خَرْجِ الجَوَالِي
وقد مَرّت بقَرْنٍ بعد قَرْنٍ ... وآخرُ عهدِها لهلاك مالِي
فأبْدِلنى بها باربّ طِرْفاً[6] ... يزين جمالُ مِشْيتِهِ جمالِي

وأنشدها المهدىّ ، فقال : لقد أقِلْتَ من بلاء عظيم ، فقال : والله يا أمير المؤمنين لقد مكثت شهرا أتوقّع صاحبها أن يردّها . فقال المهدىّ لصاحب دوابّه : خيّرَه بين مركبين فى الإصطبل ، فقال : إن كان الاختيار إلىّ فقد وقعت فى شرّ من البغلة ، ولكن مره يختر لى ، ففعل .

وفى القصيدة ألفاظ من الغريب أبينها ، فمنها يقال : وَاكَلَتِ الدابة وكالا : أساءت السير . ورمحت ترمح : ضربت برجليها والمَشَش : داء فى قوائمها . والجرَد . استرخاء العَصَب ، والعُقَّال : أن تنقبض القوائم ولا تنبعث ، والخِرَاط :

---

(١) يشير إلى النهر الذى حفره بلال بن أبى بردة بالبصرة .
(٢) القارح من ذى الحافر : الذى شق نابه وطلع .
(٣) كتاب البغال : « ونعمان فطيم » .
(٤) كتاب البغال : « وذو الأكتاف فى الحجج الخوالى » .
(٥) بهرام جور ، من ملوك ساسان .
(٦) الطرف : الفرس الجواد .

الجماح ، والعَرَن: حكة وشقاق فى القوائم ، وقد عرن عرَنا، وقمص يقمُص ويقمِص قمصا وقماصا : رفع يديه معاً وطرحهما معا ، وعجن بيديه ، وقطا يقطو : قارب الخطو .

وكان لأبى دلامة بِرْذونٌ أعجف محطّم هرِم ، فدخل على المهدىّ يوما وبين يديه سَلَمة الوصيف ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنّى جلبتُ لبابك مهراً ليس لأحدٍ مثله ، وأحببت أن أهدِيَه لك ، فإن أحببت أن تشرّفنى بقبوله ! فأمر بإدخاله ، فَخرج وأدخل برذونه ، فقال له المهدىّ: أىّ شىء هذا ويلك! ألم تزعم أنه مُهْر ، فقال له أبودلامة : أو ليس هذا سَلَمة الوصيف قائما بين يديك تستميه الوصيف وله ثمانون سنة ! فإن كان سَلَمة وصيفاً فهذا مُهْر ، فجعل المهدىّ يضحك وسَلَمة يشتمه ، فقال له المهدىّ : ويلك ! إن لهذه أخوات ، والله ليَضحكنّ بك فى المحافل . فقال : والله يا أمير المؤمنين لأضحكنّه ، فليس فى مواليك أحد إلاّ وقد وصلنى غيره ، فما شربت الماء له قطّ . فحكم عليه المهدىّ أن يشترىَ نفسه بثلاثة آلاف درهم ، فقال له سلَمة . على ألاّ تعاود ، فقال أبو دلامة : أفعل ، فحملها إليه .

ومما ينتظم بهذا النّمط أن محمد بن عبيد الله بن خاقان حملَ أبا العيناء على فرس ، فكتب إلى أبيه : أعلم الأمير أعزه الله أنّ أبا محمد أراد أن يبرّنى فعقّنى ، وأن يُركبنى فأرجلنى ، أمر لى بدابة تقف للنّبْرة ، وتعثر بالبعْرة ، كالقضيب اليابس عجفاء ، وكالمهجور اليائس دنفاء ، قد أذكر الرواة عروة العذرىّ والمجنون العامرىّ ، مباعداً أعلاه لأسفله ، حباقه مقرون بسماله ، فلو أمسك لترجّيْت ، ولو أفرد لتعزّيت ، ولكنه يجمعها فى الطريق المعمور ، والمجلس المشهور ، كأنه خطيب مرشد ، أو شاعر منشد ، يضحك من فعله النّسوان ، ويتقاعى من أجله الصبيان ، فمن صائح يصيح : داوه بالطباشير ، ومن قائل

يقول : نقّ له الشعير ، قد حفظ الأخبار وروى الأشعار ، ولحق العلماء فى الأمصار ، فلو أعين بنطق لروَى بحق وصدق ، عن جابر الجعفىّ وعامر الشعبىّ . ولم أوتَ من أمر الأمير أعزّه الله ، وإنما أُتِيتُ من كاتبه الأعور ؛ الذى إذا اختار لنفسه أصاب وأكثر ، وإذا اختار لغيره أخبث وأنزر ، فإن رأى الأمير أن يبدلنى ويريحنى بمركوب يضحكنى كما أضحك منّى ، يمحو بحسنه وفراهته ، ما سطّره العيب بقبحه ودناءته ، ولست أذكر سرجه ولجامه ، لأن الأمير أكرم من أن يَسأب ما يهديه ، وينقص ما يمضيه . فوجّه إليه ببرذوْن بسرجه ولجامه ، ثم اجتمع بابنه محمد عنده ، فقال له عبيد الله : شكوت دابة محمد ، وقد أخبرنى أنه يشتريه الآن منك بمائة دينار ، وهذا ثمنه لا يؤخّر عنك ، فقال : أعز الله الوزير! لو لم أكذب مستزيدا ، لم أذهب مستفيدا ، وإنى وإياه لكما قالت امرأة العزيز : ﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

وقال ابن رشيق فى بغل :

أوصِيكَ بالبغل شرًّا ... فإنه ابن الحمارِ (١)

لا يصلُح البغل إلا ... للكدّ والأسفار

كالعبد إن لم تُهِنْهُ ... جَفَى على الأحرارِ

ما اعتاض بغلاً بِطِرْفٍ ... إلاّ أخو إدبارِ (٢)

وله أيضاً فيه :

فأوصيكمو بالبغل شرًّا فإنّه ... من العَيْرِ فى سوء الطِّباع قريبُ (٣)

وكيفَ يَجِىء البغلُ يوما بحاجةٍ ... تَسُرّ وفيه للحمار نصيبُ !

---

(١) نقله الميمنى فى التنف ٣٦ .

(٢) الطرف بالكسر : الفرس الجواد ؛ والباء دخلت على المتروك .

(٣) نقله الميمنى فى التنف ٦ .

رفع المسهم

وله من قصيدة :

أوْ بَغْـلةٍ سفواء تعرض للفتى ... فتخال تحت السَّرْج أمَّ غزالِ[1]
سألتُ إلى الأم النجابة من أبٍ ... وزهتْ على الأحام والأخوالِ
وكأنهـا قد أفرِغت فى قالبٍ ... لا أنهـا خُلِقَتْ على تِمثالِ

وله من قصيدة أيضاً :

كأنّى بعضُ نُجومِ السَّماء ... تصعَّد فى الجوّ ثم انحدرْ
على رسلةٍ من هِبات اللو ... كِ سَفْوَاء ملمومةً كالحجرْ
تعاونَ فى جَـدْلِ أعضائها ... بنو أخْدَرٍ وبنات الأغرّْ

ولمحمد بن يسير[2] الخارجىّ فى بغلة :

نَزَعتْ عن الخيلِ العِتاق نجاءها ... منهـا وعِتْقَ سوالفٍ ولَبَانِ[3]
ولهـا من الأعمـار عند مسيرها ... [4] قِحَةٌ وطولُ صَبَارَةٍ ومِرَانِ

رجعنا إلى أخبار أبى دلامة .

يحكى أنّ المهدىّ أو المنصور ـ أنشده ما أعجبه ، فكساه طيلسانا وأمر له بمال ، وعاهده ألاّ يشرب الخمر ، فحلف له وخرج إلى بنى داود بن علىّ فضحكوا به . وقصّ عليهم خبره فسقوه حتى أسكروه وأخرجوه ، فأعلِم المهدىّ الخبر ، فأرسل فيه ، وأمر الرّسول بسجنه وتخريق ساجِه ، وألاّ يمكن

(١) تقله فى النقف ٦٣ .

(٢) ط : « بشر » تحريف ، وهو محمد بن يسير ، شاعر ظريف من المحدثين . وله ترجمة فى الشعر والشعراء ٨٧٩ ـ ٨٨٠ والأغانى ١٢ : ١٣٩ ـ ١٣١ .

(٣) القول فى البغال ٢٥ من مقطوعة طلب فيها من مويس بن عمران بغلة لرحله . وفيه : « نجادها » .

(٤) القول فى البغال « جد » ، وفيه « قال ذلك لأن حافر العير أوقح الحوافر » .

من قرطاس ولا مداد ، ففعل به الرسول ذلك ، فانتبه فى جوف الليل فنادى جاريتَه فقال له السجان: طعنة فى كبدك فقال له : ويلك ! مَنْ أنت ، وأين أنا ؟ فقال له : سَلْ نفسك أين كنت عشاء أمس ؟ فاستحلفه مَنْ أنت؟ فقال : أنا السّجان ، بعث بك أمير المؤمنين وأنت سَكْران ، فأمرنى أن أحبسَك مع الدجاج ، فقال : أحبّ أن تُسرِج لى سراجا ، وتأتيَنى بدواة وقرطاس ، ولك عندى صِلة ، فقال له. أما السِّراج فنعم ، وأما القرطاس والدواة ، فقد أمِرْت ألاّ أمكّنَك منهما . فلما أتاه بالسِّراج وجد ساجَه مخرَّقا ملطّخا بزبال الدجاج ، ورأى نفسه جالساً بينها ، فقال له : ادع لى ابنى دلامة ، فدعاه ، فأمره أن يجيدَ حلاقة رأسه ، وأن يأتيَه بفَحْمة ، ففعل ، فكتب على رأس ابنه :

أمِنْ صهباء صافيةِ المِزاجِ ... كأنّ شُعاعَها لهبُ السِّراجِ[1]

تَهشّ لها القلوب وتشتهيها ... إذا برزتْ تَرقرقُ فى الزُّجاج

أقاد إلى السجون بغير جُرْمٍ ... كأنى بعضُ عمّال الخراجِ

ولو معهم حبست لكان خيراً ... ولكنّى حُبِسْتُ مع الدّجاجِ[2]

أمير المؤمنين فدتك نفسى ... ففيم حبستنى وخرقت ساجى

على أنى وإن لاقيت شرًّا ... لخيْرِك بعد ذاك الشرّ راجى

ثم قال : يا أمير المؤمنين، هذه أمانة ، فإذا قرأتَها فمزّق الرقعة. ثم أمر دُلامة أن يدخل عَلَى أمير المؤمنين ويقرئه ما فى رأسه ، فأتى الباب وصاح : دعوة

---

(١) وبعده فى الأغانى :

وقد طُبِخَتْ بنـار اللهِ حتّى ... لقد صارتْ من القُطَفِ النُّضاجِ

(٢) بعده فى الأغانى :

وقَدْ كانتْ تخبّرنى ذنوبى ... بأنّى من عِقابِك غيرُ ناجى

المظلوم ، فعلم أمير المؤمنين بمكانه فأمر بإدخاله ، فكشف رأسه ، وقال: إن ظُلامتي مكتوبة في رأسي ، فأدْنِيَ منه حتى قرأها فاشتدّ ضحكه ، وعجب من حيلته وأمر بإخراجه ، وقال : ما كان أحوج هذه الرقعة أن تُمزّق ، ثم وصله بصلة ، ونهاه أن يوجَد سكران[1] .

وخرج المهديّ يتصيّد ومعه عليّ بن سليمان ، فسنحَ له قطيع من الظّباء ، فأرسلتْ الكلابُ وأُجْرِيتِ الخيل ، فرمى المهديّ سهماً فصرع ظبياً ، ورمى عليّ بن سليمان سهماً فصرع كلباً ، فقال أبو دلامة :

قَدْ رَمَى المهديّ ظبياً شَقّ بالسّهْمِ فُؤادَهْ
وعليّ بن سليما ن رمَى كلبا فصادَهْ
فهنيئاً لهما كلُّ امرىء يأكل زادَهْ

فضحك المهديّ حتى كاد يسقط .

ومن مُلحه ، أنه دخل على المهديّ ، وعنده وجوه بني هاشم ، فقال : أنا أعطي الله عهداً لئن لم تَهِجْ واحداً ممّن في البيت لأقطعنّ لسانك ، فنظر إلى القوم ، فكلّما نظر إلى واحد غمزه بأن عليه رضاه ، قال : فعلمت أني وقعتُ ، وأنها عزْمَةٌ من عزماته لابدّ منها ، فلم أرَ أدعى إلى السّلامة من هجاء نفسي ، فقلت :

ألاَ أبلِغْ لديك أبا دُلاَمَهْ فليسَ من الكرامِ ولا كَرَامَهْ
إذا لبس العمامة كان قِرْدًا وخنزيراً يكون بلا عِمَامَهْ
جمعتَ دمامةً وجمعت لؤما كذاك اللؤم تفعله الدّمَامَهْ
فإنْ تَكُ قد أصبتَ نعيمَ دُنْيا فلا تفرحْ فقد دَنَتَ القِيَامَهْ

(١) الخبر في الاغاني ١٠ : ٢٥٢ مع اختلاف في رواية الخبر والشعر .

فضحكوا ، ولم يبق أحد إلاّ أجازه[1] .

وخرجت[2] له صبيّة فأخذها على كتفه ، فبالت عليه فرمى بها ، وقال :

بَلَّتْ عليّ لاحيَّيت ثوبي ... فبالَ عليك شيطان رجيمُ
فما ولدتْك مريمُ أمّ عيسى ... ولا ربّاك لقمانُ الحكيمُ
ولكن قد تضمّنك أم سوء ... إلى لبّاتِها وأبٌ لئيمُ

ولمّا خرجت الخيزران إلى الحج تلقّاها ، فصاح: الله الله في أمرى ! فسألته عن أمره فقال : إنى شيخ كبير ، وأجرُك فيّ عظيم ، تهبين لى جارية تؤنسنى وترفُق بى ، وترحمنى من عجوز عندى ، قد أكلت رِفْدى ، وأطالت كدّى ، وقد عزف[3] جلدَها جلدى ، وتمنّيت بُعْدَها ، وتشوقت فَقْدَها ، فوعدته بها ، فلمّا جاءت من الحجّ دخل على أم عُبيدة حاضنة موسى وهارون ، فدفع إليها رقعة ، فدفعتْها إلى الخيزُران وفيها :

---

(١) الخبر فى الأغانى ١٠ : ٢٥٨ .

(٢) الخبر فى الأغانى ١٠ : ٢٤٠ : « دخل أبو عطاء السندى يوما إلى أبى دلامة ، فاحتبسه عنده ، ودعا بطعام فأكلا وشبعا ، وخرجت إلى أبى دلامة صبية فحملها على كتفه ، فبالت عليه ، فنبذها عن كتفه ، ثم قال : بلت على ... البيتين ، ثم التفت إلى أبى عطاء ، فقال له : أجز ، فقال :

صدقتَ أبا دُلامَةَ لم تلدها ... مطهّرةٌ ولا فَحْلٌ كريمُ
ولكنْ قَدْ حَوَتْها أمّ سوء ... إلى لبّاتِهـا وأب لئيمُ

فقال له أبو دلامة : عليك لعنة الله ! ماحملك على أن بلغت بى هذا كله ! والله لا أنازعك بيت شعر أبدا . فقال أبو عطاء : لأن يكون الهرب من جهتك أحب إلى » .

(٣) الأغانى : « عاف » .

وفيها :

أبْلِغى سيّدتى إن شئتِ يا أمّ عَبيـــدَهْ
أنّها أرشـــدها الله وإن كانت رشِيـــدَهْ
وعدتْنى قبل أن تحُرُ ج للحجِّ وَلِيـــدَه
إننى شيـــخٌ كبيرٌ ليس فى بيتى قعيـــدَهْ
غـــيرَ عَجْفاءَ عجوزٍ ساقُها مثل القَـديدهْ
وجْهها أقبح من حو تِ طرِيّ فى عصيـــدَهْ
ما حياتى - مـــع أنثى مثلِ عرسى - بحَميـــدَهْ (١)

فضحكت واستعادت «حوتاً فى عصيده» وهي تضحك ، ثم قالت لجارية : خذى ما عندك فى قَصْرى وامشى إليه . فلمّا بلّغها الرسول منزلَهُ لم يجده ، فدفعها إلى امرأته ، ودخل دُلامة وأمّه تبكى ، فسألها فأخبرته وقالت : إن أردتَ برّى يوماً من الدّهر ، فاليوم . قال لها : قولى ماشئتِ أفعله ، قالت : تدخل إليها ، وتُعلِمها أنّك مالكها ، فتطؤها فتحرُم عليه ، وإلاّ شغلتْه فجفانى وجفاك . ففعل ، وجاء أبو دُلامة فسألها عنها ، فقالت : هى فى ذلك البيت ، فدخل ومدّ يده إليها ، وذهب ليقبّلها ، فرأت شيخاً محطّماً قبيح الوجه ، فقالت : تنحّ وإلاّ لطمتُك لطمةً دَقّقتُ بها أنفَك . فقال : وبهذا أوصتْك سيدتك ؟ فقالت : إنها بعثتنى إلى فتًى من صفته كذا وكذا ، وقد نالَ حاجتَه منى آنفاً . فعلم أنه دهاء من دلامة وأمه(٢) ، فخرج ولطمه ولَبّبه(٣) . وحلف ألاّ يفارقه إلاّ إلى المهدىّ ، فمضى على تلك الحالة حتى دخل إلى المهدىّ ، فقال له : ما بالك

(١) الأغانى : « بسعيده » .
(٢) الأغانى : « فعلم أنه دهى من أم دلامة وابنها »
(٣) لببه : أخذ بتلبيبه ، أى جمع ثيابه عند صدر ونحره فى الخصومة ثم جره .

وَيحك ! فقال له : عمل بى هذا ابنُ الخبيثة ما لم يعمله أحدٌ بأبيه ، ولا يرضيني إلا أن تقتله ، وأخبره الخبر . فضحك المهدىّ حتى استلقى ، وأبو دلامة يقول : يعجبك فعله ، فتضحك منه ! فقال : علىّ بالسيف والنّطع ، فقال دلامة : اسمع حجتى يا أمير المؤمنين ، كما سمعتَ حُجّته ، فقال : هاتِ ، فقال : هذا الشيخ أصفقُ الناس وجهاً ، وهو ينيك أمى منذ أربعين سنة فما غضبت ، ونِكْتُ جاريتَه مرة واحدة فغضب . فضحك المهدىّ أشد من ضحكه الأوّل ، فقال : دعها له [يا أبا[1] دلامة] ، وأنا أعطيك خيراً منها ، فقال : على أن تخبأها بين السماء والأرض ، وإلاّ ناكها كما ناك هذه ، وحلف لدلامة إن عاد ليقتلنّه[2] .

وجاء دُلامة لأبيه فى محفل ، وجلس بين يديه ، وقال للجماعة : إنّ شيخى كما ترون قد كَبِر سنّه ، ورقّ جلده ودقّ عظمه ، وبنا إلى حياته حاجة ، وأنا لا أزال أشير عليه بشىء يمسك رمقه ، ويبقى قوّته ؛ فيخالفنى . وأرغب إليكم أن تسألوه قضاء حاجة فيها صلاح جسمه ، فقالوا : حبًا وكرامة ، فأخذوا أبا دلامة بألسنتهم ، فقال : قولوا له الخبيث فليقُلْ مايريد ، فستعلمون أنه لم يأتِ إلاّ بهليّة . فقال : إنما يقتله كثرة النّيك ، ولا يدفعه عنه إلا الخصاء ، فتعاونوا عليه حتى أخصيَه ، فضحكوا منه كثيراً ، وقالوا لأبيه : قد سمعتَ فما عندك ؟ فقال : قد عرّفتكم أنّه لم يأت بخير ، وقد جعلتُ أمه حكما بينى وبينه ، فقوموا إليها ، فدخلوا عليها وقصّوا القصّة عليها ، فأقبلت على الجماعة وقالت : إن ابنى أبقاه الله ، قد نصح أباه وبرّه ، وأنا إلى بقاء أبيه أحوج منه إليه ؛ إلاّ أنّ هذا الأمر لم تقع فيه تجربة عندنا ، ولا جرت به عادة ، وهو قد ادّعى معرفة ذلك ،

---

(١) من الأغانى .

(٢) الخبر فى الاغانى ١٠ : ٢٦٣ ، ٢٦٤

فليبدأ بنفسه فليخصِها، فإذا عوفى ورأينا ذلك قد أبقَى عليه أثراً محموداً ، استعمله أبوه على علم ، فجعل القوم يضحكون ويَعْجَبُون من اتّفاقهم فى الخُبْث .

وأمره المهدىّ أن يلزم المسجد فى رمضان ، وقال له : إن تأخّرت فلشرب الخمر ، ولئن علمتُ ذلك لأقتُلنّك ، فشق عليه ذلك ، وتشفّع إليه بكل إنسان ، فلم يشفعه ، فأدخل إلى ريطة رقعة ، ـ وكان للمهدىّ لا يخالفها ـ وفيها :

أبلغا رَيْطة أنّى كنت عبداً لأبيها
فمضى يرحمه اللـ ـه وأوصَى بى إليها[1]
جاء شهرُ الصوم يمشى مِشيةً لا أشتهيها
قائداً القلة ليـ ـدْ ر كأنّ أبتغيها
تنطح القِبْلة شهرا جَبْهتى لا تأنليها[2]
فاطلبى لى فرَجاً مِنـ ـها وأجرى لك فيها

فضحكت ، وقالت : يصبر حتى تمضى ليلة القَدْر ، فقال : إذا مضت ليلة القدْر فِىَ الشهر . وكتب إليها :

---

(١) بعده فى الأغانى :

وأرَاها نِسَيْقِنى مثل نِسْيان أخيها

(٢) بعده فى الأغانى :

ولَقَدْ عِشْت زماناً فى فيافىّ وجيها
فى ليالٍ من شِتَاء كنتُ شيخاً أصطليها
قاعداً أوقِدُ ناراً لضِباب أشْقَويها
وصَبُوحٍ وغَبُوقٍ فى عِلاب أحْتَسِيها
ما أبالى ليلة القدْ ر ولا تُشْمِعُنِيها

خافي إلهك في نفس قد احتُضِرَتْ قامت قيامتُها بين المصلِّينا
مالية القَدْرِ من همّى فأطلبَها إني أخاف المنايا قبل عشرينا
لا بارك اللهُ في خيرٍ أؤمِّلُهُ في ليلةٍ بعد ماقنا ثلاثينا
يالية القَدْرِ قد كَسَرْتِ أرجُلَنا يالية القَدْرِ حقًّا ماتُمنِّينا !

فلما قرأتها ضحكت ، ودخلت إلى المهدي فشفّعها[1] فيه . وأخباره كثيرة

* * *

وعلى قوله : جاء شهر الصوم قال أبو القاسم الثعالبي : أنشدنيه الفقيه أبو الحسن بن زرقون :

أشهرَ الصَّوْم ما مثلك عند الله مِنْ شَهْرِ
على أنك حرّمت علينا لذّة السُّكْرِ
وقرْع الكأس بالكأس ورشفَ الثَّغْر بالثَّغْرِ
وإنّ والذي شرّ فَ أوقاتَك بالذِّكْرِ
وما أمسى يصلّي فيـــك من شَفْعٍ ومِن وِتْرِ
لمسرورٌ بأن تَنفي على أنّك من عُمْرِي

وقال ابن المعتز :

تجلّى عِشاء هِلالُ الصِّيامِ بنحس على الكأس والبربطِ
وكم من فتًى راحَ بين القيا ن نَشْوان ذا فرح مُفْرِطِ
وكان نشيطًا فلمّا رآ ه همّ بهمٍّ ولم يَنْشَطِ
فأعرض عنه كما أعرَضَت فتاةٌ عن الجانب الأشْمَطِ

(١) الخبر والشعر في الأغاني ١٠ : ٢٤٩ ؛ ٢٥٠

وقال ابن رشيق :

لاحَ لى حاجب الهلاك عِشاء فتمنّيت أنّنى من سَحابِ[1]
قلت أهلا وليس أهلا لما قُلْـــت ولـكن أسمعتُهـا أصحابى
مظهرٌ حُبّهُ وعندىَ بُغضٌ لعدوّ الـكؤوس والأكوابِ

الحبْقة : الضّرْطة ، والحلقة جماعة الناس ، وربما تؤدّى فضيحتُها أمام القوم إلى أن يموتَ صاحبها غمًّا ، وقد وُجد ذلك .

* * *

[أفاكيه]

وحَبَق أعرابىّ فى جماعة فاستحيا ، فأشار نحو استه ، وقال : إنهـا خَلْف نَطقتْ خُلْفا .

وذكر الحريرىّ أن مطيع بن إياس ويحيى بن زياد وحماد الراوية كانوا يشربون ذات يوم ، ومعهم نديم لهم ، فبرزت منه فَلْتة ، فخجل وغاب عنهم أياماً ، فكتب إليه مطيع :

أمِنْ قَلُوصٍ غدت لم يؤذِها أحدٌ إلاّ تذكّرها بالرّمْل أوطانا
خانَ العِقال لها فانبتّ إذْ نَفَرَتْ وإنّمـا الذنب فيه للذى خانا
أظهرتَ منك لنا هُجراً ومعتبةً وغبتَ عنا ثلاثا لَسْت تَنْشانا
هوّن عليك فما فى الناس ذو إبلٍ إلاّ وأينقه يَشْرُدْنَ أحيانا

دخل[2] أبو الفضل بديع الزمان على الصاحب بن عبّاد ، ففرح به ، وأجلسه معه على سريره ، فحبَق البديع حَبْقة منكرة ، ثم أراد أن ينفىَ عن نفسه التّهمة ، فقال : يامولانا هذا صرير التخت ، فقال له : بل صفير « القحت » ، فخرج البديع خجلا ، وانقطع عن الوصول إليه فكتب إليه الصاحب :

---

(١) تقله فى التنف ١٢

(٢) يتيمة الدهر ٣ : ١٨٨

قل للصفيرى لاتذهب على خجلٍ من ضَرْطَةٍ أشبهت نايًا على عُودِ[1]
فإنّها الريح لاتستطيع تدفعُها إذ لستَ أنت سليمان بن داود

تزوّج أعرابيّ امرأة ، فلما دخل عليها عابثها ، فضرَطت ، فخرجت غضبى إلى أهلها ، وقالت :والله لا أرجع إليه أويفعل مافعلت، فقال لها: عودى لأفعل، فعادت ، فعابثها فضرَطت أخرى ، فقال :

طالبْتنِيَ دَيْنًا قديمًا فلمْ أُتنِكِ حتى زدتِ فى قرضِكْ
فلا تلوميني على مُطْلِهِ إن كان ذا دأبَكِ لم أقضِكْ

قيل لأعرابىّ : ماتقول فى الضرطة ؟ فقال : لا بأس بها ، وربما سببت الضرطة وأنا راكع فى الصلاة .

قدم أبوعلقمة الأزدىّ على الفضل بن عبد الرحمن الهاشمىّ بالبصرة ، فقال الفضل لجلسائه : إذا جلسنا على المائدة وأبو علقمة معنا فليضرِطْ أحدكم ثم الآخر ثم الآخر ، وليمكن بين كلّ ضرطتين فرجة ، فلما وُضعت المائدة فعلوا ذلك ، فأخذ أبوعلقمة المائدة ، وقام بها ، فقيل له : إلى أين يا أبا علقمة ؟ قال : إلى المكنيف ، فمن أراد منكم أن يخرأ كان قريبًا .

وجلس ثقيل إلى بشار،فضرَط بشار ضَرْطَةمنكرة، فظن الرّجل أنها فلتة، فمشى فى حديثه ، فضرَط بشار ثانية وثالثة ، فقال له : ماهذا يا أبا معاذ ؟ قال : رأيتَ أو سمعتَ ؟ قال : بل سمعت ،قال: كلّ ماسمعت ريح لاتصدق حتى ترَى .

* * *

قوله : حُقّه ، أى وعاء الطّيب، ويقال له : حقّ والجمع حِقاق ، وتبدل عامتنا من قافه كافا ، والروائح العطِرة مضرّة بهذه الهوام المنتنة ، وقد قال المتنبى :

بذى الغَباوة من إنشادِها ضررٌ تضرّ كما تضرّ رياح الورد بالجُعَلِ[2]

---

(١) يتيمة الدهر :
يابن الخضيرىّ لاتذهبْ على خجلٍ لحادث منك مثل النّاى والعودِ
(٢) ديوانه ٣ : ٤٠

قوله هبك ، أى حسبك .

* * *

[ترجمة الحسن البصرى]

وأما الحسن فهو أبو سعيد بن أبى الحسن البصرىّ ، وهو من التابعين . ولد بالمدينة لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، وأمّه اسمها خَيْرة ، وكانت مولاة لأمّ سلَمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، فكانت تُعطِيه ثديَها إذا اشتغلتْ أمه ، فدرّ ثديها له باللبن ، فأظهر الله تعالى بركة ذلك اللبن عليه . وأبوه مولًى لامرأة من الأنصار ، وقيل إن أبويْه كانا مملوكين لرجل من بنى النّجّار، فتزوج امرأة فى بنى سَلِمة من الأنصار ، فساقهما إليها من مَهْرها فأعتقتهما ، وكان أحسنَ النَّاس لفظاً وأبلغهم وعظاً ، وكان زاهداً عالماً مقدّماً فى العلم والدين على نظرائه من التابعين .

وكان الحجّاج له معظِّماً ومتعجّباً من فصاحته ، ولم ينفكّ من مجلس وعظ أو تدريس علم ، إلى أن مات رحمه الله تعالى .

وقال أبو عمرو بن العــلاء : مارأيت قطُّ أوعظَ ولا أفصحَ من الحسن البصرىّ .

وقال أبو أيوب السختيانىّ : ماسمع أحد كلامَ الحسن البصرىّ إلاّ ثقُل عليه كلام الرجال .

قال حُميد : قال لى الشعبىّ ونحن بمكة : أحبّ أن اختلِىَ بالحسن ، فقلت : ذلك للحسن ، فقال: إذا شاء، فجاء الشعبىّ ، فقلت له : ادخل عليه، فإنه فى البيت وحده ، فقال: أحبّ أن تدخُلَ معى، فدخلنا فإذا الحسنُ قبالة القِبْلة يقول : يابن آدم، لم تكن فكُوِّنت ، وسألت فأعطِيت ، وسئلت فمنعتَ ، فبئس ماصنعت ! ثم يذهب فيرجع بعَيد ذلك حتى أعادها مراراً ، فقال لى الشعبىّ : ياهذا انصرف فإن الشيخ فى غير مانحن فيه .

ولما دخل على الحجّاج فقال له : ماتقول فى علىّ وعثمان ؟ قال : أقول فيهما ما قال مَنْ هو خيرٌ منى بين يدىْ مَنْ هو شرٌّ منك ، قال : ومَنْ ذلك ؟ قال : موسى وفرعون حيث قال له فرعون : ﴿ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى قَالَ : عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ﴾ (١) .

الشعبىّ قال : قدمنا على الحجاج فى البصرة فى جماعة من قُرّاء الشام والعراق فى يوم صائف شديد الحرّ ، وهو فى آخر ثمرتة أبيات ، فدخلنا الأوّل فإذا فيه الثلج والماء قد أرسل فيه ، وفى الثانى أكثر وفى الثالث أكثر ، والحجاج قاعد على سريره وعنبسة بن سعيد إلى جانبه ، فجلسنا على الكراسىّ ، ودخل الحسن آخر مَنْ دَخَل ، فقال الحجاج : مرحباً بأبى سعيد ! اخلع قميصك ، فجعل الحسن يعالج زرّ القميص فأبطأ به ، فطاطأ له الحجاج رأسه تلطّفاً به حتى حلّه ، وجاءت جاريةٌ بدُهْنٍ فوضعته على رأس الحسن وحده ، فقال له الحجاج : يا أبا سعيد ، مالى أراك منهوكَ الجسم ، لعلّ ذلك من قلة نفقة وسوء ولاية ! ألاَ نأمرلك بنفقة توسّع بها على نفسك ، وخادم لطيف ! فقال : إنى من الله تعالى لَفِى سَعة ونعمة وإنى منه لفى عافية ، ولكن الكبرَ والحرّ ، فأقبل الحجاج على عَنْبسة ، وقال : لا والله ، بل العلم بالله والزهد فيما نحن فيه ، فلم يسمعها الحسن ، وسمعتها أنا لقُرْبى من عَنْبسة ، وجعل الحجاج يسأله حتى ذكر علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فنال منه ونِلْنا منه مرضاةً له ، وفَرَقاً من شرّه ، والحسن عاضٌّ على إبهامه ، فقال له : مالى أراك ساكتاً ؟ فقال : وما عسى أن أقول : فقال : أخبِرْنا برأيك فى أبى تراب ، قال : إنى سمعت الله عز وجل يقول : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٢) ﴾ فعلىٌّ ممّن هدى الله ، ومن أهل الإيمان وابن عمّ نبى الله صلى الله

(١) سورة طه ٥١ (٢) سورة البقرة ١٤٣

عليه وسلم وختّنه على بنته ، أحبّ الناس إليه، وصاحب سوابق مباركات سبقت له من الله عز وجل، لن تستطيع أنت ولا أحدٌ من الناس بحظرها عليه ، ولا يحول بينه وبينها . فتغيّر وجه الحجاج وقام مغضباً عن سريره ، ودخل بيتاً خلفه. وخرجنا وأخذت بيد الحسن ، فقلت : يا أبا سعيد ، أغضبت الأمير ، وأوغرت صدره ، فقال : إليك عني يا عامر ، ألستَ شيطاناً من الشياطين إذ توافقه في رأيه ! ألا صدقت إذْ سُئِلت أو سَكَتّ فسلِمت ! فقلت : قلتها والله، وأنا أعلم بمافيها ، قال الحسن: فذلك أعظم في الحجّة عليك ، وأشدّ في التَّبِعة . ثم خرجت إلى الحسن التحف والطّرَف ، وكانت له للنزلة واستخفّ بنا وجفانا ، فكان أهلاً لما أتى إليه ، وكنّا أهلا لما أتى إلينا ، فما رأيت مثل الحسن بين العلماء إلا مثل الفرس العربيّ فيما بين المقارِف ، وما شهدنا بعد مشهداً إلاّ بَرَز علينا بفضله ، وقال فيه ، وقلنا موافقة للولاة ، وكان يقول : جَدِّدوا هذه الأنفس فإنها سريعة الدثور ، واقْدَعُوها فإنها طامحة وإنكم إن لم تقدعوها تنزعْ بكم إلى شر غاية .

وقال لمطرّف بن عبد الله بن الشِّخير : عظ أصحابك ، فقال له : إني أخاف أن أقول مالا أفعل ، فقال له : يرحمك الله ، وأيّنا يقول مايفعل ! يودّ الشيطان أنه ظفر بهذه منكم ، فلم يأمرْ أحد بمعروف ولم ينه عن منكر .

ونظر إلى الناس في مصلّى البصرة يضحكون ويلعبون في يوم عيد ، فقال: إن الله تعالى جعل الصوم مضمارا لعبيده ، ليستبقوا إلى طاعته ، ولَعَمْرِي لو كشف الغطاء لشُغِل محسن بإحسانه ،ومسيء بإساءته عن تَجْديد ثوب أو ترجيل شعر .

ومات فى سنة عشرة ومائة وله تسعون. وتقدم موتَ ابن سيرين بمائة يوم، ومات فى رجب ليلة الجمعة .

وقال عبد الواحد بن زيد : رأيت ليلة مات الحسن فى النوم أبواب السماء كأنها مفتّحة ، وكأنّ الملائكة صفوف ، فقلت : إن هذا لأمرٌ عظيم ، فقال لى قائل : ألا إنّ الحسن البصرىّ قدِم على الله وهو عنه راض !

وسمع بعض أصحابه فى منامه ليلة مات كأنّ منادياً ينادى فى السماء: ﴿إنّ الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾ ، واصطفى الحسن البصرى على أهل زمانه .

[ترجمة الشعبى]

والشعبىّ ، اسمه عامر بن عبد الله بن شرَاحيل بن عبيد بن ذى كبار الشعبىّ من شعب هَمْدَان ، وكنيته أبو عمرو ، منسوب إلى شعبان بن عمرو ، وهو من حِمْير ، فمن كان منهم باليمن فهو حميرىّ ، ويقال له شعبانىّ ، ومَنْ كان بالعراق فهو هَمْدانى، ويقال له شعبىّ . وولد لستّ سنين من خلافة عمر رضى الله عنه. سمع علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه والحسنَ والحسين وجماعة من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، وهو كوفىّ ، وبه يُضْرَب المثل فى الحفظ ، فيقال : أحفظ من الشعبىّ .

وقال الزُّهرىّ : العلماء أربعة : سعيد بن المسيّب بالمدينة ، وعامر الشعبىّ بالكوفة ، والحسن البصرىّ بالبصرة ، ومكحول بالشأم .

وقال ابن شُبْرُمة : سمعت الشعبىّ يقول : ما كتبتُ سوداء فى بيضاء إلى

يومى هذا ، ولا حدّثنى رجل قطّ بحديث إلا حفظته، ولا أحببتُ أن يُعيدَه علىّ.

وقال الشعبىّ لأصحابه : ما أروى شيئاً أقلّ من الشعر، ولو شئت لأنشدتكم شهرا لا أُعِيد .

وكان الشعبىّ فقيهاً عالماً حافظاً أديباً ، وقال : لولا ما زوجت فى الرحم ما قامت لأحدٍ معى قائمة .

وكتب عبد الملك إلى الحجاج أن ابعث إلىّ رجلا يَصْلُح للدين والدنيا ، أتّخذه سميراً وجليساً ، فبعث إليه بالشعبىّ ، فلما دخل عليه وجده مغتمًّا ، فقال : ما بال أمير المؤمنين ؟ قال ذكرت قول زهير[1] :

كأنى وقد جاوزتُ تسعين حِجّةً ... خلعتُ بها عَنّى عِذَارَ لجامِى
رمتْنى بنات الدهر من حيث لا أرى ... فكيف بمن يَرْمِى وليس برامِ
فلو أننى أُرْمَى بنبلٍ رمونُها[2] ... ولكنّنى أُرْمَى بغير سهامى
على الراحتين تارة وعلى العصا ... أنوء ثلاثاً بعدهنّ قيامِى[3]

فقال له الشعبى : ليس كذلك ، ولكن كما قال لبيد بن ربيعة :

كأنّى وقد جاوت سبعين حجةً ... خلعت بها عن مَنْكِبىّ رِدَائيا[4]

فلما بلغ سبعاً وسبعين ، قال :

---

(١) الأغانى « أصبحت كما قال عمرو بن قميئة » .
(٢) الاغانى « فلو أنها نبل إذاً لاتقيتها »
(٣) موضعه فى الأغانى :

وأعلكنى تأميلُ يوم وليلةٍ ... وتأميلُ عامٍ بعد ذاك وعام

(٤) ملحق ديوان لبيد ٣٦١

رفع المسهم

بانت تَشَكَّى إلىّ الموت مجهشةً[1] وقد حملتُك سبعاً بعد سبعينا
فإن تراخَتْ ثلاثاً تبلغي أملاً[2] وفى الثلاث وفاء للثمانينا

فلما بلغ التسعين ، قال :

ولقَدْ سَئِمْتُ من الحَياةِ وطُولِها وسؤال هذى النَّاسُ كيف لبِيدُ[3]
وغَنيتُ سبتاً قبل مجرى داحِسٍ لو كانَ للنَّفْسِ اللّجوج خُلودُ

فلما بلغ عشرين ومائة ، قال :

أليسَ وَرَائى إنْ تراخَتْ منيَّتى لزومُ العصا تُحنَى عليها الأصابعُ[4]
أخبِّرُ أخبارَ القُرون الّتى مَضَتْ أنوء كأنّى كلّما قمتُ راكعُ[5]

فلما بلغ ثلاثين ومائة حضرته الوفاة ، فقال :

تمنَّى ابنتاىَ أن يعيش أبوهُما وهل أنا إلاّ من ربيعةَ أو مُضَرْ[6]
فَقُوما فقولاَ بالّذى أنا أهلُه ولا تخمِشا خدّا ولا تحلِقا شَعَرْ
وقُولاَ هو المرء الّذى لا صديقَهُ أضاعَ ولا خانَ الخَليلَ ولاَ غَدرْ
إلى الحولِ ثم اسمُ السّلام عليكما ومَنْ يبكِ حولاً كاملا فقداعْتَذَرْ

---

(١) الأغانى :

* قامت تَشكى إلىّ الموتَ مُجْهَشَةً *

(٢) الأغانى « فإن تزادى ثلاثا » .
(٣) ديوانه ٣٥ (٤) ديوانه ١٧١
(٥) الديوان :

* أدبُّ كأنّه كلّما قمتُ راكِعُ *

(٦) ديوانه ٢١٣ ، وبعده فى الديوان :

وناحتانِ تَندُبانِ بعاقلٍ أخائقةٍ لا عين منه ولا أثَرْ
وفى ابنى نزارٍ أسْوةٌ إن جزعْتُما وإن تَسألاَهم تُخبَرا فيهمُ الخَبَرْ
وفيمن سواهم من ملوكٍ وسوقةٍ دعائمُ عرش خانه الدَّهْرُ فانقعرْ

رفع المسهم

قال الشعبيّ : فلقد رأيت السرور فى وجه عبد الملك طمعاً أن يعيشها[1] .

وقال الحريرى فى الدّرّة : حدثنى أحد شيوخى أن ليلى الأخيليّة كانت تتكلم بلغة بَهْرَاء ، فتكسر حرف المضارعة ، فتقول: «أنت تِعلم» فاستأذنتْ يوماً على عبد الملك بن مروان وبحضرته الشعبيّ ، فقال : أتأذن لى ياأمير المؤمنين فى المَضّ منها ؟ فقال : افعل ، فلما استقرّ بها المجلس قال لها الشعبيّ : يالَيلَى ، مابال قومك لا يَكتنون! فقالت: ويحك أما نِكْتَنى - بكسر النون - فقال: لا والله ولو فعلتِ لاغتسلت ، فخجلتْ عند ذلك ، واستغرق عبد الملك فى الضحك .

الأصمعى: وجّه عبدُ الملك الشعبيّ إلى ملك الروم فى بعض الأمور، فاستكبر الشعبيّ ، فقال له : مِنْ أهل بيت الملك أنت ؟ قال : لا ، فلما أراد الرجوع إلى عبد الملك حمّله رقعة لطيفة ، وقال له : إذا بلّغتَ صاحبك جميع ما يحتاج إلى معرفته من ناحيتنا فادفَع إليه هذه الرقعة ، فلمّا رجع إلى عبد الملك ذكر له ما احتاج إلى ذكره ، ونهض . فلما خرج ذَكر الرقعة ، فرجع فقال: ياأمير المؤمنين إنّه حَمّلنى إليك رقعة أنسيتُها ، فدفعها إليه ونهض فقرأها عبد الملك ، وأمر بردّه فقال : أعلمت ما فى الرقعة ؟ قال : لا ، قال : فيها عجبتُ من العرب كيف ملّكت غير هذا ! أفتدرى لم كتب إلىّ بهذا ؟ قال: لا ، قال: حسدنى عليك ، فأراد أن يُغْرِيَنى بقتلك، فقال الشّعبيّ: لو رآك ياأميرَ المؤمنين ما استكبرنى . فبلغ ذلك ملك الروم، فذكر عبد الملك وقال : لله أبوه ! والله ما أردت إلا ذلك .

وكان الشعبيّ خرج مع عبد الرحمن بن الأشعث على الحجّاج ، فلما هُزِم عبد الرحمن أُتِىَ به موثقاً مع الأسرى ، وكان حكمُ الحجاج فيهم : مَنْ أقرّ أنه كافرٌ أبقاه ، ومن أقرّ أنه مسلم قتله . قال : فلما جئتُ باب القصر لقيَنى يزيد ابن مسلم كاتبه ، فقال : إنا لله يا شعبيّ ، لِمَا بين دفتيك من العلم ! وليس

(١) الخبر والشعر فى الأغانى ١٨ ، ١٤٣ .

بيوم شفاعة، فقلت له : وما المخرج ؟ فقال يُؤْ للأمير بالشرك والنفاق ، وبالحرى أن تنجو ، فلمّا دخلتُ على الحجاج قال لى : وأنت ياشعبيّ ممن خرج علينا ! قلت : أصلح الله الأمير ! أحْزَن بنا المنزل ، وأجدَب بنا الجناب ، واستحلَسْنا الخوف ، وضاق الملك ، وخبطتنا[1] فتنة ، لم نكن فيها بررة أولياء ، ولا فجَرة أقوياء ، قال : لله أبوك ! لقد صدقت والله ما بررتم بخروجكم علينا ، ولا قويتم. خلّوا سبيلَه .

وكلم ابنَ هبيرة فى قوم حبسهم ، فقال : إن كنت حبستَهم بباطل ، فالحقُّ يُطلِقهم ، وإن كنتَ حبستَهم بحقّ فالعفو يَسَعُهم.

ودخل عليه رجل من النَّوْكَى ، وهو جالس مع امرأة ، فقال : أيُّكما الشعبى ؟ فقال له: هذا ، فقال: ماتقول أصلحك الله فى رجل شتَمنى فى أوّل يوم من رمضان هل يُؤْجر ؟ فقال له الشعبيّ : أما إن كان قال لك: يا أحمق ، فأرجو له الأجر .

وسأله آخر، فقال : ماتقول فى رجل أدخل إصبعه فى أنفه فى الصلاة ، فخرج عليها دم ، أترى له أن يحتجم ؟ فقال : الحمد لله الذى نَقَلَنا من الفقه إلى الحجامة.

وسأله آخر : كيف كانت تسمى امرأة إبليس ؟ قال ذلك نكاح لم نشهده

ودخل الحمّام فرأى داود الأودِىّ بلا مئزر ، فغمّض عينيه ، فقال له داود : مَتَى عميت ياأبا عمرو ؟ فقال : مذ هتَك الله سترك . ومات فى سنة أربع ومائة وهو ابن اثنتين وثمانين سنة .

[ذكر الخليل بن أحمد]

والخليل رحمه الله هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد البصرِىّ الفراهيدىّ، ينسب إلى فراهيد بن مالك بن فَهم بن عبد الله بن مالك بن نصر الأزدى ، ويقال : اليَحْمَدىّ . واليحمَد بطن من الأزْد .

(١) ط : « خطبتنا »

وكان الخليل من أزهد الناس وأعلاهم نفساً ، وأشدّهم تعفُّفاً ، ولقد كان الملوك يقصِدُونه ويتعرّفون إليه ليَنال منهم ، فلم يفعل ، وكان يعيش من بُستانٍ له خلّفه عليه والده ، وكان يغزو سنة ويحج أخرى ، حتى جاءه الموت .

محمد بن حميد ، قال : تزوّجت إلى جيران الخليل ، فنزلتُ عليهم ، فكنت أسمع قرآن الخليل طول الليل ، فقالوا لى : ما عرفنا من هذا الرجل إلا ما ترى ، وإنه ليغيب عنّا فى غزوٍ وَحَجّ فنتوحّش إليه ، وقالوا : لا يجوز الصراطَ بعد الأنبياء والصحابة أدَقُّ ذهناً من الخليل . وكانت تلك الفضيلة فيه ببركة اسم أبيه ، لأنه أوّل من تَسَمّى بأحمد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أبو عاصم : دخلت عليه قبل وفاته بأيام ، فقال : والله ما فعلت قطّ فعلا أخاف على نفسى منه وكان لى فضل فكر ، صرفته إلى جهةٍ وَدِدْت أنى كنت صرفتُه إلى غيرها . وما علمت أنى كذبت متعمّداً قطّ ، وأرجو أن يغفر الله لى الغلَط .

واجتمع أدباء من كلّ أفق ، فجعل أهل بلد يرفعون علماءهم ، ويقدّمونهم حتى جَرَى ذكر الخليل ، فلم يبق أحد إلا قال: الخليل أذكى العرب، وهو مفتاح العلوم ومصرّفها .

النّضر : مارأى الراءون مثل الخليل ، ولا رأى الخليل مثل نفسه . وكان أشعثَ الرأس، شاحبَ اللون ، قشِف الهيئة ، متخرّق الثياب ، متقلّع القدمين ، مغموراً فى الناس لا يُعرف .

محمد بن الفضل : كان بالبصرة رجل يعطى دواء لظلمة البصر ، فينتفع به الناس ، فمات فأضَرّ ذلك بمن كان يستعمله ، فذُكر للخليل فقال : أله نسخة ؟ فقالوا : لم نجدها ، قال : فهل كان له آنية يعمله فيها ؟ قالوا : نعم ، إناء يجمع فيه أخلاطاً ، قال : فجيئونى به ، فجعل يتشَمّمه ، ويخرج نوعاً نوعا حتى

أخرج خمسة عشر نوعاً ، ثم سأل عن جمعها ومقاديرها فعرفه مَنْ كان يعالج مثله فعمله ، وأعطاه الناس، فانتفعوا به مثل تلك المنفعة . ثم وجدت النسخة فى كُتب الرجل ، فإذا فيها ستة عشر خَلطا ، فلم يغفل إلا عن خلْط واحد .

وكتب إليه ملك اليونان كتاباً باليونانية،فخلا به شهراً حتى فَهِمه ، فقيل له فى ذلك ،قال : قلت : لابدّ أن يفتتح الكتاب باسم الله تعالى وماأشبهه ، فهنّيت أوّل الحروف على ذلك حتى انقاستْ لى.

النّضر بن شميل . جاء رجل من حَلْقة يونس ، فسأل الخليل عن شىء ، فأطرق يفكّر ، فقالوا له : ما هذا مما يحتاج إلى فكْر يفكِّر فيه ! فقال لهم : فما الجواب عندكم ؟ قالوا : كذا ، قال : فإنه يزيدكم فى الجواب كذا ، قالوا : يقول كذا ، يقول : كذا ، فانقطعوا ، فقال : ما أجبت بجواب قطّ إلا وأنا أعرِف آخر ما علىّ فيه .

وكان يخرج من منزِله فلم يشعر إلا وهو فى الصحراء ، ولم يردّها لشغله بالفكْر .

وقال النضر : سمعت الخليلَ يقول : الأيام ثلاثة : فمعهود وهو أمس ، ومشهود وهو اليوم ، وموعود وهو غد .

وقال الخليل : إذا نسِخ الكتاب ثلاثَ نُسخ ولم يعارَض به تحوّل بالفارسية .

ورأى مع رجل دِفْتراً وفيه خطّ دقيق ، فقال لصاحبه : أيِسْت يا هذا من طول عمرك !

وقال : إن لم تعلّم الناس ثوباً فعلّمهم لتدرس بتعليمهم علمك ، ولا تجزع من تفرّع السؤال ، فإنه ينبّهك على علم مالم تعلم .

وقال : أكثِر من العلم لتفهمْ ، واختر قليلا منه لتحفظ .

وكان يقول : إذا خرجتُ من منزلى لقيت أحدَ ثلاثة ، إمّا رجلاً أعلم بشىء منى ، فذلك يوم فائدة ، أو مثلى فذلك يوم مذاكرة ، أو دُونى فذلك يوم ثواب .

وقال : من الناس مَنْ يدرى ويدْرى أنه يدرى ، فذلك عالم فاتّبعوه ، ومنهم مَنْ لا يَدْرى ولا يدرى أنه لا يَدْرِى ، فذلك جاهل فاحذروه ، ومنهم مَنْ يدرى ولا يدرى أنه يدرى ، فذلك ضالٌّ فأرشدوه .

وكان يقول : إذا أردت أن تعلم خطأ معلّمك من صوابه فجالس غيره .

وقال : أنا أول مَنْ سمّى الأوعية ظروفا؛ لأنّها جُعِلت ظرفا للأدب والنظافة.

وقال : أدركت بعض ما أنا فيه بإطّراح الحشمة بينى وبين المعلّمين ، ومَنْ رَقّ وجهه فى طلب العلم رَقّ علمه .

وقال : إذا أخطأ بحضرتك مَنْ تعلم أنه يأنف بإرشادك فلا تردّ عليه خطأه ، فإنك إذا نبّهته على خطئه أسرعتْ إفادته ، واكتسبت عداوته .

وقال : اجملْ ما تكتسب بيتَ مال ، وما فى صدرك النفقة .

وقال : العلوم أقفال والسؤالات مفاتيحها .

وقال : النّاس فى سجن ما لم يتحاوزوا .

وقال : الرجل بلا صديق ، كاليمين بلا شمال .

وقيل له : إن استفساد الصديق أهونُ من استصلاح العدو ، فقال : نعم ، كما أن تخريقَ الثوب أهونُ من نَسْجِه .

وقيل له : ما الجود ؟ فقال : بذل المجهود ، قيل له : فما الزهد ؟ قال : ألاّ تطلب المفقود ، حتى تفقد الموجود .

وقال : الدنيا أمَدُه والآخرة أبد .

رفع المسهم

وقال: حسب امرئٍ من الشرّ أن يرى فى نفسه فساداً لا يصلحه ، ومَنْ علم بفساد نفسه علم بصلاحها، وأقبح التحوّل أن يتحوّل المرء من ذنب إلى غير توبة ولا إقلاع عنه .

وقال : الدنيا أضداد متجاورة وأشباه متباينة ، وأقارب متباعدة ، وأباعد متقاربة .

وقال : ثلاثة أشياء أنا أحبّها للنفس ولمن أحبّ رشده : أحبّ أن أكون بينى وبين ربى من أفضل عباده ، وأكون بينى وبين الخليقة مِنْ أوسطهم ، وأكون بينى وبين نفسى من شرّهم . وقال عبد الله بن داود : لو كتب شىء بالذهب لكتب هذا .

ونظر فى فقه لأبى حنيفة ، فقيل له : كيف ترى؟ فقال : أرى جدًّا وطريق جدّ ، ونحن فى هزل وطريق هزل .

وقال عبد الله بن داود : لقد نال الناس بالخليل وعلمه الرّغائب ، وإنه لبينَ أخصاص البصرة ، يزهد فيما يُرْغب فيه .

وقال : ثلاثٌ يُنْسِين المصائب : مَرّ الليالى ، والمرأة الحسناء ، ومحادثة الرجال .

النّضر : سمعت الخليل يقول : التوانى إضاعة ، والحزم بضاعة ، والإنصاف راحة ، والالتجاج وَقاحة .

وكان له غلام كثير الخلاف عليه ، فقال له يوما : قُمْ ، فقال : لا أقوم ، فقال : اقعد : فقال : لا أقعد ، قال : فأىّ شىء تصنع ؟ قال : لا أصنع شيئاً . ويشبه هذا قولُ الشاعر فى امرأته :

سكتُّ فقالتِ لمْ سكتّ عن الحقّ وقلْتُ فقالت: مادَهاكَ إلى النُّطقِ[1]
فأومأتُ هل من حالةٍ بين ذاوذا فقالت وذا الإيماء أيضاً من الحُمقِ
فلم أرَ لى إذ حلّت الغربَ راحةً من الشرّ إلا فى الهروب إلى الشّرقِ
فلما أتيت الشّرق ألفيتُهـا به وقد قعدتْ لى منه فى ضيّق الطُّرقِ

وإنما أكثرنا من أخباره لأنّها آداب ، وحِكَمٌ مَن اقتدى بها اهتدى ، وما تركناه من أخباره أكثر ، وذكْر النحو والعروض مؤخّر إلى الخمسين إن شاء الله تعالى :

ولتقدّمه فى العلم ضربت الشعراء به المثل ، فمن ذلك قول أبى تمام يهجو عياش بن لهيعة :

ولو نشر الخليلُ له لعمّتْ بلادتُه على فِطَنِ الخليـــل[2]
فما أدرى عمائى عن رشادى دَهانِى أم عماك عن الجميلِ

وقال آخر :

يا مَنْ يزيد تمقُّتاً وتباغُضاً فى كل لحظَهْ
واللهِ لو كدتَ الخليـــلَ لما روَيْنا عنك لَفْظَهْ

وأنشد المبرد :

لم تدرِ ما علمُ الخليل فتقتدى بيبان ذاكَ ولا حدودَ المَنْطِقِ

وقال المعرّى :

إذا قيل نُسْكٌ فالخليل ابن آزرٍ وإن قيل فهمٌ فالخليل أخو الفَهْمِ

(١) ديوانه ٣٠٥

رفع المسهم

ابن مزاحم الشاعر: كان الخليل صديقا لى ، فدخلت عليه يوما ؛ فقال: أجز

رأيت غنى الإنسان نفسا زكية

فقلت :

* مُطَهَّرَةٌ من كلِّ رِجْسٍ وباطِلِ *

فقال :

* فى عاجل الدنيا مديح ورفعةٌ *

فقلت :

* وخيرٌ عظيم عاجلٌ بعد آجلِ *

فقال : والله جئت بما فى نفسى ، ثم قال :

كأنّك كنت قد خامرْت قلبى ... فجئتَ بما شَفَيْتَ به الغليلاَ

رأيتَ براعة الإيجاز أشْفَى ... فصارَ كثيرُ غيرِك لى قليلاَ

وله :

العلم يُذْكِى عقولاً حين يصحبُها ... وقد يزيدُها طولَ التجاريبِ

وذو العادُّب فى الجهّال مغتربٌ ... يَرَى ويَسْمَعُ ألوانَ العَجاجِيب

وكان صديق سليمان بن حبيب ، وأنشده الشعراء ، فتشاغل عنهم سليمان ، فذكروا ذلك للخليل فكتب إليه :

لا تقبلنّ الشِّعر ثم تعقّه ... وتنام والشُّعراء غير نيامِ

واعلم بأنّهمُ إذا لم ينصفوا ... حكمُوا لأنفسهم على الحُكّامِ

وجناية الجانى عليهم تنقضى ... وكلومهمْ تبقى على الأيّام

* * *

[ذكر جرير]

وأما جرير فهو ابن عطية بن الخطفى . شاعر من فحول العرب ، واتفقت العلماء على أنّ أشعر الإسلاميين جرير والفرزدق والأخطل ، وأكثرهم على تفضيله عليهما . وسأذكر لك شيئا من غزله وهجوه ، نستدلّ به على منزلة شرفه فى الشعر : ورأت أمه وهى حامل به كأنها ولدت حملاً من شَعْر أسود ، فلما سقط جعل ينزُو فيقع فى عنق هذا فيخنقه حتى فعل ذلك برجال كثيرة ، فانتبهت فزعةً فأوّلت الرؤيا، فقيل لها : تلدين غلاماً شاعراً ذا أشرٍ وشدة وشكيمة وبلاء على الناس ، فلما ولدته سمّته جريراً، باسم الحبل الذى رأته ، فهاجاه ثمانون شاعراً ، فغلبهم .

وقال جرير : ماعشقتُ ولو عَشِقْتُ لنسبت نسيبا تسمّه العجوز فتبكى على عاتقها من شبابها . قالوا : وأرقُّ ماجاء فى النسيب قوله :

إنّ العيون التى فى طرفها حَوَرٌ قتلننا ثم لم يحيين قتلانا[1]
يَصْرَعن ذا اللّبّ حتى لا حَراك له وهنّ أضعفُ خلق الله أركانا
أنصفتهم مُقْلةَ إنسانُها غرِقٌ هل ما ترى تاركٌ للعين إنسانا !

ومثل هذا أوجب على الحريرى أن يذكر جريراً بالغزل ، وإلا فقد أُخِذ عليه فى ذكر جرير بالغزل ، وإنما الذى اشتهر فى زمانه بالغَزَل مثل عمر بن أبى ربيعة وكثيّر عزة وجميل وقيس بن ذريح وأمثال هؤلاء ، وإنما اشتهر جرير بالمدح والهجو ، ولانطباعه قد جاء فى شعره من الغزل الرقيق كثير ، وإن كان تكلّفا إذ لم يعشق . قال الجاحظ : كان الفرزدق مشتهراً بالنساء ، ومع ذلك

(١) ديوانه ٥٩٥ ، ٥٩٦ وفيه، « فى طرفها مرض »

فليس له بيت واحد فى النّسيب ، وكان جرير عفيفاً لم يعشق امرأة قط ، ومع ذلك فهو أغزل الناس شعراً .

وسئل الفرزدق عنه فتنفّس حتى كادت حمائزه تنشقّ ، ثم قال : قاتله الله ! فما أحسن ناحيتَه وأشرَد قافيتَه ، والله لو تركوه لأبكى الشابّةَ على أحبابها ، والعجوز على شبابها ، ولسكنهم هزّوه فوجدوه عند الهراش نابحاً ، وعند الجراء قارحا ، ولقد قال بيتا ، لأن أكون قلتُه أحبّ إلىّ مما طلعت عليه الشمس ، وهو :

إذا غضبتْ عليك بنو تميمٍ حسبتَ النّاس كلّهمُ غضابا[1]

وقال مسعود بن بشر : قلت لابن مناذر : مَنْ أشعر الناس ؟ قال : من إذا شئتَ جدّ ، وإذا شئت لعب ، وإذا شئت أطمعك لعبه ، وإذا رمتَه بعُد عليك ، وإذا جدّ فيما قصد له آيسك من نفسه . قلت : مثل مَنْ ، قال : مثل جرير إذ يقول حين لعب :

إنّ الذين غَدَوْا بلبّك غادروا وشَلاً بعينك لا يزال مَعينا[2]
غيّضْنَ من عبراتهنّ وقلنَ لى ماذا لقيتَ من الهوى ولقينا !

ثم قال حين جدّ :

إنّ الذى حَرَم المكارم تغلباً جعل الخلافة والنبوّة فيها[3]
مضرٌ أبى وأبو الملوك فهل لكمُ ياخُزْرَ تَغْلِبَ من أبٍ كأبينا
هذا ابنُ عمى فى دمشق خليفةً لو شئتْ قادَكمُ إلىّ قَطينا

---

(١) ديوانه ٧٨
(٢) ديوانه ٥٧٨
(٣) ديوانه ٥٧٨ ، ٥٧٩

فلما بلغ عبد الملك هذا، قال :مازادابن المراغة أن جعلني شُرطيًا له !أما إنه لو قال: « لو شاء ساقكم » لسُقْتُهُمْ إليه كما قال .

ونزل الفرزدق حين قدم على الأخوص فقال : ماتشتهي ؟ قال شواء وظلاً وغناء ، قال: ذلك لك ، ومضى به إلى قينة فغنّته :

ألا حيّ الديار بسعدَ إنّى أحبُّ لحبِّ فاطمة الدّيارا[1]
إذا ماحلّ أهلُكِ ياسُلَيمَى بدارة صُلْصلٍ شَحَطُوا مَزَارا[2]
أراد الظاعنون ليحزنُونى فهاجوا صَدْع قلبيَ فاستطارا[3]

فقال : ما أرقّ أشعاركم يا أهل الحجاز ! قال : أو تدرى لمن هذا ؟ قال : هو لجرير يهجوك ، قال :ويلٌ لابن المراغة ! ما كان أحوجه مع عَفافِه إلى صلابة شعرى، وأحوجنى مع فسوق إلى رِقة شعره ، وفى الفرزدق منها :

وكنتَ إذا نزلتَ[4] بدار قومٍ رحلتَ بخَزْيةٍ وتركْتَ عارا

وقال جرير :

لقد طال كتمانى أمامة حبَّها فهذا أوان الحبّ تَبْدُو شواكُلُه[5]
وإنى وإن لام العواذلُ مولعٌ بحبّ الغَضامِن حُبّ مَنْ لا يزايلُهُ
ولما استقرّ الحبّ ألقتْ بيَ العصا[6] ومات الهوى لمّا أصيبت مقاتلُه
وقلن تَزَوّجْ لا يكن لك حاجة[7] وقلبك لاتشغل وهُنّ شواغِلُه

---

(١) ديوانه ٢٨٠
(٢) الديوان : « المزارا »
(٣) الديوان : « ليحزنونى » .
(٤) الديوان : « حللت » ..
(٥) ديوانه ٤٧٨
(٦) الديوان :

« فلمّا التقى الحيّان ألقيتِ العصا »

(٧) الديوان :

« وقُلْنَ تروّحْ لاتكن لك ضيعة »

رفع المسيهما

وقال أيضاً :

يا أخت ناجيةَ السّلامُ عليكمُ ... قبل الرّحيل وقبل لوم العُذّلِ[1]
لو كنتُ أعلم أنّ آخرَ عهدِكُمْ ... يومُ الفراق فعلتُ مالم يفعلِ

وقال أيضاً :

بنفسي مَنْ تجنّبُه عزيز ... عليّ ومَنْ زيارتُه لِمَامُ[2]
ومَنْ أمسي وأصبح لا أراه ... ويَطْرُقني إذا هَجَعَ النّيامُ
أتذكر إذ تودّعنا سُلَيمَى ... بفرع بشامةٍ سُقِيَ البَشَامُ

وقال أيضاً :

لاتكثرنّ إذا جَعَلْتَ تلومني ... لا يذهبنّ بفعلك الإكثارُ[3]
كان الخليطُ هُمُ الخليطُ فزايلُوا ... ولقد تهدّل بالديار ديارُ
لاَيَبْتُ القُرَناه أن يتفرّقوا ... ليلٌ يكرّ عليهمُ ونهارُ

ومن هجوه في الراعي:

فغضّ الطرف إنّك من نُمير ... فلا كعباً بلغت ولا كِلاَبا[4]

وعندما قال هذا البيت وثب قائماً حتى أصاب السقف رأسه ، وقال : أخزيتَه والله وغصصته،وقدّمت أخويه عليه،والله لايفلح بعدها، وكان كما قال، ما أفلح بعدها هو ولا نمير .

وقال في جندل بن الراعي :

أجندلُ ما تقول بنو نميرٍ ... إذا ماالأيرُ في است أبيك غابا[5]

---

(١) ديوانه ٤٤٣ :
يا أمّ ناجيةَ السلام عليكمُ ... قبل الرّواحِ وقبلَ لَوْمِ العُذّلِ[6]
(٢) ديوانه ٥١٢ .
(٣) ديوانه ٢٠١
(٤) ديوانه ٧٥
(٥) ديوانه ٧٥

وأنشد القصيدة والفرزدق واقف، فلما بلغ إلى قوله :

* تَرَى برصاً بأجمع إسكتيها *

وضع الفرزدق يده على فيه، وخطى منفقته فقال :

* كَمَنْفَقَةِ الفرزدق حين شابا *(١)

فانصرف الفرزدق وهو يقول: اللهمّ أخزِه، ولقد علمت حين بدأ البيت ألاّ يقول غيرها، ولكن طمعتُ ألاّ نأتيَهُ .

وقال في ابن لجا :

تَعَرَّضتْ تيم لِي عمداً لأشتمها ... كما تَعَرَّض لاستِ الخارئ الحجرُ(٢)

ياتيمَ تَيْمَ عديّ لا أبالكُمُ ... لايلقينّكمُ في سوءةٍ عمرُ

وقال يذكر أمه :

تقول والعبدُ مسكين يُزَحِّرُها ... رفقاً فِداكِ أنت الناكح الذكرُ(٣)

وبينا جرير ينشد في زوجته :

لولا الحياء لعادني استعبارُ ... ولزرت قبرك والحبيبُ يُزَارُ(٤)

كانت إذا هَجَر الضجيعُ فراشَها(٥) ... كَتَمَ الحديثُ وعفّت الأسرارُ

لايلبث القرناءُ أن يتصدّعوا ... لَيْلٌ يكرّ عليهمُ ونهارُ

إذ طلع الأخوص قطع إنشاده، ورفع صوته، يقول :

عَوَى الشعراء بعضهمُ لبعضٍ ... على فقدْ أصابهمُ انتقامُ(٦)

---

(١) ديوانه ٦٩ (٢) ديوانه ٢٨٣

(٣) ديوانه ٢٨٦ (٤) ديوانه ١٩٩، ٢٠١

(٥) الديوان : « هَجَر الخليلُ فِراشَها » .

(٦) ديوانه ٥١٣، الأغاني ٨ : ٦٥

رفع المسهم

إذا أرسلتُ صاعقةً عليهمْ رأوا أخرى تحرّق فاستدامُوا[1]
فصَلْمَ[2] السامع أو خَصِيٌّ وآخرُ عظمُ هامَتِيهِ حُطَام

ثم عاد . فقيل : لم فعلت هذا ؟ قال: إنى نَهيت الأحوص أن يهجو الفرزدق [علىّ][3] وإنى والله يابنى عمرو بن عوف ماتعوّذت من شاعر قط ، ولولا حكمكم مانَعوّذْتُ منه .

الأصمعىّ : حدثنى أبى قال : رأى رجل جريرا فى المنام ، فقال : مافعل الله بك ؟ قال : غفرلى، قال: بماذا قال بتكبيرةٍ كبّرت الله فى الخمر - وهو ماء بالبادية - قال : فما فعل أخوك الفرزدق ؟ قال : هيهات أهلكه قذفُ المحصنات .

قال الأصمعىّ : لم يَدَعْه فى الحياة ولا فى الممات ، وتوفّىَ سنة أربع عشرة ومائة .

* * *

[ذكر قس بن ساعدة الإيادى]

وأما قسّ بن ساعدة الإيادىّ ، فيضرب به المثل فى الفصاحة والخطابة ، فيقال : أبلغ من قُسّ ، وهو أسقفّ نَجْران ، وهو من حكماء العرب ، وكان مؤمناً بالله ومبشّرا برسوله ، وهو أول مَنْ خطب متوكّئاً على عصا ، وأوّلُ مَنْ كتب : من فلان إلى فلان ، وفيه يقول الأعشى :

وأفصح من قُسٍّ وأجرى مِنَ الذى بذى العين من خَفّان أصْبَحَ خادرا[5]

ولمّا[6] قدم وفد بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سألهم عن رجل

(١) استداموا ، أى انظروا .
(٢) مصطلم : مقطوع (٣) من الأغانى
(٤) فى معجم البلدان : خر: شعب من أعراض المدينة .
(٥) البيت ليس فى ديوانه
(٦) الخبر فى الأغانى ١٥ : ٢٤٦

رفع المسهم

كان فيهم نازلاً ، يقال له : قُسّ بن ساعدة الإيادىّ ، قالوا : هلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد رأيته بعكاظ يخطُب على جمل له أورق[1] وهو يقول : أيها الناس اجتمعوا ، واسمعوا وعُوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكلّ ماهو آت آت ، ليلٌ موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تغور ، وبحر يمور . أمّا بعد ، فإنّ فى السماء لخبراً ، وإنّ فى الأرض لعبراً ، مالى أرى الناس يموتون ولا يرجعون ، أرضُوا بالإقامة فأقاموا ، أم تركوا كاهم فناموا . أقسم بالله قسٌّ قسماً حقا ، فما حَنَثَ ولا أثم ، إنّ لله ديناً هو أرضى من دينكم هذا الذى أنتم عليه ، ثم قال أبياتاً ما أحفظها ، فقال رجل من الأنصار : أنا شاهد يارسول الله ، بأبى أنت وأمى ! قال : فأنشدنا ، قال : سمعته يقول :

فى الذاهبين الأوّلين من القُرون لَنَا بصائرْ
لمّا رأيت مواردا للموت ليسَ لها مصادرْ
ورأيتُ قومى نحوها تمضى الأصاغرُ والأكابرْ
لايرجع الماضى ولاَ يبقى من الباقين غابرْ
أيقنتُ أنى لامحا لة حيثُ صار القوم صائرْ

وقال صاحب الأغانى[1] فيه هو قسّ بن ساعدة بن عمرو بن عدى بن مالك بن أيدعان[2] بن النَّمِر بن واثلة بن الطَّمثان بن عَبْد مناة بن يقدم بن أفصى ابن دُعْمىّ بن إياد .

وكان يفِد على قيصر زائرا فيكرمه ويعظّمه ، فقال له قيصر : ما أفضلُ العلم ؟ قال : معرفة الرجل بنفسه ، قال : فما أفضل العقل ؟ قال : وقوف المرء عند علمه ، قال : فما أفضل الأدب ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجهه : قال : فما أفضل

(١) الأورق : الذى فيه سواد وبياض .
(١) الأغانى ١٥ : ٢٤٦ (٢) ط : « أرعان » ، والمثبت من الأغانى

المروءة ؟ قال : قلة رغبة المرء فى إخلاف وعده ، قال : فما أفضل المال ؟ قال : ما قُضِيَ به الحقّ.

ابن عباس رضى الله عنهما : وفد الجارود بن عبد الله فى وفد عبد القَيْس، وكان سيِّدا فى قومه ، معظَّما فى عشيرته ، فآمن وآمن قومه ، فسرّ النبى صلى الله عليه وسلم بهم ، ثم قال : ياجارود ، هل فى جماعة عبد القيس مَنْ يعرف لنا قُسًّا ؟ قال : كلنا نعرفه يارسول الله ، وأنا كنت مَنْ بينهم، أقفو أثره ، وأطلع خبرَه ، كان قُسّ سِبْطاً من أسباط العرب ، صحيح النسب ، فصيحاً ، ذا شيمة حسنة ، عُمِّر سبعمائة سنة، يتقفّر القِفار ، ولا تكُنُّه دار، ولا يُقِرّه قرار ، يتحسّى فى تقفّره بعضَ الطعام ، ويأنس بالوحوش والهوامّ ، يلبس المُسوح ويتبع السياح على منهاج المسيح ، لا يغيّر الرّهبانية ، مقرٌّ بالوحدانية ، تُضرب بحكمه الأمثال وتنكشف به الأهوال ، وتتبعه الأبدال ، أدرك رأس الحواريين سمعان ، فهو أول من تألّه[1] من العرب وأعبَدُ مَنْ تعبّد فى الحِقَب ، وأيقن بالبعث والحساب ، وحذّر سوء المنقلب والمآب ، ووعظ بذكر الموت ، وأمر بالعمل قبل الفوت ، الحسَن الألفاظ ، الخاطب بسوق عكاظ ، العارف بشرق وغرب ، ويابس ورَطْب ، وأجاج وعذب ، كأنى أنظر إليه ، والعرب بين يديه ، يقسم بالربّ الذى هُو له : ليبلغنّ السكتاب أجله ، وليوفينّ كلّ عامل عمله ، ثم أنشا يقول :

هاج للقلب من هواه ادّكارُ ... وليالٍ خلالهنّ نهارُ
ونجوم يحثّها قمر الأثـ ... ـيل وشمسٌ فى كلّ يوم تدارُ
ضوءها يطمس العيون وإرعا ... دٌ شديد فى الخافقين مُثارُ
وغلام وأشمطٌ ورضيعٌ ... كلُّهم فى التراب يوماً يُزارُ
وقصور مشيّدة حوت الخيـ ... ـرَ وأخرى خَوَتْ فهنّ قفارُ
وكثير ممّا تقصرُ عنه ... حدسةَ الناظر الذى لا يحارُ

(١) تأله ، أى تعبد .

والّذى قد ذكرت دل على الله نفوساً لها هدًى واعتبارُ

فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : على رِسْلِك ياجارود ، فلستُ أنساه بسوق عكاظ ، على جمل له أوْرَق ، وهو يتكلّم بكلام مونق ، ما أظنّ أحفظه ، فهل فيكم يامعشر المهاجرين والأنصار مَنْ يحفظ لنا منه شيئاً ؟ فوثب أبو بكر قائماً ، وقال : يارسول الله ، أنا أحفظه وكنت حاضراً بعُكاظ حين خطب فأطنبَ ، ورهّب ورغّب ، وحذّر وأنذر ، وقال فى خطبته : أيُّها الناس اسمَعُوا وعُوا ، وإذا وعيتم فانتفعوا ، إنه مَنْ عاش مات ، ومَنْ مات فات ، وكلّ ماهو آت آت ، مَطَرٌ ونبات ، وأرزاق وأقوات ، وآباء وأمهات ، وأحياء وأموات ، وجَمْع وشتات ، وآيات بعد آيات ، إنّ فى السماء لخبراً ، وإنّ فى الأرض لَعِبراً ، ليلٌ داجٍ ، وسماء ذات أبراج ، وأرض ذات رتاج ، وبحار ذات أمواج ، مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ! أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تُرِكوا هناك فناموا ! أقسم قُسٌّ بالله قسما حقًّا لا آثما فيه ولا حانثا ، إنّ لله ديناً هو أحبّ إليه من دينكم الذى أنتم عليه ، ونبيًّا قد حان حينُه ، وأظلّكم أوَانُه وأدركَكم إبّانُه ، فطوبَى لمن آمن به فهداه ، ووَيْلٌ لمن خالفه وعصاه ! ثم قال : تبًّا لأرباب الغفلة من الأمم الخالية ، والقُرون الماضية ! يامعشرَ إياد ، أين الآباء والأجداد ، وأين المريض والعوّاد ، وأين الفراعنة الشِّداد ؟ أين مَنْ بنى وشيّد ، وزخْرَف ونجّد ، وغرّه المال والولد ! أين مَنْ بَغَى وطغَى ، وجمع فأوعى ، وقال : أنا ربّكم الأعلى . ألم يكونُوا أكثرَ منكم أموالاً ، وأطولَ منكم آجالا ، طحنَهم الثّرى بكَلْكله ، ومزّقهم بتطاوله ، فتلكَ عظامهم بالية ، وبيوتهم خاوية ، عمّرتها الذئاب العاوية . كلاّ بلْ هو المعبود ، ليس بوالد ولا مولود ، ثم أنشأ يقول :

فى الذاهبين الأولين . الأبيات المتقدمة . قال : ثم جلس أبو بكر رضى الله عنه ، وقام رجل ذو هامة عظيمة ، وقامة جسيمة ، فقال : ياسيّدَ المرسلين ، وصفوةَ ربّ العالمين ، لقد رأيت من قُسّ عجبا ؛ أشرف بى جمل على وادٍ ،

وشجر من شجر عاد ، مُورقة مونقة ، وقد تهدّل أغصانها . قال : فدنوت منه ، فإذا بُقسّ فى ظل شجرة ، بيده قضيب من أراك يفكّت به الأرض وهو يترنّم ، ويقول :

يا ناعِىَ الموت والملحود فى جَدَثٍ ... عليهمُ من بقايا خَزِّهم خِرَقُ
دعْهم فإنّ لهم يوماً يُطاحُ بهمْ ... فهم إذا انتبهُوْا من نومهم فِرَقُ
حتى يعودوا بحالٍ غير حالهمُ ... خَلْقاً جديداً كما مِنَ قبلها خُلِقُوا
منهمْ عراةٌ وصنهم فى ثيابهمُ ... منها الجديد ومنها المنهَجُ الخَلَقُ

قال : فدنوت منه ، وسلّمت عليه ، فردّ علىّ السلام ، وإذا بين خرارة ، فى أرض خوارة ، ومسجد بين قبرين ، وأسدين عظيمين ، يلوذان به ، ويتمسّحان بأثوابه ، فأراد أحدهما أن يسبق إلى الماء ، وتبعه الآخر يطلب الماء ، فضربهُ قسٌّ بالقضيب ، وقال : ارجع ثكلتك أمّك ! حتى يشرب الذى وَرَد قبلك . فرجع ثم ورد بعده ، فقلت له : ماهذان القبران ؟ قال : هذان قبر أخوين لى كانا يعبدان الله معى فى هذا المكان ، لا يُشركان بالله شيئاً ، فأدركهما الموت فقبرتُهُما ، وها أنا بين قبريهما ، حتى ألحَقَ بهما . ثم نظر إلى السماء فتفرغرت عيناه بالدموع ، وانكبّ عليهما ، وجعل يقول :

خَليلىّ هبّا طالما قد رقدتُما ... أجِدّكما لا تقضيان كَرَاكُما[1]
ألم تعلما أنى بِسَمْعانَ مفردٌ ... وما لِىَ فيها من خليلٍ سواكَا
مقيم على قبريكما لستُ بارحًا ... طولَ الليالى أو يُجيبَ صداكَا
أبكيكما طول الحياة وَما الذى ... يردّ على ذى عَوْلةٍ إن بَكَاكَا
كأنكما والموت أقرب غاية ... بروحىَ فى قبريكما قد أتاكُما

(١) الأغانى ١٥ : ٢٤٨

أمِنْ طول نوم لا تجيبان داعياً كأنّ الذى يسقى العَقَار سَقَاكُما
فلو جُعلتْ نفس لنفسٍ وقايةً لجدتُ بنفسى أن تكون فِدَاكُما

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «رحم الله قُسًّا، إنى لأرجو أن يَبْعثه الله أمةً وحده» .

* * *

[ذكر عبد الحميد]

وأما عبد الحميد ، فهو ابن يحيى بن سعيد، كاتب مروان بن محمد، آخر ملوك بنى أمية ، وكتب أيضاً للمنصور . وقيل إنه قُتِل مع مروان .

وكان رأساً فى الكتابة ، ومقدماً فى الفصاحة والخطابة ، بليغاً مرسلا، وقال فيه ابن عبدربه : كتب عبد الحميد بن يحيى لعبد الملك بن مروان ، وكتب لسليمان بن عبد الملك ، وليزيد بن عبد الملك ، ثم لم يزل كاتباً لخلفاء بنى أمية ؛ حتى انقضت دولتُهم (١) .

وعبدُ الحميد أوّل مَن فَتَقَ أكام البلاغة ، وسهّل طرقها ، وفكّ رقاب الشعر (٢)

وقال له مروان حين أيقن بزوال ملكه : قد احتجتُ أن تصير مع عدوّى ، وتظهر الغدر بى ؛ فإنّ إعجابهم بآدابك يدعوهم إلى حسن الظنّ بك ، فإن استطعتَ أن تنفعنى فى حياتى، وإلاّ لم تعجز عن حفظ حُرْمتى بعد وفاتى . فقال له عبد الحميد : إنّ الذى أشرت به علىّ أنفعُ الأمرين لك ، وأقبحهما لى، وما عندى إلا الصبر حتى يفتح الله لى ولك ،أو أقتل معك . ثم قال :

أميرُ وفاء ثم أظهرِ غَدْرَةً فمن لى بعذر يُوسِعُ الناسَ ظاهرُه (٢)

---

(١) العقد ٤ : ١٦٥ (٢) العقد ١ : ٩٢

وعبد الحميد هو صاحب الرسائل والبلاغات ، وهو أوّل من أطال الرسائل ، واستعمل التحميدات فى فصول الكتب ، واستعملت بعده ، وهو القائل : البلاغة تقرير المعنى فى الأفهام، من أقرب وجوه الكلام .

ولم يزَلِ الشُّعراء ومَهَرة الكتبة يضربون ببلاغته وكتابته الأمثال فى كتبهم وأشعارهم فى القديم والحديث ، كفضل الصاحب وقرنائه ، مع طَبْع سَمْحٍ ولفظ عذب ، وصلة نثر بنظم ، فإن شاء قال : أنا الوليد ، وإن شاء قال أنا عبيد ، وإن شاء قال : أنا عبد الحميد ، وإن شاء قال : أنا سعيد .

وقيل: بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد .

* * *

[ذكر أبى عمرو بن العلاء]

وأما أبو عمرو فهو ابن العلاء ابن عمار بن عبد الله بن الحُصين بن الحارث ابن جَلْهم بن خُزاعىّ بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم: واسمه وكنيته واحد فى الأشْهَر .

الفنجديهىّ: اختُلف فى اسمه على تسعة عشر قولاً، فقيل : اسمه محمد أو حميد أو حمّاد أو عثمان أو سفيان أو غير ذلك ، وأصحها زَبّان .

واختُلف فى مولده، فقيل: ولد سنة خمس وستين بمكة فى أيام عبد الملك ابن مروان: وقيل: سنة سبعين.

أبو عبيدة : كان أبو عمرو أسَمَر طويلاً ضَرْب اليدين ، حادّ النظر ، مارأيت مثلَه قبله ولا بعده فى فهمه ولا علمِه ، وكان صاحِبَ غريب ونحو وعلم، وهو أحد الأئمة فى القراءة ، وعنه أخذ يونس والأصمعىّ وأبو عبيدة . وفيه يقول الفرزدق :

رفع المسهم

ما زِلْتُ أغلِقُ أبواباً وأفتحُها حتى أتيتُ أبا عمرو بن عمّارِ

وقال ابن مجاهد : كان أبو عمرو مقدّماً فى عصره ، عالماً بالقراءة ووجوهها ، قدوة فى العلم باللغة ، إمام الناس فى العربية .

وكان مع ذلك متمسكا بالآثار ، ولا يكاد يخالف فى اختياره ماجاء عن الأئمة قبله ، متواضعاً فى علمه .

وقال أبو عبيدة : كان أبو عمرو أعلَمَ الناس بالقرآن والعربية وأيّام العرب وأنسابها وشعرها ، وكانت دفاتره ملء بيت ، فلمّا تنسّك أحرقها ، وجعل على نفسه أن يختم القرآن فى كلّ ثلاث ليال ، فلما أسنّ اختلط بالناس ، واحتاجوا إليه فعوّل على حفظه ، فأملَى من حفظه كتب الناس ووقع عليه الإجماع .

روى الأصمعىّ عن أبى عمرو قال : كنتُ أسمر مع مسلم بن قتيبة الباهلىّ وكان يعجبه الرّوىّ على السين ، فأنشدهُ ليلة ستين قصيدة على السين لستّين شاعراً ، اسمهم عمرو .

الأصمعىّ : كان لأبى عمرو كلّ يوم من غلّة داره فَلْسان : فلس يشترى به كوزاً ، وفلس يشترى به ريحانا ، يشرب فى الكوز يومه ، ويشمّ الريحان يومه ، فإذا أمسى تصدّق بالكوز ، وأمر الجارية أن تجفّف الريحان وتدقّه فى الأشنان .

الأصمعىّ : قال أبو عمرو : كنت فى ضيعتى ، فاشتدّ علىّ الحرّ ، فكنت أدور فى سِدْرٍ فيها نصفَ النهار ، فسمعت قائلا يقول :

وإنّ امرءا دنياه أكبرُ همه لمستمسكٌ منها بحبلِ غرورِ[1]

---

(١) الخبر والبيت فى طبقات النحويين واللغويين الزبيدى ٣٣ .

رفع المسهم

فقلت : إنسيّ أم جنّي؟ فما أجابني ، فنقشته في خاتمي ، فكان نقش خاتمه .

الأصمعيّ : كنت واقفاً بالمِرْبَد ، وإذا أنا بأبي عمرو ، فلما بَصُر بي مال إليّ ، فقال : ماوقوفك هنا ياأصمعيّ ؟ قلت : إني أحبّ المِرْبد وأكثرُ الجلوس فيه ، فقال: الزمْه ، فإنه يشدّ النظر ويجلو البصر ، ويجمع بين ربيعة ومضر . ثم أردت الانصراف ، فقال : إلى أين ياأصمعيّ ؟ فقلت : إلى صديق لي ، فقال : إمّا لفائدة أو لعائدة أو لمائدة وإلاّ فلا . ثم قال لي : مالي أراك بلا عمامة ؟ قلت : لاعمامة لي ، فنزع عمامته عن رأسه فدفعها إليّ ، فكبُرَ ذلك عليّ ، فقال لي : إنّ لي بدلها إحدى عشرة عمامة ، ثم قال لي: الزم العِمامة ، فإنها تشد اللّامة ، وتحفظ الهامة ، وتزيد في القامة ، ثم استخرج من كُمّه كيساً فدفعه إليّ ثم قال : ياأصمعيّ ، لازلتم بخيرٍ مادمتم تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، فإذا تركتم ذلك سلّط الله عليكم أقواماً غلاظاً فِظاظاً ، خِبْرتكم على قدر معرفتكم .

وأما قراءته وإعرابه المذكوران في المقامة ، فإن شجاع بن نصر ، قال : قلت لأبي عمرو : كيف طلبت قراءة القرآن ؟ قال : لم أزل أطلب أن أقرأه كما قرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكما أنزل عليه ، فقلت له : وكيف ذلك ؟ قال : هرب أبي من الحجّاج ، وأنا شابٌّ ، فقدمنا مكة ، فلقيت بها عدّة من التابعين ممّن قرأ على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مثل مجاهد وسعيد ابن جُبير وعطاء وغيرهم ، فقرأت عليهم القرآن ، وأخذت العربية عن العرب الذين سبقونا باللحن، فهذه التي أخذت بها قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاشدُدْ يدَك بها .

وقال : خرج أبي هاربا من الحجّاج إلى اليمن ، فإنّا لنَسيرُ في الصحراء باليَمَن إذ لحقنا لاحقٌ يُنشد :

رفع المسهم

رُبّما تجزع النفوس من الأمـــر له فَرْجَةٌ كحلّ العِقَالِ[1]

فقال له أبى : ماالخبر ؟ فقال : مات الحجاج ، فأنا بقوله : « فَرْجة » بفتح الفاء أشدّ سروراً منى بموت الحجاج ، فقال أبى : اصرف ركابنا إلى البصرة .

الفنجديهيّ : رأيت فى بعض الفوائد أنّ الحجاج قال لأبى عمرو : ماوجه قراءتك : ﴿ إلاّ مَنِ اغْتَرف غَرْفَةً ﴾ بفتح الغين ؟ فقال : أبلغنى ربقى ، فقال : قد أبلغتُك الفرات . وقال : قاتل الله ابن أم الحجاج ، لئِنْ لم تأتنِى بالجواب إلى خمسة عشر يوماً لأقتلنّك شرّ قتلة ، ووكّل به موكلين، فخرج أبو عمرو يطوف فى أحياء العرب، فلم يجد له حُجّةً إلى يوم وعده، فجزّه الموكّلون به ليُرجعوه إلى الحجاج ، فسمع راعياً ينشد : رُبّما تجزع النفوس ... البيت ، فقال له أبو عمرو : كيف تنشد هذا البيت : له فَرْجة أو فُرجة ، فقال : فَرْجة وفُرْجة ، وكذلك كلّ ماجاء على فَعْلة ، فلغا فيه ثلاث لغات ، فقال له أبو عمرو : فما سبب إنشادك هذا البيت فى هذا الوقت ؟ فقال: إنّا كنّا خائفين من الحجاج ، وقد بلّغنا نعيُه ، قال : والله لا أدرى بأيهما كنت أشدّ فرحاً ، بوجدانى الجواب والحجّة لقولى واختيارى ، أم بموت الحجّاج !

سفيان بن عيينة : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فقلت له : يارسول الله ، قد اختلفت علىّ القراءات ، فبقراءة مَنْ تأمرنى أن أقرأ ؟ قال : بقراءة أبى عمرو بن العلاء .

وقال أبو العباس بن سُريج : من أراد أن يتظرّف فعليه بمذهب الشافعى ،

---

(١) البيت لأمية بن أبى الصلت، وهو فى اللسان ، (فرج) وذكر قبله :

* لا تَضِيقَنّ فى الأمور فقد تُـكْشَفُ غماؤها بغير احتيالِ *

وقراءة أبي عمرو بن العلاء وشعر ابن المعتز ، فقيل له : قد عرفنا مذهب الشافعيّ وقراءة أبي عمرو بن العلاء ، فأنشدنا من شعر ابن المعتزّ ما يوجب الظّرف فأنشد :

كنت صَبّاحِي قرير عينٍ فصرتُ أمْسِي صَرِيع بَيْنِ
بعين نفسي أصبتُ نفسِي فالله بيني وبين عيني

وكان يقول : إنّما نحن فيمن مضى ، كبقل في أصول نَخْل طوال .

وقال أبو عمرو : ناظرت عمرو بن عبيد في الوعيد ، فقال : إن الله تعالى لا يُوعدنا بشيء فيخلفه ، فقلت له : يا أبا عثمان[1] ، ليس لك علم باللغة ، إنّ خلف الوعيد عند العرب ليس بخلف ، وأنشد :

وإني وإن أوْعَدْته أو وَعَدْته لَيُكذب إيعادي ويَصْدق مَوْعِدي[2]

وقال أبو عمرو : كنت رأساً والحسن حيّ . وتوفّيَ بالكوفة سنة أربع وخمسين ومائة ، وهو ابن ست وثمانين سنة ، وعلى قبره مكتوب « هذا أبو عمرو ابن العلاء مولى بني حنيفة » .

وإنما قيل هذا لأن أمه كانت من بني حنيفة .

أبو عبيدة : دخل أبو عمرو على سليمان بن عبد الملك ، فسأله عن شيء فصدَقه فيه ، فلم يعجبْه ما قال ، فخرج أبو عمرو وهو يقول :

أنفت من الذلّ عند الملوكِ وإن أكرموني وإن قرّبُوا
إذا ما صدقت لهم خفتُهمْ ويَرْضَوْن منّي بأن يكذبوا

وقال أبو بكر بن مجاهد : رأيت أبا عمرو في المنام ، فقلت : ما فعل الله

(١) أبو عثمان كنية عمرو بن عبيد .
(٢) البيت كما في اللسان (وعد) لعامر بن الطفيل ، وروايته .
* لمخلفُ إيعادِي ومُنْجِزُ موعدي *

بك ؟ فقال لى : دعنى مما فعل الله بى ، مَنْ أقام ببغداد على السنّة والجماعة ومات، نُقل من جنة إلى جنة .

* * *

[ذكر مناقب الأصمعى]

وأما ابن قُريب ، فهو أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيب بن علىّ بن أصمع ، وإلى أصمع هذا يُنسب . وأصمعُ فخِذٌ من بنى قتيبة بن معن بن أعْصَر بن سعيد بن قيس بن عَيْلان ، وبنو معن هُمْ بنو باهلة ، وباهلة امرأة من هَمْدان تزوّجت معناً فنُسب ولده إليها . والأصمع فى اللغة الضامر الذى ليس بمنتفخ ، ومنه الصَّوْمعة لضُمرها ، وتدقيق رأسها ، ومثله قولهم : جاء بثريدة مصمّعة ؛ إذا رققها وأحَدّ[1] رأسها، وسهم متصمّع : متلطّخ بالدم ، فانضمّت قذَذُه[2] .

وكان الأصمعىّ حافظا عالما فطِناً عارفا بأشعار العرب وأخبارها ، كثير التطوّف بالبوادى لاقتباس علومِها وتلقّى أخبارها ، فهو صاحب غرائب الأشعار ، وعجائب الأخبار ، وقدوة الفضلاء ، وقبلة الأدباء ، قد استولى على الغايات ، فى حفظ اللغات ، وضبط العلوم الأدبيّات ، صاحب دين متين ، وعَقْل رصين ، وكان خاصًّا بالرشيد ، آخذا لصِلاته كثيرا ، وقد تقدّم فى هذا الكتاب من الحكايات المسنَدة إلى الأصمعىّ ، مايدلّ على تبحّره وحفظه .

ومن حكاياته عن أعرابه على ما أشار له الحريرىّ هنا : حدّث الأصمعى رحمه الله، قال : أعرابىّ : حُسْن التدبير مع الكفاف ، أكفى من الكثير مع الإسراف .

الأصمعى: سمعت أعرابيًا يقول: مَنْ كساه الحياء ثوبه، أخفى على الناس عيبَه .

---

(١) ط : « أخذ »

(٢) القذذ : جمع قذة ، وهى ريش السهم .

الأصمعيّ : قال أعرابيٌّ : من اقتصد فى الغنى والفقر ، فقد استعدّ لنائبات الدهر .

قال : وقال أعرابيٌّ : عداوة الحكيم أقلّ عليك ضَرَراً من مودّة الجاهل منهم .

قال : وقال أعرابيٌّ : أعجزُ النّاس مَنْ قصّر فى طلب الإخوان ، وأعجز منه مَنْ ضيّع مَنْ ظَفِر به منهم .

وقال : تزوّج أعرابيٌّ إلى بعض الحاضرة ، فلمّا كان ليلة دخوله بها ، إذا هى أدماء مجدورة ، فخرج مِن البيت وهو ينشد ويقول :

زَوَّجْتَنِى أدماء مجدورةً كأنها من خَشَبِ الهيتِ
قبيحة الوجهِ لها منظرٌ يفرّ منه ملَكُ الموتِ

قال : وجَرى بين أعرابىّ وبين امرأته كلام بالمِرْبد ، فشتمته ، فقال لها : اسكتى ، فوالله ماشَعرُكِ بوارد[1] ، ومافوك ببارد ، ولا ثديك بناهد ، ولا بطنُك بوالد ، ولا الخير فيك بزائد ، ولا الشرّ فيك بواحد ، وما أنا لك بحامد ، ولا بعد موتك بواجد .

[مجلس للأصمعى عند الرشيد]

ونذكر بعد ذلك حكايته المشهورة مع الرشيد ووزرائه ، ومحتمل طولها لما احتوتْ عليه من غرائب الآداب ، وكان مجالسَ مذاكرة بين أفراد ، فأظهر كلّ رجل منهم أفضلَ ما يذكر .

حدث الأصمعىّ قال : استدعانى الرّشيد فى بعض الليالى ، وقد تصرّمتْ قطعة من الليل ، فراعنى رسلُه ، ولم أفتأ أن مثلت بين يديه ، وإذا فى المجلس يحيى بن خالد وجعفر والفضل ، فلمّا لحظنى الرشيدُ استدنانى ، فدنوت منه ،

(١) الشعر الوارد : الطويل المسترسل .

رفع المسهم

فتبيّن مالبسَه من الوجل ، فقال لى : ليُفرِخ رُوعك ، فما أردناك إلا لما يُراد له مثلك ، فسكتُّ هُنيهَة إلى أن ثابت إلىّ نفسى بعد أن كادت تطير شَعاعاً ، فقال : إنى نازعتُ هؤلاء القوم فى أشعر بيت قالته العرب فى التّشبيه ، ولم يقع إجماعُنا على بيت ، فأردناك لفصل هذه القضية ، واجتناء ثمرة الخِطَار[1] فيها . فقلت : يا أميرَ المؤمنين، إن التنصيص على بيت واحد فى نوع واحد - قد وسعت العرب فيه ، وجعلته مَعلَما لأفكارها ، ومستراحاً لخواطرها - لَبعيدٌ أن يقع النص عليه ، ولكن أحسنُ الناس تشبيها امرؤ القيس فى قوله :

كأنّ قلوبَ الطّيرِ رَطْبًا ويابسًا لَدَى وكرها العُنّابُ والحَشَفُ البالِى[2]

وفى قوله :

كأنّ عُيونَ الوحش حولَ خبائنا وأرحلنا الجَزْع الّذى لم يثقّبِ[3]

وفى قوله :

ولو عن نَثًا غيرِه جاءنى وجُرْح اللسان كجرح اليدِ[4]

وفى قوله :

سموتُ إليها بعد ما نام أهلُها سُموّ حَباب الماء حالاً على حالِ[5]

فالتفت إلىّ يحيى ، وقال : هذه واحدة ، قد نصّ على امرئ القيس أنه أبدعهم تشبيها . قال يحيى : هى لك ياأميرالمؤمنين ، ثم قال لى الرشيد : فما أبدع تشبيهاته عندك؟ قلت : قوله يصف فرسا :

---

(١) الخطار : المراهنة
(٢) ديوانه ٣٨ ، والحشف : ردىء التمر
(٣) ديوانه ٥٢ والجزع : الخرز
(٤) ديوانه ١٨٥
(٥) ديوانه ٣١

رفع المسهم

كأن تَشَوُّفَه بالضحى تَشَوُّفُ أزرق ذى مِخْلَبِ (١)
إذا قرعته حلالٌ له تقول سلبت ولم تسلبِ

فقال : هذا حسن ، وأحسن منه قوله :

غَرُحْنَا بكأبْنِ الماء يُجْنَبُ وسطنا تصوّب فيه العَيْنُ طورًا وترتقى (٢)

فقال جعفر : يا أمير المؤمنين ، ماهذا التحكّم ؟ قال الرشيد : وكيف ؟ قال : يذكر أمير المؤمنين ما وقع اختياره عليه ، ونذكر ما اخترناه ، ويكون الحكم واقعًا بعد ، فقال الرشيد : أمرضت ، فاستحسنها - يقال : أمرض الرجل : إذا قارب الصواب - ثم قال الرشيد : بل تبدأ يايحيى ، فقال يحيى : أحسن الناس تشبيها النابغة فى قوله :

نظرتْ إليك بحاجةٍ لم تقضِها نَظَرَ السَّقيم إلى وجوهِ العُوَّد (٣)

وفى قوله :

فإنّك كاللّيلِ الّذى هو مُدْرِكى وإنْ خلتُ أنّ المنتأى منك واسِعُ (٤)

وفى قوله :

مِنْ وحش وجرة موشىٌّ أكارعُه طاوى المصير كسَيْفِ الصَّيْقَلِ الفردِ (٥)

فقال الأصمعىّ : أما تشبيهه مرض الطّرف فحسن ، إلاّ أنه حجّنه بذكره العلة ، وتشبيهه المرأة بالعليل . وأحسن منه قول عدى بن الرقاع العاملىّ :

وكأنّها بَيْنَ النساءِ أعارها عينيه أحورُ من جآذِرِ جاسِمِ (٦)

---

(١) لم يرد هذان البيتان فى ديوانه .
(٢) ديوانه ١٧٦ وفى ط : « بكأس الماء » ، تصحيف صوابه من الديوان .
(٣) ديوانه ٣٠ .
(٤) ديوانه ٥٥ .
(٥) ديوانه ١٨ .
(٦) اللآلى ٥٢١ .

رفع المسهم

وَسْنَانُ أقصدَهُ النعاس فرنَّقتْ في عينِه سِنةٌ وليس بنـائِم

وأما تشبيه الإدراك بالليل، فقد تساوى الليل والنهار فيما يدركانه، وإنما كان سبيله أن يأتيَ بما ليس له قسيم، حتى يأتي بمعنىً ينفرد به، ولو قال قائل: إنّ قول النمريّ في هذا أحسن، لوجد مساغاً إلى ذلك حيث يقول:

فلو كنتُ بالعنقاء أو بسِنامها لخلتك إلاّ أنْ تُصدّ ترانى

وأما قوله:

* طَـاوِى المصيرِ كَسَيْفِ الصَّيْقَلِ الفَرِدِ *

فالطرّماح أحق بهذا المعنى، لأنه أخذه فجوّده وزاد عليه، وإن كان النابغة اخترعه، وقول الطرماح:

يَبْدُو وتُضْمِرُه البـلادُ كأنه سيف على شرفٍ يُسَلّ ويُغْمَدُ

فقد جمع في هذا البيت استعارة لطيفة بقوله: «وتضمره البلاد» وتشبيهه اثنين بقوله: «يبدو وتضمر» «ويسلّ ويغمد»، وجمع حسن التقسيم وصحة المقابلة.

قال الأصمعيّ: فاستبشر الرشيد وبَرَقَتْ أسارير وجهه، حتى خلتُ برقا يُومض منها، وقال ليحيى: فضلْتُك ورب الكعبة، فانقمع يحيى، فكأنّ الرّماد ذرّ على وجهه، قال الفضل: لا تعجل يا أمير المؤمنين، حتى أمرّ ما قلته بسمعه، فقال: قل، قال: أحسن الناس تشبيها طرفة في قوله:

ووجهٌ كأنّ الشمسَ ألقتْ رداءها عليه نقيّ اللون لم يتخدّدِ[1]

---

(١) ديوانه ٣١٠ (ضمن مجموعة مختار الشعر الجاهلي) وفي ط: «يتجدد» تحريف.

وفى قوله :

يشقُّ حَبابَ الماء حَيزومُها بها كما قَسَمَ التُّربَ المُغايلُ باليدِ[1]

قال : فقلت : هذا حَسَن وغيره أحسن منه ، قد شركه فى هذا المعنى جماعة من الشعراء ، وبعد فطرفة صاحب واحدة ، لا يُقطع بقوله مع التجوّز ، وإنما يعدّ من أصحاب الواحدة قال : ومَنْ أصحاب الواحدة؟ قلت : الحارث بن حِلِّزة فى قوله :

آذنتْنا ببينِها أسْمَاءُ رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ منه الثَّواءُ[2]

والأسعر الجعفى فى قوله :

هل دان قلبك من سُلَيمى فأشتفى ولقد عنيت بحبِّها فيما مضَى[3]

والأفوه الأودىّ فى قوله :

إنْ تَرَىْ رأسىَ فيه قَذَعٌ وشَوَانِى خَلَّةً فيها دوارُ[4]

وعلقمة فى قوله :

* طحَا بك قلبٌ فى الحِسَان طروبُ *[5]

وسويد بن أبى كاهل فى قوله :

بَسَطَتْ رابعةُ الحبلَ لنا فوصلْنا الحبلَ منها فاتَّسَعْ[6]

---

(١) ديوانه ٣٠٩ .

(٢) مطلع المعلقة ٤٣٣ ـ بشرح ابن الأنبارى .

(٣) لم يرد فى مقصورته الأصمعية ٤٤ .

(٤) ديوانه ١١ (مجموعة الطرائف الأدبية)

(٥) مطلع قصيدته البائية ٤١٨ (مختار الشعر الجاهلى) وبقيته :

* يعيدَ الشَّبابَ عصرَ حان مشيبُ *

(٦) مطلع قصيدته المفضلية ص ١٩١ .

وعمرو بن كلثوم فى قوله :

ألا هُبِّى بصحنك فاصْبَحِينا ولا تُبْقِى خُمورَ الأندرينا[1]

وعمرو بن معد يكرب فى قوله :

أمِنْ ريحانَةَ الدّاعى السميعُ يُؤَرِّقنى وأصحابى هُجُوعُ[2]

فاستخفّت الرشيدَ الأريحيّة ، وقال : ادنه، فإنّك جُحَيش وحدك ، وزدتَ فى عيبى نبلا ، فقال جعفر :

* لَبِّثْ قليلا يدرك الهيجا حَمَل *

يعرّض بأنه قد يجوز أن يدرك ما يحاوله ، فقال له الرشيد : فاتتك والله السوابق، وجئت سُكَيْنًا[3] ذا زوائد أربع، قال : ورأيت الحيّة فى وجهه، فقال جعفر : على شريطة حلمك . قال : أتراه يسع غيرَك ويضيق عنك ؟ فقال جعفر : لست أنصّ على شاعر واحد أنّه أحسن الناس فى بيت تشبيها ، ولكن قول امرئ القيس :

كأنّ غُلامِى إذْ علاَ حالَ متْنِه على ظهر بازٍ فى السّماء محلّقِ[4]

وقولِ عدىّ بن الرقاع :

يَتعاوران من الغُبار ملاءةً غَبْراء محكمةً هُما نَسَجاها[5]

تُطْوَى إذا وَرَدَا مكانًا جاسيًا وإذا السّنابك أسهلت نَشَراها[6]

---

(١) مطلع المعلقة ٣٧١ ـ بشرح ابن الأنبارى .

(٢) مطلع قصيدته الأصمعية ٦١ .

(٣) السكيت : مايجىء آخر الحلبة من الخيل .

(٤) ديوانه ١٧٣ .

(٥) أمالى المرتضى ١ : ١٠٣ ، ١٠٤ . وفيه : « ملاءة بيضاء »

(٦) ط : « خاسئا » وما أثبته من أمالى المرتضى . والجاسى : الغليظ من الأرض. وأسهلت: صارت إلى سهولة الأرض .. وفى الأمالى : « إذا وطئا مكانا » .

وقول النابغة :

بأنّك شمسٌ والملوكُ كواكبٌ إذا طلعتْ لم يبدُ منهنّ كوكبُ[1]

قال الأصمعيّ : قلت : هذا حسن كُلُّه بارع، وغيرُه أحسن منه ، وإنما يجب أن يقع التفاضل على ما اخترعه قائله فلم يُتعرَّض له ، أو تعرّض له شاعر ، فوقع دونه ، فأمّا قول امرئ القيس:

* على ظَهْرِ بازٍ فى السَّمَاء محلّقِ *

فمن قول أبى دواد :

إذا شاء راكبُه ضمّـــه كما ضمّ بازى السماء الجناحُ[2]

وأما قول عدى :

* يَتَعَاوران من الغُبـــارِ ملاءةً *

فمن قول الخنساء :

جارَى أباه فأقبلا وهُما يتعاوران مُلاءة الحُضْرِ[3]

وأول من نطق به جاهلى من بنى عقيل ، قال :

ألا يا ديارَ الحىّ بالبَرَدَانِ عَفَتْ حِجَجٌ بعدى لهنّ ثمانى[4]

فلم يبق منها غير نؤىٍ مهدّم وغير أثافٍ كالرَّكِى دِفانِ

وآثارهابٍ أورق اللون سافرتْ به الرِّيح والأمطار كلّ مكانِ

---

(١) ديوانه ١٣

(٢) ديوانه ١٣ ، وفيه « إذا شاء فارسه » وفى ط : « الجناحا »

(٣) ديوانها ٢٥٩ .

(٤) خزانة الأرب ٣ : ٢٧٦ ومعجم البلدان ٥ : ٣ ، وزهر الآداب ٩٢٦ ، وتنسب هذه الأبيات إلى ابن مقبل ، كما تنسب لابن أحمر .

قِفارٌ مَرَوْرَاةٌ يَحَارُ بها القطا ويُضحى بها الجأبانِ يَعْتركان[1]
يُثيران من نَسْجِ الغُبار عليهما قميصين أسمالاً ويرتديان

وشارك عدياً أبو النجم، وأورده فى أحسن لفظ ، قال يصف عَيْرا وأتانا وما أثاراه من الغبار بعدْوِهما :

ألقَى بجنب القَاع من حِيالِها مرباً له وانشام فى مِرْبالِها

وأما قول النابغة :

* بأنَّك شمس والملوك كواكبُ *

فقد تقدّمه فيه شاعر قديم من شعراء كندة يمدح عمرو بن هند ، وهو أحقّ به من النابغة ؛ إذْ كان أبا عُذْرَتِه ، فقال :

كادتْ تميدالأرض بالناس إذ رأوْا لعمرو بن هند غضبةً وهو عاتبُ
هوَ الشمس وافَتْ يوم سعد فأفضلَتْ على كلّ ضوء والملوك كواكبُ

قال: فكأنّى والله ألقمت جعفراً حَجراً . فاهتزّ الرشيد فوق سريره، وكاد يطير عُجْباً وطرباً ، وقال : والله ، لِلّهدَرّك يا أصمعىّ ، اسمع الآن ما كان وقع عليه اختيارى ، فقال : ليقل أمير المؤمنين أحسن الله توفيقه، فقالَ : عيّنت على ثلاثة أشعار ،أقسم بالله إنى أملك السبق بأحدها ، فقال يحيى: خَفّض على هينتك ، فأبى الله إلا أن يكون لك الفضل ، ثم قال الرشيد : أتعرف يا أصمعىّ تشبيهاً أفخرَ وأعظم فى أحقر مشبّه وأصغره فى أحسن معرض ، من قول عنترة الذى لم يسبقه إليه سابق ، ولا نازعه منازع ، ولا طمع فى مجاراته طامع ، حين شبّه ذباب الرّوض العازب فى قوله :

---

(١) المروراة : المفازة ، والجابان ، مثنى جأب ، وهو الحمار الغليظ من حمر الوحش .

وخلا الذبابُ بها فليس ببارحٍ غِرِدًا كفعل الشَّارب المترنِّم[1]
هزِجًا يحكُّ ذِراعَهُ بذراعِه فعلَ المُكِبِّ على الزِّناد الأجذمِ

ثم قال : يا أصمعيّ هذا من التشبيهات المُقْم التى لا تنتج ، شبّهت بالريح العقيم التى لا تُنتِج ثمرة ، ولا تلقح شجرة ، فقلت : كذلك هو يا أمير المؤمنين ، وبمجدك آليت ماسمعت قطّ أحدًا يصف شعرا بأحسن من هـــذه الصفة ، ولا استطاع بلوغ هذه الغاية ، فقال : مهلا ، لا تعجلْ أتعرف أحسن من قول الحُطيئة يصف لُغام ناقته ، أو تعلم أحدا قبله أو بعدهُ شبّه تشبيهَهُ حيث يقول :

تَرَى بين لَحْيَيْها إذا ما تَرَغَّمَتْ لُغاما كَنَسْجِ العنكبوت المُمدَّدِ[2]

فقلت: والله ماعلمتُ أحدًا تقدّمه إلى هـذا التشبيه ، أو أشار إليه بعده ولاقبله ، قال: أتعرفُ بيتًا أبدعَ وأوقعَ من تشبيه الشّماخ لنعامةٍ سقط ريشها، وبقى أثره فى قوله :

كأنّما مُنْذَنى أقماع ما مَرَطَتْ من العِفاء بِلِيتَيْها الثّآلِلُ[3]

فقلت : لا والله يا أمير المؤمنين ، فالتفت إلى يحيى ، فقال : أوَجَب ، فقال: وجب ، فقال : أأزيدك ؟ فقال : وأىّ خبرٍ لم يزِدْنى منه أمير المؤمنين ! قال : وقول النابغة الجعدىّ :

رمَى ضَرْع نابٍ فاستهلّ بطعنةٍ كحاشية البُرْدِ اليمانى المسهّمِ[4]

---

(١) المعلقة ٣١٤ ، ٣١٥ ـ بشرح ابن الأنبارى .
(٢) ديوانه ٢٣ ، الترغم : الصوت الضعيف . ولغام البعير زبده .
(٣) ديوانه ٢٧٨ ، أقماع : جمع قمع ، وأصله الذى على رأس التمرة . ما مرطت : ماانتفت . والعفاء : الريش .
(٤) ديوانه ١٤٣ . والناب : الناقة المسنة . والبرد المسهم : المخطط .

رفع المسهم

ثم التفت إلى الفضل ، فقال : أوجب؟ قال : وجب ، قال : أزيدك ، قال ذلك لأمير المؤمنين ، قال : قول الأعرابيّ :

به ضرب أنداد المطايا كأنّه ملاعبُ ولدانٍ تحطّ وتمضَغُ

ثم التفت إلى جعفر، فقال : أوجب ؟ قال : وجب ، قال : أزيدك ، قال : لأمير المؤمنين علوّ الرأى ، قال : قول عديّ بن الرقاع :(١)

تُزْجِي أغنّ كأنّ إبْرَةَ رَوْقِه قلم أصابَ من الدّواةِ مِدَادَهَا

فقلت : يا أمير المؤمنين،هذا بيت حَسَدَ عديًّا عليه جرير ، قال : وكيف ذلك ؟ قلت : زعم أبو عمرو بن العلاء أن جريرًا قال : لما ابتدأ عديٌّ ينشد :

* عرفَ الدِّيارَ تَوَهُّمًا فاعتادَهَا *(٢)

فقلت فى نفسى : ركب والله مركبًا صعبًا ، سيُبْدِع فيه ، فمازال يتخلّص من حَسَنٍ إلى حسن ، إلى أن قال :

* تزجِي أغنّ كأنّ إبْرَةَ رَوْقِهِ *

فرحمتُه ، وظننت أن مادته تقْصُر به ، فلما قال :

* قلم أصابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا *

حالت الرحمةُ حَسَدًا، فقال: لله أبوك يا أصمعىّ ؟ ثم أطرق ورفع رأسَه ، وقال : أتراك تعيبنى فى انحطاطك فى هواى ؟ فقلت : كلا يا أمير المؤمنين ، إنّك لتجلّ عن ذلك ، قال : انظر خمسًا ، قلت :قد نظرت ، قال : فالسَّبْق لمنْ ؟ قلتُ : لأمير المؤمنين ، قال : فقد أسهمتُ لك فى العُشْر والعُشر كثير ، ثم

(١) الخبر والشعر فى الأغانى ٩ : ٢١٦ ، ٢١٧

رمى بطرفه إلى يحيى ، وقال : المال الساعة ، وأولى لك ! فما كان ساعة حتى حضرت البدَرُ بيني وبينه ، ورأيت ضوء الصبح قد غلب على ضوء الشمع ، فأشار إلى خادم على رأسه ، كم هي ؟ فقال : ثلاثة آلاف ألف درهم ، فقال : دونك احتمل ثلاثين ألفاً إلى منزلك ، ونهض عن مجلسه ، وأمر الخدَم بمعاونتي على حمله ، فكانت أسعدَ ليلة ابتسم فيها الصباح عن أحدٍ بالغنى.

فهذه الحكاية تدلّك على تبحره فى علوم العربية وسعة حفظه .

* * *

تبع ابن الرّمادى عنترَة فى قوله : « وخلا الذباب » بقوله :

وكأسٍ كريق الإلف شَعْشَعْتُها به ... وعيشيَ من هذا الشّراب المُشَعْشَعِ
إذا ما شربنا كأسنا صُبّ فضلُها ... على روضِنا المسمِع المتخلّعِ

وقال ابن الرومى:

وأذكى نسيمُ الروض ريعانَ ظلّه ... وغنّى مغنيّ الطير فيه فرجّعا
وكانتْ أهازيجُ الذباب هنا كم ... على شَدَواتِ الطير صوتا موقّعا

وكان أبوه قُريب بخلافه ، كان نذلاً خسيسا ، وكان عطاء الملك أتى بجماعة من البصرة إلى قُريب فوجدوه ملتفّا بكساء ، نائماً للشمس ، فوكزه برجْلِه ، وصاح به : قم يا قُريب ويلك ! قال : ألقيتَ أحدًا من أهل العلم قطّ أو من أهل اللغة أو الفقهاء أو من المحدّثين ؟ قال : لا والله ، قال لِمَنْ حَضَر : اشهدُوا على ما سمعتم ، لا يقول لكم غدًا الأصمعيّ أو بعد غد : أنشدَنى والدى أو حدّثنى ؛ ففضحه .

* * *

ومن حكاياته عن أبيه قال الأصمعيّ : حدثني أبي قال : أُتِيَ عبدُ الملك ابن مَرْوان برجل مع بعض مَنْ خرج عليه ، فقال : اضربوا عُنقَه ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، ماهذا جزائي منك، قال: وماجزاؤك ؟ قال : والله ماخرجت مع فلان إلاّ بالتطيّر لك ، وذلك أني رجل مشئوم ، ما كنت مع رجل قطّ إلا غُلِب وهُزِم ، وقد بان لك صحة ما ادّعيت به ، وكنت عليك خيرًا لك من مائة ألف معك . فضحك منه وخلّى سبيله .

وكان للأصمعيّ ابنٌ ظريف ، فقيل له يوما : أين أبوك ؟ فقال : في بيته يكْذِب على الأعراب .

ومرض الأصمعيّ فعاده أبو ربيعة ـ وكان يحب أهلَ الأدب ـ فقال له : أقرِضْني خمسة آلاف درهم ، ففعل ، وقال: أنشتهي غير هذا ؟ فقال : نعم ، فصًّا حسنًا ، وسيفا قاطعا ، وبِرْذونًا حَسَنًا وسَرْجًا محلًّى ، فبعث بذلك إليه .

وكان إسحاق[1] الموصلي يعظّمه ويقرأ عليه ، فدخل الأصمعيّ يوما على الفضل بن يحيى وإسحاق ينْشِده في صفة فرس :

كأنّه في الجلّ[2] وهو سامٍ ... مشتملٌ جاء من الحَمّامِ
يَسور بين السَّرج واللجامِ ... سور القطامى إلى الحِمَامِ[3]

فقال الأصمعيّ: هات بقيّتها ، فقال له إسحاق: ألم تقل لي :مابقي منها شيء؟ فقال: مابقيَ إلاّ عيونها . ثم أنشد بعد ذلك ثلاثين بيتًا ، فغضب إسحاق وعرّف الفضلَ قِلّةَ شكره لمعارفه ، وبخلَه بما عنده ، وأخذ يصف فضلَ أبي عبيدة وتزاهده ،وبذله لما عنده ، واشتماله على علوم العرب ، فأنفذ إليه الفضل مالاً جليلا،

(١) الخبر والشعر في الأغاني ٥ : ٣٠٢ (بيروت) مع تصرف واختصار .
(٢) الجل للدابة ، كالثوب للانسان .
(٣) يسور : يثب . والقطامى : الصقر .

واستقدمه من البصرة ، وسعى بالأصمعيّ عند الرشيد ؛ حتى حطّ منزلته . وقال إسحاق يهجوه :

أليس من العجائب أن قِرْداً ... أصيمِعَ باهليًا يستطيلُ
ويزعُمُ أنه قد كانَ يُفتى ... أبا عمرو ويسألُه الخليلُ
إذا ما قال: «قال أبي» عَجِبْنا ... لما يأتي به ولِمَا يَقُولُ
وجلّله عطاءُ المُلْك عاراً ... تَزُولُ الرّاسِياتُ ولا يَزُولُ
فقل لأبي ربيعة إنْ عصانى ... وحادَ به عن القَصْدِ السبيلُ
لقد ضاعت بُرودُك فاحْتَسِبْها ... وضاع القَصّ والسّيف الصّقيلُ
فأما الخمسة الآلاف فاعلمْ ... بأنك غبنها لا تستقيلُ

والأصمعيّ لا يقدح هذا القدر فى جانبه ، لأنّ بعض محاسنه يغطّى على كل مساوئه .

وكان منشؤه بالبصرة ، وبها تُوفّىَ سنة تسع عشرة ومائتين وبلغ ثمانيا وثمانين سنة .

قوله : محرابى ، ومابعده فى معناه ، يعنى فَرْجَها . والإمام ومابعده ، يعنى به ذكره . وسمّىَ محرابُ المسجد محراباً لأنه يباعد مَنْ ليس من أهله أن يقربَه ، إذْ هو أرفع مافى المسجد ، وفلان حَرْب لفلان ، أى مباعد له . والقِرَاب : وعاء من جلد يُجعل فيه السيف مع غمده . والقِراب : وعاء الزاد .

• • •

فقال لهما القاضى : أرَاكُما شَنًّا وَطَبَقَة ، وحِدَأةً وبُنْدُقَة ، فاتركا أيّها الرّجُلُ اللّدَد ، واسْلُكْ فى سَيْرِك الجَدَد . وأمّا أنتِ فكُنّى عن سِبابِه ، وقِرّى إذا أتى البيتَ مِن بابِه .

فقالت المرأةُ : واللهِ ما أَسْجُنُ عنه لِسانى، إلا إذَا كَسانى ، ولا أرفَعُ له شِرَاعى ، دُونَ إشْبَاعى . فحلف أبو زيدٍ بالمحرَّجَات الثَّلاث ، إنَّهُ لا يملِكُ سِوَى أَطْمارِهِ الرِّثاث .

فنظر القاضى فى قَضيتِهما نَظَرَ الأَلْمَعِيِّ ، وَأَفْكَرَ فِكْرَةَ اللَّوْذَعِيّ . ثُمَّ أَقْبَلَ عليهما بوجهٍ قد قَطَّبَهُ ، وبِجَنٍ قد قلَّبَهُ ، وقال : ألم يكفِكُما التَّسَافُهُ في مَجْلِسِ الحُكْم ، والإقدامُ على هذا الجُرْم ، حتَّى تراقَيْتُما فى فُحْشِ المُقَاذَعة ، إلى خُبْثِ المُخَادَعَة ! وايمُ الله لَقَدْ أَخْطأَتْ استُكُما الحُفْرَة ، ولم يُصِبْ سَهْمُكُما الثُّغْرَة ؛ فإنَّ أميرَ المؤمنين ، أعزَّ الله ببقائه الدِّين ، نصبَنى لأقْضِيَ بين الخُصماء ؛ لَا لأقضىَ دَيْنَ الغرماء . ووَحقِّ نعمته الَّتِي أَحَلَّتْنِي هَذَا المحلَّ ، ومَلَّكَتْنِي العَقْدَ والحلَّ ، لئن لم تُوَضِّحَا لِي جَلِيَّةَ خَطْبِكما ، وخَبِيئَةَ خِبِّكُما ، لأنَدِّدَنَّ بكُما فى الأمْصَارِ ، ولأجعلنَّكما عِبْرَةً لأولى الأبصار .

* * *

والمَدَد : شدّة الخصومة . الجَدَد : الأرض الصلبة ، والمعنى فى قوله : اسلك فى سيرك الجدَد ، جامعها فى الفرج لا غيره ، وفى المثل : مَنْ سَلَك الجَدَد أمِنَ العثار .

قِرَى : اسكنى . البيت ، كناية عن فرجها . من بابه ، يريد ألاَّ يأخذَ الجار بالجار . وقولها : إلا إذا كسانى ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « اعْرُوا النِّساء يلزمْنَ الحِجال ».

والشِّراع : قَلْع السفينة ، وأرادت برفعه كشفَ ثيابها ورفع رجليها حين يطؤها ، وقال أبو نواس فى معناه :

ترفَّق قليلاً قد اوجعتنى وألحفتَ قُرْطِى بخَلْخالِيهْ

والقُرْط فى الأذن ، والخلخال فى الرجل ، فانظر متى يجتمعان . وقال ابن الرومى فى ذلك :

يا أحمد بن سعيد لو بَصُرْتَ بها إذا الأكفّ لساقَيْها خَلاَخيلُ

وقال البحترى :

لم تَخْطُ باب الدِّهْليز خارجةً إلا وخَلْخَالُها مع الشَّنَفِ(١)

وقال ابن الرومىّ :

لو أنّ رجلىْ عِرْسنا يداها(٢) ما أخطأتْها رحمةٌ تغشاها
قد خُلِقت مرفوعةً رِجْلاها كأنّما يستغفران اللهَ

وله أيضاً :

شيخ لنا يكنى أبا حَفْصَلِ أقرَنُ مثل الأيّل الأفْوَلِ(٣)
تَبيت فى منزله نسوةٌ يلبسْنَ ثوب الليل كالمنزلِ
يعملن فيه عملاً صالحا يرفعه الله إلى أسفل
يستغفر النّاس بأيديهمُ وهنّ يستغفرن بالأرْجُلِ

قال الأصمعىّ : قلت لأمَةٍ ظريفة : ياجارية هل فى يديك عمل ؟ قالت : لا ، ولكن فى رجل .

والحرَّجات الثلاث : هى الطّلاق والعِتْق والمَشْى إلى مكة ، وقيل : عمد الطّلاق الثلاث ومحرّجات : فيها حَرَج ، أى إثم وضيق .

---

(١) ديوانه ١٤١١ (٢) العرس : امرأة الرجل . (٣) الأفول : الأحمق

وحدّث أبو حاتم ، عن الأصمعيّ عن عيسى بن عمر ، قال : اشتكى رجل امرأته ، فقال له شيخ من بنى نصر ، كان أسنّ منه : ألا تكشفها بالمحرّجات ـ يعنى الطلاق ـ قال : قاتلك الله ! فما أغرّك ، وعلىّ الطلاق ثلاثا .

حدثنا أبو بكر محمد بن أسد الدبلىّ قال : سمعت أبا فتان الطارع يقول : الطلاق الثلاث البتّ لازم لى ، لقد سمعتُ أبا عبيدة معمر بن المثنى يقول : الطلاق الثلاث ، البَتُّ لازم لى ، لقد سمعت أبا عمرو بن العلاء ، يقول الطلاق الثلاث البتّ لازم لى ، إن كانت العرب قالت أحكم من هذه الأبيات .

كُنْ للمكاره بالعَزَاء مقنّعا ... فلعلّ يوما لا ترى ما تكرهُ

فلربّما استتر الفتى فتنافستْ ... فيه العيون وإنه لموءُ

ولربّما خزن الكريمُ لسانَه ... حذرَ الجواب وإنّه لفوّهُ

ولربما ابتسم الكريم من الأذى ... وفؤاده من حَرّه يتأوّه

قوله : أطاره الرّثاث ، أى ثيابه الخلقة . الألمعىّ : المتوقد الحاضر الذّهن . ابن الأعرابىّ : الألمعىّ : الذى إذا لمع له أوّلُ الأمر عرف آخره ، فيكتفى بظنّه دون تعيينه . واللوذعىّ : الفطِن الذّكىّ الظريف الحديد الفؤاد . قَطّبه : عبّسه . مجنّ : تُرْس . وقلبه ، كناية عن إبداء الشرّ بعد الخير ، وقد تقدّم . التّسافُه : الإخاش . والشّتم . الجُرْم : الذنب . المقاذعة : المشاتمة بما فَحش . الثُّغرة : الحفيرة فى أصل العُنُق . خِبّكما : خداعكما وغشّكما . أندّدنّ : أسمع الناس بما يَغالكما عندى من المكروه ، وندّدَ به : شتمه وأسمعه القبيح . الأمصار : البلاد . عبرة : موعظة . أولى الأبصار : أهل العقول .

* * *

رفع المسهم

فأطرقَ أبو زيد إطراقَ الشُّجـــاعِ ، ثم قال له : سَماعِ سَماعِ :

أنا السَّرُوجيّ وَهَذِى عِرْسِى ... وَلَيْسَ كُفْءاً البدرِ غيرُ الشَّمْسِ
وما تنـافى أُنْسُهـا وَأُنسى ... ولا تَنـاءى دِيرُها عَنْ قُسِّى
ولاعَدَتْ سُقْيَايَ أَرْضَ غَرْسِى ... لَـكِنَّا مُنْذ ليـالٍ خمسِ
نُصْبِـحُ فى ثوبِ الطَّوَى وَنُمسى ... لانعرفُ المضغَ ولا التَّحَسِّى
حَتى كأَنَّا لِخُفُوتِ النَّفْسِ ... أَشْبَاحُ مَوْتَى نُشِرُوا من رَمْسِ
فحِينَ عَزَّ الصَّـــــبْرُ والتَّأَسِّى ... وَشَفَّنَا الضُّرُّ الأليمُ الْمَسِّ
قُمْنَا لسَعْدِ الْجَـدِّ أو للنَّحْسِ ... هَـذَا المقَامَ لاجْتِلَابِ فَلْسِ
والْفقْرُ يُلْجِى الحرَّ حين يُرْسِى ... إلى التَّجَلِّى فِى لباسِ اللَّبْسِ
فهـذه حالِى وهـذا دَرْسِى ... فانظُرْ إلى يَوْمِى وسلْ عن أمسِى
وأمْرُ بِجَبْرِى إن تَشَا أوْ حَبْسِى ... فى يَدَيْكَ صِحَّتِى و نُـكْسِى

• • •

أطرق : أمال رأسَه ساكنا. الشُّجاع: الحيّة. سماعِ سماع ، أى اسمع منّى ، كُفء البدر: أى نظيره، والكفء: النَّظير والمِثل. دَيْرها: فرجها. قُسّى: ذَكَرِى. وأصل الدَّيْر للنصارى ، والقَسّ والقِسيس : عالمهم وعابدهم . عَدَتْ : جارت وخرجت عن طريقها . والسُّقْيا : الشرب ، وهى هنا مصدر بمعنى السَّقى . والتحسّى : شرب الحَسْوة ، وأراد بالمضغ والتحسّى أكلَ الخُبْز واللحم ، وحَسْو مرقه. وقيل: المضغ فى الرَّخاء والحسْو فى الشدّة ، كاستعمالهم فيها حَسْو السَّخينة

وغيرها . وعزّ: قَلّ . التأسّى : الاقتداء بالغير، وقد تأسّى تأسّياً إذا اقتدى بفعل غيره وتصبّر ، وهذا بابٌ غلبت عليه الخنساء بقولها :

وَلَوْلاَ كَثْرَةُ الباكين حَوْلِي ... على إخوانهمْ لَقَتَلْتُ نفسِي[1]
وما يبكونَ مثل أخي ولكنْ ... أعزّى النّفس عنه بالتأسّي

فزاد عليه ابن العباس الرومىّ ، فى المعنى وبيّنه حتى استحقّه حيث قال :

رأيتُ الدّهرَ يجرح ثم يأسُو ... يؤسّى أو يعوّض أو ينسّى[2]
أبت نفسى الهُلاعَ لرزء شىء ... كَفَى رزءا لنفسى رزْءُ نفسِي
أتجزَعُ وحشةً لفراق إلفٍ ... وقد وَطّنْتَهَا لحلول رَمْسِي

فذهب فى هذه الأبيات كلّ مذهب ، ثم أراد أن يُظهر ماعنده من فضل المنّة وحُسْنِ التصرف ، فقال:

يا شَبابى وأينَ مِنّى شبابى ... آذنتنى أيامُه بانقضابِ
وعزّ عن الشّباب مؤنسٍ ... بمشيب اللّذّات والأصحابِ
قلت لما انتحى يَعُدّ أساه ... بمصابٍ شبابه بمصابِ
ليس تأسو كلومُ غيرى كلومِي ... مابه مابه ومابِيَ مابِي

وكرّر هذا المعنى فأحسن ماشاء ، وذهب فيه مذاهب أخرى ، فقال :

خليلىّ قد عَلّمانى بالُمنَى ... وأنعمتما لو أنّنِى أتَعَلّلُ[3]
ألناس إيثارى وإلاّ فما الأسى ... وعيشكما إلاّ ضلالٌ مُضَلّلُ
وماراحة المرزُوء فى رزء غيره ... أيحمل عنه بعضَ مايتحمّلُ !
كلاّ حاملىّ أو فى الرزية مثقلٌ ... وليس معيناً مثقلَ الظّهر مثقلُ
وضربٌ من الظلم الخفىّ مكانه ... تعزّيك بالمرزوء حين تأمّلُ

(١) ديوانها ١٥٣
(٢) زهر الآداب ٩٢٩
(٣) زهر الآداب ٩٢٩ .

ولابن رشيق :

رأيتُ التعزّيَ مما يَهيجُ على المرء ساكنَ أوصابِهِ[1]
وما نال ذو أسوة سلوةً ولكن أتى الحزن من بابِهِ
تفكّر فى مثل أرزائِهِ فذكّرَه مابه مابِهِ

وقال ابن رشيق : أخذتُه من قول عمر بن أبى ربيعة :

وذو الشَّوْق القديمِ وإن تعزّى مشوقٌ حينَ يلْقىَ العاشقينا[2]

وأخذه عمر من قول مضم بن نويرة :

وقالوا أتبكى كلَّ قبر رأيتَه لِقَبْرٍ ثوى بين اللّوى والدَّكادِكِ[3]
فقلت لهمْ إنّ الأسى يَبْعَثُ البُكَا دَعُونى فهذا كلّه قبر مالكِ[4]

* * *

خُفوت : ضعف النفس من شدة الجوع ، وخَفَتْ خفوتا : ضعف وسكن ومات . والأشباح : الأشخاص ، وأصل الشَّبَحَ الشخص تُبصره على بعد ، فلا تعرف ماهو ، ويقع الشَّبح على كلّ شخص مرئىّ . نُشِروا : أحيوا . رمس : قبر ، والمسّ : لصوق جارحة بأخرى . الجَدّ : الحظ والنصيب . يُرْمى : يثبت ويقيم . التجلّى : البروز والظهور . الأنس : التخليط . درمى : ثوبها الخَلَق .

---

(١) التنف ١٤ (٢) ديوانه ٤٠٣ ، وفيه :

* وذو القَلْبِ المُصابِ ولو تعزّى *

(٣) أمالى القالى ٢ : ١ ، وذكر قبله :

لَقَدْ لامَنِى عند القبور على البكا رفيقى لتَذْرافِ الدُّموعِ السَّوافكِ

(٤) فى الأمالى : « إن الشجا يبعث الشجا » وذكر بعده :

أَلَمْ تَرَه فيمَا يقسِّم ماله وتأوِى إليه مُرْمِلاتُ الضرائكِ ؟

الضرائك : الفقراء السيئو الحال .

الجبر : أن تُغْنِيَ الرَّجل من فقر ، أو تصلح عظمه من كَسْر ، وجبره الله : سدَّ مفاقرَه . والنُّكس : بضم النون : عَوْد المرض بعد القوّة ، ونكس نُكْساً .

• • •

فقال له القاضى : لِيَثُبْ أنسُك ، ولْتَطِبْ نفسُكَ ، فقَدْ حَقَّ ثَ أن تُغفرَ خَطِيَّتُك ، وتُوَفَّرَ عَطِيَّتُكَ . فثارتِ الزّوجة عِندَ ذلك واستطالَتْ ، وأشارت إلى الحاضِرين وقالت :

يا أهْلَ تبريزَ لَكُمْ حَاكِمٌ أَوْفَى على الحُكَّامِ تَبْرِيزَا
مافيه مِنْ عَيْبٍ سِوَى أَنَّهُ يَوْمَ النَّدَى قِسْمَتُهُ ضِيزَى
قصدتهُ والشيخُ نبغى جَنَى عُودٍ له ما زَال مَهْـــزُوزا
فسرّحَ الشَّيْخَ وَقد نَالَ مِنْ جَدْواه تخصيصاً وتمييزا
وردَّنى أخيَبَ من شـــائمٍ برقاً خَفَا فى شهر تمُّوزَا
كأنَّهُ لم يَـدْرِ أَنِّى الَّتِى لَقَنْتُ ذا الشَّيخَ الأَرَاجِيزَا
وأَنَّنى إن شِئْتُ غَادَرْتُهُ أُضْحُوكَةً فى أهل تَبْرِيزا

• • •

ليَثُبْ : أى ليرجع . تُوفَّر : تكثر . ثارت : ظهرت ، وأنشت سرّها . واستطالت : جرحت بلسانها ، وأعلتْ كلامها . أوفى : أشرف عليهم وزاد . تبريزا : ظهورا وسَبْقاً . ضِيزى : غير مستوية ، فيها بخس ونقصان ، وقد ضَاز الحاكم ، إذا جار ، وضازه يَضِيزه ضَيْزاً ، إذا نقصه ومنعه حقه . ويحكى أن مزبدًا المدنى - ويكنى أبا إسحاق - صلّى يوما ، فلمّا فرغ من صلاته قالت امرأته : اللهم

أشركني في دعائه ، فقال مزيد اللهمّ اصلبني ، فقالت امرأته: أمّا على هذا فلا، فقال ياضرّاطة ، تلك إذاً قسمةٌ ضيزى .

قوله والشيخَ : منصوب على المفعول معه . نبغي : نطلب . النّدى : الكرم . وجَنَى العود : مايجنى من ثمره ، وأرادت كرم القاضي . مازال مهزوزاً ، أي مازال القاصدون يهزّون عودَه فيتساقط عليهم جَنَاه ، فمعنى مازال مهزوزاً ،أي مطلوب منه العطايا . جَدْواه :عطاياه .تخصيصا : ترفيعا . تمييزاً: تعييناً ، وقد تخصّص الرجل :تشبّه بالخواصّ ، وتعيّن : تشبّه بالأعيان . شائم : ناظر للبرق . خَفِيَ : لمع . تموز : يوليه بالسريانية ، وهو أشدّ الشهور حرًّا . لفنت : فهمت وحفظت . غادرته : تركته . أضحوكة : يضحك به من رآه .

* * *

قالَ : فلمّا رأى القاضي اجتراء جَنانِهما ، وانصلاتَ لِسانِهما ، علم أنّهُ قَدْ مُنِيَ مِنْهُما بالدّاء العَياء ،والدّاهيةِ الدّهياء ؛ وأنّه متى مَنَحَ أحدَ الزّوجَيْن ، وَصَرَفَ الآخرَ صِفرَ اليدَيْن ، كانَ كَمَنْ قَضَى الدّيْنَ بالدّيْن ، أوْ صَلّى المغربَ رَكْعَتَيْن . فَطَلْسَمَ وطَرْسَمَ ، واخرَنْطَمَ وَبَرْطَمَ ، وَهَمْهَمَ وَغَمْغَمَ ، ثمّ الْتَفَتَ يَمْنَةً وشامة وتَمْلمَلَ كآبَةً وَنَدَامة،وأخذ يَذُمُّ القضاءَ وَمَتاعِبَه ، ويُعَدِّدُ مَوَاثِبَه ونَوائِبَه ، ويُفَنِّد طالِبَهُ وَخاطِبَهُ . ثمّ تنفّسَ كما يتنفّسُ الحَريب ، وَانْتَحَبَ حتّى كادَ يفضحُه النّحيب ،وقال : إنّ هَذَا لَشَيءٌ عَجِيب ! أأَرْشَقُ في مَوقفٍ بِسَهْمَيْن ! أأُلزَمُ في قضيّةٍ بِغَرْمَيْن ! أأُطِيقُ أنْ أُرْضِيَ الخَصْمَين ، ومِنْ أيْنَ ومن أيْنَ !

* * *

رفع المسهم

اجتراء : إقدام وتشجّع جَنانَهما : قلبهما ، يريد أنهما لم يهاباه . انصلات لسانهما : خروجه بالكلام وطاقته بالشرّ ، وانصلت السيف : تسلّل من غِمْده وخَرَج . مُنِيَ : بُلِيَ . الدّاء العياء : الذى يعيي الطبيب . والدّاهية : كل أمر فظيع لا يُطاق . الدهياء : مبالغة وتأكيد لمعنى الدّاهية ، أى الداهية الشديدة . مَنْح : إعطاء . صِفْر : فارغ . ومَنْ قَضى الدّين بالدّين ، فكأنّه ماقضاه وأنشدوا :

إذا كنتَ تقضى الدّيْنَ بالدّيْنِ لم يكُنْ قضاء ولكن كان غُرْمًا على غُرْمِ

تململ : توجّع وتقلّب . كآبة : حزن وهمّ . شوائب : ما يكره ويخالط به . نوائبه : نوازله . يفتد : يُخطِّئ . الحريب : المحزون المسلوب ماله ، وقد حَرَبه ، إذا سلبه « فعيل » بمعنى « مفعول » . انتحب : بكى . يفضحه : يشهره . أرشق : أرمى ، والرِّشْق جملة السهام تُرْمَى مجتمعة ، وقال لبيد[1] .

فرميت القومَ رِشْقًا صائبًا ليس بالطّيْش ولا بالمفْتعلْ

وإذا وقعت السهام مجتمعة عند الفَرَض سُمِّيَت رِشْقا . القضية : القضاء والحكومة . المغرَم والغَرامة واحد .

* * *

ثمّ عَطَفَ إلى حاجِبِهِ ، المُنفِذِ لمآربه ، وقال : ماهَذا يومُ حُكْمٍ وَقَضاء ، وفَصْلٍ وَإمْضاء ؛ هذا يوم الاعْتِمام ، هَذَا يوم الاغترام ، هذا يَوْمُ البُحْرَان ، هذا يومُ الخُسْرَان ، هذا يومٌ عَصيب ، هذا يومٌ نُصابُ فيه ولا نُصيب ؛ فأرِحْنِي من هَذَيْنِ المِهْذَارَيْن ، واقْطَعْ لِسانَهُمَا بدينارَيْن . ثمّ فرّق الأصحاب ، وأغلق الباب ، وأشرع

(١) ديوانه ١٩٤ ، والرشق ، بكسر الراء : أن تُرْمَى سهام كثيرة دفعة واحدة .

أَنَّهُ يومٌ مَذْموم ، وَأَنّ القاضِيَ فيه مهموم ؛ لِئلاَّ يَحْضرَنى خصُوم .

قال : فأمّنَ الحاجِبُ عَلَى دُعائِهِ ، وتباكَى لبكائِهِ ثم نَقَدَ أَبا زيدٍ وعِرْسه المِثقالَين ، وقال : أشْهَدُ إنّكُما لأَحْيَلُ الثّقَلَين ؛ ولكِن احترماَ مجالِسَ الحكّام ، واجْتَنِباَ فيهاَ فُحْشَ الكَلاَم ؛ فما كلُّ قاضٍ قاضِي تَبْريز ، ولا كُلُّ وقتٍ تُسْمَعُ الأَراجيز ، فقالاَ له : مِثْلُكَ مَنْ حَجَب ، وشُكْرُك قد وَجَب ، ونَهضاَ وَقَدْ حظِياَ بدينارين ، وأَصْلَياَ قَلْبَ القاضِي نارَين .

* * *

مآرب حوائجه . البُحْران : كاليوم السابع من المَرض ، والبُحران عند الأطباء : مدافعة عظيمة تقع بين الطبيعة والعِلّة ، وبَحَرَ الرجل بحرًا ، إذا اجتهد فى العدْوِ طالبًا أو مطلوبًا ، فانقطع وضعُف . ورجل بحر : مسلول ذاهب اللحم . عَصِيب : شديد . المهذارين : الكثيرين الكلام بلا فائدة . اقطع لسانهما ، أى صِلْهما حتى ينقطع بالدينارين كلامهما ، وهذا اللفظ الذى هو قَطع اللسان بالصِّلة قد نطق به رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أعطى المؤلّفةَ قلوبهمْ من نَفْل حُنين ، مائة مائة ، وأعطى العباس بن مِرْداس أباعر ، فسخطها وقال :

أتجعَلُ نَهْبِي ونَهْبَ العُبَيْـــــد بين عُيَينة والأقْرَعِ[1]
وما كان حصنٌ ولاحابسٌ يفوقان مِرْداسَ فى مجمعِ
وما أنا دون امرىء منهما ومَنْ يُخْفَضِ اليوم لم يُرْفع

فقال صلى الله عليه وسلم : «اقطعوا عنى لسانه» . فأعطِىَ حتى رضى وقد جاء فى

(١) الشعر والشعراء ٧٤٨ .

النوادر فى حكاية ليلى الأخيلية حين قال الحجاج : ياغلام اذهب إلى فلان ، فقل له يقطع لسانها، فأمر بإحضار الحجام، فقالت: ثكلتك أمك ! إنما أمرك أن تقطع لسانى بالصِّلة ، وهى لفظة مستعملة عند مَنْ له أمرٌ ونهى .

قوله : أمِّن ، قال : آمين ، ومعناه الرغبة فى الإجابة . تباكى : استعمل البكاء . الثَّقَلَيْن : الإنس والجن، والواحد ثَقَل وثِقْل كمَثَلَ ومِثْل ، وأصله مايُحمَل من الشىء الثقيل ، فقيل لهما : ثَقَلَان ، لأنهما كالثِّقَل على الأرض . والفحش فى القول كالفاحشة فى الفعل . نهضا : تقدما . شكرك قد وجب : يقال: وَجَب البيع والحقّ، معناه وقع، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾[1] أى وقعت على الأرض وسقطت . ووجب الحائط : سقط ، ووجب قلبُه : فزع وخفق . حَظِيَا : سَيِّدا . أصْلَيَا : أوْقَدا وألْصَقا به .

(١) سورة الحج ٣٦ .

رفع المسهم

تفسير ما أودع هذه المقامة

من الألفاظ اللغوية والأمثال العربية

قوله : « لقيتُ منها عَرَقَ القِرْبة » ، هذا مَثَلٌ يُضرب لِمَنْ يَلْقَى شِدّةً من الأمْرِ الّذِى يُزاوِلُهُ ، كما أن حامِلَ القِرْبةِ يَلقَى جَهْداً حتّى يَعْرَق .

وقوله : « جعلتُه دَبْرَ أُذُنِي » ، يعنى طرحتُه ، وهو كقوله تعالى : ﴿ فَنَبَذُوه وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ (١) .

وقوله : « أكْذب مِنْ سَجاح » يعنى الّتى تنبَّأتْ فى عهد مُسَيْلمة الكذاب ، وسارتْ إليه لتُناظره وتختبرَه ثم آمنتْ به ، ووهبتْ نَفْسَها له ! وهذا الاسمُ ، مبنىٌّ على الكسر ، مثل حَذَامِ وقطام ، لكونِه من الأسماء المعدُولة ، واشتقاقه من السَّجاحَة ، وهى السُّهولة ، ومن قولهم : مَلَكْتَ فأسجِحْ .

وقولها : « أكْذبُ من أبى ثُمامة » ، هذه كنية مُسيلمةِ الكذاب ، وكان تنبّأ باليمامة . وتخرّق بها ، إلى أن سار إليه خالدُ بن الوليد رضى الله عنه فقتله .

وقوله : « لانَعِمَ عَوْنُك » . العَوْن : الحال ، والعَوْن أيضا الذِّكْر ، ويُدْعَى للبانى على أهله فيقال له : « نَعِمَ عَوْنُك » .

وقوله : « يا دفارِ يا فجارِ » . هذان الاسمان معدولان عن دَافرة وفاجرة ، والدَّفْر : النَّتْن ؛ وبه سُمِّيَت الدّنيا أم دفْر ؛ وكلّ ما سُمِّىَ بصفةٍ غالبة ، ثم عُدِل بها إلى « فعالِ » ، بُنِى على الكسر عند النداء ، كقولك : يالَكاعِ باخباثٍ ،

(١) سورة آل عمران ١٨٧ .

يا دَفارِ يا فجارِ ، ولا يجوز استعمالُ ذلك فى غير النداء إلاّ فى ضرورة الشعر ، كقول الحطيئة :

أطوّف ما أطوّف ثم آوِى إلى بيت قعيدتُه لَكَاعِ

وأما قوله : « أحمَقُ من رِجْلة » ، فهى ضرب من الحِمْض تَنْبُت فى مجارى السُّيول فيجرفُها .

وأمّا قولها : « الأمُ من مادِر » ، فهو رَجُلٌ من بنى هلال بن عامر ؛ كان اتّخذ حَوْضاً لِسَقْىِ إبله ، فلمّا رَوِيَتْ سَلَح فيه ، ومَدَره بسَلْحِه ؛ لئلا يَنْتفع به مَنْ بعده .

وأما قولها : « أشْأَم من قاشر » ؛ فإنّه فحلٌ كان فى قبائل سعد بن زيد بن مناة بن تميم ، ما طرق إبلاً إلاّ ماتت . وقيل : المرادُ به العام الجدب ، وسُمِّىَ قاشِراً لقَشْره ما على وجْه الأرض من النبات .

وأما قولها : « أجبن من صافِر » ، فقد اختُلف فى تفسيره ، فقال بعضهم : عَنَى به كل ما يصفرُ من الطير ، وخصّ بالجُبْن لكثرة ما يتّقيه من جوارح الجوّ ومصايد الأرض . وقيل : إنّه طائر بعَيْنِه ؛ إذا جنّه الليل تعلّق ببعض الأغصان ، ولم يَزَلْ يصفرُ طولَ ليلته خوفاً على نفسه من أن ينام فيُؤخذ . وقيل : إنه الذى يصفر بالمرأة لريبةٍ وهو يجبن وقتَ صفيره مخافة أن يُظهَر على أمره . وقيل : إنّ المُراد به فى المثل المصفورُ بِهِ ؛ وهو الّذى ينذر بالصَّفير ليهرب ، فعلَى هذا القول فاعل هنا بمعنى مفعول ، كقوله تعالى : ﴿ مِنْ مَاءٍ دافِقٍ ﴾ أى مَدْفُوق وكقولهم : راحلة بمعنى مَرْحولة ، وهو كثير فى كلامهم ، وقد جاء « مفعول » بمعنى « فاعل » ، كقوله تعالى : ﴿ حِجَاباً مَستوراً ﴾ ، أى ساتراً .

وكقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴾

وأما قوله : « أَطْيَشُ من طَامِر » ، فالمُراد به البُرغوث ؛ ويسمَّى طَامر ابن طامر ؛ لكثرة وُثوبه .

وأما قول القاضي : « أراكما شَنًّا وطَبَقة ، وحِدَاة وبُندقة » ، فإنه أراد به أن كلاً منكما كفء لصاحبه و قاوم له . ولكل من المثلين تفسير مختلف فيه . أما شَنٌّ وطبقة ؛ فإن العلماء مختلفون فى معنى قولهم : « وافق شنٌّ طبقة » ، فقال الأكثرون : إنهما قبيلتان ؛ فشنٌّ هو ابن أفصى بن دُعمىّ ابن جَديلة بن أسد بن رَبيعة بن نزار . وطبقةَ حيٌّ من إياد ؛ وكانت طَبَقة لا تُطاق ، فأوقعت بها شَنّ ، فانقصفتْ منها .

وقال بعضهم : كان شَنٌّ رجلاً من دُهاة العرب ، وكان ألزَمَ نفسه ألاّ يتزوّج إلاّ بامرأةٍ تلائمه ، فكان يجوبِ البلاد فى ارتياد طَلِبته ، فصاحَبَه رجلٌ فى بعض أسفاره ، فلمّا أخذ منهما السَّير ، قال له شنٌّ : أتحملنى أم أحملك ؟ فقال له الرجل : يا جاهل وهل يحمِل الرّاكب الراكب ! فأمسك وسارَا حتى أتيا على زرع ، فقال له شَنّ : أترى هذا الزّرعَ أُكِل أم لا ؟ فقال له : ياجاهل ، أما تراه فى سنبله ! فأمسك إلى أن استقبلتْهما جَنَازة ، فقال له شنّ : أترى صاحبها حيًّا أم لا ؟ فقال : ما رأيتُ أجهلَ منك ، أترام حَمَلوا إلى القبر حيًّا ! ثمّ إنهما وصلا إلى قرية الرجل ، فصار به إلى منزله ، وكانت له بنت تسمَّى طَبَقة ، فأخذ يُطرِفها بحديث رفيقه ، فقالت له : ما نطق إلا بالصواب ، ولا أسفهتْك إلا عما يَستفهم عن مثله ذَوُو الألباب . أما قوله : أتحملنى أم أحملك ، فإنه أراد : أتحدّثنى أم أحدّثك ، حتّى نقطعَ الطريق بالحديث . وأما قوله : أترى هذا الزرع أُكِل أم لا ؟ فإنه أراد : هل استسلف أربابُه ثمنه

أم لا ! وأمّا استفهامُه عن حياة صاحب الجنازة ، فإنّه أراد به : أخلَف عَقِبًا يَحيا ذِكرُه به أم لا . فلمّا خرج إلى الرّجل حدّثه بتأويل ابنته كلامه ، فَخَطبها إليه ، فزوّجه إياها ، فلمّا سارَ بها إلى قومِه وخبَروا ما فيها من الدّعاء والفِطنة قالوا : وافق شَنٌّ طَبَقة ، فسار مثلا .

وحُكِيَ عن الأصمعيّ ، سئل عن تفسير هذا المثل فقال : أظنُّ أنّ الشَّنّ وعاء من أدَم كان قد استشنّ ، فلمّا اتُّخذ له غطاء وافقه ، ضرِب فيه هذا المثل .

وأمّا حِدَأة وبندقة ؛ فإنّه يقال فى المثل المضروب لمن يفزَعُ بعدوّه أو يُبْلَى بنظيره : حدأحداً أو وراءك بندقة ؛ وكان الأصل حدأة بإثبات الهاء ، فرخّم فى النداء وقد اختلف فى المراد بهما ، فقيل : الحدأة هو الطائر المعروف ، وبُندقة الرامى .

وقيل : إنهما قبيلتان من سعد العَشيرة ، فأغارت حِدَأة - وكانت تنزل بالكوفة - على بُنْدقة ، وكانت تنزل باليمن ، فنالتْ منهم ، ثمّ كرتْ بندقة على حِدَأة فأحت عليهم .

وروى بعضهم هذا المثل : حَدا حَدا ، غير مهموز ، على مثال عصا وقفا ، وزَعَم أنّه اسم القهوة .

وأما قوله : « أخطأتْ استكا الحفرة » ؛ فإنّه مثل يُضْرَب لمن يُخْطِئُ فى مقصِده ويضع الشىء فى غير موضعه .

وأمّا قوله : « طلسم وطرسم » ، فمعنى طلسم كرِه وجهه ، ومعنى طرسم أطرق .

وقوله : « اخرنطم وبرطم » أى غضب وقطّب وجهه .

وقيل : معنى اخرنطم غضب مع تكبّر . ومعنى بَرْطم غضب مع تعبّس .

وأما قوله : « همهم وغمغم » أى لم يبيّن الكلام .

تم الجزء الرابع من كتاب شرح المقامات للشريشى ويليه الجزء الخامس وأوله شرح المقامة الحادية والأربعون .

رفع المسهم

فهرست المسهم
غفر الله له ولوالديه

فهرس المقامات

صفحة

المقامة الحادية والثلاثون الرملية . تتضمن وعظ أبي زيد للحجاج في حال مسيرهم ، وكونه حج في ذلك العام ماشياً . ٣ ـ ٣٥

المقامة الثانية والثلاثون الطيبية أو الحربية . تتضمن أن أبا زيد قام فقيهاً بمائة مسألة فقهية ملغزة . ٣٦ ـ ١٠٤

المقامة الثالثة والثلاثون القليسية ، تتضمن أن أبا زيد به لقوة وقام في المسجد مكدياً . ١٠٥ ـ ١٢٢

المقامة الرابعة والثلاثون الزبيدية ، تتضمن أن أبازيد باع ولده في صفة غلام واشتراه الحارث . ١٢٣ ـ ١٦٤

المقامة الخامسة والثلاثون الشيرازية ، تتضمن أن أبا زيد ربّ بكرا وطلب ما يجهزها به ، وكنى بذلك عن الخمر . ١٦٥ ـ ١٩٢

المقامة السادسة والثلاثون الملطية ، تتضمن ألغاز أبي زيد بالمقايضة، أي بما يماثلها من الكلام . ١٩٣ ـ ٢٢١

المقامة السابعة والثلاثون الصعدية ، تتضمن مخاصمة أبي زيد عند القاضي مع ابنه ينسبه إلى العقوق . ٢٢٢ ـ ٢٥٣

المقامة الثامنة والثلاثون المروية ، تتضمن كون أبي زيد دخل مكدياً عند الوالي فلم يجبه وتعريضه له بذلك . ٢٥٤ ـ ٢٨٨

المقامة التاسعة والثلاثون العمانية والصحارية ، تتضمن ركوب أبي زيد البحر ، وأنه كتب عزيمة الطلاق للحامل فوضعت حملها . ٢٨٩ ـ ٣١٩

رفع المسهم
غفر الله له ولوالديه

صفحة

المقامة الأربعون التبريزية ، تتضمن تخاصم أبي زيد وزوجته عند القاضي وأخذها منه دينارين . ٣٢٠ - ٣٢٣

استـــدراك

وقع خطأ في صفحة ١٦٥ في عنوان المقامة ،والصواب : « المقامة الخامسة والثلاثون الشيرازية» .

رفع المسهم

فهرست المسهم
غفر الله له ولوالديه

فهرس الموضوعات

صفحة

عما قيل فى الأوطان .. .. ٤ ـ ٦
ذكر مكة ومعالمها .. .. ٧ ـ ١٤
ذكر المراثين وما قيل فيهم .. .. ٢١ ـ ٢٣
عما قيل فى العناق من الشعر .. .. ٢٨ ـ ٣١
فقيه العرب وفتواه .. .. ٤٥ ـ ٦١
اللاحن والمعاريض .. .. ٦١ ـ ٦٨
ذكر قباح الوجوه من أهل العلم وغيرهم .. .. ٧٢ ـ ٧٩
عما قيل فى وصف القلم .. .. ٨١ ، ٨٢
ذكر مدح الشعراء الشعر .. .. ٨٢ ـ ٨٥
ترجمة الإمام الشافعى .. .. ٨٩ ـ ٩٧
فصل فى زيارة قبر الرسول عليه السلام .. .. ٩٨ ـ ١٠٤
عما قيل فى أداء الصلاة لوقتها وما جاء فى تركها .. .. ١٠٦ ـ ١٠٩
ذكر مدينة تفليس .. .. ١٠٩ ، ١١
من كلام الأعراب .. .. ١١٣ ـ ١١٥
ذكر الغلمان وأخبار عشاقهم .. .. ١٣٠ ـ ١٣٣
ذكر العرجى وإيراد بعض شعره .. .. ١٣٨ ـ ١٤٢
فصل فى التضمين .. .. ١٤٢ ، ١٤٣
خبر النضر بن شميل مع المأمون .. .. ١٤٣ ـ ١٤٧
حكاية أبى حنيفة والإسكاف ١٤٧

رفع المسهم
غفر الله له ولوالديه

صفحة

من حكايات الجوارى والغلمان ١٤٧-١٤٩
قصة يوسف عليه السلام ١٥٩-١٦٢
مما جاء من الشعر على أخبار يوسف عليه السلام ١٦٣-١٦٤
ذكر مسألة نحوية ١٧٢-١٧٤
وأد البنات ١٧٦-١٨١
حكايات وأشعار حول الخمر ١٨٥-١٩٠
مما قيل فى ذم الغناء ومدحه .. .. ١٩١، ١٩٢
ذكر ملطية .. .. ١٩٣، ١٩٤
مما قيل فى المودّة بين الشعراء .. .. ١٩٧، ١٩٨
الحرباء وما ورد فيها من الشعر ٢٠٢-٢٠٤
قصة سليمان فى الحرث ٢٠٤-٢٠٦
من وصف الشعراء للخمر ٢٠٦-٢٠٨
فصل فى تفسير الأحاجى ٢١٧-٢٢١
ذكر مناقب سلمان الفارسى ٢٢٥-٢٢٧
ذم العقوق ٢٢٩-٢٣١
بين أبى تمام وعبد الصمد بن المعذل .. .. ٢٣٥، ٢٣٦
مما قيل فى ذم السؤال ٢٣٦-٢٣٨
فضل المال .. .. ٢٤١، ٢٤٣
ذكر مرو ٢٥٧-٢٥٨
العيافة والزجر ٢٥٨-٢٦١
من غرر الدائح ٢٦٣-٢٦٦
الذكر الحسن ٢٧٠-٢٧٣

رفع المسهم

صفحة

مدح الكرم وذم البخل .. .. ٢٧٥، ٢٧٦
مما قيل فى الشيب ٢٧٦–٢٧٩
مما قيل فى طول الليل ٢٨٢–٢٨٤
فصل فى مدح الأدب .. .. ٢٨٧، ٢٨٨
مما قيل فى العذار .. .. ٢٩٠، ٢٩١
ذكر صحار ٢٩١
ذكر الطوفان .. .. ٢٩٦، ٢٩٧
ذكر أويس القرنى .. .. ٣١١، ٣١٢
ذكر الأمير دبيس ٣١٣
قصة زواج مسيلمة بسجاح ٣٢٤–٣٢٧
قصة تخاصم أبى الأسود مع امرأته ٣٢٧–٣٣٠
زبيدة بنت جعفر زوج الرشيد ٣٣٢–٣٣٤
بوران بنت الحسن بن سهل وزواجها بالمأمون ٣٣٤–٣٤٢
ذكر بلقيس وعرشها ٣٤٢–٣٤٥
ذكر رابعة العدوية ٣٤٥–٣٤٧
ذكر خندف ٣٤٧–٣٤٩
ذكر الخنساء ٣٤٩–٣٥٦
ذكر أبى دلامة ٣٥٨–٣٧٣
ترجمة الحسن البصرى ٣٧٥–٣٧٨
ترجمة الشعبى .. .. ٣٧٨، ٣٨٢
ذكر الخليل بن أحمد ٣٨٢–٣٨٨
ذكر جرير .. .. ٣٨٩، ٣٩٤

رفع المسهم

صفحة

ذكر قس بن ساعدة الإيادى .. .. ٣٩٤_٣٩٩
ذكر عبد الحميد الكاتب .. .. ٣٩٩،٤٠٠
ذكر أبى عمرو بن العلاء .. .. ٤٠٠_٤٠٥
ذكر مناقب الأصمعى .. .. ٤٠٥،٤٠٦
مجلس للأصمعى عند الرشيد .. .. ٤٠٦_٤١٦

رفع المسهم

رفع المسهم

رفع
المسهم
غفر الله له ولوالديه

شرح

مقامات الحريري

لأبي العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

المجلد الخامس

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

رفع
المسهم
غفر الله له ولوالديه

رفع
المسهم
غفر الله له ولوالديه
2008-12-07

كلية آداب - بنين

شرح مقامات الحريري

لأبي العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

جامعة الكويت
إدارة المكتبات - قسم التزويد المركزي
رقم التسجيل: ١٣٦٧٣٥
التاريخ: ٩٨/٦/٢٨

الجزء الخامس

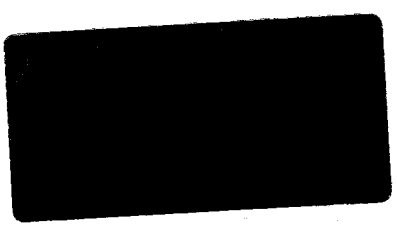

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

رفع
المسهم
غفر الله له ولوالديه

٨١٤ ر ٥

جميع الحقوق محفوظة

١٤١٣هـ ١٩٩٢م

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية — المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تلكس SCS ٢٠٤٢٧ LE

صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلكس ٢٩١٩٨ LE

رفع المسهم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقامة الحادية والأربعون وهى التنيسية

حدّث الحارث بن همّام قال : أطعتُ دواعي التّصابى ، فى غُلوَاء شبابى ؛ فلم أزل زيراً للقِيان ، وأُذُناً للأغاريد ؛ إلى أن وافى النّذير ، ووَلّى العيشُ النّضير ؛ فقرمتُ إلى رُشْدِ الانتباه ، وندِمتُ على ما فرّطتُ فى جَنْبِ الله . ثمّ أخذتُ فى كَسْحِ الهَنَاتِ بالحَسَنَاتِ ، وتلافى الهَفَوَاتِ قبلَ الفَوَاتِ ؛ فملتُ عن مُعَادَاةِ الغادَاتِ ، إلى مُلاقَاةِ التُّقاةِ ، وعن مُقَانَاةِ القَيْنَاتِ ، إلى مُدَانَاةِ أهْلِ الدِّيَانَاتِ ، وآليتُ ألّا أصحبَ إلّا مَنْ نَزَعَ عن الغَىّ ، وفَاءَ مَنشَرُهُ إلى الطَّىّ . وإنْ ألفيتُ مَنْ هُوَ خَلِيعُ الرَّسَنِ ، مَدِيدُ الوسَنِ ، أنأيتُ دارِى عن دارِهِ ، وفررتُ عن عَرِّهِ وعَارِهِ .

* * *

أطلعتُ دواعى التّصابى ، يقال : أطعت كذا ، وطعت له ، أى انقدت . والمطيع : المنقاد ، والتّصابى : التّظاهر بالصِّبا والتشاغل به . ودواعيه : ما يدعوه إليه ، وغُلَواء الشباب : أوله وسرعته ، أراد : مِلْت إلى اللهو واللعب فى أوّل

شبابى ، فلمّا أتى الشيبُ أحببت الرجوعَ إلى الخير . زيراً : كثير الزيارة . والغِيد : جمع غَيْداء ، وهى اللّينة العُنُق والمفاصل من النِّعمة . أذناً للأغاريد ، أى كثير الاستماع للغِناء ، وفلان أذُن ، إذا كان يستمع من كلّ قائل ، ويقبل منه . وافى : أتى ، والنَّذير : الشيب ، لأنه منذر الإنسان بتمام العمر ، أى يُعلمه . وَلّى : رجع وزال . النَّضِير : الناعم ، يريد زَمَن الشَّباب .

ونؤخِّر ذكر الشيب ، فإنه يؤدّى إلى تغيير شرح المقامة ، ونتكلم هنا على ذهاب الشّباب .

[البكاء والأسف على ذهاب الشباب]

قال أبو عمرو بن العلاء : ما بكَتِ العربُ شيئاً ما بَكَتِ الشباب ، وما بلغتْ به ما يستحقّه .

الأصمعىّ : من أحسن ألفاظ الشعر المراثى والبكاء على الشباب ، قال ابنُ عباس رضى الله عنهما : الدنيا العافية ، والشباب الصحة .

ومن ألفاظ أهل العصر : الشَّباب باكُورة الحياة ، وروائح الجنة فى الشباب . أطيب العيش أوائله ؛ كما أنّ أطيب الثمار بواكرها .

قال الصولىّ : قد أكثر فى ذكر الشّباب القدماء وأهل الإسلام . وأجمع الحُذّاق بالشعر وتمييز الكلام وألفاظه ؛ أنه لم يُقَلْ فيه أحسنُ من قول منصور النَّمَرِىّ ، ووقع الإجماع عليه ، فما ضرّ تأخّره ، وهو :

مَا تَنقُضِى عبرةٌ منّى ولا جَزَعُ إذا ذكرت شباباً ليس يَرْتَجِعُ[1]

(١) الأغانى ١٣ : ١٤٥ ، أمالى المرتضى ٢ : ٦٠٦ ، حماسة ابن الشجرى ٢٣٩

بانَ الشبابُ وفاتَتْنِي مسرَّتُهُ ... صروفُ دهرٍ وأيامٌ لها خُدَعُ
ما كنتُ أوفِي شبابي كُنْهَ غُرَّتِهِ ... حتَّى انقضَى فإذا الدّنيا له تبَعُ
إن كنتِ لم تَطْعَمِي ثُكْلَ الشَّباب ولمْ ... تَشْجَىْ بغصَّتِه فالعذر لا يقعُ
أبْكِي شَبَاباً سُلبناه وكان ولاَ ... توفِي بقيمَتِه الدّنيا ولا تَسَعُ
ماواجَهَ الشَّيْبُ من عينٍ وإن رَمَقَتْ ... إلّا لها نبوةٌ عنه ومُرْتَدعُ

وقال أبو نواس :

كانَ الشَّبَابُ مِطَيَّةَ الجَهْلِ ... ومحسِّنَ الضَّحِكَاتِ وَالْهَزْلِ[1]
كان الجمالَ إذا ارْتَدَيْتُ به[2] ... وخرجتُ أُخْطِرُ صيِّتَ النعل
كان البليغَ إذا نَطَقْتُ به ... وأصاخت الآذان للمُمْلِي
كان المشفَّعَ فى مآربه ... عند الحِسَان ومُدْرِكَ التَّبْل[3]
والْبَاعثى والنّاس قد رَقَدُوا[4] ... حتى أكُون خليفةَ الْبَعْلِ[5]

وقال جحظة :

واهاً لأيّام الشبَا ... بِ وما لَبِسْنَ منَ الزخارفْ
وزَوالهنّ بمَا عرفـ ... ـت من المَنَاكِرِ والمعارف
أيام ذكرك فى دوا ... وين الصِّبا صَدْرَ الصحائف

(١) ديوانه ٣١١ ، أمالى المرتضى ٢ : ٦٠٧
(٢) المرتضى : « كان الجميل » .
(٣) التبل : الثأر ، وفى ط : « النبل » تحريف .
(٤) الديوان وأمالى المرتضى : « هجموا » .
(٥) بعده فى الديوان والمرتضى :

والآمِرِى حَتَّى إذا عَزَمَتْ ... نفسى أعَان علىَّ بالْفِعْلِ
فالآن صِرْتُ إلى مقارَبَةٍ ... وحَطَطْتُ عَنْ ظَهْرِ الصِّبا رَحْلِى

وقال ابن أبى حارثة :

ولَّى الشَّبَابُ تخلِّى العينَ تَنْهَمِلُ ... فقدُ الشَّبابِ بفقْد الرُّوحِ مُتَّصِلُ[1]

لا تكذبنَّ فما الدّنيا بأجمعها ... من الشَّبابِ بيومٍ واحدٍ بدلُ

وقال آخر :

شيئان لو بكت الدِّمَاءَ عليهما ... عينـــاى حتى تؤذِنَا بذَهَاب

لم أبلغ المعشارَ من حَقَّيْهِمَا : ... فقدُ الشَّبـاب وفُرْقة الأحباب

أعرابى :

يا طيبَ أيّامِ الشَّبَابِ وعَصْرِهِ ... لو يُسْتَعَارُ جَدِيدُه فيعـــارُ[2]

ما كان أقصرَ ليـــلَه ونهارَه ... وكذاك أيامُ السُّرورِ قِصارُ

وقال ابن عبد ربه :

قالوا شَبَابُكَ قد مَضَتْ أيَّامُهُ ... بالعيشِ قلْتُ وَقَدْ مَضَتْ أيامِى[3]

لله أية نعمـــة كان الصِّبا ... لو أنهـــا وُصِلَتْ بطُول دَوامِ

حَسَرَ الشَّبابُ قناعَه عن رأسه ... وصحا العواذلُ بعـد طُولِ مَلَامِ

فكأنّ ذاك العَيْشَ ظِلُّ غَمامةٍ ... وكأنَّ ذاك اللَّهْوَ طولُ مَنَـامِ[4]

وقال أيضاً :

صِبائى كَيْفَ صِرْتَ إلى نَفَادِ ... وبُدِّلْتَ البياضَ من السَّوادِ[5]

---

(١) اللآلى لأبى عبيد البكرى ٣٣٧ ، حماسة ابن الشجرى ٢٣٩ ، معانى العسكرى ٢ : ١٥٢ ، ونسبة الأبيات فيها الى محمد بن حازم ، وانظر أيضا العقد ٣ : ٤٦

(٢) العقد ٣ : ٤٧ ، بنسبته الى أعرابى أيضا .

(٣) العقد ٣ : ٤٧

(٤) العقد : « طيف منام » .

(٥) العقد ٣ : ٤٨ ، وفيه : « شبابى كيف صرت » .

رفع المسهم

فما أبْقَى الحوادثُ منك إلا ... كما أبقت من القَمَرِ الدآدى[1]

فراقُك عرّف الأحْزَانَ قلبى ... وفرّق بين عينى والرُّقاد

زمانٌ كان فيه الرُّشدُ غيًّا ... وكان الغىّ فيه من الرّشاد

يقبِّلنى بدَلٍّ مِنْ قَتُولٍ[2] ... ويُسعِدُنى بوصلٍ من سُعَادِ

وأجنُبُه فيعطينِى قِيادًا ... وَيَجْنُبنى فأعطِيه قيادِى

قال الفرزدق :

إنَّ الملامةَ مثل ما بَكَرتْ بها ... من تحت ليلتِها عليك نَوَارُ[3]

قالت : وكيف يميل مثلُك للصِّبا[4] ... وعليك من سِمَةِ الحليم عِذَارُ

والشَّيْبُ ينهضُ فى الشَّباب كأنَّه ... ليلٌ يصيح بجانبيْه نَهَارُ

إنّ الشباب لرابح مبتاعُه[5] ... والشَّيْب ليس لبائعيه تِجَارُ

قال إسحاق الموصلىّ : قال لى المعتصم : لقد فَضَحك الشيب فى عارضيْك ، فقلت : نعم يا سيّدى ، وبكيت ثم قلت :

تولّى شبابُك إلا قليلاَ ... وحلَّ المشيب فصْبراً جَمِيلاَ[6]

كَفَى حَزَناً بفراق الصِّبا ... وإن أصبَح الشَّيْب منه بديلا

فلمَّا رأى الغانيات المشيبَ أغضين دونىَ طَرْفاً كَحِيلاَ[7]

سأندُب عَهْدَ انقضاء الصِّبا ... وأبكى الشَّبَاب بكاءً طويلا

---

(١) الدآدى : ثلاث ليال من آخر الشهر قبل ليالى المحاق .

(٢) العقد : « قبول » .

(٣) ديوانه ٤٦٧

(٤) الديوان : « وتقول كيف » .

(٥) الديوان : « لرابح من باعه » .

(٦) الخبر والشعر فى الأغانى ٥ : ٦٩ (ساسى) .

(٧) الأغانى : « أغضين دونك » .

وغنَّيتُها . فبكى المعتصم ، وقال : لو قدرتُ على ردِّ شبابك لفعلتُ ولو بشَطْرِ مُلْكى ؛ فلم يكن لكلامه عندى جواب إلاّ أنْ قبَّلتُ البساط بين يديه .

وأبْكَى بيتٍ وَرَد فى فقد الشباب قول أبى الغُصْنِ الأسدىّ :

أتأمُلُ رَجْعَةَ الدُّنيا سفاهاً ... وقد صار الشَّباب إلى ذهابِ

فليْتَ البا كياتِ بكلِّ أرضٍ ... جُمِعْنَ لنا فنُحْنَ على الشَّباب

وقال سَلَامة بن جندل ، وهو جاهلىّ :

أوْدَى الشَّباب حميداً ذُو التَّعاجيبِ ... أوْدَى وذلِكَ شأوٌ غَيْرُ مطلوبِ[1]

ولَّى حثيثاً وهـــذا الشَّيْبُ يطلبه ... لو كان يدركه رَكْضُ اليَعَاقِيبِ[2]

أوْدى الشَّباب الّذى مجدٌ عواقبُه ... فيـــه نَلَذّ ولا لذّاتِ للشيبِ

وقال سَلَامة أيضاً :

يا خَـدُّ أمْسَى سوادُ الرأس خالَطَه ... شَيْبُ القَذال اختلاطَ الصَّفْو بالـكَدَرِ[3]

يا خَدّ أمست لُبانات الصبا ذهبتْ ... فلستَ منهـــا على عَيْنٍ ولا أثرِ

كان الشباب لحاجاتٍ وكنّ له ... فقـــد فرغتُ إلى حاجاتَ الأُخَرِ

وأنشد أبو العيناء :

ما فى يدىّ من الصِّبا ... إلاّ الصَّبابةُ والأسَفْ

جاء الشبـاب فما أقا ... م ولا ألمّ ولا وَقَفْ

كان الشَّبَابُ كزائرٍ ... ملّ الزيارة وانصرفْ

والباب لا يُحْصَى كثرة .

---

(١) مطلع المفضلية ٢٢ ص ١١٩ . وأودى : هلك : ذو التعاجيب : كثير العجب .

(٢) اليعاقيب : جمع يعقوب ، وهو ذكر الحجل ، خصه لسرعته .

(٣) الأبيات لابن مقبل ؛ ديوانه ٧٣ ، ٧٤ ، وفيه : « يا حر » .

قوله : قرِمت لكذا ، أى اشتدّت شهوتى إليه ، وأصله شدّةُ الشهوة إلى اللحم . والرُّشْد والرَّشَد واحد . فرّطت : ضيّعت ، وفرّط فى الشىء : قدّم فيه التقصير والعجز ، وهو من قولهم : فَرَطَ الفارطُ فى طلب الماء ، أى تقدّم القومَ إليه . وقرئ : ﴿ يا حَسْرَتَنَا على مَافَرَطْنَا فيها ﴾[1] ، بتخفيف الراء ، ومثله : ﴿ ياحسرتا على ما فَرَطت فى جَنْبِ الله ﴾[2] ومعنى القراءتين التقصير فى جَنْب الله ، أى فى حقه ، وقيل : فى أمر الله ، وقيل فى طاعته .

ابن الأعرابىّ : فى قرب الله . الفراء : الجَنْب : القرب ، والجَنْب معظم الشىء وأكثره ، ومنه : هذا قليل فى جَنْب مودّتك . الزجّاج : أى على ما فرّطت فى الطريق الذى هو طريق الله الّذى دعانى إليه .

وكَسْع الهَنَات ، أى طرْد القبائح والقاذورات ، والهَنَات ، كناية عن الفواحش والأفعال القبيحة ، مأخوذ من الْهَنِ ، وهو الفرْج ، وكَسْعُها : دَفْعها وإزالتها ، والكَسْع أن تضرب بيدك على دُبُر الشىء ، وكَسَعْتُهم بالسيف ، إذا اتّبَعْتَ أدبارهم ، فكأنه أزال القبائح عن نفسه ثم أتبعها بالدّفع والضَّرْب ؛ حتى نفاها بحسناته ، والكَسْع أيضاً : أن تضرِب الشىءَ بصَدْر قدمك وقد كَسَعْتُه . الأصمعىّ : الكسع : سرعة المرّ ، وكسعته بكذا : جعلتُه تابعاً له .

تلافِى : تَدَارُك . الْهَفَوات : السّقطات والزّلّات ، وقد هفا الرَّجُلُ ، إذا فعل المنكر وما يُكْرَه . الفوات : الموت . مغاداة : مباكرة ، وقد غاداه : أتاه بالغدوّ ، والغَادات : النَّواعم من النساء ، الواحدة غادة ، والتقاة : الخائفون ،

(١) سورة الأنعام ٢١
(٢) سورة الزمر ٥٦

رفع المسهم

الواحد تقىّ ، وقوله تعالى : ﴿ إلّا أنْ تتّقُوا منهم تُقَاةً ﴾[1] ، يجوز أن يكون الأتقياء ، ويجوز أن يكون مصدراً ، وهو أجود القولين : تقيتُه، واتّقيتُه تُقًى وتَقِيّةً وتُقًا وتِقاء ، أى حذرته ، والاسم التقوى . مقاناة : مخالطة وملازمة ، وهى مفاعلة من القَيْنة ، وهى الجارية المغنّية، والجمع قَيْنات . مداناة : مقاربة . ديانات ، هى من الدِّين ، أراد بها الطاعة . آلَيْت: حلفت. نزع : زال وكفّ . الغىّ : الضلال . فاء : رجع . مَنشُره : انتشاره فى الصِّبا واللهو . ألفيت : وجدت. خليع الرّسَن : مسيّب فى المعاصى ، لا يكفُّه عن إتيانها عقل ولادين ، وخَلَعْتُ رَسَنَ الدّابة : تركْتُها ترعى حيث شاءت سائبة ، ومثله خَالِع العِذَار ، وخلع عِذاره ، أصلُه فى الدّابّة إذا خُلِع عِذارُها فسُيِّبت ، فإن انفَلَت رسنُها الذى تمسكها به ففرّت ، قيل : جرّت رسنَها ، وفلان يجرّ رسنه ، وبابه فى الاستعارة أنه مسيَّب فى الشهوات مجاهر بها . مديد الوَسن : طويل النَّوم ، أى فارغ البال من ذكْرٍ أو صلاة بالليل أو قراءة . أنأيت : أبعدت . عرّه : جربه ودائه ، يريد أنه حَلَف ألاّ يصاحب إلاّ مَنْ كَفّ عن الصِّبا واللهو والنساء ، ومتى وجد أهل اللهو والغزل فرّ عنهم وتركهم ، وقال الألبيرىّ فأحسن :

مَنْ حاد عن نهج الهدى فأضـــلَّ قصْدَ سبيلِهِ
فتوقّ خَلّتـــه فدِيـــنُ المرء دِينُ خليـــلِهِ

وله أيضاً

ألاَ خَـــبَرٌ بمنتزَح النّواحِى أطير إليه مقصوصَ الجناحِ[2]

---

(١) سورة آل عمران ٢٨

(٢) من قصيدة له فى ديوانه ٨٤

رفع المسهم

وأسأله وألطفه عَسَاه سَيَأسُو ما بدِينِيَ من جرَاحِ
ويجلُو ما دَجَى من ليل جَهْلى بنور هُدًى كمنبلج الصَّبَاحِ
فأبصق فى محيَّا أم دَفرٍ وأهجرُها وأدفعها بِرَاحِى
وأصحُو من حُمَيَّاها وأسلُو عفافًا عن جآذرها الْمِلَاحِ
وأصرفُ هِمَّتى بالكفِّ عنها إلى دار السَّعادة والنَّجاح

* * *

فَلَمَّا أَلْقَتْنِي الْغُرْبَةُ بِتِنِّيس ، وَأَحَلَّتْنِي مَسْجِدَهَا الْأَنيس ، رَأَيْتُ ذَا حَلْقَةٍ مُلْتَحِمَة ، وَنَظَّارَةٍ مُزْدَحِمَةٍ ؛ وَهُوَ يَقُولُ بِجأشٍ مَكِينٍ ، وَلِسَانٍ مُبِينٍ : مِسْكِينٌ ابنُ آدَمَ وَأَىُّ مِسْكِينٍ ! رَكَنَ من الدّنيا إِلَى غَيْرِ رَكِينٍ ، وَاسْتَعْصَمَ مِنْهَا بِغَيْرِ مَكِينٍ ، وَذُبِحَ مِنْ حُبِّهَا بِغَيْرِ سِكِّينٍ ، يَكْلَفُ بِهَا لِغَبَاوَتِهِ ، وَيَكْلَبُ عَلَيْهَا لِشَقَاوَتِهِ ، وَيَعْتَدُّ فِيهَا لِمُفَاخَرَتِهِ ، وَلَا يتزوّد مِنْهَا لآخِرَتِهِ .

أُقْسِمُ بِمَنْ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ، وَنَوَّرَ الْقَمَرَيْنِ ، وَرَفَعَ قَدْرَ الْحَجَرَيْنِ : لَوْ عَقَلَ ابنُ آدَمَ ، لَمَا نَادَمَ ، وَلَوْ فَكَّرَ فِيمَا قَدَّمَ ، لَبَكَى الدَّم ، وَلَوْ ذَكَرَ الْمُكَافَآت ، لاسْتَدْرَكَ مَا فَاتَ . وَلَوْ نَظَرَ فِى الْمَآل ، لحسَّنَ قبح الْأَعْمَال .

يَا عَجَبًا كُلَّ الْعَجَبِ ، لِمَنْ يَقْتَحِمُ ذَاتَ اللَّهَب ، فى اكْتِنَازِ الذَّهَبِ ،

وَخَزْنِ النَّشَب ، لِذَوِى النَّسَب . ثمّ من الْبِدْعِ الْعَجيب ، أَنْ يَعِظَكَ وَخْطُ الْمَشِيب ، وَتؤْذِنَ شَمْسُكَ بِالْمَغِيبِ ، وَلَسْتَ تَرَى أَنْ تُنيب ، وَتهذِّبَ الْمَعِيب .

* * *

[ذكر تنّيس]

تِنّيس بلدة كبيرة ، وهى جزيرة أحدقت بها بحيرة يتّصل بها النيل ، فتعذب عند زيادته ستة أشهر ، وتملح ستّة أشهر ، ويتّصل بها خليج دمياط ، وخليجها ينقسم على شرقيها غربيّها ، ويلتقيان فى البحيرة ، فيسيرون بسفنهم من دمياط إلى تِنّيس ؛ دخولهم لها وخروجهم بريح واحدة محكَمة. وأهل تِنّيس ذوو يسار ، وأكثرهم حاكة . وثياب الشروب التى تُصْنَع بها وبدمياط لا يُصْنَع مثلها فى الدنيا ، وليس فى الدّنيا طراز كَتَّان يبلغ الثوب منها دون أن يعين بذهب مائة دينار ، غير طراز تِنّيس ودمياط ، ويكتفى ثوبها بقصّارة يوم واحد فى البحيرة فيبيضّ . قال الْيَعْقوبى : مدينةِ تِنّيس يحيط بها البحر الأعظم الملح ولها بحيرة يأتى ماؤها من النِّيل ، وهى مدينة قديمة بها تُعمل الثياب الرفيعة الصِّفاق والعَصْب والبُرود والوشّى ، وبها مَرْسَى المراكب الواردة من الشام والمغرب .

قوله : ملتحمة ، أى منضمة ملتصقة . ذا حلقة : يريد واعظا قد حلّقه النـاس والنَّظّارة : النّاظرون إليه . جَاشَ : تنفّس . مكين : شديد . مبين : مفصح . أىّ مسكين : ترحّم عليه لكثرة مسكنته وتعجّب منه . رَكَن :

رفع المسهم

سكن ولجأ . ركين شديد : قوىّ يُركن إليه ، ورجل ركين ، أى وَقورٌ بيِّن الركانة ، والرَّكين الثابت . مكين : عزيزله مكانة ، أى منزلة رفيعة . ذُبح من حبِّها بغير سكين ، إشارة لعذابه فيها ومحنته ، لأنّ السِّكين تذبح المذبوح من ساعته ، ومَنْ يُذبح بحجَر أو عُود أو غير ذلك ، فهو فى تعذيب .

أبو موسى : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أحبّ دنياه أضرّ بآخرته ، ومن أحبَّ آخرته أضر بدنياه ، فآثر مايَبْقى على مَايفْنى » .

وقال سفيان بن عيينة : ويلَكُمْ ياعلماء السوء ، لاتكونوا كالمنخُل يخرُج منه الدقيق الطيب فيمرّ ويمسك النُّخالة ، فكذلك أنتم تُخرِجون الحكمة من أفواهكم ، ويبقَى الغِلّ فى صدوركم ، ويحكم ! إنّ الذى يخوض النَّهر لابدّ أن يصيب ثوبَه الماء وإن جَهَد ألاّ يصيبه ، كذلك مَنْ يحبّ الدنيا لاينجو من الخطايا .

يَكْلَف ، أى يولع بها ويشتدّ حبُّه فيها . غباوته : جهله . يكلَب : يشتدّ حرصه ، وكَلِب على الشىء : ألحّ فى طلبه ، وأصله من الكَلَب وهو السُّعر فى الكلاب . يعتدّ : يستعدّ . مَرَج : خلَط ، وقيل : أرسلهما وخلاّهما كما تسرح الدابّة فى مرعاها . والقمرين : الشمس والقمر ، غلَّب لفظ القمر لخفّته بالتذكير وإن كانت الشمس أنوَر ، وهى أصْلُ لنُور القمر ، ولهذا قال المتنبى :

وَمَاالتَّأْنيثُ لاسم الشمس عيْبٌ ولا التَّذْكير فخرٌ للهلال[1]

أراد أنّ الشمس أنور وأضوأ ، فما يضرّ هاتأنيث اسمها ، وماينفع الهلال تذكيرُ اسمه ، وهو ناقص عنها ، فلخفّة لفظ القمر غُلِّب ، كما قالوا : العمران

(١) ديوانه ٣ : ١٨

لأبى بكر وعمر ، وأبو بكر أفضل من عُمر باتّفاقٍ من أهل السنّة ، فغلّب لفظ عمر لخفّته بإفراده وقلة حروفه .

[مما قيل فى القمر]

ومما يحُسن موقعه مع قوله : ونَوّر القمرين ؛ أنّ أعرابيًّا أضلّ الطريق فمات جَزَعًا ، وأيقن بالهلاك ، فلما طلع القمر اهتدَى ، ووجد الطريق ، فرفع إليه رأسَه ليشكره ، فقال له : والله ما أدرى ما أقول لك ، ولا ما أقول فيك ! أقول : رفعك الله ، فالله قدْ رفعَك ، أم أقولُ : نَوَّرك الله ، فالله قد نَوَّرك ، أم أقول : حسّنك الله ، فالله قد حسّنك ، ولكن مابقىَ إلاّ الدعاء أنْ يُنْسِىء الله فى أجلك ، وأن يجعلنى من السوء فداءك .

وضَلّتْ ناقة لأعرابىٍّ فى ليلة مظلمة ، فأكثر فى طلبها ، فلم يجدها ، فلما طلع القمر وانبسط نوره وجدَها إلى جانبه ببعض الأوْدية ، وقد كان اجتاز بموضعها مِراراً فلم يرها لشدّة الظلام ، فرفع رأسه إلى القمرِ ، وقال :

ماذا أقوال وقولى فيك ذو خطرٍ وقد كفيتَنِىَ التّفْصيل والجُمَلا
إن قلت لازلت مرفوعاً فأنت كذا أو قلت زَانك ربّى ، فهو قد فَعَلاَ

ومما قيل فى ذمّه : عربد بعض المجّان على القمر ، فقال : والله إنك لتفتّت الكَتّان ، وتُغيِّر الألوان ، وتصفِّر الأسنان ، وتخثّر الأبدان ، وتسدّد الآذان ، وتفضح السّكران ، وتظهر الكتمان وتقلق الصبيان ، وتبّيض الأرْجُوان ، وتلحس الزعفران ، وتهزل الحِيتان ، وتمحق الأدمغة بالنقصان .

وقال ابن المعتز يذمه :

يا سارق الأنوارِ من شَمْسِ الضُّحَى يامُشْكِلِى طيبَ السكرى ومنغصِى[1]

(١) ديوانه ٢ : ١٣٢

أمّا ضياء الشمس فيك فناقصٌ[١] وأرى حرارة نارها لم تنقصِ[٢]
لم يظفرِ التَّشبيه فيك بطائلٍ متسلِّخ لوناً كلون الأبرص

قوله : الحجرين ، أى الذهب والفضة . وقيل الحجَر الأسود ومقام إبراهيم عليه السلام . نادم : صاحب ، والنَّدِيم الصاحب على الخمر . المكافآت : المجازاة . المآل : المرجع . ذات اللهب : صاحبة النار ، يعنى جهنّم . يقتحم : يترامى فيها ، وهذا من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنّى لآخذ بِحُجَزِكم عن النار ، وأنتم تقتحمون فيها ، كما تقتحم الفراش والجنادب » .

الخَزْن : الجمع . البِدْع : الحدث لم يكن ثم كان ، وقد ابتدعت الشيء : أحدثته ، وسقت الناس إلى فعله . وَخَط : اختلط ، وقدَ وَخَط الشيب الشَّعر ، إذا خالطه وفَشَا فيه . وتؤذن : تعلم . شمسك بالمغيب : نفسك بالذهاب . تنيب : ترجع وتتوب . تهذب : تخلّصه من العيب . والمعيب : الكثير العيب . يرشد : يهدى ويدلّ الطريق .

[مما قيل فى الدنيا]

ونذكر هنا شيئاً مما قيل فى الدّنيا موافقةً للحريرىّ ، ثم نعود إلى ذكر الشيب :

ومن خُطبة قَطَرِىّ بن الفُجاءة فى ذم الدنيا :

ألستم فى مساكن مَنْ كان أطولَ منكم أعماراً ، وأعدّ عَدِيداً ، وأوضح آثاراً ، وأكثر جنوداً ، وأعدّ عتاداً ، وأطولَ عماداً ؛ تعبَّدُوا للدّنيا أىّ تعبُّد ،

(١) الديوان : « ضياء الشمس منك » .
(٢) الديوان : « حرارتها بها » .

وآثروها أىّ إيثار ، وظعنوا عنها بالكُرْه والصَّغَار ، فهل بلَغكم أنّ الدنيا أسمحتْ لهم نفساً ، وأغنت عنهم بحيلة ، بل أرهقتهم بالحوادث ، وضَعْضَعتهم بالنوائب ، ودهمتْهم بالمصائب ، أرأيْتُم مكرها بمن دان لها وآثرها ، وأخلد إليها ، يقول الله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وزِينَتَها ﴾[1] إلى قوله : ﴿ وبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى هريرة رضى الله عنه : « ألاَ أريك الدنيا جمعاء بما فيها ؟ قال : قلت : بلى ، فأخذ بيدى ، وأتى وادياً من أودية المدينة ، فإذا مَزْبَلَة فيها رءوس الناس وعَذِرات وخِرَق ، فقال : يا أبا هريرة ، هذه الرءوس كانت تحرِص حرصكم ، وتأمُل أملَكم ، ثم هى اليوم عظام ، ثمَّ غداً رماد ، وهذه العَذِرات ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها فقذفوها فى بطونهم ، فأصبحت والنَّاس يتحامُونها ، والريح تصفقها ، وهذه عظام دوابّهم التى كانوا بها ينتجعُون أطراف البلاد ، فمن كان باكياً على الدنيا فليبك » . فما بَرِحْنَا ، حتى اشتدّ بكاؤنا .

مرّ أبو عثمان الدّباغ ، برجلٍ على كنيف ، فقال له : إلى هذا انتهت دنيا القوم .. وقال الشاعر :

ولقد سألتُ الدارَ عن أخبارهِمْ فتبسَّمتْ عَجَباً ولم تُبْدِى
حتى مررتُ على الكَنِيف فقال لى أموالُهم ونوالُهُمْ عِنْدى

ويُروى أنّ عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام مرّ بجمجمة فضربها برجله ، وقال : تكلَّمِى بإذن الله ، فقالت : يا رُوحَ الله ، أنا مَلِكٌ زمن كذا ، فبينما أنا جالس فى مُلْكِى ، علىّ تاجى ، وحولى حَشَمِى وجنودى على سريرى ،

(١) سورة هود ١٥ ، ١٦

إذ بَدَا لى مَلك الموت وظهر ، فزال عنىّ كلّ عضوٍ من موضعه ، ثم خرجَتْ إليه نفسى .

ولبعض الزّهاد :

دُنْيـــا تُخَادِعُنِي كأنّى لَسْتُ أعرِفُ حالَهَا
مَدّت إلىّ يمينَهـــا فقطعتُهـــا ، وشِمالَهَا
منـع الإلَهُ حرامَها وأنا اجْتَنَبْتُ حَلاَلَهَا
ورأيتهـــا مُحْتَاجَةً فوهبتُ جُمْلَتَهـا لَهَا

ولبعضهم :

هَبِ الدُّنيا تساقُ إليْكَ عفواً أليْس مصيرُ ذاك إلى انتقالِ
وما دُنْيَاك إلاَّ مثـــلُ فىءٍ أظَلَّكَ ثم آذَنَ بالزَّوالِ

أبو العتاهية :

يا مَنْ ترفَّع بالدُّنيا وزينتِهـــا ليس التّرفُّع رَفْـعَ الطِّينِ بالطِّينِ
إذا أرَدْتَ شريفَ القوم كُلِّهِمِ فانْظُرْ إلى مَلِكٍ فى زِىِّ مِسْكِينِ
أرى أناساً بأدنى الدِّين قد قَنَعُوا ولا أراهم رضُوا فى العيش بالدُّون
فاسْتغْنِ بالله عن دنيا الملوك كما اسْـــتَغْنَى الملوكُ بدنياهمْ عن الدِّين

وقال التّهامىّ :

حُكْمُ المنيَّـــةِ فى البريّة جارِى ما هَـــذه الدُّنيـا بدارِ قَرارِ[1]
بَيْنَا يُرَى الإنسانُ فيها مخبِراً حتى يُرَى خبراً من الأخبـار
طُبِعتْ على كدرٍ وأنت تريدها صَفْواً من الأقذار والأكْدَارِ
ومكلّف الأيّام ضِـدَّ طباعِها متطلِّبٌ فى المـاء جَـذْوَة نَارِ

(١) ديوانه ٤٧

وقال أبو حاتم: إنّما بيني وبين الملوك واحدة ؛ أمّا أمسِ فلا يجدون لذته ، وأنا وإيّاهم فى غد على وجَل ، وإنما هو اليوم ، فما عسى أن يكون اليوم ! أخذه أبو العتاهية فقال :

حَتّى متى نحن فى الأيّام نحسَبُها ... وإنما نحنُ فيها بين يَوْمَين[1]
يومٌ تولّى ويومٌ نحنُ نأمُلُه ... لعلّه أجلبُ الأيام للحَيْنِ

ولحاتم :

هل الدّهر إلا اليومُ أو أمسِ أو غدُ ... كذا الدّهـــر فيما بيننَا يتردّدُ
يردّ علينا ليلةً بعْـــدَ يومها ... فلا عمرُنَا يَبْـقَى ولا الدّهر يَنْفَدُ

وللفقيه الباجي:

إذا كُنْتُ أعـلم علماً يقيناً ... بأنّ جميـع حياتى كساعَهْ
فلِمْ لا أكون ضنيناً بها ... وأجعلُها فى صـلاحٍ وطاعَهْ !

وله أيضاً :

تبلّغْ من الدّنيا بأيْسَرِ زادِ ... فإنك عنها راحـــلٌ لمَعادِ
وغُضّ عن الدّنيا وزخرف أهلها ... جفونَكَ واكحُلْهـا بطيب سهادِ
وجَاهدْ عن اللّذات نفسَك جاهداً ... فإنّ جهـاد النّفس خيرُ جِهَادِ
وما هى إلا دارُ لهـــوٍ وفتنةٍ ... وإنّ قصارى أهلها لِنفَـادِ

وقال آخر :

وما أهلُ الحياة لنا بأهْلٍ ... ولا دارُ الفَنَـــاء لَنَا بدارِ
وما أموالُنا إلاّ عَـــوارٍ ... سيأخـــذها المعيرُ من المُعَارِ

---

(١) ديوانه ٢٧٢

ولأبى العتاهية :

قطعْتُ منـــكِ حبائل الآمالِ ... وحططتُ عن ظهر المطىّ رِحَالِي
ووجدتُ بَرْد اليأس بين جَوَانِحى ... فأرحتُ من حَطِّى ومِنْ ترْحَالِي
فالآن يا دُنْيا عرَفتُكِ فاذهبى ... يا دارَ كلّ تنقُّـــل وزوالِ
والآن صار لىَ الزمَان مؤدّباً ... ففـــدا وراحَ علىَّ بالأمثالِ
يأيُّها البَطَلُ الّذى هو من غدٍ ... فى قـــبره متفرّق الأوْصالِ
حِيَلُ ابن آدمَ فى الأمورِ كثيرةٌ ... والموت يقطـــع حِيلةَ المحتالِ

وللقاضى أبى حفص بن عمران :

أيها المغـــترُّ بالزّمَنِ ... فى هواه خالع الرَّسَنِ
حبّك الدنيا وزينتها ... فتنة عَمّتْـــك بالفِتَنِ
ظَلْتَ والحالاتُ شاهدةٌ ... عاكفاً منها على وَثَنِ
فاهجرنْها إنّ زينتَها ... زينةٌ شانت ولم تزنِ
خدعتْك إنهـا قبُحتْ ... باطناً فى ظاهرٍ حَسَنِ
واسْلُ عن حرصٍ وعن طَمعٍ ... أملا يردى وعنِ وعَنِ
ولتقـــدّم ما تُسرّ به ... قبل طول البَثّ والحزَنِ
فكأنّ أُخْرَاك ما برِحَتْ ... وكأنّ دنياك لم تكُنِ

* * *

ثمّ اندفع يُنْشِدُ ، إنشادَ مَنْ يُرْشِد :

يَا وَيْحَ مَنْ أَنْذَرَهُ شَيْبُهُ ... وَهُوَ عَلَى غَيِّ الصِّبَا مُنْكَمِشْ
يَعْشُو إِلَى نَارِ الْهَوى بَعْدَمَا ... أَصْبَحَ مِنْ ضُعْفِ الْقُوَى يَرْتَعِشْ
وَيَمْتَطِي اللَّهْوَ وَيَعْتَـــدُّهُ ... أَوْ طأما يَفْـــتَرِشُ الْمُفْتَرِشْ

لَمْ يَهَبِ الشَّيْبَ الذى ما رَأَى نجـــومَهُ ذُو اللُّبِّ إِلَّا دُهِشْ
وَلَا انْتَهَى عَمَّا مَا نَهَاهُ النُّهَى عَنْهُ وَلَا بَالَى بِعِرْضٍ خُـدِشْ
فَذَاكَ إِنْ مَاتَ فَسُحْقًا له وَإِنْ يَعِشْ عُـدَّ كَأَنْ لم يَعِشْ
لَا خَيْرَ فى محيا امرئٍ نَشْرُهُ كَنَشْرِ مَيْتٍ بَعْدَ عَشْرٍ نُبِشْ

* * *

قوله : يا ويح من أنذره شيبه ، ويح كلمة ترحم ؛ أنذره : أبلغه وحذّره . غَىّ : ضلال . منكمش : مسرع إليه ملازم له ، وقد كَمَشَ الرّجُل وانكمش فى أمره : استمرّ ومَضَى فيه مسرعاً .

ومن قولهم فى الشيب

فى هذا المعنى ما قال أكثم بن صيفىّ : الشيب عنوان الموت

وقال العتابىّ : الشَّيْبُ نذيرُ الموت .

وقال النُّميرىُّ : هو عِنْوان الكِبَر .

قيس بن عاصم : هُو خِطام المنيّةُ .

محمود الوراق : الشّيْب إحْدى الميتتين .

المعتز بن سليمان : الشيب موت الشَّعْر ، وموت الشَّعر عِلَّةُ موت البشَر .

أعرابىّ : كنت أنكر السوداء ، فياخير مبدول ويا شرَّ بدَلٍ ! أخذه حبيب فقال :

شابَ رأسى وما رأيتُ مشيب الرّأسِ إلاَّ مِنْ فَضْل شَيْبِ الفُؤادِ[1]

(١) ديوانه ٧٥

وكذاك الرءوس من كلّ بؤسٍ[1] ونعيمٍ طلائـــعُ الأجْسَادِ
طال إنكارىَ البياضَ وإنْ عُمِّـــرتُ شيئاً أنكرتُ لون السَّوَادِ[2]
زارنى شخصُه بطلعـــة ضَيْمٍ عَمَّرَتْ مجلسِى من العُـــوَّادِ

قيـل للنبى صلى الله عليه وسلم : عجّل عليك الشيب يا رسول الله ، فقال : « شيَّبتنى هود وأخواتها » .

وقيل لعبد الملك: عجّل عليك الشيب يا أميرَ المؤمنين ، فقال شيَّبنى ارتقاء المنا ر وتوقُّع اللحن .

وقيل لشاعر : عجّل عليك الشيب، فقال : كيف لا ،وأنا أعصِرُ قلبى فى عملٍ لا يُرْجَى ثوابه ، ولا يؤمن عقابه .

وقال محمود الوراق رحمه الله :

بَكَيْتُ لقُرْبِ الْأَجَـلْ وَبَعْـد فواتِ الْأَمَـلْ[3]
ووافـــدِ شَيْبٍ طرَا بَعْقبِ شبابٍ رَحَـلْ
شبابٌ كأَنْ لم يكُنْ وشيبٌ كأَنْ لم يَزَلْ

وقال حبيب :

غَـدَا الشَّيبُ مُخْتَطًّا بفودىَّ خُطَّةً
طريقُ الرَّدَى منها إلى النَّفْس مَهْيَع[4]

---

(١) الديوان : « وكذاك القلوب » .
(٢) بعده فى الديوان :

نالَ رأسِى من ثُغْرةِ الهَمِّ داءٌ لم ينَلْه من ثُغْرةِ الميلادِ

(٣) العقد ٣ : ٤٢
(٤) ديوانه ١٩٠

رفع المسهم

هو الزَّوْرُ يُجْفَى والمُعاشِرُ يُجْتَوَى ... وذُو الإلف يُقْلَى والجديد يرقَّعُ
له مَنْظَرٌ فى العين أبيضُ ناصعٌ ... ولكنَّه فى القلبِ أسودُ أسفَعُ
وَنَحْنُ نُرَجِّيه على السخط والرضا[1] ... وَأَنْفُ الفتى من وجْهِه وهو أجْدَعُ

وقال ابن عبد ربه :

شَبَابُ المرء تُنْفِدُه اللَّيالِى ... وإنْ كانت تَصِيرُ إلى نَفَادِ[2]
فأسْوَدُه يعود إلى بياضٍ ... وأبيضُه يعودُ إلى سَوَاد

أخذ هذا من قول المستوغِر بن ربيعة حين دخل على معاوية ، وهو ابن ثلثمائة سنة ، فقال : كيف تجدك يامستوغر ؟ قال: أجدنى قد لاَن منِّى ما كنت أحبّ أن يشتدّ ، وابيضّ منِّى ما كنت أحبُّ أن يسودّ .

وقال ابن عبد ربه :

أطلالُ لهْوِك قد أقوتْ مغانيها ... لم يبقَ من رَسْمِها إلا أثافيها[3]
هذِى المفارق قد قامت شواهدُها ... على فنائك والدُّنيا تُزَكِّيها
للموت سفتَجَةٌ فيهـا معنونة ... لم يبق للموت إلا أنْ يسحِّيها[4]

* * *

قوله : يعشو ، أى ينظر ببصر ضعيف . يمتطى : يركب . يعتدّه : يحسبه . المفترش : المضطجع على الفراش ، يريد أنه يركب اللّهو فيلتذّه ويجده وطيئاً . يَهَب : يَخَفْ . اللّب : العقل : دُهِش : تحيّر . النُّهى : جمع نُهْية ، وهى العقل ينهَى عن القبيح ، وينتهى به إلى حسن الرأى فى الأمور ، ويقال : نهاه عن ذلك نُهاه ، أى عقله .

(١) الديوان : « على الكره والرضا » .
(٢) العقد ٣ : ٤٤
(٣) العقد ٣ : ٤٤
(٤) يقال : سحى القرطاس ، اذا اخذ منه سحاءة ، والسحاءة : ما يقشر عنه .

وأنشد أبو طاهر السِّلَفِيّ ، قال : أنشدنى القاضى أبو محمد بن الحسن بن نصر بن مرهف النَّهاوندىّ ، قال : أنشدنى الأديب المدنىّ لنفسه فى نفسه :

لِي عَلَى النَّاسِ فضلُ نظمٍ ونثرٍ مَنْ أَبَاهُ هجوتُه وَأَبَاهُ
وإذا ما أتى صفعتُ قفاهُ وقَفَا مَنْ أعانه وَقفاهُ
رحم الله من أراد مُحَالاً فنهاهُ عن المحال نُهَاهُ

قوله : خُدِش ، أى ذمّ وسُبَّ ، وأصل الخدْش الأثر فى الجِلْد ، ثم اتُّسع فيه ، فَجُعِل للعِرْض . سحقا : بعدا ، والنَّشْرُ : الرِّيح ؛ طيّبة كانت أو خبيثة . نُبِش : أُخْرِج ، وكل مدفون أخرجتَه فقد نبشتَه . وأخذ هذا البيت من قول ابن المعتز :

تبحَّثْتُ عن آثاره فكأَنَّمَا نبشت عليه بعد ثالثةِ الدَّفْنِ

وله :

أُثنِي عليك بمثل ريحك ميِّتاً فى عقبِ يوم تزفُّك الأعوادُ

وأخذ هذا وهذا من قول عمر بن عبدالعزيز : لو رأَيتَنى بعد ثالثة ! وتقدّم فى الحادية عشرة .

* * *

وَحَبَّذَا مَنْ عِرْضُه طَيِّبٌ يَرُوقُ حُسْنًا مِثْلَ بُرْدٍ رُقِشْ
فَقُلْ لِمَنْ قَدْ شَاكَهُ ذَنْبُه : هَلَكْتَ يَامِسْكِينُ أَوْ تَنْتَقِشْ
فَأَخْلِصِ التَّوبةَ تَطْمِسْ بِهَا مِنَ الْخَطَايَا السُّودِ مَا قَدْ نُقِشْ
وَعَاشِرِ النَّاسَ بِخُلْقٍ رِضًا وَدَارِ مَنْ طَاشَ وَمَنْ لم يَطِشْ
وَرِشْ جناحَ الْحُرِّ إن حَصَّهُ زَمَانُهُ ، لَا كَانَ مَنْ لم يَرِشْ

رفع المسهم

وَأَنْجِدِ المَـــوْتورَ ظُلْماً فَإِنْ عَجَزْتَ عَنْ إِنْجَادِهِ فَاسْتَجِشْ
وَانْعَشْ إِذَا نَادَاكَ ذُو كَبْوَةٍ عَسَاكَ فِي الحَشْرِ بِهِ تَنْتَعِشْ
وَهَاكَ كَأْسَ النُّصْحِ فَاشْرَبْ وَجُدْ بِفَضْلَةِ الكَأْسِ عَلَى مَنْ عَطِشْ

* * *

يروق : يُعْجِب . بُرْد : ثوب . رُقِش : رقِم وَزُيِّن ، تقول : رقشتُ يدَ المرأة بالحِنَّاء والحائطَ بالأصباغ والقرطاسَ بالمِداد ، وشبه هذا شاكه ذنبُه ، يقال : شاكه يشُوكه ، إذا دخل فيه شَوْكة ، قال الشاعر :

لا تنقُشَنّ برجلِ غيرك شَوْكةً فتَقِي برجلِكَ رِجْلَ من قَدْ شَاكَهَا

فشاكها ، أَدْخَل فيها الشوك ، وشَاكَتْه الشوكة : دخلت فيه ، وشُكْتُه أنا ، إذا أدخلتَ الشوكة فى جسمه ، فإنْ أصابك الشَّوك قلت : شاكنى الشَّوْك يشوكُنِي شَوْكاً . وانتقشت حقِّى من فلان ، إذا استخرجتَه ولم تترك منه شيئاً .

وقال صلّى الله عليه وسلم : « وإن شيك فلا انتقش » ، فشِيك أصابه الشوك ومعناه إذا وقع فى شرٍّ فلا يخلص منه .

تَنْتَقِش : تخرج الشَّوْكة وتبحث عليها ، وأوْ بمعنى إلاّ . والمناقشة : البحث والاستقصاء ، ومنه مناقشة الحساب ، وبذلك سمى المِنْقاش ، وقال ابنُ الرومىّ :

إذا رُمْتُ بالمنقاشِ نَتْفَ أشاهِبى أتيح لهـا من بينهنَّ الأباهمُ
يُرَاوِغ منقاشِى نجومَ مسايحى وهنَّ بعينى طالعاتٌ نَوَاجمُ

تطْمِس : تمحو . ونقش : كتب ، والنَّقش يستعمل فى مثـل الخشب والحائط والصَّخْر ، والنَّقْش : الفتح والتأثير فى نفس المنقوش . وقال الأليبرىّ فى معنى هذا البيت :

مَنْ لَيْسَ يسعى فى الخلاص لنفسِه كانت سعايتـه عليها ، لا لَهَـا[1]

(١) ديوانه ٩١

إنّ الذنوب بتوبةٍ تُمْحَى كَمَا يمحُو سجودُ السَّهْوِ غفلةَ مَنْ سها

قوله : عاشر ، أى صاحبْ . دارِ : عامِلْه بما يحبّ ، وَامْشِ على غَرضِه . طاش : خَفّ عقلُهُ ، ورجل طَيَّاشٌ غير مقتصد فى قوله ، وهو مِنْ طاش السهم ، إذا لم يصب ووقع على غير قَصْد ، ومثله قول أعرابىٍّ لبنيه : عاشرُوا النَّاسَ مُعَاشرةً إذا غبتم حنُّوا إليكم ، وإن متُّمْ بكَوْا عليكم ؛ وهذا من قول الشاعر :

وأكرمْ كريماً إن أتاك لحاجةٍ لفاقَتِه إن العصاة تَرُوحُ

وقال الأضبط بن قريع :

لا تهين الفقيرَ عَلَّك أنْ تَرْكَعَ يوماً والدّهر قد رَفَعَهْ[1]

رش الجناح : اكسه الريش ، والمعنى أصلِح حال الحرّ إذا افتقر . حَصّه : نتفه . أنجِد : قوّ وأعِنْ ، والموتور : المظلوم الّذى قتِل له أخ أو ولد أو نسيب . اسْتَحِشْ : اجمع جيشاً ، والمعنى : إذا لم تقدر على إعانة مظلوم ، فتوسَّط لمن يُعينه . انعش : ارفع . كبوة : سَقْطة وعثرة . تنتعش : ترتفع وتقوم من عَثْرتِكَ . هاك : خذ ، والمعنى خذ كأس النصيحة فاشربْهَا فإذا رويتَ فاسْقِ غيرك . ولا يقال كأس إلاّ إذا كان فيها شراب .

* * *

قال : فَلمَّا فَرَغَ من مُبْكِيَاتِهِ ، وَقَضَى إنشادَ أبياتِهِ ، نَهَضَ صَبِيٌّ قَدْ شَدَنَ ، وَأَعْرَى الْبَدَنَ ، وَقَالَ : يَا ذَوِى الْحِصَاة ، وَالْإِنْصَاتِ إِلَى الْوَصَاةِ ، قَدْ وَعَيْتُم الْإِنْشَاد ، وَفَقِهْتُم الإرشاد ، فَمَنْ نَوَى مِنْكُمْ أَنْ يَقْبَلَ ، وَيُصْلِحَ الْمُسْتَقْبَلَ ، فَلْيَبِنْ بِبِرّى عن نِيَّتِهِ ، وَلَا يَعْدِلْ

(١) الشعر والشعراء ٣٨٣ ، وهو من أبيات الشواهد ، على أن نون التوكيد الخفيفة تحذف لالتقاء الساكنين والأصل : « لا تهينن » .

رفع المسهم

عَنِّى بعطيَّته ؛ فوالذى يَعلم الأسرار ، ويغفِرُ الإِصْرَار ؛ إِنَّ سِرِّى لَكَمَا تَرَوْنَ ، وإِنَّ وَجْهِى لَيَسْتَوْجِبُ الصَّوْن ؛ فأَعينُونِى رُزِقْتُم الْعَوْنَ .

قال : فأَخَذَ الشَّيْخُ فيما يَعْطِفُ عَلَيْهِ الْقُلُوبَ ؛ ويُسَنِّى لَهُ الْمطلُوب ؛ حَتَّى أَنْبَطَ حَفْرُهُ ، وَاعْشَوْشَبَ قَفْرُهُ . فَلَمَّا أَنْ تَرَعَ الْكِيسُ ؛ انْصَلَتَ يَمِيسُ ، وَيَحْمَدُ تِنِّيس ، ولم يَحْلُ لِلشَّيْخِ المُقَام ، بَعْدَمَا انْصَاع الغلام . فَاسْتَرْفَعَ الْأَيْدِى بالدُّعاء ، ثمَّ نَحَا نَحْوَ الانْكِفَاء .

* * *

قوله : قضى ، أى أتمّ . نهض : قام وتقدّم . شَدَن : اشتدّ وقوِىَ ، وأصله فى الظَّبْى والصبىّ ، تقول : شَدَن الظبىُّ ، إذا اشتدّ وترعرع ، وكذلك الصبىّ قال عمر بن أبى ربيعة :

إِذْ تَسْتَبِيك بمصقولٍ عوارضُه ومقلتىْ جُؤْذَرٍ لم يَعْدُ أنْ شَدَنَا[1]

أراد أنّه ترعرع للمشى وَالرَّعْى . أعْرَى البدن : تركه عُرْيانًا . ذوى الحَصَاة : أهل العقول : والإنصات : السكوت وحسن الاستماع . والوَصَاة ، بمعنى الوصيّة كالتقاة بمعنى التقيّة ، وأصلها « وقيّة » قُلِبت الواو تاء والياء ألفًا ، والواو إذا انضمّت فى أول الكلمة كنتَ بالخيار ، إن شئت تركتَها ، وإن شئتَ قلبْتَها ، ولهذا تُرِكت فى الوَصاة . وقيل الوَصَاة بفتح الواو فى الوصيَّة ، وبضمّها جمع واصٍ كراعٍ ورُعاة ، وعيتم : حفظتم . فقهتم : فهمتم : الإرشاد : الهداية : أى قد فهمتم ما دُللتم عليه من الخيْرِ فافعلوا . نوى : قَصَد وأضمر ، وهو من النيّة ، وأراد بالمستقبل ، ما يستقبلُه من أفعاله . فلْيبن : فليفصح ويبيّن . ببرِّى : يا كرامى . عن نيّته : عن قصده وصِدْق باطنه . يعْدِلْ : يَمِلْ .

---

(١) ديوانه ٣٠٧

الإصرار : الإقامة على الذنب ، سرّى لكما تروْن ، أى هو ظاهر لكم غير مستتر : الصَّوْن : الحوْطه فيما يعطف عليه القلوب ، يريد أنه أخذ فى كلام تحنّ به للصبىّ قلوب الناس . يسنِّى : يسّهل ويُيَسّر . أنبط : أخرج الماء . القَفْر : مالا نبات فيه . اعشوشب تغطّى بالعشب ، يريد أنه استغنى بعد الفقر ، وضرب بأنْبَط وَاعشوشب المثل . ترَع : امتلأ ، والكِيس : وعاء الدراهم . انْصَلت : تسلّل وخرج بسهولة . يميس : يتمايل ويتبختر . انصاع : ذهب مسرعاً وانفتل راجعاً . استرفع : طلب رفعها . نحانحو الانكفاء ، أى قصد قَصْد الانصراف .

* * *

قال الرَّاوِى : فارْتَحْتُ إِلَى أَنْ أُعْجِمَهُ ، وَأَحُلَّ مُتَرْجَمَهُ ، فتبعتُه وهو يَشْتدُّ فى سَمْتِهِ ، ولا يفتُقُ رَتْقَ صَمْتِهِ ؛ فلمَّا أَمِنَ المُفَاجِى ، وَأَمْكَنَ التناجِى ، لَفَتَ جِيدَه إِلَىَّ ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمَ الْبَشاشَةِ عَلَىّ ، ثم قال : أراقَكَ ذَكَاءُ ذَاكَ الشَّوَيْدِن ؟ فقلْتُ : إِى والمؤمِنِ المُهَيْمِن ؛ قَالَ : إِنَّهُ فتَى السَّرُوجِىّ ، وَمُخْرِجِ الدُّرِّ مِنَ اللُّجِّىّ . فقلت : إِنَّكَ لشَجَرَةُ ثَمَرتِهِ ، وشُوَاظَ شَرَرِتِهِ . فصدَّق كِهَانتى ، وَاسْتَحْسَنَ إِبانَتِى . ثمَّ قال : هَلْ لَكَ فى ابْتدَارِ الْبَيْتِ ؛ لنَتنازَعَ كَأْسَ الكُمَيْت ؟ فقلت له : وَيْحَكَ ! ﴿ أَتأْمُرُونَ النَّاسَ بالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ . فافتَرَّ افترارَ مُتَضَاحِك ، وَمَرَّ غير مماحِك . ثُمَّ بَدَا لَهُ أَنْ تراجَعَ إِلَىَّ ، وقال : احْفَظْهَا عَنِّى وَعَلَىّ :

اصْرِفْ بِصِرْفِ الرَّاحِ عَنْكَ الأَسَى ... وروِّحِ القلْبَ ولا تَكْتَئِبْ

وَقُلْ لِمَنْ لامَك فيما بِهِ ... تَدْفَعُ عَنْك الهمَّ : قَدْكَ اتَّئِبْ

قوله : ارتحت ، أى اشتهيت وطربت . أعجُمه : أخبُره . مترجَمه : ملتبسه يشتد : يجرى . سمته : طريقه . يفتق رتق : يشقّ غلق . صمته : مبهم أمره والفتْق : الخرْق ، والرَّتْق : الإغلاق ، وهو ضـــدّه ، وذلك أن يضمّ المتخرّق بعضَه إلى بعض : التّناجِى : التّحادث . لفت جيده : عطف عنقه . البشاشة : الخِفّة وإبداء السرور . أراقك؟ : أأعجبك؟ ذكاء : حِذْق ، والذّكاء : توقّد الذهن . الشُّوَيدِن : تصغير شادن ، وأراد ابنَه . والمؤمن المهيمن ، هو الله تعالى ، والإيمان : التصديق . وقال أبو بكر بن العربى : البارئ تعالى مؤمن بتصديقه لنفسه بقوله ، وذلك حقيقتُه ، قال الله تعالى : ﴿شَهِدَ اللهُ أنه لا إله إلاّ هُوَ﴾ ، أو بتصديقه لرسله بإظهارِ المعجزة ، أولأوليائه بإظهار الكرامة ، وهما مجازان . والمهيمن : الرقيب الحافظ .

الكسائىّ : المهيمن : الشهيد . أبو عبيدة : الرقيب ، وقد هَيْمَنَ هيمنة . ابن الأنبارى : القائم على خلقه ، قال الشاعر :

ألا إنّ خير الناس بعـد نبيّهمْ مُهيمنُه التّالِيهِ فى العُرْف والنُّكْرِ

أى القائم على الناس بعده ، وأصله « مؤيمن » فأبدلوا من الهمزة هاء كما قالوا : أرَقْت وهَرَقْت . وفى مثل مدح هذا الغلام بالذكاء قال الفضل بن جعفر :

فإن خَلَّفَتْهُ السنّ فالعقل بالغٌ به رتبـةَ الكهْلِ المرشّحِ للمجْدِ
فقد كان يحيى أوتىَ الحكم قبلَه صبيًّا وعيسى كلم النّاس فى المهدِ

وقال البحترىّ :

لا تنظرنَّ إلى العبّاس من صِغَرٍ
فى السنّ وانظر إلى المجد الّذى شادَا[1]
إنّ النّجوم نجومُ الجوِّ أحقرُها فى العين أكثرُها فى الجوِّ إصعادَا

(١) ديوانه ٦١٠ . وفيه : « لا تنظرن الى الفيـــاض » ، والأصح ما فى الديوان ، والقصيدة فى مدح على بن محمد بن الفياض .

[ذكر نوادر الولدان]

ولمَّا ذكر لهذا الصبيّ من فصاحة اللسان وبراعة البيان ما ذكر ، وجب علينا أن نذكر من نوادر الولدان فصلاً كافياً يؤنس بما ذكر ، لئلا نخلّ بما شرطناه ، فقد تروى للولدان نوادر ، ربما عجزت عنها الكهول ذوو البصائر .

حكى الخطّابيّ أنه قدِم على عمر بن عبد العزيز وفدٌ فيهم شاب ، فتحوّس للكلام ، فقال عمر : كبِّروا أكبِّروا ، أى ليتكلّم الكبراء منكم ، فقال : الغلام يا أميرَ المؤمنين ، لو كان [الأمر] بالسنِّ لكان فى المسلمين من هو أسنُّ منك .

قال عمر : صدقت ! تكلّم .

فتحوّس : فتهيَّأ للكلام .

وفى رواية : قدم وفد الحجاز على عمر فقدَّموا غلاماً منهم للكلام ، فقال عمر : مهلاً ، ليتكلّم مَنْ هو أسنُّ منك ، فقال الغلام : مهلاً يا أمير المؤمنين ، إنّما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، فإذا منح الله العبد لساناً لافظاً وقلباً حافظاً فقد أجاد له الحِلية . قال : تكلّم ، قال : نحن وفود الشكر ، لا وفود المرزِئة[1] ، لم نُقْدِمْنا إليك رغبة ولا رهبة ، لأنّا أمِنّا فى زمانك ماخفنا ، وأدركنا ما طلبنا .

ودخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون حين قُبِضت ضياعهم وهو غلام صغير ، فقال : السَّلام عليك يا أميرَ المؤمنين ، محمد بن عبد الملك ، سليلُ نعمتك وابن دولتك ، وغصنٌ من أغصان دوحتك ؛ أفتأذن لى فى الكلام ؟ قال : نعم . فحمِد الله تعالى وصلّى على نبيه ، ثم قال : أمتعنا الله بحياطة ديننا ودنيانا ،

(١) رزاه : أصاب منه خيرا .

رفع المسهم

ورعاية أقصانا وأدنانا ، ببقائك يا أميرَ المؤمنين ، ونسأله أن يزيد فى عمرك من أعمارنا ، وفى أثرك من آثارنا ، ويقيَك الأذى بأسماعنا وأبصارنا ، هذا مقام العائذ بظلِّك، الهارب إلى كنَفك وفضلك ، الفقير إلى رحمتك وعدلك . ثم سأل حوائجه فقضاها .

وقَحطَتِ البادية أيام هشام بن عبد الملك ؛ فوفد علَيه رءوس القبائل فجلس لهم ، وفيهم صبىٌّ ، ابن أربع عشرة سنة ، يسمَّى درواس بن حبيب ، فى رأسه ذؤابة ، وعليه بُرْدة يمانية . فاستصغره هشام وقال لحاجبه : مايشاء أحدٌ أن يصل إلينا إلا وصل ، حتى الصبيان ! فقال درواس : يا أميرَ المؤمنين ، إنّ دخولى لم يُخلَّ بك ولا انتقصك ، ولـكنَّه شرَّفنى ، وإن هؤلاء قدِمُوا لأمرٍ فهابوك دونه ، وإن الـكلام نشر ، والسكوت طىّ لا يُعرَف إلا بنشره ؛ فأعجبه كلامه ، وقال : انشرْ لا أمّ لك ! فقال : إنا أصابتْنا سنون ثلاثة ، فسنة أكلت اللحم ، وسنة أذابت الشحم ، وسنة أنْقَت[1] العظم ، وفى أيديكم فضول أموالٍ ، فإن كانت لله عز وجل ففرِّقوها على عباده ، وإن كانتْ لهم فلا تحتبسوها عنهم ، وإن كانتْ لـكم فتصدّقوا بها عليهم ؛ فإن الله يجزى المتصدّقين ، ولا يضيع أجر المحسنين ؛ وإنّ الوالىَ من الرعيّة كالروح من الجسد ، لا حياة له إلا به .

فقال هشام : ما ترك الغلام فى واحدة من الثلاث عذراً ، وأمر بمائة ألف دينار ففُرِّقَتْ فى أهل البادية ، وأمر له بمائة ألف درهم : فقال : ارْدُدْها فى جائزة العرب ، فما لى حاجة فى خاصّة نفسى دون عامّة المسلمين .

أحمد بن يحيى : حدّثنى السدرىّ أن نُميراً غزت حَنِيفة فغنمتْ ، وتبعتْهم حنيفة فهزموهم ، وردُّوا غنائمَهم ، فلقيتُ غلاماً منهم ، فقلت : كيف صنع قومك؟ فقال: تبعوهم والله، وقد أحقبوا كل جُمالِيّة خَيْفَانة ، فما زالوا يخصفون

(١) أنقت العظم : أخرجت النقى منه . والنقى : مخ العظم .

رفع المسهم

أخفاف المطىّ بحوافر الخيل حتى لحقوهم بعد ثالثة . فجعلوا المرّان أرشيةَ الموت ، فاستقَوْا بها أرواحَهم.

وهـذا كلام فصيح كثير الاستعارة . أحقبوا : أُردِفوا بموضع الحقيبة ، والجُمَالية المرأة الجميلة : وخصف : خرز ، وتشبيه المرّان — وهى الأرماح — بالأرشية وهى الحبال حَسَن.

وجلس خالد القسرىّ يوماً للشعراء على الفرات ، فأنشدوه وأخـذوا الجوائز وانصرفوا ، ولم يبق إلاَّ غلام ، فقـال خالد : يا غلام ، أشاعر أنت ؟ قال : لا ولـكنى مُتَعلّم ، وقد قلتُ شيئاً ، قال : هات ، فأنشأ يقول :

ألا هَلْ تَرى مَوْجَ الفُرَاتِ كأَنَّه ... جِبـال سُرورٍ قد أتينَكَ عوّما
وما ذاك من عاداته غـيْرَ أنه ... رأى شيمةً من جارِه فتعلَّمـا

وكان بقَى على البساطَ فَضْلة مال ، فقال له خالد : اطوِ البساط بما عليـه ، فأخذه الغلام بما عليه .

ورأى بعضُ الملوك غلاماً يسوق حماراً ، وهو يعنُف عليه ، فقال : ارفُق يا غلام ، فقال : أيها الملك ، فى الرفق مضرّة عليه ، قال : وما مضرّتُه ؟ قال : يطول طريقه ، ويشتدّ جوعه ، وفى العنف عليه إحسانٌ إليـــه ، يخفّ حمله ، ويطول أكله . فأعجِب به ، وقال : قد أمرت لك بألف درهم ، قال : رزقٌ مقدور ، وواهب مأجور . قال : وقد أمرت بإثبات اسمك فى حَشَمِى ، قال : كُفِيتُ مئونة ، ورزقت بهامعونة ، قال : لولا صغرك لاستوزرتُك ، قال : لم يعدم الفضل من رزِق العقل ، قال : أفتصلح لذلك ؟ قال : إنما يكون الحمد أو الذمّ بعد التجربة ، ولا يعرف الإنسان نفسَه حتى يبلُوَها ، فاستوزره فوجده ذا رأى صائبٍ .

رفع المسهم

دخل الفرزدق — وهو غلام يافع — على سعيد بن العاص ، وقد أنشد أشعاراً والحطيئة حاضر فأنشده :

ترى الغرّ الجحاجِح من قُرَيشٍ إذا ما الأمرُ فى الحَدَثان عالاَ[1]
قياماً ينظرون إلى سعيدٍ كأنهمُ يَرَوْن به الهِلالا

فقال الحطيئة : هذا والله الشعر ، لا ما تعلّل به نفسك هذا اليوم ، يا غلام أدركتَ مَنْ قبلَك ، وسبقت مَنْ بعدَك ، وإن طال عمرك لتبرِّزنّ ، ثم قال له : هل أنجدَتْ أُمُّكَ يا غلام ، قال : لا بل أنجد أبى ، فوجده لقِناً حاضر الجواب فأعجبَه .

وكان للفرزدق نديم يسمى زياداً الأقطع ، فأتى بابه ، فخرجتْ له بُنيَّة له صغيرة اسمها مكية ، فقال لها : ابنة مَنْ أنتِ ؟ قالت : ابنة الفرزدق ، قال : فما بالك حبشيَّةً ؟ قالت : فما بال يدك مقطوعة؟ قال : قُطعت فى حرب الحَرورية ، قالت : بل قطِعت فى اللصوصية ، فقال : عليك وعلى أبيك لعنة الله ، ثم أخبر الفرزدق بالخبر ، فقال : أشهد أنها ابنتى حقاً ، ثم قال :

سامٍ إذا ما كنت تَحْمِيَهْ[2] بدارِميٍّ أُمُّــه ضَبِّيَّهْ[3]
* صَمَحْمَحٍ مثل أبى مكّيَهْ[4] *

وقرعَ بابَ عدىّ بن الرقاع جماعة من الشعراء ، فخرجتْ إليهم بُنيَّة له صغيرة فقالت : ما تريدون من أبى ؟ فقالوا : جئنا لنُهاجيَه ، فقالت :

تَجمّعتُمْ من كلّ أوْبٍ ووجهةٍ على واحدٍ لازلْتُمُ قِرْنَ واحدِ[5]

(١) ديوانه ٦١٨ . عال : اثقل ، وفى الديوان : « آلا »
(٢) ديوانه ٨٨٥ ، وفيه : « شاهد » ، بدل : « سام » .
(٣) « صفية » وما أثبته من الديوان .
(٤) الصمحمح : الشديد الخلق والألواح .
(٥) الخبر والشعر فى الأغانى ٩ : ٣١٠ .

رفع المسهم

فأخمتهم ، ورجعوا بأخزى حالة .

وقال معاوية لعمرو بن سعيد وهو صغير : إلى مَنْ أوصى بك أبوك ؟ فقال : إنّ أبى أوصى إلىّ ولم يوصِ بى . أخذه بعضهم فقال :

وكنتُ النجيب لدى ناجِلِي فأوصى إلىّ ولم يوصِ بِى

قال يحيى بن يزيد : استنشدتُ غلاماً ، فأنشدنى أرجوزة ، فقلت : لمن هذه ؟ فقال : لى . فزجرته فأنشأ يقول :

إنى وإنْ كنتُ صغير السِّنِّ وكان فى العين نُبُوٌّ عنِّى

فإنّ شيطانِي أميرُ الجنِّ يذهب بى فى القول كلّ فنّ

الأصمعىّ رحمه الله : قال وقف علىّ غلام بحمَى ضريّة ، ما ظننتُه يجمع بين كلمتين ، فقلت له : ما اسمك ؟ قال : حُرَيقيص ، فقلت له : ما كفى أهلَك أن سَمَّوْك حرقوصاً حتى صغروا اسمك ! فقال : إن السِّقْط ليحرِق الحرَجة ، فعجبت من جوابه ، فقلت : أتنشد شيئاً من أشعار قومك ؟ قال : نعم أنشد لمرَّارنا :

سكَنُوا شُبَيْثاً والأحَصَّ فأصبحتْ نزلتْ منازلَهم بنو ذُبْيَانِ

وإذا يقال أُتيتُمُ لم يَبْرَحُوا حتى تقيم الخيل سوق طِعَانِ

وإذا فلان مات عن أكرومةٍ رفعوا معاوزَ قفرِه لفلانِ

قال : فكادت الأرض تسوخ لحسن إنشاده وجودة الشعر ، فحدّثت الرشيد الحديث فقال : وددتُ يا أصمعىّ لو رأيتُ هذا الغلام ، فكنت أُبلِغُه أعلى المراتب[1] . فهذا الغلام سُمِّىَ بحقير مصغّر ، وهو فى معناه جليل معظّم .

ويُنظر إلى هذا من باب الضدّ ما حدّث أبو العباس عن الرياشىّ عن الأصمعىّ ، قال : مرّ بنا أعرابىّ ، وهو ينشد ابناً له ، فقلت له : صِفْه ، فقال : ديمرى ، فقلنا : لم نره ، فلم نلبث أن جاء بجُعَلٍ على عنقه ، فقلنا له : لو سألتَ عن هذا لأرشدناك ، ما زال هذا اليوم بين أيدينا .

---

(١) الخبر فى أمالى القالى ١ : ٦٦ .

رفع المسهم

الأصمعىّ : قيل لأبى المِخَشّ : أما كان لك ابن ؟ فقال : المِخشّ ، قيل : وما كان المِخَشّ ؟ قال : أشدقَ خُرْطمانيًا ، إذا تكلّم سال لعابُه، كأنما ينظر من فلسين ، وكأنّ ترقوته بُوان أو خالفة[1] ، وكأن مشاش منكبيه كِركرة جمل ؛ فقأ الله عينىّ هاتين إن كنت رأيتُ أحسنَ منه قبله أو بعده ، وأنشد :

نعم ضجيع الفتى إذا بَرَدَ اللـــيل سُحيراً وقَرْقَفَ الصّرِدُ
زيّنها الله فى الفــؤاد كما زُيِّنَ فى عين والدٍ ولدُ

وقال أبو المِخَشّ : كانت لى ابنة تجلس معى على المائدة فتُبرِز كفًّا كأنها طَلْعة ، فى ذراع كأنّها جمارة ، فلا تقع عينها على أكلة نفيسة إلّا خصّتنى بها ، فزوّجتُها ، وصار يجلس معى على المائدة ابن لى ، فيبرز كفًّا كأنّها الكرنافة ، فى ذراع كأنها سُباطة ، فلا تقـــع عينى على أكلة نفيسة إلا سبقتْ يدُه إليها قبلى .

ـ المخشّ : الذى ينخشّ فى القوم ، يدخل معهم وهم يأكلون ، وأراد بمثل الفَلْسَيْن عَوَر عينيه . وقيل حُفرتهما . خُرْطمانيًا :طويل الأنف ،وسيلان اللعاب يدلّ على قوة النفس . البُوَان: عمود فى مقدّم البيت ، والكرنافة: طرف الكَرَب العريض المتّصل بالنخلة كأنها كتف ـ

اليزيدىّ : أوّلُ ما ظَهَر من نجابة المأمون وسَداده أنى كنت أؤدّبه فوجّهت إليه يوماً ليخرج ، فأبطأ ، فقلت لسعيد الجوهرىّ وهو فى حُجْرة: إن هذا الفتى قد اشتغل بالبَطالة ، فقال سعيد : قوّمه بالأدب ، فلما خرج ضربتُه ثلاث دِرَرٍ ، فإنه لَيبكِى إذا بجعفر بن يحيى قد استأذَنَ عليه ، فوثب إلى فراشه مسرعاً ، وهو يمسح عينيه ، فجلس ثم قال : ليدخلْ ، فدخل ، فقمت من المجلس وخشيتُ أن يشكونى إلى جعفر ، فألقى منه ما أكره ، فأقبل عليه بوجهٍ طَلْق وحادثَهُ وضاحَكه ، فلما همّ بالحركة قال : ياغلام ، دابّته ، ورجعت. فقال : ما حَمَلَك أن

(١) الخالفة : عمود من اعمدة البيت .

قمت عنا ! فقلت : خفت أن تشكوَنى إليه فيوبّخنى ، فقال : إنا لله يا أبا محمد ! ما كنت أطلع الرشيد على هذا، فكيف أطلع جعفراً على أنى أحتاج إلى أدب ! يغفر الله لك . فكنت أهابه بعد ذلك .

وشُكِى إلى معلم عبد الرحمن بن حسان بصبيان ، فضربهم حتى انتهى إلى عبد الرحمن ، فهدّده فقال :

اللهُ يعـــلم أنّى كنتُ معتزلاً في دار حسّان أصطاد اليعاسيبا

فتركه . وبلغ حسان ، فضمّه إليـــــه وقال : أنت والله ابنى حقًّا فِداك أبى وأمى !

ودخل عليه يوماً يبكى من لسْعة زنبور ، فقال له : ما يبكيك ؟ فقال : لسعنى طائر كأنه ملتفٌّ فى بُرْدَىْ حَبَرة ، فقال : قلتَ والله يا بُنَىّ الشعر .

وجاءت سكينة بنت الحسين أُمَّها الرباب وهى تبكى ، فقالت : ما لك ؟ فقالت: مَرَبَتْ بى طُويرة فلسعتْنى بأبيرة.

ويروى : مرّت بى دُبَيرة ، تصغير دَبْرَة وهى النحلة .

* * *

قوله : اللجىّ : البحر .شُواظ : لهب النار . والكِهانة : بالكسر: حرفة الكاهن ، وبالفَتْح فعل الكاهن ، وهو المصدر ، والكاهن : المخبِر بالغيب .

وافترّ : تبسّم . متضاحك : مستعمل الضحك . مُمَاحك : لجوج ، أى مشى غير غاضب .

احفظها عنى ، أى حَصّلها وعِيَها . وعلىّ ، أى اكتمها واسترها ، وقامت الواو مقام تكرير الفعل . اصرف : أزل ونَحِّ . صِرْف الراح : خالص الخمر . الأسى : الحزن . تكتئب : تهتم وتحزن . قَدْك: حسبك .اتّئب : ارتجع وكفّ .

وقيل: معناه اسْتَحْيِ، يقال منه: وأبَ واتّأب، أى خزِىَ واستحيا والأبة والمؤبة: الخزْى والحياء والانقباض، وأوْأبه واستآبه: ردّه بخزى وعار، والتاء فيها مبدلة من واو، فأصل اتّأب اوْتأب فأبدلت الواو تاء وأدغمت فى التاء بعدها، وهى من وَأب الحافر يَئِب وَأْباً إذا انضم. وحافرٌ وَأْب، أى خفيف، والتؤبة مأخوذة من أتأب: وقال حبيب:

قَدْكَ اتّئِبْ أريت فى الغُلَوا كم تعــذلون وأنتُمُ شجوى

فهذا يبيّن لك موقعها فى المقامة.

وعلى قوله تعالى: ﴿أتأمُرُونَ النّاس بالبرِّ وتَنْسَوْنَ أنفُسَكُمْ﴾[1]، قال: أنس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مررت برجالٍ ليلة أُسْرِىَ بى، تُقْرَض شفاههم وألسنتُهم بمقاريضَ من نار، فقلت: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الخطباء من أمّتك الذين يأمرون الناس بالبرِّ وينسوْن أنفسهم».

أبو أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ الذين يأمرون الناس بالبرِّ وينسَوْن أنفسهم يُجرُون قصَبَهُم فى نار جهنم، فيقال لهم: مَنْ أنتم؟ فيقولون: نحن الّذين كنا نأمر بالبر وننسى أنفسنا».

قال أبو العتاهية فى منصور بن عمار وكأنّه يخاطب واعظ المقامة:

ياواعظَ النّاس قد أصبحتَ متّهماً إذ عبْت منهم أموراً كُنْتَ تأتِيها
كالملبِس الثوبَ من عُرْيٍ وعورتُه للنّــــاس باديةٌ ما إن يُوارِيها
وأعظمُ الأمر بعد الشّرك تعلمُه فى كلِّ نفسٍ عماها عن مساويها
عِرْفانُها بعيوبِ الناس تبصرُها منهم ولا تبصر العَيْبَ الّذِى فِيها

(1) سورة البقرة ٤٤.

رفع المسهم

ومن لزوميات المعرى :

رُوَيْدَك قد خُدِعْتَ وأنت كهلٌ بصاحب حيلةٍ يعظ النِّساء[1]
يحرّم فيكمُ الصهباء صُبْحًا ويشربها على عمدٍ مساء[2]
يقول لكم : غدوتُ بلا كِسَاء وفى لذّاتها رَهَنَ الكِسَاء
إذا فعل الفتى ما عنه يَنْهَى فمن جهتين لا جهةٍ أساء

[من الخمريات]

ونذكر هنا من الأبيات الخمريات ما يأتى على معنى البيتين اللذين أنشد ،

قال الحسن :

ما مثل هذا اليوم فى حسنِهِ عطّل من لهوٍ ولا ضَيّعا[3]
هل لك أن تغدُو على قهوةٍ تُسرِع فى المرء إذا أسرَعَا
ما وجَدَ النّاس ولا جرّبوا للهمّ شيئاً مثلها مُدْفِعَا

وله أيضاً :

حَلَبْتُ لأصحابى بها دِرَّةَ الصِّبا بصفراء من ماء الكروم شَمُولِ[4]
إذ ما أتَتْ دونَ اللّهاة من الفَتَى دعا هَمُّه من صدره برحيلِ

وله :

دع ذا فديتُك واشربْها معتّقةً صفراء تعبق بين الماء والزَّبَدِ[5]

---

(١) اللزوميات ٥١

(٢) بعده فى اللزوميات :

تَحَسَّاهَا فِمِنْ مَزْجٍ وصِرْفٍ يَعُلُّ كأنّمَا وَرَدَ الحِسَاء

(٣) ديوانه ٣٠٣ ، وفيه : « لم ار مثل اليوم فى حسنه » .

(٤) ديوانه ٣١٠ وفيه : « بصهباء » .

(٥) ديوانه ٢٢٧ ، وفيه :

* صفراء تفرق بين الروح والجسد *

من كفٍّ مختصر الزِّنّار معتدلِ كغصنِ بانٍ تثنّى غيرَ ذى أوَدِ[1]
لو كان لومُك نصحاً كنت أقبَلُه لكنّ لومَك محمولٌ على الحسَدِ

وقال الصابى :

كَوْكَبُ الإصباح لاحَا طالعاً والدِّيك صَاحَا[2]
فاسْقِنيها قهـــوةً تأ سُو مِنَ الهمّ جِراحَا
ذاتَ نشرٍ كنسيم الرَّوْض غِبَّ القَطْر فاحَا
يا غـلامى ما أرى فيـــك ولا فيهـا جُنَاحَا

وله من أبيات يصف فيها مجلس شراب :

كأنّ الكُئوس بأيدى السُّقاةِ سيوفٌ لها بالدِّماء احمرارُ[3]
كأن تَسْكَابَها فى الزُّجاج حريق لها من حُبَابٍ شرارُ
فلمّا برزن إلى الهمّ فيـــه ولِى بالسُّرور عليه اقتدارُ
جرى الضربُ مختلفاً بيننَا فمـات وعِشْتُ وقد نِيَل ثارُ

وقال أبو بكر البلوى :

ومـدامٍ كست الكأ س من النّور وِشَاحَا
ظَهَرَتْ فى جُنْحِ ليلٍ فكأنّ الفجر لاحَا
لم يكن وقتَ صباحٍ فحسِبْنَاهُ صَبَاحَا

وقال أبو بكر الخالدىّ :

ما عُذْرُنا فى تركِنَا الأعنَابا سقط النَّدى وصفَا الهواءُ وَطابَا[4]
فأدِمْ لذاذة عيشِنَا بمُـدَامَةٍ زادتْ عَلَى هَرَمِ الزَّمَانِ شَبَابَا

(١) فى الديوان
من كفّ مضطمر الزِّنَادِ معتدلِ كأن غصن بانٍ غـير ذى أودِ
(٢) اليتيمة ٢ : ٢٣٦
(٣) اليتيمة ٢ : ٢٣٧
(٤) ديوانه ١١٦

سَفَرتْ وغاب حَبابُها من لَحْظِها فعَــلاَ محاسِنَها فصارَ نِقَابَا

ولابن المعتزّ :

ونارٍ قدحْناها سِراعاً بسُحْرَةٍ متى ما يُرَقْ ماءٌ عليهـا توقَّدْ
يحولُ حَباب المـاء فى جَنَباتِهـا كما جال دمعٌ فوق خدٍّ مُوَرَّدْ

* * *

ثم قال : أما أنا فسأنطلق ، إلى حيث أصطبح وأغْتَبِقُ ؛ وإذا كنتَ لا تَصْحَب ، وَلاَ تُلاَئِمُ مَنْ يَطْرَب ؛ فَلَسْتَ لِي برفيق ، وَلاَ طَرِيقكَ لِي بِطَرِيق ؛ نَخَـلِّ سَبيلِي وَنَـكِّب ، ولا تنقِّرْ عَنِّى ولا تنقِّب ؛ ثم وَلَّى مُدْبِزاً ولَمْ يُعَقِّبْ .

قال الحارث همام: فالْتَهَبْتُ وَجْداً عند انطلاقِهِ ، وَوَدِدْتُ لَوْ لَمْ أُلاَقِهِ .

* * *

قوله : أصطبح ، أشرب صَبُوحاً وهو شُرْب الغُـدُوّ . وأغتبق : أشرب غَبوقاً، وهو شُرْب العَشِيّ . تلائم: توافِق. نـكِّب: تنحَّ عن طريقى واجعله لجهة منكِبك. تنقّر وتنقّب: تبحث وتفتش ،وقد نقَّرتُ عن الأمر إذا طلبتَ علم باطنه ونقَّبت عنه ، إذا بحثت عليـه بظنّك حتى تستخرج سرَّه ، وفلان نقّاب ، أى فطِن ذَكِيٌّ يحدِّث بالغائب، والتَّنقيب فى البلاد: تطلُّع أحوالِ أهلها وتجريب أمورهم . وَلّى: أدبر، وترك طريقه الذى كان يستقبله . يُعَقِّب : ينظر . والوجْد: الحزن . والتهبتْ . اشتعلت . ودِدْتُ : تمنّيت .

ومما قيل فى ترك الوداع :

صدَّنى عن حـلاوة التَّشييعِ اجتنـابى مَرارَةَ التَّوديعِ
لا يفى أُنسُ ذَا بوحشة هذا فرأيت الصَّوابَ تركَ الجميعِ

رفع المسهم

المقامة الثانية والأربعون وهى النجرانية

حكى الحارث بن همام قال : تَرَامَتْ بى مَرَامِى النَّوَى ، وَمَسَارِى الْهَوَى ؛ إلى أَنْ صِرْتُ ابْنَ كلِّ تُرْبة ، وأخا كلِّ غُرْبة ؛ إلا أنِّى لم أكن أقطع وادياً ، ولا أَشْهَدُ نادِياً ؛ إلاَّ لاقتباسِ الأدب المُسْلِى عن الأشجان ، المُغلِى قيمةَ الإنسان ؛ حتى عُرِفَتْ لى هـذه الشِّنشنة ، وتناقلتْهَا عَنِّى الألسنة ، وصارَتْ أَعْلَقَ بِى مِنَ الهَوَى ببنِي عُذْرَة ، والشجاعةِ بآل صُفْرَة .

* * *

ترامت بى : رمتْنِي هذه إلى هذه وهذه إلى هذه . والمرامى : المواضع التى ترميه . والمسارى : مواضع السُّرَى ، وهو سير اللَّيْل ، وهو جمع مَرْمَى ومَسْرَى ، ويكون المَرْمَى والمسْرَى مصدرين . والنَّوى : الغربة والبُعْد عن الأهل ، أراد أنّ البلاد والجهات ترميه بلدة إلى بلدة ، وجهة إلى جهة ، فهو أبداً فى الجوَلان . وابن كلّ تربة ، أى ينسَب لكل بلدة لكثرة ما يظهر فيها . نادياً : مجلساً . الاقتباس : الاكتساب . المُسْلِى : المذهب للهمّ ، وتسلّيت عن الهمّ : نسيته . والأشجان : الأحزان ، وقد تقدم شرح هذه المعانى وتكرّر . الشِّنْشِنَة : الطبيعية . أعلق : ألصق .

[ذكر بنى عذرة ونوادرهم وأشعارهم]

وبنو عُذْرة : قبيلة معروفة من قبائل العرب ، وهم أولاد عُذْرة بن سعد بن هُذَيْم بن زيد بن ليث بن سُويد بن أسلم بن الحافِ بن قضاعة .

الفنجديهىّ : عُذْرة قبيلة من العرب ، يستلذّون مرارةَ العشْق مثل الضربِ ،

رفع المسهم

جُبِلت المحبّة فى طينتهم ، وجُنِيَتِ المودّة من لينتهم، وصار الهوى وصفَهم الذى لا ينفك ، ورهائن قلوبهم من حرارات الشوق لا تُفَكّ ، استأرهم العشق أسراً، واستأصلهم الحب قهراً وقسراً؛ فمنهم من يموت مِنْ أُوام غرامه، ومنهم مَنْ يموت بهُيَام سَقامه .

ومن مشاهيرهم جَميل بن عبد الله بن مَعْمَر العُـذْرىّ صاحب بثينة بنت عبد الله العُذْرِيّة ، وعروة بن حزام صاحب عفراء بنت مالك العذريّين .

وقال : سعيد بن عتبة الهَمْدانىّ : قلت لأعرابىٍّ : ممن أنت؟ قال : من قومٍ إذا عشقوا ماتوا ، قلت : عُذْرِىّ ؟ قال : عُـذْرىّ وربّ الكعبة ، قلت: وممّ ذاك ؟ قال : لأنَّ فى نسائنا صَباحة ، وفى فِتْيَاننا عفّة .

وسئل أعرابىّ منهم فقيل له : ما حدّ الحب عندكم؟ فقال : أعينٌ تتلاحظ وألسن تتلافظ ، وعِـدَات تتقضّى ، وإشارات تدل على السخط والرّضا . قيل له : فالمباضعة ؟ قال : ذلك طلب الولد ، الحبّ إذا نُـكِح فسد .

سفيان بن زياد : قلت لامرأة من عُذْرة ـ ورأيت بها هوًى غالباً حتى خفت عليها الموت : ما بال العِشْق يقتلكم معاشرَ عَذرة من بين أحياء العرب؟ قالت : فينا جمال وتعفُّف ، فالجمال يحملنا على العفاف به ، والعفاف يورثنا رقّة القلب ، والعشق يفنى آجالنا ، وإنا نرى محاجِرَ لا تروْنَها .

أبو عمر بن العلاء: حدّثنى رجل من تميم، قال : خرجت فى طلب ضالّة لى ، فبينما أنا أدور فى أرض بنى عُذْرة أنشدُها، إذَا ببيت منعزل عن البيوت، وفى كِسْرِه شابٌّ مغمًى عليه، وعند رأسه عجوز بها بقيّة جمال، ساهمة تنظر إليه، فسلّمت عليها ، فردّت السلام ، فسألتُها عن ضالّتى فلم تعلم بها ، فقلت: مَنْ هذا الفتى ؟ فقالت : ابنى، فهل لك فى أجرٍ لا مؤنة فيه ؟ فقلت: والله إنى أحِبُّ الأجر وإن رُزِئت ، فقالت : إن ابنى هذَا يَهْوَى ابنة عمٍّ له، علقها وهما صغيران، فلما

كَبِرت خطَبها غيرُه ، فأخذه شبيه الجنون ، فخطبها إلى أبيها ، فمنعه وزوَّجها غيرَه ، فنحل جسمُه واصفرَّ لونه ، وذهب عقله ، فلما كان منذ خمس زُفَّتْ إلى زوجها ، فهو كما ترى مغمًى عليه ، لا يأكل ولا يشرب ، فلو نزلتَ إليه فوعظْته ! قال : فنزلت إليه فلم أدَعْ موعظة إلا وعظتُه بها ، حتى قلت له : إنهنَّ الغوانى صاحبات يوسف ، الناقضات العهد ، وقد قال فيهن كثيّر :

هل وصْلُ عَزَّةَ إلا وصلُ غانيةٍ ... فى وصل غانية مِنْ وَصْلِهَا خَلَفُ[1]

قال : فرفع رأسه محمرَّة عيناه كالمغضَب ، وهو يقول : لست ككثيِّر ، إن كثيِّراً رجل مائق ، وأنا وامق ، ولكنى كأخى تميم حيث يقول :

ألا لا يضرّ الحبّ مَنْ كان صابراً ... ولكنّ ما اجتاب الفؤادَ يَضِيرُ

ألا قاتلَ الله الهوَى كيف قادنى ... كما قِيد مغلولُ اليدين أسيرُ

فقلت له : فإنه قد جاء عن نبينا صلّى الله عليه وسلم أنه قال : « من أصيب منكم بمصيبة فليذكر مصابه بى » ، فأنشأ يقول :

ألاما لِلْمَليحةِ لم تَعُدْنِي ... أبَخْلٌ بالمليحة أم صدودُ !

مرضتُ فعادَنِي أهلى جميعاً ... فمالك لم تُرَىْ فيمن يعود !

فقدتُك بينَهم فبكيت شوقاً ... وفقد الإلف يا أملِى شديدُ

وما استبطأت غيرك فاعلميه ... وحولى من ذوِى رحمى عَدِيدُ

ولو كنتِ المريض لكنتُ أسعَى ... إليكِ وما يهدِّدُنى الوعيدُ

ثم شَهق شهقة ، وخفت خفته ، فداخلنى أمرٌ ماداخلنى مثله قطّ ، والعجوز تبكى ، فلما رأتْ ما حلّ بى قالت : يافتى ، لاترُعْ ؛ مات والله ولدى بأجلِه ، واستراح من تَباريحه وغُصَصِه ، فهل لك فى استكمال الصَّنيعة ؟ قلت : قولى

(١) ملحق ديوانه ٥٠٥ .

رفع المسهم

ماأحببتِ ،قالت: تأتى البيوت فتنعاه إليهم، ليعاونونى على رَمْسِه،فإنى وحيدة ، فركبتُ فرسِى ، وأتيت البيوت ، رافعاً صوتى بنعيه ، فلم ألبث أن خَرجتْ لى جارية ، أجملُ مَارأيت من النساء ، ناشرةٌ شعرها ، حديثة عهد بعُرس ، تقول : بفِيك الحجر المصمَت! مَنْ تَنْعَى؟ قلت: أنعَى فلاناً ، قالت: أو قد مات !قلت: إى والله قد مات . قالت : فهـل سمعتَ له قولا ؟ قلت : اللهمَّ شعراً ، قالت : وما هو ؟ فأنشدتها أبياته ، فاستعبرت وأنشأت تقول :

عَدَابى أن أزورَك يا مُرادى ... معاشرُ كلُّهُمْ واشٍ حسودُ
أشاعوا ماعلمتَ من الدَّواهى ... وعابونا وما فيهمْ رشـيدُ
فأمَّا إذ ثويتَ اليومْ لَحداً ... وكلُّ الناس دورهمُ لحودُ
فلا طابت لىَ الدنيا فُوَاقاً[1] ... ولا لهمُ ولا أثْرَى العَدِيدُ

ثم شهقت شهقة ، فوقعت مغشيًّا عليهـا ، وخرجت النساء من البيوت فاضطربتْ ساعة ، وماتت .

فوالله ما برحتُ حتى دفنتُهما جميعاً[2] .

هشام بن عروة : أذن معاوية للنَّاس يوماً فكان فيمن دخل عليه فتًى من بنى عُذْرة ، فقام بين السِّماطين وأنشأ يقول :

أتيتكَ لمَّا ضاق فى الأرض مسلكى ... وأنكرتُ مِمَّا قد أُصِبتُ به عَقْلِى
ففرِّج كلاك الله عـنِّى فإننّى ... لقيت الذى لم يلقَهُ أحـدٌ قَبْلِى
وخذ لى هداك الله حَقِّى من الذى ... رمانى بسهمٍ كان أهونُهُ قتلِى
وكنت أرجّى عـدْلَهُ إذ أتيتُـه
فأكثر تَرْدادى مع الحبْس والكَبْلِ
فطلَّقتُها من جُهْدِ ما قد أصابنى ... فهل ذا أميرَ المؤمنين من العدْلِ!

(١) الفواق : الوقت بين الحلبتين .
(٢) الخبر والشعر فى كتاب ذم الهوى لابن الجوزى ٥٠٤ ـ ٥٠٦

رفع المسهم

فقال له معاوية : ادْنُ بارك الله عليك ، ما خطبك ؟ قال : أطال الله بقاء أمير المؤمنين ، إنى رجل من بنى عُذْرة ، تزوَّجتُ ابنة عمّ لى . وكانت لى صِرْمَةٌ[1] من الإبل وشُوَيهات ، فأنفقت ذلك عليها ، فلما أصابتْنى نائبات الزمان وحادثات الدهر رغب عنّى أبوها ـ وكانت جاريةً منها الحياء والكرَم ، فكرهتْ مخالفة أبيها ـ فأتيت عاملك عبد الرحمن بن أم الحكم فذكرتُ ذلك له . وبلَغه جمالُها ، فأعطى أباها عشرة آلاف درهم وتزوَّجها ، وأخذنى فحبسنى ، وضيَّق علىّ ، فلمَّا أصابنى مسُّ الحديد وألم العذاب طلَّقتُها ، وقد أتيتك يا أميرَ المؤمنين ، وأنت غياث المحروب ، ومعيد المسلوب ، فهل من فَرَج ؟ ثم بكى وهو يقول :

فى القلب منِّىَ نارُ ... والنَّار فيها شرارُ
وفى فؤادىَ جمرٌ ... والجمر فيه احمرارُ
والجسم منِّى نحيلٌ ... واللَّون فيه اصفرارُ
والعين تبكى بِشَجْوٍ ... فدمعها مِدْرَارُ
والحُبّ داء عسيرٌ ... فيه الطبيب يَحَارُ
حملتُ منه عظيماً ... فما عليه اصطبارُ
فليس ليلَى ليلاً ... ولا نهارِى نَهَارُ

فرَّق معاوية له ؛ وكتب إلى ابن أم الحكم كتاباً غليظاً وفى آخره :

ركبتَ أمراً عظيماً لست أعرفُه ... أستغفرُ الله من جَوْرِ امرئٍ زانِى
قد كنتَ تُشْبِه صوفيًّا له كتب ... من الفرائض أو آيات فرقانِ
حتى آتانى الفتى العذرىّ منتحِباً ... يشكو إلىّ بحقٍّ غيرِ بُهْتَانِ
أُعطِى الإله عهوداً لا أخيس بها ... أولا فبرِّئت من دينى وأيمانى

(١) الصرمة : الجماعة من الابل ما بين العشرين والثلاثين .

إن أنت راجعتَنى فيما كتبتُ به لأجعلنَّك لمعاً بين عِقْبَانِ
طلِّق سعاد وفارقْهـــا بمجتمَعٍ
وأشهِدْ على ذاك نَصْراً وابنَ ظَبْيَانِ
فما سمعتُ كما حُـدِّثتُ من عَجَبٍ ولا فعالُك حقًّا فعـل إنسانِ

فلما ورد الكتاب على ابن أم الحكم ، تنفّس الصُّعَداء ، وقال : وددت لو أن أمير المؤمنين خلّى بينى وبينها سنة ، ثم عرض علىّ السيف ، وجعل يؤامر نفسه فى طلاقها فلم يقدِرْ ، فلما أزعجه الوفد طلّقها ثم قال : يا سعاد اخْرُجى ، فخرجت شَكِلَةً غَنِجَةً ذات هيئة وجمال ، فلمّا رآها الوفد قالوا : ما تصلُح هذه إلا لأمير المؤمنين لا لأعرابىٍّ ، وكتب الجواب :

لا تحنثنّ أميرَ المؤمنين فقد أوفِى بعهدك فى رفق وإحسانِ
فما ركبتُ حراماً حين أعجبنى فكيف سُمِّيتُ باسم الخائن الزانِى!
فسوف تأتيكَ شمسٌ لا خفاء بها أبهى البرية من أنسٍ ومِنْ جَانِ
حوْراء يقصر عنها الوصف إذ وُصِفَتْ
أقول ذلك فى سرٍّ وإعـــلانِ

فلما وردتْ على معاوية ، قال : إن كانت أعطِيتْ حسن النغمة مع هذه الصفة ، فهى أكملُ البريةّ ، فاستنطقها ، فإذا هى أحسنُ الناس كلاماً ، وأكملهم شكلاً ودلاً ، فقال : يا أعرابىّ ، هل من سُلُوٍّ عنها بأفضل الرغبة ؟ قال : نعم ، إذا فرّقْت بين رأسِى وجَسدِى ، ثم أنشأ يقول :

لا تجعَلَنّى والأمثـال تُضْرَب بِى كالمستجير من الرَّمْضَاء بالنـار
اردد سعادَ على حَـيْرانَ مكتئبٍ يُمْسِى ويصبح فى همٍّ وتَذْكَارِ
قد شَفّه قلقٌ ما مثـــله قلقٌ وأسعرَ القلبُ منه أىَّ إسعارِ
والله والله لا أنسى محبَّتَهـــا حتى أغيَّب فى رَمْسٍ وأحجار

كيف السلوُّ وقد هام الفؤاد بها وأصبح القلب عنها غير صَبّارِ

فغضب معاوية غضباً شديداً ، ثم قال لها : اختارى مَنْ شئت ، أنا أو ابن أم الحكم أو الأعرابىّ ؛ فأنشأت تقول :

هـــذا وإن أصبَح فى أطْمَارِ أو كان فى بعضٍ من اليَسَار
أكبرُ عندى من أبى وجارِى وصاحبِ الدِّرهم والدينـــار
* أخشى إذا غَدَرْتُ حَرَّ النارِ *

فقال له معاوية : خذها لا بارك الله لك فيها ، فأخذها وأنشأ يقول :

خَلُّوا عن الطّريق للأعرابى ألم ترقّوا وَيْحَكُمُ لما بى !

فضحك معاوية وأمر له بعشرة آلاف درهم ، وأدخلت لبعض قصوره حتى انقضتْ عِدَّتُها من ابن أمّ الحكم ، ثم دفعها للأعرابىّ[1] .

وقال بعضهم : كنت سائراً فى بلاد عُـذْرة فولجتُ بعضَ أوديتهم وإذا شابٌّ حسنُ الوجه ، بيده زمام ناقة ، عليها هودجٌ مسجَّف[2] ، به جارية ، ومن وراء الناقة خمس قلائص[3] ، وقد رفع عقيرته ينشد ويقول :

ته كيف شئتَ وسِرْ على مهـلٍ كلُّ الجَمـــال عليك يا جَمَلُ
علىَّ أنَّك لا ترى كَلَلاً ما دام فوقك هـــذه الكِلَلُ

فسلّمتُ عليه ، فردَّ ، وسألته وسألنى وتناشدنا ، واتصل الأنس بيننا ، وسرنا غير قليل ، فرأى قانصاً فى أحبولته ظبيٌ ، فلما رآه يضطرب فى الأحبولة أجْهش بالبكاء ، وأنشأ يقول :

وذكّرنى مَنْ لا أبوحُ بحبِّـــه محاجرَ ظَبْيٍ فى حُبـــالةِ قانِصِ

---

(١) الخبر والشعر فى كتاب نهاية الأرب ٢ : ١٥٦ — ١٥٩

(٢) الهودج : مركب للنساء . ومسجف ، عليه سبحان وهو الستر .

(٣) القلوص من الابل : الشابة

فقلتُ وجَفْنُ العين يجرى بِعَبْرَةٍ ولحظى إلى عينيه لحظةُ شاخِصِ
ألا أيُّهذا القَانص الظبيَ خَـلِّه وخذ عِوَضاً منه جيادَ قلائِصِى
خفِ الله لا تحبسْه إنّ شبيهه حياتى قد أرعِدَتْ منه فرائِصِى

فقال القانص : الله إن فعلت ؟قال : الله ، فأرسل الظبى ، واستاق القلائص.

وحدّث رجلٌ من بنى عذرة قال : كان فينا فتًى ظريف غزِل ، كثيراً ما يتحدّث إلى النساء ، فهوِىَ جاريةً من الحىِّ ، فراسلها فأظهرتْ له جفوة ، فوقع مضنًى مُدنفاً وظهر أمره ، وتبيَّنَ دَنفُه ، ولم يزل النساء من أهلها وأهله يكلِّمْنَها فيه،حتى أجابت ، فسارت إليه عائدةً ومسلِّمة، فلما نظر إليها تحدّرت عيناه بالدموع ، وأنشأ يقول :

أريتُكِ إن مرَّت عليك جنازتى تروح بها أيدٍ طوالٌ وتسرعُ
أما تَتْبَعينَ النَّعش حتى تسلِّمى على رمس مَيْتٍ بالحفيرةُ يودَعُ!

فبكت رحمة ، وقالت : والله ما ظننت أنّ الأمر بلغ بك هذا ، فوالله لأساعدنَّكَ ولأداوِمنّ على وصالك ، فهملتْ عيناه بالدموع ، وأنشأ يقول :

دَنَتْ وظِلالُ الموت بينى وبينَها وَمنَّتْ بوصلٍ حيث لا ينفع الْوَصْلُ

ثم شهق شهقة فخرجت نفسه ، قال : فوقعت عليه تلثُمه ، ثم رجعت عنه مغشيًّا عليها ، فما مكثت بعده إلاّ أياماً حتى ماتَت[1].

قال حماد الراوية : انصرفت من جنازة لبعض السّكاسك ، فإذا بصبيٍّ من عُذْرة ظريف ، حَسَن الوجة ، صَغِير السِّنِّ ، موصوف بقول الشعر ، فوقفنا فسلَّمنا ، فقام إعظاماً لنا ، فقلت : أنشدنا شيئاً ، فكأنه استحيا ، فقلت له : لابدَّ ، فأنشدَنا :

هل من الحبِّ مجيرٌ من ملاحٍ يعتدُونَا

(١) ذم الهوى ٥٠٩ ــ ٥١٠.

رفع المسهم

قد شكَونا بخضوعٍ عَذْلَ قوم يعذِلُونَا
فى جوًى نلقاه مِمنَّ لا يبـــالِي ما لَقينَا
وبكَيْنا بدموعٍ أغرقت منّا الجفونا

قال حماد : فكدت أرقص طرباً وقلت : فداؤك عمُّك ! وجلسنا إليه تعجُّباً من رقته وجماله وفصاحته ، فأنشدنا :

ولقد أرسلتُ دمعِى شاهداً ثم صيَّرت إليها المشتكَى
فتولَّت ، ثم قالت شغلى كلُّ مَنْ شاء تبكى ! فبكَى

قال حماد : قلت له : فديتك ، تحبُّ هذه الجارية ؟ قال : يا عمّ ، والحبُّ عيب! إن كان عيباً تركته . ثم قال : ياعمّ إذا قرأت أو بلغنى أحاديثُ قومى مثلُ عروة وجميل ، أفلا أشتهى أن أكون واحداً منهم ! فانصرفنا عنه متعجبين .

[ذكر آل أبى صفرة]

قوله : والشجاعة بآل أبى صفرة، أبو صفرة هو ظالم بن سراقة بن كندىّ ابن عمرو بن عدى ، ويتّصل بعمْرو مزيقيا ، ثم بأزددبا ، وأزددبا ما بين عُمان والبحرين ، وكانوا أسلموا ثم ارتدُّوا فى خلافة أبى بكر ، فبعث إليهم أبو بكر عِكْرمة بن أبى جهل ، فقاتلَهم وسبىَ ذراريَّهم وبعث بهم إلى أبى بكر ، وأبو صُفْرة غلام ، فحبسهم أبو بكر ، فلما تُوُفىَ أطلقهم عمر ، فنزل أبو صُفْرة البصرة ، فشرُف بها .

وروى بعضُهم أنَّ أبا صُفْرة طلب من عمر أن يولِّيَه عملاً ، فسأله عن اسمه فقال : ظالم بن سرّاق ، فقال : تظلم أنت ويسرق أبوك ! ولم يولّه عملاً تطيُّراً باسمه .

والمهلَّبيّة تزعم أنَّ أبا صُفْرة قدم على النبىِّ صلى الله عليه وسلم، وعليه حُلّة

صفراء يسحبها خلفه ذراعين . وله طول ومنظر وفصاحة ، فأعجب النبيَّ صلى الله عليه وسلم مارأى من جماله وخُلُقه، فقال له : مَنْ أنت ؟ قال: أنا قاطع بن سارق ابن ظالم بن عمرو بن شهاب بن مرة بن الهلقام بن الجلندى بن المستكبر بن الجلندى، الذى كان يأخذ كل سفينة غَصْباً ، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : « أنت أبو صُفْرة ، ودع عنك ظالماً وسارقاً » ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسوله حقًّا ، إنّ لى لثمانية عشر ذكراً ، ورزقت بآخرهم بنتاً سميتُها صُفْرة .

وأما أولاد أبى صُفْرة ، فكانوا كُتَّاباً شجعاناً أبطالاً حماةً ، منهم أبو سعيد المهلَّب . وذكروا أنّ أبا صُفْرة وفَد على عمر رضى الله عنه ومعه عشرة من ولده ـ والمهلَّب أصغرهم ـ فتوسَّمهم عمر ، ثم قال: هذا سيِّد ولدك المهلَّب ، والمهلَّب هو صاحب حروب الأزارقة ، وولاَّه عبد الملك خراسان بعد الأزارقة سنة تسع وسبعين ، ومات سنة ثلاث وثمانين ، واستخلف يزيدَ ابنه عليها ، فأقرّه عبدُ الملك عليها سنتين أو ثلاثاً . وغزا يزيدُ جرجان فى خلافة سليمان بن عبدالملك سنة سبع وتسعين، فى ثلاثين ألف مقاتل، فقاتلهم أشهراً ، ثم صالحهم على أن يُعطوا خمسمائة ألف درهم كلَّ عام ، يؤدونها إليه ، ثم غزا سنة ثمان وتسعين طَبَرِستان ، فصالحهم على سبعمائة ألف درهم وأربعمائةِ وقْر زعفران وأربعمائة رجل مع كلِّ رجل بُرْنس وطيلسان وخاتم فضة ، وسَرَقة حرير وكسوة ، فقبل ذلك وانصرف عنهم . ثم غدر أهل جُرْجان بمن خلَّف عليهم من المسلمين فقتلوهم ؛ فلما فرغ من طَبَرِستان سار إليهم ، فقاتلهم شهراً ، ثم نزلوا على حكمه ، فقتَل مقاتِلتَهم ، وسبى ذراريَّهم وصلبهم فرسخين ، وقاد منهم اثنى عشر ألفاً إلى وادى جرجان ، فقتلهم وأجرى الماء فى الوادى على الدَّم ، وعليه أرحاء بدمائهم تطحن ، واختبز وأكل ، وكان قد حلف على ذلك .

الأصمعيّ : قبض[1] الحجاج على يزيد ، وأخذه بسوء العذاب ، فسأله أن يخفّف عنه العذاب على أن يعطيَه كلّ يوم مائة ألف درهم ، فكان دأبَه أنه إذا أدّاها تركه ، وإلاّ عذّبه إلى الليل ، فجمع يوماً مائة ألف درهم ، يشترى بها عذابه ، فدخل عليه الأخطل فأنشده :

أبا خالدٍ بادت خراسانُ بعدكمْ ... وقال ذَوُو الحاجات أين يزيد[2] ؟
فما سُقِيَ المَرْوان بعدك قَطْرةً ... ولا اخضرّ بالمَرْوَين بعدك عُودُ
وما لسرير بعد ملكك بهجةٌ ... ولا لجواد بعد جودك جودُ

فأعطاه المائة الألف . فبلغ ذلك الحجاج ، فدعا به ، وقال : يا مروزيّ ، أكل هذا الكرَم وأنت بهذه الحالة؟ قد وهبتُ لك عذاب اليوم وما بعده[3] .

ابن عبد الحكم : أخبرنا الشافعيّ قال : طَعن يزيدُ بن المهلَّب رجلاً من الخوارج ، فصرعه فوثب الخارجيّ بالسيف ، وهو يقول :

وإنّا لقومٌ لا نعوِّد خيلَنا ... إذا ما التقينا أن تحيد وتنفِرَا
ونُنكرُ يوم الروع ألوانَ خيلنا ... من الدم حتى نَحسِبَ الوَرْد أشقرا
وليس بمعروف لنا أن نردَّها ... صحاحاً ولا مستنكَرٍ أن تُعقَّرا

قال يزيد : فكرهت أن أقتُلَ مثلَه ، فانصرفت عنه . وقتِل يزيد يوم الجمعة لاثنتى عشرة خلت من صفر سنة اثنتين ومائة ، وهو ابن سبع وأربعين سنة .

---

(١) القصة والأبيات فى ابن خلكان ٢ : ٢٦٥

(٢) قال ابن خلكان : قوله : « فلا مطر المروان ... ولا أخضرّ بالمروين » هما تثنية مرو ، وأحدهما مرو الشاهجان ، وهى العظمى ، والأخرى مرو الروذ ، وهى الصغرى ، وكلتاهما مدينتان مشهورتان بخراسان .

(٣) قال ابن خلكان : قلت هكذا ذكر ابن عساكر ، والمشهور أن صاحب هذه الواقعة وهذه الأبيات هو الفرزدق ، ثم انى رأيت هذه الأبيات فى ديوان زياد الأعجم ، والله أعلم بالصواب .

رفع المسهم

وقيل للمهلَّب: بم نلتَ ما نلتَ ؟ قال : بطاعة الحزْم ، وعصيان الهوى .

وقيل لأبى إسحاق الهمْدانىِّ : لم رويتَ عن المهلَّب ؟ قال : لأنى لم أر أميراً أبْيَنَ منه تقيَّة ولا أشجع منه ،ولا أبعد ممَّا يكره ، ولا أقرب مما يحبّ.

ومرَّ المهلّب بقوم فعظَّموه وسوَّدوه ،فقال رجل : أَلِهذا الأعور تسوّدون ! والله لو خرج إلى السوق ما زادت قيمته على ألفى درهم ، فسمعه المهلَّب ، فقال لبعض مَنْ معه : أتعرف الرجل ؟ قال : نعم ، فلما انتهى إلى مجلسه أرسل إليه بألفى درهم . فقال له : لو زدتَنا فى القيمة لزدناك فى العطيَّة ، فخجل الرجل ، وعرف منزلته .

وللمهلَّب وبنيه وإخوته فى حروب الأزارقة مشاهد ما شوهدت قطُّ فى جاهلية ولا إسلام .

وقتَل المهلَّب وأولاده وإخوته ومَنْ معه من الأزارقة فى ليلة واحدة أربعة آلاف وثمانمائة، وانهزم بقيَّتُهم مع قَطَرِىٍّ، فنفاهم إلى أقاصى البلاد حتى قُتِل قَطَرِىٌّ ومَنْ معه .

وسئل المهلب عن ابنيه : أيُّهما أشجع أيزيد أم حبيب ؟ فقال : إن الولد ربَّما سبق رأىُ أبيه فيه ، وقَطَرِىٌّ قد مارسهما ، فسلوه عنهما . فلمَّا كان من الغد واصطفُّوا للقتال صاح رجل : يا أبا نعامة[1]، فقال : أفرجوا له ، ثم قال : قد سمعتَ فقل ؛ فقال: إنَّا سألنا الأميرَ عن ابنيه يزيد وحبيب : أيُّهما أشجع ، فقال : سلُوا أبا نعامة ، فقال : على الخبير سقطتَ ، أمَّا صاحب الكرِّ والفرِّ والإقدام والإحجام ، وصحَّة التدبير ومبارزة الكمىِّ المدجَّج فالخَرون يزيد ، وأمَّا إذا التقت غياطيل الليل ، وخفتت الأصوات إلاّ الغماغم ، وقُرِع الحديد بالحديد فالخيار حبيب .

(١) أبو نعامة كنية قطرى .

رفع المسهم

ـ الغَيْطَلة التباس الظلام ، وخفتت: سكنت . والغمغمة : أصوات الأبطال في القتال ـ

وسأل الحجاج كعب بن مَعْدانَ الأشقرىّ[1] حين وفد عليه بالفتح ، فقال له : أخبرنى عن بنى المهلَّب ، فقال : المغيرة فارسهم وسيدهم ، وكفى بيزيد فارساً وشجاعاً ، وجوادهم وسخيُّهم قبيصة ، وما يستحى الشُّجاع أن يفرَّ من مُدْرك ، وعبد الملك سمٌّ ناقع ، وحبيب موت ذُعاف ، ومحمد ليث غاب . وكفاك بالمفضَّل نَجْدة . فقال : كيف كانوا فى البأس ؟ قال حماة السَّرْح نهاراً ، فإذا أليَلُوا ففرسان البَيات . قال : فأيُّهم كان أنجد ، قال : كانوا كالحلْقة المفرغة لا يُدْرَى أين طرفها .

وحين وفَد المهلَّب على الحجاج أجلسه إلى جانبه ، وأظهر إكرامه ، وقال : يا أهـلَ العراق ، أنتم عبيد المهلب ، ثم قال له : أنت والله كما قال لَقِيط الإيادىُّ :

وقلِّدوا أمركم لله دَرُّكمُ ... رَحْبَ الذِّراع بأمرِ الحرب مُضْطَلِعاَ[2]

لا مترَفاً إن رخاً فى الأمر ساعده[3] ... ولا إذا عضّ مكروهٌ به خَشَعَا

ما زال يحلُب هذا الدهرَ أشطُرَه ... يكون متَّبِعاً طَوراً ومتَّبَعَا

حتَّى استمرَّتْ على شَزْرٍ مريرتُه[4] ... مستحكم الرأى لا قحْماً ولا ضَرَعَا

فقام رجل وقال : أصلح الله الأمير ! والله لكأنَّى أسمع الساعة قَطَرِيًّا يقول للمهلَّب كما قال لقيط الإيادىُّ ... وأنشد الأبيات ، فامتلأ الحجاج سروراً .

وقال له الحجاج : اذكر لى الذين أبْلَوْا وصف لى بلاءهم ، فقدَّم بنيه ، وقال :

---

(١) ط : « الاشعرى » بالعين ، تحريف .

(٢) مختارات ابن الشجرى ٥ .

(٣) ابن الشجرى : « ان رخاء العيش ساعده » .

(٤) ابن الشجرى : « مريرته » .

والله لو تقدَّمهم أحـد فى البلاء لقدَّمْتُه عليهم ، ولولا أن أظلِمَهم لأخَّرْتُهم. فقال له الحجاج : نعم إنهم لسيوفٌ من سيوف الله تعالى فى الأرض .

وقال يوماً عبد الملك للشعراء : تشبَّهونني مرة بالأسـد الأبخر ، والجبل الأوعر ، والبحر الأجاج وبالصقر والباز ، ألا قلتم كما قال كعب الأشقرىّ فى المهلب وبَنِيه :

براك الله حين براك بحراً ... وفَجَّر منك أنهاراً غِزارَا
بنوكَ السَّابقون إلى المعالى ... إذا ما أعظم النَّاسُ الفَخارَا
كأنهُم نجومٌ حول بدرٍ ... دَجوجىٍّ تكمَّل واستَدَارَا
مـلوكٌ ينزلون بكلِّ ثغرٍ ... إذا ما الهام يوم الرَّوْع طَارَا
رزانٌ فى الأمور ترى عليهمْ ... من الشيخ الشمائِل والنِّجارَا
نجوم يُهتـدى بهمُ إذا ما ... أخو الغمرات فى الظلماء حارَا

وفى ديوان الحماسة :

آلُ المهلَّب قومٌ خُـوِّلوا شرفاً ... ما نَاله عربيٌّ لا ولا كادَا[1]
لو قيل للمجد حِدْ عنهم وخلِّهمُ ... بما احتكمتَ من الدُّنيا لما حَادَا
إنّ المكارم أرواح يكون لها ... آلُ المهلَّب دُونَ الناس أجْسَادَا

ولبعضهم :

إذا كان المهلَّب من ورائى ... هَـدَا لَيلِى وقَرَّ له فؤادى
ولم أخش الدنيَّـة من أناس ... ولو صالوا بقوّة قومِ عَادِ

وتُوُفِّىَ المهلب بفنجَديّة بصحراء راغول سنة ثلاث وثمانين ؛ فبعد أربعمائة وثلاثين من وفاته ، رأى بعضُ علماء فنجديّة فى المنام كأنَّ المهلَّب يقول : الله

(٢) ديوان الحماسة ـ بشرح المرزوقى ص ٢٧٨٧

الله ، الحقنى قَبْلَ أن يأخذنى روذمرو - وهو نهر عظيم يُعْبَر عليه بالسفن - وانقلنى إلى بعض مقابر المسلمين ، وأنا مدفون على شاطىء هذا النهر الكبير فى الموضع الفلانى ، وقد حفر الماء تحت قبرى ، وقرب أن يأخذنى ، فلما أصبح الرجل أخذ جماعةً من أصحابه معهم المساحى والفئوس فمضوا إلى ذلك الموضع ، وحفروا حتى وصلوا إلى قالبه فكشفوا التراب عنه ، فكانت عظامه ما بليتْ بَعْد ، فدفنوه بمقبرة مذونة .

قال الفنجديهى : وهى محلتنا ؛ وسمعتُ معنى هذه الحكاية من والدى رحمه الله .

* * *

فلما ألقيتُ الجِرَانَ بِنَجْرَان ، واصطفيتُ بها الخُلاَّنَ والجيرانَ ، تخذتُ أنديتَهَا مُعْتَمَرِى ، ومَوْسِمَ فُكَاهَتِى وَسَمَرِى ؛ فكنتُ أَتَعَهَّدُها صَبَاحَ مَسَاء ، وأَظْهَرُ فيها على ما سَرَّ وساء ؛ فبينما أنا فى نادٍ مَحْشُودٍ ، وَمَحْفِلٍ مَشْهُودٍ ؛ إِذْ جَثَم لَدَينا هِمٌّ ، عليه هِدْم ؛ فَحَيَّا تَحِيَّةَ مَلِق ، بِلِسَانٍ ذَلِق ؛ ثم قال : يا بُدورَ المحافل ، وبُحُورَ النَّوَافِل ، قَدْ بَيَّنَ الصُّبْحُ لِذِى عَيْنَيْن ، وناب العيانُ مَنابَ عَدْلَيْنِ ، فماذا تَرَوْنَ ، فيما تَرَوْنَ ؟ أَتُحْسِنُونَ الْعَوْنَ ، أم تَنْأَوْنَ إِذْ تُدْعَوْنَ ! فقالوا : تالله لَقَدْ غِظْتَ ، ورُمْتَ أنْ تُنْبِطَ فنِضْتَ .

* * *

قوله : بنَجْران : بلد من كُوَر نجد مما يَلِى بلادَ اليمن ، سُمِّيتْ بنجران ابن زيد بن سبأ . اصطفيت : اخترت . الخُلاَّن : الأصحاب . تخذت ، بمعنى اتَّخذت . أنديتها : مجالسها ومجتمع أهلها . مُعْتَمَرِى : موضع

زيارتى ، واعتمرت الموضع : قصدته وزرته . مَوْسم : عيد . فكاهتى : ممازحتى . سَمَرِى : حديثى بالليل . أتعهّدُها : أتفقدُها صباح مساء : اسمان مركّبان جُعِلا لخمسة عشر ، وأراد يزورُها فى الصباح والمساء . نادمحشود : مجلس مجموع الأهل ، ومثله المحفل المشهود . جَمّ : برك . هِمّ : شيخ هَرِم ، قد أذهبَ الكِبَرُ قُوَّتَه ولحمه ، وتقول : هَمَمْتُ الشَّحم : أذبته ، ومنه قولهم : هذا الأمر لا يَهِمُنى ، بفتح الياء وكسر الهاء ، أى لا يذيبنى ، ومن قال بضمّ الياء فمعناه لا يقلقنى . هِدْم : ثوب خَلَق كأنّهُ هدمه البِلَى . مَلِق : متلطّف فى كلامه . ذَلق : حديد . النَّوافل : العطايا . بيّنَ الصبح لذى عينين ، مثَل ، ويريد أنَّ الليل يتساوى فى ظلمته الأعمى والصحيح ، فإذا ظهر ضوء الصبح أبصر الأشياء مَنْ له بصر ، وقيل معنى بَيّن الصبح ، أى تَبَيَّن ، والعِيان : المشاهدة ، وعاينته : شاهدته ، أى أنتم ممَّن لا يخفى عليكم حالى ، يريد أنَّ المعاينة تغنى عن الشهود العدول . فماذا ترون : فما رأيُكم ؟ وهى من رؤية القلب . فيما تَرَوْن ، أى فيما تنظرون وتبصرون ، وهو من رؤية البصر . وقال الفنجَديهى فى شرحه : فما ترون ؟ أى فما تظنُّون فيما تَرَوْن ؟ أى فيما تبصرون . تنأوْن : تبعدون . غظت ، من الغيظ ، أى لقد حَرَّكْتَ غيظاً . رُمْت أن تُنْبِط : أردت أن تخرج ماء . غِضْتَ . غيّبته وجَفَّفته ، والغَيْض نقيض الفَيْض ، وغاض الماء : ذهب فى الأرض .

* * *

فناشدَهُمُ اللهَ عَمَّا ذَا صَدَّهُمْ ؛ حَتَّى اسْتَوْجَبَ رَدَّهم ؛ فقالوا : كُنَّا نتناضَلُ بالألْغاز ؛ كَمَا يُتَنَاضَلُ يَوْمَ البِرَاز ؛ فما تمالَكَ أنْ شَمَّتَ مِنَ المَنْضُولِ ، وَأَلْحَقَ هَذَا الْفَضْلَ بِنَمَطِ الْفُضُولِ .

فَلَسَنَتْهُ لُسُنُ الْقَوْم ، ووخزوهُ بأَسِنَّةِ اللَّوْم ، وأخذ هو يَتَنَصَّلُ

من هَفْوَتِهِ ، ويتندَّمُ عَلَى فَوْهَتِهِ ، وهُمْ مُضِبُّونَ على مؤاخذتِهِ ؛ وَمُلَبُّونَ دَاعِيَ مُنابذتِهِ ، إلى أن قال لهم : ياقوم ؛ إن الاحتمالَ مِنْ كَرَم الطَّبْع ، فَعَدُّوا عَنِ اللَّذعِ والْقَذْعِ ، ثُمَّ هَلُمَّ إلى أن نُلْغِزَ ، ونُحكِّمَ المبرِّز .

* * *

ناشدهم : حَلَّفهم . صَدَّهم : صرفهم وأزالهم . نَتَنَاضل : نترامى . البراز : القتال : والألغاز : جمع لُغْز ، وهو الكلام المعمَّى ، وألغز ، إذا عمَّى كلامه فلم يُفهم ما يقصده ، وأصلُه من اللُّغز وهو الحجر الملوِىُّ : ما تمالك : ما أبطأ ولا مَلك نفسه .

شَعَّث : غَبَّر ، ويُروى « شَعَّب » . من المنضول ، أى نقصه وفرَّقه ، والمنضول : المرمىّ ، أى قبَّح فعلَهم ومراماتهم . الفنجديهىّ : شعَّثَ الدهرُ ماله ، أى أخذه ، والمنضول : المغلوب فى النِّضال ، والمعنى فما صَبَر عن تشعيث همِّ المغلوب ونصرِه وتخليصه عمَّا أرْتج عليه من اللُّغز ، ويقال : شَعَّثَ منه ، أى عابه وتنقَّصه ، وكأنه عاب المنضول كيف أُرْتِجَ عليه شىء سهل ! وهذا تفسير حسن ، إلاَّ أنّ مساق كلام الحريرى أدلُّ على التفسير الأوَّل .

نَمَط : نوع . لَسَنَهُ : أخذه بلسانه . لُسْن القوم : فصحاؤهم . وخَزُوه : طعنوه . يتنصَّل : يتبرَّأ ويعتذر . هَفْوته : سقطته . فوْهته : كلمته الّتى فاه بها ، أى نطق . مُضِبُّون : مقيمون ملتزمون ، وأضبَّ على الشىء : لازمه . مُؤاخذته : إنشاب الشرِّ معه ، وتواخذ الرجلان : آخذ كلُّ واحد منهما صاحبَه بضرب أو شتم . مُلبّون : مجيبون . منابذته : متاركته ومهاجرته ، وقد نبذتُ الشىء ؛ إذا رميتَه من يدك . الاحتمال : الصبر على الجفاء . عَدُّوا : انصرفوا وتنحَّوْا . اللذع : إحراق القلب باللوم والعتب . والقَذْع : السَّبّ . نُلْغِز : نعمِّى الكلام ونُلبِّسه على السامع . المبرِّز : الغالب .

* * *

رفع المسهم

فسكن عند ذلك توقدهم ، وانحلت عقدهم ، ورضوا بما بها شرط عليهم ولهم ، واقترحوا أن يكون أولهم ، فأمسك ريثما يعقد شسع ، أو يشد نسع ، ثم قال: اسمعوا وقيتم الطيش ، ومليتم العيش ، وأنشد مُلغزاً فى مِروحة الخيش :

وجارية فى سيرها مشمعلة ... ولكن على إثر المسير قفولها

لها سائق من جنسها يستحثها ... على أنه فى الاحتثاث رسيلها

ترى فى أوان القيظ تنطف بالندى ... ويبدو إذا ولى المصيف قحولها

* * *

ريث ، أى بطء . شسع :شراكة النعل. أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لن ينقطع شسع أحدكم إلا من ذنب عليه ، فليستغفر الله وليرجع فإنها مصيبة عرضت عليه» . والنسع: شراكة مضفورة على هيئة النعال ، ويشد بها الرحل وغيره .

وقيتم : كفيتم . الطيش : خفة العقل . مليتم : طول لكم . الخيش . ثياب خشنة من الكتان ، وهذه المروحة تستعمل ببلاد العراق تكون شبه الشراع للسفينة ، وتعلق من سقف البيت ، يشد فيها حبل ويدار بها مشيها ، وتبل بالماء وترش بماء الورد ، فإذا أراد الرجل فى القائلة أو الليل أن ينام جذبها بحبلها ، فتذهب بطول البيت وتجىء ؛ فيهب على الرجل منها نسيم طيب الريح بارد فيذهب عنه أذى الحر ويستطيب به النوم وهى فوقه ذاهبة وجائية ، ، ولذلك سماها جارية . ومشمعلة : سريعة الذهاب. قفولها : رجوعها . والسائق : الشريط الذى يسوقها إذا جذبت به . يستحثها : يستعجلها ، ومن جنسها ، أى هو من كتان مثلها أو من قنب . والاحتثاث : التعجيل . رسيلها ، أى مرسلها ، ويرسل معها لزاوية البيت ويرجع معها ، والرسيل : الفرس يرسل مع آخر

فى السباق . أوَان القيظ : وقت الصيف . تَنْطُف : تقطر ، ونطُف الماء: سال وقطر ، والندى : الرشّ الضعيف . وقُحُولها : يبسها . ولّى : أدبر ، وإذا ولّى الحرُّ لم يُحْتَجْ إليها ، فلا تُرَشُّ ولا تستعمل فتيبس . وللسرىِّ الموصلىّ فيها :

ومبثوثة فى كلِّ غربٍ ومشرقٍ ... لهـــا أمَّهاتٌ بالعراق بواطنُ[1]
يحرِّك أنفاسَ الرِّياح حراكُها ... كأنّ نسيم الروض فيهنّ كامنُ

وله أيضاً :

وخيش كما انجرَّت ذيولُ غلائلٍ ... مصندلة يختال فيها الكواعبُ[2]
وقد أطامتْ فيها الشمال وانثنتْ ... مُقَيَّدَةً عن جانبيها الجوانبُ[3]

ومِمَّا يكْتب على مروحة الكفِّ :

أنا فى الكفِّ لطيفَهْ ... مسكنى قصرُ الخليفَهْ
أنا لا أصلح إلا ... لظريفٍ أو ظريفَهْ
أو وصيفٍ حسن القدِّ شبيهٍ بالوصيفـــهْ

وفيها أيضاً :

إننى أجلبُ الرِّيا ... ح وبى يدفع الخجلْ
وحجاب إذا الحبيـــبُ ثنى الرَّأس للقُبَلْ

* * *

ثُمَّ قال : وَهَاكُمْ يا أولِى الْفَضْلِ ، وَمَرَاكِزَ الْعَقْلِ ، وأَنْشَدَ مُلْغِزاً فى حابول النَّخْلِ :

---

(١) لم أجدهما فى ديوانه .
(٢) ديوانه ٦١
(٣) الديوان « الجنائب » .

رفع المسهم

وَمُنْتَسِبٍ إلى أُمٍّ تنشَّأَ أَصْلُهُ مِنْهَا
يُعَانِقُهَا وقد كانَتْ نفتْهُ بُرْهَةً عَنْهَا
بِهِ يَتَوصَّلُ الجانِي ولا يُلْحَى ولا يُنْهَى

* * *

قوله : هاكم ، أى خذوا . مراكز العقل : مواضعه ومحالّه ، كأنّ العقل رُكِّزَ فيهم . والحابول : حبل يُصْعَد به على النخل يُعْمَل من ليفها ، وهو حبل يُعْقَد حَلْقة ، ويدخل فيها الرجل ويدرِّجه على النَّخلة شيئاً شيئاً عند طلوعه حتى يصير بأعلاها ، وحبل النخل ليس فيه شىء من الملاسة ولا فى النخلة ذلك ، فله بها استمساك ، ولذلك جعله معانقاً لها ، لأنه استدار بها ، وقيل له : حابول لأنه لا يُستعمل إلا للصُّعود على النخيل ، فَرْقاً بينه وبين الحَبْل المستعمل لكلِّ شىء ، ولمَّا كان يُصْنع من ليف النخل ، جعل النَّخلة أمه . برهة : زماناً . والجانى : الذى يجنى الثَّمَر ، ألغز به وأوهم أنه الذى يجنى جناية . يُلْحَى : يلام ويسبّ .

* * *

ثم قال : ودُونكُمُ الخفيَّةَ العَلَم ، المعتكرةَ الظُّلَمِ ، وأنشد مُلْغِزًا فى القلم :

ومأمومٍ بِهِ عُرِفَ الإمامُ كما باهت بِصُحْبَتِهِ الكرامُ
لَهُ إذْ يَرْتَوِى طيَشانُ صادٍ ويَسْكُنُ حينَ يعروه الأُوَامُ
ويُذْرِى حِينَ يُسْتَسْعَى دُمُوعاً يَرُقْنَ كَمَا يروق الإبتسامُ

* * *

قوله : العَلَم ، أى الرَّقْم فى الثوب ، فأراد أنها خفيَّة فى اللغز ، فعلمها الذى تُعْرَف به خَفِىَ . والمعتكرة : الشّديدة السواد . ومأموم : برأسه آمة ،

أى شجّة ، يريد الشقّ برأسه ، والإمام : أمير المؤمنين ، وجعله معروفاً بالقلم ، لأنّ القلم يبدى أسرار الملك وأخباره فى كتبه . وقيل : الإمام الكتاب ، من قوله تعالى: ﴿يومَ نَدْعُو كلَّ أناسٍ بإمامِهِمْ﴾(١)، أى بكتابهم ، وقيل بنبيّهم ، ولا يمتنع أن يريد بالمأموم المتّبِع ، وإمامه . الدِّهن الذى يملى عليه ، أو يد الكاتب به ، وقيل : سمّاه مأموماً ، لأنه يؤم القرطاس ، أى يقصده ويتبعه والإمام كتاب الله سبحانه وتعالى لأنه يُتّبَع ويؤتمّ به ، ويُقتدى بما فيه . باهَتْ : افتخرت. والكرام : الكتبة لقوله تعالى: ﴿بأيدى سَفَرَةٍ* كرامٍ بَرَرَةٍ﴾(٢) ولا مرتبة أشرف من مرتبتهم بعد الإمرة ، ولذلك قال الصابى :

وقد علم السُّلطان أنّى لسانُهُ ... وكاتبه الكافِى السّديد الموفّقُ(٣)
أوازِرُه فيما عَرَا وأُعِدُّه ... برأيٍ يُرِيه الشَّمْسَ واللَّيلُ أغْسَقُ
فيمناى يمناه ولفظىَ لَفْظُه ... وعينى له عينٌ بها الدَّهرَ يَرْمُقُ

طَيْشَان صاد ، أى جوَلان عاطش ، وطاش : خفّ . يَعْرُوه : يقصده . والأوامُ : العطش، يريد أنّ القلم إذا ارتوى بالمداد أسرع فى الكتابة وإذا جفّ توقف وأمسك . يَرُقْنَ : يُعْجِبْن.

ونظر المأمون إلى جارية تكتب ، فقال :

وزادَتْ لدينا حُظْوَةً حين أطرقتْ ... وفى إصْبَعَيْها أسمرُ اللون أهْيَفُ
أصمُّ سميعٌ ساكنٌ متحرِّكٌ ... يَنَالُ جسيماتِ العلا وهو أعجَفُ

وقال العَلَوىّ :

إذا ما التقينا وانتضينا صَوَارِماً ... يكاد يصمُّ السامعين صَرِيرُهَا
تَسَاقط فى القرطاس منها بدائعٌ ... كمثل اللآلى نظمُها ونثيرُها

(١) سورة الاسراء ٧١
(٢) سورة عبس ١٦ ، ١٧
(٣) يتيمة الدهر ٢ : ٢٤٧

رفع المسهم

ثُمَّ قَالَ : وَعَلَيْكُمْ بالْوَاضِحَةِ الدَّلِيل ، الفاضحة ما قيل ، وأنشد مِلغزًا فى المِيل :

وما نَاكِحٌ أُخْتَيْنِ جَهْرًا وَخُفْيَةً ... وَلَيْسَ عَلَيْهِ فى النِّكاحِ سَبيلُ
مَتَى يَغْشَ هَذِى يَغْشَ فى الحال هذه ... وإن مال بَعْلٌ لم تَجِدْه يميـــلُ
يَزِيدهما عِنْـــدَ المشيبِ تَعَهُّدًا ... وبِرًّا وهـــذا فى البعول قليلُ

* * *

قوله: الواضحة ، أى البيّنة . الفاضحة ، أى المبدية لعيب ماقيل قبلها من اللغز . والمِيل : المِرْود. والأختين : العينين . ليس عليه سبيل ، مع أنَّ الجمع بين الأختين لا يجوز . يَغْشَ : يدخل لهـــا . مالَ : عدل وزال عنها . والبَعْل : الزوج . تعهُّداً : تفقّداً . برًّا : إكراماً . يريد أنَّ الأبصار عنـد الكبَر يضعف نظرها فتحتاج إلى الكحل . وقيل : عبَّر بالمشيب عن مَرَهِ العين وهو فَسَادُها من ترك الكحل .

* * *

ثُمَّ قال : وهذه يا أولى الألباب ، معيار الآداب ، وأنشد ملغزًا فى الدُّولاب :

وجافٍ وهو موصولٌ ... وَصولٌ لَيْسَ بالجافى
غريق بارز فاعْجَبْ ... له من راسبٍ طافى
يَسُحُّ دُمُوعَ مهضومٍ ... ويهضِم هَضْمَ مِتْلافِ
وتُخْشَى مِنْـهُ حِـدَّتُه ... ولـكِنْ قلبُهُ صـافى

* * *

رفع المسهم

أولى الألباب ، أى أهل العقول . معيار : مقياس يعبَّر به ، وتقول: عايرت المكاييلَ ، إذا قستَ بعضها ببعض ، وساويتَ بينها . والدُّولاب : الناعورة . والجافى: الثقيل، يريد أنَّ الدولاب جافٍ فى نفسه وخلقته، وليس بجافٍ لسرعة حركته ودَوَرانه . وموصول : ليس من عُودٍ واحد . وَصُول ، يعنى للرياض بمائه ولهذه المنفعة صُنِع . قوله : ليس بالجافى ، يعنى إذا فارق الماء عاد إليه لا يجفوه ، والجفاء يكون فى الخلقة والخلق ، يقال : رجل جافى الخلْقة ، أى غليظ ، وجافى الخلُق إذا كان كزًّا غليظ العشرة ،وجفا الشىء يجفو جفاء: لم يلزم مكانه ، وجفا جنبُه عن الفراش : لم يطمئنّ ، ويَجْفوه ، ضدّ يصله ، جَفوة : مرة واحدة ، وجفاء مصدر عام ، ورجل وَصولٌ : كثير الوصْل .

وقال الرَّصافى فى هذا المعنى فأحسن :

وذى حنينٍ يكاد شوقاً ... يختلِسُ الأنفس اختِلاَسَا[1]

إذا غدا للرياض جاراً ... قال له المحْلُ : لا مِسَاسَا

يبتسِمُ الرَّوضُ حين يَبْكِى ... بأعينٍ ما رأَيْنَ باسَا

من كلِّ جفنٍ يسلُّ سيفاً ... صارَ له غِمْده رئاسَا

ولأبى الفضل بن الأعلم فى قواديس الساقية :

ونُسُكٍ كعبتهم حفرة ... مَنْ فارق الحفرة يبكيهَا

حتى إذا ما أنفدُوا دَمْعَهُمْ ... خرُّوا على رءوسهم فيها

وقال أعرابى فى ساقية :

باتت تحنُّ وما بها وَجْدِى ... وأحنُّ مشتاقاً إلى نَجْدِ

فدموعها تحيا الرِّياضُ بها ... ودموع عينى أحرقت خدِّى

قوله : غريق بارز ، يريد أن بعضه يَغْرَق فى الماء وبعضه يبرز منه ، وهو

(١) ديوانه ١٠٢

معنى راسب طافى ، لأنك تقول : رسبَ الشيء فى المـاء ، إذا هبط فى قعره وسَفُل فيه ، وطفا ، إذا ارتفع على وجه الماء . يسحّ : يصبّ . مهضوم ويهضم : ينقص . متلاف : مبذِّر للمال ، يريد كثرة أخذه للماء وإراقته له . حدّته : سرعة جريه ، لأنه إن نشب بأحدٍ فى جريه أهلكه . وقلبه صافى ، لأنه ليس من الحيوان فيعتقد شرًّا إن أحرج . ولابن سعد الخير البلنسىّ ن دولاب :

للهِ دُولابٌ يفيـــض بسلسلٍ ... فى روضـةٍ قد أينَعَتْ أفنَانَا[1]

قد طارحتْه بهـا الحمائم شجْوَها ... فيجيبها ويراجـــع الألحانَا

وكأنه دنِفٌ يدور بمعهـــدٍ ... يبكى ويسأل فيه عَمَّن بانَا

ضاقت مجارى دمعه عن جفنِه ... فتفتَّحت أضلاعُـــه أجْفانَا

ولبعض أصحابنا :

وقدَّة الحسن فى محاسنِها ... للعين قيـــدٌ وللحجا شَرَكُ

تَبْـكِى فتبدِى حنين ذِى نسُكٍ ... بعـد التَّصابى وما بها نُسُكُ

إذا بكت فى الرِّياض من طرب ... بَدَا بوجـهِ الأزاهر الضَّحِكُ

كأنَّ ما انهلَّ من مدامعها ... رجومُ شُهْبٍ يُقِلُّهـا فَلَكُ

* * *

قال: فلمَّا رَشَقَ، بالخَمْسِ الَّتِى نَسَقَ ، قال: ياقوم تَدَبَّرُوا هذه الخمس ، واعْقِدُوا عليها الخَمْسَ ، ثُمَّ رَأْيَكُمْ وَضَمَّ الذَّيل ، أو الازْدِيَادَ من هَذَا الكَيْل .

قال : فاسْتَفَزَّتِ الْقَوْمَ شَهْوَةُ الزِّيادة ، على ما أُشْرِبوا من البلادة ، فقالوا : إنَّ وقوفَنَا دُونَ حَدِّكَ ، لِيُفْحِمُنَا عن اسْتِيراء زَنْدِكَ ، واسْتِشْفَافِ فِرِندِكَ ، فإن أتممت عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِك ؛ فاهْتَزَّ اهْتِزَازَ مَنْ فَلَجَ سَهْمُه ، وانخزلَ خَصْمُهُ .

(١) نفح الطيب ٣ : ٦٠٢

قوله : رَشَق ، أى رمى ، مأخوذ من رَشْق السهام ، يقال : رَشَقتُ رشقاً ، أى رَمَيْتُ ، والرِّشْق بالكسر : اسم للسهام ، وهو اسمٌ للهَدَفِ الَّذِى يرمونه . نَسَق : تابع واحداً بعد واحد ، وكلُّ شىء تبع بعضه بعضاً على السواء فهو نَسَق . ضَمّ الذيل : التشمير . الفنجديهى : ضمّ الذيل كناية عن الاكتفاء بهذه الأحاجى الخمس ، والسكوت عن طلب الزيادة ، يريد بالازدياد من الكيل ، أن يزيدهم من حسن الأحاجى .

واستفزّتهم : استدعتهم واستخفّتهم ، الزّجّاج فى قوله تعالى : ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ منهم بصوتِكَ﴾[1] أى استدعه لتستخفّه به إلى إجابتك ، واستفزّه : ختله حتى ألقاه فى مهلكة . أُشْرِبوا : سُقُوا ودُوخلوا وخولطوا ، وكلُّ لون خالط لوناً آخر فقد أشرِبَه .

والبَلادَة : التَّحيِّر فى الأمر ، والبليد المتحيِّر : الذى لا يدرِى أين يتوجّه ، الأصمعى : البليد : الذى يضرب بإحدى بلدتيه على الأخرى من الغمّ عند المصيبة . والبَلْدَة هى الرَّاحة ، يقال : تبلَّد الرجل ، إذا تحيَّر وضرب بإحدى يديه على الأخرى ، يريد أنَّ البلادَةَ مَشَتْ فيهم وأُشرِبتهم .

* * *

ثُمَّ افتتح النُّطْقَ بالْبَسْمَلَةِ ، وأنشد مُلْغِزًا فى المزمّلة :

ومسرورةٍ مغمومةٍ طولَ دهرِها ... وما تَدْرِى ما السرور ولا الغَمُّ

تُقَرَّبُ أحياناً لأجـــل جَنينِها ... وَكَمْ ولدٍ لولاه طُلِّقَتِ الأمُّ

وتُبْعَدُ أحيـانًا وما حالَ عَهْـدُهَا ... وإبْعَادُ مَنْ لم يَسْتَحِلْ عَهْدُهُ ظُلْمُ

---

(١) سورة الاسراء ٦٤

إذا قَصُرَ اللَّيْـــلُ اسْتُلِذّ وصالها
وإن طالَ فالإعراضُ عن وَصْلِهَا نُعْمُ
لَهَا مَلْبَسٌ بادٍ أَنيـــقٌ مُبَطَّنٌ
بِمَا يُزْدَرَى لَكِنْ لَمَا يُزْدرَى الْحُكْم

* * *

قوله : المزمّلة ، أى الملفّفة ، وقد زُمِّلت ، إذا لُفِّفتْ ، وهى آنية يُبرّد فيها الماء ، شبه الخابية ، تستعمل بأرض العراق وتوضع عليها لفائف ثياب خشنة ، وتُغَشَّى بجلد أو ثوب مزيَّن ، حسنِ لنظر العين ، ومن تحته تلك الأغشية الخشنة الّتِى لها السرّ والحكم فى تبريد الماء . ومَسْرورة ، أى محمولة على سرير ، وهم يجعلون تحتها مِرْفعاً من عود أو حديد ، تَرْتَفِع به عن الأرض فهو سريرها ، وكذلك رأيتُ خوابىَ الماء بسجِلْماسة ، كلها على أسرّة عود . وقيل مسرورة : مغمومة مغطاة ، وسرير الكمأة : ما غطاها من التراب . والغمّ : ضِدّ السرور . جنينها : ولدها ، أراد به الماء . وحال : تغيَّر . عهدها : التقاؤها وقربها . غُنْم : غنيمة . أنيق : مُعْجِب . يزدرى : يحتقر ، وأراد بالحكم معنى تبريد الماء ، وأراد أن ما بدا منها للناظر فهو غشاء حين يعجب مَنْ رآه ، وهو قد بطِّن بلفائفَ غِلاظٍ مستحقرة ، ولها معنى تبريد الماء ، وقال السرىّ الموصلىّ فى المزمّلة :

وحافظة ماء الحيـــاة لفتيةٍ حياتهُم أن تُسْتَلَذّ المشارب[1]
تسربُلُها أجْفَى اللبـاس وإنّما يليق بهـا أفوافُه والسباسب[2]
على جسدٍ مثـل الزَّبَرْجَد لم يزل يشاكلـه فى لونه ويناسب
إذا استودعت حُرَّ اللجين سبائكاً تصوَّب فى أحشائها وهو ذائب[3]

(١) ديوانه ٦١
(٢) الديوان : « السبائب » .
(٣) الديوان : « يصوب من اجسامها » .

فهذه القطعة وقطعة المقامة تدلّ على تفسيرنا ، وبه كان يفسر شيخنا ابن جهور رحمه الله ، حدّثنا بذلك شيخنا أبو بكر بن أزهر عنه . وأما الفنجديهى ففسر المزمّلة بتفسير غير مرضىّ ، وذلك أنه قال: المزمّلة موضع يغطّى ؛ ويحشى تبناً ، ويوضع فى وسط التّبن وعاء فى القيظ يُبقى الماء بارداً ، ويترك ثقبه فى وسط الموضع لدخول الجرة فيها ، ولهذا قال : «مسرورة» أى مقطوعة السرّة ، وهو من سُرّ الصبى ، إذا قطعت القابلة سُرّته .

* * *

ثُمَّ كَشَرَ عن أنيابه الصُّفر ، وأنْشَد مُلْغِزًا فى الظُّفْر :

وَمَرْهُوبِ الشَّبَا نامٍ وما يرعى ولا يَشْرَبْ
يُرَى فى العَشْرِ دون النَّحْـــرِ فاسْمَعْ وصْفَه واعْجَبَ

* * *

كَشَر : كشف . أنيابه : أضراسه . الصُّفر ، يريد أنه لا يتعهدها بالسِّواك ، فلذلك اصفرّت وتلك الصفرة تسمى القَلَح ، وقد قال فى السادسة والعشرين : «بحسن مُلَحِه وقبح قَلَحِه» . مرهوب: مخوف . الشَّبَا: الحدّ . نامٍ : زائد ، والظفر إذا تُرِك بغير تقليم طال . وما يرعى ، يريد أن نمو الخلْق وزيادته إنما هو بما يتغذى به من الأكل والشرب ، وهذا يكبر ويزيد من غير غذاء . والعَشْر فى الظاهر : عَشْر ذى الحجة . والنّحر : يوم النحر أى يوم العيد ، فأراد أن هذا المرهوب الشَّبا إنما يظهر فى العَشْر خَاصَّة ، فإذا جاء يوم العيد وطول السنة بعده لم يظهر ، وإنما يعنى بالعَشْر الأصابع . والنَّحر : العُنُق ، أى أنّ الأظفار خُلِقت فى الأصابع لا فى العنق ، أو يريد أن الظفر يرى فى الأصابع العشر فى عشر النَّحر من ذى الحجة .

* * *

ثُمَّ تخازر تخازُرَ العِفْرِيت ، وأنْشَدَ مُلْغِزًا فى طاقةِ الكِبْرِيت :

وَمَا مَحْقُورَةٌ تُدْنَى وتُقْصَى وما مِنْهَا إذا فـكَّرْتَ بُدُّ

لَهَا رأسانِ مُشْتَبِهَانِ جِدًّا وَكُلٌّ مِنْهُمَا لأخِيـــه ضِدُّ
تُعَذَّب إنْ هُمَا خُضِبَا وتُلْغَى إذا عَدِما الخِضَابُ وَلاَ تُعَدُّ

* * *

قوله : تَخَازر ، أى نظر بمؤخر عينيه مستقلا لذلك ، وهو نظر المحتقر لمن ينظر المنكر عليه . والعفريت : الشيطان المؤذى ، وهو الرئيس من الجن ، والكبريت ، معروف فارسىّ معرّبٌ . وطاقاته : قضبانه التى تجعل شيئاً على شىء وهو الوقود الذى يشعَل به المصباح . تُقْصى : تبعد . جدًّا ، أى كثيراً ، ويريد بالرأسَيْن طرفى قضيب الوقيد اللذين ينغمسان فى الكبريت ، وجعلهما ضدَّين لأن هذا فى طرف وهذا فى طرف ، فقد تباعدا وضدّ الشىء بعيد عنه ، وجعلهما متشبهين ؛ لأن شكل الطرفين وهما الرأسان شكل واحد . وخُضِبا : غمسا فى الكبريت . وتُلْغَى : تهجَر وتترك ، وقال ابن رشيق :

إنْ كنتَ تنكر ما منك ابتليتُ به فإنَّ بُرْءَ سقامى عزَّ مطلبُهُ[1]
أشِرْ بعودٍ من الكبريت نحو فمى وانظر إلى زفراتى كيف تُلْهِبُـه

* * *

ثُمَّ تَخَمَّطَ تَخَمُّطَ الْقَرْمِ ، وأنْشَدَ مُلْغِزًا فى حَلَب الكَرْم :

وما شىءٌ إذَا فَسَدَا تحوَّل غَيُّهُ رَشَـــدَا
وإن هو راق أوصافاً أَثَارَ الشَّرَّ حَيْثُ بدا
زَكِىُّ الْعِرْقِ وَالِدُهُ ولَـكِنْ بِئْسَ ما ولَدَا

* * *

قوله : تَخَمَّط ، أى تكبّر وتهيّأ للقول ، وأصل التَّخَمُّط للقرم ، وهو فحل الإبل ، وتخمَّط : تهيّأ للهدير وأخذ فى الصِّياح والهجوم على الإبل . وحَلَب الكَرْم ، أراد الخمر ، لأنها تُحْلَب من العنب . والحَلَب : اللبن المحلوب ، يقول :

(١) نقله ابن رشيق فى النتف ٧ ، ٨

الخمر إذا فسدت صارت خلا ، فخلّ استعمالها، فقد صارغيُّها وهو فسادها رشداً ، أى صلاحاً ، وقال أبو بكر بن القَبطُرْنة فى خمرٍ له فسدت فصارت خلاً :

أبا حسنٍ إنى فجعتُ بصاحبٍ أنيس يسلّى الهمّ عنـــد احتلالِهِ
غدتْ بنت بِسطام بن قيس بدَنّهـــا وأمست كجسم الشَّنْفَرَى بَعْدَ خالِهِ

قوله : «غدت بنت بِسطام بن قيس »،أى صهباء ،لأن بسطام بن قيس يكنى أبا الصهباء . وقوله : « وأمست كجسم الشنفرى » ، أى خَلاً ، لأنه يريد قول الشَّنْفَرى[1] :

* إنّ جسمى من بعد خالِىَ خَلُّ *

أى مختلّ .

وقال آخر فى ذلك :

حَسِبْتُها بنتَ بسطامٍ لها أرجٌ ثم افتضضت ختاماً من أبى سَلَمَهْ

عرّض بأبى سلمة الخَلاّل .

ومن التعريض المركّب على هذا المعنى قول الشاعر :

شربتُ مـداماً تسرّ التريفاَ فأصبحت تجرّع خـــلا ثقيفاً[2]
وصرت حجازاً جديب المحَـلّ وقد كنت للطالب الخِصْب رِيفاَ

وقال آخر :

يا عُقاراً صار خـــلاً ومـــلاذاً للبعوضِ
سِرْ فما لى فيك حظٌّ كان ذا قبل الحموضِ
ما أبالى بعد أكل الزّبد من طَرْح المخيضِ

قوله : راق أوصافاً ، أى حسنت أوصافه وحسنُها أن توصف بالرّقة والصفاء والحمرة والقِدَم وقوة الفعل ،يقول : فإذا كانت أوصافه معجبة أوْقَد الشر حيثما

(١) اللسان ــ خلل ، وصدره :

* فاسْقِنيَها يا سواد بن عمرو *

(٢) ط : « بت » .

حضر فإذا فسدت أوصافه صلح . زكىّ العِرْق : كريم الأصل ، والزكاء: النماء والزيادة، أى كثير الفضل والخير، وأراد أنها شجرة مباركة يكون منها العنب والزبيب والرّبّ ، ولكنها تلد ولد سوء ، وهو الخمر ، وأخذ هذا المعنى من قول الشاعر :

فإن فخرتَ بآبائهمْ شرفٌ قلنا صَدَقْتَ ،ولكن بئس ما ولدُوا

أو يريد لذّة العنب .

* * *

ثُمَّ اعْتَضَدَ عَصَا التَّسْيَار ، وأَنْشَدَ مُلْغِزًا فى الطَّيَّار :

وذِى طَيْشَةٍ شِقُّهُ مائلُ وما عابَهُ بِهِمَا عاقِلُ
يُرَى أبدًا فوق عِلِّيَّةٍ كما يَعْتَلِى المِلِكُ العادِلُ
تساوَى لَدَيْهِ الحصا والنُّضارُ وَمَا يَسْتوِى الحقُّ والباطِلُ
وأعْجَبُ أوصافه إنْ نَظَرْتَ كما يَنْظُرُ الكيِّسُ الفاضِلُ
تَرَاضَى الخصومُ به حاكمًا وَقَدْ عَرَفوا أنَّهُ مائلُ

* * *

قوله : اعْتَضَد ، جعلها تَحْتَ عَضُدِه . التَّسْيار : السَّير . والطَّيَّار : ميزان معروف عندهم ، يرجِّحه أيسر شىء ؛ فلِخفّته سُمِّىَ الطيَّار. وقيل : الطَّيّار . ميزان الدراهم المعروف عندهم بالقارسطون . الفنجديهى : الطيَّار : لسان الميزان .

طَيْشَةٍ خفة . شِقُّه : نصفه وجانبه ، فيريد بالظاهر : وذى حمق وخفة أصابه خَدَر وفالج ، فيبس جنبه فمال على الجانب الصحيح ، ومع ذلك لا يُرَى أبداً إلا فى مكان مرتفع عالياً كما يَفْعَل الملك ، والحجارة والذهب عنده سواء . والنُّضَار : الذهب ، ثم قال : وإذا نظرت إليه نظر كَيِّسٍ حاذق رأيت فى وصفه عجباً حين كان الناس يتراضوْن بحكمه مع معرفتهم بأنه ناقص الخِلْقة، لا يعدل فى

حكمه إنما هو ميّال مع أحد الخصمين . والعلّية : اليد التى يمسك عليها الميزان .

[بعض الألغاز]

وقال أبو نواس يلغز :

واسم عليه جُنَنٌ للصبا وضمّه للوصف دوّارُ
فضحتُ عنه سرَّ كتمانِه وكان من شأنى إظهارُ
يُحذَف أول مبتدأ لاسمه ثم يكون الوصف إضمار
فذاك عل فى لعلّ وفى قولك فى حارث : يا حار
فهو بحذف ذا وترخيم ذا أح لمن تلذعه النار

الاسم راحة ، يحذف أوّل حرف وآخر حرف ، ويبقى أح ، وهو من لذعته النار .

وقال آخر :

ويلى من الحبِّ وويلاهُ مُلكَّ قلبى وتناساه
مَنْ ثالث العنبر بعضُ اسمه ورابع العنبر أولاهُ
وقوله عند سؤالى له : ما فى اسمه والحافظ الله ؟

الاسم رعبلان . وأنشد ابن إسحاق النحوىّ :

حلف الحبيب علىَّ لاسميتُه فكنّيته وأطعتُ خوف تغاضبِهِ
ظبى إذا ما زارنى حلَّ اسمُه قلبى وذاك من عجيب عجائبِهِ
ويكون إن رخّمته وجزمته وقلبته ما تشتهى من صاحبه
ويكون بعد الجزم إن فكرت فى التّصْحيف مقلوباً أشدُّ معايبِهِ

رفع المسهم

الاسم فرجة . وأشـــدّ معايبه فرج ، وهو ما يشتهى من صاحبه ، إذا حذفت الهاء .

وقال ابن شرف :

ما آكلٌ يعطَى على أكلةٍ إعطاءَ إقلالٍ وإكثار[1]
لُقْمَتُه قيمتها وحدَها من غير خلفٍ ألفُ دينار

هو فرج المرأة .

وله فى المرآة :

ما يقول الشيخ فى شىء تراه ويراكا[2]
ثم لا تلقـاه إلا حين لا يلقى سواكا

وله أيضاً فى الإبرة :

ضئيلة الجسم لها فعل متين السَّبَب[3]
حافِرُها فى رأسها وعينها فى الذَّنَبِ

ولغيره فى الميزان :

وقاضٍ قد قضى فى الأرض عدلٌ له كفٌّ وليس له بَنَانُ
رأيتُ الناسَ قد قَبِلوا قَضَاهُ ولا نطقٌ لديه ولا بَيَانُ

وقال العلوىّ الأصبهانى يلغز فى النَّسر الواقع :

وركب ثلاث كالأثافى تعاوَرُوا دُجَا الليل حتى أو مضتْ سِنَةُ الفجر
إذا اجتمعوا سمَّيتَهُم باسم واحدٍ وإن فرِّقوا لم يُعرَفوا آخرَ الدَّهرِ

(١) يقله فى النتف ١٠١
(٢) النتف ١٠٦
(٣) النتف ٩٢

رفع المسهم

وأنشد الحاتمى فى الخفاش وهو طائر الليل :

أَرَى عُلَماء النَّاسِ لا يعرفوننى ... وقد ذهبوا لِلْعِلْمِ فى كلِّ مَذْهَبِ
بجلدةِ إنسان وصورة طائرٍ ... وأظفار يَرْبوعٍ وأنياب ثعلبِ

وأنشد فى الطائر وظله :

عجبت لطائرٍ فى الحوم طارَا ... وكانَا واحداً فاثنين صارا
فهذا طائر فى الجوِّ يهوِى ... وذا مستأنس لَزِمَ القَرَارا

وأنشدوا فى مصراع الباب :

عجبتُ لحرُوَمْينِ من كلِّ لَذَّةٍ ... يبيتان طولَ اللَّيْلِ يعْتَنِقَانِ
إذا أمسيا كانا على الناس مرصداً ... وعند طلوع الشمس يفترقانِ

وأنشدوا :

فما مَيْتٌ أحْيَاه الله مَيْتاً ... ليخبر قوماً أُنذِرُوا ببيانِ
وعجفاء قد قامتْ لتُنْذِر قومها ... وأهل قُراها رهبة الحدَثان

الميت الأوّل بقرة بنى إسرائيل ، والميت الثانى الذى ضرب ببعضها . والعجفاء نملة سليمان عليه السلام .

والألغاز أكثر من أن يأتىَ عليها الحصر .

* * *

قال : فظلّتِ الأفكارُ تهيمُ فى أوْدِيةِ الأوهام ، وتجول جَوَلاَنَ المستهام ، إلى أن طال الأمَد ، وحَصْحَصَ الكَمَد . فلمَّا رَآهُمْ يَزْنِدُون وَلاَسناَ ، ويَقْضُون النَّهَارَ بالمُنَى ، قال : يا قوم ؛ إلام تَنْظُرون ، وحَتَّامَ تُنْظَرُونَ ! ألَمْ يأنِ لكم اسْتِخْرَاجُ الْخَبِىّ ، أو اسْتِسْلاَمُ الْغبِىّ ! فقالوا : تاللهِ لَقَدْ أعْوَصْتَ ، ونَصَبْتَ الشَّرَكَ فقنصْتَ ؛ فتحَكَّمْ كَيْفَ

شيت ، وحُزِ الْغُنْمَ والصِّيت ، فَفَرَضَ عن كُلِّ مَعمًى فَرْضاً ، واسْتَخْلَصَهُ مِنْهُ نضًّا . ثم فتح الأقْفالَ ، ووسم الأغْفالَ ، وحَاوَلَ الإجْفالَ . فاعْتَلَقَ مِذْرَهُ الْقَوْم ، وقال له : لا لُبْسةَ بَعْدَ اليوم . فاسْتَنْسِبْ قَبْلَ الانْطِلاَق ؛ وهَبْهَا مُتْعَةَ المطلاق ، فأطْرَقَ إطراقَ مُريب ، ثم أنشد والدَّمْعُ مُجيب .

* * *

قوله : تهيم أى تتحيّر والهائم : الذى يركبُ رأسه ويمشى على غير هداية . الأوهام : جمع وَهْم وهو ماتتوهمه وتتصوره فى نظر مسألة مشكلة ، إما خطأ وإما صواباً ، وأراد أن أفكارهم كانت تتحيَّر فى نظر ألفازه ولا تهتدى . تَجُول : تتصرَّف . المُستهام : العاشق الذى ذهب به الحبُّ كلَّ مذهب . حصحص : تبيَّن . الكمد : الحزن والهمّ . يَزْنِدُون ولا سَنَا : يقدحون الزَّند ، ولا يظهر لهم ضوء ، أى تضرب أذهانهم الألغاز ، فترجع بلا فَهْم . ويقضون : يقطعون يومهم بأمانىٍّ لا محصول لها .

[من أقوالهم فى الأمانى]

قال علىُّ بن أبى طالب رضى الله عنه : إيَّاك والمنى فإنها بضائع النَّوْكَى ، وتثبِّط عن الآخرة والأولى ، وأشرف الغنى ترك المُنى .

علىّ بن عبيدة الزنجانِى : الأمانىُّ مخايل الجهل .

وقال غيره : الأمانىُّ تخدعك وعند الحقائق تَدَعُك .

وفى ضدِّه : أفلاطون : التمنى حلم المستيقظ وسلوة المحروم .

غيره : الأمل رفيق مؤنس إنْ لم يبلِّغْك فقد أهلك .

قيل لأعرابىٍّ : ما أمتع لذات الدنيا ؟ قال : ممازحة الحبيب ، ومحادثة الصديق ، وأمانىٌّ تقطع بها أيامك . وأنشد الثعالبىّ :

ولا تكن عبدَ المنى فالمُنَى رءوس أموالِ المفاليسِ

وقال مسلم بن الوليد :

وأكثر أفعال الغوانى إساءة وأكثر ما تلقى الأمانى كواذبا[1]

وأنشد أبو تمام فى ضدّه :

مُنًى إن تكن حَقًّا تكن أحسنَ المنى وإلا فقد عشنا بها زمناً رغدا

أمانىّ من لَيْلَى حِسَاناً كأنما سقتنى بها ليلى على ظمأ بَرْدَا

ابن المعتزّ يصف ساقياً :

فظلّ يُنَاجينى يقلّب طرفَه بأطْيَبَ من نجوى الأمانى وألْطَفَا

غيره :

عَلِّلينى بموعدٍ وامْطُلِى ماحييتِ بهْ
ودعينى أفوز مِنْكِ بنجوى تطلُّبِهْ
فعسَى يعْثُر الزَّما ن بخطّى فينقلبِهْ

قوله : تُنْظَرون ، أى تؤخَّرون . يأْنِ : يحِن ويقرُب . الحبىّ ، أى المخبوء المستور ، يريد ما خَبّأ لهم فى الشعر من اللّغز . استسلام : انقياد . الغبىّ ، أى الجاهل بالشىء . أعْوَصْت : أتيت بعويص وهو الصّعب . الشَّرَك : آلة يُصاد بها . قَنَصْتُ : صِدْت . الغُنْم : الغنيمة والجائزة . الصِّيت : الذِّكْر الحسَن . يُنشر فى الناس ويَشيع . فَرْض : قِسْط . وأوجب : وألزم . والفرض : العطية . واستخلصه : جعله خالصاً . نضًّا : حاضراً . فتح الأقفال ، أى حلّ ألفاظ الألغاز وإلباسها وكأنّها لتعميتها كأنّ عليها أقفالاً ، فحلّها بتفسير . والأغْفال : جمع غُفْل ، وهو الشىء المهمل ليس له علامة يعرف بها . وَسَمها : جعل لها علامة . حاولَ الإجفال ، أراد الفِرار ، وأجفل القوم : انهزموا . ومِدْرَه القوم : لسانهم وفصيحهم المتكلّم عنهم ، وأصل المدره المِدْفَاع ، وقد دَرَهْتُه ، إذا دفعتَه : لُبْسة : شبهة ، وقد التبس الأمر إذا أشكل ، ومُتْعة الطلاق ، أن يهب الرجل لامرأته

(١) ديوانه : ٣٠٥

شيئاً من ماله إذا طلّقها يسلّيها بذلك عن فراقه لها ، وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : أكثر المتعة خادم ، وأقلها ثلاثون درهماً ، وقيل: أكثرها خادم وأوسطها ثوب وأقلها ماله ثمن. وهبها : احسبها، يقول : احسب انتسابك لنا مُتْعَةً وتسليةً لفراقك عنا. أطرق : أمال رأسه وسكت . مُريب : صاحب ريبة . والدّمع مجيب ، يريد أن إنشاده دعا دمعه فأجابه وقد قال أبو الطيب :

* أجاب دَمْعِي وما الداعى سِوَى طَلَلِ [1] *

يريد أنه لمّا وقف على الطلل وهو أثَرُ دارِ أحبابه هيّجه لهم فبكى ،فالطلا لمّا دعاه للتذكّر أجابه بدموعه .

* * *

سَروجُ مَطْلَعُ شمسى ورَبْعُ لهْوِى وَأُنْسِى
لَـكِنْ حُرِمْتُ نعيمى بِهَا ولَذَّةَ نَفْسِى
واعْتَضْتُ عنها اغترابًا أَمَرَّ يَوْمِى وَأَمْسِى
مَالِى مَقَـرٌّ بِأَرْضٍ ولا قرارٌ لِعَنْسِى
يوماً بِنَجْـدٍ ويوماً بالشَّأْمِ أُضْحِى وَأُمْسِى
أزجِى الزمان بقوتٍ مُنَغَّصٍ مُسْتَخَسٍّ
ولا أبيتُ وعنـدِى فَلْسٌ ،ومَنْ لِى بِفَلْسِ!
ومن يَعِشْ مِثْلَ عَيْشِى باع الحيـاةَ بِبَخْسِ

ثُمَّ إنَّه اخْتَبَرَ خُلاَصة النَّضّ ، وتَدَرضاربًا فى الأرضِ،فناشَدْناه أن يَعُود ، وأسْنَيْنَا له الوعود؛ فلا وأبيك مَا رَجَع ، ولا الترغِيبُ له نَجَع .

* * *

(١) ديوانه ٤ : ٧٤ ، وبقيته

* دَعَا فلبَّاهُ قَبْلَ الرَّكْبِ والإبِلِ *

قوله : مَطْلع شمسى ، يريد أن سَروج هى بلده التى نشأ فيها . ربع : منزل . اعْتَضْت : استبدلت . أمرّ : جَعَلهُ مُرًّا . مَقَرّ : إقامة . قرار : سكون وإقامة عَنْسى : ناقتى الوثيقة . نَجْد : ما ارتفع من الأرض ،وأنجد : أتى نجدا . والشأم : أخِذ من اليد الشؤمى . أُزْجى : أسوق . منغّص : مكدّر ، ويقال:نغَّص علينا فلان ، أى قطع علينا ما كنا نحبّ الاستكثار منه ، وكلّ مَنْ قطع شيئاً يحبّ الازدياد منه فهو منغّص . مُسْتَخَسّ : مستهجَن . بَخْس : نقصان .

اختبن : جعله فى خُبْنته : وهو طرف ثوبه ، والخُبْنة كالحُجْزة للإزرار ، والخُلاصة : ما خلص له منه وصفا . وندر : سبق ، وذهب يضرب فى الأرض إذا سار فيها ،وأصل نَدَرَ ، خرج وطار، مثل النّواة إذا طارت من تحت المرضِخ وشبهها . فناشدناه : حلّفناه . يعود : يرجع . أسْنَيْنَا : عَظَّمنا وجعلناها سنيَّة أى رفيعة . والوعود : جمع وَعْد ، وهو ما وعدوه به من المال . الترغيب : التطميع ، وقد رغّبته فى الشىء إذا زيّنته له وطمّعته فيه . ونجع : نفع ، وقد نجع عليه الطعام ، إذا أصلح عليه جسمه .

رفع المسهم

المقامة الثالثة والأربعون وهي البكرية

حكى الحارثُ بن همامٍ قال : هَفَا بِي الْبَيْنُ المُطَوِّحُ ، وَالسَّيْرُ المبرِّح ، إلى أرضٍ يَضِلُّ بِهَا الخِرِّيتُ ، وتَفْرَقُ فِيهَا الْمَصَالِيت ، فوجَدْتُ ما يَجِدُ الحائرُ الْوَحِيد ، ورأيتُ ما كُنْتُ مِنْه أَحِيد ؛ إلاَّ أنِّي شَجَّعْتُ قَلْبِيَ الْمَزْءود ، ونَسَأْتُ نِضْوِيَ الْمَجْهُود ، وسِرْتُ سَيْرَ الضَّاربِ بقِدْحَيْنِ ، الْمُسْتَسْلِمِ لِلْحَيْنِ ؛ وَلَمْ أَزَلْ بَيْنَ وَخْدٍ وذَمِيل ، وإجازةِ ميلٍ بعد ميل ؛ إلى أن كَادَتِ الشَّمْسُ تَجِب ، والضِّيَاءُ يَحْتَجِب . فارْتَعْتُ لإظْلالِ الظَّلاَمِ ، واقْتِحامِ جَيْشِ حام ، وَلَمْ أَدْرِ أأكِفْتُ الذَّيْلَ وأرْتَبِطُ ، أَمْ أعتمد اللَّيْلَ وَأَخْتَبِط !

* * *

هفا ، أى طار وخَفّ . المطوّح : المُبْعِد المُشْفِي على الهلاك ، وقد طوّحتُ الشيء ، إذا رميتَ به وألقيته إلقاء منكراً . المبرِّح : الشاقّ المتعب ، وقد برّح الأمر ، إذا عَظُم واشتدّ . يضلّ : يتحيّر ويتلف . الخِرّيت : الدليل ، وقيل : هو من خَرَتِ الإبرة كأنه من حسن دلالته يهتدى على مثال خرت الإبرة وهو ثُقْبها . تفرَق : تفزع . المصاليت : الشجعان الماضون فى الحروب ، واحدهم مِصْلات ، قال الفرّاء : المنصلِّت : المسرِع من كلّ شيء ، وجمعه مَصَالت ومصاليت . أحِيد : أخاف وأميل عنه . المزءود : المفزَّع ، وزئد الرجل : فزِع . نسأت : ضربتُ بالمِنْسَأة ، وهى العصا . نِضْوِى : بعيرى . المجهود : المُتعب . قدحَيْن : سهمين .

رفع المسهم

[الميسر والقداح]

وكان الرجل فى الجاهلية يُمسك ثلاثة أقداح ، على أحـدها مكتوب : « أمرنى ربى » ، وعلى الثانى « نهانى ربى » ، والثالث غُفْل لا شىء عليه وهو المَنيح ، فإذا أراد سفراً أو أمراً ضرب بها ، فإن خرج له « أمرنى ربى » مضى آمناً ، وإن خرج له « نهـانى ربى » ترك ذلك الأمر وإن خرج له غُفْل أعاد الضّرب .

وقيل : كان يمسك قَدَحين مكتوب على أحدهما « افعل » وعلى الثـانى « لا تفعل » ، فإن خرج « افعل » مضى ، وإن خرج « لا تفعل » ترك .

وقيل : كان لا يمضى حتى يخرج له « افعل » ثلاث مرات ، ولا يترك المضىّ حتى يخرج له « لا تفعل » ثلاث مرات ، فإن خرج له مرة « افعـل » ومرة « لا تفعل » ولم يخلص له أحـدهما ، فإن مضى فى ذلك الأمر مضى وهو يرجو ويخاف ، وهذا هو الذى أراد الحريرى لأنه كان بين الرجاء والخوف .

ولما قُتِل حجر أبو امرئ القيس ، أخذ امرؤ القيس أزلاَمه وهى القِدَاح ، وأتى ذا الخُلْصة ـ وهو صنم لدوْس وخثعم وبَجيلة ـ فاستقسم عندها بالأزلام فخرج له القِدْح الذى يكره ، فأخذ الأزلام وكسرها وضرب بها وجه صَنَمِها ، وقال :

لو كنتَ ياذا الخَلَص الموتُورا[1]
مثلِى وكان شيخُك المقبورا
لم تنه عن قَتْلِ العداة زُورَا

وحكى الفَنَجديهىّ ، قال : الضارب بقِدْحين ، يعنى به قول النـاس : إمّا الغُنْم ، وإمّا الغُرْم ، وإمّا المُلْك وإمّا الهُـلْك قال الشاعر :

---

(١) الرجز فى معجم البلدان ٣ : ٤٥٨

ضربتُ بهـا البيت ضَرْب القِدَا ح إما لهـذا وإمَّا لذا[1]

والقِدْح : السهم قبل أن يُراش ويركَّب نَصْلُه.

وحكى ابن ظَفَر أن الأزلام سبعة قِدَاح ، مكتوب على أحدها « نعم » وعلى الآخر « لا » وعلى قِدْح « منكم » وعلى قِدْح « من غيركم » وعلى قِدْح « مُلْصَق » وعلى قِدْح « العقل » ، وعلى قِدْح « فضل العقل » . وكانت بيد سادن الأصنام ، فيأتيه ذو الحاجة بدراهم، فيسأل الصنم أن يوضّح له ما سأل عنه، ثم يَضرب بالقِدَاح ، فإن أتى سائل عن تزويج أو سفر أو شبه ذلك مما يستشار فى مثله ضَرَب له بالقِدْحين اللذين عليهما نعم ولا ، فإن خرج « نعم » مضى على فعله وإن خرج « لا » ترك ذلك . فإن انتسب رجل إلى قبيلة ضرب له بالأقداح الثلاثة التى فيها « منكم » « من غيركم » « ملصق » فإن خرج « منكم » أضافوا نسبه إلى أنفسهم ، وإن خرج « من غيركم » كان حليفاً وإن خرج « ملصق » لم يكن له حلف ولا نسب . فإن أتى سائل عن قتيل أو جناية ضرب بالقِدْحين اللذين عليهما العقل ،فإن خرج على قوم « العقل » برىء منه الآخرون ، وإن عقلوا ففَضَل شىء ، فإن اختلفوا فيه ضرب بالقِدْح الذى عليه فضل العَقْل ، فإن خرج عليه أدَّاه .

ومعنى الاستقسام بها الرِّضا بالقسمة بينهم من الأمر والنهى والبراءة والوجوب.

وسهام الميسر عشرة : ثلاثة يُتكثَّر بها لا أنصباء لها ، وسبعة لها أنصباء ، فأوَّلها الفَذّ ، وفيه فرضة واحدة وله نصيب واحد ، والثانى التوءم وفيه فرضتان وله نصيبان ، ثم الرقيب وفيه ثلاث فُرُض ، وله ثلاثة أنصباء ، ثم الحِلْس بأربع، والنافس بخمس ، والمسبل بست ، والمعلّى ، وهو أعلاها بسبع فرض وعلى عدد الفرض هى الأنصباء . وقال ابنُ لُبَّال فجمعها فى بيت :

(١) انظر الميسر والقداح ٥٦ ، ٥٧

رفع المسهم

فذٌّ وتوءم والرقيب ونافسٌ والخِلس ثمَّت مُسبلٌ ثم المعـلُّ

واسم الثلاثة الَّتى يُتكثَّر بها : الفسيح والمَنيح والوغد ؛ فإذا أرادوا الضَّرْب بها طلبوا أوَّل رجل يَلْقَوْنه ، فشدُّوا عينيه ، ويسمّونه الحرضة ، وأقاموا له الرقيب وضُرِب ، فكلَّما خرج له قِدْحٌ دفعه إلى الرقيب ، والرقيب هو الأمين على الضَّرب بالقِداح ، قال الشاعر :

لها خلف أذنابها أزمل مكان الرقيب من الياسر

وكان أهلُ اليسار والجود من الجاهليَّة عند شدَّة الزمان ، ينحَرُون الجُزُور ويَقْتَسِمُونها ويضربون عليها بالقِداح ، فمَنْ قمَرَ[1] جعل نصيبه لأهل الميسر ، والقمار يُكنَى عنه بالميسر ، وأصل المَيْسِر موضع تُنْحر به الجُزور ، والياسر : الجَازر ، وتقسم الجُزور عشرة أجزاء : العَضُدان فى الكتفين جزآن ، وهما ابنا ملاط ، والعَجُز والزَّوْر جزآن ، والكاهلُ واللحاء عليهما الجنب بنصفين جزآن ، والوِرِكان عليهما الذَّراعان جزآن ، والفَخِذان وعليهما العُنُق مقسوما جزآن . وبقى جَنْب ، وهم يستثنونه وقد لا يستثنونه ، فيردُّ منه على جزء الكاهل ضلعان وعلى سائرها ضِلَع ضلع ، فإن فضلت قطعة أو عَظْم سمِّىَ الزِّيم ، قال الشاعر :

وكنت كعظم الزيم لم يدر جازرٌ على أىِّ أدنى مقسِمُ اللَّحم يجعلُ

وقال الأصمعىُّ فى الميسر : إنَّه شىء كانت الجاهلية تفعله ، فليس عندنا منه حقيقة .

قوله : المستسلم للحَيْن ، أى المنقاد للهلاك . الوخد : نوع من السَّير وهو أن ترجُمَ الأرضَ بقوائمها لسرعة سيرها . والذَّمِيل : سيرٌ ليِّن . تجب : تسقط للغيب .

---

(١) قمر ، اى غلب .

ارتعت : فزعت . لإظلال : لقُرْب ودُنوّ . اقتحام : دخول الشيء على غَرَر . وحام، هو ابن نوح وقد تقدَّم فى الحادية والعشرين، وأراد بجيش حام ظلامَ الليل، لأنَّ حاما أبو السُّودان ، أكْفِت : أقبضه وأشمِّره . أرتبط : أربط بعيرى . أعتمد : أقصد : أختبط : أمشى على غير هداية ، وأراد أنه لا يدرى ما يفعل، أينزل ويبيت ، أم يسير فى الليل على غرَر .

* * *

وَبَيْنَمَا أنا أُقَلِّب الْعَزْمَ ، وَأَمْتَخِضُ الْحَزْمَ ، تَرَاءَى لى شَبَحُ جملٍ ، مُسْتَذْرٍ بِجَبَل ، فترجَّيتُهُ قُعْدة مُرِيح ، وَقَصَدْتُه قَصْدَ مُشِيح ؛ فإذا الظَّنُّ كَهَانة ، وَالْقُعْدَةُ عَيْرَانة ، وَالْمُرِيحُ قَدِ ازْدَمَلَ بِبِجَادِه ، واكْتَحَل بِرُقَادِه ، فجلستُ عِنْدَ رَاسِه ؛ حَتَّى هَبَّ مِنْ نُعَاسِه ؛ فلمَّا ازْدَهَرَ سِرَاجَاه ، وَأَحَسَّ بِمَنْ فَاجَاه ، نَفَرَ كَمَا يَنْفِرُ الْمُرِيب . وقال : أَخُوكَ أم الذِّيب ! فقلتُ : بَلْ خابِطُ ليلٍ ضَلَّ المسلك ، فأَضِئْ لِي أَقْدَحْ لَكَ . فقال : لِيَسْرُ عَنْكَ هَمُّك ، فَرُبَّ أَخٍ لَكَ لَمْ تَلِدْهُ أُمُّك . فَانْسَرَى عِنْدَ ذلِكَ إشْفَاقِي ، وَسَرَى الْوَسَنُ إلى آماقِي ، فقال : عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى ، فَهَلْ تَرَى كَمَا أرى !

* * *

العزم والحزْم : اجتماع رأى الرجل على ما يريد أن يفعله فلا يتردَّد فيه . أمتخض : أحرِّك وأحلب ، وأراد أنه أخذ يحدِّث نفسه ويُدبِّر رأيه : هل يسرى أو يقعد . تراءى ، أى ظهر . مستذرٍ : مستعلٍ ، والذروة أعلى الشيء ، أراد أنه ظهر له شبح جمل، أى شخصه فى أعلى جَبل . قُعدة : بعير يُقْعَدُ عليه عند الركوب . مريح : مستريح ، قد نزل يريح نفسه وبعيره . مشيح : مُجِدّ . والقُعدة : المركوب . والعَيْرانة : الناقة الصلبة تشبَّه بالعَيْر، وهو حمار الوحش .

رفع المسهم

وازْدَمل : التفّ . ببجاده : بكسائه . هبّ : انتبه . ازدهر : انفتح وأضاء . سراجاه : عيناه . فأجاه : أتاه على غفلة . المريب : الذى أتى ريبة . أخوك أم الذيب[1] ، مثل ، كأنه خاطب نفسه ، فقال : أأخوك هو الذى رأيت أتى لمؤانستك أم ذئب لإذايتك ، وتضمّن الكلام أن الاستفهام وقع بالذى رآه ، فكأنه قال له : يا هذا ، أأخ أنت أم صاحب فأركن إليك أم عدوّ فأحذرُك ؟ فأجابه بأن قال له : بل خابط ليل ، أى ماشٍ فيه على جهالة . ضلّ المسلك : أخطأ الطريق . أضىء لى : اكشف لى عن حالك . أقدح لك : أكشف لك عن حالى ، وهذا أيضاً مَثَل ، وفى هذا التباس ؛ لأنه إذا أضاء له ، أى أعطاه ضوءه أو أظهره له ، فأىّ حاجة له فى القَدْح ، وهو الضرب بالزَّند ليخرج ناره ، وإنما معناه أن رجلاً كان طلب لآخر ضوءًا مثل فتيل يوقده ، فتخيّل من صاحبه أنه لا يعطيه ، فقال له : أضىء لى ، أى أعطنى ضوءًا فليس عليك فيه تكلّف فإنك أن أتيتنى فى مثلها فلم تجد لى ضوءًا قدحت لك زندى ، وتكلفت لك ذلك ، ثم استعمِل فيمن يطّلعك على أمره فتطلعه من أمرك على ما هو أفيد ممّا أطلعك عليه ، فمعناه أطلعنى على ظاهر أمرك أطلعْك على باطن أمرى . ويروى : « أكدح لَك » قال أبو زيد : إذا طلب الرّجل إلى الرجل حاجة فلم يعرف وجهها ، قال : أضىء لى أكدحْ لك ، أى بيّن لى فأكدح لك ، أى أسعى لك ، وكدح لمعيشته : سعى واكتسب ، وأضىء : أسرج .

الفنجديهىّ : أضىء لى أكدحْ لك ، مثل يضرب فى المساواة بالأفعال ، والمعنى : كن لى أكن لك ، واسعَ لى أسع لك ، والمراد به كُنْ لى أكثرَ مما أكون لك لأن الإضاءة أكثر نفعاً من القَدْح ، ويقال : معناه : تولَّ الأمر الهيّن أتولّ الأمر الصعب . لِيَسْرُ : لِيَزُل وليذهب . سَرَى عِرْق الشجرة يسْرِى : دبّ تحت الأرض ، وسرى يَسْرى سار .

(١) الميدانى ١ : ٥٠ ، قال فى شرحه : أى هذا الذى تراه أخوك أم الذئب ، يعنى أن أخاك الذى تختاره مثل الذئب فلا تأمنه ، يضرب فى موضع التمارى والشك .

رفع المسهم

[أصل المثل : ربّ أخ لم تلده أمك]

رُبّ أخ لك لم تلده أمك ، معناه قد وجدتَ منى صديقاً يقوم لك مقام شقيقك ، وأصل المثل أن لقمان بن عاد رأى امرأته قد خلا بها رجُلٌ وهى تلاعبه ويلاعبها ، ومعها صبيٌّ صغير يبكى ، وهما قد أقبلا على شأنهما لا يكترثان به ، فسألها عن الرّجل ،فقالت : هو أخى ، فقال ربّ أخٍ لك لم تلده[1] أمك ، يكذّبها فى قصدها أى هو أخوك بالمحبّة والصداقة لا بالولادة . وقال فى الدُرّة : حكى ابن نصر[2] الكاتب أن أبا العباس ابن ياسر[3] دخل عليه ، رجل نصرانىّ ومعه فتى من أهل مِلّته حسن الوجه ، فقال له : مَنْ هذا الفتى ؟ فقال له : بعض أخوانى ، فأنشد أبو العباس :

دعتنى أخاها أمُّ عمرو ولم أكنْ أخاها ولم أرضع لهـا بلِبانِ
دعتْنى أخاها بعـد ما كان بيننا من الأمر ما لا يصنع الأَخوَانِ

وقالوا فى هذا المعنى : ربّ بعيدٍ أقربَ من قريب ، وقالوا : القريب مَنْ قَرُب نفعه ، وقال أبو تمام :

ولقد سَبَرْت الناس ثم خبرتُهمْ وبلوت ما وصفوا من الأسباب[4]
فإذا القرابة لا تقـرّب قاطعاً وإذ المـودّة أقرب الأنسـاب

وقال ابن ميادة :

وإنّى لزوّار لمن لاَ يزُورنى إذا لم يكنْ فى ودّه بمريبِ
تقرّب لى دار الحبيب وإنْ نَأَتْ وما دارُ من أبغضته بقريبِ
فلا تطلبنّ القربَ والبعدَ بعدَها إلى غير نيّاتٍ وغـير قلوب

---

(١) الميدانى ١ : ٢٩ ، ٣١
(٢) درة الخواص : « فى كتاب المفاوضة » .
(٣) درة الغواص : « أبو العباس بن ماسرجس » .
(٤) العقد لابن عبد ربه ٢ : ٣١٤ ونسبهما الى أبى تمام وفى ٢ : ٣٢٨ من غير نسبة ■

وقال آخر :

أخو ثقة يُسَرّ ببعض شأنى وإن لم تُدْنِهِ منّى قرابَهْ[1]
أحَبُّ إلىّ من ألْفىْ قريب بنات قلوبهمْ لى مُسْتَرَابَهْ

وقال ابن هَرْمة :

هشٌّ إذا وقف الوفودُ ببابه سهل الحجاب مؤدَّب الخدّام[2]
فإذا رأيت صديقه وشقيقه لم تدر أيُّهما أخو الأرحام

انسرى : زال وذهب ، وسرْوتُ الثوب عنى إذا جردته . إشفاق : خوف . سَرَى الوسن : أقبل النوم . آماق : آخر عينى ، والمُوقُ طَرَفُ العين من جهة الأنف .

[أصل المثل : عند الصباح يحمد القوم السرى]

قوله : عند الصباح يَحْمَد القوم السرى مثل ؛ ومعناه إذا سرى القوم بالليل قطعوا أرضاً كثيرة والأرض تُطْوَى بالليل لمن يمشيها فإذا أصبحوا حمِدُوا سيرَهم .

وهذا المثل بيت منْ رجزٍ وَقَع فى شعر الشّماخ ، وذلك أنه سافر فى قوم من بنى ثعلبة ، فمشوا حتى إذا كانوا قريباً من تَيْمَاء ، قال الشماخ لابن أخيه : انزل فاحدُ بنا ، فنزل فحدَابهم ثم نزل القوم للحُداء واحداً بعد واحدٍ ، فوقعت أرجيزُهم فى ديوان الشّماخ ، فنُسِبَتْ إليه ، وأول الرجز :

(١) العقد ٢ : ٣١٤ من غير نسبة .

(٢) ديوان الحماسة ــ بشرح المرزوقى ٢ : ٨٠٨ ونسبهما الى محمد بن بشير الخارجى وذكر قبلهما :

نعم الفتى فَجَعتْ به إخوانَهُ يومَ البقيع حوادثُ الأيام

والابيات ايضا فى العقد ٢ : ٣١٥ مع اختلاف فى الرواية .

رفع المسهم

طَافَ خَيالٌ من سُلَيْمَى فاعْتَرَى[1]
بنجدٍ اوْ تيماء أو وادِى القُرَى[2]
فمَنَع النَّوْم وَمَـــنَّى بالمُنَى

وفى آخره :

عِنْد الصَّباحَ يحْمَد القومُ السُّرَى
وَتَنْجلِى عنهمْ غَيابَاتُ الْكَرَى

قال المفضّل الضبىّ : أوّل مَنْ قال ذلك خالد بن الوليد ، لما بعث إليه أبو بكر رضى الله عنه وهو باليمامة أن ينزلَ إلى العراق ، فأراد سلوك المفازة ، فقال له رافع الطائىّ : قد سلكتُها فى الجاهليّة ، وهى خِمْسٌ للإبل الواردة ، وما أظنُّك تقدِر عليها إلاّ أن تحمِل من الماء ، فاشترى مائة شارِف[3] فعطّشها ثم سقاها الماء حتى إذا مضى يومان خاف العطش على النّاس والخيل ، وخشِىَ أن يذهب ما فى بطون الإبل ، نحرها ، واستخرج ما فى بطونها . فسقى النّاس والخيل ومَضَى ، فلما كان فى الليلة الرابعة قال رافع : انظروا ، هل ترَوْن سِدْرًا عظيماً ؟ فإن رأيتموها وإلا فهو الهلاك ، فنظر الناس فرأوها فأخبروه فكبّر وكبّر الناسُ ثم هجموا على الماء فقال خالد :

(١) ديوانه ٣٧٧ ــ ٣٨٤ وبعد هذا البيت كما فى الديوان :

حَنّتْ وقالت بنتُها حتّى متَى
تُبشَّرى بالرِّفهِ والمـــاء الرّوَى

(٢) رواية الديوان :

بنَجْرَ أو تَيْمَاء أو وادِى القُرَى
فمَنَـــع النومَ ومنّانا المُنَى

(٣) الشارف : المسن .

رفع المسهم

لِلّه دَرُّ رافعٍ أنّى اهْتَدَى[1]
فوّز من قراقر أنّى سَرَى
خِمْساً إذا سار بها الخِيسُ بكَى
ما سارَها من قبله إنسٌ سَرَى
عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ القومُ السُّرَى

ويقال : فوّز إذا ركب المفازة . وقراقر : اسم قرية من اليمن . والخِيس : الجبان الضعيف ، وقيل : الثَّقيل . قال أبو عبيدة : والخِمْس أن تشرب الإبل يومَ وردها وتُصْدِر يومَها فتظلُّ بعد ذلك اليوم من الماء ثلاثة أيام سوى يوم الصدر ، وتردُ اليوم الرابع فذلك الخِمْس .

* * *

فقلت إنّى لَكَ لأطْوَعُ مِنْ حِذَائك ، وأوْفَقُ من غذائك ، فَصَدَعَ بمحبّتى ، وبَخْبَخَ بِصُحْبَتِي ، ثُمَّ احْتَمَلْنَا مُجِدَّيْنِ ، وارْتَحَلْنَا مُدْلِجَيْنِ ، ولم نَزَلْ نُعَانِي السُّرَى ، ونعاصِي الْكَرَى ؛ إلى أن بَلَغَ اللَّيْلُ غايَتَهُ ، وَرَفَعَ الْفَجْرُ رايتَه .

فلمّا أسفر الْفاضِح ، ولم يَبْقَ إلاَّ واضح ، تَوَسّمتُ رَفيقَ رِحْلَتِي ، وسَمِيرَ ليلتى ، فإذا هو أبو زيدٍ مطلبُ النَّاشِد ، ومَعْلَمُ الرَّاشِد ، فتهادينا تحيَّة المحِبَّيْنِ ؛ إذ التقينا بَعْدَ الْبَيْن ، ثُمَّ تباثثنا الأسْرَار ، وتناثثنا الأخْبار ، وبَعِيرى يَنْحِطُ من الْكَلاَل ، وراحلتُه تَزِفُّ زفيف الرَّال ؛ فأعجبنى اشْتِدَادُ أَسْرِها ، وامتدادُ صبرها ؛ فأخذتُ أستشِفُّ جَوْهرها ، وأسأله من أين تَخَيَّرها .

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ٤١٦ ونسبها الى شاعر من المسلمين .

رفع المسهم

فقال : إنَّ لهذِه النَّاقة خبراً حُلْوَ المذاقة ، مليح السِّياقة . فإن أحببتَ استماعه فَأَنِخْ ، وإنْ لم تشأ فلا تُصِخْ .

* * *

قوله : حذائك ، أى نعلك . صَدَع : كشف وأظهر . وبخبخ : قال : بخ بخ ، وهى كلمة تقال عند الإعجاب . مُجدّين : مُجْتهدين . مُدْلِجَيْن : ماشيَيْن باللَّيْل . نعانى : نقاسى . الكرى : النوم . رايته ، أراد ضوءه . أسفر : أضاء . الفاضح : من أسماء الصبح سمِّىَ بذلك لأنه يفضَح الأشياء ، أى لا يظهرُها . واضح : بيّن ، يريد أنّ الصبح كشف ماستره الليل فاستبان كل شىء . توسّمت : نظرت . الفنجديهى : واضح : نجم ، والنجم الّذى يُرى بعد الصُّبح مضيئاً فى كثير من الأوقات وهو الزُّهرة . ابن سيده : الواضح : الكواكب الخمس ، إذا اجتمعت مع الكواكب المضيئة من كواكب المنازل . والخنَّس : الراجعة والمتأخرة والمُنْقَبضة . رحلتى : ارتحالى . والسمير : محادِثُكَ باللّيل . مطلب الناشد ، أى حاجة الطالب الّتى تلفت له ، فجعل يطلبها . مَعْلم الرّاشد : دليل الهادى ، والمعلم : الجبَل يُعْلم به الطريق . فتهادينا تحيـة المحبين ، أى أهديته سلام محبٍّ أهدى لى مثلَ ذلك . تباثثنا : تكاشفنا ، أى كشفتُ له سِرِّى وكشف لى سرَّه . تناثثنا : تفاشينا ، أى أفشيتُ له خبرى وأفشى لى خبَرَه ، والبثّ أصله التّفريق ، والنّث بالنون : أصله نشر الحديث وإفشاؤه . الفنجديهى : تناثثنا : تذاكرنا ، والنَّثّ : الذِّكْر ونَثَوْت الذِّكْر ونَثَوْت الحديث ، أنثوه ، إذا أذعتَه وأفشيتَه . ابن الأعرابىّ . النثاء فى الحسَن والقبيح من الكلام ، وقيل : النّثّ : نشر الحديث الذى كَتْمُه أوْلَى من نشره ، وفى معنى هذا اللقاء قال المعرىّ :

رفع المسهم

وَلَوْ لم ألقَ غيرَك فى اغترابى لكان لقاؤك الحظَّ الجزيلا[1]
ستَحْمِلُ ناجباتُ العيسِ منِّى صديقًا عن ودادك لن يَحُولَا
يؤمّل فيك إسعافَ الليالى وينتظر العواقب أن تُديلَا

ينحِط : يزفِر ويتنفّس من شدّة التعب، والنَّحْط : خروج النَّفَس بصوت، وهو صوتٌ يعترى المهموم والمتعوب من صدْره بتوجع، وقد نَحَطَ ينحَط نَحطًا ونحيطًا، والنّحيط يعترى الدّابة إذا كَلَّتْ أو زيد فى حملها، فتسمع لها زفيراً بصوت، فذلك هو النَّحيط ، وقد نحطَ القَصَّار إذا ضرب بالثوب على الحجر وتنفّس ليكونَ أرْوَح له . تزفّ : تُسرِع . والزفيف : مشى فى سكون مُتتابع . والرأل : فَرْخ النَّعامة والجمع الرِّئال . أسرها : قوّتها وشدّة خَلْقها . امتداد : طول . أستشِف : أنظر . جوهرها : خَلْقها وجوهر كلّ شىء : ما وُضِعَتْ عليه جِبِلّتُه . أنخ : حُطّ بعيرك وانزل . تُصخ : تستمع .

* * *

فأنخْت لقوله نِضوى ، وأَهْدَفْتُ السَّمْعَ لما يَرْوِى ، فقال : اعْلَمْ أنِّى استعرضْتُها بحضْرَمَوْت، وكابَدْت فى تحصيلها الموْت، ومازِلْتُ أجوبُ عَلَيْهَا البُلدان ، وأَطِسُ بأخفافِهَا الظِّرّان ؛ إلى أَنْ وجدتُهَا عَبْر أَسْفَار ، وعُدَّة قرَار ، لا يلحقُها العَناء ، ولا تُرَاهقُها وَجْنَاء ، ولا تَدْرى ما الهِناء . فأرصدتُهَا للخير والشرّ ، وأحللتُها محلَّ البرِّ السّرّ ، فاتّفق أن نَدَّت مُنْذ مُدَّة ، ومالِى سواها قُعْدَة، فاستشعَرْتُ الأسَف ، واستشرفْتُ التَّلَف ، ونسيتُ كلَّ رزءٍ سَلَف، ومكثْتُ ثلاثًا ، لا أستطيع انبعاثًا ، ولا أَطْعَمُ النّوم إلا حِثاثًا ، ثمّ أخـذتُ فى استِقْرَاء المسالِك ، وتفقّد

(٥) سقط الزند ١ ٠ ١٤

المَسَارح والمبارك ، وأنا لا أستَنْشِي منها ريحاً ، ولا أستَغْشِي يأساً مُريحاً ؛ وكلما ادّكرتُ مَضاءها فى السَّير ، وانبِراءها لمباراةِ الطير ، لاعَنِي الادّكار ، واستهوتْنِي الأفكار .

* * *

نضوى: بعيرى المهزول . أهدفت: جعلتهُ غرَضاً يَقَع فيه كلامه . والسّمع: الأذن . والهدَف : الغرَض تَرْمِى عليه . استعرضتُها : طلبتُ أن تعرَض علىّ للبيع . حضرموت : كُورة من كور اليمن فيها مدائن ، وتعمل بها النعال الحضرميّة وهى غاية فى الجودة . كابدت : قاسيت . أجوب : أقطع . أطس : أكسر . والوطْس : الوطء الشديد المؤثر . الظرّان : واحدها ظَرَر ، بظاء منقوطة وراءين ، وهى الحجارة العريضة ، وقيل المحدّدة . عبر أسفار : أى قويّة على السَّفَر كأنها تُعْبَر بها المراحل ، أى تقطع ، وأصلُه عَبَرْت فى النهر إذا جزته من جهة إلى جهة أخرى . فِرار ، أى قد استعدّت للفرار والهرب . العَناء : التعب . تُرَاهقها : تدانيها وتقاربها ، وقد أرهقتُ الرّجُلَ ، إذا دانيتَه ، وذلك أن يذهب أمامَك فتتبعه ، فإذا قرُبتَ منه قلت : رهقتُه ، فإذا أدركتَه قلت : أرهقتَه : ورواية ابن جهور « تُوَاهقها » بالواو ، ومعناها تواظب على المشى معها ، والمواهقة : المعارضة فى السير . وجْناء : ناقة قويّة غليظة . والوجِين : ما صلُب من الأرض ، وقيل : الوجناء: العظيمة الوجَنَات . والهِناء : القَطِران ، أى ليس بها داء فتحتاجَ إليه فهى لا تعرفه . أرصدتها : أعددتها . البَرّ : الذى يُبَرّك ويكرمك . والسَّرّ : ما يسرّك : ندّت : فَرّت وشَرَدَتْ . استشعرت : لبست . الأسف : الحُزْن . استشرفت التلف : عاينت الْهَلَاك ونظرته ، واستشرفت فلاناً إذا رفعتَ رأسك لتنظرَ إليه ويدُك على حاجبك . والرُّزء : فقد الشىء . سلف : مَضَى . مكثت : أقمت . انبعاثاً : نهوضاً وخروجاً إلى السفر .

حِثَاثًا : قليلا، والحِثاث: أن يصيبك النّومُ ثم يزول عنك فى الحال ، ويوصف به فيقال : يوم حِثاث ، أى قليل . والطعم : الذوق . استقراء : تَتَبّع . والمسالك : الطُّرُق . المسارح : المراعى وحيث تسرح الإبل . والمَبارك : مراقد الإبل حول الماء . استنشاء الريح : شَمّها ، مهموز وغير مهموز . استغشى ثوبَه : تغطّى به . اليأس : قطع الرّجاء . مريحا : يُدْخِل على صاحبه الراحة . ادّكرت : تذكّرت . مضاءها : نفادها وإسراعها . انبراءها : نهوضها ، وقد انبرى لك فلان إذا عَرَض لك . مباراة : معارضة . لاعنى : أحرقنى ، اللوعة: حرقة القلب من شدّة الوجد . استهوتنى : هَوَتْ بى فى كلّ طريق . الأفكار : تذكر الهموم .

* * *

فبينما أنا فى حِواء ، بعضِ الأحياء ، إذ سمعتُ من شخصٍ مُتبعِّد ، وصوتٍ مُتَجرّد : مَنْ ضَلّتْ له مطيَّة ، حَضْرَمِيَّة وطِيَّة ، جلدُها قد وُسِم ، وعَرُّها قد حُسِم ، وزمامُها قد صَفِر ، وظَهْرُها كأنْ قد كُسِر ثمّ جُبِر ، تَزِينُ الماشية ، وتُعين النّاشية ، وتقطع المسافةَ النائية ، وتَظلّ أبداً لك مُدَانية ، لا يعتورُها الْوَنَى ، ولا يعترضها الْوَجَى ، ولا تُحْوِج إلى العصا ، ولا تَعْصى فيمَنْ عَصَى ؟

قال أبو زيد : فجذبنى الصَّوْتُ إلى الصَّائت ، وبَشّرنى بدرْك الفائت . فلمَّا أفضيت إليه ، وسلَّمت عليه ، قلت له : سلِّم المطيَّة ، وتَسلَّم العطيَّة ، فقال : وما مطيَّتُك ، غُفِرت خطيَّتُك ؟ قلت له : ناقة جُثَّتُها كالهضْبة ، وذُرْوتُها كالْقُبَّة ، وحَلَبُها ملء الْعُلْبة ، وكنتُ أعطيتُ بها عشرين ، إذ حَلَتْ يَبْرين ، فاستزدت الَّذِى أعطى ، ودَرَيْتُ أنه أخطا .

* * *

رفع المسهم

قوله : حِواء : بيوت مجتمعة مائتان أو نحوها . الأحياء : القبائل . متجرّد : ماضٍ ظاهر ، وقيل ضعيف لبُعْده . ضَلّت : تلفت وضاعت . مطيـة ، يعنى بها نعلاً فى المعنى وناقة فى اللفظ ، وقد تقدّمت أشعار اللّغز بهما . وطيّة : لا تحرّك الراكب ، وهى الذَّلُول ، وفراش وطىء : وثير لا يؤذى جَنْب النائم عليه ، وعلى من ضلّت له مطية [أن يقول ما][1] فى حديث عتبة بن غزوان عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا ضل أحدكم شيئاً وأراد غوثاً وهو بأرضٍ ليس بها أحد فليقُلْ : يا عباد الله المسلمين أعينونى ، يا عبادَ الله المسلمين أعينونى ، فإنّ لله عبَّاداً لا نراهم » ، وقد جرّب ذلك . وُسِم : خُرِز ، أى جعل الخرَز فيها كالعلامة . عَرّها : جَرَبها . حُسِم : استؤصِل بالقطع ، يريد أنّ آثار الجرَب الّتى كانت فى الجلد الذى صُنِعت منه هذه النعل قد قُطِعت وأزيلت . وزِمامُها : شَرَكها . كُسِر ثم جُبِر ، يريد أنّ ظهرها يَبِس فتكسّر ، فوُصِل بجلد آخر فصحّ .

والماشية : الرّجْل التى تَمشى فيها ، وكذلك النّاشية ، ويقال : نشأ الرجل ، إذا نهض لحاجته وتنشّأ أيضاً . وسّهل الناشية لأجل الماشية وأصلها الهمز . الفنجديهى : تُعين الناشية ، أى تُعِين على السّير فى ناشئة الليل ، قال ابن عَرَفة : كلّ ساعة قامها قائم من الليل ناشئة . الأزهرىّ : ناشئة الليل قيام الليل مصدر جاء على « فاعِلة » بمعنى النَّشء كالعافية والخاتمة بمعنى العَفْو والختْم ، وقيل : الناشية والنَّشيئة أن تنام من أوّل الليل ثم تقوم . وقيل : النّاشئة أوّل النهار أول الليل ، وأكثر المفسرين على أنّ ناشئة الليل أوّله . عاصم : يهمِزُه والباقون لا يهمزون . جَذَبنى ، ساقنى بعُنْف . الصّائت : صاحب الصوت الذى سمع ، وقد أصات إذا رفع صوته . دَرْك الفائت : لحوق التّالف . أفضيت : وصلت .

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .

رفع المسهم

تَسَلّم : خذ . جُثَّتها : جسدها ، والجُثّة : شخص القائم والقاعد والراكب . والهضْبة : الصخرة العظيمة ، وقيل الجبل المنبسط الأملس . ذِرْوتها : أعلى ظهرها . والعُلْبة : إناء من جلود . يَبْرين : أرض فيها رمل .

* * *

قال : فأعْرَض عَنِّى ، حِين سَمِع صِفتى ، وقال : لستَ بصاحب لُقْطَتى . فأخذتُ بتلابيبه ، وأصْرَرْت على تكذيبه ، وهَمْتُ بتمزيق جَلابيبه ، وهو يقول : يا هذا ما مطيّتِي بِطِلْبك ، فاكفُفْ عَنِّى مِن غَرْبك ، وعَدِّ عن سَبِّك ؛ وإلّا فقاضِنِي إلى حَكَم هَذَا الحيّ ، البرىء من الغىّ ، فَإِنَّ أوْجَبَها لَكَ فتسلّمْ ، وإن زَوَاها عَنْكَ فَلا تَتَكَلَّمْ ، فَلَمْ أَرَ دواءَ قِصّتى ، ولا مَساغَ غُصّتِي ، إلّا أنْ آتىَ الحكم ، ولو لَكَمَ .

فانخرطنا إلى شَيْخٍ رَكِين النِّصبة ، أَنيقِ العِصبة ، يُؤْنَس مِنه سكونُ الطَّائر ، وأنْ لَيْس بِالجَائر ، فانْدَرَأتُ أتَظَلّم وأتألّم ، وصَاحبى مُرِمٌّ لا يَتَرَمْرَم ، حتَّى إذَا نثلتُ كِنانتى ، وقَضَيْت من القَصص لُبَانتى ، أبرز نَعْلاً رزينة الْوَزْن ، مَحْذوّةً لمسلك الحزْن ، وقال : هَذِهِ الَّتى عَرّفت ، وإيَّاهَا وَصَفْت ، فَإِنْ كَانَتْ هِىَ الَّتى أُعْطِىَ بِهَا عِشْرِينَ ، وَهاَ هُوَ مِنْ المُبْصِرِينَ ، فَقَدْ كذب فِى دَعْوَاه ، وَكَبُر ما افتَراهُ ؛ اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَمُدَّ قَذالَه ، ويُبِينَ مِصداقَ ما قَالَهُ .

* * *

رفع المسهم

أعْرَض : نحّى وجهه . واللُّقَطة : ما تجده قد سَقَط من غيرك فتلتقطه ، وعامة أهـــل اللغة على فتح قافها مثل أبى عبيدة ويعقوب والمفضّل وثعلب وابن قُتيبة وغيرهم . وحكَى ابنُ خالَوْيه أن تسكينَها لغة تميم ، وفتحها لغة أهل الحجاز ، فهما لغتان ، قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم :« مَنْ التقط لُقَطة فليُشهد ذا عدلٍ ثم لا يكتم ولا يغيب ، فإن جاء صاحبُها فهو أحقُّ بها ، وإلا فهو مال الله يؤتيه من يشاء » . تلابيبه : أطواق ثوبه ، والتلبيب الجيْب ، وأخذت بتلبيب فلان ، إذا جمعتَ ثوبه الذى حوالى صدرِه وقبضت على نحرِه ، والجِلباب : المِلْحفة والرِّداء . أصررت : أقمت . تمزيق جلابيبه : تخريق ثيابه . بطلْبك : بما تطلب . والطِّلْب : اسم ما تطلب . ابن دريد فلانة طِلْب فلان ، إذا كان يطلُبها ويَهْواها . عَدّ : كُفّ واصرِفْ . سبّك : شتمك . قاضنى : حاكمنى . الحىّ : القبيلة . الغىّ : الضّلال والفساد . زواها : نَحّاها .

قوله : مَساغ غُصتى ، أى بلع ما أختنق به ، وساغ الطعام والشراب فى الحلْق : سهل نزوله فيه . لكَمه ، يلكمه : ضربه بجُمْع كفّه .

انخرطنا : سرنا مسرعين . رَكِين النِّصبة : وقور الهيئة ، وفلان ركين بَيِّن الرّكانة ، أى ثقيل المجلس ثابت قوىّ . الأزهرىّ . يقال للرجل إذا كان وقوراً ساكناً : إنه لرَكين ، وقد رَكُن ركانة . الجوهرىّ . يقال جبلٌ ركين ، أى له أركان عالية ، فيحتمل على هـذا المعنى أن يكون ركين النِّصبة ، عالى الانتصاب حسَن القامة ، والنِّصبة الفِعْلة من الانتصاب ، وأراد بها هيئة انتصابه فى جلوسه وحالته . أنيق : مُعْجِب . العِصْبة : هيئة العمامة على رأسِه ، تقول : عَصَبْت رأسى بالعمامة إذا شددتَه بها ، والعِصْبة هيئة التعمّم ، يقول : إن هذا الشيخ الحاكم رزينٌ فى جلوسه حَسَن التعمّم والهيئة . يؤنس : يبصر . سكون الطائر ، كناية عن الوقار والحِلْم ، وإنما ذكَّر الطائر لأنه لا ينزل إلا على ساكن ،

رفع المسهم

وإذا نزل عليه سكن هو ، فإذا كان عند الرجل هَوَجٌ وطيش ، قيل : طارت عصافيره ، فإذا كان القوم أهلَ وقارٍ قيل : كأنّ على رءوسهم الطير . اندرأت: اندفعت . أتظلّم : أتشكّى الظلم . أتألم : أتوجع . مُرِمّ : ساكت . لا يترمرم : لا يُجيب ولا يتحرك ، وتكلّم فما تَرَمْرَم ، أى ما أجاب ، وأصل تَرَمْرَم تحرّك . تثلتُ كِنانتى : أخرجت ما فيها من السّهام ، وأراد أتممت كلامى . وقَضيت : أتممت . والقَصَص : ذكر الخبر . لُبانتى : حاجتى . أبرز : أظهر . رزينة : ثقيلة .

محذوّة، جُعل عليها الحِذاء ؛ وهو الجلد الّذى تُنْعَل به . مسالك : طرق . والحَزْن : ما غُلظ من الأرض . عَرّفْت : صِحْتَ بها ليعرفها صاحبها . ما افتراه: ماجاء به من الادّعاء والكذب . قَذالة : عنقه ، والقَذال : مابين نُقْرة القفا إلى الأذن ، وجمعه قُذُل ، يقول : فإن كانت هذه النعل تُساوى عشرين ـ وها هو يبصر أنّ هذا باطل ـ فقد صارتْ دعواه باطلة ، اللهمّ إلا أن يمدّ عنقه ويأتى ببيان أنّها تساوى عشرين ، إلى هذا التفسير رأيتُ أكثر من لقيت يذهب ، وهو ضعيف ولا يكون لمدّ قذا له معنى ولا لما بعده .

والتفسير الحسن الّذى فيه جِلاء للمعنى ما كان يفسّره به شيخى أبو بكر ابن أزهر عن ابن جَهْور ، وذلك أنه كان يفسّر أعطى بمعنى صُفِع وضرب ، وكذلك كتب عليه فى طرة كتابه ، أنّ أعطى بمعنى ضَرب ، لغة أهل الشرق ، وقد حُدِّثتُ أنا عنهم أنّ الرجل إذا كلم الآخر بما لا يُرضيه ثم انصرف عنه صاح الآخر فى أثره : أعطِه ، بمعنى اصفعه ، فهى لفظةٌ متعارَفة بينهم لهذا المعنى وبيان موقعها هُنَا أنه لما ادّعى السَّروجى أنه أُعْطِىَ بناقته عشرين ، فوصفها بما يصحّ معناه فى حقها من أنها تساوى عشرين . ثم قال : إن المعرِّف أبرز

نعلا رزينة الوزن ، أى ثقيلة فى الميزان . محذّوة لمسلك الحزْن ، أى قد جعل عليها حِذاء ، أى رُقَعٌ من الجلد طرِقت بها ليسلُك بها الحَزْن ، أى ليمشى بها فى أرض ذات حجارة فلا تؤثّر فيها لتلك الأطراف ، وبتلك الأطراف صارت ثقيلة فى الوزن ، فلمّا أبرز هذه النّعل التى وصفتها رفعها بيده إلى الحاكم قائلاً له: هــذه النّعل التى عَرَّفت ، وإيّاها وصفْت ، فإن كانت هذه التى أُعْطِىَ بها عشرين ، أى صُفِع بهـا عشرين . فقلت : الإعطاء للنعل بمعنًى يوافقها إذ عدّ عشرين ديناراً فى ثمنها بعيد ، ثم بيّنه بقوله : وها هو من المبصرين . والضَّرْب الجافى فى العُنق تدمع له العينان ، وإذا أفرط فيه عِمَى له المصفوع، فيقول المعرِّف: هذه النعلُ لو صُفِع بها إنسانٌ صَفْعَةً واحدة لعِمَى ، وهذا يقول إنه صُفع بها عشرين وهو سالم البصر ، فقد كذب فى ادّعائه أنه صُفع بها عشرين ، وكبرتْ فرْيته ، اللهمّ إلا أن يمدّ قفاه فيرينا فيها أثر الصفع ، وأثره احمراره وتعجيره ، فيتبيّن بذلك الأثر صدق قوله . فهكذا تفسير هذا الموضع ومعناه . وابن جَهْور الذى شافه الحريرى بمشكلاتِ كتابه كان أضْبَطَ لها ممنّ يتحكم فيها بنظره ، فيكون تخليصُ المعنى إنّ المعرِّف يقول : هذه النعل يدّعى هـذا أنه أُعْطِىَ بها عشرين ، وأنتم ترونه سالمَ البصر ، ومحالٌ أن يُصْفَع بها إنسان لخشنها وثقلها عشرين صَفْعة إلا ويعمى ، فقد صارت دعواه كاذبة إلا أن يمدّ لنا عنقه فنرى فيها أثرَ الصفع والرّزء فنصدِّقه فى دعواه . وفى رواية غير ابن جهور « بعــد المبصرين » فقال : كذّب دعواه وهو داخل فى قول المعرّف الأوّل فلا يحتاج إلى إدعائه ، ولو جاء هنا بثمّ مكان الفاء لكان أبْيَن فكان بمعنى قوله ، قال : ثم يمشى فى كلامه ثم ينسِّق عليه قال : لكلام ثان ، وإنما وضع الفاء موضع ثُمّ لأن جواب الشرط الذى هو « فإن كان » مضمّن فى قوله «وها هو من المبصرين» فإنه يتضمّن قوله : « وها هو من المبصرين » معنًى فقد كذب ، وليس فيه لفظ الجواب ، فجاءت الفاء كأنها جواب لفظى ، ووقعت قال : موطّئة

لقال الأولى ، ألا ترى أن فى رواية ابن جهور مكان فقال فقد ، والكلام بها متّصل حسن ، قال أبو الرقعمق يصف العمى من الصفع :

ولقدِ بِتنا على زمنٍ ورءوس القوم تُسْلَبُ
وكئوسُ الصفع دائرة وبها اللّذات والطَّرَبُ
وكأن الصفع بينهمُ شُعَلُ النِّيران تلتهبُ
والعمى منهم وإن شغلوا عنه باللّذات مقتربُ

وله :

إنّ الذين تصافَعُوا بالقرع فى زمن القُشُورِ
أسفوا علىّ لأنهم حضروا ولم أكُ فى الحضورِ
لو كنتَ ثَمّ لقيل هَلْ من آخذٍ بيد الضريرِ
يا للرِّجال تصافَعُوا والصَّفع مفتاح السرورِ
لا تغفلوه فإنّه يَسْتَلُّ أحقاد الصُّدورِ

وقال يصف أثر الصَّفع فى قفاه :

ففىّ ما شئتَ من حمق ومن هَوسٍ قليله لكثير الحمق إكْسِيرُ
كم رام إدراكه قوم فأعجزهمْ وكيف يُدْرَكُ ما فيه قناطيرُ
لا عيب فىّ سوى أنّى إذا طربوا وقد حضرت يرى فى الرأس تعجيرُ
والأخدعان فما زالا يُرى لهما لكثرة المزْح توريمٌ وتحْمِيرُ

فى هذه الأشعار تتبين لك تلك الأغراض التى قدمنا ذكرها .

[حكاية ابن المغازلى]

وتنتظم فى سلكها حكاية ابن المغازلىّ ، وكان رحلاً يتكلّم ببغداد على الطُّرق بأخبار ونوادر منوّعة ، وكان نهايةً فى الحذق لا يستطيع مَنْ سَمِعه ألّا يضحك

قال : وَقَفْتُ يوماً على باب الخاصَّة أُضحِكُ النَّاسَ وأتنادرُ ، فحضر خَلْفي بعضُ خدّام المعتضد ، فأخذت فى نوادر الخدم ، فأعجب بذلك وانصرَف ، ثم عاد فأخذ بيدى وقال : دخلتُ فوقفت بين يدىْ سيِّدى فتذكرتُ حكايتَك فضحكتُ ، فأنكر علىّ ، وقال : مالك ويلك ! فقلتُ : على الباب رجل يعرف بابن المُغازلى يتكلّم بحكايات ونوادر تُضْحك الثَّكول ، فأمر بإحضارك ولى نصف جائزتك ، فطمعت فى الجائزة ، وقلت : يا سيِّدى أنا ضعيف وعلىّ عَيْلة ، فلو أخذت سُدْسَهَا أو ربعها ! فأبى وأدخلنى فسلّمت فردّ السَّلام ، وهو ينظر فى كتاب ، فنظر فى أكثره ، وأنا واقف ، ثم أطبقه ورفع رأسه إلىّ ، وقال : أنت ابن المغازلى ؟ قلت : نعم يا مولاى ، قال : بلغَنى أنَّك تحكى وتُضْحِك بنوادرَ عجيبة ، فقلت : يا أمير المؤمنين الحاجة تفتقُ الحيلة ، أجمع النَّاس حكايات أتقرَّب بها إلى قلوبهم فألتمس بِرّهم ، فقال : هاتِ ما عندك ، فإنْ أضحكتَنِي أجزتُكَ بخمسمائة درهم ، وإن أنا لم أضحك فما لى عليك ؟ فقلت الحين : ما معى إلَّا قفاى ، فاسأل ما أحببت ، قال : أنصفتَ إنْ لم تُضْحِكْنِي أصفعك بذلك الجراب عشر صفعاتٍ ، فقلت فى نفسى : مَلِكٌ لا يصفع إلا بشىء ليّن خفيف ، والتفتَّ فإذا بجراب من أدم معلَّق فى زاوية البيت ، فقلت : ما أخطأ ظنِّى ،عسى فيه ربحٌ إن أضحكتُه ربحت ، وأخذت الجائزة ، وإلَّا فعشر صفعات بجراب منفوخ شىء هيِّن ، ثم أخذت فى النُّوادر والحكايات والنَّعاشة والعبارة ، فلم أدعْ حكاية أعرابىٍّ ، ولا نحوىٍّ ، ولا مخنَّث ، ولا قاضٍ ، ولا نَبَطِىٍّ ، ولا سِنْدىٍّ ، ولا زِنْجىٍّ ، ولا خادم ، ولا تركىّ ، ولا شاطر ، ولا عيَّار ، ولا نادرة ، ولا حكاية إلا وأحضرتُهَا حتى نَفَدَ كلُّ ما عندى ، وتصدَّع رأسى ، وفترت وبردت ، ولم يبق ورائى خادم ، ولا غلام إلا وقد ماتوا من الضحك ، وهو مقطِّبٌ لا يتبسمُ ، فقلت : قد نَفَدَ ما عندى ، ووالله

ما رأيتُ مثلَكَ قطّ ، فقال لى: هيه ، ما عندك ؟ فقلت: ما بقىَ لى سوى نادرة واحدة ، قال : هاتِهَا ، قلت : وعدتَنى أن تجعل جائزتى عشر صفعاتٍ وأسألك أن تُضْعفها لى وتضيف إليها عشر صفعات أخرى . فأراد أن يضحك ثم تماسَك، قال : نفعل يا غلام خذ بيده ثم مددت قفاى فصُفِعتُ بالجراب صَفْعةً ، فكأنّما سقطتْ على قفاى قطعةٌ من جبل،وإذَا هو مملوء حصاً مدوّراً فَصُفِعتُ عشراً، فكادت أن تنفصل رقبتى ،وطَنَّت أذناى وانقدَحَ الشُّعاع من عينى ، فصحتُ يا سيّدى، نصيحة ،فرفع الصَّفع بعد أن عزم على العشرين ، فقال : قل نصيحتَك، فقلت : يا سيّدى إنّه ليس فى الديانة أحسن من الأمانة ، وأقبح من الخيانة ، وقد ضَمِنتُ للخادم الذى أدخلَنى نصفَ الجائزة على قُلّها وكُثْرها ، وأمير المؤمنين بفضله وكرمه قد أضعفها وقد استوفَيْتُ نصفى ، وبقى نصفهُ . فَضحك حتى استلقَى ، واستفزَّه ما كان سمع ، فتحامل له ،فما زال يضرب بيديه الأرض ويفحص برجليه ويُمسك بمراقّ بطنه ، حتى إذا سكن قال : علىّ به ، فأُتِى به ، وأمر بصفعه ، وكان طويلاً ، فقال : وايشٍ جنايتى ؟ فقلت له : هذه جائزتى وأنتَ شريكى فيها ، وقد استوفيتُ نصيبى منها ، وبقى نصيبُك، فلما أخـذه الصَّفْع وطَرق قفاه الوقْع ، أقبلتُ ألومه وأقول له : قلت لك إنى ضعيف معيل، وشكوتُ إليك الحاجة والمسكنة ، وأقول لك خـذ ربعَها أو سدسَها ، وأنت تقول : لا آخذ إلا نصفَها ، ولو علمتُ أن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه جائزته الصفع وهبتُها لك كلّها . فعاد إلى الضحك من عتابى للخادم ، فلما استوفى نصيبه أخرج صُرّة فيها خمسمائة درهم ، وقال : هذه كنت أعددتُها لك ، فلم يدعْك فضولك حتى أحضرت شريكاً لك ، فقلت : وأين الأمانة ؟ فقسمها بيننا وانصرفت .

* * *

رفع المسهم

فقال الحكم : اللّهمّ غفراً ، وجعل يُقلّب النّعل بطناً وظهراً ؛ ثم قال : أمّا هذه النّعل فنعلي ؛ وأمّا مطيّتك ففي رحلي ، فانهض لتسلّم ناقتك ، وافعل الخير بحسب طاقتك ، فقمت وقلت :

أقسمُ بالبيت العتيق ذى الحرمْ
والطائفينَ العاكفين فى الحرمْ
إنّكَ نِعْمَ مَنْ إليه يُحتكمْ
وخيرُ قاضٍ فى الأعاريبِ حكمْ
فاسلمْ ودمْ دومَ النّعامِ والنّعمْ

فأجاب من غير رويّة ، ولا عقد نيّة ، وقال :

جُزيت عن شكرك خيراً يابنَ عمْ
إذْ لستُ أستوجبُ شكراً يُلتزمْ
شرُّ الأنامِ مَنْ إذا استُقضى ظلمْ
ثمّ مَن استرعى فلمْ يرعَ الحرمْ
فذانِ والكلبُ سواءٌ فى القيمْ

ثمّ إنّه نفّذ بين يدىّ ، مَنْ سلّم النّاقة إلىّ ، ولم يمتنّ علىّ ، فرُحتُ تجيح الأرَب ، أجرُّ ذيلَ الطّرَب ، وأقول يا للعجب !

* * *

قوله : اللهم غفراً ، أى اغفر غفراً ، والغفر : السَّتر والتغطية . انهض : تقدّم . لتسَلُّم : لقبْض . العتيق : القديم . الحُرَم : جمع حُرمة . والعاكفين : المقيمين فيه للعبادة ، والعكوف : الإقامة ، والحرَم حَرَم مكة . اسلم : دعاء ، معناه سَلّمك الله . والنّعام : طير معروف . الأعاريب : الأعراب وهم سكان البادية . والنَّعم : جمع نِعْمة ، والدَّوْم والدوام واحد . رويَّة ، أى فكرة . عَقْد نيَّة : أى تدبير . استُرعِي : جُعل راعياً ، أى حكماً على الناس . يَرْعَى : يحفظ . فذان ، أى فهذان . القِيم : جمع قيمة . يمَتَنّ : يعتدّها منّة ، وامتنّ فلانٌ عليك ، إذا فعل معك معروفاً فمتى أنكر عليك شيئاً ذكر لك معروفه وجبَّهك به ، وقالت الحكماء : أحْيِ المعروف بإماتة ذكره ، وعظّمه بالتصغير له .

* * *

قال الحارث بن همام : فقلت لَهُ تَاللهِ لقد أطْرَفْتَ ، وهَرَفتَ بما عَرَفْتَ ، فناشدْتُك اللهَ : هل أَلْفَيْتَ أسْحَرَ منك بَلاغة ، وأحْسَن لِلّفظ صِياغة ؟ فقال : اللَّهُمّ نَعَمْ ، فاسْتَمِعْ وانْعَمْ . . . كنتُ عَزَمْتُ حِيْنَ أَتْهَمْتَ ، عَلَى أنْ أتَّخِذَ ظَعِينةً ، لتكونَ لى مُعينة ؛ فحين تعيّن الخطبُ المُلِبّ ، وكادَ الأمْرُ يَسْتَتِبّ ، أفكَرْتُ فِكْرَ المُتَحَرِّز مِنَ الْوَهْم ، المتأمِّلِ كَيْفَ مَسْقِطُ السّهم ، وبتُّ لَيْلَتِي أُنَاجِي الْقَلْبَ الْمُعَذَّب ، وأُقلِّبُ الْعَزْمَ المَذَبْذَب ، إلى أَنْ أجمعتُ على أَنْ أُسْحِر ، وأُشَاوِرَ أوّلَ من أُبْصِر . فلمّا قوّستِ الظُّلْمَةُ أبوابَها ، وولّت الشّهُب أَذْنَابَها ، غَدَوْتُ غُدُوّ المتعرّفِ ، وابتكرتُ ابتكارَ المُتَعيّفِ ، فانبرَى لى يافِعٌ

فى وجهه شافِع ، فَتيمَّنْتُ بمنظَره البَهِيج ، واستقدحْتُ رَأيه فى التزويج . فقالَ : أَوَ تَبْغِيها عَواناً ، أم بكراً تُمانى ؟ فقلت : اخترْ لى ما تَرَى ، فقد ألقيتُ إليك العُرَى .

* * *

أطرفتَ : أتيتَ بطُرْفة ، يريد بأمرٍ عجيب غريب . هرَفْت بما عرَفت ، أى تكلَّمت بشىء غريب ، والهرَف : الإطناب فى المدْح ، ومن كلام العرب لا تهرِفْ بما لا تعرف . ناشدتك : حَلَفْتُك : صياغة : صنعة وسَبْك . أتهمت : أتيت تِهامة ، وهى ما انخفض من أرض العرب . ظعينة : زوجة . الخِطْب : النكاح . وتَعيَّن : تحقق . يستتبّ : يتم . الوَهْم : الغلط . المتأمل : الناظر . المذبذب : المضطرب ، الذى لا يعتمد على رأى . أزمعت : عزمت . أُسحِر : أخْرُج فى السَّحَر . قوّضت : هدمت . والأطناب : حِبال الخِباء وتقويضها : إزالتها . الشّهبُ : النجوم ، وجعل لها أذناباً مجازاً ، وأراد أنّ الفجر إذا طلع وانتشر غابت النُّجوم ، فكأنها قد وَلَّت أذنابُها وقال التّهامى فى ذلك :

فظلتُ أعثُر فى ثوبِ الدُّجَى ولِهاً ... والجوّ رَوْضٌ وزهرُ الشُّهبِ كالزَّهَرِ (١)

وللمجرّة فوقَ الأرض معترَكٌ ... كأنها حَبَبٌ يعلو على نهَرِ

وللثريّا ركود فوق أرحُلِنا ... كأنها قطعة من فَرْوَة النمِرِ

كأنّ أنجمَها والصُّبح يُغْمِضها ... قَسْراً عيونٌ غفت من شدّة السَّهَرِ

المتعرّف : المكتسب لأنه يعرف ما جهل . المتعيّف : الزّاجر ، من عاف الشىء إذا كرهه . يافع : فَتًى شابٌ وقد أيفع إذا شبّ . فى وجهه شافع ، أى هو حسن الوجه يشفع حسنُ وجهِه إذا أذْنَبَ أو أخطأ .

* * *

(١) ديوانه ٤٢ .

رفع المسهم

[من قولهم فى الوجه الحسن]

وفى وجهه شافع صدر بيت للحكم بن قَنْبر .

وقال يحيى بن علىّ المنجم : كنتُ يوماً بين يدى المعتضِد ، وهو مقطّب ، فأقبل بدرٌ مولاه ، فلمّا رآه من بعيد ضحِك وقال : يا يحيَى مَنِ الذى يقول : « فى وجهه شافع » ؟ فقلت : يقوله ابن قنبر المازنى البصرىّ ،فقال لله: دَرّه ، فأنْشِدْ هذا الشعر ، فأنشدته :

وَيْلِي على مَنْ أطار النوم فامتنعاَ ... وزاد قلبى على أوجاعِه وَجَعاَ
كأنما الشمس فى أعطافه لمعتْ ... حُسْناً أو البدر مِنْ أزراره طَلَعاَ
مستقبل بالّذى يهوَى وإن كثُرتْ ... منه الذنوب ومعذور بما صَنَعاَ
فى وجهه شافع يمحُو إساءتَه ... من القلوب وجيهٌ حيثما شَفَعاَ

أنس ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « حسن الوجه مال » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « اطلبوا الخيرَ عند حسان الوجوه » .

وقال الشاعر :

أنت شرط النبىّ إذ قال يوماً ... اطلبوا الخير من حسان الوجوهِ

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « مَنْ آتاه الله وجهاً حسناً واسماً حسناً ، وجعله فى موضع غير شائن ، فهو من صفوة الله من خلقه » .

ابن عمر رضى الله عنهما قال صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة تجلُو البصَر : النظرُ إلى الخُضرة ، والنّظر إلى الماء الجارى، والنّظر إلى الوجه الحسن» ، نظمها الشاعر فقال :

ثلاثة يُذهِبْنَ للمرء الحزَنْ ... الماء والخضرة والوجْهُ الحسنْ

رفع المسهم

قوله تيمنّت : تبرّكت . البهيج . الحسَن . استقدحت : طلبت ، وأصلها ، فى قَدْح النار . تبغيها : تطلبها . عَواناً : ثيّباً . تعانَى : تعالج وتُراضى . العرا : جمع عروة .

* * *

فقال : إلىّ التّبْيين ، وعَلَيْك التّعيين ، فاسْمع أَنَا أَفْدِيك ، بعد دَفْنِ أَعادِيك ؛ أمّا البِكر فالدُّرّة المخزونَة ، والْبَيْضَةُ المكنونة ، والْبَاكُورَةُ الْجَنِيَّة ، والسُّلافَةُ الْهَنِيّة ، والرَّوْضَةُ الأُنُف ، والطَّوْق الَّذى ثَمُن وشَرُف ؛ لم يدنّسْها لامِس ، ولا استَغْشاها لابس ، ولا مارَسَها عابث ، ولاوَكَسها طامِث ، ولَهَا الْوَجْه الْحَيّ ، والطّرْف الْخَفِيّ ، واللِّسَانُ الْعِيّ ، والْقَلْبُ النَّقِيّ . ثم هى الدّمْيَةُ الْمُلاعِبة ، واللُّعبة الْمُداعِبَة ، والْغَزالَةُ الْمُغازِلة ، والْمُلْحَةُ الْكامِلة ، والْوِشاحُ الطّاهِرُ الْقَشِيب ، والضَّجِيع الذَّى يُشِبّ ولا يُشيب ... أمّا الثيّبُ فالمطِيّة الْمُذَلَّلَة ، واللُّهْنَةُ الْمُعجَّلَة . والبِغْيَةُ الْمُسهّلَة ، والطِّبّة الْمُعلّلة ، والقرينة المتحبِّبة ، والْخَلِيلة المتقرّبة ، والصَّناع المدبِّرَة ، والْفِطْنَة المختبِرَة . ثمّ إنَّها عُجالَةُ الرَّاكب ، وأُنْشوطَةُ الْحاطِب ، وقُعْدَةُ الْعاجِز ، ونُهْزَةُ الْمُبارِز ، عَريكَتُها لَيّنَة ، وعُقْلَتُها هَيّنَة ، ودِخْلَتُها متبيِّنة ، وخِدْمَتُها مُزَيّنَة ، وأُقْسِمُ لقد صَدَقْتُ فى النَّعْتَيْن ، وجلَوْتُ الْمَهاتَيْن ، فبأيَّتِهما هامَ قَلْبك ، وعَلَى أيَّتِهما قام رُبّك ؟

* * *

الدّرّة : الجوهرة . المخزونة : التى جُعلت فى الخِزانة لرفعتها ، يريد أنّ البِكر تحجَب وتُصان : البيضة المكنونة ، أراد بيضة النعام ، ويشبّه بها النساء

لبياضها والصُّفرة التى تضرِب فيها ، وقد تقدمت هذه الصفة فى العاشرة ، وقال امرؤ القيس :

كَبِكْرِ مُقَانَاةِ البياض بصُفْرَةٍ غَذَاها نَمِيرُ الماء غيرُ المحلَّلِ (١)

وقال ذو الرُّمة :

* كأنَّها فضة قد مسها ذهبُ * (٢)

والمكنونة : المصونة ، والنعامة تُكِنّ بيضَتها بريشها ، ولا تبديها للشمس والريح لئلا تتغيّر ، وقال الله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴾ (٣) ، الباكورة : أوّل ما يُبا كر من الثمر . والسلافة : الخمر ، والمدْخُورة : المحجوبة فى آنيتها . الأُنُفُ : التى لم تُدْخَل ولا رعيت . والطَّوْق : ثوب رفيع . ثَمِنُ : كثر ثَمَنُه . اللامس : الذى يلْمَس الشىء بيده ويدنِّسه ، وأراد به الذى يلاعبها ويعضّها . ابن عباس : اللمس والملامسة واللِّماس ، كناية عن الجماع ، وفلانة لا تردّ يدَ اللامس ، أى لا تمنع مجامَعتها مَنْ أرادهَا . استغشاها : جَامَعها ، وغشيان النِّساء : مجامعتهنّ . واللّابس : الذى لابسها واختلط بها ، يريد نكحها . مارسها : عالجها وعاناها . عابث : مفسد ، وأراد من يَعْبَثُ بها عند الجماع . وَكَسها : نَقَصها ، ووضع منها ، والوكْس : الخسارة فى البيع . طامث : ناكح . والطامث : المفتضّ للبِكر . العَيِىّ : الّذى لا يعرف تصرّفات الكلام : والدّمية صورة الرخام . واللُّعبة : ما يلعَب به ، وتقول : لمن اللعبة ؟ أى لمن الغلب فى لعب الشطرنج وشبّهه . علىّ رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « المرأة لُعبة زوجها ، فإن استطاع أن يُحْسِن لعبته فليفعل » . والمداعبة : الممازحة . والمغازلة : تقول غازلتنى المرأة إذا تماجَنَتْ عليك فى كلامها ، وأشارت لك

---

(١) ديوانه ١٦ (٢) ديوانه ٥ ، وصدره :

* كَحِلْاءَ فى بَرَجٍ صَفْرَاءَ فى نَعَجٍ *

(٣) سورة الصافات ٤٩

رفع المسهم

بعينها وغمزتك بحاجبها حتى إذا طمعت فيها صدّت عنك . والمُلْحة : الصورة المستملحة كالدُّمى وكالصورة التى تلعب بها البنات والشطّار ، وهى اللعبة . وجاء بمُلْحة أى بكلمة طيبة مليحة . والوشاح : الحِزام . والقشيب : الجديد جعلها كالوشاح عند عناقها وجماعها . والضجيع : المراقد . يشبّ : يردّك شابًّا . يُشيب : يُكْسِبك الشّيب . اللِّهْنَة : ما يعجّل للضّيف قبل القِرى . والطَّبّة : الحاذقة بمصالحها . المعلِّلة : التى تعطيك ما تريد منها مَرّةٍ بعد مرّة ، وهى بكسر اللام ، والمعلّلة : التى تعلّل مرتشفَها بالريق ، قال امرؤ القيس :

* وَلَا تَمْنَعِينا من جَنَاكِ المعلَّل (١) *

ابنُ الأعرابىّ : المعلِّل : المعين بالبرّ بعد البرّ ، ومن نصَب اللاّم فمعناه المطيَّب مَرَّة بعد مرة ، والتعليل سَقْى بعد سقى . والقرينة : الصَّاحبة . والخليلة : الزَّوجة . والصَّناع : الحاذقة بالصَّنعة . ومُجَالة الراكب : ما يعجَّل له من الطعام والشراب ، مثل التمر والسويق ، وما لا يتعِب بمعالجته ، وكانت العرب لكرمها يمرّ عليها الرجل ، وهو راكب فتعرِض عليه النزولَ للقِرى ، فيمتنع لأعذار له فيمسك ؛ حتّى يُخرَجَ له من البيوت أيسرُ ما يوجد ، يأكله وهو راكب ، فجَعل الثَّيِّب لسهولتها كالمُجالة التى لا يُتكلَّف لها ، وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه : البِكْر كالبرّة تطحنها وتعجنها وتخبزها وتأكلها ، والثَّيِّب مجالة الراكب تمر وسويق . والأنشوطة : عُقْدة تُحَلُّ بسهولة . نهزة : فرصة وغنيمة سهلة . عريكتها : طبيعتها ، ورجل ليّن العريكة إذا كان سهلا سَلِس القياد ، وأصل العريكة سنام البعير ، وكانوا يَعْمِدون للبعير إذا كان فيه شِماس وامتناع ، فيقطعون فى حَدَبته وهى مرتفعة يَصْعُب الرّكوب عليها ، فإذا قطع فيها سكن البعير ولان ، وتوطّأ موضع الرّكوب منه فيقال : قد لانت عريكته وقال الشاعر :

(١) ديوانه ١٢ ، وصدره :

* قَفَلت لَهَا سِيرِى وَأَرْخى زِمَامَهُ *

من اللَّواتى إذا أوْدَتْ عريكتُها يَبْقَى لهـــا بعدها ألٌّ ومجهودُ

قوله : أوْدَتْ ، أى زالت وذهبت ، فهذا يدلّ على ما ذكرنا . عُقْلتها : حبستها ، يريد أن ما يعقلها به صاحبها شىء هيّن ، والعُقْلة مثل العُقدة ، ولفلان عُقْلة يعقِل بها الناس فيغلِبهم ويصرعهم . دِخْلتها : باطن أمرها ، وفلان عفيف الدِّخلة وخبيثها ، أى الباطنة والسَّريرة . متبيّنة : مكتشفة ظاهرة ، أى سرُّها ظاهر . المهاتين : البِكر والثيّب ، والبقرة الوحشية هى المهاة . هام : تحيّر من شدة الحبّ .

* * *

قال أبو زيد : فرأيْتُهُ جَنْدَلَةً يتّقيها المُرَاجِم ، وتُدْمَى منها المحاجِم ؛ إلّا أنّى قلت له : كنتُ سمعتُ أنّ البِكْرَ أشدُّ حُبًّا ، وأقلُّ خِبًّا ، فقال : لَعمرى قد قيل هَـذَا ، ولَـكِن كمْ قولٍ أذَى ، ويحك ! أمَا هى المُهْرَةُ الأبيَّة العِنان ، والمَطِيَّةُ البَطِيَّة الإذْعَان ، والزَّندة المتعسّرة الاقتداح ، وَالقَلْعةُ المُسْتَصعَبَة الافتتاح . ثم إنّ مُؤْنتها كثيرة ، وَمَعُونتها يَسيرة ، وعِشْرَتها صَلِفَة ، ودَالَّتها مُكَلَّفة ، ويَدَها خَرْقَاء ، وفِتْنَتها صَمَّاء ، وعَرِيكَتها خَشْنَاء ، ولَيْلَتها لَيْلَاء ، وفى رِياضَتِها عَنَاء ، وعَلَى خِمْرَتها غِشَاء ، وطالَمَا أَخْزَت المَنَازل ، وفَرِكَتِ المَغَازِل ، وأحْنَقَتِ الهَازِل ، وأَضْرَعَتِ الْفَنِيقَ البازلَ . ثمّ إنّها التى تقول : أنا ألبَس وأجلس ، فأطلب من يُطْلِق ويَحْبس .

فقلت له : فما تَرى فى الثَّيِّب ، يا أبا الطَّيِّب ؟ فقال : وَيْحك ! أتَرْغَب فى فُضالة المآكل ، وثُمَالَةِ المَنَاهِل ، واللِّباس المستبذَل ، والوعاء

المُسْتَعْمَل ، والذّوّاقةِ المتطرِّفةِ والخَرّاجَة المُتَصرِّفة ، والْوَقَاحِ المُتَسَلِّطة ، والمُحْتَكِرَةِ المُتَسَخِّطة . ثم كِلمتُها : كنتُ وصِرْت ، وطالما بُغِى علىّ فنُصِرْت . وشَتَّان بين اليوم والأمس ، وأين القمرُ من الشمس ! وإن كانت الحنّانةَ البَرُوك ، والطَّمَّاحَة الْهَلُوك ، فهى الغُلّ القَمِل ، والجُرْح الذى لا يندَمِل .

* * *

قوله : المُرَاجم ، أى الذى ترجُمه ويرجُمك . خِبًّا : مكراً وخديعة ، ورجل خِبّ : غاشّ فاجر . الابيّة العِنَان : الممتنعة القياد . الإذعان : الخضوع والذلة . الزَّندة : ما تزنُد منه النار . المتعسرة الاقتداح : التى يعسر إخراج النار منها . القَلْعة : الحِصْن والمكان المرتفع . عشرتها : صُحْبتها . صَلِفة : مجاوزة حدَّ الطَّوْق ، وأصل الصّلف الإعراض عن الشىء كأنه إذا استقبلك أبديْت له صَلِيفَك ، وهو صفحة عُنُقك . ودَالّتها : انبساطها ، يريد انبساطَها إذا أرادت أن تُدِلَّ عليك تتكلّف ذلك . خَرْقاء : لا تحسِن العمل . صمّاء : شديدة ، كأنها لا تسمع النَّهى والعَذْل . وفِتْنتها : شرها . خشناء : خَشِنة صعْبة . ليلاء : شديدة السّواد طويلة . خِمْرتها : لبستها الخِمار . غشاء : غطاء وَسْتر . فُضالة : بقية ، وكذلك ثمالة المنهل : موضع الماء . والنَّهَل : الشرب الأوّل . والذّوّاقة المتطرفة ، أى التى تذوق طَرَف الشىء وتتركه أو تذوق بطرَفِ لسانها ثم تبصقه ، وتَطَرَّفت الناقة : رَعَتْ بأطراف المرعى ، فيريد أنها لا تبقى على زوج واحد ، إنما هى تذوق كلّ زوج وتجرّب لذة مباشرتهم ، وقال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم : إنى قد طلّقت زوجتى فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا يحبّ الذوّاقين ولا الذوّاقات » . الخرّاجة : الكثيرة الخروج . المتصرّفة : الجوّالة . الوَقاح : الصُّلبة الوجه التى ليس عندها حياء . المتسلطة : المستطيلة اللسان .

والمحتكرة : التى تَسْرِق رزْق زوجها، ثم تحتكره ، أى تدخّره وترفعه ، فإذا احتاج روجُها لشرائه أخذت منه ثمن ما عندها محتكَراً . كنتُ وصرت : تخاطب به زَوْجها أى كنت فى نعمةٍ مع الزوج الأوّل وأنا معك على شقاء . بُغِى علىّ، أى اجتمع علىّ بالظلم، والبغى: الظلم . وشتّان : بُعد . واليوم وأمس : الزوج الحاضر معها والزوج المفقود ، وهو الذى أراد بالقمر والشمس ، ويقال : شتان زيد وعمر وترفعهما بشتّان، وتفتح نونها لالتقاء الساكنين تشبيهاً بالأدوات ويقال : شتان ما زيد وعمرو ، فتجعل ما صلة أو تنصبها على التمييز على حدِ نعْمَ رجلاً زيدٌ والتقدير : شتّان شبهاً زيد وعمرو ،وبرفعهما بشتّان بمعنى بَعُد شبهاً زيد وعمرو ، ويجوز كسر نون شتانِ على أنها تثنية شتّ ، وهو التفرّق، وجمعه أشتان ،ويقال : شتان ما بين زيد وعمرو ،فترفع «ما» بشتّان على أنها بمعنى الّذى ، وبين صلتُها ، ولا يجوز كسر نون شتانَ لأنها اسم واحد ، ومعنى هيهات بَعُد الحنّانة : صاحبة الولد الذى من غير الزّوج الذى هى معه : فمتى رأتْ ولدها حنّت لوالده، والبروك : التى تتزوّج ولها ولدٌ كبير ، ويسمى ولدها الحوبند . والطّاحة الهلوك : هى التى فارقها زوجُها فتطمح له أبداً وتتهالك فى محبّته . وقيل: الطاحة الّتى تطمح إلى كلّ شهوة ، والهلوك الفاجرة . والغُلّ : الشّرَك التى يُغَلّ بها الأسير أى يربطها فى عنقه ويديه . والقمِل : الذى كثرت فيه القمل ويضرب بالغُلّ القمِل المثل للمرأة السيئة الخلق . لا يندمل : لا يبرأ .

أبو موسى رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث يدعُون الله فلا يَستجيب لهم : رجل كانت عنده امرأة سيّئة الخلُق فلم يطلّقْها ، ورجل أعْطَى مالَه سفيهاً ، وقد قال الله تعالى ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ ﴾ ، ورجل كان له على رَجُلٍ دَيْنٌ فلم يشهد عليه » .

المقدمى : قال بعض الحكماء :أربعة أشياء يمنعْنَ النّوم والقَرار : المرأة السوء ،

رفع المسهم

والولد الجاهل ، والعَشِير المخالف ، والعبد اللئيم . قال الأصمعىّ : قال لى زائدة البندار : قيل لى بالشأم : هل لك أن ترى العَجَب؟فذهبتُ فإذا سبعة فى شق ، جدّ وستة من ولده وولد ولده ، وإذا الجدّ السابع أشب من الابن السابع ، فسألت عنه فقيل : كان للجدّ امرأة مُوافقة وللابن السابع امرأة سَلِيطة .

وقال صلى الله عليه وسلم : «أربعة لا يشبَعْنَ من أربعة : عينٌ من نظر ، وأرض من مَطَر ، وأنثى من ذكر ، وعالم من علم » .

قال الأصمعى : تزوّج رجل من عُذْرة امرأةً منَ بلىّ حمقاء ، فغاب عنها غيبةً ثم قدم عليها ، فلما جمعهما المضجع أنشأت تقول :

ما مسَّنِى بعدك منَ إنسىّ غير غلامٍ واحدٍ جَعْدِىّ
ورجلٍ أحمق من بلِىّ ورَجُلين من بنى عدىّ
وتسعة كانوا مع المطىّ وسبعةٍ كانوا على الطَّوِىّ
وخمسة وافوْا مع العَشىّ من بين جَدّىّ إلى مكىّ

* ومنَ تِهامِىٍّ إلى نجدىّ *

فقام إليها بالسوط فضربها ، فاجتمع لذلك مَنْ حوله يلومونه ، فقال : والله لولا ما قمتُ لضرْبها لَعَدّت علىّ أهل عَرفات ومِنى .

وقيل ليحيى المدينى : ما الجرحُ الذى لا يندمل ؟ قال : حاجة الكريم إلى اللئيم .

* * *

فقلت له : فهلْ تَرى أنْ أَتَرهَّبَ ، وَأَسْلُكَ هَذَا الْمَذْهَب ؟ فانْتَهَرَنِى انتهارَ المؤدِّب ، عند زلّة المتأدِّب ، ثمّ قال : ويلك ! أتقتدى بالرّهبان، والحقُّ قد استَبان ! أفٍّ لك ولِوَهْنِ رَايِك، وتبًّا لك ولأُولئك

أَتُراكَ ما سمعت بأنْ لا رهبانيّة فى الإسلام ، أو ما حدّثت بنا كح نبيِّكَ عليه أزكى السلام . ثمّ أما تعلمُ أن القرينةَ الصالحة تَرُبُّ بيتَك، وتلبِّى صوتَك، وتغُضّ طَرْفَك، وتُطَيِّب عَرْفك، وبها تَرَى قُرَّة عَيْنِك، وريحانةَ أَنْفِك، وفَرْحةَ قَلْبِك، وخُلْدَ ذِكْرِك، وتَعِلَّة يَوْمِك وغَدِك ! فكيفَ رغبتَ عن سُنَّة المُرْسَلين، ومُتْعَةِ المتأهّلين، وشِرْعَة المُحْصَنين ومجلبةِ المال والْبَنين : والله لَقَدْ ساءنى فيك ، مَا سَمِعْت مِنْ فِيك . ثمّ أعرض إعراض المغضَب ، ونَزَا نَزَوَان العُنظَب ، فقلت له : قاتلك الله ! أتَنْطَلِق مُتَبخْتِراً ، وتَدَعُنَى متحيِّراً ! فقال : أظنّك تدّعى الخَيْرة ، لِتَجْلِدَ عُمَيْرة ، وتَسْتَغنِى عن المُهَيْرة . فقلت له : قبَّح الله ظَنَّك ، ولا أشبَّ قرنَك . ثم رُحْتُ عنه مَرَاح الخَزْيان ، وتُبتُ من مشاورة الصبيان .

* * *

قوله: أترهَّب ، أى أترك التزويج، والتَّرهب ترك النساء .انتهزنى : زجرنى وأخذنى بلسانه . زَلّة : سقطة . استبان : ظهر . الأفّ وسخ الأذنين ، والوهن : الضعف والخسران . ولأولئك، إشارة للرهبان . السَّكن : الزوجة يُسكَن إليها تَرُبّ : تصلح . تلبّى : تجيب . تَغُضّ طرفك ، أى تحصّنك وتمنَعك من نظر النساء . عَرْفك : ريحك الطيب . وقرّة العين : ما يتمنى وتقرّ به العين .

ريحانة : شجرة طيّبة الريح ، وريحانة من صفة المرأة . قال علىّ رضى الله عنه فى وصيته لابنه محمد بن الحنفية : « لا تملِّكن المرأة من الأمر مايتجاوز نفسها فإن المرأة ريحانة وليست بقهرمانة ، وإن ذلك أدْوَمُ لحالها وأرضى لبالها » .

رفع المسهم

وما أحسن ما قال ابن اللّبـــانة يرثى أختَ المرتضى صاحب مُيورقة ، وماتت بعد أخيها :

أبنْتَ العـلا جدَّدْت منعى على منعى
مضَى المرتضى أصـلاً وأتبعتِه فرعَا
جرى الموت جَرْىَ الريح فى منبتيكما
فأذوَاكِ ريحـــانًا وكسَّرَهُ نَبْعَا

تَعِلة : أى تتعلّل وتنتفع بما عندها من القيام بمؤنتك . ومُتعة : ما يُتمتّع به ويتلذذ . المتأهلين : المتزوّجين الذين لهم أهل . شِرْعة : طريقة . المحصَنين : المتزوجين . نزا : وثب وارتفع . العُنْظُب : ذكر الجراد .

[فصل فى الزواج واختيار الأزواج]

ونذكر هنا فصلا يليق بهذا الموضع .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعطاف بن وداعة الملالى : « يا عطّاف ألك امرأة ؟ قال : لا قال : فأنت إذًا من إخوان الشياطين ، إن كُنْتَ من رهبان النصارى فالحق بهم ، وإن كنت مِنّا فسنّتنا النـكاح » .

أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ركعتان من المتأهّل خير من اثنتين وثمانين ركعة من العزَب » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « تزوّجوا الوَلُود الودود من من النّساء فإنى مكاثرٌ بكم الأمم » .

وقال صلى الله عليه وسلم « النّساء ثلاث : صِنفٌ كالرحَى تحمِل وتَضَع ، وصِنفٌ كالتَرّ وهو الجرَب ، وصِنفٌ ودَود ولود تُعين زوجَها على إيمانه فهى خيرٌ له من الـكنز » .

رفع المسهم

ابن عمرو رضى الله عنهما قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « إذا أتى على أمتى مائة وثلاثون سنة فقد حلّت لهم العزبة والترهّب فى رءوس الجبال » .

وقال صلى الله عليه وسلم : الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة .

وقال خالد بن صفوان لرجل : أتزوجت؟ قال : لا ، قال: فتزوج، ثم قال بعد ساعة : لا تتزوج ، فقال : لم ؟ قال : إنك إن تزوّجت واحدة فتطهر إن طَهُرت وتحيض إن حاضت وتغضَب إن غضبت، فإن تزوّجت باثنتين تقع بين ضَرّتين ، فإن تزوجت ثلاثاً تقع بين أثافٍ ، وإن تزوجت بأربع يغلّسنَك ويُهْزِ منك . قال : أفتحرّم ما أحلّ الله لك ؟ قال : لا ، ولكن كُوزان وحِماران وعباءة وقُرْصان .

وقال رجل : أردتُ النّكاح فقلت : لأستشيرن أوّل مَنْ يطلع علىّ ، فأعمل برأيه ، فأول مَنْ طلع علىّ هبنّقة القيسىّ الأحمق وتحته قصبة ، فقلت له : إنى لأستشيرك فى النّكاح ، فقال : البِكْر لك والثّيّب عليك ، وذات الولد لا تقرْبها ، واحذر جوادى لا ينفحك .

وقال رجل لولده: يا بنىّ لا تتخذها حَنّانة ولا أنّانة ولا منّانة ولا عَشِبة الدار ولا كية القفا ، فالحنّانة التى لها ولَد من غيره فهى تحنّ إليه ، والأنانة : التى مات زوجها فهى إذا رأت الثانى أنّت للأوّل وقالت : يرحم الله فلانا ، والمنّانة التى لها مال ، فهى تمنّ به على زوجها متى احتاج إليه ، وعَشِبة الدار : خضراء الدّمن ، وقد تقدّمت ، وكية القفا : التى انصرف ابنُها أو زوْجَها من بين القوم قال رجل قد كان بينى وبين أمّ هذا أو زوجته شىء .

وسُئِل أعرابىّ عن النساء ، وكان ذَا تجربة لهنّ فقال : أفضلنّ أطولهنّ إذا قامتْ ، وأكظمهن إذا قعدَتْ وأصدقهن إذا قالت، التى إذا غضبت حلمت وإذا ضحكت تبسّمت ، وإذا صنعت شيئاً جوّدت ، التى تلزم بيتَها ولا تعصى

زوجَها العزيزة فى قومها ، الذليلة فى نفسها ، الودود الوُلود ، وكلّ أمرِها محمود .

نظر خالد بن صفوان إلى جماعة فى مسجد البصرة فقال : ما هذه الجماعة ؟ قالوا : امرأة تَدُلّ على النساء ، فأتاها فقال لها : أبغى امرأة ، قالت : فصفها ، قال : أريدها بِكْراً كثيّب ، أو ثَيِّباً كبكر ، حُلْوة من قريب ، ضخمة من بعيد ، كانت فى نعمة ، وأصابتها حاجة ، ففيها أدب النّعمة وذلّة الحاجة ، إذا اجتمعنا كنّا أهلَ دنيا ، وإذا افترقنا كنا أهل آخرة ، قالت : قد أصبتُها لك ، قال : فأين هى ؟ قالت : فى الرفيق الأعلى من الجنّة فاعمل لها .

[حكاية خالد بن صفوان مع أبى العباس السفاح وزوجهِ أم سلمة]

وقال خالد لأبى العباس السَّفَّاح ـ وكانت عنده أُمُّ سلمة بنت يعقوب بن سلمة المخزومىّ ، وكان تزوَّجها قبل الخلافة ، وحلف ألّا يتزوج عليها ، ولا يتسرَّى ـ : يا أميرَ المؤمنين ، إنّى تفكّرت فى أمرك ، مع سَعَة ملكك ، وقد ملَكَتْك امرأة واحدة ، إن مرضتْ مرضتَ لمرضها ، وإن غابت غبْتَ ، وحرَمتَ نفسك التلذّذ بالجوارى ومعرفة جلالتهنّ ، فإنّ منهنّ الطويلة العَيْداء ، والفضة البيضاء ، والعقيقة الأدْمَاء ، والرقيقة السَّمراء ، والبربرية العجزاء ، يفتنّ بمحادثتهنّ . ونأتك عن بنات الأحرار والنَّظر إليهنّ ، ولو رأيت الطويلة البيضاء ، والسمراء العيناء ، والبيضاء العجزاء ، والمولدات من البصريات والكوفيات ذواتِ الألسن العذْبة ، والقدود المهفهفة ، والأوساط المخصّرة والأصداغ المزرنقة ، والعيون المكحلة ، والثدىّ المحقّقة ، وحسن زينتهنّ وشكلهنّ ، لرأيت شَكَلاً حسناً ، فقال له : ويحك يا خالد ! ما سلك مسامعى والله كلامٌ أحسنُ مما سمعت منك . فانصرف وبقىَ أبو العباس متفكّراً . فدخلتْ عليه أم سلمة فرأته ، مغموماً فقالت له : إنى لأنكرك يا أمير المؤمنين ، هل أتاك خبرٌ فارتعت له ؟ قال : لا ، قالت : فما قصَّتُك ، فزوَى وجهَه عنها ، فلم

تزل به حتى أخبرها ، قالت : فما قلت لابن الفاعلة ؟ قال : سبحان الله ! ينصحنى وتشتمينه ! فخرجتْ مغضَبة ، وأرسلت إليه جماعة من العبيد ، وبأيديهم مقامعُ من حديد ، وأمرتهم ألّا يتركوا من خالد عضواً صحيحاً . قال خالد : فانصرفتُ مسروراً لما رأيتُ من إعجابه بما ألقيت عليه ، ولم أشكَّ أنَّ صلتى ستأتينى .

فإنّى لقاعد على باب دارى ، وإذا بالعبيد قد أقبلُوا نحوى فلم أشكَّ فى الجائزة ، فسألوا عنّى فقلت : أنا خالد ، فأهوى أحدُهم إلىّ بهراوة فوثبتُ إلى منزلى ، وعلمت أنى أُتيتُ من أم سلمة . وطلبنى أبو العباس طلباً شديداً ، وأنا مستخفٍ ، فهُجِم علىّ فى الثالث ، فقالوا : أجب أمير المؤمنين . فأيقنت بالموت ، فدخلتُ عليه وليس فى وجهى دم ، فسلّمت وجلستُ ، وإذا خلف ظهرى سِترٌ خلفه حركة . فقال لى : يا خالد أين كنت منذ ثلاثة أيام ؟ قلت : عليلاً ، قال : إنّك وصفت لى من أخبار النساء والجوارى مالم يخرق مسامعى قطّ شىء أحسنُ منه ، فأعِدْه علىّ ، قلت : نعم أعلمتك يا أمير المؤمنين أنَّ العرب اشتقت اسمَ الضرّة من الضّر ، وإن أحدهم لم يكنْ عنده أكثرُ من واحدة إلا كان فى جَهْدٍ . قال : ويحك لم يكن هذا فى الحديث ! قلت : بلى والله ، وأعلمتك أنَّ الثلاث من النساء كأثافىّ القِدْرُ يُغْلَى عليهنَّ . قال أبو العباس : برئتُ من قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم إن كنت سمعتُ هذا منكَ فى حديثك ، قلت : وأخبرتُك أنَّ الأربع شؤم مجتمع لصاحبهنَّ ، يُسْقِمْنه ويُهْزِمنه ويُشَيِّبْنَه . قال : والله ما سمعت هذا منك قطّ ! قلت : بلى والله يا أمير المؤمنين ، قال : ويحك ! وتكذّبنى ! قلت : وتريد أن تقتلَنى ! قال : مرّ فى حديثك ، قلت : وأخبرتك أنَّ أبكار النساء رجالٌ ولكن لاخُصَى لهنَّ ، قال : وسمعتُ الضَّحِكَ من وراء الستر ، قلت : وأخبرتُك أن بنى مخزوم ريحانة قريش وعندك ريحانة من الرَّياحين ، وأنت تطمح إلى غيرها من الإماء ! فقيل لى من وراء الستر : صدقتَ والله يا عمّاه وبررْت ، وبهذا حدَّثته ، ولكنه غيّر وبدّل . فقال لى

أبو العباس : مالك قاتلك الله وأخزاك ! وفعل وفعل ! فتركته وخرجت ، فما شعرت إلا برسل أم سلمة ، ومعهم عشرة آلاف درهم ، وتخت وبرذون وغلام ، فقبضتها[1] .

وفى هذا الحديث المليح تعلُّقٌ بما ذكر الحريرىّ من مدْح النّساء وذمهنّ ، وخالد بن صفوان لفصاحته أقدر الناس على مدح الشّىْء وذمه ، وقد تقدّم فى الثالثة هذا الفنّ .

[من فصاحة خالد بن صفوان]

وقال أبو العباس السفاح لخالد وعنده أخواله الحارثيّون : كيف علمك بأخوالى ياخالد ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، هُمْ هامة الشَّرَف وعِرْنين الكرم ، وغَرْس الجود ، وفيهم خصال ليستْ لغيرهم ، إنّهم لأصونُهم أمًّا ، وأحسنهم أمًا ، وأكرمهم شيما ، وأطيبهم طعماً ، وأوفاهم ذمما ، وأبعدهم هِمماً ، الجمْرة فى الحرْب ، والوفد عند الجدْب ، وهم الرأس فى كل خطب ، وغيرهم بمنزلة العُجْب . فقال : لقد وصفت يا بن صفوان فأحسنت ، فزاد أخوالُه فى الفخر ، فغضِب أبو العباس لأعمامه فقال : افخر ياخالد ، فقال : أعَلَى أخوال أمير المؤمنين ؟ قال : فأين أنت من أعمامه ! قال : كيف أفاخر قوماً هم بين ناسج بُرْد وسائس قرد ، ودابغ جلد ، دلّ عليهم هدهد ، وغَرّقتهم فأرة ، ومَلَكَتْهم امرأة !

ودخل خالد على أبى الجهم العدوىّ وهو يريد ركوبَ حمار ، فقال خالد : أما علمتَ أنّ العير عار ، وأنّ الحمار شنار ، منكر الصوت ، قبيح الفوت ، مترنِّح فى المحْل ، مرتطم فى الوحْل ، ليس بركوبة فحل ، ولا مطية رَحْل ، راكبه مقرِف ، ومسايره مشرف . فاستوحش العدوىّ من رُكوبه ، فركب فرساً وركب خالد الحمار ، فقال : ويحك يا خالد ! أتنهى عن شىء وتأتى مثله ! قال : أصلحك الله ، عِيرٌ من بنات الكداد ، أسحم السربال ، مدمج الأوصال ،

(١) الخبر فى مروج الذهب للمسعودى ٢ : ٢٧٥ ـ ٢٧٨

مملج القوائم ، يحمل الرّحلة ، ويبلغ العقبة ، ويمنعنى من أن أكونَ جبَّاراً عنيداً ، أو ملـكا شديداً،فقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين ! ذلك لك، وهذا لى . فتبسّم العدوىّ .

[ذكر مقاطيع فى أوصاف النساء]

ثم نرجع إلى جملة مقاطيع من أوصاف النساء تتبين بها أوصافهنّ ، قال العديل بن الفرخ :

لعِبَ النَّسِيم بهنّ فى أظـلَالِهِ ... حَتَّى لَبِسْنَ زمان عيش غافلِ
يأخذْنَ زينتهنّ أحسن ما يُرى ... وإذا عُطِّلْن فهنّ غـير عواطلِ
وإذا أرِنّ خدودهنّ أرِينَها ... حَدَق المهى وأخذنَ سَهْمَ القاتلِ
ورَمَيْنَنِي لا يَسْتَتِرْن بُجنّـةٍ ... إلاَّ الصِّبَا وعَرَفْن أين مقاتلِى

وقال العباس بن طرخان :

تَقَسَّمْنَ قلباً كان مجتمعَ الشَّمْلِ ... وفرَقَنهُ بين المَسَالِكِ والسُّبْلِ
زَرَعْنَ الهوى فى القلب ثم سقينه ... صَبابات ماء الشوق بالأعْيُن النّجْلِ
رَمَيْنَ فلما أن أصَبْنَ مقاتلِى ... تولَّيْنَ وانضَمَّت جِراحى على النّبْلِ

وقال البحترى :

لمَّا مشيْنَ بذِي الأراكِ تَشَابَهتْ ... أعطاف قُضْبَانٍ به وقُدُودِ[1]
فى يمنتى حِبَرٍ ورَوْضٍ فالتقى ... وشْيَان : وَشْيُ رُبًا ووَشْيُ بُرودِ
وسَفَرْنَ فامتلأتْ عيونٌ راقَها ... وردان : وَرْدٌ جَنًى وورْدُ خدودِ
ومتَى يساعدنا الوصالُ ودهْرنا ... يومان : يوم منى ويوم صدودِ !

---

(١) ديوانه ٦٦٨.

رفع المسهم

وقال التهامى :

ماتَتْ لفقـــدِ الظَّاعِنين ديارُهُمْ فكأنهم كانوا لهـــا أرْوَاحا[1]
لا عيب فيهم غـــير شحِّ نسائهم ومِنَ السماحة أن يكنّ شحاحا
طرقته فى أترابِهـــا فجلَتْ له وهناً من الغرر الصِّباح صباحا

وأنشد الأصمعى :

خُزاعِيّه الأطرافُ مُرِّيّة الحَشَى نِزَاريّة العينـــين طائيّة الفَمِ
لها حُكْمُ لقمانٍ وصورةُ يوسف ونَغْمَـةُ دَاوُدٍ وعِفَّة مَرْيَمِ

وقال الأسعد بن نبيط :

غُلَامِيَّةٌ جاءت وقد جَعَـل الدُّجى لحاتمِ فيهـــا فصّ غانيةٍ خَطَّا
فقلت : أحاجيها بما فى جفونهـــا وما بالشفاه اللُّعس من حُسْنِهَا المعطَى
محبّرة العينين من غير سَكْرةٍ متى شربت ألحاظ عينيك إسْفَنْطا
أرى صُفْرَة المِسْوَاك من حُمْرة اللَّمَى وشاربك المخضرّ بالمسْـك قد خُطَّا
عَسَى قَدَحٌ قبَّلتِـــه فإخاله على الشفة اللَّميـــاء قد جاء مُنْحَطَّا

فتصور فى البيتين قبل هـذا أحسنَ مقابلة ، وتصوّر فى البيتين من آخر هذه القطعة ثلاث تشبيهات شبّهت بشىء واحد يتضمنها جميعاً !

وقال ابن شرف :

قامَتْ تجُرُّ ذيولَ العَصْبِ والحبرِ ضعيفةَ الخَطْوِ والميْـاق والنَّظَرِ
تخطُو فتولِى الحصا من حَلْيِها نُبَذاً وتخلِطُ العنـــبَرَ الوردىّ بالعَفَرِ
تلفَّتَتْ عن طلاً وْسَنَانَ وابتسمتْ عن واضحٍ مثل نَوْرِ الرَّوضة المطِرِ

---

(١) ديوانه ١٠

مالذّ للعين نومٌ بعد ما ذكرتْ ... ليلاً سمرناه بين الضّال والسَّمُرِ
تساقَطَ الطلُّ من فوق النّحور بهِ ... تَساقُطَ الدُّرِ فى اللَّبّات والثَّغَرِ

وقال الرمادى :

شَطَّتْ نواهم بشمسٍ فى هوادجهم ... لولا تلألؤها فى ليلهنّ عَشُوا
شكَتْ محاسنَها عينى وقد عذرتْ ... لأنها بضمير القلب تنخمِشُ
شَعْرٌ ووجْهٌ تبارى فى افتخارهما ... لحسن هذا وذاك الرُّومُ والحَبَشُ
شككت فى سَقَمى منها، أفى فرشى ... إذا تأمّلت إلّا الطيفُ والفُرشُ ؟

ولبعض أصحابنا :

سَائِلْ سُقَاةَ الحىّ عن نجديّةٍ ... وردَ الحجيجُ بها سقايةَ زَمْزَمِ
صفراء كالدّينا رعُلّ تَرِيبُها ... بالزّعفران وخَدّها بالعندمِ
لبستْ بُرودَ السابرىّ فأفضلت ... من ذيلها ولبستُ جلدَ الأرْقَمِ
ياليت شعرى وهى أنْسك ناسكٍ ... لمْ تستحلّ دمَ المحبِّ المُسْلِمِ !
نبِّئْت أنّ الظاعنين بها سَعْوا ... للأجر فانقلبوا بكُبْرِ المأثَمِ
سفكوا دماء الرائحين إلى مِنًى ... بجفونها ونجْوا بسافكة الدمِ

وهذا القدر فى هذا الموضع كاف ، وقد تضمن هذا الديوان مقطعات بديعة فى أوصاف النساء .

[ما جاء فى الاستمناء]

قوله : لتجلد عميرة ، يقال لهذا الفعل الخضخضة والتدليك والاستمناء والاعتمار ، واعتمر الرجل : جمع يديه وضمّهما لذلك ، والإلطاف للنساء مثل الخضخضة للرّجال ، يقال منه : ألطفت المرأة، وقال القتيبى بيتاً ما سمعناه على وجه الدهر :

رفع المسهم

إذا مررتَ بوادٍ لا أنيس به فاضرب عُميرة لا عارٌ ولا حَرَجُ

آخر :

بيدى ورجلى لا عدِمْت كليهما أصبَحْت أغنى مَنْ يَرُوح ويغتدِى
أمشى على هـذِى وأنكح هذهِ فمطيّتِى رِجْـلِى وجاريتى يدى

آخر :

تسألنى عن عَتـدى وعندى فإننى يا بنـة آل مرثدِ

* راحلتى رجلاى وامرأتى يدى *

وقال أعرابىّ :

إن تبخـلى بالمركب المخلوقِ فإن عنـدى راحَتِى ورِيقِى
ودَلـكاتٍ لَسْن للتّمزيق أشهى من التصبيح والتغبيقِ

وقال الخزامىّ :

خطبتُ إلى ساعدى راحتِى وما كنتُ من شرٍّ خُطَّابِها
وما إن تكلّفتُ من مَهْرِها سوى ريقةٍ أتجرّى بهـا
فإن شئتُ أوتَى بها ثيّباً وبكراً إذا شئت أوتَى بها
ونَزّهت نفسِى عن الغانيات وعن ذِكْر سَلْمىَ وأترابها

وقال الحسن :

إذا أنتَ أنكَحْتَ الكريمةَ كُفؤها
فأنكح حسيباً راحـة لابن ساعدِى

وقل بالرّفا ما نلت من وَصْل حرّة لهـا ساحة حُفت بخمسِ ولائدِ

وقال ابن الرقعمق :

ومن بلائى أبو عمير معرَّضٌ بى إلى المنونِ
منتصباً ما ينـام وقتاً ولَيْس يهدَا من الزَّنين
من يك ذا زوجة فإنى لشقوتى زوجتى يمينى
عميرة قد جلدتُ حتى خشيت والله تجلدونى
فراقبوا الله فى يمينِى وخلِّصوها وزوّجونى

وقال آخر يشتكى غلظ يده :

لو أنها لَدْنَةٌ قضيتُ من وطرِى لكنه خَشِنٌ أربى على السَّفِنِ
أشكو إلى الله نعظاً قد مُنِيت به وما ألاقى من الإملاق والحزَنِ

آخر :

ومغتابٍ إذا نبحَا يظنّ سواه قد جُرحَا
ومَنْ لم يدر لم يألم فعاد عليـه ما اجْتَرَحَا
كنا كح كفّه يَنْوى فتاةً كانَ قَدْ لمحا
وما نـكح الفتى أحداً ولـكنْ نَفْسَه نـكحَا

فنـكاحُ الـكفّ هو جَلْد العميرة .

قال ابن أبى الأزهر : مررت على بَرذعة الموسوس ، وقد أدخل يدَه فى جَيْبه ، وهو يخضخض ، فضربتُه برجلى ، فانـكشف ، فإذا هو منعظٌ ، فقلت : ما هذا ؟ فقال : أما تَرى تلك ! وأشار بيده إلى جارية جميلة فى عِلِّيّة متطلعة ، فقال : إنى دعوتها إلى نفسى فلماً لم تجبنى أجبتها ، فقلت : قبّحك الله ! وولّيتُ عنه. فلم يلبث أن لحِق بى ، وَقال : قضيتُ الحاجة على رغم أنفك ، ثم أنشدنى :

أأنـكرْت ماعايَنْتَ من كنّ دالِك وهل يُنـكَرُ التدليك فى قول مالِك

لقد أمِنَ الدُّلاَّكُ من أن تنالهمْ حُدود الزِّنا فى واضحاتِ المسالكِ
وإنّى قد سكّنت عــزمة عملتى بحسن عيون والثدىّ العواتك

كذب على مالك والشافعى ، وعامةُ العلماء يحرّمون الاستمناء ، وحجتهم قولُهُ تعالى : ﴿والَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إلَّا على أزواجِهِمْ أو مَامَلَكَتْ أيمانُهم فإنَّهُمْ غيرُ مَلُومِينَ﴾ .

الفنجديهى : وقد جاء فى تحريم الخضْخضة حديث مشهور ، وسندُه إلى أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ، ولا يزكّيهم ولا يجمعهم مع العالمين ، ويُدْخِلهم النار مع الداخلين ؛ إلا أن يتوبوا ، فمن تاب تاب الله عليه : الناكح يده ، والفاعل والمفعول به ، ومُدمِن الخمر ، والضّارب أبويْه حتى يستغيثا ، والمؤذِى جيرانَهَ حتى يلعنوه ، والناكح حليلةَ جارِه » . وإنّما رُوِيت الرخصة فى ذلك عن عمرو بن دينار .

وروى عن ابن عباس أنه سئل عن الخَضْخضة فقال : نكاح الأَمَة خيرٌ منها وهى خير من الزنا .

الأزهرى : أبو عمير ذَكَر الرجل .

الفنجديهى : سمعتُ الحافظ أبا العلاء يقول : الخضخضة على مذهب الإمام أحمد بن حنبل جائزة لمن استولَتْ عليه الشّهوة حتى خاف على نفسه إتيان الفواحش .

أبو الفرج محمد بن أبى جعفر الطائىّ بهَمَــذَان ، قال : أنشدنا الإمام أبو المظفّر المعاوِى لنفسه ، وكان من أروع الفضلاء وأزهدهم :

خليلىّ لا بغــداد تدنُو فتنقضِى همومى ولا الرىّ البغيضة تبعدُ
فليس من الأنصاف والعدلْ أنكم تنيكون ربّات الحجال ونُجْلَدُ
وترْضونَ بالحرمان للفيْشة الّتى على غضب باتت تقومُ وتقعــدُ

رفع المسهم

فلا تحسبو جَـلْدِى عُميرة وصمةً علىّ فقد أفتى بهـا الشَّيْخُ أحمدُ
ولو وسعتها راحـتى لاحتملتُها فما حيلتى إذ ضاق ذرعاً بها اليدُ

وذكر بيتين آخرين .

قال : وأنشدنى إمام أهل اللغـــة أبو المعالى إسماعيل بن الحسن البديع لبعضهم :

إنّمـــا همِّى كُسَيْرَهْ نشفت ماء قُدَيرَهْ
وخميرةٌ فى ذُكَيرَه بُلْغَتِى منها سُكَيْرهْ
وغلام أو فتـــاة قد كِفى جلدَ عُمَيْرَهْ
مَنْ رأى عيشىَ هذا عاش لا يؤثر غَـيرَهْ

قال : وأنشدنى البديع أيضاً لبعضهم :

يا سيدى نحن فى زمان أبدلَنا الله منـه غَيْرَهْ
فكل ذى خِسَّةٍ وذلٍّ مَتّـع بالطّيبات أيرَهْ
وكل ذى فطنة وكَيْسٍ يجـلِد فى بيته عُمَيْرَهْ

* * *

قوله : أشَبَّ قرنك : يُدْعَى بذلك للصبىّ أن يكبُر وتطول قامته ، كما تقول للصبىّ فى ضدّ ذلك: لا كبرّك الله . ويقال : شبَّ الصبىّ يشِبُّ بكسر الشين شَباباً بفتح الشين وكسرها ، إذا طال ونَما جسمهُ والصبىّ شاب ، وأشبَّ الله قرنه، أى جعله شاباً أسود الذؤابة ، والقَرْن الضفيرة ، وهى الذؤابة وقيل: القَرْن جانب الرأس . المَرَاح كالرَّواح . الخزيان : المُهان والمستحيي ، وخِزىَ يَخْزَى خِزْياً : أهين ، وخزايةً استحيا ، فهو خَزْيان أى مستحى ، وقوم خزايا .

وتُبتُ من مشاورة الصبيان ، قال عمر رضى الله عنه : خصلتان من علامة الجهل : مشاورة النِّساء والصبيان ، واستكتام السرّ النساء والصبيان .

* * *

رفع المسهم

قال الحارث بن همام : فقلتُ له : أُقْسِم بِمَنْ أنبتَ الْأَيْك ، أنَّ الجـدَل مِنْك وإليك ؛ فَأَغْرَبَ فى الضَّحِك ، وطَرِب طَرْبَةَ المُنْهَمِك ، ثم قال : الْعَقِ العسل ، ولا تَسَلْ ، فأخـذتُ أُسْهِبُ فى مدْح الأدب ، وأفضِّل ربَّه على ذِى النَّشَب ، وهو ينظر إلىَّ نظرَ المستهجِل ، ويغضى عنِّى إغْضاءَ المتمهِّل . فلما أفرطتُ فى الْعَصَبِيَّة ، لِلْعُصْبةِ الأَدَبيَّة ، قال لى : صَهْ ، واستمع منِّى وافْقَهْ :

يَقُولُونَ إنَّ جَمالَ الْفَـتَى وزينتَـهُ أدبٌ رَاسِـخُ
وما إن يَزِينُ سوَى المـكثرين ومَنْ طَوْدُ سُـودَدِه شامِخُ
وأمَّا الفقيرُ فخـيرٌ لَهُ من الأدب القُرْصُ والكامِخُ
وأىُّ جمالٍ أن يقـال أديبٌ يعـلِّمُ أو نَاسِخُ !

ثم قال : سَيَضِحُ لك صدق لَهْجَتِى ، واستنارة حُجَّتى .

* * *

الأيك : شجر . الجدَل منك وإليك ، أى إنّما كان هـذا الخصام بينك وبين نفسك ، ولم يكن ثَمّ صبى تحاوره ، أى أن حديثَك مصنوع لاأصل له .

[بعض الحكايات المصنوعة]

ومن مستعمَل الأخبار المصنوعة مايحكى أن حبيب بن أوس ، قال : لقِيَنا أعرابىٌّ ، وقد خرجتُ فى أيام الواثق إلى سرّ مَنْ رأى ، فقلت له : ممنْ ؟ قال : من بنى عامر ، قلت : كيف علمك بعسكر أمير المؤمنين ؟ قال : قَتَل أرضاً عالِمُها ، قلت : ما تقول فى أمـير المؤمنين ؟ قال : وثِق بالله فكفاه ، أشجى العاصية ، وقَمَع العادية ، وعدل فى الرعيَّة . قلت : فما تقول فى أحمد بن أبى دواد ؟ قال : هَضْبة

لا ثرام ، وجبل لا يُضام ، تشْحَذله المُدَى ، وتُنْصَب له الحبائل ، حتى إذا قُيِّد وثب وثبةَ الذئب ، وَخَتل خَتْل الضّب . قلت : فمحمد بن عبد الملك ؟ قال : وسعَ الدانيَ شرُّه ، ووصل البعيد ضُرُّه ، له فى كل يوم صريع ، لا يُرَى فيه أثر نابٍ ، ولا نَدَب مِخْلب ، قلت : فما تقول فى الفضْل بن مروان ؟ قال : ذلك الرجل نُشِرَ بعد ما قُبِر ، فعليه حياة الأحياء ، وخَفْته الموتى . قلت : فابن الخصيب؟ قال : أكَل أكلة نَهِم،وذرق ذرقة بَشِم ، قلت : فأخوه إبراهيم؟ قال: أمواتٌ غير أحياء وما يشعرون أيان يُبْعثُون ، قلت فأحمَدُ بن إبراهيم ؟ قال : لله دَرُّه! أىّ رجل هو ! اتَّخذ الصَّبر دثاراً، والحق شعاراً ، وإن هوّن عليه يهمّ ، قلت : فسليمان بن وهب ؟ قال : ذلك رجلُ السلطان ، وبهاء الدّيوان ، قلت : فأخوه الحسن ؟ قال : عُودٌ نضير ، غُرِسَ فى منابت الكرْم حتى إذا اهتزّ لهم حَصَدُوه ، قلت: فإبراهيم بن نجاح ؟ قال : ذلك رجَلٌ أوثقه كرمُه ، وأسلمه حسبُه ، وله دعاء لا يُسلِمه ، وربٌّ لا يخذله ، وخليفة لا يظلمه ، قلت : فنجاح ابن سلمة ؟ قال : لله درّه أىّ طالبِ وتْر ومدرك ثأر ! يلتهب كأنه شعلة نار ، له من الخليفة فى الأنام جلسة تزيل نعماً ، وتحلّ نقماً ، قلت : يا أعرابىّ أين منزلك ؟ قال : اللهمّ غَفْراً إذا اشتمل الظَّلام،وألتحف الليل،فحيثما أدركنى الرّقاد رقدت ، ولا أخلق وجهى بمسألتهم ؟ أما سمعت هذا الطائىّ يقول :

وما أبالى وخيرُ القوم أصـــدقُه حَقَنْتَ لى ماء وجهى أو حقنْتَ دمى

فقلت له : أنا قائل هذا الشعر ، قال : أنَّك لأنت الطائى ! قلت : نعم ، قال : لله أبوك ، أنت الذى تقول :

ماجودُ كفّك إنْ جَادَتْ وإن بخلت من ماء وجهى إذا أخلقتَـــه عِوَضُ

قلت : نعم ، قال : أنت أشعر أهل زمانك .

ونُمِى خبره إلى ابن أبى داود فأوصله إلى الواثق ، فأعطاه ألف دينار ، وأخذ له من أهل الدولة ما غَنِىَ به عَقِبُه بعده .

رفع المسهم

وهذا الخبر خرج عن أبى تمـام ، فإن كان صادقاً[1] وما أراده ، فقد أحسن الأعرابىّ الوصف،وإن كان صنعه فقد قَصَّر إذ منزلتُه أكبر من هذا .

* * *

قوله : أغرب ، أى أكثر الضحك حتى دمعتْ عيناه . المنهمك : المبالغ الطرب . العق العَسَل ولا تسَلْ ، معناه إن طابَ لك الكلام فاحفظْه ولا تسل عن صدقه ولا باطله ، كما إذا وجدب العسل حلواً فلا يلزمك السؤال عن نَحْله وقد قال فيما مضى :

* ولا تسأل الشَّهد عن نَحْلِهِ *

فهذا هو ذلك . أُسهِب : أبالغ وأكثر . ذى النّشب : صاحب المـال . يغضى : يتغافل . المستجهل : الذى يحسَبُنى جاهلا . المهل : المؤخّر ،وقد أمهله أى أخّره . صه : معناه اسكت. القُرْص : الخبز ، وتسمّى الخبزة قرصة ؛ لأن الخابز يقرصُها من العجين ، أى يقطعها .

[الـكامخ]

والـكامخ : شىء يصنع من اللّبن الحامض ، وهو أنواع .

وقد قُدِّم لأعرابىٍّ كامخ ، فقال : ما هـذا ؟ قالوا : كامخ ، فقال : قد علمت فأيُّكم كمخ به ؟ يقال : كمخ البعير إذا أخرج تَلَطه رقيقاً .

وقُدِّم لأعرابيّين كامخ ، فذاقَه أحدهما ، فلم يستطبْه ، فقال : هـذا خرء ، وذاقه الآخر فاستطابه ، فقال : يوشك أن يكون خرء الأمير !

وقدِّم لأعرابىّ كامخ فلم يستطبْه قال : ما هـذا ؟ قالوا كامخ ، قال : ومن أىّ شىء صُنع هذا ؟ قالوا : من الحِنْطة واللّبن قال : أبوان كريمان : وما أنجبَا .

---

(١) الخبر فى أخبار أبى تمام للصولى ٨٩ ــ ٩٣

وقُدّم لأعرابى كامخ ، فلم يستطِبْه ، وأكل منه شيئاً وخرج ، ودخل المسجد والإمام فى الصلاة يقرأ : ﴿ حُرِّمَتْ عليكم الميتة والدّمُ ولَحْمُ الخِنزير ﴾، فقال الأعرابىّ : والكامخ لا تَنْسه أصلحك الله !

وقيل : هو طعامٌ يؤتدَم به .

وقيل : هو البقل فى الطعام مثل الكبر والزّيتون والمرىء والعنّاب إذا غلب طخاء الشحم على المِعدة ، أخذ الرَّجُل منه شيئاً ، فانجلى عن معدتِه ، وتنشَّط للأكل .

وقال أعرابى يصف إبطيه بالنَّتَن :

كأن إبْطَىّ وقد طال المَدَى نفحة خُرْءٍ من كَوامِيخ القُرَى[1]

الأصمعىّ : قدم علينا أبو طَيْبَة الأعرابىّ بعد ما خرج إلى البادية ، وتفقّه ، فقلنا له : ما قولك فى البيْض ؟ قال : حرام ، فقلنا : ولم ؟ قال : لقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِين هَادُوا حَرَّمْنا كلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ والدجاج عندى من ذوى الأظفار . قلنا : فما قولك فى الكامخ ؟ قال : حرام ، قلنا : ولم ؟ قال : لقوله تعالى : ﴿ خُلِقَ الإنْسَان منْ صَلْصَالٍ كَالْفُخَّار ﴾ ، والكامخُ يتخّذ من الفخار ، فأظنُّ بينه وبين الجلْد نسبا .

قوله : وافقه ، معناه افهم . راسخ : ثابت . المكثرين : الأغنيـــاء . طَوْد سؤدده : ارتفاع سيادته . والطَّوْد : الجبل . شامخ ، أى ثابت مرتفع . وقال النبى صلى الله عليه وسلم « يأتى على النَّاس زمان مَنْ لم يكن معه فيه أصفَرُ وأبيض لم يتمتّع العيش » ـ يعنى الذهب والفضة .

وقال مهيار الديلمىّ :

تشرف بحظٍّ فإن الحظوظَ حُلَى كلِّ ذى نسبٍ يفضُلُ[2]

(١) عيون الاخبار ٤ : ٦٣ (٢) ديوانه ٣ : ١٢٦

رفع المسهم

وما الحظّ فى أدبٍ مُفْصحٍ وَمِنْ دونه نسبٌ مُجهـلُ
تُرَاضِى الفتى رتبة وهو حيث يجعلُه ماله يُجْعَـلُ

وقال ابن قاضى ميلة :

أسْعد بجـدِّك لا تـكونُ أديبا أو أن يرى فيك الورى تَهْـذِيبا
إن كنتَ مستوياً ففعلك كلُّه عِوجٌ، وإن أخطأت كنت مصيباَ
كالنَّقش ليس يصحُّ معنى خَتْمِه حـتَّى يكون بناؤُه مقلوباَ

قوله : لَهْجتى ، أى منطقى ، وقيـل : هى جَرْس الـكلام ، وقيل : هى طَرَف اللسان ، وفلان فصيح اللَّهجة ، وهى لغته التى جُبِل عليها فاعتادها ونشأ عليها . استنارة : ظهرر نُورِها .

* * *

وسِرْنا لا نَألُو جُهْـداً ، ولا نستفيق جَهْداً ؛ حتَّى أدَّانا السَّير ، إلى قريةٍ عَزَبَ عنها الخَيْرُ ، فدخلناها للارْتِيَاد ، وكِلاَنَا مُنْفِضٌ من الزّاد ؛ فما إنْ بَلَغْنَا المَحَطّ ، والمناخَ المُخْتَطّ، أو لَقِينَا غلاماً لم يبلُغ الحِنْث وعلى عاتقه ضِغْث. فحيَّاه أبو زيدٍ تحيَّة المُسْلم ، وسأله وَقْفَةَ المُفْهِم ، فقال : وعمَّ تسأل وفّقك الله ؟ قال : أيُبَاع هاهنا الرُّطَب بالخُطَب ؟ قال : لا والله . قال : ولا البَلَحُ بالمَلَح؟ قال : كلاَّ والله ، قال . ولا التَّمر بالسَّمَر؟ قال : هيهـات والله . قال : ولا العَصائد بالقصائد ؟ قال : اسْكُتْ عافاك الله . قال : ولا التَّرائِدُ بالفرائد ؟ قال : أين يُذهبُ بِكَ أَرْشَدَك الله ! قال : ولا الدَّقيق بالمعنى الدَّقيق ؟ قال : عَدِّ عن هذا أصلحك الله !

* * *

رفع المسهم

نألو : نقصّر . جهداً : طاقة واجتهاداً . نستفيق جُهْداً : نستريح من المشقة. أدَّانا : أوصلنا . والقرية : فى كلامهم: الموضع الّذى يجتمع الناس فيه ، وقَرَيْتُ الماء فى الحوض جمعتُه فيه . وعَزُب : بَعُد . للارتياد : لطلب ما يُؤْكل . مُنْفِض : فارغ ، وأنْفَضَ : فنِيَ زادُه فنفض مِزْودَه من الفُتات . المحطّ : المنزل الّذى تُحَطّ فيه الأحمال . والمناخ : مثلُه فى المعنى . والمُختطّ : المُعْلَم عليه بخطّ ، وكلُّ موضع أردتَ حمايتَه ومنعَه خَطَطْتَ عليه بخطّ ، فمن رآه علم أنه محميٌّ فاجتنبه . الحِنْث : الإثم ، أى لم يبلغ حَدَّ التكليف ، وهو الحلم فيكتب عليه إثم . على عاتقه ضِغْث ، أى على عُنُقه حزمة حَشيش ، والعاتق : ما بين المَنْكِب والعنُق ، والضِّغْث قبضةٌ من أخلاط النبات أو من قُضْبَان مختلفة . المُفْهِم : المخبر المبين . أيباع هاهنا الرُّطَبُ بالحَطَب ؟ الرُّطب والبلح نوعان من التَّمر . والسَّمَر : السهر باللَّيل على الحديث . هيهات ، أى بعد .

ابن عباسٍ رضى الله عنهما : ما باع الدقيق برٌّ ولا فاجرٌ إلَّا أصفرّ لونُه وقسا قلبُه ، ونُزِعت الرَّحمةُ من قلبه .

الفرائد : جواهر الكلام . أين يذهب بك : أين تتلف وتضلُّ ! ولذلك دعا له ، فقال : أرشدك الله ، أى هداك الطريق . عَدّ : كُفَّ واصْرف .

* * *

واسْتَحْلَى أبُو زيدٍ تَراجُعَ السُّؤالِ والجوَابِ ، والتَّكَايُلَ مِنْ هذا الجِرَاب . ولَمَحَ الغلام أن الشَّوْطَ بَطِين ، والشَّيْخَ شُوَيْطِين ، فقال له : حسبُك يا شيخُ قد عَرَفْت فنَّك ، واسْتَبَنْتُ أنَّك ، فخذ الجوابَ صُبرَة ، واكْتفِ به خُبْرَة ؛ أمَّا بهذا المكانِ فلا يُشْتَرى الشِّعْرُ بشَعِيرة ، ولا النَّثْر بنُثارَة ، ولا القَصَصُ بقُصاصة ، ولا الرِّسالة بغُسَالة ، ولا حِكَمُ

لُقْمان بلُقْمة ، ولا أَخْبَارُ المَلَاحِمِ بِلَحْمة . وأما جيلُ هذا الزمان ، فما منهم من يَمِيح ، إذَا صِيغَ لَهُ المَدِيح ، ولا مَنْ يُجيز ، إذا أنشِد له الأَرَاجيز ، ولا مَنْ يُغيث ، إذَا أَطْرَبَهُ الحَدِيث ، ولا مَنْ يَمِير ، ولو أنَّه أمِير . وعندَهم أن مثلَ الأديب ، كالرَّبع الجديب ، إن لَمْ تَجدِ الرَّبعَ دِيمة ، لم تكن له قِيمة ، ولا دَانَتْه بَهِيمة . وكذلك الأَدَب ، إنْ لم يَعْضُدْه نَشَب ، فَدَرْسُه نَصَب ، وخَزْنه حَصَب . ثم انْسَدَرَ يَعْدو ، وولَّى يَحْدُو .

* * *

لمح : نظر . الشَّوْط : الطلَق والجرْى إلى الغاية : الأخفش الشَّوْط أن تأتِيَ إلى موضعٍ تريده ، ثم ترجع وإن رجعت إليه مرَّة أخرى ، فذلك شَوْطٌ آخر ، ومن الحجر إلى الحجر شَوْط : وجَرَى الفرسُ شوطًا إذا بلغ مجراه ثم عاد . بَطِين : متَّسِع ، ومعناه : علم أن كلام الشيخ كثير . ورجل بطين : عظيم البطن ، وكيس بطين ، أى ملآن ، وأخذه من قول كعب بن زهير :

وَزَحْزَحْنَ بين أدانى الغضى وبين عُنَيْزَة شـــوطًا بَطِينا

شُويطين ، أى دويهية لا تقاوم ، وتصـغيره بمعنى التعظيم . حسبك : يكفيك . فنّك : نوعك وطريقك . استبنت أنّك ، أى تحققت أنك داهية : صُبرَة : أى جملة بغير كيل ، وكَدْسُ القمح ، وما يكال يُسمَّى صُبْرَة . اكتف : اقتنع . خبرة : اختبار . النثر : ضد النظم مثل التراسل والخطب . والنُّثار : ماتناثر من الشيء ، أى تفتّت ، تقول : نثرت الشيء أى رميتُ به مُفْتَرِقًا ، واسم ما يتساقط منه النُّثارة . والقَصَص : أخبار المتقدمين . والقُصَاصة : ما تساقط من الشَّعرِ إذا قُصَّ . والغُسالة : الماء الذى قد غُسِل به بقيَّة الطعام أو غير ذلك

رفع المسهم

ويروى : « بفضالة » ، مكان غسالة ، والفُضَالة من الزرع إذا غُرْبِل تبقَّى فى الغربال فتدرَس بعد ذلك ، ويخرَج ما فيها من الزَّرْع .

وأنشد الفَنْجَدِيهىّ فى هذه المعانى :

عرضت على الخبَّاز نحوَ المبرَّدِ ... وكُتْبًا حِساناً للخليل بن أحمدِ
ورؤيا ابن سيرين وخَطّ مهلهلٍ ... وتجويد عمرٍو بَعْدَ فقه محمّدِ
وأنشدته شعر الكُمَيْتِ وجَرْوَلٍ ... وغنَّيْتُهُ لحنَ الْغَرِيضِ وَمَعْبَدِ
فما نفعتْنِى دون أن قلتُ هاكها ... مدوّرة صُفْراً تطنّ على اليدِ

وقال أخبرنى أبو المحاسن بن أبى العلاء بن محمد الأديب ، قال : أنشدنيه لنفسه أبو يوسف بن محمد يعقوب الأديب .

[ذكر لقمان عليه السلام]

قوله : ولا حكم لقمان بلقمة ، فى لقمان سَبْعَةُ أقوال :

قال قتادة : خيَّره الله بين النبوَّة والحِكْمة ، فاختار الحِكْمَة ، فقذفها عليه جبريلُ ، وهو نائم ، فأصبح ينطِق بالحكمة ، فسئِل عن ذلك ، فقال : لو أرسل الله إلىّ النُّبوّة عزمةً ، لرجوتُ الفوز بها ، ولكنَّه خَيَّرَنِى فخفت أنْ أضعُف عن النبوّة .

وقيل : كان من النُّوبة قصيراً أفْطَس الأنف .

وقيل: كان حبشيًّا .

سعيد بن المسيّب : كان أسود من سُودان مصر ، ذا مِشْفَرٍ ، حكمتُهُ حكمة الأنبياء .

وقيل : كان خياطًا .

وقيل : كان راعياً ؛ فرآه رجلٌ كان يعرِفه قبل ذلك ، فقال: ألستَ عبد بنى فلان كنت ترعى بالأمس ؟ قال : بلى ؟ قال : فما بلغ بك ما أرَى ، قال :

رفع المسهم

وما يُعْجِبك من أمرى ؟ قال : وطء النَّاس بساطَك ، وغشيانُهم بابَك ؟ ورضاهم بقولك؟ قال: يابن أخى ، إن صنعتَ ماأقولُ لك كنتَ كذلك ، قال :وما تَصْنَع؟ قال غضّ بصرى ، وكفّ لسانى ، وعفّة طعمى ، وحفظ فَرْجِى ، وقيامى بعَهْدِى ، ووفائى بوعْدِى ، وتكرِمة ضيفى ، وحفظ جارى ؛ وتركُ مالا يعنينى ؛ فذلك الَّذِى صيَّرَنِى كما ترى .

ويروى أنه قال : قَدَر الله وأداء الأمانة وصدق الحديث وترك مالا يعنينى .

أنس رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحكمة تزيد الشريف شرفاً ، وترفع المملوكَ حتى يجلسَ مجالس الملوك ، قال اللهُ تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾[1] .

وقال الإمام أبو إسحاق أحمد بن محمد إبراهيم الثعالبىّ المفسّر : اتفق العلماء على أنّ لقمان كان حكيماً ، ولم يكن نبيًّا ، إلا عكرمة فإنّه تفرّد بأنه نبىّ .

ابن عمر رضى الله عنهما : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : حقًّا أقول ، لم يكن لقمان نبيًّا ولكن كان عبداً صَمْصَامَة ، كثير التفكّر ، حسن اليقين ، أحبَّ الله فأحبَّه ، ومنَّ الله عليه بالحكمة » .

وهب بن منبّه : كان لقمانُ ابنَ أخت داود عليه السلام ، وقيل : ابن خالته ، وكان فى زمنه ، وكان داود يقول له : طوبى لك ! أُوتيتَ الحكمة ، وصرفتَ عنك البلوى ، وأُوتِىَ داودُ الخلافة وبُلِىَ بالملّيَّة . وكان داود يَغْشَاه ويقول : انظروا إلى رجلٍ أوتِىَ الحكمة ، ووُقِىَ الفتنة .

عبد الوارث: أوتى لقمانُ الحكمة فى قالةٍ قالها ، فقيل : وهل لك أن تكون خليفة فتعمل بالحقّ ؟ فقال : إن تختر لى فسمعاً وطاعة ، وإن تخيِّرنى أختار العافية. قيل : وما عليك أن تكون خليفة فتعمل بالحق ؟ قال : فإنْ أعمل بالحقّ

(١) سورة لقمان ١٢

فبالحرَى أن أنجُو ، وإن أخطىء الحق أخطِىء طريق الجنَّةِ ، وإنه مَنْ يبع الآخرة بالدنيا يخسرْهما جميعاً ، وأن أعيش حقيراً ذليلا أحبُّ إليّ مِنْ أن أعيش قويًّا عزيزاً . فشكر الله تعالى مقالتَه ، فغَطّه فى الحكمة غَطّة فأصْبَح وهو أحكم الناس

وقيل : كان عبداً نجَّاراً فقال له سيِّده : اذبح شاةً وأتنى بأطيب مُضْغَتَين ، فأتاه بالقلب واللسان ، ثم أمره بمثل ذلك ، وأن يُخْرِج أخبثَ مُضْغتين ، فأخرج القلب واللسان ، فقال له : ما هذا ؟ فقال : ليس شىء أطيَبُ منهما إذا طابا ، ولا أخبثُ منهما إذا خَبُثَا .

وأما حكمتُه فقد ذكر الله تعالى منها فى كتابه ما عُلم ، وذكر مالك فى مُوَطَّئِه منها كلاماً كثيراً ، وذكر منها فصلاً فى كتاب الجامع من الموطأ .

ومن حكمته : يا بنىّ إنَّ الناس قد تَطاول عليهم ما يوعدون ، وهم إلى الآخرة سِرَاعاً يذهبون ، وإنّك قد استدبرت الدنيا منذ كنت ، واستقبلْتَ الآخرة ، وإن داراً تسير إليها أقربُ من دارٍ تخرج منها . يابنىّ ليس غنًى كصِحّة ، ولا نعيمٌ كطيبِ نفسٍ . يا بُنىّ لا تجالس الفُجَّار ولا تماشِهم ؛ اتّق أن ينزل عليهم عذابٌ من السّماء فيصيبَك معهم ، وجالس العلماء وزاحِمْهم بركبتيْك ، فإن الله تعالى يُحْيِي القلوب الميّتة بالعلم ، كما يُحْيِي الأرضَ بوابل المطر .

أبو إسحاق الثعالبىّ بإسنادٍ له عن عكرمة ، قال : كان لقمان مِنْ أهون مماليك سيِّده عليه ، فبعثه مولاه مع عَبيدٍ له إلى بستانه يأتونه بشىء من ثمرٍ فجاءوه وما معهم شىء ، وقد أكلوا الثمَر ، وأحالوا على لقمان ، فقال لقمان لمولاه : ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً ، فاسقنى وإياهم ماء حميماً . ثم أرسِلْنَا لنعدو ففعل فجعلوا يتقيئون تلك الفاكِهة ولقمان يتقيَّأ ماء ، فعرف مولاه صدقه وكذبهم .

قال : وأوّل ما عُرِف من حكمته أنه كان مع مولاه ؛ فدخل مولاه المبرَّز فأطالَ فيه الجلوس ، فناداه لقمان : إنَّ طولَ الجلوس مع الحاجةِ لَيجع منه

رفع المسهم

الكبد، ويُورِث الباسُور، ويصعِّد الحرارة إلى الرأس، فاجلس هوينًى، قال: فخرج وكتب حكمتَه على باب الحُشِّ.

قال: وسكر مولاه يوماً فخاطر قوماً أن يشرب ماءَ بُحيرة، فلمَّا أفاق عرَف ما وقع فيه، فدعا لقمان فقال له: لمثل هذا كنت اختبأتُك. فقال لمولاه: أخرج أباريقَك ثم اجمعهم؛ فلما اجتمعوا قال: على أىِّ شىء خاطرتموه؟ قالوا: على أن يشرب ماء هذه البُحيرة. قال: فإن لها موادّ فاحبسوا عنها موادّها، قالوا: وكيف نستطيع ذلك! قال لقمان: وكيف يستطيع هو أن يشربَها ولها موادّ!

وأراد مولاه بيعَه. فقال: يا مولاى إن لى عليك حقًّا فلا تبعْنى إلاّ مِمَّن أُحِبّ. قال: لك ذلك، فكان الرَّجُل إذا جاء يستامه قال: لأىِّ شىء تريدنى؟ فقال أحدهم: تحفظ علىّ بابى. قال: اشترنى، فلما جنَّه الليل أغلق الباب، وقام يصلِّى فى الدهليز. وكان لبنات الرجل أخلاّء فجاءوا فضربوا الباب، فقلن: يا لقمان، افتح الباب، فقال: بأبى أنتنّ وأمّى! ليس لهذا اشترانى أبوكنّ، فضربْنَه ضرباً كِدْنَ أن يأتين منه على نفسه، فلما أصبح لم يخبر أباهنّ، فلما كانت الليلة الثانية عاودْنه بمثل ذلك، فلما أصبح لم يخبر أباهنّ، فلما كانت الليلة الثالثة عاودْنه بمثل ذلك، فلما أصبح لم يخبر أباهنّ، فأقبل بعضهنّ على بعض فقلن: ما جعل الله هذا العبد الأسود أوْلَى بهذا الخير منا، قال: فنسكْنَ نسكاً لم يكن فى بنى إسرائيل أفضلُ منهنّ.

عبد الله بن دينار، قال: قَدِم لقمان من سفرٍ، فاستقبله غلام له فى الطريق، فقال له لقمان: ما فعل أبى؟ قال: مات، قال: الحمد لله ملكتُ أمرى، قال: مافعلتْ أمى؟ قال: ماتت، قال: الحمد لله، ذهب هَمِّى. قال: مافعلت امرأتى؟ قال: ماتت، قال: الحمد لله جدِّد فراشى، قال: ما فعلت ابنتى؟ قال: ماتت، قال: الحمد لله سُتِرَتْ عورتى، قال: ما فعل ابنى؟ قال: مات، قال: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، انقطع ظهرى!

رفع المسهم

وقيل له : ماأقبح وجهك ! قال : أتعيب علىّ هذا النَّقْشِ أم على النقاش !

وقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « سادة السودان أربعة : لقمان والنجاشى وبلال ومِهْجع » .

وثَمَّ لقمانٌ آخر وهو لقمان بن عاد ، وهو تذكره العرب فى أخبارها ، وكان أيضاً حكيماً ، وكانت له أخت محمّقة فقالت لامرأته : هذه ليلة طهورى ، فهبى لى ليلتك ، طمعاً فى أن تعلق من أخيها بنجيب ، ففعلت فولدت لُقَيْم بن لقمان ، وفيه يقول النَّمِر بن تولب :

لُقَيْمُ بن لقمانَ من أُختِه ... فكان ابنَ أختِه وابْنَمَا[1]

وقال المسيّب يذكره :

أنتَ الرّئيس إذا هُمُ نزلُوا ... وتواجَهوا كالأسد والنَّمِرِ

ولأنت أبيَن حين تنطق مِنْ ... لقمان لمّاعىّ بالفكرِ

وقالت بنت عثمان بن وثيمة ترثى أباها :

الْوَاهب المائَةَ التِّلا ... دَلَنَا وَيَكْفِينَا الْعَظِيمَهْ

والدَّافع الخصم الألدَّ إذا تفوضح فى الخصومهْ

بلسان لقمان بن عا ... د وفَصْل خطبته الحكيمه

ألجمتهم بعد التجا ... ذُب والتَّدافع فى الحكومه

* * *

قوله الملاحم : مواضع الحروب التى تَلْتَحِم فيها الجموع ، وتختلط عند القتال وتسمَّى أخبار الوقائع والحروب ملاحِم . جيلُك : أهل عصرك . الأوان : الحِين والعصر . يميح : يعطى معروفاً ؛ ويحتمل أن يريد يسقيك ماء ، والمائح : النازل فى قَعْر البئر ، يخرج ماءها ، وقد ماح الماءَ ، إذا استقاه . صِيغ : صُنِع . يُجِيزُ : يُعْطِى الجائزة . يُغِيثُ : يتكرَّم ويجود ، وهو من الغيْث . يَمِير :

(١) اللسان (لقم) من غير نسبة .

رفع المسهم

يُعْطى الميرة . والمِيرة : الطعام المجلوب . والرَّبْع : المنزل . الجديب : الذى لا يمطر . ديمة : مَطَر دائم . دانته : قاربته . يعضّده : يقوّيه . نَشَب : مال . نَصَب : تعب . حِزْبه : أهله . والحصَب : هو الحطب الملقَى فى النار ، وكلّ ما تطعمه النار فهو حَصَب ، وهو من حَصَبْتُهُ بالحصباء ، أى رميته بها . انْسَدَر : جرى وانصبَّ فى جريه ، وانسدر البازى ، إذا انحطّ . يَعْدُو : يسرع . يحدو : يتابع الجرْى ، وكل شىء اتبعته فقد حَدَوْتَه .

* * *

فقال لى أبو زيد : أَعَلِمْتَ أنّ الأدب قَدْ بَارَ ، وولّتْ أَنصارُه الأَدْبَار ؛ فبؤتُ له بِحُسْنِ البَصِيرة ، وسلّمتُ بحكْم الضَّرورة . فقال : دَعْنا الآن من المِصاع ، وخُضْ فى حديث القِصاع ، واعلم أنّ الأسْجاع ، لا تُشبِعُ مَنْ جَاع ؛ فما التدبير فيما يُمْسِكُ الرَّمَق ، ويُطفِئُ الحَرَق ؟ فقلت : الأمرُ إليك ، والزِّمام بيديْك ، فقال : أَرَى أن ترهنَ سيفَك ، لتُشْبِع جوفَك وضَيْفَك ، فناوِلْنيه وأقِمْ ، لأنقلب إليك بما تَلْتَقِم .

فأحسنت به الظّنّ ، وقلّدته السَّيْفَ والرَّهْن ، فما لبث أن ركب النّاقة ، ورفض الصِّدْقَ والصَّداقة ؛ فكنتُ مليًّا أترَقَّبُهُ ، ثمّ نهضت أتعقّبُهُ ؛ فكنتُ كمن ضيّع اللَّبنَ فى الصَّيْف ، ولم ألقَه ولا السَّيْف .

* * *

بَارَ : هَلَك ، ومنه بارَ الطَّعَامُ ؛ إذا كسد ، وفى الحديث : « نعوذ بالله من بَوْر الأيّم » أى من كسادها . وقال الله تعالى : ﴿يَرْجُونَ تِجارةً لَنْ تَبُور﴾[1] أى لن

(١) سورة فاطر ٢٩

تكْسَد ، وقال تعالى : ﴿ وكُنتُمْ قَوْماً بُوراً ﴾ أى هالكين . قال الفرّاء : البُور يكون للمذكر والمؤنث والاثنين والجمع بلفظ واحد . أبو عبيدة رحمه الله : هو جمع بائر كعائذ وعُوذ ، ويدلّ على صحة قول الفرّاء قول ابن الزِّبَعْرَى :

يا رسول المليك إنَّ لسانى راتق مافتقتُ إذْ أنا بُورُ[1]

بؤت : رجعت . البصيرة : اليقين والاعتماد الصحيح . المِصاع : مراجعة الكلام . والمصاع فى الأصل : القتال والدِّفاع وكلّ ما عانيته بشدّة وجدّ فقد ماصعته . القِصَاع فى الأصل : صحاف الطعام . الأسجاع : الكلام المقفّر . الرَّمَق : بقية النفس . والحُرَق : جمع حُرْقة ، وأراد بطفء الحُرَق تسكينَ ألم الجوع . ما لبث : ما أقام ولا استقرّ . رَفَضَ : تركَ . الصِّدق : قول الحقّ ، والصَّداقة : الصحبة . مكثت مليًّا : أقمت زماناً . أترقّبه : أنتظر مجيئَه . أتعقّبه : أمشى فى أثره وأطلبه .

[أصل المثل : الصَّيْف ضيّعتِ اللبن]

وضيَّع اللبن فى الصيف ، مثل يُضرب لكل مَنْ ضَيَّع أمره ، ثم تعرّض لاستدراكه بعد فوته ، قاله عمرو بن عُدَس التّميمىّ ، وكان تزوَّج دَخْتَنُوس بنت لقيط بن زُرارة ـ وكان شيخاً مُسِنًّا ذا مال كثير ـ فأبغضته بسبب كِبَره وسألته طلاقَها ، فطلّقها وتزوَّجها عمير بن مَعْبد بن زرارة ـ وكان شابًّا معدِماً ـ فبينما هو معها جالس إذ مرّت بهما إبل عمرو بن عمرو بن عُدَس كالليل لكثرتها ، فقال لها عمير : ابعثى إلى عمرو يعطيك لبناً أو حلوبة ، فأرسلت إليه رسولاً بذلك ، فقال لرسولها قل لها : الصَّيْفَ ضيَّعتِ اللبن[2] ، فلما بلغها ذلك ضربَتْ على كتِف ابن عمها ، وقالت : هذا ومذقُه خير ، فيريد أنه طلّقها فى الصَّيْف فضاع لبنُها فى ذلك الوقت . وقال فى الدّرة : خصَّ الصَّيْف بالذّكر لأنها كانت سألته الطّلاق فيه ، فكأنها يومئذ ضيَّعت اللبن . والله تعالى أعلم .

(١) طبقات الشعراء ٢٠٢

(٢) جمهرة الأمثال ١ : ٥٧٥

رفع المسهم

المقامة الرابعة والأربعون وتعرف بالشتوية

حكى الحارثُ بن همام قال : عَشَوْتُ فى ليلةٍ داجيةِ الظُّلَم ، فاجِمَةِ اللِّمَ ، إلى نارٍ تُضْرَمُ على عَلَم ، وتُخْبِرُ عَنْ كَرَم ، وكانَتْ ليلةً جَوُّها مَقْرورٌ ، وجَيْبُها مَزْرُور ، ونَجْمُها مَغْمُومٌ ، وغَيْمُها مَرْكُوم ، وأنا فيها أَصْرَدُ مِنْ عَيْنِ الحِرْبَاء ، والعنزِ الجَرْبَاء ، فلم أزل أُنصُّ عَنْسِى ، وأقول : طُوبَى لَكِ ولنفسى ، إلى أن تبصّر الموقِد آلِى ، وتبيَّنَ إرْقَالِى ، فانْحَدَرَ يَعْدُو الجَزَى ، ويُنشِدُ مُرْتَجِزًا !

* * *

دَاجية وفاحمة : شديدة السّواد . واللِّمَم : جمع لِمّة ، وهى جُمّة الشعر التى ألمّتْ بالمنكِب ، أى قاربته . وجعل للّيلة لِمّة مجازاً ، وهو يريد شدّة سوادِها . تُضْرَم : تُوقد . علَم : جَبَل . جَوُّها : ناحية سمائها . مَقْرُور : بارد ، وأراد أنّ ما يجىء من جوّها من الريح والهواء بارد جدّا . مَزْرُور : مشدود بالأزْرَار ، وهى أطواق الثّياب ، وهذا يكون فى طَوْق الصّغير يُشَقّ فى صَدْر الثّوب عِوَضاً عن الجَيْب ، ويُترك من الطّوق طرفان على ذلك الشّق ، فإذا لبس الثوب شدّ الطرفين ، فيقال عند ذلك : قد زرّرتُ الثوب ، يريد أن السحاب قد تكاثف فى تلك الليلة ، فلا تبصر العين فيها لشدّة ظلامها ، لأن الثوب إذا شدَدْتَ أزراره ، لم يجد رأسُ الإنسان من أين يَخْرج ، فلمّا جعل لليلته ثوباً من الظّلام والسحاب جَعله مربوطاً مشدوداً مغموماً مستوراً . غيمها : سحابها . مركوم ، أى متراكِب بعضُه على بعض . أنصُّ عَنْسى ، أى أُجْهِد ناقتى وأتعِبُها ، والنّصّ رفْع السير ، وقالت أم سلَمة لعائشة رضى الله عنهما : ما كنتِ قائلةً لو أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم عارَضك ببعضِ الفلوات ناصّةً قَلُوصاً من منهل إلى آخَر ، ومنه نصّ الحديثَ إلى فلان ، أى رفعه إلى شخص . وإرقالى : سُرْعتى . يعدو : يُسْرِع . الجزَى : عدوٌ شديد .

* * *

حُيِّيتَ من خابط ليل سارِى هَـداه بل أهْداهُ ضوءُ النّارِ
إلى رحيبِ الْباعِ رَحْبِ الدارِ مُرَحِّبٍ بالطّارِقِ المُمْتَارِ
تَرْحابَ جَعْد الكفِّ بالدِّينارِ ليس بمزوَرٍّ عَنِ الزُّوارِ
ولا بِعْتامِ القِرى مِئْخارِ إذا اقْشَعَرَّتْ تُرَبُ الأقطارِ
وضنّتِ الأنواءُ بالأمطارِ فهو على بُؤْس الزّمان الضارِى
جَمُّ الرَّمادِ مُرْهَفُ الشِّفَارِ لم يَخْلُ فى ليلٍ ولا نَهارِ
* من نِحْرِ وَارٍ واقْتِداحِ وَارِى *

* * *

قوله : سارِى ، أى آتٍ بالليل . والخابِط : الماشى على غير عِلْم بالطريق . هداه ، من الهداية . وأهداه ، من الهدّية . رحيب الباع : كثير البِرّ . واسع العطاء : واسع البرّ . والرَّحب : المتسع . مَرْحَب ؛ يقول : مرحباً بك . والطَّارق : الآتِى بالليل . الممتار : طالب المِيرة ، وهى الطعام يُجْلَب من بلد إلى بلدٍ . جَعْد الكفّ ، هو البخيل أى يرحِّب بالضيف كما يرحِّب البخيل بالدّينار إذا وقع فى كفّه .

نظر أعرابىٌّ إلى درهم فى يد رجل ، وأدام النّظَر إليه ، فقال له الرجل : لو كان لك ما كنت صانعاً ؟ قال : كنت أنظر إليه نظرة ثم تكون آخر عهده باليد .

رفع المسهم

وكان بعضُ البخلاء إذا وقع الدرهم فى يده يخاطبه ويقول له : أنت عَقْلى ودينى وصلاتى وصيامى وجامع شملى وقرّة عينى وأنسى ، وقوّتى وعُدَّتى وعمادى ثم يقول له :

أهلاً وسهلاً بك من زائرٍ كنتُ إلى وجهك مشتاقا

ثم يقول : يا نورَ عينى وحبيبَ قلبى ، قد صرتَ إلى من يصونك، ويعرف قدرَك ، ويُعظِّم حقَّك ، ويرعى قيمتَك ، ويشفق عليك ، وكيف لا تكون كذلك وأنت تعظِّم الأقدار وتعمرُ الدّيار ، وتُفتَضُّ بك الأبكار ، وتسمو على الأشراف ، وترفع الذكر ، وتُعْلِى القَدْر ، وتؤنس من الوحشة ، ثم يطرحه فى الكِيس ، ويقول :

بنفسىَ محجوبٌ عن العين شخصُه ومَنْ ليس يخلُو من لسانى ولا قلبى
ومَنْ ذكرهُ حظىٌّ من الناس كلهمُ وأوّلُ حظِّى منه فى البعد والقربِ

مُزْوَرّ : منقبض . معتام : مؤخّر مبطىء . والقِرى : طعام الضيف ، معناه أنه لا يؤخِّر طعامَه ، ويقال : أعْتَم بإبله إذا أخّر حَلْبها ، ومنه العَتَمة لتأخّر وقتها . مئخار : كثير التأخّر . اقشعرّت : انقبضت من شدّة البرد . تُرَب : جمع تُرْبة وهى وجه الأرض . والأقطار : البلاد والنّواحى . ضَنَّت الأنواء : بخلت النّجوم ، وكانُوا يستمطرون بها . بؤس : شدّة . الضَّارِى : المعتاد ، أى الّذى عادته ألّا يكون فيه غير بُؤس . جمّ : كثير ، وإذا كثر الرماد كان عن كثرة النار ، وكثرة مايُطْبخَ عليها . مُرْهَف : قاطع . اقتداح : ضرب بالزّند . وارٍ : بعير سمين ، ووَرِىَ المخُّ : اكتنز فهو وارٍ ، وورِىَ الزّند فهو وارٍ ، أى مبدٍ للنار .

* * *

رفع المسهم

ثمَّ تلقَّانى بمحيًّا حَيِّ ، وصافَحَنى براحةِ أَرْيحىّ ، واقْتَادَنِى إلى بيتٍ عِشارُه تَخُورُ ، وأَعْشارُهُ تفُور ، وولائدهُ تَمُور ، ومَوائدهُ تدُور ، وبأكْسارِه أضيافٌ قد جَلَبهم جَالِبى ، وقُلِّبوا فِى قَالَبِى ، وهم يَجْتَنُون فاكهةَ الشِّتَاء ، ويَمْرَحُون مَرحَ ذِى الْفَتَاء ، فأخذتُ مأخذهم فى الاصْطِلاء ، ووجدت بهم وجْدَ الثَّمِل بالطِّلاء .

* * *

مُحَيًّا : وجه . صافحنى : واجهنى وقابلنى . براحة : بكفّ . أريحىّ : كريم يهتزّ للكرم . اقتادنى : ساقنى . ولائده : خَدَمُه . تَمُور : تسير وتختلف . بالطعام موائده : جمع مائدة .

أبو عبيد: سُمِّيَتْ مائدة لأنها ميدَ بها صاحبُها ، أى أُعْطِيَها وتُفُضِّل عليه بها ، والعرب تقول : مادنى فلان يميدنى ، إذا أحسن إلىّ ، فكأن المائدة تميد من حواليها مما أُحْضِر عليها ، قال رؤبة :

* إلى أمير المؤمنين الممتادْ *[1]

أى المستعطى غيرَه، سمّيت مائدة لأنها تميد بها عليها ، أى تتحرّك ، وماد الغصنُ يميد : مال ، قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا الأرض رواسىَ أَنْ تَمِيد ﴾ . الجُرْمى يقال : مائدة وميْدة وأنشد :

وَمِيْـدَةٍ كثيرة الألوانِ تُصْنَع للإخوان والجيرانِ

وذكر القولين أبو محمد فى درة الغوّاص[2] وزاد أنه لا يقال لها مائدة إلا أن يُحْضَر عليها طعام ، وإلاّ فهى خِوان ، واستدلّ بأن الحواريّين لمّا اقترحوا

(١) ديوانه ٤٠

(٢) درة الغواص ١٠

رفع المسهم

على عيسى عليه السلام أن يُنزِل عليهم مائدة، قالوا نُرِيد أن نأكُلَ منها .

قال : وحكى الأصمعىّ قال : غدوت ذات يوم إلى زيارة صديق لى ، فلقيَنى أبو عمرو بن العلاء فقال لى : إلى أين يا أصمعى ؟ فقلت : إلى صديق لى ، فقال : إن كان لفائدة أو لِعائدة أو لمائدة، وإلاّ فلا ، وهذا باب يتّسع كثيراً ، وسأسوق جملة تأتى على أكثره .

[فصل فيما قيل فى الكرم وإيقاد النار للضيف]

وهذه الحالة التى وصف من إيقاد النار هى التى كان يفعل حاتم. وكان إذا اشتدّ البرد وكَلَبَ الشتاء أمر غلامه ، فأوقد ناراً فى يفاعٍ من الأرض ، لينظر إليها مَنْ أضلّ الطريق ليلاً فيهتدى إليها ، وقال فى ذلك :

أوقِدْ فإنّ الليل ليلٌ قَرٌّ ... والريحُ يا موقِدُ ريحٌ صِرٌّ[1]
علّ يَرَى نارَكَ مَنْ يمُرُّ ... إن جلبت ضيفاً فأنْتَ حُرٌّ

ولابن هَرمة فى هذا أشعار مُستَحْسَنة منها :

أغشى الطريق بقبَّتى ورواقِها ... وأحُلُّ فى قُلَلِ الرُّبَا وأُقِيمُ[2]
إنّ امرأ جعَلَ الطَّريق لبيته ... طُنُباً وأنكر حقَّه للئيمُ

وقال مهيار :

ضَرَبُوا بَمدْرَجَةِ الطَّرِيق قِبابَهُمْ ... يتَقارَعُون على قِرى الضِّيفان[3]
ويكاد مُوقِدها يجُود بنفسه ... ـ حُبّ القِرَى ـ حَطَباً على النِّيران

(1) ديوانه ٦٠
(2) ديوانه ١٩٤
(3) ديوانه ٢ : ٥١

ولابن هرْمة أيضاً :

ومستنبحٍ تستكشط الرِّيح ثوبَهُ ... ليسقط عنه وهو بالرَّمْلِ مُعْصِمُ[1]
عَوَى فى سواد اللّيل بعد اعْتساقه ... لِيَنْبحَ كلبٌ أو ليفزَع نُوَّمُ
فجاوبه مُسْتَسْمِع الصَّوْت لِلقرى ... له عند إتيان الملبّين مَطْعَمُ
يكاد إذا ما أبصر الضَّيفَ مقبلاً ... يكلِّمُهُ من حُبِّه وهُوَ أَعْجَمُ

وقال بعض المحدثين :

ويدلّ ضيفى فى الظَّلاَمِ على القِرَى ... إشراقُ نارى أو نُباح كلابى
حتى إذا واجهنَه ولقينَه ... حيَّيْنَهُ ببصائص الأذناب
وتكادُ من عِرْفان ما عُوِّدنَه ... من ذاك أن يُفْصِحْن بالتّرْحابِ

ولابن هرْمة فى ذلك أيضاً :

كيف احتيالى لبسْط الضَّيف من حَصَرٍ
عند الطعام فقد ضاقت به حِيَلى[2]
أخاف ترداد قولىَ : « كلْ » فأقطعهُ
والسَّكتُ ينزله منِّى على البَخَلِ

وقال حاتم :

سَلِى الطَّارقَ المتارَ يا أمَّ مالكٍ ... إذا ما اعترانى بين قِدْرِى ومَجْزَرِى[3]
أيُسْفِر وجهى إنه أوّل القِرى ... وأبذلُ معروفى له دون مُنْكَرِى

(١) ديوانه ٤٩
(٢) ديوانه ١٨٢
(٣) الشعر لعروة بن الورد ، ديوانه ٩٩

وقال أيضاً :

أما والّذِى لايعرفُ السرَّ غيرُه ... ويحيى العظام البيضَ وهى رَمِيمُ[1]
لقد كنت أختار القِرَى طاوِى الحشى ... محافظـــة من أن يقال لئِيمُ
وإنِّى لأســـتحيى يمينى وبينَها ... وبين فمِى داجى الظلام بهيمُ

وقال أيضاً :

أكُفُّ يَدِى من أن تنالَ الّتِى بَهَا ... أكفُّ صِحَابى حين حاجاتُنا مَعَهْ[2]
أبيتُ هضيمَ الكشحِ مضطرمَ الحَشَى ... من الجوع أخْشَى الذمّ أن أتضلَّعَا
وإنى لأســتحيى رفيقىَ أن يَرَى ... مكان يَدِى من جانب الزّادِ أقْرَعَا
وإنّكَ إن أعطيتَ بَطْنَكَ ســؤله ... وفَرْجَكَ نالاَ مُنْتَهَى الذم أجْمَعَا

وقال أبو زياد الأعرابى :

له نارٌ تُشَبّ على يفاعٍ ... إذا النيران ألْبَسَتِ القِنَاعَا
فلم يكُ أكثرَ الفتيانِ مالا ... ولكنْ كان أرحَبَهم ذِرَاعَا

وقال آخر :

لَعَلَّ عاراً إذا ضـــيفٌ تأوَّبنى
ما كان عندى إذا أعطيت مجهودِى
جُهْدَ المُقِــلّ إذا أعطــاك نائله ... ومكثرٌ فى الغِنَى سِيَّان فى الجود

وقال آخر :

تركت ضأنى تودّ الذئب راعيَها ... وأنهــا لا ترانى آخرَ الأبَدِ

---

(١) ديوانه ٨٧
(٢) ديوانه ٦٩

رفع المسهم

الذئب يطرُقُها فى الدهر واحدة ... وكلّ يوم ترانى مدية بيدى

وقال آخر :

وسِّــع بمدّك ماء اللحم تقسِمُه ... وأكثر الشَّوْب إن لم يكثر اللّبَنُ
وسِّــع به وتلفَّتْ نحو حاضِرِه ... إنَّ الكريم الَّذِى لم يخله الفطنُ

وقال الغنوى :

لِحافِي لحافُ الضَّيْفِ والبيتُ بيتُه ... ولم يلهنى عنه غزَالٌ مُقَنَّعُ
أحدِّثه إن الحديث من القِرَى ... وتكلأ عينى عينَه حينَ يَهْجَعُ

وقال آخر :

وإنَّا لمشَّاءون بين رحالِنـــا ... إلى الضيف منَّا لاحفٌ ومُنِيمُ[1]
فدو الحلم منَّا جاهل دون ضَيْفِه ... وذو الجهل منَّا عن أذاه حليمُ

وقال آخر :

سأقدح من قِدْرِى نصيباً لجارتى ... وإن كان مافيها كِفافاً على أهلِى
إذا أنت لم تُشرِك رفيقَك فى الذى ... يكون قليلا لم تشارِكْه فى الفَضْلِ

ولبعضِ أصحابنا :

وسارٍ تَحَلَّى أنجمَ اللَّيْلِ زِينَةً ... ويلبس من ظلمائها ثَوْبَ ثاكِلِ
رَفَعتُ له نارى فآنس ضَوْءَها ... كما آنس الظمآن بَرْدُ المناهلِ
أتانا فحيَّانا فكان جـــوابُه ... صليلَ شِفار السَّيْفِ فى ساقَ بَازِلِ
وما أنا من سؤاله ممّن الفتى ... وتلك سحابا كلّ أطلس بالى
فداكَ الذى أودى بما كتسبت يدى ... وإن عادَ وفْرِى عُدْتُ غير مواكِلِ

(١) ديوانه الحماسة ١٥٧٧

[ما قيل فى البخل]

وقال آخر فى ضد ماقلناه :

أرانى من بنى حكَمٍ غريباً ... على قترٍ أزُور ولا أُزَارُ
أناسٌ يأكلون اللحم دونِى ... ويأتينى المعــاذِرُ والقَتَارُ

القتر والقطر : الجانب .

وقال آخر :

مات فى عُرْسِ سُلَيْمَا ... نَ من الجُوع جَمَاعَهْ
مات أقوامٌ وقومٌ ... حملوا فيــه القناعَهْ
لم يكن يوجد فيه الخبز إلَّا بشفاعَــهْ

آخر :

وما تُنْسِنِى الأيام لا أنسَ جوعنا ... بدار بنى بَدْرٍ وطولَ التَّلَدُّدِ
ظللنا كأنا بينهم أهلُ مأتمٍ ... على ميِّت مستودع بطنَ مَلْحَدِ
يحدّث بعضٌ بعضَنا عن مصابه ... ويأمر بعضٌ بعضَنــا بالتجلُّدِ

وفى هذا طرف من قول الآخر :

إذا ما عراكُمْ حادثٌ فتحدَّثوا ... فإنّ حديثَ القوم يُنْسِى المَصَائِبَا

وأهل الحُزْن يستعملون الحديث اشتغالًا عن المصيبة .

وقال بشار :

أبناء عمرٍو لفى خفضٍ وفى دعةٍ ... وفى عطاء لعمرى غَــيْرِ مَمْنُوعِ
وضيف عمرو وعمرو ساهرانِ معاً ... عمرو لبطنتــه والضيفُ لِلْجُوع

آخر :

ما كنت أحسِب أن الخبزَ فاكهة ... حتى نزلتُ على قومٍ بميْسَانِ

قوم إذا حلَّ ضيفٌ بين أظهرِهم لم يُنزِلُوه ودلُّوه على الخانِ

آخر :

والناس فى فِطْرٍ سوى شهرهمْ ودهر أضيافك شهر الصيام

آخر :

كتبت له صيفا فظنّ بأننى كتبت له ضيفا فقام إلى السيف
فقلتُ خيراً فَظَنَّ بأنَّنى ذكرتُ له خبزاً فمات من الخوف

وإن ابنَ هَرْمة ألأمُ الناس مع ادِّعائه فى شعره الكرم ، قال رجل : أتيناه فى جماعة من قريش أحببنا أن يتنزه عندنا ، ومشينا بزادٍ كثير ، فخرج علينا ، وقال : ما جاء بكم ؟ قلنا : شعرك حيث قلت : إن امرأ جعل الطريق لبيته ... ، وقولك أيضاً :

وإذا تنوَّر راكبا مستنبحٌ نَبحَتْ فدلَّتْه علىّ كلابى[1]
وعوَيْن يستعجلنَه فلقينه يَضْرِبْنَهُ بشَرَاسِفِ الأذناب[2]

وسمعناك تقول :

كم ناقةٍ قد وجأتُ منْحَرها بمستهلّ الشؤبوب أو بجَمَلِ[2]
لا أُمْتِع العُوذَ بالفصال ولا أبتاعُ إلّا قريبةَ الأجلِ

فنظر إلينا وقال : ما علَى وجه الأرض عصبةٌ أسخفُ عقولاً منكم ، أما سمعتم قول الله عز وجل : ﴿ وأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ فى الشعراء ، والله إنى لأقول ما لا أفعل ، وأنتم تريدون أنْ أفعل ما أقول ، والله لا أُغضِب ربِّى فى رضاكم . فضحكنا منه وأخرجناه معنا يتنزَّه حتى فَنِيَ الزّاد .

---

(١) ديوانه ٧٣

(٢) فى الديوان : « وفرحْن إذ أبصرنه فلقينه »

رفع المسهم

أتى الحطيئةَ رجلٌ وهو فى غنمه ، وقال : يا صاحبَ الغنم ، سلام عليك ، فرفع الحطيئة العصا ، وقال : إنها عَجْرَاء من سَلَمٍ ، فقال الرجل : إنّى ضيف ، فقال : للضيفان أعددتُها ، فأعاد السّلام ، فقال : إن شئتَ قمتُ بها إليك .

ومرّ به ابن حمامة وهو جالس بفناء بيته ، فقال : السّلام عليكم ، فقال : قد قلتَ مالا ينكَر .

وقال : خرجت من أهلى بغير زاد ، قال : ماضمِنْتُ لأهلك قراك ، قال : أفتأذن لى أن آتىَ ظلّ بيتك ؟ قال : دونك الجبل يفىء عليك ، قال : أنا ابن حمامة ، قال : انصرف وكن ابن أىّ طائرٍ شئت . يروى هذا عن أبى الأسود الدؤلى .

ونزل الغضبانُ بن القَبعثْرى خارج كِرْمان وهى قرية كثيرة الرّمضاء ، فضرب قبّته ، فورد عليه أعرابىّ من بكر ، فقال : السّلَام عليك ، قال : السّلام عليك كثير ، وهى كلمة مقولة ، قال الأعرابىّ : ما اسمك ؟ قال : آخذ ، قال أو تعطى ؟ قال : ما أحبّ أن يكون لى اسمان ، قال : ومِنْ أين جئت ؟ قال : من الذّلول ، قال : وأين تريد ؟ قال : أرضنا أمشى فى مناكبها ، قال : ومن عُرض اليوم ؟ قال آل فرعون على النّار ، قال : فمن بُشِّر ؟ قال : الصّابرُون ، قال : فمن غَلَب ؟ قال : حزبُ الله قال : أفتقرِض ؟ قل : إنّما تقرض الفأرة ، قال : أفتُسْمِع قال : إنّما تُسْمِع القينة ، قال : أتُنشد ؟ قال : إنما تُنشَد الضالة ، قال : أفتقول ؟ قال : إنما يقول الأمير ، قال : أفتسجَع ؟ قال : إنما تسجع الحمامة ، قال : أفتنطق ؟ قال : كتاب الله ينطِق ، قال : إنك لمنكَر ، قال : إنى لمعروف ، قال : ذلك أريد ، قال : وما إرادتك ؟ قال : الدُّخُول عليك ، قال : وراءك أوسع ، قال : قد أضرّتنى الشّمس ، قال : الساعة يأتيك الفىء ، قال : الرَّمْضاء أحرقت قدمىّ ، قال : بُلْ عليهما تبردَا ، قال : قد أوجعنى الحرّ ، قال : ليس لى

عليه سلطان ، قال : إنى لا أريد طعامك ولا شرابك ، قال : أتعرِّض بهما ؟ والله لاتذوقهما عندى ، قال : سبحان الله ! قال : قبل كَوْنِك، قال : ما أرَى عندك ؟ قال : هراوة أرزن ، أدقّ بها رأسك . فتركه وانصرف .

الأصمعىّ: عَذَلَتْ أعرابية أباها فى إتلاف ماله ، فقالت : يا أبتِ ، حبْس المال أنفع للعيال من بَذْل الوجه للسؤال ، وقد أتلفت التلاد ، وبقيت ترقب ما بأيدى العباد ، ومن لم يحفظْ ما ينفعه يُوشك أن يقع فيما يضرُّه ، أخذه ابن المعتز فقال:

يا ربَّ جودٍ جَرّ فقر امرئٍ ... فقام للنّاس مقامَ الذّليلِ[1]

فاشْدُدْ عُرَا مالك واستبْقِه ... فالبخل خيرٌ من سؤال البخيلِ

وقال بعض البخلاء :

أعْدَدْتُ للأضياف كلباً ضارياً ... عندى وفضل هراوة من أرْزَنِ

ومَعَاذِراً كذباً ووجْهاً باسرا ... وتشكّيا عضَّ الزمان الألزنِ

الألزن : المضيق .

محمد بن الجهم : ودِدْتُ أنّ عشرةً من الفقهاء ، وعشرة من الشعراء ، وعشرة من الخطباء ، وعشرة من الأدباء ، تواطَئُوا على ذمّ حتى ينتشر ذلك عنهم فى الآفاق ، فلا يمتدّ إلىّ أمل آمل ، ولا ينبَسِطُ نحوِى رجاء لراجٍ .

وكان يقول : مَنْ وَهَب فى عملِه فهو مخدوع ، ومن وَهَبَ بعد العزل فهو أحمق ، ومَنْ وهب فى جوائز سلطانه ، أو عمل لم يتعبْ فيه فهو مخذول ، ومَنْ وهب من كسبه وما استفاد بحيلته فهو المطبوع على قلبه ، المختوم على سمعِه وبصرِه .

وقال : مَنْع الجميع ، أرْضَى للجميع . وهذا كقول الأصمعى ! لو قسمت فى

---

(١) ديوانه ...

رفع المسهم

النّاس ألف ألف لكان أكثرَ للأثمى من لو أخذتها منهم ، قالوا : ولم يُرِد البخل ؛ ولكن إذا تعذّر عليه أن يعمَّ فلا يخصّ .

وقال آخر : قول « لا » يدفع البلاء وقول « نعم » يزيل النِّعم .

دعبل كنّا يوماً عند سهل بن هارون وأطلنا الحديث حتى أضرَّ به الجوع ، فدعا بغدائه ، فإذا بصحفة فيها مَرَقٌ ولحم ديك ، قد هَرِم ، لا تحزّ فيه سكين ، ولا يؤثّر فيه ضِرْس ، فأخذ قطعة من خبز فقلع بها جميع المرق ، وفقد الرأس ، فبقى مطرقاً ساعة ثم رفع رأسَه إلى الغلام وقال : أين الرأس ؟ قال : رميتُ به ، قال : ولم ؟ قال : لم أظنك تأكله ، قال : ولم ظننْتَ ذلك ؟ فوالله إنّى لأمقت مَنْ يرمى برجله فضلاً عن رأسه ، والرأس رئيس الأعضاء وفيه الحواس الخمس ، ومنه يصيح الديك ، وفيه عيناه اللتان يُضرب بهما المثل فى الصفاء ، فيقال : شراب مثل عين الديك ، ودماغه عجيب لوجع الكلْية ، فإن كانَ بلَغ من جهلك أنى لا آكله ، فإنَّ عندنا مَنْ يأكله ، انظر أين هو ؟ قال : والله لا أدرى أين رميتُ به ، قال : لكنى والله أدرى ، رميتَ به فى بطنك .

ولسهل هذا رسالة مدح فيها البخل وفضّله على السخاء ، ليرِى فى ذلك بلاغته ، وأهداها إلى الحسن بن سهل فى وزارته للمأمون فوقّع عليها : لقد مدحتَ ما ذمّه الله ، وحسّنت ما قبّح ، وما يقوم صلاح لفظك بفساد معناك ، وقد جعلنا ثوابك عليها قبول ما فضلت فيها ، ونتأدّب فيها بأدبك . ولم يعطه شيئاً .

وقيل : إنَّ الذى أُهْدِى إليه كتابٌ ألّفه ، مدَح فيه البخل ، وذمَّ الجود فوقّع عليه بما تقدم . قال دعبل :

صدِّق أليتَّه إن قال مجتهداً ... لا والرغيفِ فذاك البرُّ من قَسَمِهْ[1]

فإن هممتَ به فافتِكْ بخُبزته ... فإن موقعَها من لحمه ودمِهْ

(١) ديوانه ١٨٨ ، العقد ٦ : ١٩٠ ، نهاية الأرب ٣ : ٣٠٩ ، عيون الأخبار ٣ : ٢٤٦

قد كان يعجبنى لو أن غيرتَهُ على جُرَادقه[1] كانت على حُرَمِهْ

أبو نواس فى البؤبؤ الزنديق :

لقيت فى آل زياد فتًى يلقّب البؤبؤ حُلْوٌ ظريفْ
ينزل للضيف بنيّاته صيانة منه لعِرْض الرغيفْ
وإن فى النَّيْك لمستمتعاً عند اعتياضِ الخبز للمستضيفْ

آخر :

أما الرغيف لدى الخوا ن فمن حمامات الحرَمْ
ما إن يُحَسُّ ولا يمسّ ولا يذاق ولا يُشَمّْ
فتراه أخضرَ يابساً بالى النّقُوش من الْهَرَمْ

آخر :

أبو نوح دَخَلْتُ عَلَيْهِ يَوْماً فقدّانى برائحة الطَّعَامِ[2]
وقدّم بيننَا لَحْماً سميناً أكَلْنَاهُ على طَبَقِ الْكَلَامِ
فلمّا أن رفعتُ يدِى سقانى كئوساً خمرُها ريح المُدَامِ
فكان كمن سقى الظمآن آلاً وكنت كمن تَغَدَّى فى المنام

وقال فى أبى نوح أيضاً :

لأبى نوحٍ رغيفٌ أبدًا فى حِجْر دايَهْ
فهى تحميه مدَى الده ر بكمٍّ ووقَايَهْ
وله كاتب صدقٍ خَطّ فيه بعناية
فسيكفيكهم اللهُ إلى آخر الآيَهْ

(١) الجرادق : نوع من الخبز .
(٢) العقد ٦ : ٨

آخر :

استبْقِ ودّأبى المقـــا تل حين تأكلُ من طعامِهْ[1]
سيّان كسرُ رغيفِـــه أو كسرُ عَظْمٍ من عِظَامِهْ
فارفق بكسْرِ رغيفِـــهِ إن كنْتَ ترغب فى كلامِهْ
وتراه من خَوْف النُّزو ل به يروّع فى منـــامِهْ

آخر :

خان عَهدِىَ عمرو وما خُنْتُ عَهْدَهْ وجفانى وما تغـــيَّرْتُ بَعْدَهْ
ليس لى مُذْ حَيِيت ذنبٌ إليـــه غير أنِّىَ يوماً تَغَدَّيْتُ عِنـــدَهْ

آخر :

أبو جعفر رجـــل عالم بما يُصلح المعدةَ الْفَاسِدَهْ
تخوّف تُخْمـــة أضيافِه فعوّدهم أكلةً واحـــدَهْ

أبو نواس :

فـــتًى لرغيفِه قُرْطٌ وشنفٌ ولؤلؤتان من خَرَزٍ وشَذْرِ
ودون رغيفـــه قَلْعُ الثَّنَايا وحربٌ مثل وقعـــة بوم بَدْرِ
وإنْ كُسِرَ الرَّغيف بكَى عليه بكا الخنساء إذْ فُجِعَتْ بصخْرِ

آخر :

رغيف أبى علىّ حـــلّ خوفاً من الأضياف مـــنزلة السِّمَاكِ
إذا كسروا رغيفَ أبى علىّ بكَى يَبْكِى بُكَاءَ فهو باكِ

---

(١) من أبيات فى عيون الأخبار ٢ : ٣٦ ورواية البيت الأول فيه

ارفُقْ بحفصٍ حين تأ كُلُ يا معاوىَ من طعامِهْ

آخر :

إنَّ هـــذا الفتى يصون رغيفاً ما إليه لنـــاظرٍ من سبيلِ
هو فى قُفّتين من أدم الطا ئف فى سَلَّتَيْنِ فى مِنْدِيلِ
فى جراب فى جوف تابوتِ مُوسى والمفاتيح عنـــد ميكائيلِ

ابن بسام :

أتانا بخـــبزٍ له يابسٍ كمثل الدَّرَاهم فى خلقتِهْ
إذا ما تنفَّسْت عند الخوان تَطَايَرَ فى البَيْت من خِفّتِهْ

وقال عباس الخياط :

رغيفُه النّجم لمن رامَهُ يُرَى ولا يُطْمَـــعُ فى لَمْسِهِ
كأنه فى جوفِ مرآتِهِ يَبْدُ ولا يُطْـــمَعُ فى جَسِّهِ
وفَلْسُـــه الأمسُ الذى قد مضى بل أمسُه أوْجَدُ من فَلْسِهِ

آخر :

رغيف فى الحِجال عليـــه قُفْلٌ وخَزّانٌ وأبوابٌ منيعَـــهْ
رأى فى بيتـــه يوماً رغيفاً فقال لضيفه هـــذا وديعَهْ

اعتلّ أبو هِفّان فى منزل ابن أبى طاهر فأبطئوا عليه بالغَداء فقال :

أنا فى مـــنزلِ خِلٍّ مشفق بى ورَفِيـــقِ
رجـلٌ أعمر من منـــزله ظهر الطريقِ
ليس لى أكل سوى لحـــمِى وشرْبٌ غَيرُ ريقِى

ولجحظة يهجُو رجلاً :

لا تعـذِلُونى إن هَجَرْتُ طعَامَهُ خوفاً على نفسِى من المأكُولِ
فمتى أكَلْتَ قتلتَه من بخـــله ومتى قَتَلْت قُتِلْتَ بالمقتول

وله أيضاً يذم بخيلاً :

تَبَرَّم إذ جئتُـــه للسّلامِ وأبدى لِيَ الكُرْهَ لمّا دَخَلْتُ
فقلت له : لَا يَرُعْكَ الدُّخولُ فوالله ما جئت إلاّ أكلتُ

أين هذا من قول إبراهيم بن العباس الصولىّ :

لنا إبلٌ كومٌ يَضِيق بها الْفَضَا وتفترُّ عنهـــا أرضُها وسماؤها[1]
فمن دونها أن تستباحَ دِماؤنا ومِنْ دوننا أن تُسْتَذمّ دماؤها
حِمًى وقِرًى فالموت دُونَ مَرَامِهَا وأهونُ خَطْبٍ فى الحقوقِ بناؤها[2]

وقوله :

لا تلومى فإنّ هَمَّكِ أن تُثْـــرِى وهمِّى مكارمُ الأخلاقِ[3]
كيْفَ يَسْطِيعُ حِفظَ ما جمعت كفّاه مَنْ ذاق لذة الإنفـــاق

وقوله :

تلجُ الضُّيوفُ بُيوتَهمْ وتَرَى لهَا عن جار بيتهم ازْورارَ مَنَاكِبِ[4]
وتراهم بسيوفهمْ وشـــفارِهمْ مستشرفين لراغبٍ أو راهب
حَامِين أو قارين حيثُ لقيتَهُمْ نَهْبَ العفـــاةِ ونُهزةً لِلرَّاغب

وجَلَس هارون بن محمد بن الزيات فى مجلس عبد الله بن سليمان ، فجعل هارون يُنْشِد من شِعْرِ أبيه محاسنَه ، فقال له ابن برد الخبّاز : إن كان لأبيك مثل قول إبراهيم :

أسدٌ ضارٍ إذا ما هجْتَهُ وأبٌ بَرٌّ إذا ما قَدَرا[5]
يعرف الأبعد إنْ أثْرَى ولا يعرف الأدنى إذا ما افتقرا

(١) ديوانه ١٥٣
(٢) رواية الديوان « وأيسر خطب يوم حق فناؤها » .
(٣) ديوانه ١٨٦
(٤) ديوانه ١٢٩
(٥) ديوانه ١٣٣

رفع المسهم

أو مثل قوله : « تلج الضيوف »البيتين فاذْكُرْهُ وفاخرْ به ، وإلا فأقْلِلْ من الفخار والتطاول بما لا طائل فيه ، فخجل هارون .

وإبراهيم هذا أشعر الكتّاب بلا خلاف .

[فى وصف القدور]

وذكر الحريرىّ القدور ، وممن وصفها ، فأحسن الفرزدق حين قال :

وقد علم الجيرانُ أنّ قدُورَنا ضوامنُ للأرزاق والريح زَفْزَفُ[1]
تُفَرّغُ فى شِيزى كأنّ جفانهم حياضُ الملاَ منها ملاء ونُصّفُ[2]
ترى حولهنّ المعتفين كأنّهُمْ على صَنَمٍ فى الجاهليّةِ عُكّفُ

وقال أمية بن أبى الصّلْت :

وكأنها بفِنائه للضيف مترعة زواخرْ[3]
وكأنّهنّ بما شحنّ وما حمين به ضَرَائرْ
زبد وقرقرة كقر قرة الفحول إذا تُخَاطِرْ

وقال النابغة فى مثله :

له بفِناء البيت سَوْدَاء فَحْمَةٌ تلقّمُ أعضاء الجزورِ العراعرِ[4]
بقية قِدْرٍ من قُدور تُوُرِّثتْ لآل جُلاحٍ كابراً بعد كابرِ
يظلُّ الإماء يبتدرن قديحها كما ابتدرتْ سعدٌ مياهَ قراقرِ

ـ قديحها : مرقها لأنه يقدح ، أى يؤخذ بالمِقْدَحة ، وهى المغرفة ـ

وقال آخر :

وسوداء لا تكسى الرقاعَ نبيلةٌ لها عند قرّات العشياتِ أزمَلُ

(١) ديوانه ٥٦٠
(٢) الشيزى : قصاع من خشب الجوز .
(٣) ديوانه ١٧٣ (نشرة الدكتور شكرى فيصل) .
(٤) ديوانه .

رفع المسهم

إذا ما قَرَيْنَاها قراها تضمّنت قِرى مَنْ عرانا أو تزيد فتفضِلُ

وقال مسكين الدرامى :

كأنّ قُدورَ قـــومِى كلَّ يوْمٍ قِبَابُ التّرك ملَبسة الجِلاَلِ
بأيديهمْ مغارِفُ من حديدٍ أشبّهها مقـــيَّرة الدَّوالِى[1]

الدِّالية : الخطّارة .

وفى ضدِّ ذلك لأبى نواس :

رأيتُ قدورَ النّاسِ تَبْـــلَى على الصِّلَى
وقِدْر الرّقاشِيّيْن بيضاء كالْبَدْرِ[2]
يَضِيق بحيزُوم البَعوضة صدرُها ويُخْرَجُ ما فيها على طَرَف الظُّفْرِ
إذا ما تنادَوْا للرَّحِيلِ سَعَى بِها أمامهم الحولىّ منَ ولَدِ الذّرِّ

وقال الفرزدق :

لو أن قِدْراً بكتْ من طول ما جَهَشَتْ
على الجفوف بَكتِ قِدْرُ ابنِ عمَّارِ[3]
ما مسَّها دَسِمٌ مذ فضّ معدِنُها ولا رأتْ بعدَ نارِ الْقيْن من نارِ

وتسمّى النار فاكهة الشتاء لما يُجْتَنَى من تسخينها .

وقد أحسنَ ابنُ صَارَة فى وَصْفِهَا حيث قال :

هاتِ الّتى للأيك أصلُ ولادِها ولها جبينُ الشَّمْسِ فى الأشْمَاسِ
يَتقَشَّعُ الياقوتُ من لَبَّاتِها بِوَسَاوسَ تَشْفِى من الوسواسِ

---

(١) البيت فى اللسان (ولا) وقال : الذالية : الناعورة .
(٢) ديوانه ١٧٧

أُنسُ الوحيد وصبح عين المجتلِي ولباس مَنْ أمْسَى بغير لباسِ
حمراء تَرْفُلُ فى السواد كأنها ضَرَبَتْ بعِرْقٍ من بنى العبَّاسِ

وقال آخر :

لابْنَةِ الزَّند فى الكوانين جَمْرٌ كالدَّارارِى فى اللَّيْلةِ الظَّلْمَاء
خَبِّرونى عنها ولا تكذِبونى ألديْها صِناعة الكِيمياء
سبكت فحمَها سبائك تبْرٍ رصَّعتْها بالفِضَّة البيضاء
كُلَّما ولولَ النَّسيمُ عليْهَا رقصتْ فى غِلالَةٍ حَمْراء
سفرتْ عن جبينها فأرتْنا حاجبَ الشمس طالعاً فى العِشاء
لو ترانا من حَوْلها قلت شِرْبٌ يتعاطوْن أكؤس الصَّهْبَاء

وقال الفقيه الأديب ابنُ لبّال رحمه الله :

فم ذكتْ فى حشاه نارٌ فقلت مسكٌ وجلَّنَارُ
أو خدّ مَنْ قد هوِيتُ لمّا أظلَّ من فوقه العِذارُ

وقال البحترىّ يصف كانوناً :

وذى أربع لا يطيق النهو ضَ ولا يألف السَّيْرَ فيمَنْ سَرَى[1]
تحمله سبجا أسودا ويَقْلِبُهُ ذهبا أحمرا

* * *

قوله : قلّبوا فى قالبى ، أى هم أمثالى لأن قالب الشىء كلّ ما يُجعل فيه ليجىء مثله ، وقُلِّبوا : جُعِلوا فى القالَب. يمرحون : ينشطون ويطْربون. ذوى الفَتاء : أهل الفُتوّة . والفَتاء : الحداثة والشباب ، يقال منه : فتؤ يفتَأُ فتاءً ، ويقال أيضاً : بَكْرٌ فتىّ بيّن الفَتاء ، وفتىٌّ من الناس : بيّن الفُتُوّة ، والفتى

(١) ملحق ديوانه ٢٥٦٧

والفتيّة : الشابّ والشابّة . الاصطلاء : التسخن بالنار . الثّمل : السّكران . والطِّلاء : الخمر ، وأصل الطِّلاء الرُّبّ الثخين الأسود ، فسمِّيت الخمر الصافية طِلاءً بضد صفتها ، كما سُمِّى اللديغ سليما ، والأسود أبا البيضاء ، والذئب أبا جعدة ، وجَعدة اسم الشاة .

* * *

ولما أن سَرَى الحَصَر ، وانْسَرى الخَصَر ، أُتينا بموائدَ كالهَالاتِ دوْراً ، والروضاتِ نَوْراً ، وقد شُحِنَّ بأَطْعِمَة الْوَلاَئم ، ومُحِين من الْعائب واللاّئم ، فرفَضْنَا ما قِيـــلَ فى البِطْنَة ، ورأَينا الإمعانَ فيها من الْفِطْنَة ، حتّى إذا اكتَلْنَا بِصَاعِ الْحُطَم ، وأَشْفَيْنَا على خَطَرِ التُّخَم ، تَعَاوَرْنَا مَشُوشَ الْغَمَر ، ثمَّ تبوّأْنَا مَقَاعِدَ السّمَر ، وأَخَـذَ كُلُّ واحدٍ منَّا يشولُ بِلسانه ، وينشُرُ ما فِي صِوَانِه ، ما عدَا شيخاً مشتهباً فَوْدَاهُ مخلَوْلقاً بُرْدَاه ؛ فإنَّه رَبَضَ حَجْرَةً ، وأَوْسَعَنَا هِجْرَة ، فغاظنا تجَنُّبُه ، الملتبِسُ مُوجِبُه ، المعذور فيه مؤنِّبُه ، إلَّا أنّا ألنَّاله الْقَوْل ، وخَشِينا فى المسألةِ الْعَوْل ، وكلَّمَا رُمْنَا أنْ يَفِيض كما فِضْنَا ، أَوْ يُفيضَ فِيمَا أَفَضْنَا أَعرَضَ إعراض الْعِلْيةِ الْأَرْذِلين ، وتلا ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا أَساطِيرُ الأَوَّلِين ﴾ . ثمّ كأَن الحَمِيَّة هاجتْه ، والنَّفْسَ الأبيّة ناجَتْه ، فدلَف ، وازْدَلَف ، وخَلَع الصّلَف ، وبَذَلَ أن يَتَلافَى ما سَلَفَ ، ثمّ اسْتَرْعَى سَمْعَ السَّامِرِ . وانْدَفَع كالسَّيْلِ الْهَامِرِ وقال:

* * *

رفع المسهم

سَرَى الحَصَر ، أى زال السكوت ، والحصَر : انقطاع الكلام ، وهو العِىّ ، وحَصَر يَحْصَر : عىّ ، والحصر أيضاً : ضيق الصدر . انسرى الحَصَر : ذهَب البرْد ، والحصر : البارد ، وخصِر الرجل : إذا آذاه البرد وآلمه فى أطرافه . والروضات نورا ، أى هى فاعمة بكثرة الطعام وأنواع الألوان . شُحِنّ : ملئن . الولائم : الأعراس . حُمِين : مُنِعن . العائب : الذى يَعيب الطعام . واللائم : الذى يقف على رءوس أضيافه ، فيقول : ما أكلتم ، استعملوا ، زِدْ يا فلان ، فيخجلُ أضيافه لذلك ، فلا يتمكّنون من الطعام . رفضنا : تركنا .

[مما قيل فى البطنة]

البطْنة : الامتلاء من الطعام ، والذى قيل فى البطنة : البطنة تُذْهب الفِطْنة ، فقال تركنا هذا المعنى وخالفناه ، ورأينا أنّ البِطْنة وهى امتلاء البطن من الطعام والإمعان فيه ، أى المبالغة فى الأكل يقوِّى الفطنة ، ويولدّها لا أنّه يُذهِبُها . والفِطْنة : الذكاء وحدّة الذهن .

معاذ عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما أحلّ الله حلالا أبغضَ إليه من بَطْنٍ ملىء طعاماً ، فقصِّروا من الطعام تملئوا من الحكمة » .

المقدام بن معديكرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما ملأ آدمىٌّ وعاءً شرًّا من بطنه ، بحسب ابن آدم أكلات يُقِمْنَ صُلْبه ، فإن كان لا محالة ، فثُلث لطعامِه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » .

عمر بن الخطاب رضى الله عنه : يأيها الناس ، إيّاكم والبِطْنة ، فإنها مكسلة عن الصّلاة ، مفسدة للجسد ، مورّثة للسقم .

وقال علىٌّ بن أبى طالب كرم الله وجهه : إياكم والبِطْنة فإنها مفسدة للقلب

الأصمعىّ قال أعرابىّ : إذا كنتَ بطيناً فعد نفسك زمِناً .

رفع المسهم

وقال الحارث بن كلدة : أربعة أشياء يُهْزِمن البدن : الغِشْيان على البطنة ، ودخول الحمّام على الامتلاء ، وأكل القديد ، ومجامعة العجوز .

وقال الأصمعى : كنت عند هارون الرشيد فقدّمت إليه فالوذجة فقال : يا أصمعىّ ، حدثنى بحديث مزرِّد أخى الشماخ ، قلت : إنّ مزرِّداً كان رجلاً جسيماً ، وكانت أمه تؤثر عيالها بالزاد ، وكان يُحْفِظه ذلك منها ، فذهبتْ يوماً فى بعض حقوق أهلها ، وخلّفته فى بيتها ، فدخل خَيْمتها فأخذ صاعيْن من دقيق ، وصاعاً من عجوة ، وصاعاً من سمن ، فضرب بعضَه ببعض وأكله ثم أنشأ يقول :

ولمّا مضتْ أمّى تزورُ عيالها ... أغرت على العكّ الذى كان يُمْنَعُ
خلطت بصاعىْ حنطة صاعَ عجوةٍ ... إلى صاع سمن فوقها يتربَّعُ
ودلّيت أمثال الأثافى كأنّها ... رءوس لعادٍ قُطِّعت لا تجمَّعُ
وقلتُ لبطنى أبشِر اليوم إنّه ... حمًى آمنٌ مما يغُير ويُفزِعُ
فإن مصفوراً فهذا داوؤه ... وإن كنت غَرْثَاناً فذا اليوم تَشْبَعُ

فاستضحك منه حتى أمسك بطنَه ، واستلقى على ظهره ، ثم قدّم يدَه بمال ، وقال : خذ ، فهذا يوم تشبع يا أصمعىّ .

قوله الحُطَم ، أى الذى يحطّم ويُكْسِر ، ورجل محطَّم وحُطَمَة ، إذا كان قليل الرحمة للماشية ، وفى المثل : شرُّ الرِّعاء الحُطَمَة . وقال الرَّاجز :

* قَدْ لَفَّها الليلُ بسوّاقٍ حُطَمْ *

فمعنى اكتلنا بصاع الحُطم ، أى أكلنا أكل أكول لا يُشْفِق على نفسه من السّقَم . وأشفينا : أشرفنا . خَطَر : غَرَر التُّخَم : جمع تُخَمة بفتح الخاء ، وهو أن يثقُل الطعامُ على المعدة ويتغيَّر ، والعامة تسكِّن الخاء ، وقد يجىء ذلك فى الشعر قال أعرابىّ :

وإذا المعـــدة جاشَتْ فارْمِهـــا بالمِنْجَنِيقِ
بثلاثٍ من نبيـــذ ليس بالحلو الرقيقِ
تَهْضم التُّخْمـة هَضْماً حين تجرى فى العروقِ

وتعاورنا الشيء : تداولناه ، وأخذه بعضُنا من بعض ، وأزلناه من موضع إلى موضع . وَعَورُ العين : زوالها . والْغَمَر : ريح اللحم وزَهَمُه. تبوّأنا : أخذنا ونزلنا . السَّمر : الحديث يُسْمَر عليه . يشول بلسانه ، أى يضرب به فى كلّ كلام ، وشال : رفع . والصّوان : وعاء يُصان فيه الشيء . فواده : ناحيتا رأسه، والْفَوْد : ما بين طرف الجبهة والأذن . مخلولقاً : كثير البِلَى . بُرْداه : ثَوْباه . رَبَض : جلس ، وفى المثل : فلان يَرْبِضُ حَجْرَةً ، ويرتقى وسطاً ، يضرب مثلاً لمن يساعدك ما دمت فى خير ، فربَض حَجْرة ، أى جلس ناحية وبرك . أوْسَعَنا : كثَّر لنا . الهجرة : المباعدة والمقاطعة ، يريد أنه اعتزلهم وجلس ناحية ولم يكلِّمهم بكلمة . تجنُّبه : تباعده ، يقال : تجنَّبتك وتَجانبتك ، أى تباعدت عنك ، والجار الجُنُب : البعيد . وما زاره إلا عن جَنَابة ، أى عن بعد . المتلبِّس موجبه ، أى الذى التبسَ علينا ما أوْجَبه . مؤنّبه : لائمه . العول : الزيادة . رُمْنَا : طلبنا . يفيض كما فِضْنا : يتكلّم كما تكلّمنا والْفَيْض زيادة الماء، ويُفيض فيما أفضنا ، أى يأخذ معنا فى النوع الذى أخذنا فيه . أعرض : لوى وجْهَه . الْعِلْية : الأشراف . الأرذَلين : الأدنياء . أساطير : تآليف وكتب . الحمّية : عزة النفس . هاجته : حرّكته . الأبية : العزيزة . نَاجتْه : حَدّثَتْه . دلف : مشى إلينا ، وازدلف : تقرّب . خلع : أزال . الصلَف : مجاوزةَ قدْر الظَّرْف حتى يفضى به ذلك إلى أن تأخذ به باباً ما فيخالفك ولا يعبأ بك . يتلاق : يتدارك . سلف : مضى . استرعى : دعاهُ للاستماع يقال : أرعِنى سمعَك أى أسمع منى . الهامر : الكثير الانصباب .

* * *

عندى أعاجيبُ أَرْوِيها بلاَ كذبِ
عن العِيـــان فكنْ منى أَبَا الْعَجبِ
رأيتُ يا قومِ أقواماً غِـذَاؤُهُمُ بولُ العجوزِ وما أَعْنِى ابْنَةَ الْعِنَبِ

— بَوْل العجوز : لبن البقرة ، والعجوز أيضاً من أسماء الخمر —

ومُسْنِتِين من الأعرابِ قـــوتُهُمُ
أَن يَشْتَوُوا خِرقةً تُغْنِى من السَّغَبِ

— الخِرْقة : القطعة من الجراد —

وقادرين متَى ما ســـــاء صنعهُمُ
أو قصَّرُوا فيـه قالوا الذّنب لِلْحَطَبِ

— القادر : الطّابخ فى القِدْر ، والقَدِير : المطبوخ فيها .

وكاتبين وما خطّت أناملُهُمْ حرفاً ولا قرءوا ماخُطَّ فى الكتبِ

— الكاتبون الخرّازون ؛ يقال : كتب السقاء والمزادة ؛ إذا خَرَزَهما وكتب البغلة أو الناقة ، إذا جمع بين شفريها وخاطهما ، قال الشاعر :

لا تأمننَّ فزاريًّا خَـــلَوْتَ به على قَلوصك واكتبها بأسيار

وتابعـــين عقاباً فى مسيرِهِمِ على تكمّيهمُ فى الْبَيْضِ وَالْيَلَبِ

— العُقاب : الراية ، وكانت راية النبى صلى الله عليه وسلم تسمّى العُقاب .

* * *

العيان ، أى المشاهدة بالعين . مسنتين : أصابتهم السّنة ، أى اشتدّ عليهم . يَشْتَوُوا : يتخذوا شواء . السَّغب : الجوع . تَكمّيهم : تستّرهم . الْبَيْض : ما يجعل فى الرءوس فى الحرب .

رفع المسهم

ومنتدِينَ ذَوِى نُبْلٍ بدتْ لهمُ نبيلةٌ فانْثَنَوْا منها إلى الْهَرَبِ

— النَّبيلة : الجِيفة ، ومنه تَنَبَّل الأميرُ ؛ إذا مات وأرْوح ، يعنى نتن .

وعُصْبةً لم تَرَ البيتَ العتيق وقدْ حَجَّتْ جُثِيًّا بلاشَكٍّ على الرُّكَبِ

— معنى حجّتْ جثيًّا ، أى غلبت بالحجّة مجادلين جاثين على الرُّكَب ، وجُثِيّ : جمع جاثٍ .

ونسوةً بعدما أَدْلَجْنَ من حَلَبٍ صَبَّحْن كاظمةَ من غير ما تَعَبِ

— كاظمة فى هذا الموضع من كَظَمَ الغيظ —

ومُدْلِجِينَ سَرَوْا من أَرْضِ كاظمةٍ
فأصبحوا حينَ لاح الصُّبْح فى حَلَبِ

— فى حلَب ، أى أصبحوا يحلُبون اللبن —

ويافعاً لم يُلاَمِسْ قَطُّ غانيـــةً شاهدتُه وله نسلٌ من الْعَقِبِ

— النَّسْل هاهنا : العدوّ قال تعالى : ﴿ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ .
والعقِب : مؤخَّر القدم .

* * *

منتدين : مجتمعين . انثنوا : رجعوا . والنّبيلة : الحاذقة فى فعلها . عُصْبة : جماعة . أدْلَجْنَ : سرن بالليل ، ومثلُه سَرَوْا . لاح : ظهر . يافعاً : شابًّا . يلامس : يلاعب ، ويمسّها بيده . غانية : امرأة جميلة غَنِيَتْ بحسنها عن الزينة . صُبِحْن كاظمة ، أى سُقين الصّبوح كاظمةَ غيظَها . وصَبَحه . سقاه صَبوحاً ، وكظم غيظه : تجرعه ، وهو قادر على الإيقاع بعدوّه ولم يمضه ، وكظم خصمه : أجابه بالمسكت فألجمه ، وأصل الكظم للبعير ، وهو أن يردّد جِرّته فى حَلْقه ولا يجترها : وكاظمة : موضع على سِيف البحر ، أى على ساحله على مرحلتين من البصرة ، وفيه ركايا كثيرة ، وماؤها شروب .

* * *

رفع المسهم

وشائباً غَيْرَ مُخْفٍ للمشيب بدا في البدو وهو فتيُّ السِّنّ لم يَشبِ

— الشائب هاهنا : مازج اللبن ، والمشيب : اللّبن الممزوج ، ويقال فيه مَشِيب ومَشوب .

ومُرْضَعاً بلبانٍ لم يفُهْ فمُهُ رأيتُـه في شِجارٍ بَيِّنِ السَّببِ

— الشِّجار : المحفّة ما لم تكن مُظَلَّلة فإنْ ظُلِّلَتْ فهو الهودج . والسّبب هاهنا : الحبْل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فليمدُدْ بسببٍ إلى السماء ﴾ —

وزارِعاً ذُرَةً حَتَّى إذا حُصِدَت
صَارَتْ غُبَيْرَاءَ يَهْواها أخو الطَّرَبِ

— الغبيراء : المُسْكِر المتَّخَذ من الذُّرة ويُسمَّى أيضاً السُّكركه . وفي الحديث : « إياكم والغبيراء فإنّها خمر العالم » .

وراكباً وهو مغلولٌ على فرسٍ قد غُلّ أيضاً وما ينفك عن خَبَبِ

— المغلُول هاهنا العطشان ، وغلّ ، أي عطش .

وذا يدٍ طُلُقٍ يَقْتَاد راحلةً
مستعجِلاً وهو مأسورٌ أخو كُرَبِ

— المأسور : الّذي يجد الأسر ، وهو احتباس البول .

* * *

اللّبان : لبن الآدميات . يَفُهْ : ينطق . يهواها : يحبّها . أخو الطَّرَب : صاحبه المولع به . ينفك : يزول . خَبَب : نوع من السير . طُلُق . سارح . كُرَب : همّ .

* * *

رفع المسهم

وجالساً ماشياً تهوى مطيَّتُه به وما فى الَّذِى أَوْرَدْتُ من رِيَب

— الجالس : الآتى نَجْداً ، والماشى : الذى كثرتْ ماشيتُه ، وعليه فسّر بعضُهم قوله تعالى : ﴿أَنِ امْشُوا﴾؛ كأنه دعاء عليهم بكثرة الماشية والنماء والبركة

وحائكاً أَجْدَم الكفَّيْن ذا خَرَسٍ فإن عجبتم فكمْ فى الخَلْقِ من عَجَبِ

— الحائك هاهنا : الّذى إذا مشى حرّك منكبيه وفجّ بين ركبتيه .

وذا شَطَاطٍ كصَدْرِ الرُّمْح قامتُه صادَفْتُه بِمِنًى يَشْكُو من الحَدَبِ

— الحدَب : ما ارتفع من الأرض —

وساعياً فى مسرَّاتِ الأنامِ يَرَى إفراحَهُمْ كالظُّلْمِ والكَذِبِ

— إفراحهم : إثقالُهم بالدّين ، ومنه قوله عليه السلام : « لا يُتْرَك فى الإسلام مُفْرَح » أى مُثْقَلٌ من الدَّين أو يقضَى عنه دينُه —

ومُغْرَماً بمناجاة الرّجال لَهُ وما لَهُ فى حديث الخَلْقِ من أَرَبِ

— الخلْق هاهنا : الكذب ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ﴾ —

وذا زمامٍ وَفَتْ بالْعَهْدِ ذِمَّتُه ولا ذِمَامَ لَهُ فى مَذْهَبِ الْعَرَبِ

— الذّمام الثانى : جمع ذمّة ، وهى البئر القليلة الماء . وعنى بالمذهب المسلك ، أى ماله آبار قليلة الماء فى البدو .

* * *

تهوى : تسقط وتسرع . ريب : شكوك . أجذم : مقطوع . خَرَس : بكم . شَطَاط : طول . مُغْرماً : شديد الحب . مناجاة : محادثة . أرب : حاجة .

* * *

رفع المسهم

وذَا قُوَى ما استبانَتْ قطُّ لِينتُهُ ولبنُه مُستبينٌ غيرُ محتجبِ

— اللِّين : نخيل الدَّقَلْ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ما قَطَعتُم مِنْ لينَةٍ ﴾ .

وساجِداً فوقَ فحلٍ غيرَ مكترِثٍ بِمَا أَتَى بلْ يَرَاهُ أَفْضَلَ القُرَبِ

— الفحل : الحصير المتَّخَذ من خُوصِ النخل .

وعاذراً مَنْ ظَلَّ يَعْذِرُه مع التلطُّف والمعذورُ فى صَخَبِ

— العاذر : الخائن . والمعذور : المَخْتُون .

وبَلْدَةً ما بها ماءٌ لمغترِفٍ والماءُ يَجْرِى عَلَيْهَا جَرْىَ مُنْسَرِبِ

— البلدة : الفُرْجة بين الحاجبين ، وتسمَّى أيضاً البَلْجة —

وقَرْيَةً دونَ أخوصِ الْقَطَا شُحِنَتْ

بديلمٍ عَيْشُهُمْ مِنْ خُلْسَة السَّلَبِ

— القرية : بيت النمل . والديلم النمل الكثير . وخلسة السَّلَب : لِحَاء الشَّجر .

وكوكباً يتوارَى عند رؤيته الإنْسَانُ حتى يُرَى فى أَمْنَعِ الحُجُبِ

— الكوكب : النكتة البيضاء التى تحدث فى العين . والإنسان هاهنا : إنسان العين .

* * *

مكترِث : منكسر من الهمّ . القُرَب : جمع قُرْبة ، وهى ما يتقرّب به إلى الله تعالى من أعمال البرِّ . عاذر : قابل العذر . مؤلماً : موجعاً . التلطف : الرفق واللين . الصَّخَب : الصياح ، وتفسير ظاهر البيت أن تقول : رأيتُ عاذراً يوجع الّذى يعتذر له مع تلطّف العاذر للمعتذر وتَلْيينه القول له ، والمعتذر فى

صياحٍ من شدة ضَرراً لعاذر له ، فتتقابل هذه الأضداد ، فإذا فسّرتَ بتفسير الحريريّ صحّ المعنى . ومُنْسَرب : داخل فى السَّرَب وهو الحفير فى الأرض . قرية: مدينة ، وأخوص القطا : مرقدها وهى تَفْحَصُه: برجليها توسّعه . شُحِنَتْ : ملئت . والدّيلمْ : أمة من العجم . خُلْسة : سرقة . والسَّلَب : المال المسلوب . يتوارى : يتغطّى ، وقال الحسن بن هانئ فى صفة الكواكب الذى هو النكتة على إنسان العين :

أعورُ المقلة من غير عِوَجْ لو عداه عَوَرُ العين انْسَمَجْ[1]

تحسب النكتة فى ناظرِه درَّةً بيضاء فى فصّ سَبَجْ

* * *

ورَوْثَةً قُوِّمَتْ مالاً لَهُ خَطَرٌ ونفسُ صاحِبها بالمال لَمْ تَطِبِ

— الرَّوْثة : مقدَّم الأنف —

وصحفةً مِنْ نُضَارٍ خالص شُرِيَتْ بَعْدَ الْمِكاسِ بقيراطٍ من الذَّهَبِ

— النُّضار هاهنا : شجر النَّبْع ، ومنه قول بعض التابعين : لا بأس أنْ يُشرَب فى قدح النضار ؛ عَنَى به هذا .

ومُسْتَجِيشاً بخشخاشٍ لِيَدْفَعَ ما أظَلَّه من أعَاديهِ فلم يَخِبِ

— الخشخاش : الجماعة عليهم دُروع وأسلِحة —

وطالما مرّ بى كلبٌ وفى فمِه ثَوْرٌ ، ولكنَّه ثورٌ بلا ذَنَبِ

— الثَّوْر : القطعة من الأَقِط ، وهو نوع من الجبن .

---

(١) ديوانه .

رفع المسهم

وكم رأى ناظِرِى فيلاً على جملٍ وقد تورَّك فوق الرَّحْلِ والقَتَبِ

— الفيل : الرَّجل الفائل الرأى .

وكم لقيتُ بعُرْضِ البيدِ مُشْتَكِياً وما اشْتَكى قَطُّ فى جِدٍّ ولا تعِبِ

— المشتكى : المتخذ شكْوةً وهى القِرْبة الصغيرة .

* * *

قوله : خَطَر ، أى حظ كثير ، والخطير : الرفيع القدر ، نُضار : ذهب أحمر . المِكَاس : المُمَاكسة بين المُتبايعين ، وهو أن يطلَب صاحب السِّلعة من المشْتَرِى سَوْماً ، فلا يزال المشترى يراجعه وينقصُ له ممّا طلب شيئاً حتى يتّفقا على ما يتراضيان عليه . والمستجيش : الجامع للجيش . والخَشْخَاش : بنت معروف ، وقال ابن وَكيع يصفه :

وخشخاش كأنّا منه نفرى قميصَ زَبَرْجَدٍ عن جسم دُرٍّ[1]

كأقداح من البلّور صيغَتْ وأغشيةٍ من الدِّيباج خُضْرِ

أظلَّه : قَرُب منه ، وكأنه أغشاه ظلَّه . القَتَب : خشب الرَّحْل ، والرَّحْل برذعة البعير . بعُرْض البيد : بجانب القِفار .

* * *

وكنت أبصرْتُ كرّازاً لرَاعيةٍ بالدَّوِّ ينظر من عينين كالشُّهُبِ

— الكرّاز : كبش يَحْمِل عليه الرّاعى أداته .

وكَمْ رأتْ مقلتِى عينيْن ماؤهما

يجرى من الغرْبِ والعينانِ فى حَلَبِ

— الغرْب : مجرى الدمع . والعينان : المقلتان .

---

(١) ديوانه ٦٢ . ونفرى : نقطع .

رفع المسهم

وصادعاً بالقنا مِنْ غَيْرِ أن عَلِقَتْ كفَّاه يوماً برمحٍ لا ولم يَثِب

— القَنَا : ارتفاع الأنف وتحدُّبِ وسطه ، وصَدَع به ، أى كشفه .

وكم نزلتْ بأرضٍ لا نَخيـلَ بها
وبَعْدَ يَوْمٍ رَأيتُ الْبُسْرَ فى القُلُبِ

— البُسرْ : جمع بُسْرة ، وهو الماء الحديث العهد بالمطر . والقُلُب : جمع قَلِيب —

وكم رأيت بأقطار الْفَـلاَ طَبَقاً يَطِـير فى الجوِّ مُنْصبًّا إلى صَبَبِ

— الطَّبق : القطعة من الجراد .

وكم مِنْ مشايخَ فى الدُّنْيَا رأيتُهم مخلَّدين ، ومَنْ يَنْجُو من الْعَطَبِ

— المخلّد : الذى أبطأ شيبُه —

وكم بدا لِيَ وَحْشٌ يشتكِى سَغَباً بمنطقٍ ذَلِقٍ أَمْضَى من الْقُضُبِ

— الوحش : الرَّجل الجائع .

وكم دَعَانِيَ مُسْتَنْجٍ فَحَادثنى وما أَخَلّ ولا أَخْلَلْتُ بالأدبِ

— المستنجى : الجالس على نَجْوة ، وهر المكان المرتفع .

* * *

كَرّاز : إناء . والدَّوّ : الصحراء ، والغَرْب : الدَّلْو العظيمة . فى حلَب : فى سَيَلان وجَرْيٍ . البُسْر : التمر الذى لم يَطِبْ . القليب البئر ، والجمع القُلُب . أقطار الفلا : نواحى القِفار . والصَّبب : الانحدار . العطب : الهلاك . السَّغَب : الجوع . ذلق : حادّ . أمضى : أقطع . القُضُب : السيوف . أخلّ : نقَصَ . المستنجى : الجالس لقضاء حاجة الإنسان .

* * *

وكم أَنختُ قَلُوصِي تحت جُنْبُذَةٍ تُظِلُّ ماشئتَ من عُجْمٍ ومن عُرُبِ

— الجُنْبُذَة : القبّة . والعُرُب : جمع عَروب ؛ وهى المتحبّبة إلى زوجها ، من قوله تعالى : ﴿ عُرُباً أترابا ﴾ .

وكم نظرتُ إِلَى مَنْ سُرَّ ساعَتَهُ ودَمْعُه مستَهِلُّ الْقَطْرِ كَالسُّحُبِ

— سُرّ ، أى قطع سَرَرُه ، ويسمّى ما يبقى بعد القطع السُّرّة —

وكم رأيتُ قميصاً ضرَّ صاحِبَهُ حتَّى انثنَى واهِيَ الأعْضاءِ والْعَصَبِ

— القميص : الدّابّة الكثيرة القُماص ، وهو الوثوب والقَفْز .

وكم إِزارٍ لَوَانَّ الدَّهْرَ أتلفَهُ
لَجفَّ لِبدُ حَثِيث السَّيْرِ مُضْطربِ

— الإزار : المرأة ، ومنه قول الشاعر :

* فدًى لك من أَخِي ثقةٍ إزارِى *

هـذا وكَمْ من أفانينٍ مُعْجِبةٍ عندى ومن مُلَحٍ تُلْهِي ومن نُخَبِ
فإن فَطِنتُمْ لِلَحْنِ القول بانَ لكمْ صدقى وَدَلَّكُمُ طَلْعِي على رُطَبِ
وإن شُدِهْتُمْ فإن العارَ فيه على مَنْ لا يُمَيِّز بين العُودِ والْخَشَبِ

* * *

أنخت : أبركت . قَلُوصِى : ناقتى الفتية . تظلّ : تستر . سُرّ : أدخل عليه السرور ، وقد بيّن هو أنه المقطوع السرة ، وقال فى الدّرة فيما يكنى فى المعاريض . المقْلُول : الذى ضُرِبتْ قلّته ، أى أعلاه ، والمركُوب : الذى ضُرِبْت ركبته ، والمذكور : الذى قُطِع ذكره . والمسرور : الذى قُطِعت سرّته ، قال : ومن الأحاجى بأبيات المعانى :

رفع المسهم

نَسُرّهمُ وإن هُمُ أقبـــلوا وإن أدبروا فهمُ من سببِ

أى نطعنهم إذا أقبلوا فى السّرة ، وإذا أدبروا فى السُّبَة وهو الإست . وأنشد أيضاً :

ذَكَرْتُ أبا عمرو فماتَ مكانَهُ فواعجباً هلْ يهلِك المرء من ذَكَرِ

وزُرت علَيًا بعْـــدَهُ فرأيته ففارق دنياه ومات على صبرِ

ذكرتُه : قطعت ذَكَره ، ورأيتُه : قطعتُ رئته . مستهل : سائل . القَطْر : مصدر قطر ، إذا سقط ، ولا يقال : استهلّ حتى يكون مع انصبابه صوت . واهِى : ضعيف . العَصَبِ : حبال الجسد . الإزار ، هو المئزر الذى يجعل عوضاً من السراويل . حثيث : مسرع أراد به ذكر الإنسان فى حال نكاحه المرأة إنه مضطرب سريع السير والدفع فيقول : إن المرأة التى كانت تبلّ الذَّكر عند الجماع لو هلكت لبقىَ جافًا وأراد باللّبد موضع اللّبد وهو الظهر ، الفنجديهى يقول : كم من امرأة لو ماتت لترك زوجها كثرة الحركة فى طلب المعاش مرضاةً لها ، وجفوف العرق قد يكون من السكون ، والتفسير الأوّل أبين ، وهذا الثانى يحتمل إما وصفه بالسرعة والاضطراب ، وهو صفة فرس جعل له لبدا فألغز بذلك ، وقال أعرابى ماتت امرأته :

وكنتِ فَرِيسَتِى وغِلَافَ بُضْعى فأمسى البُضْع ليس له غلاف

ومن اللّغز فيه قول الآخر :

وصاحبٍ معجب فى طول صُحْبته لا ينفـع الدَّهْر إلّا وهو محمومُ

تأتيك فى نافض الحمّى منافعُـــه وإن أفاق يُرَى فى وجهه اللُّومُ

وقال الأقيشر : وكان عنّيناً ، فغالط فى شعره بالضدّ :

ولقـد عَدَوْت بمشرفٍ يا فوخُه عَسِر المكرّة ماؤه يتـــدفّقُ

أرنّ يسيل من النشاط لعابُه ويكاد جِلْد إهابه يتمزّق
حتى علوتُ به مَشْق ثَنِيَّةٍ طوراً يفور بها وطوراً يغرقُ

قوله : أفانين ، أى ضروب وأنواع ، والأفانين : الأساليب وهى أجناس الكلام وطرقه ، الأزهرىّ : أفانين : جمع أفنان : جمع فنَن ، وهو الغصن والخُصْلة من الشّعر ، وقيل : الأفنونُ الفنّ ، وهو ضَرْبٌ من الشّجر ، والحبال ، والجمع أفانين . مُلَح : ما يتكلم به من حلو الكلام وألفازه . تُلْهِى : تَشْغَل نُخب : مختارة . لحن القول : معناه ومذهبه ، واللحن التورية ، وهى أن تُظهر خلاف ما تضمر . الطَّلْع : أوّل ما يخرج من الثمر . والرُّطَب : الطّيب منه . شُدِهْتُم : تحيرتم .

* * *

قال الحارثُ بن همام : فطفِقنا نَخْبِط فى تَقْليبِ قَريضِه ، وتأويلِ مَعارِيضه وهو يلهو بنا لَهْوَ الخَلِىّ بالشَّجِى ، ويقول : لَيْس بمُشِّك فادْرُجى ، إلى أن تعسَّر النِّتَاج ، واستحكم الارْتِتَاج ؛ فألقينا إليه المَقادة ، وخطبْنا منه الإفادة ؛ فوقَفنا بين المَطْمَع واليأس ، وقال : الإيناسُ قَبلَ الإبْساس ؛ فعلِمْنا أنّه ممن يرغبُ فى الشَّكم ، ويَرْتَشِى فى الحُكم ، وساء أبا مثوانا أن نُعرِّض للغُرْم ، أو نُخَيِّبَ بالرُّغم ؛ فأحضر صاحبُ المنزل ناقةَ عِيديّة ، وحُلّةً سَعِيديّة ، وقال لَهُ : خُذْهما حَلالاً ولا ترزأْ أَضيافى زِبالاً ، فقال : أشهد أنّها شِنْشِنَةٌ أَخْزَمِيّة ، وأَرْيَحيّةٌ حاتِميّة .

* * *

طفِقْنا : أخذنا نخبط : نتكلّم بالزائد والناقص . تأويل : تفسير . معاريضه : ما عُرِّض به ولم يتمّه . الخلىّ : الذى لا هَمّ له ، والشّجى : الحزين وياء الخلىّ مشددة وياء الشجى مخففة ، وقد شُدِّدَتْ ياء الشَّجِى فى الشعر إتباعاً

لياء الخَلِىّ ، وقالوا: إنى لآتيه بالغدايا والعشايا ، فحملوا الغدايا على العشايا ، وحكى ثعلب فى غير الفصيح عن الأصمعىّ تثقيل الياء فيهما ، ومَنْ جعل شَجِى فَعِل كحذر خفّف ، ومن جعله فعيل مثل غنىّ شدّد ، وفعل بغير ياء أقيس ، والتشديد فى المَثَل أحسنُ للازدواج . تَعَسَّر : صَعُب . النِّتاج : ما ينتَج لهم من المعانى . استحكم : توثّق . الارتتاج : الانغلاق ، وأُرْتِج على القارئ وارتجج ، إذا لم يقدر على القراءة كأنه أُطْبِق عليه . ويرتشِى : يأخذ الرِّشوة . وعن ثوبان مولَى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لعن الله الراشىَ والمرتشى والرائش» ، فقيل : وما الرائش ؟ قال : الذى يمشى بينهما .

ألقينا إليه المقادة : أى انقدنا له ، ورزأتُ الرّجل أرزؤه؛ إذا أصبتَ منه خيراً ، ورزأته ماله : نقصته والرِّبال بالكسر : ماتحمله النَّملة بفيها . والأريحيّة : الاهتزاز للجود . ساء : حزن . والرّغم : الذلة والهوان . شِنْشِنة : طبيعة حاتمية منسوبة إلى حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج أحد بنى ثُعَل بن عمرو بن الغوث بن طيىء .

[ذكر حاتم الطائى]

يكنى أبا سفّانة وأبا عدىّ . فارس شاعر جاهلىّ ، أحد الأجواد الذين يُضرَب بهم المثل ، بل هو أشهر منهم ، وهم: كعب بن مامة ، وهرِم بن سنان ، وحاتم ، وكان إذا قاتل غلب ، وإذا غنِم نَهَب ، وإذا سئل وَهَب ، وإذا قامَرَ سَبَق ، وإذا أَسَر أَطْلَق ، وإذا أثرى أنفق . ويقال : إنه لا يُعرف ميّت قرَى أضيافه إلاّ هو ، وذلك أن ركباً من العرب نزلوا بموضع قبره ، وقد نفد زادهم ، وفيهم رجلٌ يكنى أبا خيبرىّ ، فجعل يقول : أبا سَفّانة ، أما تَقْرى أضيافَك أبا سَفّانة ، إن أضيافك جياع ، يعيدها ، فلما نام ثار من نومه ، وهو يقول : واراحلتاه ! عُقِرت والله ناقتى ، فقال له أصحابه : وكيف ؟ قال : رأيت أبا سَفّانة قد انشق عنه قبره ، فاستوى قائماً ينشدنى :

رفع المسهم

أبا خيبرىٍّ لأنْتَ امرؤ ظلومُ العشيرة لَوَّامُها
وماذا تريد إلى رمّة بدوّية صخب هامُهَا
تبغى أذَاها وإسعارَها ودُونك طىٌّ وأنعامها

ثم عمد إلى سيفى ، فانتضاه من غِمْده ، وعَقَر ناقتى ، وقال : دونكم فما أيقظنى إلا رغاؤها ؛ وإذا بالناقة ترغو ما تنبعث ، فقالوا : قد والله قَرَاك حاتم فنحروها ، وأكلوا وتزوّدوا واقتسموا متاع أبى خيبرىّ ، واستروّا لوجهتهم ، فلمّا صاروا فى الظَّهيرة وَضَح لهم راكب يجُنب بعيراً يؤمّ سمتهم ، حتى التقوْا فقال لهم : أفيكم أبو خيبرىّ ؟ قالوا : نعم ، فقال : فإن عدىّ ابن حاتم رأى أباه البارحة ، وهو يقول : إنّ أبا خيبرى وأصحابَه استقرُونِى ، فقريتُهم ناقته ، فعوّضْه منها ، وزِدْه بَكْراً يحمل عليه متاعه ؛ وهذه الناقة وهذا البَكْر ، فارتحل أبو خيبرىّ الناقة ، وتخفّف هو وأصحابه من أزوادهم ، على البَكْر ، ومضوا بأتمّ قرًى .

وأدرك عدّى ابنه النبىّ صلى الله عليه وسلم وروى عنه ، وكان يحدّث أصحابه بهذا الحديث بعد إسلامه وقال الشاعر فى عدىّ :

أبوكَ أبو سَفّانَةَ الخير لم يزلْ لدنْ شبَّ حتى مات فى الخير راغبَا
قرى قبره الأضياف إذ نزلوا به ولم يقرِ قبرٌ قبلَه الدَّهْرَ راكبَا

وكانت سفّانة بنته من أجود نساء العرب ، وكان أبوها يعطيها الصِّرمة من إبله فتهبُها وتعطيها الناس . فقال لها أبوها : يا بنيَّة إن الغويَّيْن إذا اجتمعا فى المال أتلفاه ، فإما أن أعطِى وتُمْسِكى ، وإمّا أن أُمْسِك وتُعطى أنت ؛ فإنه لا يبقى على هذا شىء ، فقالت : والله لا أمسِك أبداً ، قال : وأنا لا أمسك أبداً قالت : فلا نتجاور ، فقاسمها ماله وتبَايَنا .

وحكى أن أمّه كانت مِنْ أسخى النّاس ، وأقراهم للضيف ؛ وكانت

لا تحبس شيئاً تملكه ، وهى عُتْبة بنت عُفَيف بن عمرو بن عبد القيْس ، فلما رأى إخوتُها إتلافَها ، حجروا عليها ومنعوها مالَها ؛ حتى إذا ظنوا أنها قد وجَدَتْ ألَمَ ذلك أعطوْها صِرْمة من إبلها ، فجاءتها امرأة من هَوازن تسألها ، فقالت : دونك الصِّرمة ، فخذيها ، فوالله لقد عضَّنِى من الجوع ما لا أمنع بعده سائلاً أبداً ، ثم أنشأت تقول :

لَعَمْرِى لقِدْماً عضّنِي الجوع عَضَّةً فآليتُ ألاّ أمنع الدَّهْرَ جائعاَ[1]

فقولا لهـذا اللائم : اليوم أعفِنى فإن أنت لم تفعل فعضّ الأصابعاَ

فإذا عسيتم أن تقولوا لأختُكمُ

سوى عذلكم أو عذلِ مَنْ كان مانعاَ

وهـل ما ترون اليوم إلا طبيعة وكيف بتركى يا بنَ أمِّ الطَّبائعاَ

فقد اكتنفَه الجودُ من أمه وأبيه .

وقالت امرأتُه النّوار : أصابتنا سنة اقشعرّتْ لها الأرض واغبَرّ أفق السماء ، وضنّت المراضع عن أولادها فما تبِضّ بقطرة ، فأيقنّا بالهلاك ، فوالله إنى لفى ليله صَبِيرةَ[2] بعيدة الطرفين ، إذ تضاغى صبيتُنا جوعاً : عبد الله وعدىّ وسفانة ، فقام إلى الصبيَّيْن وقمت إلى الصبيَّة ، فوالله ما سكتوا إلّا بعد هدأة من الليل ، وأقبل يعلِّلنى بالحديث ، فعرفت ما يريد ، فتناومت ، فلما تغوّرت النجوم إذا شيء قد رفَع كِسْر البيت ، فقال : مَنْ هذا ؟ فقالت : جاريتك فلانة أتيتك من عند صِبْية يتعاوَوْن من الجوع عُواء الذئاب ، فما وجدتُ معوَّلا إلاّ عليك أبا عدىّ ، فقال : أعجليهم فقد أشبعك الله وإيّاهم ، فأقبلت تحمل اثنين ، ويمشى إلى جانبها أربعة ، كأنها نعامة حولها رِئالُها ، فقام إلى فرسه فوجأ لبّتها بمدية ،

---

(١) الخبر والشعر فى طبقات الشعراء ٢٤٢

(٢) صبيرة : شديدة البرد .

رفع المسهم

فخرّت ، ثم كشط الجلد ، ودفع المُدية إلى المرأة وقال شأنك ، فاجتمعنا على اللحم نشوِى ونأكل ، ثم جعل يأتيهم بيتاً بيتاً ، ويقول : هُبّوا أيّها القوم ، عليكم بالنار ، فاجتمعوا والتفّ فى ثوبه ناحيةً ينظر إلينا ، والله إن ذاق منها مُزْعة ، وإنه لأحوجُ إليها منا ، فأصبحنا وما على الأرض منها إلا عظمٌ وحافر ، فأنشأ يقول :

مهلاً نوار أقلِّى اللومَ والعــذلا ولا تقولى لشىء فاتَ ما فَعَـلاَ[1]

ولا تقولى لشىء كنتُ مهلكَه
مهلاً وإن كنتُ معطِى العَنْسَ والجملاَ

يرى البخيلُ سبيل المالِ واحدةً إن الجواد يَرَى فى ماله سُبُـلاَ

ولم يكن يمسك شيئاً ما عدا فرسه وسلاحه ، فإنه كان لا يجود به .

وذكر الحريرى أن عُقَيلاً تمثّل بقول حاتم :

* شِنْشِنةٌ أعرِفُها من أخْزَمِ *

وكان عُقَيل[2] بن عُلفّة المرىّ غيوراً فخوراً وكانت الخلفاء تُصاهره ، فخطب إليه عبدُ الملك ابنته لبعض ولده ، فقال : أمّا إن كان ولابدّ ، فجَنِّبنِي هُجناء ولدك ، وخرج يمتار ومعه ابنه وابنته الجرْباء فنزلوا بالشأم بديْر سعد ، فلما ارتحلوا قال عُقَيل :

قضتْ وطراً من دَيْرِ سعدٍ وربّما على عُرُضٍ ناطحنَه بالجماجمِ[3]

ثم قال لابنه أجزيا عملّس ، فقال[4] :

(١) ديوانه ٧٤

(٢) الأغانى ١٢ : ٢٥٦

(٣) دير سعد : موضع بين بلاد غطفان والشام ، وبعده فى الأغانى :

إذا هبطتْ أرضاً يموت غرابها بها عطشاً أعطينهم بالخزائم

(٤) فى الأغانى : « انفذ يا علقة » .

فأصبحن بالموماة يحملْنَ فتيـــةً نَشاوَى من الإدلاجِ ميلَ العمائم[1]

ثم قال لابنته الجرباء : أجيزى ، فقالت[2] :

كأنّ الكرى أسقاهُ صَرْخديّةً عُقاراً تمشَّت فى المطا والقوائم[3]

فقال لها : وما يدريك ما نعتُ الخمر ؟ ثم سلّ السيف ، فاستغاثت بأخيها فاختبل فخذيه بسهم ، فبرك ومضوا وتركوه حتى بلغوا المياه الدانية إليهم ، فقالوا لأهل المياه : إنّا أسقطنا جَزُوراً ، فأدركوها فوجدوا عُقيلاً باركاً ، وهو يقول :

* إنّ بنىّ ضرجونى بالدمِ *[4] الأبيات

* * *

ثمّ قابَلنا بوجْهٍ بِشرُه يشفّ ، ونُضرتُه ترِفّ ، وقال : يا قومِ ؛ إنّ اللّيل قد اجلوّذَ ، والنّعاس قد استَحْوذ ، فافزعوا إلى المراقِد ، واغْتَنِموا راحة الرّاقِد ، لتشربُوا نَشاطاً ، وتُبْعَثُوا نِشاطاً ، فتَعُوا ما أُفسِّر ، وبتسهّل لكم المتعسّر ، فاستَصْوَبَ كُلٌّ ما رآه ، وتوسَّد وسادة كَرَاه .

فلما وَسَنَتِ الأَجْفَان ، وأَغْفَتِ الضِّيفَان ، وثب إلى النّاقة فرحَلها ثمّ ارتَحلها ، وقال مخاطباً لها :

---

(١) بعده فى الأغانى :

إذا عـــلمٌ غادرنه بتنوفةٍ تذارعْن بالأيدى لآخَر جاسِمِ

(٢) فى الأغانى : « ثم قال أنفذ بى يا جرباء ، فعملت : « وأنا آمنة ؟ قال : نعم ، فقالت »

(٣) الصرخدية نسبة الى صرخد : بلد قريب من دمشق . والعقار : الخمر . والمطا : الظهر .

(٤) رواية الأغانى للابيات :

إن بنىّ سَرْبنونى بالدّم من يلق أبطال الرّجال يكلم

ومن يك ذا أوَدٍ يقوّم شنشنة أعرفهـا من أخزمِ

وأخزم فحل كان لرجل من العرب وكان منجبا فضرب فى ابل رجل آخر — ولم يعلم صاحبه — فرأى بعد ذلك من نسله جملا فقال : شنشنة أعرفها من أخزم .

وانظر الأغانى واللسان — خزم .

رفع المسهم

سَروجُ يا ناقُ سِيرِى وخِدِى وأَدْلِجِى وَأَوِّبِى وَأَسْـــئِدِى
حتَّى تطا خُفَّاكِ مَرْعَاها النَّدِى فَتَنْعَمِى حينئـــذٍ وَتَسْعَدِى
وَتأمَنِى أن تُتْهِمِى وتُنْجِـدِى إِيهِ فَدَتْكِ النُّوقِ جِدِّى وَاجْهَدِى
وَافْرِى أديمَ فَدْفَدٍ فَفَدْفَدِ وَاقْتَنِى بالنَّشْحِ عنـد المَوْرِدِ
وَلَا تَحُطِّى دون ذاكِ المقصِدِ فقد حَلَفْتُ حَلْفَةَ المجتهـــدِ
بُحْرمة البيتِ الرَّفيـعِ الْعُمُدِ إنَّكِ إنْ أَحْلَلْتِنِى فى بَلدِى
* حَلَلْتِ منِّى بِمَحَلِّ الْوَلَدِ *

* * *

قوله : بشره ، أى طلاقته . يشفّ : يتلألأ ويرِقّ حتى يكاد يصِفُ ماوراءه من السُّرور . نُضْرته : نعمته ورَوْنقه . تَرِفّ : تندَى . استحوذ : غلب واستولَى . افزعوا : الجئوا . لتشربوا نَشاطاً ، أى يتمشى النشاط فى أجسادكم حتى تُرْوَوْا به . تُبعثوا : تنتبهوا . نِشاطاً : جمع نَشيط ككريم وكرام ، ونَشِط ينشَط فهو نشيط ، إذا كان طيّب النفس للعمل . تعوا : تحفظوا . المتعسّر : الصعب . كراه : نومه . سَنَتْ : خالطها الْوَسَن ، وهو النوم . أغفت : نامت .

قوله : خِدِى ، أى أسرعى . تُتْهِمِى وتُنْجِدى : تقصدى تِهامة ونَجْداً . إيهِ ، معناه زيدى فى سيرك . اجهدى : اتعبى . افرى : اقطعى . أديم : جلد . فدفد : أرض صُلْبة ، وقيل مستوية ، وقيل فلاة ، وأراد بالأديم وجهَ الأرض . ونَشَح ينشِح نَشْحاً : شرب قليلاً قليلاً . تَحُطّى : تنزلى . العُمُد ، والعمود : ما يقومُ عليه الخباء .

وقوله يخاطب ناقته :

إنك إن أحللتِنى فى بلدِى حَلَلْتِ منِّى بمحـلِّ الْوَلَدِ

رفع المسهم

قد جاء فى كلامهم نظيره وضدّه ، وكلاهما فى بابه حسن . قال الشماخ فى ضدّه من مجازاة الناقة على إحسانها بالسوء :

إذ بلّغتْنِي وحَمَلْتِ رَحْلِي عَرابَةَ فاشْرَقِي بدمِ الْوَتِينِ[1]

وناقضه الآخر فقال :

أقول لنـــاقتى إذ بلّغَتْنِي لقد أصبحتِ منى باليَمِينِ
فلم أجعلك للقـــربان طُعْماً ولا قلتُ اشرقى بدم الوتينِ

وتبعه ذو الرُّمة فقال :

أقول لها إذ شمّر الليل واستوتْ بها البيدُ و استَنَّتْ عليها الحزَاوِرُ[2]
إذا ابن أبى موسى بلالاً بلغتِه فقام بفأْسٍ بين رجليـــك جَازِرُ

وتوجيه الحسن فى هذا المذهب على شنعة ظاهره أنّه لا يبالى بفقدها ، لأن الممدوح يحمله ، ويعطيه فهو فى غنًى عنها . ومن يَعيب هذا يقول مجازاةُ الحسن بالسوء قبيح ، وقد قال رسول الله عليه وسلم للمرأة التى قالت وقد نجت على ناقتِه : نذرتُ إن نجّانى الله عليها أن أنحَرها : « بئس ما جازيتِها ، ولا نذر لك فى مال غيرك » والمذهب الأحمد فى ذلك قولُ عبد الله بن رواحة رضى الله عنه حين خرج فى جيش مؤتة يخاطب ناقته :

إذا بلّغتنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي مسيرةَ أربعٍ بعـد الحِساء[3]
فشأنَكِ فانعِمِي وخلاكِ ذمٌّ ولا أرجع إلى أهلى ورائى

ولهذا تبعه الحريرى فى شعره .

وقال الحسن :

---

(١) ديوانه ٣١٩
(٢) ديوانه ٢٥٣
(٣) الحساء : موضع وانظر معجم البلدان ٢ : ٢٧٤

رفع المسهم

وإذا المطىّ بنا بلغن محمّداً فظهورهنّ على الرِّجال حرام[1]
قرّبنَنَا مِنْ خير من وَطِىءَ الثرى فلها علينـــا حُرْمَةٌ وذمام

وقال داود بن أسلم يمدحُ قُثَم بن العباس رضى الله عنهما :

نجوتِ من حَلٍّ ومن رِحْلَةٍ يا ناق إن بلّغتِنى من قُثَم[2]
إنّك إنْ بلّغتنيه غـــداً عاش لنا الخير ومات العَدَمْ

* * *

قال : فعلمت أنّه السّروجىّ الّذى إذا بَاعَ انْبَاع ، وإذا ملأ الصاعَ انْصَاع .

ولمّا انْبَلَجَ صَبَاحُ اليَوْم ، وهبَّ النوّام من النّوم ، أعْلَمْتُهُم أن الشيخ حين أَغْشَاهُمُ السُّبَات ، طلَّقهم البَتَات ، وركب الناقة وفَات ؛ فأخذهم ما قَدُم وما حَدُث ، ونَسُوا ما طابَ منه بما خَبُث ؛ ثمّ انشعبنا فى كلّ مَشْعَب ، وذَهَبْنَا تَحْت كلّ كَوْكَب .

* * *

قوله : انباع ، أى جرى ومدّ باعه ، ومعناه هرب منه فى سيره .

يقال : صُعْت الشيء فانصاع ، أى فرّقته فتفرّق ، ومعناه إذا ملأ كيسه من عطاء قوم راح عنهم . انبلج : أضاء . هبّ : انتبه . أغشاهم : غطّاهم . السُّبَات : النوم الخفىّ كالغشية . ثعلب : السُّبات ابتداء النوم فى الرأس حتى يبلغ القلب ، وسبت الرجل فهو مسبوت : نعس . والبتات : القطع البائن . فات ، أى فرّ فلا يُلْحَق .

---

(١) ديوانه ٦٤

(٢) الكامل للمبرد ٢ : ٢٩ ، ونسبها الى سليمان بن قتة من الأخفش .

وذكر الحريرى فى درّة الغواص : أن قولهم : حَدُث أمر بضم الدال قياساً على أخذهم ما قَدُم وما حَدُث خطأ ، وإنما ضُمّت الدال من حدُث حين قرن بقَدُم للمحافظة على الموازنة، فإذا أفردت لفظة حَدُث زال موجب الضم ، ووجب الردّ إلى الأصل . قال : وأنشدنى بعضُ أدباء خُراسان لأبى الفتح البستى :

جزعت من أمرٍ فظيع قد حَدُثْ أبو تميم وهو شيخ لا حـــدَثْ

* قد حبس الأصلع فى بيت الحدَثْ *

* * *

لم نتعرض فى شرح هـــذه المقامة ، لما ثبت فى كتاب المقامات من شرح مُنْشيها ، بل نُعْقب ما أهمله ، وكان الأولى إثباتُ ما شرح بنصه ؛ إذ هو وَفْقٌ لغرضِه .

رفع المسهم

قال الشيخ الرئيس أبو محمد القاسم بن علىٍّ رحمه الله تعالى :

قد فسّرتُ سرَّ كلّ لغز تحته ، ولم أُبعد على مَنْ يقرؤه كشفَه ، وقد بقيتْ أَلْيَفَاظ اشتملت عليها هذه المقامة ربّما التبس تفسيرُها على بعض مَنْ تقع إليه ، فأَحببتُ إيضاحها له ليُكْفَى حَيْرة الشبهة وكُلْفة الفكْرة ، ووَصْمَة البحث والمسألة ، وبالله تعالى الاستعانة والقوّة .

قوله : « عشوتُ إلى نار » يعنى تنوّرتُها فقصدتُها فإن لم تقصدها قلت : عَشَوْت عنها ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عن ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ ﴾ أى يُعْرِض .

وقوله : « وأنا أَصْرَد من عينِ الحَرْباء والعَنْزِ الحَرْباء » هذان مَثَلان يُضْربان لمن يبلغ منه البرد ، وذلك لأنَّ الحِرْباء تَدُور أبداً مع الشمس وتستقبلها بعينِها ، ولذلك شبّه ابنُ الرومى الرّقيب بالحِرْباء فى قوله[1] :

ما بالُها قد حُسِّنَتْ ورقيبُها أَبَداً قَبيحٌ ، قَبَّحَ الرُّقَبَاء
ما ذاك إلاّ أنّها شَمْس الضُّحا أبداً يكون رقيبَها الحِرْبَاء

والعنز الجَرباء لا تدفأ فى الشتاء لقلّة شعرها . وذكر بعضهم أن العَنْز الجرباء تصحيف المَثَل الأول .

وقوله : « من نحر وارٍ » يعنى الجمل المكتنز شحماً ، الكثير مُخًّا .

وقوله : « عِشاره تخورُ وأعشاره تفور » العِشار : النُّوق الحوامل . والأعشار : البُرْمة العظيمة ، كأنها شُعِبت لِعِظَمها ، يقال : بُرْمَةٌ أعشار وجَفْنَةٌ أكسار وثَوْبٌ أسمال وبُرْدٌ أخلاق وحبل أرْمام ، ووصْف الجماعة منها كوصف الواحد .

وقوله : « فاكهة الشتاء » كَنَى بها عن النار ، ومنه قول بعض المحدَثين :

(١) ديوانه ١ : ٦٣

النّار فاكهة الشتاء فمن يُرِدْ أكل الفواكه شاتياً فليصْطَلِ
إنّ الفوَاكِه فى الشتاء شَهِيّةٌ والنّار للمقرور أفْضَلُ مَأْكَلِ

وقوله : « موائد كالهالات » يعنى داراتِ القمر ، ودارةُ الشمس تسمَّى الطُّفاوة

وقوله : « مَشوش الغَمر » يعنى المنديل ، يقال : مشَّ يده بالمنديل ، أى مَسَحها ، ومنه قول امرئ القيس :

نَمُشُّ بأعراف الجياد أكُفَّنَا إذا نحن قُمْنَا عن شِواء مُضَهّب[1]

وقوله : « مشتهباً فوداه ، أى صارا من الشَّيْب فى لون الأَشْهب ، ومنه قول امرئ القيس :

قالتِ الخَنْسَاء لمّا جئتُها شابَ بَعْدِى رأسُ هذا واشْتهب[2]

وقوله : « رَبَض حَجْرة » يعنى ناحية ، ويقال فى المثل لمن يشارك فى الرّخاء ويجانب عند البلاء : يَرْتَعُ وسطاً ويَربض حَجْرة .

وقوله : « فاسْتَرْعَى سَمْعَ السّامر » يعنى السُّمّار ؛ لأنّ السامر اسم للجمع كالحاضر اسم للحىّ النازلين على الماء ، وكالباقر : اسم لجماعة البقر .

وقال بعض أهل اللغة : هو اسم للبقر مع رُعاتها ، واشتقاق السّامر من السّمر ، وهو ظلّ القمر مأخوذ من السمرة ، فلمّا كان غالب أحوال السّمّار أنهم يتحدثون فى ظل القمر اشتُقّ لهم اسم منه ، وإلى هذا يَرْجع قولهم : « لا أكلّمه القَمَر والسَّمَر »

وقوله : « ليس بُشِّك فادْرُجى » هذا مثل يضرب لمن يتعاطَى مالا ينبغى له . والبُشّ : مايكون فى شجرة ، فإذا كان فى حائط أو كهف جبل فهو وكْر .

وقوله : « الإيناس قبل الإبساس » هذا مثل أيضاً ، ومعناه أنه ينبغى أنْ يؤنِس الإنسان ثم يكلِّف ، وأصله أنّ حالب الناقة يُؤنسها حين يَرُوم حَلَبها ،

(١) ديوانه ٤٥ (٢) ديوانه ٢٩٣

ثم يبسّ بها للحلب ، والإبساس أن تقول لها : بس بس ، لتَسْكُن وتَدِرّ ، وتسمّى الناقة التى تَدِرّ على الإبساس : الْبَسُوس .

وقوله : « يرغب فى الشَّكْم » الشكم ما أعطيتَه على سبيل المجازاة ، فإن أعطيتَه مبتدئاً فهو الشَّكْد .

وقوله : « ساء أبا مثوانا » يعنى المُضيف الذى أَوَوْا إليه وثَوَوْا عنده .

وقوله : « ناقة عِيديّة » قيل إنها منسوبة إلى فحل منجب اسمُـه عيد ، وقيل : هى منسوبة إلى فِخذ من مَهرة اسمه عيد بن مهرة ، وكانت مَهرة وعِيد تتخذان نجائب الإبل ، فنسبت إليهما .

وقوله : « حـلّة سعيدية » هى منسوبة إلى سعيد بن العاص ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كَساه وهو غلام حُلّة فنُسِب جِنْسُهَا إليه .

وقوله : « لاتَرْزَأْ أضيافى زِبالاً » أى لا ترزؤهم شيئاً وإن قل ، والأصل فى الزِّبال ما تحمله النملة بفِيها .

وقوله : « شنشنة أخزمية » أشار به إلى المثـل الذى ضربه جَدُّ حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج بن أخزم الطائى ، حين نشأ حاتم وتقبَّل أخلاقَ جدّه أخزم فى الجود ، فقـال : « شنشنة أعرفها من أخزم » وتمثَّل عُقيل بن علّفة به حين قال :

إن بَنِىّ ضرّجُونى بالدمِ مَنْ يَلْقَ آساد الرِّجال يُكْلَمِ
* شِنْشِنَةٌ أعرِفها من أَخْزَمِ *

ومن ادّعى أن المثل له فقدسها فيه .

وقوله : « اجلوّذ » أى أسرع فى الذَّهاب ومثله اخْرَوَّط .

وقوله : « وَثَب إلَى النَّاقَةِ فرحَلها » يعنى شدّ عليها الرَّحْل ، وبه سُمِّيت الراحلة ، لأنها فاعلة بمعنى مفعوله كقوله تعالى : ﴿فى عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ ، أى مَرْضية .

وكقوله تعالى : ﴿ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴾ أى مدفوق، والرَّاحلة تقع على الناقة والجمل ودخول الهاء فيها للمبالغة ، مثل داهية وراوية .

وقوله : « ارْتحلها » أى ركبها ، وفى الحديث أن النبىّ صلى الله عليه وسلم سجد ، فركبه الحسن فأبطأ فى سجوده ، فلمَّا قضى صلاته قال : « إنّ ابنى ارْتحلنى فكرهتُ أن أُعْجِله » .

وقوله : « ورحَلها » أى أزعجها وأشْخَصها وأجدّ بها فى الرحيل ، ومنه الخبر : « تخْرُج عند اقتراب الساعة نارٌ من قَعْرِ عدَن تَرْحَلُ الناس » .

وقوله : « فأدْلجى وأوّبى وأسئدى » . الإدلاج : أن تسير الليل كلّه والاسم منه الدَّلجة بفتح الدال والادّلاج بالتشديد : أن تسير من آخره والاسم منه الدُّلجة ، بضم الدال . وقيل فتحها وضمها بمعنى واحد . والتأويب : سَيْر النّهار وحده . والإسئاد : أن تسيَر ليلاً ونهاراً . والنَّشْح : أن تشرب دُونَ الرّىّ .

وقوله : « ما قَدُم وما حدُث » ، يقال ذلك لمن تستولى الهموم عليه وتتلاعب به . وتضمّ الدال من « حَدُث » فى هذا الموضوع وحدَه ، ليوافق لفظها لفظ « قَدُم » ؛ فإن أفردت « حدَث » عن قَدُم وجب فتح الدال من « حَدَث » ، ومثله قولهم : هنأنى ومرأنى بحذف الألف من أمْرَأنى إذ ذكر مع « هنأنى » فإن أفردته قلت : أمرأنى الشىء .

وقوله : « ذهبنا تحت كلّ كوكب » هذا المثل يضرب لمن تختلف فى السفر طُرُقهم وتتباين سبلهم .

رفع المسهم

المقامة الخامسة والأربعون وهى الرّمليّة

حكى الحارث بن همّام قال : كنتُ أخذتُ عن أولِي التّجارِيب ، أن السّفَر مرآةُ الأعاجيب ، فلم أزل أجُوبُ كلَّ تَنُوفة ، وأقتحم كلَّ مَخُوفة ، حتى اجتلبتُ كُلَّ أُطروفة ؛ فمن أحسن ما لَمَحْتُهُ ، وأغربِ ما اسْتَمْلَحتهُ ، أنْ حَضَرْتُ قاضِيَ الرَّمْلة ، وكان من أرباب الدّولة والصَّوْلة ، وقد ترافع إليه بالٍ فى بالٍ ، وذاتُ جمالٍ فى أَسْمال ، فهمّ الشَّيْخُ بالكلام ، وتِبْيان المَرَام ؛ فمنعتْه الفتاة من الإفْصاح ، وخَسَأَتْه عنِ النُّباح ، ثمَّ نَضَتْ عنهـــا فَضْلَة الوِشاح ، وأنشدته بلسان السَّلِيطةِ الْوَقَاح :

* * *

أولى التجاريب ، أى أصحابها وأهلها . أجوب : أقطع . تَنوفة : قفرة . أقتحم : أدخل . اجتليت : رأيت . أُطروفة : عجيبة . لمحته : نظرته . استملحته : وجدته مليحاً . الصولة : الاستطالة . وقد صال إذا استطال وهدّد . ترافع ، أى تداعَى للحكومة ، ورفع كلّ واحـد صاحبَه . بالٍ : شيخ كبير . فى بالٍ : فى ثوب خَلَق ، وأسمال : ثياب خَلَقة ، واحدها سَمَل ، وسمل الثوبُ وأسمل ، ويقال أيضاً : ثوب أسْمال ، فيُوصف بالجمع ، كما يقال : رمح أقصاد ، وبُرْمة أعشار . تبيان المرام : تبيين مراده ، وإظهار حجته . الإفصاح : التبيين . خسأته : أبعدته وطردته . النُّباح : الكلام هنا ، وخسأ ونبح أصلهما فى الكلب ، ويقال : خسأتُ الكلب خَسْئاً : طردته وأبعدته ، وخسأ الكلب بنفسه ، أى انخسأ ،

رفع المسهم

يتعدّى ولا يتعدّى ، قال تعالى : ﴿ اخْسَئُوا فيها ﴾ أى تباعدوا تباعدَ سُخْط .
نضَت : جردت . الوشاح : الحزام ، وهو المنطقة . الفنجديهى : الوِشاح شبه قلادة تنسج من أدم عريضة وتُرَصَّع بالجواهر وغيرها . السّليطة : المستطيلة بلسانها . الوَقَاح : الّتى ليس فى وجهها حياء ، فهى تقول ما شاءت .

* * *

يا قاضِيَ الرّمـــلة ياذا الّذِى ... فى يده التَّمـــرةُ والجَمْرهْ
إليك أشكُو جَوْرَ بَعْلِى الّذِى ... لم يَحْجُجِ البَيْتَ سِوَى مَرّهْ
وليتَـــهُ لمّا قضى نُسْكَهُ ... وخَفَّ ظَهْراً إذْ رَمَى الجمرهْ
كانَ على رأى أبى يوسُفٍ ... فى صِـــلَةِ الحِجَّةِ بالعُمْرَهْ
هـــذا على أنّى مُذْ ضَمَّنِى ... إليـــهِ لَمْ أعْصِ له أمْرَهْ
فمرُهْ إمّا ألفةَ حُـــلْوَةً ... تُرْضِى وإمّا فُرقَةً مُرّهْ
من قبـل أن أخلع ثوب الحيا ... فى طاعـــة الشيخ أبى مُرّهْ

* * *

الرّملة : قرية بالشأم ، وقسم الشأم خمسة أقسام ، فَخُمس منه فلسطين ومدينته العظمى الرّملة ، والرملة أربعة آلاف ضَيْعة ، ومن مدن فلسطين إيلياء مدينة بيت المقدس ، بينها وبين الرملة ثمانية عشر ميلا . وقال ابنُ ظَفَر : عشرون فرسخاً . التّمرة والجمرة : الخير والشّرّ ، والنفع والضّر ، ويضرب بهما المثل فى هذا المعنى ، ومَنْ قضى له القاضى بشىء فكأنه قد أعطاه . والبيت ، عَنَتْ به فَرْجَها يُحْجَج : يقصد إليه بالجماع ، وقولها . سوى مرّة ، تريد أوّل مرّة وطئها وافترعها ولم يَعُدْها بعد تلك المرة ، وتعنى بالنّسك افتراعها وما هناك من الدم . وعَنَتْ برمى الجمرة إتيانه لها ، وجَمْع الجمر جمار ، وهى الحجارة الصغار عند العرب ، وجَمَّر الرجل تجميراً : رمى جمار مكة ، قال عمر بن أبى ربيعة :

رفع المسهم

فلم أر كالتجمـــير منظرَ ناظرٍ ولا كَلَيالى الحج أفلتن ذا هَوَى

ومنه الحديث: « وإذا استجمرتَ فأوتر » معناه تمسَّحت بالحجارة .

[ذكر أبى يوسف صاحب أبى حنيفة]

أبو يوسف ، هو يعقوب بن إبراهيم بن حسين بن سعد بن حبيب الأنصارىّ. وأبو يوسف كوفىّ صاحَب أبا حنيفة فغلَب عليـه ؛ حتى قالوا : أبو يوسف أبو حنيفة ، أى يسدّ مسدّه ويغنى عنه ، وروى عن أبى حنيفة والمطرّف والمغيرة وهشام بن عروة الشيبانى . وكان صدوقاً من أهل الدين والعلم ، وكان قاضىَ القضاة ببغداد لثلاثة خلفاء: المهدى والهادى والرشيد ، وكانت أم جعفر قد استفتته فى مسألة ، فأفتاها بما أوجبه العلم عنده ، فوافق بذلك مرادَها ، فأهدت له حُقًّا من فضة فيه طِيب وجام فضة فيه دنانير ، فقال له بعضُ مَنْ حضره : قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : « مَنْ أُهدِيتْ له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها » ، فقال أبو يوسف تأوّلتَ الخبر على ظاهره ، والاستحسان قد منع من إمضائه ، فإن ذلك إذ كان هدايا الناس التّمر واللبن ، لا فى هذا الوقت، والهدايا ذهب ووَرِق ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

قال أبو جعفر الطحاوى : ولد أبو يوسف سنة ثلاث عشرة ومائة .

حمّاد : رأيت أبا حنيفة يوماً وعن يمينه أبو يوسف وعن يَساره زُفَر ، وهما يتجادلان فى مسألة ، فلا يقول أبو يوسفَ قولاً إلا أفسده عليـه زُفَر ، ولا يقول زُفَر قولاً إلاّ أفسده عليه أبو يوسف إلى وقت الظهر ، فلمّا أذّن المؤذّن رفع أبو حنيفة يدَه ، فضرَب بها فخِذَ زُفر ، وقال : لا تطمع فى رياسة فى بلد فيها أبو يوسف ، فقَضَى لأبى يوسف .

رفع المسهم

علىّ بن حرملة التيمىّ : قال أبو يوسف : كنت أطلبُ الحديث والفقه ، وأنا مُقِلٌّ رثُّ الحال ، فجاء أبى يوماً وأنا عند أبى حنيفة ، فانصرفت معه ، فقال : يا بنىَّ لا تمدَّنَّ رجليك مع أبى حنيفة ، فإن خير أبى حنفية مستورٍ ، وأنت محتاج إلى المعاش ، فقصَّرْت عن كثير من الطَّلب ، وآثرتُ طاعة والدى . فتفقَّدنى أبو حنيفة، وسأل عنى ، فجعلتُ أتعهَّد مجلسه ، فلمَّا كان أوَّل يوم أتيته بعد تأخُّرى عنه ، قال لى : ما يشغلك عنا ؟ قلت : الشَّغْل بالمعاش ، وطاعة والدى ، فلما انصرف الناس دفع إلىَّ صُرَّة ، وقال : استمتع بهذه ، وإذا فيها مائة درهم ، وقال لى : الزم الجماعة ، فإذا نفِدَتْ فأعلمنى ، فلزمت الحلْقة ، فلما مضت مدَّة يسيرة دفع إلىَّ مائةً أخرى ، ثم كان يتعهَّدنى كذلك ، وما أعلمته بنفاذها قطُّ ، وكأنه كان يخبر بنفادها ، حتى استغنيت وتموَّلت .

علىّ بن الجعد : حدَّثنى أبو يوسف ، قال : توفِّىَ أبى إبراهيم ، وخلَّفنى صغيراً فى حِجْر أمىٍّ فأسلمتْنى ، إلى قصَّار أخدُمه ، فكنت أدَعُ القصَّار وأمرّ على حلْقة أبى حنيفة فأجلس وأستمع ، فتجىء أمىٌّ فتأخذ بيدى وتذهب بى إلى القصَّار . وكان أبو حنيفة يُعنَى بى لِمَا كان يرى من حرْصى على التعلُّم ، فلما طال ذلك على أمىٍّ وكثُر عليها هربى ، قالت لأبى حنيفة : ما لهذا الصبىِّ فساد غَيرك ، هذا صبىٌّ يتيم لاشىء له ، وإنما أطعمه من مِغْزَلى ، وآمل أن يكتسب دانقاً يعود به علىّ نفسه. فقال لها أبو حنيفة : مرِّى يا رعناء ، هاهو ذا يتعلَّم أكل الفالوذج بدُهن الفستق ، فانصرفَتْ عنه وهى تقول : أنت شيخ قد خرِفْت وذهب عقلك . قال : ثم لزمتُه ونفعنى الله تعالى بالعلْم ورفعنى حتى تقلَّدت القضاء ، فكنت أجالس الرشيد ، وآكل معه على مائدته ، فلما كان فى بعض الأيام قُدِّم إليه فالوذجة . فقال لى : كلْ يا يعقوب ، فليس فى كلِّ يوم يُعْمَل لنا مثلها ، فقلت : وما هذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هـذه فالوذجة بدُهن فُسْتُق ، فضحكت فقال لى :

رفع المسهم

مِمَّ تضحك ؟ فقلت : خيراً ، أبقى الله أمير المؤمنين ، فقال : لَتخبرنِّى وألحَّ علىَّ ، فحدّثته بالقصّة من أولها إلى آخرها ، فعجب من ذلك ، وقال : لعمرى إنَّ العلم لينفع ويرفع ديناً ودنيا ، وترحَّم على أبى حنيفة ، وقال : إنه كان ينظُر بعين عقله ما لا ينظره غيرُه بعين رأسِه . وأبو يوسف أوَّلُ من دُعِىَ بقاضى القضاة فى الإسلام .

إسحاق الموصلىّ : حدَّثنى بشر بن الوليد ، وسألته : من أين جاء ؟ فقال : كنت عند أبى يوسف القاضى ، وكنت فى حديث ظريف ، فقلت : حدِّثنى به ، فقال : قال لى أبو يوسف : كنت البارحة قد أَوَيْتُ إلى فراشى ، فإذا داقٌّ يدُقّ الباب بشدَّة ، فأخذت علىَّ إزارى ، وخرجت ، فإذا هو ابنُ أعين يقول : أجب أمير المؤمنين ، فقلت : يا أبا حارثة لِى بك حُرْمة ، وهذا وقتٌ كما ترى ، ولست آمن أن يكون أمير المؤمنين دعانى لمكروهٍ ، فإن أمكنك أن تدَع الأمر إلى غدٍ فلعله أن يحدُث له رأى ! فقال : ما لى إلى ذلك من سبيل ، قلت : كيف كان السبب ؟ قال : خرج إلىَّ مسرور الخادم ، فأمرنى أن آتىَ بك أميرَ المؤمنين ، فقلت : أتأذن لِى أن أصُبَّ علىَّ ماء وأتحنّط فإن كان أمرٌ كنت قد أحكمتُ شأنى ، وإن رزق الله العافية فلن يضرَّ ، فدخلت ففعلت ذلك ، وتطيَّبت ثم خرجنا إلى دار الرشيد ومسرور واقف ، فقلتُ : يا أبا هاشم خِدمتى وحُرمْتى ، وهذا وقت ضيِّق ، أفتدرى لم طلبنى ؟ قال : لا ، قلت : فمَن عنده ؟ قال : عيسى ابن جعفر وحدَه ، ثم قال : مُرَّ فإذا صرت فى الصَّحْن فحرِّك رجليك ، فإنه فى الرواق ، ففعلت ، فقال : مَنْ هذا ؟ قلت : يعقوب ، قال : ادخل ، فدخلت فسلَّمت فردّ علىّ السلام ، وقال : أظنُّنا روَّعناك ؟ قلت : إى والله ومَنْ خَلْفى ، قال : اجلس ، فلما سكن رَوْعى ، قال : يا يعقوب هَـلْ تدرى لم دعوتك ؟ قلت : لا ، قال : لأشهدك على هذا ؛ إنَّ عنده جاريةً ، فسألتُه أن يهبَها أو يبيعها لى

رفع المسهم

فأبى ، ووالله لئن لم يفعل لأقتلنّه. فالتفتُّ إلى عيسى وقلت : وما بلغ قَدْر الجارية ؟ أتمنعُها أميرَ المؤمنين وتنزّل نفسك هذه المنزلة ؟ فقال لى: عجّلت القول قبل أن تعرف ما عندى ، إن علىّ يميناً بالطلاق والعَتاق وصدقة ما أملك ألّا أبيعَها لأحدٍ ولا أهبَها ، فالتفت إلىّ الرشيد ، فقال لى: هل لك فى ذلك مخرج ؟ فقلت : نعم ، قال: وما هو ؟ قلت : يهب لك نصفَها ويبيعُك نصفَها،فيكون لم يبِعْ ولم يَهَبْ ، قال عيسى : ويجوز ذلك ؟ قلت : نعم ، قال: فأشهدك أنى قد وهبتُ له نصفَها ، وبعت منه نصفها بمائة ألف دينار ، وأتِىَ بالجارية ، فقال : خذها يا أمير المؤمنين بارك الله لك فيها ، قال: يا يعقوب ، وبقيت واحدة ، قلت : يا أمير المؤمنين ، وما هى ؟ قال : هى مملوكة ولابدّ أن تُستَبرأ ، ووالله إنّ نفسى لتخرج إنْ لم أبِتْ معها . فقلت: ياأميرَ المؤمنين تعتقها وتتزوّجها ، فإن الحرّة لاتُستبرأ، قال: فإنى قد أعتقتُها ، فدعا بمسرور وحسن ، وخَطَبْت وحمدت الله ثم زُوّجت على عشرين ألف دينار ، ودُفع المال إليها ، ثم قال : يا يعقوب انصرف ، ثم قال: يا مسرور احمل إلى أبى يوسف مائتى ألف درهم وعشرين تختاً ثياباً ، فحمل معى ذلك ، قال بشر : فالتفتُّ إلىّ يعقوب ، فقال : هل رأيت بأساً فيما فعلت؟ قلت: لا قال: فحقّك منها العُشر فشكرته ، وذهبت لأقوم وإذا بعجوز دخلتْ ، فقالت : يا أبا يوسف ، بنتُك تقرئك السلام ، وتقول : والله ما وصلنى من أمير المؤمنين فى ليلتى هذه إلّا المهر الذى قد عرفت ، وقد جَعَلْت إليك النصف منه ، وخلّفت الباقى لما أحتاج إليه ، فقال: رُدِّيه ، فوالله لا قبلتُه ، أخرجتُها من الرِّق وزوّجتها من أمير المؤمنين وترضينى بهذا ، فلم نزل نتلطف إليه أنا وعمومتى يقبلَها فقبلها وأمر لى بألف دينار .

وأما صلة الحج بالعمرة التى ذكر الحريرى ، فإن أبا يوسف فى ذلك مخالف لمالك رضى الله عنهما فى أن القِران فى الحج أفضلُ من الإفراد ، وهو مذهب

علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وقوله : خَفَّ ظهراً ، أى حطَّ عن ظهره بعضَ الذنوب، والذى أرادت أنه لم يأتها ولا جامعها غير مرَّة واحدةً خفَّف بها ظهره وبعض شهوته وليته فعل ذلك مرَّتين ، فورَّت بظاهر كلامها عن هذا المعنى .

وجاءت امرأة إلى المغيرة بن شعبة بزوجها تستعديه عليه ، وتذكر أنه عِنّين فقال الرجل :

الله يعلم يا مغيرةُ أننى قد دُسْتُها دَوْسَ الحِصَان المُرْسَلِ
وأخذتها أخذ المعنّف شاته عَجْلَان يذبحُها لقومٍ نُزَّلِ

فقال له المغيرة : إنّى لأرى ذلك فى شمائلك .

وخاصمت الدّهناء بنت مسحل أحد بنى مالك بن سعد بن زيد مناة العجّاج ، وكان من بنى عمها إلى والى اليمامة ، فكان أبوها يُعينها على ذلك ، فقال له أهل اليمامة : ألا تستحى ، تطلب العُسْبَ لابنتك ! فقال : إنّى أحبّ أن يكونَ لها ولد ، فإن أفرطتهم أجِرت ، وإن بَقُوا دعوا الله لها، فدخلتْ على الوالى ، فقالت: إنى منه بجمع ، فقال: لعلّك تغارين الشيخ ؟ فقالت: إنّى لأرخى له بادّى ، وأقيم صُلْبى ، فقال العجاج :

أظنت الدهنا وظنّ مسحَلُ أن الأمير بالقضاء يعجِّلُ
عن كسلاتى والحصان يكْسَلُ عن السِّفاد وهو طِرْف هَيْكلُ

فقالت هى :

والله لولا خشيةُ الأميرِ وخشية الشّرطىِّ والمشيرِ
لجلت من شيخ بنى الفقيرِ كجوَلان صَعْبَةٍ عسير

فأخذها وضمها إليه يقبّلها فقالت :

تاللهِ لا تخـــدعُنى بالضَّمِّ إليك والتَّقْبيل بعْد الشَّمِّ
إلاّ بهزْهازٍ يُسَلِّى هَمِّى ينزع عَنِّى فتجِى فى كُمِّ

فذهب بها إلى أهلها ، فطلّقها فى تلك الليلة مرّا . ولو استقبلها العجاج بما وصف ابن الرومى حيث يقول :

ألَا يا هند هل لك فى ممدٍّ غليظٍ تفرحين به متينْ
يشدُّ به حشاك غلام نَيْكٍ من الفتيان منقطع القرينْ
فمن يره يبولُ يقول : أنثى بدا من فرجها ثلثا جنينْ

لرضيتْه ، ولم تحاكمه .

قوله :ألفة : صُحْبة . أخلع : أزيل. وأبو مرّة . كنية إبليس لعنه الله ، وكنى بذلك لما تقدّم أنّ أبغض الأسماء إلى الله تعالى مرّة وحرب. تقول : إما يصاحبنى صحبةً يرضينى فيها بكثرة الجماع ، وإلا أزلتُ عنى الحياء وخرجت أزنى وأفسق فى طاعة إبليس ، ولو عالجها بما كان يعالج به رجل زوجتَه ، وكان إذا وقع بينهما شرٌّ انحنى عليها بالجماع ، فكانت تقول : لعنك الله ! كلّما وقع بيننا شرّ جئتَنى بشفيع لا أقدر على ردِّه ! فلو جاءها بهذا الشفيع لما رفعتْه إلى الوالى .

محمد بن يحيى بن حَيّان : عاتبت جدّتى جَدِّى فى قلة الباه ، فقال لها : أنا وأنت على قضاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قالت: وما قضاء عمر ؟ قال : قال : إن الرجل إذا أتى امرأته فى كلِّ طُهْرٍ مَرّة فقد أدّى حقها ، قالت : فكلُّ الناس تركوا قضاء عمر ، وأقمتُ أنا وأنت عليه !

وقال إعرابى كَبِر وعَجَز :

عجبت من أيْزِى كيف يَصْنَعْ أدنعـــــه بإصبعى فيرجِعْ

* يقوم بعد الشدِّ ثم يركع *

رفع المسهم

دخل عيسى بن موسى على جارية له فعجز ، فقال :

النَّفْس تطمـــع والأسباب عاجزة والنَّفْس تهلِكُ بيْن العجز والطمعِ

خلا ثمامة بن أشرس بجارية له فعجز ، فقال : ويحك ! ما أوسع حِرك ! فقالت :

أنت الفداء لمن قد كان يملؤُهُ ويشتكى الضِّيق منـه حين يَلْقَاهُ

وكان عُروة بن شُيَيْم أوفرَ الناس أيْراً وأشدّهم نِكاحاً ، وكان إذا أنعظ يستلقى على قفاه فيأتى الفصيل الجرِب فيحتَك بأيره يظنّه الجِذْل ، وهو عود فى العَطَن يُنْصَب لتحتك به الإبل الجرْبَى .

ويزعمون أنه أصاب أيْرهُ جنب عروس زُفَّت إليه ، فقالت له : أتهددنى بالركبة !

وهو القائل :

أَلَا رُبَّمَا أنعظتُ حتى إخالُه سينقـــدّ للإنعاظ أو يتمزقُ

فأُعْمِلُه حتى إذا قلت : قدَونَى أبَى وتمطّى جامحاً يتمطَّقُ

وأقبل رجل عَلَى علىّ رضى الله عنه فقال : إن لى امرأةً كلما غشيتُها ، تقول : قتلتنى قتلتنى ! فقال : اقتلها وعلىّ إثمها .

وقع أعشى همدان أسيراً عند الدّيلم ، ثم إن ابنة العلج الذى أسَرَه عشقته ، فكمَنَته ليلة من نفسها ، فأصبح وقد واقعها ثمان مرات ، فقالت له : يا معشر المسلمين ، أهكذا تفعلون بنسائكم ! قال : هكذا نفعل كلُّنا ، فقالت : بهذا العمل نصرتم ، أفرأيتَ إن خلّصتُك تصطفينى ؟ فعاهدها ، فخلّت قيودَه بالليل ، وأخذت به فى طرقٍ تعرفُها حتى تخلّص ، فقال أسير شاعر فيه :

فمن كان يَفْدِيه من الأسر مالُه فهمْدان تفديها الغداةَ أيورُها

كان عبدالله بن عمر من أنزه النّاس نفساً ، وأبعدِهم عن المزاح وذكر الفاحشة ، فجاءه ابنُ أبى عتيق يوماً ، وكان صاحبَ مُزاح وفكاهة ، وفى يده رُقْعة فيها :

رفع المسهم

ذهبَ الإله بما تعيشُ به وقَمَرْتَ مالكَ أيَّما قَمَرِ
أنفقت مالك غير مكترثٍ فى كلِّ زانيةٍ وفى الخمرِ

وكانت هجته بهما امرأته عاتكة بنت عبد الرحمن المخزومىّ ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، انظُرْ هذه الرقعة وأشِرْ علىّ برأيك فيها . فلما قرأها عبد الله استرجع فقال : ما ترى فيمن هجانى بهذا الشعر ؟ قال : أرى أن تعفوَ وتصفح ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، لئن لقيتُ صاحبَه لأنيكنَّه نيْكاً جيداً ، فأخذ ابن عمر من قوله وأرعد وأزبد ، قال : مالك ؟ غضب الله عليك ! فقال : ما هو إلا ما قلت لك ، وافترقا ، فلمَّا كان بعد أيام لقيه ابنُ عمر ، فأعرض عنه ، فصاح : يا أبا عبد الرحمن ، إنى لقيت صاحبَ البيتين فنكْتُه والله نَيْكا شافياً ، وأقسم على ذلك ، فصُعِق ابنُ عمر ، فلما رأى ابنُ أبى عتيق ماحلَّ به دنا منه ، وقال له فى أذنه : إنَّها والله امرأتى ، فقام ابنُ عمر وقد سُرِّىَ عنه ، وهو يضحك ، فقبَّله بين عينيه ، وقال أَحْسَنْتَ ، زده من هذا الأدب ، فلن يَهْجوَك بعدها أبداً .

* * *

فقال له القاضى : قد سمعتُ ما عزتْكَ إليهِ ، وتوَعَّدتك عليْه ، فجانِبْ ما عَرَّك ، وحاذِرْ أن تُفرِكَ ، وتُعرِك ، فجَثَا الشيخُ على ثَفِناته ، وفجَّر يَنْبُوع نَفثاتِهِ ، وقال :

اسمَعْ عَدَاك الذَّمُّ قولَ امرئٍ يُوضِح فيما رابَها عُذْرَهْ
واللهِ ما أعرضتُ عنها قِلًى ولا هَوَى قلبِي قَضَى نَذْرَهْ
وإنَّما الدَّهْرُ عَدَا صَرْفُهُ فابتزَّنا الدُّرَّة والذَّرَّهْ
فمنزِلِى قفرٌ كما جيدُها عُطْلٌ من الجِزْعةِ والشَّذْرَهْ
وكنت من قَبْلُ أرى فى الهَوَى ودِينِهِ رأىَ بنى عذرهْ

فمُذْ نبـــا الدَّهْرُ هجرتُ الدُّمَى هِجرانَ عفٍّ آخـــذٍ حِذْرَهْ
وملتُ عن حَرْثِى لا رغبةً عنـــه ولـكن أتَّقِى بَذْرَهْ
فلا تَلُمْ مَنْ هـــــذهِ حالُه واعطِف عليهِ واحتمِلْ هَذْرَهْ

* * *

قوله عَزَتْك، أى نسبتك. توعّدتك: هدّدتك. عَرَّك: شانكَ وعابك ولطَّخك بشرّ وساءك، وعرّ فلانٌ قومَه بشرّ: لطَّخهم به. حَاذِرْ: خف. نُفُرَك: تُبْغَض، وفَرَكتِ المرأة زوجَها: أبغضته. وتُعْرَك: تُدْلك دَلْكاً شديداً مثل دلك الأديم، وعركتُ القوم فى الحرب قاتلتُهم. جَثَا يجثو جَثْواً وجِثيًّا: جلس على رُكبتيه. التَّفِنات: ما وَلِى الأرض من أعضاء البعير وغَلُظ؛ إذا برَك على الرُّكبتين والكِرْكرة. يَنْبوع: ماؤها النابع. نَفَثاته: كلماته. عَدَاك: تجاوزك. يُوضح: يُبيّن. رابَها: شكَّكها وأدخل عليها الرِّيبة. أعْرَضْت: صَدَدْت. قِلًى: بغض. هَوَى: حبّ. النذر: أن ينذر الإنسان على نفسه شيئاً يفعلُه، وقضى نحبَه: استوفى غَرَضه. عَدَا: ظلم. صَرْفه: تصرّفه بالإنكاد. ابتزَّنا: سلبنا. الدّرّة: اللؤلؤة. والذّرّة: اللبن، ومالُ العرب الإبل، وعيشهم من لبنها، فلهذا جنَّس بالذّرّة مع الدّرة. جِيدها: عنقها. عُطْل: خال. الجِزْعة: خَرَز يمانىّ، وهى التى فيها بياض وسواد. والشَّذر: قطع من ذهب، يفصل بها بين الجواهر، وقيل: الجِزْع: خرزٌ مُلوّن، والشَّذْر: خرز أخضر، وقيل: الشَّذْرة: القطعة من الذّهب تُلْتَقط من المعدن من غير إذابة الحجارة.

بنى عذْرة، قبيلة بغلب على قلوبهم حبّ النساء، فكلّ مَنْ أفرط فى حبهنّ قيل له: عُذرىّ، فنسب إليهم. وسُئِل أعرابىّ، فقيل له: من أين أنت؟ فقال: من قبيلةٍ إذا أحبُّوا ماتوا، فسمعته جارية، فقالتْ: عذرِىّ وربّ الكعبة.

قوله: نبا، أى ارتفع وزال خيرُه. الدُّمَى: النّساء المشبهات فى بياضهن وصفائهن بصُوَر الرّخام، وكان العاشق من العرب إذا غلب عليه العِشْق

والهَجْر ذهب إلى الأمصار فاشترى صُورةً من رُخام على صورة محبوبته ؛ فإذا ركب بعيرَه أجلس الصُّورة بين يديه يحدّثها ، ويستريح إليها ، فسمّوا النساء دُمًى تشبيهاً بصور الرخام . عفّ : عفيف . البَذْر : ما يزرع فى الأرض من الحبوب ، وحَرْثه نكاحه ، وأراد بالبذْر مايزرعه فيها من النُّطفة . هَذْره : هذيانه ، وكلامه الفارغ .

* * *

قال : فالْتَظَتِ المرأة من مَقالِه ، وانْتَضَتِ الْحِجَجَ لجِدَالِه ، وقالت له : ويلك يامرقعان ! يا مَنْ هو لاطعامٌ ولاطِعان ؛ أتضيق بالولد ذَرْعًا ، ولـكلّ أكولةٍ مَرْتَعًا ؛ لقد ضلّ فهمُك ، وأخطأ سَهمُك ، وسفِهَتْ نفسُك ، وشقِيتْ بك عِرْسُك .

فقال لها القاضى : أمّا أنتِ فلو جادَلْتِ الخنساء ، لا نْثَنَتْ عنكِ خَرْساء . وأمّا هو فإن كانَ صَدَق فى زعمه ، ودَعْوى عُدْمِه ، فَلَهُ فى همٍّ قَبْقَبه ، مايَشْغَلُه عن ذَبْذَبِه . فأطرقَتْ تنظر ازوراراً ، ولا تَرْجع حِواراً . حتى قلنا قد راجعها الخَفر ، أو حاقَ بها الظفر . فقال لها الشيخ : تَعْساً لكِ إن زَخْرَفْتِ ، أو كتمتِ ما عَرَفْتِ . فقالت : وَيْحك ! وهل بعد المنافرة كَتْم ، أو بَقِيَ لنا على سرٍّ ختْم ! وما فينا إلاّ مَنْ صَدَق ، وهنك صَوْنَه إذْ نَطَق ، فليتنا لاقينا البَـكَمَ ، ولم نَلْق الحَـكَمَ ، ثم التفتت بوشاحِها ، وتباكَتْ لافتِضاحِها ، وجعل القاضى يَعْجَب من خَطْبهما ويُعَجّب ، ويلوم لهما الدّهرَ ويُؤَنّب ، ثم أخْضَر من الورِق أُلْفَيْز ، وقال :

أَرضيا بهما الأَجْوَفَين، وعاصِيا النازغَ بين الإلفين، فشكراه على حسن السَّراح، وانطلقا وهما كالماء والراح.

* * *

التظَت: حَقَدَتْ والتهبت غيظاً. وانتضت: جَرّدَتْ: جِداله: خصامه. مَرْقعان: كثير الرّقاعة، والرّقاعة كالحماقة، كأن عقله تخرّق فرُقِّع. وضِقْت بالشيء ذرعاً، إذا لم تقــدر عليه. ضَلّ: تحيّر. عِرسك: زوجُك. جادلت: خاصمت. انثنت: رجعت. خرساء: بكماء. زَعْمه: ما ادّعاه. قوله: قبقبه، القَبْقَب: البطن، والقبقبة: الصوت الّذى يدور فيه، فسمِّىَ به.

والذّبذب: الذّكر، وأصل الذبذبة الاهتزاز والاضطراب، فسمِّىَ الذّبذبَ لحركته. وَنَظَرَ عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى شابّ، فقال: يا شابّ إن وُقيتَ شرّ ثلاث، وُقيتَ شرَّ الشَّباب: لقلقك، وذبذبك، وقبقبك. الأصمعىّ: اللقلق: اللّسان، والقبقب البطن، والذبذب: الذكر.

قوله: أَطرقتُ، أى سكنت مميلةً إلى الأرض رأسها حياء. ازوراراً: مَيَلانا. والحِوار: مراجعة الكلام. الخفَر: الحياء. حاق: لحِق. والظَّفَر هنا: غلبة حُجَّتِها وظفرها به. تعساً: هلاكاً. زَخْرفت هنا: زيّنَت الباطل. المنافرة: المحاكمة. خَتْم: ربط، أى قد أظهرنا جميع أسرارنا. هَتَك: خرق. صونه: صيانته. لاقينا البَكَم، أى أصابنا البَكَم وخلقنا خُرْساً، فلم نبد ما أبديناه من القبائح، والبكَم: الخرَس مع عىّ. وقال ثعلب: البَكَم: أن يولد الإنسان لا ينطق ولا يسمع ولا يبصر، وبكُم بَكَماً وبَكاماً. والحكَم: الحاكم. التفَعت: التفّت. والوشاح: الثوب، وقد توشحت بثوبها، جعلته موضع وشاحها. لافتضاحها: لاشتهارها بالقبائح. خَطْبهما: أمرهما. يعجّب: يجعل غيره يُعجَب منــه. يؤنّب: يوبّخ ويلوم. الورِق: الدراهم. الأجوفين: البطن والفرج. النازغ: الماشى بالشرّ المفسد، ونزغ الشيطان بينهم ينزغ نزغاً، أغوى وأفسد. والإلفين:

الصاحبين . السَّراح : الانصراف . والرّاح : الخمر ، وهى سريعة الامتزاج مع الماء ، فيُضْرَب بهما المثل فى امتزاج نفوس المتحابين .

وقد جاء من ذلك فى الشّعر ما يُستحسن ، قال ابنُ أَبى فَنَن : أَحسن ما قيل فيه قولُ العباس بن الأحنف :

ما أَنسَ ما أَنسَ يُمْنَاها معطِّفةً ... على فؤادى ويُسراها على رَاسِى (١)

وقولها : ليته ثوبٌ على جَسدى ... وليتنى كنتُ سِرْبالا لعباس

أَوْليتَه كان لى خمراً وكنت له ... من ماء مزنٍ فكنا الدَّهْرَ فى كاس

قال الحاتمى : وأَحسن دعبل كل الإحسان فى قوله :

الله يعلم والأيام دائرةٌ ... والمرء ما بين إيحاش وإيناس (٢)

أَنى أُحبُّكِ حبًّا لو تضمّنَهُ ... سَلْمى سمَّيك ذكّ الشاهقَ الرّامى (٣)

حبًّا تلبّس بالأحشاء وامتزجا ... تمازُج الماء بالصَّهْبَاء فى الكاس

وقال البحترى فأحسن :

تهتزُّ مِثْلَ اهتزازِ الغصن حرّكه ... مُرُورُ غيثٍ من الوَسمىّ سَحَّاحِ (٤)

إنى وَجدتك من قلبى بمنزلةٍ ... هى المصافاةُ بين الماء وَالرّاحِ

* * *

وطفِق القاضى بَعْد مَسْرَحِهما ، وتنَأَى شَبَحهما ، يُثنى على أَدَبِهما ، ويقولُ : هَلْ من عارفٍ بهما ؟ فقال له عينُ أعوانه ، وخالصةُ خُلْصانِه : أما الشيخ فالسَّرُوجىّ المشهودُ بفضلِه ، وأمّا المرأةُ فقعيدة رَحْلِه ، وأمّا تحَاكُمهما فكيدةٌ من فِعْله ، وأحْبُولَةٌ من حَبائل خَتْله ،

(١) ديوانه ١٥٦
(٢) ديوانه ٩٤
(٣) سلمى أحد جبلى طيىء .
(٤) ديوانه ٤٤٢

رفع المسهم

فأحفظ القاضيَ ما سمع ، وَتلهَّبَ كيف خُدِع . ثم قال للواشى بِهـا : قُمْ فردَّ هما ، ثم اقصِدْهما وصِدْهما . فنهض ينفض مِذْرويه ، ثم عاد يَضْرب أَصْدَرَيْه . فقال له القاضى : أظهِرْنا على ما نبَشتَ ، ولا تُخْفِ عَنَّا ما استَخبثت . فقال : ما زلتُ أستقرِى الطرق ، وأستفتح الغُلَق ، إلى أن أدْرَكتُهما مُصْحِرَيْن ، وقد زمَّا مَطِىّ البين ، فرغَّبتهما فى العَلل ، وكفلت لهما بنيلِ الأمل ، فأشرِب قلبَ الشيخ أنْ ييأس ، وقال : الفِرار بقُرابِ أكيس ، وقالت هى : بل العوْد أحمد ، والفَروقة يَكْمَد .

* * *

قوله طَفِق ، أى جعـل . مسرحهما : انصرافهما . تنائى شبحهما : بُعد شَخْصهما . وعين الأعوان : مقدّمهم . والخُلْصان : الأحباب . وخالصة : خيار ، فكأنه خيار خيارهم . قعيدة رَحْلِهِ : زوجته وصاحبة بيته . مكيدة : مكر . أحبولة : شبكة . ختْله : خداعه . أحفظ : أغضب . تلهف : تندّم فصاح : يا لهفى ! . رُدّهما : اطلبهما . مِذْرويه : أطراف أليتيه . والأصدران : عرقان فى الصُّدغين ، وقيل : هما المنكبان ، وقيـل : العطْفان ، ويقال : أتى فلان ينفض مِذْرَوَيْه ، إذا جاء غاضباً يتهدّد . ويَضْرب أصدريه ، إذا جاء فارغاً بلا حاجَة ، فإذا قضى حاجته قيل : جاء ثانياً من عنانه . وقال الحسن البصرىُّ ، ورأى الناسَ يوم عيد يضحكون ، فقال : تلقَى أحدَهم أبيض بضًّا يملُخ فى الباطل مَلْخاً ، ينفض مِذْرَوَيْه ، ويضرب أصدريه ، يقول : ها أنا ذا فاعرِفونى ، قد عرفتك ، مقتَك الله ، ومقتك الصالحون . يملُخ : يلجّ ، وقيل يتثنّى ويتكسّر . استخبثت : أصبته خبيثاً . أستقرى : أتتبع . الغُلُق : جمع غُلْقة ، وهى المغالق التى تسَدّ بها الطرق وغيرها ، وباب غلِق ، أى مغلَق . مصحرين : ذاهبين فى

الصحراء . زَمًّا : شدّا . والْبَيْن : الفراق . والعَلَل هنا : العطاء . كَفَلْت : ضمنت . نيل الأمل : درك الحاجة . أشرب : دوخل وألقى فى نفسه ، والفِرار بقُراب أكيس ، مثل ، وقُرَاب الشىء : ما يقاربه وأراد الهروب باليسير والقريب أكيَس من الرّجوع إلى الطمع ، ويروى: الفرار بقِراب، بكسر القاف، وهو مصدر بمعنى المقاربة ، والمثل لجابر بن عمر المازنى ، وكان سائراً فى طريق ومعه أوْفَى بن مطر وشهاب بن قيس، فتراءى آثار رَجُلين معهما فرَسان وبعيران وكان قائفاً فقال : أرى آثار رَجُلين شديد كَلَبُهما ، عزيز سَلَبُهما ، والفِرار بقُراب أكيس ، ثم مضى هارباً ، والمعنى: فرارنا ونحن بقرب السَّلامة خير لنا من أن نتورّط فى المكروه . والْعَوْد أحمد ، أى أوفق وأحق أن يوجد محموداً ، والْعَوْد أحمد مثل ، أى الرجوع أحسن ، وقال المرقش :

وأحسن فيما كان بينى وبينه ... فإن عاد بالإحسان فالعوْد أحمدُ

وأنشد أبو الحسن لعمارة :

بنى دارم إن يفن عُمْرى فقد مَضَى ... حياتى لكُمْ منى ثناءٌ مخلَّدُ(١)

بدأتمْ فأحسنتم وأثنيت جاهداً ... وإن عدتمُ أحسنتُ والْعَوْد أحمدُ

قوله : الفَروقة ، أى الفزّاع الكثير الْفَرَق وهو الخوف . يكمَد : يحزن حزناً لا يستطيع إمضاءه . تبيَّن : علم . غَرَر : خطر .

* * *

فلمّا تبيَّن الشيخ سَفَه رأيها ، وغَرَرَ اجترائها ، أمسك ذَلاذِلها ، ثم أنشأ يقول لها :

دونَكِ نُصْحى فاقتفى سُبْلَهْ ... واغْنَىْ عن التفصيل بالْجُمْلَهْ

طيرى متَى نقَّرْتِ عن نَخْلَةٍ ... وطلِّقيها بَتَّة بتْلَهْ

(١) الكامل — بشرح المرصفى ١ : ١٢٩

وحاذِرى العَوْد إليها ولوْ سبَّلَها نَاطُورُها الأبْلَهْ
خيرٍ ما لِلّص ألاَّ يُرَى بِبُقعَةٍ فيها له عُمْلَهْ

* * *

سَفَه : خفة ، والسفيه : الخفيف العقل . اجترائها : جسارتها وجرأتها . ذلاذلها : أطراف ثوبها، وذلاذل القميص : ما يلى الأرض من أسافله ، الواحدُ ذُلْذُل مثل قُمْقُم وقَمَاقِم . دونك : معناه قاربك ما تطلب فتناوله . اقْتَفِى : اتبعى . سُبْله : طرقه . نَقَّرتِ : أكلتِ ثمرتها بمنقارك ، وهو مثل ، ونقّرت أيضاً : بحثت ، والتَّنقير : البحث عن الشىء ، يقول : متى ما أخذتَ من ثمر نَخْلة بنصيبٍ ففارقها ولا ترجع إليها ، وفى حديث أبى سعيد قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « خلقت النَّخْلة والرَّمانة والعِنب من فَضْل طينة آدم عليه السلام »، والبتّة البَتْلة : التى لا رجعة فيها ، والبتُّ : القطع . سبَّلها : طرَقها وأصله لابن السبيل . الناطور : حارس النّخل خاصة ، بطاء غير معجمة ، وقيل : هو حافظ الكرْم ، والجمع النّواطير . الأبله : الكثير الغفلة . اللّصّ : السارق . وعُمْلة : سَرِقة وفَعْلة قبيحة .

* * *

ثم قال لى : لَقَدْ عُنّيت ، فيما وُلِّيت ، فارْجع من حَيْث جِئْتَ ، وقل لِمُرْسِلِك إنْ شئت :

رُوَيدك لا تُعقِبْ جميلَك بالأذى فَتُضْحِى وشَمْلُ المالِ والحمْدِ منصدِعْ
ولا تتغضّبْ مِنْ تزيُّدِ سَائلٍ فما هو فى صَوْغ اللّسان بمبتدِعْ
وإن تَكُ قَدْ ساءتْكَ مِنِّى خَدِيعَةٌ فقَبْلَكَ شيخُ الأشعريِّينَ قد خُدِعْ

فقال له القاضى : قاتله الله ! فما أحْسَنَ شجونَه ، وأملح فنونَه !

ثم إنه أَصْحَبَ رائدَه بُرْدَيْن، وَصُرَّةً مِنَ الْعَيْن، وقال له : سِرْ سِيْرَ من لا يَرَى الالتفات، إلى أنْ ترى الشيخ والْفَتاة، قبُلّ يديْهما بهذا الحِباء، وبيِّن لهما انْخِداعى لِلْأُدَباء .

قال الرّاوى : فلم أرَ فى الاغتراب ، كَهَذا المُجاب ، ولا سمعتُ بمثله مِمّن جَالَ وجَاب .

* * *

عُنيِّت : تعبت . وُلِّيت : كُلِّفت . رُوَيدك : رفقك ، أى أوْلِنَا منك الرِّفق والمهل . لا تُعقِب : لا تَتْبَع . الأذَى : الضّرَر . وشَمْل : جَمْع . منصدِع : متفرّق . صَوْغ اللسان : كذبه وحِيَله ، وفى الحديث « هذه كذبة صاغها الصوّاغ »، أى اختلقَها الكذّاب . مُبْتَدِع : أوّل فاعل . ساءتك : أحزنتك .

شيخ الأشعريين ، هو أبو موسى الأشعرى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واسمه عبدالله بن قيس ، من ولد الأشعر بن أُدَد بن زيد بن يشجب ابن يَعْرُب بن كَهْلان بن سبأ ، قدم مكة وأسلَم بها ، ثم هاجر إلى أرض الحبشة ، ثم قدم مع جعفر بن أبى طالب إلى المدينة ، والّذى خدعه هو عمرو بن العاص فى قصّة التحكيم بين علىّ ومعاوية رضى الله عنهما ، وهى قصّة مشهورة فى كتاب العقد وفى كتاب المسعودى وغيرهما من كتب الأدب، وفيهما أشياء منَاكير فى حق الصحابة رضى الله عنهم ، فلذلك أضربنا عن ذكرها .

رائده : طالبه . أصحبه : جعله فى صُحْبته . بُرْدين : ثوبين : صُرَّة : خرقة تشدّ فيها الدراهم . العين : الذهب والفضة . سير من لا يرى الالتفات ، أى سيراً سريعاً لا يلتفت معه إلى مهمّ . قوله : بلّ أيديهما ، يقال : بللت به أبلّ إذا ظفرت به ، وبلّك الله بابن ، أى رزقكه ، وفى الحديث : « بُلُّوا أرحامكم ولو بالسّلام » أى صِلُوها ، وبَلَلْت رَحِمى أبُلّها بللاً وبِلالاً ، إذا نديتَها ووصلتَها . الحِباء : العطاء . جال : تصرّف وقطع البلاد بالمشى .

رفع المسهم

المقامة السادسة والأربعون وهي الحلبية

روى الحارث بن همّام قال : نَزَع بى إلى حَلَب ، شوقٌ غلَب ، وطلبٌ يا له مِنْ طلب ! وكنتُ يومئذٍ خفيفَ الحاذ ، حديث النفاذ ، فأخذتُ أُهْبَة السَّيْر ، وخفقْتُ نحوَها خُفُوقَ الطَّيْر ؛ ولم أزل مذ حَلَلْت رُبُوعَها ، وارتبعتُ ربيعَها ، أُفانى الأَيّام ، فيما يشفِي الغرام ، ويُرْوى الأُوام ؛ إلى أن أقصر القلب عن وَلُوعه ، واستطار غرابُ البين بعد وقوعه .

* * *

نزَع بى ، أى شوّقنى وحَمَلنى .

[ذكر مدينة حلب]

حلَب : مدينة عظيمة بالشام وقنّسرين ، خمس من أخماس الشام ، ومدينته العظمى حَلَب وساحلها أنطاكيَة . وذكرها شيخنا ابن جبير فقال : حلب بلدةٌ قدرها خطير ، وذكرُها فى كلّ زمان يطير ، خُطَّابها من الملوك كثير ؛ كانت فى القديم ربوة فيما يقال ، كان يأوى إليها إبراهيم الخليل عليه السلام بغنمه ، فيحلُبها هناك ويتصدّق بلبنها ، فسميت حَلَب ، وبها مشهد كريم منسوب إليه ، يتبرّك الناس بالصلاة فيه ، ولها قلعة شهيرة الامتناع ، بائنة الارتفاع ، معدومة الشبه والنظير فى القلاع ، تنزّهت حصانةً أن تُرام أو تُستطاع ، قاعدة كبيرة ، ومائدة من الأرض مستديرة ، منحوتة الأرجاء ، موضوعة على نسبة اعتدال واستواء ، فسبحان من أحكم تدبيرها وتقديرها ، وأبدع كيف شاء تصويرها

وتدويرها . ومن كمال جمالها الزائد على المشترط لحصانة القلع أنّ الماء بها نابع ، وقد صنع عليها جفان ، والطعام يصير فيها الدهرَ كلَّه ، وليس من شروط الحصانة أهمّ من هاتين الخلّتين ، ويُطِيف بجبلها سوران حصينان ، يعترض دونهما خندق بالماء ، فلا يكاد البصر يبلغ مدى عمقه ،وسُورها الأعلى مجلّل ، كله أبراج منتظمة فيها القلالى المنيعة ، قد تفتحت كلّها طبقات ، وكل برج منها مسكون ، والبلد ضخم جدًّا ، جميل الترتيب ، أسواقه متصلة الانتظام ، تخرج من سماط صَفّة إلى سماط أخرى ، وقيساريتها وجامعها ومدارسها ما سُمع بمثـــل وصفها فى بلد من بلاد الله تعالى ؛ كل سوق من أسواقها مسقّف بالخشب ، يقيِّدُ البصر حسناً ويستوقف المستوفز تعجباً . وقيساريتها حديقة بستان نظافة وجمالاً ، مطيفة بجامعها . وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة ،قد اتّصل السماط كله خزانة واحدة ، وتخلّلتْها شرُف حسنة ، بديعة النقش وتفتّحَت كلها حوانيت ، فجاءتْ فى أجمل منظر ، وكلّ سِماط منها يتّصل بباب من أبواب الجامع .

ثم أخذ ابن جبير فى وصف الجامع والمدارس والبيمارستان بأنواع من الأوصاف الحسان .

* * *

قوله : يا له ! معناه التعجب كأنه قال : ما أعجبه من طلب : خفيف الحاذ ، أى قليل العيال ، وتقدّم الحاذُ فى السادسة . حثيث النفاذ : سريع المضىّ فى أموره ، ورجل نافذ ونَفُوذ ونفّاذ: ماض فى جميع أموره . أُهبة :عدّة . خفّت : ارتحلت بسرعة . حللت ربوعها : نزلت فى بيوتها . ارتبعت ربيعها : التمست خيرَها . أُفانى : أقاطع ، وفنى الشىء ، تم وانقطع . والغرام : عذاب الحب . والأوام : العطش . وأقصر : كف ، وأقصرت عن الشىء : تركتَه وأنت عليه قادر . وَلوعه : مصدر ولع به إذا أحبه ولزمه . استطار ، بمعنى انتشر . وقوعه : نزوله ، وهم يتشاءمون بالغراب لأنه يؤذِن عندهم بالفراق ، وذلك أنهم لا يرون

الغراب عند منازلهم إلاّ إذا حطُّوا بيوتَهم للرحيل ، ينزل يلتمس ما يتركون مما يُلقَط ، ولذلك سمُّوه غراب البين ، واشتقوا من اسمه الغريب والغُرْبة .

* * *

فأغرانِي البال الخِلْو ، والْمَرَحُ الْخلو ؛ بأنْ أقصد حِمْص لأصْطاف ببقْعَتِها ، وأسْبُر رَقاعة أهلِ رُقْعَتِها ؛ فأسرعْتُ إليها إسراعَ النّجم ؛ إذا انقَضّ للرّجْم ، فحين خيّمتُ بِرُسُومها ، ووجدتُ رَوْح نَسيمها ، لمح طرفي شيخاً قد أقبل هَرِيرُه ، وأدبر غريرُه ، وعند عشرة صِبْيان ، صِنْوانٌ وغيرُ صنوان ، فطاوعْتُ في قصده الحِرْص ؛ لأخبُر به أدباء حِمْص ، فبشَّ بي حينِ وافيتُه ، وحيّا بأحسنَ مِمَّا حَيَّيْتُه ، فجلست إليه لأبْلُوَ جَنَى نُطْقِهِ ، وأكْتَنِه كُنْه حُمْقه ، فما لبث أنْ أشار بِعُصَيَّتِه ، إلى كُبْر أُصَيْبِيَتِهِ ، وقال له : أنشد الأبيات الْعواطل ، واحذرْ أن تُماطل ، فجثا جَثْوةَ ليث ، وأنشد من غير رَيْث . .

* * *

أغرانى : حَرَّضَنى وسَلّطنِي . الخِلْو : الفارغ . المرح : النشاط وخِفّة النفس من الطرب .

[ذكر حمص]

حمص مدينة عظيمة ، بينها وبين دمشق مائة ميل ، وأرض حمص خُمْسٌ من أخماس الشام ، وهى مدينة يقال إنها سوراً وفى وسطها حصنها ، ولا تدخلها حيّة ولا عقرب ، وأوّل من ابتدع الحسابَ أهلُها ، لأنهم كانوا تجّاراً بإشبيليَة وأحوازها ، نزل أهلُ حمص عند افتتاح الأندلس ، فلذلك سميت حمص ، أخذت من قولهم : حَمَص الجُرْح يحمِص حُمُوصاً ، وانحمص ينحمِص انحماصاً ، إذا ذهب وَرَمُه .

قال اليعقوبى : مدينة حِمْص من أوسع مبانى الشام ، ولها نهر عظيم ، منه بشرب أهلُها ، افتتحها أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه . وفى حديث عمر رضى الله عنه : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :« لَيبعثَنّ الله تعالى من مدينةٍ بالشام يقال لها حمص سبعين ألفاً يوم القيامة لا حساب عليهم » .

ودخلها شيخُنا ابن جبير سنة ثمانين وخمسمائة وقال : هى فسيحة الساحة ، مستطيلة المساحة ، نزهة لعين مبصرها من النَّظافة والملاحة ، موضوعة فى بسيط من الأرض ، عريض مداه ، لا يتخرّقه النسيم بمسراه ، ويكاد البصر يقف دون منتهاه ، وماؤها يجلَب لها من نهرها العاصى ، وهو منها بنحو ميل ، ومنبعه فى مغارة بسفح جبل بمرحلة منها ، بموصل يقابل بَعْلبكّ . وأهل حمص موصوفون بالنَّجدة لمجاورتهم العدوّ ، وأسوارها فى غاية العتاقة والوثاقة ، مرصوص بناؤها بالحجارة السود ، وأما داخلها فما شئت من بادية شَعْثاء ، خَلَقة الأرجاء لا إشراق لآفاقها ، ولا رَوْنَق لأسواقها ، وما ظنُّك ببلد حصن الأكراد منه على أميال يسيرة ، وتجد فيها عند اطّلاعك عليها بعض شَبَهٍ من مدينة إشبيليَة يقع للحين فى نفسك حبّها ، ولذلك سميت باسمها فى القديم ، ولهذا نزل إشبيليَة بعضُ أعراب حمص .

وقال الفنجديهى : بأهل حمص يضرب المثل فى الحماقة ، وكثرة الرقاعة ، وتنسب إليهم حكايات مضحكة ، حكى عن بعضهم أنه قال : دخلتُها وفى فمى درهم لأشترى به بعض ما اشتهيه ، فإذا برجلٍ بباب الجامع جالس على كرسىّ ، وعلى رأسه عمامة محنّك بها على قانسوة ، وقد لبس فَرْوة مقلوبة بلا سراويل ، وقد تقلّد بسيف ، وفى حجره مصحف يقرأ فيه ، وعنده كلب رابض يمسكه بِمِقْوَدَه ، فسلّمت عليه ، فردّ السلام ، وقلت له : أترى القوم صَلُّوا ؟ فقال لى : أو أنت أعمى ! أما ترانى قاعداً ! قلت : من أنت ؟ قال : أنا أبو خالد إمام الجامع ، فقلت : ما هذه الحلية ؟ قال : وِرْد رجل زنديق يقرأ السبع الطوال ، ويشتم أبا بكر الصّنادِيق وعمر القواريرىّ وعثمان بن أبى سفيان ومعاوية

ابن أبى غسّان الذى هو من حملة العرش ، وزوّجه النبى ابنته عائشة فى زمن الحجّاج بن يوسف ، فاستولدها الحسن والحسين ، فقلت : ما أعرفك بالمقالة والأنساب ! قال : وما خُفِىَ عنك أكثر ، قلت : أتحفظ القرآن ؟ قال : نعم ، قلت : فاقرأ شيئاً منه ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم « وَإِذْ قَالَ لُقْمَانَ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَىّ لا تَقْصص رُؤْيَاكَ عَلى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً وأَكِيدُ كَيْداً ، فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلهم رُوَيْداً » ، فصفعته صفعةً سقطت عمامتهُ ، وبقى التحنّك فى عنقه ، فصاح بالناس : قلنسوتى ! وقال : احملوه إلى المحتسِب ، فأوصلونى إلى رجل حاسر حافٍ ، قد لبس درّاعة بلا سراويل ، فقال : ما صنع هذا ؟ قالوا : صفع إمام الجامع ، قال : يا مسكين ، أهلكْتَ نفسك ، قلت : هذا حكم الله فصبراً عليه ؟ قال : أيّما أحبّ إليك سَمْل عينيك ، أو قطع يدْيك ، أو تدفع نصف درهم ؟ قال : فرفعت يدى وصفعت المحتسب صفعة ، ثم أخرجت الدرهم من فمى ، وقلت : يا سيدى خذ نصف درهم لك ، ونصف درهم لإمامك .

وقال فيهم بعض الشعراء :

لأنّهم أهلُ حمص لا عقول لهمْ بهائم غير معدودين فى النّاسِ

ونزلها فى القديم أهلُ اليمن ، ولم يكن فيها من مصر إلا ثلاثة أبيات ، وكان لهم إمام من مصر ، فغضبوا عليه وعزلوه ، فقال فيهم ديك الجن يهجوهم :

سمعوا الصلاة على النبىِّ تَوالَى فتفرّقوا شِيَعاً وقالُوا : لَا ، لَا[1]

ثم استمرّ على الصّلاة إمامهم فتحزّبوا ورمَى الرِّجَالُ رجالاَ

يا أهلَ حِمْصَ توقّعوا من عارها خِزْياً يحلُّ عليكمُ وَوَبالاَ

شاهت وجوهكمُ وجوهاً طالما رغمت معاطسها وساءت حالاَ

* * *

(١) ديوانه ١١٠ ، وآخر بيت فى هذه المقطوعة :

إنْ يُثْنَ مَنْ صلّى عليه كرامةً فالله قدْ صلّى عليه تعالَى

قوله : أصطاف ، أى أسكن فى الصَّيف . وأسبر : أختبر . والرّقاعة : تجاوز الحدّ فى الوقاحة وصلابة الوجه . والبقعة : القطعة من الأرض، وكذلك الرقعة . وانقضّ النجم للرجم ، إذا استطار لرجم الشياطين ، وأراد أنه أسرع إليها بسرعة الخيل كسرعة النجم المنقضّ ، قال خلف الأحمر :

كالكوكب الدّرىّ مبتهلاً سيراً يفوت الطرفَ أسرعُهْ
وكأنما جهدت أليّتُهُ ألّا تمس الأرض أربعُهْ

وقال ابن الرومى :

خذها تَبُوعاً لمن أولى مسوَّمة كأنها كوكب فى إثر عفريتِ[1]

وما أحسنَ قول ابن المعتز فى هذا المعنى :

كأنما النجم والعفريت مسترقاً للسمع ينقضّ يُلْقِى خلفه لهبَهْ
كفارس حلّ من عجَب عمامتَه فردّها كلّها من خلفه عذَبَهْ

قوله : خيَّمت ، أى أقمت ، وأصله ضربت خَيْمة . رسومها : آثارها . روْح نسيمها : لذة ريحها : لمح طرفى : أبصرتْ عينى . هريره : صياحه ، وقد هرّ الكلب هريراً ، إذا نبح وحمل على مَنْ أنكره . وغريره : شبابُهُ ، والغِرَّة : صغر السن ، ومعناه أقبل شرّه وسوء خلقه ، وأدبر صباه وحسن خُلُقه ، ولما كانت خليقته فى هذه المقامة منبسطة مع صبيانه صار هذا التفسير فيه بُعْد . وقال بعضهم : أقبل هريره ، أقبل هَرَمَهُ ويُبْسه ، من هرّ الشوكُ إذا اشتدّ يبُسه حتى صار كأنياب الهرّ ، وهذا يوافق الغرض ، فمعناه أقبل هَرَمه وكِبَرهُ وأدبر صباه وصِغَرهُ ، ومثله كالبت الإبل شجر الشَّوك ، إذا رعته كأنها رعت فيه أنياب الكِلاب لصعوبته ، والغرير أيضاً : الضامن ، ويكنى به هنا عن الشباب كأنه ضمن لصاحبه طولَ الحياة المفقود معناها فى الهرَم . والصِّنو : الأخ الشقيق ، وأصل الصِّنو فى النخيل والشجر ، وهى التى تجتمع أصولُها وتفترق أجسادها . الحِرْص : الرغبة والطمع .

(١) ديوانه ١ : ٣٧٩

أخبر : أجرِّب : بشَّ . استبشر ، والبشاشة إظهار السرور وبسط الوجه . وافيته . أتيته . جنى نطقه : ما يجنى من كلامه ويحصل منه . أكتنه : أتعرّف وأتحقّق . كنه . قدر وحقيقة . ابن الأنباريّ : الحمق عند العرب الخمر ، ثم أخِذ منه الأحمق وهو المتغيِّر العقل .

[من نوادر المعلمين]

فممَّا يحكى من حماقتهم : كان حمزة المعلم متقلْنِساً فأنشد فيه أبو جعفر الحاكم:

أرَى على حمزة المقرِى قلنسوةً عساكر القمل تجرى فى حواشِيهَا
إن المعلّم لا تخفى حماقتُه ولو تقلْنَس بالدُّنيا وما فيها

تقلنس : لبس القلنسوة .

الجاحظ: عَقْل مائة معلِّم عقل امرأة ، وعقل مائة امرأة عقل حائك ، وعقل مائة حائك عقل خصىّ ، وعقل مائة خصى عقل صبىّ ، قال الشاعر :

معلّم صبيان وصاحب درّهْ وليس له عقل بمقدار ذَرّهْ

الفنجديهى : قال أبو طاهر : عقل امرأتين كاملتين عقل رجل ، وعقل أربعة خصيان عقلُ امرأة ، وعقل أربعين حائكاً عقل خصىّ ، وعقل أربعين معلماً عقل حائك .

الزبير بن عبد الملك الهاشمىّ قال: مررت ببعض المعلّمين ويعرف بكسرى ، فرأيته يصلّى بالصبيان صلاة العصر ، فلم أزل واقفاً أفكّر فيه ، فلما أن ركع أدخلَ رأسَه بين رجليه ، لينظر ما يصنع الصبيان خَلْفَه ، فرأى صبيًّا يلعب . فقال له وهو راكع : يا بن البقّال ؛ هوذا ؟ أدرى ما تصنع !

الجاحظ : مررت بمعلم وقد كتب على لوح صبى : « وإذْ قال لقمان لابنه وهو يعظه . يابنىّ لاتَقْصُصْ رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ، وأكيدُ

كيداً فمهل الكافرين أمهلهم رويداً» . فقلت : ويحك! أتدخل سورة فى سوره ؟ فقال : نعم عافاك الله ، إن أبا العاصّ بَظْرأمه يدخل أجرة شهر فى شهر ، وأنا أيضاً أدخل آية فى آية ، فلا أنا آخذ شيئاً ولا الصبىّ يتعلم شيئاً .

أبو بكر القبطىّ : عبرت على معلم وهو يُملِى على غلام بين يديه : «فريق فى الجنة وفريق فى السعير» ، فقلت : يا هذا ماقال الله من هذا شيئاً إنما هو فى السعير ، فقال : أنت تقرأ على حرف أبى عاصم بن العلاء الكسائى ، وأنا أقرأ على حرف أبى حمزة بن عاصم المدنى فقلت: معرفتك بالقراء أعجب إلىّ؛ وانصرفت.

وروى بعض الفضلاء قال : مررتُ فى بعض قُرَى السَّواد ، وَإذا معلم صبيان يقول : وَيحكم ياصبيان، تفسون !فصاح به وَاحدٌ منهم ، وَقال: إنّما فسا أخى ، فقال المعلم : إنى لأعلم فسوته الخبيثة ، وَلكن أُعلِّل نفسى بالأباطيل ، ثم قال : إنى لأعرف فساءكم كما أعرف أصواتَكمْ ، وَحلف على ذلك ثم أنشد :

معلم صبيان يروح وَيغتدِى على أنفه ألوان ريح فُسَائِهِمْ
وَقد أفسدوا منه الدِّماغ بفَسْوِهم ورفعهم أصواتَهم فى سَحَائِهِمْ

الجاحظ : كان فى المدينة رجلٌ معلِّم صبيان ، يُفرط فى ضربهم ، فلاموه على ذلك ، فساءنى حالُه معهم ، فاستفتح صبىّ ، وقال : يا معلم ، وإنّ عليك اللعنة إلى يوم الدين ، مابعده ؟ فقال : بل عليك وعلى والديك لعائن الله تترى .

وجاء آخر فقال : يا معلم ، اخْرُج منها فإنّك رجيم ، ما بعده ؟ قال : ذاك أبوك الكَشْخان . وجاء آخر ، فقال : يا معلّم مالنا فى بناتك من حقٍّ، ما بعده؟ فقال : لا ولا رأيتهنّ ، فقال : على هذا أضربهم ، أتعذرونى ؟ قلت : نعم .

العتبى : كان ببغداد معلّم يشتم الصبيان فأخذت بيد المشايخ فدخلنا عليه ، فقلنا : يا شيخ ما يحلّ لك أن تشتم هؤلاء الصبيان ؟ فقال : أنا مبتلًى بهم ، ماأشتمُ إلاّ مَنْ يستحقّ الشتم ، فاحضروا حتى تسمعوا بعضَ ماأنا فيه ، فحضرنا

معه ، فقرأ عليه صبيّ : « عليها ملائكة غلاظ شداد يعصون الله ما أمرهم ولا يفعلون ما يؤمرون » فقال : يا ماصّ بَظْر أمه ، فليس هؤلاء ملائكة ولا أعراب ولا أكراد شهرزور ، قال : فضحكنا والله حتى بال أحدُنا فى سراويله ، فقرأ عليه آخر : « لا تنفقوا إلاّ من عند رسول الله » وتردّد فقال : من عند أبيك القَرْنَان أولى ، فإنه أكثر مالاً يا بن الفاعلة ، أتُلْزِم النبى صلى الله عليه وسلم نفقةً لا تجب عليه ؟ أأعجبك كثرة ماله ؟ فقال : فكنت بعد ذلك أترك أشغالى ، وأجلس عنده أتعجّب .

الجاحظ : سرق صبى عثمانىٌّ مصحفاً ، فقال له المعلم : ماذا لقيت المصاحفُ منكم يا آل عثمان ! أبوك أحرقها وأنت تسرقها !

قال أفلح التركى : خرجنا مرّة إلى حرب لنا ، ومعنا معلم كان يقول : أنا أتمنى أنْ أرى الحرب كيف هى ؟ فأخرجناه معنا ، فأوّل سهم جاء وقع فى رأسه ، فلما انصرفنا دعونا له معالجاً فنظر إليه ، وقال : إن خرجَ الزّج وفيه شىء من دِماغه مات ، وإن لم يخرج عليه شىء من دِماغه لم يكن عليه بأس ، فسبق إليه المعلم فقبّل رأسه ، وقال : بشرك الله بخير ، أنزعه فما فى رأسى دماغ ، فقال الطبيب : وكيف ذلك ؟ قال : لأنى معلّم كتاب الله تعالى ، وما فى رءوس المعلمين ذرّة من دماغ ، ولو كان فيه ذرّة من دماغ ما كنت هاهنا .

وقال موسى بن حَسّان الكاتب : رأيت بالبصرة معلّماً قد أجلس أولاد الأغنياء للظلّ وأولاد المساكين للشّمس ، وهو يقول لأولاد الأغنياء : يا أهل الجنة ، ابرُزوا على أهل النارِ ـ يعنى أولاد المساكين ـ فقلت : يا هذا ، ما بال هؤلاء يُبْخَسُون ؟ فقال : هؤلاء يبخسون الأخطار .

أحمد بن دليل : مررت بمعلّم يضرب صبيًّا ، ويقول : والله لأضربنّك حتى تقول لى : مَنْ حفر البحر ؟ فقلت : أعزّك الله ، والله لا أدرى أنا مَن حفر البحر ، فقل لى حتى أتعلّم أنا ، فقال : حفر البحر كردم أبو آدم عليه السلام .

رفع المسهم

أبو العنبس : كان فى دَرْبنا معلّم طويل اللحية ، فكنت أجلس إليه كثيراً وأتلهّى به ، فجئته يوماً وبين يديه صبىّ يقول له : ويلك ! الدجلة من حفرها ! قال : عيسى بن مريم ، قال : فالجبل مَنْ خَلَقه ؟ قال : موسى بن عمران ، قال : فالبعر، مَنْ دوَّره فى است الجملِ ، قال : شيطان يقال له الحىّ ، قال : أحسنت ، فآدم مَنْ أبوهُ . قال : نوح ، قال : بخ بخ ، نجوت والله ! فقلت : يا سبحان الله ! أليس آدم أبا البشر ! قال : نعم ، قلت : فكيف يكون نوح أباه ! قال : ويلك أتعرّفنى بآدمَ وأنا أبو عبدالله المعلم ، يا صبيان كرّفسُوه فكرفسونى ، حتى صيّرونى مقيَّداً ، فحلفت ألاّ أقف على معلم أبداً .

الجاحظ : أتت امرأة إلى معلّمٍ بابن لها ، وكان المعلّم طويل اللحية ، فقالت : إن هذا الصبى عاقّ لا يطيعنى فأحبّ أن تفزّعه ، فأخذ المعلم لحيته وألقاها فى فمه وحرّك رأسه ، وصاح صيحة ، فضرَطت المرأة من الفزع ، وقالت : إنما قلت لك: فزّع الصبى، ليس إياى ، فقال لها : مرّى ياحمقاء إن العذاب إذا نزلَ هلك الصّالح والطالح .

الأصمعى : مررت بمعلّم بالبصرة يضرب صبيًّا ، ثم أقام الصبيان صفًّا ، وجعل يدُور عليهم ، ويقول : اقرءوا ، فلما بلغ الصبىَّ المضروب ، قال لآخر إلى جنبه : قل له : يقرأ فإنى لا أكلمه !

[فصل فى التأديب والأدباء]

ونذكر هنا فى التأديب والأدباء ما يكون من شكل هذا الموضع ، ثم نتبع عند ذكر الغلمان الحسان من الأشعار ما يجرى كالبيان والتفسير لأحوالهم بعون الله تعالى .

قالت الحكماء : من أدَّب ولده صغيراً سُرّبه كبيراً ، ومن أدَّب ولده أرغم حاسده .

رفع المسهم

وقال ابن عباس : مَنْ لم يجلس فى الصغر حيثُ يَكْره ، لم يجلس فى الكبر حيثُ يحبّ .

وقالوا : أطبعُ الطّين ما كان رطباً ، وأغرز العُود ما دام لدنا .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل الذى يتعلم فى صغره كالنقش على الصخر ، والذى يتعلم فى كبره كالذى يكتب على الماء » .

وسمع الأحنف : التعلم فى الصغر كالنقش على الحجر ، فقال : الكبير أكبر عقلاً ، ولكنه أشغل قلباً .

وقال على رضى الله تعالى عنه : قلْب الحدَث كالأرض الخالية إذا أُلْقِيَ فيها شىء قبِلته .

وقالوا : نشاط الألباب فى عصر الشباب ، والسّودَد مع السواد ، وشواظ النار قبل الرّماد .

وقال الشاعر :

إنّ الغصون إذا قوّمْتَها اعتدلتْ ولن تَلين إذا قوّمتَها الخُشُب

وقال آخر :

إنّ الكبير إذا تناهى سِنُّه أعيت رياضته على الرُّوّاضِ
فإذا دفعت إلى الصغير فإنما تكفيك منه إشارةُ الإيماضِ

وقال آخر :

* ومن العناء رياضة الهرِم *

وأنشدوا :

* أبعد شيبك هذا تبتغى الأدبا *

رفع المسهم

وقال الشاعر فى تدريج الصبى برفق :

سَدِّد مرامِى الطفلِ فى شَأْنه ... بلفظةٍ تَشْدُدْ بها أَزْرَهْ
واغتنم اللمحةَ من فَهْمِه ... إن المبادى أبدا نَزْرَهْ
كما تربَّى النّارُ من شعلةٍ ... والذّوحة الغناء من بَذْرَهْ

وهذا ضدّ ما قال المعرى :

لايستوى ابناك فى خَلْقٍ ولا خُلُقِ ... إن الحديدة أمّ السّيف والجَلَمِ
فاضرب وليدَك وادلله على رشدٍ ... ولا تقل هو طفل غير محـــتلمِ
فربّ شق برأس الجـــرّ منفعةً ... وفس على نفع شق الرأس بالقلم

أشار إلى قوله تعالى : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ .

وقال صالح بن عبد القدوس :

وإنّ مَنْ أدّبتَه فى الصّبـا ... كالعود يُسْقَى الماء مِنْ غَرْسِهِ
حتى تراه مـــورقاً ناضراً ... بعدالذى أبصرتَ من يُبْسِهِ
والشيخ لا يترك أخـلاقَه ... حتى يوارَى فى ثَرَىَ رمْسِهِ
إذا ارعوى عاوده جهـــلُه ... كذى الضنى عاد إلى نكْسه
ما يبلغ الأعداء من جاهلٍ ... ما يبلغ الجـاهل من نفسِه

وقال عتبة بن أبى سفيان لمعلم ولده : ليكن أوّل إصلاحِك لولدى إصلاحُك لنفسك ، فإن عيوبهم معقودة بعيبك ، فالحسَن عندهم ماصَنَعْت ، والقبيح عندهم ما تركت ، علِّمهم كتاب الله ولا تملهم فيه فيتركوه ، ولاتتركهم فيه فيهجروه ، وروّهم من الحديث أشرفَه ، ومن الشعر أعفَّه ، ولا تنقلهم من علم إلى آخر حتى يُحْكِموه ، فإنّ ازدحام الكلام فى السّمع مشغلة فى الفهم ، وعلِّمهم سير

الحكماء ، وأخلاق الأدباء ، وهددهم فى أدبهم دونى ، وكن لهم كالطبيب الذى لا يعجل بالدّواء قبل معرفة الداء ، وجنّبهم محادثة النساء ، واستزدنى بزيادتك إيّاهم أزدْك فى برّى ، وإياك أن تتّكل على عذر منّى ، فقد اتّكلت على كفاية منك لى .

وأوصى الرّشيد مؤدّب ولده الأمين ، فقال : إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبه ، فصيِّر يدك عليه مبسوطة ، وطاعتك عليه واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ، أقرئه القرآن ، وعرفه الآثار ، وروِّه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصّره مواقع الكلام ، وامنعه الضحكَ إلا فى أوقاته ، ولا تمرر بك ساعة إلّا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيدها له من غير أن تخرق به فتميت ذهنه ، ولا تمعن فى مسامحته ، فيستحلى الفراغ ويألفه ، وقوّمه ما استطعتَ بالقرب والملاينة ، فإنْ أباهما فعليك بالشدّة والغلظة ، وبالله توفيقكما .

وقال للأصمعىّ : يا عبد الملك ، أنت أعلم منّا ، ونحن أعقل منك ، لا تعلِّمنا فى ملا ، ولا تسرع بتذكيرنا فى خلا ، واتركنا حتى نبتدئك بالسؤال ؛ فإذا بلغت الجواب حسب الاستحقاق ، فلا تزد إلّا أن نستدعىَ ذلك منك .

الماوردى : إذا كان لبعض الملوك رغبة فى العلم ، فلا تجعل ذلك ذريعة للانبساط عليه والإدلال . وكتب شُريح إلى معلم ولده :

تَرَكَ الصَّلاة لأكْلُبٍ يسعى بها ... يبغى الهِراش مع الغُوَاةِ الرُّجَّسِ (١)
فإذا هممت بضربه فبدِرّة ... وإذا بلغت به ثلاثاً فاحْبِس
وإذا أتاك فعضّه بملامة ... وعظنّه موعظةَ الأديب الأكيس
واعلم بأنّك ما أتيت فنفسه ... مع ما يجرّعنى أعزُّ الأنفس

(١) العمدة لابن رشيق ١٧

[فنّ آخر فى المتهمين من المعلمين]

اتصل حمّاد عجرد بالربيع يعلّم ولده ، فكتب إليه بشار :

يا أبا الفضـــل لا تنمْ ... وقع الذئب فى الغنمْ
إنّ حمـــــاد عجردٍ ... إن رأى غفلةً هَجَمْ
بين فخذيه حَرْبَةٌ ... ن غلافٍ من الأدَمْ
إن خلا البيتُ ساعةً ... تجمَّـــــع الميمُ بالقلمْ

فطرده الربيع .

واتخذ المهدىّ قطرباً لتأديب بعض ولده ، وكان حماد يطمع فى ذلك ، فلم يتم له لتهتُّكه وشهرته فى الناس بما قال بشار ، فلما تمكن قطرب من موضعه ، صار حماد كالملغى ، فجعل يقوم ويقعد قلقاً ، ثم دسّ إلى المهدى رقعةً فيها :

قل للإمام جـــزاك الله صالحةً ... لا تجمع الدهرَ بين السَّخْلِ والذِّيبِ
السخل غِرّ وهمّ الذئب فرصتـــه ... والذئب يعلم ما فى السَّخْل من طيبِ

فقال المهدىّ : انظروا لا يكون هـذا المؤدب لوطياً ، ثم أخرجوه من الدار ، فبعث الضجر حماداً حيث حَرَمه بشّار هذه المراتب إلى أن قال فيه :

لقد صار بشارٌ بصـــيراً بدبره ... وناظره بين الأنام ضريرُ
له مقلةٌ عمياء وآستٌ بصـــيرة ... إلى الأيْر من تحت الثياب تشيرُ
على ودّه أن الحمـــير تنيكهُ ... وأنّ جميع العـــالمين حمير

وقال فيه :

ألا مَنْ مبلغ عنى الـــذى والـــده بُرْدُ

إذا ما ذُكر النـــاس فلا قَبْـــلٌ ولا بَعْدُ
وأعمى يشبه القـــرد إذا ما عمى القـــردُ

وقال فيه :

دُعِيتَ إلى بُرْدٍ وأنت لغـــيره
وهبك ابن برد نكت أمَّكَ من بُرْدِ

وكان عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدّب الوليد لُوطيًا زنديقاً ، وكان سعيد ابن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت جميلَ الوجه شاعراً ، فدخل على عبد الصمد فراوده فى نفسه فسبَّه ، وخرج مغضباً ، فدخل على هشام بن عبد الملك ، وهو يقول :

إنّه والله لولا أنت لَمْ ينجُ منى سالماً عبد الصَّمَدْ

فقال هشام : ولم ؟ قال :

إنه قد رامَ مـــنى خُطَّةً لم يَرُمْها قبله منى أحـــدْ

قال : وما هى ؟ قال :

رامَ جَهْلًا بى وجهـلًا بأبى يُدخل الأفعى إلى غيل الأسدْ

فضحك هشام ، وقال : لو فعلت به شيئاً لم أنكر عليك .

وكان سعيد يومئذ صغيراً فى المكتب ومؤدّبه عبد الصمد هذا ، فلما راوده عن نفسه شكاه إلى هشام وأبدع فى الكناية ، ورقّق هذا المنكر الأكبر بلفظ يقابل به خليفةً ، وغاية ذوى الخُنْكة من الخطباء محاكاة براعته واستعارته ، وليس ببدع ، فهو من بيت ثلاثة شعراء فى نَسَق ، وكان هذا الشعر سبب إبعاد عبد الصمد من تأديب أولاد الخلفاء .

رفع المسهم

قوله : مالبث ، أى ما أقام ولا تأخّر . كبر أصيبيته ، أى أكبرهم ، وكُبْر ولد الرجل أكبرُهم من الذّكور ، وكبر قومه : أقعدهم فى النَّسب ، أى أقربهم إلى الجدّ الأكبر ، ومنه قيل : الولاء للكبر . أصيبيته تصغير أصبية . قال الجوهرى : الصبىّ : الغلام ، وجمعه صبية وصبيان وهو من الواو ، ولمّا لم يقولوا : أصبية ولا أغلمة استغنوْا عنهما بصبية وغلمة ، وجاء فى الشعر أصيبية . وقال سيبويه : تصغير صِبْية أصيبِيَة ، وتصغير أَصْبِيَة صبيَّة وكلاهما على غير قياس .

ابن سيده : عندى أن صبية تصغير صبيّة وأصيبيَة تصغير أصْبية، ليكون كل شىء منهما على بناء مكبره .

العواطل : التى لا نقْطَ فيها . تماطل : تؤخر إنشادها . جثّا : برك . ليث : أسد . ريث : بطء وتأخير .

* * *

أَعْدِدْ لحسّادِكَ حدّ السَّلاخْ وَأَوْرِدِ الآمِلَ وِرْدَ السَّماخْ

وصارِمِ اللَّهْوَ ووصْلَ المَها وأَعْمِلِ الكومَ وسُمْرَ الرِّماخْ

واسْعَ لإدراكِ محـــلٍّ سَمَا عمـــادُه لا لادّراعِ المِراخْ

واللهِ ما السؤدد حَسْوُ الطِّلا ولا مَرَاد الحمد رؤْدٌ رداخْ

واهًا لحُرٍّ واسعٍ صـــدره وهَمُّه ما سرَّ أهلَ الصَّلاَخْ

موردُهُ حُـــلْوٌ لسؤّاله ومالُه ما سألوهُ مُطاَخْ

ما أسمَـــع الآملِ ردًّا ولَا ماطَلَهُ والمَطْلُ لُؤْمٌ صُرَاخْ

ولا أطاعَ اللَّهْـــوَ لمَّا دعا ولا كَسَا راحًا له كأسَ راخْ

سوّده إصلاحُـــه سِرَّه وردْعُه أَهواءه والطِّمَاحْ
وحصَّل المـــدحَ له عِلمُهُ ما مُهِر العُورُ مهور الصِّحَاحْ

* * *

أورد الآمل ، أى أعطِ الراجى . ورد السماح : ماء الكرم . صارم : قاطع . المها : جمع مهاة وهى البقرة الوحشية ، وأراد النساء . الكُوم : جمع كَوْماء ، وهى الناقة العظيمة السنام . اسع : اجر مسرعاً . محلّ سما : منزل ارتفع . والعماد : قائمة الخِباء وإذا علت علا البيت . ادّراع : لبس الدّروع . والمِراح : الطرب والنشاط ، كأنه يقول : لا تشتغل باللهو واشتغل بكسب الشرف . حسو الطِّلا : شرب الخمر . السُّودَد : الفعل الذى يرجع به فاعله سيّداً . مَراد ، بفتح الميم : مذهب وطريق ، وأصله موضع اختلاف الإبل مقبلة ومدبرة وهو المرعى . رُود : جارية ناعمة شابة . والرّدَاح : العظيمة العَجزُ ، وهو كما قال أبو نواس :

لئن خُلِق الأنام لحب كأسٍ ومزمارٍ وطنبورٍ وعُـــودْ
فلم يُخلق بنو حمـــــدان إلّا لبأسٍ أو لمجـــد أو لجودْ

واهاً : عجباً . ما : بمعنى الذى . مطاح : هالك بالعطاء . صراح : ظاهر . راحاً : كَفًّا . راح الثانى : خمر . سؤدده : شرفه ، وجعله سيّداً . سرّه : باطنه . ردعه : كفه . أهواءه : شهواته . والطماح : ارتفاع النظر . العُور : جمع عَوْراء ، وهى الفاقدة إحدى عينيها . مهور : جمع مهر ، وهو الصداق ، وأهمل علمه فيما بعده من الكلام ، وضرَب العور والصحاح مثلًا للأفعال الجميلة والذميمة ، فأراد أن تمييزه بين الأشياء المتضادة وعلمه أن مهر القبيحة العوراء لا يبلغ مهر المليحة الحسناء ، جعل ممدوحاً سيداً . ومثل هذا الشعر الذى لم ينقَط ما أنشد أبو القاسم الزجاجى لأحمد بن الورد :

رفع المسهم

علم العـــدوّ ملامة اللوّامِ ودوام صدّك وهو صَدٌّ حمام
لولاك ما حَدَر السهاد دموعَه ولما أطار كراه حَرّ أُوامِ
هل ما أسرّ وما أؤمّل رادعٌ هول الهموم وروْعة الأحلامِ
رُدّ السلام وما أراك مسلّماً ورآك أهلُ هواك سرّ كلام
كم حاسد لك أو مسرٍّ وداده ومعلّل أهــواه طول ملامى

وهى قصيدة نحو الثمانين بيتاً وما زال المحدثون يظهرون اقتدارَهم فى هذا الفن ، إلّا أنه قَلَّما يقع فى ذلك بيت مستحسن ، فلذلك تركنا أن نمشىَ مع أشعار هذه المقامة فيما يماثلها ، وقد أكثر الناس القول فى ذلك ، وفائدته أن يقال : قدَر على لزوم مالا يلزم لا أن يقال : قد أحسن فيما قال ، وقد أنشد أبو القاسم أيضاً ، أبياتاً لا تنطبق عليها الشفاه ، منها :

أتيناك يا جَزْل العطية إننـــا رأيناك أهلاً للعطايا الجزائلِ
عقيل النَّدى يا حار عـدنا عقيلةً نعـدك انتجاعاً للحسان العقائلِ

* * *

فقال له : أَحْسَنْتَ يا بُدَيْر ، يا رأسَ الدَّيْر ، ثمّ قال لِتِلْوه ، المشتبِه بِصِنْوه : ادْن يا نُوَيْرَة ، يا قَمَر الدُّوَيْرَة ، فدنا ولم يَتَبَاطَأ ، حتّى حلّ منه مَقْعَدَ الْمُعَاطَى ، فقال له : اجْلُ الأبياتَ الْعَرائس ، وإن لم يكُنَّ نفائس ، فبرى الْقَلَمَ وقَط ، ثمّ احتجرَ اللَّوْح وخطّ :

فَتَنَتْنِي فَجَنَّنَتْنِي تَجَـــنّى بتجَنٍّ يَفْتَنُّ غِبَّ تَجَنِّى
شغفَتْنِي بجفنِ ظبي غَضيضٍ غَنِجٍ يَقْتَضِى تَغَيُّضَ جَفْنِي
غشيَتْنِي بزينتيْنِ فَشَفَّتْـــنِي بِزِىٍّ يشِفُّ بين تَثَنِّى

فتظنَّيتُ تَجْتَبِي فَتَجَزِ نِي بِنَفْثٍ يَشْفِي نَفِيبَ ظَنِّي
ثبَّتَتْ فىّ غشَّ جيبٍ بتَزْيِيـــنٍ خبيثٍ يَبْغى تشفِّىَ ضِغْنِ
فنزت فى تَجَنِّبِي فَثَنَتْنِي بنشيجٍ يُشْجِي بِفَنٍّ فَفَنِّ

* * *

قوله : أحسنت يا بدير : تَصغير بَدْر ، صغَّره لصغر سنه ، على أنه قد زَعَم أنه كبير صبيانه . وفى مثل هذا البدر الذى قد نثر هذه الدرر قال الشاعر :

دُرَّانِ من فَمِهِ شَفَّا محـــدِّثه للنَّثْر والنَّظْم مسموع ومُلْتَثِمْ
قد قلت لو قبل الوعظ المبين له خَفِ المهيمين فينا إننا نَسَمْ
فقال مَنْ ضَرَّجَتْ خدى نظرتُه فإن سيف جُفونى مِنْهُ ينتقمْ

يا رأس الدير : يا عظيم القوم ، والدير : موضع القسِّيسين ، أراد به حَلْقَة أصحابه . تِلْوه : التابع له ، أو الجالس إلى جانبه . صنوه : أخوه الَّذِى على قدر سِنِّه . ادْنُ : اقرب . نُوَيْرة : تصغير نار ، شبّه فى حدته وذكائه بها ، أو فى حسنه وبهائه . والدويرة : تصغير دارة ، وهى حَلْقتهم التى اجتمعوا فيها ، فكأنه قال : يا قمراً فى أصحابه .

[ممَّا قيل فى الغلمان الكتاب]

ومما قيل فى غلام كاتب : سأل الثعالبىّ أبا الفضل الدارمىّ أن يصف له غلاماً كاتباً حسن الخطّين : خَطّى اليد والوجه ، فقال :

وكاتب أهـــديتُ نَفْسى له فهى من الشوء فِدَى نفسِهِ
سلّط خـــدّيه على مُهجتى فاستأصَلاَها وهى من غَرْسِهِ
فلستُ أدرى بعد ما حَلّ بى بِمِسْكِهِ أتلف أم نِقْسِـــهِ

وقال فى ذلك :

وشادن أسرف فى صَدِّه ... وزاد فى التيه على عَبْدِهِ
الحسن قد بَثَّ على خدّه ... بنفسجاً يربُو على وَرْدِهِ
رأيتُه يكتب فى طِرْسِهِ ... خطًّا يبارى الدُّرَّ فى عِقْدِهِ
فقلتُ ما قد خطَّه كفُّه ... للحسن قَدْ خطَّ على خَدِّهِ

ولابن رشيق :

كتبت ولو أننى أستطيعُ ... لإجلال قَدْرك دُون البشَرْ[1]
قَدَدْتَ البراعة من أنملى ... وكان المدادُ سواد البَصَرْ

وله أيضاً :

عزيز يُبَارِى الصُّبْحَ إشراق خدِّه ... وفى مَفْرِق الظَّلْمَاء منه نسيبُ[2]
يزفّ إليه ضاحكاً أقحوانَهُ ... ويهتزّ فى برديه منه قضيبُ

ولابن المعتز فى العِذار المشبه بالحروف :

بليتُ بشادنٍ كالبدر حُسْناً ... يُعَذِّبنى بأنواع الدَّلَالِ
غُلالة خدّه ورد جنىٌّ ... ونون الصُّدغ معجمة بخالِ

وله أيضاً :

كأن خطَّ عذارٍ فوق وجنتِهِ ... مَيْدَانُ آسٍ على وَرْدٍ ونَسْرِينِ
وخطَّ فوق حَباب الدّر شاربه ... بنصف صادٍ ودار الصُّدغ بالنونِ

وله أيضاً :

لَهُ من عيون الوحش عينٌ مريضة ... ومن خضرة البستان خضرة شاربِ
كأن غُلاماً حاذقاً خطَّه لَهُ ... فجاء كنصف الصَّاد من خط كاتب

(١) التنف ٣٧
(٢) التنف ٧

رفع المسهم

وقال آخر :

تعلّم العطف من صُدغيه فانعطفَا ... وكان عادتُه ألّا يفِي فَوَفَى
دبّ العِذار على ميدان صَفْحَتِهِ ... حتى إذا هَمّ أنْ يسعَى به وقفَا
كأنه كاتبٌ عزّ المِدادُ به ... أراد يكتب لاماً فابتدى ألفَا

وقال أبو القاسم بن المغربى :

ولمّا احتوى بَدْرُ الدّجى صحنَ خدِّه ... تحيّرَ حتى ما دَرَى أين يَذْهبُ
كأنّ انعطاف الصُّدغ لامٌ أمَامَهَا ... أديب يُجيد الخَطّ أيّان يكتبُ

فهذه الأشعار المستعذبة الّتى بها تعلّق بالغلمان الذين يذكر أنهم كتّاب من جهة حسنهم واعتدال قدودهم وتوريد خدودهم ، وتطريزها بالعذار أحسن من ذكر شعر لزومىّ ليس فيه شىء من الأنس للنفس .

قوله تبَاطا : أى تأخر وأصله الهمز . المعاطَى : الّذى تعطيه كأس الخمر ويُعطِيها لك ، وقد عاطيتُه وعاطانى وقد تعاطى فلان كذا، أى تناوله وأخذه ، من قولهم: عَطَوْت أعطو عَطْواً ، أى تناولت . العرائس : جمع عروس، وسمّاها عرائس لما فيها من التزيين بالنقط ، وكانت زينة العروس عند العرب أن تُنقّط فى خديها نقطٌ صغار بالزعفران ، فلذلك سمّى هذه عرائس لنقطها ، وسمّى التى قبلها عواطل لعدم نَقْطها . نفائس : جمع نفيس ، وهو الرفيع القدر ، يريد أنه لما لزمها ما لم يلزم ضعفتْ ، وقد ذكرنا أن الغرض بمثل هـذه الأشعار إظهار الاقتدار ، وعلى ماذكر أنها غير نفائس فهى أحسن مما عمل فى بابها ،وما أحسن ما قال ديك الجن فى جاريته :

انظُرْ إلى شمس القصور وبدرِها ... وإلى خُزاماها ونفحة زهرها[1]

(١) ديوانه ١٦٨ .

رفع المسهم

لم تَبْلُ عينُك أبيضاً فى أسود جمع الجمال كوجهها فى شَعْرِها
وردّية الوجَنات يختـــبرُ اسمها من ريقها من لا يحيط بخبرِها
وتمايلت فضحكتُ من أردافها عجباً ولكنى بكيت لخَصْرِها
تَسْقِيك كأس مُدامة من كَفِّهَا وردّية ومدامة من ثَغْرِها

ولابن الزّقاق :

تَضَوَّعْن إشراقاً وأشرقن أوجهاً فهن منـــيرات الصَّباح بواسمُ[1]
لئن كنَّ زهراً فالجوانح أبرجٌ وإن كن زهراً فالقلوب كمائمُ

قوله : قطّ : قطع ، وقيل : القَطّ القطْع عرضاً ، والقدّ : القطع طولا . احتجر : جعله فى حجره . خط : كتب . فتنتنى ، أى عذبت قلبى . جنّنتنى : أى صيرتنى مجنوناً . تجنى : اسم امرأة ، والتجنّى الدلال والتيه .

وللبحترىّ :

إذا خطرتْ تأرَّج جانباها كما خطرت على الأرض القَبولُ[2]
ويحسن دَلُّهَا والموت فيـــه وقد يستحسن السَّيْفُ الصَّقِيلُ

شغفتنى : بلغ حبّها شِغاف قلبى ، والشّغاف حجاب القلب . ظبى : غزال . غضيض : منكسر الطرف فاتر العينين . والغُنْج : تكسير الكلام وتخنيثه وهو المجانة . يقتضى : يتضمّن . تغيّض جفنى : سيلان عينى .

ومما قيل فى مرض العينين وحَسُن فيه التشبيه قول البحترىّ :

غـــداة تثنّت للوداع وسلَّمتْ بعينين موصولٍ بجفنيهما السِّحْرُ[3]
توهَّمتُها ألوى بأجفانهـــا الكَرَى كَرَى النّوم ، أو مالت بأعطافِهَا الخمرُ

(١) ديوانه ٢٩٧ .
(٢) ديوانه ٨٢٢ .
(٣) ديوانه ٨٤٤ .

رفع المسهم

وقال ذو الرُّمة :

لها بَشَرٌ مثل الحرير ومنطقٌ رخيمُ الحواشى لا هُراء ولا نَزْرُ[1]
وعينان قال الله كونا فكانتا فعُولان بالألباب ما تفعل الخمر

وقد تقدَّم جملة من هذا .

غشيتْنِي : أتتنى على غفلة . شفَّتنى : أنحلت جسمى . والزِّى : الهيئة الحسنة من اللباس . يشفّ : يفضل . تثنّ : اهتزاز وانعطاف . تظنَّيت : حسبت . تجتبينى : تختارنى . بنفْث : بلفظ وكلام . والجيب : القلب . يبغى : يطلب . تشفّى صِفْنى : إزالة عداوتى . نزت : وثبت . تجنُّبى : بعدى . ثنتنى : ردّتنى . نشيج : صوت البكاء . يشجى : يحزن . بفنٍّ ففنّ : بنوع فنوْع .

* * *

فلمَّا نظر الشيخُ إلى ما حبَّره ، وتصفَّح ما زَبَرَه ، قال له : بورِكَ فيك من طَلاَ ، كما بُورِك فى لا ولا . ثم هَتَف : اقرُب ، يا قُطْرب ، فاقترب منه فتًى يَحْكِى نَجْمَ دُجْية ، أو تِمْثالَ دُمْيَة ، فقال له : ارْقُمِ الأبيات الأَخْيَاف ، وتجنّبِ الخِلاف ، فأخذ القلم ، ورَقَم :

اسْمَحْ فَبَثُّ السّماحِ زينٌ ولا تَخِبْ آملاً تَضَيَّفْ
ولا تُجُز ردَّ ذِى سؤالٍ فَنَّنَ أم فى السؤال خفَّفْ
ولا تظنَّ الدُّهورَ تُبْقِى مَالَ ضَنينٍ ولَوْ تقشَّفْ
واحْلُمْ فحُفْن الكِرام يُغْضِى وصَدْرُهُمْ فى العَطاء نَفْنَفْ
ولا تَخُنْ عهدَ ذى ودادٍ ثبْتٍ ولا تَبْغ ما تَزَيَّفْ

* * *

(١) ديوانه ٢١٢

حبَّره : زيّنه . زبره : كتبه . طَلا : غزال . لاولا ، يعنى الزيتون ، ومن كلام العامة : بورك فيك كما بورك فى الزَّيت ، وأراد بلاولا قولَه تعالى : ﴿تُوقَدُ من شَجَرةٍ مُبَارَكةٍ زَيْتُونةٍ لا شَرْقيّةٍ ولا غربيّة﴾(١) ، فأخذ من الآية لا ولا واكتفى بهما .

الفنجديهى : يحكى أن بعض الناس ظهرت به علة مزمنة شديدة أعيا الأطباء علاجُها ، فلما أيسَ رأى النبى صلَّى الله عليه وسلم فى النَّوم فشكا إليه علّته المزمنة ، فقال له : عليك بلَاولا ، فقصَّ رؤياه على ابن سيرين ، فقال له : إن صدقتْ رؤياك فإنه صلى الله عليه وسلم أمرك بتناول الزيتون ، فتناولها الرجل فبرئ من علّته ، فقال لابن سيرين : من أين قلتها ؟ قال : من قوله تعالى : ﴿زَيْتُونةٍ لا شرقيّةٍ ولا غربيّة﴾ ، المعنى من زيت شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ، أى ليست تطلع عليها الشمس أوّل النهار فقط ، ولا غربيّة أى عند الغروب فقط ، أى لايسترها من الشمس فى وقت من النهار شىء ، فهو أنضَرُ لها وأجود لزيتها ، وقال صلى الله عليه وسلم : « كلوا الزيت وادّهنوا به فإنه يخرج من شجرة مباركة » .

قوله : هتف : صاح . قطرب : خفيف النوم ، والقطرب : دويبّة تمشى بالليل . وجنّية : تبرك على الإنسان فيجد لها ثقلا ، والعامة تبدل طاءها تاء ، والعرب تسميها النَّئْدلان ، والكابوس والجاثوم ، ويسمّيها أهل بغداد البحت . دُجْية : ظلمة . دميسة : صورة رخام ، وجمعها دُجًى ودُمًى وكأنّ صورة هذا الغلام الذى ذكر الشاعر :

بَدَا فبدا من وجهه البدرُ طالعاً ... لدى الروض يستعلى قضيبا منعَّما

وقد أرسلت أيدى العذارَى بخدِّه ... عِذاراً من الكافور والمسك أسْحَما

وأحسِب هاروتاً أطاف بطرْفه ... يعلّمه من سحره فتعلَّما

ألمّ بنا فى دامسِ الليل فانجلى ... فلما انثنى عنّا وودّع أظلما

(١) سورة النور ٣٥

والأبيات للأمير أبى الحسن أحمد بن عضد الدولة .

وقال أبو إسحق الحصرى مؤلف كتاب الزهر :

عليلُ طرفٍ سقيتُ خمراً مِنْ مقلتيه فتُّ سكرا
ترقرقت وجنتاه ماء مازج فيه العقيق دُرّا
يُحرّك الدلّ منه غصناً ويُطلع الحسنُ منه بدرا
قد نمّ مسكٌ بعارضيه خلّف للعاشقين عُذْرا

قوله : الأخياف ، أى المختلفة . وقوله : فأخذ القلم ورقم ، كأنّ أبا إسحاق الحصرى إيّاه عنَى بهذه الأبيات :

إذا بدا القلم الأعلى براحتهِ مطرّزاً لرداء الفجر بالظُّلَمِ
رأيتَ أسود فى الأبصار أبيض فى بصائر لحظها للفهم غير عمِى
كروضةٍ خطرتْ فى وشى زهرتها وافترّ نَوّارها عن ثغرِ مبتسم

وكأنّ الحسن استعار منه الدواة والقلم حيث قال :

يا ريم هاتِ الدواة والقلَما أكتب شَوْقى إلى الّذى ظَلَمَا[1]
غضبان قد غرّنى رضاه ولو يُسأل فيما غضبت ما عَلِمَا
لو نظرتْ عينُه إلى حَجَرٍ ولّد فيه فتورُها سقَمَا
فليس ينفكّ منه عاشقُه فى جمع عذرٍ لغير ما اجْتَرَمَا
علقتُ مَنْ لوأوى إلى أنفس الماضين والغابرين ما ندمَا

قوله : اسمح : جُدْ . بث : نشر . آملا : راجياً . تضيّف : طلب منك أن تضيفَه . فنّن : أتى بفنون من السؤال . ضنين : بخيل . تقشّف : ترك النظافة .

(١) ديوان أبو نواس ٣٣

يُغْضِي: يتغافل . نفنف . واسع ، والنفنف متسع الأرض . ثبتْ : صادق الودّ ، ويروى : نَثّ أى نشر . تبغ : تطلب . تزيّف : تنقص ، وصار زائفاً ، وهو الدرهم الردىء .

* * *

فقال له : لَا شَلَلْتَ يداك ، وَلَا كَلَّتْ مُداك . ثم نادى : يَاغَشْمَشم ، يَا عِطْرَ مَنْشَمْ ، فَلبّاه غلامٌ كدُرّه غَوّاص ، أَوجؤ ذَرِ قَنّاص ، فقال له : اكتب الأبيات الْمَتَائِيم ، ولا تكن من المشائيم ، فتناول القَلَم المثقَّف ، وكتب ولم يتوقّف :

زيِّنتْ زينبٌ بقـــدٍّ يَقُدُّ ... وَتَلاه ويـــلاه نَهْدٌ يَهُدُّ

جُنْدها جِيدُها وظَرفٌ وطَرْفٌ ... ناعِسٌ تاعسٌ بحـــدٍّ يَحُدُّ

قدرُها قدْ زَهَا وتاهَتْ وباهَتْ ... واعْتدتْ واغْتدتْ بِخـــدٍّ يَخُدُّ

فارَقَتْنِي فأرّقَتْـــنِي وشَطَّتْ ... وسَطَت ثمّ نمّ وجْـــدٌ وجِدُّ

فدنتْ فدَّيتَ وحنَّتْ وحَيّتْ ... مُغْضَباً مُغْضِـــيا يَودُّ يُوَدُّ

* * *

قوله كلّت ، أى حفيت . مُداك : سكاكينك ، جمع مُدْية . الغشمشم : الذى لا يردّه شىء عن مراده .

[أصل المثل : دقّوا بينهم عطر مَنْشَم]

عطر مَنْشَم ، قيل : كانت مَنْشَم جارية عطّرت رجالها حين خرجوا للقتال ، فقُتِلوا عن آخرهم ، فضرب بها المثل فى الشؤم . وقيل : بل الإشارة إلى عطارة ، أغار عليها قوم فأخذوا عِطْرَها فتطيّبوا فاستغاثت بقومها ، فخرجوا فى طلبهم ،

رفع المسهم

فمن شمُّوا عليه رائحة الطيب قتلوه ، ومن أوّله على هذا قال : عِطْر مَنْ شمّ ، فجعلوه من كلمتين . وقيل: الكناية عن قرون السنبل الّذى يقال إنه سمّ ساعة .

وذكر ابن الكلبىّ أنها امرأة من خُزاعة كانت تبيع العطر فتطيَّب بعطرها قومٌ وتحالفوا على الموت ، فماتوا .

وقال غيره : بل هى صاحبة يَسار الكواعب ، وكان عبداً أسود مُشوّه الخلقة راعىَ إبل ، فمتى رأته النساء ضحكن منه ، فتوهّم أنهنّ يضحكْنَ من إعجابهنّ بحسنه ، فقال يوماً لرفيق له : أنا يسار الكواعب ، ما رأتنى جارية كاعب إلا وعشقتْنى ، فقال له رفيقه : يايسار ، اشرب لبن العِشار ، وكل لحم الحُوار[1] ، وإياك وبنات الأحرار ، فأبى وراود مولاته عن نفسها ، فقالت له : مكانك حتى آتيك بطيب أشمك إياه ، فأتته بموسى ، فلما أدنى أنفه ليشمّ الطيب جدَعته .

ويقال إنه لما راودَها قالت له : أهكذا تأتينى بذفَرِك ووَسخِك ! ادنُ حتى أعطّرك ، فأدخلت يدها تحته وفيها موسى لطيفة قد أعدّتها له ، فقبضت على ذكره وخصيته ، فاقتطعت الجميع ، فخرج فمن رآه على تلك الحالة قال له : ماهذا ؟ فيقول : عطرُ من شمّ .

وقيل : كانت تبيع الحَنوط وهو عطر الموتى .

وقيل : المُنْشَم : الشر نفسه ، وقيل : المنشَم ثمرة سوداء منتنة .

وقيل فيها غير ما ذكر .

وذكر الحريرى فى الدرة أكثَر هذه الوجوه، وذكر أن كسر شين منشِم أكثر وأشهر ويروى بفتحها .

قوله المتائيم : جمع مُتْئِم ، وهى التى من عادتها أن تلد توأمين ، ولما كانت أبياته لا يوجد فيها إلا الألفاظ المزدوجة ، سمّيَتْ متائيم ، وقيل : المتائيم : جمع توأم على غير قياس . المشائيم : جمع مشآم ، وهو الكثير الشؤم ، وشبّه بدرّة

(١) العشار : اسم يقع على النوق والحوار : ولد الناقة إلى أن ينفصل عن أمه .

غواص فى بياضه ورقة ديباجه . وجؤذر قنـاص ، هو الظبى الفاتر العينين ، والقنّاص : الصياد ، فـكأنه يصطاد بعينيه مَنْ نظر ، وإن أضفت جؤذر إلى القناص فمعناه مستقيم ، فيصفه بالخوف وكثرة التلفّت خشية أن يُصاد . وما أحسن ما قال صاحبنا الوزير الحسيب أبو المطرّف الزّهرى فى هـذا المعنى وكان جالساً فى باب داره مع زائر له ، فخرجت عليهما من زقاق جارية سافرة الوجه كالشمس الطالعة ، فحين نظرتْهما على غفلة نفرت خجلة فزِعة ، فرأى الزائر ما أبْهته ، فـكلّفه وصفَها ، فقال مرتجلاً :

يا ظبيةً نفرتْ والقلب مَسْـكَنُها ... خوفاً لختلىَ أو عمـداً لتعذبي
لتأمنى فابنُ عبد الحىّ ألحقنـا ... عِدْلاً يؤلف بين الظبى والذيب

وكأنّ ابن رشيق وصف هذا الغلام الـكاتب حيث قال :

وفاترِ الأجفان ذى وجنـةٍ ... كأنهـا فى الحسن ورد الرّياضْ[1]
قلت له : يا ظبى خُذْ مهجتى ... داوى بهـا تلك الجفون المراضْ
فجاوبتْ من خـدّه خجلة ... كيف ترى الحمرة فوق البياضْ

وقال أيضاً :

بين أجفانك سحرُ ... ولأغصانك بدرُ[2]
جرّدت عيناك سيفيـن لذا أمْرُك أمْرُ
فعلى خدّيك من نَزْ ... ف دِما العشّاق أثرُ
ومن الـكثبان شَطْرٌ ... لك والأغصان شطر
وسـواء قلت درٌّ ... ما أرى أو قلت ثَغْرُ
وبماذا أصف الخَصْـر وما إن لك خَصْرُ
بك شغلى واشتغالى ... ومضى زيد وعمرو

(١) التنف ٤١ (٢) التنف ٣٠

وقال خالد الكاتب :

قد قلتُ لمّا أن بدا متبخترا والرِّدف يجذب خَصْره من خَلْفِه
يا من يسلِّم خَصْرَه من رِدْفِه سَلِّمْ فؤاد محبِّه من طرْفِه

وله مما يتعلق بالكتابة :

كتبت إليك بماء الجفون وقلبي بماء الهوى مُشْرَبْ
فكيف تخطّ وقلبي يمـلّ وعَيْنِيَ تمحو الّذي أكتبْ
فليس يتم كتابي إليك بشوقي فمن هاهنـا أعجبْ

قوله : زينت زينب بقدّ يمدّ ، إنما أراد يقد يقدّ ، أى ينقطع لرقة خَصره ، فعوّض منه يقدّ لقرب ما بين اللفظين ولضرورة الازدواج . وقال البحترىّ فى القدود :

من السّمر اللدان إذا اسْبَكرَّتْ وصرف الموت فى السّمر اللّدانِ
شبيهات الرّماح قنى جفـونٍ وكلمٍ فى القلوب بلا سنانِ
فهل من ضربةٍ أو من سنانٍ كعين أو كثغر أو بَنَانِ

وقال السرىّ :

قَامَتْ وخُوط البانة الـمـيّاس فى أثوابهـا
تسقى بصهباءين من ألحاظها وشَرَابهـا
ويهزّها سُكرانِ سُكْـر شرابها وشبابهـا
وكأنّ كأس مُدامهـا لما ارتدت بحبَابهـا
توريد وجنتِهـا إذا مالاح تحتَ نقابهـا

وقال القاضى أبو حفص بن عمر :

هـــذا فؤادى أقصدتْه الأَسْهُمُ مَنْ ذا يرى تلك الجفونَ وَيَسْلَمُ
يا غرّة حكم الجمـــال لَهَا على شمس الضحى وأصاب فيما يحكمُ
يحكى الجآذرَ جيـــدُها ولحاظُها هيهات دون العـــالم المتعظِّمُ
وكأنّ قامَتها ونغمـــة لفظها غُصْنٌ عليه بلبـــلٌ يترنّمُ
يضحى الخـــلىّ إذا رآها عاشقاً والعقل توقظه اللحـــاظ النوّم

وما أحسن ماقال أبو الحسن بن القبطُرنة :

ذكرت سليمى وحرّ الوغى كقلبى ساعة ودّعتُهـــا
وأبصرت بين القنـا قدّها وقد ملن نحوِى فعانقتُها

قوله : تلاه ، أى تبعه . ويلاه : دعا لنفسه بالويل والخسران حين رأى نَهْداً لا يصبر عنه .

[فى وصف النهود]

ومما جاء من التشبيهات الحسان فى أوصاف النّهود قول عمرو بن كلثوم :

وثدياً مثـــل حقّ العاج رخصاً مصاناً من أكفّ اللّامسينا[1]

بشار :

والنهد تحسبه وسنانَ أو كسِلاً وقد تمايل ميلاً غير منكسرِ

ابن الرومى :

صـــــدور فوقهنّ حقاق عاج ودرٌّ زانه حُسْنُ اتّساقِ
يقول القـــائلون إذا رأوْه أهذا الدّرّ من هـــذى الحقاقِ !

(١) المعلقات — بشرح التبريزى ٣١٤

وأخذه من قول عبد الله بن السبط :

كأنّ الثّدى إذا ما بدت وزان العقود بهنّ النّحورا
حِقاقٌ من العاج مكنونةٌ يَسَعْنَ من الدرّ شيئاً يسيراً

ولإدريس اليمانى :

أيا ربّة النّهد الذى بسنانه يحطّ فتى الهيجاء عن فرس نَهْدِ
أحقان مِنْ عاج بصدْرك أم هما رقيبان قد قاما على جَنّة الخلدِ

ومن البدائع الروائع قول الآخر :

وذات دلالٍ سبتْ مهجتِى بمستشرفيْن على مئزرِ
كأنهما خُوطُ كافورةٍ بأعلاهما نُقْطَتَا عَنْبَرِ

وللقاضى عبد الوهاب ، ويروى لغيره :

يا صاحبىَّ قبالتى خُصانةٌ مالت فمال الدِّعْص من أعْطَافها
فى الصَّدْر منها للطّعان أسنَّةٌ ما أشرعت إلا لجنْى قِطَافها
إن تنكرا قتلى بها فتبيَّنا تجدا دمِى قد جفّ فى أطرافها

على بن الجهم :

كنتُ مشتاقاً وما يحجزنى عنك إلا مانع يمنَعُنِى[1]
شاخص فى الصدر غضبانُ على قبَبِ البطنِ وطىّ العُكَنِ
يملأ الكفّ ولا يفضلُها فإذا أثنيتَهُ لَا يثْنِنِى

* * *

قوله جيدها : أى عنقها ، وكأنّ حبيباً وصف هذه الجارية وجيدها بقوله:

كالخوطِ فى القدّ والغزالة فى البهْجة وابن الغزال فى غِيدِه
وما حكاه ولا نعيم له فى حسنه بلْ حكاه فى جِيده

(١) ديوانه ١٨٨

وإن كان هذا الجيدُ عاطلًا حلّيناه بقول ابن العباس الأعمى :

ونبِّئتُ ذاك الجيـدَ أصبح عاطِلًا خذى أدمعى إن كُنْتِ غَضْبى على الدرِّ
خـذى فانظميها أو كِلِينى لنظمِها حُلِيًّا على تلك التَّرائب والنَّحْر
خذى اللؤلؤ الرطب الذى لَهِجُوا به مَحارتُه جفنى ولجّته صَـدْرِى
ولا تخبرى حُور الجنان فربَّما غَصَبْنَكه بين الخديعة والمكرِ

طرف : عين . ظرف : حلاوة ورشاقة ، وجعل الطَّرف والعُنق جنداً لها ، لأنها لما حسُنَتْ معنى هـذه الصفات انقاد لها عشّاقها أذلاّء ، فكأنها أغارت على قلوبهم فاستلبتْها ، وقد قال فيما تقدّم :

وأحوى حوَى رقّى لفظه *

فجعله قد ملكه بحلاوته . وقال حبيب :

وحشيّة ترمى القلوب إذا اغتدت وسْنَى فمـا تصطاد غير الصِّيدِ

فجعلها تصطاد السادات بفتور عينيها ، وهذا المعنى لا يحصى كثرة .

وأراد بالنّاعس الفاترَ النّظر وينعش من كان له منه نصيب وتمكن . يحدّ : يمنع من رآه من التسلى والتصبُّر . زهاً : تكبّر . والتّيه : ضرب من الزّهو ، وهو الكِبْر . باهت : فاخرت وعظمت . واعتدت : ظلمت . يخدّ : يقطع ، أى أن خدّها يقْطع فى القلوب لاسيما إن كان كما قال من أحسن :

وبيضـــاء تحسبها دُرَّةً تضىء الدُّجَى إن بدت أو تكادْ
تُنَعِّمُ بالمسك كافورتىْ محيًّا حوَى الحسن طُرًّا وزادْ
فقلت : أوصلُك هـذا البياض وبعض صدودك هـذا السواد
فقالت : أبى كاتب للمـلوك دنوت إليه بحسن الوداد
فخافَ اطـلاعى على سرّه فلم يعد أن رشّنى بالمِدَادْ

فوصفها بأنّ فى خدّيها خيلانا .

قوله : أرَّقتنى ، أى منعتنى النوم . شَطَّت : بعدت . سَطَتْ : بطشت . نَمّ : أفشى السرَّ ، أى أفشى ما بى من الحب . وجْد : حزن من الحبّ وهمّ . جدّ : اجتهاد . فدنت : قربت . حنَّت : أشفقت . مغضياً : متغافلاً عمّا ينال منه . يودّ : يتمنى . يُوَدّ : يُحَبّ ، يقول : لما نمَّ لها وجدى بما أجِنُّه من حبّها وأبصرت ما فعل هجرها بى دنَتْ عند ذلك منّى شفقةً، وحيّتنى بسلامها وأنا فى حال غضبان ، لما حلَّ بى من الهجر متمنِّياً أن تحيّنى ، فلمَّا سلمتْ علىّ أزالت غضبى ، وأغضيت عما سلف من الفعل القبيح .

[أبيات حسان فى وصف الجوارى]

ونذكر هاهنا من الأشعار الحسان مما يوافق وصف هـذه الجارية جملة مستظرفة ، قال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

يَزيدنى البعـد شوقاً إليكِ ... وطُول صُدودُكِ حِرْصاً عليكِ
ولو كنت أملك ما تملكينَ ... من الصّبر ما طال شوقى إليكِ

وقال آخر :

وما أنسَ لا أنسَ ذاك الخضوعَ ... وفَيْض الدموع وغمز اليـدِ
وخـدّى مضافٌ إلى خـدِّها ... قياماً إلى الصُّبح لم نرقُدِ

وقال أبو مطرف الزهرىّ :

مرَّتْ بنا وبَدَتْ كالبدر وانفلَتَتْ ... كالغصن والتفتتْ كالشادن الخرِقِ
تسربلتْ ببرود الحُسْن والتحفتْ ... بالغُنْج واشتملت مِرْطاً من الغسَقِ

وقال السّرى :

لبستْ مصندلة الثّياب فَمَنْ رأى ... قمراً تسربل قَبْلَهـا أثواباَ[1]
وحكَتْ من الظبى الغرير ثلاثةً ... جِيـداً وطرفاً فاتراً وإهاباَ

(١) ديوانه ٦٣

وله أيضاً :

مذهبّة الخـــدود بجلنار مفضّضة الثّغور بأقحُوان[1]
سَقَانا اللهُ من ريّاك ريًّا وحيَّانَا بأوجهك الحِسَان

وللقاضى أبى حفص :

همُ نظروا لواحظَها فهامُوا وتشرَّب عقلَ شاربها المُدَامُ
سَمَا طرفِى إليهـــا وهو باكٍ وتحت الشَّمس ينْسَكِبُ الغمامُ
يخاف النَّـاسُ مقلتَها سِوَاها أيذعر قلبٌ حامله الحسامُ !
وأذكر قَدّها فأنوح شوقاً على الأغصان تنتدب الحمامُ
وأعقب همّها فى الصَّـــدْرِ غمًّا إذا غربَتْ ذكاء أتى الظَّلامُ

وله أيضاً :

أعيذك يا سليمىَ من سُلَيْمٍ قتلتِ فتاهمْ وهو الكريمُ
فمـــا لكِ طالب بتراتِ نفسى إذا قتل الغرامُ فلا غريمُ
فؤادى سار نحوك عن ضُلُوع بهـا يا ريمُ حبُّك لا يَرِيمُ
ودادكُ صحّ فى قلبٍ سليم كطرفك صحّ ناظره السقيمُ
إذا أعرضتْ تسودّ الأمانى وإن أقبلتْ تبيَضُّ الهمومُ

* * *

فطفِق الشيخُ يَتأمَّل مَا سَطَره ، ويقلِّب فيه نَظَرَهُ ، فلمَّا اسْتَحْسَن خَطّه ، واسْتَصَحَّ ضَبْطَه ، قال له : لاشَلَّ عَشْرُك ، ولا استُخْبِثَ نَشرُك . ثمَّ أهابَ بفتًى فتَّان ، يُسْفِرُ عن أزهارِ بُسْتَان ، فقال له : أَنْشِدِ الْبَيْتَيْن المطرَّفَيْن ، المشْتَبِهِى الطَّرَفَيْن ، اللَّذَيْن أَسْكَتَا كُلَّ نَافِث ، وَأَمِنَا أن يُهَزَّزا بثالث ، فقال له : اسمع لا وُقِرَ سَمْعُكَ ، ولاهُزِمَ جَمْعُكَ ، وأنشد مِنْ غير تلبّث ، ولا تَرَيّث :

١) ديوانه ٢٦٨

سِمْ سِمَـــةً تَحْسُن آثارها وَاشْكُرْ لمن أَعْطَى ولو سِمْسِمَهْ
والمكرُ مَهْمَا اسْطَعتَ لا تأته لتقتَنِي السُّـؤْدَدَ والمكرُمَهْ

* * *

قوله : طفق ، أى أخذ . يتأمَّلُ : ينظر . سَطَرَه : كتبه . استصَحّ : وجده صحيحاً ، والضَّبط : الشكل والنقط : لا شَلَّ عشرُك ، دعاء ، أى لا يبستْ أصابعك ، ويروى : لا ثُلَّ عرشك ، أى لا هُدِم عزك ، والرِّوَاية الأولى هى الصحيحة . استُخْبِث : فَسَد وصار خبيثاً . نشرك : رائحتك العطرة . أهاب : دعا وصاح . يُسْفِر : يكشف عن وجهه لثامه . عن أزهار بستان : عن بياض الوجه وحمرة الخدّين والشّفتين وسواد العينين والأشفارِ وخضرة الشارب والعِذار ومحاسن لا تفى بها ناضرات الأنوار ، وقد يكون يُسفر بمعنى يَتبَسّم عن بياض شقيق وأقحوان واحمرار عقيق ومرجان ، وكأنّ هذا الغلام هو الذى ذكر أبو الرقعمق بقوله :

إذا جرتْ يدهُ فى الطرس كاتبةً تبلّج الطِّرس عن دُرٍّ ومَرْجَانِ
وإنْ تكلّم جاءته براعتهُ بكلِّ ما شاء من فَهْم وتبيانِ

وقال بعضهم يصف غلاماً كاتباً :

انظر إلى أثر المـــدادِ بطِرْسِه كبنفسج الرَّوض المشوب بوردِهِ
ما أخطأتْ نوناته من صُدْغه شيئاً ولا ألِفاته منَ قـــدِّهِ
وكأنما ألِفاته من شَعْرِه وكأنما قِرطَاسُه من خَـــدِّهِ

ولعمر بن فتح :

فنوناته من حاجبيْه استعارها ولاماتُه من صُدْغِه المتعاطفِ
ومن صدّه المؤذى اسوداد مداده ومن وصله المحيى ابيضاض الصحائف

ولأبى إسحاق الحصرى فى وصف هذا الغلام :

أيا من تُمْسِك الأوصافُ عنه ... أعِنَّـةَ وصْفِنَا نَظْماً ونثْرَا
ومن يدعو القلوب إلى مُناها ... بعينيه فلا تأتيـه قَسْرَا
ومَنْ يُجْرِى اللآلئَ فى أقاحٍ ... يمـازج ظَلْمَهُ بَرَداً وخَمْراً
ويعرض فى رياض الدلّ غصنا ... ويطلعُ فى سماء الحسن بَدْرا
كأن بخدّه ذهباً صَقِيلاً ... أذاب عليه ياقوتاً ودُرًّا

ومنها فى وصف الكتاب :

قرأت كتابكَ الأعلى محلاً ... لدىّ ومُوقِعاً شرفاً وقَدْرَا
فأحيانى وقد غودرت مَيْتاً ... وأنشرنى وقد ضُمِّنْتُ قَبْرَا
نقشت بحالِكِ الأنقاش نَوْراً ... جَلاَ لعيـوننَا نَوْراً وزَهْرَا
فدَبَّج من بَسِيط الفِكْرِ رَوْضاً ... أنيقاً مشرق الجَنَبَاتِ نَضْرَا
لو استسقى العليـلُ به لأروى ... أو استشفى العليل به لأبْرَى
هَفَا عطر الجنـوب له نسيمٌ ... أقول إذا أناسم منه نَشْرَا :
نثرتَ لنا على الكافورِ مِسْكاً ... ولم تنثر على القرطاسِ حِبْرَا

وله فى العذار :

سَلَبَتْ محاسنُه سوادَ عيوننا ... وقلوبنا وكَسَتْ أديمَ عِذَارِهِ
فبدا طرازا فى أسيلٍ مشرقٍ ... ماء الحياة يجولُ فى أسرارِهِ
علم الذى استُلبت له يدُ حسنَه ... منا فمازج أمنَه بحـذارِهِ
فـله توقُّف مستريبٍ تائب ... ولنا تلهُّب عاجزٍ عن ثارِهِ

وقال أبو الفضل الدرامى :

ظبىٌ إذا حَرَّكَ أصـداغَه ... لم يلتفت خلق إلى العِطر
غنى بشعرى منشداً ليتـنى ... اللفظ الذى ضمنته شـعرى
فكلما كرر إنشادَه ... قبلتُه فيـه ولا يدرى

ولمهيار :

مشتبه أعرفُه وإنمـــا مغالطاً قلت لصحبي دَارُ مَنْ[1]
وحاملي على السّرور حاملِ في كفّه وَطْرفه سيفَ الفِتَنْ
قد كتب الحسنُ على عارضِه ما أقبح الهجران بالوجْه الحَسَنْ

ولأبي إسحاق الطليطلي :

ومعذَّرٍ رَقَّتْ له خمر الصبا حيث العـــذار حبابها المترقرقُ
ديباج حسنٍ تاه عقلا ناقصاً فأتمها عـــلم الشّباب المونق
وشكا الجمال مقيلَه في وَرْدِه فأظلّه آسُ العـــذار المشفِقُ
عامت بماء الصّقل شامةُ خدّه وحما العِذار زُوَيْرقاً لا يغرق
إن كان يمحو نقشه من خـده فطـلا الغزال بمسكها يتفتّقُ

قوله : المطرّفين ، أى الغريبين ، وقد أطرفته ، جئته بطُرفة ، أى بشيء معجب . نافث : متكلم . يعزّزا : يقوّيا ويشدّدا ، وإذا صلب الشيء قيل: تَعزَّز وأصله من العَزاز وهى الأرض الصلبة .

وقال فى الدّرة : ويقولون شفّعت الرّسولين بثالث فيوهمون فيه ، والعرب تقول : شفعت الرّسُول بآخر، أى جعلتهما اثنين ليطابق معنى الشفع فى كلامهم ، وهو اثنان ، فأما إذا بلغت ثلاثاً فوجهه أن يقال : عززت بثالث . قال تعالى : ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ﴾ ، والمعنى فى عَزّزْته قوّيْتُه . وأعززته : جعلتَه عزيزاً ،فإن واترت الرّسل فالأحسن أن تقول قفّيت بالرسل ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنا على آثارهم برسلنا ﴾ .

وما أحسن ما قال ابنُ شرف فى العذار وذكر التعزيز بثالث :

(١) ديوانه ٤ : ٤٧

قد كنتَ فى وعد العذار فأنجزا وقضى لحسنك بالكمال فأوْجَزَا[1]
وافى لنصرِ الحسن إلا أنه ولّى إلى فئة الهوى متحيِّزا
عطفٌ تعلّم منه قلبى عطفَه وجَدَ الفؤادُ به السَّبيلَ إلى العزا
لم يكف وجهَك حسنُه وبهاؤه حتى اكتسى ثوبَ الجمالُ مطرّزا
سبحان مَنْ أعطاك حُسْناً ثانياً وبثالثٍ من حُسْنِ فعلك عَزَّزا

الوَقْر : الثقل فى الأذن . تلبّث : طول إقامة . تريّث ، إذا احتبس ومكث ، ويقال: تريّث بنقطتين وتربّث تربّثاً بواحدة ، والمعنى فيهما واحد . سم : عَلَم . سمة : علامة . سمسمة : حبة جلجلان . المكر : الخداع . تقتنى : تكتسب . السودد : الشرف . والمكرمة : الكرامة .

وممن اشترط أن بيتيه لا يعززان بثالث قبل الحريرى أبو دلف حين قال :

أنا أبو دلفٍ المهدى بقافيةٍ جوابها يهلك الزّاهى من الغيظِ
مَنْ زاد فيها له رَحْلِى وراحلتى وخاتمى والمدى فيها إلى القيظ

وذكر الحصَرى الأعمى المكرمة فى تجنيس قوافيه ، فسمع قوماً يقدحون فيه وفى أبى خلصة فقصده وقال :

يا أديبا ملكتنى فى يديْ المكرُمات
ليت قوماً دأبهم فىّ وفيك المكْرُماتوا

وله :

رب ظبى هويتــه نتمنى للهــوازِنْهْ
قلت :ماأثقل الهوى قال: ماللهوى زِنَهْ

(١) النتف ١٠٢

رفع المسهم

وله أيضاً :

إن كتمتَ الهوى فقد صار سرِّى علانيَهْ
بسقام أذابنى وشحوبٍ علانيَهْ

* * *

فقال له : أجدْتَ يا زُغْلول ، يا أبا الغُلول ، ثم نادى : أوضِحْ يا ياسين ، ما يُشْكِل من ذوات السِّين ، فنهض ولم يتأنّ ، وأنشدَ بصوتٍ أغَنّ :

نِقْسُ الدَّواة ورُسْغُ الكفِّ مثبتةٌ سِينَاهما إن هُمَا خُطَّا وإن دُرِسَا

وهكذا السِّين فى قِسْبٍ وباسقةٍ
والسَّفْح والْبَخْس واقْسِرْ واقْتبِسْ قَبَسَا
وفى تقسّسْت بالليل الكلامَ وفى مُسَيْطِرٍ وشَمُوسٍ واتخذ جَرَسَا
وفى قَرِيسٍ وبردٍ قارسٍ نفذ الصّوابَ مِنِّى وكُنْ للعلم مُقْتبِسَا

فقال له : أحْسَنْتَ يا نُغَيش ، يا صَنَّاجة الجيش ، ثم قال : ثِبْ يا عنبسة ، وبين الصاداتِ الملتبِسَة ، فوثب وَثْب شِبْلٍ مُثار ، ثُمَّ أَنْشَدَ من غير عِثار :

بالصاد يكتب قد قَبَصْت دراهماً بأناملى وأصِخْ لِتَسْتَمِعَ الْخَبَرْ
وبَصَقْتُ أبصُق والصِّماخ وصَنْجةٌ والقصُّ وهو الصَّدْرُ واقتصّ الأثَرْ
وبخصْتُ مقلتَه وهذى فرصةٌ قد أُرْعِدتْ منه الفريصةُ للخوَرْ
وقَصَرتُ هِنْداً أى حبست وقَدْ دَنَا فِصْحُ النَّصارى وهو عيدٌ مُنْتَظَرْ
وقَرَصْتُه والخمر قارِصَةٌ إذا حَذَتِ اللِّسانَ وكلّ هذا مُستَطَرْ

* * *

رفع المسهم

أجَدْت: أتيت بجيّد . الزُّغلول : الخفيف، وزغلول الرجل: ولده ، والغلول: الخيانة فى المغنم ، وأصله الستر والتغطية ، تقول : غلَّ الشَّىء غَلاًّ وغُلولا ، إذا ستره ، وصفه كأنه يغُلُّ العقول ، أى يمسكها ويخون أصحابها فيها ، وقالت عُلَيَّة :

* يا غُلَّ ألباب الرجال *

أوضح : بيَّن . يتأنَّى : يتباطأ ويفتر ، والتأنى : التثبت ، وفى الحديث أنه نظر صلى الله عليه وسلم إلى رجل يتخطَّى رقاب الناس يوم الجمعة ، فقال : « آنيتَ وآذيت » ، أى أخّرت المجىء ، ويكون يتأنَّى من قولهم : فلان ذو أناة منَ وَنَى يني ، وتكون الهمزة مبدلةً عن واو ، وهو الأظهر . أغنّ : فيه غُنَّة ، وهو البَحح الخفيف ، والأغنّ : الّذى يتكلم من قِبَل خياشيمه . نِقْس : مداد . رسغ الكف : موصلها من الذراع . والْقَسْب : نوى التمر . باسقة : نخلة طويلة . السَّفْح : أسفل الجبل . البخْس : النقص . اقْسِر : اقهر واغلب . اقتبس قبَساً : اطلب شعلةً من نار . وتقسّست : تتبّعت . والشَّمُوس : الدابة التى تمنع أن تُسرج وأن تُرْكَب . جَرَساً : الذى يضرَب به فيصوِّت . قَرِيس : حوت . قارس : شديد . مقتبساً : طالباً حريصاً على كَسبْه .

قوله : نُغَيش ، أى كثير الحركة ، وقيل : نُغَيْش تصغير النَّغاش من الرجال الحقير الخلْقة ، الغاية فى القصر ، فصفة هذا الغلام أنه حقير الخلقة كثير الحركة ، وقلَّما تكون تلك الخلقة إلا ومعها الحركة والحدّة . ورواه الفنجديهى « نفيش» بالفاء ، أى قصير . ثعلب : النفّاشون ، هم القصار الضّعاف الحركة ، ومنه الخبر أنه رأى نفَّاشاً فسجد شكراً ، قال: والنَّفْش: تحرّك الشىء فى مكانه ، يقال : دار تنتفش صبياناً ، والتنفّش : دخول الشىء بعضه فى بعض . وصنّاجة الجيش : التى يُضرَب بها المثل فى الحروب ، وقيل : الصَّنّاجة الضرَّابة بالدفوف والطنابير وعود الغناء ونحوه من آلات اللهو ، قال الهُذَلىّ وهو ساعدة بن جُؤيّة :

وعاودنى دِينى فبتّ كأنما خلال ضلوع الصدر شِرْعٌ مُمَدَّدُ[1]

بأوب يدىْ صَنّاجةٍ عند مدمنٍ غوىٍّ إذا ما يَنْتَشِى يتغَرّدُ

يصف ما فى صدره من الحُرَق . ودينه : حالته التى تعتاده من الهمّ ، والشِّرْع : الوتر ، يقول : كأنما فى صدرى عود ، لأوتاره رنّة مما أحدّث به نفسى من الهموم . وأوب يديْها : رجعهما بضرب الصَّنَج ، أى بتحريك يديها حين تمرّ أوتارها ، وينتشى : يسكر . ويتغرد : يتغنّى ، وفلان صنّاجة قومه ، أى المقدّم عليهم فى الفضل . وقيل : صَنّاجة الجيش هو البطل المعروف ، ويقال : ليلة قَمْراء صَنّاجة وصَيّاجة ، إذا كانت مضيئة ، وصنَج فلان بفلان إذا صَرَعه . وكان أعشى قيس يُدْعَى صنّاجة العرب لفصاحته . وقيل : لرقة شعره ، وقيل : الصَّنّاجة الغناء ، ويريد بالجيش الصبية الذين جيّشوا حوله ، فُنَغِّيش صنّاجتهم ، أى أنبلهم وأحذقهم أو كالصنجة فى خلقته وقصره . ثب : اقفز . عنبسة : اسم أسد . والشبل : ولده . مُثَار : مفزَّع ، وقد أُثير : استخرج من مكانه بالبحث عليه . قبصت : أخذت بأطراف أصابعى ، والقبصة أقل من القبضة . أصخ : استمع . الصُّماخ : ثقب الأذن . صَنْجة ، هى التى يوزن بها . والمقلة : شحمة العين . بخصّتها : فقأتها . واستلبتها فرصة : نهزة وغنيمة . والفريصة : بُضعة عند الكتِف تُرْعَد عند الفزع . الخَوَر : الضّعف . قرصته : عضضته بظفرى . حذَت اللسانَ : قرصته بحدّتها . مُسْتَطِر : مكتوب .

* * *

فقال له : رَعياً لك يا بنىّ ، فقد أقررتَ عينىّ . ثمّ استنهض ذا جُثَّةٍ كالبيذَق ، ونَغْشةٍ كالسّوذَق ، وأمره أن يقف بالمرصاد ، ويسرُدَ ما يجرى على السين والصاد ، فنهض يَسْحَبُ بُرْدَيْه ، ثمّ أنشد مشيراً بيديه :

(١) ديوان الهذليين ١ : ٢٣٦

إن شئتَ بالسِّين فاكتُبْ ما أبِينُه وإن تشأ فهو بالصادات يُكْتَتَبُ
مَعْسٌ وفقس ومُسْطارٌ ومُمَّلِسٌ وسالغٌ وسراط الحق والسَّقَبُ
والسامِغان وسَقْرٌ والسوبق ومسْـــلاقٌ وعن كلٍّ هذا تُفْصِحُ الكتب

فقال له : أحسنْتَ يا حبّقة ، يا عَيْنَ بقّة ، ثم نادى : يا دَغْفل ، يا أبا زَنْفل ، فلبّاه فتًى أحسنُ من بَيْضَة، فى روضة ؛ فقال له : ما عَقْد هجاء الأفعال ، التى آخرها حرف اعتلال ، فقال : اسمع ، لا صَمَّ صداك ، ولا سمعت عِداك . ثم أنشد ، وما استرشد :

إذا الفِعْـل يوماً غُمَّ عنك هجاؤه فألحِقْ به تاءَ الخطاب ولا تَقِفْ
فإن تَرَ قبْـــل التاء ياءً فـكَتْبُهُ بياءٍ وإلاّ فهو يُـكْتَبُ بالألفْ
ولا تحسب الفعل الثلاثىَّ والّذى تعدّاه والمهموزَ فى ذاك يختلفْ

* * *

رَعْياً : حفظاً ، أى رعاك الله رعياً . استنهض : أمره بالنهوض . جُثّة : جسد . وبيذق الشطرنج ، معروف ؛ يشبَّه به الخفيف الروح الحاذق . نَعْشة : حركة . والسَّوْذق ، هو السَّذَانق من الطّير التى يُصطاد بها . بالمرصاد ، أى قريب منه حيث ينظره . يَسرد : يقرؤها بسُرْعة . يسحب برديه : يجرُّ ثوبيه . وقال الحسن يصف مثل هذا الغلام :

يأيها المبطلونَ مَعْـذِرَتِى أراكم الله وجه تحقيقِ[1]
نمَّ بما كنتُ لا أبوح به على لسان بالدمع مِنْطِيقِ

(١) ديوانه ٨٩ ، وفيه : «وجه تصديق» والقصيدة يمدح فيها العباس بن الفضل بن الربيع

شوقاً إلى حسن صبورة ظفرتْ ... من سلسبيل الجنان بالرِّيقِ[1]
وصيفُ كأسٍ محدّثٌ مَلِكٌ ... تيه مغنّ وظَرْف زنديقِ
يشوبُ عِـــزًّا بذلّةٍ فله ... ذلُّ محبٍّ وزهو معشوقِ
أمشى إلى جنبـــه أزاحمه ... عَمْداً وما بالطريق من ضيقِ

ومن مدحها :

وإن عبّاساً مثل والده ... ليس إلى غاية بمسبُوقِ
تأنّق الحسن حين زانكما ... ففقتما النّاس أىّ تأنيقِ[2]
فصُوِّر الفضل من حجاً وندًى ... وأنت من حكمةٍ وتوفيقِ

وله أيضاً :

ترى للحسنِ والحركات فيه ... سَواماً لا تُذَاد عن القلوبِ
فيامَنْ صِيغ من حسنٍ وطيبٍ ... جَلّ عن المُشاكل والضَّريبِ
أصبنى منك يا أملى بذنبٍ ... تتيه على الذُّنوب به ذنوبِ

قوله: سراط ، أى طريق . والسَّقْر من الجوارح : التى يُصْطاد بها . السَّوِيق: الشعير إذا قُلِىَ وطُحِن . حَبْقة : ضَرْطة . عين بقّة ، يقال : ذلك للصغير . دَغْفل : اسم رجل كان نسّابة، والدَّغفل. ولد الفيل ، والدَّغفل :الزمن الخصيب، فسُمِّىَ الصبىّ بأحدها . والزَّنْفل ، من أسماء الداهية . والبَيْضة : بَيْضة النَّعام، وجعلها فى رَوْضَة ، يريد أنها مصونة منعّمة ، وتشبيههم للنساء بهذه البَيْضة مشهور فى شعر امرئ القيس وغيره . وقيل للأوسيَّة — وهى امرأة حكيمة من العرب — بحضرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه: أىّ منظر أحسن ؟ فقالت: قُصُورٌ بيض فى حدائق خضر ، فأنشد رضى الله تعالى عنه لعدىّ بن زيد :

(١) الديوان : « أثرت » .
(٢) رواية الديوان :
تأنّق اللهُ حينَ صاغكما ... لأن تفُوقا فأىُّ تأْنيق

كَدُمَى العاج فى المحارِب أو كالـ ـبيض فى الرَّوض زهْرُه مستنير[1]

قوله : لاصَمّ صَداك ، أى لاهلكتَ ، فلا يكون لك صوت .

وقال امرؤ القيس فى الدار الخالية :

صَمَّ صَدَاها وَعَفَا رسمُها واستعجمتْ عن منطقِ السَّائلِ[2]

والصَّدى : الصوت الذى يجيبك من الجبل ، أو من الموضع الخالى ، والصَّدى : طائر يخرج من رأس المقتول ، فلا يزال يصيح : اسقونى اسقونى ، حتى يُقتَل قاتله على زعمهم . ولاصمّ صداك ، دعاء بطول العمر ، لأن الصدى تابع للصوت ، فإذا مات الإنسان انقطع صوتُه ، فلا يُسمع له صدى ، فكأنّ صداه بعد موته أصمّ لا يسمع ولا يجيب . ما استرشد ، أى ما طلب مَنْ يرشده ويدلّه .

* * *

فطرب الشيخُ لما أدّاه ، ثمّ عَوّذَهُ وفَدّاه ، ثمّ قال : هلمّ يا قَعْقَاع ، يا بَاقِعَةَ الْبِقَاع . فأقبل فتًى أحْسَنُ من نارِ القِرَى ، فى عينِ ابن السُّرَى ، فقال له : اصْدَعْ بتمْيِيزِ الظَّاء من الضّاد ، لتصدَع به أكْبَادَ الأضْدَاد ؛ فاهتزّ لقوله واهتشّ ، ثم أنشد بصوتٍ أجشّ :

أيّها السّائلى عن الضّاد والظّا ءِ لكيلاَ تَضِلَّه الألفاظُ

إن حفظ الظاءاتِ يُغْنيك فاسْمَعْـ ـها اسْتِمَاعَ امرئٍ له اسْتِيقاظُ

هى ظَمياء والمظالمُ والإظْـ ـلاَمُ والظَّلْمُ والظُّبَى واللَّحاظُ

والْعظا والظَّليمُ والظَّبْىُ والشَّيْـ ـظَمُ والظِّلُّ واللَّظى والشُّوَاظُ

والتَّظنّى واللّفظ والنَّظْم والتَّقْـ ـرِيظُ والْقَيْظُ والظَّمَا واللَّمَاظُ

(١) شعراء النصرانية ٤٥٥ (٢) ديوانه ١١٩

رفع المسهم

والحِظاَ والنَّظِيرُ والظِّئر والحَا حظَ والناظرُون والأَيْقاظُ
والتَّشَظِّى والظِّلْفُ والعَظْم والظِّنْـبُوبُ والظَّهْر والشَّظاَ والشِّظاظُ
والأظافيرُ والمظفَّر والمحْـظُورُ والحافِظُون والإحفاظُ
والحِظيراتُ والمِظنّة والظِّنَّـة والكاظِمُون والمُغْتاظُ
والوظيفات والمواظب والكِظَّـةُ والإنتظارُ والإلظاظُ
ووظيفٌ وظالعٌ وعظيمٌ وظهيرٌ والفَظّ والإغْلاظُ
ونظيفٌ والظَّرف والظَّلَف الظَّا هر ثم الفِظيـع والوُعّاظُ
وعكاظٌ والظَّعْن والمظّ والحَنْـظل والقَارِظانِ والأَوْشاظُ
وظرابُ الظِّرّان والسَّظَفُ الْبَا هِظُ والجَعْظَرِىّ والجَوّاظُ
والظَّرَابينُ والحَناظِبُ والعُنْـظُبُ ثمّ الظَّيّانُ والأَرْعاظُ
والشَّناظِى والدَّلْظُ والظَّأْبُ والضَّبْـظَابُ والعُنْظُوَانُ والجِنعاظُ
والشّناظِيرُ والتَّعاظُل والعِظْـلِمُ والبَظْرُ بَعْدُ والإنعاظُ
هى هذى سوى النّوادِر فاحْفَظْـهَا لِتَقْفُوَ آثارَك الحفّاظُ
واقْضِ فيما صرفت منها كما تَقْـضِيهِ فى أصِله كقَيْظٍ وقاظُوا

* * *

أدّاه : أبلغه ، تقول : أدّيتُ الأمانة ، إذا بلّغتَها صاحبها . عوّذه : قرأ عليه المعوّذتين . وفدّاه : قال : نفسى فداؤك . قعقاع : شديد الصوت ، والقعقعة ، صوت متتابع . والبَاقعة : الداهية . والبِقاع : جمع بُقْعة ، قطعة من الأرض

لِقِرَى : طعام الضيف . ابن الشّرى ، هو الطارق بالليل ، وقد تقدّم ذكر هذه النار عند قوله:

فلم أزل أنصّ عنسى وأقول : طوبى لك ولنفسى

وهم يضربون المثل بها وحدها فى الحسْن فيقولون : هو أحسن من النّار ، فكيف إذا كان إنسان مع ظلام الليل فى ريح وبَرْد وجوع ، لا يدرى أين يتوجّه ، فرأى ناراً قد أُوقِدَتْ لِقِرى الأضياف ، فلا يقدِر قَدْرَ حسنها إلا مَنْ جَرّبها .

وقالت أعرابية : كنت فى شبيبتى أحسنَ من النار .

وأنشد التوّزى ملغزاً فى النار :

وشعثاء غبراء الفروع كأنما بها تُوصَفُ الحسناء بل هى أجملُ
دعوتُ بها صحبى بليلٍ كأنّهُمْ وقد أبصروها يعطشون فأنهلوا

فهذا مثل الّذى ذكره الحريرى .

وقال الآخر يصف ناراً :

ومشبوبةٍ لا يَقْبِس الجار ريَّهَا ولا طارق الظلماء منها يؤنَّسُ
متى ما يزرها زائر يُلْفِ دُونها عَقيلة دارىّ من المسك تفرَسُ

وأنشد أبو زيد فيها ملغزاً :

وزهراء إن كفَّفْتَهَا فهو عيشُهَا وإن لم تكفِّفْهَا فموتٌ معجَّلُ

وكان الحسن بن وهب أشدَّ النـاس عشقاً لنبات جارية محمد بن حماد ، وكانت تغنّى فى مجلسه ، وبين يديها كانون فحم ، فتأذّت بالنار ، وأمرت بإبعادها ، فقال الحسن مرتجلا :

رفع المسهم

بأبى كرهت النَّارَ لمَّا أُوقِدَتْ فعرفتُ ما معناكِ فى إيعادها
هى ضُرَّةٌ لك بالتِماع ضِيائِهـا وبحسن صـورتها لَدَى إيقادها
وأرى صنيعَك فى القلوب صنيعَها بأرَاكها وسَيَالهـا وقَتَادِها
شركتْك فى تلك الجهات بحسْنها وضيائها وصـلاحِها وفسادِها

وكان مع أصحابه يوماً ، فقال : لو ساعدنا الزمان لجاءتنا نبات ، فما تكلّموا بشىء حتى دخلت ، فقال : إنى وإياكِ لكما قال علىّ بن أمية :

وفاجأتنِي والقلبُ نحوكِ شاخصٌ وذكراك مابين اللِّسان إلى الْقَلْبِ
فيافرحةً جاءت على إثْرِ ترحة ويَا غَفْلَتِى عنها وقد نزلت قربِى

ودخلت عليه يوماً وهو محموم ، فسلّمتْ وقبّلت يده ، فأراد تقبيل يدها فأرْعِش وقال :

أقول وقد حاولتُ تقبيلَ كفِّها ولى رعـدةٌ أهتزُّ منها وأسكنُ
فديتكِ إنّى أشجع الناس كلِّهِمْ لدَى الحرب إلَّا أننى عنك أجبُنُ

قوله : اصدع ، أى بيِّنْ وأظهر . تصدع : تشق . الأضداد : الأعـداء . أجشّ : أبح . تضلّه : تضيّعه وتتلفه . استيقاظ : انتباه . ظمياء : عطشى .

الأزهرى : شفة ظمياء ، ليست بوارمة كثيرة الدم ويحمَد ظمؤها ، ولِثةٌ ظمياء ، ورجل أظمى ، وامرأة ظمياء ، وقيل : شفة ظمياء ، إذا كانت فيها سُمْرة . وساق ظَمْياء : قليلة اللحم . والظَّلْم ، بالفتح : ماء الأسنان ، وقيل : بريقها وصفاؤها ، والجمع ظلوم . واللَّحاظ : طرف العين الّذى يلى الصّدغ . العَظَاء : جمع عَظَاية ، وهى دويبّة حمراء إلى الغبرة ، ذات قوائم أربع . الظَّليم : ذكر النعام . الشَّيظم : الطويل . اللَّظى : النار . والشُّوَاظ : لهبها بغير دخان . التّظنّى : مصدر تظنَّيت أى حسبت ، والأصل تظنّنت بالنون ، فأبدلت ياء . والتقريظ : مدح الرجل

حيًّا . والقيظ : فصل الحرّ . والظَّمأ : العطش . واللَّماظ : الشيء اليسير من الطعام وقد تلمَّظت ، إذا تتبعت بلسانك بقيَّة الطعام بعد الأكل ، واسم تلك البقية اللُّماظة ، وقيل : التَّلمظ هو لَعْق الشفتين باللسان من عطشٍ أو غيظٍ . الحظا : انتفاخ اللحم . النَّظِير : المثل . الظِّئر : المرضع بالأجرة . الجاحظ : الذى بَرَزَتْ عيناه . الأيقاظ : ضدُّ النِّيام ، الواحدَ يَقِظ بضم القاف وكسرها . قوله : القَشَظِّى : أن تصيِّر العودَ فلقاً ، والشَّظية : الفِلْقَة منه . والشَّظى : عظم لاصق بالركبة ، وقيل هو تشقّق عصب الذراع . والظِّلْف للغنم والبقر بمنزلة الحافر للدَّواب ، وكل حافر مشقوق ظِلْف . الظُّنبوب : مقدّم عظم الساق . والشَّظاظ : عود الشِّداد ، الذى يشدّ به المتاع ، وقيل : هو عود يدخل فى عُرَا الغِرَارتين فيحملان به على ظهر البعير . المظفّر : المؤيد . المحظور : الممنوع . الإحفاظ : الإغضاب . الحظيرات : جمع حظيرة ، وهى الزَّرْب يُعمل منه شبه الدار ، تسكنها الغنم والإبل ، وقد يكون من حائط ، وأصل الحظْر المنع ، وكلّ مانع بين شيئين حَظِير . والمظنّة : الموضع ترْمى فيه بظنّك ، وفلان مظنّة خير ، أى يُظنّ فيه الخير . والظنّة : التهمة . الكاظمون : المتجرِّعون غيظَهم ، وقد كَظَم غيظَه ، تجرَّعه وردّه . الوظيفات : جمع وظيفة وهى ما يلزمك من المغرَم . المواظب : الملازم ، وقد واظبت على الشيء ، داومت عليه . الكِظَّة : الامتلاء من الطعام ، والإلظاظ : اللزوم . الوظيف لكل ذى أربع : ما فَوْق الرُّسغ إلى الساق . والظالع : الأعرج . والظَّهير : القوىّ الظهر ، وهو أيضاً المُعين . والفَظّ : الغليظ ، والفظاظة : الجفاء والغِلْظة . والإغلاظ : الجفاء . والتَّظيف : النَّقِىُّ الحَسَن . والظَّلَف : المنع والردّ ، وقد ظلفتَ أثرى ظلَفاً ، إذا مشيتَ فى حُزونة الأرض وصلابتِها فمنعتَ أثرك أن يؤثر فيها . والقظيع : الكريه المطعم ، وقد قَظُع الشيء ، اشتدت كراهيتُه ومرارته . عُكاظ : موسم للعرب . الظعن : السفر . الحنظل : شجر مرّ ، والباهظ : الغالب . والبَظْر : زيادة فى فَرْج المرأة ، ورجل أبظَر : فى

شفته العليا نتوء ، وامرأة بظراء ، والأول راجع إلى هذا المعنى . الإنعاظ : قيام الذكر . النوادر : الغرائب والشواذ . تقفو : تتبع . قيظ : شدّة الحرّ ، وقاظوا : دخلوا فى زمن القَيْظ .

* * *

فقال له الشيخ : أحسنْتَ لا فَضَّ فُوك ، ولا بُرَّ مَنْ يحفوك ، فوالله إنّك مع الصِّبا الغضّ ، لأحفظُ من الأرض ، وأجمعُ من يوم العرض ، ولقد أوردتُكَ ورفقتك زُلالى ، وثقّفْتُكَمْ تثقيفَ العوالى ، فاذكرونى أذكركمْ ، واشكُروا لى ولا تكفُرون .

قال الحارث بن همام : فعجبتُ لما أبْدَى من براعَهْ ، معجونةٍ برقاعة ، وأظهر من حَذَاقة ، ممزوجةٍ بحماقة ؛ ولم يزل بصرى يصعّد فيه ويصوّب ، وينقّر عنه وينقّب ، وكنت كمن ينظر فى ظَلْماء ، أو يسرى فى بهماء ؛ فلمّا استراثَ تنبّهى ، واستبان تَدَلُّهى ، حملق إلىّ وتبسّم ، وقال : لم يبق من يتوسّم . فبُهْتُ لِفَحْوَى كلامِه ، ووجدتُه أبا زيدٍ عند ابتسامِه ، فأخذت ألومه على تدَيُّرِ بقعة النوكى ، وتخيّر حِرفة الحمق ، فكأنَّ وجهه أُسِفَّ رماداً ، أو أشرِبَ سواداً ، إلا أنه أنشد وما تمادَى :

تخيرّت حِمْص وهذى الصِّناعَهْ ... لأُرزَق حُظْوَةً أهـل الرَّقاعَهْ

فما يصطفى الدهرُ غير الرقيع ... ولا يوطِن المالَ إلّا بقاعَهْ

ولا لأخى اللُّبِّ من دهره ... سوى ما لعَيْرٍ ربيطٍ بقاعَهْ

* * *

فضّ : كسر . يجفوك : يغلظ لك فى الكلام . الغضّ : الطرىّ . يوم العرض : يوم القيامة ، ولما أشار مِنْ أوّل على أكبرهم ، انحطّ فى أسنانهم إلى أصغرهم ، فختم به كما بدأ بأكبرهم ، فلذلك قال : مع الصبا الغضّ .

مما قيل فى الصغار]

ومما قيل فى الصغار من الشعر المستحسَن ، قال أبو الفضل الدرامى وقد سأله الثعالبى أن يصفَ له غلاماً صغيراً ، بديع الحسن ليثبت ذلك فى كتابه المترجم بألف غلام ، فأنشد :

إنّى عشقتُ صغيراً قد دبّ فيه الجمالُ
وكاد يفشى حديثَ الـ ـفُضول فيه الدّلالُ
لو مرّ فى طرق الوصْـ ـلِ ما اعتراه الضّلالُ
يريك بدراً منيراً فى الحُسْن وهو هِلالُ

قال لحسن :

حين أوفى على ثلاث وعشرٍ يَطُلْ عهد أذنه بالشُّنُوفِ
غنة فيه للصبا تَعْتليه بحّةُ الاحتلام للتشريفِ
حين رام النِّساء منه بعينٍ وطوى أختها على التخويفِ

وقال آخر :

لئن يزيد على عشرٍ بواحدة وزاد أخرَى وشاب الحبّ بالجَزَعِ
وجاوب اللّحظ منه لحظَ عاشقه وجوّز الوعد بين اليأس والطمعِ
قد كان غِرًّا بقتلى ليس يُحْسِنهُ فاليوم يبدِع فى قتلى على البِدَعِ

وقال آخر :

قالوا أتبكى على صغيرٍ خصصتَه بالوداد طِفْلَا
فقلت إن البنان خمس أصغر ما بينها يُحْلَى

ولابن إدريس اليمانى :

عشقته شادناً صغيراً وكنت لا أعشق الصِّغارا
أعارنى سقْمَ ناظريه فاستشرفَتْ نفسُه حذارا
يُسفر عن وجه مستنير يردّ جُنْحَ الدُّجى نَهارا
لم أر من قبل ذاك نُوراً أضرمَ فيه الحياء نارا

ولابن شهيد[1] :

راقنى من شيمه برقٌ بدا أمسنا المحبوب أوْرَى أزْنُدَا
هبَّ من نَعْسَتِه منكسراً مُسبَل الكُمّين مُرْخٍ للرِّدَا
يمسح النَّعسة من عَيْنَىْ رشاً صائدٍ فى كلّ يوم أسْدَا
قلتُ هب لى يا حَبيبِى قبلةً تَشْفِ من حبّك تبريح الصدَى
فانثنَى يهتز من منكبه قائلا : لا ، ثم أعطانى اليَدَا
قال لى يلعب : صِدْ لِى طائراً فترانى الدّهر أجرى بالكُدَى
وإذا استنجزتُ يوماً وعدَه قال لى يمطل : ذكّرنى غدَا
شربتْ أعطافه خمرَ الصبا وسقاه الحسن حتّى عَرْبَدَا

ورأى الحَسَن غلاماً فى المكتب فأشار إلى تقبيل يده فقبّله فقال :

ظفرت بقبْلةٍ منه على عينى معلِّمْهْ
أشرتُ بها إلى يده فأوصلها إلى فَمِهْ

وقال الحُلْوانى :

تعرَّضْتُ مَنْ شَغَفَنِى هجرُه ببدء سلام عليه شِفَاهَا

(١) ديوانه ١٠٣ .

وقلت عساه يردُّ السّلام فتبلغ نفسى منـــه مُناهَا
فجاد علىّ بتقبيـــلةٍ وقد كان أعرض عنّى وَتاهَا
وكنت كموسى أتى للضياء لقبس نارٍ فناجى إلهـــا

وكتب الحسن لغلام كاتب يستعطفه ، فوقّع الغلام فى كتابه : « تزاد هجراً إلى يوم الحساب » فقال الحسن :

كتبت إلى الحبيب ببيت شِعْرٍ أعاتبه فأغضبه كتابى
أجبنى يا ملولُ على كتابى فإنّ النّفْس تسكن بالجوابِ
فوقّع فى الكتابِ : يزاد هجراً وإبعـــاداً إلى يوم الحسابِ

وقال ابن رشيق فى محبوبه الصائغ :

وظبيٍ من بنى الكتّاب يَسْبِى قلـــوبَ العاشقين بمقلتيْهِ[1]
رفعت إليه أستقضى رضاه وأسأله خلاصاً من يديْهِ
فوقّع : قد رددت فؤاد هذا مسامحةً فلا يُعْدَى عليْـــه

وناوله يوماً تفاحة فقال :

وتفاحةٍ من كفّ ظبىٍ أخـذتُها جَناها من الغصن الّذى مثلُ قَدِّهِ[2]
لها لمسُ ردفيْه وطيبُ نسيمه وطعم ثناياه وحُمْرَة خـــدِّه

ولابن فرج :

ومن ينظر إلى خـدّيك يحكمْ على ورد الحـــدائق للخدودِ
وما اهتزّتْ غصون الرّوض إلا تمنّتْ حُسْنَ قدّك فى القُـدُودِ

---

(١) التنف ٨٦
(٢) التنف ٢٨

رفع المسهم

وقال مسلم بن الوليد :

تفاحـــة شاميّةٌ من كفِّ ظَبْيٍ غَزِلِ
ما خلقت مذ خلقتْ تلك لغير القبَـــلِ
كأنّما حمرتها حُمرة خـــدٍّ خَجِلِ

وقال آخر فى ضدّ ما تقدّم :

فديتك لا تخفْ منّى سُلُوًّا إذا ما غـيّر الشعر الصِّغَارَا
أدين بدنّ خـلٍّ كان خمراً وأهوى لحيةً كانت عِذَارَا

وقال ابن المعتز فى مثله :

مَنْ مُعِينى على السَّهَرْ وعلى الحبِّ والفِـكَرْ
ويل ما بى من شادنٍ كِبَرَ الحبُّ إذ كَبِرْ

قوله: زُلالى ،أى خالص علىّ ،والزُّلال : الماء العذب الصافى . ثقّفتكم : قوّمتكم. العوالى : صدور الرِّماح . براعة : فصاحة . الحِذاقة : المهارة فى كلِّ عمل ، وهى الحِذْق ، وأصله القَطْع ، كأنّ الحاذق يقطع الأمور المشكلة بعقله ، وحذق الصبىُّ القرآن : قَطَعه حفظاً . الرَّقاعة : الحماقة ، رَقُعَ رقاعة فهو رقيع . يصعِّد : يرفع نظره . يصوِّب : ينظر فى اعتدال واستواء . ينقِّر : وَ ينقِّب : يفتش . بَهْمَاء: أرض مجهولة . استراث : استبطأ . تَدَلُّهى : تحيرى ، ودلَّه الحب : حيَّره وأدهشه . تحملق : نظر بحملاقه ، وهو باطن جفنه ، وهو نظر المغضَب . يتوسَّم: يحسن النَّظر والميْز . بُهْتُ : فطنت، وفى الحديث « ربَّ ذى طِمْرين لا يؤبه له » ، أى لا يفطَن له لذلّته ، وتأبّه فلان : تـكبّر ، وإنه لذو أبّهة، أى ذو كِبْر ونحوه . الفنجديهى : رأيت بخط الحريرىّ : يقال : أبَّهْتُ له وأبهت وبهّت له بمعنى ،

قال يعقوب . تقول : ما بهت له ، وما بهت به وما أو بهتُ له ، وما بهأت له : ما فطنت له . فَحْوَى : معنى . عند ابتسامته ، قد تقدّم وصفه بالقَلَح ، يريد لمّا ابتسم ورأى قَلَحه عرفه . تدبّر بُقْعة النوكى ، أى اتّخاذه حمص داراً ، وجعلهم نَوْكى لرقاعتهم ، والنَّوْك : الحمق . حِرْفة : صنعة . أُسِفّ رماداً ، أى تغيّر فكأنه ذرّ عليه الرماد . وأسفّ الجرحَ الدواء أى حشاه به . ما تمادى ، أى مادام ولا بقى على غضبه ، وتمادى فى الشىء : لَجَّ فيه . حظوة ، أى منزلة . يصطفى : يختار . يوطن : يسكن . بقاعه : منازله ، وهى جمع بُقْعة . أخى اللّب : صاحب العقل . عَيْر : حمار . قاعة : انخفاض ، أى ليس للإنسان من دهره إلاّ ما أكله .

* * *

ثمّ قال : أمّا إنّ التعليم أشرفُ صناعة ، وَأَرْبَحُ بِضاعة ، وأنجح شَفاعة وأفْضَلُ بَراعة ، وربُّه ذو إمْرَةٍ مطاعة ، وهيبةٍ مُشاعة ، ورِعْيَةٍ مِطْواعة ، يَتَسيْطر تسيْطُرَ أمير ، ويرتِّبُ ترتيبَ وَزِير ، ويتحكّم تحكّمَ قَدير ، ويتشبّه بذى مُلْكٍ كبير ، إلّا أنه يَخْرَفُ فى أَمَدٍ يسير ، وَيتّسِمُ بجُمْقٍ شَهير ، ويتقلّب بعقلٍ صَغير ؛ ولا ينبّئك مثلُ خَبير ؛ فقلت له : تاللهِ إنّك لابنُ الأيّام ، وعَلَمُ الأعلام ، والسّاحِرُ اللّاعِبُ بالأفهام ، المذلَّلُ له سبُلُ الكلام . ثمّ لم أزل مُعْتكفاً بنادِيه ، ومُغْترفاً من سَيْلِ وَادِيه ، إلى أنْ غابت الأيّام الغُرّ ، ونَابَتِ الأحداثُ الْغُبْر ، ففارقته ولعينى الْعُبْر .

* * *

قوله أنجح ، أى أنفع وأسرع لقضاء الحاجة . أمْرَةٌ مطاعة ، العرب تقول: لك علىّ أمرة مطاعة ، بفتح الألف ، أى أمرةٌ أطيعك فيها . وحكى الفرّاء كسرها على ضَعْف ، والفتح أفصح ، والأمرة بالفتح : المرة الواحدة من الأمر ، وبالكسر الإمارة والولاية . مُشاعة : فاشية . يتسيطر : يتسلّط . يخْرَف : يَهْرِم . يتَّسِم : يجعل لنفسه سِمة ، أى علامة الحمق .

ومما قيل فى المعلم وتفضيله على الوالد ، أنشد الماوردى :

يا فاخراً للسَّفاه بالسَّلف ... وتاركاً للعلاء والشرفِ
آباء أجسادنا هُمُ سببٌ ... لأن جُعِلنا عوارض التلفِ
مَنْ علَّم الناس كان خير أبٍ ... ذاك أبو الروح لا أبو النُّطَفِ

أخذه من قول الإسكندر ، وقيل له : ما بال تعظيمك لمعلمك أشدُّ من تعظيمك لوالدك ؟ فقال : إن أبى سبب حياتى الفانية ، ومعلّمى سبب حياتى الباقية .

ولبعضهم :

إنَّ المعـــلم والطبيبَ كلاهما ... لا يَنْصحان إذا هما لم يُكْرَما
فاصبر لدائك إن جفوتَ طبيبَه ... واصبر لجهلك إن جفوتَ معلِّما

جاء فى الحديث « يُجاء بالمعلم يوم القيامة ووجهه عَظْم لا لحم عليه » . قال عطاء : الذين يأخذون على القرآن أجْراً . ابن الأيام : الخبير بها والبصير بحوادثها . علم الأعلام : أشهر المشاهير . الأفهام . جمع فَهْم ، أراد اللّاعب بالأذهان والعقول . سُبُل : طرق . معتكفاً بناديه : ملازماً لمجلسه . مغترفاً من سيل واديه : آخذاً من بَحْر علمه . الغرُّ : البيض الحسان . نابت الأحداث الغُبْر : رجعت النوازل الشداد التى تغبِّر الأرض من شدّة قحطها . لعينى العُبْر ، أى سخنة الدمع لحزنه . واستعبر : بكى . والله تعالى أعلم .

المقامة السابعة والأربعون وهي الحجرية

حكى الحارثُ بن هَمَّام : قال : احتجتُ إلى الحِجامَةِ ، وأنا بِحَجْرِ اليَمامة ، فأُرْشِدْتُ إلى شَيْخٍ يَحجُمُ بلطافة ، ويُسْفِرُ عن نَظَافة ؛ فبعثتُ غلامِي لإحضاره ، وأرْصَدْتُ نَفْسِي لانتِظَارِه . فأبْطأ بَعْد ما انْطَلَق . حتى خِلْتُه قد أَبَق ، أو رَكِبَ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ . ثم عَاد عَوْدَ المُخْفِق ، مَسْعَاه . الكَلُّ على مَوْلَاه ، فقلتُ له : ويلك ! أَبُطْءٍ فِنْد . وصُلُودَ زَنْد ! فزعَم أنَ الشَّيْخَ أَشْغَلُ من ذاتِ النِّحيَين ، وفى حَرْبٍ كحربِ حُنَيْن ، فعمتُ المَمْشَى إلى حَجّام ، وحِرتُ بين إقدامٍ وإحْجَام ؛ ثم رأيتُ ألاَّ تَعْنِيف . على مَنْ يأتى الكَنِيف .

* * *

قوله : احتجتُ للحِجامة ، وأنا بِحَجْرِ اليَمامَة . أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « خير ما تداويتم به الحجامة والشُّونيز والقُسط » .

القسْط : عودٌ يجاء به من الهند ، يُجعل فى الدّواء والبخور .

وروى ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « خيرُ يوم يُحْتَجَم فيه سبعة عشر وتسعة عشر وأحد وعشرون ، وما مررتُ بملأ من الملائكة ليلةَ أُسْرِىَ بى إلاّ قالوا : عليك بالحِجَامة يا محمد » .

وقال عبدُ الله بن عمر رضى الله عنهما : لقد تبيّغ[1] بى الدّم يا نافع ، ادْعُ لى حجّاماً ، ولا تجعله شيخاً كبيراً ، ولا صبيًّا . ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله

(١) البيغ : ثوران الدم .

رفع المسهم

عليه وسلم يقول : « الحجامة على الرّيق أمْثَلُ ، فيها شفاء وبَرَكة ، تزيد فى العقل والحفظ ، وتزيد الحافِظَ حفظاً ، فمن احتجم فيومَ الخميس والأحـــد والاثنين والثلاثاء ، فإنه يومٌ رفع الله فيه البلاء » .

عن أيوب عليه السلام ، وأصابه [مرض] يوم الأربعاء : لا يبدأ جذام أو برص إلا فى يوم الأربعاء أو ليلته .

حَجْر : قصبة . اليمامة : يأتى ذكرها فى الخمسين إن شاء الله تعالى ، وهى بلدة كبيرة كثيرة النخل ، وسكنتْها حَنيفة ، وهى بلدة مسيلمة الكذاب الحنفىّ ، وبها تنبّأ وآمن به أهلُها ، وهى « فَعالَة » من اليَمَم ، وهو طائر ، أو من يَمَّمتُ الشىء إذا تعمّدتَه . من الأمام ، بمعنى قدّام ، وأبدلت الهمزة ياء لمّا دخلتْها الهاء ، وأقرب المدن منها البصرة .

يُسفر : يكشف . نظافة : صقالة وحسن . أرصدت : أعددت . أبَق : هرب . طبقاً عن طبق : حالاً عن حال ، وأمراً عن أمر . المخفِق : الخائب . مسعاه : سعيه . الكَلّ على مولاه : الذى لا ينفعه بشىء ، ولا يكفيه أمرَ نفسه ، والكَلّ : الثقيل الروح . قوله : صُلود زَنْد ، هو ألّا يسمح الزّند بالنار . حُنَين : موضع وقعة مشهورة ، كانتْ بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين هوازن ، هُزِمت فيها هوزان ، وسُبِيَتْ أموالهمُ وعيالُهم ، وقُتِل فيها دُرَيد بن الصّمة كافراً . عِفْت : كرهت . الإقدام : الجُرأة والترامِى . والإحجام : الرجوع إلى خَلْف ، أراد أنه ردّد رأيه : هل يأتيه أم لا ؟ والتَّعنِيف : العتب . والكنيف : المرحاض .

[حكاية ظريفة تَجْمع أسماء المرحاض]

ونذكر هنا حكاية ظريفة تجمع أسماءه . رحَل رجلٌ من الكوفة إلى ابن عمٍّ له من بنى هاشم بالمدينة ، فأقام حوْلاً عنده ، لا يدخل مُستراحًا ، فلما أراد

الرجوع إلى الكوفة ، قال ابنُ عمّه لقينتين له : أما رأيتما ظَرْفَ ابن عمّى ، أقام حولاً عندنا لم يدخل الخلاء ، قالتا : فعلينا أن نصنع له شبثاً لا يجد معهُ بُدًّا من الخلاء ، قال : شأنكما ، فعَمَدتا إلى حشب العُشَر ، وطرحتاه فى شرابه وهو مسهّل ؛ فلما حضر وقت شرابهما قرّبتاه له وسقتا مولاها من غيره ، فلما أخذ الشراب منهما تناوم مولاها ، ومَغَص الفتى من بعده ، فقال لإحداهما : يا سيدتى ، أين الخلاء ؟ فقالت لها صاحبتها : ما يقول لك ؟ قالت : يسألك أنْ تُغنّيه :

عَفَا من آل فاطمـة الجِوَاءُ ... فمنزل أهلها منها خَلَاءُ

فغنّته ، فقال : أظنّهما كوفيتين ، فقال الأخرى : يا سيدتى أين الحشّ ؟ فقالت لها صاحبتها : ما يقول لك ؟ قالت : يسألك أن تغنّيه :

* لقد أوحش الرَّيانُ فالدّيرُ منهما *

فغنّته ، فقال الفتى : أظنّهما عراقيّتين ، وما فهمتا عنى ، فقال للأخرى : يا سيدتى ، أين المتوضّأ ؟ فقالت لها صاحبتها : ما يقول لك ؟ قالت : يسأل أنْ تغنّيه :

توضّأْ للصّلاة وصَلِّ خمساً ... وأذِّن بالصّلاة على النبىِّ

فقال : أظنّهما حجازيّتين ، وما فهمتا عنى ، فقال لإحداهما : يا سيدتى ، أين الكنيف ؟ فقالت لها صاحبتها : مايقول لك ؟ قالت : إنه يسألك أن تغنّيه :

تَكنّفنى الواشُونَ من كلِّ جانبٍ ... ولو كان واشٍ واحدٌ لكَفَانِى

فغنّته ، فقال : أظنّهما تهاميّتين ، فقال للأخرى : يا سيدتى أين المستراح ؟ فقالت لصاحبتها : ما يقول لك ؟ قالت : يسألك أن تغنّيه :

تَرَكْ الفُكاهة والمُزاحَا ... وقلّى الصّبابة فاستراحَا

رفع المسهم

فغنّته ، والمولى يسمع ، فلما كَرَبه الأمر أنشأ يقول :

تكنّفنى المِلاحُ وأضجَرُونى ... على ما بى بتكرير الأغانى
فلما ضاق عن ذاك اصطبارى ... ذرقتُ به على وجه الزوانى

ثم حلّ سراويله ، وسلّح عليهما ، فتركهما آية للناظرين . وانقلب مولاهما ، فلما رأى ما نزل بهما ، قال له : يا أخى ما حملك على هذا ؟ قال له : يا بن الزانية ، لك جوارٍ يرين المخرجَ صراطاً مستقيماً فلا يدْلُلْنَنى عليه ، فلم يكن لهنّ جزاء عندى غير هذا ، ثم رحل عنه .

فيقول أبو محمد : لا بأس للإنسان أن يأتىَ المواضع الخسيسة عند الضرورة ، وأصل الكنيف الساتر .

* * *

فلما تشهدتُ موسِمَه ، وشاهدْتُ مِيسَمَه ، رأيتُ شيخا هيئته نظيفة ، وحركته خفيفة . وعليه من النّظارة أطْوَاق ، ومن الوَحام طِباق . وبين يديه فتًى كالصَّمْصَامة ، مُسْتَهْدِفٌ للحجامة ، والشيخ يقول له : أراك قد أبرزتَ راسَك ، قبل أن تُبْرِزَ قِرْطاسَك ، وولّيتَنى قَذالك ، ولم تقل : لى ذا لكَ ، ولستُ ممّن يبيع نَقْداً بدَيْن ، ولا يَطْلُب أثراً بعد عَيْن ، فإنْ أنتَ رَضَخْتَ بالعَيْن ، حُجمتَ فى الأخْدَعَيْن . وإنْ كُنْتَ تَرَى الشّحّ أوْلَى ، وخَزْنَ الفلْسِ فى النَّفْس أحْلَى ، فاقْرأ عَبَسَ وتولّى ، واغْرُبْ عَنّى وإلّا ؛ فقال الفتَى : والّذى حَرَّم صَوْغَ المَيْن ؛ كما حرّم صَيْد الحَرَمَيْن ؛ إنى لأفلَسُ من ابن يومين ، فثِقْ بسيْلِ تَلْعتى ، وأنظِرْنى إلى سَعَتِى .

* * *

موسمه : مجتمعه وسوقه . مِيسَمَه : علامته . النظارة : الناس الناظرون . أطواق : أى حلقةٌ خلف حلقة ، قد استداروا حوله . والطِّباق : الذى طُوبق ، فجُعِل بعضُه على بعض ، شبَّه به ركوبَ بعضِ النَّاس بعضاً .

[الصمصامة]

والصَّمصامة : سيف عمرو بن معد يكرب ، وكانت تقطَع الحديد كما يَقطَع الحديدُ الخشبَ . وبعث مَلِكُ الهند إلى الرَّشيد بسيوفٍ قَلْعِيَّة ، وكلاب سَلُوقيَّة ، وثياب هندية ، فأمر الأتراك فصُفُّوا بين يديه صَفَّيْن ، قد لبسوا الحديد ، ودخل الرشيد فقال لهم : ما جئتم به ؟ قالوا : هذه أشرفُ كُسْوة بلادنا ، فأمرَ فقُطِّعت جِلالاً وبراقع لخيله ، فَكُبُّوا على وجوههم ، وتذمَّموا ، ثم قال : ما عندكم ؟ قالوا : هذه سيوف قَلْعية ، لا نظيرَ لها ؛ فدعا بالصَّمصامة ، فقُطِعت بها السيوفُ سيفاً سيفاً ، كما يُقطع الفُجْل من غير أن تثنى لها شَفْرة . ثم عرض عليهم حَدَّ السَّيف فإذا هو لا فَلَّ فيه ، ثم قال : ما عندكم ؟ قالوا : كلاب سَلوقيَّة ، لا يبقى لها كلبٌ ولا سَبُع إلاّ عقرتْه ، فأمر بالأسد فأُخْرِج إليهم ، فلما نظروا إليه هالهم ، وقالوا : ليس عندنا مثل سَبُعكم ، ثم أرسلوا عليه الأكلب — وكانت ثلاثة — فمزَّقته ، فقال : تمنَّوْا فى هذه الأكلب ماشئتم ، قالوا : السَّيف الذى قطع سيوفنا ، قال : لا يجوز فى ديننا أن نُهادِيَكم بالسلاح . فانقلبوا خائبين .

وكانت الصمصامة عند الهادى ، فدعا بها يوماً وبمكتلٍ مملوء دنانير ، وأمر الشُّعراء أن يقولوا فيه ، فبدأهم ابن يامين فقال :

حاز صَمْصامةَ الزُّبيدىّ عمرٌو من بين جميع الأنام موسى الأمينُ
سيف عمرو ، وكان فيما سمعنا خيرَ ما أُغمِدَتْ عليه الجفونُ
أوقدت فوقه الصَّواعق ناراً ثم شابت به الزَّعافَ القُيُونُ

(١) الأبيات فى ابن خلكان ٢ : ٢٠٤ ، ونسبها إلى ابن يامين البصرى ، وهى فى ثمار القلوب ٦٢١ ، ونسبها إلى أبى الهول ، وكذلك فى الحيوان ٥ : ٨٧

وإذا ما شهرتَه بهر الشَّمْـــس ضياء فلم تكد تستبينُ
يستطير الأبصار كالقبس المشـــعَلِ ما تستقرّ فيه العيونُ
وكأن الفِرِنْدَ والجوهر الجا ري على صفحتيه ماء مَعِينُ
ما يبـــالى إذا الضريبة حانت أشمالٌ سطتْ به أم يَمِينُ
وكأنّ المنونَ نِيطتْ إليـــه فهو من كلّ جانبيْه منونُ

فقال له : لك السيف والمِكْتل ، ففرّق ، المِكْتل على الشعراء ، وقال : حرمتَهم بسببي ، وأخذ من المهدىّ فى السيف خمسين ألف دينار .

وممّن أفرط فى وصف قَطْع السّيف النمر بن تولب حين قال :

أبقى الحوادث والأيام من نمرٍ أسباد سيفٍ كريم أثره بادِى
تظلّ تحفر عنه الأرض مندفناً بعد الذّراعين والساقيْن والهادِى

ويروى :

* تظلّ تحفر عنه إن ضربت به *

والأسباد : البقايا ، واحدها سِبْد ، وقال أبو الهول :

حُسام غَدَاة الرَّوْع ماضٍ كأنّهُ مِنَ الله فى قَبْضِ النّفوس دليلُ[1]
كأنّ جنودَ الذرّ كُسِّرْن فوقه قرونٌ جراد بينهنّ ذحـــولُ
كأن على إفرنده مَوْجُ لُجّةٍ تقاصرُ فى ضحضاحه وتُطـــولُ

وقال ابن الرومى :

يقول القائلون إذا رَأَوْه لأمرٍ مّا تُعوليت الدُّرُوعُ

والشعر فى وصف السيف كثير مشهور فلذلك اقتصرنا على هذه النبذة .

* * *

قوله : مسهدف ، أى منتصف ، والهُدْفُ : الْغَرَض ، وأراد بالقِرْطاس قطعةً من كاغَد توضع فيها الدرهم . الفنجديهى : القرطاس : دِرْهَمٌ مِن نُحاس ،

(١) ثمار القلوب ٦٢٣ .

وفيه شيء من الفضّة ، يتعاملون به فى الشأم . فذالك : مؤخّر عنقك وهو ما بين نُقْرة القفا إلى الأذن وجمعه قُذُل . ذا ، إشارة إلى الدرهم . نقداً : حاضراً .

أثراً بعد عين . قد تقدّم ، والعين : نفس الشيء ، وقيل : العين المعاينة ، فمعناه لا أترك شيئاً وأنا أعاينه ، وأطلب أثرَه إذا غاب . وقال الفنجديهىّ : سمعت بعضَ الفضلاء بفنجديهَة ، يقول : حكى أنّ رجلاً سُرق منه شيء ، فخرج يطلب السّارق ، فلما ظفر به أخذ يضربه ويشدّ وثاقه ، فقال له أحد أهل البلد : خَلِّ سبيله ، حتى يخرج فإن هنا أثر قدميه ، فضحك الرجل منه وقال : لا أطلب أثراً بعد عين ، فصار مثلا لمن ترك شيئاً حاصلاً ثم تبع أثره بعد فوت عَيْنه .

رضخت : أعطيت . والعين : الدراهم والدنانير . الأخدعان : عِرْقان يقع عليهما المحجمتان ، وقيل : هما فى صفحتى العنق قد خفيا وبُطِنا فلخفائهما يَخْدَعان الحاجم . خَزْن : إمساك وحبس . اغرُب : غبْ . وإلاّ ، معناه وإلاّ صفعتُ عنقك . المَيْن : الكذب . الحرمين : مَكّة والمدينة ، حرم الله تعالى بمكة وحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة . التَّلْعة : مجرى الماء من أعلى الوادى . أنظِرْنى : أخِّرْنى . سَعَتِى : غِناى .

* * *

فقال له الشيخ : وَيْحك ! إن مَثَل الوُعود ، كغرْسِ العُود ، هو بين أن يُدْرِكه العَطَبُ ، أو يُدْرَكَ منه الرُّطب ، ثم يُدْرِينى : أيحْصُلُ مِنْ عُودك جَنَى ، أمْ أحْصُل منه على ضَنَى ، ثم ما الثِّقَةُ بأنّكَ حِينَ تَبْتَعِد، ستَفِى بما تعِد ! وقد صار الغدرُ كالتحجيل ، فى حِلْيَةِ هذَا الجيل ، فأرِحْنِى باللهِ من التّعْذيب ، وارْحَل إلى حيث يَعْوِى الذّيب . فاسْتَوى الغلامُ إليه ، وقد اسْتَوْلى الخجلُ عَلَيْه ، وقال : والله ما يخيسُ بالْعَهْد ، غيرُ

الخسيس الوغد، ولا يَرِدُ غديرَ الغدر، إلّا الوضيعُ القدر؛ ولو عرفتَ مَنْ أنا، لما أسمعتني الخنا؛ لكنّك جهلتَ فقلت، وحيثُ وجب أن تسجدُ بلت، وما أقبح الغُربةَ والإقلالَ، وأحسنَ قولَ مَنْ قال:

* * *

جَنَى: ما يُجنى منه. ضَنًى: مَرَض. التَّحْجيل: بياض فى قوائم الفرس. حِلْيَة: صفة وزينة. الجِيل: أهل العصر. اسْتَوى: اعتدل قائماً. اسْتَوْلَى: غلب عليه الخجل. يخيس: يغدر، وخاس الشيء تغيّر. الوغد: الرَّذْل الساقط الخسيس الدنيء. الخنا: الفُحْش.

* * *

إن الغريبَ الطَّويلَ الذَّيْلِ مُمْتَهَنٌ فكيفَ حالُ غريبٍ مالَهُ قوتُ!
لكنّه ما تشينُ الحرَّ مُوجِعَةٌ فالمِسْكُ يُسْحَقُ والكافورُ مفتوتُ
وطالما أُصْلِيَ الياقوتُ جَمْرَ غَضًى ثمّ انطفى الجمْرُ والياقوتُ ياقوتُ

فقال له الشيخ: يا ويلةَ أبيك، وعولةَ أهليك! أأنت فى موقف فخرٍ يَظْهر، وحَسَبٍ يُشْهَر، أمْ موقف جِلْدٍ يُكْشَط، وقَفاً يُشْرَط؛ وهبْ أنّ لكَ البَيْت، كما ادّعيت، أيحصلُ بذلك، حَجْمٌ قَذالِك؛ لا والله ولو أنّ أباك أنَاف، على عَبْد مناف، أو لخالِكَ دَانَ، عَبْدُ المَدان.

* * *

الطويل الذيل: الكثير المال. تَشين: تعيب. أُصْلِي: أدخل النار. الياقوت: حجارة يتزين بها والنار لا تغيره.

ومما جاء فى معنى هذا الشعر:

رفع المسهم

إن الغريبَ ذليلٌ حيثما سلكا ... لو أنه مُلِّكَ كلَّ الورى ملكا
إذا تغنَّى حمامُ الأيك فى غُصُنٍ ... حنَّ الغريبُ إلى أوطانه فبكى

آخر :

وإذا حَلَلْتَ بدار قومٍ دارَهُمْ ... فلهم عليك تعزُّز الأوطان
فالشَّمْس تُشْرِق فى مَحِلّة كَبْشِها ... وتكون منحطّاً مع الميزان

وقال الفقيه الحافظ أبو محمد بن حزم :

لا يشمتنْ حاسدٌ إن نكبةٌ عَرَضَتْ ... فالدّهر ليس على حالٍ بمستَرِكِ[1]
فالحرّ كالتِّبر يلقَى تحت منقَعةٍ ... طوراً وطوراً يُرَى تاجاً على ملك

وقال البحترىّ فى سعيد وقد حبس :

وما هذه الأيّام إلّا مراحلٌ ... فمِنْ منزلٍ رَحْبٍ ومن منزلٍ ضَنْكِ[2]
وقد هذّبتك النائباتُ وإنّما ... صفا الذهبُ الإبريز قبلك بالسَّبْكِ

وقال أبو بكر بن دريد :

لا تحقرنْ عالماً وأن خَلُقَتْ ... أثوابُه فى عيونِ رامقِهِ[3]
وانظر إليه بعين ذى خَطَرٍ ... مهذّب الرأى فى طرائقِهِ
فالمسك إذْ ما تراه ممتهناً ... بفِهْرِ عطّارِه وساحقِهِ
سوف تراه بعارضَىْ ملكٍ ... وموضع التّاج من مفارقِهِ

وقال ابن شماخ :

نوائبُ غالتْنِى فأبدت فَضَائلى ... فكانت وكنتُ النّارَ والعنبرَ الوَرْدَا

(١) نفخ الطيب
(٢) ديوانه ١٥٦٨ وفيه : « إلا منازل »
(٣) ديوانه ٩٨

وعلى لسان عود الطيب :

إنَّ مستّ النّار جسمى أبديتُ طيبَ نسيمِى
كالدّهر إنْ عضّ يوماً أبانَ فَضْلَ كَرِيمِ

وسخط المتوكلّ على عَلِيّ بن الجهْم ، فنفاه إلى خراسان ، وكتب أن يُصْلَب إذا وردها يوماً إلى الليل ؛ فلمّا وصل إلى الشاذياخ حَبسه طاهر بن عبدالله ، ثم أخرجه فصلبه إلى الليل مجرّداً فقال[1] :

لم يصلبُوا بالشاذياخ عشية الإثنين مسبوقاً ولا مَجْهُولا[2]
نصبوا بحمد الله ملء عيونهمْ شرفاً وملءَ صدورهم تَبْجيلا
ما ازداد إلا رفعة وسعادةً وازدادت الأعداء عنه نكولا
هل كان إلا الليثَ فارق غِيلَه فرأيتَه فى مَحْمَلٍ محمولا
ما عابه أن بزّ عنه لباسُه كالسّيف أفضلُ ما يُرى مسلولا[3]

وقال فى الحبس :

قالت حُبِسْت فقلت ليس بضائرِ حَبْسِى وأىّ مهنّدٍ لا يُغْمَدُ[4]
أو مَا رأَيت اللّيث يألف غِيلَه كِبْراً وأوْباشُ السّباع تصيّدُ[5]
فالشمس لولا أنها محجوبةٌ عن ناظريك لما أضاء الفرقدُ
والنّار فى أحجارها مخبوءة لا تُصْطَلَى إن لم تُثِرها الأزندُ
والحبس إن لم تَغْشَه لدنيّةٍ شنعاء نعم المنزل المتــوردُ
بيت يُجَدِّد للكريم كرامةً ويُزار فيه ولا يزور ويُحْمَدُ
لو لم يكن فى الحبس إلا أنه لا تستذلك بالحجاب الأعبدُ

(١) ديوانه ١٧١ ، والشاذياخ ، من ضواحى نيسابور
(٢) الديوان : (صبيحة الاثنين)
(٣) ديوانه : « فالسيف »
(٤) ديوانه ٤١ ، ٤٢
(٥) الديوان : « تردد »

رفع المسهم

أخذ الأحوصَ أحدُ الأمراء بأمر الوليد بن عبد الملك لأنّه كان يراود غلمانه ، فضربه مائة سوط وصبّ عليه الزيت ، وأوقفه فى الشمس ، وهو مع ذلك يقول :

ما تعتريني من خطوبٍ مِلّمةٍ إلا تشرّفنى وترفَعُ شانِي[1]
إنّى على ما قدْ علمت مجسَّدٌ أُتمَى على البَغْضاء والشنآن
فإذا تَزُول تزول عن متخمِّطٍ تُخْشَى بوادرُ على الأقران
إنى إذا خفِيَ اللئيمُ وجدتنى كالشَّمْسِ لا تَخْفَى بكلِّ مكان

* * *

قوله : يا ويلة أبيك . الويلة : الفضيحة، والْوَيْل : الحزن . والعَوْلة : البكاء الشديد ، وأَعْوَل يُعوِل إعوالاً ، إذا رفع صوته وصاح . أهليك : جمع أهل . يكشط : يحلق شعره . هب ، أى احسب . وذكر فى الدرة أن خواصّ العراق يقولون : هب أنى فعلت ، وهبه فعل ، كقول أبى دَهْبل[2] :

هَبُونى امرأً منكمْ أضلّ بعيره له ذمّةٌ إنّ الذمام كبيرُ

قال : وهَبْنى ، أى عدّنى واحسبنى ، فكأنّ فيه معنى الأمر من وهب . انتهى ما قاله فى الدرة[3] .

وقال هنا : وهب أن لك . . . البيت ، وبيت القبيلة : أشرف فِخذٍ فيها . أناف : أشرف .

---

(١) ديوانه ٢٠٣ وروايته

ما مِنْ مصيبةِ نكبةٍ أمْسَى بها إلّا تعظّمُنِي وترفع شانى

(٢) ط « ذهل » تحريف

(٣) درة الغواص ١٢١ (طبع ليدن)

رفع المسهم

[شرف عبد مناف]

عبد مناف بن قصيّ ،هو بيت قريش وشريفُها ، وهو جدّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ،واسمه المغيرة ، وكان يقال لعبد مناف : القمر لجماله وبهائه ورفعة منزلته ، وسمِّيَ عبد مناف لأنه شَرُف وعَلاَ ، وأناف على أشراف العرب ، وكانت الرّكاب تَضْرِب إليــه من أطراف الأرض يُتْحِفونه تحفَ الملوك ، فيكرمهم ، وكان عنده لواء نزار ، وقوس إسماعيل ، وسقاية الحاج والمفاتيح . ولما قسم والدُه المجدَ بين أولاده جعل السّقاية والرّياسة لعبد مناف ، والدّار لعبد الدار ، والرفادة لعبد العُزّى ، وجانبي الوادى لعبد بن قصيّ . قال الشاعر :

كانتْ قريشٌ بيْضَةً فتفلَّقتْ فالمحُّ خالِصُه لعبد مناف[1]

ولما مات قُصَيّ رأس ابنه عبد مناف ، وجلّ قدرُه ، فأتته خُزاعة وبنو الحارث بن كنانة يسألونه الحِلف ليعزُّوا به ، فعقد معهم .

وأمّا شَرَفُ عقِبِهِ فلأن منه بنى هاشم ، الذين فيهم النبوّة والخلافة ، ومنه بنو أميّة القادة فى الجاهلية ، وأهل الخلافة فى صدر الإسلام ، وقد قدّمنا فى أخبار الشافعيّ أن عبد مناف ، يجتمع بنو هاشم وبنو أمية فيه ، فلهؤلاء انتهى شرف مُضر .

[ذكر بنى عبد المدان]

وأما بنو عبد المدان فأشراف اليمن ، وبهم يضرب المثل فى الشرف والعزة ، وهو عبد المدان بن الديان بن قَطَن بن زياد بن الحارث بن مالك بن ربيعة بن مالك بن كعب بن الحارث بن كعب بن خالد بن يجيلة بن مذحج .

(١) من مقطوعة فى أمالى المرتضى ٢ : ٢٦٨ ونسبها إلى مطرود بن كعب الخزاعى .

وقال لقيط بن زُرارة :

شربتُ الخمرَ حتى خِلْتُ أنى أبو قابوسَ أو عبدُ للَدان
أمشى فى بنى عُدُس بن زيد رخىَّ البال منطلقَ اللسان

وقال حسان رضى الله عنه :

وقد كنا نقول إذا رأينا لذى جسم يعدّ وذى بيانِ
كأنك أيُّها المعطى بياناً وجسماً من بنى عَبْد المدانِ

وقالوا لحسّان : كنّايا أبا الوليد ، ونحن نطُول بأجسامنا على العرب نَرى لأنفسنا بذلك فضلا ، حتى قلت :

دعوا التخاجؤ وامْشُوا مِشْيَةً سُحُجا إنّ الرجال أونو قدّ وتذكيرِ[1]
لا بأْس بالقوم من طُولٍ ومن عِظَمٍ جسمُ البغال وأحلام العصافير

فتركتَنا لا نرى لأجسامنا فضلا .

وحكى الأصمعىّ : أنه اجتمع يزيد بن عبد المدان وعامر بن الطُّفيل بسوق عُكاظ ، وقدم أميّة بن الأسكر الكنانى ومعه ابنة له ، من أجمل أهل زمانها ، فخطبها يزيد وعامر ، فقالت أمّ كلاب (امرأة أمية) : مَنْ هذان الرجلان ؟ فعرّفها أمية ، فقالتْ : أعرف بنى الديان ولا أعرف عامراً ، قال : هل سمعتِ بمُلاعب الأسنّة ؟ قالت : نعم ، فقال : هذا ابن أخته ، فقال يزيد : يا أمية أنا ابن الديان ، صاحب الكثيب ورئيسُ مَذْحج ومكلّم العُقاب ، ومَنْ كان يصوِّب أصابعَه فتنطُف دماً ، وراحته فتخرج ذهباً ، فقال أميَّة : بخ بخ ، فقال عامر : جدّى الأجذم ، وعمّى الأصم ، وخالى ملاعب الأسنة ، وأبى فارس قرزل ، فقال أمية : بخ بخ ، مرعًى ولا كالسَّعدان ، فأرسلها مثلا ، فقال يزيد : يا عامر ،

(١) ديوانه ٢١٤ . والتخاجؤ : التباطؤ فى المشى . وفى الديوان « إن الرجال ذوو عصب وتذكير »

رفع المسهم

هل تعلم شاعراً من قومى رحل بمدحةٍ إلى رجل من قومك ؟ قال : لا ، قال : فهل تعلم أن شعراء قومك يرحَلُون بمدائحهم إلى قومى ؟ قال : اللهم نعم ، فنهض يزيد وهو يقول :

أمىّ يا ابنَ الأسكرِ بن مدلجٍ لا تجعلنْ هوزاناً كمذحجِ
لا النبع فى مغرسه كالعَوْسجِ ولا الصريحُ المحضُ كالمُزَجِ

* * *

فلا تضْرِبْ فى حديدٍ بارد ، ولا تطلُبْ ما لستَ له بواجد ، وباهِ إذا باهَيْتَ بموجودِك ؛ لا بُجدودِك ، وبمحْصُولك ، لا بأُصُولك ، وبصفاتِك ، لا برُفاتِك ، وبأَعْلاَقِك ، لا بأَعْرَاقِك ؛ ولا تُطِعِ الطَّمَعَ فيُذلَّك ، ولا تَتَّبِعِ الهَوَى فيُضِلَّك ، ولله القائلُ لابنه :

بُنَىَّ استقِمْ فالعودُ تَنْمِى عروقُه قويماً ويَغْشاه إذ ما الْتوَى التَّوَى
ولا تُطِعِ الحِرْصَ المُذِلَّ وكُنْ فتًى إذا التهبتْ أحشاؤُه بالطَّوَى طَوَى
وعاصِ الهَوَى المُرْدِى فكم من مُحلِّقٍ
إلى النَّجمْ لما أَنْ أطاع الهَوَى هَوَى
وأسْعِفْ ذوى القُرْبَى فيقبُح أن يُرَى
على مَنْ إلى الحُرِّ اللّباب انْضَوى ضَوى .
وحافظ على مَنْ لا يخونُ إذا نَبَا
زَمَانٌ ومَنْ يَرْعَى إذا ما النَّوى نَوى

وإن تَقْتَدِرْ فاصفَحْ فلا خيرَ فى امرئٍ
إذا اعتلقَتْ أظفارُه بالشَّـــوَى شَوَى
وإياكَ والشَّكوى فـــــلم تَرَ ذا نُهًى
شَكَا بل أخو الجَهْلِ الّذى ما ارْعَوَى عَوَى

* * *

قوله : لا تضرب فى حديد بارد ، هو مَثَل لمن يحاول الانتفاع بمَنْ ليس عنده نفع ، وقال أبو الشمقمق[1] يهجو سعيدَ بن سَلْم :

هَيهاتَ تضرب فى حـديدٍ باردٍ إن كُنْتَ تطمع فى نوال سعيدِ
تاللهِ لو مَلَكَ البحـارَ بأسْرِها وأتاه سَلْمٌ فى زمانٍ مُـدُودِ
يبغيـــــه منها شَرْبةً لطَهوره لأبَى وقال : تَيَمَّماً بصَعِيـــــدِ

وكذَب عليه ، كان سعيد بن سلم من أجود الناس . قوله : باهِ ، أى فاخر . موجودك ومحصولك : ما تجدُه من المال ويحْصُل لك . رفاتك : عِظَام أجدادك البالية . الأعلاق : جمع عِلْق ، وهو النَّفيس الرفيع من الذَّخائر . أعراقك : أصولك . قوله : ولا تطع الطَّمع فيذلَّك ، ومن دعاء النبى صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ إنى أعوذ بك من طمعٍ حيثُ لا طَمع ، وأعوذ بك من طَمعٍ يَهْدى إلى الطَّبَع » ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « خيـــار المؤمنين القانع ، وشِرارهم الطامع » . وقال الحَسَنُ البَصْرِىّ لبعض ولد علىّ رضى الله عنهما : ما مِلاكُ الدِّين ؟ قال : الورع ، قال : ما آفتُه ؟ قال : الطَمَع . قوله : ولاَ تتَّبع الْهَوَى فيضلَّك ، ابنُ عباس رضى الله عنهما ، قال صلى الله عليه وسلم : « ثلاثٌ مهلكات ، شُحٌّ مُطاع ، وهوًى متَّبع ، وعجبُ كلّ ذى رأى برأيه » . وقال صلى الله عليه وسلم : « إنّ أخوَف ما أخاف على أمتى الهوى وطول الأمل ، أمَّا الهوى فيصدّ عن الحق ، وأما طول الأمل فيُنسى الآخرة » . وقال بعضُهم:

(١) هو أبو محمد مروان بن محمد ، وأبو الشمقمق لقبـه والأبيات فى ديوانه ١٣٤ (شعراء عباسيون) .

أفضل النَّاس مَنْ عصى هواه ، وأفضلُ منه مَنْ رَفَض دنياه . تنمى : تزيد . التوى : اعوجّ . التَّوَى : الهلاك . القويم : المعتدل . التهبت : اشتعلت . الطَّوى : الجوع . طَوَى ، أى طوى عليه ضلوعَه وستره . وقال أبو فراس :

لا أرتضى وُدًّا إذا هو لم يَدُمْ ... عند الجفاء وقلة الإنصافِ[1]
تَعِسَ الحريصُ وقلّ ما يأتى به ... عِوَضاً من الإلحاح والإلحافِ
إنّ الغنىّ هو الغنىُّ بنفسِهِ ... ولوانه عارى المناكِبِ حافِي
ما كلُّ ما فوقَ البَسيطة كافياً ... فإذا قَنَعْتَ فكلُّ شىء كافِي
ويعافُ لى طمعَ الحريص فتُوّتى ... ومُرُوءتى وقناعتى وعفافِي
شِيَمٌ عُرِفْتُ بهنّ مذ أنا يافعٌ ... ولقد عُرِفتُ بمثلها أسلافِي

قوله : المردى ، أى المهلك . المحلِّق : الطائر يستديرُ فى طَيَرانه . هَوَى : سقط . أسْعِف : اقْضِ حوائجهم . اللُّباب : الخالص . الضوى ، انْقَطَع إلى جودك وتعلّق به . نبا : ارتفع ولم يوافق . يَرْعَى : يحفظ . النّوى : البعد . نَوَى : أراده وقَصده ، وقد قالوا : خيرُ الإخوان ، مَنْ أقبل عليك إذا أدْبَرَ الزمان . الشَّوَى : القوائم ، ويقال لجلدة الرأس : شوًى . وقوله : شَوَى ، أى صنع شواء وأولاها النار . يقول : مَنِ اعتذر إليك من الإخوان فاعذِرْه ، ولا تكن ممّن إذا وقع على ذنبٍ لصاحبه أخَذه به ، ونزع جلدةَ رأسِه فشوَاها .

[ما جاء فى قبول الأعذار]

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ لم يقبل من متنصِّلٍ عذراً ، صادقاً كان أو كاذباً ، لم يَرِدْ علىّ الحوض » .

وقالوا : المعترف بالذنب كمن لا ذنب له .

---

(١) ديوانه ٨١

رفع المسهم

واعتذر رجلٌ إلى إبراهيم بن المهدىّ ، فقال : قد أغناك الله بالعذر عن الاعتذار ، وأغنانا بحسن النية عن سوء الظن .

وقال الحسن بن وهب :

مَا أَحْسَنَ الْعَفْوَ من الْقادِرِ ... لا سيَّما عمن غير ذى ناصرِ[1]

إن كان لى ذنبٌ ولا ذنبَ لى ... فماله غيرُك من غافرِ

أعوذُ بالوُدّ الذى بيننَا ... أن تفسد الأوّل بالآخرِ

وقالوا : ليس من العَدْل ، سُرْعة العذْل .

وقال آخر :

اقْبَلْ معاذيرَ من وافاك معتذِراً ... أبرَّ فيما أتى من ذاك أو فَجَرَا[2]

فقد أطاعك مَنْ يُرْضِيك ظاهرهُ ... وقد أجلَّك مَنْ يَعْصِيك مستترَا

آخر :

وهَبْنى مسيئاً كالذى قلتَ ظالماً ... فعفواً جميلاً كى يكون لك الفضلُ[3]

فإن لم أكن للعفو عندك للَّذى ... أتيتُ به أهلاً فأنت له أهلُ

الأحنف : ربَّ ملومٍ لا ذنبَ له .

آخر :

* لعل له عذراً وأنت تلومُ *

آخر :

إذا اعتذر الجانى محَا العذرُ ذنبَه ... وكلّ امرئٍ لا يقبل العذرَ مذْنبُ[4]

---

(١) العقد ٢ : ١٤٢ (٢) العقد ٢ : ١٤٢

(٣) العقد ٢ : ١٤٣ (٤) العقد ٢ : ١٤٣

وقال محمد بن سليم لابن السمّاك : بلغنى عنك شىء كرهتُه ، فقال : إذا لا أبالى ، قال : لم ؟ قال : لأنه إن كان حقًّا غفرتَه ، وإن كان باطلًا لم تقبَله .

وقالوا فى ترك الأعتذار :

إذا كان وجه العذر ليس بِبَيِّنٍ فإنّ اطّراحَ العذر خيراً من العُذْرِ[1]

قوله : الشكوى ، أى المشتكَى إلى الناس بالضر . نُهَى : عقل . ارعوى : رجع . وارْعَوَى عن القبيح : كفّ عنه وحَسُن رجوعه ونزوعُه عنه من الرِّعوى ، وهى حسن المراجعة والنزوع عن الجهل .

الفراء وابن سيده : عوَى الفصيلُ والكلبُ ، إذا صاح فمدّ صوته ، قال الشاعر :

بها الذّئبُ محزوناً كأنّ عُواءه عُواء فصيلٍ آخر الليل مُحْتَلُ[2]

المحتل : السيىء الغذاء[3] ، وإذا دعا الرّجُل النّاس إلى الفتنة فقد عوَى واسْتَعْوَى ، وسمعتُ عَوَّة القوم ، أى أصواتهم وجلبَتهم ، قاله الأصمعىّ وأبو زيد : بل أخو الجهل الّذى عَوَى بالشكاية وقت ارعوائه أى رجوعه عنك ، والمعنى كلما غاب عنك : تشكّى ، وما مع الفعل مصدرية وظرف الزمان محذوف ، أى وقت ارعوائه كقوله تعالى : ﴿ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ والأَرْضُ ﴾ أى مدة دوامهما ، يريد أن العاقل يحتمل ضرّ الزمان ولا يشتكى والجاهل الّذى متى رجع عن التشكّى لم يرجع رجوعاً حسناً ، بل يَعْوى بالتشكى عُواء الذئب .

* * *

فقال الغلام للنّظارة : يا لَلْعجيبة ، والطرفة الغريبة ! أنفٌ فى السّماء ، واستٌ فى الماء ، ولفظٌ كالصّهباء ، وفِعْلٌ كالحُصْبَاء . ثمّ أقبل على

(١) لابن عبد ربه ، العقد ٢ : ١٤٣

(٢) اللسان (حتل) وفى ط : (عتل) تحريف ، والمحتل : السيىء الغذاء

(٣) ط : (الغدار) تحريف

الشَّيْخ بلسانٍ سَليط ، وغيظٍ مُسْتَشِيط ، وقال : أفٍّ لك مِنْ صوّاغٍ باللّسان ، رَوَّاغٍ عن الإحسان : تأمرُ بالبِرّ ، وتعُقّ عُقوق الهِرّ ، فإنْ يكنْ سببُ تعنّتك ، نَفاقَ صَنْعَتِك ، فرَماها اللهُ بالكَساد ، وإفسادِ الحُسّاد ؛ حتّى تُرَى أفْرَغَ من حجّامٍ سَابَاط ، وأضْيقَ رِزْقاً مِنْ سُمِّ الخياط. فقال له الشيخ : بلْ سلّطَ اللهُ عليك بَثْرَ الْفَم ، وتَبْيُغَ الدّم ؛ حتّى تُلْجأ إلى حجّام عظيمِ الاشْتِياط ، ثقيلِ الاشتراط ، كَلِيلِ الْمِشْرَاط ، كثيرِ المُخَاط والضُّراط .

* * *

قوله : الطُّرْفَة الْغريبة ، أى التى لم يُرَ مثلُها . الصَّبْهَاء : الخمر . الحصْباء : الحجارة . سليط ، أى متساط . مستشيط : منتشر فى الشرّ ملتهب فى الغضب . صوّاغ : كذّاب ، وصاغ الكذب : صنعه . راغ : مال إليه من حيث لا يعلم ، وراغ إلى أهله : رجع فى إخفاء . روّاغ : ميّال وفرّار فى خُفْية . تعقّ : تقطع . وعقوق الهرة ، أنّها تأكل أولادها .

وحكى الأصمعى فى كتاب « أفعل من كذا » ، يقال : أعقّ من ضَبّ ، قال : أرادوا ضَبَّة ، فكثر الكلام بها فقالوا : ضبّ ، وعقوقها أنها تأكل أولادها ، وذلك أن الضّبّة ، إذا باضتْ حَرَسَتْ بيضتَها من كلّ ما قدرتْ عليه من وَرَلٍ وحيّة وغير ذلك ، فإذا خرجتْ أولادُها من بَيْضتها ظنتها شيئاً يريدُ بيضَها ، فوثبت عليه تقتله ، فلا ينجو منها إلا الشديد . قال : وهذا موضوع قد وضعته العرب فى موضعه ، وأتتْ بعلّته ، ثم جاءت إلى ما هو فى العقوق مثل الضّبّة ، فضرَبت به المثل على الضدّ ، فقالوا : أبرُّ من هِرّة ، وهى أيضاً تأكل أولادها ، فحين سُئِلوا عن الفرق وجّهُوا أكلَ الهرة أولادها إلى شدة الحبّ ، فلم يأتوا بحجّة مقنعة . وقال الشاعر :

أما تَرَى الدَّهْرَ وهَذَا الْوَرَى كهرّة تأكل أولادَها

واخْتُصِم إلى شُرَيح ، فى ولد هِرّة ، فقال شُرَيح : ألقه مع هده ، فإن هى قرّتْ ودَرَّت واسبطرّت ، فهو لها ، وإن هى هَرَّتْ وفَرَّتْ واقشعرّتْ ، فليس لها . اسبطرّت : اضطجعت وهرّت كهرت ، من هَرِير الكلب ، واقشعرّ الجلد : قامت شُعوره .

قوله : تعنتك : طلب مشقّتك ، والتعنّت : طلب الزّلّة ، وتعنّته أدخل عليه الأذى إذا سأله عن شىء ، أراد به اللّبْس والمشقّة عليه . سمّ الخياط : ثُقْب الإبرة . بَثَر : خرّاج صغار ، ويقال بَثَر الجرح ، إذا خرجت به أورام صغار فيزيد به سيلان الدم عن الأكل وغيره . تبثّغ : هَيَجان وتَبَيَّغ دمُه : هاج عليه . تاجأ : تحوج . الاشتطاط : مجاوزة القدْر . كَلِيل : حافٍ .

* * *

قَالَ : فلمّا تبيّن الفتى أنه يَشْكو إلى غيرِ مُصمَّت ، ويُراوِدُ اسْتِفْتَاحَ بابٍ مُصْمَتٍ ، أضْرَبَ عن رَجْعِ الْكلامِ . واحْتَفَزَ لِلْقِيام ، وَعَلِمَ الشيخ أنه قد أَلَامَ ، بِمَا أَسْمَعَ الْغُلام ، فجنح إلى سِلْمِه ، وبذَل أنْ يُذْعِنَ لِحُكْمِه ، وَلَا يَبْغِي أَجْراً على حَجْمِهِ ، وأبَى الْغُلامُ إلَّا المشْىَ بِدَائِهِ ، والهربَ مِنْ لِقَائِهِ ، وَمَا زَالَا فِي حِجَاجٍ وَسِبَابٍ ، ولِزَازٍ وجِذَابٍ ، إلَى أَنْ ضَجَّ الْفَتَى من الشِّقَاقِ ، وتَلَا رُدْنُه سُورَةَ الانْشِقاق ، فأعْوَلَ حينئذٍ لِوِفَارَةِ خُسْرِهِ ، وانْعِطَاطِ عِرْضِهِ وطِمْرِهِ . وأَخَذَ الشَّيْخُ يَعْتَذِرُ من فَرَطَاتِهِ ، ويُبَيِّضُ من عَبَراته . وهوَ لا يُصْغِي إلى اعْتِذَارِهِ ، ولا يُقَصِّرُ عن اسْتِعْبَارِهِ ، إلى أن قالَ لَهُ : فَدَاكَ عمّك ، وعَدَاكَ ما يَغُمُّك ،

أما تسأم الإعْوَال ، أما تعرفُ الاحْتِمَالَ ، أما سَمِعْتَ بمنْ أَقَالَ ، وأَخَذَ بِقَوْلِ مَنْ قَالَ :

أَخْمِدْ بِحِلْمِكَ ما يُذْكِيه ذُو سَفَـــهٍ
مِنْ نَارِ غَيْظِكَ واصْفَحْ إنْ جَـــنَى جَانِي
فالحِلْمُ أفضلُ ما ازْدَانَ اللَّبيبُ بِهِ والأَخْذُ بالعفو أَحْلَى ما جَنَى جَانِي

* * *

يُراود : يُعالج . مصمَّت: مغلق . احتفز : تهيّأ وتشمّر . ألام : أتى بما يلام عليه. قال الشاعر:

* ومنْ يَخْذُلْ أخاه فقَدْ ألاما *

جَنَحَ : مال . سِلْمه : صلحه . بذل أن يذعن ، أى أعطى الانقياد من نفسه . يبغى أجراً : يطلب أجرة . فى حِجاج وسِباب ، أى فى لجة وشتم . لزاز : ملازمة للخصومة . وخصم لزّاز ملزّ ، أى لا يفارق الخصومة . جذاب : مضاربة وجذب كلّ واحد منهما بثوب صاحبه . ضجّ : صاح . وتلاردُنه ، أى قرأ كمه ، وجعل صوب التّخريق كأنه قراءة . أعول : بكى . وفارة خسره ، أى كمل خسرانه . انعطاط عِرْضه وطِمْره ، أى تمزيق عِرْضه بالشّتم ، وثوبه بالتخريق ، والطِّمر : الثوب الخلَق . فَرَطاته : بوادره ، وما سبق من إذايته . يغيّض : يذهب وينقص . عبراته : دموعه . يُصغى : يستمع . يقصّر : يكفّ . استعباره : بكاؤه . عَدَاك : تجاوزك . يغمّك : يغطّى قلبَك بالهمّ . تسأم : تملّ . الإعوال : البكاء . الاحتمال : التسامح والصّبر على الأذيّة . أقال : غَفَر الذنب . أخمِدْ : أطفىء وسكّن . يذكيه : يوقده . سَفَه : جهـل . اصفح : أظهر كَرَمك . جَنَى : أوقع بك جناية . والجانى : فاعلُها . الحِلم : العقل والصّبْر على المضرّات . ازدان :

افتعل من الزَّيْن ، أى تزيّن به . اللبيب : العاقل . العفو : غفر الذنب . جَنَى : قطف الثمر . وهذان البيتان من بدائع مزدوجاته التى نبّهنا على أنها من فائق شعره ، وسبقه سابق البربرىّ إلى معناها بقوله :

لا تُظْهِرَنّ لذِى جهلٍ معاتبةً ... فربّما هَيّجتْ بالشىء أشياء
فالماء يخمد حرّ النار بُطفئُها ... وليس للجهل غير الحلم إطفاء
تَرَى السَّفِيه له عن كلّ محكمةٍ ... زيغ ، وفيه إلى التسفّه إصغاء

وقال أبو فراس :

ما كنتُ مذ كنتُ إلا طوع إخوانى ... ليست إمؤاخذةُ الأخوان مِن شَانِي (١)
يجنى الصَّديقُ فأستحلى جنايَتَهُ ... حتى أدلّ على عفوى وإحسانى
ويُقبِع الذنب ذنباً حين يعرفُنِي ... عمداً فأتبع غفرانًا بغُفْرَانِ
يجنى علىّ فأعفو صافحاً أبدا ... لا شىء أحسنُ من حانٍ على جانى

وذكر الحريرى هذين البيتين والمقطوعة قبلهما ، وجنّس فيهما بين لفظ القافية واللفظ قبله .

ومما جاء من ذلك وهو أضبط مما ذكر قول الشاعر :

قدّم لنفسك زاداً ... وأنت مالكُ مالِكْ
من قبل أن تتفانى ... ولونُ حالِك حالِكْ
ولستَ تعلم يومًا ... أىّ المسالك سَالِكْ
إمّا لجنّة عدنٍ ... أو فى المهالك هالِكْ

وقال آخر :

مالك من مالك إلّا الذى ... قدّمتَ فابذُلْ طائعًا مالَكَا
تقول أعمالى ولو فتّشوا ... وجدت أعمالك أعمى لَكَا

(١) ديوانه ١١٤

وقالت للمعتمد جارية له : لقد هُنَّا هنا ، فقال :

قالت لقد هَنَّا هَنَا مولاى أين جاهُنَا
قلت لها إلى هنا صيَّرنا إلا هُنَا

* * *

فقال له الغلام : أما إنّك لَوْ ظَهَرْتَ عَلَى عَيْشِى المُنكَدِرِ ، لَعَذَرْتَ فى دَمْعِى المُنْهَمِرِ ، ولكن هانَ على الأَمْلَس ما لاقَى الدَّبِر . ثمَّ كأنه نَزَع إلى الاسْتِحْيَاء ، فَأَقْلَعَ عن البُكَاء ، وفاءَ إلى الارْعِوَاء ، وقال للشيخ : قَدْ صِرْتَ إلى اشْتَهَيْتَ ، فارْقَعْ مَا أَوْهَيْتَ ، فقال : هَيْهَات شغلتْ شِعابَى جَدْوَاىَ ، فشِمْ بَارِقَ سِوَاىَ .

ثمَّ إنَّه نَهَضَ يَسْتَقْرِى الصُّفُوفَ ، وَيَسْتَجْدِى الْوُقُوفُ ، ويُنْشد فى ضِمْن ما هُوَ يَطُوف :

أُقْسِمُ بالْبَيْتِ الحَرَامِ الَّذِى تَهْوِى إليه الزُّمَرُ المحرِمَهْ
لَوْ أَنَّ عِنْدِى قُوتَ يَوْمٍ لَمَا مَسَّتْ يَدِى المِشْرَاط وَالمِحْجَمَهْ
ولا ارتضتْ نفسى الّتى لَمْ تَزَلْ تَسْمو إلى المجدِ بهذِى السِّمَهْ
ولا اشْتَكَى هَذَا الْفَتَى غِلْظَةً منّى ولَا شَاكَتْهُ مِنِّى شَمَهْ
لكنْ صُروفُ الدَّهْرِ غَادَرْنَنِي كالخابطِ فى اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَهْ
واضْطرنى الْفَقْرُ إلى مَوْقفٍ من دونِهِ خَوْضُ اللَّظَى المُضْرَمَهْ
فهل فَتًى تدركهُ رقّةٌ علىّ أو تَعْطِفُهُ مَرْحَمَهْ !

* * *

رفع المسهم

قوله : المنكدر ، أى المتغيّر ، والكَدْرَة ضدّ الصفاء . المنهمر : السائل . أقلع : ارتفع وزالَ . فاء : رجع . الارعواء : الاستحياء والرّجوع الحسن . أوهيت : أفسدت . شِمْ : انظر . يَسْتَقْرِى : يتتبع . يستجدى : يطلب الجَدَا ، وهو العطيّة . فى ضمن : فى أثناء وفى خلال . تهوى : تُسْرِع المشى وتتساقط إليه . الزُّمَر : الجماعات . المحرِمة : الداخلة فى الحرَم . تسمو : ترتفع . المجد : الشرف . السِّمة : العلامة . غلظة : جفاء . شاكته : ضربته . حُمَة : شوكة العقرب التى تَلْسَع بها ، والحُمة : السّمّ ، فسمى ما يخرج عنه السّمّ باسمه . صروف : نوائب . غادرننى : تركْنَنِى . خابط : ماش على جهالة . اضطرنى : ألجانى . خوض اللّظَى : دخول النار . المُضْرَمة : الموقدة . رقّة : شفقة . تَعَطِّفه : تلّينُه . مرحمة : رحمة .

* * *

قال الحارث بن همام : فكنت أوّلَ من أَوَى لبلْوَاه ، ورقّ لشكواه ، فنفحتُه بدرهمين ، وقلت : لا كَانَا ولو كان ذامِيْن ، فابتهج بيا كُورَة جَنَاه وتفاءل بهما لِغِنَاه ، ولم تزل الدّراهم تنهال عليْه ، وَتَنْثال لَدَيْه ؛ حتى آل ذَا عيشةٍ خَضْرَاء ، وحقيبةٍ بَجْرَاء ، فازدهاه الفرحُ عند ذلك ، وهنّأ نفسَه بما هنالك ، وقال للغلام : هـذا رَيْعٌ أنْتَ بَذْرُه ، وحَلَبٌ لك شَطْرُه ؛ فهَلُمّ لنَقْتَسِم ، ولا نَحْتَشِم ، فَتَقَاسَمَاهُ بينهما شِقَّ الأَبْلمة ، ونَهَضَا مُتَّفِقَي الكلمة . ولَمّا انْتَظَم بَيْنَهُما عَقْد الاصْطِلاَح ، وهَمَّ الشيخ بالرّواح ، قلت له : قد تَبَوَّغَ دَمِى ، ونَقَلْتُ إليكَ قَدَمِى ، فهل لك أن تَحْجُمَنِي ، وتُكَفِكِفَ ما دَهَمَنِي ، فصوَّب طَرْفَهُ فىّ وصعّد ، ثم ازْدَلَف إلىّ وأنشد :

* * *

أوى : أشفق . نَفَحْتُه : رميته ونبذته . ذامين : صاحب كذب . ابتهج : فرح . باكورة : أول ما يَطيب من الشجر ، فجعل الدرهمين باكورة لأنهما أول ما أخذ . تفاءل : جعلهما فألا ، أى لمّا كان أوّل ما حَصَل بأيديهما درهمين ، استكثرهما فرَجا أن تتمشى عطايا الحاضرين على هذا المثال ، وقد كررت ذِكْرَ الفأل .

[مما قيل فى الفأل]

ونذكر هنا منه فصلا على ما أجرينا العادة فى غيره .

كان صلى الله عليه وسلم يكره الطِّيَرة ويُعْجِبه الفأل الحسن .

ولما قدم المدينَة نزل على رجلٍ من الأنصار ، فصاح الرجل بغلمانه : يا سالم يا يسار ، فقال صلى الله عليه وسلم : سَلِمتْ لنا الدار فى يسر .

وقيل لرجلٍ من العرب : ما لكم تسمُّون أبناءكم بأسماء السباع والكلاب ، وتسمون مواليكم بأسماء حسان ، مثل عطاء ونجاح ؟ فقال : لأنّا أعددنا أبناءنا لأعدائنا ، ومواليَنا لأنفسنا .

وسأل عمرُ رضى الله عنه رجلاً عن اسمه واسم أبيه ، فقال : ظالم بن سرّاق ، قال : تظلم أنت ويسرق أبوك !

وجاءه رجل فقال له : ما اسمك ؟ قال : جمرة ، قال : ابن من ؟ قال : ابن شهاب ، قال : ممَّن ؟ قال : من الحرقة ، قال : وأيّا تسكن ؟ قال : بحرّة النار . قال : بأيِّها ؟ قال : بذات لظًى ، قال : أدرِكْ أهلك ، فقد احترقوا ، فرجع فوجدهم قد احترقوا ، فكان كما قال .

الفنجديهى بسنده ، حدثنى أحمد بن علىّ ، حدثنى أبو مسعود ، قال : قال لى أبو داود السِّنْجى : ما اسمك ؟ قلت : سعد ، قال : ابن من ؟ قلت :

رفع المسهم

ابن مسعدة ، قال : أبو من ؟ قلت : أبو مسعود ، قال لى : مسألتك مثل أعرابى لقى آخر ، فقال : ما اسمك ؟ قال : فَيْض ، فقال : ابن من ؟ قال : ابن الفرات ، قال : أبو مَنْ ؟ قال : أبو بحر ، قال : ليس لنا أن نكلّمك إلا فى زَوْرق .

وقال علىّ بن الجهم : دخلتُ يوماً على المتوكل ، وهو جالس فى صحن داره ، وبيده غصن آس ، وهو يتمثل بهذا الشعر :

بالشَّطِّ لى سَكَنٌ أفديه مَنْ سَكَنِ
أهدى من الآس لى غصنين فى غُصُنِ (١)

فقلت إذ نُظِمَا إلفين وانتسقا سقياً ورعياً لفألٍ منكما حَسَنِ
فالآسُ لا شكَّ آسٍ من تشوّقنا شافٍ وآسٍ تبقّى لِى عَلَى الزَّمَنِ
بشَّرتُمانى بأسبابٍ ستجمعُنا إن شاء ربِّى وَمَهْمَا يَقْضِهِ يَكُنِ

ثم قال لى — وكدتُ أنشقُّ حسداً : لمن هذا الشعر يا علىّ ؟ فقلت : للحسين بن الضحّاك يا سيِّدى ، فقال : هو والله عندى أشعرُهم وأحسنُهم مذهباً وأظرفهم نمطاً ، فقلت : وقد زاد غيظى : فى هذا النمط يا سيدى ؟ قال : وفى غيره ، وإنْ رغِم أنفك ومتَّ حسداً ، وأردت إنشاده قصيدةً ، فقلت : إنى لا أنتفع بها مع ما جرى ، فأخّرتها إلى وقت آخر .

قوله : تنهال ، أى تنصَبُّ متفرقة . آلَ : رجع . خضراء : ناعمة لكثرة الرزق . حقيبة بجراء ، أى وعاء ممتلىء ، والأبجر : الذى خرجتْ سُرَّته . ازدهاه : هزَّه وأعجبه . الرّيع : الزيادة والفضل والبَذْر : ما يُزْرَع من الحبوب . حَلَب : لبن . شطره : نصفه . نحتشم : نستحى أو نغضب . الالية : الدّومة تشق ورقتها فتخرج أبداً معتدلة . تكفكف : تدفع وتكفّ . دهمنى : أصابنى . ازدلف : قَرُب .

* * *

(١) ديوان الحسين بن الضحاك ١١٥

كَيْفَ رأيتَ خُدْعَتِي وخَتْلِي ... وما جَرَى بيني وبين سَخْلِي

حتّى انثنيتُ فائزاً بالخِصْلِ ... أرْعَى رياضَ الخِصْبِ بَعْدَ المحْلِ

بالله يا مهجة قلبي قُلْ لي ... هل أبصرتْ عيناك قطّ مثلي

يفتَحُ بالرُّقيةِ كلَّ قُفْلِ ... ويَسْتَبِي بالسِّحْرِ كلَّ عَقْلِي

ويَعْجِنُ الجِدَّ بماء الهزلِ ... إن يكن الإسكندريّ قَبْلِي

فالطَّلُّ قَدْ يَبْدُو أمام الوبْلِ ... والفضلُ للوابل لا لِلطَّلِّ

قال : فَنَبَّهَتْنِي أُرْجُوزتُه عَلَيْه ، وأَرَتْنِي أنَّه شيخُنا المشارُ إليه ، فقَرّعتُه على الابْتِذال ، والالتحاقِ بالأَرْذَال ، فأعْرَض عَمَّا سَمِع ، ولم يُبَلْ بما قُرِع ، وقال : كلُّ الحِذاء يَحْتَذِى الحافِيَ الْوَقِع . ثم قاصانى مُقاصَة المُهَان ، وانطلقَ هُوَ وابنُه كفرسَىْ رِهَان .

* * *

خَتْلِي : مكرى . سخْلِي : ولدى . الخصْل : الغَلَب فى القمار ، وفى مسابقة الخيل ، وفى مراماة السهام . يستبى : يأخذ ويسبى ، وقد تقدّم فى شرح الصدر التنبيه على هـذا الموضع . الطّلّ : أضعف المطر . والوبل : أشدّه . قرّعته : أقلقته بكثرة اللوم ، وبأَخْذِى له بلسانى . الابتذال : امْتهان نفسه فى الصّنعة المهينة . الأرْذَال : الأدنياء ، فأراد عنّفته ولمْتُه أشدّ اللوم على حِرْفَة الحجامة ، فإنّها صَنْعَةُ أرذال الناس وسِفْلَتُهم .

ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العرب بعضُها لبعض أكفاء ، قبيلة لقبيلة ، وحىّ لحىّ ، ورجل لرجل . والموالى أكفاء إلا حائكاً أو حجّاماً » .

وقال علىّ بن الحسين : أربعة أعمالٍ كانت فى سُفْلِ بنى إسرائيل ، وصارت فى سُفْلِ العبيد وستكون فى سُفْلِ الأحرار : الحياكة ، والحجامة ، والدِّباغة والكِناسة .

رفاعة بن موسى : سمعت الصادق يقول : ستٌّ لا يُنْجِبُون : الملاّح ، والمكارى ، والحمامى ، والحجام ، والبيطار ، والحائك .

وممّن شهر من الأدباء بصنعة مهينة نصر بن محمد الخابزرزىّ ، كانتْ صنعتُه خَبْز خُبْز الأرزّ فى دكانه بمَرْبَد البصرة ، فكان ينشد أشعاره على الغزل ، والنّاس يزدحمون عليه ، وأحداثُ البصرة يتنافسون فى ميله إليهم .

وكان ابن لَنْكك على ارتفاع قَدْره ينتاب دكانه ، فحضره يوماً وعليه ثياب بِيض فاخرة ، فتأذّى بالدكان من الدخان وسوء أثره على ثيابه ، فانصرف وكتب إليه :

لنصرٍ فى فؤادى فَرْطُ حبٍّ ... يُنيف به على كلّ الصِّحَاب[1]

أتينـــاه فبخّرَنا بخـوراً ... من السَّعف المدخّن بالتهاب

فقمت مبادراً وحسبتُ نصراً ... يريد بذاكَ طَرْدِى أوْ ذَهابى

وقال: متى أراك أبا حسينٍ؟ ... فقلت له إذا اتسخت ثيابى

فلما قُرِئت عليه أَمْلَى على مَنْ قرأها ، وكتب على ظاهرها :

مَنَحْتُ أبا الحسين صَميمَ ودّى ... فخاطبنى بألفـاظٍ عِذَابِ

أتى وثيابُه كالشيب لوناً[2] ... فعُدْنَ له كريْعَان[3] الشَّبابِ

وبغضى للمشيب أعدّ عندى ... سواداً لونُه لون الخِضابِ

فإن يكن المعطّر فيـــه فخراً ... فلِمْ يَكُنِ الوصىّ أبا ترابِ

---

(١) يتيمة الدهر ٢ : ٢٣٧ ، ٢٣٧

(٢) كذا فى اليتيمة ، وفى ط : « كبياض شيب »

(٣) ط : « كغربان » .

رفع المسهم

ومن شعره :

خليليّ هـل أبصرتُمَا أو سَمِعْتُمَا ... بأحْسَنِ مِنْ مَوْلًى تمشّى إلى العَبْدِ
أتى زائراً من غير وعدٍ وقال لى : ... أصونك عن تعذيب قلبك بالوعْدِ
فما زالَ نجمُ الكأس بينى وبينه ... يدور بأفـلاك السعادة والسَّعْدِ

وله :

وَرْدُ الخدود ورُمَّان النهود وأغـصان القدود تَصيدُ السَّادَةَ الصِّيدا
مَنْ لى إذا مارأيت الخَصْرَ مختصراً ... والرّدف مرتدفاً والقَدَّ مقدُودا

وكان يحيى السَّرَقُسْطِى أديباً فرجع إلى الجزّارين ، فأمر الحاجب بن هود أبا الفضل بن حُميد أن يوبّخه على ذلك فكتب إليه :

تركتَ الشِّعْر من عـدم الإصابَهْ ... وملتَ إلى الجـزارة والقصابَهْ

فأجابه يحيى :

تَعيبُ علىّ مألوفَ القِصابَهْ ... ومَنْ لم يدرِ قَدْرَ الشيء عَابَهْ
ولو أحكمتَ منها بعض فنّ ... لما استبْدَلْتَ عنها بالحجابَهْ
وإنَّكَ لوْ طَلَعْتَ علىّ يوماً ... وحَوْلِى مِنْ بنى كلْبٍ عِصَابَهْ
لهالك ما رأيتَ وقلتَ هذا ... هزبرٌ صيّر الأوضام غابَهْ
فتكْنَا فى بنى العَنَزِىّ فتكاً ... أقرَّ الذُّعْرَ فيهم والمهابَهْ
ولم نُقْلِعْ عن الثَّوْرِىّ حتَّى ... مَزَجْنَا بالدَّمِ القانِى لُعَابَهْ
ومَنْ يعتزّ منهمْ بامتناعٍ ... فإنَّ إلى صوَارِمنَا إيابَهْ
ويبرز واحدٌ منّا لألْفٍ ... فيغلبُهم وتلك من الغرابَهْ
وحَقِّكَ ماتركتُ الشِّعْرَ حَتَّى ... رأيتُ البخَلَ قد أمْضَى ثيَابَهْ
وحتَّى زُرْتُ مشتاقاً حميمى ... فأبْدَى لى التجهّمَ والكآبَهْ
وظنَّ زيارتى لطلاب شىء ... فأقصانى وأغلظ لى حجابَهْ

قوله : ولم يُبَلْ : أصله يبالى ، حذفت ياؤه للجزم ، فصار يبال ، فلما كثر استعماله صار بمنزلة ما لم يحذف منه شيء فقدّروا تكريرَ الجازم عليه مرة أخرى فحذفتْ حركةُ اللّام للجزم ، فسكنت اللّام ، وقبلها ألف ساكنة فحذفتْ الألف لالتقاء الساكنين .

ولأبى علىّ فى هذه المسألة عبارة استوحش منها أكثر العلماء ، فمن مخطّىء ومن مُصوّب ، وتحقيقها غائب إلا عَنْ أهل التحقيق ، وقد أوضحناها فى شرحنا لكتاب الإيضاح ، والإكثارُ من مسائل الإعراب فى كتب الآداب مما يُسْتَبْرد ويعاب .

أعرض ، أى نحىّ وجهَه لجهة . قاصانى : فارقنى ، وقال الفرّاء : كل شيء أبنته من شيء فقد قَصّيْته منه ، وتقصّى الرجل من الرجل : بان عنه ، وكلّ رجلٍ بايَنَ شيئًا فقد تقصّى عنه . الليث رحمه الله : كلّ شيء لازم خلّصته فقد تقصّى ، وتقصّيْت من الديون : خرجتُ منها . فرسى رهان : هما اللذان يجريان ويُجْعل معهما جُعْل ، فمن سبق أخذه .

ومما أستحسن من أبيات اللغز فى هذا الباب قولهم فى المشارط :

وخضراء لامن بنات الهديلِ يُلَفَّف بالسَّير مِنْقَـــارُها
كأنَّ مشق عيون القطا إذا هنّ هوَّمن آثارُها

آخر :

وكان جَـدّى هراش فى كتابته من أكتب الناس ياهرون بالألِف

يعنى آثار التشريط تبقى كصور الألفات .

وقال آخر :

يابنَ مَنْ يكتب فى الأرْ قاب من غير دَوَاةِ
لم يكن يكتب فيها غير خطِّ الألِفات

وقال ابن كناسة يخاطب إبراهيم بن سيابة :

يابن الذى عاش غير مضطهدٍ ... يرحمه الله أيّما رَجُـــلِ
له رقاب المـــلوك خاضعةٌ ... من بين حافٍ منهمُ ومنتعلِ
أبوك أوْ هى النَّجادَ كاهلُه ... كم من كَمِيٍّ أدمى ومن بَطَلِ
يأخذ من مالِه ومِنْ دَمِه ... لَمْ يُمسِ من ثأرِه على وَجَلِ
فى كفِّه صارمٌ يقلِّبه ... يقـدُّ أعناق سَادةٍ نُبُلِ

وأخذ صاحبُ الشرطة رجلاً فى ريبة ، فقال : أصلحك الله : احفظ فىَّ الأبوَّة ، وقال:

أنا الذى لا تنزل الدهرَ قِدْرُه ... وإن نزلت يوماً فسوف تعودُ
ترى الناس أفواجاً إلى ضوء ناره ... فمنهم قيامٌ حولَها وقُعُـــودُ

فأَمر بتركه ، ثم أُخبر أنَّ أباه باقلانىّ ، فقال: لو لم نتركه إلّا لأدبه وحسن تخلُّصه من الكذب لكان فعلنا سداداً .

وكان بالمدينة فتًى أبوه مغنٍّ وأمُّه نائحة ، فأَغضبه إنسان ، فقال : أتُغضِبنى وأنا ابن الطَّرَب والحرَب !

وقال ابن عباس المصرى يذكر غلاماً جميلاً ، والحجام يأْخذ من شعره فى الحمام:

مزينٌ انـبرى لظـــبيٍ ... كأنه البدر فى سُجُوفِهِ
كانَّ موساه وهولمّـا ... نَضَى بها الشَّعر فى وقوفِهِ
كيوان فى كفِّه حسام ... يخلِّص البدر من كسوفِهِ

ولبعضهم يمدح حجاماً :

إن المزين إنسانٌ صناعتـه ... تعلو الصَّنائع إذ ما مثلها صُنِعَتْ
ألا ترى أنه لا يُنْـــتراب به ... وآله الموت فى صندوقِهِ جُمِعَتْ

رفع المسهم

يخلو مع الملك المرهوب جانبهُ ... فيما إليه ضرورات الأمور دعتْ
تعلو أنامله فى حين خلوته ... مواضعاً لو عَلَتْها غيرها قطعت

وقال السَّرى فى مزين محسن :

هل الحِذْقُ إلا لعبد الكريم ... حَوَى فضلَه حادثاً عن قديم[1]
إذا لمع البرق فى كفِّه ... أفاض على الرأس ماء النَّعيم
جهولُ الحُسَام ولكنَّهُ ... يروح ويَغْدُو بكفّ عَليم
له راحةٌ سيرها راحةٌ ... تمرّ على الرأس مرَّ النسيم
نعِمْنَا بخدمتهِ مُذ نشا ... فنحن به فى نعيم مقيم

وله فى طبيب :

أوضح نهج الطبّ فى معشر ... ما زال فيهم دارس الرَّسْم[2]
كأنّه من لُطْف أفكاره ... يجول بين الدَّم واللَّحْم
إن غضبت روحٌ على جسمها ... ألّف بَيْنَ الرُّوح والجسم

وفى ضده لأبى نصر كشاجم :

عيسى الطبيب تَرَفَّقْ ... فأنت طوفان نوح
بأبى علاجك إلا ... فراق جسمى وروحى
شتان ما بين عيسى ... وبين عيسى المسيح
فذاك محيى مماتٍ ... وذا مميت الصحيح

وللخوارزمى :

أبو سعيد راحل للكرام ... ومنسف ينسف عمر الأنامْ
لم أره إلا خشيتُ الردى ... وقلت : يا روحى عليك السلامْ

(١) ديوانه ٢٤٧
(٢) ديوانه ٢٥٥

يبقى ويفنى الناس من شؤمه قوموا انظروا كيف نجاة اللئام
ثم تراه آمناً سالماً يا ملك الموت إلى كم تنام

وللسَّرِيّ :

هل للعليل سِوَى ابن قُرَّة شاف بعد الإله وهل له من كافِ[1]
فكأنه عيسى بن مريم ناطقاً يهب الحياة بأيسَرِ الأوْصَافِ
مثلت له قارورتى فرأى بها ما اكتنَّ بين جوانحى وشغافِى
يبدو له الدواء الحقُّ كما بدَا للعين رضراض الغدير الصافى

وكثرةُ الكلامِ وَقْفٌ على أهل الحجامة ، ولذلك عَرَفَ الحريرىُّ بين الشيخ وابنه ما تقدَّم فى هذه المقامة . وكان الفقيه الأعمش أكثرَ الناس تبرُّماً إن أعاد أحد عليه سؤالا انتهره ، وأخطأ يوماً على قوم ، فقالت لهم امرأته من وراء الستر : احملوا عنه فوالله ما يمنعه من الحج منذ ثلاثين سنة إلا مخافة أن يظلم كريّه أو يشتم رفيقَه ، وكثر عليه الشَّعر فقال له تلامذته : لو أخذت من شَعْرك ؟ فقال : لا نجد حجاماً يسكُت . قالوا له : نأتيك به ، ونأخذ عليه أن يسكُت حتى يفرغ ، قال : افعلوا . فأُتِيَ بحجام ووُصِّيَ ألّا يكلمه ، فبدأ بحلقه ، فلما أمعن سأله فى مسألة فنفض ثيابه ، وقام بنصف رأسه محلوقاً ، حتى دخل بيته ، فأخرج الحجّام . وأُتِيَ بغيره ، فقال : والله لا أخرج إليه حتى توصُّوه ، وتحلِّفوه ، فحلف ألّا يسأله فى شىء ، وحينئذ خرج إليه .

ومقامة الحجام فى البديعية ، منها قال عيسى بن هشام : فطلبت حجاماً فجاءوا برجل نظيف ، ظريف لطيف ، فارتحت إليه ، وسلَّمت عليه ، فقال لى : السلام عليك ، مِنْ أىِّ بلد أنت ؟ فقلت : من مصر ، فقال لى : حيَّاكَ الله ، من أرض

(١) ديوانه ١٧٤

رفع المسهم

النعمة والرفاهة ، وبلد السنة والجماعة ، ولقد حضرت فى رمضان جامعها ، وقد اشتعلت المصابيح ، وأقيمت التراويح، فما شعرنا إلا بمدِّ النيل ، قد أتى على تلك القناديل ، ولكن صنع الله لى بخف ، كنت لبسته رطباً فلم يحصل طرازه على كمّه ، وعاد الصبيُّ إلى أمّه ، بعد أنْ صلّيت العتمة ، واعتدل الظلُّ ، ولكن كيف كان حجُّك ، هل قضيت مناسكه كما وجب ، وصاح الصبيان : العجب العجب، فنظرت إلى المنارة،وما أهون الحرب عند النَّظَّارة ووجدت الهريسة على حالها ، فعلمت أنَّ الأمر بقضاء من الله وقدر ، وإلى متى هذا الضجر ، واليوم وغد ، والسبت والأحد ، ولم أكثر وأطيل ، وما أكثر القال والقيل ، وإن أردت أن تعلم المبرِّد حديد الموسَى فى النَّحو فلا تشتغل بقول العامة ، فلو كانت الاستطاعة قبل الفعل لحلقت رأسك ، فهل ترى يا سيدى أن ابتدئ؟

قال عيسى : فبقيت والله متعجِّباً من هَذَيانه ، وسألت عنه فإذا هو أبو الفتح قد غلب السَّواد عليه ، فتركته وانصرفت فهذه غرارة حجام على الحقيقة .

(١) من المقامة الحلوانية ص ٢٣٢ مع تغيير فى العبارة .

رفع المسهم

قال الشيخ الإمام الرئيس أبو محمد القاسم بن على رضى الله عنه :

قد أَوْدَعْتُ هذه المقامةَ بضعةَ عشرَ مثلا من أمثال العرب ، وها أنا أفسر منها ما إخاله يلتبس ، على مَنْ يقتبس .

أما قوله : بُطْء فِعْد ، فهو مولَى عائشة بنت سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، وكانت بعثته بالمدينة ليقتبس لها ناراً ، فقصد من فَوْره مصر ، وأقام بها سنة ، ثم جاءها بعد السَّنة وهو يشتدّ ومعه جَمْر ، فتبدّدَ منه فقال : تَعِسَت الْعَجَلة !

وأمّا ذات النِّحيين فهى امرأة من تَيْم الله بن ثعلبة ، حضرت سوق عُكَاظ ومعها نِحْيا سمن ، فاستخْلَى بها خَوَّات بن جُبَيْر الأنصارى ليبتاعهما منها ، ففتح أحدَهما وذاقه ودفعه إليها ، فأخذته بإحدى يديها ، ثم فتح الآخر وذاقه ودفعه إليها ، فأمْسَكَته بيدها الأخرى ثم غَشِيَهَا ، وهى لا تقدر على الدَّفْع عن نَفْسها لحفظها فَمَ النِّحيين وشُحِّها على السمن . فلما قام عنها قالت له : لا هَنَأَك ، فضُرِب بها المثل فيمن شُغِل ، وهى فى هذا المثل مفعولة ، لأنها شُغِلت . وأكثر الأفعال التى على أفعل تأتى من فعل الفاعل .

وأما قولُه : أَنِفٌ فى السَّماء واستٌ فى الماء ، فيُضْرَب هذا المثل لمن يكبُر مقالا ، ويَصْغُر فَعالا .

وأما قوله : أفْرَغُ من حجّام ساباط ، فَذُكِر أنَّهُ كان حَجَّاماً ملازماً ساباط المدائن يحجمُ الجندىّ بدانقٍ نسيئة ، وربَّما مَرَّتْ عليه بُرْهة لا يقربه فيها أحدٌ فكان يُبْرِزُ أمّه عند تمادى عُطْلَتِه ، فيحجمها لكيلا يقرَّع بالبطالة ، فما زال يحجُمها حتى نَزِف دمُها وماتت .

وأما قوله : يشكو إلى غير مصمت ، فهو مثل يضرب لمن لا يكترث بشأن

صاحبه ، ولا يعبأ باستمرار شكايته ، لأنه لو أشكاه لصَمتَ . وأمسك عن الكلام ، ومنه قول الراجز يخاطب جملا له :

إنّك لا تشكو إلى مصمتْ
فاصبر على الحمل الثقيل أو متْ

ونحو هذا المثل : هانَ على الأَملس ما لاقى الدَّبر .

وأمّا قوله : شغلت شِعابى جَـــدْوَاى ، فالمراد به أنه ليس يفضل عنّى ما أصرِفُه إلى غيرى . والشِّعاب : هى النَّواحى ، واحدها شِعْب .

وقوله : كلّ الحذاء يحتذى الحافى الوقع ، معناه أن المجهود يقنع بما يجد ، والواقع أن نصيب الحجارةُ القدم فتُوهنها . فأما البعير الموقَّع فهو الذى يَكْثر آثار الدّبر بظَهْره .

المقامة الثامنة والأربعون - وتعرف بالحرامية

روى الحارث بن همام عن أبي زيد السَّروجيّ قال : ما زلتُ منذ رَحَلْتُ عَفْسِي ، وارتحلتُ عن عِرْسي وغَرْسي ، أحِنّ إلى عِيانِ البَصْرة ، حَنِينَ المظلوم إلى النُّصْرة ، لِمَا أجْمَع عليه أربابُ الدِّراية ، وأصْحَاب الرِّواية : من خصائص معالِمها ، وعلمائها ، ومآثر مشاهِدِها وشُهدَائِها ، واسألُ الله أن يُوطِئَنى ثَرَاها ، لأفُوزَ بِمَرَاها ، وأن يُعْطِيَنِي قَرَاها ، لأفترِيَ قُرَاها . فلمَّا أحَلَّنيها الحظّ ، وسَرَحَ لى فيها اللَّحْظ ، رأيتُ بِهَا مايملأ العَيْنَ قُرَّةً ، ويُسْلِي عن الأوطان كلَّ غَرِيبٍ ، فظَلْتُ فى بعضِ الأيام ، حين نَصَل خِضابُ الظَّلام ، وهتف أبو المنذِر بالنُّوّام لأخْطُوَ فى خِطَطِها ، وأقْضِيَ الْوَطَرَ من توسُّطِها ، فأدَّانِي الاختراق فى مَسَالِكِها ، والانْصِلاَت فى سِكَكِها ، إلى مَحِلَّةٍ مَوْسُومَة بالاحْتِرَام ، منسوبةٍ إلى بنى حَرَام ، ذاتِ مساجِدَ مشهودة ، وحياضٍ مَوْرُودَة ، ومَبَانٍ وَثِيقة ، ومغانٍ أنيقة ، وخصائصَ أثيرة ، ومزايا كثيرة .

* * *

رَحَلْت ، أى شددتُ عليها الرَّحْل ، والرَّحْلُ : سَرْج النّاقة ، والْعَنَس : الناقة القوية ، شُبِّهت بالعنس وهى الصَّخرة لصلابتها ، قال الليث : إذا تمّ سنُّ الناقة ، واشتدّت قوّتُها وصَلُبَتْ عِظَامها وأعضاؤها فهى عَنَس . عِرْسى : زَوجتى . غَرْسِي : أوْلاَدِى . أحِنُّ : اشتاق . عِيان : معاينة ومشاهدة . خصائص :

ما يختصّ به من الفضائل . معالمها : مواضعها المشهورة . والمآثر : الفضائل والمكارم ، والمأثُرَة : الفَضِيلة يخصّ بها . مشاهدها : مواضع اجتماع أهلها . يوطِّئني ثَراها : يجعلني أطؤها وأمشي عليها ، وأوطأه الشيء : أمكنه من أن يطأه . الثرى : التّراب النديّ . ومرآها : منظرها . يُمْطِيَنِي قَراها : يُرْكِبني ظهرها . أقْتَرِي : أتَتَبَّع . أحلَّنيها : أنزلنيها . الحظّ : السعد . اللَّحظ : العين . قُرة : سُرُور . يسلِي : يُشْغل . غَلَّسْت : خَرَجْتُ في الغَلَس ، وهي ظلمة آخر الليل . نَصَل : زال . هَتف : صاح . أبو المنذر : كُنية الديك ، ويكنى أبا سليمان . أبو هريرة : إنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : « لا تسبُّوا الديك فإنّه يوقظ للصلاة » .

أبو هريرة أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : « إذا سمعتم الدِّيَكة تصيح فإنها رأتْ ملَكاً فاسألوا الله من فضله ، وإذا سمعتم نهيق الحمير ، فإنها رأت شيطاناً فاستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم » .

قال صلى الله عليه وسلم : الديك الأبيض صديقي وإنه يحرس دار صاحبه وسبع دور وكأنّ مستمعه في البيت » .

وقال ابن المعتز ويصف ديكاً :

بشّر بالصبح طائر هَتَفا هاج من اللّيل بعد ما انتَصَفا
مذكّر بالصباح صاح بنا كخاطبٍ فوق مِنْبَرٍ وقفا
صفق إمّا ارتياحه لسنا الفجر وإما على الدّجا أسَفَا

وله :

وصاح فوق الجدار مشترفاً كمثل طرف علاه أسوارُ
ثم غدا يسأل الفرات عن الـ ـأرزاق منه ثغر ومِنْقَارُ
رافع رأسه طوراً وخافضهُ كأنّما العُرْف منه مِنْشَارُ

رفع المسهم

وقال الأسعد بن بليط :

وقامَ بها بُنْعَى الدُّجى ذو شقشقةٍ ... يدير الينابين أجفانه سقطا
إذا صاح أصغى سمعهُ لأذانه ... وبادر ضرباً من قوادمه الإبطا
ومهما اطمأنت نفسه قام صارخاً ... على خيرازنٍ نيط من صُفْرَه خِرَطا
كأن أبو شروان أعلاه تاجَهُ ... وناطت عليه كفُّ مارية القرطا
سَبَى حُلّة الطاوس حسن لباسهِ ... ولم يكفه حتى سَبَى مشية البطا

قوله : أخطو ، أى أمشى . خططها : طرقها . الوطر : الحاجة . توسّطها : المشى فى وسطها . أدّانى : أوصلنى . الاختراق : المشى ، واخترقت البلدة ، إذا قطعت أرضَها بالمشى . والاختراق : المرور والسلوك . والمسالك : الطرق . والانصلات : الخروج بسرعة من زُقاقٍ إلى آخر ، وانصلت السيف : خرج بسرعة . سككها : أزقتها الواحدة سِكّة ، وسمّيت سِكّة لاصطفاف الدور فيها ، ويقال للطريق المستوية المصطفة من النّخل : سِكّة . محلّة : منزلة . موسومة : مُعْلَمة . الاحترام : الامتناع . حياض : جَمْع حَوْض . مورودة : مقصودة للشُّرْب . مغانٍ : منازل . أنيقة : مُعْجبة حَسَنة . أثيرة : منتشرة لكثرتها . مزايا : جمع مزيّة وهى الْفَضِيلة يختصّ بها الشىء .

* * *

بِهَا ما شِئْتَ مِنْ دينٍ ودُنْيَا ... وجيرانٍ تنافَوْا فى المعانى
فشغوفٌ بآياتِ المثانِى ... ومَفْتونٌ بِرَنَّاتِ الْمَثَانِى
ومضطَّلِعٌ بتلخيصِ المعانِى ... ومطَّلِعٌ إلى تَلْخِيص عانِى
وكم من قارِىءٍ فيها وقارٍ ... أَضَرَّا بالجُفُون وبالجِفَانِ
وكمْ من مَعْلَمٍ للعلمِ فيها ... ونادٍ للنّدَى حُلْوِ المجانِى

ومغـــنًى لا تزالُ تُغَنُّ فيهِ أَغَاريدُ الْغَـــوانِي والأَغَانِي
فصِلْ إنْ شِئْتَ فيها بُصَـــلِّي وإمَّا شئتَ فادْن من الدِّنانِ
ودونَكَ صُحْبَةَ الأَكْياسِ فيها أو الكاساتِ منطلِقَ الْعِنَانِ

* * *

تنافَوْا : تباعَدُوا . مشغوف : مولع شديد الحبّ . المثانى : أمّ القرآن ، وقيل السَّبْع الطوال من أوّل القرآن . ورنات : أصوات . المثانى : أوتار عود الغناء . مصطلع : قوىّ . التلخيص : تهذيب الشىء وتخليص فوائده ، وكأنه مقلوب التّخليص . وتخليص عان : افتكاك أسير . قارئ : عابد مكثر لقراءة القرآن ، قار : مطعم للضيف . الجفون : العيون . الجفان : صحاف الطّعام ، يريد أن هذا أضرّ بجفونه بكثرة النّظر فى الورق قارئًا ما فيها وهذا بجفانه لإطعام ما فيها . مغنى : منزل . تغنّ : تصوّت . أغاريد : أصوات . الغوانى : جمع غانية ، وهى المرأة الجميلة . الأغانى : جمع أغنيّة ، وهى ما يتغنّى به . الدّنان : خوابى الخمر . دونك ، أى الزم . الأكياس : أهل الفِطْنة والتدبير . منطلق العنان : مسيب مسرّح .

* * *

قال : فبينما أنا أَنفضُ طُرَقَها ، وأستشِفّ رَوْنَقَها ؛ إذْ لمحتُ عند دُلُوكِ بَرَاحِ ، وإظلالِ الرَّواح ، مسجداً مشتهراً بطرائفه ، مُزْدَهِراً بطوائفِه ، وقَدْ أجْرَى أهلُه ذكرَ حُروف الْبَدَل ، وجَرَوْا فى حَلْبَةِ الْجَدَل ، فعُجْتُ نحوهم ، لِأَسْتَمْطِر نَوْءَهم ، لا لأقتبِسَ نَحْوَهم ، فلم يَكُ إلاّ كَقَبْسَةِ الْعَجْلان ، حتَّى ارتفعَتِ الْأَصْوَاتُ بالأَذَان ، ثم رَدِف التأذينَ بروزُ الإمام ، فأغْمِدَتْ ظُبَى الكلام ، وحُلَّت الحُبَى للقيام ، وشُغِلْنَا

بالقنوت ، عن اسْتِمْدَاد القُوت ، وبالسُّجُود ، عن استِرْالِ الجُود . ولمّا قُضِيَ الفَرْض ، وكَادَ الجَمْعُ يَنْفَضّ ، انبرَى من الجماعة ، كَهْلٌ حُلْوُ البَرَاعة ، له مع السَّمْتِ الحَسَن ، ذلاقةُ اللِّسَن ، وفَصَاحةُ الحسن . وقال : يا جيرتى ، الذين اصْطَفَيتُهُمْ على أغصان شَجرَتى ، وجَعلتُ خِطَّتَهم دَارَ هِجْرَتِى ، واتَّخَذْتُهم كُرسِى وعَيْبَتِى ، وأَعْدَدْتُهُمْ لحضرِى وغَيْبَتِى ، أما تعلمون أنّ لُبوس الصِّدق أبهى الملابس الفاخرة ، وأنّ فُضوح الدنيا أهونَ من فضُوح الآخرة ، وأنّ الدِّين إمحاضُ النّصيحة ، والإرشادَ عُنوان العقيدة الصحيحة ، وأن المستشار مؤتمن ، والمسترشِد بالنُّصح قَمِن .

* * *

انْفَضْ طرفَها ، أى أمشى بها وحدى ، يقال : جاء فلان ينفضُ الطَّريق . إذا جاء وحده وقالت الجهنّية :

يرد المياه حضيرةً ونفيضةً ورْدَ القطاة إذا اسمألّ التُّبّعُ

الحضيرة : الذى يحضر معه غيرُه ، وجمعه الحضائر . والتّبّع : الظلّ . واسْمَألّ : نقص ، ويقال أيضاً : نفضَ المكانَ واستنفضه ، إذا نظر جميعَ ما فيه حتى يعرفه . استشف : استقْصَى النظر . رونقها : حسنها . لحت : نظرت . دُلُوك بَرَاح : زوال الشمس ، وبَرَاح من أسمائها مبنى على الكسر . عبد الله بن مسعود . دُلُوكها : غروبها . أبو عبيدة : دلوك الشمس زوالُها وميْلُها ، وهو قول ابن عباس الأزهرىّ هذا القول أصحّ عندى ، وقيل : دُلُوكها ، من زوالها إلى غروبها .

ويدلّك هذا الوصفُ على أنّ البصرة من نهاية العظم والكِبَر على جانب عظيم ، لأنه زعم أنّه خرج فى الغلَس ، وبقِىَ يمشى فى أزقّتها إلى الظهر . ويقال

إنها فى آخر الدولة الأموية كسرت فوجد فى طولها فرسخان ، وفى عرضها فرسخ وخمسة أسداس فرسخ .

قوله : إظلال ، أى دنوّ وقُرْب . طرائفه : عجائبه وغرائبه . مزدهراً : مضيئاً بحلَق الفضلاء والعلماء . طوائفه : جماعاته ، وحروف الإبدال يجمعها طال يوم أنجدته . والحلْبة : جماعة الخيل فى الطَّلَق تجرَى ليُختبر عتيقُها من هَجينها . الجدل : الخصام . عجت : ملت . أستمتطر نوءهم : أطلب معروفَهم ، والنَّوء طلوع نجم من المنازل وسقوط آخر يقابله . أقتبس : آخذ ، وقبسة العجلان . أخْذَة القبس ، وهو شعلة من نار يقتبسها من مُعْظَم النار . رَدِف : تبع وجاء بعده ، قال تعالى : ﴿ رَدِفَ لَكُمْ ﴾[1] ، أى جاء بعدكم ، وأردفت الرجل جئت بعدَه . ابن الأعرابى : ردفت الرجل وأردفته ولحقته وألحقته بمعنًى واحد . القُنُوت : الطاعة ، وهو أيضاً طول القيام فى الصلاة . ابن الأنبارى : القنوت أربعة أقسام : الصلاة وطول القيام وإقامة الطاعة والسكوت . استمداد : طلب أن يمدّوه بالقُوت وهو الاستنزال . ينفض : يتفرق . انبرى : ظَهَر وقام بسرعة . كهل : تامّ الخلْق . السَّمْت : الوقار . ذلاقة : حدّه . اللَّسَن : حدّة اللسان ، وتقدم الحسن فى الأربعين . اصطفيتهم : اخترتهم . أغصان شجرتى : بنى عمّى وقَرابتى وأولادى . خُطَّتهم : بلدتهم ، والمهاجِر عند العرب : المستقبل من البادية إلى الحاضرة . ودار هجرتى : موضع سكناى الذى هاجرتُ إليه . كَرِشى : أهلى . عيبتى : خاصّتى الذين أنفرد بهم . وعيْبة الرجل : موضع سرّه . وكَرِشه : عياله . والعيبة : وعاء يجعل فيه المتاع ، والكرش مثلها ، والكرِش الجماعة من الناس ، والكرش أيضاً لكل مجترّ من البهائم بمنزلة المعدة من الإنسان ، فساق الكرِشَ والعيبة على جهة المثل وإنهم موضع سرّه ، وقال صلى الله عليه وسلم : « الأنصار كرِشى وعيبتى » ، قيل : موضع سرّى ، وقيل مدادى لأنّ ذات الكرش تستمد

(١) سورة النمل ٧٢

من كَرِشها . الفضوح والفضيحة : الشّهرة . إمحاض : إخلاص . الإرشاد : الهداية . عنوان العقيدة : دليل البواطن والمعتقدات . والمستشار : الذى تستشيره فى رأيك. مؤتمن : قد أمن على الأسرار والنفوس ، لايخون فيها ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ما ندم مَنِ استشار ، ولا شَقِىَ مَن استخار » وقال بشار :

إذَا بلَغ الرأىُ المشورةَ فاستعنْ ... برأى نصيحٍ أو مشورةِ حازِمِ[1]
ولا تجعل الشّورى عليك غضاضةً ... فإنّ الخوافى رافداتُ القوادِمِ
وما خير كفٍّ أمسك الغلّ أختها ... وما خير سيفٍ لم يؤيَّدْ بقائم
وخلّ الهوينَى للضعيف ولا تكُنْ ... نئوماً فإنّ الدهرَ ليس بنائم
وحارب إذا لم تُعْطَ إلاّ ظُلامَةً ... شَبَا الحرب خيرٌ من قبول المظالم

وهى قصيدة طويلة ، قالها فى إبراهيم بن عبد الله ، فلمّا قُتِل صرفها إلى المنصور فى أبى مسلم ، وكان بشّار يقول: المشاور على إحدى الحسنيين : صواب يفوز بثمرته ، وخطأ يشارَك فى مكروهه وقال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿وشاوِرْهُمْ فِى الأمْرِ﴾[2]، لما فى ذلك من الائتلاف ، وهو أغنى الناس عن المشورة وقال ابن المعتز :

تجاوز عن إساءة كلّ دَهْرٍ ... وصاحب يوم حادثةٍ بصَبْرِ
وإن نابتك نائبةٌ فشاور ... فكم حمِد المشاورُ غِبَّ أمرِ
وقسِّم همّ نفسك فى نفوسٍ ... ولا تنفردَنْ بطول فِكْرِ
إذا كظَّ الفرات بماء مدّ ... أغصّ به حلاقِمَ كلّ نَهْرِ

قال عيسى بن علىّ : ما زال المنصور يشاور فى أمرِه ، حتى قال فيه ابنُ هَرْمة :

إذا ما أراد الأمر ناجَى ضميرَه ... فناجى ضميراً غير مختلف العقْلِ[3]

(١) مختارات البارودى ٤ : ٤ (٢) سورة آل عمران ١٥٩
(٣) ديوانه ١٧٩

ولم يترك الأدنين فى كلّ أمره إذا اختلفت بالأضعفين قُوَى الحبلِ

وأنشد الجاحظ :

لَيْت هِنْداً أنجزتنا ما تَعِدْ وشفت أنفسَنا مِمَّا تَجِدْ[1]

واستبدّتَ مرّة واحدةً إنّما العاجزُ مَنْ لا يستبدّ

ثم قال : ولا أعلم الموصوفَ بالاستبداد إلا مجهّلا مذموماً ، والمثل السائر على الأفواه :

وما العجزُ إلاّ أن تشاور عاجزاً وما العزم إلّا أن تهمّ وتفعلا

وقال سعد بن ناشب :

إذا همّ ألقَى بين عَيْنَيْه عَزْمَهُ ونكّبَ عن ذِكْرِ العواقبِ جانبا[2]

ولم يستشر فى رأيه غيرَ نفسِه ولم يرض إلا قائم السَّيْفِ صاحِبا

وقال ابن رشيق فى أدب قوله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فى الأمْرِ ﴾ :

أشاور أقواماً لآخذ رأيَهم فليوْن عنّى أعيناً وخُدُودَا[3]

وليس برأيى حاجة غيرَ أنّنى أؤنّسه كيْ لا يكون وَحيدَا

ولا أنا ممن يبعث السَّهمْ رَامياً إلى غرض حتى يكون سدَيدَا

فلا يتّهِمْ عقلى الرّجال فإننى أعرّفهم أنّى خُلِقْتُ وَدودا

وأنشد الحريرى بيتى بشار فى درّة الغواص[4] على أن قول الخواص مشْوَرَة بوزن مفعله خطأ وإنما هى مَشُورة بوزن مَعُونة ومَثُوبة مثل مكرمة من الصّحيح ، فنُقِلت حركة الواو إلى ما قبلها فسكنتْ ، واختلف فى اشتقاقها فقيل : هو من شُرْتُ العسل أشُوره إذا جنيتَه، فكأن المستشير يجنى الرأى من

(١) لعمر بن أبى ربيعة، ديوانه ٣٠

(٢) لسعد بن ناشب ، ديوان الحماسة — بشرح المرزوقى ٦٧

(٣) نقله الميمنى فى التنف ٢٤ (٤) درة الغواص ٢٨

رفع المسهم

المشير ، وقيل من شُرْت الدابّة إذا أجريتَها مقبلة ومدبرة لتختبرها ، والاشتقاقان متقاربان . المسترشد : السّائل أن يُرشَدَ . قِمن : حَقِيق .

* * *

وأنّ أخاك هُوَ الّذِى عَذَلكَ ، لا الّذِى عَذَرك ، وصديقك مَنْ صَدّقَكَ ، لا مَنْ صَدّقَك ، فقال له الحاضرون : أيُّها الخِلُّ الودُود ، والخِدْنُ المَوْدُود ، مَا سِرُّ كلامِك المُلغز ، ومَا شرحُ خطابك الموجَز ؟ وما الّذى نبغيه منّا ليُنْجزَ ، فوالّذى حبانَا بمحبّتك ، وجَعَلَنَا من صَفْوةِ أحبّتكِ ، مَا نَأْلُوك نُصْحاً ، وَلَا نَدَّخِر عنك نَصْحاً ، فقال : جُزيتُم خيراً ، ووُقيتم ضيرًا ، فإنّكُمْ مِمَّنْ لا يَشْقَى بِهِمْ جليس ، وَلَا يَصْدرُ عَنْهُمْ تَلْبِيس ، ولاَ يخيَّب فيهم مَظْنُون ، ولا يُطْوَى دونَهُمْ مَكْنُون ، وسأبُثُّكمْ ما حالَ فى صَدْرِى ، واسْتَفْتيكم فِيمَا عِيلَ فِيهِ صَبْرِى .

* * *

عَذَلك : لَامَك . صَدَقك : قال الصدق ، كأنه أراد أن الصديق إنما سُمِّىَ صَدِيقاً لصدقه لصاحبه ، يريد أنّ أخاك هو الذى يلومُك ويقبِّح لك سوءَ فعلك ومَنْ حسَّن عذرك فى ذلك ، فليس بصديقٍ ولا أخ ، مثل ما حَكَى الأصمعىّ ، قال : سمعتُ أعرابيًّا يقول لأخٍ له : اعلم أنّ الناصح لك المشفِق عليك ، مَنْ طالع لك ما وراء العواقب برويّته ونظره ، ومثّل لك الأحوال المخوفة ، وخلَط لك الوعر بالسّهل من كلامه ومشورته ، ليكون خوفُك كفءَ رجائك ، وشكرك إزاء النعمة عليك ، وأنّ الغاشّ لهواك والحاطب عليك من مَدّلك فى الاغترار ، ووطّأ لك مهاد الظّلم ، تابعاً لمرضاتك منقاداً لهواك ، وقال الشاعر فيمن لا يقبل النصح :

رفع المسهم

إذا ما حديث امرأً مخطئاً أضل السّبيلَ إلى قَصْدِهِ
فلم تلفِه سامعاً قابلاً فحسنٌ له المشيَ فى ضِدّه

الخِلّ : الخليل . الودود : الصاحب الكثير الودّ . الخدن المودود : الصديق المحبوب . اللغز : المبهم الخفىّ . الموجز : المختصر . تبغيه : تطلبه . ليُنْجَز : ليفعل فى الحين . حبانا : اختصّنا . صفوة : خيار . نألوك نصحاً : نقصّر فى نصيحتك . ندّخر : نرفع ونخبأ . نضحاً : عطية ندفعها لك ، مأخوذ من النّضح وهو الشرب القليل دون الرىّ . والنَّضْح أيضاً : الرشّ بالماء . وقيتُم ضيراً : كفيتم الضّر . يَصْدر : يرجع . تَلْبيس : التباس وتخليط . لا يخيّب فيهم مظنون ، أى ما ظن فيهم من النّصح والمعاونة موجودة فيهم غير مفقودة . مكنون : مستور . يُطْوَى : يُحجَب ويستتر . أبثّكم : أنشر لكم وأظهر . حاك فى صدرى : أثّر فيه واحتكّ به . عيل : غلب ، وعالنى الشىء عَوْلًا : غلبنى وثقُلَ علىّ .

* * *

اعلموا أنّى كنتُ عِند صُلود الزَّنْد ، وصُدود الجَدّ ، أخلصتُ مع اللهِ نيّة العَقْد ، وأعطيتُه صَفْقَة العَهْد ، على ألّا أسبأ مُداماً ، ولا أُعاقِر نَدامَى . ولا أحْتَسِى قَهْوَة ، ولا أكْتَسِى نَشْوَة ، فسوّلتْ لى النَّفْسُ المُضِلّة ، والشَّهْوة المُذِلّة المُزِلّة ، أنْ نادَمْتُ الأَبطالَ ، وعاطَيْتُ الأَرْطَال ، وأَضعْتُ الوَقار ، وارْتَضَعْتُ العُقار ، وامْتَطَيْتُ مَطَا الكُمَيت ، وتَناسَيْتُ التَّوْبَة تناسِيَ المَيْتِ ، ثم لمْ أَقْنَعْ بها تِيكُمُ المَرّة ، فى طاعة أبى مُرّة ، حتى عكفتُ على الخُنْدَرِيس ، فى يوم الخميس ، وبِتُّ صَرِيع الصَّهْباء ، فى الليلة الغرّاء ، وهأَنَا بادِى الكآبة ، لِرَفْضِ الإِنابة ، نامِى

النَّدَامَة ، لِوَصْلِ المُدَامة ، شديدُ الإشْفاق ، من نقضِ الميثاق . معترفٌ بالإسْرَاف ، فى عَبِّ السُّلاف :

فيا قومِ هل كفّارةٌ تعرِفُونها تُباعِدُ مِنْ ذَنْبِي وتُدْنِي إلَى رَبِّي

* * *

قوله : صُلُود الزّند ، هو ألّا يسمح بالنّار . صُدود الجَـدّ : إعراض السعد ، يريد الأيام التى كنت فيها فقيراً . والعَقْد ، كانت العرب إذا عاهد الرجل صاحبَه عَقَد أصابعه ، ثم صارت المعاهدة باللسان تسمّى عقْداً ، وكان أحدهم يربطُ رَسَن بعيره بخباء مَنْ يستجير به أو يرسل حَبْلَه فى البئر مع حبله ، فيشبكه به ، وكان هذا كله عندهم عَقْداً لا يسلِّم المستجارُ به المستجيرَ إلا لما يسلم ولَده ، وقال حبيب :

بلَى لقـد سلفت فى جاهليّتهمْ للحق ليس لحقّ حرمة عَجَبُ
أن يعلق الدّلو بالدّلو الغريبة أوْ يلامس الطنبَ المستحصدَ الطُّنُبُ

الصَّفْقة : ضربة يد المشترى على يد البائع . أسبأ : أشترى . مُداماً : خمراً . أكْتَسِي نَشْوة : أُظهر سَكْرة . سوّلت : زيّنت وحسّنت . المضِلّة : المحيّرة . الأبطال : فرسان الخلاعة للسنّ . الأرطال : وهى أربعة ، وقال فى ذلك :

سألتُ أخى أبَا عيسى وجبريل له فَضْـلُ
فقلتُ : الخمرُ تُعجبنِي فقال كثيرُها قَتْلُ
فقلت له فقـدِّ رِجْلِي فقال وقوله فَضْـلُ
وجـدت طبائع الإنسا ن أربعةً هى الأصْلُ
فأربعة لأربعـة لكلِّ طبيعةٍ رطـلُ

يذكر هذا الرجل أنه تاب من شرب المسكر ، وعاهد الله ، ألاّ يشرب خمراً ، ثم ارتدّ ورجع لخلاعته .

رفع المسهم

ومثل حالته هذه حالة أبى محمد البصرىّ ، كان تاب وحجّ ، فلما قفل راجعاً بدا له فى شرب الخمر ، فقال :

ألا يا هِنْدُ قد قضَّيت حَجِّى ... فهاتِ شرابَكِ العَطِرَ العجيبا
فقد ذهبتْ ذنوبى بالليالى ... فقومى الآن نَقْتَرِفُ الذّنوبا
خَلَطْنا ماء زمزم فِى حَشانا ... بماء المزْنِ فامتزجا قريبا

وكان أبو القاسم المغربى قد نسك زماناً ، ولبس الصُّوف وترهّب وحجّ ، فعشق غلاماً تركيًّا وهام به ، وتقلّد الوزارة ببغداد وغيرها ، وانتهى فى الجاه إلى الغاية وتملّك الأحرار ، واشترى الغلام التركىّ وقال :

تبدّل من مَرْقَعةٍ ونُسْكٍ ... بأنواع المسك والشُّفوفِ
وعنّ له غلام ليس يحوى ... هواه ولا رضاه بلبس صُوفِ
فهذا أشدّ ما كان انتهاكا ... كذاك الدهر مختلفُ الصُّروفِ

وقال أيضاً :

يا أهلَ مصر قد عاد ناسككمْ ... بالكرخ بعد التُّقى إلى الفَتْكِ
خَمْشَ قلبى مقرطَق غَنِجٌ ... قد بدّ قلبى به من النّسْكِ
رمى فؤادى بسهم مُقْلَتِهِ ... وكيف يُخطِى مولد التُّرْكِ !

وقال كشاجم :

يقولون تُبْ والكأس فى كفّ شادنٍ ... وصوتُ المثانى والمثالث عالى[1]
فقلت لهم : لو كنت أزمعت[2] توبةً ... وأبصرت هذا كلّه لبَدَالِى

(١) ديوانه ١٤١
(٢) الديوان : « أضمرت »

رفع المسهم

وقال الحسن :

كيف النُّزوع عن الصِّبا والكاس ... قس ذا لنا يا صاحِبى بقياسِ[1]
قالوا كَبِرْتَ فقلت ما كبرتْ يدِى ... عن أن تسير إلى فمى بالكأسِ
والرّاح طيِّبة وليس تمامها ... إلا بطيب خلائقِ الجُلّاسِ
وكأنّ شاربها لفرط شَعاعها ... بالليل يكرع فى سَنَا مِقْبَاسِ
وإذا نَزَعْتَ من الغواية فليكنْ ... لله ذاك النَّزْعُ لا للنَّاسِ

قوله : أضعت الوقار ، يريد أنه ضيَّع وقاره فى مجلس اللَّهو ، وقد تقدّم قوله :

وأصفى السرورَ إذا ما الوقورُ ... أماط ستور الحيا واطَّرَحْ

العُقَار : الخمر ، لأنها عاقرت الدنّ ، أى لازمته ، أو لأنَّها تعقر شاربها بثقل السُّكْر . امتطيت : ركبت . مَطَا الكُمَيْت : ظهر الخمر ، وورّى بفرس ، أراد أنّه اعتكف على شربها ، وسُمِّيَت كميتاً لأنها حمراء إلى الكُمْتَة ، وأبو مرة كنية إبليس ، وقد تقدَّم ، وقال الحسن :

نِمْتُ وإبليس إلى الصّبح فى ... كلّ الّذى يؤثِمُنِي خَصْمُ
رأيته فى الجوّ مستعلياً ... ثم هوى يتبعه نَجْمُ
فقال لى لمّا هَوَى مرحباً ... بتائب يتبعه وَهْمُ
هل لك فى غَيْدَاء ممكورةٍ ... يرتجّ منها كَفَلٌ ضَخْمُ !
فقلت : لا ، قال : فنى أغْيَدٍ ... ذى غُنَّة يجرحُه اللَّثمُ
لستَ أبا مرّة إن لم تَعُدْ ... فإن ذا من فعلك الْغَشْمُ

وقال فيه وذكر أنه قاد له غلاماً :

دبّ له إبليس فاقتادَه ... والشيخ نَفَّاعٌ على لعنتِهْ

(١) ديوانه ٢٩٥

عجبت من إبليس فى كبره وخُبْثِ ما أضمر من نيَّتِهْ
تاه على آدم فى سجدةٍ وصار قوّادًا لذرّيتِهْ

وقال سليمان بن الأعمى فى الوليد ، أخو صريع الغوانى :

يأبى السجود له مِنْ فرط نخوته وقد تحوّل فى مِسْلَاخِ قَوَّادِ

وقال ابن رشيق يشكر إبليس :

رأيتُ إبليس مِنْ مُرُوءته لكلِّ ما لا يُطاقُ محتمِلاَ[1]
إذا هويتُ أمراً وأعجزنى جاء به فى الظلام معتقِلاَ
تبذُّلاً منه فى حوائجنا ولا يزال الكريم مبتذلاَ

وقال أيضاً يلعنه :

أرَى الشَّيْخ إبليسَ ذا عِلَّةٍ فلا برئُ الشيخ من عِلَّتِهِ[2]
يقود على الحب مستيقظاً ويأتيك فى الليل فى صُورتِهِ
فيُؤتيك ما شاء من نفسِهِ ويُبلِغ ما شاء من لَذَّتِهِ
ومن كان ذا حيلةٍ هكذا تمثَّل للمرء فى يَقْظَتِهِ
فلا تدَّخروا دونه لعنةً لأنَّ رضا الله فى لَعْنَتِهِ

قوله : عكفت ، أى أقمت ولازمت : الخُنْدَريس : الخمر القديمة ، وإنما ذكر يوم الخميس لأنه يومُ تعرَض فيه الأعمال على الله تعالى وإقدام العبد على الذنوب وقت العرْض على الله تعالى أكبر خطراً . الصَّهْباء : التى عُصِرَتْ من عنب أبيض . الأصمعىّ : هى التى تضرب إلى البياض ، من أبيضَ عُصِرَتْ أو من غيره . صريعها : الذى صرعته بالسُّكر ، يريد أنه بات سكران مطروحاً .

وقال أبو العلاء بن زهر فى سَكارى :

(١) التنف ٥٩
(٢) التنف ١٥

رفع المسهم

وموسَّدِينَ على الأكفِّ خدودَهُمْ قد غالَهُمْ شُرْبُ الصَّبُوح وغالني
مازالت أسقيهِمْ وأشربُ فضلهمْ حتى سكرت ونالهمْ ما نالني
والخمرُ تعرف كيف تأخذ ثأرها إني أملْتُ إناءها فأمالـــني

الغرّاء : ليلة الجمعة . رفض الإنابة : طرح التَّوْبة والرجوع . نامى الندامة : كثير الندم . بادى الكآبة : ظاهر الانكسار والحُزْن وسوء الحال . المُدام والمُدامة : الخمر ، سُمِّيتْ بذلك لأنها أديمت فى ظَرْفِها . الإشفاق : الخوف . نَقْض الميثاق : حلّ العهد . الإسراف : الإكثار . عَبّ : حَسْو ، والعبّ أن يتابع الرجل الجرْعة بعد الجرْعة بغير تنفّس . السُّلاف : الخمر العتيقة ، والسُّلاف والسُّلافة : ما سال منها من غير أن تُعصر ، وهى أفضل الخمر قال الأعشى :

بابلَ لم تُعْصَر فجاءت سُلافةً تخالط قنديدا ومسكا مُختَّما[1]

القِنْديد : الخمر تطبخ ويجعل فيها أفاويه طيب .

[مقاطيع خمرية]

ونذكر هنا جملة من المقاطيع الخمريّات ، نجعلها خاتمة ما قيل فى الخمر .

عزم الواثق على الصَّبوح فقال للحسين بن الضحاك : اكتب إلى الفتح ابن خاقان تدعُوه إلى الصَّبوح ، وكان قد بَرِئَ من مرض ، فكتب إليه :

لمَّا اصطبحتُ وعينُ اللَّهو تَرْمُقُنِي قد لاَح لى باكراً فى ثَوْبِ لَذَّتِهِ[2]
ناديت « فتحاً » وبشرَّت المُدام به لمَّا تخلَّص من مكروه عِلَّتِهِ
ذَبُّ الفتى عن حَرِيم الرَّاحِ مكرمةٌ إذا رآها امرؤ ضـــدًّا لخلقتِهِ[3]
فاعْجَلْ إلينـــا وعجِّل بالسرور لنا وخالس الدهر فى أوقات غفلتِهِ

فسار وأصطبح معه .

(١) ديوانه ٢٩٣ (٢) ديوانه ٣٣
(٣) الديوان : « لخلقه »

وقال الحسين بن الضحاك : دخلتُ على الحسَن بن سهل ، فى فصل الخريف وقد جاد الوسميّ من المطر برشٍّ حسن ، واليوم فى أحسن منظر وأطيبه ، وهو جالس على سرير أبنوس ، وعليه قبّة فوقها طارفة ديباج أصفر ، تشرِفُ على بستان ، وعلى رأسه غلام كالدينار ، فسلّمت عليه فردّ علىّ السلام ، ونظر إلىّ كالمستنطِق ، فقلت :

ألستَ تَرَى ديمـةً تهطُلُ وهـذا صباحُك مستقبَلُ[1]
وهـــذا المدام وقَدْ راعنا بطلعته الشّادن الأكحلُ
فعادَ بنـــا وبه سَكْرَةٌ تهوّن مكروه ما تسألُ
فإنّى رأيتُ له طُرَّةً تخبرنى أنّه يَفْعَـــلُ
وقد أشكل العيشُ فى يومنا فياحبـذا عيشنا المُشْكِلُ

فقال : العيش مشكل ، فما ترى ؟ قلت : مبادرة القَصْف ، وتقريب الإلْف ، قال : على شرط أن تبيت ، قلت : لك الوفاء على أن يكون هـذا الواقف على رأسِك يسقينى ، فضحك ، وقال : ذلك لك على ما فيـه ، ثم دعا بالطّعام والشراب ، ففقدت الغلام ساعة ثم جاء من الحمّام ، فقلت :

جرّده الحمـــام عن درّة تلوح فيها عُـكَنٌ بَضّهْ[2]
كأنّما الرَّشُّ على خـدّه طلٌّ على تفّاحةٍ غَضّهْ
يا ليتَه زوّدنى قُبْـــلةً أولا فمن وجنته عَضّهْ

فقال الحسن : قد عمل فيك النبيذ ، فقلت :

اسْـــقيانى وصرّفَا بنت حَوْلين قَرْقفَا[3]

(١) ديوانه ٩١ ، ٩٢
(٢) ديوانه ٧٠ ، ٧١
(٣) ديوانه ٨١

رفع المسهم

واسْقِيا الأهْيَفَ الغَرِيـــر سَقَى اللهُ أهْيَفَا
بأبى ماجن السريـــرة يبـــدى تَعَطُّفَا
فإذا رمت منه ذا لـ ك تأبَّى وَعَنَّفَا
فإذا همّ للمنـــا م فقـــوماً وخَفِّفَا

فتغاضب الغلام فذهب ، ثم عاد وقال : أقْبِل على شرابك ، ثم ناولنى قدحاً ، والحسَن قد خرج ، فشربت وأعطانى نقلا ، فقلت : اجعل بدله قُبلة ، فأَبى ، فقال له فرج غُلام الحسن : بحياتى يابنىّ ، أسعفه بما طلب ، فضحك ثم دنا منّى كأنه يعطينى نُقْلا وتغافل ، فاختلست منه قُبْله ، فقال : هى حرام ، فقلت :

هوّنَ الأمْرَ عليـه لى فَرَجْ بتَأتِّيهِ فَسَقْياً لِفَرَجْ[1]
وبنفسى نفس مَنْ قال وقدْ كان ما كان: حرامٌ وحَرَجْ

ثم اشتهر الصبح ، فخرجت ثم عدت للحسن من غدٍ ، فقال : كيف كان مبيتُك يا حسين ؟ فقلت :

تألفتُ طيفَ غزالِ الحرَمْ فواصلنى بعد ما قد صرَمْ[2]
فغضّ الجفون على خجْلَةٍ وأعرض إعراضةَ المحتشِمْ
فمـــا زلتُ أبسُطه مازحاً وأُفرط فى اللّهْوِ حتَّى ابتَسَمْ
وحكَّمنى الرِّيم فى نفسه بشىء ولـكنّه مُـكْتَتَمْ

فقال : يا فاسق ، أظنّ ما ادّعيتَه فى النوم وكان فى اليقظة ؟ وأصلَحُ الأشياء بنا أن نَرْحَضَ العار عن أنفسنا بهبتِه لك ، فخذه لا بارك الله لك فيه ، فأخذته وانصرفت .

(١) ديوانه ٨١ ، ٨٢
(٢) ديوانه ٩٤

وقد تقدّم فى هـذا الكتاب من كلام الحُسين ما يفوق به كلّ شاعر ، وهو القائل :

أخِرْنِي فإنّى قد ظمئتُ إلى الوعدِ ... متى يُنجز الوعد المؤكّد بالعَهْدِ![1]
أعيذك من خُلْفِ الملوك وقد تَرَى ... تقطّع أنفاسى عليك من الوجْدِ
أيبخلُ فَرْدُ الحسن عنّى بنائلٍ ... قليل وقد أفردته بهوًى فَرْدِ !

وهذا منتهى ما أوردته للحسين من العجائب .

دخل علىّ بن الجهم على عبد الله بن طاهر فى غَدْوة الربيع ، وفى السماء غيم رقيق ، والمطر يجىء قليلا ، ويسكن قليلا ، فغاضبتْه جارية له ، فانتقض عزمه فخبّر ابنَ الجهم بذلك ، فأراد تنشيطه فدخل عليه فأنشده :

أما ترى اليومْ مَا أحلَى شمائلَه ... صحوٌ وغيمٌ وإبراق وإرعادُ[2]
كأنه أنت يا مَنْ لا شبيهَ له ... وصلٌ وهجرٌ وتقريبٌ وإبعادُ
فباكِرِ الرّاح واشربْها مُعَتَّقَةً ... لم يدّخر مثلها كسرى ولا عادُ
واشرب على الرَّوْضِ إذْ لاحتْ زخارفه
زَهْرٌ ونَوْرٌ وأوراق وأورادُ
كأنما يومنا نعل الحبيب بنا ... بذل وبُخلٌ وإبعاد وميعادُ
وليس يذهب عنى كلّ فعلِكمُ ... غىّ ورشد وإصلاح وإفسادُ

فاستحسنها وأمر له بثلثمائة دينار وحمله وخلع عليه .

وقال على أيضاً :

الوردُ يَضْحَكُ والأوْتَارُ تصطخب ... والناى ينـدب أحياناً وينتحبُ[3]

(١) ديوانه ٤٦
(٢) ديوانه ١٢٢
(٣) ديوانه ١٠٥

رفع المسهم

والراح تُعْرَض فى يوم الربيـــع كما تُجْلَى العروسُ عليها الدرّ والذهب
وكلما انسكبت فى الكأس آونةً حسبت أن شُعاع الشَّمْسِ يَنْسَكِبُ

وقد مرّ من كلام ابن الجهم كلٌّ بديعٍ ، فى نظمه رفيع ، وآخر شعر قاله وهو أحسن ما قيل فى معناه :

يا رحمةً للغريب فى البلد النّـــازح ماذَا بنفْسِهِ صَنَعَا[1]
فارق أحبابه فمـــا انتفعوا بالعيْش من بعده ولا انتفَعَ
يقولُ فى نأيه وغربتِه : عَدْلٌ منَ اللهِ كل ما صَنَعَ

وكان هجاء لعلى بن أبى طالب ، وسمعه يوماً أبو العيناء يطعن على علىّ فقال له : أنا أدرى لم تطعن على أمير المؤمنين ، قال : أتعنى قصّةَ بيعة أهلى ، قال : لا ، أنت أوضع من ذلك ولكن لأنه قتل الفاعل [فعل] قوم لوط وأنت أسفلهما . وقال البحترى فيه :

إذا ما حُصِّلتْ عُلْيـــا قريشٍ فلا فى العـــيرِ أنتَ ولا النفيرِ[2]
ولو أعطاك ربّك ما تمـــنَّى لزاد الخلـــق فى عِظَمِ الأيورِ
علام هجوت مجتهـــداً عليًّا بما لفَّقتْ من كذبٍ وزورِ
أما لك فى استك الوجْعاء شغلٌ يكف أذاك عن أهـلِ القبورِ

وقال ابن القناص كاتب سيف الدولة :

قُمْ فاسقِنى بين خفْق النّايِ والْعُودِ ولا تَبِـعْ طيبَ موجود بمفقودِ
كأساً إذا أبصرتْ فى القوم محتشماً قال السرور له قُمْ غـــيرَ مطرودِ
نحنُ الشهود وخفْق النّـاى خاطبنا يزوّج ابْن سحابٍ بنتَ عَنْقودِ

(١) ديوانه ١٥٤
(٢) ديوانه ١٠٣٨

وقال المصحفى :

صَفْراء تطرقُ فى الزُّجاج فإن سَرَتْ ... فى الجسم دبَّتْ مثل صلّ اللّادغِ
خفيتْ على شرّابها فكأنّهم ... يجدُون ريًّا فى إناء فارغِ

إدريس بن اليمانى :

ثقلَتْ زجاجاتٌ أتتنا فُرَّغاً ... حتى إذا مُلِئَتْ بصرْف الرَّاح
خفّتْ فكادت أن تطير بما حَوتْ ... إن الجسُوم تخفُّ بالأَرْواح

ابن المعتز :

ونَدْمانٍ سُقِينَ الرَّاحَ صِرْفاً ... وأُفْقُ اللَّيْلِ مُرْتَفِعُ السُّجُوفِ
صَفَتْ وصَفَتْ زجاجتها فأضْحَتْ ... كمعنًى دقَّ فى ذهنٍ لطيفِ

وله ، وهو مما يتصل بأبيات الديك المتقدمة :

فاشرب عُقَاراً كأنّها قَبَسٌ ... قد سَبَكَ الدَّهْرُ تبرَها فصَفَا
ترَى النَّدامى الإبريقَ من دَمِها ... كأنه راعفٌ وما رعُفَا

ولبعضهم :

ما زال يشربُها وتشرب عقلَه ... خَبْلًا وتُؤْذِنُ رُوحَهُ برواح
حتى انثنَى متوسِّداً بيمينه ... سكراً وأسلم رُوحَه للراح

وقال النظام :

ما زلت آخذ رُوح الرِّق فى لطفٍ ... وأستبيح دماً من غير مَجْرُوح
حتى اثنيتُ ولى روحان فى جَسَدِى ... والرِّقّ مطَّرح ، جِسمٌ بلَا رُوح

أخذه أحسن أخذ من بَشّار حيث قال :

شربْنا من فؤادِ الرِّق حَتّى ... تركنا الرِّق ليسَ له فُؤادُ

وقال ديك الجن :

وقم أنت فاحثث كأسنا غير صاغر ... ولا تسق إلّا خمرها وعُقارها[1]
فقام تكاد الكأس تخضب كفّهُ ... وتحسبه من وجْنَتَيْه استعارها
موردّةٌ من كفّ ظبيٍ كأنّما ... تناولها من خدّه فأدارها
ظَلِلْنَا بأيدينا نقعقع روحَها ... فتأخذ من أقدامنا الرّاحُ ثارَها

وقال حبيب :

وكأسٍ كمعسول اللّماء شربتُها ... ولكنّها أجْلَتْ وقد شربت عقلي[2]
إذا عُوتبت بالماء كان اعتذارُها ... لهيباً كوقع النّارِ بالحطَبِ الجزلِ
إذا اليدُ نالتْها بوتر توقّرَتْ ... على ضِغْنِها ثم استقادت من الرِّجل

وقال الحسن :

وصفراء قبل المزْج بيضاء بَعْدَهُ ... كأنّ شُعاع الشّمسِ يَلْقاكَ دُونَها[3]
ترَى العينَ تستعفيك من لمعانِها ... وتحمرّ حتى ما تقلّ جفونَها
كأن يواقيتا رواكدَ حولَها ... وزُرْقَ سنانيرٍ تُدِير عُيونَها

وللخوارزمي :

وصفراء كالدّينار بنت ثلاثة ... شمال وأنهارٌ ودهر تحرّمُ
مسرة محزونٍ، ورَغْدُ معربدٍ ... وكنز مجوسيٍّ وفتنة مُسْلِمِ
يطوف بها ظبي يريدُ عيوننا ... على عينه، من شَرْطِ يحيى بن أكثَمِ

وقال مسلم بن الوليد :

إبريقُنا سلب الغزالةَ جيدَها ... وحكى المدير بقلقليه غَزالا[4]
يَسْقِيك من عَيْنَيْهِ كأس صبابةٍ ... ويُعيدُها من كفّه جِرْيالا

(١) ديوانه ١٠٧
(٢) ديوانه ٤١٩
(٣) نهاية الأرب ٤ : ١١٥
(٤) ديوانه ٢٠٤

وقال أبو ذلامة :

سقانى أبو بترٍ من الرَّاح شربةً لهـــا لذّةٌ ما ذوقُها بشراب
وما طَبخُوها غـــير أنّ غلامهم مَشَى فى نواحى كَرْمِها بشهاب

ولما أنشدها على بن الخليل صاح : أحرقها العبد أحرقه الله !

كان ابن لنـكك أسرعَ الناس سكراً ، فقال فى ذلك :

فَدْيتُكَ لو عِلْمتَ ببعض مَا بِى لمـــا جرّعْتَنِى إلّا بمُسْعِطْ
فحسبك أن كرماً فى جوارى أمرُّ ببابه فأكاد أسقُطْ

قوله : فياقوم هل كفارة تعرفونها ، إنما غيّر بيت أعرابىّ ، أنشد أبو العباس أبياته ، وهى :

فياقوم هـــل كفارة تعرفونها تُباعِدُ من ذنبى وتُدْنى إلى رَبِّى
شكوت فقالتْ كلّ هـــذا تبرُّماً بحبّى أراح الله قلبك من حُبِّى
فلما كتمت الحبّ قالت : لَشدّ ما صبرت وما هذا بفعلِ شَجِى الْقَلْبِ
وأدنو فتُقصينى وأبعـــدُ طالباً رضاها فتعتدّ التّباعد من ذَنْبِى
فشكوايَ يُؤْذِيها وصبرى يَسُوءها وتجزع من بُعْدِى وتنفَر من قُرْبِى
فيا قوم هل من حيـــلةٍ تعرفونها
أشيروا بهـا واستوجبوا الشكرَ مِنْ رَبِّى !

وقال أبو العبر الهاشمى المتحامق :

أبكى إذا غضبت حتى إذا رضيت بكيت عند الرضا خوفاً من الْغَضَبِ
فالموتُ إنْ غَضِبَتْ والمـــوت إنْ رَضِيَتْ
إن لم يُرِحْنِى سُـــلُوٌّ عِشْت فى تعبِ

وأبو العبر على تحامقه جيّد الشعر ، ومن ذلك قوله :

وفى ساعدى ممن تعلقت عَضَّةٌ ... تذكّرنى ذاك الشَّنِيبَ المفلَّجا
وآثار خدشٍ فى يدىّ مليحةٍ ... أقام عليها القلب منى وعرّجا
أما والذى أمسيتُ أرجُو ثوابه ... لقدحلّ ما أخشاه وانقطع الرجا

وله :

داء دافينٌ وهــوًى بادِى ... أظــلم مُجازِيك بمرصادِ
يا واحــد الأمة فى حسنه ... أشْمَتّ فى صدّك حُسّادِى
عبدُك تُحْيِى موتَه قبلةٌ ... يجعلهـــا خاتمة الزّادِ

ولأعرابى فى نحو ما أنشده أبو العباس :

سكتُّ فقالت : لِمْ سَكَتَّ عن الحقِّ ... وفُهتُ فقالت : ما دَعاك إلى النُّطْقِ
فأومأتُ هل من حالةٍ بين ذا وذا ... فقالتْ وذا الإيماء أيضاً من الحُمْقِ
فــلم أرَلِى إذ حَلّتِ الغرب مخلَصاً ... من الشرّ إلا فى المسير إلى الشرقِ
فلمّا أتيتُ الشّرْقَ ألفيتُهـــا به ... وقد قعدتْ لى منه فى أضْيَق الطُّرُقِ

* * *

وعلى ما تقدّم فى وصف الخمر من النظم المستحسن المرغب فى شربها ، فإنه جاء من التحذير فيها ما يوجب تركها على أهل التخصيص والفضل .

من حديث أنس رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « مَنْ شَرِبَ الخمر لم تقبل له صلاةٌ أربعين ليلة فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد الثانية لم تقبل له صلاةٌ أربعين ليلة ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد الثالثة لم تقبل له صلاةٌ أربعين ليلة ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد الرابعة كان حقًّا على الله أن يسقيَه من طينة الخبال » .

ابن الأعرابى : طينة الخبال عُصارة أهل النار فى النار .

وعن ابن عمر أنّ النبى صلى الله عليه وسلم قال: « مدمنُ الخمر كعابد وثن » .

رفع المسهم

قال أبو زيد : فلمّا حلَّ أنشوطةَ نَفْسِه . وقَضَى الوَطَرَ من اشتكاءِ بَثِّه ، ناجتْني نفسي : يا أبا زَيْد ، هذه نُهزةُ صَيْد ، فشمِّرْ عن يدٍ وأيْد . فانتهضتُ مِنْ مَجْثَمِي انتهاضَ الشَّهْم ، وانحرطْت من الصّفِّ انحِراط السَّهْم ، وقلت :

أيُّهـــا الأرْوعُ الّذى فاقَ مَجـــدًا وسُؤْدُدَا
والّذى يبتغِى الرَّشَا دَ لِيَنْجُو بهِ غَـــدَا
إنَّ عِنْـــدى عِلاجَ ما بتَّ منـــه مُسَهَّدَا
فاستمِعْها عجيبـــةً غادرتْنِي مُـــلَدَّدا
أنا مِنْ ساكِنِي سَرُو جَ ذَوِى الدِّين والهُدَى

* * *

قوله : أنشوطة : عُقْدة سهلة تسمِّيها العامة اللّجّ . نفثه : لفظه . الوطر : الحاجة . بثّه : حزنه . ناجتْنى : حدّثتنى . النُّهزة : الفرصة وما أخِذ بلا تعب أيْد : قُوّة : انتهضت : تقدّمت . مجْثَمى : موضع قُعودى . الشَّهْم : الشّديد النفس . انحرطت : اندفعت بسرعة والانحراط التصميم وركوب الرأس . الأرْوع : السَّيِّد . فاق : زاد على غيره فى الفضل . عِلاج : معاناة وطبّ . مسهَّداً : ممتنع النوم . ملدَّداً : ملتفتاً يميناً وشمالا من شدة الخوف .

* * *

كنتُ ذا ثروةٍ بهـــا ومُطـــاعاً مسوَّدا
مرْبَعى مألف الضُّيُو ف ومالِى لَهُمْ سُدَى

أَشترى الحَمْدَ باللَّهَا وأَقِي العِرْض باجْدَا
لَا أُبَالِي بمُنفِسٍ طاحَ فى البذْلِ والنَّدى
أُوقِدُ النَّار باليَفَا عِ إذا النِّكْسُ أَخْمَدا
ويرانى المؤمِّلُو نَ مَلَاذًا ومَقْصِدَا
لَمْ يَشِمْ بارقِ صدٍ فانْثَنَى يَشْتَكِى الصَّدَى
لَا ولَا رَامَ قَابسٌ قَدْحَ زَنْدِى فأَصْلَدا
طَالَمَا ساعَدَ الزَّمَا نَ فأصبَحْتُ مُسْعَدَا
فقضى اللهُ إن يُغَيِّر ما كان عَوَّدَا
بوَّأَ الرُّومَ أَرْضَنَا بعد ضِغْنٍ تولَّدَا
فاستباحوا حَرِيمَ مَنْ صادَفوه موحَّدَا
وحوَوْا كل ما اسْتَسَرَّ بهَا لِي ومَا بَدَا

* * *

ثروة : غنى . مسوَّداً : مقدَّماً للسِّيادة . مربعى : منزلى . مألف : موضع الاجتماع . سُدًى : مهمل . اللّها : العطايا . اليَفَاع : ماارتفع من الأرض . النِّكس : الدنىء . أخمد : أطفأ . المؤمِّلون : الرَّاجون . ملاذ : ملجأ . المقصد : الموضع تقصده يشِمْ بارق : ينظر برق . صَدٍ : عطش . انثنى : رجع . رام : طلب . قابس : طالب النّار . قدح زندى : استخراج ناره . أصلد : وجَده صَلْداً أى شحيحاً . ساعد : وافق . بوّأ : أى أنزل . ضغن : حقد وعداوة . استباحوا : صيّروه مُبَاحاً حريم : عِيال . موحّد : مُسْلِم . حووا : ضموا . استسرّ : خفى . بدا : ظهر .

رفع المسهم

تَطوَّحت : تراميتُ على جهالة وألقيتُ بنفسى للهلاك . طريداً : منفيًّا . مشرَّداً مفزّعاً عند الهرب فاراً .

* * *

أَجْتَدِى النَّاسَ بَعْدَما كنتُ من قبلُ مُجْتدَى
وتُرى بِى خصاصةٌ أَتمنَّى لها الرّدى
والبلاءِ الّذى بِهِ شَمْلُ أُنْسِى تَبَدَّدا
اسْتِبَاء ابنتِي الّتى أَسَرُوها لتُفْتَدى
فاستبِنْ مِحْنتِي ومُدَّ إلى نصرتى يداً
وأَجِرْنى من الزما نِ فقد جارَ واعْتَدَى
وأَعِنِّى على فَكا كِ ابنتى من يد العِدَى
فبِذا تَنْمَحِى المآ ثِمُ عَمّن تمرّدا
وبه تُقْبَلُ الإنا بَةُ مِمَّن تَزَهّدا
وهو كفّارة لَمَنْ زَاغَ من بَعْدِ مااهْتَدَى
ولئن قمتُ مُنْشِدًا فلقد فهتُ مُرْشِدا
فاقبَلِ النُّصْح والهِدَا يَةَ واشْكُرْ لمن هَدَى
واسْمَح الآن بالّذى يتسَنَّى لتُحْمَدَا

* * *

أجتدى : أسأل . خَصَاصة : فقر . الرَّدَى : الهلاك . شَمْل : مجتمع . تبدّد : تفرّق . استباء ابنتى : أخذها أسيرة . اسْتَبِن : تحقّق وتبين . محنتى :

بلّيتى . جار واعتدى : مال وظلم . وفكّ الرقبة وفكاكها : تخليصها من أسر الرّق وكذلك الرهن ، وفى الحديث « اعتق النَّسَمة وفكّ الرَّقبة » قيل : أو ليسا واحداً ؟ قال : لا ، عتق النسَمة : أن تنفرد فى عِتْقها ، وفكّ الرقبة : أن تعين فى عِتْقها ، ابن عباس رضى الله عنهما قال النبى صلى الله عليه وسلم : «مَنْ فَدَى أسيراً من أيدى العدوّ ، فأنا ذلك الأسير». تنمحى ، أى تذهب . تمرّد : أكثر الفساد . الإنابة : الرجوع إلى الله تعالى . تزهّد : ترك الرّغبة فى الدنيا زاغ : مال . فُهتْ : نطقت . مرشِداً : دالاًّ على الخير . اسمح : جُدْ . يتسنّى : يتيسرّ . الفنجديهى : كان ابن قَطَرِىّ قاضى ناحية المزار ، بلد عند البصرة قد تاب من الشرب ، ثم نقض التوبة ، وعاد يشرب ، ثم بعد المعاودة حضر مسجد بنى حَرام يوماً بالبصرة ، وتاب ورجع إلى الله تعالى بصِدْق النّية ، وسأل عن كفارة ذنبه ، وكان فى المسجد رجلٌ يزعم أنّه من أهل سَرُوج ، وله بنت مأسورة فى أيدى الكفّار ، فقال لابن قَطَرِىّ : كفارة ذنبك أن تتصدّق علىّ بشىء أفكّها به ، فأعطاه عشرة دنانير ، فلمّا أخذها منه دخل الحانة .

ثم إن الحريرى أنشأ هذه المقامة الحراميّة فى ذلك فقيل له : هى أحسن من مقامات البديع ، فأنشأ أربعين مقامة ، ثم استزادُوه فكمّلها خمسين .

* * *

قال أبو زيد : فلمّا أتممتُ هذْرَمتِى ، وأُوهِمَ المسئولُ صِدْقَ كلمتى أَغْرَاه القَرَمُ إلى الكرَمِ بمواساتِى ، ورغّبه الكَلَف بحملِ الكُلَف فى مُقَاساتى ، فرضَخَ لى على الخَافِرَة ، ونَضَخ لى بالعِدَةِ الوَافِرة . فانقلبتُ إلى وكْرِى ، فرِحاً بنُجْح مَكْرِى ، وقد حَصَلْتُ مِن صَوْغ المَكيدَة ، عَلَى سَوْغِ الثَّريدة ، ووصَلْتُ مِنْ حَوْكِ القَصِيدَة ، إلى لَوْكِ العَصيدة .

قوله: هذرمتى، أى كثرة كلامى. أوهم: أى خُيِّل له. كلمتى، أى قصيدتى. أغراه، أى حرّضه. القرَم: الشَّهوة. مواساتى: إعطائى. الكَلَف: الحُبّ. والكُلَف: جمع كُلفة وهى ما يُتكلَّف من العمل. رضخ: أعطى. على الحافرة، أى عندما أكملت كلامى، والحافرة: أوّل الأمر، وقيل أنّ أصلها فى بيع الفرس، ولرفعة الخيل عندهم كان لا يفارق البائع حافرَ فرسه، حتى يأخذ ثمنه. نضخ: رفع، ونَضْخُ الماء فورانه من منبعه. الوافرة: الكثيرة. وكْرِى: بيتى، وأصْلُه للطائر. صَوْغ المكيدة: صنعة الكيد. سوّغ: بلَع بسهولة. لَوْك: مضغ.

* * *

قال الحارث بن همام: فقلت له: سبحانَ مَنْ أبْدَعَك، فما أعظمَ خُدَعك، وأخْبَث بِدَعَك! فاستغربَ فى الضّحك، ثم أنشد غير مرتَبِكٍ:

عِشْ بالخداعِ فأنت فى دهرٍ بنوه كأُسْدِ بِيشَهْ
وأَدِرْ قَناةَ المكرِ حتّى تَسْتَدِير رَحَا المعيشَهْ
وصِدِ النُّسور فإنْ تَعذَّر صَيْدُها فاقنعْ برِيشَهْ
واجْنِ الثمار فإنْ تَفُتْكَ فرضٌ نَفْسَكَ بالحشيشَهْ
وأَرِحْ فؤادَك إن نَبَا دهرٌ من الفِكرِ المُطِيشَهْ
فتغايرُ الأحْداث يُؤْذِن باستحالة كلِّ عيشَهْ

* * *

أبدعك، أى أوجدك وخلقك. استغرب: أكثر الضحك. مرتبك: مختلط فى كلامه. بيشة: موضع كثير الأسْد. للمكر: الخديعة. نبا: ارتفع. المطيشة: المدهشة للعقل. تغاير: اختلاف. الأحداث: النوازل. يؤذن: يعلم. استحالة: تغيّر.

رفع المسهم

المقامة التاسعة والأربعون - وهي الساسانية

حكى الحارث بن همامٍ قال : بَلَغَنى أنّ أبا زيد حينَ ناهزَ القَبْضَة ، وابتزّه قَيْدُ الْهَرَمِ النَّهضَة ، أحضر ابْنَه ، بعد ما استجاشَ ذهنَه ، وقال له : يا بنىّ إنَّهُ قد دَنَا ارْتحالِى من الفِناء ، واكْتحالى بِمرْوَد الفَنَاء ، وأنت بحْمدِ اللهِ ولىُّ عَهْدِى ، وكَبْشُ الْكَتِيبَة السَّاسانيّة مِنْ بَعْدِى ، ومثلُك لَا تُقْرَع لَهُ الْعَصَا ، ولا يُنَبَّهُ بِطَرْق الحْصا ؛ ولكن قد نُدِبَ إلى الإذكار ، وجُعِل صَيْقَلًا للأفكار . وإنّى أُوصِيك بما لم يوصِ به شِيثٌ الأنباط ، ولا يعقوبُ الأسباط ؛ فاحفَظْ وصيّتِى ، وجانب معصيتى ، واحْذُ مِثَالى ، وافْقَهْ أمثالِى ، فإنَّك إن استَرْشَدْتَ بِنُصْحِى ، واستَصْبَحْتَ بِصُبْحِى ، أمْرَعَ خَانُك ، وارتفع دُخَانُك ، وإنْ تَنَاسَيْتَ سُورَتِى ، ونبذْتَ مَشُورتى ، قَلَّ رمادُ أثَافِيك ، وزَهِدَ أهْلُكَ ورَهْطُكَ فيك .

* * *

نَاهَز : قارب. الْقَبْضَة ، أراد بها ثلاثاً وتسعين سنة ، لأنك إذا قيل لك: اعقد فى يديك ثلاثاً وتسعين قبضْتَ أصابعك كلها وشدَدْتَ عليها الإبهام ، والمعنى أنه قارب المائة الّتى ليس فى العيش بعدها منفعة ، والشعراء يضمِّنونها أشعارهم إذا وصفوا البخيل بقبْض الكف . قال الخليل بن أحمد :

وكفٍّ عن الخير مقبوضةٌ كما قبضت مائة سَبْعَهْ

وقال :

فما تِسْعُون تحفرها ثلاث يضمُّ حسابَها رجل شديدُ
بكفّ خرقةٍ جُمِعَتْ لِوَجْءٍ بأنكدَ مَن عطائك يا يزيدُ

وابتزَّه : سَلَبَه . الهرَم : كِبرُ السّن . النّهضة : القيام إلى ما يريد .

ودخل هشام بن عبد مناف وقد أسنّ على فتية من قومه فقاموا إليه إجلالا، وأجلسُوه فى أرفع موضع ، فقال : بارك الله فيكم ، إن بنى مرّة كانوا إذا شاخ عندهم الرجل قيَّدُوه وقالوا له : ثبْ ، فإن وَثب أحبّوه ، وقالوا : فيك بقية ، وإن لم يَثِبْ قالوا : ليس فى هذا منفعة فقتلوه ، وقال ابن الرومى :

لو أنّ عمرى مائةٌ هَدَّنِى تذكُّرى أنّى تنصّفتُها[1]
لهفى على خمسينَ عاماً مضت كانت أمامى ثم خلّفتُها

استجاش : استجمع وحَشد . الفِناء : ما حول الدار . والفَناء بالفتح : الموت . الكتيبة : الجيش . وكَبْشُها : رئيسها وحاميها . والّذى كانت العصا تُقْرَع له عامر بن الظَّرِب العَدْوانىّ حكيم العرب فى الجاهليّة ، ولما أسنّ كان يَزِلُّ فى حكمه ، وكانت له بنت حكيمة ، فأمرها أن تقعد وراء سِتْر لتنظر حكمه ، فإذا أنكرتْ منه شيئاً قرعَتْ له العصا ، فمتى سمع صوت قَرْعِها علم أنه زلّ ، فرجع . وقيل : قُرِعت لأكثم بن صيْفىّ ، وقيل لسعد بن مالك الكنانىّ ، وقيل لعمرو بن حُمَمَة الدَّوسى .

وخطَب صعصعه بن معاوية إلى عامر بن الظَّرِب بنتَه عَمْرة ، وهى أم عامر ابن صعصعة ، فقال : يا صعصعة إنك تشترى منّى كبِدى ، فارحم ولدى ؛ قبلتُك أو رددتُك . والحسيب : الرجل الصالح أباً بعد أب ، وقد أنكحتك خشية ألّا أجد مثلك ، أفرّ من السرّ إلى العلانية ، يا معشر عَدْوان أخرجت من بين أظهركم كريمتَكم من غير رهْبَة ، لُقسم لولا قسمة الحظوظ على الجدود ما ترك الأوّل للآخر ما يعيش به ، وفيه يقول المتلمس :

(١) ديوانه ١ : ٣٦١

لذِى الحِلْمِ قَبْل اليوم ما تُقْرَع العصا وما عُـــلِّم الإنسان إلا ليعْلَمَا[1]

وهو أوّل مَنْ جلس على المنبر وتكلّم ، وفيه يقول الأسود بن يعفُر :

ولقد علمتُ لو أنَّ علمى نافعٌ أنَّ السبيل سبيل ذى الأعواد[2]

قال الأصمعىّ : نزلت عَدْوان ماء، فأحصى عليه سبعون ألف غلام أغرل[3]، سوى مَنْ كان مختوناً لكثرتهم ، ثم وقع بأسُهم بينهم ، فتفانَوْا ، فقال ذو الإصبع العَدْوانِىّ :

عذير الحىّ من عَدْوَا نَ كانُوا حيَّة الأرْضِ[4]

بغى بعضٌ على بعضٍ فلم يُبْقوا على بَعْضِ

ومنهم مَنْ يجـيز النا س بالسُّنّة والفرْضِ

ومنهم حَكَمٌ يقضِى فلا يُنْقَض ما يقضِى

الحكم: عامر بن الظرِب ، والذى كان يجيز النّاس فى الحجّ منهم رجل كان يسمى أبا سيارة ، أجاز الناس على حمارٍ له أسود ، من المزدَلِفة إلى مِنى أربعين عاماً، فقيل فى المثل: أصحّ من عير أبى سيارة[5]، وكانت إجازته أن يقول : اللهم حَبِّب بين نسائنا وبغِّض بين رعائنا ، واجعل المال فى سُمحائنا ، أوفُوا بعهدكم، وأكرموا جارَكمْ واقرُوا ضيفكم ، ثم يدفع فيقول :

خَلّوا الطريقَ عن أبى سَيَّارَهْ وعن مواليـــه بنى فَزَارَهْ

* حتى يجيز سالماً حماره *

ثم يقف فيقول : أشرق ثبير ، كيما نغير . وكانت الإجازة قبلَهم فى خُزاعة. فغلبتْهم عليها عَدْوان. ولا تقرع له العصا مثل، يُضْرب لمن وافق صاحبَه وساواه .

(١) ديوانه ٢٦

(٢) المفضليات ٢١٦

(٣) الأغرل : الأقلف .

(٤) الأغانى ٣ : ٧٩ (٥) مجمع الأمثال ١ : ٤١٠

رفع المسهم

ولما خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة رضى الله عنها قال عَمُّها : مثل محمد لا تقرَع له العصا ، وأصل ذلك أن الناقة الكريمة إذا أتاها فحل غير كريم منعوه عنها ، وقرَعُوه بالعصا على أنفه . وفى المثل : إن العصا قُرِعت لذى الحلم .

قوله : ولا ينبّه بطَرْق الحصا ، كانت العرب إذا أرادت اختبار الرجل : هل يصلح للسفر والغارة ؟ ترك الرجل صاحبَه حتى ينام ، فيأخذ حصاة فيرمى بها إلى جانبه ، فإن انتبه توثّق به .

وخرج أبو كبير الهذلى ومعه تأبّط شرًّا للغارة ، فلما جَنّ الليل أووْا إلى موضعٍ لينامُوا فيه ، فتركه أبو كبير حتى نام ، فرمى إلى جانبه بحصاة ، فساعة مَسَّت الأرض وثَب ثم عاد إلى نومه ، ففعلها ثلاثاً فكان ينتبه لوقوعها ويثب ويجول يطلب لها رامياً ، فلا يجد إلا أبا كبير نائماً ، فقال له عند الثالثة : والله لئن عُدْتَ لأقتلنّك ، فإنه ليس هنا مَنْ يفعل هذا غيرك ، فضحك أبو كبير وقال : أردت اختبارك ، ثم ذكر القصّة فى قصيدته التى يقول فيها :

وإذا رمَيْتَ له الحصاة رأيتَه ينزُو لوقعتها طُمُورَ الأخيلِ (١)

يريد أن ابنه كان فوق هذا فى ذكاء القلب فهو كأنه منتبه أبدا .

وطَرْق الحصا أيضاً من فِعْل الكُهّان يأخذ الكاهن حصياتٍ ، فيضرب بها الأرض وينظر فيها فيخبر بالمغيّبات .

قوله : نُدِب ، أى دعى وحُرِّضَ . الإذكار : التذكير بما يفعل . الأفكار : الأذهان .

شيث هو ولد آدم عليه السلام ، وكان أجلَ بنيه وأحبَّهم إليه ، وهو وصىُّ أبيه وإليه ترجع الأنساب ، وقال صلى الله عليه وسلم : أربعة من الأنبياء سريانيون : آدم وشيث وإدريس — وهو أخنوخ — ونوح ، وأنزل الله تعالى على شيث خمسين صحيفة . وقال بقية بن أرطأة : بلغنى أن حوّاء حملتْ بشيث الرّضا حتى

(١) ديوان الحماسة — بشرح التبريزى ١ : ٨٧

نبتتْ أسنانُه ، وكانت تنظر إلى وجهه من صفائه فى بطنها . وهو الثالث من ولد آدم ، وإنه لمّا حَضَرها الطَّلْق أخذها عليه شدّة ، فانقبذتْ به ، فلما وضعته أخذته الملائكة ، فمكث معهم أربعين يوماً ، فعلّموه المِهن ، ثم ردُّوه إليها معلّما . والمهن جمع مِهْنة ، وهى الخدمة .

الأنباط ، قيل : سمُّوا أنباطاً لاستنباطهم البناء ، واستخراجهم المياه ، والنسابون يزعمون أنهم ولد يافث بن نوح ، ولا يصحّ على هذا أن يوصيهم شيث ، لأنّ بين زمن شيث وزمن يافث آلافاً من السنين . الجوهرىّ : النبيط والنَّبَط : قوم كانوا ينزلون بين البَصْرة والكوفة والجمع أنباط ، والرّجل نَبَطِىّ . ابن دريد : النَّبَط . جيلٌ من الناس معروف ، وهم النّبط والأنباط . والأسباط : بنو يعقوب عليه السلام ، ومنهم تشعَّبَتْ قبائل بنى إسرائيل ، والأسباط فى ولد يعقوب كالقبائل فى ولد إسماعيل .

احذُ مثالى ، أى امش على طريقى وافعل بفعلى . استرشدْت : استدللت . استصبحت : استضأت . أمرع : أخصب . الخان : الفندق ، وهـذا مثل لرفاهة العيش . نَبَذْت : طرحت . الأثافىّ : أحجار القِدْر . زهِد : لم يرغَبْ .

* * *

يابنىّ ؛ إنّى جرّبتُ حَقائق الأمور ، وبَلَوْتُ تصاريفَ الدُّهور ؛ فرأيتُ المرء بنَشبِه ، لا بِنَسَبِه ، والْفَحْصَ عن مَكْسَبِه ، لا عَنْ حَسَبِه . وكنتُ سَمِعْتُ أن المَعايش : إمَارَة ، وتِجارة ، وزِراعة ، وصِناعَة ، فمارَسْتُ هذه الأرْبَع ، لأنْظُرَ أيُّها أَوْفقُ وأنْفَع ، فما أحْمَدْتُ مِنْهَا مَعِيشة ، ولا اسْتَرْغَدْتُ فيها عِيشة ، أما فُرَصُ الْوِلَايَات ، وخُلَسُ الإمَارَاتِ ؛ فَكأَضْغاثِ أحْلَامٍ ، والْفَيْءُ الْمُنتَسَخ بالظِّلام ؛ وناهيكَ غُصَّةً بمرارة الفِطَام . وأما بَضَائع التِّجارات ، فعُرْضَةٌ للمخاطَرَاتِ ، وطُعْمةٌ لِلْغارَاتِ ،

وما أشبهها بالطيور الطيارات . وأما اتخاذ الضياع، والتصدّى للازدراع، فمنهكة للأعراض ، وقيود عائقة عن الارتكاض ، وقلّما خلا ربّها عن إذلال ، أو رزق روح بالٍ ، وأما حِرَفُ أولى الصّناعات ، فغيرُ فاضلةٍ عن الأقوات ، ولا نافقةٍ فى جميع الأوقات ، ومُعْظَمُها معصوبٌ بشبيبة الحياة . ولم أرَ ما هو باردُ المغنم ، لذيذُ المطعم ، وافى المكسب ، صافى المشرب ، إلّا الحِرْفَةَ التى وَضَع ساسانُ أساسَها ، ونوّعَ أجناسَها

* * *

بلوت : اختبرتُ . نَشَبه : ماله . الفحص : البحث ، والأربع التى ذكر نسبها الثعالبى للمأمون قال : قال لى المأمون : النّاس أربع طَبقَات بين إمارة وتجارة ، وزراعة ، وصناعة ، فمن لم يكن منهم كان كلاًّ علينا . مارست : خالطت . أحمدت : صادفتها محمودة . استرغدت: استكثرت. فُرَص : نُهز ، والنُّهزة والفرصة ما يحضرك من الفوائد من غير أن تتعنّى فى طلبها ، فإن فوّتّها ولم تغتنم أخذها ففاتتك ، فربما تتعنّى غاية التعنّى فى طلبها ، فلا تظفرْ بها . الجوهرى: الفرصة . النّوْبة والشَّرب، يقال : وجد فلان فرصةً، أى نُهزة، وجاءت فرصتُك من الشىء ، أى نوبتك . خُلَس : جمع خُلْسة ، وهى كالخطف وشِبْهه، يريد أن الأمير كأنه اختلس أيامه، أى اختطفها لقصر مدّتها ، ويقال: الخُلْسة . فرصة . وأضغاث الأحلام : أباطيلها التى لا يصحّ تأويلها لاختلاطها . والضِّغث : كلّ ما كان مختلطاً لاحقيقة له ، والحُلُم: الرؤيا والجمع أحلام . ويقال: هذا رجل ناهيك من رجل! ونِهيُك من رجل ، أى إنه نجدة وعناية ينهاك عن تطلّب غيره ، فناهيك: كافيك . الغُصّة : مايختنق به . الفِطام: قطعُ الرّضاعة عن

الصبيّ ، وفى الكلام معنى التعجّب كأنه قال : ما أنكد غصة العزْل على أهل الولايات، والعزل للولاة كالحيض للنساء. والبضائع : الأموالُ يتّجر فيها . عرضة للمخاطرات ، أى معرضة للضّرر والسلْب ، وفلان عُرْضة لكذا ، أى نُصبٌ ، وهو له عُرْضة ، أى يتعرّض له دونه ، وهذا عُرْضة لك ، أى عُدّة . وقال النقاش فى قوله تعالى : ﴿عرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ أى علة لها وسبباً ومتّخذاً لذلك ،وأصل العُرْضة : الدابة تتّخذ للسفر لقوّتها ، ثم جعل كل ما صلح لشىء عرضة له ، حتى قيل : المرأة عُرْضة للزوج . والطُّعمة : المأكلة ، وهذه الضَّيْعة طعمة لفلان ، والطعمة أيضاً: وجه المكتسب ، فطعمة للغارات ، يريد أن قُطّاع الطرق يسلبون أموالَ التّجار أبدا فأرزاقهم معرّضة للتلف . التصدّى: التّعرّض. منهكة : مذلّة وسبب نَهْك ، وهو الجهد والضّعف ، ونهكته الحمى وأنهكته ، إذا جهدته وأضنته ونقصتْ لحمه، ونَهَكه السلطانُ عقوبةً: بالغ فى عقوبته. رَوْح بال : راحة قلب . عائقة : حابسة . الارتكاض : الجرْى والتصرّف وهذه مشاهدة من أحوال أهل الحرْث وقال صلى الله عليه وسلم حين رأى السّكة : «مادخلتْ قطّ دارَ قوم إلا ذَلّوا» . وقال صلى الله عليه وسلم فى الإمارة: «ستحرصون على الإمارة ثم تكون حسرة وندامة ، فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة » .

والحِرْفة: الصنعة : فاضلة : زائدة . معصوب : مربوط ، والعصْب الفتْل الشديد ، يريد أنّ الصنعة يُنْتَفَعُ بها ما دام صاحبها شابًّا قويًّا فإذا شاخ لم يقدر على الانتفاع بها . قوله: بارد المغنم ، أى السهل منه ، وهوالذى يؤخذ بغير قتال .

ساسان : شيخ المكدين والغرباء ، وهم بنو غَبْراء . والغبراء : الأرض ، وسُمُّوا بنى غَبْراء لقطعهم جهات الأرض وجَوَلَانهم فى البلدان ، فكأنهم ليس لهم أصلٌ يُنْسَبون إليه إلا الأرض. وقيل: سُمُّوا بذلك للزومهم لغبراء الأرض وهو وجْهها وترابها والرقاد فيها فيُعَيّرُون بذلك ويتغيّرُون .

وكان الأحنف العكبرىّ[1]، وهو أبو الحسن عقيل بن العكبرىّ، كان فصيحاً شاعراً، وذكر الصاحب فيه فصلا وهو: ولو أنشدتُك ما أنشدَنيه الأحنف العكبرىّ، وهو فردُ بنى ساسان اليوم فى مدينة السلام فى الفصاحة وحسن الطريقة فى الشعر لامتلأتَ تعجُّباً من ظَرْفِه وإعجاباً بنظمه، ومن افتخاره قوله:

على أنى بحمـــد الله فى بيتٍ من المجـــدِ
وإخـــوانى بنو ساسا ن أهل الجِدّ والجَدِّ
لهم أرض خُراسا ن فغَسَّان مـــع اللَّدِّ
إذا ما أعوز الطّرق على الطُّرّاق والجُنْدِ
حذاراً من أعاديهمْ من الأعْرَاب والكُردِ
قطعنـــا ذلك النهجَ بلا سَيْفٍ ولا غِمْـــدِ
ومَنْ خاف أعاديه بنا فى الرَّوْع يَسْتَعْدِى

فى هـذا البيت معنى بديع، يريد أن ذوى الثروة وأهل الفضل إذا وقع أحدهُم فى أيدى العداة وأراد التخلّص قال: أنا مكدٍ، فبنى الحريرى هذا الموضع من مقامته على شعر الأحنف، وأكثر هذه المقامة مأخوذ من مُلَحِه، ومن هذا الشعر:

وقالوا قد سلا عَنْـــكَ وقد حالَ عن العَهْدِ
ولا والله ما حُلْتُ ولكنْ قلّ ما عِنْدى

ومن شعره:

عشت فى ذلة وقـــلّة مالٍ واغترابٍ فى معشرٍ أنذالِ
بالأمانى أقول لا بالمعـــانى فغذائى حـــلاوةُ الآمالِ
لى رزق يقول بالوقف فى الـــرَّأى ورجْلٌ تقول بالاعتزال

(١) الأحنف العكبرى، له ترجمة فى اليتيمة ٣ : ١٠٤ — ١٠٦، أورد فيها كثيراً من شعره.

وله :

العنكبوت بنتْ بيتاً على وَهنْ تأوى إليه ومالى مثله وَطَنْ
والخنفساء لها من جنسها سكَنْ وليس لى مثلها إلفٌ ولا سكنْ

وله :

نرى العقيان كالذهب المصفَّى يركب فوق أثفار الدّواب
وكيسى منه خلوٌ مثل كفّى أمَا هذا من العجب العجابِ !

وله :

رأيت فى النَّوم دنيانا مزخرفةً مثل العروس تراءتْ فى المقاصير
فقلت جُودى فقالت لى على عجلٍ إذا تخلَّصْتَ من أيدِى الخنازيرِ

* * *

وأضْرم فى الخافِقيْن نارَها ، وأوْضَح لبنى غَبْراءَ مَنارَها ، فشهدتُ وقائعَهـــا مُعْلِماً ، وَاخْتَرتُ سِيمَاها لِي مِيسَما ؛ إذ كانت المتْجرَ الَّذِى لَا يَبُورُ ، والمنْهَلَ الَّذى لا يَغُورُ ، والمصباحَ الذى يَعْشُو إليه الجمهور ، ويَسْتَصْبِحُ به العُمْىُ والْعُور . وكان أهْلُها أعزَّ قبيلٍ ، وأسْعَدَ جِيلٍ ، لا يَرْهقُهم مسٌّ حَيْف ، ولا يُقْلِقهم سلُّ سَيْف ، ولا يخشَوْن حُمَةَ لَاسِع ، ولا يَدِينُون لدانٍ وَلَا شاسِع ولا يَرْهَبُونَ مِمَّنْ بَرَق ورَعَد ، ولا يحْفِلون بمنْ قام وقَعَد ؛ أنديتُهُمْ منزَّهَة ، وقُلوبهم مُرَفَّهَة ، وطُعَمُهُمْ مُعَجّلة ، وأوقاتُهم غُرٌّ مُحجّلة ، أينَمَا سَقَطُوا لَقَطُوا ، وحيثما انْخَرطُوا خَرَطوا ، لا يتَّخِذُون أوْطَاناً ، ولا يَتَّقُوْن سُلْطاناً ، ولا يمتازون عمّا تَغْدُو خِماصاً ، وتَرُوح بِطَاناً .

* * *

قوله : أضْرَم ، أى أوقد . الخافقين : المشرق والمغرب . أوضح : بَيّن . مَنَارها : سِرَاجَها . مُعْلَماً : مشهوراً . سماها : علامتها ، يريد أنه اختار علامَتَهُم لنَفْسِه . يَبُور : يَكْسَد ويهلِك أهلَه . المنهل : موضع الماء . يغور : يغوص فى الأرض . يعشو : ينظر . الجمهور : معظم الشىء . العُور : جمع أعور . الجيل : أهل العصر . يُرْهقهم : يدركهم ويغشاهم . حيْف : جَوْر وظلم . حُمَة : سم . لاسع : ضارب . واللّسع : الضرب بمؤخره ، مثل العقرب ، واللَّدغ لما كان بالفم ، ولَسَعه بلسانه : عابه وآذاه ، ورجل لُسَعة ولسَّاعة ولَسّاع ، أى عيّابٌ مؤذٍ . يدينون : يطيعون . دانٍ وشاسع : قريب وبعيد . يرهبون : يخافون . بَرَق ورعد : هدّد وخوّف . يحفلون : يبالون . مَنْقام وقعد : من غيظه وشره . انخرطوا : ركبوا رءوسهم ، واندفعوا بشدّة ، وخرطت الغصنَ ، إذا وضعتَ يدك عليه ثم تجرّه عليك فيسقط ما فيه من وَرَقٍ وثمر . أنديتهم : مجالسهم . مرفّهة : الرفاهية : العيش اللّين . غُرّ : بيض . محجّلة : مشهورة . سقطوا : وقعوا . لقطوا : جمعوا الرزق ، وأصله للطّير . يمتازون : يفترقون . خِماصاً : جياعاً . بِطاناً : شباعاً وهى للطير ، وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لو أنكم توكّلتم على الله حقّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير تَغْدُو خِماصاً وتَرُوح بِطَاناً » .

* * *

فقال له ابنه : يا أبتِ لَقَدْ صَدَقْتَ ، فيما نَطَقْتَ ؛ وَلَكِنَّكَ رَتَقْتَ ، وَمَا فَتَقْتَ ؛ فبيِّن لِي كَيْفَ أَقْتَطِف ، ومِنْ أَيْنَ تُؤْكَلُ الْكَتِف ، فَقَالَ : يا بَنَيّ إنّ الارْتِكاضَ بَابُهَا ، والنَّشَاطَ جِلْبَابُهَا ، والْفِطْنَةُ مِصْبَاحُهَا ، والْقِحَةَ سِلَاحُهَا ، فَكُنْ أَجْوَلَ من قُطْرُب ،

وأسْرَى من جُنْدُب، وأنْشَطَ من ظَبْيٍ مُقمر، وأسْلَط من ذئبٍ مُتَنَمِّر، واقْدَحْ زَنْدَ جَدّك بِجدّك، واقرعْ بابَ رَغْيك بِسَعْيك، وجُبْ كُلَّ فَجٍّ، ولِجْ كلّ لُجّ، وانْتَجِعْ كُلَّ رَوْض، وألقِ دَلْوَكَ فى كلِّ حَوْض، وَلَا تَسْأَمِ الطَّلَبَ، ولا تَمَلَّ الدَّأَبَ، فقد كان مكتوباً على عَصَا شيخِنا سَاسَانَ: مَنْ طَلَب، جَلَبَ، ومَنْ جَالَ، نَالَ. وإيّاك والكسلَ، فإنه عُنْوان النُّحوس، ولَبُوسُ ذَوِى البُوس، ومِفْتَاحُ المَتْرَبَة، ولِقَاحُ المَثْعَبة، وشِيَمةُ الْعَجَزَةِ الجَهَلة، وشِنْشِنَةُ الوُكَلة الثُّكَلة، وما اشتار الْعَسل، من اختار الكسل، ولا ملأَ الرَّاحة؛ مَن اسْتَوْطَأَ الرّاحة.

* * *

قوله: رتَقْت، أى ألحمت وسدّيت، وهو ضدّ فتقْت، تقول: رتقت الشيء، إذا ضممتَ بعضَه إلى بعض، وفتقتُه: نقضْتَه. أقتطف: أجنى الثمر، وهذا مثل قوله: مِنْ أينَ تُؤكَل الكتف، قالوا: تؤكل من أسْفَلِها، لأن المرقةَ تدخلُ بيْنَ عِظَامها ولحمها، فمن أكلها من أعلاها جرت المرقةُ عليه، ولفظ المثل على ما ذكره أبو عبيد: فلان أعلم من حيثُ تؤكل الكتف، يُضْرَب مثلا لمن جرّب الأمور ودَرَى تصرّفها، قال البكرى: إن لحم الكتِف إذا أُكِل من أعلاه تناثر، وإذا أُكل من قِبَل الغُضروف، لم يتأتّ لآكله. والغُضْرُوف: اللحم الرَخْص المتّصل بأسفل الكتف المتّسع، وقيلَ: أكل الكتِف، إذا أمسك فيها بطرف الغُضْرُوف ربما سقطت فتربَتْ، وإذا أمسكها بالطرف الآخر أمِن من ذلك.

الفنجديهى: لحم الكتف إذا جُذب من الجانب الأسفل انقطع بكليته، وإذا جذب من الجانب الأعلى تقطّع اللحم ولم ينقطع، لأنَّ المرقة تجرى بين لح

الكتف والعظم ، فإذا أخذتَه من أعلاه تصببت المرقة عليك بسرعة ، وإذا أخذت اللحم من أسفله تقشّر من عظمها فلم تنصبّ المرَقة بالسرعة ، وهو مثَل يُضرب للبصير بالأمور ، وقال أوس بن حجر :

أم دلّكمُ بعضُ مَنْ يرتاد مشتمتى بأىّ أكلة لحم تُؤْكلُ الكتِفُ[1]

يقول : أنا أعلم كيف أنالكم .

وقال آخر :

إنّى على ما ترونْ من كِبَرِى أعلم من أين تُؤْكَلُ الكتفُ

قطرب : دويبّة تجول اللّيْلَ كلّه ولا تنام ، ويقال فيه أيضاً : أسهر من قُطْرب ، وهذا قول أبى عمرو ، وغيرهُ يرويه : أسْعَى من قُطْرب ، لا أسهر ، ويقول: هو دويبة لا تستقرّ بالنهار، ويحتجّ بقول ابن مسعود: لاأعرفنّ أحدَكم جيفةَ ليلٍ قُطْرُبَ نهار . وقُطْرُب اسم رجل مشهور ، وهو ابن المستنير صاحب المثلّث ، وكان من أهل العربية فجلس لسيبويه يناظره ، فلما رآه سيبويه قد قد احتدّ بالسؤال قال : إنك لقطرب ليلٍ ، فسمِّىَ بذلك ، والقُطْربُ أيضاً ذكر الغيلان . ابن ظفر ذكر مَنْ يعوّل عليه أنه حيوان يكون بالصعيد من أرض مصر ، يظهر للمنفرد من الناس ، فربما صدّه عن نفسه إذا كان شجاعاً وإلّا لم ينته حتى ينكحه ، فإذا أنكحه تدوّد دُبرُه وهلك . قال : وهم إذا رأوْا من ظَهَر له القطرب قالوا : أمنكوح أم مروّع ، فإن قال : منكوح يئسوا منه . وإن قال : مروّع سكّنوه وعالجوه . قال : فقد رأيتُ أهلَ مصر وما بين يديْها وما خلفها، وتحقّقت أهل صعيدها والعربان، وهم مستوون فى الجهل بهذا الحيوان ، ومختلفون الاختلاف الشديد فى فعله وصورته ، إلّا أن أهل مصر أكثر لَهجاً به ، والقطارب أيضاً : صغار الكلاب .

(١) ديوانه ٧٦

رفع المسهم

قوله: أسْرَى ،أى أمشى بالليل . الجندب :ذكر الجراد ، وقيل: هى دويبّة تشبه الجراد ذات جناحين ، فلا تزال ترمح ، ولفظ المثل : أسْرَى من جراد . مقمر : لاعب فى القمَر . وأنشط : أخفّ ، والظبى يأخذه النشاط فى الليلة المقمرة فيلعب. متنمِّر : متشبه بالنَّمِر وهو سَبُعٌ مؤذ .جَدّك : حظّك. اقرع: اضرب. رَعيك : أكلك ، وأراد بباب رعيك الذى يجيئك منه الرزق . ألق دلوك إلى كل حوض: لفظ المثل « ألق دلوك فى الدلاء » ، يضرب فى بذل الجهد فى اكتساب المال والبحث عليه ، وهو كما قال الشاعر :

وليس الرزق عن طلب حثيث ولـكن ألقِ دلوك فى الدلاء[1]

تجئك بملئهـا طوراً وطوراً تجئك بحمأةٍ وقليـــل ماء

قوله : فقد كان مكتوباً على عصا شيخنا ساسان . الفنجديهى قرأت فى بعض الفوائد أنه كان مكتوباً على عصاساسان. المكدى: الـكسل شؤم، والتميز مذموم، والحركة بركة، والتوانى هَلَـكة. وكلبٌ طائف: خير من أسد رابض. ومَنْ لم يغترف : لم يعتلف . جال : تصرّف ومشى فى البلاد . نال : أدرك حاجته . عنوان : دليل . النحوس : جمع نَحْس ، وهو ضدّ السّعد . ذوى البؤس : أهل الفقر . لقاح المتعبة ، أى أصلها وسببها . شيمة : طبيعة ، وكذلك الشنشنة . الوكُلَة التُّـكلَة : هو العاجز الذى يَـكلُ أمره لغيره ويتّـكل عليه فيه . اشتار : حرّك واستخرج . الراحة الأولى : الـكفّ ، والثانية ضدُّ التعب .

وعليك بالإقدام ، ولَوْ على الضِّرعام ، فإنَّ جَراءة الجَنان ، تُنْطِق اللّسان ، وتُطْلِق العِنَان ، وبها تُدْرك الحظوة ، وتُمْلَك الثَّرْوة ، كما أن الخَوَر صِنْوُ الـكسل ، وسَبَبُ الفشل ، ومَبْطأةٌ للعمل ، ومَخْيَبةٌ للأَمَل ، ولهذا قيل فى المثل : مَنْ جَسَرَ ، أَيْسر ، ومَنْ هابَ ، خاب .

(١) لأبى الأسود الدؤلى ، جمهرة الأمثال ١ : ٧٤ ، وديوان أبى الأسود ٥٣

ثمّ ابرُز يا بنيّ فى بكورِ أبى زاجرٍ، وجراءة أبى الحارث، وحَزَامَةِ أبى قُرَّة، وخَتْلِ أبى جَعْدة، وحِرْصِ أبى عُقْبة، ونَشَاطِ أبى وَثّاب، ومَكْر أبى الحُصَيْن، وصَبْرِ أبى أيّوب، وتَلَطُّف أبى غَزَوَان، وتَلَوُّن أبى بَرَاقش، وحِيلَةِ قَصِير، ودَهَاءِ عمرو، ولُطْف الشعبىّ، واحتمال الأحنف، وفِطْنَةِ إياس، ومَجَانَةِ أبى نُوَاس، وطَمَع أشْعَب، وعَارِضَة أبى الْعَيْنَاء.

* * *

الإقدام: الجراءة. الضرغام: الأسد. والجراءة: الشجاعة. والجَنان: القلب. والحُظْوة: المنزلة الرفيعة، والثروة: الغنى. صنو: أخ. الفشل: الضعف والحيرة، يريد أن فَزَع النفس وضعفَها يخيّب الأمل والرجاء، وقال معاوية: الهيبة مقرونٌ بها الخيبة.

أبو زاجر: هو الغراب، سُمّى بذلك، لأن العرب تَزْجُر به وتتشاءم، وتقدّم ذلك، ومن وصيته لولده على ألسنتهم، قالوا: قال الغراب لابنه: يا بنيّ إذا رميت فتلوّص أى تلوّ، قال: ياأبت أنا أتلوّص قبل أن أرمى. وقال لابنه وقد رأى رجلا فوّق سهماً: يا بنيّ اتّئد، حتى تعلم مايريد الرّجُل، فقال: يا أبت، الحذَر قبل إرسال السهم.

وأبو الحارث: الأسد كنّى بذلك لاحترائه، أى لاكتسابه بقوّته.

وأبو قرّة: الحرباء كنّى بذلك لأنّ البرد لا يفارقه، فالحرباء تدور لذلك مع الشمس حيثما دارت، وتقدّم حزامتُها، ومرّ أنها لا تفارق ساقَ الشجرة حتى تمسك ساق الأخرى.

رفع المسهم

وأبو جعدة : كنية الذئب ، وهى كنية بالضدّ لأنّ جعدة عندهم الشّاة ، ولما كان الذئب يقتلها حيث وجدَها جعلوه أباها بضدّ ما يفعل الأب الذى لا يقال له أب إلا لوجود الرحمة عنده على بنيه ، ونحوها قولهم للأسود : أبو البيضاء . والختل : المكْر .

وأبو عقبة الخنزير ، زمن حرصه أنه يمشى بالليل وبالأسحار لطلب ما يأكل ، ويستتر بالنهار حرصاً على السّلامة .

وأبو وثاب : الظّبْى ، وكنّى بذلك لسرعة وثبه .

وأبو الحصين : الثّعلب ، وهو أكثر الحيوان مكراً ، ومن بعض مكره أنّه إذا رأى الغلَبة تماوت فلا تشكّ فى أنه ميّت ، فإذا وقع له غير عارف تركه فما يمرّ يسيراً حتى يقوم فارًّا أو تحصينه يبصل العنصل من الذئب ، لأن الذئب لا يطؤه فى زعم قوم ، وقالوا : إنّ الضبُع صادت ثعلباً ، فقالت : أخيّرك يا ثعلب بين خصلتين ، فقال : ما هما ؟ فقالت : إما أن آكلك وأما أن أكلّك ، فقال لها الثعلب : أما تذكرين يوم نكحتُك ؟ فقالت : متَى ؟ فانفتح فوها وانفلت الثعلب ، فذكروا ذلك مثلا ، وقالوا : ضرب عليه خصلتى الثعلب ، وقالوا : إن الثعلب اطّلع فى بئر وهو عاطش وعليها رشاء فى طرفيه دلوان ، فقعد فى الدلو العليا فانحدرت ، فشرب ، فجاء الضبُع فاطلعت فى البئر ، فأبصرت القمر فى الماء منتصفاً والثعلب قاعد فى قعر البئر فقالت له : ما تصنع هنا ؟ فقال لها : إنى أكلت نصف هذه الجبنة وبقى نصفها لك فانزلى فكليها ، فقالت : وكيف أنزل ؟ قال : تقعدين فى الدّلْو فقعدت فيها ، فانحدرت وارتفع الثعلب فى الدلو الأخرى فلمّا التقيا فى وسط البئر قالت له : ماهذا ؟ قال : كذا التّجار ، نختلف ، فضربت بهما العرب المثل فى المختلفين ، وأوصاف مكْره كثيرة .

وأبو أيوب : الجمل سُمّىَ بذلك لأنه أصبر الدوابّ على العطش والجوع

وقطع الأشهر بالسير المتصل و نقل الأوقار ، ومهما كان به شيء من قوّة تجلّد ، فإذا وقف عُلِم أنه ليس فيه بقية ينتفع بها .

وأبو غزوان الهرّ لغزوه الفئران وخشاش الأرض و تلطّفه يظهر فى محاولاته لتصيد الفأر فإذا قدمت المائدة : قرُبَ منها وأخذ يتلطّف فى صياحه و يتضرّع ويحتكّ بالمائدة أو بالأكل حتى يعطَى .

وأبو براقش : طائر أغبر أوسطه أحمر ، وإذا انتفض تلوّن ألواناً .

أخذ الحريرىّ هذا الفصل من كلام العلماء،قالوا: ابن آدم هو العالم الكبير الذى جَمَع الله تعالى العالم كلّه فيه فكان فيه بَسالة الأسد وصبر الجمل وحرْص الخنزير وحَذَر الغراب وَروَغَان الثعلب ؛ وضرع السِّنّور ، وحكاية القرد وجُبْن الصقر .

قيل لرجل من كبار العلماء وكان بليداً سريع النّسيان فى ابتداء تعلّمه : بم أدركتَ العلم مع بلادتك وكلل خاطرك ؟ قال: ببكورٍ كبكور الغراب وصَبْرٍ كصبر الجمل وحِرْصٍ كحرص الخنزير .

* * *

واخْلُبْ بِصَوْغ اللّسان ، واخْدَعْ بِسِحْرِ البيان ، وارْتَدِ السُّوقَ قَبْلَ الْجَلَب ، وامْتَرِ الضَّرْعَ قَبْلَ الْحَلَب ، وسائِلِ الرُّكْبان قَبْلَ الْمُنْتَجَع ، ودمِّثْ لِجَنْبِكَ قَبْلَ الْمُضْطَجَع ، واسْحَذْ بصيرتَك للعيافة ، وأَنْعِمْ نَظَرَك لِلْقِيافَة ،فإنّ مَنْ صَدَقَ توسُّمُه ،طال تَبَسمُهُ،وَمنْ أخطأتْ فِراستُه أبطأتْ فَريستُه .

وكُنْ يا بُنيّ خفيف الْكَلّ ، قَليل الدّلّ ، رَاغِباً عن الْعَلّ ، قانعاً من الْوَبْل بالطّلّ . وعظِّمْ وَقْعَ الحقِير ، واشْكُرْ على النَّقير ، ولا تَقْنَط عِنْد الردّ ، ولا تَسْتَبْعِد رَشْحَ الصَّلْد ، ولا تيْئسْ مِنْ رَوْح اللهِ ، إنه لَا يَيْئَسُ من رَوْح اللهِ إلّا القومُ الْكَافِرُونَ .

رفع المسهم

وإذا خيِّرْتَ بَيْنَ ذَرَّةٍ مَنْقودة ، ودُرّةٍ مَوْعودة ، فمِلْ إلى النّقد ، وفضِّلِ اليومَ على الْغد ، فإنَّ للتأخيرِ آفاتٍ ، وللعزائم بَدَوات ، وللعِداتِ مُعَقّبات ، وَبَيْنها وبين النَّجازِ عَقَبات وأىّ عَقَبات .

* * *

قوله: اخْلُب بصوْغ اللسان، أى بعذوبة الكلام ، قال ابن كناسة الشاعر: كنت أتكلم بكلام فلو لم يجدْ سامعُه إلا القطن الذى فى وجه أمه فى القبْر ، لتفاغل إليه حتى يخرجَه ويهديه إلىّ . وأنا اليوم أتحدّث بذلك الحديث بعينه فما أفرغ منه حتى أُهَيِّئَ له اعتذارى . وارْتَدْ ، أى اطلب . والجلَب : ما يجلب إلى السوق للبيْع . امترِ : امسح ، ويفعل ذلك بالضَّرْع لأنّه يُدرّ لبنه . المنتجَع : موضع العشب ، أراد به موضع طلب الرزق . دَمِث : ليّن . اشْحَذْ : اجْلُ واصْقُل . وقال فى الدّرة: ويقولون: شَحّات بالتاء ، وصوابه ، بالذال لأن اشتقاقه من شحذْت السيف ، إذا بالغتَ فى إحداده فكأنّ الشحاذ هو المُلِحّ فى المسألة المبالغ فى طلب الصّدقة . بصيرتك : ذهنك . العِيافة : زَجْر الطير . أنعم : بالغ. القيافة : الاستدلال على الولَد ، وذلك أن ينظر خِلْقته وصفته ، فيشبّهه بأبيه . توسّمه : نظره . الفِرَاسة : الحكم بحالات الشىء على ما يكون منه فى المستقبل . الكلّ: الثقيل. والدّلّ والدلال بمعنًى واحد . العَلّ: الشُّرب بعد الشُّرب وراغباً عنه : تاركاً له . النقير : حفرة فى ظَهْر نوى التّمر ، ومنها تنبت النخلة . تقنط: تيأس . روح الله : رزقه ، ولبعضهم فى هذا المعنى :

سَيُفْتَح بابٌ إذا سُدَّ بَابُ ... نعم وتلين الأمور الصِّعَابُ

ويتّسع الحال من بعدمَا ... تضيق المذاهب فيه الرِّحَابُ

مع العسر يُسْرَان هوّن عليك ... فلا اليسر دامٍ ولا الاكتئابُ

إذا احتجبَ الناس من سائل ... فما دون سائل ربِّى حجابُ

آخر :

عَسَى فرجٌ يأْتى به الله إنه ... له كلَّ يومٍ فى خليقته أمْرُ
إذا اشتدّ عسرٌ فارج يُسْراً فإنه ... تضى الله أن العسر يتبعه يسرُ

آخر :

فلا تجزَعْ إذا أعْسَرْتَ يوماً ... فقد أيْسَرْتَ فى الزَّمن الطويل
ولا تيأس فإن اليأس كفر ... لعل الله يُغْنِى عن قليل
وإن العسرَ يَتْبَعهُ يسارٌ ... وقول الله أصْدَقُ كلِّ قيلِ
ولا تظننْ بربّك ظنَّ سوء ... فإن الله أوْلَى بالجميل

قوله : ذَرّه، كناية عن الشىء القليل : دُرّة : جوهرة . آفات : جوائح . وللعزائم بدوات ، يريد أنّ الإنسان يعزم على فعل الشىء فى وقت ثم يبدو له ألّا يفعله . النَّجْز : تعجيل قضاء الحاجة، وقد قدّم مثل هذا المعنى عند قوله :

وبع آجلا منك بالعاجل .

* * *

وَعَلَيْك بصبْرِ أُولِى الْعَزْم ، ورِفقِ ذَوِى الْحَزْم ، وجَانِبْ خُرْقَ المشْتطّ ، وتخلَّق بأُخْلُقِ السَّبْط ، وقيّد الدِّرْهم بالرَّبط ، وشُبِ البذْل بالضَّبط ، ولا تجعل يَدَكَ مغلولةً إلى عُنُقِك ولا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْط ، ومَتَى نَبَابِكَ بلد ، أو نابَكَ فيه كَمَد ، فبُتَّ منه أمَلَك ، واسْرَحْ عَنْهُ جملَك ، فخَيْرُ البلادِ ما حَمَّلَك ، ولا تَسْتَثْقِلَنَّ الرِّحْلَة ، ولا تَكْرَهَنَّ النُّقْلَة ، فإنّ أعْلَامَ شريعتِنا ، وأشياخَ عشيرتنا ، أَجْمَعُوا على أنّ الحركة بَرَكة، والطَّرَاوة سُفْتَجه ، وزَرَوْا عَلَى مَنْ زعَم أنّ الغُرْبة كُرْبة، والنُّقْلَة مُثلة ، وقالوا : هى تَعِلَّةُ من افتنع بالرَّذِيلة ، ورَضِىَ بالْخَسْفِ وسُوءِ الكِيلَة . وإذا أزْمَعْتَ على الاغْتِرَاب ، وأعْدَدْتَ لهُ العَصَا والجِراب ،

فتخيرّ الرَّفيق المُسْعِد ،من قبل أن تُصْعِد ؛ فإن الجارَ قبلَ الدار، والرّفيقَ قبل الطريق .

خُـذْها إليك وصيّةً لم يُوصِها قبْـلِي أَحَدْ
غَرّاءَ حاويةً خَـلا صاتِ المعـانى والزُّبَدْ
نقّحتُهـا تنقِيحَ مَنْ مَحَضَ النَّصِحَيةَ واجْتَهَدْ
فاعمَـلْ بما مثّلْتُهُ عملَ اللّبيبِ أخِي الرّشَدْ
حتَّى يقولَ الناس هَـذَا الشِّبْلُ من ذَاكَ الأسَدْ

* * *

المشتطّ : المتجاوز القدر فى محاولته . والخُرْق ضدّ الرتق . السَّبْط : السهل. شُبْ : أخلط . البَذْل : العطاء . والضّبط : الحبس . قال أبو حاتم الدارى : دخلت مع أبى مدينة السلام فرأيت رجلًا واقفاً على الطريق يلعب بحيّة ويقول: مَنْ يهب لِي درهماً حتى أبتلع هـذه الحية ؟ فالتفت إلىّ أبى وقال : يا بنى احفظ دراهمك فمن أجلها تُبْلَع الحيات . مغلولة : محبوسة، أى لاتكن شحيحاً ممسكاً ولا كريماً متلفاً . نابَك : نزل بك . كمـد:حزن . بتّ : اقطع . أملك ، أى رجاءك : أسرح عنه ، أى أزله وسرحه بالمشْيِ إلى غيره . الرّحلة: الارتحال. النّقلة : الانتقال . أعلام شريعتنا : مشايخ طريقتنا . الطّراوة : أن يطرأ على بلد لم يره . السّفتجة : ما أتاك بغير تكلّف ولامشقّة ، وهى عند أهل المشرق أن يأخذَ الرجلُ الدراهمَ والدّنانير ، فيعطيها صاحبه ، ويقول : احملها لى معك لأمْن طريقِك ، ولمَنعتك إلى بلد كذا فادفعها إلىّ ،ثم فإن طريقى غير آمن من اللصوص . قال مالك رضى الله تعالى عنه : إن قَصَد بها المنفعة لَمْ يَجُزْ لأنه سَلَفٌ جرّ منفعة ، فيقول : الطراوة على الناس كالسَّفْتَجة، ترغب لك فى أخذ

الدراهم ، وقد يكون منك تمنّع عن أخذها . زرَوْا : عابوا . كربة : همّ ، وقالَ: مَنْ ذمّ السفر : الغربة كربة والنّقلة مُثلة ، والغريب كالغرس الّذى زايل أصله وفقد شربه ، فهو ذاوٍ لا يثمر وذابلٌ لا ينضر. إذا كنت فى غير بلدك فلا تَنْس نصيبك من الذل . تعلّة : عذر. الرذيلة : الدون من كلّ شىء. الخشَف : الردىء من التمر . الكِيلة الهيئة، ومعناه أنه اجتمع عليه عيبان: تمر فاسد وكيل ناقص. أزمعت : عزمت . الاغتراب : الجـوَلان والغربة . الجُراب : الوعاء للزاد . المسعد : الموافق القليل الخلاف . تُصعد : ترتفع وتخرج ، الجار قبل الدار، يقول: لاتشتر داراً حتى تعلم مَنْ جيرانُك ، وكفى الجـار أن قال صلى الله عليه وسلم فى حقه : « مازال جبريل يُوصينى بالجـــار حتى خفت أن يورّثه » ، وقال الزاهد ابن عمران :

لِتُعْنَ بالجـار قبل الدارِ تسكنُها ... لاخيرَ فى الدار مالم يحمَـد الجارُ

الجار إن غبت عن أهلٍ وعن وطنٍ ... نعم الخليفةُ هم أهـــلٌ وأنصارُ

والجار المساعد أحسن من القرابة . ويروى أن رجلا كان جاراً لأبى دلف ببغداد، فأدركته حاجة، وركبه دَيْن فادح حتى احتاج إلى بيع داره، فساوموه فيها ، فسمّى لهم ألف دينـار ، فقالوا له : إنّ دارك تساوى خمسمائة دينار ، فقال: أبيع دارى بخمسمائة وجوار أبى دلف بخمسمائة ، فبلغ أبا دلف الخبر، فأمر بقضاء دينه ووصلَه ، وقال : لاتنتقل من جِوارنا ، فانظر كيف صار الجـوار يُباع كما يباع العقار ، وقال الشاعر :

يلومونى أن بعت بالرّخص منزلى ... ولم يعلموا جاراً هنـاك ينغّصُ

فقلت لهم كفّوا الملـــام فإنما ... بجيرانها تغـلُو الديارُ وترخُصُ

غراء : ظاهرة حسنة . حاوية : جامعة . خلاصات : جمع خلاصة ، وهو الذى يتخلّص من الشىء ويصفو منـه ، والزُّبد : جمع زبدة اللبن . نقّحتُها :

رفع المسهم

هذَّبتها . محَضَ : أخلص . اللبيب : العاقل . أخى الرّشد : صاحبُ الرّشد . الشِّبل : ولد الأسد .

* * *

ثم قال : يابنىّ ، قد أوصيتُ واستقصيْتُ ، فإن اقتديتَ فواهاً لك ، وإن اعْتدَيت فَآهاً منك ، والله خليفتى عَلَيْك ، وأرجو ألّا تُخلف ظنِّى فيك .

فقال له ابنه : يا أبتِ لا وُضِع عَرْشُكَ ، ولا رُفِع نعشُك ، فلقد قلتَ سَدداً ، وعلَّمتَ رَشَداً ، ونَحلْتَ ما لم يَنْحَلْ والدٌ ولَداً ، ولئن أُمْهِلتُ بَعْدك — لا ذقتُ فَقْدَك — فلأُ تأدَّبَنَّ بآدابك الصَّالحة ، ولأقتدينّ بآثارِك الْواضحة ؛حتى يقال: ما أشْبَه اللَّيلَة بالبارحة والغادية بالرّائحة!فاهتزّ أبو زيد لجوابِهِ وابْتَسَم ، وقال: مَنْ أشبه أباه فما ظَلَم .

قال الحارث بن همام: فأُخْبِرتُ بأن بَنِى ساسَان،حينَ سمعوا هذِى الوصايا الحسَان، فضَّلوها على وَصايا لقمان ، وحفظوها كما تُحفَظُ أُمُّ القرآن ؛حتَّى إنَّهُمْ ليرونَها إلى الآن، أوْلَى مالقَنّوه الصّبيان،وَأَنفع لهم من نحلةِ العِقْيَان.

* * *

غرّاء : ظاهرة حسنة . حاوية : حامعه . خلاصات : جمع خلاصة وهو الذى يصفو منه . والزبد : جمع زبدة اللبن اقتديت : اتّبعتَ وصيتى . واهاً : عجباً . اعتديت : ظلمت . آها : كلمة معناها التوجّع. عرشك: سريرك، والمعنى أنه يدعو له بالبقاء. سَدَداً : صوابا . نحلت : أعطيت . الواضحة : البينة . الغادية: السحابة تأتى بالغدو . والرّائحة بالعشىّ ، قال الفراء النحوىّ : مَنْ أشبه أباه فما ظلم مثل أخذه الناس من قول كعب بن زهير :

أنا ابنُ الذى لم يخزِنى فى حياته قــديماً ومَنْ يشبِهْ أباه فماظلم

لقنّوه : علّموه . أوْلَى . أحق . نِحْلة : عطية . العِقْيان : الذّهَب .

المقامة الخمسون أو هي البصرية

حكى الحارث بن همام قال : أشْعِرْتُ فى بعض الأيام هَمًّا برَّح به استعارُه ، ولاحَ على شعارُه ، وكنتُ سمعت أن غِشيان مجالِسِ الذِّكْر ، يَسرُو غواشِيَ الفِكْر ، فلم أر لإطفاء ما بى من الجَمْرَة ، إلَّا قَصْد الجامع بالبَصْرة ، وكان إذ ذَاك مأهولَ المساند ، مَشْفوه الموارد ، يُجتنَى من رِياضِه أزاهيرُ الكلام ، ويُسمع فى أرجائه صَرِيرُ الأقلام ، فانطلقْتُ إليه غير وَانٍ ، ولا لاوٍ على شان ، فلمَّا وطئتُ حصاه ، واستشرفتُ أقْصاه ، تراءى لى ذو أطمارٍ بالية ، فوق صخرة عالِية ، وقد عَصَبَتْ به عُصَبٌ لا يحْصَى عديدُهم ، ولا ينادَى وليدُهم ، فابتدرْتُ قَصْدَهُ ، وتورّدْت وِرْدَه ، ورجوتُ أنْ أجِدَ شِفائى عنده ، فلم أزل أتنقّل فى المراكز ، وأغْضِى للاكّز والوَاكِز ، إلى أن جلستُ تُجاهَه ، بحيثُ أمِنْت اشتباهَه ، فإذا هو شيخنا السَّرُوجىّ لا ريْبَ فيه ، ولا لَبْس يُخْفِيه ، فانْسَرَى بِرُؤْيَاه هَمِّى ، وارْفَضَّتْ كتيبة غمّى .

* * *

أشعرت : أُلبِسْت . برّح : شق واشتدّ . استعارُه : توقّده فى القلب . لاح : ظهر ، يريد أنه لبس الهمّ كالشِّعار . والشِّعار : ثوب يلى الجسد ، والشّعار علامة القوم فى الحرْب ، فمعناه عَبَس وجْهُه من شدة الهم . يسرو : يزيل . غواشى الفكر : مايغشاه ويدخل عليه من الهمّ . مأهول : كثير الأهل . المساند : جمع مُسْنَد ، وهو مايسند إليه ظهره ، أراد مواضع العلماء المتصدّرين للإقراء . والموارد : مواضع المياه . مشفوه : كثيرة الشفاه عليه للشرب ، وأراد

ازدحامَ الطلبة على الأشياخ لأخذ العلم . أزاهير : أنوار . أرجائه : نواحيه . صرير : أصوات . وانٍ : مقصّر . لاوٍ على شان : معرّج على أمر . استشرفت أقصاه : اطّلعت بنظرى عليه كلـه . تراءى : ظهر . أطار : ثياب خَلَقَة . عصبت : أحدقت وحلقت . عُصَب : جماعات . لاينادَى وليدهم ، هـذا مثل يستعمل فى الأمر المعجب المبالغ فى وصفه المعَجب منه ، وقد يؤوّل على تأويلات ، وهو يستعمل فى الخير والشر . والرخاوة والشدة . ابتدرت قصده ، أى عجلت المشى إلى جهتـه . توردت ورْده ، أى طلبتُ منفعتَه . والمراكز : مواضع الجلوس ، ومركز الرجل : موضعه ، وركزت الشيء غرستُه . أغضِى : أغمض على المكروه . اللاكز : الضارب فى الصدر . الواكز : الضارب فى ناحية الفم ، والوكز واللَّكز بجُمْع اليد . تُجاهه : قبالة وجهـه . اشتباهه : التباسه بغيره . يخفيه : يستره . انْسَرَى : زال وانكشف . ارفضَّتْ : تفرّقت . كتيبة غمى ، أى عسكره .

* * *

وحِينَ رَآنى ، وبَصُرَ بمكانى ، قال : يا أهلَ البصرة ، رَعاكم الله ووقاكم ، وقوّى تُقاكم ، فَمَا أضْوعَ رَيَّاكم ، وأفْضَلَ مَزَاياكم ، بلدُكم أوفَى البِلادِ طُهْرَة ، وأَزْكاها فِطْرَة ، وأَفْسَحها رُقعة ، وأمْرَعها نُجْعة ، وأقومُها قِبْلة ، وأوسعُها دِجْلة ، وأكثرُها نهراً ونَخْلة ، وأحسنُها تفصيلًا وجملة ، دِهْليزُ البلد الحرام وقُبالة الباب والمقام ، وأَحَدُ جَنَاحَىِ الدُّنْيا ، والمِصْرُ المؤسّسُ على التَّقْوى ، لم يَتَدَنّس ببيُوت النِّيران ، ولا طِيف فيه بالأَوْثَان ، ولا سُجِد على أَدِيمه لغيرِ الرَّحْمن ، ذُو المشاهد المشهودة ، والمساجِد المقصودَة ، والمعالِم المشهورة ، والمقابرِ المَزُورة ،

والآثارِ المحمودة، والخِططِ المحدودة، به تَلْتقى الفُلْكُ والرِّكاب، والحيتانُ والضِّباب، والحادِى والمَلّاح، والقَانص والفَلَّاح، والنَّاشب والرّامح، والسَّارح والسَّابح، وله آيةُ المدّ الفائض، والجزْرُ الغائض.

* * *

وقوله: وحين رآنى، يريد أنّ السَّروجى علم أنّ ابن هَمَّامٍ يَعرِف مكره الناس فى كل بلد، فخشى ألّا يُسمح له بخداع أهل بلده، فأخذ يمدح البصرة وأهلَها ليرضية بذلك. رعاكم الله: حَفَظكم. وقاكم: كفاكم ما يحذر. تقاكم: خَوفكم لله. أضْوَعَ رَيّاكم: أنْوَح رائحتكم. مزاياكم: فضائلكم التى خُصِصتم بها. أوْفَى: أكمل. أفسحها: أوسعها. الرقعة: القطعة من الأرض. أمْرَعها: أخصبها. النُّجعة: موضع العشب يتجمعه النّاس. دِجْلة: نهر البصرة. تفصيلا وجملة، يقول: إن جزئت مواضعها وتناظر كل جزء منها مع كل جزء من غيرها كان لها الفضلُ، فإن قيل: أىّ البلاد أحسن على الجملة؟ قيل البصرة. الدّهليز: أسطوان الدار ومدخله، والمقام: موضع قيام إبراهيم عليه السلام عند الكعبة للدّعاء. أحد حناحى الدنيا: من قول أبى هريرة: «الدنيا على مثال الطائر، فالبصرة ومصر الجناحان فإذا خربا وقع الأمر». المؤسس على التقوى: الذى بُنِى أساسُه فى الإسلام. يتدنس: يتوسّخ. الأوثان: الأصنام. أدِيمه: جلده، أراد به أرضه. الخِطَط: الدور والأزقّة. المختطة: الموسومة ليبنى فيها. الفُلْك: السفن. الركاب: الإبل، يريد أنها بحرية برية. الضِّباب: جمع ضَبّ. الحادى: سائق الإبل فإذا كان الحادى حسنَ الصوت بلغت الإبل جهدَها فى المشى. الملاح: خادم السفينة. القانص: صائد الحوت. الفلاح: الحرّاث. الناشب: الرامى النشّاب. الرامح: الطّاعن بالرمح، أراد الإغزاز لأنهم رماة والعرب لأنهم أصحاب رماح. والسّارح: راعى الإبل. والسابح:

العائم فى الماء . آية : علامة . المدّ والجزر ، أى زيادة البحر ونقصانه وهما الملء والحصر ، ونهر البصرة يركض فيه البحر .

* * *

وأمّا أنتم فمّن لا يَخْتَلِفُ فى خصائصهم اثنان ، ولا يُنْكِرُها ذُو شنآن ؛ دَهْماؤكم أَطْوَعُ رعيَّةً لِسُلطَان ، وأَشْكَرُهم لإحسان ، وزاهدكمْ أَوْرَعُ الخليقة ، وأَحْسَنُهُمْ طريقَةً على الحقيقة ، وعَالِمكم علامة كُلّ زمان ، والحجّةُ البالِغَةُ فى كلِّ أوانٍ ، ومنكمْ من اسْتَنْبطَ عِلْمَ النَّحْو ووضَعه ، والّذى ابتَدَعَ مِيزَان الشِّعْرِ واخْتَرَعَه ، وما مِنْ فَخْرٍ إلّا ولَكُمْ فِيهِ الْيَدُ الطُّولَى ، والقِدْحُ المعلَّى ، ولَا صِيتٍ إلّا وأَنتُم أَحقُّ به وَأَوْلَى . ثمَّ إنّكمْ أَكْثرُ أَهلِ مِصْرٍ مؤذّنين ، وأَحْسَنُهُمْ فى النُّسْكِ قوانينَ ، وبكُمْ اقْتُدِىَ فى التَّعريف ، وعُرِفَ التّسْحِيرُ فى الشَّهْرِ الشَّريف ، ولكم إذا قَرَّتِ المضاجِعُ ، وهَجَعَ الهاجع ، تَذْكارٌ يُوقظُ النَّائم ، ويُؤْنِسُ القائم ، وما ابتسم ثَغْرُ فَجْر ، وَلَا بزغَ نورُهُ فى بَرْدٍ ولا حرّ ، إلّا ولتأذِينُكمْ بالأسحار ، دَوِىٌّ كدَوىّ الرّيح فى البحار . وبهذا صَدَع عنكم النّقل ، وأَخبر النبىّ عليه السلام مِنْ قَبْل ، وبَيَّنَ أَنّ دَوِيَّكمْ بالأسحار ، كَدَوِىّ النّحْلِ فى القِفار ، فشرفَّالكم ببِشارة المصطفى وواهًا لِمِصْرِكم وإنْ كان قَدْ عفا ، ولم يَبْق منه إلّا شفا .

* * *

خصائصهم : مايختصون به من الفضائل ، أراد أن البصرة اجتمعت فيها

الأشياء المتنافرة والمتضادة التى لاتجتمع ببلد ، فهى أجمع بلاد الله فائدة ، قال ابن أبى عيينة فى نحوه :

زُرْوادىَ القصر نعم القصر والوادى ... لابدّ من زَوْرة من غير ميعادِ
زُرْه فليس له شبه يقاربه ... مِن منزلٍ حاضر إن شئت أو بادِ
تَرى قراقره والعيس واقفةٌ ... والضَّبُّ والنون والملاّح والحادِى

[ذكر البصرة]

والبصرة اختطّها عُتْبة بن غَزْوان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمْر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وعُتبة بدرىّ مهاجرىّ ، بناها سنة أربع عشرة من الهجرة فمرّ بموضع منها فوجد الكذّان ، وهى الحجارة الرّخوة فقال: هذه البصرة ، انزلوها بسم الله ، فسمِّيت لذلك البَصْرة ، واختُطَّت الكوفة سنة سبع عشرة من الهجرة فى المحرّم ، وكُسِرت البصرة فى أيام خالد القسرى فوجد طولها فرسخين فى مثلهما والكوفة ثلثاها . وأمّا فى أيام المنصور فقسَم على مَنْ يستوجب العطاء من أهل البصرة ألْف ألف درهم ، فأصاب كلَّ رأس درهمين .

ولأهل البصرة ثلاثة أشياء ليس لأحد من أهل البلدان أن يدّعيَهَا عليهم : النّخل والشّاء والحمام ، أما النخل فهم أعلم خلق الله به وأحذقهم بإصلاحه ، وفيها من أصناف النخل ماليس فى بلد من البلدان ، وأما الشاء المعبدية فقد وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من عبدالقيس ، فقال: يارسولَ الله إنى رجل أحبّ الشاء ، فدفع له فحلا من المعز فقبض بيده على أصل أذنه ، حتى استدارتْ أصابعه ، فصار فى أذنه كالسِّمة فسار إلى بلده فأطرقه شاءه ، فحُملت إلى البحرين ، فتناسلت هناك فليس فى البحرين شاة كريمة إلا وفى أذنها سمة كالحلْقة ، فيغالَى بها لتلك العلامة حتى تبلغ الشاة منها خمسين ديناراً ، وتعقد بالبصرة عقودها ، وفيها شاة لبنى فلان أمّها فلانة ، وأبوها تيس بنى

فلان ، مقدار حلبها بالغداة والعشيّ كذا . وحمامهم بلغت فى الهداية أن جاءت من أقاصى بلاد الروم ومن مصر إلى البصرة وينتهى ثمنُ الطائر منها إلى تسعمائة دينار، وتباع بيضتها بعشرين ديناراً، وكلّ ما وصف فى المقامة موجود فى البصرة، ولمّا صعد علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه منبرها خطب وقال فى آخر خطبته : ياأهلَ البصرة، يابقايا ثمود ويا جند المرأة، ويا أتباع البهيمة ، دعا فاتّبعتم، وعقر فانهزمتم ، أما إنى أقول لارغبةً فيكم ولا رهبة منكم ، غير أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أرض يقال لها البصرة ، أقوَم الأرضين قبلة ، قارئها أقرأ الناس، وعابدها أعبد الناس، ومتصدقها أكثر الناس صدقة ، وتاجرها أعظم الناس تجارة منها إلى قرية يقال لها الأبلّة أربع فراسخ ، يستشهد عند مسجدها سبعون ألفا ، الشهيد منهم كالشهيد فى يوم بدْر . فبنى الحريرى فى مدح البصرة على هـذا الحديث ، وإنما ختم كتابه بذكر البصرة وأهلها لتقوى مفاخرهم ، ومفاخر بلدهم فى البلدان فيلهجون بالمقامات ويقدمونها على غيرها .

قوله : شنآن ، أى عداوة . دهماؤكم : جماعاتكم ، والدهماء معظمُ الناس وأكثرهم . والدّهم : العدد الكثير . عابدكم: زاهدكمُ كالحسن البصرى ومحمد ابن سيرين وغيرهما . الخليقة ، أى أخوف النّاس من الله تعالى . علّامة : كثير العلم .

[ذكر أبى الأسود]

ومستنبط علم النحو هو أبو الأسود الدؤلى ، واسمه ظالم بن عمرو بن جندل ابن سفيان أحد بنى الديل من كنانة ، وهو يعدّ فى التابعين والمحدّثين والشعراء والبخلاء والنّحويين ، ويُعدُّ فى العُرْج والمفاليج والبُخْر ، شهد مع على رضى الله عنه صِفّين ، وولى البصرة لابن عباس رضى الله عنهما ، وكان من شيعة علىّ

وكانت امرأته عثمانية ، وكان أصهاره لا يزالوان يردّون عليه قوله فى علىّ ، فقال فيهم :

يقولُ الأرذلون بنو قُشَيْرٍ طَوالَ الدَّهر لا تنسى عليّا
فقلت لهم وكيف يكون تركِى من الأعمال ما يعصى عَلَيّا
أحبّ محمداً حباً شديداً وعباساً وحمزة والوصيّا
بنو عمّ النبى وأقربُوه أحبُّ النّاس كلِّهمُ إليّاً
فإن يكُ حبهمْ رَشَداً أصبه ولست بمخطىء إن كان غيّاً

ولم يشكّ أبو الأسود أنه رشد، وعلى هذا تأويل قوله تعالى :(وإنّا أو إيا كمْ لعلَى هدًى أو فى ضلال مبين) .

ومن بخله أنه كان يقول : لا تجاودوا الله فإن الله أجود وأمجد ، ولو شاء الله أن يوسِّع على خَلْقه حتى لا يكون فيهم محتاج لفَعل . وكان يقول لولده : إذا بسط الله لك فى الرزق فانبسطْ ، وإن قبضه فانقبضْ .

ومرّ برجل وهو يقول : مَنْ يعشّى هذا الجائع؟ فأدخله وعشّاه حتى شبع ، ثم ذهب السائل ليخرج ، فقال له : أين تذهب ؟ فقال : لأهلى فقال : لا أدعك تؤذى المسلمين بسؤلك ، اطرحوه فى الأدْهم ، فبات عنده مكبولاً حتى أصبح .

وكتب إلى رجل يستسلفه فكتب إليه الرجل : المؤنة كثيرة ، والفائدة قليلة ، والمال مكذوب، فراجعه أبو الأسود: إن كنت كاذباً فجعلك الله صادقاً ، وإن كنت صادقاً فجعلك الله كاذباً .

وقال الخليل : كان أبو الأسود ضنيناً بما أخذه من علىّ رضى الله عنه ، وذلك أنه سمع لحناً فقال لأبى الأسود : اجعل للناس حروفاً ، فأشار إلى الرفع والنصب والخفض .

رفع المسهما

وقال له زياد : قد فَسَدت ألسنة الناس ، لأنه سمع رجلا يقول : سَقَطت عصاتى ، فدافعه أبو الأسود .

وسمع رجلا يقرأ (أن الله برىء من المشركين ورَسولُه) فخفض ، فقال : ما بعد هذا شيء ، فقال له : ابغنى كاتبا يفهم ، فجيء برجل من عبد القيس ، فلم يرضه فَهْمُه ، فأتِىَ بآخر من قريش ، فقال له : إذا رأيتَنى قـــد فتحتُ فىّ بالحرف فانقط نقطة على أعلاه ، وإذا ضممتُ فىّ فانقط نقطة بين يديه ، وإذا كسرتُ فىّ ،فاجعل النقطة تحت الحرف، فإذا أُشْرِبت ذلك غُنّة ، فاجعل النقطة نقطتين ، فهذا نقط أبى الأسود .

واختلف الناس إليه يتعلمون العربية، وفرَّع لهم ما أصَّله فأخذه جماعة كان أبرعَهم عنبسةُ بن معدان المهرى يقال له الفيل ، فأقبل الناس عليه بعد موت أبى الأسود ، فبرع من أصحابه ميمون الأقرن ، فرأس فى الناس وزاد فى الشرح، فبرع من أصحابه عبــدُ الله بن أبى إسحاق الحضرمى ، فبرع فى النّحو وتكلم فى الهمز ، وأملى فيه كتابا ،وأخذ أبو عمرو بن العلاء عمّن أخذ عنه ، ثم نجم من أصحاب أبى عمرو عيسى بن عُمر،ويونس بن حبيب وأبوالخطاب الأخفش ، فألّف عيسى كتابيْن سمى أحدهما الكامل والآخر الجامع ، قال المبرد : فأخذ الخليل عن عيسى ، فلم يكن قبله ولا بعده مثله ، وهو القائل يمدح كتابى عيسى :

بطل النحــو الّذى جَمَّعتُم غير ماأحدث عيسى بن عُمَرْ
ذاك إكمال وهــذا جامع وهُمَا للنّاس شمسٌ وقمــرْ

قال أبو العباس : وقد قرأت أوراقاً من أحدهما فكان كالإشارة إلى الأصول ، ثم أخذ عن الخليل جماعة لم يكن فيهم مثل عمرو بن قنبر سيبويه ، ويكنى أبا بشر وأبا الحسن ، وهو من موالى بنى الحارث بن كعب فألف كتابه الذى سماه قرآن النحو ، وعقد أبوابه بلفظه ولفظ الخليل .

رفع المسهم

وأبو الأسود من سكان البصرة .

[الخليل مخترع علم العروض]

ومستنبط : مستخرج ، والّذى استنبط العروض هـو الخليل ، وذكره بعض العروضيين فقال : للخليل فى العروض حكمة مخترعَة ،وسابقة مبتدعَـة ، تبيَّن بذلك فضله ، وظهر تقدمه لأنه لم يتَّبع فيما وضعه أثراً موجوداً ، ولا اقتفى فيه رسماً مرسوماً، واهتدى إلى مالم يهتدِ إليه المتقدمون ولا أوجد مزيداً عليه المتأخرون . ولولا الخليل لمْيُسْلَمَ صحيح الشعر من كسِيره، ولاسقيمه من عليله ، وفى حَصْره لجميع أوزان العرب فى خمس دوائر أعظم العَجب لمن تدبر ماصنع وفَهِم .

وكان الخليل يحب أن يرى عبدَ الله بن المقفع، وكان ابنُ المقفع يحب ذلك ، فجمعهما عبَّاد المهابى ، فتحادثا ثلاثة أيام ولياليهن ثم افـترقا ، فقيل للخليل : كيف رأيتَ عبد الله ؟ فقال : مارأيت مثلَه قطّ وعلمه أكثر من عقله . وقيل لابن المقفع : كيف رأيتَ الخليل ؟ فقال : مارأيتُ مثله قطّ وعقله أكثر من علمه ، وصدقا فى ذلك، أدَّى عقل الخليل إلى أن مات وهو أزهد الناس، وجَهْل ابن المقفع أردَاه ، فكتب كتاباً لعبد الله بن علىّ على المنصور ، فقال فيه ما كان مستغنياً أن يقوله ، ولايحتمل الأمراء دون الخلفاء مثلَه، فقال فيه : ومتَى غَدَر أمير المؤمنين بعمّه عبد الله بن علىّ ، فنساؤه طوالق ودوابّه حَوابس ، وعبيده أحرار ، والمسلمون فى حلٍّ من بيعتـــه ، فاشتد ذلك على المنصور وكتب إلى أمير البصرة أن اقتل عبد الله بن المقفع فقتله .

وقال ابن المقفعَ إنْ أكرمك الناس لمـالٍ أو لسلطانٍ فَلا يعجبنّك ذلك ، فإن زوال الكرامة بزوالهما ، ولـكن ليعجبك إن أكرموك لأدبٍ أو دين .

واتخذ عباد المهابى أرضاً فأراد غرسها ، فلامه أصحابُه وقالوا : هى سَبخة

فأشار عليه الخليل بغرسها ففرسها ، فجاءت بكل شيء حسن ، فحمل إليها الخيل فاستحسنها ، وقال :

ترفعتْ عن ندى الأعماق وانخفضتْ عن المعاطِش واستغنت بسُقْياها
فمال بالخوخ والرمان أسفلُها واعتمّ بالنخل والزيتون أعْلاَها
وصار يغبطه مَنْ كان يعذِلُهُ ولائم لامه فيها تمنّاها
أبا معاوية اشكر فضل واهِبها وكلما جئتها فاعمرْ مُصَلاَّها

وله :

عش مابدالك قصرُك الموتُ لامهربٌ منه ولا فَوْتُ
بينا غنى بيت وبهجتُه زالَ الغنى وتقوّض البيت

وتوفى الخليل سنة سبعين ومائة وهو ابن خمس وسبعين سنة وتقدمت أخباره فى الأربعين فلتنظر هناك .

قوله: اخترعه ، أى أوجده قبل أن يكون . مصر ، أى بلد . وقوانين : طرق مستقيمة . التعريف : حلْق الرأس بعد يوم عَرَفة . قرت المضاجع : نام الناس فيها . هجع : نام . ثغر : سنّ وأراد به بياض الصبح . بَزَغ : صَدَع وظهر . النَّقْل : الحديث: المنقول عن النبي صلى الله عليه وسلم . واهاً : عجباً . عفا : دَرس . شَفا : طَرْف وشيء قليل ، وشفا كلّ شيء حدُّه وطَرْفه .

* * *

ثمّ إنّه خزن لسانه ، وخَطَم بيانَه ؛ حتّى حُدِج بالأبصار ، وقرِف بالإقْصار ، ووُسِم بالاستقصار ، فتنفَّس تنفُّسَ مَنْ قِيدَ لِقوَد ، أو ضَبَثَتْ به براثِنُ أسَد ، ثم قال : أمَّا أنتم يا أهلَ البصرة ، فما منكم إلاّ العَلَمُ المعروف ، ومَنْ له المعْرِفة والمعروف . وأمّا أنا فمَنْ عَرَفنى

فأنَا ذَاك ، وشرُّ المعارف مَنْ آذاك ، ومَنْ لم يُثبِتْ عِرْفَتِي ، فَسَأُصْدُقُه صِفَتِي .

أنا الّذى أنْجَـدَ وأَتْهم ، وأَيْمَنَ وأشأم ، وأَصْحَرَ وأَبْحَرَ ، وأدْلج وأسْحَر ، نَشَأْتُ بسَرُوج ، ورُبِيتُ على السُّرُوج .

ثم وَلَجْتُ المْضايق ، وفتحْتُ المغالق ، وشَهِدْت المعارك وألنتُ الْعَرَائك ، واقْتَدْتُ الشَّوامِس ، وأَرْغَمْتُ المعاطس ، وأَذَبْتُ الجَوامِد ، وأَمَعْتُ الجَلامِد .

* * *

خزن : حبس . خَطَم : زمَّ ، والخِطام حبلٌ يشد على أنف البعير . حَدَج : نظر إليه بحدّة . قُرِف : اتُّهم ، وقَرَفتُه بشرّ . رميتـه به : الإقصار العجْز . قَود : قتل نفس بنفس . ضَبَثَتْ : عَلِقَتْ . براثن : أظافير . العلم . المشهور بالفضائل ، والمعروف الثانى : العطاء . أنجدوأتهم : أتَى نجداً وتهامة . أيمن وأشام : أتى اليمَنَ والشأم . أصحر وأبحر : مشَى فى الصحراء والبحر . أدلج وأسحر : مشى باللّيل والسَّحَر . نشأت : كَبِرت . ولَجْتُ : دخلت . المعارك : مواضع القتال . العرائك : الطبائع الصعبـة . الشوامس : الشَّوارد التى تأبَى الانقياد . أرغمت المعاطس : أذلت الأنوف أمعت الجلامد : أسَلْت المياه من الجنادل الصمّ .

* * *

سلُوا عنّى الْمَشَارِق والمَغَارب ، والْمَنـاسِمَ والْمَوَارِب ، والمحافلَ والْجحافل ، والقبائِلَ والْقَنَابِلَ ، واسْتَوْضِحُونِى من نَقَلَةِ الأَخْبَار ، ورُواةِ الأَسْمَار ، وحُداة الرُّكْبَان ، وحُـذّاق الكُهّان ، لتعلموا كَمْ فجٍّ

سَلَكْتُ، وحِجابٍ هَتَكْتُ، ومَهْلَكةٍ اقْتَحَمْتُ، ومَلْحَمةٍ أَلحمتُ، وكَمْ ألْبابٍ خَدَعْت، وبِدَعٍ ابْتَدَعْت، وفُرَصٍ اخْتَلسْت، وأُسْدٍ افْتَرَسْت؛ وكم مُحَلِّقٍ غادرتُه لَقًى، وكامِنٍ استخرجْتُه بالرُّقى، وحَجَرٍ شَحَذْتُه حَتَّى انْصَدَع، واسْتَنْبَطْتُ زُلالَه بالْخَدَع، ولكن فَرَطَ مافَرَط، والغُصنُ رَطيب، والفَوْدُ غِرْيِب، وبُرْدُ الشَّبابِ قَشِيب؛ فأمَّا الآن وقد اسْتَشَنَّ الأديم، وتأوَّد القويمُ، واسْتَنَارَ اللَّيْلُ الْبَهيم؛ فَلَيْس إلَّا الندم إن نَفَع، وتَرْقيع الخرْق الَّذِى قَدْ اتَّسَع.

* * *

المَنَاسِم: أخفاف الإبل. الغَوَارب: مَقَادِم ظهورها. المحافل: الجموع. الجحافل: الجيوش. القنابل: جماعة الخيل واحدها قُنْبلة. استوضحونى: اطلبوا بيانَ أمرِى. الأسمار: الأحاديث باللّيل يُسْمَرُ عليها. الْحُداة: خدام الإبل. فجّ: طريق فى الجبل. سلكت: دخلْت. هتكت: خرقت. مهلكة: موضع خوف يَهْلِك فيه الناس. اقتحمتُه: راميت فيه. ملحمة: مواضع الحرْب الشديدة يلتحم فيها أهلُ العسكرين ويلتصِق بعضُهم ببعض. ألحمت، أى أوقدت النار بينهم حتى التصقوا وصاروا لحمةً واحدة، وذلك أشدّ مايكون الحرب. ألباب: عقول. بِدَع: جمع بدْعة، وهو الشىء المبدع. اختلستُها: أخذتها بسرعة واختطفتُها. محلّق: طائر فى الهواء. لقًى: مطروحًا على الأرض. وكامن: مستور. شحذتُه: صقلته. انصدع: انشق، وأراد بالحجر بخيلاً لايرشح بشىء كالحجر، فتحيّل عليه حتى أخذ مالَه. استنبطت: استخرجت. زلاله: ماءه العذْب الصافى، أراد أخذت ماله. فرَط مافرط، أى سبق ماسَبق. رطيب: ناعم، وغصنه: قامته. والفَوْد: ناحية الرأس. غريب: أسْود. بُرْد: ثوب. قَشيب: جديد. استشنّ الأديم: يبس الجلد،

والشنّ : القِرْبة البالية اليابسة . تأوّد القويم : اعوجّ المعتدل . استنار : أضاء وشاب . الليل البهيم : الشعر الأسود . وقال الشاعر فى معنى استشنّ الأديم :

يامَنْ لشيخٍ قد تخدّد لحمُهُ ... أفنى ثلاث عمائم ألوانا
سَوْدَاء حالكةٌ وسحق مفوّفٌ ... وأجدّلونا بعد ذاك هجانا
قصر اللّيالى خطوَه فتدانى ... وحَنَوْن قائمَ صُلْبه فتحانى
والموت يأتى بعد هذا كلِّه ... وكأنما يعنِى بذَاك سوانا

وقال ابنُ الرومى فى استنارة الليل :

فجار على ليل الشباب فضامَه ... نهارُ مشيبٍ مرمدٌ ليس ينفد
وعَزّاك عن ليل الشباب معاشرٌ ... وقالوا نهار الشيب أهدَى وأرْشَدُ
وكان نهارُ المرء أهْدَى لرشْدِه ... ولكنّ طَلّ الليل أندى وأبرد

وأنشد الزاهد ابن عمران قول الشاعر :

لم أقل للشباب فى كنف الله ولا حفظه غَدَاة استقلاَّ

فزاد بعد استقلا :

لاولا للمشيّب لَمّاً بدالى ... مرحّباً بالمشيب أهلاً وسهلا
مؤذن بالحمام هذا وذاكم ... سوّد الصحف بالذنوب وولّى

وأحسن ماقيل فى ذم خضابه قول ابن الرومى :

رأيتُ خضاب المرء بعد مشيبه ... حداداً على فَقْد الشبيبة يلبسُ[1]
وإلا فما يغرى الفتى بخضابه ... أيطمع أن يخفى شبابٌ مدلّس
وكيف بأن يَخْفَى المشيب لناظر ... وكلّ ثلاث صُبْحه يتنفس
وَهبهُ يوارى شيبَه أين ماؤه ... وأين أديمٌ للشبيبة أملس

(١) ديوانه

رفع المسهم

وقال محمود الوراق :

ياخاضبَ الشيبةِ نحْ فقدها فإنما تدرُجُها فى كَفَنِ
أما تراها منـــذ عاينتَها تزيد فى الرأس بنقص البدنِ

قوله : ليس إلّا النّدم . ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أذنَبَ ذنباً أو أخطأ خطيئة فندم كانَ كَفّارةً لما صنع » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين ونور السموات والأرض وإن لكم من الله نَظِرة » .

كتب عبد الملك إلى الحجاج يتوعّد علىّ بن الحسين ويكتب إليه بما يقول ففعل ، فقال : إن لله لوحاً محفوظاً يلحظُه فى كلّ يوم مائة لحظة ، ليس منها لحظة إلا يُحْيِي فيها ويُميت ، ويُعِزّ ويُذِلّ ويفعل مايشاء ، وإنى لأرجو أن يكفيَك الله منها بلحظةٍ واحدة ، فكتب بها الحجاج إلى عبد الملك .

وكتب ملك الروم إلى عبد الملك : أكلت الجمل الذى ركب عليه أبوك من المدينة لأغزينّك جنودا مائة ألف ومائة ألف ، فكتب إليه عبد الملك بكلام علىّ فقال ملك الروم : ماخرج هذا إلا من كَلاَم النّبوة .

* * *

وكنتُ رُوِّيتُ من الأخبار المسنَدة ، والآثار المعتمدة ، أنَّ لكم من الله تعالى فى كلّ يوم نَظْرة ، وأنَّ سلاح النّاس كلّهم الحَدِيد ، وسلاحَكم الأَدْعِية والتَّوْحِيد ، فقصدْتُكم أُنْضِي الرّواحل ، وأطوِى المراحِل ؛ حتى قمت هذا المقام لديكم ، ولا مَنَّ لى عليكم ؛ إذ ماسعيتُ إلّا فى حاجتى ، ولا تعبْتُ إلّا لِراحتى ، ولستُ أبغى أعطيتَكم ، بل أستدعى أدْعِيتَكم ، ولا أسأَلُكم أموالَكم ؛ بل أستَنْزِل سؤالَكم ،

فادعوا اللهَ بتوفيق للمتاب ، والإعـداد للمآب ، فإنّه رفيع الدَّرجات ، مُجيب الدعوات ، وهو الذى يَقْبَل التّوبة عن عبـــاده ويعْفُو عن السيئات . ثم أنشد :

أستغفرُ الله من ذنوبٍ أفرطتُ فيهنّ واعْتـدَيتُ
كم خُضْتُ بحرَ الضَّلال جَهْلاً ورحتُ فى الغىّ واغْتَدَيْتُ
وكم أطعتُ الْهَوَى اغتراراً واختلْتُ واغتلتُ وافتريتُ
وكم خَلَعْت العِذارَ رَكْضاً إلى المعـــاصى وما وَنيتُ
وكم تناهيتُ فى التخطِّى إلى الخَطَايا ومَا انْتَهَيتُ
فليتَنِى كنتُ قبل هـــذا نسْياً ولم أجْـــنِ ماجنيتُ
فالموت للمجرمينَ خـــيرٌ من المساعى التى سعيتُ
يارَبِّ عفواً فأنت أهـــلٌ للعفْـــوِ عَنّى وإن عَصَيْتُ

* * *

أنضى الرواحل : أهزل الإبل . أطوى المراحل : أقطع الأرض مجتهداً ، وأردّ المرحلتين والثلاث مرحلةً واحدة . منّ : إحسان . أبغى : أطلب . الأعطية والأدعية : اسم لما يعطَى ولما يدعىَ . استنزل : أطلب بتلطّف . سؤالكم : طلبكم التوبة لى من الله تعالى . والمَآب : الرجوع . يعفو : يمحو ، وعفا الله عنك : درس ذنوبك ومحاها ، من عفا المنزل : درس وانمحَتْ آثارُه . وقال ابن المعتز :

كنت فى سفـــرة البطالة والغىّ زماناً فخان منى قـدوم
تُبْتُ عن كلّ مأثمٍ فعسى يُمحى بهذا الحديثِ ذاك القديمُ

وله :

الله يعلم ما إثمٌ هممتُ به ... إلاّ ونغّصه خوفى من النّارِ
وإنّ نفسىَ ماهمّتْ بمعصيةٍ ... إلا وقلبى عليها عائبٌ زارِى

آخر :

تطالبنى نفسى بما فيه صونُها ... فأغضى ويسطو توقُها فأطيعُها
ووالله مايخفى علىّ ضلالُها ... ولكنّها تأبَى فلا أستطيعُها

قوله : أفرطت ، أى ضيّعت . اعتديت : ظلمت نفسى ، قال داود الطائى : ما أخرج الله عبداً من ذُل المعصية إلى عز الطاعة إلا وأغناه بغير مالٍ ، وآنسه بغير أهلٍ ، وأعزّه بلا عشيرة . خضت : جُزْتُ الغىّ الضلال . اغترار : انخداع . اختلت : تكبرت ومشيت تخيّلاً ، واغتلت : أهلكت ، والغِيلة : القتل بالخداع ، وغالهم : قتلهم غِيلةً . افتريت : كذبت . خلعت العِذار : أزلت لجامَ الدّين الذى يمسكنى ، وتسيّبْتُ فى المعاصى . ركضا : جرياً ووثباً . ونيت : فترت وقصّرت فى الجرى إليها . تناهيت : أى بلغت النّهاية ، وهى آخرُ الشىء : التخطى . الجواز والقطْع ، وتخطّيت الشىء : جزته ، والخطايا : الذنوب ، وهى من الخطأ لأنّ فاعلها مخطىء بفعلها . والنسىّ : الشىء المنسىّ لحقارته لايخطر ببالك فتنساه . أجْنِ : أكتسب . المساعى : جمع مسعاة ، وهى السعى والمشى الكديد ، والمساعى أيضاً : المواضع التى يُسْعَى فيها ، أى يُمْشَىَ بكدّ ، وقال حبيب :

أخاف إلهى ثم أرجو نوالَه ... ولكنّ خوفِى غالبٌ لرجائيَا
ولولا رجائى واتّكالى على الذى ... تكفّل لى بالصنع كهلاً وناشيَا
لما ساغ لى عذبٌ من الماء بارد ... ولا لذّلى نوم ولازلت باكيَا
على أنه قد كان منى جَهالةٌ ... ليالىَ فيها كنتُ لله عاصيا

أخذه من قول الحسن البصرىّ : ينبغى أن يكون الخوف أغلبَ من الرجاء فإن الرّجاء إذا غلب الخوف فسد القلب .

* * *

قال الرّاوى : فطفقتِ الجماعةُ تُمِدُّه بالدُّعاء ، وهُوَ يُقلّبُ وجْهَهُ فى السَّماءِ إلى أنْ دَمَعَتْ أجْفانُهُ ، وبَدَا رَجَفانُه ، فصاحَ : اللهُ أكْبَرُ بانَتْ أمَارَةُ الاسْتِجابة ، وانجابَتْ غِشاوةُ الاسْتِرابة . فجُزِيتُمْ يا أهْلَ الْبُصَيْرَة ، جزَاء مَنْ هَدَى مِنَ الْحَيْرَة .

فلم يبقَ من الْقَوْمِ إلَّا مَنْ سُرَّ لِسُرُورِه ؛ ورَضَخَ لَهُ بِمَيْسُورِهِ فقَبِلَ عَفْوَ بِرِّهِمْ ، وأقْبَلَ يُغْرِقُ فى شُكْرِهِمْ .

ثمَّ انْحَدَرَ منَ الصَّخْرَةِ ، يَؤُمُّ شاطِئَ الْبَصْرَة ، واعْتَقَبْتُهُ إلى حيثُ تخالَيْنَا ، وأمِنَّا التَجسُّسَ والتَّحَسُّسَ عَلَيْنَا ، فقلْتُ لهُ : لَقَدْ أغْرَبْتَ فى هذهِ النَّوْبَةِ ، فما رأيُكَ فى التَّوْبَةِ ، فقال : أُقْسِمُ بعلّامِ الخَفِيّاتِ ، وغَفّارِ الخَطِيّاتِ ، إن شَأنى لَعَجابٌ ، وإنَّ دعاءَ قومِكَ لَمُجابٌ ، فقلْتُ زِدْنِى إفصاحاً ، زادَكَ اللهُ صلاحاً فقال : وأَبِيكَ لقدْ قمتُ فيهِمْ مقام المريبِ الخادِعِ ، ثمّ انقلبْتُ منْهمْ بقَلْبِ المُنيبِ الخاشِعِ ، فَطُوبَى لمنْ صَغَتْ قلوبُهُمْ إليه وويلٌ لمن باتَ يَدْعُونَ عَلَيْهِ . ثُمَّ ودَّعَنِي وانطلَقَ ، وأَودَعَنِي الْقَلَقَ .

رفع المسهم

قوله : فطفِقْت ، أى أخذت وجعلْت . تمدّه بالدعاء ، أى تَصل دعاءها بدعائه، وتقول: امددته بالمال، إذا قوّيْتَه به، ومددتَه بالجيش. رَجَفانه: اهتزازه، ورجف الشيء : تحرّك، والرجفة : اهتزازُ الأرض. بانت : ظهرت . انجابت : انكشفت وزالَتْ . غشاوة الاستارة: غطاء الشكّ. رَضَخ : أعطى. ميسوره : ما تيسر له . وعفو برهم : فضل إحسانهم . يهرِف : يكثر الكلام ويُطْنِب فى الشكر . انحدر : انصبّ . يؤمّ : يقصد . شاطىء : ساحل . اعتقبته : تبعته . تخالينا : صِرْنا فى خلوة من الناس . التجسّس : طلب الشيء باليد ، وقيل : التجسّس: طلب الشيء بالكلام . والتحسس : طلبه باليد، ثم قد يقع كلّ واحد منهما موقع صاحبه . ابن الأنبارىّ : تجسس الرجل وتحسّس بمعنى واحد ، هذا إجماع أهل اللغة . وفرّق بينهما يحيى بن أبى كثير، فقال : التحسّس البحث عن عورات الناس والتجسّس الاستماع لحديث القوم . ابن الأنبارى : الجاسوس : الباحث على أمور الناس . النَّوْبة : الدولة . إيضاحاً : بياناً . المريب : صاحب الريبة . المنيب : الرّاجع إلى الله بتوبته . الخاشع : هو الخاضع . صفت : مالت .

* * *

فلمْ أَزَلْ أعانِي لأجْلِهِ الفِكَر ، وأتشوّفُ إلى خِبْرةِ ما ذَكر. وكلّما استنشيْتُ خبَره مِنَ الرّكبان ، وجَوّابةِ البُلْدان ، كنتُ كمن حَاوَر عَجْمَاء ، أو نادَى صَخْرةً صَمَّاء ، إلى أن لقيتُ بعد تَرَاخِي الأمَد ، وتَرَاقِي الْكَمَدَ ركباً قافِلين مِنْ سَفر ، فقلتُ : هَلْ من مغَرِّبةِ خَبَر ؟ فقالوا. إنّ عندنا لخبراً أَغْرَبَ مِنَ الْعَنْقَاء ، وأَعْجَبَ مِنْ نَظَرِ الزَّرْقَاء .

* * *

أعانى : أقاسى. أتشوف: أتطلع . خِبْرة: اختبار . اسْتَنْشَيت : استطلعت، وأصل معناه شممت . جوّابة : قَطّاعة . وجَوّالة أى الذين عادتهم الجوَلان فى

البلاد . حاور : كلّم . عَجْماء : بهيمة، والمحاورة : المراجعة فى الكلام. تراخى : طُول المدة . الكَمَد : مُصاحبة الهمّ والحزَن . ركباً : أصحاب الإبل . قافلين : راجعين من سفر . مغرّبة ، أى هل عندكم من حديث غريب . والعنقاء ، قال ابن عباس رضى الله عنه : هو طائرٌ فُضّل به بنو إسرائيل ، فانتقل بعد يوشع إلى بلاد قيس عيلان بنجدْ والحجاز ، فآذى الولدان، فشكَوْا ذلك إلى خالد ابن سنان ـ وكان نبيًّا بين عيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ـ فدعا الله أن يَقْطع نَسْلها فبقيت صورتها تصوَّر فى البسط ، وكان أَجمل طائر وأعظمه ، ووجْهُه على هيئة وجوه الناس . وقال أهل الرواية : عنقاء مُغْرِب ، إنما هو الأمر العجيب . والعَنَق : السرعة ، وذكرتْ عجائبَ البلدان بمجلس الراضى، فقال قائل : أَعجَبُ ما فى الدنيا طائر بأرضَ طبرِستان على شاطىء الأنهار شبيه بالباشق ، يسمّى الكلم ، وهو يصيح فى فصل الربيع فتجتمع إليه العصافير ، وصغار الطير ، فتزقّه ، فإذا كان آخر النهار أخذ واحداً مما قرب من الطير فيأكله ، فذلك فعلُه إلى أن ينقضى فصل الربيع، فتجتمع إليه العصافير وصغار الطّير فتطرده وتضربه، فيفرّ منها فلا يسمع له صوت إلى الفصل الربيعى . وهو طائر حسن ، موشّى العينين .

وذكر الجاحظ أنه من عجائب الدنيا ، وذلك أنّه لا يَطَأُ الأرض بقدميه ، بل بإحداهما خوفاً على الأرض أن تنخسف من تحته ، والثانى دودة تُضِىء بالليل كالشمع ، وتصير بالنّهار لها أجنحة خُضْر ،وبالليل لا جناحين لها ، غذاؤها التراب ، لم تشبع قط منه خوفاً أن يفنى التّراب فتموت جوعاً ، والثالث أعجب من الطّائر ،والدّودة من يكرى نفسه للقتال،يعنى المسترزقة من الجند ، فاستحسن الخبرَ مَنْ حضر ، فقال الرّاضى معارضاً لما ذكر الجاحظ أنّ أعجب ما فى الدنيا ثلاث : البوم ، لا تظهر بالنهار خوفاً أن تصيبها العين لحسنها وجمالها ، فتظهر بالليل ، الثانى الكركىّ لا يطأ الأرض بقدميه معاً بل بإحداهما فإذا وطئها

لم يعتمد عليها اعتماداً قوياً خوفاً من أن تنخسف الأرض بثقله ، الثالث الطائر الذى يقعد فى مشارق الماء من الأنهار الذى يُعْرَف بمالك الحزين ، يشبه الكركىّ لا يشبع من الماء خشية أن يفنَى فيموت عطشاً . فافترق أهلُ المجلس والكلّ متعجبون من الرّاضى كيف تأتّى منه مثل هذه المذاكرة مع مَنْ حضره من أهل السنّ والمعرفة مع صِغَر سنه . والحكاية بكمالها فى كتاب المسعودى .

[الزرقاء]

وأما الزرقاء فكانت تُبْصر على مسيرة ثلاث ليال ، وكانت من جَديس ابن عامر بن إرَم بن سام بن نوح ، وكان مع جَديس طَسْم بن لاوذ بن إرَم ، وكانت مملكتُهم فى طسْم ، وكانوا يَسْكنون اليمامة ، وهما من العرب العاربة فأقاموا بُرْهة ، وبلادهم أفضلُ البلاد ، حدائق ملتفّة ، وقصور مصطفّة ، فكفروا بأنعم الله فأهلكهم ، وذلك لأنهم ملّكهم عُمْلوق بن طسْم ، وكان غشوماً لا يملك نفسَه فى هواه ، فاختصمت إليه امرأة من جَديس اسمها هزيلة مع زوجها فى ابن لها ، فأمر بالولد فجعلَ فى غلمانه ، وأمر بالزوج أن يُباع وتُعْطَى المرأة عُشْر ثمنه ، وبالمرأة أن تَباع ويُعطَى الزوج خمس ثمنها ، فقالت هزَيلة :

أتينا أخا طسْمٍ ليحكم بيننا فأبدع حُكْماً فى هزيلَة ظالِما

وهى أبيات ، فبلغَه قولُها ، فأمر ألاّ تتزوّج امرأة من جَديس حتى تُحمَل إليه قبل زَوْجها فيعتذرها ، فلقوا منه ذلًّا طويلا إلى أن تزوّجت الشموس بنت غفَار أخت الأسود بن غفار ، وكان سيّدَ جَديس فلما كانت ليلَة إهدائها حُملت إليه ، والقيان معها يقُلْن :

ابدأ بعملوقٍ إليه فارْكبِ وبادر الصّبْح بأمر معجبِ

* فما لبكر بعدكم من مذهبِ *

رفع المسهم

فلما افتضّها ، خرجت على قومها فى دمائها شاقةَ جيبَهَا من دُبر ومن قُبُل وهى تقول :

أَيصلح ما يؤتى على فتياتكمْ وأنتمْ رجال فيكمُ عددُ الرَّمْلِ
فإن أنتمُ لم تَغْضَبُوا بعد هـذهِ فكونُوا نساءً لا تفرّ من الفَحْلِ
فلو أننا كنّا رجالًا وكُنتمُ نساء لكنا لا نُقيم على الذلّ

فأنفت جديس عند ذلك ، واجتمعت إلى أخيها الأسود ، وأجمعوا على أن يصنعوا لها طعاماً ، فيدعو عملوقاً مع قومه فإذا جاءوا فى الخيل والبغال عمّوهم بالقتل ، فقالت الشموس لأخيها : الغدر عار وعاقبته بوار،صبحّوا القوم فى ديارهم تظفرُوا أو تموتوا كراماً ، فقالوا لها :المكرُ أمكنُ من نواصيهم . ثم صنع لهم الطعام ودفنوا سيوفَهم فى الرمل ، فلما استكملوا فى المِدْعاة أتوا عليهم أجمعين ، وهرب من طسم رياح بن مرة،فأتى حسان بن تبّع لينصره، فاستبعدوا أرضَهم ، وكان قد تبّع لرياح كلبة ، فضربها فى رِجْلها حتى عرجت ، فقال : أبعيدة أرض قطعتْها كلبة عرْجاء ! فتجهز معه بجيش فلما صاروا من جَديس على ثلاثة أيام ، صعدت الزرقاء على منارٍ كان لها لتنظر الجيش، وكان رياح قد قال لهم : إنّ الزرقاء تُبْصِر على ثلاث ليال ، ولكنْ ليقطعْ كل رجلٍ منكم غصناً من شجر ، فيحمله لتشبّه عليها ، فلما رأتهم، قالت : يا قوم أتتكم الشجر أو أتتكم حِمْير ، فلم يصدقوها فقالت :

أُقسِمُ بالله لقد دبَّ الشَّجَرْ أو حمير قد أقبلت شيأ تجرّ

فكذّبوها ، وقالوا . كلّ بصرُك وضَعُف،فقالت:أقسِم بالله لقد أرى رجلا ينهش كَتِفاً ، أو يَخْصِفُ نعلا،فتهاونوا بحديثها ، حتى صبّحهم حسان فاجتاحهم فأخِذت الزّرقاء ، فشق عيناها فإذا فيها عروق سود من الإثمد ، وكانت أول مَن اكتحل به ، وهرب الأسود ،.فنزل بطيٍّ ، فنسله فيهم ، وتسمى زرقاء

اليمامة ،واسم البلد جوّ، فلما صُلِبت على بابها ، سُمِّيت اليمامة ، وقيل: اليمامة اسم البلد ، واسم الزرقاء عَنْز ، وقيل إن حسّاناً لم يصلبها ، ولكن حملها فى السَّبْيِ ، وقالت عندما قُرِّبَ لها البعير لتركبه ، ولم تكن اعتادت ركوبه :

شرّ يوميها وأغواه لها ركبتْ عَنْز بجدْجٍ جَمَلا

وقيل إن عنزا هى أُخت الزرقاء ، وقال الشاعر :

ما نظرتْ ذات أجفان كنظرتها حَقًّا كما صدع الدّين الذّى صدعا
قالت أرى رجلًا فى كَفّه كتِفٌ أو يخصف النَّعل لَهفى أيةً صنعا
فكذّبوها فوافتْهَا على عَجَلٍ أقيال حمير تُزْجِى الموت والشّرعا
فاستنزلوا أهل جَوٍّ من معاقلهم وهدّموا شامخ البنيان فانّضعا

* * *

فسألتُهُمْ إيضاحَ ما قالُوا ، وأنْ يكيلُو لِي بما اكْتالوا ، فحكوْا أنَّهُمْ ألمّوا بِسَرُوح، بعد أن فارقها العُلوج،فرأوْا أَبَا زَيْدِها المعروف، قدْ لبسَ الصُّوفَ ، وأمَّ الصّفُوفَ وَصارَ بِهَا الزَّاهِدَ الْمَوْصُوف ، فقلت: أتَعْنُونَ ذَا الْمَقامَات . فقَالُوا: إنّه الآن ذُو الكَرَامات،فحفزنى إليه النِّزَاع ، ورأيتُهَا فُرْصة لا تُضَاع ، فارتحَلْتُ رِحْلَةَ المُعِدّ ، وسِرْتُ نَحْوَهُ سَيْرَ الْمُجِدّ ، حتّى حَلَلْتُ بمسجِدِه ، وقَرارَةِ مُتَعبَّدِه ، فإذا هو قد نَبَذَ صُحْبَةَ أصْحَابِهِ ،وانتصَبَ فى مِحْرَابِهِ ،وهُوَ ذُو عباءةٍ مخلولة ،وشَمْلَةٍ مَوْصولةٍ ؛ فهِبْتُهُ مَهَابَةَ مَنْ وَلجَ على الأُسود ، وألفيتُهُ مِمَّنْ سِيماهُمْ فى وُجُوهِهم من أَثَرِ السُّجُود . ولمّا فَرَغَ من سُبْحَتِه ، حيّانى بِمُسَبّحَتِه ، من غير أنْ نَغَمَ بحَديثٍ ، ولا استَخْبَرَ عن قديم ولاحَديث ، ثمّ أقبل

على أوْرَادِه ، وتَرَكَنِي أَعْجَبُ من اجْتِهَادِه ، وأَغْبِطُ مَنْ يَهْدِي اللهُ من عبادِه . ولم يزل فى قُنوتٍ وخُشُوع ، وسُجُود ورُكُوع ، وإخْبَاتٍ وخُضُوع ، إلى أنْ أكْمَلَ إقامة الخَمْس ، وصَارَ اليوم أَمْسِ ، فحينئذٍ انكفأ بِى إلى بيته ، وأسْهمني فى قُرْصِهِ وزَيْتِهِ . ثم نهض إلى مُصَلَّاه ، وتخلَّى بمناجاة مَوْلَاه ؛ حتَّى إذا الْتَمَعَ الْفَجر ، وحقّ للمجتهد الأجْر ، عقَّبَ تهجُّدَهُ بالتَّسْبيح ، ثم اضطجع ضِجْعَةَ الْمُسْتَرِيح ، وجَعَلَ يُرَجِّعُ بصوتٍ فصيح :

* * *

قوله : يكيلوا لى ما اكتالوا ، أى يعطونى ما أُعطوا من العلم . ألوْا : نزلوا . العلوج : الروم . أَمّ : صار إماما . حفزنى : عَجَّلَنِي . النزاع : الشوق . فرصة : غنيمة . المعدّ : الكامل العُدّة فى السفر . قرارة : الموضع الذى يقرّ فيه . متعبّده : موضع عبادته . نبذ : ترك . انتصب : قام ووقف . المحراب عند العرب : سيد المجالس ومقدّمها وأشرفها ، وقيل للقبلة محراب لأنه أشرف موضع فى المسجد ، وقيـــل للقصر محراب لأنه سيّد المنازل . الأصمعىّ المحراب عندهم : الغُرْفة .

أحمد بن عبيد : المِحْراب : مجلس الملك ، سمى بذلك لانفراد الملك به لا يقرَبُه أحد ، وسُمِّىَ محراب المسجد لانفراد الإمام به ، ويقال فلان : حَرْب لفلان ، إذا كان بينهما مباعدة . عباءة : كِساء . مخاولة بالية مشدودة بالخلال والشَّمْلة : الكِساء يُشْتَمل به . موصولة ، يريد أنها خلَقه قد تقطَّعت فوُصِلت وَلِجَ : دخل . ألفيته : وجدته . سيماهم : علامتهم حيّانى بمسبّحته ، أى بسبّابته وقد تقدّم ذكرها . نغم : تكلم بكلام خفىّ : والأوْرَاد : جمع وِرْد ، وهو النصيب من القرآن يقوم به الإنسان كلّ ليلة . أغبط : أحسد وأتمنّى أن أكون مثله .

وسجود ورَكوع: سجد الرجل إذا انحنى ومال إلى الأرض ، من قول العرب: سجدت الدابة وأسجدت، إذا خفضت رأسها لتركيب، ويقال : قنت الرجل ، إذا أخذ فى التعظيم والدعاء لله تعالى ، والقنوت على أربعة أقسام : الطاعة كقوله تعالى:(كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ) والصلاة كقوله تعالى:(اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي)، وطول القيام ، كقوله صلى الله عليه وسلم وقد سئل : أىّ الصلاة أفضل؟ فقال: طول القنوت والسكوت، كقول زيد بن أرقم كنا نتكلم فى الصلاة يكلّم أحدُنا الذى يليه حتى نزلَ(وقُومُوا لله قَانِتِينَ) فأمسكْنَا عن الكلام، قال أبو عبيدة : ترى أنّ القنوت فى الصُّبْح سمِّىَ قنوتا لأن الإنسان قائمٌ فى الدُّعاء من غير أن يقرأ القرآن،فكأنه فى سكوت . إخبات ، أى تذلل . انكفأ : انقلب . أسْهَمنى ، أى أعطانى سهماً ، أى نصيباً . تهجّده : قيامه للصلاة .

* * *

خلِّ ادّكارَ الأرْبُعِ والمَعْهَدِ المرتَبِعِ
والظَّاعِنِ المودِّعِ وَعَدِّ عنه وَدَعِ
واندُبَ زماناً سَلَفَا سَوَّدْت فيه الصُّحُفَا
ولم تَزَلْ مُعْتكِفَا عَلَى القَبِيحِ الشَّنِعِ
كم ليلةٍ أَوْدَعْتَهَا ما أَنْمَا أَبْدَعْتَهَا
لِشَهْوَةٍ أَطَعْتَهَا فى مَرْقَدٍ ومَضْجَعِ
وكم خُطاً حَثَثْتَهَا فى خَزْيَةٍ أَحْدَثْتَهَا
وتوبةٍ نكثْتَهَا للعب ومَرْتَعِ
وكَمْ تجرَّأْتَ عَلَى ربِّ السَّموات العُلَا
ولَمْ تُراقِبْهُ وَلَا صَدَقْتَ فِيمَا تَدَّعِى

رفع المسهم

وكمْ غمضتْ برّهُ وكم أمِنتَ مَكْرَهُ
وكم نَبَذْتَ أَمْرَه نَبْذ الحِذَا الرَقِعِ
ولمْ رَكَضْتَ فى اللَّعِبْ وفُهْتَ عمداً بالكذبْ
ولَمْ تراعِ ما يَجِبْ من عَهْدِهِ المتَّبَعِ
فَالْبَسْ شعارَ النّدِمِ واسْكُبْ شآبيب الدّمِ
قبْلَ زوالِ القدَمِ وقَبْلَ سوءِ المَصْرَعِ
واخْضَعْ خُضُوعَ المعترِفْ ولُذْ ملاذَ المقترِفْ
واعْصِ هَوَاكَ وانْحَرِفْ عَنْهُ انحرافَ المُقْلِعِ
إلَام تَسْهُو وتَنِي ومُعْظَمُ العُمْرِ فَنِي!
فيما يضرُّ المقتنِي ولَسْتَ بالمرْتَدِعِ
أما تَرَى الشَّيْبَ وخَطْ وخَطَّ فى الرّأس خُطَط
ومَنْ يَلُحْ وَخْطُ الشَّمَطْ بِفَوْدِه فَقَدْ نُعِى

* * *

ادّكار : تذكر . الأربع : المنازل . عدّ : كُفّ . دَع : اترك . اندب : ابك . سلف : ذهب وتقدّم . الصحف : الكتب . المعتكف : المقيم . الشنع : الذى يُتَحدّث بقبحه . أودعتها : أى ضمنتها وجعلتها فيه . المآثم : الذّنوب . أبدعتها : اخترعتها . خطاً : جمع خُطوة وهى الباع . حثثتها : عجلتها . خِزْى : هوان . ونَكَثْتَها : نقضتها . مرتع : أكل رغد . تجرأت : تشجّعت وأقدمت . تُراقبه : تحارسه وتخشى منه . غمضت : نقصت . بره : إحسانه . نبذت : تركت . الحذاء : النعل . ركضت : جريت . فُهْت : نطقت . تُراع : تحفظ .

والعهد : الميثاق . شِعار : ثوب يُلْصَق بالجسد . اسكب : اسكب : صبّ . شآبيب : دُفَع المطر ، واحدها شؤبوب ، فاستعارها للدم كما استعار الدم للدمع. المصرع : موضع السَّقطة وصرعت: أسقطت . لُذْ : الجأ. ملاذ : ملجأ. المقترف: المذنب . انحرف : مل . المقلع : الذى يقلع عن المعاصى ويُفارقها . تسهو : تخطىء . تنى : تفتر . فنى : تمّ ، سكّن الياء ضرورة . المقتنى : المكتسب . المرتدع : المنتهى الكافّ عن شهواته. وَخَط : فشا وانتشر ، والوخط : مخالطة بياض شيب الرأس بسواده ، والوخط فى غير هذا الطَّعْن غير النافذ . خَطّ : كتب . خطط : طرائق . والشّمط : اختلاط بياض الشيب بسواد الشعر . بفوْده : بجانب رأسه . نعى : تحدّث بموته ، وقال الألبيرى :

الشَّيب نبّه ذَا النُّهى فتنبَّها ... ونَهَى الجهولَ فاستفاق ولا انْتَهَى

بل زاد غيًّا نفسه فتهافتتْ ... تبغى اللّهَا وكأنّها بين اللّها

فإلى متى ألهو وأفرح بالمُنَى ... والشيخ أقبح ما يكون إذا لَهَا

ماحسنه إلا التُّقى لا أن يرى ... صبًّا بألحاظ الجآذر والمها

أنَّى يقاتِلُ وهو مغلول الظّبا ... كأبى الجرىّ إذا استقلّ تأوّها

محقَ الزمانُ هلالَهُ فكأنّما ... أبقى له منه على قدر السُّهَا

فغدا حسيراً يشتهى أن يشتهى ... ولكم جَرَى طلق الجُموح كما اشتهى

إن أنّ أوّاه وأجهش بالبُكا ... لذنوبه ضحِك العدوّ وقهقَها

ليست تُنَهْنِهُهُ العِظاتُ ومثلُه ... فى سنّه قد آن أن يتَنَهْنَهَا

فقد اللّداتِ وزاد غيًّا بعدهم ... هلاَّ تيقّظ بعدهمْ وتنَبَّها

ياويحه ما بالُه لا يَنْتَهِى ... عن غَيِّه والعمرُ منه قد انْتَهَى !

* * *

وَيْحَكِ يَا نفسُ احْرِصِى على ارتيـــادِ المَخْلَصِ
وطـاوِعِى وأَخْلِصِى واسْتَمِعِى النُّصْحَ وَعِى
واعْتَـبِرِى بِمَنْ مَضَى من القُرُونِ وانْقَضَى
واخْشَىْ مُفَـاجاةَ الْقَضَا وحَاذِرِى أن تُخْدَعِى
وانتَهِجِى سُبْلَ الهُـدَى وادَّكِرِى وَشْكَ الرَّدَى
وأَنَّ مثواكِ غَـدَا فى قَعْرِ لَحْـدٍ بَلْقَعِ
آهًا له بيتَ البِـلَى والمنزلَ القَفْرَ الخَـلَا
ومورِدَ السَّفْرِ الأولَى واللَّاحِقِ المتْبِـعِ
بَيْتٌ يُرَى مَنْ أُودِعَهْ قَدْ ضَمَّـهُ واسْتُودِعَهْ
بَعْدَ الفضـاءِ والسَّعَهْ قِيـدُ ثَلَاثٍ أذْرُعِ
لا فَرْقَ أن يَحُـلَّهُ داهِيَـةٌ أو أَبْلَهُ
أو مُعْسِرٌ أو مَنْ لَهُ مُلْكٌ كَمُلْكٍ تُبَّعِ

* * * *

قوله : ارتياد ، أى طلب . المخلص : المنجَى . عى : احفظى ، وهو أمر للمؤنث من وَعَى يَعِى . اعتبرى: اتعظى . القرون : الأمم السابقة : انقضى : فرغ وتم . والقضاء هنا : الموت . ومفاجأته : إتيانه على غفلة . حاذِرى : خافى. انتهجِى : اسْلُكى وامشى فى نهج ، وهو الطريق البين . سبل الهدى : طرق الرشاد . ادَّكرى : تذكرى . وشك الردى : سرعة الموت . مثواك : موضع إقامتك، لأنّ المثوى والثَّواء: الإقامة . والمثوى : الموضع الذى تقيم فيه . لحد : شق فى جانب القبر . بلقع : خالٍ . آها : كلمة توجع . مورد : موضع الماء .

رفع المسهم

السّفر: المسافرون . الأولى: الأولون المتقدّمون،والألى: مقلوب الأول، تقول : أولَى وأوّلُ ككُبْرى وكُبَر ،وأخْرى وأخَر ، ثم قلبوا الأول فقالوا: الأولى ، وتأتى الأولى فى كلامهم بمعنى الذين موصولة وهى كثيرة ، يريد أن القبر موردٌ للأولين والآخرين ،وسماهم سفْراً، لأن الإنسان فى الدنيا مسافر لا يقيم ؛ إنما يقطعُ أيامه ، وقال التّهامى :

العيش نومٌ والمنيّـــة يقظة والمرء بينهما خيالٌ سارِى
فاقضُوا مآربكمْ عجالاً إنما أعماركمْ سفرٌ من الأسفـارِ

قيْد : قَدْر ، فإن قيل : كيف جعل القبر ثلاثة أذرع ، والذراع شبران ، والقدر قدره مابين تسعة أشبار إلى ثمانية؟ فأخبرنى الحاج ابن السقاط أن عندهم بالمشرق ذراعاً يسمونه المالكى ، يذرعُون به ثيابهم وغيرها فيه من ذراع اليد ذراع ونصف .

وقال أبو القاسم الزجاجى : الذّراع الهاشمى ذراع وثلث ، ففى ثلاثة أذرع بالهاشمى ثمانية ففى ثلاثة أذرع بالهاشمى ثمانية أشبار ،وبالمالكى تسعة أشبار ، فإحدى الذراعين أراد .

وإنما نقل لفظ ثلاثة أذرع من قول عطاء بن يسار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمر بن الخطّاب رضى الله تعالى عنه: كيف بك إذا أنت مت ؟ فانطلق بك قومك ، فقاسوا لك ثلاثة أذرع فى ذراع وشبر ، ثم رجعوا بك فغسلوك وكفنوك وحنّطوك ثم حملوك حتى يضعوك فيه ،ثم يهيلوا عليك التراب ويدفنوك،فإذا انصرفوا عنك أتاك فتّانا القبر مُنْكَر ونكير أصواتهما كالرعد القاصف، وأبصارهما كالبرق الخاطف، يجرّان أشعارهما ،ويحثيان التراب بأنيابهما فتلْتلاك وتَرْتراك، كيف بك عند ذلك ياعمر؟ قال عمر :ويكون معى مثل عقلى هذا ؟ قال : نعم ، قال : فإذن أكفيكهما .

رفع المسهم

[ذكر تبع الأكبر]

داهية : مجرب للأمور حاذق بها . أبله : عى كثير الغفلة . مُعْسِر: فقير . تبع ، أراد به تُبَّعًا الأكبر ، وهو الذى ذكر الله فى كتابه .

قال صاحب التيجان . اسمه شمو رعش بن ناشر النعم ، وسمى أبوه ناشر النعم لأنه أحيا مُلْك حمير بعـــد أربعين عاماً ، وهى أيام مُلْك سليمان وسمى شمغورش تبّعا الأكبر ، وإن كانت العرب لم تسمِّ قبلَه تُبَّعًا لأن العرب لم يقم لها أحفظ منه ، وكان يتجاوز عن مسيئهم ويُحسن إلى محسنهم ، وكان جميع أهل الأرض شاكرين لأيامه، وكان أعقل مَنْ رأوا من الملوك وأعلاهم همةً، وأبعدهم غَوْراً، وأشدهم مكراً لمن حارب ،وغزا جميع ملوك الآفاق ، وقطع بجيوشه الأرض كلَّها شرقاً وغرباً. ثم رجع إلى قصر غمدان يدير ملك الأرض وذلَّتْ له ملوكها وعمَّر زماناً طـــويلا ، وهو أوَّلُ مَنْ أمر بصنعة الدروع السوابغ ، جعل على أهل فارس ألف درْع ، وعلى الروم ألفِ درْع ، وعلى اليمن كذلك ، وعلى ممالكه كلها مثل ذلك فكانوا يَغْدُون عليه كل سنة بذلك المدد ، ولذلك قال أبو ذؤيب :

وعليـــه مسرودتان قَضَاهما داود أو صنع السوابغ تُبَّعُ

وقال ابن الكلبي: لم يملك الأرض كلَّها إلا ثلاثة أبرار ،وهم سليمان عليه السلام وذو القرنين وتُبَّع ، وهو أســـعد وأبو كرب . وثلاثة كُفّار ، وهم النمروذ وبختنصر والضّحاك. وأبو كرِب الذى ذكر هو تبع، وكان مَلِكاً عظيما ، فتح البلاد ، وملك العباد ، وأقبل من اليمن يريد العراق فنزل الحيرة وحفر لهم نهراً ، وهو نهر الحـــيرة إلى سوقها ، وبعث إليه حسان فى جنده ليطوفَ الأرض،فمضى به حسان فى عسكر عظيم جرار، لا يمرّ بمدينة إلافتحها ولا ملك إلا قهره . وقيل فى تسمية ملوك اليمن تبابعة أنه لكثرة مايقبع الملك منهم من الجنود . وقيل: سُمِّى تُبَّعًا لأنه تبع من قبله . ولابن سُكّرة فى معنى بيت المقامة .

الجوع يطرَد بالرغيف اليابس فعلام تُكْثِر حسرتى ووساوسى
والموت أنصف حين عدّل قسمة بين الخليفة والفقير البائس

* * *

وبَعْدَهُ الْعَرْض الَّذِى يَحْوِى الحَيِيَّ والْبَذِى
والمبتدِى والْمُحْتَذِى ومَنْ رَعَى ومَنْ رُعِى
فَيَا مفاز المتَّقِى ورِبْحَ عَبْدٍ قَدْ وُقِى
سُوءَ الحسابِ المُوبِقِ وهَوْلَ يومِ الْفَزَعِ
ويا خَسَارَ مَنْ بَغَى ومَنْ تَعَدَّى وطَغَى
وشبَّ نيرانَ الْوَغَى لمطعَمٍ أو مَطْمَعِ
يا مَنْ عليه المتَّكَلْ قَدْ زاد ما بى من وَجَلْ
لما اجترَحْتُ مِنْ زَلَلْ فى عُمْرِىَ المُضَيَّعِ
فاغْفِرْ لعبدٍ مُجْتَرِمْ وارْحَمْ بُكَاءَ المُنْسَجِمْ
فأنْتَ أَوْلَى مَنْ رَحِمْ وخيرُ مَدْعُوٍّ دُعِى

* * *

قوله : وبعد العرض ، يريد عَرْض الناس للحساب . يحوى : يضُمّ . الحيي : المستحيي . البذِىّ : المتكلم بالفواحش. المحتذى : المتبع الحاذى حذوه. رعى : ملك ، يريد أن العَرْض يعمّ الناس، فيحتوى على العفيف والبذى ،وعلى الأغنياء والفقراء والملوك ورعيتهم ولا يتميز فيه أحد ولا يشرف إلا بعمل صالح . قوله : فيامفاز المتقى . المفاز : الخلاص . وقى : كفى . الموبق : المهلك . هَوْل : خوف . بَغَى : ظلم . وتعدّى : جاوز الحد فى جوره . طغى : جاوز الحد فى تكبره . شبّ : أوقد . الوغَى : الحرب . وجل . خَوْف . اجترحت :

اكتسبت . زلل : خطأ . زفير : نفخ . والشهيق : رد النَّفَس مع البكاء بصوت . ردْفه : خلْفه .

* * *

قال الحارثُ بن هَمَّام : فلم يَزَلْ يُرَدِّدُهاَ بصوْتٍ رقيق ، ويَصِلُهاَ بزفيرٍ وشَهيقٍ ، حتّى بَكيتُ لبكاءِ عَيْنَيْه ، كما كنتُ من قبلُ أَبْكِى عَلَيْه . ثم بَرَزَ إلى مسجده ، بوُضُوءِ تهجّده ، فانطَقْتُ رِدْفَهُ ، وصَلَّيتُ مَعَ مَنْ صلّى خلفه . ولما انْفضَّ مَنْ حَضَرَ ، وتَفرّقُوا شَغَرَ بَغَر ، أَخَـذ يُهَيْنِمُ بِدَرْسِهِ ، ويَسْبِكُ يَومَهُ فى قالِبِ أَمْسِهِ ، وفى ضِمْنِ ذَلِكَ يُرِنُّ إرنانَ الرَّقُوب ، ويَبْكِى ولا بكاءَ يَعْقوب ، حتّى اسْتَبَنْتُ أنَّه الْتَحَق بالأَفْرَاد ، وأُشْرِبَ قلبهُ هـوى الانْفِرَاد ، فأَخْطَرْتُ بقَلْبِى عَزْمه الارْتحال ، وتخليتَه والتَّخَلِّىَ بتلك الحال ، فـكأنّه تَفَرَّسَ ما نَوَيْت أو كوشِفَ بِمَا أَخْفَيْت ، فزَفَرَ زفيرِ الأوّاه ثم قرأ : «فإذا عَزَمْتَ فتوكَّلْ على الله» ؛ فأَسْجَلْتُ عِنْدَ ذلك بصدْقِ المحدَّثين ، وأيقَنْتُ أنَّ فى الأمّةِ محدَّثين . ثم دنوتُ إليه كما يَدْنُو المُصافح ، وقلت : أوْصِنى أيُّهَا الْعَبْدُ الصَّالح . فقال : اجْعَلِ الموْتَ نُصْبَ عَيْنِكَ ، وهذافِرَاقُ بينى وبينك . فودَّعتُه وعَبَرَاتى ، يتحدّرْن من المآقى ، وزفَراتى يتصعَّدن من التَّراقِى ، وكانت هذه خاتِمة التّلاقى .

* * *

رفع المسهم

انفض : تفرق . شغَر بغَر ، أى فى كل طريق وعلى كل جهة . يهيم : يرد كلامه خفياً لا يفهم . يسبك يومه فى قالب أمسه : استعارة ، أى يفعل فى اليوم ما فعل فى الأمس . وفى ضمن ذلك ، أى فى أثنائه. يرنّ : يصوت . الرَّقُوب : المرأة التى لا يعيش لها ولد . ولا بكاء يعقوب : يجوز رفع بكاء ونصبه والرفع أكثر . وبكاء يعقوب على يوسف عليهما السلام حتى عَمِىَ ، وهو قوله تعالى : « وابيضَّتْ عيناه من الحزْن فهو كظيم » ، استبنت : تحققت . الأفراد: العباد ، يقال:فلان فرد فضله، أى ليس له نظير ، والأفراد سبعة من العباد لا تخلو الدنيا منهم حتى إذا مات واحد خلف الله تعالى فى موضعه آخر . أُشْرِب : خولط وغلب عليه . هوى الانفراد : حب الوحدة ، قال ابن الرومى :

إلى الزَّهاد فى الدُّنيا جنان الخلد تشتاقُ
عبيد من خطاياهمْ إلى الرحمن أُبَّاقُ
حدَتهمْ نحوه الرَّغبة مع الرَّهبان فاستاقوا
عليهم حين تلقاهم سكينات وإطراقُ
يضجون إلى الله ودمع العينِ مهراقُ
مليك الملك هل مما تطوّقناه إطْلاَقُ
فنى أعناقنا طرًّا من الآثام أطواق

وللفقيه أبى العباس بن خليل :

فهموا إشارات الحبيب فهاموا وأقام أمْرَهمُ الرَّشاد فقامُوا
وتوسَّلوا بمدامعٍ منهلَّةٍ تحت الدياجى والأنام نيامُ
وتلوا من الذكر الحكيم جواماً جُمِعت لها الألباب والأفهام
ياصاح لو أبصرت ليلهم وقد صفت القُلوبُ وصُفَّت الأقدام

لرأيت نورَ هداية قـد حفّهُمْ فسرّى الشرور وأشرق الإظلامُ
فهم العبيـد الخادمون مليـكهمْ نعم العبيـد وأفلح الخـدّامُ
سلموا من الآفات لما استسلموا فعليهمُ حـتى الممات سـلامُ

وقالوا فى هوى الانفراد : الوحدة خير من القرين السوء ، وأنشدوا :

أنِسْتُ بالوحـدة علماً بها فإنها خـير من الجمْعِ
ألا ترى الواحد أصْلاً لما يحسب من أصلٍ ومن فرعِ
أترك من لا أرتجى نفعَـه رجاء ربِّ الضر والنفـع

آخـر :

أنست بوحـدتى حتى لو انى أتانى الأنس لاستوحشت منه
ولم تدع التجارب لى صـديقاً أميل إليـه إلّا مِلْتُ عنه

وقال آخر :

اهرب بنفسك تستأنسْ بوحدتها تلق الرَّشاد إذا ما كنت منفردا
إن السِّباع لتهدأ فى مرابضها والناس ليس بهادٍ شرّهمْ أبدا

قوله : تفرّس ، أى علم بفراسته وجوْدة نظره . نويت: أضمرت فى نيتى . كوشف : اطلِع عليـه . زفر : نفخ . الأواه : الحزين الذى يصيح : آه آه . أسجلت : صدقت . المحدّثين : الذين حـدثوه بتوبة السروجى . محدّثين ، هم المكاشفون من الزهاد الذين يحدثون بالغيوب ، كأن المكاشف قد حدث بما يقول . وقيل: المحدّثون الصّادقون ظناً وفراسة .

وقال صلى الله عليه وسلم: « قد كان فيمن قبلكم ،محدّثون ،فإن يكن من أمتى هـذه فهو عمر بن الخطاب» . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنـه المعنّى وهو الصادق الظنّ ، ودليله ماذكره صلى الله عليه وسلم فى عمر حديث سارية

ابن زُنَيم ، وكان عمر رضى الله تعالى عنه قد أرسله فى جيش للمسلمين ، فألقى الله فى روع عمر رضى الله تعالى عنه وهو يخطُب الناس بالمدينة : إن العدوّ قد نهز المسلمين واشتد الخطب عليهم ، وكانوا بحضرة جبل ، فقطع عمر الخطبة وقال : ياسارية الجبل ، فأسمع الله تعالى سارية من مسافة شهر نداء عمر ، فانحاز بالمسلمين إلى الجبل، فتخلصوا . قوله : المصافح ،أى المعانق عند الوداع . نصب عينك ، أى غرضها وقدامها ، وأول مَنْ قال : اجعل الموت نصبَ عينك أُمية بن أبى الصلت فى قوله :

كلُّ عيش وإن تطاول يوماً صائر أمره إلى أنْ يَزُولاَ
ليتنى كنت قبل ما قد بدا لِى فى رءوس الجبال أرْعَى الوُعولا
فاجعل الموت نُصب عينك واحذرْ غولة الموت إن للموت غولا

عبراتى : دموعى . يتصعدن : يترفعن . التراقى : العظمان المعوجان أعلى الصدر . خاتمة التلاقى : آخر لقائه .

[شعر الوداع]

ونذكر هنا جملة من الشعر فى ذكر الوداع الذى كان بينهما ونجعلها كالتوديع لما سلف لهما فى هذا الكتاب من رياض الآداب فإنها كانت أُنس الوحيد ، ومسلاة الطريد ، فمن ذلك قول بعضهم :

وداعك مثلُ وداع الرَّبيع وفقدك مثل افتقاد الدِّيَمْ
عليك سلام فكم من ندى فقدناه منك وكمْ من كرمْ

وقال آخر :

أقول له يوم ودّعته وكلٌّ بعبرته مُبْلِسُ
لئن رجعتْ عنك أجسامُنا لقد سافرت معك الأنفُسُ

وقال أبو سعيد الهمذانى : أنشدنى هلال بن الغلاء حين ودّعنى :

لأودعنّك ثم تدمع مقلتى ... إن الدموع هى الوداع الثانى
وأصوم بعدك عن سواك فأغتدى ... متقلداً صومين فى رَمَضَانِ
فى فرقة الأحباب شغل شاغلٌ ... والموت صدقاً فرقة الإخوان

(وأنشدنى أبو محمد بن حزم)

لئن أصبحتُ مرتحلاً بشخصى ... فقلبى عندكم أبداً مقيمُ
ولكن للعيان لطيف معنًى ... له سأل المعاينةَ الكليم

وكرر هذا المعنى فقال :

يقول أخى شَجَاك رحيلُ جسمٍ ... وروحك ما لها عنه رحيلُ
فقلت له المعاينُ مطمئن ... لذا طلب المعاينةَ الخليلُ

وقال آخر :

بَانُوا فأضحى الجسم من بعدهمْ ... ما تبصر العين له فيّا
ووا أسفى منه ومنْ قولهمْ ... ما ضرّك الفقد لنا شيّا
بأى وجهٍ أتلقاهم ... إن وجدونى بعدهمْ حيّا

وقال آخر :

لا كان يوم الفراق يوماً ... لم يُبْقِ للعاشقين نَوْما
شتّتَ منى ومنك شملا ... فسر قوماً وساء قوما
يا قوم مَنْ لى بفقد خل ... يسومنى فى العذاب سَوْما
ما لامنى الناس فيه إلا ... بكيت كيما أزاد لوما

وقال صاعد اللغوى :

قلت له والرقيب يعجله مستعجلاً للفراق : أين أنا

فمدّ كفا إلى ترائبه وقال : سر آمناً فأنت هنا

* * *

قال الشيخ الرئيس أبو محمد القاسم بن علىّ ، بَرّد اللهُ مضجعه : هذا آخر المقامات التى أنشأتُها بالاغترار ، وأمْلَيْتُها بِلِسَان الاضطِرار ، وقد أُلجِئتُ أنْ أَرْصُدَها للاسْتِعْرَاض ، وناديتُ عليها فى سُوقِ الاعْتِراض ، هذا مع معرفتى بأنّها من سَقَط المتاع ، ومِمَّا يستوجب أن يُباعَ ولا يُبتاَع ، ولو غَشِيَنى نورُ التوفيق ، ونظرت لنَفْسِى نظر الشّفيق ، لسَتَرْتُ عَوارِى الّذى لم يَزَلْ مَسْتوراً ، ولكن كان ذلك فى الكتاب مسطوراً . وأنا أستغفرالله تعالَى مِمَّا أودَعْتُها من أباطيلِ اللّغو ، وأَضالِيلِ اللّهْو ، وأَسْتَرْشِده إلى ما يَعْصِم من السَّهو ، ويُحْظِى بالْعفوِ ، إنّه هو أهلُ التَّقْوى وأهلُ المغفِرة ، وولىُّ الخَيْرات فى الدّنيا والآخرة .

* * *

قوله : أنشأتها ، أى صنعتها . الاغترار : الجهل والانخداع . أمليتُها : ألقيتها لمن يكتبها . واضطر اضطراراً إذا لم يجدَ بُدًّا من فعله . أرصدتها : أعددتها . الاستعراض : أن تعرض على النّاسِ حَتَّى يروها . سقَط المتاع : هجينة . يبتاع : يشترى . غَشِيَنِى : غطانى . أودعتها : ضمنتها . اللَّغْو : سَقَط الكلام . الأضاليل : جمع أضلولة ، وهى مايضل به مَنْ ركبه . أسترشده : أستهديه . يعصم : يمنع . السهو : الخطأ . يحظى : يسعد . العفو : المغفرة .

رفع المسهم

وقوله : هو أهل التقوى ، عن أنس رضى الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يقول ربُّكم عز وجل: أنا أهلُ التقوى فلا يشرك بى غيرى، وأنا أهل لمن اتقى أن يشرك بى أن أغفر له .

* * *

انتهى الشرح بحمد الله وتوفيقه وحسن عَوْنه،وكان من توفيق الله تعالى أن أوّل حرف شرحت من اللغة فى هـذا الكتاب حَمْد الله ، وآخر حرف ختمت به عَفْو الله ، وما وقع بين حمد الله سبحانه وتعالى ، والثناء عليه ، وبين عَفْوه عن عبيده مرجوٌّ من جميل صنعه الامتنان بالصفح عن جميع هَذَره ، وملتمَس من جلاله تعالى وكرمه جزيلُ الأجر على ما ضمنته من حكم الآداب وغيره .

[ذكر فى العفو عن المذنبين]

واذكر فصلاً أدبيًّا فى العفو عن المذنبين، أختم به الديوان ، فمن وَقَف عليه ، ووجد فى نفسه لذته، واستشعر؟ لرجاء ، وطمع فى العفو ، فرغبتُنا إليه أن يسأل لنا العفو مع نفسه .

فمن ذلك أنه كان للمأمون خادم لوضوئه ، فبينما هو يصب الماء على يديه إذ سقط الإناء ، فغضب المأمون فقال له الخادم : ياأميرَ المؤمنين إن الله تعالى يقول:﴿والْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾،قال: كظمت غيظى،قال:﴿والعافين عن الناس﴾، قال : عفوت عنك ، قال : ﴿ الله يحبُّ المحسِنِينَ ﴾، قال : اذهب فأنتِ حرٌّ .

وأمر عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه بعقوبة رجل، فقال له رجاء بن حيوة: إن الله تعالى قد فَعَل ماتحبّ من الظفر ، فافعل ما يحبّ من العفو ، فعفا عنه .

العتبى:وقعت دماء بين حيَّين من قريش ، فأقبل أبو سفيان فما بقى أحد

واضع رأسه إلّا رفعه ، فقال : يامعشرَ قريش ، هل لكم فى الحق أو فيما هو أفضل من الحق ؟ قالوا ؟ وهل شىء أفضل من الحق ؟ قال : نعم العفو، فتبادر القوم فاصطلحوا .

قال المبارك بن فضالة : كنت جالساً فى السِّماط عند أبى جعفر إذ أُمر برَجلٍ أن يُقْتَل فقلت: يا أمير المؤمنين ، قال صلى الله عليه وسلم: « إذا كان يوم القيامة ينادِى منادٍ بين يدى الله عز وجل : مَنْ كانت له يد عند الله فليقُمْ، فليتقدم فلاَ يتقدَّم إلا من عفا عن مذنب » . فأمر بإطلاقه .

وكان رجل شرِّيب جمع قوماً من ندمائه ودفع إلى غلام له أربعة دراهم أن يشترىَ بها من الفواكه للمجلس ، فمرَّ الغلام بباب مجلس منصور بن عمار، وهو يسأل الفقير شيئاً ، ويقول : مَنْ دفع له أربعة دراهم دعوتُ له أربعَ دعوات ، فدفع له الغلام الدراهم، فقال له منصور : ما الذى تريدُ أن أدعولك ؟ قال : أن يعتقنى الله من رقِّ العبودية ، فدعا له منصور وأمّن الناس . قال : والثانية ؟ قال: أن يخلف الله علىّ الدراهم ، فدعا له وأمّن الناس، قال : والثالثة ياغلام ؟ قال : أن يتوب الله على مَوْلاَى، فدعا له وأمّن الناس، قال : والرابعة ياغلامُ؟ قال : أن يغفرالله لى ولمولاى ولك يامنصور وللحاضرين ، فدعا منصور وأمّن الناس ، فرجع الغلام ، فقال له مولاهُ لمَ أبطأت ؟ فقص عليه القصة ، قال : وبمَ دعا ؟ قال : سألت لنفسى العِتْق ، قال : اذهب فأنت حرّ ، قال : والثانية ؟ قال: أن يخلف الله علىّ الدراهم، قال: لك أربعة آلاف درهم ، قال : والثالثة ؟ قال: أن يتوب الله عليك ، قال : تبت إلى الله عز وجل . قال : والرابعة ؟ قال : أن يغفرلى ولك ، وللواعظ وللحاضرين ، وقال : هذه الواحدة ليست إلىّ. فلما بات رأى فى المنام كأن قائلاً يقول : أنت فعلت ما كان إليك، أترانى لا أفعل ما كان إلى ! قد غفرت لك وللغلام ولمنصور وللحاضرين .

رفع المسهم

قال يحيى بن معاذ : يكاد رجائى لك مع الذنوب يغلبُ رجائى لك مع الإخلاص ،لأنى أعتمد فى الإخلاص على الأعمال ، وفى الذنوب أعتمد على عفوك ، وقال السَّلامى .

تبسطنا على الآمال إنا رأينا العفو من ثمر الذنوب

وقال بكر بن سليمان الصواف : دخلنا على مالك بن أنس فى العشيَّة التى قُبض فيها ، فقلت: يا أبا عبد الله، كيف تجدك؟ قال : لاأدرى ما أقول لكم ، ستعاينون من عفو الله تعالى مالم يكن فى حسابكم . ثم ماخرجنا حتى أغمضنا عينيه .

وفى الحديث: «لو لم تذنبو الجاء الله بأمة يذنبون فيغفر لهم»،وقال أبو نواس:

يانواسى توقَّرْ وتعزى وتَصبَّرْ
ساءك الدهر بشىء ولَما سرك أكثرْ
يا كبير الذنب عفو الله من ذنبِك أكبَرْ
أكبر الأشياء فى أصغر عفو الله أصغرْ
ليس للإنسان إلا ماقضى الله وقَدّرْ
ليس لمخلوق تدبيرٌ بل الخالق دَبَّرْ

وقال أبو العتاهية :

إلهى لاتعذِّبْنى فإنى مقربا بالذى قد كَان منِّى
فما لى حيلة إلا رجائى لعفوك إنعفوت وحُسْن ظنى
يظن الناس بى خيراً وإنى لشَرُّ الناس إن لم تعف عنى

وكم من زلة فى الخطايا وأنت علىّ ذو فضل ومنِّ
إذا فكرت فى ندمى عليها عَضَضْتُ أناملى وقرَعْتُ سِنِّى

وهذا آخر شعر قاله أبو العتاهية ، وآخر شعر حتمت به هذا الشرح ، راجياً من ربى صفحَه وعفوَه ،والحمد لله أولاً وآخراً كما يجب لجلاله غفرانك. اللهم تباركت وتعاليت . والحمدلله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، ورضى الله تعالى عن أصحاب رسول الله أجمعين وعن التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين .

رفع المسهم

فهرست المسهم
غفر الله له ولوالديه

فهرس المقامات

المقامة الحادية والأربعون التنيسية ، تتضمن قيام أبي زيد واعظاً ، وقيام ابنه طالباً ، وكيف عطف الناس أبو زيد على ابنه . ٣

المقامة الثانية والأربعون النجرانية ، تتضمن إلقاء أبي زيد ألغازاً في بعض الأشياء . ٤٠

المقامة الثالثة والأربعون البكرية، وتسمى البدوية، تتضمن ذكر خبر ناقة أبي زيد ، وتتضمن مدح البكر والثيب وذمهما وذم الأدب . ٧٧

المقامة الرابعة والأربعون الشتوية، وتسمى اللغزية ، تتضمن إنشاء أبي زيد قصيدة في ألغاز تحتها تفسيرها . ١٣٧

المقامة الخامسة والأربعون الرملية ، تتضمن مخاصمة أبي زيد مع زوجته ، وأنه لم يطرقها إلا مرة واحدة . ١٨٥

المقامة السادسة والأربعون الحلبية ، تتضمن كون أبي زيد معلم صبيان ، وأمره للصبيان العشرة بالإنشاء في فنون مختلفة . ٢٠٢

المقامة السابعة والأربعون الحجرية، تتضمن كون أبي زيد حجاماً ومحاورته مع ابنه . ٢٥٨

المقامة الثامنة والأربعون الحرامية ، تتضمن رواية الحارث عن أبي زيد أنه رأى رجلا يسأل كفارة لذنبه ، فأجابه بأن طاب منه أن يعينه على فداء ابنه من الأسر . ٢٨٤

المقامة التاسعة والأربعون الساسانية ، تتضمن أن أبا زيد لما شاخ أوصى ابنه بألا صناعة أنفع من الكدية . ٣٢٢

المقامة الخمسون البصرية ، تتضمن توبة أبي زيد ولزومه المسجد ٣٤٣

رفع المسهم
غفر الله له ولوالديه

رفع المسهم